مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

عني بنشره

محمد علي القره داغي

المجلد الأول

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

فهرس المجلد الاول من مواهب الرحمان في تفسير القرآن

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١١٢) لسنة ١٩٨٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م

فهرست المواضيع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

فهرست المجلد الثالث

سورة الانعام

الجـزء الثامن

سورة الأعراف

فهرس المجلد الرابع من مواهب الرحمان في تفسير القرآن

الصفحة	الموضـــــوع

سورة الأنفال

الجزء العاشر

سورة التوبة

الجـزء الحـادي عشـر

ســورة يونــس

سورة هود

الجـزء الثانـي عشـر

سورة يوسف

الجزء الثالث عشر

فهرست المجلد الخامس من كتاب مواهب الرحمان

الصفحة	الموضوع

سورة الرعد

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٣١	ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء
١٣٢	وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم
١٣٣	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا
١٣٤	ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء
١٣٥	والله جعل لكم مما خلق ظلالا
١٣٦	ويوم نبعث من كل أمة شهيدا
١٣٧	وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم
١٣٧	ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم
١٣٩	المراد من كل شيء
١٤٠	إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى
١٤١	والمراد بالعدل
١٤٢	والمراد بالإحسان
١٤٣	وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم
١٤٤	ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة
١٤٥	ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم
١٤٦	فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم
١٤٨	ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر
١٤٩	من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان
١٥٠	سبب نزول آية من كفر بالله
١٥١	وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة
١٥٢	إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
١٥٤	إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا
١٥٥	ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا
١٥٦	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

الصفحة	الموضوع
٤١٠	منطق الحق ينتصر على منطق الضلال
٤١١	قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين
٤١٢	إنجاء إبراهيم
٤١٣	ولوطا آتيناه حكما وعلما
٤١٤	وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث
٤١٥	قضاء داود وسليمان
٤١٦	ما أنعم الله به على داود
٤١٧	تسخير الريح لسليمان
٤١٨	كشف الضر عن أيوب
٤١٩	وذا النون إذ ذهب مغاضبا
٤٢٠	محنة يونس في بطن الحوت
٤٢٢	وزكريا إذ نادى ربه
٤٢٣	إن هذه أمتكم أمة واحدة
٤٢٤	إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
٤٢٦	ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر
٤٢٧	المراد بالزبور
٤٢٨	قل : إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد

سورة الحج

٤٣٠	يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شي عظيم
٤٣١	المراد من زلزلة الساعة
٤٣٢	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب
٤٣٣	مراحل خلق الانسان في بطن أمه

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

فهرست المجلد السادس من مواهب الرحمن في تفسير القرآن

الصفحة	الموضوع
	سورة المؤمنون
٧	مدح الرسول ــ ص ــ (قد أفلح المؤمنون)
٨	والذين هم لفروجهم حافظون
١٠	بطلان المتعة
١٢	معاني كلمة المتعة
١٤	أدلة تحريم المتعة
١٧	والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون
١٨	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين
١٩	ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق
٢١	وأنزلنا من السماء ماء
٢٢	معنى الفاكهة
٢٣	ولقد أرسلنا نوحا الى قومه
٢٤	صنع السفينة
٢٦	ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين
٢٨	ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين
٣٠	ثم ارسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

سورة الفرقان

الجزء التاسع عشر

الصفحة	الموضوع
	سورة الشعراء
١٣٥	طسم تلك آيات الكتاب المبين
١٣٦	وإذ نادى ربك موسى أن أت القوم الظالمين
١٣٨	قال ألم نربك فينا وليدا ؟
١٣٩	وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ؟
١٤٠	قال فرعون : وما رب العالمين ؟
١٤٢	قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم
١٤٣	فجمع السحرة لميقات يوم معلوم
١٤٤	قال لهم موسى : ألقوا ماأنتم ملقون
١٤٥	وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون
١٤٩	واتل عليهم نبأ إبراهيم
١٥٣	وأزلفت الجنة للمتقين
١٥٤	كذبت قوم نوح المرسلين
١٥٦	قالوا : لئن لم تنته يانوح
١٥٧	كذبت عاد المرسلين
١٥٩	واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون
١٦٠	كذبت ثمود المرسلين
١٦٢	كذبت قوم لوط المرسلين
١٦٥	كذب أصحاب الأيكة المرسلين
١٦٧	وإنه لتنزيل رب العالمين
١٦٨	نزل القرآن بألفاظه بدون نقص على محمد ـ ص ـ
١٧١	وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون
١٧٢	وأنذر عشيرتك الأقربين
١٧٤	**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين**

الصفحة	الموضوع
٢٠٨	وقال الذين كفروا : أءذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟
٢٠٩	ويقولون : متى هـذا الوعـد ؟
٢١٠	وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض
٢١٣	ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ...
	سورة القصص
٢١٦	طسم تلك آيات الكتاب المبين
٢١٨	وأوحينا إلى ام موسى أن أرضعيه
٢٢٠	ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما
٢٢٢	ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها
٢٢٣	فأصبح في المدينة خائفا يترقب
٢٢٥	ولما توجه تلقاء مدين قال:عسى ربي أن يهديني سواء السبيل
٢٢٨	فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله
٢٣٠	كيف تلقى موسى كلام ربه على الطور ؟
٢٣٢	فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا
٢٣٥	وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر
٢٣٧	الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون
٢٣٩	وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا
٢٤٠	وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها
٢٤١	ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟
٢٤٣	ويوم يناديهم فيقول : ماذا اجبتم المرسلين ؟
٢٤٣	شيىء عن أفعال العباد والكسب والاختيار
٢٤٥	قل : أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة
٢٤٦	ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم
٢٥٠	اغترار قارون بالمال وتآمره على موسى
٢٥١	ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد
	سورة العنكبوت
٢٥٣	الم أحسب أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟
٢٥٥	ووصينا الإنسان بوالديه حسنا
٢٥٦	وقال الذين كفروا للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا
٢٥٧	ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما
٢٥٨	أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ؟
٢٦٠	والذين كفروا بآيات الله ولقائه
٢٦٢	ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة
٢٦٣	ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم
٢٦٤	والى مدين أخاهم شعيبا فقال : يا قوم اعبدوا الله
٢٦٥	وقارون وفرعون وهامان
٢٦٦	مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
٢٦٧	ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيىء
	الجزء الحادي والعشرون
٢٧١	ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن
٢٧٣	وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه
٢٧٥	يا عبادي الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياي فاعبدون
٢٧٧	والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا
٢٧٨	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين

الصفحة	الموضوع
	سورة الروم
٢٨١	الم غلبت الروم في أدنى الارض
٢٨٢	رهان أبي بكر وأبي بن خلف على غلبة الروم
٢٨٤	أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟
٢٨٥	الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون
٢٨٦	وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة
٢٨٧	ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون
٢٨٩	ومن آياته منامكم بالليل والنهار
٢٩٠	ضرب لكم مثلا من أنفسكم
٢٩١	فأقم وجهك للدين حنيفا
٢٩٤	الله الذي خلقكم ثم رزقكم
٢٩٦	ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته
٢٩٨	الله الذي خلقكم من ضعف
٢٩٩	وقال الذين أوتوا العلم والإيمان
	سورة لقمان
٣٠١	الم تلك آيات الكتاب
٣٠٢	ومن الناس من يشتري لهو الحديث
٣٠٣	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم
٣٠٤	ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله
٣٠٥	واذ قال لقمان لابنه
٣٠٦	سعد بن أبي وقاص وأمه
٣٠٧	بقية وصية لقمان لابنه

الصفحة	الموضوع

سورة السجدة

سورة الأحزاب

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٦١	من الواهبة نفسها للنبي ؟
٣٦٣	لا يحل لك النساء من بعد
٣٦٣	عدد زوجات النبي ـ ص ـ وأسماؤهن
٣٦٤	يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن
٣٦٦	شرط دخول بيت النبي ـ ص ـ
٣٦٧	إن الله وملائكته يصلون على النبي
٣٦٨	كيفية الصلاة على النبي
٣٦٩	ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله
٣٧١	حد الحجاب ووصفه
٣٧٢	لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض
٣٧٣	يسألك الناس عن الساعة
٣٧٤	يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله
٣٧٥	إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال
	سورة سبأ
٣٧٧	الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض
٣٧٨	يعلم ما يلج في الارض ...
٣٨٠	وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم
٣٨١	ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه
٣٨٣	ولسليمان الريح
٣٨٤	لو علمت الجن الغيب ما لبثوا في العذاب المهين
٣٨٥	لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال
٣٨٧	السيل العرم
٣٨٩	قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله

الصفحة	الموضوع
٣٩٠	قل : من يرزقكم من السماوات والارض ؟
٣٩١	ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟
٣٩٣	وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافرون .
٣٩٥	واذا تتلى عليهم آياتنا بينات
٣٩٧	قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى

سورة فاطر

الصفحة	الموضوع
٤١٥	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها .
٤١٦	ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة
٤١٩	والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا
٤٢٠	هو الذي جعلكم خلائف في الارض
٤٢١	قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ؟
٤٢٢	وأقسموا بالله جهد أيمانهم
٤٢٣	أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟
	سورة يس
٤٢٥	يس والقرآن الحكيم
٤٢٦	ومما ينبغي الانتباه له
٤٢٨	وقوله (لقد حق القول على أكثرهم)
٤٢٩	انما تنذر من اتبع الذكر
٤٣٠	واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون
٤٣٢	قصة أصحاب القرية
٤٣٣	وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى
	الجزء الثالث والعشرون
٤٣٧	وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء
٤٣٨	يا حسرة على العباد
٤٣٩	وآية لهم الليل نسلخ منه النهار
٤٤١	والقمر قدرناه منازل
٤٤٢	وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون
٤٤٣	واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم

الصفحة	الموضوع
٤٤٦	ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون
٤٤٨	ولو نشاء لطمسنا على أعينهم
٤٤٩	أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ؟
٤٥٠	أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟
	سورة الصافات
٤٥٣	والصافات صفا
٤٥٥	فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟
٤٥٧	وقالوا : يا ويلنا هذا يوم الدين
٤٥٨	انا كذلك نفعل بالمجرمين
٤٦٠	قال قائل منهم : إني كان لي قرين
٤٦٢	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون
٤٦٣	وان من شيعته لإبراهيم
٤٦٦	وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا
٤٦٧	ولقد مننا على موسى وهارون
٤٦٨	وان الياس لمن المرسلين
٤٦٩	وان يونس لمن المرسلين
٤٧٠	فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟
٤٧٢	وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا
٤٧٣	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين
	سورة ص
٤٧٥	ص والقرآن ذي الذكر
٤٧٧	وانطلق الملأ منهم

الصفحة	الموضوع

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغداد

(٥٦) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة ــ بغداد

١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م

فهرس المجلد السابع من مواهب الرحمن

الصفحة　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٥٥	أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين •
٥٦	معنى المودة في القربى •
٥٧	أم يقولون افترى على الله كذبا •
٥٩	وهو الذي يقبل التوبة عن عباده •
٦٠	وما أصابكم من مصيبة •
٦٠	ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام •
٦٢	آراء في معنى الكبائر •
٦٣	ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده •
٦٥	استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له •
٦٥	وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا •
٦٧	وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا
٦٨	سورة الزخرف •
٦٩	وكم أرسلنا من نبي في الأولين •
٧٠	وجعلوا له من عباده جزء إن الإنسان لكفور مبين •
٧٢	وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم •
٧٣	وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إنني براء مما تعبدون •
٧٤	وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم •
٧٥	ولولا أن يكون الناس أمة واحدة •
٧٥	ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين •
٧٧	حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين •
٧٨	ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه •
٧٩	وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك •
٨٠	ونادى فرعون في قومه •

الصفحة	الموضوع
٨١	ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون •
٨٢	نزول عيسى علامة من علائم الساعة •
٨٣	هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة •
٨٤	الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو •
٨٥	إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون •
٨٦	قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين •
٨٧	وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما •
٨٩	سورة الدخان •
٩٠	الليلة المباركة هي ليلة القدر •
٩٢	ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون •
٩٤	كم تركوا من جنات وعيون •
٩٥	إن هؤلاء ليقولون إن هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين •
٩٧	وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين •
٩٨	إن شجرة الزقوم •
١٠٠	سورة الجاثية •
١٠١	وفي خلقكم وما يبث من دابة •
١٠١	ويل لكل أفاك أثيم •
١٠٢	الله الذي سخر لكم البحر •
١٠٣	قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله •
١٠٣	سبب نزول هذه الآية •
١٠٤	ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب •
١٠٦	أم حسب الذين اجترحوا السيئات ؟

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجزء السابع والعشرون

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الجزء الثامن والعشرون

الصفحة	الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة　　　　الموضوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

مقدمة

الحمد لله المعطي المنان ، المتجلّي على عباده بالرحمة والإحسان ، والصلاة والسلام على سيدنا وشفيعنا محمد الذي أُنزل عليه القرآن ، وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فلا يخفى أن القرآن الكريم منبع لدين الاسلام ، ومرجع المسلمين في العقائد والأحكام . وقد خوّل الله تعالى رسوله بيانه . فقال (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم) فبينه أحسن البيان ، وقد فسره أئمة هذه الأُمّة بما وصلت إليه طاقاتهم ، آخذين من النصوص الإلهية ، والسنة النبوية ، وإجماع الأمة المحمدية ، وآراء العلماء المجتهدين المخلصين ؛ فنشروا بين المسلمين تفاسير : مختصرة ، ومطولة ، ومتوسطة ، حسب قرائحهم النفسية ، ومنائحهم القدسية . ولكن لما كان لكل زمان أوضاع خاصة مبيّنة ، ومشاكل مهمة معيّنة ، واقتضى زماننا التعرض لبيان الحق في مهمات واردة .. طلب مني بعض الاصدقاء أن أكتب تفسيراً يعالج ما كنا نبغيه . وإني مع قلة بضاعتي في هذا الشأن ، وضعف استطاعتي

لاقتحام هذا الميدان .. توكلت على الله المنان ، واعتمدت على حوله وقوّته، وأخذت في التفسير المرغوب ، ناقلاً أو مستنبطاً من تفاسير الأئمة الكبار ، كالقرطبي ، والامام الرازي ، والبيضاوي ... وغيرهم . واقتصـــرت على الرّاجح الّذي يطمئن به القلب ، ذاكراً بيـــانَ أســـبابِ النزول بقـــدر الإمكان ، وسمّيت تفسيرى هذا ((مواهب الرحمان في تفسير القرآن)) بسلامة البيان . سائلاً مِن منّه سبحانه وتعالى أن ينفعني والمسلمين به في الدارين . إنه الكريم المنّـــان .

ولنقدم على المقصود أموراً مهمة ينبغي للمسلم الاطلاع عليها :

الامر الاول مبدأ التنزيل وأول زمانه

قـال تعالـى : (حـم والكتـاب المبـين • إنـا أنزلنـاه في ليلـة مباركـة إنـا كنا منذرين • فيهـا يفـرق كـل أمـر حكيـم) وقـال تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة القدر ••• الآية) وفي هذا دليل على أن الليلـة المباركة هي ليلة القدر • وقال تعالى : (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان) وفي هذا دليل على أن ليلة القدر في رمضان المبارك ؛ فيكون إنزال القرآن في ليلة مباركة مسماة بليلة القدر من لياليه • ولا خلاف في أن القرآن ـ كما في الكتب المعتمدة ـ أُنْزِل من اللّوح المحفوظ ليلة القدر جملةً واحدة • فوضع في بيت العزة في سماء الدنيا • ثم كان جبريل ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب في عشرين سنة • قلت : أو في ثلاث وعشرين سنة على ما هو المذكـور في محلّه •

وكان أول ما نزل منه آيات أول سورة العلق • ففي البخاري الشريف : أن عروة بن الزبير روى أن عائشـــة زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : أول ما بدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح • ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يلحق بغار حراء فيتحنَّث فيه (والتحنث : التعبد الليـالي َ ذواتَ العدد قبل أن يرجع الى أهله) ثم يرجع الى خديجة فيتزوّد بمثلها حتى فَجَأَه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : إقرأ • فقـال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أنا بقارىء • قال : فأخذني فغطّني حتى بَلَغ منّي الجهدَ • ثم أرســـلني • فقال : إقرأ • قلت : ما أنـا بقارىء • فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منّي الجهد • ثم أرســـلني فقال : إقرأ • قلت : ما أنـا بقـارىء • فأخذني فغطني الثالثة حتى بلـــغ منّي الجهد •

ثم أرسلني فقال : (إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علَّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم ... الآيات) فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . فقال : زمّلوني زمّلوني . فزمّلوه حتى ذهب عنه الرّوع . قال لخديجة : أي خديجة ما لي ؟ لقد خشيتُ على نفسي ، فأخبرها الخبرَ . قالت خديجة : كلاّ أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . فوالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الأنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة : يا عم إسمع من ابن أخيك . قال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر ما رأى . فقال ورقة : هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ، ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا (ذكر حرفا) . كذا في هذه الرواية وتقدم في بدء الوحي بلفظ (اذ يخرجك قومك) قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أوَ مخرجيَّ هم ؟ قال ورقة : نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي . وإن يدركني يومك حيّاً انصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي . وفتر الوحي فترة أي إنقطع نزوله عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدة من الزمان .

وفي صحيح البخاري وهو يحدث عن فترة الوحي : فقال في حديثه : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ،

فرُعِبْتُ منـه ، فرَجَعت فقلتُ : زَمِّلُوني زَمِّلوني • فأنزل الله عز وجل : « يا أيها المُدَّثِّر قم فأنذر الى قوله والرجزَ فاهْجُر » فحَمي الوَحْيُ وتواتر انتهى •

ومما ينبغي أن يعلم أن فتور الوحي وانقطاعـه عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في ثلاث نوبات :

الأولى : بعد نزول جبريل ـ عليه السلام ـ عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غار حراء أول مرة إلى أن نزلت عليه سورة المدّثر •

والثانية : بعد سؤال اليهود عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح ، وذي القرنين •

والثالثة : قبيل نزول (سورة الضحى) لحادث السرير المشهور من وجود جرو كلب تحت سريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يدر به •

وان مدة فتوره في النوبة الأولى ـ وان ورد أنها كانت سنتين ونصفاً في رواية ، أو ستة أشهر في أخرى ـ لكن ما حققه صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري أنها كانت أياماً ولم تحدّد • وفي النوبة الثانية كانت اثنتي عشرة ليلة • وفي الثالثة كانت ثلاثة أيّام فقط • ثم تتابع الوحي على العـادة •••

وخلاصة الأمر : انه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نُبِّئ في ربيع الأول على رأس أربعين سنة من عمره الشريف • فكان الوحي رؤىً صـادقة الى رمضان • وجاءه جبريل في الثامن عشر منه • وقرأ عليه أوائل سورة العلق • ثم نزل عليه الوحي بالقرآن في مدة ثلاث وعشرين سـنة عدا أيامَ فتـور الوحي كما علمته سابقاً •

الامر الثاني تنزلات القرآن الكريم

وهي ثلاث :

التنزل الأول : الى اللوح المحفوظ • ودليله قوله سبحانه : « بل هــو قرآن مجيد في لوح محفوظ » وهذا الوجود فيه لا يعلمه إلا الله تعــالى ، ومن اَطلَعه على غيبه •

التنزل الثاني : للقرآن الكريم هو من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا • والدليل عليه قوله تعالى في سورة الدخان : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) وفي سورة القدر : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وفي سورة البقرة : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) دلت هــذه الآيات على ان القرآن أُنزل كله في ليلة واحدة •

التنزل الثالث : هو تنزل المَلَك الأمين جبريل بأمر الله سـبحانه على قلب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفظاً لفظاً حسب أمره تعالى بلا زيـادة ونقصان • ودليله قوله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء مخاطباً لرســوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (نزل به الروح الأمين على قلبك لِتكـونَ مِـنَ المُنْذرين بلسانٍ عربيّ مبين) • وبهذا النزول أَشعَّ النورُ على العالــم وَوَصَلَتْ هداية الله الى الخلق • فطوبى لمن آمَنَ به وعَمل به ، ففـاز به سعادة الدّارين •

الامر الثالث

كيفية أخذ جبريل للقرآن الكريم وعمن أخذ • وهذا من أنباء الغيب وفيها أقوال : وأَوْفَقها وأَوقعُها هو أنّ جبريل ــ عليه السلام ــ أخَذَ القرآن عن ذات الباري سبحانه وتعالى كما أَسْمَعَ اللهُ كلامَه رسـولَه محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلةَ المعراج ، ورسولَه موسى في الوادي

الأيمن . وما ذلك على الله بعزيز . ويؤيـــده ما أخرجه الطبراني من حديث النوّاس بن سمعان مرفوعاً الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا تكلّم اللهُ بالوحي أخذتِ السماء رجفةٌ شديدة مِنْ خَوْف الله . فإذا سمع أهـــل السماء صَعِقوا وخرّوا سُجّدا . فيكون أوّلهم يرفع رأسَه جبريلُ ، فكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به الى الملائكة فكلّما مَرّ بسَماءٍ سألَه أهلُها : ماذا قال ربّنا ؟ قال : الحق . فينتهي به حيث أُمِرَ .

الامر الرابع

دليل نزوله مُنَجّماً مفرقاً في مدة الرسالة ، قوله سبحانه وتعالى في سورة الاسراء : (وَقرآناً فَرَقْناه لتَقْرأه على الناس عَلَى مُكث ونزّلناه تنزيلا) وقوله في سورة الفرقان : (وقال الذين كفروا : لَولا نُزِّل عليــه القرآنُ جملةً واحدةً كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادَك ورَتَّلناه تَرتيلا) .

روي أن الكفارَ مِن يهودَ ومشركين عابوا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزول القرآن مُفَرَّقاً ، واقترحوا عليه أن ينزل جملة . فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم . وهذا الرد يدل على أمرين :

أحدهما : أن القرآن نزل مُفَرَّقـاً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أن الكتب السماوية من قبله نزلت جملة . كما إشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .

وفي هذا التنجيم أربع حِكَمٍ رئيسية :

الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقويـة قلبه . وذلك من وجوه :

الوجه الأول : إن في تجدد الوحي وتكرار نزول المَلَك به من جانب الحق الى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سروراً يملأ قلب الرسول ، وغبطةً تشرح صدره .

الوجه الثاني : إن في التنجيم تيسيراً عليه من الله تعالى في حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامِهِ وحِكَمِهِ ، كما أنّ فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كلّه .

الوجه الثالث : أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم مُعجزةً جديدة غالباً . حيث تحدّاهم كل مرة أن يأتوا بمثل نوبة من نوبات التنزيل . فظهر عجزهم عن المعارضة.ولاشك أن في هذا تثبيتاً لقلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

الوجه الرابع : ان في تأييد حقه وإدحاض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكراراً للذة فوزه بالحق والصواب . وكل ذلك مشجع لقلبه الشريف .

الوجه الخامس : تعهّد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يخفف عليه هذه الشدائد . وفي هذا التخفيف تسلية وتثبيت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها يقول الله تعالى : (وكُلاً نَقُصُّ عَليك مِن أنباء الرسل ما نثبّت بهِ فؤادك) ـ سورة هود ـ . ويقول : (واصبِر لحكم ربّك فإنكَ بأَعيُنِنا) . في سورة الطور . ويقول : (واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ) في سورة المائدة .

الحكمة الثانية : التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعَمَلاً . وتحت هذا وجوه خمسة أيضاً :

الوجه الأول : تيسير حفظ القرآن على الأمّة العربية ، وقد كانت آنذاك أُمّةً أميّه . ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة لدى المكاتبين ، مع اشتغالها الشديد بأمر الجهاد ، وبتحصيل أمورِها المعاشية . فلو نزل جملةً واحدة لَعَجَزوا عن حفظه .

الوجه الثاني : تسهيل فهمه عليهم كذلك مثل ما سبق في تسهيل حفظه .

الوجه الثالث : التمهيد لكمال تخلّيهم وابتعادهم عن عقائدهم الباطلة شيئاً فشيئاً . بسبب نزول الآيات شيئاً فشيئاً . فكلما نجح الإسلام في هدم عقيدة فاسدة إنتقل بهم الى هدم أخرى .

الوجه الرابع : التمهيد لتحلّيهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة شيئاً فشيئاً . ولهذا بدأ الإسلام بمنعهم عن الشرك والضلال ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، من أجل ان فتح القرآن عيونهم بأدلة التوحيد وبراهين البعث بعد الموت وحجج الحساب والمسئولية والجزاء . ثم إنتقل بهم بَعْدَ هذه المرحلة إلى العبادات . فبدأهم بفرض الصلاة قبل الهجرة . وثنّى بالزكاة وبالصّوم في السنة الثانية من الهجرة وختم بالحج في السنة السادسة منها .

الوجه الخامس : تثبيت قلوب المؤمنين بعزيمة الصبر واليقين بما يقصّه القرآن عليهم من قَصَص الأنبياء والمرسلين ، وما جرى عليهم وعلى أتباعهم من الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين من الأجر .

الحكمة الثالثة : مسايرة الحوادث والطواريء في تجددها ، وتفرقها فكلما حدث شيء جديد نزل من القرآن ما يناسبه ، وبيّن الله لهم من أحكامه ما يوافقه . وتحت هذه الحكمة أمور أربعة :

الأول : إجابة السائلين على أسئلتهم عندما يوجهونها الى الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سواء كانت تلك الأسئلة لغرض إمتحانه وتثبتهم من رسالته كما في أسئلة أعدائه عن الروح • وعن ذي القرنين • أو لغـرض التنور والإستفادة ، ومعرفة حكم الله تعالى ، كما في سـورة البقـرة : (يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو) وقوله تعالى : (ويسـألونك عن اليتامى ؟ قل : إصلاح لهم خير) • ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفـع إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوقات مختلفة ، فلا بدّ أن ينـزل الجواب عليها كذلك •

الثاني : مجاراة الوقائع في حينها ببيان حكم الله تعالى فيها عنـد حدوثها ووقوعها • ومعلوم أنها لم تقع في يوم واحد ، أو شهر واحد بـل وقعت تفصيلاً وتدريجاً •

الثالث : توجيه المسلمين إلى تصحيح أخطائهم التي يقعون فيهـا وإرشادهم الى الصواب • كما في قوله تعالى : (ويوم حُنَين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا) الآيـات • فهي تردع المؤمنين عن رذيلة الإعجاب والاغترار في يوم من أيام الله • والى وجوب رجوعهم الى رشدهم ويتوبوا الى ربهم •

الرابـع : كشف حالِ أَعداءِ الله المنافقين ، وهَتْكُ أَستارهم كي يأخذ المؤمنون منهم حِذرهم فيأمنوا شرّهم • وحتى يتوبَ مَنْ شـاء منهم • كما في قوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) الى آخر الآيات الثلاث عشرة التي فضـحت المُنافقين • كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات •

الحكمة الرابعة : الإرشاد الى مصدر القرآن ، وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا كـلام

مخلوق سواه . وبيان ذلك : أنّا نقرأ القرآن الكريم من أوله الى آخره . فاذا هو مُحْكم السّرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوي الإتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض ، في سُوَره ، وآياته ، وجُمَلِه ، يجري فيه روح الاعجاز مِن ألِفِهِ الى يائه كأنه سبيكة" واحدة ، أو هيكل انسان واحدٍ جميل ، جليل القدر ، متناسب الأجزاء والأعضاء ، مبيّن آيات كونية علويّة وسفلية ، برّيّة وبحريّة ، بحيث يعجز عن فهمها بكمال أكمل أرباب الفنون والصناعات . وذلك كله بوجه صالح للدراسة ، وصادق بحسب التأمّل السليم ، وباعتدالٍ تام على الصّراط المستقيم .

الامر الخامس

نزول القرآن على سبعة أحرف ودليله وبيانُ معناه . أما دليله فهو النقل الصحيح من طرق مختلفة كثيرة . وقد روي حديث نزول القرآن على سبعة أحرف عن جمع كثير من الصحابة . منهم : عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو بكر ، وأبو جهم ، وأبو سعيد الخدري ، وابن طلحة الأنصاري ، وأُبَيّ بن كعب ، وزيد بن أرقم ، وسمرة بن جندب ، وسلمانُ بن صُرَد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعمرو بن أبي سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأَنَس ، وحذيفة ، وأُمّ أيّوب ـ إمرأة أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فهؤلاء جميعاً رووا حديث نزول القرآن على سبعة أحرف .

وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير : أن عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال يوماً ـ وهو على المنبر ـ : أُذكّر الله رجلاً سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ان القرآن نزل على سبعة أحرف كلّها شافٍ

كافٍ لما قام • فقاموا حتى لم يُحْصَوْا • فشهدوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أُنزل القرآن على سبعة حروف كلها شافٍ كافٍ • فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ : وأنا أشهَدُ مَعَهم •

وكانت هذه الجموع التي يؤمن تواطؤها على الكذب هي التي جعلت الامام أبا عبيد ابن سلاّم يقول بتواتر هذا الحديث • أي بالنسبة الى القرن الأول • وهناك طائفة من الأحاديث الشريفة نسوقها إستدلالا على ثبوت المضمون المذكور :

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أَقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجَعْتُه ، فلم أَزَل أَسْتزيدُه ويزيدني ، حتى إنتهى الى سبعة أحرف ، زاد مسلم : قال ابن شهاب : بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرامٍ •

وروى البخاري ومسلم ـ أيضاً ـ (واللفظ للبخاري) أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستمعتُ لقراءته ، فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يُقرِئنيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكدت أساوِرُه في الصلاة ، فانتظرته حتى سلّم ثم لَبَّبْتُه بردائه أو بردائي • فقلت : من أقرأك هذه السورة ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • قلت له : كذبتَ • فوالله إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها • فانطلقت أقودُه الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقلتُ : يا رسول الله إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرِئنيها • وأنت أقرأتني سورة الفرقان ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَرسِله يا عمر • إقرأ

يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التي سمعتها • قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هكذا نزلت • ثم قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : **إن** هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه •

وروى الترمذي عن أُبَيّ ابن كعب قال : لقي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة ، قال : فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجبريل : إني بعثت إلى أمة أميين ، فيهم الشيخ الفاني ، والعجوز الكبيرة ، والغلام • قال : فَمُرْهُم فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف • قال الترمذي حسن صحيح •

وأما معنى الحديث الشريف : ففيه نحو خمسة وثلاثين رأياً والمختارُ منها خمسة :

الأول : وهو الذي عليه أكثر أهل العلم ، كما في تفسير القرطبي ، أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو : أقبِلْ ، وتعالَ ، وهلمّ • قال الطحاوي : وأبيَن ما ذكر في ذلك حديث أبي بكرة قال جاء جبريل الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إقرأ على حرف فقال ميكائيل : استَزِدْهُ • فقال : إقرأ على حرفين • فقال ميكائيل : إستزده حتى بلغ الى سبعة أحرف • فقال : إقرأ • فكلٌ شافٍ كافٍ ، إلا أن تخلط آيةَ رحمةٍ بآية عذاب على نحو : هلمّ ، وتعالَ ، وأقبلْ ، واذهَب ، واسرِع ، وعجِّل •

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبَيّ بنِ كعب أنه كان يقرأ (للذين آمنوا انظُرونا) للذين آمنوا امهِلونا ، للذين آمنوا أخّرونا •

قال الزهري : إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام ٠

قال الطحاوي : إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ؛ لأنهم كانوا أمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ، فوسع لهم في إختلاف الألفاظ ، إذ كان المعنى متفقاً ، حتى كثر منهم من يكتب ، وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه ٠ فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها ٠ فبان بهذا أن تلك الأحرف السبعة إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك ، ثم إرتفعت تلك الضرورة ، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد ٠

القول الثاني : قال قوم : هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها : يمنها ، ونزارها ٠ وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكنها متفرقة في القرآن ٠ فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن ٠

القول الثالث : إن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر ، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنها لتيم ، ومنها لضبة ، ومنها لقيس ٠٠٠ قالوا : هذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ٠

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ٠ قال : تدبرت وجوه الإختلاف في القراءة ، فوجدتها سبعاً ٠ منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته ٠ مثل : « هن أَطْهَرُ لَكُم » ٠ وأَطْهَرَ ٠ ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل : « رَبَّنا باعِدْ بين أسْفارِنا » و « باعَدَ » ٠ ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف

الحروف مثل : « نُنْشِزها » و « ننشرها » • ومنها ما تتغيّر صورته ، ويبقى معناه « كالعهن المنفوش » و « كالصوف المنفوش » • ومنها ما تتغيّر صورته ومعناه • مثل : « وطلح منضود » و « وطلع منضود » • ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » و « جاءت سكرة الحق بالموت » • ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله تعالى : « وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين » أي بالنسبة لقوله تعالى : « وأما الغلام فكان أَبَواه مؤمنَيْن » •

القول الخامس : إن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى ، وهي أمرٌ ونهيٌ • ووعد ووعيد • وقصص ومجادلة • وأمثال •

قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً • وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغيير شيء من المعاني • وقد قيل : إن المراد القراءات السبع التي قرأ بها القرّاء • لأَنها صحّت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وهذا ليس بشيء لظهور بطلانها على ما يأتي •

والمختار من بين تلك المعاني أنّ معنى نزول القرآن على سبعة أحرف نزوله على سبع لغات من لغات العرب • وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعةُ أوجهٍ ـ وإن جاء على سبعة أو عشرة أو أكثر ـ ولكن معناه أن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن •

فالأحرف بمعنى الأوجه على معنى أَنّ وُجُوهَ الإختلاف لا تتجاوز سبعةَ أوجه مهما كَثُر ذلكَ التعددُ والتنوعُ في أداء اللفظ الواحد • ومهما تعددت القراءات وطرقها في الكلمة الواحدة • فكلمة « مالكِ يوم الدين » التي ورد أنها تقرأ بطرق تبلغ السبعة أو العشرة ، وكلمة « وعَبَدَ

الطّاغوت » التي ورد أنها تقرأ باثنتين وعشرين قراءة ، وكلمة « أُفّ » التي أوصل الرمّاني لغاتِها الى سبع وثلاثين لغة ... كل ذلك لا يخرج التغاير فيه على كثرته عن وجوه سبعة .

بقي أن تتساءل ما هي تلك الوجوه السبعة التي لا تخرج القراءات عنها مهما تنوّعت وتكثّرت في الكلمة الواحدة ؟ والذي اختاره المحققون من بين الآراء العديدة في الموضوع هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح إذ يقول :

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف :

الأوّل : إختلافُ الأسماء من إفرادٍ ، وتثنية ، وجمعٍ ، وتذكيرٍ وتأنيث ...

الثاني : إختلاف تصريف الأفعال من : ماضٍ ، ومضارع ، وأمرٍ .

الثالث : إختلاف وُجوهِ الإعراب .

الرابع : الإختلاف بالنقص والزيادة .

الخامس : الإختلاف بالتقديم والتأخير .

السادس : الإختلاف بالإبدال .

السابع : إختلاف اللغات (يعني اللهجات) كالفتح ، والإمالة ، والترقيق ، والتفخيم ، والإظهار ، والإدغام وغير ذلك ... غير أن النّقل لم يُشفَع بتمثيل لما ذكر .

وقال الزرقاني : ويمكن التمثيل للوجه الأول منه ، وهو إختلاف الأسماء بقوله سبحانه : « وَالّذين هُم لِأماناتهم وَعهدهم راعون » قُرِيء هكذا (لأماناتهم) جمعاً ، وقريء (لأمانتهم) بالإفراد .

ويمكن التمثيل للوجه الثاني ، وهو اختلاف تصريف الأفعال ، بقوله سبحانه : « رَبَّنا باعِدْ بينَ أَسفارِنا » قرئ هكذا بنصب لفظ ربَّنا ، على أنه منادى . وبلفظ باعِدْ فعلَ أمر ، وبعبارة أَنسَبَ فعل دعاءٍ . وقرئ هكذا : (رَبُّنا بَعَّدَ) برفع ربنا على أنه مبتدأ . وبلفظ (بَعَّدَ) فعلاً ماضياً مضعّف العين وجملته خبر .

ويمكن التمثيل للوجه الثالث ، وهو إختلاف وجوه الإعراب ، بقوله سبحانه : « ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ » قرئ بفتح الراء وضمّها . فالفتح على أنّ لا ناهية فالفعل مجزوم بعدها . والفتحة الملحوظة في الراء هي فتحة إدغام المثلين ، أما الضم فعلى أن لا نافية فالفعل مرفوع بعدها .

ويمكن التمثيل للوجه الرابع ، وهو الإختلاف بالنقص والزيادة . بقوله تعالى : « وما خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى » قرئ بهذا اللفظ وقرئ أيضاً (والذكر والأنثى) بنقص كلمة (ما خلق) .

ويمكن التمثيل للوجه الخامس ، وهو الاختلاف بالتقديم والتأخير ، بقوله سبحانه : « وجاءت سكرة الموت بالحق » ، وقرئ : (وجاءت سكرة الحق بالموت) .

ويمكن التمثيل للوجه السادس ، وهو الإختلاف بالإبدال ، بقوله سبحانه : « وانظُرْ الى العظام كيفَ نُنْشِزُها » بالزاي ، وقرئ (نُنْشِرُها) بالراء .

ويمكن التمثيل للوجه السابع ، وهو اختلاف اللهجات ، بقوله سبحانه: « وَهَلْ أَتاكَ حديثُ موسى » تقرأ بالفتح والإمالة في (أتى) ولفظ (موسى) .

ومن فوائد إختلاف القراءة وتعدد الحروف : التخفيفُ والتيسيرُ على هذه الأمة فإنّ كل إنسان مُتَعَوِّد على لهجته : من الفتح ، أو الإمالة، أو غيرها من سائر الأحرف والأوجه .

ومنها : جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد يوحّد بينها وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم والذي انتظم كثيراً من مختارات ألْسِنة القبائل العربية التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة . فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا ، ويختارون ما راق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب وحَدب . ثم يُهذّبُونَه ويُدخلونه في دائرة لغتهم المَرِنة التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة ، وعقدوا لها رايَةَ الإمامة . ومنها صح أن يقال انه نزل بلغة قريش ، لأن لغات العرب تمثلت في لسان القريشيين بهذا المعنى .

ومن الجدير بالإنتباه إليه : أن القراءاتِ السبع المعروفة ليست هي الأحرف السبعة التي ذكرناها ، ولكنها ليست خارجة عنها البتة . قال القرطبي في تفسيره : قال كثير من علمائنا ، كالداودي ، وابن أبي صفرة ، وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي إتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة الى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عَلَيه عثمان المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء . وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما رَوى وعَلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأَوْلى . فالتزمه طريقةً ورواه ، وأقرأ به ، واشتهر عنه ، وعرف به ، ونسب إليه . فقيل : حرفُ نافعٍ ، وحرف إبن كثير . ولم يمنع واحد منهم إختيار الآخر ولا أنكره ،

بل سوغه وجوّزه • وكل واحد من هذه السبعة روي عنه إختياران أو أكثر وكلٌ صحيح •

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الإعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات • فاستمر الإجماع على الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب ، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون ، كالقاضي أبي بكر ابن الطيب ، والطبري ، وغيرهما ••• قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة ، وبها يصلى لأنها ثبتت بالإجماع • وأما شاذ القراءات فلا يصلى به لأنه لم يجمع الناس عليه •

وقال محمد عبدالعظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان) : ان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد اختلف أخذهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذ عنه بحرفين ، ومنهم من زاد • ثم تفرقوا في البلاد ، وهم على هذه الأحوال ، فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم ، وأخذ تابع التابعين عن التابعين • وهلم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو الى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ، ويُعْنَوْن بها ، وينشرها ـ كما يأتي ـ هذا منشأ علم القراءات واختلافها ، وإن كان الإختلاف يرجع في الواقع إلى أمور يسيرة بالنسبة الى مواضع الإتفاق الكثيرة كما هو معلوم • ومهما يكن الأمر فإن إختلاف القراء في حدود السبعة الأحرف التي نزل عليها القرآن كلها من عند الله لا من عند الرسول ولا أحدٍ من القراء وغيرهم •

ثم قال : وقد اشتهر في كل طبقة من طبقات الأمة جماعة بحفظ القرآن وإقرائه ؛ فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن : عثمان ، وعلي ، وأُبيّ بن

كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ... وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية . والمشتهرون من التابعين : ابن المسيّب ، وعروة ، وسالم ، وعمَر بن عبدالعزيز ، وسليمان بن يسار ، وأخوه عطاء ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب ، وعبدالرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري ، وكل هؤلاء كانوا بمكة .

وعامر بن عبدالقيس وأبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة وغيرهم ، وكانوا هؤلاء بالبصرة .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والربيع بن خيثم ، والحارث ابن قيس ، وعمر بن شرحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبدالرحمن السلمي وزرّ بن حبَيش ، وعبيد بن فضلة ، وأبو زرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير والنخعي ، والشعبي ، وهؤلاء كانوا بالكوفة .

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي ـ صاحب مصحف عثمان ـ وخلَيدُ بن سعيد ، صاحب أبي الدرداء ، وغيرهما ... وهؤلاء كانوا بالشام .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعتَنونَ بها ؛ فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم نافع ابن أبي نعيم .

وكان بمكة عبدالله ابن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن محيصن وكان بالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش . ثم حمزة ثم الكسائي .

وكان بالبصرة : عبدالله بن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمرو ابن العلاء وعاصم الحجدري ، ثم يعقوب الحضرمي .

وكان بالشام : عبدالله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلابي ، وإسماعيل ابن عبدالله ، وابن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الدّماوي ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي .

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عِدّة مهروا في القراءة والضبط ، حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم .

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات . فقيل : القراءات السبع ، والقراءات العشر ، والقراءات الأربع عشرة . وأحظى الجميع بالشهرة ونباهة الشأن : القراءاتُ السبعُ وهي القراءات المنسوبة الى الأئمة السبعة المعروفين ، وهم : نافع ، وعاصم ، وحمزة ، وعبدالله بن عامر ، وعبدالله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعلي الكسائي .

ومما يستحسن التنبيه عليه : أنه كان كل من الأحرف مما نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وألقاه إليه ليقرأه على أصحابه ، فتتوسع لهم دائرة القراءة للقرآن الكريم . ففي تفسير القرطبي : قال إبن عطية : أباح الله تعالى لنبيه ـ عليه السلام ـ هذه الحروف السبعة ، وعارضه بها جبريل ـ عليه السلام ـ في عَرْضاتِهِ على الوجه الذي فيه الإعجاز ، وجودة الوصف ، ولم تقع الإباحة في قوله ـ عليه السلام ـ فاقرأوا ما تيسّر منه بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذَهَب إعجاز القرآن ، وكان معرضاً لأن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله . وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي ـ صلى

الله عليه وسلم ـ ليوسع بها على أمته فأقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل ، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً • وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان ، وقراءة هشام بن حكيم لها،والإ فكيف يستقيم أن يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل قراءة منهما ، وقد اختلفا ، (هكذا أقرأني جبريل) ؟ هل ذلك إلا أنه أقرأه مرة بهذه ، ومرة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ (إن ناشئة الليل هي أشد وَطْأً وأصوب قيلا) • فقيل له : إنما تقرأ (وأقوم قيلا) فقال أنس : (وأصوب قيلا ، وأقوم قيلا وَأَهْيأ) واحد" ، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلا فلو كان هذا لأحدٍ من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » •

الامر السادس جمع القرآن الكريم

للقرآن الكريم جمع في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمع في عهد خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وجمع في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ولنذكر ذلك :

أما الأول ـ أي الجمع في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فلا شك أن همة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه كانت متوجهة أول الأمر إلى جمع القرآن في القلوب ، وحفظه في الصدور ، ضرورة أنه نبيّ أميّ بعثه الله في الأميين • علاوة على ذلك انه لم يكن أدوات الكتابة ميسورة لديهم في ذلك العهد • ومن هنا كان الإعتماد على الحفظ في الصدور أكثر من الإعتماد على الحفظ بين السطور • ولكن القرآن الكريم أخذ نصيباً وافياً من الأمرين : أي الحفظ في الصدور ، والحفظ بين السطور • فقد اتخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كُتّاباً للوحي المنزل • فكلما نزل من القرآن شيء أَمَرَهُم بكتابته مبالغةً في حفظه •

وكان هؤلاء الكتّاب من خيرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيهم : أبو بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ومعاوية ، وإبان بن سعيد ، وخالد بن الوليد ، وأُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وثابت بن قيس وغيرهم ••• وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدلهم على موضع المكتوب في سورته ، فيكتبونه في ما يسهل عليهم من : جريد النخل ، والحجارة الرقيقة ، وما تيسر من جلد ، أو ورق ، وعظام الأكتاف وغيرها ••• ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا إنقضى العهد النبوي السعيد •

روي عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض مَن يكتب ، فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا •

وعن زيد بن ثابت قال : كنّا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نؤلف القرآن من الرّقاع • وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل ـ عليه السلام ـ فقد ورد أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يقول : ضعوا كذا في موضع كذا • ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله ـ عز وجلّ ـ •

أما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان منهم من يكتبون القرآن ولكن فيما تيسر لهم من : قرطاس ، أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أُنزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو كتبها ثم خرج في سرية مثلا فنزلت في وقت غيابه سورة •• فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه فيجمعه ، ويتتبعه على حسب

ما يسهل له ، فيقع في ما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك • وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها ، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة •

والحاصل أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها • غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعضها هو ثابت بخبر الواحد • وربما كتبه غير مرتب ، ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة • وذلك لأمور :

أولها : أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد في عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف ، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف • فالمسلمون وقتئذ بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم تتسع رقعته بعدُ ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ باستظهار القرآن تفوق الوصف حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها •

ثانيها : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات •

ثالثها : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة ، بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر •

رابعها : أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله ؛ فقد علمتَ أن نزوله كان على حسب الأسباب ، أما ترتيبه فكان لِغير ذلك من الإعتبارات •

وأما الثاني ـ أي الجمع في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ : فكان السبب فيه إستشهاد كثير من القراء ، وخوف ضياع بعض من آيات القرآن الكريم • وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه : أن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال : أَرْسَلَ إليَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهلِ اليمامة ، أي عَقب إستشهاد القرّاء السبعين في واقعة (اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده • قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : إنّ عُمَرَ أتاني فقال إنّ القتل قد استحرّ (أي إشتدّ) يومَ اليمامة بقُرّاء القرآنِ ، وإنّي أخشى أَن يستحرَّ القتل في المَواطِنِ فيذهَبَ كثيرٌ من القرآن ، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن • قلتُ لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال عمر : هذا واللهِ خيرٌ • فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر • قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجلٌ شابٌ عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَتَتَبَّع القرآن فَاجْمَعْه ، فوالله لَو كَلّفوني نقلَ جَبَل من الجبال ما كان أَثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن • قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال : هو والله خيرٌ • فلم يزل أبو بكر يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر • فتتبعت القرآن أجمَعُه مِن العُسُب واللخاف وصدور الرجال ، حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدْها مع أَحَدٍ غيره : « لقد جاءكم رَسُول مِن أَنْفُسِكم عَزيزٌ عليه ما عَنِتّم حَرِيصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم • فإن تَولَّوا فَقُل حَسبيَ اللهُ لا إلهَ إلاّ هو عليه توكلتُ وهو رَبُّ العرشِ العظيم » •

فأَرادَ أنه لم يجد آخر سورة براءة مكتوباً عند أحد إلا عند أبي خزيمة الأنصاري •

وأما حفظاً : فكان محفوظاً عند كثير من الأصحاب ـ رضي الله تعالى عنهم ـ أجمعين • كما هو مذكور ومسطور في النقول المعتمدة •

فكانت الصحف عند أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى توفاه الله ، ثم عند عمر في مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ

وهذا الجمع كان بعناية بالغة ويدل عليها ما أخرجه أبو داود انّ أبا بكر قالَ لعُمَر ولزيد : أقعُدا على باب المسجد فمن جاء كُما بشاهدين على شيء من كتاب الله أكتباه • قال السخاوي في جمال القرّاء ما يفيد : أن المراد بهما رجلان عدلان يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده • ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً : أنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة ، أي لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري مع أنّ زيداً كان يحفظها ، وكان كثير من الصحابة يحفظونها • ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثق • ثم جُمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير • وكان ذلك مَنْقَبَةً خالدة لا يزال التأريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ، ولعُمَر في الإقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار • قال علي ـ كرم الله وجهه ـ أعظم الناس في المصاحف أجراً : أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله • أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن •

وامتازت هذه الصحيفة أولا بأنها جمعت القرآن على أدق وجوه البحث والتحري وأَسْلَم أصول التثبت العلمي •

ثانياً بأنه إقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته •

ثالثاً انها ظفرت بإجماع الأمة عليها وتواتر ما فيها •

وأما الجمع الثالث أي جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله تعالى عنه ـ فالداعي إليه أنه اتّسعت الفتوحات في زمانه وتفرّق المسلمونَ في الأمصال ، وظهر جيل" جديد" كان بحاجة إلى دراسة القرآن وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ؛ فأهل الشام يقرأون بقراءة أُبَيّ بن كعب وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبدالله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري . فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة بطريقة فتَحَت باب النزاع في قراءة القرآن .

ومن ذلك ما وقع بين بعض الأصحاب عندما اجتمعوا في غزوة (أَرْمينيّة) فقرأت كل طائفة بما روي لها . فاختلفوا وتنازعوا . فأشفقَ حذيفةُ بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ من ذلك . فلما قَدِمَ المدينةَ دخلَ على عثمان قبل أن يذهب الى بيته . فقال له : أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك ! قال : في ماذا ؟ قال : في كتابِ اللهِ . إني حَضرت هذه الغزوة وجَمَعَت ناساً مِنَ العراق والشام والحجاز . فوصف له ما تقدم . وقال : إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى .

وقد روى سويد بن غفلة عن علي بن أبي طالب ان عثمان قال : ماترون في المصاحف فإن الناس قد اختلفوا في القراءة حتى أن الرجل ليقول : قراءتي خير من قراءتك وقراءتي أفضل من قراءتك ! وهذا شبيه بالكفر . قلنا ما الرأي عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال الرأي عندي : أن يجتمع الناس على قراءة . فإنكم إذا اختلفتم اليوم كانَ منْ بعدكم أشدّ اختلافاً . قلنا : الرأيُ رأيك .

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم حوالي أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين من الهجرة . فعمد في نسخ المصاحف

الى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ • وهم : زيد بن ثابت ، وعبدالله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث • وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش • وأرسل عثمان إلى أمّ المؤمنين حفصة بنت عمر ، فبعثت إليه بالصّحف التي عندها ، وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه • وقد جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير وهذا صحيح •

وجاء في بعض الروايات أن الذين نُدبوا لِنسخ المصاحف كانوا إثني عشر رجلا ، وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة ويقرّوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على هذا النحو الذي نجده الآن في المصاحف • وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش ؛ فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة ـ رضي الله تعالى عنها ـ •

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة ، أنهم كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن وعَلِموا أنه قد استقر في العرضة الأخيرة وما أيقنوا صحته عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما لم ينسخ وتركوا ماسوى ذلك •

وإنما كتبوا مصاحف متعددة لأن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه الى أقطار بلاد المسلمين وهي متعددة • وكتبوها متفاوتة في إثباتٍ وحذفٍ وَبَدَلٍ وغيرها ؛ لأنه ـ رضي الله عنه ـ قَصَدَ اشتمالها على الأحرف السبعة • وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الإحتمال أيضاً • فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها

بأكثر من وجه واحد عند تجردها من النقط والشكل نحو (فتبيّنوا) من قوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا » فإنها تصلح أن تقرأ (فتثبّتوا) عند خلوّها من النقط والشكل ، وهي قراءة أخرى وكذلك (ننشِرها) من قوله تعالى : (وانظر الى العظام كيف ننشزها) فإنّ تجردها عن النقط والشكل يجعلها صالحة عندهم أن يقرءوها بالزاي المعجمة وهي قراءة واردة ، أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوّها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة ، وفي بعض آخر برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة (وَصّى) بالتضعيف و (أوْصى) بالهمزة وهما قراءتان في قوله سبحانه : « وَوَصّى بها ابراهيمُ بَنيه ويَعْقوب » وكذلك قراءة (تَحتَها الأنهارُ) وقراءة (مِنْ تحتِها الأنهار) بزيادة لفظ (مِن) في قوله تعالى في سورة التوبة : « لهم جنّات تجري مِن تحتها الأنهار » وهما قراءتان أيضاً ،

وصفوة القول : أن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة ، أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ؛ فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر ، وكانوا يتحاشون أن يكتبوه بالرسمين في مصحف واحد خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة وليس كذلك بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحديهما بوجه وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدة منهما ، وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح

للأول ، أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكّم أو ترجيح بلا مرجّح ، وذلك نحو كلمة (وصّى) بالتضعيف و (أوصى) بالهمزة كما سبق ، أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو (فتبيّنوا) و (ننشرها) كما سلف بيانه ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المَعْنَيَين المعقولين .

والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقّوا القرآن عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجميع وجوه قراءاته وبكافّة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة أقرب إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لا يقال إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته أو منعوا أحداً من القراءة بأيّ حرف شاء على حين أنها كانت منقولة نقلاً متواتراً عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « أيّ ذلك قرأتم أَصَبْتُم فلا تُمارُوا » .

وكان من الدستور الذي وضعه عثمان ـ رضي الله عنه ـ لهم في هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء الثلاثة القرشيين : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى اذا نسخوا الصّحف في المصاحف ردّ عثمان الصحفَ إلى حفصة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَقَ ، وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، وليحمل المسلمين على الجادّة في كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلاّ بتلك المصاحف التي تَوافَرَ فيها مِنَ المزايا ما لم يتَوافر في غيرها ، وهذه المزايا هي :

أولاً : الإقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحادا •

ثانياً : إهمالُ ما نسخت تلاوته ولم يستقرّ في العرضة الأخيرة •

ثالثاً : ترتيبُ السور والآيات على الوجه المعروف الآن •

رابعاً : كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءاتِ المختلفةَ والأَحْرُفَ التي نَزَلَ عليها القرآنُ على ما مَرّ بِكَ من عَدمِ إعجامها وشَكلها ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحدُ •

خامساً : تجريدها من كل ما ليس قرآناً كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنىً أو بياناً لناسخ ومنسوخ أو نحو ذلك •

وقد استجاب الصحابةُ لعثمان فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية ، حتى عبدالله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يُحرق مصحفه •• رجع وعاد الى حظيرة الجماعة حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها • وبعدئذٍ طَهُر الجوّ الإسلاميّ من أَوْبئة الشقاق والنزاع ، وأصبح مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبيّ بن كعبٍ ، ومصحف عائشة ، ومصحف عليّ ، ومصحف سالم مَوْلى أبي حذيفة أَصْبَحَت كلها وأمثالها في خبرِ كان مَغسولةً بالماء ، أو محروقة بالنيران •

ورضي الله عن عثمان فقد أَرْضى بذلك العمل الجليل ربّه ، وحافَظَ عَلى القرآن ، وجَمع كلمة الأمّة ، وأَغلَق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعدَ اليوم •

وفَعَلَ ما فَعل بعد أن استشارَ الصحابة واكتسبَ موافقتهم ، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم • روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلوّ في عثمان ، وقولكم حرّاقُ مصاحف • فوالله ما حرقها إلا عن مَلأ مِنّا أصحابَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن عمر بن سعيد قال : قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : لو كنتُ الوالِيَ وقتَ عثمان لفَعَلتُ في المصاحِفِ مثلَ الذي فَعَلَ عثمان رضي الله عن الجميع •

الامر السابع ترتيب آيات القرآن وسوره

أما ترتيب آيات القرآن في كلّ سورة منه ، فقد انعقد الإجماع على أنه كان بتوقيف[1] من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه لا مجال للرأي والإجتهاد فيه ، بل كان جبريل ينزل بالآيات عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرشده الى موضع كل آية من سورتها ، ثم يقرؤها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه ، ويأمر كُتّابَ الوحي بكتابتها مُعَيِّناً لهم السورةَ التي تكون فيها الآية وموضعَ الآية من هذه السورة • وكان يتلوها عليهم مراراً وتكراراً في صلاته وعِظاتِه ، وفي حكمه وأحكامه ، وكان يعارض به جبريل في كل عام مرة • وعارضه به في العام الأخير مرتين • كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف • وكذلك كان كل من حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة حفظه مرتّب الآيات على هذا النمط • وشاع ذلك وذاع وملأَ البقاع والأسماع ، يتدارسونه فيما

(١) ولما لم يأمر بذلك في أول سورة (براءة) تركت بلا بسملة . هذا أصح ما قيل في ذلك .

بينهم ، ويقرءونه في صلاتهم ، ويأخذه بعضهم عن بعض ، ويَسْـــمَعه بعضهم عن بعض بالترتيب القائم الآن • فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يَد" ولا تصريف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم ، بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر لم يتجاوز نقل القرآن من العســـب واللخاف وغيرها في صحف • والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف • وكلا هذين كان على وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله تعالى ، أَجَلْ إنعقد الإجماع على ذلك تاماً لا ريب فيه • وممن حكى هـــذا الإجماع جماعة ، منهم : الزركشي في البرهان ، وأبو جعفر في المناسبات إذ يقول ما نصه : ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين •

وأما ترتيب السور ففيه ثلاثة أقوال :

الأول : إن ترتيب السور على ما هو عليه الآن لم يكن بتوقيف من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كان باجتهاد من الصحابة وينسب هـــذا القول إلى جمهور العلماء •

القول الثاني : إن ترتيب السور كلها توقيفي بتعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كترتيب الآيات ، وإنه لم توضع سورة في مكانها إلا بأمر منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • واستدل أصحاب هذا الرأي بأن الصـــحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحـــد • وإجماعهم لا يتم إلا اذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ؛ لأنـــه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفتهم ، لكنهم لم يتمسكوا بها بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم • وعدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها

ورجعوا الى مصحف عثمان وترتيبه جميعاً • ثم ساقوا روايات لمذهبهم كأدلة يستند إليها الإجماع •

منها ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفي قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف إلى أن جاء في هذه الرواية ما نصه : فقال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طَرَأَ علَيَّ حزبٌ من القرآن فأردت أَلاّ أخرج حتى أقضِيَهُ (أي أقرأهُ بتمامه) • فسألنا أصحابَ رسول الله قلنا : كيف تحزبون القرآنَ ؟ قالوا : نُحزِّبه ثلاث سور ، وخَمْسَ سُور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة • وحزب المفصّل من (ق) حتى نختم • قالوا : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

واحتجوا لمذهبهم أيضاً بأن السور المتجانسة في القرآن لم يُلتزم فيها الترتيب والولاء • ولو كان الأمر بالإجتهاد لَلوحِظَ مكانُ هذا التجانس والتماثل دائماً • لكن ذلك لم يكن بدليل أن سور المسبحات لم ترتب على التوالي بينما هي متماثلة في افتتاح كل منها بتسبيح الله ، بل فصل بين سورها بسورة (قد سمع) و (الممتحنة) و (المنافقين) • وبدليل أن طسم الشعراء ، وطسم القصص لم يتعاقبا مع تماثلهما • بل فصل بينهما بسورة أقصر منهما وهي (طس) •

وقد أيد هذا المذهب أبو جعفر النحاس ، فقال : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لحديث واثلة : أُعْطيتُ مَكانَ التوراة السّبعَ الطوال • وكذلك إنتصر أبو بكر الأنباري لهذا المذهب فقال : أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ، ثم فرّقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً

لمستخبر . ويقف جبريلُ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ على موضع السورة والآيات . والحروف كله من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن قدّم سورة أو أخّرها أفسد نظم القرآن .

وأخرج إبن أشـته في كتاب المصـاحف من طريق ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد انزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وانما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدّمتا وألّف القرآن على علم ممن ألفه به ، إلى أن قال : فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه .

القول الثالث : إن ترتيب بعض الســور كان بتوقيف من النبي وترتيب بعضـها الآخـر كـان باجتهـاد من الصـحابة ، وقـد ذهب الى هذا الرأي فطاحلُ من العلماء ، ولعله أمثَلُ الآراء لأنـه وردت أحـاديث تفيد ترتيب البعض كما مرّ بك من الرأي الثاني القائل بالتوقيف ، وخـلا البعض الآخر مما يفيد التوقيف . بل وردت آثار تصـرح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد . بَيدَ أن المؤيدين لهذا المذهب اختلفوا في السور التي جاء ترتيبها عن توقيف والسور التي جاء ترتيبها عن اجتهاد . فقـال القاضي أبو محمد ابن عطية : إن كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حيـاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالسـبع الطوال والحواميـم والمفصّـل وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون فرض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية ، ويبقى فيها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إقرأوا الزّهراوين : البقرة ، وآلَ عمران ، رواه مسلم .

وكحديث سعيد بن خالد : قرأ رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسبع الطوال في ركعة ، رواه ابن أبي شيبة في مصنفه • وفيه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يجمع المفصل في ركعة •

وروى البخاري عن ابن مسعود أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في بني اسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : إنّهنّ مِنَ العِتاقِ الأُولِ وهُنّ مِن تِلادي (المراد بالتلادِ ما نَزَلَ أوّلاً) • فذكرهـا نسقاً كما استقر ترتيبها وفي صحيح البخاري : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيـه ثم نفث فيهما فقرأ قل هو الله أَحَد والمعوّذتين •

وقال السيوطي ما نصه : الذي يشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي ، إلا (براءة) و (الأنفال) • وحينئذ فلا يرد حديث قراءة النساء قبل آل عمران ؛ لأن ترتيب الســور في القراءة ليس بواجب • ولعله فعل ذلك لبيان الجواز •

والأمر على كل حال سهل حتى لقد حاول الزركشــي في البرهان أن يجعل الخلاف من أساسه لفظياً • فقال : والخلاف بين الفريقين أي القائلين بأن الترتيب عن اجتهاد والقائلين بأنه عن توقيف لفظي ؛ لأن القائل بالثاني يقول : إنه رَمَزَ إليهم ذلك لعلمهم أسباب نزوله ومواقع كلماته • ولهـذا قال مالك : إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يســمعونه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قوله بأن ترتيب السور كان باجتهاد منهم • فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولي ، أو بمجرد إسناد فعلي بحيث يبقى لهم مجـال للنظر • وسبقه إلى ذلك جعفر بن الزبير •

وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم إجتهادياً ، فإنه ينبغي احترامه خصوصاً في كتابة المصاحف لأنه عن إجماع الصحابة والإجماع حجة ولأن خلافه يجرّ إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

ومما ينبغي أن يعلم أنه قسم العلماء سور القرآن إلى أربعة أقسام ، وخصّوا كلاًّ منها باسم ، وهي : الطّوالُ ، والمئون ، والمثاني ، والمُفَصّلُ . فالطوال سبع سور : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . فهذه ستة واختلفوا في السابعة : أهي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة ؟ أم هي سورة يونس ؟

والمِئون : هي السور التي تزيد آياتها على مائة أو تقاربها . والمثاني : هي التي تلي المئين في عدد الآيات . وقال الفرّاء : هي السور التي آيُها أقلّ من مائة آية لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تكرر الطوال والمئون .

والمفصل : هو أواخر القرآن واختلفوا في تعيين أوله . وصحح النووي أن أوله الحجرات ، وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة . وقيل : لقلة المنسوخ منه . وقيل : لكثرة الفصل بين آياتها وذلك لقصرها . والمفصل ثلاثة أقسام : طوال ، وأواسط ، وقصار . فطواله : من أول (الحجرات) إلى سورة (البروج) . وأوساطه : من سورة (الطارق) إلى سورة (لم يكن) . وقصاره : من سورة (إذا زلزلت) إلى آخر القرآن . وإنما لم تتميز الأنفال من براءة بالبسملة . قال عثمان ــ رضي الله عنه ــ : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا أنزل عليه شيءٌ دعا بعضَ مَن يكتب ، فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال نزلت بالمدينة. وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنت

أنّها منها فقبِض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يُبَيِّن لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنتُ بينَهما ، ولم أكتب بينهما سطر (بســم الله الرحمن الرحيم) ووضعتهما في السبع الطوال ، أي أن قرن براءة بالأنفال للمناسبة الشديدة في القصة ، وسكوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأمـر بزيادة البسملة جعلني بحيث لم أتجرّأ على زيادتها .

وقيل : إن ســكوته عن ذلك والحكمة في ذلك نزول (براءة) في الغضب الغير المناسب للإفتتاح بشعار الرحمة .

الامر الثامن اول ما نزل وآخر ما نزل

ورد في أول ما نزل أقوال :

أصحها أنه صدر سورة العلق إلى قوله تعالــى : « علَّمَ الإنْسـانَ ما لم يَعْلَمْ » .

الثاني أنه : (يا أيهـا المدثر) إلى آيـات . والمحققون على أنــه أول ما نزل بعد فترة الوحي وذلك هو الظاهر من رواية رواها الشـيخان عن أبي سلمة عن جابر فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من الســماء ، فرفعت بصري قِبَلَ السماء فإذا المَلك الذي جاءني بحراء قاعــد على كرسي بين السـماء والأرض ، فجئثت حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زمّلوني زملوني ! فأنزل الله تعالى : « يـا أيهـا المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرّجز فاهجر » . فظاهر هذه الرواية يدل على أن جابراً إستند في كلامه على أن أول ما نزل من القرآن هو المدثر إلى ما سمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدّث عن فترة الوحي وكأنـه لم يسمع بما حدث به رسول الله عن الوحي قبل فترته من نزول المَلَك على الرسول في حراء بصدر سورة (إقرأ) .

القول الثالث : إن أول ما نزل (سورة الفاتحة) وهـذا قول عـددٍ قليلٍ جداً ولا قاطع عليه •

القول الرابع : هو أن أول ما نزل (بسم الله الرحمن الرحيم) واستدل قائلوه بما أخرجه الواحدي عن عكرمة والحسن قالا : أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول سورة (إقرأ) • وردّ هذا بأنه مرسل فلا يعارض المسند • والصحيح : أن أول ما نزل صدر سورة العلق وأن البسملة نزلت بعد ذلك والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بوضعها في أول السورة •

وأما آخر ما نزل من القرآن ففيه أقوال : أصحها أن آخر ما نزل منه على الإطلاق هو قوله تعالى : « واتَّقوا يوماً تُرْجعونَ فيه إلى الله ثم تُوفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كسبت ، وهم لا يُظلمون » • أخرجه النسائي وعاش النبي صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك تسع ليالٍ ثم توفى لليلتين خلتا من ربيع الأول ـ صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ـ •

الامر التاسع العلم بالمكي والمدني

وفي هذا إصطلاحات :

الأول : إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة • والمدني ما نزل بالمدينة • ويدخل في كل من مكة والمدينة ضواحيهما • وهذا لوحِظَ فيه مكان النزول كما ترى ، لكنه غير حاصر لأنه لا يشمل ما نزل بغير مكة والمدينة وضواحيهما •

الثاني : إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة • والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة • وهذا التقسيم لوحِظَ فيه المخاطبون كما ترى ، لكن يَرِدُ عليه أمران : أحدهما : ما ورد على الأول من أنه غير ضابط فإن فيه

ما ورد غير مصدّر بأحدهما نحو قوله تعالى : « يا أيها النبي اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » والثاني : أن هذا التقسيم غير مطرد في جميع موارد الصيغتين المذكورتين إذ هناك آيات مدنيّة صدرت بصيغة (يا أيها الناس) وآيات مكية صدرت بصيغة (يا أيها الذين آمنوا » مثال الأولى سورة النساء ، فإنها مدنية وأولها (يا أيها الناس اتقوا ربكم » ومثال الثانية سورة الحج ، فإنها مكية مع أنّ في أواخرها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ...) الآية .

الثالث : وهو المشهور أن المكي ما نزل قبل هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ـ وإن كان نزوله بغير مكة ـ والمدني ما نزل بعد الهجرة ـ وان كان نزوله بمكة ـ وهذا التقسيم لوحِظَ فيه زمن النزول . وهو تقسيم صحيح سليم لأنّه ضابط حاصر ومطرد لا يختلف . ولذلك إعتمده العلماء واشتهر بينهم ، وعليه فآية (اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتَ لكم الإسلامَ ديناً) مدنية مع أنها نزلت يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع . وكذلك آية (إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلها) فإنّها مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح .

ومن فوائد العلم بالمكي والمدني : تمييز الناسخ من المنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفاً للحكم في غيرها ، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني ، فإنا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظراً إلى تأخر المدني عن المكي .

ومن فوائده أيضاً معرفة تأريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسموّ السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد .

ومن فوائده أيضاً الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف . ويدل على ذلك إهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام حتى إنهم يعرفون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر ، وما نزل بالسفر ، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل ، وما نزل بالشتاء وما نزل بالصيف ، إلى غير ذلك ... فلا يتصور عاقل أن القرآن أُهمِل حتى تمتد إليه أيدي العابثين حيث كان الصحابة الكرام متحمسين لحراسته وحمايته والإحاطة بكل ما يتصل به . وقد ذكروا ضوابط لمعرفة المكي والمدني . أما ضوابط المكي فهي كما يلي :

أولاً : كل سورة فيها لفظ كلا فهي مكية . وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن . وذلك لأن أهل مكة كانوا جبابرة ، فتكررت فيه الكلمة المذكورة على وجه التهديد .

ثانياً : كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية .

ثالثاً : كل سورة في أولها حروف الهجاء ، فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بالإجماع ، وفي الرعد خلاف .

رابعاً : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورة البقرة .

خامساً : كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة أيضاً .

سادساً : كل سورة من المفصَّل فهي مكية . أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : نزل المفصل بمكة فمكثنا حِججاً نقرؤه ولا ينزل غيره .

ولكن التحقيق يحكم بأن كلام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يحمل على الكثرة الغالبة من سور المفصل لا على جميعها .

سابعاً : كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية إلاّ سورة الحج .

وأما ضوابط المدني فهي كما يلي :

أولاً : كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية .

ثانياً : كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية .

ثالثاً : كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت . والتحقيق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي التي ذكر فيها المنافقون .

الامر العاشر آداب التلاوة

يستحب الإكثار من قراءة القرآن وتلاوته ، قال تعالى في الثناء على التالين : « يتلون آيات الله آناءَ الليل » . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر : لا حسد إلا في اثنتين : رجلٍ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ... وروى الترمذي من حديث ابن مسعود : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة : إقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه .. الى غير ذلك من الأحاديث الشريفة .

وأما مقدار التلاوة : فقد كان للسلف فيه عادات . أخرج إبن أبي داود عن مسلم بن عمران قال : قلت لعائشة : إن رجالاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثاً . فقالت : قرأوا أو لم يقرأوا كنت أقوم مع رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء • فلا يَمُرُّ بآية فيها استبشار إلاّ دَعا ورغب • ولا بآية فيها تخويف إلاّ دعا واستعاذ •

وأخرج أحمد وأبو عبيد عن سعيد بن المنذر وليس له غيره • قال : قلت : يا رسول الله أقرأ القرآن في ثلاث ؟ قال : نعم إن استطعت • ويليه من ختم في أربع ، ثم في خمس ، ثم في ست ، ثم في سبع • وهذا أوسط الأمور وأحسنها • وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم • أخرج الشيخان عن عبدالله بن عمر قال : قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إقرأ القرآن في شهر • قلت : إني أَجِدُ قُوَّةً • قال : إقرأه في عشر • قلت : إني أجد قوة • قال إقرأه في سبع ولا تزد على ذلك •

وقد روى الحسن بن زياد عن أبي حنيفة ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقّه لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرض على جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين • وقال غيره : يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر • نص عليه أحمد • لأن عبدالله بن عمر سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : في كم نختم القرآن ؟ قال : في أربعين يوماً • رواه أبو داود •

وقال النووي في الأذكار المختار : إن ذلك تختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائفُ ومعارفُ فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ • وكذلك من كان مشغولاً بنشر العلم أو فصل الحكومات وغير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مُرَصّد له ولا فوات كماله ، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهَذْرَمَة في القراءة •

ويستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره أن يذكر الله إلا على طهر كما ثبت في الحـديث ولا تكره القراءة للمحدث • وأما الجنب والحائض فيحـــرم عليهما القـراءة • وأما متنجس الفم فتكره له القراءة • ويســـتحب أن يجلس مســتقبلاً متخشعاً بسكينة ووقار مُطْرِقاً رأسه ، ويسن أن يستاك تعظيماً وتطهيراً • ويسنّ التعوّذ قبل القراءة • قال تعالى :(فإذا قــرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) فإن كان المتلوّ صدر السورة يعقبه بقــراءة بسم الله الرحمن الرحيم متصلة به أو منفصلة عنه • وليحافظ على قراءة البسملة اول كل سورة غير (براءة) لأن أكثر العلماء على أنّها آية ، فإذا أخلّ بها كان تاركاً لبعض الختمة عند الأكثرين • فان قرأ أثناء سورة إستحب له ـ أيضـاً ـ نص عليه الشافعي فيما نقله العبادي كما في الإتقان للسيوطي ـ رحمه الله تعالى • ويسن الترتيل في قراءة القرآن قال تعـالى : « وَرَتِّلِ القُرآنَ ترتيلاً » • وروى أبو داود وغيره عن أم سلمة أنها نعتت قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً •

وفي البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فقال : كانت مَدّاً ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يَمُدّ (الله) ويمد (الرّحمن) ويمد (الرّحيم) •

وفي الصحيحين عن ابن مسـعود قال : لا تنثروه نثر الدقل ـ رديء التمر ـ ولا تَهُذّوه هَذّ الشّعْرِ ، قِفوا عنـــد عجائبه وحَرِّكوا بـــه القلوبَ ، ولا يكون همّ أحدكم آخرَ الســـورة • واتفقوا على كراهـة الإفراط في الإسراع • قالوا : وقراءة جزءٍ بترتيل أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، ويسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب • قال تعالى :

« كتاب أنزلناه إليك ليدّبّروا آياته » وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يتلفظ به فيعرف معنى كل آية ويتأمل الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى إعتذر واستغفر • وإذا مرَّ بآية رحمة إستبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوّذ أو تنزيه نَزَّهَ وعَظَّمَ ، أو دعاء تَضَرّعَ وطَلَبَ •

أخرج مسلم عن حذيفة قال : صليتُ مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها ، ثم النساء فقرأها ، ثم آل عمران فقرأهـا ، يقرأ مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح وإذا مرَّ بتعوّذ تعوّذ •

وأخرج أبو داود والترمذي حديث من قرأ (والتين والزيتون) فانتهى الى آخرها فليقل (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) • ومن قرأ (لا أقسـم بيوم القيامة) فانتهى إلى آخرها فليقل : (بلى) • ومن قرأ (والمرسـلات) فبلغ (فبأيّ حديث بعده يؤمنون) فليقل : آمنا بالله •

وأخرج أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان اذا قرأ (سبح اسم ربك الأعلى) قال : سبحان ربي الأعلى •

وأخرج الترمذي والحاكم عن جابر قال : خرج رسول الله على الصحابة فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : لقـد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردُوداً منكم كنتُ كلّما أتيتُ على قولـه « فَبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : (ولا بشيىء من نِعَمِكَ ربّنـا نكذب فلك الحمد) •

وأخرج أبو داود وغيره عن وائل بن حجر سـمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرأ : (ولا الضالّين) فقال آمين ثلاث مرات •

وأخرجه البيهقي بلفظ : (قال رب اغفر لي آمين) • وأخرج عن معاذ ابن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال (آمين)• قال النووي : ومن الآداب إذا قرأ نحو « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، « وقالت اليهود يد الله مغلولة » أن يخفض بها صوته كذا كان النخعي يفعل •

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكي لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع قال تعالى : « ويخرون للأذقان يبكون » • وفي الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه فإذا عيناه تذرفان • وفي شعب البيهقي عن سعد بن مالك مرفوعاً : أن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا فان لم تبكوا فتباكوا • ويسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لحديث ابن حبان وغيره : (زينوا القرآن بأصواتكم) وفي لفظ عند الدارمي (حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا) • وأخرج البزار وغيره حديث (حسن الصوت زينة القرآن) وفيه أحاديث صحيحة كثيرة فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط • وأما القراءة بالألحان فنص الشافعي في المختصر أنه لا بأس بها • وعن رواية الربيع الجيزي أنها مكروهة • قال الرافعي : فقال الجمهور : ليست على قولين ، بل المكروه أن يفرط في المد وفي إشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة ألف ، ومن الضمة واو ، ومن الكسرة ياء ، أو يدغم في غير موضع الإدغام ، فإن لم ينته إلى هذا الحد فلا كراهة • قال : وفي زوائد الروضة : والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يفسق به القارىء ويأثم المستمع : لأنه عدل به عن نهجه القويم قال : وهذا مراد الشافعي بالكراهة •

ثم إنه وردت أحاديث تقتضي استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث تقتضي الإسرار وخفض الصوت • قال النووي والجمع بينهما أن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى مصلون أو نيام بجهره • والجهر أفضل في غير ذلك ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ولأنه يوقظ قلب القارىء ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ، ويزيد في النشاط ••• ويدل لهذا الجمع حديث أبي داود بسند صحيح عن أبي سعيد : إعتكف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر وقال : ألا إن كلكم مناجٍ لربه فلا يؤذينّ بعضكم بعضا ، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة • وقال بعضهم : يستحب الجهر ببعض القراءة والإسرار ببعضها لأنّ المسِرّ قد يَمَلّ فيأنس بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار • ويسن السجود عند قراءة آية السجدة ، وهي اربع عشرة في : الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، وفي الحج سجدتان ، والفرقان ، والنمل ، وألم تنزيل ، وفصلت ، والنجم ، وإذا السماء انشقت ، وإقرأ باسم ربك •

ويسن الإستماع لقراءة القرآن وترك اللغط والحديث بحضور القراءة قال تعالى : « واذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » والأوقات المختارة لقراءة القرآن أفضلها ما كان في الصلاة ، ثم الليل ، ثم نصفه الأخير • وهي بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعد الصبح • ونختار من الأيام يوم عرفة ، ثم الجمعة ، ثم الإثنين ، والخميس • ومن الأعشار العشر الآخر من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة • ومن الشهور رمضان • ونختار لابتدائه يوم الجمعة ونختمه ليلة الخميس •

ويسن صوم يوم الختم ، ويستحب التكبير من الضحى الى آخر القرآن ، وهي قراءة المكيين .

ويسن الدعاء عقب الختم لحديث الطبراني وغيره عن العرباض بن سارية مرفوعاً : (من ختم القرآن فله دعوة مستجابة) وفي الشعب من حديث أنس مرفوعاً : (من قرأ القرآن وحمد الله وصلى على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه) .

ويسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقب الختم لحديث الترمذي وغيره (أحب الأعمال الى الله الحالّ المُرْتَحِلُ ، الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلّما حلّ ارتحل) . وأخرج الدارمي بسند حسن عن ابن عباس عن أُبيّ بن كعب أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ قل أعوذ برب الناس إفتتح من الحمد ثم قرأ من البقرة إلى « وأولئك هم المفلحون » ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام .

فائدة : واذا أراد شخص أن يقرأ القرآن الكريم كله أو بعضه ويهدي ثوابه أو مثل ثوابه إلى غيره من المسلمين فقد أتى بخير ، ويحصل للشخص المنوي ما أراده القارىء عند الأئمة الثلاثة : أبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل . كما هو مسطور في كتب المذاهب . وأما الشافعي فخالف ذلك . ولكن المحققين من أتباعه أي بعض أصحابه وكثير من علماء مذهبه أَفردوا وقرروا وصول الثواب إلى من نواه . ويدل على ذلك أدلّة . منها حديث (إقرأوا يس على موتاكم) فإنه إن أراد بالموتى معناه الظاهر فالأمر واضح ، وإذا أراد به المشرفين على الموت فقد دل على أن لقراءة القرآن بركة وتسبّباً في تخفيف العذاب عند زهوق الروح ، وإذا كانت هذه البركة حاصلة من قراءة يس فأينما قُرِىء القرآن حصلت البركة للقارىء ولغيره من المسلمين ، واذا دعا القارىء بحصول البركة والثواب لهم فالله متفضل

بقبول ذلك لا سيما اذا اختمت بالدعاء • فإنه تعالى قال : « أُدعُوني استَجب لكم » ومنها ما في مسند الإمام أحمد في حديث عفيف بن الحرث ـ رضي الله عنه ـ ونصه : (حدثنا عبدالله ، حدثني أبي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثني المشيخة أنهم حضروا عفيف بن الحارث الثمالي حين اشتدّ سوقه ، فقال : هل منكم أحد يقرأ (يس) ؟ قال : فقرأها صالح بن شريح السكوتي ، فلما بلغ أربعين منها قبض • وقرأها عيسى بن المعتمر عن ابن معبد) •

وفي الحديث : (من قرأ الإخلاص إحدى عشرة مرة ثم وهب أجرها للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات) • ويصح إهداء نصف الثواب أو ربعه كما نص عليه أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ • ومنها أدلة أخرى من الأئمة الأفاضل يطول الآن سردها • وفي كتاب الروح للحافظ أبي عبدالله الدمشقي الحنبلي الشهير بابن القيّم الجوزية ما حاصله : أنه أختلف في إهداء الثواب الى الحي فقيل : يصحّ لإطلاق قول أحمد يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه أو أمه • وقيل : لا ، لكونه غير محتاج لأنه يمكنه العمل بنفسه• إنتهى باختصار •

وقد تقرّر عند الشافعية ومحققيهم أنه يجوز إعطاء الأجرة على قراءة القرآن للميت • وأنه يصله ثوابه بحضوره عند قبره ، أو بنيته في أول القراءة والدعاء له أخيراً • والله أعلم •

ومما يجب أن يعلم أنه يجب على قراء القرآن الكريم رعاية التجويد وهو إعطاء كل حرفٍ حقه من أدائه من مخرجه الخاص وملاحظة صفاته من الترقيق والتفخيم والإطباق والإنفتاح والجهر والهمس والاظهار والاخفاء والادغام مع غنة وبدونها ، والشدّ والمدّ وغير ذلك على ما بين في

محلّه . وإلا فالقارىء المتمكن من التعلم المهمل لذلك الواجب المقدس آثم متحمل للأوزار . أعاذنا الله منها .

أما مخارج الحروف فسبعة عشر ولها خمسة مواضع : الحلق ، والجوف ، واللسان ، والشفتان ، والخيشوم . ويعرف مخرج كل حرف بأن تسكنه وتدخل عليه الهمزة المتحركة . فحيث إنقطع الصوت كان مَخْرَجاً له ، كما تقول في حرف الباء اَبْ . وفي حرف الميم اَمْ فحيثما تجد الصوت ينقطع على الشفة فذاك مخرجهما . فلنذكر مواضع الحروف على الترتيب :

المخرج الأول : أقصى الحلق ويخرج منه حرفان : الهمزة والهاءُ .

المخرج الثاني : وسط الحلق ويخرج منه العين والحاء المهملتان .

المخرج الثالث : أدنى الحلق أي أقربه الى اللسان ، ويخرج منه الغين والخاء المعجمتان .

المخرج الرابع : الجوف ويخرج منه ثلاثة أحرف : الألف ، والواو ، والياء الساكنات .

المخرج الخامس : ما بين أقصى اللسان مما يتصل بالحلق وما يحاذيه من الحنك الأعلى ويخرج منه القاف . ويسمّى باللّهاة .

المخرج السادس : أقصى اللسان من أسفل مخرج القاف قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه الكاف .

المخرج السابع وسط اللسان ويخرج منه ثلاثة أحرف الجيم والشين والياء .

المخرج الثامن من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس الأيسر ، وقيل الأيمن ، ويخرج منه الضاد .

المخرج التاسع : من حافة اللسان من أدناه إلى منتهى طرفه وما بينهما وبين ما يليه من الحنك الأعلى ويخرج منه اللام .

المخرج العاشر : من طرف اللسان أسفل اللام قليلا ، ويخـرج منـه النـون .

المخرج الحادي عشر : من مخرج النون أيضاً إلا أنه أقرب الى ظهـر اللسان ، ويخرج منه الراء .

المخرج الثاني عشر : من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا صاعداً الى جهة الحنك الأعلى ، ويخرج منه الطاء والدال والتاء .

المخرج الثالث عشر : من بين طرف اللسان فوق الثنايا العليا والسفلى ، ويخرج منه الصاد والزاء والسين .

المخرج الرابع عشر : من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ويخرج منه الظاء والثاء والذال .

المخرج الخامس عشر : من باطن الشفة السفلى مع أطراف الثنايا العليا ويخرج منه الفاء فقط .

المخرج السادس عشر : ما بين الشفتين ويخرج منه الواو ، واليـاء ، والميم . إلا أن الواو بانفتاحها ، والباء والميم بانطباقهما .

المخرج السابع عشر : الخيشوم وهو أقصى الأنف ويخرج منه أحرف الغنة وهي النون الساكنة والتنوين حال إدغامهما بغنة واخفائهما ، والميـم والنون المشددتان .

صفات الحـروف

وهي على قسمين : قسم له ضدّ وهو خمســـة ، وضدّه كذلك . وقسم لا ضد له وهو سبع . فذوات الأضداد : الجهر وضــدّه الهمس .

والشدة وضدها الرخاوة وما بينهما . والاستعلاء وضده الإستفال . والإطباق وضدّه الإنفتاح . والاذلاق وضده الاصمات .

والتي لا ضد لها هي : الصفير ، والقلقلة ، واللين ، والانحراف ، والتكرير ، والتفشي ، والإستطالة ، فالجملة سبعة . فكل حرف تأخذ من الصفات المتضادة خمساً . وأما الصفات الغير المتضادة فتارة تأخذ منها صفة ، أو صفتين ، وتارة لا تأخذ منها شيئاً . فغاية ما يجتمع في الحرف الواحد سبع صفات . خمسٌ من المتضادة وثنتان من غيرها كالانحراف والتكرير .

ومن أهم ما يجب معرفته منها أمور :

الأول : أحوال التنوين والنون الساكنة وهي أربع : الإظهار ، والإدغام ، والإقلاب ، والاخفاء . أما الاظهار ، وهو إخراج الحرف من مخرجه بدون غنة ، فإذا لقيت حروف الحلق وهي : الهمزة ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء . نحو رسولٌ أمين ، ونحو مَنْ آمَنَ ، ونحو وَهُم يَنهَوْنَ عنه ، ويَنأوْنَ عنه . وقس عليه إلتقاءهما بباقي أحرف الحلق .

وأما الإدغام ، وهو اخفاء حرف في حرف ، أي حرف ساكن في حرف متحرك بحيث يصيران حرفاً مشدداً يرتفع اللسان عنه ارتفاعةً واحدةً ، فهو عند التقائهما بحروف (يرملون) لكن الإدغام في الياء والواو والميم والنون يكون مع غنّة ، وفي اللام والواو بدونها . وأمثلتها (إن يقولون إلا كذباً) ونحو (لقوم يؤمنون) . ويشترط أن يكون المدغم والمدغم فيه في كلمتين ، وإلا وجب الإظهار مثل (دُنْيا) و (قِنوان) و (صِنوانٍ) (وبُنْيانٍ) . ونحو (هُدىً مِن ربّهم) و (مِنْ مَلْجأٍ) . ونحو

(هُدىً وَرَحمة) و (من وَرائهم) . ونحو (حِطّة نغفر) و (إنْ نَقول) . وتلك أمثلة الإدغام مع الغنة ، ومثاله بلا غنة نحو (هُدىً للمتقين) . و (يُبيّن لنا) . ونحو (غفور رحيم) و (مِن ربّهم) .

وأما الإقلابُ : وهو جعل حرف مكان حرف آخر مع مراعاة الغنّة وذلك عند إلتقائهما بالباء . نحو (سميعٌ بصير) و (مِن بَعْد) .
وأما الإخفاء وهو النطق بهما بين الإظهار والادغام مع بقاء الغنة في الحرف الأول أعني التنوين والنون الساكنة فعند إلتقائهما مع خمسة عشر حرفاً مصدّرة في كلمات البيت الآتي وهو :

صِف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما دُمْ طيّبا زد في تُقىً ضَعْ ظالما

والمثال نحو : (قوماً صالحين) ، و (عن صلاتهم) . وقِس عليهما باقي الأحرف .

احوال الميم الساكنة

ولها ثلاث حالات : الإدغام ، والإخفاء ، والاظهار . فتدغم في مثلها بغنة كاملة نحو : (لَهُم مثلا) و (لكم ما كسبتم) . وتخفى عند إلتقاء الباء بغنة ويسمى إخفاءً شَفَويّاً . نحو : (ترميهم بحجارة) و (هم بالآخرة) . وتظهر عند باقي الأحرف لكنها عند الواو والفاء أشد إظهاراً ويسمى إظهاراً شفوياً نحو : (وهم فيها) ونحو (عَلَيهم وَلا الضالّين) .

حال الميم والنون المشددتين

وهو إظهار غنتهما حينئذ نحو : (من الجنة والناس) ونحو (ثمَّ ، وَلَمّا) .

حال ال المعرفة

ولهـا إذا وقعت قبل حروف الهجاء حالتان : الإظهـار على حـروف (ابغ حَجّك وَخَف عَقيمَه) وتسمى حينئـذ باللام القمرية نحـو : (الانعام ، البرّ ، الغمام ، الحميم ، الجنة ، الكوثر ، الولدان ، الخير ، الفتنة ، العافين ، القمر ، اليوم ، المال ، الهدى) . والإدغام مع غير تلك الحروف ويجمعها أوائل كلمات هذا البيت :

طِب ثم صِلْ رَحما تَفُز ضف ذا نِعَم
دَع سُـوء ظن زُرْ شـريفاً لِلكرم

وتسمى اللام فيها بالشمسية لأنها تدغم وتخفى فيما بعدها كما في لفظ الشمس .

حال اللام الواقع في الفعل ساكنة

وحاله الإظهار مطلقاً ماضياً أو أمراً نحو : جعلنا ، وقلنا ، وضـللنا ، والتقى ، وقل نعم .

احكام الادغام

وهو عبارة عن إدخال حرف سـاكن في آخر متحرك ، وهما إما متماثلان ، أو متقاربان ، أو متجانسان . أما المتماثلان فهما المتفقتان صـفة ومخرجاً . وحكم الإدغام حينئـذ الوجوب نحو (اضرب بعصـاك) ، و (بل لا يخافون) . وأما المتقاربان فهما حرفان تقاربا مخرجاً وصـفة ؛ كالثاء مع الذال ، نحو (يلهث ذلك) . والباء مع الميم ، نحو (إركب معنا) والقاف عند الكاف نحو (ألم نخلقكم) . وأما المتجانسان فهما حرفان إتحدا مخرجاً واختلفا صفة ، كالطاء المطبقة مع التاء المهموسة نحو (لئن بَسَطتَ)

وكالتاء مع الطاء نحو (وقالت طائفة) وكالتاء عند الدال نحو (أجيبت دعوتكما) وكاللام مع الراء نحو (وقل رب) . وكالذال عند الظاء نحو (إذ ظلموا) .

احكام المد

والمد إطالة الصوت بحرف من حروف المدّ وهو على قسمين : المد الأصلي ، والمد الفرعيّ .

فالمد الطبيعي : هو الذي لا تقوم ذات حرف المدّ إلا به وحروفه ثلاثة : الواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها ، والألف الساكنة المفتوح ما قبلها . ويسمى طبيعياً ؛ لأن صاحب الطبيعة السليمة لا ينقصه عن حدّه ولا يزيده عليه . ومقداره ألف وهو حركتان وصلاً ووقفاً . ونقصه عن ذلك حرام .

وأما المد الفرعي : فهو المدّ الزائد على المدّ الأصلي لسببٍ من همز أو سكون بعده . وهو ينقسم إلى ثلاثة عشر قسماً :

الأول : المد الواجب المتصل ، وهو أن يكون المد والهمزة في كلمة واحدة . نحو : جاء ، وجيىء ، وسوء . ومقدار مدّه خمس حركات .

الثاني المد الجائز المنفصل : وهو أن يكون المد في كلمة والهمزة في كلمة أخرى بعده نحو (يا أيها الناس) ومقدار مده في حال الحدر والإسراع حركتان ، وفي حال التدوير أربع حركات ، وفي حال الترتيل خمس حركات .

الثالث : المد العارض للسكون : وهو المد الطبيعي الذي يوقف على ما بعده نحو : (العقاب) و (خالدون) و (خبير) . ويجوز في مده الطول بست حركات ، والتوسط بأربع ، والقصر بحركتين . والأفضل هو الأول .

الرابع : المدّ البَدَل : وهو ألف ، أو واو ، أو ياء وقع بدلا عن همزة ساكنة سبقها همزة مفتوحة كما في (آدم) وأَصْلُه (أأدم) بهمزتين على وزن أحمد و (أومِن) وأصله (أُأْمِنُ) بهمزتين على وزن أكرم مضارع باب الإفعال • و (ايمان) وأصله (أَأمان) بهمزتين على وزن إكرام مصدر باب الإفعال • وقدره حركتان كالمد الطبيعي •

الخامس : المد العوض عن التنوين المنصوب : كما في (عليما حكيما) وقدره حركتان •

السادس : المدّ اللازم المثقل الكَلِمي : وهو مدٌّ يكون بعده حرف مشدّد في كلمة واحدة ، كما في (ولا الضّالّين) و (الصّاخّة) و (الطّامّة) و (الدّابّة) • ومقداره ثلاث ألفات بست حركات •

السابع : المد اللازم المخفف الكلمي : وهو مدّ بعده حرف ساكن نحو (آلآن) • ومقداره ثلاث ألفات بست حركات وحروفه خمسة يجمعها (حَيٌّ طَهُرَ) •

الثامنُ : المدّ اللازم الحرفيّ المُشْبَع : وهو الحرف المتوسط الساكن من اسم حرف من حروف الهجاء نحو : (لام) و (صاد) و (قاف) • فإن كان الحرف الذي بعده مدغما في ما بعده ، فهو المد اللازم الحرفي المثقل نحو (الم) وتعبيره (ألف لام ميم) • وان لم يكن مدغماً في ما بعده فهو المد اللازم الحرفي المخفّف • والحروف التي أسماؤها ثلاثة أحرف ، والثاني منها مدٌّ ثمانية يجمع صدورها جملة (نقص عَسَلكم) أعني : نون ، قاف ، صاد ، عين ، سين ، لام ، كاف ، ميم •

ومقدار مدها ثلاث ألفات بست حركات . وأما العين في فواتح مريم والشورى ، ففيها وجهان : الأول ما تقدم والثاني ألفان .

التاسع : المد اللازم المخفف الحرفي : وهو ما كان الحرف فيه على حرفين وحروفه خمسة يجمعها (حيّ طهر) أعني : حا ، يا ، طا ، ها ، را . نحو (يس) ، (طه) ، (الر) ومقداره ألف فقط . أي حركتان .

العاشر : حروف اللّين : وهي الواو والياء بشرط سكونهما وانفتاح ما قبلهما نحو (بَيْت وخَوْف) .

الحادي عشر : مد الصّلة : وهو حرف مد زائد مقدر بعد هاء الضمير وينقسم الصلة إلى قسمين : قصيرة ، وطويلة . فالقصيرة فيما كان ما قبل الضمير متحركاً . نحو : (إِنّهُ ، ولَهُ ، وأَمرُهُ ، وبِهِ) ، فإن كان ما قبله ساكناً فلا مدّ فيه إلا في قوله تعالى (ويخلد فيه مهاناً) على طريقة حفصٍ . ويشترط أن لا يكون ما بعده موصولاً به ، نحو : (إنه الحق) ، (وله الدين) فإنه لا يمدّ إتفاقاً و (أَلقِهْ) في النمل (وأَرْجِهْ) فيسكن . وأما الصلة الطويلة ففيما إذا كان بعد الضمير همزةُ قطعٍ فإنه يجوز مدها مقدار ألفين ونصف ويجوز بمقدار ألف كالمد المنفصل بالحدر . مثاله (منْ ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه ؟) وتسمى مد الصلة لأنها تتصل بالضمير .

الثاني عشر : مدّ الفرق : وهو الفارق بين الإستفهام والخبر إذ لولا المدّ لتوهم أن الكلام خبر . وهو في أربعة مواضع في القرآن الكريم : في

سورة الأنعام في موضعين (قل : آالذكرين حرم أَمِ الأنثيين) وفي يونس (قل آالله أذن لكم) وفي سورة النمل (آالله خير أم ما يشركون) .

الثالث عشر : مد التمكين : وهو كل يائين أحدهما ساكن مكسور ما قبلها مشدّد مثاله (حُيّيتم ، والنبيّين) ، وسمي مد التمكين لأنّ الشدة مكّنته .

احوال الراء

وهي ثلاث : التفخيم ، والترقيق ، وجواز الوجهين :

أما التفخيم ففيما إذا كانت الراء مفتوحة أو مضمومة أو ساكنة وما قبلها مضموم أو مفتوح . وكذا اذا كان ما قبلها مكسوراً وكسرته عارضة نحو (إرجعوا إلى أبيكم) . أو كسرتها أصلية وكان بعدها حرف من حروف الإستعلاء نحو (قرطاس) و (مرصاد) و (فرقة) ... وما يشابهها .

وأما ترقيقها ففيما اذا كانت الراء مكسورة مطلقاً أو كان الحرف الذي قبل الراء ياء ساكنة (كقدير) ، وكذا إذا كانت ساكنة وقبلها كسرٌ أصلي بشرط أن لا يكون بعدها حرف إستعلاء نحو (أنذرهم) و (فرعون) و (مرية) .

وأما جواز الوجهين ففيما اذا كانت ساكنة وكانت قبلها كسرة وبعدها حرف إستعلاء مكسور نحو (فرقٍ) .

حروف القلقة واقسامها

أما حروف القلقلة فهي خمسة يجمعها قولك (قطب جدٍ) وتنقسم الى صغرى وكبرى • فالصغرى منها ما سكنت سكوناً أصليّاً ، كما في (يقطعون) و (يَطْمَعُونَ) و (يَجْعَلُونَ) و (يَدْعُونَ) و (لَتُبْلَوُنّ) • فهذه الأحرف تقلقل أي تظهر وتكشف مطلقاً ، فيظهر منها صَوْتٌ صافٍ كافٍ • وأما الكبرى فهي التي تسكن سكوناً عارضاً للوقف عليها ؛ كما في (خلاّق ، صراط ، عذاب ، بهيج ، شديد) • وهي تقلقل عند الوقف عليها فقط •

اقسام الوقف

وهي أربعة : تامّ ، وكافٍ ، وحَسَنٌ ، وقبيح :

فالتام منها : هو الوقف على كلمة لم يتعلق ما بعدها بما قبلها لا لفظاً ولا معنى ؛ كالوقف على (المفلحون) في قوله تعالى (أولئك هم المفلحون)• فهذه الجملة غير متعلقة بما قبلها لا إعراباً ، ولا معنى بأن تكون خبراً لمبتدأ أو صلة لموصول أو نحوها مما له إرتباط •

والكافي : الوقف على ما لم يتعلق هو به لفظاً بل معنى ، كالوقف على (لا يؤمنون) في قوله تعالى : (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) • فإنه مع ما بعده وهو (ختمَ اللهُ على قلوبهم) الآية متعلق بالكافرين •

والحسن : هو الوقف على ما تعلق ما بعده به وبما قبله لفظاً بشـرط تمام الكلام عنده ؛ كالوقف على الحمد لله في الفاتحـة لأن رب صـفة لله ومتعلّق به ، لكن الكلام قد تم عند الوقف .

والقبيح : هو الوقف على كلمة لا يتم الكلام بها ، وقد تعلق ما بعدها بما قبلها لفظاً ومعنى ؛ كالوقف على (بسم) من (بسم الله) ، وعلى (الحمد) من (الحمد لله) وأشباه ذلك .

وهذه الأمور المهمة نقلتها من الكتب المعتمدة في علـوم القـرآن كالإتقان ، والقرطبي ، والتبيان للإمام النووي ، ورسالة التجويد ، وكتب أخرى وينبغي الإطلاع عليها والاعتقاد بها والعمل بما تقرر واتفق العلمـاء عليه أو جنحوا إليه على وجه الأكثرية ، فإن الخير في الإجماع أو ما يقاربه . وعلى الله التوكل والإعتماد .

الجزء الأول

نزلت بمكة حين فرضت الصّلاة ، قيل : وبالمدينة مرة أخرى حين حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة تطميناً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتأكيداً للإهتمام بالصلوات وقراءتها فيها . وتسمى بالسبع المثاني لأنها سبع آيات تكرر قراءتها في الصلوات . وأمّ القرآن لاشتمالها على جميع ما فيه من الثناء على الله تعالى والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ، ووعيده . وبالوافية ، والكافية ، والشافية ، وغيرها من الأسامي ... وهي سبع آيات بالإتفاق . فمنهم مَن عَدّ مِنها آيةَ البَسملة ، فآخرها مِن (صراط الذين) إلى (آمين) . ومنهم من لم يَعُدّها منها فجعل الآية الأخيرة (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وهذه الآية الشريفة آية أولى من سورة الفاتحة ومن غيرها ، إلا سورة البراءة وعليه قرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما ، وابن المبارك ، والإمام الشافعي رحمهم الله تعالى . وخالفهم قراء المدينة ، والبصرة ، والشام ، وفقاؤهما ، والإمام مالك ، والأوزاعي وبعض" آخرون .

ومما يجب أن يعلم المسلم أنه لم يرد المخالفون في الموضوع أن البسملة ليست آية من الفاتحة أو من سائر السور أو أنها ليست من القرآن

الكريم غير ما نزلت في سورة النمل على وجه القطع والجزم ، وكيف يخالف مسلم عالم عاقل أن البسملة ليست من الآيات النازلة مع كونها مكتوبة بأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوائل السور غير براءة ؟ ووردت روايات كثيرة بقراءة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها مع بقية آيات سورة الفاتحة ، وأنها من الآيات النازلة ، وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل نزولها من علامات انتهاء السورة السابقة وافتتاح سورة أخرى . وثبت أنها كتبت قبل جميع السور ما عدا براءة بخط سائر الآيات بدون فرق ، مع الإجماع على أن ما بين دفتي المصحف قرآن منزل من الله الكريم . وإنما أراد المخالف أنه لم يثبت عنده بدليل قطعي أن البسملة آية من سورة الفاتحة أو من باقي السور التي كتبت في أوائلها ، أو آية مستقلة نازلة بدون دخولها في السورة . وعدم ثبوت ذلك ليس نفياً لثبوته نفياً قطعياً ، بل بينهما فرق فارق . ومن روى الجزم بالنفي فروايته سقيمة لا يعتنى بها قطعاً .

ولم ينص الإمام الأعظم أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ فيها بشيء ، فَظُنَّ أنها ليست من السورة عنده ، وليس لها حكمها حيث عدّ قراءة الحمد لله إلى آخر السورة من الواجبات على غير المأموم دون البسملة وجعل قراءتها قبل الحمد سُنَّة مع الإسرار بها . وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله . وقال أحمد : هي آية في أول الفاتحة ، لا في أوائل باقي السور وإنما هي للتمييز بين سورة وأخرى . والكلام في غير البسملة النازلة في أثناء سورة النمل (إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) فهي منها بالإجماع .

وإذا كانت البسملة الشريفة آية من الفاتحة كانت قراءتها مفروضة في الصلاة ولا تصح بدونها قطعاً .

واحتج الشوافع بأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أجمعوا على إثباتها في المصحف في أوائل السور غير براءة بخط المصحف بخلاف الأعشار وتراجم السور ، فإن المعتاد كتابتها بحمرة ونحوها ؛ فلو لم تكن البسملة قرآناً لما استجازوا إثباتها بخط المصحف من غير تمييز . وبأنه روي عن أم سلمة ـ رضي الله تعالى عنها ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة في الصلاة ، وَعَدّها آيةً ، وبأنه روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى (ولقد آتيْناك سَبْعاً من المثانِي) قال : هي فاتحة الكتاب ، قالوا : فأين السابعة ؟ قال : بسم الله الرحمن الرحيم . وبأنه روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم بين أَظْهُرِنا إذْ أُغفِيَ إغفاءً ثم رفع رأسَه متبسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أنزلت عليّ سورةٌ فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . فصلِّ لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر) رواه مسلم . وبأن هذه الرواية تدل على أن البسملة من السورة أو مع السورة ويتحقق بذلك كونه قرآناً منزلاً .

وبأنه سئل عن قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كانت مَدّاً . ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ (بسم الله) ويمدّ (الرحمن) ويمدّ (الرحيم) . رواه البخاري .

وبأنه روي عن ابن عباس قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم . رواه الحاكم في المستدرك وقال : حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم . ورواه أبو داود وغيره . وأخرج الحاكم في المستدرك أيضاً ثلاثة أحاديث كلها عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

الأول : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا جاءه جبريل عليه السلام فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم علم أنها سورة •

الثاني : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعلم ختم السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم •

الثالث : كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم • وفي سنن البيهقي عن علي وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ أن الفاتحة هي السبع من المثاني ، وهي السبع آيات ، وأن البسملة هي الآية السابعة • وفي سنن الدارقطني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا قرأتم الحمد فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها • قال الدارقطني : رجال إسناده كلهم ثقاة •

فهذه الأحاديث متعاضدة محصلة للظن القوي بكونها قرآناً حيث كتبت ، والمطلوب هنا هو الظن لا القطع • هذا ما في المجموع للإمام النووي ـ رحمه الله ـ •

واذا ثبت هذا فالإستقراء دل على أن السورة الواحدة إمّا أن تكون بتمامها سرية أو جهرية ، وإمّا أن يكون بعضها سرياً وبعضها جهرياً ، فهذا مفقود في جميع السور ، فثبت أن الجهر بالتسمية مشروع في الصلاة الجهرية • ومما يكون حجة عليه ماروواه الامام البيهقي في السنن الكبير عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجهر في الصلاة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)•ومما يؤيد كونَ الجهر بها سنةً أن قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) متعلق بفعل لا بدّ من إضماره والتقدير : بإعانة اسم الله ، أو ببركة اسمِ اللهِ الرحمن الرحيم (قولوا) الحمد لله الآيات ••• لأنّها نزلت من الله سبحانه وتعالى حسب علمه بأنها

عبادة هذه الأمة المحمدية ، وداخلة في الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام • ولا شك أن استماع هذه الجملة الشريفة ينبه العقلاء على أنه لا حول عن معصية الله إلاّ بعصمة الله ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله• كما أنه ينبههم على أنه لا يتم شيء من الخيرات والبركات إلا إذا وقع الإبتداء فيه بذكر الله • وكل جملة شأنها ذلك ينبغي إعلانها والجهر بها حتى ينتبه بها المسلمون • ومن هنا اندفع ما يتوهم أن سورة الفاتحة اذا نزلت على أنها يقولها الباري سبحانه وتعالى فلا يناسب ذكر جمل ثلاث منها وهي : إيّاك نعبد وإيّاك نستعين • إهدنا الصراط المستقيم وذلك ظاهر ، واذا نزلت على لسان العباد فليس هناك مايدل عليه • ووجه الإندفاع أنه لما تعلق بسم الله بفعل مقدر مثل : قولوا بسم الله يكون الكلام في غاية الإنتظام ، ومناسباً للمقام ، ويدل على أن كل أمر ذي بال ينبغي بدؤه باسم الله سبحانه وتعالى وإظهار توصيفه بالرحمة الشاملة • فالباء في بسم الله للإستعانة أو المصاحبة •

والاسم مأخوذ من الوسم وهو العلامة ، أو السمو وهو العلو • والمراد به نفس الاسم بمعنى اللفظ الدال على المسمى المقدس • ومن قال بزيادته فقد أتى بكلام زائد لأن الإستعانة باسمه المقدس واستصحابِه على وجه التبرك به أمر مبارك لا ريب فيه • فالمراد بلفظ الجلالة ذاته الجليل ، والإضافة لامية ، وأصل (الله) إله بمعنى المعبود مطلقاً ، ثم أُدخل عليه حرف التعريف باقياً على معناه المطلق لكنه غلب على المعبود بالحق ، فصار علماً بالغلبة لذاته المخصوصة ينصرف اليه عند الاطلاق • ولما حذفت همزته أكد التغييرُ اختصاصَه به تعالى • أو أنه منكراً كان لكل معبود ، ومعرّفاً اختص بالمعبود الحق بدون أن يصير علماً • ولما حذفت

همزته وغيّر لفظه صار علماً للذات المعين المقدس الجامع للكمالات المنزه عن النقائص .

ونقل الشهاب عن ابن مالك أن لفظة الجلالة (الله) من الأعلام التي قارن وضعها أل ، وليس أصله لفظ (اله) كما زعموا . بل هو علم جامع لمعاني الأسماء الحسنى كلها . وذلك لأن لفظتي : الله ، واله مختلفتان لفظاً ومعنى . أما لفظاً فلأن الأول معتلّ العين والثاني مهموز الفاء صحيح العين واللام ، فهما من مادتين مختلفتين فرَدّهما الى أصل واحد تحكم . وأما معنى فلأن لفظة الجلالة مختصة به تعالى جاهلية وإسلاماً . والإله ليس كذلك فإنه اسم لكل معبود . ومن قال : أصله إله لا يخلو حاله من أمرين ؛ لأنه إما أن يقول حذفت الهمزة ابتداء ثم أُدغمت اللام . أو يقول : نقلت حركة الهمزة وحذفت على القياس ، وهو باطل ؛ لأنه إدعاء حذفٍ بلا سبب ولا مشابهة ذي سبب من ثلاثي .

و (الرحمن الرحيم) المشهور أنهما صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من (رحِم) بكسر العين بعد نقله الى رحُم بضمها ، وجعله لازماً لأن هذا قياس مطرد لإفادة المدح أو الذم . وأصل الرحمة : رقة القلب ، واستعمل المشتقان في الباري تعالى مجازاً ، وقد يقال : إن الرحمة العطف والإحسان سواء كانا بالوجه الغير المادي كما في الباري سبحانه وتعالى . أو المادي الإنفعالي كما في غيره تعالى . والرحمن أبلغ من الرحيم ، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، فالمقصود من الأول المنعم بجلائل النعم في الدارين ، وبالثاني النعم بدقائقها فيهما ، وعليه قيل (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما) ، وإنما قدم الرحمن والقياس يقتضي الترقي من الأدنى الى الأعلى لأنه صار كالعلم له تعالى من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها ، أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم

وعظامها والرحيم على دقائق النعم وصغارها ٠٠ كان الرحيم كالتتمة للرحمن ليتناول ما خرج منها أو لمراعاة رؤس الآيات الكريمة ٠

(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ) (١)

والحمد لغة : هو الثناء باللسان على الجميل ، سواء تعلق بالفضائل أو الفواضل ٠ وعرفاً : فعل يشعر بتعظيم المنعم من جهة إنعامه سواء كان باللسان أو بالجنان أو بسائر الأركان٠٠٠فالحمد اللغوي خاص موردا وعام متعلقاً ، والعرفي بالعكس ٠ والشكر لغة : هو الحمد عرفاً ٠ وأما عرفاً : فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما قرر له ٠ وذلك في غاية القلة ولذلك قال تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » ٠

واللام في الحمد إما للجنس أي ماهية الحمد وجنسه وحقيقته ، أو للإستغراق أي كل فرد من أفراد الحمد صادر من أيّ حامد متوجه إلى أي محمود في مقابلة أي نعمة كان ٠ أو للعهد العلمي أي الحمد اللائق بذاته تعالى ٠ وهو حمده بنفسه لنفسه ثابت لله سبحانه وتعالى ٠

والرب : في الأصل مصدر بمعنى التربية أي إيصال الشيء إلى كماله تدريجاً ٠ ثم وصف به الباري تعالى مبالغة ، فإنه مربٍ لمخلوقاته حسب حكمته البالغة ، وموصلها إلى ما أراد أن يوصلها إليه ٠ وتقع صفة للباري معرفاً باللام أو مضافاً كما هنا ٠ ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيّداً بإضافة أو نحوها ، مما يدل على ربوبية خاصة كربّ المال ورب الدار ٠

والعالمين : شبه جمع للعالَم وهو اسم لما يُعْلَم به الشيءُ كالخاتَمِ والقالَبِ غَلَبَ في ما يعلم به الصانع وهو كل ما سواه من الأعيان والأعراض فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدلّ على وجوده وهو اسم جمع لكونه على زنة المفردات كخاتَم وطابَع وقد حقق النحاة

كما في شرح ألفية ابن مالك أن الاسم الدال على اثنين إن كان موضوعاً للآحاد المجتمعة دالاً عليها دلالة تكرار الواحد بالعطف ، فهو الجمع . وإن كان موضوعاً للحقيقة ملغى فيه إعتبارُ الفردية فهو اسم الجنس الجمعي كتمر وتمرة . وان كان موضوعاً لمجموع الآحاد فهو اسم جمع سواء كان له واحد كركب ، أو لا كرهط . ومنه لفظ العالَم . وإنما جمع ليشمل ماتحته من الأجناس المختلفة ، ولم يُسْمَعْ جمعُ فاعَلٍ بفتح العين على صيغة جمع المذكر السالم غيره وغيرُ (ياسَمٍ) يعني أنه لو بقي على إفراده لربما توهم أن المراد به هذا العالم المشاهد بشهادة العرف ، أو أن المراد هو الجنس والحقيقة فجُمِعَ ليشملَ كل جنس سمي بالعالم ؛ لأنه لا عهد يشارُ به إليه ، وغلّب العقلاء منهم فجمع بالواو والنون .

(الرَّحمنِ الرَّحيمِ) (٢)

أعادهما لكون الأولين تعليلاً للابتداء باسمه تعالى والتبرك به والأخيرين تعليلاً لاستحقاقه الحمدَ وأنه لا تصافه بهما .

(مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (٣)

والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة له ، كما أن الملك المتصرف بالأمر والنهي في الناس . والمفعول به محذوف وهو الجزاء ، وأُضيف الى اليوم إجراء له مجرى المفعول به على التوسع . وبذلك صارت الإضافة معنوية مفيدةً لتعريف المضاف مجوزةً لوقوعه صفة للمعرفة .

والدين : الجزاء ، وفرقوا بينهما بأن الدين جزاء بقدر العمل والجزاء أعم . واختار يوم الدين على باقي الأسماء رعاية للفاصلة ، وإفادة للعموم ، فإن الجزاء يتناول جميع أحوال الآخرة إلى الأبد . وفي الحديث الشريف :

« البِرُّ لايَبْلى والإثمُ لا يُنسى ، والدَّيّان لا يَموت ، فكنْ كما شئتَ كما تَدينُ تُدان » •

ثم لما ابتدا التالي باسم ذاته الجليل وتبرّك به ونَعَتَه بعموم رحمته وعقبه بحمده على ما لا يذكر ولا يحصى من نعمه الجسام ومنها أنه رَبّى الخلايقَ وسوّاها وعَدَّلَها ، وبالصور المناسبة جَمّلَها ، وأكّد على شمول رحمته الواسعة في الآخرة والأولى ، وأنه مالك الجزاء في يومه يوم الكتاب والحساب •• أشرق في قلبه أنوار مناجاة رب العالمين ، وتصور حضوره لخطاب ذاته الواسع المبين • فقال :

« إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعينُ »(٤) أي يا من شأنه العالي ذلك الفضل المتوالي نخصّك بالعبادة وغاية التذلل والخضوع بانقياد القلب لوجودك ووحدتك وربوبيّتك ، وتسخير القالَب في إطاعتك بالشهادة على استحقاقك وجوب الوجود والخلق لما سواك وإنك أنت المعبود وأداء واجبات عظمتك بالركوع والسجود وسائر أنواع الطاعات ، ونستعينك ونطلبُ منك العونَ في أداء ما التزمناه على وجه مرضيّ وفي اجتناب كل منهي على الوجه المرعيّ ، وفي سائر شئوننا الحَيَويّة السلبية والإيجابية ، فإنَّ كل عون ومددٍ يأتينا من الأسباب الظاهرة حسب السنن الكونية ، أو من الأمور المعنوية الغيبية التي لا يحيط بها إلا ذاتك العليّة منك وإليك ، وإذا أردتَ شيئاً هيّأتَ أسبابَه فنأتي بالأسباب ونعتمد على القادر الوهّاب وأنت على كل شيء قدير ، وباجابة المضطرين حقيق جدير •

والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولا شك في أنه لا يجوز إلاّ لِمَنْ له أقصى غاية السلطنة بالقدرة الشاملة على جميع الممكنات ، والعلم المحيط بالكليات والجزئيات وسائر أوصاف الكمال وذلك واجب الوجود •

فالعبادة مختصة به وليس لغيره حظ فيها ، ورياء المرائين ينقصها ، ونفاق المنافقين نافيها ، فحق عقلاء العباد أن يخصّوا العبادة به تعالى .

والإستعانة : طلب العون والمدد في دفع المكروه وجلب المرغوب وذلك حقيقة في تصرف من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فكل طلب عون يتوجه الى غيره ؛ كما من المعلم للتعليم ، أو من المرشد للتزكية والتسليم ، أو من الطبيب للسقيم ، أو من أولي النفوذ لدفع الملال أو تحصيل الجاه والمال أو غيرها مما لا يحصى ... فهو عائد إلى الله تعالى ، كما أن كل حمد من أيّ حامد لأيّ محمود على أيّ إنعام يعود إليه تعالى ؛ لأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن فيجب أن تكون عيون قلوب الطالبين ناظرة إليه ونظرها إلى غيرها نظرة عادية كسبب من الأسباب ، وعلى ذلك ورد قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (وإذا استعنت فاستعن بالله) ، وإلا فهو تعالى أَمَرنا بإعانة بعضنا لبعض فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » وبالإستعانة بالأخلاق والأعمال فقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة » وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صلاة الإستسقاء « اللهم اسقنا غيثاً مُغيثاً » وقد روى البيهقي ، وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فجاء بلالُ ابنُ الحارث ـ رضي الله عنه ـ وكان من أصحابه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قبره وقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا . فأتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام وأَخبَره بأنهم يُسْقَوْنَ . وليس الإستدلال بالرؤيا فإنها ـ وان كانت حقاً ـ لا يُثبت حكماً ، وإنما الإستدلال بفعل الصحابي وهو بلال بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ فإتيانه لقبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونداؤه له وطلبه السقيا منه دليلٌ على أن ذلك جائز . وهو من باب الإستغاثة والتوسل والتشفع ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة .

وروى ابن ماجه ، وابن السني بإسناد صحيح عن بلال قال : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك » وعن أبي سعيد الخدري أسألك بحق ممشاي هذا إني لم أخرج أشراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سمعة ، وخرجتُ إتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .. إستغفرَ له سبعون ألف ملك . ولم يزل السلف الصالح ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم الى الصلاة من غير نكير .

ومما ورد عنه عليه الصلاة والسلام من التوسل قوله : « أللهم اغفر لأمّي فاطمةَ بنتَ أسدٍ وَوَسِّعْ عليها مَدْخَلَها بحق نبيك والأنبياء الذين مِن قبلي » . وهذا اللفظ قِطعَةٌ من حديث طويل رواه الطبراني في الأوسط وابنُ حبان والحاكم وصححوه .

وروينا في كتاب ابن السني عن عبدالله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا انفلتت دابّةُ أحدِكم بأرضٍ فلاة فلينادِ يا عباد اللهِ احبَسُوا فإنّ لِلهِ ـ عز وجل ـ في الأرض عبداً حاضراً سيَحْبِسُه .

وأخرج البخاري في تأريخه والبيهقي في الدلائل والدعوات ، وصححه أبو نعيم في المعرفة عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ادع الله تعالى لي أن يعافيني . قال : إن شئتَ أخَّرتُ لك ذلك وهو خيرٌ لك ، وإن شئتَ دعوت الله تعالى قال : فادعه ، فأمَرَه أن يتوضأ فيُحسِنَ الوضوءَ ، ويصلّي ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء : أللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها ،

أللهم شفّعه فِيَّ ، فَفَعلَ الرجلُ ، فقام وقدْ أَبْصَرَ هذا . ومن أسند أمثال هذا الى حال الحياة بشبهة أن للشخص تأثيراً في حال الحياة دون الممات ، فقد أشركَ من حيث لم يعلم ، لأنه أسند التأثير الى غيره تعالى من الأحياء مع أنه لا تأثير لأحدٍ في أيّ شيء لا في الحياة ولا في الممات ، إذ التأثير منحصر في الله تعالى . على أنه يردّ شبهته ما ذكر قبل هذا توسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأنبياء من قبله .

ومن نظر الى هذه الأدلة علم أنه كما في الماديات سنة ثابتة له تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب كذلك له في المعنويات سنة كذلك كالدعاء من نفس الداعي أو من غيره لدفع الشر أو جلب الخير والصدقات لدفع البلايا والتوسل بجاه أصحاب التقوى . وإن قوله تعالى « وابتغوا إليهِ الوَسيلةَ » يشمل كل ذلك . فيجوز للمسلم أن يتشفع بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو بجاهه ، أو بجاه غيره من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وشفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثابتة يومِ القيامة لتعجيل الحساب وغفران الذنوب ، ورفع الدرجات . والحاصل : أن التوسل بالأسباب المادية أو المعنوية من سنة الله تعالى التي لا تبديل لها إلا إذا كان بصورة غير مشروعة ، وتخصيصه بالأمور المادية إنما هو من أهل الأفكار العادية . بل منع التوسل والتسبب في الغيبيات وعدم الإعتناء بالروحانيات تأخر عن الرشاد وتقدم الى الإلحاد . فإن الإسلام جاء لتنوير عقل البشر ، وإبعاده عن الخطر ، وتنويره ليعترف بالغيبيات ، ووجود الملائكة الموكلين على الماديات والمعنويات ، وبذلك يسترشد إلى الإيمان بأحوال الموتى في عالم البرزخ ، وبالسعادة والشقاء هناك ، وبثبوت الساعة وبعثِ الأموات ، وحشرهم ومحاسبتهم ، وإيصال كل عاملٍ إلى مَقرّه الأخير . وإلا فلو كان

الأمر منحصراً في الماديات لاستغنى البشر عن الرسالات الإلهية الداعية الى الإيمان بالغيب وبجزاء الأعمال بلا ريب • فإن في الآخرة مراتب مرتبة على أسبابها ، وهي الدرجات أو الدركات • فكما ان الأسباب محققة في الماديات علماً وعملاً وصناعةً على المستويات كذلك في المعنويات كالدعاء لشفاء المرضى ، والصّدقات لردّ البلوى • ألا ترى إلى سجود الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعائه لانتصار المسلمين يوم بدر الكبرى ؟ وكذلك صرف الهمة الى تنوير القلب بالأنوار وتزكية النفس عن الأقذار بالذكر والفكر وصحبة الأولياء الأبرار والصلحاء الأخيار ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وسر تأثير صحبتهم أن قلوبهم منورة بالذكر ، وبالذكر تطمئن القلوب ، ذلك الإطمئنان الذي طلبه سيدنا إبراهيم الخليل وقال : « ولكن ليطمئن قلبي » هذا الإطمئنان الذي ناله أصحاب القوى القدسية ويَخلَصون به من الخوف والحزن كما قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » • أي اتقوا عن الكفر والشرك الأكبر والأصغر وسائر وجوه الرياء والنفاق • واتقوا عن المحارم والمحرمات فلازموا المندوبات المؤكدة وفرائض الطاعات ، واتقوا عن الإلتفات الى ما سوى الله ، فخلصوا عن أقذار مطامع الدنيا الدنيه وسائر الشهوات فهم الأولياء المتقون ، وهم الذين تشتعل أنوار قلوبهم فينورون قلوب من صادقهم ووافقهم في طاعة الله تعالى • وليس المتقون من يلبسون المظاهر للخير بدون تطهير البواطن عن الرذائل « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرُه فرُطا » وهم الذين يتبرك بلبس عمامتهم لإزالة الغمامة كقميص سيدنا يوسف لما ألقوه على وجه أبيه سيدنا يعقوب ـ عليهما السلام ـ صار من العمى بصيراً ، وصار على رائحة روح يوسف خبيراً ، وتحصل تلك الدرجات بتزكية النفس • وقد قال تعالى : « قد أفلح

من زكيها وقد خاب من دسيها » وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وهذه الكينونة كينونة روحية وافية ومحبة خالصة صافية واتباع في الأذكار والاوراد ، وكل ذلك من أسباب اطمئنان القلوب ، وقد مضت العصور على المسلمين في مباشرة الأسباب لإصلاح النفوس وتهذيبها بالفضائل ، وكل هذه الأمور جارية على نظام هو اتباع الكتاب والسنة النبوية بالإستقامة بدون انحراف ٠

والحاصل : إن مباشرة الأسباب المادية لتحصيل السعادة المادية ، ومباشرة الأسباب المعنوية لتحصيل السعادة الروحية ٠ وبذينك تتكامل الرجولة في الانسان ، فليس الرجل رجل الدنيا ، ولا الرجل رجل الأخرى ، بل الرجل رجلهما ٠ وبالاكتساب المشروع ومباشرة الأسباب ينال الإنسان سعادة الدارين ٠

وأما الزائرون لقبور عباد الله الصالحين من الأنبياء والمرسلين ، ومن دونهم فإن كانوا من المسلمين الفاهمين للدين فيقول داعيهم أللهم أعل مقام عبدك هذا وارحمني بجاهه عندك ٠ أو يقول : أيها العبد الصالح أدع لي وتوجّه بهمتك العالية وبروحك المنورة الخالدة لدفع الشرّ عني وجلب الخيرات لي ولا مانع عقلاً وشرعاً أن تكون لروح هذا الولي الصالح نوع من الإدراك لفهم طلب الزائر الدعاء منه وتوجيه همته إلى الله في كشف مهمته ٠ فإن ذلك الإدراك علم جزئي حصل من أعلام الله تعالى ، ومعرفة جزئية حصلت من تجليات أنوار الحق جل شأنه عليه فإن أهل البرزخ على الإطلاق لهم إدراك روحي مسلمين أو كافرين ٠ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « القبر إما روضة من رياض الجنان ، أو حفرة من حفر النيران » أو كما قال ٠ وليس ذلك من علم الغيب لأن علم الغيب علم ذاتي لا يزول ولا يزال ٠ وعلم كلي شامل لأمور الحال والإستقبال ، بل ذلك علم جزئي كعلم الملائكة

المقربين بما أسند إليهم من الواجبات والمهمات ، وعلم الحفظة الكرام الكاتبين ، وكعلم يوسف بأحوال المخازن التي أسندت إليه ٠ وكعلم أبيه حيث قال : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » وكعلم رسول الله بفتن آخر الزمان ٠ وكفى في ذلك الموضوع ما كان عند حذيفة اليماني لمن له معرفة بصحيح البخاري وغيره من الصحاح ٠

ونظير ذلك في الماديات علمك بأحوال البلاد البعيدة بوسائل المخابرة والإعلام ، وعلمك بما في الأرحام بوسيلة الأجهزة المستعملة في هذه الأيام ٠ وقد أسند الله تلك العلوم إليه ذاتاً بالذات ، ولم يمنع إطلاع عبد من عباده بالأجهزة ٠ والحاصل أن طلب الزائر من الولي الصالح المرشد ، الولي الموفق في طاعة الله تعالى من هذا الباب ومن هذا القبيل ٠ ولا يطلب من نفسه شيئاً إلا من لم يفهم الدين ، ووزر هذا الجاهل على المربّي الغافل من العلماء الفاسدين والمتشيخين المفسدين وأوزارهم ترجع إلى إهمال الأنظمة الشرعية في حقهم فإنه لا يتطور البشر إلا بالتربية النظامية ، ولا نظام عند الإهمال ، ولا ينحصر الدجل في أهل العلم والمشيخة الجامدة ، بل يسري في كل طبقة وصنفٍ من الكسبة والعمّال والتجّار وأمثالهم ٠

لا يَصْلُحُ الناسُ فوضى لا سَراة لهم

أعاذنا الله من الفساد والإفساد ، وآتانا خير الرشد والإرشاد بمنّه ٠

ولما كانت الهداية الى الخير أهم معونة منه تعالى لعباده عقبه بقوله : « إهدِنا الصِّراطَ المُستَقِيمَ »(٥) فينادي ويناجي ويدعو ويرتجي فيقول : يا ربنا نسترحم منك الهداية لنا إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، والسلوك فيه ، والإستقامة عليه ، بلا انحراف واعتساف ٠

والهداية مشترك بين معنيين : الأول : الدلالة باللطف والرفق ، سواء كان موصلة الى المطلوب أم لا • ويتأتى من الله ورسوله والكتاب المنزل عليه ، ومن كل مرشد يهدي الناس إليه والثانية : الدلالة الموصلة إلى المقصود ولا يتأتى إلاّ من واجب الوجود • ولها مراتب •

الاولى : جعل القلوب صافية منورة ، والحواس والمشاعر غير مكدرة ، والأعضاء صحيحة قوية على العمل •

والثانية : نصب الدلائل الموصلة إلى الحق المبعّدة عن الباطل •

والثالثة : تأييد العقول بإرسال الرسل وإنزال الكتب •

والرابعة : الوحي والإلهام والرؤى الصادقة • والأول للأنبياء • والأخيران لهم ولسائر العالمين •

والصراط لغة الطريق • والمستقيم : المستوى • وفي الهندسة : أقرب خط واصل بين نقطتين •

وأما المراد بالصراط المستقيم : فقد قال الأمام الرازي في تفسيره : قال بعضهم : الصراط المستقيم الإسلام ، وقال بعضهم : القرآن وهذا لا يصح لأن قوله : صراط الذين أنعمت عليهم بدل للصراط المستقيم ، وإذا كان كذلك كان التقدير : إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم من المتقدمين ، أي الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين) الى أن قال وإذا كان كذلك فالمراد : إهدنا صراط المحقين المستحقين للجنة • إنتهى •

ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الانعام : « أولئك الذين هَدَى اللهُ فبِهداهم اقْتدِهْ » وإذا كان قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وارداً على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسائر أمته وكان

الرسول يطلب من الله الهداية الى الصراط المستقيم .. فلا شك أنه يُريدُ التوفيق على إكمال دينهِ وتبليغ كتابه وسلوك سبيل أخلاق الرسل السابقين حيث أمَرهُ تعالى بالإقتداء بهم في الآية الشريفة المذكورة فيكون الصراط المستقيم شاملاً لما في دينه من الإعتقادات والأحكام العملية ، وما سبق في الأديان السابقة من الفضائل المتناسبة لهذا الدين ، لأن شريعة من قبلنا شريعة لنا فيما لم يُتَعرض لنَسخه . وما جرى على أهله من تحمل الأتعاب والمشاكل الواردة كما ورد على أصحاب الأخدود ، وما جاء على سيدنا إبراهيم من جانب نمرود وعلى سيدنا موسى وعيسى إلى أقصى الحدود .

وفي تفسير المنار : وقد قالوا : إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود ، ونحن نقول : إنه جملة ما يوصلنا الى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم .

وفي تفسير البيضاوي : والمراد به طريق الحق وقيل ملة الإسلام .

قال الشهاب : وعلى مافهم المصنف هما متغايران لأن ملة الإسلام تختص بالأصول والإعتقاد ، وطريق الحق أعم لشموله الفروع والأصول .

وقيل : طريق الحق مطلقا يتناول ملة الإسلام وما فيها من العبادة كما هو المناسب لتنوع الهداية . وقيل : طريق الحق أخص لشمول ملة الإسلام للفرق الضالّة كالقدرية . وقيل : الحق أعمية الحق لشموله السير في الله وما يترتب على الهداية من المراتب كما مر .

والتحقيق : إن الإسلام يشمل الإعتقاد والأحكام التي عليها جمهرة الأمة المحمدية والحق يشملهما ويشمل سائر الأمور النافعة الواقعية التي هي على جانب الدين من الإعتقاد والأحكام وذلك كالتوفيق لإصابة

الرأي في الأمور الإجتهادية ، والبعد عن الخطأ فيها وسلامة الأخلاق في مداراة العباد والتوفيق لكسب الطيب من الزاد والإهتداء إلى صحبة الصالحين للجوار في دار الإقامة ، وشراكة رجال أمناءَ في التجارة والأسفار ، والأهتداء الى معرفة أمور إقتصادية في بذل النفقات ، وإلى أهل صالح وأولاد ونسل أصيل يتعاونون مع الإنسان في الحياة الدنيا ، وهذه كلها مواهب ليست من أصول الإسلام ولا فروعها وليس عدمها منافيا لها . فكم من ُاناس مسلمين صالحين محترمين وهم محرومون من هذه المواهب ويقبلون الأذى الى أن يتوفاهم الله ؟ فيكون الحاصلُ طلبَ الهداية إلى الإعتقاد بدين الإسلام والعمل بأحكامه والتخلق بالأخلاق العالية وهي من متممات المكارم ، وإلى مواهب شريفة تعين الإنسان في أيام الحياة الدنيوية إلى أن يلقى ربه الرءوف الرحيم .

هدانا الله إلى ذلك بمنه وفضله العميم .

فإن قلت : لاشك أن المؤمن مهتدٍ فما وجه طلب الهداية بالنسبة إليه ؟ فالجواب من وجوه :

الأول : إن المطلوب الإهتداء إلى طريق السابقين الصادقين من تحمل الأذى في الدين .

الثاني إن المقصود الإهتداء إلى المرتبة المتوسطة بين طرفي الافراط والتفريط في الإعتقاد والأعمال والأخلاق على وزان قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

الثالث الإهتداء إلى الزائد من العلوم النافعة والأدلة القاطعة على وجود الباري وحقية ما أنزله من الإعتقاد والأحكام .

الرابع : الإهتداء إلى الإستغراق في العبودية والاعراض عما يشغله عنها •

الخامس : الإهتداء إلى أقرب طريق من الطرق الموصلة إلى رضاء الباري •

السادس : الإهتداء إلى الثبات والإستقامة فإن أهل الاستقامة هم أهل السلامة في الدنيا والدين • فإن قيل كيف يصح طلب الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم مع أن دين الإسلام متبوع غير تابع ، وناسخ غير منسوخ ، وحاكم غير محكوم ؟ قلنا : فالجواب إن الدين بالإجمال قسمان : أصول إعتقادية ، وفروع عملية • فأما الأصول الإعتقادية فهي مشتركة بين جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام بلا فرق ولا تبعية فيها لأي رسول للآخرين • وعليه قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاءُ ويهدي إليه من ينيب • »

وأما الفروع العملية : فلاشك في مخالفة ما عندنا لما عندهم إلا ماشذّ مما قرره الإسلام • فظهر أنه لا تبعية لنا في أي شيء من الدين لا أصولها ولا فروعها قطعاً •

فالمطلوب بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الإهتداء إلى تلك الاصول والفروع بالوحي الخاص وتوفيقه لتطبيقها وتبليغها وتنوير العالمين بها ، أو أحد الأوجه السابقة المذكورة وبالنسبة إلى أمته الإهتداء إليها من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وبذل التوفيق للسلوك على منهجها ، أو بعض الأوجه السابقة ايضا • وإلا فالأصول هي الأصول

بالنسبة إلى كل رسول ، والفروع مختلفة لا تبعية فيها • فطلب الهداية إلى صراطهم الهداية الى كيفية سلوكهم وإرتباطهم وذلك واضح •

ثم اوضح الباري تعالى معنى الصراط المستقيم ببدل إيجابي وهو قوله تعالى :

(صراطَ الَّذِينَ أنْعمْتَ عَلَيْهِمْ) (٦)

وبسلبي بعده وهو قوله تعالى :

(غَيْرِ الْمَغْضوبِ عَلَيْهِمْ ولا الضَّالِّينَ) (٧)

حتى يتميّز الصراط المستقيم واهله •

ومما ينبغي علمه أن النعمة الواصلة قسمان : دنيوية ، وأخروية : أما الدنيوية فمنها ماهو وهبي لا علاقة للإنسان فيه كخلقه ، وتعريضه للنعيم ، وتزويده بالحواس الكافية والمشاعر الصافية والعقل السليم ••• ومنها ما هو كسبي ككسب العلوم والمعارف ، وتزكية النفس عن الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، وتحصيل الجاه المشروع والمال الحلال النافع • وأما الأخروية فمنها غفران الذنوب ، والوفاة مع الأبرار ، والسكون في الجنة دار القرار ، وشرف لقاء وجهه مع الإبصار ••• فأصحاب هذه النعم الجسام هم المقصودون • ويجوز ان يراد بهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين •

واما السلبيّ الموصول بالموصول أعني غير المغضوب عليهم ولا الضالين • فمدلولها بالإجمال المستفاد من المضاف إليه قسمان : الأول عبارة عن الذين خرجوا عن الدين بعد علمهم به أي كفروا به ، وتمردوا عن العمل به ، واستمروا في تمردهم وعنادهم ، وأثاروا نار الفتنة العمياء إزاء الحنيفية البيضاء ، وتهالكوا وتظاهروا في إيذاء صاحب الإسلام وأهله ، ودبروا تخطيطات جهنمية لإمحائه واستئصاله كالمعاندين له من عصر

الرسول إلى يومنا هذا ولا يزالون يسعون لتمزين أمة الإسلام وتفريقها وتبعيدها عن المثل العليا ، وعن عزة الدنيا . فلاشك أن غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . ويلتحق بهم المسلمون المنحرفون عن الحق والصواب ، المحرّفون لنصوص السنة والكتاب ، والمأوّلون لها بغير صواب ، مع علمهم بعنادهم وفسادهم . وإذا نصحتهم أخذتهمُ العزةُ بالاثم علاوة على أعمالهم السيئة . أو الطغاة البغاة على الأنفس والأعراض والأموال كيف يتمكنون ويتسع لهم المجال ولا شبهة أنهم في ركاب المغضوبين الأولين .

والقسم الثاني الضالّون عن طريق الرّشاد ممن وصلتهم رسالة الحق الإسلام ولكنهم لم يعملوا بها وسلكوا مسالك أرباب الهوى من أحبارهم وكبرائهم الضالّين فأضلّوهم . أو المسلمون الضعاف النفوس الذين استمروا على أعمال فاسدة حسب التقاليد والأوهام الباطلة ، وهم عليها مرحون وبها فرحون .

وتفسير الاول باليهود ، والثاني بالنصارى وارد . ولكن المفهوم أعم ، والكفر ملة واحدة . وماذا بعد الحق الا الضلال ؟ اعاذنا الله بفضله ورحمته عن موجبات عذابه وسخطه برحمته إنه ارحم الراحمين .

ولما كان السلوك على الصراط المستقيم للوصول والدعاء للقبول .. ورد بعد طلب الهداية واستدعاء العناية للوصول إلى النهاية (آمينْ) على لسان الرسول الأمين . فعن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا امّنَ الإمام فأمّنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » . وعن وائل بن حجر قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقال (آمين) يمد بها صوته . رواه أحمد وأبو داود والترمذي . وهذا الأمر للندب عند الجمهور . والمشهور عن أبي حنيفة إخفاؤه مطلقا . وكذلك

عند مالك في إحدى الروايتين ومذهب الشافعي وأحمد الجهربه في الجهرية ، والإسرار في السّرية • ولكن حد الجهر أن يسمعه من يليك لا رفع الصوت به حتى تؤذيه أو يؤذيك • وما روي من أنه كان للمسجد في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجّة من التأمين فمن تظاهر الأصوات لا من رفعها كما هو معمول عند بعض الناس •

وفي آمين لغتان : مد الألف ، وقصرها • وهو اسم فعل بمعنى إستجب • أي اللهم استجب لنا دُعاءنا !

خلاصة معنى سورة الفاتحة

نبدأ بالطاعة بعون اسم الله الجامع للكمال ، المنزه عن النقص ، المنعم بجلائل النعم ودقائقها في الدنيا والآخرة حسب علمه المبين •

وكل حمد وثناء ملك لله الذي ربّى العالَمين ، خَلَقهُم وسَوّاهم وأوصَلهم إلى منتهم مُراده في الكائنات بصنعه الدقيق الرّصين •

الرب المنعم بالنّعم كلها حسب ماشاء على من شاء من العالمين • المالك للجزاء في يوم الجزاء ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء من الجنّة والناس أجمعين •

فَلك وحدك نخضع ونذل ، ومنك وحدك نطلب العون للدنيا والدين فياربنا دُلّنا بلطفك إلى الصراط المستقيم دين الإسلام من العقائد والأحكام ، وسائر مواهبك على الأنبياء والرسل الكرام وعبادك الصالحين • صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من عبادك المؤمنين •

المغايرين إعتقاداً وعملا لمن غضبت عليهم من الكفار المعاندين والمسلمين المتمردين ، والضالّين عن طريق الحق في الدين • اللهم استجب لنا دعاءنا ياربّ العالمين !

هذه السورة مدنية بالإجماع بناء على أن المدني مانزل بعد الهجرة •
وفيها آية هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: «واتقوا يوما تُرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »

والسورة تقرأ مهموزاً وغير مهموز فعلى الأول من السؤر ، وهــو ما بقي من الطعام في الإناء ؛ لأنها قطعة من القرآن • وعلى الثاني إما مخفف المهموز ، أو هو أصل برأسه بمعنى المنزلة ، لأن القرآن منازل من أوله إلى آخره ، أو هي من سور المدينة ؛ لإحاطتها بمقدار من الأحكام • والآي بمد الهمزة جمع آية • أصلها أوية بمعنــى العلامة ، وأصله : أأْوي كأفلس ، خففت الهمزة الثانية بإبدالها ألفاً ، وحذفت ضمة الواو لثقلها ، ثم حذفت نفسها لإلتقاء الساكنين • وكل آية علامة على بعض من المقاصد الدينية •

(بِسْمِ الله الرحْمنِ الرّحِيمِ الم) (١)

هذه الأحرف وأشباهها من فواتح السور فيها آراء •

منها أنها أسماء للسور واختيرت لإشارتها إلى إعجاز القرآن ؛ فإنــه آيات حاصلة من كلمات مركبة من الحروف الهجائية المبذولة لكل متكلم ، فلو كان من عند غيرالله لقدر الناس على تركيب كلمات متماثلة مع القرآن

الكريم في مزاياها الإنفرادية والإجتماعية . والرأي الراجح أنها من المتشابهات ، إستأثر الله بعلمها أو علّم الراسخين في العلم مرادَهُ منها .

(ذلِكَ الكتابُ) إشارة إلى القرآن الكريم . وفي البخاري : وقال مَعمر ذلك الكتاب القرآن .

(لا رَيْبَ فِيهِ) أي لا شك ولا شبهة في أنه كلام الله سبحانه وتعالى عند من وفقه الله وصفا قلبه عن الكدر . أو لا ينبغي ولا يليق أن يشك فيه أحد ، لأن من تفكر في وجوه بلاغته ، والأخبار الغيبية الواردة فيه ، وتعرّضه للأمور العلمية الّتي لايفهمها إلا أولو الألباب العليم . إلى أسلوبه المغاير لأساليب كلام البشر علم أنه من الله العزيز العليم .

(هُدىً) مصدر حُمِل على وجه المبالغة .

(للمتّقِين)(٢) أي العباد الصائرين إلى التقوى . وهو لفيف مفروق من وقى . ودرجاتها ثلاث : الأولى : التقوى عن الكفر ويحصل بها الإسلام . الثانية : التقوى عن كبائر المعاصي والصغائر بالإستمرار ، ويحصل بها العدالة . والثالثة : التقوى عما سوى الله تعالى . أي لا يتوجه إلى شيىء إلا من حيث إرتضاء الشرع . ويحصل بها الولاية والإختصاص بالله سبحانه وتعالى .

(الذينَ يُؤْمِنونَ بِالغَيبِ) الموصول صفة للمتقين ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين يؤمنون . الإيمان إفعال من الأمن للصّيرورة أو التعدية . والغالب تعديته بالباء إذا تعلق بالله ويعتبر فيه معنى الإذعان ، وباللّام إذا تعلق بغيره ويعتبر فيه معنى التصديق كقوله تعالى : « وما أنت بمؤمنٍ لنا ولوكنّا صادقين » وهو في أصل اللغة معناه جعل الغير آمنا مطلقاً ، ثم نقل إلى معنى جعلهِ آمِناً من التكذيب .

ويجتمع بهذا المعنى مع مخالفاته نحو « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لايكون إلا مؤمنا بحسب اللغة دون الشرع ، كما صرح به السعد في شرح العقائد . وفي حقيقته الشرعية أقوال أقربها ثلاثة :

الأول : إنه تصديق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من عنده تعالى مع الاقرار بكلمتي الشهادة . ويروى هذا عن الإمام ابي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ .

الثاني : قول السلف من التابعين وجمهرة المحدثين أنه التصديق بالجنان ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان . أي ترك المحرمات وفعل الواجبات فإذا أرادوا بهذا الإيمان المستوعب لجميع ماهو موجب للكمال فلا نزاع ، بل وينبغي أن يدخل فيه ترك المكروهات وفعل المندوبات ، إذ بها يتكامل على ماينبغي . وإن أرادوا أنها معتبرة في حقيقة الإيمان بحيث إذا انتفى شيء منها إنتفى الإيمان ، فلا شبهة فيأن رأيهم غير سليم،إذ ورد النص بخلاف ذلك فقد قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ... » الآية . فإنه أسند الإيمان إلى المقاتلين ولاشك أن فيهم العصاة إلا إذا كانوا على الإجتهاد في الدّين وهم أهل له وأنى ذلك ؟ ولزم منه نسبة الكفر إلى من ترك واجبا أو فعل محرما . وجمهرة المسلمين على خلاف ذلك . وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. في جملة حديث « وإن زنى وإن سرق على رغم أَنف أبي ذرّ » .

والقول الثالث : هو التصديق للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من عند الله إجمالا فيما علم إجمالا ، وتفصيلا فيما علم تفصيلا . وهذا القول هو الراجح . ويدل عليه الآيات الدالة على أن محل الإيمان هو القلب كقوله تعالى : « اولئك كتب في قلوبهم الإيمان »

وكقوله : « وقلبه مطمئن بالإيمان » وقوله « ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم ثبت قلبي على دينك ». لكنه لاشك في أن ذلك التصديق مشروط بالإقرار بالشهادتين لإجراء أحكام الإيمان على صاحبه وإلاّ فالإيمان مستور لا يعلم به إلا الله ، كما أنه مشروط بالإذعان الفعلي وهو التسليم لما جاء به الرسول ، وبعدم ملابسته لما يدل على السّخط والإنكار كشد الزّنّار ، ولبس الغيار ، وتحقير شعار من شعائر الدين . والدليل على اشتراط التسليم قوله تعالى : « وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » . فإن العطف يدل على المغايرة مع العلم أن الإيمان علم وكيفية نفسانية ، والتسليم فعل من أفعالها ، والكيف والفعل متغايران بلا شبهة ، كما أنه يدل على وجوب تجرده من السخط والجحود قوله تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا » وقوله : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .

وإنما إكتفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنطق الناس بكلمتي الشهادة في الإسلام ؛ لأن الظاهر من حال العاقل المختار أن لاينافق ولاينطق إلا بما في قلبه ، ولأنه شعار الرضا والإستحسان . كما أن العلماء سلفاً وخلفاً عرفوا الإيمان بالتصديق بما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدون التعرض لاشتراط التسليم ؛ لأن الغالب الراجح من حال الإنسان الذي عنده اذعان وتصديق بشيء أن لاينكره ولا يعانده ويسلّم نفسه له .

فعلم مما ذكرنا أن الإيمان في اللغة ، وفي العرف المنطقي ، وفي عرف الشرع : هو الاذعان العلمي والتصديق القلبي على حد سواء ، غير أن الإيمان في اللغة وفي المنطق لم يشترطا بالتسليم الفعلي ولا بمباينة

السخط ، فإن المصدق لقول شخص يعتبر مؤمناً بكلامه ، وإن عاداه نفساً وأنكره قلباً ، فالإيمان اللغوي والمنطقي يجتمع مع الشرك وعليه قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ولكن الإيمان في عرف الشرع لما كان هو التصديق بجميع ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الله ومن جملة ما جاء به التوحيد لله ؛ فلا يجتمع الإيمان مع الشرك ، ومع الكراهية للدين وأهله ، ومع الإستحقار لشعار الإسلام ٠ حيث ان الغاية من الإسلام والايمان الدخول في ساحة سعادة الدين ، والتعاون مع المسلمين ، والنصح لهم ، والإهتمام بشؤونهم الدينية والدنيوية المرضية ٠ ولايتناسب ذلك مع مايخالفه قطعاً ٠ ولذلك قال المحققون : إن الإيمان بالله وبالرسول وبما جاء به هو المحبة والرضا ٠

وعليه قوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ٠

وقال ـ صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالديه والناس أجمعين » ٠ أو كما قال ٠

وخلاصة الكلام : أن الإيمان في الشرع إذعان علمي وتصديق ، وهو كيف نفساني كالإيمان لغة ومنطقاً ، إلا أنه فيهما يجوز مقارنته للإستنكار النفساني ٠ وأما الإيمان الشرعي فيجب مقارنته للتسليم الفعلي ومفارقته لكل سخط وإنكار ٠

ومما يجب أن يعلم أن التصديق المعتبر في الإيمان هو التصديق الجازم ٠ أي أنه ليس التردد والشك ولا الظّن ٠ فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، وأن التصديق الجازم يجب أن يسعى صاحبه في وصوله إلى

درجة لا يقبل الزوال بتشكيك المشكك . أي يكون تصديقاً جازماً ثابتاً . ومن هذه الدرجة إلى أعلى درجات اليقين مراتب كثيرة يعلو بعضها بعضاً . ولاشك في ذلك لمن أنصف ونظر إلى أحوال نفسه وأحوال المسلمين . فإن قلت : يلزم من بيانك أن لايعتبر إيمان المقلد ! قلت : ذلك صحيح وأساسه أنه عبارة عن إيمان لم يُبْنَ على تصديق صاحبه من ذاته ، وإنما بُنيَ عَلَى التبعية للغير وتقليده فيه . حتى إذا سُئل عن أساس إيمانه أجاب بأن إيمانه ناشيء عن قول فلان وعن التبعية له . ولا شبهة في أن هذا الإيمان ليس بمعتبر عند أيّ شخص صاحب تمكين في الدين .

وأما المقلدون الموجودون بيننا فلكل منهم حالة نفسية قدسية ، واستدلال بالإجمال حتى إذا سألته : ما دليلك على وجود الباري تعالى ؟ يستدل لك بشيىء يعجبك متانة ورزانة . وقد سمعنا انه سُئل شخص عن الدليل على وحدة الباري سبحانه فقال : دليلي طاحونة قرية (بيستان سور) ، فانها عندما كان صاحبها واحداً كانت تطحن في كل يوم وليلة عشر تغارات ، والآن وقد مات المالك وانتقلت إلى أولاده الأربع لاتطحن إلا أربع تغارات !

والغيب كل ما غاب عن الحس ، فلا يدركه ولا تقتضيه بداهة العقل مما يجب الإذعان والتصديق به كوجود الباري تعالى ، وصفاته ووجود الملائكة ، والكتب المنزلة على الرسل الكرام ، وما أخبر به الرسول من : أحوال البرزخ ، ونعيم الإنسان فيه ، وعذابه ، ويوم القيامة ، واحياء الموتى فيه ، والبعث ، والحشر في المحشر ، والحساب للأعمال ، والسؤال والجواب ، وما بعدها من الدخول في النار ، أو في جنة الأبرار ، ولقاء الباري تعالى فيه ... وغير ذلك مما أخبر به الصادق . وذلك مبني على

أن المتقين هم الذين يؤمنون به عند الإخبار به من طرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند تبليغ أحكام الإسلام ثم جاء بما يشهد على وجود ذلك الإيمان من الفقرات الآتية فقال :

(ويُقيمُونَ الصَّلاةَ) :

أي يؤدون الصلاة المقررة في الذمة على الوجه المشروع ، أو يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع خلل في مقدماتها ، أو نقص في أركانها ، أو فتور في كيفية أدائها بترك الخشوع وسائر سننها ، أو المراد الذين يروجون الصلاة ، ويسعون في إعلاء شأنها ، وتعمير مكانها ، ورعاية زمانها ، وكيفية أدائها عند الإنفراد أو الإجتماع . أو المراد الذين يداومون عليها في أوقاتها ولا يتركونها .

(ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ) (٣) والرزق : ما ساقه الله تعالى إلى المرزوق من : الطعام ، والشراب ، والملبس ، والمسكن ... وسائر مايتنعم به في حياته . فمنها ماهو وهبي ، ومنها ماهو كسبي . وهذا قد يكون طريقُ اكتسابه مشروعاً فيكون حلالاً ، وقد يكون غير مشروع فيكون حراماً . وكل ذلك رزق ، والله معطيه على سنته الكونية لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » فالحلال والحرام كله رزق .

ثم الإنفاق منه يشمل الإنفاق الواجب كالإنفاق على الممون شرعاً من نفسه وغيره ، وكصرف الزكاة والكفارات والنذور . والمندوب كالهدايا ، والهبات ، والصدقات . ووقوع الفقرة في سياق المتقين يؤيد الإستيعاب .

(والّذينَ يؤْمِنونَ بِما أُنْزِلَ إليْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وبِالآخِرَةِ هُمْ يوقنون)(٤) عطف على ما تقدمه ، والمراد بالموصول كل من حاز الفضائل الثلاث من : الإيمان بالكتب السابقة ، والإيمان بالقرآن ، والآخرة حق الإيمان .

والمراد بالآخرة الدار الآخرة من الجنة والجحيم ، أو الحياة فيها ، أو جزاء الأعمال . والإيقان من اليقين ، وهو الإعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع . وفي تخصيصه بالذكر إشارة إلى عدم الإعتبار بالظن والتقليد في الإيمان . ولكن ذلك مبني على كون المقلد معتمدا على تقليده للغير فقط . وأما إذا نشأ بين أظهر قوم مؤمنين اولي مقام وتبعهم في الإيمان ، وكان مع ذلك عنده دليل على ما اعتقده فلا شبهة في إعتباره وقبوله . وروي عن ابن عباس وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ أن المراد بالموصول هم مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأشباهه . ويحتمل أن يراد به الموصول الأول الذي هو أعمّ . ووجود العاطف للتغاير الإعتباري المأخوذ من الصلتين وإنما ذكر الإيمان بالآخرة مع اندراجه في الإيمان بالغيب للإهتمام بالإيمان بها .

والإنزال : نقل الشيء من أعلى إلى أسفل ؛ فإن كان النازل عينا فذاك . وإن كان معنى فإنزاله عبارة عن إنزال الملك الموكل به كجبريل عليه السلام . بأن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفا روحيا أو يأخذه من اللوح المحفوظ ، فينزل به إلى الرسول . والقرآن ، وإن لم يكن كله منزلاً عند نزول هذه الآية، لكن غلب المنزل على غير المنزل لترقب نزوله تنزيلاً للمنتظر منزلة الواقع .

(أولئِكَ على هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وأولئِكَ هُمُ المُفْلِحونَ)(٥)

خبران للموصولين السابقين ، إن وقف على المتقين ، وقطع ما بعده عنه . وإلا فمبتدآن وما بعدهما خبر . وفي بناء الخبر على اسم الإشارة إشعار بكون الأوصاف الواردة بعد الموصولين علة لتمكن الجمع من الهدى والفلاح . ولا شبهة أن من حاز فضيلة الإيمان على وجه الإيقان ومباشرة الأعمال الصالحة المرضية إستحق فضلا من الله أن يستقر على مراقي الهدى والفلاح .

وعن مجاهد ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة نزلت في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين . أخرجه الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري .

ولما تم بيان أحوال المؤمنين في الآيات الأربع أخذ في بيان أحوال الكافرين المعلنين للكفر المصرين عليه فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (٦)

فأفاد أن اولئك الناس الذين بلغتهم الكتابَ وأرشدتهمْ إلى الصواب وعاملتهم معاملة الرجل مع الاحباب فلم يزيدوا إلا عناداً واستكباراً .. لاينفعهم الإنذار والتبشير فيستويان بالنسبة إليهم لا إليك ؛ فإنك مأجور وأجرك موفور فلا تتعب نفسك بعد اليوم على إرشادهم فهم لا يؤمنون .

وهنا فوائد : الأولى : أن الموصول وصلته إما للعهد والإشارة إلى أفراد معينين كأبي جهل ، وأبي لهب ، والوليد بن المغيرة ، أو للإشارة إلى الجنس المحتمل لهم ولغيرهم ممن سلك مسلكهم .

الثانية : أن الكفر في عرف الشرع إنكار لشيىء مما جاء من دين سيدنا ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ وعلم بداهة . فمن أنكر وجود الله ، أو صفة من صفاته ، أو اعترف بذلك ، ولكنه اعتقد وجود واجب ، أو خالق ، أو معبود ثان فأشركه به ، أو أنكر وجود الملائكة ، أو أحدا من المرسلين ، أو كتاباً من الكتب المنزلة عليهم ، أو أنكر تأثير الله تعالى في موجود من الممكنات ، وقال إنه مخلوق غيره تعالى ! أو أنكر القيامة وبعث الموتى وحشرهم وحسابهم ، أو أنكر وجوب أحد الأركان الخمسة من الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت ، أو ظهر منه قول أو فعل يدل على شيىء من ذلك كشد الزنار ولبس الغيار فهو كافر . وكذا من حرَم حلالاً أو أحل حراما بالإجماع أو بالنصوص كقتل النفوس البريئة وهتك الأعراض، ونهب الأموال فهو كافر . وعليه فالإيمان والكفر وصفان وجوديان متضادان لايجتمعان في ذات واحدة أبدا . وقيل : الكفر مفهوم عدمي كالظلمة مقابل النور ، فهو عدم الإيمان عمن شأنه الإيمانُ حتى يشمل الإنسان الذي خلا قلبُه عن التصديق والتكذيب ، والشاكَ المتردد في الأمر . فالوجه الأول مبني على التغليب .

ولما أفاد الباري تعالى أن أولئك الناس لا يؤمنون علل ذلك بقوله :

(خَتَمَ اللهُ على قلوبهم ، وعَلَى سَمْعِهِمْ ، وعلى أبْصارِهِمْ غشاوةٌ وَلهُمْ عذابٌ عظِيمٌ) (٧) يعني أن أولئك الناس لمّا لم ينتفعوا بإدراك القلوب وبإحساس الحواس والمشاعر ، ولم يهتموا قطعاً بتبليغات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يستمعوا لما ألقاه إليهم ، ولم يروا بأبصارهم العلامات الدالّة على صدقه شبهت قلوبهم بصناديق نقود سُدّت أبوابُها وَاسماعُهم بجهاز منع عن أخذ الأصوات ، وأبصارُهم بعيون غطيت بما يمنعها عن إبصار الألوان والأضواء .

وبما أنهم هم الذين أضرّوا بأنفسهم حيث وجّهوا قواهم إلى الجمود والجحود ، ولم يسترشدوا بإرشاد الرسول ، بل عاندوه واستكبروا وامتنعوا من القبول ومنعوا الناس من إطاعة أمر الله قرّر الله تعالى لهم عذاباً عظيماً لكفرهم وتسبّبهم في كفر غيرهم . وكذلك حكم أشباههم من الفاسدين المفسدين .

ومما يجب أن يعلم أن ليس المراد بالختم والغشاوة في هذه الآية والإضلال ونحوه في الآيات الأخرى إن الله تعالى تعمّد بقهر العباد على هذه الامور بل معناه أنه تعالى خلقهم وسوّاهم وأعانهم بالعقول والحواس والمشاعر ، ثم أيد عقولهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبليغ كل حكم من الأحكام فلم يسمعوا ولم يطيعوا ، وقابلوا تلك النعم العظيمة بالكفران والإستكبار ، ومعاندة الرسول بكل مالديهم من القوة والطاقة .. تعلقت قدرته تعالى بصب الجزاء عليهم فخلق الضلال والغواية فيهم ، وجعل حواسهم ومشاعرهم معلولة مؤفة ترتيباً للجزاء على الأعمال ، وإلا فلو قهرهم الله تعالى على ذلك ما ارسل الرسل ، وما بين السبل . نعم إنه سبحانه وتعالى يعلم أزلاً وأبداً أحوال كل عبد وأعماله وصرف إرادته إلى ما يختار من آماله ، فإنه علام الغيوب . ولكن العبد أيضا بدوره عالم عامل عاقل مختار في أحواله ومسؤول عن أعماله فإذا أهمل عقله ونوره ، ولم يستعمل بحق حواسه وشعوره فالموافق لعدل الباري أن يقابلهم بسلب سلَب الفضائل وجلب الرذائل إلى نفوسهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ولما بيّن الباري سبحانه وتعالى القسم الأول من الناس وهم المخلصون في الإيمان وثناهم بالخالصين في الكفر والعدوان تلّثهم بالمنافقين اللاعبين على الحبال والميول ، والجارفين الصائلين كالسّيول . فقال :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وما يَشْعُرُونَ) (٩) يعني سبحانه وتعالى أن من جنس الناس أُناساً ناسين لحقوق المَلكِ العادلِ ،لابسينَ الحق بالباطلِ ،ينافقون الرسول والمؤمنينَ فيقولون باللسان آمنّا بالله المسيطر على العباد المثيبِ المعاقِب في المعاد ، وباليوم الآخر يوم الميعاد ، وماهم بمؤمنين ، فليس عندهم التصديق والإستقرار ، بل عندهم الجحود والإستكبار والإستنكار، وغرضهم من قولهم ذلك أَنَّهم يخادعون الله أي رسوله ، ويخادعون الذين آمنوا فإنهم من البشر ويمكن التأثير في قلوبهم بإظهار ما في جيوبهم وإخفاء ما في غيوبهم وفي الواقع ما يخدعون إلا أنفسهم ، لأن الله يصون الرسول والذين آمنوا من آثار مقالتهم ومكائدهم التي سمعوها وعاينوا . ويصب عليهم عذاب مقالهم وأعمالهم في حالهم ومآلهم وما يشعرون بذلك .

ثم أراد الله بيانَ سرِّ ذلك النفاق فيهم فقال : : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)(١٠) يعني أن أساس ذلك القول والخداع هو أن في قلوبهم مَرَضَ العِداء والعنادِ والحسد في الرسول والمؤمنين من إختصاصهم بنور الإيمان وتلقي أنوار الوحي من الملك الدّيان الذي يتزلزل به عرش كل من يخالفهم ، ونشأ من ذلك مرض النفاق في إظهارهم خلاف ما أضمروا حتى يصونوا أرواحهم وأموالهم ويفوزوا بما يريدون من الغنائم والمنافع ويقرروا بين الناس عزتهم وكمالهم فزادهم الله تعالى باستمرارهم على ذلك مرضاً من عروض وجوه أخرى من العداء والأحقاد ، وإظهار نوع آخر من النفاق في غير أصول الدين ، وهذا كله في الدنيا ولهم في دار الآخرة

عذاب أليم مؤلم مقيم بسبب كذبهم مع الرسول والمؤمنين في إسناد الإيمان إلى أنفسهم بدون أن يكون في الواقع كذلك .

(وإذا قيل لهم) : من جانب المؤمنين بعد أن تبين أنهم من المنافقين المفسدين (لا تُفْسِدُوا في الأرضِ) ولا تستمروا على هذه الحالة الخارجة عن الإعتدال الموجبة لفساد قلوب الذين يريدون الإسلام أو قلوب المؤمنين الضعاف (قالوا) : مستنكرين لوجود الفساد والإفساد فيهم : (إنَّما نَحنُ مُصْلِحونَ) (١١) أي ليس شأننا إلا الإصلاح . وقالوا ذلك أيضا إما : على وجه النفاق لأنهم يعلمون قلبا أنهم مفسدون لعالم الإسلام مع أنه يعلنون أنهم مصلحون ، أو على حقيقة ما اعتقدوه فإنهم كانوا يزعمون أن الرسول ومن معه أفسدوا الأرض ، وأنه يجب عليهم معارضتهم حتى لا تبقى آثار فسادهم فيها ويصلحونها بأهوائهم الباطلة .

ولما ادعوا بكل قوة أن الإصلاح منحصر فيهم وليس شأنهم إلا ذلك رد الله تعالى عليهم بكمال القوة وقال (ألا إنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدونَ ولكن لا يَشْعُرُونَ) (١٢) أي إن أقوالهم وأعمالهم في مقابلة الأمة المسلمة الإفساد للقلوب وجلب الكروب واختلاق العيوب والخيانة في الغيوب . ولكن لا يشعرون بأنهم المفسدون فضلا عن العلم بانحصار الإفساد فيهم . وذلك لاعتقادهم خلود دين موسى عليه السلام ، وتعاميهم عن الأدلة القاطعة والبراهين اللامعة على أن دينه قد مضى وأنه قد ظهرت أشعة أنوار النبي الهادي المبعوث رحمة للعالمين محمد الخاتم للأنبياء والمرسلين .

(وإذَا قِيلَ لَهُمْ : آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ أَلا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ، وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ)(١٣)

وقوله تعالى : (واذا قيل لهم) معطوف على الجملة السابقة ، والمقصود أن الإنسان يحصل له الكمال الإنساني بالتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل ، وارذل الرذائل إفساد المجتمع وأكمل الكمالات والفضائل التحلي بالإيمان ، فإذا نهوا عن إرتكاب القسم الأول أجابوا بأنهم براء منها ومتصفون بأضدادها ولكن الله رد عليهم أنه ليس الأمر كذلك ، وإذا أمروا بالقسم الثاني وقيل لهم آمنوا كما آمن الناس أي الناس المعهودون المعروفون بالصدق والإخلاص كالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، أو جنس الناس لكن الثابتون منهم قالوا في الجواب : أنؤمن كما آمن السفهاء أي الناس الخفاف العقول فرد الله عليهم وقال : ألا تنبهوا لمعرفة الواقع إنهم هم السفهاء لا المؤمنون ولكن لا يعلمون ما هو الإيمان ومن هم المؤمنون ، أو لا يعلمون أنهم هم السفهاء ولا الذين آمنوا • أي فهم في جهل مركب •

ثم فصّل الباري أحوالهم ، وبيّن أنهم يتحببون إلى أهل ملتهم لكسب المزيد من عزتهم ، كما ينافقون المؤمنين لحفظ أموالهم وأنفسهم وصيانة حريتهم فقال : (وإذا لقُوا الذين آمنوا قالُوا : آمَنَّا ، وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِم قالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ،إنمَّا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤنَ) (١٤)

أي أنَّهم مُصِرّون ودائبون على شيمة الكذب والنفاق مع المؤمنين فاذا لقوا الذين آمنوا من كبار الناس قالوا آمنا بما جاء به سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من زمان سابق ونحن مستمرون عليه كما أنهم تَحَبَّبوا إلى كُبَرائهم في الشيطنة والملعنة الذين يُرجى منهم شيىء من المطامع الدنيئة وقالوا : إنا معكم في العقيدة

والدين ، وفي معاندة المؤمنين ٠ وإنما نحن في مجاراتنا لهم مستهزؤن بهم لا معظمون ولا معتقدون فجازاهم الله بقوله :

(أللهُ يَستهزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ في طُغيانِهِم يَعْمَهُونَ)(١٥) يعني إعلموا أن الله يستمر في الاستهزاء بهم ويزيدهم الآمال الباطلة ، والأهواء الفاسدة ، فتعمى بصيرتهم ، وتظلم سريرتهم وفي طغيانهم يبقون متحيرين حتى يَلْقوا مَوتهم متحسرين ٠ والمدُّ : الزيادة في القوة كالإمداد ٠ والطغيان : تجاوز الحد في العصيان والعَمهُ في البصيرة كالعَمى في البصر ٠ أعاذنا الله منهما بفضله ورحمته ٠

ثم إستأنف الباري سبحانه وتعالى لبيان أحوالهم فقال : (أولئِكَ الّذين اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحتْ تِجارَتُهُمْ وماكانوُا مُهْتَدِين)(١٦) يعني إن أُولئك المنافقين كانت لهم فطرة سليمة مناسبة للهدى ، وكانوا مستعدين لتوجيهها إليه ، ولكنهم أساؤا معاملة النفس ، وأهملوا تلك الفطرة وما تؤل إليه ، واختاروا مقابلها الزائف الفاسد المفسد وهو الضلال ، فما ربحت تجارتهم ومبادلتهم ، نقدَ الذهب ببالي الخشب ٠ وما كانوا مهتدين لطريق التجارة الرابحة بل ضلوا فيها حيث ضيعوا رؤس الأموال والأرباح الواصلة في المآل ٠

وفي الآية الكريمة إستعارة مكنية ؛ حيث شبّه الضلال بالأموال الفاسدة الكاسدة ، والهدى بالذهب والأحجار الكريمة الواردة ، وذكر إشترى قرينة وفيه إستعارة تخيلية ٠ وذكر الربح والتجارة التي وسيلة التبادل ، والمعاملة إستعارة" تخييلية" وترشيح لها ٠

وخلاصة المقام : أنه كان في المدينة المنورة أُناس منافقون كعبدالله بن أبي بن سلول وأعوانه ٠ كانوا يدعون الإيمان ويقولون : آمنا بما جاء به

محمد من عند الله من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره • وهم ماكانوا مؤمنين واقعا ، وغرضهم من ذلك القول أن يخدعوا رسول الله والمؤمنين ولم يشعروا أن وبال خدعهم يعود عليهم ؛ فإن الرسول الكريم قد زاده مقاماً وشأناً ، ونشر دينه في العالم وأبقاه مخلدا ، والمؤمنون قد نالوا بالرشاد والجهاد أعلى مقام الكرامة اللائقة بالأمة • وإذا نصحهم ناصح على أحوالهم وقال لهم : لاتفسدوا في الأرض بالشقاق والنفاق وسوء الأعمال والأخلاق • قالوا في جوابه على التورية : إنما نحن مصلحون الأرض ، أي ناشرون الإسلام • والمعنى المكنون في قلوبهم : أنا إذا سعينا في توقيف مساعيكم فنحن مصلحون لها بإزالتكم عنها وتنويرها بما عندنا • والله سبحانه رد الجواب عليهم وقال ألا إنهم هم الذين إنحصر الفساد فيهم ولكن لايشعرون بما هو الفساد في الواقع ، فكانت أحوالهم هكذا : إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا مضوا إلى شياطينهم الإنس الطواغيت قالوا : إنا معكم إعتقادا وعملا ، وإنا مستهزؤن باتباع محمد وبه وبأتباعه ؛ لأنهم حقراء عندنا ورد الله عليهم بقوله : (الله يستهزىء بهم) وهناك فرق فارق بين من يستهزىء بالله وبين من يستهزىء الله به ، ويزيدهم قوة على الجهالة حتى يمشوا ويمسوا عمهين في مقاصدهم وعمين في مسالكهم • فأولئك الناس حالهم الجسارة ، ومآلهم الخسارة ، وليسوا مهتدين •

ومما يظهر من المقام أنه قد يدعي الإنسان الإيمان ولا يكون مؤمناً واقعاً لعدم وجود التصديق في قلبه ، ولكنه يقر بالشهادتين لأغراض له كالمنافقين وكما في الأعراب الذين جاؤا إلى الرسول وقالوا آمنّا ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : (قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا

ولمّا يَدْخُل الإيمانُ في قلوبكمْ) أي قولوا أسلمنا في ظاهر الحال وإلاّ فالإسلام والإنقياد النفسي لم يتحقق فيهم أيضاً .

ومما تبين عند المحققين أن الإيمان صفة من صفات النفس وكيفية من الكيفيات النفسانية ، وهو العلم التصديقي أي الإعتقاد الجازم المطابق للواقع . والإسلام فعل من أفعال النفس ، وهو الإنقياد والإذعان الفعلي وما دام الإيمان كيفا والإسلام فعلا فهما أمران متغايران مفهوماً وذاتاً . ولكن لمّا كان الإيمان أي التصديق الجازم للمؤمن مشروطاً بالتسليم والإنقياد لِما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان الإسلام في الشرع هو التسليم لما جاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان الإسلام والإيمان متساويين صدقاً وتحققاً ، فكلما وجد الإيمان والمؤمن وجد الإسلام والمسلم، وكلما وجد الإسلام والمسلم شرعاً وجد الإيمان والمؤمن . فنسبة الكفر والجحود والظلم إلى اليهود كانت لعدم مقارنة تصديقهم واستيقانهم بالتسليم ، بل كان مع الإباء والعداء النفسي له ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فالإستيقان المنسوب إلى أنفسهم في قوله تعالى (واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهم) وكذلك المعرفة المنسوبة إليهم في قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) عبارة عن التصديق الجازم المطابق للواقع ، ولكنْ لمّا لم يقارِن التسليمَ النفسي لم يعتبر إيماناً في الشرع فهم كافرون . فخُذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين .

فإن قيل : لما كان الإيمان الشرعي مشروطاً بالتسليم والإنقياد فلِمَ لَمْ يعتبر العصاة من الناس كافرين ؟ قلنا : ذلك التسليم المفسر للإسلام تسليم لأصل الرسالة ، فمخالفه منكر لها . وأما المخالفة من العصاة فمخالفة مع التصديق بالأصل ، أي مخالفة في الفروع وبينهما ما بين الثرى والثريا . أو ما بين الكفر والإيمان هنا .

ومما ينبغي معرفته أنه ثبت بالدليل القاطع أن الإنسان كائناً من كان مستعد بالطبع للخير والشر ، وتوجيهه إلى أحدهما مبني على التدريب والتعويد ، ويشير إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فمن تعودَ شيئاً شبّ عليه ، ومن شبّ على شيء شاب عليه . ولا علاقة في ذلك للذكاء وتعلم العلوم وأخذ الفلسفة وغير ذلك . فكم من فيلسوف معتقد للخرافات ؟ وكم من جاهل معروفٍ له إعتقاد سليم برب البريّات ؟ فالدور الاساسي للتربية والتعليم والتدريب والتهذيب ولها طرق كثيرة لاتحصى ، ومن أوضحها أن يكون المربّي المهذّب مهذّب الأخلاق صالح الأعمال حسن الإعتقاد . وقد يؤثر في طبع النشء الجديد الكلام اللّين ، والطعامُ اللذيذ،والإحترام، وحُسنُ الإدارة معهم . وبذلك ينشأ الجيل الجليل .

فان قلت : اذا تشعب الإنسان إلى شعوب ، وكان لكلٍّ نحلةٌ ومذهب وكلٌّ إعتقد حسن مذهبه فما المميز للحق من الباطل منها ؟ قلنا : العقل السليم مجبور على إسناد الآثار إلى الفاعل العليم المختار ، وبعد الإعتراف به يهتدي العقل إلى الصواب ، فإنه لا يجوز أن تكون هذه النحل المتناقضة كلها حقّاً ، ولا كلها باطلاً ؛ لأن النقائض لا تجتمع ولا ترتفع ، فيجب أن يكون الحق واحداً ، وطريق الوصول إليه عبارة عن البراهين القاطعة المؤلفة من المقدمات البديهية . كأن يقال : كلما كان العالم متحركا إحتاج إلى محرك قادر عالم دائم ، لكن المقدم حق فثبت التالي . أو تقول : كلما ثبت تواترا أنّ سيدنا محمداً إدّعى الرسالة من الله واظهر المعجزة كانت رسالته حقّةً ، لكن المقدم حق فثبت التالي .

ولايخفى تأثير المغريات والمخوفات في القلوب ، وهذه هي التي يعبر عنها بالظروف والمحيط • وهي أقوى عامل في تحويل الإنسان • ومن الله العون وهو المستعان •

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لأولئك المنافقين مثلين : الأول باعتبار أول أحوالهم من الإستبشار بقدوم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإستفتاح به على المشركين في الديار ، ثم التحول إلى الجهود في الجحود والإستنكار • فقال : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذي استَوْقَدَ ناراً ، فَلمَّا أَضاءَتْ ماحوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنوُرِهِمْ وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لايُبْصِرونَ) (١٧) المثل في الأصل بمعنى الشبيه والنظير ، ثم نقل إلى الكلام المشهور السائد بين الناس المشبه مضربه بمورده ، ثم استعير لكل حال أو قصة لها شأن واعتبار • والباء في قوله تعالى (بنورهم) للتعدية • ولما كان فيها معنى الإلصاق والمصاحبة كان أبلغ من الهمزة وفي المثل : كل من ذهب بشيىء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به • وترك بمعنى صيّر •

يعني أن قصة المنافقين باعتبار أول أمرهم من الإستبشار ببعث الرسول الأمي العربي وأنه هو الرسول الذي بشر به الأسفار القديمة ، والإستفتاح بظهوره على مشركي العرب بأنه لما جاء الرسول واستقرت له الدولة لايبقى للمشركين أية صولة وجولة ، ثم التحول عن هذه الحال إلى العداء والعناد والإستكبار والإستنكار كمثل القوم الواقع في مكان طامسٍ وليل داج دامس ، فاستوقدوا نارا للإستفادة من نورها فلما اشتعلت وأضاءت تلك النار بنورها ما حولهم ومحلّهم •• كفروا بنعمة ذلك النور بسوء

العقيدة والشعور ، والعمل الفاسد والقصور ، فعاقبهم الله تعالى ، وذهب بنورهم مع بقاء النار ، وضرب بينهم وبينها بستار ، وصيَّرهم في ظلمات لايبصرون فيها ، أي لايبصر بعضهم بعضا . والظلمات بالنسبة إلى القوم ظلمة الدهشة والحيرة ، وظلمة فقد البصيرة ، وظلمة فقد الإبصار للإستراحة في المقام ، أو لإتمام المسيرة . وبالنسبة إلى المنافقين ظلمة الكفر ظلمة النفاق اللتين جعلتاهم صُمّاً عن استماع الحق . وبُكْما عن القول به ، وعُمْياً عن إبصار ما أمامَهم حتى يَتَخَطَّوْا خُطواتٍ لايقةً بالعقلاء .

والظلمة الثالثة : ظلمة يوم القيامة ولذا قال تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُميٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (١٨) والكلمات الثلاث على وزن فُعْلٍ بضم الفاء وسكون العين جموع : للأصم ، والأبكم والأعمى.أي لما أيِفَتْ عقُولُهم أَيِفَتْ حَواسُّهُم ، فكأنّهم لا يسمَعون ، ولا ينطقون ، ولا يُبصرون . ما ينفعهم فهمٌ بعدَ هذه الحالة لا يَرجعونَ إلى الهدى .

والمثل الثاني : باعتبار ما استمرّوا فيه من العتوّ والعناد والفساد والإفساد . فقال : (أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ ورَعدٌ وبَرْقٌ ، يَجْعَلونَ أَصَابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بالكافِرين (١٩) . يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ ، كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوا فيه وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهم قامُوا وَلَو شاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِم إن اللهَ عَلى كُلِّ شيىءٍ قَديرٌ) (٢٠)

والصيّب : فيعل" من الصوب ، وأصله صَويب ، فقلبنا امكان الواو والياء فصار صَيْوب ، وقلبنا الواو ياء وأدغمنا الياء في الياء فصار صيّب كسيّد • والصيّب هو النازل من فوق ويقال للمطر باعتبار ذاته ، وللسحاب باعتبار ما فيه من الماء • والمضاف محذوف ، أي كذوي صيّب • والظلمات بالنسبة للمطر ظلمة تكاثفه ، وظلمة غمامه ، وظلمة الليل • وبالنسبة إلى السحاب فهي سواد الغيم ، وتراكم بعضه على بعض ، وظلمة الليل • والرعد : صوت يُسمَع من السحاب • والبرق : ما يلمع من السحاب • ولا شك أن الأجرام العلوية وما في الجوّ بل كل كائن من الكائنات عليها ملائكة تتصرف فيها بإذن الله ، فإذا ساق الملك السحاب وقطعها حدَث من تفريقها "أصوات" ولمعات" نورية مختلطة فتسبّح ملائكتها ، وأهل الله يسمعون تسبيحها معرضين عما سواه • والناظر إلى المواد يسمع حركاتها ويَرى ما يَحدث من اصطكاكها ، والصاعقة : قصيفة رعد هائل معها نار لا تمرّ على شيىء إلا أهلكته وأفنته • والخطف : الأخذ بسرعة ، ومعنى الآيتين : أو أنّ قصّة المنافقين كقوم تحت مطر شديد نازل ، أو تحت سحاب فيه مطر هاطل من جانب الفوق في هذا أو ذاك ظلمات بعضها فوق بعض ، ورعد وبرق هائلان مخيفان ، ويجعلون أصابعهم في آذانهم من أجل الإحتراز عن أضرارهما بخرق ستار السمع ، أو بأخذ نور البصر ، حذر الموت أو ما يقرب منه الله محيط بالكافرين ، لا يفوتونه فلا يفيدهم الحذر إذا أتى عليهم القدر • وعند لمعان البرق على الإستقامة والإنحراف واستيلائه على العيون تكاد قوة البرق تأخذ بسرعة نور أبصارهم ، وكلما أضاء لهم البرق حواليهم مشَوْا فيه بمقدار ما استفادوا من نوره ، وإذا أظلم الله عليهم يمنع البرق أو أظلم عليهم البرق باختفائه قاموا هائمين مترقبين برقاً ثانياً

وثالثا • ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وبأبصارهم بوميض البرق لفعل ولذهب بهما ، ولكنه لم يشأ ذلك رحمة بهم ، إن الله على كل شيىء قدير ، أي أنه قادر على ابداع كلّ أمر ممكن يتعلق به ارادته •

والقدرة : صفة تقتضي التمكن من الإيجاد والاعدام والإبقاء • ومعنى كونه قادرا على الموجود حين وجوده أنه إن شاء عدمه أعدمه ، وإن لم يشأ لم يَعْدمه ، وعلى المعدوم حين عدمه أنه إن شاء وجوده أوجده وإن لم يشأ وجوده لم يوجده •

والغرض من الآيتين تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة • أو بحال من أخذَتْه السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف ، وبرق خاطف ، وخوف من الصواعق •

قال الشهاب : والمشبه في الأول مجموع أحوال المنافقين في تحيرهم واضطرابهم مع إظهارهم الإيمان حفظا لدمائهم وأموالهم وذراريهم واهلهم وزوال ذلك عنهم سريعاً بإفشاء أسرارهم وافتضاحهم المؤدّي إلى خسارة الدارين • والمشبه به حال المستوقِد ناراً مضيئة له فانطفأت ، ووجه الشبهِ صلاح ظاهر الحال الذي يؤل لخلافه • وفي الثاني حالهم في الشدة ولباس إيمانهم المبطن بالكفر المطرز بالخداع حذر القتل بحال ذوي مطَرٍ شديد ببرق ورعد ، يرقعون خروق آذانهم بأناملهم حَذَرَ الهلاكِ ، ووجه الشّبه وجدان ماينفع ظاهره ، وفي باطنه بلاء عظيم • ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد وهو : أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها • وملاحظتُها يسيرة" •

ولما ذكر الله تعالى فِرق المكلفين من المؤمنين المخلصين ، ومن الكافرين المعاندين المفلسين من الرحمة والنجاح ، ومن المنافقين الذين ليس

لهم شرف التقوى وكرامتها ولا شخصية العدوّ وشدتها .. نادى عباده المكلفين نداء مؤكداً ، وأمرهم بعبادة الرب الواحد الأحد التي هي أساس السعادة ولها خلق الجن والإنس ، وأتى في سرد ندائه بصفات للمعبود يصح أن يكون كل منها علة لاستحقاقه العبادة فضلاً عن مجموعها .

وقال : (يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُم تَتَّقونَ (٢١) الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً ، والسَّماءَ بِناءً ، وَأَنزَلَ مِن السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فَلا تَجعَلوا للهِ أنْدَاداً وأنْتُم تَعْلَمونَ) (٢٢)

قالوا : إن النداء بصيغة (يا أيها) فيه وجوه من التأكيد وفسّرت بتكرر ذكر المنادي لأنه متبوع بوَصْفٍ هو المقصود بالنّداء فأيّ منادى صورةً ، والناس منادى قصدا . وفيه الإيضاح بعد الإبهام ، واختيار أداة نداء البعيد وتأكيد معناه بحرف التنبيه واجتماع التعريفين في النداء وأل ، ويستعمل في مقام الإهتمام بالمنادى له وهو العبادة هنا فإنها من شأنها أن يتفطن الناس لها ، ويقبلوا إليها بقلوبهم ويستعدوا لأدائها . والناس اسم جنس معرف باللام ، وحيث لا عهد فهو للعموم،وهذا النوع من العموم ، يسمى بالعموم الشفاهي في الأصول ؛ لأن بعض الأفراد موجودون ومخاطبون شفاها ، والحق أنه يشمل أفراده جميعاً سواء الموجودون منهم والمعدومون . أمّا وضعا فلأن لفظ ناس بدون اللام كلي يصدق على أفراد كثيرين ذهنا ، وتعريفه باللام يفيد عمومه وإحاطته بجميع أفراده مرة واحدة ، ويكفي في صحّة الخطاب وجود بعضهم ؛ لأن المعدومين ملحوظون بالتبع كما في قول الواقف : وقفت هذه البساتين على العلماء المدرسين في المدرسة الفلانية . وعلى ذلك فَهْم أهل اللغةِ

والعرف . وأما شرعاً : فلأن عموم الخطابات علم بالضرورة من دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا ما خصّ منها حيث قال : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . وقال : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) . على أن المنادِيَ هو الله وهو عالم بجميع أفراد المنادى ، وهم موجودون حاضرون في علمه تعالى ، والمأمور به من المخاطبين المسلمين إدامة العبادة ، والإستقامةُ عليها ، ومزيد الإخلاص فيها . ومن الكافرين العبادة وإبداؤها بإبداء الإيمان ؛ لأن التكليف يستلزم التكليف بشرطه كما في الأصول .

وذكر المعبود بعنوان الرب إشعاراً بأن تربيته لكم توجب عبادتكم له وتوصيفه بالموصول للتوضيح أو لإخراج الرب المزعوم للكافر البعيد عن قدرة الخلق ، والتوصيف به وعطف عليه بقوله : (والذين من قبلكم) إشعارا بعلة أخرى لاستحقاق العبادة ؛ لأن خلق من قبلنا من مقدمات خلقنا في سلسلة التناسل فخلقهم نعمة لهم بالذات ، ولنا بالواسطة . وقوله : (لعلكم تتقون) إما حال عن فاعِلِ (اعبدوا) يعني أعبدوه راجين الإندراج في سلك أهل التقوى الذين عَبَرُوا عَقَبَةَ الكفرِ والكبائرِ والركونِ إلى الدنيا الدنية التي هي أساس كل فساد .

ثم إستأنف بذكر نِعَمٍ أخرى من مقتضيات خلق البشر وبقائه في الارض فقال : (الذي جعل لكم الارض فراشاً) أي بساطاً تبْقَونَ عليها قعوداً وقياماً ، ومستريحين نياماً ، وساعين للرزق ساعات وأياماً . والارض كيفما كانت كروية أو بيضية أو غيرهما ، فكل قطعة منها تظهر كفراش مبسوط (والسماء بناء) أي وجعل السماء قبة مضروبة عليكم . والبناء مصدر أطلق على المبنى بيتا ، أو قبة ، أو خباءً ، أو غيرها . (وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) ولما جرت عادة الله تعالى

بجعل الماء الممزوج بالتراب سببا لإخراج الناميات التي لها منافع في معاش الإنسان ومعاده ، وللماء دور هام فيها •• عقب النعم السابقة بإنزال الماء من السماء الذي يستعقب إخراج الثمرات مرزوقة للإنسان للإقتيات أو التفكه أو التداوي أو للّبس أو غير ذلك •

ولمّا عدد تلك النعم المقتضية لعبادة المنعم أكّد ذلك بعطف جملة النهي على الأمر وقال : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) أي بعدما علمتم من إفاضة النعم المتلاحقة التي لايمكن صدورها بدون إله واجب خالق قادر فاعبدوه وحده ، ولا تجعلوا له أمثالاً مزعومة مع أنه لا مثل له بالبداهة ، وحالكم أنكم من أصحاب العلم والنظر ، وإذا نظرتم بفكر صاف خال عن العناد والخلاف تبيّن لكم أنكم عاجزون عن إيجاد أي موجود ، وعن دفع الموت والفناء عنكم ، وعن جلب أسباب المعاش وإخراجها من العدم إلى الوجود • فاكتفوا بعبادته وحده ، وكونوا له من الشاكرين •

وهاتان الآيتان نزلتا بالمدينة المنورة ، فما اشتهر من أن كل سورة نزلت فيها (يا أيها الناس) فهي مكية لايوافق الواقع ، فالحق ما قاله الإمام الجعبري كما نقله الشهاب : أن كل سورة فيها (يا أيّها الناس فقط) أو أوّلها حرف تهجٍ سوى الزّهراوين ـ وهما : البقرة ، وآل عمران ـ والرعد في وجه ، أو فيها قصة آدم وإبليس سوى الطولى فهي مكية • وكل سورة فيها (يا أيها الذين آمنوا) أو ذكر المنافقين فهي مدنية •

وفي الحقيقة إن الله سبحانه وتعالى خلق الجن والإنس لعبادته حتى ينالوا السعادة الأبدية ، وما خلقهم لمعصيته حتى ينالوا الشقاوة السرمدية ،

والإنسان إذا تفكر بعقله السليم علم أنه ما من خير في الوجود إلاّ من حضرة واجب الوجود ، وأن الأسباب على الإطلاق أسباب وعلامات ومعرفات ، وأن المسببات إذا وجدت عندها (لا) بها • الله خالق كل شيىء ، وهو على كل شيىء وكيل • فمن كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، ومن كان يريد الرزق فإن الله هو الرزاق ذو القوه المتين •

وعلى هذا الأساس يقول الباري سبحانه يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي ربّاكم وسائر البريات ، وخلقكم وجميع الكائنات • ولا تعبدوا الكواكب والهياكل والأصنام والأوثان وسائر الجمادات ، ولا تتذللوا للأعاظم كالأعاجم ، ولا تتزلفوا إلى أولى القوة والمناصب لنيل الجاه والمراتب ، واعلموا أن المنافع من أي المنابع فهي في قبضة قدرة المبدع الصانع ، فإذا كانت عقيدة المكلف هذه عاش سعيدا ، ومات سعيدا ، ولا يغش الناس في المعاملة ولا ينافق بصورة المجاملة ، ولا يعتبر نفسه إلا فردا من أفراد الأمة العظيمة الإسلامية ؛ نقصه في نقصها ، وكماله في كمالها •

وليس هناك تطرق إلى أن لا يتذلل الإنسان لوالديه جزاء لإحسانهما إليه ، وقد قال تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) • ولايخضع لأستاده حتى يدر عليه بعلمه وإسناده ، ولا يطلب من أي شخص دعاء وقد سأل سيد الرسل من صاحبه أن يدعو له وقال : (لا تنسنا من دعائك يا ُاخي) وأن لايطلب من الرسول شفاعة أو لايستشفع بجاه أحد وقد استثنى الباري شفاعة من أذِن له ، وأن لا يحترم شخصا ممتازا بالعمل الصالح ، وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى ُاحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره

الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه) . رواه البخاري . ولا ندري ماذا يريد بعض المفسرين المقصرين من عباراتهم العارية عن الحقيقة باسم التبصير والتنوير ؟ وما هي إلا تعمية وتكدير ! فسبحانك ربنا أنت تحكم بين عبادك وأنت أحكم الحاكمين .

ولما أمر الباري سبحانه وتعالى عباده بعبادته التي هي السعادة ، وأرشدهم إلى استحقاقه لها بسرد الجمل الجميلة الواضحة عند من نظر في نفسه وفي تلك الأمور الآفاقية أرشدهم إلى الإيمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الإعتراف بالله وبرسوله هما النقطتان الجوهريتان في باب الإيمان وذلك بإرشادهم إلى الإعتراف بأن الكتاب المنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب الله ، ومن زوده ربه بكتابه ، وشرفه بخطابه فهو الرسول القائم بامره على بابه ، والإعتراف يحصل بأن يسعَوْا ويتهالكوا في الإتيان بمثل ذلك الكتاب حتى إذا تبين عجزهم عنه علموا أنه كتاب الله المنزل على رسول الله . فقال مخاطباً إيّاهم :

(وإن كُنْتُمْ في رَيْبٍ ممَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٣) . فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، ولَنْ تَفْعَلُوا ، فاتَّقُوا النّارَ التي وقُودُها النّاسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ) .(٢٤)

الريب : في الأصل قلق النفس ، والمراد الشك . وهو هنا نكرة واقعة في سياق الشرط فتعم كل فرد من أفراده من أي صنف كان . وقوله : (مما نَزَّلْنا) مِن بابِ التَّفْعِيلِ للتكثير في مرات النزول ، ويشمل كل نجم من نجومه قصيرة أو طويلة . وربط الفعل بذاته والإتيان بضمير الجمع

للدلالة على أنا إذا فعلنا شيئاً اتقنّاه • ولايصدر منا عمل غير متقن لاسيما إذا كان العمل تنزيلاً لكتاب يكون أفضل الكتب •

وذكر الرسول بعنوان العبد وإضافته إلى نفسه إشارة إلى أن الذات الذي نزل عليه الكتاب لما كان متصفا بالعبودية الخالصة لله وهي أرقى مراقي الإنسان ، وعبوديته له عبارة عن إختصاصه به وانقطاعه عما سواه ، وحاصله : أنه اختارني للربوبية فاخترته للعبودية • وقوله (فأتوا) أي كلكم وكل من له قابلية الإتيان كائنا من كان وقوله (بسورة) أي أية سورة كانت • وقوله : (من مثله) صفة لها ، والضمير راجع إلى ما • أي فأتوا بسورة كائنة مِن مثل مانزلنا على عبدنا • وقوله : (شهداءكم) أي الحاضرون ، أو المعينون لكم • وقوله (من دون الله) متعلق بادعوا أي (أدعوا غير الله تعالى من حضركم للمعارضة) وقوله (إن كنتم صادقين) أي في أنه من كلام البشر •

وحاصل المعنى يا أيها الناس اعترفوا برسالة رسولنا محمد ، واجعلوا الكلام الذي أنزلنا عليه دليلا على صدقه في دعواه ، لأنه كلام لايعارَض ، ولا يؤتى بمثله ، وإن كنتم في شك مما نزلناه عليه وتظنون أنه كلامه أو كلام غيره كجن ألهمه أو إنسان علّمه فأتوا بسورة كائنة من مثل ذلك الكتاب في حيازته الفصاحة والبلاغة ، وكشفه ما في الأرض والسماوات وإخباره عن المغيبات ، واعتداله ، وصدقه ، ومغايرة أسلوبه ، ودعوة العالم إلى صلاح المعاش والمعاد ، والتخلق بالهدى والرشاد • وعارضوه إن كنتم تقدرون على المعارضة وادعوا شهداءكم غير الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تأتوا بمثله ولاشك أنكم لن تفعلوه انتم وشهداؤكم إلى الأبد فاعلموا أنه منزل من الله على رسوله الأمين المبعوث رحمة

للعالمين • ولاتكفروا به واتقوا النار التي وقودها الناسُ المعذبون والحجارة من الأصنام التي كانوا يعبدونها ، أو حجارة الكبريت لقوة اشتعالها وشدة لهيبها ، أو مطلق الحجارة لصلابتها ، لأن قوة الوَقود على حسب شِدّة الوُقود ، وأُعِدّت وهيئت ، وخلقت تلك النار لتعذيب الكافرين المتمردين الخاسرين • أعاذنا الله من أحوالهما •

ثم إعلم أنه قد ثبت عند المنصفين من أهل البلاغة والأدب الرائع أنْ القرآن الكريم معجزة ببنائه وبيانه ، ولم يعارضه أحد منذ نزوله إلى الآن ، ولو عارضه أحد لنقل تواترا لتوفر الدواعي على نقله ، وقد ذكر العلماء في سرِّ إعجازه أموراً كثيرة • واقواها هي الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي في تفسيره الكبير فقال :

أحدها أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات ، مثل وصف بعير ، أو فرس ، أو جارية ، أو مِلكٍ ، أو ضربة أو طعنة ، أو وصف حرب، أو وصف غارة ••• وليس في القرآن من هذه الأشياء شيىء • فكان يجب أن لاتحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم •

وثانيها : أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق تنزل شعره ولم يكن جيّدا ، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة ، وحسان ابن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ، ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي ، وإن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء في القرآن فصيحا كما ترى •

وثالثها : أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لايكون كذلك • وليس كذلك القرآن ؛ لأنه كله فصيح بحيث يعجز عنه الخلق ، كما عجزوا عن جملته •

ورابعها : أن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيىء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيىء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلا .

وخامسها : أنه إقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح ، والحث على مكارم الأخلاق ، وترك الدنيا .. واختيار الآخرة ، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة .

وسادسها : أنهم قالوا : إن شعر إمرىء القيس يحسن عند الطرب ، وذكر النساء وصفة الخيل . وشعر النابغة عند الخوف ، وشعر الأعشى عند الطلب ، ووصف الخمر ، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ... وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك . أما القرآن فإنه جاء فصيحا في كل الفنون على غاية الفصاحة ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وقال تعالى : (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) وقال في الترهيب : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الآيات ، وقال : (أأمنتم من في السماء أن يَخسفَ بكُمُ الأرضَ فإذا هي تمور ؟ أم أمنتم الآية) وقال في الزجر : (وَكُلاً أخذنا بذنبِه) الى قوله : (ومنهم مَن أَغرقنا) وقالَ في الوَعظ ما لا مزيد عليه : (أفرأيت إن متعناهم سنين) ؟ وقال في الإلهيات : (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد) الآية .

وسابعها : أن القرآن أصل العلوم كلها ، فعلم الكلام كله في القرآن ، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن ، وكذا علم أصول الفقه ، وعلم النحو ، واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا وإخبار الآخرة ، واستعمال مكارم

الأخلاق ••• ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى • إنتهى كلامه •

قلت : وكل من هذه الوجوه التي ذكرها الإمام الرازي رحمه الله تعالى حق حقيق بالقبول ، وحقيقة سرّ تلك الوجوه أن الكلام صفة المتكلم ، وكل متكلم فله طاقات محدودة والقرآن الكريم كلام الباري تعالى، وللباري تعالى قدرة شاملة لا نهاية لها ، فأي موضوع يتصور ويذكر فالباري تعالى عالم به وبملابساته ، وله الكلام النفسي الذي يتحمل التعبيرات اللا متناهية بالوجوه اللامتناهية • فكيف تصل الطاقات المحدودة إلى درجة الطاقات اللامحدودة ؛ فإذا فرضنا رجلين يتسابقان في الوصول إلى غاية ، وفي أثناء المسافة طار أحدهما إليها ووصلها بقي منافسه في دهش وحيرة ، وإذا تناظر عالمان في موضوع علمي يختص أحدهما به وللآخر يد طولى في سائر العلوم ايضا فكيف يقابل هذا العالم المختص ذلك العالم المتبحر ؟ فسر أوجه إعجاز القرآن أن ألفاظه من أي باب كان فللباري سبحانه علم وقدرة في التصوير والذكر والتعبير بحيث تتجاوز عن إمكان غيره ، وفي واقع الحال يعجز غيره عن الإتيان بمثل ما أتى به • يرشدك إلى صدق ذلك مغايرة أسلوب القرآن الكريم لأساليب التركيبات العربية نظماً ونثراً بحيث إذا تفكر العاقل فيه علم أن أسلوبه لايناسب أساليب الكلام المعتاد ، ويعلم أنه مختص برب العباد وكذلك بلاغته المتجاوزة عن طاقة البشر ، وذلك لأن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال ، ورعايتها تحتاج إلى العلم الوافي بالأحوال والمقتضيات ، والقدرة على التعبير على ذلك • وليس عند احدٍ العلم بها غير الله سبحانه وتعالى إلا بمقدار محدود وربما يرى المتكلم مخاطبه عاقلاً أو عالماً أو جاهلاً ويتصور له أحوالا ويلقى كلامه حسب مرامه مع أنه يخالف واقع الحال ومقتضاه •

ثم إنا إذا نظرنا إلى أحوال الناس وعلومهم وأفكارهم علمنا أن الأفراد منهم قليلا ماله العلم بأحوال الدنيا ومتطلباتها فإذا تكلم بشييء من ذلك فلا يأتي إلا بناحية من نواحيها وشييء قليل ، حتى لو قررت جماعات ، وشكلت لجان لتأليف كتاب حول ذلك وجدناه ناقصا بعد مدة وجيزة ، ومحتاجاً إلى التغيير والتكميل . وأما القرآن الكريم فبما أنه كلام علام الغيوب عالج النظر إلى الصانع ووحدته وصفاته ، ورسالة رسله ، والكتب المنزلة عليهم . وعالج عالم الغيب،والبرزخ،والآخرة، وجزاء الاعمال،ومايستحقه العمال بالمآل . وعالج أمور الدنيا براً وبحراً وجواً ، وأمور السموات ومافيها من الكواكب . وعالج الأمارة ، والإدارة ، والعدالة ، والمشاورة ، ورعاية الأمانات ، والإجتماعات ، وأسباب المعاش ، وصيانة البلاد والعباد بإعداد القوة ، والنظر في المستقبل والحال ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي يحتاج إليه البشر . وقد جمع القرآن الكريم كل ذلك إجمالاً أو تفصيلاً . فالإنصاف أن هذا الكلام لايمكن صدوره على وجه الكفاية إلا من علام الغيوب العالم بالبداية والنهاية . فسبحانه مِن إلهٍ عليم علام المنزلِ على حبيبه كلاماً مرشداً إلى السعادة بالدّوام .

ولما ذكر الكافرين وعقابهم ، جاء بذكر المؤمنين على صورة الأمر برسوله الأمين أن يبشر عباده المؤمنين تبجيلا وتشريفا لهم . فقال : (وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ أَنَّ لهم جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأنهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا : هذا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً ، وَلَهُمْ فِيها أَزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وهُمْ فِيها خالِدونَ)(٢٥)

جملة (وبشر الذين) عطف على الجملة السابقة ، كل جملة لطائفة وبيان عاقبة أمرهم جَرْيا على عادة الباري سبحانه وتعالى في تشفيع

الترهيب بالترغيب ٠ والبشارة : الخبر السارّ ، ولذلك خص شرعاً بأول الأخبار السارّة فإن مابعد الأول لا يفيد ما يفيده الأول ، وقالوا : مَن بَكّر به فهو المبشّر ، ومن أتى بعدُ فهو مخبر ٠ وعطف العمل على الإيمان دليل على تغايرهما ٠ وهو يدل على أن السبب لدخول الجنة ونيل الجزاء الموفور هو مجموع الأمرين ٠ فإن قلت : قد عُرِف من الدين أن الإيمان وحده سبب لدخولها ٠ فكيف تجعل الأمرين معاً سببا له ؟ قلت : قد يكون لشيىء واحد أسباب متعددة ، فجعل شيىء سبباً لاينفي وجود أسباب أخرى ، كما تقول : متى طلعت الشمس أضاءت الغرفة ٠ ويجوز أن تكون مضيئة في الليل بالمصباح ٠ وقد يجاب بأن الإيمان الثابت في الواقع لاينفك عن الأعمال الصالحة فتَعُودُ سببيةُ الإيمانِ لدخولها إلى سببيته مع الأعمال ، والتصريح بالإيمان فقط في بعض ماورد لكونه أساس السعادة ومنبعها ٠ وأجاب آخرون بأن الأيمان وحده سبب لدخول الجنة مع قلة الدرجات ، ومع الأعمال سبب له مع كثرة الدرجات على مستوى الأعمال الصالحات، فإنه لا يستوي من المسلمين من آمن وعمل كثيرا من الأعمال الصالحة المهمة مع من يؤمن ويعمل بعضاً منها ، فالجنة من الإيمان والدرجات بحسب الأعمال ٠ وقد يقال : إن الإيمان لايثبت شرعاً إلا بالإقرار ، وهو من جنس الأعمال الصالحة ٠

وقوله (تجري من تحتها) صفة أولى للجنات ٠ وقوله : (كلما رزقوا) صفة ثانية ٠ وكلما ظرف والعامل فيه جوابه وهو لتكرار ترتب الجواب على مدخوله ٠ وقوله (متشابها) أي متماثلاً في الصورة ٠ وقوله (مطهرة) أي من أدناس الصورة والسيرة ، والدماء والأمراض ، مما ينغص

العيش على الصاحب • وقوله (وهم فيها خالدون) من تتمة النعم وجزؤها الأعلى في الاعتبار • إذ

لاطيب للعيش ما دامت منغصة

لذاته بادّكار الموت والهرم

يقول الباري سبحانه آمراً حبيبه لتشريف المؤمنين وإفادة أن الرسول هو الوسيلة لوصول الإيمان إلى العباد فيكون مبدأ لبشارتهم بالثواب ، بشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصّالحة المُستساغة المحسّنة في الدين كأداء الأركان ، والوفاء بحقوق الإنسان ، ورعاية الأمانة والعدل في الاحكام ،والعفو والإحسان ، وصلة الأرحام ، ومساعدة الضعاف والأرامل والأيتام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، والجهد في نشر العلم والعمل الطيب ودفع المفاسد والأوهام ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والمجاملة في المعاملة والكلام ، والإنصاف وحفظ الغيب للأنام ومنع الجوارح عن الآثام ، والقلب عن كل مايضرّ الخواص والعوام •• أن لكل منهم جنات بحسب مستوى أعماله على العدل ، أو فوق ذلك بالفضل ، وتلك الجنات تجري من جانب أسافل أشجارها الأنهارُ في سواقٍ وخدود ، أو على سطح الأرض بإرادة الملك المعبود ، ويتمتعون بثمارها التي لاتحيط بها إلا علم الله ، فلا تعلم نفس ما ُاخفي لهم من قرة أعينٍ ، وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الثمر هو الذي رزقنا من قبل في الدنيا ويفرحون به ؛ لأنهم مألوفون به ، أو هذا الثمر هو الذي رزقنا من قبل في الجنة ، وأتوا بذلك الثمر متشابها بعضه مع بعض في الصورة ، ومتخالفاً في الطعم واللّذة ، وهناك ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ولهم فيها للإبتهاج والأنس والألفة أزواج لطيفة المزاج ، مطهرة

من كل ما يكدر صفو العيش من الأقذار والأوزار وسوء المقال والطيش ، وهم فيها خالدون دائمون ، وعن كل أذىً سالمون • رزقنا الله الدخول والخلود ببركة صاحب المقام المحمود سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

ومما ينبغي أن يتنبه له أن من مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بأنه كما كان الباري تعالى قادرا على خلق الأرض والسماوات ومافيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب اللماعة الثابتة الدائمة منذ خلقت ، والمواد العنصرية الجامدة والنامية والحيوانات والإنسان المتصف بالاستعداد للتطورات •• فهو قادر على خلق الجنة التي عرضها السماوات والأرض في العالم الذي هو أوسع منهما بما لايعلمه إلا خالق الكائنات ، وعلى خلق جهنم مأوى لأهل السيئات ، وعلى خلق إستعدادات بلا نهاية وقابليات بلا غاية في أجزاء الجنة والجحيم وأبدان أهلهما للبقاء في العذاب الأليم أو في النعيم المقيم • فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة ، والقادر على الإعادة قادر على الإخلاد ابَدَ الآبدين •

والإيمان بعالم الغيب إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسالات رسله وبالقضاء والقدر ويوم الدين ، فإن الإيمان بقدرة إخراج الشيىء من العدم إلى الوجود هو إيمان بالذات الواجب الوجود • والواجب متصف بالكمالات اللا متناهية والتصرف في الممكنات من خصائص رب العالمين •

ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض التمثيلات إدعى بعضُ المعاندين أنها لاتناسب عظمة الباري سبحانه رد عليهم ذلك وأنزل قوله (إنَّ اللهَ لا يَسْتحي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعوضةً فَما فَوْقَها ، فأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا فيَعْلَمون أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَيَقُولونَ : ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ويَهْدِي بِهِ كَثِيراً ومَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ ويُفْسِدونَ فِي الأَرْضِ ، أولئِكَ هُمُ الخَاسِرونَ)(٢٧)

الحياء : إنقباض النفس عن القبيح مخافة الذم ، وهو الوسط بين الوقاحة والخجل . وإذا وُصِف الباري تعالى به فالمراد الترك اللازم للإنقباض . وضربُ المثل : ذكر مثال لإيضاح أمرٍ مُبهم مهم . والبعوضة : الخموش . والحق : الأمر الثابت ، أو الحكم المطابق للواقع ، والفسق لغة : خروج مادة من محل إلى آخر ، وشرعاً : خروج المكلف عن أمر الله بارتكاب الكبيرة أو الإصرار على الصغيرة . ولها ثلاث درجات : الأولى التغابي وهو أن يرتكبها مستقبحاً لها . والثانية : الإنهماك وهو أن يعتاد إرتكابها غيرَ مبالٍ بها . والثالثة : الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها فيخلع ربقة الإيمان عن عنقه ، ويلابس الكفر والعياذ بالله . والنسبة بينه وبين الكفر العموم والخصوص المطلق ؛ فكل كفر فسق وليس كل فسق كفرا .

والنقض : تفريق طاقات الحبل وربط بالعهد لتشبيهه به في الربط بين الطرفين ، واستعير له الحبل في النفس إستعارة مكنية ، وذكر النقض قرينة .

والعهد : الموثق . والوثاق والميثاق : عقد يؤكد بيمين . والموثق : الاسم منه . قالوا : عهود الله تعالى ثلاثة : عهد" أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقرّوا بربوبيته . وعهد" أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه . وعهد" أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه .

والمراد بالعهد هنا الحجة القائمة على عباد الله عقلا الدالة لهم على توحيده وصدق رسوله ، فعلى هذا يلزم الذم لأنهم لما نقضوا ما أبرمه الله من الأدلة العقلية التي كررها عليهم في الأنفس والآفاق ، وأكدها وأوثقها بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وإظهار المعجزة .. فقد نقضوا عهده من بعد ميثاقه . والناقضون على هذا جميع الكفار . أو العهد المأخوذ بالرسل على الأمم بأنهم إذا بُعِث إليهم رسول مصدّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه . والناقضون على هذا علماء أهل الكتاب ، والمنافِقون السائرون في فلكهم .

وقوله : (أن يوصل) في محل الخفض بدل من ضمير به . وهذا القطع يشمل قطع الصّلة المشروعة أيّا كان ؛ كقطع الصلة بين الله وبين الرسل بإنكار رسالتهم ، وبين الرسول والأمة بمنع إيمانها به ، وبين العلماء وأفراد المسلمين بمنع إرشادهم لهم وقطع الأرحام وأواصر المحبة بين العوائل ، وقطع علاقة النفس بالجمعة والجماعات وغيرها من الأمور الإجتماعية الإسلامية .

والفساد : الخروج عن الإعتدال . والإفسادُ إخراج الشيىء عنه ، ويشمل السعي في إنشاء كل عمل غير مشروع كالمنع من الإيمان والإستهزاء بشعاره ، وبث النفاق والشقاق والتفرقة بين المسلمين . والخسران : يكون بإضاعة رأس المال كله أو بعضه وبعدم الفائدة . وإهمالُ العقل رأسُ كلِّ خسارة أعاذنا الله منه .

وحاصل تفسير الآيتين : أن الله سبحانه لما أرسل الرسول وأنزل الكتاب أراد إتمام نعمته على عباده بإرشادهم إلى سبل السعادة . والناس

على اختلاف الطبيعة في فهم المعتقدات والأحكام ، فإذا بين لهم مبهما بمثال مفسر عظيماً كان كالجبال والجمال ، أو صغيراً كالبعوضة ، أو متوسطاً كما بينهما .. فقد أكمل نعمته وأوسع رحمته فلا يترك هذا الخير أبدا والناس عند ذلك صنفان : مؤمن ، وكافر . فأما الذين آمنوا بالله وسعة رحمته ومقارنة أعماله لحكمته فيعلمون أن ذكر المثال عمل جليل ومتقن من ربهم . وأما الذين كفروا بالله وآياته فاستمرّوا في معارضة بيناته ويستفهمون إستنكاراً : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ وهم وإن أنكروا وأبوا عن قبول الحكمة ـ نقول لهم : أراد الله بذلك المثال وأشباهه أن يضل كثيرا من الناس الناسين لحقوق النعمة ، ويهدي به إلى فهم المقصود كثيرا من الناس الشاكرين لها . وما يضلّ به إلا الفاسقين الخارجين عن الطاعة ، الذين ينقضون عهد الله معهم في إلتزام الحقوق بعد ميثاقه وتوكيده بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ويقطعون ما أمر الله بوصله من الإيمان والإسلام وملابساتهما ، وينشرون الفساد في الأرض وأولئك هم الخاسرون في الحال والمآل بإضاعة العقل والكمال كالتجار المضيعين للأرباح ورؤوس الأموال .

ولما ذكر أحوال المؤمنين الراشدين والكافرين المعاندين والمنافقين وضرب لهم الأمثال وأجاب عن توهماتهم توجه إلى الكافرين على الإطلاق ، واستخبرهم عن الحال التي يقع عليها كفرهم مستنكراً فقال : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢٨)

كيف : أداة إستفهام ، وقد تستعمل للإستخبار إستعمالَ أرأيتَ بمعنى أخبرني ، والفرق بينه وبين الإستفهام أن الإستفهام يقتضي جهل المستفهم بالجواب بخلاف الإستخبار ، فقد يستخبر العالم بالجواب للتوبيخ

والتعجيب ، فإذا كان الإستخبار معنى حقيقياً يكون التوبيخ والتعجيب معنى لازماً مجازياً ، أو معنى مجازياً كما هو المشهور كان التوبيخ والتعجيب من المستتبعات حسب عرف المستعملين •

والحياة والموت : أمران متقابلان تقابل العدم والملكة ، فالحياة : حقيقةٌ كيفية من الكيفيات النفسانية وصفة تقتضي الحس والحركة الإرادية • والموت : عدم الحياة عما من شأنه ذلك كما في العناصر الموجودة في الوالدين القابلة للإتصاف بها •

وقد تستعمل الحياة مجازاً في القوة النامية ؛ لأنها من مقدماتها كما في قوله تعالى : (إعلموا أن اللهَ يُحي الأَرضَ بعد موتها) وفي مايخص الإنسان من الفضائل كالعقل ، والعلم ، والإيمان • كما في قوله تعالى : (أوَمَنْ كان ميتاً فأَحْيَيناه) ويستعمل الموت في كل مقام مقابلاً لها كما عرفت • وأما في الباري تعالى فهي صفة قائمة بذاته مبدأً لاتصافه بالعلم والإرادة والقدرة وغيرها •

فإذا كان الإستخبار والتوبيخ على كفرهم بوجود الباري تعالى كما هو الظاهر فمعنى الآية : أخبروني على أيّ حالٍ يصدر منكم الكفر والإنكار لوجود الله وكنتم أمواتا وعناصر ومَوادٌ لا حياةَ فيها فعلاً على الوجه المعتاد ، وإن كانت فيها قابليتها ، فأحياكم بخلق الأرواح ، ونفخها فيها ، ودخلتم في عالم الإنسانية والإتصاف بالفضائل وبقائكم عائشين متنعمين ، ثم يُميتكم بعدها ثم يُحييكم الحياة البرزخية في القبور كروضة من رياض الجنان ، أو حفرة من حفر النيران • أو الحياة الإعتيادية بل أقوى وأولى في يوم النشور بنفخ الصور للحشر والحساب والميزان بامر الملك الديان • ثم إليه تُرجَعون فيجازيكم على أعمالكم •

فأخبروني ما هي الحال التي تقع الكفر فيها فإذا لم تجدوا حالاً مناسباً له فلابد أن لا تكفروا ، وأن ترجعوا إلى الإيمان بالله ذي العدل والإحسان .

وتلك الأحوال لما كانت بعضها الأكثر يقينية ، والبعض الآخر عليه البرهان فكأنها كلها معلوم عندهم . ويصح التوبيخ على كفرهم مع علمهم بتلك الأعمال . وإذا كان الخطاب للمسلمين كان الإستخبار بكيف لتقرير المنّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم . ويحمل الموت والحياة على المعنيين المجازيين ؛ إذ لم يكفروا حتى يحتج عليهم بهما . والمعنى كيف يتصور منكم الإنحراف عن الإيمان والتلبس بالكفر مع أنكم جاءتكم النعم الجسام من الله إذ كنتم جهالاً لا علم لكم ، وأفاض الله عليكم نعمة العقل والعلم والإيمان والفضائل ، ثم يميتكم للتنعم البرزخي في القبور ، ثم يحييكم حياة سرمدية للجنان والرضوان .

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أموراً أخرى هامة مما تقتضيه الحياة حتى تكون حجة على من كفر بالله العلام ، أو أشرك معه الأصنام ، وتذكيراً بالنعمة لمن آمن به وأخذ يسلك مسلك الإسلام . فقال : (هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (٢٩)

ومعنى خلق لكم : خلق لأجل إنتفاعكم في دنياكم ودينكم على أساس أنها حِكَمٌ ومصالح وغاية مترتبة على أفعاله تعالى ، لا على أنها أغراض للباري تعالى يستكمل بها ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً . والمراد بالأرض : جهة السفل من نفس الأرض وما معها وفيها وما عليها من المعادن والأنهار للمزارع،والبساتين ،والجبال،والصحارى ،والبحار ، للسير عليها والغوص في أعماقها والإستفادة مما فيها . وجميعاً حال من الموصول الثاني . ولما كان

الخلق للإنتفاع خُصَّ من العموم ما لانفع فيه من أي جهة • وهذه الجملة الشريفة تقتضي إباحة جميع الأشياء النافعة بعد الشرع بالطريق المشروع ؛ فلا يستلزم إباحة كل واحد لكل واحد بل إباحة الكل للكل أي المجموع للمجموع • وهو ظاهر وأما قبل الشرع فلا حكم ، لأن الحكم لله وحكم الله يبينه الرسول وإذ لا رسول فلا حكم قطعاً • وأما حكم المعتزلة بإباحتها قبله فمبني على تحكيم العقل ، وإذ لا تحكيم عندنا فلا حكم • وأما مانسب إلى بعض أهل السنة من القول به فإن كان على معنى الترجيح بالعقل فلا مانع منه ، وإن كان على تحكيم العقل وتحسين الفعل أو تقبيحه فليس ذلك من شعارنا •

وثم : للتراخي الزماني واستوى أي قصد وتوجه • والسماء إن اُريد بها الأجرام فضمير الجمع المؤنث عائد إليها ، وإلا فهو ضمير مبهم يفسره سبع سماوات • وفي خلق السماوات والأرض آيات ظاهر بعضها تقدم الأرض على السماوات ، وظاهر بعضها العكس وفي ذلك إضطراب • ودُفع بأن خلق نفس الأرض كان قبل خلق السماوات ، وأما دحوها أي بسْطُها ، وخلق الجبال والتلال والأنهار وما شاكلها فكان بعد خلق السماوات كما يظهر من صريح جواب ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ للسائل عن الموضوع وأمّا قوله (وهو بكل شيىء عليم) فهو تعليل لما سبق من خلق ما ذكره على الكميات والكيفيات والغايات التي معها أي ولكونه تعالى عالماً بكل شيىء أزلا وأبدا خلق ما خلقه كذلك • فعلمه تعالى بها للقضاء وإرادته للتخصيص وقدرته للتطبيق بتأثيره • وبعد صدور ماصدر يتفكر من تفكر ويتبصر من تبصر إن الله تعالى حي عليم ومريد وقادر وحكيم •

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى في سرد قصة عجيبة نعمة أخرى مما أنعم بها على عباده بقوله الكريم : (وإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلئِكَةِ إنّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً • قالُوا : أتَجعَلُ فيها مَنْ يُفسِدُ فيها ويسفِكُ الدِّمَاءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال إنّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ(٣٠) وعَلَّمَ آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها ثمّ عَرَضَهُمْ على الملئكة ، فقال : أَنبِئُوني بأَسْمَاءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)(٣١) قالُوا : سُبْحانَكَ لاعِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحكيمُ (٣٢) قال : يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأَسْمائِهِمْ ، فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بأَسْمائِهِمْ قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنّي أعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدونَ وَماكُنْتم تكتُمونَ؟ (٣٣) وإذْ قُلْنا لِلملئِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ أَبى وَاستكْبرَ وَكانَ مِنَ الكافِرينَ)(٣٤)

وهنا فوائد مهمة ينكشف بها المقام :

الأولى : أن الملائكة والجن نوعان ممتازان موجودان خلقهما الله تعالى قبل خلق البشر •

أما الملائكة فجمهور العلماء على أنها أجسام لطيفة نورية أو هوائية شأنهم الخير والطاعة • وأما الجن فأجسام لطيفة نارية متمكنة من الطاعة والعصيان • فتميز كل عن الآخر في الخلق • وكل منهما قادر بأمر الله على التشكل بأشكال مختلفة ، لكن الملائكة لا تتشكل في غير شكلها الأصلي إلا بشكل نظيف مرغوب • وأما الجن فقد تتشكل بالمرغوب أو بالمكروه • وسرّ الإقدار على ذلك التشكل التمكنُ من الوفاء بما أُسند

إليهما من الاعمال • ولذلك تمثل جبريل عليه السلام عند سيدتنا مريم بشرا سويّاً وكان يتمثل عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرات في صورة دِحية وهو شاب من شباب العرب المسلمين •

ولكل منهما أصناف كثيرة حسبما وردت بها الآيات والأخبار والآثار فمن الملائكة : المقربون وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل • ومنها حملة العرش • ومنها أهل الملأ الأعلى • ومنها : الكروبيّون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون • ومنها : المدبرات لأمور الكائنات ومنها : زوار البيت المعمور المقابل لبيت الله الحرام فوق • ومنها : من غشي سدرة المنتهى •

ومنها : الحفظة والكرام الكاتبون وملائكة السؤال في القبور • ومنها : خزنة الجنة ورئيسهم رضوان • ومنها : خَزنة النار ورئيسها مالك • وتفصيل أصنافها وترتيب درجاتها مذكور في الكتب التفسيرية وغيرها ، كتفسير الإمام الرازي ، وفتاوى الخاتمة للشيخ ابن حجر الهيثمي وغيرهما • وخلقهم بأمر الباري كن فيكون •

ولهم حياة أقوى من حياتنا وعلم أوسع من علومنا ، وأولهم خلقا حملة العرش ثم الملائكة الأربع المقربون ، وآخرهم موتا أولئك الأربعة • وفي الآخرة منهم من هو في الجنة لكن لا للتنعيم ؛ لأنهم خلقوا على الطاعة وما كانوا مكلفين • ومنهم على باب الجنة • ومنهم حملة العرش • ويزدادون على ما في الدنيا • (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) •

وأما الجن : فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله خلق أبا الجن من مارج من نار ، ودلّ القرآن والسنة على أن أصل الجن النارُ ، ولكنها مخلوطة بمواد أخرى ، ولذا تحرقه الشهب السماوية • وورد أنهم

يتناكحون ويتناسلون ، وهم مكلفون • وقد أرسل الله رسولنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم ، وذكرهم في كثير من الآيات والسور ، كسورة الأحقاف ، وسورة الجن ، وسورة الناس • وإن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، وإبليس عليه اللعنة هو واحد منهم • وله ذريات لايحصون كثرة•قال تعالى في سورة الكهف :(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وذريَّتَهُ أولياءَ من دوني وهُمْ لَكُم عدُوٌّ ؟ بئس للظالمين بدلاً !) ونحن لا نراهم في الدنيا ، وهم يروننا • وأما في الآخرة فبالعكس • ويموتون ويُحاسَبُون كالبشر • فمنهم من في الجنة ومنهم من في النار • فالمعاد شامل للفريقين كما ثبت في الكتاب وسنة النبي المختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

فتبين من هذا التقرير : أن الملائكة والجن نوعان متباينان ويختص كل منهما بجنس وفصل جوهري للتميز والفرق بينهما من وجوه كثيرة عديدة :

الاول : أن الملائكة خلقوا من النور أي مادة مضيئة غير النار ، وخلقهم بالأمر التكويني لا بطريق التناسل • والجن خلق أصله من النار قال تعالى : (والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السموم) ويقول ابليس : (خلقتني من نار وخلقته من طين) وانتشارهم بطريق التناكح والتناسل • ومعناه أن فيهم الذكور والإناث • واما الملائكة فلا يوصفون بهما • ورد الله تعالى على الزاعمين لذلك بقوله الكريم (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) •

الثاني : أن الملائكة معصومون لايتأتى منهم العصيان إذ ليس فيهم قوة النفس من : الغضب ، والشهوة ، وما يترتب عليهما قال تعالى : (لايَعْصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) إلى غير ذلك من الآيات المبينة لصفاتهم الحميدة •

وأتعجب من قول بعض المفسرين الذين أعجب بهم العالم حيث قال : ولا نرى فصلاً جوهرياً يميز بين الجن والملائكة مع الفرق بينهما بأخص الصفات ! فإن أراد أنه لا يعلم كنه ذلك الفصل فله الحق ؛ لأن كشف سر الحقائق متعذر أو متعسر . وإن أراد أنه لاعلم له بأدلة ترشده إلى تميز جوهري بينهما فأظن بعد هذه الآيات والأخبار الحاكية عن اختلاف اللوازم أن عدم التميز بينهما من عدم التميز !

الفائدة الثانية : أن ظاهر الآية الشريفة أن الحِوار كان مع جميع الملائكة ، والذي يقرب إلى العقل أنه كان مع أهل الملأ الأعلى منهم . فإن من الملائكة جمعاً مختارون بمزيد عناية يقول سبحانه وتعالى : (الله يصطفي من الملائكة رسلاً) وقال : (جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء) وعلى أي حال فظاهر الحوار : أنه كان كلام الباري تعالى معهم إلقاءً ربّانياً وسماعهم منه تلقيّاً روحانياً على مثال الأوامر الأخرى الصادرة منه تعالى إلى المأمورين منهم . وهذا المقدار كاف في المقام لأهل الاعتبار .

ثم الخطاب لم يكن على وجه الإستشارة بهم لأن الله تعالى جرى علمه الأزلي بكل شيىء يجري في الكون ، وإنما كان على وجه الإخبار لهم ليذكروا ما ذكروا حتى يبين لهم بعضا مما أراد إظهاره من شرف سيدنا آدم عليه السلام ، وتعليمه الأسماء كلها ، ثم عجز الملائكة عن إظهار ما علمه وأمره تعالى بسجودهم له سجودَ تشريف وتكريم على العادة لا سجود تعظيم وتقديس وعبادة . ولِيَتَسلّى الرّسولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحكاية الواقعة عليه وأنّ الملائكة المعصومين لما كانوا مع الله على سؤال واستفسار فكيف لا يكون الكفار المعاندون له على عناد معه واستكبار ؟ وليبين للملأ الأعلى أنه كما كان قادراً على خلق العالم وخلق قوم لايعصون

الله ما أمرهم فهو قادر على خلق قوم شأنهم المعصية والبغي والعناد كالشيطان وذريته ، وخلقِ قومٍ فيهم الأنبياء والأصفياء ، والصالحون الأتقياء والعلماء الأعلام ، والمجتهدون الكرام كما أن فيهم قوماً تمردوا عن الطاعة ورضوا ببخس البضاعة ، وسلكوا مسالك الإجرام والآثام . وإلاّ فَسِرُّ الإبداعِ والقدر لا يُكْتَنَهُ للملك ولا للبشر ؛ لأن سرّ خلق الكائنات أجسامِها وأرواحها ، وشقائها وسعادتها المحدودة واللامحدودة ، وأسرار كيفية تصريفه للعالم وأوضاعه وأحواله من جهل إلى علم ومن علم إلى جهل من سيّىء إلى حسن ومن حسن إلى سيّىء .. مما استأثر الله بعلمه وهو من الغيب ، وبعض الغيب يبقى غيباً ، وبعضه مما يكشفه لأنبيائه ورسله كما قال : (ولا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) أو لبعض المخلصين السالكين في سبيل الحق وعَبَدوا الله كما قال : (واتقوا الله ويعلمكم الله) أو لمَنْ اختاره لتدبير أمور أجرى بها قَلَمَاً كما قال : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً) .

الثالثة : الظاهر من الأدلة : أن المراد بالخليفة خليفة الله تعالى فإن إطلاق الخليفة بذلك المعنى هو المتبادر كما في قوله تعالى : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) وليس المراد بالخليفة من يخلف الجن عليها ؛ لأنهم لم يكن لهم مقام كريم ولا جاه عظيم حتى يأتي الله بقوم يكونون خلفاء عنهم . ثم خلافتهم عنهم لا تحتوي شيئاً مهماً ، وإنما المهم في أن يكون البشر الشريف كآدم وسائر الأنبياء والرسل من نسله مظاهر تجليات الرحمة في التعليم والتربية الصالحة وبث الأعمال العالية ، والأخلاق الراقية ، وتعمير الأرض بالتنوير ، وبثّ روح الإعتصام وصلة الأرحام ، وتقوية أواصر الوئام بين الأنام . حتى يعيشوا سعداء ويموتوا سعداء وتتحقق

الغاية في خلق البشر من العرفان والعبادة ٠ وبذلك كانوا خلفاء في خدمة الحق وإعانة الحقيقة وإلا فسائر الأشياء هباء ٠

ولما استفادت الملائكة الكرام من كشف معنى الخلافة لهم إحتواء الخلفاء مظاهر القوة ، وإيداع الطاقات الإيجابية والسلبية فيهم استفسروا واستكشفوا ما أبهم عليهم من الحكمة حيث أن قوماً كذلك يكونون على إستعداد التعليم والتعمير والإدارة والتمصير ، وبطبيعة الحال يقع فيها الخلاف والعداء والعناد ، فيضطر الناس إلى الفساد والإفساد وسفك الدماء ٠ فرد الله تعالى عليهم بأنه يعلم مالا يعلمون ٠ وينطوي تحته أن فائدة الوجود الجود للأنام والسجود للملك العلام،ومن إفاضة الخير والجود علم نافع منشور ودستور كالقرآن الكريم مسطور وتهيئة أمة قائمة على ساق لتطبيقه وإبلاغه بين الناس ، ومن فوائد الوجود بذل المجهود في إضاءة الأرض بمصابيح الهدى ، ورجم شياطين الإنس الداعين إلى العناد والعداء ، حتى تصبح الأرض مخضرة بالبهجة ، واهلها منوراً بالضمير ومراقباً لربه الخبير البصير ، فإنّ شخصاً واحداً إذا تحلى بالفضائل يفوق مليوناً من الناس الناسين للحقوق المتوسخين بالرذائل ، فإذا ظهر فرد أو أفراد من العباد سالكين مسلك الرشاد ظهرت فيهم حكمة الخلق والإيجاد وهذه الحكمة منسجمة مع قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) والعبادة لله والإلتزام بأوامره ونواهيه لايكون إلاّ بالعلم والمعرفة فظهر أن الحكمة في خلق العالم بث العلم والعمل الصالح وإلى الله ترجع الأمور ٠

الرابعة : إن سؤال الملائكة كان إستكشافاً للحكمة بعد فهم معنى الخليفة من الله سبحانه وتعالى ، ولم يكن تكبراً واستعظاماً لأنفسهم ولا غيبة لسيدنا آدم وأولاده لأن النص أرشدنا إلى أن الملائكة لايعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون على أن الغيبة إنما تكون للموجود وعند شخص غير عالم بالأحوال ولم يكن سيدنا آدم إذ ذاك موجوداً فضلاً عن نسله ، وكان الله تعالى عالماً بآدم وأصله وفصله . فلا تنظر إلى ما قاله الجاهلون .

الخامسة : إن المراد بالأسماء الألفاظ الدالّة على المعاني سواء كانت أسماءً أو أفعالاً أو حروفاً ، وإلا لم يكن آدم عالماً بفعل الأمر ولا بحرف النداء والجر ، فما كان يفهم معنى قوله تعالى : (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وخلْقُ العلم بالأسماء بالنسبة إلى الباري تعالى كان خلقاً ضرورياً آنياً لايحتاج إلى زمان ، وكذلك تعلم سيدنا آدم ؛ لأن الفاعل مختار والقابل مستعد لأخذ الأسرار ، وهذا فيض مطلق ومدد روحي من الله تعالى . وخلقُ العلم الضروري معلوم لكل إنسان منصف فإنا نرى الأطفال في البيت في السنة الثالثة من عمره أو أقل يتكلم بكلمات لم يسمعها من الأبوين ولا من العابرين هناك ، وقد يأتي بمفاهيم يعجز عنها الوالدان وغيرهما ، وتعد من أبكار الأفكار . وقد تنظر إلى شخص وترى على وجهه بشرا وعلى شفتيه إبتسامة فتدرك من وضعه الآني حكايات ووقائع ، وأمثال ذلك أكثر من أن يحصى . والحقيقة أن التجلي بخلق العلوم الضرورية كإضاءة الشمس للكائنات ، ففي لمحة من اللمحات تنور مسافات واسعة شاسعة ، وكذلك تجلي الرحمة على قلوب عباده المؤمنين ، لاسيما الأنبياء والمرسلين ، وقد قالوا في تفسير قوله تعالى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) إبهام كلمة ما يدل على أن الوحي كان لما لا يتحمله غير قلب الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم إن الله تعالى ، وإن أراد إظهار فضل سيدنا آدم على الملائكة لم يكن هو المقصود إلا لإلزامهم واعترافهم بفضله ، وإلا فآدم لم يكن

يعلمها من نفسه ، وإنما علمه الباري سبحانه ولو كان يُعَلّم أحداً من الملائكة لتعلمها مثل آدم . وحقيقة العلم ، وإن كانت فضيلة ، فالفضل في العمل بها فالحق أن الله تعالى أراد وجود آدم ليكون مظهر الفضل والسعادة ووالداً ماجداً للأنبياء والمرسلين ، وصدفاً لدرة وجود الرسول الأمين محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وأصلَ سلسلة الأصفياء الكرام والعلماء الأعلام ، وقادة الأمة إلى الخير والرشاد على مر الأيام ... وهذا ظاهر لمن تفكر بعين البصيرة في فضل الأنام .

واختلاف العلماء في أن الأسماء هل هي عين المسمى أو غيره ليس مرتبطاً بالألفاظ لمغايرتها للذات بداهة ، ولا في الوجود الذهني الذي هو أحد الوجودات الأربعة لكل شيىء من الخط ، واللفظ ، والصورة الذهنية ، والحقيقة العينية ، وإنما كان ذلك ؛ لانّ من الأسماء ما يدل على نفس المسمى فقط كزيد ، ومنها ما يدل على الذات وأوصافها الذاتية كالعالم والقادر . ومنها ما يدل على الذات والاوصاف الفعلية كالكاتب والماشي . فمن قال بعينيتها أراد بها القسم الأول مطلقاً ، والثاني والثالثَ باعتبار أنّ المقصود هو نفس الذات ، والأوصافُ قيود خارجة عنها ، ومن قال بغيريتها نظر إلى أن كل اسم ، ولو كان اسم الذات ، يدل على الذات وعلى مشخصات خارجة من الحقيقة النوعية فيكون مدلولها بهذا الاعتبار غير الذات المحض .

الفائدة السادسة : إن الضمير في قوله تعالى (ثم عرضهم) راجع إلى الله تعالى والضمير البارز راجع إلى الحقائق التي كانت مدلولات الأسماء التي علّمها آدم عليه السلام ؛ لأن الله تعالى لما علمه الأسماء أفهمه أن هذا الاسم موضوع للمسمى الفلاني ، وأن هذا الفعل دال على العمل

الفلاني ، وأن هذه الحرف مدلولها ذلك الشيىء • ثم عرَض الله تعالى أولئك الأشخاص المدلولة للأسماء على الملائكة في صورة اختبار ، وسألهم عن أسمائها ، فلما عجزوا عن معرفتها أمر آدم ان ينبئهم بها ، فأنبأهم بها • فظهر فضله وعلمه وكماله عليهم • وهنا ظهر أن آدم مراد للميزات المختصة هو ونسله في العالمين بها •

الفائدة السابعة : إن السجود الذي أمر به لآدم كان سجود التشريف والإحترام ، وكان لائقاً لكل محترم ، ولم يكن سجود تقديس وعبادة ؛ لأن الله تعالى لا يأمر أحداً بالعبادة لغيره ، بل خَلَقَ الجنَّ والإنس للإيمان بذاته وصفاته وتوحيده وعبادته وحده لاشريك له • وإبليس أبى ذلك السجود قياساً للفرع على الأصل فقال : أصلي نار وأصلُ آدمَ تراب وغبار ، ولما كان اصلي خيراً من أصله لزم أن يكون شخصي خيراً من شخصه ؛ لأن شرف الأصل دليل لشرف النسل • ولم يعلم أن أصل النار ليس خيراً من أصل التراب ؛ لأنه إذا كان في النار بعض الفوائد ففي التراب أكثر من ذلك ، ثم لم يَدْرِ أن الأصل ولو كان خيراً كان إتباع أمر الخالق أوجب من رعاية ذلك •

وعلى كل حال أبى عن إطاعة الأمر واستكبر وكان من الكافرين • فطرده الله عن ساحة السعادة أعاذنا الله من شر الغرور بفضله ورحمته آمين •

فإن قيل : إذا كان إبليس من الملائكة فكيف عصى ربه مع أن الله أخبر بأنهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولامجال لنسخ الخبر كما هو مقرر ، وإن كان من الجن فكيف شمله الأمر بالسجود للملائكة وكيف صح استثناؤه منهم ؟ قلنا : لاشبهة في أن إبليس لم يكن من الملائكة ، وكان من الجن لأدلة •

الاول : نص قوله تعالى (كان من الجن ففسق عن أمر ربّه) •

الثاني : لو كان من الملائكة ما كان يعصي ربه للآيات الكثيرة الدالة على نزاهة الملائكة من العصيان •

الثالث : أن إبليس خلِق من النار بنص قوله تعالى حاكيا عنه (خلقتني من نار وخلقته من طين) •

الرابع : أن الملائكة لايوصفون بذكورة ولا أنوثة ، لقوله تعالى في مقام الإستنكار والتوبيخ : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) •

والخامس : أن إبليس له ذرية كثيرة كما نص عليها بقوله تعالى : (افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ؟) •

السادس : أن الملائكة نورية لايمكن العصيان منهم إلى غير ذلك • وإذا كان من الجن لا من الملائكة فوجْهٌ صحة الإستثناء دخوله فيهم صورة أو على التغليب • كما تدخل مريم في القانتين وتدخل الأم في الأبوين وغير ذلك • وما قيل : إن هذا لايخرج الكلام حقيقة عن الإستثناء المنقطع ولا استثناء منقطعاً فيه مردودٌ بأن هذا خلاف الواقع • فإن فيه استثناءات منقطعة ، كقوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني) وقوله تعالى : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً) وقوله تعالى : (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ) • فإن سلّمت ذلك فبها ، وإلا فهناك دليل قاطع على أن الله أمره بالسجود بنصّ : (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟) فإن لم يكن عاصياً بخروجه عن أمره تعالى للملائكة فقد عصى بخروجه عن إطاعة ذلك الأمر • وبعد ثبوت أمره

بالنص لا يهمنا أن يكون الأمر مأخوذا من أمره تعالى للملائكة أو من أمر آخر . هذا والله ولي التوفيق .

وحاصل تفسير الآيات : واذكر يا حبيبي نعمةً أخرى مِنَ النِّعم الهامّة العامة التي تشمل المكلفين بل كل العالمين : إذ قال ربك للملائكة إني جاعل وخالق خليفة لي في الأرض يكون مظهراً لتجلّياتي في الإيجابيات والسلبيات ، فقالوا : ربنا إن الخليفة بهذه السيماء قد يغلبها العداء والبغضاء ، ويظهر منها الأعمال المخالفة لعظمة صاحب الكبرياء أفتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح وننزه ذاتك مع حمدك على نعمائك ونقدسك ونبرئك عن كل مالا يليق بجنابك ؟ قال الله في جوابهم : إني أعلم ما لا تعلمون من سرِّ الخلائق وآثار الحقائق . فخلق الله آدم كما أراد ، وعلمه الاسماء لما ادخل في عالم الإبداع والإيجاد . ثم أظهر صور تلك الحقائق على الملائكة فقال : أنبئوني وأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في أن فيكم الكفاية عن آدم ونسله . قالوا معترفين بالعجز : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم بالأشياء . وتخص برحمتك من تشاء . فقال : يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأ آدم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض من سر القدر في خلق البشر وغيره من كل أثر وأعلم ما تبدون من الإستفسار وما تكتمون من الأسرار . فلما أظهر الله تعالى فضل الخليفة بين الخليقة أمرهم بالسجود الإحترامي له كما قال وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم حيث يجب إحترام الجاهل للعالم والعالم للأعلم فسجدوا كلهم إطاعة لأمر مولاهم إلا إبليس منبع التدليس والتلبيس أبى عن السجود ، لشبهٍ واهية لاقيمةَ لها في الوجود ، واستكبر على آدم وزعم أنه أعلى منه في العالم وعصى ربّه بالإِباء عن الطاعة إنكاراً لائقاً بأهل الجحود ، وصار من جملة الكافرين أو

لأنه كان في علم الله الأزلي من الكافرين حيث علم أنه يصرف طاقته وقواه في تطبيق هواه ، فعاد من الخاسرين أعاذنا الله من كل كفران وخسران ، وعافانا من كل بلاء يكون الحليم فيه حيران آمين .

ولما انكشف الأمر بلا إلتباس وتميز المطيع من العاصي أمر الباري تعالى خليفته بالسكون في جنته تحت ظلال رحمته كما قال :

وقلنا يا آدم اسكن أَنتَ وزوجك الجَنَّةَ وَكُلا مِنها رَغَداً حَيثُ شِئْتُما ، ولاتَقرَبا هذهِ الشَّجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظَّالِمِينَ .(٣٥) فَأَزَلَّهما الشَّيْطانُ عَنها فَأَخرَجَهما مِمَّا كانا فيه ، وَقُلْنا : اهْبِطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُستَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حين) (٣٦) .

واعلم أن في الآية الشريفة إيجاز الحذف حيث طوى خلق أمّنا حواء عليها السلام مِن سيدنا آدم الذي دلَّت عليه آياتٌ منها : قوله تعالى : (هو الذي خلَقَكُم مِنْ نفس واحدة ، وخلق منها زوجها) وتقدير الكلام : ثم خلَقْنا منه زوجه ، وقلنا : (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) .

وورد في خلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم خلقها منه ماحاصله أن الله تعالى لما أراد خلق آدم ـ عليه السلام ـ أمر بعضاً من الملائكة فنزلت إلى الأرض وأخذت من أقاليمها مقداراً من التربة وصعدت بها إلى السماء ، ثم إلى الجنة وعجنتها بماء من عين التسنيم وهو نهر فيها ، فصورها الباري بقدرته على هيكل آدم ، ونفخ فيه الروح فصار ذلك الإنسان الشريف . كما قال تعالى : (إن مثلَ عيسى عند الله كمثلِ آدَمَ خلقه مِن تراب ثم قال له كن فيكون) وبعد زمان غلبه النوم فنام وأثناء نومه خلق الله سبحانه

أمّنا حواء من أحد أضلاعه من الجانب الأيسر فلما انتبه رآها عنده فألِف بها ، وألهمه الباري أنها زوجتك وقرينتك • وهذه الأمور من الغيبيات التي أخذناها وتحول تفصيلها إلى علم رب العالمين • وقد قال تعالى : (إنا كلَّ شيئٍ خلقناه بقدر) ، وقال: (الله خالق كلِّ شيئٍ وهو على كل شيئٍ وكيل) •

ومما يجب أن يعلم أن الله خلق في العالم الجنة والنار دارين لأهل الثواب والعقاب ، وهما وإن لم ينزل نص في تعيين موضعهما إلا أن وصف الجنة بأن عرضها السموات والأرض يدل دلالةً واضحة أنها فوق السماوات السبع ، وظاهر الحديث الوارد (سقف الجنة عرش الرحمن) يدل على أنها بين الكرسي والعرش وقد قال سبحانه وتعالى : (وَسعَ كُرسيه السموات والأرض) وبما أنه لم يذكر بنص صريح محلهما المعين ذهب كثير من العلماء إلى التوقف في محل الجنة والنار ، وإلا فالظاهر مما ذكرنا أن محل الجنة هناك ومحل النار في محل آخر حسب علم الباري وقدرته ، مع العلم أن هناك آيةً تدل على أن أهل الجنة وأهل النار يترائيان ويتناديان وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله • وكذلك ينادي أصحاب الجنة : أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا إلى آخر الآيات • وعلى كلٍّ فالجنة دار الثواب ، والجحيم دار العقاب • ومذهب جمهور المسلمين أنهما مخلوقتان وموجودتان في العالم ، ويدل على ذلك ما رواه البخاري : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : (أُريتُ الجنة في عرض الحائط الفلاني) إلى آخر ما هو مذكور هناك • والمقصود أن الجنة في عرف الشرع إذا أُطلقت فالمراد بها الجنة المعهودة التي هي دار الثواب • فالمراد من لفظ الجنة في قوله تعالى : (قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) الجنةُ المعهودة

العلوية التي تعتبر المقرّ الأخير لأهل الطاعة ، وهي دار الثواب الأبـدي ، أُكُلُها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار . وهذا مما أجمع عليه قبل ظهور أهل البدع والأهواء الذين لا وزن لكلامهم إلاّ كوزن الهباء ، فما يُنْقَلُ ويُلاكُ بَينَ اللّحيين اَنّ المراد بالجنة جنة في الأرض في جبال هند ، أو بين بلاد فارس وكرمان ، ممـا لا يليـق أن يتكلم به الإنسان الذي له حظ من الإيمان . فاحذروا من أغاليط الناس ، أهل الأوهام والوسواس ، فإن القرآن الكريم دستور عباد الله المؤمنين ، وكل مؤمن معترف بأن عجائب صنع الله وآثار قدرته مما لا يحيط به فكر المتفكرين ، وأن الله تعالى كما خلق السماوات السبع وزيّنها بالمصابيح ، وخلق الشمس على حجم يساوي حجم الأرض بمليـون مـرة . وخَلَقَ كوكب الشّعرى وأن حجمه يساوي حجمَ الشمس مليوناً مـن المرات ، وأنهما يظهران في العالم الواسع كشييء صغير بسيط فهو قـادر على أن يخلق الجنة وعرضها السماوات والأرض ، وأن يخلق جهنم ومسافتها على ما قدره الرب الأكرم ، وأن إصعاد البشر إلى السماوات وإنزاله منها إلـى الأرض لا يماثل إلا حركة طير خفيف الجثة يطير في الفضاء وإذا آمنا بالله الحي القيوم فكلما أبلغنا شيئاً أخذ مقام البديهي المسلّم المعلوم .

وقوله تعالى : رغداً بمعنى واسعاً رافهاً . وهو صفة لمصدر محذوف أي أكلاً واسعاً مترفهاً به . والشجرة هي شجرة الحنطة . وقوله : (من الظالمين) أي من المتعدين على حقكم في التمتع كيف تشاؤون ، وليس الظلم هناك بمعنى التعدي على الحق المشروع إذ لم يكن إذ ذاك شرع كما يأتي قريباً . وقوله (فأزلهما الشيطان) أي فأزلفهما وأبعدهما الشيـطان بإلقاء الوسوسة في قلوب آدم وحواء حتى أكلا منها . والجار في عنهـا للتعليل أي إذلالاً مسبباً عن الشجرة وقربانها . وقوله : (فأخرجهما مما

كانا فيه) يعني أخرجهما الشيطان عن السكون في الجنة والستر والإستراحة التي كانا فيه ، وضمير الجمع في (إهبطوا) إما لآدم وحواء ونسلهما الذي سيوجد منهما تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود ، أولهما فقط على سبيل الإحترام ، فإن الكرام يعاتبون بلطيف الكلام لا بالخشونة والتحقير كاللئام • وقوله (مستقر ومتاع إلى حين) بتنكير الكلمات إشارة إلى أن زمان الإستقرار والتمتع في الأرض قليل لايذكر بالنسبة إلى زمان الآخرة وسكنى الجنة التي أعدت للمتقين •

وليعلم أنه كما لايعلم أحد إلا الله تعالى مبدأ خلق السماوات والأرض كذلك لايعلم مبدأ خلق البشر فيها ، وأن تحديد مبدأ إستقرار سيدنا آدم فيه وحسابه إلى عصرنا هذا بعشرة آلاف سنة لا إعتبار بها مطلقاً ، والإنسان المتفكر إذا تأمل في سرد الآيات الحاكية عن الكفرة المتمردين ، وأهل البغي والطغيان الهالكين فهي مما تدهش العقول والألباب ، وكلام القصاصين الحكاة بملء الأفواه ليس إلا لغواً من الخطاب ، وعلمُ ذلك عند الله فلا تحديد له في علمنا لا بمليون ولا بملايين ، وإنما علمه عند رب العالمين •

وحاصل تفسير المقام : أنه يقول الباري تعالى بعد إباء إبليس من السجود وظهور عدائه لآدم في الوجود خَلَقنا لآدمَ قرينته ، وقلنا : يا آدَمُ اسكُنْ انت وزوجك الجنة الواسعة العالية ، وكلا مِنَ الثمرات الطيبة وتَمَتَّعا حيث شئتما ، ولكن لا تقربا شجرة الحنطة فضلاً عن أن تأكلا منها ؛ فإنه ممنوع منكما ، وإذا أكلتما منها تكونان من المتعدّين ، على أحوالكما • فاغتَنَمَ الشيطانُ العدو اللدود الفرصةَ فوسوس إليهما من خارج الجنة ؛ لأنه كان من المنظَرين ، وأغراهما على الأكل منها ، فصار الأكل منها سبباً لإخراجهما من الأحوال التي كانا فيهما

ومن الإستقرار في الجنة . وقلنا لهما : اهبطوا منها إلى الأرض حالكون النسل المولود منكما متعاركين على المشتهيات ومتنازعين بعضكم مع بعض في الملذات ، ولكم في الأرض بهذه الحالة إستقرار وتمتع بما تتمكنون منها إلى حين ، وقارن أمره تعالى هذا قوة هادئة تنزيلية فنزلتهما إلى حيث شاء الله من الأرض ، وتم أمر رب العالمين .

ولما هبط سيدنا آدم إلى الأرض إستوحش لفراق الجنة وما فيها من الطيبات ، ولكنه لما كان الإهباط لشد الإرتباط بينه وبين الله لنفسه ولنسله سارع الباري سبحانه برحمته فألهمه كلمات لائقة للدعاء في حضرته كما قال تعالى :

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنها جَمِيعاً ، فَإِمَّا يأْتِينَّكُمْ مِنِّي هُدىً ، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحزَنُون (٣٨) والَّذينَ كَفَرُوا وكذَّبُوا بآياتنا أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ) (٣٩)

التلقي : هنا مستعار من التَّلَقي بمعنى إستقبال الناس مَن يعزّ عليهم إذا قدم بعد غيبة ، وهو يكون بأنواع الإكرام ، وإكرام الكلمات الواردةمن الحضرة الإلهية العمل بها ، وتلك الكلمات المباركة على ما قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ومجاهد هي قوله (رَبَّنا ظَلَمْنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن مجاهد أيضاً (سُبْحانَكَ اللّهم لا إله ألا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم) وقالت طائفة : إنه كشف الله تعالى عن العرش فرأى مكتوباً على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع بذلك .

وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء • وقيل : الندم والإستغفار والحزن •

ومما يستحسن بمناسبة المقام أن نذكر لطيفة عصمة الأنبياء والرسل الكرام عن الذنوب • فاعلم أولاً أن العصمة عند الجمهور أن لا يخلق الله فيهم ذنبا مع وجود الدواعي النفسية عندهم ، فإنهم بشر والبشر كما ينام ويقوم ويأكل ويشرب ويأتي ويذهب كذلك توجد عنده شهوة اللذائذ وما تريده النفس الإنسانية ولكن لا يخلق في قلوبهم ، ولا في قوالبهم منها كل ما لايرضى به الله تعالى • ومعنى ذلك أنه توجد عندهم ملكة" تملك حواسهم ومشاعرهم وأركانهم من فعل ذنب وارتكاب جريمة على ما يأتي إن شاء الله وليس معناها أنه يمتنع عنهم صدورها ، وإلا كانت من مقتضيات الخلقة كالملائكة ، فما كانوا مثابين على الترك ، ولا ممدوحين على الفعل • وفيها آراء وخلاصة القول المختار : أنهم معصومون عن الكفر بأنواعه وعن تعمد ارتكاب الكبائر قبل النبوة وبعدها ، وعن تعمد الكذب لاسيما في الأحكام التبليغية ، وعن الصغائر الدالة على خسة مرتكبها ، وعن تعمد الصّغائر غيرِها بعد النّبوة عند كثيرين • والدليل عليها من وجوه •

الأول : أنه لو صدر عنهم الذنب لحرم إتباعهم فيما صدر عنهم ضرورة أنه يحرم إرتكاب الذنب مع أن إتباعهم واجب بالإجماع ولقوله تعالى : (قل ان كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله) •

الثاني : أنهم لو أذنبوا لردّت شهادتهم ، ومن لا تقبل شهادته في الدنيا كيف تسمع شهادته في الدين ؟

الثالث : أنه لو صدر عنهم الذّنب لوجب زجرهم لأن النهي عن المنكر واجب ، وزجرهم إيذاء لهم ، وايذاؤهم حرام •

الرابع : أنه لو صدر عنهم الذنب لكانوا أسوأ حالاً من عصاة الناس ؛ إذ يضاعف لهم العذاب بسبب علوّ مقامهم .

الخامس : أنه لو صدر عنهم لم ينالوا عهد النبوة والرسالة . قال تعالى : (لاينال عهدي الظالمين) .

السادس : أنه لو صدر عنهم لكانوا غير مخلصين ؛ لأنه بإغواء الشيطان ، والشيطان لايغوي المخلصين .

السابع : أنه لو صدر عنهم لكانوا من الذين صَدَّق عليهم إبليسُ ظنّه واتبعوه ، وحاشاهم وهو أعْدى أعدائهم أن يتبعوه .

الثامن : أن المذنبين من حزب الشيطان فكيف يصدر الذنب منهم وهم قادة حزب الله في طريق الحق والدين ؟

التاسع : أن الله تعالى مدحهم بفضائل ومناقب مهمة لا تليق بأهل الذنوب فقال في جمع منهم : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) . وقال (وإنهم عندنا لمن المصطفَيْنَ الأخيار) . وسلم على كثير منهم فرداً فرداً ، وعلى الجمع في قوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين) . فما نسب إلى حضراتهم مما يوهم خلاف العصمة على ما ذكرنا إن كان من أخبار الآحاد فمردود ، وإن كان من غيرها فمؤل بصدورها بطريق الخطأ الإجتهادي ، أو السهو ، أو النسيان ، أو أنها كانت خلاف الأولى وجرى عليها عتاب . كما بين الأحباب . أو أنها كانت قبل النبوة بناء على أن العصمة قبل النبوة غير لازمة كما ينسب إلى سيدنا آدم عليه السلام ؛ لأن الراجح أنه لم يكن نبياً قبل الهبوط إلى الأرض والأمر والنهي المتوجهان إليه كانا على العادة كما تكلم الباري مع الملائكة في تطبيق الأمور وإنزال الأوامر ...

على أنه إذا لم يكن شرع ودستور" فلا مخالفة فلا ذنب فكيف يعد ذنباً قضاءُ سيدنا موسى على الرجل القبطي الصائل على مسكين من المساكين ؟ وإن كان دفع الصائل واجباً لكنه بحسب الشرع ولم يكن إذ ذاك شرع كما هو معلوم !

والتوبة في اللغة : الرجوع ، وفي الشرع : الندم على ما فعله من حيث أنه ذنب ، والعزم على أن لا يعود إليه ، وإذا كان هناك حقوق ردّها إلى أصحابها المستحقين . هذا والله اعلم .

وظاهر معاني الآيات : أن آدم عليه السلام إستقبل الكلمات الملهمة فدعا بها تضرعاً وابتهالاً إلى مولاه العظيم فتاب عليه ، ورجع إليه بالعفو والسماح عن المخالفة ، فإنه هو التوّاب بكثرة ، والرحيم على وفرة ، ثم أفاده الباري أن العفو عن المخالفة لا للرجوع في الدنيا إلى الجنة فإنه يخالف سر القدر المحتوم ، فأكد الأمر بهبوط له ولنسله جميعاً ، وأخبره أنكم ما دمتم على الأرض إذا جاءكم مني هدى وإرشاد للدين على لسان أحد المرسلين سواء كنتَ أنتَ الرسول أو غيرك منهم ، فمن تبع إرشادي وديني علماً وعملاً فلا خوف عليهم من المآل ، ولاهم يحزنون على الواقع في الحال . إذ لا عذاب ولا عقاب . والّذينَ كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لأنّ مَنْ جاءه الهدى وتبين له الرشد من الغي ومع ذلك تهالك على إختيار المهالك فقد ظلم نفسه ، وخالف قدسه ، ومن أنذر أعذر ، وكذلك سنة الله في العالمين .

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى عباده بأنه جعل آدم ونسله الصالح خليفته في الأرض لغاية نيل السعادة بعبوديتهم الخالصة المبنية على العلم والعمل الصالح والأخلاق الحسنة من الإيمان والصدق والإنصاف وما شاكلها من الأوصاف ، وكان الإسرائيليون الموجودون في المدينة المنورة

على جانب من العلم وتمكن من الامور بحيث كان صلاحهم سبباً لصلاح كثير من الناس ، وفسادهم سبباً لفساد كثير منهم .. ناداهم وذكّرهم بالنعم الجِسام التي أفاضها على أسلافهم كي يتعظوا ويتنبهوا ويتوجهوا إلى طريق الإنصاف ، ويؤمنوا بالرسول الكريم المعروف بفضائل الأقوال والأخلاق . (يا بَنِي إسرائيلَ اذْكروا نِعْمَتِي الَّتي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وأَوْفُوا بِعَهْدِي أوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وإيَّايَ فَارْهَبونِ . (٤٠) وآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ولا تَكُونُوا أوَّلَ كافِرٍ بِهِ ، ولا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمناً قَلِيلاً وإيَّايَ فاتَّقُون .(٤١) ولا تَلْبِسوا الحَقَّ بالباطِلِ وتَكْتُموا الحقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمونَ .(٤٢) وأَقِيمُوا الصَّلوةَ وآتُوا الزَّكوةَ وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)(٤٣)

وقبل أن نذكر تفسير الآيات الكريمة نرى من المناسب أن نذكر أدوار الإسرائيليين لكثرة ذكرهم في القرآن الكريم لأسباب داعية إليه ، حتى يكون القارىء عند كل مبحث على علم من الدور الذي وقع فيه الحادث الواقع المذكور . ورأيت نقل ما نقله العالم المصري المشهور السيد محمد فريد وجدي في كتابه : (دائرة معارف القرن الرابع عشر) في المجلد الأول منه فقال مانصه :

« إسرائيل هو يعقوب عليه السلام ابن إسحق ، ابن إبراهيم أبو الأسباط الإثني عشر الذين منهم يوسف ـ عليه السلام . وكان عائشاً في القرن التاسع عشر قبل المسيح عليه السلام ـ وقيل : إسرائيل معناه عبدالله وصفوته من خلقه ، و(إيل) هو الله و (إسرى) هو العبد .

وبنو إسرائيل هم اليهود قوم موسى ـ عليه السلام ـ وقد لعبوا في تأريخ العالم دوراً عظيماً يجب علينا تتبع أسبابه ونتائجه على ما تعطيه المقررات العلمية الصحيحة •

إذا اعتبرنا في تأريخ اليهود مالديهم من الكتب القديمة والآثار الباقية حكمنا بأنه لا توجد أمة من أمم الأرض تملك على تأريخها مثل ما يملكه بنوا إسرائيل من الأسانيد والأعلام • ولكن إذا تصفحنا تلك الكتب وجدنا فيها التأريخ مبعثراً في المعجزات وخوارق العادات ، ولذلك صار إستخلاص تأريخهم من مجموع هذه الأمور من أصعب المباحث •

ينقسم تأريخ الإسرائيليين إلى خمسة أدوار :

الأول من عهد إبراهيم عليه السلام إلى خروجهم من مصر •

الثاني من خروجهم من مصر إلى تأسيسهم الملكيّة •

الثالث من تأسيسهم الملكية الى اسر (بابل) •

الرابع من أسر (بابل) إلى خراب بيت المقدس بيد الملِك (أدريان)•

الخامس من عهد تفرقهم في الأرض إلى اليوم •

ونحن ناقلون ملخص هذا التأريخ من دائرة معارف القرن التاسع عشر •

الدور الاول : كان من سنة ألف وتسعمائة وست وتسعين إلى ألف وستمائة وخمس وأربعين قبل الميلاد •

ففي سنة ألف وتسعمائة وتسع وستين قبل الميلاد غادر إبراهيم عليه السلام ـ كما يقول اليهود ـ مدينة (خالد) في (جزيرة بن عمرو) ونزل بكنعان بوحي من الله ناقلاً معه عبيده ومواشيه ، فولِد له (إسحق) ولإسحق

يعقوب الملقب بإسرائيل فرزق الله يعقوب هذا أثني عشر ولداً ، توصل أحدهم وهو يوسف عليه السلام إلى مكانة عالية في خاصة فرعون مصر فاضطرت المجاعة أباه يعقوب وأولاده إلى الرحيل إلى مصر فنزل في الوجه البحري منها ، وكان عددهم إذ ذاك سبعين ، فنموا نمواً عظيماً ، فاضطهدهم الفراعنة وسخروهم في أشق الأعمال ، ثم قتلوا الذكور منهم واستحيوا الأناث حتى ظهر موسى عليه السلام ، فأخرجهم من مصر ، وكان عدد من يستطيع حمل السلاح منهم ، وهم خارجون ، ستمائة ألف نسمة .

الدور الثاني : من سنة ألف وستمائة وخمس واربعين ، إلى ألف وثمانين قبل الميلاد . إتجه الإسرائيليون تحت قيادة موسى عليه السلام إلى أرض كنعان التي سموها بالأرض الموعود بها . فاجتازوا في طريقهم الخليج العربي من البحر الأحمر ثم تاهوا في الصحراء أربعين عاماً فلقوا في التيه كل ما يصادف الأمم البدوية من شدة الحال وخشونة العيش ، فتلقى موسى عليه السلام شريعة الألواح في سفح جبل طور سيناء .

فلما مات موسى سنة ألف وستمائة وخمس قبل الميلاد تولى قيادة الإسرائيليين يوشع فاجتاز نهر (الاردن) وأباد الأعداء الذين أرادوا صرفه عن طريقه . ثم إحتل بقومه الأرض الموعود بها وهي أرض كنعان . فقسم يوشع تلك الأرض بين الأثني عشر سبطاً ، فكانت قبيلة (ليفي) التي خصت برياسة الدين لا أرض لها ، فأعطيت ثمان وأربعين مدينة مبعثرة في أرض الأثنتى عشرة قبيلة . وكانت على الشاطىء الأيمن والأيسر من نهر الأردن ست مدائن جعلت ملجأ للملتجئين من بني إسرائيل وغيرهم من الأجانب المتهمين بالقتل خطأ .

فخلفت يوشع حكومة القُضاة فدامت أربعة قرون فكانوا يقيمون العدل بين الرعية ويقودون الجيش فدوّخ القضاة مالم يستطع تدويخَهم يوشعُ وَشنّوا غاراتٍ شعواءَ على الشّعوب المجاورة لهم مثل (الأَمُونيتيّين) وغيرها •

الدور الثالث : من سنة ألف وثمانين الى خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد في هذا الدور أظهر بنوا إسرائيل تعبهم من حكم القضاة ، فطلبوا إلى النبي صموائيل (إشماويل) أن يقيم لها ملكاً ، فعارضهم في ذلك قائلاً ما ملخصه :

الملك يعلق ابناءكم في مَركباته ، ويجعل منهم من يَجُرونَ أَمامَها ، ويأخذ بناتكم فيجعل منهم طباخات وخبازات ، ويسلب حقولكم وكرومكم يُعطيها لخدمه المحتفّين به •

فلم يسمع الإسرائيليون لقوله فاضطر (صموائيل) لأن يقيم (شاول) (طالوت) ملكاً عليهم ، فلما لم يسر على تعاليم (صموائيل) عزله وأقام بدله (داود) عليه السلام ، فَمَدَّ في ملك الإسرائيليين ، ومات بَعدَ أن حكم أربعين سنة ، وكان إذ ذاك عدد اليهود (١ر٥٠٠ر٠٠٠) مليوناً ونصفاً • فتولى بعده سليمان عليه السلام فبنى مدينة (أورشليم) ، واشتهر في العالم كله شهرة فائقة •

ولما مات إنقسم ملكه إلى قسمين : قسم بقي تحت حكم إبنه (رَحَبعام) وهذا القسم كان يتألف من قبيلتي : يَهُودا ، وبنيامين •

والقسم الآخر المكوّن من عشر قبائل إختار (جَبْرَ حَبعام) ابن ناباد فسمي القسمان بمملكتي : يهودا ، وإسرائيل • فكان هذا الإنقسام شراً عليهم ، إذ وقعت المملكتان في حرب دَمَوية مستمرة ، وزادوا بأن

صار بعضهم يستنجد بالأجانب لقتال بعض • وفي السنة الخامسة من حكم رحبعام بن سليمان عليه السلام ، شنّ ملك مصر (سيزاك) الغارة على أورشليم ، فنهب معبدها • ولما تولّى ابنه (آبياس) غزا (جبر حبعام) واخرب له عدة مدائن ، فلما وصل الملك إلى (جيهو) كانت الحروب بين مملكة إسرائيل ويهوذا والآشوريين ، بالغة أقصى درجات الشدّة وزادتها شدة الحروب الأهلية ، فلما تولّى الآشوريين (سالمانازار) إستولى على مدينة السامرة • وقاد أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده أسرى وبذلك إنتهت مملكة إسرائيل وبقيت مملكة يهودا هدفاً لسهام المطامع الآشورية • فلما تولّى ملكها (مناسيس) قهره ملك آشور ، وقاده أسيراً إلى بلاده ، فلما وصل الملك إلى (يواقيم) حاربه بختنصر وقاده أسيراً إلى بلاده ، فلما عاد الى بلاده ثار على بختنصر ، فكان ذلك سبباً لعودة هذه الطاغية عليه ودخوله إلى أورشليم وتخريبها ، وقاد أكثر أهلها أسرى وكان ذلك سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل الميلاد • فلما استولى الملك قيروش (كورش) الفارسي على بابل تخلّص الإسرائيليون من أسر البابليين ، وعادوا إلى فلسطين سنة خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد •

الدور الرابع من سنة خمسمائة وست وثلاثين قبل الميلاد إلى سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد • إستقبل الإسرائيليون غارة قيروش على بابل بالتّرْحاب فعادوا إلى فلسطين تحت قيادة (روزا بابل) وسمّوا الجهة التي عادوا إليها (يهوذا) وسموا أنفسهم اليهود لتميزهم عن سواهم من الإسرائيليين ، ووعدهم (دارا) بإعادة بناء أورشليم ، فبناها لهم ، وأحاطها بسور • فقسموا بلادهم أربعة أقاليم وصارت حكومتهم أشبه بجمهورية (تيوكراطية) يرأسها حاخام كبير مِن دونِهِ مجلس " مُكَوّن " من إثنين وسبعين شخصاً • فعاش أهل فلسطين في خفض تحت هذه الحكومة

وسيادة الفارسيين حتى أغار عليهم الأسكندر المقدوني مضوا لهم شراً بسبب إنحيازهم إلى الفرس وعدم تمكينه من أخذ الميرة من (صور) •

فلما اقترب من أورشليم خرج إليه الحاخام الكبير في موكب رهيب واستقبله إستقبالاً كريماً وأدخله إلى المدينة بسلام ، وأطلعه على نبوءة (دانيال) القائلة بأن الأسكندر سيغلب الفارسيين فسُرَّ الأسكندر سروراً عظيماً ، وعامل اليهود بالحسنى ، وأعفاهم من الضرائب سبع سنين •

فلما مات الأسكندر وقعت فلسطين في قسم (لاوريون) أحد قواد الأسكندر ، فلما استلبها منه (بطليموس لاغوس) أخذ قسما من اليهود وأسكنهم في مصر سنة ثلاثمائة وعشرين قبل الميلاد ، وفي سنة ثلاثمائة استولى على مملكة يهودا ملك سوريا المدعو (سيلوكس تيكارنو) ثم ردت إلى ملك مصر بعد ذلك بقليل ، وفي سنة مائتين وثلاث قبل الميلاد وقعت يهودا ثانية تحت حكم ملوك (سورية) (السلوسيديين) فأثقلوا كاهل اليهود بالضرائب ، واضطهدوهم من أجل دينهم أكبر إضطهاد ، فلما تولى سوريا (أنتيخوس أبيفان) أمر بنصب تمثال (جوبيتر) إله اليونانيين في وسط معبدهم ، ومنعهم عن الختان ، وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهوراً منهم لتمسكهم بالدين •

ولكن القس اليهودي (ماثانياس) رفض أن يقرب الخنازير قرباناً للأصنام ، وقتل رسول ملك سوريا إليه فاضطر للهرب هو وأولاده وتبعه جماعة من أهل الجرأة إلى الجبال ، فلما كثر عدد الملتجئين إليه قام ابنه المدعو (يهوذا ماكابيه) وشهر القتال على (أنتيخوس) فهزمه سنة مائة وخمس وستين قبل الميلاد ، ودخل أورشليم منصوراً ، فهدم الأصنام • وشهر عبادة الله المنزه عن الأنداد •

وبعد سنة مائة واحدى وستين قبل الميلاد قام أخـواه جوناثوس وسيمون ، وتمما انقاذ وطنهم من أيدي ملوك سورية ، ولكن لم يأت حكم (هيركان) و (أريستوبول) إبنا سيمون حتى فقدت البلاد إستقلالهـا ثانية .

والسبب في ذلك أن الأخوين إشتجرا على الملك فجاء (بومبيـه) الروماني ليحكم بينهما ، فحكم لنفسه ، واستولى على بلادهما سنة ثلاث وستين قبل الميلاد ، وجعل مملكة يهودا إقليماً رومانياً . فلما كانت سـنة اثنتين وأربعين قبل الميـلاد . رَدّ (أَنْتيفُون) ابنُ أرَسْتُوبُولُ للبلاد حرّيتها واستقلالها ولكن لم تأت سنة سبع وثلاثين قبل الميلاد حتى ساعد الرومانيين الملك هيرود على تدويخ مملكة يهودا ، فاستولى عليها ، وقتل (انتيفون) و (هيركان) وهو آخر ولد من ذرية (ماكابية) تحت حكم (هيرود انتياس) الذي حَكَمَ على عيسى عليه السلام بالإعدام ، فلما عَسِفَ الرّومانيون باليهود ، وسامُوهُم سُوءَ العــذاب ثاروا فاضطرّ الرومانيّون لأخذ أورشليم سنة سبعين بعد الميلاد ، وأمر ملكهم (نيتوس) بإحراق معبدهم ، وذبح معظم أهلها وبيع من بقي منهم . فلم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ، ولكن ثورة أخـرى جعلت الأمبراطور الروماني (ادريان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلاديـة يأمر بهدم المدينة من أساسها وذبح نصف مليون منهم وبيــع الباقيــن وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة ، ولكن هــذا التشريد الهائــل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم .

الدور الخامس : من سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية إلى يومنـا هذا . لما تمزق شمل اليهود كل ممزق ، وانشقت عصىّ وحدتهم الإجتماعية هاجرت طائفة منهم إلى آسيا ، ونزلت بشواطىء نهر الفرات ، وقصـدت

أخرى بلاد الأفغان وهبطت بعضهم الهند والصين . وبقي بعضهم في أوروبا موضع الإهانة والسخرية والعذاب ، حتى بعد سنة مائة وخمسين حيث تولّى الملك (كونستان) الروماني حين أبهض عواتقهم بالتكاليف ، ولكن عهده كان أخف من عهدي الإمبراطورين (جونستيان) و (هبراقليوس) إذ أمر باضطهاد اليهود بأشدّ أنواع الإضطهادات وسَوْمِهِم سوء العذاب .

قالت دائرة معارف القرن العشرين التي ننقل عنها هذا التاريخ : ولكن لما فتح المسلمون بلاد الرومان حَسُنَ حال اليهود فاشتغلوا بالتجارة فارغي البالِ في بغداد والقاهرة وقرطبة باختلاطهم بالعرب ودرسوا العلوم والصنائع بنجاح . ومن أول القرن التاسع صارت لهم مراكز يهودية في القاهرة ، وفارس ، ومراكش ، وفي ذلك العهد قلّ عددهم في بابل ، وكثر في فلسطين وحظّوا بالتقرب من خانات المغول المسلمين .

قالت الدائرة : لاتوجد بلد في الأرض الآن تضطهد اليهود إلاّ أواسط (آسيا) فإن هنالك نحو أربعة آلاف نسمة منهم محكوم عليهم بلبس ألبسة خاصة ، وعدم وضع العمائم ، ولا الركوب على الخيول .

أما ببلاد العرب فقد لقي اليهود من الصّليبيين عهداً جديداً من الإضطهاد والآلام ؛ فقد اعتبروا أنهم لشؤم طالعهم سببُ كل المصائب النّازلة والحروب الهائلة ، ولكل فتنةٍ تصيبُ رجالَ المسيح . فإذا إرتكب أحدهم أقلّ هفوة انتقم من سائر اليهود أشدّ انتقام ، وكانوا يبتكرون الأسباب للإنتقام من اليهود ، ومصادرة أموالهم . وناهيك عما كانوا يتقوّلون عليهم من تسميم ينابيع المياه ، وقتل الأولاد الصغار ، وتخريقهم الخبز المقدس بالسكاكين . فكانوا يعتبرون طرد اليهود ونهب أموالهم وقتلهم .. من أعمال البر والتقوى ، فإذا أذنت الحكومة لبعضهم

بالتعامل بالنقد وهي الوظيفة التي يفوقون سواهم فيها ، فما ذلك إلا الوجدان السبيل لمصادرة أموالهم وابتزاز خيراتهم . ولم يكن لدى هؤلاء الغربيين من التسامح ما يسمح لليهود بالتمتع براحة الحياة في حوزتهم .

قال المسيو (داتتيه) كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر : كانت اليهود معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة في كل مكان محبوسين في أقسام منعزلة من المدينة ، ومحكوماً عليهم بوضع علامات مُهينة على ملابسهم ؛ لتميزهم من غيرهم . وكانوا لأقل هفوة يحكم عليهم بالغرامات الباهظة أو بالطرد . ففي سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين ميلادية حكم عليهم في (انجلتره) بدفع خمسة آلاف مارك من الفضة ، وفي سنة ألف وثلاثمائة وتسعين صدر أمر الملك (ادوار) الأول بطردهم من المملكة مافي المانيا فكان اليهود ملكاً للإمبراطورة أو للأمراء ، فحدث أنهم بيعوا أكثر من مرة ، وطردهم من فينا (ماتياس كورفان) ولم يدخلوها إلا في عهد (فرديناند الاول) .

ثم عادت دائرة المعارف فقالت : أما في (أسبانيا) حيث عاش اليهود تحت حكم المسلمين زماناً طويلاً في هدوء كامل فانه بمجرد اَنْ امتلك بلادَ الأندلس (فرديناند) الكاثوليكي طارَدَهم كما تُطَارِدُ الضّواري ! وجاءت محكمة التفتيش فأمرت بطردهم ، فطردوا فذهب بعضهم لهولاندا ، والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا .

أما في فرنسا فكانوا أسعَدَ حالاً مما كانوا في غيرها في القرن الثامن والتاسع وبخاصة المدائن الكبيرة مثل [باريس وليون ومرسيليا] إذ كان لهم حق امتلاك الأراضي ، وكانوا محكومين (بمجستر جودوروم) أي بقاض منهم ، ولكن ما تولت أسرة (كارلوفنجيين) الملك في فرنسا

حتى تناولهم الطرد والتغريم • وفي سنة ألف ومائتين وخمس وعشرين طردوا من جنوب فرنسا كله • وفي سنة ألف وخمسمائة وخمسين سمحت لهم فرنسا بسكنى (بورد) و (بابون) •

أما في (بولونيا وليتوانيا) فكان حظهم مُرضياً في القرن الحادي عشر بفضل (استر) مَحظيّة الملك (كامير) فإنها كانت من ملّتهم فتحصلوا هناك على امتيازات جمة ، فآلت إليهم ملكية قرى ومدائن ، وكوّنوا بين الخاصّة والعامة طبقة إحتكَرت التجارةَ والصناعةَ لنفسها • وكان حظهم في (بولونيا) وما يجدونه من الإضطهاد في سواها يضطرهم إلى الهجرة إليها أفواجاً أفواجاً •

فلما تولى الملك (جان البيرو) ووجد أن الهجرة مستمرة إلى بلاده منهم ، وإن هذه الطائفة إحتكرت التجارة والصناعة والثروة •• وضع حداً لهذه الهجرة ، وقلل من إمتيازاتهم • فلما جاء خلفاؤه عملوا على سنته حتى إستحال أمر اليهود إلى مثل حالهم في سائر ممالك أوروبا من المَهانة والصغار والإضطهاد •

ولما تولى الروسيا بطرس الأكبر فتح لليهود بابَ الروسيا ، ولكن لما تولت الملكة (أليزابت) أمرت بطردهم ، وكان عددهم ثلاثمائة وخمسين ألفاً • فلما تولت الملكة (كاترين الثانية) سَمَحَت لهم بالعودة ، وجاء القيصر المسمى بالأسكندر الأول فأعطاهم إمتيازاتٍ ، فلمّا تولى (نيقولا) أمر بطردهم ، وهم الآن من بلاد الروسيا في (كولاند والقَرْم) (وبلاد القوقاز وجيورجيا) وحدث في شأنهم شيىء من التسامح من سنة ألف وثمانمائة وخمس وثلاثين ميلادية • ولكنهم مع ذلك يعتبرون خارج القانون ، ويعاملون باستبداد كأنهم في قرن سابق على عهد التأريخ •

فقد حدث أن مدير بوليس مدينة (فرزوفيا) سنة ألف وثمانمائة واربع وستين أصدر أمره بمنع اليهود من لبس بعض الألبسة الوطنية ، ومن حمل القبعات السوداء ، ومن إلقاء ضفائر شعورهم على صدورهم •

كان اليهود لا يقبلون في الجندية في أوروبا ، فلمّا تولى الرّوسيا قيصر يوسف الثاني سنة ألف وسبعمائة وثمان وثمانين م إستخدمهم في حربه مع تركيا ، وقدر عدد اليهود الذين كانوا في جيوش (أوروبا) بنحو ستمائة ألف يخص جيش النمسا وحده منهم نحو ثلاثمائة ألف جندي • نقول : لا شبهة في أن هذا العدد قد تضاعف إبّانَ الحرب العامّة : فإن هذا الاحصاء عُمِلَ قبلَ سنينَ كثيرة •

وقد أُضطهد اليهود في ألمانيا طوال القرون الوسطى ، ولا تزال بعض الصنائع ممنوعة إلى اليوم هنالك عن اليهود • أما أسبانيا والبرتغال فقد أوصدت أبوابها في وجوههم ، حتى إلى هذه السنين الأخيرة • ولم تفتح لهم السويد أبوابها إلا منذ سنة ألف وثمانمائة وأربع وخمسين • وقد سمحت لهم إنجلترة بدخول البرلمان منذ نحو خمسين سنة • أما فرنسا فقد إعترفت لهم بالمساواة منذ سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين م • وقد وصل فيها اليهود إلى درجات نوّاب عن الأمة ووزراء ايضا • أما في (روما) فإن اليهود كانوا قبل دخول هذه المدينة في حوزة سلطة الملك سنة ألف وثمانمائة وسبعين مضطرين بحكم القوة لسكنى قسم قذر من المدينة يقال له : (الجيتو) • وكانوا يقفلون ابوابه عليهم في الليل ، ويشدون الأبواب بسلاسلَ من الحديد • وحدث أن السلطة الدينية اختطفت ولداً يهودياً في العهد الأخير وربّته على الدّيانة المسيحية رغماً عن أهله وعلى مَرأىً ومَسمعٍ مِن العالَمِ المتمدن الذي اَظهر لذلك غايةَ الدهش •

وكان على اليهودي إن أراد الإنتقال إلى بعض الجهات الرومانية ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ رخصة بذلك من السلطة الكهنوتية ، وكان مُحرّماً عليهم هنالك أن يتخذوا كنائس أو أدْيرة ، وأن يتحدثوا مع المسيحيين ، أو يُصاحبوهم ، ومَن خالف كان يحبس مدة لاحد لها . ويغرم خمس ريالات . صدر هذا الأمر سنة ألف وسبعمائة وخمس وستين . أي منذ ثلاث وسبعين سنة فقط .

إنتهى الآن هذا العهد ، ولم يبق من أمم أوروبا على شيىء من الكراهة لليهود إلا رومانيا وألمانيا ؛ فإن لديهما نحو مليون يهودي ، مُكوّنين حقيقة للطبقة النشيطة المتنوّرة من أهلها ، ولكنّها رغماً عن ذلك مُهانة" ، ومُضطهَدة . ومُنِحوا سنةَ ألف وثمانمائة وثمان وخمسين المساواةَ المدنيةَ ، ولكنهم حُرِموا المساواةَ السياسية ، ولكن في سنة ألف وثمانمائة وست وستين ثار الشعب على اليهود حتى اضطرّت فرنسا وإنجلتره إلى التدخل لتسكين الثائرة من طريق السياسة .

هذا ما نقلناه ملخصاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية ، وهو تأريخ ، كما يراه القارىء ، مُحزِن" يُمثلُ القسوةَ الإنسانية والأحقاد الدينية في أفظع صورها . ومما يجب أن نلفت إليه نظر القارىء أن المسلمين بين جميع الأمم أعطَوا اليهودَ الحقوق الإنسانية والحرية الإجتماعية في العهد الذي كانت أرقى دول أوروبا تعامل اليهود معاملة الأفاعي السامّة ، أو الوحوش الضارية . فهل لا يصح هذا المثال الباهر وهو مثال من ألف غيره دليلا على أن المسلمين بطبيعة دينهم وبتعاليم كتابهم أمة منزهة عن الأحقاد الدينية والتعصبات المذهبية ؟ أليس بمثال مدهش أن نجد في تأريخ الأديان أمة شديدة البطش قوية السلطان متماسكة القوى

مغرمة بعقيدتها تعامل الأمم التي تخالفها في الدين معاملة قصرت عنها ورثة الكتب السماوية القديمة وحفظة المدنية الإنسانية العتيقة ؟

أمة بدوية لم يكن لها عهد بنظام ولا تسامح تقوم فتعلم غطارفة الشرائع والحقوق كيف يجب التسامح للأجنبي عن الدين والتوادّ مع المعاشر في الوطن مهما خالفها في العقيدة والنظر . هذا مثال من أبهر الأمثلة على سمو التعاليم الإسلامية وبعدها عن السفاسف والصغريات .

أليس من المدهش أن يرى الناس أوائل المسلمين على هذا الصدر الرحب ، والذرع الواسع ، والكرم الجم ، في معاملة الأجانب عن الدين فينعق في القرن العشرين ناعق بأن الإسلام دين التعصّب الذميم ، وأنّ المسلمين يَحفظونَ بين جوانحهم أشَدّ درجات الحقد على سواهم من أهل النِّحل الأخرى ؟ هل تَبَدّلَ الدينُ وكتابُهُ محفوظ الى اليوم ؟ أمِ المدنية والعلمُ يسممان الفطرة ويحولان الأخلاق الى الفساد فأصبح المسلمون بعد العبّ مِن مَواردهما إلى الشر أميَلَ منهم الى الخير ؟

يبلغ عدد اليهود في العالم كله نحو عشرة ملايين نسمة أكثرهم في بولونيا ، والنمسا ، وتركيا ، ومراكش .

ولنرجع إلى تفسير الآيات الكريمة أما أجزاؤها فهي أنّ المرادَ بالنعمة ما ذكره الله تعالى في آيات كقوله تعالى : (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يَسُومُونكم سُوءَ العذاب) الآية وقوله تعالى : (ونُريد أن نَمُنّ على الذينَ استُضعِفوا في الأرض فنجعلهم أئِمّةً ونَجعلَهُمُ الوارثين ونُمَكّن لهم في الأرض ، ونُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وَجُنودَهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله تعالى (وظلّلنا

عَلَيكم الغمام و َا َنزلنا عليكم المن والسَّلوى) وقوله تعالى : (وقلنا اضرب بعصاك الحَجَر فانفَجَرَت منه اثنتا عشْرة عَيناً ، قد علم كلُ ا ُناس مَشرَبَهم) و َا َهَمُ النعم إنزال الألواح على سيدنا موسى المحتوية على العقائد والأحكام •

والمراد بالعهدين ما في قوله تعالى (لَئن ا َقَمتُم الصّلوة ، وآتيتم الزكوة ، و َآمنتم بر ُسُلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضاً حسناً لأكَفّرن عنكم سيّآتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار) فعهد الله تعالى معهم على لسان موسى عليه السلام مِن او ّل القَسَم إلى صدر الجواب ، وعهدهم معه ما في الجواب • ويدخل في قوله تعالى وآمنتم برسلي أنه إذا جاءهم رسول ٌ مُصَدّق لما معهم يؤمنون به وينصرونه • وقوله : فأياي ضمير منصوب منفصل مفعول لفعل مقدر يفسره ما بعده على ما نذكره بعده • وقوله : فارهبون فعل أمر وفاعله ومفعوله ، اعني ضمير المتكلم • والرهبة خوف مع تحرز •

وفي البيضاوي : وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد ، لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط ، كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبون •

قال الشهاب : قوله : وهو آكدُ في إفادة التخصيص هذا من مسائل الكتاب ، وهو مما اختلفوا فيه واضطربت أقوالهم وها أنا ذاكر لك زبدة ماقالوه : قال سيبويه : الأمر والنهي يختار فيهما النصب في الاسم الذي يُبنى عليه ، كما اختير في باب الإستفهام • ثم قال : وذلك قولك زيداً إضربه ، وزيداً أمرر به • ومثل ذلك أما زيداً فاقتله • فإنك إذا قلت زيد فأضربه لم يستقم أن تحمله على الإبتداء ، ألا ترى أنك لو قلت :

زيد فمنطلق لم يستقم ؟ فإن شئت نصبت على شيء . هذا تفسيره . وإن شئت على تقدير عليك زيداً .

ثم نقل الشهاب من السيرافي شارح الكتاب ما نصه : إذا قدمت الأسمَ وأخرتَ الفعل كنتَ في إدخال الفاء بالخيار ؛ إن شئت ادخلتها وهي بمنزلتها في جواب أمّا ، وإن شئت أخرجتها وذلك قولك زيداً إضرب وزيداً فاضرب . فإذا قلت : زيداً اضرب فتقديره : اضرب زيداً . وإذا أدخلت الفاء فلأن حكم الأمر أن يكون الفعل فيه مقدّماً ، فلمّا قدّمتَ الإسم أضمرتَ فعلاً وجَعَلتَ الفاءَ جواباً له ، وأعملتَ ما بعدَ الفاء في الإسم عوضاً من الفعل المحذوف . وتقديره : تأهّبْ فاضرب زيداً وما اشبه . فلمّا حذفته قدمتَ زيداً ليكون عوضاً عن المحذوف وأعملتَ فيه ما بعد الفاء كما أعملت ما بَعدَ الفاءِ في جواب أمّا فيما قبلها . فإذا قلت زيداً فاضربه فهو على تقديرين : أحدهما إضرب زيداً فاضربه ، والثاني عليك زيداً فاضربه انتهى .

ثم قال الشهاب : وههنا مباحث : الاول أن (إياي فارهَبونِ) ليس على شريطة التفسير لامتناع توسط الفاء بين الفعل والمفعول ، وما لايعمل لا يفسر عاملاً . ودفعه أن أصله (فايّاي ارهَبونِ) زُحلِقَت الفاء لشغل حيّز الشرط .

الثاني : أنه لا حاجة إلى جعلها جزائية مع ظهور العطف الذي إختاره في المفتاح ، ولا يقدح فيه إجتماعها مع واو العطف ونحوها لأنها لعطف المحذوف على ما قبله ، وهذه الفاء لعطف المذكور على المحذوف . إنتهى أي فيجوز أن يعمل ما بعدها فيما قبلها[1]

---

(١) ومجمل ما قالوا : ان الفاء زائدة وانه اذا ذكر الضمير فهو من باب الاشتغال ، أو انها عاطفة على فعل طلبي مقدر متضمن لمعنى الشرط ، كما في اسلم تدخل الجنة .

بقي أنه إذا كان تركيب قوله تعالى (واياي فارهبون) هكذا ، فما وجه وجوب الرفع في الإسم السابق في قوله تعالى (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وامثاله ؟ والجواب من وجهين :

الاول : أن الفاء مرتبطة بشرط مقدر تقديره : إن زنت المرأة وزنى الرجل فالحكم أن يقال لكم فاجلدوهما ، مائة جلدة ، وما بعد فاء الجزاء لا يعمل في ما قبله .

والثاني أن الآية في حكم جملتين مستقلتين ولايعمل عامل في جملة مستقلة في اسم في جملة مستقلة أخرى .

وأما قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر) فالاسم واقع في حيز الشرط ومنصوب بفعل شرط مقدر تقديره : متى لقيت يتيما فلا تقهره ، ومتى وجدت سائلاً فلا تنهره ، فليس الإسم فيهما معمولاً لما بعدهما ، وأما نحو (وربّك فكبرو ثيابك فطهر) فالجواب أن الفاء دخلت في الكلام على توهم شرط او تقديره فيه ، وهو قريب من قول النحاة : (زيداً فاضرب) قالوا تقديره : تنبّه فاضرب زيداً ، فالفاء في جواب الأمر المضمّن معنى الشرط أو في جواب شرط محذوف ، أي فليس معمولاً لما بعدها ، ويجوز القول بأن نصب اليتيم والسائل بما بعدهما لأن موقع الفاء قبلهما لكنها أخرت لئلا يجتمع كلمة أما الشرطية مع فاء الجزاء ، افاده المحقق السيالكوتي في حاشيته على الحواشي الغفورية .

وقوله (ولا تكونوا اول كافر به) نوقش أن بني إسرائيل لم يكونوا أول كافر بالقرآن فما وجه هذا النهي ؟ وأجيب بأن المراد به وكونوا أول المؤمنين به لأنكم علمتم من كتابكم انّ هذا الرسول هوَ الرسول الموعود

به • أو المراد : لا تكونوا أول كافر به بَين َ اهل ِ الكتاب • وقوله (ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) أي لا تستبدلوا الإيمان والعلم الموجود عندكم برسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالكفر به والمعاندة معه لأجل ثمن بخس من الهدايا والرّشايا وسائر الدنايا من حظوظ الدنيا •

وفي الآيات إستعارة بالكناية والإشتراء قرينة ، وقوله (وإياي فاتقون) مثل نظيره تركيباً (والتقوى) الإحتراز من كل أمر غير مشروع • والباء في قوله تعالى بالباطل إما للصلة أي لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذي تخترعونه حتى لايتميّز بينهما أو للإستعانة أي لا تجعلوا الحق ملتبساً ومختفياً على الناس بسبب خلط الباطل الذي تذكرونه في تأويله • والحق محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو القرآن أو دين الإسلام والباطل معلوم تقابلا • وأنتم تعلمون أي بالحق الأبلج مع انكم تكتمونه ، او بكتمانكم لذلك الحق ، أو أنتم من أهل العلم ولا يناسبه نكران الحق وكتمانه•والمراد بالصلاةالصلاة المشروعةفي دينالإسلام•والمراد بالزكوةذلك الركن النافع للأنام • وبالركوع الخضوع للحق مع الخاضعين المسلمين ، او الركوع في الصلوة مع سائر آدابها أي لا تصلّوا كاليهود بلا ركوع • أو المراد صَلّوا بالجماعة لا منفردين •

وحاصل تفسير الآيات : يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعَمت بها عليكم خلفاً عن سلف بالعلم والمال والجاه والشرف ؛ جعلنا أباكم إسرائيل رسولاً من رسول من رسول • ونجيناكم من فرعون وأعوانه وظلمه وعدوانه ، فأغرقناهم وعبّرناكم من النيل ، وشرفناكم بمصابيح النور بالتوراة والزبور • وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المَن والسلوى ، وفجرنا لكم من الصّخرة الصماء إثنتي عشرة عيناً بعدد الأسباط ، قد علم كل أناس مشربهم للإمتياز بلا إختلاط ، وأخرجناكم من

مصاعب التّيْه ، ومكّنّاكم من الأرض المقدسة والمسجد الأقصى وفيها نِعَمٌ لاتُعد ولا تحصى ، وعاهدناكم على لسانِ رسولي وكليمي موسى المسعود بالإيمان بحبيبي محمد صاحب المقام المحمود ، فها قد أتاكم وَبَلَغتم مُناكم ، فأوفوا بعهدي وأشرف العهود ، أوفِ بعهدكم مِن النّيل بالسعادة الى أقصى الحدود ، وإياى فارهبون ، وكونوا أوّل المؤمنين به ولا تكونوا من الكافرين ، ولا تستبدلوا بآياتي البينات ثمناً قليلاً من دنايا الدنيا فتكونوا من الخاسرين • وإياي فاتقون ، ولا تخلطوا الحق المنزل في التوراة من أوصاف حبيبي محمد الجليل بالباطل من الكلام المزيف وفاسد التأويل ، ولاتكتموا الحق باللف والدوران والتهويل ، وأقيموا الصّلاة مع المسلمين ، وآتوا الزكاة للمستحقين ، وَأطيعوا الله مع المطيعين •

وفي تفسير القرطبي : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فَعل فِعلهم ؛ فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه حق حتى يأخذ عليه أجراً فقد دخل في مقتضى الآية والله أعلم •

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعِلم لهذه الآية وما كان في معناها : فمنع ذلك الزهريّ وأصحاب الرأي ، وقالوا : لايجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب والاخلاص ، فلا تؤخذ عليه أجرة كالصلاة والصيام • وقد قال تعالى : (ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً) • ثم روى في الموضوع أحاديث شريفة عن جمع من الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين •

وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك ، والشافعي ، وأحمد وابو ثور ، وأكثر العلماء لقوله عليه السلام : في حديث ابن عباس حديث الرّقية (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله) أخرجه البخاري • وهو نصّ يرفع الخلاف فينبغي أن يعوّل عليه •

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ؛ لأنه في مقابلة النص ، ثم إن بينهما فرقاناً • وهو أن الصوم والصلوة عبادات مختصة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدّية لغير المعلّم فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن • وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة •

وأما الجواب عن الآية فالمراد بها بنو إسرائيل ، وشرع مَن قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف • ولنا جواب ثان وهو أن تكون الآية في من تعين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً ، فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك • وقد يتعين عليه وليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم • وله أن يقبل على صنعته وحرفته • وأما الأحاديث فليس شيىء منها يقوم على ساق ، ولايصح منها شيىء عند أهل العلم بالنقل •

واختلف العلماء في حكم المصلّي بأجرة : فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استؤجر في رمضان يقوم للناس فقال أرجو أن لايكون به بأس ، وهو أشد كراهة له في الفرض •

وقال الشافعي وأصحابه ، وأبو ثور : لا بأس بذلك ، ولا بالصلاة خلفه •

وقال الأوزاعي : لا صلاة له • وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ، على ما تقدم •

قلت : وجوّز الشافعية أخذ الأجرة على قراءة القرآن الكريم ، وإهداء مثل ثوابها إلى من يقرأ له بشرط النية له أوّل القراءة وإهداء الثواب له أخيراً • وإن شئت فراجع تحفة الشيخ ابن حجر الهيثمي في كتاب الإجارة • والله اعلم •

(أتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وَأنْتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أفَلا تَعْقِلونَ ؟ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلوةِ وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذينَ يَظنُّونَ أنَّهُمْ ملاقُوا رَبِّهِمْ وَأنَّهُمْ إليه رَاجِعُونَ)(٤٦)

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في أحبار المدينة ؛ كانوا يأمرون سِرّاً مَن نَصَحُوه باتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يَتبعونه بأنفسهم •

والإستفهام في أتامرون للتقرير مع توبيخ وتعجيب ، يعني أنّ شأنكم ذلك ، ولكنه شين وفيه تعجّب ؛ لأن العاقل إذا أمَر ببرٍّ فالأولى له أن يعمل به بنفسه أوّلاً • والبر : التوسّع في الخير ويتناول كل خير • البر بالنفس بعبادة الله تعالى وحده ، والبر مع الأقارب بصلتهم ، والبر بالأجانب بقدر الإمكان • ومعنى نسيان النفس جعلها منسية غير مَرعيّة فكأنّها لا توجد •

وقوله وأنتم تتلون الكتاب جملة حالية جيىء بها للتقريع لا للتقييد ؛ لأن أمر الناس بالبر ونسيان النفس قبيح مطلقاً في حال تلاوة الكتاب وغيرها • ولكنه في تلك الحال أفظع ، لأنّ شأن التالين أن يكونوا عالين

عالمين عاملين . والمراد بالكتاب التوراة وفيها وعيدُ الوعّاظِ اللاّ متّعظين .

والعقل : صفة غريزية للإنسان يتبعها العلم بالبديهيات بلا دليل وبالنظريات به . والآية الكريمة تعلن سوءَ صنيع من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه ؛ لأنه يخسر نفسه حيث أهمل حظه ويَخسر الناسَ بتوجيه التّهمة إليه . وفي الواقع إن عدم تأثير النصائح يعود إلى سوء القدوة أي إلى إهمال القادة أنفسهم في تطبيق ما يأمرون به وترك ماينهون عنه ، ولذلك عُدّ من مفسدات العوائل إهمال عُمدائها لواجب التطبيق ؛ فإن الوالدين الصّادقين قَلّ مايكذب أولادهما . والقادة الأوفياء بالوعود والعهود يتربى على أيديهم جيل جليل من الناس الأفاضل أولي الطباع المرضية والأخلاق الزكية .

وليس في الآية الكريمة منع الفساق من الوعظ والإرشاد ؛ لأَنّ الإرشاد واجب وعمل الإنسان بما يرشد إليه واجب آخر ، وترك أحد الواجبين لايقتضي ترك الآخر . وقوله واستعينوا مربوط بسابقه ، ومعناه أنكم أذا شقّ عليكم تطبيق الواجبات فاستعينوا على ذلك التطبيق بالصبر وحبس النفس على التعب في ما تطيقونه فإن الصبر تدريب والتدريب تهذيب للنفس بحيث تتحول إلى أن تعدّ مارأته مِحنَة كمِنحة ، والصلاة معراج النفس إلى القدس وتنوير للقلب وتقوية للقالب ، وبذلك يقدر انسان على السلوك في المسالك وصيانة نفسه عن المهالك ، والضمير في قوله (وإنها) راجع إلى الإستعانة المأخوذة يعني أن الإستعانة بالصبر والصلاة كما مرّ كبيرة شاقة إلاّ على المسلمين الذين يظنون أي يتوقعون أو يتيقنون أنهم سوف يلقون ربهم للحساب والميزان ، وأنهم إليه تعالى

راجعون للأمر بدخول النار أو جنة الأبرار . جعلنا الله تعالى من المرشدين المسترشدين وثبتنا على الاستقامة في الدين .

(يا بَني إسرائيلَ اذْكُروا نِعمَتيَ الَّتي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالَمينَ (٤٧) واتَّقوا يَوماً لاتَجْزي نَفْسٌ عَنْ نفسٍ شَيْئاً ، ولا يُقبَلُ مِنْها شفاعَةٌ ، ولايُؤخَذُ مِنْها عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ (٤٨) وإذْ نَجَّيْناكُمْ مِن آلِ فِرْعَونَ يَسومونَكُمْ سوءَ العَذابِ يُذَبِّحونَ أبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيونَ نِساءَكُمْ وَفي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظيمٌ . وإذْ فَرَقْنا بِكُمُ البحرَ فَأنْجَيْناكُمْ وَأغْرَقْنا آلَ فِرعَونَ وَأنْتُمْ تَنظُرونَ) (٥٠)

قوله تعالى : يا بني إسرائيل : كرر لهم النداء للتأكيد ولزيادة نعمة التفضيل الذي هو أجَلّ النعم لدلالته على اختصاصهم بمزيد قرب من الله بسبب الإيمان والأعمال الصالحة .

وقوله تعالى فضلتكم المراد بالمفضلين الموجودون في عصر موسى وقبله وبعده ممن لم ينحرفوا . وقوله على العالمين : المراد أهل زمانهم لا مطلقاً حتى لا يتعارض مع قوله تعالى إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين فإنه لو أُريد الإطلاق لزم أن تكون أهل تلك الطبقات فاضلين ومفضولين . وقوله تعالى واتقوا يوماً : أي مايجري فيه من الحساب والعذاب وقوله تجزي صفة لليوم والعائد محذوف ، أي فيه . ثم إن كان تجزى معتل اللام كان بمعنى يقضي ومتعديا بنفسه ،

فيكون شيئا مفعولاً به • أي لاتقضي شيئاً من حقوقها • أو مفعولاً مطلقاً قائماً مقام المصدر • أي لا تقضي قضاءً أي شيىء كان من الجزاء •

وإن كان مهموزاً كان من باب الإفعال ، وبمعنى يُغني • وشيئا مفعولاً مطلقاً • أي لاتغني عن نفس شيئاً من الإغناء •

وقوله تعالى : ولايقبل منها أي من النفس الأولى التي ذهبت لتعمل نافعا للثانية ، أو من النفس الثانية التي حاولت بالتشبث لاستفادة شيىء • ونفع النفس عن النفس إما بالقوّة وهي النصر ، أو بالمروة ، فإن كانت بصرف المال فهو العدل أي معادل ما على النفس من الحقوق • وإن كان بالتضرع والإبتهال فهو الشفاعة • يعني بذلك نفي كل ما يتصور منه نفع لها • ثم المراد بالنفس هي الكافرة لقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، وقوله حكاية عنها : ما لنا من شافعين لا يراد به النفوس المؤمنة لأن الله تعالى أخبر بنفع الشفاعة لهم بإذنه في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه • وقوله تعالى لاتغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى • وقوله تعالى: يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً • وثبت في أخبار كثيرة ثبوت الشفاعة ونفعها يوم القيامة •

وقوله (آل فرعون) أصل آل أهل بدليل تصغيره على أُهَيل • ويختص بالإضافة إلى أولى الأخطار من أهل الدنيا والدين •

وفرعون لقب به ملوك الأقباط كقيصر للروم وكسرى للفرس • ولما اشتهر بالظلم والعتو أشتق منه تفرعن ، يقال : تفرعن الرجل إذا طغى وتكبر على الناس ، والفراعنة قيل : إنهم من بقايا قوم عاد ومن نسل عمليق بن سام بن نوح عليه السلام • وفرعون زمان موسى عليه السلام مصعب او

وليد بن مصعب ، وفرعون عصر يوسف عليه السلام ريان ، وبينهما أكثر من أربعمائة سنة والله أعلم •

(يسومونكم سوء العذاب) أي يعذّبونكم أشدّ العذاب والجملة حال من مفعول نجّيناكم ، ومن آل فرعون إذ فيها ضمير كل منهما (يذبّحون أبناءَكم ويَستحيون نساءكم) بيان لما قبله • والسبب أن الكهنة قالوا لفرعون : سيولد من بني إسرائيل من يذهب بملككم فأمر بذبح أبنائهم واستحياء بناتهم قطعاً للنسل الذكور ، ولم ينفعه لأنه لا مرد لقضائه تعالى • (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) محنة لدنياكم ومنحة لآخرتكم فوق العادة في الناس • (وإذ فرقنا بكم البحر) فَصَلنا بعضَه عَن بعض حتى يمكن العبور بين القسمين للأسباط الأثني عشر فأنجيناكم من فرعونَ وجيشه والغرقِ في النيل وأغرقنا فيه آل فرعون ونفسه أمامَهم (وأنتم تنظرون) إلى غرقهم بإطباق البحر عليهم • بين الباري تعالى ذلك في آياتٍ أخرى فقال : فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلَق فكان كلّ فِرق كالطَّود العظيم • وقال : ولقد أوحينا الى موسى أن اَسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً • وقال : فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال : كلاّ إنّ معي ربّي سَيَهدين • فأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعَصاك البَحرَ فانْفلَق فكانَ كلّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم ، ثم أَزْلَفْنا الأخرين وأَنجينا موسى وَمَن مَعه أجمَعين ، ثم اَغْرَقْنَا الآخرين • وقال واترك البحر رَهْوا إنهم جند مغرقون ، وقوله : رَهوا أي ساكناً ثابتاً على حال إنفلاقه حتى يدخل فيه فرعون وأتباعه •

وهذه الآيات تبين الحادثة وحاصلها : أنه لما ظهر أمر موسى وخاف فرعون من مستقبل الأمر عزم على أن يسطو على بني إسرائيل بجنوده فيبيدهم مِن بَكرةِ أبيهم ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن أسرِ بعبادي ليلاً واعبُر من النيل حتى تخلصوا من شر فرعون وجنوده ، فأمرهم موسى بالإستعداد للخروج فخرجوا بالليل حتى وصلوا إلى حافة نيل ، فعلم فرعونُ بخروجهم فتبعهم بجنوده لإبادتهم ، فلما اقتربوا من النيل وتراءى الجمعان تخوّف الإسرائيليون وقالوا لموسى : إنا لمدركون ونهلك ، فهدّأ عليه السلام قلوبَهم ، وقال : كلاّ إن معيَ ربي سيهدين طريقَ الخلاص . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بِعصاك البَحْر فَضَرَبهُ بها فصارَ فِرقين كل فرق كجبل عال عظيم ، وصار بينهما طريقٌ إعتياديٌ للعبور فسلكه موسى ومن معه وخلصوا . ولما وصل فرعون وأتباعه النيلَ وكان باقياً على حاله دخلوا النيل كذلك ليَصلوا بني إسرائيل ويستأصلوهم . لكنه إنطبق عليهم النيل وهلكوا بالموت الوبيل ، ولله الأمر من قبل ومن بعد وعند ذلك إستبشر المؤمنون . وهذه الحادثة كانت معجزة عالمية إندهشت منها قلوبُ العالِمين في العالَمين . وشبهة الجزر والمد تجري على ألسنة الجاهلين لأنهما إنخفاض وإرتفاع وقتي مع بقاء الماء الكثير في البحر كما كان . فأين ذلك مما حدث هنالك ؟

(وإذ وَاعَدْنا مُوسى أرْبَعِينَ لَيْلَةً) أي : واذكروا نعمة مواعدتنا لموسى بتَفَرّغه لعبادتي ومناجاتي مدةَ أربعين ليلة أوّلاً ذا القعدة وثانيا عشراً اوّلَ مِن ذى الحجة . فالمواعدة على بابه قرر الله عليه بقاءه المدةَ المذكورة وتقبّل موسى ذلك . فهي من طرف الباري تعالى فِعْلٌ وهو فَرضُ البقاء عليه ، ومن طرَف سيدنا موسى إلتزامٌ . وقَولٌ بالقبول على غِرار قول الطبيب : عالجت المريض أي : أعطيته الدواء ، والتزم

الإستعمال . وأربعين مفعول به على تقدير المضاف أي : تفرّغ أربعين ليلة في الطور ، وجعل الباري سبحانه وتعالى ذلك التفرغ شرطاً لإنزال الكتاب عليه ، وتلك المواعَدة كانت بعد خروجه مع بني إسرائيل من مصر وعبوره من النيل . وقول البيضاوي : لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة .. غير منقول نقلاً صحيحاً . ويعارضه أنّه بقي من الأقباط في مصر عدد هائل من أعداء بني إسرائيل فما كانوا متمكنين من العودة إليه والبقاء فيه ولم يذكر أحد من المؤرخين أنهم دخلوا مصر بعد خروجهم منها كما أفاده الشهاب[1] . وذلك أنه لما جاوز ببني إسرائيل البحر مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فقال بنوا إسرائيل لموسى : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ! قال : إنكم قوم تجهلون . وقولهم ذلك كان عن بعض من الشباب المنطبعين بأحوال الأقباط وغفلتهم عن الباري تعالى ، وكذلك شأن كل جيل جديد من الأمة فإنهم لايعرفون إلا البيئة التي عاشوا فيها ، وليس عندهم تمكّن من معرفة الدين لاسيما إذا نشأوا في إضطهاد واضطرّوا لمداراة القوة الموجودة . وعند ذلك سأل أهل المعرفة منهم موسى عليه السلام : أن يأتيهم بكتاب من الله يحتوي على العقائد والأحكام حتى يتربى الجيل عليه ، فطلب موسى ذلك من الله تعالى فقال له : إصعد إلى الطور مع أُناس مختارين من قومك وتفرغ هناك ثلاثين يوما للصيام والعبادة . فالتزمه ، واختار من قومه سبعين رجلاً ، ولما وصل المقام زاد الله تعالى عشرة ليال اخر فصارت المدة أربعين ليلة .

---

(١) وقال ابن جرير : ان الله أورثهم أرضهم ولم يردهم اليها ، وانما جعل مسكنهم الشام .

وعند ذهابه إلى الطور استخلف أخاهُ هارون على قومه ، ولما كان الميقات أو"لاً" ثلاثين يوماً وزاد الله تعالى عليه عشرة أيام ، ولم يعرف القوم بها إستطالوا بقاء موسى في الطور حتى توهموا وفاته ، فاستغل موسى السامري الإسرائيليُ الصائغُ هذه الفرصةَ ، وكان منافقاً في الدين فخدَع الإسرائيليين والإسرائيليات ، وأخذ منهم مقداراً من حلي الأقباط الموجودة عندهم عارية ، فأذابَها وسبَكها في قالب على هيئة العجل فحصل عجل صناعي عجيب ، وقال للإسرائيليين من النشء الجديد : هذا إلهكم وإله موسى ! فقبلوا منه الأمر وعكفوا عليه وعبدوه . حتى يقال : إنه لم يبق من الإسرائيليين على الدين الصحيح إلا هارون وإثنا عشر ألفاً منهم ، وصاروا من المشركين كما قال تعالى :

(ثمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ) أي من بعد موسى .

(وأنْتُمْ ظَالِمُونَ)(٥١) أي على أنفسكم بهذا الإشراك .

وكان لذلك العجل خوار وحركات . فمن العلماء من يقول : إنه كان عجلاً له حياة حقيقية لأن السامري ذرَّ عليه عند الصياغة مقداراً من التراب الذي أخذه من موطىء حوافر فرس جبريل ، فخلق الله فيه الحياة ولا إستحالة في ذلك ويكون بالنسبة إلى السامري فتنة واستدراجاً . وهذا رأي الحسن .

وأما الجمهور فقالوا : لم تكن فيه الحياة وإنما كان على شكل العجل ، وكان خواره من دقة صناعة السامري حيث جَعَل في رأسه منافذ تفتح وتصوّت كأصوات السّاعاتِ الصناعية .

وأما ما حكاه الباري سبحانه من كلام السامري في معذرته لموسى عليه السلام : (فَقبضتُ قبضةً من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت

لي نفسي) •• يعني أنه لما خرج الإسرائيليون من مصر رأى السامريّ على دعواه خيّالاً على فرس كلّما وَضَعَ الحوافِرَ على محلّ ورفعها أخضرّ وظهر فيه نبات ، فتفرس السامري أن الخيال جبريل ، وأنّ هذا الأثر من قدسيته ، فقَبَض قَبضَةً مِن التراب الواقع تحت حوافر فرسه ، ولما صاغ العجل ذَر من ذلك التراب مقداراً على فم العجل فظهرت فيه الحياة بأمر الله تعالى • فلم يذكره الباري سبحانه وتعالى على سبيل التقدير ، وإنما حكاه عن السامري في الإعتذار لموسى عليه السلام ، والإعتبار بالتقدير والعناية لا بالنقل والحكاية • فإن الله تعالى حكى عن الشيطان قوله : (انا خير منه) أي من آدم مع أن الشيطان شقي مطرود وَآدم نبيّ مسعود •وفي الواقع إن السامري لم ير الخيّال ولا الفرس، ولا أخذ التراب تحت قدميه وكان كلامه كلّه كذباً ، وأراد به التلبيس على موسى عليه السلام ، فلم يذكر أن الصوت كان من أثر أعمالي الصناعية بَل ذكر ما حكاه الله تعالى عنه حتى يشتبه موسى ويقبل منه عذره وأنّى له ذلك ؟ فإنّ أصحاب الإنتباه بعيدون من الإشتباه •

قلت : ويؤيّد رأي الجمهور ماذكره الباري تعالى من قوله (جسداً له خوار) بدلاً عن العجل والبدل هو المقصود بالنسبة ، وذلك شاهد صدق على أن العجل المصنوع لم يكن عجلاً ، وإنما كان شيئا على صورته •

فائدة : الإتخاذ يجيء بمعنى إبتداء صنعة فيتعدى إلى مفعول واحد نحو : إتخذت سيفاً أي صَنعتُه ، وبمعنى إتخاذ وصف فيجري مجرى الجعل ، ويتعدى لاثنين نحو : إتخذت زيداً صديقاً • والظاهر هنا المعنى الثاني ؛ لأن السامري خدعهم ليعبدوه ولاسيما لما مَروا على قوم يعبدون الأصنام وكان صنمهم على شكل البقرة ظن أن فيهم محبة عبادتها فأراد

السامري أن يعبدوه ، فالمفعول الثاني محذوف لبشاعة ذكر الإله مع العجل . وتقدير الآية ثم اتخذتم العجل إلهاً . ويدل عليه قوله تعالى في سورة طه فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي .

(ثم عَفَوْنا عنكم مِنْ بَعْدِ ذلك لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) يعني ثم . عفونا عنكم برحمتنا إرتكابَ ذلك الظلم بعد توبتكم عنه رجاء أن تشكروا نعمةَ عفوه بتوحيده . وعفا بمعنى درس ، يأتي لازماً نحو عَفَتِ الدارُ ، ومتعدياً نحو عفاها الرّيح .

قال ذو النون : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان .

(وَإِذ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالفُرْقَانَ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ) (٥٣) أي واذكروا نعمتنا عليكم إذ آتينا موسى كتاب التوراة الجامع للأحكام والفارق بين الحق والباطل ، أو المعجزات الفارقة بين أهل الرسالة وأصحاب السحر والضلالة ، كالعصا واليد البيضاء لعلكم تهتدون بتدبر الكتاب الحاوي للآيات والإتعاظ بالمعجزات .

(واذ قال مُوسى لِقَوْمِهِ : ياقَومِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُمْ باتِّخاذِكُمُ العِجْلَ ، فَتُوبُوا إلى بارِئكُمْ فاقْتلُوا أنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بارِئكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحِيمُ)(٥٤)

يعني واذكروا نعمة إرشاد الباري لكم إلى طريق العفو إذ رجع موسى من الطور غضبان ، واطّلَعَ على ما اقترفتموه ، فرجع إلى الحالة المناسبة لجلالة الرسالة ، وقال : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم

باتخاذكم العجلَ إلهاً بعدما أدركتموه من آثار عظمة الباري الموجبة لعبادته وتوحيده ، فاعزموا على التوبة والرجوع إليه بقتل أنفسكم ، ذلكم القتل خير لكم عند باريكم لأنه يعلم مراتب التائبين وعواقب الخائبين ، فتبتم وتاب الله عليكم ، لأنه هو التواب للمذنبين والرحيم للمسترحمين .

روي أنه لما أخذ موسى الألواح في الطور وأخبره تعالى بأن السامري أضلَّ قومَه رجع إليهم غضبان وأخذ يعاتب أخاه هارون ويأخذ لحيته ويَجُرّ رأسَه إليه ، فاعتذر إليه أخوه هارون وتبين أنه لا عتب عليه ، وإنما الفساد والإفساد من السامري الضال ، ومن القوم الجهال . وحرّقَ العجل وذرّه في اليمّ ، ودعا على السامري وابتلى بما ابتلي به ، عاد إلى حالته الطبيعية فنصح قومه حسب إيحاء الباري تعالى اليه .

وقال : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتباع النفس وهواها ، واتخاذكم العجل إلهاً ووجبت عليكم التوبة ، وهي بقتلكم أنفسكم حدّاً لها على تلك الجريمة النّكراء ، فدخلوا ساحة فأتت عليهم ضبابة سوداء فقتل بعضهم بعضا ، وبذلك برأوا من الذنب ، فإنّ الحد يدفع الذنبَ ، وماتوا شهداء .

وقيل : إن المراد بالقتل رياضة النفس وإتعابها بالدوام على الصيام وتقليل الطعام إلى أن تتزكى وتتوب إلى ربّها ، فأطاعوه فيما أمرهم به ، وخلصوا عن عقوبة ما أقدموا عليه . والله أعلم بحقيقة الحال .

فائدتان : الأولى : في الكشاف في تفسير البارىء : هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة . وفي البيضاوي : وأصل التركيب لخلوص الشيىء عن غيره إما على سبيل التقصي كقولهم :

برىء المريض من مرضه ، والمديون من دينه . أو الإنشاء كقولهم : برأ الله آدم من الطين .

الثانية : الظاهر أن تعيين الحد للمرتد بقتل النفس من الآصار والأثقال التي كانت في دين التوراة ، ولو كان المرتد يتوب . وأما شريعة القرآن أنه لا حدّ عليه إذا تاب ويقتله الحاكم إذا أصرّ . فلله الحمد والمنة .

(وَإِذْ قُلْتُمْ : يا موسى لَنْ نُؤمِنَ لك حَتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تشْكُرُونَ)(٥٦) والقائلون هم الجمع الذي إختارهم موسى عليه السلام ليذهب بهم إلى الطور للإعتذار عن سوء أعمال عُبّادِ العجل وبيان أنهم قَتَلوا أنفُسَهُم إمتثالاً لأمر الله تعالى والمعنى واذكروا نِعمةَ البَعْث بعد الإماتة إذ ذهبتم مع موسى إلى الطور للإعتذار ، وسمعتم كلامه تعالى معه آمراً وناهياً ، فظننتم أنه موسى رأى ربه في ذلك اللقاء واغتررتم بأنفسكم ، وطَلَبْتُم رؤيتَه تعالى كما رآه موسى ، فقلتم : لن نؤمن لك أن المتكلم معك هو الله تعالى حتى نرى الله جهرة وعياناً ، فعاقبكم ربكم على ما صدر منكم ، فأخَذَتْكُم الصاعقة بأمره لقهره عليكم لما فرّطتم وأنتم تنظرون بَريقَ الصاعقة عند نزولها . فأماتكم الله بها وَبقيتم مدّةً ، ثم بعثناكم بعد موتكم بدعاء موسى لعلكم تشكرون .

روي أن سيدنا موسى ، بعد قتل الإسرائيليين المشركين أنفسهم ، ذهب إلى الطور واختار من القوم سبعين رجلاً لتقديم الإعتذار وشكر الباري تعالى على نزول التوبة والإستيناس بمناجاة موسى وكلامه تعالى معه ، فلمّا وَصَلوا إلى الطور غَشِيت موسى ضبابة وَسمِعوا كلام موسى مع ذات الحق سبحانه وكلامَه

معه . فقالوا ما قالوه . وذلك إما لاعتقادهم أن موسى رآه واغترارهم بأنفسهم وأنهم مثله ولابد من رؤية الباري كما رآه موسى ، أو جهالة وغباوة حيث وقعوا في الشك وزعموا أن المتكلم مع موسى غيره تعالى وعلى كلا الأمرين عاقبهم الله بصاعقة نزلت عليهم وأماتتهم ، وبعد يومين من الحادثة بعثهم الله كما كانوا على تضرّع موسى وابتهاله إلى الله ، وقيل : القائلون هم السبعون الذين ذهبوا مع موسى إلى الطور لأخذ الكتاب ، وقيل : غيرهم من بني إسرائيل . وقالوا ذلك لما نزل موسى بالألواح وذكر لهم أن هذه الألواح نزلت من الله شرعة ومنهاجا لكم . فقالوا : لن نؤمن بأن هذا كتاب الله حتى نراه جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وماتوا ثم بعثهم الله بفضله ورحمته .

وكلا القولين غير موجه لقوله تعالى في سورة الأعراف :

(واخْتَارَ موسى قَوْمَه سَبْعِين رجلاً لميقاتنا ، فَلَمَّا أَخذَتهم الرَّجْفَةُ قالَ : رَبِّ لَو شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبلُ وإيّايَ أَتُهلِكُنا بما فَعَلَ السُّفهاءُ مِنّا إنْ هِيَ إلاّ فِتنَتُكَ تضل بها مَن تشاء وتَهدي من تشاء أنتَ ولِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنتَ خيرُ الغافِرينَ) .

فإنّ الآية الكريمة تنادي بأنّ القائلين هُمُ السّبعون المختارون للذهاب إلى الطور في الميعاد للإعتذار عما جَرى من الفساد ، وتقديم الشكر على نعمة عفوه عن العباد . وأن موسى تخوّف إستحياءً من قول الناس أنه بعد قتل الناس توبة قتل الناس المختارين نوبةً اخرى ، فتقبّل الله تعالى دُعاءهُ ، ولبّى نداءهُ برحمته فإنّه أرحم الراحمين . فالميقات أول الآية هنا ليست ميقات أخذ الألواح بل ميقات الميعاد للإعتذار إلى خالق الاشباح والأرواح .

(وظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمامَ وَأَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ، وما ظَلَمُونَا وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٥٧)

هنا نعمتان أُخريان من نعم الله تعالى على بني إسرائيل في التّيه بين مصر والشام وهما : تظليل الغمام عليهم لتبريد الهواء ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم من السّماء للتنعم بهما • وذلك أنه لما خرجت بنو إسرائيل من مصر وعبروا النيل أمرهم موسى عليهم بدخول الأرض المقدسة عندهم ، أعني بلاد أردن وفلسطين وما والاهما التي سكن فيها العمالقة الجبارون ، وأن يحاربوهم ويخرجوهم ويَسكنوا أماكنهم ويتنعموا فيها كما يشاؤن ، فقالوا : لا علم لنا بتلك الديار ، فبعث موسى بأمر الله تعالى إثني عشر نقيباً مِن كل سبطٍ رَجُلٌ شريف يتحسسون الأخبار ، فذهبوا إليها ورأوا سكّانها الجبّارين من العمالقة فرجعوا وقرّروا بينهم : أن لا يُخبروا بني إسرائيل بشوكة العمالقة حتى لا تنفسخ عزائمهم على الجهاد ، ويتوكلوا على الله لعلّهم يُنصرون • فسار جيش بني إسرائيل حتى اقترب الديار ، وعند ذلك أفشى إخبار قوتهم النقباء ما عدا رجلين منهم هما : (يوشع ، وكالب) فتندّم الإسرائيليون من الجهاد ، ورجعوا إلى محلّهم ، ولم ينفع إلحاح موسى على الجهاد ، فعاقبهم الله تعالى بأن يبقوا في التيه ، وهي صحراء بين مصر والبلاد[1] المقدسة مدة أربعين سنة ، ثم مات هارون وموسى (عليهما السلام) في التيه • وبعد ذلك بمدة قليلة فتح يوشع إبن

---

(١) وهي الارض الممتدة على ساحل البحر الاحمر من بيداء فلسطين مما يلي حدود مصر ، وفيها كان الاستسقاء •

نون وهو إبن أخت موسى وأحد أنبياء بني إسرائيل بلدة أريحاء ، ثم بيت المقدس ، وسكن الإسرائيليون هناك •

ولما عاقبهم الله تعالى بالبقاء في التيه من حرارة الشمس وقلة النفقة شكوا ذلك الى موسى عليه السلام ، فدعا ربه بإغاثة قومه فاستجاب دعاءه ، فكان تظللهم بعد ذلك غمامة في اليوم الحار بحيث لا يتأذون ، وأنزل عليهم المن أي الترنجبين (معرب ترانگبين) أي العسل الرطب المائي • وينزل عليهم كل يوم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فيأخذ كل بيت كفاية يوم ، إلا يوم الجمعة فيأخذ كفاية يومين لتفرغهم يوم السبت للعبادة ، وأنزل عليهم السلوى وهو طير أصغر من الحمامة وأكبر من العصفور لاتقدر على طيران زائد ، كانت تأتي به الريح الجنوبي فيأخذون منه مايكفيهم ، ولكنهم خالفوا الحدود المقررة في المقدار فرفعها الله بعد ذلك •

وحاصل معنى الآية : أذكروا أنا ظلّلنا الغمام على رؤوس أسلافكم بالتّيه لدفع الحرارة عنهم في اليوم الحارّ ، وأنزلنا عليهم مِنَ السماءِ مَنّ السماء كالعسل المائي لشربها وَحْدها ، أو لتحلية الأطعمة بها ، وانزلنا عليهم السلوى لحما طريّا شهيّا • وقررنا لكم حدودا في مقدار المأخوذ فخالفوا أمرنا وما ظلمونا بتلك المخالفة لأن ساحة الكبرياء ساحة الإستغناء ، ولكن كانوا سابقاً هم يظلمون أنفسهم بحرمانها من مزيد الثواب وحسن المآب •

(وَإِذْ قُلْنَا : ادخُلُوا هذِهِ القَرْيَة فَكُلُوا مِنْهَا حَيثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ، وقُولُوا : حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحْسنين)(٥٨)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماء بما كانُوا يفْسُقونَ)(٥٩)

والمعنى أذكروا لبني إسرائيل على لسان يوشع بعد وفاة موسى في التّيه أدخلوا مدينة القدس فاتحين مستولين ، واسكنوا بها وكلوا من أرزاقها حيث شِئتم أكلاً واسعاً مترفهاً ، وإذا فتحتموها فادخلوا الباب أي باب بيت المقدس أيّا كان ، أو أحد الأبواب المعهود عندكم ، وهو المسمى الآن (باب حطة) ساجدين لله شاكرين له على نعمة الفتح .

وقولوا : يا ربنا مقصودنا حطّة وسقوطٌ لذنوبنا . وإذا قلتم ذلك نغفر للمخطئين منكم خطاياهم ، وسَنَزِيدُ المحسنين منكم بالإبتعاد عن عبادة العجل ثواباً وأجراً .

فبدّل الذين ظلموا أنفسهم من بني إسرائيل بالقول الذي اُمِروا به غيره عناداً وتمرّدا ، وقالوا : حنطة ، حنطة ، وطلبوا ما يغترّون به من عيش الدنيا ولم يكن طلبهم على إضافة الحسنة إلى الحسنة بل على سبيل الإقتصار بالدنيا والإستهتار بالدين فأنزلنا على أولئك الذين ظلموا رجزاً وعذاباً من السماء بسبب فسقهم وخروجهم عن طريق الصّالحين .

روي أنه أنزل الله عليهم طاعوناً أهلَكَ به كثيراً وكثيراً . فهذه القصة قصة وقعت بعد التيه في زمان يوشع النبي عليه السلام ، وكان سيدنا موسى قد حوّل إليه قيادةَ بني إسرائيل ، ووصّى له بالجهاد وفتح بيت المقدس . ففتح بعد ثلاثة أشهر من وفاة موسى القدس والمسجد الأقصى وكان هذا الفتح بعد فتح بَلدة أريحا . والقائل ذلك القول لبني إسرائيل هو يوشع بوحي من الله تعالى أو بوصية من موسى عليه السّلام .
وأما قصة أمر سيدنا موسى وقوله لبني إسرائيل بفتح الأرض المقدسة فقد

كانت قبل الدخول في التيه ، فإنه بعد الخروج من مصر لما رأى الإسرائيليين متعبين من عيش الصحارى ، وما كانوا متعودين عليه سابقاً أمرهم أن يحاربوا العمالقة الجبارين ويستولوا على بلادهم التي هي من الأرض المقدسة وهي الشام كلها ، أو الطور وما حوله ، أو أريحا مقرء الجبارين أو دمشق وفلسطين وبعض من الأردن كما ذكره بعض المفسرين .

وامتثلوا أولاً وبعد انتشار أخبار قوتهم من جانب بعض النقباء تندموا وخالفوه ولم يجاهدوا فعاقبهم الله وابتلاهم بالبقاء في التيه بمسافة نحو أثني عشر فرسخاً أربعين سنة .

وليست هذه القصة قصة يوشع عليه السلام ، والعجب من الشهاب كيف ادعى إتحاد القصتين مع ظهور تعدّدهما ؟!

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(٦٠) لما دخل بنو إسرائيل في التيه وكان صحراء قاحلة قليلة الماء إشتكوا إلى موسى عليه السلام العطش ، فاستقى عليه السلام ربّه ، فأجابه وأمره أن يضرب بعصاه الحجر لينفجر منه الماء ، أما عصاه فهي العصا المعهودة أمّ المعجزات ، وأما الحجر فللمفسرين فيه أقوال فمنهم من يقول : إنه كان حجراً معهوداً بينه وبين موسى ، وهو الذي فرّ بثوبه حين وضعه عليه ليغتسل ، فركض وراءه موسى عارياً ، ويقول : ثوبي حجر ثوبي حجرُ . وكان الإسرائيليون يرونه ، وعلموا أنه بريء من عيب الأدرة التي رموه بها . فأشار إليه جبريل أن إرفعه وخذه معك ، فإن لله فيه إظهارَ قدرة .

وفي تفسير روح البيان : أنه كان ذراعاً في ذراع • وفي تفسير المنار يبين معهوديته بكونه حجراً صلباً أو عظيماً تتّسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن يكون منه موارد لتلك الأمم •

وفي غيره أنه كان مربعاً له أربعة اَوجُه ، فضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشْرة عيناً بعدد الأسباط • وعلى كل عين علامة صاحبها •

ومنهم من يقول : إن المراد به جنس الحجر أَيّاً كان • وهذا أبلغ في القدرة ، وأوفى بالمعجزة ، وأبعَدُ من الشبهة كخاصية في ذلك الحجر لانفجار الماء • وكان سيدنا موسى يأمر بوضعه في محل عند الحاجة فيتفجر منه الماء بالمقدار الكافي ثم ينقطع • وقال سيدنا موسى لهم : كلوا واشربوا من رزق الله من المن والسلوى والماء الزلال ، ولا تعثوا في الارض مفسدين لقلوب الناس •

ولفظ عثا ناقص ، وعاث أجوف وهما في المعنى واحد إلا أن الثاني غالب إستعماله في المحسوسات عاث السوس الخشب أي أفسده •

فهذه النعمة نعمة جليلة وحقها أن تذكر وتؤخذ بعين الإعتبار ، فإنّ القوم الذين خالفوا الأوامر وعوقبوا بالإلقاء في التّيه لاتحصل لهم هذه النعمة العظيمة إلا بفضل الله ورحمته من أثر دعاء رسوله وإجابته •

وإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ : بَقْلِها ، وقِثَّائِها ، وفُومِها ، وَعَدَسِها ، وبَصَلِها • قالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الّذي هُو اَدْنى بالّذي هُوَ خَيْرٌ ؟ اِهْبِطُوا مِصراً فَإِنَّ لَكُمْ

ما سَأَلْتُم ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والمسكَنَةُ ، وباءُوا بغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذلِكَ بأَنَّهُمْ كانوا يَكْفُرونَ بِآياتِ اللهِ ويَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدونَ) (٦١)

كان الإسرائيليون في التيه على طعام لا يختلف وهو المن والسلوى، فتنفر عنه طباعهم . فطلبوا من سيدنا موسى أن يدعو الله تعالى ليخرج لهم في الأرض من أنواع المخضرات ليتمتعوا ويتنوعوا منها . وذلك الطلب لعوامل : الأول ما قلنا من إباء الطبع عن الإستمرار على طعام واحد ولوكان لذيذاً . الثاني : تعودهم بإجابة الله تعالى لكل ما طلبه موسى ولو كان خارقاً للعادة ، فصار ذلك عندهم كالأمور الإعتيادية . الثالث : أنه كان عند عامتهم تعنّت تعجيزي كالأطفال عندما هاجوا ، فكانوا يطلبون الشيىء وإذا حصل لهم لم يقتنعوا به ، وطلبوا شيئاً آخر . وهذه الطبيعة توجد بكثرة عند المدلّلين لاسيما صنف الروحانيين لأن الأمراء يخدمهم من يطمع فيهم أو يخاف منهم ، وأما الروحانيون فيخدمهم أتباعهم على غرام لنيل المرام ، أو على تقليد رائج بين العوام . فقلما تكون في أولادهم طبيعة معتدلة سالمة ولذلك صار كالمثل الجاري (إخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم) .

فعلى ذلك طلبوا من موسى عليه السلام البقل وهو كل نبات لا ساق له ، والقثاء ، والفوم وهو الحنطة ، أو الباقلاء ، أو الثوم . والعدس ، والبصل . فقال عليه السلام مستنكرا : أتستبدلون الذي هو أدنى كهذه المخضرات بالذي هو خير لذة وحلاوة وإفادة للبدن وحصولاً بلا تعب ؟! فإن كنتم تريدونها فلا توجد في التّيه وإنما هي في البلاد الخصبة الزراعية إذا تحصلونها بالفلح والزرع ، أو في المدُن ففيها يؤخذ مالذ وطاب فعليكم بالسعي والجهاد وانزلوا إلى مصر من الأمصار الواقعة في الأرض المقدسة

واستولوا عليها حتى يحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، أو اهبطوا إلى مصرَ موطنكم قبل الخروج ، وعودوا إلى عبوديتكم النكراء واتفقوا مع الأقباط فإن لكم عند ذلك ما سألتم ، فإن للهِ سنة جارية في العالم جواباً ولن تجدوا لسنته تبديلاً .

وقوله تعالى : وضربت عليهم الذلة والمسكنة جملة مستأنفة جواباً لسؤال تقريره : فلم لم تأخذهم الغيرة من كلام موسى عليه السلام حتى يحاولوا الفتح والجهاد ؟ فأجاب بقوله : ضربت عليهم الذلة النفسية وعدم الإعتماد على الشخص وأتتهم المسكنة والخشوع الفارغ بحسب طبيعتهم ونشوئهم الفاسد وإبائهم عن قبول تربية المربّين . وباؤا بغضب من الله لأن الله تعالى يبغض الرجلَ البطّال ، وذلك الغضب حل فيهم وعليهم بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وخوارقه الظاهرة على أيدي المرسلين . وإلا لو كانوا مؤمنين بها حق الإيمان وشاكرين لنعمة المنان أطاعوا موسى في محاربة الجبارين وفتحوا أريحا مقرهم أو بلدة أخرى وعاشوا فيها عيشة الأحرار ، وغرز في طبيعتهم الفاسدة إنهم يقتلون النبيين الأبرياء لو أمكنهم لأنهم عزموا على قتل يوسف المعصوم ونجى منهم بفضل الله ورحمته ، وَعَدمُ الإهتمامِ بقتل المعصوم عينُ عدم الاهتمام بقتل النبيين بغير الحق ، وقد ظهر منهم بعد مدة قتلُ يحى وزكريا والإقدام على قتل عيسى ، وتلك الملكة الفاسدة والرذيلة الكاسدة حصلت فيهم بما عصوا تعليمات الرسل ، وكانوا يعتدون على الحقوق ، ومن باشر الإعتداء والعصيان تنمو فيه ملكة الطغيان . والطاغي يبغي على الحقوق ولا يبقى عنده فرق بين قتل الأشقياء والأبرياء ، فالشّر يأتي بالشرور ، ولاسيما الطغيان والغرور كما أن الخير يأتي بالخير بل بالخيور .

فإن قيل : قتل النبيين لا يكون حقاً ابـداً فما فائدة التقييد بغير الحق ؟ اجيب بأنّه قيد" واقعي وبيان للواقع • أو أنه لتأكيد العدوان المستفاد من قتل النبيين • أو أن الكلام جار على مذاق القاتلين فإنهم إذا رأوا ما لا يعجبهم من أي شخص يعاديهم قتلوه ورأوا أن قتله بالحق لمخالفته لهم ، والطّغاة لم يروا في النبيين أمراً داعياً إلى القتل مع أنهم قتلوهم حتى لايبقى لهم أثر ، فكان قتلهم بغير حق حتى عندهم •

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ؟ فالجواب : إن المراد الغلبة بالحجة والبينات ، أو الغلبة في المناجذة والمحاربات • أو الغلبة يوم القيامة أو أنّ القضية أغلبية لا كلية ، لأن سنة الله لا تقبل التبديل •

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، والَّذِين هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابئين مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهمْ ولا خَوْف" عَلَيهِمْ ولاَ هُمْ يَحزَنُون)(٦٢)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى • فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، وديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً • وقالت النصارى : مثل ذلك فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ، ونبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا • فأنزل الله تعالى : ليس بأمانيكم وَلا أَمانيّ أَهلِ الكتاب مَن يَعْمل سُوءً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل

من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا •

وقوله تعالى إن الذين آمنوا والذين هادوا ••• الآية على منهاج هذه الآية ، والمقصود : إن الله سبحانه وتعالى كلما أرسل رسولاً في أي عهد من العهود إلى أي امة من الأمم فمن كان مؤمناً بالله ورسوله وأخلص دينه لله في ذلك العهد فقد فاز بالسعادة ، وكذلك الأمر في هذا العهد الذي أرسل فيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة عامة وبعث رحمة للعالمين فمن كان مؤمنا بهذا الدين بادىء بدء ، ومن كان مِنَ اليهود ، أو من النصارى ، أو من الصابئين الذين كان لهم دين قبل هذا الدين إذا أتى إلى هذا الرسول في عهده وقَبِل دينَه بإيمانٍ وإخلاصٍ ، وآمَن باللهِ واليومِ الآخر وسائر ما اعتبر الإيمان به من أركانه وأثبت إيمانه بالعمل الصالح حسب منهاج دينه العام القويم فلهم أَجْرُهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم من مكروه منتظر يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما أصابهم • أي ليس أمامهم إلا الرحمة والرضوان والفَوزُ بالجنان ، فالأديان السابقة كانت كلها نافعة لأهل الإيمان بذلك العهد ، وأما اليوم فلا ينفع فيه إلا الإيمانُ بخاتم الأنبياء •

فقوله تعالى : إن الذين آمنوا : المراد به آمنوا بدين الإسلام في ظاهر الحال فهو وسائر أهل الأديان السابقة كلهم سواء في هذا العهد فمن آمن بالرسول المبعوث فيه ، وقارن إيمانه العمل الصالح فهو السعيد بحق ، وغيرهم يعتبر من الكافرين ويدل دلالة قطعية على هذا قوله تعالى في سورة الأعراف : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهيهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ،

فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون • قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون • فلا خلاف في سعادة كل من آمن بالرسول المبعوث إليه في عهده من لدن عهد سيدنا آدم إلى عهد الخاتم كما لا خلاف في أن من عاصر عهده عهد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو جاء بعده يجب عليه أن يؤمن به ويتبع تعاليمه في العقائد والأحكام ؛ لأن دينه ناسخ لسائر الأديان ورسالته شاملة لجميع الأمم • وأما من لم يصل إلى عهد الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تصل إليه دعوة رسول سابق عليه فهو من أهل الفترة وأهل النجاة ؛ كمن ولد بعد عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تصله الدعوة الإسلامية الشريفة ممن عاشوا في جزر البحار ، وقلل الجبال ، وأعماق الوديان • لقوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) • نعم إن الدعوة اليوم وفي عهد الإذاعات العالمية العامة قد وصلت إلى كافة الناس من العقلاء والمثقفين ، فمن لم يهتم بها ولم يؤمن ، واتبع هواه فهو أيضاً يعد من الكافرين • بيد أن من لم يؤمن بسبب إستيلاء رئيس ديني عليه وتشويه الحقائق يدخل في زمرة الكافرين الذين يقولون : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً •

ومعنى قوله تعالى : والذين هادوا ، والذين تهوّدوا أي دخلوا في دين اليهود • وهو إن كان عربياً في الأصل فمأخوذ من هاد بمعنى تاب أو سكن • وإن كان معرّبا فهو معرّب يهوذا بذال معجمة وألف مقصورة فعرّب وغيّر •

والنصارى : إما جمع نَصران بمعنى نصراني ، فهو على القياس كندامي ونَدمان . والياء في نصراني حينئذ للمبالغة كما يقال للأحمر : أحمري إشارة إلى أنه عريق في وصفه.وقيل : إنها للفرق بين الواحد والجمع كزنج وزنجيّ ، وروم وروميّ . ونصران بمعنى نصراني وارد في كلام العرب ، وإما جمعُ نَصْرِيّ كمهارى ومَهْرِيّ وألفه للتأنيث ، ولذا لم يُنَوّن .

ثم إن نصران بمعنى ناصر ، كما قلنا ، سمي به لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ، أو لنصر بعضهم بعضا . فلا يرد عليه أن فاعلاً لايجمع على فَعالى لأنه جمع نصران بمعنى ناصر لا جمع ناصر .

وقيل : إن عيسى عليه السلام ولد في (بيت لحم) بالقدس ، ثم سارت به أمه إلى مِصرَ ، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة عادت به إلى الشام ، وأقامت بقرية يقال لها (ناصرة) فسمّي من معه باسمها .

والصابئون : قوم بين النصارى والمجوس ، وقيل : بين النصارى واليهود ، لأن دينهم يشبه دين الفريقين . واللفظ إن كان عربيا فهو من صبأ مهموز اللام أي خرج ، أو من صبا معتل اللام بمعنى مالَ . وفيهم إعتقاد بتأثير النجوم على معنى التسبب كالنار للإحراق .

(فائدة) : معنى مَنْ آمَنَ في اوّل الآية الشريفة مَنْ آمن ظاهراً كائناً ما كان . ومعنى مَن آمَنَ في آخرها آمن بصدق وأخلَصَ في إيمانه ، فلا تكرار فيها .

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ

تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الخاسِرِينَ) (٦٤)

روي ان بني إسرائيل طلبوا الكتاب من موسى وعاهدوه على العمل به ، فذهب موسى إلى الطور وأخذ الألواح من الله سبحانه وتعالى منهاجاً للدين ، ولمّا عرضها على بني إسرائيل واطّلعوا على مافيها من التكاليف تمردوا وأبوا عن قبولها ، فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فقلع جبل الطور ورفعه فوقهم ، فخافوا من إطباقه عليهم فقبلوها . ولمّا أخذ الله تعالى الميثاق من بني إسرائيل على لسان موسى بقبول الكتاب إذا أنزله عليهم والعمل به ، وقد اعطوا موسى عليه السلام عهداً بذلك ثم نقضوه .. هدّدهم الله تعالى بإطباق الجبل عند التمرد ، فليس ذلك الأمر إكراهاً لهم على قبول الدين ، بل عقاباً لهم وتخويفاً على نقض ذلك الميثاق . ومع هذا لما قبلوا التوراة خوفاً من العذاب خالفوه مرة أخرى .

وحاصل تفسير الآيتين : واذكروا إذ أخذنا العهد والميثاق منكم باتباع موسى والعمل بما في التوراة ، ثم لما جاءكم موسى بالكتاب وعرضه عليكم تولّيتم ، وأبيتم عن قبوله ، فخوّفناكم عقاباً على ما جرى منكم ، وأمرنا جبريل بقلع الطور ورفعه عليكم كالمظلة فوق المخيّم ، وقلنا لكم : خذوا ما أنزلنا إليكم وتلونا عليكم من التعاليم القدسية المباركة بقوة القلب للإعتقاد ، والبدنِ للعمل به ، واذكروا ما فيه وادرسوه وعلّموه الأولاد والأتباع ، ولا تنسوه ، وفعلنا ذلك رجاء أن تكونوا أناساً صادقين متقين . ولمّا علمتم أن لا مخلص عن قبوله قبلتم وأقبلتم على الإطاعة ، ثم بعد ذلك كله اعرضتم عن الوفاءِ بما التزمتموه . فصارت أحوالكم مضطربة متزلزلة من العهد إلى المخالفة ، ومن التوبة إلى نقضها . فلولا فضل

الله تعالى عليكم ورحمته الشاملة إكراماً لموسى وإنعاماً عليكم وتوفيقاً على التوبة لكنتم من الخاسرين الذين خسروا أوّلا وأخيرا .

فعلى ما ذكرنا من التفسير صار الميثاق ميثاقين ، والمخالفة مرتين . الميثاق الأول : عندما طلبوا من موسى عليه السلام الكتاب بعد الخروج من مصر . والمخالفة الأولى : إباؤهم عن العمل به في التيه . والميثاق الثاني : عند رفع الطور على رؤوسهم وقبولهم للكتاب . والمخالفة الثانية : ما ارتكبوه بعد ذلك في التيه وبعده .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) (٦٦)

قوله ولقد : اللام هي اللام الواقعة في جواب قسم مقدر ، وتسمى اللام المهدة للقسم ، لأنه لولاها لم يعلم أن في الكلام قسماً مقدراً . فقد مَهَّدَت له الجوابَ . وأما اللام الموطئة فهي لام تدخل على شرط نازَعَه القسم في جزائها نحو والله لئن أكرمتني أكرمتك وقد تسمى الأولى باسم الثانية . وقيل إنها لام إبتدائية . وعلمتم : هنا بمعنى عرفتم يتعدى لواحد . أي ولقد عرفتم أصحابَ السبت وما أحللنا بهم من النكال .

وقوله تعالى في السبت : أي في حكم يوم السبت . وهو وجوب التفرغ للطاعة ؛ لأن الإصطياد كان في الأحد . وقيل : بل في نفس السبت لأنه لما صار الإحتيال فيه كان كأنّ الإصطياد فيه والسبت : إسم لليوم المعلوم . قيل إن موسى عليه السلام أراد أن يجعل يوم الجمعة خالصاً لطاعة بني إسرائيل فلم يقبلوه وطلبوا منه يوم السبت لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً فلما اختاروا ذلك نهاهم الله عن الإصطياد فيه ، فخالفوه

فعاقبهم الله تعالى • وقيل : إن السبت مأخوذ من السّبوت بمعنى الرّاحة • والذين اعتدوا في السبت هم أهل قرية على ساحل البحر الأحمر اسمها (ايلة) ولما نُهُوا عن الإصطياد يوم السبت كانت الحيتان تجتمع فيه ، فحفروا يوم السبت حياضاً وشرعوا فيها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت ، فيصطادونها يوم الأحد كما قال تعالى في سورة الأعراف : (واسألهم عَن القَرية التي كانت حاضرةَ البحرِ إذ يَعْدوُنَ في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يومَ سَبْتِهم شُرّعاً ، ويوم لايستبون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) •

وقوله تعالى كونوا قردة : ليس المراد بالأمر معناه الحقيقي أي طلب الفعل من المأمور إذ ليس في طاقة المخاطبين تحويل صورهم ، وإنما المراد به التسخير وسرعة التكوين أي أنهم صاروا كذلك • قال مجاهد : مامسخت صورهم إنما مسخت قلوبهم • وقال ابن جرير وغيره : إن قول مجاهد رحمه الله خلاف الصحيح المشهور عند المفسرين وهو أن المراد بالمسخ المسخ الحقيقي ، وأنه غيرت صورهم إلى صور القردة وليس تحويل الصورة بأعظم من إنشائها ، وهو النكال صورة وسيرة وتُجعَلُ عبرةً للمعتبرين وإلاّ فاختلاف القلوب ثابت في كثير من الناس والعياذ بالله تعالى • والنكال العقوبة من النكل بمعنى القطع لأن تلك العقوبة تقطع المعذب وتمنعه عن العود إلى ما ارتكبه غالباً •

والمراد بما بين يديها : الناس المعاصرون لأهل القرية ، وبما خلفها من بعدهم إلى يومنا هذا • والممسوخ من أهل القرية هم المباشرون للإحتيال •

قال ابن عطية : وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الممسوخ لاينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام •

وحاصل المعنى : والله لقد علمتم أيها الإسرائيليون أحوال الذين اعتدوا في السبت واحتالوا في هدم حكم الله فعاقبناهم وقلنا لهم كونوا قردة خاسئين محقّرين ، وجعلنا مسخهم عبرة للمعاصرين الناظرين ، ومن بعدَهم من المتفكرين ، وموعظةً للمتقين الراغبين في خير الدنيا والدين .

(وإذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ :إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ اَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . قالوا : أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ؟ قال : اَعُوذُ بالله أَنَ أكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ (٦٧) قالُوا : ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبيِّنْ لَنا ما هِيَ ، قال : إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلكَ، فَافْعَلُوا ماتُؤْمَرُونَ (٦٨) قالُوا: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا مالَوْنُها ، قالَ إنَّهُ يَقُولَ إنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قالُوا : ادْعُ لَنا ربَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ماهِيَ إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَينا ، وإنَّا اِنْ شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون (٧٠) قالَ : إنَّهُ يَقولُ إنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فيها . قالُوا : الآنَ جِئْتَ بالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَماكادُوا يَفْعَلُون) (٧١)

قوله تعالى : واذ قال موسى لقومه : قال بعض المفسّرين : إن أوّل هذه القصة قوله تعالى : (واذ قتلتم نفساً) الآية ولكن قدّم هذه الفقرة لأن مساوىء كثيرة لهم من الإستهزاء بأمر الله ومزيد الإلحاح في السؤال واستبطائهم في الإمتثال كاد أن تزيد سوءً على جريمة القتل ، فاهتم بها وقدمها .

والقصة : إنه كان في بني إسرائيل رجل شائب له ثروة طائلة وابن واحد ، وعدد من أبناء أخيه ، فقالوا : إن عمنا شائب مشرف على الموت ،

والمانع لنا من نيل ماله هو إبنه الوحيد ، فلنقتله ، فقتلوه غيلة ، وطرحوه على باب البلد مع أنهم ثاروا وجاءوا يطالبون بدمه ! فوقعت في الناس فتنة كاد أن يقتل بعضهم بعضا بسببها . فطلب سيدنا موسى من الله سبحانه كشف الستار عن الحادثة . فقال له : مُرهم أن يذبَحوا بقرةً ويضربوا المقتول ببعض لحمه فيحيا ، ويخبر الناس عن قاتله . فأمَرَهم موسى بذلك ، ولكنهم تباطئوا بشبهة انبهام البقرة ، وجاءوا بأسئلة عديدة حول الموضوع ، ولو كانوا يسارعون في الإمتثال لكفاهم ذبح أيّ بقرة كانت .

وقوله : أتتخذنا هزوا : الهزء السخرية ، وحمله على المفعول الأول مبالغة ، لأنهم تعجبوا مِن أمر سيدنا موسى بذلك . فقالوا هكذا . ويجوز تقدير مضاف أي : محل هزء . وقوله : ما هي ظاهره سؤال عن حقيقة البقر ، وليس بمراد وإنما المراد السؤال عن عمرها . أي ماسِنّها بقرينة قوله تعالى إنها بقرة لا فارض ولا بكر . والفارض : المسنة . والبكر : الفتية . والعوان : المتوسط بينهما . وقوله بين ذلك أي بين ذلك المذكور بالفارض والبكر . لأن بين لايضاف إلا إلى متعدد . والفاقعُ : الخالصُ الصفرةِ . وقوله أخيراً : (ماهي) كررها لزيادة الإستكشاف . وقوله : إن البقر تشابَهَ علينا : إعتذار عن تكرار السؤال مع إضطرارهم إليه ؛ لأن البقر الموصوف بالعوان كثير . وقوله لمهتدون : أي إلى الإمتثال .

وقوله لا ذلول : الذلول المرتاض المدرب بكرب الأرض ، وسقي الحرث . أي لم تدرب لكرب الأرض ولا لسقي الحرث . ولا في قوله ولا تسقي صلة للتأكيد ، أي لا ذلول تثير الأرض وتسقي الحرث . وقوله : مُسَلَّمَة: أي من العيب . وقوله لا شية فيها أي ليس فيها لون يخالف لون جلدها .

وقوله :جئت بالحق : أي بحقيقة وصفها • وقوله : فذبحوها : أي باشروا بالذبح المأمور به لقطع تعللاتهم ، فصاروا كالمضطرين إليه • وقوله : وماكادوا يفعلون : أي أنه ماقاربوا أن يذبحوها فضلاً عن مباشرة الذبح ، لتطويلهم في الكلام ، وكثرة مراجعاتهم ، ولظهور الفضيحة في ظهور القاتل ولإنطباعهم على مخالفة الأوامر والنواهي •

وحاصل المعنى : واذكر إذ قُتِل شخص من بني إسرائيل فوقع التنازع في قاتله ، وراجع موسى ربه في تعيينه • فقال تعالى له : مرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوا ذلك القتيل ببعض لحمها حتى يحيا ويخبرهم بالقاتل • فأمرهم موسى بذلك ، فتعجبوا من كلامه ، وعدوه إستهزاء بهم • فقالوا : اتستهزىء بنا في الأمر بهذا الشيىء الغير المناسب • فأجاب بالإستعاذة عن الجهل والسخرية ، وأنه أتى بما أمر الله تعالى ، فسألوه عن سن البقرة ، فراجع ربه فقال تعالى : إنها ليست مُسِنّة ولا فتيّة ، بل متوسطة فاذبحوا ما أمرتم به ، فلما أخبرهم بسنها ، قالوا البقرة المتوسطة كثيرة تشتبه علينا ، فمالونها ؟ فراجع موسى ربّه وسأله عنه فقال : إنها بقرة متوسطة العمر ، صفراء اللون ، خالصة الصفرة ، تسر الناظرين بحسنها • ثم قالوا أيضا : إن بقرة كذلك كثيرة ، واشتبهت علينا ، فزدنا مِن بَيانِ المشخصات ، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى البقرة المقصودة للذبح • فراجع موسى ربه أيضاً للوصف الزائد فقال : إنها بقرة متوسطة العمر ، صفراء اللون ، الخالصة الصفرة ، ولم تدرب في كرب الأرض ولا في سقي الحرث ، وسالمة من العيوب في أعضائها ، وليس في جلدها لون يخالف الصفرة • فقالوا : ياموسى الآن جئت بحقيقة وصفها ، فطلبوا بقرة كذلك واشتروها وذبحوها وضربوا ببعض من لحمها على القتيل فاحياه

الله تعالى وأخبرهم قائلاً : إن قاتلي فلان من أبناء عمي ، وبذلك ظهر الحق وبطلت أقاويل الفاسدين •

وفي ماذكرناه يظهر تفسير قوله تعالى :

(وإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ ماكُنْتُمْ تَكْتُمونَ (٧٢) فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلك يُحْيِ اللهُ المَوْتى وَيُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ) (٧٣) •

وهو : واذكر إذ قتلتم نفساً ، ونسب ذلك إلى الجميع باعتبار أن الحادث وقع فيكم فاختصمتم في تعيين قاتلها والله لاشك يُظهر ما اخفيتموه بعد مراجعة الرسول ، فقلنا : إذبحوا بقرة ، واضربوا القتيل ببعضها ففعلتم بَعدَ اللتّيا والتي ما أمرتم به ، فأحيا اللهُ القتيل ، وأخبر بقاتِلِه ، وانتهت القضية • وكما علمتم بأنفسكم إحياءَ هذا القتيل بلا شبهة كذلك يحي الله الموتى يوم البعث ، ويُريكم دَلائل كمالِ قدرته لعلكم تعقلون •

إن ما أخبر به الصادق من الأمور الممكنة حق بلا ريب ويصدر مِن ربّ العالمين وههنا أمور :

الأول : إن أول هذه القصة قوله سبحانه وتعالى : وإذ قتلتم نفساً فاداراتم فيها الآية فلماذا فكت عنه ؟ والجواب : أن المقصود هنا بيان نعم الله تعالى على بني إسرائيل وكفرانهم لنعمه العظيمة وذكر مساوئهم الجسيمة • وفي قوله تعالى وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم ••• الآيات وجوه عديدة منها ، فقدم ذلك وأخر هذا للإهتمام بفضح بني إسرائيل وسوء أحوالهم أمامَ رسولهم المؤيد بالمعجزات وإفهام خلفهم وجوه مخالفات سلفهم وانتقام الله منهم حتى يعتبروا بها فإنها عبرة للمعتبرين •

وقال الشهاب : والحق أن قصة البقرة لما كانت متضمنة لأمور عجيبة وآيات باهرة ، ولذا سُميت السورةُ بها .. ذكَرهَا مرتين على وَجه يتضمن كل من الذكرين فوائدَ ومقاصدَ تخرجها عن التكرار . وزاد ذلك بأن حُذِفَ مِن كل ذكرٍ وطوي ما يدل عليه الآخر على طريقة الإحتباك حتى يتأسّس الكلام ويرتبط النظام ، ويأخذَ بعضُه بحجز بعض . فطَوَى من الأولى بعضَها إذ التقدير : قال موسى ، وقد قتل قتيل وقع فيه التنازع : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة تضربوه ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله قالوا : أتتخذنا هزوا الآية ... إذ مجرد الأمر بذبح بقرة وتقريب قربان لا إستهزاء فيه . فذكر الإستهزاء ناشر لما طوى . وأضمر في قوله فقلنا اضربوه ببعضها حين ثنيت القضية فقلنا اذبحوا بقرة موصوفة بما عرفتم فاضربوه ببعضها يحيا القتيل انتهى .

أقول : والحق إن من تدبر القرآن الكريم ، وحكاية الحوادث الماضية فيها ، أو ذكر الأحكام الجديدة المقررة في دين الرسول الذي انزل إليه علِمَ أن الغاية القصوى هي الإرشاد والعظة والإعتبار ، ولم يهتم فيه بالتنسيق والترتيب والتقديم والتأخير ، كما اهتم بالغاية الأولى وإلا فقد حكى الله تعالى حوادث بني إسرائيل في كثير من السور ، وكان يمكن جمعها في سورة واحدة ، مع أنا إذا نظرنا إلى حقيقة بلاغة القرآن المفسرة بمطابقة الكلام لمقتضى الحال وجدنا أن في كل إجمال وتفصيل ، وإبهام وتفسير ، وتقديم وتأخير ، واختصار وتطويل ... مبرّرات واقعية ودواعي حقيقية لايعلمها إلا من ألهمه الله الحقائق . فإن مجالس الإرشاد بالقرآن ومواقع السؤال والجواب كانت تختلف جدا بحسب طبقات الناس في العلم والحكمة وتنزل الطبع وعلو الهمّة ، والتعمق في العداوة ، أو التوسط أو خلو الذهن عنها ، أو إستكبار الناس واستنكارهم . وكذلك في

حضور الناس الآخرين مع السائلين . فلا يمكن أن ترى آيات من القرآن إلا وفيها رعاية المطابقة لمقتضى الحال وإذا كان الأمر كذلك فلا نظر إلى تكرار بعض الموضوعات ولا في الترتيب بين الحكايات، إذ ما نراه مهما يوجد معه أهم من ذلك ، وفي هذا بلاغ ، ومع ذلك فقد أتى المفسرون بتوجيهات قيمة بحسب المقام تشفي الاذهان وغليل الاوهام .

والأمر الثاني : إن هناك أسئلة مترابطة هي ما سر إختيار عملية ذبح البقرة لكشف القاتل مع أن الله عالم بكل شيء ويوحي الى رسوله بكل مايشاء ؟ وما مناسبة إختيار ذبح البقرة في الموضوع ؟ وما وجه زيادة تلك الصفات على التراخي ولم تذكر اَوّلاً ؟ ثم القتل لا يثبت إلا ببينة شرعية فكيف يثبت بخبر القتيل وحده ؟ والجواب عن الأول هو : أن فساد أخلاق بني إسرائيل إذ ذاك وصل إلى درجة ما كانوا يصدقون موسى فيما يخبر به عن تعيين القاتل ، كما أنهم ماصدقوه في إخباره بأنهم لا يرون الله تعالى . والمؤمنون المخلصون منهم كانوا قليلين جدّاً . وعن الثاني أن البقرة الموجودة عندهم كان أقرب حيوان من حيث الجثة إلى الإبل التي إعتادوا صرف الدية منها . فصار ذبح البقرة كأنّها ديةٌ للقتيل ، لأنه ظهر به القاتل فاَخَذُوا الدية منه . وعن الثالث أن الزيادة في الصفات حصلت من زيادتهم في السؤال ، وإلا فلوكانوا يكتفون بقول موسى عليه السلام وذبحوها اَوّلاً لكفاهم ذلك . وعن الرابع أنّ إخبار القتيل لم يكن من باب الشهادة على جناية القاتل وإثبات الدعوى في المحكمة الشرعية ، بل من الخوارق الإلهية فإذا اَحيا الله تعالى القتيلَ وأخبر بالقاتل لم يبق شك في جنايته إلا عند من أعمى الله بصيرته ، على أنّ القتيل عندما اَخبَر بالقاتل من بني أعمامه إنهاروا وتغيرت وجوههم خجلا بحيث لم تبق شبهة عند الناس بجنايتهم ، وكان الوضع كإعترافهم

بها • (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٧٤)

قوله تعالى : (ثم قست) مشتق من القسوة ، وهي الصلابة والشدة • وقوله : (قلوبكم) الخطاب لعصبة القتيل أو لبني إسرائيل قوله : (من بعد ذلك) إشارة الى إحياء القتيل ، أو وإليه وإلى ما قبله من الخوارق التي ظهرت على أيدي موسى عليه السلام • وقوله (وإنّ من الحجارة) جملة حالية مشعرة بالتعليل لكون تلك القلوب أقسى من الحجارة • وذكر الأقسام على الشكل المذكور لاستيعاب جميع الإنفعالات التي تجري على خلاف طبيعته • يعني أن قلوب أولئك الناس أشدّ وأقسى من الحجارة ؛ فإن منها ما يصير ينبوعاً لنهرٍ جارٍ بالإستمرار ، ومنها مايشقق فيخرج منها الماء القليل ، ومنها مالايحصل منها ذلك ، ولكن يهبط من مستقره وينحدر إلى حيث شاء الله • وقوله (من خشية) أي من إنقياده لأمر الله ، فهو مجاز • ومنهم من قال إنها حقيقة ، وللحجارة كسائر الممكنات قوة ذاتية تربطها بربّها • وعلى ذلك قال تعالى (وانْ من شيىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) (اسراء) وقال : (يا جبال أوّبي معه والطير) (سبأ) وقال : (يسبح لله مافي السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيىء قدير) (تغابن)

وفي الصحيح (إني لأعرف حجراً كان يسلّم عَلَيَّ قبلَ أَنْ أُبْعثَ) وأنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد مبعثه ما مرّ بحجر ومدر إلا سلّم عليه • وورد في الحجر الأسود أنه يَشهد لمن إستلمه • وقوله : (وما الله

بغافل عما تعملون) وعيد وتهديد للعصاة القساة وأن الله تعالى لهم بالمرصاد .

وحاصل التفسير : ثم صارت قلوبكم أيتها العصبة ، أو يا بني إسرائيل مِن بعد ذلك الخارق العظيم ، وهو إحياء القتيل أو بعد تلك المعجزات التي ظهرت من موسى عليه السلام قاسية صلبة الحال لا تقبل الوعظ والإرشاد ، ولا تتفكر في آثار قدرة رب العباد ، فهي كالحجارة بل أشد منها ؛ لأن منها ما يصدر منه المنفعة العظيمة كالنهر الجاري ، أو مادون ذلك من المياه القليلة أو لاينبع منه الماء ، ولكن ينقاد للأمر ويتحول من المقر الى حيث شاء . وكل ذلك إطاعة لله وخشية منه ، فعيشوا أيها الإسرائيليون كما تشاؤون ، وما الله بغافل عما تعملون .

(أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَاعَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٧٥)

الخطاب في قوله تعالى : (أفتطمعون) للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والجمع للتشريف أو له وللمؤمنين وقوله (أن يؤمنوا لكم) أي بنوا إسرائيل الموجودون في عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقوله : (وقد كان فريق) جملة حالية . وقوله (منهم) أي من بني إسرائيل السابقين . وقوله : (يسمعون كلام الله) أي الكتاب الجامع لأسفار الأنبياء من بني إسرائيل المشهور بالتوراة . وفيه الأحكام الدينية أصولاً وفروعاً . وقوله : (ثم يحرّفونه) أي يبدّلونه بعبارات أخرى أو يؤّولونها على معاني أخرى توافق هواهم . وقوله : (من بعدما عقلوه) أي بعدما افتهموه . وقوله تعالى : (من بعد ما عقلوه) فيه توبيخ آخر من أنه يخالفونه مع العلم به ، ولو كانوا يخالفونه للجهل به كان لهم معذرة مّا ، ولكن لا عذر مع

العلم قطعاً • ويظهر هنا أن التحريف قد يكون مع العلم وقد يكون مع الجهل ، وأن هذه الفظيعة ليست منحصرة في علماء بني إسرائيل فحسب بل تجري على مرّ الأيام • وفي عالم الإسلام الجليل أناس ينحرفون عن الحق بتأويلات زائفة ، ويلقون الشبه إلى الناس شبهاً أشد وأفظع من شبهات الوسواس الخناس • وذلك إما لطمع في المال أو الجاه أو لإعتبارات كاسدة •

ومنهم من يدعي معرفة الفقه في الأحكام ، ولم يدرسه ولم يتبصر فيه ، ولا يطالعه ، ولا يستفسر من العلماء الذين فوق درجته وذلك للإستكبار • ومنهم من يدعي أنه يعمل بالكتاب والسنة وهو بعيد من معرفتهما ، وبالخاصة من معرفة الأحاديث الشريفة ؛ لأن كتاب الله متواتر المتن فلا يحتاج الى جهد في الاسناد ، وأما الأحاديث الشريفة فعلمها يحتاج إلى معرفة اللغة والعرف لمعرفة معانيها اللغوية والعرفية ، وإلى علم النحو للإعراب وتصحيح التركيب ، وإلى الصرف لمعرفة الإشتقاق ، وإلى البلاغة لمعرفة النكات البلاغية واستفادة المعاني الحصرية ، كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إنما الأعمال بالنيات) الحديث هل الحصر فيه حقيقي أو إضافي ؟ وهل من قصر الموصوف على الصفة أو بالعكس ؟ وهل هو قصر الإفراد أو القلب أو التعيين ؟ ويحتاج إلى علم الرواية ومعرفة رجال الإسناد من الصحة والحسن والضعف ، وإلى علم الدراية بمدلولها هل هو خاص أو عام مخصوص أو لا ؟ أو مطلق أو مقيد ، أو مجمل أو مبين ، ومحكم أو منسوخ وله معارض آخر أو لا ؟ ومع الجهل بكل ذلك يتجاسر على الأئمة الفقهاء ، ويدعي أنه مثلهم أو أمثل منهم !! وكل البيانات في هذه الأحوال يدخل في التحريفات للدين لأنه إذا لم يمش على

الحق فماذا بعده إلا الضلال ؟ أعاذنا الله من الأحوال الفاسدة التي تبعث الإنسان على الأعمال الفاسدة بمنه ورحمته .

والمقصود من الآية الكريمة : قطع أمل الرسول صلى الله عليه وسلم ـ في إيمان بني إسرائيل به وبدين الإسلام . وخلاصته : أن قوماً في وقاحة الطبع كبني إسرائيل يسمعون كلام الله تعالى النازل على موسى وغيره ، ثم يحرّفونه ويبدّلونه أو يؤوّلونه على ما تَهْوى أَنفُسُهم ويسمعون في اَصْحاح ذلك الكتاب نُعوتَ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلاماتِ رسالتِه ، ونعوتَ أصحابه ثم يؤوّلونها بما لا يوافق الواقع ولا يستحيون من الله تعالى في هذه التصرفات الفاسدة وهم يَعْلمون أنّ ذلك خلاف الحق ! كيف تطمع في إيمانهم والإنقياد لك ولدينك ؟ فاعلم أنهم براء منك وأنت براء منهم الى يوم الدين .

وفي الحقيقة إن في القرآن الكريم آيات صريحة في أن بني إسرائيل كانوا يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه رسول الله في آخر الزمان إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، وأنهم كانوا يستفتحون بمبعثه على مشركي العرب ، وأنه إذا جاء يدمغهم فيندحرون ، وفي الأصحاح بشارات الأنبياء بقدوم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومع ذلك كُلّه لما جاء عهده ، وبعثه الله تعالى شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً عانَدُوا وخالَفوُا وتَحالَفوُا بَينهم في أن يُطفؤا نورَ الله بأفواههم ، وعَمِلوا ما كان في طاقاتهم في المعارضة والمقابلة ، ومع ذلك ردّهم الله على أعقابهم خائبين ، ونصر عبده محمداً ـ صلى الله عليه وسلمَ ـ ونشر كتابه ودينه في ربوع العالم كما قال تعالى : (يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) وكما قال :

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) .

ومن جملة ما نزل في كتاب العهد السابق وترجم إلى العربية ما نقل من مزمور داود عليه السلام في زبوره : (وليفرح بالخالق مَن اصطفى الله له أمّته وأعطاه النصرَ ، وسدّد الصالحين منهم بالكرامة يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبّرون الله بأصوات مرتفعة ... بأيديهم سيوف ذاتُ شفرتين لينتقم بهم من الأمم الذين لايعبدونه) انتهى .

ولاشك أن هذه الصفات إنما تنطبق على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته ؛ فهم الذين يكبّرون الله بأصوات مرتفعة في آذانهم للصّلوات الخمس ، وعَلى الأماكن العالية كما قال جابر بن عبدالله : (كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا عَلَونا كَبَّرنا ، وإذا هَبَطْنا سَبَّحْنا فوضعت الصلاة على ذلك) رواه البخاري .

وما نقل منه عليه السلام أيضاً : (من أجل هذا بارك الله عليكَ إلى الأبد فتقلّدْ أيها الجبارُ بالسيف ؛ لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، وسهامك مسنونة والأمم يخرّون تحتك) إنتهى .

وما نقل منه عليه السلام ايضاً : (إلهنا قدوس" ، ومحمد قد عَمّ الأَرض كلها فَرَحاً .

ونقل منه في مزمور آخر : (لترتاح البوادي وقواها ، ولتَصِر أرضُ قيدارٍ مُروجاً ، وليسبح سكان الكهوف ، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرّب ، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر) . وفي مزمور آخر : (ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ،

ويَحنو اهل الجزائر بين يديه ، ويلحس أعداؤه التراب ، ويسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والإنقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممّن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويصلي عليه ويبارك في كل حين .

وفي سفر شمعون : (جاء الله بالبينات من جبال (فاران) وامتلأ السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته) . إنتهى . وجبال فاران جبال مكة المكرمة .

وقال شعيا : (يا محمد يا قدوسَ الرب ، اسمك موجود إلى الأبد ، وقال أيضاً في مقام الشهادة لأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصلاح والديانة :

سأرفعُ علماً لأهل الأرض فيصغر لهم من أقصى الارض فيأتون سِراعاً . وقال شعيا في وصف أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ستمتلىء البادية والمدن من أولاد قيدار يسبحون ، ومن رؤوس الجبال ينادون هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويسبحونه في البر والبحر) . إنتهى . وقيدار هو ابن اسماعيل بالإتفاق .

ومن طالع كتب الأسفار القديمة وجد من هذه البشارات مالا يدع مجالاً للشك في أن الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام أخذ منهم العهد من الله تعالى لتوصية قومهم بالرسول محمد وأنه إذا جاء في زمان أي طبقة منهم يؤمنون به وينصرونه ، وكلهم قد وفّى بذلك الميثاق ووصّى لأمته بما عاهده الله تعالى عليه ، ولكن الله تعالى أعلن أنهم قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة . ومن كان بتلك الصفة لا يرجى منه الصفاء والوفاء بالعهود ، فقد جفّت الصحف ورفعت الأقلام .

(وإذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا : آمنَّا ، وإذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالُوا : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُون ؟ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ ؟) (٧٧)

(وإذا لقوا) أي المنافقون من بني إسرائيل (الذين آمنوا) ولهم مقام ومنزلة في الدين (قالوا آمنّا) : بأن دينكم حق ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الموصوف في التوراة ، (وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا) : أي المتصلبون على دينهم ممن لاينافقون مستنكرين على المنافقين : (أتحدّثونهم) أي المؤمنين (بما فتح الله عليكم) وبين لكم في التوراة من نعوت محمد وأمته (ليحاجّوكم به) أي بما حدّثتم به معهم (عند ربكم) أي عند ذكر دين ربكم وبيان رسالة الرسول فيقولون : أنتم أقررتم عندنا أن دين الإسلام حق ومحمّد هو المنعوت في الكتاب (أفلا تعقلون) غلبة المؤمنين عليكم بما حدثتم به معهم ؟

(أولا يعلمون أن الله يَعْلَم) ما يُسِرّوُنَ بينهم من المعاداة والمعاندة للمؤمنين واستنكار بعضهم لبعض على ما حدّثوا به (وما يعلنون) من كلامهم مع المؤمنين نفاقاً فيعاقبهم على نفاقهم وشقاقهم ؟

(ومِنْهُمْ أمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إلاّ أمانِيَّ وَإنْ هُمْ إلا يَظُنُّونَ • (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقولُونَ : هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَروا بِهِ ثَمَناً قليلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (٧٩)

والأمّيّ : منسوب إلى الأمّ لأنه كما خرج من بطنها . وفي العرف : مَن لَم يتعلّم الكتابة . وَالأمانيّ جمع اُمْنِيّة وأصلها اُمنُويَة بضم الهمزة والنون على وزن اُضْحُوكَة ، قلبت الواو ياء وأدغمت فيها وكُسِرَ ما قبلها للمناسبة . وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه . ولها تفاسير منها : الأكاذيب ، ومنها الشهوات ، ومنها القراءة . وقوله تعالى : (إلاّ يظنّون) أي إلاّ انهم يظنون ظنّا ، وَلَيْسَ لهم علم بالحقائق .

يعني : ومِن بني إسرائيلَ جمع هم أمّيون لم يتعلّموا الكتابة وليسوا من أهل الدراسة ولا يعلمون الكتاب المعهود بينهم وهو التوراة إلا قراءة عارية عن العلم والفهم ، وما هم إلا يظنون أنهم على النجاح من أمرهم، ولا علم لهم به ، ولا يعلمون أنهم على الرّسوب .

ثم ذكر سيئة أخرى من سيآتهم ، وأظهر أن من دأب بعض منهم أنهم يحرفون التوراة فيؤوّلونها حَسَبَ أهوائِهم ، وينشرونها بينَ الناس للإضلال وإبعادهم عن الإيمان بدين الإسلام ، ويأخذون في مقابل ذلك مالاً من الذين يوجهونهم إلى ذلك ، أو من عامتهم الجَهَلة الذين يُحبّون اَن يَبْقوا على ما كانوا عليه ، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم وبإختراعهم وإبتداعهم مايشتهون ويقولون للعامة : هذا المكتوب من عند الله وبَيان لمعنى التوراة فاعملوا به وذلك لا لمصلحة الناس وإرشادهم لأنه لا إرشاد بالباطل ، بل ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من هذا الحطام الزائل .

(وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً ! قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ؟ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ) (٨٠)

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ(٨١)• وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ) (٨٢)

قوله تعالى (وقالوا) أي بنو إسرائيل • وقوله : (لنْ تمسنا النار) أي نار جهنم • وقوله (إلاّ أياماً معدودة) روي أنهم قالوا : لا نعذب إلا بعدد أيام عبادة العجل وهي أربعون يوماً باعتبار غياب موسى عليه السلام عنهم إلى رجوعه إليهم• وإن لم يعبدوها في جميعها بل في أقل من ذلك• ورُوي غيرُ ذلك من أهْوائهم• وقوله : (فلن يخلف الله عهده) جزاء شرط مقدر، أي : إن كنتم إتخذتم عهداً من عنده فلكم ذلك إذ لن يخلف الله وعده • ومن الناس مَنْ لايُقدِّر محذوفاً ويجعل الفاء سببية ليكون إتخاذ العهد مترتبا عليه عدم إخلاف الله تعالى عهده ويكون المُنكَر حينئذ المجموع من ماقبل الفاء وما بعده ، والإستفهامَ إنكاريةٌ • وقوله : (أم تقولون) كلمة أم إما متصلة للمعادلة بين شيئين بمعنى أيِّ واحدٍ من هذين الشيئين واقع : إتخاذكم العهد من الله تعالى ؟ أم قولكم عليه مالا تعلمون ؟ وخرّج ذلك مخرج المتردد في تعيينه على سبيل التقرير لأولئك المخاطبين لِعلم المستفهِم وهو الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بوقوع أحدهما • وهو قولهم بما لايعلمون على التعيين • فلا يكون الإستفهام على حقيقته • وهذا بناء على أنه تقع الجملة بعد أم المتصلة لأن التسوية قد تكون بين جملتين فيكون طرفاها حكمين ، كما صرّح به ابن الحاجب • وإما منقطعة بمعنى بل ، والتقدير : بل أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ ومعنى بل فيها

الإضراب والإنتقال من التوبيخ بالإنكار على الإتخاذ إلى التوبيخ على القول على الله مالا يعلمون •

وقوله : (بلى) إثبات لما نَفَوه من مساس النار يعني : ليس الأمر كما تزعمون ، بل تمسكم وغيرَكم من أمثالكم بلا حدود لأن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته من كل جانب كلِباسٍ مستوعب للبدن من الرأس إلى القدم • وهذا لا يكون إلا لمَن لم يَبْقَ عنده الإيمان فاستحب العصيان فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • وأنتم أيها الإسرائيليون الموجودون في المدينة ، علاوة على معاصيكم ، فقد كفرتم بالرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا تخرجكم الشُبَه الواهية عن إستحقاق الدّخول في الهاوية •

وقوله تعالى : (والذين آمنو) الآية جار على سنة الباري في إرشاده الجاري من شفع آيات الوعيد بآيات الوعد المجيد • وأصحاب جنة النعيم مع أصحاب عذاب الجحيم ، وذكرُ العمل الصالح بعد الإيمان دليل على أن العمل ليس داخلاً في حقيقته • وذكرهم بعنوان أصحاب الجنة وتأكيده بتأكيد الخلود دليل على نفاذ حكم القادر العليم على خلودهم في جنة النعيم • رزقنا الله ذلك بفضلِهِ العظيم •

وحاصل التفسير : أنه قال الإسرائيليون في مقام الغرور وعدم الإعتناء بآيات العذاب : لن تمسنا النارُ إلا اياماً قلائل معدودات لاتتجاوز عن أربعين يوماً ! فرد الله تعالى عليهم بأمره بحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل ياحبيبي لأولئك المغرورين : أكان بينكم وبين الله عَهد على ذلك حتّى تزعموا بأن الله لن يخلف وعده وعهده ؟ أم تقولون على الله مالا علم لكم به ؟ كلاّ ثم كلا ! ليس الأمر كذلك ، بل أنتم أهل العذاب الخالد ما دمتم على هذه الحالة ، لأن من كسب سيئة واستمر على اكتسابها

حتى أحاطت به خطيئاته من كل جانب فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، وأنتم فضلا عن الخطايا كفرتم بسيد البرايا فلم يبق لكم مجال إلا جهنم والخلود فيها ، وكل من كان على هذا الحال فله هذا المآل . والذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكم أو من غيركم وعملوا الصالحات بأداء الواجبات وترك المحرّمات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

(وإذْ أخذْنا ميثاقَ بَني إسرائيلَ : لا تَعْبُدونَ إلاّ اللهَ وَبِالوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي القُرْبى وَاليَتامى وَالمساكِينِ ، وقولُوا لِلنّاسِ حُسْناً ، وَأَقيمُوا الصَّلوةَ وَآتُوا الزَّكوةَ ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاّ قَليلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ) (٨٣)

قوله تعالى : (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) شروع في ذكر بعض من سيئات أعمال اليهود ، وهذا الميثاق هو الذي أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم . عليهم السلام .

وقوله : (لاتعبدون) إخبار في معنى الإنشاء أي نفي في معنى النهي ويؤيده قراءة لا تعبدوا بحذف النون ، وذلك أقوى في الإفادة البلاغية من صريح الإنشاء ؛ لأن معنى الإخبار أن المخبر به وقع ، وما دام المتكلم أخبر بذلك فالمخاطب لايحب أن يكذب المخبر ويأتي بما أخبر به .

وقوله : (وبالوالدين إحسانا) متعلق بعامل مقدر فإذا إتنهجت صورة الخبر السابق فقدر وتحسنون أو معنى الإنشاء فقدر وَاحْسِنوا . وقوله : (اليتامى) جمع يتيم كندامى ونديم ، وقوله : (مسكين) صيغة مبالغة كالمعطير بمعنى كثير السكون ؛ فالمسكين ساكن من قلة المال وضعف الحال .

وقوله : (حُسْنا) مصدر بمعنى الصفة • أو يبقى على المصدرية للمبالغة • وقوله : (وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة) المراد بهما ماكانا في شريعتهم • وقوله : (ثم توليتم) فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لتوجيه العتاب • أي أعرضتم عن الميثاق • وقوله : (إلا قليلا) وهو السابق المستقيم أو اللاحق الآتي بقلب سليم • وقوله : (وأنتم معرضون) أي وأنتم من عادتكم الإعراض •

وحاصل التفسير : واذكر اَخَذْنا الميثاقَ من بني إسرائيل وقولنا لهم : لاتعبدوا إلا الله واَحسنوا بالوالدين إحسانا يليق بكرامة الإنسان • وأحسنوا بأصحاب القرابة معكم صلة للأرحام • وأحسنوا باليتامى و المساكين وقولوا للناس في الأمر والنهي والقبول والردّ كلاماً حكيماً حَسَناً وأقيموا صلاتكم كما اُمر بها وأعطوا زكاة أموالكم للمستحقين فإنهم كعيالكم ، ثم بعد هذه النصائح المفيدة أعرضتم عن قبولها والعمل بها ، ولابدع لأنكم قوم شأنكم الإعراض عمّا لا يوافِقُ الأغراض •

(وَاِذْ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ : لاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاتُخْرِجُونَ اَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ اَقْرَرْتُمْ وَاَنْتُم تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ ، تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ والعُدْوانِ ، وَاِنْ يَأْتُوكُم اُسارى تُفَادُوهُمْ ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيكُمْ اِخْراجُهُمْ ، اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ اِلاّ خِزْيٌ في الحَياةِ الدنْيا ؟ وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ ، وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا

الحَيَاةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ) (٨٦) •

قوله تعالى : (لاتسفكون) مربوط بالميثاق أي أخذنا منكم الميثاق على أن لا يتعرض بعضهم لبعض بالقتل والإخراج عن الوطن والمستقر • وعبر عن ذلك بالأنفس مع أن المقتول غير القاتل ، والمخرَجَ (بالفتح) غير المخرِجِ لأن أهل دين واحد في الأحكام كالنفس الواحدة ، أو لأنه لما كان قتل الإنسان لغيره ينجر إلى القصاص وقتل هذا القاتل فهو إذا قتل غيره فكأنه قتل نفسه وكذلك الإخراج • وقوله ثم أقْرَرْتُمْ أي بالميثاق خلفاً عن سَلَف من جهة الرسل المرسلين إليكم • وقوله : (وأنتم) خطاب للسلف على الحكاية • أو للخلف على الواقع وشهادتهم على إقرار والدهم ، وشهادته على والده وهكذا • وقوله : (ثم أنتم هؤلاء) الناقضون للميثاق • وقوله : (تقتلون أنفسكم) خبر لقوله أنتم • وهؤلاء بدل عنه • والمعنى : وتنقضون الميثاق فتقتلون أنسابكم وأقرانكم الذين هم مثل أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منهم من ديارهم ، وقوله : (تظاهرون) محذوف التاء ، أي تتظاهرون عليهم ، وتتعاونون بينكم على قتلهم وإخراجهم بدونِ حقٍّ على الأعيان • بل بمحض الإثم والعدوان • وقوله : (وإن يأتوكم أسارى) أي أسارى من أهل دينكم تعطون الفدية لأجل إستخلاصهم من الأسر • وقوله : (وهو محرم عليكم إخراجهم) مربوط بقوله : (وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) وما بينهما جملة معترضة ، وهو ضمير الشأن ، والجملة التي بعده خبر له • ولا تحتاج إلى رابط لأنها تفسيره • وقوله : (أفتؤمنون ببعض) أي ببعض من المقررات في الميثاق • وهو العون بإعطاء الفدية • وقوله : (ويكفرون ببعض) وهو عدم إخراج بعضٍ من الوطن •

روي أن بني قريظة كانوا حلفاء للأوس ، وبني النضير حلفاء للخزرج ، فإذا اقتتل الأوس والخزرج عاون كل فريق من اليهود حلفاءهم في القتل وتخريب الديار ، وإخراجِ أهلها منها وإذا أُسِرَ شخص من أيّ الفريقين جمعوا له حتى يُفدوه ، وقوله : (خزي) كقتل بني قريظة وسبيهم وإجلاء بني النضير ، أو ضرب الجزية عليهم .

وحاصل التفسير : واذكروا إذ أخذنا الميثاق منكم على أن لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرج بعضكم بعضا من دياره ، وأقررتم عليه ، وأنتم حاضرون على الميثاق وإقراره بحضورهم مع الرسل عليهم السلام . ثم أنتم أنفسكم تنقضون الميثاق بقتل بعضكم بعضا ، ويخرج بعضكم بعضا من الديار ، وتتعاونون وتتظاهرون على قتلهم وإخراجهم بدون حق مشروع ، بل بمحض الإثم والعدوان ، وكان ذلك القتلُ وَالإخراجُ حراماً عليكم ، مع أنه إذا أُسِر بعضٌ مِن اَهلِ دينكم اَيّاً كان تُعطُونَ الفديةَ عنه ، وتستخلصونه ، فتفرقون بين بنود الميثاق وتؤمنون ببعض منها كإعطاء الفدية واستخلاص الأسرى ، وتكفرون ببعض منها ويقتل بعضكم بعضا ، فما جزاء من يفعل ذلك إلا الخزي في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يُرَدونَ إلى اَشَدِّ العذاب وليس ربكم بغافل عن أعمالكم وأولئك الناس النّاقِضُونَ للعُهود والمواثيق اشتروا واستحصلوا عيشَ الحياة الدنيا واتباع الهوى فيها بثواب دار الآخرة ، فلا يخفّف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يقبل شفاعة من أحد لهؤلاء الكافرين ولا فدية ولابَدَلَ عما استحقوه من العذاب ، فلا يأتيهم نصرٌ من أيّ جانب إلى يوم الدين .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَاَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لاتَهْوى اَنفُسُكُمُ

استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ (٨٧) وقالوا : قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون)(٨٨)

قوله تعالى : (وقفينا من بعده بالرسل) يقال : قفّى بتشديد الموحدة من باب التفعيل ، ومعنى قفاه به : أتبعه به . ومعنى الجملة جئنا من بعد موسى بالرسل مقتفين أثره ومتبعين شريعته وحداناً وجماعات .

قالوا : كان بين موسى وعيسى عليهما السلام أربعة آلاف نبيّ .

وقوله : (البينات) أي المعجزات الواضحات أو المعجزات التي تشهد كل منها على صدقه في دعوى رسالته من الله تعالى كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار بالمغيبات بإعلام الله تعالى له بها ، إلى غير ذلك . وقوله : (بروح القدس) الروح : جبريل عليه السلام ، والقدس : بمعنى المقدسة ، وإضافة الروح إليه من إضافة الموصوف الى الصفة لمزيد الإختصاص . لأن من شأن الصفة النسبة إلى الموصوف كقولك جودُ حاتم ، فإذا عكس ، وأضيف الموصوف إلى الصفة أفاد قوة الصفة فيه . فكأنها أصل والموصوف فرع . وقوله : (ففريقاً كذبتم) كموسى وعيسى . وقوله : (وفريقاً تقتلون) كزكريا ويحيى . وقوله : (غلف) بضم الغين وسكون اللام جمع أغلف بمعنى المستور بالغلاف . أي لايدخلها ما يلقى إليها . والمقصود إنا لا نفقه ولا نفتهم ما تقرأونه علينا ، ولا نستمع لكتابك وخطابك . وقوله : (بل لعنهم الله) رد لمقالهم ومرادهم أي ليس الأمر كذلك بل شيطنةٌ هنالك . فإنّ قلوبكم مكشوفة وهي باقية على الفطرة . ومتمكّنة من سماع الكتاب والخطاب وفهمهما . ولكن لما أصررتم على معاندة الرسل ، وقطعتم عليهم السبلَ خذَلكم الله وانتقم منكم وطردكم من باب رحمته . فلم تبق لكم إلا ألسنة حِدادٌ ،

وكلمات شداد ، فدخلتم في القوم الخاسرين والله بصير بالعباد والمتجاسرين •

(ولَمّا جاءَهُم كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جاءَهُم ماعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافِرِينَ)(٨٩)

بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، فَباءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلكافِرِينَ عَذابٌ مُهِين) (٩٠)

قوله تعالى : (كتاب من عند الله) أي القرآن الكريم • قوله (لما معهم) أي من التوراة وسائر الكتب السماوية • وقوله : (وكانوا يستفتحون) يعني وكانوا على ما أخذوه من كتبهم يستنصرون بقدوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الذين كفروا من المشركين • ويقولون : اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت في التوراة ، أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث إليهم وهو منهم وزمانه قريب • فلما جاءهم ماعرفوه كفروا به فلعنة الله على الكافرين •

وقوله : (بئسما اشتروا به) بئس فعل من أفعال الذم ، فاعله مستتر فيه ، وكلمة مانكرة بمعنى شيىء مميز له ، واشتروا به صفة لها ، والمخصوص بالذم أن يكفروا ، وهو في تأويل المصدر • أي بئس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم كفرُهم بما أنزل الله تعالى • فإذا كان إشترى على معناه المتعارف فمعنى الآية أنهم على زعمهم إشتروا أنفسَهم وَخلّصوها مِن عذاب الآخرةِ بكفرهم بما أنزل الله ، فكفرهم هو النقد الذي اشتروا

به أنفسهم • وإن كان بمعنى باعوا فمعناها : أنهم باعوا أنفسهم بمتاع نفيس عندهم ، وهو بقاؤهم على دينهم التقليدي وكفرهم بما أنزل الله على محمد وهو القرآن الكريم •

وقوله : (بغياً) مفعول له حصولي يعني أن علة إشترائهم أنفسهم حصول البغي والحسد بالرسول على أن نزل الله عليه من فضله كتابه الكريم • وذلك من جهلهم بالحقائق ، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته • وقوله تعالى : (فباءوا بغضب على غضب) الغضب الأول بكفرهم بما أنزل الله ، والثاني بحسدهم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وحاصل التفسير : ولما جاءهم ، أي بني إسرائيل ، كتاب منزل من عند الله مصدق لما معهم من الكتاب والأسفار السابقة كالتوراة وما معها ، والحال أنهم كانوا على علم بنزوله وقدوم الرسول الذي اُنزل عليه ، وكانوا من قبل قدوم الرسول يستفتحون بقدومه على المشركين فبدلاً عن أن يصدقوه وينشروه كفروا به فلعنة الله على الكافرين • • فبئس شيئاً إشتروا به أنفسهم كفرُهم بما أنزل الله تعالى على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدواناً وحسداً منهم أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، وهو هنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحصلوا على عاقبة سيئة وخيمة ، وهي غضب نزل من الله تعالى عليهم بكفرهم بما أنزل الله على محمد وذلك الغضب مترتب على غضب أساسي نازل بسبب شيىء فاسدٍ وهو حَسَدهم على الرسول من جهة نزول القرآن الكريم عليه ، فدخلوا في سجل الكافرين ، وللكافرين في الآخرة عذاب شديد مهين لهم ومحقرٌ وذلك أفظع العذابِ • أعاذنا الله تعالى منه •

(وإذا قِيلَ لَهُمْ : آمِنوُا بما أنْزَلَ اللهُ ، قَالوُا : نُؤْمِنُ بِما اُنْزِلَ عَلَيْنَا ويَكْفرُونَ بما وَراءَهُ وهو الحَقُ مُصَدِّقاً لِما

مَعَهُمْ ، قُلْ : فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ، قَالُوا : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ : بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٩٣)

(واذا قيل لهم) أي لبني إسرائيل (آمِنوا بما أنزل الله) على الرسل لإرشاد الأنام إلى أقوم السبل سواء الكتب السابقة واللاحقة حتى تأخذوا ثواب الإيمان بالكل (قالوا : نؤمن بما اُنزِل علينا) سابقاً وهو التوراة فهو كتابنا إلى الأبد ولا نعرف كتاب عيسى ولا محمد • ويكفرُونَ بما وراءه أي ما عدا ذلك الكتاب أيّاً كان ، وهو الحقّ ، والضميرُ لما وراءَهُ والمراد به القرآن ، (مُصَدِّقاً لما مَعَهم) حال مؤكدة لجملة وهو الحق لأن كتب الله تعالى يصدق بعضها بعضاً ، فالتصديق لازم لا ينتقل • (قل : فلم تقتلون انبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ؟) الفاء جواب شرط مقدر أي إن كنتم آمنتم بالتوراة فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل هذا العصر مع أن التوراة لا تسوّغه ، وما في قوله فلم إستفهامية ، حذف اَلِفها على ما تقرر في محلّه • والقتل ، وإن كان صفة أسلافهم لكن الجناية الواقعة في القوم تنسب الى الكل بالتغليب ، لاسيما إذا رضي الخلف بما فعله السلف • وكانوا في صدد الإقتداء بهم في ذلك لو تيسّر لهم • وذلك إعتراض عليهم في دعوى الإيمان بالتوراة بصورة المعارضة ، وتقريرها ظاهر •

(ولقد جاءكم موسى بالبينات) يعني الآيات التسع وهي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد البيضاء ، وفلق البحر ، وتفجير الماء من الحجر • أو المراد بها الدلائل الدالة على الوحدانية لله تعالى • ثم اتخذتم العجل إلهاً لكم مِن بعده أي بعد ذهابه إلى الميقات وأنتم ظالمون في اتخاذه إلهاً ، أو أنتم قوم شيمتكم الظلم لو لم يمنعكم مانع قوي • وهذه الآية إعتراض ثان على دعوى إيمانهم بالتوراة فإنها جاءت لتقرير التوحيد فلو كنتم مؤمنين بها ما اتخذتموه إلهاً •

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) لإظهار القدرة ، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، أي خذوا ما آتيناكم من التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة على العمل بها وجدٍّ ونشاط • قالوا في جوابنا : (سمعنا وعصينا) أي أخذناه أخذ سماع في الصورة ، ولكن عصيناك في العمل بها وليس فينا رغبة ونشاط فيه • وأُشرِبُوا في قلوبهم العجلَ بكفرهم وذلك لأنه أُشرِبَ قلوبَهم حبُّ عبادة العجل بسبب كفرهم الراسخ بالإلهيات ورغبتهم الثابتة في الماديات • قل يا محمد : بئسما يأمركم به إيمانكم بالتوراة من سماعكم لها صورة وانزجاركم عنها طبعاً وسيرة إن كنتم مؤمنين • تقرير للقدح والمعنى إن كنتم مؤمنين بالتوراة ما كانت تأمركم بهذه القبائح •

(قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (٩٦)

والآية نزلت فيما حكاه إبن الجوزي عندما قالت اليهود إن الله تعالى لم يخلق الجنة إلاّ لإسرائيل وبنيه ، فردّ الله سبحانه وتعالى دعواهم بقوله قل يامحمد إن كانت لكم الدار الآخرة أي الجنة عند الله خالصة كما تقولون لن يدخل الجنة إلاّ من كان هُوداً مِن دونِ الناس الآخرين مِن النصارى والمسلمين فتمنوا الموت ان كنتم صادقين في أن الجنة خالصة لكم ،لأنّ مَنْ أيقنَ أنه من أهل الجنة عَرف ما فيها ممّا تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعيُن فاختار سرعةَ الإنتقال إليها ، ولَن يَتمنّوه أبَداً بما قَدّمَتْ أيديهم من المعاصي الموجبة لاستحقاق النار وقد سَمِعُوا وعَلموا أنّ العاصي يستحقها فكانت دعواهم خلوصَ الجنة لهم كذباً وغروراً ، واللهُ عليم بالظالمين بارتكاب المعاصي المدّعين ما ليس لهم بحقٍّ .

ولتجدنّهم يا حبيبي أحْرَصَ النّاسِ أي جنسه أو المراد جمع معهود بمزيد الحرص عَلى حياةٍ وأحْرَصَ مِنَ الذين أشْركوا من العرب المتهالكين على البقاء أو من المجوس القائلين بإلهين : النّور ، والظّلمة . يَوَدّ أحَدُهم أي الإسرائيليين لَو يُعَمّرُ ألْفَ سَنَةٍ وجوابُ لو محذوف على قواعد البصريين . وأما الكوفيون فيقولون :إن لو مصدرية بمعنى أنْ فلا يحتاج إلى الجواب وتقديره : لسرّ قلبه بذلك . وما هو أي كونه معمراً ألفَ سنة بمزحزِحه أي بمُبَعّدِه من العذاب . أن يعمّر بدل من إسم ما . والله بصيرٌ بما يَعملون فهو مجازيهم لا محالة .

(قُلْ : مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرى لِلمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)(٩٨)

العدو للشخص ضد الصديق ، يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع • وقد يؤنث ويثنى ويجمع • وهو الذي يريد إنزال المضارّ به • وهذا المعنى لايصح إلاّ فينا دونه تعالى ؛ فعداوة الله هنا مجاز إمّا عن مخالفته تعالى وعدم القيام بطاعته ، وإما عن عداوة أوليائه • وقوله : جبريل على وزن قنديل • وفيه ثلاث عشرة لغة • وميكال على وزن ميعاد ، وفيه لغات أخرى أشهرها ميكائيل بالهمزة والياء بعدها • وجبريل علمُ مَلك كان ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن ، وهو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعجمة والعلمية • وميكائيل علم ملك مأمور بالخصب والأرزاق ، كما أن عزرائيل علم ملك مأمور بقبض الأرواح ، وإسرافيل علم ملك مأمور بالنفخ في الصور مرتين : الأولى لموت ذوي الأرواح ونسف الجبال • والثانية للبعث وإعادة الأرواح إلى أصحابها • وهم من الملائكة المقرّبين • وتلك الأسامي ممنوعة من الصرف لما قلنا •

وقوله : (فإنه نزله على قلبك) في مقام جواب الشرط • ومعناه من كان عدوّاً لجبريل فقد خرج عن الإنصاف ولا وجه لعداوته له ، بل الواجب عليه محبته لأنّه ، قد نزّلَ القرآن على قلبك بإذن الله • والقرآن منبع البركة والرحمة للعالمين • وقوله : مصدقاً ، وهدى ، وبشرى • أحوال من مفعول نزله العائد إلى القرآن • وقوله وجبريل وميكال ذكرهما للتخصيص بعد التعميم إظهاراً لكرامتهما وفضلهما ، وكأنهما من جنس آخر •

ذكرنا ان عداوة الله بمخالفته أو مخالفة أوليائه ، ونذكر أن عداوة الرسل على معناها ، وعداوة الملائكة بمخالفة ماجاؤا به .

وقوله : (فإن الله عدو للكافرين) جواب الشرط نيابةً والتقدير من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو له . لأنه كافر والله عدوّ للكافرين . وسبب نزول الآيتين : أنه دخل عمر ـ رضى الله عنه ـ مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يُطْلِعُ محمداً على أسرارنا ، وَإنه صاحبُ كل خسفٍ وعذاب . وميكائيلُ صاحبُ الخصب والسلام . فقال : ما منزلتهما من الله تعالى ؟ قالوا : جبريلُ عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وبينهما عداوة . فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوّين ، وَمَنْ كان عدواً لأحدهما فهو عدوّ لله ثم رَجَعَ عُمَرَ فوجد جبريلَ قد سبقه بالوحي . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لَقَدَ وافقكَ ربّك يا عمر . قال عُمَرَ : لقد رَأيتني بَعْدَ ذلك اَصْلَبَ مِنَ الحجر .

وحاصل التفسير : قل يامحمد : من كان عدواً لجبريل فلا إنصاف له ؛ لأن جبريل نَزّلَ على قلبك القرآن بإذن الله تعالى حال كون القرآن مُصَدّقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، وهُدىً للمهتدين وبُشرى للمؤمنين .

وليست العاقبة السيئة والخروج عن الحق لعداوة جبريل فقط ، بل كل من كان عدوا لله وملائكته ورسلِه وجبريل وميكال فالله تعالى عدوٌ له ؛ لأنه كافر واللهُ تعالى عدو للكافرين .

(وَلَقَدْ اَنْزَلْنا اِلَيكَ آياتٍ بَيّناتٍ وَمايَكفرُ بِها اِلاّ الفاسِقُونَ (٩٩) اَوَ كُلّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهمْ ؟

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (١٠٠) وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لايَعْلَمُونَ)(١٠١)

قوله : (ولقد أنزلنا إليك) الآية •• نزلت بسبب إبن صوريا كما روي عن إن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حين قال لرسول الله : ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل عليك من آيات فنتبعك ! وهو معطوف على ماقبله عطف القصة على القصة •

وقوله تعالى : (الفاسقون) معناه هنا المتمردون في الكفر ، الخارجون عن الحدود • وقوله تعالى : (او كلما عاهَدُوا عَهداً) نزلت في مالك بن الصيف قال : والله ما أُخِذَ عَلينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد ، ولا ميثاقٌ •

والهمزة للإستفهام الإنكاري • وكلما ظرف منصوب بجوابه وهو نبذ ، والواو للعطف على محذوف ، أي أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا ؟ الآية • وقوله : نبذه أي نقضه وترك العملَ به • وقوله : فريق هم اليهود الذين كانوا في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وقوله : الكتاب أي التوراة • وقوله : كأنهم لا يعلمون أي نبذوه مشبّهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله تعالى ، أو لايعلمه أصلاً ، أو لايعلمونه على وجه الإتقان ، ولا يعرفون ما فيه من دلائل نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وحاصل التفسير : لاشبهة في أنا أنزلنا إليك يامحمد آيات واضحات أو شاهدات باعجازها على نبوتك ورسالتك ، ولا يكفر بها إلا الفاسقون الخارجون عن الحدود • أو كفروا بها وكلما عاهدوا مع الله على تصديق رسالتك عهداً أكيداً نقضه فريق منهم ؟ ولا تتصور أن الفريق قليل منهم

بل كثير بل أكثر ، فإن أكثرهم لا يؤمنون بوجوب الوفاء بالعهود ، أو لا يؤمنون بالله حتى يفوا بها . وهذا النبذ والنقض عادتهم شابوا عليها فَشَبّوا عليها . فلذلك لمّا جاءهم رسول من عند الله مصدّق للكتاب الذي هو معهم وفيه نعوتك وصدق رسالتك نَبَذَ فريق منهم كتاب الله الذي معهم وهو التوراة وراء ظهورهم أي أهملوه ولم يعملوا به كأنهم لايعلمون شيئا منه وهم من الجاهلين .

(وَاتَّبَعُوا مَاتَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَاكَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَايُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَاشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوكَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (١٠٣)

قوله : واتبعوا عطف على مجموع ما قبله عطف القصة على القصة . والضمير لليهود الموجودين في عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو لمن تقدمهم ، أو للمجموع الموجودين في عهد سليمان وبعده . وقوله : الشياطين أي شياطين الجن أو الإنس أو القبيلتين ، لأن علم السحر وفن إضرار الناس بدقائق الحيل كانت من لدن فجر التأريخ واستمر ويستمر

مادام البشر على الصاهرة • وكل ذلك لأجل نيل حطام الدنيا الدنية والشهوات النفسية • ولكن لما طغى المال والجاه في عهد سليمان عليه السلام ، ولم يتيسر ذلك لكل إنسان بالطريق المشروع جدّدوا فنون السحر ونشروها بين الناس ، وكان للإنس والجن منها نصيب • واليهود المنافقون في عهد سليمان عليه السلام كانوا ينسبون إليه معرفة فن السحر وينسبون ما يظهر على يديه إلى السحر لا إلى الخوارق الكونية التي خصّه الله تعالى بها • كما أن المشركين نسبوا الآيات القرآنية التي عجزتهم عن المعارضة إلى كونها سحراً مأخوذا من السابقين • وهذا دأب العاجز عن نيل مانالة معاصره من الخوارق والبوارق التي بهرت العالمين •

وكل ماينسب إلى سيدنا سليمان في هذا الباب مما لايليق بمقام الرسل الكرام ، فهو من اختلاقات اليهود اللئام ، حتى إذا روي شيىء يوهم شيئاً من ذلك وجب تحقيقه ؛ فإن من كان من زمرة المرسلين الأخيار بريء من كل وجه عما ينسبه إليه الفساق الأشرار ، وليكن المسلم العاقل على بصيرة والله يهدي إلى سواء السبيل •

وقوله تعالى : (وما كفر سليمان) جملة معترضة لتنزيه ساحة سيدنا سليمان عليه السلام عن أوساخ أوهام اليهود ، فإنه كما روى إبن جرير عن شهر بن حوشب قال : قال اليهود : أنظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ؛ يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح • فقال تعالى : (وما كفر سليمان) أي ماكان مزاولاً لعمل السحر الذي كان كفراً بالوجه المعمول إذ ذاك • ولكن الشياطين من الجن والإنس كفروا بعمله والعمل به •

وقوله : (يعلّمون الناس السحر) حال من فاعل كفروا • وقيل : بدل من الجملة • وقيل : استيناف لبيان شئونهم • أي كانوا يعلّمون الناس

السِّحر المعهود بينهم ، وخاصّةً ما اُنزل منه على الملكين ببابل هاروت وماروت فإنه كان من أرْقى فنونه وأدَق طُرقِه .

وقوله : السحر في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح العين إذ أبدى ما يدق ويخفى ويستعمل بما لطف وخفي سببه . والمراد به أمر غريب يشبه الخارق وليس به إذ يجري فيه التعلم ويستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح : قولاً كالرقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره ، أو عملاً كعبادة الكواكب والتزام الجناية وسائر الفسوق ، أو اعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرب إليه ومحبته إياه وذلك لايستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس ؛ فإن التناسب شرط التعاون والتضام . فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرب إلى الله تعالى بالقول والفعل كذلك الشياطين لاتعاون إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قولاً وفعلاً واعتقاداً . وبهذا يتميز الساحر من النبي والولي . فلا يرد ما قال المعتزلة : من أنه لو أمكن للإنسان من جهة الشيطان ظهور الخوارق والإخبار عن المغيبات لاشتبه طريق النبوة بطريق السّحر انتهى . وذلك لأن السحر لا يتحقق إلا بطريق الإكتساب الخاص المبني على التقرب إلى الشيطان قولاً وفعلاً واعتقاداً . وأما المعجزة فليست كسبية وإنما هي موهوبة من الله تعالى . وكرامة الأولياء إن كانت موهوبة بأن ظهرت على يد إنسان مسلم ملتزم للآداب فلا كلام فيها . وإن كانت مكسوبة أي مترتبة على الخلوة والرياضات النفسية والسهر والجوع ودوام الأذكار والنوافل فهي مترتبة على أمور يتقرب بها إلى الله تعالى بالتزام الشرع قولاً وفعلاً واعتقاداً . وأصحابُها أصحاب الأدب والسكينة والوقار والأنوار . وأقوالهم كالدرر المنثورة وأعمالهم كلها مشروعة معروفة مشهورة . وإليه يشير الحديث

الذي رواه البخاري : (مازال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى اُحِبّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن إستعاذ بي لأعيذنه) .

والجمهور على أن للسحر حقيقة ، وأنه قد يبلغ الساحر إلى حيث يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، ويقتل النفس ، والفاعل والخالق في كل ذلك هو الله تعالى . والسحر من الأسباب ، ولكن لم تجر سنة الله في الكون على تمكين الساحر من فلق البحر ، وإحياء الموتى ، وإنطاق العجماء ، وغير ذلك من آيات الرسل عليهم السلام . ويظهر من ذلك فرق آخر بين المعجزة والسحر حيث أن المعجزة لها درجات عالية لاتنالها قوة الساحرين ، ولكن الفارق الصحيح المفيد هو الأول ، أي أن السحر نتيجة التقرب إلى الشيطان والمعجزة والكرامة نتيجة التقرب إلى الله المنّان . ومن هنا تظهر لطافة ما قالوا : (لايعرف الولاية بالكرامة ، وانما تعرف الكرامة بالولاية) يعني أن الخوارق إنما تكون كرامة وصاحبها ولياً إذا أطاعَ الله ، وإلا فخوارق العصاة سحر أو استدراج .

ثم السّحر بالمعنى المذكور المشهور ، وإلا فبعض العلماء جعله أقساماً . وعدّ منها ما يبنى على أعمال صناعية دقيقة كصندوق الساعات وعلم جرّ الأثقال وما شاكلها ... ولايشتبه منها بالكرامة والمعجزة إلا بعضُ أقسامها كما سيظهر لك فإنه قال والسحر على اقسام :

الأول : سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر ، وهم قوم يعبدون الكواكب يزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة . وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام لإبطال مقالتهم .

القسم الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، فإن النفوس الإنسانية قد يختص بعض منها ببعض صفات توجب لها قوة في تغيير أوضاع الناس وأفكارهم ، وهذا مما يشبه البديهيات ، وكذلك يجوز أن يكون لبعض النفوس خاصية غريبة تكون سبباً لحدوث الخير في المقابل كبعض الأصفياء الذين يستفيد الإنسان من مجالسته ، ويتنور بصحبته ، وينشرح صدره بمحبته ، او لحدوث الشرّ فيه كصاحب العين ، فإنه قد جرّب بما لا مجال فيه للإشتباه أن العيون قد ينظر إلى بعض المستحسنات فتسبب حدوث مشاكل فيها من : العور ، والعرج ، والمرض ، والعرض ، والضرر المالي والحالي .

القسم الثالث : الإستعانة بالأرواح الخبيثة الأرضية ، أي أرواح الجن والشياطين . فإن وجود الجن وأنه جسم لطيف ناري معلوم عند المسلم . وكذلك إيمان بعضهم وكفر بعض . فقد يحصل للإنسان بطريق خاص المناسبة مع أرواح الجن الكافرين فيستعملها الشخص في بعض الأمور التي يهواها من إضرار الناس ، والتفريق بين المرء وزوجه . ومن هذا النوع : كتابة الطلسمات التي يقال إنه يحصل منها آثار كإثارة الملك على الرعايا ، أو بالعكس ، وبإيقاع العداء بين القبائل والعوائل والأحباب والأصحاب وما شاكلها .

القسم الرابع : التخيلات والأخذ بالعيون ، كأن يُرى الواحد اثنين أو على لونين في آنين . . وهذا النوع يحصل من خفة اليد وإشغال حواس الحاضرين .

القسم الخامس : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات على النسب الهندسية ، أو على ضروب الخيلاء ؛ كصنع مادة حديدية ذات منافذ عديدة على كيفيات مرتبة علمية . فإذا ضربتها الرياح ، أو نفخ فيها حصلت

تارة ألحان مريحة وسالمة ، وتارة أصوات مزعجة ، وتارة ألحان محزنة مبكية ، وأخرى ألحان مضحكة ، وتارة تحدث هياجاً نفسياً وإقداماً على الحروب وما شاكل ذلك . والآلة الموسيقية من هذا القسم .

القسم السادس : الإستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في الطعام بعض المواد التي أكلها يخفف العقل ويفسد الدماغ ، وهذا باب واسع .

القسم السابع : ربط القلب وتعليقه بشخص ، كأن يدعي شخص فاسد أن عنده حذاقة في فن كذلك يمرض الإنسان أو يخلصه من مرضه فيرتبط به ، فتنقاد نفس هذا الإنسان الضعيف له فيتصرف فيه كيف يشاء وهذا القسم أفسد أقسام السحر بالنسبة إلى البسطاء وضعاف العقول .

القسم الثامن : السعي في الإفساد وتغيير المجتمع بالقول والفعل . فمن الأول السعاية والوشاية والنميمة والغيبة والبهتان . ومن الثاني السعي في إضرار أحد الناس بعمل ما ، كأن يرى شخص عدوه المبتلى بمرض لايناسب أكل الماكولات فيأتي به إليه في صورة محب يخدم حبيبه فيأكله ويموت به . وتسمية هذا القسم والخامس والسادس سحراً لاشتماله على الدقة والحذاقة كتسمية إنشاء الشعر البليغ جداً سحراً . وكذلك الأعمال المادية الدقيقة من أي نوع كان وتتفاوت الدقة بحسب تطور الزمان . وأما الدقة والحذاقة القولية أو العملية التي تستعمل في تربية إنسان وإصلاحه أو إصلاح ذات البين فيما عجز عنه الناس . فذلك يعتبر جهاداً في سبيل الله . وكلمة من تلك الكلمات تساوي عند الله آلاف الكلمات ، وفعل واحد من ذلك القبيل يوجب للإنسان الدرجات العالية عند الرب الجليل . وهي وإن أمكن أن يسمى سحراً لدقتها لكن التسمية به مجاز بحسب المعنى العرفي ، وإن كانت حقيقة بحسب أصل اللغة .

ومن هنا ظهر أن أيّ عمل متقن لم يكن فيه مخالفة للشرع أي لم يكن منهياً عنه وظفر به بعض من خصهم الله بفضله كعلم الجفر لاستكشاف المجهولات ، وعلم الحروف والاوفاق لقضاء الحاجات ، فهو حسن ممدوح يثاب فاعله عليه على درجات متفاوتة ولا ننظر إلى قول الجاهلين بالحقيقة فإنهم خارجون عن الطّريقة .

(فائدة) السحر المذموم مما علمته يحرم تعلّمه وتعليمه والعمل به . فإذا كان مُصادماً للحق ومخالفاً لما علم من الدين بالضرورة فمعتقده كافر والعامل به مرتكب للكبيرة . نعم قالوا : إن تعلّمه إذا أمكن بدون مزاولة المكفرات جائز ، لاسيما إذا كان للصيانة . قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر بل لتوقيه

ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

وقوله : (وما انزل على الملكين) عطف على السحر ، والعطف للتغاير الإعتباريّ ، أو لاختصاصه بمزيد دقة . وقوله : (ببابل) ظروف وقوله : (هاروت وماروت) عطف بيان للملكين . ومنع صرفهما للعجمة والعلمية .

وهذان الملكان أنزلا لتعليم السحر إبتلاء من الله تعالى للناس ، فمن تعلمه وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان . وقيل : إنّه كان للتمييز بين السحر وبين المعجزة ، حيث كثر السحر في ذلك الزمان ، وأظهر السحرة أموراً غريبة وقع الشك بها في النبوة ، فبعث الله الملكين لتعليم أبواب السحر حتى يزيلا الشبه . أي حتى يعلم الناس أن السحر علم إكتسابي ، وكل إنسان قادر عليه خيّراً كان أو شريراً ، وإن المعجزة نعمة وهبية يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ولا تظهر إلا على المختار من العباد

المخلصين . قيل : كان ذلك في زمن إدريس عليه السلام في البيضاوي . وقيل رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما ويؤيده قراءة الملِكين بالكسر . وما يروى من الحكايات فمن الأباطيل ؛ لأنَّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، أو إخبار الباري تعالى ليس قابلاً للنسخ .

وقوله : (وما يعلمان من أحد) أي مايعلمان أحداً السحر حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن فتنة . أي محنة وابتلاء" منه للناس . فمن تعلّم وتوقى عن عمله بقي على الإيمان ، ومن تعلّم وعمل به خرج عن الإيمان وكفر بربه الديان فلا تكفر أيها المتعلم .

(فيَتَعلَّمونَ مِنهُما ما يُفرِّقونَ بِهِ بيْنَ المَرْءِ وزَوْجِهِ ، وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إلاّ بِإِذْنِ الله) وإرادته ؛ لأنه هو الفاعل المختار الخالق لكل شيء ، والأسباب غير مؤثرة ، وحدوث الآثار عندها لا بها . (ولقد علموا) أي اليهود (لمن اشتراه) أي أخذ ماتتلوه الشياطين بدل العمل بكتاب الله (ماله في الآخرة من خلاق) أي نصيب مبارك (ولبئس ماشروا به أنفسهم) أي إستخلصوا به أنفسهم عن الهلاك بزعمهم أو باعوها به ، وهو وجود الهدايا والرشايا والجاه بين البرايا (لوكانوا يعلمون) أي قبحه . أو لو كان يعلمون ما يصيبهم في المآل ما عملوا شيئاً غير مشروع في الحال .

(يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنَا ، واسْمَعوا وَللْكافِرينَ عَذاب" أليم" (١٠٤) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَلا المُشْرِكينَ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ واللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم) (١٠٥) أَخرَجَ أبو نعيم في الدلائل عن ابن

عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان المسلمون يقولون للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : راعِنا أي راقِبْنا وتَأنَّ بِنا فيما تُلقّنُنا حتى نَفْهَمَه • وسمعه اليهود فافتَرصُوه وخاطَبُوه به مريدين نسبتَه إلى الرَّعن ، أو سَبَّه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابّون بها ، وهي راعينا ؛ فَنُهِيَ المؤمنُونَ عنها وأُمروا بما يُفيد تلك الفائدة بلا تلبيس نحو أُنْظرنا أي أُنظر إلينا أو إنتَظِرنا •

قوله : (راعنا) صيغة امر المفرد المذكر المخاطب من باب المفاعلة مشتق من الرعي بمعنى الرعاية معتل اللام واصله راعِيْنا حذفت الياء لبناء صيغة الأمر وفاعله مستتر فيه اي انت وضمير : (نا) في محل النصب مفعول به صريح •

وقوله : (انظرنا) صيغة أمر المفرد المذكر المخاطب أيضا من الباب الأول ، أي أنظر إلينا على معنى اللطف والمراعاة ، أو بمعنى إنتظرنا •

وقوله : (واسمعوا) أي استمعوا لتلقين الرسول إياكم حتى تأخذوا كلامه ولا تحتاجوا إلى سؤال المراعاة •

وقوله : (ما يود الذين) الآيــة • نزلت تكذيباً لجمع من اليهود كانوا يدعون محبتهم للمسلمين •

وحاصل التفسير : يا أيها الذين آمنوا إذا تلقنتم العبارات من الآيات البينات فاستمعوا إستماعاً عن حضور القلب حتى تفتهموا ما يلقنكم ، وتأخذوه ولا تغفلوا فتحتاجوا إلى أن تقولوا له راعنا حتى لاتغتنم اليهود فرصة أخذ هذه العبارة واستعمالها بمعنى فاسدٍ ، وهو كن راعِناً أي ذا سَفَهٍ أو أنت راعينا أي راعي أغنامنا •

وقولوا : انظرنا بدل راعنا • وللكافرين الذين يتهاونون بالرسول ويسبونه عذاب أليم واعلموا أن بينكم وبينهم معاندة ومناوأة ويحبون هلاككم ، ولا يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم أي خير من جانب ربكم ، ولا يعلمون أن الله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

(مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؟ ؟ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١١٠)

قوله : (مانسخ) الآية نزلت عندما قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه؟ ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ ما هذا القرآن إلا كلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا •

والنسخ : في اللغة إزالة الصورة أو ما في حكمها عن الشيىء وإثبات مثل ذلك في غيره سواء كان في الأعيان أو في الأعراض • فمن الأول : نسخت الريحُ الأثر أي ازالته • ومن الثاني نسختُ الكتابَ إذا أثبتَّ مافيه في موضعٍ آخر • وهو مشترك بينهما • وحدده عرفاً : الخطابُ الدالّ على إرتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً به مع تراخيه عنه • ونسخ الآية بيان إنتهاء التعبد بقراءتها كآية : (الشيخُ والشيخة إذا زنيا فارجمُوهما نكالاً مِن اللهِ والله عزيزٌ حكيم) أو الحكم المستفاد منها كآية : (والذينَ يُتوَفّونْ منكم ويَذرَونَ ازواجاً وَصيّةً لأزواجهم مَتاعاً إلى الحول غيرَ إخراج) أو بهما جميعاً كآية (عَشْرُ رَضَعاتٍ مَعْلوماتٍ يُحَرّمْنَ) • وفيه رفع التأبيد المستفاد من إطلاقها • ولذا عرفه بعضهم برفع الحكم الشرعي • فهو بيان بالنسبة إلى الشارع ، ورفعٌ بالنسبة إلينا • واختص التعريف بالأحكام إذ لاتعبد في الأخبار أنفسها •

وانساؤها إذهابها عن القلوب بأن لاتبقى في الحفظ • وقد وقع هذا فإن بعض الصحابة أراد قراءة بعض ما حفظه فلم يجده في صدره فسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (نُسخَ البارحةَ عن الصّدور) • وعن أبي موسى : إنا كنا نقرأ سورة نُشبّهها في الطول والشدة ببراءة ، فأنْسيتُها غيرَ أني حَفظتُ منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً وما يملأ جوف ابن آدمَ إلا التراب)

وقوله تعالى : (نأت بخير منها أو مثلها) أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب ، أو مثلها في الثواب ولو كان برفع الحكم هناك •

وقوله : (من ولي ولا نصير) وأصل معنى الولاية الإتصال بين شيئين من غير تخلل شيىء آخَرَ اَجنبيّ بينهما • ثم يستعار للقرب في المكان ، أو في النسب ، أو في الصداقة والنصرة •

والنصير والناصر المعين • وبينهما عموم وخصوص من وجه ؛ لأن الولي قد يضعف عن النصرة فلا ينصر • والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيجتمعان فيما إذا كان الولي قادراً على النصرة والنصير قريباً في النسب من المنصور • ويفترق الولي عن النصير فيما إذا لم يقدر على النصرة • والنصير عن الولي فيما إذا كان أجنبياً عنه • قوله تعالى : (أم تريدون) قالوا يجوز أن تكون كلمة أم هذه متصلة للمعادلة بين شيئين ومنقطعة بمعنى بل الإضرابية وهمزة الإستفهام •

وإذا كانت متصلة فالمعادلان قوله تعالى : (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ؟) وقوله : (أم تريدونَ اَنْ تسألوا رَسُولكم ؟) ووجه المعادلة : أن قوله (ألم تعلم) محمول على الثقة وقوله : (أم تريدون) دال على الإقتراح والإزعاج بالسؤال كما اقترحت أسلاف اليهود من موسى عليه السلام فيئول الكلام إلى معنى ألكم وثوق بالرسول بعد العلم بما يوجب الوثوق من أن الله له ملك السموات والأرض وهو الذي أرسله إليكم ؟ أم ليس لكم وثوق وتقترحون كما اقترحت أسلاف اليهود ؟

وإذا كانت منقطعة فالمعنى على الإضراب عما سبق ، والإستفهام عن السؤال •

وقوله : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) معناه ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقترح غيرها فقد ضل سواء السبيل •

وقوله : (حسداً) مفعول له حصولي لقوله ودّ • وقوله : (من عند أنفسهم) أي حسداً ناشئاً ومنبعثاً من أعماق أنفسهم • وقوله :(فاعفوا واصفحوا) الصفح : ترك تثريب العدو • والعفو : ترك عقوبته • فذكر الصفح بعد العفو للدلالة على استحسان إهمال ذكر الذنوب بعد العفو حتى لايبقى كدر ظاهر في الجوّ • والأمر مُغَيّاً بإتيان أمر الله تعالى بالإنتقام والقتال فليس منسوخاً بآية السيف • وقوله : (من خير) أي من أداء واجب أو مندوب أو كف النفس عن حرام أو مكروه ، فإن النكرة في سياق الشرط للعموم • وقوله :(تجدوه) أي ثوابه •

(وَقالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً اَوْ نَصارى، تِلكَ أَمَانِيُّهُمْ • قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١١١) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ اَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنون) (١١٢)

قوله تعالى : (وقالوا) عطف على قوله تعالى (ودّ كثير) وقوله : (لن يدخل) أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى • ودليله قوله تعالى : (وقالت اليهود ليست النصارى على شيىء وقالت النصارى ليست اليهود على شيىء) • وقوله : (هودا) جمع هائد كعوذ جمع عائذ • وقوله : (تلك أمانيهم) إسم الإشارة تشير إلى ماسبق من أن لاينزل على المؤمنين خير من ربهم • وأن يردّوهم كفارا ، وأنه لايدخل الجنة غيرهم على ما ذكرناه ، والأماني الأكاذيب • وقوله : (هاتوا) في القاموس : وهات

بكسر التاء أَعْطني انتهى • أي فكلمة هاتوا جمع المذكر المخاطب أي اَعْطوني •

وقوله : (برهانكم) البرهان دليل مركب من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين ، يعني أن هذه المطالب من العقائد ولابد أن تبنى على الدليل القطعي فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فإن كان عندكم برهان فأتوا به، وإلا فاسكتوا فرحم الله امرءً قال قال خيراً أو سكت •

وقوله : (بلى) رد لما تفوهوا به • وقوله (من أسلم) أي سلم نفسه إلى قدسه وخضع له واتّقاهُ ، وَهُوَ محسن في خضوعه بأن خضع له على وجه الإعتناء بوجه الطاعة حتى وصل إلى درجة الإحسان المفسر بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراكَ • أو أحسن في إسلامه بأن كان عاملاً للصالحات حتى يتقارن الإيمان والعمل الصالح • أو وهو محسن في خضوعه وإسلامه بأن كان على وجه إرشاد رسوله بدون تعنت وعناد منه ، وبدون تناسي وصاياه لا كأهل الكتاب الذين يدّعون الإسلام ويخرجون عن وصية الأنبياء ببيان نعوت الرسول العربي وكتابه وأمته والإيمان به فيكتمون الجميع وهم يعلمون • فمن أسلم وجهه لله على هذه الحال فلا خوف عليهم يوم القيامة من كل منتظر مكروه ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في حياة دنياهم لأنهم يدخلون عالماً أوسعَ وأمْتعَ من كل ما يتصور لنفسه في العالَمين •

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ : لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ ، وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كذلكَ قالَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ) (١١٣)

نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآتاهم أحبار اليهود فوقع بينهما المناظرة فقال كل ماقال • والوفد : القوم الوافدون أي القادمون • ونجران : كسكران اسم بلدة في اليمن فتحت سنة عشر من الهجرة فيها قوم من نصارى العرب • وقوله : (على شيىء) أي على أمر يصح ويعتد به • أي ما كانوا عليه أقل رتبة من المعدوم الممكن والمحال ، إذ يقال لهما (شيىء) بمعنى ما يصح أن يعلم ويخبر عنه • فلما لم يكونا على شيىء فقد بولغ في ترك الإعتداد إلى ما ليس بعده كما يقال : فلان أقل من (اللاشيىء) • والتوبيخ على قصد كل منهما إبطال دين الآخر وإنكار نبيه •

وقوله تعالى : (وهم يعلمون) الواو حالية ، والجملة حال • وقوله : (كذلك) مفعول به لقال ، وقدم عليه للإهتمام ، وقوله : (مثل قولهم) صفة قول مقدر ومفعول مطلق أي قال الذين لا يعلمون كلاماً مثل ذلك الكلام الذي قالته اليهود والنصارى • ويجوز أن يكون مثل ذلك صفة للمفعول به المقدر ، وكذلك حالاً له قدم عليه • أي قال الذين لا يعلمون الحق مثل عباد الاصنام والمعطلة قولاً مثل قول اليهود والنصارى بالنسبة إليهما والى المسلمين حال كونه كلاماً جارياً على ذلك المنهج ناشئاً عن الشهوة والغرور •

وحاصل التفسير : إن اليهود والنصارى تنافسوا بينهم وقال كل فريق للآخر : إنه ليس على شيىء ؛ لا دين يعتد به ، ولا رسول يصدق به • وقال الكفار المعطلة وعبدة الأصنام قولاً مثل قولهم بالنسبة إليهما وإلى المسلمين أيضاً • فالله تعالى يحكم بين كل من المتناظرين والمتنافسين يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون •

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعى في خَرابِها أُولئِكَ ماكانَ لَهُمْ أَنْ يَدخلُوها إلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ في الدنْيا خِزْيٌ وَلَهُم في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ) (١١٤)

قوله تعالى : (ومن أظلم) الآية نزلت في طيطوس بن آسيا قوس الرومي وأصحابه •

وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتليهم ، وسلبوا ذراريهم ، وحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف ، وذبحوا فيه الخنازير ، وبقي خراباً إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ !

وروى عطاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت في مشركي العرب منعوا المسلمين عام الحديبية من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام •

وظاهر الآية العموم في كل مانع وفي كل مسجد ، وخصوص السبب لايمنعه • وقوله : (أظلم) اسم التفضيل خبرٌ عن مَن ، ولايراد بالإستفهام حقيقته لأنه تعالى عالم بالأمر فهو مستعمل في معنى النفي • قولـه (وسعى في خرابها) أي في هدمها وتعطيلها •

وقوله : (ماكان لهم أن يدخلوها) أي ماكانوا أهلاً ولائقاً بدخول ذلك المقام المقدس إلا خائفين من المؤمنين أن يطردوهم • أو ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلاّ بخشية وخشوع ، فضلاً عن أن يجترؤا على تخريبها ؛ لأنهم لوكانوا عقلاء كان حقهم ذلك •

واختلف الأئمة في دخول الكفار المساجد ، فجوزه الإمام أبو حنيفة مطلقاً سواء الحرم المكي وغيره للآية • فإنها تفيد دخولهم بخشية وخشوع ، ولأنّ وفد ثقيف قدموا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزلهم المسجد ، ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من دَخَلَ دار أبي سفيان فهو آمن ، وَمَن دخَلَ الكعبةَ فهو آمِنٌ • ومنعه مالك مطلقاً إلا لحاجة • وفرّق الشافعيّ بين حَرَم مَكّةَ ومَسْجدها فمنع دخولهم فيهما ، وجوزه في غيرهما •

قوله : (خزي) بالقتل والأسر كما في بدر وغيره من مواقف الجهاد في إعلاء كلمة الحق والدين •

والحاصلُ : يقول الباري سبحانه : ياحبيبي توجّه إليّ وتَوكّل عَلَيّ ، وجامِلِ الناسَ إلى أنْ يأتي اللهُ بأمره ، ولا تهتمّ بأولئك الناس الظالمينَ ، بل أظلم الظالمين • فمن أظْلَم ممّن مَنعَ مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، سواء كانوا من الروم وَمَنعُوا الإسرائيليين من ذكر الله في بيت المقدس ، أو من مشركي العرب وَمَنعُوكم مِن دخول مكة وأداء مناسِكِ العمرة ، أو من أحبْارِ اليهود في عصرك المانعين للناس من أمتهم وغيرها أنْ يؤمنوا برسالتك ، ويدخلوا مسجدك في المدينة ، أو من سائر الناس النّاسين لحقوق نعمةِ الله وعظمتِه ، وكلٍ من شاكَلَهم وَسَعى في خرابها وهدمها وتعطيلها عن نشر الدين ، وتثقيف أجْيال المسلمين ، أولئك ماكان ينبغي لهم أن يدخلوا تلك المساجد إلا خائفين خاشعين لله • فاعلم ياحبيبي إنّ لهم خزياً في الدّنيا اليومَ أو غداً ، ولا يَفْلتُون من الله أبَداً فإن الله له الإمهال ولكن لا إهمال له في رعاية حقوق العالمين ، وَلَهُم مَع خزي الدنيا عذابٌ عظيم يحكم به ربّ العالمين •

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)(١١٥) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ انه قال:كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي على راحلته تطوعا أينما توجهت به وهو ذاهب من مكة إلى المدينة ، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية • وقال في هذا انزلت • أخرجه مسلم والترمذي والنسائي • وقال ابن عمر أيضاً أنزلت (أينما تولوا فثم وجه الله) أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في التطوع أخرجه الحاكم • وقال صحيح على شرط مسلم • وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت في صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على النجاشي ملك الحبشة حينَ أخبره جبريل عليه السلام بوفاته وجمع الصحابة للصلاة عليه فاستبعد بعضٌ الصلاةَ عليه ولا يعلم كيف حاله وأنه يصلي إلى بيت المقدس ونحن نصلي إلى الكعبة فنزلت • وكانت الواقعة بعد تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة •

وعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلي على راحلته قِبَلَ المشرق ، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى أخرجه البخاري •

والمستفاد من الروايتين أن الآية نزلت في صلاة التطوع في السفر إلى غير جهة القبلة • وهنا رواية أنها نزلت في صلاة الفرض إلى غير جهة القبلة فيخطىء المصلّي فإن صلاته صحيحة كما عليه الأئمة الثلاثة ، لكنها ليست قوية عند المحدثين • نعم إذا كان الخطأ غير معين كما لو صلّى لأربع جهات بأربع اجتهادات فإن صلاته صحيحة ولا قضاء هناك •

وقوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب) المراد بهما الجهتان المعينتان على وجه أن تكونا كناية عن الأرض كلها • والمقصود أنّه إذا منِعتم مِن

الصّلاة في المسجد الحرام كما في عام الحديبية أو في المسجد الأقصى فصلوا في غيرهما من الأمكنة ، فإن الأرض كلها مسجد للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأمته ، وطهور لمن تيمم بترابها النظيف • وليس دين الإسلام على حصر الصلاة في المساجد كما في العهود السابقة ، فلم تجز الصلاة في غير البيع والكنائس إلا عند الضرورة • أو ان المشرق والمغرب ملك لله فله أن يرتضي التوجه في الصلاة مطلقاً أو في النافلة ـ إلى أية جهة •

وقوله تعالى : (فأينما تولوا) • إن حَمَلنا الآية على صلاة التطوع في السفر فأينما ظرف مكان لازم للظرفية و (تولوا) منزل منزلة اللازم ، والمعنى ففي أيّ مكان فَعلتمْ أَيَّ تَولِية صحّت صلاتكم • وإن حملناها على مطلق الصلاة فالمعنى ففي أيّ مكان فعلتم التولية إلى أي جهة فقد صحت صلاتكم إذا عميت عليكم جهةُ القبلة كما عليه الأئمة الثلاثة • وكذا الإمام الشافعي في أحد قوليه • وأما حمل الآية الشريفة على مطلق الصلاة وتقييد الجهة بالقبلة كما قال البيضاوى رحمه الله تعالى فبعيد عن سياق التعميم المستفاد من قوله تعالى ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثم وجه الله • وقوله تعالى : (فثم وجه الله) أي جهته التي إرتضاها للتوجه إليها وأمر بها أو بمعنى ذاته أي فهو حاضر مطلع على عبادتكم ، وإنما أول بذلك لتنزهه عن المكان والجهة • وإذا قلنا إن الآية الشريفة توطئة لنسخ القبلة وإفادة أن الله تعالى محيط بكل جهة إحاطة علم وتصرف فله أن يرتضي ماشاء منها لاستقبالها فهي واضحة عند الناظرين • وقوله تعالى : (إن الله واسع عليم) أي محيط بالكائنات عليم بالكليات والجزئيات يتصرف في تخصيص أي جزء منها بكونه قبلة للمسلمين •

(وقالُوا : اتَّخَذَ اللهُ ولَداً سُبْحانَه بَلْ لَهُ ما في السَّموَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتونَ (١١٦) بَديعُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَإذا قَضى أمْراً فَإنَّما يَقولُ لَه : كُنْ ، فَيَكونُ) • (١١٧)

نزلت في رد اليهود والنصارى ، حيث قالت الأولى : إن عُزَيْراً ابن الله ، والثانية إن المسيح ابن الله • وفي رد المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً • وذلك لفرط جهلهم وغباوتهم ، وعدم معرفتهم بالباري سبحانه معرفة سليمة بالإعتقاد بأنه متصف بالكمال ومنزه عن النقص ، وسر البقاء في ذلك الجهل إفراطهم في المادية وزعمهم أن الأصل في الكائنات المادة ، وأن الإله لابد أن يتمازج مع المادة • وقد رد الله عليهم مزاعمهم الباطلة بعبارات •

الأولى قوله تعالى : سبحانه ، وهو علم جنس للتسبيح ، وسرّ التنزيه أن الولادة تقتضي المجانسة والحاجة إلى البقاء وسرعة فناء المحتاج • والباري تعالى واجب الوجود المنحصر في الفرد ، وليس مجانسا للممكنات وقديم باق بالذات لا يعتريه الفناء ؛ فلا يحتاج في حفظ النوع إلى التناسل فهو بريء من أن يكون له ولد •

والثانية قوله تعالى : (بل له مافي السموات والأرض) يعني أن كل مافي الكون الأعلى والأسفل ملك له تعالى ، وهو خالق له ، ومن أجزائه عُزَيْر" ، والمسيحُ والملائكة ، والمخلوق لايكون مجانساً للخالق فلا يحتاج إليه •

والثالثة : قوله تعالى : (كل له قانتون) أي كل مافي السماوات والأرض قانتون منقادون مطيعون له تحت تصرفه وقدرته بالإيجاد

والإعدام ، وما على هذه الصفات لايجانِسُ خالق الأرض والسماوات لأنّها من الممكنات والخالق واجب بالذات ٠

والرابعة : قوله تعالى : (بديع السماوات والأرض) أي مبدعهما ومخرجهما من العدم إلى الوجود والوالد ينفعل بانفعال مادّة الولد وعنصره الموافق له ٠ والواجب الوجود بريء من الإنفعالات ،فاعتقاد وجود الأولاد له يناقض الإعتقاد بوجوب وجوده ٠

والخامسة : قوله تعالى : (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون) أي إذا أراد حدوث حادث فلا مانع من إخراجه له إلى الوجود ، وإنما يأمر أمراً تسخيرياً يمثل له في سرعة النفاذ بقول (كن فيكون) فلا معنى للإعتقاد بأن حفنات من التراب أو أجساماً مخلوقة بدون علاقة الإنتساب أولاداً له تعالى ٠

فوائد : الأولى : فرق في شرح الإشارات بين الصنع ، والإبداع ، والإيجاد ، والتكوين ، والإحداث : بأن الصنع الإيجاد بعد العدم ، فهو والإيجاد عامّان ٠ والإبداع إيجاد من غير مادة ولا زمانٍ ، فهو أعلى مرتبة من التكوين والإحداث ؛ لأن التكوين إيجادٌ من مادّة ، والإحداثُ انْ يكون مع الشيء وجودٌ زمانيّ وكل واحد منهما يقابل الإبداع من وجه ، والإبداع أقدم منهما ؛ لأن المادة لايمكن أن تحصل بالتكوين ، والزمانُ لايمكن أن يحصل بالإحداث لامتناع كونهما مسبوقين بمادة أخرى وزمان آخر ٠ انتهى

قلت : لم يستند شارح الإشارات في تلك الفروق على شيء يعتدّ به ، لا لغة ولا عرفاً ٠ وبعض مما قاله مبني على أصل فلسفي ليس بمسلّم

عندنا . فإن الزمان عندنا موهوم ، وسبق المادة على إحداث المركبات لحمل الإمكان الإستعدادي ووجود الزمان ليكون ظرفاً لتعاقب الإستعدادات عندنا من أحاديث خرافة .

وكلام البيضاوي أقربُ إلى القبول ، وهو : أن الإبداع الإيجادُ الدفعي من غير مادة ؛ لأنه معنى الاختراع . والصنع الإيجاد عن مادة وهي العنصر الذي فيه صورته كالخشب للسرير . والتكوين إيجاد من مادة خلعت عنها صورتها الأولى التي هي صورة أخرى في زمان كتكوين الطفل من المضغة ، وهي من العلقة ، وهي من النطفة .

وما قيل من أن الإبداع بهذا المعنى لايناسب السماوات لإيجادها عن مادة الدخان مدفوعٌ بأن الإبداع متوجه إلى الأصل والفرع معاً ولم يكن شيىء آخر قبلهما .

الثانية : أن القضاء فصل الحكم في الشيىء قولاً وهو ظاهر ، أو فعلاً وهو إيجاده . ولما كان ذلك يستلزم الإرادة أطلق عليها . فعلم أنه يستعمل بمعنى الإيجاد ، ويقابله القدر بمعنى التقدير ، وقد يعكس ذلك . ومنهم من يفرق بين قدر الله وقضائه ؛ فيجعل القدر تقديره الأمور قبل أن تقع ، والقضاء إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حدّ الفعل ، وهذا هو الصحيح ؛ لأنه قد جاء في الحديث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرّ بكهف مائل للسقوط فأسرع المشي حتى جاوزه ، فقيل له : أتَفِرُّ مِنْ قضاء الله ؟ فقال : أفِرُّ من قضائه تعالى الى قدره . ففرّق ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين القضاء والقدر ، وبيّن أن الإنسان يَجبُ أن يَتوقّى .

الثالثة : أن (كن فيكون) من كان التامة الدالة على وجود الشيىء في نفسه ، وهي تدل على معنى الناقصة ؛ لأن الوجود المطلق أعم من وجوده في نفسه أو في غيره ؛ لأن الله تعالى كما يفيض الوجود في نفسه يفيض الوجود لغيره وهو ـ أيضاً ـ إنما يكون بأن يقول للشيىء كن كذا .

ثم في هذا الأمر للعلماء آراء : منها أن هذا الأمر تمثيل لسرعة نفاذ أمره تعالى في المأمور بلا مهلة ، وليس هناك قول دال على الطلب ولا مأمور، بل المقصود ظهور المراد على الوجه الذي أريد . كما أنه ليس المقصود أن سنته في الخلق جرت هكذا ؛ لأنه تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيّام ، بل المقصود أنه قادر على تنفيذ ما أراد في أقل من لمحة العين بلا مهلة وبين .

ومنها أنه على تقدير تحقق الأمر والمأمور إن الأمر هو الطلب النفسي القائم بذاته تعالى والمأمور هو الشيىء الموجود بالصورة العلمية الإجمالية أزلاً وفهمه للطلب من أسرار القدر ، والمأمور به المطلوب هو الوجود الخارجي للشيىء سواء كان من الأعيان أو الأعراض . أي أطلب منك أن تتحول من الصورة العلمية والوجود الذهني إلى الوجود الخارجي على ما ذكرناه من الطلب التسخيري .

(وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ : لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ ، أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابَ الجَحِيمِ) (١١٩)

قوله تعالى : (وقال الذين) عطف على قوله (وقالوا اتخذ الله) . ووجه الإرتباط أن الأول كان قدحاً في التوحيد ، وهذا قدح في النبوة . والمراد من الذين لا يعلمون جهلة المشركين ، كما روي عن قتادة والسدي والحسن . أو اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدليل ما روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رافع بن خذيمة من اليهود قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن كنت رسولاً من عند الله فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه ! وقال مجاهد : المراد به النصارى . ورجحه الطبري بأنهم المذكورون . ونفي العلم عن المشركين على حقيقته ، إذ لم يكن لهم كتاب ، وعن أهل الكتاب مجاز ؛ لتجاهلهم ، أو لعدم جريهم على مقتضى علمهم . وقوله : (لولا يكلمنا الله) أي هلا يكلمنا بأنك رسول له. وقوله (أو تأتينا آية) أي حجة على صدقك في دعوى الرسالة ، وهذا تعنت وجحود منهم لأنه قد أتتهم آيات بينات في الكتب القديمة التي كانت عندهم ، وفي هذا العهد أيضاً .

وقوله : (كذلك قال) أي مثل ذلك الكلام قال الذين من قبلهم ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، ونحو ذلك فهو مفعول به . وقوله : (مثل قولهم) مفعول مطلق لقال . أي قولاً كقولهم ونطقاً كنطقهم على طريق العناد والإستكبار . وقوله : (تشابهت قلوبهم) إستئناف لبيان أن قلوبهم كقلوبهم فهي عيون ماء الممات لا ينابيع مياه الحياة . وقوله : (قد بينا الآيات) أي نحن فرغنا عن أداء ما هو من سنتنا من تأييد الرسل بالآيات البينات والبراهين الساطعة ، لكنها لقوم يوقنون . ولما ورد على الرسول ـ صلى الله عليه وسم ـ ما ورد من أسئلة التعنت والإستكبار ثبّت الله تعالى قلبه

بقوله : (إنا أرسلناك بالحق) أي متلبساً بالكتاب الحق والدين الحق بشيراً للمستبشرين ، ونذيراً مهدداً للمستكبرين ، ولاتسئل أنت عن أصحاب الجحيم لم دخلوا النار الملتهبة ؟ لأنهم هم الذين قابلوا الرسل بالإستكبار فاستحقوا الخلود في عذاب النار ، أعاذنا الله الستار .

(وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ : إِنَّ هُدى اللهِ هُوَ الهُدى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذي جاءَكَ مِنَ الْعِلْم مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ)(١٢٠)

قوله تعالى : (ولن ترضى) إقناط منه تعالى لحبيبه في رجاء إيمان أهل الكتاب المردة المستكبرين العصاة القساة بأنهم لن يرْضوا عنك حتى تتبع أنت ، وأنت رسولنا بالحق ، ملتهم المنسوخة من الله المحرفة من أنفسهم ، فكيف تأمل في إتباعهم لك وإيمانهم بك ؟ فقل في إعلان كونهم على الضلال : إن هدى الله الذي يهتدي به الناجون هو الهدى المتبع لا غيره ، وهو الهوى المبتدع ، ولئن اتبعت أهواءهم الباطلة المبنية على الظنون والأوهام بعد الذي جاءك من العلم واليقين الواصل إليك من الله العلام مالك من الله تعالى من ولي يتولاك ، ولا نصير ينصرك .

(الَّذينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ اوُلئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ) (١٢١) نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا من الحبشة مع جعفر ابن أبي طالب . قوله : (الذين اتيناهم) الموصول مع صلته مبتدأ ، وجملة (يتلونه) حال من المفعولين ، وجملة (أولئك يؤمنون به) خبره .

يعني أن أهل الكتاب الذين آتيناهم الكتاب على لسان رسولهم ، وحالهم أنهم يتلونه حق تلاوته أي مع الإيمان به والعمل على مقتضاه أولئك الذين يؤمنون بذلك الكتاب أو بكتابكم المنزل من الله الوهاب ، ومن يكفر به أي يتلونه لاحق التلاوة بل على وجه الغش والخداع ولا يجاوز تراقيهم فأولئك هم الخاسرون في الأول والآخر وهم من أصحاب الجحيم .

ولما افتتح الباري قصة بني إسرائيل بتذكيرهم بالنعم التي أفاضها على السلف منهم لكونهم أهل الشرف ختمها بمثل ذلك لتذكير ما هناك . وقال :

(يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نِعمَتي الَّتي أنعَمتُ عَلَيكُم وأنّي فَضَّلتُكُم على العالَمينَ) (١٢٢) في عصر المطيعين المسالمين . ولما كان وجه التفضيل على ذلك الدليل فمن انحرف عن طريق الهدى وسلك مسلك أهل الهوى والردى فأولئك هم الذين يتيهون في تيه الهوان والخسران جزاء لما هم اختاروه من العناد والكفران .

وهذه السنة السنية هي سنة الله في الكون مع البرية فمن سلك مسلك الحق وآمن بالله ورسوله فقد فاز ، ومن انحرف عن ذلك فأولئك هم الخائبون .

(واتَّقوا يَوماً لاتَجزي نَفسٌ عَن نَفسٍ شَيئاً ، ولايُقبَلُ مِنها عَدلٌ ، ولاتَنفَعُها شَفاعَةٌ ولاهُم يُنصَرونَ)(١٢٣)

يعني : واخشوا يا بني إسرائيل أو يا أيها الناس عذاب يوم مهم مبهم الهوية من حيث شدّته وهوله وكفى في وصفه الرهيب أنه لاتجزي فيه

أيّةُ نفسٍ صالحة مؤمنةٍ عن نفس فاسدةٍ كافرةٍ شيئاً من النفع ، ولايقبل منها عدل وفداء لها ، ولا تنفعها شفاعة ورَجاء ، ولا هم يُنصرون من أي كبير أو أمير بمقدار كثير ولايسير ، والأمر يومئذ لله . فآمنوا بالله ورسوله حتى تدخلوا بابَ أمانِه وقبولِه ويفتح لكم أبواب الوصول بشفاعة الرسول . وهذا هو النيل من الحياة الإنسانية وذلك خير محصول .

ولما قصّ على حبيبه قصة بني إسرائيل وثبّت فؤادَه بآيات الوحي والتنزيل وهو أيضا من نسل إبراهيم الخليل ذكّر الكل بقصة إصطفائه إماماً للأنام ، وتشريفه بفتح باب التوحيد والإسلام . فقال :

(وَاِذِ ابْتَلى اِبْرَاهيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَاَتَمَّهُنَّ قال : إنّي جاعِلُكَ للنّاسِ إماماً ، قال : وَمِنْ ذُرِّيَّتي ، قال : لايَنالُ عَهْدِي الظّالِمينَ) (١٢٤)

في دائرة المعارف للعالم المصري (فريد وجدي) مانصه : هو رسول الله الجليل جدّ خاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد في بلدة (أور) من بلاد بابل قبل ميلاد عيسى عليه السلام بألفي عام ، وهو من الجيل الثامن من ذرية (سام ابن نوح) عليه السلام تزوج بسارة ثم بهاجر جارية سارة وَهَبَتْها له ، فَولَدت له إسماعيلَ عليه السلام ، وهو الذي هاجر إلى بلاد العرب ، وبَنَى مع أبيه إبراهيم الكعبةَ ثم رحل أبوه إلى الشام ، وبقي هو في بلاد العَرب ، فصاهَرَ بني جُرْهُمْ ، وَوُلِد له من إمرأته دَعْلة بنت مَضاض إثني عشر ذكراً وبنتاً واحدة .

وكان إبراهيم عليه السلام يُعاوِدُ ابنَه بالزيارة في مكة فأُمر في آخر زياراته ببناء البيت الحرام فبناه هُو وابنُه . ولما ارتفع جداره قام

إبراهيم على حجر ليلحق الحائط فذلك المحل يسمى مقامَ إبراهيم • ثم رَحَل إبراهيم إلى الشام وتوفي بها بعد أن عاش مائة وسبعاً وخمسين سنة كما في بعض الروايات •

هذا الرسول الكريمُ يعد في تأريخ الأديان عامّة من كبار أولي العزم فيعتبره اليهود كرأس شعبهم المختار ، ويَعـُدُه النصارى على قدر العلاقة الموجودة بين دينهم وتأريخ العبرانيين ، ويعتبره المسلمون جدّاً للعرب الذين منهم خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد نص الكتاب على أنّه أوّلُ من سَمّاهُمُ المسلمين • إنتهى

وقد كتب في بعض كتب تأريخ الشرق القديم أن سيدنا إبراهيم الخليل ولد في (كـُوثى) قرب بلدة (حلّة) الحالية ، وفي رواية ولد في (شرقات) وأخرى ولد في (شوش) قرية قربَ قضاء (عقرة) من أعمال المَوْصِل ، وذلك لأن أهل ذلك العصر كانوا غالباً يصطافون في بعض بقاع الشمال • ومن المشهور أن محل النار التي ألقوه عليه السلام فيها بين قضاء (رانية) وقضاء (قلعة دزه) وقيل :إن محلّها بلدة (أورفه) من كردستان تركيا والله أعلم •

والمراد بابتلائه تعالى لإبراهيم أنه نظر إليه نظر الرحمة حين تفكّر في آزر وقومه وملِكهم عاكفين على أصنام منحوتة لا حول ولا قوة لها ، يقدسونها ويرقصون حولها • وعلم أن تلك الشعارات شعارٌ بلا شعور ، ومنار بلا نور ، فتطور فكره إلى جهة العلو ، وتدرّج في مراتب إشعاع الكواكب الفلكية من الكوكب إلى القمر ، إلى الشمس البازغة ، فعَدَلَ عَن كلّها لأُفولِها ، وتَوَجَّه إلى فاطر السماوات والأرض الذي سخّر الكائنات بقدرته وجعلها مظاهر نور رحمته وإفاضة نعمته • وأكد على ربوبيته وإستحقاقه للعبادة وقال : إني وجّهتُ وجهي للذي فطَرَ

السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين •

ولما تنوّرت روحه وقلبه إنشرح صدره وظهر عنده مبدؤه وأمره •• واجه أباه وقومه والملك القائم بأمرهم بكلمات هي أشدّ وقعاً من السيوف الصوارم ، بل كان كل حرف منها سيفاً • فقال لأبيه آزر : (أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أريك وقومك في ضلال مبين) فوقع آزر في تنّور من النار من لهيب رفض معتقداته التي هي حياته ومماته ، ناره ونوره ، حزنه وسروره ، دينه ودنياه رشاياه وهواياه ، وفي حواجز من الغرائز إذ المعارض له إبنه وفلذة كبده ، وفي مقام الرأس من جسده ، وله أم وأفراد عائلة في قلب كل منها عنه خطر وغائلة ، وأخذ جانباً من الأمر منتظراً لعارضة تأتي بندم إبراهيم ويسر في فكره إذاً واجه قومه معه بأشد من ذلك فقال لهم : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين • قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون • قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين •

قالوا : سمعنا فتىً يذكرهم يقال له : إبراهيم • قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون • قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا

يا إبراهيم ؟ قال بَلْ فَعَلَه كبيرهم هذا فَاسْألوهم انْ كانوا يَنطقون فرَجَعُوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نُكِسوا على رُؤوسِهم ، لَقَدْ علمتَ ما هؤلاءِ يَنطِقون . قال : أَفتَعْبدونَ من دونِ الله مالايَنفعُكم شيئاً ولايَضرّكم ؟ أفٍّ لكم ولِما تَعْبُدونَ من دونِ اللهِ ! افلا تعقلون الآية ؟

هذه هي المناظرات والمشاجرات القولية ، والأحداث العمليّة التي وقعَت بينه وبين أبيه وقومه ، ثم اشتهر الأمر واستفحل الخطر ، وراجَعوا الملِك حولَ الموضوع ، واستقر الرأي على إحراقه بالنار ، وجَعْل ذرّاتِ جَسده كالغبار ليعتبر به أهل الديار ! فقالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فَاوْقَدُوا ناراً من حطب الشمال ، وكان لهيبها يَعْلوا عَلَى التلال ، ولم يقدروا انْ يقتربوا منها ، فجَعَلوهُ في (منجنيق) منصوب على مرتفع مشرف على وادي النار ، فرمَوْهُ به إليها وَالقَوهُ فيها حتى لايبقى الا قليل من الآثار ، فحفظه الحفيظ العليم ، حيث يقول : (قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم !)

وأرادوا به كيداً (أي إحراقاً بمكيدة إستعمال المنجنيق) فنجينا إبراهيم وجَعَلْناهم الأخسرين ، ولما نجا بحفظ مَنْ إليه يلجأ أمَر ملكُ الديار الآمرِ بإشعال النار بإحضار إبراهيم ، فَأحْضروه ، فخاطَبَه خطابَ العتو والعناد : من ربكَ الذي تدعو إليه العباد ؟ قال إبراهيم الرشيد الأمين معرضاً عن بيان شخص رب العالمين إلى ذكر أوصافه العظيمة عند أهل التثبيت : وقال : ربي الذي يحي ويميت أي يحي من أرادَ خلقه وبقاءه ويميت من اراد زوالَه وفناءه ، ومن جملتهم إبراهيم الماثل بين يديك الذي توكل عليه لا عَليك . قال نمرود الكافر مشيراً الى الحال الظاهر : انا احي مَن أردتُ بقاءه بإطلاق سراحه من السجون ، وامُيت

من أريدَ زواله بسجنه أو الأمر بقتله وبالقائه في غياهب المنون . فانتقل إبراهيم من غير عجزٍ عن تحوير قوله وبيان المراد من أصله فقال : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر ، وعلم الكل أن نمرود هو الذي خسر ، فرأى أنْ يُبْعِدَه من الديار . فأمرَ بتهجيره بدون أيّ إستقرار . كما قال سبحانه : (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) وهي الأردن والقدس وفلسطين .

وهذه هي الكلمات التي نبعت من رشد القلب ، وخالص الروح واللبّ ، وجرأة النفس والتوكل على ذات القدس ، واستمساك الأعصاب لتحويل الأمة إلى الصّواب . وبعد الخلاص من مهلكة الكلمات وما اختبره به رب الأرض والسماوات . قال له تعالى (إني جاعلك للناس إماماً) نبياً ورسولاً ومنزلٌ عليك كلاماً فاسْترشدْ بِهِ وَأرشِدِ الأنامَ ، وعلمهم العقائد والأحكام ، وَبعّدْهم عن أوساخ الأوثان وأوهام الأصنام . قال إبراهيم متعالياً عن اختصاص نفسه مترجياً بقاء الدين في ذريته لدوام قدسه . (ومن ذريتي) فأجابه رب العالمين بقوله : أما الصالحون السالمون فنعم ، وأما الظالمون فلا وحاشا وكلاّ فإن عهدي بالنبوة والرسالة لاينال أهل الضلالة ، فإني حرّمْتُ الظلم على نفسي وحرّمتُ عَهْدي على الظالمين .

فالكلمات هي تلك الكلمات التي نَبَعَت من عين الحياة وبَعّدَ النّاس عن الظلمات ، وأما الخصال الثلاثون التي عَشْرٌ منها في سورة براءة من قوله (التائبون العابدون) إلى آخر الآية . وعشر منها في سورة الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الآية وعشر منها في سورة المؤمنون : (قد افلح المؤمنون الذين هم في صلوتهم خاشعون) إلى قوله تعالى

أولئك هم الوارثون ، وعشر منها في سورة المعارج التي إذا جمعتها وتركت المكرر منها تبقى منها ثلاثون ، والخصال التي كانت فرضاً في شرعه وهي سُنّة في شرعنا ، وهي خمس في الرأس : السواك ، والمضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وفَرْقُ الرأسِ ، ـ أي فرق شعره ـ وخمس في البدن : الإستنجاء بالماء ، والختان ، وحَلْق العانة ، ونَتْف الإبط ، وتقليم الأظافر . ومناسك الحج من الاحرام ، والطّواف بالكعبة ، والسّعي بين الصفا والمروة ، ووقوف عرفات ، ورمي الجمرات . فكل ذلك كان بعد النبوة والرسالة وأخذ الإمامة وهي من الأحكام والآداب التي يقوم بها آحاد الأمة من الصالحين ، وليست نقاط الابتلاء للأنبياء والرسل من رب العالمين . نعم إن الإلقاء في النار ، ثم تهجيره من الديار ، وتغريب ولده الممتاز الى بلاد الحجاز ، والقيام بذبحه بلا تردد وانحياز ، حقاً من المهمات المهمات ، ولكنها كانت بعد إعطاء عهد الرسالة وبعد نيل شرف المقام والجلالة ، وتلك الأتعاب ، والإبتلاء بتلك الكلمات كانت من الأسباب لنيل ما نال ، والسبب مقدم على المسبب في كلّ حال . على أن التعب الذي له قيمة قائمة ماكان قبل شرب لذات الوحي والمناجاة وإلا فالأتعاب بعده ليس له قدر في جنب ما استفاد من أنوار الوحي والبركات .

(فائدة) غفل من نقد عصمة الأنبياء والرسل الكرام وبما طرأ على سيدنا إبراهيم عليه السلام من مقالاته عند رؤية الكوكب والقمر والشمس ؛ فإن تلك المقالات كانت سوانح فكرية وعوارض نفسية قبل إستقرار النفس على كرسي القدس ، فلم تكن عن إيمان وإذعان بل كانت من بنات الأفكار الواردة على قلب الإنسان ، ألا ترى أنه لما ترك الخيالات على الطول والعرض كيف إستقر رأيه وقال : إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات

والأرض ؟ فكن في نحو هذه الخيالات على البصيرة ، والله شهيد على كل سريرة .

قوله : (إني جاعلك) من الجعل بمعنى التصيير . وقوله : (للناس) اللام فيه للجنس أو للإستغراق العرفيّ . وقوله : (إماماً) بكسر الهمزة إسم مفرد بمعنى القدوة الذي يأتم به الناس ويقتدون به ، ويمشون على طريقه ، ومنه قيل لخيط البناء إمام . ويحتمل أنه كان في الأصل مصدراً كصراف بمعنى القصد فجعل اسماً لمن يقتدي به ؛ لأنه لما قصده الناس وراجعوه كثيراً صار كأنه القصد مبالغة ، فاستعمل بمعنى المقصود . والذرّية : نسل الرجل ، وأصلها الأولاد الصغار ، ثم عمّت الصّغار والكبار الواحد والمتعدد ، واشتقاقها إن كان من الذرّ المضاعف ، كما ورد في الخبر ، (ان الخلق كان كالذرّ) والياء للنسبة فوزنها فُعْلِيَّة بضم الفاء وسكون العين وكسر اللام وياء النسبة وتاء التأنيث كالحرّيّة . وإن لم تكن الياء لها فوزنها إما فُعّولَة بضم الفاء وتشديد العين ، وأصلها ذُرّورَة بذال معجمة وراء مهملة مشدّدة وواو ساكنة زائدة ثم راء ثالثة كذلك فقلبت الراء الأخيرة ياء على قانون القلب في المضاعف كما في تَقَضّيت . وأصله تَقَضّضْت كتعلّمت فاجتمعت الواو والياء فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسر ما قبلها للمناسبة . وأما فُعّيلَة بضم الفاء وكسر العين المشددة وأصله ذُرّيرَة بذال مضمومة وراء مشددة مكسورة وياء ساكنة زائدة وراء كذلك مفتوحة ، قلبت الراء الأخيرة ياء وأدغمت الياء في الياء فصار ذرّيّة بضم الذال وكسر الراء المشدّدة وفتح الياء كذلك .

وإن كانت من ذرأ بمعنى خلق بالهمز فوزنه إما فُعّولة بضم الفاء وتشديد العين المضمومة وأصلها ذرّوءة بذال وراء مشددة مضمومة ، وواو ساكنة زائدة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسرت الراء قبلها

للمناسبة فصارت ذُرِّيَّة . وأمّا فُعيلة بضم الفاء وكسر العين المشددة وأصلها ذُرِّيئَة فقلبت الهمزة ياء وأدغمت الياء في الياء فصارت ذرِّيَّة .

وإن كانت معتل اللام الواوي مِن ذَرَتِ الريحُ الشيءَ إذا أطارَتْهُ وَاَذْهَبَتْهُ فَأصْلُها ذُرُّووَة" بذال مضمومة وراء مشددة كذلك وواو ساكنة زائدة وأخرى أصلية على وزن فعّولة ، فاجتمعت واوان زائدة وأصلية فقلبت الأصلية ياء فاجتمعت واو وياء والسابقة منهما ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فصار ذُرِّيَّة . وقيل : فُعّيلة وأصلها ذُرِّيوَة" بضم الذال وكسر الراء المشددة وياء ساكنة وواو مفتوحة فَأعِلَّتْ كما مرّ .

وإن كانت من ذريت فوزنها إما فُعولَة وأصلها ذُرُّوية فَأعِلّت . أو فُعّيلَةَ فأصلها ذُرِّيية فأدغمت الياء في الياء . هذا .

وفي قوله تعالى : (لاينال عهدي الظالمين) دليل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكبائر قبل البعثة ؛ لأن معنى الآية الشريفة أنه لاينال عهد الإمامة بمعنى النبوة والرسالة مَن كان حال وصول العهد إليه ظالماً ، والظلم إذا أطلق ينصرف إلى الكبائر من الكفر وما دونها من سائر الذنوب الكبيرة .

(وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً لِلنّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ وَإِسماعيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائفينَ وَالعاكِفِينَ والركّعِ السُّجُودِ) (١٢٥)

قوله : وإذ جعلنا أي واذكر ياحبيبي . والجعل للتصيير فيتعدى إلى مفعولين ؛ أولهما البيت ، والثاني مثابة . وعطف عليها أمنا . والبيت صار

علماً بالغلبة للكعبة الشريفة ، كالمدينة لبلد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمثابة بمعنى المرجع أو محل الثواب وجزاء الأعمال ، أو دخلت الهاء على المثابة للمبالغة لكثرة الناس الذين يرجعون إليه أي يحجون مرة بعد أخرى • أو المرجع والمثابة بمعنى المقصد للدخول فيه •

وقوله : (أمنا) أي وموضع أمن لايتعرض لأهله مثل ما يتعرض لأهل سائر الأماكن ، أو موضع أمن من عذاب الآخرة وعقاب الذنوب لورود الأخبار الكثيرة في حق الحجاج المخلصين لله تعالى بمغفرة الذنوب والأمان من العذاب •

واستدل به أبو حنيفة على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه وغيره على خلاف ذلك • وإن ذلك من المنسوخ لأن الإتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ويقتل خارجه • وإنما الخلاف في أنه هل يقتل في الحرم أم لا • والحرم لايقع عليه اسم البيت •

وقوله تعالى : (واتخذوا من مقام إبراهيم) قرأه جمهور القراء بصيغة الأمر من باب الإفتعال ، والجملة معطوفة على قوله وإذ جعلنا بتقدير القول أي وقلنا لهم : إتخذوا آه ، والمقام في اللغة موضع القدمين • والأصح أنه الحجر الذي كان الناس الحجاج يصلون عنده ركعتي طواف القدوم • وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رأى البيت إستلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ : (واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلى) فصلى ركعتين قرأ فيهما بقل هو الله أحد ، وقل يا ايها الكافرون •

وفي البخاري أنه الحجر الذي إرتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناولها إياه في بناء البيت ، وغرقت قدماه

فيه قال أنس : رأيت في المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه • غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم •

وفي فتح الباري : أنه كان المقام أي الحجر من عهد إبراهيم عليه السلام لزيق البيت إلى أن أخّره عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ إلى المكان الذي هو فيه الآن • أخرجه عبدالرزاق بسند قوي ، وأخرج إبن مردويه بسند ضعيف عن مجاهد : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي حَوَّلَهُ أي إلى الموضع الذي بقي فيه ، وهو بعيد من الحجر الأسود بسبعة وعشرين ذراعاً • وعلمنا أن أمير دولة السعود حوله من موضعه القديم إلى أبعد منه ، وذلك لتسهيل طواف الحجاج بالبيت عند الإزدحام •

وروي أن سيدنا إبراهيم لما أذن في الناس بالحج قام على ذلك الحجر ودعاهم إليه ، والمشهور أن دعوة الناس إليه كانت فوق جبل أبي قبيس فإنه صعده بعد الفراغ من عمارة البيت ، ونادى أيها الناس حجوا بيت ربكم ، فإذا صحت الرواية مع ذلك المشهور فالجمع هو أنه عليه السلام أذّنَ في الناس بالحج مرتين : مرة قام على الحجر ودعاهم إليه ، ومرة أخرى صَعِد الجبل وأذّن فيهم بالحج •

والذي أعتقده أن دعاء الناس إليه كان على ذلك الحجر عند البيت ، وبما أن الدعوة كانت حسب أمره تعالى بها تلقاها كل روح قدر لصاحبها حج البيت الشريف • وإذا ثبت الصعود على جبل أبي قبيس وكان الدعوة عليه فلا كلام لأحد ، إذ لا اجتهادَ مع النصّ • والله اعلم

وسبب النزول ما أخرجه أبو نعيم من حديث عمر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ بيد عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال : يا عمر هذا مقام إبراهيم • فقال عمر : أفلا تتخذه مصلى ؟ فقال : لم أومر بذلك •

فلم تغب الشمس حتى نزلت هذه الآية . والأمر فيها للإستحباب إذ المتبادر من المصلى موضع الصلاة مطلقاً . وقيل : المراد به الأمر بركعتي الطواف لحديث مسلم السابق .

وقوله تعالى : (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) أي أمرناهما بأن طهّرا . وأمره إبراهيم كان بالوحي وكذلك إسماعيل ، إذا كان عند بناء البيت رسولاً ، وإلا فعلى لسان أبيه إبراهيم عليهما السلام . والمراد بالنسبة إليهما تطهيره وما حوله من الأنجاس والأوساخ وكل مستقذر لا يناسب المعابد . ودخل في هذا الحكم جميع بيوته ، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة وتخصيصه بالذكر لإنحصاره في الفرد إذ ذاك بالنسبة إلى الحجاز . ويدخل في متعلق التطهير الأصنام والأوثان وصورها وآثارها ؛ لأنها من الأنجاس المعنوية التي يجب تطهير المعابد منها .

وقوله : (للطائفين والعاكفين) قالوا : المراد بالطائفين الغرباء الواردون على البيت ، وبالعاكفين المتوطنون . والظاهر أن المراد المعتكفون ، وأن الطائف قد يكون غريبا وقد يكون متوطناً ، وكذا المعتكف . فبينهما عموم من وجه . فقد يكون المسلم طائفاً وعاكفاً أي معتكفاً ، وقد يكون طائفاً لا معتكفاً ، وقد يكون معتكفاً لا طائفاً . وكل منهما مطلق يحتمل أن يكون مسافراً أو مقيماً وغريبا أو متوطناً . وإن المراد بالركع السجود همُ المصلّون الذين يؤدون صلواتهم بكمال الأركان والشروط . وخصّ الركوع والسجود بالذكر ، لأن آثار الصلاة وهيأتها الخشوعية وهيبتها التعبدية تظهر فيهما أو للإحتراز عن صلاة اليهود الخالية عن الركوع والسجود .

واستدل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي ـ رضي الله

عنه ـ : إن صلى في جوفها مستقبلاً حائطاً من حيطانها فصلاته جائزة ، وان صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة إلا إذا إرتفعت عتبته نحو ثلثي ذراع .

واختلفوا أيّهما أفضل : الصّلاة عند البيت ؟ أو الطواف حوله ؟ والجمهور على أن الصلاة أفضل . وقال مالك : الطّواف لأهل الأمصار أفضل والصلاة لأهل مكة أفضل . عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لولا فيكم رِجال" خُشّع ، وبهائم رُتّع" ، وصِبيان رُضع ، لصب العذاب على المذنبين صبّاً . وفي حديث آخر (وشيوخ ركّع) وفي حديث أبي ذر : الصلاة خير" موضوع" فاستكثر أو استقِل" . خرّجه الآجري .

(وَإذْ قَالَ إبْراهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنهُمْ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ، قالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُم اَضْطَرُّهُ إلى عَذابِ النَّارِ وَبِئسَ المَصيرُ) (١٢٦)

قوله : (وإذ قال إبراهيم) في صحيح مسلم عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلمَ قال : إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة . وإني دعوت في صاعها ومدّها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة : إن هذا البلد حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد

قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعْضَدُ شوكُه ، ولا يُنفَّرُ صيدُه ، ولا تُلْتَقَطُ لقطته إلا من عَرَّفها ، ولا يختلى خلاها ، (أي لايقطع نباتها الرطب الرقيق ما دام رطباً) فقال العباس : إلاَّ الإزخر فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتهم . فقال : إلا الإزخر . أخرجه مسلم الإزخر بكسر الهمزة وفتح الخاء . والقين : الحداد يعني يحرقه الحداد لتحمية الحديد . وقوله لبيوتهم أي لتسقيف بيوتهم عند البناء .

دعا سيدنا إبراهيم ربه فقال : رب اجعل هذا المحل الذي أمرتني ببناء البيت فيه ودعوة الناس إلى زيارته بلداً معموراً بأهل العلم والعمل الصالح معموراً بكرمك ذا أمن وأمان ، ومحفوظاً من أهل العناد والعدوان ، ومغفور الذنب والعصيان وارزق أهله مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر من كل ما يستثمر من المزارع والبساتين ومكاسب المكتسبين ، من : الأقوات ، والفواكه ، والأقمشة ، والنقود ، مما يحتاجونه في المعاش ، ويتقوَّون به على صلاح المعاد . فخصَّ الخليل عليه السلام دعاءه ونداءه للمؤمنين تأدباً مع قوله تعالى لاينال عهدي الظالمين ، ولكن الله تعالى لوفور نعمته المبسوطة لعباده إستدرك عليه قال : ومن كفر منهم فأُمَتِّعه متاعاً قليلاً بالنسبة إلى ما أُمتع به مؤمنينَ في الآخرة ، ثم اَضطَرُّهُ وأَلْجِؤُه إلى عذاب النار بحيث لا يبقى له مَفَرٌ منها لأنه في خدمة هواه باعَ آخرته بدنياه ، وبئس المصير عذابها ! والعياذ بالله تعالى .

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

لكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١٢٩)

قوله تعالى : (وإذ يرفع) عطف على جملة (وإذ قال إبراهيم) وإذ ظرف غير متصرف مدلوله الزمان الماضي ، فذكر المضارع معه إستحضار لهذا الشأن ليقتدي به المسلمون والقواعد : جمع قاعدة وهي الأساس . والمراد برفعها رفع الجدار . عليها ، ففي ربط الرفع بها مجاز .

ذكر الباري هنا رفع القواعد من إبراهيم وإسماعيل وذكر في سورة الحج أنه أراه موضعه فقال : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكانَ البيت) أي عيّنا له محله وعرفناه به ، قيل : دَلَّهُ عليه بمزنة كان ظلها قدر مساحته . وقيل : دلّه عليه بريح تسمى الخجوج كنست عنه حتى ظهر أسه القديم فبنى عليه إبراهيم وإسماعيل .

وقوله : (وأرنا مناسكنا) أي متعبّداتنا في الحج أو مذابحنا . والنسك في الأصل غاية العبادة . وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة . وعن زهير بن محمد قال لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام قال : أي ربّ قد فرغتُ فأرِنا مناسكنا فبعث الله تعالى إليه جبريل فحجّ به حتى إذا رجع من عرفة وجاء يوم النحر عرض له إبليس فقال له إحْصِبْه فحصبه بسبع حصيات ، ثم الغد ، ثم اليوم الثالث ، ثم علا ثبيراً فقال : يا عباد الله أجيبوا . فسمع دعوته مَن في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقال لبّيك أللهم لبّيك .

وعن مجاهد : لما قال إبراهيم عليه السلام : وأرِنا مناسكنا أي الصّفا والمروة وهما من شعائر الله بنص القرآن ، ثم خرج به جبريل فلما مرّ بجمرة العقبة إذا إبليس عليها فقال له جبريل : كَبِّرْ وارْمِهِ ، ثم في الجمرة القُصْوى كذلك ، ثم إنطلق به إلى المشعر الحرام ، ثم أتى به عرفة . فقال له : هل عرفت ما أرَيْتك ؟ قال : نعم فسميت عَرَفاتٍ لذلك . قال : فأذن في الناس بالحج . قال : كيف اقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس أجيبوا ربَّكم ثلاث مرات ففعل . فقالوا : لبيك أللهم لبيك . قال : فمن أجاب يومئذ فهو حاجّ .

وقال محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه من بناء البيت الحرام جاء جبريل عليه السلام فقال له : طُفْ به سَبعاً . فطاف به سبعاً هو وإسماعيل عليهما السلام يستلمان الأركان كلها في كل طواف فلما أكملا سبعاًصليا خلف المقام ركعتين . قال : فقام جبريل فأراه المناسك كلها الصفا والمروة ومنى والمزدلفة . قال : فلما دخل مِنى وهبط من العقبة تمثل له إبليس ، فأمره جبريل برميه بسبع حصيات إلى آخر ما تقدم . والله أعلم .

وقوله تعالى : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) لم يبين هنا مَنْ هذه الأمةُ التي أجاب الله دعاء نبيه إبراهيم وإسماعيل ، ولا هذا الرسول الذي يبعث فيهم ، ولكن بَين في سورة الجمعة أن تلك الأمة العرب ، والرسول هو سيد الرسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وذلك في قوله : (هو الذي بعث في الأميين رَسُولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) لأن الأمِّيّين العرب بالإجماع . ولم يبعث رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده . وقد

روى خالد بنُ مَعْدان اَنّ نفراً من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له : يا رسول الله أخبِرْنا عن نفسك . فقال : نعم أنا دَعْوةُ أبي إبراهيم ، وبُشرى عيسى . وقد أرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العالمين بنصوص الكتاب والسنة و المبعوث رحمة للعالمين مبعوث إلى العرب والعجم رحمة وإحسانا .

وقوله : (ويعلمهم الكتاب والحكمة) الكتاب هو القرآن . والحكمة المعرفة بالدين . وقال قتادة : الحكمة السنة وبيان الشرائع . وقوله : (ويزكيهم) أي يطهرهم من وسخ الشرك والضلال وسوء الخصال . وقوله : (إنك أنت العزيز) أي الذي يقهر ويغلب على ما يريد . وقوله (الحكيم) وهو الذي لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو عزيز حكيم بذاته وكل من سواه ذليل جاهل في نفسه ، فلا عزة إلا منه تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) ولا علم إلا من تعليمه سبحانك لا علم لنا إلا علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : (والحكمة عبارة عن معرفة أجلّ الأشياء بأجل العلوم . واَجَلّ الأشياء هو الله تعالى . ولا يعرف كنه معرفته غيره فهو الحكيم المطلق ؛ لأنه يعلم أجلّ الأشياء بأجل العلوم . إذ أجلّ العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله . والمطابق للمعلوم مطابقة لايتطرق إليها خفاء وشبهة ، ولا يتصف بذلك إلا علم الله تعالى . وقد يقال : الحكيم لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها .

وكمال ذلك أيضاً ليس إلا لله تعالى فهو الحكيم المطلق . ومن عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسم حكيماً ؛ لأنه لم يعرف أجلّ الأشياء وأفضلها . والحكمةُ أجَلُ العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ، ولا أجلّ من الله . ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان

ضعيف المنة في سائر العلوم الرسمية كليل اللسان قاصر البيان فيها إلا أنّ نسبة حكمة العبد إلى حكمة الله تعالى كنسبة معرفته إلى معرفته بذاته وشتان بين المعرفتين فشتان ما بين الحكمتين • ولكنه مع بعده عنه فهو أنفَسُ المعارِف وأكثرها خيراً •(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب) • نعم من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره • فإنه قلّما يتعرض للجزئيات بل يكون كلامه جملياً ، ولايتعرض لمصالح العاجلة بل يتعرض لما ينفع في العاقبة •

ولما كانت الكلمات الكلية أظهر عند الناس من أحوال الحكيم من معرفته بالله تعالى ربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية • ويقال للناطق بها حكيم ، وذلك مثل قول سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام : (رأس الحكمة مخافة الله ، الكَيِّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز مَنْ اتَّبَعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله الأماني ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى ، السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْره ، القناعةُ مالٌ لايَنْفَدُ الصبر نصف الإيمان ، اليقين الإيمان كله •••) فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً انتهى كلامه •

ثم إن في الآية إشارة إلى أن إرسال الرسل حكمة أي مصلحة وعاقبة حميدة ، لأن عمارة الظاهر وإنارة الباطن بهم لا بغيرهم • ولورثتهم من العلماء العاملين والأولياء الكاملين حظ أوفى وأعلى في باب تزكية النفوس عن الرذائل وتحليها بالفضائل • وهم الذين تزين ظاهرهم باتباع الكتاب والسنة السنية وتنور باطنهم بأنوار أخلاق صاحب الشريعة المصطفوية • وهم المؤمنون المتّقون • وهم الاصحاب الصادقون ، وهم المعنيون بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وهم الذين يتنور اللاحقون بصحبتهم ، ، فينالون درجة السابقين •

والحكمة في عرف العلماء : علم بأحوال الحقائق الموجودة بقدر الطاقة البشرية فإن كانت تلك الحقائق أعمالاً في وجودها مدخل لاختيارنا فالعلم بها تسمى الحكمة العملية ، وإلا فالحكمة نظرية . وتنقسم الأولى إلى علم تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن . والثانية إلى الحكمة الإلهية والرياضية والطبيعية ولكل منها أصناف .

وتطلق الحكمة في عرف أهل الدين بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً وعملاً وهذه هي المقصودة بقوله تعالى : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) اللهم اجعلنا منهم واحشرنا في زمرتهم بمنك وفضلك يا أرحم الراحمين .

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وإنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ قالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِها إبْراهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يابَنِيَّ إنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)(١٣٢)

قوله تعالى : (وَمَن يرغب) آه جملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة والإستفهام إنكاري واستبعاد لأن يكون أحد من العقلاء يرغب عن ملة إبراهيم ودينه والتوحيد الذي نشره في العالم .

وقوله إلا من سفه نفسه أي إلاّ مَن اَذَلَّ نفسه وحقَرها واستخف بها لأن العاقل العزيز النفس يغتنم فرصة الدنيا في الحصول على أسباب السعادة ، فإذا اوجدها إهتمّ بها .

وقوله : (ولقد اصطفيناه) بيان وحجة لما تقدم • ومعناه إنا إخترناه للرسالة ودعوة الناس إلى الهدى ومنعهم عن الضّلالة وأمرناه ببناء بيت عزيز الجانب عالي المراتب والأذان بالناس ليحجّوه من الأطراف والأكناف ، وجعلناه إماماً لذريته ولسائر البرية في ملة التوحيد السنية في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين لنيل المراتب العالية ، أو من المشهود لهم بالفوز والصّلاح • فكيف يعرض العاقل عن إتباع ملّة التوحيدية ؟

وقوله (إذ قال له ربه اَسْلِم) ظرف لقوله إصطفيناه أي اصطفيناه للرسالة والإمامة عندما قلنا له اَسْلِم وَجهَك لله وحدَه فبادَرَ إلى الاِذعان بقلب أمين وقال : أسلمتُ لرب العالمين •

وقوله تعالى :

(وَوَصّى بها إبْراهيمُ بَنيه وَيَعْقوبُ)

أي وصّى إبراهيم عليه السلام بملته التوحيد أو بجملة (أسلمت لرب العالمين) وصية بليغة أكيدة وكررها مرات كثيرة وبمناسبات عديدة • بنيه الأربعة : إسماعيل ، وإسحاق ومدين ، ومدان ، وإبن إبنه يعقوب إبن إسحاق ودخل في البنين لأن إبن الإبن ابن" عرفاً • وأكبر أولاده إسماعيل وأمه هاجر القبطية ، وولد قبل أخيه إسحاق بمدة قيل أربع عشرة سنة ، وقيل دون ذلك • ونقله أبوه مع أمه هاجر إلى مكة وهو رضيع ، وهو الذبيح المُفَدّى من الله تعالى ، ومات في مكة وله مائة وتسع وثلاثون سنة •

ثم إسحاق وأمه سارة وعاش مائة وثمانين سنة • ومات بالأرض المقدسة ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام •

ثم لما توفيت سارة تزوج إبراهيم عليه السلام (قنطورا) بنت (يقطن) الكنعانية فولدت له مدين ومدان وأولاداً آخرين •

وقرىء يعقوب بالنصب على أنه كان موجوداً بين الأولاد عندما وصاهم الخليل عليه السلام وقرىء بالرفع عطفاً على إبراهيم أي وصى يعقوب أيضاً بنيه بالملة الحنيفية الإبراهيمية • روي أنه لما دخل مصر ورأى الناس يعبدون الأصنام خاف على أولاده من الإنحراف فوصاهم بالتوحيد على التوكيد •

وقوله (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين) أي دين التوحيد هو دين الحق واختاره تعالى لكم فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون عاكفون على التوحيد فتحيون موحّدين وتموتون مسلمين •

(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَاكَسَبَتْ وَلَكُمْ مَاكَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١٣٤)

قوله تعالى : (أم كنتم شهداء) كلمة أم إما متصلة وعديل المذكور محذوف • والتقدير : أكنتم غائبين أم كنتم حاضرين عند إحتضار يعقوب عليه السلام إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي فيحثهم على التوحيد والتزام ملة إبراهيم ؟ وليس الإستفهام على حقيقته بل هو للإلتزام والتبكيت • والمعنى أنتم سواء كنتم غائبين أو حاضرين فقد رغب يعقوب في التوحيد الذي هو ملة إبراهيم وقَدْ بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتقريره فلم لاتقتدون بجدّكم ولم لاتهتدون بخاتم النبيين ؟ وإما منقطعة بمعنى بل للإضراب وهمزة الإنكار ومعناها الإضراب عن الكلام الأول وهو بيان

توصية أجدادكم على التوحيد إلى توبيخ اليهود على إدعائهم اليهودية على يعقوب مع أنه كان ساعياً في نشر التوحيد الذي هو ملة إبراهيم حتى حين احتضاره .

وقوله : (إذ قال لبنيه) بدل من إذ حضر وأراد عليه السلام بذلك تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على ذلك فسألهم ماذا الذي تعبدونه من بعد موتي ؟ فأجابوا بأنا ثابتون على ما كنا عليه من التوحيد ونعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام المتفقين على توحيد الباري تعالى في وجوب الوجود والخالقية والمعبودية إلهاً واحداً لا تعدد له في ذاته ولا شريك له في صفاته وأفعاله ونحن له مسلمون وعد إسماعيل من الآباء تغليباً للأكثر على الأقل أو لأنّه كالأب لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمّ الرجل صِنْوِ أبيه .

وقوله تعالى : (تلك أمة قد خلت) الإشارة إلى إبراهيم وأولاده عليهم السلام . والأمة في الأصل المقصود أتت بمعانٍ منها الجَماعة . والمعنى : إن إنتسابكم إليهم لا يوجب إنتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم في أعمالهم كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون . فكونوا بسبيل من ذلك فانظروا أن لايلقاني الناس يحملون الأعمال وتلقوني بالدنيا فأَصُدّ عنكم بوجهي . وهذا جارٍ على طريق العدل الذي يجب للإنسان المسلم الإعتماد عليه . وانتفاع الإنسان بأعمال غيره جارٍ على طريق الفضل وعليه شفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسائر الأنبياء والمرسلين والناس الصالحين للأمة أو لذوي القرابة والصداقة لهم . ورعاية العدل أحق بأهل التكليف وإن كان الفضل ثابتاً للتشريف . وقوله (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) أي لا تؤاخذون بسيآتهم كما لا تنتفعون بحسناتهم عدلاً ، وإن جاز بل ثبت

ذلك فضلاً لقوله تعالى (والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين) الآية الحادية والعشرون من سورة الطور •

وكما ثبت في الصحاح من حج الإنسان وصيامه عن المتوفين من الآباء والأمهات وتقرر إنتفاع الموتى بما يعمل وراءهم من الخيرات والصدقات ومن أداء الديون ومن إستغفار الأنبياء للوالدين وسائر المسلمين والمسلمات النازلة في الآيات (وَقَالُوا : كُونُوا هُوداً أوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ : بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَماكانَ مِن المُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا : آمَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ إلَيْنَا وَما أُنْزِلَ إلى إبْراهِيمَ وإسماعيلَ وإسْحاقَ وَيَعْقوبَ وَالأَسباطِ وَما أُوتِيَ موسى وعيسى ، وما أُوتِيَ النَبيُّونَ مِنْ ربِّهِمْ لانُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحنُ لَهُ مُسْلِمونَ (١٣٦) فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّما هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّميعُ العَليمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ونَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (١٣٨)

قوله تعالى : (وقالوا كونوا هود) الآية الضمير راجع لأهل الكتاب ، والجملة معطوفة على ما قبلها عطفَ القصة على القصة • يعني وقالت اليهود للمسلمين : كونوا هودا تهتدوا • وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا • وقل يا حبيبي في رد ما قالوا : بل أنتم إتبعوا ملة إبراهيم جدّكم الأعلى من دينه توحيد الله تبارك وتعالى حالكونه حنيفاً مائلاً عن الباطل إلى الحق ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام ، وهو ما كان في

زمان من الأزمان من المشركين ، ولم يكن على نحو ما كنتم عليه من الإشراك والضلال .

وقوله : (قولوا) الآية خطاب للمؤمنين أي قولوا لأهل الكتاب مقررين لهم طريق الصواب : آمنا بالله وحده لاشريك له ، وما أنزل إلينا من القرآن الكريم ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من الصّحف السّماوية وهي وإن نزلت على سيدنا ابراهيم لكن لما كان من عطف عليه متعبدين بها صح القول بنزولها إليهم أيضاً لاسيما إذا كان من جملة آياتها تعميمُها حكمها لأولاده وعقبه وما أوتي موسى من التوراة ، وعيسى من الأنجيل . وخصا بالذكر لكون كتابهما متأخراً عن صحف إبراهيم بقرون وأحكامها مختلفة مع أحكامها في شؤون ، لاسيما لما مدت إليهما أيدي التحريف توهم أن لا عبرة بهما مع أن الأصل أصل وإن كان الفرع فصلا ، ولما لم يصرح ببعض الرسل وما أوتي من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ، وقد قال تعالى : (وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير) . وقال تعالى : (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص) ولم يذكر هنا داود عليه السلام مع أنه تعالى قال : (وآتينا داود زبورا) والحال أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل سواء المذكورون في القرآن الكريم وغيرهم . وقال تعالى : (كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) زاد الله تعالى عطفاً على من سبق (وما أوتي النبيّيون من ربّهم) من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ، (لا نفرق بين احد منهم) في الرسالة وإن كان فرق مابينهم في الفضل والجلالة كعموم الدعوة وخلود دينه أو كثرة نصَبه وتعبه في سبيل الإرشاد ، ونحن له مسلمون مخلصون منقادون مطيعون في وصاياهم وسجاياهم والأسباط جمع سبط كأحمال وحِمل . وهم أولاد يعقوب عليهم السلام ، مأخوذ من السبط وهو شجرة كثيرة الأغصان فكأنهم سموا بذلك لكثرتهم وقيل للحسنين : سبطا

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإنتشار ذريتهم • ثم قيل لكل ابن بنت سبط ، وكذا قيل له حفيد أيضاً •

(فائدة) المشهور عند أرباب العربية أن لفظ (أحد) المستعمل في النفي العام مطلقاً أو مع كل في الإثبات همزته أصلية بخلاف ما أستعمل في الإثبات بدون كل ، فإن همزته منقلبة عن الواو • وقال العلامة التفتازاني إن أحداً فيمعنى الجماعة بحسب الوضع لأنه إسم لمن يصلح أن يخاطب يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع • ويشترط أن يكون إستعماله مع كلمة كُل" أو مع النفي نص على ذلك أبو علي وغيره من أئمة العربية • وهذا غير (أحد) الذي هو أول العدد في قوله تعالى : (قل هو الله أحد) (أي فهو بمعنى الواحد وأصله الواو) وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي على ما سبق إلى كثير من الأوهام • ألا ترى أنه لا يستقيم (لا نفرق بين رسول من الرسل) إلا بتقدير العطف أي رسول ورسول ولستن كأحد من النساء ليس في معنى كإمرأة منهن إنتهى • أي بل في معنى أي" واحد وأي" جماعة منهن" • أي أنتن بمنزلة وهن بمنزلة أخرى إحتراماً واحتشاماً لأن بيت الرسالة ينبوع الأصالة فوجبت رعاية الإحتشام فيه أكثر من غيره •

وفي روح المعاني إعتراضاً على قوله : ألا ترى أنه لايستقيم لا نفرق بين رسول من الرسل الخ ما نصّه دعوى عدم الإستقامة إلا بذلك التقدير غير مجمع عليه • فقد ذكر في الإنتصاف أن النكرة الواقعة في سياق النفي تفيد العموم لفظاً عموماً شمولياً حتى ينزل المفرد فيها منزلة الجمع في تناوله الآحاد مُطابَقَة ، لا كما ظنه بعض الأصوليين من أن" مدلولها بطريق المطابقة في النفي كمدلولها في الإثبات • وجعل هذا التعدد والعموم وضعاً هو المسوغ لدخول بين عليها هنا • إنتهى

وقال بعض المحققين : لفظ (أحد) أصله وحَدْ بمعنى واحد وحيث وقع في سياق النفي عمّ واستوى فيه الواحد والكثير ، وصحّ إرادة كل منهما وقد أريد به هنا أي في قوله تعالى : (لا نفرّق بينَ أحَدٍ منهم) الجماعة ولذا صح أن يضاف إليه (بين) ويفيد عموم الجماعات إنتهى •

وقوله تعالى : (فإن آمنوا بمثل) البـاء زائدة للتوكيد ، أي فـإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم بالله تعالى وحده وتصديقاً خالصاً خالياً عن النفاق والشقاق والغلو والإفراط والتفريط ، فقد اهتـدوا طريـق الحـق والصراط المستقيم • وإن تولوا عن هذا الإيمان والإذعان ، فإنما هم فـي شقاق ومخالفة وعـداء وعناد ، ولا تهتم بهـم وبمخالفتهم فسيكفيكهم الله أي فَسَيَكفي اللهُ رَسولَهُ اعْداءه ويحفظه عن عدائهم وهو السميع لقول كل قائل العليم بما ينفذه في عباده في جزاء أعمالهم • وقوله : (صبغة الله) منصـوب على أنـه بدل مـن ملة إبراهيم أو على الإغراء أي ألزموا صبغة الله ، أي دينه وكتابه ، فهو الحق بجعله ميزة للإنسان المشرف بنور الإسلام تميزه عن الإنسان المصبوغ بصبغة الأوهام والآثـام ، أي مثـل تصبغ اليهود أبناءَهم يهوداً ، والنصارى تصبغ أبناءهم نصارى ، وإن صبغة الله الإسلام • وروي عن مجاهد والحسن وأبي العاليـة وقتادة الصـبغة : الدين • وأصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهـو الذي يسمونه المعمورية ويقولون : هذا تطهير لهم • وسرّه عندهم أنـه الماء الذي غسل به سيدنا عيسى طفلاً ، ويجعلون هـذا الغسـل مكـان الختان • فرد الإسلام على ذلك كله واعتبره من الأوهام ، وجعل الشـعار الشريف للمسلمين وأولادهم الإسلام ونزلَ القرآنُ بقوله تعالى صـبغة الله ومَن أحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون •

وقيل معنى قوله تعالى (صبغة الله) غُسْلَ الله أي ألزموا غسلاً قرره الله لكم عند دخولكم في الإسلام وفرضه عليكم للتعبير عن تنظيف

قلوبكم وقوالبكم من أوساخ الكفر والضلال . وبهذا المعنى جاءت السنة الثابتة في قيس بن عاصم وثمامة بن أثال حين أسلما . روى أبو حاتم البستي في صحيح مسنده عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن ثمامة الحنفي أسِرَ فمرّ به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً فأسلم ، فبعث به إلى حائط أي بستان من النخل كان لأبي طلحة فأمَرَهُ أن يغتسل فاغتسل ، وصلى ركعتين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَسُنَ إسلامُ صاحِبِكم . وخرّج أيضاً عن قيس بن عاصم أنه أسلم فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يغتسل بماء وسدرٍ ذكره النسائي وصححه أبو محمد عبدالحق .

(قُلْ : أَتُحاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ : إنَّ إبْرَاهِيمَ ، وإسْماعِيلَ ، وإسحاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ : أأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ؟ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ) (١٤١)

قوله تعالى : (قل أتحاجوننا) أي أتجادلوننا في شأن ربنا واصطفائه نبياً من العرب دونكم والله أعلم حيث يجعل رسالته روي أن أهل الكتاب قالوا الأنبياء كلهم منّا فلو كنت نبياً لكنتَ مِنّا فنزلت والمعنى : أن إرسال الرسول إن كان من إحسان الربوبية فهو ربنا كما أنه ربكم وإن كان من المواظبة على الأعمال فنحن مواظبون عليها مثلكم علاوة على ذلك إنا مخلصون في الطاعة لسنا كهيئتكم إذا جاء ما يسركم تطيعون وإلا ترفضون. فنحن أحق بإرسال الرسول منكم .

وقوله : (أم تقولون) كلمة أم منقطعة بمعنى بل للإضراب والهمزة للإنكار يعني بل أيقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أي على دين يهود مع أن كتابهم وهو التوراة لم ينزل إلا بعد إرسال موسى ، أو كانوا نصارى أي على دين النصارى مع أن كتابهم وهو الإنجيل تأخّر عن وفاتهم بقرون • قل لهم أأنتم أعلم بحال أولئك الرسل السابقين أم الله تعالى ؟ والله يعلم إنهم لم يكونوا على ما تنسبونهم إليه بل عندكم العلم ببراءتهم من ذلك ، وكان الواجب عليكم الشّهادة بأنّهم كانوا حنفاء على ملة التوحيد فلم تكتمونها ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من علم واصل إليهم من الله لا شك في مطابقة الواقع فإذا كتمتموه فاعلَموا أن الله عليم وَمَا الله بِغافِلٍ عما تعملون وَستَرَوْنَ جزاء العلم والكتم •

وقوله تعالى : (تلك أمة) الآية كررت للمبالغة في الزجر عما هم عليه من العناد والإستكبار والإعتماد على شرف الآباء والإغترار بذلك وعدم الإهتمام بمغبة العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة ، ووعيد لهم على ذلك بأن الله يجزيهم على ما هم عليه وإنهم يرجعون إليه للميزان والحساب وهذا الداء العضال هو الذي ابتلى به كثير من الناس الذين ينتسبون إلى آباء أشراف فضلاء أتقياء علماء حيث إعتبروا إنتسابهم إليهم كل شيء واغترّوا بذلك وتكاسلوا عن أداء ما في ذمتهم من الإقتداء بهم بل بمن اقتدوا به أعني الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يصلوا إلى ما وصلوا إليه ويحصلوا على ما حصلوا عليه ، بل تَعَدّوا عن ذلك واعتبروا أن ذلك الإنتساب رفع عنهم أنصابَ الحساب ونسأل الله أن يحفظنا عما يوجب سوء القضاء ويوفقنا لما يحب ويرضى ، إنه سميع قريب مجيب •

الجزء الثاني

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : ما وَلَّيهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتي كانُوا عَلَيْها ؟ قُلْ : لِلّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ ، وإنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوف رَحِيمٌ) (١٤٣)

قوله تعالى : (سيقول السفهاء) قال العلماء : هذه الآية مؤخرة في النزول عن قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء) وعند ذلك حوّل الله التوجه من بيت المقدس إلى الكعبة فقالت اليهود الخفاف العقول ما قالوا .

وقال القرطبي : أعلم الله تعالى أنهم سيقولون عند تحويل المؤمنين من الشام (يريد بيت المقدس) إلى الكعبة : ما ولاّهم ؟ وسيقول بمعنى قال جَعَلَ المستقبلَ موضع الماضي دلالة على إستدامة ذلك وإنهم يستمرّون على ذلك القول . والمراد من السفهاء جميع من قال ما ولاّهم ، سواء

كانوا من اليهود أو من غيرهم ، والسّفهاء جمع سفيه بمعنى خفيف العقل •

وفي فتح الباري شرح صحيح البخاري : إن العلماء إختلفوا في الجهة التي كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتوجه إليها في الصلاة وهو بمكة • فقال ابن عباس وغيره ـ رضي الله عنهم ـ : كان يصلي إلى بيت المقدس • وقال آخرون : كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس • وأطلق آخرون إنّه كان يصلي إلى الكعبة فلما تحوّل إلى المدينة إستقبل بيت المقدس ، وهو ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين والأول أصح لأنه يجمع بين القولين • وقد صححه الحاكم وغيره من حديث إبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ •. وكأنّ البخاري أراد الإشارة إلى الجزم بالأصح من أن الصلاة لما كانت عند البيت كانت إلى بيت المقدس •

وقوله تعالى : (ما ولّيهم) إستفهام إنكاري من السفهاء ، أي ما الذي صرفهم من قبلتهم التي كانوا عليها وهي بيت المقدس ، وما كان يحق لهم ذلك الصرف والإنحراف لأنه كان قبلة الأنبياء السابقين ؟

وقوله (قل) أي قل في ردّهم وإرشادهم عن الخطأ إلى الصواب (لله المشرق والمغرب) لايختص به مكان دون آخر ولا شرف بالذات لأيّ محلّ وإنما الشرف يحصل بتجلي الرحمة من الله تعالى عليه وهذا الحكم الحكيم هو الصراط المستقيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم للسلوك عليه ، وذلك الصراط عبارة عما شرعه وقرره لا ما تقرونه وترتضونه •

وقوله : (وكذلك) الآية إشارة إلى معنى الآية السابقة أي وكما قررنا أن القبلة هي ما ارتضاها الباري وهديناكم

إليها ، جعلناكم يا أمة محمد على سبيل الإلتفات نحوها أمة وسطاً خياراً متصفين بالعلم الصحيح والعمل الصالح لتكونوا شهداء على الناس أي أمم الآخرين بتبليغ الأنبياء إليهم ما شرعه الله تعالى لهم • ويكون الرسول النبي العربي المختار محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهيداً على زكائكم وصحة شهادتكم على الأمم • روي أن الأمم يوم القيامة ينكرون تبليغ الرسل إليهم ويطلبون منهم الشهود لإثبات التبليغ فيؤتى بأمّة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتشهد لأولئك الرّسل بالأمانة والتبليغ ، فيطلبون هناك تزكية هذه الأمة الشاهدة فيؤتى بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيشهد بعدالتها وصحة شهادتها •

وقوله تعالى : (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي وما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل الهجرة وبعدها وهي بيت المقدس إلا لنعلم ويتعلق العلم بمن يتبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه ، أي ممن له تردد نفسي ويرتدّ من دين الهدى إلى ديدَن الهوى من العرب الذين ألفوا الكعبةَ ولا يستحبّون غيرَها ، ومن اليهود الذين يختارون دين اليهود على دين الإسلام ، ولو كنتَ متوجهاً إلى بيت المقدس الذي كان ولا يزال قبلتهم • فلما ظهر حال العرب المسلمين وأنهم يتوجهون إلى ما توجه إليه الرسول وحالُ اليهود وأنّهم لايتركون دين اليهود ، ولو توجهتَ إلى قبلتهم حوّلناك إلى القبلة التي ترضاها روحاً وهي الكعبة الشريفة ، أي أنّ التوجه إلى بيت المقدس كان شيئاً عارضاً والتوجه إلى الكعبة هو الأصل الثابت بالنسبة إليك وإلى دين الإسلام • فذلك الجعل هو الجعل المنسوخ بالتوجه إلى الكعبة •

ومنهم من قال : إن معناها وما جعلنا القبلة التي أنت عليها الآن وهي الكعبة الشريفة على زيادة كان وإن قوله (كنت عليها) بمعنى أنت عليها

وكان للتأكيد . إلا لنعلم من يتبع الرّسول المتحول إلى الكعبة من العرب الذين يتوهم فيهم ضعف الإيمان والإرتداد بسبب التغيرات في شأن القبلة ومن اليهود الذين يتوهم إرتدادهم بسبب ترك التوجه إلى بيت المقدس والتحول إلى الكعبة الشريفة فهذا الجعل هو الجعل الناسخ .

وقوله تعالى : (وإن كانت) إن مخففة من المثقلة ، واللام هي اللام الفارقة بين أن النافية والمؤكدة ، وضمير كانت راجع إلى نسبة الجملة السابقة ، والمعنى المؤكّد أن تلك التحويلة كبيرة وثقيلة على النفس ، إلاّ على الذين هداهم الله إلى التقبل للأحكام . وقوله : (وما كان الله ليضيع إيمانكم) المراد بالإيمان الإيمان بالقبلة المنسوخة والعمل على مقتضاه أو الصّلوات التي صلاّها المسلمون متوجهين إليها .

والجملة لمن قالوا يارسول الله كيف حالُ مَن مات قبل التحويل حيث تبين أنهم ما توجهوا إلى قبلتنا اليوم ؟ أو كيف حال صَلَوَاتنا قبل التحويل هل صحت ومضت أو نَقْضيها ؟ فنزلت وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيم .

(قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضيها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَاكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَما اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (١٤٤)

قوله تعالى : (قد نرى) الآية قال العلماء : هذه الآية مقدمة في النزول على قوله تعالى سيقول السفهاء من الناس . قوله تعالى : (تقلب وجهك في السماء) الآية أي تردّد وتحول وجهك في السّماء إنتظاراً

للوحي ينزل عليك بتحول وجهك إلى الكعبة • وكان يتوجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى السماء لأنها قبلة الدعاء فإن الوحي كان ينزل منها كما أن النور والضياء والأمطار والأنداء والبركات تنزل منها • فقد قال تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر • وإلا فالباري لا مكان له ولا يجري عليه زمان وهو مع كل داعٍ وساعٍ معيةَ العلم والقدرة •

وفي صحيح البخاري في كتاب الصلاة من باب الإيمان : حدثنا عمرو ابن خالد قال : حدثنا زهير قال : حدثنا أبو إسحاق عن البراء أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أول ما قدم المدينة على أجداده أو قال أخواله من الأنصار ، وإنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً • وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أوّل صلاة صلاّها صلاة العصر ، وصلّى معه قوم فخرج رجل ممن صلّى معه ، فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صلّيت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قِبَلَ مكة فداروا كما هم قبل البيت •

وفي فتح الباري قوله : ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً كذا وقع الشك في رواية زهير ثم نقل رواية سبعة عشر أيضاً • ثم قال : والجمع بين الروايتين سهل بأن يكون مَنْ جزم بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وألغى الزائدَ • ومَن جزَم بسبعة عشر عدّهما معاً • ومَن شك تردد في ذلك • وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح • وبه جزم الجمهور • ورواه الحاكم بسند صحيح عن إبن عباس • انتهى المقصود • ثم علّق على قول البخاري وإنه صلّى أوّل صلاة صلاها صلاة العصر ما نصه : والتحقيق إن أول صلاة صلاّها في بني سلمةَ

لما مات بشرُ بنُ البَراء بن مَعرور الظهر وَأوّل صلاة صلاّها بالمسجد النبوي العصر • وأما الصبح فهو من حديث إبن عمر بأهل قباء •

والحاصل : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد قدوم المدينة المنورة صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم وجه إلى الكعبة في رجب بعدَ الزوال قبل قتالِ بدر بشهرين في مسجد بني سلمة • وقد صلّى بأصحابه في مسجد بني سَلمة ركعتين من الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب فتبادل الرجال والنساء صفوفهم فسمي المسجد مسجد القبلتين •

وقوله تعالى : (فلنولينك قبلة ترضاها) أي فلنوجّهنك إلى قبلة أنت ترضاها وهي الكعبة الشريفة • فول وجهك شطر المسجد الحرام ، أي لأنها داخلة فيه • وقوله تعالى : (وحيثما كنتم فولوا وجهكم شطره) أنزله لدفع توهم إختصاص التحول بشخص الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ، أو بوقت الوجود في المدينة المنورة • يعني أن تحول القبلة عامٌ شامل لك ولأصحابك ولسائر أمتك أينما كنتم من الأرض في المدينة أو غيرها من المغرب أو المشرق أو الجنوب أو الشمال فحيثما كنتم من الأرض فولوا وجوهكم شطره •

وقوله تعالى : (وإن الذين أوتوا الكتاب ليَعلَمونَ أنه الحق من ربّهم) يعني أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس شيئاً غريباً مجهولاً عند علماء التوراة والإنجيل ؛ لأنهم كانوا يعلمون بمطالعة كتابهم أن النبي الأمي المبعوث في آخر الزمان صاحب القبلتين ، فيتوجه في صلاته إلى بيت المقدس ، وإلى الكعبة ، وأنه الحق من ربهم فاستنكارهم لذلك التحويل عناد واستكبار ، وما الله بغافل عما يعملون وأنه يجازيهم عليه يومَ يُبعثون •

واختلف العلماء المجتهدون في معنى لفظ الشطر ، وفي كيفية التوجه إلى الكعبة : ومما لاشك فيه أن الشطر ظرف مكان وجاء بمعنى نصف الشيء وجهته . ولا خلاف بين العلماء أن الكعبة قبلة" في كل أفق ، وأجمعوا على أن من شاهدها وعاينها فرض عليه إستقبالها ، وأنه إن ترك إستقبالها وهو معاين لها وعالم بجهتها فلا صلاة له . واختلفوا : هل فرض الغائب إستقبال العين أو الجهة ؟ فالصحيح عند الشافعية أن الواجب إصابة عين الكعبة . وبه قال بعض المالكية ورواية عن أحمد.وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية راجحة ومالك على ما نقله أكثر الموالك : أن الواجب إصابة الجهة وحكاه الترمذي عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن المبارك .

ويستدل الشافعي ــ رضى الله عنه ــ بظاهر معنى الشطر وهو النصف في قوله تعالى : فولوا وجوهكم شطره أي إلى نصف عينها أي منتصفها . وبحديث إبن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ لما دخل الكعبة (عام الفتح) خرج فصلى إليها وقال : هذه هي القبلة . رواه البخاري ومسلم . واحتج المعتبرون للجهة بحديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ما بين المشرق والمغرب قبلة. . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وصح ذلك عن عمر ـ رضى الله عنه ـ موقوفاً عليه .

ومما ينبغي أن يعلم أن مراد الشافعي ـ رضى الله عنه ـ بوجوب إصابة عين الكعبة على الغائب السعي حتى يظن ظناً مؤكداً أنه أصاب عينها . ومراد الأئمة الثلاثة بالإكتفاء بالجهة هو إصابة الخط الخارج من عين الغائب إلى جزء من جانبي الكعبة يمينها أو يسارها بقدر لا جواز خروجه

وانحرافه عن جانبيها يمنة أو يسرة . وهذا أيضاً مبني على إعتقاد المستقبل يدل على ذلك عبارة فقهاء المذاهب المحققين .

فمن غاب عنها إذا وجد ثقة يخبره عن عينها وجب عليه العمل بقوله ، ومثل المخبر عن علم محل" صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتجاهه، فلا مجال للإنحراف عنه مطلقاً . فإن لم يجد أحداً يخبره عن علم إجتهد بما عنده من الأدلة من كوكب القطب ، أو مغرب الشمس ومشرقها ، أو الرياح الشمالية واتجاهها ، أو ما يعتمد عليه من الظن الأكيد الحاصل له من معرفة طول البلد وعرضه ، وطول مكة المكرمة وعرضها ، ومن ذلك وجود أبرة القطب المجربة لمن يعرف الطول والعرض ، فإن لم يقدر على الإجتهاد قلد مجتهداً . فإن تحير صلى كيف شاء ، حتى لو صلى أربع ركعات لأربع جهات صحت صلاته . لكن إذا تبين خطأه بعدها أعاد صلاته عند الشافعي دون الأئمة الآخرين ، وتفصيل الموضوع في كتب الفقه .

وتعلم أدلة القبلة فرض عين على المكلف كمعرفة الصلاة وأركانها عند بعض ، وفرض كفاية عند آخرين . والمقام فيه تفصيل عند المحققين فمن كان حضرياً فالوجوب بالنسبة إليه على الكفاية لأنه ما دام هناك من يعرف القبلة فليس عليه أن يتكلف ، ومن كان مسافراً وحده أو مع عامة جهلاء يجب عليه العلم بها قطعاً . هذا كله في غير صلاة الخوف وفي غير النافلة في السفر ، لأن إستقبال القبلة ليس بواجب عليهما إلا في تكبير التحرم على تفصيل في الموضوع . والله أعلم .

ومن أدلة القبلة الكوكب الصغير المسمى بالقطب الشمالي فإنه إذا وقف الإنسان المستقبل للجنوب بحيث إذا إلتفت إلى اليمين رأى ذلك الكوكب خلف الأذن اليمنى فقد إتجه إلى القبلة وهذا جار مما بين همدان والموصل . ولكن مع فرق يسير فإنه يراه في همدان بأدنى ميل يميني ،

ويحتاج إلى زيادة في الموصل وما والاها ، وإذا وصل إلى الشام يقع الكوكب محاذياً لظهر الواقف ولا يراه بالتيامن .

ومن أدلته : مشرق الشمس في أول الشتاء ومغربها في أول الصيف، فإن الواقف إذا توجه إلى منتصف ما بينهما فقد توجه إلى القبلة في العراق، وما والاها شرقاً أو غرباً . ويحتاج هذا إلى الدقة في أخذ المنتصف .

ومن أدلته : أبرة القطب فإنها إذا وضعت زجاج الدائرة على أرض، مستوية وتوقفت الأبرة عن الحركة فقد أخذت إتجاه خط الجنوب أي خط نصف، نهار البلد، فإذا ملت إلى غربي الأبرة بقدر تفاوت درجات طول بلدك عن، درجات طول مكة المكرمة فقد إتجهت إلى القبلة . مثلاً إذا كان طول مكة ثنتين وسبعين درجة وطول بلدك تسعين درجة فمل إلى غربي الأبرة ثماني عشرة درجة . وهكذا .

ومن أدلتها : مقام صلى فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالوقوف على منهاج وقوفه كالإستقبال لعين الكعبة بلا فرق ، ولا يجوز الإجتهاد فيه مطلقاً .

ومنها : محاريب مساجد المسلمين التي مضى عليها الزمان . لكنه يجوز الإنحراف عن اتجاهها قليلاً يمنة ويسرة حسب الأدلة الموجودة عند المستقبل . وأما المصلّى الواقع في المقابر فلا إعتناء به ولا إعتماد عليه إلا إذا أقره العارف العادل .

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ)(١٤٥) .

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ) (١٤٧)

قوله تعالى : (ولئن) اللام موطئة للقسم • وقوله (ماتبعوا قبلتك) جواب للقسم المقدر،والقسم وجوابه ناب مناب جواب الشرط•والمعنى:لا ينفع أولئك الناس المعاندين المستكبرين الإتيان بالآيات البينات الكاشفة عن الحقائق ؛ لأنهم لا يريدون أن يفتهموا واللا مفتهمون أفظع حالا من اللا" فاهمين لأن دواء الجهل يسير سهل ودواء العناد عسير صعب • وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) الآية يعني ولستَ بمن له قابلية تبعية الباطل كما أنهم لايتبع بعضهم قبلة بعض ، ولو كان كلهم في ضلال • وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) معناه بعد أن تبين الرشد من الغي والهدى من الهوى ، والله لئن اتبعت أهواءهم سواء م نحيث القبلة أو غيرها من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ، ولست منهم لأنك صاحب العهد من الله وصاحب العهد صالح سالم لا عنود ولا ظالم • وقوله الذين آتيناهم الكتاب إستئناف لبيان أن عدم إتباعهم ليس لجهلهم بالواقع وحقيقة أنك رسول الله وكتابك كلام الله، وقبلتك معينة من الله، بل لفرط عنادهم لأن الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه أي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يعرفون أبناءهم علماً بالأدلة السابقة والآيات اللاحقة ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون • الحق من ربك والباطل من اعدائك ، فلا تكن من الممترين الشاكين في أن ما أنت عليه هو الحق من الله • وهذا النهي إما للتأكيد أو للتعريض بأولى النهى حتى لا يصيروا من الممترين •

(ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ ، أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً ، إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١٤٨)

قوله تعالى : (ولكل وجهة) يجوز أن يكون المراد بكل الأمم المختلفة من المسلمين واليهود والنصارى ، فيكون المعنى لكل أمة مسلمة أو يهودية أو نصرانية ، وجهة ومحل يتوجهون إليها في العبادة وقرروها قبلة لهم حقاً أو باطلاً . وقوله (هو موليها) الضمير المرفوع عائد إلى كل ومبتدأ ، ومموليها خبره . ويتعدى إلى مفعولين والأول محذوف أي ولكل أمة قبلة هو مُولّي وجهه إليها ولا ينحرف عنها ، فاستبقوا الخيرات الحسان من تلك القِبَل ، فخيرها بالنسبة إلى المسلمين الكعبة ، وبالنسبة إلى اليهود هي الصخرة على زعمهم ، وبالنسبة إلى النصارى جهة المشرق . ولما كان الخير هو الخير الخالص الموافق للواقع فالوجهة المباركة والقبلة المقبولة هي الكعبة . زادها الله رفعة ومقاماً .

واذا تبين لكم الخير وتركتموه للتعصب والتحزب فاعلموا أنهم لاينفلتون من أيدي القادر فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ويحاسبكم ، إن الله على كل شيىء قدير . ويجوز أن يكون المراد بكل هو طوائف المسلمين يعني ولكل قوم وجهة من أطراف المسجد الحرام لميقات الإحرام . أو لكل قوم منكم ركن من أركان البيت كالركن الشامي والركن اليماني . فاستبقوا الخيرات والطاعات المقررة المأثورة ، وكونوا على مسابقة لنيلها حتى تنالوا خير الأجور فإنكم أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً للميزان والحساب ، ولكل قومٍ نَيلٌ على حَسَبِ المَيْلِ ، إن الله على كل شيىء قدير .

ويحتمل أن يكون المعنى ولكل إمام من أئمة الدين المجتهدين وجهة وهدف يميل إليها فيعمل على ذلك ويرشد أتباعه إليه ، فاستبقوا الخيرات

وتسابقوا فيها • أي فلا تأخذوها على التقليد الأعمى إذا كان عندهم قابلية للإجتهاد • فأينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً للمكافأة على حسب النيات وصحة الأعمال الصالحة فيجزي كلا بما يستحقه من عشر درجات إلى ما زاد والله أراد •

ومن هنا يدخل إختلاف آراء الأئمة المجتهدين في خير الأعمال وخير وجوه أدائها • فيرى الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ أن أول الوقت لأداء كل صلاة أفضل إلا لعذر مثل الإبراد بصلاة الظهر في البلد الحارّ لمن يبعد عن المسجد • وذلك نظراً لظاهر الأحاديث الدالة على ما قال • ويرى أبو حنيفة كما قاله القرطبي أن آخر الوقت أفضل لأنه وقت الوجوب المتعين، وأجر أداء الواجب أفضل•ويرى مالك التفصيل: فيقول أداء الصبح والمغرب أول الوقت أفضل • أما الصبح فلحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي الصبح فتنصرف النساء متلفّعات بمروطهن ما يُعْرَفْن من الغَلَس • وأما المغرب فلحديث سلمة بن الأكوع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب • أخرجهما مسلم •

وأما العشاء فتأخيرها أفضل لمن قدر عليه •

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَهُ ؛ لِئَلاَّ يكونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ،

ولعلكم تهتدون (١٥٠) كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون (١٥١) فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (١٥٢)

قوله تعالى : (ومن حيث خرجت) كرر هذا الحكم لأمور : الأول : أن نسخ الأحكام مظنة الفتنة لأهل الأوهام لاسيما للمعاندين من الأنام فإذا لم يتكرر لم يتقرر • الثاني : أن كل إنسان لا يحفظ كل آية من آيات القرآن فإذا كانت الآية واحدة ربما لا يحفظها كل مسلم ولا تكون آية النسخ محفوظة عند الناس وإذا كررت كثرت ويكثر حفاظها • الثالث : ذكر للتحويل ثلاث علل : الأول تعظيم مقام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بابتغاء مرضاته أولاً فإنه كان يشتاق بلهف إلى تحويل القبلة فذكر لبيان قصد إرضائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • الثاني : رفع حجج المخالفين • الثالث : أن التولية إلى الكعبة تدفع إحتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة لا الصخرة • وهذا النبي يصلي باتجاه الصخرة فلا يكون النبي الموعود وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعي أنه صاحب شريعة مع أنه يتبع قبلتنا ، واحتجاج المشركين بأن هذا النبي يدعي دعوة الناس إلى ملة إبراهيم وهي التوحيد مع أنه يخالف قبلته • الوجه الرابع : أراد بالأول التولية إلى نفس الكعبة إذا عاينها • وبالثاني التولية إليها إذا كانوا غائبين • وبالثالث التولية إليها في الأسفار •

وقوله : (لئلا يكون للناس عليكم حجة) الناس يعم أهل الكتاب والمشركين واحتجاجهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمور مزيفة ذكرناها آنفاً • وقوله إلا الذين ظلموا منهم هذا الإستثناء متصل ومعناه

ليس لأحد حجة على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تحويل الكعبة مطلقاً إلا للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك ، واهملوا نظر العقل واتوا بحجة داحضة ، بل بشبهة واهية وهي أن محمداً تحيّر في دينه ولا يستقر على شيىء ، وهم غافلون عن أنه على بصيرة في دينه وثبات في يقينيه • وما إستقبل القبلة الأولى ولا الثانية إلا لِحكم ومصالح ظاهرة عند أهل النظر الناجح • ولما إنتهت الرعاية جاءته العناية • وتحولت إلى الكعبة بالأخير واستقر عليها البشير النذير ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقوله : (فلا تخشوهم واخشوني) الخشية : حالة نفسية تبعث على التوقي والحذر • والخوف : فزع القلب واضطرابه • والمعنى الحث على تحقير جميع ما سوى الله ومن سواه ممن يتبع هواه ومراعاة أمر الله تعالى والوقوف عنده بعزم وحزم • فإن الله هو الكافي الوافي وهو الحافظ العاصم في الدنيا والدين •

وقوله : (ولأتم نعمتي عليكم) معطوف على قوله تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة وإتمام النعمة إنما هو بالنسبة إلى الظروف والمواقف وإلا فلا إتمام للنعمة فإنها تستمر إلى الأبد ولا حدّ له • وإتمامها هنا بالهداية إلى القبلة الثابتة • وما يقال من أن إتمامها بالموت على الإيمان فلأنه ورقة شهادة الأمان ودخول الجنة لأنه فتح باب العطاء والمنة وإلا فقد قال : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وما لا يحصى لا يوصل منه المنتهى •

وقوله تعالى : (كما أرسلنا) مربوط بما قبله أي ولأتم عليكم نعمتي بالهداية إلى القبلة الثابتة كما أنعمت عليكم بإرسال رسول من أنفسكم يتلو عليكم آياتنا البينات التي هي معجزات وكاشفة لحقائق يعجز عنها أهل الأرض والسموات • ويزكيكم ذلك الرسول

الأزكى عن أدناس العقائد الفاسدة الزائفة وأوساخ الأعمال الكاسدة الفارغة ، ويعلمكم الكتاب الهادي إلى الصّواب الحاوي للعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة ، والأخلاق الناجحة • والحكمة من الشريعة الكافية للأمة أو جمل جميلة تفيدكم الرقي وعلو الهمة • ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من كيفية التصرف في نقد الحياة الثمينة وصرفها في التجارة الرابحة • قوله (فاذكروني) يعني وما دام تنعمتم بهذه النعم الجسيمة فاذكروني قلباً بالتوحيد والقدم والبقاء أذكركم بالثواب وزيادة اللقاء ، واذكروني بالطاعة الخالصة أذكركم بالدرجات عليها والمغفرة للاعمال الفاضلة، واذكروني باللسان أذكركم بالأمر بإفاضة الإحسان•وللعلماء أقوال في معنى الذكر والمراد به هنا ، وحاصلها الحضور مع الله والرضا بالقضاء والإستقامة على ما يحبّ ويرضى • وأصل الذكر التنبّه بالقلب للمذكور والتيقظ له • وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دليل على ذكر القلب لكنه لما كثر إطلاقه على الذكر باللسان صار هو السابق إلى الفهم والجامع بين الخيرين:ذكرٌ باللّسان يوافقه الضمير، وذكرٌ بالقلب يساعده التقدير• واشكروا لي على نعمتي التي أنعمت بها عليكم بالخضوع جَناناً والطاعة أركاناً والذكر لِساناً ، ولكل طَرَفٍ منها أطراف والناس في أدائها أصناف وأتمّها أعمّها ، ولذا قال تعالى : وقليل من عبادي الشكور • ولا تكفروني ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً حتى لا أعذبكم عذاباً نكالاً وأورثكم فضلاً وكمالاً •

(يا أيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلاة إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سبيلِ اللهِ : أمْواتٌ بَلْ أحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرون (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأمْوالِ وَالأنفُسِ

وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)(١٥٧)

قوله : (استعينوا بالصبر والصلاة) الإستعانة طلب العون والمساعدة في أداء الواجب وترك المحرم بالدرجة الأولى وفي فعل المرغوب وترك المستكره بالدرجة الثانية • والصبر هو إمساك النفس على ما لايوافق هواها فليس هناك عمل ظاهر أو باطن فعلاً أو كفاً إلا ويحتاج إلى مقارنة الصبر فالصبر أساس النجاة وقاعدة السعادة الإنسانية • والصلاة في اللغة الدعاء وفي العرف الأقوال والأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم • فمعنى الآية الشريفة : يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر على الذكر والشكر وسائر الطاعات من الزكاة والصوم والجهاد وترك المبالاة بطعن الطاعنين • وبالصلاة التي هي الأصل والموجب لكمال التقرب إلى الله ولاشيء من الطاعات البدنية أقوى في الإستعانة به على موجبات مرضاته تعالى وأقرب منها اليه تعالى • إن الله مع الصابرين معية خاصة بالعون والنصر للمؤمنين •

وقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن يقتل) الآية نزلت في قتلى بدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين • وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في سبيل الله : مات فلان ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها فأنزل الله الآية • أي : ولا تقولوا في شأنهم وبيان الأسف على فقدهم أنهم أموات فإنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء • فقوله تعالى بل أحياء بتقدير المبتدأ جملة لتقرير حياة الشهداء • والإضراب عن مجموع الجملة السابقة القول والمقول لا عن المقول فقط، إذ ليس المعنى لا تقولوا

إنهم أموات ، وقولوا إنهم أحياء بل المقصود إنهم أحياء في الواقع • ولكن لا تشعرون أنتم بأحوالهم في البرزخ فإنها لا تدرك بالعقل المجرد بل تدرك بالعقل المؤيد •

واختلفوا في هذه الحياة فقال بعض : إنها حياة بالروح والجسد ، وبعض إنها حياة بالروح فقط • لكن لا مثل حياة باقي الأموات بل أرقى من ذلك بما لا يعلم تفصيله إلا الله •

والحق في الموضوع أخذا من هذه الآية الشريفة وآية سورة آل عمران ، ومن الأحاديث الشريفة الواردة في موضوع حياة الأموات إنّ كل ميّت له روح متعلق به بعد قطع العلاقة الموجودة في عالم الحياة الجسدية • وإن كل ميت له جسد برزخيّ تدرك فيه النعيم واللذة إن كان من السعداء ، والشقاء والألم إن كان من الأشقياء • ومع ذلك فالباري تعالى منع بقدرته القاهرة الأرضَ عن أكل أجساد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم ، وجَعَل للشهداء لإعلاء كلمة الحق حياة وقوة روحية دون حياة الأنبياء والصديقين على ظاهر قوله تعالى (فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين و الصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) ومما لاشك فيه أن هذه الحياة البرزخية تختلف باختلاف درجات المتوفين ، من الآحاد إلى العشرات ، إلى المئات ، إلى الآلاف حسب الأصناف والله أعلم • وإن ذلك الجسد البرزخي يجوز أن يكون مثل الجسد الذي يتوفى فيه وإن كنا لا ندرك ذلك فإن عالم البرزخ عالم عجيب وقد جاء في الحديث الشريف : (إن المؤمن يفسح له مدّ بَصره ويقال له : نم نومة العروس) مع أنا لا نشاهد ذلك إذ البرزخ معزل عن أذهاننا ويجوز أن يكون جسداً آخر على صورة الطير تتعلق الروح به كما أخرجه عبدالرزاق عن عبدالله بن كعب بن مالك قال رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ (إن أرواح الشهداء في صورة طير خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله تعالى يوم القيامة) وهناك روايات أخرى حول الموضوع بينها مخالفات جزئية في محل تعلقها والذي أعتقده : أنها كلها ثابتة والإختلاف فيها عائد إلى إختلاف درجات الشهداء . ومما لاشك فيه أن درجات المسلمين على كثرة أصنافهم مختلفة ومتفاوتة بما لا يعلمه إلا الله ، كما أن دركات الأشقياء مختلفة . أعاذنا الله من الدركات بفضله وأوصلنا إلى بعض الدرجات اللائقة بهباته ، إنه الرؤوف الرحيم .

وقوله تعالى : (ولنبلونكم) أي لنعاملن معكم معاملة المختبر لشخص والمراقب لحاله في عوارضه وأحواله فهو مجاز وإلا فالباري تعالى لايخفى عليه شيء ولا يحتاج إلى إختبار أحد .

وقوله بشيء التنوين للتنكير ، والمراد به التقليل أي وسيلة إختياركم شيء قليل من ذلك وإلا فكثيره لا يطيقه أحد إلا من أعانه الصمد . وقوله : (من الخوف) الآية ... المراد من الخوف : الخوفُ من كل من يَمَسّه بسوء أو يؤذيه مِن أهله وجيرانه وأقاربِه لاسيّما الذين اَعْلنوا عداوتهم له ، ومن الجوع قلةُ المأكلِ والمشرب بسبب خاصّ أو عام كالقحط . ومن نقص الأموال نقص ما يملكه من النقود أو العُروض او العقار أو المواشي ، ومن نقص الأنفس : وفاةُ الأصول والفروع والحواشي القريبة والبعيدة . ومن نقص الثمرات : هلاكُ ثمار البساتين والمزارع بالجوائح أو غيرها كأهل العدوان . وقال الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ : الخوف خوف الله تعالى ، والجوع صوم رمضان ، ونقص الأموال الزكاة والصدقات ، ونقص الأنفس الأمراض ، ونقص الثمرات موت الأولاد .

وقوله : (وبشر الصابرين) خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يتأتى منه الترغيب والترهيب وَأمر له بأن يبشّر الذينَ يصبِرون على ما داهَمَهُم ، ويُمسكونَ بأنفسهم عن الإعتراض قلباً ، والمعارضة والقدح وسوء البيان لساناً • (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون) قولاً موافقاً لسكون القلب وإيمانه بأنّ كل مقدر مُيَسَّرٌ وإن العالَم لله ، وإن المآل إليه ، ويتصرف في العالم بما يشاء ، ببشارة لا يحيط بملابساتها البيان ، وإنما الممكن الإجمال ، والإستئناف بقوله الجامع لكل فضل وهو (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) يعني أولئك الصابرين تنزل عليهم بركات وسكينة من ربهم • وحاصلها رحمة تعمهم في سائر أحوالهم في الدنيا والآخرة ، وبشارة فيها إعلان أن أولئك هم المهتدون بهدي الباري للدنيا والدين •

إنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَو اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عَلَيهِ انْ يَطَّوَّفَ بِهِما ، وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيراً فَإنَّ اللهَ شاكِرٌ عليم) (١٥٨)

قوله تعالى : (ان الصفا والمروة) وجه المناسبة بينه وبين ما تقدم هو أن الآيات السابقة ذكر فيها الصبر وأجر الصابرين ولما كان الحج صعباً على الإنسان محتاجاً إلى الصبر على بذل المال والحال وقبول الأتعاب ذكره بعدها •

ومما يجب أن يعلم أن الحج والعمرة كانا من الشرائع المتقدمة واستمرت إلى عهد رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فجعلا من أركان الإسلام واختصّا بكثير من الأحكام يأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى في تفسير : (وأتموا الحج والعمرة لله) آية مائة وست

وتسعين من سورة البقرة وفي وقت تشريعهما في الإسلام أقوال : أرجحها أنه كان في السنة الثامنة من الهجرة بعد فتح مكة المكرمة • وبعث ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبا بكر الصديق في السنة التاسعة آمراً على الناس ، فحجّ بهم ، وتأخر عنه مياسيرُ الأصحاب الكرام كعثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف من غير شغل بحرب ولا عدو ، حتى حجوا مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في السنة العاشرة الحجة المشهورة بحجة الوداع • والأصح أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ حج قبل الهجرة مرتين واعتمر مراراً ، ولم يبين كيفيتهما • وأما بعد الهجرة فإنه حج مرة واحدة تلك الحجة المعروفة ، ولكنه إعتمر أربع مرات عمرة القضاء في السنة السابعة وعمرتين عام الفتح ، وعمرة مع حجة الوداع • وقوله تعالى من شعائر الله ؛ جمع شعيرة أو شعارة وهي العلامة • والمراد بكونهما من شعائر الله أنهما من أعلام العبادة لله تعالى • والصفا والمروة علمان لموضعين معينين بمكة عند المسجد الحرام علماً بالغلبة واللام لازمة فيهما ، وسبب النزول ما صح عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : أنه كان على الصفّا صنم على صورة رجل يقال له : أساف ، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى : نائلة •

زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما الناس ، فلما طالت المدّة عُبِدا من دون الله ، فكان أهل الجاهلية إذا سَعَوا بينهما مَسَحُوا الوثنين ، فلما جاء الإسلام وكُسِرَتِ الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين فأنزل الله تعالى هذه الآية •

ومن هذا يعلم دفع ما يترائى أنه لا يتصور فائدة في نفي الجناح بعد إثبات أنهما من شعائر الله بل ربما لايتلازمان إذ أدنى مراتب الأول الندب ،

وغاية الثاني الإباحة ولا جناح فيهما قطعاً . وقد وقع الإجماع على مشروعية الطواف بينهما في الحج والعمرة لدلالة نفي الجناح عليه قطعاً . لكنهم إختلفوا في الوجوب فروي عن أحمد أنه سنة ، وعن الشافعي ومالك أنه ركن ، وهو رواية عن الإمام أحمد واحتجوا بما أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إن اللهَ كَتَبَ عَلَيكُمُ السَّعيَ فَاسْعَوا . ومذهب الإمام أبي حنيفة ــ رضي الله عنه ــ انه واجب يجبر بالدم ؛ لأن الآية لا تدل إلا على نفي الإثم وذلك يستلزم الجواز . وأما الركنية فلا تثبت إلا بدليل مقطوع به ولم يوجد .

وقوله تعالى : (وَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً) الآية معناه ومن زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف بالبيت (فإن الله شاكر عليم) أي قابل لطاعته ومثيب له عليها ، لأنه عليم بنيته للعبادة والتقرب إليه تعالى فيثيبه برحمته ولا يردها عليه ، فلله الحمد أَبَدَ الآبدين (إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهدىمِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فأولئك أَتوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والملائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (١٦١) خَالِدِينَ فِيها لايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ ولاهُمْ يُنْظَرُونَ)(١٦٢)

قوله تعالى : (ان الذين يكتمون) الآية عن قتادة أنها نزلت في الكاتمين من اليهود والنصارى . وقيل : نزلت في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكل . فقد روى البخاري وابن ماجه وغيرهما

عن أبي هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً بشيء أبداً ثم تلا هذه الآية .

وقوله : (ما أنزلنا) أي على الرسل وقوله (من البينات) أي الآيات الواضحة الدالة على الحق . ومن ذلك ما أنزلناه على موسى وعيسى عليهما السلام في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعوته ونعوت أصحابه . وقوله (والهدى) أي وما يهدي إلى وجوب الإيمان به واتباعه وقوله : (من بعد ما بيناه للناس) أي من بعد ما شرحناه وأظهرناه لهم . وقوله : (في الكتاب) وهو التوراة ، أو المراد جنس الكتاب من التوراة وأسفار شعياء وأرميا وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم السلام . وقوله : (أولئك يلعنهم الله) مبتدأ وخبر والجملة خبر لإن . أي إن أولئك الكاتمين يبعدهم الله عن رحمته ويجعلهم في عذابه ونقمته جزاء لعنادهم واستكبارهم واستنكارهم رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ويلعنهم اللاعنون أي كل من يأتي منه اللعن من الملائكة والجن والإنس لإعلان طردهم عن حضرة القدس . أعاذنا الله من الكتم لأحكام الدين . وقوله : (إلا الذين تابوا) أي رجعوا عن الكتمان لنعوته ، أولها ولكل ما يحتاج إلى البيان . وقوله : (وأصلحوا) أي وأصلحوا ما أفسدوه من معاني الأسفار بالتأويل والتحريف ، أو أصلحوا قلوب الناس بعد تشويشها إصلاحاً ناجحاً بالبيان والإرشاد والتعريف وقوله : (وبينوا) أي وأوضحوا ما بينه الله تعالى للناس . وذلك يكون توبة لهم لأن توبة الظالم يرد الحقوق وتوبة الكاتم ببيان الواقع .

وقوله : (فاولئك) أي فأولئك الناس التائبون أتوب عليهم بغفران ذنوبهم وأنا التواب الرحيم .

وقوله : (ان الذين كفروا) الصلة للإشارة إلى الناس المعهودين بنقض العهود وكتمان نعوت صاحب المقام المحمود من النصارى واليهود . وقوله : (وماتوا وهم كفار) أي وأصرّوا على كفرهم وكتمانهم وصفاتهم الرذيلة وأعمالهم المغشوشة الدخيلة ، وماتوا على تلك الحالة الفاسدة ، أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . معناه يستمر عليهم اللعن من الله ، واللعن من الملائكة على حسب أمره ، ومن الناس العالمين بالحق وقدره . وقوله : (خالدين فيها) حال مقدرة أي مقدرين خلودهم في نتائج تلك اللعنة وهي العذاب الدائم . لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون : أي يمهلون بتأجيل العذاب يوم القيامة ، أو بقطع العذاب عنهم حينا بعد حين . وهذا على أن الفعل من الإنظار بمعنى التأخير . ويجوز أن يكون من النظر بمعنى الإنتظار . أي لا ينتظرون فيعتذرون أو من النظر بمعنى الرؤية . أي لايُنْظَرُونَ من الله ولا يَنظُرُ إليهم نظرَ الرحمةِ .

(وإلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ لا إله إلاّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ) (١٦٣)

لما ذكر الباري تعالى في الآيات السابقة أهلَ الكتاب والمشركين وأوْعَدهم بالعذاب ووَعَد الذين يؤمنون منهم بالثواب ، حَوّل السياقَ إلى بيان جهة الوحدة للجميع فقال : وإلهكم إله واحد أي أن الإله لجميع أفراد الإنسان واحد وهو أمركم بالإيمان به وبرسله وأن لاتفرّقوا بين أحد منهم . ثم أكّد وقرر الوحدة له تعالى بقوله لا إله إلا هو . أي لا معبود بالحق سواه حيث إنه هو الرحمن المنعم بجلائل النعم ، والرحيم المنعم بدقائقها ، وكل منعم كذلك يجب أن يُعْبد ويُوَحّد .

ثم أتى بالإستدلال على وحدته تعالى بآيات الآثار العظيمة التي تدل على وجوده ووحدته فقال :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (١٦٤)

والمراد بالسموات : جميعُ الأجرام الموجودة العلوية المزينة بالشمس والقمر والواكب الثوابت والسيارات التي تجري على فلكها الخاص ومدارِها المعين بدون إنحراف عنها في دقيقة من الدقائق بطول الزمان . و المراد بالأرض : الجرم المادي الموجود فوقه البشر وسائر الحيوانات المرتب لها طرق معاشها بالمياه والأقوات والفواكه وسائر ما يتمتع به ويحتاج إليه المزين بالبحار والأنهار والعيون ، والحدائق والأوراد واشجار ذوات الثمار وغيرها ، والمسقف بمظلة مضيئة بالأيّام ، منوّرة بالليالي ، والمنظفة بهواء صافٍ وافٍ للدّيار . والمراد باختلاف الليل والنهار تعاقبهما ومجيء كل منهما عقب الآخر بلا إنفصال . فمن طلوع الفجر إلى غروب الشمس ومن غروبها إلى طلوع الفجر كالأمس ، أو تغايرهما بالساعات والدقائق في سائر البقاع إلا ماشذّ من نقطتي الإعتدال الربيعي والخريفي ، أو إختلافهما بحسب الحركات المستوية والمائلة والرحوية . فإن في القطبين الشمالي والجنوبي تكون السنة يوماً وليلة ، وكل منهما ستة أشهر وفيها تختلف مراتب الأضواء والانوار .

وقوله : (والفلك) أي وفي إبداع القوة العقلية الصناعية في البشر وبالأخص في سيدنا نوح عليه السلام في صنع السفينة بكل دقة وحذاقة

إلهامية وإيحائية من الله بدون تعلم علم الفيزياء ، ومعرفة موازين الهواء والبحار ، ورعاية وزن السفينة مع حمولتها حتى لا تغور في البحار . وهي التي تجري في البحر بقوة الرياح سابقاً والنّار والكهرباء لاحقاً ، مصاحبة بما ينفع الناس من المطعوم والمشروب والملبوس وباقي ملابساتها . وقوله : (وما أنزل الله من السّماء من ماء) أي وثلوج وبَرَدٍ وأنداءٍ وَمَنّ السماء . وقوله : (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي وخلق فيها النضارة والبشارة بالزروع والثمار بعد موتها ويبسها وجمودها وتَعسٍ من عليها . وقوله : (وبث فيها من كل دابة) عطف على أحيا فيدخل تحت فاء السببية لأن الماء سبب عادي لحياة الأرض بعد الموت ، وانتشار الحيوانات من كل نوع منها . والمراد بها الدواب الإعتيادية المخلوقة لا مطلقاً ، حتى يرد عليها الجن والملك على فرض تسميتها دابة أو حيواناً . وقوله تعالى وتصريف الرياح أي تقليب الله تعالى لها جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبورا ، وحارة أو باردة ، وعاصفة ولينة ، وعقيما ولواقح ، وتارة بالرحمة وتارة بالعذاب ..

وقوله : (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أي وفي مادة السحاب وإنشائها ورفعها إلى جهة العلو وتسخيرها هناك بالوقوف في محاذاة بقعة من بقاع الأرض أو جريانها إلى حيث شاء الله . وقوله : (لآيات لقوم يعقلون) يعني إن في كل ما ذكر لآيات عظيمة قطعية الدلالة على وحدة الصانع الحكيم والقادر العليم فتدل على وحدته بعد الدلالة على وجوده وعظيم صنعته . أما دلالتها على وجوده فلأن كل ذلك من الآثار الحادثة بعضها بالبداهة وبعضها بالنظر والحادث يحتاج إلى محدث واجب حتى لا يلزم التسلسل ، وأما دلالتها على وحدته فلأنه لو كان مع وجوده إله آخر يقدر على ما يقدر هو عليه فإن توافقت إرادتهما فالحادث

إن كان بهما لزم إجتماع مؤثرين واجبين كاملين على مؤثر واحد واستحالته واضحة لأن توجه إرادة أيّ واحد منهما إليه كاف في خلقه فيكون الآخر عبثاً مستغنى عنه . وإن كان بواحد منهما لزم الترجيح بلا مرجح ولزم أن يكون الإله الآخر عبثاً مستغنى عنه لحدوث الحوادث بغيره إن كان كاملاً ، وإلا لزم عجزه المنافي لألوهيته . وإن إختلفت لزم التمانع فعلاً وعدم حدوث الحوادث لمنع كل غيره عن التأثير أو إمكان التمانع المستلزم لإمكان العجز المستلزم لعدم صلوحية أيّ واحد منهما للألوهية وحدوث الحوادث بدون صانع حكيم ، وكل ذلك مستحيل بنظر العقل السّليم .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّٰهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً ، وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ (١٦٥)

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (١٦٧)

قوله تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) . الأنداد : الأمثال ، والمراد بها الأصنام : وقيل : المراد الرؤساء الذين يطيعونهم ، وقيل : المراد أعم منهما ، وهو ما يشغل عن الله تعالى . وقوله : (والذين آمنوا أشد حباً لله) جملة مستأنفة ذكرت لدفع توهم مساواة محبة المشركين للأنداد ومحبة الموحدين لله تعالى .

وذلك لأن محبة المشركين للأنداد ناشئة عن أوهام عاطلة فكلما عارضها مانع زالت ، وأما محبة الموحدين له تعالى فمبنية على أساس متين من الإعتقاد واليقين وعلى نورانية واطمئنان للقلب حاصلة من ذكره تعالى أوصلهم إلى درجة الإحسان وحضور التجليات بالإستمرار ، وقوله تعالى : (ولو يرى الذين ظلموا) شرط محذوف الجواب أي ولو يرى المشركون عند رؤية العذاب يوم القيامة أن القوة والتصرف كله لله تعالى لا نصيب لغيره فيها لوقعوا في حسرة وندامة لا يمكن الكشف عنها أبدَ الآبدين ،

وقوله : (إذ تبرأ الذين اتّبعوا) بدل من قوله إذ يَرَوْنَ والفصل بين البدل والمبدل منه جائز ، وما قيل من فعل مجهول وما بعدها معلوم ، والمتبوعون إن كانوا من الناس المفسدين فتبريهم بنطق معتاد عند العباد ، وإن كانوا من الأصنام فبإنطاقِ القادر على إبداع النامي والجماد ، وقوله : (وتقطعت بهم الأسباب) الباء في بهم بمعنى عن أي تقطعت عنهم العلاقات والترابط المزيفة المفتعلة الموجودة بينهم في الدنيا ، وقوله : (وقال الذين اتبعوا) ومعناه وقال الأتباع الضالون: ياليت لنا رجوعاً مع المتبوعين إلى الدنيا، والوضع الإجتماعي السابق حتى نعلن هناك تبرّينا وابتعادنا عن المتبوعين الأنذال ، كما أعلنوا في هذا العالم تبرأهم منّا ، وقوله تعالى : (كذلك يُريهِمُ الله أعمالَهم حَسَرَاتٍ عليهم) أي اراءة وإظهاراً مثل ما ذكرنا يظهرُ اللهُ تعالى أعمالَ التابعين لهم ، ويجعلها مكشوفة خالية عن النتائج الحميدة والعواقب السعيدة ، حالكونها حَسَرات وآسافاً عليهم لاتنفعهم شيئاً وتفيدهم أشياءً مِن الخيبة والخسران والعار والبوار ، وما هم بخارجين من النار لأنهم كانوا كفرة فجرة مثل سائر الكافرين وأما سائر المعذبين بالنار فليس عذابهم على الخلود والإستمرار بل يكون مؤقتاً محدوداً وبنتيجة الأمر يحصل لهم الخروج حَسْبَما وَعَدهم الله تعالى

على لسان رسوله أن مَن آمن بالله إيماناً سليماً عن شوائب الضلال ، وآمن برسوله وما جاء به من الله المتعال فإنه يدخل الجنة خالداً فيها أبد الآبدين والحمد لله رب العالمين •

(يا أيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا في الأرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاتَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ والْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقولُوا عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُونَ (١٦٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ • قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنا • أَوَلَوْكَانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهتَدُونَ ؟ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِين كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِما لايَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنِداءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (١٧١)

قوله : (يا أيُّها النّاسُ كلوا) الآية نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس • وقال الشهاب : إنما نزلت في المذكورين آية المائدة يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم • وأما هذه فنزلت في الكفار الذين حرموا البحائر والسوائب والوصائل كما ذكره إبن جرير وغيره بدليل قوله : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا •

وقوله : (حلالاً) مفعول به وقوله : (طيباً) صفة حلال • أما الحلال فواضح ، وأما الطيب فهو ما يستطيبه طبعُ المستهلكِ المتوسّطِ • وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وهي تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرّمه الله تقليدا واتباعاً للهوى •لأن التحليل والتحريم إن كانا تعبديّين فذلك واضح • وإن كانا لحكمة فالحكيم المطلق هو الله ولا يجوز التجاوز عما شرعهُ

أبداً • وقوله : (انه لكم عدو مبين) تعليل للنهى السابق • وبين عداوته بقوله : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) السوء : مطلق ما ساءك دينا ويعم القبائح كلها • والفحشاء : منها ما يجاوز الحد في القبح كهتك الأعراض • وقيل الأول مالا حدّ فيه والثاني : ما فيه الحدّ • والمراد من أن تقولوا على الله مالا تعلمون أن تنسب إلى الدين ما ليس منه لا نصّاً ولا إستنباطاً • فما حكم به المجتهد المستفرغ وسعه في إستخراج الحكم من الأدلة الشرعية يجب إتباعه على غير المجتهد لأن للدين أصولاً وفروعاً ، عقائد وأحكاماً • والعقائد يجب أخذها من الأدلة القطعية بلا شبهة •وأما الأحكام فلم نكلّف باليقين فيها لأنه متعذر أو متعسر • وغايته إقامة الدليل الشرعي عليها •

وقوله : (وإذا قيل لهم) الآية إما مرتبط بما سبق وبيان لفساد أحوالهم بالإعتماد على تقليد الجاهلين الجاحدين الخامدين أو نزل في طائفة من اليهود دعاهم الرسول إلى الإسلام فقالوا : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منّا وأعلم • وحاصله أنّهم ملازمون لما وجدوا عليه آباءهم لا ينفكّون عنه ، وهذا لَجاج ما فوقه لجاج لأن إمتياز الإنسان عن الحيوان بالعقل والعقل فضله أن يكون أحكامه على البداهة أو على البرهان ، وأما التقليد للناس الجهلاء الحائرين فلا يُفيدُ إلا التقييد • لا سيما إذا كان آباؤهم لا يعقلون • أي لا نظر لهم يتوصلون به إلى النتيجة بالذات ولا يهتدون باتباع أصحاب النبوات والمعجزات ثمّ سَجّلَ أحوالَ أولئك الناس بأنهم يشبهون البهائم في إختصاصهم بإحساس الأشياء بالحواس وليس لهم إدراكها بالعقول بقوله : ومثل الذين كفروا أي ومَثَلُ داعي الذين كفروا من أولئك الذين ذكرنا أحوالهم وأشباههم كمَثَل الّذي ينعق أي كمثل الراعي الذي ينعق أي يصوت في الرغبة والرهبة

بما لا يسمع إلا دعاء ونداء أي بحيوانات سائمة من البهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء أي صوتاً يدرك منه الإقبال تارة والإدبار أخرى والهدوء وقتاً والحركة والرواح وقتاً آخر بدون فهم المعاني وأسرارها وعللها قطعاً • فكلمة ما واقعة على البهائم وقوله تعالى : (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) على وزن فعل بضم الفاء وسكون العين جمع الأصم والأبكم والأعمى ورد تقريراً لما سبق ، يعني أولئك الكفار كالبهائم تسمع صوت الراعي ولا تسمعه كما يسمع الإنسان العاقل كلام الداعي له إلى الخير الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر فيستجيب له حسب فهمه والتأمل فيه ولا ترى الداعي حتى يهتم بكلامه فهم يسمعون كلام الداعي لهم إلى الله لكن لايسمعونه سماع تدبر في مدلول المسموع ولما لم يسمعوه كذلك لم يستجيبوا له استجابة نافعة بكلام ناشىء عن علم ومعرفة فهم بُكْمٌ حيث لم ينطقوا في الإجابة نطقاً ناشئاً عن علم وإعتقاد ، ولم ينظروا إلى شخص الداعي وأعماله والآيات البينات التي أتى بها • فهم عُمْيٌ عن إبصار الآثار والآيات النفسية والآفاقية التي تفيد الإهتداء إلى الصراط المستقيم ، فهم لا يعقلون مبدأ أمورهم ومنتهاه كالعاقل الذي ينظر في أمور دنياه وأخراه بل لهم إدراك كإدراك البهائم للمحسوسات التي ترغب فيها أو تنفر عنها • وذلك لا يؤثر فيهم بحيث ينقادون للحق وبه يؤمنون •

والإنسان إذا تفكر في أحوال الناس تفكراً دقيقاً علم أن الناس لهم قلوب يفقهون بها وحواس يحسون بها ، وكلما كان إستعمالهما بطريق الإعتدال تحصل له حالة نفسية معتدلة تسيطر عليه وتوجهه إلى إحساس المحسوسات بقدر منافعها ومضارها ، وإدراك المعقولات كذلك فيستفيد من إستعمال الحواس إستفادة جلية ، ومن إدراك المعقولات كذلك ، وإلا إبتلي بالمحبة للأمور المادية فيتوغل فيها وينسى من المعقولات المعاني العالية

الداعية إلى السعادة الأبدية فتكون من القاصرين الهالكين أعاذنا الله من تلك الإتجاهات الدنية ، ووفقنا إلى سلوك سبيل الرشد والنجاة الأبدية بمنه وفضله •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُم وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٧٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا) الآية لما وسع الله تعالى على الناس بإباحة ما في الأرض سوى ما حرّمه عليهم ، حثهم على إختيار طيّباته والقيام بحقوقها •

وقوله تعالى : (واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) معناه إن صح أنكم تعبدونه فلابد أن تشكروه على إنعامه عليكم ، فإن العبادة الصحيحة ملزومة لأداء الشكر على نعم المعبود ، وما دام اللازم منتفياً تبين أن الملزوم وهو العبادة له منتف ودعوى الملزوم مع إنتفاء اللازم خارج عن المعقول •

وقوله تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة) الحصر إضافي أي هذه الأمور محرمة عليكم لا ما حرمتموه من البحيرة والوصيلة والحام وأمثالها ، وإلا لو كان حقيقياً لزم أن لا يكون ما عدا المذكورات في الآية حراماً مع أنه سيأتي في الآيات غيرها • وقد استثنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الميتة والدم بعضاً بقوله فيما رواه إبن

ماجه والحاكم عن إبن عمر ـ رضى الله عنهما ـ مرفوعاً : (أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطحال) الحديث ومن الميتة كل عضو إنفصل من الحي لما رواه أبو داود من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة » . وقوله : (وما أهل به لغير الله) أي رفع الصوت به عند ذبحه للصنم ، ثم جعل عبارة عما ذبح لغير الله تعالى على وجه التقديس له ، فليس منه ما ذبح لقدوم سلطان خوفاً منه لعله يسامح الناس ، أو إحتراماً وإجلالاً له ولا ما ذبح لقدوم علماء أو صلحاء إكراما لهم ، وإن اعتقد الذابح فيهم وجود طاعة وتقوى ولا ما ذبح لرعاية قلوب الضيوف الأصدقاء ، ولا ما ذبح في وليمة مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا ما ذبح من المنذورات المعلقة بشفاء مريض أو خلاص أسير ولو قصد وصول ثوابها لروحانية أحد الصالحين ؛ فإن ذلك ليس تقديساً له ولا عبادة والعياذ بالله . وإنما غايتها ومنتهى الأمر زيادة محبة لذلك الشخص أو حسن اعتقاد فيه .

غير أن المنذورات بعبارتها المعروفة كأن شفى الله مريضي فعليّ ذبح نعجة مثلاً يختصّ أكلها بالفقراء غير أهل الذابح ممن تجب عليهم نفقته . وأما قولهم : هذه ذبيحة مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاطرد العرف العام بأنها صدقة عامة ويجوز لصاحبها وأصوله وفروعه والأغنياء أن يأكلوا منه إذ ليس في صيغة الشخص إلتزام لذبحها ، واطرد العمل به على ما ذكرته .

وقوله : (غير باغ) أي على مضطر آخر بأن يتعدى عليه ويستأثر نفسه بها . وقوله : (ولا عاد) أي متجاوز سد الرمق أو غير متجاوز عند إضطراره على الحدود والحقوق الشرعية ، كأن خرج هارباً عن الحدود الشرعية أو متجاوزاً على حقوق الناس بأخذ أموالهم وقطع الطريق عليهم .

وقوله فلا إثم عليه أي لا إثم عليه حينئذ في تناول ما ذكر من المحرمات إن الله غفور لما فعل ورحيم بإعطاء هذه الرخصة للمضطرّين .

فوائد : الاولى : إن الميتة ما فارقته الروح من غير ذكاة مما يذبح وما ليس بمأكول كالسباع ونحوها فلا تفيدُ ذَكاته .

الثانية : لايجوز الإنتفاع من الميتة بشيء عند الإمام الشافعي إلا بجلدها بعد الدباغ . فشعرها وصوفها نجس . وفي ذلك خلاف لبعض الأئمة .

الثالثة : إذا نُحرت الناقة ، أو ذُبحت البقرة ، أو الشاة وكان في بطنها جنين ميت جاز أكله عند الإمام الشافعي . فقد روى جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن البقرة والشاة تذبح والناقة تنحر فيكون في بطنها جنين ميت فقال : إن شئتم كلوه فإن ذكاته ذكاة أمه .

الرابعة : من المطعوم المحرّم مال الغير إلا بطيب نفس منه ، فإن كان هناك عادة يعمل به كماء السقاية ، أو بستان أبيح للعابرين . ومن الحرام أكل مال جيء به لصفة فيك ولم توجد ، أو موقوف على جهة ولستَ بوافٍ حقها أو قدم إليك إستحياءً .

(إنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتابَ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قليلاً أولئكَ ما يأْكُلُونَ في بُطُونِهِم إلاَّ النَّارَ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ (١٧٤) أولئكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى والعذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُم عَلَى النَّارِ ؟ (١٧٥) ذلِكَ بأنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإنَّ الَّذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعيدٍ) (١٧٦)

قوله : (يكتمون) الآية المراد به عدم الإظهار أو إظهاره مع تأويل باطل ، وسبب النزول علماء اليهود ، ولكن الحكم عام .

وقوله : (ثمناً قليلاً) أي عوضاً حقيراً من الرشايا والهدايا . قوله (في بطونهم) ومعنى في بطونهم ملء بطونهم والبطن ليست ظرفاً للأكل بل للمأكول ، لأن الأكل هو المضغ وهو في الفم ، لكن ذكر البطن للدلالة على أن المأكول مَلأَ البطن فإذا أكل ومَضَغ في الفم فكأنه أكل في البطن لأن الفم والبطن إتصل كل منهما بالآخر فالبطن صار فما والفم صار بطنا . ومعنى أكل النار أكل ما سيصير نارا في الآخرة . وأما في الدنيا فالنار نار العار عند أهل الإعتبار .

وقوله : (ولا يكلمهم الله) أي يغضب عليهم ويأمر بعذابهم . وقوله (ولا يزكيهم) أي لايثني عليهم أو لا يبرؤهم من العقاب . وقوله : (اشتروا الضلالة بالهدى) أي في الدنيا (والعذاب بالمغفرة) أي في الآخرة . وقوله : (عذاب أليم) أي مؤلم .

وقوله : (فما أصبرهم على النار) ما اَصْبَرَ على وزن ما أفعل صيغة من صيغتي التعجب . والصيغة الثانية : أفعِلْ بِهِ على وزن اَمر باب الإفعال . فالصيغة ذكرت لإنشاء التعجب من إختلاطهم بأوساخ الكفر والضلال الموجبة للعذاب الخالد بنار أعدّت لهم ولأمثالهم بدون مُبالاةٍ وَاهتمام . ومِن صَبْرِهم على العذاب بتلك النار على الدّوام .

قوله ذلك أي ذلك العذاب بالنار وجب عليهم بسبب أن الله نزل الكتاب الذي أوتي موسى عليه السلام متلبساً بالحق من العقائد ونعوت الرسول الخالد . وإن اليهود الذين اختلفوا في ذلك الكتاب أي في تأويله بالباطل بعد الإنحراف عن الحقّ لفي شقاق وافتراق وابتعاد عن الحق بعيد غاية البعد أعاذنا الله تعالى منه .

وتفصيل معنى الآية الشريفة : ان المراد بالكتاب إما القرآن أو التوراة والإنجيل ، أو جنس الكتاب . فإن كان المراد الأول فمعنى إختلافهم فيه إختلافهم في إسناد وجوه الفساد إليه ، فإن بعضهم قال : إنه كهانة ، وبعضهم إنه سحر ، وثالث إنه شعر ، ورابع إنه من أساطير الأولين . وإن كان المراد التوراة والإنجيل فمعنى إختلافهم هو إختلافهم في تأويل الأسفار الدالة على نبوة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فذكر كل منهم تأويلاً فاسداً غير ما ذكره الآخرون ، لأن الإنسان إذا ضل وانحرف عن الحق أخذ طرقاً شتّى ، فمنهم من يقول : إنه لم يأت زمانه بعد ، ومنهم من يقول : إنه ليس هذا الشخص الحائز لبعض نعوت الشخص الموعود .

وإن كان المراد بالكتاب جنس ما أنزل الله من الكتب فمعنى إختلافهم فيه أنهم قبلوا بعض الكتب وهو التوراة ورفضوا بعضها وهو الإنجيل أو قبلوا بعضاً وهو التوراة والإنجيل ورفضوا بعضاً وهو القرآن . ومعنى كونهم في شقاق بعيد أنهم في نزاع واختلاف عن الحق الثابت بالبرهان القاطع ، فإن الإنسان بعد أن آمن بالله رب العالمين وأنه لايترك عباده بلا شريعة ومنهاج يجب أن ينظر إلى وجوه الدلالة على صدق من يدعي الرسالة من الله بعين الإنصاف ، فالوجه إذا كان إعتدال الأخلاق والإعتدال موجود في محمد كما كان موجوداً في عيسى وموسى وغيرهما من الرسل وإذا كان صحة مدلول الآيات المنزلة وصدقها وبعدها عن الإضطراب فهو موجود في القرآن بلا شبهة . وإذا كان ظهور المعجزات الباهرة القاهرة فكما وجدت لسيدنا موسى بالعصا واليد البيضاء وإنفلاق البحر وغيرها ، ولسيدنا عيسى بالآيات الكبرى من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص كانت موجودة لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمعجزة الإسراء والمعراج

وشق القمر وتسليم الشجر والحجر ، وتسبيح الحصى في كفه الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلة . والقرآن الكريم كله معجزة وكل سورة منه معجزة ، وآياته الناطقة بالعلوم الكونية التي تحير فيها العقلاء معجزات ، وهو موجود وسيبقى كما كان الى يوم القيامة فكما دلّت الأخلاق والأعمال والسيرة الطيبة والمعجزات على صدق دعوى الرسالة لهم ، فكذلك تدل على صدق سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أن هذا الرسول الجليل سجلت نعوته العالية في الكتاب والأسفار الموجودة عندهم إلى هذا اليوم ، بحيث لا تبقي مجالاً لشبهة الإنسان العاقل المنصف في رسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنه المبعوث رحمة للعالمين .

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ ، وَالْكِتَابِ ، وَالنَّبِيِّينَ ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١٧٧)

قوله تعالى (ليس البر) الآيات عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن البر فنزلت الآية فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل فتلاها عليه . وقال : أيضاً كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أنْ لاَ إله إلاّ الله وأن محمداً رسولُ الله ثم مات على ذلك

وجبت له الجنة ، فأنزل الله الآية • وفي البيضاوي : البـر كل فعل مرضي ، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُوّلت وادعى كل طائفة أن البـر هو التوجه إلى قبلته فرد الله عليهم وقال : ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ ، ولكن البـر ما بيّنه الله واتّبعه المؤمنون • وقيل : الخطاب عام لهم وللمسلمين أي ليس البـر مقصوراً بأمر القبلة أو ليس البـر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمـرها •

ونحن إذا نظرنا إلى مورد النزول والسبب الخاص ننظر أيضاً إلى عموم الفائدة والبيان بالنسبة إلى أهل ملة الإسلام الذي جاء لنشر الثقافة الروحية والفكرية ولبث الأخلاق العالية التي تنفع كل إنسـان ذي شـأن أي غيـر المجانين ، وننظر إلى أن أمر القبلة أمر مختص بأحد أعمال المسلم في أداء أحد أركان الإسلام ، ولكن الإسلام ليس منحصراً في ذلك بل أعم وأشمل وأنفع وأكمل فإن للمسلم جانب العقائد التي هي أساس السعادة وجانـب الأحكام الفرعية العملية وجانب الأخلاق النافعة للشخص والمجتمع بصرف القوى المادية والمعنوية في سبيل إنقاذ البشرية من مهالك المـادة ومطامـع النفس وجانب الآداب الشخصية في الوفاء بالوعود والعهود ، والصـدق والمروءة ، والصبر على مشاق الأمور في السراء والضراء والسماح عن أهل الزلة من أولي الغفلة ، ومع ذلك كله تواضع الإنسان أمام ربـه وخليقـة الرب فهذا هو البر لمن إتصف به وفي الحقيقة دليل تحقـق ذلك البـر فـي الإنسان هو إطمئنان النفس وسكينة القلب وانشراح الصدر واختيار آجـل الثواب على عاجل الخير وإلا فدعـوى البر موجـود حتـى فـي أقسى البرّانيّين وأغلظ الماديّين وعلى ذلك المنوال أتى الباري بجهات البر مرتّبـاً لهـا على ترتيب ترتضـيه العقول السليمة • فبـدأ بالإعتقاديات من الإيمان بالله الواحد الأحد الذي هو الأساس للمبدأ وباليوم الآخر بعثاً

للأموات وحشراً في العرصات ، وحساباً وميزاناً للحسنات والسيئات ، واستحقاقاً للدركات أو الدرجات في النيران أو الجنات والإيمان بالملائكة المخلوقة من النور أي المواد اللطيفة النورية بطريق الأمر الإبداعي لا بالتناسل الإعتيادي • الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون الوسائط بين الله وبين عباده المرسلين • والإيمان بالكتاب المنزل من الله رب العالمين إلى كل رسول أمين والإيمان بالنبيين والمرسلين المصطفين الأخيار الذين هم مظاهر تجليات الرحمة وواسطة إرشاد الأمة الذين في تبليغاتهم الكفاية لأهل الهداية والرعاية للدين •

ثم آداب حسن المعاشرة بإعطاء المال الخاص بعد الوفاء بالنفقة الواجبة للممون من نفسه وغيره ذوي القربى من الأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم البنات والبنين ، واليتامى المحتاجين إلى إحسان المحسنين ، ثم الفقراء والمساكين من الأجانب وابن السبيل أي المسافرين العائزين ، وفي إستخلاص الرقاب من المكاتبين إذا كانت الصرف من الصدقات المستحبة الخالصة عند الله •

ثم آداب تهذيب النفس بالصلاة وسائر العبادات عن درن الغفلة والكسل وبإيتاء الزكاة للمستحقّين عن أوساخ اللؤم والشح ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وبالوفاء بالعهد والوعد وبالصّبر في حالتي الفرح والفزع • وفي البأساء من القحط والجدب والغلاء والضراء بالإبتلاء في الأنفس بالأمراض والعاهات عافانا الله وحين البأس والشدة من الأعداء •

وحاصل تفسير الآيات الشريفة : أنه ليس البر والعمل المرضي منحصراً في أن تولوا وجوهكم المشرق والمغرب على أساس أنهما القبلة للنصارى واليهود ويجب بقاء قبلة كل طائفة منها إلى يوم القيامة ، ولكن البر برّ من آمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين جميعهم من غير تفرقة بين

أحد منهم والإيمان بالله معناه التصديق بوجود ذاته الواجب الوجود المتصف بالكمال المنزه عن النقص والإيمان باليوم الآخر الإيمان بأنه يأتي بعد فناء هذه الدنيا عالم آخر للثواب والعقاب والإيمان بالملائكة الإيمان بأنهم عباد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والإيمان بالكتاب الإيمان بأنه منزل من الله بواسطة الملك المعصوم جبريل ، أو بلا واسطة ككلام الباري مع موسى بالذات ومع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج والإيمان بالنبيين الإيمان بأنهم معصومون عن الذنوب وأنهم أشرف الناس حسباً ونسباً ، وليس فيهم وصمة عيب منفر ، وأن أولهم آدم وخاتمهم سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع والتمسك بها واجب على كل مكلف إلى يوم القيامة كما قال تعالى الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ، قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون • والبربرّ من آتى المالَ على حبه ، أي حب المال ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل أي المسافرين المحتاجين والسائلين المعوزين وفي ذاك الرقاب عن الرق للمكاتبين •

وبِرّ من أقام الصلاة على الوجه المشروع فرضاً ونفلاً ، وبِرّ مَن آتى الزكاة لمستحقّيها الموفون بعهدهم أي وبرّ الناس الموفين بعهدهم إذا عاهدوا ولم يُخلفوا بدون عذر مشروع وَبر الصابرين في البأساء من القحط والغلاء والضراء من الأمراض والعاهات والبلاء ، وبرّ الصابرين

عند البأس والشدة من لقاء الأعداء ، أولئك الذين صدقوا وثبت لهم الصدق في الدنيا والدين وأولئك هم المتقون على وجه اليقين •

وقوله تعالى : (والصابرين) منصوب على المدح بتقدير أخصّ أو أمدح • وغير الأسلوب تنبيها على فضيلة الصّبر ومزيته علــى سائر الأعمال والصّفات غير الإيمان وهو كذلك قال تعالى : (إنما يوفــى الصــابرون أجرهم بغير حساب) •

(يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصاصُ فِي القَتْلى : الحُرُّ بالحُرِّ وَالعَبْدُ بالعَبْدِ ، والأُنْثى بِالأُنْثى ؛ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أخيهِ شَيءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْروفِ وَأداءٌ إلَيْهِ بِإحْسانٍ ذلِكَ تَخْفيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعدَ ذلِكَ فَلَه عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١٧٨) •

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية سبب النزول : إنه كان في الجاهلية بين حيّين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طَول (أي قوة وزيادة) على الآخر ، فأقسَموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى • فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية • وأمَرهم أن يتباوَؤا أي يتقاصّوا في قتالهم على التساوي فيقتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى • أي لا حرّان بحر واحد فيما إذا لم يتشاركا في قتله ، ولا عبدان بعبد واحد ، ولا أنثيان بأنثى واحدة • ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد ولا الذكر بالأنثى ، كما لا تدل على عكسه • فإن مفهوم المخالفة إنما يعتبر حيث لم يظهــر للتخصيص غــرض سوى إختصاص الحكم ، وقد بيّنا ما كان الغرض هناك •

تعالى . فقد ورد : الراحمون يرحمهم الرحمن . علاوة على ما يظهر من تجليات رحمة الباري سبحانه وتعالى عند الإفطار ، وعند السحور ، ووقت الأسحار ، ويوم البعث والوقوف بين يدي الله العزيز الغفار .

وللصوم درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما الأول : فهو كف البطن والفرج من قضاء الشهوة . وأما الثاني : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما الثالث : فهو صوم القلب ومنعه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وتوجيهه إلى الله تعالى فيتنور بأنوار القدس ، ويطمئن ، وفي الإطمنان سعادة الإنسان .

وشرائط وجوبه : الإسلام والبلوغ والعقل والقدرة على الصوم . وفرائضه : النية أي قصد صيام فرض رمضان تلك السنة بالليل . والإمساك عن الأكل ، والشرب ، والجماع ، وتعمّد القيىء . والمفطرات : ما وصل عمداً إلى الجوف أو الرأس أو الحقنة في أحد السبيلين والقيىء عمداً والوطء عمداً في الفرج والإنزال عن مباشرة ، والحيض والنفاس والجنون والرّدة . ويستحب فيه تعجيل الفطر ، وتأخير السحور ، وترك الكلام الفاسد .

وأما لوازم الإفطار فأربعة : القضاء ووجوبه عامّ على كل مسلم مكلف تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر . فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد . والكفّارة ولا تجب عند الإمام الشافعي إلا بالجماع ، وتجب عند الإمام أبي حنيفة به وبغيره من المفطرات وهي عتق رقبة ، فإن لم يمكن فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فإطعام ستين مسكينا كل مسكين مدّ عندنا ، وطعام مسكين عند الحنفية نصف صاع من البرّ . والفدية : وتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما ، لكل يوم مدّ وهذا

وقوله : (فمن اعتدى) أي فمن إعتدى منهما على الآخر بعد ذلك بأن إغتنم ولي الدم الفرصة واغتال القاتل بعد العفو أو ماطل القاتل في أداء الدية وهو موسر فله عذاب أليم أي مؤلم في الآخرة .

(وَلَكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (١٧٩)

وقوله تعالى : (ولكم في القصاص) اه أي ولكم في تشريع القصاص على الوجه المذكور حياة للأمة ، فلا يمد أحد يده إلى غيره بالقتل غالباً مخافة أن يقتص منه . وفي ذلك كسب إطمئنان على حياة الجاني والمجنى عليه وغيرهما ممن تسري الفتنة إليه يا أولى الألباب والعقول الناضجة الخالصة ، لعلكم تتقون الله في المحافظة على القصاص والحكم به والإنقياد التام له .

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ ، إن تَرَكَ خَيْراً ، الوَصِيَّةُ لِلوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حقّاً عَلَى المُتَّقِينَ (١٨٠) ، فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْم عَلَيْهِ ، إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٨٢)

قوله تعالى : (كتب عليكم) أي فرض عليكم . قوله : (إذا حضر أحدكم الموت) أي علامة الموت ، كالمرض المخوف لاسيما للشيّاب ، وقوله (إن ترك خيراً) أي مالاً كثيراً . وروي ذلك عن علي وابن عباس وعائشة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، وقالوا في سبعمائة دينار إنه قليل . والظاهر أن

المراد بالخير المال الذي يحتمل عادة التبرع بمقدار منه مع بقاء ماينفع من بقي من الورثة ويسد حاجتهم المؤقتة •

وقوله : (الوصية) وهي لغة كل شيء يؤمر بفعله في الحياة وبعد الموت ، ، وخصّصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت • وقوله : (بالمعروف) أي بالعدل أي لايزيد على الثلث ، ولا يوصى للغني ويدع الفقير •

وكان السبب في نزول هذه الآية : أن أهل الجاهلية كانوا يوصون بما لهم للبعدى رياء وسمعة ، وطلبا للفخر والشرف ، ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة ، فصرف الله تعالى بهذه الآية في بدء الإسلام ما كان يصرف إلى الأبعدين إلى الوالدين والأقربين فعمل بها ما كان العمل بها صلاحاً وحكمة •

ثم إن هذا الحكم كان في بدء الإسلام ثم نسخ بآية المواريث كما قاله ابن عباس وابن عمر وقتادة وشريح ومجاهد وغيرهم • وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن خارجة ـ رضى الله تعالى عنهم ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبهم على راحلته فقال : وإن الله قد قسم لكلإنسان نصيبه منالميراث فلا تجوز لوارث وصية •

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن أبي أمامة الباهلي : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع في خطبته يقول : إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث • وأخرج عبد بن حميد عن الحسن نحو ذلك • وهذه الأحاديث لتلقي الأمة لها بالقبول إنتظمت في سلك المتواتر في صحة النسخ بها عند أئمتنا قدس الله أسرارهم ، بل

قال البعض : إنها من المتواتر ، وإن التواتر قد يكون بنقل من لايتصور تواطؤهم على الكذب ، وقد يكون بفعلهم بأن يكونوا عملوا به من غير نكير منهم • على أن النسخ بآيات الفرائض والسنة مبينة لها •

ثم إن القائلين بالنسخ إختلفوا : فمنهم من قال : إن وجوبها صار منسوخاً في حق الأقارب الذين يرثون ، وبقي في حق الذين لا يرثون من الوالدين والأقربين ، كأن يكونوا كافرين ، وإليه ذهب ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ • وروي عن علي كرم الله وجهه : من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لا يرث فقد ختم عمله بمعصية •

وبعد نسخ الوصية الواجبة بالنسبة للوالدين والأقربين فالأصل فيها الندب ؛ لأنها في ذاتها قربة ، وكل قربة لا أقل من أن تكون مندوبة ، وقد تكون واجبة لمن كانت عنده وديعة أو عليه حقوق الغير وهناك تركة توفي منها ، وقد تكون محرّمة مثل الوصية لجهة المعصية ، أو مكروهة كالوصية بالزائد على الثلث فيما إذا كان له ورثة • وقد تكون مباحة • كذا قالوا • وفيه نظر ، لأن ما وضعه على الندب لا يكون مباحاً فهي مندوبة •

وقوله : (حقاً على المتقين) حقاً مصدر مؤكد للحدث الذي دل عليه كتب • أي حق ذلك حقاً •

وقوله : (للمتقين) للدلالة على أن المحافظة على الوصية والقيام من شعائر المتقين الخائفين من الله تعالى •

وقوله تعالى : (فمن بدله) الضمير عائد إلى الحكم المستفاد من قوله كتب عليكم أو إلى الإيصاء المستفاد من الوصية • والمبدّل إما الوصي أو الشاهد على الأمر أو القائم على تنفيذه من الحكّام • وقوله : (بعد ما سمعه) المراد بعدما وصل إليه وتحقق عنده • وقوله : (فإنما إثمه) أي

فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل إلا على مبدّله؛ لأنه الذي خان وخالف الشرع . وقوله : (إن الله واسع عليم) وعيد للمبدلين .

وقوله تعالى : (فمن خاف) الآية الخوف : توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب كذلك . والجنف الميل بالخطأ في الوصية . والإثم هو التعمد فيه . وهذه الآية الشريفة في معنى الإستثناء من المبدلين أي كل مبدل له أثم إلا من ادرك أن الموصي يميل إلى ظلم خطأ أو تعمداً ، وحصل هناك نزاع بين الورثة والموصى لهم ، بأن يأمر الموصي بالعدل والرجوع عن تلك المظلمة في الوصية ودفع ما يورث النزاع والفتنة حالاً أو مآلاً فلا إثم عليه لأنه أراد الإصلاح وأصلح بينهم فعلاً فهو مثاب لا معاقب .

وقوله تعالى : (إن الله غفور رحيم) أتى به للوعد بالثواب للمصلحين . ويدخل في الجنف والإثم ما لو وصى الموصي بالزيادة على الثلث عند إباء الورثة ، أو بالحرام أو المكروه والوصية للوارث .

(يا اَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) اَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً اَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ اَيَّامٍ اُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيرٌ لَهُ ، وَاَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١٨٤)

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى والْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ

فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَاهَدَيكُم ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٨٥)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية واعلم أن الصوم أحد الأركان الخمسة للإسلام • وهو من العبادات الراسخة السابقة في الأديان السماوية لما يترتب عليه من المحاسن • فإن الإنسان قبل كل شيء يهمه الأكل والشرب لإدامة حياته ، ثم المشتهيات النفسية • فالأكل والشرب من لوازم حياته والشهوات من التوابع ، فإذا امتنع من هذا الأمر الذي هو من لوازم ذاته إطاعة لله تعالى فقد تحلّى بعبادته تعالى • وإذا صام وأمسك عن المفطرات صوماً يستحب في الدين فلاشك أنه تضعف قوته الشهوية فيتعفف وينال رضاء ربه تعالى والصبر عن الأكل والشرب وقضاء الشهوة في درجة لا حساب لها • • وعليه يقول تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأَجْلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي » ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغَضّ للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء) أي قاطع لشهوته •

ففي الصيام تدريب النفس على الجوع والعطش تدريباً يعود بالنفع له أيام الشدائد والمجاعة والحروب • وفيه كبح جماح النفس عن الشهوات وتنويرها بأنوار الطاعة وتقريب لها إلى رضاء الباري سبحانه وتعالى • وفيه إنتباه لأحوال الجياع العطاش وترحم بهم • وفي ذلك إقتراب من الله

تعالى . فقد ورد : الراحمون يرحمهم الرحمن . علاوة على ما يظهر من تجليات رحمة الباري سبحانه وتعالى عند الإفطار ، وعند السحور ، ووقت الأسحار ، ويوم البعث والوقوف بين يدي الله العزيز الغفار .

وللصوم درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما الأول : فهو كف البطن والفرج من قضاء الشهوة . وأما الثاني : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما الثالث : فهو صوم القلب ومنعه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ، وتوجيهه إلى الله تعالى فيتنور بأنوار القدس ، ويطمئن ، وفي الإطمنان سعادة الإنسان .

وشرائط وجوبه : الإسلام والبلوغ والعقل والقدرة على الصوم . وفرائضه : النية أي قصد صيام فرض رمضان تلك السنة بالليل . والإمساك عن الأكل ، والشرب ، والجماع ، وتعمّد القيىء . والمفطرات : ما وصل عمداً إلى الجوف أو الرأس أو الحقنة في أحد السبيلين والقيىء عمداً والوطء عمداً في الفرج والإنزال عن مباشرة ، والحيض والنفاس والجنون والرّدة . ويستحب فيه تعجيل الفطر ، وتأخير السحور ، وترك الكلام الفاسد .

وأما لوازم الإفطار فأربعة : القضاء ووجوبه عامّ على كل مسلم مكلف تَرَكَ الصومَ بعذر أو بغير عذر . فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد . والكفّارة ولا تجب عند الإمام الشافعي إلا بالجماع ، وتجب عند الإمام أبي حنيفة به وبغيره من المفطرات وهي عتق رقبة ، فإن لم يمكن فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فإطعام ستين مسكينا كل مسكين مدّ عندنا ، وطعام مسكين عند الحنفية نصف صاع من البرّ . والفدية : وتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما ، لكل يوم مدّ وهذا

عند الشافعي . والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مدّاً . وإمساك بقية النهار ، ويجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . وإذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطقه . ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيما في أوله ، ولا يوم يقدم ، إذا قدم صائما .

وما عدا الصوم الواجب إما حرام وهو صوم يومي العيدين وأيام التشريق الثلاث ، وإما مكروه ، وهو صوم يوم الشك . إلا أن يوافق عادة له ، والنصف الأخير من شعبان وإما مندوب ، وهو إما يتكرر في كل سنة كصوم ست من شوال ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، والتسعة الأولى من ذى الحجة ، والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . أو يتكرر في الشهر وهو أوله ، وأوسطه ، وآخره . أو يتكرر في الأسبوع وهو صوم يوم الإثنين والخميس . والتفصيل في كتب الفقه فلتراجع .

وبعد بيان تلك النبذة نقول : قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية نداء منه سبحانه وتعالى للمؤمنين ويقول يامن إتصف بشرف الإيمان الداعي لإطاعة الرحمن إعلموا أنه كتب وفرض عليكم الصيام ، وجعل ركناً من أركان دينكم ، كما كتب على المكلفين الذين كانوا من قبلكم في عهد الأنبياء والأمم السابقين . وفي ذلك توكيد للحكم الإيجابي ، وترغيب لهم في الوفاء به إعتقاداً وعملاً خالصاً وتطييب لأنفسهم في فرض طاعة مباركة في العمل بها سعادة للدارين . وإنما فرض عليكم لعلكم تؤدونه وببركة أدائه تتقون المعاصي ، فإن الصيام قاطع لعرق النزوع إلى المشتهيات الفاسدة التي تؤخر الإنسان عن السبق في الدين .

وقوله : أياماً معدودات يعني كتب عليكم الصيام والإمساك عن المفطرات في أيام معدودات من الفجر إلى غروب الشمس • وقوله : (معدودات) كناية عن قلتها فإن القليل من الشيء يعدّ عدّاً • والمراد بها أيام شهر رمضان المبارك الذي يأتي بعدُ •

ولما فرض الباري صيامه على المكلفين ولا يخلو أهل التكليف عن الأعذار المانعة غالبا أتى بإخراج المعذورين فقال : فمن كان منكم مريضاً مرضاً لا يتحمل معه الصيام عادة ، أو كان على سفر مستقراً عليه ومباشراً له بحيث يعتبر الصيام فيه خارجا عن طاقة أوساط الناس فالواجب المحتم عليه صيام عدة من أيام أخر بقدر أيام سفره ، إن أفطر في أيام مرضه أو سفره • فتأجيل الصيام لهما رخصة لوجود العذر لهما مع قيام السبب لأداء الواجب • هذا في المعذورين بعذر طارىء غيرِ مزمنٍ • وأما المعذورون بعذر ثابت لا يزول عادة في ذلك الشهرِ ؛ كالشيخ الهرم ، والعجوز العاجز ، فلا تجب عليهم الصيام وجوباً منجزاً ، وإنما يجب وجوباً مخيراً ، فإن صاموا فقد قاموا بالواجب المبارك ، وإن أفطروا وأدّوا الفدية عنه فقد فازوا برضاء الباري تعالى وتبارك•فقوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه فدية) أي وعلى الذين يبلغون في الصيام نهاية طوقهم وطاقتهم لعسره عليهم أو على الذين يسلبون طاقتهم عن الصوم أي لا يقدرون عليه حسب العادة فدية ، وهي : طعام مسكين مقدر بمدّ من الطعام عند الحجازيين ، ونصف صاع من بر عند الأئمة العراقيين الناشرين لأحكام الدين فيها كعبدالله بن مسعود وأشباهه • فمن تطوع خيراً فزاد في الفدية فهو خير له ، وأن تصوموا أيها الذين عسر عليكم فهو خير لكم من الفدية لأن الأصل خير من الفرع ، إن كنتم تعلمون ما في الصيام من الأجر عن العليم العلام ما تركتموه وأديتموه بالإهتمام •

وإنما فسرت قوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه) على ما ذكرت موافقة للقراءات المروية الثابتة التي كلها نص في معنى المباشرة بالعسر والتكليف • فقد قرىء يُطَوَّقُونَهُ على صيغة المجهول من باب التفعيل ، أي يُكَلَّفُونَه ويقلّدونه • كما قرىء يتطوّ قُونَه على صيغة المعلوم من باب التفعل ، أي يَتَكَلَّفونه • كما روى يَطَّوَّقُونَه بفتح الياء والطاء والواو المشددتين من باب التفعل ، وأصله يَتَطَوَّقونه ؛ فقلبت التاء طاء وأدغمت الطاء في الطاء ومعناه يَتَكلّفونه •

وقرىء (يُطَيِّقُونَه) بضم حرف المضارع وفتح الطاء المخففة وكسر الياء المشددة ، وأصله يُطَيْوِقونه مثالَ يُبَيْطِرونَهُ ، فالياء زائدة ، والفعل من الطوق • و (يَطَّيَّقونه) بفتح حرف المضارع والطاء والياء المشدّدتين ، وأصله يَتَطَيْوَقُونه • وهاتان القراءتان على صيغة المبني للفاعل وقالوا : إنهما من فَيْعَلَ وتَفَيْعَلَ • لا من فعّل وتفعّل بتشديد العين • وإلا لكانا بالواو دون الياء ؛ لأن المجرد طوق بالواو • فاجتمع فيهما الواو الأصلية والياء الزائدة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء على القاعدة المقررة • فتكون الصيغتان من الملحقات بالرباعي بزيادة الياء قبل عين الفعل كما في بَيْطَرَ • ومعناهما يتكلّفونه أي الصيام • لكنه يستفاد من الشهاب على البيضاوي أنهما من فعّل وتفعل بتشديد العين كفرّح وتكسر • وضعّفت الواو التي هي عين الفعل ، ثم قلبت ياء لأنها أخف على اللّسان • ويقول : إنه قد كرر (إبن جني) هذا القلب وجعله كقاعدة ثابتة بلا تردّد • قلت : وعليها يستعمل التقييم بدل التقويم • وهذه القراءات منقولة من ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وكلها يدل على معنى يتكلفونه وتتفق مع ما ذكرنا في تفسير (يطيقونه) من

باب الإفعال • وتنطبق على الشيوخ والعجائز الضعاف حيث يكتفي منهما بالفدية وإن كان الصوم لمن صام منهما أحْسَن وَأوْفى •

ولا داعي لتفسير (يطيقونه) بإطاقة الصيام بسهولةٍ وتقدير حرف النفي عليه ، إذ تقدير حرف النفي عند بيان الأحكام ينفيه المعقول والمنقول • نعم قد فسر (يطيقونه) على الطاقة الإعتيادية المضبوطة بناء على أن الصوم كان إختياريا في أول تشريعه ثم نسخ بقوله تعالى (شهر رمضان) الآية الكريمة • لكنّ المحقّين من المحقّقين عارضوا هذا المعنى لوجوه :

الأول : أن صدر الآيات يصرح بأنه كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم في الأديان السابقة ، ولم ينقل أحد أن الصيام كان إختيارياً فيها •

الثاني : أنّ بيان أحوال المعذورين من المسافرين والمرضى يدل دلالة واضحة على أن الصيام لم يكن إختيارياً لا في الأول ولا في الآخر لأن الأمر الإختياري لغير المعذورين يكون إختيارياً للمعذورين بالطريق االأولى •

الثالث : أنه لو كان منسوخاً بقوله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن الآية ما كان يذكر الباري تعالى في آخرها يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، لأن إرادة اليُسْر تنافي نسخ التخيير إلى التنجيز وإيجاب الصيام وحده ، وهو ظاهر •

وعليه فقد ثبت تشريع الصيام في شهر رمضان ، وبيّن حكم المعذورين بأعذار مؤقتة كالمسافرين والمرضى بأن لهما الإفطار ثم قضاء ما فات في أيام أخر ، كما بيّن حكم المعذورين بأعذار لا تزول كالشيوخ والعجائز بأن عليهم الفدية لا غير •

وأما المعذورون بالإبتلاء بالأشغال الشاقة في شهر رمضان المبارك كالحصّادين ، والدّياسين ، والحدادين ، والحاملات ، والمرضعات اللاتي يخفن على أنفسهن أو الحمل أو الولد ، وأمثال أولئك فقد قرر الفقهاء قياسها على المسافرين أو المرضى مرضاً موقتاً بجامع وجود المشقة التي لا تطاق حيث قرروا أن لهم الإفطار ثم قضاء ما فات من الصّيام • وأما إيجاب الفدية على الحامل والمرضع إذا خافتا على الحمل أو الولد لا على النفس فهو أمر إجتهادي مقرر ومدلل في محلّه •

وقوله تعالى : (شهر رمضان) مبتدأ وخبره يأتي ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي ذلكم شهر أو هي أي تلك الأيام شهر رمضان ، وعلى قراءة النصب بدل من قوله ايّاماً معدودات ، ورمضان مصدر رَمَض إذا احترق ولكنه مصدر شاذ ؛ لأن الموزون بفَعَلان لا يأتي في الفعل اللازم • وأسماء الشهور العربية ثلاثة منها صارت أعلاماً مع لفظ شهر وهي : شهر رمضان ، وشهر ربيع الأول ، وشهر ربيع الثاني • والباقي منها أعلام بدون لفظ شهر ، ولا حاجة إلى إضافة شهر إليها ولذلك قالوا :

ولا تضف شهراً إلى اسم شهر

إلا لما أوّله الرا فادر

واستثن منه رجباً فإنه

ممتنعٌ إضافةُ الشهرِ لَه

وعلى ذلك فنحو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من صام رمضان الخ من باب حذف جزء العلَم لعدم الإلتباس •

وهو غير منصرف للعلمية والألف والنون المزيدتين ، ولا يقدح فيه وجود المضاف •

وقوله تعالى : (أنزل فيه القرآن) أي أنزل فيه كلّه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم نزل منجما إلى آخر حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو ابتدىء فيه إنزاله وكان ذلك في ليلة القدر ، كما قال تعالى إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم • وقال إنا أنزلناه في ليلة لقدر • ولا نظر إلى أن شهر رمضان من الشهور العربية • وهي دائماً في التحول والإختلاف فتقع في مواسم الفصول الأربعة فإنّه لمّا أنزل الله تعالى القرآن في ليلة القدر من ليالي رمضان فقد قرر جزءً من هذا الشهر موسم نزول تجليات الرحمة على العباد المطيعين ، لأنه أخبر بأن تلك الليلة تفضل العبادة فيها على عبادة ألف شهر • فاحفظه • وهو تعالى قادر على إنزال رحمته في كل آن على من يشاء من عباده •

والقرآن في الأصل مصدر كالغفران بمعنى القراءة ، ثم جعل علماً للقدر المشترك من الكتاب المنزل على سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ كله أو بعضه • فسورة الإخلاص قرآنٌ ومن القرآن • وقوله : (هدىً للناس) حال من القرآن ، وهدايته لهم بيان طريق الحق والصراط المستقيم • كما قال تعالى : إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وقوله تعالى : (وبينات من الهدى والفرقان) حال منه أيضا • وتفيد أنها تشهد على رسالة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ باعتبار أنّها تعجز الثقلين عن معارضتها والإتيان بمثلها وتُفَرِقُ بَين الحق والباطل • فإن القرآن هو القول الفصل ، وهو الحكمة وفصل الخطاب ، وقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) تأكيد لفرض صيامه • على المكلفين •

ثم إن شهود الشهر عبارة عن حضور المكلف شهر رمضان ، ودخوله فيه وللأئمة فيه آراء • قال أبو حنيفة ــ رضي الله عنه ــ : إن كانت السماء

مُتَغَيِّمَة قبل واحد ، وإن كانت صاحية ببلد أو قرية كبيرة لم تقبل إلا شهادة الجم الغفير • وروي عنه أنه تقبل شهادة عدلين • وقد روي عن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه لايجوز أن يصام ولا يفطر بأقل من شهادة رجلين عدلين • وقال الشافعي في رواية المزني أنه يصام بشهادة رجل واحد على الرؤية ولا يفطر بأقل من شهادة رجلين •

وسبب إختلافهم إختلاف الآثار في هذا الباب وتردد الخبر في ذلك بين انّه من باب الشهادة أو من باب العمل بالأحاديث التي لا يشترط فيها العدد بعد الإتفاق على قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين •

وإذا ثبتت رؤية الهلال فيأيّ بلد ثبت حكمها فيالبلد الغربيّ منه، وأما في البلد الشرقي فتثبت عند من لم يعتبر باختلاف المطالع كأبي حنيفة ومالك وأحمد • وأما عند الإمام الشافعي فلا تثبت فيه إعتباراً باختلاف المطالع •

روى مسلم عن كُرَيْب أن أم الفضل بنت حارث بعثته إلىمعاوية بالشام، قال : فقدمت الشام فقضيت حاجتها ، واستُهل عَلَيَّ رمضانُ وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ، ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال : متى رأيتم الهلال ؟ فقلت : رأيناه ليلة الجمعة • فقال : لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين ، أو نراه • هكذا أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقوله : (فمن كان منكم مريضاً) للمريض أحوال : الأولى أن لا يطيق الصوم فعليه الفطر وجوباً • الثانية أن يقدر على الصوم لكنه بمشقة وتعب فيجوز له الفطر ويترجح على الصوم • الثالثة : أن يقدر عليه بدون مشقة فيجوز له الصوم ويترجح على الفطر •

وقوله تعالى : (أو على سفر) إختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر وقصر الصلاة . فقال الإمام أبو حنيفة : ثلاثة أيام . وعند الشافعي يومان . وكذا عند مالك . والذي في البخاري وكان إبن عمر وابن عباس يفطران ويقصران في أربعة بُرُدٍ وهي ستة عشر فرسخاً . والفرسخ : ثلاثة أميال . والميل : ستّة آلافِ ذراعٍ بذراع اليد . وهذه المسافة تساوي (٨٠½) كيلومتر و (١٤٠) متراً .

وقوله تعالى : (ولتكملوا العدّة . ولتكبروا الله على ما هداكم) يعني بين الله تعالى الأيام المعدودات للصيام المفروض بشهر رمضان المبارك حتى يتحدد عندكم أيام الصيام ، وتكمّلوا عدتها ، فإن الشهر ظرف معين محدود بالإبتداء والإنتهاء ولتكبّروا الله بعد إنتهاء الشهر ، إعلاناً لختم عبادته وإعلاماً بعظمة شريعته . وفي صيغة التكبير أَوْجُهٌ . والمقرر عند الإمام الشافعي ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر (ثلاث مرات) لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر (مرتين) ولله الحمد . ويسن التكبير عنده بعد غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى الشروع في صلاة العيد ، وينقطع بعد ذلك في عيد الفطر . ويبقى في عيد الاضحى إلى عصر آخر أيام التشريق . كما أن التكبير هناك يبدأ بصبح يوم عرفة المبارك .

ولعلكم تشكرون ربكم على تشريع هذا الصيام لنيل الرضا ودرجات دار السلام وتحديد أيامه بشهر حتى لا تشتبه عليكم بمرور العصور والأيام، وترخيصه للمرضى والمسافرين وبإباحة الإفطار وقضاء ما فاتهم رفعاً للعقاب على الآثام .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (١٨٦)

سأل بعض الصحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزلت الآية . وهذا ما ذكر في سبب النزول . والواقع أن الآية الشريفة ممزوجة ببيان الصيام وأحكامه ، ثم إكمال العدة وتكبير الله تعالى وشكره على هذه الإنعامات العظيمة ، فعقبها بهذه الآية المباركة للدلالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم وسميع لأقوالهم ، ومجيب لدعائهم إذا كانوا مستجيبين لله تعالى في أداء الواجبات وترك المحرمات ، والإتيان بسائر الطاعات .

ومعناها : أنا معهم حيثما كانوا ولا أضيع عمل عامل منهم ، وإذا دعاني داع منهم فإني مجيب له ومجازيه على دعائه ، وكذلك شأني مع عبادي المؤمنين فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والإطاعة والإحسان . وليؤمنوا بي على بلاغ المرسلين ونوابهم وليثبتوا ويداوموا عليه في مستقبل الأزمان لعلهم يرشدون ويصيبون الحق فينالوا سعادة الدنيا والدين .

فإن قال قائل : قوله تعالى : فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانی حق . فما للداعي قد يدعو ولا يجاب ؟ فالجواب : أن الآية الكريمة وإن كانت مطلقة لكنها مقيدة بقيود واردة في الكتاب والسنة .

منها : أن يكون الدعاء بتفرغ وخفية أي بينه وبين ربه لا بالرياء والجهار . قال تعالى : (أدعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

ومنها : أن لايكون الداعي معتدياً بأن يدعو دعاء فيه إثم أو قطع رحم لما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ،

وإما أن يدخر له ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها قالوا : إذن نُكْثِر قال : الله أكثر » أي : اللهُ أوسع نعمةً ، وأَوْفى دائرةً للقبول .

ومنها : أن لايكون أكلُه وشربُه ولبسُه وسكنُه حراماً . قال ـ صلى الله عليه وسلم : « الرجل يطيلُ السفر أشعث أَغْبَرَ يمد يديه إلى السماء : ياربّ ياربّ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغُذِي بالحرام فأنّى يُستجاب لذلك ؟ » .

ومنها : أن يكون الدعاء بالعزم . روى الأئمة ، واللفظ للبخاري ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة . ولا يقولن : أللهم إن شئتَ فأعطني فإنه لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ » .

ومنها : ملاحظة الأوقات والأحوال فإن للدعاء أوقاتاً وأحوالاً يكون الغالب فيها الإجابة وذلك كالسحر ، ووقت الإفطار ، وما بين الأذان والإقامة ، وما وافق نزول المطر ، أو حالة الإضطرار ، أو المرض أو السفر . وما كان في المسجد الحرام أو بين الركن والمقام ، أو عند رؤية روضة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام . وما كان بعد صلاة الحاجة وهي ركعتان يقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون ، وفي الثانية الإخلاص ثم يحمد ربه ويسبحه ويهلل ويصلي على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يدعو بعزم ورغبة وظنّ إجابة فإنه إن شاء الله يستجاب له .

وقد يستنبط غالب هذه القيود من قوله تعالى (فليستجيبوا لي) ومعناه فليطيعوني في ما آمُرُهم وأنهاهم حتى أجيبُ لهم دعاءَهم ومُترجّاهم .

وبعد ذلك فليعلم المؤمن العاقل أن الله تعالى فاعل مختار وفعّال" لما يريد ، وجميع وعوده مقيدة بالمشيئة • فيقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) • وقال : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) • ويقول : (فيكشف ما تدعون إليه إن شاء) • وما يدريك فلعل ما دعوت به لنفسك قد دعا به احد قبلك أو معك لنفسه وَقد قبل الله دعاءه ، فقد سبقك بها عكاشة • أو أن ذلك الأمر الذي تدعو بحصوله قد أبرَم الله فناءه أو ما تدعو بزواله قد أبرم الله القضاء ببقائه ، ومعلوم أنه لا مرد لقضائه •

والحاصل : إن الدعاء بالخير لك أو لغيرك بحصول نعمة أو بدفع نقمة بعد تحقق القيود السابقة هو تحت المشيئة رداً وقبولاً • ولكن دائرة القبول أوسع • ونرجو من الله سبحانه وتعالى القبول بفضله ورحمته إنه سميع قريب مجيب •

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ ، ولاتُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ، كذلك يُبَيِّنُ اللهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١٨٧)

قوله تعالى : (أحل لكم) الآية بيان لبعض أحكام الصوم • روى البخاريّ عن البراء قال كان أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبلَ أن يُفطر لم يأكل ليلتَه ولايومَه حتى يمسي • وإن قيس بن صَرمة الأنصاريّ كان صائماً ، وفي رواية كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائماً فلما حضر الإفطار أتى أمرأته فقال لها : أعندكِ طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك • وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته إمرأته ، فلما رأته قالت : خَيْبَةً لكَ ! فلما انتصف النهار غُشِيَ عليه ، فذكر ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فنزلت هذه الآية أحلّ لكم الآية • ففرحوا فرحاً شديداً • ونزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيَضُ من الخيط الأسوَدِ مِن الفجر) •

وفي البخاري أيضاً عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لايقربون النساء رَمَضانَ كلّه ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله تعالى : (علم الله أنكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) فقوله تعالى : (اُحِلّ) بصيغة الماضى المجهول يقتضي أنه كان محرّماً قبل ذلك ثم نسِخ وأبيح • وقوله : الرفث كلمة جامعة لكلّ ما يريد الرجل من إمرأته • وقال إبن عرفة : الرفث هنا الجماع • وضمّن معنى الإفضاء الذي يراد به الملابسة • ولذلك أوصل بكلمة إلى• وقوله تعالى : (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن) إستئناف لبيان سبب الإحلال ، وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة إجتنابهنّ • وأصل اللباس في الثياب ، ثم سمي إمتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لامتزاجهما وتلازمهما تشبيهاً بالثوب ، أو لأن كلاً منهما يستر صاحبه ويمنعه عن الفجور • وقوله : (تختانون

أنفسكم) أي تخونونها وتظلمونها بتعريضها للعقاب • والإختيان أبلغ من الخيانة كالإكتساب أبلغ من الكسب •

وقوله : (فالآن باشروهن) أي بعد نسخ التحريم عنكم • وكان التحريم بالسنة ونسخت بالقرآن • وقوله : (وابتغوا ما كتب الله لكم) إرشاد للمؤمنين بأن يطلبوا عند المباشرة ما كتب الله لهم من ولد صالح يستفاد من عمله ونسله كأصله وإعفاف النفس عما يبعدها عن القدس • وقوله : (حتى يتبين لكم) بيان مبدأ الإمساك ، والخيط الأبيض : مبين بالفجر وظهور بياض الأفق الشرقي ، واستغنى به عن بيان الخيط الأسود بالليل • وقوله : (وأتموا الصيام إلى الليل) بيان لمنتهى الإمساك • فجعل الباري تعالى كل الليل ظرفاً للأكل والشرب والجماع وسائر المباحات • كما جعل كل النهار ظرفاً للصّيام والأعمال الصالحة وسائر المباحات للأنام • فمعناه أنه إذا أصبح جنباً واغتسل بالنهار صح صيامه ، ولكن على المغتسل الإحتياط لصيانة منافذه عن تسرّب الماء منها إلى الجوف الشرعي ، يعني الدماغ والحلقوم والمثانة وما قابلها من الوراء • كما أن في الآية دليلاً على أنه يحل الإفطار بدخول الليل ، وعلامته ظهور السواد من الأفق الشرقي • ومن الخير للأمة التعجيل بالإفطار عند إنتهاء النهار • وتيقن دخول الليل لا يحتاج إلى أكثر من دقيقتين • ويستحب السّحور وتأخيره أفضل لمزيد القوة في الأمر ولاقتراب الفجر • ومن إتمام الصوم إستصحاب النية من أوله أي عند بقاء جزء من الليل لأن الصيام عمل مهم من أركان الإسلام • وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما الأعمال بالنيات » • وظاهر الحديث الشريف أنّ وجود العمل المشروع بالنية ، وهي قصد إمساكه في جميع نهار الغد عن أداء فريضة رمضان السنة التي هو فيها •

ويستحب الإعتكاف في كل وقت ، وفي العَشر الأواخِرِ من رمضان أفضل لطلب نيل بركة ليلة القدر . وهي في أوتارها أرجى ، وميل الشافعي إلى أنها ليلة الحادي أو الثالث والعشرين . وميل أبي حنيفة إلى أنها ليلة السابع والعشرين . وهو لغة : الملازمة للشيء والعكوف عليه . وفي عرف الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص ، في موضع مخصوص . وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب بل قربة من القُرب . وأجمعوا على أنه لا يكون إلا في المسجد ، وأقله عند مالك وأبي حنيفة يوم وليلة . وقال الشافعي : أقله لحظة ولا حدٌ لأكثره . ويكون مع الصوم وبدونه وعند أبى حنيفة يشترط أن يكون مع الصوم . والجماع يفسد الإعتكاف ، وعليه قوله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) فإذا جامع المعتكف في المسجد أثم وبطل إعتكافه أو في غيره بطل ولم يأثم إن كان الإعتكاف نفلاً والا أثم .

وقوله : (تلك حدود الله فلا تقربوها) أي تلك الأحكام الستة المذكورة المشتملة على : إيجاب وتحريم وإباحة حدود حاجزة بين الحق والباطل ، فلا تقربوها حتى لاتقربوا الباطِلَ . والذي أعتقده أن جملة لا تقربوها كناية عن لا تمسوها بسوء ولا تخالفوها ؛ لأن من كان حارسا على طعام أو شراب واقترب منهما يمد اليد إليهما غالبا ، فكذلك كل حكم من أحكامه تعالى يجب المحافظة عليه ، ولا يخالفه المكلف . فذكر تلك الجملة كناية عن تلك الجملة .

وقوله : (كذلك) أي كذلك المذكور من الأحكام الواضحة المبينة يبين الله آياته أي آيات أحكامه للناس لعلهم يتقون المعاصي فيرتقون على مدارجِ رحمةِ ربِ العالمين .

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَتُدْلُوا بِها إِلى الحُكّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(١٨٨)

نزلت الآية في عبدان ابن أشرع الحضرمي إدعى مالا على إمرىء القيس الكندي واختصما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنكر إمرىء القيس وأراد أن يحلف فنزلت هذه الآية : فكف عن اليمين ، وَحَكّمَ عبدان في أرضه ولم يخاصمه • وامرؤ القيس هذا صحابي وليس الشاعر المشهور ؛ لأنه جاهلي • وسبب النزول خاص والحكم عام يتضمن جميع أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض نقداً أو عرضاً ، ولا يتمتع بمنافعه بدون حق فيدخل في هذا القمار ، والغش ، والخداع ، والغصب ، وسائر وجوه الإستيلاء على أموال الناس •

كما يستفاد منها حرمة التوسل بالمحاكم الشرعية لأخذ مالٍ بالطريق المعتاد ما دام يعلم أن لا حق له فيه •

ويستفاد من الآية الشريفة أن حكم الحاكم باستحقاق شخص لمالٍ بشهود ظاهرهم العدالة إنما ينفذ ظاهراً لا باطناً وأنه يحرم على المدعي التمتع بذلك المال • قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه • فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار فليحملها أو يذرها » •

(يَسْئَلونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ : هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنّاسِ والحَجِّ ، وَلَيْسَ البِرّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيوتَ مِنْ ظُهورِها ولَكِنّ

الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١٨٩)

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم ؛ فقالا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فنزلت الآية . سألا عن السبب والعلة لعروض الإختلافات على القمر فيبدو دقيقاً ويسمى بالهلال ، ثم يزداد حجمه إلى أن يبلغ صورته في التربيع ، ويزداد إلى البدر ثم يتناقص إلى آخر الشهر فيغيب ويعود مرة أخرى كما السابق .

ولما لم يكونوا مستعدين لفهم تلك الأسرار لغموضها ووقتها أجاب ببيان الحكمة والفوائد الناشئة عن تلك الإختلافات لتكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم ، وللعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها ولاسيما للعبادة التي كان ركنا من الإسلام وهو الحج ؛ فإن الوقت فيه مرعي جدا ولا يجوز النسيء فيه وتأخير وقته . وذكر أن مثل أولئك السائلين كمثل من أراد أن يدخل داراً وترك باب البيت ولم يدخل منه ، ودخل من ورائه . وقال بعض : إن قوله تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إتصل بذكر مواقيت الحج لاتفاق وقت السؤال عن الأهلّة وعن دخول المحْرِمين بيوتهم من ظهورها فنزلت الآية فيهما جميعاً . وكان الأنصار إذا حجّوا وعادوا لايدخلون من أبواب بيوتهم ، فإنهم كانوا إذا أهلّوا بالحج أو العمرة يلتزمون شرعاً ألاّ يحول بينهم وبين السماء حائل ، فإذا خرج الرجل منهم بعد ذلك أي من عند إحرامه من بيته فرجع لحاجة لايدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فكان يتسنم ظهر بيته على الجدران ثم يقوم في حجرته ، فيأمر بحاجته فتخرج إليه من بيته ، فكانوا يرون هذا من النسك والبر كما كانوا يعتقدون

أشياء نسكاً فردّ الله عليهم فيها وبين الله تعالى أن البر في إمتثال أمره ، فقال تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى • أي ولكن البر بر من اتقى المحارم ، وترك ماحرّمه الله تعالى عليكم • وَأْتوا البُيُوتَ مِنْ أبوابها ، إذ ليس في العدول عنها برّ ، وباشروا الأمور من وجوهها ، واتقوا الله في تغيير أحكامه ، لعلكم تفلحون وتفوزون بالفلاح وتصلون إلى المطلوب بإطاعة ربّ العالمين •

وَقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لايُحِبُّ المُعْتَدِينَ)(١٩٠) لما كان المشركون صدّوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيُخْلُوا له مكةَ ثلاثة ورجع عليه السلام لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لايوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم أو في الشهر الحرام وكرهوا ذلك •• نزلت الآية • أي إذا دخلتم الحرم وجاء المشركون للقتال فقاتلوا الذين يقاتلونكم ويناجزونكم القتال ، ولا تعتدوا بابتداء القتال والمفاجأة به من غير ظهور عزمهم أو مباشرتهم للحرب (إن الله لايحب المعتدين) • أي لايريد بهم الخير •

(وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ والفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ ، وَلاتُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ؛ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ويَكُونَ الدِّينُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إلاّ عَلَى الظَّالِمِينَ)(١٩٣)

قوله تعالى (واقتلوهم) الآيات إما مربوط بما تقدم ، يعني فإن يدؤكم بالقتال فاقتلوهم ، أو فتح باب لحرب الكفار وتهيج للمسلمين على محاربتهم • وقوله : (حيث ثقفتموهم) أي حيث غلبتموهم وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً ، والفعل منه ثقف ككرم وفرح • يعني واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم وقوله : (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أي أخرجوهم من مكة التي أخرجوكم منها ، وقد وقع ذلك في من لم يسلم يوم الفتح • وقوله : (والفتنة أشد من القتل) أي المحنة التي يفتتن بها الناس كالإخراج من الوطن إلى الغربة بدون مال وحال أشدّ عذاباً من القتل ، فإن عذابه ، وإن كان صعباً لكنه موقت بدقائق ، وهذه الفتنة تدوم سنين !

قوله : (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) أي ولا تفاتحوهم بالقتال عند المسجد الحرام صيانة له عن هتك حرماته ، حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم أي فاتحوكم بالقتال فيه فاقتلوهم ، ولا تبالوا بهتك حرمته عند ذلك لاضطراركم إلى القتال ، ولأنكم إذا ظفرتم أعدتم حرمة المسجد الحرام كما هو حقه ، كذلك الذي أمرنا به من قتالهم عند مفاتحتهم لكم بالقتال فيه جزاء الكافرين المعتدين • وقوله : (فإن انتهوا) أي عن القتال والكفر فإن الله غفور رحيم لما سلف منهم من السيئات الإعتقادية والعملية • وقوله : (وقاتلوهم) أي وقاتلوهم حتى لا تكون ولا توجد فتنة بالإشراك ، ويكون الدين والإعتقاد بالله وحده والعمل خالصاً لله • فإن انتهوا عما نهوا عنه ، فلا عدوان إلا على الظالمين المصرّين عليه ، إذ لا يَحْسُنُ أنْ يُظْلَمَ إلا مَنْ ظَلَمَ ، وقتالهم حينئذ ليس إعتداء وتسميته عَدْواناً لمقابلة عَدْوانهم •

(الشَّهْرُ الحرامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ؛ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ)(١٩٤)

نزلت هذه الآية في عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة ، مقابلة لافتخار المشركين على المسلمين في السنة السادسة حين ردوهم عن العمرة واقتص الله تعالى منهم • يعني لما هتكوا حرمة شهركم بالصدّ فافعلوا بهم مثله ، وادخلوا عليهم عَنْوة وقهراً • واقتلوهم إن قاتلوكم ، فعملنا في الشهر الحرام مقابل لعملهم معنا فيه سابقاً ، وفي الحرمات قصاص فدخولنا فيه عنوة في مقابلة صدهم لنا كذلك • فمن اعتدى عليكم وبدأ بالإعتداءِ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، ولا تزيدوا على حقكم في القصاص ، واتقوا الله في كل عمل لم يرخّص لكم فيه • واعلموا أن الله مع المتّقين بالنّصر المبين •

(وَأَنْفِقُوا في سَبِيلِ اللهِ وَلاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ ، وأحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ)(١٩٥)

روي عن أبي ايّوب الأنصاري أنه قال : لما أعزّ الله الإسلام ، وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونُصلحها•فنزلت والمعنى على هذا : أنفقوا أيها المسلمون أموالكم في سبيل الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ولا تتركوا الجهاد في سبيله ، ولا تلقوا بأيديكم أي أنفسكم إلى التهلكة باستيلاء الكفار فيهلكوكم بأنفسكم وأهليكم وأموالكم ، وَأَحْسِنوا إلى أنفسكم وأهليكم بالإنفاق في سبيل الله والجهادِ الّذي يُنجيكم إنَّ اللهَ يحبّ المحسنين •

أو المراد : أنفقوا أموالكم في سبيل الله إنفاقاً للواجب أو للصدقات على وجه الإعتدال ، ولاتلقوا أنفسكم إلى التهلكة بالإسراف والتبذير حتى لايبقى عندكم نقير • وأحسنوا إلى الناس الذين أساؤا معكم إن الله مع المحسنين •

فالأيدي جمع اليد بمعنى الأنفس ، والباء زائدة ، والتهلكة على المعنى الأول هو هلاك النفس بالقتل بأيدي الكفار أو الهوان بالبقاء على الذل تحت أمرهم • وعلى الثاني : ضياع الأموال ، والفقر المدقع بسبب الإسراف والتبذير • والإحسان في الطاعة : إخلاص يوصل إلى درجة الحضور ، وفي الإجتماعيات مقابلة الإساءة بالخير •

(وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ ، وَلاتَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ ؛ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً اَوْ بِهِ أذىً مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ اَوْ نُسُكٍ ، فَإذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إلىَ الحَجِّ فَما اسْتَيسَرَ مِنَ الهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ اَيَّامٍ في الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ اَهْلُهُ حاضِرِي المَسجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ ، واعْلَمُوا اَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ)(١٩٦)

قوله تعالى : (وأتموا الحج) إن الحج ركن من أركان الإسلام الخمس وفرض من فروض الدين ، وفي وقت تشريعه أقوال ، وراجحها أنه فرض في السنة الثامنة من الهجرة ، وأرسل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر في السنة التاسعة فحج بالناس •

والحج : عبارة عن زيارة بيت الله سبحانه وتعالى أداء لفريضة الإسلام في أوقات محدودة بشروط مخصوصة معلومة من الكتاب والسنة .

وأما العمرة : فقد إختلف في وجوبها فمنهم من قال : إنها واجبة ومن أركان الاسلام ، وعليه الإمام الشافعي والإمام أحمد ، وأبو ثور ، وأبو عبيد ، والثوري ، والأوزاعي . وهو قول ابن عباس من الصحابة ، وابن عمر ، وجماعة من التابعين . وقال الإمام مالك وجماعة : هي سنة . وقال أبو حنيفة : هي تطوع ، وبه قال أبو ثور في رواية وداود . ومن أوجبها إستدل بظاهر قوله تعالى (وأتمّوا الحجّ والعمرةَ لله) حيث إنّ مَعْنَى الآيةِ الشريفة الأمر بالإتيان بهما تامّين مستجمعين . وهذا على ميزان قوله تعالى : (وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ) أي فأتو بهن كاملةً . وقوله تعالى : (وأتِموا الصّيامَ إلى الليل) . ومن لم يوجبها قال : المراد إتمامهما بعد الشروع فيهما فإن من أحرم بنسك وجب عليه المضي فيه ولا يَفسخه .

وقوله تعالى : (فإن أحصرتم) مقابل المحذوف ، أي هذا الإتمام لهما إن قدرتم عليه.وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى، أي وإن مُنِعْتم مِن إتمامهما بعدوّ مثلاً ، فالواجب عليكم أن تَذْبحو هَدْياً وتتحلّلوا عَنِ الإحرام على ما يأتي . وقوله : (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يَبْلُغَ الهَديُ مَحِلّه) أي لاتتحلّلوا عن الإحرام ولا يجوز لكم التحلل بحلق الرأس أو تقصيره حتى يبلغ الهدي المبعوث إلى الحرم الشريف مكانه الذي يجب أن ينحر فيه ، وهو الحَرَمُ كما قال تعالى (هدياً بالغ الكعبة) وقال : ثم محلها إلى البيت العتيق . وما روي من ذبحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحديبية مُسَلّم لكن الظاهر أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذبح

الهدي في الجزء الداخل في الحرم منه • وقوله تعالى : (فمن كان منكم مريضاً) الآية مخصص لقوله تعالى : (ولاتحلقوا) الآية أي فمن كان منكم مريضاً مرضاً يحوجه إلى الحلق ، أو به أذى من رأسه من جراحة وقمل وصداع ، واحتاج إلى الحلق وحلق (ففدية من : صيام ، أو صدقة ، أو نسك) • أي فعليه فدية من : صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة بإطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع ، أو نسك أي ذبح شاة • ففي البخاري عن عبدالله بن مغفل قال : قعدت إلى كعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة فسألته عن قوله : ففدية من صيام ، فقال : حملت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقمل يتناثر على وجهي فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا • أما تَجدُ شاةً ؟ قلت : لا • قال : فَصُمْ ثلاثة أيّام ، أو أطعِمْ سِتّة مساكين لكل مسكين نصفُ صاعٍ من طعامٍ ، واحلق رأسك • فنزلت فيّ خاصّة • وهي لكم عامة انتهى •

وقوله : (فإذا اَمنتم فمن تمتع) الآية معناه فإذا كنتم في اَمْنٍ وسَعَة ، ولم تكونوا خائفين ، فمن تَمَتّع بالعُمرة إلى الحج أي إستمتع وتقرّب إلى الله تعالى بالعُمرة إلىوقتالحج أيكانهذا التمتع قبل الإنتفاع بفضيلة مُباشَرَةِ الحج ، وكانَ ذلك في اَشهرِ الحج فيَجبُ عليه ذبحُ ما استيسر له من حيوان مجزىءٍ في الأضحيّة • وهذا الدم دَمُ جبران عند الإمام الشافعي يجوز ذبحه بعد التحلل من عمرته متى شاء ، ولا يأكل منه إلا فقراءُ الحرم • ودم نسك عند الإمام الأعظم كالأضحية يجوز ان يأكل منه هو وأهلُه والأغنياء والفقراءُ • ولكن لا يجوز ذبحه إلا في يوم النحر وما بعده من أيام التشريق •

وقوله : (فَمن لَم يجدْ) أي فَمن لم يجد الهديَ مطلقـاً ، أو وجده بأزيد من ثمن المثل ، أو وجده به ولم يكن قادراً عليه فالواجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج بعد الإحرام به وقبل التحلل منه ، وسبعة أيّام إذا رجعتم إلى أهليكم . تلك عشرة كاملة من أيام الصيام .

وقوله : (ذلك) أي وذلك الحكم وهو التقرب بذبح هدي للواجد وبالصيام تلك المدة للفاقد لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام وحاضِرُوه مَنْ كان مسكنه بمكة المكرمة ، أو بالحرم ، أو بأرض تكون على مسافة القصر ، أو اقل منها لا أزيد ، وإلا فلا يجب عليه بالتمتع شيء من الواجبات المذكورة .

وفي الفقه : ويشترط أن لا يرجع إلى ميقات إحرامه المعتاد . وإلا فلا شيء عليه ، واتقوا الله أي عقابه في مخالفته ، واعلموا أن الله شديد العقاب للمخالفين .

(الحَجُّ اَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلا رفَثَ وَلا فسُوقَ ولا جِدَالَ في الحَجِّ ، وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدوا فَإنَّ خَيْرَ الزَّاد التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا اُولي الأَلْبَابِ)(١٩٧)

قوله تعالى : (الحج أشهر معلومات) بيان للميقات الزماني للحج فإن له ميقاتاً زمانيا ، وميقاتا مكانيا ، أما ميقاته الزماني فقد قال تعالى هو أشهر معلومات ، والمراد بها على ظاهر الآية الكريمة ثلاثة أشهر ، وهي : شوال ، وذو العقدة ، وذو الحجة كلها . وهذا ما اختاره الإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ ووجهه أنه أراد بوقت الحج وقت أعماله ومناسكه من الأول إلى الأخير وما لا يحسن فيه غيره من المناسك ، فإنه يجوز الإحرام

بالحج في أول يوم من شوال وبقاء الحاج محرما إلى أن يأتي بالمناسك كلها : أركانها وواجباتها ، وسننها ، ويرمي الجمار الثلاث في أيام التشريق واستكره الشروع بالعمرة في بقية ذي الحجة • وشهران وعشرة أيام من أوائل ذي الحجة عند الإمام الأعظم • وأيد هذا الرأي بأنّ يوم النحر وقت لركن من أركان الحج ، وهو طواف الركن الذي يسمى طواف الإفاضة وطواف الزيارة، وبأنه فسر يوم الحج الأكبر بيوم النحر، كما فسر يوم الحج الأصغر بيوم عرفة وشهران وتسعة أيام من أوائل ذي الحجة بناء على أن وقت الحج وقت جواز الإحرام بالحج فيه ، وأنه إذا طلع الفجر يوم النحر لايبقى المجال للإحرام والوقت فائت ويؤجل الحج إلى سنة أخرى كما أن الوقوف بعرفة إذا فات فقد فات الحج وعلى هذين الرأيين في الآية الشريفة تجوز لأنه سمى الشهرين وبعضاً من الشهر الثالث أشهراً ، وهي تسمية جارية على العرف •

وأما ميقاته المكاني فقد روى الأئمة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقّت لأهل المدينة : (ذا الحليفة) ولأهل الشام (الجحفة) ولأهل نجد (قرن) ولأهل اليمن (يلملم) (هنّ لهنّ ولمن أتى عليهن من غير أهلهن ممن أراد الحج والعمرة ، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ) حتى أهل مكة يهلّون منها • وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا الحديث واستعماله لا يخالفون شيئاً منه • واختلفوا في ميقات أهل العراق وفيمن وقته • فروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَقّتَ لأهل المشرق العقيق • قال الترمذي : هذا حديث حسن • وروي أن عمر ــ رضى الله عنه ــ وقّت لأهل العراق (ذاتَ عرق) • وفي كتاب أبي داود عن عائشة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَقّتَ لأهل

العراق (ذات عرق) قال القرطبي وهذا هو الصحيح • ومن روى أنّ عُمَرَ وقته لأن العراق أفتتحت في عهده فغفلة منه ، بل وقته رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وقّت لأهل الشام الجحفة ، والشام كلها يومئذ كانت دار كفر كما كانت العراق وغيرها يومئذ من البلدان ، ولم تفتح الشام ولا العراق إلا على عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ •

قال ابو عمر : كلّ عراقيّ أو مشرقيّ أحرم من ذات عرق فقد أحرم عند الجميع من ميقاته • والعقيق أحوط عندهم ، وأولى من ذات عِرْقٍ • وذات عرق ميقاتهم أيضا بإجماع • ثم قال : أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل أن يأتي الميقات أنّه مُحرِم ، وإنما مَنَعَ من ذلك مَن رأى أن الإحرام عند الميقات أفضل ، كراهيةَ أن يُضيّق المرءُ على نفسه ما قد وسّع اللهُ عليه ، وأن يتعرض بما لا يؤمن أن يُحدث في إحرامه ، وكلهم ألزمه الإحرام إذا فعل ذلك لأنه زاد ولم ينقص • انتهى

وقوله تعالى : (فمن فرض فيهنّ الحج) يعني فمن أوجب على نفسه الحج في تلك الأشهر بالإحرام به فيهنّ أو بالتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة فلا رفث أي فلا يجوز الجماع ، ولا القول الفحش • ولا فسوق أي لا يجوز الخروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات والمحرّمات • ولا جدال ولا مِراءَ ولا مجادلة مع الرفاق في الحج • وهذه الأشياء كلها محرمة في الحج • وإثمها فيه أزيد من إثمها في غيره • ويترتب على الجماع فساد الحج ووجوب الفدية وقضاؤه في السنة القادمة • وهذه الفقرات الواقعة جزاء للشرط وإن كانت مع مقدّمها قضايا وهي إخبار لكن المراد بها النهي عنها ، وتبعيد الناس عن مباشرتها •

وقوله : (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) يعلمه كل إنسان مؤمن فاهم ، والغرض منه لازمه وهو الترغيب على الخير قليله وجليله ، وإخلاص النية فيه لأن العمل عبادة لمن يستأهله . وقوله : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) على معناه الظاهر أمرٌ بالتزود بالأعمال الصالحة التي تنفع العاملين يوم لقاء رب العالمين . وعلى معنى مناسبة مورد نزوله أمرٌ بالحجاج أن يتزودوا بما يحتاجون إليه مدة سفر الحج ذهاباً وإياباً حتى لا يكونوا كَلاً على الناس . وقوله : (واتقون يا أولي الالباب) المراد به الأمر بالإخلاص في التقوى لأن أيّ إتقاء وأيّ إجتناب لا يكون لامتثال الله سبحانه وتعالى فهو هابط لاقيمة له في الميزان . جعلنا الله من المتقين المخلصين آمين .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ؛ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ) (١٩٨)

قوله تعالى : (ليس عليكم جناح) عن ابن عباس قال : كانت عُكاظُ ، ومجنّة ، وذوُ المجازِ ، أسواقا في الجاهلية ، فتأثموا أنْ يَتجروا في الموسم ، فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فنزلت الآية . أخرجه البخاريّ . وعن ابن عباس قال : كانوا يَتّقون البيع والتجارة في موسم الحج ويقولون هي أيام ذكرِ لله تعالى . فنزلت الآية . رواه أبو داود وابن أبي شيبة . أي لا جناح عليكم في أن تطلبوا عطاء ورزقاً من الله تعالى بالإسترباح في التجارة فلا تظنوا أن في التجارة في موسم الحج إثماً أو نقصاً في مناسككم حسب الأصول المشروعة .

وقوله تعالى : (فإذا أفضتم) الإفاضة:الإنصباب.وعرفات:كأذرعات جمع لا واحد لهما إذ لم يُسْمَع عرفة ولا أذرعة . وقول الناس : نزلنا بعرفة ليس بعربي محض . وجعلت عرفات إسماً للبقعة المعلومة المعينة الخارجة عن أرض الحرم، وجعل الوقوف بها ركناً من أركان الحج إذا فات فات الحج، ولذلك ورد منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الحج عرفة » وهي هنا إسم لليوم التاسع وإنما سميت البقعة عرفات ؛ لأنها نعتت لإبراهيم عليه السلام فلمّا أبْصَرها عَرَفها ، أو لأن آدم وحواء إلتقيا فيها فتعارفا . وفي الكشاف هي من الأسماء المُرْتَجَلة . وفي قوله تعالى : (فإذا افضتم من عرفات) دليل للأمر بالوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعد الوقوف . وهي مأمور بها بقوله تعالى (ثم أفيضوا) ومقدمة المأمور به مأمور بها . وأما وجوب الوقوف بها وكونه ركناً من أركان الحج فيؤخذ من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحج عرفة حيث حصره فيها ... ولما عُلم أنه ليس محصوراً فيها حقيقة علم أنها أهم أركانه .

ومعنى الجملة : فإذا اندفعتم وانصببتم من عرفات نحو المزدلفة فاذكروا الله بالتلبية والتهليل والدعاء ، وقيل : بصلاة العشاءين جمع تأخير عند المشعر الحرام . وهو جبل يقف عليه الإمام ويسمى (قُزَحْ) لما روى جابر أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صلّى الفجر يعني بالمزدلفة بغَلَسٍ ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبّر وهلّل ولم يزل واقفاً حتى اَسفَرَ . وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَمُ العبادة . ووصف بالحرام لحرمته . ومعنى عند المشعر الحرام : مما يقرب منه فإنه أفضل . وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادِي مُحَسِّر فإن آخره أوّل مِنى ، فليس كلّه موقفاً .

أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك • كما أجمعوا على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهارا قبل الليل إلا الإمام مالكاً فإنه قال لابد أن يأخذ من الليل شيئاً وإلا فحجّه ناقص • ثم إختلف الجمهور فيمن أفاض قبل غروب الشمس ولم يرجع إليها بالليل ماذا عليه مع صحة الحج ؟ فقال عطاء وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وأبو ثور وأصحاب الرأي وغيرهم : عليه دَم • وقال الحسن البصري عليه هَدْي • وقال إبن جريج : عليه (بَدَنَة) • وقال مالك عليه : حج قابل الهَدْي ينحره في حج قابل وهو كمن فاته الحج • فإنه عاد إلى عرفة حتى يدفع بعد مغيب الشمس • فقال الشافعي : لاشيء عليه • وهو قول أحمد وإسحق وداود ، وبه قال الطبري ، وقال أبو حنيفة وأصحابه لايسقط عنه الدم وإن رجع بعد غروب الشمس •

وقوله تعالى : (واذكروه كما هداكم) أي واذكروا الله تعالى لما علمكم واجباتكم الدينية التي توجب سعادتكم إذا عملتم بها بإخلاص ولاسيما مناسك الحج • وإن كنتم من قبل الهداية والتعليم لمن الضالين عن الطريق السليم •

(ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٩٩) ولما كان قريش لا يقفون مع الناس بعرفات بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم ، وكانوا يقولون : نحن سُكّانُ حَرَمِهِ فينبغي لنا أن نعظّم الحَرَمَ ولا نعظّم شيئاً من الحلّ •• أكد الله تعالى عليهم فقال : ثم أفيضوا أيها الناس الساكنون في الحرم من حيث أفاض الناس أي من عرفة لا من المزدلفة ، وكانوا يقفون (بجمع) من المزدلفة وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم ، فأمروا بأن يُساووهم •

و (ثم) لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك احسن إلى الناس ثم احسن إلى الكرماء .

وقيل : معناه ثم أفيضوا من المزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها ، واستغفروا الله من أنانية الجاهلية في تغيير المواقف والمناسك ، واستغفروه من التمايز مع سائر الناس المسلمين لشبهات واهية ، إن الله غفور رحيم يغفر الذنوب لسعة رحمته .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (٢٠٢)

عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون بالموسم ويذكرون مفاخر آبائهم ، فنزل قوله تعالى فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله الآية .

وعنه أيضاً أنه كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيدعون بحصول أمور دنياهم فقط ، فنزل قوله : فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق إلى آخر الآية الثانية .

قوله تعالى : (فإذا قضيتم) الآية يعني إذا قضيتم مناسك الحج ، وفرغتم منها فاذكروا الله كذكركم آباءكم وأكثروا ذكره وادعوه وبالغوا في الأذكار والدعوات كما تبالغون بذكر آبائكم وذكر مفاخرهم وعاداتهم المقبولة في الجاهلية ، أو أشد ذكراً وأكثر وأبلغ وأخلص فإن ذكر الآباء

لا يفيدكم إلا الفخر والغرور والإباء بدون منفعة واقعية ، وذكر الله يفيدكم إطمئنان القلوب في العبادة والتوحيد ومزيد القوة على الطاعة الموجبة لسعادة الدارين • فلا تكونوا كالناس القاصرين • فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا مانلتذ به ونعتز وينسون أمور الآخرة ، وما لهم في الآخرة من خلاق ونصيب إذ لا يطلبونه حتى يجابون إليه ، ومنهم من يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة من صحة البدن والأمن في الحال والمال والمنال وحسن صحبة العيال والجيران والأقارب والكفاف وغيرها • وفي الآخرة حسنة من ختام العمل بالقبول ، والعمر بالإيمان الموجب للوصول ، وثواب الأعمال فضلاً ورحمة • وقنا عذاب النار والفوز بالجنة في صحبة الأبرار ، وأولئك الفريق الثاني لهم نصيب واف وافر مما كسبوا من الأعمال الصالحة والدعاء بالحسنتين ، والله سريع الحساب يحاسب العباد في وقت قليل ويعطي الصالحين الجزاء الجزيل ، والطالحين العذاب الوبيل إلا ما عفا عنه وسامح بفضله وكرمه وإحسانه الجميل •

(وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (٢٠٣)

قوله تعالى : (واذكروا الله) الآية يعني وكبّروا اللهَ تعالى أدبار الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق • فمن تعجل أي إستعجل النفر في يومين بعد يوم النحر الذي يتم فيه الأركان من المناسك غالباً وخرج من منى في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار وقبل الغروب فلا إثم عليه في ترك رمي اليوم الثالث • ومن تأخر في النفر حتى رمى الجمار الثلاث في اليوم الثالث بعد الزوال أو قبله على ما رآه

الإمام الأعظم • فلا إثم عليه ايضاً • ومعناه : التخيير للحاج بين الأمرين وإن كان البقاء والتأخر أفضل ، خلافاً لما عليه أهل الجاهلية من وجود الإثم في التأخر والبقاء ، وذلك التخيير واكتساب الجزاء لمن اتقى الله وعمل لرضاه ، واتقوا الله في كافة أحوالكم واعلموا أنكم إليه تحشرون •

واعلم ان الحج أحد الأركان الخمسة للإسلام ، فهو واجب على كل مكلف مستطيع في العمر مرة واحدة • ودليله من الكتاب قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه) ومن السنة قوله ـ صلى الله عليه وسلم ــ بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا • وقد أجمعت الأمة الإسلامية على وجوبه ، فيكفر منكره • ويدل على أنه فرض في العمر مرة واحدة : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجّوا فقال رجل : اكلّ عام يارسول الله ؟ فسكت ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قالها ثلاثاً • فقال عليه الصلاة والسلام : لو قلتُ نعم لوجبتْ ولما استطعتم » •

والعمرة واجبة عند بعض الأئمة وسنة عند بعض • ووجوبها فوري عند بعض ، وعلى التراخي عند بعض كما هو مؤكد •

والحج له في السنة وقت واحد فلا يمكن الإتيان به في السنة إلا مرة واحدة • وأما العمرة فكل السنة وقتها إلاّ وقت الإشتغال بأداء مناسك الحج على تفصيل مذكور في محلّه •

وشرائط وجوب الحج : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، ووجود الزاد والراحلة ، وخلو الطريق عن الموانع وإمكان المسير • وأركانه أربعة : الإحرام مع النية ، والوقوف بعرفة ،والطواف بالبيت ،

والسعي بين الصفا والمروة • وأما الحلق أو التقصير فهو من الأركان عند بعض ، ومن الواجبات عند آخرين • وواجبات الحج غير الأركان ثلاثة : الإحرام من الميقات ، ورمي الجمار الثلاث ، والحلق أو التقصير • والفرق بين الأركان والواجبات أن إنتفاء أحد الأركان مبطل للحج ، وأما الواجبات فإذا انتفَتْ تجبر بالفديةه وشرط الإحرام : الإسلام ، والعقل، والنية بالقلب مع التعرض للفرضية • وأما التلفظ بها فسنة • وأما التلبية فشرط عند الحنفية ، وليس بشرط عند الشافعية • ومن سننه : التأهب له بتنظيف بدنه من الأوساخ ، وحلق العانة ونتف الإبط ، وقص الشارب ، وقلم الأظفار ، وغسل الرأس ، وأن يغتسل ويصلي ركعتين بنية سنة الإحرام • وشروط الطواف سبعة : الطهارة عن الحدث والخبث ، وستر العورة والبدء بحجر الأسود بحيث يحاذيه بالبدن في المرور ، وجعل البيت عن يساره ، وكون طوافه خارج الكعبة وداخل المسجد الحرام ، ولو على سطوح المساجد • وأن يطوف سبعاً ، فإن نقص بطل الحج ، ولكن الحنفية إعتبروا مُعْظَم الأشواط من الركن والزائدَ من الواجبات تجبر بدم إذا تركه •

وشروط السعي : أن يبدأ بالصفا ، فإن بدأ بالمروة لم يحسب من العدد ويحسب له بعد الوصول الى الصفا ثم السعي منه ، وأن يبدأ بالصفا في المرة الثانية ، وأن يتقدمه طواف صحيح سواء كان طواف القدوم أو الركن ، وأن يكون عدده سبعاً ، وأن لا يقع بينه وبين الطواف ركن من الأركان ؛ فلو طاف للقدوم ثم وقف بعرفة ثم سعى بطل سعيه • وعليه أن يسعى بعد طواف الإفاضة •

وشروط الوقوف بعرفة : أن يكون الواقف أهلاً للعبادة لا كافراً ، وأن يكون الوقوف بين زوال اليوم التاسع وطلوع فجر يوم النحر ؛ فإن وقف قبل الزوال واقتصر عليه لم يحصل الوقوف • ولو اقتصر على

الوقوف ليلاً صح وقوفه ، والأفضل الجمع بين الليل والنهار ولو بجزء قليل .

وسنن الحج سبع : الإفراد ، وهو تقديم الحج على العمرة عند الشافعي ، والتلبية ، وطواف القدوم ، والمبيت بمزدلفة ، وركعتا الطواف ، والمبيت بمنى ، وطواف الوداع .

ومحرمات الإحرام عشرة : لبس المخيط ، وتغطية الرأس من الرجل ، والوجه من المرأة ، وترجيل الشعر ، وحلقه ، وتقليم الأظفار ، والطيب ، وقتل الصيد ، وعقد النكاح والوطء ، والمباشرة بشهوة . وفي جميع ذلك الفدية ، إلا عقد النكاح فإنه لاينعقد . ولايفسده إلا الوطء في الفرج . ومن فاته الوقوف بعرفة تحلّل بعمل عمرة ، وعليه قضاء الحج والهدي . ومن ترك ركناً لم يتحلّل من إحرامه حتى يأتي به . ومن ترك واجباً لزمه الدم ، ومن ترك سنة لم يلزمه بتركها شيء .

وللمرأة ستر رأسها وسائر البدن بالثوب المخيط ، ومن الوجه القدر المجاور للرأس ؛ لأن ستر الرأس واجب وما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، وأن تسدل على وجهها ثوباً متجافياً بخشبة ونحوها لحر وبرد ، أو خوف فتنة ، وحرم عليها لبس القفازين ، والقفاز شيء يعمل لليدين ، وتجب به الفدية كالرجل .

والدماء الواجبة في الإحرام خمسة : الأول الدم الواجب بترك نسك كترك الإحرام من الميقات وهو على الترتيب : شاة ، فإن لم يجد فصيام عشرة أيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

والثاني : الدم الواجب بالحلق أو الترفه كالطيب والدهن والحلق وهو على التخيير : شاة ، أو صوم ثلاثة أيام أو التصدق بثلاثة آصُعٍ على ستة مساكين .

والثالث الدم الواجب بالإحصار ، فيتحلل ويهدي شاة ويحلق رأسه بعد الذبح •

والرابع الدم الواجب بقتل الصيد وهو على التخيير إن كان الصيد مما له مِثْل" اَخرَجَ المِثلَ مِن النّعَم ، أو قوّمه واشترى بقيمته طعاماً وتصدق به أو صام عن كل مد يوماً • وإن كان الصيد مما لا مثل له أخرج بقيمته طعاماً أو صام عن كل مدٍّ يوماً •

والخامس الدم الواجب بالوطء وهو على الترتيب : بَدَنَة" • فان لم يجدها فبقرة ، فإن لم يجد فسَبْع من الغنم ، فإن لم يجدها قوّمَ البدنة واشترى بقيمتها طعاماً وتصدق به ، فإن لم يجد صام عن كل مد يوماً • ولا يجزئه الهدي ولا الإطعام إلاّ بالحرم ، ويجزئه أن يصوم حيث شاء ، ولا يجوز قتل صيد الحرم ولا قطع شجره ، والمُحِل والمحرم في ذلك سواء" •

اوقات الذبح :

الحنفية قالوا : يتعين عندهم أيام النحر الثلاثة لذبح هدي القران والتمتع ، ويكون الذبح بعد رمي جمرة العقبة ، وإن ذبح قبلَ أيام النحر لم يُجْزئه • وإن ذبح بعدها اَجْزأه وعليه هَدْي لتأخير الذبح عن أيام النحر •

المالكية قالوا : إبتداء نحر الهدي يوم العيد ويندب أن يكون بعد رمي جمرة العقبة ، ويدخل وقت الرمي من طلوع فجر يوم النحر ، ويندب تأخيره إلى أن تطلع الشمس • ويمتد وقته إلى آخر اليوم الثالث من أيام العيد ، فأيام النحر ثلاثة : يوم العيد ، وتالياه • ولو فاتت هذه الأيام الثلاثة ذبحه أيضاً •

الشافعية قالوا : يدخل وقت ذبح الهدي الواجب بالنذر أو الهدي المندوب بمضي زمن يسع صلاة العيد وخطبتين معتدلتين بعد طلوع شمس يوم العيد • ويمتد ذلك الوقت إلى غروب الشمس من آخر أيّام التشريق • فإن فات الوقت المذكور بأن مضت أيام التشريق لزمه ذبح الهدي قضاء إذا كان منذوراً وإلا لزم • فإن ذبحه كان مجرد لحم لا هدياً • أما الهدي الواجب بسبب فعل محظور من أفعال الحج فإن وقته يكون بعد وقوع سببه إلا دم الفوات فإنه يكون في حجة القضاء ، وأما الهدي الواجب على المتمتع فوقته إحرامه بالحج ، ويجوز تقديمه على الإحرام بالحج إذا فرغ من عمرته ولا آخر لوقته وإلا فضل ذبحه يوم النحر •

الحنابلة قالوا : إبتداء وقت ذبح الهدي بجميع أنواعه يوم العيد بعد الصلاة ولو قبل الخطبة ، وإلا فضل أن يكون بعدها • وآخره آخر اليوم الثاني من أيام التشريق وإن ذبحه قبل وقته لم يجزئه ووجب عليه بدله ، وإن فات وقته فإن كان تطوعاً سقط عنه ، وإن كان واجباً ذبحه قضاء • ومكان الذبح عند الكل هو الحرم فقط •

ثم لا خلاف في أن الحج والعمرة يؤدّيان على ثلاثة أوجه :

الاول التمتع : وهو أن يحرم الإنسان بالعمرة في أشهر الحج ، فيدخل مكة فيطوف بالبيت سبعة أشواط ، ثم يذهب فيسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير فيلبس ملابسه الإعتيادية إلى أن يحرم الناس بالحج ، فيحرم به ويخرج من مكة إلى منى ويبيت به ، وفي اليوم التالي يذهب إلى عرفة ، وعندما وصل إلى نمرة نزل وصلى صلاة الظهر والعصر بها جمع تقديم ، ثم يذهب إلى عرفات ويقف بها إلى أن تغيب الشمس ، وبعد غيابها يفيض منها إلى المزدلفة فيصلي صلاة المغرب والعشاء بها جمع تأخير ، ويبقى إلى وقت صلاة الصبح فيصلي في أول

الوقت وينزل إلى المشعر الحرام ، ويبقى هناك ذاكراً داعياً ومكبراً ومهللاً إلى أن تطلع الشمس فيرمي جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يتحول إلى منى ويذبح فدية التمتع ، ثم يحلق فيحصل له التحلل الأول . ويحل له كل شيء إلا النساء . ثم يذهب إلى الكعبة الشريفة فيطوف بها سبع طوفات ويسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ويعود إلى (منى) ويبيت بها ، وفي اليوم الثاني يبقى بها إلى ما بعد الزوال فيرمي الجمرات الثلاث سبعاً سبعاً ، ثم يرجع إلى منى ويَبيت بها الليلة الثانية ويومها ، ويرمي الجمرات الثلاث بعد الزوال أيضاً . فإذا أراد الخروج من منى خرج قبل الغروب إلى مكة ، وإذا أراد الخروج منها طاف طواف الوداع ، وإذا أراد رمي الجمرات الثلاث في اليوم الثالث بقي في منى إلى أن يرميها كما رماها سابقاً ، ويعود إلى مكة فيطوف طواف الوداع ويخرج منها .

الثاني : الإفراد بأن يحرم الإنسان بالحج فيدخل مكة ، ويطوف طواف القدوم ، وإن شاء سعى بين الصفا والمروة كل منهما سبعاً سبعاً ، ويخرج مع الحجاج إلى منى ، ثم إلى عرفة . وهكذا كما ذكرنا . وبعد إنتهاء آداب الحج ، أي في اليوم الثاني أو الثالث من أيام التشريق يذهب إلى أدنى أرض الحل كالتنعيم ، أو جعرانة ، فيحرم بالعمرة ويعود إلى الكعبة ويطوف بها سبعاً ، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ثم يتحلل بالحلق أو التقصير . وإذا أراد الخروج من مكة طاف طواف الوداع وخرج منها . وهذا النوع لا يحتاج إلى الفدية .

الثالث : القِران بأن يحرم بالحج والعمرة معاً ، ويأتي بآداب الإفراد إلى أن ينتهي منها . ولكن الحنفية في القران يطوفون بالبيت مرتين ويسعون بين الصفا والمروة كذلك مرتين .

واختلف الأئمة في الأفضل من الأوجه الثلاثة ، واختلافهم مبني على الإختلاف في حج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع • فمن قال كانت على الإفراد فضل الإفراد ، أو على القران فضل القران ، أو على التمتع فضل التمتع • وعند الشافعية أن حجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أول الأمر على وجه الإفراد ؛ لأنه أحرم بالحج وحده وبعد أن وصل إلى وادي العقيق أضاف إليه العمرة فصار قراناً ، كما ذكره المحدث الشيخ إبن حجر العسقلاني في شرح البخاري الشريف • ومن أراد الإطلاع على تفصيل الامر فليراجعه •

ثم إن التمتع بالعمرة إلى الحج على أربعة أوجه :

الاول منها : مجمع عليه ، وهو الذي ذكرناه سابقاً كأن يتمتع بحرم الآفاقي بالعمرة ، فيطوف ويسعى ويتحلل كما ذكرنا • وتجب عليه الفدية يذبحها بعد التحلل من العمرة ، أو عند الإحرام بالحج ، أو في ايام التشريق •

الثاني منها : التمتع الحاصل بصفة القران أي الجمع بين الحج والعمرة في النية كما ذكرنا • والتمتع هنا عبارة : عن حصول النسكين بنية واحدة وعمل واحد منهما ، وفيه الفدية أيضاً • وهو معلوم •

الثالث : التمتع الذي توعّد عليه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : متعتان كانتا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا انهى عنهما وأعاقب عليهما : متعة النساء ، ومتعة الحج • وذلك أن يحرم الرجل بالحج حتى إذا دخل مكة فسخ حجه وأتى بعمل عمرة ، وأقام حلالاً حتى يهل بالحج يوم التروية • فهذا هو الذي تواردت به الآثار عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فإنه أمر أصحابه في حجته من لم يكن معه هدي ولم يَسُقْه وقد أحرم بالحج أن يجعلها عمرة • وقد أجمع العلماء على

صحة هذا الأثر ، إلا أنهم اختلفوا في القول بــه والعمل لعلل فجمهورهم على ترك العمل بها لأنها عندهم خصوص خصّ بها الرسول أصحابه الذين لم يسوقوا الهدي . قال ابو ذر : كانت المتعة لنا في الحج خاصة . أخرجه مسلم . والسر في تجويزه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك لأصحابه المذكورين ما قاله ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنهم كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض . فقدم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ صبيحة اليوم الرابع من ذي الحجة ، وكان أصحابه مهلّين بالحج فأمرهم أن يجعلوها عمرة ، فتعاظم ذلك عندهم ! فقالوا : يا رسول الله أي الحِلّ هذا ؟ أي هل يحل كل ما حرم بالإحرام بهذه العمرة والتحلل منها ؟ فقال : الحِلّ كلّه أخرجه مسلم . وقد كان ذلك الإنتقال من خصائص الأصحاب الذين كانوا معه خاصة لا لغيرهم ؛ لأن الله تعالى قال : (وأتموا الحج والعمرة لله) ولا يمكن الإنتقال من حكم كتاب الله إلا لسنّة مبيّنة كما هنا . ويحتج على ذلك بما روى من حدث أبي ذر وبحديث الحارث بن بلال عن أبيه قال : قلنا : يارسول الله فسخ الحج لنا خاصة أم للناس عامة ؟ قال : بل لنا خاصة . وعلى هذا جماعة فقهاء الحجاز والعراق والشام .

الرابع : متْعَة المحصر ومن صُدّ عن البيت . ذكر يعقوب بن شيبة قال : حدثنا أبو سلمة النبوذكي ، حدثنا وهيب ، حدثنا إسحق بن سويد قال : سمعت عبدالله ابن الزبير وهو يخطب ، يقول : أيها الناس إنه والله ليس التمتع بالعمرة إلى الحج كما تصنعون ، ولكن التمتع أن يخرج الرجل حاجّاً فيحبسه عدوٌ أو أمرٌ يعذر به حتى تذهب أيام الحج فيأتي البيت فيطوف ويسعى بين الصفا والمروة ثم يتمتع بحلّه إلى العام المستقبل ثم يحج ويَهدي .

وهذه نبذة من آداب الحج والعمرة ذكرتها في تفسير آياتهما الكريمة للإستبصار ، ومن أراد الإطلاع الكامل فليراجع كتب الفقه في الموضوع . والله ولي التوفيق .

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مافي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لايُحِبُّ الفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ)(٢٠٦)

عن السدي قال : نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي ـ صلى عليه وسلم ـ بالمدينة وأظهر له الإسلام وقال : ألله يَعْلم إني لصادق ! فأُعجب به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم خرج مِن عنده فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وبحُمْر لهم فأحرق الزرع ، وعقر الحمر ! فأنزل الله فيه هذه الآيات . أخرجه ابن المنذر وابن جرير . وكان شريق هذا حسن المنظر ، حلو المنطق ، يوالي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدّعي الإسلامَ وهو منافق .

يعني : ومن الناس من يعجبك قوله بياناً واداءً لحلاوة لفظه ، وفصاحته في أمور الحياة الدنيا ؛ لأن الكلام فيها مبذول لكل أحد دون حياة الآخرة وأحوالها ؛ لأنه لا يؤمن بها ولا يحبها أو لا يؤذن له فيها . ويشهد الله على مافي قلبه من المودة والإخلاص للإسلام والرسول المبعوث به ، وهو ألَدّ الخصام وأشد الأعداء عداوة . فالخصام جمع خصم بمعنى العدو ، والجملة حالية . وقوله : (وإذا تولى) الآية يعني وإذا أدبر وغاب عنك

يسعى في الأرض بأنواع الحيل الفاسدة • ليفسد فيها بإفساد قلوب الناس وبثّ روح العداء للدين ، ويهلك الحرث أي المزارع بالإحراق والإتلاف ، والنسلَ بالقتل والهتك والإعتساف ، والله لايحب الفساد فلا يحب أهله من العباد •

وقوله : (وإذا قيل) يعني وإذا قيل لهذا الشخص نصيحة ونهياً عن المنكر : إتق الله واحذر عن هذه الأعمال الفاسدة السافلة •

وقوله : (أخذته العزة بالإثم) قال البيضاوي : حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه لجاجاً ، من قوله أخذته بكذا أي حملته وألزمته إياه •

وقال الشهاب : أراد أنه إستعارة تبعية أستعير الأخذ للحمل بَعْدَ أن شَبّه حالة إغراء الحمية الجاهلية وحملها إياه على الإثم بحالة شخص له على غريمه حق فيأخذه به ويلزمه إياه • والمراد بالإثم حقيقته •

وقال الشهاب أبو الثناء : أخذته العزة أي إحتوت عليه وأحاطت به وصار كالمأخوذ بها وبالإثم ، أي مصحوباً أو مصحوبة به • إنتهى • يعني أن بالإثم حال من الهاء أو من العزة •

ثم قال : ويجوز أن يكون أخذ من الأخذ بمعنى الأسر ، ومنه الأخيذ للأسير • أي جعلته العزة وحمية الجاهلية أسيراً بقيد الإثم •

وقال أبو البقاء : بالإثم في موضع نصب على الحال من العزة والتقدير : أخذته العزة متلبسة بالإثم • ويجوز أن يكون حالاً من الهاء أي أخَذَتْه العزةُ آثِماً • ويجوز أن يكون الباء للسّببية فيكون مفعولاً به • أي أخَذَتْه العزة بسبب الإثم • قلت : وقال بعض : إن بالإثم متعلق بالعزة أي إذا قيل له : إتق الله فالعزة المقرونة بإثم الإفساد وقتل الأنفس

البريئة أخذته وسلبت عنه الطاقة الإختيارية • وإنما كلف حينئذ مع أن المأخوذ قهراً لا تكليف عليه لأن أساسه كان على الإفساد والأعمال السيئة ، والخبل المبني على عمل تعدى به لايسقط التكليف •

وقوله : (فحسبه جهنم) كلمة حسب إما اسم بمعنى كافي ، أو اسم فعل ماض بمعنى كفى • وجهنم علم لدار العقاب ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث • وقوله : (لبئس المهاد) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف • أي والله لبئس الفراش الممهد جهنم •

(ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُفٌ بِالعِبادِ) (٢٠٧)

نزلت في صهيب بن سنان الرومي أخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال : إني شيخ كبير لاينفعكم وجودي معكم ، ولا يضركم خلافي لكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي ، فقبلوه منه وأتى المدينة • فيقول : ومن الناس من يبيع نفسه ويبذلها في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقتل وذلك طلباً لرضاء ربه تعالى • والله رؤوف بالعباد فيجزي أولئك واحداً بعشرة إلى سبعمائة ضعف ، ويزيد لمن يشاء • وصهيب بالتصغير صحابي معروف ، ولم يكن رومياً ، وإنما أسره الروم صغيراً فقيل له : الرومي •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُم مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢٠٩)

قال البغوي : نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب عبدالله بن سلام وأصحابه . وذلك أنهم لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى عليه السلام ، فعظموا السبت ، وكرهوا لحوم الإبل وألبانها ، وقالوا إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة . وقالوا أيضاً : يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقرأ به في صلاة الليل . فأنزل الله هذه الآية ، وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في جميع شرائع الإسلام وأحكامه ولا يتمسكوا بالتوراة لأنها نسخت . وعلى نزولها في شأنهم فمعنى الآية الشريفة : يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب بدين الإسلام ورسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدخلوا في السّلم والإنقياد لدين محمد كافة عامةً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بخلط أحكام التوراة بأحكام القرآن حتى لا يتميز أهل الإسلام من غيرهم ، إنه لكم عدو مبين ، أي عدو ظاهر العداوة . فإن زللتم وانحرفتم عن الدخول في الإطاعة هكذا من بعد ما جاءتكم البينات أي الأدلة الواضحة الشاهدة على أنه حق واجب الإتباع فاعلموا أن الله عزيز أي غالب على أمره فينتقم منكم ، حكيم في إنتقامه لا ينتقم إلا بحق .

(هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ يأْتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ والمَلائِكَةُ وقُضِيَ الأَمْرُ ؟! وإلىَ اللهِ تُرْجَعُ الأُمور) (٢١٠)

قوله تعالى : (هل ينظرون) إستفهام إنكاري وهو نفي في المعنى . وقوله (أن يأتيهم الله) أي أمره أو عذابه . وقوله : (في ظلل من الغمام) أي في قطعات من الغمام الأبيض تظلّلهم وتقف فوق رؤوسهم كأنها ظلّة . وإنما خص إتيان العذاب في ذلك الوضع ؛ لأن الغمام الأبيض ينتظر منه الأمطار والبركات ، وإذا كان إظلالها عليهم لنزول العذاب كان أشدّ وأوقع

على نفوسهم فإنّ مجيء الزجمة من منتظر الرّحمة أشدّ عذاباً على الأمة •

وقوله : (والملائكة) عطفٌ على الله • وقوله (وقضي الأمر) أي نفذ أمر إهلاكهم • وإلى الله ترجع الامور •

وخلاصة التفسير : إن بقاء الأمة على العناد وإنكار رسالة سيّد العباد يقرب إلى أذهان المؤمنين العارفين بالأمور أنهم إستعدوا لقضاء الأمر فيهم وحلول العذاب عليهم بأقصى أصنافه وأقسى أوضاعه بأن يفاجئهم العذاب بغتة ومجيء ملائكة العذاب في مظهر غمام أبيض ينتظر منه الرحمة فإذا هو يصب عليهم أنواع البلايا والرزايا ويقضي فيهم ما شاء الله • وهذا الوضع ليس من شأن العقلاء فالأولى بل الموافق لهم أن يتوبوا عن هذا العناد والإستكبار ، ويتعرضوا لعفوا الباري تعالى حتى يتوب عليهم ويعفو عنهم • ولا ينتظروا مفاجأة ذلك العذاب بالإستمرار على الكفر والأعمال السيئة وإلا فلا ملجأ من الله إلا إليه وإلى الله تُرجَعُ الأمور •

(سَلْ بَنِي إسْرائِيلَ كمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ؟ ومَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ ، فَإنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ) (٢١١)

قوله تعالى : (سل بني إسرائيل) أمر منه تعالى لحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل بني إسرائيل المصرين على الكفر والإستنكار والإستكبار كم آتيناهم أنفسهم في عهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وآباءهم وأجدادهم في العهود السابقة من المعجزات الواضحة الدالة على أن رسالة الله وبعث الرسل إلى البشر حق • وتلك الإرشادات بالآيات البينات والمعجزات القاهرات كلها نعمة من الله أنعمها عليهم حتى ينتبهوا

وينتهوا عما هم عليه من الضلال ، فوجب قبولها والعمل بها ، وأن لا يقابلوا تلك النعم الجسام بالعناد كما هو عادة اللئام .

وقوله تعالى : (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) معناه أن أولئك الناس الذين جاءتهم تلك الآيات حقهم أن يقرروا تلك الآيات ويقروا بها ولا ينكروا إفاضتها عليهم ، بأن يقولوا ما أتانا من الآيات وما رأينا شيئاً من المعجزات ، أو حقهم أن يعملوا بها ويمشوا على مناهجها ، ويؤمنوا برسالة محمد الموعود ببعثه سابقا ولا يمدوا إليها يد النسخ والتأويل والتحريف . ومن يبدلها بأحد الوجهين فإن الله شديد العقاب يعاقبهم عليه كما يستحقون .

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيرِ حِسابٍ) (٢١٢)

قوله تعالى : (زين للذين كفروا) الآية . قال بعض : إن فاعل الصيغة المجهولة هو الشيطان ؛ لأن الشيطان هو المحسّن للقبائح والمقبح للحسنات . وقال بعض : إن الفاعل هو الله تعالى ، وهو الحق ؛ لأنه قد ثبت بالبراهين القاطعة أن الخالق والموجد لكل مايحدث هو الله تعالى . (ألله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) وإذا خص الإيجاد ببعض مايمكن التأثير فيه بدليل العقل أو النقل فيبقى العام في ما عداه نافذ الدلالة والإرادة .

والتحقيق الحقيق بالقبول : أنه إن أريد تزيين صوري أو عمل ظاهري ناتج عن القوى النفسانية المقتضية للسوء فإسناده إليها بعلاقة السببية مجازاً وارد . وإن أريد التزيين الواقعي بالإبداع والإيجاد فالفاعل هو

الله تعالى لا غيره . ولا عتب فيه لأن الله سبحانه وتعالى بين الخير والشر وأسبابهما كما أودع في المكلفين العلم والإرادة والقوى الشهوية والغضبية ، وخول الإنسان في الكسب وأسنده إليهم . فمن صرف إرادته وقدرته نحو الخير خلقه له ، ومن صرفهما نحو الشر خلقه لهم ، ولا لوم إلا على أنفسهم ، وَما كانَ اللهُ لِيَظلِمَهُم وَلَكِنْ كانوا أنْفُسَهُمْ يَظلِمُون .

فيقول الباري سبحانه وتعالى : زين للذين كفروا الحياة الدنيا أي حسّنت في عقولهم ومشاعرهم الحياة الدنيا وملاذها ومغرياتها ، وحصلت فيهم داعية الكبر بحيث يسخرون من الذين آمنوا لاسيما فقرائهم ويسترذلونهم ، والحال أن الذين اتقوا أي المؤمنين المتقين فوقهم يوم القيامة ، عكس ما في الدنيا فهم في عليين والكافرون في أسفل السافلين . وهم يستهزؤن بالذين استهزؤا بهم في الدنيا جزاء وفاقا . والله يرزق من يشاء من المقام العالي والكرامة بغير تقدير وحساب .

(كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ماجاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢١٣)

قوله تعالى : (كان الناس أمة واحدة) الآية معناه : إنه كان الناس بعد بعث سيدنا آدم عليه السلام وفترة زمنية في عهد أولاده وأحفاده أمة واحدة متفقة على التوحيد وعبادة الله تعالى ، إلى أن بعث الله إدريس فتكاثر الناس وتشاجروا وأثّرت فيهم المطامعُ والمطامح ، فاختلفوا في

الأصول والأحكام ، واختار كل فئة طريقاً وسبيلاً ، وعبدوا غيرَ الباري سبحانه وتعالى تبعاً للأهواء ، فبعث الله النبيين مبشرين بالثواب لمن آمن بالله وحده واهتدى إلى الصراط المستقيم ، ومنذرين بالعقاب لمن كفر وأشرك ، وانزل معهم الكتاب بالحق أي جنس الكتاب واحداً متوارثاً بينهم ، أو متعدّداً لكل أجل كتاب ليحكم ذلك الكتاب أو النبي الذي أنزل معه بين الناس فيما اختلفوا فيه سابقاً ، ووقع فيه الجدال ، وبقي الخلاف إرثاً للأجيال ، أو فيما يختلفون فيه بعد ذلك الإنزال ، كاختلاف أهل الكتاب في الإنجيل بعد نزوله على سيدنا المسيح ، أو القرآن الكريم بعد نزوله على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وما اختلف فيه أي في الكتاب المنزل الجديد إلاّ الذينَ أُوتوُه أي أوتوا الكتاب[1] في العهد السابق قبل نزول هذا الكتاب من بعد ماجاءتهم البينات أي الآيات الشاهدة على أن هذا الكتاب الجديد حق حيث ذكر في الكتاب السابق بعث النبي اللاحق ونعوته وإنزال الكتاب عليه . وذلك الإختلاف في الكتاب المنزل الجديد كان بغياً وعدواناً دائراً متوارثاً بينهم وحقداً على هذا النبي الجديد وكتابه، وتلك سنّة سيئة متبعة من أهل العلم بالكتاب السابق يغارون حقداً على العهد الجديد والنبي والمرسل فيه والكتاب المنزل إليه ، فهدى الله الذين آمنوا من أهل الكتاب السابق وغيرهم لما اختلفوا فيه من الحق أي للإيمان بالحق الذي اختلفوا فيه ، فآمنوا به إيماناً خالياً عن الشكوك والأوهام ، واهتدوا إلى سلوك الصراط المستقيم . وذلك الإيمان منهم به كان بإذن الله وتوفيقه ولطفه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، لا ترى فيه عوجاً ولا أَمْتاً . وفي هذه الآية الجليلة بيان شافه للصدور بنورها الموفور .

(1) يعني أن في الضمير استخداما ، اذ أريد بالضمير السابق الكتاب الجديد ، وبالضمير اللاحق الكتاب السابق .

تنبيه : إن التفسير الذي قررته هنا كان موافقاً لعقيدتي في الموضوع ، ثم وجدت بعض الناس مقرراً له على حسب تقريري وحمدت الله تعالى على ذلك . والذي قرره البيضاوي والآلوسي هو أن الناس كان أمة واحدة لفترة من الزمن متفقة على الحق ، ثم وقع الإختلاف بينهم في الأصول والفروع ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس في ما اختلفوا فيه ، ويرفع الخلاف مع أن الذين أنزل عليهم الكتاب لرفع الإختلاف هم أنفسهم إختلفوا في هذا الكتاب بغياً بينهم وعدواناً من بعضهم لبعض . وهذا التفسير أيضا وارد" . ويظهر صحته لأن كل أمة سابقة أو لاحقة عندما كانوا في حاجة إلى رفع الخلاف والإختلاف ، وأنزل الله إليهم كتاباً مع النبي مرسل لدفع الإختلاف هم فسروا ذلك الكتاب واوّلوا على مبتغى آرائهم وأفكارهم ، واختلفوا أيضاً ، فترى الإسرائيليين اختلفوا في التوراة مع وجود الأنبياء بين أظهرهم ، وبعد بعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إختلف كثيرون من أهل الأهواء مع أهل الدين والإعتصام بالكتاب والسنة السنية . فنسبوا خلق الأعمال إلى العباد ، واوجبوا الأصلح على الله تعالى ، ونسبوا خلق الشرور والمفاسد إلى النفوس الشريرة والشياطين الملبّسين بشبه واهية . لكن الله سبحانه وتعالى لم يترك كتابه ورسوله وسنته السليمة بدون معين ومساعد ومطبق ، بل أعدّ للدفاع عن الحق أمّةً مؤمنة مطمئة آمنوا بالحق الواضح في شقي الخلاف والإختلاف ، وذلك بإذنه وعنايته وتوفيقه . وهذه سنة الله في خليقته وشريعته فكلما إشتد الإختلاف هيأ الله أناساً لإدراك الحق والإيمان به والعمل به ، وتطبيقه ، ورد المعاندين وتأييد الحق ونشره بين المؤمنين .

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا ، حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) (٢١٤)

روي عن قتادة : أن هذه الآية نزلت في غزوة الأحزاب ، وهي غزوة الخندق وفي ما أصاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين فيها من : جهد ومشقة ، ونصب وشدّة ، وحَرّ وبَردٍ ، وخوف وسوء عيش وأذىً • كما قال تعالى في هذه الغزوة (وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ) الأحزاب / ١٠ •

قوله تعالى : (أم حسبتم) صيغة الخطاب إلتفات ، وأم إما منقطعة بمعنى بل للإضراب بدون تقدير إستفهام ، أو بتقديره على وجه الإنكار ، أي لِمَ حسبتم ؟ وإما متصلة بتقدير جملة معادلة لها تقديره : أعلمتم أن المؤمن يجب عليه الجهاد إلى لقاء رب العباد ؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الآية وإلى الآن لم يأتكم مثل حال المؤمنين الّذين خلوا من قبلكم التي وَصَلَتِ الذروةَ في الشدة : مَسّتْهُم البأساءُ مِن الفقر والحاجة والضرّاء من الأمراض الفتاكة ذات اللجاجة ، وزُلزلوا ، وأزعجوا إزعاجاً بلغ منتهاه ، حتى يقول الرسول والذين معه : متى نصر الله ؟ وذلك لتأخره وكثرة العدو وتفاقم أذاه • فأوحى الله إليه ليبلغ إليهم : ألا إن نصر الله قريب • يعني أنه تقررت سنة الله في العباد أن اليسر بعد تعب العسر ، وأن الظفر بعد الصبر • وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حُفت الجنةُ بالمكارهِ ، وحُفّتِ النارُ بالشهوات » •

(يَسْئَلُونَكَ : ماذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ : ما اَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليَتامى والمَساكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ ، وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) (٢١٥)

عن إبن جريج : قال : سأل المؤمنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فنزلت الآية. وقيل ـ نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري ، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير ، فقال : يا رسول الله بماذا تتصدّق وعلى من ننفق ؟ فنزلت الآية .

قوله تعالى : (يسئلونك) الآية هذه الآية الشريفة من البلاغة بمكان عال ، ومن تلقي السائل بجواب غير ما يريده وينتظره . يسألونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المال الذي ينفقونه في سبيل الله ويتصدقون أو يوصون به نوعاً وكمّاً ، فيجيبهم بغير ما ينتظرونه حيث يبين لهم المنفق عليهم . ومعناه أن المال الذي تصرفونه في سبيل الله من أي نوع كان وعلى أيّ مقدار فالمهم صرفه في المحل المناسب للانفاق الأهم فالأهم . من الوالدين المحتاجين ، والأقربين أولي الحاجة ، واليتامى بتسليمه إلى القائم بأمورهم ، والمساكين الناقصين مالاً ومصرفاً ، وابن السبيل المعوزين إعوازاً حسّياً أو شرعياً . وما تفعلوا من خير ، أيّا كان ، فإن خير فإن الله به عليم فيجازيكم بالثواب والرّضا في دار النعيم . وهذا الإنفاق من باب الصدقات العامة والزكاة من صرف الأموال الواجب صرفها . فهذا باب ، وتلك باب ، والله يهدي من يشاء إلى الصواب .

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى اَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسى اَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (٢١٦)

قوله : (كتب عليكم القتال) أي فرض وهذا هو فرض الجهاد . والمراد بالقتال قتال الأعداء من الكفار ، ولم يؤذن للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في القتال مدة إقامته بمكة ، فلما هاجر اُذِن له في قتال من يقاتله من المشركين . وهو فرض عين إن دخلوا بلادنا ، وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم .

وقوله : (وهو كره لكم) بضم الكاف أي شاق عليكم مكروه طبعاً ، وهو مصدر نعت به للمبالغة ، أو فُعُل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز .

وقوله : (وعسى أن تكرهوا شيئاً) الآية وكلمة عسى للرجاء وانتظار غير الواقع . والكره وإن كان محققاً لكنه نزل منزلة غير الواقع لأن حق المؤمن الكامل أن لا يكره القتال في سبيل إعلاء كلمة الحق . وقوله : (وهو خير لكم) أي والحال إن ذلك المكروه خير لكم لكسب الشرف والسّيادة في الدنيا علاوة على الغنائم والمنافع التي تستفيدونها بالقتال ، ولكسب السعادة في الآخرة حيث إن العمل الذي قام أو يقوم به المُقاتِلُ جزءٌ من بناء صرح الإسلام الذي يفيد رضاء الباري تعالى بإعلاء كلمته ونشر دينه وشريعته . قوله : (وعسى أن تحبوا شيئاً) أي وعسى أن تحبوا شيئاً وهو الكسل والتباطؤ عن القتال ، والإبتعاد عن المناهي . وهو شرّ لكم لأن في ذلك إرضاء النفس والشيطان ، وهو شر للانسان لأنّ مآله الخسران ، والله يعلم الخير والشر في الواقع ، وأنتم لا تعلمون إلا بعضاً منه .

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ :قِتَالٍ فِيهِ .قُلْ :قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وكفرٌ بِهِ ، والمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ

القَتْلِ ، وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا ، وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ ، وَهُوَ كافِرٌ ، فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٢١٨)

قال الشهاب : والذي في سيرة ابن سيد الناس أنه في رجب وأنه لم يرسلهم لقتال ، وإنما بعثهم ليعلم أمر قريش وأنهم لقوا هؤلاء (أي عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه وعيراً لقريش فيها تجارة الطائف) في آخر يوم من رجب، وقالوا : لئن تركناهم لقد دخلوا الحرم، وإن قاتلنا حينئذ قاتلنا في الأشهر الحرم، ثم عزموا على الفتك بهم، ففعلوا مافعلوا (أي قتلوا عمرو ابن عبدالله وأسروا إثنين واستاقوا العير) قال إبن إسحق : فلما قدموا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ! فَوَقَّفَ العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيأ . فلما نزلت الآية قبض ذلك . ويقال : وقّفه حتى رجع من بدر فقسمه مع غنائمها انتهى . وهي أول غنيمة في الإسلام .

والسائلون هم المشركون ، كتبوا إليه في الموضوع . وقيل : أصحاب السرية . وقال الشهاب : السائلون أصحاب السرية . وكونهم المشركين ضعيف لايناسب الرواية ولا الدراية . فمورد نزول آية : يسألونك هو هذه الواقعة . أما مورد نزول الآية الثانية فهو أنه لما كثر القيل والقال في الموضوع قال بعض الصحابة : إن لم يكن أصحاب السرية أصابوا وزرا

فليس لهم أجر • فنزلت : إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا الآية • أخرجه البيهقي • وهذه الحادثة كانت قبل واقعة بدر بشهرين •

قوله : (قتال فيه) بدل من الشهر الحرام • وقوله : (قل قتال فيه كبير) جواب للسؤال • يعني أن القتال في الشهر الحرام للمقاتل الغير المضطر له ذنب كبير ، ولكن صد الناس عن سبيل الله ، وعن الوصول إلى المسجد الحرام ، والإشراك به تعالى ، وبث فتنة الإشراك اكبرُ من القتال بدرجات •

وقوله : (وصد) مبتدأ عطف عليه ما بعده • وقوله (أكبر عند الله) خبرهما • ومعنى الصد عن سبيل الله منع النّاسِ عنِ الإيمانِ بالله • ومنع المؤمنين عن طاعة الله والتعبد له • وقوله : (وكفر به) أي بالله معطوف عليه • وقوله : (والمسجد الحرام) بالجر معطوف على الضمير المجرور في (به) والعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارّ وإن كان ممنوعاً عند البصريين لكنه جائز عند الكوفيّين ويونس والأخفش وأبي علي واختاره ابن مالك حيث قال في ألفيته :

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازماً قد جعلا
وليس عندي لازماً إذ قد أتى
في النظم والنثر الصحيح مثبتا

والتقدير : وكفر بالمسجد الحرام وبرعاية حقوقه ومساواة العاكف والبادي فيه •

وقوله : (وإخراج أهله منه) معطوف على قوله (وصدّ عن سبيل الله) يعني أن القتال في الشهر الحرام وإن كان فيه إثم كبير ، لكن صد

الناس عن سبيل الله ، والكفر به ، والكفر بالمسجد الحرام ، والتعدي على حرماته ، وإخراج اهله منه ، وهم المستحقون للبقاء فيه كالرسول وأصحابه ... أكبر إثماً عند الله من القتال الحادث فيه ؛ لأن القتال عمل فاسد ، والكفر بالله عقيدة فاسدة . وصدّ الناس عنه تعدٍّ عامّ على الدين وعلى الكعبة وعلى المسلمين . وإخراج أهله منه وإبقاء غير المستحقين فيه ، وهم المشركون ، ظلم وبغي" وعدوان على الحقوق المشروعة ، فلم ترتكبون هذه الجرائم الإعتقادية والعملية والإجتماعية ولا تهتمون بها ؟ وكأنّها ليست شيئاً قابلاً للذكر ! لكن قتال سرية من سرايانا في يوم من أيام الأشهر الحرام صار عندكم أكبر الآثام .

وقوله تعالى : (والفتنة أكبر من القتل) تذييل لما تقدم للتأكيد ، وعطف عليه عطفَ الحكم الكلي على الجزئي . والفتنة : ما يفتتن به المسلمون من كافة الوجوه من التعذيب ، والتنكيل ، والتهجير ، والترحيل . فشمل الوجوه المذكورة السابقة . أي تلك الجرائم الإعتقادية والعملية التي ترتكبونها أكبر من قتل شخص واحد أو أشخاص كثيرين لاسيما إذا كان القتيل فاسد العقيدة كاسد العمل .

وقوله تعالى : (ولايزالون يقاتلونكم) قطع الكلام مع المشركين السائلين إلى خطاب المؤمنين إذا كان السائلون من المشركين وإلا فاستمرار للكلام بمناسب المقام مع المؤمنين من أصحاب السرية وغيرهم . فيقول : إن أولئك المشركين أشد أعدائكم ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم الأصيل إلى إشراكهم العليل (إن استطاعوا) واقتدروا على ذلك ، ولكن لا يستطيعون على المؤمنين المخلصين .

وقوله : (ومن يرتدد منكم) الآية تهديد لمن إختلج في قلبه الأوهام وتصور الإرتداد عن الإسلام . فيقول : وَمَن يَرتَددْ مِنكم عَنْ دينه فَيَمُتْ وهُوَ كافِرٍ فأولئكَ حبطت أعمالهم في الدنيا بالحرمان عن المنافع الدنيوية الإسلامية والآخرة بسقوط الثواب ، وَأولئك أصْحابُ النارِ هُمْ فيها خالِدون (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجونْ رحمة الله ، والله غفورٌ رحيم) هذه الآية كما ذكرنا نزلت في شأن أصحاب السرية ، حيث ظن الناس أنهم وإن سلموا من العقاب لكن ليس لهم أجر عند الله ، فبين الله جزاء أعمالهم الجليلة الناشئة عن الإخلاص لله ولرسوله ، ورد الله على المتوهمين ظنونهم الغير المفيدة للحق . وقال : إنهم بإيمانهم وهجرتهم من أوطانهم وجهادهم في سبيل الله يرجُونَ رحمة الله لهم بإيتائِهِم حَسَنَةً في الدنيا وحسنة في الآخرة ، والله غفور لما فَرط منهم من الذنوب ، ورحيم بهم وبغيرهم فيجزيهم بفضله أكثر مما يستحقون .

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ : فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ ومَنَافِعُ لِلنّاسِ ، وإثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ، ويسْألونَكَ : ماذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلِ : العَفْوَ ، كذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرونَ (٢١٩) في الدنْيا والآخِرَةِ ، ويَسْألُونَكَ عَنِ اليَتَامى ، قُلْ : إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ، وَإنْ تُخالِطُوهُمْ فَإخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢٢٠)

قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والمَيْسر) قال الواحدي : نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار ، أتوا رسول الله ــ صلى

الله عليه وسلم ـ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر ، فإنهما مَذْهَبَة للعقل وَمَسْلَبَة لِلمال • فأنزل الله تعالى هذه الآية • وفي بعض الروايات : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة والناس يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، فسألوه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية • فقال قوم : ماحرمتا علينا ، فكانوا يشربون الخمر إلى أن صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً فدعا أناساً من الصحابة ، وأتاهم بخمر وشَرِبوا وَسَكِروا ، وحضرت صلاة المغرب ، فقدّموا علياً كرم الله وجهه فقرأ (قل أيها الكافرون أعبد) بحذف (لا) فأنزل الله تعالى : (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فقلّ من يشربها ، ثم إتخذ عتبان بن مالك طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص • وكان قد شوى لهم رأسَ بعير ، فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخَذَت منهم • ثم إنهم إفتخروا عند ذلك ، وتناشدوا الأشعار ، فأنشد سعد مافيه هجاء الأنصار وفخر لقومه • فأخذ رجل من الأنصار لحى البعير ، فضرب به رأس سعد فشجه موضحة • فانطلق سعد إلى رسول الله ـ صلى الله عليم وسلم ـ وشكا إليه الأنصار فقال : أللهمّ بيّن لنا رأيك في الخمر بياناً شافياً ! فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنو إنّما الخَمر والمَيْسِرُ والأنصابُ وَالأزلامُ رِجسٌ من عَمَل الشّيطان ، فَاجْتَنبُوه لعلكم تُفْلِحُون • إنما يُريدُ الشّيْطانُ أنْ يُوقعَ بينكم العَداوةَ والبَغْضاءَ في الخَمرِ والمَيْسرِ ، وَيَصُدّكم عَن ذكرِ اللهِ وَعَن الصّلاة فَهَلْ انتم مُنْتَهون ؟) وذلك بَعْدَ غزوةِ الأحزاب بأيام • فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : انتهينا يا رب •

والخمر عند الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ التي مِن ماء العنب إذا غلى واشتد وقذف بالزبد • وسميت بذلك لأنها تخمر العقل

أي تستره • وذهب الإمامان إلى عدم إشتراط القذف ، ويكفي الإشتداد ، لأنّ المعنى المحرم يحصل به • ومن الناس من قال : هو حقيقة في كل مسكر ، لما أخرج الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي (كل مسكر خمر) • وأخراج أبو داود نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة : من العنب ، والتمر ، والحنطة ، والشعير ، والذّرة • وأخرج مسلم عن أبي هريرة : الخمر من هاتين الشجرتين ، وأشار إلى الكرم والنخلة • وأخرج البخاري عن أنس : حرمت الخمر حين حرمت • وما يتخذ من خمر الأعناب إلا قليل ، وعامة خمرنا : البسرُ والتمرُ • ويمكن أن يجاب : إن المقصود من ذلك كله بيان الحكم ، وتعليم أن ما أسكر حرام كالخمر ، وهو الذي يقتضيه منصب الإرشاد لا تعليم اللغات العربية ، سيما والمخاطبون في الغاية القصوى من معرفتها •

وفي الصحيحين : أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ سئل عن النقيع ، وهو نبيذ العسل ، فقال : كل شراب أسكر فهو حرام • وروى أبو داود نهي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر • وصح ما أسكر كثيره فقليله حرام • وفي حديث آخر « ما أسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام » والأحاديث متظافرة على ذلك •

وقوله : (والميسر) مصدر ميمي من يَسَرَ كالموعِدِ والمرجع • يقال يسرته إذا قمرته • وإشتقاقه من اليسر لأنه أخذ المال بيُسر •

وصفته : أنه كانت لهم عشرة أقداح ، هي : الأَزلام ، والأقلام الفذ والتّوأم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس ، والمسبل ، والمعلّى ، والمَنيح والسفيح ، والوغد • لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها ثمانية وعشرين جزءً ، إلا الثلاثة وهي : المنيح ، والسفيح ، والوغد • للفذ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ،

وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ، وللمعلى سبعة ، يجعلونها في الربابة ، وهي خريطة ، ويضعونها على يدي عدل يُجَلجِلُها ويدخل يده ، فيخرج باسم رجل قدحاً منها ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح . ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيئاً ، وغرم ثمن الجزور كله مع حرمانه . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ، ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ، ويذمون من لم يدخل فيه . ويسمونه البَرَم . وفي حكم ذلك عند الحنفية جميع أنواع القمار من : النرد ، والشطرنج ، وغيرهما . حتى أدخلوا فيه لعب الصبيان بالجوز والكعاب ، والقرعة في غير القسمة ، وجميع أنواع المخاطرة والرهان . وعن ابن سيرين كل شيء فيه خطر فهو من الميسر . والشافعي لم يحرم إلاّ بمقابلة المال .

قوله تعالى : (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) معنى فيهما في تعاطيهما والتلبس بهما . وفي معنى التعاطي للخمر : بيع العنب للمشهور بعصره للتخمير ، والسعي في عملية عصره وما بعده حتى يتخمّر كما يدخل الياسرين والعاملين به . وأما الإثم : فهو بالنسبة إلى شرب الخمر مخالفة النهي الوارد من صاحب الشريعة ، ومباشرة ما يسلب العقل ويهيء الشارب للتعرض والوقوع فيما يخالف أحكام الإسلام قولاً وفعلاً كالشتام والسباب ، وهتك الأعراض ، ونهك الحقوق . وبالنسبة للميسر : فهو إيذاء الناسب باخذ اموالهم بالباطل بدون بدل وإيذاء أنفسهم بالتغريم ، وما يترتب عليه من المعاتب والجرائم .

وأما المنفعة : فهو التجارة بأسبابهما ، وأخذ أموال الناس بدون تعب وأذى ، وصرف بدل مشروع ، والتلذذ النفسي ، والغفلة عن الواجبات ، وإن كان مآل الكل الخسارة في الدنيا والدين .

وقوله : (وإثمهما أكبر من نفعهما) أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة فيهما • فمن المفاسد التي تنشأ منهما ما ذكرناه آنفاً • وعلاوة على ذلك فإنه قد تنشأ من شرب الخمور وتعاطي الميسر إيقاع العداوة والكراهية والبغضاء في العوائل والمجتمعات ، والإبتلاء بتقيّد نفسي إلى أن يموت بحيث لا تمكنه مفارقته لهما ما أمكن بأيّ حال من الأحوال وفي أي زمان ومكان • وابتلاء شربة الخمور بأمراض فتاكة لا تفارقهم كما لا يخفى على من طالع كتب الطب والرسائل المؤلفة في ذلك الباب • ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث » • عصمنا الله تعالى منها ومن كل عمل مكروه ، وهدانا إلى كل عمل محبوب نافع للدنيا والدين •

وقوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن نفراً من الصحابة أمروا بالنفقة في سبيل الله تعالى أتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا فما ننفق منها ؟ فنزلت •

وقوله تعالى : (قل : العفو) أي صفته أن يكون عفواً • والمراد به : مالا يتبين في الأموال • وفي رواية ما فضل عن العيال • وعن الحسن : مالا يجهد • أي مالا يشق إنفاقه • وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وابدأ بمن تعول » أي من عليك نفقته •

وقوله : (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي مثل ما بين أن العفو والسهل أصلح من الجهد والصعب ، لأنه أبقى للمال وأنفع للآخرة • وقوله : (لعلكم تتفكرون) أي تتفكرون في الآيات لفهم المصالح في الدنيا والآخرة فتسعدون •

وقوله تعالى : (ويسألونك عن اليتامى) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما أنزل الله تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) وقوله تعالى : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) إنطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه فوقع اليتامى في عسر وضيق وكذلك أقاربهم • فذكروا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت • وقوله : (قل إصلاح لهم خير) أي رعاية أموالهم بطريقة مشروعة وإصلاح اموالهم بالحفظ والتنمية خير لهم ولكم في الدارين من هذه المجانبة والمتاركة • ولما كان الإصلاح خيراً فلا مانع من مخالطتهم • وقوله : (وإن تخالطوهم) معناه : إن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والمصاهرة تؤدّوا اللائق بكم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين ، وبذلك قرأ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ •

وأخرج عبد بن حميد عنه : المخالطة أن يشرب من لبنك وتشرب من لبنه ، ويأكل في قصعتك وتأكل في قصعته ، وتأكل من ثمرته ويأكل من ثمرتك •

وقال أبو عبيد : مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ، ولا يجد بدا من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم مايرى أنه كافيه بالتحرّي فيجعله مع نفقة أهله ، وهذا قد يقع فيه الزيادة والنقصان فجاءت هذه الآية الناسخة بالرخصة فيه •

ومما علم من الدين أن ولي اليتيم أبوه ، فجده ، فوصي الأب إن لم يكن جد أو لم يكن بصفة الولاية ، فوصي الجد ، فالقاضي الأهل ، فالقيم المعيّن من طرفه بشرطه • وأما الأم فلا ولاية لها على الأصح • ومقابله

أنها تلي لاسيما إذا كانت عاقلة فاهمة للامور بشرط أن لا تكون زوجة لغير أبيه . وفي التحفة : إذا لم يوجد له ولي أو وجد حاكم جائر وجب على المسلمين النظر في مال المحجور وتولي حفظه له إنتهى .

وهذه الآية الشريفة تبين حكم حفظ أموال اليتامى فيما إذا لم يكن قاضٍ شرعي يراعي أموالهم ووقع عدّة من اليتامى تحت يد واحد من إخوتهم فله أن يخلط أموالهم بماله ويراعي المصلحة فيها بأن يبيع مايشرف على الضياع منها ويحفظ ثمنه لليتيم ، ويترك الأموال التي تدوم كالعقار والمسقفات للإستفادة منها ، ويصرف من مستغلات أموالهم أو من أعيان رؤوس الأموال في نفقاتهم ، وليقدم الأحظّ بالبيع بأن يبيع الفروش الزائدة ، ثم الحيوانات الذكور ، ثم ما طعن في السن منها . فإذا تصرف كذلك فقد أدّى واجبه الشرعي . ولا يمنع هذا الخلط من أكل أطعمة الإخوة الكبار إذا كانت التصرفات على ما ذكرنا لأنه غاية ما يمكن تطبيقه هنا . وأما فصل طعام اليتامى وشرابهم عن طعام البيت فدونها خرط القتاد . ولا يمكن عادةً تطبيقها .

وإذا اجتمع وجوه القرية وجعلوا أحد الإخوة قيّما على الأيتام وأموالهم فذلك حسن بل واجب حتى تكون تصرفاته مندرجة تحت الأصول المشروعة .

وأما تصفية أموال اليتامى ببيعها لأحد الإخوة وصرف ثمنها في نفقاتهم فهذا شيء إثمه أزيد من برّه ، وفساده أكثر من خيره ، لأن بقاء رؤوس أموالهم أنفع لهم بدرجات . ثم لا موجب لهذه المعاملة والمشتري غير مؤتمن للمستقبل حتى يرد على اليتامى أثمان أموالهم أو ينفقها عليهم إنفاقاً معتدلاً مشروعاً .

علاوة على ذلك فقد يترتب على ذلك بعد بلوغ اليتامى مشاحنات وفتن كاد أن يقتل بعضهم بعضاً . وقد جربت هذه الأمور مرّات . نعم إذا كان هناك قاض يبيع أموالهم ويحفظ أثمانها أو يستنميها بصورة مشروعة كان ذلك احسن وأنفع .

وقوله : (والله يعلم المفسد من المصلح) تهديد وتحذير لمن ولي أمر اليتامى وأموالهم بأن الله عالم بأحوال المفسدين والمصلحين وسيجزى كلاًّ منهم على حسب أعماله .

وقوله : (ولو شاء اللهَ لأَعْنَتَكُم) أي ولو شاء إتعابكم لأتْعَبَكم بأن يُكلفكم بفصل أموال اليتامى عن أموالكم وإدارتها معهم وإن كان هذا العمل صعباً جدّاً لكنه من فضله الواسع لم يكلفكم بذلك ، وسهل عليكم الأمر بإباحة مخالطتهم والمسامحة عن اللمم . فعليكم برعاية الحرام والحلال ومخافة الملك المتعال إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء ، وحكيم يتصرف في ملكه بما يريد .

(ولا تَنْكِحُوا المُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ، وَلا تُنْكِحُوا المُشْرِكينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ اَعْجَبَكُمْ أولئِكَ يَدْعُونَ إلى النَّارِ ، واللهُ يَدْعُو إلى الْجَنَّةِ وَالمَغفِرَةِ بإذْنِهِ ويُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢٢١)

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث مَرثدا الغَنَوِيّ إلى مكة ليخرج منها أُناساً مِن المسلمين ، فَأتَتْه عَناقُ ، وكان يَهْواها في الجاهلية ، فقالَتْ : ألا نخلو ؟ فقال : إن الإسلام حال بيننا . فقالت : هل

لك أن تتزوج بي ؟ فقال : نعم ولكن اَستأمِرُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأمره ، فنزلت .

ومما ينبغي أن يعلم أن النكاح مشروع في الأديان السماوية كلها ، وتقرر في دين الإسلام على أحسن وجه وأوفقه بحياة الإنسان السعيد ، فمن راعى آدابه سعد في الدارين فهو في حد ذاته وسيلة لاستيناس الإنسان بالإنسان ، وقضاء حاجة النفس وكبح جماحها في الميل إلى العدوان ، وطريق للتناسل واستمرار سلسلة الرجال والنساء في العالَم ، والحجر الأساس لبناء المصاهرة الموجبة للتعاون والتكاتف والتراحم بين الأفراد والقبائل ، ووسيلة تكثير سواد الأمة السعيدة الصالحة المسلمة في تعمير الأرض بالعلم السليم والعمل الصالح . وعلى ذلك الأساس وردت أحاديث شريفة في الترغيب فيه واختيار الأكفاء ، ورعاية الدين والحسب ، حتى تحصل النتيجة المرغوبة المباركة ، ويعيش الرجال مع النساء بكرامة ومحبة واحترام .

ومن أهم النتائج : الإعفاف ، يقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبَصَر وَاَحْصَنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليهِ بالصّوم ، فإنه له وِجاء" . والباءة : النفقة . والوِجاء : القطع للشهوة النفسية .

والرجل بالنسبة إلى الزواج لايخلو إما أن يكون تائقاً محتاجاً له أوْ لا ، وعلى كل فإما أن يكون واجداً للأهبة أوْلا ، فهو مستحب للتائق الواجد للأهبة إن لم يخف العنت ، وإلا" فيجب عليه صيانة لدينه . وأما الفاقد لها فيستحب له الصوم إن أمكنه واندفعت به شهوته . وإلا أبيح له النكاح ، وعليه الكسب لتحصيل النفقة بقدر الإمكان . وأما غير التائق فيكره له النكاح إن كان فاقداً للأهبة ، أو واجداً لها وبه علة تمنعه من إعفاف الزوجة ، وإلا فإن تخلى للعبادة فهي أفضل ، وإلا" فالنكاح لئلا تقضي به البطالة

إلى الفواحش • وفي غير التائق الفاقد للأهبة قد يحرم النكاح إذا أفضى إلى إفساد زوجته • وبالجملة فالنكاح دائر بين الأحكام الخمسة من الوجوب ، والحرمة ، والندب ، والكراهة ، والإباحة • والتفصيل في الفقه •

وهذا الذي ذكرناه إنما هو في عقد حلال في ذاته أي لم يكن هناك تحريم لعينه أو لسبب في العقد ، وإلا فقد يكون النكاح حراماً لعينه ، لنسب وهو نكاح الأم والبنت والأخت والعمة ، والخالة ، وبنت الأخ ، والأخت ، أو لرضاع وهو كالنسب ، أو لِمصاهرة وهو نكاح زوجة الأب والابن ، وزوج البنت أمّها وزوج الأم المدخول بها بنتها أو للجمع ، كالجمع بين المرأة وأمها أو اختها أو عمتها أو خالتها • وبين أكثر من أربع زوجات • وإما لاشتباه مُحرمة بأجنبيات محصورة • أو لسبب في العقد وهو نكاح الشغار ، والمتعة ، ونكاح من دخل في الإحرام بالحج أو بالعمرة ، ونكاح المعتدة ، والكافرة غير الكتابيّة •

فقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) المراد بالمشركات ما عدا الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات • وهن : الوثنيات ، والمجوسيات ، والملاحدة المعطلات اللاتي لا يعترفن بربّ العالمين • وأما الكتابيات ، وإن أسند إلى اليهود والنصارى الإشراك لكن شرف أصل الكتاب والإيمان به حسّم تلك الوساخة • بدليل أنّ الله تعالى فرق بينهما بالعطف فقال: (ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقال : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ففرق بينهم في اللفظ ، وظاهر العطف التغاير بين المتعاطفين وأيضاً فالمشركات عام قابل للتخصيص ، وقوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) نصّ ، وهو أقوى

من العام فيتخصص به • فيجوز للمسلم نكاح الكتابية قبل الإسلام • لكن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ إشترط في الجواز إثبات كونها كتابية قبل النسخ والتحريف • وذلك متعذر ، فلذا لا يصح نكاحهن له قبله •

ومنعُ عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ طلحة ابن عبيدالله ، وحذيفة ابن اليمان عن إمساك الزوجة الكتابية كان رعايةً لمصلحة الإسلام حتى لا يختلط المسلمون بالكتابيين بالمصاهرة • فمعنى الآية الشريفة : ولا تنكحوا النساء المشركات حتى يؤمن ، وأما الكتابيات فلا مانع من نكاحهن •

وقوله تعالى : (ولأَمَةٌ مُؤمِنَةٌ خيرٌ مِن مُشرِكة) إخبار بأن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات حَسَبٍ ومالٍ • نزلت في شأن خنساء وهي وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان ، فقال لها حذيفة : يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى مع سوادكِ ، وأنزل الله تعالى ذكركِ في كتابه ، فأعتقها حذيفة وتزوجها •

فمعنى قوله تعالى (ولو أَعْجَبَتكم) أنها ولو كانت المشركة ممن تعجبكم بجمالها أو بمالها أو بسائر وجوه الحسن فيها ما دامت هي مشركة فالأمة المؤمنة خير منها للأمن من غوائلها في العائلة وسائر وجوه المعاشرة •

وقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) كلمة المشركين فيه عام لجميع من يستشم منه رائحة الإشراك كتابياً أو وثنياً أو مجوسياً أو غيرهم • وليس في دين الإسلام ما يؤخذ منه جواز إنكاح المسلمة من الكافر • ومن هنا أجمعت الأمة على أن المشرك لايطأ المؤمنة لما في ذلك من الحقارة والهوان على الإسلام ، وقد قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) •

وقوله تعالى : (ولعبد مؤمن) الآية أي ولعبد مملوك مؤمن خير لاختياره للمصاهرة من مشرك حسيب ولو أعجبكم ماله وجماله وحسبه . ثم أتى الباري تعالى لتعليل الحكمين بقوله الكريم (أولئك يدعون إلى النار) أي أن المشركين والمشركات يدعون إلى العقائد والأعمال الموجبة لدخول النار والخلود فيها ، وقلّما يسلم أهلهم وأولادهم من فساد العقيدة والعمل . والله يدعو إلى الجنة بدعوته إلى العقائد السليمة والأعمال الصالحة والمغفرة دعوة متلبسة بإذنه وتوفيقه ، ويبين آياته للناس في النكاح وغيره بالأمر والنهي ، لعلّهم يتذكرون ويتعظون بها ويصلُون إلى سعادة الدنيا والدين .

(وَيَسْئَلونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ : هُوَ أذىً ، فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ في المَحِيضِ ، وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ) (٢٢٢)

عن أنس بن مالك : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم أخرجوها مِنَ البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يُساكنوها ، فسأل الصحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، فأنزل الله الآية . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إصنَعوا كلَّ شيء إلا النِّكاحَ . رواه مسلم والترمذي .

وقوله تعالى : (ويسئلونك عن المحيض) أي عن أحكام الرجال في قربان النساء عند الإبتلاء بالمحيض . وقوله (قل هو أذى) أي قل في جوابهم: إن الحيض شيء مستقذر مؤذٍ لمن يقربه نفرةً منه (فاعتزلوا النساء في المحيض) فاجتنبوا مجامعتهن في وقت المحيض وليس عليكم الإعتزال عنهن

في المأكل والمشرب والمسكن ، ولا الإبتعاد عن طعام يهيّئنه (ولا تقربوهن حتى يطهرن) أي ينقطع الحيض عنهن ويغتسلن بدليل قوله تعالى : (فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) أي فإذا إغتسلن وتنظّفن فجامعوهن من المحل الذي أمركم الله به وحلله لكم إن الله يحب التوّابين أي الرجاعين إلى الله تعالى والواقفين عند أمره ونهيه بالإمتثال والإجتناب ويحب المتطهرين المبتعدين عن الأوساخ والأقذار •

(نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فأتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ، وقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ واتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ) (٢٢٣)

لما كان في قوله تعالى فأتوهن من حيث أمركم الله خفاء بينه بقوله الكريم (نساؤكم حرث لكم) أي مواضع حرث ، واستعمال نافع ، ووضع بذر لكم • فأتوا حرثكم واستعملوه واتنفعوا بالحرث (أنى شئتم) أي من أيْنَ شئتم أي من أيّ جهة شئتم الإتيان بالحرث ، وكيف شئتم على القعود ، او على الإمتداد ، ومتى شئتم أي زمان مالم يظن الإضرار بها في ذلك الوقت (وقدموا لانفسكم) مايصلح للتقديم من : نية الإعفاف ، والإستيناس ، والنسل الصالح ، والتسمية في بدء العمل ••• واتقوا الله واحذروا مخالفته في الأمر والنهي ، واعلموا أنكم ملاقوه بالبعث والحساب فيجازيكم بأعمالكم ، فتزودوا ماينفعكم وبشر المؤمنين بحسن الثواب يوم الدين •

ومما ينبغي أن يعلم أنه يستفاد من الآيتين حرمةُ مجامعةِ النساء في أدبارهن من وجوه :

الأول : من قوله تعالى : (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) لأنه مادام وجب إعتزال النساء في وقت الحيض لأن دم الحيض أذى يستفاد

وجوب إعتزال النساء من الأدبار فإن أذى النجاسات المحلولة المتعفنة أقوى من أذى دماء الحيض • فالقياس جلي" وأولوي" •

الثاني : من قوله تعالى (فإذا تطهرن فأتوهن) لأنه يستفاد أن لا إتيان إليهن إلا مع الطهر والنظافة للمحل المستعمل • ومع تحقق النجاسة في الدبر أو توهمه لا مجال لإتيانه منه واستعماله •

الثالث : من قوله تعالى (ويحبّ المتطهرين) لدلالته على أن الله لايحب المتقذرين المتوسخين •

الرابع : من قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم) لأن كل عاقل يعلم أن الحرث محل نشر البذر للنبات ، والأدبار مَضْيَعَة" للبذور ومثيرة للشرور ، فلا مجال لإلقاء البذر فيها وإضاعتها •

الخامس : من قوله تعالى (فأتوا حرثكم) حيث أكد على الإتيان من الفرج حيث لم يقل نساؤكم حرث لكم فأتوهن • وقال فأتوا حرثكم • حتّى لايَتَوَهَّمَ أحد" أنّ إتيانهن جائز من أيّ منفذ كان •

السادس : من قوله تعالى : (وقدّموا لأنفسكم) لأن نية النسل الصالح وبقاء الدين في أهله إنما تتحقق في إتيانهن من القبل فإنه هو المظنة لحصول النسل الصالح واستمرار الخير في بيته •

السابع : من قوله (واتقوا الله) لأن الأمر بالتقوى يجلب النظر ، ويدعو إلى الإبتعاد عن الشبهات كالإتيان من الأدبار •

الثامن : من قوله (وبَشّر المؤمنين) لأن المؤمنين هم الواقفون على ظواهر الآيات المبتعدون عن الشبهات ، والله اعلم •

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ

(ولا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٢٢٤)

لفظ (عرضة) بمعنى المعروض كالغرفة بمعنى المغروف ، وهو إما بمعنى مُعَرَّضَةٌ دون ذلك وقدامه فيكون بمعنى الحاجز والمانع عن الشيء والأيمان جمع يمين بمعنى المحلوف عليه ، كما في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابن سمرة : « إذا حَلَفْتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأتِ الذي هو خير وكفر عن يمينك » • واللام في لأيمانكم صلة عرضة لما فيها من معنى الإعتراض • وأن تبروا وما بعده في تأويل مصادر وقعت عطفَ بيان للأَيمان • فالمعنى : ولا تجعلوا اسم الله والقسم به حاجزاً مانعاً عن الإتيان بما حلفتم عليه من : برّ الفقراء ، وتقوى الله ، والاصلاح بين الناس ••• أي لا تحلفوا به • أو إذا حلفتم فاحنثوا وكَفِّروا عن الحلف وأتوا بالبر وعمل التقوى والإصلاح بين الناس •

وإما بمعنى المعرّض للشيء كتعريض المال للبيع • والأيمان جمع يمين بمعنى الحلف ، وأن تبروا مقدر بلام الجر لتعليل النهي • أي ولاتجعلوا اسم الله معرَّضاً للأحلافأي لا تحلفوا بهكثيراً فتبتذلوه بكثرة• وإنما أنهاكم عن ذلك إستحباباً لبركم بالفقراء وتقواكم من الله وإصلاحكم بين الناس • فإنكم اذا حلفتم منعكم الحلف عنها ، وإذا لم تحلفوا لا يكون هناك مانع • والله سميع لأيمانكم وعليم بنياتكم • فاحذروا المخالفة وبادروا بالإمتثال لعلكم تفلحون •

(لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أَيْمانِكُمْ ولكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلوبُكُمْ واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (٢٢٥)

قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) اللغو : الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره• ولغو اليمين عند الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : ماسبق له اللسان وما في حكمه مما لم يقصد منه اليمين ، كقول الناس في اثناء المحاورات لا والله ، لا بالله • والمعنى لا يؤاخذكم الله أصلاً بما لا قصد لكم فيه من الأيمان •

وقوله (ولكن بما كسبت قلوبكم) معناه إنما يؤاخذكم بما قصدتم من الأيمان ووافقت فيها قلوبكم ألسنتكم •

وقال الإمام أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : لغو اليمين : أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب • فالمعنى لا يؤاخذكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه •

قال في الهداية : إن الأيمان على ثلاثة أضرب : يمين الغموس ، ويمين منعقدة ، ويمين لغو • فالغموس : هو الحلف على أمرٍ ماضٍ متعمداً الكذب فيه ؛ فهذه اليمين يأثم فيها صاحبها ، ولا كفارة فيها إلا التوبة • وقال الشافعي فيها الكفارة • واليمين المنعقدة : ما يحلف على أمر في المستقبل أن يفعله أو لا يفعله وإذا حنث فيها لزمته الكفارة لقوله تعالى : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) ويمين اللغو على امر ماض وهو يظن أنه كما قال والأمر بخلافه • فهذه اليمين نرجو أن لا يؤاخذ الله بها صاحبها • انتهى يعني ولا كفارة فيها • فكأنه أخرج ماسبق به اللسان في المحاورات عن اليمين • إذ لم ينطق به إلا على عادة جريان اللسان بها •

واعلم أن هنا أموراً ينبغي الإطلاع عليها :

الأول : أن اليمين والحلف والقسم الفاظ مترادفة لغة • وفي عرف الشرع تحقيق أمر محتمل ماضياً أو مستقبلاً نفياً أو إثباتاً بما اختص الله

تعالى من أسماء ذاته أو صفاته ، نحو والله لأفعلن كذا • أو وعلمه لأفعلن ونحوهما • وإنما تذكر في الأيمان لأن الحالف قوى بيانه وكلامه بذكر ذات مقدس لا مقدس غيره وهو الله تعالى أو بذكر صفة من صفاته المختصة •

الثاني : أن التقديس لا يليق إلا بالمعبود بالحق ، ولا معبود بالحق إلا الله تعالى ، فمن حلف بغيره ؛ فإن كان كلامه مبنياً على تقديسه كأن يقول : واللات والعزى فلا شك في كفره فيجب عليه التوبة والرجوع إلى الحق وتجديد دينه بالشهادتين •

وإن كان كلامه مبنياً على المحاورات الإعتيادية واحترام المحلوف به أو محبته ، كقوله وحياة أستاذي ، أو والدي ، أو رأس فلان مما ليس له تقديس فلا مجال للقول بكفر الحالف ، ويحرم تكفيره ، غير أنّه يقال له : لا تحلف بغير الله أو نحو ذلك • وقد كتب المحدّث الشهير محمّد بن علي بن محمد الشوكاني في الجزء الثامن من كتابه نيل الأوطار في صفحة (٢٣٦) في شرح « من حلف بغير الله فقد كفر واشرك » مانصه : قال العلماء السر في النهي عن الحلف بغير الله تعالى أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه ، والعظمة في الحقيقة مختصة بالله وحده ، فلا يحلف إلا بالله وذاته وصفاته • وعلى ذلك إتفق الفقهاء • واختلف : هل الحلف بغير الله حرام أو مكروه ؟ للمالكية قولان : ويحمل ما حكاه إبن عبدالبرّ من الإجماع على عدم جوازه بغير الله على أن مراده بنفي الجواز الكراهة أعم من التحريم والتنزيه •

وقد صرح بذلك في موضع آخر • وجمهور الشافعية على أنه مكروه تنزيهاً • وجزم ابن حزم بالتحريم • وقال إمام الحرمين : المذهب القطع بالكراهة • وجزم غيره بالتفصيل • فإن إعتقد بالمحلوف به ما يعتقد في

الله تعالى كان بذلك الإعتقاد كافراً . ومذهب الهادوية أنه لا إثم في الحلف بغير الله تعالى مالم يسو بينه وبين الله في التعظيم ، أو كان الحلف متضمناً كفراً أو فسقاً ، وسيأتي الكلام على من يكفر بحلفه . انتهى نص عبارة الشوكاني رحمه الله .

قلت : أخرج مسلم : « من حلف منكم فقال في حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلاّ الله » وفي رواية للحاكم عن ابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من حلف بغير الله كفر) وروي الشيخان عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أدرك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في ركب ويحلف بأبيه فناداهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . وفي رواية لأبي داود والنسائي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : « لاتحلفوا بآبائكم ، ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون ».

فنص في بعضها على أن من حلف باللات والعزى فقد كفر ، وفي بعضها النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، بدون ترتيب الكفر على حلفه . ويستفاد من تلك الروايات أن الحلف باللات والعزى على نهج حلف الجاهليين بهما كفر ، وأما الحلف بغير أمثال تلك العبارة إن اعتقد الحالف تعظيم المحلوف به كتعظيم الباري فهو كفر ، وإلاّ فلا يخرج عن نطاق الكراهة ، لاسيما إذا كان الرجل الحالف مؤمناً عالماً عاملاً في دينه بالحق مستمراً عليه . فإنه مما يستغرب حمل كلام له إحتمالات كثيرة للخير والشر من مؤمن بالله تعالى على الكفر والعياذ بالله تعالى من تكفير المسلم بغير حجة قاطعة في الدين .

الأمر الثالث : مما علم قطعاً بلا شبهة أن الحلف شرعاً لا يكون إلا بما اختص بالله من ذاته أو صفة من صفاته ، وأنه يستعمل بأدوات القسم كالباء والواو ، والتاء • فمن حلف بالطلاق بإحدى الحروف القسمية فقال : بالطلاق ، أو والطلاق لا أفعل كذا ، إعتبر الفقهاء حلفه ذلك بالطلاق لغوا مالم ينو به الطلاق ، أو لم يطرد العرف باستعماله في حل العصمة عند الحنث • وإلا وقع به الطلاق لأن ذلك المعنى صار معنى عرفياً مطرداً ، أو معنى منوياً للحالف ، والشخص مأخوذ بكلامه على نيته وعلى إطراد العرف • هذا في ما إذا تلفظ بأمثال عبارة والطلاق ، أو بالطلاق بأداة القسم • أما مايستعمل في مقام الحنث والمنع نحو قول الزوج لزوجته : عليّ الطلاق لا تدخلين دار فلان ، أو لا تتكلمين مع فلان •• فليس ذلك من باب الحلف المعروف ؛ لأن الحلف له تركيب واسلوب خاص بحروف خاصة ، وتسميتها بالحلف مجاز ، فاعتبارها حلفاً والإكتفاء بكفّارتها والحكم بعدم وقوع الطلاق غلط سرى إلى الأوهام كما ذكره إبن قدامة الحنبلي في كتاب المغني في فصل الحلف بالطلاق ، وحاصل كلامه : أن تسمية تلك العبارات حلفاً مجاز بعلاقة الحث والمنع الموجودة في القسم وفي الحلف بالطلاق ، وإلا فليس حلفاً وليس هناك أداة قسم ملفوظة أو مقدرة أبداً • ويترتب عليها أحكامها • فالحلف المثبت كقوله : عليّ الطلاق تدخلين الدار في قوة إن لم تدخلي الدار فأنتِ طالق • والحلف المنفي كقوله : عليّ الطلاق لا تدخلين الدار • معناه إن دخلت الدار فأنت طالق • ودعوى أنها حلف غير مشروع فلا يترتب عليها وقوع الطلاق دعوى باطلة ليس عليها شبهة فضلاً عن دليل • وجرى على اعتبارها وترتب آثارها عليها الأئمة الأربعة المجتهدون ، وأهل البصيرة السالمة من الفقهاء البارزين • فاحفظ هذا كي لاتقع في الأوهام ، والله بدعوك وإيانا إلى دار الكرامة ببركة الإسلام •

ولما كان للإيلاء مناسبة مع الأيمان في إفادته الإمتناع عن مقاربة النساء مدة معلومة بصيغة القسم بيّن الله تعالى حكمه في ما أنزله بقوله الكريم :

(لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (٢٢٧)

عن سعيد بن المسيب كان الإيلاء من ضرار أهل الجاهلية . كان الرجل منهم لايحب امرأته ، ولايريد أن يتزوجها غيره فيحلف ألاّ يقربها أبدا أو أن لا يقربها سنة أو سنتين أو اكثر من ذلك ! فيتركها لا أيّماً ، ولا ذاتَ بعل . وكانوا عليه في ابتداء الإسلام . فضرب له في الإسلام الأجل الذي يعلم به ماعند الرجل في المرأة أربعة أشهر فأنزل الله هاتين الآيتين ذكره البغوي والواحديّ .

قوله تعالى : (للذين يؤلون من نسائهم) أي للرجال الذين يحلفون على أن لا يجامعوا زوجاتهم ، ويتركوهن ويهجروهن في المضاجع (تربص أربعة أشهر) أي حق التوقف مدة أربعة أشهر بأن لايطالبوا بالرجوع إلى زوجاتهم على العادة ولا بطلاقهن . (فإن فاؤا) فإن رجعوا في الإيلاء والقسم بالحنث وجاؤا إليهن كما هو المشروع (فإن الله غفورٌ رحيم) يغفر للمولي إثم حلفه وإثم حنثه إذا كفّر عن اليمين . (وإن عزموا الطلاق) أي وإن صمموا قصده فإن الله سميع لطلاقهم إذا طلقوا وعليم بنياتهم في ذلك .

والشافعي يرى أن الإيلاء شرعاً لا ينعقد إلا بما زاد على أربعة أشهر لأن للمولى حق التربص أربعة أشهر وإذا مضت المدة يطالب الرجل بالرجوع إلى المرأة ؛ فإن رجع فذاك وإلاّ وجب أن يطلّقها ، فإن إمتنع طلّقها عليه الحاكم .

وقال أبو حنيفة : الإيلاء في أربعة أشهر فما دونها ، وحكمه : أن المولي إن فاء في المدة بالوطء إن قدر ، وبالوعد إن عجز صح الفيء ولزم الواطيء الكفارة . وإلا بانت بعدها بطلقة .

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (٢٢٨)

قالت أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية : طُلِّقْتُ على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم تكن للمطلقة قبل طلاقي عدة . فأنزل الله تعالى حين طلقت قوله : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلثة قروء) الآية .

ثم لما كان النكاح شريعة منزلة في الإسلام لغرض الإعفاف والإستيناس والتناسل والتعاون في الحياة السعيدة كذلك قرر الطلاق أي حلّ قيد النكاح بينهما ، والاصل فيه آيات منها قوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) واحاديث شريفة منها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليس شيء من الحلال أبغض إلى الله تعالى من الطلاق » رواه أبو داود بإسناد صحيح والحاكم وصححه .

ويرد عليه الأحكام كالندب في ما إذا كانت المرأة سيئة الخلق بحيث لا يصبر الرجل على عشرتها ، والحرمة كطلاقها في الحيض ، والوجوب كطلاق الحكم عند الشقاق وعدم مجال للصلح بينهما والإباحة كطلاق من

لا تسمح نفسه بمؤنتها لعدم ميله إليها ميلاً كاملاً • والإباحة فيما عدا ذلك مما خلا عن الوجوه المذكورة •

ويتعلق بالطلاق أحكام كثيرة واردة في الكتاب والسنة كما ستطلع عليها • ومنها : وجوب تسليم المتعة فيما إذا طلقها قبل الدخول إذا لم يسم لها ولم يفرض لها مهر • ومنها : وجوب تسليم نصف المهر أو نصف المال المفروض فيما كان لها مهر مسمى أو مفروض وطلقها قبل الدخول • ومنها : وجوب تسليم المهر المسمى أو المفروض فيما إذا طلقها بعد الدخول • ومنها : وجوب السكنى لها في مدة العدة • ومنها : وجوب النفقة في المطلقة الرجعية والبائنة عند بعض الأئمة • ومنها : البينونة الكبرى فيما إذا طلقها ثلاثاً مطلقاً أي قبل الدخول أو بعده • وفي مقابلة العوض أو دونه • ومعناها إمتناع رجوعها إلى الزوج إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره وتفارقه وتمضي مدة العدة•ومنها : البينونة الصغرى فيما إذا طلقها طلقة أو طلقتين قبل الدخول مطلقاً ، أو بعد الدخول في مقابلة العوض • ومعناها جواز رجوعها إلى الزوج بعقد جديد مستوف لشروط • ومنها : وجوب العدة عليها وهي تربصها إلى انفصال الحمل فيما إذا كانت حاملاً مطلقاً ، ومدّة أربعة اشهر وعشرة أيام فيما إذا توفى عنها زوجها وهي حائل • وثلاثة قروء فيما إذا طلقها وهي من ذوات الحيض بعد الدخول • وثلاثة أشهر فيما إذا لم تحض أصلاً ، أو حاضت وانقطع حيضها ووصلت سن اليأس من الحيض ، أو كانت يائسة عند الطلاق •

فقوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) ظاهره شمول جميع المطلقات لكن أريد بها المطلقات بعد الدخول من غير ذوات الحمل ؛ لأنه لا عدة على المطلقة قبل الدخول أو ما في معناه لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فمالكم

عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً) والنساء الحوامل عدتهن بوضع الحمل لقوله تعالى : (وأولات الأحمال أجلهُنّ أن يضعن حملهنّ) وكذلك خص من العموم اللواتي لم يحضن لصغر أو لكبر ؛ لأن عدتهن ثلاثة أشهر كما قال الله تعالى واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ، إن ارتبتم ، فعدّتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن) .

وقوله (يتربصن) خبر في معنى الأمر أي ليتربصن . وفي التعبير عنه به بلاغة لإفادته أن التربص قد ثبت وتقرر . وقوله : (بأنفسهن) للإهتمام بالتربص لكونه خلاف ما تشتهيه أنفس النساء . وقوله : (ثلاثة قروء) ظرف لبيان مدة التّربص . و (قروء) جمع قرء . وجاء بمعنى الحيض والطهر . وممن ذهب إلى أن المراد بالقرء في الآية الطهر مالك ، والشافعي ، وأم المؤمنين عائشة ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله ابن عمر ، والفقهاء السبعة ، وإبان بن عثمان ، والزهري وعامة فقهاء المدينة . وهو رواية عن أحمد .

وممن ذهب إلى أن المراد به الحيض : الخلفاء الراشدون الأربعة ، وابن مسعود ، وابو موسى ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وابن عباس ، ومعاذ ابن جبل ، وجماعة من التابعين . وهو الرواية الصحيحة عن أحمد .

واحتج كل من الفريقين بما رآه من الكتاب والسنة وتفصيله يطول . وقوله : (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) الآية أي يحرم عليهن أن يكتمن ما في أرحامهن من الولد والحيض إستعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الرجعة .

وقوله : (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) تنبيه على أن ذلك الكتم ينافى الإيمان ، وليس المقصود منه تقييد نفي الحل بإيمانهن .

وقوله : (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك) لفظ البعولة جمع بعل بمعنى الزوج والتاء مزيدة للتأكيد ، وهذا الوزن مسموع في كلمات محدودة كالجدودة ، والعمومة ، والفحولة ، والضمير راجع إلى المطلقات في الآية السابقة • وظاهر اللفظ ، وإن كان عاماً شاملاً للمطلقات قبل الدخول وبعده رجعية أو بائنة ، لكنه أريد بها المطلقات بعد الدخول طلاقاً رجعياً قبل إنقضاء العدة ، لا المطلقات قبل الدخول ولا بعده من الرجعيات التي انقضت عدتهن ولا البوائن •

أما خروج المطلقات قبل الدخول فلقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها) وأما خروج المطلقات الرجعيات بعد انقضاء العدة فلقوله تعالى : (أحق بردهن في ذلك) أي في زمان الأقراء الثلاثة • وأما المطلقات البوائن فللإجماع على أن المطلقة البائنة أحق بنفسها ولا حق للزوج في ردّها • وقوله تعالى : (إن أرادوا إصلاحاً) قيد لكون الحق مشروعاً مباحاً لا لثبوت أصل حق الرجعة لثبوته له مطلقاً ، لكنه يأثم إذا أراد الرجعة للإمساك والإضرار بها لقوله تعالى : (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فالرجعة بقصد الإضرار حرام إجماعاً •

وقوله تعالى : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) بيان لوجوب قصد الإصلاح من جانب الزوج إذا راجع زوجته بأن النساء لهن على الرجال حق مثل مالهم عليهن ففي الآية الشريفة بلاغة إيجاز والتقدير : ولهن عليهم مثل الذي لهم عليهن لكن بالوجه المعروف المشروع المعتاد بين أهل الشرف والكرامة ، فليس على الرجال أن يطبخوا ويخبزوا ويغسلوا الثياب في مقابلة أعمال النساء لتلك الأشياء •

أخرج الترمذي وصححه ، والنسائي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً • فأما حقكم على نسائكم أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون • ألا وحقهن عليكم ان تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن » • وعن أنس عن ابن عباس « إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين المرأة لي لأن الله تعالى يقول (ولهن) » • وقوله تعالى : (وللرجال عليهن درجة) المراد بالدرجة الزيادة في الحق أو الشرف والفضيلة ؛ لأنهم قوّام عليهن ، وحرّاس لهن يشاركونهن في غرض الزواج من التلذذ وانتظام مصالح المعاش ، ويخصّون بشرف يحصل لهم لأجل الرعاية والعناية بهن ، وكسب المعاش والإنفاق عليهن ، والإقتحام في المتاعب الدنيوية لهن • والله عزيز غالب على من خالفه فينتقم منه ، حكيم عالم بعواقب الأمور •

(الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ ، وَلا يَحِلُّ لَكُمْ انْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلاَّ انْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ ، فَإنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٢٢٩)

عن عائشة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت : كانَ الرجُلُ يُطَلق إمْرأتَه ما شاء انْ يُطَلقها وهي إمرأته إذا ارتجعها وهي في العدّة • وإن طلّقها مائة مرّةٍ أو أكثر • حتى قال رَجُلٌ لامرأته : والله لا اُطلقكِ فتَبيني منّي ، ولا آويكِ إليَّ ! قالت وكيف ذلك ؟

قال : أطلقكِ ، فكُلَّما هَمَّتْ عِدَّتُكِ أنْ تَنقضيَ راجَعْتُكِ • فذَهَبَتِ المرأة إلى رَسولِ اللهِ فأخبرته بما كان من زوجها • فسكت حتى نزلت هذه الآية • أخرجه الترمذي والحاكم •

وعن ابن عباس قال : كان الرجل يأكل من مال امرأته التي نحلها وغيره لايَرى أنّ عَلَيهِ جُناحاً • فأنزل الله هذه الآية • أخرجه أبو داود في الناسخ والمنسوخ • قال ابن عباس : فلا يحل لهم بعد نزول هذه الآية أخذ شيء من أموالهن إلا بحقّها •

وعن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية في حبيبة بنت سهل الأنصاري كانت تحت ثابت ابن قيس بن شماس ، وكانت تبغضه وهو يحبّها ، وكان بينهما كلام ، فأتت أباها تشكو اليه زوجها ، وقالت : إنه يسبّ أبي ويضربني : فقال : إرجعي إلى زوجك فإني أكره للمرأة أن تشكو زوجها • قال : فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب ، فشكت إليه زوجها وأَرَتْه آثاراً بها من الضرّب فقال لها : إرجعي إلى زوجك • فلما رأتْ أن أباها لايُنصفها من زوجها أتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكت إليه زوجها • فأرسل رسول الله إلى ثابت وقال له : مالك ولأهلك ؟ فقال : والذي بعثك بالحق ما على وجه الأرض أحب إليّ منها غيركَ • فقال لها : ماتقولين ؟ فقالت : صَدَق يارسول الله ، ولكني خشيت أن يهلكني ، وماكنت لأحدثك حديثاً ينزل الله عليك خلافه ، فهو من أشد الناس حباً لزوجته ولكني أبغضه • قال ثابت : أعطيتها حديقة نخل فلتردها عليّ واخليَ سبيلها • فقال لها : تردين عليه حديقته وتملكين أمرك ؟ قالت : نعم • فقال رسول لله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها • ففعل •

وفي البخاري أن حبيبة قالت لرسول الله : والله ما أعتب عليه في خلق ولادين ولكني أكره الكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا ثابت إقبل الحديقة وطلقها تطليقة .

ففي هذه الآية الكريمة ثلاث فقرات كل منها حكم مهم من أحكام الأحوال الشخصية :

الفقرة الاولى : من قوله تعالى الطلاق مرتان إلى قوله بإحسان . فإن فيها أن الطلاق الرجعي محصور في مرتين ولا رجعة بعدهما .

والثانية من قوله ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن إلى قوله ألا يقيما حدود الله . فإن فيها أنه لا يجوز للزوج التعدي على أموال الزوجة من الصداق وغيره بشيء ، ولا يحل له منه إلا ما سمحت به نفس الزوجة .

والثالثة من قوله : فإن خفتم ألا يقيما حدود الله إلى قوله تعالى تلك حدود الله . فإن فيها جواز المخالعة بين الزوجين وتطليق الزوج زوجته على عوض مقصود راجع إليه تسلّمه له . وقوله تلك حدود الله فيه إعلان أنّ هذه الفقرات هي الأصول المقررة من الله في دين الإسلام . وقوله : ومن يتعدّ حدود الله الآية . وعيد وتهديد لكل من سولت له نفسه التعدي والتجاوز من حدود الله والمخالفة لهذه الأصول الأصيلة المرسومة منه تعالى .

وعلى ذلك ظهر بوضوح أن جملة (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) مربوطة بقوله تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن ارادوا إصلاحاً) وبيان أنه للرجل أن يراجع زوجته إلى عصمته في مدة العدة بعد الطلاق الرجعي مرتين فقط . فإذا طلقها المرة الثالثة

فلا حق له في الرجعة ، وتبين منه بينونة مطلقة تامّة . ولكنه بعد هذه الطلقة حكمها أن تنكح زوجا غير الأول بعد انتهاء العدة منه ويدخل بها ويطلقها ، وتعتد من الزوج الثاني أيضاً . فإذا شاءت تزوجت الأول وإن لم تشأ فلا .

فقوله تعالى : (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) معناه أنه بعد الطلقة الثانية لا يجوز لكم إلا إرجاعها إليكم ومعاشرتها بمعروف ، أو إهمالها وتركها واعطاؤها حقوقها الشرعية .

والدليل على هذا التفسير هو أن آية (الطلاق مرتان) لو كانت لبيان حكم مستقل غير مربوط بآية وبعولتهى أحق برد هن لأفادت حصر الطلاق بين الزوج والزوجة في طلاقين ، وهذا باطل بالإجماع ؛ لأن الطلاق جائز إلى ثلاث مرات .

فان قلت : إن قوله تعالى أو تسريح بإحسان فيه بيان الطلاق الثالث . قلنا : إنه مربوط بقوله : فإمساك بمعروف ومعطوف عليه ، ولايدل على تطليق ثالث ، وإنما ذكر لبيان أن الرجل بعد تطليقه المرأة في المرة الثانية لاحق له إلا إرجاعها إليه بالوجه المعروف والقصد الصالح أو اهمالها وتركها بإحسان إليها واعطاؤها حقوقها الشرعية .

ويؤكد هذا الدليل أن قوله تعالى : الطلاق مرتان نزل في حق الرجل الأنصاري الذي كان يقول لزوجته : والله لا اطلقك فتبيني مني ، ولا آويك إلي . فقالت زوجته : وكيف ؟ قال : أطلقك وكلما همّت عدتك أن تنقضي راجعتك . فأنزل الله تلك الآية في حقه . وقد أجمع على أنه لايجوز إخراج مادة سبب النزول من العام الوارد فيها . فوجب أن تكون الآية لبيان عدد إرجاع الزوجة المطلقة بالطلاق الرجعي . فيدخل في حكمها

الرجل الأنصاري وزوجته وغيرهما من أمثالهما • وهذا أمر واضح عند كل ذي عقل سليم •

ومن الناس من قال : إن قوله تعالى : الطلاق مرتان الآية نزلت لبيان حكم مستقبل غير مربوط بالطلاق الرجعي ، ونزلت لبيان الطلاق الشرعي المباح الذي يقال له : السني • وبناء عليه يجب أن يكون التطليق مرة بعد مرة • وجمع تطليقتين أو ثلاث في جملة واحدة حرام لايقع به إلا طلاق واحد • واستدلوا على ما قالوا بأربعة دلائل :

الاول أنه روى إبن إسحق عن داود بن حُصَين عن عكرمة عن إبن عباس ـ رضي الله عنهم ـ أن (ركانة) ابن عبد يزيد طلق زوجته في مجلس واحد ثلاث طلقات ثم تندم وأتى إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأله عن حكم طلاقه فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف طلقتها فقال : ثلاث طلقات في مجلس واحد فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما هي طلقة واحدة فإن شئت راجع زوجتك •

واجاب المحدثون عن هذا الدليل بثلاثة أوجه :

الأول أن راوي هذه الواقعة داود بن حصين ليس ثقة في روايته عن عكرمة ، فيسقط الإستدلال بروايته •

الثاني : أنه ليس في روايته أنه طلقها ثلاثاً في جملة واحدة كأنتِ طالق ثلاثاً • فيحتمل أنه طلقها ثلاثاً في مجلس واحد بثلاث جُمل نحو أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق • وهذا النوع من العبارة المكررة يحتمل الإستئناف فيقع به الثلاث ، والتأكيد للأول فلا يقع إلا واحدة وكذا الإطلاق • وإذا تطرق الإحتمال سقط الإستدلال •

الوجه الثالث : أن المحدث المشهور أبا داود رجّح نقلاً أن ركانة لم يطلق زوجته بعبارة أنت طالق ثلاثاً ، وإنما طلقها بعبارة أنتِ طالق" البتّة المسمى في ذلك العصر بالطلاق البتّي ، أو بطلاق البت" المستعمل غالباً في معنى الطلاق الثلاث مع إحتمال إرادة طلاق واحد أو طلاقين منها .

وجواب أبي داود قوي" جداً ، لأنه قريب من العقل أن المروي منه غيّر لفظ (البت") بالثلاث لإستعماله فيها غالباً .

ويدل على صحة هذه الرواية أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إستفسر من ركانة وقال : ماذا أردتَ بالبت" ؟ فقال : إنما أردت الطلاق فقط بلا ملاحظة العدد الثلاث . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل تحلف على نيتك هذه ؟ فقال : نعم . وحلف أنه لم ينو إلا الطلاق ، فحكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوقوع طلاق واحد . وقال له : « راجع زوجتك إن شئت » فراجعها إليه .

وتدل هذه الواقعة بوضوح على أن لفظ (ركانة) كان على أنت طالق البتة المحتمل للإطلاق وإرادة العدد ، ولذلك حلف على أنه لم يرد العدد وإلا" لو كان بلفظ أنت طالق ثلاثاً لم يكن هناك مجال لإرادة غير العدد . ولو كان يقع بلفظ البت الطلقات الثلاث مطلقاً لم تكن فائدة في تحليفه وكانت الثلاث تقع مطلقاً .

والدليل الثاني : أنه ورد في بعض الروايات أن إبن عمر ـ رضي الله عنهما ـ طلق زوجته ثلاثاً في أيام حيضها ، فحكى عمر ـ رضي الله عنه ـ الواقعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مُرْ عبدَالله أن يُراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن شاء أمسكها وإن شاء طلقها . قالوا : فلو كانت تقع الطلاق الثلاث جملتها لما كان مجال لمراجعتها حتى تطهر إلى آخر ما ورد في الحديث الشريف .

وردّ هذا الدليل بأن المحفوظ في الحديث الشريف أن إبن عمر ـ رضي الله عنهما ـ طلق زوجته في الحيض طلقة واحدة فحكاها عمر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقد رَوى صالحُ ابن كيسان ، وموسى ابن عقبة ، وإسماعيلُ ابن أميّة ، ونيثُ ابن سعد ، وابن أبي ذئيب ، وابن جُريج ، وجابر ، واسماعيل ابن ابراهيم ابن عقبة عن نافع أنّ ابن عمر طلق زوجته طلقة واحدة في الحيض • وبما أن الطلاق في الحيض بدعي أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر أن يأمر إبنه بمراجعتها إليه •

وكذلك روى الزهري عن سالم عن أبيه عبدالله ، وروى يونس بن جبير ، والشعبي ، والحسن البصريّ هكذا • فرواية الطلاق الثلاث مردودة بلا شبهة ممن له علاقة برواية الأحاديث الشريفة •

والدليل الثالث : أنه روى أبو داود بأسانيد عن إبن عباس ـ رضي الله عنهما في سننه أن عبد يزيد أبا ركانةَ واخوتِه طلق زوجته أم ركانة ، ونكح إمرأة من مُزَينَة فأتت المرأة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالت : لا نفع لي في أبي ركانة حيث لا رجولية له وأريد أن تفرقني عنه • فتغير حال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمَر بدعوة أولاد عبد يزيد إليه فحضر عنده ركانة وغيره من إخوته فسأل ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحاضرين مِن الناس عَنْ شَبَهِ رُكانَةَ وإخوتِه بأبيهم عبد يزيد فقالوا إن لهم شبَهاً به • وذلك لإثبات أنّهم من أبيهم عبد يزيد ، وأنّ له رجولية فأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبدَ يزيد بطلاق المزينية • فطلقها ، ثم أمَرَهُ أنْ يُراجع أمّ ركانة • فقال : طلقتها ثلاثاً يا رسول الله • قال : قد علمتُ ، راجِعْها • وقرأ قوله تعالى (يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فَطَلّقوهُن لعدّتهن ، وَاَحْصُوا العِدَّة) الآية ••• والجواب عن

هذا الدليل هو : أنه لا قيمة له ؛ لأن أحَدَ الرواة لهذه القضية هو ابن جريج ، وقال في روايته أخبَرَني بعض بَني أبي رافع ، ولا يُدرى مَن هُو هذا البعض ، وما اسمُه والرواية عن الشخص المجهول لا عِبرةَ بها • وأما الروية الأولى التي رواها أبو داود سابقاً فهي أن طلاق عبد يزيد لم يكن بلفظ الثلاث بل بلفظ البت ، وقد علمت قبول روايته ، وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلّف أبا ركانة أنه لم يُرِدْ بالبت العدَدَ الثلاث ، بل الطلاقَ فحسبُ •

والدليل الرابع لهم : ماروواه مسلم في صحيحه ، فقال حدّثنا إسحاق ابن إبراهيم ، ومحمد بن رافع ، واللفظ لابن رافع ، قال إسحاق : أخبرنا • وقال إبن رافع : حدثنا عبدالرزاق ، أخبرنا مَعْمَرُ عن إبن طاووس عن أبيه عن إبن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كان الطلاق على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ طلاق الثلاث واحدة • فقال عمر ابن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أَناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم •

حدّثنا إسحاق ابن إبراهيم ، أخبرنا روح بن عبادة ، أخبرنا إبن جريج ، وحدّثنا إبن رافع واللفظ له ، حدثنا عبدالرزاق ، أخبرنا إبن جريج ، أخبرني إبن طاووس عن أبيه أن أبا الصّهباء قال لابن عباس : أتعلم إنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وثلاثاً من إمارة عمر ؟ فقال ابن عباس : نعم •

وحدثنا إسحاق ابن إبراهيم ، أخبرنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد ، عن أيوب السختياني ، عن إبراهيم بن ميسرة ، عن طاوس ، أن أبا الصهباء قال لابن عباس : هاتِ مِن هناتِك ألم يكن الطلاق الثلاث على

عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر واحدة ؟ فقال : قد كان ذلك • فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم • هذا لفظ مسلم في صحيحه • وهذه الطريق الأخيرة أخرجها أبو داود ، ولكن لم يسم إبراهيم بن ميسرة ، وقال بَدَلَه عن غير واحد • ولفظ المتن : أما علمت أن الرجل إذا طلق إمرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من امارة عمر ؟ قال إبن عباس : بلى كان الرجل إذا طلق إمرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله وأبي بكر وصدرا من إمارة عمر • فلما رأى الناسَ (يعني عُمر) قد تتابعوا فيها قال : أَجيزُونا عَليهم •

وللجمهور في الجواب عن حديث إبن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عدّة أجوبة مرضية :

الأول : إن الثلاث المذكورة فيه التي كانت تجعل واحدة ليس في شيء من روايات الحديث التصريح بأنها واقعة بلفظ واحد ، ولفظ طلاق الثلاث لايلزم منه لغة ولا عقلاً ولاشرعاً أن يكون بلفظ واحد ، فمن قال لزوجته : أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ثلاث مرات في وقت واحد • فطلاقه هذا طلاق الثلاث لأنه صرح فيه بالطلاق ثلاث مرات وقل لمن جزم بأن المراد في الحديث إيقاع الثلاث بكلمة واحدة: من أين أخذت كونها بكلمة واحدة ؟ وهل يمتنع إطلاق الطلاق الثلاث على الطلاق بكلمات متعددة ؟ فإن قال : لايقال له طلاق الثلاث إلا إذا كان بكلمة واحدة فلاشك في أن دعواه هذه غير صحيحة • وإن إعترف بالحق وقال : يجوز إطلاقه على ما أوقع بجملة واحدة وعلى ما أوقع بجمل متعددة وهو أسعد بظاهر اللفظ •• قيل

له : وإذن فَجزْمُك بكونه بجملة واحدة لا وجه له. وإذا لم يتعين في الحديث كون الثلاث بلفظ واحد سقط الإستدلال به من أصله في محل النزاع .

ومما يدل على أنه لايلزم من لفظ طلاق الثلاث في هذا الحديث كونه بكلمة واحدة أن الإمام أبا عبدالرحمن النسائي مع جلالته وعلمه وشدة فهمه مافهم من هذا الحديث إلا أن المراد بطلاق الثلاث فيه أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . بتفريق الطلقات لأن لفظ الثلاث أظهر في إيقاع الطلاق ثلاث مرات . ولذا ترجم في سننه لرواية أبي داود المذكورة في هذا الحديث فقال : (باب طلاق الثلاث المتفرقة قبل الدخول بالزوجة) ثم قال : أخبرنا أبو داود سليمان بن سيف ، قال : حدثنا أبو عاصم عن إبن جريج ، عن إبن طاوس عن أبيه : أن أبا الصهباء جاء إلى إبن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال : يا ابن عباس ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من خلافة عمر ـ رضى الله عنه ـ تردّ إلى الواحدة ؟ قال : نعم . فترى هذا الإمام الجليل صرّح بأن طلاق الثلاث في هذا الحديث ليس بلفظ واحد بل بألفاظ متفرقة .

ويدل على صحة ما فهمه النسائي رحمه الله من الحديث ما ذكره العلامة إبن القيّم رحمه الله تعالى في زاد المعاد في الرد على من استدل لوقوع الثلاث دفعة بحديث عائشة أن رجلاً طلق إمرأته ثلاثاً فتزوجت ... الحديث . فإنه قال فيه مانصه : ولكن أين في الحديث أنه طلق الثلاث بفم واحد . بل الحديث حجة لنا ، فإنه لا يقال فعل ذلك ثلاثاً وقال ثلاثا ، إلا من فعل وقال مرة بعد مرة . وهذا هو المعقول في لغات الأمم عربهم وعجمهم. كما يقال : قذفه ثلاثاً ، وشتمه ثلاثاً ، وسلم عليه ثلاثاً ... إنتهى بلفظه .

وهو دليل واضح لصحة ما فهمه أبو عبدالرحمن النسائي رحمه الله من الحديث لأن لفظ الثلاث في جميع رواياته أظهر في أنها طلقات ثلاث

واقعة مرة بعد مرة كما أوضحه إبن القيم رحمه الله في حديث عائشة المذكور آنفاً .

وممن قال بأن المراد بالثلاث في حديث طاوس المذكور الثلاث المفرقة بألفاظ نحو أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق .. إبن سريج فإنه قال : يشبه أن يكون ورد في تكرير اللفظ كأن يقول أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق . وكانوا أو"لا" على سلامة صدورهم يقبل منهم أنهم أرادوا التأكيد فلما كثر الناس في زمن عمر ، وكثر فيهم الخداع ونحوه مما يمنع قبول من إدعى التأكيد حمل عمر اللفظ على ظاهر التكرار فأمضاه عليهم . قاله إبن حجر العسقلاني في فتح الباري ، وقال : إن هذا الجواب إرتضاه القرطبي وقو"اه بقول عمر : إن" النّاس إستعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة .

وقال النووي في شرح مسلم ما نصه : وأما حديث إبن عباس فاختلف الناس في جوابه وتأويله . والأصح أن معناه أنه كان في أول الأمر إذا قال لها أنت طالق ولم ينو تأكيداً ولا إستئنافاً يحكم بوقوع طلقة لقلة إرادتهم الإستئناف بذلك فحمل على الغالب الذي هو إرادة التأكيد . فلما كان في زمن عمر ـ رضى الله عنه ـ وكثر إستعمال الناس لهذه الصّيغة ، وغلب منهم إرادة الإستئناف بها حملت عند الإطلاق عملاً بالغالب السابق إلى الفهم في ذلك العصر .

وقال صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى : وهذا الوجه لا إشكال فيه لجواز تغير الحكم عند تغير القصد لأن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . وظاهر اللفظ يدل لهذا كما قدمنا .

وعلى كل حال فادعاء الجزم بأن معنى حديث طاوس المذكور أن الثلاث بلفظ واحد إدعاء خال من الدليل كما رأيت فليتق الله من تجر"أ

على عزو ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه ليس في شيء من روايات حديث طاوس كون الثلاث المذكورة بلفظ واحد ، ولم يتعين ذلك من اللغة ولا من الشرع ولا من العقل كما ترى • ثم قال : ويدلّ لكون الثلاث المذكورة ليست بلفظ واحد ماتقدم في حديث ابن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عند احمد وأبى يَعلى من قوله طلق إمرأته ثلاثاً في مجلس واحد وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كيف طلّقتها ؟ قال ثلاثاً في مجلس واحد • لأن التعبير بلفظ المجلس يفهم منه أنها ليست بلفظ واحد ، إذ لو كان اللفظ واحداً لقال بلفظٍ واحد ولم يحتج إلى ذكر المجلس ، إذ لا داعي لذكر الوصف الأعم وترك الأخص بلا موجب كما هو ظاهر •

الجواب الثاني : عن حديث إبن عباس هو أن معنى الحديث أن الطلاق الواقع في زمن عمر ثلاثاً كان يقع قبل ذلك واحدةً لأنهم كانوا لايستعملون الثلاث أصلاً أو يستعملونها نادراً وأما في عهد عمر فكثر إستعمالهم لها •

ومعنى قوله (فأمْضاه عليهم) على هذا القول أنه صنع فيه من الحكم بإيقاع الطلاق ما كان يصنع قبله • ورجح هذا التأويل ابن العربي ونسبه إلى أبي ذرعة الرازي • وكذا أورده البيهقي بإسناده الصحيح إلى أبي ذرعة أنه قال : معنى هذا الحديث عندي إنّ ما تُطلّقون أنتم ثلاثاً كانوا يطلّقون واحدة •

قال النووي : وعلى هذا فيكون الخبر وقع عن اختلاف عادة الناس خاصة لا عن تغيير الحكم في المسألة الواحدة • وهذا الجواب نقله القرطبي في تفسير قوله تعالى : (الطلاق مرتان) عن المحقق القاضي أبي الوليد الباجي ، والقاضي عبدالوهاب والكيا الطبري • أقول ويؤيد صحة هذا

الجواب هدوء الناس وسكون أنفسهم وملاحظتهم عواقب الأمور فما كانوا يستعجلون في إيقاع الطلقات ، وإنما كانوا يصبرون ويتورعون عن تطليق الزوجة ، وإذا طلقوها تورعوا عن إيقاع الطلقات الثلاث ، ويكتفون بإيقاع طلقة واحدة حتى تسهل مراجعتها عند الندم بدون زحمة . وأما بعد مضي عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وصدرٍ من خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فتغيرت أحوال الناس، فكانوا يتهوّرون ويتقدمون على ما لا تحمد عاقبته ، ويكثرون تطليق النساء ويوقعون الطلقات الثلاث . وهذه عادة في كل عهدٍ وعهدٍ لاحق ، فقلّما يوجد من المؤدبين في العصر اللاحق من يمشي على ورع السابقين .

الجواب الثالث عن حديث ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو القول بأنه منسوخ ، وإن بعض الصحابة لم يطلع على النسخ إلا في عهد عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ . فقد نقل البيهقي في السنن الكبرى في باب من جعل الثلاث واحدة عن الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ مانصّه : قال الشافعي : فإن كان معنى قول ابن عباس أن الثلاث كانت تحسب على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحدة ، يعني أنّه بأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالذي يشبهه[1] والله اعلم أن يكون ابن عباس علم أن كان شيئاً فنسخ .

فإن قيل : فما دل على ما وصفت ؟ قيل : لايشبه أن يكون إبن عباس يروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً ثم يخالفه بشيء لم يعلمه كان من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه خلافه . قال الشيخ : ورواية عكرمة عن ابن عباس قد مضت في النسخ وفيها تأكيد لصحة هذا التأويل . قال الشافعي : فإن قيل : فلعلّ هذا شيء روي عن عمر فقال فيه

(١) أي يشبه الحق . وهذا السبك من عادة الامام .

إبن عباس بقول عمر ــ رضى الله عنه ــ • قيل قد علمنا : أن إبن عباس ــ رضي الله عنهما ــ يخالف عمر ــ رضي الله عنه ــ في نكاح المتعة ، وفي بيع الدينار بالدينارين ، وفي بيع أمهات الأولاد وغيره فكيف يوافقه في شيء يروي عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه خلافه • إنتهى محل الحاجة من البيهقي بلفظه •

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري مانصه : الجواب الثالث : دعوى النسخ فنقل البيهقي عن الشافعي أنه قال : يشبه أن يكون إبن عباس علم شيئاً نَسخَ ذلك • قال البيهقي ويقويه ما أخرجه أبو داود من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن إبن عباس قال : كان الرجل إذا طلق إمرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك • والترجمة التي ذكر تحتها أبو داود الحديث المذكور هي قوله (باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث) • وقال إبن كثير في تفسير قوله تعالى : (الطلاق مرتان) بعد أن ساق حديث أبي داود المذكور آنفاً ما نصّه : ورواه النّسائي عن زكريا بن يحي عن إسحاق إبن إبراهيم عن علي بن الحسن به ، وقال ابن أبي حاتم : حدّثنا هارون ابنُ إسحاقَ ، حدثنا عبدة ، يعني ابن سليمان ، عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلاً قال لامرأته : لا أطلقك أبداً ، ولا آويكِ أبداً • قالت : وكيف ذلك ؟ قال أطلّق حتى إذا دنا أجلكِ راجعتُكِ فأتَتْ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم وذكرتْ له ذلك فأنزل الله عز وجل : (الطلاق مرتان) قال فاستقبل الناس الطلاق ؛ من كان طلق ، ومن لم يكن طلّق • وقد رواه أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم •

ورواه الترمذي عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ، ثم رواه عن أبي كريب عن ابن إدريس عن هشام عن أبيه مرسلاً ، وقال هذا أصح • ورواه الحاكم في مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كليب عن يعلى بن شبيب به، وقال: صحيح الإسناد• ثم قال إبن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن عبدالله ، حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ولم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها مالم تنقض العدة وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس ، فقال : والله لأتركنّك لا أيّماً ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها • ففعل ذلك مراراً • فأنزل الله عز وجلّ : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فوقت الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره • وهكذا روي عن قتادة مرسلاً ذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك • واختار أن هذا تفسير هذه الآية • إنتهى من ابن كثير بلفظه •

وفي هذه الروايات دلالة واضحة لنسخ المراجعة بعد الثلاث وإنكار المازري رحمه الله أدعاءَ النسخ مردود" بما رده به الحافظ إبن حجر في فتح الباري • فإنه لما نقل عن المازري إنكاره للنسخ من أوجه متعددة قال بعده ما نصه : قلت : نقل النووي هذا الفصل في شرح مسلم ، وأقره ، وهو متعقب في مواضع :

أحدها : أن الذي إدعى نسخ الحكم لم يقل أن عمر هو الذي نسخ حتى يلزم منه ماذكر ، وإنما قال ما تقدم يشبه أن يكون علم شيئاً من ذلك النسخ أي اطلع على ناسخ للحكم الذي رواه مرفوعاً • ولذلك أفتى

بخلافه • وقد سلم المازري في أثناء كلامه أن إجماعهم يدل على ناسخ وهذا هو مراد من إدعى النسخ •

الثاني : إنكار الخروج عن الظاهر عجيب ! فإن الذي يحاول الجمع بالتأويل يرتكب خلاف الظاهر حتماً •

الثالث : أن تغليطه من قال المراد ظهور النسخ عجيب أيضاً ؛ لأن المراد بظهوره إنتشاره • وكلام ابن عباس أنه كان يفعل في زمان أبي بكر محمول على أن الذي كان يفعله من لم يبلغه النسخ ، فلا يلزم ما ذكر من إجماعهم على الخطأ • إنتهى محل الحاجة من فتح الباري ولا إشكال فيه لأن كثيراً من الصحابة إطلع على كثير من الأحكام لم يكن يعلمه • وقد وقع ذلك في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان • فأبو بكر لم يكن عالماً بقضاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ميراث الجدة حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة • وعمر لم يكن عنده علم" بقضاءِ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دية الجنين حتى أخبره المذكوران قبل ، ولم يكن عنده من أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجزية من مجوس هجر حتى أخبره عبدالرحمن بن عوف ، ولا من الإستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري • وعثمان لم يكن عنده علم بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوجب السكنى للمتوفى عنها زمن العدة حتى أخبرته فريعة بنت مالك •

والعباس بن عبدالمطلب وفاطمة الزهراء ـ رضي الله عنهما ـ لم يكن عندهما علم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث » الحديث حتى طلبا ميراثهما من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمثال هذا كثيرة جداً •

وأوضح دليل يزيل الإشكال عن القول بالنسخ المذكور وقوع مثله واعتراف المخالف به في نكاح المتعة ، فإن مسلماً روى عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن متعة النساء كانت تفعل في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر . قال : ثم نهانا عمر عنها فانتهينا.وهذا مثل ما وقع في طلاق الثلاث طبعاً (ما أشبه الليلة بالبارحة) .

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه   أخوها غذته أمه بلبانها

فمن الغريب أن يُسَلّمَ مُنْصِف" إمكانَ النسخ في إحداهما وَيَدّعي إستحالَته في الأخرى مع أن كلاًّ منهما رَوى مسلم فيهما عن صحابي جليل أن ذلك الأمرَ كان يُفعل في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا مِن خلافة عمر في مسألة تتعلق بالفروج ثم غيّره عمر .

وَمَنْ أجازَ نسخ نكاح المتعة وأحال نسخ جعل الثلاث واحدة يقال له : ما لبائِك تَجُرّ ولبائي لا تجر ؟ فإن قيل : نكاح المتعة صح النصّ بنسخه . قلنا : قد رأيت الروايات المتقدمة بنسخ المراجعة بعد الثلاث ، وممن جزم بنسخ جعل الثلاث واحدة الإمام أبو داود رحمه الله تعالى ورأى أنّ جعلها بواحدة إنما هو في الزمن الذي كان يرتجع فيه بعد ثلاث تطليقات وأكثر . قال في سننه (باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث) ثم ساق بسنده حديث ابن عباس قال : (والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في ارحامهن) الآية.وذلك أن الرجل كان إذا طلق إمرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً فنسخ ذلك وقال : (الطلاق مرتان) الآية . وأخرج نحوَه النسائي . وفي إسناده علي بن الحسين بن واقد . قال فيه ابن حجر في التقريب : صدوق يهم .

وروى مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : كان الرجل إذا طلق إمرأته ثم إرتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان ذلك له ، وإن طلقها ألف مرة • فعمد رجل إلى امرأته حتى إذا أشرفت على إنقضاء عدتها راجعها • ثم قال لا آويكِ ولا أُطَلّقكِ فأنزل الله : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فاستقبل الناس الطلاق جديداً من يومئذ من كان طلق منهم أو لم يطلّق • ويؤيد هذا أن عمر لم ينكر عليه أحد من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إيقاع الثلاث دفعة مع كثرتهم وعلمهم وورعهم • ويؤيده أن كثيراً جدّاً من الصحابة الأجلاّء العلماء صح عنهم القول بذلك ، كابن عباس ، وعمر ، وابن عمر ، وخلق لا يحصى • والناسخ الذي نسخ المراجعة بعد الثلاث ، قال بعض العلماء : إنه قوله تعالى : (الطلاق مرتان) كما جاء مبيّناً في الروايات المتقدمة • ولا مانع عقلاً ولا عادة من أن يجهل مثل هذا الناسخ كثير من الناس إلى خلافة عمر • كما جهل كثير من الناس نسخ نكاح المتعة إلى خلافة عمر مع أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صرح بنسخها وتحريمها إلى يوم القيامة في غزوة الفتح ، وفي حجة الوداع أيضاً كما جاء في رواية عند مسلم • ومع أن القرآن دل على تحريم غير الزوجة والسرية بقوله : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) ومعلوم أن المرأة المتمتع بها ليست بزوجة ولا سر ية كما يأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى :

(فما استمتعتم به منهن) الآية • والذين قالوا بالنسخ قالوا في معنى قول عمر إن الناس إستعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة : إن المراد بالأناة أنهم كانوا يَتَأَنَّوْن في الطلاق فلا يوقعون الثلاث في وقت واحد • ومعنى إستعجالهم أنهم صاروا يوقعونها بلفظ واحد على القول بأن ذلك

هو معنى الحديث ، وقد قدمنا أنه لا يتعين كونه هو معناه ، وإمضاؤه هو عليهم إذن هو اللازم ، ولا ينافيه قوله فلو أمضيناه عليهم يعني ألزمناهم بمقتضى ما قالوا ، ونظيره قول جابر عند مسلم في نكاح المتعة : (فنهانا عنها عمر) ، فظاهر كل منهما أنه إجتهاد من عمر والنسخ ثابت فيهما معاً كما رأيت ، وليست الأناة في المنسوخ وإنما هي في عدم الإستعجال بإيقاع الثلاث دفعة ، وعلى القول الأول : إن المراد بالثلاث التي كانت تعجل واحدة أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ، فالظاهر في إمضائه لها عليهم أنه حيث تغير قصدهم من التأكيد إلى التأسيس كما تقدم ولا إشكال في ذلك ، أما كون عمر كان يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجعل الثلاث بلفظ واحد واحدة فتعمد مخالفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعلها ثلاثاً ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة فلا يخفى بعده ،

أقول : بل إنه مستحيل عادة ، أما أولاً : فلأن عمر كان من الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإتباعهم في قوله الكريم : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » ، ولا يمكن أن يكون الرجل المأمور باتباعه مقرراً لأمر لا يرضى به الله ورسوله ويكون مخالفاً لما حكم به الرسول وأنفذه ،

وأما ثانياً : فلأنه صار الأمر في ذلك العصر إجماعاً سكوتيا ، أي كأن الناس أجمعوا على ما أمضاه عمر ويستحيل عادة إجماعهم على خلاف حكم الرسول الثابت النافذ في عهده ،

وأما ثالثاً : فلأن العلماء من الخلفاء والفقهاء في المدينة المنورة كانوا على علم وأمانة وشجاعة بارعة ويستحيل سكوت الجمع الكثير من العلماء

الأمناء الشجعان على أمر باطل إبتدعه عمر على زعم المخالفين وسكوتهم عنه ، وإلا لتزلزلت قواعد الدين ٠

وأما رابعاً : فلأن وقوع الطلاق الثلاث في جملة واحدة كطلاق واحد أمر" نافع لرعاية العوائل والمجتمعات ومما يتوفر الدواعي على نقله ، فلو كان ذلك ثابتاً بصورة لايرتاب الناس فيها لنَقَله الناس بكثرة ولم يكن كما ينقله الآحاد الشاذون من الذين لا يعرف هوية بعضهم ٠

وأما خامساً : فلأن الناس كانوا ينازعون عمر على مترين من طول القميص ويتجاسرون عليه فكيف يعقل أن يرفض شيئاً نافعاً في العائلة والمجتمع ولا يرفضه الناس ؟

وأما سادساً : فلأن من عمر الله قلبه بالإيمان بالرسول وفضائل خلفائه الراشدين لا يتصور أن عمر الفاروق بعد وفاة الرسول بسنين قليلة يرفض ماقرره من الدين ٠ فلا شك أن حكم عمر كان مبنيا إما على أن حكمه كان في الطلاق الثلاث في جمل ثلاث ، أو أنه رأى حكمه به قبل نزول (الطلاق مرتان) أو قبل نزول الناسخ أيّا كان والناس لم يعرفوا بالناسخ فأمضاه عليهم ٠ والله اعلم ٠

الجواب الرابع : عن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رواية طاوس عن ابن عباس مخالفة لما رواه عنه الحفاظ من أصحابه ٠ فقد روى عنه لزوم الثلاث دفعة سعيد بن جبير ، وعطاء ابن أبي رباح ، ومجاهد ، وعكرمة وعمرو بن دينار ، ومالك بن الحارث ، ومحمد بن أياس بن بكير ، ومعاوية بن أبي عياش الأنصاري كما نقله البيهقي في السنن الكبرى ، والقرطبي وغيرهما ٠ وقال البيهقي في السنن الكبرى : إن البخاري لم يخرّج هذا الحديث لمخالفة هؤلاء لرواية طاوس عن ابن عباس ٠

وقال الأثرم : سألت أبا عبدالله عن حديث ابن عباس : كان الطلاق على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبي بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ طلاقَ الثلاث واحدة بأي شيء تدفعه ؟ قال : برواية الناس عن ابن عباس من وجوه خلافه . وكذلك نقل عنه ابن منصور قاله العلاّمة ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال صاحب أضواء البيان عفا الله عنه : فهذا إمام المحدثين وسيد المسلمين في عصره الذي تدارك الله به الإسلام بعدما كاد تتزلزل قواعده وتتغير عقائده أبو عبدالله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال للأثرم وابن منصور إنه رفض حديث ابن عباس قصدا لأنه يرى عدم الإحتجاج به في لزوم الثلاث بلفظ واحد لرواية الحفاظ عن إبن عباس ما يخالف ذلك . وهذا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وهو هو ذكر عنه الحافظ البيهقي أنه ترك هذا الحديث عمداً لذلك الموجب الذي تركه من أجله الإمام أحمد بن حنبل ، ولا شك أنهما ما تركاه إلا لموجب يقتضي ذلك .

فإن قيل رواية طاوس في حكم المرفوع ، ورواية الجماعة المذكورين موقوفة على ابن عباس والمرفوع لايعارض الموقوف . فالجواب : أن الصحابي إذا خالف ما روى ففيه للعلماء قولان ، وهما روايتان عن أحمد رحمه الله .

الأولى : أنه لا يحتج بالحديث لأن أعلم الناس به راويه ، وقد ترك العمل به . وعلى الرواية الأخرى التي هي المشهورة عند العلماء إن العبرة بروايته لا بقوله فإنه لا تقدم روايته إلا إذا كانت صريحة المعنى أو ظاهرة فيه ظهوراً يضعف معه إحتمال مقابله . أما إذا كانت محتملة لغير ذلك المعنى إحتمالاً قوياً فإن مخالفة الراوي لما روى تدل على أن ذلك المحتمل الذي ترك ليس هو معنى ما روى . وقد قدمنا أن لفظ الطلاق الثلاث في

حديث طاوس المذكور محتمل إحتمالا قوياً لأن تكون الطلقات مفرّقة كما جزم به النسائي وصححه النووي والقرطبي وابن سريج . فالحاصل أن ترك إبن عباس لجعل الثلاث بفمٍ واحدٍ واحدةً .. يدل على أن معنى الحديث الذي روى ليس كونها بلفظ واحد كما سترى بيانه في كلام القرطبي في المفهم في الجواب الذي بعد هذا .

واعلم أن ابن عباس لم يثبت عنه أنه أفتى في الثلاث بفم واحد أنها واحدة وما روى عنه أبو داود من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة أنّ ابن عباس قال : إذا قال أنت طالق ثلاثاً بفم واحد فهي واحدة . فهو مُعارَضٌ بما رواه أبو داود نفسه من طريق إسماعيل ابن إبراهيم عن أيوب عن عكرمة أن ذلك من قول عكرمة لا من قول ابن عباس ، وترجّح رواية إسماعيل ابن إبراهيم على رواية حمّاد بموافقة الحفاظ لإسماعيل في أن ابن عباس يجعلها ثلاثاً لا واحدة .

الجواب الخامس : هو إدعاء ضعفه ، وممن حاول تضعيفه ابن العربي المالكي وابن عبدالبر والقرطبي .

قال ابن العربي المالكي زلّ قوم في آخر الزمان فقالوا : إن الطلاق الثلاث في كلمة لا يلزم ، وجعلوه واحدة ونسبوه إلى السلف الأول ؛ فحكوه عن عليّ والزبير وعبدالرحمن بن عوف ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعزوه إلى الحجاج ابن أرطاة الضعيفِ المنزلة ، المغمور المرتبة ورووا في ذلك حديثاً له أصل ، وغوى قوم من أهل المسائل فتتبعوا الأهواء المبتدعة فيه ، وقالوا إن قوله أنت طالق كذب لأنه لم يطلق ثلاثاً كما لو قال طلقت ثلاثاً ولم يطلق إلا واحدة ، وكما لو قال أحلِفُ ثلاثاً كانت يميناً واحدة . ولقد طَوّفتُ في الآفاق ولقيتُ من علماء الإسلام وأرباب المذاهب كل صادق

فما سمعتُ لهذه المسألة بخبر ، ولا أحسست لها بأثر .

وقد إتفق علماء الإسلام وأرباب الحل والعقد في الأحكام على أنّ الطلاق الثلاث في كلمة وإن كان حراماً في قول بعضهم ، وبدعة في قول الآخرين .. لازِم . وأين هؤلاء البؤساء من عالم الدين وعلم الإسلام محمد بن إسماعيل البخاري وقد قال في صحيحه : باب جواز الطلاق الثلاث لقوله تعالى (الطلاق مرتان) وذكر حديث اللعان فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يغير عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولا يُقِرّ على الباطل . ولانه جَمَعَ ما فُسِحَ له في تفريقه فألزمته الشريعة حكمه وما نسبوه إلى الصحابة كذب بحت لا أصل له في كتاب ولا رواية له عن اَحَد .

وقد أدخلَ مالك في موطئه عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنّ الحَرام ثلاث لازمة في كلمةٍ فهذا في معناها فكيف إذا صرح بها . وأما حديث الحجاج بن أرطاة فغير مقبول في الملة ولا عند أحد من الأئمة . فإن قيل ففي صحيح مسلم عن ابن عباس وذكر حديث أبي الصّهباء المذكور ..

قلنا : هذا لا متعلق فيه من خمسة أوجه :

الأول أنه حديث مختلف في صحته فكيف يقدم على إجماع الأمة ولم يعرف لها في هذه المسألة خلاف إلا على قوم إنحطوا عن رتبة التابعين وقد سبق العصران الكريمان والإتفاق على لزوم الثلاث •

فإن رووا خلاف ذلك عن أحد منهم فلا تقبلوا منهم إلا ما يقبلون منكم من نقل العدل عن العدل • ولا تجد هذه المسألة منسوبة إلى أحد من السلف أبداً •

الثاني : إن هذا الحديث لم يرو إلا عن ابن عباس ولم يرو عنه إلا من طريق طاوس فكيف يقبل مالم يروه من الصحابة إلا واحد ومالم يروه من ذلك الصحابي إلا واحد ؟ وكيف خفي على جميع الصحابة وسكتوا عنه الا ابن عباس ؟ وكيف خفي على أصحاب ابن عباس إلا طاوس ؟ إنتهى محل الغرض من كلام ابن العربي •

وقال ابن عبدالبر : ورواية طاوس وهم" وغلط لم يعرج عليها أحد من فقهاء الأمصار بالحجاز والشام والعراق والمشرق والمغرب • وقد قيل : إن أبا الصهباء ـ أي طاوس ـ لايعرف في موالي ابن عباس ـرضي الله عنهما ـ •

قال صاحب أضواء البيان إن مثل هذا لايثبت به تضعيف هذا الحديث ، لأن الأئمة كعمر وابن جريج وغيرهما رووه عن ابن طاوس وهو إمام عن طاوس عن ابن عباس ، ورواه عن طاوس أيضاً إبراهيم بن ميسرة وهو ثقة حافظ ، وانفراد الصحابي لايضر ، ولو لم يرو عنه أصلاً إلا واحد كما أشار العراقي في ألفيته بقوله :

ففي الصحيح اخرجا المسيبا ـ واخرج الجعفي لابن تغلبا

يعني أن الشيخين أخرجا حديث المسيب بن حزن ولم يرو عنه أحد غير ابنه سعيد ، وأخرج البخاري حديث عمرو بن تغلب النمري ويقال العبدي ولم يرو عنه غير الحسن البصري هذا مراده . وقد ذكر ابن أبي حاتم أن عمرو ابن تغلب روى عنه أيضاً الحكم بن الأعرج قاله إبن حجر وإبن عبدالبر وغيرهما . والحاصل أن حديث طاوس ثابت في صحيح مسلم بسند صحيح ، وما كان كذلك لا يمكن تضعيفه إلا بأمر واضح . نعم لقائل أن يقول : إن خبر الآحاد إذا كانت الدواعي متوفرة على نقله ولم ينقله إلا واحد ونحوه إن ذلك يدل على عدم صحته . ووجهه : أن توفر الدواعي يلزم منه النقل تواتراً والإشتهار . فإن لم يشتهر دل على أنه لم يقع لأن إنتفاء اللازم يقتضي إنتفاء الملزوم وهذه قاعدة مقررة في الأصول أشار إليها في مراقي السعود بقوله عاطفاً فيه على ما يحكم فيه بعدم صحة الخبر (وخبر الآحاد في السنّي)

حيث دواعي نقله تواترا　　　نرى لها لو قاله تقررا

وجزم بها غير واحد من الأصوليين . وقال صاحب جمع الجوامع عاطفاً على ما يجزم فيه بعدم صحة الخبر : والمنقول آحاداً فيما تتوفر الدواعي الى نقله خلافاً للرافضة . إنتهى منه بلفظه . ومراده أن مما يجزم بعدم صحته الخبر المنقول آحاداً مع توفر الدواعي إلى نقله . وقال إبن الحاجب في مختصره الأصولي : مسألة إذا إنفرد واحد فيما يتوفر الدواعي إلى نقله وقد شاركه خلق كثير كما لو إنفرد واحد بخبر قتل خطيب على المنبر في مدينة فهو كاذب قطعاً ، خلافاً للشيعة . إنتهى محل الغرض منه بلفظه . وفي المسألة مناقشات وأجوبة عنها معروفة في الأصول .

قال صاحب أضواء البيان : ولا شك أنه على القول بأن معنى حديث طاوس المذكور أن الثلاث بلفظ واحد كانت تجعل واحدة على عهد النبي

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من خلافة عمر ، ثم إن عمر غيّر ماكان عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون في زمن أبي بكر وعامة الصحابة اَو جُلّهم يعلمون ذلك فالدواعي إلى نقل ما كان عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون من بعده متوفرة" توفراً لا يمكن إنكاره لأن يَرُدّ ذلك التغيير الذي أحدثه عمر فسكوت جميع الصحابة عنه ، وكون ذلك لم يقبل منه حرف عن غير ابن عباس يدل دلالة واضحة على أحد أمرين :

أحدهما : أن حديث طاوس الذي رواه عن ابن عباس ليس معناه أنها بلفظ واحد ، بل بثلاثة ألفاظ في وقت واحد كما قدّمنا ، وكما جزم به النسائي ، وصححه النووي والقرطبي ، وابن سريج . وعليه فلا إشكال لأن تغيير عمر للحكم مبني على تغيير قصدهم . والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى . فمن قال أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق ونوى التأكيد فواحدة ، وإن نوى الإستئناف بكل واحدة فثلاث . واختلاف محامل اللفظ الواحد لاختلاف نيات اللافظين به لا إشكال فيه ؛ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما لكل امرىء ما نوى .

والثاني : يكون الحديث غير محكوم بصحته لنقله آحاداً مع توفر الدواعي إلى نقله . والأول أولى وأخف من الثاني .

وقال القرطبي في المفهم في الكلام على حديث طاوس المذكور : وظاهر سياقه يقتضي عن جميعهم أن معظمهم كانوا يرون ذلك ، والعادة في مثل هذا أن يفشو الحكم وينتشر ، فكيف ينفرد به واحد عن واحد ؟ قال : فهذا الوجه يقتضي التوقف عن العمل بظاهره ، إن لم يقتض القطع ببطلانه ،

إنتهى منه بواسطة نقل ابن حجر في فتح الباري عنه وهو قوي جداً بحسب المقرر في الأصول كما نرى •

الجواب السادس عن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هو حمل لفظ الثلاث في الحديث على أن المراد بها (البتة) كما قدمنا في حديث (ركانة) وهو من رواية ابن عباس أيضاً

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري بعد أن ذكر هذا الجواب مانصه : وهو قوي ويؤيده إدخال البخاري في هذا الباب الآثار التي فيها (البتة) والأحاديث التي فيها التصريح بالثلاث ، كأنه يشير إلى عدم الفرق بينهما ، وإن (البتة) إذا أطلقت حملت على الثلاث ، إلا إذا أراد المطلق واحدة فيقبل،فكأن بعض رواته حمل لفظ البتة على الثلاث لاشتهار التسوية فرواها بلفظ الثلاث وإنما المراد لفظ البتة وكانوا في العصر الأول يقبلون ممن قال أردت بألبتة واحدة فلما كان عهد عمر أمضى الثلاث في ظاهر الحكم إنتهى من فتح الباري بلفظه وله وجه من النظر كما لايخفى • وما يذكره كل ممن قال بلزوم الثلاث دفعة ومن قال بعدم لزومها من الأمور النظرية ليصحح به كل مذهبه لم نطل به الكلام ؛ لأن الظاهر سقوط ذلك كله ، وان هذه المسألة إن لم يمكن تحقيقها من جهة النقل فإنه لايمكن من جهة العقل ، وقياس أنت طالق ثلاثاً على أيمان اللعان في أنه لو حلفها بلفظ واحد لم تجز •• قياس مع وجود الفارق ؛ لأن من إقتصر على واحدة من الشهادات الأربع المذكورة في آية اللعان أجمع العلماء على أن ذلك كما لو لم يأت بشيء منها أصلاً بخلاف الطلقات الثلاث ، فمن إقتصر على واحد منها اعتبرت إجماعاً وحصلت بها البينونة بانقضاء العدة إجماعاً •

الجواب السابع : هو ما ذكره بعضهم من أن حديث طاوس المذكور ليس فيه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ علم بذلك فأقرّه ، والدليل إنما هو فيما علم به وأقره لا فيما لم يعلم به . قال صاحب أضواء البيان : ولايخفي ضعف هذا الجواب لأن جماهير المحدثين والأصوليين على أن ما أسنده الصحابي إلى عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له حكم المرفوع ، وإن لم يصرح بأنه بلغه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقرّه .

الجواب الثامن : إن حديث ابن عباس المذكور في غير المدخول بها خاصة لأنه إن قال لها : أنت طالق بان بمجرد اللفظ ، فلو قال ثلاثاً لم يصادف لفظ الثلاث محلاً لوقوع البينونة قبلها . وحجة هذا القول : أن بعض الروايات كرواية أبي داود جاء فيها التقييد بغير المدخول بها ، والمقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد ولاسيما إذا اتحد الحكم والسبب كما هنا . قال في مراقي السعود :

وحمل مطلق على ذاك وجب   إن كان ما اتحد حكم والسبب

وما ذكر من الإطلاق والتقييد إنما هو في حديثين ، أما في حديث واحد من طريقين فمن زيادة العدل فمردود بأنه لا دليل عليه وأنه مخالف لظاهر كلام عامة العلماء ، ولا وجه للفرق بينهما . وما ذكره الشوكاني رحمه الله في نيل الأوطار من أن رواية أبي داود التي فيها التقييد بعدم الدخول فرد من أفراد الروايات العامة وذكرُ بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه، لايظهر لأن هذه المسألة من مسائل المطلق والمقيد لا من مسائل ذكر بعض أفراد العام ، فالروايات التي أخرجها مسلم مطلقة عن قيد عدم الدخول ، والرواية التي اخرجها أبو داود مقيدة بعدم الدخول كما ترى ، والمقرر في الأصول حمل المطلق على المقيد ، ولا سيما إن اتحد الحكم والسبب كما هنا . نعم لقائل أن يقول إن كلام ابن عباس في

رواية أبي داود المذكورة وارد على سؤال أبي الصّهباء ، وأبو الصهباء لم يسأل إلا عن غير المدخول بها • فجواب ابن عباس لا مفهوم مخالفة له لأنه إنما خص غير المدخول بها لمطابقة الجواب للسؤال •

وقد تقرر في الأصول أن من موانع إعتبار دليل الخطاب ، أعني مفهوم المخالفة ، كون الكلام واردا جواباً لسؤال ؛ لأن تخصيص المنطوق بالذكر لمطابقة السؤال ، فلا يتعين كونه لإخراج حكم المفهوم عن المنطوق ، وأشار اليه في مراقي السعود في ذكر موانع إعتبار مفهوم المخالفة بقوله :

أوجُهِلَ الحكم أو النطق انجلب   للسؤل أو جرى على الذي غَلَب

ومحل الشاهد منه قوله : (أو النطق انجلب للسؤل)

وقد قدمنا أن رواية أبي داود المذكورة على أيوب السختياني عن غير واحد عن طاوس وهو صريح في أن من روى عنهم أيوب مجهولون ، ومن لم يعرف من هو لايصح الحكم بروايته ، ولذا قال النووي في شرح مسلم ما نصه : وأما هذه الرواية التي لأبي داود فضعيفة رواها أيوب عن قوم مجهولين عن طاوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ • فلا يحتج بها والله أعلم • إنتهى منه بلفظه • وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود بعد ان ساق الحديثَ المذكور مانصه : الرواة عن طاوس مجاهيل إنتهى بلفظه • وضعف رواية أبي داود هذه ظاهر كما ترى للجهل بمن روى عن طاوس فيها • وقال العلامة ابن القيّم رحمه الله تعالى في زاد المعاد بعد أن ساق لفظ هذه الرواية ما نصّه : وهذا لفظ الحديث وهو بأصّح إسناد إنتهى محل الغرض منه بلفظه • فانظره مع ما تقدم • هذا ملخص كلام العلماء في هذه المسألة مع ما فيها من النصوص الشرعية •

قال صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى : الذي يظهر لنا صوابه في هذه المسألة هو ماذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وهو أن الحق فيها دائر بين أمرين : أحدهما : أن يكون المراد بحديث طاوس المذكور كون الثلاث المذكورة ليست بلفظ واحد • الثاني : أنه إن كان معناه أنها بلفظ واحد فإن ذلك منسوخ ولم يشتهر العلم بنسخه بين الصحابة إلا في زمان عمر كما وقع نظيره في نكاح المتعة • أما الشافعي فقد نقل عنه البيهقي في السنن الكبرى ما نصّه : فإن كان معنى قول ابن عباس أن الثلاث كانت تحسب على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحدة •• فالذي يشبه والله أعلم أن يكون ابن عباس قد علم أن كان شيء فَنُسِخ • فإن قيل : فما دل على ما وصفتَ ؟ قيل : لايشبه أن يكون ابن عباس يروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً ثم يخالفه بشيء لم يعلمه كان من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه خلاف •

قال الشيخ : رواية عكرمة عن ابن عباس قد مضت في النسخ ، وفيها تأكيد لصحة هذا التأويل • قال الشافعي : فإن قيل : فلعل هذا شيء روي عن عمر فقال فيه ابن عباس بقول عمر ـ رضى الله عنه • قيل : قد علمنا أن ابن عباس يخالف عمر ـ رضي الله عنه ـ في نكاح المتعة ، وفي بيع الدينار بالدينارين ، وفي بيع أمهات الأولاد ، وغيره فكيف يوافقه في شيء يروى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه خلاف ما قال ؟ إنتهى محل الغرض منه بلفظه •

ومعناه واضح في أن الحق دائر بين الأمرين المذكورين لأن قوله : فإن كان معنى قول ابن عباس إلخ يدل على أن غير ذلك محتمل ، وعلى أن المعنى أنها ثلاث بفم واحد وقد أقر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جعلها واحدة ، فالذي يشبه عنده أن يكون منسوخاً ونحن نقول : إن

الظاهر لنا دوران الحق بين الأمرين كما قال الشافعي رحمه الله تعالى : إما أن يكون معنى حديث طاوس المذكور أن الثلاث ليست بلفظ واحد بل بألفاظ متفرقة بنسق واحد كأنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق • وهذه الصورة تدخل لغة في معنى طلاق الثلاث دخولاً لا يمكن نفيه ولاسيما على الرواية التي أخرجها أبو داود التي جزم العلامة ابن القيم بأن إسنادها أصح إسنادٍ • فإن لفظها ان أبا الصهباء قال لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أما علمت أن الرجل كان إذا طلق إمرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من إمارة عمر ؟ قال ابن عباس بلى كان الرجل إذا طلق إمرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة ، على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من إمارة عمر ، فلما رأى الناسَ قد تتابعوا فيها قال اَجيزوهنّ عليهم فإن هذه الرواية بلفظ : طلقها ثلاثاً وهو أظهر في كونها متفرقة بثلاثة ألفاظ كما جزم به العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في رده الإستدلال بحديث عائشة الثابت في الصحيح ، فقد قال في زاد العباد مانصه : وأما إستدلالكم بحديث عائشة أن رجلاً طلق ثلاثاً ، فتزوجت زوجته ، فسئل النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل تحلّ للأول ؟ قال : لا حتى تذوق العُسيلة • فهذا مما لا ننازعكم فيه • نعم هو حجة على من اكتفى بمجرد عقد الثاني • ولكن أين في الحديث أنه طلق الثلاث بفم واحد ؟ بل الحديث حجة لنا • فإنه لا يقال فعل ذلك ثلاثاً إلا من فعل وقال ثلاثاً • أي إلا من فعل وقال مرة بعد مرة • وهذا هو المعقول في لغات الأمم عربهم وعجمهم • كما يقال : قذفه ثلاثاً ، وشتمه ثلاثاً ، وسلم عليه ثلاثاً • إنتهى منه بلفظه •

وقد عرفت أن لفظ رواية أبي داود موافق للفظ عائشة الثابت في الصحيح الذي جزم فيه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بأنه لايدل على

أن الثلاث بفم واحد ، بل دلالته على أنها بألفاظ متفرقة متعينة في جميع لغات الأمم • ويؤيده أن البيهقي في السنن الكبرى قال ما نصه : وذهب أبو يحيى الساجي إلى أن معناه إذا قال للبكر أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق كانت واحدة • فغلظ عليهم عمر ـ رضي الله عنه ـ فجعلها ثلاثاً •

قال الشيخ : ورواية أيوب السختياني تدل على صحة هذا التأويل إنتهى منه بلفظه • ورواية أيوب المذكورة هي التي أخرجها أبو داود ، وهي المطابق لفظها حديث عائشة التي جزم فيه ابن القيم رحمه الله بأنه لايدل إلا على أن المطلقات المذكورة ليست بفم واحد ، بل واقعة مرة بعد مرة وهي واضحة جداً في ما ذكرنا •

ويؤيده أيضاً أن البيهقي نقل عن ابن عباس مايدل على أنها إن كانت بألفاظ متتابعة فهي واحدة ، وإن كانت بلفظ واحد فهي ثلاث ، وهو صريح في محل النزاع مبين أن الثلاث التي تكون واحدة هي المسرودة بألفاظ متعددة لأنها تأكيد للصيغة الأولى ، ففي السنن الكبرى للبيهقي مانصه : قال الشيخ : ويشبه أن يكون أراد إذا طلقها ثلاثاً تترى • روى جابر بن يزيد عن الشعبي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في رجل طلق امرأته ثلاثاً قبل أن يدخل بها • قال عقدة كانت بيده أرسلها جميعاً • وإذا كانت تترى فليس بشيء • قال سفيان الثوري : تترى يعني أنت طالق ، أنت طالق ، أنت طالق فإنها تبين بالأولى ، والثنتان ليستا بشيء • وروى عن عكرمة عن ابن عباس مادل على ذلك إنتهى منه بلفظه • فهذه أدلة واضحة على أن الثلاث في حديث طاوس ليست بلفظ واحد بل مسرودة بألفاظ متفرقة ، كما جزم به الإمام النسائي رحمه الله ، وصححه النووي ، والقرطبي ، وابن سريج ، وأبو يحيى الساجي ، وذكره البيهقي عن الشعبي عن ابن عباس ، وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ •

وتؤيده رواية أيوب التي صححها ابن القيم كما ذكره البيهقي وأوضحناه آنفاً ، مع أنه لا يوجد دليل يعين كون الثلاث المذكورة في حديث طاوس المذكور بلفظ واحد ، لا من وضع اللغة ، ولا من العرف ، ولا من الشرع ولا من العقل ؛ لأن روايات حديث طاوس ليس في شيء منها التصريح بأن الثلاث المذكورة واقعة بلفظ واحد ، ومجرد لفظ الثلاث أو طلاق الثلاث او الطلاق الثلاث لايدل على أنها بلفظ واحد لصدق كل تلك العبارات على الثلاث الواقعة بألفاظ متفرقة كما رأيت •

ونحن لا نفرق في هذا بين البر والفاجر ، ولا بين زمن وزمن ، وإنما نفرق بين من نوى التأكيد ، ومن نوى التأسيس ، والفرق بينهما لايمكن إنكاره • ونقول الذي ظهر أن ما فعله عمر إنما هو لما علم من كثرة قصد التأسيس في زمنه وبعد أن كان في الزمن الذي قبله قصد التأكيد هو الأغلب كما قدمنا • وتغيير معنى اللفظ لتغيير قصد اللافظين به لا إشكال فيه ، فقوة هذا الوجه وإتجاهه وجريانه على اللغة مع عدم إشكال فيه كما ترى وبالجملة بلفظ رواية أيوب التي أخرجها أبو داود •

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله : إنها بأصح إسناد مطابق للفظ حديث عائشة الثابت في الصحيحين الذي فيه التصريح من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنها لا تحل للأول حتى يذوق عسيلتها الثاني ، كما ذاقها الأول ، وبه يعرف أن جعل الثلاث في حديث عائشة متفرقة في أوقات متباينة وجعلها في حديث طاوس تفريق" لا وجه له مع إتحاد لفظ المتن في رواية أبي داود ، ومع أن القائلين برد الثلاث المجتمعة إلى واحدة لا يجدون فرقاً في المعنى بين رواية أيوب وغيرهما من روايات حديث طاوس •

ونحن نقول للقائلين برد الثلاث إلى واحدة : إما أن يكون معنى الثلاث في حديث عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ وحديث طاوس أنها

مجتمعة أو مفرقة ، فإن كانت مجتمعة فحديث عائشة متفق عليه فهو أولى بالتقديم • وفيه التصريح بأن تلك الثلاث تحرمها ولا تحل إلا بعد زوج • وإن كانت متفرقة فلا حجة لكم أصلاً في حديث طاوس على محل النـزاع لأن النزاع في خصوص الثلاث بلفظ واحد • أما جعلكم الثلاث في حديث عائشة مفرقة ، وفي حديث طاوس مجتمعة فلا وجه ولا دليل عليه • ولاسيما أن بعض رواياته مطابق لفظه للفظ حديث عائشة ، وأنتم لا ترون فرقاً بين معاني ألفاظ رواياته من جهة كون الثلاث مجتمعة لا متفرقة •

وأما على كون معنى حديث طاوس أن الثلاث التي كانت تجعل واحدة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر هـي المجموعـة بلفظ واحد فإنه على هذا يتعين النسخ كما جزم به أبو داود رحمه اللـه وجزم به ابن حجر في فتح الباري وهو قول الشافعي كما قدمنا عنه • وقال به غير واحد من العلماء • وقد رأيت النصوص الدالة على النسخ التي تفيد أن المراد بجعل الثلاث واحدة انـه في الزمن الذي كان لا فرق فيـه بـين واحدة وثلاث ، ولو متفرقة ، لجواز الرجعة ولو بعد مائة طلقة متفرقة كانت أولاً • وإن المراد بمن كان يفعله في زمن أبي بكر هو من لم يبلغه النسخ • وفي زمن عمر إشتهر النسخ بين الجمع وادعاء أن مثل هذا لا يصح يرده بإيضاح وقوع مثله في نكاح المتعة ، فإنا قد قدمناه أن مسلماً روى عن جابر أنها كانت تفعل على عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وفي بعضٍ من زمن عمر قال : فنهانا عنها عمر • وهذه الصورة هي التي وقعت في جعل الثلاث واحدة ، والنسخ ثابت في كلٍّ منهمـا ، فادعـاء إمكـان إحداهما واستحالة الأخرى في غاية السقوط كما ترى ؛ لأن كـل واحـدة منهما روى فيها مسلم في صحيحه عن صحابي جليل أن مسـألة تتعلـق بالفروج كانت تفعل في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبـي بكر

وصدرا من إمارة عمر ثم غيّر حكمها عمر ، والنسخ ثابت في كل واحدة منهما • وأما غير هذين الأمرين فلا ينبغي أن يقال ؛ لأن نسبة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وعبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وخلق من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم إلى أنهم تركوا ما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاءوا بما يخالفه من تلقاء أنفسهم عمداً غيرُ لائق ، ومعلوم أنه باطل بلا شك ، وقد حكى غير واحد من العلماء أن الصحابة أجمعوا في زمن عمر على نفوذ الطلاق الثلاث دفعة واحدة • والظاهر أن مراد المدعي لهذا الإجماع هو الإجماع السكوتي مع أن بعض العلماء ذكر الخلاف في ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وقد قدمنا كلام ابن العربي القائل بأن نسبة ذلك إلى بعض الصحابة كذب بُحْت" • وأنه لم يثبت عن أحد منهم جعل الثلاث بلفظ واحدٍ واحدة" • وما ذكره بعض الأجلاء العلماء من أن عمر إنما أوقع عليها الثلاث مجتمعة عقوبة لهم مع أنه يعلم أن ذلك خلاف ما كان عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون في زمان أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ فالظاهر عدم نهوضه ؛ لأن عمر لا يسوغ له أَن يُحرِّمَ فرجاً أَحَلَّه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلا يصح منه أن يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبيح ذلك الفرج بجواز الرجعة ، ويتجرأ هو على منعه بالبينونة الكبرى والله تعالى يقول : (وما آتاكم الرسول فخذوه) الآية ويقول : (آلله أذن لكم أَمْ على الله تَفْتَرون ؟) ويقول : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالَم يأذن به الله ؟) • والمروي عن عمر في عقوبة من فعل مالا يجوز من الطلاق هو التعزير الشرعيّ المعروف كالضرب • أما تحريم المباح من الفروج فليس من أنواع التعزيرات ؛ لأنه يفضي إلى حرمته على من أحلّه الله له وأباحته لمن حرَّمَهُ عليه لأنه إن أكره على إبانتها وهي غير بائن في نفس الأمر لا تحل لغيره ؛ لأنّ زوجها لم يُبنْها عن طيب نفس ، وحكم

الحاكم وفتواه لا يحل الحرام في نفس الأمر ويدل له حديث أم سلمة المتفق عليه • (فمن قضيت له فلا يأخذ من حق أخيه شيئاً فكأنما أقطع له قطعة من نار) •

ويشير له قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) لأنه يفهم منه أنه لو لم يتركها إختياراً لقضائه وطره منها ما حلت لغيره •

وقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري مانصه : وفي الجملة فالذي وقع في هذه المسألة نظير ما وقع في مسألة المتعة سواء • أعني قول جابر أنها كانت تفعل في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وصدرا من خلافة عمر • قال : ثم نهانا عمر فانتهينا • فالراجح في الموضعين تحريم المتعة وإيقاع الثلاث للإجماع الذي إنعقد في عهد عمر على ذلك •

ولا يحفظ أن أحداً في عهد عمر خالفه في واحدة منهما وقد دل إجماعهم على وجود ناسخ ، وإن كان خفي عن بعضهم قبل ذلك حتى ظهر لجميعهم في عهد عمر • فالمخالف بعد هذا الإجماع منابذ له • والجمهور على عدم إعتبار من أحدث الإختلاف بعد الإتفاق والله أعلم • آهـ منه بلفظه • وحاصل خلاصة هذه المسألة أن البحث فيها من ثلاث جهات :

الاولى : من جهة دلالة النص القولي أو الفعلي الصريح •

الثانية : من جهة صناعة علم الحديث والأصول •

الثالثة : من جهة أقوال أهل العلم فيها •

أما اقوال أهل العلم فيها : فلا يخفى أن الأئمة الأربعة وأتباعهم، وجل الصحابة ، وأكثر العلماء على نفوذ الثلاث دفعة بلفظ واحد • وادعى غير واحد على ذلك إجماع الصحابة وغيرهم • وأما من جهة نص صريح من قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فعله فلم يثبت من لفظ النبي ـ صلى الله

عليه وسلم ـ ولا من فعله ما يدل على جعل الثلاث واحدة • وقد مرّ لك أن أثبتَ ماروي في قصة طلاق ركانة أنه بلفظ (البتة) وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلّفه ما أراد إلاّ واحدة • ولو كان لا يلزم أكثر من واحدة بلفظ واحد لما كان لتحليفه معنى • وقد جاء في حديث ابن عمر عند الدارقطني أنه قال : يا رسول الله أرأيت لو طلقها ثلاثاً ، أكان يَحِلّ لي أن أُراجعَها ؟ قال : لا • كانت تبين منك وتكون معصية •

وقد قدمنا أن في إسناده عطاء الخراساني وشعيب بن زريق الشامي وقد قدمنا أن عطاء المذكور من رجال مسلم • وأن شعيباً المذكور قال فيه ابن حجر في التقريب صدوق يخطىء • وأما حديث إبن عمر هذا يعتضد بما ثبت عن ابن عمر في الصحيح من أنه قال : وإن كنتَ طلقتها ثلاثاً فقد حَرُمَتْ عليك حتى تنكح زوجاً غيرك ، وعصيت ربك فيما أمرك به من طلاق امرأتك • ولاسيما على قول الحاكم أنه مرفوع • ويعتضد بالحديث المذكور قبله لتحليفه ركانة • وبحديث الحسن بن علي المتقدم عند البيهقي والطبراني وبحديث سهل بن سعد الساعدي الثابت في الصحيح في لعان عويمر وزوجه • ولاسيما رواية : فأنفذها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني الثلاث المجتمعة ، وببقية الاحاديث المتقدمة •

وقد قدمنا أن كثرة طرقها واختلاف منازعها يدل على أن لها أصلاً ، وأن بعضها يشدّ بعضاً فيصلح المجموع للإحتجاج ، ولا سيما أن بعضها صححه بعض العلماء ، وحسنه بعضهم كحديث ركانة المتقدم • وقد عرفت أن حديث داود ابن الحصين لا دليل فيه على تقدير ثبوته ، فإذا حققت أن المروي باللفظ الصريح عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس يدل إلا على وقوع الثلاث مجتمعة فاعلم أن كتاب الله ليس فيه شيء يدلّ على

عدم وقوع الثلاث دفعة واحدة • لأنه ليس فيه آية فيها ذكر الثلاث المجتمعة وأخرى آية تصرح بعدم لزومها •

وقد قدمنا عن النووي وغيره أن العلماء إستدلوا على وقوع الثلاث دفعة بقوله تعالى : (تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً) قالوا : معناه أن المطلّق قد يحدث له نَدَم فلا يمكنه تداركه لوقوع البينونة ، فلو كانت الثلاث لا تقع لم يقع طلاقه إلاّ رجعياً فلا يندم •

وقد قدمنا ما ثبت عن ابن عباس من أنها تلزم مجتمعة وإن ذلك داخل في معنى الآية وهو واضح جداً ، فاتضح أنه ليس في كتاب الله ولا في صريح قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو فعله ما يدل على عدم وقوع الثلاث •

أما من جهة صناعة علم الحديث والأصول فما أخرجه مسلم من حديث ابن عباس المتقدم له حكم الرفع لأن قول الصحابي كان يفعل كذا على عهد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ له حكم الرفع عند جمهور المحدثين والأصوليين • وقد علمت أوجه الجواب عنه بإيضاح ورأيت الروايات المصرحة بنسخ المراجعة بعد الثلاث • وقد قدمنا أن جميع روايات حديث طاوس عن ابن عباس المذكور عند مسلم ليس في شيء منها التصريح بأنّ الطلقات الثلاث بلفظ واحد • وقد قدمنا أيضاً أن بعض رواياته موافقة للفظ حديث عائشة الثابت في الصحيح ، وأنه لا وجه للفرق بينهما • فإن حمل على أن الثلاث مجموعة فحديث عائشة أصح • وفيه التصريح بأن تلك المطلقة لا تحلّ إلا بعد زوج • وإن حمل على أنها بألفاظ متفرقة فلا دليل إذن في حديث طاوس عن ابن عباس على محل النزاع •

فإن قيل : أنتم تارة تقولون : إن حديث ابن عباس منسوخ • وتارة تقولون : ليس معناه أنها بلفظ واحد بل بألفاظ متفرقة • فالجواب : إن معنى كلامنا أن الطلقات في حديث طاوس لا يتعين كونها بلفظ واحد ، ولو فرضنا أنها بلفظ واحد فجعلها واحدة منسوخ • هذا ما ظهر لنا في هذه المسألة والله تعالى أعلم •

وهذا الذي ذكرناه في تفسير قوله تعالى : (الطلاق مرتان) الآية وحول إنحصار سلطة الرجعة في مرتين فقط من الأحاديث الشريفة وأقوال العلماء لاسيما صاحب أضواء البيان رحمه الله تعالى وأرضاه إنما ذكرته لأن المسألة مهمة وتحتاج إلى مزيد بحث وإيضاح ليستفيد منه أهل الإخلاص من العلماء ، وفقهم الله تعالى على نشر الدين •

ولنرجع إلى خلاصة تفسير قوله تعالى : (الطلاق مرتان) الآية وحاصله : إن الطلاق الذي للأزواج الحق برد الزوجات إليهم في زمن العدة مرتان فقط لايتجاوز إلى المرة الثالثة • وحقهم بعدهما إما الإمساك لهن على الزوجية والوفاء بحقوقهن بما هو المعروف في الإسلام • وإما تسريحهن بإهمالهن حتى تنقضي عدتهن وينقطع حق الأزواج إلا برضاهن وعقد جديد أو بتطليقهن المرّةَ الثالثة لتحصل البينونة المحوجة إلى نكاحها بغير الزوج الأول ولما كان هذا الفراق بينهما يورث نفوراً وغضباً من الأزواج عليهن ومن مظان غدرهن بأخذ أموالهن من الصداق أو غيره قال تعالى : (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن) أي مَلّكتمُوهُنّ في الصداق أو في سائر وجوه التمليك شيئاً كثيراً أو قليلاً لا بعد تطليقهن ولا قبله • (إلا أن يخافا) أي الزوجان (ألا يقيما حدود الله) وأحكامه المشروعة المقررة ، ولا يمكنهما البقاء معاً بعلاقة الزوجية ، وكان للزوجة رغبة في الإفتداء عن نفسها بمالها (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما

فيما افتدت به) نفسها أي لا جناح على الزوجة في بذله وإعطائه للزوج ، ولا على الزوج أن يأخذه ويقبله عوضاً عما فاته من حق التمتع ببضع الزوجة • فهذا المقدار من الآية الشريفة تحريم من الله على الزوج لأخذ شيء من مالها بدون رضائها إلا ما تعطيه برضاها أو تصرفها عوضاً عن استرجاع بضعها • وهذا هو الخلع بين الزوجين سواء كان في المرة الأولى كما وقع بين ثابت بن قيس وزوجته حبيبة ، فأعطته الحديقة وطلقها عليها أو كان في المرة الثانية أو الثالثة لجريانهما بصورة المخالعة •

وقوله (تلك حدود الله) أي ما ذكرناه عن أحكام الله تعالى ومقرراته فيما بينهما بقاءً ومفارقة ، فلا تتجاوزوها ولا تخالفوها • ومن يتعدّ حدود الله ويتجاوزها ويخالفها فأولئك هم الظالمون أنفسهم بتحميلها العقوبات في يوم الجزاء •

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى أن الطلاق الذي يجوز للزوج بعده إرجاع الزوجة مرتان ، ولا يبقى بعدهما إلا حقّ الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان على الوجه الذي ذكرناه ، وذَكَرَ أَنّ هذا الطلاق في المرة الأولى أو الثانية أو الثالثة إذا جرى جاز أن يكون مجّاناً ، وأن يكون بعوض بصورة المخالفة •• ذَكَرَ أنّ الرجلَ إذا أقدَم في المرّة الثالثة على تطليقها فلا تحل له من بعدِ ذلك إلا في صورة مشروطة بشرائط وقال : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيرَهُ ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ، إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (٢٣٠)

قوله تعالى (فان طلقها) الآية إما مربوط بقوله تعالى : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقوله تعالى : (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن) الآية جملة ذكرت لمنع الأزواج عن الغدر على الزوجات كما أن قوله تعالى : (فان خفتم ألا يقيما حدود الله) لبيان جواز المخالعة بينهما ، وأنزله لبيان عواقب الطلاق الثالث بعد المرتين • وإما مربوط ببيان قوله تعالى : (أو تسريح بإحسان) لأنه قد ذكر لبيان أن للزوج حق التسريح إذا شاء بعد الطلاق مرتين وهذا مذكور لبيان عاقبة التسريح إذا تحقق وطلقها فعلاً في المرّة الثالثة ومعنى الآية الشريفة : أنه إذا طلق الزوج زوجته بعد المرتين إذا كانتا على التفاريق أو في جملة واحدة كما ذكرنا سابقاً ، فلا تحل الزوجة لهذا الزوج من بعد ذلك الطلاق (حتى تنكح زوجاً غيره) أي تتزوج المرأة المطلقة بعد انقضاء عدتها من الأول نكاحاً صحيحاً مستجمعاً لشرائطه ويدخل بها الدخول المشروع • (فان طلقها) الزوج الثاني (فلا جناح عليهما) أي على المرأة والزوج الأول أن يتراجعا بعقد الزواج • وإنما أعتبر دخول الزوج الثاني بها لما روي أن امرأة رفاعة القرظي قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنّ رفاعة طلقني وبتّ طلاقي ، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ قالت : نعم • قال : لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك • فالآية الشريفة مطلقة عن الدخول ، ولكن السنة السنية قيدته به • هذا إذا كان النكاح بمعنى العقد وأما اذا كان بمعنى الوطء المشروع فلا حاجة إلى شيء إلا إلى الطلاق وما يتعلق به • هذا في ما إذا طلقها الزوج الثاني وكذلك إذا كان الفراق بموت الزوج الثاني بعد الدخول •

وقوله تعالى : (إِنْ ظنا أَنْ يُقيما حُدُودَ اللهِ) قيد في نفي الجناح في تراجعهما لأنهما إن ظنا أن لايقيما حدود الله ويستمرا على

إضرار كلّ بالآخر أو أحدهما به ففي التراجع جناح أيّ جناح ! وليس قيداً في نفوذ التراجع والعقد بينهما لنفوذه مطلقاً .

وخلاصة المعنى : أنهما إن ظنا أن يقوم كل منهما بواجبه في صحبة الآخر والوفاء بحقوق الزوجية فلا جناح في تراجعهما بعقد نكاح جديد حائز للطلقات الثلاث كما سبق .

وقوله : (وتلك حدود الله) أي وتلك الأحكام آحكام الله وشريعته المقررة لمن آمن به وبرسله يبينها ويفصلها لقوم يعلمون بمقتضى العلوم .

(وَإذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، ولاتُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفعَلْ ذلك فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُزُواً ، واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ومَا أنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَاب والحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ ، واعْلَمُوا أنَّ الله بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ) (٢٣١)

كان بعض الناس يطلق إمرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدّتها ، ثم يطلقها ، ثم يراجِعُها . كانَ يَفعَلُ ذلك ليُضارَّها . ومِن هؤلاء ثابت بن يسار الأنصاريّ طلق امرأته حتى إذا لم يبق على انقضاء عدتها إلا يومان أو ثلاثة راجعها ، ثم طلقها مُضارّةً لها ، فأنزل الله الآية .

قوله تعالى : (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) أي بلغن قريباً من آخر عدتهن وانتهائها فأمسكوهن بمعروف من الحقوق المشروعة لهن . أو سرّحوهن بمعروف . وليس لكم أن تراجعوهن وتطيلوا المدة عليهن ثم تطلقونهن كذلك . وهذا إعادة للحكم السابق في صورة بلوغهنّ أجلهن

بالمعنى المذكور إعتناء بشأنهن ومحافظة على حقوقهن • وليس معنى بلوغهن أجلهن وصولهن آخر زمان انقضاء عدّتهن إذ عند انقضاء العدة وبعدها لا تبقى زوجة له ولا باقية في عدّته • فلا سبيل له عليها وهي صاحبة أمرها • وقوله تعالى : (ولا تمسكوهن ضراراً) فيه تقوية وتأكيد للأمر بالإمساك بالمعروف وإظهار لبعض الأمور غير المشروعة التي إختبأها الزوج في نفسه من الإستيلاء على أموالها أو حقوق صداقها أو نحوها • فإنّ ذلك إعتداء" عليها والإعتداء على الأنفس البريئة جريمة نكراء كما صرح بذلك بقوله الكريم : (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أي بتعريضها للخزي والعار في الدنيا وإثارة الفتن بين الناس والعذاب في الآخرة ، وأيّ شيء اَشْنَعُ من الجمع بين العار والنار ؟ أعاذنا الله تعالى •

وقوله تعالى : (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) عن ابي الدرداء قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يقول : كنت لاعباً ، ويعتق عبده ثم يقول : كنت لاعباً • وكان الرجل يقول لآخر : زوّجتك ابنتي ثم يقول : كنتُ لاعباً • فأنزل الله الآية فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهُنّ جائِزات عليه : النكاح ، والطلاق ، والعتاق • وعن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ثلاث جِدّهن جدٌ : وهزلهن جدٌ : النكاح ، والطلاق ، والرجعة) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه •

ومعنى الآية : ولا تتخذوا آيات كلام الباري تعالى مَحَلّ هزء ، وفي مجال التهاون لعدم مبالاتكم بها •

وقوله : (واذكروا نعمت الله عليكم) أي إن عليكم أيها الناس نعماً كثيرة من الله تعالى ، ومن جملتها آيات الأحكام الواردة لإرشاد الأنام إلى الإسلام • فاذكروها وعدوها كنعم مهداة إليكم وقابلوها بالشكر المكافىء

لها بقدر الإمكان وبالأخص أذكروا ما أنزل عليكم من الكتاب الهادي إلى الصواب والحكمة أي السنة النبوية التي هي فصل الخطاب في حال أن الباري تعالى يعظكم به ، ويحبّ أن تسترشدوا به وتعملوا به بإخلاص . واتقوا الله في آياته وما تحتوي عليه . واعلموا أن الله بكل شيء عليم . فلا تخفى عليه خائنة الأعين ، وما تخفي الصّدور .

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ اَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ اَنْ يَنكِحْنَ اَزْواجَهُنَّ إذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بالمَعْروفِ ، ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيوْمِ الآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لكم وَاَطْهَرُ وَالله يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ) (٢٣٢)

عن معقل بن يسار أنه زوّج أخته رجلاً مِن المسلمين ، فكانت عنده ، ثم طلّقها تطليقة ولم يراجعها حتى إنقضت عدتها فهواها وهَوِيته ، فخطبها مع الخُطّاب ، فقاله له أخوها : يا لُكَعُ اَكرَمْتُكَ بها وَزَوَّجْتُكها فطلّقتها ثم جئت تخطبها ، واللهِ لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية . فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة . ثم دعاه وقال له : أزوجك وأكرمك . أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي . قال معقل : ففيّ نزلت هذه الآية . فكفّرت عن يميني وأنكحتها إيّاه .

قوله تعالى : (وإذا طلقتم النساء فبلغنَ أجلهن) أي بلغن نهاية عدتهن وانقضت . وقوله : (فلا تعضلوهن) الآية خطاب مع أوليائهن . أي إذا طلقن وانقضت عدتهن ورغبن في النكاح من أزواجهن سابقاً ، وكانت لهم رغبة فيهنّ فلا تمنعوهن من أن ينكحن أزواجهن لأن الأزواج أزواج ،

وفي المألوف إبتهاج ، ومع الحبيب القديم إمتزاج . وذلك (إذا تراضوا بينهم بالمعروف) أي إذا وقع التراضي بين الطرفين بالوجه المعروف شرعا ، وهو الإنسجام مع رعاية حقوق الإسلام .

وقوله : (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) أي ما مضى ذكره من النهي عن منعهنّ عن الرجوع إلى أزواجهن بالوجه المشروع يُرْشَدُ به من كان منكم يؤمن بالله ويلتزم العمل بأحكامه ، ويؤمن باليوم الآخر ، فيخاف من عذابه وآلامه . فإن المؤمنين هم المسترشدون المنتفعون .

وقوله : (ذلكم أزكى لكم وأطهر) أي الحكم المشروع من الله والتزامه والعمل بمقتضاه أنفع لكم من حيث نيل الثواب ، وأطهر لكم من المخالفة والإبتلاء بالفتن في الدنيا من قبل الأزواج الممنوعين والزوجات الممنوعات . فإنه قد طرأ على المخالفة عواقب غير محمودة . والله يعلم ما فيه سعادة الدارين ، وانتم لا تعلمون إلاّ قليلا من المصالح الواردة في البين .

(وَالوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ اَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ اَرادَ اَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْروفِ ، لاتُكَلَّفُ نَفسٌ إلاّ وُسْعَها ، لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها ، وَلامَوْلودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ، وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ ، فَإنْ أرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنهُما وتَشاوُرٍ فلا جُناحَ عَليهِما ، وإنْ اَرَدْتُمْ اَنْ تَسْتَرْضِعُوا اَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُم ، إذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالمَعْروفِ . وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا اَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ) (٢٣٣)

وقوله تعالى : (والوالدات يرضعن اَوْلاَدهن) خبر صورة وامر سيرة • والوالدات تعم الباقيات في نكاح الآباء والمطلقات • وقوله تعالى : (يُرضعن أولادهن) ندبا إن كان هناك من يرضع الولد ، ووجوباً إن تعينت أمّه له بأن لم تكن مرضعة متبرعة ولا عاملة بالأجرة ، أو لم يقبل الولد إلا ثديَ أمّه • وقوله : (حولين كاملين) ظرف لقوله يرضعن ، وبيان لأكمل مدة الرضاع • وقوله : (لمن أراد أن يتم الرضاعة) بيان لمن توجه عليه حكم الإرضاع وهو الأب او الجد عند فقده ، والأم عند فقدهما • فإن الولد الفاقد للأب والجدّ يجب على أمّه إرضاعه سواء من نفسها أو غيرها •

وقوله : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن) بيان لمن وجب عليه الحكم ومعنى قوله تعالى : (له) إن الولد ينسب إليه وينتفع به والده في دنياه بالخدمة والإنفاق ، وفي الآخرة بأعماله الصالحة التي نشأت من تربيته ، وبدعائه له ، وصدقاته عنه وغير ذلك ••• فيجب عليه إيصال الرزق والكسوة إلى الوالدات المرضعات ، واستئجار الأم جائز عند الإمام الشافعي ـ رضى الله عنه ـ وقوله : (بالمعروف) أي بلا إسراف ولاتقتير ، أو حسب ما يراه الحاكم العادل وقوله : (لا تكلف نفس إلا وسعها) إما بيان للمعروف وتوضيح له ، أو تعليل للتقييد بالمعروف •

وقوله : (لا تضارّ والدة بولدها ولا مولود له بولده) الصيغة مضارع المفاعلة ، وهي إما مبني للفاعل وتضارّ بمعنى تضر أي لا تضر الوالدة بولدها فتقصر في تعهده ، ولا يضر المولود له بولده فيقصر في شأنه بمنع الرزق والكسوة عن الأم حتى لا تهتم بشأنه ويَضيعَ الولد • وإما مبني للمفعول والمعنى ولا يقبل شرعاً مضارة الوالدة بسبب ولدها

بأن تمنع حقوقها وتكلف الإعتناء بالولد ، ولا مضارة للمولود له به أيضاً بأن يكلّف بما يزيد على الحقوق الواجبة عليه بسبب الإرضاع •

قوله : (وعلى الوارث مثل ذلك) عطف على قوله : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن) والمراد بالوارث وارث المولود له ، وهو نفس الصبي الرضيع ، أي إذا لم يبق المولود له فالإنفاق على المرضعة بالرزق والكسوة واجب على نفس الصبي ويؤدى من ماله الخاصّ ، أو الباقي من الأبوين كالوالدة بعد الوالد فإذا مات الوالد فعليها نفسها الحقوق المقررة لها أي يجب عليها تسليم الرزق والكسوة للمرضعة إذا كانت أجيرة لها عليه ، وتسقط حقوقها إذا هي نفسها أرضعته لأن نفقة الولد على الوالد ما دام حياً ، وإذا مات فعلى الوالدة • أو المراد غيرهما من سائر الورثة التي عليهم الإنفاق حسب آراء الأئمة في باب النفقات على ضوء الكتاب والسّنة السنية •

ويشمل الوارث بالمعنى العام صاحب بيت المال إذا لم يكن هناك وارث خاصّ ، كما فصّل في الفقه •

وقوله تعالى : (فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما) مقابل للتحديد الواقع في قوله تعالى : (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) ومعناه وإن اراد الوالدان فصالاً للولد عن الرضاع فيما دون تلك المدة فصالاً ناشئاً عن تراض من الوالدين من الوالد لأن النسب له ، ومن الوالدة لكمال شفقتها عليه واهتمامها الكامل به ، وعن تشاور بينهما كل من الآخر أو أخذ الرأي من أهل الخبرة العارفين بكيفية الفصال وكمية مدته بالنسبة إلى شخصية الولد فلهما ذلك ولا جناح عليهما فيه •

وقوله تعالى : (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف) معناه وإن أردتم أن تسترضعوا المراضع أولادكم ، فحذف أحد المفعولين للإستغناء عنه بأن تسلموا الولد إلى غير الامّ المرضعة على إتفاق منهما عند بعض الأئمة إذ لايجوز للوالد أن يمنع أمه من إرضاعه إذا رضيت بأجرة المثل ، ومطلقاً عند بعض آخر بشرط أن لا يتضرر الولد الرضيع فلا جناح عليكم في ذلك اذا سلمتم ما آتيتم من الرزق والكسوة بالمعروف إلى المراضع كي تهتم بشأنه ولا تُهمله . وليس إشتراط التسليم لجواز الإسترضاع بل لسلوك ما هو الأولى والأصلح للطفل . واتقوا الله في رعاية أحكامه على الإطلاق ، لاسيما بالنسبة إلى الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . واعلموا أن الله بما تعملون بصير لا يخفى عليه أعمالكم فيجازيكم عليها .

في القرطبي : هذه الآية دليل لمالك على أن الحضانة للأم فهي في الغلام إلى البلوغ ، وفي الجارية إلى النكاح ، وذلك حق لها وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي إذا بلغ الولد ثمان سنين وهو سنّ التميز خيّر بين أبويه ، فإنه في تلك الحالة تتحرك همته لتعلم القرآن والأدب ووظائف العبادات ، وذلك يستوي فيه الغلام والجارية .

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (٢٣٤)

لما ذكر الباري سبحانه عِدّة الطلاق ، واتصل بذكرها ذكر الإرضاع لأنه كثيراً مّا تكون المطلقة مُرضعة ، مع أن إرضاع الأطفال من أركان

بقاء الأجيال ولو كانت أمهاتهم تحت نكاح آبائهم .. ذكرَ عدةَ الوفاة أيضاً لأن الفراق بين الزوجين قد يكون بالطلاق ، وقد يكون بوفاة الرجال . وذلك لا غنى عنها لدفع توهم المساواة بين العدتين . فقال تعالى : (والذين يتوفون منكم) الآية والموصول مع صلته مبتدأ وقوله : (يذرون أزواجاً) معطوف على ما قبله ، وجملة يتربصن خبر والعائد محذوف أي بَعْدَهم .

وظاهر الآية عموم هذا الحكم للحوامل والحوائل ، ولكنها خصصت بقوله تعالى (وأولات الأحمال اَجَلهنّ اَن يضعن حَملهن) فإن عدتهن بوضع الحمل ، واعتبار الإعتداد بأقصى الأجلين مدفوع بحديث سُبَيْعة الأسلمية حيث نفست بعد وفاة زوجها بليال ، فذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَأمَرَها أن تتزوّج . أخرجه في الصحيح .

وقوله تعالى : (فإذا بلغن أجلهن) أي فإذا انقضت عدتهن فلا جناح عليها أيها الأولياء لهنّ في الكف عنهن (فيما فعلن في أنفسهن) من الأمور الممنوعة مدة العدة إذا فعلتها بالمعروف في الشرع من الخطبة ، وجوابها الصريح ، والتزين ، وترك الإحداد وغيرها ... وأما إذا خرجن عن النظام المعروف المشروع فعليكم الجناح في تركهن يفعلن ما يشأن . فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان . والله بما تعملون خبير ، فيجازي كل مكلف من النساء والرجال حسب نظام الدين .

فوائد : الأولى : إن المطلقة الرجعية إذا مات زوجها وهي في العدة وجبت عليها عدة الوفاة ، بخلاف المطلقة البائنة ، فإن عليها عدة الطلاق فقط .

الثانية : أجمع الناس على وجوب الإحداد على المتوفى عنها شابّة

او شائبة ، حائضة أو يائسة ، مدخولة أو غير مدخولة • إلا إذا كانت حاملا فأمرها مربوط بوضع الحمل •

الثالثة : إن الإحداد الواجب على المتوفى عنها هو الإمتناع من : الزينة ، ولبس المصبوغ الجميل ، والطيب ، ونحوه • وهذا قول جمهور العلماء • ومن الواجبات عليها لزومها السكنى إلا لضرورة ، أو حاجة شديدة مما يجبرها على الخروج منها •

(وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أوْ أكْنَنْتُمْ فِي أنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أنَّكُمْ سَتَذْكُرونَهُنَّ ، ولكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرّاً ، إلاّ أنْ تَقولُوا قَوْلاً مَعروفاً • وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتابُ أجَلَهُ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في أنْفُسِكُمْ فاحْذَروهُ ، وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفورٌ حَليمٌ) (٢٣٥)

أجمعت الأمة على حرمة تكلم الرجال مع النساء المتزوجات بالتصريح أو الكناية أو التعريض بما يفسدها على زوجها ، وعلى حرمة التصريح والتعريض للمطلقة الرجعية في عدتها ، وعلى حرمة التصريح للمطلقة البائنة أو المتوفى عنها زوجها بالخطبة وبيان الرغبة في زواجها • بخلاف إضمار الرغبة فيهن ، أو التكلم معهن تعريضا بما يفيد ذلك • كما قال تعالى : (ولا جناح عليكم فيما عَرَّضتم بهِ مِن خِطبة النّساءِ أو أكْنَنتم في أنفسكم) يعني لا إثم عليكم أيّها الناس في ما تأتون به تعريضا أي بكلام يستفاد من سياقه الرغبة فيهن بالزواج من خطبة النساء من كلام فيه إستلطاف واستجلاب لقلوبهن في الميل إلى الزواج بهن ، فإن ذلك أقرب إلى إفادة المقصود ، وأبعد من إثارة الفتنة أو اتهام الناس

بعضهم بعضاً في ذلك الموضوع ، كما لا إثم عليكم في ما أكننتم وأضمرتم في قلوبكم من الرغبة فيهن وتزوجهن بعد انقضاء عدتهن .

وقوله تعالى : (علم الله أنكم ستذكرونهن) أي علم الله أنكم لا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن ، فلهذا أباح لكم التعريض لهن بها .

وقوله تعالى : (ولكن لا تواعدوهن سراً) الآية إستدراك عن محذوف دل عليه قوله تعالى : (ستذكرونهن) أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن بأي كلام ومقال إلا أن تقولوا قولاً معروفاً كالتعريض لها بما أباح الله لكم .

وقوله : (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي لا تقصدوها قصداً جازماً ، لئلا يصدر منكم شيء يدعوهن إلى الكذب في انقضاء العدّة وما ناسبه . حتى يبلغ الكتاب أجله أي حتى يبلغ ما فرض عليهن من التربص آخر وقته (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) من العزم على الخير أو غيره فاحذروه ، ولا تعزموا عليه إذا كان ممنوعاً منكم واعلموا أن الله غفور يغفر لمن يشاء حليم لا يستعجل بالعقوبة .

(لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مالَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُحْسِنِينَ) (٢٣٦)

قوله تعالى : (لا جناح عليكم) لما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر النهي عن الطلاق ظن الناس أن الغاية من النكاح بالنسبة إلى الزوجين قضاء الشهوة بالجماع ، وإلى الزوجة إستفادة المهر . وأن في الطلاق قبل

قضاء الشهوة وقبل فرض المهر فيما لم يسم لها مهر إثماً وحرجاً فأنزل الله تعالى الآية لرفع الحرج في ذلك الطلاق • وأفاد أنه لا حرج ولا إثم على الزوج في طلاق المرأة قبل قضاء الشهوة منها وقبل فرض الفريضة ، أو أنه لاتبعة ولا مطالبة على الزوج في الصورة المذكورة • ولكنه يجب عليه تمتيعها وإفادتها بمقدار من المال جبراً للإيحاش الحاصل من الطلاق كما قال تعالى : (ومتّعوهن) الآية • والموسع : هو الذي له سعة في المال ، والمقتر : الضيق الحال • ولم يعين الباري مقدار المتعة فاختلف الأئمة فيه بين قليل وكثير ، فقال أبو حنيفة : هي درع ، وخمار ، وملحفة لاتزيد على نصف مهر المثل ولا تنقص عن خمسة دراهم • وعند الشافعي سن أن لا تنقصَ عن ثلاثين درهماً أو ما قيمته ذلك ، وأن لا تبلغ نصف المهر • ولم يحددها مالك ــ رضى الله عنه ــ •

وكذلك تجب المتعة عند الشافعي في كل مطلقة إلا من طلقت ووجب لها نصف المهر فقط • وقوله تعالى : (متاعاً بالمعروف) إما تفسير وبيان لما ذكره من قوله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، وإما إرشاد إلى تسليمها بالمروءة والملاطفة بحيث يدفع الوحشة الناشئة من الفراق • وقوله تعالى : (حقّاً على المحسنين) أي يحق حقّاً ويجب أداؤه علىالذين يحسنون إلى انفسهم بالإسراع إلى امتثال الباري تعالى أو إلى الناس بالمجاملة كالزوجة المفارقة في صورة الآية الشريفة •

(وإن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مافَرَضْتُمْ ، إلاَّ أَنْ يعْفُونَ أوْ يعفُوَ الذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَب لِلتَّقْوى ، ولا تَنْسَوا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (٢٣٧)

لما ذكر الباري سبحانه وتعالى حكم المفارقة المفوضة أردفه ببيان حكم مقابلها وهي التي فرضت لها في الصداق فريضة إما بتسميتها في العقد او بفرض الزوج لها ، او الحاكم بعده • ومعنى الآية الشريفة ، وإن طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ، والحال ان لها مهراً مسمى أو مفروضاً ، فالواجب عليكم نصف ما فرضتم لهن (إلا أن يعفون) أي المطلقات الراشدات فلا يأخذن شيئاً (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وهو الزوج الذي بيده عقد النكاح وحلّه عن النصف الآخر الذي يعود إليه فأعطاها المهر كاملاً غير منقوص • وقيل : المراد من الذي بيده عقدة النكاح الولي الذي بيده أمرها وذلك إذا كانت المرأة صغيرة • وهذا قول قديم للشافعي ، ويعارض هذا أن الولي بيده عَقدُ النكاح وإيجابه ، وليس بيده العُقْدَةُ الناشئة من العَقد (وأن تعفوا أقرب للتقوى) أي وعفوكم عن النصف الذي يعود إليكم وتسليمها المهر كله أقرب لاتّصافكم بالتقوى التي هي قوت المسلم وقوّته • (ولا تنسوا الفضل بينكم) بتفضيل الرجال على النساء ليكون السماح منهم أكثر ، أو فضل بعضكم على بعض بوجود السماح فيه دون الآخر أو فضل بعضكم وكرمه على بعض كالزوجة التي كانت تصحبه ويستأنس كل منهما بالآخر في عشرته (ان الله بما تعملون بصير) فلا يضيع فضلكم وتفضلكم وإحسانكم إلى غيره •

(حافِظُوا عَلَى الصَّلَوات والصَّلاةِ الوُسْطى وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ) (٢٣٨)

عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا نتكلم على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الصّلاة يكلّم الرجلُ مِنّا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت وقوموا لله قانتين • فأمِرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام • أخرجه البخاري ومسلم ولما كان الإشتغال بأمر

الأزواج والأولاد مما يشغل الإنسان ويلهيه عن الطاعات ناسب ذكر الصلاة والمحافظة عليها بعدها لأنها ركن من أركان الإسلام ولم يتكرر عبادة ذكراً في القرآن وعملاً بالأركان مثلها .

وقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات) الآية يعني حافظوا عليها بأدائها مستجمعة لشرائطها وأركانها في أوائل أوقاتها والمداومة عليها، والخشوع لله تعالى فيها، وأدائها في مجتمع المسلمين الذين قلما يخلو عن صالح مقبول العبادة ومقبول الدعاء ، وخصّ من بينها الصلاة الوسطى . وفي المراد بها أقوال كثيرة :

الأول : أنها صلاة الظهر لأنها وسط النهار على الصحيح من القولين أن النهار أوله من طلوع الفجر . وممن قال هذا القول زيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، وعبدالله بن عمر ، وعائشة ـ رضي الله تعالى عن الجميع ـ ومما يدل على ذلك ما قالته عائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ حين أَمْلَتا (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) بالواو . ووجهها أنها في وسط النهار وهي أشقّ الصلوات في البلاد الحارّة . وكان يصليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الهاجرة ، ولم تكن صلاة أشق وأشد على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها . فنزل حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى الآية .

الثاني : أنها صلاة العصر لأن قبلها صلاتَيْ نهارٍ وبعدها صلاتَيْ لَيل ، أو لأنها من صلاتين أولاهما أول ما فرض وثانيتهما ثانية ما فرض . وعلى هذا القول علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابو هريرة . وهو إختيار أبي حنيفة وأصحابه ، والإمام الشافعي ، وأكثر أهل الأثر ، وإليه ذهب الجمهور من الناس . واحتجوا بالأحاديث الواردة في هذا الباب التي خرّجها مسلم

وغيره • و َا َ نَصّها حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » خرّجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح •

الثالث : أنها المغرب قاله قبيصة بن أبي ذؤيب في جماعة • والحجة لهم أنها متوسطة في عدد الركعات ليست بأقلها ، ولا أكثرها ، ولا تقصر في السفر ، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يؤخرها عن وقتها ولم يعجلها • وبعدها صلاتا جهر وقبلها صلاتا سر •

وروي من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يَحُطّها عن مسافر ولا مقيم ، فتح الله بها صلاة الليل فمن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنى الله له قصراً في الجنة • ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنوب عشرين سنة أو قال أربعين سنة •

الرابع : أنها صلاة العشاء لأنها بين صلاتين لا تقصران وتجيء في وقت نوم ، ويستحب تأخيرها ، وذلك شاق فوقع التأكيد في المحافظة عليها •

الخامس : أنها الصبح لأن قبلها صلاتي ليل يجهر فيهما وبعدها صلاتي نهار يُسرّ فيهما • ولأن وقتها يدخل والناس نيام ، والقيام إليها شاق في زمن البرد لشدة البرد وفي زمن الصيف لقصر الليل • وممن قال أنها وسطى علي ابن أبي طالب ، وعبدالله بن عباس • أخرجه الموطأ بلاغاً ، وهو قول مالك وأصحابه ، والصحيح عن علي كرم الله وجهه أنها العصر • وهناك أقوال يطول ذكرها •

وقوله تعالى : (وقوموا لله قانتين) معناه قوموا لله في الصلاة قانتين ذاكرين له في القيام ، وقال ابن المسيب : المراد به القنوت في صلاة الصبح • ويجعل هذا دليلا على أن الصلاة الوسطى هي صلاة الصبح أي قوموا للّه في صلاة الصّبح قانتين •

وظهر من الآية الشريفة أن القيام مأمور به في الصلوات المفروضة كلها على القادر عليه • وأمّا في حالة الخوف والأوضاع الطارئة فحكمه يظهر من قوله تعالى :

(فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (٢٣٩)

فقوله تعالى : (فإن خفتم) الآية معناه فإذا خفتم من عدو أو غيره كسيل جارف أو حريق مشارف أو سبع ضار فصلوا راجلين ماشين على الأقدام سائرين إلى جهة النجاة أو إلى الجهات المختلفة سواء كنتم على إتجاه القبلة أو غيره • وفيه دليل على وجوب الصلاة عند المحاربة بالسيف والأدوات الجارحة بقد الضرورة • ورجالاً جمع راجل بمعنى الماشي على الرجل مقابل الراكب ، أو جمع رَجُل بمعنى الراجل أيضا بضم الجيم وهو لغة أهل الحجاز • يقال مشى فلان إلى بيت الله رَجْلاً حافياً ، أي ماشياً على قدميه بدون حذاءٍ • ويرادف الرجل المضموم العين بهذا المعنى رَجْلان كسكران ، ورجيل كجليل ، ورجل بسكون العين كصَعْب • ويجمع على رِجال كصعاب ، ورَجْلى كقتلى ، ورُجّال كطلاب ، ورَجالة على وزن عَلاّمَة ، ورُجالى بضم الراء على وزن سكارى ، ورجلان بضم الراء وسكون الجيم على وزن عثمان • كما في تفسير القرطبي •

وقوله : (فإذا أمنتم) أي فإذا زال الخوف فاذكروا الله كما كنتم سابقاً ، وصلّوا صلاةَ الأمنِ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون أي إرجعوا إلى ما أمرتم به من إتمام الأركان والآداب من التكبير إلى التسليم • ومدلول الآية الكريمة : إن الصلوات المفروضة لا تسقط بحال إلا في حال الأعذار للنّساء • وإنما ينقص من أركانها التي لايمكن الإتيان بها في حال الخوف • وذهب الأئمة إلى أنه لايجوز نقص عدد الركعات في صلاة الخوف عن صلاة المسافر • ولا يجب قضاؤها إذا زال الخوف • وسيأتي تفصيل لهذا الموضوع في سورة النساء إن شاء الله تعالى •

(وَالذينَ يتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةٌ لأزْواجِهِمْ مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غَيْرَ إخْرَاجٍ ، فَإنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ في مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٢٤٠)

عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من الطائف قَدِمَ المدينة وله أولاد رجال ونساء ، ومعه أبواه وامرأته ، فمات بالمدينة ، فرُفِعَ ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعطى الوالدين ، وأعطى أولاده بالمعروف ولم يعط امرأته شيئاً • غيرَ أَنّهم أُمِروا أن ينفقوا عليها من تركة زوجها إلى الحول • وفيه نزلت الآية أخرجه إسحاق ابن راهويه في تفسيره •

ويجب أن يعلم أن هذه الآية نُسِخَت بقوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويَذَرُون أزواجاً يتربّصن بأنفسهن) الآية •

قوله تعالى : (والذين يتوفون منكم) الآية الموصول مع صلته في محل الرفع مبتدأ ، وقوله وصيةٌ بالنصب مفعول لفعل مقدر ، أي يوصون

وصية ، والجملة خبر المبتدأ ، والجملة الخبرية في معنى الانشاء لأن تلك الوصية كانت واجبة في أول الإسلام .

وقوله : (متاعاً) منصوب بالفعل المقدر المستفاد من وصية ، أو من الفعل المضمر أي ويُعْطَوْنَ متاعاً وهو ما يتمتعن به من النفقة والكسوة إلى نهاية الحول .

وقوله : (غير إخراج) بدل من متاعاً بدل إشتمال . وقيل : بدل كل على حذف المضاف ، أي متاع غير إخراج . وقوله : (فإن خرجن) الآية أي فإن خرجن عن منزل الأزواج ولم يبقين إلى نهاية السنة (فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن) من التطيب وترك الإحداد وقوله : (من معروف) بيان لما فعلن أي فيما فعلن مما لم ينكره الشرع . وهذا يدل على أنها كانت مخيرة بين البقاء إلى سنة من وفاة زوجها متمتعة بسكناها ونفقاتها ، وبين الخروج منها وتركها . والله عزيز أي في ملكه حكيم في صنعه .

وحاصله : أنه كان في صدر الإسلام يجب على الرجل إذا حضرته الوفاة أن يوصي بالنفقة والكسوة والسكنى لزوجته سنة ، لأنها عدتها ولا ينقطع عنها ذلك إلا بخروجها من نفسها . ثم نسخ ذلك بوجوب التربص عليها أربعة أشهر وعشر ليال . بدون النفقة حيث أعطيت حصتها من الإرث ربعاً أو ثمناً . وأما السكنى ففيه أقوال للأئمة . قال الشافعي بوجوبها لها إلى إنقضاء العدة .

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (٢٤٢)

عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما نزل قوله تعالى : (ومتعوهُنّ على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين) قال رجل إن شئتُ أن أُحْسِنَ فَعَلتُ ، وإن لم أرد لم أفعل . فأنزل الله : (وللمطلقات متاع بالمعروف) أخرجه ابن جرير .

قوله تعالى : (وللمطلقات متاع بالمعروف) إن قلنا أن اللام للعهد وإشارة إلى المطلقات المذكورات في الآية السابقة ، وهن غير المسوسات وغير المفروض لهنّ كان التكرار للتأكيد والتصريح بوجوب العدة لها ، وإن قلنا أنها للجنس فيصدق بالقليل والكثير ، ولا يعارض مادة نفي المتعة لمن سمي لها مهرٌ أو فرض لها فريضة وطلّقت قبل المساس . وإن قلنا أنها للإستغراق أفاد ثبوت المنعة لجميع المطلقات ما عدا مادة نفيها كما ذكرنا آنفاً . وإفراد بعض أفراد العام بالذكر وهو المطلقة الغير المسوسة التي لم يسم لها مهر ولم يفرض لها لا يوجب تخصيص العام بها ، فيبقى وجوبها فيها وثبوتها في سائر المطلقات إلا في مادة نفيها كما هو مذهب الإمام الشافعي حيث قال بوجوبها في المطلقة قبل الدخول إذا سمي لها مهر أو فرض لها فريضة وبوجوبها أيضاً في سائر المطلقات . ولو كن مختلعات جبراً للإيحاش الحاصل بالفراق إذا كان من جهته وبسببه .

وقوله : (كذلك يبين الله لكم) الآية إشارة إلى جميع ما سبق من أحكام الطلاق والعدة يعني مثل ذلك البيان يبينها لكم لعلكم تفهمونها وتؤمنون بها وتعملون بمقتضاها كي تنالوا سعادة الدارين بإحسان رب العالمين .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مُوتُوا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)(٢٤٣)

من المعروف أن سورة البقرة سنام القرآن وجامعة لكليات الاحكام من الصّلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد في سبيل الله على نمطٍ بليغ معجب معجز • ولما أراد تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله •• قدم على آية الأمر بالقتال قصة تأريخية سابقة فقال : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم الآية • وفي الإستفهام تعجب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب • وقد يخاطب بذلك من لم ير ولم يسمع لكونه صار مشهوراً بين الناس •

وحاصلها أنه كانت قرية تسمى (داوردان) قرب (واسط) وقع فيها طاعون ، فخرجوا هاربين من الإبتلاء بالأمراض ولم يفدهم الخروج ، وأماتهم ربهم بقدرته القاهرة المسيطرة ، وبقوا ثمانية أيام أجساما هامدة ، ثم أحياهم الله لينتبهوا ويعلموا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه • وقيل : إنهم كانوا قوماً من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد في سبيل الله ففروا حذرا من الموت فأماتهم مدة ثم أحياهم كما ذكرنا لما ذكرنا • وقوله : (وهم ألوف) قيل : عشرة آلاف ، وقيل بل أكثر والله أعلم بهم • وقوله : (حذر الموت) مفعول له اي لابتعادهم عن الموت وصيانة أنفسهم عنه •

وقوله :(فقال لهم الله : موتوا) أي فأراد الله موتهم فأماتهم بدون تأخير ، ميتة رجل واحد من غير علة ، (ثم أحياهم) بعد ثمانية أيام (إن الله لذو فضل على الناس) حيث أحياهم ليعتبروا ، ويعتبر بهم الناس (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) لله كما ينبغي شكره •

(وقَاتِلوا فِيسَبِيلِ اللهِ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٢٤٤)

قوله : (وقاتلوا) معطوف على الآية السابقة ومناسبة له في المعنى والمعنى : فاعتبروا بأحوال الأمم السابقة ، ولا تفرّوا من إطاعة الباري وقاتلوا الكفار أعداء دينكم ودنياكم ، واعداء كرامتكم وحرّيتكم الإسلامية ، واعلموا أن الله سميع لكلماتكم وعليم بنيّاتكم .

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعافاً كَثِيرَةً؟ واللهُ يَقْبِضُ ويَبْسُطُ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٢٤٥)

قوله تعالى : (من ذا الذي) الآية لما كان الجهاد متوقفا على بذل المال في نفقات المجاهدين حرّض الباري تعالى المسلمين بهذه الآية على صرف الأموال كما أمر في الآية السابقة ببذل الأرواح . والقرض الحسن : بذل المال في الجهاد أو صرف المال بدون النظر إلى فائدة دنيوية في الإستقبال ، أو صرفه حسبة لله تعالى بدون ملاحظة أي حال من الاحوال . فيقول الباري : من ذا العبد المخلص الذي يقرض ماله ربه قرضاً حسناً فيضاعف له الباري جزاءه من واحد بعشرة إلى سبعمائة أو أعداد كثيرة فوقها ؟ (والله يقبض ويبسط) أي إن الله هو الذي يقلل من أموال بعض الناس فلا يمكنهم بذل الأموال في الجهاد ، ويبسط ويوسع الأموال على بعض فيمكنهم صرفها فيه. وإذا صرفوه فيه زادهم الله في الدنيا والاخرة. أو إن الله قادر على قبض الجزاء وتقليله أو بسطه وتصعيده إلى أضعاف . وإليه ترجعون فيجازيكم على حسب نياتكم .

(ألَمْ تَرَ إلىَ المَلأ مِنْ بَنِي إسرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ : ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ألاّ تُقَاتِلُوا ؟

قالُوا : وما لَنا أَلاَّ نُقاتِلَ في سَبِيلِ اللهِ ، وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا ؟ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، واللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِينَ) (٢٤٦)

لما أمر الله المؤمنين بالقتال في سبيل الله وبذل الأموال فيه جاء بقصة قوم تكاسلوا في الجهاد وعاقبة أمرهم ليعتبر المؤمنون بها •

فقوله تعالى : (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل) الملأ من القوم أشرافهم وهو إسم للجماعة لا واحد له من لفظه • وسموا بالملأ لأنهم يملأون المجالس والأندية • أو لأن هيبتهم تملأ الصّدور • والإستفهام لتقرير النظر والتفكر في حال ذلك الملأ • والنبي الذي طلبوا منه بعث الملك يوشع بن نون ، أو أشمويل ، أو شمعون • والظاهر أنه غير يوشع عليه السلام لأن زمانه كان بعد موسى عليه السلام مباشرة • وقصة قتل داود جالوت في هذه الحادثة كانت بعده بزمان طويل • فإنها كانت في الدور الثالث من أدوار بني إسرائيل، من سنة ألف وثمانين قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة وست وثلاثين قبله كما ذكرناه سابقا • وفي هذا الدور أنهر بنو إسرائيل تعبهم من حكم القضاة فطلبوا من النبي أشمويل أن يقيم لهم ملكاً • وحاصل القصة : أنهم طلبوا منه إقامة ملك يجمع شملهم ، ويستعيد قوتهم وديارهم التي إستولى عليها العمالقة • فعارضهم وقال : أتوقع من وراء الإطلاع على أحوالكم في السنين الماضية أنه إن بعث الله لكم ملكاً وأمركم بالجهاد والقتال في سبيل الله أن تتكاسلوا عن إطاعته ، وتهملوا شأن الجهاد ويحصل بينكم النزاع وسوء التفاهم والفوضى في البلاد ! فردوا عليه وقالوا : كيف يمكن لنا أن نتكاسل ولا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ أي أن العمالقة إستولوا على ديارنا فأخرجنا منها ، وأسروا أبناءنا وحرمنا من الإجتماع بهم • فاقتنع النبي

أشمويل عليه السلام فطلب من الله تعيين الملك لهم فجاءه الوحي بتعيين (طالوت) ملكاً عليهم • فلما صار ملكاً وأمرهم بالقتال تولوا عنه إلا قليلاً منهم ! فيقول الباري سبحانه وتعالى : والله عليم بالظالمين منهم العاصين الخارجين عن أمر الملك بالقتال في سبيل الله •

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً • قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ؟)

(قَالَ : إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢٤٧)

قوله تعالى : (وقال لهم نبيّهم) الآية معناه أنهم لما ألحّوا عليه في بعث الملك عليهم طلب من الله ذلك ، وأوحى إليه أن الملك عليهم طالوت • ولما أعلن ذلك إستنكره الكبار منهم ، وقالوا : أنى يكون له الملك والرئاسة علينا ونحن احق بالملك منه لأنا أولو نسب ، شريف عظيم في القوم وهو فاقد ذلك لأن نسبه وضيع ؟ وأما ثروة ومالاً فنحن أثرياء وأصحاب مكنة ، ولم يؤت طالوت سعةً من المال ! فكان السبب عندهم لإستحقاق الملك النسب والثروة وكانا مفقودين عنده ، فرد عليهم أشمويل بوجوه وقال : إن الله اصطفاه عليكم واختاره للرئاسة ، ومن اختاره فهو المختار ، ومن اصطفاه فهو المصطفى ، ولو لم يكن فيه داع مادي أو معنوي بحسب ظاهر الحال • وعلاوة على ذلك فقد زاده الله بسطة في العلم وشرط الرئاسة وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية ، وإدارة الناس ، وتوفير أسباب الرفاه والصحة والأمن لهم • وزاده بسطة في الجسم

الجسامة ، ومناسبة الهيكل وأعضائه من كبر الرأس ، ووسعة الجبين ، وحسن العيون ، وملاحة الوجه ، ورحب ما بين الكتفين والثديين ، وتناسب النصف الأعلى مع النصف الاسفل من البدن حتى يكون أعظم خطرا في القلوب ، وأقوى على مقاومة الأعداء شخصا . وقد زاده الله فيهما . وبقطع النظر عن كل ذلك لا حقّ لكم في ذلك والله يؤتي مُلكه مَن يشاء لأنه يختص برحمته من يشاء وهو الفعال لما يريد . والله واسع الفضل وعليم بالأهل .

(وقالَ لهُم نَبِيُّهُم إنَّ آيةَ مُلْكِهِ أنْ يَأتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هرونَ تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٢٤٨)

ثم لما إستكبروا وعاندوا إيتاء الملك طالوت طلبوا من أشمويل الحجة على أنه سبحانه خصه بذلك . وعند ذلك قال لهم نبيّهم : إن آية ملكه والحجة على اختصاصه بذلك أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم سكون واطمئنان لقلوبكم ، وبقية مما ترك آل موسى وهرون من الألواح المكتوب عليها التوراة ، وعصا موسى وثيابه ، وعمامة هرون . وطريق إتيانه إليكم أنه تحمله الملائكة بأمر الله . إن في ذلك لآية وحجة لكم على صدق النبي في إختصاص طالوت بالملك إن كنتم مؤمنين بالأنبياء ومعجزاتهم .

روي أن التابوت كان صندوقا مصنوعاً من خشب الشمشاد إتخذه سيدنا موسى محلاً لصيانة التوراة وبعض أشياء مما يخصه وأخاه هرون ، والإسرائيليون كانوا يحترمونه . وكلما صار لهم حرب مع الأعداء أتوا به ووضعوه في مقدمة الجيش فتأخذ الجيش رهبة ربانية وسكينة نفسانية

بحيث لايهابون الموت فيجاهدون وينتصرون إلى أن خلف من القوم مَنْ لم يبق عندهم ثقة وإيمان به فغلب العمالقة عليهم في إحدى المعارك وأخذوه من جملة الغنائم ، وبقي فيهم إلى أن بعث الله لهم طالوت مَلِكاً ، فردّه الله عليهم حجةً على صدق أشمويل في تعيين طالوت ملكاً عليهم ، وفي كيفية الرّد يكفينا قوله تعالى : (تحمله الملائكة) وفيه عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين .

وقد روي : أن العمالقة ابتلوا بطاعون فتطيروا بوجود التابوت فيهم فحملوه ثورين أتيا به إلى طالوت فاستلمه .

وقوله تعالى : (إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) يحتمل أن يكون من كلام أشمويل عليه السلام وأن يكون خطاباً مستأنفاً من الله سبحانه وتعالى .

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالوتُ بِالجُنودِ قالَ : إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ، ومَنْ لَمْ يَطْعَمهُ فَإنَّهُ مِنِّي ، إلاّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إلاّ قليلاً مِنهُمْ ، فَلمَّا جاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لا طاقَةَ لَنا اليَوْمَ بِجالُوتَ وَجنودِهِ . قالَ الَّذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرينَ (٢٤٩)

ولمّا بَرَزوا لِجالُوتَ وَجُنودِهِ قالُوا : رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وثَبِّتْ أَقْدامَنا وانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ (٢٥٠) . فَهَزَمُوهُمْ بِإذْنِ اللهِ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالوتَ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ

والحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَه مِمَّا يَشَاءُ ، ولَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ، وَلَكِنَّ اللهَ ذو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ • (٢٥١) تلك آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وإنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ) (٢٥٢)

قوله : (فَلما فَصَلَ طالُوتُ بالجنود) الآية معناه بعد إثبات ملك طالوت عليهم بالإتيان بالتابوت إعترفوا بملكه وانقادوا له ، فأمر بتجهيز الجيش ، وتهيأ له جَيْش مناسب للقتال ومكافيء للأعداء • فلما فصل طالوت بالجنود وانفصل بهم عن بلده ، وكان الوقت وقت الصيف ، قال : إن الله مبتليكم بنهر • قال طالوت للجنود إن الله يعاملكم معاملة المتحن بالشرب من ماء النهر الذي على طريقنا • فمن شرب منه فليس مني ، أي فمن أدخل فمه في النهر على عادة الرعاة وكرع منه ، أو من شرب منه شربا وافياً مبالغاً فيه فليس من المخلصين المختصين بي • ومن لم يطعمه فإنه مني ، ومن لم يذق منه فإنه من المختصين بي والمخلصين لي • وكان ذلك التقرير والتقسيم بإخبار أشمويل عليه السلام لطالوت • وذلك إما لجعل الأمر مميزاً للمخلص من المفلس ، لأن الوقت كان حاراً والناس في شدة الحاجة إلى شرب الماء ، وفي وضع كذلك لا يطيع نحو ذلك الدستور إلا من ملأ الله قلبه بالنور ، أو لأن ذلك النهر الذي كان على طريقهم مالحاً غير صالح للشرب ومن شرب منه ابتلي بمرض في حلقه أو بطنه فأراد بذلك الترتيب خلاصهم من المرض • وقوله : (إلا مَنِ اغْتَرَفَ غرفة بيده) إستثناء من قوله (فمن شرب منه) ومعناه الرخصة في استعمال المقدار القليل منه دون الكثير • وقوله (فشربوا منه إلا قليلاً منهم) معناه فلم يطيعوا طالوت فيما حدده لهم إلا عدد قليل منهم •

يقال كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً • وقوله : (فلما جاوزه هو

والذين آمنوا معه) أي فلما جاوز النهر طالوت والعدد الذين لم يخالفوه ، ورأوا جيش العمالقة بكثرة العَدَد والمُعدّات قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال بعضهم لبعض هذا الكلام . قالَ الذين يَظنّونَ أنهم مُلاقوا اللهِ أي قال المخلصون الممتازون في الإخلاص منهم الذين كانوا يتيقنون أنهم يبعثون ويلاقون ربّهم يوم الحساب والثواب الخالد : كم مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرة بإذن الله ؟ معناه : كثير من الجماعة القليلة عَدَداً وعُدَداً غلبت جماعة كثيرة بالنسبة إلى المقابلين لهم بإذن الله وتوفيقه . والله مع الصابرين الثابتين أقداماً والراسخين إقداماً .

وقوله : (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أي ولما برز طالوت وجنوده لمحاربة جالوت وجنوده من العمالقة قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . أي تضرعوا إلى الله ودعوا من صميم القلب وطلبوا منه إفراغ الصبر في قلوبهم حتى تشتغل بنور الحق وتنسى عذاب نار الحرب . وثبت أقدامنا في ميدان المضاربة والمقارعة بالسيوف وانصرنا على القوم الكافرين بك المنكرين لعزتك وعظمتك .

فهزموهم بإذن اللهِ ، وقتل داود جالوت . فهزم جيش طالوت جيش جالوت بنصر الله وتوفيقه ، وقتل داودُ بن إيشا وهو أحد المحاربين في جيش طالوت برمي الحجر من مقلاعه جالوتَ الملك على العمالقة فكسر ظهرهم فوَلّوه أدبارهم وانهزموا .

يروى أنه كان أبو داود (إيشى) في عسكر طالوت ومعه ستة من بنيه وكان داود سابعهم وكان شابّاً يرعى الغنم ، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاءه ، وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له : إنك بنا تقتل جالوت ، فحملها في مِخْلاتِهِ (أي الكيس الذي فيه أحجار المقلاع) فلما برز جالوت في معسكره وبارزه داود عليه

السلام رماه بها فقتله . ثم زوّجه طالوت بنته ؛ ثم وصل الملك منه إليه وأرسله الله إلى بني إسرائيل فجمع بين الملك والنبوة . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . كما قال تعالى : (وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء) يعني فوهب الله داود ملك بني إسرائيل والحكمة الربانية وهي النبوة والرسالة . وعلّمه من لدنه مما شاء من صنعة اللبوس والاجهزة الحربية ، وألان له الحديد ، وفهمه كيفية إدارة قوم بني إسرائيل بما لم يسبق به ، وألهمه علم منطق الطير وفهم تسبيح الجبال والتلال ، وما لا ينال إلا برحمته .

ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، أي بعضَ العُصاة ببعض من الأقوياء القسَاة لفسدت الأرض واختلّ نظام الأمن عليها ولم يسترح الإنسان والحيوان ولكنّ الله ذو فضل على العالمين ، فينتقم من الظالمين بالحاكمين من المسلمين والكافرين فينجو الناس ويصبح الطغاة خاسرين . وهذه سُنّةُ الله تعالى في العالَمين .

وقوله تعالى : (تلك آيات الله) أي ما قصصناه عليك من : الأحكام والآيات البينات ، وحديث الألوف الأموات ، وبعث طالوت ملكا على بني اسرائيل ، وقتل داود جالوت عظيم العمالقة العُتاة .. نتزلها وتتلوها على لسان أمين التنزيل جبريل عليك بالوجه الحق الذي طابق الواقع لتتلوها على من يهتدي بهديك . وإنك لمن المرسلين بدليل إظهار هذه المغيبات الخفية على العالمين .

الجزء الثالث

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وآتَيْنَا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ • وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شاء الله ما اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مايُرِيدُ) (٢٥٣)

قوله تعالى : (تلك الرسل) الآية أي تلك الرسل الذين علمت بهم قبل نزول هذه الآية من آدم أبي البشر إلى سائر الرسل فضلنا بعضهم على بعض بمزيد الأجر على مزيد التعب والصّبر ، أو على كثرة أتباعهم المهتدين بهديهم ، أو على جمعهم مكارم الأخلاق ونشرها في الآفاق ، او بمزيد الفتوحات في ربوع العالم ، أو بما آتاه الله تعالى من المناقب كتفضيل الرسل أولي العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ صلى الله عليهم وسلم ـ ولاسيما محمداً المخصوص بالدعوة العامة ، والحجج المتكاثرة ، والمعجزات المستمرة على مَر الأيام كالقرآن الكريم المعجز للأنام بفصل خطابه وبلاغته في الكلام • منهم من كلم الله بلا واسطة كسيدنا موسى في طور سيناء ، وسيدنا محمد ليلة الإسراء حيث مثل غاية القرب التشريفي بينهما بقاب قوسين أو أدنى ، ورفع بعضهم درجات على

بعض بأن أخرج له أمة مباشرة للجهاد معه هي خير الأمم ، وجعل منهم الخلفاء الراشدين ، والقراء للقرآن المبين ، والفقهاء لأحكام الدين ، وأتبعهم بالتابعين ، وجعل فيهم أساطين الحكمة وينابيع الرحمة ، وأعقبهم بقوم قائمين على الحق مدونين لأحكام الإسلام إلى يوم الدين . وجعل لهم كرامة جلبت نظر الرسول عليه السلام فأثنى عليهم بقوله الشريف : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . وجعل إجماعهم حجة ساطعة إلى يوم الدين . وخص بالذكر فيهم الرسول المتجرد عن العالم والمتوجه إلى الله الزاهد عن الدنيا والجاهد الصاعد إلى الدرجة العليا فقال : وآتينا عيسى بن مريم البينات فكلم الناس في المهد وكهلاً وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وكان لها أهلاً وأحيا على يديه الموتى وأبرأ الأكمه والابرص ، وكان في معجزاته يسيراً سهلاً . ثم قال : وأيدناه بروح القدس أي بجبريل الأمين المأمور من رب العالمين لا بشخصه ونفسه ، بل بتأييد من جانب قدسه . ألا ترى أن اليهود أقامت له العود ونجاه الله سبحانه ورفعه الى مراقي الصعود ؟ وكل ذلك حجة على أن الحق هو الحق وأن الباطل هو الباطل . وأنه تعالى إذا تجلى على عبده وتولاه اختصه برحمته وأولاه .

ومما يجب أن يعلم أن قوله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وإن كان بظاهره يصادم قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ؟ » وقوله في مارواه أبو سعيد لا تخيروا بين الأنبياء وفي رواية : لا تفضلوا بين أنبياء الله . وفي رواية : لا تخيروني من بين الأنبياء . لكن العلماء أجابوا عنها بوجوه :

الأول : إن ذلك كان قبل أن يعلم بالتفضيل ٠

الثاني : إنه من باب هضم النفس والتواضع ٠

الثالث : إنه محمول على التفاضل في وقت التخاصم والتشاجُر ٠

الرابع : إن المنهي عنه التفاضل بمجرد الهوى والعصبية ٠

الخامس : إن ذلك التفاضل ليس مما يليق بينكم ، ولا يناسب آراءكم ، وإنما هو إلى الله عز وجلّ ٠

السادس : إن الممنوع التفاضلُ في أصل النبوة والرسالة ؛ فإنه يجب أن لا نفرق بين أحد من رسله في أصل الرسالة ، فهي خصلة واحدة وحقيقة متواطئة لا تفاوت فيها كالإنسانية لأفراد الإنسان ٠ وإنما التفاضل في العوارض والمشخصات كعموم الدعوة وبقاء المعجزات ومزيد العناية والآيات البينات ٠ وهذا الوجه أحسنها وأقومها ٠ وفي الحقيقة إن حقيقة النبوة والرسالة واحدة ، والعوارض المميزة كثيرة لا تحصى ٠ ولا سيما العوارض من باب سعة الأخلاق وانتشار دينه في الآفاق والله تعالى أعلم ٠

(وَلَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ماجاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ)

معناه : ولو شاء الله إجبارَ الناس على الهدى لاهتدوا ، وما اقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل من بعد ما جاءتهم البينات والمعجزات الواضحات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر أي ولكن أعطاهم الله بقدرته الباهرة العلم بالمصالح والمنافع والمضارّ والدواعي والبواعث على ما يختارون ويصرفون إليه إرادتهم ٠ فاختلفوا باختلاف نزعاتهم ورغباتهم ٠ فمنهم من آمن بالله والتزم طريق الإطاعة لله ، ومنهم

من كفر بالله واختار طريق المغريات والملاهي ، فتعاركوا وتنازعوا واقتتلوا ، وقتل بعضهم بعضا . ولو شاء الله إجبارهم على جانب الخير لالتزموه ، وما اقتتلوا ولكن كان ذلك منهم إطاعة على القسر لا عبودية على الرغبة في الأمر ، وقد خلق الله الجن والإنس ليعبدوه . ولكن الله يفعل ما يريد من شئونه وشئون عباده .

وبعد بيان تلك الآيات البينات توجه إلى عباده بدعوتهم إلى إنفاق ما عندهم قبل فوات أعمار قدرت لهم ، فقال :

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم ، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولاشفاعة) أي من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون على تدارك ما فرطتم من معصية الله والبخل بإنفاق ما آتاكم من عنده ، فلا طريق لكم للخلاص من عذابه لا بطريق البيع والمعاملة ، ولا الصداقة والمجاملة ، ولا الشفاعة والمكافلة . هذا إذا كان الناس ممن لا يؤذن بالشفاعة لهم ، وإلا فالشفاعة ثابتة لقوله تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً .

(والكافرون هم الظالمون)(٥٤) لأنفسهم بكفرهم وسدّهم باب الرحمة على أنفسهم والا فلو آمنوا واتقوا لفتح الله عليهم ابواب كرمه في الدنيا والدين .

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى الرسل الكرام ، وأنه فضل بعضهم على بعض ورفع بعضهم فوق بعض درجات أتى بذكر ذاته الواجب الوجود الخالق المعبود في قالب علمه المعلوم له تعالى مع صفات هي أم الصفات الجليلة الينبوع لآثار ذاته وكبرياء صفاته . فقال :

(أَللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ، لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ لَهُ مَافي السَّمَاواتِ وَما في الأَرْضِ مَنْ ذَا الّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإذْنِهِ ، يَعْلَمُ مابَيْنَ اَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِما شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ ولا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ العَظِيمُ) (٢٥٥)

قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) لفظ الجلالة إما خبر لمبتدأ محذوف مدلول عليه بذكره صريحاً قبل أو في ضمن إرسال الرسل أي هو الله ، أو مبتدأ وما بعده خبره • ومعنى كلمة التوحيد : لا مستحق للعبودية له ، ولا معبود بحق موجود إلا الله (الحيّ) حياة ذاتية أزلية أبدية (القيوم) القائم بتفسه المقيم لغيره وجوداً وبقاءً حسب تعلق إرادته وقدرته وعلمه الأزلي الأبدي الشامل لكلّ شيء ، وأكد على قيوميته ودوام حفظه وتدبيره لما خلقه من الموجودات بقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) لا تشغله عن تدبير الكائنات السنة التي هي من مقدمات النوم فضلاً عنه • وذلك لأنه تعالى ليس من الذوات المركبة من الأجزاء والأعصاب والدماغ ، وما فيه من الآلات حتى يأتيه السنة والنوم الذي يعرض للحيوانات من إسترخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس فيغفل عن إرادة شيء من الكائنات •

وقوله : (له ما في السموات وما في الأرض) تقرير لقيوميته باعتبار ما احتواه من القيام بذاته والإمامة لغيره ؛ لأن المدبر للشيء لايمكن أن يغفل عنه ، واحتجاج على تقريره بالألوهية ؛ لأن من له ملك السموات

والأرض وما فيهما والمراد بهما العلويات والسفليات كلها لا يبقى شيء ينازعه في الألوهية ويقابله في السلطة على الموجودات فإن المملوك لايقاوم المالك ، فهو باق والملوك هالك .

وقوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) بيان لكبريائه في ألوهيته ، وسلطانه في ربوبيّته ، وعظمته في قيوميته ، وأنه لا مجال لاحد يشفع لأحد إلا بإذنه ورضائه ، ولا إذن لمن يشرك أحداً في كبريائه وإفاضة آلائه وإفادة نعمائه .

وقوله تعالى : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) بيان لإحاطته بجميع الكائنات من الماديات والمعنويات العلويات والسفليات ؛ لأن المتفرد بالألوهية القائم بالذات المقيم للموجودات يستحيل أن لا يعلم بشيء من ذوات المبدعات وصفات الكائنات ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ فيعلم ما بين أيديهم من أمر الدنيا ، وما خلفهم مِن أمور الآخرة .

وقوله : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) العلم بمعنى المعلوم أي ولا يحيطون بشيء من معلوماته ، أي لايعلمون ذات معلوماته ولا صفاتها ولا يحيطون به إلا بما شاء أن يعلموه ويحيطوا به . وهم ذوات معينة في فترات معيّنة بحسب حكم ومصالح معينة ، فمن سواه لايساويه في علمه كما لا يساويه في ذاته ، فعلمه أزلي أبدي شامل وذاتي لا يزول سواء إزاء الغيب أو الشهادة ، بل لا غيب عنده وإنما هو عندنا ، وكل من يعلم شيئاً فإنما يعلمه بإيحائه أو إلهامه وتعليمه وإعلامه، فإنه هو المتفرد بالعلم الذاتي الخالد خلود الذات ، وغيره إنما يعلم الجزئيات علماً حادثاً ناقصاً موقتاً بتعلق إرادة الباري بمعرفته في فترات .

وقوله : (وسع كرسيه السموات والأرض)

الكرسي في لسان الشرع : جسم دون العرش محيط بالسموات السبع ، وهناك تفاسير وتقارير عن العرش والكرسي ، والخلف يمشون على تأويل يناسب ذاته الجليل •• والسلف يفوضون العلم بهما إلى الله ويؤمنون بهما بلا تأويل •

وقوله تعالى : (ولا يؤده حفظهما) معناه لا يثقله حفظ السموات والأرض ، أو حفظ الكرسي مع السموات والأرض • وفي ذلك إثبات لأن الكرسي جسم كما هو المشهور في الشرع •

وقوله : (وهو العلي العظيم) تقرير لقوله : (ولايؤده حفظهما) أو له ولما قبله لأن معناه وهو العلي المتعالي عن الأشباه والأمثال ، ولا يقاس ذاته بذات ولا صفاته بصفات ، وهو العظيم ذو الهيبة والقدرة والكبرياء فلا قيمة لما سواه من الممكنات بالنسبة إلى ذاته • فلا مناسبة بين المحدود واللامحدود وبين الممكن وواجب الوجود سبحان ربك رب العزة عما يصفون !

فائدتـان :

الأولى : إن قوله : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، وكلمة التوحيد لا إله إلا الله من الآيات النازلة على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتكلم معه بلغته العربية ، وبما تفهمه العامة من الناس • فالتركيب مرعي حسب العرف وتداوي ما ابتلوا به من مرض الإشراك • فمعناه : لا معبود بحق موجود إلا الله • وهذا الحصر فيه نفي وإثبات • أي لا معبود بحق غيره • وهو المعبود بالحق وحده ، والمعبود بالحق هو الخالق، لأن الخلق من موجبات العبادة • ولا خالق للشيء الممكن إلا واجب الوجود • فاحتوت كلمة التوحيد على معنى لا واجب في الوجود إلا الله ، ولا خالق للموجود إلا الله ، ولا معبود بالركوع والسجود وسائر الوجوه إلا الله • فالتوحيد بالمعنى الجامع مجموع في هذه الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في

السماء ، وأما نفي الإمكان فليس مما تداوله الناس حتى لا معبود ممكن الإمكان على أن النفي بالمعنى المذكور يفيد نفي الإمكان ، لأن تعدد الواجب من المستحيلات وبرهان التوحيد متعدد في الآيات .

ولما ثبت في الكلمة الطيبة الوجوب في الوجود والخالقية والمعبودية ثبت جميع الصفات العشرين المشهورة بين الكلاميين . لأن وجوب الوجود منشأ الإتصاف لكل كمال ، والتنزه عن كل نقصان .

فالصفات المذكورة بعد هذه الجملة في الآية من باب التصريح بما علم ضمنا . وكذلك يثبت جميع الصفات في ضمن قوله الكريم (الحي القيوم) لأن الحياة إمام الصفات وكلها من توابعها ، والحياة الأزلية الشريفة تستتبع العلم والإرادة والقدرة وغيره . ولأن القيوم بمعنى القائم بذاته المقيم لغيره مطلقاً يجب أن يكون موجوداً واحداً قديماً باقياً مخالفاً للحوادث مستغنيا عنها ، وحياً عليماً قديراً مريدا سميعا بصيرا متكلما . فالحي القيوم ينبوعان للكمال والإبتعاد عما لا يليق من موجبات النقص والزوال .

وباقي الفقرات من هذه الآية الشريفة تقرير وتأكيد وبيان لما فهم منهما .

الثانية : إنه ورد في فضل هذه الآية الكريمة المشهورة بآية الكرسي أخبار كثيرة . أخرج مسلم وأحمد وغيرهما عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي . وأخرج البيهقي عن حديث أنس مرفوعاً : من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة حفظ إلى الصلاة الأخرى . ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد . والأخبار في فضلها كثيرة . وتلك الأحاديث حجة لمن قال : إن بعض القرآن قد يفضل على غيره . والتحقيق للموضوع هو أنها من حيث نزولها من الله على حبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا فرق بينها كما أن

الرسل من حيث كونهم رسلاً من الله تعالى لا فرق بينهم • وأما من حيث دلالتها على بيان وحدة الباري وصفاته الثبوتية والسلبية ، وأنه عظيم الشأن ومرجع اللاجئين إليه ، فلاشك أن بعض الآيات أفضل من بعض كفضل سورة الإخلاص وفاتحة الكتاب على غيرهما لأن شرف الدال بحسب شرف المدلول • وقد روي عن أبي أمامة بإسناد صحيح أنه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن : في البقرة ، وآل عمران ، وطه • وروى عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم • وفاتحة آل عمران • الم ألله لا إله إلا هو الحي القيوم •

(لا إكْرَاهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويُؤْمِنْ بِاللهِ فقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصَامَ لها ، والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) أللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ)(٢٥٧)

قوله تعالى : (لا إكراه في الدين) الآية نزل لبيان أن دين الإسلام ظهر بأصوله وفروعه من الكتاب وبأخلاق أمّته من أخلاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسنته وسيرته • فكل عاقل منصف إذا نظر إلى الإسلام أقبل عليه والتزمه واعتقد أنه رحمة من الله نزلت لنيل الخير وسعادة الدين ، فعليه لا يتصور إكراه أي إنسان على إلتزامه • فالآية جملة خبرية لفظاً ومعنىً•وقيل:إنه خبر لفظاً وإنشاء معنى بمعنى لا تكرهوا أحداً على الدخول في الإسلام فليقبله من يقبله وليتركه من يتركه• وهو حينئذ

إما عام منسوخ بقوله : (جاهد الكفار والمنافقين) وإما مخصوص بأهل الكتاب من اليهود والنصارى • يعني يكره المشركون والمرتدون على الإسلام دون الكتابيين • ويؤيد هذا الرأي ما روي أنه نزل في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين • كان له إبنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً • وقال : إلاّ أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية • فأنزل الله الآية • أخرجه ابن جرير • ومعناه على هذا : لا تكرهوا احدا من أهل الكتاب على الإسلام ، فمن دخل فيه دخل في النور ، ومن لم يدخل دخل في النار • لقوله تعالى (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) • وبناء على ما ذكر فالمراد من الرشد الإيمان ومن الغيّ هو الكفر •

وقوله تعالى : (فمن يكفر بالطاغوت) الآية المراد بالطاغوت الشيطان أو الأصنام • وأصله الطّغووت مصدر على وزن فعلوت ، فقلب فيه ثم قلبت الواو ألفاً بمعنى الطغيان أي فمن يكفر بمنشأ الطغيان وهو الشيطان ويؤمن بالله وبما جاء به رسوله من التوحيد والإيمان بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدَر ، وبسائر أحكام الإسلام •• فقد استمسك بالعروة الوثقى • وفيها إستعارة مصرحة ، حيث شبه التدين بالدين الحق والثبات على الهدى والإيمان بالتمسك بالحلقة القويمة من الحبل المحكم المأمون إنقطاعه • ثم ذكر المشبه به ، أعني العروة الوثقى ، وأريد المشبه أعني التدين • وذكر الإستمساك ترشيحاً لها • وكذا قوله : لا انفصام لها • أي لا انقطاع لها وتبقى موثقا إلى الأبد • والله سميع عليم سميع لما يجريَ على اللسان ، وعليم بما في الجنان •

وقوله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا) جاء الولي بمعان كثيرة • منها المحب : ، والمعين ، ومتولي الأمور • ومعناه : الله سبحانه وتعالى محبّ الذين آمنوا به وبرسوله بالوجه المُوَجّه ، ومعينهم في مجال العون ، ومتولي أمورهم يرعاهم فيها • وقوله : (يخرجهم من الظلمات إلى النور) معطوف على الخبر المفرد فيكون خبراً بعد خبر • يعني يخرجهم بهدايته وتوفيقه من ظلمات الجهل واتباع الجاهلين ، وإطاعة الهوى مع الغافلين ، وظلمات الكفر ووساوس الشياطين إلى نور العلم واتباع العلماء العاملين ، وإطاعة المهتدين ، وصحبة الصادقين ، والإبتعاد عن الكافرين والفسقة المارقين • وقوله : (والذين كفروا) الآية اي والذين كفروا بالله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولياؤهم الشياطينُ والضالّون المضلّون ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات • بمنعونهم من التنور بنور الإيمان والإسلام ويخرجونهم منه إلى الكفر والفسوق التي هي من الإيمان كالظلمات من النور • أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • لأنهم لو استمروا في الدنيا استمروا على الضلال وهم جاحدون • أعاذنا الله من دخول النار والخلود فيها بكرمه وإحسانه وهو أرحم الراحمين •

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ؟ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ • قَالَ : أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ • قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ • فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (٢٥٨)

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه) لما ذكر الباري سبحانه وتعالى أن الله تعالى ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى

النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .. أيّد ما ذكره وقرره بحكاية أحد المؤمنين الصادقين ومعارضة أحد الكافرين المارقين . فقال بالإستفهام التعجيبي ألم ترَ لتحقيق ما ذكرنا من الولايتين إلى الكافر الذي حاجّ شيخ الموحدين وأكرم المؤمنين إبراهيم لأجل إيمانه الخالص بربه ، ومحاجته معه كانت لطغيانه من أن آتاه الله الملك . وكان عليه أن يقابل نعمته بالإيمان به لا بالكفر والجحود . وكانت محاجته معه إذ قال ابراهيم : ربّي الذي يحيى ويميت في جواب سؤاله عنه في ربه . أي يحيى المواد بخلق الحياة فيها .

وحاصل ما أتى به سيدنا إبراهيم عليه السلام دعوى مدللة بدليل دعواه الله ربّي الذي يُعبَد لا غيرُه ؛ لأن ربي هو الذي يحيى الأموات ويميت الأحياء ، وكل من يحيى الأموات ويميت الأحياء فهو الرّب . فعارضه نمروذ وقال أنا أيضا أحيى الأموات وأميت الأحياء ومن يحيى ويميت فهو الرب فأنا الرب . وجاء لإثبات صغرى دليله برجلين سجينين أمر بقتل أحدهما وإطلاق سراح الآخر ، متغاضيا جهلاً واستكباراً عن مراد سيدنا إبراهيم الخليل بأن الله يخلق الحياة في المواد الغير الحية وينزع الأرواح من الاحياء إلى ما أراده هو من التسبّب في قتل الحيّ بالأمر بذبحه وفي إحيائه بإطلاق سراحه من السجن مثلاً . وهذا النوع من المعارضة يسمى بأسلوب الأحمق لأن الآتي بها إما جاهل بكلام المقابل أو عالم به ولكن يتملص للهروب من مقتضاه إلى معنى آخر غير مقصود . وكان سيدنا إبراهيم يمكنه أن يمنع صغرى دليله ، ولكنه إنتقل إلى دليل آخر أجلى وأوضح في الإنتاج ؛ فقال : الله ربي لأنه يأتي بالشمس من المشرق إلى المغرب وكل من يقدر على مثل ذلك فهو الرب أي فإن كنت تدعي الربوبية فأت بمثل ما أتى به ربي وأت بها من المغرب إلى المشرق . فبهت الّذي

كفر ، أي فصار نمرود المعهود بالكفر والجحود مَبْهوتاً منقطعاً عن الكلام حيث لم يبق عنده ما يفيد المرام والله لا يهدي القوم الظالمين إلى الإحتجاج بالقواطع لأن الباطل لا برهان له ، وتلك سنة الله تعالى في العالمين .

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ : أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ، ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قَالَ : بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ، ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قوله تعالى : (أو كالّذي مرّ على قرية) الآية عطف على قوله : الّذي حاج إبراهيم عطف الصنف على الصنف . فالذي حاج إبراهيم من الصنف المنكر للبعث والجزاء استكبارا وعنادا . والذي مر على القرية من الصنف الذي إستعظم البعث لا إستنكاراً واستكباراً بل تعجباً واستفساراً ، فإن الأنبياء والرسل الكرام من البشر ، وغريزة البشر تستعظم ما ليس معتاداً لكن لا على وجه الإستنكار ، فيقول المارّ على القدس الخاوية على عروشها من غارة المتمردين لها وتخريبها : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ أي على أيّ وجهٍ وحال ، أو متى ، أو كيف يعمر الله هذا البلد العظيم الذي هدَمته أيدي الجبابرة ؟ ويقول إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ ويقول الحبيب محمد ـ صلى الله عليه

وسلم ـ : متى نصر الله ؟ وليس في شأن أيّ واحد منهم الإستنكار ، ولكنه إستبعاد عادي خيالي على مقتضى الغريزة البشرية ، فيريهم الله تعالى آياته الدالة على سهولة تلك الأمور على من بيده البعث والنشور • والذي مرّ على القرية عزير عليه السلام ، والقرية (قدس) ومروره عليها بعد خرابها • فلما رأى الأبراج ساقطات ، والحياطين واقعات ، والمعالم مندثرات ، والطرق تائهات ••• تعجب من عودها إلى حالتها الأولى فقال ما قال • فأراه الملك المتعال أعجب مما رآه من الأحوال : فأماته الله مائة عام ، وسقط حماره هامداً ، وبقي طعامه وشرابه كما كان • ثم بعد مرور المدة (بعثه) وسأله : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم • على التقريب والتخمين • قال : بل لبثت مائة عام • وإني اريك ما يزيل الشك والشبهة عنك • فانظر إلى طعامك وشرابك ، وطعامه التين الرطب ، والعصير أو اللبن ، لم يتسنّه لم يتغير كل منهما عن حاله ، وان كانا مما يسرع الفساد إليهما ، وحفظتهما بقدرتي وصيانتي•وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتفرقت أوصاله ؟ وفعلنا ذلك من صيانة الطعام والشراب وغيرها لنجعلك ممن يَرى آثارَ قدرتِنا بعيونه،ويحكي ما رآه للقوم،فيكون ماجرى عليك وعلى طعامك وشرابك ومركوبك آية باهرة دالة على عظمتي ، ومرشداً للناس المؤمنين بما تحكيه لهم وقد رأيت الطعام والشراب بحالهما • وانظر إلى العظام أي عظام الحمار : كيف ننشزها أي نرفع أجزاءها من الأرض ونضم بعضها إلى بعض ، ثم نكسوها لحماً ! فلما تبين له تأثير الباري وحكمه الساري قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير •

ومن جملته ما شاهدناه من بقاء الطعام بلا تغيير وإحياء الحيوان من التّراب اليسير •

(وإذْ قالَ إبْراهِيمُ : رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتى ؟ قالَ : أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال : بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي • قالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٢٦٠)

قوله تعالى : (وإذ قال إبراهيم) الآية معطوف على أو كالّذي أو على ألم تر إلى الذي باعتبار المناسبة بينها • ففي كل من تلك القصص ظهور ولاية الله تعالى للمؤمنين بنصرة إبراهيم على نمرود ، وبإزالة أسباب القلق النفسي عن عزير ، وبخلق الإطمئنان في قلب الخليل عليهما السلام بإظهار إحياء الموتى عليه • فكل تلك الجمل تفسر قوله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا) الآية •

ويروى أن سؤال سيدنا إبراهيم عن كيفية إحياء الموتى كان بعد أنْ حاجّه نمرود وادعى أنه يحيي ويميت • فأراد إبراهيم سؤال ربه عن كشف كيفية إحياء الموتى له حتى يطمئن بأنّ تأثير الباري في إحيائها بطريقة نفوذ قدرته في توصيف المادة بالحياة وما يتفرع عليها من النمو والنشوء والحركات •

فلما سأله عنها قال : أوَ لم تؤمن بَعْد أن أراك الله ملكوتَ السموات والارض ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي بانتقال البيان إلى العيان ، ودفع الإلتباس بين الأحياء ، وإبداء ما يناسب الحياة والأمانة وإظهار مايترتب الموت عليه • قال : فخذ أرْبَعَةً مِنَ الطير فصرْهن إليك ثم اجعل عَلى كلِّ جبَل منهن جزءً ، ثم ادعهُن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم • روي أنه أخذ ديكاً ، وطاووساً ، وحمامة ، وغراباً •

فأخذهن وذبحهن ونتف ريشهن وقطعهن جزء جزء ، ثم جعل الأجزاء المختلطة على رؤس مرتفعات أمامه فلما ناداهن تحركن وانضمت الأجزاء بعضها إلى بعض ، فعدن كما كن فطرن إليه .

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ) (٢٦١)

لما ذكر المؤمنين وولايته تعالى لهم ذكر أَهَمَّ خِصالهم وَهُوَ الإنفاق في سبيله تعالى ، وَذَكَرَ جزاءه مِن واحدٍ الى سَبعمائة ضَعْفٍ وَأَزيَدَ من ذلك حَسَبَ مشيئته ، وقال : مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُون . الآية أي مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في المصرف المستحق والوقت المناسب كمثل حبّة من باذر يبذرها في أرض صالحة للزرع في الوقت المعتاد ، أنبتت تلك الحبة شَطْأً قائماً قوياً أخرج سَبْعَ سَنابل ، في كل سنبلة مائة حَبَّةٍ ، فتحصل من كل حبة سَبعمائة حبة ، والله يضاعف تلك المضاعفة بفضله لأهله ، وهم الذين أخلَصوا إخلاصاً خالصاً من الشوائب . (والله واسع) كرماً وإحساناً (عليم) بنية المنفقين .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعونَ ما أَنْفَقُوا مَنّاً ولا أذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أذىً واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (٢٦٣)

نزلت في عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها . وفي عبدالرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة آلاف درهم صدقة .

قوله تعالى : (الذين ينفقون) الآية معناه المؤمنون الذين ينفقون في سبيل الله للغزاة المتطوعين ، أو في طريق إستحصال رضاء الله تعالى ثم لايتبعون ما أنفقوا مَنّاً واعتداداً بإحسانهم على من أحسنوا إليه ولا أذىً بالتطاول عليهم بسبب ما أنعموا عليه به لهم أجرهم المعهود في دين الله ينشأ ذلك الأجر عند ربهم ، لأن الإنفاق كان له وبأمره وفي سبيل رضائه . ولا خوف عليهم من عذاب المستقبل ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا من خلفهم .

وقوله : (قول معروف) الآية والمعنى قول معتاد يرضاه الناس لحسنه ولطافته ومغفرة من المسؤول في مقابلة إلحاح السائل وطلبه خير من صدقة يتبعها أذى . يعني اذى لقلب السائل من تحقيره أو توبيخه وتعنيفه فإن الله لطيف يحب اللطف وليجعل المسؤول نفسه في مقام السائل ودرجته المحرجة التي أحوجته إلى مدّ يد المعونة وقبول المحنة والمهانة ، والله يقلب الليل والنهار فكم من فقير إستغنى ؟ وكم من غني إفتقر ؟ والله غني عن إنفاق مشوب بالشقاق ، وحليم في مقابل سيّء الأخلاق ، وإلا كان يستعجل بعقوبة البخيل .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلايُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ، لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لايَهْدِي الْقَوْمَ الكافِرِينَ) (٢٦٤)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم) عَودٌ على ما ذكره وتأكيد لما قرره من تجريد الإعطاء عن المن والأذى الموجبين للإمحاء • فقال يا أيها الذين آمنوا بالله ولقائه يوم البعث والنشور المحوج إلى مزيد الخير والأجور لا تبطلوا صدقاتكم ولا تجعلوها خالية عن الخير والأجر بل جالبةً للعذاب والوزر بسبب المنّ على من تصَدقتم عليه والأذى في ما حَصَلَ لديه ، كإبطال المُنْفِق المنافق الذي ينفق ما له على المحتاجين المستعطين أو على المستغنين المرتبطين بعلاقة الصداقة لا لِلّه بل (رِئَاءَ النَّاس) إي إنفاقَ رئاءٍ وإظهار للناس • ولا يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً خالصاً حتى يكون إنفاقه خالصاً لله فمَثَلُه كمَثَلِ صَفوانٍ عليه ترابٌ فَأصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لايقدرون على شيء ممّا كَسَبُوا ، فمَثَلُ هذا الشخص المنفِق مالَه نفاقاً كمثل حجر صافٍ اَمْلَسَ عليه تراب ، فَأصابَهُ وابل أي مَطَرٌ هاطل فَصَيّره حجراً اَمْلَسَ نقيا منه •

وقوله : (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) جملة مبيّنة لوجه الشبه بين الطرفين أي كما أن الحجر الأملس لا يبقى عليه التراب بعد ما أصابه المطر كذلك المنفق رياء لا يقدر على شيء من الأجر المكتسب صورة • أو إستئناف مبني على السؤال كأنّه قيل : فماذا يكون حالهم حينئذ ؟ فقال : لا يقدرون على شيء •

والله لا يهدي القوم الكافرين إلى الخير والرشاد وكسب الثواب ليوم الميعاد •

ولما أتى بمثل للمنفقين المنافقين اتى بمثل للمؤمنين المتقين ، فقال تعالى :

(ومَثَلُ الّذين يُنْفِقُونَ أمْوَالهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِنْ انْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ اصابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فإنْ لم يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، والله بِما تَعمَلُونَ بَصِيرٌ) (٢٦٥)

قوله تعالى : (ومثل الذين) الآية معناه ومَثَل نفقة الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وتثبيتاً ناشئاً من أنفسهم على الإنفاق لوجهه تعالى كمثل جنة بِرَبْوَةٍ أي بمكانٍ عالٍ يَستَفيد مِنَ الهواء الصّافي أصابها وابل أي مَطَرٌ عظيم القَطْر ، فآتت اُكُلَهَا ضعفين فأعطت ثمرتها المأكولة مثلي ما كانت تعطيه بدون الوابل ، فإن لم يصبها وابل فطل ، أي إن لم يصبها المطرُ العظيمُ القطرِ أصابها المطر الدّقيق القطرات • والمعنى : إن نفقاتهم تفيد المثوبة الحسنى على ضعفي ما تفيده سائر الإنفاقات والله بما تعملون بصير •

وفي روح المعاني : حاصل هذا التشبيه إن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال ، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها من الإخلاص والتعب وحبّ المال والإيصال إلى الأحوج التّقيّ ، وغير ذلك • فهناك تشبيه حال النفقة النامية لابتغاء مرضاة الله تعالى الزاكية عن الأدناس ، لأنها للتثبيت الناشيء عن ينبوع الصدق والإخلاص بحال جنة نامية زاكية بسبب الربوة وأحد الأمرين من الوابل والطّلّ • والجامع النمو المقرون بالزكاء على الوجه الأتم • وهذا من التشبيه المركب العقلي •

(اَيَوَدُّ اَحَدُكُمْ أنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَاَصابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعفاءُ فَأَصابَها إعْصَارٌ

فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (٢٦٦)

لما مدح الله المؤمنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله وشبه نفقتهم بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حَبة ، ثم ذكر مثلاً للذين ينفقون أموالهم نفاقاً ورياء ، ومثلاً للذين ينفقونها صدقاً وإخلاصاً .. رجع الباري تعالى بفضله وإحسانه إلى الإهتمام بتوجيه الناس إلى الإنفاق حسبة لله وتوبيخ من كان إنفاقه لغير وجهه . فقال : أيود أحدكم الآية . معناه أيحب ويود أحدكم أن تكون له جنة كائنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر والشيخوخة والضعف ، وله ذرية ضعفاء في غاية الإحتياج إلى الزاد وأسباب المعاش ، ولا يقدرون على الكسب وتحصيله ، ولم يكن لوالدهم إلا هذه الجنة وثمراتها ، فأصابها إعصار أي فأصاب الجنة ريح تستدير على نفسها فيه نار أي في ذلك الإعصار نار ، فاحترقت الجنة بذلك الإعصار ، ولم يستحصل منها شيء من الثمار ؟ وجواب هذا الإستفهام هو النفي بلا شبهة . فلا يود أحد العقلاء في حال شيبه وضعفه ووجود ذرية ضعفاء أن يصيب جنته المثمرة عارض كذلك !

فهذه الآية الكريمة تمثيل لمن له مال هائل وغنى طائل ، وهو محتاج إلى جبر النواقص الحاصلة عليه بالكسل عن الطاعات وعروض الآثام المحوجة الى جبرها بالخيرات والصدقات . وبينما هو كذلك ويأتي بصدقات فيها خير لمن أخلص فيها يفسدها بالمن والأذى ، أو لا يأتي بها بوجه نافع بل بوجه فيها رذائل مضيعة للفواضل كالإعصار المستدر فيه النار المحرقة لتلك الصّدقات . أو لمن له دور في الحياة وعمل بالطاعات وما ترك باباً من أبواب الخير إلا دخل فيه ، وبينما هو كذلك وقد شاب

وكان في أحوج الأوقات إلى الأخلاص والإستقامة ومزيد اللجوء إلى الله حتى يختم عمره بخير إذ فاجأه من سوء الحظ أحوال وأعمال مخالفة وأتى بما أفسد ما عمله ، فصار على خيبة من الأمل وانقطاع من العمل ، وسوء من الخاتمة . أعاذنا الله من الإغترار والإستكبار والغفلة من إطاعة الملك الجبار بفضله ورحمته .

وختم الباري تعالى هذه الآية ـ الآية في العظة والإعتبار لقوم يعتبرون بقوله الكريم : يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في أنفسكم ونقصكم وعظمة مقام ربكم واستغنائه عن أعمالكم وإحتياجكم إليه في كل آن وزمان حتى تتمسكوا بالعروة الوثقى ، ويختم أعمالكم بالطاعة والتقى . وعلى هذا الطريق فليسلك السالكون المتبصرون .

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَات ماكَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، وَلاتَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاَّ أنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُم الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ) (٢٦٨)

عَنْ سَهْل بن حنيف قال : كان الناسُ يتَيَمَّمُونَ شرَّ ثمارهم يخرجونها في الصّدقة وكان بعضهم يشتري الطعام الرخيص ويتصدق به . فنزلت الآية .

يعنى لو أنّ أحدكم أُهْدِيَ له مثل ما أعْطى ما أَخَذه إلا على إغماض وحياء .

يقول راوي الحديث : فكنا بعد ذلك لا يتصدق الرجل مِنّا إلا بجيّد ما عنده • أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم •

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية معناه يا أيها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وبجزاء الأعمال أنفقوا في سبيل الله من طيبات ماكسبتم أي من الجياد أو الحلال من مكسوبكم بالذات ، أو بالواسطه نقداً أو عرض تجارة • ومما أخرجنا لكم من الحبوب والأبقال المأكولة المعتادة بين الناس وثمار الاشجار وغيرها ، لأنها هي التي تهْدونها إلى خزائن ما قدمتموه لتعرض يوم الحساب وعار" على الشريف أن يُهدي ثوباً كثيفاً لا يلبسه بين الناس فضلا عن أن يؤتى به يومَ القيامة • ويُعْرَض لتقويمه عند الله تعالى •

وقوله : (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) معناه ولا تقصدوا للإنفاق الشيء الخبيث أي الردىء أو المستقذر الذي ينفر منه الطبع من المال • ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه • وحالكم أنكم إذا أعطيتم من ذلك النوع في مقابلة الحقوق والمعاملات أو الهدايا لا تقبلونه وتستنكفون من أخذه إلا أن تتسامحوا فيه وتغمضوا العيون عن عيوبه • (واعلموا أن الله غني) أي عن إنفاقكم وإنما المحتاج إليه أنتم أنفسكم لنيل الثواب يوم الحساب • ومع أنه غني عنه فهو (حميد) محمود في الإثابة عليه فضلاً وإحساناً •

وقوله : (الشيطان يعدكم الفقر) الآية معناه : وإنا نعلم أن السر في بخلكم بصرف الطيب وإقدامكم على صرف الردىء هو مخافة الفقر الذي أنذركم الشيطان به حيث وسوس في صدوركم أنكم إذا صرفتم الجيّد يبقى لكم الردىء ولا يفيدكم للإستملاك به ولا للإستهلاك فتبقون فقراء • ويأمركم بالخصلة الفحشاء أي بالبخل واللّؤم ومحبة

الأمور العاجلة التي تكون سبباً لمباشرة المعاصي الفاحشة ، ولذلك تصرفون ما لا خير فيه . والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً . والله تعالى يعدكم على انفاق الطيبات مغفرة لذنوبكم وستراً لعيوبكم ، وخلفاً أفضل مما أنفقتم . والله واسع عليم . معناه : أن الله واسع الكرم وفيّاض النعم لمن صرف ماله بالمعروف ، وعليم بنية صاحب المصروف . وكفى به عليماً .

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ، وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الأَلْبَابِ)(٢٦٩)

قوله تعالى : (يؤتي الحكمةَ مَنْ يشاء) ذَكَرُوا للحكمة والمراد بها تسعةً وعشرين قولاً لأهل العلم ، قريب بعضها من بعض . منها أنها الإتقان في العلم أو العمل أو كليهما . ومنها أنها القرآن الكريم والفكرة فيه . ومنها أنها الإيمان بالله ورسوله . ومنها غير ذلك . ولكنها أنظار فكرية أو معان عرفية . والحقيقة أن الحكمة في الاصل مصدر بمعنى الإحكام لأي شيء مقبول مرغوب .

وفي الكتب الكلامية : إن قوة النفس الإنسانية باعتبار إستفادتها من فيض الباري تعالى للإستكمال تسمى بالعقل النظري . ولها مراتب أربع :

الأولى : العقل الهيولائي وهو الإستعداد للإدراك من غير حصوله بالفعل كما للأطفال عقيب الولادة .

والثانية : العقل بالملكة وهو حصول الضروريات والإستعداد للنظريات بها .

والثالثة : العقل بالفعل وهو التمكن من إستحضار النظريات بقدر الطاقة متى شاء .

والرابعة العقل المستفاد وهو حضور النظريات بحيث لا تغيب عن النفس كما في أصحاب القوى القدسية • ويتفرع من الحكمة بهذا المعنى الحكمة النظرية بالمعنى العام المفسرة بمعرفة الأشياء تصوراً أو تصديقاً كما هي عليه • وتنقسم إلى الحكمة النظرية بالمعنى الخاص المفسرة بالعلم بأحوال الأعيان والأعراض التي لا مدخل لقدرتنا واختيارنا فيها • ويتفرع منها الحكمة الإلهية والرياضية والطبيعية • وإلى الحكمة العملية المفسرة بأعمال الإنسان في إدارة نفسه وبيته ومدينته المشهورة بعلم تهذيب الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم سياسة المدن • وباعتبار تأثيرها في البدن لتكميله يسمى عقلاً عملياً • وهي قوة الإستنباط والتصرف وبها تتمكن من إستنباط الصناعات • وتتفرع منها الحكمة العملية المفسرة بالقيام بالأعمال على ما ينبغي •

فالحكمة النظرية قوة العلم المسماة بالقوة المدركة ، والحكمة العملية قوة العمل المفسرة بالقوة المحركة فهما متخالفتان •

وقد تطلق الحكمة على القيام بالأمور علماً وعملاً كما ينبغي • وهذه هي المرادة من الحكمة في هذه الآية الكريمة • ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً • كما قد تطلق الحكمة على التوسط بين الذكاء والغباوة • فلها أربعة معان :

الاولى : معرفة الأشياء كما هي المنقسمة إلى الحكمة النظرية والعملية ، وهي بهذا المعنى ناشئة من العقل النظري •

الثاني : القيام بالأعمال على ماينبغي وهي بهذا المعنى ناشئة عن العقل العملي •

الثالث : القيام بالأمور علماً وعملاً • فهي ناشئة منهما معاً •

الرابع : التوسط بين الذكاء والغباوة •

ولما حث الباري سبحانه وتعالى في الآيات السابقة على الإخلاص في العمل والقيام بالإنفاق في سبيل الله ، وضرب له المثل وذكر المنفقين على خلاف ذلك بضرب المثل لهم •• أتى بخلاصة ذلك كله في هـذه الآيـة ، وأفاد أن الإمتثال للباري تعالى في الإيمان والعلم والعمل الخالص وإنفـاق المال في سبيل الله هو الأمرُ المعبر عنه بالحكمة وهي القيام بالأمور على ماينبغي وهذه بركة ورحمة من الله يؤتيها من يشاء من عباده • ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً • وما يذكر إلا أولو الألباب • أي وما يفكر في معاني آيات الله إلا أصحاب العقول السليمة الصائبة • نسأل الله أن يجعلنا منهم برحمته إنه أرحم الراحمين •

(وَمَا أَنْفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّآتِكُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (٢٧١)

قوله تعالى : (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر) الآية • معناه وما أنفقتم من نفقة قليلة أو كثيرة سراً أو علانية في حق أو باطل • وكذلك ما نذرتم نذراً متعلقاً بالمال كله على صرف كذا في سبيل الله أو متعلقاً بالأفعال كله على تلاوة جزء من القرآن الكريم في سواء بلا شرط كمـا ذكرنا • أو بشرط كان شفى الله مريضي فلله علي كذا • وفي طاعـة أو في معصية •

وقوله : إن الله يعلمه كناية" عن مجازاته سبحانه وتعالى عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر" • فهذه الآية الكريمة بيان لحكم كلي شامل لجميع أفراد النفقات والنذور بعد بيان حكم ما كان منها في سبيل الله ، وما كان لغير ذلك وفي الآية معنى الوعد والوعيد • أي من كان خالص النية فهو مثاب ، ومن أنفق رياء ، أو نَذَرَ أن يترك كلام أخيه فهو ظالم • أو من وفّى بالنذر في الخير فهو مثاب • ومن لم يوف به فهو معاقب • ويدل على ذلك قوله تعالى : (وما للظالمين من أنصار) أي من ينصرهم ويدفع عنهم العقوبة يوم القيامة •

وفي شرح غريب المهذب : النذر مشتق من الإنذار وهو الإبلاغ والإعلام بالأمر المخوف • فالناذر يُعلم نفسه ويوجب عليها قربة يتخوّف الإثم من تركها • والنذر إيجاب عبادة في الذمة بشرط وبغير شرطٍ • قال الله تعالى : (إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً) أي أوجبت •

وإنما يصح النذر إلا من كل مسلم بالغ عاقل ، ولا يصح نذره إلا بالقول ، كأن يقول : لله علي كذا • ولانذر إلا في القربات التي لو لم ينذرها لم تجب ؛ فلا نذر في الحرام ، والمكروه ، والمباح ، والواجب • وإنما يتحقق في المندوبات في ذاتها ؛ لما روت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من نذر أن يطيع الله تعالى فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يَعْصِه •

فإن نذر طاعة فإن لم يعلقه على شيء بأن قال : لله على أن أصوم يوم كذا ، أو علقه على إصابة خير أو دفع سوء فأصاب الخير أو دفع السوء عنه لزمه الوفاء بالنذر لما رواه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن إمرأة ركبت في البحر فنذرت إن نجاها الله أن تصوم شهراً ، فماتت قبل أن تصوم

فأتت أختها أو أمها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته ، فأمرها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تصوم عنها .

وإن نذر طاعة في لجاج وغضب بأن قال : إن كلمت فلاناً فعلي كذا فكلمه ، فهو بالخيار بين الوفاء بما نذر ، وبين كفارة يمين . لما روى عقبة بن عامر أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كفارة النذر كفارة يمين . ولأنه يشبه اليمين من حيث أنه قصد المنع ويشبه النذر من حيث إنه إلتزم قربة في ذمته ، فخير بين موجَبهما . ومن أراد تفصيل أحكام النذور فليراجع كتب الفقه .

وقوله تعالى : (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) معناه ان تظهروا وتعلنوا الصدقات فنعم شيأ إبداؤها وإظهارها ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء ، أي تعطوها مع الإخفاء فهو خير لكم لبعدها عن الرّياء . وهذا في صدقة التطوع . فإن الصدقات الواجبة أعني الزكاة فإعلانها وإظهارها أفضل ليبتعد صاحبها عن تهمة الترك . (ويكفر عنكم من سيّئاتكم) أي ويكفر الله عنكم بصرف الصدقات إسراراً أو إعلاناً سيئاتكم . وقوله : (والله بما تعملون خبير) ترغيب في الإسرار ؛ إذ ما دام الباري عالماً به فالسرّ احفظ .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ ، وَما تُنْفِقُونَ إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) (٢٧٢)

قال سعيد بن جبير : كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذّمّة ، فلما كثر فقراء المسلمين نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التصدق

على أهل الذمة كي تحملهم الحاجة على الدخول في الإسلام لرغبته الأكيدة ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إسلامهم فنزلت الآية ، فتصدقوا عليهم بعد نزولها .

قوله تعالى : (ليس عليك هداهم) معناه : ليس مما يجب عليك حصول الهدى لهم واهتداؤهم إلى الإسلام حتى تحاول إلى هذه الدرجة فيه ، وإنما عليك التبليغ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالكفر والإنفاق رياء وسمعة وصرف الخبيث من أموالهم ونحوها . ولكن الله يَهْدي من يشاء بخلق نور الهدى في القلوب وشرح الصدر نحو المرغوب .

وقوله : (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلاّ ابتغاء وجه الله) أي وكل ما تنفقون إنفاقاً خالياً عن الشوائب في المستحقين ، وقصدكم به طلب رضاء الله فجزاؤه من إختصاصات أنفسكم وتناله في وقته ، وما تنفقوا من خير يُوَفّ إليكم تأكيد للجملة السابقة ، ومعنى التوفية : الإيصال أضعافاً كما وعد الله في آية الحبّة لأن التفعيل للتكثير . وأنتم لا تظلمون في ميزان العدل ، ولا ظلمَ في ميزان الفضل لأنّه منه وإليه . وهذا الحكم في صدقات التطوع ، وأما الصدقات الواجبة كالزكاة والنّذور والكفارات فلا يجوز صرفها إلاّ للمسلمين .

(لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لايَسْئَلُونَ النّاسَ إلْحافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ)(٢٧٤)

قوله تعالى : (للفقراء الذين أحصروا) الآية قال السدي ومجاهد وغيرهما المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصّفّة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يَقْدَمون فقراء على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صُفّة في مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل لهم أهل الصفة قال أبو ذر : كنت من أهل الصفة وكان إذا امسيْنا حضرنا باب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأمر كل رجل فينصرف برجل ويبقى من بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتى النبيء بعَشائه ونتعشى معه ، فإذا فرغنا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناموا في المسجد •

وهذه الحال كانت في صدر الإسلام فلما فتح الله على المسلمين إستغنوا عن تلك الحال وخرجوا ثم ملكوا وتآمروا •

قوله تعالى : (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) معناه للذين أحصرهم الجهاد لا يستطيعون ضرباً في الأرض أي لا يقدرون على الذهاب والإياب في الأرض لكسب المعيشة يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف يظن الناس الذين لم يطلعوا على حقيقة أحوالهم أنهم أغنياء لا حاجة لهم إلى المال والزاد وذلك من أجل تعففهم عن السؤال وأدبهم • (تعرفهم بسيماهم) الخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يتأتى منه تلك المعرفة أي تعرفهم بسيما وجوههم من نور الأدب مع الله ورسوله وما شرع من الأحكام والحدود فلا يتحركون حركة مشبوهة ولا يمدون الأيدي إلى الشبهات فضلاً عن الحرام ، أو سيماهم الرثاثة والضعف والنحول التي تعرض على وجوه من قل زاده ومعيشته ، أو سيماهم من

أثر السجود وملازمة المسجد للصلاة • وحالهم أنهم لا يسألون الناس إلحافا • أي لا يسألونهم على وجه الملازمة لهم في الأحوال حتى يضطروا للخلاص عنهم بصرف المال أو بالعنف وتغيير الحال • وما تنفقوا من خير أي لهم ولأمثالهم من المستحقين فإن الله به عليم • لا تخفى عليه خافية فيثيبكم المثوبة الوافية •

وقوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار) الآية روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت في صرف الأموال في علف الخيل المربوطة للركوب عند الجهاد في سبيل الله • وقال قتادة : نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير • وحاصل المعنى العموم • وإن كان السبب خاصّاً فالمراد إن الذين يستمرون على الإنفاق في سبيل الله في الليل والنهار سراً وعلانية لهم أجرهم عند ربهم يوم الحساب معهم ولا خوف عليهم إذ ذاك عما يستقبلهم ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا •

(اَلّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبوا لايَقُومُونَ إلاّ كَما يَقُومُ الّذِي يَتَخَبّطُهُ الشّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأنّهُمْ قالُوا : إنّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبوا ، وَاَحَلّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرّمَ الرِّبوا ، فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَاَمْرُهُ إلَى اللهِ ، وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ اَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبوا ، وَيُرْبِي الصّدَقاتِ وَاللهُ لايُحِبُّ كُلّ كَفّارٍ أثيم (٢٧٦)

إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأَقامُوا الصّلاةَ وَآتَوُا الزّكَاةَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ) (٢٧٧)

قوله تعالى : (الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) الآية معنى يأكلون الربا يأخذون الربا • وذكر الأكل لأنه غالب منافعه ، أو لأن الأكل بمعنى الإستيلاء والبذل ، أو لأن الربا شائع في المطعومات ، وهو زيادة في الأجل بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل • أو زيادة في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه • وقوله : (لا يقومون) الآية أي لا يقومون من قبورهم عند البعث إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس أي قيامهم كقيام المصروع الذي أصابه الجن، فيقوم قياماً ملتوياً ويتحرك حركةً سقيمة كاد أن يسقط على محله أو أنه يسقط فعلاً بعد قيامه • وحاصله أن آكلي الربا في الدنيا يقومون يوم القيامة قياماً غير سليم • وقيام المرابي كذلك يوم القيامة مما نطقت به الأخبار • فقد أخرج الطبراني عن عوف ابن مالك قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إياك والذنوب التي لا تغفر : الغلول ؛ فمن غلّ شيئاً أتى به يوم القيامة ، وأكل الربوا ؛ فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط • ثم قرأ الآية • وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه • ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له ، كما جعل لبعض المطيعين أمارة تليق به يعرف بها كرامة له • ويشهد لذلك أن هذه الأمة يبعثون يوم القيامة غرّاً محجّلين من آثار الوضوء • وإلى هذا ذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة واختاره الزجاج •

والخبط ضرب على غير الإتساق كخبط العشواء • أي الناقة التي لا تبصر ليلاً • وأصله ضرب متوال على أنحاء مختلفة ، ثم تجوز به عن كل ضرب غير محمود • وقوله من المس أي الجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا جُنّ • ومس الشيطان للإنسان وإضراره به ثابت شرعاً

وعليه أحاديث كثيرة • ومعلوم أن إضرار الجن أو غيره بأي شخص وعلى أيّ حال من الأحوال لا يكون إلا بإذن الله وإيجاده •

وقوله : (ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربوا ، وأحلّ الله البيع وحرم الربوا)

معناه ذلك العقاب الوارد يوم البعث على آكلي الربا بسبب أنهم عصوا الله وانحرفوا عن حكم الله بتحريم الربوا ، وقالوا : إنما البيع مثل الربا ، وجعلوهما في سلك واحد فاستحلوه كاستحلال البيع • وأصل العبارة إنما الربوا مثل البيع ولكن عكس التعبير لبيان واقع تفكيرهم • فإنهم زعموا أن الربوا أصيل في الإباحة لأنه معاملة رابحة صالحة في مسلك التجارة فجعلوا البيع مشبهاً بالربوا •

وقوله تعالى : (وأحل الله البيع وحرم الربوا) جملة مستأنفة من الله عز وجل رداً على القائلين بأن البيع مثل الربوا بأنه قياس فاسد الوضع لأنه معارض لنص الباري بتحريم الربوا وحلّ البيع • على أن بين البابين فرقاً ، وهو أن من باع ثوباً يساوي درهماً بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو في مقابلة شيء من الثوب • وأما إذا باع درهماً بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بغير عوض ولا يمكن جعل الإمهال عوضاً إذ الإمهال ليس بمال حتى يكون في مقابلة المال • وقد يقال الفرق بينهما أن أحد الدرهمين في الثاني ضائع حتماً ، وفي الأول منجبر بمساس الحاجة إلى السلعة أو بتوقع رواجها •

وقوله : (فمن جاءه موعظة من ربه) الآية معناه فمن بلغه وعظ وزجر من الله عن الربوا فانتهى عنه واتعظ ، فله ما سلف • أي ما تقدم أخذه قبل التحريم • وأمره إلى الله فيجازيه على انتهائه عنه • ومن عاد إلى

ما نهي عنه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لاستحلالهم ما حرّمه اللـــه •

وقوله تعالى : (يمحق الله الربوا) من باب الوعظ والإرشاد • أي يُذهب الله تعالى بركته ويضيع المال الذي يدخل فيه • ويُربي الصدقات معنـاه ويزيـد المـال الـذي أخرجت منـه الصـدقات • أخرج البخاري ومسـلم عـن أبـي هريـرة قـال رسـول اللـه ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ : من تصـدق بعـدل تمرة من كسـب طيـب ـ ولا يقبل الله تعالى الا الطيب ـ فإن الله تعالى يقبلهـا بيمينه ، ثـم يُرْبيهـا لصاحبهـا كما يُرْبي اَحَدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثلَ الجَبَل • (والله لا يحبّ كل كفار أثيم) أي كل كافر متمسك بكفره مطمئن به منهمك في ارتكابه •

وقوله : (ان الذين آمنوا) الآية معناه إن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات أفعالاً وتروكاً ، وأقاموا الصلاة حق الإقامة ، وآتوا الزكاة كما أمروا به لهم أجرهم الموعود لهم عند ربهم • ولا خوف عليهـم من المكروه المستقبل ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الماضي لوفور حظهم عند لقاء رب العالمين •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِـنَ الرِّبوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ،وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ اَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ(٢٧٩)، وَإنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ، وَاَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (٢٨٠)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية قال عطاء وعكرمة : نزلت في العباس ابن عبدالمطلب وعثمان بن عفان ، وكانا قد أسلفا في التمر . فلما كان وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما : إن أنتما أخذتما حقكما كله لم يبق لي ما يكفي عيالي ، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ؟ ففعلا . فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنهاهما وأنزل الله هذه الآية . فسمعا وأطاعا وأخذا رؤس أموالهما .

وروي أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا ، وحصل هناك مخاصمات ورفعوها إلى عتاب بن أسيّد ، وكان عامل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مكة ؛ فكتب عتاب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقضية الفريقين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . فكتب بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عتاب وقال له : إن رضوا ، وإلا فأذنهم بحرب ! فكتب لهما عتاب يخبرهما بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شأنهم فقالوا : بل نتوب إلى الله تعالى وأخذوا رأس المال ورضوا به .

فقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا معناه يا أيها الذين آمنوا بالله وبما أنزله على رسوله اتقوا الله واتركوا بقايا ما قررتم على الناس من الربا إن كنتم مؤمنين حق الإيمان . فإن لم تفعلوا ما أمركم الله تعالى به فأذنوا بحرب من الله ورسوله عليكم واستعدوا للمدافعة عن أنفسكم . وإن تبتم من أخذ الربا واعتقاد حلّه فلكم رؤس أموالكم لا تَظْلِمُون الناس بأخذ الزيادة ولا تُظلمون بالتسويف والتنقيص من رؤس الأموال . وإن كان ذو عسرة من المديونين لا قدرة له على ردّ الرؤوس إليكم فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَة فحكم الله وجوب الإنظار والمهلة للمديون إلى وقت مَيْسَرَته

وغناه وطاقته على ردّ ما عليه إليكم • وَأنْ تَصَدّقوا بابرائه عما عليه خَيْر لكم من إبقائه وانتظار غناه إنْ كنتم تَعلمون ما فيه من الذكر الجميل والأجر الجزيل •

(وَاتَّقوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيهِ الى اللهِ ثُمّ تُوَفّى كُلّ نَفْسٍ ماكَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (٢٨١)

يقول الباري سبحانه وتعالى : أيها الناس اتقوا عقاب الله وسوء الجزاء يوماً ترجعون فيه إلى لقاء الله ومحاسبته معكم ، وهو يوم القيامة ، واستعدوا لمصيركم إليه ، ثم توفى كل نفس ما كسبت أي تُعْطى كل نفس جزاءَ ماكسبت من خير أو شرّ ، وهم لا يظلمون فتيلا ، بنقص ثواب أو زيادة عقاب وحاشا أن يظلم ربنا أحداً وهو أحكم الحاكمين وأرْحَم الراحمين •

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام•وقال : ضعها في رأس المأتين والثمانين من سورة البقرة • وعاش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدها واحداً وعشرين يوماً • وقيل : أحداً وثمانين يوماً • وقيل : سبعة أيّام •

وللآية مناسبة اكيدة جداً مع آية الربوا والنهي عن أخذ الزيادة ؛ فإن الأموال عليها دوام الأجيال وقوة الطاعة ومدار الإستطاعة ، فطوبى لمن اكتسبها من الوجه الحلال وصرفها في وجوه الخير للحال والإستقبال •

وإذ قد ذكرنا ما علمنا من تفسير آيات الربا في هذه السورة فلنذكر عبارات وفوائد نفيسة وفرائد مربوطة بالباب من كتاب أضواء البيان ، لعالم المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام • وذلك لاستناده إلى الأحاديث الصحيحة وأقوال العالمين بها فجزاه الله عنا وعن المسلمين

خيراً حيث قال : واعلم أن الربا منه ما أجمع المسلمون على منعه ولم يخالف فيه أحد ، وذلك كربا الجاهلية . وهو أن يزيده في الأجل على أن يزيده الآخر في قدر الدين .

وربا النَّساء بين الذهب والذهب ، والفضة والفضة ، وبين الذهب والفضة ، وبين البر والبر ، وبين الشعير والشعير ، وبين التمر والتمر ، وبين الملح والملح ، وكذلك بين هذه الأربعة بعضها مع بعض (أي بعض آخر مغاير في النوع) .

وكذلك حكى غير واحد الإجماع على تحريم ربا الفضل بين كل واحد من الستة المذكورة ، فلا يجوز الفضل بين الذهب والذهب ، ولا بين الفضة والفضة ، ولا بين البرّ والبرّ ، ولا بين الشعير والشعير ، ولا بين التمر والتمر ولا بين الملح والملح ، ولو يداً بيد . والحق الذي لا شك فيه منع ربا الفضل في النوع الواحد من الأصناف الستة المذكورة .

فإن قيل : ثبت في الصحيح عن ابن عباس عن أسامة بن زيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لا ربا إلا في النسيئة) ، وثبت في الصحيح عن أبي المنهال أنه قال : سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصّرف . فقالا : كنا تاجرين على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصرف فقال : ما كان يداً بيد فلا بأس ، وما كان منه نسيئة فلا .

فالجواب من أوجه :

الأول : أن مراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجواز الفضل ومنع النسيئة فيما رواه عنه أسامة والبراء وزيد إنما هو في جنسين مختلفين بدليل الروايات الصحيحة المصرحة بأن ذلك هو محل جواز التفاضل ،

وأنه في الجنس الواحد ممنوع • واختار هذا الوجه البيهقي في السنن الكبرى • فإنه قال ، بعد أن ساق الحديث الذي ذكرنا آنفاً عن البراء بن عازب وزيد بن أرقم ما نصه : رواه البخاري في الصحيح عن أبي عاصم دون ذكر عامر بن مصعب • وأخرجه من حديث حجاج بن محمد عن ابن جُرَيج مع ذكر عامر بن مصعب ، واخرجه مسلم بن الحجاج عن محمد بن حاتم بن ميمون ، عن سفيان بن عُيينه عن عمرو بن دينار عن أبي المنهال قال : باع شريك لي ورقاً بنسيئة إلى الموسم ، أو إلى الحج فذكره • وبمعناه رواه البخاري عن علي بن المديني عن سفيان وكذلك رواه أحمد بن روح عن سفيان • وروى عن الحميدي عن سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي المنهال • قال : باع شريك لي بالكوفة دراهم بدراهم بينهما فضل (عندي إنّ هذا خطأ) والصحيح ما رواه علي بن المديني ومحمد بن حاتم وهو المراد بما أطلق في رواية إبن جريج فيكون الخبر وارداً في بيع الجنسين أحدهما بالآخر فقال : ما كان منهُ يداً بيدٍ فلا بأس وما كان منه نسيئة فلا • وهو المراد بحديث أسامة والله أعلم •

الجواب الثاني عن حديث أسامة : أنه رواية صحابي واحد ، وروايات منع ربا الفضل عن جماعة من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رووها صريحة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناطقة بمنع ربا الفضل ، منهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأبو سعيد ، وأبو هريرة ، وهشام بن عامر ، وفضالة بن عُبيد ، وأبو بكرة ، وابن عمرو وأبو الدرداء ، وبلال ، وعبادة بن الصامت ، ومعمر بن عبدالله وغيرهم ••• وروايات جل من ذكرنا ثابتة في الصحيح كرواية أبي هريرة ، وأبي سعيد ، وفضالة بن عبيد ، وعمر بن الخطاب ، وأبي بكرة ، وعبادة بن الصامت ، ومعمر بن عبدالله • ـ وغيرهم •

وإذا عرفت ذلك فرواية الجماعة من العدول أقوى وأثبت وأبعد عن الخطأ من رواية الواحد وقد تقرر في الأصول أن كثرة الرواة من المرجحات وكذلك كثرة الأدلة كما عقده في مراقي السعود في مبحث الترجيح باعتبار حال المروي بقوله :

وكثرة الدليل والرواية مرجح لدى ذوي الدراية

والقول بعدم الترجيح بالكثرة ضعيف . وقد ذكر سليم الداري أن الشافعي أومأ إليه . وقد ذهب إليه بعض الشافعية والحنفية .

الجواب الثالث عن حديث أسامة : أنه دلّ على إباحة ربا الفضل وأحاديث الجماعة المذكورة دلت على منعه في الجنس الواحد من المذكورات ، وقد تقرر في الأصول أن النص الدال على المنع مقدم على الدال على الإباحة، لأن ترك مباح اَهْوَنُ من ارتكاب حرام. وقدمناه عن صاحب المراقي وهو الحق ...

الجواب الرابع عن حديث أسامة : أنه عام بظاهره في الجنس والجنسين ، وأحاديث الجماعة أخص منه لأنها مصرحة بالمنع مع إتحاد الجنس ، وبالجواز مع اختلاف الجنس ، والأخص مقدم على الأعم ؛ لأنه بيان له ولا يتعارض عام وخاص كما تقرر في الأصول .

ومن مرجحات أحاديث منع ربا الفضل على حديث أسامة الحفظ فإن في رواته أبا هريرة وأبا سعيد وغيرهما ممن هو مشهور بالحفظ .

ومنها غير ذلك . وقال ابن حجر في فتح الباري ما نصه : واتفق العلماء على صحة حديث أسامة ، واختلفوا في الجمع بينه وبين حديث ابي سعيد :

فقيل : النسخ لكن النسخ لا يثبت بالإحتمال • وقيل : المعنى في قوله لا ربا إلا الربا الاغلظ الشديد التحريم المتوعد عليه بالعقاب الشديد كما تقول العرب : لا عالم في البلد إلا زيد مع أن فيها علماء غيره • وإنما القصد نفي الأكمل لا نفي الأصل • وأيضاً فنفي تحريم ربا الفضل من حديث (أسامة) إنما هو بالمفهوم فيقدم عليه حديث أبي سعيد لأن دلالته بالمنطوق، ويحمل حديث أسامة على الرّبا الأكبر كما تقدم • والله أعلم انتهى •

وقوله : النسخ لايثبت بالإحتمال مردود بما قدمنا من الروايات المصرحة بأن التحريم بعد الإباحة ، ومعرفة المتأخر كافية في الدلالة على النسخ • وقد روي عن ابن عباس وابن عمر أنهما رجعا عن القول بإباحة ربا الفضل •

قال البيهقي في السنن الكبرى ما نصه : (باب ما يستدل به على رجوع من قال من الصدر الأول (لا ربا إلا في النسيئة) عن قوله ونزوعه عنه أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ، أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم ، حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، اخبرنا عبدالاعلى ، حدثنا داود بن هند عن أبي نضرة قال : سألت ابن عمر وابن عباس عن الصرف فلم يَرَيا به بَأساً وإني لقاعد عند أبي سعيد الخدري فسألته عن الصرف فقال : ما زاد فهو رباً • فأنكرت ذلك لقولهما • فقال : لا أُحَدثكم إلاّ ما سمعتُ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • جاءه صاحب نخلة بصاع من تمر طيّب ، وكان تمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الدون فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أنّى لك هذا ؟) قال : انطلقت بصاعين واشتريت به هذا الصاع فإن سعر هذا بالسوق كذا ، وسعر هذا بالسوق كذا • فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أَرْبَيْتَ) إذا أردت ذلك فبع تمرك بسلعة ثم اشتر بسلعتك أَيّ تمرٍ شئتَ • فقال

أبو سعيد : فالتمر بالتمر أَحَقّ أن يكون ربا أم الفضة بالفضة ؟ قال : فأتيت ابن عمر فنهاني ولم آت ابن عباس . قال : فحدثني أبو الصهباء أنه سأل ابن عباس فكرهه . رواه مسلم في الصحيح عن اسحاق ابن إبراهيم . وقال : وكان تمر النبي ـ صلى عليه وسلم ـ هذا اللون . أخبرنا محمد بن عبدالله الحافظ حدثنا الحسين بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين أبو علي الماسرجسي ، حدثنا جدي أبو العباس أحمد بن محمد وهو ابن بنت الحسن بن عيسى ، حدثني جدي الحسن بن عيسى أخبرنا ابن المبارك أخبرنا يعقوب ابن ابي القعقاع عن معروف بن سعد أنه سمع أبا الجوزاء يقول : كنت أخدم ابن عباس تسع سنين إذ جاء رجل فسأله عن درهم بدرهمين فصاح ابن عباس وقال : إن هذا يأمرني أن أطعمه الربا فقال ناس حوله : إن كنا لنعمل هذا بفتياك .

فقال ابن عباس : قد كنت أفتي بذلك حتى حدثني أبو سعيد وابن عمر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عنه فأنا أنهاكم عنه . وفي نسختنا من سنن البيهقي في هذا الإسناد ابن المبارك ، والظاهر أنّ الأصل أبو المبارك كما يأتي . أخبرنا ابو الحسين ابن الفضل القطان ببغداد ، أخبرنا عبدالله بن جعفر بن درستويه ، حدثنا يعقوب بن سفيان ، حدثنا عُبَيْدُالله بن موسى ، عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعد بن أياس عن عبدالله بن مسعود أن رجلا من بني شمخ بن فزارة سأله عن رجل تزوج إمرأة فرأى أمها فأعجبته فطلق إمرأته ليتزوج أمها . قال : لا بأس . فتزوجها الرجل . وكان عبدالله على بيت المال ، وكان يبيع نِفاية بيتِ المال ويعطي الكثير ويأخذ القليل . حتى قدم المدينة ، فسأله أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : لا يحل لهذا الرجل هذه المرأة ،

ولا تصح الفضة إلا وزناً بوزن . فلما قدم عبدالله إنطلق إلى الرجل فلم يجده ، ووجد قومه فقال : إن الذي أفتيت به صاحبكم لا يحل ، فقالوا : قد نثرت له بطنها . قال : وان كان . وأتى الصيارفة فقال : يا معشر الصيارفة إن الذي كنت أبايعكم لايحل : لا تحل الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن . انتهى من البيهقي بلفظه . وفيه التصريح برجوع ابن عمر وابن عباس وابن مسعود عن القول بإباحة ربا الفضل . وقال ابن حجر في الكلام على حديث أسامة المذكور ما نصه : وخالف فيه ، يعنى منع ربا الفضل ، ابن عمر . ثم رجع ، وابن عباس واختلف في رجوعه . وقد روى الحاكم من طريق حبان العدوي وهو بالمهملة والتحتانية . سألت أبا مجلز عن الصرف فقال : كان ابن عباس لا يرى به بأساً زمانا من عمره ، ما كان منه عيناً بعين يداً بيد . وكان يقول : إنما الربا في النسيئة ، فلقيه أبو سعيد فذكر القصة والحديث . وفيه التمر بالتمر ، والحنطة بالحنطة ، والشعير بالشعير ، والذهب بالذهب ، والفضة بالفضة يداً بيد مثلاً بمثل . فما زاد فهو رباً . فقال ابن عباس : استغفر الله وأتوب إليه . فكان ينهى عنه أشد النهي . انتهى من فتح الباري بلفظه .

ونقل النووي في شرح مسلم إجماع المسلمين على ترك العمل بظاهر حديث أسامة قال : وهذا يدل على نسخه . وقد استدل ابن عبدالبر على صحة تأويله لحديث أسامة بإجماع الناس ما عدا إبن عباس عليه . انتهى . وعلى فرض أن ابن عباس لم يرجع عن ذلك فهل ينعقد الإجماع مع مخالفته ؟ فيه خلاف معروف في الأصول هل يُلغى الواحد والإثنان ؟ أو لابد من إتفاق كل وهو المشهور ؟ وهل إذا مات وهو مخالف ثم إنعقد الإجماع بعده يكون اجماعاً وهو الظاهر ؟

وإذا عرفت أن من قال بإباحة ربا الفضل رَجَعَ عنها ، وعلمتَ أن الأحاديث الصحيحة المتفق عليها مصرحة بكثرة بمنعه علمت أن الحق الذي لاشك فيه تحريمُ ربا الفضل بين كل جنس واحد من الستة مع نفسه ، وجواز الفضل بين الجنسين المختلفين يداً بيد ، ومنع النَّساء بين الذهب والفضة مطلقاً ، وبين التمر والبر والشعير والملح مطلقاً ، ولا يمنع طعام بنقد نسيئة كالعكس ، وحكى بعض العلماء على ذلك الإجماع ، ويبقى غير هذه الأصناف الستة المنصوص عليها في الحديث فجماهير العلماء على أن الربا لا يختص بالستة المذكورة ، إنتهى المقصود نقله من (أضواء البيان) للعلامة المفسر المحدث الأصولي الشيخ محمد أمين المختار الشنقيطي الساكن بالمدينة المنورة والمتوفى فيها رحمه الله تعالى ،

أقول وبه المستعان : وأما الأوراق المستعملة الرائجة في عصرنا هذا ففيها جهة النقدية لكونها كالسند للمبلغ المساوي لها ، يأخذ التجار والأجانب بدلها حسب الأصول ، وجهة العرضية لكون أسعارها زيادة ونقصاً تابعةً لكثرة الرّصيد الموضوع في « المصرف » وقلتها ، فإذا بيعت تلك الأوراق بمثلها من الأوراق الرائجة في نفس البلد كان بيعها بها كبيع الذهب بالذهب ، فيحرم التفاضل والنساء فيها مطلقاً ، أو بغيرها من أوراق بلد آخر كأوراق العراق بأوراق الكويت جاز التفاضل فيها على حسب الأسعار المقررة في البلد ،

وأما نصابها في الزكاة فهو بحسب سعر النقود ، فمن كان عنده من الأوراق ما يساوي قيمة عشرين مثقالاً من الذهب فعليه زكاته بحسب زكاة الذهب ، فإن لم يساو ذلك المقدار فمتى كان عنده قيمة مأتي درهم من الفضة وجب عليه زكاته ، وهو ربع العشر كما هو معلوم ،

ولا نظر إلى أن علة الربا في النقدين كونهما جوهرين نفيسين ، وهما ثمن الأشياء في أقطار الأرض لأنا ننظر إلى الأوراق من جهة أنها بدل النقدين وسند للصّرف في البلاد ولذلك يستعملان في البيع والشراء ، وتروج كالنقود بلا فرق ، ولو ألغيناها لزمنا الحكم بعدم صحة جميع المعاملات الواقعة في العالم ، وهذا أمر بعيد ، بل محال لاستحالة إجماع العالم الإسلامي على المعاملة الفاسدة والله أعلم .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ . وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ

فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)(٢٨٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم) الآية معناه إذا داين بعضكم بعضاً أي عامل بعضكم بعضاً ببدل غير حالٍّ ممتدٍّ إلى أجل مسمى فاكتبوه لأنه أوثق وأدفع للنزاع بينكم في المستقبل • قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : هذه الآية نزلت في السَّلَم خاصّة ، ومعناه أنَّ سَلَمَ أهلِ المدينة كان سببَ نزول الآية ، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعاً ما عدا ما اشترط فيه المقايضة من الربويات •

وحقيقة الدَّين : عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيه نقداً والآخر في الذمة نسيئة • وثبت أن رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ قَدِمَ المدينة وهم يستلفون في الثمار السنتين والثلاث • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **من أسْلَفَ في تمر فليُسلِف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم** • رواه ابن عباس • **أخرجه البخاري ومسلم** وغيرهما •

وقال ابن عمر : **كان أهل الجاهلية يتبايعون لحم الجزور إلى حَبَلِ الحَبَلَةِ** • ومعناه : **أن تنتج الناقة ثم تحمل التي نُتِجَت • فنهاهم** رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ **عن ذلك • وأجمع العلماء على أن**

السلم الجائز أن يُسْلم الرجلُ إلى صاحبه في طعام معلوم موصوف من طعام أرض عامّة لا يحظى مثلها بكيل معلوم إلى أجل معلوم بدنانير أو دراهم معلومة يدفع عما أسلم فيه قبل أن يفترقا من مقامهما الذي تبايعا فيه ، وسميا المكان الذي يُقبض فيه الطعام ، فإذا فعلا ذلك وكان جائز الأمر كان سلماً صحيحاً • فالسلم إلى الحصاد أو الجذاذ لا يصح إلا إذا كان ذلك يختص بوقت معلوم •

والجمهور على أن الأمر بالكتابة للإستحباب•وقال بعض : إنه للإيجاب وله وجه إذا كانت المعاملة في مال المحاجير أو الوقف مما يخاف عليه الكتمان والضياع • وقوله : (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أي بالحق والمعدلة لا يزيد ولا ينقص شيئاً • والأمر للندب إذا كان الكتّاب كثيرين ، وللإيجاب عند التعيّن والإنحصار لكن لا مجانا بل في مقابل أجر مناسب وقوله : (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) نهي عن إبائه عن الكتابة وبيان لوجه النهي وهو الوفاء بشكر ما أنعم الله به عليه من تعليمه الكتابة • وقوله : (ولْيُمْلِلِ الّذي عليه الحق) • الفعل مشتق من الإملال بمعنى الإلقاء على الكاتب ما يكتبه • وقد تقلب اللام الثانية ياء على قاعدة المضاعف • أي وليكن المُلقي على الكاتب ما يكتبه من الدين هو الذي عليه الحق وهو المطلوب لأنه المكتوب عليه • والمشهود عليه إن اقتضى الأمر فلابد أن يكون هو المقر بالحق المكتوب وقوله : (وليتق الله ربّه ولا يبخس منه شيئاً) أي وليتق عقاب ربه ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً وإن كان قليلاً جداً • فإن مثقال الذرة عليه الجزاء خيراً أو شراً وكفى به جزاء قوله تعالى : (فإن كان الذي عليه الحق) الآية معناه فإن كان الشخص الذي عليه الحق سفيهاً صبياً كان أو بالغاً ناقص العقل مبذرا • أو ضعيفاً بالحال ليس له قابلية الإملاء لاختلاله أو غير ذلك ، أو

لايستطيع أن يمل هو لخرس أو جهل باللغة ، فليملل وليه الذي يتولى أمره كالولي والوصي والقيّم والمترجم ، بالعدل والصدق والأمانة .

وقوله : (واستشهدوا) الآية أي واطلبوا أن يستشهد على الدين المكتوب بشهيدين من رجالكم المسلمين فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن تَرضَوْن من الشهداء ، من حيث العقل والعدالة والضبط وغيرها.وقوله : (أن تضل) الآية علة لاعتبار العدد أي لأجل خوف أن تضل شهادة احد الشاهدين بأن نسيتها او ترددت في بعض شيء منها فتذكرها الأخرى وقوله : (ولا يأب الشهداء) جملة وردت نهياً عن إباء الشهداء عن التحمل أو الأداء إذا ما دعوا لذلك .

وقوله : (ولا تسئموا) جملة أخرى نهي عن السآمة أو الملل من كتابة صك الديون والحقوق . فيقول : ولا تسئموا أي لا تملوا ولا تكسلوا أن تكتبوه أي الدين أو الحق صغيرا أو كبيراً قليلاً أو كثيراً إلى أجله المحدود المعين الذي قرّر له ، فإن إهمال القليل أو الحقير يجر إلى إهمال الكثير والخطير .

وقوله : (ذلكم أقسط) الآية ذلك المذكور من الكتابة والإستشهاد أكثر قسطاً وأقوم للشهادة ، وأثبت للشهادة ، وأعون على حفظ الحقوق ، وأدنى ألا ترتابوا أي وأقرب أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله بالمستقبل .

وقوله تعالى : (إلا أن تكون تجارة) الآية إستثناء من الأمر بالكتابة والإستشهاد يعني أن ما ذكرناه مطلوب منكم ندباً أو وجوباً إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة غير مؤجلة تديرونها بينكم وتتعاملون بها وتعاطونها يداً بيد ، فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها للإستغناء عن الكتابة والشهادة .

وقوله : (وأشهدوا إذا تبايعتم) أي وأشهدوا إذا تبايعتم على الوجه السابق ندباً أو وجوباً ، أو على أي وجه مطلقا ، تجارة حاضرة أو مؤجلـة ، للإحتيـاط .

وقوله : (ولا يضارّ كاتب ولا شهيد) على البناء للمجهول على معنى لا يجوز الإضرار بالكاتب بعدم إعطائه الأجر اللائق بـه ، ولا يضار الشهيد بترك مؤنته إذا دُعي للتحمل أو الأداء ، او البناء للمعلـوم ، أي ولا يجوز أن يضر الكاتب بالخيانة في الحق صاحبَه زيادة أو نقصاً ، أو أن يضـر الشاهد بالكتم أو النقص أو الزيادة في ما يشهد به . وإن تفعلوا ما نهيتم عنه فإنه فسوق بكم أي خروج عن طاعة الله يلحقكم . واتقوا الله فـي الأوامر والنواهي ويعلمكم الله ما تحتاجون إلى معرفته مـن الأحكام ، وما يزيدكم نوراً وانشراحاً على مدى الأيام والله بكل شيء عليـم ، فيعلـم من يعمل بالقلب السقيم ، ومن يعمل بالقلب السليم .

وقوله تعالى : (وإن كنتم على سفر) الآية معناه وإن كنتم مسافرين عند التداين ولم تجدوا كاتباً فالذي يستوثق به رهان مقبوضة مسلّمة إلى صاحب الدين ، فإن أمن بعضكم بعضاً أي بعض الدائنـين بعض المديونين بحسن ظنه سفرا كما هو الموضوع ، أو حضراً فلم يتوثـق بالكتابـة ولا الشهود فليؤد الذي أؤتمن أي الشخص الذي يعده اميناً أمانته أي الدين الذي كان عنده كالوديعة ، وليتق الله ربه في الخيانة وإنكار الحق .

وقوله : (ولا تكتموا الشهادة) خطاب مع الشهداء أي ولا تكتموا من عندكم من الشهادة فلا تخفوها بالإمتناع عن أدائها إذا دعيتم إليـــه ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه . والظاهر أن آثم خبر وقلبه بدل . وهذا الإبدال للإشارة إلى أن كتم الشهادة أو النقص أو الزيادة فيها ناشيء عـــن فساد القلب ، فهو الذي يصلح ويفسد ويقلب اللسان وسائر الجوارح إلـــى

الخير والشر . والله بما تعملون عليم . لا تخفى عليه خافية ، وفي ذلك موعظة وافية كافية .

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَالَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَينَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (٢٨٦)

قوله تعالى : (لله ما في السموات وما في الأرض) معناه أن الأمور التي هي اركانهما وما خرج عنهما كلها ملك لله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء ، وليس لأحد حق في تصرفه تعالى فيها .

قوله : (وإن تبدوا ما في أنفسكم أوْ تخفوه يحاسبكم به الله) المراد بما في الأنفس الصفات السيئة الرديئة التي تحمل أصحابها على الأعمال الفاسدة ، فإنه يجب عليهم معالجتها وتزكية النفس منها ؛ لأنها لا تخلي أصحابها فارغين عن الأعمال السيئة مطلقاً . ولذلك يقول الباري تعالى (قد

أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّيها) فتلك الملكات الرديئة ، والأخلاق الفاسدة يحاسب الإنسان عليها سواء كان أظهرها أي عمل بها أو أخفاها أي لم يعمل ، لكنه إذا أظهرها فالعقاب على الملكة نفسها وعلى آثارها ، وإذا أخفاها فالعقاب على أنفسها ؛ لأنها أمراض من شأن أصحابها معالجتها ، فإذا أهملها عوقب عليها .

وقال بعض : المراد بما في الأنفس هو العزم المصمم على العمل الفاسد الناشيء فهو ايضاً مما يعاقب عليه ؛ لأن العزم فعل النفس ، وليس العزم هو الهمّ حتى يكون مما يسامح به ؛ لأن الهم أخف من العزم ، والعزم هو تصميم الإنسان على العمل وعليه حديث : « إذا إلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » ولكن العزم ذنبه ليس كالفعل المعزوم عليه بل أخف منه ، ولا حدّ فيه إذا كان على القتل أو الزنا أو السرقة فالآية على ما قلنا من المعنيين محكمة .

ومنهم من قال : إنها منسوخة بقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) أي فتلك الملكات إذا خرجت عن طوع أصحابها لا عقاب عليها ، واحتج بما اخرجه أحمد ومسلم عن ابي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : لما نزلت (وإن تبدوا ما في أنفسكم) الآية إشتد ذلك على أصحاب رسول الله فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم جثوا على الركب فقالوا : يارسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق من الصلاة والصوم والجهاد والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها .. الحديث . فأنزل الله سبحانه : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وصح ذلك عن علي ــ رضي الله عنه ــ وأخرج البخاري عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسبه ابن عمر أن قوله تعالى : (وإن تبدوا

ما في أنفسكم) الآية نسخه قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) • واستشكله بعض بأن النسخ لا يتوجه إلى الأخبار • وأجيب عنه بأن النسخ لم يتوجه إلى مدلول الخبر نفسه بل إلى النهي المستفاد منه ، كما يدل عليه قول الصحابة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كلفنا من الأعمال ما نطيق ، وقد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها • فإنه صريح في أنهم فهموا من الآية تكليفاً • والحكم الشرعي المفهوم من الخبر يجوز نسخه بالإتفاق •

وقوله تعالى : (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) دليل لما ذهب إليه أهل السنة في نفي وجوب التعذيب على الله تعالى حيث علقه بالمشيئة • وقوله تعالى : (إن الله على كل شيء قدير) تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، فإن شمول قدرته لكل شيء يقتضي شموله لمحاسبة عباده وما يتفرع عليه •

قوله تعالى : (آمن الرسول) الآية المراد به الإيمان التفصيلي المستوعب للأحكام المذكورة ولما آمن بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلأمته أسوة حسنة فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجب عليهم الإيمان بها • وكذلك عقبها بقوله تعالى : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) الآية •

والإيمان بالله إيمان بوجوب وجوده ، وصفاته ، وتنزيهه عما لا يليق به • والإيمان بملائكته الإيمان بأنهم معصومون مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون • والايمان بكتبه تعالى إيمان بها من حيث مجيئها منه تعالى بدون تطرق خلل إليها • والإيمان برسله إيمان بأنهم رجال أمناء صادقون أعفاء إختارهم الله تعالى بفضله لتعليم من أُرسلوا إليه وتبليغ أحكامه إليهم بالذات أو بالواسطة •

وقوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) منصوب محلاً بقول

مقدر مسند إلى ضمير كلّ ، أي قائلين : لا نفرق بين أحد من رسله من حيث أنه رسول الله ولسنا ممّن يؤمن ببعض ويكفر ببعض كما فعل أهل الكتابين .

وقوله : (وقالوا سمعنا) الآية عطف على آمن والجمع باعتبار المعنى . ومعناه : سمعنا ما أنزل إلينا وبلغنا من طرف الرسول ، وأطعنا عن إختيارٍ ما دعوتنا إليه . ونسألك غفرانك لنا مما ينقص جزاءنا وذلك من رحمتك يا أرحم الراحمين .

وقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) الآية جملة سيقت إخباراً منه تعالى أنه لا يكلف أي نفس إلا ما تسعه قدرته وتشمله طاقته ، وإن كان بعض التكاليف أقل مما تطيقه فإن من وسعة الإنسان عشر صلوات في كل يوم وليلة مع أنه فرض خمساً فقط .

وقوله تعالى : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) جملة أخرى سيقت للمحافظة على مقتضيات التكاليف باعتبار أنها تعود إلى المكلف خيراً أو شراً ، مع ما فيه من اللطف من جهة اعتبار التعمد والإعتمال في الشرّ ، وذلك من فضله تعالى على عباده المؤمنين .

وقوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) الآية إما تعليم لعباده كيفية الدعاء أي وادعوه تعالى وقولوا : ربنا الآية . وإما شروع في حكاية بقية دعواتهم . وقد قيل قبل الله تعالى دعاءهم بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان ، كما روي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .

وقوله : (ولا تحمل علينا إصرا) أي ولا تحمل علينا ثقل الصفات الذميمة والأفعال الحابسة للقلوب كما حملته على الذين من قبلنا من بني

إسرائيل كقتل النفس في التوبة ، وقطع موضع النجاسة ، وحصر صحة الصلاة في المعابد ، وغيرها من الآصار والاثقال •

وقوله تعالى : (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) الآية فيه دعاء من خيرة الدعاء التي يدعو بها الإنسان ، فيقول الداعي : ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به من البلايا النازلة من السماء ، أو الخارجة من الأرض مما لا طاقة لنا بتحمله والصبر عليه فيحو"لنا إلى سوء الأحوال والإعتراض على الملك الحكيم المتعال مما يوجب سوء الحال والمآل أعاذنا الله تعالى بفضله ومنه • واعف عنا سيآت أفعالنا الحاجبة لنا عن توجهك إلينا باللطف ، واغفر لنا ذنوبنا المكسوبة في مقابل نعمتك الموهوبة وبدل أن نشكرها نأتي بما يخالفها • وارحمنا بالسماح بالعفو والإصلاح وتوفيقنا إلى ما فيه الخير والفلاح • أنت مولينا وسيدنا ومتولي أمورنا وشارح صدورنا ، فانصرنا على القوم الكافرين اعداء ديننا وشريعة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين والمرسلين • وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

إنتهى تفسير سورة البقرة فلله الحمد وفرغت أناملي منها عصر يوم عيد الأضحى المبارك من سنة ألف وأربعمائة وثلاث هجرية في غرفة تدريسي في جامع حضرة القطب الأعظم والغوث الأكرم سيدنا حضرة الشيخ عبدالقادر الحسني الحسيني الگيلاني نور الله روحه ، وزاد فتوحه ، وعمنا أنواره وبركاته إلى يوم الدين •

وأنا العبد المفتقر إلى الله العليم عبدالكريم بن محمد المشهور بالمدرس الكردي الشهرزوري المنتسب إلى عشيرة القاضي الساكنين في مركز ناحية السيد صادق وأطرافها غفر الله تعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين •

١٠/١٢/١٤٠٣ هـ
١٧/٩/١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

عن أبي أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قَدِمَ نصارى نَجْرانَ على رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ يخاصمونه في شأن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فأنزل الله تعالى ـ صدرَ سورة (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها • أخرجه إبن أبي حاتم •

عن الربيع : أن النصارى أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخاصموه في عيسى بن مريم ؛ وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان • فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى • قال : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لايموت ، وأن عيسى ـ عليه السلام ـ يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى • قال : ألستم تعلمون أنَّ رَبَّنا قَيِّمٌ على كلّ شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى • قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا •

قال : ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ؟ قالوا : بلى • قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما عُلّم ؟ قالوا : لا • قال : ألستم تعلمون أن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى • قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة ثمّ وَضَعَتْه كما تَضَعُ المرأةُ وَلَدَها ، ثم غُذّيَ كما يُغَذّى الصّبيُّ ، ثم كان يأكلُ الطعامَ ، ويشرَبُ الشرابَ ، ويَحدِثُ الحَدَث ؟ قالوا : بلى • قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فعرَفوا ، ثم اَبَوا وما أبوا إلاّ جُحودا ! فنَزَل قوله تعالى :

(الم(١) اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الحيُّ القَيّوم)(٢)

وَمعنى (الم) هو الذي ذكر في أول سورة البقرة وكذلك إعرابه • وَمعنى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وتفسير مفرداتها وإعراب الجملة كل ذلك مرّ في (آية الكرسي) فراجعه •

(نَزّل عَلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَاَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالإنْجِيلَ(٣) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّاسِ ، وَاَنْزَلَ الفُرْقانَ • إنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ) (٤)

قوله : (نزل عليك الكتاب) نزل من باب التفعيل للتكثير ، واللام في الكتاب للعهد • أي نزل عليك الباري سبحانه وتعالى بتدريج ومهلة

القرآن الجامعَ للأصولِ والفروع من العقائد والأحكام ، ولما كان وما يكون إلى يوم القيامة •

ومن مهمات مافيه توحيدُ الباري ذاتاً وصفة وفعلاً ، وتنزيهه عما لا يليق به ، والإيمان برسوله ، وبما جاء به من عند الله تعالى من كافة النواحي • فمن آمن به واتبعه هُدِيَ إلى صراط مستقيم الذي مَنْ سَلَكَهُ نالَ سعادةَ الدارين ، ومن انحرف عنه مال عنها بُعْدَ المشرقين • تنزيلاً ملبساً بالحق أي بالصدق في إخباره ، والعدل في أحكامه (مُصدِّقاً لما بَينَ يَدَيْهِ) أي مُصَدِّقاً للكتب الإلهية السابقة عليه في أصولها وشرائعها حسب ظروف نزولها •

وكما نزل عليك الكتاب أنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى عليهما السلام ـ من قبل • أي من قبل تنزيل الكتاب عليك هدى للناس مفعول له يعنى أنزلهما دالّين باللطف للناس العقلاء على طريق الحق • وأنزل بعدهما الفرقان • أي القرآن الفارق بين الحق والباطل

حتى يؤمن الناس بالآيات البينات • إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد فوق الطاقة والعادة • والله عزيز غالب على ما اراده ذو انتقام وسطوة وتسلّط على من خالفه في الأحكام • ثم استأنف لبيان سعة علمه وإحاطته بالأشياء علما وقدرة •

فقال : (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)(٥)

كثيراً أو قليلاً ، عظيماً أو حقيراً ، فمن الذي يماثله في ذلك حتى يدعي أنه إله ؟ أو من أنداده ؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ! وإنما مثل الموجود الذي يتراءى في صورة العظيم كمثل مادة صقيل تتجلى عليه الشمس ساعة أو دقائق فيتنور إذ ذاك وما هي إلا زمان وينمحي الأثر كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

(هُوَ الَّذي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إله إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (٦) جملة مستأنفة في مقام الجواب عن السؤال المقدر . أي ما الدليل على أنه تعالى لا يخفى عليه شيء ؟ فأجاب بأن الدليل أنه الذي يصوركم في الأرحام بصور مختلفة ، فإن ذلك لا يمكن بدون العلم الواسع الشامل . ويحتمل أن يكون دليلاً على أنه الحي القيوم . فإنهذه الأفعال المتقنة العجيبة ، والصّور الغريبة من الآياتِ البيّنات على العلم الواسع الشامل للكليات والجزئيات ، ورعايته لما جرى ويجري ، والمحاسبة عليها في المستقبل ، وعدم خفاء شيء عليه في الارض والسموات ... شاهدة على أنه واجب الوجود وحيّ بالذات وعالم بالإبداع ، وقائم بذاته ، ومقيم لغيره من الكائنات . بحيث يترنّم لسان المقال والحال ، بل بيان الجمادات من الصحارى والجبال ، أنه لا اله إلاّ هو العزيز الحكيم والحي القيوم لكل عين وعرض بالوجه المراد المرسوم .

(هُوَ الَّذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنه آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلوبِهِمْ

زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْويلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ اللهُ ، والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُون : آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَما يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ) (٧)

خرّج مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : تلا رسولُ الله ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ هذه الآية وقال : إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله ، فاحذروهم •

(هُوَ الذي أَنزَل عليكَ الكتاب منه آياتٌ مُحكَمات) أي واضحات المعاني (هن أمّ الكتاب) أي تلك الآيات المحكمات مراجع للآيات الأخرى • (وأخَر مُتشَابِهات) غير واضحة المعاني (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) • فالّذين في قلوبهم تجاوز عن خط الإعتدال وعدول عن الحق يتعلقون بالآيات المتشابهة ويأخذون بظواهرها غير المنسجم مع المحكمات أو يؤولونها تأويلاً باطلاً مخالفاً لها • وذلك رغبة وطلباً لافتتان الناس وانحرافهم عن الحق ، وطلباً لإرضاء شهواتهم النفسية الممزوجة بالهوى •

(وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم) وفي الواقع والحقيقة لا يعلم تأويل ما تشابه منه إلا الله سبحانه وتعالى العالم بمراده منه وإلا العلماء الراسخون الثابتون المرتكزون في العلم بالحقائق بما عندهم من التقوى وانشراح الصدر وأنوار القلب فأُلهِموا بما أراده تعالى منه •

(يقولون : آمنا به كل من عند ربّنا) وحال أولئك العلماء الراسخين أنهم يقولون آمنا بما تشابه من الآيات أنها من الله تعالى ، وعلى مطابقة

الحق ، ولاتخالف المحكمات في الواقع • وذلك لأنهم أولوا العلم الصحيح وما يذكر إلا أولوا الألباب • والمراد بهم أصحاب العلوم المطلقة عن الهوى والزخارف ، والسليمة من الأوهام • ومما يجب أن يعلم أن في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم كما في قوله تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) وذلك باعتبار أن جميع القرآن حق موافق الواقع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد • وفيه ما يدل على أنه كله متشابه كما في قوله تعالى : (اللهُ نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) الآية ••• وذلك باعتبار أن آياته يشبه بعضها بعضا في الإرشاد والتذكير وبيان الأصول والفروع والقصص وما شابهها • أو أنها كلها متشابهات متماثلات في الإعجاز والبلاغة ، أو في التنوير وما شاكله • وفيه مايدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه كما في قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات) فانقسم العلماء في تفسير اللفظين على آراء •

فقال ابن عباس : المحكمات هو قوله تعالى في سورة الأنعام : (قل : تعالَوْا أتل ما حرم ربّكم عليكم) إلى ثلاث آيات • وقوله في بني إسرائيل : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وقال أيضاً : المحكمات ناسخه ، وحرامه ، وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به • والمتشابهات : المنسوخات ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله وإقسامه ، وما يؤمن به ، ولا يعمل به •

وقال ابن مسعود : المحكمات الناسخات • والمتشابهات المنسوخات •

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات هي التي فيها حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه • والمتشابهات لهن تصريف وتحريف وتأويل إبتلى الله فيهن العباد •

وقال النحاس : أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات : أن المحكمات ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره نحو : (ولم يكن له كفواً أحد) ، (وإني لغفار لمن تاب) والمتشابهات نحو : (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) يرجع فيه إلى قوله جل وعلا : (وإني لغفار لمن تاب) وإلى قوله عز وجل : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وقال جابر بن عبدالله : المحكمات من آي القرآن : ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره . والمتشابه : مالم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال ، ونزول عيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور ...

وذهب الحنفية إلى أن المحكم الواضح الدلالة الظاهر الذي لايحتمل النسخ . والمتشابه الخفي الذي لا يدرك معناه عقلاً ولا نقلاً ، وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور .

وذهب الشافعية : إلى أن المحكم هو المتضح المعنى والمتشابه بخلافه . ومعنى إتضاح المعنى أن يظهر عند العقل أن معناه هذا لاغير . هذه أقوال منقولة في الموضوع . وفي الكشف على ما نقله الشهاب : واعلم أنه لاينكر أن في القرآن من الحقائق ما لاسبيل للبشر إلى الوقوف عليه ، تصديقاً لقوله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (هو البحر لا تنقضى عجائبه) . وفي أن ما سيق لتلك المعاني المستأثر بها في علم الغيب له ظاهر كلّفنا علمَه ، وباطن كلفنا تصديقه إيماناً بالغيب ، فلا نزاع بين الفريقين . إنما النزاع في المتشابه المذكور في قوله تعالى : (وأخر متشابهات) ومن المتشابه الصفات السمعية من : الإستواء ، واليد ، والقدم ، والنزول إلى السماء

الدنيا ، والضحك ، والتعجب ، وأمثالها ... فعند السلف ، ومنهم الأشعري ، أنها صفات أُخرى غير الثمانية ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها مع اعتقاد عدم التشبيه والتجسيم لئلا يتعارض العقل والنقل . وعند الخلف ليست صفات زائدة على الثمانية بل راجعة إليها . والأليق أن يتوقف لأنه المنقول عن السلف الصالح . إنتهى . وفي المستصفى للإمام الغزالي ـ رضى الله عنه ـ : (مسألة) في القرآن محكم ومتشابه كما قال تعالى : (منه آيات مُحْكَمات هن أمّ الكتاب وأُخَر متشابهات) واختلفوا في معناه ، وإذا لم يرد توقيف في بيانه فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من حيث الوضع .

ولا يناسبه قولهم : المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور ، والمحكم ما وراء ذلك . ولا قولهم : المحكم مايعرفه الراسخون في العلم والمتشابه ما ينفرد الله تعالى بعلمه . ولا قولهم : المحكم الوعد والوعيد ، والحلال والحرام ، والمتشابه القصص والأمثال . وهذا أبْعَدُ بل الصحيح إن المحكم يرجع إلى معنيين : أحدهما المكشوف المعنى الذي لايتطرق إليه إشكال واحتمال . والمتشابه ما تعارض فيه الإحتمال . الثاني : إن المحكم ما انتظم وترتّب ترتيباً مفيداً إما على ظاهر أو على تأويل ، ما لم يكن فيه متناقض ومختلف ، لكن هذا المحكم يقابله المثبّج والفاسد دون المتشابه . وأما المتشابه فيجوز أن يعبّر به عن الأسماء المشتركة كالقرء . وقوله تعالى : (الذي بيده عُقْدَةَ النكاح) فإنه مردد بين الزوج والولي وكاللّمس المرَدّد بين المسّ والوطء . وقد يطلق على ما ورد في صفات الله مما يوهم ظاهره الجهة والتشبيه ويحتاج إلى تأويله . فإن قيل : قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) الواو للعطف ، أم الأولى الوقفُ على الله ؟ قلنا : كل واحد محتمل ؛ فإن كان المراد به وقت القيامة فالوقف أولى ، وإلا فالعطف ؛ إذ الظاهر أن الله

تعالى لا يخاطِبُ العرب بما لا سبيل إلى معرفته لأحد من الخلق . إنتهى نصــــه .

قلت وبالله التوفيق : قد قرأتم الأقوال المروية في تفسير المحكـم والمتشابه ، كما قد علمتم أن من القراء من وقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله) ومنهم من يقف على العلم في قوله تعالى : (والراسخون في العلم) فعلى ذلك لاشك ولا شبهة في أن المحكم عبـارة عما اتضحت دلالته ولم يعرض عليه الإجمال حتى تتسع فيه دائرة الإحتمال . والمتشابه على خلاف ذلك . فله قسمان : الأول : ما استأثر الله تعالـــى بعلمه . والثاني : ما احتاج فهمه إلى دقة ورسوخ في العلم . وذلك لأنـه لو حمل المتشابه على معنى ما استأثر الله تعالى بعلمه فلا يبقى مجال لأحدٍ إلاّ في الوقف على الله ؛ لأنه لا يعلم حقيقة الآيات المتشابهة بهذا المعنـى إلا الله تعالى . ولو حمل على معنى ما كانت دلالته خفية محتاجـة إلـــى رسوخ في العلم فلا يبقى نزاع على الوقف على كلمة العلم ، لأن الـرّاسخين في العلم يفهمون المدلولات الدقيقـة الخفية ، وإلا لـزم تعطيل الناس فـي الأحكام بسبب الإجمال وخفاء الدلالة في المشترك والمطلق والمقيد والعـام والخاص والمجمل والمبين والناسخ والمنسوخ ، ولزم عدم صحة بيان العلماء في فواتح السور ، وآيات الصفات كما في قسم المستأثرات .

ومثال القسم الأول أي ما استأثر الله بعلمه من المتشابهات : مَبدأ خلقِ العالم ، وَوقتُ قيام الساعة ، وسر القضـاء والقدر ، وكيفية بعـث الأموات من القبور ، وإحياء الموتى ، والحساب ، والميزان ، وما شاكلها .. فإنها مما استأثر الله تعالى بعلمه . ولذلك قال ـ صلى الله تعالى ـ فـي جواب أخبرني عن الساعة : (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) .

ومثال القسم الثاني من المتشابه أي ما كانت دلالته خفية ، ولكن يفهمها الراسخون في العلم : فواتح السور وآيات الصفات وسائر المجملات من المشترك وغيره • وبالنسبة إلى القسم الأول وجب الوقف على لفظة الجلالة إتفاقاً • وبالنسبة إلى القسم الثاني وجب الوقف على العلم كذلك • والمقصود هنا أنه ليس الوقف على الأول للسلف والوقف على الثاني للخلف ، بل وجب الوقف على الأول عند الكل في القسم الأول ، وعلى الثاني كذلك في القسم الثاني •

ولا يعارض ما قلنا من إدخال فواتح السور وآيات الصفات في القسم الثاني من المتشابه وأنه يعرفه الراسخون •• ما نقل عن كثير من السلف من جعلها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله بقرينة أن الخلف خالفوهم وجعلوها مما يدرك بالعلم الراسخ وأولوها بتأويلات مناسبة لنزاهة الباري جل شأنه ؛ فإن ذلك دليل على أنها ليس مما استأثر الله تعالى بعلمه ولكنها دقيقة جداً يعلم تأويلها الراسخون جداً في العلم، بل الراسخون يعلمونها كأجلى البديهيات• قال في الكشف على مانقله صاحب روح المعاني ـ رحمه الله ـ في نحو (ق ، ص ، حم ، طس) : لعل إدراك ما تحتها عند أهله كإدراكنا للأوّليات • ولا يستبعد ففيض الباري عم نواله غير محصور ، واستعداد الإنسان الكامل عن القبول غير محسور • ومن لم يدرك ولم يصدق إجمالا أن وراء مدركات الفكرة ومبادئها طوراً أو أطواراً حظّ العقل منها حظّ الحس من المعقولات فهو غير متخلّص عن مضيق التعطيل أو التشبيه • إنتهى •

وحاصل المقصود : أن جعل آيات الصفات من المتشابه لا يقدح في ضبطنا لها ، وإدخالها في القسم الثاني ؛ لأنها على أي حال ليست من القسم الأول الذي إستأثر الله بعلمه إجماعاً • فإن للخَلَف فيها دَعوى

المعرفة والتأويل بحيث يناسب عظمة ذاته الجليل • وتفويض السلف إليه تعالى رعاية للأدب الكامل في المقام والله أعلم بحقيقة المرام •

(رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا ، وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهّابُ)(٨)

يحتمل أن تكون هذه الآية الشريفة من قول الراسخين في العلم ؛ فالتقدير : والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا • ويقولون : ربّنا لا تُزِغ قلوبنا ولا تَصْرِفها عَن الإيمان بالتنزيل إلى اتباع المتشابه للفتنة والتضليل ، وهب لنا من لدنك رحمة تنزل على قلوبنا فتثبتها على نهج الحق وتطمئن بها • وأن تكون جملة مستقلة دعائية يطلبون بها تثبيت القلوب عند منازعة المغريات ، أو مقارعة الكروب • وقوله تعالى : (انك أنت الوهاب) تعليل للسؤال او لإعطاء المسؤول منه تعالى •

(رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعادَ)(٩)

وهذه الآية عرض شدة الإفتقار إلى رحمته أي كيف لا يفتقر إلى رحمتك وأنت صاحب تجليات القدرة والرهبة ، وجامع الناس على اختلاف الطبقات في يومٍ مهول مهيب لا ينبغي للعاقل الذي له شعور بالمسؤولية أن يشك فيه ، وقد وعدت بالفضل والإحسان للعباد وأنت لا تخلف الميعاد ؟

والميعاد : مصدر ميمى يراد به الوعد ، والمقصود وعدُه بالرحمة العامّة•

(إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ ولا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النّارِ) (١٠)

المراد بالموصول إما الكافرون مطلقاً ، أو وفد نجران من النصارى ، أو اليهود من قريظة والنضير ، أو المشركون كما قاله ابن عباس ــ رضى

الله عنهما ـ يعني إن الذين كفروا واعتمدوا على أموالهم وأولادهم ، وكفروا بنعمة الله بدلاً عن شكره قد خسروا في الدنيا والآخرة ، ولن تجزي ولن تغني عنهم من قضاء الله عليهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة شيئاً من الإغناء عند الله ، وأولئك هم وقود نار الجحيم لأهل العذاب الأليم . والوقود : بضم الواو مصدر وُقِدَت النار إذا اشتعلت . وبفتحها : عبارة عن المادة التي تشعل بها . أعاذنا الله منها .

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، واللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(١١)

الدأب : العادة والشأن ، والجار والمجرور متعلق بما قبلُ . أي لن تغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم كما لم تُغنِ عن آل فرعونَ ، وعن الكفار الذين كانوا قبلهم ؛ لأنّهم كذّبوا بآياتنا مثل الكافرين الذين في عصرك ، فأخذهم الله وعاقبهم بسبب ذنوبهم من : التكذيب بالآيات ، والكفر بمنزّلِها ، ومَن بلّغها ، وسائر الأعمال الفاسدة التي ارتكبوها . وجملة (والله شديد العقاب) تذييل مقرر لمضمون ما قبلها .

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (١٢)

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : لما هزم الله المشركين يوم بدر قالت اليهود : هذا والله هو النبي الأمّي الذي بشرنا به موسى عليه السلام ونجده في كتابنا بنعته ، وأرادوا تصديقه واتباعه ، ثم قال بعضهم لبعض : لا تَعْجلوا حتى تنظروا إلى وقعة له أخرى . فلما كان يَومُ اُحد ونُكِبَ أصحاب رسول الله شكّوا وقالُوا : لا والله ما هُوَ به . وغلَب عليهم الشقاء فلم يُسْلموا . وكان بينهم وبين رسول الله عهدٌ إلى مدّة فنقضوا

ذلك العهد ، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة وأبي سفيان وأصحابه ، فوافقوهم ، وَاَجْمَعُوا اَمرهم ، وقالوا : لتكونن كلمتنا واحدة • ثم رجعوا إلى المدينة ، فأنزل الله فيهم هذه الآية •

ومعناها : قل لليهود : ستغلبون قريباً ، فتقتل قبيلة بني قريظة وتجلى بنو النضير ، وتفتح خيبر ، وتضرب الجزية عليكم • أو قل لمشركي مكة : ستغلبون في مواطن الحرب والجهاد ، وتقتلون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد جهنم •

(قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اْلتَقَتَا : فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ واُخْرى كافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِم رَأْيَ الْعَيْنِ ، واللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ)(١٣)

معناه : قد كانت لكم أيها اليهود المغترون بكثرتكم عدداً وقوتكم عُدَداً آية وعلامة وخارقة عظيمة في فئتين إلتقتا في بدر : فئة مسلمة تقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله : كلمة التوحيد ، كلمة الإسلام • وفئة أخرى كافرة بالله وتوحيده ، وهم مشركون من صناديد مكة وأحباشهم وأوباشهم ، والكافرون يرون أنفسهم مثليهم أي مثلي المحاربين المسلمين رأي العين ، ولم تكن هناك شبهة إلا إلتباس العيون في الضبط والتحقيق مع أنّ اولئك المسلمين القليلين إنتصروا بإذن الله على أولئك الكافرين المشركين الكثيرين ، فقتلوا منهم سبعين شخصاً ، واَسَروا سبعين • والله يؤيد بنصره من يشاء من العباد على من يشاء • إن في ذلك التأييد والإنتصار لعبرة وعظة لأولى الأبصار •

ومن المفسرين من قال : إن الضمير المنصوب عائد الى المسلمين يعني يرى الكافرون المسلمين زائدين عليهم بقدر المثلين حتى تقع هيبة المسلمين وكثرة عددهم على الكافرين وتنحلّ عزيمتهم •

ومن قال : إن الضمير المرفوع والمنصوب كليهما عائدان إلى الفئة المسلمة باعتبار المعنى يعني أن المسلمين كانوا يرون أنفسهم ضعفي الكافرين حتى يتخفّف الكفار عندهم ، وتشتد عزيمتهم على القتال معهم مع أن المسلمين كانوا أقلّ منهم عدداً . ومن قال : إن الضمير المرفوع عائد إلى المسلمين ، والمنصوب عائد إلى الكفار يعني أن المسلمين كانوا يرون الكافرين مثليهم فقط ، مع أن الكافرين كانوا أزيد من ذلك بكثير . وذلك لعين الغاية المذكورة .

فيا أيها اليهود إذا علمتم بهذه الوقعة الصارمة الخارقة للعادة ، وأدركتم أن المسلمين منتصرون على الكفار فكيف تغترون بكثرتكم وتعتقدون نصرتكم ؟ فالأحسن لكم بل الواجب عليكم أن ترجعوا من الضلال إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم ، وأن تنقادوا لله تعالى وتؤمنوا بخاتم النبيين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتخلصوا من عذاب الدنيا والآخرة . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

ولما ذكر الباري تعالى الكافرين من اليهود وغيرهم ومدى جهلهم وضلالهم بيّنَ أنّ منشأ ضلالهم محبة الدنيا والشهوات النفسية العاجلة الفانية ، فقال :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ : النِّسَاءِ ، وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ ، وَالْحَرْثِ . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (١٤)

زين : ماض مجهول من التفعيل . وفي الانتصاف : التزيين للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب ، وهو بهذا المعنى مضاف إلى الله تعالى حقيقة ، لأنه لا خالق إلا هو . ويطلق ويُراد به الحضّ على تعاطي

الشهوات والأمر به ، وهو بهذا الإعتبار لا يضاف إلى الله تعالى إذ هو لا يَحُضّ إلا على المشروع شهوة أو غيرها • وأما الشهوة المحظورة فتزيينها بالمعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلاً لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها • وكلام الحسن ــ رحمه الله ــ محمول على التزيين بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول ؛ فإنه يتحاشى أن ينسب الخلق إلى غير الله تعالى • لكن الزمخشري كثيراً مّا يورد أمثال هذه العبارة المبهمة وينزلها على قواعدهم الفاسدة • فتفطن لها ونزِّه مَن قالها من السلف الصالح عما يزعمه • إنتهى •

والناس : يراد به جنس الإنسان • وما قيل : إنه يشمل الثقلين كما قال في القاموس يكون من الإنس والجن وهو جمع اُنس أصله أناس" جمع" عزيز" أدخل عليه أل • إنتهى أي وحذفت الهمزة • قال البيضاوي : وفيه تعسف • قال الشهاب : لأنه بناء على ما نقل عن الكلبي من أنه يقال : ناس من الجن والمعروف خلافه •

والحب : صفة نفسية تدعو صاحبها إلى الرغبة في الشيء والميل إلى لقائه وبقائه ضدّ الكراهية والبغض له • وله أصناف • والشهوات : جمع شهوة • والمراد بها المشتهيات كالأمور المذكورة في الآية • والنساء : إسم جمع كالقوم والرهط لا مفرد لها من لفظها • والبنين : جمع إبن ، وترك البنات للعلم بها منهم ، أو لشمول البنين لها تغليباً ، أو لقلة الرغبة فيهنّ • والقناطير : جمع القنطار بمعنى المال الكثير بلا تجديد • وقيل : مأة ألف دينار • وقيل غير ذلك • والمقنطرة : صفة للقناطر على العادة الجارية من توصيف الشيء بما يشتق هو منه كظلّ ظليل ، ويوم أيوم ، وليل أليل ، والعرب العرباء • وذلك كثير في وزن فاعل وقد يستعمل في اسم المفعول كما هنا • والمسومة : بمعنى المعلمة بعلامة تدل على أصالتها • والأنعام :

جمع نعم : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز • والأنعام يطلق على الأنواع الثلاثة • والنعم مختصة بالإبل كما في الشهاب • ذلك إشارة إلى ما ذكر جمعاً أو جميعاً •

وقوله (متاع الحياة الدنيا) أي فيشترك فيها المسلم والكافر ؛ لأن حبها من الغرائز الإنسانية • ومقتضيات الطبيعة • ولا ثواب في حبها المجرد عن رعاية جانب الدين • وحسن المآب حسن المرجع بإضافة الصفة إلى الموصوف أي المرجع الحسن ، وهو الجنة والرضوان •

ومعنى الآية الكريمة : إنه زيّن الله تعالى للناس حب المشتهيات مما ذكر وغيرها إبتلاءً ليبلوهم أيّهم أحسن ملاحظة ورعاية لما ذكر • وكل ذلك متاع الحياة الدنيا بالنظر إليها مجردة عن رعاية شريعة الله تعالى فيه ، ولا يترتب عليه ثواب • وأما إذا سعى المرء في كسبها ورعايتها للإستفادة منها بالوجه المشروع ، وجعلها مزرعة للآخرة ؛ فقصد من النساء الإعفاف وتكثير النسل ، ومن البنين بقاء الخير في المجتمع بالعلم والعمل الصالح والتعاون على البر والتقوى ، ومن الذهب والفضة الإنفاق في المؤن الواجبة والمستحبة ، ومن الخيل السير في طريق الخير والجهاد في سبيل الله ، ومن الأنعام تحصيل الخيرات للأنام ••• فذلك حينئذ متاع حياة الدارين وسعادة الكونين • ويؤيده قوله الآتي : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم : للذين اتقوا عند ربّهم جنات) الآية ••• فإن التقوى عبارة عن الإبتعاد عن الملهيات النفسية واقتراب من المرضيات القدسية ، فمن كان عنده المشتهيات المذكورة واتقى الله فيها فله الدرجات في جنات النعيم • ولكن من زكى نفسه وتجرد عن حبّ المتاع وتوجه إلى ربّه فلاشك أنه في الدرجات العالية من جنة النعيم وفاز بمراتب الكرامة من ربه الرحيم •

(قُلْ : أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ : لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ ، واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ) (١٥)

قوله تعالى : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) تقرير لوجود المتاع الأخروي الذي لا مناسبة بينه وبين متاع الدنيا عند الله تعالى • وقوله (للذين اتقوا) جملة مستأنفة لبيان ذلك الخير • فيقول : (للذين اتقوا) عن الدنيا وزخارفها ، إلا ما أعانهم منها على طاعة الله ، أُعِد (عند ربهم) المحب لهم والفائض عليهم من رحمته (جنات تجري من تحتها الأنهار) بلا أخاديد على صنع الله المجيد ، أو على العادة كما هو الموجود خالدين • مقدرين الخلود فيها بلا أعراض وأمراض • وأزواج ذوات ابتهاج مطهرة من أوساخ سوء المزاج ، ومن الاقذار التي تشوش التمتع عند العلاج • وهذه من الماديات ، وفوق ذلك لهم مقام معنوي وهو رضوان عظيم من الله الكريم لائق بفيض إحسانه العميم • والله بصير بالعباد ، خبير بأحوالهم وأعمالهم ونياتهم في الدنيا ، وبما أعد لهم من الثواب في المعاد • وفي الحديث الشريف أنه سبحانه يسأل أهل الجنة : هل رضيتم ؟ فيقولون : ما لنا لانرضى ياربّ وَقَد أعطيتَنا مالم تُعْطِ أحَداً مِن خلقك ؟ فيقولون : ياربّ وَأيّ شيء أفضَلُ مِن ذلك ؟ قال : أُحِلّ عَليكم رِضواني فلا أَسْخَطُ عَليكم أَبَداً •

(الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ ، وَالصَّادِقِينَ ، وَالقَانِتِين والْمُنْفِقِين ، والمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)(١٧)

قوله : (الذين يقولون) الآية بيان للعباد المذكورين سابقاً المخصوصين بالتقوى ، وبدل عن الذين اتقوا ، وكشف عن أقوالهم وأحوالهم • فيقول الذين يناجون بالتضرع والإبتهال ربهم ويقولون ربنا إننا آمنا بك وبرسولك وبما جاء به من عندك معترفين بقصورنا عن العبادة ووفور ذنوبنا • (فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) ويلمحون إلى أن إيمانهم بالله يستأهلهم لفيض الرحمة من علام الغيوب ومغفرة الذنوب والوقاية عن عذاب النار ذات اللهب والكروب •

ثم يذكر الرب سبحانه وتعالى على تقرير أهليتهم لنيل الرضوان صفاتهم فيقول : (الصابرين) على أداء طاعة الله وعن المحارم • (والصادقين) في نياتهم وأقوالهم • (والقانتين) المطيعين باستمرار • (والمنفقين) أموالهم في سبيل الله إنفاقاً واجباً أو مستحباً ، لاسيما وقت الشدة والغلاء في الديار • (والمستغفرين بالأسحار) أي الذين يشهدون صلاة الصبح فيصلون ، ويشتغلون بالإستغفار • والإستغفار مندوب إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين في هذه الآية وغيرها • وقال : (وبالأسحار هم يستغفرون) وروي عن أنس : سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الله يقول إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عمّار بيوتي ، وإلى المتحابّين فيّ ، وإلى المتهجدين والمستغفرين بالأسحار صرفت العذاب بهم • وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نستغفر بالأسحار سبعين إستغفارة •

وتخصيص الأسحار بالإستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ؛ إذ العبادة حينئذ أشق ، والنفس أصفى ، والرَّوْعُ اجْمَعُ • وأخرج إبن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال : هم الذين يشهدون صلاة الصبح •

قال الزجاج : السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثاني •
وقال ابن زيد : السحر هو سدسُ الليل الأخير •

وفي الحقيقة إن الإستغفار في أي زمان ومكان هو من العبادات المهمة لأن فيه إعترافاً بالذنوب وبوجود العيوب ، واعترافاً برب العالمين علام الغيوب ، والتجاء إلى حضرته الرؤوف الرحيم الغفار مع طلب العفو عن السيئات والأوزار ، فالمرجو من الكريم المنان المغفرة والستر والأمان •
وفي سورة نوح : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً • يرسل السماء عليكم مدراراً ويُمْدِدْكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهاراً) والعباد الصالحون كانوا يوصون أتباعهم بالإستغفار بعد كل صلاة فريضة مائة مرة ، بافتتاحه واختتامه بالصلاة على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآله وصحبه ثلاث مرات •

وروي عن علي ابن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ بيده ثم قال : ألا أعلّمك كلمات تقولهن لو كانت ذنوبك كَمَدَبّ النَمل لغفرها الله لك ؟ : أللهم لا إله إلا أنت سبحانك عَمِلتُ سُوءاً وظلمت نفسي فاغفرلي ، فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت •

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ لا إلهَ إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)(١٨)

نزلت هذه الآية الكريمة في نصارى نجران لما حاجّوا في أمر عيسى عليه السّلام وقالوا : إنه ابن الله • تعالى عن ذلك • فردهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال إن الله سبحانه واحد ، وليس له ولد ولا والد •
فنزلت الآية شهادة على دعوى رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوحدانيته •

وفي (شهد) أقوال : فمنهم من قال : إن الشهادة بالنسبة إلى الله والملائكة وأولى العلم بمعنى واحد ، وهو الإخبار المقرون بالعلم ، أي أخبر الله وأخبر الملائكة وأخبر أولو العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائماً في تصرفاته بالقسط والعدل ، فإرساله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ حق وعدل كما أن إرساله لسائر الرسل حق وعدل ، ولا معنى للإعتراض على إرساله أيّ رسولٍ إلى أيّ قوم ، ولا في إرساله بعض الرسل إلى قوم خاص ، وإرساله محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى كافة الثقلين بشيراً ونذيرا ،

ومنهم من قال : شهادة الله غير شهادة الملائكة وأولى العلم ، فشهادة الله تعالى عبارة عن خلقه الدلائل الدالة على توحيده وانفراده بالخالقية والربوبية ، وشهادة الملائكة عبارة عن إخبارهم بوحدته تعالى بينهم ، أو إظهاره وإلقائه بإلهام إلى قلوب الاصفياء ، وشهادةُ أُولي العلم عليه عبارة عن إقامة الدلائل الدالة على وجوب وجوده وخالقيته ومعبوديته ، واتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن النقائص ،

وعلى ما قررنا من مورد النزول فالمدعي لوحدته هو الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، والله تعالى ، والملائكة في الغيب ، وأولو العلم في الشهادة من الشهود عليها ، فإن قيل : كيف يكون الباري تعالى شاهداً للرسول على وحدة ذاته ؟ وكيف يثبت بشهادة الشخص حقّ لنفسه ؟ فالجواب جوابان :

الأول هو أنّ الشاهد الحقيقي في كل قضية هو الله تعالى ؛ لأنه هو الذي خَلَقَ الدلائلَ الدالة على وجوده ، ووحدته ، واتصافه بالكمال ، وتنزهه عن النقص ، ولولا تلك الدلائل لما صحت وتحققت الشهادة ، ثم بعد نصب تلك الدلائل هو الذي وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل ،

ولولا تلك الدلائل التي نصبها الله تعالى وهدى إليها لعجزوا عن التوصل بها إلى معرفة الوحدانية • وهو الذي وفقهم على إرشاد الناس إلى تلك الدلائل ، وهو الذي خلق الملائكة وألهمهم وعلّمهم وجوده تعالى ووحدته وكماله • وإذا كان الأمر كذلك كان الشاهد على الوحدانية في الحقيقة هو الله تعالى وحده •

والجواب الثاني : أن الله تعالى هو الموجود أزلاً وأبداً ، وكل ما سواه فقد كان في الأزل عدماً صرفاً ونفياً محضا • والعدم يشبه الغائب ، والموجود يشبه الحاضر ؛ فكل ما سواه كان غائباً وبشهادة الحق صار شاهداً ، فكان الله شاهداً على الكل • كما أنه كان ولم يزل شاهداً على ذاته وصفاته فلذا قال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) •

والحق الحقيق في الجواب هو أن هذه الشهادة ليست الشهادة المعروفة لإثبات الدعوى ، وإنما هي شهادة بمعنى الإقرار بالحق وإعلانه في العالم • ولاشك أن ما في الكون من الجمادات والناميات ، والحيوان ، والانسان الجاهل ، والعالم الغير العامل ، وإن كان في وجودهم تسبيح وتقديس لله وتوحيد له لكن اللائق بإعلان الحق والإقرار به هو الله سبحانه ، والمعصومون وهم الملائكة ، والأنبياء ، والمرسلون ، والمحفوظون ، وهم العلماء العاملون الراسخون •

ولما كان المدعي أو المبلغ إلى العالم لتوحيد الباري عبارة عن الأنبياء والرسل الكرام لم يبق لتأييدهم في هذا المدعى الحق إلا الله تعالى وملائكته وأولو العلم الراسخ من عباده اللائقين بهذا الإعلان • فقال : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأو لوا العلم قائماً بالقسط • وكفى شرفاً للعلماء أنهم شرّفوا مع الملائكة برتبة الشهادة مع الله على توحيده في ذاته وصفاته وأفعاله جلّ جلاله • ثم أكد الله تعالى ما شهد به بقوله : (لا إله إلا هو)

وزاد (العزيز الحكيم) لإفادة أن الله عزيز وغالب على أمره في جميع ما أراده ، وحكيم في كل أفعاله وشؤونه • ومن الحكمة إرسال بعض الرسل إلى بعض الناس ، وبعضهم إلى جميع الأمم من العرب والعجم • والرسل عباد الله ، ويختص بمزيد عنايته من شاءه منهم • فلا مجال لعلماء النصارى المحاجة مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أن عيسى ابن الله أو خاتم الرسل ، أو شيء مما يخالف الحقّ •

ولما أشهد الله تعالى العلماءَ على توحيده أفاد أنّ لعلماء أصول الدين من التوحيد وغيره شرفاً زائداً على سائر العلماء في الدين •

(إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ ، وما اخْتَلَفَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، ومَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) (١٩)

هذه الآية الشريفة جاءت لتوكيد الأولى ، أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام وهو الدين الذي جاء به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ المبني على القرآن الكريم وسنة رسوله ومنهجه القويم • ودين النصارى واليهود لم يبق له إعتماد واستناد اليوم لقوله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ؛ يأمرهم بالمعروف ، وينهيهم عن المنكر ، ويحلّ لهم الطيبات ، ويحرّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرَهُم ، والأغلال الّتي كانت عليهم ، فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصَروُه ، واتّبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)

ومما ينبغي أن يعلم أن الإسلام في اللغة الإنقياد والإطاعة لأي شخص في أي شيء • وفي عرف الشرع جاء لمعنى عام يشمل الأديان كلها ، وهو

الإنقياد لله في شريعته ودينه كيفما كان . وعليه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : (إذ قال له ربه اَسْلِم ، قال : اَسْلَمتُ لِـرب العالمين) وقوله تعالى : (يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقوله تعالـى في شـأن ملكة سبأ : (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ولمعنى خاص وهو دين محمد خاتم الأنبياء والمرسلين حيث قال في جواب سؤال جبريل : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) حيث يندرج في الشهادتين الإيمان بجميع ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الله تعالى من الأصول والفروع الإعتقادية والعملية . ولما جاء الحصر في تعريف الخبر ظهر أنه ليس من الدين عند الله كل ما خالف دين الإسلام أصلاً أو فرعاً إعتقاداً أو عملاً . (وما اخْتَلَفَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ) من اليهود والنصارى في دين الإسلام فقال بعض منهم : إنه حق عام وآمن به ، وبعض : إنه حق خاص بأمة العرب . ونفاه بعض مطلقاً . أو في قضية التوحيد كالنصارى المثلثين ، واليهود القائلة ببنوة عزير . وقالت : إنه ابن الله . (إلا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ) منَ الإصحاح الواردة في كتبهم حيث أدرج فيها نعوت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وذكر فيها نعوته ، ونعوت أصحابه ، وكتابه ، وجهادهم في سبيل الله . وإنما اختلفوا بعد ذلك (بَغْياً بَيْنَهُمْ) أي طغياناً على الحق ، وظلماً على دين الإسلام ، وحسداً وطلباً للجاه والرشايا والهدايا وغيرها من سفاسف الأمور (ومَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ) النازلة الواضحة الهادية إلى الحق وإلى الصراط المستقيم (فَإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ) يحاسبهم ولا يخلصون من محاسبته وعذابه وعقابه إلاّ من آمن ودخل في عِداد المؤمنين .

(فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ • وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ : أَأَسْلَمْتُم ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ، وإِن تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ واللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (٢٠)

فإن حاجوك أي وفد نصارى نجران ، أو الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، أو أي صنف من الكفار ، ولجّوا في المحاجة بعدما أقمت عليهم الحجة فقل : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لله ومَنِ اتَّبَعَن فقل لهم : أسلمت وأَخْلَصْتُ وخَضَعت بقلبي وبدني لله وحده لا أشرك به غيره ، وكذلك من اتّبعني وآمن برسالتي إلى كافة الثقلين • وعن أبي مسلم أن الآيه في هذا الموضع كقول إبراهيم عليه السلام : (إني وَجّهتُ وَجْهِيَ للّذي فَطَرَ السّموات والأرضَ حَنيفا) وفيه إشارة إلى أن الجدال معهم ليس في موقعه لأن المناظرة تكون في أمر نظريّ ، والذي جادلوك فيه أمر معروف ومكشوف ، إذ لا شبهة في وجود الباري تعالى ووحدته وكماله ، وفي أنّ الأنبياء أمّة خاضعة له مطيعة لأمره ، ليس عند أيّ واحدٍ دعوى تخالِفُ الحقّ ، فجدالكم في شأن عيسى عليه السلام أو في ما يماثله لايحتاج إلى الجواب •

وَقُل للّذين أوتُوا الكتابَ من اليهود والنصارى والأمّيين أي غيرهم من الكفار المشركين : أأَسْلَمتم كما اسلم المؤمنون ؟ فإن أسْلَمُوا واتصفوا بالإسلام على الوجه الحق فقد اهتَدَوا إلى طريق الحق ، ولا يحتاجون إلاّ إلى الإستقامة على السلوك فيه • وإنْ تَوَلّوا وأعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوه فإنما عليكَ البَلاغ ، وقد أدّيته حَقّ الأداءِ على أكملِ وَجْهٍ وأبْلَغِه ، فلا يضرك بَعْدَ ذلك لجاجهم وسوء مزاجهم • والله بصير بالعباد تذييل لوعد المسلمين ، ووعيد الكافرين •

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (٢١)

روى إبن مسعود قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ! بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ! بئس القوم قوم يمشي المؤمن بينهم بالتَّقِيَّةِ » .

وروى أبو عبيدة بن الجراح أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « قَتَلت بنوا إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة . فقام مائة وإثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيل فأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، فقُتِلوا جميعاً في آخر النّهار من ذلك اليوم . وهم الذين ذكرهم الله في هذه الآية » .

فان قال قائل : الذين وُعِظوا بهذه الآية لم يقتلوا نبيّاً ! فالجواب : إنهم رَضُوا فعلَ مَنْ قتل ، فكانوا بمنزلته . وأيضاً فإنّهم قاتَلُوا النبي وأصحابه ، وَهَمّوا بقتلهم كما قال تعالى : (وإذ يَمْكُرُ بِكَ الّذين كَفَرُوا ليثبتوك اَوْ يَقْتُلوك) فيكون معنى الآية الكريمة : إن الذين يكفرون بآيات الله ، وكانوا يقتلون النبيين بغير الحق ، أوهمّوا بقتل النبي كذلك ، وكانوا يَقتلون العبّادَ الّذين أمروهم بالقسط ، أو لَهُم هَمٌّ وعزم على قتلهم في الحال أو في المستقبل .. فَبَشّرهم بعَذابٍ أليمٍ شديدٍ مؤلِم لِمَن يُعَذّب به .

(أولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (٢٢)

هذه الآية الكريمة جملة مصدّرة باسم الإشارة يفيد تعليل الحكم عليهم بحبوط أعمالهم بما باشروه من قتل النبيين وقتل الآمرين بالقسط • فإن ذهبنا مَذْهبَ سيبويه مِنْ مَنعِ دخول الفاء على خبر إن تكون هذه الآية خبراً لها ، وجملة فبشرهم بعذاب أليم معترضة بالفاء كما في قولك : زيد فاعلم رجل صالح • وإن اخترنا مذهب غيره من جواز دخول الفاء عليه فجملة فبشرهم بعذاب خبرها ، وقوله أولئك حبطت جملة مستأنفة مقررة لسوء أحوال السّابقين القاتلين لأولئك النّاس الكرام من الأنبياء عليهم السلام • والآمرين بالقسط في تلك الأيام •

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ ، وهُمْ مُعْرِضُونَ ؟!)(٢٣)

قال ابن عباس : نزلت بسبب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل بيت (المِدْراسِ) على جماعة من اليهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نُعَيمُ بن عمرو والحارث بن زيد : على أيّ دينٍ أنت يا محمد ؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إني على ملة إبراهيم • فقالا : فإن إبراهيم كان يهودياً • فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهلموا إلى التّوراة فهي بيننا وبينكم • فَأبَيا عليه ، فنزلت الآية • وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هَلُمّوا إلى التوراة ففيها صفتي ، فأبَوا عن ذلك •

قوله تعالى : (ألم تر) فيه تعجيب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يتأتى منه الرّؤية • وتنوين نصيباً يحتمل أن يكون للتحقير أو

للتعظيم ، ورجح الثاني بأنه أدْخَل في التوبيخ • فإن الأَعْلَم يجب أن يكون أطوع لاتباع الحق • وكتابُ الله القرآن أو التوراة • وقوله : (ثم يتولى) إستبعاد لتوليّهم عن ذلك مع أنهم كانوا يدّعون العلم • (وهم معرضون) حال ، ومعناه : قوم عادتهم الإعراض •

ومعنى الآية : ألم تر يا رسولي إلى أهل الكتاب الذين أوتوا نصيباً قليلاً من علم التوراة ، وهم يدّعون وفور العلم ، أو أُوتُوا نصيباً عظيماً من العلم بالتوراة مع أنهم لا يعملون به حيث أنهم يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله نفس الكتاب الذي يدعى العلم به ليحكم بينهم في موضوع النزاع • ومع ذلك يتولى جماعة منهم ولا يقبلون دعوتك ، ويعرضون عن إجابتك على ما استقر في طباعهم ؛ لأنهم قوم عادتهم الإعراض عن الحق والإستمرار في العناد •

(ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(٢٤)

يعني أن ذلك التولي والإعراض عن الحق حاصل منهم بسبب أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً قلائل معدودات بقدر أيام عبادة بعض آبائهم العجل ، وبسبب أنهم غرهم في أحكام دينهم ما كانوا يفترونه على يعقوب أنه أُوحي إليه أن لايكون نسله معذباً في الآخرة • وذلك إفتراء على يعقوب ، فإنه كان رسولاً مِن الله مرشداً للناس مبشراً ونذيراً ، ولم يأت بكلمة تفيد الغرور في نسله أصلاً •

(فَكَيْفَ إذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمونَ ؟!)(٢٥)

جاء الباري سبحانه وتعالى بالإستفهام عن حالهم للإستعظام والتهويل . وقال : فكيف تكون حالهم في يوم القيامة يوم البعث والحشر والحساب والسؤال والميزان ، اليوم الذي لاريب ولاشك في حصوله وحلوله ، يوم تخشع الأصوات للرحمن ولا تسمع إلا همساً ! يوم وفيت فيه في علمي وستوفى فيه كل نفس ما كسبت من جزاء الخير والشر ومن عقاب المعاصي والإفتراءات الجريئة على الله ورسوله وعذاب الغرور والتولي عن الحق ، وهم لايظلمون في توفية الجزاء والمجازاة ، فمن فعل خيراً نال جزاءً خيراً منه ، ومن فعل شراً فلا يلومَنَّ إلا نفسه ؛ لأن الله لم يظلمهم وإنما هم ظلموا أنفسهم ، وكانوا في الدنيا يظلمون أهل الحق والصّدق ، ويظلمون أنفسهم وهم يتجاسرون .

(قُلِ : اللهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ، وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٢٦)

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما جاء الأحزاب لحربه في المدينة المنورة أمر بخط الخندق تجاهها ، وحدّد لكل عشرةٍ أربعين زراعاً ، وأخذوا يحفرون ، فظهر في نصيب بعضهم صخرة عظيمة لم تعمل فيها المِعْوَل ، فوجهوا سلمان ـ رضي الله عنه ـ إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخبر ، فجاء وأخذ المعول وضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما حولها ، فكبّر وكبّر معه المسلمون وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أضاءت لي منها قصور الحيرة . ثم ضرب الثانية وبرق منها برق كذلك ، وقال : أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم . ثم ضرب الثالثة وبرق منها برق كذلك وقال : أضاءت لي منها قصور الصنعاء وأخبرني جبريل أن أمّتي ظاهرة على كلّها فأبشروا . فقال المنافقون : الا

تعجبون ؟! يُمَنّيكم ويَعدُكم الباطل ، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وغيرها وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف ! فنزلت ومعناه : يا محمد لا تهتم بكلام المنافقين وخذلهم للمسلمين الصادقين وتوجه إلى ربك واعتمد على إعزازه واقداره • وقل : أللهم يا ربّنا وخالقنا يا مالك الملك يا صاحب التصرف والسلطان المطلق ! تؤتي الملكَ والتصرف من تشاء من عبادك وتَنْزِعُه عمن تشاء منهم ، وتُعِز مَن تشاء منهم بالنصر في الدنيا والشفاعة في الآخرة ، وتُذلّ من تشاء منهم بالخذل والخسران والقهر والدّحر في الدنيا والخيبة والعقاب في الآخرة • إنك صاحب الأمر كله بيدك الخير والشر وإنك على كل شيء قدير • ولا تهتم بكلام الأعداء فإنه يكفيهم ما يأتيهم من البلاء • والعاقبة للمتقين •

(تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ ، وتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ، وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (٢٧)

ثم عقب ما أفاده من إستيلائه على السلطان المطلق ببعض آثار محسوسة ليركب العاقل من العيان برهاناً على ذلك البيان • فقال : أنت المالك للملك تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، حيث رَتَّبْتَ أمورَ الكائنات وحركاتِ الكواكب على المدارات في السموات ، وتأتي بالليل باتصال يشبه الولوج في النّهار ، وتأتي بالنهار بعد الليل متّصلاً بالنهار كذلك • أو تدخل بعضَ أجزاءِ النهار في الليل فتزيد الليل وتنقص النهار ، وتدخل بعض أجزاء الليل في النهار وتجعله منه فتزيد النهار وتنقص الليل • وذلك في الآفاق المائلة شمالية أو جنوبية ، وتراعيهما على حدّ سواء في الأفق المستوى والأفق الرحوي • فالليل ستة أشهر

والنهار ستة أشهر • وتخرج الحي حياة حقيقية مقرونة بالحس والحركة الإرادية من الشيء الميت الذي لا حس له ولا حركة • وتخرج الميت من الحي كذلك كالبيض من البائض وعكسه • أو تخرج المؤمن من الكافر وتخرج الكافر من المؤمن • وتشبيه المؤمن بالحيّ والكافر بالميت معروف ، ووجه الشبه معلوم • على ما رَوى مَعْمَر عن الزهري أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل على نسائه فإذا بامرأة حَسَنَةِ الهيئة • قال : مَنْ هذه ؟ قلن : إحدى خالاتك • قال : ومَنْ هي ؟ قلن : هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث • فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سبحانَ الذي يخرج الحي من الميّت • وكانت إمرأة صالحة وكان أبوها كافراً •

وأنت الذي تأتي بالمبدعات الغيبية بدون علم الناس بها ؛ فترزق من تشاء من الإنسان وغيره بغير حساب على المرزوق وأخذ البدل ، بل بالفضل والكرم • أو بغير حسبان وظن من المرزوق بل على الغفلة وعدم الترقب لتلك النعم • فالحساب بمعنى الإحتساب •

(لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ في شَيْءٍ ، إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنهُمْ تُقَاةً ، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ المَصِيرُ) (٢٨)

قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : كان الحجّاجُ بنُ عمرو ، وكهمس ابن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد ، والكل من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم • فقال رفاعة بن المنذر ، وعبدالله بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : إجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا لزومهم ، ومباطنتهم لايفتنوكم عن دينكم • فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم• فأنزل الله تعالى هذه الآية • ورويت موارد أخرى للنزول •

ومعنى الآية الكريمة : النهي عن أن يتخذ المؤمنون أياً كانوا وفي أي زمان ومكان ، لاسيما الجمع الذين وردت فيهم الآية الكريمة الكافرينَ من أهل الكتاب أو غيرِهم أولياء وأصدقاء يلاطفونهم ويباطنونهم ويصادقونهم بحيث يحصُلُ مِن ذلك ضرر على المسلمين . وقوله تعالى : (من دون المؤمنين) نَزَلَ موافقة لحال الجمع الذين وردت فيهم الآية ، حيث كانوا يوالونهم دون المؤمنين ، وإلا فليس قيداً في النهي حتى يستفاد منه أن موالاتهم للكافرين مع المؤمنين جائزة . وفي الحال عينها إشارة إلى أن المؤمنين أحقاء بالموالاة ، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكافرين . ويقول تعالى : ومَنْ يَفعَل تلك المُوالاةَ من المؤمنين مع الكافرين فليس في موالاة الله ومحبته وعبوديته له في شيء من النصيب ، إلاّ أنْ تتّقوا أيها المؤمنون الموالون من الكافرين بلاءً ومحنةً يُتَوقّى منها عادةً من الخوف على الأنفس والأعراض . ويحذركم الله عذاب نفسه وشدة بأسه . والى الله المصير وهو المحاسب المعاقِبُ لمن خالف النهي وكان من المعتدين .

وتقاة : أصلهُ وقاة . وَأصْل وقاةٍ : وُقَيَةٌ . قلبت الواو تاء ، وهو مصدر بمعنى الاحتراز . والمراد به هنا ما يتوقى منه من الشرور والآفات والبليات .

قال في روح المعاني : وفي الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها : بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء . والعدو قسمان : القسم الأول : من كانت عداوته مبنية على اختلاف كالكافر والمسلم . والثاني : من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والملك والمتاع والجاه والإمارة . ومن هنا صارت التقية قسمين : أما القسم الأول : فالحكم الشرعي فيه أن كل مؤمن وقع في محل لا يمكن له أن يظهر دينه

لتعرض المخالفين وجب عليه الهجرة إلى محل يقدر فيه على إظهار دينه ، ولا يجوز له أصلاً أن يبقى هناك ويخفي دينه ويتشبث بعذر الإستضعاف ، فإن أرض الله واسعة . نعم إن كان ممن لهم عذر شرعي في ترك الهجرة كالصبيان والنساء والعميان والمحبوسين والذين يخوفهم المخالفون بالقتل أو قتل الأولاد أو الآباء أو الأمهات تخويفاً يظن معه إيقاع ما خوّفوا به غالباً سواء كان هذا القتل بضرب العنق أو بحبس القوت أو بنحو ذلك .. فإنه يجوز له المكث مع المخالف والموافقة بقدر الضرورة . ويجب عليه أن يسعى في الحيلة للخروج والفرار بدينه . ولو كان التخويف بفوات المنفعة أو بلحوق المشقة التي يمكنه تحملها كالحبس مع القوت والضرب القليل الغير المهلك لا يجوز له موافقتهم . وفي صورة الجواز أيضاً موافقتهم رخصة وإظهار مذهبه عزيمة ، فلو تلفت نفسه لذلك فهو شهيد قطعاً .

ومما يدل على أنها رخصة ما روي عن الحسن أن مسليمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله فقال لأحدهما : أتشهد أنّي رسول الله ؟ قال : نعم . ثمّ قال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . ثم دعا بالآخر فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . فقال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : إني أصمّ . قالها ثلاثاً . وفي كل يُجيبُه بأنه أصمّ . فضَرَبَ عنقَه ! فبلَغَ ذلك رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال : أمّا هذا المقتول فقد مضى على صِدقه ويقينه ، وأخذ بفضله وهنيئاً له . وأمّا الآخر فقد رخصه الله تعالى فلا تبعة عليه .

وأما القسم الثاني : فقد إختلف العلماء في وجوب الهجرة وعدمه فيه . فقال بعضهم : تجب لقوله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وبدليل النهي عن إضاعة المال . وقال قوم : لا تجب إذ الهجرة عن ذلك المقام

مصلحة من المصالح الدنيوية ، ولا يعود من تركها نقصان في الدين لاتحاد الملة وعدوه القَوِيّ الغَوِيّ لا يَتعرض له بالسوء من حيث هو مؤمن . وقال بعضهم : الحق إن الهجرة هنا قد تجب أيضا إذا خاف هلاك نفسه أو أقاربه أو هتك حرمته بالإفراط ، ولكن ليست عبادة وقربة حتى يترتب عليها الثواب ، فإن وجوبها المحض مصلحة دنيوية لذلك المهاجِر لا لأصلاح الدين ليترتب عليها الثواب ، وليس كل واجب يثاب عليه ؛ لأن التحقيق أن كل واجبٍ لا يكون عبادة ، بل كثير من الواجبات لايترتب عليه الثواب كالأكل عند شدة المجاعة ، والإحتراز عن المضرّات المعلومة أو المظنونة في المرض ، وعن تناول السموم في حال الصحة أو غير ذلك . وهذه الهجرة أيضاً من هذا القبيل ، وليست هي كالهجرة إلى الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتكون مستوجبة بفضل الله تعالى لثواب الآخرة . وعدّ قوم من باب التقية مداراة الكفار والفسقة والظلمة ، وإلانَةَ الكلام لهم ، والتبسّم في وجوههم والإنبساط معهم ، وإعطاءهم لكفّ أذاهم وقطع لسانهم وصيانة العرض منهم . ولا يعد ذلك من باب الموالاة المنهي عنها بل هي سنة وأمر مشروع . فقد روى الديلمي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض .

وفي رواية : بُعثت بالمداراة . وفي الجامع : « سيأتيكم ركب مُبْغَضون فاذا جاؤكم فرحّبوا بهم » وروى إبن أبي الدنيا : « رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس » وفي رواية البيهقي : « رأس العقل المداراة » وأخرج الطبراني : « مداراة الناس صدقة » وفي رواية له : « وما وقى بِه المؤمنُ عِرضَه فهو صدقة » .

وأخرج إبن عدي وإبن عساكر : « من عاش مدارياً مات شهيداً ، قُوا بأمْوالِكم أعْراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه » . وعن بردة

عن عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت : إستأذَنَ رَجل" على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا عندَه •فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه : « بئس أخو العشيرة » ثم أذِن له فَأَلانَ له القَوْلَ ، فلمّا خرج قلتُ : يا رسول الله قلتَ ما قلت ثم أَلَنْتَ لَه القولَ ؟ فقال : « يا عائشة إن مِنْ أشَر النّاس من يَتْرُكُهُ الناس او يَدَعُه إتّقاءَ فُحْشِهِ » وفي البخاري عنأبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ : « إنا لَنَكْشِرُ فيوجوه أقوامٍ وَإنّ قلوبنا لَتَلْعَنُهم» وفي رواية ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحرمي بزيادة (ونضحك إليهم) إلى غير ذلك من الأحاديث • لكن لاتنبغي المداراة إلى حيث يخدش الدين ، ويرتكبُ المنكر ، وتسيء الظنون • إنتهى •

ونحن إذا نظرنا إلى القواعد العامة من نصوص الكتاب والسنة وإلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان من أهم واجبات الدين وعليهما صلاح المؤمنين •• علمنا أن المداراة غير التقية • فإن المداراة عبارة عن الإغماض والمسامحة في مقابلة بعض الناس ممن لهم مقام وشأن وقوة على إثارة الفتن في بعض الأوقات للمجاملة معه بدون إبطال الحقائق • وهذه هي المهمة الواجبة في الإجتماعيات كي لا تثور الفتن والمحن في العالم • وأما التقية فهي عبارة عن الإحتراز والإبتعاد عن شر العدو اللدود القوي الذي يقدر على قتل النفوس ، وهتك الناموس ، ونهب الأموال وتغيير الأحوال ، وذلك أيضاً لايمكن التغاضي عنه للرسل عليهم السلام ولا للخلفاء الراشدين وقادة الأنام وسادتهم في إرشاد الإسلام وبيان الأحكام كي لاينقلب الحق باطلاً ولا الضال أضَلّ وأغوى ، ولا يمتزج النفاق بقلوب الناس وأقوالهم وأفعالهم • ألا تنظرون إلى قوة الرسول عليه السلام بعد أمره بالصدع بما يؤمر ؟ كيف أعلَن وأبان ؟ وكيف قابل

أهل الطغيان وقبل هجر مكة والبقاء في شعب عبدالمطلب ؟ وكيف كان حاله في حرب هوازن قائلاً :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب

وكيف كان حال أبي بكر في حرب الردة وحرب مسيلمة الكذاب ؟ وكيف كان عمر ابن الخطاب مع الناس الأقوياء في تطبيق الآداب ؟ وكيف جمع عثمان القرآن وأضاع ما عدا المصاحف الستة ؟ وكيف حارب عليّ أعداءه من الخوارج وغيرهم ؟؟

والحاصل : إنا لا نقبل ما خالف قوله عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان » . كما لا نقبل أضعف الإيمان للأنبياء والرسل والخلفاء والقادة والسادة في الدين . وبذلك يبقى الإسلام على مر الدهور والأيام .

(قُلْ : إنْ تُخْفُوا ما في صُدُورِكُمْ أوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مافي السَّمواتِ وَما فِي الأَرْضِ ، وَاللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٢٩)

قل يا رسولي للجمع الذين يوالون اولئك اليهود أو لكل مَنْ أضمرَ شيئاً في صدره أيّاً كان : إن تخفوا ما في صدوركم من الموالاة وغيرها مع أولئك أو غيرهم أو تَبْدُوه بَينَ الناس فإنه يَعْلَمهُ الله قبلَ أن يَعلم أحَدٌ به . وذلك لأنه تعالى يعلم ما في السموات وما في الأرض من الأعيان والأعراض جليّها وخفيها ، فهو علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر منه ، والله كما أنه عالم بكل شيء فهو على كل شيء قديرٌ أيضاً فأيْنَ تَخْتَفُونَ وتُخْفُونَ ما عِندكم ؟

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ) (٣٠)

يوم : ظرف منصوب بقوله تودّ •أي تتمنى كل نفس من النّفوس المكلفة يوم تجدُ كل نفس ما عملته من خير في الدنيا ، وإن كان قليلاً جدّاً ، مُحْضَراً لديها بأمر الله تعالى مشاهداً في صحف أعماله ، وما عملته من سوء تَوَدّ لَو أنّ بينها وبينه أي بين تلك النفوس وبين ذلك العمل السيء أمداً بعيداً : مسافة بعيدة كما بين المشرق والمغرب • وذلك إنفعالاً من الخجل الذي يعتريه بمشاهدته ، وخوفاً من العقاب الذي يأتيه بعد المحاسبة • ويحذركم الله تعالى عقاب نفسه وشدّة بأسه ، والله رؤوف بالعباد إذ لا يعجل لهم العذاب ، أو لا يعذبهم في الدنيا والآخرة • أو لا يفضح المسيئين في الدنيا أو قد يسامح ويغفر للمؤمنين منهم •

(قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ والله غَفورٌ رَحِيمٌ)(٣١)

روى محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير ، قال : نزلت في نصارى نجران • وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده حباً لله تعالى وتعظيماً له ! فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم •

قيل : إن المحبة نوع من الإرادة ، وليست بشيء لأنه تعالى يحب الإيمان والاعمال الصالحة من كل مكلف ، ولو أرادها لكانت ، وليس كذلك ، بَلْ إنّه ميل الطبع إلى الشيء الملذّ • قال الإمام الغزالي ــ رضي الله عنه ــ في الإحياء : الحبّ عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء المُلِذّ ، فإن تأكّد ذلك الميلُ وقوي يسمى عشقاً • والبغض : عبارة عن

نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوي يسمى مَقْتاً • ولا يظن أن الحب مقصور على مدركات الحواس الخمس حتى يقال : إنه تعالى لا يُدْرك بالحواس ولا يتمثل بالخيال فلا يُحَبّ ؛ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمّى الصّلاة قرة عين ، وجَعَلها أبلَغَ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس للحواس الخمس فيها حظ ، بل حس سادس مظنته القلب • والبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر • والقلب أشدّ إدراكاً من العين • وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون ، لا محالة، لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهيّة التي تجلّ (أي تستحيل) أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه اقوى • ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة ، فلا ينكرُ إذاً حبّ اللهِ تعالى إلا مَنْ قَعَد به القصورُ في درجة البهائم • فلم يجز إدراكُه الحواسَّ أصلاً • نعم هذا الحُب يستلزم الطاعةَ كما قال الوَرّاق :

تعصى الإلهَ وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرى في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأَطَعتَه ... إن المحبّ لمن يحبّ مطيع

والقول بأن المحبة تقتضي الجنسية بين المحب والمحبوب فلا يمكن أن تتعلق بالله ، ساقط من القول •

ومعنى الآية الكريمة : قل للوفد من نصارى نجران : إن صدقتم وكنتم تحبون الله تعالى فأطيعوه فإن من أحب شخصاً أطاعه ، وقد أمر الله المحبوب لكم بإطاعته وإطاعتي • فقال : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)• وقال : (قل أطيعوا الله والرسول) وإذا أطعتموني فاتبعوني ، وإذا اتبعتموني يحببكم الله ، وإذا أحبكم الله حصلت المحبة من الجانبين ، إذ لا خير في محبة شخص لشخص لا يحبّه هو ،

وإذا أحبكم الله تعالى حصل فيكم صدق الحديث وأداء الأمانة والإحسان إلى الجيران • وإذا صارت هذه الامور سجية لكم يَغْفِر لكم ذُنُوبَكم والله غَفور" رحيم •

(قُلْ أطيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فَإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّ اللهَ لايُحِبُّ الكافِرِينَ)(٣٢) •

يروى أنه لما نزلت الآية السابقة قال عبدالله بن أبيّ إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نُحبّه كما أحَبّ النصارى عيسىَ ابنَ مريم • فنزلت هذه الآية • ومعناه : قل يا رسولي : اطيعوا الله والرسول في جميع الأوامر والنواهي ، ويدخل فيه ما دخل في الآية السابقة من اتباعه في أعماله وعقيدته وأحواله • فإن تولوا وأعرضوا عن إطاعة الله ورسوله فإن الله لا يحبهم ولا تفيدهم دعوى محبتهم له ؛ لأنهم عند ذلك يُعَدّون كفاراً • وإن الله لا يحب الكافرين • أي لا يرضى باعتقاداتهم ولا بأعمالهم ولا بأخلاقهم ، فتكون عقائدهم عُقَداً نفسية لا عَقائدَ قدسية ، وأعمالهم حابطة يوم الدين •

(إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيع" عَلِيم") (٣٤)

المعنى إن الله سبحانه وتعالى حكيم في أفعاله ، متقن في صنعه البديع ، فكما زَين السماوات بالمصابيح ، واصطفى منها الشمس والقمر وسائر الكواكب المشعة المشرقة ، وكما خلق الأرض والماء النابع الذي هو ركن في حياة الناميات ، وخلق الجمادات واصطفى منها المعادن الجوهرية النافعة ، وخلق الناميات واصطفى منها النباتات المثمرة ، وخلق الحيوانات

واصطفى منها الإنسانَ المُزَيَّن بالعقل والعلم الذي ينبع منه عجائب الصناعات المفيدة ... كذلك اصطفى من نوع الإنسان العاقل جيلاً جليلاً منه ، وهم الأنبياء والرسل الأبرار المصطفون الأخيار الذين هم مصابيح الهدى في ليالي ظلمات العقول العقيمة ودياجير الأوهام ليُشعّوا بأنوار قلوبهم على العالم ، لاسيما بني آدم ، ويخرجوهم بإذن الله من الظلمات إلى النور ويخلصوهم من فتن الشّياطين والنفس الأمارة بالسوء من الانانية والكبرياء والغرور ويوجهوا العقلاء إلى خالق السماوات والارض والإيمان بوجوده ووحدته وكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ، فإنه لولا هذه الطائفة المباركة الوافية لبقي العالم فيما هم فيه من العناد والعدوان والبغي والطغيان ، والتحق الإنسان بآفاق أفسد أصناف الحيوان ، وكل ذلك الإبداع من حكمته ونعمته ورحمته ، فإن العالم لا يتنور سطحه إلا بالمصابيح المادية ، ولا يتنور روحه إلا بالتسابيح الروحية ، فاصطفى آدم بخلقه بالذات بقدرته بلا أب ولا أم ، وعظمه وشرفه على الملائكة ، وأمرهم بسجود التشريف له وعلمه الأسماء كلها ، وجعله أبا البشر ، واختار نوحاً بإنجائه من الطوفان ، وجعله أباً ثانياً للانسان ، واستجاب دعاءه بإهلاك الكافرين . وجعل ذريته هم الباقين ، وجعله مصدراً للشرائع الجديدة بعد عهد آدم ، فجعل له ميزاناً مناسبا في العقود والحلول بين الأمم . واختار إبراهيم بأن جعله ناظراً في ملكوت السموات والأرض ومترقياً فكره من الآفل الزائلِ إلى الباقي الأبدّي الكامل ، وجعله مُصادماً قلعة الكفر والإشراك فآلت إلى الدمار والهلاك ، وأنجاه من النار ذات اللهيب ، وجعل نجاته معجزة للبعيد والقريب ، وجعله إماماً للبشر ، وأباً للأنبياء والرسل الكرام في البدو والحضر ، فجعل من ذريته إسماعيل ومحمداً الجليل ، وإسحاق ويعقوب وسائر أنبياء بني إسرائيل ، وامتاز بعض ذريته لضرب الفراعنة المتمرّدين والعمالقة الجبارين ، واصطفى آل عمران باصطفاء

موسى وهارون وداود ذا الأيد وسليمان ، وسخّر له مُلكاً لم ينبغ لأحد من بعده ، وجَعَل الريح الهادئة من جنده • وميز من الذرية عيسى المسيح بعبادته وطاعته وقناعته وسياحته وزهده • إلى أن اصطفى من نسل إسماعيل الجليل سيدنا محمداً خاتم النبيين والمرسلين وبعثه رحمة للعالمين ، وجعل دعوته لكافة المكلفين ، وأنزل عليه الكتاب الهادي إلى الصراط المستقيم ، ودينه خالداً في العالم إلى يوم الدين ، واختار له أصحاباً أنجاباً كراماً بالعقل والمقياس ، وخاطبهم بقوله الكريم : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ونشر فيها شريعة عدلاً وسطاً ومنهاجاً مناسباً لرعاية الدنيا والدين وهذا معنى اصطفاء أولئك الكرام من الرسل الهُداة إلى أقوم السبل ، ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

والمراد بآل إبراهيم إسماعيل ومحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإسحاق ويعقوب الملقب بإسرائيل • والمراد بآل عمران مُوسى وهارون وسائر الأنبياء بعدهما أو عيسى عليهم السلام ، لأن الآيات الكريمة نزلت في الحِوارِ مع وَفدٍ جاءه من نصارى نجران • وقوله : (ذرية) حال من الآلين ، أي حال كونهم ذرية بعضها متولد من بعض في التوالد الإنساني ، أو بعضها من بعض في التعاون الروحاني • والله سميع لأقوالهم ، وعليم بأفعالهم • وخلاصة المقام بالنسبة إلى وفد نصارى نجران توجيههم إلى مآثر ومفاخر البشر من لدن آدم إلى الخاتم • والنهي عن الغلو في شأن الأنبياء والمرسلين • وغايته أنهم عباد مكرمون اصطفاهم الله لنشر التوحيد والدين وحسن الأخلاق بين العالمين •

(إذ قَالَتِ إمْرَأَتُ عِمْرانَ : رَبِّ إنّي نَذَرْتُ لَكَ مافِي بَطْنِي مُحَرَّراً ، فَتَقَبَّلْ مِنّي إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٣٥)

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ، وإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(٣٦)

قوله : (إذ) ظرف لفعل مقدر ، أي : أذكر لهم وقت قولها . وقوله : (عمران) هذا يعود نسبه إلى داود النبي ـ عليه السلام ـ . وعمران أبو موسى ، وهارون من نسل يعقوب . وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة .

وإمرأة عمران : حَنَّة بنت فاقوذا جدة عيسى عليه السلام . روي أنها كانت عاقراً ، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعِم فرخَه فَحَنَّتْ إلى الولد ، فدعت الله تعالى أن يهب لها ذكراً ، فحاضت من ساعتها ، فلما طهرت أتاها زوجها فلما ايقنت بالحمل قالت : لئن نجاني الله تعالى ووضعت مافي بطني لأجعلنّه مُحرّراً . ولم يكن يحرر في ذلك الزمان إلا الغلمان . فقال لها زوجها : أرأيت إن كان مافي بطنك أنثى ؟ والأنثى عورة ، فكيف تصنعين ؟ فاغتمت لذلك ، فقالت عند ذلك ما ذكره بقوله : (رب إني نذرت لك ما في بطني محرّراً) أي مُعتَقاً لخدمة بيت المقدس لا أشغله بشيء آخر ، فتقبل مني ما نذرته إنك أنت السميع لقولي والعليم بنيتي . فلما وضعتها وكانت أنثى قالت امرأة عمران : رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، جملة معترضة سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته . وتفخيم شأنها حيث تعيش وتصير أُمّاً لعيسى عليه السلام أحَدِ عجائبِ الكائنات ، والتجهيل لها بما قدر الله في حالها بالمستقبل ، وما علق بها من عظائم الأمور وهي غافلة عنها . وليس الذكر كالأنثى : إما من ملحقات الجملة المعترضة أي : وليس الذكر

الذي طَلَبْتُه كالأنثى التي أُعطِيت ؛ لأن شأنها أهم من شأنه • أو من كلام امرأة عمران أي : وليس الذكر الذي طلبتُه كالأنثى التي وَهَبها الله تعالى لي ؛ فإنّ الذكر لائق بخدمة البيت المقدس بخلاف الأنثى • وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشّيطان الرجيم • أي من مس الشيطانِ وإغوائه وإغرائه على ترك المعروف وفعل المنكرات •

(فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبولٍ حَسَنٍ ، وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَكَفَّلَها زَكَرِيَّا ، كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ، قالَ : يا مَرْيَمُ أنَّى لَكِ هذا ؟ قالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ ، بِغَيْرِ حِسابٍ)(٣٧)

فتقبلها ربّها بقبول حسن : أي رضى الله تعالى بمريم في النذر مكان الذَّكَرِ ، وتَقَبَّلَها بقبول حسن ، لا نزاع ولا جدال فيه فأَلْهَمَ الكِبار الموجودين في بيت المقدس أن يقبلوها • رُوي أن حَنّة لما ولدتها لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ، وَوَضَعَتها عند الأَحبار ، وقالت : دونكم هذه النذيرة ، أي المنذورة • فتَنافسَوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ، وصاحِب قربانهم ؛ فإن بني ماثان كانت رؤس بني إسرائيل وملوكهم ، فقال زكريا : أنا أحق بها ؛ عندي خالتها فأبوا إلا القرعة ، وكانوا سبعة وعشرين ، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم ، فطفا قلم زكريا ، ورسبت أقلامهم فتكَفّلها • (وأنبتها نباتاً حسناً) ؛ أي ربّاها تربية حسنة وَأنماها إنماءً حسناً ، فصانها عن الأمراض والأقذار وكان نموّها على نسبة متصاعدة ، وكانت تشب في مدة قليلة مالا تشب غيرها في مدة كثيرة • (وكفلها زكريا) : أي وجعل زكريا كفيلاً لها على أصول الإقتراع وذلك مما يناسبها لأن خالتها كانت عنده فلما تكفلها سلمتها إلى زوجته خالة مريم ، فراعتها في الرضاع حتى فطمت ، وبقيت عندها حتى كبرت وميزت •

وروي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه أمر ببناء غرفة في بيت المقدس ، وجعل بابها في وسط الحائط وكانت لايصعد عليها إلا بسُلَّمٍ ، وهذه الغرفة هي المحراب ، فبقيت فيها للعبادة والراحة .

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) : أخرج إبن جرير عن الربيع قال : إنه كان لا يدخل عليها زكريا ، وإذا خرج أغلق عليها باب عبور الناس إليها ، فكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف . ولما رأى تلك الفواكه الطيبة عندها (قال : يامريم أنى لك هذا ؟) أي من أين لك هذا الرزق الناعم اللطيف الذي لايشبه أرزاق الدنيا ؟ (قالت : هو من عند الله) : أي مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) .

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ المَلَٰئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ : أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ) (٣٩)

أي في ذلك المكان والوقت الذي رأى مارأى من عجائب صنعه وقدرته الباهرة وإعطائها الكرامة والمقام لمريم حيث رزقها مارزقها مما لا يحصل لغيرها غلبت عليه تجلي رحمة ربه وكرمه على عباده، ودعا زكريا ربّه (قال: رب هب لي من لدنك) ومن رحمتك الخاصة التي لا يطلع عليها إلا خواص عبادك (ذرية طيبة) : روحاً ونفسا ، قلباً وقالباً ، مطلوباً لك وطالباً رضاك ، يرثني ما أورثتنا من النبوة والرسالة والخدمة لعبادك وأنت تعلم أني منفرد

ومتوحّد في أهلي (إنك سميع الدّعاء) كما سمعت دعاء حنة العجوز العاقر ووهبتها البنت النادرة في البواطن والظواهر (فنادته الملائكة) المأمورة بهذه النداءات (وهو) أي زكريا (قائم يصلي) صلاة دينه (في المحراب) الذي كأنه سيف شُهِر في وجهِ الشيطان وأتباعه المستمرين في العدوان للحرب والضرب على رؤوسهم ونفوسهم إلى آخر الزمان : (إن الله يبشرك بيحى) : نادته بأن الله المجيب المنان يبشرك بولد على رغبة الوالد اسمه يحى ومفاخره تبقى وتحيا ، (مُصَدّقا بكلمة من الله وسيداً وحصورا ونبياً من الصالحين) وحال ذلك الموهوب أنه يبقى مُصَدّقا بكلمة نزلت من الله على رسله أي بجميع الكتب الالهية أو بنزاهة شخص عيسى الذي ولد بلا أب بتأثير كلمة صدرت من الله تعالى أي بأمره الإبداعي الذي يسرع نفاذه في المراد مثل كلمة (كُن) لما أراد أن يكون (وسيداً) يسوُد قومَه وأقرانَه بامتيازه الخَلْقِي والخُلُقِي في الديانة والأمانة والعناية والرعاية (وحصوراً) حاصراً حابساً لنفسه عن الشهوات (ونبياً) رفيع القدر منشرح الصدر ناتجاً (من) الآباء (الصالحين) : أو واحد من الأنبياء الصالحين لفيوضات خاصة من ربّ العالمين • ولما سمع زكريا هذا النداء والبشارة من المأمورين بإلقائها وقع في موجة من الهياج الروحي وأتاه التعجب الإعتيادي الإنساني ، لا التعجب من التأثير الربّاني •

(قَالَ : ربِّ أنَّى يكونُ لي غُلامٌ وقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ) في العمر (وأمْرَأتِي عَاقِر) لا تَلِدُ بالعذر (قال) المجيب في جوابه : (كذلكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يشَاءُ)(٤٠) أي يفعل الله ما يشاء مثل ذلك الذي اظهره لك في اعطاءِ الولد المعهود وكل امر منه تعالى في هذا الباب لا يدخل في قاموس الحساب بل هو في أم الكتاب (قَالَ) زكريا :

(رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) علامة أعرف بها خلق المولود لأستقبله بشارة بطاعة الخالق المعبود (قَالَ : آيَتُكَ ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَثَةَ أيَّامٍ إلاَّ رَمْزاً) أي علامته أن تأتيك حالة شخصية لا تقدر معها على الكلام مع الناس مدة ثلاثة أيام إلا بالإشارة بنحو اليد أو العين • والإستثناء متصل إذا كان تكلم بمعنى تفهم ، ومنقطع إذا كان بمعنى تنطق وتتكلم •

وليست تلك الحبسة عن خلل في اللسان وعطل عن البيان ، بل هي غريبة قدسية ، وإلا فأنت في مناجاة ربك صحيح سالم (واذكر ربك) في تلك الأيام أيام الحبسة ذِكراً (كثيراً وسَبِّح بالعَشِيِّ) من الزوال إلى الغروب (والإبْكَار)(٤١) من طلوع الفجر إلى الضحى • وقيل : إن المراد بالآية وظيفة من العبادة • يعني إن زكريا عليه السلام طلب من الله أن يجعل له وظيفة شريفة يشكر بِها بَهاءَ نعمةِ ربه • فقال له تعالى : وظيفتك عند ظهور الحمل أن لا تتكلم مع العباد حسب المعتاد ، وتدخل في محراب العبادة ثلاثة أيام تستغرقها في العبادة والتسبيح والتقديس بالليل والنهار • وفي العشيّ والإبكار • واذا دعت الضرورة إلى التكلم مع الناس فأشِر إليهم بالأصابع والعيون والرّأس وهنا إنتهى الكلام مع زكريا عليه السلام • ورجع إلى موضوع مريم المصطفاة من نساء الأنام وقال :

(وَإذْ قالَتِ المَلئِكَةُ : يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ العَالَمِينَ (٤٢) يامَرْيَمُ اقْنُتي لِرَبِّكِ وَاسجُدِي واركعي مَعَ الرَّاكِعِينَ) (٤٣)

واذكر إذ قالت الملائكة أي قال واحد من الجنس ، أو جبريلُ الأمين : (يامريم إن الله اصطفاك) بأن تقبلك من أمّك لخدمة بيت

المقدس ولم يتقبل قبلك أنثى لخدمته ، وفرغك للطاعة والعبادة ، وأغناك برزق منه عن الكسب أو من أهل الدنيا • (وطهرك) عما يستقذر من النساء كدم الحيض وغيره ، وبَعّدَكِ عن التوجه إلى غيره وتوكلتِ عليه في الصيانة من شره واستفادة خيره (واصطفاكِ على نساءِ العالمين) في الهداية والعناية والرعاية وفي إرسال الملائكة لتطمين فؤادك ، وبالولد من غير والد ، وبأمومتكِ لعيسى المسيح رسول رب العالمين ، وبشهادته في المهد على براءتك من كلام المفترين !

(يامريم اقنتي لربك) ما دام الله خصك بما به خصك ، فاعبدي وأطيعي ربك (واسجدي) مع الساجدين (واركعي مع الراكعين) صلي مع الجماعة وحافظي عليها ، وعلى أركانها وسائر آدابها كأطوع الطائعين • وقدم السجود على الركوع إما للمحافظة على الفواصل أو موافقة لما كان الناس عليه من آداب الصلاة في تلك الشريعة بتقديم السجود على الركوع •

ذلِكَ مِنْ أنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ ، وما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إذْ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ، وَماكُنْتَ لَدَيْهِمْ إذ يَخْتَصِمُونَ) (٤٤)

(ذلك) البحث اللطيف الدقيق الحقيق بالقبول (من أنباء الغيب) والأخبار الغائبة عن أذهان الناس (نوحيه إليك) بالملك الأمين ويؤكد أنها منها بقوله (وما كنت لديهم) أي لدى أحبار اليهود (إذ يُلْقُونَ أقلامهم) التي يكتبون بها التوراة وأحكام شريعتها تبركاً بها ، فيلقونها إلى النهر أيها يطفو وأيها يرسب ليتميز الناجح من الراسب ، في نيل أشرف المكاسب وهي خدمة منذورة بيت المقدس ، ولينكشف بذلك الإقتراع (أيهم يكفل مريم) العذراء (وما كنت لديهم إذ يختصمون) ويتنافسون في

كفالتها حتى شاوروا واتفقوا على الإقتراع وإلقاء الأقلام . وكل ذلك غيب كشفه لك الملك العلام .

ومما يحسن علمه في هذا المقام أن سيدتنا مريم سيدة نساء العالمين . وروى موسى بن عقبة عن كريب عن إبن عباس قال رسول الله صلى الله « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » ومن حديث ابن عباس عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم إمرأة فرعون » وفي طريق آخر عنه : « سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة » فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء إلى آخر إمرأة تقوم عليها الساعة . وروى موسى بن عقبة عن كريب عن إبن عباس قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « سيدة نساء العالمين مريم ، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية » وهذا حديث حسن يرفع الإشكال .

وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ، ودنا منها للنفخة ، فليس هذا لأحد من النساء . وصدقت بكلمات ربها ، لم تسأل آية عندما بُشرت كما سأل زكريا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الآية . ولذلك سماها الله في تنزيله صدّيقة . فقال : (وأمه صدّيقة) وقال : (وصدّقت بكلماتِ ربّها وكتُبهِ وكانَتْ مِن القانتين) فشهد لها بالصدّيقية ، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى ، وشهد لها بالقنوت . وأنت ترى أوّلاً أن توجيه الأحاديث والجمع بينها لحمل العالمين على أهل زمان المفضل توجيه سالم يخلصنا عن كثير من المشكلات . فإنه قال تعالى : (يا بني إسرائيل

اذكروا نعمتي عليكم وأني فضلتكم على العالمين) وقال : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) • وثانياً إذا نظرنا إلى المدائح المنصدحة فلم ترد منها لأية إمرأة منها ما وردت لمريم بنت عمران • وإذا نظرنا إلى أتعاب وآلام وردت على القلب من إفتراء أهل الجسارة والخسارة والإجتراء فلم ترد على مرأة مثل ما وردت على مريم العذراء وعائشة الحميراء • وإذا نظرنا إلى خدمة الرسول الأكرم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم تخدم إمرأة مثل خدمات أم المؤمنين خديجة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وإذا نظرنا إلى نشر الدين تحديثاً وتفقيهاً فلم تنشر مرأة مثل ما نشرته أم المؤمنين عائشة • وإذا نظرنا إلى العلاقة النسبية النبوية والعلاقة الروحية فليست هناك إمرأة أقرب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ ، بل ومنها ومن سائر بناته ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فالحق أنه إذا نظرنا إلى وجود ظواهر النصوص فقد ذكرناها في السيدة مريم العذراء • وإذا نظرنا إلى سائر الجهات المتعددة المعتبرة فالجهات كثيرة متوفرة والأسلم إحالة الموضوع إلى الباري جل جلاله ، والتوقف عن التصريح بالترجيح • وبعض الأئمة لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها • وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الأستروشني ، وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم •

(إِذْ قَالَتِ الْمَلٰئِكَةُ : يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ : رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟! قَالَ : كَذٰلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ! فَيَكُونُ !) (٤٧)

قوله تعالى : (إذ قالت الملائكة) شروع في قصة عيسى عليه السلام والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام • وذكر الملائكة بـدل الملك المقـدس الواحد تشريف له كأنه جميعهم • (يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أي إن الله يبشرك بمولود مسعود نادر في الأيام ، فريد في الأنام ، وهـو مولود ولد بتأثير كلمة منه تعالى ، وولادته من عالم الأمر الإبداعي بدون إشتراط الأمور الإعتيادية فلا والد له ، وإنما منشؤه الوالدة ، فهو نتيجة كلمة كن الواردة ، أو حصيلة تنفيذ القدرة الباهرة التابعـة لإرادة مجردة عن الشروط المعتادة • وقوله : (اسمه المسيح عيسـى ابـن مريم) المراد بالاسم فيه المشهور بين أهل اللغة الشامل للاسم واللقب والكنية المساوي للعلـم نحواً فالمسـيح اسـم لغـة ولقب نحـواً ، وعيسـى اسم لغـة ونحـواً ، وابـن مريم اسـم لغـة وكنيـة نحـواً علـى ما يقـال إنّ المصدّر بالابن والبنـت كنيـة كالمصـدر بالأب والأمّ ، وليس المـراد بالاسم متعارف النحويين • والمسـيح لقب من الالقاب المشرّفه وأصـله في اللغة العبرية مشيخا بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمـة بمعنى المبارك • وعيسى اسم معرّب من إيشوع • وابن مريم بالإضافة إلى الاسم لا إلى ضمير الخطاب للتنصيص على أنه عليه السلام إبن مريم ولا أب له • ولفظُ المسيح مأخوذ من مشيخا ومعرّبه • ومعناه المبارك كمـا قلنا • وإذا فرضنا أنه ليس معرّباً بل لفظ عربي بالذات فمعنـاه الممسـوح من المَلَكِ بالبركة والرحمة • أو ماسح" للأرض وسائح عليها وتصيبُها بركةُ أقدامه الشريفة • وقوله : (وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين) أي حال كونه ذا وجه وشرف واعتبار عند الله وعند الناس في الدنيـا ، كمـا هو معلوم ، وفي الآخرة كما هو مفهوم ومن المقربين عند رب العالميـن ؛ لأنه من الرسل أولي العزم ، وعند الناس المؤمنين أولي القدر الذين يعرفون مقدار أهله (ويكلم الناس في المهد) ببيان عبوديته لله ونبوته منه وإيتائـه الكتاب وحال كونه كهلاً بين حال الغلومة والشيخوخة • فيكلمهم بالوحي

والرسالة ويرشدهم فيقول لهم : أعبُدوا اللهَ ربّي وربّكم ولا تشركوا به أحَداً •

ومن فوائد الآية : أن الله أعلَمهم أنّ عيسى عليه السلام يكلّمهم في المهد ويعيش إلى أنْ يُكلّمهم كهلاً •

وقوله ومن الصالحين عطف على قوله وجيهاً : أي وكائناً من الصالحين، أو وهو من الصالحين يعني أنه من ذرية الصالحين أو داخل في عداد المرسلين الصالحين للعزم وتحمل أعباء الرسالة من رب العالمين • وقوله (قالت : ربّ أنى يكون لي ولد) الآية لما تمثل لها جبريل في ذلك الموضع الذي لم يكن فيه أحَد تجلّى عليها الحضور ، وأيقنت أن الرب حاضر وقالت : ربي أنى يكون لي ولد وسنتك الجارية في الخلق أن الولد لايكون إلا بِنكاحٍ ولم يمسسني بشر مُطْلَقاً قال جبريل مجيباً لها : (كذلك الله يخلق ما يشاء) أي يخلق الله تعالى ما يشاء ومن يشاء كذلك بدون مساس البشر ، فإنه كما جرى من سنته خلق النسل من الأصل فمن سنته خلق الذوات بدون ذلك • فقد خلق آدم بدون الوالدين ، وخلق حواء بدون الوالدة ، ويخلق عيسى بدون الوالد ويخلق سائر الآدميين من الوالدين • إذا قضى أمراً أي إذا أراد أن يخلق خلقاً فإنما يقول له : كُنْ ! فيكون ! فإنما يخاطب وجوده العلمي ويخاطبه بقوله : كن أي إظهَرْ إلى الأعيان أو كن خارجاً من الوجود العلمي إلى الوجود العيني والعينُ في هذا المقام شامل للأعيان والأعراض المحسوسة وغيرها • والمقصود سرعة نفاذ القدرة •

(وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتورِيةَ وَالإنْجِيلَ(٤٨) وَرَسولاً إلى بَني إسْرائيل:أنّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أنّي أخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأنْفُخُ فِيهِ

فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِيءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ ، وأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بما تأْكُلُونَ ، وما تَدَّخِرونَ فِي بيُوتِكُمْ إنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورية وِلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وأطيعُونِ (٥٠) إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ) (٥١)

قوله تعالى : (ويعلّمه) الآية كلام مستأنف نزل تطييبا لخاطر مريم عليها السلام ، أو معطوف على قوله (ويكلم الناس) يعني ويعلمه الباري سبحانه وتعالى الكتاب ، أي الكتابة أو جنس الكتاب الدائر في البين • والحكمة من جملة ما أتقن قولاً وفعلاً ، أو الطبّ الكافي الوافي والتورية المنزل على موسى والإنجيل المنزل عليه ورسولاً أي قائلا إني أُرسلت رسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم : أي بأني جئت بآية أي بخارقة للنواميس الكونية المعتادة وأبدل عنها قوله أنّي أخلق لكم أي أني أقدر وأصوّر لكم من الطين صورة (كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) فيصير ذلك المماثل طيراً بإذن الله ونفاذ قدرته حسب إرادته ، (وأبرىء الأكمه) : الذي وُلد من أمه وهو أعمى (والأبرص) : أي المبتلى بمرض البَرَص •

روي أنه كان يجتمع عليه كثيرون من المبتلين بالعمى والبرص ، ومن أطاق منهم أتاه ، ومن لم يطق ذهب إليه عيسى عليه السلام ويمسحه بيده ويدعو له فيشفيه الباري برحمته وقدرته • (وأحي الموتى بإذن الله) كرّر الإذن المنسوب إلى الله للتبرّي من حول نفسه وقوتها وإحالة الأمر

إلى حول الله وقوته ، دفعاً لتوهم الناس فيه شيئاً يشينه • وخص الأكمه والأبرص بالذكر ؛ لأن ذلك العهد غلب فيه الطب الفائق والطبيب الحاذق مع أن الكمه والبرص مما أعجز الأطباء عن علاجه • وأما إحياء الموتى فآية من آيات الله ومعجزة من معجزاته الغيبية يؤيد بها صدق من ادعى الرسالة من الله •

روي أنه أحيا أربعة أنفس : (العاذر) وكان صديقاً له و (ابن العجوز) و (ابنة العاشر) و (سام ابن نوح) عليه السلام • أما العاذر فكان قد توفي قبل ذلك بأيام فدعا الله تعالى فقام بإذن الله . فعاش وولد له بعد ذلك • وأما ابن العجوز فإنه مر به يحمل على سريره ، فدعا الله تعالى فأحياه ورجعوا به إلى أهله • وأما بنت العاشر فقد أتى عليها ليلة فدعا الله تعالى فأحياها وعاشت بعد ذلك وولد لها • فلما رأى الناس ذلك قالوا له : إنك تحي من كان موته قريباً ، فلعلهم لم يموتوا وأصابتهم سكتة فأحيي لنا سام بن نوح ، فجاء عيسى إلى قبره فدعا الله تعالى وأحياه وخرج من قبره • (وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) يعني وأخبركم بالمغيبات عن الناس من أحوالكم التي تعلمونها من أكل بعض المطعومات ، وادخار بعض للمستقبل • إن في ذلك المذكور من الخوارق (لآية لكم) أي حجة ساطعة لكم على أني رسول الله فان غير الرسل لا يؤيد بالمعجزات (إن كنتم مؤمنين) بالله وآياته ، وإلا فلا تنتفعون بتلك المعجزات • (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) عطف على رسولاً ، أو منصوب بفعل مقدر دل عليه قد جئتكم ، أي وقد جئتكم مصدقاً بالكتاب الذي أنزله الله قبلي وجئتكم (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) في شريعة موسى من المطعومات ، والعمل يوم السبت ، (وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ) من أهم الآيات (مِّن رَّبِّكُمْ ، فاتقوا اللهَ وأطيعون)

في الإعتقاد بها والعمل على مقتضاها ، وهي (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) ولا تشركوا به أحداً (هذا) الذي جئتكم به (صراط مستقيم) . فاسلكوه مع السالمين الصالحين .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٥٤)

قوله تعالى : (فلما أحسّ) الآية شروع في بيان أحوال عيسى عليه السلام مع أعدائه اليهود . وأصل الإحساس الإدراك بالحواس . وقد يتجوّز به من العلم اليقيني ، ومعناها على الاول : فلما أبصَر عيسى بالعيون حركاتِهم الدالة على الكفر بالله والتمرّد ، وسمع منهم كلماتِ الكفر وشتامَه عليه السلام . وعلى الثاني : فلمّا علم قطعا كفرَهم وعنادهم وتمرّدهم على الله ، وعَدَمَ مبالاتِهم بالآيات البينات التي ظهرت منه ، وأنه يحتاج حسب السنّة الإلهية إلى مَن يعينه في مهمته ويصونه عن مكيدتهم .. قال للناس الذين اتبعوه ، وظن أنهم يخدمونه في أمره : (مَنْ انصاري) في دَعْوَتي الناس (الى الله ؟ قال الحواريّون) الخالصون في الإيمان به عليه السلام : (نحن أنصار الله) أي أنصار دين الله ورسوله ، فنحن نناصرك في مهمتك إلى أن نلقى ربّ العالمين . والحواريون جمع الحواري ، والحواري : مفرد منسوب إلى الحوار بمعنى البياض .

وفي القاموس والحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء ، والقصّار ، والحميم إنتهى .

وكلّ من المعاني مناسب هنا لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام • ويقال : إنهم كانوا قصّارين يُبَيِّضونَ الثياب ، وكان لهم صداقة معه عليه السلام • رُوِيَ أنّهم كانوا اثنَي عشر رجلاً ، وقيل : كانوا تسعة وعشرين • (آمنا بالله) ورسوله (واشهد بأنا مسلمون) منقادون لك في أوامرك ونواهيك • وقالوا بعد عرض الإطاعة له عليه السلام (ربنا آمَنا بما أنزلت واتبعنا الرسول) في ما يأمرنا وينهانا (فاكتبنا مع الشاهدين) للرسل بالتبليغ • قوله (ومكروا) أي اليهود الذين أحسّ عيسى عليه السلام منهم الكفر ، فتآمروا وذهبوا إلى ملك بني إسرائيل وتكلموا عنده عليه بما يوجبُ قتله ، فأراد الملك قتله وعلم عيسى عليه السلام بذلك ، ودخل بيتاً ، ولما عزم الملك على قتله قال لرجل منهم : أدخل عليه واقتله ، فدخل البيت الذي كان فيه عليه السلام ليقتله ، فرفعه الله سبحانه إلى السماء ، وألقى شبهه على ذلك الرجل فخرج إلى أصحابه ليخبرهم بأنه ليس في ذلك البيت ، ولما وجدوا شبهه عليه قتلوه وصلبوه بظن أنه عيسى عليه السلام ! وقد رفعه الله تعالى إلى السّماء • وذلك قوله تعالى : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) أي أن الشخص الذي قتلوه لم يكن عيسى ، وإنما كان ذلك الرجل الذي ألقي عليه شبهه • فسبحان من نجا إبراهيم من النار ، وموسى من فرعون الجبار ، وعيسى من صلب اليهود الأشرار ، ومحمّدا في الغار من شر الكفار ! وما ذكرناه هو معنى قوله تعالى : (ومكروا) أي اليهود إذ تآمروا عليه ووشوا عند الملك حتى أمر بقتله • ومكر الله بأن ألقى شبهه على واحد من المتآمرين القاصد المتعمد لقتله ، فقتلوه ونجا عبده ورسوله عيسى عليه السلام بأن رفعه إلى حيث شاء من السماء (والله خير الماكرين) أي العاملين في دفع المكيدة عن أحبابه إلى يوم الدين •

(إذْ قالَ اللهُ : ياعيسى إنّي مُتَوَفّيكَ ، وَرافِعُكَ إلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجاعِلُ الَّذينَ اتَّبَعُوكَ فَوقَ الَّذينَ كَفَرُوا إلى يَوْمِ القِيامَةِ • ثم إلَيَّ مَرْجِعُكُم فَأحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (٥٥)

قوله تعالى (إذ قال) : ظرف لقوله مكر الله ، أو خيرُ الماكِرين ، أو لمضمر مثل وقع ذلك أو كان ذلك • وقوله (مُتَوفيك) التّوفّي مصدر باب التفعل ، ومجرده وَفى من الباب الثاني • ومعناه في اللغة القبض والإستلام • واستعماله بمعنى قبض الرّوح عرف طارىء •

ومعنى الآية الكريمة : وقع ذلك المكر والمكيدة من اليهود ، وعَمِلْنا ما عملنا من وقايتنا لعيسى عليه السلام في زمانٍ قال الله فيه وَحْياً إليه : (يا عيسى إني متوفيك) ومُسْتَلِمٌ لشخصك جسداً وروحاً (ورافِعُكَ) من الأرض (إلي) محل من السماء مناسب لك ومرغوب لَدَيَّ كأنك مَدْعو إليّ (ومطهّرك مِنْ) أقذارِ أوزارِ طبيعة اليهود (الذين كَفَرُوا) برسالتك (وجاعِلُ الذين اتبعوك) مِنَ المؤمنين بالله وأحكام دينه ورسالة رسله (فوق) اليهود (الذين كفروا إلى يوم القيامة) بالحجة الساطعة او بالغلبة والقوّة الرادعة (ثم إلَيَّ مرجعُكم) في ذلك اليوم (فَأحْكُمُ بَينكم فيما كُنتُم فيه تختلفون) من أمور الدين •

(فَأمّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَمالَهُمْ مِنْ ناصِرِين (٥٦) وَأمّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَيُوَفّيهم أجُورَهُم وَاللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ والذِّكْرِ الحَكِيمِ) (٥٨)

ثم فصّل الباري سبحانه وتعالى الحكم الذي ذكره في الآيتين فقال : (فامّا الذين كفروا) بالله ورسله وآذَوا عيسى عليه السلام (فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا) بالقتل والإخزاء والأسر والتحقير ، وفي الآخرة بالخلود في النار وبئس المصير (وأمّا الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصّالحات فنوفيهم أُجُورَهم ، والله) يُحبُّ المؤمنين السّالمين ولا (يحب الظالمين) وهذه الجملة الجميلة تقرير لحكم الآية التي هي آخرها .

(ذلك) الكتاب الذي (نتلوه عليك) بإرسال جبريل الأمين إليك هو من جنس (الآيات) البينات المزيلة للشبهات (والذكر الحكيم) المشتمل على الحقيقة والواقع في الكائنات . ولا تسمع الكلماتِ الفارغة عن الصحة الممزوجة بالأوهام والخرافات ، فإني قادر على كل شيء فيما كان وماهُو آت .

وهنا فوائد : الاولى إنا فسرنا قوله تعالى (متوفيك) بالتوفي بمعنى القبض والإستلام ، و (رفعه) برفعه جسداً وروحاً من الارض إلى السماء كما هو مشهور . ووقع عليه الإجماع قبل ظهور البدع والأهواء ، ومنهم من فسره على معنى : أني مستوفي أجلك أي مكمل أجلك ومؤخرك إلى الوقت المقرر في علمي لمماتك . يعني إني حافظك من أعدائك اليهود ولا أخلّيهم يقتلونك .

ومنهم من فسره بقوله : إني متوفيك نائما : أي قابض عليك في حال نومك ورافعك إلى السماء وأنت نائم . ومآل الكل إلى التفسير الأول وهو ان الله قبض بقدرته شخص عيسى عليه السلام ورَفَعهُ من الأرض إلى السماء بجسده وروحه ، كما أسرى بعبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به من المسجد الاقصى

الى السماء ، ثم الى ما فوقها من الدرجات العلى ، ثم أعاده الى الارض في الليلة عينها تكريماً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وتلك التفاسير كلها إحتراز عن توهّم المخطئين في تفسيرهم بقولهم (إنّي مميتُكَ ورافعُ روحِك إليّ) •

والداعي للإحتراز عن ذلك التفسير أمور •

الاول إن تلك التفاسير السابقة موافقة لظاهر الآية بحسب المعنى المفهوم من اللغة العربية الفصيحة التي نزل عليها القرآن الكريم • فإن التوفي لغة هو الأخذ والقبض والتسلم ومنه المستوفي لمن يقبض الحقوق المقررة من الناس • وقبض الإنسان بهذا المعنى قد يكون للروح والجسد معا بدون إماتة المقبوض كما في قوله تعالى (إني متوفيك ورافعك إلي) وقد يكون للروح فقط إذا مَنَعَ مانعٌ عن إرادة المجموع سواء كان بدون الإماتة كما في قوله تعالى (وهو الذي يتوفيكم بالليل ويعلم ما جرَحتُم بالنَهار) في سورة الأنعام • وقوله تعالى (والتي لم تمت في منامها) أي ويَتَوفَى الأنفس التي لم تَمُت في منامها • أو مع الإماتة كما في صدر هذه الآية في سورة الزمر : (الله الذي يَتَوفَى الأنفس حينَ مَوتها) ومجموع الآية الكريمة : (الله يَتَوَفَى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى اَجَلٍ مسمّى إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكَرون)

وحمل التوفي على قبض الروح والإماتة فقط عرفٌ طارىء على أصل اللغة •

الأمر الثاني: نص قوله تعالى في سورة النساء: (وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله ِ، وَما قَتَلوهُ وَما صَلَبوه، ولكن شُبِّه لهم ، وإن الذينَ اختَلفوا فيهِ لَفي شكٍ منه مالَهُم بهِ ِ من علم إلاّ اتباع الظن ،

وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما • وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) الآيات (١٥٧) و (١٥٨) و (١٥٩) ودلالتها على المقصود واضحة، لاسيما دلالة قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وذلك ظاهر عند كل عالم معتدل في الدين لأن الإيمان بسيدنا عيسى عليه السلام لم يتحقق قبل رفعه إلا من بعض قليل منهم ، فلابد أن يتحقق بعد رفعه ونزوله من السماء إلى الارض •

الامر الثالث: الاحاديث الكثيرة المروية الدالة على أن عيسى عليه السلام رفع الى السماء وسينزل في آخر الزمان ، ويتبع شريعة الإسلام ويروج دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • منها ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن المسيّب أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » •

وفي رواية ابن عيينة (إماماً مقسطا وحكما عدلاً) وفي رواية يونس (حكما عادلا) ولم يذكر إماماً مقسطاً • وفي حديث صالح (حكماً مقسطاً) كما قال الليث • وفي حديثه من الزيادة (وحتى تكون السّجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) ثم يقول ابو هريرة (اقرأوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) الآية •

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : تواترت الاخبار بأن المهدي من هذه الامة ، وان عيسى عليه السلام سينزل ويصلي خلفه ، وقال الصحيح : إن عيسى رفع إلى السماء وهو حي • وقال الشوكاني في رسالته

المسماة (التوضيح في تواتر ماجاء في الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح) : وقد ورد في نزول عيسى عليه السلام تسعة وعشرون حديثا ، ثم سردها • وقال بعد ذلك : وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل إطلاع فتقرر بجميع ما سقناه أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة • والاحاديث الواردة في الدجال متواترة ، والاحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام متواترة • وهذا يكفي لمن كان عنده ذرة من إيمان وقليل من إنصاف والله اعلم •

ومن نظر إلى النصوص القرآنية الواردة في : خلق عيسى بلا أب ، وكلامه في المهد ، وتعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، والنفخ في هيئة الطير وحياتها وطيرانها، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونزول المائدة على أتباعه من السماء لم يتوقف ولن يتوقف في أن القادر على تلك الامور الهامة قادر على إنجاء عيسى من اليهود ورفعه من الارض الى السماء وبقائه هناك ثم نزوله في اليوم الموعود ، وكل ما أخبر به الصادق وكان ممكنا يجب الإيمان به فإن الاسلام مبني على الإيمان بالغيب ، وتأثير قدرة الباري بلا ريب ، وما ظهر على أيدي الرسل الكرام من الحقائق ، وبوارق المرسلين على الخوارق •

وإذا علمت الحق في الموضوع من نصوص الكتاب والسنة فلا مجال للإصغاء إلى كلام من يخالف ويدعي قتله عليه السلام ورفع روحه إلى السماء لأنه لا اختصاص لهذا بسيدنا عيسى ، بل كل مقتول وشهيد وسعيد وغيرهم ترفع روحه إلى السماء وتعرض عليها مواقفه • على أنه تقدرون أن تقولوا للنصارى المدعين لذلك : هل تنقلون ذلك آحادا أو تواترا ؟ فإن زعموا أنه خبر آحاد لم تتم بذلك حجة ، إذ الآحاد ليس في أخبارهم حجة ودليل في أمثال هذا الموضوع • وإن زعموا أنه خبر متواتر فقل لهم : شرط

إفادة الخبر المتواتر للعلم إستواء طبقات النقل في الكثرة بحيث يؤمن من التواطؤ على الكذب ، وإن ادعيتم ذلك فقد خالفتم نصوص الإنجيل الذي بأيديكم إذ قال نَقَلَتُه الذين دونوه لكم : (إن المأخوذ للقتل كان في جمع قليل من تلامذته ، فلما قبض عليه هرب التلامذة بأسرهم ، ولم يتبعه سوى (بطرس) من بعيد ، فلما دخلوا الدار نظرت جارية منهم إليه وعرفته وقالت : هذا كان مع (يسوع) • فحلف أنه لا يعرف يسوع ولا يقول بقوله ، وخادعهم حتى تركوه ، وذهب ولم يَكَدْ يَذهَبُ • وإن شابا آخر تبعه وعليه إزار ، فتعلقوا به فترك إزاره بأيديهم وذهب عريانا • فهؤلاء أصحابه وأتباعه لم يحضر أحد منهم بشهادة الإنجيل) •

وأما اليهود الذين إدعوا قتله وزعموا أنهم حضروا القتل فلا تسلم أنهم بلغوا عدد التواتر ، بل كانوا آحادا وهم أعداد يمكن تواطؤهم على الكذب على عدوهم لإثبات أنهم ظفروا به وبلغوا أمنيتهم • فاغتنم هذا البحث فإنه نافع للمتذكرين •

(اِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لَه : كُنْ ، فَيَكُونُ ! (٥٩) اَلحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تَكنْ مِنَ المُمْتَرِينَ) (٦٠)

قوله : (إن مثل عيسى عند الله) الآية المثل هنا بمعنى الحال والصفة العجيبة • ومعنى الآية الكريمة إن صفة عيسى وحاله كصفة آدم في أنه وجد خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ، وإن كان وجود آدم أغرب بلا أب وأم من وجود عيسى بلا اب فقط فشبه الغريب بالأغرب •

وقوله : (خلقه من تراب) جملة موضحة للتشبيه مبينة لما له الشبه ، وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم ، فلو كان هذا

لنحو من الوجود مجالاً للقدسية المتجاوزة عن العادة لكان آدم أولى وأقدم في ذلك ، وإذ ليس هذا مجالا لها فليس ذلك مجالاً ، فتأدبوا وقفوا في موقف الرهبة من الله العلي العظيم ، والأدب معه في تنزيهه عما لا يليق به من إتخاذ الولد وغيره مما يوجب للقلوب الإفساد والتسميم . وقوله : (ثم قال له كُنْ فيكون) بيان لإستيعاب تأثير قدرته الباهره النافذة في الممكنات بحيث لا يعجزه شيء عن شيء ، وانه خلق عيسى عليه السلام بنفخ روح القدس بلا ملاحظة الإنس ، كما خلق آدم عليه السلام كذلك ، بل ذلك أقوى وأقدس مما هنالك .

وقوله : (الحق من ربك) أي الكلام الحق في شأن عيسى وآدم وغيرهما هو الذي يأتيك من ربك لا من أوهام أهل دربك ، (فلا تكن) من القوم (الممترين) المتشككين حتى تكون بعيدا بكل المعنى من القوم المفترين المشركين .

(فَمَنْ حاجَّكَ فِيه مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ : تَعالَوْا نَدْعُ اَبْنَاءَنَا وَاَبْنَاءَكُمْ ونِساءَنَا ونِساءَكُمْ واَنْفُسَنَا واَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ) (٦١)

يقول الباري تعالى لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فمن جادلك في شأن عيسى وصفاته بعدما جاءك من العلم الحاصل بالوحي المنزل إنه كان إنسانا مولودا من أم عفيفة شريفة رفيعة الدرجات بنفخ من الملك المقدس الغير المجانس للإنس بدون علاقة البشر بل بنفاذ قدرة صاحب الامر، وإنه عبد مخلص مؤيد بروح القدس تجلى عليه ربه كما تجلى على من قبله من المرسلين الأخيار ، وعلى مَنْ بَعْدَه من خاتم النبيين والمرسلين محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد الأبرار ، وإنه حفظه من أيدي اليهود المعتدين ، ورفعه إلى السماء المناسب لعزة الزاهدين ، وسينزل على الأرض ويدعو العباد إلى دين محمد دين الإسلام والرشاد ، فقل لمن لم يكتف بكلامك : فليدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وأقربهم إلى قلبه إلى المباهلة ثم نبتهل أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا وندعو عليه بالطرد والتبعيد من باب رحمته ، فنجعل ونقرر لعنة الله على الكاذبين .

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا : حتى ننظر ، فلما تخالوا ، قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم : ماذا ترى في الأمر ؟ فقال : والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالقول الفصل في شأن صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا . فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد غدا محتضناً الحسين آخذا بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفهم ، وعلي خلفها ، وهو يقول : إذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقفهم يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً عن مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا .

فأذعنوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد . فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرام عليهم الوادي ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر . وهو دليل على نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفضل من أتى بهم من أهل بيته .

(إِنَّ هذا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ، وما مِنْ إلهٍ إلاّ اللهُ ، وإِنَّ اللهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (٦٢)

معناه : إن هذا الذي أنزلنا عليك في أمر عيسى عليه السلام لَهُوَ القَصَصُ أي الكلام الحق الذي يليق بأن يحكى ، وكل ما عداه من أنه ابن الله ، أو أنه إمتزج بالباري ، أو غيرها من كلام نصارى نجران باطل . (وما من إله إلا الله) لا شريك له في ذاته وأفعاله وصفاته . (وإن الله لهو العزيز) القوي القادر على ما أراد (الحكيم) في أفعاله وتصرفاته في الأرض والسماوات وسائر الممكنات أَبَدَ الآبدين .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) عن قبول كلامك الصادق المتين المأخوذ من إلقاء جبريل الأمين ، فاعلم أنهم من أهل الفساد ، (فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالمُفْسِدِينَ) (٦٣) وسيجزيهم بما أُعِدّ لهم يَومَ الدين .

(قُلْ : يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ، ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوا فقُولوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمونَ) (٦٤)

نزلت في وفد نصارى نجران . وروي عن قتادة أنها نزلت في يهود المدينة . وذهب أبو على إلى أنها نزلت في الفريقين من أهل الكتاب . واستظهره بعض المحققين لعمومه .

يقول سبحانه وتعالى : (يا أهل الكتاب تعالوا) أي هلموا (إلى كلمة) أي كلام (سواء بيننا وبينكم) لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن : (ألا نعبد) نحن وأنتم (إلا الله) بأن نوحده بالعبادة وبأنه الخالق لكل ما سواه . (ولا نشرك به شيئا) من الاشياء فلا نجعل شيئا آخر شريكا له في استحقاقه للعبادة (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)

أي لا يطيع بعضنا بعضا في معصية الله تعالى ، أو لا يطيع بعضنا بعضا إطاعة واجبة فيما لم يؤخذ من دين الله . روي انه لما نزلت هذه الآية قال بعض من أهل الكتاب : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : أما كانوا يُحَلِّلُون لكم ويُحَرِّمُون عليكم فتأخذون بقولهم ؟ قال : نعم . فقال صلى الله عليه وسلم : هُوَ ذاك . ويفسر ذلك بتصرف الاحبار في الأحكام بدون الأخذ بنصوص الدين ، أو الإستنباط منها . وبالمُغالاةِ في شأن الأنبياء وَمَنْ بعدهم باعتقادات لا أَصل لها كاعتقاد اليهود في عزير أنه ابن الله ، واعتقاد النصارى في المسيح عيسى ابن مريم . (فإن تَوَلَّوا) وَأَعرَضوا عن موافقتكم في ذلك (فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) فقولوا لهم أنصفوا واعترفوا بأنا على الدين الحق ، الدين الخالص ، المنهج الوسط بلا إفراط وتفريط ، كما درج عليه السلف الصالحون ومسلمون ومنقادون لله على الوجه السليم .

(يا أهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ ومَا أُنْزِلَتِ التَّورِيَةُ والإنْجِيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أفلا تعقلون ؟ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْس لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؟ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كَانَ إبْراهيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً ، ولكن كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ (٦٧) إنَّ أوْلَى النَّاسِ بِإبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهذا النَّبِيُّ والَّذين آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ)(٦٨)

عن ابن عباس قال إجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتنازعوا عنده في إبراهيم ؛ فقال الأحبار : ما كان إبراهيم إلاّ يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم

إلا نصرانيا ! فأنزل الله هذه الآيات • أخرجه البيهقي في الدلائل ومعنى الآيات : يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى لم تحاجّون أي تجادلون وتنازعون في شأن إبراهيم عليه السلام ؟ وكل منكم يدعي أنه كان على دينه لا على دين الطرف الآخر والحال أنه ما أنزلت التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، إلا من بعده أي من بعد إبراهيم ، حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وخمس وستون سنة ، وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألف وتسعمائة وخمس وعشرون سنة • وقيل غير ذلك أفلا تعقلون وتعلمون بطلان قولكم ، وأن إبراهيم قد سَبَقَ كلا من موسى وعيسى وكتابهم فكيف تدّعون أن إبراهيم كان يهوديا ومن أهل التورية أو نصرانيّاً ومن أهل الإنجيل ؟ •

ها : للتنبيه ، وأنتم : مبتدأ ، وهؤلاء : خبره ، وإشارة إلى الجمع المتفرق الحال ومتشتت البال•أي إنتبهوا أنتم هؤلاء الناس المتفرقى القلوب (حاججتم) مع الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فيما لكم به علم) أي في تفسير وتأويل كتاب لكم به علم كالتورية والإنجيل ، وقد تُعْذرون في كلامكم وإنكاركم لبعض نعوت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وتطبيقها على غيرهما ؛ لأنكم من أهل الكتابين ويمكن أن يشتبه إنسان ويزعم صدقكم في ما تقولون من التحريفات والتأويلات المزيفة ، (فلم تحاجون في ما ليس لكم به علم) كدين إبراهيم وأخلاقه وأوصافه ؟ فإن أحوال إبراهيم لم تكن مدونة عندكم وليس لكم علم بها •

(والله يعلم) الحقيقة وهي أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا وإنما كان رسولا جليلا من الرسل أولي العزم ودينه الحنيفية التي هي حقيقة التوجه إلى فاطر السموات والارض بمعنى الكلمة (وأنتم لا تعلمون) ذلك، وإنما تجادلون على الهوى والذي يعلمه الله أنه (ما كان إبراهيم يهوديا

ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا) مائلا عن عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن (مسلما) منقادا وعبدا مخلصا لربه المنان • فَدى بنَفسِه وموطِنِه واَقاربه ووَلده في سبيل الدّعوة إلى التوحيد لله وهَدْم الأصنام على مَرّ الزمان • (وما كان من المشركين) الضالين عن طريق العيان والبيان • وكما أنكم جاهلون بأحواله ودينه وبعيدون عنه فلستم من علاقته وصلته في شيء (فإن أولى الناس بإبراهيم لَلذين اتبعوه) وكانوا على شريعته في زمانه، واتبعوه في التوحيد بعده (وهذا النبي) الزكي العربي الذي قد بعثه الله رحمة للعالمين في أثر دعوته حيث قال : (ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) • (والذين آمنوا) معطوف على الذين اتبعوه عطف الخاص على العام • أي وإن أولى الناس به من ذكرناهم والذين آمنوا بهذا النبي الزّكي الطّاهر الّذي من آثار دعوته (والله وَليّ المؤمنين) وناصِرُهم ومحبّهم ومُتَوَلي أمورهم وإذا آمَنْتُم به كما آمن المهاجرون والأنصار كنتم مِنْ اَوْلى الناس به وبإبراهيم ، وَدَخلتُم في النور الذي لا ينطفىء إلى يوم الدين •

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ اَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ومَا يُضِلُّونَ اِلاَّ اَنْفُسَهُمْ وما يَشعُرُونَ)(٦٩)

نزلت في جمع من اليهود لمّا دعوا حذيفة وعمارا ومعاذاً إلى اليهودية • وكلمة لو موصول حرفي تؤوّل مع ما بعدها بمصدر ، ومِنْ شرطها تَقَدم ما يفيد معنى التمني مثل ودّت في الآية • والمعنى اَحَبّت طائفة من اليهود وتَمنّتْ ملء القلوب إضلالكم عن الصراط المستقيم طريق إتباع الرسول الكريم • والحال إنهم ما يضلّون بودهم وتمنيهم ذلك وبسعيهم وراءه إلاّ انفسهم لأن طريقهم طريق حياة حيوانية بسيطة يعيشون عليها حتى الموت ؛

فإذا أرادوا أن يسلكوا طريق الحكماء الدّعاة للناس إلى ما يريدون فقد أخطأوا طريقهم اللائق بهم، وتعبوا في الإلقاء بأنفسهم إلى المهالك. أو إنهم لو نجحوا فرضا في عملهم هذا وأضلّوا ذلك الجمع المهتدين فقد زادوا في اضلال انفسهم لأنهم ماكتفوا بضلال أنفسهم وأرادوا إضلال الآخرين، وهذا مزيد من الضّلال . أو إنهم لا يقدرون على اضلال أولئك الأصحاب لأنهم فوق مستواهم وإنما يقدرون على إضلال جيل ضئيل من أنفسهم أي عشيرتهم . فالأنفس حينئذ بمعنى الأمثال والزملاء من عشيرتهم اليهود . أو إنهم لا يحصّلون من هذا الإضلال على فائدة إلا زيادة الأوزار والعقاب لأنفسهم ، ولكن مايشعرون به .

(يا أهلَ الكتابِ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتمْ تشهدونَ ؟ (٧٠) يا أهلَ الكتابِ لِمَ تلبسونَ الحقَّ بالباطلِ وتكتمون الحقَّ وأنتمْ تعلمونَ ؟ (٧١) وقالتْ طائفةٌ مِنْ أهلِ الكتابِ : آمنوا بالّذي أُنزلَ على الّذينَ آمنوا وجهَ النّهارِ واكفروا آخرهُ لعلّهمْ يرجعونَ ! (٧٢) ولا تؤمنوا الاّ لِمَنْ تبعَ دينكمْ قلْ: انَّ الهدى هدى اللهِ أنْ يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتمْ أوْ يحاجّوكمْ عندَ ربِّكمْ قلْ انَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ واسعٌ عليمٌ (٧٣) يختصُّ برحمتهِ مَنْ يشاءُ ، واللهُ ذو الفضلِ العظيمِ) (٧٤)

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال عبدالله بن الصيف ، وعدى بن زيد ، والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أُنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم ،

فلعلهم يَصْنعون كما نَصْنع فيرجعون عن دينهم ! فنزلت هـذه الآيات • أخرجه إبن إسحاق وابن المنذر •

والمعنى : يا أهل الكتاب لم تكفرون بما يتلـى عليكم من آيـات الله المنزلة على محمد وأنتم تشهدون أن محمدا منعوت في كتابكم ، وتشـهدون الأدلة الدالة على صدقه في دعوى الرسالة من القرآن المعجز ببلاغته اَهْلَ البلاغات ، وبسائر المعجزات ، وبما أوتي من الغلبة والإنتصارات وبمقابلتـه السيّئات بالحسنات ؟ (يا اَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلبِسُونَ الحَقْ) وهو ما عندكم من النعوت المنطبقة على محمد بالتّأويـل والتحريـف (بالباطل وتكتمون الحق) بالإستمرار (وانتم تعلمون) الحق ، وتعلمون أن عملكم ذلك عمل مُخزٍ لا تستفيدون من ورائه إلا العقاب ؟ وقالت طائفة مِنْ اَهْلِ الكتابِ لأمثالهم من اليهود:آمِنُوا وأظهروا الإيمان بالكتاب الّذي اُنْزِل على الّذين آمنوا مِن الرسول محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصـالة ورسالة وأصحابه وسائر أمته تَبَعاً ودَلالَةً (وَجْهَ النَهارِ) اَولَـهُ (واكْفُرُوا بِهِ آخِرَهُ) أي آخر النهار (لَعَلّهـم يَرْجِعُون) عـن دينهم لتشككهم فيه بما فعلتم وأنتم من أهل الإعتبار •

(ولا تؤمنوا) ايمانا ثابتا اعتقاديا (اِلا لِمَن تَبع دينكـم) مـن اليهود فليس عند أحد دين كديننا وشرع كشرعنا (قُلْ) يا حبيبي ويارسولي في بيان الحق لهم وردهم عن الضلال إليه : (اِنَّ الهُدَى هُـدَى اللهِ) والدين دين الله • وأبدل من هدى الله قوله (أَنْ يُؤتى) أي وذلك الهدى إيتاء الله وإعطـاؤه (اَحَدٌ) كمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مِثْلَ ما أوتيتم) من الهُدَى وكذلك (اَوْ يُحاجّوكُمْ) عطف على يؤتى أي من محاجتهم وإستدلالهم به عليكم (عند ذكر ربكم) ودينه وشريعته فـي الدنيا بأننا أصحاب الشريعة مثلكم ، وشريعتنا منزلة من الله تعالى لنشـر

العقائد والأحكام مثل شريعتكم في وقتها فما بالكم تصدقون بشريعتكم ولا تصدقون بشريعتنا ؟ والله هو الله ، والقدرة هي القدرة ، والرسول رسول ، والمعجزات في العصرين موجودة ، والأدلة العقلية قائمة على صحتها • أو في الدين عند الله يوم الحساب • وقل بأوضح من السابق (إنّ الفَضْلَ) كله (بِيَدِ الله) وحده (يُؤتيهِ مَنْ يشاء) مِن عباده أبدا إبراهيم أو موسى أو عيسى أو محمدا (والله واسع) في الرحمة و (عليم) بما يناسب كلّ زمان وأمّة (يختص برحمته من يشاء) منهم ومن غيرهم • (وَالله ذُو الفَضْلِ العظيم) وكفى بذلك سَندا لمن كان له عقلٌ سليم •

(ومِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ اِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ اِلَيْكَ • وَمِنْهُمْ مَنْ اِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ اِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنا في اْلامِّيِّينَ سَبِيلٌ • وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ اْلكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٧٥)

يروى ان عبدالله بن سلام إستودعه قرشي ألفا ومائتي أوقية ذهبا فأداه إليه • وأن فنحاص بن عازوراء إستودعه قرشي آخر دينارا فجحده • والقنطار : سبق البحث عنه في أوائل السورة • والدينار : أربعة وعشرون قيراطا • والقيراط : ثلاث حبات من وسط الشعير فمجموعه إثنتان وسبعون حبة • قالوا : ولم يختلف جاهلية ولا إسلاماً • وقوله تعالى ومن أهل الكتاب شروع في بيان بعض من أحوال أهل الكتاب فضلا كان كحال أهل الفقرة الاولى ، أو نقصا كحال أهل الفقرة الثانية • والمعنى إن من أهل الكتاب (من إن تأمنه بقنطار) وهو المال الكثير كمائة ألف أو أكثر أو أقل كما ذكروا (يؤده إليك) ويرده عند الطلب بلا نقصان (ومنهم من إنْ

تأمنه بدينار) واحد (لا يؤده) ولا يرده (إليك) في أيّ حال إلا حالَ مادُمْتَ عليه قائماً غالبا مُسَلَّطاً مُطالِبا . و (ذلك) المطل وترك أداء الواجب (بأنهم قالوا : ليس علينا في الأميين سبيل) أي ليس علينا في الإستيلاء على أموال من ليسوا من أهل الكتاب عتاب ! ويدعون أن هذا السلب شريعة من الله نزلت عليهم (ويقولون على الله الكذب) ويفترون عليه تعالى وينسبون إليه ما ليس من دينه وشريعته (وهم يعلمون) أنهم كاذبون في ذلك القول .

(بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ واتَّقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ) (٧٦)

بلى جواب لقولهم ليسَ عَلَينا في الأميين سبيل ، وإثبات لما نَفَوْه . أي بلى عليهم في الأميين سبيل ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر ولم يزل آمراً بالعدل والإنصاف ورعاية حقوق كل فرد من كل صنف من الأصناف .

وقوله : (من اوفى) الآية جملة مستأنفة تقرر الجملة التي دلت عليها كلمة (بلى) يعني إن أوفى بعهده الذي عاهده معهم في عالم الذر ، أو بدلالة الأدلة الشرعية المستفادة من نصوص الوحي السماوي في ملاحظة حقوق كل ذي روح إلا ما أذن الله في عدم رعايتها من إهدار السفاكين للدماء والهتاكين للأعراض ، والناهبين للأموال ، والمعارضين لسلامة السالمين . (واتقى) الله في الوفاء بذلك العهد فإنه يحبه الله تعالى لأنه مُوفٍ مُتّقٍ (والله يحب المتقين) ومعنى التقوى مع الوفاء بالعهد أن يبقى في حاق الوسط لا يزيد ولا ينقص ، فإن المأمور بعفو المجرم يحرم عليه صرف النظر عن الحقوق المقررة من الله كالحدود ، والمأمور بقتله يحرم

عليه قطع عضو من أعضائه ثم قتله . وهذا من لوازم العدل في الوفاء بالعهود .

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٧٧)

عن الأشعث بن قيس قال : فِيَّ واللهِ نزلت هذه الآية : كان بيني وبين رجل مِنَ اليهود أرض ، فجَحَدَني أرضي فجئت به إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . فقال لي:ألك بينة ؟ قلت : لا . فقال لليهودي : إحلف. فقلت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إذن يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله الآية . اخرجه الشيخان .

وعن عبدالله بن أبي اوفى أن رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله تعالى : لقد أعطى بها ما لم يعطه ليُوقع فيها رجلا من المسلمين ، أي للإضرار به وخدعه . فنزلت هذه الآية . رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر : ولا منافاة بين الحديثين إذ لا مانع من نزول الآية بالسببين معاً . والآية تقابل الآية التي قبلها ، فإن السابقة للأوفياء وهذه لغيرهم . فيقول الباري تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأَيْمانِهِم ثمنا قليلا) أي يستبدلون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والوفاء بالأمانات وبنصره بقدر الإستطاعة (ثمنا قليلا) من متاع الدنيا كالهدايا والرشايا والجاه . (أولئك لاخلاق لهم في الآخرة) ليس لهم نصيب من المثوبة الحسنى (ولا يكلمهم الله) بكلام التقدير والإحترام (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) نظرا يكون له قدر من

الإكرام (ولا يزكيهم) ولا يثني عليهم بالجميل (ولهم عذاب أليم) أي مؤلم •

وهذه الأحكام المخيفة المدهشة محمولة على من نزلت فيهم الآية لكفرهم وعنادهم وتجاوزهم عن حدود الله وعلى أشباههم • وأما في حق غيرهم فتحمل على من اتصف بها مع الإستحلال ، لأن إستحلال المعاصي كفر • أو على نفي كمال الخلاق والنظر بالعطف والتزكية السَّنِية ، ومقيدة بمن لم يشمله العفوُ حَسَبَ مشيئته تعالى بالنسبة إلى المؤمنين • وقس عليها الآياتِ الأخرى الواردة في أمثال هذا الموضوع •

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(٧٨)

قوله تعالى : (وإن منهم لفريقا يلوون) الآية • يلوون : فعل مضارع لجمع المذكر الغائب وواو ضمير فاعل الجمع راجع إلى أهل الكتاب الخائنين • وماضيه لوى • وهو لفيف مقرون واصله يلويون كيضربون ، ثقلت الضمة على الياء ، نقلناها إلى الواو ، ثم حذفنا الياء لإلتقاء الساكنين فصار يلوون على وزن يفعون • وأصل مصدر المجرد اللوى قلبنا الواو ياء وأدغمناها فيها صار لَيّا بتشديد الياء •

واللي بمعنى الفتل من قولك لويت يده إذا فتلتها • ومنه لويتُ الغريم إذا مَطَلْته • والمعنى يفتلون الألسنة بقراءة كتابهم التوراة فيميلونها من الكلام المنزل إلى المحرَف، أو يعطفونها بشبه الكتاب، فيكون الحاصل إما لفظ الكتاب مع تغير في بعض أجزائه ، أو تبديل لفظ بلفظ آخر موافق

لأغراضهم ، وإنما يتمحلون ويتكلفون بلي الألسنة (لتحسبوه من الكتاب) أي لتظنوا أيها المسلمون أن اللفظ المغيّر كلا أو جزءً من الكتاب المنزل من الله تعالى (وما هو من الكتاب) المنزل من الله حقيقة (ويقولون) أي الناس الظانون أنه من الكتاب (هو من عند الله ، وما هو من عند الله) بل كلام فاشل حاصل من هذا المبدّل لخدع المسلمين ، أو لتكثير سواد الكافرين الظالمين . فالفقرة الاولى وسيلة لحصول الفقرة الثانية لأن المسلمين أو الناس السامعين إذا لم يحسبوا بالمبدل أنه من الكتاب لا يقولون أي المبدلون هو من عند الله تعالى . (ويقولون على الله الكذب) ويفترون في نسبتهم ذلك الكلام الحاصل من الملويّ وغيره إلى الله تعالى عنه علوا كبيرا (وهم يعلمون) انهم كاذبون مفترون على الله فيتضاعف وزرهم عند الله .

هذه هي الآية الشريفة الدالة على هذا العمل الفاسد من أولئك المفسدين وهو ظاهر في أنهم تصرفوا في اللفظ المنزل وبدلوه كلا أو بعضاً. وليس ذلك التبديل إلا في مواضع معينة يفيد تبديلها ما أرادوه من تشكيك الناس في رسالة الرسول بتبديل نعوته ونعوت أصحابه وكتابه .

(ما كَانَ لِبَشَرٍ انْ يؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِباداً لي مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُم تُعَلِّمونَ الكِتابَ ، وَبِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلاَ يَأْمُرُكَمْ انْ تَتَّخِذوا الملئِكَةَ والنبيِّينَ ارْباباً . أَيَأْمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إذ انْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ !) (٨٠)

أخرج إبن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال ابو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار مِن اليهود والنصارى من أهل نجران

عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل نصراني من أهل نجران يقال له الرئيس : آوذاك تريدُ منّا يا محمد ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني . فانزل الله تعالى الآية . والآية تنزيه لأنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام إثر تنزيهِ الله تعالى عن نسبة ما افتراه أهل الكتاب إليه . وفيه تكذيب ورد على النصارى الذين يُغالون في شأن عيسى عليه السلام ويعبدونه ويقولون : إنه يستحق ذلك !

قوله تعالى : (ما كان لبشر) الآية أي ما وقع وما ثبت لبشر (أن يؤتيه الله الكتاب) المنزل منه تعالى (والحكم) أي الحكمة ، أو الحكم بما أنزله عليه وتطبيقه على أمته (والنبوة) وخصوصيته الرفعة والعلاقة الغيبية بينه وبين ربه تعالى (ثم يقول للناس) ذلك البشر الذي أوتي هذه الكرامات: (كونوا) أيها الناس (عبادا لي من دون الله) واعبدوني ولا تعبدوا الإله الذي أعطاني هذه المواهب (ولكن) يقول لهم : أيها الناس (كونوا ربانيين) منسوبين إلى ربكم في كل زمان ومكان ، عابدين له في كل حال تأتي على الإنسان وذلك (بما كنتم تعلمون الكتاب) أي بسبب أنكم تعلمتم الكتاب ووصلتم إلى درجة تعلمونه الناس (وبما كنتم تدرسونه) على النّاس فمحصول جواب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم للرجل النصراني : إني نبي ورسول وأوتيت الكتاب والحكمة والنبوة فآمُركم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له عبادة صافية عن الشوائب بحيث تكونوا ربانيين لله كما كان شأن الرسل قبلي من إبراهيم وموسى وعيسى ذلك . فلا ينبغي بأي حال من الاحوال العدول عن خط العدالة وعن خط الإهتداء إلى الضلالة ، وكل ما نسبتموه إلى عيسى وغيره فهم براء من ذلك كما أنا بريء منه .

وقوله تعالى : (ولايأمركم) نصبه ابن عامر وجماعة عطفا على ثم يقول وتكون (لا) مزيدة لتأكيد معنى النفي • اي ما صح لبشر أن يرسله الله إليكم ثم يقول لكم : أعبدوني من دون الله • أو يأمركم أنْ تتخذوا الملئكة والنبيين أرباباً : فلم يكن هذا في أي عصر وزمانٍ ، وإنما هذه دعاوى فارغة عن الحق ألقاها الشيطان إلى أهل العناد والكفران • فإن الرسل الكرام أجمعوا على نشر التوحيد وتخصيص الله تعالى بالعبادة • أيأمركم الأنبياء والرسل بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون منقادون لله تعالى في ما بلّغه الرسل ؟! فحاشا الرسل الهداة إلى الحق أن يقولوا غير الحق وأن يأمروا بغيره في العالمين •

(وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قال : أأقْرَرْتُمْ وَأخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إصْرِي ؟ قالُوا : أقْرَرْنا • قالَ : فاشهَدُوا وأنا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلّى بَعْدَ ذلِكَ فأولئِكَ هُمُ الفاسِقون) (٨٢)

قوله تعالى : (وإذ أخذ الله) الآية اما الإعراب : فالواو لعطف الجملة على ما قبلها ، وإ ذ ظرف منصوب بأذكر المقدر ، وأخذ فعل ، والله فاعل ، وميثاق مفعول به ، وفاعله مقدر وهو الله ، واضيف إلى النبيين اضافة المصدر الى المفعول او هو فاعل والمفعول محذوف ، أي ميثاق النبيين مع أمتهم • واللام في لما على قراءة الفتح وتخفيف ما موطئة للقسم المدلول عليه بأخذ الميثاق ؛ لأنه الإستحلاف ، وسميت بذلك لأنها تسهل فهم الجواب على السامع ، وهذه اللام تدخل على أداة الشرط سواء كان إن أو ما كما هنا : والغالب دخولها على الاولى•

وما للشرط في محل النصب بالفعل بعده • والمفعول الثاني ضمير المخاطب • وكلمة من بيان لها • وقوله : لتؤمنن جواب للقسم المقدرفقط • ويستفاد منه جواب الشرط المحذوف وفي ألفية ابن مالك

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

ويجوز أن تكون ما في محل الرفع مبتدأ ، واللام الداخلة عليها حينئذ لام الإبتداء • وتكون كلمة ما موصولة ، وجملة آتيتكم صلته ، وخبر المبتدأ إما مقدر وجواب القسم يدل عليه ، أو جملة لتؤمنن مع القسم المقدر • والتقدير : للذي آتيتكم من كتاب وحكمة والله لتؤمنن به • وفي الآية تدقيقات شريفة إستوفاها المفسرون لاسيما صاحب كتاب روح المعاني، روّح الله روحه في عالم البرزخ وفي دار الجنان آمين !

ومعنى الآية الكريمة واذكر (إذ أخذ الله ميثاقه) الذي وثقه (من النبيين لما آتيتكم) وأيّ شيء آتيتكم من كتاب منزّل مني ، وحكمة وأمور مشروعة ملهمة وصلت إليكم (ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم من الكتاب والحكمة لَتُؤمِنَنّ به) أي يجب ان تؤمنوا به إيمانا نابعا من أَعماق القلوب (ولتنصُرَنّه) في دعوته الناس إلى ما معه من الشريعة الإلهية أصلا وفرعا ، وعند ذلك (قال) الله لأولئك النبيين كل في عصره (أأقررتم) بذلك الميثاق الاكيد (واخذتم على ذلكم) الميثاق (اصري) اي عهدي وتأكدتم عليه ؟ (قالُوا : أَقررنا) فَقال الله لهم (فاشهدوا) : أي فليشهد بعضكم على بعض بذلك الإقرار وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم وتَشاهُدِكم • أو اعلموا بذلك وأنا معكم من العالمين • والمراد بالرسول في قوله (ثم جاءكم رسول) هو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن علي كرم الله وجهه قال :

لم يبعث الله تعالى نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن بعث وهو حيّ لَيُؤمِنَنّ به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا الآية .وعدمُ ذكر الأمَم فيها إما لأنّهم معلومون بالطريق الأَولى أو لأنه إستغنى بذكر النبيين عن ذكرهم .

وهذا المعنى على إضافة الميثاق إلى المفعول . وأمّا على إضافته الى الفاعل بأن يراد ميثاق النبيين وأخذهم العهد من أممهم ، فمعناها وإذ أخذ الله ميثاق الأنبياء . وأخذهم العهد كل من قومه على انه اذا جاءهم رسول موصوف بما ذكرنا ان يؤمنوا به وينصروه نصرا مؤزرا حيث إن الله تعالى قرر ذلك وأمر انبياءه بأخذ ذلك العهد من الأمة . فعليه يجب عليكم أيها الكتابيون أن تؤمنوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتابه وشريعته ، وأن تتبعوه وتنصروه في دعوة العباد إلى الرشاد وتبليغ دعوته إلى أقصى البلاد ، فإن الرسالة أحكام إلهية بعيدة عن إتباع الميول النفسية والأهواء الشخصية ، فمن عمل بما عهد عليه نال سعادة الدنيا والآخرة ، وأخذ أجره مضاعفا يوم لقاء رب العالمين . فمن تولى من الأمم بعد ذلك عن الميثاق فأولئك هم الفاسقون الناقضون لعهد الله وعهود الأنبياء ، والمرسلين .

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ؟!) (٨٣)

قوله : (أفغير دين الله يبغون) : عطف على الجملة السابقة ، والهمزة متوسطة بينهما للانكار أو عطف على محذوف ، وتقديره : أيتولون عن العهد فغير دين الله يَبْغون وله أسلم من في السماوات والارض طوعا بسلامة الصدر والنظر في البراهين الساطعة ، أو كرها بحدة السيوف اللامعة ، أو بمعاينة ما يضطرهم إلى الإيمان كإدراك بني إسرائيل فلق النيل

وارتفاع الطور فوقهم على رؤوس الأشهاد كالمظلة البعيدة عن الوهم والتأويل وبالآخرة هم إليه يُرْجَعون ؟

(قل : آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَما أُنْزِلَ عَلى إبْرَاهيمَ وَإسماعيلَ وَإسحاقَ وَيَعْقُوبَ والْأسبَاطِ ، وما أُوتِيَ مُوسى وعِيسى والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ ، ونَحْنُ له مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(٨٥)

قل يا حبيبي معلنا للحق بالحق بين الخلق : آمنا أنا ومن تبعني إلى يوم القيامة بالله وحده لا شريك له ذاتا ووصفا وفعلا ، وآمَنّا بما أنزل علينا من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، وبما أنزل على إبراهيم وإسماعيل من الصحف الشريفة ، وما أنزل على إسحاق ويعقوب والأسباط الأنبياء منها ، وآمنا بما أوتي موسى من التوراة ، وما أوتي عيسى من الإنجيل ، وما أوتي النبيون من ربهم على تعدد أفرادهم واختلاف أسمائهم وأقوامهم في أقطار الأرض فإنه قال تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) لا تفرق بين احد منهم في أصل الرسالة ونحن له مسلمون منقادون مطيعون في جميع ما أمر به ونهى عنه المكلفين . ومن يبتغ غير الإسلام الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الإتيان بالشهادتين وإقامة الصلوات المفروضة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . فمن يطلب غير ذلك دينا فلن يقبل منه لأن محمدا خاتم الأنبياء والمرسلين والدين هو الدين الذي جاء به وهو في الآخرة من الخاسرين ما عندهم رأس مال وربحا ، ولا تبقى عندهم بضاعة يوم الدين .

وهذه الآية نزلت في جماعة إرتدوا وكانوا إثني عشر رجلا وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا ، منهم الحرث بن سويد الأنصاري .

(كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ؟ واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالمَلئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٨٩)

عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أَسْلَمَ ثم ارتدّ ولحق بالمشركين ، ثم ندم ، فَأَرْسَلَ إلى قَومِهِ وَقالَ لَهُم : أَرْسِلُوا إلى رسولِ الله وَسَلُوهُ : هل لي من توبة ؟ فجاء قومه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا له : هل له من توبة ؟ فنزلَتِ الآيات ، فأرسل إليه قومه فأَسْلَم . رواه النسائي والحاكم وابن حبان . وعن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم كفر فرجع إلى قومه ، فأنزل فيه الآيات المذكورة فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه . فقال الحارث له : والله لقد علمت أنك لَصَدُوق وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأَصْدَقُ منك ، وإن الله عَزَّ وَجَلّ لأَصْدَقُ الثلاثةِ . ثم رجع فأسلم وَحَسُنَ إسْلامُه . أخرجه إبن المنذر وغيرهُ .

قوله تعالى : (كيف يهدي الله) الآية معناه كيف يهدي الله إلى الدين الحق (قوما كفروا بعد إيمانهم) بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده (وشهدوا أن الرسول) وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (حق)

لا شك في صدقه في دعوى رسالته من الله وأنه رسول الله إلى كافة الانام (وجاءهم البينات) ؟ الآيات البليغة والمعجزات الباهرة والبراهين القطعية على رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بإهمال النظر الدقيق في حقيقة ما جاء به الرسول ، وميلهم إلى الشهوات النفسية والأغراض الوقتية الشخصية •

(أولئك) الموصوفون بالصفات السابقة جزاؤهم على ما اقترفوه (أن عليهم لعنة الله والملئكة والناس أجمعين • خالدين فيها) أي في تلك اللعنة ، أو في العقوبة الناتجة منها ، أو في النار • (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) ولا يمهلون بتأخير العذاب عنهم من وقت إلى آخرَ ، إلا الذين تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلك الكفر الذي ارتكبوه ، وأصلحوا ، ودخلوا في دائرة الصلاح لقلوبهم بطاعة الله تعالى والإستقامة عليها ، فإن الله غفور رحيم بستر قبائحهم في الدنيا والعفو عنهم في الآخرة ، وهو أرحم الراحمين•

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً ، وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ، أولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (٩١)

قال قتادة والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن •

قال تعالى (إن الذين كفروا) الآية معناه إن الذين كفروا بعيسى والإنجيل (بعد إيمانهم) بموسى والتوراة ، (ثم ازدادوا كفرا) على كفرهم السابق ، وذلك بكفرهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن الكريم (لن

تقبل توبتهم) ما أقاموا على هذه الحالة الفاسدة المفسدة ، أو لا يتوبون حتى تقبل توبتهم ؟ أولا يتوبون إلا وقت اليأس من الحياة ؟ والتوبة لا تقبل فيه (واولئك هم الضالون) عن الهدى والإسلام (ان الذين كفروا) بالله ورسوله محمد ـ عليه السلام ـ (وماتوا وهم كفار) أي وماتوا وهم مستمرون على كفرهم وضلالهم (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) أي لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا سواء صرفه بدون النظر إلى جزاء له ، أو صرفه بقصد أن يكون فدية له مخلصة عن عذاب جهنم .

وحاصله أنه لما مات على الكفر لا يقبل منه الصرف مطلقا . ومعلوم أن صرف المال بدون أية نية أولى بعدم القبول من صرفه بقصد التقرب والتخلص به من العذاب . وقال بعضهم : إن الكلام محمول على المعنى ، أي لا تقبل منه الفدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ! ومعلوم أنه اذا لم تقبل منه الفدية الكثيرة فالفدية القليلة لا تقبل بطريق الأولى . وبعض آخر إن المراد ولو افتدى بمثله معه بقرينة قوله تعالى : (ولو أن للذين ظلموا ما في الارض جميعا ، ومثله معه لافتدَوا بـه ...) . (اولئك) الناس الذين لا تقبل منهم ذلك (لهم عذاب أليم) في الآخرة (وما لهم من ناصرين) يدفعون العذاب عنهم .

الجزء الرابع

(لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) (٩٢)

روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال : يا رسول الله إن أَحَبَّ أموالي إليّ (بَيْرُ حاء) فضعها حيث أراك الله . فقال : بَخٍ بَخٍ ذاك مال رائج أو رابح ، وإني أرى أنْ تَجعَلَها في الأقربين .

وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها ، فقال : هذه في سبيل الله . فحمل عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسامة بن زيد . فقال زيد : إنما أردت أن أتصدق بها . فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله قد قبلها منك .

ومعنى الآية الكريمة : لن تنالوا البر الكامل من الله ، وهو الرضا والرحمة والجنة ، حتى تنفقوا في سبيل الله من المال أو غيره مما تحبّون . أيْ بعضا منه بدليل قراءة (حتى تنفقوا بعض ما تحبّون) وإنما قيدنا البر بالكامل ؛ لأن كل حسنة عليها جزاء سواء وردت ممّا تحبون أو غيره . (وما تنفقوا من شيء) قليلا أو كثيرا وكان مما تحبون أو من غيره (فإن الله به عليم) فيجازيكم على مقداره ، ويزيدكم الله من فضله وإحسانه إلى عباده .

(كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَني إسرائيلَ إلاّ ما حَرَّمَ إسْرائيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ انْ تُنَزَّلَ التَّوريةُ ، قُلْ : فَأتوا بالتَّوريةِ فَاتْلُوها إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ فَأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٩٤) قُلْ : صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ اِبْراهِيمَ حَنِيفاً وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)(٩٥)

روى الواحدي أنه حين قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنا على ملة اِبْراهِيم ، قالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كان ذلك حلالاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فنحن نُحِلّه . فقالت اليهود : كل شيىء أصبحنا اليوم نحرّمه ، فإنه كان محرما على نوح وإبراهيم حتى إنتهى إلينا ! فأنزل الله تعالى هذه الآية تكْذيبا لهم .

قال تعالى : (كل الطعام) أي كل المطعومات كان حلالا أكلها لبني إسرائيل إلاّ ما حرم إسرائيل ، أي يعقوب على نفسه ، كلحوم الإبل وألبانها. قيل : سرّ التحريم أنه كان به وجع عرق النَّسا فنذر : إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه ، وكان ذلك أَحَبَّهُ إلَيه . وقيل : إنه حرم ذلك على نفسه بإشارة الأطباء . وكان ذلك التحريم من قبل أن تنزل التوراة على موسى ، فلم يكن في شريعة إبراهيم . قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين.أمر الرسولَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمحاجتهم بكتابهم لتبكيتهم

إذ في التوراة أن الله تعالى حرّم عليهم كثيرا من الطيبات بسبب ظلمهم • فتلك المحرّمات لم تكن في العهود السابقة ، وكانت حلالا في دين نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، سوى ما حرمه على نفسه ، وإنما حرمت على بني إسرائيل بعدهم بسبب كفرهم وظلمهم وفساد أعمالهم • (فمن افترى على الله الكذبَ) بزعم أنه حرّم ذلك قبل نزول التوراة (من بعد ذلك) البيان في التوراة (فاولئك هم الظالمون) أنفسهم بانحرافهم عن التنزيل وسلوكهم مسلك التضليل • (قل صدق الله) فيما أنزل وبين من التحريم والتحليل ، وأنتم تكذبون • فإن اردتم الخلاص من العذاب الأليم (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا) من الباطل كالإشراك وغيره إلى الحق ، وهو التوحيد والشريعة الحنيفية • (وما كان من المشركين) كاليهود التي زعمت أن عزيرا ابن الله ، والنصارى الذين زعموا أن عيسى ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيراً !

(اِنَّ اَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدًى لِلعالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ اِبْراهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَه كانَ آمِناً ، ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً • ومَنْ كَفَرَ فَإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمِينَ) (٩٧)

أخرج إبن المنذر وغيره عن إبن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة لأنه مُهاجَر الأنبياء ولأنه في الارض المقدّسة !

فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم • فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت • إلى مقام إبراهيم • وسر ربط هذه الآية الكريمة بما قبلها : أن الله تعالى أمر الناس باتباع ملة إبراهيم ، ومن ملته تعظيم البيت الذي بناه بأمر الله تعالى • فناسب ذكر البيت وفضله وشرفه •

فقال تعالى : (ان اول بيت وضع) في الأرض (للناس) حتى يعبدوا الله تعالى فيه ويوحدوه (للذي ببكة) للبيت الذي هو في بلد يسمى بكة بالباء كما يقال له مكة بالميم • وهما لغتان في إسم البلد • روي أنه سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أول بيت وضع للناس • فقال : المسجد الحرام ، ثم بيت المقدس • وسئل كم بينهما ؟ فقال : اربعون • واستشكل ذلك بأن باني المسجد الحرام إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وباني الأقصى داود ، ثم إبنه سليمان ـ عليهما السلام ـ ، وبين بناءيهما مدة تزيد على الأربعين بكثير • وأجيب بجوابين :

الاول : إن الوضع غير البناء والسؤال عن مدة مابين وضعيهما لا عن مدة ما بين بنائيهما ، فيحتمل أن واضع الأقصى بعض الأنبياء قبل داود وبعد إبراهيم بأربعين سنة •

الثاني : وهو الحق إن واضع بناء الأقصى أيضا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ولكن لم يكن بالشكل الذي الآن عليه ، بل كان على وضع وشكل بسيط ، ثم بنى عليه داود ، ثم وسعه ورفعه سليمان ـ عليهم الصلاة والسلام ـ •

(مباركا) كثير البركة والخير والنفع مادة ومعنى ، لمن حجه واعتمره، وللساكنين حوله ٠ اما للساكنين فمن جهة الجوار والعبادة فيه والطواف حوله والإستفادة من المعاملة مع الواردين ٠ واما للخارجين فمن جهة الأجر والثواب في الحج والإعتمار والإطلاع على أحوال المسلمين هناك والاستفادة من علومهم وبركاتهم وأخذ ما يحتاجون إليه بطريق التجارة وغيرها ٠ (وهدى للعالمين) لأن البيت قبلة والقبلة جهة الوحدة للمسلمين ، ووسيلة الإعتصام والإتحاد بينهم إن مَشَوا على طريقة الحق في الدين ٠ (فيه آيات بينات) أي في ذلك البيت آيات أي أدلة قاطعة على كرامة البيت وعظمة ربه وقدرته كانحراف الطيور المباركة عن موازاته عند الطيران في الجوّ ، وانكفاف السباع الضارية عن إيذاء سائر الحيوانات في الحرم ، وإهلاك من قصده بالسوء من الجبارين ، وأمن العائذين به والقاطنين في أطرافه كأهل مكة وغيرهم ٠ قال تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرَماً آمِنا ويتخطف الناس من حولهم ؟) وكتدمير أصحاب الفيل ٠

وقوله تعالى : (مقام ابراهيم) مبتدأ محذوف الخبر ، أي منها مقام إبراهيم أو بدل من آيات بدلَ البعض عن الكل ، أو بدل الكل من الكل على أساس أن المراد بالآيات نفس الصخرة التي وقف عليها الخليل الجليل عند البناء ، وأثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين ، وحفظها مع مرور آلاف السنين ٠

وكونه بدل الكل مبني على نوع من المبالغة ، وإلا فمدلول الآيات لا ينحصر في هذه الأمور ٠ (ومن دخله كان آمنا) أي ومن دخله لله ومؤمنا

به وبرسالة رسله كان آمنا من الخلود في العذاب، أو كان آمنا من العذاب على ظاهر ما ورد في جزاء الحاج البارّ المخلص • (ولله عَلَى الناسِ حجّ البيت مَنِ اسْتَطاعَ إليه سَبيلاً) ولله خبر مقدم ، وعلى الناس متعلق بما تعلق الخبر به ، أو هو خبر ثان • وحج مبتدأ والحج : قصد زيارة البيت على الوجه المخصوص • ومن استطاع إليه سبيلا بدل من الناس بدل البعض من الكل ، وعائد البدل مقدر أي منهم •

والمعنى : ولله على الناس أن يحج بيته من استطاع منهم سبيلا •

والإستطاعة إما بالبدن ، أو بالمال ، أو بهما معا • وإلى الأول ذهب الإمام مالك فيجب الحج عنده على من قدر على المشي والكسب في الطريق• وإلى الثاني ذهب الإمام الشافعي ولذا أوجب الإستنابة على الزمن إذا وجد أجرة من ينوب عنه • وإلى الثالث ذهب الإمام أبو حنيفة ــ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ــ • ويؤيده ما أخرجه البيهقي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال : السبيل أن يصح بدن العبد ، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به • واستدل الشافعي ــ رضي الله عنه ــ بما أخرجه الدارقطني عن جابر بن عبدالله قال : ولما نزلت هذه الآية ولله على الناس الآية قام رجل فقال : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة • وروي هذا من طرق شتى ، وهو ظاهر فيما ذهب إليه حيث قصر الإستطاعة على المالية دون البدنية • والإمام أبو حنيفة يؤل ما وقع فيه بأنه بيان لبعض شروط الإستطاعة بدليل : لو فقد أمن الطريق مثلا لم يجب عليه الحج ومن اللطائف ما قيل في تفسير الآيات البينات : أنها ثلاث : تذكارية ، وستّارية ، وقهارية • فالأولى مقام إبراهيم ووجوده مذكر لجهود ذلك

الرسول العظيم في سبيل توجيه الناس إلى عبادة الله وحده ، وإلى قبلة واحدة فيها توكيد لتوحيده ، والآية الثانية الستارية : أن من دخل ذلك البيت حاجا مخلصا لله مؤمنا به وبرسوله كان آمنا من عذاب يوم القيامة . والآية الثالثة القهارية : أن الله تعالى فرض على الناس المستطيعين حجّه . ومن خالف ذلك كافرا بوجوبه فهو خالد في العذاب . فالفقرات الثلاث بيان لأهمّ آيات الله البينات هناك .

وورد في سبب نزول قوله تعالى : (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) عن عكرمة قال : لما نزل (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) الآية.. قالت اليهود : فنحن مسلمون . فقال لهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إن الله فرض على المسلمين حج البيت . فقالوا : لم يكتب علينا ، وأَبَوا أنْ يَحجّوا فأنزل الله تعالى : (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) أخرجه البيهقي في سننه ، وإبن المنذر أي ومَن لَم يَحجّ وكَفَرَ فإنّ الله غني عنه ، لأن الله غني عن جميع العالمين . وهو جزء ضئيل منه . وهذا الإستغناء عنه كناية عن مقته وخذله . وفي الآية تأكيد لوجوب الحج وتغليظ على من تركه . ولذلك قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا او نصرانيا » .

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرون بآيَاتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ على مَا تَعْمَلُونَ ؟ (٩٨) قُلْ : يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ؟ وما الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٩٩)

قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب) هذه الآية نزلت في أوس بن قيظي، وهبار ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا من إنكار الحق

وتنفير الخلق عنه . فالمراد بأهل الكتاب اليهود ظاهرا ، وإن كان يشمل على المعنى اليهود والنصارى . وخطابهم بأهل الكتاب للتوبيخ على أنهم باشروا تلك الأساليب الفاسدة مع أنهم أهل العلم ، وكان الواجب عليهم إظهار الحق وتأييده . (والله شهيد على ما تعملون . قل : يا أهل الكتاب لم تصدّون) أي : تصرفون (عن سبيل الله ؟) : أي عن الطريق الموصلة إلى الله (من آمن بالله) ورسوله وما جاء به (تبغونها عِوَجا) حال من ضمير الفاعل . أي حالكونكم باغين وطالبين لها عِوَجا . بأن تحاولوا التلبيس على الناس وإيهامهم أن في ملة الإسلام إعوجاجاً عن الحق وعدمَ موافقة له لينفر غير أهلها عن قبولها ويرتد أهلها عنها (وأنتم شهداء) ومطلعون على أن لا عوج فيها مطلقا . (وما الله بغافل عما تعملون)

(يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً) إلى بضع آيات بعدها . نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمرّ بهم . شاس ابن قيس اليهودي فغاظه تآلفهم واجتماعهم ، فأَمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يومَ بُعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه ، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ، ففعل ، فتنازع القوم وتفاخروا وتباغضوا ، وقالوا : السّلاحَ السّلاحَ ! واجتمع من القبيلتين خلق عظيم. فتوجه إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقال : أتدعون الجاهلية وَأنَا بَين أظْهُرِكم بعد أنْ اكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم ؟ ! فعلموا أنها نزغة من الشيطان فألقَوْا السلاحَ واستنفروا ، وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول أن يخاطب أهل الكتاب إظهارا لجلالة قدرهم وإشعارا بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم . فقال : (يا أيها الذين آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً) أي طائفة أية طائفة (مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ) أعطوا التوراة (يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ) بالله وبمحمد رسول الله (كافِرِين)(١٠٠) بهما . (وكَيْفَ تَكْفُرُونَ) بالله ورسوله (وأنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ) وأنتم قوم أولو سعادة نلتم شرف صحبة الرسول وتتلى عليكم من جانبه آيات الله المنزلة بالامر والنهي والمواعظ الحسنة (وفِيكُمْ رسُولهُ) ؟ المبارك محمد ويشملكم نوره وحضوره . (ومَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ) ويتمسك بدينه وكتابه (فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(١٠١) فقد أرشد إلى طريق واضح بين وهو دين الإسلام . وقد روي أن هذه الآية نزلت في معاذ وأصحابه . كما روي أنه نزل في قومي الأوس والخزرج وما وقع بينهما بفتنة (شاس) اليهودي . ولا مانع من تعدد أسباب النزول .

(يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُو اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) أي حق تقواه وما يجب منها وهو صرف كمال الطاقة في ترك المحرمات وأداء الواجبات ، كما قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) . وعن إبن مسعود ـ رضي الله عنه ـ هو أن يُشكَرَ فلا يُكفَرَ ، ويُطَاعَ فلا يُعْصَى ، ويُذْكَرَ فلا يُنسى . وهذه الفقرات إشارة إلى مراتب التقوى الثلاث : الاولى : الإتقاء عن الكفر . والثانية الإتقاء عن المحرمات والإتقاء عن ترك الواجبات . والثالثة : الإتقاء عن الغفلة عنه بأن يذكر فلا ينسى .

(ولا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأنْتُمْ مُسلِمُون)(١٠٢) يعني : ولا تموتن على حال من الأحوال إلا على حال إسلامكم وانقيادكم لله ولرسوله . والنهي

هنا لم يتوجه إلى المقيد وهو الموت ؛ لأن الموت محتم بل إلى قيده وهو حال غير الإسلام ٠

(واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً) اُستعير الحبل للعهد إستعارة مصرحة ، والإعتصام ترشيح ٠ أي وتمسكوا بوسيلة النجاة من الردى ، وهي ملة الإسلام النابعة من عين القرآن الكريم النازل من الله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٠ (ولا تَفَرَّقُوا) عن الحق الذي هو التمسك بها حتى تتفرق قلوبكم وأحوالكم وأعمالكم فتتنازعوا ويضرب بعضكم رقاب بعض ٠ (واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) وهي الهداية إلى الملة الإسلامية الآتي بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصرتم أحباء اصدقاء بالتمسك بها ، ولم تكن تلك الصلة موجودة بينكم (إذْ كُنْتُمْ أعْدَاءً) قبل مجيىء الإسلام والإستضاءة من نوره وكان يضرب بعضكم بعضا ٠ (فَأَلَّفَ) الله (بَيْنَ قُلُوبِكُمْ) برابطتها (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَاناً) متآلفين يحب بعضكم بعضا ، وكلهم يحبون الله ورسوله ٠ (وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) أي على شفة حفرة من نار جهنم ، لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها بلا شك ، إذا قلنا إنهم بلغتهم الدعوة الإسلامية ولم يسلموا بعد ، أو من نار الحرب والدمار والبغضاء بينكم قبل الإسلام (فَأَنْقَذَكُمْ) الله (مِنْها) أي من تلك النار نار العذاب ونار الدمار ببركة الإسلام (كذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (١٠٣) إرادة ثباتكم على الهداية والعناية بالدين ٠

(ولْتَكُنْ مِنْكُمْ اُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى االْخَيْرِ ويأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)(١٠٤)

تقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمات الإسلام والمسلمين. فإن الأمة منها الغافل والكاسد والمعاند والمعارض ، فلولا أن هنــاك من يأمر بالخير وينهى عن الشر فسد البحر والبر . روي أنــه ــ عليه الصلاة والسلام سئل من خير الناس فقال : آمَرُهُم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله ، وأَوْصَلُهم للرحم . وإنّ الأمر بالواجب واجب، وبالمندوب مندوب إلا إذا خيف على ضياعه ، فوجب الأمر به إذ ذاك . وإن النهي عن المنكر الــذي يعاقب عليه واجب ، وعن المنكــر المكروه مندوب ، إلاّ إذا اعتقد أنــه ليس مخالفاً فوجب النهي عنه أيضا . إن الأمر والنهي المذكورين من فروض الكفاية، وانهما واجبان على الكل على أساس الإكتفاء بفعل البعض منهم ؛ فعليه تكون كلمة مِنْ في قوله تعالى (منكم) للتبعيض ؛ لأن القائم بهما إنما هو بعض منها ، على أن لها شرائطَ لا تتحقق إلا في بعض الناس ، كالعلم بالأحكام ، ومراتب الإحتساب ، وكيفية إقامتها ، والتمكن من القيام بها ، وظن الإفادة ، وعدم حصول فساد أعظم من ترك الواجب المأمور به ، وفعل الحرام المنهي عنه .

وإذا علمت أن الأمر بالمعروف واجب ، فاعلم أن الواجب إما واجــب عيني كالعلم بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، والعلم بواجبات أركان الإسلام من الصلاة والصيام والحج والزكاة. وإما واجب على الكفاية . فمن هذا النوع : الجهاد ، وإعداد القوة لمدافعة الكفار ، ومنع إستيلائهم على البلاد الإسلامية ، فإذا استولوا عليها وجــب عينا على كل مستطيع . ومنها تعلم كل علم يحتاج إليه في بقاء المسلمين كعلم الطب والزراعة والصناعة على اختلاف أصنافها . وعلــم السياقة للسيارات والقيادة للطيارات ، وعلم معرفة اجزائها وتركيبها وتحليلها وصنعها . وعلم كل أمر يتوقف عليه بقاء الدين وأهله .

ومن مهمات واجبات الكفاية حفظ القرآن عن الغيب ، وعلم التجويد ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصولين ، والبلاغة . وما توقف الكتاب والسنة عليه من النحو والصرف واللغة . وفي عصرنا هذا كاد أن ينقرض ذلك العلم بانقراض علمائه وإهمال مدارس تعليمه وعدم الإهتمام به .

ومن فروض الكفاية المهمة جدا رعاية المدارس الإبتدائية والمتوسطة والاعدادية ، واعداد مدرسين للدين أكفاء للتدريس ، ومربين للأولاد في كافة المراتب لصيانة العقائد الإسلامية وأخلاق المسلمين .

ومن المهمات على المسلمين رعاية أولادهم في أيام العطلة السنوية لتعليم الواجبات من القرآن الكريم ، وآداب العقائد والعبادات والجمعة والجماعة . كما يجب عليهم أن يأخذوا أولادهم معهم إلى الإحتفالات الدينية الرسمية وغيرها لتذكار تأريخ الإسلام وأمراء الدين .

ومن فروض الكفاية اليوم أن يكون لكل قرية ، أو محلة كبيرة في البلاد من يقوم بالوعظ والإرشاد على مستوى عقول العامة من الرجال والنساء ، وإذا لم يتيسر ذلك في موضع واحد واسع فليكن ذلك في مجلس من مجالس الدار المعدة للضيوف حتى يستمع وينتفع الأهل والعيال ، فإنه كاد أن تنسى آداب الإسلام والمسلمين .

ومن الواجبات على الأمة السعي في رفع المنكرات الإعتقادية والأخلاقية والأعمالية بعرضها على الجهات المختصة صاحبة النفوذ بصورة سليمة مناسبة للعصر والزمان ، والسعي في منع الكتب المستوردة المخالفة للعقائد الإسلامية بالوجه الممكن أداءً للواجب الذي في ذمتنا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين .

فعليه يجب على الأمة الاسلامية أن يكون منهم أناس يدعون إلى الخير بدون إهمال يؤدي إلى اختلال النظام ، وذلك الخير هو الإسلام عقيدة وعملا • اخرج ابن مردويه عن الباقر ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ قوله تعالى : (ولتكن منكم أمّة يَدْعُون إلى الخير) الآية فقال : الخير إتباع القرآن وسنّتي • والقرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ، وإن كانا يرغبان في الأمور الدينية بكثرة ، ولكنهما يدعوان كثيرا إلى أمور هي من أركان الحياة السعيدة الدنيوية ، وإلى المزارع والمتاجر ورعاية الأنعام وسائر المكاسب بحسب اقتضاء الظروف والايام • والى تعلم العلوم والصناعات المفيدة ، وإلى إعداد العدة لدفع الأعداء ووقاية الناس عن البلاء وإلى الأمور الإجتماعية من تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن وغيرها •

وبالجملة فالرسول الأكرم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدوة للأنام في كافة النواحي الإعتقادية والعملية ، وسنّته السنية شارحة كاشفة للقرآن الكريم ، فطوبى لمن اهتدى بهديه وسعى على مسلك سعيه •

(ويأمرون بالمعروف) من الواجب والمندوب (وينهون عن المنكر) من الحرام المغضوب أو من المكروه الغير المرغوب • (واولئِك) الناس الموصوفون بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (هُمُ المُفلِحون) في الدنيا كمال الفلاح ، وفي الآخرة بتناول دفتر النجاح جعلنا الله منهم بجاه سيد المفلحين وإمام الصالحين آمين •

(وَلا تَكُونُوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ، واُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوهٌ وتَسْوَدُّ وجُوهٌ ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وجُوهُهُمْ : أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ ؟! فَذُوقُوا العَذابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وأمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، ومااللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ)(١٠٨)

(ولا تَكُونُوا) ايّها المؤمنون (كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا) أي كاليهود والنصارى الذين اختلفوا في التوحيد والتنزيه فقالوا عزير ابن الله ، وعيسى ابن الله ! وادّعَوا على الله تعالى اشياء لم ينزلها ولم يرض بها من أحكام الدنيا في التحليل والتحريم ، ومن أحوال الآخرة من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى • وكدعوى اليهود أن دين موسى خالد لا يأتي بعده دين • والنصارى أن دين عيسى مستمر إلى يوم القيامة • وذلك (مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ البَيِّنَاتُ) من الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للإتفاق عليه (وأولئِكَ) الكتابيون المختلفون في التوحيد والتنزيه (لَهُمْ عَذَاب عظيم) في الآخرة جزاء لإختلافهم في الأصول في الدنيا • وذلك العذاب يتحقق يوم القيامة (يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوه") وهي وجوه أهل الإيمان والدين الغُرّ المُحجلين (وتَسْوَدُّ وجُوه") وهي وجوه الكافرين المُخَجّلين (فأمَّا الّذِينَ اسْوَدَّتْ وجُوهُهُمْ) من الكفرة الفجرة فيقال لهم توبيخا : (أكَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ) أي أكفرتم برسالة محمد ــ رسول الله ــ يوم ظهوره ونشر رسالته بعد إيمانكم به قبل مبعثه (فذُوقُوا العَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكفُرونَ • وأمَّا الذين ابْيَضَّتْ وجوهُهُمْ) من المؤمنين بالله ورسله فينغمرون (في رَحْمَةِ اللهِ) الشّاملة لهم أي في الجنة المغمورة برحمة الله (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أَبَدَ الآبدين (تِلْكَ) التي نتلوها (آياتُ اللهِ) المنزلة مِنّا

مع سفيرنا الأمين (نتلوها عليكَ) على لسانك بالوجه (بالحقّ) دون أية شبهة واشتباه (وما الله يُريدُ ظلماً لِلعالمين) •

(ولله ما في السّموات ومَا في الأَرْضِ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)(١٠٩)

من السؤال عن الأحوال والأعمال والجزاء الموافق للواقع بلا نزاع وجدال ، فاختاروا ما تقرون لأنفسكم حتى تنالوا الجزاء يوم الدين •

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَاْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ ، وَلَو آمَنَ اَهْلُ الكِتَابِ لكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ ، وَاَكْثَرُهُمُ الفاسِقُونَ)(١١٠)

قوله تعالى : (كنتم خير أمة) من المفسرين من قال : كلمة كان زائدة • والمعنى : أنتم خير أمة • واعترِضَ بأنها لا تُزادُ في أول الكلام • ومن قال : هي ليست زائدة ولكن لا تدل على الزمان وإنما تدل على تأكد النسبة بين أجزاء مدخولها • ومن قال إنها تدل على تحقق تلك النسبة في الزمان الماضي ولذلك عدّها المناطقة رابطة زمانية ، فتدل هنا على تحقق النسبة في الماضي سواء كان أزلية لا تنقطع ، ولا تنتهي نحو قوله تعالى (وكان الله عليما حكيما) أو لايزاليا وقابلا للزوال ، نحو كان زيد أميرا ، أو مُسْتمر!ا لا تزول نحو كنتم خير أمة اُخرجت للناس • وهذا القول هو الصواب الموافق للوضع والإستعمال• وعليه يحتمل أن يكون المراد الماضي القريب، والمقصود أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ • ومعناه : كنتم يا أصحاب أمة منذ نشأتكم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وهو التوحيد ،

وتنهون عن المنكر وهو الإشراك ، وتؤمنون بالله حسب ما بلغه الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وإذا كان للماضي البعيد كما هو الظاهر فمعناها يعتبر بحسب علم الباري تعالى أي كنتم في علمنا الأزلي خير أمة أخرجت وخلقت للناس أي الرسل . واستأنف لبيان الخيرية بقوله تأمرون بالمعروف ، وهو كل ما يأمر به الشرع، وتنهون عن المنكر ، وهو كل ما ينهى عنه وتؤمنون بالله كما أمر به الرسول . والمقصود : أن هذه الأمة الإسلامية في علم الله تعالى ـ ولا يمكن تبدل علمه ـ أمة من خير الأمم لأنها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر مؤمنة بالله الكريم . فتستمر هذه الخيرية في كل عصر من العصور مرّ الزمان إلى يوم القيامة . ويؤيد هذا ما أخرجه الإمام أحمد بسند حسن عن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميتُ أحمد وجعل التراب لي طهورا ، وجعلت أمتي خير الأمم » .

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي قَوّامَةً صَوّامَةً على أمرِ اللهِ ، لا يَضُرُّها مَنْ خالَفَها » . وقوله : « لا تَزالُ طائفة مِنْ أمّتي ظاهرين على الحقّ حتى تقومَ الساعة » وسندهما صحيح . وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مثل أمّتي مَثَلُ المَطَر ، لا يُدرى أوّلُه خيرٌ أمْ آخره » .

ويلزم من خير يتها أن يكون إجماعُها حجة ، لأنه لا يمكن حسب ظاهر الآية الكريمة إجتماعُها على الضّلالة والمنكر بحيث لا يكون هناك رادع لها وناهٍ عنها في إعتقاد المنكر أو العمل به . وإذا لم يكن لها إجماع فلا شك أن الخير في الأكثرية . وعليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « واذا رأيتم

الإختلاف فعليكم بالسواد الأعظم » ويؤكّد ذلك قوله سبحانه وتعالى : (ومَنْ يُشاقِقِ الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبيّن لَه الهُدى ، وَيَتّبع غير سبيل المؤمنين نُوَلّه ما تَوَلّى ونُصْلِه جَهَنَم وساءت مصيرا).

حيث عاقب على اتباع غير سبيل المؤمنين ، وبالجملة فالخيرية في هذه الامة ثابتة مستمرة إلى يوم القيامة. فطوبى لمن تمسك بالعروة الوثقى ودخل في هذه الأمة ولم يخرج من إعتقادها إلى أن يلقى ربه في عداد المؤمنين .

(ولو آمن أهل الكتاب) إيمانا بالله ورسوله الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لكان) ذلك (خيرا لهم) من الإيمان بموسى وعيسى فيه . (منهم المؤمنون) كعبدالله بن سلام وأخيه (وأكثرهم الفاسقون) عليهما السلام فقط . أو خيرا لهم مما هم عليه بحسب زعمهم وجود الخيرية الخارجون عن طاعة الله .

(لَنْ يَضُرّوكُم إلاّ أذىً ، وإن يُقاتِلوكُم يُوَلّوكُمُ الأَدْبارَ ثُمّ لا يُنْصَرُونَ)(١١١)

عن مقاتل : نزلت هذه الآية لما عمد رؤساء اليهود مثل كعب ، وأبى رافع ، وأبي ياسر ، وكنانة ، وابن صوريا .. إلى مؤمنيهم كعبدالله بن سلام وأصحابه ، وآذوهم لإسلامهم . وكان إيذاءً قوليا على كلام قتادة .

فيقول الباري سبحانه : (لن يضروكم) أي أهل الكتاب الكافرون (إلا أذى) أي ضررا قليلا (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) وإن تجاوزوا عن حد الأذى اليسير إلى الحرب ، وقاتلوكم لا ينتصرون ، بل ينهزمون ويولوكم الأدبار . (ثم لا ينصرون) عليكم . وفي هذه الآية دلالة واضحة على رسالة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكون الآية النازلة

عليه مخبرة عن الغيب إخبارا موافقا للواقع ، لأن يهود بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ، ويهود خيبر حاربوا المسلمين ، ولم يثبتوا وانهزموا •

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ الناسِ ، وَباءُوا بغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكفُرُونَ بآياتِ اللهِ ، وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغيرِ حَقٍّ ، ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُون)(١١٢)

قوله تعالى : (ضربت عليهم) الآية الذي أعتقده بعد ملاحظة كثير من التفاسير أن المراد بالذلة في الآية الكريمة: مقابل العزة والحرية ورفع الرأس• وتفسر بالتأخر في المجتمع بأن لا يكون لهم رأي في الإنتخابات ، ولا كرسي في مجلس النواب ، ولا رخصة في رفع القصور الشامخة ، ونحو ذلك •

والمراد بالحبل من الله : العهد المقرر معهم في دين الإسلام من طرف الرسول أو نوابه على بقائهم في بلادنا على شرائط منها تسليم الجزية إليهم • وبالحبل من الناس الكفالة والضمان والإلتزامات من الدول ، فإن روساء الدول هم اللذين كفلوا اليهود وراعوهم ، ولولا أنهم إعتنوا بهم ما كانوا يقدرون على إقامة الدولة ، ولو تبرؤا عنهم الآن لما بقي لهم مجال الإستقامة في الأرض •

والمراد بالمسكنة : هوان النفس وحقارتها وعدم الإعتماد عليها•وهذه حالة نفسية ورذيلة شخصية أعاذنا الله تعالى منها !

وفي قوله : (ضربت عليهم الذلة) إستعارة بالكناية ، حيث شبهت الذلة بالخيمة المضروبة على جمع • وفي قوله ضربت إستعارة تخييلية وقرينة لها •

ومعنى الآية الكريمة : ضربت عليهم خيمة الذلة والعبودية وعدم الحرية أين ماثقفوا ، أي في أي محل وجدوا وسكنوا ، إلا بحبل من الله وهو العهد المعهود في الإسلام بإسكانهم في البلاد على أساس تسليم الجزية والتزام الأمانة . وهذا العهد إستمر منذ عهد الرسالة إلى القرون التالية العابرة في دولة الإسلام في العالم . وحبلٍ من الناس أي قوة ماسكة راعية حافظة لهم من الناس الأقوياء في الدنيا كرجال الدول الكبرى المتكفلين لهم والملتزمين لصيانتهم حسب القوانين الدولية ، أو المؤيدين لهم في تأسيس الدولة وبناء الكيان ، كما في عهدنا هذا الذي استفحل فيه شأن اليهود برعاية أمريكا وغيرها .

(وباؤا بغضب) نازل (من الله) عليهم ، أي رجعوا به ، وذلك كناية عن إستحقاقهم له . وضربت عليهم خيمة المسكنة ، وهوان النفس (ذلك) المذكور من المخازي إستحقوه (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) الدالة على رسالة رسل بني إسرائيل ، وعلى رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . (ويقتلون الأنبياء) المعصومين (بغير حق) حتى في زعمهم وصدر ذلك الكفر والقتل عنهم (بما عصوا وكانوا يعتدون) بسبب أنهم تدرّجوا في مراتب العصيان والإعتداء على حقوق الله وحقوق الناس . يعنى أن مباشرة العصيان والإعتداء والاستمرار عليهما تسببا في قتل الأنبياء ثم كفرهم بالله وهما تسببا في إحاطة غضب الله بهم ، أعاذنا الله من كل عمل سَيِّىءٍ يُورِث أسْوَأ منه .

(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ(١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)
وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ
بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : رغب في الإسلام عبدالله بن سلام وصحبه من اليهود فأسلموا وصدقوا ورسخوا فيه • فقالت أحبار اليهود : ما آمن بمحمد واتبعه إلا شرارنا ، ولو كانوا أخيارنا ما استبدلوا بدينهم دينا آخر • فأنزل الله : (ليسوا سواءً) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم • وقال إبن مسعود : نزلت هذه الآية (ليسوا سواء) في صلاة العشاء يصلّيها المسلمون ولا يصليها غيرهم من أهل الكتاب • ثم قال ابن مسعود : أخر رسول الله صلاة العشاء ليلة حتى ذهب ثلث الليل ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة • فقال : أما إنه ليس من أهل هذه الأديان احد يذكر الله تعالى في هذه الساعة غيرهم • وأنزلت هذه الآيات اخرجه الامام أحمد ـ رضي الله تعالى عنه •

قوله تعالى : (ليسوا سواء) ضمير الجمع عائد لأهل الكتاب جميعا لا للفاسقين خاصة • أي ليس أهل الكتاب كلهم متساوين في الصفات ، بل هم متفاوتون فاستأنف لبيان كيفية عدم التساوي وقال تعالى : (من أهل الكتاب أمة قائمة) أي أمة مستقيمة على الطاعة (يتلون آيات الله) أي يتلون آيات القرآن الكريم تعبدا وإطاعة (آناء الليل) أي ساعاته ، وآناء أفعال جَمْع اَنْي كفلس ، وأصله أأناي خففت الهمزة الثانية بقلبها ألفا ، وقلبت الياء في الطرف همزة فصار آناء (وهم يَسْجُدون) أي يُصَلون، إذ القراءة تكون في الصلاة لا في الركوع والسجود (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أيّا كان (ويُسارعون في الخيرات واولئك) الناس (من الصالحين) أي الذين صلحت حالهم عند

الله • (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) بصيغة المضارع المجهول للجمع المذكر الغائب ، أي لن يحرموا ثوابه البتة • (والله عليم بالمتقين) أي بأحوالهم فيجازيهم بعشر أمثال أعمالهم إلى ما يشاء من الدرجات للصالحين • وقد ذهب جل المفسرين إلى أن في الآية إستغناء بذكر أحد الفريقين عن الآخر على عادة العرب من الإكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر • أي ومنهم من ليس كذلك •

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنْ الله شَيْئاً وأولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فيهَا صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١١٧)

قوله تعالى (إن الذين) الآية يعني إن الذين كفروا من أهل الكتاب أو من المشركين ، أو من الأصناف الآخرين ممن اغتروا بالأموال الهائلة من الذهب والفضة وغيرهما ، وبالأولاد الأقوياء الكثيرين (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من) جانب (الله) تعالى (شيئا) من الغناء (واولئك أصحاب النار) الملازمون لها يوم القيامة (هم فيها خالدون) وكذلك لا يغني عنهم ما ينفقونه قربة أو مفاخرة وسمعة ، أو خوفا ورياء • ومثل ما ينفقونه في هذه الحياة الدنيا كمثل مزرعة في مهب ريح فيها أي في تلك الريح صر أي برد شديد أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والعناد ، فأهاكته • أي فأهلكت الريح تلك الحرث والمزرعة عقوبة لهم • فكما لا ينفع

الحرث والمزرعة أولئك الظالمين في الدنيا لا ينفعهم في الآخرة ــ أيضا ــ أما في الدنيا فظاهر ، وأما في الآخرة فلأنهم كافرون لا جزاء لهم على أتعابهم في الآخرة ، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون • أي وما ظلم الله اولئك المنفقين المنافقين وأمثالهم بضياع نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا انفسهم في إنفاقها بالوجه الغير المشروع الغير النافع • وكذا ما ظلم أصحاب الحرث بإهلاكه ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وغدرهم وعنادهم وإفسادهم فاستحقوا إهلاك حرثهم •

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ؛ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ(١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ: مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ،وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)(١٢٠)

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من اليهود ، لما كان بينهم من الجوار والقرابة والصداقة والحلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم أخرجه إبن جرير وابن إسحاق •

البطانة : هي الثوب الذي يلي الجسد ، فاستعيرت لمن اختص بالإنسان ممن يَبُثّ إليه أسراره ، وتفسر بالوليجة ، وهو الذي يعرفه الرجل أسراره ثقة به • كما أن الشعار : هو اللباس الذي يلي لحم الجسد • والدثار : هو اللباس الذي يكون فوقه • والخبال : الفساد مطلقاً • وأصله الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه إضطراباً كالجنون • فيقول الباري تعالى في مقام الإرشاد زجراً للمسلمين من العباد:(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة) أي اصحاب أسرار على الثقة من دونكم أي من دون المسلمين حالكونهم (لا يألونكم خبالا) أي لا يقصرون في تحصيل النقص لكم (ودوا ماعنتم) تمنوا عنتكم وهلاككم • (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي من كلامهم الجاري في أفواههم • (وما تخفي صدورهم) من العداء والحقد (أكبرُ) مما بدا (قد بينا لكم الآيات) أي علامات عدائهم وعنادهم ، أو آيات تدل على أن دينكم حق لا يجوز العدول عنه ومحبة غير المتدينين به (إن كنتم تعقلون) وتفهمون حقيقة ما بيناه لكم (وإذا لقوكم قالوا : آمنا) بالله ورسوله محمد رياء ونفاقا (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أي من جهة إستيلاء التحسر والتأسف عليهم ، فلا يجدون إلى التشفي سبيلا • (قل) ياحبيبي لهم : (موتوا بغيظكم) دعاء عليهم وهم كفرة معاندون بدوام هذه الحسرات عليهم • أو أمر في محل الخبر • أي تموتون بغيظكم إذ لا دواء للحسود إلا الموت وفناء الوجود (إن الله عليم بذات الصدور) فيعلم ما في صدوركم كما يعلم ما على ظهوركم • وهو من تتمة المقول • ثم إستأنف لبيان عداوتهم المتزايدة فقال : (إن تمسسكم حسنة) من النصر والفتح والمال والأولاد وغيرها (تسؤهم) وتحزنهم (وإن تصبكم سيئة) من الهزيمة والتأخر والضيق في المال ونقص من الأنفس (يفرحوا بها • وإن تصبروا) على مشاق الدنيا في مقابلة الاعداء (وتتقوا) ربكم في الأحوال (لا يَضُرّكم كيدهم شيئا • إنّ الله بما تعملون محيط) •

ومثل مفاد الآية الكريمة في ذلك اليوم حال المؤمنين بالنسبة إلى موالاة الكافرين في هذا اليوم بل وفي سائر أيام الدنيا ما دامت باقية . فالكافرون لا يرقبون في المسلمين عهدا ولا ذمة ، ولا يجوز الإعتماد عليهم بأيّ حالٍ من الأحوال .

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ المُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٣١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا . وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ (١٣٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٣٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَثَةِ آلافٍ مِنَ المَلَئِكَةِ مُنْزَلِينَ ؟ (١٣٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِم هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٣٥) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاّ بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ (١٣٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ)(١٣٧)

قوله (وإذ غدوت) الآية هذه الآية والتي بعدها في ضمن الآيات التي نزلت في غزوة أحدٍ . فعن جابر بن عبدالله قال : فينا نزلت هذه الآية (إذ همّت طائفتان) . وقال جابر : نحن الطائفتان : بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج . والله ما يَسُرُّني أنها لم تَنْزِل لقول الله عز وجل فيها (والله وليّهما) اخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وقوله تعالى : (اذ تقول للمؤمنين) الآية عن الشعبي قال : إن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمدّ المشركين فشق ذلك عليهم . فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . فبلغت كرزاً وأصحابه هزيمةُ المشركين فلم يمدهم ورجع . اخرجه ابن المنذر وابن أبي شيبة .

(وإذ غدوت) الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ، والكلام مستأنف للإستشهاد بأن الصبر والتقوى مستلزمان للنجاة من كيد الأعداء العتاة . كما أن عدمهما يستلزمان المضرة . اي واذكر إذ خرجت غدوةً من عند أهلك . وكان الخروج من حجرة عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ (تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال) أي تنزل المؤمنين وتوطنهم في مواطن ومواقف ومقامات للقتال مع الكفار المشركين الذين جاءوا من مكة الى المدينة للمحاربة مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإنتقام عما جرى في يوم بدر . وكان نزولهم بجبل اُحُد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة . فاستشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه . وقد دعا عبدالله ابن أبيّ ابن سلول ولم يَدْعُه من قبلُ ، فقال هو واكثر الأنصار : اَقِمْ يا رسول الله بالمدينة ولا تخرُجْ إليهم فوالله ما خرَجْنا منها إلى عدوّ إلاّ أصابَ منّا ، ولا دخلَهَا علينا إلاّ أصَبنا منه فكيف وأنت فينا ؟ فَدَعْهُم، فإن أقامُوا أقاموا بشرِّ مَحْبَسٍ، وإن دَخلوا قاتلهم الرجال ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج. فقال عليه الصلاة والسلام إني رأيت في منامي بقرا مذبوحة حولي فأوّلتها خيرا . ورأيت في ذباب سيفي ثلما فأوّلته هزيمةً . ورأيت كأني اَدخَلْتُ يدي في دِرْعٍ حَصينَةٍ فَاوَّلْتُها المدينةَ ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم . فقال رجال من الأصحاب الذين فاتتهم بدرٌ ولكن قدر الله تعالى أن يكرمهم بالشهادة يوم أحُد : اُخْرُجْ بنا اِلى أعدائنا وبالغوا

حتى دخل الرسول بيته فلبسَ لأمَته • فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، وقالوا : اِصنَع يا رسول الله ما رأيتَ • فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فينزعها حتى يقاتل • فَخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أحد يوم السبت ، ونزل في عدوة الوادي •

وعند خروجه من المدينة كان معه ألف من أصحابه وقد وعدهم بالفتح إن يصبروا • واستعمل إبن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحُدٍ إنخذل عنه عبدُالله ابنُ ابيٍّ بن سلول بثلث الناس • وقال : اَطاعَهم وعَصاني وما نَدرى علىمَ نقتل انفسنا ههنا ! فرَجَع بمن تبعه مِن أهل النفاق •

وأتبعهم عبدُالله بن عمرو بن حزام أخو بني سَلَمة يقول : يا قوم أذكُركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر مِن عدوّهم • قال : لو نعلَم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال • فلما استعصوا عليه واَبَوا إلا الإنصراف قال : اَبْعَدكُم الله يا أعداءالله فسيغني الله عنكم نبيَّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ومضى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزل الشعبَ من أحد من عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحُدٍ ، وقال : لا يقاتل أحدٌ حتى نأمُرَه بالقتال •

وَتَعَبّأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للقتال ، ومشى على رجليه ، وجعل يَصُفّ اصحابه فكأنما يُقوّم بهم القَدحَ اِن رأى صدرا خارجا قال : تأَخّرْ • وهو في سبعمائة رجل ، واَمَّر على الرّماة عبدالله ابن جبير وهو مُعْلَم" يومئذ بثياب بيض ، وكانوا خمسين رجلا • وقال : إنضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كان عَلَينا اَوْلَنا فاثبُتْ مكانك لا نُؤتَيَنّ مِن قِبلك •

وظاهر رسول الله بين درعين ودفع اللّواء إلى مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ، فيهم مأتا فرس قد جنبوها ، ووقع القتال وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة . وبعد زمان قليل غلب المسلمون على الكافرين غلبة عجيبة ، وكان أبو دجانة وحمزة عم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومصعب بن عمير يهاجمون الكفار . واستشهد مصعب قريبا من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاخذ علي ابن أبي طالب ـ كرم اللهوجهه ـ اللواء وانتصر المسلمون ، وانهزم الكافرون، وتركوا مُعَسْكَرهم وأموالهم ونساءهم وأخذ المسلمون الغنائم . وفي هذه الساعة إعتقد الرّماة إنتهاء الحرب وَعَزم بعضُهم على الخروج من المقر إلى الغنائم ومَنَعهم رئيسهم لكن لم يُفِدْ ، فتركوا محلهم إلاّ عبدَالله بن جبير وجمعا منهم . ولما رأى خالد بن الوليد أن الرّماة تركوا محلهم وصار ظهر المسلمين خاليا رجع خالدٌ ومعه عِكرمة ابنُ أبي جهل وهاجموا على الجمع الرّماة القليل الذين بَقَوا في المحلّ فقتلوهم . واستشهد حمزة وآخرون من الأصحاب فوقعوا في خطر شديد ، وقتل منهم جمع كثير . وَرَجَع أناسٌ منهم إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصيانته ، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو طلحة وأبو دجانه . فجعل نفسه ساترا للرسول وكذلك زياد ابن السَّكَنِ كان يُدافع عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

واستشهد حوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمعٌ من الأصحاب . وَمَع ذلك فقد دافع الباقي منهم عن الرسول ، فتقدم عبدالله ابنُ قمئةَ إليه ـ صلى الله عليه وسلم فرماه بالحجر فجرَحَ وجهه الشريف ، وكَسَر بعضا من أسنانه السفليات من الجانب الايسر المسميات بالرباعيات .

وعند ذلك زعم عبدالله ابن قمئة أنه قتل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنادى الكافرين انْ قتلتُ محمداً ! فتقوّى بذلك الكفار وتفرّق المسلمون • ولكنّ أنَسَ ابن النضر نادى الأصحاب وقال : إن كان محمد" قتل فما قيمة حياتنا بعده فاجتمعوا وجاهدوا حتى نقتل على دين الإسلام • وقال بصوت جهوري : أللهم إني أعتذر إليك من هؤلاء المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به المشركون •

وعند ذلك نادى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه أصحابَه وقال : إني حيّ ولم أمُتْ فاجتمِعُوا حَولي ، فاجتمع المسلمون حولَه وطردوا الكافرين عنه •

ورأى الرسول هناك رجلاً واعتقد أنه مَصْعَب فناداه يا مَصْعب أقبل إليَّ • فقال: لستُ أنا مصعباً • فعلم الرسول أنه ملك نازل لصيانته • وجاهد سعد ابن أبي وقاص حول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جهاد المستميت بحيث ضاع أطراف قوسه من كثرة الرمْي ، فأعطاهُ الرسولُ قوسه وقال له : « إرم فداك أبي وأمي » •

وكذلك دافع عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو طلحة وانكسرت بيده قوسان وإذا مرّ بهأحد من الأصحاب أمره الرسول أن يعطي أبا طلحة بعضا من نباله •

ثم تحول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من محله إلى محل آخر فاغتنم الفرصة أبيّ بن خلف وعقبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقتله فأخذ الرسول من حارث ابن الصمة حربة وضربها على رقبة أبيّ بن خلف فكان يصيح من شدة الوجع ، ومات بعد يوم واحد من الواقعة •

ولما سمع أبو سفيان بقتل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ نادى الأصحاب : هل بقي محمد بينكم ؟ فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : لا تجاوبوه • فكرر النداء ثلاث مرات ولم يجبه أحد •

ثم نادى : هل بقي أبو بكر بن أبي قحافة ؟ فلم يجبه أحد • ثم نادى : هل بقي عمر ؟ فلم يجبه أحد أيضا • لكن عمر ما أطاق الصبر وجاوبه وقال : نعم بقي الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وبقي معه أتباعه ممن ناديتهم بأسمائهم • فيئس الكفار من وفاة الرسول وجماعته •

وبعد ذلك تهيأ الكفار للرجوع إلى مكة المكرمة كما تهيأ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم للرجوع إلى المدينة المنورة •

ولكن المشركين بعد انصرافهم ندموا وتأسفوا على أنهم لم يدخلوا المدينة وهموا بالرجوع إليها • فأوحى الله تعالى إلى رسوله أن يأمر أصحابه بالتهيؤلمقابلتهم على فرض مجيئهم إليها • فأمرهم به وتهيأوا فعلا • وقال لهم ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إن عادوا إليكم وجاهدتم وصبرتم على الجهاد أمدكم الله بخمسة آلاف من الملئكة • فأخذوا في الجهاد وخرجوا يتبعون المشركين فأخبر المشركين مَن مرَّ برسول الله وأصحابه أنه خرج يتبعكم فخاف المشركون ودَسّوا نعيمَ الأشجعي حتى يمنعهم عن التعقيب بتعظيم أمر قريش وَأسرعُوا بالذهاب إلى مكة • وكفى الله المسلمين شرهم •

(إذ همت طائفتان منكم) بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من من الأوس وكانا جناحي العسكر (أن تفشلا) أي تجبنا وتضعفا وترجعا إلى المدينة • (والله وليهما) وذلك عصمها عن تطبيق تلك الفكرة • (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ومعناه أنهم لما كانوا مؤمنين وشأن المؤمن التوكل لا التواكل والتخاذل ماطبقا الفكرة واستمرتا في المسير إلىمقابلة المشركين•

ومنشأها أنهم لما خرجوا في زهاء ألف رجل إنخذل عبدالله ابن أبيّ ابن سلول وقال علىٰم نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فرجعوا إلى المدينة كما ذكرناه سابقا • وتشوش المسلمون بذلك فَهَمَّ الحيّان باتباعه فعصمهم الله تعالى ، فمضوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والظاهر أنه لم يكن منهم عزم على اتباعه ، ولكنه خيال كاد أن يكون عزما ، لانه قال تعالى (والله وليهما) ومن كان الله وليّه يتولاه فلا يتبع الشيطان وأعوانه • (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وإذا توكلوا عليه اتقوه • وإذا اتقوه جعل لهم مَخْرَجاً من كل مَحْرَج •

وعند ذلك ذكرهم الله تعالى بواقعة بدر الكبرى وأنه أغاثهم من هجمات الحاقدين من المشركين وأعوانهم • فقال : (ولقد نصركم الله ببدر) والحال (أنتم أذلة) أي جمع قليل ذليل ضعيف الحال ، وذلك الناصر باق واق لكم حاضر عندكم وناظر إليكم (فاتقوا الله) في المحافظة على أوامره وأوامر رسوله (لعلكم تشكرون) نعمه الكثيرة الخارجة عن الحصر من الإيمان والنصر وغير ذلك في كل أمر (إذ تقول للمؤمنين) ظرف لقوله (نصركم) إن كان هذا القول في واقعة بدر • وقال بعض : ظرف لقوله (غدوت) على أنه كان القول في وقت الخروج إلى اُحُدٍ للقتال (اَلَنْ يَكفيكَم اَنْ يُمِدّكُم ربّكم بثلاثة آلاف من الملئكة منزلين) إنكار لعدم كفاية ذلك لهم فإذا كان القول في بدر فالأمر كما ذكره بعض المفسرين إن الله أَمَدّهم فيها اولا بألف من الملئكة ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم وعدهم بأن يمدهم بخمسة أي يجعل الملئكة من ثلاثة آلاف إلى خمسة إن أمد المشركين كرزُ بن جابر ، ولكنه ندم بعد القصد فلم يجىء لإمدادهم ولم تنزل تمام الخمسة آلاف من الملئكة عليهم ، واكتفى بما نزلت إذ الإنتصار حصل والحمد لله•وذلك قوله تعالى : (بلى) إيجاب لنفي الكفاية،

أي يكفيكم (إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) أي يأتي عليكم لإمداد المشركين كرز بن جابر وجيشه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملئكة مسومين) بالفتح ، معلمين بعلائم هي عمائم صفر . ويدل عليه قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأصحابه « تسوّموا فإن الملئكة قد تسوّمت » وبالكسر بمعنى يُعْلِمُون أعداءكم أهل الكفر بعلائم حاصلة من الضرب في بدر بها حصل النصر . (وما جعله الله) أي وما جعل إمدادكم بذلك العَدَد والعُدَد (إلا بشرى لكم) بتحقق النصر (ولتطمئن قلوبكم به) أي ولتسكن قلوبكم به عن الخوف والفزع من قلتكم وكثرتهم (وما النصر) في الواقع (إلا من عند الله العزيز) الغالب على أمره (الحكيم) المتقن في قضائه وقدره ، وتطبيق هذا المقول على بدر هو الظاهر الراجح على ما قيل من أن القول كان عند الخروج من المدينة إلى أحد ، لأن الملئكة لم تنزل هنا ولم يحصل النصر الصوري ، وإن كانت الهزيمة في أحد أبلغ نصر للمسلمين ، حيث أيقنوا أن الهزيمة كانت من مخالفة أمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فأخذوا منها الدرس المفيد للمستقبل .

وذلك النصر الوارد في بدر (ليقطع طرفا من الذين كفروا) أي ينقص بعضا منهم بالقتل ، أو ينقص قدرا من هيبتهم بالأسر (أو يكبتهم) أي يغيظهم (فينقلبوا خائبين) أي فينهزموا ويرجعوا على أدبارهم خائبين غير واصلين إلى انتصارهم . وهذه الجمل الجميلة تدل دلالة واضحة على أنها مربوطة بواقعة بدر والإنتصار للمسلمين فيها . وقد وقع نزول الملئكة فيها تدريجا فنزلت أولا ألف لقوله تعالى في سورة الأنفال : (إذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاسْتَجَابَ لَكُمْ أنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ) .

أي متتابعين ينزل بعضهم إثر بعض لحكمة ربانية خفية علينا • ثم زاد العدد من ألف إلى ثلاثة آلاف ، لقوله تعالى في سورة آل عمران هنا : (إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين ؟) وأما الزيادة على هذا العدد إلى خمسة آلاف فلم تقع لكونها كانت معلقة بأمور منها : مجيء كرز بن جابر لإمداد المشركين في واقعة بدر ، ولم يتحقق لندمه عن إمدادهم كما ذكرنا قبلُ •

وإن كان القول المذكور في واقعة أحد كان ذلك قولا مقيدا بشروط منها : الصبر على البأساء والتقوى ، والإبتعاد عن مخالفة الرسول في أوامره الحربية إذ ذاك ، ورجوع الكفار وعودهم إلى المسلمين بعد انتهاء الواقعة، ولم تتحقق هذه الشروط ؛ لأن بعضهم لم يصبروا على بأساء الحرب حتى تنجلي وتنكشف ، ولم يحافظ على أمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالبقاء في أماكنهم المقررة لهم على كل حال وذهبوا إلى اخذ الغنائم في أول فترة الواقعة حين انهزمت قريش ، وكانت تلك المخالفة مبدأ إنقلاب الأمر على المسلمين وعود المشركين في ذلك الوقت إليهم وانتصارهم عليهم ولم يرجعوا بعد انتهاء الواقعة وتوجههم إلى مكة في تلك الواقعة إلى المسلمين فلم يتحقق الأمر المعلق بها وهو نزول الملائكة عليهم لا بثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف وإلا إنتصروا على الكفار بلا شبهة كواقعة بدر الكبرى، كما ذكرنا ذلك اول البحث •

وظهر من هذا البيان أنه لم تنزل الملائكة في واقعة أحدٍ إلا ملكين نزلا في بعض الروايات لصيانة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن القتل ، وفعلا قد حفظه الله تعالى منه • وأما في واقعة بدر فقد نزل بنص الآية أولاً ألفُ ملَكٍ ، ثم نزل بعده ألفان ، فصارت ثلاثة آلاف وأما الزائد عليها إلى خمسة آلاف فلم ينزل ؛ لأن نزوله كان على شرط إتيان المدد إلى المشركين

في الواقعة ، ولم يأت كما هو مقرر معلوم • فالإمداد بالملائكة الكرام في واقعة بدر معلوم منصوص عليه ، وجعل نزولها وسيلة لنزول البركة والروح والرحمة وغَشيان الأنوار قلوبَ الأصحاب ، ووسيلة لأطمئنان قلوبهم وراحة أنفسهم ، وغلبة جاذبية القدس لهم بحيث كانوا في تلك الواقعة المهمة لا يحسون بألم وخوف وقلق من الأعداء • فنزول الملائكة في واقعة بدر الكبرى منصوص الآيات الشريفة والسنة النبوية • فإنكاره كفر •

والشبهة الواردة بأنه لا حاجة إلى إنزال الملائكة عن أساس ، لأن الله تعالى قادر بالذات على كل شيء ، وإذا كانت هناك حاجة حسب العادة فيكتفي بقليل من الملائكة فإن القليل منهم يعمل العمل الجليل••شبهة باطلة جدا ؛ فإما لو نظرنا إلى ما قاله وأغمضنا النظر عن الحكمة الغيبية وأسرار القدر الإلهية أشكلت علينا الآيات الكثيرة الناطقة بأعمال الملائكة وماموريتهم لحفظ الإنسان وكتابة أعماله ، ولصيانة الجنين في الأرحام ، ولهبوب الرياح ، وإفادتها في الأمطار والثلوج والبرد ، ولإدارة الملائكة لشئون الأحياء في الأرزاق والأخلاق ، وقبض الأرواح ، وسؤال الاموات في القبور ، وتعذيب المعذبين في النار ، وتنعيم المطيعين المثابين في الجنة ، ولاستقبالهم ، المسلمين السعداء وتسليمهم عليهم إلى غير ذلك • بل كنا لا نحتاج إلى أيّ عمل من أعمال الزراعة والبستنة والتجارة ، لأن الله قادر على إيصال كل خير شاء ، وصيانة أيّ إنسان أراد ، وتربية كل مخلوق على ما خلق له بلا حاجة إلى أى شيء • فتلك الشبه أوهام مادية وظلمات عادية ، ولا نظر إليها قطعا •

وأما مباشرة الملائكة للحرب والقتال فقد وقع الخلاف فيها : فمن الناس من يقول : إن نزولها للبشرى وإلهام التثبيت وتطمين القلوب لا غيرُ •

ومنهم من قال : إنها حاربت ، لظاهر قوله تعالى في سورة الأنفال (إذ يوحي ربك للملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا . سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) .

ولا يلزم من محاربتهم قتل جميع الكافرين وإبادتهم ؛ لأن إنزال الملائكة كان على أمر وتحديد للعمل بحيث لا يتجاوزون على المقدار المقرر لهم من الله تعالى . والمنكرون للمحاربة أولوا هذه الآية بتقدير القول . أي وقولوا لهم : إضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان . والقائلون هم الملائكة، والمقول معهم المسلمون المجاهدون ، والقول إلهامي .

ومن الناس من فصّل وقال : لم تكن البشرى والتثبيت من الجميع، ولا الحرب والضرب منه بل كلٌ من بعضٍ . ولا يحتاج إلى تأويل الآية المذكورة الظاهرة في أن الملائكة من جملة المأمورين بضرب الكفار ، وهذا القول هو القول الفصل والله أعلم .

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(١٢٩)

روي في مورد نزول هذه الآية (ليس لك الآية) روايات متظاهرة على أنها نزلت في أحدٍ عندما دعا على المنافقين المنخذلين الذين تركوا جيش أحد ورجعوا إلى المدينة ، أو على الذين جرحوا وجهه الشريف وكسروا أسنانه ، أو على الذين قتلوا عمه حمزة ومن معه ــ رضي الله عنهم ــ . فنزلت (ليس لك) يا رسولي (من الأمر) أي من أمرهم ، أو التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم (شيىء) كثير أو قليل ، وإنما هو للملك الجليل (او يتوب عليهم

أو يعذبهم) عطف على قوله : (أو يكبتهم) والمعنى أن الله مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم ، أو يكبتهم إن لم يسلموا ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم وشأنهم شيىء • أو عطف على الأمر بإضمار أن الناصبة ، أي ليس من أمرهم ، أو من التوبة عليهم ، أو من تعذيبهم شيىء •

وقوله تعالى : (فإنهم ظالمون) مربوط بالتعذيب ، يعنى أنهم ظالمون مستحقون للتعذيب • وعن مقاتل أنها نزلت في أهل بئر معونة ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل أربعين ، وقيل سبعين رجلا من قراء أصحابه ، وأمر عليهم المنذر بن عمرو إلى بئر معونة على رأس أربعة أشهر من احد ليعلموا الناس القرآن والعلم ، فاستصرخ عليهم عدو الله عامر ابن الطفيل قبائل من سليم من عُصَيّة ورعل ، وذكوان • فأحاطوا بهم في رحالهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، إلا كعب بن زيد أخابني النجار فإنهم تركوه وبه رمق • فلما علم بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حزن عليهم حزنا شديدا ، وقنت على أولئك العصاة شهرا يلعنهم ويدعو عليهم ، فنزلت هذه الآية فترك ذلك والمعنى : ليس لك من أمر هؤلاء شيىء وإن قل •

وقوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الأرض) كلام مستأنف نزل لبيان إختصاص ملكية كل التصرفات به تعالى (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (ويعذب من يشاء) أن يعذبه (والله غفور رحيم) تذييل مقرر لمضمون قوله يغفر لمن يشاء • وتنبيه على غلبة مغفرته على تعذيبه ، ورحمته على غضبه ، فنسأله أن يغفر لنا ويرحمنا إنه أرحم الراحمين •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) واتَّقُوا النَّارَ الَّتي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ(١٣١) وَأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(١٣٢)

عن عطاء قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا حلّ الأجل زادوا عليهم وزادوا في الأجل ، وكانت ثقيف تداين بني النضير في الجاهلية ، فاذا جاء الأجل قالوا : نربيكم وتؤخرون عنا . فنزلت الآية . أخرجه إبن المنذر وابن جرير .

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) الآية . قال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما قبله من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا فلعلّ ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ، فيتمكنوا من الإنتقام منهم ، فلا جرم أن الله نهاهم عن ذلك . وقال بعض : وجه المناسبة أن الربا والأموال الطائلة التي حصلوها منها هي التي غرتهم حتى طغوا وبغوا وكفروا بأنعم الله وحاربوا رسوله ، فنهاهم الله تعالى عنها حتى لا يأتي عليهم مثل ما أتى على المشركين المرابين من الطغيان .

وقوله : (لا تأكلوا) خص الأكل بالذكر ؛ لأن معظم المقصود من الربا أكل المأكولات اللذيذة . فشبّه المال الحاصل من الربا بالمطعوم اللذيذ، واستعير المطعوم له في النفس . وجملة لا تأكلوا إستعارة تخييلية تبعية . أو لا تأكلوا بمعنى لا تاخذوا مثلا مجازا . واضعافا مصدر منصوب على الحالية للربا . فيكون بمعنى إسم المفعول . أو أن اضعافا جمع ضعف صفة مشبهة بمعنى مثلي الدَّيْن الذي أَخَذَهُ المقترض . وقوله (مضاعفة) إن كان إسم مفعول يكون صفة للأضعاف أي أضعافا مكررة . فإن المرابي كان يأخذ على المائة عشرة في السنة الأولى ، وإذا لم تؤده في السنة الثانية جعل العشرة عشرين للسنة الثانية ، وإذا لم تؤده في آخر السنة الثانية جعلها أربعين للسنة الثالثة . وهكذا .. فالمعنى : إن الأضعاف تضاعف ، وإذا كانت مصدرا فهي صفة الأضعاف على المبالغة لأن الأضعاف لم تكن نفس المضاعفة المصدرية ،

بل حاصلة بها . وتقييد الفعل بهذه الحال لموافقة الواقع ، فإن الناس كانوا يأكلون الربا كذلك فلا مفهوم لها . وقد ورد النهي عن مطلق الربا في أية حال كانت ، وحرّمها الباري بنص قوله (وحرّم الربا) ولا يتقيد هذا المطلق بما كان معتادا من ربا النسيئة للأحاديث الكثيرة المحرمة التي بلغ القيد المشترك فيها حد التواتر ، ووقع الإجماع على تحريمها مطلقا على الأضعاف أو على الضعف الواحد ، أو على أقل من ذلك . وقوله تعالى : (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم) حجة واضحة على حرمة أخذ مازاد على رأس المال قليلا أو كثيرا لمن كان له رأس مال من العقل والدين .

وما يقال من : أن الربا مع الدولة جائزة لأن أموالها تعود الى المسلمين لا إلى شخص واحدٍ مردود على قائله ؛ لأن رئيس الدولة في مقام الوكيل للمسلمين على بيت المال ، ووكيل الواحد أو الكثير مسؤول في كل عمل يعمله للأصيل ، فإن وافق الشرع فبها ، وإلا يرد عليه . وكذا ما يقال : إن أخذ الربا من الأجانب جائز ساقط من الكلام ، لأن أولئك الأجانب الذين تتعامل معهم معاهدون معنا حقيقة أو حكما ، فالمعاملة معهم كالمعاملة مع المسلم . والقول بأن المقدار الزائد الذي تأخذه الدولة أجرة القائمين بالمعاملة مع المراجعين لا قيمة له ؛ لأنهم يأخذون رواتبهم من الدولة على كل حال على قدر محدود لا يزيد بمعاملة الربا مع المراجعين ولا ينقص بعدمها .

وقوله : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) معناه : واتقوا مخالفة أمر الله في هذا الموضوع وفي غيره لعلكم تنالون الفلاح والنجاة من العذاب والعقاب .

وقوله تعالى (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) أقصى ما يخاف منه من الآيات بالنسبة إلى المرابين ، فإن معناه إنكم إذا لم تتقوا الله في موضوع الرّبا ولم تتركوها وقعتم في نار أعدت للكافرين ، إما لأن المرابين كافرون

فيستحقون نار الكافرين ، وإما لأنهم مؤمنون في العقيدة لكن يعذبون بما يعذب به الكافرون ، لأن ذنبهم كاد أن يلتحق بكفر الكافرين •

وقوله : (وأطيعوا اللهَ والرَّسولَ لعلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)(١٣٢) معناه : وأطيعوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا رسوله في كل ما بلغه إليكم من الأمر والنهي ، وإذا أطعتموهما يترجى لكم الرحمة من الله سبحانه وتعالى •

(وسارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِينَ(١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين(١٣٤)وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا على مافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥) ، أولئِكَ جَزَاؤُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّات تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنْهارُ خالِدِينَ فِيهَا ونِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ)(١٣٦)

قوله تعالى : (وسارعوا) الآية لما كان آخر الآية الشريفة (أعدت للمتقين) ظهر أن معنى الآية وسارعوا إلى التقوى التي هي سبب لمغفرة ذنوبكم ولدخول جنة عرضها عرض السماوات والارض •

ولما علمنا أن التقوى ثلاث درجات علمنا أن الدرجة الاولى منها وهي الإتقاء عن الكفر سبب لمغفرة جميع الذنوب المقترفة في وقته ، وذلك لأن الإسلام يجب ما قبله • وأن الدرجة الثانية منها وهي الإتقاء عن الكبائر

في أيام الإسلام سبب لمغفرة الصغائر كما قال تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) • وان الدرجة الثالثة وهي الإتقاء عن الإنهماك في الدنيا سبب لمغفرة ذنوب ناشئة من التلوث بها • ولما تحققت المغفرة على الوجه المذكور ترتب عليها دخول الجنة حسب إحسانه وكرمه •

ولما قال عرضها كعرض السماوات والارض ظهر أنها فوق السماوات لأن عالما ماديا تكون مسافته مثل مسافة السماوات والارض لا يمكن وجوده في السماوات والارض لاستحالة تداخل الأجسام • فبقي أن يكون خارجا عنها • ولما قال (أعدت للمتقين) ظهر أنها موجودة الآن • ولما قال قبل هذه الآية : (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) ظهر أنها مخلوقة الآن أيضا • وعالم الوجود واسع يسع كل موجود • ويؤيد ما ذكر قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صفة الفردوس : « سقفها عرش الرحمن » • وما روي أن رسول هرقل سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إنك تدعو إلى جنة عرضها السماوات والارض أعدت للمتقين فأين النار ؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فأين الليل إذا جاء النهار ؟ » ومعناه كما أن الليل والنهار زمانان متقابلان ووجود أحدهما لا يمنع وجود الآخر ففي عين الوقت الذي يكون الزمان بالنسبة الى نصف الكرة الارضية نهارا يكون بالنسبة إلى نصفها الآخر ليلا كذلك وجود الجنة في فضاء فوق السماوات وتحت العرش لا يمنع وجود النار في جزء آخر من ذلك الفضاء تحت العرش • فإن فضاء العالم أوسع من الجنة والنار ويسع أشياء اخرى لا يعلمها إلا الله •

والحاصل إن الإسلام دين العلم والواقع والحقيقة وبريء عن الأوهام والخياليات ، وإن الجنة والنار الموعودتين لأهلهما داران موجودتان الآن في

عالم الفضاء الواسع الذي يكون جميع السماوات ومنها السماء الدنيا التي زينت بجميع الكواكب في جزء منها قليلا بالنسبة إلى باقيها • وقد أخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يروى في صحيح البخاري أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرض عليه الجنة والنار وهو يخطب • ورآهما رؤية واقعية • وقد أخبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك • وحاصل معنى الآية الشريفة : (وسارعوا) وبادروا (إلى) التقوى التي هي سبب لحصول (مغفرة) لكم (من ربكم) عن ذنوبكم وذلك سبب لدخولكم (الجنة) التي (عرضها السماوات والارض) وتلك الجنة (أعدت للمتقين) وتخصيص العرض لأن الغالب أن الطول أكثر من العرض فإذا كان عرضها عرض السماوات والارض كان طولها أوسع • أو لأن المراد بالعرض المسافة بقطع النظر عن الأبعاد • والله أعلم •

وقوله تعالى (الذين ينفقون) الآية بيان لأفضل وأجمل صفات المتقين لأن خير الناس أنفعهم للناس • ومن المنافع المهمة التي يعتمد عليها حياة المجتمع صرف المال عند الحاجة كوقت الغلاء والبلاء وإمساك النفس عن تنفيذ ما في قلبه من الغيظ والغضب عند إمتلائها به فلم يعلم به أحد إلا الله • أو العفو عن المجرمين الذين عملوا ما به يستحقون الإنتقام الشديد في ما يعود إلى الشخص من ماله وحاله وأهله وذويه • لا فيما فيه حد مشروع من الله تعالى • وكل من الإنفاق وإمساك النفس عن إظهار الغيظ والعفو عن المجرمين إحسان إلى الناس وإلى النفس ولذلك عقبها بقوله (والله يحب المحسنين) •

ومعنى الآية الكريمة : أعدت الجنة للمتقين الذين ينفقون المال في السراء والضراء أي في اليسر والعسر ، أو في حال السرور والحزن أو في حال الحياة وبعد الموت ، بأن أوصى بإنفاق ماله بعد موته وانتقاله • أو فيما

يسرّه كالإنفاق على الأهل والأقارب والأصدقاء ، وفيما لا يسرّه كالإنفاق على الأعداء لكن صيانة لشرفه الديني فالدنيوي ، ورعاية للمصلحة فإنه يثاب عليه • أو في حالة سرور من ينفق عليه من الأغنياء • أو حزنهم كما يصرف على الفقراء البائسين لاسيما في أوقات البلاء والغلاء ، ولو كان الإنفاق بشيء قليل • ففي الحديث الشريف : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ورَدّوا السائل ولو بظلف مُحرَقٍ » وكذلك من المنافع المهمة للمسلم ولإخوانه المسلمين ولأهل الذمة والمعاهدين إمساك النفس عن إظهار الغيظ عند إمتلائها كما قال : (والكاظمين الغيظ) أي الممسكين بوكاء الصبر ظروف صدورهم الممتلئة بالغيظ وهيجان الطبع عند رؤية المنكر • فقد أخرج عبدالرزاق وابن جرير عن أبي هريرة مرفوعا : « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله تعالى قلبه أمنا وإيمانا » ومنها العفو عمن يستحق الإنتقام كما قال تعالى : (والعافين عن الناس) أي المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين • فقد أخرج ابن جرير عن الحسن أن الله تعالى يقول يوم القيامة : « ليقم من كان له على الله تعالى أجر ، فلا يقوم إلا انسان عفا » وفي قوله تعالى (والله يحب المحسنين) تذييل لمضمون ما قبله وإفادة أن المتقين الموصوفين بما ذكر من المحسنين ، والله تعالى يحبهم لأنه يحب المحسنين •

وقوله تعالى : (والذين إذا فعلوا) الآية معطوف على الموصول السابق • والمراد بالفاحشة الزنا وما شاكلها من التعرض للأعراض • والمراد بظلم النفس الذنب مطلقا ، ولاسيما إذا كان من الكبائر • فتفيد الآية الكريمة أن الجنة أعدت للمتقين الموصوفين بما سبق (والذين إذا فعلوا فاحشة) أي ما يشتد قبحه من المعاصي والذنوب ويكون من أسباب العار • (أو ظلموا أنفسهم) بارتكاب سائر الذنوب (ذكروا الله) وتذكروا حقه العظيم ووعيده العميم وعذابه الأليم (فاستغفروا لذنوبهم) أي تابوا

ورجعوا إلى الله تعالى وطلبوا المغفرة منه • وإلا فالإستغفار بدون التوبة يحتاج إلى الإستغفار • وقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟) جملة معترضة بين المعطوفين أي إستغفروا • ومع قوله الآية : (ولم يصروا) ومعناها إقرار أن الغافر هو الله وإنكار وجود غافر غيره أي لا أحد يقدر على مغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها سرها وجهرها غير الله الذي وسعت رحمته كل شيء (ولم يصروا على ما فعلوه) من الذنوب وهم يعلمون قبح الذنوب التي اقترفوها • والجملة حالية والنفي متوجه إلى المقيد وهو الإصرار بدون القيد • أي لم يصروا على ما اقترفوه سواء كانوا عالمين به أولا • (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) خبر للذين إن ابتدأت به ، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفت على المتقين أو على الذين ينفقون • ومن المعلوم أن الطعام المعد للمدعوين لا مانع من إستفادة غيرهم منه لاسيما وإن مائدة الداعي على نعمته واسعة كرحمته وجنته (ونعم أجر العاملين) أي ونعم أجر المتقين المنفقين الكاظمين العافين المستغفرين جنة موصوفة بأن فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون •

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ **الْمُكَذِّبِينَ** ؟(١٣٧) **هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ** وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٨) ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)(١٤١)

قوله تعالى : (قد خلت من قبلكم سُنَن) الآية السُنن : جمع سنة وهي في اللغة الطريقة والعادة ومنه سنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ • أي قد مضت من قبلكم سنن وعادات جارية في معارضة المكذبين للأنبياء والمرسلين فمنهم من يأتي بدعايات كاذبة مفتراة عليهم ، ومنهم من يعيبهم بمقارنة قدومهم وبداية دعوتهم للبلايا والامراض والغلاء والإضطراب في الناس • ومنهم من يرميهم بالجنون والسحر والحيل والدسائس • ومنهم من يعارضهم بالقوة والحرب والسيف والسّنان • فيقول الباري سبحانه وتعالى بَعْدَ أن أتى بمواعظ ومذكرات من أحوال المتقين والتائبين والكاظمين الغيظ والعافين : إن الدنيا دار عمل يعمل فيها الأشقياء والسعداء ، وكل من الفريقين يجني من ثمرات أعماله • وقد مضت عادات مختلفة للمحقين ، وطرائق عديدة لمعارضة المبطلين ولم تكن النتيجة إلا موت الطرفين وظفر المحقين بحسنات الدنيا والآخرة ، ورجوع المبطلين بالحسرات والعذاب والتبعات للآخرة • (فسيروا في الأرض وانظروا) آثارهم في البلاد المدمرة بالعذاب كديار عاد بالأحقاف وثمود في شمالي الحجاز حتى تعلموا (كيف كان عاقبة المكذبين) وهل يرضى العاقل بأن تكون عاقبته كذلك ؟

ثم يقول الباري سبحانه : (هذا) الذي ذكرتها من أحوال الناس وصفاتهم المختلفة وعواقب الأمور (بيان للناس) بعبارات بليغة مفيدة على الاطلاق ، وهدى للمهتدين ، وموعظة للمتعظين المتقين ، لأن كل متعظ مُتقٍ ، وكل متقٍ مُتَعِظ" • ثم يعود إلى ملاحظة أصحاب أحد وتقوية قلوبهم وبث روح التضحية والفداء فيهم فيقول : (ولا تَهِنُوا) أي ولا تضعفوا عن الجهاد وممارسة الحروب (ولا تحزنوا) على ما فاتكم من الفوز ومن مات منكم من الشهداء وما أصابكم من الجروح والبلاء ، واستمروا على مساعيكم المشكورة وأعمالكم المبرورة (وَأَنتُمْ

الأَعْلَوْنَ) في الآخرة على الإطلاق وفي الدنيا (إن كنتم مؤمنين) بما جاء به الرسول الأمين ومنقادين له في أوامره الحربية وغيرها غير مخالفين • (إن يمسسكم قرح) وجرح في الحروب أو في حرب أحد بالذات (فقد مس القوم) المشركين (قرح) مثله في واقعة بدر فهذا الجرح في مقابل ذلك الجرح . والحرب سجال ، ولكل فارس مجال (وتلك الأيام نداولها بين الناس) أي نوردها على التتابع بين الناس على اختلافها كما يقال :

فيومٌ عَلَينا ، ويومٌ لَنا ويومٌ نُساءُ ، ويَوْمٌ نُسَرّ

(ليعلم الله الذين كفروا وحاربوا بما لديهم من الطاقة جهارا (ويعلم المنافقين) الذين (إغتنموا) فرصة تبين فيها أنهم منافقون بمعنى الكلمة • (وليعلم الله الذين آمنوا) على تفاوت درجاتهم في مساعيهم وحركاتهم وضَعف أو قوة مَعنوياتهم • (ويتخذ منكم شهداء) على أحوال وأعمال الفريقين أو الفِرق فيشهدون يوم القيامة لبعض ويشهدون على بعض ، أو يتخذ منكم أيها المسلمون شهداء سعداء يحشرون يوم القيامة وجروحهم تتقطر دماءً (والله) يحب المؤمنين المجاهدين العاملين بالواجب السالمين في الأمة الإسلامية (ولا يحب الظالمين) بل يبغضهم أشد بغض في العالمين • (وليُمَحّصَ الله الذين آمنوا) أي يصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ، او يصفي قلوبهم من مخالَفَةِ الرسول فلا يخالفونه بعد هذا اليوم• (ويمحق الكافرين) في المستقبل بعد تصفية المؤمنين من المخالفة وتجديد عزيمتهم على معركة المشركين •

ثم خاطب بعضا من أصحاب أحد من المسلمين الذين ابتلوا في الواقعة أو الجميع من أهل البلاء وغيرهم باستفهام إنكاري مآله الإيمان بأن الحلوى تتبع البلوى ، وأن الجنة من جراح الأسنة فقال :

(أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ولَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأنْتُمْ تَنْظُرُونَ)(١٤٣)

قوله تعالى (ولقد كنتم) الآية عن ابن عباس أن رجالاً مِن الصحابة كانوا يقولون : ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبلى فيه خيرا ، أو نقتل كما قتل أصحاب بدر فنظفر بالشهادة والجنة والحياة والرزق . فأشهدهم اللهُ أحُداً ، فلم يلبثوا إلا مَن شاء الله منهم . ونزلت الآية .

والخطابُ في : (أم حسبتم) للمنهزمين يوم أحد ، وهو كلام مستأنف لبيان أن الجزاء على مستوى العمل فكلما كان العمل أشق كان الجزاء أعْلى وأوْفَقَ ، وإن دُخُول الجنان من آثار قبول الرماح والسنان فيقول بالإستفهام الإنكاري : (أم حسبتم) أي بل أَحَسِبتم (أن تدخلوا الجنة) جنة الرضا والرحمة واللقاء وتخلدوا فيها (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) أي ولما يتعلق إلى الآن العلم منه بالجهاد الحادث منكم في سبيل اعلاء كلمة الله لأن العلم الأزلي الشامل المستوعب له تعلق كأشعة نازلة إلى أجزاء الكائنات ، فإذ لم يظهر الكائن لم تتعلق أشعة التعلق البائن (ويعلم الصابرين) إذا نصب بإضمار أن ، فالواو للجمع بين العلمين : الأول للجهاد ، والثاني للصبر على آلامه . وإذا رفع كانت الجملة حالية ، فكأنه قال : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون (ولقد كنتم) أنتم (تمنون) الحرب و (الموت) بالشهادة التي هي تاج من تيجان السعادة (من قبل أن تلقوه) وتعرفوا شدته (فقد رأيتموه) في واقعة بدر حين قتل الناس على مرأى منكم (وأنتم تنظرون) إلى كفاحهم حتى أصيبوا وحركاتهم حتى سَلَّموا أرواحهم الطيبة إلى ملائكة الرب الرؤوف الرحيم .

(وما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أفَإِنْ ماتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعْقابِكُمْ؟ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشّاكِرِينَ(١٤٤) وَما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بِإذْنِ اللهِ كِتاباً مؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَسَنَجْزِي الشّاكِرِينَ)(١٤٥)

لما التقى الفئتان يوم أحد وحَمِيَت الحربُ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مَنْ يأخُذُ هذا السيف بحقه ويضربُ به العدوّ حتى ينحني ؟ فأخذه أبو دُجانَةَ : سَمّاك ابن خرشة الأنصاري ، ثم تعمّم بعمامة حَمراءَ ، وجَعَل يتبختر ويقول :

أنا الـذي عاهَدَني خليلي ونحن بالسفح لـدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكَبُول أضرب بسيف الله والرسول

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إنها لمشية يَبْغَضُها الله تعالى ورسوله إلا في هذا الموضع » فجعل لا يَلْقى أحَداً إلاّ قتله . وقاتل عليٌ ـ كرم الله تعالى وجهه ـ قتالا شديدا حتى التوى سيفُه . وأنزل الله تعالى النصر على المسلمين ، وأدبر المشركون ، فلما نظر الرُّماةُ إلى القوم قد انكشفوا ، والمسلمون ينتهبون الغنيمة خالفوا أمر رسول الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم إلا قليلا منهم . فانطلقوا إلى العسكر . فلما رأى خالد ابن الوليد قِلّة الرُّماةِ واشتغالَ الناس بالغنيمة ورأى ظهورَهم خالية صاح في خيله من المشركين وحَمَلَ على أصحابِ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِن خلفهم في مأتين وخمسينَ فارساً ، فَفَرّقوهم وقتلوا

نحواً من ثلاثين رَجُلاً ، ورمى عبدالله ابن قَمِيئَةَ الحارثي رَسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحجر فكَسَرَ رباعيته وشجَّ وجهه الكريم، واَقبلَ يريد قتله فذبّ عنه مَصْعَبُ بن عُمَيرصاحب الراية ـ رضي الله عنه ـ حتى قَتَلَهُ ابن قَمِيئَةَ .

وقيل : إن الرامي عتبة بن أبي وقاص ، فرجع وهو يرى أنه قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إني قتلتُ محمداً وصرخ صارخ لا يُدْرى مَن هو حتى قيل : إنه إبليس ألا ان محمدا قد قُتِل ، فانكفأ الناسُ وجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو ويقول : إليَّ عبادَ الله ، فاجتمع إليه ثلاثون رجلاً فحموه حتى كشفوا عنه المشركين . ورمى سعدُ بن أبي وقاص حتى أندقّت سِيَةُ[1] قَوْسِهِ ، ونَثَلَ له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنانته ، وكان يقول له : إرم فداك أبي وأمي . واُصيبت يدُ طلحة بن عبيدالله فيبست ، وعين قتادة حتى وَقعت على وَجْنته ، فأعادها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعادت كأحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدركه أُبَيّ بن خَلَفٍ الجمحي وهو يقول:لا نَجَوْتُ ان نَجَوْتَ . فقال القوم : يارسول الله اَلا يَعْطِفُ عليه رَجُلٌ منا ؟ فقال : دَعُوهُ حتى اِذا دنامنه تناوَلَ رسولُ الله الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه وخدشه خدشة فتَدَهْدى مِن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ، وهو يقول : قتلني محمّد . وكان أبيّ قبلَ ذلك يَلْقى رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم فيقول : عندي رَمَكَة أعلفها كل يوم فَرَقَ ذُرَّةٍ أقْتُلُك عليها ، ورسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى . فاحتمله أصحابهُ وقالوا ليس عليك بأس . قال : بلى لو كانت هذه الطعنةُ بربيعةَ ومُضَرَ لقَتَلَتْهُم ! اَليس قال لي :

(١) : السية : من القوس ، طرف البيضة .

أقتلك ؟ فلو بَزق عَلي بعد تِلكَ المقالة قتلني ! فلم يلبث إلا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف .

ولما فشا في الناس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قتل فارق الناس مواضعهم ، ووقع فيهم الفزع والخوف والضعف ، فقال انس بن النضر عم انس بن مالك : إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يُقتَل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ! ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل ـ رضي الله عنه وروي أن أول من عرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كعب بن مالك ، قال عرفت عينيه تحت المِغفَر تَزْهِران ، فنادَيتُ بأعلى صوتي يا مَعْشَر المسلمين اَبْشِروا هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فأشار إلي أنِ اسكُت . فانحازَت إليه طائفة من أصحابه ـ رضي الله عنهم ، فلامَهُمُ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الفرار فقال : يا رسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا أتانا الخبرُ بأنك قُتِلتَ فرعبت قلوبُنا فوَلّينا مُدْبِرين . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : (وما محمد) هذا الاسم المبارك عَلَم لنبينا محمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منقول من اسم المفعول المضاعف ، سماه به جده عبدالمطلب لسابع ولادته ، ولما سئل عن وجه تسميته بهذا الإسم . قال : رجوت أن يُحْمَدَ في السماء والارض . ومعنى الحصر في قوله (وما محمد إلا رسول) الآية يعني ليس هذا الشخص شخصا خالدا بالشبح والجسم والحياة المادية الإعتيادية في هذه الدنيا حتى تعتقدوا أنه لا يقتل أو لا يموت، فإنه ليس جامعا بين الرسالة والخلود الجسمي فيها ، بل مختص ومنفرد بالرسالة دون الخلود ، فهو رسول من البشر كسائر الناس . (قد خلت من قبله الرسل) الّذين نَقَلهمُ الله تعالى إلى عالمَ البقاء وهذا الرسول أيضا

ينتقل إليها قريبا أو بعيدا ، ولكنه يبقى بشريعته وملّته وبكتاب الله المنزل عليه وأمّته إلى يوم القيامة • (أفإن مات) في بيته بالعز والإفتخار (أو قتل) في الخارج بأيدي الكفار المعاندين الأشرار (إنقلبتم على أعقابكم ؟) وانهزمتم وتحولتم على أعقابكم عما كنتم عليه من الجهاد لإعلاء كلمة الله في العباد وما استقمتم على حالكم في زمان بقائه ولقائه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف يستساغ ذلك الإنقلاب عن طريق الصواب ونشر الكتاب وسننه السنية على الوجه الصواب ؟ (ومن ينقلب على عقبيه) وتحول عما كان عليه (فلن يضر الله شيئا) وإنما يضرّ نفسه (وَسَيَجزي اللهُ الشاكرين) له بصرف ما لديهم من الإستطاعة في خدمة الإسلام كأنس بن النضر وأشباهه في ذلك الزمان ، وأمثالهم من المسلمين المخلصين في سائر الأزمان •

(وما كان لنفس أن تموت) وتخرج من الجسد إلى عالم الأبد (إلا بإذن الله) أي بمشيئته وإرادته ، فلها أجل محدود، وكتب ذلك الموت (كتابا مؤجلا • ومن يرد ثواب الدنيا) والإستفادة من مكاسبها وغنائمها (نؤته منها) إذا شئنا ذلك (وسنجزي الشاكرين) الذين لم يريدوا إلا ثواب الآخرة وشكروا نعمة الله التي عندهم ولم يُحدِقوا النظر إلى غيرها •

وفي الآية تشجيع للمسلمين على الجهاد في سبيل الله ونشر كلمته في ربوع العالم لأنه لما كان الموت بالأجل والأجل لا يتبدل لم يبق وجه للخوف؛ لأنّ الأجل المذكور لا تُقَدّمه الحربُ والقتال ولا يؤخّره البقاء في البيت كالأطفال •

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ، فَمَا وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ في سَبِيلِ اللهِ ، وَما ضَعُفُوا ، وَمَا اسْتَكانُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦) وَما كانَ قَولَهُمْ إِلاّ

انْ قالُوا : رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وإسْرافَنَا في أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنا وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(١٤٧) فَآتيهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسنينَ(١٤٨) يا ايُّهَا الّذِينَ آمَنوا انْ تُطِيعُوا الّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى اعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ(١٤٩) بَلِ اللهُ مَوْليكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ)(١٥٠)

قوله تعالى : (وكأيّن مِنْ نبي) الآية كلمة كَايِّنْ ذَهَبَ أبو حيان وغيرُه إلى أنها كلمة بسيطة وضعت كذلك إبتداء والنّون أصلية فلفظها موافق للرسم • وقيل : إنها كلمة مركبة من أيّ المنّونة والكاف ، وحدث فيها بعد التركيب معنى التكثير المفهومُ من كم كما حَدث في كذا بعد التركيب معنى آخر ، فكم وكأين بمعنى واحد • وعلى هذا فإثبات تنوينها في الوقف والخط على خلاف القياس (مِنْ نَبي) بيان له وجملة (قاتل معه) صفة له (وربِّيّونَ) منسوب إلى الربّ كرباني ، والمراد به العالم الزاهد ، وضمة الراء وكسرها مخالفان للقياس ، والفتح موافق له وبه قرىء • وقيل : منسوب إلى الربّه بكسر الراء وتشديد الباء بمعنى الجماعة ، وياء النسبة للمبالغة كياء احمريّ • وكثير صفته •

ومعنى الآية الكريمة : وكثير من نبيّ قاتل وجاهد وحارب الكفار معه ربّيّون أي أناس علماء زهاد أتقياء منسوبون إلى ربهم نسبة الإختصاص والإخلاص ، أو قاتل معه جمع كثير من أتباعه ، وأصيبوا في سبيل الله بجراحات ومصائب من قتل الآباء والأولاد والحواشي وانتهاب

الأموال (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله) وما حصل لهم الفتور في الجهاد (وما ضعفوا) في الدين ولا في مقابلة العدو (وما استكانوا) وما خضعوا لهم ، والله أحبهم لأنهم كانوا صابرين على الأذى في سبيل الله (والله يحب الصابرين) .

وما كان قولهم مع الجهاد وقبول التعب (إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) فكانوا يتواضعون وينسبون القصور والإسراف فيه إلى أنفسهم ويطلبون من الله تعالى السماح عنهم كما يطلبون تثبيت الأقدام في الإقدام على الجهاد ، والنصر على القوم الكافرين . (فآتاهمُ اللهُ) بفضله ورحمته الواسعة (ثوابَ الدنيا) من ثبات الأقدام والنصر على الأعداء اللئام والغنائم الجسام . (وحُسْنَ ثوابِ الآخرة) من روح الحياة البرزخية قبل البعث والمثوبة الحسنى يوم القيامة من الجنات ورضا الباري ولقائه مع الأنبياء الكرام . ذلك لأنهم كانوا محسنين (والله يحب المحسنين) .

(يا أيها الذين آمنوا) ويا من أصيبوا يوم الواقعة عند جبل احد ، ويامن ابتلوا بالمشاكل الدنيوية ويدعوهم الكفار إلى الإنقياد لهم (إِنْ تطيعوا الذين كفروا) فلا شك أنهم (يَرُدُّوكم) إلى الكفر (على أعقابكم) كي تقعوا في المهالك والمهاوي بلا شعور وحسبان (فتنقلبوا) بعد الإيمان واستحقاق ثواب الدنيا والآخرة (خاسرين) فيهما .

روي أن هذه الآية الشريفة نزلت رداً لقول بعض المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة إرجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبيا ما كان يقتل ! ويتجاهلون ما جرى على الرسل الكرام على أيدي الكفار اللئام من : الأذى والجروح والإستخفاف والقتل والتهجير من الأوطان (بل الله مولاكم)

ناصركم ومعينكم ومنجيكم من هذا الكرب وسائر الكروب (وهو خير الناصرين) لكم ولأمثالكم الذين سيأتون إلى عالم الوجود والتكليف بالجهاد في سبيل رب العالمين .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَيهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)(١٥١)

عن السدي وابن عباس قالا : لَمّا ارتحلَ أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة إنطلقوا حتى بَلَغوا بعضَ الطريق ، ثم إنهم ندموا وقالوا : بئسما صَنَعْنا : قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم! إرجعوا فَاسْتَأْصِلوهم . فلما عزموا على ذلك أَلْقَى اللهُ الرُّعبَ في قلوبهم فرَجَعُوا عما همّوا به ونزلت الآية . ذكره البغوي ، والطبري والقرطبي وغيرهم ... ومعنى الآية الكريمة : (سنلقي) على وجه التأكيد (في قلوب الذين كفروا) من المشركين كأبي سفيان ومن معه في ذلك الوقت (الرعب) والخوف وذلك (بما أشركوا بالله) أي بسبب إشراكهم بالله (ما) أي آلهة غير عقلاء (لم ينزل به سلطانا) لم ينزل الباري تعالى حجة وبرهانا على كونهم شركاء لله ، إذ لا حجةَ على ذلك حتى ينزّلها الباري سبحانه وتعالى (ومأويهم النار) أي ومأوى أولئك الكافرين المشركين إذا بقوا على كفرهم وإشراكهم نارُ جَهَنّم (وبئسَ مَثوَى الظالمين) ومرجعهم النار . والظاهر وبئس مثواهم لسبق المرجع . ولكن وضع المظهر موضع المضمر لإفادة التغليظ عليهم بذكرهم بعنوان الظالمين وتعليل الحكم المفاد بظلمهم . فإن الظالمين يحق الحكم عليهم بأنّ مأواهم النار .

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَيكُم مَا تُحِبُّونَ ، مِنكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ، وَمِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَيكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(١٥٣)

قال محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه من أُحُدٍ إلى المدينة ، وقد أصابهم ما أصابهم يومَ أحُدٍ قال ناس من الصحابة : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فأنزل تعالى هذه الآية . وذلك أن الظفر كان للمسلمين في الإبتداء فحقق الله لهم وعده بالنصر ، فلما خالفوا أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطلبوا الغنيمة هُزِمُوا . فنصرهم الدائم كان مشروطا بلزوم طاعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

قوله تعالى : (ولقد صدقكم الله) الآية أي ولقد صدقكم الله وعده بالنصر أي وعده إياكم بالنصر المشروط بالصبر والتقوى والإحتراز عن مخالفة أمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، والنصر قد تحقق مع شرطه أَوَّلاً ، (اذ تحسّونهم بإذنه) أي في وقت تقتلون الكفار بتوفيق الباري وتيسيره بفضله (حتى إذا فشلتم) وضعفتم في الرأي (وتنازعتم في الأمر) أيّها الجمع الرماة الذين كان الإعتماد عليكم في محافظة خلفيّة الجيش الإسلامي، فمنكم من رأى الثبات في عين المكان على حسب أمره ــ صلى الله عليه وسلم

بالبقاء فيه وبقوا هنالك وهم قليل ، ومنكم من رأى الإلتحاق بسائر الأصحاب المحاربين الظافرين الآخذين للغنائم وترك المحل المعين لكم ، وفعلا قد تركتموه • (وعصيتم أمر الرسول) بالبقاء في محلكم على كل حال • وذلك العصيان (من بعدما اَراكُمُ) اللهُ (ما تحِبّون) من النصر على الكافرين والظفر بهم ، وأخذ الغنيمة منهم وهزيمة الأعداء (منكم مَنْ يُريدُ الدنيا) واَخذَ الغنائم وهم التاركون لمحلهم المعين (ومنكم من يريد الآخرة) وثوابها وهم الثابتون الباقون في المحل محافظة على أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ثم صرفكم عنهم) أي بعدكم عن أعدائكم فما ظفرتم بهم حتى تحول الأمر وعاد النصر لهم وذلك (ليبتليكم) على المصائب ويمتحن معنوياتكم واستمراركم على ما كنتم عليه من الإيمان وربط القلب ، وذلك بسبب إرتكاب غلطة المخالفة لأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأتى عليكم ما أتى ، وكان المناسب لكم العقاب الصارم (ولقد عفى عنكم) تفضلا وإحسانا لما وقع في قلوبكم الندم عما جرى منكم (والله ذو فضل على المؤمنين) •

وقوله : (إذ تصعدون) ظرف متعلق بصرفكم ، أو بقوله يبتليكم ، أو بمقدر كأذكر • أي صرفكم عن محاربة العدو (إذ تصعِدون) في الوادي منهزمين ، والإصعاد : الذهاب في مستوى الأرض دون الإرتفاع (ولا تلوون) ولا تقيمون ولا تعطفون ولا تميلون (على أحد) لأن من مال إلى شيء يلوي عنقه إليه ، (والرسول) محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يدعوكم) إليه دعوة نافذة (في أخريكم) أي في جماعتكم المتأخرة لأن الجماعة المتقدمة إبتعدوا فلم يصل إليهم الصوت ، وينادي ويقول إليّ عباد الله ! إليّ عباد الله ! أنا رسول الله من يكر فله الجنة • (فأثابكم) أي أنالكم وأوصلكم (غمّاً) من أثر القتل والجرح متصلا (بغم) آخَرَ من أثر الهزيمة

وضعف المعنويات والإرجاف بقتل الرسول ، وذلك لتتمرنوا وأنتم الأمة المجاهدة لإصلاح العالم وتتهذبوا وتتسعوا في إدراك تقلب الزمان وتتابع النصر والهزيمة ، وتعلموا أن كل ليل بعده نهار إلى قيام الساعة ، وأن الدنيا فانية وأن الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا (كي لا تحزنوا على مافاتكم) من المنافع (ولا) على (ما أصابكم) من المضار (والله خبير بما تعملون) •

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ، وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنَ شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ ، يُخْفُونَ في أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ : لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنَا ههُنا ! قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)(١٥٤)

عن الزبير بن العوام قال : رأيتني يوم أحد حين اشتد علينا الخوف أرسل الله علينا النوم ، فما منا أَحَدٌ إلا ذَقَنُهُ فِي صَدْرِهِ ! فوالله إني لأَسْمَعُ كالحلم قول معتب بن قشير (من المنافقين) : لو كان لنا من الأمر شيىء ما قتلنا ههنا ! فحفظتُها فأنزل الله في ذلك الآية • أخرجه ابن أبي حاتم •

قوله تعالى : (ثم أنزل عليكم) الآية • والمعنى : ثم وهب لكم أيها المؤمنون من بعد المصيبة والكارثة الحربية خيرا و (أنزل عليكم من بعد الغم)

الذي داهمكم في الواقعة (اَمَنة) وراحة يعنى في النفس وآتاكم (نعاسا) أي سِنَةً (يغشى طائفةً منكم) والحاصل أنه أنزل الله تعالى عليكم الأمن حتى اَخَذكم النّعاس • (وطائفة) أخرى وهم المنافقون (قَدْ اَهَمّتهُمْ أنفسهم) أي أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ماكان لها همّ إلا خلاص أنفسها (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) يظنون بالله غير الظن الحق ، وذلك ظن الجاهلية ، ويزعمون أن من انتمى إلى الله وقَبِلَ الدينَ لابد أن يبقى سالما من الأقدار والأكدار ، ولا يأتيه شيىء من المصائب ، ولا يعلمون اَنَّ الإنسان نوع واحد يأتي على كل فرد من أي صنف من أصنافه ما يأتي على الآخر ، فكم من نبي أو رسول أو صديق أو رجل نافع في الأمة ابتلي بالقتل والجراح والمصائب في سبيل الله ! ولظنهم الخالي عن الحق (يقولون) لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (هل لنا من الأمر من شيىء) من وعد بنصر ونجاح (قل) يارسولي في جواب أولئك الناس : (إن الأمر كله لله) أي أمر النصر والظفر والنجاح كله ملك لله ومختص به يؤتيه من يشاء من الأمم ، ولكن وعد بأن العاقبة للمتقين وأن جنوده لهم الغالبون ، وأن من صبر ظفر ، وأين أولئك الكرام الموعودون من أولئك الناس الذين إختلط فيهم الصادق بالمنافق ، والحازم الثابت بالرجل الغير الحازم المتزلزل ؟! ولو كنتم كما قلنا لما سألتم هذا السؤال • فإنه ليس عن إستفسار لرفع الجهالة ، ولكنه إستخبار منشؤه الضلالة لأنهم (يخفون في أنفسهم) من الخيالات الفاسدة والمزاعم الكاسدة (ما لا يبدونه لك) فإن من جملة مزاعمهم ماكان مبدأ لقولهم بينهم : (لو كان لنا من الأمر شيىء ما قتلنا ههنا) وما كانت تأتينا الهزيمة • تجاهلوا قصص الأمم العابرة في الأزمنة الغابرة من شتى أصناف الناس وما جاء عليهم من الحوادث والكوارث سواء كانوا من الملوك العادلين أو الجبابرة الظالمين، وسواء كانوا من الأنبياء والمرسلين ، أو من الأشقياء الغافلين عن أمر الله •

(قل) لهم يا رسولي قولا حاسما ، وهو أنه : (لو كنتم في بيوتكم) ساكنين ولم تكن منكم عزيمة القتال (لبرز الذين كتب عليهم القتل) في علم الله الأزلي الذي لا يقبل التبدل (إلى مضاجعهم) ومصارعهم ، فالمقدر لا يغير ، وعلم الله لا يُبدل ، وإنمّا يَعُودُ إليكم الكسب أي العزم المصمم الذي عندكم ، فإن كان على الخير وخدمة الحق كان قتلكم قتل الشهداء وموتكم موت السعداء ، وإن كان على خلاف ذلك كان القتل قتل فساد ، والموت موتا بلا رشاد (والله) سبحانه أجرى ما في علمه المكنون إلى عالم الشهادة (ليبتلى الله ما في صدوركم) ويظهرها في العالم (وليمحص ما في قلوبكم) ويكشفها لكل من ينظر إليكم حتى يعلم أن النفاق يوجب التردد في العمل ، والتردد يوجب التأخر والزلل .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي بالخفايا المكنونة في الصدور قبل ان تظهر من الأقوال أو قرائن الأعمال . وفي ذلك وعد لمن أضمر الخير بالثواب ، ووعيد لمن أضمر السوء بالعقاب ، وإشارة الى أن الله تعالى لا يبتلي الناس ليعلم أحوالهم ، فإنها ظاهرة عليه ، بل ليكشفها أمام الناس فلا تبقى لهم حجة . ثم كشف الله تعالى سر تولي بعض من المنافقين يوم أحد ، فقال :

(اِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ اِنمَّا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ ماكَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ اِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)(١٥٥)

(إن الذين تولوا منكم) أي تركوا البقاء في جموع المؤمنين لم يكن توليهم لضعف في العدد والعُدد ، ولا لمصلحة المؤمنين و (إنما

إستزلّهم الشيطان) أي طلب منهم الزلل والعصيان وترك جمع المجاهدين (ببعض ما كسبوا) أي بشؤم ما كسبوه من مخالفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن من خالفه في الاوامر والنواهي وافق الشيطان في ارتكاب المناهي ، ولذلك تركوا جيوش المجاهدين ، وتقاعدوا عن نصرة الدين (ولقد عفا الله عنهم) بعد أن تابوا عما اكتسبوا واعتذروا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إن الله غفور) للذنوب و (حليم) لا يعاجل بالعقوبة ، ورحيم بكشف الكروب .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تَكُونُوا كالَّذين كَفَرُوا وقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إذا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أوْ كَانُوا غُزّىً : لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ما مَاتُوا وما قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، واللهُ يُحْيي ويُمِيتُ ، والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٥٦) ولَئِنْ قُتِلْتُمْ في سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(١٥٧) ولَئِنْ مُتُّمْ أوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ)(١٥٨)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) : تنبيه وتوجيه للمؤمنين إلى الإخلاص لله وإلى تقوية العزيمة والإبتعاد عن التردد والوساوس فيقول لهم يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالمنافقين الذين آمنوا باللسان وكفروا بالقلب ، وقالوا لإخوانهم في النسب أو في الحسب ، أي في شأنهم وحكاية أحوالهم إذا ضربوا في الأرض وابتعدوا فيها لمهمة من المهمات الحيوية كالتجارة وغيرها ، أو كانوا غُزّي جمع غاز ومقول القول : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا . واللام في قوله ليجعل للعاقبة . أي فتكون

عاقبة ذلك القول أن يجعله الله حسرة وأَسَفاً في قلوبهم ، مع أن الموت بالأجل وهو واحد" ، والله يحيي من أحياه ، ويميت من يميته حسب ما تقرر في علمه ، (والله بما تعملون بصير) وفيه وعيد لمن يقول للناس مثل ما قاله أولئك المنافقون •

وبعد ان كان الموت بالأجل لا بأي أمر آخر ولابد للانسان أن يموت (لئن قتلتم في سبيل الله) ومن أجل إعلاء كلمته ، (أو متم) في سبيله (لمغفرة من الله) تعالى (ورحمة) ثابتة لكم جزاءً لأعمالكم المبرورة ومساعيكم المشكورة (خير مما يجمعون) أي خير مما يكتسبه الناس المتقاعدون عن الجهاد ويجمعونه لأنه أمر زائل وقتي ، وما أثابهم الله به جزاء آجل أبدي وأكد ذلك بقوله : (ولئن متم أو قتلتم) أي في سبيله (لالى الله تحشرون) فتنالون جزاءكم •

(فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِر لَهُمْ ، وشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ ، فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ اِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ(١٥٩) اِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ، وإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذا الَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ)(١٦٠)

قوله تعالى : (فبما رحمة من الله) الآية تقديم الجار والمجرور للحصر وما زائدة للتأكيد والفظ : سيىء الخلق • وغليظ القلب : هو القاسي القلب بحيث لا يتأثر بتأثر الناس ولا يبالي • والمعنى : فبرحمة واسعة ثابتة في قلبك نازلة (من الله) تعالى عليك لا بغيرها من الوجوه المفتعلة (لِنْتَ) قلبا ولسانا (لهم) وكُنْتَ رفيقا شفيقا صالحا مسامحا عنهم (ولو كنت) رجلا (فظا) سيىء الخلق و (غليظ القلب) وقاسيا (لانفضوا من حولك) وتفرقوا عنك وشَرَدوا ومَرَدوا وما استفادوا منك ، فإن الجامع للناس حول الشخص هو القوة والمروة • والمروة بحسن الخلق المتمثل في طلاقة الوجه ، وطيب المقال ، وصرف الجاه ، وبذل المال ، ومعاشرة الرجال ، وإدارة الجهال • وحسن الخلق بكامل معناه كان موجودا فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإذا كنت كذلك (فاعف عنهم) فيما يختص بك مما صدر منهم (واستغفر لهم) فيما يعود لله ولا تتركهم ولا تهجرهم (وشاورهم في الأمر) أمر الحرب وسائر المهمات •

وهنا فوائد :

الاولى : انّ صيغة وشاورهم صيغة أمر باب المفاعلة ، وظاهر الأمر للوجوب، وانه وجب عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مشاورة أهل الرأي في القضايا المهمة • ولكن الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ حمل الأمر هنا على الندب ، لأن ايجاب المشاورة عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع أن الله يوحي إليه عواقب الأمور بعيد" •

الثانية : أن الأمر في قوله تعالى (وشاورهم في الأمر) ليس كل أمر لأن الأمور البسيطة لا تحتاج إلى المشاورة ولا الأمر الذي ورد فيه الوحي، لأنه مغنٍ عن المشاورة ولا الأمر الديني من تأسيس قواعد الأحكام لأن أدوار حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقفه عند سؤاله ومراجعته في الأمور الدينية حتى نزل عليه الوحي دليل على أن المراد بالأمر الأمر الدنيوي المهم كأمر حرب بدر الكبرى ، وأمر حرب أحد وأشباههما .

والفائدة الثالثة : أن المستشارين عبارة عن الأصحاب الذين كان لهم شأن في الامور المهمة وممارسة لها ككبار المهاجرين من العشرة المبشرة والأنصار ، كالسعدين : سعد ابن معاذ ، وسعد ابن عبادة وأمثالهما .

والرابعة : أن الحكمة في تشريع المشاورة في عهد الرسول بقاء تشريعها في سائر العهود حتى يتعودوا التفكير في الأمور المهمة ، ولا يكون الرأي منحصرا في سيد القوم ، حتى إذا وقعت نكسة رجعوا باللوم والعتاب إليه . ثم الحكمة في الأمر بالمشاورة بعد واقعة أحد إعلام الرسول أن الأصحاب وإن خالف بعضهم فيها لكنهم باقون على الإعتبار والإعتماد وأنهم أصحاب الرأي ، وينبغي أن تنظر اليهم بعين الإحترام والإعتبار ، وأن تشاورهم بعدُ كما شاورتهم (فإذا عزمت) بعد المشاورة على الإقدام على عمل (فتوكل على الله) في التوفيق للتطبيق (إن الله يحب المتوكلين) لأنهم من خواص عباده المؤمنين (ان ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر (فلا غالب لكم) اي عليكم (وإن يخذلكم) كما جرى يوم أحد من

مخالفة امركم (فمن ذا الذي ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فإنه لا سند إلا منه ولا معين إلا هو ، وهو الحق المبين .

(وَما كانَ لِنَبِيٍّ اَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(١٦١)

عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت في المغانم يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذها . فأنزل الله الآية . ومعنى قوله تعالى (وما كان لنبي) الآية ما كان من الممكنات العادية (لنبي أن يغل) ويخون في المغانم ويأخذ شيئا منها خفية ، لأن مقام النبوة ينافي الخيانة إطلاقا (ومن يغلل يأت بما غله يوم القيامة) يحمله على عاتقه (ثم توفى كل نفس ماكسبت) أي تعطى كل نفس جزاء ما كسبته كاملا كافيا وافيا ، ولو لم يكن عمله من الغلول ، وكيف به إذا كان منه ؟ (وهم لا يُظْلَمون) بأن لا يوفى حق العامل الكاسب للخير منهم ، أو بأن يعاقبوا أزيدَ مما يستحقونه من العقاب ، والله هو العدل الخبير البصير .

(أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ؟ ومَأْويهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ(١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلونَ)(١٦٣)

يعنى : (افمن اتبع رضوانَ اللهِ) وطلبه وسعى لتحصيله بالطاعة (كمن باء) ورجع (بسَخَط مِن اللهِ) بسبب المعصية ؟ والجوابُ : لا وليْسُوا سَواءً . فإن مأوى الاول الجنة ونعم المصير . (ومأواه) : ومأوى الذي باء بسخط من الله جهنم (وبئس المصير) . وقوله تعالى :

(هم درجات) يعني : هم أولو درَجاتٍ (عندَ الله) متفاوتة منتقلة من الحسن إلى الأحسن ومن سيء إلى اَسْوَأ (والله بصير بما يعملون) وخبير بما يستحقونه من الجزاء ثوابا وعقابا .

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وإن كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(١٦٤)

وفي هذه الآية الكريمة بيان للنعمة الخالدة الواردة منه تعالى على المؤمنين فيقول : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إذ بعث) وأرسل (فيهم رسولا من أنفسهم) من نسبهم (يتلو عليهم آياته) ويفهمونها ، لأنها على لغتهم (ويزكيهم) ويطهرهم من الكفر والنفاق وسوء الأعمال والأخلاق (ويعلمهم الكتاب) القرآن الكريم (والحكمة) أي السنة النبوية (وإن كانوا) على وجه التحقيق (من قبل) أي قبل بعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لفي ضلال مبين) عن منهج الكتاب والحكمة وسائر المعارف الجالبة للرحمة .

(اَوَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ اَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ : اَنَّى هذا ؟ قُلْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اَنْفُسِكُمْ اِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ(١٦٥) وَمَا اَصابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الْجَمْعانِ فَبِإذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنِينَ(١٦٦) ولِيَعْلَمَ اَلَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ : تَعالَوْا قاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ اَوِ ادْفَعُوا . قالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ

يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يقُولُونَ بِأفْوَاهِهِمْ ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)(١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لأِخْوَانِهِمْ وقَعَدُوا : لَو أطاعُونَا ما قُتِلُوا • قُلْ : فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُم الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين)(١٦٨)

قوله تعالى : (أو لما اصابتكم) الآيه عن عمر بن الخطاب : لما كانَ يومُ أُحُد من العام القابل عوقِبُوا بما صَنعوا يومَ بدر من أخذهم الفداء في العام السابق ، فقتل منهم سبعون ، وفَرَّ أصحاب النبي عنه ، وكُسِرَت رَباعيته ، وهُشِمَتْ البَيْضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! فأنزل الله الآية • أخرجه إبن أبي حاتم •

قوله تعالى : (أَوَ لما أَصابتكم مُصيبة") الآية • كلام مستقل نزل لإبطال بعض الظنون ، والهمزة للتقريع ، والواو لعطف مدخولها على محذوف قبلها • ولما ظرف بمعنى حين مستعملة للشرط مضافة إلى مابعدها• (وقلتم) جواب الشرط (وأصابتكم) فعل مع مفعوله وفاعله (مصيبة) والمراد بها قتل سبعين رجلا منهم في واقعة أحد • وجملة : (قد أصبتم مثليها) صفة لها • والمراد من المثلين قتل سبعين كافرا في واقعة بدر ، وأسر سبعين آخرين والأسرى كالقتلى : فإن الأسارة عار والعار على الأحرار أشد من القتل والدمار • و (قلتم) جواب (لما) و (أنى هذا) بمعنى من أين هذا ؟ والآية مع التفسير (أو لما أصابتكم مصيبة) وكيف إذا أصابتكم أيها المؤمنون مصيبة الهزيمة والقتل في واقعة أُحُد التي (قد أَصَبتم) الاعداء (مثليها) من قتل سبعين وأسر سبعين في واقعة بدر ، (قلتم) مستنكرين لما اصابتكم • (أنى هذا) ؟! ومن أين نزل ؟ نحن نتعجب من هذا القول في ذلك الوضع ! ألم تعلموا أن الحرب سجال ؟ أما علمتم إصابة الأنبياء وجيوشهم بما أصابكم في القتال ؟ أما عرفتم أن سنة الله في

الكون لا تبديل لها في الأجيال ؟ مع أنكم لو تفكرتم في أنكم أصبتم بالأمس في بدر مثلي ماأصابتكم في أحد ما كان يحق لكم أن تأتوا بالإستفهام وأن تقولوا (أنى هذا) ؟ لأنه تعرفون بأدنى تفكر أن هذا جاء ونزل من حيث أن ذلك قد نزل أي كل آتى بأمر الله فجواب هذا ذلك . ولا يبقى كلام هنالك (وإن) يطلبوا منك يارسولي سر ماجاءهم (فقل : هو من عند أنفسكم) أي أن سر الهزيمة والجروح والقتل الذريع من مخالفتكم أنتم لأمر الرسول الرفيع ، فالمصيبة مما اقترفتها أيدي المخالفين ولو أنهم بقوا في مركزهم حافظين لخلفية الأصحاب مانزل عليهم ذلك القتل والعذاب، فاجعلوا هذه الواقعة عبرة للمستقبل . ولعلكم تنتصرون على الأعداء بعد زمن يسير (إن الله على كل شيء قدير) .

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان) جمع المسلمين وجمع المشركين ، فقد كان (بإذن الله) وقدر الله ذلك وحققه ليعلم المؤمنين الذين وافقوا (وليعلم) الكافرين الذين نافقوا (وقيل لهم) من جانب المؤمنين : (تعالوا قاتلوا) المشركين (في سبيل الله) إن كنتم مؤمنين (أو ادفعوا) الأعداء عن حريمكم وأطفالكم وأنفسكم إن كنتم مواطنين ، وهم (قالوا) في جواب ذلك تجاهلا وتخاذلا : (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) لكن ما أنتم عليه أيها المؤمنون ليس قتالا ، وإنما قالوا ذلك لأنهم إعتقدوا أن الرسول وأصحابه ليسوا على صواب إذ (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) وإذا قلت : إنهم مؤمنون لأنهم يأتون بالشهادتين ولستم مطلعين على غيوبهم قلنا : يقول الباري في شأنهم : (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) وأنتم أيها المؤمنون لا تعلمون إلا ما يظهرون (والله أعلم بما) يظهرون وما (يكتمون) . واولئك المنافقون المتخاذلون (هم الذين قالوا لإخوانهم) الغزاة القتلى يوم أحد (و) الحال إنهم (قعدوا) متمانعين عن

القتال في بيوتهم بين النساء والاطفال : (لو أطاعونا) في الإمتناع عن الذهاب إلى الحرب (ما قتلوا) وبقوا سالمين كما بقينا سالمين (قل) لهم يا رسولي : أنتم إذا بقيتم مدة أحياء سالمين فلا شك سيأتيكم الموت (فادرأو عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) في تدبير حياة القتلى السابقين •

(وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلوا في سَبِيلِ اللهِ اَمْوَاتاً بَلْ اَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ : ألاّ خَوفٌ عَلَيْهِمْ ولاهُم يَحْزَنُونَ(١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وأَنَّ اللهَ لا يُضيع اَجْرَ الْمُؤْمِنينَ(١٧١) اَلَّذِينَ اسْتَجابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما اَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ اَحسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا اجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٢) الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاس إنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ، فَاخْشَوْهُمْ ، فَزادَهُمْ إيمَاناً وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ(١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، واَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)(١٧٤)

قوله : (ولا تحسبن الذين قتلوا) كلام مستأنف مسوق لبيان أن القتل الذي يحذرونه هو من أجل المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون • والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لكل من يقف على الخطاب مطلقا والآية نزلت في بيان حال شهداء أحد • أخرج الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ وجماعة عن إبن عباس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لما أصيب إخوانكم باحد جعل الله تعالى أرواحهم في أجواف

طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا ! وفي لفظ قالوا من يبلغ اخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال الله تعالى : انا ابلغهم عنكم » فأنزل هذه الآيات .

وأخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وغيرهما عن جابر بن عبدالله ، قال : لقيني رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا جابر مالي أراك منكسرا ؟ فقلت : يا رسول الله أستشهد أبي وترك عيالا ودينا . فقال : ألا ابشرك بما لقى الله تعالى به أباك ؟ قلت : بلى . قال : ما كلم الله تعالى أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحا . وقال يا عبدي تمنّ عليّ أعطك ! قال : يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية ! قال الرب تعالى : قد سبق منّي أنهم لا يرجعون . قال أي ربي فأبلغ من ورائي . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ولا تنافي بين الروايتين لجواز أن يكون كلا الأمرين فأنزل الله تعالى هذه الآية لهما . والأخبار متضافرة على نزولها في شهداء أحد . وفي رواية إبن المنذر عن اسحاق ابن أبي طلحة . قال : حدثنى أنس في أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذين أرسلهم النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى بئر معونة . وساق الحديث بطوله إلى أن قال : وحدثني أن الله تعالى أنزل فيهم قرآنا : (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) ثم نسخت فرفعت بعدما قرأناه زمانا ، فأنزل الله تعالى (ولا تحسبن ...) أي ولا تعتقد ولا تظن المؤمنين (الذين قتلوا في سبيل) اعلاء كلمة (الله) وفي سبيل تحصيل رضاه (أمواتا) كسائر الموتى (بل) هم (أحياء) (أولو) قدر ورتبة (عند ربهم يرزقون) من الجنة بما يناسب غذاءهم (فرحين بما

آتاهم الله من فضله) وإحسانه ، وإلا فالتضحية بالنفس لا توجب تلك الدرجة الرفيعة والإنطلاق في تلك الجنة الوسيعة .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) وهم (من خلفهم) زمانا أو رتبة (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أي يستبشرون بحال الذين لم يلحقوا بهم وهم من خلفهم وسيلحقون بهم عاجلاً أو آجلاً ، وهي أنه إذا لحقوا ربهم وضحوا بحياتهم في سبيله لا خوف عليهم من أي شيء في المستقبل ، ولا هم يحزنون على أي شيء فاتهم في الماضي ، اما لأن سرورهم وإنغمارهم في الرحمة ينسيهم ذلك ولا يأتي على بالهم ، أو إذا تذكروه لم تكن له قيمة في جنب ما آتاهم الله من النعم الجليلة (يستبشرون بنعمة من الله) غيبية لا يدرك مقدارها (وفضل) معنوي زائد عليها من تجليات الحق عليهم (و) يستبشرون (بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) الصادقين الباذلين أرواحهم في رضاء الله تعالى .

ويستفاد من هذه الآيات الشريفة أن الشهداء ، وإن ماتوا كسائر الموتى صورة وزهقت أرواحهم ولم يبق لأجسادهم ما أسند اليهم قبل ذلك، لكن أرواحهم تطورت وارتفعت قدرا ومقدارا ، وأنالها الله تعالى من فضله درجات وهي الإنطلاق في الكائنات في الارض والسماوات وإنهم يتنعمون كالأحياء بل أولى لأن نعمهم ما وراءها تعب ونقم ، وإنما هي نعم صافية من الأكدار ومن الخوف والحزن الذين يعارضان راحة الروح الإنساني ، ويبقون في البرزخ كذلك إلى يوم البعث واللقاء ، وعند ذلك يتبين لهم درجات في موقف الحساب يغبط بها الأولون والآخرون ، ولذلك ذكرهم الله تعالى في عداد المقربين منه في الدرجة الثالثة فقال : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

وقد تتابعت الادلة من الكتاب والسنة على أن الإنسان ، وإن كان هو الهيكل المخصوص المحسوس في المرأى ، ولكنه عبارة عن روحٍ مجردة عن المادة الكثيفة ، وإن الجسد كقالب أو لباس لبسته مدة من الزمان ، وإنه إذا جاء أجلُ إنخرام هذا الهيكل نَزَعَتْه وتَركَتْه ودخلت في لباس آخر برزخي مدة مابين الموت في الدنيا والبعث في الآخرة • وعليه قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « القبر إما روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران » وإن الأرواح في البرزخ لها إدراكات على مستواها من الوضاعة والرفعة ، وإن أدنى مستويات الأرواح مستوى أرواح الكافرين المشركين المعادين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقد خاطبهم الرسول فقال : (إنا وَجَدنا ما وَعَدَنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً ؟) وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جواب سؤال عمر ـ رضي الله عنه ـ : « والله ما أنتم بأسمَعَ منهم ، ولكن لا يُطيقون الجواب » وفوق ذلك المستوى أرواح الكفار المعاهدين والمستأمنين ، وَاَعْلى من مُستواهم بدرجات مستوى أرواح المؤمنين الفاسقين ، وأعلى منها مستوى أرواح المؤمنين الصالحين • ثم مستوى أرواح المؤمنين الكاملين من العلماء العاملين والأولياء والشهداء والصديقين والانبياء والمرسلين • فالأرواح لها مستويات في عالم البرزخ • وأهل الجهاد والشهادة في ذلك المستوى الذي بينه الله في الآية الكريمة وهذه سنة من سنن الله تعالى في الشهداء كما يحكي سبحانه وتعالى من حبيب النجار عندما استشهد : (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين !)

وقوله تعالى : (الذين استجابوا لله والرسول) الآية • ورد في سبب النزول عن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ قال لما رجع المشركون من

أحد قال بعضهم لبعض : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب اردفتم ، بئس ما صنعتم ! إرجعوا فاستأصلوهم . فسمع ذلك رسول الله فندب المسلمين ، فانتدبوا حتى بلغوا (حمراء الأسد) فقال المشركون : نرجع من قابل فرحل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المدينة فكانت تعد غزوةً . فأنزل الله تعالى هذه الآيات . وقد كان أبو سفيان قال للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة ، فأتوه فلم يجدوا به أحَداً وتسوقوا . فأنزل الله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله) الآية . اخرجه النسائي وابن ماجه .

وقوله : (الذين استجابوا) مبتدأ وخبره جملة (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) . ومعناه : الذين استجابوا بالإطاعة والإنقياد والاستعداد للجهاد لله والرسول بامتثال أمره بتعقيب المشركين المحاربين في أحد بعد رجوعهم متوجهين إلى مكة بعد واقعة أحد الداهية الدامية . وقد استجابوا (من بعد ما أصابهم القرح) أي نالهم الجراح يوم أحد (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) .

وفي هذه الجملة الجميلة وجوه ثلاثة :

الاول : (إن أحسنوا) دخل تحته إمتثال جميع المأمورات . وقوله (اتقوا) دخل تحته الإجتناب عن جميع المنهيات . والمكلف عند هذين الأمرين يستحق الأجر العظيم .

الثاني : إن معنى (أحسنوا) أنهم أحسنوا في طاعة الرسول في ذلك الوقت . (ومعنى واتقوا) أنهم إتقوا الله في التخلف عن الرسول .

الثالث : إن معنى (أحسنوا) أنهم أحسنوا فيما أتوا به من طاعة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ • ومعنى (واتقوا) أنهم إتقوا إرتكاب شيء من المنهيات بعد ذلك • وإذا علمت ذلك فاعلم أن من الناس من قال : إن كلمة من في قوله (أحسنوا منهم) للتبيين ، لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا واتقوا كلهم لا بعضهم • وفي الشهاب : وفيه تجريد ومبالغة كما تقول : لي منك عالم • إنتهى • يعني أنهم وصلوا في درجة الإحسان والتقوى رتبة يجرد فيها أناس محسنون متقون مثلهم عنهم • ويحتمل أن تكون للتبعيض •

في صحيح البخارى إنتدب من الأصحاب سبعون رجلا • وفي فتح الباري وقد سمى منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمار بن ياسر وطلحة وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة وحذيفة وابن مسعود•••أخرجه الطبري من حديث ابن عباس ولم يذكر الباقون • ويجوز اختلاف درجات الإحسان والتقوى وإرادة الطبقة العالية من المحسنين المتقين فيكونون بعضا من المجموع •

قال إبن إسحاق وغيره لما كان يوم أحد لست عشرة ليلة خلت من شوال وكانت وقعة أحد يوم السبت للنصف منه في السنة الثالثة للهجرة أذن مؤذن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بطلب العدو : وأن لا يخرج معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس • فكلمه جابر بن عبدالله بن حذام فقال يا رسول الله • إن أبي كان خلفني على سبع أخوات لي ، وقال : يا بني لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على نفسي فَتَخَلَّفْ على أخواتك ، فتخلفت عليهن • فَأَذِنَ له رسول الله • فخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إرهابا للعدو حتى إنتهى إلى حمراء الأسد على

ثمانية أميال من المدينة ، فأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة • وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئا كان بها • ومعبد يومئذ مشرك فقال : يا محمد أما والله لقد عز علينا ما أصابكم في أصحابك ، ولوددنا أن الله تعالى عافاك فيهم ، ثم ذهب رسول الله بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقالوا : أصبنا أجل اصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟! لنكرّن عليهم فلنفرغن منهم • فلما رأى أبو سفيان معبدا قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله • قال : ويلك ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ! قال : فوالله قد أجمعنا االكرة عليهم لنستأصل بقيتهم • قال : فإني أنهاك عن ذلك فثنى عند ذلك أبو سفيان ومن معه •

ومرّ به ركب من عبدالقيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة • قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة • قال : فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموه ؟ قالوا : نعم • قال : إذا وافيتموه فأخبروه أن قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم • فمر الركب برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه • فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل •

وأخرج ابن هشام أن أبا سفيان لما أراد الرجوع إلى حرب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لهم صفوان بن أمية بن خلف : لا تفعلوا ، فإن القوم قد جربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان فارجعوا إلى

محالكم ؟ فرجعوا • فلما بلغ رسول الله وهو بحمراء الأسد انهم هموا بالرجعة قال : والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب !

ثم رجع رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وأصحابه إلى المدينة وأنزل الله تعالى هذه الآيات •

وقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس) الآية بدل من الذين استجابوا ، أوصفة • والمراد من الناس الأول ركب عبدالقيس ، ومن الثاني أبو سفيان ومن معه • وقيل : إن المراد من الناس الأول نعيم بن مسعود الأشجعي فإطلاق الناس عليه من إطلاق اسم الجمع على الواحد للمبالغة في شأنه من حيث مبالغته في التهويل و إخافة المسلمين وتثبيطهم عن القتال •

ومعنى الآية : (الذين قال لهم الناس) يعني الركب الذين إستقبلهم من عبد قيس : أو نعيم بن مسعود الأشجعي (إن الناس) أي أبا سفيان وأصحابه (قد جمعوا لكم) أي لقتالكم بقصد إبادتكم واستئصالكم (فاخشوهم) وامتنعوا من قتالهم (فزادهم) هذا الكلام المثبط (إيمانا) بالله ونصره للمؤمنين ، ولم يلتفتوا إلى ذلك الكلام الذي قيل لهم ولم يضعفوا ، وأظهروا حمية الإسلام (وقالوا : حسبنا الله) أي كافينا (ونعم الوكيل) ونعم الموكول إليه هو (فانقلبوا) أي أولئك المؤمنون المخلصون (بنعمة من الله) وهي العافية والثبات (وفضل) أي منفعة مالية فإنهم لما أتوا بدرا وافوا بها سوقا للمعاملة فاتجروا وربحوا (لم يمسسهم سوء) من القتل والجراح أو الإيذاء من الأعداء (واتبعوا) في خروجهم لتعقيب العدو (رضوان الله) الذي هو أساس السعادة (والله ذو فضل عظيم) حيث حفظهم مما حفظهم وآتاهم ما آتاهم •

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ، إن كنتم مؤمنين)(١٧٥)

(إنما ذلكم) المثبط من الركب أو الفرد (الشيطان) مأمور الشيطان (يخوف اولياءه) وأحباءه الكفرة ، ولا يقدر أن يخوف أولياء الله • (فلا تخافوهم) فلا تخالفوا أولياء الشيطان (وخافون) واجتنبوا مخالفة أمري ونهيي بالترك والفعل (إن كنتم مؤمنين) حق الإيمان •

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله الا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم"(١٧٦) ان الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم"(١٧٧) ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير" لأنفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين")(١٧٨)

والمعنى : (ولا يحزنك) عمل (الذين يسارعون في) ترويج (الكفر) وأهله وقبوله كدين ودأب مستمر لهم وهم المنافقون والضعفاء في الإيمان الذين يرتدون بأدنى شيء يخالف مشربهم لضعف عقولهم وإدراكهم (إنهم لن يضروا الله شيئا) بسبب مسارعتهم فيه وإنما يضرون بها أنفسهم (يريد الله أن لا يجعل لهم حظا في) دار (الآخرة) لمعنى تبين من أحوالهم هذه إن الله أراد أن لا يجعل لهم حظا فيها (ولهم عذاب عظيم) لمسارعتهم في ذلك • ثم أكد على معنى مامرّ بقوله الكريم : (إنّ الذين اشتروا الكفر) وهي متاع مؤقت فاسد كاسد بنقد الإيمان الموجود عندهم وهو شيء خالص" متقوم خالد (لن يضرّوا الله شيئاً) من الأضرار (ولهم عذاب أليم) لأنهم بدلوا سبب النعيم المقيم بسبب السخط من ربهم الرحيم

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم) وأن إمهالنا لهم في الإنتقام (خير" لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) لغباوتهم وغفلتهم وغرورهم بالإمهال الوقتي (ولهم) في الدنيا أو في الآخرة إذا جاء دور الإنتقام منهم (عذاب" مهين) •

(ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ على ما أنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلكِنَّ الله يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وإنْ تُؤْمِنُوا وتَتَّقُوا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيمٌ)(١٧٩)

قال السدي : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (عُرِضت عليّ أمتي في صورها كما عرضت على آدم ، واعلمت من يؤمن لي ومن يكفر) فبلغ ذلك المنافقين فاستهزؤا وقالوا : يزعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر به ونحن معه ولا يعرفنا ! فأنزل الله هذه الآية • ومعنى الآية : إذا كان الخطاب للمنافقين المستهزئين (وما كان الله ليذر المؤمنين) أي يتركهم غير مطلعين (على ما أنتم عليه) من الفساد والإفساد (حتى يميز) المنافق (الخبيث من) المؤمن الصادق (الطيب) بالوحي إلى رسوله أو بالحوادث الشاقة التي يخوضها الصادق ويرفضها المنافق • وإذا كان الخطاب لعامة الناس مخلصين ومنافقين : لا يذركم ولا يترككم مختلطين لا يتميز المخلص من المفلس حتى يميز الثاني من الأول بما ذكرنا (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) جميعا حتى يميز كل منكم الفريقين بعضهم من بعض (ولكن الله يجتبي ويختار من رسله من يشاء) لإعلامه بالوحي، فيطلع على ما في القلوب من إيمان وكفر وسلامة وعيوب (فآمنوا بالله ورسله) أيها المنافقون ولا تكفروا بخاتم الأنبياء والمرسلين • أو آمنوا بهما واثبتوا

على الإيمان السليم (وإن تؤمنوا) كما أمرتم (وتتقوا) كما أخبرتم (فلكم) جميعا (أجر عظيم) .

(ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بما آتيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ، بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ وللهِ مِيراثُ السَّماواتِ والأَرْضِ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(١٨٠)

قال جمهور المفسرين : إنها نزلت في مانعي الزكاة . وروى عطية عن ابن عباس أنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبوته . وأراد بالبخل كتم العلم الذي آتاهم الله تعالى .

وإعراب الآية على قراءة يحسبن (للغائب المذكر) إن الموصول مع صلته فاعله ومفعوله الاول وهو البخل محذوف بقرينة الصلة ، وهو ضمير الفصل ، وخيرا مفعوله الثاني . وعلى قراءته للمخاطب المذكر إن الموصول مع صلته مفعول أول والباقي كما ذكرنا .

ومعناه : (ولا يحسبن الذين يبخلون) بصرف (ما آتاهم الله من فضله) على الوجه المشروع وهو إعطاء الزكاة للمستحقين وإطعام الفقراء البائسين ، وإكرام الضيوف الواردين والإنفاق المعتدل على الأهلين بخلهم بذلك (هو خيراً لهم) ، (بل هو) أي البخل (شر لهم) في الدارين باستجلاب العار والنار، ومنجملة الشر الوارد عليهم انهم (سَيُطَوَّقُونَ ما بخلوا به يومَ القيامة) علاوة على الخزي والعار في الدنيا وساعة الحساب بين يدى الله سبحانه وتعالى (ولله ميراثُ السماوات والارض) فكل ما ينتفع به عادة من العوالي والسوافل يتركه صاحبه ومالكه الإعتيادي ويعود الى الله كما كان . فعلى أي دليل ومبرر يبخل الناس بشيء يخرج من

أيديهم ان عاجلا أو آجلا ؟ (والله بما تعملون) مما تطيعون الله به أو تعصونه به (عليم) فيجازيكم عليه .

(لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ، سَنَكْتُبُ ما قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ : ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)(١٨٢)

قال الحسن وقتادة : لما نزل قوله تعالى (مَنْ ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ؟) قالت اليهود : إن الله فقير يستقرض منّا ! فنزلت الآية . وقال ابن إسحاق وغيره : كتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابا إلى يهود بني قينقاع وأعطاه أبا بكر يدعوهم فيه إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وان يقرضوا الله قرضا حَسَنا . فدخل أبو بكر الصديق ذات يوم بيت مدراس اليهود ، فوجد أناسا كثيرين من اليهود قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له : (فنحاص بن عازوراء) وهو من علمائهم وأحبارهم . فقال ابو بكر لفنحاص : إتق الله وأَسْلِم ، فوالله إنك لتَعلَم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة ! فآمِنْ وصَدِّق وأَقرِضِ الله قرضا حسنا يُدْخِلْكَ الجنةَ ويضاعِف لك الثواب . فقال فنحاص : يا ابا بكر تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا ، وما يستقرض إلا الفقير من الغني ، فإن كان ما تقول حقا فإن الله إذا لفقير ونحن أغنياء ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا ، انه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا ! فغَضِبَ ابو بكر وضَرَبَ وجه فنحاص ضربةً شديدة . وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله . فذهب فنحاص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال :

يا محمد أنظر إلى ما صنع بي صاحبك فقال رسول الله لأبي بكر : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ! زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فغضبت لله مما قال ، وضربت وجهه . فجحد ذلك فنحاص . فأنزل الله الآية ردا عليه وتكذيبا له وتصديقا لأبي بكر . رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه . والتفسير لقوله : (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء) لاشك أن الله سمع قول فنحاص بن عازوراء ورهطه أن الله فقير محتاج يطلب القرض منا ونحن أغنياء ولا نحتاج إلى قرضه (سنكتب ما قالوا) سنحفظ ما قالوه عليهم حتى نحاسبهم عليه في الآخرة (وقتلهم الأنبياء بغير حق) يعني أن القائلين بذلك القول الفاسد اليوم كان أجدادهم من الذين قتلوا جمعا من الأنبياء وهم معصومون بلا ذنب وجريمة (ونقول لهم : ذوقوا عذاب الحريق) الشديد (ذلك) العذاب (بما قدمت أيديكم) من الجرائم (وأن الله ليس بظلاّم للعبيد) كما يزعم الكفار أنه ظلاّم ، أو ليس ينسب إليه الظلم ؛ لأن الظلم هو التعدي على حقوق الغير ولا شيء من الكائنات الا وهو عائد إليه تعالى .

(الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ : قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)(١٨٤)

نزلت في شرذمة من اليهود : كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وحيي بن أخطب وفي آخرين ... أتوا رسول الله فقالوا : تزعم أن الله تعالى

بعثك إلينا رسولا ، وأنزل عليك كتابا ، وأن الله قد عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله تعالى حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدقناك ! فأنزل الله الآية . ذكره الواحدي والبغوي وغيرهما .

التفسير : (الذين قالوا) من اليهود (إن الله عهد إلينا) أي أمرنا على لسان موسى أو أوصانا في التوراة (ألا نؤمن لرسول) ألا نصدق برسالة أي رسول يأتي إلينا (حتى يأتينا بقربان) وهو ما يتقرب به إلى الله فيقوم النبي فيدعو ربه فتنزل نار من السماء فتحيل ذلك القربان إلى النار . قل يا حبيبي : أولا هذا الذي تدعونه من عهد الباري إليكم واشتراطه تصديقنا بأي رسول من الرسل الذين يأتوننا بما ذكرتم إفتراء على الله ، ولم يعاهدكم بشيء كذلك ، لأن وسيلة تصديق الرسول إظهار المعجزة على يده أيّ شيء كان وليس منحصرا في قربان تأكله النار . وعلى فرض صدقكم فيه (قل) لهم : (قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) من القربان (فلم قتلتموهم) واخلفتم العهد (إن كنتم صادقين) في دعواكم ذلك العهد المذكور ؟

(فان كذبوك) فلا تهتم بتكذيبهم (فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات) أي المعجزات الواضحات الباهرات . (والزبر) جمع زبور وهو كتاب مقصور على الأحكام (والكتاب المنير) أي الواضح المستنير .

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(١٨٥)

هذه الآية الكريمة من مهمات الآيات الإرشادية ، ويرشد بها كل إنسان في أي مستوى كان . فإنه إذا كان غافلا ينتبه بذكر الموت ، وإذا كان يقظا

عاقلا يعتبر به ، وإذا كان عاصيا فربما يرجع عن غيه ، وإذا كان مطيعا وافيا إزداد فيه الميل والرغبة في لقاء ربه ، فيؤثر ذكر الموت في كل شخص على أي حال وبال •

وفي الخبر : أكثروا ذكر هاذم اللذات فإنه ما ذكر في كثير إلا قلله ، ولا في قليل إلا وكثره • فإن العلم بأن وراء هذه الدار داراً أخرى يتميز فيها المحسن عن المسيء ويرى كل منهما جزاء عمله مما يُطَوِّرُ العالمَ من حال الى حال • وفي الوقت عينه فيه تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ معناها إنك بأعيننا وفي مظهر رعايتنا وجميع أعمالك وصبرك على أذى أعدائك وتجرع مرارات أعمال المنافقين وأقوالهم معلومة لدينا ، وعلى كل فالجزاء لك والمثوبة الحُسنى تعود إليك في دار الآخرة ، وكل نفس ذائقة الموت ومسافرة إليها ، وللآخرة خير لك من الأولى ، فإن تلك الدار مدار توفية الأجور بكاملها ، ومحصول الأعمال وحاصلها ، وكذلك فيها وعيد للكافرين معاندين مجاهرين أو منافقين مُسِرين •

والمراد بذوق الموت : حصوله وحلوله وإصابة الحي حرارة الموت ومرارة زهوق الروح • والموت : عبارة عن إنتهاء أمد الحياة التي قدرت وقررت في علم الله تعالى ، سواء كان بدون عروض النوائب والمصائب الخارجية كأن يحصل للحي حتف أنفه ، أو بعروضها أيا كان • وعلى ذلك تقرر عند الجمهور أن المقتول ميت بأجله ، لأن أجله هو آخر ثانية من ساعات الحياة المعلومة عنده تعالى ولا تبديل لعلمه • وأما وجوب حذر الحي عن الموت وأسبابه فإنما هو للتكليف بالسلوك على المنهج المعقول في إدامة الحال وسلامة البال لا لأنها بغير القضاء والقدر ، ولا فرار عن قضائه • وأما إثم القاتل فلأن الله تعالى علم أنه باختيار الجناية على المقتول إرتكب جناية على نفس معصومة فكل شيىء جار على سنة مقررة ومنهج محرر •

ثم هذا الحكم المقرر بهذه الآية حكم كلي فإذا أخرجنا الملائكة من ذوات النفس فهو باق على كليته وإذا أدخلناها فيها وجب تخصيصه بما عداها ، لقوله تعالى : (فصعق من في السماوات ومَن في الارض إلا من شاء الله) ولدوام الجنة وأهلها ، وبقاء الملائكة فيهما للوفاء بواجب الدارين. ومن أراد مزيد إطلاع فليراجع التفاسير الكبيرة .

وتفسيرها : (كل نفس ذائقة الموت) أي الموت نازل عليها لا محالة ، فكأنها ذائقته يعني ليست الدنيا دار الخلود ولا حياتها حياة خالدة ، والعبرة بالأعمال وجزائها (وإنما توفون أجوركم) أي تُعْطَونَ فَتُعْطَونها (يَومَ القيامة) يعني وقت البعث والقيام من القبور والحساب والميزان وتعيين دار الجزاء حسب حكم الله المنان (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أي فمنْ بعد عن نار جهنم وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة ونجا . وأصل الزحزحة تكرير الزح وهو الجذب بعجلة . والمراد هنا لازمها وهو البعد من النار . وأصل الفوز الظفر بالمطلوب ونيل المحبوب . أخرج أحمد ومسلم عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

(وما الحياة الدنيا) ولذاتها وزيناتها لمن آثرها على الآخرة (إلا متاع الغرور) لمن اغتربها . وأما من آثرها على الكسل والبطالة فيها وفي الوقت نفسه أراد بها خدمة الآخرة وجعلها مزرعة لها فهي له متاع السرور والسعادة في الدارين . وفي الخبر : نعم المال الصالح للرجل الصالح . لأنه يصرفه في المنافع والمصالح . اللهم اجعلنا من العادلين المعتدلين ولا تجعلنا من الفاسقين المتسولين . برحمتك يا أرحم الراحمين .

(لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أذىً كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)(١٨٦)

عن ابن عباس : قال : نزلت فيما كان بين أبي بكر الصديق وفنحاص اليهودي من قوله إن الله فقير ونحن أغنياء • أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر • وعن الزهري أنها نزلت في كعب ابن الأشرف فيما كان يهجو به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه من الشعر ويؤلب عليهم في شعره كفار قريش • أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر •

والتفسير : (لَتُبْلَوُنَّ) جواب قسم محذوف أي والله (لتبلون) ولتختبرن بمعنى أنكم تعاملون من الله معاملة المختبر لمن يختبره (في أموالكم) بالتعب في تحصيلها من الوجه الحلال ، وفي رعايتها وصيانتها في كل حال ، وفي فنائها أو نقصها بالجوائح ، وبإيجاب أداء حق المستحقين فيها (وفي أنفسكم) بالأمراض والجروح والأسر والقتل (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أي من قبل ظهور دوركم ونصركم في العالم الاسلامي ، وهم اليهود والنصارى الذين أتوا بما أمكنهم من المعارضة والمقابلة باطنا وظاهرا بالقول والفعل والشقاق والنفاق والحرب (ومن الذين أشركوا) أي من كفار العرب (أذى كثيرا) من الطعن في الدين وايذاء من دخل فيه وتحقيره وتعذيبه بما تمكنوا منه والإستعداد لحربكم وإبادتكم (وإن تصبروا) على ما نلتم منهم وتحملتم ذلك لله (وتتقوا) وتمسكوا بتقوى الله وطاعته (فإن ذلك) المذكور من الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أي من الأمور المهمة التي تليق أن يعزم عليها •

(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرونَ)(١٨٧)

واذكر إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب على لسان رسلهم (لتبيننه للناس) جواب ميثاق لتضمنه القسم • أي لتبينن ما في الكتاب من نعت الرسول وأصحابه المنطبق عليهم بحيث لا يبقى لأحد مجال الشبهة فيهم (ولا تكتمونه) عن أحد (فنبذوه) أي طرحوا ما أخذوا من العهد والميثاق (وراء ظهورهم) فلم يراعوه كأنه شيء لا قيمة له (واشتروا به) أي بالكتاب الذي أمرهم الله ببيانه (ثمنا قليلا) لتلك الأمانات وهم مستمرون على الإستمرار في آدابهم المشؤمة وأعمالهم المعلولة المعلومة (فبئس ما يشترون) أي فبئس شيئا يشترونه ذلك الثمن القليل الذي لا قيمة له إزاء ما أعده الله لهم على تقدير الإسلام •

والحاصل أن أهل الكتاب بالرغم من أخذ الميثاق منهم على أداء أمانة العلم وبيان الواقع حسب كتابهم خانوا الله ورسوله وكتموا ما عندهم من العلم ، فاصبر يا حبيبي واصبروا أيها المؤمنون على ما نلتم منهم من الأذى والأضرار حتى ينتقم الله منهم وهو سريع الحساب •

(لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا ، فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ(١٨٨) ولله مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(١٨٩)

كان مروان بن الحكم بن العاص أميرا على المدينة من قبل معاوية ، فأرسل بَوّابَهُ إلى حَبْرِ الأمّة عبدِ اللهِ بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ ،

وقال له : اذهب إلى ابن عباس وقل له : إن كان كل امرىء منّا فرح بما أوتي وأحبّ أن يُحمَد بما لم يفعل معذبا لنعذّبن اجمَعُون • فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه إنما أنزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا • وَقَد أرَوْه أن قد أخبرُوه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ورجعوا وفرحوا بما أتوا من كتمان ما سألهم عنه•أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وغيرهم •

والخطاب في الآية الكريمة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إذا فتحنا الباء ، وأما على قراءة الضم فالفعل لجمع المذكر المخاطب والخطاب له وللمؤمنين أي لا تعتقدوا أهل الكتاب الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس والتشويه والتحريف ، وكتم الحق ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق والإخبار بالصدق فائزين بالنجاة من العذاب يوم القيامة، بل لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب أليم ، لأنهم كفار مدلسون وأناس كاذبون •

(ولله ملك السماوات والارض) فهو القاهر فوق عباده والقادر على تطبيق مراده والناصر لرسوله والكاسر لأهل عناده (والله على كل شيء قدير) فيقدر على مجازاة الأخيار والأشرار وهو بكل منهم خبير •

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي

لِلإيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وآتِنَا ما وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، ولا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؛ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وأوذُوا فِي سَبِيلي وَقَاتَلوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، ثواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)(١٩٥)

والتفسير : (إن في خلق السماوات والأرض) وإبداعهما من العدم الصّرف وإنشائهما على ما هما عليه من العجائب وتزيين السماوات بالكواكب وخلقها على اختلاف الحركات والأضواء والمراتب والآثار المتنوعة الناشئة منها فجعل السماوات كموج مكفوف وجعل بعضا منها ثابتة فيها وبعضها متحركة تسبح فيها • وجعل لها في سباحتها ميزانا خاصا ثابتا لا تزيد ولا تنقص، وجعل من غياب ألمَعِها أعني الشمس عن أية بقعة ظلماتٍ مستوعبةً يسمى زمانُها بالليل ومن ظهورها عنها أنواراً شاملة يسمى أوانُها نهاراً وجَعَل بحسب آفاق العالَمَين المختلفة (واختلاف الليل والنهار) فيها طولا وقصرا ومُتعاقبَة كل منهما الآخر بلا انفصال وانقطاع ، وفي خلق الماء مع التراب على تجاذب خاصّ ودورانٍ مستمر وفي تزيين الارض بالجبال والصحارى والوهاد والوديان والتلال والعيون المتفجرة النابعة والشلالات المنحدرة من الأعالي وفي البحيرات والانهار والاشجار المختلفة المثمرة وغيرها، والأوراد المتنوعة المختلفة الألوان والعطور وخلق الإنسان والحيوانات من

السباع والوحوش والطيور والبلابل المغردة على الأزهار وفي المعادن المودعة فيها من السيالة وذات القرار، وما في البحار من الحيوانات النفيسة والأسماك الطرية والجواهر والدراري الصغار والكبار وما أودع في المعادن والناميات والإنسان والحيوان من الآثار والأسرار والحكم التي يقصر عن ضبطها العقول والأنظار (لآيات لأولي الألباب) أي لدلائل قطعيات وبراهين واضحات على وجود الصانع الموصوف بالكمال المنزه عن النقص العادل في الأحكام المرسل للرسل إلى الأنام لتبليغ العقائد والأحكام ، ورعاية العدالة في الحقوق وانتباه المكلف للشعور بالمسئولية الثابتة عليه عند البعث واللقاء والحساب يوم ميزان الاعمال الصادرة عنه على مر الأيام •

ثم أفاد الباري تعالى أن تلك الآيات البينات إنما تظهر لأولى الألباب أصحاب العقول السليمة عن الأغراض والأوهام ، وهم (الذين يذكرون الله) سبحانه وتعالى (قياما وقعودا وعلى جنوبهم) أي يؤدون الصلوات الخمس المفروضة قياما في كمال الصحة ، وقعودا عند اختلالها بحيث لا يقدر على القيام فيها ، وعلى جنوبهم إذا اشتد المرض عليه ، أو جاءه عرض مانع عن أدائها بغير ذلك • أو المراد يذكرون الله تعالى في قرارة قلوبهم في تلك الأحوال كلها ويذكرونه على اللسان فيها بقدر الإستطاعة والإمكان • أو ينوي بجميع أعماله إرضاء ربه وإطاعة أمره ولو كان مشتغلا بتحصيل الرزق أو بعلم من علوم الدنيا أو الآخرة أو بسائر المكاسب ما دام يريد بها وجه الله ، فإن كل ذلك يعد له طاعة وذكرا وسعادة وشكرا • ويدل على الأوجه الثلاثة أدلة قال عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين : « صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب تومي إيماءً » وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله » وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرء

ما نوى » الحديث فإذا نوى الرجل بكسب المال تحصيل الرزق الحلال للقوة على إطاعة الملك المتعالى ، وبالتزوج التعفف وسلامة البال ، وبالمنام إستراحة لاستعادة القوة على الأشغال .. فهو دائما ثابت على ذكر الباري على طول الليل والنهار . وجاء بصفة أخرى لأولي الألباب فقال : (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) إستدلالا واعتبارا ونظرا فيآثار قدرته وفيوضات نعمته وسعة رحمته كما هو الواقع حتى لا يغفل عن الباري وصنعته وحكمته . فإن ذلك التفكر لا ينبع إلا من عقل سليم ولب وخلاصة للإدراك . وهذا الطور من أحوال الانسان فوق الأطوار ، وهو أفضل العبادات كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا عبادة كالتفكر » وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال : أشهد أن لك ربّاً وخالقاً ، أللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له » .

والحاصل : إن أولي الألباب هم الذاكرون المتفكرون القائلون : (ربنا ما خلقت هذا) الكون العظيم العجيب الممتلىء بالحكمة والسر الرهيب ما خلقته (باطلا) خاليا عن الحكمة ، عبثا عن الفوائد (سبحانك) من العبث وخلق الباطل وتنزيها لك (فقنا عذاب النار) واحفظنا في الدنيا من شر الأشرار (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) يوم القيامة عند الأخيار وجعلته من الظالمين (وما للظالمين منأنصار.ربنا إننا سمعنا مناديا) أي رسولا هاديا (ينادي) المكلفين لقبول الإيمان حتى يدخلوا في دائرة السلامة والأمان (أن آمنوا بربكم) أي ينادينا ويأمرنا وتفسير أمر أن آمِنوا برَبكم فقبلنا نداءه واستجبنا دعاءه (فآمَنا) بذاتك وصفاتك وبرسلك وآياتك ورجونا نيل هباتك (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) كبائرها (وكفر عنا سيآتنا) صغائرها وأحينا مع الأخيار (وتوفنا مع الأبرار) بحضورهم عندنا عند ضيق

الصدور وقربهم منا في دفن القبور (ربنا وآتنا ما وعدتنا على) ألسنة (رسلك) المختومين بخاتمهم الهادي إلى أقوم سبلك (ولا تخزنا يوم القيامة) بعذاب على ما يوجب الندامة (إنك) وعدتنا بإثابة المؤمنين وإجابة المضطرين من العباد (وإنك لا تخلف الميعاد) •

(فاستجاب لهم ربهم أني) أي بأني (لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) بالمناسبة والمصاهرة والعلاقة في الأرض ثم بين نوع عمل العامل وقال : (فَالذينَ هاجَروا وأخرجوا مِنْ دِيارِهم) المستوطنة المألوفة (وأوذُوا) بأنواع الأذَى (في سبيل) مرضاتي وإعلاء كلمتي (وقاتلوا) الكفار فقَتَلوهم (وقُتِلوا) بأيديهم (لأكَفِّرَنّ عنهم سيئآتهم ولأدخلنهم جَنات ٍ تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب) وحسن المآب •

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَرُوا في البِلادِ(١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ)(١٩٨)

(لا يغرنك) الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد أمته • روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله فيما نرى من الخير ، ونحن قد هلكنا من الجهد والجوع فنزلت: (لا يغرنك) يا حبيبي أنت ومن معك ومن تبعك الى يوم الدين (تقلب الذين كفروا في البلاد) في النعم واللذائذ من المسكونات والمأكولات والمشروبات والملبوسات وتناول الملذات وتعاطي الشهوات ، ذلك (متاع

قليل) لا يغتر به إلا الجاهل العليل (ثم مأويهم) المؤبد (جهنم وبئس المهاد) الذي مهدوه لأنفسهم لاستقرارهم فيه في دار الخلود (لكن الذين اتقوا ربهم) بمعاني التقوى (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) حالكون ذلك المختص بهم (نزلاً) مُهَيأً لهم (من عند الله) الكريم (وما عند الله خير للأبرار) في دار النعيم •

(وَاِنَّ مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا اُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا اُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً أولئِكَ لَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ اِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ (١٩٩) يا اَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِروا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٢٠٠)

قوله تعالى : (وإن من أهل الكتاب) الآية نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه • وقيل : في أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى • وقيل : في أصحمة النجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فخرج فصلى عليه • فقال المنافقون : انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قطُّ ! وكانت وفاته في رجب سنة تسع من الهجرة ـ رحمه الله ـ •

والمعنى (وإن من أهل الكتاب) اليهود والنصارى (لمن يؤمن بالله) وحده لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (وما أنزل إليكم) من القرآن العظيم الجليل (وما أنزل إليهم) من التوراة والإنجيل حالكونهم (خاشعين لله) مطيعين لأحكامه (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) أي لا يأخذون بسبب تحريف آيات الله في التوراة والإنجيل ثمنا قليلا في جنب ما يضيعونه (أولئك) الموصوفون بهذه الصفات (لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) لجزاء الأعمال لا يغيب عنه شيء • (يا أيها الذين آمنوا)

حق الإيمان الكامل (اصبروا) واحبسوا أنفسكم على الجزع مما ينالها في الإمتناع عن المحرمات والإمتثال للواجبات ، وفيما يصيبها من الأذى من الأعداء والكفار المعاندين والمنافقين قولا وفعلا سرا وجهرا ، وحولوا الأمور إلى الله ، إنه بصير بكم وبسائر العباد (وصابروا) في الحرب عند مقابلة الأعداء الكفار المعاندين والمنافقين قولا وفعلا سرا وجهرا ، وحولوا الأمور والقتل وغيرهما ، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون (ورابطوا) أي أقيموا في الثغور والحدود القريبة من أراضي الكفار رابطين خيولكم فيها مترصدين للجهاد في سبيل الله . فعن سهل بن سعد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » (واتقوا الله) في مخالفة أمره على الإطلاق (لعلكم تفلحون) أي لكي تظفروا بنيل المرام في الدنيا ويوم لقاء الله العلاّم .

سورة النساء مدنية ، وآياتها ١٦٧ ، نزلت بعد سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ ، وَالأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)(١)

هذه السورة مدنية على الصحيح كما لا يخفى على من راجع أسباب نزول آياتها • ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت:ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده ــ صلى الله عليه وسلم ــ• وبناؤه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بها كان بعد الهجرة إتفاقا•قوله تعالى:(يا أيها الناس) خطاب شامل يعم المكلفين من لدن نزولها إلى يوم القيامة الذكور منهم بالإتفاق ، وأما الإناث ففي دخولها فيه خلاف • والحق الدخول لأنه لو لم تدخل الإناث في ذلك لما شاركن في الأحكام لثبوت أكثر الأحكام بمثل هذه الصيغة فيجب دخولهن ، فإن لم يكن بحسب اللغة كان بحسب إعتبار التغليب كشمول الأبوين للأم ، والقانتين للقانتات فصار الحاصل : (يا أيها الناس) رجالا ونساء مكلفين ومكلفات (إتقوا ربكم) أي إحفظوا أنفسكم من مخالفة تكاليف ربكم (الذي خلقكم من نفس واحدة) يعني آدم أبا البشر على نبينا وعليه السلام (وخلق منها) أي من ضلع من أضلاعه في الجانب الأيسر كما ورد به الخبر (زوجها) حواء أم الآباء والأمهات (وبث منهما) أي ونشر من تلك النفس وزوجته المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة صرن (رجالا كثيرا ونساءً) وحصل بذلك أواصِرُ الإرتباطِ الخلقي بينكم

فكانوا إخوة وأخوات ، فأعماما وعمات ، وأخوالا وخالات ، وأجدادا وجدات ، وابتعدت بمرور الأيام على التناسل حتى صار بعض الناس من الأجانب المهجورين ، وبعضهم من الأقارب البعيدين ، وبعضهم من الأقارب القريبين . فلوحظ الأرحام بين بعضهم مع بعض ، دون ذلك البعض مع الآخرين . فصرتم إذا صار بينكم تمنيات وترجيات واقتضاء خير من إحدى القرابات تساءلون بينكم وتقولون بحق الله ومحبة الرحم ساعدني في ذلك أو اعطني ماهنالك . وعليه قال تعالى : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أي اتقوا مخالفة نظام الله الذي يسأل بعضكم بعضا بحقه كما يسأله معه بالرحم فيقول له أسألك بالله تعالى وبالرحم . هذا إذا كان الأرحام عطفا على الضمير المجرور بدون إعادة الجار بناء على جوازه . وإذا كانت عطفا على لفظ الجلالة فالمعنى اتقوا الله وصونوا أنفسكم عن مخالفته ، واتقوا الأرحام أي صونوا أنفسكم عن قطع علاقة الأرحام فإنها غريزة خلقها الله تعالى في العالم للتوادد والتراحم ، فقطها قطع المحبة ولقطعها سوء المغبة . (إِنَّ اللهَ كانَ عليكم رَقيباً) حافظا مُطَّلعاً فيجازي القاطع لها بالقطيعة والواصل لها بالدرجة الرفيعة .

وَآتُوا اليَتَامى أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ، وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً)(٢)

عن سعيد بن جبير أن رجلا من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخٍ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب ماله من عمه فأبى أن يُعطيه إياه ، فترافعا إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزلت الآية فسمعها العم قال : أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير . ثم دفع لابن أخيه ماله . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يوق شُحَّ نَفْسِهِ ، ويُطع ربَّه يُدْخِلْه جنَّتَه » أخرجه ابن أبي حاتم .

أ ٓأتـوا فعل أمر من باب الإفعال لجمع المذكر المخاطب، وأصله أ ٓأ ْتـِيـُوا بهمزتين همزة المجرد وهمزة باب الإفعال فخففوا الثانية بقلبها ألفا ، واستثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى ما قبلها ، وحذفت الياء لإلتقاء الساكنين فوزنـه أفـْعـُوا • واليتامى جـُمع يتيم • وموزون فعيل وصفا لا يجمع هذا الجمـع وإنما يجمع على فعال ككريم وكرام ، أو فـُعـُلٍ كنذير ونـُذُ ر ، أو فـَعـْلى كمريض ومـَر ْضى • لكن لما تشرب اليتيمُ معنى الإسمية لأنه الذي مـات أبوه وانفرد عنه وصار إسما لهذا الصنف من الاولاد شبه بفارس وصاحب الصائرين اسماً ، فجمع هذا الجمع • فقالوا : يتامـِى بكسر الميم كصواحب وفوارس ، ففتحت الميم للتخفيف وقلبت الياء ألفا ، فصارَ يتامى • أو لأنه لما أ َخـَذَ اليتيمُ معنى الذل والإنكسار وصار من أفعال الآفات جـُمـِعَ أولا على يـَتـْمى كأسير وا َسْرى ، ثم جـُمع يتمى على يتامى، فهو جمع الجمع •

وتـَتـَبـَدلوا : بمعنى استبدلوا • وتدخل على المأخـوذ • والحـُوبُ الذنب الكبير • والحكم مقيد بإيناس الرشد فيهم حين البلـوغ وبعـده • لقوله تعالى : (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم اموالهم) فيكون لفظ اليتامى مجازا باعتبار ماكانوا عليه في الماضي • ومعنى الخبيث المختزل الذي لا قيمة له كالعتيق في مقابل الجديد والهزيل في مقابل السمين •

والمعنى : يا أيها الأولياء للصغار أو يا أيها الحكام في الديار ، أعطـوا الرجال الرشداء الذين كانوا يتامى في الماضي القريب أموالهم التي كانت تحت حيازتكم وإدارتكم ، ولا تستبدلوا الخبيث الحقير مـن أموالكم بالطيـب الجليل من أموالهم أي لا تعطوهم الحقير الضئيل بـدل الكبير الجليل ولا تظلموهم بذلك • (انه) ان هذا الإستبدال (كان حوبـا كبيراً) أي ذنبـا كبيرا من الكبائر •

(وإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا في الْيَتَامى فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ، فَإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أوْما مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ ذلِكَ أدْنى ألاَّ تَعُولُوا)(٣)

سأل عروة بن الزبير خالته عائشة أم المؤمنين عن هذه الآية ، فقالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها يشركها في مالها ويعجبه مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها من غير أنْ يُقْسِطَ في صداقها ، فيُعْطيها مثلَ مايُعطيها غيرُه ، فنهوا أن ينكحوهن إلاَّ ان يُقسطوا لَهُنَّ ويبلغوا بهن أعْلى سُنَنتهن في صِداقهن وأمروا أن ينكحوا ما طابَ لهم من النساء سِواهن •

وروي أنه تعالى لما عَظَّمَ امر اليتامى تحرجوا من ولايتهم وما كانوا يتحرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت •

ومعنى الآية الكريمة على الاول : (وإن خفتم أن لا تقسطوا) ولا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن فاتركوا ذلك (وانكحوا ما طاب لكم من النساء) من غيرهن • وعلى الثاني : (وإن خفتم أن لا تقسطوا) في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضا أن لا تعدلوا بين النساء وانكحوا مقداراً يمكن لكم الوفاء بحقوقهن مما طاب لكم وحسن عندكم من النساء (مثنى وثلاثَ ورُباع) يعني ثنتين ثنتين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة • هذا إذا أمكنكم الوفاء بحقوقهن ورعاية العدل في القَسْمِ بينهن • وإن خفتم ألا تعدلوا بينهن فانكحوا واحدة من الحرائر فقط أو باشروا ما ملكت أيمانكم بالغةً ما بلغت من العدد لخفة مؤنتهن ، وعدم وجوب القَسْمِ لأنهن مملوكات لسادتهن ولسن كالحرائر المنكوحات في الأحكام ،

وليست مباشرتهن من جانبهم موقوفة على النكاح ، بل الملك قائم مقامه ، وذلك إذا لم يكن من المحارم كالأخوات والبنات والخالات والعمات •

وأساس الموضوع هو أنه كان عادة مستمرة في العالم من فجر التأريخ إلى عهد بعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الأمَمَ المتحاربة إذا غلبت إحداها الأخرى إسترقت الامة الغالبة المغلوبة وسبت نساءها وذراريها واسترقت رجالها واستعبدتهم•وانتشرت هذه العادة في كافة أقاليم الارض ولما جاء الاسلام لم يمكن إزالة هذه العادة بالاستعجال ، ولكنه قرر الإسلام رعايتهم والإنفاق عليهم والرحمة في تشغيلهم في الاعمال • فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إخوانكم خَوَلَكُم (أي عبيدكم) أطعموهم مما تَطْعَمُون ، واكْسوهم مما تكسُون ، ولا تُكلفوهم فوق ما يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » • وقد شرع الإسلام نحوا من ثلاثين أصلاً لإعتاقهم وإطلاق سراحهم ومعاملتهم أحرارا ، من : الإعتاق في كفارة الأيمان ، والظهار ، والوقاع في رمضان ، وكفارة القتل والكتابة ، والتدبير ، وصيرورة الجارية أمّ ولد بمباشرة السيد وإيلادها وبتملك اي مسلم لأصله أو فرعه ، وكان تملكهن بعد الإستيلاء موقوفا على التقسيم من جانب السلطان أو نائبه للغنائم بين المحاربين فمن اعطى جارية أو جواري تملكها وتفصيل الموضوع في كتاب السير من الفقه يراجعه من أراد •

ثم يقول الله : (ذلك) المذكور من التقليل من النساء أو إختيار الواحدة أو مباشرة الجواري (أدنى أن لا تعولوا) أقرب وأنسب بعدم الميل والجور منكم ، فإن الحائر أَحْسَنُ من الجائر عصمنا الله من الجور في حقوق المسلمات والمسلمين •

(فوائد) : الأولى • هذه الكلمات أعني مثنى ، وثلاث ، ورباع ممنوعة من الصرف على الصحيح • وفي سبب منعها أقوال : الاول : وهو مذهب سيبويه والخليل أنه العدل والوصف وأورد عليه أن الوصفية في أسماء العدد عارضة وهي لا تمنع الصرف • وأجيب بأنها وإن كانت عارضة في أصولها لكنها نقلت عنها بعد ملاحظة الوصف العارض فكان أصليا في هذه وعارضا في أصولها • الثاني : وهو مذهب الفراء أنه العدل والتعريف بنية الألف واللام ولذا لم تجز إضافتها ولا دخول أل عليها • والثالث : أنها معدولة عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة • فعدلت عن ألفاظ العدد وعن المؤنث إلى المذكر ففيها عدلان ، وهما سببان •

الثانية : أنها منصوبة على الحال من فاعل طاب وهو ضمير ما ، ويعلم منه جواز الحالية منها • وجوز العلامة كونها حالا من النساء على تقدير جعل من بيانية • وذهب أبو البقاء إلى تقدير كونها بدلا من ما •

وهذه الألفاظ إذا كانت أحوالا افادت تقييد العامل بها ، فيكون معناها الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ماشاء من العدد المذكور سواء كانوا متفقين فيه بأن ينكح كل منهم زوجين أو ثلاث زوجات أو أربع زوجات أو مختلفين فيه بأن ينكح بعض" منهم ثنتين ، وبعض" منهم ثلاثا ، وبعض منهم أربعا • ولو إقتصر على واحد منها أفاد وجوب إقتصار كل على ذلك العدد بأن يتزوج كل من أراد الجمع ثنتين لا أزيد ، أو ثلاثا لا أزيد ، أو أربعا فقط • وكذا إذا ذكرها مع أو° بأن يقول : مثنى ، أو ثلاث ، أو رباع • وذلك لأنها أحوال والحال قيد للفعل مَحـَطّ" للفائدة فيكون الحكم كما ذكرنا بخلاف ما إذا أبدلها بأسماء الأعداد بأن يقول ثنتين أو ثلاثا أو اربعا • وذلك لأنها لا تقع أحوالا بدون التأويل بالمشتق • وبعد التأويل لم يصح المعنى لأن المفاد حينئذ أنكحوا الطيبات حال كونها ثنتين أو ثلاثا أو أربعا ،

وليس من حال جميع الطيبات أن تكون ثنتين ولا أن تكون ثلاثا ولا أن تكون أربعا • ويظهر ذلك في قولك إقتسموا ألف دينار بينكم إثنين أو ثلاثا أو أربعا بخلاف ما إذا كرر العدد بأن يقول : إثنين إثنين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا • أو أتى بصيغة العدل كما في الآية ؛ فإن المقصود حينئذ التفصيل في حكم الإنقسام كأنه قال : فانكحوا ما طاب لكم مقسما إلى ثنتين ثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا • واقتسموا هذا المال الذي هو ألف درهم مقسما إلى درهم درهم ، واثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة • فالقول بأنه لا فرق بين إثنين ومثنى في صحة الحالية فاسد" لأن" كون َ إسم العدد حالا بلا تأويل في مقام المنع ، وعلى فرض التأويل ففهم الإنقسام ظاهر من لفظ مثنى لما فيه من معنى التكرار ، واثنين إثنين دون لفظ إثنين وحده اذ ليس فيه الا تكرار الواحد دون تكرار الاثنين • نعم لا فرق بين اثنين اثنين ولفظ مثنى في المعنى لكن الأول لفظان والثاني لفظ واحد فهو الموجز المناسب للكلام المعجز هذا •

الثالثة : أنه لما كانت تلك الألفاظ أحوالا ، والحال بيان لكيفية الفعل وتقييد له ، والقيد في الكلام الفصيح إحتراز عن مقابله • • أفادت الآية الكريمة أن الأمر بالنكاح مقيد بكونه على ذلك العدد لا أزيد منه ، فما ذهب إليه بعض من جواز نكاح تسع زوجات مندفع ، لأن من نكح خمسا لم يحافظ على معنى القيد مع النكاح لأنه تجاوز المأمور به فضلا عمن نكح ستا أو سبعا أو ثماني أو تسعا ، وهذا التقييد أحد الأدلة على عدم جواز تزوج المسلم أكثر من أربع زوجات •

الرابعة : لا يجوز للمسلم الزيادة على الأربع بأدلة : منها إفادة الأحوال المذكورة لمنعها كما ذكرنا • ومنها ما تواتر من أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن أسلم وتحته العدد باختيار أربع منهن

ومفارقة الزائد • ومن أولئك غيلان بن سلمة الثقفي • أسلم وتحته عشر نسوة • فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ :« أمسك أربعا وفارق سائرهن » فائتمر بأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ولم يظهر هناك مانع من الرضاع أو النسب أو غيرهما ، ومنها إجماع فقهاء الأمصار قبل ظهور البدع والأهواء على أنه لا يجوز الزيادة على الأربع • والمخالفات المنقولة إن صحت فهي من أهل البدع فلا إعتبار بها قطعا •

الفائدة الخامسة : أن الزيادة على أربع زوجات من خصوصياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد وقع الإجماع على ذلك ، وقد كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصائص من الواجبات والمحرمات والمباحات • ومن القسم الأول : وجوب صلاة الضحى ، وصلاة الوتر ، وصلاة الليل ، وركعتي الفجر ، والسواك ، والأضحية ، والمشاورة ومصابرة العدو ، وإن كثر عددهم ، وتغيير المنكر إذا رآه وقضاء دين من مات مسلما مُعْسِرا إلى غير ذلك • ومن القسم الثاني : حرمة الزكاة والصدقات عليه ، وكل ماله رائحة كريهة ، وحرمة نزع لامَتِهِ ، أي آلة حربه إذا لبسها حتى يقاتل أو يحكم الله تعالى بينه وبين عدوه ، وغيرها • ومن القسم الثالث : إباحة عقد النكاح منه في حال الإحرام ، وتزوجه أكثر من أربع زوجات • وقد تزوج ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمّ المؤمنين خديجة بنت خويلد في مكة المكرمة وعمره خمس وعشرون سنة ، ولما توفيت في الخمسين من عمره الشريف وتركت صبية صغارا تزوج ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك التأريخ سودة بنت زمعة ، وتزوج أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ في السنة عينها ولكن بنى بها بعد الهجرة إلى المدينة المنورة • وكان عمرها عند التزوج بها ست سنين وعند البناء بها تسع سنين • وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما في السنة الثالثة من الهجرة وتزوج أم

سلمة بنت أبي أمية في السنة الرابعة من الهجرة وعمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبع وخمسون سنة • وبها تمت الأربع زوجات له ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ومن ذلك التأريخ الى الثلاث والستين من عمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وزينب بنت جحش ، وزينب بنت خزيمة الهلالية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وجويرية بنت الحارث ، وصفية بنت حيَي • فقد إجتمع عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر من العدد المشروع لأمته من الزوجات ، ولكنها كانت لحكم ومصالح مختصة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ • منها : نشر عقائد الإسلام وفروع الأحكام بين النساء في العالم بواسطتهن • وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خذوا شطر دينكم من الحميراء » أي من عائشة • ومنها : السعي لتحصيل الألفة بينه وبين قبيلة زوجته ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يدخلوا في الإسلام فينصروه • ومنها : دفع النزاع على من تزوجها بين الخاطبين •

وهناك حكم اخرى تظهر للمراجع إلى كتب فقه السيرة • ومن نظر بعين البصيرة وصفاء السريرة علم أن الزيادة في عدد الزوجات عند الشيخوخة والضعف وكثرة المشاغل لا يعود إلى صاحبها بوجود الرغبة في المشتهيات النفسية قطعا ، على أن باب مصاحبة الجواري كان مفتوحا عليه وعلى غيره من الناس • ولو لم يكن الزواج للمصلحة الواقعية الدينية لاكتفى بما عنده من الزوجات أو أخذ عددا لا يستهان به من الجواري • وذلك ظاهر •

(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً)(٤)

روي أن أناسا كانوا يتأثمون أن يقبلوا من زوجاتهم شيئا فنزلت الآية• يعني واعطوا النساء اللاتي تزوجتموهن (صدقاتهن) أي مهورهن التي عقد

نكاحهن عليها (نحلة) وعطية لهن لا لأوليائهن • والخطاب للأزواج • وقيل الاولياء • (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا) بلا إكراه ولا إستحياء فخذوه وكلوه مأكولا هنيئا مريئا حلالا سائغا • وهما صفتان من هنؤ الطعام يهنؤ هناءة ومرؤ يمرؤ مراءة إذا ساغ في الحلقوم ولم يثقل على المعدة وانحدر عنها بسهولة •

(وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهم فيها ، وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً(٥) وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ ، وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كانَ فَقيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ، وكَفَى بِاللهِ حَسيباً)(٦)

السفهاء : جمع سفيه وهو في اللغة الخفيف العقل • ويشمل هنا الصبيان والمجانين والمبذرين • ومنهم من فسر السفهاء هنا باليتامى لأن الكلام السابق كان فيهم • وذكر أن المراد من قوله تعالى (أموالكم) أموالهم وإنما أضيفت إلى المخاطبين لملابسة الرعاية فيكون معنى الآية الكريمة : (ولا تؤتوا اليتامى أموالهم) التي تحت رعايتكم وكأنها (أموالكم التي جعل الله لكم قياما) وانتعاشا وقوة في الحياة ووسيلة للمكاسب والمعاملات (وارزقوهم) أي اليتامى (واكسوهم) من تلك الأموال (وقولوا لهم) في اقناعهم بما تعطونهم منها (قولا معروفا) حسب الأصول الشرعية المرعية والذي يظهر بقاء السفهاء على عمومها ليشمل اليتامى وسائر الصبيان

والمجانين والمبذرين من الذكور والإناث • ويكون الخطاب للقائمين عليهم والمدبرين لأمورهم من الأولياء وغيرهم • وتكون الآية الآتية بيانا لبعض منهم وهم اليتامى فقط • فيقول الباري تعالى : (وابتلوا اليتامى) منهم ، واختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم ، وسلموا لهم بحضوركم بعض النقود للمعاملات (حتى إذا بلغوا النكاح) أي حد البلوغ واستحقاق النكاح عادة • (فإن آنستم منهم رشدا) أي حققتم منهم رشدا أي صلاحا في إدارة المال كما عليه الأئمة الثلاثة ، أو في الدين والمال كما اختاره الإمام الشافعي ـ رضي الله عنهم ـ (فادفعوا إليهم اموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا) أي لا تأكلوا أموال اليتامى مسرفين في الصرف ومبادرين ومستعجلين فيه خوفا من أن يكبروا في العمر والمنعة والعزة ويسترجعوا منكم الأموال التي تحت رعايتكم • (ومن كان منكم غنيا) بمال نفسه (فليستعفف) وليحفظ نفسه من أكل شيء منها (ومن كان) منكم (فقيرا فليأكل) منها بالوجه المعروف بالشرع وهو أن يكون المأكول منها مقدار ما يستحقه من الأجرة على رعاية الأموال • روي أبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ أن رجلا قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن في حجري يتيما أفآكل من ماله ؟ قال : « كل بالمعروف غير متأثل مالا ولا واق مالك بماله » • والتأثل إتخاذه أثلة أي أصلا • والمراد غير جامع منه وآخذٍ للقنية • ومعنى وقاية ماله به أن يترك ماله ويأكلَ مالَ اليتيم •

ومما ينبغي أن يعلم أن قوله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) دليل على وجود الحجر عليهم وعدم جواز تصرفهم في أموالهم ما داموا كذلك • والحجر : نوعان خاص كالحجر على الراهن في المرهون إلى وفاء الدين ، وعلى السيد في العبد المكاتب ، وفي بيع العبد الآبق ، وعلى المالك

في بيع المال المغصوب ، والمبيع قبل القبض ... وعام وهو حجر فلس مختص بالمال والإقرار ، وجنون في كل شيء ، وصغرٍ في غير العبادات ، ورقٌّ في حق السيد ، ومرض في الثلثين إذا تصرف فيهما بلا عوض ، وفي كل المال مع الوارث . وحجر ردة فإن عاد المرتد إلى الإسلام تبين نفوذ تصرفه وإلا فلا . ويرتفع حجر السّفه بعد الرشد برفع الحاكم وكذا الفلس . وحجر البقية بارتفاعها بنفسها .

واعلم أن الصبي محجور شرعا بالصبا فلا تنفذ تصرفاته المالية والقولية والفعلية في غير العبادة إلا في نحو إذن في دخول دار بعد الإستئذان وإيصال هدية ودعوة عن صاحب وليمة . ويدخل في السفهاء ويسمى سفيها ومحجورا شرعا بالسفه . وهذا الحجر يرتفع من حيث الصبا ببلوغه ومن حيث نفوذ تصرفاته ببلوغه رشيدا لقوله تعالى (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) ، فإن بلغ رشيدا ثم بذر وجب على القاضي أن يحجر عليه ويمنعه من التصرفات وإلا أثم . وذلك السفيه حينئذ يسمى سفيها مهملا اي أهمل ولم يحجر عليه القاضي وتصح تصرفاته ، ويجوز الإقدام على المعاملة معه لمن لا يعرف حاله ، وإلا أثم وبطلت معاملته معه . ولنا سفيه مهمل ثان وهو الذي بلغ سفيها واستمر سفهه الموجود في الصبا ولم يحجر عليه القاضي ، واختلف العلماء في معنى الرشد الذي ينتهي به حجر الصبا ، فذهب الأئمة كلهم ، غير الشافعي ، إلى أنه صلاح المال فقط . فإذا بلغ وهو عارف بكيفية إدارة شئون ماله حسب مستواه فهو رشيد . وذهب الشافعي إلى أنه صلاح الدين والمال معاً ، بأن يكون قبل بلوغه متهيئاً لمعرفة دينه إعتقادا وعملاً ولو بالإجمال مما يحصل عادة للإنسان ، وعارفا برعاية حاله في كسبه وماله . وهذا في الحقيقة صعب الحصول لا سيما في العصور الأخيرة ، وفي عصرنا هذا جدا . فإذا وجدنا إنسانا بالغاً

في مكان ما فهل نعتبره رشيداً أولا ؟ سئل الشيخ الشهاب الرملي : هل الأصل في الناس الرشد أو ضده ؟ فأجاب بأن الأصل فيمن علم الحجر عليه بعد بلوغه إستصحابه حتى يغلب على الظن رشده بالإختبار . وأما من جهل حاله فعقوده صحيحة . هذا ما في شرح الرملي على المنهاج والمغني للخطيب .

وخلاصته : إن الأصل في من علم تصرف وليه عليه بعد بلوغه السفه ، ومن لم يعلم فيه ذلك هو الرشد . هذا على مذهب إمامنا الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وأما على ماذهب إليه الأئمة الثلاثة وبعض من علماء مذهبنا كالعز ابن عبدالسلام إنه صلاح المال فقط . فالأمر ظاهر .

وقوله تعالى : (فإذا دَفَعْتُم إليهم أموالهم فَأَشْهِدُوا عَلَيهم وَكفى بالله حسيباً)

معناه أيها الأولياء والأوصياء إذا بلغ اليتامى سن الرشد وآنستم منهم فادفعوا إليهم أموالهم ، وإذا دفعتموها إليهم فأشهدوا عليهم إن قبضوا منكم أموالهم شهودا عدولا لما أن ذلك أبعد عن التهمة ، وأنفى للخصومة ، وأدخل في الأمانة . وقوله وكفى بالله حسيبا يحتمل أن يكون مهددا لمن يخون في أموال اليتامى ويأتي ببعض من أموالهم ويشهد على تسليمها لليتامى على أساس أنها كل أموالهم . ويجوز أن يكون بيانا للواقع . ومعناه أن الإشهاد على التسليم شيء ينفعكم في المستقبل للمخاصمات ، وأما بينكم وبين الله فلا نافع إلا الأمانة والرعاية .

وأما الإعراب : فالمشهور أن الباء على كلمة الجلالة زائدة . وهي فاعل أي وكفى الله شهيدا . ومن الناس من يقول : إن كفى في موضع وقع الكفاية ، والباء ليست زائدة ، وهي مع ما بعدها في محل النصب مفعول لقوله كفى .

(لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً(٧) وإِذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً(٨) وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً)(١٠)

يروى أن أوس بن ثابت الأنصاري توفى وترك إمرأة يقال لها أمّ كَحة وثلاث بنات وولداً صغيراً له منها ، فقام رجلان هما إبنا عم الميت وَوَصِيّاه ، يقال لهما : سُوَيد ، وعَرْفَجَةَ • فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا ولا بناته ولا ولده ، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الضعيف وإن كان ذكرا • إنما يورثون الرجال الكبار ، وكانوا يقولون: لا يُعْطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة ، فجاءت أم كحة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك عليّ بنات وإبنا صغيرا وأنا إمرأة ، وليس عندي ما أنفق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا وهو عندي ، فجاء إبنا عمه سويد وعرفجة ، فأخذا المال ولم يعطياني ولا بناته ولا إبنه الصغير شيئا ، وهن في حجري ولا يُطعِماني ولا يَسقياني ولا يرفعان لهن رأسا • فدعاهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقالا : يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا، ولا يحمِلُ كلاًّ ، ولا ينكى عدوا فقال رسول الله : إنصَرِفوا حتى أنظر

ما يُحدِثُ الله لي فيهن . فانصرفوا فانزل الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية وهي شروع في بيان أحكام المواريث بعد بيان أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث . والمراد من الرجال الأولاد والذكور كبارا أو صغارا ، ومن الأقربين المورثون ومن الوالدين ما لم يكن بواسطة . فالجد والجدة داخلان تحت الأقربين ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . والمراد بالنساء البنات مطلقا أو الإناث كذلك . وإيراد حكمهن على الإستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكام السابقين بأن يقال : للرجال والنساء نصيب الآية للاعتناء والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية ، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزه . وللرد عليهم نزلت هذه الآية فأرسل ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى إبني العم فقال : لا تحركا من الميراث شيئا فإنه قد أنزل عليّ فيه شيء أخبرتُ فيه أن للذكر والأنثى نصيبا . ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى : (ويستفتونك في النساء) إلى قوله عليما . ثم نزل : (يوصيكم الله في أولادكم) إلى قوله (والله عليم حكيم) فدعا ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالميراث فأعطى المرأة الثمن ، وقسم ما بقي بين الأولاد ، للذكر مثل حظ الأنثين ، ولم يعط إبني العم شيئا .

وفي بعض طرقه : إن الميت خلف زوجة وبنتين وابني عم فأعطى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الزوجة الثمن والبنتين الثلثين وابني العم الباقي .

(مما قل منه أو كثر) بدل من ما في قوله تعالى : (وللنساء نصيب مما ترك الوالدان) بإعادة حرف الجر . نصيبا مفروضا حال من الضمير المستتر في (قلّ) و (كثر) ويجوز أن يكون حالا من الضمير المستتر في الجار والمجرور الواقع صفةً . (واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين) وهم ممن لا يرث (فارزقوهم منه) فأعطوهم أيها الورثة

البالغون شيئا من المقسوم الذي وصلكم تصدقا وإحسانا إليهم (وقولوا لهم قولا معروفا) مما لا يوذي أولئك الحاضرين من أولي القربى ومن بعدهم • والأمر للندب وقيل أمر وجوب • واختلف في نسخه والصحيح أنه لا يجب •

(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم) هذا الأمر إما متوجه للأوصياء بأن يراعوا أموال اليتامى ويحفظوها من الضياع لأنهم ضعاف لا يقدرون على صيانة الأموال ورعاية الإستقبال كما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد موتهم • أو متوجه للورثة بالشفقة والصدقة على من حضر القسمة من أولي القربى غير الوارثين ومن بعدهم متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا بعد موتهم ضعافا مثل أولئك الحاضرين هل كانوا يرضون بحرمانهم من شيء من ذلك المال المتروك ويؤيده قوله تعالى (فليتقوا الله) أي في كسر قلوب الحاضرين من الضعفاء (وليقولوا) وليتكلموا معهم (قولا سديدا) رصينا ثابتا في قلوب أوساط الناس ، مقبولا أي لا يكون كلامهم إيذاءً للحاضرين بل يكون إكراماً وإنعاماً لهم فإن الكلام الجميل يوجب الأجر الجزيل • وحسبنا الله ونعم الوكيل • كما يؤيد الوجه الأول قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) أي ظالمين اليتامى أو ظالمين أنفسهم بأكلها إنما يأكلون في بطونهم أي ملء بطونهم نارا مأكولا يكون جزاؤه في المستقبل نار جهنم وسيصلون سعيرا أي وسيدخلون نارا تتسعر وتلتهب • وعن أبي بردة ــ رضي الله عنه ــ أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يبعث الله قوما من قبورهم تتأجج أفواههم نارا » فقيل : من هم يا رسول الله ؟ فقال : « ألم تر أن الله يقول : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا ؟ » أعاذنا الله منها بمنه إنه أرحم الراحمين •

(يُوصِيكُمُ اللهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ، فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ ، وَإِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَها النِّصْفُ ، لِأَبَوَيْهِ ، لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما ، السُّدُسُ ، مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ ، آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً(١١) ، وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ ، فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْدَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ ، فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُثِ ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضارٍّ ، وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ(١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ(١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها ، وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ)(١٤) .

بين الباري تعالى في هذه الآيات ما أجمله في قوله : (للرجال نصيب ، وللنساء نصيب) وهذه الآية ركن من أركان الدين ، أي أنها عمدة من مهمات الأحكام إذ فيها علم الفرائض أي الأنصباء المقدرة المقررة للورثة من مورثيهم . وبإضافة بعض الأحاديث الشريفة إليها يتميز أهل الفرض من العصبة فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر » أي فلاقرب ذكر إلى الميت . فيقدم الأب على الجد ، والإبن على إبن الإبن ، وعلى الأخ للابوين ، والأخ على العم ، والعم على ابن العم . وهكذا كما يأتي مفصلا . وعلم الفرائض مما حث الرسول ـ عليه السلام ـ على تعلمه وتعليمه ونشر أحكامه . فانه عظيم القدر حتى روي أنه ثلثُ العلم . وروي نصف العلم . وهو أول علم ينزع من الناس ويُنسى . رواه الدارقطني . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تَعَلَّموا الفرائض وعلموه الناس ، فإنه نصف العلم ، وهو أول شيء يُنسى ، وأول شيء ينتزع من أمتي » . وروي أيضا عن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تعلموا القرآن وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس ، وتعلموا العلم وعلموهُ الناس ، فإني امرؤ مقبوض ، وإن العلم سيُقبض ، وتظهر الفتن حتى يختلف الإثنان في الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما » .

وإنما سمي علم المواريث بعلم الفرائض مع أن الورثة قد يكونون عصبة ولا يكون فيهم ذو فرض ، وقد يكون ذو الفرض مع العصبة تغليبا للسهام المقدرة المعلومة من الشارع على السهام الغير المقدرة للعصبة . ومما يجب على المسلم المتهيء لعلم الفرائض معرفة شرطه ومانعه ، وسببه ، وعدد الورثة ، وتمييز ذي الفرض أي صاحب النصيب المعين في الكتاب عن

العصبة وهم من ليس له نصيب معين ، وإنما يأخذ ما بقي من أهل الفرض .

فشرطه أمور ثلاثة أحدها تيقّن موت المورث ، أو حكم القاضي وتيقن حياة الوارث بعده حياة مستقرة ومعرفة سبب إدلائه إلى الميت تفصيلا . ومانعه نبوة فلا يورث نبي لخبر الصحيحين : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » . وقتل ، فلا يرث قاتل من مقتوله ، وإن لم يضمن ، كأن قتله بحق لنحو دفع صائل على اختلاف فيه بين الأئمة . واختلاف عهد فلا يرث حربي من ذمي وعكسه . واختلاف ملّة . فلا يرث كافر من مسلم وعكسه . ونحو ردّة كزندقة ، فلا يرث مرتد حال موتِ مورثِه منه . ورق فلا يرث من فيه رق من مورثه رقيقا أو حرا . وشك في نسب . وموتهما معاً وجَهلَ السبق .

وسببه أربعة ثلاثة بإتفاق ، وهي : نكاح ، وقرابة ، وولاء . وواحد على الخلاف وهو الإسلام . أي جهته ، فهي سبب للإرث عند الشافعية والمالكية دون الحنفية والحنابلة .

وأما عدد الورثة فمن الذكور عشرة إجمالا ، وخمسة عشر تفصيلا . وهم : أب ، وأبوه ، وإن علا ، فابن وابنه وإن سفل ، وأخ مطلقا ، وابن أخ لغير أم ، وعم للميت ، وابنه كذلك ، وزوج ، وذو وَلاء . ومن النساء سبع إجمالا ، وعشرة تفصيلا . وهي بنت ، وبنت إبن ، وإن سفل ، وأم وجدة مُدلِيَة بوارث بأن أدلت بمحض الإناث أو الذكور ، أو بالإناث إلى الذكور ، وأخت لأبوين أو أب أو أم ، وزوجة ، وذات وَلاءٍ ، وهي السيدة المعتقة . وذوات الفروض لها نصيب مقدر في كتاب الله وهي النساء الوارثات ، وليست فيهن عصبة إلا المعتقة أو المنتمية إليها وأولاد الأم فقط . والعصبة : من لا نصيب مقدر له ، وهم : الإبن وابنه وإن سفل ، والأب ، والجد ، وإن علا ، والأخ لأبوين أو لأب ، وابنهما وإن سفل ،

والعم لأبوين او لأب وابنهما وإن سفل ، سواء كان العم للميت أو أبيه أو جده وإن علا ، والأب والجد يكونان من ذوي الفروض مع فرع ذكر وارث للميت ويأخذان بالفرض والتعصيب مع بنت أو بنت إبن •

والفروض المقدرة في كتاب الله تعالى ستة : نصف : وهو لزوج ليس لزوجته فرع وارث ، ولبنت ، وبنت إبن ، وأخت لغير أم إذا انفردن عن مثلهن أو معصبهن • وربع : وهو لزوج كان لزوجته فرع وارث ، ولزوجة ليس لزوجها ذلك • وثمن : لزوجة يكون لزوجها فرع وارث • وثلثان : لصنف تعدد ممن فرضه النصف كبنتين أو بنتي إبن أو أختين • وثلث : لأم ليس لميتها فرع وارث ، ولا عدد من إخوة وأخوات ، وللمتعدد من أولاد الأم • وقد يفرض لجد مع إخوة وأخوات • وسدس : لأب وجد لميتهما فرع وارث ، ولأم لميتها ذلك أو عدد من إخوة وأخوات ، ولجدة لم تدل بذكر بين انثيين كأم ابى ام الميت ، ولبنت ابن فأكثر مع بنت صلب أو بنت إبن أعلى منها ، ولأخت فأكثر لأب مع أخت لأبوين ، ولواحد من ولد الأم •

ولا يحجب حرمانا أبوان ، وزوجان ، وولد بأحد ، بل يحجب ابن ابن بابن أو بإبن ابن أعلى منه•وجد بمتوسط بينه وبين الميت، وأخ لأبوين بأب وابن وابنه • ولأب بهؤلاء وأخ لأبوين ، ولأم بأب وجد وفرع وارث • وابن أخ لأبوين بأب وجد وابن وابنه وأخٍ لأبوين ولأب ، وابن أخ لأب بهؤلاء وابن أخ لأبوين • ويحجب عم لأبوين بهؤلاء وابن أخ لأب وعم لأب بهؤلاء وبعم لأبوين • وابن عم لأبوين بهؤلاء وعم لأب • ويحجب ابن عم لأب بهؤلاء وابن عم لأبوين • وتحجب بناتُ ابن بابن أو بنتين إن لم يصرن عصبة • وتحجب جدة لأم بأم ، ولأب بأب وأم وبعدى كل جهة بقرباها • وتحجب بعدى جهة أب بقربى جهة أم لا العكس • وأخت

كأخ • وتحجب أخوات لأب بأختين لأبوين • وتحجب العصبة باستغراق ذوي فروض • وأخ لأب بأخت لأبوين إجتمعت مع بنت أو بنت إبن •

وهذه قواعد ذكرتها بالإختصار آخذا من المتون تنويرا لمن لاحظ الآيات النازلة في الميراث كي يكون على بصيرة في فهمها إن شاء الله تعالى •

وقوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) : أي يعهد إليكم الباري تعالى في شأن ميراث أولادكم إذا متم أن يعد كل ذكر منهم بانثيين في درجته إذا اجتمعا ، فمن ترك إبنا وبنتا يجعل ماله على ثلاثة أسهم منها للإبن سهمان ، وللبنت سهم • ولما أخذت البنت الواحدة مع أخيها ثلث التركة فمن الأحرى أن تأخذ مع أختها الواحدة مقدار الثلث فيكون لهما الثلثان • فلا حاجة إلى أن يذكر الباري بأن للبنتين الثلثان ، ولكن قد يتوهم أن ما فوق الثنتين له نوع آخر من النصيب فدفع الوهم بقوله الكريم : (فإن كُنّ نساءً فوق اثنتين فَلَهُنّ ثُلُثا ما تَرَكَ) أي إذا كان الأولاد نساء خالصة ليس معهن ذكر وهن فوق اثنتين فلهن ثلث ما ترك المتوفى أباً أو أما • وسر إعطاء الإبن مثلي ما تعطى البنت أن الإبن يتزوج المرأة ويكلف بصرف الصداق إليها ، وفي الوقت عينه هو القائم على أمر المعيشة في البيت والمكلف بالإنفاق على الأولاد والبنات وبإطعام الضيوف الواردين والواردات ، وبكفاية المصاريف في النوازل والآفات • والبنت تتزوج وتأخذ صداقها من زوجها ، وليست مكلفة في المستقبل بشيء من النفقات ، (وإن كانت واحدة فلها النصف) أي وإن كانت المولودة بنتا واحدة فلها النصف مما ترك المتوفى من المال • وقال في روح المعاني : واستثنى من العموم الميراثْ من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بناء على القول بدخوله في العمومات الواردة على لسانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتناولة له لغة • والدليل على الإستثناء قوله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ : « نحن معاشر الانبياء لا نورث » وأخذ غيرنا بالعموم وعدم الإستثناء ، وطعنوا بذلك على أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ حيث لم يورث الزهراء ـ رضي الله تعالى عنها من تركة أبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقالوا : إن الخبر لم يروه غيره . وبتسليم أنه رواه غيره أيضا فهو غير متواتر بل آحاد ، ولا يجوز تخصيص الكتاب بخبر الآحاد ، بدليل أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ردّ خبر فاطمة بنت قيس أنه لم يجعل لها سكنى ولا نفقة لما كان مخصصا لقوله تعالى : (أسكنوهن من حيث سكنتم) فقال : كيف نترك كتاب ربنا وسنة نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقول إمرأة ؟ فلو جاز تخصيص الكتاب بخبر الآحاد لخصص به ، ولم يَرُدّه ، ولم يجعل كونه خبر امرأة مع مخالفته للكتاب مانعا من قبوله ، وأيضا العام وهو الكتاب قطعي والخاص وهو خبر الآحاد ظني فيلزم ترك القطعي بالظني .

وقالوا ايضا : إن مما يدل على كذب الخبر قوله تعالى : (وورث سليمان داود) وقوله سبحانه عن زكريا ـ عليه السلام ـ : (هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب) فإن ذلك صريح في أن الأنبياء يرثون ويورثون .

والجواب : أن هذا الخبر قد رواه أيضا حذيفة بن اليمان ، والزبير ابن العوام وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، والعباس ، وعلي ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص . وقد أخرج البخاري عن مالك بن أوس ابن الحدثان أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال بمحضر من الصحابة فيهم عليّ والعباس وعثمان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد ابن أبي وقاص : (أنشدكُمُ الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض أتعلمون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قال : لا نورث ما تركناه صدقة ؟) قالوا أللهم نعم . ثم أقبل على عليّ والعباس ، فقال : أنشدكما بالله تعالى هل تعلمان أن رسول الله قد قال ذلك ؟ قالا : اللهم نعم . فالقول بأن الخبر لم يروه إلا أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ لا يلتفت إليه وفي كتب غيرنا ما يؤيد ذلك . فقد روى الكليني في الكافي عن أبي البحتري في الكافي عن أبي عبدالله جعفر الصادق ــ رضي الله تعالى عنه أنه قال : إن العلماء ورثة الأنبياء وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا أحاديث ، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظ وافر . وكلمة إنما مفيدة للحصر قطعا بإعترافهم ، فيعلم أن الأنبياء لا يورثون غير العلم والأحاديث .

وقد ثبت أيضا بإجماع أهل السير والتواريخ وعلماء الحديث أن جماعة من المعصومين عندهم ، والمحفوظين عند أهل السنة عملوا بموجبه ، فإن تركة ــ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما وقعت في أيديهم لم يعطوا منها العباس ، ولا بنيه ، ولا الأزواج المطهرات شيئا . ولو كان الميراث جاريا في تلك التركة لشاركوهم فيها قطعا . فإذا ثبت من مجموع ما ذكرنا التواتر فحبذا ذلك لأن تخصيص القرآن بالخبر المتواتر جائز إتفاقا ، وإن لم يثبت وبقي الخبر من الآحاد فنقول : إن تخصيص القرآن بخبر الآحاد جائز على الصحيح ، وبجوازه قال الأئمة الأربعة . ويدل على جوازه أن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ خصصوا بهمن غير نكير فكان إجماعا . ومنه قوله تعالى : (واُحِلَ لكم ما وراء ذلكم) ويدخل فيه نكاح المرأة على عمتها وخالتها فخص بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لا تنكحوا المرأة على عمتها ولا على خالتها » .

وهم أيضا قد خصصوا عمومات كثيرة من القرآن بخبر الآحاد ، فإنهم لا يورثون الزوجة من العقار ، ويخصون أكبر أبناء الميت من تركته

بالسيف والمصحف والخاتم واللباس بدون بدل كما أشرنا إليه فيما مرّ ، ويستندون في ذلك إلى آحاد تفردوا بروايتها مع أن عموم الآيات على خلاف ذلك .

والإحتجاج على عدم جواز التخصيص بخبر عمر ـ رضي الله عنه ـ مُجاب" عنه بأن عمر ـ رضي الله عنه ـ إنما رد خبر إبنة قيس لتردده في صدقها وكذبها ، ولذلك قال بقول امرأة لا ندري أصدقت أم كذبت . فعلل الرد بالتردد في صدقها وكذبها لا بكونه خبر واحد . وكون التخصيص يلزم منه ترك القطعي بالظني مردود بأن التخصيص وقع في الدلالة لأنه دفع" للدلالة في بعض الموارد فلم يلزم ترك القطعي بالظني ، بل ترك للظني بالظني .

وما زعموه من دلالة الآيتين اللتين ذكروهما على كذب الخبر في غاية الوهن لأن الوراثة فيهما وراثة العلم والنبوة والكمالات النفسانية لا وراثة العروض والأموال . ومما يدل على أن الوراثة في الآية الأولى منهما كذلك ما رواه الكليني عن أبي عبدالله أن سليمان ورث داود وأن محمدا ورث سليمان فإن وراثة المال بين نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسليمان ـ عليه السلام ـ غير متصورة بوجه.وأيضا إن داود ـ عليه السلام ـ على ماذكره أهل التأريخ كان له تسعة عشر ابنا وكلهم كانوا ورثة بالمعنى الذي يزعمه الخصم فلا معنى لتخصيص بعضهم بالذكر دون بعض في وراثة المال لإشتراكهم فيها من غير خصوصية لسليمان ـ عليه السلام ـ بها بخلاف وراثة العلم والنبوة . وأيضا توصيف سليمان ـ عليه السلام ـ بتلك الوراثة مما لا يوجب كمالا ولا يستدعي إمتيازا لأن البر والفاجر يرث أباه ، فأي داعٍ لذكر هذه الوراثة العامة في بيان فضائل هذا النبي ومناقبه ـ عليه السلام ؟

ومما يدل على أن الوراثة في الآية الثانية كذلك أيضا أنه لو كان المراد بالوراثة فيها وراثة المال كان الكلام أشبه شييء بالسفسطة لأن المراد بآل يعقوب حينئذ إن كان نفسه الشريفة يلزم أن مال يعقوب ـ عليه السلام ـ كان باقيا غير مقسوم إلى عهد زكريا • وبينهما نحو من ألفي سنة وهو كما ترى • وإن كان المراد جميع أولاده يلزم أن يكون يحيى وارثا جميع بني إسرائيل أحياء وأمواتا وهذا أفحش من الأول• وإن كان المراد بعض الأولاد ، أو أريد من يعقوب غير المتبادر وهو إبن إسحاق ـ عليهما السلام ـ يقال : أي فائدة في وصف هذا الولي عند طلبه من الله تعالى بأنه يرث أباه ويرث بعض ذوي قرابته ؟ والإبن وارث الأب ومن يقرب منه في جميع الشرائع مع أن هذه الوراثة تفهم من لفظ الولي بلا تكلف وليس المقام مقام تأكيد • وأيضا ليس في الأنظار العالية وهمم النفوس القدسية التي انقطعت من تعلقات هذا العالم الفاني واتصلت بحضائر القدس الحقاني ميل للمتاع الدنيوي قدر جناح بعوضة حتى يسأل حضرة زكريا ـ عليه السلام ـ ولدا ينتهي إليه ماله ويصل إلى يده متاعه ، ويظهر لفوات ذلك الحزن والخوف ، فإن ذلك يقتضي صريحا كمال المحبة وتعلق القلب بالدنيا وما فيها • وذلك بعيد عن ساحته العلية وهمته القدسية • وأيضا لا معنى لخوف زكريا ـ عليه السلام ـ من صرف بني أعمامه ماله بعد موته ، أما إن كان الصرف في طاعة فظاهر ، وأما إن كان في معصية فلأن الرجل إذا مات وانتقل المال إلى الوارث وصرفه في المعاصي لا مؤاخذة على الميت ولا عتاب• على أن رفع هذا الخوف كان متيسرا له بأن يصرفه ويتصدق به في سبيل الله تعالى قبل وفاته ويترك ورثته على أنقى من الراحة •

واحتمال موت الفجأة وعدم التمكن من ذلك لا ينتهض عندهم لأن الانبياء عندهم يعلمون وقت موتهم فما مراد ذلك النبي ـ عليه السلام ـ

بالوراثة إلا وراثة الكمالات النفسانية والعلم والنبوة المرشحة لمنصب الحبورة ، فإنه ــ عليه السلام ــ خشي من أشرار بني إسرائيل أن يحرفوا الأحكام الإلهية والشرائع الربانية ،ولا يحفظوا علمه ولا يعملوا به ويكون ذلك سببا للفساد العظيم ، فطلب الولد ليجري أحكام الله تعالى بعده ويروج الشريعة ويكون محط رحال النبوة ، وذلك موجب لمضاعفة الأجر واتصال الثواب • والرغبة في مثله من شأن ذوي النفوس القدسية والقلوب الطاهرة الزكية • فإن قيل الوراثة في وراثة العلم مجاز ، وفي وراثة المال حقيقة ، وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز لا يجوز بلا ضرورة ، فما الضرورة هنا ؟ أجيب بأن الضرورة هنا حفظ كلام المعصوم من التكذيب• وأيضا لا نسلم كون الوراثة حقيقة في المال فقط ، بل صار لغلبة الإستعمال في العرف مختصا بالمال ، وفي أصل الوضع إطلاقه على وراثة العلم والمال والمنصب صحيح ، وهذا الإطلاق هو حقيقته اللغوية • سلمنا أنه مجاز ولكن هذا المجاز متعارف ومشهور بحيث يساوي الحقيقة خصوصا في إستعمال القرآن المجيد • ومن ذلك قوله تعالى : (وأورثنا الكتاب الذي اصطفيناه من عبادنا) (وأورثوا الكتاب) إلى غيرهما •

ومنهم من أورد هنا بحثا وهو أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا لم يورث أحدا فلم أعطيت أزواجه الطاهرات حجراتهن ؟ والجواب : أن ذلك مغلطة لأن إفراز الحجرات للأزواج إنما كان لأجل كونها مملوكة لهن لا من جهة الميراث ، بل لأن النبي ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ بنى كل حجرة لواحدة منهن فصارت الهبة مع القبض متحققة فيهن ، وهي موجبة للملك • وقد بنى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مثل ذلك لفاطمة ــ رضي الله تعالى عنها ــ ، وأسامة ، وسلمها إليهما • وكان كل من بيده شيء مما بناه له ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتصرف فيه تصرف المالك على عهده عليه

الصلاة والسلام . ويدل على ما ذكر ماثبت بإجماع الفريقين أن الإمام الحسن ـ رضي الله عنه ـ لما حضرته الوفاة إستأذن من عائشة الصديقة ـ رضي الله تعالى عنها ـ وسألها أن تعطيه موضعا للدفن جوار جده المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه إن لم تكن الحجرة ملك أم المؤمنين لم يكن للإستئذان والسؤال معنىً .

وفي القرآن نوع إشارة إلى كون الأزواج الطاهرات مالكات لتلك الحجر حيث قال سبحانه : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن) فأضاف البيوت إليهن ولم يقل في بيوت الرسول .

وتحقيق الكلام في هذا المقام : أن أبا بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ خص آية المواريث بما سمعه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وخبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حق من سمعه منه بلا واسطة مفيد للعلم اليقيني بلا شبهة والعمل بسماعه واجب عليه ، سواء سمعه غيره أو لم يسمع . وقد أجمع أهل الأصول من الفريقين على أن تقسيم الخبر إلى المتواتر وغيره بالنسبة إلى من لم يشاهدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمعوا خبره بواسطة الرواة لا في حق من شاهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمع منه بلا واسطة . فخبر « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » عند أبي بكر قطعي لأنه في حقه كالمتواتر بل أعلى كعبا منه ، والقطعي يخصص القطعي إتفاقا . ولا تعارض بين هذا الخبر والآيات التي فيها نسبة الوراثة إلى الأنبياء عليهم السلام لما علمت . ودعوى الزهراء ـ رضي الله عنها ـ (فَدَكاً) بحسب الوراثة لا تدل على كذب الخبر بل على عدم سماعه ، وهو غيرُ مخلٍّ بقدرها ورفعة شأنها ومزيد علمها . وكذا أخذ الأزواج الطاهرات حجراتهن لا يدل على ذلك لما مرّ . وعدولها إلى دعوى الهبة غير متحقق عندنا بل المتحقق دعوى الإرث . ولئن سلمنا أنه وقع منها دعوى الهبة فلا

نسلم أنها أتت بأولئك الأطهار (أي بعلي والحسنين وأم أيمن) شهودا • وذلك لأن المجمع عليه أن الهبة لا تتم إلا بالقبض ولم تكن (فدك) في قبضة الزهراء ـ رضي الله تعالى عنها ـ في وقت ، فلم تكن الحاجة ماسة لطلب الشهود • ولئن سلمنا أن أولئك الأطهار شهدوا فلا نسلم أن الصديق رد شهادتهم بل لم يقض بها • وفرق بين عدم القضاء هنا والرد ، فإن الثاني عبارة عن عدم القبول لتهمة كذب مثلا • والاول عبارة عن عدم الإمضاء لفقد بعض الشروط المعتبر بعد العدالة • وانحراف مزاج رضا الزهراء كان من مقتضيات البشرية • وقد غضب موسى ـ عليه السلام ـ على أخيه الأكبر (هارون) حتى أخذ بلحيته ورأسه ولم ينقص ذلك من قدريهما شيئا • على أن أبا بكر إسترضاها ـ رضي الله عنها ـ مستشفعا إليها بعلي ـ كرم الله وجهه ـ فرضيت عنه ، كما في مدارج النبوة وكتاب الوفا ، وشرح المشكاة للدهلوي وغيرها • وفي محاج السالكين وغيره من كتب الإمامية المعتبرة ما يؤيد هذا الفصل حيث رووا : أن أبا بكر لما رأى فاطمة ـ رضي الله عنهما ـ إنقبضت عنه وهجرته ولم تتكلم بعد ذلك في أمر (فدك) كبر ذلك عنده فأراد إسترضاءها فأتاها فقال: صدقتِ يابنت رسول الله عليه وسلم فيما ادعيتِ ، ولكن رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسمها فيعطي الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يؤتي منها قوتكم • فما أنتم صانعون بها ؟ فقالت : أفعلُ فيها كما كان أبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعل فيها • فقال : لك الله تعالى أن أفعل فيها ما كان يفعل أبوك • فقالت : والله لتفعلنّ • فقال : والله لأفعلنّ ذلك • فقالت : اللهم اشهد ، ورضيت بذلك وأخذت العهد عليه • فكان أبو بكر يعطيهم منها قوتهم ويقسم الباقي بين الفقراء والمساكين وابن السبيل • وبقي الكلام في سبب عدم تمكينها ـ رضي الله تعالى عنها ـ من التصرف فيها ، وقد كان دفع الإلتباس وسد باب الطلب المنجر إلى كسر كثير من القلوب ، أو تضييق الأمر على المسلمين • وقد ورد :

« إذا ابتلي المؤمن ببليتين إختار أهونهما » على أن رضا الزهراء ـ رضي الله تعالى عنها ـ بعدُ على الصديق سدّ بابَ الطعن عليه ، أصاب في المنع أم لم يُصبْ . وسبحان الموفق للصواب والعاصم أنبياءه عن الخطأ في فصل الخطاب . إنتهى ما نقلته من تفسير روح المعاني بترك اسطر منه مخافة التطويل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

ولما ذكر إرث النسلين شرع في ذكر إرث الأصلين ، فقال : ولأبويه لكل واحد منهما السدس ، يعني ولأبوي الميت ، ذكرا كان أو أنثى ، لكل واحد منهما السدس ، يعني ولأبوي الميت لا باعتبار مجموعهما بل لكل واحد منهما السدس من التركة . فقوله السدس مبتدأ ولأبويه خبره المقدم . وقوله لكل واحد منهما بدل من الأبوين لدفع توهم أن المراد المجموع بإرادة الجميع ، وذلك السدس مما ترك المتوفي . وهذا الحكم حتم إن كان له ولد أو ولد إبن ذكرا كان أو أنثى . ثم إن كان الفرع ذكرا واحدا أو أكثر مع الأنثى اولا فالسدس نصيب الأب لا غير ، وإن كان أنثى واحدة أو أكثر وبقي شيء كما في مسألة الأب والبنتين فله الباقي بالتعصيب وإن لم يبق كما في مسألة الأب والأم والبنتين فلا يبقى شيء حتى يلقاه .

فإن لم يكن له ، أي للمتوفى ولد بالمعنى الشامل لولد الإبن ، وورثه أبواه فقط كما يقتضيه الحكم الآتي فلأمه الثلث مما ترك ، والباقي للاب بالتعصيب ، وبذلك يكون له مثلا ما كان للأم وهذا مما أجمع عليه المسلمون . هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين أما إذا كان معهما أحدهما فللأم ثلث ما بقي بعد فرضه عند جمهور الصحابة والتابعين والفقهاء لا ثلث الكل حتى يخص الأب مثلا ما خص الأم من الميراث لأنهما ذكر وأنثى في درجة واحدة ففي ما إذا كان معهما الزوجة المسألة من أربعة ، مخرج فرضها ، لها الربع

واحد ، تبقى ثلاثة لها ثلثها سهم واحد، وللأب السهمان الباقيان. وفي أبوين وزوج المسألة من إثنين مخرج فرض الزوج ، له النصف واحد ، يبقى واحد لا ثلث لها ، نضرب الثلاثة في إثنين بستة ، للزوج نصفها وهو ثلاثة ، وتبقى ثلاثة ، للام منها ثلثها وهو سهم واحد ، وللأب سهمان . هذا إذا لم نعتبر ثلث الباقي في التأصيل ، وإلاّ قلنا : المسألة الأولى فيها ربع للزوجة ، وثلث الأرباع الثلاثة الباقية للأمّ ، ومخرج ثلث الأرباع إثنا عشر ، والأربعة داخلة فيها ، فأصل المسألة إثنا عشر للزوج ربعها أعني ثلاثة أسهم ، تبقى تسعة أسهم ، للأم ثلث الباقي أعني ثلاثة أسهم وللأب الباقي وهو ستة .

والمسألة الثانية : فيها النصف للزوج ، وثلث النصف الباقي للأم ، ومخرج ثلث النصف ستة والإثنان داخلان فيها ، فأصل المسألة ستة ، للزوج منها النصف ، تبقى ثلاثة للأم ثلثها ، وهو سهم واحد ، والباقي وهو سهمان للأب .

وقد تسامح الفقهاء على إعتبار ثلث الباقي في التأصيل فقالوا في مسألة زوجة وأبوين : هناك ربع للزوجة ، وثلث للأم ، وبما أنه إذا أخذت الزوجة الربع من أربعة تبقى ثلاثة ، وهذه الثلاثة تفنى بما بقي بعد فرض الزوجة فاكتفوا بالمخرج الأعلى وهو أربعة . فقالوا : المسألة من أربعة ، للزوجة منها واحد ، تبقى ثلاثة، واحد منها للأم لأنه ثلث الباقي ، والباقي وهو إثنان للأب . وعلى هذا التسامح يقول الشيخ معروف النودهي في أرجوزته في فن الفرائض :

كذا إذ الباقي من الأعلى حصل نفادُه في ثلثِ باق بالأقل

أي وكالمتداخلين في الإكتفاء بالأكثر إذ العدد الباقي من الفرض الاعلى حصل نفاده وفناؤه بالأقل في مسألة فيها ثلث الباقي . فإن في مسألة زوجة

وأبوين فرضاً أعلى وهو ربع الزوجة ، وأدنـى وهو ثُلثُ الامّ • وإذا أخَذت الزوجة فرضَها وهو الربع من أربعة بقيت ثلاثة ، وهذه تنفد وتفنى بالباقي من الأربعة بعد فرض الزوجة فالمسألة أساسا من أربعة •

وهاتان المسألتان تُسَمّيان بالعمريتين لقضاء عمر فيهما باستحقاق الأم لثلث الباقي بعد فرض الزوج أو الزوجة ، وبالغراوين لشهرتهما ، تشبيها لهما بالكوكب الأَغَرّ • وبالمنبريتين لقضاء عمر فيهما وهو على المنبر •

(فإن كان له إخوة فلأمه السدس) والجمهور على أن معنى الآية الكريمة أنه إذا كان مع أمّ الميّت عدد من أولاد أم الميت ذكوراً أو إناثاً أو من كليهما فلأمّ الميت السدسُ من التركة لا ثلثها • فإن كان هناك مع أم الميت وإخوته أبوه أيضا فالإخوة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، مع أنهم يُحْجَبُونَ بالأب فيأخذ الأبُ الباقي بعد سدس الأم • وإن لم يكن معها الأب فالأم تأخذ سدس التركة والإخوة يأخذون ثلثها يبقى من الستة أصل المسألة ، ثلاثة ترد على الأم والإخوة للأم واحد وللإخوة سهمان •

وقوله : (من بعد وصية يوصي بها أو دَين) يعني وهذه الأنصاب المعينة أو هذا التقسيم وإيصال التركة إلى الورثة حاصل ومشروع مِن بعدِ تنفيذ وصية يوصى بها المُتَوفّى في حياته ، أو أداء دين في ذمته ، وبعد إخراج الحقوق المتعلقة بعين التركة • وبعد تجهيزه بما يليق به عند الموت • وتفصيل الموضوع هو أنه إذا توفي شخص يبدأ من تركته بالحقوق المتعلقة بعين مالِه بدون الحجر ، وذلك كمكسوب العبد فإنه إذا توفي سيّده أخرج مما عنده نفقته ونفقة زوجته •

وكمبيع باعه المالك لشخص فمات المشتري قبل تسليم ثمنه له وهو مفلس ، فإنه يتعلق بعين هذا المبيع حق فسخ البائع لبيعه ، فإذا فسخ البيع

عاد المبيع لملكه • وكالمال المرهون فإنه يتعلق به حق المرتهن ، ويقدم أداء حقه وهو المال المرهون به على تجهيز الميت • والحق بعضهم بالمرهون حجة الإسلام إذا مات واستقرت في ذمته لتعلقها بعين التركة حينئذ ، فلا يصح تصرف الورثة في شيىء منها حتى يفرغ الحاج عنه من جميع أعمال الحج إلا لضرورة كأن خيف تلف شيىء منها إن لم يبادر ببيعه • أما تعلق الغرماء بالأموال بالحجر فلا يبدأ فيه بحقهم بل بمؤن التجهيز كما نقله في الروضة • هذا ماعند الشافعي • وأما الإمام الأعظم فقد قرر أن ديون الله كالزكاة والكفّارات ونحوها أي كالحج فإنها تسقط بالموت فلا يلزم الورثة أداؤها إلا إذا أوصى بها أو تبرعوا بها هم من عندهم ؛ لأن الركن في العبادات نية المكلف وفعله وقد فات بموته، فلا يتصور بقاء الواجب والمتوفى المقصر في حق نفسه آثم •

وبعد أداء الحقوق المتعلقة بعين التركة يبدأ بتجهيزه وتجهيز ممونه بمعروف بحسب يساره وإعساره • ثم يبدأ بقضاء دينه الثابت في الذمة ، ثم بتنفيذ وصيته من ثلث المال الباقي بعد الامور السابقة ثم يقسم المال بين الورثة على ما فرضه الله تعالى •

(آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً) والآباء والابناء عبارة عن الورثة الأصول والفروع والخطاب للمورثين ، والمعنى : لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في دنياكم وأخراكم فاعملوا فيهم بما أوصاكم الله به ولا تعمدوا إلى تفضيل بعضهم وحرمان الآخرين ، ولا تأخذكم المحبة أو العداء فتنحرفوا عن الصراط المستقيم • (فريضة من الله) مصدر مؤكد لنفسه على حد : هذا إبني حقا • (إن الله كان عليماً) بالمصالح والمراتب (حكيماً) في كل ما حكم به فآمنوا به وبأحكامه •

(وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ) أي ولكم نصف ما تركه أزواجكم ، سواء المدخولات وغير المدخولات بهن بشرط أنلا يكون لهن فرع وارث ذكر أو أنثى بدرجة واحدة أو أكثر . وكذلك المطلقة طلاقا رجعيا بأن كانت المرأة مدخولا بها ، والطلاق بلا عوض ، ولم يستوف الثلاث .

(فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ) من المال على ما ذكرناه آنفا والباقي لباقي الورثة من أصحاب الفروض والعصبات (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا) أي تلك الزوجات المُتَوفّيات (أَوْ دَيْنٍ) متعلق بذمتهن (وَلَهُنَّ الرُّبعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ) اي وللزوجات الربع مما تركتم .

(إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بها أَوْ دَيْنٍ) وهذا التوريث جار في الطلاق الرجعي إتفاقا ، وكذا في الطلاق البائن لمن طلّقَ زوجته في مرض موته فارّاً من أن تَرِثَهُ زوجته عند بعض . وقرر سهم الرجل في الحالتين ضعفاً لسهم المرأة في الحالتين كما قرر كذلك في النسب بين الابن والبنت ، وكذلك بين الأب والأم في الغراوين .

(وإن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً اَو امْرَأَةٌ ، وَلَهُ اَخٌ اَوْ اُخْتٌ ، فَلِكُلِّ واحدٍ منهُما السُّدُسُ)

والكلالة في الأصل مصدر من الكلال بمعنى التّعب ، ثمّ استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد ، وتطلق على ميّت لم يخلف والداً ولا وَلَدا ، وعلى وارث ليس بوالد ولا ولد أيضا . يعني وإن وجد رَجُلٌ

أو امرأة من المتوفّين حالكونه كلالة أي لم يخلف والدا ولا ولدا وإنما أخلف من الحواشي ، وله أي للرجل أو لكل منهما اخ مِن الأم ، أو أختٌ منها ، وعلى هذا التقييد جمهور المفسرين حتى إنّ بعضهم حكى الإجماع عليها (فلكل واحد منهما) أي من الأخ والأخت (السدس) أي سدس التركة من غير فرق بين الذكر والأنثى .

(فإنْ كانُوا أكْثَرَ مِنْ ذلِكَ) المذكور وهو أخ أو أخت ولو بواحد (فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ) يقتسمونه فيما بينهم بالسوية وهذا مما لا خلاف فيه لأحد من الأئمة ، والباقي لباقي الورثة من ذوي الفروض والعصبات ويأخذ كل نصيبه (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بها) من المتوفى (أوْ دَينٍ) عليه (غَيْرَ مُضَارٍّ) بأن يكون ناشئا عن إقراره بالحقّ وتكون الوصية بمقدار الثلث أو أقل من ذلك (وَصِيَّةً مِنَ اللهِ) مصدر مؤكد أي يوصيكم الله بذلك وصيّةً ، والتنوين للتفخيم (واللهُ عَليمٌ) بالمضار (حَليمٌ) لا يعجل بالعقوبة .

(تِلْكَ) الأحكام المذكورة في شئون اليتامى والمواريث (حُدُودُ اللهِ) أي شرائعه وأحكامه المحدودة المعينة لا يجوز أن يتجاوزها المكلف اختيارا (ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ) في الأوامر والنواهي (يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها) أي من تحت أشجارها (الأَنْهَارُ) الصافية السيالة بانحدار (خالِدِينَ فِيهَا) أي حالكون الداخلين فيها مقدرين الخلود فيها (وَذلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ) أي وذلك الدخول مع الخلود في جنات وصلت كهبات الفوز العظيم الظفر بالخير من الله الكريم (ومَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ، ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً) عظيمة (خَالِداً فِيهَا ولَه عَذَابٌ) مستمر (مُهِينٌ) مُذِلٌ .

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً(١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ، فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً(١٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)(١٨)

قوله تعالى : (واللاتي يأتين الفاحشة) الآية وجه المناسبة لذكرها هنا أنه لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالجميل وما يتصل بهذا الباب ضم إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة فإن ذلك في الحقيقة إحسان إليهنّ • ومن جهة أخرى إن وفاة الآباء انقلاب عظيم في العائلات فربما إذا استقل الأولاد والبنات بالتصرف في ما أصابهم من التركة وقل الخوف من الناس لفقد الآباء أخذ الأولاد في صرف المال في المغريات والأحوال الفاسدة والبنات في سوء الأعمال من حيث إقتضاء النفس فيذكر الباري سبحانه وتعالى بعد ذكر المواريث أحكامَ الأعمال الغير المشروعة الناشئة منهم ومنهن ، وبما أن النساء هنّ المبدأ الأول لبعض الأعمال الفاحشة لأنه بدون ميلهن لا يتيسّر إقدام الشباب عليها قدّمَ أحكامهن • وقال : (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم) أي النسوة اللاتي

يباشرن الأعمال القبيحة المنكرة الفاحشة من نسائكم أيها المؤمنون سواء كن أزواجا لكم أو ثيبات فارغات عن الأهل (فاستشهدوا عليهن أرْبَعَةً) عدولا من رجالكم الأحرار لأنه مضت السنة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخليفتين بعده أن لا تقبل شهادة النساء في الحدود واشترط الأربعة في شهادة الزنا تغليظا على المدعي وسترا على العباد • وهذا الحكم مربوط بالمحصنات سواء كن في عهد سترهن بالأزواج أو بعده • (فإن شهدوا) عليهن بإثبات الفاحشة على الوجه المشروط (فأمسكوهن في البيوت) أي إحبسوهن فيها (حتى يتوفيهن) ملائكة (الموت) أو (يجعل الله لهن سبيلا) أي مخرجا من الحبس بما يشرع لهن من الحدّ • أخرج الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما عن عبادة بن الصامت قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه الوحي كرُبَ لذلك واربدّ وجهه، فأنزل عليه ذات يوم فلما سرى عنه قال : خذوا عنّي قد جعل الله لهنّ سبيلا ؛ الثيب جلد مائة ورجمٌ بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة • وروى إبن جرير عن السدي كانت المرأة في بدء الإسلام إذا زنت حُبست في البيت وأخَذَ زوجُها مهرها حتى جاءت الحدود فنسختها • والنسخ ورد بطرق كثيرة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ، والناسخ عند بعض آية الجلد على ما في سورة النور وعند آخرين إن آية الحبس نسخت بالحديث ، والحديثُ منسوخٌ بآية الجلد ، وآيةُ الجلدِ بدلائل الرجم •

(واللذان يأتيانها منكم) المراد بهما الزاني والزانية بطريق التغليب البكران ، أي غير المتزوج وغير المتزوجة ، ويؤيد ذلك خفة عقوبتهما إذ ذاك ؛ فإن الإيذاء أخف من الحبس المخلد (فآذُوهُما) أي فاستشهدوا على عملهما المنكر بأربعة رجال أحرار عدول ، فإن شهدوا عليهما فآذوهما بالتعيير والتوبيخ والضرب بالنعال ، (فإن تابا) عما فعلا من الفاحشة

(وَاَصْلَحَا) عَمَلَهما بعد التوبة (فَأعرضوا عنهما) وكُفّوا عن إيذائهما (إِنّ الله كانَ توّاباً رحيماً) أي مبالغا في قبول التوبة واسع الرحمة • وهذه الآية أيضا منسوخة بآية الجلد في سورة النور • والحاصل إن الزناة من الأبكار في صدر الإسلام إذا كانوا من الأبكار كان الحكم الجاري عليهما الإيذاء ، وإذا كانوا من المتزوجين والمتزوجات فحكمهما هو الحبس ، لكن للنساء بنص الآية ، وللرّجال بالمعنى •

ومن الناس من يقول إن حكم الرجال كان هو الإيذاء مطلقا أي محصنا أو بكرا وذلك لأن الرجل مكلف بالكسب لتحصيل المعيشة لنفسه ولمَمونه ثم نسخ الحكمان للأبكار بالجلد الوارد في سورة النور ، وللمحصنين بدلائل الرجم ، وهي سنة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهي جرت لهما بالرجم بلا جلد بدليل أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم رجم ماعزاً والغامدية أي المرأة المنسوبة إلى غامد من جُهينه • وبقوله ــ عليه السلام ــ لأنَيْس : « أغد على إمرأة هذا فإن إعترفت فارجمها » ولم يذكر الجلد •

وقوله تعالى : (إنما التوبة على الله) هذه الآية عامة لكل من عمل ذنبا • واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) وقد وعد الله سبحانه وتعالى بقبول توبة عبده إذا كانت بشروطها المصححة لها وهي أربعة : الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها ، ورد المظالم بقدر الإستطاعة• وزاد بعض أن تكون حياء من الله لا من جهة خوف من أحد أو إختلال صحته ، أو ضيق ماله وحالته الإقتصادية • وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها وإن شاء لم يقبلها • وليس قبولها واجبا عليه ، ووعده به مقيد بمشيئته في آيات •

ويظهر من الآية الكريمة أيضا أن من شرائط صحة التوبة أن لا يؤجلها إلى قرب إتيان الأجل بالوقوع في الإحتضار ، وإلا فهي توبة اليأس وتكون غير مقبولة كإيمان اليأس حيث يقول الباري : (إنما التوبة على الله) أي التوبة المرفوعة من الملائكة الكرام الكاتبين المعروضة على الله (للذين يعملون السوء) من القول والفعل صغيرا أو كبيرا (بِجَهالَةٍ) أي بِسَفَهٍ وارتكابِ ما لا يليق بالعاقِلِ (ثم يتوبون من قريب) أي من زمان قريب منه وهو ما قبل حضور الموت (فأولئك) التائبون (يتوب الله عليهم) يعطف الله ويتفضل عليهم بقبول توبتهم وكان الله ولم يزل عليما بإخلاص المخلصين حكيما في قبول توبتهم وغفران ذنوبهم (وليست التوبة) المرفوعة إليه والمعروضة عليه (للذين يعملون السيئات) على تلك الجهالة ويستمرون عليها (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن) عما جرى مني في ما كان لأن ذلك الآن ملحق بأوان الآخرة التي ليس فيها إلا جزاء ما كان (ولا الذين يموتون وهم كفار) في الواقع ومؤمنون منافقون في الدنيا ، فإن توبتهم وإن كان قبل الإحتضار لا إعتبار بها لأنها توبة لسانية صرفة لا أصل لها في القلب (أولئك) التائبون من الفريقين فريق المؤجل لها إلى وقت الإحتضار وفريق المنافق الكافر في الواقع والمؤمن في الجهار (أعتدنا لَهُم عذابا اليما) مؤلما أعاذنا الله من تأجيل التوبة إلى الإحتضار ومن النفاق الذي هو من شيمة الاشرار •

(يا اَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُموهُنَّ اِلاَّ أنْ يأتينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وعاشِرُوهُنَّ بِالمَعْروفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى اَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً(١٩) وَإِنْ اَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ

وآتَيْتُمْ إحْديهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً، أَتَأْخُذونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً ؟(٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)(٢١)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثو النساء) الآية كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على إمرأته وقال : أنا أحق بها ! ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها وإن شاء عَضَلَها لتفتدي بما ورثت من زوجها فنهوا عن ذلك ، فناداهم الله تعالى باهتمام وأعلن سلب الجواز عن هذه العملية النكراء ، وقال : (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) أي تستولوا عليهن كاستيلائكم على المواريث الواصلة إليكم بلا إختيار منكم وليست النساء كالمتاع ، أو كالحيوانات المملوكة ، أو مثل السبايا تأخذونهن وتتصرفون فيهن بما تشاءون ، بل إنهن نساء محصنات وحرائر محفوظات فعاملوهن بما قرره الله تعالى لهن وآتوهن حقوقهن من المواريث ، وإذا اعتددن ورغبتم في زواجهن ورغبن فيه أيضا فتزوجوهن بكرامة للنفس وسلامة لحقوقهن وقرروا لهن صداقا مستقلا، فإن الصداق من فروع العقد الجديد ولوازمهن من الفراق بالموت أو بالدخول المشروع وإذا رغبن في التزوج بغيركم من الرجال فلا تعضلوهن ولا تمنعوهن منه لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن فدية منهن مقدمة لكم لكسب إذنكم في زواجهن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، إستثناء من قوله : (ولا تعضلوهن) أي ولا تمنعوهن من التزوج بغيركم ولا تحبسوهن في البيت عندكم في أي وقت من الأوقات إلا وقت أن يأتين بفاحشة واضحة مثبتة بالشهود . ويجوز أن يكون إستثناء من أخذ الأموال المستفاد من قوله : (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعني لا تأخذوا منهن ما آتيتموهن من الميراث والحقوق التي أخذنها من تركة أزواجهن إلا أن يأتين بفاحشة

مبينة وهي الزنا ، كما ذهب إليه الحسن وأبو قلابة والسّدي ، فعند ذلك يجوز سلب الحقوق عنهن وأخذ ماعندهن من المال .

ثم إن كلامنا إلى الآن مبني على أن الخطاب مع الأولياء فإنهم كانوا يأخذون أزواج موتاهم كالإرث ولو كانت أزواج آبائهم . وقيل تم الكلام بقوله (كرها) . وقوله (ولا تعضلوهن) خطاب مع الأزواج سواء كانت زوجاتهم زوجات المتوفين منهم ثم تزوجوهن ، أو زوجات أخرى . فإنه كان من عاداتهم إذا كرهن زوجاتهن أن يهملوا رعايتهن فلا يبقين كزوجات معاشرات ولا يُطَلَّقْنَ حتى يتزوجن بغية إستيائهن من هذه الحالة وحتى يفدين عن أنفسهن بما عندهن من الحقوق المأخوذة من صداق وغيرها ، فيعطينها لأزواجهن فيطلقون سراحهن ، فنهاهم الله تعالى عن هذه العملية المشينة المخالفة للمروّة والكرامة وقال : ولا تعضلوهن للإفتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة مبينة ، وهي الزنا كما تقدم ، أو سوء العشرة مع الأزواج، ثم أمرهم الباري تعالى بالمعاملة الحسنة معهنّ فقال : وعاشروهن بالمعروف وهو طلاقة الوجه ، وحسن الكلام ، والإنفاق عليهن مدة بقائهن بما هو المعتاد . فإن كرهتموهن أي كرهتم معاشرتهن ومصاحبتهن فاصبروا وذوقوا مرارة تلك الكراهة فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا من أمانتهن في البيت وعفتهن عن المحرمات ، وولادتهن لولد ماجد راشد ، وتقوية أواصر المودة والمصاهرة مع ذويهن .

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) أي إن شق عليكم معاشرة زوجاتكم وأردتم استبدال زوجة مكان زوجة لكم وآتيتم إحداهن قنطارا في الصداق . فلا تأخذوا منه أي من ذلك المال الذي آتيتموهن شيئا ولو كان حقيرا . أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ أي أتأخذونهم باهتين آثمين .

(وكيف تأخذونه) أي تأخذون ذلك المال (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) بالدخول والخلوة والملامسة والملابسة (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) • أي عهدا وثيقا وهو حق الصحبة أو رعاية ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقونه فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان •

(وَلا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً(٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَبَناتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وعَمَّاتُكُمْ وخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ ، وَأُمَّهاتُكُمُ اللاَّتي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ • وَأُمَّهاتُ نِسَائِكم وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فِي حُجورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتي دَخَلْتُم بِهِنَّ ؛ فَإِنْ لَم تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، وَحَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ، وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً(٢٣)

الجزء الخامس

والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وأُحِلَّ لَكُمْ ما وَرَاءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ ، فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً)(٢٤)

واعلم أن الله سبحانه وتعالى بعد النهي عن سوء المعاشرة مع النساء والأمر بحسن معاشرتهن بالمعروف تعرض للنهي عن بعض الأنكحة المحرّمة للإبتعاد عنها ، ومما ينبغي التعرض له أن النكاح مسنون للتائق المشتاق إن وجد أهبته من مهر ، وكسوة فصل تمكين ، والنفقة الواجبة في يومه ، وذلك

تحصينا لدينه • ومكروه للتائق الفاقد للأهبة ، أي كراهة تنزيهية • ومكروه كراهة تحريمية لغير التائق الفاقد لهما ، أو الواجد لها وبه علة كهرم ومرض مخل بإعفاف الزوجة • وواجب على التائق الواجد للأهبة الخائف من الزنا ، لاسيما إذا كانت به شدة الشهوة ؛ صيانة لنفسه من الوقوع في المحرّمات • وحرام على غير التائق الفاقد للأهبة المعلول بما يمنعه من مباشرة النساء ، وغير المحتاج إلى خادمة يستأنس بها ، لاسيما إذا كانت المرأة شابة محتاجةً إلى الإعفاف غير صابرة على فقده •

ثم النكاح إما فاسد" وإما صحيح ، والصحيح إما مكروه أو حلال • وموجب الفساد إما النسب ، أو الرضاع ، أو المصاهرة ، أو الجمع ، أو التجاوز عن العدد المشروع ، أو الاشتباه أو الإشراك ، أو الرّدة ، أو سبب وقع في صلب العقد كما في نكاح الشغار ، والمتعة ، والنكاح وقت إحرام أحد الزوجين ، أو إنكاح وليين إمرأة من شخصين إن وقع العقدان معا ، أو مرتبا

وجهل السبق والمعية ، وكنكاح المعتدة ، والمرتابة في العدة بالحمل ، ونكاح المملوكة للناكح ... فبدأ الباري تعالى يذكر الشائع الكثير الوقوع منها وينهى عنها فيقول : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) الآية . أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال : كان الرجل إذا توفي عن إمرأته كان إبنه أحق بها أن ينكحها إذا شاء ، إن لم تكن أمّه ، أو ينكحها من شاء . فلما مات أبو قيس ابن الأسلت قام ابنه حصن فورث نكاح إمرأته ، ولم ينفق عليها ، ولم يورثها من المال . فأتت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فذكرت ذلك فقال لها : إرجعي لعل الله تعالى ينزل فيك شيئا . فنزلت (ولا تنكحوا) الآية . ونزلت أيضا (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) .

وذكر الواحدي وغيره أنها نزلت في حصن المذكور ، وفي الاسود بن خلف تزوج إمرأة أبيه ، وفي صفوان بن أمية بن خلف ، تزوج إمرأة أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب ، وفي منظور بن ريان تزوج إمرأة أبيه مليكة بنت خارجة ، واسم الأباء ينتظم الأجداد كيف كانوا باعتبار معنى يعمهما لغة لا باعتبار الجمع بين الحقيقة والمجاز .

وفي النهاية : إن دلالة الأب على الجد بأحد طريقين إما أن يكون المراد بالأب الأصل وإما بالإجماع، أي باعتبار الإجماع على حرمة نكاح من نكحها الجدّ، فتثبت حرمة ما نكحوها نصا وإجماعا، سواء كانت الأجداد من جهة الآباء أو الامهات . ويستقل في إثبات هذه الحرمة نفس النكاح أي العقد ، إن كان صحيحا ، ولا يشترط الدخول ، وإلى ذلك ذهب ابن عباس ، فقد أخرجه عنه ابن جرير والبيهقي أنه قال : كل إمرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل بها فهي عليك حرام . وإن كان النكاح فاسدا فلابد في إثبات الحرمة عند الشافعية من الوطء ، وعند الحنفية الوطء أو ما يجري مجراه من التقبيل والمس بشهوة مثلا ، بل هو المحرّم في الحقيقة حتى لو وقع شيء

من ذلك بملك اليمين • وأما اذا كان الوطء بالوجه المحرم ، وهو الزنا ، فتثبتُ به الحرمة عند الحنفية دون الشافعية •

وقوله (من النساء) بيان ما نكح • وقوله (إلا ما قد سلف) إستثناء من المعنى اللازم للنهي ، وكأنه قال : وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح أباؤكم إلا ما قد سلف أي سَبَقَ نزولَ الآيةِ ، فهو لا يُوجبُ العقابَ • (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) أي إن نكاحهن كان فاحشة عند الله مارخص فيه لأمة من الأمم ، ومقتا عند ذوي المروءات ، وساء سبيلا وطريقاً وعادة سبيل من يراه ويفعله ، وهذه الفقرة من المحرم بالمصاهرة • ولما نهى الباري عن تلك الأنكحة التي كانت متداولة بالفعل بين الناس في الجاهلية ومعتادة بينهم •• عقبه بذكر تحريم المحرمات نسبا فقال : (حرمت عليكم امهاتكم) والمراد تحريم نكاحهن ، وكل من ولدتك أو ولدت من ولدك بالذات أو الواسطة فهي أمك • (وبناتك) والبنات كل من ولدتها أو ولدت من ولدها ، وإن سفلت • وأخواتكم من الأبوين أو الأب أو الام ، وهي من ولدها أبواك أو أحدهما بالذات لا بالواسطة ، فإن ذات الواسطة تدخل في العمة والخالة وستأتيان • (وعماتكم) وهي كل أنثى وَلَدها مَنْ وَلَد من ولدك (وخالاتكم) وهي كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريبا أو بعيدا • (وبنات الأخ وبنات الأخت) من الجهات قريبة أو بعيدة • وهذه الفقرة من المحرمات بالنسب • ويخرج منها القرابة من الزنا عند الشافعية، وتدخل عند الحنفية كما هو مقرر • (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) ومثلهما في الحرمة بالرضاع البنات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت • قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » •

وأما مقدار الرضاع ففيه إختلاف الأئمة ؛ فقال الإمام أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : قليله وكثيره محرّم • وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : لا يثبت التحريم إلا بخمس رضعات مشبعات في خمسة أوقات متفاصلة عرفا • وعن أحمد روايتان توافق إحداهما مع الأول والأخرى مع الثاني • واستدل الشافعي بما أخرجه ابن حيان في صحيحه من حديث الزبير أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تُحَرِّم المصة والمصتان ولا الإملاجة والإملاجتان • ووجه الإستدلال بذلك أن المصة داخلة في المصتين • والإملاجة داخلة في الإملاجتين•وحاصله لا تحرم المصتان ولا الإملاجتان • واستدل بعض أصحابه بما رواه مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس رضعات معلومات • فتوفي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فيما يقرأ من القرآن • وكذلك في مدة الرضاع التي يتعلق بها التحريم خلاف ، فهي ثلاثون شهرا عند الإمام الأعظم • وسنتان عند صاحبيه • ومستندهما قوي جدا • وإلى ذلك ذهب الأئمة الثلاثة • ثم ينتشر التحريم من المرضع إلى أصولها وفصولها وحواشيها فتحرم البنت الرضيعة على أبي المرضعة وابنها وأخيها وغيرهم من العصبات ••• ويحرم على الولد الرضيع نكاح أمّ مرضعته وجدتِها ، وبنتِها ، واختِها ، وفروعهما • وكذلك ينتشر من صاحب اللبن إلى الأصول والفصول والحواشي المتوسطة • وأما من الرضيع فلا تنتشر إلاّ إلى فروعها • ونعم ما قيل في هذا المقام :

وينتشر التحريم من مرضع إلى ... أصول فصول والحواشي من الوسط

وممن له درّ إلى هذه ، ومن ... رضيع إلى من كان من فرعه فقط

فلا يحرم على المسلم مرضعة أخيه أو أخته ، أو مرضعة نافلتِه أي ولد ولدِه ، ولا أمّ مرضعةِ ولدِه ولا بنتها لأن حرمة الرضاع لا تسري من

الرضيع إلاّ إلى فروعها • وهذه الأربع يحرمن في النسب لا في الرضاع • ولا حاجة إلى إستثنائهن من قاعدة : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب؛ لعدم دخولهن في القاعدة لأنهنّ إنما حرمن في النسب لمعنى لم يوجد فيهن في الرضاع وهو الأمومة ، أو البنتية ، أو الأختية •

والحاصل ان سبب إنتفاء التحريم عنهن رضاعا إنتفاء جهة المحرمية نسبا ، أي لأنها لم تكن أما ولا بنتا ولا أختاً ولا خالةً • وزيد عليها أم العم، والعمة ، وأم الخال ، والخالة من الرضاع • وكذلك أم أخي الإبن وصورتها : إمرأة لها إبن إرتضع على إمرأة أجنبية لها ، فابن هذه أخو ابن الأولى ولا يحرم عليه نكاحها • ولا يحرم عليك أختُ أخيك ، سواء كانت أخته من نسب ، كأن كان لزيد أخ لأب وأخت لأم فيجوز لأخيه من أبيه نكاح أخته لأمّ ، أو أخته من رضاع كأن ترضع إمرأة زيدا وصغيرة أجنبية منه ، فيجوز لأخيه من أبيه نكاحها ، وسواء كانت الأخت أختَ أخيك لأبيك لأمّه كما مثلنا ، أو أخت أخيك لأمّك لأبيه • مثاله في النسب أن يكون لأبي أخيك بنت من غير أمك ، فلك نكاحُها وفي الرضاع أن ترضع صغيرة بلبن أبي أخيك لأمك فلك نكاحها •

(لطيفة) : قالوا في كلمة (أرضعنكم) من قوله تعالى : (وأمهاتكم اللاتي ارضعنكم) إعتناء واهتمام خمس مرات : الأولى بالإتيان بها فعلا • والثانية إسنادها إلى الفاعل أعنى ضمير جمع المؤنث • والثالثة تعلقها بالمفعول أعني ضمير المخاطبين • والرابعة جعلها جزء الجملة الواقعة صلة الموصول • والخامسة جعل الموصول بها صفة • يعني اللاتي أرضعنكم صفة للأمهات لأن وصفيته لها بإعتبار الصلة بلا شبهة • فهذه خمس ملاحظات للإرضاع في هذا التركيب تشير إلى أن ما به تحصل الأمومة

خمس رضعات • وهذا أحد الأسرار لاختيار هـذا التركيب مـع إمكـان تراكيب أخـرى •

وبعد ذكر المحرمات بالرضاع ذكر الباري تعالى المحرمات بالمصاهرة• والمصاهرة هي القرابة الناشئة من الزواج • والصهر أربع : أم المرأة وابنتها، وزوجة الأب ، وزوجة الابن • وتدخل في أم المرأة جداتها وإن علون ، وفي بنتها بناتها وإن سفلن • وفي زوجة الأب زوجات الأجداد مطلقا وان علوا • وفي زوجة الإبن زوجات الأحفاد وان سفلوا • وأم المرأة تحرم بمجرد العقد الصحيح على إبنتها بدون حاجة إلى دخول الزوج بها • ولكن بنت المـرأة لا تحرم بالعقد على أمها بل بالوطء فإذا وطأها ولو بشبهة حرمت عليه بناتها السابقة واللاحقة مطلقا •

قوله تعالى (وأمهات نسائكم) أي وحرمت عليكم أمهـات نسائكم المعقود عليهن عقدا صحيحا سواء دخلتم بهن أو لا • وسرّ هذا الإطـلاق إبتلاء أزواج البنات بالمكالمات مع أمهاتهن لغرض تهيئة الأمور اللازمة فـي القضية ، وليس ذلك محتاجا إليه في العقد على الأمهات•(وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهـن) أي بالأمهات (فلا جناح عليكم) يعني في نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو مُتْنَ عنكم •

وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج إمرأة ثم طلقها أو ماتت قبـل أن يدخل بها حل له نكاح بنتها • كما إتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم ، وإن لـم تكن الربيبـة في حجره • وشـذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر ، فقالوا : لا تحرم عليه الربيبة إلا أن تكون في حجر المتزوج بأمها ، فلو كانت في بلد آخـر وفارق الأم بعـد الدخـول فله أن يتزوج بها • واحتجوا بالآية ، فقالوا : حرم الله تعالـى الربيبة بشـرطين :

أحدهما أن تكون في حجر المتزوج بأمها . والثاني الدخول بالأم . فإذا عدم أحد الشرطين لم يوجد التحريم . واحتجوا بقوله ـ عليه السلام ـ عند سماعه أن النساء تكلمن أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد أن يتزوج برة بنت أم سلمة زوجته ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي . إنها إبنة أخي من الرضاعة » فشرط الحجر . ورووا عن علي ابن ابي طالب اجازة ذلك . قال ابن المنذر والطحاوي : أما الحديث عن علي فلا يثبت لأن راويه إبراهيم ابن عبيد عن مالك ابن أوس عن علي ، وإبراهيم هذا لا يعرف . وأكثر أهل العلم قد تلقوه بالدفع والخلاف . قال أبو عبيد : ويدفعه قوله ـ صلى الله عليه وسلم : « فلا تَعْرِضنَ عَلَيَّ بناتكن ولا أخواتكن » فَعَمَّ ، ولم يقل اللائي في حجري ولكن سوى بينهن في التحريم . قال الطحاوي : وإضافتهن إلى الحجور إنما ذلك على الأغلب مما تكون عليه الربائب لا أنهن لا يحرمن إذا لم يكن كذلك .

واختلفوا في معنى الدخول بالأمهات الذي يقع به التحريم للربائب فروي عن ابن عباس أنه قال : الدخول الجماع . وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما . واتفق مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث على أنه إذا مسها بشهوة حرمت عليه بنتها وامها وحرمت على الأب والابن وهو أحد قولي الشافعي . واختلفوا في النظر ؛ فقال مالك إذا نظر إلى شعرها ، أو صدرها ، أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وبنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة . وقال الثوري : يحرم إذا نظر إلى فرجها متعمدا أو لمسها ولم يذكر الشهوة .

خاتمة: والربائب: جمع ربيبة بمعنى مربوبة، وهي لغة : من دخل في تربية المربي ، وعرفا : بنات المرأة المزوجة من زوجها السابق صغيرةً أو كبيرة .

واعتقادي ان حرمة الربيبة لو كانت مقيدة بكونها في الحجر لقال الباري فإن لم يكن في حجوركن فلا جناح عليكم • كما قال في مقابل اللاتي دخلتم بهن : فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم •

قوله تعالى : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) الحلائل : جمع حليلة بمعنى الزوجة ، سميت حليلة لأنها تحل مع الزوج حيث حل ، او لحل التمتع بها • وقوله (أبنائكم) يدخل فيه أبناء الأبناء وإن سفلوا • وقوله : (الذين من أصلابكم) للإحتراز عن حلائل الأدعياء ، أي زوجات الذين تبناهم الأجانب ، وليس للإحتراز عن حلائل الأحفاد لشمول الأبناء للأحفاد، ولا للإحتراز عن حلائل أبناء الرضاعة • لقوله ـ عليه السلام ـ : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقد أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء ، وتحريم ما عقد عليه الأبناء على الآباء سواء كان مع العقد وطء أو لا • كما أجمعوا على تحريم حلائل الأبناء من الرضاع • واما حلائل الربائب فلا تحرم ؛ إذ ليست حلائل أبناء النسب ولا الرضاع •

ثم أخذ الباري سبحانه وتعالى يذكر المحرم بسبب الجمع وقال : (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) والجملة في محل الرفع عطف على أمهاتكم • أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين في العقد فقد نص الباري على تحريم جمعهما، وأجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح لهذه الآية • ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بناتِكنّ ولا أَخَواتِكن » واختلفوا في الأختين بملك اليمين فذهب كافة العلماء إلى أنه لا يجوز الجمع بينهما بالمِلك في الوطء وإن كان يجوز الجمع بينهما في الملك • وكذلك يحرم الجمع بين امرأتين بينهما نسب أو رضاع لو فرضت إحداهما ذكرا حَرُم تناكحهما ، كامرأة وبنتها ، وامرأة وأمها ، وامرأة وعمتها ، وامرأة وخالتها بالذات أو بالواسطة ، كالجمع بين امرأة

وخالة أمها أو أبيها ، والجمع بين امرأة وعمة أبيها أو أمها . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا العمة على بنت أخيها ، ولا المرأة على خالتها ، ولا الخالة على بنت أختها ، لا الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى » رواه أبو داود وغيره . وقال الترمذي : حسن صحيح . ومن كانت تحته امرأة فطلقها فإن كان الطلاق رجعيا لا يجوز العقد على أختها أو خالتها أو عمتها حتى تنقضي عدتها إتفاقا ، وإن كان الطلاق بائنا جاز ذلك عند الشافعي قبل انقضائها ويحرم عند أبي حنيفة حتى تنقضي العدة .

وخرج بقيد : بينهما نسب أو رضاع المرأة وأمتها ؛ فيجوز جمعهما وإن حرم تناكحهما لو فرضت إحداهما ذكرا . والمصاهرة فيجوز الجمع بين إمرأة وأم زوجها السابق أو بنته من غيرها وإن حرم تناكحهما لو فرضت إحداهما ذكرا . وكذا يجوز الجمع بين إمرأة الرجل وربيبته من غيرها وبين أخت الرجل من أمه وأخته من أبيه . فان وقع الجمع بعقد واحد بطل أو كذا بعقدين جهل السبق والمعية بينهما ، فإن علم السابق فهو الصحيح .

وقوله : (إلا ما قد سلف) إستثناء من المعنى المستفاد من النهي ، أي فعليكم العقاب على هذه العقود ، إلا عقدا قد سلف وسبق على نزول الآية فلا عقاب عليه وإنما يجب التنازل والفرقة على ماذكرنا . وقوله : (إن الله كان غفورا رحيما) أي لما سلف منكم في الجاهلية . فإن قيل : عهد الجاهلية كان عهد الفترة ولم تكن شريعة إذ ذاك والمغفرة تكون على ذنب أرتكب عند وجودها . قلنا : إن تحريم جمع الأختين كان من الشرائع السابقة وعلمه كثير من الناس ، ولذلك عدّ إرتكاب الجمع ذنبا فتناسبه المغفرة .

قوله تعالى : (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) الآية . عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم (أوطاس) لهن أزواج فكرهنا

أن نقع عليهن فسألنا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ • فنزلت والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم •• فاستحللناهن" •

والإحصان في المرأة ورد في اللغة واستعمل في القرآن بأربعة معان : الإسلام ، والحرية ، والتزوج ، والعفة • وزاد الرافعي العقل لمنعه من الفواحش • والمحصنات في الآية الكريمة هنا بمعنى المتزوجات ، وهي معطوفة على ما قبله من المحرمات • وأجمع القراء كما قال أبو عبيدة على فتح الصاد هنا أي الحرائر ذات الأزواج اللاتي احْصنهن الأزواج أو التزويج • وقرأ الكسائي بكسر الصّاد في جميع القرآن لأنّهن أحْصَنّ فروجَهن • فرواية الفتح عنه لا تصح • فالقراءة الاولى على أنها إسم مفعول ، والثانية على أنها إسم فاعل • وقيل القراءة الأولى أيضا على معنى إسم الفاعل حيث قال ابن الأعرابي" : كل فعل على أفعل فاسم فاعله بكسر العين إلا ثلاثة : احْصَنَ ، وألفج إذا ذهب ماله ، واسهَب إذا كثر كلامه •

يعنى وحرمت عليكم النساء المُحصنَات ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيمانكم من اللائي سُبين ولهن أزواج كُفار ، فهن حلال للسابين والنكاح مرتفع بالسبي • لكن يشترط في جواز وطئهن الإستبراء بحيضة • قال : ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبايا أوطاس : ألا لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة • رواه أبو داود وغيره وصححه الحاكم على شرط مسلم • وقاس الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بالمسبية غيرها بجامع حدوث الملك ، وألحق من لم تحض أو أيست بمن تحيض في إعتبار قدر الحيض والطهر غالبا وهو شهر • واشترط أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ في جواز الإستمتاع بها أن تسبى وحدها وإلا فاذا سبيت مع زوجها لا توطأ •

(كتاب الله عليكم) مصدر مؤكد أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتابا وأحل لكم ماوراء ذلكم : عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله، أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء وأحل لكم ماوراء ذلكم، أي ماسوى المحرمات المذكورة . وفي معناها ما حرم بالسنة من الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كما ذكر سابقا . وقوله : (أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) مفعول له لقوله وأحل لكم أي وأحل لكم ما وراء تلك المحرمات لأجل أن تبتغوا بأموالكم النساء التي طابت لكم وتتزوجوها حالكونكم محصنين أنفسكم من الزنا ، وغير مسافحين أي غير زانين . وقوله فما استمتعتم به منهن يعني فمن تمتعتم به منهن من المنكوحات (فآتوهن أجورهن) أي فأعطوهن مهورهن وتسميتها بالأجور لأن المهر في مقابلة الإستمتاع كالأجرة حالكون ما آتيتموهن (فريضة) واجبة مقررة من الله بالتسمية في العقد والموت ، أو بالتسمية والمباشرة . ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . أي ولا عتب عليكم فيما توافقتم عليه من النفقات وسائر المصروفات من بعد ايتاء المهر المفروض . إن الله كان عليما حكيما : أي إنه تعالى كان ولم يزل عليما بالمصالح وحكيما فيما شرع من الأحكام .

فالآية الكريمة على ماذكرنا في النكاح المشروع المؤبد ولوازمها من المهور والنفقات وكثرتها وقلتها حسب تراضي الزوجين الرشيدين أو ولي أمرهما أو نفس أحدهما وولي أمر الآخر ، كما هو المقرر في الدين .

وقيل : الآية في المتعة وهي النكاح إلى أجل معلوم من يوم أو أكثر . والمراد بقوله : (ولا جناح عليكم) الآية أنه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من إستئناف عقد آخر بعد إنقضاء الأجل المذكور في عقد المتعة بأن يزيد الرجل في الأجر وتزيد المرأة في المدة . وأيدوا نزول الآية فيها بقراءة أُبَيّ

(فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) وكذلك قرأ ابـن عباس وابـن مسعود ـ رضي الله تعالى عنهم ـ • والكلام في ذلك مشهور •

ونقول : أولا لا يثبت القرآن بخبر الآحاد ، فلا تكون قراءة أولئـك الأشخاص كحجة ثابتة •

وثانيا : لا نزاع عندنا في أن نكاح المتعة كان جائزا ثم حرّم ، فـإن الحق الحقيق بالقبول أن المتعة أحلّت قبل واقعة خيبـر ثم حرمـت يـوم خيبـر ، ثـم أبيحـت بعـد فتـح مكـة يـوم اوطـاسٍ ، ثم حرمت تحريمـا مؤبـدا إلـى يـوم القيامـة لمـا روي أنـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالإستمتاع من هـذه النساء إلا أن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة • ويقرر ذلك قوله تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين • فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ومعلوم أن المستمتع بها ليست مملوكة وذلك ظاهر ، وليست زوجة لعدم تقرر حقوق الزوجة مـن النفقـة والإرث وغيرها • فهذه الآية دالة" على تحريم المتعة قطعا لأنها حصرت جواز صرف الفروج في الأزواج والمملوكات ملك يمين ، فإذا لم تكن المتمتع بها مملوكة وهو ظاهر بديهي ، ولم تكن زوجة من الزوجات الأربـع لانتفـاء جميع لوازم الزوجية كالميراث والعدة والطلاق والنفقة ••• ظهر أنَ مَـنْ صرفَ الفرجَ فيهـا فقد اَذنبَ وأجرم وخرج عن حَصار الحصـر المدلول للآية الكريمة • وقد روى أبو نصير من علمائهم في صحيحه عن الصـادق ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن امرأة المتعة : أهي من الأربع ؟ قال : لا ولا من السبعين ! وهو صريح في أنهـا ليست زوجـة وإلا لكانت محسوبة في الأربـع •

والآية الآتية أعني قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) دليل على بطلان المتعة بعد إعلان تحريمها لأن الله تعالى أمر فيها بالإكتفاء بنكاح الإماء عند عدم الطَّوْلِ إلى نكاح الحرائر ؛ فلو كانت الآية السابقة نازلة في حل المتعة لما قال سبحانه بعدها (ومن لم يستطع) الآية لأن المتعة في صورة عدم الطول المذكور ليست قاصرة في قضاء حاجة الجماع بل كانت بحكم لكل جديد لذة أطيب وأحسن ، على أن المتعة أخف مؤنة فإنها مادة يكفي فيها قليل من المال . فأية ضرورة تدعو إلى نكاح الإماء ؟!

وحكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ انه كان يقول بحلها ثم رجع عن ذلك حين قال له عَليٌّ كرَّم الله وجهه : إِنك رَجُلٌ تائِهٌ ! إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن المتعة .

وفي صحيح مسلم ما يدل على أنه لم يرجع حين قال له عليٌّ ذلك بدليل أنه بعد وفاة سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ وقع بينه وبين عبدالله بن الزبير نقاش على الموضوع ، وكان عبدالله ابن عباس على حلها إلى وقت متأخر ، ثم رجع عن ذلك على ما رواه الترمذي والبيهقي والطبراني عنه ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : إنما كانت المتعة في أول الإسلام كان الرجل يَقدِمُ البلدةَ ليس له بها معرفة ، فيتزوج المرأة بقدر ما يَرى أنه مقيم بها فَتحفظ له متاعه ، وتصلح له شأنه ، حتى نزلت الآية . (إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) فكل فرج سواهما فهو حرام .

وبقي هنا من المحرمات أعداد :

الأولى : المحرمة للإشتباه فيها . فإذا وقعت مرأة من المحارم كالبنات والأخوات في عدد محصور من الأجنبيات حرم نكاح ايَّةِ واحدةٍ منهن . والمحصور كعشرين ومائة ومائتين وثلثمائة .

الثانية : المرتدة ، فلا يصح نكاحها حتى تعود إلى الإسلام •

الثالثة : المحرّمة لشيء واقع في العقد مانع عنه كالمنكوحة بصورة نكاح الشغار ، للنهي عنه في خبر الصحيحين وهو كأن يقول : زوجتك بنتي على أن تزوجني بنتك وبُضع كل منهما صداق الأخرى • فنكاح كلتا البنتين باطل • وسرّ بطلانه التشريك في بضع كل من المزوجتين لجهتين : الأولى جهة الزوج ، والثانية جهة المرأة المقابلة ، فإن بضع المزوجة قرر عائدا لزوجها وصداقاً لتلك المقابلة فإذا ترك العاقد ذلك وقال : زوجتك بنتي على أن تزوجني بنتك فقيل صح النكاحان ولكل واحدة من البنتين مهر مثلها •

الرابعة : المحرمة بذكر التوقيت في نكاحها كأن يقول : زوجتك بنتي لمدة سنة مثلا فيقبل • وذلك لورود النهي عنه وإعلان تحريمه من طرف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد غزوة أوطاس عام الفتح •

الخامسة : المُحَرمَة بالإحرام لأحد الزوجين أو كليهما لخبر مسلم (لا ينكح المحرم ولا تنكح) •

السادسة : المحرمة لدخولها في العدة أو في مدة الإستبراء لجارية حدث ملكها •

السابعة : المحرمة لوقوع الريب في كونها حاملا لنحو ثقل وحركة في البطن •

الثامنة : المحرمة لكونها كافرة غير كتابية كالمجوس والوثني •

التاسعة : المحرمة عن النكاح لكونها مملوكة لناكحها •

العاشرة : المحرمة للشخص لكونها مطلقة بالثلاث منه •

الحادية عشرة : المحرمة لمن عنده العدد المشروع من الزوجات كالخامسة لمن تحته أربـع •

الثانية عشرة : المحرمة عن زوجها باللعان •

الثالثة عشرة : المحرمة للإجتماع مع خالتها أو عمتها ، أو للاجتماع مع بنت أختها أو بنت أخيها • وليست شيء منها في آية التحريم •

فإن قلت : إذا صح ما ذكرتم من حرمة النساء في هذه الصور الثلاث عشرة والحال أنها داخلة في قوله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) فما حصر تفسيره بالوجه المناسب ؟ قلت : تفسيره موقوف على أن تعلم أن قوله تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم) الآية نزلت على تحريم الأنكحة الفاسدة المشينة التي اعتادها الناس ؛ كنكاح زوجة الأب التي هي سبب النزول وأمثالها • وإن تحريمها تحريم مؤبد ، وإن قوله تعالى : (واحل لكم) رفع لذلك التحريم المؤبد في غير ما اندرج في المذكورات سابقا • وإن المراد بقوله : (ما وراء ذلكم) من لم تذكر حرمته في موضع آخر من القرآن الكريم ، ولم يكن في معنى ما ذكر في قوله (حرمت عليكم) •

وإذا علمت ذلك فاعلم أن تفسير قوله تعالى : (حرمت عليكم) الآيات أنه حرمت عليكم حرمةً مؤبدةً هذه النساء المربوطة بكم نسبا أو رضاعاً أو مصاهرة • والجمع بين الأختين والمحصنات ذوات الأزواج، وأحل لكم أي رفع عنكم التحريم المؤبد (في ماوراء ذلكم) مما لم يدخل في معنى ما سبق من الجمع بين المرأة وأمها أو وبنتها أو وخالتها أو وعمتها أو عكوسها ، فإنه في حكم الجمع بين الأختين لوجود علة التباغض في جميعها عند الجمع • وما لم يذكر في موضع آخر كالمشركات سواء لم يكن فيها حرمة قطعا كنكاح

المسلمات الخالية عن الموانع ، أو فيها حرمة قابلة للرفع فإن حرمة الخامسة ترفع عند موت إحدى الزوجات الأربع أو طلاقها . وحرمة المطلقة ثلاثا ترفع بعد التحليل ، وحرمة المرتدة لا تبقى بعد الإسلام ، وحرمة المحرِمة تزول بعد التحلل من الإحرام ، وحرمة المشركة لا تبقى بعد إسلامها ، وحرمة الملاعنة لا تدخل في الموضوع ، وإنما هي شيء حدث بعد نزول هذه الآيات في صورة أخرى فاغتنم ذلك فإنه مهم جدا .

(وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٥) يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٢٦) وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً(٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)(٢٨)

قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا) الآية كلمة من إما شرطية أو موصولة . والطول الفضل والزيادة . والمراد به هنا الغنى والإستعلاء . فهو إما مفعول به أو مفعول لأجله أو تمييز من نسبة الفعل إلى مَنْ . والمعنى : ومن لم يستطع منكم طولا أي زيادة في المال لأن ينكح المحصنات

المؤمنات أي الحرائر المؤمنات ، بدليل المقابلة بالمملوكات • (فمن ما ملكت أيمانكم) : جواب الشرط أو خبر الموصول ، والفاء على خبره مقبول أي فلينكح مما ملكتها أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، أي من إمائكم المؤمنات، واكتفوا بإيمانهن في الظاهر ، لأن الظاهر هو الممكن للإطلاع عليه ، والله أعلمُ بإيمانكم وإيمانهن في الباطن • فهذه الجملة معترضة جيىء بها ترغيبا في نكاح الإماء ببيان أن مناط التفاخر الإيمان دون الأنساب • وقوله تعالى : (بعضكم من بعض) جملة معترضة أخرى مؤكدة للرغبة فيهن من حيث أنكم وفتياتكم متناسبون من حيث الدين ومن حيث النسب ، ولا نظر إلى وقوعهن في الأسر وتملك الغزاة لهنّ (فاذا نكحتموهن فآتوهن أجورهن) أي مهورهن لكن بإذن مالكيهن ، بالمعروف من غير مماطلة وتسويف •

وذكر الباري سبحانه محصنات للترغيب في إختيار العفائف منهن أي أنكحوهن وآتوهن مهورهن حالكونهن عفائف عن الفساد ، غير مسافحات أي غير مجاهرات بالزنا في أماكن معلومة يدخل عليهن الفساق ، ولا متخذات أخدان أي ولا زناة متخذات أصحاب سوء للزنا سرّا في محل لا يعلم به الناس • فإذا أُحْصِنّ بنكاحكم لهنّ فإن اَتَينَ بفاحِشَةٍ أي فإن فعلن فاحشة ، وهي زنا ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب • أي نصف ما على المحصنات الحرائر وهو خمسون جلدة ، ولا رجم عليهن ؛ لأن حدهن على النصف والرجم لا يتنصف • ذلِكَ لِمَنْ خشي العنت منكم ، أي ذلك المذكور من اِباحة نكاح الإماء المؤمنات لِمَن خشي الزنا منكم ممن لا يستطيع مَهْرَ الحرّة • وَاَنْ تَصْبِرُوا عن نكاح الإماء متعفّفين بالصيام خير لكم من نكاحهن، لأن نكاح الإماء يوجب إرقاق البنين والبنات المتولدين منهن وعودهن مملوكين ومملوكات للملاّك ، ولعدم كمال الإستفادة منهن لانشغالهن بخدمة السادة في النهار وإتيانهن إليكم بالليل

فقط . والله غفور لمن لم يصبر عن نكاحهن رحيم بكم وبهن في هذه الرخصة لإستفادة الجانبين .

وضبط باب التمتع بالنساء هو أنه إما بالنكاح ، أو بملك اليمين . أما النكاح فإن كان نكاح المسلمات فالأمر معلوم ، وإن كان نكاح غيرهن من الكافرات الكتابيات فهو جائز بشرط أن يكنّ حرائر كتابيات مطلقا عند بعض الأئمة ، وبشروط خاصة عند بعض كالامام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ ومن معه . وأما الكافرات اللاتي لا كتاب لهن كالمشركات والمجوسيات فلا يجوز نكاحهن بالإجماع إلا بعد إسلامهن ، وإن كن إماءً فكذلك . أما اذا أسلمن فيجوز نكاحهن بشرط خوف العنَت وفقدان مهر الحرة . وأما الوطء بملك اليمين فاتفقوا على جواز وطء الكتابيات بعد الإستبراء . وأما ان كانت مجوسية أو عابدة الوثن ممن لا يحل نكاح حرائرهم فجمهور الأئمة على منع وطئهن بملك اليمين . قال ابن عبدالبر : وعليه جماعة فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، وما خالفه فهو شذوذ لا يعد خلافا ولم يبلغنا إباحة ذلك إلا عن طاوس .

قال ابن القيم الجوزي في زاد المعاد ما نصه : دل القضاء النبوي على جواز وطء الإماء الوثنيات بملك اليمين ، فإن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات ، ولم يشترط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وطئهن إسلامهن ، ولم يجعل المانع منه إلا الإستبراء فقط . وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع ، مع أنهم حديثو عهد بالإسلام ، ويخفى عليهم حكم هذه المسألة ، وحصول الإسلام من عدة آلاف من السبايا بحيث لم يتخلف عنهن واحدة في غاية البعد . فمقتضى السنة وعمل الصحابة في عهد رسول الله جواز وطء المملوكات على أي دين كنّ . وهذا مذهب طاوس وغيره وقواه صاحب المغني ورَجح أدلته . والله أعلم .

وقوله تعالى (يريد الله ليبين لكم) هذا التركيب، أي تركيب إتصال اللام والفعل المنصوب بقوله سابقا • يريد شائع بين العرب قديما وحديثا • وفي تخريجه أقوال • فمنهم من قال : إن مفعول يريد محذوف ، واللام لام التعليل أو العاقبة ، أي ذلك لأجل التبيين ونسب هذا التخريج إلى سيبويه ، فمتعلق الإرادة غير التبيين ، أي يريد الله تعالى تشريع الأحكام لأجل التبيين وإيضاح المنهج • ومنهم من قال : إنه إذا قصد التأكيد في ربط الكلام جاز ربط الإرادة باللام من غير ضَعف ، وسَمى صاحبُ اللباب اللام هناك لامَ التكملة وجعلها مقابلة للام التعدية • أي يريد الله تعالى تبيين المنهج لكم • ويهديكم سنن الذين من قبلكم عطف على الفعل ، أي ويريد هدايتكم وإرشادكم إلى مناهج من تقدمكم من حيث النوع أي كما ان الله حرم عليهم أشياء وأحل لهم أشياء وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي كذلك أنزل عليكم الاحكام أمرا ونهيا • ويتوب عليكم ويغفر لكم ذنوبكم والله عليم بأعمالكم وحكيم في وضع الأحكام ومغفرة الذنوب • ويريد الذين يتبعون الشهوات النفسية ويعملون بمقتضاها أن تميلوا عن الحق ميلا عظيما بالنسبة إلى المخطئين المعتدلين • يُريدُ الله أن يُخَفِف عَنكم أثقال الذنوب فلذلك شرع لكم الشريعة الحنفية السمحة • وَخُلِقَ الأِنسانُ ضَعيفاً عاجزا عن مخالفة نفسه وهواها وغير قادر على مقابلة الدواعي السيئة المُسيئة • ولذلك شرع له نكاح الإماء عند خوف الزنا إذا كان غير قادر على مهر الحرائر •

وعن سعيد بن المسيب : ما أيس الشيطان قط من بني آدم إلا أتاهم من قِبَل النساء ، فقد أتى عليّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى ، وإنّ أخوفَ ما أخاف عليّ فتنة النساء • وعنه أيضا ـ رضي الله عنه ـ : ثماني آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه

الشمس وغربت : (يريد الله ليبين لكم ، والله يريد أن يتوب عليكم ، يريد الله أن يخفف عنكم ، إن تجتنبوا كبائر ماتنهــون عنه ، إن الله لا يغفــر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، إن الله لا يظلم مثقــال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ، ما يفعل الله بعذابكــم إن شكرتم وآمنتم ؟)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً(٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً(٣١) وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ،لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٣٢) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)(٣٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) بما لم يرتض به الدين كغصب العدوان ، وغصب الحياء ، والربا ، والغــش في المعاملة ، والمُقامَرَة ، والإستيلاء على النفوس الضعيفة بايهامها وجود صفات عالية فيكم وأنتم فارغون منها وغير ذلك مــن طرق أكــل أمــوال الناس (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) إستثناء منقطع ، أي لكــن

إذا كانت طريقة أخذ أموالهم تجارة ناشئة عن تراض منكم بعضكم مع بعض أو شيئا يشابهها كأخذها بطريق الأجرة عن عمل أو هدية أو هبة مقبوضة أو جعالة بأن يقرر لكم جعل معلوم في مقابل عمل تقومون به ، أو نصيبا لكم يخصكم من سهم المصالح من الغنائم أو ما تستحقونه من الفيء أو أشباهها ، وكما لا تأكلون أموالكم بينكم بالباطل (فلا تقتلوا أنفسكم) بالإمتناع عن أكل أموال الناس اذا جاءتكم بطريقة مشروعة ، ولا تقتلوها بالإمتناع عن أكل الطيبات من الأقوات واللحوم والأدهان والفواكه المباحة فإن الإسلام بريء عن الإفراط والتفريط وعن الإسراف والتقتير • أو لا تقتلوها بالرياضات الشاقة الغير المشروعة وأما الصيام الزائد على الفرائض من صوم رمضان والكفارات والنذور فلا بأس بها بمقدار لا يمنعكم عن إكتساب ما وجب عليكم من النفقات والواجبات الشرعية (أو لا تقتلوا أنفسكم) بإلقائها في التهلكة بدعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما لم يتحقق وجوبه عليكم بالشرع ، أو لا تقتلوا إخوتكم في الدين الذين يعتبرون كأنفسكم • وقد ورد في الحديث الشريف المؤمنون كالنفس الواحدة ، أو لا تهلكوا أنفسكم بارتكاب الجرائم والموبقات، أو لا تقتلوا أنفسكم بالمغالاة في الدين كاستعمال الماء البارد في الوقت البارد مع أن الشرع رخص لكم في التيمم •

وقوله : (إن الله كان بكم رحيما) تعليل للنهى المذكور يعني أنه سبحانه وتعالى لم يزل رحيما ، ومن رحمته بكم نهيكم عن قتلكم لأنفسكم • وقوله : (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما) أي ومن يفعل تلك المنهيات المذكورة والمحرمات المتقررة عدوانا وتجاوزا عن الحد المقرر في الدين وتجاوزا وتعديا على النفس (فسوف نصليه نارا) أي فندخله يوم القيامة نارا محرقة يتعذب بها (وكان ذلك على الله يسيرا) أي وكان إدخاله النار

يوم القيامة هيّنا سهلا على الله تعالى ، ولا مانع منه . وقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر) الآية أي إن تتركوا وتبتعدوا عن إرتكاب كبائـر ما تنهون عن إرتكابه (نكفر عنكم) اي نستر عليكم ونغفر لكم سيّآتكم الصغائـر وندخلكم مدخلا كريما أي وندخلكم الجنة إدخالا محترما ، على أن يكون مدخلا مصدرا . وإذا كان إسم مكان فالمراد به الجنة كما ذكرنا وكرامتهـا معلومة من ثناء الله تعالى عليها في كثير من الآيات .

واختلفوا في الكبائر فضبطها بعضهم بالعـدّ وقـال : إنهـا سـبع ويُستَدل له بخبر الصحيحين : « إجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الرّبا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » وفي رواية لهما : الكبائر الإشراك بالله تعالى ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، زاد البخاري واليمين الغموس ، ومسـلم بدَلَها : وقـول الزور . وروي عن ابن عمر حين سئل عن الكبائر سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « هُنّ تسع : الإشراك بالله ، وقذف المحصنات ، وقتل النفس المؤمنة ، والفرار من الزحـف ، والسـحر ، وأكـل الربـا ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين ، والإلحاد بالبيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا » وروى عبدالرزاق عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ انه قيل له : هل الكبائر سبع ؟ فقال : هي إلى السبعين أقرب وروى إبن جبير أنه قـال : هي إلى السبعمائة أقرب إلى السبع غير أنه لا كبيرة مع الإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار . وكشفها بعضهم بالحد . ووردت حدود كثيرة لها ، والحد السليم لها : أن الكبيرة كل ذنب قرن به وعيد أو حدّ أو لعن بنص كتاب أو سـنة ، أو عُلم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به أحد الأمـور الثلاثـة أو أكثر مـن مفسدته أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها بذلـك .

وقوله : (ولا تتمنوا ما فضل الله به) الآية لما نهى الله المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس •• عقبة بما يؤدي إليه من الطمع في أموالهم، أي لما نهاهم الله تعالى عن التعرض لها بالجوارح نهاهم عن التعرض لها بالقلب بصورة غير مشروعة ، أي لا تتمنوا سلب ما فضل الله به بعضكم على بعض ، بأن يسلب جاهه أو ماله أو أهله وأولاده أو باقي ملابساتها عنه فإن ذلك حسد وفساد ومرض نفسي مهلك محرق لحسناتكم كما تحرق النار الحطب اليابس ، وفيه إعتراض على الباري بإفاضة تلك النعم على ذلك الإنسان والعياذ بالله تعالى • ويؤدي إلى محاولات كثيرة لسلبها عنه ويوجب المعاكسات والمشاكسات وإشعال نار الفتنة بين الناس وإذا طلبتم شيئا فاطلبوا دوامها له وإعطاء أمثالها لكم فإن الله قادر على ذلك • وهو حكيم في تقسيماته • للرجال نصيب مما اكتسبوا من المال والحال وللنساء نصيب مما اكتسبن منهما ، والمراد من الإكتساب الإستفادة سواء كانت بالعمل بالإختيار أو بالموهبة من الله الفاعل المختار فحسد الرجال او النساء في الرجال أو النساء لا يحصل منه الا تعب وتعس في النفوس وانحراف عن المنهج المقرر المخصوص واسألوا الله من فضله فلعلكم من أهله وينالكم شيء منه إن الله كانَ بكل شيء عليما ولذلك خص بعضا باشياء وبعد بعضا عنها • وكانَ في كل أعماله حكيما •

وقوله تعالى : (ولكل جعلنا موالي) الآية لابد فيه من تقدير مضاف إليه ، أي ولكل مالٍ جَعَلنا مَوالِي أي وُرّاثا • وقوله مما ترك مربوط بقوله ولكل باعتبار المضاف إليه ، أي ولكل مال مما ترك الوالدان أو الاقربون موالي أي وراثا يرثونه فآتوهُم نصيبهم على ما قرره الله سبحانه وتعالى • وقوله (والذين عقدت أيمانكم) الآية الموصول مع صلته مبتدأ وقوله فآتوهم نصيبهم خبر وزيدت الفاء عليه لتضمن الموصول معنى الشرط

أي والّذين عَقَدَتْ وقرّرت أيمانكم وعهودكم لهم قسما من أموالكم المتروكة فآتوهم نصيبهم • إنّ الله كان على كل شيء شهيدا فخيانتكم معهم جناية منكم عليكم •

أخراج إبن جرير وغيره عَن قتادة قال : كانَ الرجل يُعاقِدُ الرجلَ في الجاهلية فيقول : دمي دمك ، وهدمي هدمك ، وترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم • فنسخ بعد ذلك في سورة الأنفال بقوله سبحانه (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) ومذهب أبي حنيفة ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه إذا أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يرثه ويعقل عنه صحّ • وعليه عقله وله إرثه إن لم يكن له وارث أصلا ، وخبر النسخ المذكور لا يقوم حجة عليه إذ لا دلالة فيما إدعى ناسخا على عدم إرث الحليف ، لاسيما وهو إنما يرثه عند عدم العصبات وأولى الأرحام •

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً)(٣٥)

عن الحسن البصري قال : جاءت امرأة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تستعدي على زوجها ، وهو من الأنصار ، أنه لطمها وتلتمس

القصاص فجعل رسول الله القصاص بينهما فأنزل الله الآية فرجعت بغير قصاص وروي أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عقب نزول الآية : أردنا شيئا وأراد الله غيره ، وما أراد الله خير .

قوله تعالى : (الرجال قوامون على النساء) الآية يعني أن الرجال شأنهم القيام عليهن قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي ، والتوجيه والإرشاد ، وحفظ الحقوق ، ومنع الفساد والإفساد ... وذلك بما فضل الله بعضهم وهو الرجال على بعض وهو النساء تفضيلا وهبيا فطريا ، وذلك لتمييزه الرجال بكمال العقل ، وحسن التدبير ، واتصافه بتهذيب الأخلاق ، وتدبير العائلة ، وسياسة المدينة ، وبزيادة القوّة في الأعمال، وقبول المشاقّ والأهوال ، وقابليته لإطاعة الباري في كافة الأحوال ، وللجهاد ومكافحة الأعداء بالقتال . ولذلك خصهم الله تعالى بالنبوة ، والرسالة ، والخلافة ، والولاية ، وإقامة الشعائر ..وذلك تمييز فطري لا دخل للكسب فيها وبما أنفقوا من أموالهم عليهن في النكاح وتقديم الصداق وسائر لوازم الزواج من السكنى والنفقات فإذا اجتمع صنفان من بني آدم وامتاز أحدهما على الآخر بهذه المزايا وجب إطاعة الصنف الآخر له بحيث يكونان حجر أساسٍ لبناءِ كيانِ العدالة والإنصاف والتفاهم السليم والسلوك القويم ونقدر أن نقول : إن ما به الفضل قسمان فطري وهبي ، وعرضي إكتسابي . فالفطري الموهوب هو أن مزاج الرجل أقوى وأكمل ، وليس هذا مختصا بالإنسان بل عام لجميع أنواع الحيوان ، فالذكور في كل منها أقوى من الاناث ، ولما كان مزاج الرجل أقوى كان قوة عقله أقوى لأن الإدراك تابع لمزاج المدرك . ألا ترى أن من رد إلى أرذل العمر ينسى كثيراً من معلوماته ويتبع ذلك الكمال في الأعمال الكسبية ؟ فالرجال أقدر على الكسب والتصرف في الأمور والصبر على ضيق الصدور ، ولذلك ترى الذكور من الحيوانات

تحمي أناثها لاسيما في وقت طمع أجنبي فيها • ومن أنصف أدرك ضعف النساء عن مقاومة الأعداء وأدرك فيهن رقة ربّما توجب بكاءهن عند نقص بعض الحاجيات ، أو تذكيرهن ببعض أمور مُحْزِنةٍ فما به الإمتياز هذا • وليس المراد أن المرأة أقل درجة من الرجال في تعلم الفنون أو أن عقولهن لا تفي بإدارتهن أو إدارة من كانت تحت رعايتهن •

ثم بعد وجود الزوجين من الإنسان واقتضاء الفطرة للتزاوج إما أن يبقى الرجال والنساء معا في البيت بدون سعي في كسب المعاش أو يخرجان معا ويتركان البيت وما فيه من الصبيان ، أو يبقى الرجال فيه وتخرج النساء أو بالعكس • وانظر إلى الواقع وانصف حتى تؤمن بأن الواجب بقاء النساء مع الأطفال في البيت وخروج الرجال إلى الأعمال حتى ينتظم أمر البقاء للأجيال •

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) يعني فالزوجات الصالحات العاملات عمل الصلاح بامتثال الأوامر واجتناب المناهي قانتات مطيعات للباري تعالى في القيام بحقوق أزواجهن حافظات لأنفسهن عن المفاسد الشهوية والخيانة المالية عند غياب أزواجهن ، ومؤمنات بأن الله معهن أينما كن سرا وجهرا ، وذلك بما حَفِظَ الله تعالى أي بسبب حِفظ الله لهن عن الوقوع في خلاف الدين • وأما غير الصالحات منهن فإن تبن إلى الله فقد تبن إلى الله المنان ، وإن استمررن على أحوالهن الفاسدة فمنزلهن عذاب النيران ، وإن شاء الله غفرانهن فهو على كل شيء قدير • قال ــ عليه الصلاة والسلام : « خير النساء امرأة إن نظرتَ إليها سرّتك ، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » وتلا الآية الكريمة •

(واللاتي تَخافون نُشوزَهنّ أي عصيانهن) وارتفاع طبيعتهن وطغيانهن على الأزواج فعظوهن بالمواعظ الحسنة المناسبة لعقولهن فإن رجعن

إلى الإعتدال ، وإلا فاهجروهن في المضاجع والمراد : أتركوهن منفردات في المضاجع ؛ فلا تدخلوهن تحت اللحاف، ولا تباشروهن بالجماع، لأن الغاية من الهجر ذلك ، فإن أفادت وإلا فاضربوهن ضربا غير مبرح بأن لا يقطع لحما ولا يكسر عظما . وروي عن إبن عباس رضي الله عنهما ـ أنه الضرب بالسواك ونحوه . وإنما أتينا بما يدل على الترتيب بين هذه الأمور مع أن الواو العاطفة لا تدل عليه لدلالة السياق والقرينة العقلية عليه ، وإلا فلو عكست لاستغنى الأشد عن الشديد، ولو جمعت بينهما كان جمعا بدون عدالة ؛ لأن غاية الأمر أنها صائلة ودفع الصائل بالأخف فالأخف . وفي الكشف : إن الترتيب مستفاد من دخول الواو على أجزاء مختلفة في الشدة والضعف . وقد نص بعض الفقهاء على أن للزوج أن يضرب زوجته ضربا غير مبرح على أربع خصال وما في معناها : على ترك الزينة والزوج يريدها ، وعلى ترك الإجابة إذا دعاها إلى فراشه ، وعلى الخروج من البيت بدون إذن الزوج ولم يكن هناك عذر شرعي . وعلى ترك الصلاة في رواية .

ولا يخفى أن تحمل أذى النساء والصبر عليهن أفضل من ضربهن إلا لداعٍ قوي . فقد أخرج ابن سعد والبيهقي عن أم كلثوم بنت الصديق ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قالت : كان الرجالُ نُهُوا عن ضرب النساء ثم شكوهن إلى رسول الله فخلى بينهم وبينهن (أي أباح ضربهن) ثم قال : « ولن يضرب خياركم » .

فإن أطعنكم إبتداء أو بعد هذه المعالجات فلا تبغوا عليهن سبيلا إلى ايذائهن باللسان ، أو بالأعمال ، أو بالإهمال ، فإنها صاحبة الحياة فيحرم نغص الحياة عليها بدون مبرر له . إن الله كان ولم يزل عليا كبيرا .

وقوله تعالى : (وإن خفتم) الخطاب لولاة الأمر أو لأقارب الزوجين ، أي وإن خفتم شقاق بينهما أي خلافا بين المرأة وزوجها فابعثوا حكما من أهله

وحكما من أهلها ، ليستبينا سبب الشقاق ويعملا لاصلاح ذات البين إن يريدا أي الزوجان إصلاحا لذات البين يوفق الله بينهما وأوقع بينهما الألفة والوفاق. إن الله كان عليما خبيرا بالقلوب وما فيها من المحبة والكراهية . وهو قادر على إمحاء أسباب الخلاف .

هذه الآية الشريفة تدل على جواز بعث الحكمين إذا وقع التشاجر بين الزوجين وجُهِلَت أحوالهما ، وإن الحَكَمين لابد أن يكون من أهلهما : أحدُهما من جانب الزوج ، والآخرُ من جانب الزوجة . إلاّ أن لا يوجد في أهلهما من يصلح لذلك . واختلف العلماء في جواز تفريق الحكمين بينهما فقال مالك وأصحابه : يجوز قولهما في الفرقة والإجتماع بغير توكيل الزوجين ولا إذن لهما في ذلك . وقال الشافعي وأبو حنيفة وأصحابهما : ليس لهما أن يفرقا إلا أن يجعل الزوج إليهما التفريق وحجة مالك ما رواه عن علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال في الحكمين : إليهما التفرقة بين الزوجين والجمع . وحجة الشافعي وأبي حنيفة أنّ الطلاقَ ليس بيد أحد سوى الزوج أو من يوكله الزوج .

(واَعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ، وبذِي القُرْبى والْيَتَامى والْمساكِينِ والجارِ ذِي القُرْبى وَالجارِ الْجُنُبِ ،والصَّاحِبِ بالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ ، ومَا ملَكَتْ اَيْمانُكُمْ ، إنَّ اللهَ لايُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتَالاً فَخُوراً(٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ ، ويَكْتُمُونَ ما آتيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاَعْتَدْنَا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ اَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ولا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا

بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً)(٣٨)

قوله تعالى : (واعبدوا الله) الآية كلام سيق للإرشاد إلى خصال كريمة يتميز بها الإنسان المسلم المعتدل عن غيره ، وفيه إيماء إلى أن الإنسان لا يتم أمره بالمعاشرة الحسنة مع أهله ، بل لا بد من أول الأمر أن يتوجه إلى ربه بعبادته الخالصة ، ثم يأتي بتلك الخصال المهمة المذكورة • فيقول : واعبدوا الله أيها الناس واخضعوا له أقصى غاية الخضوع ، فإن العبادة هي التذلل أمام الحق • ولا تشركوا به شيئا إما مفعول به ، أي لا تشركوا بربكم أي شريك كبير أو صغير علوي أو سفلي مادي أو معنوي ، وإما مفعول مطلق أي ولا تشركوا به أيّ إشراك خفيّ أو جليّ بمعنى أن تنسبوا ذاتكم وصفاتكم وجميع ملابساتكم إلى خلق الباري وإيجاده وتأثيره وكل شيىء سواه فهو إما من الأسباب الإعتيادية لما يحصل ، وإما لا علاقة لها بحصول الحاصل وبالوالدين إحسانا أي وأحسنوا بانوالدين إحسانا • وتقديم الجار والمجرور للإهتمام • والإحسان بهما عبارة عن أن يقوم بخدمتهما بقدر الإستطاعة وتمثيل أوامرهما المشروعة ، ويجتنب كل ما يؤذيهما بقدر الإمكان ، ويبدي في أعماله ما يدل على المودة لهما ماداما في قيد الحياة ، ويراعي حقوقهما في الوصايا ورعاية الأصدقاء والوفاء لهم ، ويدعو لهما ويزور قبرهما إن استطاع إليه سبيلا • ويعمل الصدقات والمبرات بنية وصول ثوابها إليهما بعد الممات • وبذي القربى أي وأحسنوا بصاحب القرابة معكم من الإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات، وأولاد كل بقدر الطاقة • واليتامى والمساكين أي وأحسنوا باليتامى والمساكين من الأجانب لأن ذوي القربى سبقت قريبا ، والجار ذي القربى والجار الجنب ، أي وأحسنوا بالجار القريب مكانه وبالجار البعيد كذلك • والجنب كعنق :

البعيد أو بالجار المتصل بكم قرابة في النسب أو المصاهرة والجار المنفصل عنكم كذلك .

اخرج أبو نعيم والبزار من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله : « الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار ، وحق الإسلام. وجار له حق واحد . وهو المشرك من أهل الكتاب » . وقد أخرج الشيخان عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » .

والصاحب بالجنب أي وأحسنوا بالصاحب المستقر بالجنب وهو الرفيق في أمرٍ حَسَن كتعلم وصناعة وسفر . وابن السبيل وهو المسافر وما ملكت أيمانكم أي وأحسنوا بما ملكت أيمانكم ولا تستدبروهم بحجة أنهم محتاجون إليكم . إن الله لا يحب من كان مختالا ذا خيلاء فخورا متكبرا . أخرج الطبراني وابن مردويه عن ثابت بن قيس بن شماس قال : كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ هذه الآية فَذَكَرَا الكبرَ وعظّمه فبكى ثابت فقال رسول الله : « ما يبكيك ؟ فقال : يا رسول الله إني لأُحِبّ الجمال حتى إنه لَيُعجبني أن يحسن شراك نعلي . قال : فَأنتَ من أهل الجنة .ليس الكبر أن تحسن راحلتك ورَحْلك ، ولكن الكبر من سفه الحق وغمط الناس » .

الذين يبخلون ويأمُرُون الناس بالبخل أي الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به ، ويكتمون ما آتيهم الله مِنْ فَضْله أي من المال الذي آتاهم من فضله ورحمته ومن العلم بالحقائق النافعة للخلائق من أي وجه مادي أو معنوي ، ومنها النعوت الواردة في الأسفار النازلة على الأنبياء الاخيار لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأولئك يعتبرون

من الكافرين ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، وضع المظهر موضع المضمر دلالة على أنهم لإتصافهم بالموصولات السابقة دخلوا في عداد الكافرين • والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس أي للإفتخار برؤية الناس لهم ولما ينفقونه لا لوجه الله تعالى ، وأصل رياء : رئاى بالياء قلبت همزة لوقوعها بعد ألف زائدة في آخر الكلمة كما في رداء • ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر أي ولا يؤمنون بالله تعالى الباعث للأموات المجازي لهم على السيئات ، ولا باليوم الآخر الذي فيه يحشر الناس ، وكانوا يصادقون الشيطان ، ويطيعونه في إلقاءآته ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا •

(وماذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ؟ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً(٣٩) إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ، وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجراً عَظِيماً(٤٠) فَكَيْفَ إذَا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً ؟(٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لو تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ، وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً)(٤٢)

قوله تعالى : (وَماذا عَلَيهم لَو آمَنوا بالله) الآية يعني وأيّ وَبالٍ وَنكالٍ كان يحيق بهم لو آمنو بالله واليوم الآخر إيمانا كاملا مشتعلا في صدورهم بحيث يرون جزاء الأعمال ، وأنفقوا على من ذكر من الطوائف إبتغاء مرضات الله تعالى مما رزقهم الله من الأموال الطائلة لولا تيسيره لأسباب تحصيلها ما حصلت لهم • والمراد من هذا السؤال ظاهرا ليس سؤالا محتاجا للجواب ، بل كلام يحرض على الأعمال الصالحة ويوبخ الناس

المهملين لها ، وكان الله بهم ذاتا وصفة عليما حين يضمرون عداءهم للمسلمين وإمتناعهم عن إنفاق المال للمؤمنين •

وقوله (إن الله لا يظلم) الآية توبيخ للكافرين والمنافقين على البخل والإمتناع من الإنفاق وتحريض للمؤمنين الصادقين على إنفاق المال في سبيل الله • فيقول : إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم من أنفق أمواله إبتغاء مرضاة الله مثقال ذرة • والمثقال : أربعة وعشرون قيراطا تساوي إثنتين وسبعين شعيرة• والمراد به هنا مطلق المقدار ، والذرة : النملة الحمرة الصغيرة التي لا تكاد ترى ، أو جزء من أجزاء الهباء التي ترى في سطور الأشعة الظاهرة من الكوّة • وإن تك زنة المثقال حسنة يضاعفها أضعافا كثيرة إلى ما شاء الله ، ويؤت المنفقين الصادقين من لدنه أجراً عظيما ، كما في الحديث الشريف من أن تمرة الصدقة يربيها الرحمن حتى تصير مثل الجبل • فكيف عاقبة أمر أولئك الكفار إذا جئنا من كل أمة بشهيد صادق وهو رسولهم المطلع على كفرهم وتمردهم يشهد عليهم ويثبت إستحقاقهم للعذاب وجئنا بك على هؤلاء الرسل الشهداء شهيدا تثبت بشهادتك أنهم صادقون في ما أسندوه إلى أمتهم من جرائم الأعمال • (يومئذ يَوَدّ الذين كَفَرُوا وعَصَوُا الرّسُول لو تُسوّى بهمُ الأرضُ ولا يكتمُونَ الله حديثا) أي لو كُلّفوا بتسوية سطح الأرض سهلِها وجبالها حالكونهم لا يكتمون الله حديثا مّما اتوا به على خلاف الواقع وشهدت عليهم جوارحُهم • أو المراد أن يُدْفَنوا وتجعل قبورُهم مستوية مساوية لسطحها بحيث لا يعلم أحَدٌ أنهم كانوا مَوْجودين ثم ماتوا ودُفنوا فيها •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُم سُكَارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ ، ولا جُنُبا إلا عابِري سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا • وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ

اَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ، أو لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ واَيْدِيكُمْ اِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)(٤٣)

عن علي قال : صنع لنا عبدالرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمرُ مِنا ، وحضرت الصلاة فقدموني ، فقرأتُ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله الآية رواه ابو داود والترمذي والنسائي والحاكم • وعن علي نزلت هذه الآية قوله (ولا جنبا) في المسافر تصيبه الجنابة فيتيمّم ويصلي • أخرجه البيهقي وابن المنذر وابن أبي حاتم • وروي أن رجالا من الانصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد • فأنزل الله (ولا جنبا إلا عابري سبيل) أخرجه ابن جرير •

وعن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحّل ناقة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأصابتني جنابة في ليلة باردة فخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض • فذكرت ذلك لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسكت ، وأتاه جبريل بالآية • فقال لي : قم يا أسلع فتيمم فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين • فقمت فتيمّمت ثم رحّلت له أخرجه البيهقي والدارقطني وأبو نعيم •

وعن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان مريضا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ ، ولم يكن له خادم يناوله ، فذكر ذلك لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأنزل الله وإن كنتم مرضى • أخرجه إبن أبي حاتم وابن المنذر •

وعن إبراهيم النخعي قال : نال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جراحة ففشت فيهم ثم ابتلوا بالجنابة فشكوا ذلك الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية كلها • أخرجه ابن جرير •

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : خرجنا مع رسول الله في بعض أسفاره حتى إذا كنّا بالبيداء إنقطع عقدٌ لي ، فأقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إلتماسِهِ وأقام الناس معه ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكـر فقالوا : ألا تـرى ما صَنَعَتْ عائشة ؟ أَقامَت برسول الله وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماءٌ ؟ فجاءَ أبو بكر ورأس رسول الله على فخذي قد نام•فقال : أَحَبَسْتِ رسولَ الله والناسَ وليسوا على ماء وليس معهم ماء ؟ قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول • وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني مـن التحرك إلا مكان رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فخذي • فنام رسول الله على غير ماء حتى أصْبَحَ ، فأنزل الله تعالى آيَةَ التيممِ فَتَيَمَّموا • فقال أُسَيّدُ بن حُضَير : ما هي بأول بركتكم يا آلَ أبي بكر • وفي رواية أن اسيد بن حضير قال لعائشة : جزاك الله خيرا ، فوالله ! ما نَزَل بكِ أمرٌ تكرَهينَه إلا جَعَلَ الله لكِ وللمسلمين فيـه خيرا • أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما •

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحـو نوم أو خمـر حتـى تعلموا ما تقولون ، أي حتى تنتبهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم • وقيل : أراد بالصلاة مواضعها وهي المساجد • ولا جنبا عطف على قوله وأنتم سـكارى إذ الجملة في موضع النصب على الحال ، وكأنه قال : لا تقربـوا الصـلاة سكارى،ولا جنبا والجنب على وزن عُنُقٍ:مَنْ أَصابَته الجَنابةُ، يستوي فيه

المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع • إلاّ عابِرِي سَبيل أي مجتازي طريق • والمراد إلا مسافرين • ومَنْ حَملَ الصلاةَ على مواضعها فَسر العبور بالإجتياز بها ، وجوز للجنب عبور المسجد وبه قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ • ومعنى الآية حينئذ : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوا مواضع الصلاة أعني المساجد جُنُبا إلا عابري سبيل • وقوله حتى تغتسلوا غاية النهي عن القربان حال الجنابة •

ولما ذكر مادة من مواد التيمم أعني التيمم لاستباحة الصلاة في السفر لمن كان جنبا عقب ذلك بذكره في مواضعه فقال : وإن كنتم مرضى أي مرضا تخافون فيه من إستعمال الماء مجنبين أو محدثين • أو على سفر لا تجدونه فيه ، أو تجدونه ولكن تحتاجونه لشرب حيوان محترم ، أو جاء أحد منكم أي كائن منكم من الغائط متعلق بالفعل ، والغائط في الأصل : المحل المنخفض ، واستعمل للخارج من أحد السبيلين تسمية للحال باسم المحل • وكلمة من إما للتعليل أو لإبتداء الغاية ، أي جاء احد منكم من اجل الخلاص عن خروج الخارج وقضاء حاجته ، أو من جانب محل خروج الخارج ، والمراد أوْ جاءَ مُحْدِثا • أو لامستم النساء ، أي ماسستم بشرتهن ببشرتكم أي انتقض وضوؤكم بمسّهن • وفسره أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ بقوله : أو جامَعْتم النساء ، فلم تجدوا ماء حساً بأن لا يوجد الماء هناك ، أو شرعا بأن وجد الماء وكنتم محتاجين إليه لعطش حيوان محترم ، أو وجد ولكن تعسر إستعماله لخوف المرض أو زيادته ، أو بطء البرء منه ، أو ألم الجرح أو شدته ، أو خوف عيب فاحش في محل ظاهر ، ولذلك كله فسروا عدم وجوده بعدم التمكن من إستعماله فتيمّموا صعيدا طيبا أي فاقصدوا ترابا طيبا أي طاهراً طهوراً ، بأن لم يستعمل في إستباحة الصلاة ، فانقلوه وامسحوا بوجوهكم طولا وعرضا ، وأيديكم من رءوس الأصابع إلى آخر المرافق من جانب العضد •

والواجب بالسنة النبوية نقلتان إحداهما لمسح الوجــه ، والأخــرى لمسح اليدين كما قلنا ، بشرط وصول أثر التراب إلى البشرة في العضوين ، فيجب نزع الخاتم عن الأصبع عند مسحها لإيصال الغبار إليها . ومن هنــا يظهر وجه حكم الإمام الشافعي بوجوب قضاء الصلاة على كل متيمم كانت على وجهه أو إحدى يديه جبيرة مانعة عن وصول الغبار إلى ما تحتها لنقص البدل أعني التيمم والمبدل منه أعني الوضوء ، فإن الجبيرة كما تمنع وصول الماء إلى ماتحتها تمنع وصول الغبار إليها أيضا . وكذلك إذا كانت الجبيرة على غير اعضاء التيمم ووضعت على الحدث ، أما إذا وضعت على الطهارة ولم تأخذ منالعضو مقدارا زائدا فلا يجب القضاء كما هو مذكور فيالفقه . إن الله كان عفوا غفورا ولذلك سمح بالرخص .

وماذكرناه في تفسير قوله تعالى : فتيمموا صعيدا طيبا من وجــوب نقلتين هو الذي توفرت عليه الأدلة ، ولذلك ذهب إليه الإمام مالك في المدونة وقال : إن التيمم بضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين ، وهو قول الأوزاعي والشافعي وأبي حنيفة وأصحابهم ، وقول الثوري والليث وابن أبي ســلمة ورواه جابر ابن عبدالله وابن عمر عــن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وذهب بعض إلى أن التيمم ضربة واحدة. وقال أبو عمر لما اختلفت الآثار في كيفية التيمم وتعارضت كان الواجب في ذلك الرجوع إلى ظاهر الكتــاب ، وهو يدل على ضربتين ضربة للوجه وضربة أخرى لليدين إلى المرفقين قياسا على الوضوء ، وإتباعا لفعل ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ فإنه لا نزاع فــي عمله بكتاب الله وسنة رسوله ، ولو ثبت عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ذلك شيء وجب الوقوف عنده .

واختلفوا هل يصلي بالتيمم صلوات أم يلزم لكل صلاة فرض ونفل تيمم ؟ فقال شريك بن عبدالله القاضي : يتيمم لكل صلاة نافلة وفريضة وعلى

ذلك الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ . وقال أبو حنيفة والثوري والليث والحسن بن حيّ وداود : يصلي ما شاء بتيمم واحد ما لم يحدث لأنه طاهر ما لم يجد الماء .

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ ويُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ؟(٤٤) وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللهِ نَصِيراً(٤٥) مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ : سَمِعْنَا وعَصَيْنا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْناً في الدِّينِ ، وَلَو أَنَّهُمْ قالُوا : سَمِعْنا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، ولكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)(٤٦)

قوله تعالى (ألم تر إلى الذين) الآية الرؤية فيه رؤية البصر أو القلب، يعني أَلَم تعلَم أو ألم تَنْظُرْ إلى الذين أوتوا نَصيبا أي حظا يسيرا من الكتاب أي التوراة يشترون الضلالة يختارونها على الهدى بإنكار نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتم نعوتها الواردة فيه ، ولا يكتفون بضلالة أنفسهم ويريدون أن تضلوا السبيل أي سبيل الحق حتى تكونوا معهم على الضلال ؟ والله أَعْلَم منكم بأَعْدائكم وقد حذركم من شرهم وفتنتهم فاحذروهم وكفى بالله وليا يتولى أموركم وكفى بالله نصيرا ينصركم على أعدائكم فثقوا به وتوكلوا عليه .

واولئك الناسُ الذين أوتوا نصيباً مِنَ الكتابِ هم مِنَ الّذين يُحرّفون الكلمَ عن مواضعه المقصودة التي وضعها الله فيها ويقولون

له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سمعنا وعصينا أي سمعنا قولك وعصينا أمرك ، واسمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ أي اسمع كلامنا غيرَ مُسْمَعٍ كلامُك ، وراعنا أي انْظِرْنا نُكَلّمْكَ ، وهُمْ يقولون ذلك ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين أي فتلاً بها وصرفا للكلام إلى ما يشبه السبّ لعدولهم عن انْظِرْنا إلى راعِنا المشابه لما يتسابّون به وعدولهم عن لا سَمِعْتَ مكرُوهاً إلى غيرَ مُسْمَعٍ المستعمل في معاني فاسدة • فقوله تعالى : (ليّا وطَعْناً) إما مفعولٌ لأجله أو حالٌ أي لاوين وطاعِنين في الدين • وإيضاح المقام انّ جملة أسمع غيرَ مُسْمَعٍ ، وجملة راعِنا تحتمل معاني مناسبة وغير مناسبة • فإنّ الأولى تستعمل بمعنى اِسْمَعْ مَدْعُوّا عليك بِلا سَمِعتَ لصمم أو موت ، وبمعنى إسمع غير مجاب الى ما تدعو اليه ، وبمعنى إسمع غير مسمع كلاما ترضاه ، وبمعنى إسمع كلاماً غيرَ مُسْمَعَ إياك لأن اذنك تنبو عنه لبعده وفساده وهذه المعاني فاسدة لا تناسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وتستعمل بمعنى إسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ كلاماً مكروها • وهذا المعنى مناسب لكنهم لا يريدونه ولا يستعملونها بهذا المعنى • والثانية تستعمل لطلب المراعاة منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم على أن تكون راعنا أمرا من باب المفاعلة ، ولا يريدون ذلك بل يستعملونها في معنى، وجدناك راعناً إسم فاعل من الرعونة أي خفة العقل وفي معنى راعينا أي انت راعي مواشينا ، وذلك تخفيف له ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ولو أنهم قالوا سَمِعنا واَطَعْنا واسمع وانظرنا ، أيَ ولو حصل هذا القول مكان ما قالوه لكان خيرا لهم وأقوم لعدم إيهام الفساد ، ولكن لعنهم الله وطردهم عن باب رحمته بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا منهم كعبدالله بن سلام وأشباهه ، فلا يقولون كلاما يفيد سلاما وإنما يتكلمون بكلام فيه معنى السوء والملام •

(يا ايّها الّذين أُوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدّقاً لما معكم من قبل ان نطمس وجوهاً فنردّها على ادبارها ، أو نلعنهم كما لعنّا اصحاب السّبت وكان امر الله مفعولاً ،(٤٧) انّ الله لا يغفر ان يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثماً عظيماً)(٤٨)

قوله تعالى : (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) يعني يا أهل الكتاب آمنوا بكتاب مقدس وهو ما نزلناه على حبيبنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين حالكون الكتاب مصدّقا لما معكم من الإنجيل والتّوراة لأن الرسل أمناءُ الله وهداةُ سبيل الحق ويُصدّق اللاحقُ منهم السابقَ ويصدق كتابُ اللاحقين كُتُبَ الصادقين السابقين ، فإنهم أعيان عين واحدة يشربون من زلال التوحيد ، ويهربون من حميم الإشراك والتبعيد من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحابَ السبت . وطمس الوجوه إمحاء آثارها الحسنة ، والردّ إلى الأدبار ردها إلى القفا أو ردها إلى سيرتها الأولى ، واللعن الطّرد والإبعاد من باب القبول . وقد ذكر المفسرون للآية معاني كثيرة :

الأول : إن المراد طمس الوجوه وتشويه الصورة يوم البعث والحشر بحيث يُخزون في الموقف ، واللعن الطرد هناك . والخزي هناك أشدّ المخازي ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . والمعنى : آمنوا قبل حلول القيامة التي لا تنفع الكافرين فيها خلة ولا شفاعة .

الثاني : المراد بطمس الوجوه بلاؤها وإمحاء آثارها في القبور وتمزق لحومها وسيلانها إلى جانب القفا فيها ، فإن الميت إذا وضع في قبره تغيرت أعضاؤه بعد مدة وتهرّى اللحم وسال الماء من جانب الوجه إلى جانب القفا ، أي آمنوا قبل فوات الفرصة بالموت والوضع في القبور ونزول اللعن عليكم إلى يوم البعث والنشور .

الثالث : المراد بالطمس امحاء الآثار بالمسخ ، وردها إلى أدبارها عبارة عن تغيير هيئة الممسوخ بتحويل وجهه إلى القفا أو ما يقرب منه كما نرى من كثير من المصابين بالشلل تحويل وجوههم وأفواههم الى جهة الخلف .

واللعن : هو الطرد أي آمنوا قبل إنزال الغضب والحكم بمسخكم ولعنكم .

الرابع : المراد بالطمس إزالة ملامح الوجه بالشيب أي آمنوا قبل أن تفوتكم القوة على الطاعة وتأتيكم أيام الضعف والفتور ، وقبل أن نلعنكم بسبب تراكم المعاصي والشرور .

الخامس : إن المراد بالطمس إمحاء الشوكة وإزالة الثروة التي توجب حسن المنظر ، والرد إلى الأدبار إعادتهم إلى حيث أتوا منه من بلاد الشام الى المدينة المنورة وما حولها ، كإجلاء بني النضير منها . أي آمنوا قبل غلبة المسلمين وإخراجكم عن الديار ولعنكم لعنة تليق باصحاب السبت من اليهود المتمردين الأشرار . وكان أمر الله مفعولا ، وكان حكم الله تعالى نافذا لا مرد له إذا وَرَدَ .

وإذا أردتم الإيمان والرجوع إلى دار الأمان فلا تخافوا من كثرة الذنوب والعصيان إن الله لا يغفر أن يشرك به وما يساوي الإشراك من الكفران لا لإستحالة المغفرة عليه ، بل لسبق الحكم لديه ، ويغفر ما دون

ذلك الإشراك والكفر أي ماعداه وماتنزل عن رتبته من العصيان لمن يشاء أن يشمله برحمته ومغفرته سواء تاب إلى الله أو ظل عاصياً عند الله . ومَنْ يُشرِكْ بِاللهِ أو يَكْفُر بهِ فقد افترى إثماً عظيماً حيثُ أشْرك بِهِ كِذبا سقيما .

(أَلَم تَرَ إلَى الَّذينَ يُزَكُّونَ أنْفُسَهُمْ ؟ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُون فَتِيلاً)(٤٩)

نزلت في رجال من اليهود أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأطفالهم ، فقالوا : يا محمد هل على أولادنا هؤلاء من ذنب ؟ فقال : لا . فقالوا والذي يُحلَف به ما نحن إلا كهيئتهم ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل ، وما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار !! فهذا الذي زكوا به أنفسَهم .

ومعنى قوله الكريم ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم انظر إليهم فتعجب من إدعائهم أنهم أزكياء عند الله مع ما فيهم من الكفر بالقرآن العظيم وبمحمد رسوله الكريم ، وبكتمان نعوته الواردة في الاسفار السابقة في التوراة والإنجيل ، ومن إثارة الفتن والبغضاء في صفوف المسلمين في أي فرصة سنحت ، بل أنتم لستم مزكين ولا قابلية لكلامكم للقبول فإنكم أنتم الذين إعتقدتم ما اعتقدتم وعملتم ما عملتم ، ولكن الله يزكي من يشاء من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله الذين لا يفرقون بين أحد من رسله ، ولا يظلمون أي أولئك المؤمنون فتيلا أي مقدار فتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وكثيرا ما يضرب به المثل في القلة والحقارة .

(انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ؟ وكَفَى بِهِ إِثْماً مُبينا !)(٥٠)

يعني كيف يتجاسرون ويفترون على الله العظيم الكذب ، ويقولون ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنا بالليل ، وما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار وكفى بذلك الذي إفتروه إثما مبينا واضحا •

(أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : هؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ؟!(٥١) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً(٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ؟ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتينا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً(٥٤) فمِنهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً)(٥٥)

عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا المنتبر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة والسقاية ؟! قال أنتم خير منه وأهدى سبيلا : فنزل فيهم إن شانئك هو الأبتر (الكوثر) ونزلت هذه الآية إلى نصيرا • فسبحان من هو أعلم بأحوال العباد من أنفسهم أنزل هذه الآيات تعجيبا من جهلهم إذا كانوا جاهلين ومن تجاهلهم اذا كانوا متجاهلين • وقال : ألم تر يا حبيبي أو يا من تمكنه الرؤية ولا تنظر إلى الذين أوتوا نصيبا كبيرا على زعمهم ونصيبا قليلا حسب الواقع من الكتاب المعهود (التوراة) حيث يؤمنون بالجبت والطاغوت•والجبت في الأصل : إسم صنم فاستعمل في كل معبود غير الله تعالى • وقيل : أصله الجبس وهو الرذيل

الذي لا خير فيه ، فقلبت سينه تاء • والطاغوت مقلوب الطَّغَوُوت ، مصدر طَغى كجَبَرُوت مصدر جَبَرَ • وبالقلب صار طَوَغُوت فقلبت الواو ألفا • والمراد هنا الشيطان لكماله في الطّغيان • (ويقولون للذين كفروا) أي لأجلهم وحقهم : (هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا) أي هؤلاء المشركون من أهل مكة أهدى من الذين آمنو كالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضي الله تعالى عنهم ـ سبيلا ، أي طريقة ودينا • (اولئك الذين لعنهم الله) أي أولئك القائلون الجاهلون والمتجاهلون هم (الذين لعنهم الله) أي أبعدهم عن رحمته وطَردهم عن إستحقاق جنته (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أي ناصراً يمنع عنه العذاب في الآخرة • وقوله أم لهم نصيب" من الملك شروع في بيان بعض آخر من قبائحهم يعني أن أولئك الناس الناسين لحقوق الله أو المتجاهلين لها ليس لهم نصيب من الملك والثروة والمقام ، فإذاً لا يُؤْتُونَ الناس نقيراء أي لو كان عندهم ملك وثروة فإذا لم يستفد الناس منهم لأنهم لا يؤتون الناس الفقراء أو المرادُ بهم سيدنا محمد وأصحابه (نقيرا) أي شيئا قليلاً •

وقوله (أم يحسدون الناس) أي بل أيَحسدونهم على ما آتيهم الله من فضله يعني النبوة والرسالة والنصر بالرعب منه من مسيرة شهر ، وإنزال القرآن الكريم عليه ، واختيار كبار الناس لاتباعه وهذه لسيدنا محمد • وصحبة الرسول والخروج من دائرة الحرمان والدخول في دار القبول والهياج الروحي للجهاد في سبيل الله لأصحابه وإذ يحسدونهم فقد أخطأوا لأن هذه الإفاضة للخيرات والبركات على من اخترناه هي طريقتنا وعادتنا فقد آتينا آل ابراهيم من نسل إسحق الكتاب أي التوراة لموسى والزبور لداود والإنجيل لعيسى والحكمة : وهي إتقان العلم والعمل ، وآتيناهم مُلْكاً عظيما لداود وسليمان كانوا يتقلّبون فيه ، وحَسدَهُم الناس ولم

يفدهم الحسدُ إلا الإحتراق في القلب والجسد ، فكذا أنتم أيها الإسرائيليون كلما حسدتم محمداً واصحابه ما استفدتم إلا الإحتراق في القلب والقالب •

فمنهم أي من الناس الموجودين في عصورهم من آمن به أي بما أوتي آل إبراهيم ، ومنهم من صَدّ عنه أي أعرض ولم يؤمن به ، وكفى بجهنم سعيرا أي نارا مسعرة ملتهبة موقدة لهم في دار الآخرة • وإنها لقريبة منهم لأن كل آت قريب •

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حكيما(٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فيها أبَداً ، لَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً)(٥٧)

قوله تعالى : إن الَّذين كفروا بآياتنا : إستئناف مبين ومقرر لما قبله ، والمراد بالموصول إما الذين كفروا بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإما الذين كفروا به وبغيره • يعني إن الذين كفروا بآياتنا البينات الدالة على نبوة محمد وخيرية أمته ودوام الخير فيه وفيها (سوف ندخلهم نارا كلما نَضِجَتْ جُلودُهم) أي إستوت وطُبِخَت أو شُوِيَت وتمزقت بَدلناهم جُلوداً غيرها ليتجدد العذاب والحرقة له ، ومن المجرّب أنَّ الأَلَم تحِسُّ به البشرة ويظهر الألم فيه ، وذلك ليذوقوا العذاب أي ليدوم العذاب لهم بسبب تجدد الجلود إن الله كان عزيزا غالبا على ما أراد حكيما بدوام العذاب لبعض المعذبين • والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبَدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظَليلاً •

وقوله تعالى : (والذين آمنوا) الآية واردة على تقابل الآية السابقة شفعا للإنذار بالتبشير وفتحا لباب رحمة الملك القدير • والموصول عام يشمل أهل الكتاب وغيرهم • والذين آمنوا قبل نزوله والذين يؤمنون بعده • وقوله : وعملوا الصالحات قيد معتبر في ترتب الحكم المقرر من الدخول والخلود وما معهما • وقوله : سندخلهم السين للإستقبال فإن الجزاء في الجنة والباب للتأكيد أي لا شك في أنه سندخلهم جنات تجري من تحتها أي من تحت أشجارها الأنهار • وقوله خالدين فيها حال مقدرة فإنهم عند دخولها يقدرون الخلود فيها بسبب إيمانهم بصدق وعد الله تعالى فضلا ورحمة • وقوله : أبدا تأكيد للخلود • وقوله : لهم فيها أزواج مطهرة، أي مطهرة من الأعذار والأقذار النسوية طبعا وعروضا خَلقا وخُلُقا ، فإن الجمال بدون الأخلاق المؤنسة كلال وملال • وقوله : وندخلهم ظلا ظليلا أي لا خلاء في تجويف الأشجار منها تنبعث الأشعة الحارة المؤذية وإن كانت الجنة بطبيعتها المحترمة لا عذاب ولا أذى فيها أي لا شمس عليها ودائما لا تنسخه الشمس ، وسجسجاً لا حرّ فيه ولا قَرّ ، رزقنَا الله التمتع بها بجاه سيد البشر ــ صلى الله عليه وعلى اصحابه والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين ــ • والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل للتأكيد كما هو عادتهم في نحو يوم أيوم وليل أليل • وقال الإمام المرزوقي إنه مجرد لفظ تابع لما اشتق منه ، وليس له معنى وضعي فهو كـ (بسن) في قولك : حسن بسن •ونحن نقول : لو لم يكن فيه حسن التأكيد ماورد في القرآن المجيد •

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)(٥٨)

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة المكرمة دعا عثمان بن أبي طلحة ، فلما أتاه قال : أرني المفتاح فأتاه به ، فلما بسط يده إليه قام العباس فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي إجعله لي مع السقاية . فكف عثمان يده ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أرني المفتاح يا عثمان ، فبسط يده يعطيه ، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده ، ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتِني المفتاح ! فقال : هاك بأمانة الله تعالى . فقام ففتح الكعبة ، فوجد فيها تمثال إبراهيم ـ عليه السلام ـ معه قداح يستقسم بها ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما للمشركين قاتلهم الله تعالى ! وما شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وشأن القداح ؟! وأزال ذلك وأخرج مقام إبراهيم ، وكان في الكعبة ، ثم قال : أيها الناس هذه القبلة ، ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ (فيما ذكر لنا) بردّ المفتاح ، فدعا عثمان ابن أبي طلحة فأعطاه المفتاح ، ثم قال : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها الآية .
وذكر الواحدي أن عثمان إمتنع عن إعطاء المفتاح للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه ، فلَوَى عليٌّ يدَه وأخذه منه ، فدخل رسول الله الكعبة وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يجمع له السدانة والسقاية ، فنزلت الآية فأمر عليا ـ كرم الله وجهه ـ أن يرده ويعتذر اليه ، وصار ذلك سببا لإسلامه ونزول الوحي بأن السدانة في أولاده أبدا .

قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات) الآية خطاب يعم المكلفين وجميع الأمانات لأن الآية وإن نزلت على صورة سبب خاص لكن الحكم عام . (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) أي واذا حكمتم

بين المتخاصمين من الناس أن تحكموا بالإنصاف والتسوية . وأن لا يدعوكم النظر إلى القرابة أو الصحبة والصداقة أو المصلحة الشخصية وأشباهها إلى أن تظلموا بعضا منهم . فإن إيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها واجب . والمراد بالحكم ما كان عن ولاية عامة كأئمة المسلمين أو خاصة كالقاضي في بلد معين أو في قضايا معينة ، أو ما هو بطريق التحكيم من شخصين لثالث . (إن الله نعما يعظكم به) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها باسلوب محبوب متضمن لمزيد اللطف بالمخاطبين وحسن إستدعائهم إلى الإمتثال (إن الله كان سميعا) بجميع المسموعات (بصيرا) بكل شيء ومن ذلك أفعالكم . روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعليّ ـ كرم الله وجهه ـ : سوّ بين الخصمين في لحظك ولفظك .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذلكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)(٥٩)

بَعدَ أنْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ ولاةَ الأُمور بأداءِ الأمانة والعدل في الأحكام أمر الناس بإطاعتهم في ضمن إطاعة الله عز وجل وإطاعة رسوله ، فقال : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . أي أطيعوا الله في ما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول المبلغ لأحكامه في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ، وأولي الأمر منكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . واختلف السلف في أولي الأمر المأمور بإطاعتهم ؛ فقيل : أمراء المسلمين في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعده . ويندرج فيهم الخلفاء والسلاطين والقضاة وغيرهم . وقيل : المراد بهم أمراء السرايا . وقيل :

المراد بهم أهل العلم • فإن العلماء هم المستنبطون المستخرجون للأحكام • وحمله كثير على ما يعم الجميع لتناول الإسم لهم لأن للأمـراء تدبير أمـر الجيش والقتال ، وللعلماء حفظ الشريعة ومايجوز مما لايجوز • ويؤيـد إرادة الأمراء قوله تعالى فإن تنازعتم في شيىء أي في حكم مـن الأحكـام الشرعية ، فردّوه أي فراجعوا فيه أو ارجعوه إلى الله في نصوص كتابـه ، والرسول في مدلول سنته • أو لا يناسب هذا أن يكون المراد العلمـاء لأن المراد بالعلماء في نحو هذا المقام المجتهدون ، ولا مجال للنزاع معهم • ذلك الرد إلى الله والرسول في محل النزاع خير لكم وأحسن تأويلا ، أي أحمـد عاقبـة •

ويحتمل أن تكون الإشارة إلى مجموع الأوامـر المسرودة في الآيـة الكريمة • ومعناها حينئذ : ذلك الأصل المقرر في الدين من وجوب إطاعـة الله وإطاعة رسوله عند وجوده وإطاعة الأمراء بعده ، ثم الرجوع إلى الكتاب والسنة في محل النزاع خير لكم وأحسن تأويلا • ثم إن الإطاعة المذكـورة مقيدة بأن يكون الحكم فعل واجب أو مندوب ، أو ترك حرام أو مكروه ، وإلا فلا إطاعة لمخلوق في معصية الخالق ؛ فلا إطاعة في تحريم حلال أو تحليل حرام • وأما المباح فقال بعضهم : لا يجب إطاعتهم في شيىء مـن جانبيـه الإيجابي والسلبي • وقال آخرون : يجب ذلك محافظة على رعاية النظـام • واستدل بعض الناس بالآية على رفض القياس لأنه ليس أمر الله ولا رسوله وبعض آخر به على اثباته لأن الرجوع إلى الكتاب والسنة كما يكون بمتابعة النصوص يكون بالقياس على المنصوص وذلك ظاهر •

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ نزلت هذه الآية في عبدالله بن حذافة ابن قيس إذ بعثه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في سرية ، فلما خرجـوا وجد عليهم في شيىء • فقال لهم : أليس أمركم رسول الله أن تطيعونـي ؟

قالوا : بلى • قال فاجمعوا إلي حطبا ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ! فقال لهم شاب منهم:إنما فررتم إلى رسول الله من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها • فرجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا ، إنما الطاعة في المعروف، أخرجه البخاري ومسلم والامام احمد وغيرهم •

قال العلامة القسطلاني في الفتح : المقصود من الآية قوله تعالى فيها فإن تنازعتم في شيىء الآية ، فإنهم تنازعوا في إمتثال الأمر بالطاعة والتوقف فرارا من النار فناسب أن ينزل في ذلك مايرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله ورسوله •

(ألَمْ ترَ إلى الَّذِينَ يزْعُمُونَ أنَّهُم آمَنُوا بِما أنْزِلَ إلَيْكَ وما أنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ؟ يُرِيدُون أنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ ، وَقَدْ اُمِرُوا اَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً(٦٠) وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلى ما أنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسولِ رَأَيْتَ المُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً(٦١) فكَيْفَ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ ثمَّ جاءوكَ يَحْلِفُون بِاللهِ إنْ أرَدْنَا إلاَّ إحساناً وتوْفيقاً ؟!(٦٢) أولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِي قلوبِهِمْ ، فَاَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وقُلْ لَهُمْ في أنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً(٦٣) وما أرْسَلْنَا مِنْ رَسولٍ إلا ليطاع بِإذْنِ اللهِ ، ولو أنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ جاءوكَ فَاسْتغفروا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحيماً)(٦٤)

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن منافقا خاصم يهوديـا فدعاه اليهودي الى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعاه المنافق إلى كعب ابـن الأشرف ! ثم إنهما إحتكما إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه وقال : نتحاكم إلى عمر ، فقال اليهودي لعمر قضى لي رسول الله ــ صلىالله عليه وسلم ــ فلم يرض بقضائه، وخاصم إليك • فقال عمر ــ رضي الله عنه ــ للمنافق : أكذلك ؟ فقـال : نعـم • فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل ، فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد ! وقال : هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله • فنزلت الآية • وقال جبريل : إن عمـر قد فرق بين الحق والباطـل فسمي الفـاروق •

والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه من يحكم بالباطـل ويؤثر لأجله فسمي بذلك لفرط طغيانـه ، أو لتشـبهه بالشيطان ، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث أنه الحامل عليه ، كما قال وقـد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا •

وروي عن ابن عباس أيضا قال : كان الجلاس بن الصامت ومعتـب ابن قشير ورافع بنزيد يدعون الإسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدعوهم إلى الكهان حكام الجاهلية ! فأنزل الله فيهم الآية : ألم تر الى الذين الآية • وعن ابـن عباس كان أبو برزة الأسلمي كاهنا يقضـي بين اليهـود فيمـا يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين ، فأنزل الله هذه الآيات • أخرجه إبن أبي حاتم والطبراني •

قوله تعالى : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا الآية خطاب للنبـي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتعجيب له ، أي الم تنظر الى الذين يزعمون أنهم

آمنوا بما أنزل اليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك أي وبما أنزل الى موسى من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت والمراد به هنا كعب بن الأشرف وقد أمِرُوا انْ يكفروا به ؟ في موضع الحال أي أنه يرضى بأن يحكم في قضية مع أنه اُمِرَ بأن يكفر به ويهجره ُ ولا يرضى بأقواله وأفعاله ، ويريد الشيطان أن يُضِلهُمْ ضلالاً بعيداً • أي يريد أن يتحاكم مع خصومه إلى الشيطان والحال إن الشيطان لا يريد بهم الخير ويُحبّ أن يضلّهم ضلالا بعيداً عن رجوع صاحبه الى الرشد • وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يَصُدّون عَنكَ صُدودا أي وإذا قيل لهم من جانب ناصح أمين : تعالوا إلى ما انزل الله في القرآن من الأحكام وإلى الرسول الذي بعث للحكم بما أنزل الله ، رأيت المنافقين وهم الذين يزعمون أنهم مؤمنون يصدون عنك صدودا ، ويعرضون عنك وعن المجيء إليك والرضا بحكمك إعراضا بليغا زائدا عن المعتاد • فكيف حالهم إذا أصابتهم أي نالتهم مصيبة نكبة تكشف الستار عن نفاقهم وذلك بما قدّمت أيديهم أي بسبب ما عملوا من السيئات ثُمّ جاؤك يحلِفُونَ باللهِ انْ ارَدْنا الا احسانا وتوفيقا ؟ أي ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا إحسانا إلى الخصوم وتوفيقا بينهم ولم نرد بذلك عَدَمَ الرضاء بحكمك • أولئك المنافقون هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم من العداوة والأحقاد ، فأعرض عنهم أي عن عقابهم وعظهم بلسانك وامنعهم عما هم عليه ، وقل لهم فيأنفسهم قولا بليغا • أي وقل لهم في شأن أنفسهم أو قل لهم خاليا لا يكون معهم أحَدٌ لأنه أقرب إلى القبول قولا بليغا مؤثرا فيهم • وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله أي بسبب إذنه في إطاعته بل بسبب أمره بإطاعته ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بهذا الأمر الفاسد وهو التحاكم إلى الطاغوت جاءوك نادمين عما اقترفوا تائبين عما أسرفوا فاستغفروا الله وأعلنوا توبتهم بالإستغفار، واستغفر لهم الرسول وطلبوا أنيستغفر لهمالرسول فاستغفر لهم

لوجدوا الله توابا رحيما • أي لظهرت عليهم آثار رحمته تعالى من إنشراح صدورهم وتيسير أمورهم وتنور قلوبهم بحيث علموا وأيقنوا أن الله كما تاب على التائبين من غيرهم تابَ عليهم بفضله وكما ترحم على سائر المرحومين فهو يترحم عليهم •

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً !)(٦٥)

عن عبدالله ابن الزبير قال : خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شراح الحرّة وكانا يسقيان به كلاهما في النخيل ، فقال الأنصاري : سرح الماء يمر ، فأبى عليه • فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصاري وقال يا رسول الله : آن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال : اسق يا زبير ثم إحبس الماء حتى يرجع إلى الجدار ثم أرسل الماء إلى جارك • واستوعب للزبير حقه وكان قبل ذلك اشار عليهما بأمر لهما فيه سعة فلما احفظ رسول الله الأنصاري استوفى للزبير حقه • قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك • أخرجه الائمة الستة •

الجدار : ما يرفع حول المزرعة • وقوله آن كان إبن عمتك ؟ بمد همزة أن المفتوحة • والأصل أأن فأبدلت الهمزة الثانية ألفا تخفيفا ، والهمزة الأولى للإستفهام ، والمعنى : أراك فعلت ذلك معي محاباة لابن عمتك ! وهذه زلة من الأنصاري إقتضت إعراض النبي عنه لكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم أقال عثرته لعلمه بصحة يقينه ، والرسول سلك مع الزبير وخصمه مسلك الصلح فقال : إسق يا زبير لقربه من الماء ثم أرسل الماء إلى

جارك أي تساهل في حقك ولا تستوفه وعجّل في إرسال الماء إلى جارك فحضه على المسامحة والتيسير ، لكن هذا لم يرق في نظر الأنصاري لأنه كان يريد ألا يمسك الماء أصلا ، فقال الكلمة المهلكة . فحكم الرسول للزبير باستيفاء حقه من غير مسامحة له .

وعن ابن عباس قال : كان بين منافق ويهودي خصومة ، فقال اليهودي : إنطلق بنا إلى محمد وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضى لليهودي ، فلم يرض المنافق . وقال إنطلق بنا إلى عمر . وهذا كما رويناه في مورد نزول الآية السابقة .

قوله تعالى : (فلا وربك) أي فوربك وكلمة لا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر لا في قوله لا يؤمنون ، لأنها تزاد أيضا في الإثبات كقوله تعالى لا أقسم بهذا البلد . أي أقسم بربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم أي فيما إختلط واختلف بينهم من الكلام والخصام ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا أي ضيقا وسخطا مما قضيت به ويسلموا تسليما أي وينقادوا لك إنقيادا في الظاهر والباطن ، كما يفيده المصدر التأكيدي ومقام الإسلام السليم من الشبهة وإلا فالتسليم بحسب الظاهر كان يبدو عليهم في مجاري العادات .

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً)(٦٦) .

عن السدي قال : لما نزلت هذه الآية افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا . فقال ثابت : والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم لقتلنا أنفسنا . فأنزل الله : ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به الآية أخرجه ابن جرير .

قوله تعالى : [ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم] أي ولو أنا فرضنا عليهم أن تَعرضوا بأنفسكم للجهاد لتُقتلُوا ، أو فرضنا عليهم قتلَ أنفسهم مباشرة [أو اخرجوا من دياركم] واتركوا أرضكم ودياركم ووطنكم ، كبني إسرائيل حين استتيبوا من عبادة العجل [ما فعلوه إلا قليل منهم ،] وهم المخلصون [وَلَو أنهم فَعَلُوا ما يُوعَظون به] من متابعة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإطاعته الكاملة في أمره ونهيه [لكان خيرا لهم] في الدنيا والآخرة [وأشدّ تثبيتا] لهم في دينهم لأن الإيمان يتكامل بمزيد الطاعات ، والقلب يطمئن بالذكر والمجاهدات ، وكل ذلك يوجد في إطاعة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

(وإذاً لآتَيْناهُمْ مِن لَدُنَّا أجْراً عَظِيماً(٦٧) ولَهَدَيْنَاهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً)(٦٨)

هو طريق الإخلاص في العبادة .

(وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقا(٦٩) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفى بِاللهِ عَلِيماً)(٧٠)

نزلت هذه الآية في ثَوبانَ مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله : أخاف أن لا ألقاكَ في الآخِرة يا رسول الله ، ورآه رسول الله متغيرا لونه وكان يحبه حبا شديدا لا يكاد يصبر عنه ، فذكر الله كرامته ، فقال : [ومن يُطع اللهَ] بالانقياد والتسليم لأمره ونهيه وتطبيقهما بقدر الاستطاعة ، [والرسول] أي ويطع الرسول النبي الأمي العربي محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ المبلغ للاحكام من الله إليه بالذات أو بالواسطة فآمن به وبما جاء به من أحكام الإيمان والإسلام وأحب الله ورسوله بإجلال واحترام واستقام على ذلك إلى الختام [فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم] بالذكر في الحياة وبالزيادة الروحية البرزخية بعد الممات ، وبالجسم والروح الاعتيادية الحقيقية بعد البعث والحشر والنشر ودخول الجنة كيفما شاؤا ، وحسب الاشتياق الذاتي المقرر [من النبيين] والمرسلين وهم الذين تمدهم قوة إلهية وتصحبهم نفس في أعلى مراتب القدسية [والصدّيقين] وهم الذين حازوا المرتبة المتأخرة من مرتبة الأنبياء والمرسلين بموهبة نور التصديق بالوحي المقدس وصاحبه الأقدس الذين صعدت نفوسهم بمصاعد الإيمان والأدب وأنوار الحضور والخشوع لله تعالى وروح التضحية بما لديه من النفس والحال والمال في سبيل إعلاء كلمة الحق بكل حال ، كسيدنا أبي بكر الصديق ومن حذا حذوه في ميدان الكرامة والإخلاص ، أو ترقت أرواحهم بمراقي

التصفية وتخلية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل فتنورت أرواحهم ومشاعرهم بنور العرفان فكانوا حاضرين بالشعور ومدركين بالبصائر فتحققت فيهم نتائج (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) أو الذين ترقوا من دركات الرذائل على درجات الفضائل بمراقي النظر في الحجج الساطعة والبراهين اللامعة من الآيات الكونية التي تشهد على وجود واجب الوجود الواحد الخالق لكل موجود ، وتحقق الرسالة من الله إلى الناس في نظام عالم الوجود .

[والشهداء] أصحاب المنزلة الثالثة وهم الذين أدى بهم الإيمان والإخلاص إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق بلا شرط وقيد وبلا ملاحظة لعمرو أو زيد ، ففازوا بإحدى الحسنيين ، وهم الذين ثبتوا أركان الإيمان وسقوا أشجار اهتداء الإنسان بدمائهم الزكية ، فعلت وأثمرت ثمار العرفان ، فجزاهم الله بإعلان الحياة السرمدية والفوز بالبشارات الأبدية على مر الزمان . [والصالحين] الصارفين أعمارهم في طاعة الله تعالى ، وأموالهم في مرضاته سبحانه ، [وحسن أولئك] الأصناف الأربعة الكرام [رفيقا] لمن وفقه الله تعالى .

يقول صاحب روح المعاني أعلى الله مقامه : وقد ذكر أصحابنا أن الصديق صيغة مبالغة بمعنى المتقدم في التصديق المبالغ في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال ، ويطلق على كل من أفاضل أصحاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأماثل خواصهم كأبي بكر ــ رضي الله تعالى عنه ــ ، وأن الشهداء جمع شهيد ، والمراد بهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعة الله وإعلاء كلمة الله ، وهم المقتولون من المسلمين بأسلحة الكفار ، وقيل : المراد بهم ما هو أعم من ذلك . فعن أبي هريرة ــ رضي الله تعالى عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما تعدّون الشهيد فيكم ؟ » قالوا :

يا رسول الله من قتل في سبيل الله تعالى . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن شهداء أمتي إذا لقليل . من قتل في سبيل الله تعالى فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون فهو شهيد ، ومن مات مبطونا فهو شهيد » . وعد بعضهم الشهداء أكثر من ذلك بكثير .

والصالح : هو الذي صلحت حاله واستقامت طريقته ، والمصلح هو الفاعل لما فيه الصّلاح ولذا يجوز ان يقال لله تعالى مصلح ، ولا يجوز أن يقال في حقه صالح .

ثم ليس المراد بالمعية اتحاد الدرجة ولا مطلق الاشتراك في دخول الجنة بل كونهم فيها بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وزيارته متى أراد ، وان بَعُدت المسافةُ بينهما . وذكر غير واحد أنه لا مانع من أن يرفع الأدنى إلى منزلة الأعلى متى شاء تكرمةً له ثم يعود ولا يرى أنه أرغد منه عيشا ولا أكمل لذة ؛ لئلا يكون ذلك حسرة في قلبه ، وكذا لا مانع من أن ينحدر الأعلى إلى منزلة الادنى ثم يعود من غير أن يرى ذلك نقصا في ملكه أو حَطّاً من قدره ، وقد ثبت في غير ما حديثٍ أن أهل الجنة يتزاورون . وادعى بعضهم أن لا تزاور مع رؤية كل واحد الآخر ، وذلك لأن عالم الأنوار لا تمانع فيها ولا تدافع فينعكس بعضها على بعض كالمرايا المجلوة المتقابلة . وإلى ذلك الإشارة بقوله : (إخوانا على سرر متقابلين) .

وقال بعض المحققين : إن الظاهر من الأحاديث الشريفة في أحوال أهل الجنة هو أن ليس الرؤية ثابتة لكل شخص بحيث يرى باقي أهلها وذلك لأن اختلاف درجات الأنبياء والمرسلين وسائر أهل الجنة من السابقين المقربين ومن سائر أصناف المسلمين محقق لا شبهة فيه . وإدراك كل منهم لمراتب كل منهم في كل وقت بعيد عن الواقع . وإنما هو جواز الزيارات واللقاءات

لكل أحد متى شاء على الأصول المقررة في عالم الجنة ، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فإذا تمنى شخص منهم رؤية شخص يجوز أن يمكنه الله تعالى من ذلك بحيث لا تكون الجنة محل الحسرة على فوات مقصود أو فناء موجود . وتفصيل ذلك موكول إلى عالم الآخرة التي خير للمسلم بدرجات من الأولى .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً(٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً(٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ : يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً !(٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً(٧٤) وما لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ؟(٧٥) أَلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)(٧٦)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] الآية هذه الآيات الكريمة أمر من الله تعالى ونداء إلى المسلمين أن يستعدوا لمجابهة الأخطار ومجاهدة الكفار ،

فإن كل نبي معه جماعة يعاديهم أهل الكفر والضلال ويعارضونهم بكل ما أمكن ، فيجب على الطرف الأول أن يستعدوا للدفاع عنهم وعن مبدئهم المقدس الإلهي بكل ما في وسعهم . فيقول تعالى : [يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم] أي عدتكم من السلاح الذي تحترزون به عن شر الأعداء ، وهو في الأصل مصدر كالحذَر أي الاحتراز عما يخاف منه ، ويراد به هنا ما به الحذر : أعني الأسلحة والمعدات [فانفروا ثبات] أي أخرجوا إلى الجهاد جماعات [أو انفروا جميعا ،] أي جماعة واحدة . والجماعات المتمايزة كل منها كتيبة ، والجماعة الموحدة المركبة من الجماعات جيش .

[وإن منكم لمن ليبطئن] وإن منكم أيها المسلمون لَمَنْ لَيتثاقل في التحرك مع الجيش ويتأخر عن الجهاد ، وهو عبدالله بن أبي بن سلول وأتباعه من المنافقين فإنهم يعدون إذ ذاك من المسلمين في ظاهر الحال [فإن أصابتكم مصيبة] من جانب العدو كقتل أو جرح أو هزيمة [قال] حامداً لرأيه الخطأ [قد أنعم الله عليّ] بتأخري عن الحركة معهم [إذ لم أكن معهم شهيدا] حاضرا ، فلم يصبني ما أصابهم . [ولَئِن أصابكم فضلٌ من الله] من فتح وغنيمة [ليقولن] تندما على تأخره [كأن لَم تكنْ بَيْنكم وبَينهُ مَوَدَّة] مزعومة : [يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما] بأخذ الغنيمة لدنياي ونيل كرامة في الجيش لِمرآى . وقوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كلام الباري معترض بين القول والمقول ، والمودة المنفية مودة صورية ، وإلا فليس الآن ولم تكن في الماضي بينه وبينهم مودة واقعية . فيعود الباري تعالى ويأمر الرسول معنى بدعوة المؤمنين المخلصين للجهاد ، ويأمرهم بالحضور له لفظا ، ويقول : [فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة] أي يبيعون متاع الحياة الدنيا وملاذها بجزاء من الله في دار

الآخرة ذلك الجزاء الذي يعد به في قوله : [ومن يقاتل في سبيل الله] أي في سبيل مرضاته ولإعلاء كلمته [فيقتل] ويفدي بحياته في طريق مرضاته [أو يغلب] على أعدائه [فسوف نؤتيه أجراً عظيما] لابد منه في الحالتين غالبا أو مغلوبا •

ثم ينادي الباري مستفهما ومحرضا للمؤمنين ومعرضا للكافرين : [وما لكم لا تقاتلون] الكفار [في سبيل الله] وإعلاء كلمته [و] في سبيل إنقاذ [المستضعفين] من أيدي الكفار [من الرجال والنساء والولدان] الباقين في مكة ولا يقدرون على الهجرة إليكم [الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها] وهي مكة ، [واجعل لنا من لدنك وليا] يتولى أمورنا [واجعل لنا من لدنك نصيرا] ينصرنا ويمنع تعرض الأعداء لنا ! فاستجاب الله دعاءهم وأيد رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففتح مكة وجعل بذلك الفتح المبين أذلة الناس أعزة على الكافرين [، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت] المتمرد وهو الشيطان وأتباعه الكفرة ، [فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا] •

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وقالوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ قُلْ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

يَقُولُوا : هذه مِنْ عِنْدِكَ ! قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَا لِهٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ؟(٧٨) ما أصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسولاً ، وَكَفى باللهِ شَهِيداً(٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً(٨٠)

قوله تعالى : [ألم تر إلى الذين قيل لهم] الآية اختلف في موردها : قال بعض : إن هذه الآية نزلت في عبدالرحمن بن عوف ، والمقداد بن اسود ، وقدامة بن مظعون ، كانوا مع النبي قبل أن يهاجروا إلى المدينة ويلقون من المشركين أذى شديدا فيشكون ذلك إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويقولون : إئذَنْ لنا في قتالهم ، ويقول لهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : [كفّوا أيْديكم] فإنّى لم أومَر بقتالهم واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة ، فلما هاجر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المدينة وأمروا بقتالهم في وقعة بدر كرهه بعضهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية • واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم كفوا عن القتال هم الراغبون في القتال ، والراغبون في القتال هم المؤمنون فدل هذا على أن الآية نازلة في حق المؤمنين ! ويمكن الجواب عنه بأن المنافقين كانوا يظهرون من أنفسهم أنا مؤمنون وإنا نريد قتال الكفار ومحاربتهم ، فلما أمر الله بقتالهم الكفار أحجم المنافقون عنه ، وظهر منهم خلاف ما كانوا يقولونه •

القول الثاني : إن الآية نازلة في حق المنافقين ، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين •

فالأول : أنه تعالى قال في وصفهم : يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية ، ومن المعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافق لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيدَ من خوفه من الله تعالى .

الثاني : أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار والمنافقين .

الثالث : أنه تعالى قال للرسول : قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى . وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته في الدنيا أكثر من رغبته في الآخرة . وذلك شأن المنافقين . وأجاب القائلون بالأول عن هذه الوجوه بحرف واحدٍ هو أن حب الحياة والنفرة عن القتال من لوازم الطباع ، فالخشية المذكورة في هذه الآية محمولة على هذا المعنى . وقولهم : لم كتبت علينا القتال محمول على التمني لتخفيف التكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى .

وقوله تعالى : [قل متاع الدنيا قليل] مذكور لا لأن القوم كانوا منكرين لذلك بل لأجل إسماع الله لهم هذا الكلام مما يهوّن على القلب أمر هذه الحياة فحينئذ يزول عن قلبهم نفرة القتال وحب الحياة ، ويقدمون على الجهاد بقلب قوي . والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله [وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك] ولا شك أن هذا من كلام المنافقين .

قوله تعالى :[ألم تر الى الذين] فيه تعجيب الرسول وغيره ممن يمكن منه ذلك عن أحوال أولئك الناس ، حيث كانوا في الزمان السابق على حال وفي الزمان اللاحق على حال آخر مخالف للاول . فيقول : ألم تر يا رسولي إلى الذين [قيل لهم] سابقا : [كفوا أيديكم] عن القتال [وأقيموا الصلاة

وآتوا الزكاة] واشتغلوا بما ينفعكم وهم كانوا راغبين في الجهاد [فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله] أي يخشون الكفار الذين يقاتلون كما يخشون الله تعالى أن ينزل بهم بأسه ويميتهم [أو أشد خشية] معطوف على قوله كخشية الله بتقدير مضاف وهو الأهل ، أي يخشون الناس كأهل خشية الله أو كأهل يكون أشدّ منهم خشيةً من الله • فإذا للمفاجأة وفريق مبتدأ ومنهم صفته ، وجملة يخشون الناس خبره • وقوله كخشية الله حال من فاعل يخشون • وقوله أو أشد خشية معطوف عليه ، فيكون في مقام الحال أيضا [وقالوا] على سبيل تمني التخفيف لا على وجه الإنكار إذا كان القائلون مؤمنين صادقين : [ربنا لم كتبت علينا القتال] في هذا الوقت ؟ [لولا أخرتنا إلى أجل قريب] أي منتظر مستقبل ، فإن كل آتٍ قريب ! [قل] يا رسولي تزهيدا اهم عن آمال الدنيا ونعيمها : [متاع الدنيا قليل] ولو استمر لكم زمانا طويلا [والآخرة خير] متاعا وراحة ودواما [لمن اتقى] ربه ، فتجزون فيها جزاء وافيا جليلا جميلا [ولا تظلمون فتيلا] مقدار ما على نواة التمرة •

[أينما تكونوا يدرككم الموت] لأنه مربوط بالوقت المحدد له في العلم الأزلي [ولو كنتم في بروج مشيدة] أي ولو كنتم في قصور عالية مطليّة بالشيد وهو الجصّ [وإن تصبهم حسنة يَقولوا : هذه من عند الله] ، أي وإن تصبهم نعمة من الخصب ورخص السعر وتتابع السنة بالأمطار يقولون : جاءتنا هذه النعم من عند الله لما علم فينا من الخير ، [وإن تصبهم سيئة] أي بلية ونقمة من القحط والجدب والشدة وغلاء الأسعار [يقولوا : هذه] البلايا جاءتنا [من عندك] أي من شؤمك • وهذه الفقرة شاهد صدق على أن مورد النزول كان جمعا من المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول وأتباعه الذين تخلفوا عن القتال يوم أحد ، وقالوا للذين قتلوا : (لو كانوا عندنا ما

ماتوا وما قتلوا) ، فهم كانوا داخلين في عداد المؤمنين صورة ومن الكافرين سيرة ، وإذا أصابتهم غنيمة قالوا : هي من عند الله تعالى أعطانا لأهليتنا لها ، وإن تصبهم هزيمة أو بلية قالوا : هذه من سوء تدبيره ، أي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . [قل : كل من عند الله] تعالى . أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يقول لهم : كل من النعم والنقم ، ومن النصر والهزيمة يأتيكم من عند الله ، فلا خالق إلا هو [فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟!] كلام سيق لبيان سوء مشربهم والتعجيب من حالهم أي أيّ شيء حصل لهؤلاء حالكونهم بمعزل من أن يفقهوا نصوص القرآن الناطقة بأن الكل فائض من عند الله تعالى ، أو ماذا منعهم أن يفهموا كلاما يوعظون به ؟

[ما أصابك] أيها الإنسان [من حسنة] علمية أو عملية مالية أو حالية [فمن الله] تفضيلا وكرما ، فإنه هو الموجد لكل شيء وكل حسنة ناشئة منك فبتوفيقه وتيسير الأسباب منه ، وكل نعمة وردت إليك إذا لم تكن بمباشرة أسباب منك فهو بمحض الفضل والجود أو بمباشرتها ، فالتيسير للاسباب من الله الفياض بالكرم والجود [وما أصابك من سيئة] أي نقمة وبلية [فمن نفسك] بمباشرة أسبابها أو بارتكاب معاص جلبتها وتسببت في نزولها ؛ فإن المآسيَ من المعاصي ، مع أن كلا من الحسنة والسيئة مخلوقة لله ؛ إذ لا مؤثر في الوجود إلا الله ، فإضافة الأشياء إليك من أي باب إنما هي لمباشرتك للاسباب فقط [وأرسلناك للناس رسولا] هاديا إلى الصراط المستقيم من العلم السليم والعمل القويم ولا يضرّك أحقاد الكفار والمنافقين [وكفى بالله شهيدا] على رسالتك وجلالة قدرك . [من يطع الرسول] في ما امر به او نهى عنه [فقد أطاع الله] لأنه هو المبدأ للأمر والنهي والرسول مبلغ [ومن تولى] عن طاعتك [فما أرسلناك عليهم حفيظا] تحفظ أعمالهم وتحاسبهم

عليها • قال تعالى : إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، والمراد من ذلك تطمين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه أدى رسالته وبلغ أمانته •

(وَيَقُولُونَ : طَاعَةٌ ، فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذي تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً(٨١) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ؟!)(٨٢)

قوله تعالى : [ويقولون طاعة] أي ويقول المنافقون إذا كانوا عندك امرنا سَمعٌ وطاعة [فإذا برزوا من عندك] أي خرجوا من مجلسك [بَيَّتَ طائفَةٌ منهم غير الذي تقول] أي دبرت وزورت طائفة منهم وهي رؤساؤهم غير ما قالت من القبول والرضا ، والإطاعة في حضورك [والله يكتُبُ ما يُبيتون] يعني والله يثبت في صحائف أعمالهم ما يدبرونه ويزورونه ويحاسبهم عليه [وكفى بالله وكيلا] قائما بما هو من شئونه من مراعاة الحقائق ومحاسبة العباد عليها ، فلا يهمنك عداؤهم وأحقادهم وبغضاؤهم • ويظهر من أعمال وأحوال أولئك المنافقين أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العالم من الإنس والجن ولم يؤمنوا بأن الكتاب المنزل عليه كلام الله [أفلا يتدبرون القرآن] حتى يتبين خطأهم في ذلك ، [ولو كان] القرآن [من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا] في آياته بعضها مع البعض • وإيضاحه أن في القرآن الكريم آيات تبحث عن الكواكب وحركاتها ، والرسول لم يكن فلكيا ، ولم يدرس علم الفلك ، فكان اللازم على تقدير كونه كلامه أن يكون بعضه صادقاً وبعضه كاذبا ، وفيه حكايات عن أحوال الأمم السابقة ورسلها وكلام كذلك مع طوله

لا يخلو عادة عن مخالفة بعضها لبعض ، وفيه إخبار عن حدوث أمور في المستقبل ، وليس الرسول عالما بالغيب ، فلو كان القرآن كلامه لظهرت المخالفة في بعضها إلى غير ذلك من الأحوال التي لو كان الذاكر لها غير علاّم الغيوب لوقع فيها الاختلاف ، ويعلم ذلك أهل العقل والإنصاف . وما دام لم يجدوا فيه الاختلاف كان الواجب عليهم أن يؤمنوا بأنه كلام الله الأزلي الأبدي يعلم الكائنات وما فيها ، ولا يغيب عنه منها شيء والذي نزل عليه ذلك الكلام هو الرسول المبعوث إلى الأنام لتبليغه وتطبيقه باعتبار أنه شريعة وأساس يبقى على مرّ الأيام .

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً(٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً)(٨٥)

عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : لما اعتزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه دَخَلْتُ المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون : طلق رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه ، فلم أصبر حتى استاذنت على رسول الله فقلت له : أطلقتَ نساءك ؟ قال : لا فقلت : الله

أكبر . فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه . فنزلت هذه الآية فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر .

قوله تعالى : [وإذا جاءَهم أمرٌ منَ الأمْنِ أو الخوف] أي وإذا جاء المنافقين أو ضعفاءَ المسلمين أمر مما يوجب الأمن والطمأنينة لقلوب الناس أو يوجب الخوف والفزع وانزعاج قلوبهم [أذاعوا به] ونشروه بين الناس فيسمعه المؤمن والكافر والصادق والمنافق ، وربما يحصل من انتشاره بعض أضرار على المؤمنين ، فهذه الإذاعة إضاعة لأسرار المؤمنين ، ولا يجوز بأيّ حال من الأحوال إفساح المجال لهم ، ويجب لمن سمع شيئا من هذه الأمور أن يتوقف ويتريث حتى تظهر الحقيقة ويردّه إلى أهله كالرسول وخواصه [ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم] مثل كبار الصحابة المطلعين على الحقائق وأسرارها [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] أي لعلم حقيقته وعلى أيّ وجه يذكر الذين يستنبطونه ويستخرجون تدابيره بتجاربهم وأفكارهم ، ولم يكن ذكرها على وجه يورث الخطر على المسلمين [ولولا فضل الله عليكم ورحمته] بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وإيضاح ما في طيات آياته من الحقائق ، وتثبيت قلوب المؤمنين بالإرشاد والبيان المفيد [لاتبعتم الشيطان إلا قليلا] منكم خصه الله بمزيد عقل وعلم راجح ناجح اهتدى به إلى الحق والصواب كعمر بن الخطاب وسائر أهل الفكر والصواب [فقاتل] الكفار [في سبيل] إعلاء كلمة [الله] تعالى [لا تكلف إلا نفسك] ولست مسؤولا محاسبا إلا على فعل نفسك [وحرّض المؤمنين على القتال ، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا] من قريش وسائر المشركين بإلقاء الرعب في قلوبهم [والله أشد بأسا] من أعداء الدين [وأشد تنكيلا] وتعذيبا وتأثيرا بالتحطيم للكافرين منهم لكم وتحريضك للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله ليجاهدوا فيخلصوا من شر الأعداء وإيذاء الناس لاسيما المستضعفين

والفقراء من قبيل الشفاعة لهم عند الله تعالى لتخليصهم بواسطة المجاهدة عن اتباع الهوى الموجب للانهيار والدمار واستحقاق عذاب النار • و [من يشفع] لأي فرد أو جماعة أو أمة [شفاعة حسنة] راعى بها الحق المحترم [يكن له] أي لهذا الشفيع [نصيب] كبير [منها] وهو ثوابها لأنه كان دليلا على نيل الخير والدال على الخير كفاعله [ومن يشفع شفاعة سيئة] تحلل حراما أو تحرم حلالا ، أو يوصل الإنسان الغير المستحق لدرجة إليها بأن يجعل له تصرفا في الأمة وهو سيء الإدارة ، أو مدرسا لطلاب وهو غير قادر على الإفادة والإنارة •• [يكن له كفل منها] اي نصيب من وزرها • [وكان الله على كل شيء مقيتا] أي قادرا مقتدرا من أقات على الشيء إذا قدر عليه • وقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له ، وقال له الملك : ولك مثل ذلك » •

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً(٨٦) اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً ؟)(٨٧)

قوله : [وإذا حُيِّيتم بتحيّة] الآية الجمهور على أن المراد بالتحية هنا هو السلام • والمعنى أنه إذا سلم عليكم بسلام فردّوا السّلام وأدّوا الجواب بوجه أحسن منها في كمية الكلمات ، وفي كيفية أدائها من إكرام وابتسامٍ ومحبة واحترام [أو ردّوها] بمثلها • والجمهور على أن ابتداء السلام سنةٌ عينٍ للفرد وكفاية للجماعة ، وأن الجواب للمسلم فرض عين للفرد وكفاية للجماعة ، إلا في مواد استثنيت من الابتداء به أو الجواب عنه • ومنها السلام على من على قضاء الحاجة ، أو في الحمام أو من يقرأ القرآن ،

أو يؤذن أو يشتغل بالأكل . ويسلم الماشي على القاعد ، والراكب على الماشي والصغير على الكبير ، والأقل على الأكثر . وفي الكشاف من قال لآخر : إقرأ السلام على فلان وجب عليه أن يفعل ، كما يجب على من قرىء عليه رده بعبارة صريحة ، وأحسنها علينا وعليك وعليه السلام ورحمة الله . ويجوز السلام على النساء الأجنبيات إلا عند خوف الافتتان كأن كانت امرأة جميلة . ولا يسن السلام على كافر وذمي أو غيره إلا عند خوف الفتنة ، وإذا سلم كافر على مسلم رد الجواب بعبارة وعليكم ، ولا يسلم عليهم في كتاب إلا بمثل والسلام على من اتبع الهدى . ونقل السيوطي أن الأصح من مذهب الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ وجوب الرد حال الخطبة . وقيل : إنه مستحب ، وقيل : إنه مباح . وأما القارىء ففي روضة النووي أن الأولى ترك السلام عليه فإن سلم عليه كفاه الرد بالإشارة . وفي تفسير البيضاوي : إن وجوب الردّ حيث السلامُ مشروع ، فلا يردّ في الخطبة ، وقراءة القرآن ، وفي الحمام . ولعل هذا هو الراجح في مذهب الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ .

وفي الأنوار : لو ناداه من وراء حائط او ستر بالسلام أو كتب كتابا أو أرسل رسولا به وجب الرد .

وصيغة السلام أن يقول : السلام عليكم ، أو سلام عليكم ، ولو قال السلام عليك حصلت السنة . ويستحب صيغة الجمع وإن كان المسلَّم عليه واحدا خطابا له ولملائكته . وصيغة الجواب وعليكم السلام . أو وعليك السلام للواحد ، ولو ترك الواو كفى . ولو قال : وعليكم لا يكون جوابا . وكمال السلام أن يقول المسلّم : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكمال الجواب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ويستحب لمن دخل داره أن يسلم على أهله ، ولمن دخل مسجدا أو بيتا ليس فيه أحد أن يقول : السلام

علينا وعلى عباد الله الصالحين . والسلام عند القيام ومفارقة القوم دعاء وليس بتحية . فيستحب الجواب ولا يجب . وقيل : يجب لأن ابتداء السلام سنة لخبر : إذا انتهى أحدكم من المجلس فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة رواه الترمذي .

ثم : المراد بأحسن أنه إذا قال المسلّم : السلام عليكم تقول في جوابه : وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا زاد المسلم ورحمة الله تزيد في الجواب وبركاته ، وإذا زاد وبركاته لا يبقى مجال للرد بالأحسن بل رده بمثله . روي أن رجلا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : السلام عليك فقال : وعليك السلام ورحمة الله . وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله ، فقال وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . وقال آخر : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك . فقال الرجل : نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنك لم تترك لي فضلا فرددت عليك مثله .

وقوله : [إن الله كان على كل شيء حسيبا] تقرير لمراقبته تعالى لأعمال المكلفين ويدخل فيها ما أمروا به من التحية دخولا أوليا حسب السياق . وقوله تعالى [الله لا إله إلا هو] مبتدأ وخبر . وقوله [ليجمعنكم إلى يوم القيامة] جواب قسم مقدر تقديره : والله ليجمعنكم الى يوم القيامة . والمعنى : والله ليحشرنكم من قبوركم في يوم القيامة . والقيامة كالطلابة قيام الناس من القبور ، أو قيامهم للحساب . وقوله [لا ريب فيه] أي في جمعكم أو في يوم القيامة ، فهو حال من اليوم أو صفة لمصدر محذوف . أي جمعا لا ريب فيه . وقوله : [ومن أصْدَقُ مِنَ اللهِ حديثا ؟] إنكار لوجود شخص يكون أصدق من الله حديثا ؛ لأن الله لا يتطرق الكذب إلى خبره ، لأنه نقص والنقص محال على الله تعالى شرعا وعقلا ؛ لأنه إما لحاجة أو لغيرها

وهو الغني المطلق . والغير إما عدم العلم ، وهو العليم الذي لا يعزب عن علمه مقدار ذرة ، وإما قصدا وهو لا يليق بجنابه تقدس وتعالى .

(فَمَالَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً(٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)(٨٩)

عن زيد بن ثابت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى أُحُد فرجَعَ ناسٌ خَرَجُوا مَعَه فكان أَصْحابُ رَسولِ اللهِ فيهم فِرقَتَيْنِ : فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا . فأنزل الله الآية . أخرجه الشيخان وغيرهما .

وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبيه أن قوما من العرب أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلموا واصابوا وباء بالمدينة وحماها فأركسوها ، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقالوا : ما لكم رجعتم ؟ فقالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتويناها . فقالوا : مالكم في رسول الله أسوة ؟ فقال بعضهم : نافقوا . وقال بعضهم : لم ينافقوا وهم مسلمون . فأنزل الله الآية . وقال مجاهد في هذه الآية : هم قوم خرجوا من مكة حتى جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون ثم ارتدوا بعد ذلك فاستأذنوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها . فاختلف فيهم المؤمنون فقائل

يقول : هم منافقون وقائل يقول : هم مؤمنون • فبين الله تعالى نفاقهم ، وأنزل هذه الآية وأمر بقتلهم في قوله : (فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) فجاءوا ببضائعهم يريدون هلال بن عويمر الأسلمي وبينه وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلف وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين فرفع عنهم القتل بقوله تعالى : (إلا الذين يصلون إلى قوم) الآية •

قوله تعالى : [فمالكم في المنافقين فئتين] الآية الاستفهام إنكاري ، وما مبتدأ ولكم خبره ، وفئتين حال من ضمير المخاطب ، ومعناه : ماذا يحصل أو حصل لكم حالكونكم متفرقين إلى فرقتين في أولئك الناس المنافقين ؟ ولماذا ما اتفقتم على كفرهم ونفاقهم ؟ [والله أركسهم بما كسبوا] أي والله تعالى ردهم إلى الكفر أو أضلهم بما كسبوا من المعاصي وسوء النية • [أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله] وتجعلوهم من المهتدين بعد إبرام القضاء بضلالهم ؟ [ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا] إلى الرّشاد • وإن لم تعرفوا بواطنهم فاعلموا أنهم [ودّوا لو تكفرون] أنتم [كما كفروا فتكونون] أنتم وهم [سواء] في الضلال ، فمادامت بواطنهم كذلك [فلا تتخذوا منهم أولياء] أصدقاء وأحبابا [حتى يهاجروا في سبيل الله] وتتحققوا إيمانهم بتلك الهجرة • [فإن تولوا] عن الإيمان وعن إثباته بحجة الهجرة [فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا] توالونه [ولا نصيرا] تناصرونه •

(إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ،

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)(٩٠)

[إلاّ الذين يصِلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق] ويلتجئون اليهم ويدخلون في عداد المعاهدين [أو جاؤكم] حالكونهم [حَصِرتْ صُدورُهم] أي ضاقت عن [أنْ يقاتلوكم] لأنكم مسلمون [أو يُقاتِلُوا قومَهُمْ] لأنهم من أقاربهم [وَلَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُم عَلَيكم] بأن قوى قلوبهم لذلك [فَلَقَاتَلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم] ولم يتعرضوا لكم بسوء [وَأَلْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ] أي الاستسلام والانقياد [فَما جَعَلَ اللهُ لَكُم عَلَيهم سَبيلاً] •

عن الحسن البصري : أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال : لما ظهر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت : انشدك النعمة ؟ فقال الحاضرون : صه • فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ دعوه ، ما تريد ؟ قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم فإن اسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم • فأخذ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيد خالد بن الوليد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد • فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله الآية أخرجه ابن أبي حاتم •

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كلَّمَا رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ اُرْكِسُوا فِيهَا ، فإنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا اَيْدِيَهُمْ

فخذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)(٩١)

قوله تعالى : [ستجدون آخرين] الآية نزلت في أناس كانوا يأتون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيُسلِمون رياءً ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا قومهم فأبى الله تعالى ذلك عليهم ، قاله ابن عباس ومجاهد • وقيل : الآية في حق المنافقين • فيقول الباري سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه : [ستجدون آخرين] من الكفار غير المنافقين السابقين [يريدون أن يأمنوكم] بالاتيان الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واظهار الايمان ليأمنوا منكم [ويأمنوا قومهم] من مشركي مكة إذا رجعوا إليهم بالاشتغال بأمور الوثنية المعتادة بينهم [كلما رُدوا إلى الفتنة] أي دُعوا للاشتراك كما قال السدي [أُركسوا فيها] أي قُلِبُوا فيها اقبح قلبٍ وأشنعه [فَإِنْ لم يَعْتَزِلُوكم ويُلْقُوا إلَيكُمُ السَّلَمَ ويكفوا أيديهم] أي فإن لم يعتزلوكم بالكف عن التعرّض لكم ولم يُلْقُوا إليكم الصلح والمهادنة ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم [فخذوهم واقتلوهم حَيْثُ ثقِفتموهم] أي حيث وجدتموهم وتمكنتم منهم [وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا] أي وأولئك الناس الكافرون الموصوفون بما ذكر من الصفات القبيحة قرنا لكم عليهم حجة واضحة فيما أمرناكم به من قتلهم متى ظفرتم بهم وتمكنتم منهم •

(تنبيه) علم من ترتب قوله تعالى فخذوهم واقتلوهم على ما سبقه من الشروط أن قوله تعالى ويلقوا إليكم السلم وقوله ويكفوا أيديهم معطوفان على المنفي فيما قبل ويستولى عليهما النفي ، والتقدير : فإن لم يعتزلوكم ولم يلقوا إليكم السلم ولم يكفوا أيديهم فخذوهم •

في روح المعاني ما نصه : وعن بعض المحققين أن هذه الآية مقابلة للآية الأولى فقوله سبحانه : (فإن لم يعتزلوكم) مقابل لقوله تعالى : (فإن اعتزلوكم) وقوله جلّ وعلا (ويلقوا إليكم السلم) مقابل لقوله : (وألقوا إليكم السلم) وقوله تعالى : (ويكفوا أيديهم) مقابل لقوله : (فلم يقاتلوكم) والواو لا تقتضي الترتيب ؛ فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين • وهي في الآية الأولى الاعتزال وعدم القتال وإلقاء السَّلَم فبهذه الاجزاء الثلاثة تم الشرط • وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل كما يشير إليه قوله تعالى : (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) • وفي الآية الثانية عدم الاعتزال وعدم إلقاء السلم وعدم الكف عن القتال ، فبهذه الأجزاء الثلاثة تم الشرط ، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه : (فخذوهم واقتلوهم) إنتهى باختصار •

(وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلاّ خَطَأً ، ومَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله ، إلاّ أنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)(٩٢)

قوله تعالى : [وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ] الآية شروع في بيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين والمنافقين • ومعنى الآية الكريمة : ما صح وما ينبغي لمؤمن وليس من شأنه المناسب له أن يقتل مؤمنا بغير حق ، فإن الإيمان بالله ورسوله والشعور بالمسؤولية يوم القيامة وأخوة

الإسلام كل ذلك زاجر له عن أن يقتل مؤمنا بغير حق إلا إذا كان القتل خطأ فإنه مما لا يحترز عنه بالكلية ، [ومن قتل مؤمنا خطأ فـ] عليه [تحرير رقبة مؤمنـة] أي إعتاقها ، ودية مسلـّمة إلى أهله أي مؤداة إلى ورثة القتيل يقسمونها بينهم على حسب الميراث •

أخرج أصحاب السنن الأربعة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال : كتب إليّ رسولُ الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يأمرني أن أُرِثَ امرأةَ أشيم الضبابي مِنْ عَقْلِ زَوجها ويقضي منها الدين وتنفذ الوصية ، ولا فرق بينها وبين سائر التركة • وتجب الرقبة في مال القاتل والدية تتحملها العاقلة عنه ، فإن لم تكن ففي بيت المال ، فإن لم يكن ففي ماله [إلاّ أنْ يَصَّدَّقوا] أي إلا أن يتصدق أهله عليه ويعفونه عنها • وذكر بعنوان الصدقة حثا وترغيبا في العفو وقد أخرج الشيخان عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل معروفٍ صَدَقة •

مهمة يجب الانتباه لها هي : أن الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه المجيد العمد والخطأ ولم يذكر شبه العمد وقد اختلف العلماء في القول به ، فقال ابن المنذر : أنكر ذلك مالك وقال : ليس في كتاب الله إلا العمد والخطأ • وقال أبو عمر : أنكر مالك والليث ابن سعد شبه العمد فمن قتل عندهما بما لا يقتل مثله غالبا كالعَضّة واللطمة وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك ••• فإنه عمد وفيه القود ، قال أبو عمر : وقال بقولهما جماعة من الصحابة والتابعين • وذهب جمهور فقهاء الأنصار إلى أن هذا كله شبه العمد ، وممن أثبت شبه العمد الشعبي والحكم وحماد والنخعي وقتادة وسفيان الثوري وأهل العراق والشافعي • ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وعليّ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ • وهذا هو الصحيح فإن الدماء أحَقّ ما احتيط لها ، إذ الأصل صيانتها فلا تستباح إلا بأمرٍ بيّنٍ لا إشكال فيه ، وإذا كان أمراً مترددا بين

العمد والخطأ حكم له بشبه العمد ، فالضرب مقصود والقتل غير مقصود ، وإنما وقع بغير القصد فيسقط القود وتغلظ الدية ، وبمثل هذا جاءت السّنة •

روى ابو داود من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ألا إنّ ديةَ الخطأ شبهِ العمد ما كان بالسوط والعصا مأةٌ من الإبل ، منها أربعون في بطونها أولادُها » • وروى الدارقطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « العَمدُ قَوَدُ اليَدِ • والخطأ عقل لا قود فيه ، ومَنْ قتل في عِمِّيّةٍ بحجر أو عصا أو سوط فهو دية مغلظة في أسنان الابل » وروي أيضا من حديث سليمان بن موسى عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد ولا يقتل صاحبه » • وهذا نَصٌ •

وإذا علمت أن العراقيين والشافعي قائلون بشبه العمد فاعلم أن القتل عند الفقهاء العراقيين أي أبي حنيفة وأتباعه خمسة أنواع :

الأول : عمد وهو أن يتعمد ضربه بسلاح ومحدد من خشب وحجر وليطة ونار ، وموجبه الإثم والقود عينا ، فلا يصير مالا إلا بالتراضي لا الكفارة ، لأن القتل كبيرة محضة وفي الكفارة معنى العبادة ولا يناط بها •

والثاني : شبهه وهو أن يقصد ضربه بغير ما ذكر ، وموجبه الإثم والكفارة ودية مغلظة على العاقلة لا القود لشبهه بالخطأ نظرا إلى آلته ، وهو في مادون النفس من الأطراف عمد موجب للقصاص ، فليس في مادون النفس شبه عمد •

والثالث : خطأ وهو نوعان لأنه إما خطأ في ظن الفاعل كأن يرمي شخصا ظنه صيدا ، أو حربيا فإذا هو مسلم • وإما خطأ في نفس الفعل كأن يرمي غرضا

أو صيدا فأصاب آدميا ، أو رمى غرضا فأصابه ثم رجع عنه ، أو تجاوز عنه إلى ما وراءه فأصاب رجلا ، أو قصد رجلا فأصاب غيره .

والرابع : ما جرى مجراه كنائم انقلب على رجل فقتله ، وموجبه الكفارة والدية على العاقلة .

والخامس : قتل بسبب، كحافر البئر وواضع حجر في غير ملكه من غير إذن من السلطان ، وكذا واضع خشبة على قارعة الطريق ونحو ذلك . وموجبه الدية على العاقلة لا الكفارة . وكل ذلك يوجب حرمان الإرث إذا كان الجاني مكلفا ، إلا هذا الأخير .

وأما عند الشافعي ـ رضي الله عنه ـ ففي منهاج الإمام النووي وشرحه لابن حجر ـ رضي الله عنهما ـ : الفعل المزهق ثلاثة لمفهوم الخبر الصحيح : « ألا إن في قتل عمد الخطأ كقتيل السوط والعصا مأة من الإبل » : عمد ، وخطأ ، وشبه عمد . ولا قصاص إلا في العمد وهو قصد الفعل وعين الشخص بما يقتل غالبا جارح أو مثقل . فإن فقد قصدهما أو قصد أحدهما بأن وقع عليه فمات أو رمى شجرة فأصابه فخطأ . وإن قصدهما بما لا يقتل غالبا فشبه عمد ويسمى خطأ عمد ، وعمد خطأ وخطأ شبه عمد . سواء أقتل كثيرا أم نادرا كضربة يمكن عادة إحالة الهلاك عليها . ومنه الضرب بسوط أو عصا ، فلو غرز إبرةً بمقتل فعمدٌ ، وكذا بغيرها إن تورّم وتألّم حتى مات . فإن لم يظهر أثر ومات في الحال فشبه عمد ، وقيل عمد وقيل لا شيء ولو غرزها فيما لا يؤلم كجلدة عقب فلا شيء بحال .

أما الدية : فدية شبه العمد عند الإمام أبي حنيفة وأتباعه : مأة من الإبل أرباعا من : بنت مخاض ، وبنت لبون ، وحقة إلى جذعة . وهي المغلظة لا

غيرها • وفي الخطأ أخماس منها ومن بنت مخاض أو ألف دينار من الذهب أو عشرة آلاف درهم من الوَرِق أي الفضة • والدية على العاقلة على حسب ما ذكر في المدوّنات • والعاقلة : أهل الديوان وهم العسكر فتؤخذ من عطاياهم في ثلاث سنين وإن لم يكن أهل الديوان فعاقلته قبيلته ، وتقسم عليهم في ثلاث سنين ، فإن لم تسع القبيلة لذلك ضم إليهم أقرب القبائل نسباً على ترتيب العصبات ، والقاتل أحدهم • ولا تَعْقِلُ عاقلةٌ جنايةِ عمدٍ في النفس[1] أو الطرف فإن العمد لا يوجب التخفيف ، ولا ما لزم بصلح أو اعتراف فإنه على القاتل حالاً إلا اذا أُجّل • وإذا لم يكن للقاتل عاقلة" فالدية في بيت المال إذا كان القاتل مسلما • ومن له وارث معروف ولو بعيدا لا يعقله بيت المال •

ودية المرأة على النصف من دية الرجل في دية النفس وما دونها • روي ذلك عن علي ــ رضي الله عنه ــ موقوفا ومرفوعا • وأما كفارة شبه العمد والخطأ فعتق عبد مؤمن ، فإن عجز عنه صام شهرين ولاءً ولا إطعام فيهما إذ لم يرد به النص • وأما عند الإمام الشافعي فالدية في قتل الحر المسلم الذكر المعصوم غير الجنين مأة بعير إجماعا وهي مثلثة في العمد وعلى نفس القاتل معجلة مثلثة في شبه العمد أيضا لكنها على العاقلة مؤجّلةً وهي ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خَلِفَةً ، أي حاملا لخبر الترمذي بذلك ومخمسة في الخطأ : عشرون بنت مخاض وكذا بنات لبون وبنو لبون وحِقاق وجِذاع من الإناث فإن قتل خطأ في حرم مكة أو في الأشهر الحرم الأربعة أو محرما ذا رحم كأم

(١) هذا اذا عفا القاتل المتعمد على ا ال .

وأخت فهي مثلثة ولكنها على العاقلة أيضا • ولو عدمت الإبل فالقديم أن الواجب ألف دينار أو إثنا عشر ألف درهم ، والجديد أن الواجب قيمة الإبل المأة بالغة ما بلغت • ودية المرأة والخنثى كنصف دية رجل نفسا وجرحاً وأطرافا إجماعا في نفس المرأة وقياسا في غيرها •

وأما كفارة القتل عمدا أو شبه عمد أو خطأ فهي ككفارة الظهار لكن لا إطعام هنا ، فهي تحرير رقبة فإن عجز فصيام شهرين متتابعين • وهي فورية في العمد وشبهه تداركا لإثمهما بخلاف الخطأ فلا تجب الفورية فيها كما يظهر من قوله تعالى : [فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة] أي وإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله ، إذ لا وراثة بينه وبينهم لأنهم محاربون [وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مُسَلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة] أي وإن كان المقتول من قوم كفرة معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية • [فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما] فيما شرعه من الأحكام •

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعدّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً)(٩٣)

أجمعوا على أن الآية نزلت في مَقْيَسِ بنِ ضبابة ، وذلك أنه كان قد أسلم هو وأخوه هشام بن ضبابة فوجد هشاما قتيلا في بني النجار فأخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكتب له إليهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه وأرسل معه رجلا من بني فهر • فقال بنو النجار : والله ما نعلم له قاتلا ، ولكنا نؤدي الدِّيةَ ، فأعْطَوْهُ مأةً من الإبل ثم انصرفا راجعين إلى

المدينة • فعدا مقيس على الفهري فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة كافرا مرتدا • فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا اؤَمِّنُهُ في حِلٍّ ولا حَرَم » وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة ، ولما ثبت هذا بنقل أهل التفسير وعلماء الدين فلا ينبغي أن يحمل على القاتل المسلم قطعا • ثم ليس الأخذ بظاهر هذه الآية بأولى من الأخذ بظاهر قوله تعالى : (إن الحَسَنات يُذْهبنَ السّيئات) وقوله تعالى : (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) وقوله تعالى : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) والأخذ بالظاهرين تناقض فلابد من التخصيص • ثم إن الجمع بين آية الفرقان وهذه الآية ممكن فلا نسخ ولا تعارض • وذلك أن يحمل مطلق آية النساء على مقيد آيةِ الفرقان فيكون معناه فجزاؤه كذا إلاّ من تاب لاسيما وقد اتحد الموجِبُ وهو القتل والموجَبُ وهو التواعد بالعقاب •

وأما الأخبار فكثيرة كحديث عبادة بن الصامت الذي قال فيه : « تبايعوني على الاّ تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » رواه الأئمة • ولحديث أبي هريرة عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الذي قتل مأة نفس أخرجه مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه وغيرهما إلى غير ذلك من الأخبار الثابتة •

ثم إنهم قد أجمعوا معنا في الرجل يشهد عليه بالقتل ويقرّ بأنه قتل عمدا ويأتي السلطانَ الأولياءُ فيقام عليه الحد ويقتل قوداً • فهذا غير متّبع في الآخرة ، والوعيد غير نافذ عليه إجماعا على مقتضى حديث عبادة •

فقد انكسر عليهم ما تعلقوا به من عموم قوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ، ودخله التخصيص بما ذكرنا • وإذا كان كذلك فالوجه أن هذه الآية مخصوصة كما بينا ، أو تكون محمولة على ما حكي عن ابن عباس أنه قال متعمدا معناه مستحلا لقتله • فهذا ايضا يؤول إلى الكفر إجماعا أو أن المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم • وكأنه لما في الآية الكريمة من التهديد العظيم قال ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً • ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه ، أو أنه حملها على من قتل المؤمن لكونه مؤمنا • وذلك يوجب الكفر بلا شبهة ويكون مآل هذا التوجيه وقوله السابق مستحلا واحداً لابتنائهما على كفر ذلك القاتل • والله أعلم •

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ : لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ ، فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً)(٩٤)

عن ابن عباس قال : مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يسوق غنما ، فسلم عليهم فقالوا : ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزلت الآية أخرجه البخاري والترمذي والحاكم • وفي غير البخاري : وحمل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ديته إلى أهله ورد عليه غنيماته •

واختلف في تعيين القاتل والمقتول في هذه المنازلة فالذي عليه الأكثر وهو في سير ابن إسحاق ومصنّف أبي داود والاستيعاب لابن عبدالبر : أن القاتل محلّم بن جثّامة والمقتول عامر بن الأضبط . فدعا ـ صلى الله عليه وسلم ـ على محلّم فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً ثم دُفِنَ فلم تقبله الأرض ، ثم دفن فلم تقبله ، ثم دفن ثالثة فلم تقبله ! فلما رأوا أن الأرض لا تقبله ألقوه في بعضِ تلك الشعاب . وقال ـ عليه السلام ـ : « إن الأرض لتقبل من هو شرّ منه » . قال الحسن : أما أنها تحبِسُ مَن هو شر منه ولكنه وعظ القومَ ألاّ يَعُودُوا أي إلى مثل ذلك العمل .

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] الآية شروع في التحذير عما يوجب الندم من قتل من لا ينبغي قتله . فيقول : [يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله] أي سافرتم للغزو [فتبينّوا] أي فاطلبوا بيان الأمر ووضوحه في كل ما تفعلونه أو تتركونه ، ولا تعملوا شيئا من غير تدبر وبصيرة [ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمنا] أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام وهي السلام عليكم لَسْتَ مؤمنا وإنما سلمت علينا خوفا من القتل والأسر وأخذ الأموال بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه معاملة الأخ لأخيه المؤمن . [تبتغون عرض الحياة الدنيا] حالكونكم عند ذلك القول تطلبون أسره أو قتله لتستولوا على متاع الحياة الدنيا مما عنده من السلب والأموال والمواشي وغيرها ، فلا تطلبوا ذلك [فعند الله مغانم كثيرة] في الدنيا ومواهب كثيرة في الآخرة تنالونها [كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم] فمثل ذلك الإنسان الذي ألقى اليكم السلام كنتم في مبادىء الإسلام أي لم يكن منكم إلا كلمات كانت تدل على الإسلام والانقياد له مثل كلمة التوحيد والشهادتين والسلام المعتاد في البين ، وما اطلع أحد على حقيقة ما في قلوبكم مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتنع منكم بذلك ولم يقل لأيّ واحد منكم لست

مؤمنا [فمن الله عليكم] بقبول الإيمان ولم يأمر بالتوقف عن القبول حتى يظهر توافق القلب مع اللسان واضحا [فتبينوا] هذا الأمر ولا تستعجلوا ولا تبادروا بإيذاء أمثال ذلك فضلا عن قتله وأخذ أمواله • [إن الله كان بما تعملون خبيرا] ولم يزل كذلك فيعاقبكم على الهجوم والاستعجال قبل بيان حقيقة الحال وهذا وعظ للاستقبال •

(لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المؤمِنِينَ غَيْرُ أولي الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ بِأمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسْنى ، وَفَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً(٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ ومَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(٩٦)

عن البراء بن عازب لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أُدْعُ فلانا » أي زيد بن ثابت ، فجاء ومعه الدّواة واللوح والكتف ، فقال : « أكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » وخلفَ النبي ابنُ أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله أنا ضرير • فنزلت مكانها « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » أخرجه البخاري وأحمد والنسائي •

قوله تعالى : « لا يستوي •• الآية » شروع في الحث على الجهاد ليأنفوا من تركه وليرغبوا عما يوجب خللا فيه • والمراد بالقاعدين الذين أذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم • روى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله

تعالى عنهم ــ : هم القاعدون عن بدر ، وهو الظاهر الموافق للتأريخ على ما قيل • وقال أبو حمزة : إنهم المتخلفون عن غزوة تبوك •

وروي أن الآية نزلت في كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف • وهلال بن أمية من بني واقف حين تخلفوا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في تلك الغزوة •

ومعنى الآية الكريمة : [لا يستوي القاعدون من المؤمنين] الذين أذن لهم بالقعود في بيوتهم وعدم خروجهم إلى الجهاد [غير أولى الضرر] من الذين ابتلاهم الله بنحو العمى والعرج مما يمنع الإنسان عن الاقتحام في الحروب ، [والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم] إنفاقا بلا حيف وتضحية بها أمام السيف • فليسوا سواء في الأجر يوم القيامة ؛ لأنه [فضل الله المجاهدين] في سبيله [بأموالهم وأنفسهم على القاعدين] عن القتال من المؤمنين غير أولى الضرر [درجة] مبهمة الأمر مجهولة القدر لا يعلم مداها إلا الله ، لأنهم من الصابرين المحتسبين لله ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [وكلا] من القاعدين والمجاهدين [وعد الله] المثوبة [الحسنى و] لكن [فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات] في كل كرامات وبركات ثابتة [منه] تعالى لا من غيره لأنها من اختصاص فيض رحمته وشمول نعمته ، وتلك الدرجات ارتقاءات في مواهب الحسنات ، وزاد عليها [مغفرة] للذنوب والسيئات [ورحمة وكان الله] ولم يزل ولا يزال [غفورا رحيما] بعباده المؤمنين المسيئين فضلا عن القاعدين والمجاهدين لإعلاء كلمة الحق والدين • وأما أولو الضرر المهتمون بالجهاد المكفوفون الممنوعون عن السير في العباد فلهم عين الدرجات على موازين الإيمان وحسن النيات ، والله أعلم •

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ • قَالُوا أَلَمْ

تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً(٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً(٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً)(٩٩)

عن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يَسْتخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر ، فأصيب بعضهم وقُتِل البعضُ • فقال المسلمون : قد كان أصحابنا هؤلاء مُسلمين وأُكرِهوا ، فاستغفروا لهم • فنزلت فيهم هذه الآية • فكتب إلى من بقي من المسلمين بمكة بهذه الآية وإنه لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم الآية • (ومن الناس من يقول : آمنا بالله فإذا أوذِي في الله) العنكبوت • فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير ونزلت فيهم (ثم إن ربك للذين هاجروا) النحل ، فكتبوا إليهم بذلك إن الله قدجعل لكم مخرجا فاخرجوا فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل • أخرجه البيهقي في سننه وابن المنذر • وأخرجه البخاري مختصرا حيث يقول عن ابن عباس إن اناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادَ المشركين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل • فأنزل الله الآية •

قوله تعالى : [إن الذين توفيهم الملائكة ظالمي أنفسهم] الآية بيان لحال القاعدين عن الهجرة إثر بيان القاعدين عن الجهاد ، أو بيان لحال القاعدين عن نصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجهاد معه من المنافقين بعد بيان حال القاعدين من المؤمنين ، يعني إن الذين توفيهم الملائكة

أي قبضت الملائكة أرواحهم وماتوا حالكونهم ظالمي أنفسهم بترك الهجرة عن مكة واختيار جوار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو بنفاقهم وتقاعدهم عن نصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [قالوا : فيم كنتم ؟] أي قالت الملائكة لهم : في أي شيء كنتم من الشغل الشاغل عن إطاعة أمر الله من الهجرة أو المعونة والنصرة [قالوا : كنا مستضعفين في الأرض] فقالوا في جوابهم : كنا مستضعفين في الارض ، ومقهورين تحت أيدي الجبابرة ، ولم نقدر على الهجرة أو النصرة ، أو عملنا ما عملنا من الاعمال المضرة بالإسلام مضطرين مكرهين . [قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟] أي قالت الملائكة لهم : إن عذركم ذلك باطل ، إذ كان يمكنكم حل تلك العقدة بالارتحال عن بلدكم إلى بلد آخر تقدرون فيه على إقامة الدين ونصره . فكلام الملائكة هذا معارضة لمعذرة أولئك المستضعفين . وحاصلها : قد كان لكم وسيلة الخلاص لو كان عندكم شيء من الإخلاص . [فأولئك] الناس المتقاعدون عن الهجرة أو أولئك المتقاعدون عن النصرة [مأواهم جهنم] لتركهم فريضة الهجرة والجهاد مع سيد العباد ، أو لنفاقهم وتقاعدهم عما يؤدي إلى إعلاء كلمة الله . [وساءت مصيرا] جهنم . [إلا المستضعفين من الرجال] كعياش ابن أبي ربيعة وسلمة بن هشام والوليد ابن الوليد [والنساء] كأم الفضل لبابة بنت الحارث أم عبدالله ابن عباس ، [والولدان] كعبدالله المذكور وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ . حالكونهم [لا يستطيعون حيلة] أي لا يتمكنون من أسباب الحركة والهجرة من الدليل والنفقات والحراسة لهم حتى يخرجوا من أيدي الأعداء ، [ولا يهتدون سبيلا] إلى المقصود بالمعنى العام أو الخاص [فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم] لعدم قدرتهم الكاملة على الوفاء بالواجب [وكان الله] ولم يزل [عفوا غفورا] وهذه الجملة للتقرير والاستثناء منقطع لأن

الموصول المبحوث عنه قيد بقوله ظالمي أنفسهم وأولئك الرجال والنساء الضعاف ما لم تكن لهم حيلة ولا اهتداء إلى سبيل لم يكلّفوا بالهجرة ، فلم يظلموا أنفسهم بالبقاء في أماكنهم .

(ومَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ، ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أجْرُهُ عَلى اللهِ ، وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً)(١٠٠)

عن ابن عباس قال : كان سمرة بن جندب أو ابن العيص بمكة ، وكان مسلما فلما نزلت إلا المستضعفين قال إني لغني وإني لذو حيلة وإني لدليل في الطريق ومالي من عذر ، وكان مريضا فتجهز يريد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأدركه الموت بالتنعيم قبل أن يصلَ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية : (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) الآية . أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو يَعْلى .

قوله تعالى : [وَمَنْ يُهاجِرْ] الآية ترغيب في الهجرة وتحسين لها . والمراغم اسمُ مكان من باب المفاعلة بمعنى المتحول والمُهاجَر . وفي تعبير الباري به تأكيد للترغيب في المهاجرة لدلالته على أن ذلك المتحول الذي يجدُه المهاجر يكون سببا لرغم أنف قومه الذين هاجرهم . وقيل : المراد بالمراغم طريق يراغم قومه بسلوكه فيه . أي يفارقهم على رغم أنوفهم والرغام التراب . وأصله لصوق الأنف بالرغام . والمراد به هنا الذل والهوان . ومعنى الآية : [ومن يُهاجرْ في سبيل] نصرة دين [الله يَجدْ في الارض] التي يسافر إليها [مُراغَماً] واسعاً ومتحولا نافعا [كثيرا ، وسعة]

في المكان لسهولة الإسكان [وَمَن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت] قبل أن يصل إلى المقصد ويحط الرحالَ [فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما] .

(وإذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أنْ تَقْصُروا مِن الصَّلاةِ إنْ خِفْتُمْ أن يَفتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَروا ، إنَّ الْكَافِرينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً(١٠١) وَإذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وليَأخُذُوا أسْلِحَتَهُمْ ، فَإذَا سَجَدوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ اُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ، ولْيَأخُذُوا حِذْرَهُمْ وَاَسْلِحَتَهُمْ . وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفلُونَ عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كانَ بِكُمْ أذىً مِنْ مَطَرٍ ، أوْ كُنْتُم مَرْضى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ ، وخُذُوا حِذْرَكُمْ إنَّ الله أعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً(١٠٢) فَإذَا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فَاذكُرُوا اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِكُمْ فَإذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً(١٠٣) ولا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)(١٠٤)

عن علي قال : سأل قوم من بني النجار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الارض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله

(وإذا ضربتم في الارض) الآية ••• ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحول غزا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فصلى الظهر فقال المشركون : لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها في إثرها ، فأنزل الله بين الصّلاتين (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) إلى قوله (عذابا مهينا) فنزلت صلاة الخوف أخرجه ابن جرير •

وعن ابن عياش الزرقي قال : كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبي الظهر ، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصَبْنا غرتهم ! ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم وهي العصر • فنزل جبريل بهذه الآية بين الظهر والعصر • (وإذا كنت فيهم) الآية رواه أحمد والبيهقي والحاكم وأبو داود والنسائي •

وعن ابن عباس قال : نزلت (ولا جناح •••) الآية في عبدالرحمن بن عوف كان جريحا • رواه البخاري •

قوله تعالى : [واذا ضربتم في الارض] أي سافرتم ، [فليس عليكم جناح] أي ذنب [ان تقصروا من الصلاة] بتنصيف ركعاتها [إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] أي يوقعكم الكفار في الفتنة بالقتل أو الجرح أو سائر وجوه الإيذاء [إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا] وهم متربصون بكم الدوائر فأباح الله لكم القصر لتفرغكم لمحاربتهم •

وهنا أمور ينبغي التعرض لها : الاول وهي : إن قوله تعالى وإذا ضربتم في الارض بمعنى سافرتم ودخلتم في السفر ، ولكن هذا السفر لم يتحدد بالنص ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر لا في القرآن ولا في السنة •

وإنما كان كذلك لأن السفر لفظ عربي استقر علمه عند العرب الذين خاطبهم الله تعالى بالقرآن ، فمن المعلوم أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافرا لغة ولا شرعا ، وإن مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه مسافر قطعا كما أنه يحكم على من مشى يوما وليلة إنه مسـافر لقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها » . وهذا هو الصحيح لأنه وسـط بين الحالين ، وعليه عوّل الإمام مالك ، ولكنه لم يجد هـذا الحديث متفقا عليه . وروى مرة يوما وليلة ، ومرة ثلاثة أيام . فجاء إلى عبدالله بن عمر فعوّل على فعله فإنه كان يقصر الصلاة في السفر أربعة بُرُدٍ ، لأن ابن عمر كان كثير الاقتداء بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وكافة العلماء على أن القصر إنما شرع تخفيفاً وإنما يكون في السفر الطويل الذي تلحق به المشقة غالبا . فالإمام أبو حنيفة اعتبر المسافة مقدرة بالزمن وهو ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة ، ويكفي أن يسافر في كل يوم منها من الصباح إلى الزوال .

والإمام الشافعي اعتبر أربعة بُرُد أي ستة عشر فرسخا ، وبما أن كل فرسخ ثلاثة أميال تبلغ ثمانية وأربعين ميلا ، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد ، وهذه المسافة تساوي ثمانين كيلو متراً ونصف كيلو متر ومأة وأربعين مترا .

وظاهر قوله تعالى (فلا جناح عليكم) ان القصـر جائز لا واجب ، ويؤيده أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أتم في السفر وأن عائشة ــ رضي الله عنها ــ اعتمرت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقالت : يا رسول الله قصرت وأتممت وصمت وأفطرتُ . فقال : أحسنتِ يا عائشة . ولكن القصر أفضل عند الشافعي من الإتمام إن بلغ سفره ثلاث مراحل ، فإن كان

السفر أقل من الثلاث فالإتمام أفضل • وأوجب الإمام أبو حنيفة القصر في السفر مطلقا لما ثبت عنده •

ثم ظاهر الآية الكريمة أن جواز القصر مشروط بالخوف من الكفار ولكن العلماء لم يعتبروا مفهوم هذا القيد لأنه ورد حسب رعاية الواقع أو أنه مبني وجارٍ على موافقة الغالب كما في قوله تعالى : (وربائبكم اللاتي في حجوركم) ومنهم من قال : إن هذه الآية الكريمة بينت حكم صلاة الخوف ، وأما القصر في السفر وقت الأمن فثابت بالسنة • وقد تظاهرت السنن على جوازه في الأمن فقد قال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : القصر في غير الخوف بالسنة • وأما في الخوف مع السفر فبالقرآن والسنة • ومن صلى أربعا فلا شيء عليه ولا أحب لأحد أن يتم في السفر رغبة عن السنة •

وقال أبو بكر الأثرم : قلت لأحمد بن حنبل : للرجل أن يصلي في السفر أربعا ؟ قال : لا ، ما يعجبني ، السنة ركعتان • وقصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أربع إلى اثنتين إلا المغرب في أسفاره كلها آمناً لا يخاف إلا الله تعالى •

ثم إن صلاة الخوف كانت مشروعة في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له ولكل مسلم من أهل عصره معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو منفردين عنه • واستمرت مشروعيتها إلى الآن ، وهي مستمرة إلى آخر الزمان وأما شروط الصلاة وأركانها وسننها وعدد ركعاتها فهي في الخوف كالأمن بمعنى أنه إذا كانت في السفر تقصر أو في الحضر تكمل ، إلا إذا اشتد الخوف ولم يبق مجال لإكمالها فعند ذلك تقصر ، وإن لم يبق مجال لفعلها بالوجه المعتاد جازت كيف أمكن لقوله تعالى : (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) •

وهي جائزة في كل قتال ليس بحرام سـواء كان واجبا كقتال الكفار والبغاة وقطاع الطريق إذا قاتلهم الإمام وكذا الصائل على حريم الإنسان من نفسه وأهله وعرضه وماله وأولاده سواء أوجبنا الدفاع أو كان مباحا مستوي الطرفين كقتال من قصد مال غيره .

وفي كيفية صلاة الخوف في قتال الكفار وجوه مروية . منها ما في قوله تعالى : [وإذا كنت فيهـم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهـم معك] في الصلاة ، وليحرس طائفة أخرى منهم حذرا عن هجوم الأعداء [وليأخذوا] أي المصلون معك [أسْلِحتهم ، فإذا سجدوا] أي الذين قاموا للصلاة معك [فليكونوا من ورائكم] أي فلينصرفوا للحراسـة من العدو يقوموا مقام الطائفة التي حرست المصلين عند اشتغالهم بالصلاة [ولتأت طائفة أخرى لم يُصلوا] بعد وهي التي كانت تحرس [فليصـلوا معك] الركعة الباقية من صلاتك . [وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم] كالطائفة الأولى عند الصلاة حتى يكونوا في كمال الأهبة والاستعداد لرد هجوم المعاندين . والمراد بالحذر هو التنبه واليقظة ، اعتبره كآلة يتحصن بها الغازي فجمع بينه وبين الاسلحة في وجوب الاخذ بتضمين الاخذ معنى الاستيلاء ، أي وليستولوا على كل ما لديهم من المعنويات كالتنبه واليقظة ، والماديات كالاسلحة نظير قوله تعالى : (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم) . [ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة] أي تمنوا أن ينالوا منكم غفلة في صلاتكم فيهجمون عليكم هجوما مباغتا . وهذه الجملة بيان سـرّ الأمر بأخذ الحذر والأسلحة . [ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً مِنْ مَطَرٍ ، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم] في مدة الصّلاة ، لأنها ثقيلة متعبة ، لاسيما للمرضى ، أو مع وجود عوارض أخرى كالمطر المبلل للثياب المثقل لها [و] لكن [خـذوا حذركم] إذا وضعتموها كي لا يهجم عليكم

الاعداء [إن الله أعدّ للكافرين عذابا مهينا] وفي هذا وعد بنجاح المؤمنين ووعيد بهلاك الكافرين [فإذا قضيتم الصلاة] أي فإذا أديتم صلاتكم في الخوف [فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم] فاستمروا على ذكر الباري سبحانه في كل حال لأن الذكر أخو الصلاة [فإذا اطمأننتم] أي سكنت قلوبكم من الخوف [فأقيموا الصلاة] فعدّلوها وأدوها كاملة غير مقصورة مع رعاية شرائطها وأركانها وسننها ومن جملة الإقامة أداء كل صلاة في وقتها المحدد • [إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا] فرضا محدود الاوقات لا يجوز أداؤها قبلها ولا إخراجها بلا عذر مشروع [ولا تهنوا في ابتغاء القوم] أي لا تضعفوا عن طلب الكفار للقتال • [إن تكونوا تألمون] أنتم بالمطالبة واللقاء والقتال [فإنهم يألمون] أيضا [كما تألمون ، وترجون من الله] تعالى الجزاء الأوفى في الآخرة عند اللقاء [ما لا يرجون] ـه ، [وكان الله عليما] بأعمالكم وأحوالكم [حكيما] في ابتلائكم واعتلائكم بالانتصار في الدنيا والافتخار في الآخرة •

(إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً(١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً(١٠٦) وَلا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ من كانَ خَوّاناً أَثِيماً(١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ ! وكانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً(١٠٨) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنيا فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ؟(١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ

سُوءً اَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً(١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ اِثْماً فَاِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ ، وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً(١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً اَوْ اِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَاِثْماً مُبِيناً(١١٢) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ اَنْ يُضِلُّوكَ ، وَما يُضِلُّونَ اِلاَّ اَنْفُسَهُمْ وَما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَاَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)(١١٣)

قوله تعالى : [إنا أنزلنا إليك الكتاب] إلى قوله تعالى : [ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا] انزلت كلها في قصة واحدة ، وذلك أن رجلا من الأنصار يقال له : طعمة ابن أبيرق ، أحد بني ظفر ابن الحارث ، سرق درعا من جار له يقال له قتادة ابن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار ، وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له : زيد ابن السمين فالتمست الدرعُ عند طعمة فلم توجد عنده ، وحلف لهم : والله ما أخذها وما له من علم ! فقال أصحاب الدرع : بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثرها حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق . فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه ، فقال : دفعها إلى طعمة ابن أبيرق ، وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر ، وهم قوم طعمة : انطلقوا بنا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ ، فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء

اليهودي ، فهمّ رسول الله أن يفعل ، وكان هواه معهم ، وأن يعاقب اليهودي فأنزل الله تعالى : [إنا انزلنا] الآية وهذا قول جماعة من المفسرين •

وعن قتادة ابن النعمان كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق ، وهم ثلاثة اخوة بشر وبشير ومبشر ، وكان بشر رجلاً منافقا يقول الشعر يهجو أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم يَنْحله بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا ، وقال فلان كذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث فقال :

أو كلما قال الرجال قصيدة نحلت ، فقالوا : ابن الأبيرق قالها !

قال قتادة : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة (قافلة من الإبل) حمولة من الشام من الدرمك (دقيق الحواري) ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير • فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة ابن رافع حملا من الدرمك فجعله في مشربة (اي غرفة الأكل) وفي المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما باداتهما وما يصلحهما فعدا عليه ليلا ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح ، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي تعلم أن قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا ، فذهب بطعامنا وسلاحنا فتحسسنا في الدار وسألنا فقيل لنا : قد رأينا بني أُبَيْرِقَ استوقدوا نارا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم ، قال : وكان بنو أُبَيْرِقَ قالوا : ونحن نسأل في الدار والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن

سهل ، رجلا منا ذا حسب ونسب وفيه صلاح وإسلام ! فلما سمع ذلك لبيد اخترطَ بسيفه . ثم أتى بني أبيرق وقال : أنا أسرق ؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف او لَتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة ! قالوا : إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم تشك أنهم أصحابها .

فقال لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت له ذلك ! قال قتادة : فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يا رسول الله إن أهل بيت منّا أهل حفاء عمَدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له واخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا . وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سأنظر في ذلك . فلما سمع ذلك بَنُو أُبَيْرِق أَتَوْا رجلا منهم ، ابن عم لهم ، يقال له أسير بن عروة ، فكلموه في ذلك واجتمع إليه ناس من أهل الدار . فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا هم أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثَبَت ! قال قتادة فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلمته وغضب علي وعلى عمي وجادل عن بشير ومن معه . ثم قال : عمدت إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت ؟ ! قال قتادة : فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ذلك . فأتاني عمي رفاعة فقال لي يا ابن أخي ما صنعت ؟ فاخبرته بما قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الله المستعان . فلم نلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...) الآيات الى عظيما . فلما نزلت هذه الآيات أتى رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ بالسلاح فردّه إلى رفاعة . وقال قتادة : فلما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخا قد كبر في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخي هو في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحا . ثم لحق بشير بالمشركين مرتدا . أخرجه الترمذي وابن المنذر والحاكم .

قوله تعالى : [إنا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما] : أي إنا أنزلنا إليك الكتاب ملابسا ببيان الحق وبطريق الحق لتحكم بين الناس بَرهم وفاجِرِهم بما أراك الله أي بما عرفك به وأوحى به إليك ولا تكن لأجل الدفاع عن الخائنين خصيما ، ومخاصما للبراء المبتعدين عن الخيانة [واستغفر الله] تعالى مما قلت لقتادة ، أو مما هممت به في براءة طعمة [إن الله كان غفورا رحيما] .

ومما ينبغي التنبيه عليه أن ما قاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقتادة أو ما هم به من براءة طعمة لم يكن ذنبا وإثما حتى يستغفر منه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لكن لعلو مقامه عن بيان شيء قبل الوحي أمر بالاستغفار ، فليس ذلك استغفارا من الذنب عند المولى بل استغفار عنده من خلاف الأولى .

[ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم] أي لا تجادل بعض الناس من أجل الدفاع عن الذين يخونون الناس ويعود وبال خيانتهم إلى أنفسهم فهم باعتبار العاقبة خانوا أنفسهم لعود ضرر خيانتهم إليهم [إن الله لا يحب من كان خوانا] مبالغا في الخيانة متعودا لها [أثيما] كثير الاثم متعمقا فيه . والإتيان بصيغة المبالغة وتعليق النّفي به لموافقة الواقع لأن بني أبيرق كانوا كذلك وإلا فالباري تعالى لا يحب أهل الخيانة مطلقا سواء كانوا خائنين أو خوّانين .

ثم استانف في ذمهم بقوله [يستخفون من الناس] أي يريدون إخفاء عيوبهم عن الناس كي لا يطلعوا على عيوبهم [ولا يستخفون من الله] العليم العلام [وهو معهم] معية علم وإدراك [إذ يبيتون ما لا يرضى من القول] في زمان كانوا يُدَبِّرونَ ما لا يرضى به الباري تعالى من رمي البريء من السرقة بها وشهادة الزور [وكان الله بما يعملون] من الأعمال الظاهرة والخفية [محيطا] اي مستوعبا بالعلم لا يعزب عنه شيء منها •

[ها] حرف تنبيه [أنتم] مبتدأ و [هؤلاء] خبره ، وجملة [جادلتم عنهم] جملة مبينة لوقوع أولاء خبرا ، أو أنتم مبتدأ وهؤلاء منادى بحذف حرف النداء ، وجملة جادلتم خبر" • يعني أنتم أيها الناس جادلتم عن الخائنين ودافعتم عنهم [في] دار [الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟] أي فمن الذي يتكلم مع الباري سبحانه وتعالى يوم القيامة عند شهادة جوارحهم عليهم ؟ [أم من يكون عليهم وكيلا ؟] بل من الذي يكون حافظا لهم ومحاميا حتى يخلصوا من عذاب الله في دار الآخرة ؟ ومع دلك كلّه فالأمر سهل ، والسماح مرجو ، والعفو منتظر [ومن يعمل سوء] مما دون الشرك ، [أو يظلم نفسه] بالإشراك [ثم يستغفر الله] بتوبة نصوح [يجد الله غفورا] لما صدر عنه مطلقا [رحيما] متفضلا عليه بالإحسان [ومن يكسب إثماً] صغيرا أو كبيراً [فإنما يكسبه على نفسه] ، ولا يتعدى ضرره إلى غيره [وكان الله عليما] بالمكاسب [حكيما] في ترتيب الجزاء على الأعمال ورعاية الحق • [ومن يكسب خطيئة] صغيرة [أو إثما] أي كبيرة [ثم يرم به بريئا] أي يرم إنسانا بريئا من تلك الخطيئة أو الإثم [فقد احتمل بهتاناً] أي كذبا على الغير [وإثما مبينا] أي واضحا لا شبهة فيه أبدا • [ولولا فضل الله عليك ورحمته] بإعلامك بحقيقة الأمر [لَهَمَّتْ طائفة منهم] يعني أسير بن عروة وأتباعه [أن يُضِلوك] عن القضاء بالحق مع اطلاعهم على حقيقة الأمر

[وما يضلون إلا أنفسهم وما يضـرونك من شيء] لأن الله كان ولا يزال يوحي إليك الكتاب ويبين لك الصـواب ، ولا يتركك حتى تحكم بخلاف الصـواب [، و] قد [أنـزل الله عليك الكتاب] الجامع لمبادىء الأمور ومقاصدها ، [و] أنزل عليك [الحكمة] أي العلم بالأمور والعمل بالدستور حسب الواقع ، [وعلمك ما لم تكن تعلم] اعتقادا وعملا من خفيات الأحكام ، ومزيلات الأوهام [وكان فضل الله عليك عظيما] من كل جانب من الجوانب من المواهب والمكاسب وتبقى كذلك إلى لقاء رب العالمين •

(لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجويهُمْ إلاَّ مَنْ اَمَرَ بِصَدَقَةٍ اَوْ مَعْروفٍ اَوْ اِصْلاحٍ بَيْنَ النّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلك ابْتغاءَ مَرْضاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ اَجْراً عَظِيماً(١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُ الهُدى وَيَتَّبعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصِيراً)(١١٥)

قوله تعالى : [لا خير في كثير من نجويهم] أي لا خير في كثير من نجوى الذين يختانون أو الناس على الإطلاق [إلا من أمر] أي إلا نجوى من أمَر [بصدقة] وإحسان إلى محتاج ، وإن قلت [أو] أمر بـ [معروف] أي بما عرفه الشرع واستحسنه من الأقوال والأعمال كالإرشاد إلى الخير واعمال البرّ وإغاثة الملهوف وإعانة المنكوب وايواء المسكين [أو] أمر بـ [إصلاح بين الناس] المتخاصمين في الاموال وسائر الاحوال [ومن يفعل ذلك] المذكور من فعل الصدقات ونحوها [ابتغاء مرضات الله] لا لشيء آخر [فسوف نؤتيه أجراً عظيما] لا يحيط به البيان [ومن يشاقق الرسول] ويخالف أوامره ونواهيه ويقع على الشق المخالف له ، [من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سـبيل

المؤمنين] العالمين العادلين أي غير ما هم استمروا عليه من العقائد والاعمال [نولّه ما تولى] أي نجعله صاحبا واليا لما اتخذه وتولاه ونخليه على ما هو يريده ويتبعه من الضلال [، ونصله جهنم ،] وندخله جهنم ليعذب فيها أبدا [وساءت] جهنم [مصيرا] لأولئك الضالين •

واستدل بهذه الآية الكريمة على أن الإجماع حجة ، وتقرير الدليل : أن الحكم الذي أجمع عليه المؤمنون واستمروا عليه سبيلهم ، وما هو سبيلهم يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره •• فالحكم الذي أجمع عليه المؤمنون يجب اتباعه ولا يجوز اتباع غيره • أما الصغرى فظاهرة ، وأما الكبرى فلأن الله تعالى توعد الناس على اتباع غير سبيل المؤمنين ، وكل ما وقع التوعد على اتباع غيره فهو مرغوب وواجب الاتباع •

واعترض بأن سبيل المؤمنين هو الإيمان ومن اتبعه فقد فاز ومن اتبع غيره فقد انحرف ، وليس هناك دليل على اتباع غيره • وأجيب عنه بأن سبيل المؤمنين ما اتخذوه منهجا ومسلكا يمشون عليه ، وهذا بظاهره شامل لكل عقيدة اعتقدوها ولكل عمل صالح عملوه بدون فرق بين ذاك وذلك ، ولا مرجح لعقيدة على أخرى ولعمل على آخر ما دأما من سبيلهم واستمروا عليه • لاسيما اذا كانوا مؤمنين عالمين عادلين كما قيدناه به سابقا • وسر ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب وبلغه رسوله وخوّله بيانه ، وقد بينه بعد أنْ بلغه وأطاعه المؤمنون في ذلك وما يحتوي عليه من الجزئيات واستمروا على تطبيقه ، فالظاهر من أحوالهم وهم مؤمنون عالمون عادلون السير على ذلك المنهج السليم فسبيلهم سبيل قويم وصراط مستقيم وغيره سبيل مُعْوَجّ وصراط غير مستقيم ، وبالأخص إن المؤمنين جمع معرف وهو للاستغراق واستغراقه معناه كل المؤمنين فالخروج عن سبيلهم اتخاذ سبيل غير المؤمنين هذا في كون الإجماع منهم حجة بشرائطه •

وأعتقد أن آراء الأكثرية الساحقة هو أيضا كالإجماع فإذا كان في حكم شرعي اختلاف وهناك أكثرية ساحقة في جانب وأقلية في آخر يجب اتباع الأكثرية ، لأن كلا الطرفين من المؤمنين ، ورعاية الأكثر أوفر فائدة ولذلك روى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وإذا رأيتم الخلاف فعليكم بالسواد الأعظم » .

عن المزني قال : كنت عند الشافعي يوما فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا ، فلما رآه ذا مهابة استوى جالسا ، وكان مستندا لإسطوانة وسوى ثيابه فقال له : ما الحجة في دين الله تعالى ؟ قال : كتابه . قال : وماذا ؟ قال : سنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قال: وماذا ؟ قال: اتفاق الأمة. قال : من أين هذا الأخير أهو في كتاب الله تعالى ؟ فتدبر ساعة ساكتا فقال له الشيخ : أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن ، فإن جئت بآية وإلا فاعتزل الناس. فمكث ثلاثة أيام لايخرج، وخرج في اليوم الرابع بين الظهر والعصر وقد تغير لونه فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس ، وقال : حاجتي . فقال : نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل : (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) لم يصله جهنم على خلاف المؤمنين إلا واتباعهم فرض . قال : صدقت وقام وذهب .

(إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضلالا بَعِيداً(١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً ، وإِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً(١١٧) لَعَنَهُ اللهُ وقالَ : لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً(١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، ومَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً(١١٩) يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ، ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً(١٢٠) أولئِكَ مَأْويهُمْ جَهَنَّمُ ولاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً(١٢١) والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً)(١٢٢)

[إن الله لا يغفر أن يشرك به] لأن من أشرك به وهو يعتبر من أهل التكليف اعترف بموجود غيره في الكائنات له سلطة وتأثير في شيء بدون إرادة الله تعالى وبذلك أبطل اعترافه الصحيح به ؛ لأن الاعتراف به يوجب الاستغناء عن كل ما سواه . وهذا منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم، ونفوسهم ، ومنه تتولد جميع الرذائل النفسية والأعمال الدنيئة ، فلا يبقى معنىً بربوبية الرب وألوهيته لجميع الموجودات فلو غفر ذلك لم يبق فائدة للتشريعات والحرام والحلال . هذا ما قاله العلماء في سر عدم غفران الشرك ، ومع ذلك فقد قال المحققون : إن غفران الكفر من الشرك وأمثاله ممكن لأن الله غني عن العالمين وعبادتهم له وسائر المعارضات لأنها لا تضره ولا تنفعه لكن لا يغفره لإخباره به دون التقييد بشيء إلا الندم عنه والرجوع إلى التوحيد [ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء] . وهذه الآية الكريمة تكرار ما نزل سابقا لتأكيدها وتكميل قصة من سبق من الذين يختانون أنفسهم وقد ذكر أن لها سببا في النزول كما أخرج الثعلبي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أني لم أشرك بالله تعالى منذ عرفته وآمنتُ به ،

ولم أتخذ من دونه وليا ولم أوقع المعاصي جراءة ، وما توهمت طرفة عين أني أعجز الله تعالى هربا ، وإني لنادم تائب فما ترى حالي عند الله تعالى ؟ فنزلت الآية •

[ومن يشرك بالله] شيئا من الشرك بأن أسند الإيجاد والخلق إلى غيره معه سواء كان الغير من العلويات أو السفليات ، ومن الموجودات الثابتة كالشمس وسائر الكواكب المصنوعة التي لا دخل للعباد في خلقها كالإنسان ، أو المكتسبات له كالهياكل المنحوتة ، [فقد ضل] عن الطريق الحق [ضلالا بعيدا] لا يعودون إلى الصراط المستقيم إلا بتوفيق الله تعالى وهدايته • ويدل على معنى إشراك المشركين اهتمامهم بذلك الشريك واعتبارهم له كركن لإفادة الوجود للمقصود •

قوله تعالى [إن يدعون من دونه إلا إناثا] أي ما يدعون أولئك المشركون وما ينادون لحوائجهم من دون الله إلا أصناما يعتبرونها إناثا لما روي عن الحسن أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان لأنهم يجعلون عليه الحلي وأنواع الزينة كما يفعلون بالنساء ، أو لأنهم اعتبروها ممثلة لبعض الملائكة وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أو لأنهم كانوا يسمون الأصنام بأسماء الإناث على ما قيل • [و] في الحقيقة [إن يدعون إلا شيطانا مريدا] إذ هو الذي أضلهم بالوساوس الفارغة المضللة والمريد هو المارد المتنفر عن الإطاعة [لعنه الله] طرده عن ساحة رحمته الواسعة ، [وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا] : مقررا في العلم المتعلق بمن يصرف طاقاته في شهواته [ولأضلنهم] عن طريق الحق بإلقاء الوساوس الفاسدة المفسدة للعقول [ولأمنينّهم] أي وألقي إلى قلوبهم الأماني الباطلة كإلقاء أن لا حساب عليكم ولا عتاب ولا عذاب [ولآمرنهم] بأعمال فاسدة لا أصل لها في الواقع ويفسر ذلك بقوله [فليبتكن آذان

الأنعام] إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا حتى يكون قطع آذانهن دليلا على تحريم ركوبها والحمل عليها • والبتك قطع الأذن من أصلها أو شقها [ولآمرنهم فليغيرن خلق الله] آثار خلقه وإبداعه كخصاء العبد ، والوشم والوشر وأمثالها من كل ما لم يرد به دليل شرعي ، كحلق الرأس والعانة وقص الشوارب ونتف العانة والإبط ، فإن ما ورد فيها دليل يكون من سنة الدين • [ومن يتخذ الشيطان وليا] متوليا وآمرا مطاعا من دون الله العلي العظيم [فقد خسر خسرانا مبينا] : ظاهرا لا حاجة إلى بيانه عند أصحاب العقول السليمة • [يعدهم] الشيطان ما لا يفي به [ويمنيهم] الأماني الفارغة الفاسدة [وما يعدهم الشيطان إلا] أشياء توجب [غرورا] وذلك يوجب خرورا في الدنيا في الأهواء الباطلة وفي الآخرة في نار جهنم خالدا فيها وبئس المصير [أولئك] الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله [مأويهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا] أي مفرا ومهربا • [والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا] : أي وعدهم الله وعدا وحق حقاً • ثم ذيل الأخبار السابقة بقوله الحق : [ومن أصدق من الله قيلا ؟] والقيل مصدر قال ، ومثله القول والقال • وعن ابن السكيت : أن القيل والقال اسمان لا مصدران أي أنهما اسما مصدر وليسا بمصدرين لقال •

(لَيْسَ بِأمانِيِّكُمْ وَلا أمَانِيِّ أهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ ، وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دونِ اللهِ وَلِيّاً ولا نَصِيراً(١٢٣) ومَنْ يعمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثى ، وَهُوَ مؤمِنٌ ، فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤) وَمَنْ أحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ ابراهيم حَنيفاً ؟ وَاتَّخَذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً(١٢٥) ولله ما في السَّموات وَما في الأَرْضِ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيطاً)(١٢٦)

قوله تعالى : [ليس بأمانيكم] الآية عن ابن عباس قال : قالت اليهود والنصارى : لا يدخل الجنةَ غيرُنا ! وقالوا : لَن تَمَسَّنا النار إلا أيّاماً مَعْدُودات ! وقالت قريش : إنا لا نُحاسَب ولا نُبعث ! فأنزل الله الآية رواه ابن أبي حاتم •

وعن قتادة : جلس أناس من اليهود وأناس من النصارى وأناس من المسلمين وتفاخرت كل طائفة على غيرها ، وقالت : نحن أفضل من غيرنا • فقال أهل الكتاب من اليهود والنصارى للمسلمين : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أحق بالله منكم • وقال المسلمون : نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت الآية ••• أخرَجَه ابن جرير •

قوله : [ليس بأمانيكم] الخطاب للمؤمنين ، والأماني بتشديد الياء جمع أمنية على وزن اُفعولة ، وأصله اُمْنوية كأعجوبة وأضحوكة ، اجتمعت الواو والياء ، والسابقة منهما ساكنة ، فقلبنا الواو ياء وأدغمناها في الياء صار اُمنيّة • وقال الراغب : هي الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء أي تقديره في النفس وتصويره فيها إنتهى •

قلت : والأماني هي من المشتهيات تقع أولا قريبة أو بعيدة • ومعنى الآية الكريمة : ليس الأمر الذي تتحاورون فيه من دخول الجنة وعدم دخولها مربوطة بالخيالات والاشتهاء النفسي لكم ولا لأحد • فليس دخولها وعدم دخولها بأمانيكم أيها المؤمنون حتى تدخلوها أنتم لا غيركم • ولا بـ [أماني أهل الكتاب] حتى يدخلوها هم لا أنتم ، بل ذلك مربوط بنظام إلهي

مُحْكَمٍ عَدْلٍ قرره لجميع المكلفين وهو أنه [مَن يَعْمل سُوءً يُجزَ به] عاجلاً أو آجلاً إن لم يَعْفُ عنهُ الله تعالى [ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا] : أي لا يجد من جانب غير الله تعالى وليا يُحامي عنه ويدفع عنه ما ينزل عليه من العقوبة ، ولا نصيرا • او لا يجد له وليا محبّا يكفيه بالستر والإيواء ولا نصيرا قويا يدفع عنه العذاب بالقوة والاستيلاء •

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يُشاكُها والنكبة ينكبها • والأحاديث على هذا المعنى كثيرة • ثم مورد النزول يدل على أن الكلام المقدس والآية الشريفة نزلت لرد أهل الكتاب في دعاويهم الباطلة الفارغة ، ولذلك قدم حكم عامل السوء وعمل السوء على عامل الخير وعمله •

ومن المعلوم سابقا ولاحقا أن الله لا يغفر الكفر بسائر أصنافه عمن استمر عليه حتى مات ، ولذلك نفى الولي والنصير على الإطلاق وإلا فالأدلة متضافرة ومتظاهرة على أن الشفاعة ثابتة يوم القيامة على تفصيلها المقرر في محله [ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن] لأن تحقق الإيمان شرط لمثوبة الحسنات ، وإلا فهي حابطة ساقطة • [فأولئك] العاملون للصالحات والعاملات لها مع مقارنة الإيمان [يدخلون الجنة] فضلا ورحمة على وعده سبحانه وتعالى [ولا يظلمون نقيرا] : أي لا ينقصون حتى شيئا حقيرا من ثواب أعمالهم • والنقير مأخوذ من النقرة ، وهي نقرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة • ثم قرر الإيمان والإسلام والأعمال المقرونة بالإخلاص فقال : [ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله] أي أخلص ذاته له ولم يعترف برب سواه [وهو محسن] أي عامل للحسنات وتارك للسيئات ،

[واتبع ملة إبراهيم] أي واتبع دين الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الإخلاص له تعالى بدون اي شائبة [حنيفا] أي وحال إبراهيم أنه كان مائلا ومبتعدا عن جميع الأديان الباطلة والأهواء العاطلة ؟! وهذا الاستفهام الإنكاري جوابه أنه ليس هناك شخص هو أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله على ما تقرر وتقيد [واتخذ الله إبراهيم خليلا] . جملة جيىء بها تذييلا لما تقدم ، ذكرت للترغيب في اتباع عقيدة إبراهيم ـ عليه السلام ـ [ولله ما في السماوات وما في الارض ، وكان الله بكل شيىء محيطا] علما وقدرة وتصرفا .

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ : اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ ، وتَرْغَبُونَ اَنْ تَنْكِحُوهُنَّ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ وَاَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامى بِالقِسْطِ وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً)(١٢٧)

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها قد شركته في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوِّجها رجلا فيشركه في ماله فيعضلها . فنزلت الآية رواه البخاري . وعن السدي كان لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته عن أبيها ، وكان جابر يرغب عن نكاحها ولا ينكحها غيره خشية أن يذهب الزوج بمالها ، فسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فنزلت الآية أخرجه ابن ابي حاتم . وروي أنه إذا كانت الجارية يتيمة دميمة لم يعطوها ميراثها وحبسوها من التزويج حتى تموت فيرثوها فنزلت الآية . رواه عبد بن حميد وابن جرير .

قوله تعالى : [ويستفتونك في النساء] أي يستفتونك في ميراثهن والقرينة عليه ما ذكرنا من المورد ، وما روي عن عبد بن حميد عن مجاهد أن

أهل الجاهلية ما كانوا يورثون النساء والصبيان شيئا ويقولون : لا يغزون ولا يغنمون خيرا • فنزلت : [قل الله يفتيكم فيهن] ويبين حكمه فيهن [وما يتلى عليكم في الكتاب] إما معطوف على اسم الجلالة على التجوز أي وما يتلى عليكم في الكتاب أي القرآن يفتيكم ويبين لكم • أو أن ما يتلى مبتدأ ، وقوله في الكتاب خبره والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ فتكون جملة معترضة بين متعلقات الفعل السابق • وقوله في يتامى النساء بدل من قوله فيهن ووجه اختصاصهن بالذكر الاهتمام بهن • وقوله والمستضعفين معطوف على يتامى النساء • وقوله وأن تقوموا معطوف عليه أيضا ، أو مفعول لفعل مقدر أي ويبين لكم أن تقوموا • وحاصل المعنى : قل الله تعالى يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب أي ثابت في اللوح المحفوظ • وإفتاؤه في النساء [في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن] وفرض من الإرث [وترغبون أن تنكحوهن] للاستيلاء على حقوقهن لا للمعاملة المشروعة معهن في الزواج • أو [وترغبون] عن [أن تنكحوهن] أي تمنعونهن الحقوق وتعرضون عن نكاحهن فيبقين محبوسات كأسرى في البيت [و] كذلك يفتيكم في حق [المستضعفين من الولدان] اليتامى أن تؤتوهم حقوقهم ولا تمنعوهم من الميراث بحجة أنهم ليس فيهم قوة الغزو وأخذ الغنيمة [و] يأمركم [أن تقوموا لليتامى] المذكورين [بالقسط] والعدل • أو يفتيكم في قيامكم لليتامى بالقسط ويبين لكم أن ذلك القيام واجب عليكم وإذا وفيتم بما يفتيكم الله تعالى به فالأجر عائد إليكم [وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما] فيجازيكم عليه •

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَو إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ

كانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبيراً(١٢٨) وَلَنْ تَستطِيعُوا أنْ تَعْدِلُوا بيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَميلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوها كالمُعَلَّقَةِ ، وَإنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإنَّ اللهَ كانَ غفُوراً رَحيما(١٢٩) وَإنْ يَتَفرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكانَ اللهُ واسِعاً حكيماً)(١٣٠)

قوله تعالى : [وإن امرأة خافت] الآية أخرج الترمذي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : خشيت سودة ـ رضي الله عنها ـ أن يطلقها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ، ففعل ونزلت الآية • وعن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا إما كبراً أو غيره • فأراد طلاقها ، فقالت : لا تطلقني واقسم لي ما بدا لك • ونزلت الآية فاصطلحا • وجرت السنة بذلك رواه سعيد بن منصور والشافعي والبيهقي • وعن سعيد بن جبير قال جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية قالت : إني أريد أن تقسم لي من نفقتك وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها فأنزل الله تعالى (وأحضرت الأنفس الشح) رواه ابن جرير •

وعن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : نزلت هذه الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها ويريد فراقها • ولعلها أن تكون لها صحبة ويكون لها ولد فيكره فراقها وتقول له لا تطلقني وَأَمْسِكني وأنت في حلّ من شأني فنزلت هذه الآية • رواه البخاري ومسلم •

قوله تعالى : [وإن أمرأة] أي وإن خافت امرأة [خافت من بعلها] أي زوجها [نشوزا] أي إرتفاعا [أو إعراضا] عنها لسبب من الأسباب [فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا] بأن تترك المرأة له يومها أو تضع عنه بعض ما

يجب لهامن نفقة أو كسوة [والصّلح خير] من الفرقة وسوء العشرة . [وأحضرت الأنفس الشح] أي إن الشح واللؤم والبخل جعل حاضرا لها لا يغيب عنها أبدا . فلا تكاد المرأة تسمح بإعراض الزوج عنها وتقصيره في حقها أو تسمح ببعض الحقوق الواجبة لها فتهبها له . ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي [وان تحسنوا] في المعاشرة [وتتقوا] النشوز وسوء الخلق [فإن الله كان بما تعملون خبيرا ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء] أي لا تقدرون على تطبيق العدالة بين الزوجات بحيث لا يقع ميل إلى جانب من الجوانب في شؤونهن كالقسم والنفقة والمجاملة والمفاكهة والمؤانسة وغيرها مما لا يكاد يعد .

وأخرج البيهقي عن عبيدة أنه قال : لن تستطيعوا ذلك في الحب والجماع [ولو حرصتم] على العدل وبالغتم فيه [فلا تميلوا كل الميل] أي فلا تنحرفوا عن العدل المشروع كثيرا بحيث تمنعوها حقها من غير رضاها [فتذروها كالمعلقة] أي فتجعلوا المرغوب عنها كالمعلقة ، وهي كما قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : من ليست مطلقة ولا ذات بعل أي صارت مهملة الحقوق محتارة في شأنها ليست مطلقة فتبين وتتزوج ، ولا ذات بعل تتمتع به وتبتهج [وإن تصلحوا] ما في قلوبكم من الرذائل الموجبة للميل والإعراض فتصلحوا ما أفسدتم من الاعمال معها [وتتقوا] وتحترزوا عن الجور الذي نهاكم الله عنه [فإن الله كان غفورا رحيما] لما فرط منكم قبل نزول الآية . أو لما وقع من بعض اللّمم في ما بينكم ، وراحما يزيدكم في الأجر والخير . [وإن يتفرقا] أي المرأة وبعلها بالطلاق [يغن الله كلا] منهما فيتزوج الرجل بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر وذلك الإغناء [من سعته] وبسط قدرته وفيض نعمته [وكان الله] ولم

يزل ولا يزال [واسعا] بالنعمة والبذل [حكيما] في رحمته لعباده بالكرم والفضل لا يعمل عملا إلا وفيه إتقان" وإحكام •

(ولله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً(١٣١) ولله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً(١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً(١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً)(١٣٤)

قوله تعالى : [ولله ما في السماوات وما في الارض] فيسهل عليه القبض والبسط من نعمه بالنسبة إلى كل ذي حياة فلا يتعذر عليه الإغناء للزوجين بعد الفراق ولا الإيناس بعد الوحشة والشقاق [ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم] من اليهود والنصارى [وإياكم] أي وصيناكم بعد توصيتهم [أن اتقوا الله] فإن التقوى ملاك السعادة للعباد ووسيلة القرب بعد الابتعاد [وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات وما في الارض ، وكان الله غنيا] عن الخلق وعبادتهم وكان الله ولم يزل [حميدا] أي غنيا عن العالمين وعبادة العقلاء منهم حميدا في آثاره وأفعاله [ولله ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا] والوكيل هو الذي يتوكل عليه ، والجملة تذييل لما قبله [إن يشأ] أي إن يرد إذهابكم وإبادتكم [يذهبكم] ويهلككم كما أهلك كثيرا من الأمم البائدة أيها الناس [ويأت بآخرين] أي بأناس آخرين ممتازين في الافكار

والآثار [وكان الله] ولم يزل [على ذلك] وعلى أبدع من ذلك [قديرا] فإن الكائنات من آثار خالق البريات •

[من كان يريد] بأعماله وأقواله [ثواب الدنيا] من مال أو منصب أو متاع فليطلبه من الله وليعمل ابتغاء مرضاته حتى يجازيه بما يريده [فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله] ولم يزل [سميعا] لاقوالكم [بصيرا] بأفعالكم • وفي مسند الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنهما ـ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « من كان همّه الآخرة جمع الله تعالى شمله وجَعَل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له » •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لله ، وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكم أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلى بِهِمَا ، فلا تَتَّبِعُوا الهَوى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً)(١٣٥)

عن السدي نزلت في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختصم إليه غني وفقير وكان خُلقه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغني فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير ، فأنزل هذه الآية كلها • ذكره الواحدي في الأسباب والخازن في اللّباب •

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط] أي قائمين جد قيام بتطبيق العدالة بين الناس ومواظبين عليه بالدوام حالكونكم [شهداء لله] أي مبينين الحق ومراعين له لابتغاء مرضات الله سواء كنتم شهداء لهم أو

شهداء عليهم ، أو حاكمين بين المتخاصمين منهم [ولو] كانت الشهادة [على أنفسكم أو] على [الوالدين] أو على [الأقربين] أي على أقرب الناس إليكم كأبنائكم وبناتكم وإخوتكم وأخواتكم [إن يكن] المشهود عليه أو كل منه ومن المشهود له [غنيا] يرجى نعمته أو يخشى سطوته ، [أو فقيرا] يترحم عليه أو لا يهتم به ولا ينظر إليه [فالله أولى بهما] أي فالله أولى وأحق بحالهما ورعاية أمورهما لا أنتم . فإن كان حالهما تقتضي الشفقة فالله تعالى أشفق من كل أحد بكل أحد وإن كانت تقتضي غيرها فالله أولى برعايتها [فلا تتبعوا الهوى أنْ تَعدِلوا] أي فلا تتبعوا هوى أنفسكم لأن تَعدِلوا وتتجاوزوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا بين المتخاصمين وتطبقوا العدالة بينهما على أن يكون المصدر مفعولا له وعلة لاتباع الهوى المنهي عنه . ولو جعل علة للنهى قدر المضاف إذا كان من العدول ، ولم يقدر إذا كان من العدل على العكس مما سبق . أي أنهاكم عن اتباع الهوى كراهة العدول والتجاوز عن الحق أو للعدل بين الناس . [وإن تلووا] وتعطفوا ألسنتكم عن الشهادة ولا تأتوا بها على الوجه الحق [أو تعرضوا] عن أدائها وتتركوا إقامتها رأسا [فإن الله كان بما تعملون] من اللّي والإعراض [خبيرا] به وبأسبابه فيجازيكم حسب نظامه القائم بالعدل والحق وفيه تهديد لهم بأيّ تهديد !

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتابِ الَّذي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ . ومَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً)(١٣٦)

عن ابن عباس قال جاء مؤمنو أهل الكتاب إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهم عبدالله بن سلام وأصحابه فقالوا : يا رسول الله إنا نؤمن

بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل • فقال لهم رسول الله : بل آمنوا بالله وبرسوله محمد وبالقرآن وبكل كتاب كان قبله • فأنزل الله الآية • ذكره البغوي والواحدي فقوله تعالى : [يا ايها الذين آمنوا] خطاب لمؤمني أهل الكتاب أو للمؤمنين كافة • فقوله : [آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل] معناه اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه • وإذا كان الخطاب للمنافقين المؤمنين ظاهرا فمعناه أخلصوا وأصدقوا في الإيمان بالله إلى آخر ما ذكره في الآية الشريفة • [ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالا بعيدا] أي ومن يكفر بمجموع ذلك أو ببعض منه فقد ضل ضلالا بعيدا • والضلال البعيد هو الضلال البعيد عن المقصد الأسنى وهو الإيمان لأن الكفر والإيمان على طريقى الإيجاب والسلب متناقضان وهما متباعدان غاية البعد • وأما من آمن بما ذكر وانحرف عن دأب جمهور المسلمين في بعض المسائل الدينية فهو يسمى مبتدعا ولا يكفر وضلاله قريب •

(إنّ الّذينَ آمَنُوا ، ثُمّ كَفَرُوا ، ثم آمَنُوا ، ثُمّ كَفَرُوا ثُمّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً(١٣٧) بَشّرِ المُنَافِقِينَ بِأنّ لَهُمْ عَذَاباً ألِيماً(١٣٨) الّذِينَ يَتّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤمِنِينَ ، أيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزّةَ ؟ فَإنّ العِزّةَ للهِ جَمِيعاً(١٣٩) وَقَدْ نَزّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ انْ اذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا ويُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إنّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ إنّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ

وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً(١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)(١٤١)

قوله تعالى : [إن الذين آمنوا] الآية عن مجاهد وابن زيد انهم أناس منافقون أظهروا الإيمان ثم ارتدوا ، ثم اظهروا ، ثم ارتدوا ، ثم ماتوا على كفرهم . وجعلها ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عامة لكل منافق في عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ في البر والبحر . وعن الحسن أنهم طائفة من أهل الكتاب أرادوا تشكيك أصحاب رسول الله، فكانوا يظهرون الإيمان بحضرتهم ثم يقولون : قد عرضت لنا شبهة فيكفرون ثمّ وثمّ حتى ماتوا . وقال بعض : معنى الآية : إن الذين آمنوا بموسى ــ عليه السلام ــ من أهل الكتاب ثم كفروا حين عبدوا العجل ثم آمنوا بعد عوده من الطور إليهم ، ثم كفروا بعيسى ــ عليه السلام ــ ثم ازدادوا كفرا بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وهذا المعنى خلاف الظاهر المستفاد من السياق لأن أولئك الناس المذكورين في ذلك أناس مختلفون . والظاهر أن المحكوم عليهم بالأوصاف المتناقضة المتكررة جمع معينون . فالظاهر أن المعنى [إن الذين] ترددوا في أحوالهم ف [آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا] وأخذت قلوبهم القسوة أزيد مما كان أولئك [لم يكن الله ليغفر لهم] لأنه تبين من أحوالهم أنهم لم يكن لهم إيمان أساسا وإنما هم قوم أظهروا الإيمان رعاية لبعض المصالح الدنيوية في فترة معينة وعند تبدلها بدلوا إيمانهم بالكفر وأظهروا الكفر وتقلبوا على هذه الأحوال مدة ثم غلبت عليهم القساوة فأعلنوا الكفر وأصروا عليه إلى الموت .

والخلاصة : إن أولئك الجمع لم يكن الله ليغفر لهم [ولا ليهديهم سبيلا] سالما لأنهم كانوا معاندين ومتعمقين في الكفر ، ولم يبق عندهم ذوق الإيمان والرغبة فيه • والله سبحانه وتعالى لا يهدي أمثالهم من المنافقين الفاسدين بل إنهم منافقون ويستحقون الإنذار النازل في قوله تعالى : [بشر المنافقين] أي أنذرهم [بأن لهم عذابا أليما] وكانوا يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين •

ويقول الله سبحانه : [الذين يتخذون الكافرين أولياء] أي أصدقاء من دون المؤمنين [أيبتغون عندهم العزة ؟] أي القوة والمَنَعة • فإن كانوا يريدونها فليرجعوا إلى الإيمان وتولي المؤمنين دون الكافرين [فإن العزة لله جميعا] ومن آمن به ورجع إليه صار من أوليائه ويؤتيه الله العزة والمنعة في الدنيا والدرجات العالية في الدين ثم تحول الباري تعالى عن الحكاية عنهم إلى الخطاب معهم ، وقال على طريقة الالتفات : [وقد نزل عليكم في الكتاب] أيها المنافقون [أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره] ، أي غير ما ذكر من الكفر والاستهزاء [إنكم إذا مثلهم] في الإثم لأنكم قادرون على الإنكار وعلى الاعراض ، فما دمتم غير معرضين وغير منكرين عليهم فقد قررتم أعمالهم المنكرة ، وصرتم شركاء لهم في الإثم المترتب على الكفر والاستهزاء بالدين • ولذلك قال الله تعالى : [إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا] يعني إن الأحبار الكافرين والمستهزئين بالدين والمنافقين الذين قعدوا معهم وشاركوهم في ذلك هم يجمعهم الله معا في جهنم ، فمصيرهم واحد وبئس المصير •

قوله : [الذين يتربصون بكم] الخطاب فيه للمؤمنين الصادقين • والموصول عبارة عن المنافقين وهو مع ما في حيزه مبتدأ ، وخبره قوله تعالى :

فالله يحكم بينكم يوم القيامة أي يحكم بينكم وبينهم ويخول كل إلى مصيره •
ومعنى الآية الكريمة : المنافقون الذين يتربصون بكم وينتظرون عواقب أموركم ؛ [فإن كان لكم فتح من الله] لموضع من المواضع ، وظفر بالمقصود ، [قالوا] لكم : [ألم نكن معكم] نجاهد الأعداء ؟ فأعطونا نصيبنا من الغنائم •
[وإن كان للكافرين نصيب] متاع دنيوي حاصل من الحرب [قالوا] للكفار : [ألم نستحوذ عليكم ؟] أي ألم نغلب عليكم وتتمكن من قتلكم فسامحناكم [ونمنعكم من المؤمنين ؟] أي من صولتهم فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم ، وهاتوا نصيبنا مما أصبتم • [فالله يحكم بينكم يوم القيامة] فيثيب أحبابه ويعاقب أعداءه على سنّته في الأمم [ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا] أي : إستيلاء يوم القيامة ، وحين الحكم ، وإن وقع ذلك في الدنيا استدراجا وابتلاء • روي ذلك عن علي وابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهم ــ •
أو لن يجعل الله لهم عليهم سبيلا بالإبادة والاستئصال في الدنيا ، روي هذا عن السدي • أو لن يجعل الله لهم عليهم استيلاء بالحجة والبرهان فإن قواعد العقائد الإسلامية وأحكامها إما بديهية أو نظرية مثبتة بالبراهين القاطعة والأدلة اللامعة وكل دين كذلك وأهله غالبون لا مغلوبون • وقال بعض : إن الجعل رضائي واستحبابي أي إن الله تعالى لا يستحب أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل وإن أراده على سنته الاعتيادية من جعله الحرب سجالا ، وللاعداء مجالا •
واحتج الشافعية بهذه الآية على فساد شراء الكافر للعبد المسلم وتزويج المرأة المسلمة من الكافر •

وقال بعض : إن الآية مبنية على قيد وهو أنه إذا عمل المسلمون بما أمر الله به من إخلاص النية وتعلم العلوم النافعة والبراهين الساطعة وترك حظوظ النفس والمصالح الشخصية استحال أن يكون للكافرين سبيل على المؤمنين لأن الطرفين

كلاهما إنسان وهما يتكافآن في المعدات وللمسلمين نور ساطع من الإيمان وعقيدة راسخة بالفوز بالجنان فتزيد معنويات المؤمنين . ووسيلة الفوز والغلبة إما وجود المعدات أو الاعتقاد المبني على الأساس ، وكلاهما موجودان في المؤمنين الذين كانوا على المنهج المقرر وكل ما وقع من ضرر في الإسلام من الأول إلى الأخير فهو نتيجة الإخلال بذلك النظام كمخالفة أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في واقعة أحد ، والإعجاب بالنفس والغرور في حنين ، وأمثال ذلك في سائر المهالك عصمنا الله تعالى منها بمنه وفضله آمين .

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا(١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا(١٤٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ؟(١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا(١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)(١٤٧)

قوله تعالى : [إن المنافقين يخادعون الله] أي إنهم يفعلون ما يفعله الإنسان الحيال المخادع فيظهرون الايمان عند الرسول وأصحابه ويضمرون

الكفر ، وغايتهم من خداعهم هذا أن يعدوا من المؤمنين فتصان دماؤهم ويبذل لهم نصيبهم من الغنائم [وهو خادعهم] والله تعالى يعاملهم معاملة المخادع أي يقبل منهم الإيمان إلى أن يعملوا ما يضر بكيان الإسلام ، وعند ذلك يظهر سرّهم على حبيبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيفتضحون بين المؤمنين • [و] من علامات نفاقهم أنهم [إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى] متثاقلين متباطئين حالكونهم [يراءون الناس] أي ليس صلاتهم على أساس أداء الواجب حق الأداء ، بل يظهرون للناس أنهم يصلون [ولا يذكرون الله إلا قليلا] ، أي لا يصلون إلا في أوقات معلومة وهي أوقات حضور الناس الكبار • [مذبذبين بين ذلك] أي مترددين بين ذلك المذكور من الكفر والإيمان [لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء] أي لا منسوبين بالوجه الصحيح الثابت إلى المؤمنين ولا إلى الكفار • فأولئك قد أضلهم الله [ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا] مستقيما يمشي عليه • [يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء] وأحباء وناصرين [من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟] حجة واضحة على كفركم واستحقاقكم العذاب [إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار] أي في الطبقة السافلة منها لأن لها طبقات سبعاً [ولن تجد لهم نصيرا] يخرجهم منها يوم القيامة [إلا الذين تابوا] عن النفاق [وأصلحوا] ما أفسدوه من النيات والاعتقادات والأعمال بأن أخلصوا نيتهم لله في كل ما يفعلون ويتركون ويعتقدون بجميع ما جاء به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الله تعالى ، [واعتصموا بالله] أي وتمسكوا بكتاب الله واعتمدوا عليه [وأخلصوا دينهم لله] في مستقبل أمرهم لا يريدون بطاعته إلا وجهه [فأولئك مع المؤمنين] الصادقين في الدرجات الدنيوية والأخروية [وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما] لا يعلم مقداره إلا الله ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن مدار تعذيبهم في الآخرة

والتنفير عنهم في الدنيا هو كفرهم ونفاقهم وقال : [ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم ؟] أي قابلتم نعم الباري سبحانه بما يكافئها أو يقاربه أو يشبهه [وآمنتم] وصدقتم بوجود الفياض لتلك النعم المختار في إفاضتها عليكم تفضلا وإحسانا • [وكان الله] ولم يزل [شاكرا] مثيبا على شكر الشاكرين [عليما] بإيمان المؤمنين • وقدم الشكر على الإيمان مع أنه لا يعتد به بدونه لأن الشكر وسيلة للإيمان حيث إن الشكر على النعمة يقتضي الاعتراف بالنعمة وبوجود المنعم • وللشكر درجات أعلاها صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله وهذا مقام كُمَّلِ عباد الله ولذلك قال تعالى : وقليل من عبادي الشكور • جعلنا الله تعالى من الشاكرين بمنه إنه أرحم الراحمين •

الجزء السادس

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ، وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً(١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً(١٤٩) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً(١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً)(١٥٢)

قوله تعالى : [لا يحب الله الجهر بالسوء] أخرج ابن جرير عن مجاهد أن رجلا ضاف قوما فلم يطعموه فاشتكاهم ، فعوتب عليه ، فنزلت • ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب • ومعنى الآية : لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إنه يغضب على من جهر بالقول السيىء على الناس [إلا من ظلم] فإن جهره بالقول السيىء على من ظلمه غير مسخوط عليه عنده تعالى [وكان الله] ولم يزل [سميعا] لجميع المسموعات [عليما] بجميع المعلومات ، ومن جملتها عمل الظالم وقوله ، وقول المظلوم ، وجهره بالقول السيىء عليه •

[إن تبدوا خيرا] أي تظهروه بحيث يعلم به الناس [أو تخفوه] لا يعلم به غير الله تعالى [أو تعفوا عن سوء] أيّا كان هذا وذاك ، ونص عليه مع اندراجه في ما سبق للاهتمام به . والجمل الثلاث شروط والجزاء محذوف وهو فقد اقتديتم بسنة الله تعالى ، ويدل عليه قوله : [فإن الله كان عفوا قديرا] وما يقال إن إبداء الخير وإخفاءه لو كانا هنا مقصودين بالشرط لم يحسن الاقتصار على كون الله تعالى عفوا قديرا .. يعارضه أن العفو عن المسيء مع الاقتدار على الانتقام من أهم مهمات الخيرات الجهرية والسرية . وبذلك تتناسب الجمل الشرطية مع نائب الجزاء المقدر كما لا يخفى . قوله تعالى : [إن الذين يكفرون بالله ورسله] مربوطة بالآيات السابقة عن المنافقين . ولا شك أن الآيات تنزل من لدن حكيم خبير بالعالمين ، ولا تنزل إلا لمعالجة الواقع . وقد كان بين أولئك المنافقين أناس ملحدون كافرون بالله وبجميع رسله ، ولكنهم ينافقون المؤمنين بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشكل ، وينافقون اليهود بشكل آخر ؛ فيأتون إلى المؤمنين بإعلان الإيمان بالله وبرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به من عند الله ويأتون إلى اليهود بإظهار الإيمان بالله وببعض الرسل أي بموسى ومن سبقه ومن لحقه من أنبياء بني إسرائيل ما عدا سيدنا عيسى ، وقد يلتقون بالمسيحيين فيجاملونهم ويرضونهم بأفواههم ، وإذا لقوا الكفار المشركين بالغوا في المدح والثناء عليهم وقالوا لهم : أنتم أهدى من محمد ومن معه ، ومشوا لا على حبلين بل على حبال .

فالباري سبحانه وتعالى كشف سترهم وأظهر سرهم وأعلن أنهم هم الكافرون بالله وجميع رسله ولا يؤمنون بمقدس قطعا ، وهم الملاحدة الوجودية الكافرة بكل الشرايع والأديان ، ولكنهم يتسترون عند المؤمنين بإظهار الإيمان بسيدنا محمد وما جاء به ، وعند اليهود بإظهار الثبات على

دين اليهود والإيمان بالله وبموسى والأنبياء الذين كانوا على شريعته ، [ويريدون] بهذا النفاق [أن يفرقوا بين الله ورسله] بسبب إعلان الإيمان بالله وببعض الرسل كموسى ومن وافقه دون بعض آخر كعيسى وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وإذ أعلنوا ذلك فقد فرقوا بين الله ورسله لأن الأنبياء والمرسلين كلهم جمعية مُوحَّدة" موحّدة قدسية مربوطة بالله سبحانه في تبليغ شرائعه إلى الأمم كل في زمانه ، فإذا رفض الملحدون رسالة بعض منهم فقد فرقوا بين الله ورسله ، ولم يخلوا الرسل على اجتماعهم متصلين برباط الرسالة من الله [ويقولون] لليهود وفي مجتمعهم : [نؤمن ببعض] من الرسل الذين نحن على شريعته [ونكفر ببعض] منهم ، وهم الذين لسنا على دينهم وملتهم ، [ويريدون أن يتخذوا بين ذلك] المذكور من الإيمان بالله ورسله [سبيلا] ليس هو الإيمان بالكل ولا الإنكار للكل ، بل هو الإيمان بالله وببعض منهم [أولئك] المنافقون الملحدون المتسترون بالستارات المتنوعة [هم الكافرون حقا] إذ لم يخلوا شيئا من المقدسات يؤمنون به [وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً] شديداً يُهانون به •

وهنا طريق ثان لبيان أن الذين يفرقون بين الله ورسله أي يؤمنون بالله تعالى وببعض الرسل دون بعض هم الكافرون بالله وبجميع رسله ، وهو أن الدليل الدال على صدق بعض الرسل الذي يؤمن به ليس إلا المعجزة ، وإذا كانت دليلا على صدق الرسول لزم القطع بأنه حيث ظهرت المعجزة ثبت صدق صاحبها ، فإن جوزنا في بعض المواضع ظهور المعجزة بدون صدق صاحبها امتنع الاستدلال بها على صدق الرسول الذي يؤمن به ، وكذا على صدق سائر الرسل فحينئذ يلزم منه الكفر بجميع الرسل ، وإذا لزم الكفر بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أيضا ، لأن دليل الإيمان بالله تعالى لغير

الأنبياء والرسل الذين يوحى إليهم هو تبليغ الرسل وبيانهم لوجود ذاته الواجب الوجود وصفاته الكمالية ، وإذا كفر الشخص بجميع الرسل لزم الكفر بالله تعالى أعاذنا الله تعالى منه آمين . فثبت أن الذين يفرقون بين الله ورسله هم الكافرون بالله تعالى وبجميع الرسل حقا .

قوله تعالى : [والذين آمنوا بالله ورسله] الآية ... يعني وكل الذين آمنوا بالله ورسله [ولم يفرقوا بين أحد منهم] أي لم يفرقوا بعضهم عن بعض بأن آمنوا بالجميع ولم يؤمنوا ببعض مع الكفر بالآخرين [أولئك سوف يؤتيهم أجورهم] الموعودة لهم كاملة غير منقوصة [وكان الله] ولم يزل [غفورا] لمن كانت صفتهم ما تقدم . و [رحيما] بهم فيزيد على أجورهم زيادة وهي لقاء وجهه الكريم .

(يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ ، فَقَالُوا : أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ! فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثم اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا عَنْ ذلِكَ وَآتَيْنَا مُوسى سُلْطَاناً مُبِيناً(١٥٣) ، وَرَفَعْنَا فَوقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وقُلْنَا لَهُمُ : ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً ، وَقُلْنا لَهُمْ : لا تَعْدُوا في السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وقَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)(١٥٥)

قوله تعالى : [يسئلك أهل الكتاب] الآية عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : إن موسى جاءنا بالألواح من عندنا فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدّقك ! فأنزل الله الآية أخرجه ابن جرير • وعن ابن جُريج قال : إن اليهود والنصارى قالوا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله وصحف مكتوبة من السماء إلى فلان وفلان إنك رسول الله ! فنزلت الآية أخرجه ابن جرير وابن المنذر • ومعنى الآية الكريمة : [يسئلكَ اهلُ الكتاب] الآية يسألك يا رسولي أهل الكتاب الذين يعاندون الحق الأبلج ويتعنتون [أن تنزل عليهم كتابا من السماء] أي أن تطلب من خالق الارض والسماء أن ينزل عليهم كتابا مقدسا • فإن سمعت سؤالهم هذا فلا تعجب من جهالتهم وتعنتهم وغفلتهم في تقدير القدسية واستغناء الباري تعالى وإنه مختار في شؤونه فإن ذلك دأب المتعنتين منهم [فقد سألوا موسى] ــ عليه السلام ــ شيئا [أكبر] وأبعد [من ذلك] الذي طلبوه منك [فقالوا] له : يا موسى [أرنا الله جهرةً] أي مجاهرين معاينين ، [فأخذتهم الصاعقة] أي فأهلكت أولئك الناس نار نزلت من السماء فأماتهم الله بها [بظلمهم] أي بتعدّيهم وتعنتهم وسؤالهم ما لا يناسبهم في تلك الحالة التي كانوا عليها ، وقوله : [ثم اتخذوا] كلمة ثم للتراخي الذكري أي وهم قوم لهم بدائع من المنكرات ، وعجائب من المخالفات ، وصنائع من المخترعات واتخذوا [العجل] وعبدوه بعد ذهاب موسى إلى الطور [من بعد ما جاءتهم البينات] من المعجزات التي أظهرها الله من العصا واليد البيضاء وإنجاء بني إسرائيل من النيل وإغراق فرعون وأشياعه فيه • وتلك البينات كانت من المعجزات الباهرة [فعفونا] هم [عن ذلك] الصنيع الشنيع الفظيع [وآتينا موسى سلطانا مبينا] أي قوة قاهرة وغلبة ظاهرة

على إكمال رسالته وإبلاغ شريعته [ورفعنا فوقهم الطور] أي رفعنا الجبل الذي سكنوا عنده على رؤوسهم كأنه مظلة ، وذلك [بـ] سبب [ميثاقهم] أي بسبب امتناعهم عن قبول الميثاق بالعمل بالتوراة فقبلوه ، [وأخذنا منهم] بواسطة رسولهم موسى عليه السلام [ميثاقا غليظا] محكما مؤكدا ، [وقلنا لهم] على لسان يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ بعد مرور زمان التيه ووفاة موسى ـ عليه السلام ـ فيه : [ادخلوا الباب سجدا] أي بابَ بيتِ المقدس سُجَّداً خاضعين مطمئنين [وقلنا لهم] على لسان داود ـ عليه السلام ـ : [لا تَعْدُوا في السبت] أي لا تتعدوا حدود الله باصطياد الحيتان [وأخذنا منهم ميثاقا غليظا] أي عهداً وثيقا مؤكدا بأن يطيعوا الله بامتثال أوامره واجتناب مناهيه ؛ فخالفوا أوامره واحتالوا ، ونقضوا الميثاق ، فجعلنا منهم القردة والخنازير [فبما نقضهم ميثاقهم] أي نقض بني إسرائيل ميثاقهم الذي تقرر مع الله تعالى على لسان رسولهم ، [وكفرهم بآيات الله] أي بالحجج الدالة على صدق الرسل [وقتلهم الأنبياء] كزكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ [بغَيْر حَق ، وقولهم قلوبنا غلف] جمع غلاف بمعنى الظرف ، وأصله غلف بضمتين أي أوعية للعلم ، فنحن مستغنون عن تعليماتكم ، وهذا على وجه التكبر ، أو قلوبنا مغطاة ومستورة بستائر تمنعها عن استماع كلامكم ، وهذا على وجه التعنّت ، وقولهم هذا كان في مقابلة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند إرادته تعليمهم القرآن .

وقوله : [بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيها بكفرِهِم] إضرابٌ عمّا ادعوه من كون قلوبهم غلفا يعني أنه لا أصل لقولهم ذلك وليس المانع من قبولهم الحق ذلك بل المانع أن الله طبع على قلوبهم ، أي جعلها الله كصناديق ختم عليها وذلك بسبب استمرارهم على الفساد والافساد والمعارضة للرسول

واستكبارهم عن قبول الحق ، وكفرهم المستمر [فلا يؤمنون] أي أهل الكتاب [الا قليلا] كعبد الله بن سلام ومن هداهم الله إلى الحق .

(وبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً(١٥٦) وقَوْلِهِمْ اِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ ، وَما قَتَلوهُ ، ومَا صَلَبُوهُ ، وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَاِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَما قَتَلُوهُ يَقِيناً(١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللهُ اِلَيْهِ وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكيماً(١٥٨) وَاِنْ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ اِلاَّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهيداً)(١٥٩)

وقوله تعالى : [وبكفرهم ...] الآية يعني وبكفرهم الخاص البالغ إلى المستوى الأفسدِ وهو المخلوط بالرذائل والافتراء والبهتان ولذلك عَطَفَ عليه قولَه الكريم [وقولهم على مَريمَ] بنت عمران التي شهد الله على عفتها وحصانتها [بهتانا عظيما] ترتجف منه قلوب المؤمنين حيث نسبوها إلى ما لا يناسب قدرها ولا يوافق عفتها [وقولِهِمْ اِنّا قَتَلنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ اللهِ] وذكروه في ما ادّعوه بعنوانِ الرسالة تهكما واستهزاء منهم وحكاه الله بعين الوصف تشريفاً وإعلاءً منه تعالى لقدره [وَما قتلوه وَما صَلَبُوهُ ، ولكِنْ شُبِّهَ لَهم] : أي أوقع شبهه على واحد آخر للالتباس عليهم ، وكان ذلك الواحد رجلامن المنافقين يصاحب عيسى ــ عليه السلام ــ .

روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن رهطا من اليهود سَبّوهُ ــ عليه السلام ــ وأمَّهُ فدعا عليهم فابتلوا بعاهات ، فبلغ ذلك (يهوذا)

رأس اليهود فخاف منه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل ـ عليه السلام ـ بيتا ورفعه منه إلى السماء ولم يشعروا بذلك ، فدخل عليه طيطانوس ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم ، وألقى الله شبه عيسى ـ عليه السلام ـ عليه ، فلما خرج قتلوه وصلبوه [وإِنَّ الَّذِينَ اختلفوا فيه] أي اختلفوا في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ [لَفِي شَكٍّ مِنهُ] أي في تردد في قتل عيسى ـ عليه السلام ـ [ما لَهُم به مِن عِلْمٍ إلاّ اتباع الظـن !] أي ما لهم بحاله قتلا وتركا إدراك إلا اتباع الظـن فالاستثناء متصل . أو ما لهم به من علم يقيني لكن لهم اتباع الظّن [وإنّ الظّنّ لا يغني من الحق شيئاً ، وما قَتَلوهُ يَقيناً] أي وما قتلوا عيسى قتلا متيقنا بل قتلوه بزعمهم قتلا مظنونا ، أو ما قتلوه وتيقنوا أيها السامعون بهذا النفي ، فنفي قتله حكم سلبي قطعي [بَلْ رفعَهُ الله إليهِ] أي بل رفعه الله سبحانه وتعالى بجسده وروحه إلى مقام خَصَّهُ الله به في سمائه .

وفي هذا الكلام رد وإنكار لقتله ـ عليه السلام ـ وإثبات لرفعه بالجسد والروح وذلك لأن الضمائر المتوالية السابقة في قوله تعالى وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم إلى قوله وما قتلوه كلها راجع إلى عيسى ـ عليه السلام ـ باعتبار جسده وروحه ، فيكون الضمير في قوله تعالى : بل رفعه الله إليه كذلك . وروي رَفعُه إلى السماء الثانية وهو حيّ مرزوق هناك ، وقد صحّ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديث المعراج ، وهو هنالك مقيم حتى ينزل إلى الارض يقتل الدجال ويملأها عَدلاً كما مُلئت جورا ، ثم يحيا فيها أربعين سنة ، أو تمامها من سنّ رفعه وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ويموت كما يموت سائر الناس ويدفن في حجرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أو في بيت المقدس [وكان الله] ولم يزل

[عزيزا] غالباً على أمره [حكيما] في كل شؤونه • [وَإن مِنْ أهْلِ الكِتابِ إلاّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قبل موته] أي وليس من أهل الكتاب اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن به • فقوله ليؤمنن به جملة قسمية وقعت صفة لأحد أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به بعد نزوله وقبل موته ومعلوم أن السيد المسيح بعد نزوله يتبع دينَ الإسلامِ ، فتكون جميعُ الأمم على ملة واحدة هي الإسلام [ويوم القيامة يكون] عيسى ـ عليه السلام ـ [عليهم] أي على أهل الكتاب [شهيدا] فيشهد على اليهود بتكذيبهم إياه وعلى النصارى بقولهم فيه إنه ابن الله وإنه بريء من كل ما افتري عليه واعتقده فيه وفي أمّه مما يخالف حقيقة العبودية والانقياد والإطاعة لله ربّ العالمين •

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الّذينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ اللهِ كَثيراً(١٦٠) وَأخْذِهِمُ الرِّبا ، وَقَدْ نهُوا عَنْهُ ، وَأكْلِهِمْ أمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ وَأعْتَدْنا لِلْكافِرينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أليماً(١٦١) لَكِنِ الرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ ، وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، والمُقيمينَ الصَّلاةَ والمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أولئِكَ سنُؤْتيهِمْ أجْراً عَظيماً)(١٦٢)

قوله تعالى : [فبظلم من الذين هادوا] معناه وبعدما ذكرنا من سيئات أهل الكتاب المنحرفين الذين تابوا من عبادة العجل اعلموا أنه بظلم أيّ ظلم كان مما حدث منهم [حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم] ولمن قبلهم [وبصدهم عن سبيل الله كثيرا] أي وبمنعهم أناساً كثيرين عن اتباع الحق والإيمان به

[وأخذهم الربوا ، وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل] أي بالرشوة والحيلة الدقيقة في الأحوال العارضة على الناس ، والمعاملات والمحاكمات وغيرها .

والحاصل أن بني إسرائيل كانوا أمة كسائر الأمم ، وكان فيهم الصالح والطالح والمطيع والعاصي ، لكنه يوجد فرق كثير بين الأمة التي لم يكن فيها نبوة ورسالة وعلم ، والأمة التي فيها ذلك ، وكان بنو إسرائيل من القسم الثاني وكان فيهم رسل كثيرون ومواعظ وإرشادات قيمة ، وأحكام نازلة ، ومع ذلك رأوا براهين قاطعة ومعجزات لامعة دالة على صدق موسى ومن قبله من الرسل ومن بعده ، وبالرغم من ذلك لم يثبتوا على الأحكام ولم يطمئنوا إلى إرشادات الرسل وكانوا يباشرون السيئات العظيمة التي لا تعبير عنها إلا بالظلم المظلم ، وقد تكرر منهم ذلك في كل عصر وزمان واستمر فيهم الى آخر الزمان ، ومن أجل ذلك كلما أذنبوا ذنبا حرّمنا عليهم نوعا من طيبات أحلّت لهم ولمن سبق ، وذلك بصدهم ومنعهم النّاس عن سلوك سبيل الله وهو دين الإسلام صدّا كثيرا لا مرة ومرتين بل مرّات ومرّات . وكأخذهم الربا وقد نهوا عنه على لسان أنبيائهم . وبأكلهم أموال الناس بالوجه الباطل بدون عوض مشروع في مقابلة ولا هبة حسبية .. فبذلك كلّه حرّمنا عليهم ما حرمناه ، واعتبرناهم من الكافرين [وأعتدنا للكافرين] منهم [عذابا أليما . لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك] من القرآن الكريم [وما أنزل] نا [من قبلك] على الرسل من التوراة والإنجيل وسائر الصحف [والمقيمين الصلاة] منصوب على المدح أي وأخصّ المقيمين للصلاة [والمؤتون الزكاة] للمستحقين [والمؤمنون بالله] وحده لا شريك له [و] المؤمنون بـ [اليوم الآخر] أي يوم القيامة [أولئك

سنؤتيهم أجراً عظيماً] لا يعلم مقداره إلا الله وأما ما اقترحوا من إنزال كتاب من السماء عليهم فأجيب عنه بأنه خارج عن سنة الباري بل سنته ما طبقها للرسل كما قال :

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كما أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وأَوْحَيْنا إلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وعِيسى وأَيُّوبَ ويُونُسَ وهارُونَ وسُلَيْمانَ وآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً(١٦٣) ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قبلُ ، ورُسُلاً لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً(١٦٤) ، رُسُلاً مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٦٥) لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إِلَيْكَ ؛ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً)(١٦٦)

فهذه الآيات جوابٌ وأيّ جواب عن اقتراح أهل الكتاب ، وحاصلها : إن الله سبحانه وتعالى يقول : [إنا أوحينا إليك] الكتاب وهو القرآن الكريم بتدريج وإمهال حسب الوقائع ومقتضى الحال ، وكنا متفضلين بذلك الإيحاء ولم نذكر الناس الذين يبلغهم الرسل ، فإن التبليغ شأنهم وهم مخولون به ، و [كما أوحينا إلى] أولئك الرسل كذلك أرسلنا [رسلا] آخرين ، منهم من [قد قصصناهم عليك من قبل] أي من قبل هذا الوقت [ورسلا لم نقصصهم عليك] وخصّ بعضا منهم بمزايا وعطايا [وكلم الله موسى تكليما] يليق بكبرياء ذاته وعلو صفاته ، حالكونهم [رسلا مبشرين] أهل الطاعة والإحسان [ومنذرين] أهل العناد والعصيان وإنما أرسلناهم [لئلا يكون للناس على

الله حجة بعد الرسل] فيقولوا : يا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، وشرعت لنا شريعة ؟ فيبينها الرّسول ويرشدنا إلى طريق الوصول فنحن إن علمنا شيئا فقد جهلنا أشياء . فعند ذلك يظهر أنهم جهلاء غافلون عن الأحكام والغافلون لا يكلفون [وكان الله عزيزا] أي ذا عزة وغلبة على أمره ؟ [حكيما] لا يعمل شيئا إلا بحكمة .

ومن أنصف علم على ضوء هذه الآية الشريفة أن لا حكم قبل ورود الشرع وإرسال الرسل وايضاح السبل ، وأن العقل ، وإن كان يدرك بعض الأمور والمصالح العامة والخاصة ، لكن لا يدرك جهة الحرمة والوجوب والكراهة والندب والإباحة ، وإن أدركها فلا يدرك جزاء عالم الآخرة ودرجات العقوبة والمثوبة ، هذا إذا كان العقل سليما . أما إذا كان سقيما وغلب عليه الأهواء والشهوات النفسية والمطامع الدنيوية فيكون أبعد عن إدراكها بمراحل . وإذا كان كذلك فمن لم تبلغه الدعوة الإسلامية كأهل الفترة ، لاسيما أهل الثلث الأخير من زمانها ، فلا مجال للقول إنهم معذبون في الآخرة أو مثابون قطعا .

وقوله تعالى : [لكن الله يشهد] الآية استدراك مما استنبط من الآيات السابقة وهو أن أهل الكتاب ما عدا الراسخين في العلم منهم لا ينصفون ولا ينقادون للحق ولا يشهدون بأن الكتاب الذي يبلغه الرسول يبلغه من الله تعالى فتقدير الكلام فتبين لكم أن أهل الكتاب لا يشهدون بما انزل إليك ، لكن الله سبحانه وتعالى يشهد [بما أنزل إليك] وهو القرآن الكريم ، أي يشهد بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أبدا . أنزله بعلمه : أي أنزله الله إليك بسبب علمه الخاص به الذي لا يشاركه فيه غيره ، ولذلك [أنزله] على تأليف خاص وأسلوب عجيب معجز للبلغاء ، أو

أنزله إليك [بـ] سبب [علمه] بأنك قابل لذلك الكتاب لقيامك بحق تلاوته وتبليغه والعمل به وتطبيقه ، أو أنزله متلبسا بما علمه الباري من مصالح العباد التي اشتمل عليها بحيث استوعب أسباب سعادة الدارين ، او أنزله مع علمه المحيط به حرفا وكلمة وكلاما المقتضى لصيانته من مبدأ نزوله إلى وقت وصوله إلى رسوله مع الملك الأمين المأمون محفوظا عن شر الجن والشياطين من الإلقاءات والتبديلات للحروف أو الكلمات كما قال : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [والملائكة يشهدون] بما شهد الله تعالى به [وكفى بالله شهيدا] وكل ما زاد على شهادته فقد كان تأييدا معززا مجيدا .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً(١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً(١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(١٦٩) يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)(١٧٠)

قوله تعالى : [إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله] الآية أي إن أهل الكتاب الذين كفروا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدوا ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله والإيمان بما أنزله على رسوله [قد ضلوا ضلالا بعيدا] عن طريق الاهتداء والكمال ، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال [إن الذين كفروا وظلموا] أنفسهم وأنفس أهليهم وأتباعهم بأن ظلموا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنكروا نبوته ورسالته وجلالة قدره ونعوته المذكورة في الكتب السابقة الدالة على رسالته واستمروا على ذلك

[لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم ، خالدين فيها أبدا] وجرى حكمه بذلك لعلمه بسوء نياتهم وإصرارهم على المهالك • [وكان ذلك] الأمر [على الله يسيرا يا أيها الناس] إن الله رءوف رحيم بكم وناصح لكم [قد جاءكم الرسول با] لدين [الحق] والمجيء الحق والتلبس بالحق [من ربكم، فآمنوا] بالله ورسوله الذي بعثه رحمة للعالمين وختم به النبيين ، وإرساله من القوم الأميين إيمانا [خيرا لكم] ولمن تبعكم مما أنتم عليه [وإن تكفروا فإن] الله غني عنكم وعن إيمانكم ، حيث إن [لله ما في السموات والارض ، وكان الله عليما حكيما] يعلم السر وأخفى وله الحكمة في السموات والارض وله المثل الاعلى •

(يا اَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ وَلا تَقُولوا عَلَى اللهِ إلاّ الحَقَّ اِنَّمَا المَسِيحُ عيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ اَلْقاها إلى مَرْيَم وَرُوحٌ مِنْه ، فآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ولا تَقُولوا ثلثةٌ ، اِنْتَهُوا خيراً لَكُمْ ، اِنَّما اللهُ اِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ! لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَما فِي الأرْضِ وكَفى بِاللهِ وَكِيلاً(١٧١) ، لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ ، ولا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ ، ومن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ اِلَيْهِ جَمِيعاً(١٧٢) ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا واَسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)(١٧٣)

قوله تعالى : [يا أهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكم] : خطـاب لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وينهاهم عن الغلو في الدين حيث غلت اليهود في شأن عزير فقالوا : هو ابن الله . وفي شأن عيسى حيث حطّوا من قدره ، ونشـروا في شخصه الكريم ما لا يناسب مقامه ، وغلت النصارى فيه بأن جعلوه إلهاً وسموه ابن الله ! [ولا تقولوا على الله إلا الحق] ولا تقولوا إن عزيرا وعيسى ابن الله ، ولا تنسـبوا إلى الله الصاحبة وهو بريء من هذه العلاقة الفاسدة ، ولا يناسب البشر مطلقا ، ولم يلد ولم يولد ، وهذه الأكاذيب من مفتعلات الأوهام الباطلة والعقائد العاطلة [إنما المسيح ابن مريم رسول الله] أرسله إلى بني إسرائيل مبشـرا برسول يأتي من بعده اسـمه أحمد [وكلمته] أي ونتيجة كلمته وهي كلمة كن ، فكل وليد يحصل فله سبب قريب محسوس وهو النطفة ، وسبب غريب معقول وهو كلمة كن المنشـأ لولادته بعد وجوده وعلوق الرحم به ، ولما كان عيسى بعيدا من السـبب القريب انحصر أمره في السـبب الغريب وهو كلمة كن ، والمراد بها الأمر التنفيذي أو سرعة حصول المراد بالقدرة والإرادة [ألقاها إلى مريم] أي ألقى ووجّه تلك الكلمة إليها ، أي أراد وجود الولد منها [وروح] أي ذو روح حاصل وناشيء [منه] أي من الله سـبحانه حصول الأثر من المؤثر . وخص باستعمال الروح له لأنه كان ناتجاً من نفخة نَفَخَها جبريل في درع مريم ـ عليها السلام بأمره سـبحانه [فآمنوا بالله ورسـله] من آدم إلى الخاتم ، ومن جملتهم : موسى ، وعزير ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . [ولا تقولوا ثلثة] أي : لا تعتقدوا بالقلب ولا تنطقوا باللسان بأن هناك آلِهَةٌ ثلثة الله ، ومريم ، وعيسى ! [اِنتهوا] عن أوهام التثليث واقصدوا عقيدة التّوحيد [خيرا لكم إنما الله اله واحِدٌ] لا مثل له لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ، فلا يساوي المُمكنُ واجب الوجود

ولا يماثله شيء ولا يشاركه شيء في صفاتـه الذاتيةِ الأزليةِ الأبدية ولا الفعليةِ ، وليس الله تعالى مادة قابلة للتجزي ، وليست صفاته قابلة للإنفكاك عنه ، وكل ما جرى بخيال النفس فهو بعيد عن حضرة ذي القدس • وحاصل ما هنالك تجليات رحمة وأنوار منه تعالى على عباده المصطفين الأخيار ، ولكل نبي ورسول وعبد مطيع حظ منها فأشعة رحمته لا نهاية لها ، وتبقى إلى أبد الآبدين [سبحانه أن يكون له ولد] أي نسبحه تسبيحا وننزه ذاته عن أن يكون له تجانس مع الممكنات ، واحتياج إلى التناسل للبقاء فيكون له ولد • [له ما في السماوات وما في الارض] خلقا وملكا ، [وكفى بالله وكيلا] يتوكل عليه ويراجع اليه •

[لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله] ، أي لا يتنحى ولا يترفع ولا يعدّه عارا أن يكون عبدا الله ويعلن عبوديته له ؛ فإن عبودية الإنسان للباري شرف جار يتباهى به كل آدمي شريف النفس ، وإنما الاستنكاف له من عبودية غيره [ولا الملائكة المقربون] أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عباد الله تعالى ؛ فإن حملة العرش مسخرون لحمله ، والباقي كل له مقام وخدمة ؛ فجبريل لتنزيل الكتاب ، وميكائيل على أرزاق العباد ، وعزرائيل لقبض الأرواح ، وإسرافيل لنفخه في الصور مرتين ، الاولى للتدمير والثانية للبعث والنشور • والمسخر عبد مطيع لمولاه ، والعبودية الخضوع والتذلل له في امتثال الاوامر واجتناب المناهي [ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر] ولا يعبده ويعد العبادة عارا له [فسيحشرهم إليه جميعا] فيجازيهم بما يستحقونه من الجزاء [فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم] على قدر الاستحقاق [ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا] عن عبادتنا ولم يعترفوا بعبوديتهم لنا بصدق

[فيعذبهم] الله [عذابا أليما] ولا يجدون لهم من دون الله وليا يتولى أمورهم ، ولا نصيرا ينصرهم فتنشرح صدورهم •

روي في مورد نزول آية [لن يستنكف المسيح] الآية أن وفد نجران قالوا : يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبدالله ورسوله • فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بعار لعيسى ـ عليه السلام ـ أن يكون عبداً لله تعالى ، ولن يأنف عيسى ولن يتعاظم على عبادة ربه • فنزلت الآية ذكره البغوي والواحدي •

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نوراً مُبِيناً(١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً)(١٧٥)

قوله : [يا أيها الناس] خطاب لكافة المكلفين إثر بيان بطلان ما عليه اليهود والنصارى وسائر الكفار ، فيقول : [يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم] أي حجة قطعية الدلالة على رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جميع المكلفين ، يعني المعجزات المتوالية التي ظهرت على أيدي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وأنزلنا إليكم نورا مبينا] وهو القرآن الكريم الذي هو نور قلوب المؤمنين ووسيلة هداية المهتدين ، ووصفه بالمبين أي الواضح لأنه يتبين حقيته بنفسه وأنه من الله تعالى ، وليس كلام الإنس والجن فإن إعجازه لهما أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه ، أو سورة •• دليل على أنه نازل من عند الله وكذلك كشفه لأمور وقعت أو ستقع في المستقبل دليل آخر على حقيته • وأخرج ابن عساكر عن سفيان الثوري أن المراد

بالبرهان هو نفس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو برهان على وجود ذات الواجب وقدرته الباهرة بأنه خلقه ضعيفا وقد رباه وأدّبه وحفظه وقوّاه واستنبأه وأظهر له دعواه وأيّده على أعدائه مع كثرتهم وشدتهم وعنادهم المتزايد ، حتى فتح البلاد وأرشد العباد وأثبت عقيدة المبدأ والمعاد ، وذلك دليل على ذات واجب الوجود الموصوف بالكرم والجود الغالب على أمره في كل غائب ومشهود ، وبرهانٌ على رسالة نفسه بأخلاق من صدقه وصبره وتوكله واعتماده على الله في أمره وشجاعته وعفوه وسماحته وتقواه وزهده وصلاحه ووفائه بالوعد وثباته على العهود واعتماده على ربه في السراء والضراء واستقامته على حاله في جميع أعماله .. وكل ذلك على أنه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقد أيده ونشر دينه وأبده ، فكل من تبعه فقد أمدّه بإمدادات روحية وأنوار قدسية ظاهرة على المتبصرين [فأما الذين آمنوا بالله] إيمانا صافيا عن التردد والاشتباه [واعتصموا به] أي بالله تعالى بالثقة والانتباه [فسيدخلهم في رحمة منه] أي ثواب عظيم [وفضل] أي إحسان جسيم لا يقدر قدرهُ [ويهديهم إليه] أي إلى ذاته [صراطا مستقيما] .

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ : اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ : إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ ما تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ ؛ فإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُما الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كانُوا إِخْوَةً ، رِجالاً ونِساءً ، فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ)(١٧٦)

عن جابر قال : اشتكَيتُ فدخل عَلَيَّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعندي سَبْعُ اَخَوات ، فقلت : يا رسولَ اللهِ اُوصى لأخواتي بالثلث ؟ قال : أحسن. قلت : بالشطر ؟ قال : أحسن . ثم خَرَجَ. ثم دخل عليّ قال : أراك لا تموت في وجعك هذا! . إن الله أنزل فبينَ ما لأخواتك وهو الثلثان ، فكان جابر يقول : نَزَلَتْ هذه الآيةُ فِيَّ رواه النسائي وأبو داود .

وعن عمر ــ رضي الله عنه ــ أنه سأل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : كيف يورث الكلالة ؟ فأنزل الله الآية . أخرجه ابنُ مَردَويه وابنُ راهويه .

قوله تعالى : [يستفتونك] يعني يستفتونك في كيفية توريث تركة الـ [ميت] الذي مات حالكونه [كلالة] أي لم يكن له والد ولا ولد كما سبق تفسيرها سابقا فأفتهم أنه [إن امرؤ هلك ليس له ولد] أي ولا والد ، [وله أخت] واحدة [فلها نصف ما ترك] المتوفى الكلالة ، وهذه هي الأخت لأبوين او لأب لأنه تقرر أن الأخت للأم حكمها غير ذلك [، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد] أي والأخ للأبوين أو لأب يرثها أي يرث أختها المذكورة إن لم يكن لها ولد حاجب له ، وأما إذا كان لها ولد ذكر فلا إرث للأخ حينئذ أو بنت أو بنات ، فله ما بقي من فرضها أو فرضهما [فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك] وكذا إن كانت الأخوات أكثر من ثنتين [وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين] على قاعدة اجتماع العصبات المتساوية الدرجة من الذكور والإناث [يبين الله لكم أن تضلوا] أي يبين الله لكم الأحكام كراهة أن تضلوا عن طريق الحق ومعرفة الأصول الإسلامية [والله

بكل شيىء عليم] ويعلم أحكامه جميع المسلمين ، ويستفيد منها من كان له قلب سليم • نسأل الله تعالى سلامة قلوبنا وستر عيوبنا وكشف كروبنا وغفران ذنوبنا بمنه •

فرغت من تفسير سورة النساء ضحوة الخميس الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ١٤٠٤ ألف، وأربعمائة واربع هجـرية • على هاجرها الصلاة والسلام •

مدنية وهي مائة وثلاث وعشرون آية • إلا قوله : (اليوم أكملت لكم دينكم) فإنها نزلت بمكة • وتعقب هذا بأن العرف جرى على أن كل ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنيا ، وإن نزل بمكة • فعلى هذا جميع آيات السورة مدنية •

وأخرج أبو عُبيد عن محمد القرظي قال : نزلت ســورة المائدة على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة وهو على ناقته ، فانصدعت كتفها ، فنزل عنها رسول الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وذلك من ثقل الوحي •

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وســلم ــ : المائدة من آخر القــرآن تنزيلا فأَحِلّوا حلالها وحَرّموا حرامها •

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُم حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ)(١)

قوله تعالى : [يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أوْفوا بالعُقود] الوفاء حفظ ما يقتضيه العقد والقيام بموجبه . ويقال : وفى من الباب الثاني ، ووفّى من باب التفعيل ، وأَوْفى من باب الإفعال . والكل بمعنى واحد غير أن في المزيد مبالغة ليست في المجرد .

والعقود جمع العقد وأصله الربط محكما ، ثم تجـوز به عن العهد الموثق . والفرق بين العقد والعهد أن العقد لا يكون إلا بين اثنين ، والعهد قد ينفرد به واحد . واختلفوا في المراد بالعقود على أقوال :

أحدها : أن المراد بهـا العهود التي أخذها الله على عباده بالإيمان به ، وطاعته فيما أحلّ لهم أو حرم عليهم .

وثانيها : العقود التي يَتعاقَدُها الناس بينهم كعقد البيع والنكاح ونحوهما .

الثالث : العهود التي كانت تؤخذ في الجاهلية على النصرة والمؤازرة على مَنْ ظَلم .

الرابع : العهود التي أخذها الله تعالى على أهل الكتاب بالعمل بما في التوراة والإنجيل مما يقتضي التصديق بالرسـول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به .

وقوله تعالى : [أحلت لكم بهيمة الأنعام] تفصـيل للعقود التي أمر بالوفاء بهـا . والبهيمة : من ذوات الأرواح ما لا عقـل له مطلقـا . وقال كثيرون : البهيمة لكل ذي أربع من دواب البر والبحر . وسميت بهيمة لأنه أبهم أمرها على الخلق ، وإضافتها إلى الانعام للبيان . وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سـورة الأنعام . وقوله : [إلا ما يتلى عليكم] مجمل للجهل بمعناه قبل نزول بيانه . وقوله : [غير محلى الصيد وأنتم حرم] حال من

الضمير في لكم على قول الأكثرين . والمعنى أُحِلَّتْ لكم بَهيمةُ الأنعامِ لا مُحِلّينَ الصّيدَ في الإحرام يعني أحلت لكم بهيمة الأنعام من : المَعْز ، والضّأن ، والبَقَرة ، والثور ، والناقة ، والجمل ، وما الحق بها قياساً مثلها . ولكِنْ لا تُحِلّوا الصيدَ في الإحرام . فإن كنتم غير مُحْرِمين فكلوا من بهيمة الأنعام وما ألحق بها . وإن كنتم مُحْرمين فكلوا منها ولا تتعرضوا للصيد . والمراد به صيد البر ، لأن صيد البحر حلال للمحرم والحلالِ لقوله تعالى : (احل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) [إن الله يحكم ما يريد] يعني يفعل ما يريد ويحكم به حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية .

(يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ، ولاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ ، ولاَ الهَدْيَ ولاَ القَلائِدَ ولا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً . وَإذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ انْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ انْ تَعْتَدُوا ، وتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوى ، ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والعُدْوَانِ ، واتَّقُوا اللهَ انَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ)(٢)

عن عكرمة قال : قدم الحطم بن هندي البكري المدينة في عير له يحمل طعامه فباعه ، ثم دخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبايعه وَاسْلَمَ ، فلما ولّى خارجاً نظر إليه فقال : لمن عنده لقد دخل على وجه فاجر ، وولّى بقفا غادر ! فلما قدم اليمامة ارتد عن الإسلام وخرج في عير له يحمل الطعام في ذى القعدة يريد مكة ، فلما سمع به أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ــ تهيأ للخروج إليه نفر من المهاجرين والأنصار ليقتلوه في عيره ، فأنزل الله الآية . فانتهى القوم . رواه ابن جرير .

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] : لما بين سبحانه حرمة إحلال الحرم الذي هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان إحلال سائر الشعائر ، وهي جمع شعَرة لِما أشعر أي جعل شعارا وعلامة للنسك من : مواقف الحج . ومرامي الجمار ، والطواف ، والسعي ، والأفعال التي هي علامات الحاج يعرف بها من : الإحرام ، والطواف ، والسعي ، والحلق ، والنحر . وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها وتهويل الخطب في إحلالها [ولا الشهر الحرام] أي ولا تحلوا الشهر الحرام ، ولا تقاتلوا أعداءكم فيه ، إلا إذا كان القتال لدفع الصائل . والمراد به رجب ، وقيل : ذو القعدة ، وقيل : الأشهر الأربعة الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب . وإنما ذكر مفردا لإرادة الجنس [ولا الهدي] أي ولا تتعرضوا للهدي بالغصب او بالمنع من وصوله إلى محله . والمراد به ما يهدى إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاء [ولا القلائد] أي ولا تتعرضوا لذوات القلائد والقلائد : جمع قلادة بمعنى ما يقلد به الهَدْيُ من نعل ونحوه ليعلم أنه هدي فلا يتعرض له [ولا آمّين البيتَ الحرام] : أي ولا تحلوا أناسا قاصدين البيت الحرام بإحصارهم ومنعهم عن السير إليه بأي وجه من الوجوه المحَرَّمَةِ حالكون أولئكَ الناس [يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبهِم ورضواناً . وإذا حللتم] أي من الإحرام [فاصطادوا] والأمر للإباحة أي وإذا خلصتم من المناسك فلا جناح عليكم في الاصطياد لزوال الإحرام المانع منه [ولا يَجْرِمَنَّكُم] أي ولا يحملنكم [شَنَآنُ قومٍ] أي عداوتكم معهم من [أنْ صَدُّوكم] ومَنَعوكم [عن] زيارة [المسجد الحرام] وطوافه على أن تعتدوا عليهم [وتعاونوا على البر والتقوى] بالعفو عن الأعداء والإغضاء

وغمض العين وصرف النظر عنهم [ولا تعاوَنوا على الإثم والعدوان] هذا النهي يعم النهي عن كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي ويندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ تفسير الإثم بترك ما أمرهم الله به وارتكاب ما نهاهم عنه • والعدوان بمجاوزة ما حدّه الله لعباده في دينهم وفرضه عليهم في أنفسهم [واتقوا الله] في جميع الأمور [إن الله شديد العقاب] لمن لا يتقيه فيه •

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ والْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ ، والْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَما أَكَلَ السَّبُعُ ، إِلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ ، وما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ، ذلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ ، غَيْر مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ)(٣)

قوله تعالى : [حرمت عليكم الميتة] الآية شروع في بيان المحرمات التي استثناها قبل بقوله إلا ما يتلى عليكم فقال : حرمت عليكم الميتة وهي ما فارقه الروحُ حَتْفَ أنفِهِ من غير سبب خارج [والدم] والمراد به : الدم المسفوح منه ، وكان أهل الجاهلية يجعلونه في المَباعِرِ ويَشْرونه ، وهذا القيد احتراز عن الدم غير المسفوح كالكبد والطحال فمباح • [ولحم الخنزير] يعني وحرّم عليكم أكل لحم الخنزير ، [وما أُهِلَّ لغير الله به] يعني وحرم عليكم أكل لحم كل حيوان رفع الصوت لغير الله تعالى عند

ذبحه . والمراد بالاهلال هنا : ذكر ما يذبح له كاللات والعزى .
[والمنخنقة] : أي ولحم الحيوانات المنخنقة التي ماتت بالخنق بأي وجه كان ، سواء اختنق بحبل الصياد ، أو بوقوع رقبتها بين شعبتين من شجرة ، أو نحوها . وكان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلون لحومها .
[والموقوذة] التي تضرب على رأسها أو غيره من أعضائها حتى تموت .
[والمتردية] أي التي تقع من مكان عال أو في حفرة أو بئر حتى تموت .
[والنطيحة] وهي التي ينطحها غيرها فتموت . [وما أكل السبع] أي وحرم لحم حيوان أكل منه السبع حتى مات [إلا ما ذكيتم] أي إلا ما أدركتموه وله حياة مستقرة فذبحتموه . وتعرف بانفجار دمه بقوة ، أو باضطرابه عند الذبح كذلك . [وما ذبح على النصب] يعني وحرم عليكم أكل لحم حيوان ذبح على النصب أي الحجارة التي كانت حول الكعبة البالغ عددها ثلاثمائة وستين حجرا ، وكان المشركون يذبحون عليها تقربا إلى الأصنام . والنصب على وزن عنق جمع نصاب كحمر وحمار . وقيل إنه مفرد الأنصاب كطنب وأطناب [وأن تستقسموا بالأزلام] أي وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما تفعل الجاهلية . والأزلام جمع زلم كفرس بمعنى القدح . وكانت للعرب في الجاهلية ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها : أمرني ربّي ، وعلى الثاني نهاني ربّي ، والثالث باق بلا كتابة . فإن خرج الأمر مضوا لحاجتهم ، وإن خرج النهي تركوها ، وإن خرج الأخير أجالوها ثانيا [ذلكم فسق] أي الاستقسام بالأزلام فسق وذنب عظيم وخروج من طاعة الله تعالى ، وذلك لأنهم إذا أرادوا ذلك أتوا بيت أصنامهم ، وفعلوا ما فعلوا . وفي ذلك ابتعاد عن الله تعالى والتوكل عليه إلى الاعتماد على الأصنام وقبول ما خرج من الأزلام في بيوتها . وكذلك فيه افتراء على الله تعالى لأنه ينسب ظهور ذلك المكتوب إلى صدور أمر من الله أو نهي منه تعالى . ويجوز

أن يكون ذلكم إشارة إلى جميع المحرمات يعني أن تعاطي هذه الأمور كلها فسق وخروج عن طاعة الله تعالى •

والمسـلم يكتفي بأمر الله تعالى في إقدامه على المأمور به وبنهيه في الامتناع عن المنهي عنه ، وقد تتطلب النفس في نحو هذه الأمور سـببا معقولا • وقـد قال العلماء : إن منشـأ تحريم المطعومات المذكورة إما الاستقذار من الطبيعة السليمة أو الابتلاء بأمراض حسية أو نفسـية من تناولها • أو ورود خلل على العقيدة الإسلامية منها فإن الإهلال بغير ذكر الله معناه الاعتماد على غير ذات الباري وتركه تعالى • وفي ذلك بلاء وأيّ بلاء فإن الإنسان مائل إلى الأطعمة اللذيذة ، ومنها اللحوم فإذا ذكر اسم غير الله تعالى تشرب القلب ذلك الغير فيستدرج القلب إلى إيثار محبته على محبة غيره ، وإذا ذكر اسم الله تعالى وحده عليه خرج عن تلك المحنة الاعتقادية سواء كان الذبح للوفاء بمقتضيات الطبيعة الإنسانية كالذبائح اليومية من جهة القصابين ، أو تكريما لضيف ، أو إحياءً لذكرى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شهري المولود والمعراج ، أو استبشاراً بولادة ولد ، أو بإبادة عدوّ لدود للإسلام ••• أو نحو ذلك فكله عمل مبارك واجب أو مندوب أو مباح • وليس في شيىء منها شيىء من الفساد •

[اليوم يئسَ الذين كفروا من دينكم] أي هذا الزمان الحاضر العرفي الذي نزلت فيه هذه الآية وهو عصر يوم الجمعة المصادف ليوم عرفة من سنة حجة الوداع العاشـرة من الهجرة ، أو يوم دخوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ثمان ، وقيل تسع يئس الذين كفروا وانقطع رجاؤهم من إبطال دينكم وإجلال دينهم [فلا تخشـوهم] أي فلا تخشوا أيها المسلمون من أولئك الكفار المشركين أن يظهروا عليكم

[واخْشَوْنِي] أن أنزل عليكم عقابي إن خالفتم أمري وارتكبتم المحرمات • [اليوم أكملت لكم دينكم] تشريعا بإنزال الآيات التي تكون مبادىء للأحكام الاعتقادية والعملية وغيرها يؤخذ منها نصا أو استنباطا أو قياسا على المعلوم • أو أكملته بفتح أم القرى ودخول الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً • [وأتممت عليكم نعمتي] بعلمكم بالسيطرة الكاملة على مكة ، وهدم منار الجاهلية ، والنهي عن حج المشركين ، وطواف العريان [ورضيت لكمُ الإسلامَ دينا] : أي اخترته من بين الأديان دينا لكم تستمرون عليه عقيدة وعملا قلبا وقالبا ، وذلك هو الإسلام بالمعنى الخاص المفسر في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » • لا الإسلام بالمعنى العام وهو الانقياد لله الثابت من لدن آدم إلى عهد الخاتم عليهم الصلاة والسلام ، فإنه وإن كان قدرا مشتركا بين الأنبياء والرسل كلهم إلا أنه ليس بمراد هنا ، لأن الإسلام في دين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقرون بأحكام عملية لم تكن في الأديان السابقة • ثم الجملة معطوفة على جملة اليوم أكملت لكم دينكم لا على جملة أكملت حتى لا تتقيد باليوم ؛ لأن دين الإسلام كان مرضيا ومختارا سابقا ولاحقا لا في هذا اليوم فحسب ، اللهم إلا أن يراد به مجموع ما شرع من الأحكام إلى يوم نزول الآية فالاختيار الوارد عليه لم يكن قبله لأن اختيار الخمسة غير اختيار الأربعة وهو ظاهر •

[فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غيرَ مُتَجانِفٍ لإِثْمٍ] يعني فمن عرض عليه الاضطرار في مَجاعة حالكونه غير مائل وغير منحرف لإثم بأن لا يأكل فوق ما يحتاج إليه ، أو لا يكون متعديا على آخر بأن يغصب منه

ما يتفوت به أو لا يكون في سـفر معصـية [فإن الله غفور رحيم] أي لا يؤاخذه بما تناوله من تلك المحرمات المذكورة قبلُ .

(يَسْـئَلونَكَ : مَاذا اُحِلَّ لَهُـمْ ؟ قُلْ : اُحِلَّ لَكُمُ الطيِّبَاتُ . وَما عَلَّمتُمْ مِنَ الجَـوارحِ مُكَلِّبينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِما عَلَّمكُمُ اللهُ ، فكُلُوا مِمّا اَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ، وَاذْكُروا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، واتَّقُوا اللهَ اِنَّ اللهَ سَريعُ الحِسَاب)(٤)

عن أبي رافع قال : جاء جبريل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستأذن عليه فَأذِن له فَأبطأ فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب ، فقال : قَد اَذِنّا لك ، قال : اَجَل ، ولكنا لا ندخل بيتا فيه صورة" ولا كلب . فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جَرْو" . فأمر أبا رافع : لا تَدَعْ كلبا بالمدينة إلا قَتَلْتَه ! فأتاه ناس فقالوا : يا رسول الله ماذا يحل لنا من هذه الأمة التي أمرتَ بقتلها ؟ فنزلت الآية أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي .

وعن سعيد بن جبير أن عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين سألا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالا : يا رسـول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبُزاةِ وإن كلاب آل ذريح تصيد البقر والحمير والظباء ، فمنه ما ندرك ذكاته ، ومنه ما يقتل فلا ندرك ذكاته ، وقد حرّم اللهُ الميتة فماذا يحلّ لنا منها ؟ فنزلت هذه الآية رواه ابن أبي حاتم .

وفي رواية قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم : يحل لكم ما علمتم من الجوارح مُكَلَبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمْسكنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قال : ما أرسلتَ من كلب وذكرتَ اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك . قلتُ وإن قتل ؟ قال : وإن قتل ما لم يأكل .

قوله تعالى : [يسئلونك ماذا احل لهم] : شروع في بيان المحللات التي ذكر بعضهـا على وجه الإجمال بعد بيان المحـرمات [قل أحل لكم الطيبات] يعني أحل لكم أكل لحم كل حيوان استطابته الطبائع السليمة ، أي لم يستخبثه بقرينة قوله تعالى في سورة الأعراف يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث • والمراد من الطبائع السليمة طبائع صنف من الإنسان لم يكونوا على البذخ والإسراف من سـعة ذات اليد ، ولا على تَخَشُّـن وتَقَشُّفٍ من الفقر وضيق ذات اليد ، حتى أكلوا كل ما دبّ ومب • أو المراد طبائع صنف من الإنسان معتدلين في ملاحظة المأكولات والمشروبات أو المراد من الطيبات مالم يدل نص من الكتاب والسـنة ولا إجماع ولا قياس جلي على حرمته •

والإنسان المسلم العاقل العالم إذا أدرك الطبائع السليمة فالحكم سهل عليه ، وإلا فلينظر إلى أصناف المحرمات المذكورة في أول السـورة ، فيعلم آنه يحرم أكل كل حيوان ميتة وما شابهها ، وكل حيوان سبع ضار ، وطير عاد، وكل ذبيحة ذبحت للتقرب والتعبد إلى الأصنام فالعلة الجامعـة ما أخل بالدين أو البدن من جهة من الجهات المذكورة ، فيحرم أكل لحم كل حشرة ، ودابة سامة ، وكل حيوان يعيش على أكل القاذورات ، وكل ذي ناب أو مخلب يصيد بهما ، وما اشتبه فيه فالأصل الحل ، والورع تركه • وتفصيل البحث في الفروع الفقهية المدونة •

[وما علمتم من الجوارح] أي وأحل لكم لحم صيد ما علمتموه على الإصطياد [مُكلّبين تعلمونهن مما علمكم الله] ومعنى مكلبين : معلمين إياه الاصـطياد • فإن المكلب اسـم فاعل من باب التفعيل بمعنى مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد وتعلمونهن مما علمكم الله أي تدربونهن بطرق التأديب والتعليم الذي حصلتم عليها بإلهام من الله أو باكتساب عقلي حسب

المعتاد بين الناس [فكلوا مما أمسكن عليكم] أي فكلوا من لحوم الصيد الذي اصطادته إذا أمسكتها على صاحبها ولم تأكل منها . هـذا ما عليه جمهور الفقهاء . وقال بعضهم : لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبهن إلى هذه الدرجة متعسر أو متعذر . وقال بعض : لا يشترط ذلك مطلقا لأن مخالفة الجوارح لطبعها إلى هذه الدرجة نادرة [واذكروا اسم الله عليه] أي على إرسال ما علمتموه من الجوارح أو على إمساكها للصيد أي أذكروا اسم الله عند إمساكها . فكأنها سكينة وإمساكها له ذبح منكم للصيد [واتقوا الله] في رعاية الآداب المذكورة امتثالا واجتنابا . [إن الله سريع الحساب] أي إنه تعالى يؤاخذكم على جميع الافعال .

(اَلْيَوْمَ اُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، والْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ والْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ اُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ قَبْلِكُمْ ، اِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ اُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافحِينَ ، ولا مُتَّخِذِي اَخْدَانٍ ، وَمن يَكْفُرْ بالإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرَين)(٥)

قوله تعالى : [اليوم أحل لكم الطيبات] إعادة هذه الجملة للتأكيد والتوطئة لما بعده . وهذا الخطاب للمؤمنين لأن غيرهم غير مكلفين بفروع الشريعة [وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم] يتناول الذبائح وغيرها ، والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى . لكن في تحقيق كون الشخص من أهل الكتاب اختلاف وجهة النظر بين الأئمة المجتهدين . واستثنى الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ نصارى بني تغلب ، وقال : ليسوا على النصرانية ، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر . ولا يلحق بهم المجوس في

ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية ، لقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم » • [وطعامكم] أيها المؤمنون [حِلّ لهم] فلا بأس عليكم أنْ تُطعِموهم وتبيعوه منهم ، ولو حرم عليهم لم يجز ذلك [والمحصنات من المؤمنات] أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من المؤمنات [والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم] أي وأحلت لكم الحرائر العفائف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى ، لا ممن لهم شبهة الكتاب كالمجوس [إذا آتيتموهن أجورهن] أي مهورهنّ والتقييد بذلك لتأكيد وجوبها والترغيب في تسليمها ، وإلا فليس تسليمها شرطا لصحة نكاحهن ، كما أن ذكر المحصنات في الصورتين للترغيب في نكاحهن ، وإلا فنكاح الفاسقات جائز • [محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان] : أي حالكونكم أعِفّاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنا ولا مُسرّين به • والخدن : الصديق يقع على الذكر والأنثى [ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله] أي ومن يكفر بما يتعلق به الإيمان وهو شرائع الإسلام وأحكامه الاعتقادية والعملية فَقَد حَبِطَ عَمَلُه أي فقد ضاع عمله الذي عمله واعتقد أنه قربة إلى الله تعالى [وهو في الآخرة من الخاسرين] يعني من الهالكين •

واعلم أنه لا فرق بين المناكحة والذبيحة حلا وحرمة ، فحيث حلت إحداهما حلت الأخرى ، وحيث لا فلا • وإذا علمت ذلك فاعلم أن الامام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ اشترط في حل ذبيحة الكتابي أن يكون خالصا من علاقة غيره من المجوس ونحوه من المشركين • وأنه إذا كان من نسل إسرائيل أي يعقوب ــ عليه السلام ــ أن لا يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين بعد بعثة ناسخة كأن يدخل في دين اليهود أو النصارى بعد بعثة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بأن يعلم دخوله فيه قبلها او كان الدخول

وعدمه مشكوكا فيه ، وان علم دخوله فيه بعد تحريفه أو بعد بعثة لا تنسخه ، كبعثة بعض الرسل بين موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وذلك لشرف نسبها إذ ذاك • وإذا كان من نسل غير إسرائيل فشرط حل ذبيحته أن يعلم دخول أول آبائه في ذلك الدين قبل بعثة تنسـخه ، ولو بعد تحريفه إن تجنبوا المحرف ، بخلاف ما إذا علم دخوله فيه بعدها وبعد تحريفـه ، أو بعدها وقبل تحريفه أو بعدها ولم يتجنبوا المحرف أو شك في ذلك لسقوط فضيلته حينئذ • وهذه الشروط المذكورة في حل ذبائح أهل الكتاب معتبرة في حل نكاح الكتابية • فلا يحل أكل ذبائح أهل الكتاب عند الشافعي كما لا يجوز نكاحه لأن تحقق الشروط المذكورة منتف فيه •

ونقل عن تاج الدين السـبكي القول بحل ذبيحة الكتابي الذي علم دخول أول أصولهم وشك : هل هو قبل نسخ او تحريف أو بعدهما ؟ ولكن الرملي ضعف قوله وردّه • وفي حاشية الجمل على شرح المنهج ما نصه : وهو وإن كان ضعيفا عند الرملي فليس ضعيفا بالكلية ، بل يجوز الإفتاء به ، لأن السـبكي لم ينفرد به ، فقد أفتى به غيره من أئمة المذهب كالحافظ العسقلاني • وعبارته في شرحه على البخاري نصها : وقد استنبط شيخنا شيخ الإسلام البلقيني منه ، أي من حديث هرقل أن كل من دان بدين أهل الكتاب كان في حكمهم في المناكحة والذبائح لأن هرقل هو وقومه ليسوا من بني إسرائيل بل ممن دخل في النصـرانية بعد التبديل ، وقد قال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا أهل الكتاب ، فدل على أن لهم حكمهم خلافا لمن خص ذلك بالإسرائيليين أو بمن علم أن سلفه دخل اليهودية أو النصرانية قبل التبديل • إنتهى •

وأما عند الإمام الأعظم فتحل ذبيحة الكتابي يهوديا أو نصرانيا عربيا أو تغلبيا ، لأن الشرط عنده قيام الملة ، وكذا الصابئة لأنهم يقرون بعيسى

ــ عليه السلام ــ ويدخل في النصارى الأفرنج والأرمن • وكل ذلك مشروط بالتسمية عند الذبح ، ولو تركها عمدا حرمت ذبيحته بخلاف ما إذا تركها ناسيا فتؤكل الذبيحة عند نسيانه لها ، وكذا تحل ذبيحة من ترك التسمية جاهلا بأنّ التسمية شرط •

بقي الكلام في ذبيحة جاءت من بلد فيه الكتابي كثير والمسلم قليل وغيرهما من سائر الكفار أكثر أكثرية ساحقة • فمقتضى ما في رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار حل أكلها ، ففيه على قول المصنف لا تحل ذبيحة غير كتابي ما نصه : وكذا الدروز كما صرح الحصني من الشافعية حتى قال : لا تحل القريشة المعمولة من ذبائحهم ، وقواعدنا توافقه إذ ليس لهم كتاب منزل ولا يؤمنون بنبي مرسل ، والكتابي من يؤمن بنبي ويقر بكتاب (رملي) •

أقول وفي بلاد الدروز كثير من النصارى فإذا جيىء بالقريشة أو الجبن من بلادهم لا يحكم بعدم الحل ما لم يعلم أنها معمولة بأنفحة ذبيحة دُرْزيّ ، وإلا فقد تعمل بغير أنفحة ، وقد يذبح الذبيحة نصراني • وسيأتي عن المصنف آخر كتاب الصيد أن العلم بكون الذابح أهلا للزكاة ليس بشرط • وخلاصته : أنه يحرم أكل ذبيحة كل كافر لا يقر بكتاب منزل أو نبي مرسل ، وأما الكتابي فيحرم عند الشافعي أكل ذبيحته الا بالشروط المذكورة ولا تكاد تتحقق • نعم قال بحل اكل ذبيحته بعض الأئمة الشافعية كالسبكي والبلقيني وغيرهما ، فمن أكلها فليقلد قول الأئمة القائلين بحل ذبائح الكتابيين • وأما الحنفية فيحل عندهم أكل ذبائح الكتابي بشرط التسمية • وإذا جهلنا أنهم سموا أولا فالظاهر عندهم حل الأكل لان العلم بكون الذابح اهلا للزكاة عند الذبح ليس بشرط • وأما الذبح فهو إما

اضطراري أو اختياري . أما الأول : فهو جَرْحٌ وطَعْنٌ وإنهارُ دَمٍ في أيّ موضع وقع من البدن . وأما الثاني فهو ذبح بين الحلق واللبّة أي من العقدة إلى مبدأ الصّدر وعروقه : الحُلقوم ، والمريء ، والوَدجان ؛ فالحلقوم مجرى النفس ، والمريء مجرى الطعام والشراب ، والودجان عرقان عظيمان في جانبي قدام العنق بينهما الحلقوم والمريء . وعند الإمام الشافعي يجب قطع الحلقوم والمريء كليهما . وعند الإمام أبي حنيفة يجب قطع ثلاث منها أي الودجان والحلقوم أو المريء أو أحد الودجين وجميع الحلقوم والمريء . وعند أبي يوسف يشترط قطع الأولين وأحد الودجين . وعند محمد يكفي قطع أكثر كل منها . ويكره الذبح من القفا والنخع أي إيصال الذبح إلى النخاع وهو عرق أبيض في جوف عظم الرقبة . وهذا القطع جائز بأي قاطع يجري الدم ما عدا السن والظفر . ويجب مقارنة القطع لوجود الحياة المستقرة في الحيوان وعلامتها انفجار الدم أو الحركة الشديدة بعد نهاية القطع . ويحرم إتعاب الحيوان وإيلامه قبل الذبح الشرعي بضرب رأسه أو قطع قوائمه أو إحداها فإن ذلك تعذيب ليس له عذر مشروع ، بخلاف شد القوائم بحيث لا يمكن معه قيامها ونفورها حتى يذبح ذبحا مشروعا .

وأما ذبح الحيوانات المتسلسلة المصفوفة بجهاز كهربائي بحيث تقطع الأوداج بحركة واحدة وسرعة خاطفة فهو جائز بشرط التسمية عند استعمال الجهاز وإسالة دمائها عنده .

ويجوز الاصطياد بالكلاب والطيور المعلّمة تعليما كاملا بحيث تصطاد بأمر أصحابها ولا تأكل من لحومها . وتجب التسمية عند إرسالها عند الإمام أبي حنيفة . وتسن عند الإمام الشافعي وتعتبر تلك الحيوانات كآلات الذبح .

وأما الاصطياد بالبندقية ؛ فالعمل نفسه حرام لأن فيه تعذيبا للحيوان بالنار • وأما أكل لحم الحيوان فإن أدركه المصطاد بعد الرمي بلا فتور وقصور وذبحه في حال الحياة المستقرة بأن ينفجر دم الصيد أو به قوة حركة للأعضاء بعد الذبح وعنده فهو حلال ؛ وإلا فحرام • وهذا هو التحقيق سلفا وخلفا • وما عدا هذا القول يعتبر باطلا وعلى المسلم رعاية الأحكام الشرعية حتى الامكان والله المعين •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلى المَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُم إلى الكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ، وإنْ كُنْتُمْ مَرْضى أوْ عَلى سَفَرٍ ، أوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوجُوهِكُمْ وأيْدِيكُمْ مِنْهُ ، ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي واثقَكُمْ بِهِ إِذ قُلْتُمْ : سَمِعْنا وأَطَعْنَا ، واتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(٧)

عن أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ قالت : سقطت قلادة لي بالبَيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ونزل فثنى رأسَه في حجري راقدا ، فأقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة ، وقال : حَبَسْتِ الناس في قلادة ؟! فَتَمَنَّيْتُ الموتَ لمكان

رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ مني ، وقد أوجعني • ثم إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استيقظ وقد حضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد • فنزلت هذه الآية من أولها إلى آخرها • فقال أسـيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم • اخرجه البخاري •

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) شروع في بيان بعض أحكام الدين بعد بيان بعض من أحكام الدنيا فقال : [يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة] أي إذا أردتم القيام لأداء الصلاة والاستعداد لها وكنتم محدثين [فاغسلوا وجوهكم] أي أسيلوا عليها الماء بحيث يعم كلها من منابت شعر الرأس إلى منتهى اللحيين • ومن وتد الأذن إلى وتدها الآخر بما فيها من الشعر والبشرة مع مراعاة المعاطف وأطراف العيون وما أقبل على الشوارب من الأنف • وإذا علمتم أن الماء لم يصل إليها لدرن أو دسـم أو نحوهما فادلكوها ليتحقق الغسل [وأيديكم إلى المرافق] : أي واغسلوا أيديكم من رءوس الاصابع وما بينها والكف والساعد الى المنتهى مع المرافق لتناول اليد لهما ولاتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غسلها ، ومن اليدين ما تحت الأظفار فيجب إخراج الأوساخ عنه حتى يصل الماء إليه [وامسحوا برءوسكم] قالوا : الباء مزيدة لأن المسـح متعد بنفسه ، أو أدخلت على المفعول بتضمين معنى الإلصاق ، وإلصاق المسح بالرأس يحتمل مسح البعض والكل ولا دلالة على أحدهما فحملت الباء على معنى التبعيـض لتيقنه • وقيل : إن الباء تفيد التبعيض كما نقله ابن مالك سـواء دخلت على آلة المسح نحو مسحت وجهي بالمنديل ، أو على المحل نحو مسحت برأس اليتيم ، وعليـه الإمام الشـافعي ـ رضي الله عنه ـ حيث قال في الأم : إذا مسح الرجل بأي رأسه شاء إن كان لا شعر عليه وبأي شعر رأسه شـاء

بآصبع واحدة أو بعض أصبع أو بطن كفه ، أو أمر من يمسح له أجزأه ذلك . إنتهى . وبين فيه أن أظهر معنى الآية أن من مسح من رأسه شيئا فقد مَسَح برأسه وأن مقابل الأظهر مسح الرأس كله . ولكن دلت السنة على أنه غير مراد فتعين الاول وذكر من السنة حديث المغيرة في المسح على الناصية والعمامة . ومذهب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ على إرادة البعض لكنه أوجب أن يكون البعض ربع الرأس لأن المسح إنما يكون باليد وهي تستوعب مقدار ربع الرأس في الغالب فوجب تعينه . وذهب مالك إلى وجوب مسح كله وهو إحدى الروايتين عن أحمد ـ رضي الله عنه ـ . وقيل : إن منشأ ما قاله هو قوله بزيادة الباء في قوله تعالى برءوسكم ، وقوله تعالى وامسحوا رءوسكم ظاهره استيعاب جميع الرأس بالمسح ، والأذنان من الرأس عند مالك وأحمد ، فيجب مسحهما أيضا .

[وأرجلكم الى الكعبين] قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب وأرجلكم بالنصب أي اغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين . وقرأها ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم بالجر . والظاهر أنه عطف على الرأس ، أي وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين . ومن هنا اختلف المسلمون في غسل الرجلين ومسحهما ، فالجمهور على أن الواجب هو الغسل وحده ، والإمامية أنه المسح . وقال داود بن علي والناصر للحق الزيدية يجب الجمع بينهما . أما القائلون بالجمع فأرادوا العمل بالقراءتين معا للاحتياط ولأنه المقدم في التعارض إذا أمكن ، وأما القائلون بالمسح فقد أخذوا بقراءة الجر وأرجعوا قراءة النصب إليها . وذكر الرازي عن القفال أن هذا قول ابن عباس وأنس بن مالك وعكرمة والشعبي وأبي جعفر محمد بن علي الباقر .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند ذكر مذهب الجمهور : ولم يثبت عن أحد من الصحابة خلاف هذا ، إلا عن علي وابن عباس وأنس ، وقد ثبت عنهم الرجوع عن ذلك . وأما الجمهور فأخذوا بقراءة النصب وأرجعوا قراءة الجر إليها وأيدوا ذلك بالسنة الصحيحة وإجماع الصحابة . ويزاد على ذلك أنه هو المنطبق على حكمة الطهارة . وادعى الطحاوي وابن حزم أن المسح منسوخ .

وعمدة الجمهور في هذا الباب عمل الصـدر الاول وما يؤيده من الاحاديث القولية ، وأصحها حديث ابن عمر في الصحيحين قال : تخلف عنا رسول الله في سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا . قال : فنادى بأعلى صوته : « ويل للأعقاب من النار » مرتين أو ثلاثا .

وقال بعض العلماء : المراد بقراءة الجر المسح . ولكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أن ذلك المسح لا يكون الا على الخف ، وعليه فالآية تشير إلى المسح على الخف في قراءة الخفض والمسح على الخفين إذا لبسهما طاهرا متواتر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يخالف فيه إلا من لا عبرة به . والقول بنسخه بآية المائدة يبطل بحديث جرير أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له : تفعل هكذا ؟ قال : نعم رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بال ثم توضأ ومسح على خفيه . قال إبراهيم : فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة . متفق عليه . ويوضح عدم النسخ أن آية المائدة نزلت في غزوة المريسيع ، ولاشك أن إسلام جرير بعد ذلك مع أن المغيرة بن شعبة روى المسح على الخفين عن رسول الله في غزوة تبوك وهي آخر مغازيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وأجمع العلماء على جواز المسح على الخف الذي هو من الجلود واختلفوا في ما كان من غير الجلد إذا كان صفيقا ساترا لمَحَلّ الفرض ، فقال مالك وأصحابه : لا يمسح على شيىء غير الجلد ، فاشترطوا في المسح أن يكون المسوح خفا من جلود أو جوربا مجلدا ظاهره وباطنه ، يعنون ما فوق القدم وما تحتها لا باطنه الذي يلي القدم . واحتجوا بأن المسح على الخف رخصة ، وأن الرخص لا تتعدى محلها ، وقالوا إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يمسح على غير الجلد ، فلا يجوز تعديه إلى غيره وهذا مبني على شطر قاعدة أصولية مختلف فيها وهي : هل يلحق بالرخص ما في معناها أو يقصر عليها ولا تتعدى محلها ؟ وجمهور العلماء ، منهم الشافعي وأبو حنيفة وأحمد واصحابهم ، على عدم اشتراط الجلد لأن سبب الترخيص الحاجة إلى ذلك ، وهي موجودة في المسح على غير الجلد ، ولما جاء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أنه مسح على الجوربين والموقين . وقال في المهذب : وإن لبس جوربا جاز المسح عليه بشرطين : أحدهما أن يكون صفيقا لا يشف . والثاني أن يكون مُنعّلا فإن اختل أحد الشرطين لم يجز المسح عليه إنتهى . يعني أن الثابت عن الإمام الشافعي رضي الله عنه اعتبار الشرطين في الجورب ، وما ورد من الآثار في المسح المطلق فمحمول على المسح على الخف من الجلود أو اللبود أو الجورب المنعل القابل لمتابعة المشي عليه .

وخلاصة الخلاصة : إن غسل الرجلين المكشوفتين ، ومسح المستورتين ، هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة ، ولا تعارض بين القراءتين ، ومن سرى إليه شيىء من قراءة الجر في الصدر الاول رجع عنه لبيان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا هو الطريق الأسلم .

وأما وجوب النية في الوضوء فاختلف فيه الفقهاء فقال الحنفية : ليس بواجب لأن ظاهر الآية لا يقتضيه • والشافعي ذهب إلى وجوبه فقال بعض الشافعية مستدلا على وجوبه : إن معنى الآية : إذا أردتم القيام للصلاة وأنتم محدثون والغسل وقع جزاء لذلك والجزاء مسبب عن الشرط فيفيد وجوب قصد الغسل لإرادة الصلاة ، ويكون الجزاء وفق الشرط في القصد • وقال آخرون : وجه الاقتضاء أن الوضوء مأمور به فيها وهو ظاهر ، وكل مأمور به يجب أن يكون عبادة وإلا لما أمر به ، وكل عبادة لا تصلح بدون النيـة لآية : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والإخلاص لا يحصل إلا بالنية الصافية • ولقوله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ : « إنما الاعمال بالنيات » الحديث • وأما وجـوب الترتيب فيه فلأن الفاء في قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم للتعقيب ، فيفيد وجوب تعقيب إرادة القيام إلى الصلاة بغسل الوجه ، فيلزم من هذا وجوب الترتيب بين الوجه وغيره ، فيلزم في الكل لعدم القائل بالفرق • وقالت الحنفية : لا يجب الترتيب لأن المأمور به بعد إرادة القيام للصـلاة عدة أمور عطف بعضها على بعض بالواو وهي لمطلق الجمع • ويعارض بأنه إذا كان غسل الوجه واجبا عقب إرادة القيام للصلاة كان المعطوف على غسل الوجه وهو غسل الأيدي واجبا حسـب توالي الفقرات فيكون المسح بعد غسل الأيدي وغسل الرجلين بعد مسح الرأس واجبا • وقد يقال : ان الدليل على الوجوب عمل الرسول بالآية ، وإذا كان عمله على ذلك الترتيب بيانا لأداء الواجب كان الترتيب واجبا والله أعلم • وليس المدار على وجود الواو واقتضائه الجمع المطلق أو المرتب • على أنه لو لم يكن ذلك الترتيب كان يعمل ــ صلى الله عليه وسلم ــ بخلافه ولو مرة واحدة بيانا للجواز ، ولم يقع ذلك •

هذا ما ترتب على إرادة القيام للصلاة مع وجود الحدث الأصغر وأما ما يترتب على إرادة القيام لها مع الحدث الأكبر فهو ما أداه بقوله : [وإن كنتم جنبا فاطهروا] أي وإن كنتم عند إرادة القيام لها مجنبين فاطهروا أي بالغسل كما بينه الشارع • ثم شرع في بيان حكم من عرض عليه الحدث الأصغر أو الأكبر وكان مريضا لا يقدر على استعمال الماء ، أو مسافرا لا يجده ، أو جاءه أحد أسباب الحدث ولا ماء عنده ، فقال : [وإن كنتم مرضى] أي مرضا تخافون به الأذى الشديد من استعمال الماء [أو على سفر] ولم تجدوا الماء ، أو لم تقدروا على استعماله لما مر [أو جاء أحد منكم من الغائط] أي من المحل الذي تقضى فيه الحاجة ، أو كناية عن قضائها [أو لامستم النساء] أي لمستموها أو جامعتموها [فلم تجدوا ماء] لرفع الحدث الأصغر أو الأكبر (فتيمموا صعيدا طيبا) أي فاقصدوا نقل تراب طيب أي طاهر غير مخلوط بالنجس وطهورا بأن لم يستعمل قبل ذلك في إباحة ما يحتاج إليه [فامسحوا بوجوهكم] كلها [وأيديكم منه] أي من هذا الصعيد الطيب ، وانووا به إباحة الصلاة أو غيرها ، واكتفوا بذلك عن رفع الحدث الأصغر أو الأكبر بالماء [ما يُريدُ اللهُ ليَجْعَلَ عليكم من حَرَجٍ] ، يعنى ما يريد الله تعالى بتشريع الوضوء لرفع الحدث الأصغر ، والاغتسال لرفع الحدث الأكبر وبالتيمم عند وجود الموجب ليجعل عليكم من ضيق في الامتثال وتعب في الأفعال [ولكن يريد] بذلك [ليطهركم] وينظفكم بالوضوء والغسل من درن الأوساخ ودنس الذنوب ، ولاسيما إذا كان هناك موجب للتيمم فإن في استعمال التراب في الوجه واليدين لمرضاة الله تعالى درجات وبركات • فقد أخرج مالك ومسلم وابن جرير عن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع

الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب » فإذا كان هذا جزاء للوضوء فكيف يكون جزاء الاغتسال والتعب في غسل جميع البدن ؟ أو كيف يكون الجزاء عند تمريغ الوجه واليدين بالتراب لامتثال أمر ذي الجلال ؟ [وليتم نعمته عليكم] يعني وليتم بتشريع ما هو مطهر لأبدانكم من الأوساخ ولقلوبكم من سواد المعاصي نعمته عليكم بإلحاق رخصة التيمم بعزيمة الوضوء والغسل [لعلكم تشكرون] هذه النعم الجسام ليزيدكم الكرم والرحمة والإنعام . [واذكروا نعمة الله عليكم] بإخراجكم من ظلمات الكفر إلى أنوار الإسلام [وميثاقه الذي واثقكم به] أي عهده الذي أخذه عليكم وربطكم به في [إذ قلتم سمعنا واطعنا] حين بايعكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره [واتقوا الله] في إهمال العهد ونسيان النعم التي لا تحصى ، وترك الشكر عليها [إن الله عليم بذات الصدور] أي بالخفيات الموجودة فيها فضلا عن الجليات .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، إعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)(١٠)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] مفاده يا أيها الذين آمنوا حق الإيمان بالله ورسوله [كونوا قوامين لله شهداء بالقسط] كونوا قائمين

بالعدل ورعايته في أقصى ما يمكن لكم لأجل مرضاة الله تعالى الأمر برعايته .
[ولاَ يَجْرِمِنكم شَنَآن قوم على ألا تعدلوا] يعني ولا يحملنكم شدة بغضكم وكراهيتكم لقوم من المشركين على أن لا تراعوا العدلَ معهم حتى لا تشهدوا في حقوقهم بالعدل أو ترتكبوا ما لا يحل من الأعمال كالمثلة وقتل الشيوخ والنساء والصبيان ونقض العهد (إعدلوا هو أقرب للتقوى) أي اعدلوا لأصدقائكم وأعدائكم فإن العدل أقرب وأكثر مناسبة للتقوى . وإيضاح الجملة أن التقوى عبارة عن اتقاء الشرك ليكون صاحبها مؤمنا ، واتقاء الكبائر ليكون صاحبها عادلا ، واتقاء الدنيا وملابساتها ليكون صاحبها من الواصلين إلى المستوى الرفيع بين المؤمنين ، ولكل طاعة مناسبة وقرب من حقيقة التقوى ، ولكن أقربها إليها وأنسبها بها هو العدل في الأمور والاتصاف به ، فهو أقرب الطاعات إليها ، وكأنه من الجزء الأخير من علل التقوى . [واتقوا الله] أي اتقوا مخالفة أمره ونهيه [إن الله خبير بما تعملون] ولا تفوتونه فيجازيكم بما تستحقونه . وفي هذا وعد ووعيد للمطيعين والعاصين .

[وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات] يعني وعد الله الذين آمنوا حق الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وأظهروا إيمانهم بالأعمال الصالحات من الواجبات والمندوبات ، ومارس فيها حتى حصلت له ملكة التقوى [لهم مغفرة وأجر عظيم] أي بأن لهم مغفرة من الله عما صدر منهم مما يعد ذنبا بالنسبة إليهم وأجر عظيم ، في الآخرة من الجنان والرضوان والنظر إلى وجه الكريم المنان [والذين كفروا] بما يجب الإيمان به [وكذبوا بآياتنا] القرآنية [أولئك أصحاب الجحيم] وملابسو النار الشديدة الالتهاب .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)(١١)

عن عكرمة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وعبدالرحمن بن عوف حتى دخلوا على كعب بن الأشرف ويهود من بني النضير يستعينهم في عقل أصابه • فقالوا : نعم اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا • فجلس فخلا بعضهم ببعض فقال حُيَي ابن أخطب لأصحابه : لا ترونه أقرب منه الآن ، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه فنستريح منه ! ولا ترون شرا أبدا • فجاءوا إلى رحى عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل فأقامه من ثمة فأنزل الله الآية • رواه ابن جرير وابن أبي حاتم •

وعن جابر بن عبدالله : أن رجلا من محارب يقال له : غورث بن الحارث قال لقومه : أقتل لكم محمدا ، فأقبل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس وسيفه في حجره فقال : يا محمد أنظر إلى سيفك هذا ؟ قال : نعم • فأخذه فاستلّه وجعل يهزّه ويهمّ به فيكبته الله تعالى • فقال : يا محمد أما تخافني ؟ قال : لا • قال : أما تخافني والسيف في يدي ؟ قال : لا ويمنعني الله منك • ثم أغمد السيف ورده إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فأنزل الله الآية • رواه أبو نعيم في دلائل النبوة •

وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن المشركين رأوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه رضي الله عنهم بعُسْفان قاموا إلى الظهر معا ، فلما صلوا ندموا الا ّ كانوا أكبّوا عليهم وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا الى صلاة العصر ، فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل الله صلاة الخوف •

وقيل : إشارة إلى ما أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن عمرو بن أمية الضمري حيث انصرف من بئر معونة لقي رجلين كلابيين معهما آمان من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتلهما ولم يعلم أن معهما أمانا فودّاهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومضى إلى بني النضير ومعه أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعمر وعلي فتلقوه فقالوا : مرحبا يا أبا القاسم لماذا جئت ؟ قال : رجل من أصحابي قتل رجلين من كلاب معهما أمان مني طلب مني ديتهما ، فأريد أن تعينوني . قالوا : نعم : أقعد حتى نجمع لك ، فقعد تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي . وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجرا ، فجاء جبريل عليه السلام فأخبره فقام وقام من معه .

وقيل : إشارة إلى ما أخرجه غير واحد من حديث جابر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل منزلا فتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها فعلق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي الى سيفه فأخذه فسلّه ، ثم أقبل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله تعالى . قاله الأعرابي مرتين أو ثلاثا ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل ذلك يقول : الله تعالى : فشام الأعرابي السيف (أي غَمده واستلّه ، من الأضداد) فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه فأخبرَهم بصنيع الأعرابي ، وهو جالس إلى جنبه لم يعاقبه . ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده . وأن القوم قد يطلق على الواحد كالناس في قوله تعالى : الذين قال لهم الناس .

ومعنى الآية : [يا ايها الناس اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم] يعني قوم من اليهود أو بعض الناس [أن يبسطوا إليكم أيديهم] بالإهلاك والقتل ، [فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون] .

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيباً ، وقَالَ اللهُ : إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ ، وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ؛ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ؛ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(١٣)

قوله تعالى : [وَلَقد أَخَذ اللهُ ميثاق بني إسرائيل] : كلام مستأنف لبيان بعض ما صدر عن بني إسرائيل المفيدة للانتباه والحذر منهم ، لأنهم كانوا ولم يزالوا على نقض العهود وتعدي الحدود • فيقول تعالى بالتأكيد : [ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل] على لسان رسلهم [وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا] للإرسال إلى حدود أرض العدو ، والتفتيش عن قوتهم وشوكتهم ، وكان كل نقيب من سبطٍ ، [وقال الله] تعالى لبني إسرائيل [إني معكم] بالعلم بالنيات والأعمال في الأحوال [لئن أقمتم الصلاة] المفروضة عليكم [وآتيتمُ الزكاة] لفقرائكم [وَآمنتم برُسُلى وعزرتموهم] أي نصرتموهم وقويتموهم في تبليغ ما أمروا بتبليغه ، وجهاد أعدائكم [وأقرضتم الله قرضا حَسَنا] بالاتفاق في سبيل الخير من الجهاد وغيره [لأُكفِّرَنَّ عنكم سَيِّئآتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك]

أي بعد ذلك الشرط المعلق به الوعد بإدخال الجنات [فقد ضَلَّ سَــواءَ السَّبِيل] فقد تاه وترك وسط الطريق •

[فبما نقضِهِم ميثاقَهم] أي بسبب نقضهم الميثاق المذكور لا لسبب شيىء آخر [لعناهم] أي طردناهم عن رحمتنا عقوبة لهم [وَجَعَلْنا قلوبَهُم قاسية] أي يابسة غليظة تبعد عن قبول الحق بحيث [يُحرِّفونَ الكَلِمَ عن مواضعه] أي يبعدون الألفاظ عن معانيها المناسبة إلى غيرها مما لا يناسب الحق بتأويلات زائفة فاسدة ، أو ينقلون بعض الحروف من الكلمات إلى غير محلها الأصلي بالتقديم والتأخير لتدل على معنى غير المعنى المقصود [ونَسُوا حَظا مما ذكروا به] أي وأهملوا رِعايةَ قسمٍ مما اُمِروا برعايته من التوراة حتى نسوه ، أو حتى صاروا كأنهم نسوه [ولا تزال تطلع على خائنة منهم] أي لا تزال مطلعا ومدركا لبعض الخيانات بالنسبة إلى حفظ أمانة الكتاب السماوي والأحكام الالهية [إلا قليلا منهم] بَقَوا عَلَى الأمانة بلا خيانة [فاعف عنهم واصفح] عن أعمالهم [إن الله يحب المحسـنين] المتجاوزين عن السيئات •

(ومِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إنَّا نَصَــارى أخَذْنَا مِيثَاقَهُــمْ ، فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)(١٤)

قوله تعالى : [ومن الذين قالوا : إنا نصارى] شروع في بيان بعض قبائح النصــارى بعد بيان قبائح اليهود ، فقال : [ومن الذين] الآية يعنى وأخذنا الميثاق من الذين قالوا إنا نصارى على يد رســولهم عيسى المسيح ـــ عليه السلام ـــ [فنســوا] على أثر الميثاق [حظــا] أي نصيبا وافرا

[مما ذكروا به] في تضاعيف الميثاق ، فأخذنا منهم الميثاق على توحيد الباري فجعلوه ثالث ثلاثة ، وعلى نشر نعوت محمد المبشر به من جانب المسيح ـ عليهما السلام ـ فكتموها وخالفوا أمره بالبيان وأمرناهم بتوحيد الصف وإطاعة الله تعالى فتفرقوا إلى اثنتين وسبعين فرقة ، [فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء] لبعضهم مع بعض [وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون] أي فسوف ينبئهم في الآخرة بما كانوا يصنعونه في الدنيا بتبعية أهوائهم ويجازون عليه ، وتلك الفرق كالنسطورية والملكانية واليعقوبية وغيرهم كما في كتب الملل والنحل .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ(١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(١٦)

قوله تعالى : [يا أهل الكتاب] خطاب مع الفريقين من اليهود والنصارى ، ويقول [قد جاءكم رسولنا] محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنعوت في كتبكم بالنعوت الخاصة الممتازة المميزة ، حالكونه [يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ،] أي يشرح ويظهر عليكم كثيرا من الأحكام التي كنتم تخفونها عنه وعن سائر الناس كنعت النبي ، وآية الرجم ، وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام [ويعفو عن كثير] أي ويسامح ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه لعدم وجود داع إلى بيانه ، فاستفيدوا منه . فإنه [قد جاءكم من الله نور] عظيم وهو ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ، وهو السراج الذي أضاء به العالم علوه وسفله [وكتاب مبين] وهو القرآن

الواضح الجلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد [يهدي به الله] أي يهدي الله بهذا الكتاب المبين [من اتبع رضوانه] أي من صرف إرادته في اكتساب مرضاته تعالى يهديه [سبل السلام] أي إلى طرق توجب سلوكها لسالكها السلامة من كل مخافة يوم القيام ، [ويخرجهم من الظلمات] ظلمات الجهالة والضلالة وأهواء النفس [إلى النور] أي نور العلم والرشاد وزكاء النفس الموجب للتحرك نحو القدس [بإذنه] أي وتلك الهداية والعناية تحصلان له بإرادته وتوفيقه . [ويهديهم إلى صراط مستقيم] وهو دين الإسلام وأحكامه لكافة الأنام .

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ؟ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(١٨)

قوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا) : شروع في رد مزاعم النصارى واليهود والاستدلال عليه ، بحيث إذا نظر المنصف في الموضوع لم يبق له شبهة في أن ما هم عليه باطل فقال : [لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم] لا غيره . القائلون بذلك هم اليعقوبية الذين يدعون أن الله سبحانه وتعالى قد يحل في جسد إنسان معين أو في روحه [قل] يا حبيبي في

إبطال قولهم : [فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ؟] أي من الذي يمنع قـدرة الباري تعالى من شيىء إن أراد ذلك ؟ وبواقع الحال يظهر آن الجواب سـلبي ، أي لا أحد قادر على ذلك المنع . واحتج بذلك على فساد قولهم .

وتقرير الدليل : إن المسيح ضعيف أمام قدرة الباري وإرادته إهلاكه ، وكل من هو ضعيف تحت القدرة والإرادة ليس بإله وبعيد" كل البعد عن الاتصاف بالألوهية ؛ لأن الإله يجب أن يكون قادرا غير مقدور ، وقاهرا غير مقهور ، وواجب الوجود لا يتأثر بأي تأثير مهما كان منشأه .

ثم أشار إلى دليل ثان وهو أن عيسى المسيح ولد من أم وحدث من العدم ونشأ من ضعف ، وغير موصوف بالقدم ، وكل من هو كذلك ليس بإلـه .

وإلى دليل ثالث هو أن أم عيسى التي هي أصله وأساس وجوده قابل للهلاك بإرادة الباري وكل قابل للهلاك لا يمكن أن يبعث منه إله . فمريـم لا يمكن أن يحدث منها إله .

وإلى دليل رابع وهو أن عيسى مماثل لبعض أفراد نوع الإنسـان وكذلك مماثل بالإمكان والحدوث لمـن في الأرض من الممكنات الخاصة . وكل من هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلها فعيسى لا يمكن أن يكون إلهاً .

وغاية شبهة الناس الفاسدين المفسدين لأولئك النصارى أن عيسـى فيه لاهوتية ، أي قوة معنوية قدسية . وفيه ناسوتية ، أي قوة إنسانية . ولما كانت اللاهوتية موجودة فيه جاز التصادق بين عيسى واللاهوتية بأن يقال : عيسى لاهوت كما يقال الإنسان ناطق ، ولم يعقلوا أن اللاهوتيـة الموجودة في عيسى عبارة عن تعلق أشـعة أنوار محبة الباري تعالى بقلب عيسى أو بدنه وظهور آثار الشرف فيه وهي صفة وعرض ، ولا تصادق بين

الذات والصفة ، وبين الذات والعرض أبدا . وأقصى ما يقال إنه تجلى الباري تعالى عليه بأنوار الرحمة كما تجلى على سائر الأنبياء والمرسلين . بل وعلى سائر عباده الصالحين ولاسيما الاولياء الاصفياء الذين قال الله تعالى في مدحهم : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . كما أشار بقوله الكريم [ولله ملك السماوات والارض وما بينهما] إلى دليل خامس وهو أن عيسى المسيح عليه السلام شخص موجود من الموجودات التي هي بين السماء والارض . وكل شخص كذلك مملوك للباري تعالى . وكل ممكن لا يمكن أن يكون إلهاً فعيسى المسيح لا يمكن أن يكون إلهاً .

وقوله تعالى [يخلق ما يشاء] إشارة إلى دليل سادس وهو أن عيسى من جملة المخلوقات التي خلقها الباري ، فإنه يخلق ما يشاء وكل مخلوق يمتنع أن يكون إلها لوجوب أن يكون الإله قديما فعيسى يمتنع أن يكون إلها [والله على كل شيىء قدير] .

وقوله تعالى : [وقالَتِ اليهودُ والنصارى نحن أَبْناءُ اللهِ وأَحِباؤُهُ] الآية حكاية لما صدر عن اليهود والنصارى من الدعوى الباطلة لأنفسهم ورد الله سبحانه وتعالى تلك الدعوى بقوله : [قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟] على صورة المعارضة حاصلها أنتم وإن كنتم تدعون تلك الدعوى لكن عندنا ما يعارضها وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما أذنبتم ذنوبا تعذبون عليها ، ولكنه عذبكم عليها في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وفي الآخرة أيضا على اعترافكم بأنكم تعذبون أياما معدودة .

ويمكن تقريره بوجه آخر وهو أنه لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما كان يعذبكم بالذنوب لكنه يعذبكم على اعترافكم .

وقوله : [بل أنتم بشر] عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي ليس الأمر كما تزعمون [بل أنتم بشر ممن خلق] أي خلقه الله ولا مزية

لكم على أي فرد أو صنف أو نوع مما خلق ، أي مما خلقه الله ، ولستم بشيء إلا مثل سائر الناس ، ومن الناس من يؤمن بالله ورسله ويطيعه ، ومنهم من لا يطيعه ويكتسب المعاصي والذنوب . والله [يغفر لمن يشاء] من أولئك المخلوقين . [ويعذب من يشاء] تعذيبه منهم . [ولله ملك السماوات والارض وما بينهما وإليه المصير] .

ومما ينبغي التنبيه عليه إن قولهم (نحن أبناء الله) إما يراد به المقربون عند الله ، أي نحن المقربون عند الله قرب الاولاد من الآباء . أو المراد بالأبناء الخاصة وأهل العلاقة الكاملة كما يقال أولئك أبناء الدنيا . أو المراد نحن أشياع من وصف بالنبوة من الأنبياء . أي قالت اليهود : نحن أشياع ابنه عزير . وقالت النصارى : نحن أشياع ابنه المسيح ـ عليه السلام ـ . وإطلاق الأبناء على الأشياع والأتباع مجاز إما تغليبا أو تشبيها لهم بالأبناء في قرب المنزلة .

(يا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ انْ تَقُولُوا ما جاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ . واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(١٩)

عن ابن عباس قال : دعا رسول الله اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه فأبوا عليه . فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته . فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا : ما قلنا لكم وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده . فأنزل الله هذه الآية رواه ابن إسحاق .

قوله تعالى : [يا أهل الكتاب] : الخطاب لليهود ويقول الباري سبحانه وتعالى لهم يا أهل الكتاب الذي أنزل على موسى [قد جاءكم رسولنا] محمد العربي القرشي الهاشمي [يبين لكم] حسب ما يوحي إليه ربه سبحانه وتعالى الآيات أحكام الدين من الاعتقاديات والعمليات المفيدة لسعادة الدارين [على فترة من الرسل] في زمان انقطاع الوحي وعدم مجيء الرسول إلى الأمم • وكان ذلك بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ مدة خمسمائة وستين سنة لم يكن في تلك المدة رسول • وما قيل : إنه كان بعد سيدنا عيسى الرسل الذين أرسلهم عيسى إلى بعض بلاد الروم كما أشار إلى ذلك قوله تعالى (فأرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا : إنا إليكم مرسلون) وواحد من العرب وهو خالد بن سنان من بني العبس ـ عليهم السلام ـ يجاب عنه : بأن الثلاثة كانوا مرسلين من جانب سيدنا عيسى ونسبة إرسالهم إليه تعالى كانت بناء على أنه تعالى أمره أن يرسلهم إلى تلك البلاد • وخالد بن سنان لم يكن رسولا وإنما كان نبيا بلا شريعة وكتاب • على أن بعضهم قال : إن خالد بن سنان ـ عليه السلام ـ كان قبل عيسى ـ عليه السلام ـ •

[أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير] تعليل لمجيء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم بالبيان يعني إنما جاءكم رسولنا بالبيان كراهة أن تقولوا معتذرين من تفريطكم في أحكام الدين يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير حتى نفهم أحكام دين الله ونعمل بها • [فقد جاءكم بشير ونذير] أي لا تعتذروا هناك فقد جاءكم رسول بشير للمطيعين ونذير للعاصين وانقطع عذركم [وَاللهُ عَلى كل شيء قدير] •

(وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ : إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً

وآتاكُمْ مالَمْ يُؤْتِ اَحَداً مِنَ الْعالَمينَ(٢٠) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الارْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدّوا عَلى اَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرينَ(٢١) قالُوا : يا مُوسى اِنَّ فيها قَوْماً جَبّارينَ ، واِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّى يَخْرُجُوا مِنْها ، فَاِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فاِنّا داخِلُونَ(٢٢) قالَ رَجُلانِ مِنَ الّذينَ يخافُونَ اَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِما : ادْخُلُوا عَلَيهِمُ الْبابَ ، فَاِذا دَخَلْتُموهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ . وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ(٢٣) . قالُوا : يا مُوسى اِنّا لَنْ نَدْخُلَها اَبَداً ما دامُوا فيها ، فَاذهَبْ اَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا اِنّا ههُنا قاعِدُونَ(٢٤) قالَ : رَبِّ اِنّي لا أَمْلِكُ اِلاّ نَفْسي وَاَخي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفاسِقينَ(٢٥) قالَ : فَاِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ اَرْبَعينَ سَنَةً يَتيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الفاسِقينَ)(٢٦)

قوله تعالى : [وإذ قال موسى لقومه] : جملة مستأنفة لبيان أعمال بني إسرائيل بعد أخذ الميثاق عليهم ، وبيان لكيفية نقضهم الميثاق ، وانتفاء فترة الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فيما بينهم .

يعنى واذكر إذ قال موسى لقومه في مقام النصح والإرشاد إلى واجباتهم : [يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم] بعدَّ النِّعَمِ الواردة عليكم وعلى آبائكم [إذ جعل فيكم أنبياء] ، وهم يوسف ، وموسى ، وهرون [وجعلكم ملوكا] أي حرركم ونجاكم من ظلم فرعون وبغيه وعدوانه وسلب الحرية عنكم وإخافتكم في بيوتكم وتسخيركم للأعمال الشاقة فجعلكم احراراً

آمنين مطمئنين لكم اكتفاؤكم الذاتي إدارة واقتصاداً . وبذلك كنتم كالملوك أو ملوكا على الحقيقة ، إذ الملك من كان له بيت ومعيشة وخادم وأمان .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب مَلِكا .

[وآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ اَحَداً مِنَ العَالَمِينَ] مِنْ انتصار رسولكم الذي أرسل إليكم بإخزاء فرعون عند جمعه السحرة ، وإغراقه في البحر ، وإنجائكم منه بغرقه ، وإرسال الكتاب المقدس جملة واحدة ، وعفوه عن سفهائكم . الذين قابلوا تلك النعم باتخاذ العجل إلهاً لهم ومعاصي أخرى .

[يا قومِ ادْخلوا الأرضَ المُقَدسَةَ] المباركة باتخاذ الأنبياء والرسل إياها مسكنا لهم . أو المقدسة عن الفساد الناشيء من القحط والجوع لأهلها التي كتب الله لكم أنها تكون مسكنا لكم بعد خلاصكم من فساد فرعون [وَلا تَرْتَدّوا عَلى أدباركم فَتَنْقَلبوا خاسِرين] : يعني ولا ترجعوا عن مقصدكم خوفا من الجبابرة فتنقلبوا خاسرين الظفر بذلك المقام المحترم . والأرض المقدسة بالذات هي جامع بيت المقدس وما وراءه صار مقدسا بتبعية العبادة فيه . فقيل إنها فلسطين والأردن ودمشق . [قالوا : يا موسى اِنّ فيها قوما جبارين] أشداء أقوياءَ بالعَدَدِ والعُدَدِ متغلبين لا تتأتى مقاومتهم . وكان ذلك القوم من العمالقة بقايا قوم عاد ، وكانت لهم أجسام ضخمة" . [وانّا لَن نَدْخُلَها حتى يخرجوا منها] بسبب من الأسباب سواء كان قتال غيرنا لهم أو سببا آخر [فإن يخرجوا منها] بسبب آخَرَ أيّاً كان [فإنا داخِلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما] يعني قال رجلان من الذين يخافون الله تعالى

وأنعم عليهما بالإيمان والتثبيت : [ادْخُلُوا عَلَيْهِم الباب] أي باب سور مدينتهم [فإذا دخلتموه فإنكم غالبون] من غير حرب وضرب واستعمال سِلاحٍ [وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين] بالله تعالى حق الأيمان • واستفاد الشرطية من كلام سيدنا موسى (التي كتب الله لكم) أو من علمهم بضعف معنويات أعدائهم في ذلك الزمان • أو من استمرار موجة تأييد موسى ـ عليه السلام ـ بالمعجزات القاهرة وبقائه فيهم • أو من جريان سنة الله في الكون من قهر الظالمين إذا تمادوا في الظلم والطغيان • أو من فراسة المؤمن الخائف من الله تعالى ، فإنه نعتهما بقوله : من الذين يخافون ؛ فإن الخائف منه عارف ببعض ما عنده • وعلى الله تعالى لا على غيره فتوكلوا بعدما امتثلتم أمره بإعداد العدة وقولهما : إن كنتم مؤمنين لم يكن من شكهما في إيمانهم بل من شكهما في قوة إيمانهم بحيث توجب الخوضَ في غمارِ المُسايَفَةَ [قالوا] أي بنو إسرائيل المخاطبون للرجلين متوجهين إلى موسى وغير مبالين بكلامهما : [يا موسى إنا لن ندخلها ما داموا فيها] يعني لا شبهة في أنا لن ندخل أرض الجبابرة فضلا عن أن ندخل باب سور مدينتهم أبدا مدة حياتنا ما داموا فيها مع القوة والمنعة الحاضرة • [فاذهب أنت وربك] ما دام الفتح امرا معنويا قدسيا [فقاتلا] الجبابرة [إِنا ههنا قاعدون] نَنتظر مآلَ الحالِ • فاستخف أولئك الجاهلون أمر موسى ومعجزةَ العصا ونَسُوا قوةَ المعجزة مِن ذلك النبيل وفَلَق النيل وأساءوا الأدبَ في ذكر الربّ وطلب القتال منه مع موسى كما كفروا به بإضافته إلى ضمير الخطاب الظاهر في الإختصاص الغير الصّواب •

ولما قابلوه بما قالوه [قال] موسى ـ عليه السلام ـ : [رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي] امْلِكُ نفسي بسيطرة روحي عليها وتسخيرها لما أمر به ربنا تعالى • وامْلِك أخي على أصول التربيـة الزكية في العائلة

المتحلاة بالفضائل والمخلاة عن الغائلة [فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين] المتمردين فلا تهلكنا بالغضب الوارد عليهم فإنا عبيدك المطيعون • [قال] تعالى جوابا لموسى في ندائه ودعائه وجزاء للقوم المتمردين في عناده : [فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض] : أي فإن دخول الأرض المقدسة حرام وممنوع عليهم مدة أربعين سنة • فهي زمان يصير فيه الطفل كهلا ، والجاهل عاقلا • والغافل منتبها متيقظا •

وفي مسافة الأرض أقوال : منها : إنها كانت ما بين حدود مصر والشام وكان عدد بني إسرائيل ستمائة الف مقاتل والله أعلم • وفي معنى التيه أقوال : منها أنهم كانوا حائرين فيها جاهلين بطريق الخلاص، وكانوا يسيرون في الأرض فيمسون حيث يصبحون ، ويصبحون حيث يمسون • وذلك ابتلاء من الله لهم بما يناسب تمردهم على الرسول الجليل موسى بن عمران ــ عليه السلام ــ بعد كل ما رأوا منه من الإعجاز المعجز للبيان فالجزاء إذا لم يكافىء العصيان لم يرتدع العصاة من بني الإنسان • وقال بعض : ليس معنى التيه إلا أنهم بقوا محصورين في تلك الديار بين العمالقة الجبارين ، وهم لهم بالمرصاد وبين الأقباط الباقين في مصر الذين هم كانوا أعدى الأعادي لهم وجناحهم الشمالي البحر الابيض والجنوبي البحر الاحمر ، فماذا كانوا يفعلون إلا بان يوفقهم لاستعادة النشاط الروحي والقوة النفسية كما أعاده لهم ففتحوا الديار وخرجوا أحرارا ؟

وفي مدة التيه توفي سيدنا هرون ــ عليه السلام ــ وتوفي سيدنا موسى بعده بسنة أو بستة أشهر • ووصى ليوشع ابن نون ــ عليه السلام ــ بالجهاد وبعد ثلاثة أشهر من وفاة موسى دخل يوشع بلدة (أريحاء) وكان قد تنبىء قبل ذلك وظهرت بوادر السعادة لبني إسرائيل ، ثم استمرت الفتوحات ووصلوا إلى ما وصلوا إليه • وهذه سنة الله في عباده ينصر العباد

الصادقين ويدمر المتمردين الفاسقين [فلا تأس على القوم الفاسقين] من هلاكهم .

(واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ : إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ . قالَ لأَقْتُلَنَّكَ ، قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ(٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ(٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحاب النَّارِ ، وذلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ، فَقَتَلَهُ ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠) فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحَثُ في الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْأَةَ أَخيه . قالَ : يا وَيْلَتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ؟! فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمينَ(٣١) مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَني إِسْرائِيلَ : أَنَّه مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيا النَّاسَ جَمِيعاً . وَلَقَدْ جاءَتهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)(٣٢)

قوله تعالى : [واتل عليهم] الآية عطف على مقدر مرتبط بقوله الكريم (وإذ قال موسى) من حيث إنه تمهيد لما سيذكره من جنايات بني إسرائيل بعدما جاءتهم الرسل . والمراد بـ [ابني آدم] إبنان له ـ عليه السلام ـ

اسمهما قابيل وهابيل . روي أنه بعدما هبط آدم وحواء إلى الأرض وانتشر منهما الأولاد والبنات أوحى الله سبحانه إلى آدم . وكانت تلد حواء في كل بطن ولدا ذكرا وبنتاً توأمين . ولما جاء وقت زواجهم أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأم الآخر ، وكان له ولدان هابيل وقابيل . وكان هابيل صاحب ضرع أي صاحب المواشي ، وقابيل صاحب الزرع . وكانت آخت قابيل احسن من أخت هابيل . ولما طلب هابيل أن ينكح أخت قابيل حتى ينكح قابيل أخت هابيل لم يرض بذلك لأن أخته كانت أحسن من أخت هابيل . وقال : أنا أحق منك أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى . فقال لهما : قربا قرباناً فمن أيكما قبل تزوجها . وإنما أمره بذلك لعلمه أنه لا يقبل من قابيل لا أنه لو قبل جاز . ثم غاب ـ عليه السلام ـ عنهما إلى مكة وعند ذلك قربا قربانا فقرب هابيل جذعة وقيل كبشاً ، وقرب قابيل حزمة سنبل ، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها . فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وكان ذلك علامة القبول . وكان أكل القربان غير جائز في الشرع القديم وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال لهابيل : لأقتلنك فأجابه هابيل بما قصه الله تعالى بقوله الكريم : [واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق] أي تلاوة متلبسة بالصحة والمطابقة للواقع [إذ قربا قربانا] ظرف متعلق بنبأ أي اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت الذي قربا فيه قربانا . والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة وغيرها من الحلويات وسائر المطعومات . [فتقبل من أحدهما] وهو هابيل [ولم يتقبل من الآخر] لأنه لم يرض بحكم الله تعالى وهو عدم جواز نكاح توأمته [قال] قابيل : [لأقتلنك] أي والله لأقتلنك . قال هابيل : [إنما يتقبل الله من المتقين] أي الذين يتقون مخافة الله . [لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب

العالمين] : قيل : كان هابيل أقوى من قابيل ، ولكنه تحرج عن قتله واستسلم له خوفا من الله ؛ لأن المدافعة لم تكن جائزة في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة .

قال بعض المحققين : واختلف في هذا الأمر الآن على ما بسطه الإمام الجصاص . فالصحيح من المذهب أنه يلزم الرجل دفع الفساد عن نفسه وغيره وإن ادى إلى القتل . وقيل إنه لا يلزم ذلك بل يجوز واستدل بما أخرجه ابن سعد في الطبقات عن خباب بن الأرت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، فإن أدركت ذلك فكن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل . ثم جاء هابيل بتعليل آخر وقال : [إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار] يعني إني أريد باستسلامي وامتناعي عن التعرض لك أن ترجع بإثمي أي بتحمله لو بسطت يدي إليك حيث كنت السبب له وأنت الذي علمتني الضرب والقتل وإثمك حيث بسطت إلي يدك . وهذا نظير ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا : « المستبان ما قالا فعلى البادىء ما لم يعتد المظلوم » [وذلك جزاء الظالمين] وهذا من كلام هابيل على ما هو الظاهر ، أو إخبار منه تعالى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله] أي فسهلت له نفسه قتل أخيه ووسعته ، من طاع له المرتع إذا اتسع [فاصبح من الخاسرين] دنيا وآخرة . أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » !

قيل : قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء ، وقيل بالبصرة .
ولما قتل قابيل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن فأتاه إبليس فقال : إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدمها ويعبدها . فإن عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها فهو أول من عبد النار .

[فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحَثُ في الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُواري سَوْأَةَ أَخيهِ] أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عطية قال : لما قتله ندم فضمه إليه حتى أَرْوَحَ ، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يُرْمى بِهِ فتأكله ، وكره أن يأتي به آدمَ ــ عليه السلام ــ فيحزنه . وتحير في أمره إذ كان أول ميت من بني آدم ــ عليه السلام ــ . فبعث الله غرابين قتل أحدهما الآخر ، وهو ينظر إليه ثم حفر له بمنقاره وبرجله حتى مكن له ، ثم دفعه برأسه حتى ألقاه في الحفرة ثم بحث عليه برجله حتى واراه . [قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثلَ هــذا الغراب] أي أعجزت أن أهتدي إلى مثل ما اهتدى إليه [فأُوارِيَ سَوْأَةَ أخي ؟] وقوله تعالى فأواري معطوف على أكون والناصب أن ، وليس جوابا للاستفهام ، لأن شرط هذا النصب أن ينعقد من الجملة الاستفهامية والجوابِ جملة شرطية نحو أتزورُني فأُكرمَك ؟ فإن تقديره إِنْ تَزُرْني أكْرِمْكَ . ولا يصح ذلك السبك هنا لفساد قولك إِن اَعْجَز أن أكونَ مثلَ هذا الغراب أواري سوأةَ أخي . لأن المواراة مرتب على الاستطاعة لا على العجز وهو ظاهر" .

[فأصبح] قابيل [من النادمين] على قتل هابيل لأمور :

الاول : أنه فكر في أن قتل أخيه كان على أخذ أخته ، وكان يمكنه أن يمتنع عن تسليمها له بدون القتل ويفرّ إلى محل لا يستولي عليه أبوه .

الثاني : الاستحياء والانفعال إذا بقي عند أبيه وأمه ، وألم الغربة والكربة وفراقهما وفراق العائلة اذا ذهب إلى محل بعيد .

الثالث : هياج الغريزة والمحبة الأخوية على نفسه وتأثره بالحادثة الرهيبة .

الرابع : حدوث الحيرة له وظهور نقصان عقله من أخس الطيور وهو الغراب . وكفى بذلك موجبا للندم .

قوله تعالى : [من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل] الأجل بفتح الهمزة في الأصل الجناية يقال أَجَلَ عليهم شراً إذا جَنى عليهم جنايةً . وفي معناه جَرَّ عليهم جَريرةً ، ثم استعمل في تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه فاستعمل لكل سبب . وكذلك من جراء ذلك ممدودا ومقصورا . تقول من جرائك فعلتُ أي بسبب ما ذكرناه وما حكيناه من مأساة الواقعة ورهبة القتل ووخامة عاقبته في الدنيا والآخرة والمفاسد التي تترتب عليه من تمزق العوائل وتحقق الغوائل ، وتركيز الأحقاد في القلوب ، وندامة مباشره مما يتورط فيه من الكروب ، كتبنا وحكمنا وقضينا على بني إسرائيل في الكتاب المختص لهم بالتنزيل [أنه] أي الشأن [من قتل نفسا] واحدة من النفوس الإنسانية [بغير نفس] أي بغير قتل نفس منها يوجب الاقتصاص [او فساد في الارض] موجب لهدر الدم كالارتداد عن الدين ، أو الزنا بمرأة وهو من المحصنين [فكأنما قتل الناس جميعا] لأن المانع من قتل الإنسان للإنسان هو مخافة الله سبحانه ورعاية حدوده ، فمن هتك هذه الشريعة لا تبقى عنده قدسية الشريعة ، ولا يهمه أن يقتل سائر الناس . فمن هذه الجهة قاتل نفس واحدة وقاتل سائر النفوس على حد سواء . [ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا] أي ومن تسبب لبقاء نفسٍ واحدة رعاية

لهيبة الشريعة ومخافة من صاحبها فكأنما راعى هيبتها في إحياء جميع النفوس البريئة .

ومما يحسن التنبيه عليه أن هنا أسئلة : الاول إن قتل أحد ابني آدمَ ـ عليه السلام ـ جناية" وقعت في الزمان الماضي فما مناسبته بالسببية لأن يَكتبَ الله على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا إلى آخر الآية ؟ الثاني : أنّ القتل من الكبائر المحرمة في سائر الأديان السابقة واللاحقة فما وجه تخصيص هذا الحكم ببني إسرائيل ؟ الثالث : أنه من البديهيات وجود الفرق بين قتل نفس واحدة وقتل نفسين فصاعدا وكلما زاد القتل زاد الإثم وكذلك الفرق بين التسبب لإحياء نفس أي لبقائها ، والتسبب لبقاء أكثر من واحدة فكلما زاد التسبب في الخير زاد الأجر المرتب عليه ، فما معنى التشبيه في الفقرتين ؟

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الجواب عن السؤال الاول جوابان : أحدهما : أن اسم الإشارة ليس إشارة إلى قتل قابيل لهابيل فقط بل هو إشارة الى ذلك وما ترتب عليه من المفاسد والخسارات الدنيوية والأخروية ، وتفريق أولي الأرحام بعضهم عن بعض وإثارة الناس في الاقتصاص وتعدي الحدود . وهذه كلها موجودة في كل زمان ومكان . وأراد أن يُذكّرَ الإسرائيليين بها فكتب على بني إسرائيل ما كتب . والجواب الثاني : أنه لما كانت الحادثة الواقعة بين ابني آدم ـ عليه السلام ـ ناشئة من الحسد وهو أكثر رذيلة حاصلة في بني إسرائيل ومن حسدهم على الناس شاع بينهم القتل والهتك بالأرواح .. رَبَطَ تلك الحادثة بهم ، وأفاد أنه لما كانت تلك الحوادث من الحسد القوي وذلك الحسد أقوى في بني إسرائيل كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل الآية حتى يحصل إنزجارهم عمّا هُمْ عليه .

وأما الجواب عن السؤال الثاني : فهو أنه وإن كان القتل محرما في كل الأديان لكن كلما تطورت الأمم وتلاحقت وتجددت فيهم الذنوب فمن اللائق بأسرار الشريعة تجديد تشريع الاحكام المترتبة على تلك الذنوب لاسيما إذا كانت في أمة مغرورة جسورة لا تهتم بالحدود الإلهية فقوله كتبنا على بني إسرائيل معناه : جددنا ذلك التشريع على بني إسرائيل واعتنينا به أكثر مما كان لكثرة جسارتهم على الحدود وزيادة تمردهم على الدين •

وأما الجواب عن السؤال الثالث فهو : أمور : الاول ما ذكرناه سابقا في تفسير الآية •

والثاني : أن المراد من الناس جميعـا الذين يقتلون بعد ذلك القتل الاول من طرف الناس الآخرين العاملين بتلك الخصلة السيئة لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن أحياها فقد سن سنة حسنة ، ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامـة •

الثالث : أن المراد خلاصة الأجر وخلاصة الوزر لان جزاء قتل النفس البريئة استحقاق دخول ، ويحصل هذا لمن قتل واحدا أو آلافا ، وإن كانت درجات العذاب مختلفة •

الرابع : أن المراد بالنفس نفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن بني إسرائيل كانوا متعودين على قتل الأنبياء كما نطق به القرآن الكريم • ومعنى الآية حينئذ أن من قتل نفس محمد ـ عليه السلام ـ فكأنما قتل الناس لأن قتل النبي كقتل الأمة • ومن تسبب في بقائها فكأنه تسبب في حياة الامة كلها •

[ولَقَد جاءتهُم رُسلنا بالبينات] : يعني والله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة الموضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيداً لمراعاته والتزامه • [ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك] الذي ذكرنا من الكتب والتأكيد على وجوبه في الأرض [لمسرفون] أي لمسرفون ومجاوزون الحدود في الأرض بالقتل والجنايات على الأطراف والمعاني والسرقات والغش والخيانات وسائر وجوه الإفساد في الارض مما لا تعد جزئياته ولا تحصى •

(إنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرْضِ فَساداً أنْ يُقَتَّلُوا أوْ يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ ، أو يُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ ، ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ(٣٣) إلاّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٣٤)

عن زيد ابن أبي حبيب أن عبدالملك بن مروان كتب لأنسٍ يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في العرنيين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل رواه إبن جرير • وعن أنس بن مالك أن نفراً من عُكَل قبيلة مشهورة ، وقيل من عرينة ، وقيل : منهما ، قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلموا واجتووا المدينة فأمرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتوا إبل الصدقة ويشربوا من ألبانها • فقتلوا راعيها واستاقوها ! فبعث النبي في طلبهم جمعا فأتي بهم فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ولم يحسمهم أي لم يقتلهم ، وتركهم حتى ماتوا • فأنزل الله فيهم هذه الآية • أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما •

إجتووا المدينة أي لم يوافقهم هواؤها واستوخموها . قال أنس : وإنما سمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعين أولئك لأنهم سَمَلوا أعْيُنَ الرعاة أخرجه مسلم .

قوله تعالى : (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) يعني إن الذين يحاربون أولياءَهما وهم المسلمون فالمحاربة مع المسلمين مباشرة ، لا مع الله ورسوله لأن محاربتهما تكون بمعارضة التشريع والتبليغ ، وذلك كفر وحكمه القتل لا ما ذكر في الآية . وإنما جعل محاربةُ المسلمين محاربتهما تعظيما للمسلمين . وقيل المراد يحاربون رسول الله . وإنما ذكر الله للتمهيد والتنبيه على أن محاربة الرسول محاربة الله تنبيها على رفعة شأنه فيعم الحكم من يحارب الرسول ومن يحارب أمته بعد الرسول ولو بأعصار كثيرة بطريق[1] العبارة لا بطريق الدلالة أو القياس ، كما يتوهم لأن ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص بالمكلفين حين النزول ، ويحتاج في تعميمه إلى دليل آخر على ما تحقق في الأصول وذكره صاحب روح المعاني .

[ويسعون في الأرض فسادا] أي مفسدين [أن يقتلوا] قصاصا من غير صلب إن أفردوا القتل [أو يصلبوا] مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال [أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف] فتقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اخذوا المال ولم يقتلوا [أو يُنْفوا مِنَ الأرض] أي ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع ، وهذا إن اقتصروا على الإخافة وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس .

[ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ، إلاّ الذين تابوا مِنْ قبل أنْ تَقْدِرُوا عليهم ، فاعلموا ان الله غفورٌ رحيم] .

---

(١) هو العمل بظاهر ما سيق الكلام له .

أما القتل قصاصا في جـزاء من قتل مؤمنا متعمدا فعائد إلى أولياء القتلى اقتصوا أو عفوا ، مجانا أو على الدية . ولا دخل لتوبة القاتل هناك .
ولما كان الكلام في قطاع الطريق من المسلمين فتقييد التوبة بما قبل القدرة معناه أن توبتهم بعد التوبة لا تنفع في إسقاط الحد وإن أفاد عند الله . وأما إذا كان القطاع للطريق كافرين فإذا أسلموا ، ولو بعد القدرة عليهم ، سقط عنهم كل حد وشد ، وهو ظاهر من النصوص .

(يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسِيلَةَ وجاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٣٥)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسـيلة] آية جامعة لجهات الخير للمسلم الكاسب لرضاء الله سبحانه ، فإن حقه أولا أن يتقي ربه بالإيمان به والابتعاد عن الكفر وترك سائر المحرمات ، ثم أداء الواجبات والمندوبات بقدر الاستطاعة . وثانيا : أن يبتغي الوسائل إلى الله سبحانه وتعالى فيتوسل بالعلماء لتعلم أحكام الدين من شتى الجهات اعتقاداً وعملا فعلا وتركا . ثم يتوسل بصحبة الصالحين المنورين لتنوير قلبه وسائر لطائفه وتخلية نفسه الأمارة عن الرذائل كالرياء والنفاق والحسد والكبر والعتو والعناد وحب السيطرة على العباد وغير ذلك من المهالك ... فإذا لمس من مسلم خيرا واكتسب من صحبته نورا واستفاد ثباتا واطمئنانا لقلبه وانشراحا لصدره فليلازمه بقدر الإمكان ، فإنه خير وبركة ورزق روحي سـاقه الله تعالى إليه ، وينبغي له حينئذ أن يحترم ذلك الصاحب المبارك ويستدر من حُسنِ الأدب معه محاسنَ الأخلاق وفضائل الاداب ، وإذا توفي ذلك الرجل ولحق مقامه الموعود أن يزوره ويدعو له ويطلبَ من الله سبحانه وتعالى لنفسه هناك الخير والبركة والتوفيق لأن ذلك المقام مقام ومدفن لشخص مات في السعي لترويج دين الله ومقام شخص تنور قلبه بنور

الله ، فذلك المحل كعين ماء زلال لا تحتاج إلى أن تتكلم معه وتستفيد من معينه زلالَ الصفاء للقلب العاطش إلى فيض الكرم ، أو كمحل قوة كهرباء مدفئة أو مبردة لا تحتاج أنت في الاســتفادة منه إلى طلب منه فإنّ نور الشمس يُضيء أهلَ العالَمِ طالبا أو هاربا • وإذا توسل به إلى الله سبحانه وتعالى وقال : يا رب ببركات صاحب هذا الضريح الباذل حياته في رضاك ارحمني وسامحني فقد ابتغى إليه الوسيلة ، ولم يعمل عملا خارجا عن إطلاق النصوص ، ولم يأت بشيء منهي عنه أبدا • بل طبق الامر بابتغاء الوسيلة في قوله تعالى : [وابتغوا إليه الوسيلة] أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي ، فمن فعل الطاعات : أداء الفرائــض والنوافل ، ومنه احترام الأنبياء والمرسلين والاولياء والصالحين ، واعتبار المنزلة لهم عند رب العالمين • وقال تعالى : (أم حســب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ســواء محياهــم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون !)

وإذا علمت ذلك فاعلم أن الوسيلة كل ما يتوسل به إلى الثواب من الله تعالى من الطاعات وقد اتفق عليه المفسرون ؛ فلنذكر الطاعات التي يتوسل بها إليه ولا شك أن منها الامتثال للأوامر مطلقا ، والاجتناب عن كل ما نهى عنه مطلقا • ومن الطاعات محبة الله ورســوله وخيار أمته من الصــحابة والتابعــين والأئمة المجتهدين في أحكام الدين وســائر العلماء العاملــين والصالحين • ومن الطاعة ملازمة الصادقين قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وهم الذين إذا رُؤا ذكر الله • ولا شك أن الكينونة معهم كينونة بالمحبة والألفة الروحية ســواء عند حضورهم أو غيابهم فإن الصحبة مع المحبة هي التي تنفع المسلم وتقويه على ما يبتغيه من الجهد في الدين لأن تلك الصحبة هي التي تورث الإنسان التخلق بالأخلاق

الحسان • ومن الطاعة توسلك إليه بطلب العلم والتعلم من العلماء العاملين ؛ لأن طلب العلم فريضة إن كان واجبا ، ومستحب إن كان مندوبا ، وكلاهما طاعة • ومن الطاعة التوسل بالصالحين الأصفياء لتزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل • قال تعالى : (قد أفلح من زكيها وقد خاب من دسيها) ومن المعلوم أن ما توقف عليه الواجب واجب • فإذا لم تتيسر هذه التزكية إلا بصحبة الأصفياء الصادقين وجب على المسلم الصحبة والمجاورة ، فإن كان التداوي عن المرض الحسي مستحبا فالتداوي عن المرض النفسي واجب ؛ لأن الكبر والعجب والرياء والنفاق وسائر الأمراض لا تدع الإنسان يتوجه إلى ربه توجها مناسبا لرب العالمين •

ومن الطاعة دعاؤك بنفسك لنفسك وللمسلمين وطلب دعائك من غيرك لخيرك وخير المسلمين سواء كان المطلوب منه مساويا أو أدنى أو أعلى من الطالب فكل ذلك قد ثبت في الدين • ومن الطاعة التوسل بجاه الأنبياء والمرسلين • وإذا نظرنا إلى ذلك بعين الإنصاف وجدناه بلا أي مانع ولا أي نهيٍ واردٍ • وقد وجدنا الوسيلة في الآية الكريمة مطلقة مجردة عن القيود ، وكل مطلق مسكوت عن تقييده الأصل فيه الإباحة •

وإذا نظرنا إلى الحديث الوارد في التوسل بحق نفسه وحق النبيين قبله كما جاء عندما نزل ــ عليه السلام ــ في قبر فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ثم خرج وقال : « الله الذي يحي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين » وإلى ما ورد من توسل الضرير بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والاستشفاع به لرد نور بصره وإجابة طلبه • وغير ذلك مما يطول ذكره هنا •• لم يبق أدنى شبهة في جواز ذلك التوسل بل في استحبابه إقتداء به ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه •

والذي يفرق في جواز ذلك بين التوسل بالنبي سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره فأجاز التوسل به لا بغيره فمع أنه يرده ما قاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طلب عفو أم سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ يجاب عنه بأن التوسل بغير الله تعالى حقيقة واحدة فإذا كان ممكنا في بعض العباد الصالحين أمكن في سائر الصالحين ، وإن كانت درجات صلاحهم متفاوتة • ومن فرق بين الحي والميت فقد انحرف عن الصراط المستقيم لأن المتوسل به في الحياة هو الروح الإنساني المدبر لأمر الجسد وتلك الروح باقية في عالم البرزخ وقوتها قوة الشفاعة لا غير ، فلا فرق بين حالي الحياة والممات ، وإذا لم يرد نهي عن ذلك التوسـل فهو باق على إباحته ، والأمر موكول إلى النصوص لا إلى المجد والماجد والجمع والواحد ؛ فإن الأمر بابتغاء الوسيلة مطلق والعامل بإطلاقه موفق •

فعلى تلك الأسس السليمة وعلى إطلاق الوسـيلة في الآية الكريمة نتوسل إلى الله تعالى بأسماء الله الحسـنى ، وبصفاته العظمى ، وبذوات الأنبياء والمرسلين ، وبجاههم عند رب العالمين • كما نتوسـل يوم القيامة بصاحب المقام المحمود للشفاعة الكبرى في اليوم الموعود • ونتوسل بطلب الدعاء من الصالحين أحياء وأمواتا ، أما الأحياء فهم من الأولياء المرغوبين • وأما الأموات فهم من ركب الصديقين ، والشهداء المحبوبين ، والصالحين المحسوبين • وأقول عند التوسل : السلام عليك أيها العبد الصالح الصادق في عبوديته لربه ادع الله تعالى أن يدفع عني شـر الاشرار ، ويحفظني من فتنة المحيا والممات ، ومن عذاب النار •

فإن قلت : لم لا تدعو أنت بنفسك لنفسك وتطلب الدعاء منه ؟ قلت : أمرنا بابتغاء الوسيلة وأتوسل بدعاء نفسي وبدعاء أهل الفضيلة • فإن قلت : هو معدود من الأموات ! قلت : روحه الطاهرة باقية تنزل عليه البركات •

فإن قلت : هو ميت والميت غافل ! قلت الغافل هو الذي غفل قلبه في حياته عن ذكر الله لا الذي مات على الطاعة والذكر بأمر الله • فإن قلت : ما ورد التوسل بذلك ! قلنا : لا نرى مانعا منه هنالك • هذا ما أعتقده على ضوء نصوص الكتاب والسنة السنية ، وعمل المسلمين في مشارق الارض ومغاربها في مدة أربعة عشر قرنا من الهجرة النبوية ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقوله تعالى : [وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون] : الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، أي جدّوا وابذلوا وسعكم في شأننا وحقنا ولوجهنا خالصا لعلكم تفلحون ، لعلكم تفوزون بالفلاح والنجاة عن العذاب في الآخرة •

ومما يحسن علمه أن الله سبحانه كما أطلق الوسيلة ليحتمل طرق الوصول إلى ثوابه تعالى أطلق المجاهدة هنا ليحتمل طرق المجاهدة ، ويعم جهاد الأعداء الظاهرة من الكفار المحاربين ، والبغاة المعاقبين ، والفساق المارقين ، والمبتدعة المخربين ، والأعداء الباطنة كجهاد الشيطان وأعوانه الشياطين ، وجهاد لنفس الأمارة بالسوء ومراكب بغيها وعنادها من الرذائل التي تمنع الاتصاف بالفضائل من الأنانية والعجب والكبر والحسد والبغي والأحقاد • وفي الحديث الشريف « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » ومعلوم أنه كما جهاد الإنسان في حرب الكفار لا يتحقق بدون الأسلحة السليمة ، كذلك لا يتحقق جهاد النفس والشيطان بدون الأخلاق القويمة ، وتلك الأخلاق منها ما هو وهبي كما اشير إليه في الأثر المشهور : (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه) أي لسلامة فطرته وزكاء طبعه بالموهبة الربانية • ومنها ما هو كسبي ولا يتحقق ذلك بالتجارب المكررة إلا بصحبة أهل الأنوار كصحبة الأصحاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبة التابعين للأصحاب، وصحبة تابعي التابعين للتابعين، وهلم••• فلا يمكن

كسب القوة للمجاهدة إلا بصحبة الصادقين • ولذلك قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وأهل الصدق أهل اطمئنان القلب ولا يحصل اطمئنان القلب إلا بذكر الله • قال تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) •

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ)(٣٧)

وقوله تعالى : [إن الذين كفروا] ••• الآية كلام مستأنف سيق لتأكيد وجوب التقوى وابتغاء الوسيلة إلى الله كي لا يدخل الإنسان في مهالك الكفر والشقاء الأبدي بدون خلاص منه كما أفاده تعالى بقوله الكريم [إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الارض جميعا] من أصناف النقود والأموال وذخائرها وكنوزها ، [ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة] أي ليجعلوه فدية لأنفسهم لاستخلاصها من عذاب يوم القيامة [ما تقبل منهم] ذلك [ولهم عذاب اليم • يريدون] أي أولئك الكافرون [أن يخرجوا] بما يفتدون به [من النار ، وما هم بخارجين منها] لكفرهم السابق منهم في الدنيا • وقد قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) • [ولهم عذاب مُقِيمٌ] أي عذاب دائم ، لأن الكفر بالله خالق الكائنات جريمة من أقبح الجرائم فيكون جزاؤه جزاء من أشد الجزاءات، ولأن الكفر عقيدة مستمرة مر الدهور فعذاب صاحبه عذاب مستمر وويل وثبور • فنسأل الله تعالى أن يحفظنا منه برحمته إنه أرحم الراحمين •

(وَالسَّارِقُ وَالسارِقَةُ فَاقْطَعُوا اَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٣٨) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَاَصْلَحَ فَاِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، اِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٩) اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ؟ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٤٠)

عن عبدالله بن عمرو أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأراد قومها أن يفدوها بخمسمائة دينار ، فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فداءها ، فقطع يدها اليمنى . فقالت : هل لي من توبة يا رسول الله ؟ فأنزل الله الآية أخرجه الإمام أحمد . وفي رواية : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها بعد قطع يدها : « أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » .

والكلام في الآية الكريمة من وجوه :

الأول : الإعراب وهو أنه يرفع الاسم الواقع هنا في صدر الكلام على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أي فيما يتلى عليكم [السارق والسارقة] أي حكمهما . ثم يقول : إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحكم قطع يده ويدها إذا سرقا . أو على أنه مبتدأ وخبره ما بعد الفاء ودخولها عليه لأن اللام الداخلة على الوصفين موصول بمعنى الذي والتي ، ولإفادتهما العموم يشبهان اسم الشرط فصح دخول الفاء في الخبر . ويجوز أن ينصب الاسم على ما ذكره الفراء . وفي اختيار النصب على الرفع في أمثال هذه الآية الشريفة تفصيل ذكره النحاة .

الثاني : إن السرقة أخذ مال الغير خفية من حرز المثل والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « القطع في ربع دينار » وفي قطع اليد بها شروط مفصلة في كتب الفقه .

الثالث : إن المراد بالأيدي الأيمان ويؤيده قراءة ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (فاقطعوا أيمانهما) ومن المقرر أن كل جزأين أضيفا إلى الكل لفظا أو تقديرا .وكانا مفردين من صاحبهما كالرأس واليمين والظهر جاز فيهما ثلاثة أوجه : الجمع وهو الأفصح ، ثم الإفراد ، ثم التثنية . ولما كان المراد باليد هنا اليمين جمعت وأضيفت إليهما .

الرابع : إن اليد ، وإن كانت اسما لتمام العضو من رءوس الأصابع إلى المنكب ، لكن الجمهور على أن المقطع هو الرسغ لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بقطع يد السارق من الرسغ . [جزاء بما كسبا] منصوب على أنه مفعول له وكذا [نكالا من الله] أي عقوبة منه تعالى [والله عزيز] أي غالب على أمره [حكيم] آت به على وجه الحكمة : [فمن تاب] أي عن السرقة [من بعد ظلمه] أي سرقته [وأصلح] أي وأصلح حاله بأن عزم على أن لا يعود إليها ، وعَمَلَه بأن رد المسروق أو بدله على تقدير ضياعه إلى صاحبه [فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور] لما سبق عنه [رحيم] : لا يعذبه في الآخرة [ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء] كل ذنب إلا الشرك وما ساواه [والله على كل شيء قدير ؟] وفاعل مختار لا يخرج من قدرته ممكن من الممكنات .

(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ

مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ : إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً ، وإِنْ حَكَمتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرِيةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ؟ ثم يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا : أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، والْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، والأَنْفَ بِالأَنفِ ، والأُذُنَ بالأُذُنِ ، والسِّنَّ بالسِّنِّ ، والجُرُوحَ قِصَاصٌ ؛ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(٤٥)

وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً

وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ(٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)(٤٧)

عن ابن عباس قال عن البراء بن عازب قال مُرَّ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيهودي مُحَمَّمٍ مَجلودٍ فدعاهم فقال لهم : « هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ » فقالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : « أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى اهكذا تجدون حد الزاني المحصن في كتابكم ؟ » فقال : لا . ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك . نجدُ حدّ الزاني في كتابنا الرّجم ، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا زنى الشريف تركناه وإذا زنى الضعيف اقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيىء نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد وجعلناهما مكان الرجم . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه » فأمر به فرجم . فأنزل الله : [يا أيها الرسول] إلى قوله : [إن أوتيتم هذا فخذوه] ويقولون : ائتوا محمدا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله [ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون] رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

وعن ابن عباس قال : أنزل الله هذه الآيات في طائفتين من اليهود قهرت إحداهما الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا فاصطلحوا على أن كل قتيل تقتله العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا ، وكل قتيل تقتله الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ! فكانوا على ذلك حتى قدم رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الذليلة : أن ابعثوا إلينا بمائة وسق فقالت الذليلة : وهل كان ذلك في حيين قط دينهما واحد" وبلدهما واحد ونسبتهما واحدة دية بعضهم نصف دية بعض !؟ إنا اعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وخوفا وفرقا منكم ، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم . فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن جعلوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهما . فأرسلوا إليه ناسا من المنافقين ليختبروا رأيه فأنزل الله هذه الآيات . أخرجه أحمد وغيره . وعن ابن عباس قال : كانت بنو النضير أشرف من بني قريظة . فكان إذا قتل رجل من بني النضير دفعت بنو قريظة لبني النضير دية كاملة ، وإذا قتل رجل من بني قريظة دفعت بنو النضير لبني قريظة نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله هذه الآيات في الفريقين فحملهم رسول الله على الحق فجعل الدية في ذلك سواء رواه ابن جرير . وقال ابن كثير : قوله تعالى وكتبنا عليهم فيها .. يقوي أن سبب النزول قضية القصاص والله سبحانه وتعالى أعلم .

المحمّم : هو الذي طُلِّيَ وجهه بالفحم .

قوله تعالى : [يا أيها الرسول] الآية خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفته الواسطة المعتادة بين الله وبين المكلفين لدعوتهم إلى وجود الباري وتوحيده والتزام الأحكام العلمية والعملية . يعني : يا من شأنه هذا الشأن العظيم [لا يحزنك] صنع [الذين يسارعون في الكفر] أي يسرعون في الحركة النفسية برغبة وميل إلى الوقوع في الكفر [من] الكافرين المنافقين [الذين قالوا آمنا بأفواههم] أي حاصل كلامهم وخلاصة مرامهم قولهم بأفواههم آمنا يا محمد [ولم تؤمن قلوبهم] أي ولم توافق قلوبهم ألسنتهم في الايمان .

وقوله : [ومن الذين هادوا] معطوف على قوله من الذين آمنوا • فيكون المسارعون إلى الكفر قسمين : الأول المنافقون ، والثاني اليهود وبينهما عموم وخصوص من وجه • والحاصل لا تهتم بأعمالهم وبأحوالهم فإنهم قوم خفاف لا وزنَ لهم والرسول في تبليغ رسالته يصادف كثيرا من الأصناف من المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين والكافرين المنافقين وهذه سنّة الله في العالمين •

وقوله [سماعون للكذب] خبر لمبتدأ محذوف، أي هم سماعون للكذب يعني قابلون وآخذون له لاسيما إذا نقلوه من جانب الأحبار المفترين • وكذلك [سماعون لقوم آخرين] أي وهم سماعون لقوم آخرين غير الأحبار الذين حضروا مجلسك • وقوله [لم يأتوك] صفة أولى للقوم • أي لم يأتوا إليك لحد الآن ولم يحضروا مجلسك تكبرا وعنادا • وقوله : [يحرفون الكلم عن مواضعه] صفة ثانية للقوم • أي يميلون الكَلِمَ عن المعاني التي وضعت هي لها بالتأويلات الفاسدة • أو يحرّفون بعضَ حروف الكلمة إلى غير محلها بقلب المكان لأجل التشويه والتشويش أو يبعدونها عن مواضع التلفظ وهي الألسنة • أي لا ينطقون بها بل يهملونها • وقوله [يقولون إن أوتيتم] صفة ثالثة للقوم ، أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم : إن أوتيتم من جانب محمد مثل [هـذا] الكلام الذي نحن نقوله لكم [فخذوه] واقبلوه ، [وإن] أوتيتم شيئا يخالف ما نَقُولُه لكم فلا تقبلوه ، واحذروا منه وإياكم وإياه • ومعلوم أن ما يُؤْتَوْنَ من جانب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقيض أو ضد لما يؤتون من جانب أولئك الفاسدين ، فإنهم يدّعون تأبيدَ دين موسى وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : أنا رسولُ الله وخاتمُ النبيين وكتابي آخر الكتب ، وشريعتي آخر الشرائع ، أصدق برسالتي ورسالة جميع الرسل ، وبرهاني

قرآن أنزله الله عليّ فرقانا بين الحق والباطل ، والعامل والعاطل . فكيف هذان يلتقيان ؟ ثم أخذ الباري يُسَلّي قلب حبيبه ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على معارضة أولئك الفاسدين المعاندين ويقول له [ومن يرد الله فتنته] ابتلاءه وعذابه وهلاكه في الدنيا أو في الآخرة [فلن تملك له] فلن تستطيع له [من الله شيئا] قليلا أو كثيرا في دفع فتنته [أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم] من رجس الكفر والضلالة لأنهم اختاروا أن يبقوا على العناد مع صاحب الرسالة [لهم في الدنيا خزي] من فضيحتهم وهتك سترهم بإظهار نفاقهم بين الناس ، وازدياد محنتهم بازدياد منحته للمسلمين [ولهم في الآخرة عذاب عظيم] لا يعلم مداه إلا الله العليم . وسرّ استحقاقهم لذلك أنهم [سماعون للكذب] ومحبون له وراغبون في قبوله و [أكالون للسحت] أي للحرام الذي يوجب استئصال أهله من ساحة رحمة الله وفضله [فإن جاءوك] متخاصمين ومتحاكمين إليك فيما وقع بينهم من المخاصمات [فاحكم بينهم] بما أراك الله تعالى [أو أعرض عنهم] غير مبالٍ بهم غير ناظر إلى مضرتهم ومنفعتهم [وإن تعرض عنهم] وقصدوا إضرارك [فلن يضروك شيئا] من الضرر [وإن حكمتَ فاحكُمْ بينهم بالقسط] يعني بشريعتك التي كلها عدل وقسط [إن الله يحب المقسطين] العادلين في الأحكام المهتمين بانتشار العدالة والراحة بين طبقات الأنام .

[وكيف يحكمونك] أي يجعلونك حكما مرضيا مع أنهم لا يؤمنون بك وبشريعتك [و] الحال أن [عندهم التوراة] المنزلة من الله و [فيها حكم الله] تعالى وهم يدعون الإيمان بها مع أنه لا ينقادون لحكمها [ثم يتولّون من بعد ذلك ؟] يعني ثم يُعرضون عن حكمك الموافق للحق المنصوص عليه في كتابهم [وما أولئك بالمؤمنين] بكتابهم فضلا عن أن يؤمنوا بك وبحكمك . والحاصل أنهم كافرون حتى بكتابهم ولا يصدقون في تحكيمك وحكمك بالعدل بينهم . فقد خسروا الأول والآخر ذلك الخسران المبين .

ثم أتى مستأنفا بكلام سيق لتقرير فظاعة أحوالهم وأنهم براء من الحق وقال : [إنا أنزلنا التوراة فيها هدى] أي فيها آيات وإصحاح تسبب في هداية المهتدين ، ونور وإيضاح للأحكام المغلقة الموجودة فيها • أو أنها نور كاشف للظلمات وليس فيها ظلمة تحتاج إلى الكشف [يحكم بها النبيون الذين أسلموا] أي كانت يحكم بها النبيون الذين أسلموا دينهم لله [للذين هادوا] أي لبيان الحقائق وفصل الخصومات لإفادة الذين انتسبوا إلى دين اليهود [والربانيون والأحبار] أي وكان يحكم بها عبادهم الزاهدون السـالكون مسالك الحق ، والأحبار من علمائهم الأمناء المتبعـين طريقـة أنبيائهم ، وذلك [بـ] سبب [ما استحفظوا من كتاب الله] وأمانتهم في العمل بما جعلوا أمناء حافظين له [وكانوا عليه] أي على ذلك الكتاب وهو التوراة [شهداء] رقباء حاضرين عليه حامين له من تعرض المحرفين ، وقلنا لهم على ألسنة رسلهم [فلا تخشـوا الناس] ولا تغيروا حكم الكتاب خوفا منهم [واخشون] في التمرد عن أمري [ولا تشتروا بآياتي] أي ولا تبدلوا آياتي أي العمل بها وتطبيقها في الحكم بين الناس [ثمنا قليلا] من الهدايا والرشايا ومتاع الدنيا الدنية [ومن لم يحكم بما أنزل الله] ولم يصدق به وأهمل حكمه [فأولئك هم الكافرون • وكتبنا] عطف على أنزلنا أي إنا كتبنا في التوراة [عليهم] أي على الذين هادوا [فيها] أي في التوراة [أن النفس بالنفس] يعني أن نفس القاتل مقتصة بالنفس ومقتولة بها [والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن] أي أن العين مأخوذة بالعين ، والأنف مأخوذة بالأنف وهكذا • [والجروح قصاص] أي والجروح ذات قصاص • وهذا الحكم فيما إذا كانت بحيث تعرف المساواة ، وإلا فالحكومة حتى لا يقع غدر في الجزاء [فمن تصدق به] أي بالقصاص أي فمن عفا عنه [فهو كفارة له] أي فالتصدق به كفارة لخطيئاته • عن رسول الله ـ صلى

الله عليه وسلم ـ : « من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت . » [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] أي الكافرون اذا كان عدم حكمه ناشئا عن عدم الايمان به ، او المتعدون على حقوق الغير إذا كان عدم الحكم من البغي فقط لا من عدم الإيمان . ولما بين بعض أحكام التوراة شرع في بيان بعض أحكام الإنجيل فقال [وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم] يعني جئنا بعيسى ابن مريم على آثارهم قافياً لهم حالكونه [مصدقا لما بين يديه من التوراة] وهو حال مؤكدة لأن التصديق بالحقائق من لازم الرسول ـ عليه السلام ـ . [وآتيناه] الكتاب المسمى بـ [الإنجيل] بكسر الهمزة ، [فيه] هدى للمهتدين [ونور] للعابدين . [ومصدقا] هذا الإنجيل لما بين يديه من التوراة [وهدى وموعظة للمتقين] أي للساعين للاتصاف بالتقوى [وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه] من الأمور التي تشهد برسالة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبما تتفق مع شريعته ، فإن الرسل متفقون في الاعتقاديات وفي بعض العمليات فقط . [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون]. الخارجون عن الإيمان على تقدير ، وعن حكمه على تقدير آخر .

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، ولكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتيكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)(٤٨)

قوله تعالى [وأنزلنا إليك الكتاب] يعني كما أنزلنا الكتب على الرسل السابقين وأنزلنا التوراة على موسى والإنجيل على عيسى كذلك أنزلنا إليك وأنت خاتم الرسل والنبيين الكتاب الكامل الحقيق بأن يسمى كتابا ، المعجز لفظا ومعنى ، الرصين حرفا ومبنى ، إنزالا متلبسا [بالحق] والصدق [مصدقا] ذلك الكتاب [لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا] ورقيبا ومحافظا [عليه] أي على الكتاب السماوي يشهد على ما سلم بالصحة وعلى ما حرف بالتحريف [فاحكم بينهم] أي بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك [بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم] الزائغة عن [الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا] أي جعلنا لكل رسول منكم شريعة ومنهاجا ، فما دام الدين والشريعة باقية لأي واحد منكم وجب العمل بها ، وما دام نسخ وجب العمل بالناسخ ولا يجوز لك أيها الحبيب الميل إلى ما هم عليه ويجب عليك الحكم بما نزل عليك [ولو شاء الله لجعلكم] من آدم إلى الخاتم [أمَّةً واحِدَةً] على شريعة واحدة [ولكن] ه لم يشأ ذلك رعاية لحكمته في تطور الامم وتجدد الشرائع [ليبلوكم في ما آتاكم] ليعاملكم معاملة المختبر فيما آتاكم من الشرائع هل تستقيمون على الحق بحسب تجدد الشرائع أو تبقون على ما اردتم حسب اقتضاء الطبائع ؟ [فاستبقوا الخيرات] فسارعوا إلى ما هو خير لكم من الشريعة الجديدة [إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] .

(وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (٤٩)

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ؟)(٥٠)

عن ابن عباس قال : اجتمع قوم من أحبار اليهود منهم كعب بن أسد ، وعبدالله بن صوريا ، وشاس ، وقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر . فجاؤه ، فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وأنا إن اتبعناك اتبعتنا اليهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قوم خصومة فنحاكم إليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك ونصدقك ! فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك وأنزل الله فيهم الآيتين . رواه ابن إسحاق والبيهقي وابن أبي حاتم .

قوله تعالى : [وأن احكم بينهم] عطف على الكتاب ، يعني وأنزلنا إليك والأمر بالحكم بينهم [بما أنزل الله] لا بما تهواه أنفسهم الفتانة [ولا تتبع أهواءهم] في أي حكم من الأحكام [واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك] مما يخالف أهواءهم فإن الحق أحق أن يتبع [فإن تولوا] وأعرضوا عن حكمك بما أنزل اليك وأرادوا غيره [فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم] يعني فاعلم أنهم كافرون ولهم ذنوب كثيرة عدا كفرهم وإن الاعراض عن حكمك ذنب آخر أضافوه إليها . ولا شك أن الله تعالى يعذبهم عليه كما يعذبهم على سائر الذنوب وإن ذنب التولى بعض منها .

ويظهر من هذه الآية أن الكفار كما يعذبون على نفس الكفر عذاب الخلود كذلك يشتد عذابهم على ذنوبهم الاخرى ودرجات شدة عذابهم الإضافية بقدر درجات ذنوبهم فيعلم أن الكافر المفسد بين الناس عذابه أشد من الكافر السالم [وإن كثيرا من الناس لفاسقون] أي كثير من الناس الكافرين متجاوزون عن حدود الكفر المجرد ويضيفون إلى اعتقادهم الفاسد

أعمالا قبيحة يعذبون عليها علاوة على عذاب أصل الكفر أعاذنا الله منها .
ثم أنزل الله تعالى استنكارا لما أرادوه من حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يريدونه وقال : [أفحكم الجاهلية يبغون] أي أيعرضون عن قبول حكمك بما أنزل الله ويطلبون حكم الجاهلية اللا دينية ، وهو الحكم بالهوى إن هذا لشيىء عجيب ! [ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون] ؟ أي ليس أحد أحسن وأعدل من الله حكما . وهـذا الامر ثابت عند قوم يوقنون ويعلمون الحق بيقين . فمن أراد حكم الجاهلية الجهلاء لا شك أنه جاهل بل من أجهل الجاهلين لأن الباطل زاهق عند مجيىء الحق .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١) فَتَرَى الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ : نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ(٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ)(٥٣)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] : خطاب يعم حكمه جميع المؤمنين من المخلصين وغيرهم فيقول : [يا أيها الذين آمنوا لا تتخـذوا اليهود والنصارى] أي لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا ، فلا تصافوهم مصافاة الأحباب ولا تعتمدوا عليهم ، فإن اليهود والنصارى [بعضهم أولياء بعض] يعني إن اليهود متحابون فيما بينهم ، والنصارى متحابون كذلك ، وكل من

الفريقين يعادونكم روحا ولا فائدة في موالاتهم إلا الخسران • [ومن يتولهم منكم فإنه منهم] إذا كان تولّيهِ لهم من حيث أنهم يهود أو نصارى فيكون كافرا واقعيا ، ولا يبقى له علاقة بالإسلام ، وإذا كان توليه له لاشتراكه معه في تجارة أو صناعة فلا يحكم بكفره ، ولكنه يخاف من اختلاطه بهم أن يسري إليه فساد الاعتقاد ويقال في حقه : إنه منهم • وقوله تعالى [إن الله لا يهدي القوم الظالمين] تعليل آخر للنهي عن اتخاذهم أولياء يعني إن الله تعالى لا يهدي أولئك القوم الظالمين أنفسهم بالاستمرار على اليهودية والنصرانية إلى خير وفائدة حتى يستفيد الموالي لهم شيئا من المنافع • وإنما هم واغلون في الضلال والموالي لهم يخاف عليه من ذلك •

ثم يستعرض الباري تعالى أحوال المنافقين الذين يوالون الكفار وأقوالهم في تبرير موقفهم من موالاتهم بقوله : [فترى الذين في قلوبهم مرض] من النفاق كعبدالله بن أبيّ وأشباهه [يسارعون فيهم يقولون] في الاعتذار عن موالاتهم لهم : [نخشى أن تصيبنا دائرة] أي بلاء ومصيبة واردة علينا كالجدب والقحط أو نخشى أن تدور علينا دائرة من دوائر الدهر فينقلب الأمر للكفار وتكون الدولة لهم على المسلمين فنحتاج إليهم إذ ذاك ونحن بموالاتنا اليوم لهم نستعد للاستفادة منهم في ذلك الوقت • وبعد ذلك رد الله على المعتذرين وقطع خيالاتهم الباطلة وبشر المؤمنين بقوله الكريم [فعسى الله أن يأتي بالفتح] أي بفتح مكة ، أو فتح سائر بلاد الكفار فتكون الغلبة للمسلمين ، ولا تبقى لهم حاجة إلى أولئك الكفار ، وقد حقق الله تعالى ما بشر المسلمين به [أو] أن يأتي بـ [أمر من عنده] من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير عن الجزيرة [فيصبحوا] أي أولئك المنافقون المعتذرون [على ما أسروا في أنفسهم] من الكفر أو التردد في نصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [نادمين] وقد جاء الباري بالأمر من عنده والنصر

لجنــده فاندحر المنافقون وأجلي اليهــود • وقوله تعالى [ويقول الذين آمنوا] إما كلام مستأنف مسوق لبيان مقالة المؤمنين عند مجيء النصــر والأمر من عند الله تعالى أو منصوب بالعطف على قوله [فيصبحوا] أي أن يقول المؤمنون بعضهم لبعض : [أهؤلاء] المنافقون [الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم] وأقوى وأغلظ أحلافهم [إنهم لمعكم] أيها المؤمنون • وظهر سوء حالهم وفساد نيتهم مع الرسول وأصحابه حتى دحرهم الله تعالى • أو يقول المؤمنون لليهود : أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم أيها اليهود فما بالهم ما أفادوكم شيئا عند إجلائكم من الديار ؟ وقولهم هذا بعضهم لبعض منهم أو لليهود الذين أخرجوا من الديار إما قد وقع إن كان بيان الباري سبحانه وإظهاره ذلك على حسب علمه بالوقوع ، أو مفروض ومقدر على معنى أنه مما يتصور ويفرض أن يقول المؤمنون ذلك الكلام بعضهم لبعض ، أو بعضهم لليهود كما ذكرنا آنفا • وقوله [حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين] إما من مقالة المؤمنين ، أو مسوقة من جهته تعالى لبيان مآل ما صنعه المنافقون وهذا أظهر •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين ، يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ ، وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ، ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، واللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ؛ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ)(٥٦)

عن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي بن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم . وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي لهم من عبدالله بن أبيّ ، فخالفهم إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين . قال عبادة فَفِيَّ وفي عبدالله بن أبيّ نزلت الآيات من [يا أيها] إلى [فإن حزب الله هم الغالبون] رواه ابن إسحاق وابن جرير والبيهقي .

قوله [يا أيها الذين آمنوا] شروع في بيان حال المرتدين على الإطلاق بَعْدَ نهيه تعالى عن موالاة اليهود والنصارى ، وبين أنّ موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين .

وفي روح المعاني : وهذا من الكائنات التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها . فقد روي أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة : ثلاث في عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

الاولى : بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار ، وهو الاسود العنسي ، كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عُمّالَ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . فكتب ــ صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن . فأهلكه الله تعالى على يدي فيروز الديلمي ، بيّته فقتَلَهُ وأخبر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقتله ليلةَ قُتِلَ ، فسُرّ به المسلمون وقُبض ــ عليه الصلاة والسلام ــ من الغد وأتى خبره في شهر ربيع الاول .

الثانية : بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب بن حبيب تنبأ وكتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلام عليك . أما بعد : فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض . ولكن قريشا قوم يعتدون . فقدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولان بذلك . فحين قرأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابه قال لهما : « فما تقولان أنتما ؟ » قالا : نقول كما قال . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم كتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وكان ذلك في سنة عشر من الهجرة ، فحاربه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وكان يقول : قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس . وقيل : اشترك في قتله هو وعبدالله بن زيد الانصاري طعنه وحشي وضربه بسيفه عبدالله . وهو القائل : في أبيات .

يسائلني الناس عن قتله فقلت ضربت وهذا طعن

الثالثة : بنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، تنبأ فبعث إليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال إلى الشام ، فأسلم وحسن إسلامه .

وارتدت سبع في عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ [فزارة] قوم عيينة بن حصن ، و [غطفان] قوم قرة بن سلمة القشيري ، و [بنو سليم] قوم الفجاءة ابن عبد ياليل ، و [بنو يربوع] قوم مالك بن نويرة ، و [بعض بني تميم] قوم سجاح بنت المنذر الكاهنة تنبأت وزوجت نفسها من مُسَيْلَمة في قصة شهيرة . وصح أنها أسلمت بعدُ وحَسُنَ إسلامُها . و [كنده] قوم الأشعث بن قيس . وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد . وكفى الله تعالى أمرَهم على يدي أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ . وفرقة واحدة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وهم غسان قوم جبلة بن الأَيْهم ؛ تنصر ولحق بالشام ومات على رِدّته . وقيل انه أسلَم .

ويروى أن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتابا فيه : إن جبلة وَرَدَ إليّ في سراة قومه فأسلم فأكرمته ، ثم سار إلى مكة فطاف فوطأ إزاره رجل من بني فزارة ، فَلَطَمهُ جبلةُ فهَشَمَ أنْفَه وكَسَرَ ثناياه . وفي رواية : قلع عينه فاستعدى الفزاري على جبلة إلي ، فحكمت إما بالعفو وإما بالقصاص . فقال : اتقتص مني وأنا ملك وهو سَوقَة ؟ فقلتُ شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية . فسأل جبلة التأخير إلى الغد . فلما كان من الليل ركب مع بني عمه ولحق بالشام مرتدا . وروي أنه ندم على ما فعله وأنشد :

تنصرت بعد الحق عاراً للطمة ... ولم يك فيها ، لو صبرت لها ضَرر

فأدركني منها لجاج حمية ... فبعت لها العين الصحيحة بالعور

فياليت أمي لم تلدني ، وليتني ... صبرت على القول الذي قاله عمر !

واعترض القول بأنها من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها بأن مَنْ شرطية والشرط لا يقتضي الوقوع إذ أصله أن يستعمل في الأمور

المفروضة ! وأجيب : بأن الشرط قد يستعمل في الأمور المحققة تنبيها على أنها لا يليق وقوعها بل كان ينبغي أن يدرج في الفرضيات وهو كثير • وقد علم من وقوع ذلك بعد هذه الآية أن المراد هذا إنتهى • ومعنى الآية : [يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه] فإنما يعود الوبال عليه بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولا ضرر فيه على الإسـلام والمسـلمين ، [فسوف يأتي الله] تعالى مكانهم بعد إهلاكهم [بقوم يحبهـم] الله تعالى محبة لائقة بذاته تعالى [ويحبونه] بميلهم إلى إطاعته في الأوامر والنواهي بإخلاص ونشاط وذوق واشتياق تام وعلامة تحقق تلك المحبة أمور ظاهرة للعيان ، وأمور خفية إلا على الأعيان ، أما الأمور الظاهرة فهي موافقة أعمالهم وآدابهم وأخلاقهم لكتاب الله وسنة رسوله بلا إفراط ولا تفريط وإذا نظر الإنسان المنصف إلى من يتصف بتلك الأعمال والآداب علم أنهم الخاشعون في الأعمال المتواضعون المنكسرون إزاء المسلمين ضعافهم وأقويائهم الهادؤن في الكلام والإرشاد الباذلون أموالهم في سبيل منفعة الإسلام والمسلمين ، التاركون لسفاسف المطامع الدنية ، المكتفون بما قسم الله تعالى • وأما الأمور الخفية التي تظهر للأعيان فهي أن مجالسهم مجالس الدعوة إلى الله ، وكلامهم فيه جذب ، وسـيماهم فيها نور ورحمة ، ومن رافقهم مدة من الزمان نال بغيته من التمكن في الإيمان وسكينة القلب والاطمئنان • فهم بالحقيقـة يشبهون المرايا في صدورهم سطور من الأدب والوقار • حشـرنا الله معهم يوم القرار آمين •

ومن علاماتهم الظاهرة والباطنة ما أفاده الباري ــ جل شأنه ــ بقوله [أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين] فإن من مظاهر الفقرة الاولى لطفهم ورحمتهم بالمسلمين لاسيما الضعفاء والمساكين ، ومن خفاياه خدماتهم بمحبة كاملة ، وإسعافهم للمحتاجين إلى المال أو إلى الإرشاد أو إلى الإسـعاف ،

ورغبتهم في استخلاصهم عن المضايق مطلقا • ومن مظاهر الفقرة الثانية قوة بأسهم وجهادهم وتغلبهم على الكافرين • ومن خفاياه التي تجلو على أهل المعرفة معنوياتهم وقوتهم الروحية ووقارهم ومهابتهم المعنوية على أهل البغي والعناد ، فهم لا يهتمون بهـم ولا يميلون إليهـم ، ويبعدون الناس عن موالاتهم ، ويحبونهم في الله ورسوله وشريعته ودينه [و] إنهم [لا يخافون] في نطبيق ما هم عليه [لومة لائم] في ما يأتون من الجهاد والإرشاد والتصلب في بيان الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقدر المستطاع [ذلك] المذكور والصفات المفهومة منه [فضل الله] أي لطفه وإحسانه [يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم يختص برحمته من يشاء ، والله واسع] الرحمة [عليم] بمواقع الكرم والنعمة من هذه الأمة •

وإنما قلت وعلامة محبتهم وتحقق تلك المحبة ؛ لأن المحبة أمر نفسي معنوي لا يعلم مداها ودرجاتها إلا الله ، وليست هذه الاعمال الظاهرة أو الاحوال الباطنة فإنها تحصل وتنشأ منها ، وذلك ظاهر لأهل البصيرة ، ويدل قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في جواب الاعرابي : « المرء مع من أحب » مع أنه أفاد بصراحة أن ليست عنده الاعمال والمجاهدات والطاعات إلا أنه يحب الله ورسوله •

والمراد بهؤلاء القوم في المشهور أهل اليمن ، فقد أخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني والحاكم وصححه من حديث عياض بن عمر الأشعري أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما نزلت الآية أشـار إلى أبي موسى الأشعري وهو من صميم اليمن وقال : « هم قوم هذا » •

وعن الحسن وقتادة والضحاك انهم ابو بكر واصحابه ــ رضي الله عنهم ــ الذين قاتلوا أهل الردة • وعن السدي انهم الأنصار • وقيل هم الذين جاهدوا يوم القادسية : الفان من النخع ، وخمسة آلاف من كندة

وبجيلة ، وثلاثة آلاف من أفناء الناس أي اخلاطهم ، وهذا القول أشبه بالقبول لأن تصدير الفعل المضارع بسوف يدل على أن القوم لم يكونوا حاضرين في ذلك الوقت .

ومما يقرب من اعتقادي أن ذلك القوم ليسوا إلا القوم القائمين بأمر الدين ونصرته عند تعارض الأقوام وتبلبل الأفكار واضطراب المسلمين وحاجتهم إلى التعاون فيشمل ذلك جيش ابي بكر ــ رضي الله عنه ــ في حروب الردة ، وجيش عمر في فتح البلاد الشرقية والغربية والشمالية ، والأئمة الاعتقادية المدافعين عن العقائد والدافعين لأهل الاعتقادات الزائفة ، والمحدثين المحققين لأسانيد الأحاديث الشريفة ، والأئمة المجتهدين المدونين لأحكام الإسلام ، والمجاهدين في إعلاء كلمة الحق والدين كصلاح الدين الأيوبي الذي رد جيوش الصليبيين إلى ديارهم ، والماحي لآثارهم ، وكل من سعى في تثبيت العقيدة الإسلامية في قلوب المسلمين عند ظهور البدع والأهواء . وهذا الأمر وهذا الإتيان يستمر إلى يوم القيامة . ومعنى الآية حينئذ : يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فإن الله غني عنه ، وإنه يأتي بقوم في كل زمان بحسب الحكمة والمصلحة في ترويج الإسلام يحبهم الله ويحبونه .

وقوله تعالى : [إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا] مربوط بقوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء] ومعناه حينئذ لا تتخذوا أولئك الكافرين أولياء فليسوا أولياء لكم بل هم بعضهم أولياء بعض ، وإنما وليكم الله الذي يتولى أموركم والرسول الذي بعثه الله تعالى رحمة لكم ويعز عليه هلاككم ، والذين آمنوا من المتحدين معكم في مبدإ الإيمان بالله وبرسوله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، والمتعاونين معكم في الجهاد والمتوافقين لكم في العبادة لله الواحد [الذين يقيمون

الصلاة] بنشاط وخشوع ويؤتون الزكاة للمعتر والقنوع • وقوله [وهم راكعون] حال من فاعل الفعلين أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله في صلاتهم وزكاتهم ولا يريدون إلا وجهه تعالى ورضاه ولا ينظرون إلى أحد سواه • وقيل : هو حال مخصوصة بقوله تعالى [ويؤتون الزكاة] أي يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصا على الإحسان ومسارعة اليه ، وأنها نزلت في علي ــ رضي الله عنه ــ حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه •

[ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون] : أي ومن يتول من ذكر فهو من الغالبين على نفسه والشيطان وأعوانه ، لأنه بتوليته لله ولرسوله وللمؤمنين يدخل في حزب الله المستعد للجهاد والكفاح في سبيله ، وحزب الله هم الغالبون • ينتج من الشكل الأول البديهي الإنتاج أن من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون •

واستدل الإمامية بهذه الآية على إمامة علي ــ كرم الله وجهه ــ ووجه الاستدلال : أنهم يدعون الإجماع على أنها نزلت فيه ، وكلمة إنما تفيد الحصر ، ولفظ الولي بمعنى المتولي للأمور والمستحق للتصرف فيها ، وظاهر أن المراد التصرف العام المساوي للإمامة بقرينة ضم ولايته بولاية الله تعالى ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فثبتت إمامته وانتفت إمامة غيره ، وإلا لبطل الحصر ، ولا إشكال في التعبير عن الواحد بالجمع فقد جاء في غير ما موضع من الكلام البليغ •

وقد أجيب عنه بوجوه :

الاول : منع الإجماع على نزولها فيه ــ كرم الله وجهه ــ ، وكيف وقد اختلف علماء التفسير في ذلك ؟ فروى أبو بكر النقاش صاحب التفسير المشهور عن محمد الباقر ــ رضي الله عنه ــ أنها نزلت في المهاجرين

والأنصار • وقال قائل : نحن سمعنا أنها نزلت في علي ـ كرم الله وجهه ـ •
فقال : هو منهم يعني أنه كرم الله تعالى وجهه داخل في المهاجرين والأنصار
وواحـد منهم • وهذه الرواية أوفق بصيغ الجمع في الآية • فإن قالوا
الضرورة تدعو إلى القول بنزولها فيه ـ كرم الله وجهه ـ إذ التصدق على
السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير ـ كرم الله وجهه ـ •
قلنا : ليست الآية نصا في كون التصدق واقعا في حال ركوع الصلاة لجواز
أن يكون الركوع بمعنى التخشع والتذلل لا بالمعنى المعروف في الصلاة •
وقد استعمل في معنى الخشوع في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه
وتعالى : [واركعي مع الراكعين] إذ ليس في صلاة من قبلنا من أهل الشرائع
ركوع واحد هو أحد الأركان بالاجماع • وكذا في قوله تعالى : [وخر
راكعا وأناب] وليس حمل الركوع في الآية على غير معناه الشرعي بأبعد
من حمل الزكاة المقرونة بالصلاة على مثل ذلك التصدق وهو لازم على مدعى
الإمامية قطعا •

الثاني : أنا لا نسلم أن المراد بالولي المتولي للأمور المتصرف فيها
تصرفا عاما بل المراد بها الناصر لأن الكلام في تقوية قلوب المؤمنين وإزالة
الخوف عنها من المرتدين •

الثالث : أنه لو كان المراد بالولي المتصرف للامور والمالك لها لم ينطبق
إلا على الله سبحانه وتعالى ، ولو كان المراد به المبلغ للاحكام لم يجر إلا
على الرسول بالذات •

الرابع : أنه لو كان المراد بالولي ما ذكروه لكانت الآية نصا في نفي
الإمامة عن السبطين ومن بعدهما من الأئمة الذين اعتبروهم أئمة للمسلمين •

الخامس : أنه وإن كان استعمال صيغة الجمع جائزا للواحد مجازا لكن في استعمال الصيغ الجمعية المتتالية في شخص واحد بُعد" غير مناسب لبلاغة القرآن الكريم .

السادس : أن الولاية بمعنى الإمامة إنما تكون بعد عهد النبوة والرسالة والولاية المتأخرة عن عهد الرسالة غير مشروطة بالانصال بعهد الرسول ، وإذا لم تتصل بعهده فلا يوجد مسلم يمنع أن تكون الولاية بهذا النمط ثابتة للإمام ـ كرم الله وجهه ـ .

السابع : أنه لو سلم جميع ما ادعوه لكن لا نسلم أن مورد النزول يخصص العام بنفسه ، فلتكن الولاية ثابتة للإمام ـ كرم الله وجهه ـ ولغيره من سائر الخلفاء ، والتقدم والتأخر لا يمنعان تحققها .

الثامن : أنه لو سلم ذلك كان الواجب على الإمام أن يجهر بدعوى الولاية بذلك المعنى حتى يبرأ من واجب أمانة الله ورسوله ، واستمرار الحذر نحو قريب من ست وعشرين سنة لا يناسب شهامة ذلك الاسد الغيور ، ولا غيره من المسلمين الكرام .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، واتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً ولَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ)(٥٨)

عن ابن عباس قال كان رفاعة بن زيد ابن التابوت ، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما

فأنزل الله الآيات [يا أيها الذين آمنوا] إلى [بما كانوا يكتمون] • رواه ابن حبان وابن إسحاق • وقوله تعالى : [وإذا ناديتم إلى الصلاة] إذى نادى مُنادِي الرسول وصلى المسـلمون فركعوا وسجدوا ضحك اليهود منهم واستهزأوا بهم فنزلت الآية رواه البيهقي في الدلائل •

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] خطاب للمؤمنـين وتحذير آخر لهم عن الاعتماد على الكفار وموالاتهم في قالب التعليل على النهي بصفات فاسـدة فيهم توجب الاحتراز عنهم يعني [يا أيها الذين آمنوا] بالله حق الإيمان [لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا] أي اتخذوه موضع سُخرية ولعب ، أي مما يستخف به ولا يهتم به ولا يقدر شـأنه • [من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم] أي اليهود والنصـارى [والكفار] من غيرهم [أولياء] أصدقاء واحبابا • فإن كل مؤمن يجب عليه رعاية دينـه ومقدساته ، وإذا صادف أناساً ناسين لحقوق دين الله ويسخرون ويلعبون به وبأهله يجب الابتعاد عنهـم والنظر اليهـم كأعداء مناوئـين له فكيف يتخذونهم أولياء يوثق بهم ويعتمد عليهم في الأمور ؟ [واتقوا الله] في رعاية ذلك النهي ، أو اتقوا الله في مباشرة المنهي عنه [إن كنتم مؤمنـين] حقا ، فإن الإيمان داع إلى محبة الدين وأهله ومتاركة الكفر وأهله • ثم بين الله سبحانه وتعالى بعضا من سفاهة أولئك الناس الكافرين المستهزئين وقال : [وإذا ناديتم إلى الصلاة] أي أذن المؤذن منكم ودعا المسلمين إلى الصلاة [اتخذوها] أي الصلاة أو المناداة [هزوا ولعبا] و [ذلك] الاتخاذ بسبب [أنهم قوم لا يعقلون] الحقائق ؛ إذ لو كانـوا يعقلونها لعلموا أن الدين حق ، وأن أداء أحكامه واجب ، وأن النداء لحضور الشعارات الإسلامية

كالجماعة والجمعة وغيرهما من المهمات فما كانوا يسخرون منها . روي عن السدي قال : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي أشهد أن محمدا رسول الله قال : حرق الكاذب ! فدخل خادمه بيته ذات ليلة بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت وأحرق هو وأهله . والكلام سوق لبيان استهزائهم بحكم خاص من أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الإطلاق إظهاراً لكمال شقاوتهم .

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا ، وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ(٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ ؟ : مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وجعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنازِيرَ ، وَعَبَدَ الطّاغُوتَ ، أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ(٦٠) . وَإِذا جاءُوكُمْ قالُوا : آمَنّا ، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ)(٦١)

عن ابن عباس قال : أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفر من اليهود فسألوه عمن يؤمن به من الرسل . فقال : أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمَنَ به . فأنزل الله الآية رواه ابن إسحاق وابن حبان .

قوله تعالى [قل : يا أهل الكتاب] توجيـه الأمر إلى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ يعنى يا حبيبي قل لاولئك الناس الفاسـدين المعاندين للحق يا أهل الكتاب النازل من الله الذي وجب على من يؤمن به رعاية الأدب مع الدين وشـعائره [هل تنقمون] اي تنكـرون وتعيبون [منّا] شيئا [إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا] من القرآن المجيد [وما أنزل من قبل] أي من قبل إنزال القرآن كالتوراة والإنجيل • وقوله [وأن أكثركم فاسقون ؟] معطوف على قوله [وما انزل إلينا] يعنى هل تعيبون وتنكرون منا إلا هذه الحقيقة الواضحة وهي إيماننا بالله وبما أنزل إلينا من القرآن وبما أنزل من قبل على موسى وعيسى وإيماننا بأن أكثركم فاسقون خارجون عن آداب المؤمنين •

قوله تعالى [قل هل أنبئكم] الخطاب لأهل الكتاب لأن المقصود بيان وجبة أخرى من ذواتهم المتصفين بأفسد الأحوال والصفات • والمعنى قل : يا حبيبي لهؤلاء المارقين من أهل الكتاب : هل أنبئكم [بـ] جمع [شر من ذلك] الجمع المذكورين سـابقا من حيث المثوبة والجزاء [عند الله] تعالى وهم [من لعنه الله] وطرده من ساحة رحمته [وجعل منهم القردة والخنازير] أي مسخ بعضهم قردة وهم شباب أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم شيوخهم • وقوله [وعبد الطاغوت] عطف على صلة مَن ، وتقديره : ومَن عَبد الطاغوت ، والمراد به الشيطان لأن المغضوبين منهم الممسوخ ومنهم الباقي لكن على الكفر والطغيان وعبادة الشيطان • [أولئك] الموصوفون بتلك الصفات الذميمة [شر مكانا] من القوم المتأخر منهـم [وأضل عن سواء السبيل] أي أكثر ضلالاً عن طريق الحق المستوي وهو دين الإسلام [وإذا جاءوكم قالوا آمنا] نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ويظهرون الإيمان به

نفاقا [وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به] أي بالكفر يعني كان الكفر ملازمهم وقرينهم عند الدخول والخروج [والله أعلم بما كانوا يكتمون] في صدورهم من الشرور وفيه وعيد شديد .

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٦٢)

لَوْلا يَنْهَيهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ! لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)(٦٣)

[وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان] في موضع الحال من كثيراً ، أو مفعول ثان لترى أي وتعلم أن كثيرا من أهل الكتاب يبادرون إلى التقوّل والافتراء والعدوان مع الرسول وأصحابه [و] يبادرون في [أكلهم السحت] أي الحرام . [لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهيهم الربانيون] من علماء اليهود الذين يدعون الاختصاص بالله والاجتهاد في الطاعات [والأحبار] أي علماؤهم الممتازون بكثرة العلم والفضل [عن قولهم الإثم] في شأن الرسول [وأكلهم السحت] مع إطلاعهم على أحوالهم [لبئس ما كانوا يصنعون] أي اليهود الآثمون الكاذبون والآكلون للسحت ، أو علماؤهم الربانيون وأحبارهم الأفاضل في تحسينهم سيئات أعمال أولئك الفاسدين .

وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن أولئك الربانيين شيطانيون وأولئك الأحبار من حملة الآسفار . ولو كان عندهم حقيقة الإيمان ورعاية العهود والأيمان لآمنوا قبل الناس ثم أمروا سائر الأفراد بالتوجه إلى الله والإيمان به وبرسول الله ، وما كانت تمنعهم الهدايا والرشايا وسائر الوجوه الفاسدة عن إرشاد الناس إلى الإيمان بسيد المرسلين ــ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ــ .

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ! غُلَّتْ أَيدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلحَرْبِ أَطْفَأَها اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً ، وَاللهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(٦٤)

عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ويده مقبوضة عنا في العطاء ! فأنزل الله الآية . وقيل : نزلت في فنحاص رئيس يهود بني قينقاع رواه إبن إسحاق ، والطبراني .

قوله تعالى : [وقالت اليهود يد الله مغلولة] القول فيها قول شخص معين ، ولكنه لما رضي الباقون به فكأنه قول الجميع . وقال : قالت اليهود يعني أن اليهود الخاسرين المتجاسرين تجاوزوا على منع الباري تعالى لبعض الأرزاق عن بعض منهم بكلام لا يناسب صدوره إلا من اللئام ، وقالوا يد الله مغلولة ممنوعة عن الجود والسماح . فدعا الله عليهم بقوله [غلت أيديهم] أي خلق الله في قلوبهم الفقر والشح حتى لا يخرج من أيديهم عطاء ولو للأقارب ، أو غُلَّت أيديهم في جهنم وقيدت وألقيت في جهنم للتعذيب ، [ولعنوا] وطردوا من رحمته [بما قالوا] بشؤم تلك الجملة القبيحة [بل يداه مبسوطتان] أي كلا ليس الشأن كما زعموا بل يداه مبسوطتان . أي يدا إنعاماته المتتالية في الدنيا والآخرة ، أو في السماوات والأرض ، أو لإفاضة النعم المادية والمعنوية [ينفق كيف يشاء] ، ولكن ماذا نقول لقوم لا قائمة لهم في سجل السعداء ، وكلما أنزلنا آية لإرشادهم إلى الخير جعلوها

وسيلة لابتعادهم عنه واقترابهم من الشر [وليزيدن كثيرا منهم] وهم علماؤهم ورؤساؤهم [ما أنزل إليك من ربك] الموصول فاعل يزيد ، وكثيرا مفعوله الأول ، وقوله [طغيانا وكفرا] مفعوله الثاني برعاية العطف ، ولاستمرارهم على فساد الافكار والاقوال والاعمال فيما بينهم جازيناهم بسلب السلامة عن قلوبهم [وألقينا بينهم] بعضهم مع بعض [العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة] فلا تكاد تتسالم قلوب بعضهم مع بعض ، ولا تخلو قلوبهم عن البغض والحقد للآخرين وعليهم ، هذا فيما بينهم ، وأما مع الرسول وأتباعه فـ [كلما أوقدوا نارا للحرب] بالإفساد وإلقاء الفتن بين المسلمين سواء بين المهاجرين والانصار أو بين غيرهم [أطفأها الله] ولم تبلغ النار إلى حيث يشاءون من إحراق كيان المؤمنين [و] لا يزالون [يسعون في الأرض] إلى يوم القيامة بإثارة الكفار على المسلمين أو باثارة بعض المسلمين على بعض [فساداً] مصدر أي يسعون سعي فسادٍ ، أو مفعول له ، أي للفساد ، أو حال عن فاعل يسعون أي يسعون مفسدين •

[والله لا يحب المفسدين] ومنهم اليهود أو المفسدين المعهودين لشدة إفسادهم •

تنبيه : أرجعنا ضمير بينهم إلى اليهود لأن المرجع القريب عبارة عنهم ، ووجه ذلك مع أن الناس المجتمعين في العالم لا يزالون يضمرون بعضهم لبعض العداوة والبغضاء حسب تدافع المصالح أنهم أشد الناس من هذه الناحية ، فليس قوم في العالم أحمل للعداوة وأدعى لها مع أمته من اليهود ، وذلك معلوم من التاريخ فمن أراد العلم بذلك فليراجع وليطالع • وأما اتفاقهم الصوري في هذا الزمان فليس عبارة عن اتفاق من جذر القلوب ، ولكنه اتفاق اجباري فرضه عليهم المستعمرون المسيطرون على البلاد بدعوى أن الارض هي الارض المقدسة الموعودة لهم ، ويجب أن يأتوا إليها من كل

صوب وحدب ويسكنوا فيها ويستوطنوها ، وذلك لا لمنفعتهم وتربيتهـم وتقوينهم ، بل ليجعلوها مقرا هادئا آمناً لهم على البحر الابيض ليسيطروا بها على شئونهم وإلقاء الفرقة والفتن بين دول آسيا وأفريقيا وسائر نقاط العالم الشمالي الذي يخافونه ، وتلك البـلاد أقرب نقطة إليها ، أو كمركز دائرة بالنسبة لها • وإلا فلو تـرَكَهـم المستعمرون وامتنعوا عن إدارتهم ورعاية شئونهم لعادُوا إلى ما كانوا عليه بل أشدّ وأفسد من حيث إظهارٌ أحوالهم السيئة وعداوة بعضهم مع بعض ، والمستقبل كشاف •

ومن ناحية أخرى : فاليهود مضطرون بطبيعة الحال في هذا الزمان وفي ذلك المكان ، وإلا اكـلَهـمُ السّباع من كل جانب • وأما المسلمون فهم ، وإن وقع بينهم عداء وبغضاء ، ولاسيما في هذا اليوم لكن لم يصلوا إلى ما وصلت اليهود إليه ، ولا تنس أن المستعمرين الذين اَجبروا اليهود على الوفاق هم الذين اَجبرُوا المسلمين على الخلاف بشـتى الوسائل القوية التي يدركها العقلاء •

وأما قوله تعالى [كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله] فالمراد بها تارة إثارة الاضطرابات والمخالفات بين القبائل العربية المشركة في مقابلة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعارضته بشتى الاسباب من شتى الجهات ، ثم إثارة المهاجرين والانصار ، ثم إلقاء جذوات الفتن بينهم بعد الرسول ، ولو لم تكن لهم اليد المباشـرة في ذلك وانما كانت لهم أضـلاع ووسـائط لمقاصدهم ، ولا سيما في القرون الاخيرة ، لما زادت ثرواتهم وترقت ماليتهم بحيث أثرت في اقتصاديات الدول حتى الدول الكبيرة • ولكن الله سبحانه وتعالى أطفأ نار الفتن المشتعلة منهم في عصـر الرسول حتى عاد الامر إلى إجلائهم من جزيرة العرب • نعم قد عادت لهم الكرة في هذا الدور الأخير بسبب تطور وتغير خريطة الكرة سياسة ، واسـتولوا على بعض المقاصد

وأظهروا ما في جعبتهم من المفاسد لكن ربك لهم بالمرصاد ، وقد هددهم في سورة الإسراء بقوله الكريم جل شأنه : [وإن عدتم عدنا] فقد ظهر الشرط (ومن شرط كل شرط جزاء) .

ثم المسلمون اليوم وإن كانوا في تفرق صوري وخلافات ، لكن قادتهم وسادتهم علما وسياسة وكفاية منتبهون لما جاء منهم على المسلمين ، وفي باكورة الاستعداد والحركة لتغيير ما جرى عليهم وسينتصرون بحول الله وقوته بشرط المزيد من الجهد حتى يسجلوا انفسهم في قائمة جنود الله . وبشرنا الله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) .

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ)(٦٦)

[ولو أن أهل الكتاب] أي اليهود والنصارى ، فإن المراد بالكتاب الجنس الشامل للتوراة والإنجيل [آمنوا] بالله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به من عند الله [واتقوا] ما حرم الله تعالى على لسان رسوله محمد ، وتركوا تلك المعاصي التي باشروها [لكفرنا عنهم سيآتهم] ولو كانت كبائر ترتجف منها القلوب والأبدان [ولأدخلناهم] في الآخرة [جنات النعيم] ثم أنزل تعالى آية تشبه التفسير للآية الانفة الذكر فقال : [ولو أنهم] أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى [أقاموا التوراة والإنجيل] أي راعوها حق رعاية بأن تؤمن اليهود بنصوص التوراة

وتصدق بها حق التصديق [وما أنزل إليهم من ربهـم] ككتب أنبياء بني إسـرائيل كشـعيا ، وحزقيل ، وحبقوق ، ودانيال ، وآمنوا بما فيها من البشائر بتطور الأيام والأزمنة ومجيىء عيسى بن مريم وبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأييده بالأصحاب الغُزاة الرُّماة الولاة الأصفياء الاوفياء بعهد الله وتؤمن النصارى بنصوص الإنجيل ومنها بشارة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ ببعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين الملقب بأحمد لكثرة حمده لربه ونشر ثنائه في العالم ، ولكثرة حمد الناس العارفين له بأنه المبعوث رحمة للعالمين [لأكلوا] الأرزاق النازلة عليهم [من فوقهم] من السماء بإنزال مباديها منها [و] الأرزاق النابتة [من تحت أرجلهم] أي مما تحتها من الأراضي الخصبة المنبتـة المثمرة • وقيل : المراد المبالغـة في بيان السعة والخصب لا تعيين الجهتين ، أي أنهم أينما كانوا وكيفما أرادوا الثمار والخـيرات أخذوها •

وهذا جار على سنة الله تعالى في الكون في أن كل أمة صالحة صادقة مخلصة في الاعتقاد والقول والفعل والعهود يوفقهم الله سبحانه لنيل المراد ودفع المعاندين الطالبين للإفساد ، ويرزقهم رزقا واسعا يعم البلاد والعباد • ولما كان في أهل الكتاب من آمَنَ بالله ورسوله وعمل صالحا ، ميزهم الله سبحانه بقوله الكريم [منهم أُمَّةٌ مُقْتَصِدة] أي منهم جماعة عادلة حسنت أعمالهم [وكثير منهم ساء ما يعملون] •

(يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ)(٦٧)

عن عائشة قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُحْرَسُ حتى نزل والله يعصِمك من الناس • فأخرج رأسه من القبة فقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله • رواه الترمذي والحاكم •

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال أهل الكتاب ونوّه بطرف من عدائهم للدين الإسلامي أمر حبيبه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالثبات على ما أمر به وناداه نداء تشريف بلقب الشرف ، أعني الرسالة من الله تعالى وقال : [يا أيها الرسول] إلى الجن والإنس [بَلِّغْ ما اُنْزِلَ اِليكَ مِنْ ربك] أوصل ما أنزل الله عليك من الكتاب الهادي إلى طريق الصواب إلى من يمكنك الإيصال إليه وَاَوْصِ الشاهدين بإيصاله إلى الغائبين وهكذا حتى يتم التبليغ [فإن لم تفعل] ما اُمِرْتَ به [فما بلغت رسالته] أي وإن لم تبلغ شيئا من الأحكام فما بلغت رسالته وما أديت شيئا منها لما أن تبليغ كل جزء من أجزاء ما أنزل إليه ركن من أركان الرسالة كما أن كُلَّ جزءٍ من أجزاء الشهادتين ركن من أركانهما ، فَمَن تركَ ركنا من أركان ما أمر بالوفاء به فقد ترك تلك الحقيقة التي أمر برعايتها والقيام بها ، ولا تخف في تبليغ الرسالة أيّ واحدٍ [والله يَعْصِمُكَ مِن الناس] الذي يُخاف منهم لأنهم كافرون [والله لا يهدي القوم الكافرين] إلى الإضرار بالمرسلين في التبليغ •

ويتبين من هذه الآية الكريمة ومِنْ عصمة الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ من الخيانة لا سيما في تبليغ الأحكام إلى الأنام أنّ سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغ رسالته وأدّى حق الأداء أمانته ، ولم يترك من الواجبات الاعتقادية والعملية شيئا إلا بلغها • فمن ادعى ذلك فقد كذب على الله ورسوله ، ومن دعاه على جمهرة الصحابة فهو أكذبُ لأن الله سماهم خير أمة ، وخيرُ الأمة لا تجتمع على خصلة الكذب الذي لا يليق إلا

بـدني الهمة ، والرسول بيّن عدم إجماعهم على الضلال بأحاديث لا تخفى على أهل العلم بالدين .

(قل : يا أهل الكتاب : لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين)(٦٨)

عن ابن عباس قال : جاء رافع بن حارثة ، وسلام بن حريملة ، ومالك ابن الضيف فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عنده من التوراة وتشهد أنها حق من عند الله تعالى ؟ قال : بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها وكتمتم ما أمرتم أن تبينوه للناس . قالوا : فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ! فأنزل الله الآية . أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قوله تعالى [قل يا أهل الكتاب] يراد بأهل الكتاب فيه اليهود والنصارى . وقال آخرون : المراد بهم اليهود على ما نقلناه من بيان مورد النزول . وحاصله أن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الكتاب : يا أهل الكتاب أنتم ، وإن ادعيتم الثبات على الحق والصواب ، لكنه [لستم على شيء] من الدين السالم المعتبر عند الله [حتى تقيموا التوراة والإنجيل] وتعترفوا وتصدقوا بما فيهما من الأحكام وسائر الأمور التي من جملتها دلائل رسالة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [و] تؤمنوا [بـ] ما [أنزل إليكم من ربكم] من كتب أنبياء بني إسرائيل كالسادة شعيا وغيره المحتوي على نعوت نبي آخر الزمان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشمائل أصحابه فإن تلك الكتب هي التي أنزلت إليهم ، وقيل : المراد بما أنزل إليهم هو القرآن المجيد

لأنه أنزل لأجل أن يؤمن به أهل الكتب السابقة كسائر أمة الثقلين . فإذا أقمتم هذا الكتاب الجامع وهو القرآن المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآمنتم به حق الإيمان وعملتم بما يحتوي عليه من العقائد والأحكام فأنتم عند ذلك تعتبرون مسلمين على دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولكن أولئك الناس الفاسدين من أهل الكتاب لشدة عنادهم وعدم استماعهم للحق لا ينتفعون بقولك ولا بأحكام كتابك [وَلَيَزِيدَنَّ كثيرا منهم ما أُنْزِلَ اليك] فاعل الفعل [من ربك طغيانا وكفرا] ولا شك أنهم يستمرون على فسادهم لفساد أفكارهم ، وأفكارُهم الزائفة وإن كانت مما توجب الأسى والأسف [فلا تأس عليهم] لأنهم من [القوم الكافرين] .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا ، وَالصَّابِئُون ، والنَّصارى ، مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)(٦٩)

قد يتوهم الجاهل بالقرآن وآياته التي تنادي الجن والإنس للإيمان بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن من يبتغي ويطلب غير دين الإسلام لن يقبل منه ذلك وهو من الخاسرين الكافرين .. ان هذه الآية جمعت المؤمنين بدين الإسلام مع اليهود والنصارى والصابئين ، وَجَعَلَتْ أهْلَ ملّةِ اليهود والصابئين والنصارى مساوين للمسلمين في النجاة بشرط الإيمان بالله واليوم الآخر والإيمان برسلهم ، وإن لم يؤمنوا بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به من عند الله تعالى وهذا التوهم باطل وكفر وضلال . بل المقصود من الآية الكريمة استواء الناس عموما إذا آمنوا بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمعناها كما أن الذين يؤمنون إيمانا صادقا بسيدنا محمد وما جاء به من عند الله أهل النجاة كذلك سائر الناس إذا آمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى . وقد جمعت الآية الكريمة

المنافقين المؤمنين بألسنتهم فقط مع الطوائف الثلاث • وتفسير الآية حينئذ [إن الذين آمنوا] بألسنتهم فقط وهم المنافقون [والذين هادوا] : أي آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ [والصابئون] : المؤمنون بالكواكب أو بنوح أو إبراهيم أو بغيرهما من الرسل [والنصارى] : المؤمنون بعيسى ـ عليهم السلام ـ [من آمن] منهم إيمانا صافيا عن الخلل والنفاق [بـ] ذات [الله] عز وجل [و] بـ [اليوم الآخر] على ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن حيث الأخذ منه [وعمل صالحا] من الأثر المشروع سواء كان فعل الواجب أو المندوب أو ترك المحرم أو المكروه [فلا خوف عليهم] حين يخاف الكافر من العقاب [ولا هم يحزنون] حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب •

ويجوز أن يكون المراد من قوله تعالى (إن الذين آمنوا) من آمن إيمانا معتبرا في الشرع ، خاليا عن كل خلل ، وحينئذ تحتمل الآية إعرابين راجحين : الأول : أن يكون جملة من آمن بالله واليوم الآخر الآية خبرا عن إن[1] • ويكون خبر قوله تعالى والذين هادوا إلى آخر المعطوفات محذوفا بقرينة الخبر المذكور ، فتكون الآية من قبيل الاستغناء بالسابق عن اللاحق • الثاني : أن تكون تلك الجملة خبرا عن قوله تعالى (والذين هادوا) الى آخر المعطوفات ، ويكون خبر إن محذوفا بقرينة ذلك فيكون الجملة من قبيل الاستغناء باللاحق عن السابق •

(ولَقَدْ أَخَذْنا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيلَ ، وأَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ، كُلَّمَا جاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً

(١) والمراد بقوله (من آمن) من استقام وثبت على إيمانه بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده .

كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَنْ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ، ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)(٧١)

قوله تعالى : [لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل] كلام مستأنف سيق لبيان بعض آخر من جناياتهم المشعرة باستبعاد الإيمان منهم • فيقول تعالى : ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على لسان أنبيائهم في التوحيد والإيمان بالشرائع والأحكام ، وفي الإيمان بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ المنعوت عندهم بنعوته الواضحة • [وأرسلنا إليهم رسلا] أولي شأن ومناقب تناسبهم • ومع ذلك فـ [كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم] أي أتوا بأحكام لا توافق أغراضهم وتصعب عليهم [فريقا كذبوا وفريقا يقتلون] أي خالفوهم وعصوهم وحصل بينهم المنافرة والعداء ، فكذبوا فريقا منهم واكتفوا بتكذيبه ، وقتلوا فريقا منهم ، ولم يكتفوا بتكذيبه [وحسبوا أن لا تكون فتنة] أي وظن أولئك المكذبون والقاتلون أن لا يرد عليهم من الله عذاب وعقاب [فعموا] عن إبصار الادلة العينية [وصمّوا] عن استماع المواعظ السنية [ثم] انتبهوا وتابوا [فتاب الله عليهم ، ثم عموا] بعد ذلك وانحرفوا عن مقتضى توبتهم فلم يبصروا ما يعتبرون به من العبر [وصموا] ولم يستمعوا ما ورد عليهم من المواعظ والنصائح •

وقوله [كثير منهم] بدل من الضمير في الفعلين [والله بصير بما يعملون] وسيحاسبهم على ما صدر منهم يوم الدين •

والحاصل : إن الإسرائيلين مضت عليهم أزمان وأدوار من الضعف والقوة وراعاهم الله سبحانه فنجاهم عن دور الضعف وأعانهم حتى رجعت لهم الكرة ، ومع ذلك لم يتذكروا نعمة الله عليهم ولم يشكروا نعمته وقابلوا

رسله بما لا يناسب مقامهم ، فكذبوهم كما كذبوك ، وكذبوا عيسى ، وقتلوا من الرسل من تمكنوا من قتله كزكريا ويحيى ، والبشر ، وإن كان ثلثاه شرا ، وطبيعتهـم طبيعة نوعية يجوز أن يرد على كل فرد ما يرد على الآخر لكنه ظهر من ادوار الأيام أن بني إسرائيل لهم دور مهم في الأنانية والاستكبار وتكذيب الأنبياء والمرسلين ولذلك عاملهم الله بما عاملهم به .

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ المَسِيحُ : يا بَنِي إسرائيل اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ ، إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ، وَمَأْوِيهُ النَّارُ ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَثَةٍ ، ومَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إلى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٧٤)

قوله تعالى : [لقد كفر الذين] الآية شروع في بيان قبائح النصارى بعد بيان قبائح اليهود فقال : [لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم] أي تجسم وتحقق بشخصية عيسى . وهذا الرأي رأيُ بعض من الغالين منهم ، وغلوا إلى درجة زال عنهم الشعور بالبديهيات ولم يتفكروا كيف يتحد الاثنان ، وامتناع اتحاد الاثنـين بديهي لا يحتاج إلى دليل ، ثم كيف يتحد الذات الموجود الأزلي الأبدي بمادة منوية حادثة خارجة من مرأة ، واين الواجب من الممكن والقديم من الحادث والقادر من العاجز والغني عن الاحتياج من المحتاج إلى التنفس ؟ والأكل والشـرب والمكان والإعانة في العوارض والمحتاج إلى إخراج الفضـلات منه . وعلاوة على

ذلك قد عارضهم الشخص الذي قالوا فيه ما قالوا وغلوا فيه ما غلوا ، وهو المسيح ـ عليه السلام ـ كما ذكر الله بقوله : [وقال المسيح] عيسى : [يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم] ولا تشركوني به [إنه من يشرك بالله] في ذاته أو في صفاته الذاتية أو الفعلية ، أو في استحقاق العبادة أو إسناد الخلق إليه شيئا [فقد حرم الله عليه الجنة] لأنها دار الموحدين [ومأويه النار] لأنها مأوى المشركين [و] ليس له أحد ينصره أو يشفع له ؛ لأنّه [ما للظالمين من أنصار] وبعد تكفير القائلين بالاتحاد وهم الطائفة اليعقوبية أعلن تكفير الفرق القائلة بالتعدد والإشراك ، وهم النسطورية والملكانية . وقال : [لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلثة] أي أحد ثلاثة آلهة : الله ، ومريم ، وعيسى [وما من إله إلا إله واحد] واجب الوجود انحصر فيه الخالقية والمعبودية ، وله مميزات وإنه هو الذي خلق الكائنات وأخرجها من العدم . وأخرج أبا البشر آدم ، وأخرج من نسله عيسى ومريم : [وإن لم ينتهوا عما يقولون] من الاعتراف بالآلهة [ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم] وكذلك من وجد من نسلهم الثابت على عقيدة الأصل [أفلا يتوبون إلى الله] بالانتهاء عن تلك العقائد الزائفة الفاسدة [ويستغفرونه] ؟ عما صدر منهم من الذنوب [والله غفور رحيم] بالعباد .

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟(٧٥) قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً ؟ واللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٧٦)

قوله : [ما المسيح ابن مريم] شروع في تحقيق الحق ورد الباطل ، فقال : [ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] أي إذا كان العقل موجودا عند الانسان أيا كان علِم أن عيسى ابن مريم لم يكن إلهاً لأنه كان رسولا من الرسل أرسله الله الى بعض عباده لأرشادهم إلى القول بوجود الباري ووحدته واتصـافه بالكمال ونزاهته عن النقص ، فكانت الصفة المشتركة بينهم المميزة لهم عن سائر البشر الرسالة من الله سبحانه ، فلو كان عيسى إلها كان سائر الرسل مثله في الألوهية ؛ لأن المميز لهم عن غيرهم عبارة عن الرسالة وهي موجودة فيه وفي غيره ، ولكن ليس شيء من الرسل غيره إلها ، فليس هو إلهاً . ومن جهة أخرى إنّه تقدم عليه الرسل في البعث فكان هو ورسالته حادثين ، والحادث ذاتا وصفة لا يكون إلها لأن من خواصه القدم ؛ فلم يكن عيسى إلهاً .

وقوله تعالى : [وأمّه صدّيقة] : إذا نظرنا إليه على سيرة ما قبله فالتقدير : وما أمه إلا صدّيقة ، وصديقة صيغة مبالغة كشريب ، ومعناها : إنها كثيرة الصدق . والمراد بالصدق صدق حالها مع الله تعالى وصدقها في براءة نفسها من الرذائل والأقذار . وإذا نظرنا إليه في ذاته فمعناه ما مر بلا ملاحظة الحصر . وعلى كل حال فهو إشارة إلى دليل آخر على أن عيسى لم يكن إلها لأنه ولد من امرأة صادقة والولادة معناها ومغزاها الحدوث بإرادة الخالق المحدث . وإلى دليل على أن أمه لم تكن إلها لأنها ابتليت بأوجاع الحمل والولادة وأقذارها ، وكل ما كان كذلك فهو غير لائق بالألوهية .

وقوله تعالى : [كانا يأكلان الطعام] إشارة إلى دليل آخر على عدم استحقاقهما للألوهية ، تقريره : هما كانا شخصين محتاجين في البقاء إلى أكل الطعام ، وكل محتاج كذلك لا يكون إلها وهذا ظاهر . ويستفاد منها

استدلال آخر من حيث أن أكل الطعام يوجب الحاجة إلى خروج الخارج والابتلاء بالأقذار وذلك لا يناسب الإله • [أنظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون] ؟ معناها انظر يا حبيبي ، أو انظر يا من يمكنه النظر كيف نبين لهم الدلائل القطعية الدلالة على بطلان ما كانوا يدعون من ألوهية عيسى وأمه ثم انظر انى يؤفكون أي كيف يصـرفون عن الإصاخة إليهـا والتأمل فيها ثم صرف الأمر الى أعم مما ذكر وقال لحبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [قل] للناس المشركين كيفما كانوا سواء عبدوا الأصنام أو ألهوا البشر : [أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعا] ؟ أتفيدكم هذه العبادة شيئا ؟ وهل ما يعبدونه من دونه لهم قدرة على إبداع شيء وإيجاده • فهذه الآية فيها ترق من توبيخ النصارى على تأليه عيسى وعبادته إلى توبيخ كل من يعبد الأصـنام ومن ينحو نحوهم ، وكل ذلك ضـلال وإضلال [و] الله خالق السماوات والأرض [هو السميع] لكل ما يتكلم به [العليم] بكل المعلومات وهو الذي يَحِقّ ان يُعبد لأنه المسيطر على العالم وما فيه من الأعيان والأعراض وما سواه عينا وعرضا جامدا وحيّاً من مصنوعاته وذلك معلوم علم اليقين •

(قُلْ : يا أَهْلَ الْكِتَابِ : لا تَغْلُـوا في دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَـقِّ ، وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّـوا مِنْ قَبْـلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ(٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَلَى لِسانِ داوُدَ وَعِيسـى ابْنِ مَـرْيَمَ ، ذلِكَ بِمَا عَصَـوْا وكَانُـوا يَعْتَدُونَ(٧٨) كَانُـوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٧٩) تَرَى كَثِـيراً مِنْهُـمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْـسَ ما

قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وفِي الْعذابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَو كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وما أُنْزِلَ إلَيْهِ ما اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ ، وَلكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)(٨١)

قوله تعالى [قل يا أهل الكتاب] أمر الرسول محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يوجه الخطاب لجنس أهل الكتاب من اليهود والنصارى ويقول لهم [لا تغلوا في دينكم غير الحق] أي لا تجاوزوا الحد المقرر في شأن دينكم ومبلغه من الرسل ، ولا ترفعوا مقامهم إلى مقام استحقاق العباد فإنهم قد أرسلوا لبيان الحق وإن الله هو رب العالمين وإن الرسل عباده المكرمون بالرسالة وتبليغ الكتاب وإرشادهم إلى الصواب ، فان الغلو باطل والغالي مبطل عاطل ، وراعوا العدالة في حق الله وفي عباده من الرسل وغيرهم فإن الله هو القاهر فوق عباده والعباد مطلقا عبيد خلقهم الله لعبادته والخضوع أمام هيبته • وقوله : (غير الحق) صفة مصدر محذوف أي غلو غير الحق ، وهذا المصدر تأكيدي وليس الغلو إلا باطلا • وليس له قسمان باطل وغير باطل ، كما قيل ، فإنه عبارة عن التجاوز عن الحد المشروع فما عدّ غلوا فهو باطل •

[ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل] من اليهود الذين قالت عزير بن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح عيسى بن الله ، فإن ذلك أمر باطل ، فإن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ، إنما للعباد كرامة بالتقوى وأكرمهم اتقاهم • وأولئك المغالون السابقون ضلوا عن طريق العدل [وأضلوا كثيرا] من الناس الذين اتبعوهم بالجهل أو بالعلم والعناد [وضّلوا عن سواء السبيل] لأن المُضِلّ لا يضِل أحداً إلا وهو ضال

عن طريق الحق أو ضل أهل الكتاب الموجودون بعد بعث الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سواء السبيل الذي هو الإسلام والإيمان بمحمد ـ عليه السلام ـ لأنهم علموا نعوته وتيقنوا نبوته ، ومع ذلك عاندوا وانحرفوا وكتموا ما عندهم من الدليل وضلوا عن سواء السبيل . [لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم] فإن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله على لسان داود ـ عليه السلام ـ وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى ولعنهم فأصبحوا خنازير [ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون] ويتجاوزون حكم الله تعالى وحدوده .

وقوله : [كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه] : الظاهر أنه جاء لبيان اعتدائهم . ومعناه أنهم إذا أرادوا فعل منكر لم يكن فيهم من ينكر عليهم فعله ، وذلك من غاية الاعتداء لأنه إذا أراد بعض القوم فعل منكر ولم يكن هناك رادع يردعه فإما لرضاء غير الفاعلين بفعل ذلك ، وذلك أسوأ أحوال القوم حيث لم يبق فيهم من ينكر المنكرات ، وإما لخوفه من فاعل المنكر وذلك أيضا من الأحوال السيئة لهم ، لأنه إما من شدة بطش ذلك الفاعل للمنكرات بحيث لا يقدر أحد على إنكاره أبدا ، أو ليس الفاعل كذلك لكن الناس ضعاف الإيمان يتركون رفع المنكرات والنهي عن فعلها لأدنى مخافة ، وذلك أيضا اعتداء وتجاوز منهم على الحدود ، وإما بيان لقسم منهم من اعتدائهم هذا الذي ذكره بقوله (كانوا لا يتناهون) الآية ... يعني أنهم كانوا يعتدون يفعلون المحرمات ويتركون الواجبات ، وفوق ذلك كله كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولا ينهى بعضهم بعضا قبل فعله عنه أو لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة مثله بعد فعله ، أو لا ينتهون عن فعل

المنكرات ويستمرون عليها ، وكل هذه الوجوه تُعَدّ من مَساوىء أعمالهم . ثم أعلن الباري التأكيد على سوء أعمالهم وقال : [لبئس ما كانوا يفعلون] . وفي هذه الآية زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد أخرج أحمد والترمذي وحسنه عن حذيفة ابن اليمان أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « والذي نفسي بيده لتَأمُرُنّ بالمعروف ولَتَنْهَوُن عن المنكر أو ليُوشِكَنّ اللهُ تعالى أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم » . وأخرج أحمد عن عدي بن عُميرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن الله تعالى لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يرَوا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فاذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » .

[و] من جملة مَساوئهم وأحوالهم البائسة أنه [ترى] يا حبيبي [كثيرا منهم] أي من أهل الكتاب [يَتَولّونَ الذين كفروا] يوادون الجبارين والمفسدين والظالمين من الملوك أو الأمراء أو شيوخ القبائل لاستحصال مآربهم الفاسدة ، [لبئس ما قدمت لهم أنفسهم] وهو [ان سخط الله عليهم] وهذا هو المخصوص بالذم [و] نتيجة ذلك أنهم [في العذاب هم خالدون ولو كانوا] أي أهل الكتاب المتولون للكافرين [يؤمنون بالله] الذي أنعم عليهم [والنبي الذي] أرسل إليهم كسيدنا موسى وسيدنا عيسى وغيرهما ـ عليهم السلام ـ [وما أنزل إليه] أي إلى النبي المذكور كتوراة موسى وإنجيل عيسى ، أو المراد بالنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما أنزل إليه هو القرآن [ما اتخذوهم] أي الذين كفروا [أولياء] أي أحباء يعتمدون عليهم ، فإن الإيمان على تقدير تحققه في قلوبهم لا يخليهم ينقلبون إلى أهل الكفر والبغي والعدوان [ولكن كثيرا منهم

فاسقون] مارقون عن الإيمان بالله وبما جاء من عند الله ، فهم خارجون عن الدين ومستمرون على البغي وسوء الأخلاق أو على التردد والنفاق •

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ(٨٢)

الجزء السابع

وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فاكْتُبْنا مَعْ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمالَنا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَما جاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصالِحِينَ ؟(٨٤) فَأَثابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيها ، وَذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا أُولئِكَ أَصحابُ الجَحِيمِ)(٨٦)

عن عروة بن الزبير قال : بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بن أُمَيَّةَ الضَمري وكتب معه كتابا إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم دعا جعفر ابن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسَلَ إلى الرّهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن ، وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين نزلت فيهم الآية أخرجه النسائي وأبو داود •

وعن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشي ثلاثين رجلا من خيار أصحابه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق فأنزل الله فيهم الآية • رواه ابن ابي حاتم •

قوله تعالى : [لتجدن أشد الناس] جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود ، وأكدت بالقسم للاعتناء بها . والمعنى والله لتجدنّ يا حبيبي أو يا من يتمكن من الرؤية تجدن أشد الناس [عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا] والمراد منهما عموم اليهود وعموم المشركين . وقيل : يهود المدينة والمشركون المجاورون للحرمين . وتوصيفهم بذلك لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم ، وإنهماكهم في التقليد ، وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بأن عداوتهم أشد من عداوة المشركين . فقد قيل : إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان .

[ولتجدنّ أقربهم مَوَدَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك] : أي ذلك المذكور من كونهم اقرب مودة للذين آمنوا [بـ] سبب [أن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون] : القسّيسون علماء النصارى وعبّادهم ورؤساؤهم . والقسيس : صيغة مبالغة مأخوذة من تقسس الشيء إذا تتبعه بالليل . سموا به لتتبعهم ومبالغتهم في طلب العلم بزعمهم . وقال قطرب : القس والقسيس العالم بلغة الروم . وقد تكلمت به العرب وأجروه مجرى كلماتهم . ورهبان : جمع راهب من الرهبة بمعنى المخافة ، وكانوا يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد تحمل مشاقها ، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه ، ويبالغون في هذا النوع من المشاق ! ولرفض هذا الأمر وعدم مناسبته للتقريب السليم إلى الله وعدم صلاحية أهله لمنفعة المجتمع حتى كأنه ميت في صورة الأحياء .. وقال ـ صلى الله عليه وسلم « لا رهبانية في الإسلام » بمعنى أنه ليس هذا النوع من الترهب في دين

الإسلام ، وإلا فقلة أكل الطعام ، وقلــة المنام ، وتقليل الكلام إلا فيما هو خير للأنام من سنن دين الإسلام .

والحاصل : إن الرهبان غلوا في أمرهم والغلو مذموم في كل أمر كما هو المقرر . ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) فإنه ينادي ويعلن أنهم لو كانوا يرعونها ويأتون بها على الاعتدال كان مقبولا عند الله وإن لم يكن واجبا .

ومما يجب أن يتنبه له أن البشر مخلوق ومجبول على حب ذاته ومن يتفرع منه أو يقرب نســبه إليه أو من يراعي ما يحبه وعلى كراهيــة من لا مناسبة له به لاسيما إذا كان ينازعه في رغباته ومطامعه وأهوائه ، وعلى ذلك عداء الإنسان لبعض الحيوانات والإنســان بعضهم لبعض والقتال والمدافعات الدائرة في العالم .

وهذا الذي ذكرناه كأنه من لوازم ماهية البشر ، أو من لوازم وجوده الخارجي غير أنه ليس كزوجية الأربعة وفردية الثلاثة ، بل يختلف ميزانه في الأفراد قوة وضعفا ، ومما يؤثر في تخفيفها بعد المســافة بين فرد وفرد أو صنف وصنف ، كما أنه يؤثر فيه التربية الأســاسية . ويظهر من ذلك أن أقربية النصارى إلى المؤمنين بعدهم عنهم بحيث لم تكن مصالحهم في ذلك الوقت معارضة لمصالح المؤمنين كاليهود الموجودين في المدينة المنورة وما حولها ، والمشركين الموجودين في الحرمين وأطرافهما ، وأن التربية الدينية للنصارى كانت على محبة الأمان والراحة ، وكان من تعاليم سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ أن من ضرب الخد الأيمن منكم حولوا له الخد الأيسر ، فالتزم بذلك القساوسة والرهابنة ، لاسيما الرهبان الذين تربوا على الزهد

عن الدنيا وشهواتها وقطع العلاقة عنها • وكان لتعليمات الكنائس للنصارى في الموضوع دور مهم فكانوا أقرب للذين آمنوا مودة • وأما اليهود فبسبب اضطهادهم في حكم فرعون وأتباعه الأقباط تحولوا إلى امة راعية لنفسها وقدسها وحافظة على إسرائيليتها ، وبالغت في ذلك حتى ادعت انها شعب الله المختار في العالم • هذا إذا نظرنا إلى تفسير الآية الكريمة مع رعاية العموم في اليهود والنصارى ، وأما إذا قلنا إن المراد بعض منها كالنصارى الوافدين عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحبشة في مقابل يهود المدينة وما حولها فالأمر واضح • ويدل على ما قلنا ما ظهر بعد ذلك العهد بعد توسع فتوحات الإسلام ومسها لمصالح النصارى ، فتحولت النصارى إلى حالة غير الحالة السابقة فحاولوا بكل الوجوه ضرب الإسلام والمسلمين وتشبثوا بأنواع الأمور الحربية ، ومنها نبعت الحروب الصليبية ، والويلات المتتابعة في البلاد المقدسة ، والقتال في الأندلس ، والاستيلاء عليها ، وتنصير المسلمين فيها ، ثم تشريع أنواع الأفكار المضادة للدين ، وبث سموم التفرقة بين المسلمين •

فترى العالم اليوم كما ترى والدواء النافع المفيد لنا اليوم هو الرجوع إلى تعاليم الإسلام المقدسة النازلة في أول آية نزلت من القرآن الكريم في العلم والتعليم حتى يلد منهما العمل الصالح فيتربى بتاج الاعتصام بحبل الله المتين ، والسعي في استفادة العلوم على مستوى الأيام ، وقلع بذور النفاق والشقاق من مزرعة الحياة الإسلامية ، حتى تعود الأمة إلى أرقى درجات العزة والكرامة والحرية السليمة آمنين مطمئنين •

ويؤيد جانب الخصوص الذي ذكرنا قوله تعالى : [وإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ تَرى أعْيُنهم تفيض من الدمع] وهذه الآية الكريمة واردة في بيان حال النصارى الوافدين من الحبشة إلى المدينة

المنورة . وفي الحقيقة كانوا أناسا متواضعين غير مستكبرين ، ويتأثرون بفيوضات أنوار الآيات عند قراءتها عليهم [يقولون ربنا آمنا] بما أنزلته ومن أنزلت عليه [فاكتبنا مع الشاهدين] أي اجعلنا عندك من أمة محمد الذين يشهدون يوم القيامة على تبليغ الرسل ما أمرت بتبليغه ، أو اجعلنا ممن يشهدون على رسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحقية كتابك الذي أنزلته إليه [وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق] أي أيّ نفع يحصل لنا غير مؤمنين بالله وبما جاءنا من الحق ، أي كما يقولون ربنا آمنا الآية كذلك يقولون في ما بينهم : وما لنا لا نؤمن ، فالواو عاطفة لجملة ما لنا على مقول القول السابق وقوله : [ونطمَعُ أنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا معَ القَوْمِ الصّالِحين ؟] جملــة حالية عن الضمير المتقدم ، والتقدير أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين والحال أنا نطمع في صحبة الصالحين عند دخول الجنة ؟ [فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها] أبد الآبدين وذلك جزاء المحسنين . [والّذين كَفَرُوا بالله وَرَسُوله وَكَذّبوا بآياتنا أولئِكَ أصْحابُ الجحيم] وعطف قوله [وكذبوا] على قوله [كفروا بالله] للتنصيص على بيان حال المكذبين ومآلهم المؤلم يومَ الدين .

(يا أيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبات ِ ما أَحَلّ اللهُ لَكُمْ ، وَلا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لا يُحِبّ المُعْتَدِينَ(٨٧) وَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ الله حَلالاً طَيِّبا وَاتّقُوا اللهَ الّذي أنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)(٨٨)

عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء ، وأخذتني شهوتي فحرّمت عليّ اللحم ! فأنزل الله الآية .

وعن ابن عباس أن رهطا من أصحاب رسول الله منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو ، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وسالم مولى أبي حذيفة توافقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ، ولا يناموا على الفرش ، ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتا ، وألا يأكلوا لحما ولا دسما ، وان يلبسوا المسوح ، وأن يجبوا مذاكيرهم ، ويعتزلوا النساء ، ويسيحوا في الأرض ، ويترهبوا ليتفرغوا للعبادة ! فبلغ ذلك النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأرسل إليهم فجمعهم وقال لهم : « هكذا قلتم ؟ » قالوا : نعم • فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما أني أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء • فمن رغب في سنتي فهو مني ، ومن رغب عن سنتي فليس مني » • ثم نزلت فيهم الآية رواه ابن جرير وابن أبي حاتم •

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم] معناه لا تحرموا الأطعمة اللذيذة مما أحله الله تعالى لكم فإن تحريم الحلال جسارة وجراءة على حكم الله سبحانه وتعالى • أو لا تلتزموا تحريمها بنحو يمين حتى تحنثوا وتجب عليكم الكفارة ؛ فإنه لما كان تحريم الحلال مبغوضا لعدم نفاذه فالتزام تحريمه بنحو يمين أبغض إلى الله تعالى • أو لا تقولوا : حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها ؛ فإن ذلك القول لغو من الكلام لا يناسب لمن التزم قواعد الإسلام • فكلوا واشربوا والبسوا [ولا تعتدوا] أي لا تتجاوزوا في الاستفادة مما أحل الله لكم الحد كيلا يتحول إسرافا [إن الله لا يحب المعتدين] المتجاوزين عن الحدود المقررة في دين الله [وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا] أي كلوا ما حل وطاب مما رزقكم الله [واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون] فلا تخالفوا أحكامه ولا تحرفوا نظامه •

(لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في اَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ اِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ اَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ اَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ اَيَّامٍ ، ذلِكَ كَفَّارَةُ اَيْمَانِكُمْ اِذَا حَلَفْتم ، وَاحْفَظُوا اَيْمَانَكُمْ ، كذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(٨٩)

كان هؤلاء الصحابة المشار إليهم في الآية السابقة قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) .

قوله تعالى : [لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم] اللغو في اليمين عند الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : أن يحلف على أمر مضى يظنه كذلك . فإن علمه على خلافه فاليمين غموس . وعند الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ : ما يسبق إليه اللسان من غير نية اليمين . ويؤيده ظاهر الآية الاستدراكية . أي لا يؤاخذكم الله تعالى في الأيمان التي تجري على ألسنتكم في العادة الدائرة بين الناس لا والله وبلى والله وأمثالهما [ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان] يعني بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها بالقصد ، وهي التي فيها الكفارة . فإذا عقدتم الأيمان وحنثتم فيها [فكفارته] أي كفارة ذلك الحنث بعد عقد اليمين [إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم] أي من أقصده في النوع أو المقدار ، وهي عند الشافعي مُدّ لكل مسكين ، وعند الحنفية نصف صاع من بر أو صاع من شعير . وعن ابن سيرين قال : كانوا يقولون الأفضل الخبز واللحم ، والأوسط الخبز والسمن ، والأخسّ الخبز والتمر [أو كسوتهم] أي كسوة عشرة مساكين .

والمراد بالكسوة عند الحنفية ما يستتر عامة البدن على ما روي عن الإمام الأعظم ــ رضي الله عنه ــ ، وأبي يوسف فلا يجزيء عندهما السراويل ؛ لأن لابسه يسمى عريانا في العرف لكن ما لا يجزئه عن الكسوة يجزئه عن الاطعام باعتبار القيمة • وفي اشتراط النية حينئذ روايتان ، وظاهر الرواية الإجزاء نوى أو لم ينو • وروي أيضا أنه إن أعطى السراويل المرأة لا يجوز ، وإن أعطى الرجل يجوز لأن المعتبر رد العرى بقدر الإمكان بما تجوز به الصلاة وذلك ما يحصل به ستر العورة والزائد تفضل للتجمل أو نحوه ؛ فلا يجب في الكسوة كالإدام في الطعام • والمروي عن محمد أن ما تجوز فيه الصلاة يجزيء مطلقا • والصحيح المعول عليه عندنا هو الأول • ويشترط أن يكون ذلك مما يصلح به للأوساط وينتفع به فوق ثلاثة أشهر وعند الشافعي ــ رضي الله عنه ــ يكفي ما يسمى كسوة مثل : قميص ، أو عمامة ، أو إزار ، أو رداء ، أو منديل ، لا خُفّ ، ومنطقة ، وقفازين •

[أو تحرير رقبة] كيفما تكون • وشرط الشافعي الإيمان [فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام] متتابعات عند أبي حنيفة [ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم] يعني وحنثتم ، وإلا فالحلف بدون الحنث لا يوجب الكفارة [واحفظوا أيمانكم] أي احفظوا أنفسكم من الحنث فيها وإن لم يكن الحنث معصية ، إلا إذا كان الحنث فيه مصلحة أكيدة وصلت إلى درجة الوجوب أولا لقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا فليحنث وليكفّر » [كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون] ويجوز عند الشافعية تقديم الكفارة على الحنث إلا الصيام ، والحنفية لا يجوزونها مطلقا •

(يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٩٠) إنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ، ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ ، فَهَلْ أنْتُمْ مُنْتَهُونَ(٩١) ؟ وأطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا ، فإنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعْلَمُوا أنَّما عَلَى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِينُ(٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالِحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا ، وآمَنُوا وعَمِلُوا الصالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ، وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا ، وأحْسَنُوا ، واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ)(٩٣)

عن أبي هريرة قال : قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله عنهما ، فأنزلَ الله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس) (البقرة : ٢١٩) فقال الناس : ما حرّم علينا إنما قال إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام أمّ رجل من المهاجرين أصحابه في صلاة المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة) (النساء ٤٣) ثم نزلت آية أغلظ منها : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) الى (منتهون) فقالوا : انتهينا ربَّنا . فقال ناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فراشهم وكانوا يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان . فأنزل الله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية أخرجه أحمد .

وفي رواية قال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم » وعن ابن عباس إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما صحوا جعل الرجل يرى الاثر في وجهه ورأسه ولحيته ، فيقول صنع بي هذا أخي فلان ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول : والله لو كان أخي بي رؤوفا رحيما ما صنع بي هـذا حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ، فأنزل الله هذه الآية إلى (منتهون) فقال ناس من المتكلفين : هي رجس ، وهي في بطن فلان وقد قتل يوم أحـد ! فأنزل الله : (ليـس على الذين) الآية أخرجه النسائي والبيهقي والحاكم • قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر] وهو المسكر المتخذ من ماء العنب ، أو كل ما يخامر العقل ويغطيه من الأشربة كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ [والميسر] : وهو القمار [والأنصاب] أي الأصنام المنصوبة للعبادة • وفرق بعضهم بينهما بأن الأنصاب هي الحجارة المنصوبة للعبادة ، وكانوا يذبحون عندها ، ولم يكن فيها صور ، والأصنام : ما صور وعبد من دون الله تعالى [والأزلام] : وهي الأقداح المذكورة سابقا [رجس] أي قذر تكرهه العقول والمراد أن تعاطي هذه الأشياء رجس [من عمل الشيطان] وإلا فكيف تعتبر الأعيان من عمل الشيطان ؟

[فاجتنبوه] : أي الرجس أو عمل الشيطان • والاجتناب عن الشيء جعله في الجانب والمقصود أن لا يستقبل الإنسان هذه الأرجاس ويجعلها في جانب من الجوانب البعيدة •

ولا يتوهمن عاقل أن الآية الكريمة لا تدل على تحريم الخمر وما بعدها لانتفاء صيغة التحريم فيها • لأنه ليس عبارة التحريم هي العمدة في الحكم بحرمة الشيء ، لأنه قد يكون أثراً للنهي عن الشيء وقد يستفاد من تعبيرات

أخرى كالاجتناب بل نقول : إن الأمر بالاجتناب أقوى لأنه لم يستعمل في القرآن إلا للأشياء البعيدة عن الدين غاية البعد ، كما في قوله تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) وقوله (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) وقوله : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) وقوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) وكما في هذه الآية التي نقرأها الآن • وقد يكون بالاستفهام الإنكاري كما في قوله تعالى : (وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ؟) ويدل على تأكد حرمة تعاطي الأمور المذكورة ربط رجاء الفلاح بتركها كما قال : [لعلكم تفلحون] يعني إن الابتعاد عن هذه الاشياء من أسباب الفلاح والنجاة • ولو لم يكن حراما لم يكن الفلاح مربوطا بتركه • ومن عنده أدنى معرفة يعلم أن تعاطي الأمر الذي يعاند العقل والصحة والمال والكرامة ويقلل من أهمية الإنسان وأعيان الآدميين حرام وموجب للذنوب والآثام •

[إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر] : أي بسبب تعاطيهما وشرب الخمر وعمل الميسر ، لأن السكران يعمل أعمالا قبيحة لها عواقب توجب الفتن والمحن والإحن بين الناس ، والميسر يجعل الرجل مفلسا يعادي من أخذ ماله حتى يريد قتله أو غنيا بطران يعارضه الناس [ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة] لأن السكر يجعل الإنسان غافلا عن أداء ما وجب عليه وعن ذكر ربه • والميسر يوجب للمغلوب الانقهار والأسف المزيد بحيث لا يقدر على التلذذ بغذائه وعشائه فضلا عن التلذذ بالأمور الروحية ، ويوجب للغالب بطرا وطغيانا يبعدانه عن ذكر الله وعن الصلاة وعن كل ما يقربه إليه تعالى [فهل أنتم منتهون ؟] عن تعاطي هذين الأمرين القبيحين اللذين لا ثالث لهما في القباحة ووخامة العاقبة والعافية •

[واطيعوا الله وأطيعوا الرسول] في جميع ما أمرا به ونهيا عنه [واحذروا] : مخالفتهما [فإن توليتم] أي أعرضتم عن الحق ولم تسلكوا مسالكه [فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين] ولم يقصر في ذلك بتوفيق الله فقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل ، وقد تم البلاغ والحمد لله رب العالمين •

وقوله تعالى : [ليس على الذين آمنوا] قالوا في سبب نزوله : لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ : كيف بمن شربها من إخواننا الذين ماتوا وهم قد شربوا الخمر وأكلوا الميسر فأنزل الله تعالى هذه الآية • وهذا السبب أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهو في الصحيحين عن أنس ـ رضي الله عنه ـ وعلى ذلك فمعنى الآية الكريمة : [ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا] من الخمر أو من محصولات الميسر قبل نزول الآية جناح [إذا ما اتقوا] ما ارتكبوه سابقا ولم يعيدوه لاحقا [وآمنوا] بالله الذي حرمه ، أي تركوه خوفا من الله [وعملوا الصالحات] فيما فرض عليهم او استحب لهم [ثم اتقوا] ذلك المحرم وغيره من المحرمات [وآمنوا] بالله الذي حرمهن [ثم اتقوا] علاوة على المحرمات غيرها من الشبهات [وأحسنوا] أي وأخلصوا في إيمانهم وأعمالهم إلى درجة الإحسان المفسر بأن يعبد العبدُ ربه كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه بلا شك وشبهة ، وعند ذلك يحبهم الله لأنهم يدخلون في عداد المحسنين [والله يحب المحسنين] •

وبهذا التفسير الذي ذكرناه ظهر أن ليس المراد بالتكرار الوارد في الآية التأكيد لما قبله ، بل التكرار استئناف وتأسيس لمعنى جديد لم يكن قبل ، ومن قبيل ما فسرت به الآية ما قاله الطيبي ـ رحمه الله ـ المعنى : إنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات ، وإنما المطلوب

الترقي في مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص ، واليقين ومعارج القدس والكمال • وذلك بأن يثبتوا على الاتقاء عن الشرك وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به ، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة التي يتمكن بها إلى الترقي إلى مرتبة المشاهدة ومعارج ان تعبد الله كأنك تراه ، وهو المعنيّ بقوله تعالى : (وَأَحْسَنُوا) وبه ينتهي للزلفى عند الله ومحبته والله يحب المحسنين • وفي هذا النظم نتيجة من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما في يديك » وهذا دفع للتكرير وإنه ليس لمجرد التأكيد لأنه يجوز فيه العطف بثم ، كما صرح به ابن مالك في قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) بل به باعتبار تغاير ما علق به مرة بعد أخرى •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ(٩٤) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللهُ عَمّا سَلَفَ ، وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ(٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ

مادُمْتُمْ حُرُماً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٩٦) جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الحَرَامَ قِياماً لِلنَّاسِ والشَّهْرَ الْحَرامَ والْهَدْيَ وَالقَلائِدَ ، ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ ، وَانَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْئٍ عَلِيمٌ(٩٧) إِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ(٩٨) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ، واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ)(٩٩)

قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا] نزل في أهل عمرة الحديبية حيث ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون ، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم ، وكانوا يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعنا برماحهم • فنزلت الآية يعني [يا أيها الذين آمنوا] والله [ليبلونكم الله] وَلَيُعامِلَنَّكم مُعامَلَةَ المختبِرِ [بشيءٍ من الصّيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم اللهُ مَن يَخافُه بالغيب] أي ليتعلق علمه سبحانه بمن يخافه غيبا فلا يتعرض للصيد [فمن اعتدى بعد ذلك] أي فمن تجاوز حد الله تعالى وتعرض للصيد [فله عذاب أليم] لأن المتعرض للصيد في الدنيا متعرض للقيد في الآخرة حيث إن المتجاوز من الحدود لا يهتم بأحكام الباري تعالى ومن لم يهتم بالأحكام إن لم يكن كافرا فهو آثم والآثم معذب •

[يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصَّيْدَ وَأنتم حُرم] **الصيد : وإن** كان يشمل ما يؤكل لحمه وغيره إلا أن الشافعي خصه بالمأكول لأنه الغالبُ فيه عرفا وأيّد ذلك بما رواه الشيخان : « خمس يقتلن في الحل والحرم : **العقرب، والحدأة، والغراب، والفأرة، والكلب العقور» وفي رواية لمسلم والحية** بدل العقرب • وذكر القتل دون الذبح ونحوه للإيذان بأن الصيد وإن ذبح

في حكم الميتة • وإلى ذلك ذهب الإمام الأعظم ومالك وأحمد وهو القول الجديد للشافعي ــ رضي الله عنه ــ [ومن قتله منكم متعمدا] أي ذاكرا لإحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله ، ومثله من قتله خطأ للسّنة [فجزاء" مثلُ ما قتل] أي فعليه جزاء مماثل لما قتله [من النعم] وهذه المماثلـة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي ، وباعتبار القيمة عند أبي حنيفة ــ رضي الله عنهم ــ • وقال يقوّم الصيد حيث صيدَ ، فإن بلغت القيمة ثمن هدي تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته ، وبين أن يشتري بها طعاما ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوما ، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم [يحكم به ذوا عدل منكم] صفة جزاء [هديا بالغ الكعبـة] ومعنى بلوغه لها ذبحه بالحـرم والتصدق به هناك [أو كفارة طعام مساكين] والمعنى عند الشـافعي أو أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد ، فيعطى كل مسـكين مدا • [أو عدلُ ذلك صياما] أي أو ما ساواه من الصـوم فيَصوم عن طعام كل مسكين يوماً • وإنما قرر عليه الجزاء [ليذوق وبال أمره] أي لينال ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشديد على مخالفـة أمر الله [عفا الله عما سـلف] من قتل الصيد محرما في عهد الجاهلية أو قبل التحريم في الإسلام ، أو في هذه المرة [ومن عاد فينتقم الله منه] علاوة على الكفارة المقررة [والله عزيز ذو انتقام] ممن عاد إلى ما فعله من الذنوب • ولما ذكر تحريم صيد البر على المحرم ذكر حكم صيد البحر للمحرمـين فقال : [أحل لكم صيد البحر] أي ما صـيد منه ، وهو عند الشافعي ما لا يعيش إلا في الماء على أي صورة كانت فخرج منه : الضفدع ، والسلحفاة ، والحية ••• وغيرها مما يعيش في البحر وفي البرّ لقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ في شأن البحر : « هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته » وعند

أبي حنيفة لا يحل منه إلا السمك • وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البرّ [وطعامه] أي وأحل لكم طعام البحر وهو ما قذفه البحر إلى الخارج ، أو ما نضب عنه الماء فمات في الساحل [متاعا لكم وللسيارة] أي تمتيعا لكم ولسيارتكم يتزودونه قديدا أي للمقيمين وللمسافرين [وحرم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرُما] والمراد بصيد البرّ ما يصطاده المحرم فلا يشمل ما صاده الحلال ولم يكن له دخل فيه • وعليه الجمهور • وقيل : يحرم على المحرم كل ما صيد في البر وإن لم يكن للمحرم دخل فيه • [واتقوا الله الذي إليه تحشرون • جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس] أي جعل الله الكعبة التي هي البيت الحرام وسيلة قيام وبقاء للناس واستفادتهم منها في الدين بركة وعبادة وصلاة وطوافا واعتكافا فيهـا ، وفي الدنيا بأن جَعَلَها مأمناً لا يتعرض للناس فيه ، ووسـيلة توفير الرزق فيه من الحجاج والمعتمرين وسائر الوافدين عليها • [والشهر الحرام] أي وجعل الشـهر الحرام أي الذي يؤدى فيه الحج وهو : ذو الحجة أو جنس الأشهر الحرم قياما لهم • [و] كذلك جعل [الهدي والقلائد] أي ذوات القلائد وهي البدن • قياما لهم وبركة ينتفعون بها [ذلك] أي الجعل المذكور أي كل ما ذكر من الأحكام شرعت [لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، وأن الله بكل شيىء عليم] ومن جملتها ما ترد عليكم من المنافع والمضار فقرر ما قرر لجلب المنافع إليكم ودفع المضار عنكم • [إعلموا أن الله شـديد العقاب وأن الله غفور رحيم] فرحمته وسعت كل شيىء وقد كتبها للمتقين • وعذابه يقع على من استحقه إلا إذا عفا عنه ، فابتعدوا عن الذنوب والآثام ، واقلعوا عنهـا [ما على الرسول إلا البلاغ] وقد بلغكم وأشهد الله والملائكة والناس عليه [والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] فلا تخفى عليه خافية قطعا •

(قُلْ : لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ اعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(١٠٠)

عن جابر قال : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر تحريم الخمر ، فقام أعرابي فقال : إني كنت رجلا كانت هذه تجارتي فاعتقبت منها مالا . فهل ينفع ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله تعالى ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب » فأنزل الله تعالى الآية تصديقا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجه الواحدي والأصبهاني في الترغيب . وقوله فاعتَقَبْتُ أي فاقْتَنَيْتُ .

قوله تعالى : [قل لا يستوي الخبيث والطيب] أمر الله رسوله الحبيب أن يقول للناس أو للسائل عن حكم ماله الخاص الحاصل من تجارة المخدرات أنه لا مساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء والجيد من الاشخاص والاعمال والاحوال [ولو أعجبك كثرة الخبيث] فإن العبرة بالكيفية لا بالكمية ، والمحمود القليل خير من المذموم الكثير . [**فاتقوا الله يا أولي الألباب**] ، أي فاتقوا عذاب الله في اقتناء الخبيث ، وإن كان كثيرا ، واختاروا لأنفسكم الطيب وآثروه ، وإن كان قليلا ، [لعلكم تفلحون] راجين أن تفوزوا بالفلاح والنجاة .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ اشْيَاء إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وإنْ تَسْألُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللهُ عَنْها ، واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)(١٠١)

عن أنس بن مالك قال : خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة فقال رجل : مَنْ أبي ؟ قال : فلان . فنزلت الآية . وعن ابن عباس قال :

كان قوم يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل ، تضل ناقته ، : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم الآية . أخرجهما البخاري وعن علي لما نزلت : (ولله على الناس حج البيت ...) قالوا : يا رسول الله أفي كل عام ؟ فسكت. قالوا : يا رسول الله أفي كل عام ؟ قال: لو قلت نعم لوجبت. فأنزل الله الآية أخرجه أحمد والترمذي والحاكم . ولا مانع أن تكون نزلت بسبب الأمرين معا .

والمعنى : [يا أيها الذين آمنوا] كونوا على رعاية الأمور المهمة التي تحتاج إلى الكشف والبيان من أمور الدين أصلا وفرعا ، ومن ضروريات الحياة التي يستفيد الإنسان من العلم بها فائدة جليلة . و [لا تسألوا عن أشياء] لا خير لكم فيها من نحو التكاليف الصعبة التي لا تطيقونها والأسرار الخفية التي قد تفتضحون بها ، فكما أن السؤال عن الأمور الواقعة مستتبع لإبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف لإيجابها عليهم بطريق التشديد [لإساءتهم] الأدب وتركهم ما هو الأولى من الاستسلام لأمر الله من غير بحث فيه . فقوله تعالى : [إن تبدلكم تسؤكم] صفة لأشياء داعية للانتهاء عن السؤال فيها . وعطف عليها [وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم] ومعناه إن تلك الأسئلة إذا كانت على مقصود محمود ينبغي السؤال عنه ، فهي تظهر لكم حين نزول القرآن الكريم على مرات متتالية ؛ لأن المهم ينزل مشروحا ، ويفي بمقصود الإنسان الحازم الطالب لفهم المقاصد المهمة ، وإن لم يكن كذلك فما ينبغي السؤال عنه مطلقا لأنه لا ينبغي إضاعة الوقت على ما لا ينبغي . [عفا الله عنها] أي عن المسألة التي سألتم عنها . [والله غفور حليم] أي بليغ المغفرة وافر الحلم يسامح أهل الذنوب لاسيما إذا كانت عن جهل ، وحليم لا يستعجل بالعذاب بل كرمه يغلب غيره .

أخرج مسلم وغيره أنهم سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتعبوه في المسألة ، فصعد ذات يوم المنبر وقال : (لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم) فلما سمعوا ذلك خافوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر . قال أنس ـ رضي الله عنه ـ فجعلت أنظر يميناً وشمالا فإذا كلّ رجل لافّ رأسه في ثوبه يبكي ، وأنشأ رجل كان إذا لاحى أي نازع أحدا يُدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا رسول الله من أبي ؟ قال أبوك حذافة . ثم أنشأ عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا . نعوذ بالله تعالى من الفتن . ثم قال رسول الله : « ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط ! إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » وذكر ابن شهاب أن أم ابن حذافة واسمه عبدالله قالت له لما رجع إليها : ما سمعت قط أعق منك ! آمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما يقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس ! فقال ابن حذافة : لو ألحقني بعبد أسود للحقته ! وأخرج غير واحد عن قتادة أن هذه الآية نزلت يومئذ .

ومما يحسن أن نعلم أن لفظ أشياء لما استعملت غير منصرف ، وظاهره أنه جمع شيء كبيت وأبيات وليس فيه أسباب منع الصرف اختلفت آراؤهم . فذهب سيبويه والخليل إلى أن الهمزة للتأنيث، وأن الكلمة اسم مفرد يراد به الجمع كالحلفاء والطرفاء . فأشياء في الأصل شيئاء بهمزتين بينهما ألف ، فقدمت الهمزة الاولى التي هي لام الكلمة على الفاء لاستثقال همزتين بينهما ألف قبلهما حرف علة ، والهمزة الثانية زائدة للتأنيث ولذلك لا تنصرف ، ووزنها لفعاء . وقصارى ما في هذا المذهب القلب وهو كثير في كلامهم . وذهب الفراء إلى أنها جمع شيء بياء مشددة وهمزة بوزن هيّن وليّن ، إلا أنهم خففوه فقالوا شيء كَميْتٍ ، وبعد التخفيف جمعوه على أشيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان إحداهما لام الكلمة

والأخرى للتأنيث ، فخففوا ذلك بقلب الهمزة الاولى ياء ثم حذفوا الياء الاولى التي هي عين الكلمة فصار وزنه أفعلاء .

وقيل في تصريف هذا المذهب : إنهم حذفوا الهمزة التي هي لام الكلمة لأن الثقل حصل بها فوزنها أفعاء ، ومنع الصرف لهمزة التأنيث واستحسن هذا المذهب لو كان دليل على أن أصل شيىء بالتخفيف شيىء بالتشديد . وقال الأخفش إنها جمع شيىء بوزن فلس وأصلها أشيئاء بهمزتين بينهما ألف بعد ياء ثم عمل فيه ما مر . ورده الزجاج بأن فعلاء لا يجمع على أفعلاء .

(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ)(١٠٢)

عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ هم قوم عيسى ــ عليه السلام ــ سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها . وقيل : قوم صالح سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها . وعن مقاتل : هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم . وقيل غير ذلك .

(ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حامٍ ، وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ(١٠٣) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرَّسُولِ قالُوا : حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ(١٠٤) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(١٠٥)

قوله تعالى : [ما جعل الله] معناه ما شــرع تعالى في دين من الأديان [مِنْ بحيرة] : وهي الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذَكَر فشقوا أذنها ، وخلوا سبيلها ، فلا تركب ، ولا تحلب بحجة أن الله تعالى حرم الاستفادة منها بعد ذلك . والبحيرة : من البحر بمعنى الشق لأنهم كانوا يشقون أذنها . [ولا سائبة] : من سيبته إذا تركته وأهملته يعني يُعْرَض عنها وتترك بدون انتفاع منها . وهي الناقة التي تنتج عشرة أبطن إناث فتهمل ، ولا يشرب لبنها إلا لضيف أو ولد . [ولا وصيلة] : وهي شاة تنتجت سبعة أبْطُنٍ عناقين عناقين ، وتنتجت في آخرها عناقا وجديا : ذكرا وأنثى . قيل : وصلت أخاها ، فجرت مجرى السائبة أهملت مرضية مرعية بدون أتعاب لها في الركوب ولا شرب لبنها . [ولا حام] : وهو جمل نتج من صلبه عشــرة أبطن وكانوا يحرمون ركوب ظهره أو تحميله شيئا ، ولا يمنعونه من ماء ولا مرعى وقالوا في حقه : قد حمى ظهره . [ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب] بنسبة تحريم ما ذكر إليه [وأكثرهم لا يعقلون] أي لا يميزون الحلال من الحرام والمباح من المحرّم وإنما يطبقون ذلك تقليدا بلا بصيرة لأسلافهم الأجلاف . [وإذا قيل لهم] في مقام النصيحة ودعوتهم إلى التوحيد والتزام الشريعة ورفض ما اخترعوه من المفتعلات : [تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا] مما قلدناهم فيه [أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شــيئا ولا يهتدون] : الواو للحال والهمزة للإنكار أي أحســبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا لا يعلمون بأنفسهم طريق النجاة ولا يهتدون بهدي الناصحين المرشدين من الأنبياء والمرسَلين وورثتهم من العلماء العاملين ؟!

[يا أيها الذين آمنوا] قد سمعتم أخبار الأمم الكافرة التي أبت استماع أوامر الله ونواهيه على ألسنة المرسلين ، وعلمتم أن هناك أناسا يتمردون أمثال أولئك المارقين ولا ينفعهم الزجر والردع بآيات الله البينات ، ولا بأدلة العلماء

العاملين فـ [عليكم أنفسكم] ألزموها وعلموها وأدّبوها وزكوها بالعلم المشرق والعمل الحق ، ولا تكسلوا عن الاستعداد للاستشراق بأنوار شريعة الخلاق [لا يضركم] في دنياكم ولا دينكم ضلال [من ضل إذا اهتديتم] بهدي الرسول الأمين من ترك المحرمات وأداء الواجبات العينية والكفائية في الدين • ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحادث من المعتدين [إلى الله مرجعكم جميعا] المخلصون والمفلسون ويحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون [فينبئكم بما كنتم تعملون] •

تنبيه : أشرت بقولي : ومن جملتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى دفع ما يتوهم من ظاهر الآية أنه يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان الإنسان سالما في نفسه مراعيا لحق الباري من فعل المأمورات وترك المنهيات وذلك باطل ؛ لأن الاهتـداء لا يتحقق إلا بأداء ما لزم المكلف قولا وفعلا ، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •

روى ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد قال : خطب أبو بكر الصديق الناس فقال في خطبته : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يا أيها الناس لا تتكلوا على هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) إن الداعر يكون في الحيّ فلا يمنعونه فيعمهم الله تعالى بعقاب • فمعنى الآية الشريفة أنه إذا اهتديتم بترك المحرمات وأداء الواجبات ، ومن جملتها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فحين ذلك لا يضركم ضلال من ضل في الأفكار والأعمال ، وانحـرف عن الصراط المسـتقيم • وعلى ذلك فالاهتداء يستوعب كافة الأحكام ومن جملتها ذلك • ومن الناس من فسـر الاهتداء هنا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين فقط •

ومن الناس من قال إن الآية تسلية لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولكن لم يقبل منه لغلبة الفسق وبعد العهد بالوحي ، ومعناها حينئذ إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وما قبله الناس الفاسقون فليس عليكم شيء من الذنوب لأنكم أبرأتم ذمتكم بالامر والنهي ولستم بمسيطرين على المتكبرين . أخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال : يا رسول الله أخبرني عن قول الله ـ عز وجل ـ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا معاذ مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا رأيتم شُحّاً مطاعا ، وهَوىً مُتَّبَعاً ، وإعجاب كل امرىء برأيه فعليكم أنفسكم .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، أَو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ، تَحْبِسُونَهما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كانَ ذَا قُرْبى ، ولا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ (١٠٦) فإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقَامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيانِ ، فَيُقْسِمانِ بِاللهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَما اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها ، أو يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ واتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ)(١٠٨)

عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال : بريء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشامَ لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ، ومعه جام" من فضة فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله .

قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناها ، أنا وعدي بن بداء . فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع الينا غيره . قال تميم : فلما أسلمتُ بعد قدوم الرسول المدينة تأثمت عن ذلك ، فأتيت أهله وأخبرتهم الخبر وأديت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها . فأتوا به إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسألهم البينة فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه فحلف بما يعظم به عند أهل دينه . فأنزل الله الآيات إلى (الفاسقين) . فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدّاء . أخرجه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم . والجام هو الإناء من فضة ، وفي بعض الروايات : وكان مخوّصاً أي عليها صفائح الذهب أي منقوش مموه بالذهب مثل خوص النخل .

قوله تعالى : [يا ايها الذين آمنوا] أي يا أيها الذين آمنوا من جملة الأحكام المشروعة فيما بينكم ما سيأتي وهو [شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت] أي قاربه [حين الوصية] أي حين الإدلاء بها وبيانها لنفع الورثة في المستقبل أو منفعة نفسه لبراءة ذمته من حقوق الله أو حقوق الناس [اثنان ذوا عدل منكم] أي شهادة رجلين عادلين من المسلمين [أو آخران من غيركم] أي أو شهادة رجلين آخرين من غير المسلمين لضرورة ضبطها من المريض المقارب للموت لأدائها عند الحاجة .

واعتبار غير المسلمين في الشهادة كان في صدر الإسلام لقلة المسلمين • وأما بعده فلا اعتبار لها فالحكم منسوخ وعلى هذا الرأي الإمام الشـافعي ومالك والنخعي • وأما أبو حنيفة فيعتبرها صحيحة في أي وقت لاسيما عند الحاجة • وهذا النوع من تحمل الوصية للشـهادة بها [إن أنتم ضربتم في الأرض] أي سافرتم [فأصابتكم مصيبة الموت] •

وقال الإمام الرازي : إن قوله تعالى إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت : المقصود منه بيان أن جواز الاستشهاد بآخرين من غـير المسلمين مشروط بما إذا كان المستشهد مسافرا ضاربا في الأرض وحضرت علامات نزول الموت • وعلى ما ذكره يكون قوله تعالى [تحبسـونهما من بعد الصلاة] أي توقفونهما إلى ما بعد صلاة العصر الذي يجتمع فيه الناس [فيقسمان] أي ذانك الشاهدان اللذان من غير المسلمين قسماً [بالله] تعالى [إن ارتبتم] أي وقعتم في ريب وشبهة من صدقهما أيضا مربوطا بالشاهدين اللذين كانا من غير المسلمين • وإلا فالشـاهد المسلم لا يوقف ولا تقيد شهادته بما بعد الصلاة ولا يحلف ، ومنهم من يقول : إن التوقيف إلى العصر وما بعده جائز للشاهد المسلم وغيره عند وقوع الريب والشبهة في حقه •

وقد روي عن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه كان يحلف الشاهد والراوي عند التهمة • ويقولان في حلفهما : [لا نشتري به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى] أي يؤديان الشهادة ويقولان : نشهد أن فلانا قال في وصيته إن هذا مال فلان وذاك حقه إلى آخر ما ذكره ، ونقسم بالله لا نشتري بأدائنا لهذه الشهادة ثمنا قليلا أي متاعا نقداً أو غيره قليلا بالنسبة إلى عذاب الآخرة [ولو كان] الإنسان الذي تصله المنفعة بشهادتنا [ذا قربى] لنا [ولا نكتم شهادة الله] أي ولا نضيع الشهادة التي كانت في ذمتنا ، وأمرنا الله بأدائها على وجه الحق [إنا إذا لمن الآثمين] بكتمنا لها • [فإن عثر على أنهمـا

استحقا إثما] أي فإن وقع العثور والإطلاع بعد ذلك على أن الشاهدين أديا الشهادة على غير وجه الحق واستحقا بذلك إثما [فآخران يقومان مقامهما] أي فشاهدان آخران غيرهما يقومان مقام الآثمين في أداء الشهادة على اعتقادهما الراجح ويعارضان بشهادتيهما شهادتيهما ويعود الحق لأهله . وهذان الشاهدان الآخران يكونان [من الذين استحق عليهم الأوليان] أي استحق الإثمَ الشاهدان اللذان كانا هما الأَوليان والأَوفقان بالإيصاء إليهما من جانب المريض الموصي .

وفيه إشارة إلى الزجر والتوبيخ لهما لأنهما كانا من المختارين عند المريض وحَمّلهما الأمانةَ وقد خاناه وخانا الله وخانا الورثة . وقرىء (الأوّلان) تثنية الأول ومعناه ظاهر لتقدمهما في الشهادة . فقوله (استحق) بفتح التاء فعل مبني للفاعل (والأوليان) فاعل (وعليهم) مفعول به غير صريح . والمعنى : استحق الشاهدان الأوليان الإثم على الورثة أي على إضرار الورثة . وقال ابن السري معناه استحق عليهم أداءُ الوصية . والاوليان بدل من آخران أي فآخران يقومان مقام الآثمين ، وهما الاوليان والاوفقان بقبول شهادتهما لأن الوصيين قد خانا في حقهما ومقابلة الخيانة ودفعها جائز بل مستحب بل واجب بحسب المواقع [فيُقسمانِ بالله] بعد أدائهما الشهادة : [لشهادتنا أحق من شهادتهما] لأن شهادتنا كانت مبنية على إطلاعنا بخيانة الشاهدين الأولين ، وحصل لنا الاعتقاد الراجح بأن المالَ مالنا [وما اعتدينا] أي وما تجاوزنا الحق في شهادتنا وقولنا نشهد أن المال الفلاني عائدٌ إلينا [إنا إذا لمن الظالمين] أنفسنا إن تجاوزنا الحق . [ذلك أدنى أَنْ يَأتوا بِالشهادة على وجهها أو يخافوا أَن تُرد أيمانٌ بعدَ إيمانهم] قوله او يخافوا معطوف على يأتوا أي ذلك المنهج المشروع الشامل على الاهتمام بشهادة عادلين منا ، أو رجلين آخرين من غيرنا مع

القيود اللاحقة أقرب وأوفق إلى إتيانهما بالشهادة على وجهها حالكونهم يخافون الله سبحانه وتعالى في الآخرة ، أو يخافون أن ترد أيمان منهما إلى جانب أصحاب الأموال بعد أيمانهم إذا كانا غير مهتمين بالشهادة فيفتضحا ويخزيا بين الناس ، والخزي والعار أشد من النار على الأحرار .

يقول المفسر البيضاوي رحمه الله تعالى ما نصه : ومعنى الآيتين : إن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشهِدَ عدلين من ذوي نسبه أو دينه على وصيته أو يوصي إليهما احتياطا فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين من غيرهم ، ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ بالوقت ، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمارة ومظنة حَلَفَ آخران من أولياء الميت ، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يحلف الشاهد ولا يعارض يمينه بيمين الوارث ، وثابت إن كانا وصيين . ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين ، فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغير الدعوى انتهى . وقال الشهاب : وقوله أو لتغير الدعوى أي انقلابها بأن المُدّعى عليه صار مدعيا للملك والوارث مدعىً عليه فلذا لزمته اليمين لا للرد كما مرّ وهو الصحيح .

وفي حاشية الشهاب أيضا ما نصه : والشهادة لها معان منها : الإحضار كقوله تعالى واستشهدوا شهيدين من رجالكم . ومنها القضاء نحو شهد الله أنه لا إله إلا هو . أي قضى . ومنها : أَقَرّ . ومنها حَكَمَ . ومنها حلف . ومنها علم ومنها وصى كما في هذه الآية .

قلت : والظاهر عندي أن الشهادة هنا على المعنى المعروف في الشرع ، لكنها في أول الامر شهادة حسبة أي إن قول العدلين الحاضرين عند الوصية للورثة قبل النزاع إن فلاناً أشهدنا قبل موته بكذا وكذا شهادة حسبة وبيان

حق لمرضاة الله • وفي وقت حدوث النزاع بين الورثة وطلب بعض منهم مقدارا وإنكار غيره له تكون شهادة مقامة بشرط طلب الورثة منه الشهادة ، أو طلب القاضي • وأما شهادة الآخرين فليس إلا كلاماً مستقلا يؤدي في مقابل الرجلين الخائنين حاصله أن ذلك المال مال أصحابه والله اعلم • [واتقوا الله واسمعوا] أي اتقوا الله في مخالفة شريعته واسمعوا كلامه سماع إجابة وإطاعة وإلا تحولتم فسقة [والله لا يهدي القوم الفاسقين] •

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ : ماذا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا : لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبُ(١٠٩) إِذْ قالَ اللهُ : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوراةَ وَالإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ، وتُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتى بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ : إِنْ هَذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)(١١٠)

قوله تعالى : [يوم يجمع الله الرسل] يوم ظرف منصوب بقوله السابق (واتقوا) أي واتقوا الله وعذابه وهيبته [يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟] في الدنيا حين بلغتم كتابي إلى الناس وخرجتم عن عهدة التبليغ ؟ [قالوا] أي الرسل الكرام من دهشهم واضطرابهم من سؤال الملك العلام : [لا علم لنا] بتفصيل ما أجابونا به من كلمات التلبية والاسعاد أو عبارات البغي والعناد [إنك أنت علام الغيوب] بأنواعها وأصنافها وأشخاص لا يعزب

عنك شـيء منها [إذ قال الله] كلمة إذ بدل من يـوم • أي وذلك الجمع للرسل ، والسؤال والجواب واقع [إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك] أما عليك فبما يأتى ، وأما على والدتك فبولادتك منها [إذ أيدتك بروح القدس] أي بجبريل الأمين ــ عليه السلام ــ ، أو بتحقق روح لك مربوطة بحضرة القدس بتوالي نزول الأنوار عليها ودوام الشهود ونظرات رحمة الباري إليها حالكونك [تكلم الناس في المهد] كلاما لا يليق الا باصحاب الرسالة والعهد [و] تكلمهم [كهلا] بآيات كنت لتبليغها أهلا [وإذ علمتك الكتاب] أي الكتابة [والحكمة] والكلام الرصـين المحكم الصواب [والتورية] المنزل على موسى [والإنجيل] المنزل عليك انت [وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير] تصورها من جنسه وذلك بإذنى [فتنفخ فيها] أي في تلك الهيئـة [فتكون طـيرا بإذني وتبرىء الأكمـه] الأعمى من الولادة والإنسان [الأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني] فتخرجهم انسانا سويا حيا بهيا [وإذ كففت] أي منعت [بني إسرائيل عنك] حين هموا بقتلك [إذ جئتهم بالبينات] أي المعجزات الواضحة [فقال الذين كفروا منهم إن هذا] أي ما هذا الأمر الصادر من عيسى [إلا سحر مبين] واضح بلا شبهة •

(وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ : أَنْ آمِنُوا بِي وبِرَسُولِي ، قَالُوا : آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : يا عيسى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : اتَّقُوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ونَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قالَ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ : اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ

عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قال اللهُ : إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ)(١١٥)

[وإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الْحَوارِيِّينَ : أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي] . أي واذكر إذ ألهمت الناس الذين قررت أن يكونوا من حوارييك أن آمنوا بي وبرسولي عيسى ابن مريم . أو أوحيت إليهم على لسان عيسى فقلت له يأمركم الله بالإيمان بي وبرسولي ، فوقع في قلوبهم نور الإطاعة والتوجه إلى الخالق البارىء و [قالوا آمَنّا] بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وبرسوله المولود من أمه الصديقة بنفخة من جانب جبريل المأمور بها من الرب الجليل ، وبكل ما يأتينا به من الله القدير [واشهد بأننا مسلمون] ونسترحمك يا الله أن تقبل إيماننا وتراقبه بإحسانك إلى يوم لقائك ، وأن تعاملنا على أننا مسلمون منقادون مخلصون لك [إِذْ قالَ الحواريّون : يا عِيسى ابن مريم هَلْ يَسْتَطِيعُ ربك أن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قالَ : اتقوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]

قيل : كيف يناسب هذا السؤال قوما أوحى إليهم بالإيمان بالله وبرسوله فآمنوا بالله وبرسوله ، وترجوا من الله أن يقبل منهم ذلك ؟ فأجيب بأجوبة منها : إنه لا يلزم أن يكون المؤمن ، كائنا من كان ، أن يعلم بجميع ما يمكن منه تعالى من أفعاله وتصرفاته . ألا ترون أن سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ سأل ربه رؤيته ؟ فقال : رب أرني أنظر إليك . قال : لن تراني الآية. وعلى ذلك يجوز في حق الحوراريين الجهل ببعض الأمور الممكنة التي يعملها الباري سبحانه وتعالى .

ومنها أن المراد بالاستطاعة تقتضيه الحكمة والإرادة الالهية • وليس المراد بها القدرة لأن شمول قدرة الباري لكل ممكن واضح لا ريب فيه •

ومنها أن قولهم يستطيع بمعنى يطيع ويجيب • أي هل يجيبك ربك إذا طلبت منه إنزال مائدة لنا ؟

ومنها أن الحواريين كانوا فرقتين فرقة ألهموا رشدهم وآمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان ، وهم المرادون في قوله تعالى : وإذ أوحيت إلى الحواريين والسؤال لم يكن منهم • وفرقة كانوا معهم صورة لكنهم كانوا مترددين مذبذبين بين الإيمان والنكران ، وهم الذين سألوا عيسى هل يستطيع ربك الآية ويؤيد هذا الجواب قوله : (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) • [قالوا : نريد أن نأكل منها] أي أكل تبرك واختصاص بهذه المعجزة الشريفة [وتطمئن قلوبنا] وتخلص من قبول الوساوس التي تأتيها من الشيطان ، [ونعلم] علم عيان [أن قد صدقتنا] في دعوى الرسالة وبشائرك التي بشرتنا بها [ونكون عليها] أي على نزولها [من الشاهدين] والحاضرين عليها كي نبلغ الناس بكل قوة واطمئنان هدي رسالتك ومدى جلالتك واحترامك عند الله رب العالمين • ولما تبين أساس سؤالهم [قال عيسى ابن مريم] ـ عليه السلام ـ : [اللهم ربنا أنزل علينا مائدة] يعني سفرة تميد ويمد عليها الطعام [من السماء] سماء كرمك وهباتك وعلو عظمة فيضك وإحسانك [تكون] المائدة [لنا عيدا] سعيدا يبقى أثرها زمانا مديدا ، لا لنا نحن الحواريين فحسب بل [لأولنا وآخرنا] من أتباعنا ، فإن رحمتك واسعة [و] تكون [آية] باهرة ومعجزة ظاهرة [منك وارزقنا] التمتع بها والشكر عليها [وأنت خير الرازقين] فإن

الرازقين صورة يرزقون من يطيعهم ، وأنت ترزق المؤمنين والكافرين والناكرين والشاكرين فالحمد لك يا رب العالمين • [قال الله] تعالى مجيبا لنداء عبده عيسى ـ عليه السلام ـ : [إني منزلها عليكم] لتوجه رحمتي إليكم [فمن يكفر] بصاحب تلك النعمة الجسيمة [بَعْدُ] أي بَعدَ تنزيلها والأكل منها [منكم] وأنتم المتمتعون بهذه المائدة المباركة [فإني أعذبه] بسبب كفرانه لتلك النعمة [عذابا لا أُعذبه أَحَداً من العالمين] أي عالمي زمانهم •

وهذا العذاب في الدنيا كان بمسخهم قردة وخنازير • وروي ذلك عن قتادة • وأما في الآخرة فهو ما رواه أبو الشيخ وغيره عن ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ قال : إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون • وهذه الرواية دليل على أن بعضا من الحواريين كفر بعد نزولها •

(وإذْ قالَ اللهُ : يا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وأُمِّيَ إلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قالَ : سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لي أنْ أقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِكَ ، إنَّكَ أنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ (١١٦) ما قُلْتُ لَهُمْ ، إلاَّ ما أمَرْتَنِي بِهِ أنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ ، وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنَّهُمْ عِبادُكَ ، وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فإنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١١٨) قالَ اللهُ : هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها أبَداً ، رضي اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلكَ الفَوزُ العَظِيمُ(١١٩) ، للهِ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَما فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(١٢٠)

قوله تعالى : [وإذ قال الله] عطف على (إذ قال الحواريون) يعني وإذ قال الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد : [يا عيسى ابن مريم ءَأَنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله] ؟! وإنما يقول ذلك توبيخا للكفار وتبكيتا لهم بإقراره ــ عليه السلام ــ على رؤوس الأشهاد بالعبودية لله تعالى وأمرهم بعبادته ــ عز وجل ــ . [قال] عيسى ــ عليه السلام ــ [سبحانك] أي تنزيها لك من أن أقول ذلك ، أو تنزيها من أن يقال في حقك ذلك أبدا . [ما يكون لي أن أقولَ ما لَيْسَ لي بحق ، إن كنتُ قلتهُ فقد عَلِمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعْلَمُ ما في نفسك] يقول ما ينبغي لي أنْ أقول شيئا غير موافق للحق ، وما قلته أبدا ، وإن كنت قلته فقد علمته إذ لا تخفى عليك خافية ، تعلم ما في نفسي من المضمرات ولا أعلم ما في نفسك من المغيبات . وذكرُ النفس وإضافتها إلى المخاطب وهو ذات الباري تعالى للمشاكلة . أو المراد بالنفس الذات ، أي ما هو معلوم عندك [إنكَ أَنْتَ عَلامُ الغيوب] و [ما قلت لهم] عندما كنت معهم [إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم] وكنت رقيبا أراعي أحوالهم ما بقيت فيهم [فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني] أي فلما قَبَضْتَني [كنت أنتَ الرقيب عليهم] أي وبعد رفعي إلى مقامي المعلوم انحصرت الرقابة والعلم الغزير الشامل المستوعب في ذاتك [وأنتَ على كل شيىء شهيد] أي حاضر ومراقب [إن تعذبهم فإنهم عبادك] أي فلا نزاع في أفعالك لأنهم أملاك خاصة وعبيد واقفون على عتبات عزتك وقدرتك [وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم] أي وإن تغفر لهم كُلَّ سيآتهم فإنك القوي القادر على جميع شئون التصرفات

وكل تصرف لك مقرون بحكمة ثابتة لا عتب من أحدٍ عليها . [قال الله] هذا كلام مستأنف وقع في ختام واقعة الجمع يعني قال الله تعالى [هـذا] اليوم الحاضر الذي وقع فيه جمع الرسل الكرام وسؤالهم عن إجابة الأنام [يوم ينفع الصادقين] أي الموصوفين بالصدق في توحيد الله تعالى وإرسال الرسل وما جاؤا به واستمروا على ذلك إلى أن انتقلوا من الدنيا [صدقهم] فيما ذكر ، ويأتيهم ذلك الصدق بالمثوبة الحسنى عند الله وهي أنه [لهـم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ـ رضي الله عنهـم ـ] لإيمانهـم وصدقهم في إيمانهم واستمرارهم عليه [ورضوا عنه] وعن إفاضة كرمه ونعمته عليهم بإحسانه [ذلك] الرضا من الطرفين هو [الفوز العظيم] الذي لا يحيط به نطاق الوصف والبيان ولا غـرو في ذلك الفوز العظيم الحاصل لأولئك المكلفين الفائزين بالنعيم المقيم فإنه [لله ملك السماوات والأرض وما فيهن] يهب ما يشاء لمن يشاء والله الفاعل المختار [وهو على كل شيىء قدير] مبالغ في القدرة واللطف والله هو المعين .

سور الانعام مكية ، وهي مائة وخمس وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وجَعَلَ الظُّلمَاتِ والنُّورَ ، ثُمَّ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ، وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وهُوَ اللهُ في السَّماواتِ وفِي الأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ، وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (٣) ومَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)(٥)

قوله تعالى : [الحمد لله] الكلام في لام التعريف أهـي للجنس أو الاستغراق ؟ مشهور • والحقيقة أن مآلهما واحد ، لأن الجنس إذا كان موجودا في الخارج فهو موجود بوجود الأفراد ، لأن وجود الكلي الطبيعي وجود أفراده ، فإذا قلنا : جنس الحمد مختص بالله تعالى ، فمعناه أن هذا الجنس المتحقق في جميع الأفراد أيا كان فهو مختص بالله تعالى ، وإذا قلنا : إن أفراد الحمد عموما لله كما هو الاستغراق معناه أن أفراد ذلك الجنس مختص به تعالى ، ولا يليق به غيره • ومن الناس من قال : إن اللام للعهد أي إن الحمد

الذي حمد الله به نفسه ويليق بذاته ، مختص به تعالى • ثم إن الحمد لله قد يكون في مقابل النعمة وقد لا ، والواقع في فاتحة هذه السورة في مقابلة نعمة تستوعب أفراد النعم لأنه ربط الحمد بالمحمود [الذي خلق السماوات والأرض] وكل نعمة وصل أو ستصل إلى أيّ مظهر للحمد فإنما تنبع من السماء أو من الأرض فقد أفاد أن كل أفراد الحمد ثابت لله الذي نشأت منه كل نعمة أنعم بها على البرايا ، وجمع السماوات ، وأفرد الارض قالوا لأن السماوات طبقات متعددة متباينة بالذات ، فأما الارض فهي ، وإن ورد أنها سبع أيضا في قوله تعالى (ومن الارض مثلهن) لكنها متطابقة لا ترى ولا تلاحظ إلا كشييء واحد فهي كالبصلة الواحدة فيها قشور متضامة بعضها فوق بعض • والحق أن يقال : إن ما تحت الأقدام شييء واحد وهو الأرض التي يستقر عليها البشر وسائر الحيوانات ، وإن كان في ذاتها تحتوي على طبقات مختلفة متفاوتة الآثار • واما ما علا رؤوس الإنسان فهو أمور كثيرة منها الشمس المضيئة التي تنور الكائنات ، ومنها القمر ، ومنها الزهرة ، ومنها سائر الكواكب المشعة البعيدة • ثم قالوا : إن الفرق بين الخلق والجعل هو أن الخلق فيه معنى التقدير ، وأن الجعل فيه معنى التضمين ، فمعنى خلق السموات هو أن الله قدر وقرر في علمه الأزلي صورة الكائنات ثم أبدعها على ما تقرر في علمه •

وأما معنى [جعل الظلمات والنور] أنه صير الظلمات عارضة على بعض المواد كما أنه صير الأنوار عارضة على بعض آخر ، فالجعل يحتاج إلى اعتبار موصوف يقبل الصفة أي جعل الظلمات والنور صفات للمواد الكونية ، وقد يستعمل الجعل بمعنى الخلق والإبداع بدون ملاحظة شييء آخر مع ذلك المخلوق المبدَع •

والكلام في أن الماهيات مجعولة أولا مشهور بين أهل العلم ، ولكن في بيانه تفصيل ، وهو أنه إذا أريد بالجعلِ الجعلُ البسيط ، أي إبداع الشيىء من العدم إلى الوجود ، ومن الماهية الحقيقةُ الثابتة في الخارج أو في الذهن ، فكل حقيقة خارجية جوهر أو عرض مجعول بهذا الجعل ، فإن الله سبحانه وتعالى أبدعها من الليسية إلى الأيسية ، وكما أن الشمس تستتبع حدوث الضوء كذلك إرادة الفاعل المختار تستتبع تلك الحقيقة الخارجية عينا أو عرضا ، وكذلك الماهية الموجودة في الذهن بالوجود الذهني فإن ذلك الوجود عرض من حيث قيامه بالذهن ، وكيف والله تعالى يخلقه في قلب الإنسان المدرك ؟ وإذا أريد بالجعلِ الجعلُ المركب ، أي جعل شيىء شيئا ، واعتبرنا الوجود زائدا على ماهية الموجود فكل ماهية خارجية أو ذهنية مجعولة بذلك الجعلِ لأن الله تعالى جعل الماهية متصفة بالوجود ، وجعل الماهية موجودة • وإذا اعتبرنا الوجود عين الماهية فلا مجال للقول بالجعلِ بهذا المعنى ، لأن الشيىء الواحد لا يتصور فيه جعل شيىء شيئا • هذا حاصل الموضوع بقدر مستوى أفكار المطالعين اليوم •

وقوله تعالى : [ثم الذين كفروا بربهم يعدلون] معناه ثم انظروا إلى عقول الكفار المشركين بعد أن إذا سألهتم من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ليقولن الله فأولئك الناس الذين كَفَروا يَعْدِلُونَ ويسوون الأصنام بربهم ويجعلونها شركاء لله تعالى في العبادة ويعبدونها كما يعبدون الله بزعمهم •

وقوله : [هو الذي خلقكم من طين] استئناف لبيان كفرهم بالبعث ، فيقول : (هو الذي خلقكم من طين) أي خلق أصلكم وهو آدم ـ عليه السلام ـ من الطين ، أو خلق أنفسكم من الطين باعتبار أن مادة النطفة المتكونة عند الوالدين نشأتها من المواد الطينية [ثم قضى أجلاً] يعني قدر

وكتب حدا معينا من الزمن للموت لا يستأخر آنا كما لا يتقدم . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى تعلق علمه بانتهاء حياة كل حي في آن معين لأسباب معينة، وعلمه تعالى غير قابل للتبدل أبدا ، فعلى ذلك تبين أن الأجل لكل حي" أجل واحد" ، والذين زعموا أن الأجل يتعدد وأن المقتول لم يمت بأجله وقعوا في غلط فاحش ، حيث لم يعرفوا معنى الأجل ، وإلا لزم تعدد الأجل لكل من لدغته حية ، أو صال عليه سبع ، أو سقط عليه حائط ، أو غرقه الماء، إلى آخر الأسباب التي يتولد الموت منها .

ومنشأ الغلط تفسيرهم للأجل بالوقت الذي انحلّت أعضاء الحي فيه ولم تبق فيها قابلية النمو والبقاء مع أن ذلك تفسير موهوم . وإنما الأجل هو الوقت الذي علم الله تعالى انتهاء الحياة فيه [وأجل مسمى عنده] اي وكما أن لانتهاء حياة الحي أجلا معينا كذلك يوجد في علمه تعالى حد معين للبعث من القبور [ثم أنتم] أيها المخاطبون [تمترون] وتشكون في البعث مع أن البعث وهو الإحياء بعد الموت مثال للخلق والإيجاد أولا . فكما صدر منه البدء يصدر منه الإعادة [ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة] . فالأساس لهذه التطورات قدرة الفاعل ووجود القابل والكل متحقق .

فإن قيل إذا كان الأجل على ما ذكرت فما وجه معصية القاتل المباشر للقتل ؟ قلنا : معنى علمه تعالى بأجل الرجل تعلق علمه بأن زيداً العاصي السيىء الاختيار يباشر سبب قتل عمرو ويقتله . فهذا القاتل حقق ما علمه الباري تعالى وعلمه متعلق بأن زيدا جانٍ عاص عابث . فإن قلت : إذا كان الأمر كذلك فما معنى قوله : (وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ولا يُنْقَصُ من عُمرِه إلاّ في كتاب) ؟ وما وجه الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن الصدقة تدفع البلاء وتزيد العمر ، وأن صلة الأرحام ومساعدة الأرامل والأيتام توجبان زيادة العمر ؟ قلت : معنى الآية الشريفة واضح ، ووجه الأحاديث الشريفة

لائح وليس المعنى على أن عمر الشخص كان قليلا في علمه تعالى ثم خالف علمه وزاد في مدة حياته وأخر أجله • بل المعنى إن العمر الطويل للشخص أو العمر القصير له مكتوب في اللوح المحفوظ ومعلوم عند الله تعالى ، وإن عمر المتصدق على الفقراء والواصل للأرحام كتب طويلا حسب علمه بأن الرجل المطيع للدين الحسن الاختيار يفعل في المستقبل تلك الحسنات والصلات والمبرات •

[وهو الله في السماوات وفي الأرض] الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي تضمنه الاسم الجليل • ومعنى الآية : وهو المعبود بحق في السماوات وفي الأرض ، وليس معناه إن الله مستقر في السماوات وفي الأرض ، وذلك لوجوه :

الأول : إن الأدلة القطعيـة دلت على أن الله تعالى واجب الوجـود ، وموصوف بالكمال المطلق ، ومنزه عن النقص مطلقا • والاحتياج إلى المحل والمستقر نقص أي نقص •

الثاني : إن الله تعالى قديم أزلي والسماوات والأرض حادثتان ، فلو احتاج الباري إلى المحـل لزم احتياجه إلى الحادث ، واحتياج القـديم الى الحادث غير معقول •

الثالث : إنه الله تعالى أزلي قديم ، والسماوات والأرض حادثتان فلو احتاج الباري إليهما لزم احتياجه قبلهما إلى غيرهما من الأمكنة الحادثة ، ولزم احتياجه قبلها إلى مكان آخر حادث فلزم أن لا ينفك الباري عن المكان ولزم قدم المكان مع أن استغناء الباري عن المكان وحدوث كل ما سوى الله محقق ومعلوم بالإجماع •

الرابع : إنه لو كان الله تعالى محتاجا إلى المكان وجب أن يكون مكانه مساويا له لأن نقصان المكان عن المتمكن وزيادته عليه ممتنع بالذات ، فلزم

من استوائه لمكان بُعداً ومَسافةً كونُ الباري تعالى على مسافة من البدن ومركباً من أجزاء محدودة ، ولزم من ذلك احتياجه إليها وذلك شعار الحدوث وممتنع عليه تعالى ، فوجب إما السكوت عن هذه الآية الكريمة وما شابهها وتفويضها إلى الله تعالى مع الإيمان بصدقها ومطابقتها للواقع وإما تأويلها بحيث يتناسب مع وجوب وجود الباري تعالى وقدمه واستغنائه عن كل حادث كما أفادها المحققون من المفسرين .

[يعلم سركم وجهركم] أي ما أسررتم وجهرتم به من القول والفعل [ويعلم ما تكسبون] أي ما تفعلونه لجلب مصلحة أو طرد مضرة . كيف لا وهو عالم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين . [وما تأتيهم من آية من آيات ربهم] سواء كانت تنزيلية أو تكوينية من الخوارق للعادة معجزات أو كرامات له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لأحد أصحابه أو أتباعه [إلا كانوا عنها معرضين] غير مقبلين ولا معتنين [فقد كذبوا بالحق لما جاءهم] وهو القرآن الكريم الذي لا يرفضه إلا اللئيم [فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزؤن] فإن الله تعالى عالم بجميع سيّآتهم من الكذب والافتراء والبهتان والاستهزاء والعناد والعداء والبغي والشحناء وهو تعالى ، وإن كان له إمهال فلا إهمال منه ، تعالى رب العالمين .

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ، وَأَرْسَلْنا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً ، وَجَعَلْنا الأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ؟(٦) وَلَوْ

نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(٧) وَقَالُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ! وَلَو أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ(٨) وَلَو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ(٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)(١٠)

قوله : [الم يروا] الآية استئناف مسوق لتعيين ما هو المراد بما تقدم ، يعني الزجر والتوبيخ على المعاصي والتحريض على الإيمان بالله ورسوله . واختلف في مقدار مدة القرن فقالوا : مائة وعشرون سنة وقيل : مائة . وقيل : ثمانون ، وقيل : سبعون وقيل : ستون . وقد تقرر اليوم على مائة سنة. فيقال: نحن في القرن الخامس عشر الهجري على هاجرها الصلاة والسلام.

والمعنى : و [كم أهلكنا من] أهل [قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم] أي جعلناهم متمكنين في الاستقرار على الأرض والاستيلاء عليها واستغلالها في منافعهم وطرد الأعداء بحيث لم نمكن لكم بتلك الدرجة [وأرسلنا] عليهم [السماء مدرارا] كثير الدرّ بالخيرات . [وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم] أي مكناهم من البنيان والقصور والحدائق والأوراد وشق الأنهار الجارية فيها من تحت الأبنية العالية ، فصارت دورهم كمنتزهات لهم ، ولكنهم لما استغنوا طغوا على الحق وبغوا في الأرض وأفسدوها بإفساد أهلها ، وجعلوا يذنبون بدون زاجر ورادع حتى جاء وقت القضاء عليهم [فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين] أي أهل قرن آخرين . وكلما جاءت أمة لعنت أختها لبغيها وعدوانها ، وهكذا الدنيا فلا ينجو أحد من عذاب رب العالمين .

وأولئك المتمردون الموجودون في قرنك مثل أهل القرون السابقة بل أشد شكيمة وأقطع حالا وطبيعة ، ولا يزالون في عنادهم [ولو نزلنا عليك] من السماء [كتابا] مسطورا من النور ومن أصول الدستور مكتوبا [في قرطاس] مما اعتاده الناس [فلمسوه] أي الكتاب أو القرطاس [بأيديهم] حتى لا يبقى عندهم مجال شبهة [لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحرٌ مبين] واعتقدوا أنه من غير الله تعالى

وَإِذا البَيِّناتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً فالتِماسُ الهُدى بِهِنَّ عَناء

[وقالوا] بوجه آخر في قدحهم في رسالتك : [لولا أنزل عليه ملَك] نراهُ بأعْيننا [ولو أنزلنا] عليك [ملكا] بصورته الحقيقية حتَى يَرَوْهُ [لقضي الأمر] أي لتم أمر إهلاكهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم ، إما لهول منظره الرهيب أو لجريان سنة الله بأن إنزال الملك في حال طغيان الأمة لم يكن إلا لاستئصالها [ثم لا ينظرون] أي لا يُمْهلون • [ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون] يعني ولو جعلنا الرسول النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكا لجعلناه رجلا وصورناه بصورته ، حتى يتمكن الناس من لقائه ويحشرون معه في مدة بقائه بينهم ، لأن الرسول الملك لو أنزل ملكا وفي صورة الملائكة لم يمكنهم مجاورته لعدم استطاعتهم بهذه القوة الاعتيادية الاستفادة منه ، لمهابة الملك في صورته الحقيقية وكان يغشى عليهم إذا رأوه ، وإذا جعلناه رجلا كان كمثل الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس اعتقدوه بشرا وللبسنا عليهم ما يلبسون معناه لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم ، فيقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم كما يقال في المثل العربي : (عادت

الهيفاء إلى ديدنها) يعني إن طبعكم المستمر على التمرد والعصيان والقدح في الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأساليب الخاطئة لازم لكم لا ينفك فلا فرق حينئذ بين إنزال الملك وإنزال البشر • والذي يطعن في الشمس بأنها أحمرانية يطعن في البدر بأنه أكدراني ، والرسول مثل الرسول ، والبشر مثل البشر ، والطبيعة مثل الطبيعة إلا من هداه الله إلى الحقيقة •

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الآيات الثلاث لها أسباب للنزول ، فأما الآية الاولى أعنى (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس) فقد نزلت في النضر بن الحرث وعبدالله ابن أبي أمية ، ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله • فنزلت تلك الآية وردت عليهم بأن حصول مأمولهم لا يفيدهم لأنهم قوم تمردوا واستمروا على العناد (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) •

وأما الآية الثانية فقد نزلت في جواب واحد من مقترحين اقترحهما جمعٌ من مشركي مكة ، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال : دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه إلى الإسلام وكلّمهم ، فَأبلَغَ إليهم فيما بَلَغني ، فقال له زمْعَةُ ابن الأسود ابن المطلب ، والنضر ابن الحرث بن كلدة ، وعبدة ابن عبد يغوث وابي بن خلف بن وهب والعاص بن وائل بن هشام : لو جُعِلَ معك يا محمد ملكٌ يُحدثُ عنكَ الناس ويرى معك ! فأنزل الله تعالى قوله سبحانه : (وقالوا لولا أنزل علبه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون) وسر قضاء الأمر فيهم وإهلاكهم إما عدم قابليتهم لرؤية الملك في صورته الحقيقية ، وإما لأنه لو أنزل الله الملك حسب

اقتراحهم وهم الذين طبعوا على العناد ما كانوا يؤمنون ، فاستحقوا الإهلاك لأن اقتراحهم لم يكن لمطلق المعجزة كيف كانت ، بل كان معجزا خاصا تعلق به أملهم ، فاذا أجيبوا وفق مقترحهم ولم يؤمنوا كانوا على غاية من العناد ، وسنة الله تعالى جرت في تلك الحالة على إهلاك المقترحين .

وأما المقترح الثاني لهم هو أنهم اقترحوا أن يكون الرسول الذي يأتيهم غير البشر ويكونَ ملكا ، فردهم الله تعالى بالآية الثالثة ، وهي قوله تعالى : (ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا ولَلَبَسنا عليهم ما يَلبِسُون) ومعناها : ولو جعلنا النذير الذي اقترحتم إنزاله ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لعدم استطاعتكم معاينة الملك على هيكله الاصلي ، ولو جعلناه رجلا لَلَبَسنا عَلَيهم ما يلبسون ، يعني لجعلنا عليهم الحالة التي هم عليها الآن مع الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن الملك لما تمثل برجل من الرجال لا يكون فيه مزية من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكما أنكروا عليه كذلك كانوا ينكرون على ذلك الرجل الذي تمثل به الملك المرسل إليهم .

والحاصل : إن هذه الاقتراحات كلها تعنت ولم يتحقق شيىء منها على وجه الإنصاف والاسترشاد ، حتى إذا أجبناهم أجابونا بل كلها على التعجيز ، لأنا نراهم يسخرون بالرسول سخريتهم بإنسان من العوام . ولكن مع ذلك كله لا تهتم بهم وبمقترحاتهم وباستهزائهم (ولقد استهزيء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) .

وهذه الآية تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما يصيبه من قومه . يعني يا حبيبي لست بأول رسول استهزأ به قومه ، فكثير من الرسل الكرام استهزأ به من قومه الجهلة اللئام ، وكان النصر حليفه في العاقبة كما أن عاقبة

أولئك الجهال كان الدمار في الدنيا والنار في الآخرة • وهذه سنة الله في خلقه ، والتأريخ يعيد نفسه بحقه •

(قُلْ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُلْ : لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلْ : لِلهِ ، كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ الى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وهو يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ؟! قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)(١٨)

قوله تعالى : [قل سيروا] خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر له أن يقول لقومه المتمردين سيروا [في الأرض] ومواقع البلاد المعمورة منها حتى تتضح لكم أحوال الأمم الخالية المتمردة وما نزل عليهم من المصائب بسبب تمردهم [ثم انظروا] بعيون الإبصار وقلوب الاعتبار حتى تعلموا [كيف كان عاقبة المكذبين] وبديهي عند ذلك النظر والاعتبار تعلمون أن

عاقبتهم كانت سيئة ، وعلتها البغي والطغيان والتمرد الموجود فيكم بزيادة ، فتعلمون أن عاقبتكم هي الدمار في الدنيا والنار في الآخرة .

[قل] يا حبيبي لقومك على سبيل التوبيخ : [لمن ما في السماوات والأرض ؟] من الكواكب والأنوار والأمطار وسائر الخيرات ، ومن المعادن والنباتات والحيوانات ؟ وإذا سكتوا عن الجواب خجلا فـ [قل] نيابة عنهم : كل ما ذكر [لله] ، لأن كل عاقل يعلم أن تلك الأشياء ليست واجبة الوجود فلها مؤثر رجح وجودها وذلك المؤثر هو الله الواجب الوجود [كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ] وقل : إن ذلك الذات كتب على ذاته الرحمة ولذلك لا يستعجل بعذاب الكفار المتمردين [ليجمعنكم إلى يوم القيامة] ويحاسبكم على إشراككم وسائر معاصيكم لاريب فيه لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه [الذينَ خسروا أنفسهم] بتضييع رأس مال العقل والتفكر فيما هو فيه [فهم لا يؤمنون] أي فإذا خسروا رؤوس أموال العقول فهم لا يؤمنون . [وله] أي لذلك الذات الكثير البر والإحسان جميع [ما سكن في الليل والنهار] واستقر أي وله كل ما اشتملا عليه من المائع والجامد والمؤمن والجاحد ملكا وتصرفا وإفناء وإبقاء لا يمعنه مانع [وهو السميع] القوى السمع لكل ما يسمع من الأصوات الجهرية والسرية و [العليم] الوافر العلم بكل ما يتعلق به العلم أبدا . [قل] يا رسولي مستنكرا لما أصروا عليه من الكفر والجحود والإشراك في المعبود [أغير الله] الجامع للكمال المانع عن النقص [أتخذ وليا] ناصرا ومولىً ينصرني ويؤيدني أعبده وأسجد له حال كونه [فاطر السماوات والأرض] وموجدهما من العدم إلى الوجود . والفاطر : هو البادىء بالشيء خلقا وإيجادا ، أو صنعا واكتسابا [وهو يطعم ولا يطعم ؟] **أي وهو يعين ولا** يعان ، يرزق ولا يرزق ؛ لأنه الغني المطلق .

[قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم] من هذه الأمة فأمرني ربي أن أكون مسلما موحدا ، ونهاني عن الإشراك ، وقال : [ولا تكونن من المشركين] أحداً به ؛ لا في وجوب الوجود ، ولا في الخلق وإيجاد الموجود ، ولا في العبادة من أشباه الطاعات والركوع والسجود ، وأدبني أن أمشي على سنته في الكائنات ، وأباشر الأسباب في جلب كل خير من الخيرات ورفع كل شر وآفات [قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم] فإن الخالق أعظم من كل عظيم ، وإطاعته عبارة عن العبادة وانتهاج الصراط المستقيم ، وجزاء العاملين المثوبة الحسنى والنعيم المقيم ، وجزاء العاطلين عذاب النار الأليم . [من يصرف عنه] أي عذاب ذلك اليوم [يومئذ] أي يوم نيل الجزاء [فقد رحمه] الله [وذلك الفوز المبين] وهو الذي لا مانع لما أعطاه ، ولا معطى لما أباه . [وإن يمسسك الله] سبحانه وتعالى [بضرّ] لمرض ومخافة وفقر حال وآفة [فلا كاشف له إلا هو] فلا قادر على كشفه إلا هو لأنه هو الذي أبداه وهو الذي يزيله ويفنيه ، وكل ما قرره وشرعه من الأسباب النافعة والدافعة من الاستفادة بمداواة الطبيب ، أو الالتجاء الى ملجأ رهيب ، أو الاستغاثة بإنسان نافع بعيد او قريب ، أو تعلم العلاج من أستاذ مرشد لبيب ... فمن الاسباب . وقد قال تعالى : (وآتيناه من كل شيىء سببا فأتبع سببا) وذلك كله هدى الله يهدي به من يشاء بجلب ما شاء أو دفع ما يشاء . [وإن يمسسك بخير] فصححك وأمنك ، وأعزك ، وأكرمك ، فهو منه تعالى ومن مقدوراته التي يسيرها لك بفضله عليه ، وإن تسألني عن مدى قدرته [فهو على كل شيىء قدير] لا يعظم عليه شيىء ، فتأدبوا واكتسبوا على سننه وشريعته إلى يوم الدين . [وهو القاهر] أي الغالب المستولي [فوق عباده] فوقية الغالب على المغلوب . وفوقية المعين على المكروب ، وفوقية الناجح الحائز على المطلوب ، لا فوقية زيد على السطوح ، بل فوقية الفاتح على المفتوح . فإن الأدلة القاطعة

والبراهين الساطعة تدل دلالة لا فيها شبهة أن الله تعالى أزلي قبل كل موجود قبل الزمان والمكان ، وقبل حركة الفلك بالدوران ، وقبل وجود السماء والكواكب والارض وسائر الأكوان . فالفوقية النسبية باعتبار ما هو المعتاد ممتنع في حقه تعالى . والاستدلال بظاهر الآثار والإسناد عادة من لا ينظر إلى برهان الرشاد ، ويكتفي بالظنون حسب المعتاد . وانى هذا من ذلك !

وكل ما ورد من الأحاديث الشريفة الظاهرة في إسناد الفوقية إليه تعالى فليس على معنى ثبوت الجهة والجانب ، وأن يكون هو فوق شيء فوقية مكانية ، بل إنما هي من الآيات المتشابهة المفوضة إلى علم الله تعالى وتسليمها بدون البحث عنها ، أو أنها مؤولة على قاعدة الخلف بتأويلات مناسبة أَظْهَرُها وأنْورها فوقية الغلبة والقدرة ، كما أن قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) وقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) عبارة عن ارتباط علمي وسيطرة من جهة القوة والقدرة . بل يقول الإمام حجة الإسلام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ : إنها ليست من الآيات المتشابهة ، بل كلها كنايات عربية مفهومة لأهل العرف العام . والمراد بها ما ذكرنا .

ورفع اليدين إلى السماء في وقت الدعاء مبني على رعاية الشرف والاحترام ؛ فإن الأرض تحت الأقدام والقلب فوقها ، والرأس فوق الصدر ، وكل ما يكون أمامك أو تحت أقدامك لا يلاحظ فيها اعتبار يمتاز به عن غيره شرفا . فالإنسان إذا دعا ربه يدعوه ويجعل الكعبة التي هي قبلة الصلاة قبلة دعائه ، ولا قبلة أخرى لنا غيرها . ورفع الأيدي إلى السماء ليس إلا لاعتبار الشرف في العلو والفوقية .

ولما كان معنى لفظ القاهر والأعلى الغلبة الباهرة والسطوة الظاهرة ، وذلك مما يتوهم الناس منه أن الله إذا عصاه عاص فاجأه بالانتقام ، وليس ذلك كذلك لأنه سبحانه وتعالى كثيرا ما يسمح ويعفو ، وقد ينتقم ويؤجل الانتقام إلى مدى بعيد .. ختم الآية بقوله [وهو الحكيم الخبير] أي إن الله تعالى مع أنه قاهر فوق عباده حكيم ذو حكمة بالغة ، وعالم بالأشياء على ما هي عليه ، ومبالغ في إحكام الأمور وإتقانه ، ولا يعمل شيئا خاليا عن المصلحة والحكمة ، وخبير بأحوال العباد وأعمالهم ، وما يناسب العفو أو التأجيل أو التعجيل ، وكل ما يصدر منه حق واضح مبين .

(قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى ؟ قُلْ : لا أَشْهَدُ . قُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(١٩)

عن ابن عباس قال جاء : النحام ابن زيد ، وقروم بن كعب ، ومجرى ابن عمرو ، فقالوا : يامحمد ما نعلم مع الله إلها غيره. فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لا إله إلا الله ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو . فأنزل الله في قولهم هذه الآية . رواه ابن اسحاق وابن جرير .

وقيل : إن رؤساء مكة قالوا : يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فقالوا : ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله . فنزلت الآية . ذكره الواحدي والبغوي .

قوله تعالى : [قل أي شيىء أكبر شهادة] يعني يا حبيبي قل في جواب قولهم من يشهد لك برسالتك : أي شيىء وأي موجود في العلم أكبر شهادة على الحق من غيره ؟ و [قل] أنت بنفسك في الجواب : (ألله) أي أن الذي هو أكبر شهادة ذات الله الواجب الوجود ؛ لأنه عالم بجميع ما يمكن أن يعلم ، وكل حقيقة معلومة عنده بلا شبهة وخفاء • ثم ابتدأ فقال : [شـهيد بيني وبينكم] أي هو شهيد يشهد على رسالتي وهو صاحب القول الفصل بيني وبينكم [وأوحي اليّ هذا القرآن لأنذركم به ومَن بَلَغَ] أي ومن جملة ما يشهد به لي أنه أوحي إليّ هذا القرآن الذي هو فصل الخطاب لأنذركم يا قريش ومن معهم ، ومَن بَلَغَ ، وأنذر به من بلغه من الثقلين الجن والإنس الأسود منهم والأبيض والأحمر والأصفر [أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة اخرى ؟] إنكار واستبعاد لما يجري من المخاطبين بقوله (أئنكم) أي أأنتم مع هذا القرآن العظيم الذي نزل وثبتت قدسيته بشخصه تشهدون بقوة وتأكد أن مع الله الواحد الأحد الفرد الصمد آلهة أخرى بلا وزن لوجودهم الفارغ عن الوجود لاستغناء الواجب عن الممكن والكامل عن النقص ؟ [قل : لا أشهد] أي قل لهم إن شهدتم بوجود آلهة مع الله فأنا لا أشهد بما تشهدون ؛ لأن الوحي السليم والعقل المستقيم يأبى ذلك [قل إنما هو إله واحِدٌ] قل لاولئك الجاهلين الغافلين عن الحق : إنما المعبود بالحق إله واحد فحسبُ ، [وإنني بريىء مما تشركون] أي تجعلونه بزعمكم الباطل شريكا لذلك الذات الكامل ، من الأصنام والهياكل المنحوتة المنحوسة • تعالى الله عما يشركون •

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبناءَهُمْ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)(٢٠)

قوله : [الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه] جواب عن قول الكفار ولقد سألنا اليهود والنصارى فقالوا : ليس لك عندهم ذكر ، فيقول [الذين آتيناهم الكتاب] من اليهود والنصارى [يعرفونه] أي يعرفون رسول الله بحليته ونعوته [كما يعرفون أبناءهم] بحيث لا يشكون فيه . ومن هذا الباب قال عبدالله بن سلام في تصديق الآية : وأيم الله الذي يعرف ويحلف به ابن سلام لأَنا بمحمدٍ أشد معرفة مني بابني ؛ لأني لا أدري ما أحدثت أمه ! ثم قال تعالى [الذين خسروا أنفسهم] من أهل الكتاب والمشركين [فهم لا يؤمنون] بما يجب الإيمان به .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟(٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا : وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ؟(٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(٢٥)

قوله تعالى [وَمَنْ أظلم] الآية معناه وأيّ مكلف أشدّ وأكثر ظلماً ممن أي من الذي [افترى على الله كذبا] بأن قال الملائكة بنات الله ، أو الأصنام شفعاؤنا عنده برضاه [أو كذب بآياته] الدالة على وجوده وبعث

رسله من المعجزات القاهرة الظاهرة ، وادعوا أنها سحر" أو غير ذلك من المفتريات !؟ [إنه لا يفلح الظالمون] الذين اتصفوا بالظلم ولو كان قليلا ، فكيف بمن هو أظلم الظالمين ؟ فلا شبهة إنه لايفلح لأنه ظالم ولا يفلح الظالمون .

[ويوم نحشرهم جميعا] أي اذكر يوم نحشرهم جميعا [ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم ؟] أي أين الشركاء الذين كنتم تعتمدون عليها لتخلصكم من العذاب [الذين كنتم تزعمون] أي تزعمونها نافعة لكم ودافعة عنكم الهول والعذاب [ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين] معناه لم تكن عاقبة كفرهم وشركهم إلا البهت والحيرة وعدم الانتفاع بما اتخذوه نافعا لهم ، والحلف الكاذب من قولهم : والله ربنا ما كنا مشركين [أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون] وضاع عنهم ما كانوا يفترون بوجوده ونفعه على الله .

[ومنهم من يستمع إليك] حين تتلو آيات القرآن الكريم من مشركي مكّة [وجعلنا على قلوبهم أكنة] أي أغطية وحجبا مانعة من [أن يفقهوه] أي يفهموه وجعلنا [في آذانهم وقرا] مانعا من استماعه حق الاستماع [وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها] معناه وإن أبصروا بالعيون أو أدركوا بالقلوب كل آية دالة على رسالتك ، وعلى صحة ما تدعو إليه من التوحيد لا يؤمنون بها لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم للإصغاء إليك أو للتأمل فيما يدل على صدقك [حتى إذا جاؤك يجادلونك] أي وصل عنادهم وغيهم إلى درجة لا تخليهم للاستفادة مما تقرأه عليهم ، وزاد ضلالهم بحيث حتى إذا جاءوك يجادلونك ويتكلمون ويتخاصمون معك للغلبة عليك .

[يقول الذين كفروا : إن هذا] أي ما هذا المكتوب الذي يقرأه عليكم [إلا أساطير الأولين] أي أحاديثهم المسطورة التي تنقل وتقرأ على العادة

التقليدية ، وليس بشيء يعول عليه . وكلامهم هذا ناشيء عن جهل وعناد وفساد وإفساد . فإن الإنسان العاقل إذا سمع ألفاظا مأخوذة من الأفواه ، أو مقروءة من الكتب فحقه أن يستمع لها حتى يأخذها ، ثم يتفكر في مدلولها ، فإن كان داعيا إلى الرشد والأخذ بالانتباه ، وملاحظة الحال والاستقبال ، وتوجيه القلوب إلى الشعور بالمسؤولية أخذه وتقبله وجعله وسيلة لسعادته في الدارين . وليس من حقه أن يرفضه وينسبه إلى ما لا يليق به ، فإن ذلك مثل ما يجد الإنسان نقودا من الذهب ويرميها في البحر ولا ينتفع بها لا هو ولا غيره من بني نوعه !

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)(٢٦)

عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي طالب ، كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتباعد هو عما جاء به . رواه الحاكم والبيهقي . وعن سعيد ابن أبي هلال نزلت في عمومة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا عشرة ، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عنيه في السر . رواه ابن أبي حاتم . وقيل : نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع رسول الله ويتباعدون بأنفسهم عنه .

قوله تعالى : [وهم ينهون عنه] الضمير العمدة راجع للمشركين ، وضمير عنه راجع الى القرآن ، يعني إن المشركين كانوا ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقع في قلوبهم ، أو لئلا يتفكروا فيه فيأخذون به . [وينأون عنه] أي ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لنفرتهم عن سماعه ، أو أنهم ينهون عن إيذائه غيرة وحمية ، وقد كانوا يبتعدون عنه ، ولا يؤمنون ، فالضميران المجروران للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [وإن يهلكون إلا أنفسهم]

أي وما كانوا يهلكون بتلك الأعمال والحيل إلا أنفسهم بتعريضها لعذاب الآخرة [وما يشعرون] أن الوبال يأتيهم في المآل .

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا : يَالَيْتَنَا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) وقالُوا : إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، ومَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٢٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ : أَلَيْسَ هَذا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا قالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جاءَتهم السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا : يا حَسْرَتَنا عَلَى ما فَرَّطْنا فِيها ! وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ أَلاَ ساء ما يَزِرُونَ(٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟)(٣٢)

قوله تعالى : [ولو ترى] الخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من له قابلية الخطاب ، فيشرع الباري في بيان ما يأتي عليهم وما يصدر عنهم يوم القيامة . فيقول : [ولو ترى إذ وقفوا] أي عرضوا على النار وعرضت عليهم ، وعلموا أنهم واردون فيها ومعذبون [فقالوا : يا ليتنا نرد] إلى الدنيا مع الشعور النافع [ولا نكذب بآيات ربنا] كما كنا نكذب من قبل [ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل] أي أعرض

عما يشعر به كلامهم هذا من رغبتهم الصادقة في الرجوع إلى الدنيا للطاعة والانقياد ، وإنما قالوا ذلك لأنه ظهر وبدا لهم عذاب وعقاب كانوا يخفونه وينكرونه من قبل في الدنيا [ولو ردوا] إلى الدنيا [لعادوا لما نهوا عنه] من الكفر والاستكبار والعناد • [وإنهم لكاذبون] فيما يستفاد من تمنيهم وهو أنهم نادمون عن المعاصي وعازمون على إطاعة الباري ورسوله في الأحكام [وقالوا] قيل إنه عطف على قوله تعالى (عادوا) أي ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا [إن هي إلا حياتنا الدنيا] والحق إن الواو لعطف حكاية حال من أحوالهم على حال آخر • والمقصود : وقالوا : أي المشركون أو الكفار المنكرون للبعث مطلقا إن هي ضمير مبهم راجع إلى الحياة المذكورة بعد ، أي وقالوا : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وحياتنا في عالم الوجود قبل الموت وعالم البرزخ [وما نحن بمبعوثين] إذا فارقتنا الروح في هذا العالم ، أي لا حياة ولا بعث بعد الموت • هذا كلامهم الذي صدر منهم في هذه الدنيا [ولو ترى] يا حبيبي [اذ وقفوا على ربهم] وعرضوا عليه [قال : أليس هذا بالحق ؟] أي قال الله تعالى : أليس هذا بالحق • أي ليس هذا البعث والحياة بعد الحياة الدنيوية بالحق ، أي حقا ومتلبسا بالحق • [قالوا : بلى وربنا] أي بلى هو حق وربنا • [قال] الله تعالى لهم : [فذوقوا العذاب] الذي أنكرتموه في الدنيا [بما كنتم تكفرون] بسبب كفركم به ، أو بالكفر به وبغيره [قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله] قيل : إن لقاء الله تعالى استعارة تمثيلية عن البعث وما يتبعه • والحسن وابن عباس على أن المراد لقاء جزائه تعالى يوم القيامة بتقدير المضاف • [حتى إذا جاءتهم الساعة] أي يوم البعث والنشور • والساعة : القطعة من الزمان وغلب على يوم القيامة كالنجم للثريا [بغتة] أي فجأة ، مصدر وقع موقع الحال أي مباغتة [قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا

فيها] أي على تفريطنا وتقصيرنا في مدة الحياة الدنيا . وهذا المقول جملة ندائية يقصد بها إظهار التحسر على ما فات [وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم] والجملة في موضع الحال من فاعل قالوا ، والمراد بها بيان سوء حالهم وشدة ما يجدونه من المشقة والآلام والعقاب . وقيل حملها على الظهر حقيقة وأنها تجسم [ألا ساء ما يزرُون] تذييل مقرر لما قبله . [ومَا الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولهو] يعني وما أعمال الإنسان في مدة الحياة الدنيا إلا لعب ولهو أي اشتغال بما لا يعني . وفرق بينهما بأن اللعب : ما قصد به تعجيل المسرة والاسترواح . واللهو : كل ما شغل من هوى وطرب وإن لم يقصد به ذلك [وللدار الآخرة خير للذين يتقون] الكفر والمعاصي [أفلا تعقلون] ذلك ؟

(قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُون ، فَإنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ، ولكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُون(٣٣) وَلَقَد كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على مَا كُذِّبُوا ، وأوذُوا حتَّى أتيهُمْ نَصْرُنَا ، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ولَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأ المُرْسَلِينَ)(٣٤)

عن علي ــ كرم الله وجهه ــ أن أبا جهل قال للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إنا لا نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب بما جئت به ! فأنزل الله الآية . رواه الترمذي والحاكم .

قوله تعالى : [قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون] كسرت إن لدخول اللام فيما بعده ومعناه نحن نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ويتأثر قلبك به لأن مغزى كلامهم تكذيبك في دعوى الرسالة من الله ، وإنكار آيات الله لأن معنى قولهم إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ولكن نكذب بما جئت به ، إما

أنك صادق في ما أخبرت به في أمور الدنيا ، ولكن لا نصدقك في أنه يوحى إليك ولا بما تقول إنه وحي من الله • فهناك تكذيب لك في دعوى الرسالة كما أنه تكذيب لآيات الله النازلة ، وإما معناه أنت كنت صادقا بيننا وما نسبناك إلى الكذب في ما سبق من عمرك ولكنا نكذب ما جئت به وننكر أنه كلام الله وحكمه ، وإنما هو من كلام بعض من الجن يلقى إليك وأنت تقبله وتنقله إلينا فهناك أيضا ، وإن لم ينسبوه إلى الكذب ظاهراً ويقولون له أنت صادق في أنه أُلقي إليك كلام" غيبي" بدعوى أنه كلام الله ، ولكنه تكذيب لآيات الله تعالى وجحود وإنكار لها ، وفي الحقيقة تكذيب للرسول في دعوى أنه رسول الله تعالى • فقوله تعالى [فإنهم لا يكذبونك] أي ظاهرا [ولكن الظالمين] يكذبونك باطنا و [بآيات الله يجحدون] حقيقة بكل معنى الكلام • هـذا إذا كان مورد نزول الآية ما ذكرنا من قول أبي جهل : يا محمد إنا لا نكذبك وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به كما نقلناه آنفا • وأما إذا كان المورد هو تكذيبهم له ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما كان عادتهم فمعنى الآية الكريمة : يا رسولي لا تحزن بإنكار المشركين وبتكذيبهم لك ، فإنهم وإن كذبوك ولكن ليس التكذيب عائدا إليك ، بل إن الظالمين بالإشراك والاستكبار بآيات الله يجحدون ، ونحن نعلم بهم وبأقوالهم وأفعالهم ، وننتقم منهم في حالهم ومآلهم في الحال بعذاب وأسر وقتل محدد ، وفي المآل بعذاب مستمر إلى الأبد • ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى : [ولقد كُذِّب رسل من قبلك] عيسى وموسى وإبراهيم وهود وصالح ونوح [فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتيهم نصرنا] بتأييد وفتوح [ولا مبدل لكلمات الله] أي كلماته التي هي فصل الخطاب في العالمين ، حيث قال : [إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا] • وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) • وقال : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى

حين) • [ولا مبدل لكلمات الله] فإنها من سننه التي تقررت في العالمين [ولقد جاءك من نبأ المرسلين] والحمد لله رب العالمين •

(وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدى ، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ(٣٥) إنمَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)(٣٦)

قوله : [وإن كان كبر عليك إعراضهم] الآية يقول سبحانه وتعالى لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك رسول الله أرسلك إلى كافة الناس بشيرا ونذيرا ، وكلما ارتفعت درجة الإنسان في العالم زادت أعداؤه وحسّاده ، لاسيما الرسول الذي نزل عليه الوحي وأمر بتبليغه إلى المكلفين ، وعند ذلك لا مجال إلا بالاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه ، والصبر على ما يناله من الأتعاب ، وهكذا كانت عادة الرسل قبلك إلى أن جاءهم النصر • وإلا فإن كان كبر عليك إعراضهم أي إعراض المشركين عن الإيمان بك وبما جئت به من القرآن المجيد وشق عليك الصبر على أذاهم [فإن استطعت] وقدرت وتهيأ لك [أن تبتغي نفقا في الأرض] أي سربا فيها تذهب إليه وتسكن به وتختفي عنهم [أو سلما في السماء] أو أن تبتغي سلما أي مرقاة ومصعدا فيها ترقى عليها وتصعد إلى محل لا تنالك فيه أيدي العابثين ، ولا تسمع فيه كلام المشركين وتتفرغ للسعي في ما ينجيك منهم [فتأتيهم] منها [بآية] أرضية أو سماوية على حسب ما اقترحوه من الآيات ، أو حسب ما تعتقد فيه إقناعهم به من المعجزات فافعلْ ذلك وأقنعهم بها ، وسخرهم لإطاعتك والإيمان

بما جئت به من الله العلي القدير . وإن لم تستطع ذلك ، ولن تستطيعه أبدا ، فاصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين ، ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى عاجز عن أن يفعل بهم ما يريد من الإهلاك والإبادة ، أو أن يهديهم إليه بحيث لا يبقى في قلوبهم شك وشبهة في أمر الدين كلا [ولو شاء الله] جمعهم على ما أنت عليه [لَجَمَعَهم عَلى الهدى] في أقرب وقت وأقل زمان ، ولكن الله لا يريد ذلك لأن الإيمان حينئذ يكون إيمان إلجاء واضطرار ، ولا وزن له في سوق العبودية ، وإنما يحب أن يختار الإنسان المخلوق على القابلية والاستعداد صرف إرادته إلى الخير والرشاد ، وينحرف بالقوة عن بغي الهوى وعناد النفس الأمارة وإفساد الشيطان [فلا تكونن من الجاهلين] بهذه الحقائق .

وهنا نكتتان : الأولى : إن الله سبحانه وتعالى راعى كرامة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومقامه الرفيع ، ولم يقل فلا تجهل ، بل قال فلا تكونن من الجاهلين أي ممن ينسب إلى أولي الجهل بواجبات الإنسان .

الثانية : إنه لم يكن الرسول منزعجا غاية الانزعاج وضيق الصدر وحصر النفس في مقابل المشركين حتى يردع ويزجر بآية مثل ما نزلت ، ولكنه أراد تنوير المسلمين وتوجيههم إلى وجوب الصبر وإفساح الصدر ، فإن الإنسان كائنا من كان يجب عليه أن يتورع بالأخلاق العالية ، ومن أهمها : التوكل على الله ، والصبر على أذى العباد ، والاستقامة على طريق الرشاد .

ثم أتى الباري سبحانه بمفهوم آخر يؤيد الصبر والسلوى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال تعالى [إنما يستجيب الذين يسمعون] أي لا تجزع من عدم استجابة أهل الإشراك لما تقرأه عليهم من الآيات ؛ فإنه

لا يستجيب إلا من يسمع الكلام ويفهمه ، ولا يسمعه إلا الأحياء ، ولكن المشركين مَوْتى القلوب ، والموتى لا يسمعون إلا يوم [يبعثهم الله] من القبور [ثم إليه] أي إلى الله [يرجعون] فيحاسبهم على ما سمعوه وما لم يسمعوه وكانوا عنه غافلين •

(وقَالُوا : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ! قُلْ : إِنَّ اللهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ، ولكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٣٧) ومَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ(٣٨) والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)(٣٩)

قوله تعالى : [وقالوا] أي وقال رؤساء قريش البالغون أعلى مراتب الجهل : [لَولا نُزِّل عَلَيه آية مِنْ ربه !] أي لولا نزل عليه آية قاهرة ملجئة للإيمان بأن يقلع جبل أبي قبيس ويرفعه على رؤوسهم [قل : إن الله قادر على أنْ يُنَزِّل آية] كما يقترحون [ولكنّ أكثرَهُمْ لا يَعْلمون] أي لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل كل آية يقترحونها ؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود إله واجب الوجود موصوف بالكمال منزه عن النقص ، ولو آمنوا بذلك لعلموا أن قدرته تشمل كل ممكن من الممكنات ؛ فإن القدرة على خلق السماوات ونجومها ، وحركات الكواكب السيارة فيها ، وبقائها على نظام خاص في الحركة الدورية ، وخلق الأرض والجبال وما فيها من المعادن والنبات والحيوان مع بداهة أن كلا من المذكورات وأجزائها من الممكنات الخاصة

التي يستوي وجودها وعدمها ، ولا يتحقق شيىء منهما إلا بمرجح خارج عن سلسلة الممكنات •• دليل ظاهر وسلطان قاهر على أن الله على كل شيىء قدير •

وهذه الآية التي اقترحوها ليست بأعجب وأبدع من خلق جميع الحيوانات وإدارة شؤونها [وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالكم] في خلقها من العناصر ونشوئها ونمائها ، وتوالدها وتناسلها ، والميل والعطف الغريزي فيها ، وفي إحساسها بالحواس الموجودة فيها ، وفي إدراكها إلى درجة تناسب بقاء نوع الحيوان ، ولكن لكل نوع من أنواعها أفق خاص محدود ، وتتفاوت آفاقها • ومن طالع كتب الحيوانات ونشوءها وبقاءها والآثار الظاهرة منها في تربية أفراخها وتداويها ، وسعيها في تحصيل الرزق ، وعبورها المياه الكثيرة ، وفي تحصيل المواد الغذائية التي تعيش بها ، وفي إعداد المسكن الذي تبقى فيه ، وفي نظامها الداخلي ، ومدافعة الأعداء المهاجمة عليها ، أو على نسلها •• اطلع على حقائق محيرة للعقول [ما فرطنا في الكتاب من شيىء] أي ما قصرنا في ضبط أحوالها في الكتاب المعهود ، أعني اللوح المحفوظ ، وجمعناها فيه ، أو في القرآن الكريم بصورة إجمالية تناسب إدراكنا [ثم] بعد الخروج من دائرة الحياة المادية الدنيوية وبعد الموت وانقضاء أمد البرزخ [إلى ربهم يحشرون] •

ثم إن ظاهر قوله تعالى (إلا أمم أمثالكم) وقوله : (ثم إلى ربهم يحشرون) هو أن الحيوانات البرية والبحرية على كثرتها بعد الموت يحشرون ويحاسبون • ويؤيده ما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء ويجازيها كيف يهملكم سدى ؟! وهو حديث صحيح رواه الشيخان • ولكنه لا يلزم من هذا أن يدخل في الجنة أو في النار ، ولعل لتعذيب الواحد أي واحد أصولا مقررة خاصة ، وكذا التنعيم ، كما أن ظاهر الآيات القرآنية هو أن كل شيىء له تسبيح خاص وأنا لا نفقه تسبيحه • فالكائنات شواهد وآيات للدلالة على ذاته

الواجب الوجود الأزلي وصفاته الكمالية ، وتسبيح الحصى في يده الشريفة دليل لطيف على الموضوع بالوجه المناسب ، وهناك آراء مشروحة في محلها .

قوله : [والذين كذبوا] في قوة التعليل ، أو نزلت بمناسبة للآيات تشبه مناسبة العلة للمعلول في قوة الارتباط والمقارنة في الوجود . ويقول : والسر في أن الكافرين المشركين لا يعلمون أن الله قادر على كل شيىء ولا يؤمنون بآيات الله مع ما يرونه من الآثار الدالة على وجوده وكماله هو أنهم استمروا في ظلمات الجهل وتحت سيطرة التقليد الأعمى ، وركبوا جماع الهوى النفسية التي تعاند الهدى القدسي ، وأضيف إلى كل ذلك العناد الناشىء عن الحسد .

[والذين كذبوا بآياتنا] بناء على العوامل المذكورة [صم] عن استماع الحق وآيات القرآن والمواعظ والنصائح المفيدة [وبكم] لا ينطقون بكل ما يفيدهم خيرا من الاستنجاد بأهل المروءة والنجدة والتعليم والإرشاد . وهم [في الظلمات] الأربع السابقة ظلمة الجهل والتقليد والهوى والعناد . و [من] اختار مباشرة الأسباب الأربعة للضلال فهو ممن شاء الله تعالى أزلاً إضلاله بسبب سوء مباشرته وسوء اختياره لها فيما لا يزال ومن [يشأ الله] إضلاله أزلا لعلمه بسوء مباشرته [يضلله] لأن المراد لا يتخلف عن الإرادة [ومن يشأ] أزلا هدايته لعلمه بحسن تصرفاته فيما لا يزال يهديه و [يجعله على صراط مستقيم] وبيان حقيقة الأمر هو أن الله خالق كل شيىء وعالم بكل شيىء أزلا وأبدا وأنه خلق مخلوقات جامدة ونامية غير حساسة ، وخلق مخلوقات حساسة غير عاقلة ، وخلق مخلوقات حساسة عاقلة يميز بالعقل بين الخير والشر والنفع والضر ، ولكنها لا تدرك بمحض العقل المغيبات الآتية والمسؤليات في المستقبل فأرسل الرسل وأيدهم بالوحي فبين الرسول لهم على

حسب الوحي أنهم يموتون ثم يبعثون ويحشرون ويحاسبون ويأخذون جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وبنو آدم من العقلاء المكلفين لهم تنوير العقل وتأييدالرسل للعقل وتعليمه في مالايدركه بالذات فمن صرف قواه فيهداه فقد فاز بالسعادة ومن صرفها في هواه فقد نال الشقاوة . والباري تعالى علم أزلا أن أي إنسان وأي مكلف يصرف قوته في سعادته ، وأي مكلف يصرفها في شقاوته ، وعلى ذلك العلم الأزلي والإرادة الأزلية من باشر في ما لا يزال أسباب الخير شاءه الله له وخلقه ومن باشر فيه أسباب الشقاء شاءه الله له ، فالمسؤول هو العبد المشغول بالأعمال فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . فقدرة الباري وسائر صفاته أزلية أبدية ، وخلقه للأشياء إنما هو بقدرته ، وقدرته تابعة لإرادته وإرادته تابعة لعلمه ، وعلمه مرآة يتجلى فيها صور الأشياء التي يباشرها العبد باختياره . ومن ذلك اشتهر عند الأصوليين أن العلم تابع للمعلوم وحاك عنه يحكي صورة ما يقع في المستقبل باختيار الفاعل الكاسب ، وعليه قوله تعالى : (والله يعلم ما تصنعون) .

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟!(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ، إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ! وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(٤٥)

قوله [أرأيتكم] استفهام تعجيب ، ولفظ كُمْ حرف خطاب للدلالة على الجمع مجاز عن أخبرني مجازا مرسلا تبعيا • أي تجوز فيه بتبعية المجاز في المصدرين منقول عن أرأيت بمعنى أبصرت أو عرفت ، كأنه قيل أأبصرته وشاهدت حاله العجيبة ؟! أو أعرفتها أخبرني عنها ؟ فلا تستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء • ووجه المجاز أنه لما كان العلم بالشيء سببا للإخبار عنه أو الإبصار به طريقا إلى إحاطته علما وإلى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخبر ، وعلى التقديرين فيه تجوزان ، وشبه استعارة تبعية • وينبغي أن يسمى مثله مجازا مرسلا تبعيا قاله الشهاب •

يعني أخبروني [ان أتيكم عذاب الله بغتة] ومفاجأة كما أتى بعض المتمردين الذين كانوا قبلكم [أو أتتكم الساعة] الموعودة وأدركتم هولها وشدتها [أغير الله تدعون] لتخليصكم [إن كنتم صادقين] ؟! في دعوى أن الأصنام آلهة • وجواب الشرط محذوف ، أي فادعوه [بل إياه تدعون] أي تخصون الله تعالى بالدعاء كما عرف من عادتكم إذا ألجأتكم الحوادث [فيكشف ما تدعون إليه إن شاء] لأن استجابة الدعاء تفضل منه تعالى [وتنسون ما تشركون] به حين الخلاص والكشف لأن المستغيث إذا أجيب اطمأن قلبه إلى ربه •

[ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك] أي أرسلنا إلى أمم من قبل أيام رسالتك [فكفروا] وكذبوا وتمردوا [فأخذناهم بالبأساء] من الشدة وفقر الحال [والضراء] من الأمراض والبلايا [لعلهم يتضرعون] أي يتذللون ويتوبون فنتوب عليهم ، ولكن لم يتضرعوا لشدة شكيمتهم وقساوة قلوبهم

[فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا !] حتى نرحمهم [ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون] وذلك دأب الفاسقين المتعنتين [فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيىء] من النعم التي صورتها نعم وسيرتها نقم [حتى إذا فرحوا بما أوتوا] منها [أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون] أي آيسون من الرحمة ومتحسرون [فقطع دابر القوم الذين ظلموا] أي آخر من بقي منهم حتى يبادوا ويستأصلوا [والحمد لله رب العالمين] على نعمته التي أنعم بها على العباد من إبادة أهل البغي والعناد ليستريح الناس برهة من الزمان تحت راية الأمان والأمر لله رب العالمين .

(قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ ، وخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتيكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ؟(٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ)(٤٩)

قوله تعالى [قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم] الآية معناه : قل يا رسولي لأولئك المشركين الغافلين عن شكر نعم الله الكثيرة الواردة عليهم : [إن أخذ الله] منكم [سمعكم] فجعلكم صمّاً لا تسمعون شيئا [و] أخذ [أبصاركم] وجعلكم عُمْياً لا تبصرون شيئا [وختم على قلوبكم] ومنعها عن إدراكها الغريزي وورود المعلومات عليها فـ [من إله غيرُ الله يأتيكم به ؟] أي بذلك المذكور من السمع وغيره [أنظر كيف نصرف الآيات] أي تفكر في معاملتنا

مع الناس الغافلين عن الخالق وشكر نعمه والإيمان به وبصفاته وبرسله وبما جاؤا به ، فتارة نذكرهم بالترغيب والترهيب ، وتارة بذكر القصص العجيبة ونقل ما وقع في سالف الأيام على الأمم المعاندة للرسل ، وتارة بالتوجيه نحو الاستدلال بالأدلة النفسية والآفاقية [ثم هم يَصْدِفون] ومع ذلك كله هم يعرضون عنها ولا يستفيدون منها ، وما ذلك إلا لسوء اختيارهم ولقلة اعتبارهم وكلمة [أنظر] يفيد التعجب مثل أرأيت وتصريف الآيات تكريرها على أنحاء مختلفة تناسبُ الحالَ والمقام [قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة] أي مباغتة ومفاجأة بدون مقدمة وكانت سرا [أو] أتاكم عذابه [جهرة] واضحة يتقدم عليها دعوة للحق من الرسل وإنذارات وتباشير [هل يهلك] بذلك العذاب هلاكَ غضب [إلا القوم الظالمون] ؟ والجواب لا ، فإن الله اذا جرى عذابه على أحبابه فإنما هو لكفارة سيئات أو رفع درجات ، وإذا جرى على الأشقياء المتمردين على الحق فإنما هو عذاب إهلاك وانتقام من حيث يشعرون أو لا يشعرون [وما نرسل المرسلين إلا] مبلغين لأحكام الله تعالى الاعتقادية والعملية و [مبشرين] للمنقادين بالجنة [ومنذرين] لهم بالنار ، وليس عند الرسل إلا البلاغ وإيضاح السبل ، وليس في قدرتهم الإتيانُ بالمقترحات والخروج عن سنة الله في الكائنات [فمن آمن] بالله ورسوله [وأصلح] أعماله وترك ما يجب أن يترك وفعل ما يجب أن يفعل [فلا خوف عليهم] من العذاب في الآخرة [ولا هم يحزنون] على ما فات من الثواب .

[والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون] أي يخرجون عن إطاعة الباري .

(قلْ : لا أَقولُ لَكُمْ عِنْدي خَزائِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ، ولا أَقولُ لَكُمْ إنّي مَلَكٌ ، إنْ أتّبِعُ إلاّ ما يُوحى إلَيَّ ، قلْ : هلْ يَسْتَوي الأَعْمى والبَصيرُ ؟ أفَلاَ

تَتَفَكَّرُونَ ؟(٥٠) وأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَروا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)(٥١)

[قل لا أقول لكم عندي خزائن الله] أعطي من أشاء ما شاء [ولا أعلم الغيب] غير ما يوحى إلي [ولا أقول لكم إني ملك] وأقدر على طي المسافات الشاسعة وفعل الأعمال الصعبة الشاقة ، أو على مخالفة الطبيعة من الابتعاد عن الأكل والشرب والمنام والمقام ومقتضيات الأنفس البشرية ، وإنما أنا بشر مستوعب لصفات البشر ومنتظر لأمر الله حسب القضاء والمقدر ؛ وخصني ربي برحمته فأفاض علي سابغَ نعمته ، وشرفني بنبوته ورسالته ، وأوحى إليَّ ما شاء من شريعته و [إن أتبع إلا ما يوحى إلي] وأبلغه إلى الأنام ؛ فمن تبعه واهتدى به فهو البصير الذي يدرك طريقه ويمشي عليها سوياً ، ومن تركه وعانده وجحده فهو الأعمى في البصيرة ، ولو كان صاحب بصر ، فإذا بينت القسمين لهم فـ [قُلْ : هَلْ يَسْتوي الأعمى والبصير ؟ افلا تتفكرون ؟] في الآفاق وفي انفسكم ، وفيما يوحى إليّ واُلقي إليكم لعلكم تفلحون .
[وأنذر به] أي بما يوحى إليك [الذين يخافون] أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم [ليس لهم من دونه ولي] ينصرهم بالقوة والغلبة [ولا شفيع] يشفع لهم [لعلهم] إذا انذرتهم به [يتقون] ويحذرون مخالفة ربهم فيفوزوا بالسعادة في الدنيا والدين .

(وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، ما عَلَيْكَ مِن حِسابِهِمْ مَنْ شَيْءٍ ، وما مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ(٥٢) وكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا : أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا ؟! أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ ؟(٥٣) وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥٤) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وِلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ)(٥٥)

عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد نزلت (ولا تطرد الذين) الآية في ستة : أنا ، وعبدالله بن مسعود ، وبلال ، وعمار ، والمقداد ، وصهيب • قالوا ـ المشركون ـ لرسول الله : اطردهم فإنا نستحي أن يكون لك تبع كهؤلاء ، فوقع في نفس النبي ما شاء الله • فأنزل الله الآية إلى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟) رواه ابن حبان ومسلم والنسائي والحاكم • وعن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده خباب ابنُ الأَرَتِّ ، وصهيب ، وعمار ، وبلال ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين • فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟! أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا ؟! أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك !! فأنزل الله تعالى : (وأنذر به الذين يخافون) إلى (ولتستبين سبيل المجرمين) رواه احمد ، والطبراني وابن ابي حاتم • وعن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى ابي طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه هؤلاء الأَعْبُدَ كان أعظم في صدورنا ، وأطوعَ له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه !! فكلم أبو طالب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون • فأنزل الله تعالى : (وأنذر به الذين يخافون) إلى (أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟) وكانوا بلالا ، وعمار بن ياسر ، وسالما مولى أبي حذيفة ، وابن مسعود في آخرين ،

فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم من مقالته ، فأنزل الله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون) رواه ابن جرير .

قوله تعالى : [ولا تطرد الذين يدعون ربهم] الآية لما أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإنذار المذكورين لعلهم يدخلون في سلك المتقين نهي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم فيقول سبحانه وتعالى ـ يا رسولي [لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي] مخلصين حال كونهم [يريدون وجهه] أي رضاء ذاته . والجملة في موضع الحال من ضمير يدعون . والمراد بإرادة الوجه الإخلاص بناء على امتناع كون ذاته مرادا لذاته ؛ لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات [ما عليك من حسابهم من شيء] معناه ما عليك شيىء من حساب إيمانهم واعمالهم الباطلة [وما من حسابك عليهم من شيىء] أي وما من حساب إيمانك وأعمالك عليهم أبدا ، فحسابهم عليهم لا يتعداهم ، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم [أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟] أي بمن يقع منه الشكر والإيمان والطاعة . [وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة] ومعلوم أن المؤمنين هم الذين كانوا يدعون ربهم فأمر الله تعالى حبيبه أن يبدأ بالتسليم عليهم أو يبلغ سلام الله إليهم ، ويبشرهم بسعة رحمته ، ومعنى تلك الرحمة [أنه من عمل منكم سوء بجهالة] أي جاهلين بحقيقة ما يتبعه من الخير والشر والثواب والعقاب [ثم تاب من بعده وأصلح] ثم تندم عما اقترفه من السوء وعزم على أن لا يعود إليه في المستقبل ، وأصلح بالتدارك ما أمكن تداركه [فإنه غفور رحيم . وكذلك نفصل الآيات] أي وبمثل هذا التفصيل والبيان الواضح نفصل الآيات أي آيات القرآن وصفة المطيعين والمجرمين [ولتستبين سبيلُ المجرمين] .

(قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ : لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ، قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ

المُهْتَدِينَ (٥٦) قل : إنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إنِ الحُكْمُ إلاَّ لله يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ : لَوْ أنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمْرُ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ ، واللهُ أعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)(٥٨)

قوله تعالى : [قل إني نهيت] أي قل للمشركين قطعا لأطماعهم الفارغة في ميلك إليهم : [إني نهيت أن أعبد الذين تدعون] أي الآلهة الذين تعبدونهم [من دون الله • قل] إن ما أنتم عليه أهواء" باطلة وأمانٍ عاطلة ، وإني [لا أتبع أهواءكم قد ضللتُ إذاً] أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت إذاً [وما أنا مِنَ المهتدين قل : إني على بينة من ربي] قل للمشركين الذين تاهوا في بيداء الضلال : إني على بينة وبرهان من ربي تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمدُ [و] الحال إنكم [كذبتم به] وعاندتموني ودعوتموني إلى الإتيان ببعض الآية الكونية التي تدل على صدقي في أمري و [ما عندي ما تستعجلون به] من تلك الآيات الكُبْريات التي تقطع عرق الضلال الذي ضللتم به [إن الحكم إلا لله] أي ما الحكم في تأخير إنزال تلك الآيات إلا لله وحده من غير أن يكون لأحد تأثير فيه [يقصّ الحق] أي يتبع الحق والحكمة في ما يحكم به [وهو خير الفاصلين] أي خير القاضين وخير الفاصلين للقضاء بين العباد •

[قل : لو أن عندي] أي في سيطرتي ونفاذ أمري [ماتستعجلون به] من عذاب يأتي عليكم [لقضي الأمر بيني وبينكم] وكنت أنزل عليكم ما تستعجلون به [والله اعلم] من كل عالم [بالظالمين] ومدى استحقاقهم للعذاب أو للسماح في الدنيا أو في الآخرة •

(وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُوَ ، ويَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ والبَحْرِ ، ومَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُها ، ولا

حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)(٥٩)

[وعنده مفاتح الغيب] أي العلوم الدقيقة التي تكشف أفراد المغيبات في الكائنات أعم مما يصل إليها الأفهام أولا [لا يعلمها إلا هو] لا يعلم تلك المغيبات ولا يكشفها إلا هو وإذا اطلع أحد" على شيء منه رسولا أو نبيا أو وليا فإنما يطلع عليه بإطلاعه عليه سواء بوحيه أو بإلهامه وتلك العلوم ليس في إمكان غير الله سبحانه وتعالى كشفها • وجاء للتأكيد على الموضوع بقوله الكريم [ويعلم ما في البر والبحر] أي ما في أبعاد الأرض وأعماق الماء ، وما في البر يشمل الأحجار والرمال والتراب وما عليها من النبات والأزهار والأوراق [وما تسقط من ورقة إلا يعلمها] ويعلم وقت حدوثها وبقائها وزوالها وسقوطها [ولا حبة في ظلمات الأرض] مما تحت القشرة العليا أو الوسطى أو الأدنى [ولا رطب ولا يابس] بمعنى المادة المائية وغيرها ، والنامي والجامد والحي والميت [إلا] هو موجود ومحدود ومعين [في كتاب مبين] وهو علمه الأزلي أو مخزن المعلومات الكونية أعني اللوح المحفوظ ، أو غير ذلك مما استأثر الله بعلمه •

تنبيه : فسرت المفاتح بالعلوم بناء على أنها جمع مفتح بكسر الميم اسم آلة بمعنى المفتاح ، ويؤيده قراءتها بالياء ، فالغيب هو الأمر الغائب عن الإحساس وإدراك العقول ، ومفاتحها علوم هي الكاشفة عنها • ثم الغيب على قسمين : غيب مطلق ، وهو ما استأثر الله بعلمه ككنه ذاته وصفاته ، وأسرار القدر ، وقيام الساعة ، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله • وغيب مقيد ، وهو ما غاب عن أبصار بعض دون آخر ، وعن إدراك عقل شخص دون آخر • فالمادة التي أمام عين زيد في مملكة غيب" عند عمرو في مملكة أخرى ، وليس غيبا عند كل أحد • والقضية التي يدركها عقل العالِم ليست غيبا عنده وهو غيب عند

الجاهل أو العالم الذي ليس علمه في ذلك المستوى . فكل شيىء محسوس بالمجاهر ليس غيبا عنده ، حتى يقال : كيف علم الغيب ؟ وإنما هو غيب عند من ليست عنده المجاهر . وكذلك العلوم العقلية التي يدركها بعض دون بعض . فكل ذلك مما هو حاضر في علمه تعالى أزلا وأبدا ، وإذا لم يعلمه أحد فمن الممكن أن يعلمه الله بالوحي كما أوحى إلى الرسل كثيرا من المغيبات المستقبلة عن زمانهم أو بالإلهام ، أو بإراءة صورة ذلك الشيىء بأن يجعل قوة نفسه الإدراكية قوية واسعة كما أدرك عمر بن الخطاب جيش سارية في (نهاوند) .

والحاصل : إن علم الغيب بمعنى الإدراك اللازم للذات أزلا وأبدا لا يوجد عند أحد إلا الله . وكل من كان له معرفة به فإن كان عنده جهاز يظهر له ذلك الشيء فهو حينئذ ليس من المغيبات بالنسبة إليه ، وما عدا ذلك من المعلومات الغيبية إذا حصل علمها لأحد فإنما هو بإعلامه تعالى له ذلك الشيء ، فليس لذلك الشخص علم الغيب بالمعنى المذكور . فخذ هذا وكن من الشاكرين .

(وَهُوَ الَّذي يَتَوَفَّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى اَجَلٌ مُسَمّىً ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠) وهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ويُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتّى إِذا جاءَ اَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ(٦١) ثم رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْليهِمُ الحَقِّ ، أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ اَسْرَعُ الحاسِبِينَ(٦٢) قُلْ : مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً لَئِنْ اَنْجينا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ

مِنَ الشَّاكِرِينَ ؟(٦٣) قُلِ : اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ(٦٤) قُلْ : هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قل : لست عليكم بِوَكِيلٍ(٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)(٦٧)

قوله تعالى : [وَهُوَ الذي يتوفاكم بالليل] الآية في هذه الآية وما بَعْدَها إلى قوله (وإذا رأيت الذين يخوضون) الآية بيان لأعمال عظيمة عجيبة يعجز عنها غيره تعالى ، يباشرها الباري بصفة أنه خالق السماوات والأرض والمتصرف فيهما وفيمن فيهما بالإتعاب والإنامة والإيقاظ والإقامة والإماتة والإحياء، ثم الحساب وإعطاء الجزاء لكل عامل حسب عمله ... وما على شاكلة هذه الأعمال للدلالة على أنه يجب على كل عاقل أن يعبد الله الواجب الوجود الخالق لكل موجود والمستحق لعبادته بالركوع والسجود حتى تلين عريكتهم وتخف شكيمتهم ويتوجهوا إلى الله رب العالمين .

ومعنى قوله الكريم : [وهو الذي يتوفيكم بالليل] أنه يُنيمُكُمْ ويجعلُ النومَ غالبا عليكم بحيث تقعون في المحل كالمَوْتى لا عندكم حسّ ولا شعور بما يَجري حولكم ، فضلا فيما يبعد عنكم ، فكأنه اماتكم وتَوَفّيكم [ويعلم ما جرحتم بالنهار] أي ويعلم ما كسبتموه بالنهار المقدم على تلك الليلة ، فكان النهار أوقات دنياكم وحياتكم فيها والليل وقت إماتتكم [ثم يَبْعثكم فيه] أي في النهار الذي يلي تلك الليلة التي توفاكم فيها . ويشبه ذلك النهار يوم البعث . وتبقون هكذا يتقلب عليكم النهار والليل إلى

انتهاء مدة حياتكم في الدنيا [ليقضى أجل مسمى] لينتهي زمان مقرر معين لبقائكم فيها [ثم إليه مرجعكم فينبئكم] بعد الرجوع [بما كنتم تعملون] • ومما ينبغي أن يعلم أن الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمسك عن بيان حقيقة الروح فأمسك عنها العلماء تأدبا ، وذلك لغموضها وصعوبة الوصول إلى كشفها • ولكنهم ذكروا أن للإنسان روحا حيوانيا يتولد من البخار المتولد من القلب الصنوبري ، ويكون مداراً للحس والحركة الإرادية وبفنائه يفنى الإنسان ويموت • وله روح انساني ويقال : لها الروح والنفس الناطقة ، وعليها مدار العقل والتميز ، وبها يصير الإنسان إنسانا عالما بالكليات والجزئيات المجردة والمادية ، وهو المسئول يوم القيامة عن الأعمال خيرها وشرها ، وهو المتمتع بنعيم الجنة أو المتعذب بعذاب الجحيم • وكما أنه مدار للعقل والتميز كذلك مدار للتطورات الواردة عليه ، ومن شدة ارتباطه بالروح الحيواني قد يتوهم أنهما شيىء واحد ، ولكنهما في الواقع شيئان متغايران ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى إماتة الإنسان يطفىء الروح الحيواني ، وبانطفائه تنقطع علاقة النفس الناطقة التي هي الروح الإنساني عن البدن ، وإذا تعب الإنسان في ساعات اليقظة والعمل قبض الله تعالى الروح الإنساني وسلب عنه الشعور المنبعث من استعمال الحواس حتى يكتسب الإنسان راحة وهدوءً موقتا ، وهو في الزمان عينه باق ومتعلق بأعماله الذاتية ، أي أنها في حالة النوم لا تتعطل عن الإدراك بقدر قابليته ، فقد ثبت أنه كما في حالة اليقظة تدرك الأشياء كذلك في حالة النوم ، لكنها في حالة اليقظة تستفيد المعلومات من الحواس الخمس الظاهرة وغيرها ، وأما في حالة النوم فلا تستفيد من الحواس بل من غيرها • ومن جملة معلوماته المكتسبة في النوم الرؤى التي يراها إما بإفاضة الباري تعالى عليه علوما من ذاته ، وإما بعلاقته مع باقي الأرواح الحية أو الميتة ، وإما باستفادته من اللوح المحفوظ الذي فيه صور

جميع الأشياء الواقعية • فلا يغرنكم ما اشتهر من بعض الناس أن الرؤيا التي يراها الإنسان خيالات باطلة ، بل هي إدراكات للنفس الناطقة كما ذكرنا ، لكن بعضا منها إدراك لحقائق واقعية تظهر في الوجود ، وبعض منها إدراكات لأمور غير واقعية أي لمفاهيم لا تطابق الواقع • ففي كتاب المواقف وشرحه : وقال الأستاذ أبو إسحاق : إنه أي المنام إدراك حق بلا شبهة ، إذ لا فرق بين ما يجده النائم من نفسه في نومه من إبصار المبصرات ، وسمع المسموعات ، وذوق المذوقات وغيرها من الإدراكات ، وبين ما يجده اليقظان في يقظته من إدراكاته • فلو جاز التشكيك فيه أي فيما يجده النائم جاز التشكيك في ما يجده اليقظان ، ولزم السفسطة والقدح في الأمور المعلومة حقيقتها بالبداهة • إنتهى •

وفي حاشيته للسيالكوتي ما نصه : قال المازني : مذهب أهل السنة أن حقيقة الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة ، ويخلق هذه الاعتقادات على أمور يخلقها في ثاني الحال كالغيم علما على المطر • إنتهى • والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونه خيالا باطلا أو أمرا حقا • إنتهى •

قلت : فما اشتهر من أن النوم ضد الإدراك معناه ضد للادراك بتوسط الحواس الظاهرة ، وإلا فإدراك النائم لكثير من الحقائق محقق لا شبهة فيه • وما ذكرناه هو الحق الموافق لظاهر الآيات الكثيرة الدالة على أن الرؤيا حق مثل قوله تعالى : (هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقا) وللاحاديث الكثيرة من جملتها ما ثبت بالأحاديث الصحاح أن النبي ـ عليه السلام ـ جعل الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة ، وعمل بها قبل الوحي ستة أشهر • ويؤيد ما ذكرنا من وجود الروح الحيواني والنفس

الإنساني ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ؛ فالنفس التي بها العقل والتميز ، والروح التي بها النَّفَسُ والحياة . فتتوفّيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها عند النوم . والله أعلم .

[وهو القاهر فوق عباده] أي والله هو الغالب المستولي على عباده كافة استيلاء من أخذ جانب الفوق من مقابله بحيث لا يفلت منه قطعا [ويرسل عليكم حفظة] أي يرسل عليكم ملائكة حافظين لأعمالكم ، لا يخفى منهم شيىء منها وهم الكرام الكاتبون . أو حافظين لكم من الأعداء الإنسية والجنية والوحشية في اليقظة والمنام والقعود والقيام . كما في قوله : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وكما في قوله (إن كل نفس لما عليها حافظ) . وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على يمينه ، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار : لننتظره لعله يتوب منها . فإن لم يتب كتب عليه . والمشهور أنهما على الكتفين .

(حتى إذا جاء أحدكم المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يفرطُون) معناه : حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم وجاء أسباب الموت توفته الملائكة المرسلة مِنّا المفوض إليهم ذلك وانتهى هناك حفظ الملائكة الحافظين ، وهم لا يقصرون عن أداء واجبهم بالتواني والكسل [ثم ردوا إلى الله موليهم الحق] أي وبعد التوفي لأرواحهم ردّوا إلى الله تعالى مولاهم ومالكهم الحق الثابت في الواقع بلا معارض ومدافع [ألا له الحكم] أي يختص به الحكم والقضاء في شأنهم صورة ومعنى ظاهرا وباطنا لا حاكم غيره ولا مغير لحكمه [وهو أسرع الحاسبين] يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان ولا يشغله حساب عن حساب . وفي الحديث : « أنه تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة » .

[قل : من ينجيكم من ظلمات البر] الذي تسيرون فيه وهو مغبر بالغبار الذي أثارته الرياح بحيث لا يرى أحد ما أمامه [و] ظلمات [البحر] إذا وقعتم فيها وانغمرت سفنكم أو المراد شدائد الأحوال في البر والبحر من الحروب أو الغلاء أو الآفات الواردة عليها حال كونهم [تدعونه تضرعا] وابتهالا إليه [وخفية] أي إسرارا ، والمعنى إعلانا وإسرارا قائلين : [لـئِن أ نْجينا] ربنا المنجي [من هذه] الظلمات والشدائد [لنكونن من الشاكرين] الراسخين في الشكر المداومين عليه [قل الله ينجيكم منها] أي من تلك الظلمات [ومن كل كرب] وبلاء آخر إذا قدر الله إنجاءكم منها [ثم أنتم تشركون] بربكم بدل أن تشكروه وتوحدوه وتعبدوه مخلصين له الدين ، [قل] يا رسولي منذراً لأولئك الغافلين من عذاب الله الجاهلين بواجبهم إزاءه : [هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم] أي من جهة السماء كالصيحة والصاعقة ، والبرق الخارق ، والثلج المتوافر ، والبرد المتناثر ... وهذا في ذلك الزمان ، أو من المواد التفجيرية الملقاة من الطيارات والصواريخ في زماننا [أو من تحت أرجلكم] أي من جهة السفل كالرجفة ، والخسف ، والزلازل ، والإحراق ، والإغراق ، أو الألغام والمواد التي تلقى في الأرض وتنفجر ويحصل منها هلاك العشرات والمآت [أو يلبسكم] أو يخلط عليكم أمركم ويجعلكم في اشتباه بدون انتباه ، وفي آراء مختلفة بمعاذير مختلقة حال كونهم [شيعا] وطوائف وجماعات كل منها ينظر فيها إلى جانب مشرقين ومغربين ومشتملين ومجنبين ، مُفْرطين ، ومفرّطين بحيث يحصل العداء والبغضاء والتنافس بينكم ، ويشتد الخلاف وينجر إلى القتال [ويذيق بعضكم بأس بعض] كما نرى في العَصر العسير أمورا من هذا القبيل ، وهذا من أشد أنواع البلاء ، لأن البلاء العملي عملية موقتة غير مستمرة ، وأما البلاء العلمي والفكري فهو مستمر بحيث لا يدع للناس فيه أمانا زمانا [أنظر] يا رسولي [كيف نصرف الآيات] في التبشيرات والإنذارات ، ونحولها من

نوع إلى آخر وذلك [لعلهم يفقهون] إن تلك الآيات الدالة على وجوه الحوادث لا يأتي بها إلا الله ويعتبرون بها ويرجعون من الغي والضلال إلى الرشد والإقبال .

[وكذب به] أي بالقرآن الجامع لهذه الآيات البينات [قومك] أي قريش ومن شايعهم لا للجهل فقط بل للحسد والعناد [و] الحال [هو] أي القرآن [الحق] النازل من ربك الحق [قل : لست عليكم بوكيل] وما فُوضَ أمرُكم من الله تعالى إلي حتى أدبر الأمور [لكل نبأ مستقر] أي لكل نبأ عظيم أتى به الصادق تحقق ووقوع واستقرار وآثار [وسوف تعلمون] مقتضى نبأكم هذا فانتظروا إنا معكم من المنتظرين .

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)(٧٠)

قوله تعالى : [وإذا رأيت] أي وإذا رأيت أهل الكتاب [الذين يخوضون في آياتنا] أي يدخلون في تكذيب آياتنا [فأعرض عنهم] واتركهم ولا تَدْخُلْ بينهم ولا تجالسهم [حتى يخوضوا في حديث غيره] أي في

كلام غير الكلام في التكذيب [وإما ينسينك الشيطان] أي وإن أنساك الشيطان ذلك النهي الوارد عليك منا وجالستهم [فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين] أي فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض مع أولئك القوم الظالمين بإنكار بعث خاتم الأنبياء والمرسلين وكتابه الذي أنزل عليه من رب العالمين • [وما على الذين يتقون من حسابهم من شيىء] أي ليس على المسلمين الذين يتقون مخالفة احكام الله تعالى من اعمالهم التي يحاسب عليها الخائضون من شيىء قليل أو كثير إذا جالسوهم حسب المعتاد بحيث لا يتوهم أنهم راضون بالخوض [ولكن] عليهم [ذكرى] صادرة منهم بالنسبة لأولئك الخائضين بأن ينهوهم عن الخوض في تكذيب آيات الله ، أو يظهر منهم ما يدل على كراهية ما يصدر منهم [لعلهم يتقون] أي لعل الكافرين الخائضين في تكذيب آيات الله يتقون الله ويتركون ذلك •

روي أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزىء بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف ! فنزلت للدلالة على أن الممنوع من مجالسة الخائضين هو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقط لا غيره من المسلمين • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجمع أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى النازل في المدينة : (وقد نزل عليكم في الكتاب : أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها •••) •

وفي الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ أنه لا نسخ ؛ لأن قوله تعالى : (وما على الذين يتقون) خبر ولا نسخ في الأخبار ، اللهم إلا إذا قيل بأن تلك الجملة الخبرية في معنى إنشاء إباحة المجالسة المذكورة في الآية الكريمة • والله اعلم •

[وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا] معناه واترك أهل الكتاب الذين اتخذوا دينهم الذي فرض عليهم ، وهو دين الإسلام ، لعبا ولهوا ؛ لا يهتمون

به ولا يقبلونه [وغرتهم الحياة الدنيا] أي أغفلتهم وخدعتهم هواية الآمال الفارغة في الحياة الدنيا أو نفس الحياة الدنيا المحبوبة عندهم بحيث يود أحدهم لو يعمر ألف سنة [وذكر به] أي بالقرآن واقرأه عليهم كراهة [أن تبسل نفس] وتحبس في الآخرة [بما كسبت] في حال كونها [ليس لها من دون الله ولي] ناصر يدفع عنها المهمات بالنصر والتأييد [ولا شفيع] بالرجاء والدعاء والتمجيد [وإن تعدل] أي تلك النفس وأعطت فديتها [كل عدل] أي كل فداء [لا يؤخذ منها ، أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا] أي أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا ، هم الذين أبسلوا أي حرموا ومنعوا عن الثواب بسبب كسبهم الأعمال السيئة ؛ فالموصول خبر لاسم الإشارة • وقوله [لهم شراب من حميم وعذاب أليم] خبر ثان واستحقاقهم للشراب من الحميم والعذاب الأليم ثابت [بما كانوا يكفرون] أي بسبب كفرهم بآيات الله البينات •

ومنهم من قال في تفسير قوله تعالى : (وذر الذين اتخذوا) أي أترك مجالسة السفهاء الذين اتخذوا (دينهم) الذي يتماوتون عليه صورةً (لعباً ولهواً) في الحقيقة والسفهاء بتلك الدرجة لا يجوز مجالستهم إلا لإرشادهم ، واذا لم يسترشدوا فالبعد عنهم رشد إلا بقدر الضرورة الواقعية •

(قُلْ : أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا ، وَنُرَدُّ عَلى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدينا الله كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا ، قُلْ : إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ(٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٧٢) وهو الَّذي خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ فَيَكُونُ • قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ

الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)(٧٣)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابو الشيخ عن السدي أن المشركين قالوا للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الله تعالى لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [قل : أندعوا] الآية وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حين دعاه ابنه عبدالرحمن إلى عبادة الأصنام • ولما كان الإسلام وصل من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم كان الأصل الأصيل في الرد على تلك الرغبة الباطلة هو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكأنه وكأنهم كالواحد أمر الله تعالى رسوله الجليل بالرد عليهم ، وجعل نفسه الشريفة في عداد المؤمنين وعلى رأسهم الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقال : [قل] يا حبيبي لهؤلاء الجهلاء : [أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا] ونترك عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر [ونُرَد على أعقابنا] إلى الوراء من غير رؤية مواضع أقدامنا ، فنضل ونهوى في جحيم الهوى بعد أن دخلنا سواء الطريق الموصل إلى جنة النعيم ورضوان الله العظيم ورؤية ذاته الكريم فنكون لا سمح الله حينئذ [كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران] أي كالجاهل الغافل الذي ذهبت به مَرَدَة الجن في الصحارى القفرة البعيدة عن الإنسان ووسيلة الحياة الطيبة ، فبقي حيران بلا بصر ولا بصيرة ، وحاله أنه [له] أي لذلك المستهوي الغافل [أصحاب] وأحباب [يدعونه] بجدٍّ [إلى الهدى] أي الطريق المستقيم الموصل سالكه بحيث كأنه نفس الهدى ، قائلين لذلك الغافل : [ائتنا] ؟! ولا تبعد عنا وكن لازما لجماعة الرحمة فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب • [قل] يا حبيبي لهم بعد الرد عليهم داعيا إلى الحق القويم : [ان هدى الله] الذي هدانا إليه وهو الإسلام [هو الهدى] وحده

وغيره هو الهوى وماذا بعد الهدى إلا الضلال [وأمرنا] نحن معاشر المسلمين بالإخلاص [لنسلم لرب العالمين • وأن أقيموا الصلاة] معطوف على مفعول الأمر المقدر ، وتقدير الكلام : وأمرنا بالإيمان وبإقامة الصلاة [واتقوه] أي وأمرنا بأن اتقوه أي اتقوا الرب في مخالفة أمره [وهو الذي إليه تحشرون] وهذه الجملة مستأنفة موجبة لامتثال الباري تعالى فيما أمر به لأنه الله سبحانه وتعالى يعود إليه كل عائد كما قال : [وهو الذي إليه تحشرون] أي وهو الملك المسيطر الذي إليه لا إلى غيره تحشرون أيها المكلفون [وهو الذي خلق السماوات] بما فيها من الكواكب النيرة الثابتة والسيارة [و] خلق [الأرض] بما فيها من المعادن والنبات والحيوان والعيون والأنهار والأشجار والأزهار والبحار الكبيرة الممتدة • [ويوم يقول : كن ، فيكون • قوله الحق] أي وقوله النافذ الحق الثابت يوم يقول لأي شيىء أراده : كن، فيكون كما أراده• وهذه إما كناية عن سرعة نفاذ إرادته وقدرته ، أي إذا أراد شيئا نفذت قدرته في وجود ذلك المراد كما أراد ، أو أنه خطاب يتوجه منه تعالى إلى الصور العلمية الموجودة عنده ضمن اتصافه بالعلم بدون لزوم قدم شيىء غير ذاته وصفاته تعالى ؛ فإذا توجه إلى أية صورة من تلك الصور أحدثها وأبدعها كما قدرها وقررها ، فتكون الأمور المعلومة أعيانا خارجية ثابتة جواهر وأعراضا [وله الملك يوم ينفخ في الصور] أي وإذا ظهر في الصورة ملك ونفاذ أمر لشخص من الأشخاص في عالم الدنيا فذلك إنما يكون قبل يوم نفخ الصور ، وفي ذلك اليوم له الملك لا لغيره أبدا يوم ينفخ بأمره ، والنافخ الملك المقرب إسرافيل ينفخ في الصور ، وهو قرن ينفخ فيه ذلك الملك عند الساعة نفختين ، وبالنفخة الأولى يموت ما على الأرض من أصحاب الحياة ويتزلزل وتخرج أثقالها • وبالنفخة الثانية تحيى جميع الأموات ويساقون إلى المحشر للحساب والميزان [عالم الغيب والشهادة] أي هو عالم بكل شيىء غائب عن الحواس وبكل ما يشاهد لأي مشاهد ، وإلا فالكائنات المادية والمعنوية كلها مكشوفة

لله أزلا وأبدا [وهو الحكيم] في كل ما يفعله [الخبير] بجميع الأمور الخفية والجلية .

(وَاِذْ قَالَ اِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ : اَتَتَّخِذُ اَصْنَاماً آلِهَةً ؟! اِنِّي اَرَيكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ !(٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي اِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي ، فَلَمَّا اَفَلَ قَالَ : لا اُحِبُّ الْآفِلِينَ(٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ : هذا رَبِّي ، فَلَمَّا اَفَلَ قالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ(٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ : هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا اَفَلَتْ ، قالَ : يا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(٧٨) اِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ، وَمَا اَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(٧٩)

قوله تعالى : [واذ قال] معناه واذكر إذ قال [إبراهيم لأبيه آزَرَ] مستنكرا اعتقاده الفاسد وعمله الكاسد ودورانه حول الصنم الجامد : [أتتخذ أصناما آلهة] تعبد وهي منحوتة بأيدي صناعكم الحجّارين والنجّارين ، وليس فيهم أية صفة تدعو إلى شرفها واستحقاقها للتشريف والتعظيم فضلا عن العبادة والركوع والسجود وطلب الجود بالموجود [إني أراك وقومك] التابعين لك [في ضلال مبين] أي غيّ في الجنان وضياع لطريق سعادة الإنسان ضلالا واضحا لا يحتاج إلى بيان [وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض] ومثل ذلك التنوير لقلبه والتبصير لبصيرته المدركة للحق المميزة بينه وبين الباطل حتى عارض أباه بما تراه نريه

ونبصره ملكوت السماوات ربوبية الباري تعالى للملك العظيم المتحقق في الأعيان بالطول والعرض للسماوات ، والأرض وما فيهما وما بينهما وما احتوياه من الأعيان والأعراض الدالة على صنع الصانع المبدع القادر الحكيم [وليكون] بقوته المعنوية من الغالبين ، ويكون في نفسه [من الموقنين] . فإن الداعي إلى مبدأ يجب أن يكون غالبا في دعوته وقويا في بصيرته وموقنا في سريرته ، وإلا فإذا عارضه أدنى معارض تأثر وتراجع إلى الوراء فيتنازل من الثريا إلى الثرى .

[فلما] عارض أباه في مبتغاه ، والتهب قلبه إلى إدراك طريق الوصول إلى مولاه ، ولم يكن له بغية سواه و [جن عليه الليل] بعد يوم المعارضة والمقال [رأى كوكبا] مشرقا يتلألأ بالتجوال ويشع على الجوّ بحسن الجمال [قال] إبراهيم : [هذا ربي] لا الأصنام الأرضية لأنها سفلية ، وهذا علوي ، وتلك أرضية مظلمة ، وهذا سماوي مشرق ، وتلك في متناول الأيدي والأقدام وهذا رفيع في القدر والمقام [فلما أفل] من مداره وغاب مع آثاره [قال : لا أحب الافلين] لأن المحبوب يجب أن يكون ثابتا مرغوبا لا زائلا محجوبا ، فكيف بالمعبود الذي هو منتهى الأمل والمقصود [فلما رأى القمر] طلع من الأفق بازغا وملأ الجوّ من نوره وما خَلّى فراغا [قال : هذا ربي] لا ذاك الكوكب ، ولم يأت على باله أنّه أيضا في طريق زواله ، ومشغول بدورانه وتجواله ، ومسخر للخالق بجماله وجلاله [فلما أفل] القمر أيضا [قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين] لأن الإنسان كائنا من كان لا يصل علمه إلى ما وراء الطبيعة الموصوفة بالحدوث والإمكان [فلما] تأمل ساعة وعرف من نفسه قلة الاستطاعة و [رأى الشمس بازغة] شقت الكون بالإشعاع وعم ضياؤها الأرض في كل بقاع ، قال : هذا النير أكبر من ذاك الآفل وأنور [هذا ربي هذا أكبر] استدلالا بكبر الجسم ووفرة الجود على عظمته في

الوجود ، وأنه لائق بالعبادة والسجود [فلما أفلت] وغربت مثل سابقيها ولم يستمر لها السكون علم أن المعبود بالحق لا يشبه ما كان وما يكون [وقال : يا قوم إني بريء من] عبادة كل زائل ومن عبادة [ما تشركون • إني وجهت وجهي] وحولت ذاتي وقلبي [لـ] الإله [الذي فطر السماوات والأرض] ودبر أمرهما وأمر ما فيهما على الطول والعرض [حنيفا] مائلا من كل زائل وباطل ومن كل عاجز وعاطل ، وأنا من الموحدين لله رب العالمين [وما أنا] قطعا [من المشركين] فتدرج ـ عليه السلام ـ من بساطة الصبيان إلى فكرة أهل العرفان ، ومن تقاليد العميان إلى تحقيق أهل العيان ، ومن سفاسف السفليات إلى معارف العلويات ، ومن صفاتها الناقصة الدالة على الحدوث إلى الإيمان بالله الواجب الوجود الخالق لكل موجود ، فاستقر في حاله حيث انكشف له ربه وعرف واجبه في حاله ومآله فاشتهر أمره وذاع خبره ، حتى دعاه الملك وحاجّه بما هو مشهور ، فآل الأمر إلى رميه بالمنجنيق في النار فصارت له بردا وسلاما ! فاضطرّ إلى تهجيره من العراق فتحول من أسير بين يدي الملحدين إلى رسول صار إماما للموحدين ، وبنى قبلة لعالم الإسلام هي قبة التوحيد على مر الأيام ، وولد له أولاد منهم إسماعيل الجد الأعلى لخاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ـ عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه الصلاة والسلام إلى يوم الدين ـ •

ومما ينبغي أن يعلم في هذا المقام أن بعض الناس قد استشكلوا ما حكاه الله سبحانه وتعالى في قصة إبراهيم من القول بربوبية الكوكب ، ثم القمر ، ثم الشمس بأنه كفر بالإجماع ، والكفر غير جائز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مطلقا وأجيب عنه بوجوه :

الوجه الأول : إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يقل : هذا ربي على سبيل الإخبار والاعتراف بربوبيته ، بل قاله على سبيل التنازل الوارد في

الجدال ، فكأنه قال لهم فرضنا أن الكوكب هو الرب ولكن كيف يجوز أن يكون الرب يظهر تارة ويغيب أخرى ، ويطلع ويغيب ويتحرك ويتحول ؟! إلى آخر ما هنالك من اوصاف الأشياء الحادثة ...

الوجه الثاني : إن المراد بقوله هذا ربي إنه ربي في زعمكم لأنكم كنتم تعبدون الكواكب .

الوجه الثالث : إن المراد بذلك الكلام كلام واقع على سبيل الاستفهام الإنكاري ، كما هو المعروف .

الوجه الرابع : أن يكون على كلامه قول مضمر والتقدير قال يقولون **هذا ربي** .

الوجه الخامس : إن كلامه ورد منه على طريق الاستهزاء بقومه .

الوجه السادس : إن اسـم الرب ليس من الأسماء المختصة بالمعبود كالاله ، إلا إذا أضيف إلى ما يختص به نحو رب العالمين . وإذا أضيف إلى المتكلـم أو المخاطب كأن يقال ربي أو ربك جاز أن يراد به المربي وصاحب الأمر كما قال سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ في شأن عزيز مصر (معاذ الله إنه ربي أحْسَنَ مثواي) وكما قال : (إرجع إلى ربك فاسـأله) الآية . فقول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في المواقف الثلاث : (هـذا ربي) إشارة إلى الكوكب أو القمر أو الشمس ليس إلا كقول يوسـف ـ عليه السلام ـ (إنه ربي أحسـن مثواي) وليس نصا في معنى الربوبية بالمعنى الممنوع ، ولا سيما أن قومه كانوا متعودين على عبادة الكواكب على أساس أنها وسائط بين الخالق والمخلوق بزعمهم في ذلك العهد ، فيجوز أن يراد به أن الكـوكب الفـلاني يربيني ويقربني إلى الله ويبعدني عن عبادة الهياكل المنصوبة .

ثم هذه الأجوبة مبنية على التزام أنه ـ عليه السلام ـ تكلم بذلك الكلام بعد البلوغ ووصوله حد التكليف . وأما إذا كان قبله وعند المراهقة فيقال : إنه تعالى خص إبراهيم بالعقل الصافي فخطر بباله قبل بلوغه معارضة الإشراك ورفض الهياكل والتوجه بالفكر السليم إلى الواحد الأحد ، وبينما هو متفكر ومضطرب رأى ما رآه وأبدى ما أبداه على سبيل الانتخاب والاختيار حتى أتاه اليقين .

وقال بعض المحققين : التحقيق في الموضوع هو أن الكفر والإيمان وصفان متقابلان تقابل التضاد ، فإن الكفر هو العناد والجحود بذات واجب الوجود . والإيمان هو الإذعان والتصديق به وبوحدته واستحقاقه للعبادة وإنه خالق لكل موجود . فهما كالسواد والبياض لا يجتمعان في محل واحد لتضادهما ، ولكنهما قد يرتفعان ، فكما أن الأجسام اللطيفة كالهواء ليست بأبيض ولا أسود كذلك من لا يكون فيه ايمان ولا كفر كمن نَشَأ في محل لم تبلغه الدعوة الإسلامية وبقي خالي الذهن منهما فإنه ليس بمؤمن ولا كافر ، وكذلك المجنون والصبي الغير المميز فلا ينسب إليه منهما إلا بتبعية الدار او الوالدين أحدهما أو كليهما . وكذلك الصبي المميز الغير الدارس للموضوع ، وأما المميز الدارس له فإنه يتصف بواحد منهما واقعا ولكنه لا يجري عليه الأحكام التكليفية المترتبة على البالغ ولا تجري أحكام الحدود وأمثالها مما يتعلق بالتكليف ، وإن ترتب عليها الأحكام الوضعية كالغرامة لما أتلفه . فالصبي المميز الدارس المتفكر في الموضوع إذا نظر إلى الآفاق والأنفس وتفكر في آثار الخالق في الكائنات فربما استرشد إلى الاستدلال على وجود الصانع الواجب الوجود ، وما دام هو يتفكر في هذا الشأن ربما ينتقل من طور إلى آخر من الظن إلى الاعتقاد ثم إلى اليقين ، وإذا قلنا : له درجات ، فهو يتحول بين درجاته إلى ان يصل إلى علم اليقين بل عين اليقين بل

حق اليقين ، وهو في هذه المجالات ، وإن كان في أوائل الاعتقادات لا يقال له إنه مؤمن لعدم التيقن ولا إنه كافر ؛ لأنه غير جاحد وغير معاند ، وإنما هو متفكر مسترشد يطلب الرشاد من الله تعالى . فشأن سيدنا إبراهيم في ذلك المجال وتكلمه بذلك الكلام ما دام كان أثناء البحث عن الخالق الخبير والصانع القدير لا يوجب القول بأنه عليه وبال وعنده شيء مما لا يناسب قدره ؛ لان القدر إذا لم يمتلىء لم يفض منه شيء .

وحاصل الكلام : إن قوله ـ عليه السلام ـ (هذا ربي) إنما كان على معنى غير معنى الخالق والاله ؛ فإنه لم يقل (هذا إلهي) . ولو سلمنا جدلا أنه كان على ذلك المعنى فبما أنه لم يكن قبل كلامه هذا دعوة إسلامية ، وكان هو في دور الفكر والملاحظات لاستنارة القلب والتوجه إلى الله تعالى لم يكن إلا على حال الاستبصار والانتقال من مجال إلى مجال ، حتى تجلى عليه الحق سبحانه وتعالى ، وأفاض على قلبه النور والهدى ، فلم يستقر قلبه إلا على الإيمان بواجب الوجود الخالق المعبود ، كما قال : (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا) وهذا التحقيق حقيق بالقبول ، والله الهادي الى سواء السبيل .

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ . قَالَ : أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ؟ ولا أَخَافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شيئاً ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ؟(٨٠) وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ ولا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ؟! فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟!(٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢)

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٨٣)

قوله [وحاجه قومه] يعني بعد أن أعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ توحيد الباري سبحانه وتعالى ، ورفض عبادة الأصنام والهياكل خاصمه ونازعه قومه : أبوه ومن تابعه ، تارة بالاستدلال بأدلة سقيمة عقيمة فاسدة مبنية على وجوب رعاية تقليد الجاهلين ، وتارة بالتخويف بأمور على تركه عادة الملك وقومه ومعارضته بالنتيجة لإدارته وشئون مملكته ، لكنه [قال] إبراهيم ـ عليه السلام ـ في ردهم وسد أفواههم بكل فتوة نفسية ، وقوة قدسية ، مستنكرا لاحتجاجهم بالباطل وانتهاجهم بالأمر العاطل قائلا : [أتحاجوني] وتخاصموني [في] توحيد [الله ، وقد هداني] إلى الإيمان بذاته وصفاته ، وإنه الواحد الأحد الفرد الصمد [و] جعلني صاحب معنوية بحيث [لا أخاف ما تشركون] به الملك العلام من الأصنام المصنوعة من الحجارة والأخشاب المسندة لا حول لها ولا قوة الا بالأوهام [إلا أن يشاء ربي شيئا ؟] يصيبني من أثر مكرهم وقهرهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [وسع ربي كل شيىء علما] بما ينفع وما يضرّ ، فيجوز أن يحدث منكم مكر ومكيدة ، ويجوز أن يحصل من الله تعالى صيانة وسلامة لي [أفلا تتذكرون ؟] ما رأيتم من الكائنات من الحوادث والبليّات ، وكيف نجّا سبحانه وتعالى من شاء وابتلى بها من شاء ، فإنه باق كما كان ولا يتغير بتغير الزمان [وكيف أخاف] أنا المسلم المتوكل على الله [ما أشركتم] أي ما أشركتموه بالله القدير ما لم ينزل به عليكم سلطانا من تلك الأخشاب المشوهة والحجارة المموّهة ، مع أنه لا يقبل العقل السليم أن يحدث منها أي شيىء للتعذيب أو للتنعيم [ولا تخافون أنكم أشركتم بالله] الحي القيوم بعض الجوامد التي ركبتموها مـ [ما لم ينزل] الباري تعالى [به] أي بتقديره وتقديسه فضلا عن عبادته عليكم

[سلطانا ؟!] برهانا من العقل بيانا أو دليلا من الحس عيانا [فَأَيُّ الفَرِيقين] من الموحدين والمشركين [أحق بالأمنِ] والسلامة [إن كنتم تعلمون ؟] مظانّ الخوف والأمان بالبرهان او بالعيان ؟ والجواب لهذا الاستفهام عند أولي الأفهام هو أن الموحدين أحق بالأمن والسلام بلا جدال وكلام . لكن لما سكت القوم عن الجواب قال تعالى في تحقيق الحال : [الذين آمنوا] بالله وملائكته ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره [ولم يلبسوا إيمانهم] أي ولم يخلطوا إيمانهم [بظلم] وهو الإشراك بالله [أولئك لهم الأمن] في الدنيا والآخرة [وهم مهتدون] إلى الحق والسعادة الموافرة في الدنيا والدين .

[وتلك] الحجة الواضحة القوية التي استدل واحتج بها على قومه رفضا لعبادة الأصنام والهياكل والنيرات بأنها مسخرة ومنقادة للعمل وزائلة متحولة لا تبقى على حال ، وكل ما كان كذلك لا يكون واجب الوجود ولا يستحق أن تنظر إليه بعين النظر إلى المعبود ، وفرضا لعبادة الباري تعالى وحده بأنه هو الذي فطر السماوات والأرض وأودع فيها دقائق صنعة وحقائق حكمة ، وكل من هذا شأنه وهو الفرد الصمد حقيق بأن يُطاعَ ويُعبَد هي [حجتنا آتيناها إبراهيم] وألهمناه ليحتج بها [على قومه] ولا عجب في ذلك فإن الأمر كله في قدرتنا [نرفع درجات] في العلم والحكمة [من نشاء إن ربك حكيم] في توديع الناس العلوم والحكم وتوزيعها عليهم حسب الموهبة المطلقة ، أو وفق علو الهمم [عليم] بمن يكون مستحقا للرسالة ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحقَ ويَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وأيُّوبَ ويُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ(٨٤)

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ••• وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ(٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ، قُلْ : لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)(٩٠)

قوله تعالى : [ووهبنا له] أي لإبراهيم ـ عليه السلام ـ [إسحق] وهو ولده من سارة عاش مائة وثمانين سنة [ويعقوب] وهو ابن إسحق عاش مائة وسبعا وأربعين سنة [كلا] من إبراهيم وابنه وحفيده [هدينا] بالإيحاء ، وارسالة ، والنبوة ، ونيل الكرامة ، والثواب [ونوحا هدينا من قبل] أي من قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ • والمشهور أن إدريس ـ عليه السلام ـ كان قبله ، وقيل بالعكس • [ومن ذريته] الضمير راجع لإبراهيم عند جمع لأن المقام لبيان أحواله وشئونه • واختار كثيرون رجوعه إلى نوح لكونه أقرب ، ولأنه ذكر من الأنبياء لوطا وليس من ذرية إبراهيم ، وإنما هو ابن أخيه هاران ، وآمن به وخرج معه مهاجرا إلى الشام ، فأرسله الله إلى أهل سدوم • وكذلك يونس ـ عليه السلام ـ لم يكن من ذريته عند بعض ، ولكن صرح في جامع الأصول أنه كان من الأسباط وعاصر (شعياء) وحينئذ لا يبقى خارجا من نسله إلا لوط ـ عليه السلام ـ و [داود] هو كما قال

الجلال السيوطي : ابن إيشا ، كان أحمر الوجه ، سبط الرأس ، أبيض الجسم ، طويل اللحية ، حسن الصّوت والخلق . وجمع له بين النبوة والملك . ونقل النووي عن المؤرخين أنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون سنة [وسليمان] ولده وكان على سمت أبيه ، وكان يشاوره أبوه في صغر سنه لوفور عقله .

ويقال : إنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتوفى وله ثلاث وخمسون سنة . ويقال : إن أباه داود ابتدأ بناء بيت المقدس وأكمله سليمان ـ عليه السلام ـ [وأيوب] وهو ابن موص، بن دوم ، بن عيص بن اسحاق ـ عليه السلام ـ وحكى ابن عساكر أن أمه كانت بنت لوط ـ عليه السلام ـ وأن أباه ممن آمن بإبراهيم ـ عليه السلام ـ قال ابن جرير : إنه كان بعد شعيب ـ عليه السلام ـ وقال ابن ابي خيثمة : كان بعد سليمان . وروى الطبراني أن مدة عمره كانت ثلاثا وتسعين سنة [ويوسف] ابن يعقوب ـ عليهما السلام ـ وعاش مائة وعشرين سنة [وموسى] بن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوي بن يعقوب . وفي الصحيح وصفه بأنه آدمٌ ، طوال ، جعد ، كأنه من رجال شَنوءة . وعاش مائة وعشرين سنة . قاله الثعلبي . [وهرون] أخوه الشقيق وقيل لأبيه وقيل لأمه . توفى قبل موسى ـ عليهما السلام ـ وقد ولد قبله بسنة [وكذلك نجزي المحسنين] أي ومثل إبراهيم نجزي أولئك الرسل المحسنين [وزكريا] هو ابن اذن ابن بركيا كان من ذرية سليمان ـ عليه السلام ـ ، وقتل يوم قتل ولده ، ومات وعمره تسع وتسعون ، وقيل مائة وعشرون سنة . [ويحيى] ابنه ـ عليه السلام ـ [وعيسى] ابن مريم ـ عليه السلام ـ . وذكره من عداد الذرية دليل واضح على دخول ابن البنت في الذرية [وإلياس] هو ابن لسن بن فنحاص بن العيزار بن هرون أخي موسى بن عمران ـ عليهم السلام ـ [كل من الصالحين] المراد الكاملين في الصّلاح [واسماعيل] هو كما قال النووي : أكبر أولاد إبراهيم ولد من هاجر ـ عليهما

السلام ـ [واليسع] قال ابن جرير : هو ابن أخطوب بن العجوز [ويونس] وهو ابن متي كان في زمن ملوك الطوائف وولد في زمان شعياء وأرسل الى أهل نينوى بالموصل • قال تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) [ولوطا] هو ابن هاران بن آزر [وكلا] منهم [فضلنا على العالمين] أي على عالمي عصرهم • وفيها دليل على فضل الأنبياء على الملائكة [ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم] أي وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعات كثيرة [واجتبيناهم] واصطفيناهم واخترناهم على غيرهم ممن أرسلناهم إليهم [وهديناهم إلى صراط مستقيم] هو دين الحق الذي ارتضاه ربهم وأحكامه العملية التي تناسب زمانهم [ذلك] الهدى [هدى الله] هدى منه تعالى اختاره لأن يكون سراجا منيرا للقلوب [يهدي به من يشاء] من عباده ويظهر المهتدي من غيره باختياره الحسن إلى العمل الحسن [ولو أشركوا] بالله تعالى غيره [لحبط عنهم] أي لسقط وضاع عنهم [ما كانوا يعملون] من الصالحات ، فإن صالح العمل موقوف على صالح الاعتقاد •

[أولئك الذين آتيناهم الكتاب] المنزل من الله عليه أو على من سبقه وجعله تابعا له في العمل بما نزله [والحكم] أي كيفية فصل القضاء بين المتخاصمين ، أو الحكمة ومعرفة حقائق الأشياء حتى كانت أقوالهم واضحة مبينة مفيدة ، وأعمالهم رصينة سالمة مجيدة ، وأخلاقهم طيبة حميدة • [والنبوة] ورتبة النبوة التي هي خصوصية بين الله وعباده المختارين بها ، وعلاقة كعلاقة المصباح بأطرافه المستنيرة [فإن يكفر بها] أي بتلك النبوة الرفيعة [هؤلاء] المشركون من أهل مكة أو الكفار مطلقا [فقد وكلنا بها] أي بالإيمان بها وبرعايتها والعمل بمقتضاها [قوما] لهم قائمة الشرف و [ليسوا بها بكافرين] في وقت من الأوقات وهم الأمة المرحومة التي أعلن الله أنها خير أمة أخرجت للناس من الطبقة الأولى ، وما بعدها إلى يوم القيامة

فإن مثل أمة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره ، ولا يزال الخير فيه وفي أمته الى يوم القيامة . [أولئك] الأنبياء المذكورون هم [الذين هدى الله] أي هداهم إلى الحق [فبهداهم] اعتقادا وأعمالا وأخلاقا [اقتدِه] أي كن مجمع الأنوار في النور الوارد ، وكنز الكنوز للفوائد ، وبحر البحور للفرائد ، واقتداء شخص بشخص في أمرٍ حَسَنٍ من الأمور لا يوجب كون المقتدي مفضولا حيث جاز ووقع اقتداء الفاضل بالمفضول على أنه ليس المراد بالاقتداء الاكتساب منه أو من قواعد دينه ، بل المقصود هنا أن يكون جامعا لفضائل أولئك السلف الرشيد في الاعتقاد والأخلاق والأعمال حتى لا يبقى شيىء من المحسنات إلا وهو موجود عنده ، وكذلك أن يكون عند المقتدي مزيد فائدة لم تكن موجودة عند الإمام ؛ ولذلك قال ـ عليه السلام ـ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » كما أنه يجوز أن يكون عندهم من الآداب والأحكام ما لا يناسب عصره وعصر أمته وينسخ بما عنده من شريعته . [قل لا أسئلكم] أيها الناس الناسون لحقوق الله على عباده [عليه] أي على ما نزل علي وأبلغه إليكم من القرآن وأحكامه [أجرا] ومنفعة مادية تعود إلي . فإن شأن الرسل إيضاح السبل للكل ، وشأن الفائزين بالسعادة منهم الاتباع بلا جدال ولا نزاع [إن هو] أي ما هو [إلا ذكرى] وموعظة حسنة تهدي إلى طريق الرشاد ، أي ترك الفساد ومباشرة الخيرات للعباد ، لا لأمة أو قبيلة محدودة بل لجميع [العالمين] .

وهنا أمور يستحسن التنبيه عليها :

الأول : إن الله سبحانه لم يذكر الأنبياء الكرام على تسلسل النسب ولا الزمان ، بل قدم منهم وأخر للإشارة إلى أمور معلومة لدى أهل الكفر ، ومنها أن الدين الحق ينظر إلى الرسل نظرة واحدة كأن الكل مهتمون بشيء واحد

في عصر واحد ، وليست مهمتهم إلا الرسالة وتنوير العباد أين كانوا ومتى كانوا وكيف عاشوا .

ولما كان الأولاد والأحفاد أول شيء تَقِرّ به العيون ذكر إسحق ويعقوب قبل كل شيء . ثم لما كان نظر الناس إلى الدولة والدنيا أقوى ذكر داود وسليمان الجامعين لهما . وبعد ذكرهما ذكر الأنبياء من أصحاب الاسقام والبلاء كسيدنا أيوب وسيدنا يوسف . ثم ذكر من جعله مظهرا لقدرته حيث تسلّط مع ضعفه وفقره في طبيعته على ملك ادّعى الألوهية في مملكته ، وبعد ذلك أراد أن يبين استغناءه عن رعاية الاعتبارات في خواص عباده ، فذكر زكريا ويحيى المستشهدين بأيدي الطغاة من أهل البغي والعناد ، وذكر عيسى لابتلائه بأيدي اليهود الألداء . واخر إسماعيل مع أنه كان من أولاده الصلبية لأنه رأس سلسلة مستقلة نادرة الوجود ، وهي سلسلة آباء سيدنا محمد صاحب المقام المحمود ، ثم ذكر اليسع ويونس ولوطا لتناسبهم في الانفراد ببعض أمور نادرة كابتلاء يونس بتمرد الآشوريين وابتلاع الحوت له ، وابتلاء لوط بقوم لم يسبقها أمة في ارتكاب العمل الفاحش الذي ارتكبوه . والحاصل إن لكل من ذكر هنا خصوصية امتياز رجحت ذكره والله اعلم .

الثاني : يجب أن لا يتوهم أحد أن الأنبياء والرسل هم المذكورون في هذه الآيات أو غيرها من آيات القرآن الكريم ؛ لأنهم لا يبلغون ثلاثين مع أن الرسل والأنبياء كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله فإنه تعالى قال : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقال : (وكذلك أرسلنا رسلنا تترى) اي ياتي واحد بعد الآخر . وقال : (منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص) فالحصر في عدد معين غير جائز قطعا . والأحسن الإمساك عنه . وإنما ذكر أولئك الأنبياء الكرام في القرآن لأنهم عاشوا في جزيرة العرب وكانت أسماؤهم دائرة

بين الناس ، وأما الأنبياء والرسل الذين كانوا في البلاد الآسيوية الشرقية ، أو الغربية ، أو في أوربا وغيرها فلم يتعرض القرآن الكريم لذكرهم .

الثالث : إن الحق الحقيق بالقبول هو أن المدة بين أبينا وسيدنا آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ والأنبياء المذكورين لا يعلم ضبطه إلا الله ، وما يقال إن المدة بينه وبين نوح عبارة عن عشرة قرون أو ما شاكلها ليست عليه حجة يعتمد عليها ، فإن العقائد لا تؤخذ بروايات الآحاد . يقول تعالى في سورة هود : (فلولا كان من القرون من قبلكم) الآية وفي سورة طه (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟) وفي سورة السجدة : (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ؟) وفي سورة يس (أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟) . والحاصل : إن الآيات الصريحة في تقدم القرون الكثيرة كثيرة ، والأدلة القاطعة على كثرة القرون متوفرة ، فيجب على المسلم العاقل أن يؤمن بأن الارض كانت مأوى للجن قبل الإنس . قال تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وأن آدم ـ عليه السلام ـ خلقه الله وجعله خليفته في الأرض ، وأما مبدأ ذلك الزمان ، ومتى كان ، وكم من الأمم جاءت وذهبت ؟ فهو في علم الله تعالى لا يعلمها غيره . وإن المكلف كيفما كان وفي أي زمان ومكان وجب عليه إطاعة أمر ربه وخالقه وشريعته في خليقته ، ويبقى على هذه الاعتقادات مع العمل بالشريعة إلى أن يموت ، وأن يعتقد أنه سيأتيه الموت ، ثم البعث بعد الموت ، ثم الحشر والحساب ، ثم المصير إلى دار الجزاء . (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك انت الوهاب) .

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا : ما أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

مُوسى نوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ؟ قُلِ : اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ)(٩٢)

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له : مالك بن الصيف فخاصم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . فقال النبي : أَنشُدُكَ الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ ، وكان حبرا سمينا ، فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيىء ! فقال له أصحابه : ويحك ولا على موسى ؟ فقال : والله ما انزل الله على بشر من شيىء فأنزل الله الآية . رواه ابن أبي حاتم وابن المنذر . وذهب ابن جرير إلى أن الآية نزلت في قريش ، لانها مكية .

قوله تعالى : [وما قدروا الله حق قدره] يعني وما عرفوا الله حق معرفته في إنعامه وكرمه وإفاضته الخير على عباده [إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيىء] حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئا من الوحي المسطور في الكتاب ، فإنهم لو كانوا يعرفون قدرة الله على كل ممكن ، ومدى رحمته بعباده، وإرسال الرسل إليهم لتعليم الأحكام ماتجاسروا على هذا السلب الكلي وما قالوا ذلك ، علاوة على ذلك فهم يتجاسرون حين يتجاهلون إنزال التوراة على عبده موسى . فـ [قل] يا رسولي لرده وإخزائه : [من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى] أي واضحا في ذاته ، وموضحا طريق الحق لغيره من الناس [تجعلونه قراطيس] أي حال كون الكتاب أنه تجعلونه موزعا

بحسب الأهواء ، مكتوبا في قراطيس [تبدونها] لمن يرغب فيكم وترغبون في إمالته إليكم [وتخفون كثيرا] مما في ذلك الكتاب لعدم الرغبة في علم الناس به وإطلاعهم عليه ، وعلمتم بواسطة ذلك الكتاب [ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟] وإذا لم يجبك أحد جهلا أو عنادا أو استكبارا [قل الله] أي فقل أنت : أنزله الله • يعنى الله هو الذي أنزل ذلك الكتاب [ثم ذرهم في خوضهم يلعبون] أي بعد أن بينت لهم أن الكتاب الموصوف أنزله الله على موسى وتم إلزامهم ، ذرهم في خوضهم يلعبون ، أي أتركهم يلعبون في خوضهم الباطل •

[وهذا الكتاب أنزلناه مبارك ، مصدق الذي بين يديه] وكما أن الله أنزل الكتاب الواضح على موسى ، وهذا الكتاب الذي تتلوه عليكم وندعوكم على ضوئه إلى الحق كتاب مبارك كثير الخيرات دينا ودنيا ، مصدق للكتاب الذي بين يديه أي نزل قبله • والمراد به الإنجيل والتوراة وما سبقهما [ولتنذر أم القرى ومن حولها] معناه وكما نزل لتصديق الشرائع السماوية والكتب التي قبله كذلك نزل لتنذر أهل أم القرى أي مكة المكرمة ، ومن حولها إلى آخر الكرة الأرضية جنوبا وشمالا شرقا وغربا لعموم بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أمم العالم • [والذين يؤمنون بالآخرة] وبلقاء ربهم فيها [يؤمنون به] أي بذلك الكتاب ومن أنزله ومن أنزل إليه ، [وهم] لإيمانهم بما آمنوا به [على صلواتهم يحافظون] لأن الدوام على الأعمال الواجبة فرع الإيمان الكامل بمن أوجبها •

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ؟ وَمَنْ قَالَ : سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ، الْيَوْمَ

تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(٩٣)

نزلت هذه الآية فيمن ادعى النبوة كذبا وزورا كمسيلمة ، والأسود العنسي وفيمن اجترأ على الله ، وقال : سأنزل مثل ما أنزل الله كعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وكان من كتبة الوحي ، وكان من خبره أن الرسول دعاه ليكتب الآيات الآتية في سورة المؤمنين : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) فلما أملى عليه هذه الآيات ووصل إلى قوله تعالى (ثم أنشأناه خلقا آخر) عجب عبدالله من تفصيل خلق الإنسان فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين . فقال له الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أكتبها فكذا أنزلت علي . فشك عبدالله حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي كما أوحي إليه ، وإن كان كاذبا لقد قلت كما قال ! فارتد عن الإسلام ، ولحق بالمشركين . ذكره ابن إسحاق عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ .

قوله تعالى : [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا] معناه ومن أشد ظلما وأقوى فسادا ممن اختلق على الله خبراً لا يطابق الواقع وقال : (ما أنزل الله على بشر من شيىء) مع أن إنزال الله تعالى الكتاب على الرسل ثابت ومحقق بذكر الأنبياء والرسل وإثباته بالمعجزات الباهرة [أو قال أوحي إلي] من الله تعالى [و] الحال إنه [لم يوح إليه شيىء] كمسيلمة والأسود العنسي [ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله] أي قال أنا قادر على إنشاء مثل تلك الآيات النازلة من الله سبحانه وتعالى كعبدالله بن سعد بن أبي سرح [ولو ترى إذ الظالمون] كالأناس الثلاثة السابقين [في غمرات الموت] أي في سكراته الشديدة [والملائكة] المأمورون بقبض الأرواح وهم أعوان أو مأمورو ملك الموت [باسطو أيديهم] أي مادون الأيدي بالتعذيب إليهم ، قائلين لهم : [أخرجوا أنفسكم] من هذا العذاب وخلصوها منه ، والمقصود من هذا

التوبيخ والتأنيب • ويقولون لهم : [اليوم تجزون عذاب الهون] أي عذابا هو الإهانة والتحقير الذي أشد على أهل الشرف من كل عذاب ، أو عذابا بالنار شديدا في ذاته ومخلوطا بالإهانة والتحقير [بما كنتم تقولون على الله غير الحق] من نفي إنزال الكتاب على أيّ بشر ، أو ادعاء الوحي ودعوى النبوة كذبا ، أو انزاله مثلَ ما أنزل الله ، [وكنتم عن آياته تستكبرون] أي تعرضون بدون تأمل فيها •

[وَلَقَدْ جِئْتُمونَا فُرادى ، كَمَا خَلَقْنَاكُمْ اَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْنَاكُمْ ورَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ اَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ](٩٤)

عن عكرمة قال : نزلت الآية في النضر بن الحارث لما قال : سوف تشفع لي اللات والعزى • رواه ابن المنذر وابن ابي حاتم •

قوله تعالى : [ولقد جئتمونا فرادى] استعراض لأحوال المشركين في يوم القيامة ليتنبه من له إدراك وبصيرة في الأمور ، وينتهي عن العبث والغرور فيقول : [و] الله [لقد جئتمونا فرادى] أي لا شك ولا شبهة في أنكم ستأتوننا يوم القيامة فرادى بدون ناصر ومعين وبدون شفيع لكم عند الله المبين [كما خلَقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم] من الأولاد والخدم والحشم [وراء ظهوركم] أي وتتركون ما نفعكم وما انتفعتم بها كلّها [وما نرى معكم] في ذلك اليوم [شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء] أي شركاء لله في الربوبية [لقد تقطع] ما [بينكم] من وجوه الوصل والعلاقة الوثيقة [وَضَلّ عنكم] أي وضاع عنكم [ما كنتم تزعمون] أنها شفعاؤكم ، أو أنهم شركاء لله تعالى عن ذلك •

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ، ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ، ذلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟(٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ(٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٩٧) وهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ(٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً ، ومِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٩٩)

قوله تعالى : [إنَّ الله فالق الحب والنوى] شروع في بيان آثار قدرة الباري تعالى وعجائب صنعه وأفعاله العجيبة التي يحار المتفكر فيها فقال : إن الله فالق الحب والنوى ، والحب في اللغة المواد المأخوذة كثمرة للمزروعات أو الموجودات في داخل الفواكه ، والنوى : جمع نواة ، وهي الموجودة في داخلِ التمرة والفلق الشق ومعنى الآية : إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يشــق الحبوب والنوى المبذورة في الأرض فتخرج كنبات نام من الأرض وتعلو وتثمر ويعيش عليها الإنسان وسائر الحيوان [يخرج الحي من الميت] أي يُخرِج ما ينمو من الحيوان والنبات والشــجر مما لا ينمو من النطفة

والحب والنوى [ومخرج الميت من الحي] والميت كالنطفة والحب والنوى ، والحي الحيوان والنبات والشجر [ذلكم الله] يعني إن ذلك الصانع الحي العليم القادر الحكيم هو الله الواجب الوجود المستحق للعبادة [فأنى تؤفكون ؟] فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به المواد الجامدة التي لا حياة فيها [فالق الإصباح] الإصباح مصدر سمي به وقت الصبح أي إن الله تعالى أخرج نور الصباح من ظلمة الليل حتى يبصر الناس وسائر الحيوانات ما أمامها فيأتي الإنسان ويذهب ويسعى ويكتسب ، ويدور الحيوان والحشرات على طريق معيشتها ويحصل ما يتقوت بها ، وألهم كل ذي روح ما يحتاج إليه في بقائه واستمرار نوعه على اختلاف المستويات، وميز الإنسان بينها بتفكرات نابعة عن النفس الناطقة، وبمحاولات عملية دقيقة على ما يسر له من أسباب الرقي. ومن أهمها : العلم ، ووحدة الصف ، ونظام العدل . فإن الأعمال الناتجة عن الجهل لا تكون أنيقة ، وما يكتسب بدون وحدة الصف لا تتقدم به الأمة ، وما يحصل بدون النظام العادل لا يستريح منه البشر . [وجَعَلَ الليلَ سَكناً] أي كما أنه خلق الإنسان والحيوانات ، وخلق لها وسائل عيشها وفلق الصبح ، وجعل النهار مجالا لكسب المعيشة بالتعب ، كذلك جعل الليل سكنا أي وقتا يسكن إليه المتعبون بالنهار من كل إنسان وطير ودابة [والشمس والقمر حسبانا] أي وجعل الشمس والقمر حسبانا . والحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح بمعنى الحساب ، أي جعل الشمس والقمر ذوي حساب ومنشأ حساب للأوقات في الليل والنهار والأسابيع والشهور والسنين على أوضاعهما المتتابعة في الشروق والغروب ، سواء كانت الحركة منهما أو من غيرهما [ذلك تقدير العزيز العليم] أي ذلك الجعل ناشيء من تقدير الله العزيز الغالب على أمره العليم بكل ما جرى ويجري في الكائنات .

[وهو الذي جعل لكم النجوم] ما عدا الشمس والقمر [لتهتدوا بها] عند السير في الصحارى أو البحار ، أي تهتدوا بطلوعها وارتفاعها وغروبها دائما [في ظلمات] الليل بـ [البر والبحر] فإن من راقبها بمرور الوقت يستعلم منها أوقات الليل وجهة الشرق والغرب كما يستعلم من طلوعها وغروبها أحوال الفصول والمواسم حرا وبردا ، ومواسم الزراعة وغرس الأشجار وغير ذلك لأن الله تعالى جعلها علامات على أحوال شتى • فمن راقبها وكان له معرفة بحركات السيارات منها استنبط أشياء كثيرة •

والمذموم من التنجيم ومن أحوال المنجمين نسبة الآثار إليها لا جعلها علامات على أمور خفية ، كما أن كل إنسان يستعلم من تفتح الأزهار حلول موسم الربيع • والحاصل : إن الاستدلال بالعلامات والأسباب أمر مشروع وإنما الخطأ في جعل العلامات عللا واقعية بدون نسبة التأثير إلى الحكيم الخبير • [قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون] معانيها ومراميها وأهدافها فيعملون بمقتضاها • [وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة] أي آدم ـ عليه السلام ـ وخلق منها زوجته ، وبثكم منهما على بسيط الأرض [فمستقر ومستودع] أي فلكم استقرار في الأماكن التي استوطنتموها واستيداع في الأماكن التي سكنتم بها بقدر الضرورة [قد فصلنا الآيات] الموضحة لأحوال الأمة وواجباتها في أدوار حياتها واستقرارها واستيداعها [لقوم يفقهون] معانيها الدقيقة الحقيقة بالتأمل والإمعان •

[وهو الذي أنزل من السماء ماء] منهم من فسرها بأنه تعالى أنزل من نفس السماء ماء مع بعدها مسافة ويقول إن ذلك من الممكنات وظاهر الآية دليل عليه • ومنهم من فسرها بتقدير المضاف أي من جانب السماء • أي من جهة الفوق • ومنهم من فسر السماء بالسحاب مستدلا بأن الأبخرة الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثم تصعد بالرياح وترتفع إلى الهواء وينعقد السحاب

منها ويتقاطر ماء . ويستدل بأن الناس كثيرا ما يقفون على قمم الجبال تحت الشمس ويرون السحاب المتراكم في وسطها وتنزل منها الأمطار ، وكل ذلك محتمل وجائز ، والمؤمن بقدرة الله فائز [فأخرجنا به نبات كل شيء] أي فاخرجنا من الأرض وأنبتنا بذلك الماء نبات كل صنف من أصناف الناميات فأخرجنا منه [خضرا] أي نباتا ملونا بالخضرة [نخرج منه حبا متراكبا] والجملة صفة لما قبله . أي خضرا نخرج منه حبا كثيرا يركب بعضه بعضا كما في السنبل [ومِنَ النخلِ مِن طَلعِها قِنوانٌ دانية] النخل معروف ويستعمل في الواحد والجمع . والطلع شيء يخرج منه كأنه نعلان مطبقان ، والحمل بينهما منضود . والقنوان جمع قنو بمعنى العذق . وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب ، وتثنيته قنوان ، ولا فرق بين المثنى والجمع إلا الإعراب ، أي أن إعراب المثنى بالألف والياء وإعراب الجمع بالحركة لأنه جمع مكسر . وقوله دانية أي قريبة من المتناول ، أو قريبة من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها . أي وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان [وجنات من أعناب] أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب [والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه] وقوله تعالى (مشتبها وغير متشابه) إما حال من الزيتون اكتفى به عن حال الرمان لسبقه ، والتقدير والزيتون مشتبها وغير متشابه ، والرمان كذلك . أو حال من الرمان لقربه ويقدر مثله في الأول أي وأخرجنا الزيتون والرمان حال كون ذلك بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأصناف . وذلك دليل على كمال حكمة صانعها وقدرته الواسعة [أنظروا إلى ثمره إذا أثمر ، و] إلى حال [يَنْعِهِ] أي نضجه واستوائه [إن في ذلكم لآيات] عظيمة دالة على وجود الصانع القادر الحكيم ووحدته [لقوم يؤمنون] أي يطلبون الإيمان بالله تعالى .

وَجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ ، وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ !(١٠٠) بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهو بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ؟(١٠١) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهو اللَّطِيفُ الخَبِيرُ)(١٠٣)

وقوله تعالى [وجعلوا لله شركاء الجن] معناه إن ذلك الإله العظيم الشأن العظيم الآثار الذي ذكرنا أوصافه آنفا جعل المشركون الجاهلون له شركاء ونظراء في الألوهية والربوبية • وقوله (الجن) عطف بيان أو بدل من الشركاء • والمراد من الجن إما الشياطين ، ومعنى جعل الجن شركاء له تعالى إنهم يطيعونهم كما أطاعوا الباري تعالى ، أو المراد به الملائكة حيث عبدوهم وقالوا : إنهم بنات الله سبحانه وتسميتهم جنا مجاز لاجتنانهم واستتارهم عَنِ الأَعْين • وقوله : [وخلقهم] حال من فاعل جعلوا بتقدير قد ، أي والحال إن الله تعالى خلقهم لا الملائكة ، وكانَ الحق ان يوحدوا من خلقهم ، أو الضمير راجع إلى الجن أي وجعلوا الجن شركاء له تعالى مع أنه تعالى خلقهم ، وما دام هو خلقهم ولم يكونوا إلا بإيجاده وإحداثه فكيف يعقل أن يكونوا شركاء له تعالى ؟ [وخرقوا له] أي اختلقوا [بنين وبنات] فقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت العرب : الملائكة بنات الله • وهذا الخلق كان بغير علم بحقيقة من خطأ أو صواب [سبحانه وتعالى] وتنزيها له [عما يصفون] أي تنزيها له تعالى أن يكون له ولد أو زوجة [بديع السماوات والأرض] أي موجدهما ومبدعهما من العدم إلى الوجود [أنى يكون له ولد ولم يكن له صاحبة ، وخلق كل شيء

وهو بكل شيىء عليم • ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيىء فاعبدوه، وهو على كل شيىء وكيل] يعني أن ذلك الخالق لكل شيىء والعليم بكل شيء هو ربكم رباكم وأوصلكم إلى مستوى الإنسان اللائق بالاحترام ، ولا معبود بحق إلا هو خالق لكل موجود مباين لذاته، فاعبدوه وحده ولاتشركوا به غيره، وهو على كل شيىء وكيل ، أي متول لجميع الأمور [لا تدركه الأبصار] المودعة في الوجوه في هذه الدنيا وإنما تدركه الأبصار المودعة في وجوه الوجهاء في الآخرة ، ووجهاء الآخرة من وجه وجهه في حياته إلى ذاته وصفاته ، ونظر إلى رحمته وهباته ، وترك محرماته ، وأدى واجباته ، وفيهم قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وإنما فسرنا الآية على الوجه المذكور ، لأنه لا يجوز حملها على السلب الكلي المستغرق للأزمنة والأمكنة والأحوال مع أفراد الموضوع ، وإلا لزم أن لا ترى ذاته الشريفة عين في الدنيا ولا في الآخرة لا من المؤمن ، ولا من الكافر ، وليس الأمر كذلك لأنه قد تقررت الآية بحملها على رفع الإيجاب الكلي ، أي لا تدركه كل الأبصار ، وإنما تدركه بعض الأبصار ، وذلك لوجود الدليل على رؤيته تعالى في دار الآخرة كالآية المذكورة آنفا ، ولحديث : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » وهذا الحديث رواه الكثيرون من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ • (وهو يدرك الأبصار) أي يراها على وجه الإحاطة والضبط الكامل وقوله تعالى : (وهو اللطيف الخبير) جملة سيقت للتعليل على قوله (وهو يدرك الابصار) لأن اللطيف لا يمنعه شيىء عن الوصول إلى شيىء •

وقال بعض : إنها تعليل للحكمين السابقين ، فاللطيف يفيد علة عدم إدراكه بالأبصار • والخبير يفيد علية إدراكه للأبصار • فإن قيل : اللطيف مقابل للكثيف ، وهما من صفات الجسم ! قلنا : ذلك هو اللطيف النسبي ،

والمراد باللطيف في وصفه تعالى اللطيف الحقيقي المطلق ، وذلك ليس مما له علاقة بالأجسام . وقد بين ذلك في محله .

(قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها ، وما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وكذلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ ولِيَقُولُوا دَرَسْتَ ، وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِله إِلاّ هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكُوا ، وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ، وما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ)(١٠٨)

قوله تعالى [قد جاءكم بصائر من ربكم] البصائر جمع بصيرة . وهي المقلب كالبصر للعين يدرك بها الحقائق . والآية استئناف وارد على لسان الرسول أو شأنه كسائر الآيات السابقة . أي قل يا حبيبي : [قد جاءكم] أو هو تعالى مباشرة يقول : أيها الناس قد جاءكم [بصائر] أي آيات بينات كالبصائر والقوى المودعة في القلوب لإدراك الأشياء على ما هي عليه ، أي جاءكم الرسول [من ربكم] بكتاب مبين معجز ويحتوي على اعتقادات سليمة وأحكام مستقيمة ، وعظات وإرشادات مناسبة لأهل القلوب السالمة عن العناد [فمن أبصر] الحق بتلك البصائر [فـ] لقد أبصره [لنفسه ومن عمي] عن إدراكه [فـ] عماؤه [عليها ، وما أنا عليكم بحفيظ] يحفظ أعمالكم فيجازيكم عليها ، بل الله هو الحفيظ المجازي على أعمال العاملين [وكذلك نصرف

الآيات] معناه ومثل ذلك التصريف اللطيف المناسب للمقام نصرف الآيات ، ونغيرها من صنف إلى صنف باجراء الحوادث في الكائنات وبإنزال الآيات البينات ، وبإظهار المعونات والمعجزات ليسترشد المسترشدون على حسن النيات [وليقولوا درست] أي وليقول الكفار الحاسدون المتعنتون ليست تلك الآيات من خالق السماوات بل من الجن أو من بعض الأعاجم الآتين بالأساطير المنقولات ، فإن سنة الله جرت على أنه كلما أرسل رسولا أو أقام داعيا يدعو إلى الرشد ومعارضة الخرافات انقسم الناس أصنافا ؛ فمنهم من اتبع الحق ، ومنهم من عاند . والمعاند منهم الساكت ، ومنهم الناشر لبذور السيئات ، ونحن لا نهتم بهم (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) نحن نستمر على ما أردنا من الهدى لما ذكرنا [ولنبينه] أي الحق [لقوم يعلمون] وهم الصالحون السالمون . [اتبع ما أوحي إليك من ربك] واستمر دواما على تبليغك وحسن حسبك [لا إله إلا هو] وحده لا شريك له [وأعرض] بكل وجه [عن المشركين] ولا تعتد بأقاويلهم الباطلة وعاداتهم العاطلة ، ولو شاء الله عدم إشراكهم وهدايتهم إلى التوحيد قسرا ما أشركوا ، ولكن ما شاء ذلك لأن سر العبودية إنما يظهر في حسن تصرف العباد بتوجيه قلوبهم إلى داعي الرشاد فيؤمنوا وينقادوا [وما جعلناك عليهم حفيظا] أي رقيبا مهيمنا من جانبنا حتى تخاف من عدم أداء الواجب . [وما أنت عليهم بوكيل] تقوم بأمرهم حتى تخاف من سوء العواقب على جسارتهم . إنما أنت رسول أمين ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين . [ولا تسبوا الذين يدعون] أي يدعوه المشركون [من دون الله] إنسانا أو أوثانا ، فإن من اعتقد شيئا حصل في قلبه من ذلك عقدة لا تنحل ، ولا يحصل من سبابه وشتائمه إلا الجراحة

المؤدية إلى الوقاحة [فيسبوا الله عَدْواً] وتجاوزا عن الحق والحد [بغير علم] منهم ، إن ذلك شيىء باطل عاطل [كذلك زَيَّنا لِكُل أمةٍ عملهم] أي مثل هذا التزيين المبني على ما وقر في القلب زينا لكل أمةٍ عملهم من الخير والشر ويستمرون عليه إلى أن يموتوا [ثم إلى ربهم مرجعهم] بالبعث بعد الموت [فينبئهم] الله [بما كانوا يعملون] في الدنيا من الأعمال الحسنة أو السيئة المبنية على ما في قلوبهم من النية الحسنة أو السيئة •

(وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيْمَانِهِمْ : لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ : إنَّما الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ، ومَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ(١٠٩) ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبْصَارَهُمْ ، كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، ونَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونْ)(١١٠)

ثم ذكر الله تعالى بعض أحوال المشركين الفاسدة فقال : [وأقسموا بالله] أي أقسم المشركون بالله [جهد أيمانهم] أي أيمانا بالغة حدها من الاهتمام : [لئن جاءتهم آية] من الله تعالى دليلا على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعوى الرسالة [ليؤمنن بها] أي بتلك الآية قل يا رسولي [إنما الآيات عند الله] ولا تحدث ولا تحصل ولا تنزل إلا بأمره وإرادته [وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون] معناه نحن نعلم أنا إذا أنزلنا الآيات المقترحة حسب اقتراحهم تعاندوا وأولوها على غير الحق ، ولا يؤمنون وما دام الأمر كذلك فلا تنزل الآيات إلا حسب إرادتنا وحكمتنا •

[ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهم وَأَبْصارَهُمْ] أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق ، ونحَوّل أبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ،

وذلك لأنا وجدناهم مستمرين على العناد والاستكبار فهم لا يؤمنون بالآيات المقترحة على فرض إنزالها [كما لم يؤمنوا به] أي بالرسول أو بما نزل عليه وهو أكبر آية عالمية [أول مرة] أي عند ورودها بادي بدء في أول الزمان •
[وَنَذَرُهُم في طُغْيانِهمْ يَعْمَهُون] يعني ونتركهم في حالهم السيىء مِن الطّغيان حال كونهم يعمهون ويتحيرون لاتبقى عندهم بصيرة في أمورهم •

الجزء الثامن

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)(١١١)

قوله تعالى : [ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة] جاء تحقيقا لما عليه طبيعة أولئك المشركين المعاندين من الاستمرار على الكفر وعدم الاهتمام بقوارع الأحداث وزواجر الآيات فيقول ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة كما طلبوا إنزالها [وكلمهم الموتى] بإحيائهم ثم شهادتهم بأن الإيمان بالله وبرسوله واجب [وحشرنا عليهم كل شيىء قبلا] أي لو حشرنا عليهم كل شيىء جماعات في موقف واحد [ما كانوا ليؤمنوا] ما صح لهم الإيمان ولا استقامَ لهم في ايّ حال من الأحوال [إلا أن يشاء الله] أي إلا في حال تعلق مشيئة الله بإيمانهم [ولكن أكثرهم يَجْهلون] أي ولكن أكثر الكافرين المشركين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيىء الآيات لجهلهم بأن الله لم يشأ إيمانهم •

قال صاحب روح المعاني : وتحقيق ذلك أنه قد حقق كثير من الراسخين إن ماهيات الممكنات المعلومة لله تعالى أزلا معدومات متميزة في نفسها تميزا ذاتيا غير مجعولة لما حقق من توقف العلم بها على ذلك التميز ، وإنما المجعول صورها الوجودية الحادثة ، وإن لها استعدادات ذاتية غير مجعولة تختلف، اقتضاءاتها ، فمنها ما يقتضي اختيار الإيمان والطاعة ، ومنها ما يقتضي اختيار الكفر والمعصية والعلم الإلهي متعلق بها كاشف لها على ما هي عليه في أنفسها

من اختلاف استعداداتها التي هي من مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، واختلاف مقتضيات تلك ، فإذا تعلق العلم الإلهي بها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعداداتها حسب ما يقتضيه استعدادها من اختيار أحد الطرفين الممكنين أعني الإيمان والطاعة أو الكفر والمعصية تعلقت الإرادة الالهية بهذا الذي اختاره العبد حال عدمه بمقتضى استعداده تفضلا ورحمة ، لا وجوبا لغناه الذاتي عن العالمين المصحح لصرف اختيار العبد إلى الطرف الآخر الممكن بالذات إن شاء ، فيصير مراد العباد بعد تعلق الإرادة الإلهية مرادا لله تعالى . ومن هذا يظهر أن اختيارهم الأزلي بمقتضى استعدادهم متبوع للعلم المتبوع للإرادة مراعاة للحكمة تفضلا ، وأن اختيارهم فيما لا يزال تابع للارادة الأزلية المتعلقة باختيارهم لما اختاروه ، فهم مجبورون في ما لا يزال في عين اختيارهم ، أي مساقون إلى أن يفعلوا ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر ، ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق رتبة على العلم السابق على تعلق الإرادة . والجبر تابع للارادة التابعة للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي ، فيمتنع أن يكون تابعا لما هو متأخر عنه بمراتب ، فمن وجد خيرا فليحمد الله تعالى ؛ لأنه سبحانه متفضل بالإيجاد لما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه لأن إرادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الافعال إلا لكونهم اختاروها ازلا بمقتضى استعدادهم ، فاختارها تعالى مراعاة للحكمة تفضلا . والعباد كاسبون بالله تعالى إذ لا كسب إلا بقوة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . والله تعالى خالق أعمالهم بهم لأنه سبحانه أخبر بأنه خالق أعمالهم مع نسبة العمل إليهم المتبادر منها صدورها منهم باختيارهم . وذلك يقتضي أن المخلوق لله تعالى بالعبد عين مكسوب العبد بالله تعالى ، ولا منافاة بين كون الأعمال مخلوقة لله تعالى ، وبين كونها مكسوبة لهم بقدرتهم واختيارهم . وما شاع

من الأشعري من أنه لا تأثير لقدرة العبد أصلا ، وانما هـي مقارنة للفعل ، وهو بمحض قدرة الله تعالى فمما لا يكاد يقبل عند المحققين . وقدرة العبد عندهم مؤثرة بإذن الله تعالى لا استقلالا كما تزعمه المعتزلة ، ولا غير مؤثرة كما نسب إلى الأشعري ، ولا هي منفية بالكلية ، كما يقوله الجبرية . وهذا بحث مفروغ منه ، وقد أشرنا إليه في أوائل التفسير ، وليس غرضنا هنا سوى تحقيق أن عدم إيمان الكفار إنما هو لسوء استعدادهم الأزلي الغير المجعول المتبوع للعلم المتبوع للإرادة ليعلم منه ما في كلام الشهاب وغيره . وقد حصل ذلك بتوفيقه تعالى عند من تأمل وأنصف .

(وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الإنْسِ والجِنِّ يُوحي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ما فَعَلوهُ ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ(١١٢) وَلِتَصْغى إلَيهِ أَفْئِدَةُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُم مُقْتَرِفُونَ(١١٣) أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَماً وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً ؟ وَالَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلماتِهِ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ(١١٥) وَإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ)(١١٧)

قوله تعالى : [وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا] الآية كلام مستأنف نزل لتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما أصابه من جانب مشركي قريش من الأقاويل والأفاعيل ، فيقول الباري جل شأنه : ومثل ما جعلنا لك أعداء من قريش وغيرهم من الجهات الكثيرة جعلنا لكل نبي ممن تقدمك عدوا بل اعداء [شياطين الإنس والجن] أي المتمردة من النوعين عن الإيمان وكذلك من المؤمنين الفسقة الجهلة الذين يلفقون أكاذيب ينشرونها بين الناس ، وجهة عداوتهم أنه [يوحي بعضهم إلى بعض] أي يلقى بالسر أو بالإشارة بعض إلى بعض ما يكون عيبا على الرسول الذي يعادونه ، ويكون ما يوحيه إليه [زخرف القول] أي القول الباطل المزين بالأكاذيب ، وقوله [غرورا] مفعول له للفعل السابق ، أي وإنما يوحي بعضهم إلى بعض ذلك غرورا واستكبارا واعتمادا على النفس بدون مستند واقعي [ولو شاء ربك ما فعلوه] أي ما قدروا على ذلك الإيحاء لأنه تعالى قادر على كل ممكن فعلا أو لا ، وإنما أملي ذلك لهم ترفيعا لدرجات الأنبياء والمرسلين وتمرينا لهم ولأتباعهم على مصابرة الأعداء [فذرهم وما يفترون] إلى وقت المحاسبة والجزاء يوم الدين [ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة] على الوجه الصحيح الثابت وإنما يؤمنون بها على ما تلقوه [وليرضوه] ويختاروا القوت للأرواح الخبيثة والقوة للنفوس الأمارة [وليقترفوا ما هم مقترفون] أي وليكتسبوا ما هم يكتسبونه من القبائح التي لا تليق إلا بهم •

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلا) الجملة مستأنفة على إرادة القول والهمزة للإنكار • يعني قل لهم يا رسولي : هل أطلب حكما يحكم بيني وبينكم غير الله ؟ وهل أميل إلى زخارف القول من الشياطين وأترك حكم الله تعالى وهو الذي أنزل الكتاب إليكم مفصلا فيه الأحكام ومميزا فيه الحق عن الباطل ؟ [والذي

آتيناهم الكتاب] السابق على كتابك وهم علماء اليهود والنصارى وأحبارهم [يعلمون أنه] أي أن الكتاب المنزل إليكم [منزل من ربك] بالوجه [الحق] ومتلبسا به ولكنهم يعاندون ويتجاهلون ابتغاء مرضاة الهوى وأهله . [فلا تكونن] يا رسولي [من الممترين] المترددين في عملهم بذلك أو في أن القرآن منزل إليكم بالحق كنظائره والنهي تعريض بالناس الممترين الفاسدين ، والا فسيد أهل اليقين من الواصلين إلى حق اليقين ولا يمكنه عدوله عن علم يلزم ذاته فإن علم الإنسان بنفسه ولوازمها الضرورية ضروري غير قابل للإنفكاك أبدا . [وتمت كلمة ربك] أي كلامه وحجته على العالمين ، وهي أن الدين عند الله الإسلام ، وأن محمداً خاتم الأنبياء الكرام وأصحابه خير أمة أخرجت تترسل بمر الأيام ، وأنه يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون [صِدْقاً وعَدْلا] أي حالكون ربك صادقا في ما أتى به من الكلام وعادلا في الأقضية والأحكام [لا مبدل لكلماته] ولا ماحي لها ، ولا ناسخ لأحكامها الأساسية [وهو السميع] لكل ما يتعلق به السمع [العليم] بكل ما يمكن أن يعلم ويخبر عنه . وهذا الذي نزل عليك وعلمته هو الحق الثابت ، ومن سلك طريقه اهتدى فلا تنحرف عنه ولا تسمع كلام الكفار المشركين وغيرهم ولا تطعهم [وإن تطع أكثر من في الأرض] وهم الكفار على اختلاف أهوائهم [يضلوك عن سبيل الله] لأنهم ليسوا أرباب بصيرة ويقين في أمورهم [إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون] يقولون ويعملون بالخرص والتخمين . ومن يسلك طريق الظن في الاعتقاد فهو ضال ومن يمشي على اليقين فهو مهتدٍ [وإن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله] من أهل الخرص والظنون [وهو أعلم بالمهتدين] .

(فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنْتُمْ بآياته مُؤْمِنِينَ (١١٨) ومَالَكُمْ ألا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ

عَلَيْهِ ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إلاَّ ما اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ؟ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلَمُ بِالمُعْتَدِينَ(١١٩) وَذَرُوا ظاهِرَ الإِثْمَ وبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ(١٢٠) وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(١٢١) أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)(١٢٢)

قوله تعالى : [فكلوا مما ذكر اسم الله عليه] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : أتى اليهود النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يا محمد أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله ؟ فنزلت الآية رواه أبو داود والبزار والترمذي • وقوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) عن ابن عباس قال : لما نزلت : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدا فقولوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بشمشار من ذهب (يعني الميتة) فهو حرام ؟ فأنزل الله تعالى (وإن الشياطين) • قال ابن عباس : الشياطين فارس وأولياؤهم قريش • رواه الطبراني وابن جرير •

روي عن زيد بن أسلم قال : نزلت الآية أي (أو من كان ميتا) في عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام وهو أبو جهل كانا ميتين في ضلالتهما فأحيا الله عمر

بالإسلام ، وأعزه ، وأقر أبا جهل على ضلاله وموته ، وذلك أن رسول الله دعا فقال : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » فاستجاب الله له في عمر • رواه ابن المنذر وابن ابي حاتم •

قوله تعالى : [فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين] أمر مترتب على النهي عن اتباع المضلين • يعني أيها المؤمنون لا تتبعوا الكافرين ، ولا تأكلوا مما لم يحبه الدين المبين ، فكلوا مما ذكر اسم الله عليه لا ما ذكر اسم غيره تعالى عليه فقط ، أو مع اسم الله جل جلاله ؛ كأن يقول باسم الله واسم اللات [ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ؟] أي بينه وأوضحه بقوله (قل : لا أجد فيما أوحي إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) الآية من سورة الأنعام أيضا • وليس التفصيل ما في قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) الآية من سورة المائدة فإنها مدنية من آخر ما نزل فكيف يحال عليه ما ورد في مكة [إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا] من الكفار [ليضلون الناس] بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة [بغير علم] مأخوذ من الوحي [إن ربك هو أعلم بالمعتدين] أي بالمتجاوزين على الحق إلى الباطل •

[وذروا ظاهر الاثم] ما يعلن منه بين الناس [وباطنه] أي ما يسر منه كالزنا والمفاسد الخفية ، أو ظاهر الإثم أعمال الجوارح وباطنه ما في القلب من الاعتقادات الفاسدة والحسد والحقد والغضب وتمني ما ليس له وقصد الإضرار بالغير فيما كان للإنسان سيطرة عليه ودخل في حد التكليف [إن الذين يكسبون الإثم] أي يعملون المعاصي سرا أو علنا [سيجزون بما كانوا يقترفون] أي يكتسبون أي إنهم يستحقون جزاءه على العدل من الله ، وإن كان يجوز عفوه فضلا منه تعالى [ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه] معناه ولا تأكلوا من لحم حيوان لم يذكر اسم الله على ذبحه [وإنه لفسق]

أي وإن ترك ذكر اسم الله تعالى تعمدا فسق وخروج من أدب الدين . وظاهر الآية حرمة أكل لحم حيوان لم يذكر اسم الله عليه سواء كان ترك الذكر عمدا أو نسيانا ، وإليه ذهب الإمام داود الظاهري ، ولكن يبعد تعميم الترك من العمد أو النسيان قوله تعالى (وانه لفسق) لأن ترك التسمية لا يكون فسقا لأن الناسي غير مكلف . ومذهب الإمام الأعظم حرمة الأكل عند ترك التسمية عمدا لا نسيانا . وكذلك مذهب الإمام مالك في بعض الروايات . وقال الشافعي : إن المقصود مما لم يذكر اسم الله عليه أنه ذكر اسم غيره عليه فترك التسمية عليه سهوا أو عمدا لا يحرم أكل لحمه . ومثله مالك في بعض الروايات . والدليل ما رواه أبو داود وعبد بن حميد عن راشد بن سعد مرسلا : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله تعالى أو لم يذكر » [وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم] أي وإن إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس يوسوسون إلى أوليائهم وأصدقائهم الذين اتبعوهم من المشركين شبهاً ضعيفة سخيفة في الموضوع [ليجادلوكم] بالباطل كما قالوا : إن الميتة قتلها الله ، وَذَبائحكم أنتم قتلتموها فكيف تحرم ذبيحة الله وتحل ذبائحكم ؟! وتلك الشبه أوهام واهية لا تطيعوا المشركين فيها [وإن أطعتموهم] فيها واستحللتم الميتة [إنكم لمشركون] لبداهة أن ترك طاعة الرب لإطاعة غيره إشراك به تعالى . أعاذنا الله منه .

ثم أراد الله سبحانه تنفير المسلمين عن طاعة المشركين فقال : [أو من كان ميتا فأحييناه] يعني أو من كان ضالا فهديناه [وجعلنا له نورا يمشي به] أي وخلقنا لذلك الحي نورا عظيما يمشي به أي بسبب ذلك النور في الناس أي بينهم [كَمَنْ مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها ؟] أي كمن صفته أنه في الظلمات المتراكمة بحيث لا يخرج منها ولا يقدر على التجاوز عنها . والجواب الصحيح : لا ؛ فإن الضال لا يكون كالمهتدي ، كما أن الميت

لا يكون كالحي [كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون] أي كتزيين الأعمال الصالحة أمام المؤمن زين للكافرين وأمام اعينهم ما كانوا يعملون من السيئات من أكل الميتة وغيرها من المحرمات .

(وكذلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وما يَمْكُرُونَ إلاَّ بِأنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُون(١٢٣) وإذَا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما اُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، واللهُ اَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَديدٌ بِمَا كانُوا يَمْكُرُونَ(١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللهُ اَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ اَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ ، كذلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ علَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ(١٢٥) وهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُون(١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١٢٧)

قوله تعالى : [وكذلك جعلنا] الآية اسم الإشارة استعملت هنا للإشارة إلى شيىء معقول معلوم عند الرسول كالمشار إليه المحسوس ، أي كما جعلنا في مكة أكابر من المجرمين ليمكروك فيها ، جعلنا سابقا وأجعل لاحقا [في كل قرية أكابر مجرميها] الطغاة الهواة للأوهام والأهواء الباطلة [ليمكروا فيها] من يزعمون أنه حجر عثرة أمام إرادتهم [وما يمكرون] في الحقيقة [إلا بأنفسهم] لأن وبال مكرهم وقتل أهل الحق وتشريدهم يعود عليهم إن عاجلا أو آجلا [و] لكن [ما يشعرون] بذلك شعورا يزجرهم ويردعهم عما به يشتغلون .

[وإذا جاءتهم آية] تدل على صدق الرسول وحقية ما جاء به ووجوب نصره وتأييده [قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله] أي حتى يأتينا الوحي مثل ما أتى الرسول ، ويتكلم جبريل معنا كما تكلم معه ، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله الكريم [الله أعلم حيث يجعل رسالته] وأي نفسية لها قدسية وتناسب هذه الموهبة العالية وليس العلم بذلك من صفات الناس ، بل الله أعلم بذلك بل هو العالم لا غيره ، والذين تمنوا ذلك من المجرمين أمام حكم الله ، والذين يعقبون قولهم ذلك بأعمال بذيئة مخالفة للرسول من أفظع المجرمين و [سَيُصيبُ الذين أجرَموا صَغارٌ] وذل في الدنيا أو في الآخرة [عند الله] حسب ما قدره وقرره في علمه [و] يصيبهم [عذاب شديد] فيهما [بما كانوا يمكرون] مع الرسول وكتابه وأتباعه المسلمين ، ويا أيها الرسول الكريم لا تبتئس بما كانوا يمكرون ويكفرون ويعادونك فإن الله تعالى نظر إلى العباد وميز أهل الإطاعة والانقياد من أهل العداء والعناد فمنهم من قرر شرح صدره ، ومنهم من قرر بسوء اختيار سوء أعماله وخسرانه في عاقبة أمره وهما فريقان متفارقان لا يتساويان [فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام] فيجعل في قلبه علما وافيا بما يجب اتباعه ويتنور ما أمامه للتطبيقات الفعلية ويرى وراء ذلك لقاء ربه ووصولا إلى جزائه [ومن يرد أن يضله] على حسب ما علم منه أنه يسيىء التصرف النفسي ويعارض النداء القدسي ويتبع هواه كما يشاء [يجعل صدره] إزاء اعتناق الدين والتزام مبادئه [ضيقا] لا يسع خزن الإرشادات [حرجا] متعبا إزاء التفكرات الدقيقة لنيل الحقائق [كأنما يصعد في السماء] أي يصعد في الهواء بدون طائر يطير فيه ويصعد في الأثير العالي بدون قوة هائلة ينفذ بها فيه [كذلك] وبمثل ذلك الجعل المذكور [يجعل الله الرجس] من الخذلان عن الإيمان والدخول في الكفران [على الذين لا يؤمنون] ولا يريدون أن يؤمنوا بما جاءهم من

الرسول الأمين وما نزل عليهم من الكتاب المبين [وهذا] القرآن العظيم الشأن وواسع البيان [صراط ربك] طريقه الذي ارتضاه لسلوك السالكين وانحراف الهالكين [مستقيما] معتدلا [قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون] فيتفهمون دقائقها ويعلمون حقائقها [لهم] أي لهؤلاء المتذكرين [دار السلام] الجنة التي لا لغو فيها ولا أثام ، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فرح القلوب على نهج آمال الكرام وهي معدة لهم [عند ربهم وهو وليهم] ومحبهم وناصرهم فيجازيهم [بما كانوا يعملون] •

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ ، وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا ، قالَ : النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها ، إِلَّا ما شاءَ اللهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(١٢٨) وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(١٢٩) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ والْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ؟ قالُوا : شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ(١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ(١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ(١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(١٣٣) إِنَّ ما

تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(١٣٤) قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)(١٣٥)

قوله تعالى : [ويوم يحشرهم] منصوب على الظرفية ، والعامل فيه أذكر . يعني أذكر يوم يحشر الله الثقلين فيه [جميعا] فيقول : [يا معشر الجن] وجماعته [قد استكثرتم من] إغواء [الإنس] وإضلالهم [وقال] عند ذلك [أولياؤهم] الذين أطاعوا الجن : [ربنا استمتع بعضنا ببعض] وانتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات ، وتمتع الجن بالإنس ، حيث اتخذوهم قادة واتبعوا أمرهم وقضينا حياتنا في هذه الأمور التافهة ، [وبلغنا أجلنا الذي أجلت] وعينته [لنا] وهو يوم القيامة ، فنحن معترفون بأنا مقترفون فـ [قال] الله تعالى في جواب قولهم : [النار مثواكم] ومنزلكم ومحل إقامتكم لتعذيبكم فيها [إلا ما شاء الله] من وقت نقلكم من النار إلى برد الزمهرير فأنتم تتقلبون فيها كما قررنا [إن ربك حكيم] في التعذيب بالنار أو بالزمهرير ، و [عليم] بأحوال الثقلين من القليل والكثير [وكذلك] الذي تعلمونه من أحوال الكافرين وأتباعهم الشياطين الإنس والجن لإغوائهم [نولي بعض الظالمين بعضا] آخر منهم وتلك التولية [بـ] سبب ما كانوا يكتسبون من الأعمال السيئة ، فإن المسيء إذا تندم ورجع تاب الله عليه وغفر له وسامحه ، وأما إذا استمر في غيه ازداد ساعة فساعة ويوما فيوما إثما واثما آخر وثالثا .

[يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم] أي من جملتكم ، ولو أتى من الإنس فقط ، فإن المشهور أن لا رسول يرسل من الجن أو من القبيلين على أن يراد برسول الجن الرسول من طرف رسول الإنس إذ لا مانع من أن

يؤمن من الجن أشخاص فينتخب منهم شخص ويرسل من جانب الرسول الإنسي إلى تعليم باقي الجن كما أرسل جمع من قبل المسيح ـ عليه السلام ـ إلى انطاكية . ويذكرهم الله بالرسالة فيقول : (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) مع أنهم رسل عيسى لا رسل الله بالذات [يقصون] أي أولئك الرسل [عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟] أي يوم الحشر واللقاء والحساب [قالوا] أي الفريقان : [شهدنا على أنفسنا] بإيتاء الرسل وتبليغ الكل ، ثم يقول الباري عز اسمه [وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك] أي إتيان الرسل ثابت لـ [أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا] أي ولكل فرد من الجن والإنس درجات مما عملوا أي مراتب من سيئات ما عملوا صالحة أو سيئة ، وعلى كل درجة من الخير درجات من الرضوان ، وعلى درجة من الشر دركات من النيران ، فكما أن كل مؤمن يدخل الجنة والتفاوت بحسب ميزان الحسنات كذلك الكافرون متساوون في استحقاق النار ولكن يتفاوتون في شدة العذاب على حسب درجة سوء المعاصي [وما ربك بغافل عما يعملون] في الليل والنهار وفي البراري والبحار ، وهنا ينكشف معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رأيت عمرو ابن لحي ويجر أمعاءه في النار » او كما قال .

[وربك الغني] المطلق عن كل ما سواه وسائر الأغنياء إذا استغنوا عن بعض الأشياء فهم في حاجة إلى غيره ، وأما الباري تعالى فغني بالإطلاق ، ومع أنه غني مطلق عما سواه فهو [ذو الرحمة] على العباد ، وجهات رحمته لا تحصى ، ولولا رحمته الواسعة لأباد أهل الكفر والعناد من العباد ، وما دام كذلك فهو [إن يشأ يذهبكم] ويستأصلكم بحيث لا يبقى منكم أثر [ويستخلف من بعدكم ما يشاء] من الخلق [كما أنشأكم من ذرية قوم

آخرين] لم يكونوا على صفاتكم كمن نزل مؤمنا من سفينة نوح ـ عليه السلام ـ [إن ما توعدون] بعد الموت من الأهوال والبعث والحشر والحساب [لآتٍ] متحقق لا محالة [وما أنتم بمعجزين] لنا عما نريده فإذا علمت أن الله تعالى هكذا [فقل] يا رسولي : [يا قوم اعملوا] ما تشاؤن [على] مقدار [مكانتكم] من الإيذاء والإلقاءات والدس والافتراء [إني عامل] على مكانتي بما خولني ربّي ، وسائر على منهج الرسل من إرشاد العباد وتوجيههم إلى الله ووحدته وصفاته الكاملة [فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار] أي من يكون له عاقبة حسنة وختام خير من بقاء في دار الدنيا [إنه لا يفلح الظالمون] والمشركون هم الظالمون . وفي الآية الشريفة تهديد للكفار والمشركين الأشرار ، وقد حقق الله تعالى جزء مما هددهم به ، وهو أنه أخزاهم وأبادهم ولم يخل لهم كرامة وشأنا في الدنيا وسوف ينالون جزاءهم في دار الآخرة على ما قرره الله رب العالمين .

(وجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ والأنْعامِ نَصيباً ، فَقالُوا : هذا للهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهذا لِشُركائِنا ، فَما كانَ لِشُركائِهِمْ فَلا يَصِلُ إلى اللهِ ، وَما كانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكائِهِمْ ، ساءَ ما يحكمون !(١٣٦) وكذلِكَ زَيَّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشْرِكينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ولِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ ما فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ(١٣٧) وقالُوا : هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إلاّ مَنْ نَشاءُ ، بِزَعْمِهِمْ ، وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها ، وأنْعامٌ لا يَذْكُرونَ اسْمَ اللهِ عليها ، افْتِراءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بما كانُوا يَفْتَرُونَ(١٣٨) وَقالُوا : ما فِي بُطُونِ هذِهِ الأَنْعامِ

خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ(١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وحرَّموا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِراءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا ، وَما كانُوا مُهْتَدِينَ)(١٤٠)

قوله تعالى : [وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا] شروع في بيان بعض آخر من الأحوال الفاسدة التي افتعلها المشركون ، وهو أنهم كانوا إذا حصلوا على واردات مالية من الحرث والنسل أي من الزراعات والنتاج أخذوا منهما سهمين : سهما لله يصرف للضيفان وسائر وجوه الخير ، وسهما للأوثان وما تحتاج إليه ! واذا دعت حاجة إلى صرف السهمين صرفوا من سهم الله على سدنة الأصنام . وأما السهم المختص بالأوثان فلا يصرفونه إلا إليهم . والباري تعالى ينقدهم على هذا العمل الدنيء فقال : [وجعلوا] أي مشركو العرب [لله] تعالى [مما ذرأ] ه الله وأظهره [من الحرث] كفوائد الزراعة [والأنعام] كالفصلان والطليان [نصيبا] أي قسما معينا [وقالوا : هذا لله بزعمهم] ونصيبا آخر [و] قالوا : [هذا لشركائنا] يصرف في مصالحها [فما كان] معينا [لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان] معينا [لله فهو يصل إلى شركائهم] وذلك تحكم وتعسف بلا داع [ساء ما يحكمون] فيما فعلوا من صرف سهم الله لمصالح الأصنام ، وعدم صرف سهم الأصنام إلا للأصنام .

والحاصل : إنه بالرغم من أنه كان أصل عملهم فاسدا بدون مبرر وداع كان صرف نصيب الله إلى غيره من الأصنام دون العكس فسادا آخر . و [كذلك] العمل الفاسد الذي نشأ منهم عقيدة فاسدة وهي أنه [زين] الباري خلقا وإبداعا على أساس العلم بسوء اختيارهم في المستقبل [لكثير من

المشركين قتل أولادهم شركاؤهم] أي إن الجن أو السدنة القائمين على الأصنام زينوا لهم قتل الإناث من أولادهم فيدفنون البنات المسكينات وهن أحياء ، وكانوا في ذلك فريقين أحدهما يقول : إن الملائكة بنات الله سبحانه ؛ فالمناسب أن نقتل بناتنا ليلحقن بالله تعالى ، والآخر يقتلهن خشية الإنفاق . وقيل : خشية العار والإنفاق . وهو المروي عن جماعة . والآية الكريمة في الإسراء تصرح بالأول وإنما زينوا ذلك في قلوبهم [ليردوهم] أي ليهلكوهم بالإغواء [وليلبسوا عليهم دينهم] أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل فإن دينه كان صافيا عن هذه الخرافات ، والشياطين من الإنس ألقوا إليهم هذه الخرافات باسم الدين حتى يتغير عليهم ما كان فيه من التكليفات المشروعة ، وإن كان أصل الدين لم يبق كدين معمول به [ولو شاء الله ما فعلوه] أي ما فعل المشركون هذه التلبيسات وما ألقوها إليهم [فذرهم وما يفترون] أي فاتركهم وافتراءاتهم الواردة على قلوبهم من الشياطين .

[وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر] أي وقالوا في شأن ذلك النصيب الذي أفرزوه لآلهتهم هذه أنعام وحرث أي زرع وأنعام محجورة لله [لا يطعمها إلا من نشاء] وكان قولهم ذلك مربوطا [بزعمهم] لا بدليل مشروع مقبول [وأنعام حرمت ظهورها] أي وقالوا : هذه أنعام حرمت ظهورها ؛ فلا تركب ولا تحمل [وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها] أي وكانت من بين أنعامهم أنعام لا يذكر اسم الله عليها أي لابد أن تذبح تقربا إلى الأصنام [افتراء على الله] ويفعلون بإسنادهم له إلى أمر الله به افتراء على الله ، سيجزيهم الله بما كانوا يفترون [و] من جهة أخرى [قالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا] أي لأولادنا الذكور [ومحرم على أزواجنا] أي على من هي من صنف أزواجنا أي الإناث وهن بناتهم [وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء] وأما إذا كانت ميتة أي ولد ميتا فهم أي الجميع من الأولاد والبنات فيه شركاء

[سيجزيهم] الله [وصفهم] أي بيانهم المذكور السابق افتراء على الله [إنه حكيم عليم] فيجزي كل عامل حسب عمله . ثم ذكر الباري عاقبة أمرهم فقال : [قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً] وخفة عقل [بغير علم وحرموا ما رزقهم الله] من فوائد الأنعام [افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين] .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ، إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ، كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(١٤٤)

قوله تعالى : [وهو الذي أنشأ] الآية عود إلى ما هو المقصود الأصلي من إقامة الدلائل على تقرير التوحيد ، فيقول [و] الله [هو] القادر [الذي

أنشأ] وخلق [لكم جنات معروشات] يعني شجرات مثمرة محمولة على العريش وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم او شبيهه عليه [وغير معروشات] أي وأنشأ لكم جنات غير معروشات وهي الملقيات على وجه الأرض كالكروم السطحية وأشباهها [والنخل والزرع مُخْتلفاً اُكُلُهُ] أي ثمره الذي يؤكل منه اختلافا بالحجم واللون واللذة [والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه] من الأصناف المتشابهة في الصورة وغيرها [كلوا من ثمره] أي يقال من جانب مالك الملك حسب التشريع : كلوا يا عبادي منْ ثَمَرِه [إذا أثمر ، وآتوا حقه] الذي أوجبه الله عليكم [يومَ حَصادِهِ] إن كان المراد بالحق حق الله أي الزكاة فالواجب العشر فيما وصل بلا كلفة ، ونصف العشر فيما حصل بها ، وإن كان حقا آخر واجبا قبل الزكاة فالمراد المقدار الذي تقرر في ذلك الوقت ، وإن كان عبارة عن أجرة البستاني والعامل فيه فهو ظاهر [ولا تسرفوا] في إيتاء الحق [إنه لا يحب المسرفين] وعن أبي العالية قال : كانوا لا يعطون يوم الحصاد شيئا سوى الزكاة ثم تسارفوا [أي تبارَوا بالإسراف] فنزلت هذه الآية • رواه ابن جرير وابن أبي حاتم • وعن ابن جرير قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، جذّ نخلا فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليس عنده تمرة • فأنزل الله تعالى (ولا تسرفوا) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم •

[ومن الأنعام حمولة وفرشا] أي وهو الذي أنشأ لكم من الأنعام حمولة أى ما يحمل عليه الأحمال ، وفرشا أي ما يفرش منها للذبح قائلا لكم : [كلوا مما رَزقكم الله] أي كلوا بعض ما رزقكم الله وهو الحلال ؛ لأن الله تعالى لا يأمر بأكل الحرام [ولا تتبعوا خطوات الشيطان] أي لا تتبعوا طرقه الإغوائية [إنه لكم عدو مبين] ظاهر العداوة [ثمانية أزواج]

بدل من حمولة وفرشا ، والزوج يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى كما يقال لمجموعهما . والمراد هنا الأول [من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين قل] للمشركين تبكيتا لهم : [آلذّكرين حرّمَ] الله تعالى [أم الأنثيين] أي انثى ذينك الصنفين [أمّا اشتملَتْ عليه أرحامُ الأنثيين] ذكرا كان أو أنثى [نبّئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل : آلذكرين حرّم] الله تعالى [أم الأنثيين ، أمّا اشتملت عليه أرْحام الأنثيين ؟ أمْ كنتم شهداءَ إذ وصّيكم الله بهذا] ؟ أي بهذا التحريم [فمن أظلم ممّن افترى على الله كذبا ؟] فنسب إليه تعالى تحريم ما لم يحرّم . والمراد به على ما روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عمرو بن لحى ابن قمئة الذي بحر البحائر وسيّب السوائب وتعمد الكذب على الله تعالى ، وقيل كبراؤهم المقرون لذلك [ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين] .

قُلْ : لا اجِدُ فِي ما أوحِيَ الَيَّ مُحَرَّماً عَلى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاّ أنْ يَكونَ مَيْتَةً أوْ دَماً مَسْفُوحاً اَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فإنّه رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقاً اُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ولا عادٍ فإنّ رَبّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤٥) وَعَلَى الّذِينَ هادُوا حرّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، ومِنَ الْبَقَرِ والغَنَم حَرّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما ، إلاّ ما حمَلَتْ ظُهُورُهُما ، اَوِ الْحَوَايا ، اَوْما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَاِنّا لَصادِقُونَ(١٤٦) فَاِنْ كَذّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ، وَلا يُرَدُّ بأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ المُجْرِمِينَ) .(١٤٧)

قوله تعالى : [قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرّما] أمر لرسول الله بعد إلزام المشركين بأن يبين لهم ما حرم عليهم لا أجدُ في ما أوحي إلي محرّما [على طاعم يطعمه] أيّ طاعم كان من ذكر أو أنثى [إلا أن يكون] ذلك الشيء المحرم [مَيْتَةً] والمراد بها ما لم يذبح ذبحا شرعيا ، فيتناول المنخنقة والموقوذة والنطيحة وما أكل السبع ولم يصل إليه صاحبه في حال الحياة المستقرة حتى يذبحها [أو دما مسفوحا] أي مصبوبا سائلا كالدم في العروق ، وخرج به الدم الجامد كالكبد والطحال [أو لحم خنزير فإنه رجس] أي قذر أو خبيث مخبِّث [أو فسقا أُهلّ لغير الله به] والمراد به الذبيح على اسم الأصنام فإنما سمي ذلك فسقا لتوغله في الفسق ، وأصل الإهلال رفع الصوت [فمن اضطرّ] أي أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك [غير باغ ولا عاد] أي حال كون ذلك الرجل أو المرأة غير باغ على نصيب مضطر آخر ولا متجاوز مقداراً يكفيه [فإن ربك غفور رحيم] •

واستشكلت هذه الآية الشريفة بأنها حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة : الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذي أهل لغير الله به • ولا شك أنها أكثر من ذلك ! وأجيب عنه بأن الآية مكية ، وكلمة أوحي فعل ماض مجهول فالآية الشريفة تدل على التوقيت ، ومعناها قل : لا أجد فيما أوحي إلي إلى هذا الوقت محرّما غير هذه الأربعة ، وذلك لا ينافي ورود تحريم أشياء أخرى بعد ذلك الوقت ، كما في آية سورة المائدة النازلة بالمدينة المنورة ، وهي : (حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ، ذلكم فسق) الآية على أنه وسع الله تعالى في

المطعومات بقوله الكريم في سورة الأنعام (قل : من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟) وفي سورة الأعراف (يحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث) الآية وما يقال من أنهما ليسا مضبوطين إن أراد أنهما ليسا مضبوطين بضبط تحديدي لا يقبل الزيادة والنقص فمسلم ، ولكن الدين يسر ، ولم يقرر الأمور الاقتصادية على ذلك المنهج ، وإن أراد أن الطيبات والخبائث لم يكونا مضبوطين عند أوساط الناس من العرب الموجودين في عهد نزول الآية بالحرمين فهو غير مسلم ، فإن كل عاقل ذي طبع سليم يعلم أن الحيوانات المستقذرة والسامة كالحيايا والعقارب والسلحفيات والفئران والخنافس وما شاكلها ، وكل حيوان يعيش على أكل الخبائث ، وكل سبع ذي ناب متلطخ بدماء الحيوانات الضعاف ، وكل طير ذي مخلب يصيد العصافير والطيور الضعاف الأخرى ، وكل ما ذكر تحريمه في آيات المائدة والأنعام من الخبائث المستقذرة .. من الخبائث ولا تؤكل إلا في الاضطرار ، وما عداها من الطيبات تؤكل بلا شبهة . وأما ما كان فيه شبه من الجانبين أي يعد من الطيبات عند بعض ومن الخبائث عند آخر فمن طاب هو عنده أكله ، ومن خبث ذلك عنده تركه ، ومن لم يكن له رأي فيه فالأصل فيه الإباحة فلم يبق اشتباه شرعي ، لأن بعض المحرمات منصوصة وبعضها متروكة ومحالة على طبائع أوساط الناس المعتدلين ، إذا لم يلحقه المجتهد بأحد الجانبين من الطيب والخبيث بالقياس ، وأما إذا ألحقه المجتهد بأحدهما قياسا فلا تبقى فيه شبهة لمن اتبع ذلك الإمام . والأصل فيما لم يظهر فيه محرّم ولا مبيح الإباحة ، لأن الأصل في الأشياء الحلّ والبراءة .

[وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر] أي كل ما له اطبع كالإبل والسباع والطيور ، وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفرا مجازا .

[ومن البقر والغنم حرمنا عليهم] أي على الذين هادوا [شحومهما] الثروب وشحوم الكلى ، أي لا لحومهما فإنها باقية على الحل والثروب شحوم على الإمعاء والكرش [إلا ما حملت ظهورهما] أي ما علق بظهرهما ، [أو الحوايا] فإنه عطف على المستثنى وليس بشحم بل هو بمعنى المباعر ، فيكون الاستثناء منقطعا . وإذا اعتبرت مضافا مقدرا أي شحوم الحوايا كان الاستثناء متصلا [أو ما اختلط بعظم] وهو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص . [ذلك] التحريم كان جزاء لهم [جزيناهم ببغيهم] وعدوانهم على الأنبياء بقتلهم [وإنا لصادقون] في ما أخبرنا به عن الماضي أو غيره . آمنا بذلك . ومن أصدق من الله قيلا ؟ .

[فإن كذبوك] أي كذبك اليهود لقربها ، أو المشركون [فقل] لهم : [ربكم ذو رحمة واسعة] لا يعاقبكم باستعجال [و] لكنه [لا يرد بأسه عن القوم المجرمين] وسينتقم منكم على إنكاركم ما وقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ ! كذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(١٤٨) قُلْ فَلِلّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ(١٤٩) قُلْ : هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِين يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا ، فَإِنْ شهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرةِ ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)(١٥٠) .

قوله [سيقول الذين أشركوا] الآية بيان لنوع آخر من أباطيلهم ؛ فقال تعالى [سيقول الذين أشركوا لو شاء الله] عدم إشراكنا [ما أشركنا نحن ولا] أشرك [آباؤنا ولا حرّمنا] من شيء وما دام كان تحريمنا لما حرمنا مما شاء الله فلا عتب علينا ، فرد الله تعالى عليهم بقوله [كذلك كذب الذين من قبلهم] أي مثل ما كذب هؤلاء المشركون الموجودون في وقت الرسالة كذب المشركون الذين من قبلهم في الأزمنة الغابرة ، وكانوا يستدلون على تبريرهم في التكذيب بمثل استدلالهم من قبل ، ومقصودهم الأخير من ذلك تكذيب الرسول في دعوى الرسالة من الله ، وإن التوحيد مقصود لله ، وإن الإشراك مذموم مردود عنده والدليل على ظاهره قياس استثنائي تقريره : لو شاء الله عدم إشراكنا ما أشركنا لأن مقابلة مشيئة الله ممتنعة ، لكنا أشركنا ، فينتج أن الله شاء إشراكنا ! فإذا جعلت هذه النتيجة صغرى لدليل يكون تقريره مع الكبرى : كل إشراك منا حصل بمشيئة الله تعالى ، وكل امر حاصل بمشيئته لا عتب على العباد فيه ، فإشراكنا لا عتب فيه علينا ويدل قوله تعالى : [حتى ذاقوا بأسنا] أي ذاقوا عذاباً من عندنا مقررا لهم على أن قولهم لو شاء الله ما أشركنا لم يكن عن إيمان بالله ونفاذ قدرته حسب ارادته ، وإنما قالوه عن كفر بالله وتملص للخروج من ربقة التكاليف والأحكام ، وعن اتباع للظنون والأوهام التي دعتهم إلى الاعتقاد بأن كل ما شاء الله فمباشرته حلال ، وليس كذلك لأنه وإن كان الممكن الموجود لا يخرج عن إرادته وقدرته لكن المرضي منه ما لم يكن فيه دخل إلا له تعالى ، أو كان فيه دخل لكسب العبادِ المكلّفين على الطريقة المباحة المشروعة . وأما ما باشره على أساس سوء الاختيار وصرفه إلى ما لا ينبغي فهو وإن كان خلقه من الله تعالى وبإرادته وقدرته ، لكن ذلك تابع لعلمه بأن ذلك الإنسان الفاسد يكفر بالحق ويجحد ويعاند ، أو ينحرف عن إطاعة الله في تشريعه

ويقصده بسوء القصد على سبيل البغي والعدوان والعصيان • وذلك موجب لسخطه تعالى وعدم رضائه •

وحاصل الجواب : إن الدليل الذي استدللتم به مسلم بتمام أجزائه وإن أعمالكم السلبية والإيجابية كلها بمشيئته تعالى وإرادته ، ولكن ليس كل مراد منه تعالى مرضيا ، بل منه المرضي وهو ما وافق منهج الدين ، ومنه ما هو غير مرضي كما خالف الدين والحق القويم • وعلاوة على ذلك فإنهم ليسوا عالمين بتوجه مشيئة الله الى إشراكهم قبل الإشراك ، ولكن بعد أن أشركوا جاءوا يبررون إشراكهم بما قالوا ، ولذلك قال تعالى : [قل : هل عندكم من علم] بتعلق مشيئة الله وإرادته بإشراككم ، وعلى ذلك العلم أشركتم [فتخرجوه لنا ؟] فتظهروه لنا إظهارا وافيا ؟ والجوب : لا • وأيد ذلك الرد بقوله الرادع لهم وهو : [إن تتبعون إلا الظن] الباطل الذي لا يغنى من الحق شيئا [وإن أنتم إلا تَخْرُصُونَ] •

[قل] يا رسولي ما دام كلامكم مبنيا على الاستناد الى مشيئة الله تعالى [فلله] خاصة [الحجة البالغة] أقصى درجات القوة لا لكم ، لأنه ينظر إلى مشيئته حسب تعلق علمه الأزلي بأفراد العباد المجهزين بالحواس ، والعقل ، صرف الإرادة ، وعلمه بأن أي واحد منهم يختار الأمر الحسن الموافق للحق ورضائه تعالى ، وأي واحد يختار خلافه • وأنتم تنظرون إلى مشيئته بعد تحقق أعمالكم السيئة ، وتبررون بتعلق المشيئة بها صدورها عنكم ، فعلى اعتبار الباري لمشيئته واعتبار نفاذها في ما تتعلق به[1] [لو

---

(١) في روح المعاني : وقال شيخ مشايخنا الكوراني : (الحجة البالغة) اشارة الى ان العلم تابع للمعلوم وان ارادة الله تعالى متعلقة بإظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة جودا ورحمة لا وجوبا انتهى . ومآل ذلك مع ما ذكرناه واحد .

شاء] الله هدايتكم جميعا [لهداكم] إذ لو شاء هدايتكم قسرا وتنفيذا منه ما منعها شيء وهداكم إلى ما اختاره من الدين ولم يستثن أحداً بل هداكم [أجمعين] لكنه لم يشأ ذلك إذ لا يبقى بعد الإرادة والتنفيذ القسري معنى لعبادة العابدين ، وإنما يكون المعنى لصرف العبد اختياره إلى فعل ما أمر الله به ومخالفته لنفسه وهواها ، وإلى ترك ما نهى الله عنه وتحمل أذى مخالفة النفس ومتمناها .[٢] [قل] يا رسولي [هلم] أي أحضروا [شـهداءكم

---

(٢) قال في روح المعاني : وقال الكوراني المراد لكنه لم يشأ اذ لم يعلم ان لكم هداية يقتضيها استعدادكم ، بل المعلوم له عدم هدايتكم ، وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المجعول . وهذا تحقيق الحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به . وفائدة ارسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشيء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين . وقد أشرنا الى ذلك من قبل فتذكر .

وقال ابن المنير وجها آخر في توجيه الآية ، وهو ان الرد عليهم انما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبو الاختيار والقدرة ، وان اشراكهم انما صدر عنهم اضطرارا ، وزعموا انهم يقيمون الحجة على اللـه ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد اللـه عليهم قولهم في دعواهم عدم الاختيار لانفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال ، فكذب الرسل ، واشرك بالله عز وجل ، واعتمد على انه انما يفعل ذلك بمشيئة الله تعالى ، ورام افحام الرسل بهذه الشبهة .

ثم بين سبحانه انهم لا حجة لهم في ذلك وان الحجة البالغة له جل وعلا لا لهم . ثم اوضح سبحانه ان كل واقع واقع بمشيئته وانه لم يشأ منهم الا ما صدر عنهم ، وانه تعالى لو شاء منهم الهداية لاهتدوا اجمعون .

والمقصود من ذلك ان يتمحض وجه الرد عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد ، وينصرف الرد الى دعواهم سلب الاختيار لانفسهم وان اقامتهم الحجة بذلك خاصة ، واذا تدبرت الآية وجدت صدرها رافعا بصدور الجبرية وعجزها معجزا للمعتزلة ، اذ الأول مثبت أن للعبد اختيارا وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، والثاني مثبت نفوذ المشيئة لله تعالى في العبد وان جميع افعاله على وفق المشيئة الالهية ، وبذلك تقوم الحجة البالغـة لأهل السنة على المعتزلة . والحمد لله رب العالمين .

الذين يشهدون أن الله حرّم هذا] الشيء الحرام [فإن] حضروا و [شهدوا] أن الله حرّمه [فلا تشهد معهم] فإنها شهادة زور ومن أهل الفسوق والفجور لا أهل العدالة والحضور . [ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة] كعبدة الأوثان [و] الذين [هم بربهم يعدلون] أي يجعلون له عديلا مستحقا للعبادة . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون .

ومما يجب أن يعلم أن هناك مقدمات قطعية لا مجال للنزاع فيها ، وهي أن الكائنات ممكنة وحادثة وأن لها خالقا واجب الوجود متصفاً بالكمال ومنزها عن النقص ، وأنه عالم بجميع ما خلقه ويخلقه بذواتها وصفاتها الاستعدادية وغيرها . وأن الموجودات المخلوقة منها الجمادات والناميات والحيوانات ، ومن الحيوان نوع الإنسان وهو مكلف ومسؤل باتفاق العقلاء ، وأن أولئك العقلاء كما لهم الحواس الخمس يحسون بها ما يختص بواحد منها كذلك لهم العقول المدركة للنافع والضار في أمور الدنيا وأمور الدين . وأنه بحسب الظاهر عنده قدرة وإرادة وعلم بحيث يتمكن من تصور الأحكام والتصديق بها وتوجيه القدرة إليها بعد تعلق إرادته بها ، ولا نزاع أيضا في أن الفعل يصدر منه ظاهرا وهو مصدره فعلا أو تركا خيرا أو شرا، إلا أنّ الكلام في أنعلاقة العبد به هل أنه خلقه بلا دخل لله، تعالى عن ذلك . أو أن الله خلقه بلا دخل للعبد فيه مطلقا ، أو أن الطرفين لهما علاقة به بالتأثير فيه أو في وصفه ، أو أن علاقة الله تعالى به بالخلق والتأثير وعلاقة العبد فيه بالكسب ؟ والحق الحقيق بالقبول الثابت بالدليل هو هذا الأخير أى أن الله تعالى خلق ذلك الفعل لكن عند توجه قدرة العبد وارادته إليه ، وإن توجيه القدرة التابعة للإرادة هو المسمى بالكسب . فذلك العمل مخلوق لله تعالى يخرجه من العدم إلى الوجود فهو الخالق ومكسوب للعبد

لأنه حصل بصرف العبد قدرته وإرادته إليه ، فالعبد كاسب ولا بأس بكون الفعل بين الله وعباده أي بخلقه وكسبهم • وعلى كل فالباري سبحانه وتعالى كان ولم يزل ولا يزال عالما بالعبد وبأنه يفعل ذلك ويترك ذاك لأن عدم علمه به نقص لايناسب الباري تعالى وهذا العلم ليس كوسيلة إجبار للعبد في فعله بل هو مختار والله عالم به وباختياره أزلا وأبدا • ولكن شرار العباد من الكفار والعصاة يبررون صدور السيئات منهم بأنها تعلق علم الله وقدرته ولا يمكننا أن نتركه ، ولكن هذه شبهة فاسدة ؛ لأن علمه تعالى ليس من المجبر للعباد ؛ وإنما علمه كمرآة فيها صور الأشياء وهي حاكية لها لا حاكمة عليها ؛ فالناس مسئولون عن أعمالهم إن خيرا فجزاؤهم خير وإن شراً فجزاؤهم شرّ نعم لو كان الله أراد أن يعمل جميع الناس الخيرات كان قادرا على هدايتهم لها لكنه تعالى لا يجبر أحداً على شيىء وإلا لم يبق معنى لعبودية العباد فإن العبد يجب أن يطيع بالاختيار لا بالاجبار هذا والله اعلم •

(قُلْ : تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيْكُمْ : أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ ، ولا تَقْرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها ومَا بَطَنَ ، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، ذلِكُمْ وَصَّيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ والمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ، وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا ، ولَوْ كانَ ذا قُرْبى ، وبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ، ذلِكُمْ وَصَّيكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١٥٢) وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً

فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١٥٣)

قوله تعالى : [قل تعالوا] بعدما أظهر الله لهم بطلان ما اعتقدوه من الإشراك وبطلان ما ادعوا تحريمه ، أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعوهم وينصحهم على الأسلوب المرغوب ويبين لهم ما يستحق الاجتناب من العقائد الفاسدة ومن الأعمال العاطلة الكاسدة فقال له صلى الله عليه وسلم : [قل تعالوا] أيها المشركون [اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا] أي من أن لا تشركوا به شيئا أي اشراكا ضعيفا أو قويا ، أو شريكا واحدا فصاعدا [وبالوالدين إحسانا] أي وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا تاما كاملا لا يشوبه شيىء من الإساءة [ولا تقتلوا أولادكم] أي وأن لا تقتلوا أولادكم [من املاق] أي من أجل خوف فقركم [نحن نرزقكم وإيّاهم] جميعا [ولا تقربوا الفواحش] من أصناف الزنا ما ظهر منها وما بطن ، مما يعمل علانية أو سرا باتخاذ الأخدان أو بالاستيلاء على النّسوان [ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله] قتلها بالإسلام أو بالمعاهدة [إلا بالحق] كأن تقتل بالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل النفس المعصومة، كما في الحديث الشريف . [ذلكم وصيكم به لعلكم تعقلون] خطورةَ وصيّة الله للعباد .

[ولا تقربوا مال اليتيم] أي لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه [إلا بالتي هي أحسن] إلا بالهيئة التي هي أحسن الهيئات كأن تقربوا منه لحفظه وتنميته واستثماره [حتى يَبْلُغَ أشُدَّهُ] أي حتى يبلغ رشيدا قال تعالى : (فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم) والأشدّ : على وزن أفعل بفتح الهمزة وسكون الفاء وضم العين جمع" لا واحد له عند الفراء ، أو مفرد كآنك ، ولم يأت على هذا الوزن في المفرد غيرهما . وقيل : هو جمع

شِدّة كأنعم في جمع نعمة ، أو شُدٌّ بضم الشين كوُدّ وآوُدّ ، أو شَدّ بفتحها ... وأيّا كان فهو من الشدة أي القوة . [وأوفوا الكيل والميزان بالقسط] أي أتمّوهما للمشتري أو الآخذ بحق إتماما متلبسا بالعدل بحيث لا يتضرر المعطي والمعطى له [لا نكلف نفسا إلا وسعها] أي إلا بما في وسعها وطاقتها [وإذا قلتم] قولا في حكومة أو شهادة أو استشارة أو نحوها [فاعدلوا] فيه ، وقولوا الحق [ولو كان] المقول له او عليه [ذا قربى] أي صاحب قرابة لكم [وبعهد الله أوفوا] أي ما عهد إليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد شرعي أو ما عاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور . [ذلكم وصيكم به لعلكم تذكرون] ما يندرج فيه وتعملون بمقتضاه . [وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه] قرىء إنّ بكسر الهمزة والتشديد على الاستيناف وأن بالفتح والتخفيف ، وأنّ بالفتح والتشديد . أي ولأن هذا الذي ذكر في السورة كلها ، أو في الآيتين السابقتين صراطي وطريقي حال كونه مستقيما لا عوج فيه فاتبعوه ، واسلكوا فيه حتى لا تهلكوا [ولا تتبعوا السبل] أي الأديان المختلفة ما عدا دين الإسلام ، أو الطرق التابعة للهوى المختلقة من الناس من أنواع البدع المكفرة وغيرها ، والأفكار المبتكرة الداعية إلى غير طريق الإسلام [فتفرق] أي فتتفرق بكم تلك السبل عن سبيل الله ، ومعنى تفرق بكم تفرقكم وتزيلكم عنه . والمضارع من محذوف التاء في باب التفعل ، ومنصوب لوقوعه جوابا للنهي . [ذلكم] الاتباع لسبيل الله بالاعتصام والتمسك بالعروة الوثقى وترك اتباع السبل المختلفة [وصيكم به] الله [لعلكم تتقون] عقاب الله تعالى وأخذه إن أخذه أليم شديد .

(ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ

وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٥٥) أَنْ تَقُولُوا : إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ(١٥٦) أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ؟ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ)(١٥٧)

قوله تعالى : [ثم آتينا موسى الكتاب] تقرير للعمل بالوصية المذكورة سابقا ، وتنبيه على أنّ هذه الوصية المودعة إياكم ليست مختصة بكم ، بل هي سنة الله في عباده المرسلين لأمّتهم وأتباعهم ألا ترون أنّا آتينا موسى الكتاب أي التوراة [تماما] أي إتماما للكرامة والنعمة عليه و [على] الإنسان [الذي أحسَنَ] القيام بهِ مِن أمّته [وتفصيلا لكل شيء] ومفصلا لكل حكم اعتقادي أو عملي مما يحتاج إليه في الدين [وهدى] وارشادا [ورحمة] بالمكلفين [لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون] لعلهم يصلون بنور التقوى إلى الإيمان الكامل بالبعث بعد الموت ، وبلقاء ربهم المدبر لأمورهم في الدنيا والدين [وهذا] القرآن العظيم [كتاب] كريم [أنزلناه] بواسطة جبرائيل الأمين إليك [مبارك] كثير البركة من خير الدنيا والآخرة [فاتبعوه] في الأحكام الإيجابية والسلبية [واتقوا] مخالفة ما فيه [لعلكم ترحمون] •

[أن تقولوا] كراهة أن تقولوا أيها الناس الذين أرسل إليهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم [إنما أنزل الكتاب] من الله تعالى [على طائفتين من قبلنا] وهم اليهود والنصارى [وإن كنا عن دراستهم لغافلين] والحق إنا كنا غافلين عن دراستهم ، وما علمنا أحكامهما ، وما استفدنا منهما شيئا

[او تقولوا لو أنّا أنزل علينا الكتاب] كما أنزل عليهم [لكنا أهدى] وأرشد [منهم ، فقد جاءكم] قطعا لمعذرتكم وإزالة لغطاء غفلتكم [بينة من ربكم] أي كتاب آياته بيّنة وحجة جليلة واضحة ، وأنزل من ربكم الذي خلقكم [وهدى ورحمة . فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها ؟] يعني ومن الذي هو أكثر ظلما على نفسه ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها [سنجزي الذين يصدفون] أي يعرضون [عن آياتنا سوء العذاب] أي بالعذاب السيىء الشديد [بما كانوا يصدفون] أي بسبب ما كانوا يستمرون على الإعراض عن آياتنا .

(هَلْ يَنْظُرونَ إلاّ أنْ تَأتِيَهُمُ الملئِكَةُ أوْ يَأْتِي ربُّكَ ، أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ ؟ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ ربِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ اَوْ كَسَبَتْ في إيمانِهَا خَيْراً . قُلِ : انْتَظِرُوا إنَّا مُنْتَظِرُونَ(١٥٨) انَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْىءٍ ، إنَّما أَمْرُهُمْ إلى اللهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بمَا كانُوا يَفْعَلُونَ(١٥٩) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنةِ فَلَهُ عَشْرُ اَمْثَالِهَا ، ومَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إلاّ مِثْلَها ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(١٦٠)

قوله تعالى : [هل ينظرون] جملة أو جُمَل مستأنفة مسوقة لبيان أن المشركين حصلت لهم عقدة نفسية لا تنحل بشيىء من الآيات سواء الآيات المقترحة منهم أو غيرها . وهل للاستفهام الإنكاري عند الجمهور . أي لا حق لهم في أن ينتظروا تلك الأمور لعدم انتفاعهم بها . ومعنى ظاهر الآية الشريفة : [هل ينظرون] أي ينتظر أولئك المشركون [إلا أن تأتيهمُ الملائكة] لقبض أرواحهم [أو يأتي ربك] يوم القيامة في ظلل الغمام حسبما

أخبر [أو يأتي بعض آيات ربك] مما ترشدهم إلى الحق [يوم يأتي بعض آيات ربك] كطلوع الشمس من مغربها [لا ينفع نفسا إيمانها] في ذلك اليوم حال كونها [لم تكن آمنت من قبل] لأنها وقت لم يعتبر الإيمان فيه لكونه ناشئا من خوف الأمر الجاري لا من خوف ذات الباري [أو كسبت في إيمانها خيرا] عطف على آمنت ، و أو للترديد الخلوي ؛ لأنه يجوز استفادة المؤمن من الإيمان وكسب الخير إذا اجتمعا ، ويمتنع استفادته خيرا إذا لم يكن له إيمان ولا كسب خير فتقدير الآية : لا ينفع نفسا إيمانها المجرد عن العمل إذا لم تؤمن قبل ذلك اليوم ، ولا إيمانُها وكسبُها الخير إذا لم تؤمن ولم تكسب الخير قبل ذلك .

والحاصل : إن الإيمان المجرد عن العمل ، وإن كان ينفع الإنسان ، لكن لا ينفعه في ذلك اليوم إذا لم يتحقق قبله لأنه وقت اليأس ، ولا ينفع فيه الإيمان وحده أو مع العمل . وأما قبل ذلك اليوم فإنّه إذا آمنت إيمانا وافيا ، ولم تكسب خيرا ، او آمنت وكسبت خيراً ، فهو المستفيد الناجح ، لكن النجاح من اجتماع الأمرين نجاح ظاهر ، وأما من آمَنَ بدون العمل فنجاحُه ضئيل ، وأما من كسب الخير بدون الإيمان أو لم يكسب الإيمان ولا الخير فلا خير فيه ومصيره الى النار وبئس المصير .

[قل] يا رسولي بعد تبليغ الرسالة [انتظروا] ما تنتظرونه من إتيان أحد تلك الأمور [إنا منتظرون] لذلك اليوم ، وحينئذ نحن المالكون وأنتم الهالكون ولله عاقبة الأمور . وكان الكلام هنا مع المشركين وظهر مصيرهم ، ثم بين الله سبحانه حكم اليهود والنصارى فقال : [إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا] من اليهود والنصارى وكل فرقة أخذت نوعا من العقائد والأحكام وصارت متميزة عن الأخرى بحيث تعارض بعضها بعضا ، كما أخرج أبو داود والترمذي وصححه ، وابن ماجه وابن حبان وصححه ، عن

أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقه ، كلهم في الهاوية إلا واحدة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة » ثم استثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر إلى العصر الماضي قبل النسخ ، وأما بعده فالكل في الهاوية . وقوله [لست منهم في شيىء] أي لست بالنسبة إليهم وملحوظا منهم في شيىء من الفرق ، أولست من السؤال عنهم والبحث عن تفرقهم ، أو من عقابهم في شيىء تلك أمة قد خلت .

وأما إخباره صلى الله عليه وسلم عن افتراق أمته إلى ثلاث وسبعين فهو مما أخبره به ربه الذي أوحى إليه الكتاب وهو حق اليقين . وأما تعيين الفرقة الواحدة المستثناة فواضح عند من له إنصاف ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بينها في قوله : « وهم الذين على ما أنا عليه وأصحابي » والفرقة المتمسكة بكتاب الله وسنته السنية ، وبما هو عليه وأصحابه ، كما في نص الحديث الشريف واضح لائح . واعتبار الكل في النار إلا فرقة المقصود به الاستحقاق للنار من حيث الاعتقاد ، وإلا فالمستحق للنار من جهة الأعمال كثير من كل فرقة إلا قليلا من أهل التقوى جعلنا الله تعالى بفضله من المتقين . وبعد أن قال : إنك لست منهم في شيىء قال تعالى : [إنما أمرهم إلى الله] أي هو وحده يتولى أمورهم ويدبرها حسب حكمته كما قال [ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون من جاء بالحسنة] أي بالخصلة الواحدة من الخصال الحسنة والطاعة المقبولة أصلا أو فرعا إيمانا أو عملا [فله عشر أمثالها] فضلا من الله . وتقدير الجزاء المساوي للحسنة وتضعيفها إلى عشرة من

الأمثال موكول إلى علم الباريء المتعال . [ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها] والمماثلة موكولة إلى علمه وحكمته أيضا . وجملة [وهم لا يظلمون] أساس للإيمان لجزاء الباري للعباد فإنه هو العليم بالأحوال والعقائد والأعمال والاستمرار عليها ، أو التحول في المآل ولا مقياس لذلك إلا عند رب العالمين .

(قُلْ : إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ : إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(١٦٥)

قوله تعالى [قل : إنني هداني] الآية أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يبين ما هو عليه من الدين الحق الذي هو الإسلام فقال له [قل : إنني] لاشك [هداني ربي إلى صراط مستقيم] لا عوج فيه ولا اختلال حال كونه [دينا قيماً] دينا ذا قيام بذاته ، أعني ملّة إبراهيم ، أي اعتقاده في وجوب وجود الله ووحدته واتصافه بالكمال المطلق وأنه خالق كل شيء وهو على

كل شيىء وكيل [حنيفا] مائلا عن الباطل إلى الحق [وما كان من المشركين] في يوم من الأيام • وعندما بلغ سن الشعور والنور تنور ما أمامه فتفكر في ملكوت السموات والأرض حتى هداه إلى حضرة قدسه • [قل] يا رسولي : [إن صلاتي] التي أصليها [ونسكي] وعبادتي كلها حجها وعمرتها ، وصيامي وقيامي ، وسائر طاعاتي [ومحياي ومماتي] وحياتي ومماتي كل ذلك [لله رب العالمين] لا نصيب لي فيها إلا أن الله جعلني كاسبا لها وأقوم بها • [لا شريك له] في تلك العبادات وغيرها ، فهي له لا لغيره ، بل لا شريك له ولا مثيل لذاته وصفاته وأفعاله ، ولا مشابه [وبذلك] القول الذي أعلنته [أمرت وأنا أول المسلمين] في هذا الدين القويم الذي اختاره الله تعالى لي ولأمتي إلى يوم القيامة •

[قل] في استنكار ما هم عليه من الإشراك [أغير الله] تعالى [أبغي] وأطلب [ربا وهو رب كل شيىء ؟] وعادل في جميع أحكامه ، [و] قرر أنه [لا تكسب كل نفس] خطيئة من الخطايا [إلا عليها ، ولا تزر] أي لا تحمل [وازرة] أي نفس آثمة [وزر] نفس [أخرى] بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت [ثم إلى ربكم مرجعكم بما كنتم فيه تختلفون] ببيان الحق لأهله والباطل لأهله [وهو الذي جعلكم خلائف الأرض] أي يخلف بعضكم بعضا [ورفع بعضكم فوق بعض] في الأعراض والأوصاف الممتازة المميزة للهويات [درجات] لا يعلمها إلا الله [ليبلوكم في ما آتاكم] أي ليعاملكم معاملة المختبر في ما أمركم بفعله أو نهاكم عنه [إن ربك سريع العقاب] إذا أراد أن يعاقب [وإنه لغفور رحيم] غفر الله لنا ورحمنا برحمته الواسعة بفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين •

فرغت من كتابة تفسير سورة الأنعام قبيل العصر من اليوم الخامس والعشرين من جمادي الأولى سنة ألف وأربعمائة وأربع من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، المصادف السادس والعشرين من الشهر الثاني من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية . وأنا المؤلف الخادم عبدالكريم الكردي الشهرزوري . غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين .

سـورة الأعـراف ، مكية الا من آية (١٦٣) الى آية (١٧٠) فمدنية ، وآياتها (٢٠٦) نزلت بعد سورة (ص) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(المص(١) كِتابٌ أنْزِلَ إلَيْكَ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرى لِلمُؤمِنِينَ(٢) اِتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إلَيكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ولا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ(٣) وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أوْ هُمْ قائِلونَ ؟(٤) فَمَا كانَ دَعْويهُمْ إذ جاءَهُمْ بَأْسُنا إلاّ أنْ قالُوا : إنّا كُنّا ظالِمِينَ(٥) فَلَنَسْئلَنَّ الّذِينَ أرْسِلَ إلَيْهِمْ ولَنَسْئلَنَّ المُرْسَلِينَ(٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَما كُنّا غائِبِينَ(٧) وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ(٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَاُولئِكَ الّذِينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ)(٩)

قوله [المص] فسره المفسرون على تأويلات كثيرة . منها : أنه بمعنى المُصَوِّر ، ومنها أنه بمعنى أنا الله أعْلَمُ وأفَصِّلُ . ومنها أنه ونظائره أسماءٌ للسّور إلى غير ذلك ...

وأقول : إن هذه كلها تخمينات وظنون لا تُغْنِي عَن الحق شيئا ، والحق أنها رموز" بين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس إلى معرفتها سبيل إلا بالتوقيف مِنه عليه الصلاة والسلام •

[كتاب أنزِل اليك] أي هذا المقروء كتاب يهدي إلى الصواب أنزِل إليك مَعَ الملك الأمين على الوحي والتنزيل جبرائيل ، وليس للاكتساب سبيل إليه ، وإنما هو موهبة" ربانية قدسية مستوعبة لسعادة الدارين يدعُو المكلفين إلى الشرف الخالد والخلق الماجد ، ويبعد عن القلوب ظلمات الأوهام ، ويوجهها إلى الله الواحد العلام ، ويمنع الرذائل والدنايا ، ويُوسِّع دائرةَ الفضائل على البرايا ، ويَنْشر العقائدَ السليمة والأحكام العملية المستقيمة • وكتاب كذلك يَتعَبُ صاحِبُهُ بنشره وتأييدِه ونَصْره ، ويَزدَحِم الجُهلاء والطُّغاة على التشكيك في أمره • [فلا يكن في صدرِك حَرَج"] وضيق [من] تلقّيه ونشر [ه] فإنه نَزَل مع التوفيق ولا يكن في قلبك أذى" من إيذاء الكافرين لك ومعارضتهم لدعوتك ؛ فإنه جرَتْ سنةُ الله بذلك على التحقيق ، فإنه انزِل إليك [لتنذِرَ به] وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين [و] أرسل إليك لتكون [ذكرى للمؤمنين] أي للذين يُشارِفونَ الايمانَ أو سُجلت أسَاميهم في علمه الأزلي باستعدادهم الزكي الجلي ، وإذا أنزل ذكرى لهم فقل لهم : [اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم] أيّها المؤمنون أو أنزِلَ كدعوة عامة للأنام ، فقل لهم : اتبعوا ما أُنزل إليكم مِن ربكم فمن آمن به فهو السعيد الأمين ، ومن كفر به فعليه ما عليه يَومَ الدين [ولا تتبعوا] أيها المكلّفون [من دونه] أي من دون ذاته الواحد الأحد [أولياء] مُزَيفة ضالة مُضِلة [قليلاً" ما تذكرون] أنها لا قائمةَ لها في مقام الكرامة ، وأن عبادتها ناشئة عن الجهل والتقليد الخالي عن الحق وظاهرة من اللاّمة •

وكما أن سنة الله جرت بمعاندة الكفار لما نزل من الكتب السماوية ، بل ولكل دعوة تخالف النفس وهواها كذلك جرت بإهلاكهم عندما طغوا وبغوا وخرجوا عن الحدود الاجتماعيـة كما قال تعالى : [وكم من قرية أهلكناها] دمرناها وأبدْنا ما فيها من الطغاة والبغاة [فجاءها بأسنا] أي عذابنا عليهم [بياتا] أي حالكونهم بائتين داخلـين في الليل نائمين [أو هم قائلون] أو جاءها بأسنا وهم قائلون داخلون في نوم القيلولة . والمقصود إن عذابنا باغتهم في أروح أوقاتهم وأفرغها وهو وقت المنام بالليل أو المنام المعروف بالقيلولة قبل الزوال . والفاء في قوله تعالى (فجاءها) للتعقيب الذكري ، وإلا فالتدمير والإهلاك كشييء واحد في زمان واحد بلا تعاقب زمني [فما كان دعواهم] أي دعاؤهم واستغاثتهم [إذ جاءهم بأسنا] أي زمان نزول البأس عليهم [إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمـين] أي إلا قولهـم واعترافهم بظلمهم على أنفسهم وعلى الناس حين لا ينفعهم الندم والاستغاثة قطعا وفوت المعصومين من الحيوانات والصبيان والمجانين بالبأس الوارد تابع لإرادة إهلاك الظالمـين ، فإن إرادة إهلاك الجـوهر مقارن لإرادة إفناء الاعراض وإرادة إفناء الملزوم إرادة إفناء اللازم . وليس كل إفناء ناتجا عن الغضب والسخط الناشيء عن الجريمة ، فإنه تعالى مالك الملك ومِلك الملوك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

[فلنسـألن الذين أرسـل إليهم] يعني ولا نكتفي بإهلاك أولئك الكافرين بعذاب الدنيا بل والله [لنسـألن] يوم القيامة الكفار [الذين أرسل إليهم] الرسل حتى نعذبهم بالسؤال عذاب الهوان والحقارة ، وبعد افتضاحهم وعجزهم عن الجواب الشافي نأمر بجرهم الى جهنم وعذابهـم عذابا معمما لأحوالهم وأوقاتهم ، ولا ينتهي بل يستمر أبدا . [ولنسـألن المرسلين] عما أجيبوا حتى يكون جوابهم زيادة في عذاب الكافرين [فلنقصن

عليهم] أي على المرسلين المسئولين بعد إحالتهم العلم إلينا قصة أعمالهم السيئة ونخبرهم بها إخبارا متلبساً [بعلم] منا على تفاصيلها [وما كنا غائبين] عنهم حين قصدوا أعمالهم ، ولا وقت مباشرتهم لها ، فما غرب عن علمنا شيء منها [والوزن] أي وزن الأعمال [يومئذ الحق] لا خلاف فيه [فمن ثقلت موازينه] أي موازين حسناته [فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه] في الخيرات [فأولئك الذين خسروا أنفسهم] بإضاعة فطرتهم السليمة وفكرتهم المستقيمة [بما كانوا بآياتنا يظلمون] فإعراضهم عن أحكام الله ، وتكذيبهم بالآيات ، وبإضاعتهم للفطرة والفكرة .. كل ذلك صار من أسباب شقائهم الأبدي والعياذ بالله . ودرجات التدرج إلى تلك الغاية الفاسدة أولاً إهمالُ النصائح ، ثم الأعمال الفاسدة ، ثم الاستمرار في الغي ، ثم المعاندة والمعارضة للحق ، ثم الموتُ على الكفر والعياذ بالله .

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)(١٠)

قوله تعالى : [ولقد مناكم في الأرض] ترغيب للمشركين في قبول دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتذكير النعم الواصلة منه تعالى إليهم ، فيقول قل لَهُم : [وَلَقَد مكناكم في الأرض] وجعلنا لكم في الأرض قرارا وتمكنا ، وأقدرناكم على التصرف فيها ، [وجعلنا لكم فيها معايش] أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب . أو أقدرناكم على مادة من النقود تتوصلون بها إلى ذلك ، ومع ذلك فأنتم [قليلا ما تشكرون] أي تشكرون نعم الله تعالى في أوقات قليلة بالنسبة إلى تمكنكم في البلاد وقدرتكم على التصرف فيها .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ، ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ : اسْجُدوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قالَ : ما مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ ؟ قالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ : خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢) قالَ : فَاهْبِطْ مِنْها فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها ، فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قالَ : أَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قال : إنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ (١٥) قال : فبِما أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ المُسْتَقِيمَ (١٦) ثم لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وعن ايمانهم ، وَعَنْ شَمائِلِهِمْ ، وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ : اخرُجْ مِنْهَا مَذْؤماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ)(١٨)

قوله تعالى : [ولقد خلقناكم ثم صورناكم] معناه : ولقد خلقنا أصلكم آدم ، ثم صورناه ثم قلنا للملئكة : اسجدوا لآدم فجعل خلق آدم وتصويره كخلق المخاطبين وتصويرهم لأنه أصلهم • وعليه فتكون كلمة (ثم) للتراخي في الزمان على معناها الوضعي الحقيقي ، ويجوز أن يراد بالآية الشريفة خلق الأناس المخاطبين في عصر النزول وتصويرهم • وتعتبر كلمة ثم للتراخي الذكري ، أي خلقناكم وصورناكم كما خلقنا سابقا أباكم آدم وصورناه • [ثم قلنا للملئكة : اسجدوا لآدم] سجود الاحترام والتشريف ، وكان فيهم إبليس في صورة الملك ومغمورا بينهم ، واستفيد انسحاب الأمر بالسجود عليه وعلى الملئكة فكأنه واحد منهم تقديرا ، فصح الاستثناء المتصل في قوله

[فسجدوا إلا إبليس] لأن دخول المستثنى في المستثنى منه قد يكون تحقيقيا وقد يكون تقديريا ، وعلى فرض عدم دخوله فيهم اعتبارا يكون الاستثناء منقطعا . وقد وقع ذلك في مواضع من القرآن الكريم . [لم يكن من الساجدين] قال الله تعالى له : [ما منعك] يا إبليس [أن لا تسجد] أي من أن تسجد له ، أو ما الذي منعك من السجود ورغبك في أن لا تسجد له ؟ فكلمة (لا) على الأول زائدة وعلى الثاني صامدة . وقوله تعالى [إذ أمرتك] نص في توجيه الأمر بالسجود إليه مع الملئكة إما بدلالة ظاهر العبارة من الله ، أو بالقرينة المصاحبة للأمر الوارد ، أو بأمر خاص ورد عليه علاوة على ما يستفاد من أمر الملئكة . [قال] إبليس في جوابه تعالى وبيان المانع : [أنا خير منه] المانع من السجود له هو فضل عنصري على عنصره حيث [خلقتني من نار] وهي عنصر لطيف علوي ونيّر قويّ التأثير [وخلقته من طين] وهو عنصر كثيف سفلي تحت الأقدام ، والفاضل لا يسجد للمفضول . أي وأمرك بهذا العمل الذي يخالف ظواهر العادات غير مناسب ولا يُطاعُ . ولم يدر أنّه قد يكون في العنصر المفضول فوائد لا توجد في الفاضل وعلاوة عليه فالرب حكيم ولا يأمر بشيىء إلا وفيه حكمة تفوق عقول العاقلين . ولما ظهر فيه التكبر والتمرد المردود [قال] تعالى : [فاهبط منها] أي فانزل من الجنة يا إبليس [فما يكون لك] أي لا ينبغي لك [أن تتكبر فيها] أي في الجنة فإنها ليست دار الكبرياء والعصيان ، وإنما هي دار العبودية والرضوان . [فاخرج منها ، إنك من الصّاغرين] الأذلاّء لا مِن الكابرين الأجلاّء . [قال] إبليس ما دام أمرتنى بالهُبوط من العلو إلى السفل ، وأخْرجتَني من دارِ الكرامة على رَفض السجود لذلك المخلوق [أَنْظِرْني] وأَمْهلني للانتقام من ذريته [إلى يوم يُبْعَثون] أي إلى آخر أيام التكليف حتى أَتَمكّنَ من إغوائهم وأخذ ثأري منهم

[قال] الله تعالى له : [إنكَ مِنَ المُنظرين] إلى ذلك اليوم [قال] إبليس : [فبما أغويتني] أي فبسبب إغوائك لي أي خذلك لي وعدم إفاضة اللطف والتوفيق علي حتى أسجد ، وجرى مني ما جرى ، وسمعت ما أسمع من الأمر بالهبوط والخروج ، ووقعت فيما أرى [لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم] أي على صراطك ، وأقطع عليهم السبيلَ إليك بكل ما في إمكاني [ثم لآتينهم] بالإغواء والتلبيس والتدليس [من بين أيديهم] بالمغريات التي أمامهم مدة من الحياة من الشهوات التي زينت للناس على كثرة أصنافها [ومن خلفهم] وبتدارك ما فاتهم من خلفهم [وعن أيمانهم وعن شمائلهم] وبما لذ وطاب لهم من المشتهيات المحرمة التي في متناول أيديهم يمنة ويسرة ، أو عن جهة النظر إلى أقرانهم المجاورين لهم يمينا وشمالا المتنافسين معه في تحصيل الكماليات من المال والمنال [ولا تجد أكثرهم] عند ذلك [شاكرين] لك على نعمائك ، وصابرين على بلواك ، فإن الناس كثيرا ما يعبدونك على بُعدٍ من المشتهيات والمغريات ، وعلى الصيانة من المصيبات والابتلاءات ، فإذا أتتهم تلك فلا تبقى العبودية الخالصة هنالك . [قال] تعالى : [اخرج منها مذؤما] اعتقادا وعملا و [مدحورا] مطرودا مُبْعَدا عصيانا وزللاً ، والله [لمن تبعك منهم] على ما ذكرت ، وما عبدني خالصا خاليا عن الاعتقاد والآمال الفاسدة والمطامع والمطامح الكاسدة [لأملأن جهنم] منهم و [منكم أجمعين] فإني طيب لا أقبلُ إلا الطيب ، وأنا المعبود بالذات ، ولا أريدُ إلا مَن يعبدني بالذات بحيث لا يشوب عبادته شيء من المفاسد والرذائل ، فمن وفى بذلك فأنا أحسِنُ إليه إحسانا يليق بكرامتي ، ومن خالف ذلك ، فإن شئتُ عفوتُ ، وإن شئت عذبت . تمت القواعد عندي بكلماتي ، ولا تبديل لكلمات الله العليم الحكيم .

(ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ فكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٩) فَوَسْوَسَ لَهُما الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِما ، وَقَالَ : ما نَهيكُما رَبُّكما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاّ أنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ ، أوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ(٢٠) وقاسَمَهُما : إِنّي لكما لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٢١) فَدَلَّيهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهمَا ، وطَفِقَا يَخْصِفانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وناديهُما رَبُّهما : أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟(٢٢) قالا : رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣) قالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ(٢٤) قالَ : فيها تَحْيَوْنَ ، وفِيهَا تَمُوتُونَ ، ومِنها تُخرَجُونَ)(٢٥)

قوله تعالى : [ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة] أي بعد أن صار ما صار من سجود الملائكة لآدم ، وامتناع إبليس منه ، وطرده من الجنة ، وإعلان الشيطان العداء لآدم وذريته ••• قلنا في مقام التربية والنصح والإرشاد : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة [فكلا] من الأرزاق الموجودة فيها [من حيث شئتما] واشتهيتما [و] لكن [لا تقربا هذه الشجرة] المخصوصة وهي شجرة الحنطة ، فإنها اساس الشجار ووسيلة الاستكبار والدمار [فتكونا من الظالمين] الذين ظلموا أنفسهم [ف] لما عَلِمَ آدمُ

بذلك وحق العالم أن يكون مُنْتَبِهاً لا ينخدع بالوساوس والأوهام [وَسوَس لهما الشيطان] أي ألقى إلى قلوبهما الوسوسة والتردد بما ألقى إليهما من الإغواءات ، وإنما فعل ذلك ليطيعاه فيما أمر به من أكل الشجرة المنهيّ عنها [لِيبدي لَهُما] الشيطان ويظهر بنتيجة الأكل [ما وري] وستر [عنهما من سوآتهما و] كان كيفية الوسوسة أن [قال] لهما : [ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة] أي عن أكلها لاي علة [إلا] لـ [أن تكونا ملَكَين أو تكونا مِن الخالدين] : من المفسرين من فَسر الاستثناء بقوله : إلا" كراهة ان تكونا ملَكَين محفوظين ، أو كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة يعني لو أكلتما منها كنتما مِن عِداد الملائكة ، وكنتما من الخالدين في الجنة ، والله يكره ذلك فنهاكما عن أكلها • ومنهم من فسرها بقوله : إلا محبة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين في الجنة ، يعني إذا لم تأكلا منها تبقيان كالملائكة في الجنة وتكونان من الخالدين فيها • وأما إذا أكلتما منها فتصيران من أصحاب السر في العالم أي في العرش والفرش والجنة وأي محل آخر كان [وقاسمهما] أي اَقسم لَهُما ، وقال والله [إني لكما لمن الناصحين] فيما بينته لكما [فَدَلاّهما بغرور] أي فنزلهما الشيطان عَن الرتبة العالية وهي إطاعة الباري تعالى في الاجتناب عن الشجرة بما غرهما به من القسم أو من تجاوز ما حدّ لهما إلى غيره [فأَكَلا مِنها ، فلما ذاقا الشجرة بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما] أي تهافتَ عن بدنهما الغطاء الصَّدَفِيّ السّاتِرُ وظهرت لهما عَوراتهما وانفعَلا من ظهورهما ، فإن مقتضى الطبيعة السليمة ستر العورة لا كشفها [وطفقا] شَرعا [يخصفان عليهما] أي يلزقان ببدنهما أو بسوأتيهما [من وَرَق الجنة ، وناديهُما ربهما] بعد وقوع الواقعة معاتبا لهما : [ألم أنهكما عن تلكما الشجرة] أي عن أكلها [وأقل لكما : إن الشيطان لكما] ولذريتكما [عدو مبين] ؟! واضح

العداوة [قالا] معتذرين إلى الله : [ربنا ظلمنا أنفسنا] بخروجنا عن حدود حكمك والتعرض للشجرة بالأكل منها [وإن لم تغفر لنا وترحمنا] أي وإن لم تسامح عن ذلك بعدم العقاب وترحمنا بالرضا عنا [لنكونن من الخاسرين].

استشكل ذلك على أهل السنة القائلين بعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من الكبائر والصغائر لاسيما في ما أمروا به أو نهوا عنه باهتمام واحتياط كما هنا . وأجيب عنه :

أولا : بأن ذلك لم يكن من باب التشريع بل من باب الإرشاد والنصيحة ، وليس في مقابلتهما ومخالفتهما معصية .

وثانيا : بأن ذلك كان عن نسيان كما قال تعالى في سورة (طه) : (فنسي ولم نجد له عزما) .

وثالثا : بأن ذلك الأمر كان من الصغائر والعصمة إنما تشترط عن الكبائر قبل النبوة وبعدها . وأما الصغائر فيجوز صدورها عنهم قبلها .

[قال اهبطوا] يا آدم وحواء وذكرهما بضمير الجمع احتراما أو لملاحظة من في صلب آدم وتربية حواء من الذرية لاسيما الشرفاء المرموقين حالكونكم وذريتكم المتناسلة إلى يوم القيامة [بعضكم لبعض عدو] بسبب المنازعات الواقعة بينكم لمعارضة أفكار بعضكم لبعض ، وسوق المشتهيات والمغريات إلى التنافس والجدال ، وبجهل بعضكم بحقائق الأمور أو عناده لها مع العلم بها بالعناد والغرور [ولكم في الأرض مستقر] بالاستيطان أو الاستيداع [ومتاع] وتلذذ وتمتع من أرزاقها وما ينال فيها من اللذائذ والشهوات إلى حين حدده الله تعالى .

[قال] الله تعالى : [فيها] أي في الأرض براً وبحراً [تحيون] تقضون مدة حياتكم [وفيها تموتون] كذلك [ومنها تخرجون] وقت البعث

والنشور وقال صلى الله عليه وسلم : « كما تَحيَون تموتون وكما تموتون تبعثون » وأقول اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين •

(يابَنِي آدَم قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُواري سَوْآتِكُمْ ، وَرِيشاً ولِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ، ذلِك مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ : يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما ، إنَّهُ يريكُمْ هُوَ وَقبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُم ، إنّا جَعَلْنا الشَّياطينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)(٢٧)

قوله تعالى : [يا بني آدم] خطاب للناس كافة ويقول : يا بني آدم أينما كنتم ومتى ولدتم وعشتم [فقد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم] أي هيأنا لكم لباسا يستر عوراتكم التي كشفها يسيئكم لأنه مخالف لأدب الإنسان السليم الطبع المعتدل الحال ، فإن السّوءتين منفذان يخرج منهما الهواء والمواد السيالة والمتعفنة التي تشمئز عنها الطبائع ، وما حولهما وما فوقهما وما تحتهما من السرة والركبة وما بينهما من ملحقاتهما في الاستحياء والخجل من كشفها [و] كما أنزلنا عليكم لباسا كذلك انزلنا عليكم [ريشا] أي مالا ومتاعا من الألبسة الفاخرة الجميلة والحلى المباحة للنساء والجواهر المستعملة في الخاتم وغيره للرجال • أو المراد بالريش اللباس الذي يكون علاوة على ساتر العورة من المواد الجميلة المستحسنة ، فإن الريش الجمال • فيكون الكلام مما حذف فيه الموصوف • أي وأنزلنا عليكم لباسا ذا ريش وجمال وذلك كله من موجبات الجمال ظاهراً [ولباس التقوى] أي العمل الصالح الذي يستولي جماله على الجباه والوجوه • [ذلك خير] لكم من لباس البدن الساتر له و [ذلك من آيات الله] التي تدل على حكمة الباري

وعموم فضله . وإنما زودهم بذلك كله لعلهم يذكرون فيعلموا أن ذلك من نعمة الله المُنزلة عليهم فيصلوا بالعلم بالنعمة إلى العلم بالمُنعِم هذا .

ومن المفسرين من فسَّرَ إنزال اللباس بإنزال المطر من السماء حتى ينبت النبات الذي يؤخذ منه بعض الألبسة ، وتعيش به المواشي التي يؤخذ من أصوافها وأوبارها واشعارها ألبسة واقية راقية وكافية وافية .

ثم بعد تذكيرهم بتلك النعم الجسام نبههم على الإخلاص في العمل واليقظة حتى يسدّوا المجاري على الشيطان فقال : [يا بني آدَمَ لا يفتننكم الشيطان] أي لا يوقعنكم الشيطان في الفتن ، ولا يُوسوس لكم [كما] وسوس في قلوب آدمَ وحواءَ و [اخرج أبَويكم] هذين [مِن الجنة ينزع عنهما لباسهما ليُريهما سوآتهما] حتى لا تتكرر المصيبة فـ [إنه] قوي متمكن من الإلقاءات ، ومطلع عليكم و [يَريكم هُو] أي الشيطان [وقبيله] من ذرياته أو من مطلق الجن [من حيث لا ترونهم] والعدو الذي لا تراه العيون أشد خطرا . وراقبوا قلوبكم حتى لا يكون فيها محبة وولاية لشياطين الإنس والجن [إنا جعلنا الشياطين أولياء] وأحباء [للذين لا يؤمنون] فإذا أحببتموهم كنتم من غير المؤمنين .

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيها آباءَنا ، وَاللهُ أَمَرَنا بِهَا ! قُلْ : إِنَّ اللهَ لاَ يأمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ ؟!(٢٨) قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩) فَرِيقاً هَدَى ، وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)(٣٠)

قوله تعالى : [وإذا فعلوا فاحشة] جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، والغرض منها بيان رسوخهم في الضلال ومباشرة الأعمال السيئة ، وتبرير موقفهم منها بأمر الله وبأنها شيمة آبائهم . فيقول سبحانه وتعالى : [وإذا فعلوا فاحشة] أي فعلة قبيحة متناهية في القبح ، غير مقبولة في العقول السليمة كعبادة الأصنام والفجور وشرب الخمور [قالوا] لتبرير موقفهم [وجدنا عليها آباءنا] فنقلدهم فيها ، فإنّ تقليد الآباءِ فيه شرف وإباء [والله أمرنا بها] وما أمر الله به وجب فعله [قل] في الرد عليهم : [إن الله لا يأمر بالفحشاء] فسقط الدليل الثاني [أتقولون على الله ما لا تعلمون] ؟ أنه كلامه بل تعلمون أنه ليس من كلامه . وأما تقليد الآباء في العمى فلا يقبله إلا أولو العمى [قل] لهم مُعلِناً ما امرَ الله تعالى به حتى لا يتقولوا عَلَيهِ : [امَرَ ربّي بالقسط] أي العدل أي المعتدل الوسط من كل شيء بلا إفراط ولا تفريط لا في العقائد ، ولا في الأعمال لا في المدح ولا في الذم . فاعلموا أن العالم مخلوق وأن الله خالق كل شيء ، وأنه هو الغني المطلق ، وأن ما سواه من آثار قدرته المفتقر إليه حدوثا وبقاء [وأقيمُوا وجُوهَكم عند كل مسجد] أي توجهوا إلى عبادته بإخلاص عند العبادة في كل مسجد جامع أو غيره [وادعوه] أي أعبدوه [مخلصين له الدين] أي الطاعة فعلا أو تركا . أو ادعوه تعالى لكشف الضر ودفع الشر وجلب الخير ، وتضرعوا إليه ؛ فإنه هو القادر فوق عباده ، وهو المحاسب والمجازي في يوم ميعاده . واعلموا أنه [كما بدأكم] وأنشأكم وأحياكم من النطف المربوط بالوالدين ، وسواكم وهداكم ورزقكم وآتاكم من الحال والمال ما يناسب حكمته ثم أماتكم وأبلاكم وأبقاكم في عالم البرزخ متنعمين أو متعذبين حسب أعمالكم .. يَبْعَثكم أينما كنتم في البر والبحر مجتمعي الأجزاء أو متفرقيها ؛ وبعد أن بعثكم ونشركم وحشركم [تعودون] إليه سبحانه

وتعالى للحساب حسب الكتاب وميزان الأعمال ، فإن ذلك سهل عليه . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، فيأخذ كل منكم طريقه إلى مرجعه من دار الجحيم أو جنة النعيم لأنه تعالى [فريقا هدى] لسابق علمه باستعداده الحسن الداعي إلى العقائد والأعمال الحسنة فمآله إلى الجنة [وفريقا] آخر من أهل سوء الاختيار [حق عليهم الضلالة] فـ [إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله] أي تولوهم وأطاعوهم فيما أمروا به ونهوا عنه ، وكل ذلك لترجيح الهوى على الهدى ، وتقديم العاجل على الآجل ، فكان مآل حالهم الخسران المبين [ويحسبون] ويزعمون [أنهم مهتدون] .

(يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١) قُلْ : مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ قُلْ : هي لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنيا خالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣٢) قُلْ : إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ ، والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ(٣٣) ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)(٣٤)

قوله تعالى : [يا بني آدم خذوا زينتكم] روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عُراةً حتى ان كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة . فأنزل الله تعالى هذه الآية لإيجاب ستر

العورة عند الطواف ، وفي وقت الصلاة ؛ لأن الطواف والصلاة في واد واحد فعليه المراد بالزينة ساتر العورة والأمر للوجوب .

وحمل بعضهم الزينة على لباس التجمل لأنه المتبادر منها . ونسب للباقر رضي الله عنه وروي عن الحسن السبط رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه ، فقيل له يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال فاتجمل لربي ، وهو يقول خذوا زينتكم [عند كل مسجد] فأحبّ أن ألبس أجمَل ثيابي . ولا يخفى أن الأمر حينئذ لا يحمل على الوجوب لظهور أن هذا التزين مسنون لا واجب . وعلى الاحتمال الأول تفهم سنية التزين عند كل صلاة لأنه لما كان ستر العورة واجبا وهو زينة ، ظهر استحباب ما عداه لكونه زينة أيضا .

[وكلوا واشربوا] مما طاب لكم من الحلال [ولا تسرفوا] بتحريم الحلال ، ولا بتحليل الحرام ، ولا بالزيادة على المعتاد ليوجب الفساد في المعدة . فكل ذلك حرام يجب الاحتراز عنه . وقد اشتهر أن قلة الطعام يوجب قلة المنام وقلته لأهل الطاعة يوجب القرب إلى الله العلام ، فيقلل من الكلام إلا فيما وجب أو سنّ في الإسلام .

ثم الإسراف كما يكون في الكمية يكون في الكيفية ، فمن ليس عنده إلا ما يكفي قوت عياله لا يجوز له اشتراء ما يستوعب جُلّ مالِهِ [إنه لا يحب المسرفين] وما اشتهر بين الناس من الدعوة إلى ترك الناعم من المأكل والمشرب والملبس وليس له على ذلك شبهة فضلا عن حجة .. يردّه بوضوح قوله تعالى [قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق] فإنه بظاهره دليل جليل جليّ لحل كلّ ملبوس جميل ناعم ، وأكل كل طعام

لذيذ مرغوب عند الطاعم إلاّ ما استثناه الله تعالى من المسكرات وسائر المحرمات كلبس الذهب والحرير للرجال ، ولبس الثوب المعصفر والمزعفر وما عرض عليه الحكم بالتحريم كأن يكون من أموال الغير بدون إذن شرعي منه • وأما حرمة الخيلاء عند لبس النواعم فليست من لبس الملبوس وإنما هي ناشئة عن فساد نفس اللابس • والحاصل إن المواد المخلوقة مخلوقة للانتفاع يقول تعالى (خلق لكم ما في الأرض جميعا) لكن ليس المراد بطريق الفوضى بل إباحته بطريق الشرع على الحدود المقررة ، فإذا روعي الشرع فلا بأس فيه قطعا ، بل للمؤمنين اختصاص زائد بما ذكر لكرامتهم عند الله تعالى : [قل هي للذين آمنوا في الحيوة الدنيا] • أي هي لهم بالأصالة لكرامتهم الزائدة عند الله تعالى ومشتركة بينهم وبين الكافرين في الدنيا و [خالصة] لهم [يوم القيامة] لا يشاركهم فيها غيرهم [كذلك نفصّل الآيات] أي مثل تفصيلنا لهذا الحكم نفصل الآيات في الأحكام الأخرى [لقوم يعلمون] ما فيها من الفوائد والعوائد النافعة في الدنيا والدين •

[قل انما حرم ربي الفواحش] أي الأعمال الفاحشة القبيحة من باب الاعتقاد كعبادة الأوثان ، ومن باب الأعراض كالزنا وسائر أنواع الفجور سواء [ما ظهر منها] كالمعتاد عند الفساق من بيوت الدّعارة [وما بطن] مما يفعل سرا بالفاسقات من جانب الأخدان [والإثم] من شرب الخمور والميسر المعتاد بين الناس [والبغي] أي التعدي على حقوق الناس المالية أو الأدبية بغير الحق مما يوجب تعزير من يتعدى عليها [وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا] أي حجة وبرهانا • بل أقام الأدلة القاطعة على مقابلها وهو التوحيد لله من ملاحظة الأنفس والآفاق ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام • [وأن تقولوا] أي وحرم أن تقولوا [على الله ما لا تعلمون]

بالإلحاد في صفاته وأعماله ، ونسبة البنات إليه ، والقول بأن الملئكة بنات الله ، والقول بالحلول والاتحاد كما هو معروف من أهل الإلحاد ، وبعد أن قلت لهم ما أمرت به قل لهم [ولكل أمة أجل] وقت محدود للدوام في الأرض ، أو وقت معين لانتهاء قوتها [فإذا جاء اجلهم] أي أجل أفرادها [لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] قالوا : إن قوله تعالى لا يستأخرون ساعة جزاء للشرط ، وله فائدة أنه إذا جاء الأجل فهو قطعي الثبوت . وقوله تعالى لا يستقدمون لا يناسب جعله جزاء لأنه لا يتصور استقدام الشيىء عند حدوثه ، فمنهم من أجاب بأن جملة لا يستقدمون ليست معطوفة على الجزاء حتى ينسحب عليه الشرط ، وإنما هي جملة مستقلة معطوفة على الجملة الشرطية نفسها ، ولم يرض به المحقق الهندي ، وقال : إن ذلك المعنى ليس فيه دقة ولطافة . والحق أن مجموع الجملتين كناية عن تحتم الأجل وعدم قبوله للتغير والتبدل . أي إن لكل أمة أجلا محتوما قطعيا لا مجال فيه للتبدل والتغير بأي وجه من الوجوه فالمتعاطفتان مرتبطتان بالعطف قبل ربطهما بالشرط . أي إذا جاء أجلهم لا تبدل فيه .

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ، قَالُوا : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

كافِرِينَ(٣٧) قالَ : ادْخُلوا في أمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنسِ في النَّارِ ، كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ اُخْتَها ، حَتَّى إذا ادَّاركَوُا فِيها جَميعاً قالَتْ أُخْريهُم لأوْليهُمْ : رَبَّنا هؤُلاءِ اَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ ، قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ(٣٨) وَقالَتْ أولُيهُمْ لأُخْريهُمْ : فَمَا كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ ؟ فَذُوقوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)(٣٩)

قوله تعالى : [يا بنى آدم] خطاب لكافة الناس • وقد أخرج ابن جرير عن أبي يسار السلمي قال : إن الله تبارك وتعالى جعل آدم وذريته في كفه فقال : [يا بني آدم اِمّا يأتينكم رسل منكم] الآية ••• ثم بثّهم • والذي ذَهَب إليه بعض المحققين : أنها حكاية لما وقع مع كل قوم • والذي يترجح في العقل هو : أن هذه الآية الكريمة مقول القول المحذوف (وحذف قول من حديث البحر) أي قلنا : يا بني آدم الآية ••• وإذا اعتبرت حذف القول قبل قوله السابق (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) واعتبرت هذه الآية وما قبلها مرتبطة بها •• كان أحسن •

وعلى كل حال فالآية الشريفة بيان لكلامه تعالى ووصيته لبني آدم • وقوله لهم ما جاء في الآية الشريفة • وحاصلها : إنا نادينا بني آدم على عهد كونهم ذراري في صلب آدم عليه السلام أو في عالم الأرواح ونصحناهم ••• أو يقال إن هذا استعراض لوصاياه سبحانه لكل رسول حتى يُبَلِّغَ أمته مضمون الآية ــ • والمعنى : [يا بني آدم إما ياتينكم رُسُلٌ منكم] أي من نوعكم من البشر حالكونهم [يقصون عليكم آياتي] أي يعرضون عليكم أحكامي وشرائعي ، ويخبرونكم بها [فمن اتقى] وخاف عقاب ربه [وأصلح]

عقيدة وقولا وعملا [فلا خوف عليهم] من مكروه في المستقبل [ولا هم يحزنون] على مفقود في الماضي • [والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها] ولم يقبلوها [أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • فمن أظلم] لنفسه [ممن] كذب و [افترى على الله كذبا] أي تعمد الكذب عليه [أو كذب بآياته] المنزلة على الرسول [أولئك ينالهم نصيب من الكتاب] أي يصيبهم ما كتب لهم وقدر في اللوح المحفوظ من خير أو شر ، أو أن المعنى أولئك ينالهم نصيب مما كتب لهم من متاع الدنيا ولذائذها ومشتهيات النفس فيها مدة حياتهم [حتى إذا جاءتهم رسلنا] الموكلون بقبض الأرواح [قالوا] لهم : [أين ما كنتم تدعــون من دون الله ؟] من الأوثان والأصنام ؟ [قالوا] في جوابهم [ضلّوا عنا] لا ندري أين مكانهم [و] عند ذلك [شــهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين] قال الله سـبحانه وتعالى لأولئك الكافرين : [ادخلوا في امم] أي مع امم [قد خلت من قبلكم من الجن والإنس] أي كفار النوعين من الأمم [كلما دخلت أمة] في ذلك المصير المقرر [لَعَنَتْ اختها] أي لَعَنَت أختَها ونظيرها في وضع الكفر والجحود فتلعن التابعة المتبوعة على أساس أنها أضلتها وجاءت بتقاليدَ لادينية ولا عقلية ، فيدخلون في دار الجزاء فوجاً فوجا لاعِناً بعضُهم بعضاً [حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا] أي اجتمعوا فيها [قالت أخراهم لأوليهم] أي عن بيان أحوالهم وبالنسبة إليهم : [ربنا هولاء] الناس المتنفذون رأياً وشخصيةً وتقدما في التقاليد [أضلّونا] عن طريق الحق [فآتِهم عَذاباً ضعفا] بالنظر إلى عذابنا [من النار قال] الله تعالى : [لكل] منكم ومنهم [ضعف] من النار أي مضاعفه ما يعتبر جزاء من الأصل [ولكن لا تعلمون] ذلك من شدة العذاب ، فإن المبتلي يفقد الميزان فيعلم القليل كثيرا والكثير قليلا [وقالت أوليهم لأخريهم : فما كان لكم علينا من فضل] : معناه أنه بعد ما قال الله سبحانه لكل ضعف لم

يبق لكم علينا من فضل يُعَبَّرُ عنه بخفة العذاب بل كلّنا متساوون [فذوقوا العذاب] المُضاعَف [بما كنتم تكسِبون] ٠

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٤٣)

قوله تعالى : [إِنَّ الذين كذّبوا بآياتنا] أي الآيات المنزلة منّا على عبادنا المرسلين ، ومنها الآياتُ المنزلة على خاتم أنبيائي ورسلي محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت الآيات آيات العقائد والأحكام ، أو آيات قصص الأمم الماضية، أو آيات الإرشاد والوعظ والتذكير وغير ذلك [واستكبروا عنها] أي تعاظموا وتكبروا عن قبولها والإذعان بها [لا تُفَتّح لَهُمْ أبوابُ السّماءِ] أي لا تفتح لأرواحهم إذا ماتوا كما تُفتّح لأرواح المؤمنين ، أو لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم ٠ وقيل المراد لا يصعد لهم عمل ولا تنزل عليهم البركة ٠ وكونُ السماءِ لها أبواب تفتح للأعمال الصالحة والأرواح الطيبة

أمر ممكن أخبر به الصادق فلا حاجة إلى تأويله • وإذا أولناه بالإكرام وقبول الأعمال ونزول الرضا والرحمة عليه فهو جائز مستحسن لكثرة نحو ذلك التأويل في آي التنزيل • [ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل] وَهُوَ الحيوان المعروف [في سمّ الخياط] يعني ثقبة الأبرة • وهذا تعليق بالمستحيل لأن مساواة المكان للمتمكن وسعة المعبر للعابر واجب عقليّ وخلافه ممتنع • وهذا مثل ما يقال حتى يبيضّ القار ، ويشيب الغراب • وقرىء بضم الجيم وفتح الميم المشدّدة أو المخففة وبفتح الجيم وسكون الميم ، وفسر في جميع ذلك بالحبل الغليظ • وفي القاموس : وكسكّر وصُرَدٍ وعُنُق وجَبَل حَبلُ السَفينةِ ، وقرىء بهن حتى يلج الجمل • [وكذلك] أي وبمثل ذلك الحرمان من الجنة والدخول في النار [نجزي المجرمين] بتكذيب الآيات والاستكبار عن قبولها [لهم من جهنم مهاد] أي فراش تحت أقدامهم [ومن فوقهم غواش] جمع غاشية أي أغطية نارية [وكذلك] أي وبمثل ذلك المذكور [نجزي الظالمين] بما ذكرنا [والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا نكلف نفسا إلا وسعها] جملة معترضة معناها لا نكلف أي مكلف إلا ما في طاقته • وخبر الموصول المبتدأ قوله [أولئك أصحاب الجنة] أي ملازموها [هم فيها خالدون • ونزعنا ما في صدورهم من غل] أي قلعنا ما في قلوبهم من حقد وعداوة [تجري من تحتهم الأنهار] أي تجري من تحت غرفهم المسكونة مياه الأنهار زيادة في مسرّتهم • [وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا] الفوز العظيم [وما كنا لنهتدي] لذلك أو لغيره من الخيرات [لولا أنْ هَدانا الله] إليه بتصديق الرسل الكرام • [لقد جاءت رسل ربنا بالحق] وكل ما وعدونا من درجات المؤمنين حَقٌ يُطابقُ الواقع [ونودوا] عند استقرارهم في دار النعيم من الملائكة

الكرام : [أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون] أي بسبب ما عملتموه من الخيرات المعنوية والمادية ، أو بسبب عملكم الخالص بها .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ)(٤٥)

قوله تعالى : [ونادى أصحاب الجنة] أي وينادي أصحاب الجنة بعد الاستقرار فيها [أصحاب النار] أي ينادي من هو يعرفه لا لمجرد الإخبار بل لاستحضار وعده تعالى ووعيده للفريقين ومزيد شكر أهل الجنة والتحدث بالنعمة ومزيد أسف اهل النار ؛ فيقولون لهم متكاشفين متقاربين متواجهين على ما يبرز لنا العلم اليوم وهو جزء لا يتجزأ من آثار قدرة الحي الذي لا ينام ولا يموت : [أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا] على ألسنة الرسل الكرام حقا بلا شائبة تخلف [فهل وجدتم] أنتم أيضا [ماوعد] كم [ربكم حقا ؟] من العذاب والعقاب [قالوا] أي أصحاب النار في جواب أصحاب الجنة : [نعم] قد وجدنا ذلك حقا بلا شائبة خلاف [فأذن مؤذن بينهم] أي فأعلن معلن بين الفريقين بأعلى ما يعلو به صوته [أن لعنة الله] وطرده الأبدي من رحمته الواسعة الدائمة [على الظالمين ، الذين يصدون] أي كانوا في الدنيا يصدون ويمنعون الناس [عن] سلوك [سبيل الله] أنفسهم أولا والناس الآخرين تاليا [وكانوا يبغونها عوجا] أي يطلبون جعلها عوجا في عيون الناس وعقولهم [وهم] لسوء حالهم [بالآخرة] بمجيئها مع ما فيها من الجحيم وجنة النعيم [كافرون] .

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي قال ما من مؤمن ولا كافر إلا وله في الجنة والنار منزل مبين ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ودخلوا منازلهم رفعت الجنة لأهل النار فنظروا إلى منازلهم فيها فقيل هذه منازلكم لو عملتم بطاعة الله تعالى . ثم يقال : يا أهل الجنة رثوهم بما كنتم تعملون فيقتسم أهل الجنة منازلهم . وهناك تجري بينهم المناداة والمناجاة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . نسأل الله الفوز بالنعيم المقيم بفضله إنه جواد كريم .

(وَبَيْنَهُما حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ ونادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ : أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ(٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قالُوا : رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٧) ونادى أَصْحابُ الأَعْرَافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قالُوا : ما أَغْنَى عنكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ؟!(٤٨) أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ : لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ؟ أُدْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)(٤٩)

قوله تعالى [وبينهما حجاب] أي وبين فريقي أصحاب الجنة والنار ، أو بين نفس الجنة والنار حجاب يمنع وصول بعضهم إلى بعض مع انه لا يمنع رؤية بعضهم بعضا وكلام بعضهم مع بعض كما في قوله تعالى (فضرب بينهم بسور) [وعلى الأعراف] أي وعلى أعالي الحجاب [رجال يعرفون كلا بسيماهم] أي رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم وعلامتهم المميزة لكل

منهم • وفي أولئك أقوال كثيرة • ولكن الحق والانصاف والمماشاة مع ظاهر الآية الكريمة القول بما قاله بعض من المحققين : إن أصحاب الأعراف قوم علَت درجاتهم وأعطاهم ربهم رتبة الاطلاع على أحوال الفريقين ، وهم من عدول الأمم المنتسبة للأنبياء أو عدول أمة الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه سلم ـ لأن كلمة الرجال ظاهرها الآدميون • و [يعرفون كلا بسيماهم] ظاهرها الفضل والاختصاص بمعرفة الناس صنفا وشخصاً ، ولا تناسب تلك الرتبةُ أهل الفترة الذين لا مقام لهم ، ولا أناسا آخرين على شَبَهِهم • [ونادَوا أصحاب الجنة] حين رأوهُم وعرفوهم : [أن سلام عليكم لم يدخلوها] عند ذلك الكلام لكونهم في مقام المأمورية بملاحظة الفريقين وإلقاء الكلمات التبشيرية لبعض مع التبريك والتهنئة وهم أهل الجنة وعبارات التعيير والتأنيب لبعض ، وهم أهل النار أعاذنا الله تعالى منها [وهم يطمعون] أن يدخلوها على وعد الله تعالى فضلا ورحمة • وهذه الجملة أيضا تدل على أن من على الأعراف رجال مؤمنون ومن أصحاب الإيمان والأعمال الصالحة •

[وإذا صُرِفَت أبصارُهم تلقاء أصحابِ النار] وابصروا أحوالهم المرئية الفظيعة خافوا جدا و [قالوا : ربنا لا تجعلنا] في دار العذاب [مع القوم الظالمين و] عند ذلك [نادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم] المعلومة من وجوههم وجباههم ، وعلموا أنهم من أي قوم وقبيلة [قالوا :] [ما] الذي [أغنى عنكم جمعكم] الذي كنتم تعتمدون عليهم [وما كنتم تستكبرون] أي واستكباركم على الله ودينه بالاعتماد على النفس أو القبيلة أو غيرها [أهؤلاء] المسلمون [الذين أقسمتم] في الدنيا [لاينالهم الله برحمة] وهم حقراء وفقراء لا قدر لهم ولا قيمة ؟ الذين قال الملائكة لهم بأمر الله تعالى : [ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون] وهذه الآية

الكريمة ايضا دليل جلي على أن أهل الأعراف رجال أشراف من أهل الفضل والميزة عند الله ، وأنهم كشهداء على الفريقين ومطلعون على أحوالهم السابقة واللاحقة .

(وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أصحابَ الجَنَّةِ : أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ! قالُوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيا ، فَالْيَوْمَ نَنْسيهُمْ كَمَا نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا ، ومَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحدونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٥٢)

قوله تعالى : [ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة] يعني وبعد استقرار الفريقين كل في مكانه وانغمار أهل الجنة في أنواع النعيم وانهيار أهل النار في وديان الجحيم وانكشاف الفريق الأول للفريق الثاني لحكمة ربانية منها : زيادة مسرة أهل الجنة ، وزيادة ألم أهل النار ينادي أهل النار أهل الجنة بالطريقة المعمولة إذ ذاك : [أن أفيضوا علينا من الماء] الذي يطفىء حرارة الأجساد والتهاب الأكباد [أو مما رزقكم الله] معطوف على قوله تعالى من الماء بتأويل قوله أفيضوا بما يناسب المطلوبين . أي أوردوا علينا . أو بتقدير عامل مناسب للمعطوف ، ثم عطف العامل على العامل كما هو مذكور في النحو في نحو قوله تعالى (والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم) أو بتضمين العامل الأول ما يناسب المطلوب الثاني [قالوا] أي أهل الجنة جوابا لأهل النار : [إن الله حرمهما] أي المطلوبين [على الكافرين] ، أي منعهما عنهم منع الحرام عن المكلفين [الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا]

أي اتخذوا دينهم المزيف الذي اعتنقوه صورة لهوا ولعبا • أو اتخذوا دين الإسلام الذي كلفوا باعتناقه لهوا ولعبا • والفرق بينهما أن اللهو صرف الوقت فيما لا ينبغي أن يصرف فيه ، واللعب الفرح بما لا يحسن أن يفرح به [وغرتهم الحياةُ الدنيا] شَغَلَتهم عن إطاعة مَوْلاهم [فاليوم نَنساهم] أي نعامِلُهم معاملة المنسي [كما نسوا لقاء يومهم هذا] أي مثل ما نسوا لقاءنا في هذا اليوم [وما كانوا بآياتنا يجحدون] أي وبما كانوا (بآياتنا يجحدون) فهو معطوف على ما نسوا • أي كما نسوا لقاءنا وكما كانوا يجحدون بآياتنا • والمراد بالنسيان التغافل وعدم الاهتمام بالأمر ، وإلا فما عملوا ذلك حتى ينسوه [ولقد جئناهم بكتاب فصلناه] بينا ما فيه من العقائد والأحكام تفصيلا مبينا [على علم] منا بكلياته وجزئياته حالكون الكتاب [هدى ورحمة لقوم يؤمنون] به لأنهم المهتدون به المقتدون بأحكامه •

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(٥٣)

قوله تعالى : [هل ينظرون] الاستفهام توبيخي • أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم وجحودهم شيئا [إلا تأويله] أي ما يؤول إليه أمر الكتاب من ظهور صدق بتحقق ما أخبر به من الوعد والوعيد [يوم يأتي تأويله] أي يوم تظهر الحقائق المذكورة فيه ، وهو يوم القيامة [يقول الذين نسوه] في الدنيا وتركوا العمل به من قبل متأسفين ومتحسرين :

[قد جاءت رسل ربنا بالحق] وكل ما جاؤا به من الكتاب ومحتوياته كان صدقا وحقا ، ونحن ظلمنا أنفسنا بتركنا الإيمان به [فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا] اليوم ويدفعوا عنا العذابَ [أو] هل [نُردّ] إلى الدنيا [فنعمل غير الذي كنا نعمل ؟] من الكفر والعصيان والله سبحانه يقول [قد خسروا أنفسهم] أي خسروا مدة بقاء أنفسهم في الدنيا حيث صرفوها فيما أهلكهم [وضل عنهم ما كانوا يفترون] أي وضاع عنهم كل ما قالوه افتراء .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(٥٥) ولا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً ، إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ)(٥٨)

قوله تعالى : [إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام] شروع في بيان مبدأ الفطرة ، وخلق العالم ، وإظهار عجائب صنعه التي

تدل بوضوح على وجود الباري ووحدته وصفاته الذاتية والفعلية . فيقول : إن ربكم أي صانعكم ومربيكم هو الله الذي خلق السماوات والأرض بما فيها وما امتزج معها ككرة واحدة من الماء في ستة أيام . والمشهور أنه ابتدأ الخلق يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة [ثم استوى على العرش] .

يقول أهل التأويل : استوى أمره ، أو إن معناه استولى على العرش ، وذلك لأن العرش جسم والاستقرار على الجسم من صفات الجسم ، ويوجب تجزئة المستقر بحسب المستقر ـ بالفتح ـ وذلك يوجب التركيب المستحيل على الله تعالى . على أن العرش إن كان قديما يستلزم القول بقدم بعض الأجسام مع أن المسلمين متفقون على أن لا قديم غير ذات الباري تعالى وصفاته . وإن كان حادثا أي إن الباري تعالى لم يكن في الأزل محتاجا إلى المحل ثم لما خلق العرش احتاج إليه واستقر عليه يستلزم عروض الحاجة على الغني المطلق . فتأويل الآية ما مر لا غير .

ويقول أهل التفويض : نحن نقول بالآية ونؤمن بمعناها بدون ملاحظة الكيفية ، فالاستواء على العرش معلوم وكيفيته مجهولة . وقد ذكرنا شيئا من الموضوع في أول سورة (آل عمران) فراجعه .

[يغشي الليل النهار] والاسمان مفعولان لما قبلهما أي يجعل الليل غِطاءً ساتراً للنهار ويغشيه به ، ولم يذكر عكسه للعلم به ، أو لأن لفظ المفعولين يحتمل المعنيين لأن المعنى الأول مبني على جعل الليل مفعولا أول والنهار مفعولا ثانيا ، والعكس مبني على العكس ، والكل محتمل [يطلبه حثيثا] أي يطلب الليلُ النهارَ ليغطيه فور نهايته ، فيطلب في معنى يعقب أي يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما بشيء [والشمس والقمر والنجوم] أي وخلقها [مسخرات بأمره] أي بقضائه وقدره [ألا] أيها الإنسان العاقل [له الخلق] أي الإيجاد من العدم إلى الوجود [والأمر] أي التصرف في

كل ما خلقه [تبارك الله رب العالمين] أي البقاء لله رب العالمين . أو كثرت وازدادت الآثار الفاضلة من رب العالمين ، لأن البركة جاءت بمعنى البقاء وبمعنى كثرة الآثار الفاضلة .

في تفسير البيضاوي : وتحقيق الآية ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أن الكفرة كانوا متخذين أربابا ، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم ، فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب ، كما أشار إليه بقوله (فقضاهن سبع سماوات في يومين) وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال ... وأشار بقوله : (وخلق الأرض في يومين) ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا ، وتصويرها ثانيا ، كما قال تعالى بعد قوله (وخلق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام) أي مع اليومين الأولين . لقوله تعالى في سورة السجدة : (الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) ثم لما تم له عالم الملك عمل إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة . فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوير الليالي والأيام . ـ ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ثم إن اليوم في اللغة مطلق الوقت فإن أريد هذا فالمعنى : خلق الله السموات والأرض في ستة أوقات . وإن أريد المتعارف فاليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسماوات فيقدر فيه مضاف ، أي مقدار ستة أيام . هذا إذا نظرنا إلى سرعة تأثير قدرته . وإن نظرنا إلى خلق الأمور على مهلة وإناة وملاحظة لترتيب المسبب على الأسباب فيمكن لك أن تفسر الأيام الستة بستة آلاف

سنة لقوله تعالى : (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ولا تهتم بكثرة الأوقات فإنها تضمحلّ عند النظر إلى الأزل والأبد فاحفظه . ثم إنه تعالى بعد أن بين التوحيد وأخبر أنه المتفرد بالخلق والأمر .. أمر عباده أن يدعوه مخلصين فقال : [ادعوا ربكم] أي الذي عرفتم أفعاله وشؤونه لقضاء حاجاتكم [تضرعا] أي ذوي تضرع أو متضرعين [وخفية] أي سرّا [إنه لا يحب المعتدين] أي المتجاوزين عن الحد المقرر بأن يرفع الداعي صوته بحيث يؤذي من يليه ، أو لطلب الشيء الحرام فعلا أو تركا ، أو يطلب ما لا يليق به ، أو ما لا يمكن له حصوله ، فكل ذلك اعتداء .

أخرج أحمد في مسنده وابو داود عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول أللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل » ثم قرأ (إنه لا يحب المعتدين).

وذكروا للدعاء آدابا كثيرة منها : الكون على طهارة ، واستقبال القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة . ومنها : يوم الجمعة عند كثير ساعة الخطبة ، ويدعو فيها بقلبه ، ووقت نزول الغيث ، والإفطار ، وثلث الليل الأخير ، وبعد ختم القرآن ، وغير ذلك مما هو مبسوط في محله .

[ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها] وهذا النهي يعم أنواع الإفساد وأهمها إفساد عقائد المؤمنين ، وإفساد ذات البين ، وإفساد الملك على الرعايا وبالعكس ، وإفساد الأولاد على الوالد وبالعكس ، وإفساد الزوجة على الزوج وبالعكس ، وإفساد الطلاب على الأستاذ وبالعكس ، والمراد بإصلاحها إصلاح الله تعالى لها وخلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق .

[وادعوه خوفا وطمعا] مصدران وقعا حالين عن الفاعل ، أي خائفين وطامعين خائفين من رد الدعاء للقصور في الإخلاص ، وطامعين في إجابتــه تفضلا وإحسانا ، أو خائفين من عقابه وطامعين في ثوابه [إن رحمة الله قريب من المحسنين] ولا يكون الداعي محسنا إلا إذا كان خائفا طامعا كما ذكرنا . واستشكل تذكير قريب مع أن الرحمة مؤنث وأجيب عنه بأجوبة . منها : أن الرحمة وإن كان مؤنثا اكتسب التذكير من المضاف إليه . ومنها : أن لفظ قريب صيغة النسبة أى ذات قرب . ومنها : أن الرحمة بمعنى الإحسان .

[وهو الذي يرسل الرياح] : عطف على الجملة السابقة أو على جملة خلق السموات والأرض [بُشْراً] بضم الباء وسكون الشين مخفف بُشُرا بضمتين كنذر جمع نذير ، فيكون جمعا لبشير يعني وهو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته أي قدّام رحمته أي قدام نزول المطر النازل من رحمته وكرمه [حتّى إذا أقلّت سحابا ثقالا] يعنى حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالندى والرطوبة [سقناه لبلد] أي إلى بلد [ميت] أي لا ماء فيه . والبلد كل موضع من الأرض عامر أو غيره خال او مسكون . والطائفة منه بلدة والجمع بلاد . وتطلق البلدة على المفازة [فأنزلنا به] أي في البلد [المــاء . فأخرجنا به من كل الثمرات] أي الثمرات المســتثمرة هناك ، والاســتغراق عرفي لا حقيقي ، أو باعتبار مجموع البــلاد [كذلك نخرج الموتى] أي مثل إخراج النبات من الأرض على البذور المنشــقة ، أو من إبداعنا الأساسي بإحداث القوى النامية هناك نخرج الموتى من القبور أو غيرها ونحييها بجمع الأجزاء الأصلية المتفرقة أينما كانت ، أو بخلق أمثال الأجزاء البالية ورد النفوس إليها . فإن القادر على الإبداء قادر على الإعادة [لعلكم تذكرون] وتتفكرون حتى تعلموا أن الواجب الوجود مبدأ لكل موجود .

[والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه] ومعناه الأرض الكريمة التي لا سبخة ولا حرة يخرج نباته حسنا وافيا كثير النفع بإذن ربه [والذي خبث لا يخرج إلا نكدا] والبلد السبخة أو الحرة لا يخرج نباته إلا قليلا لا خير فيه • وهذه الآية تفيد الناظر فيها أن الآيات النازلة من الله كالأمطار الغزيرة التي تنزل من رحمة الله بعباده ، والإنسان الطيبُ القلب كالبلد الطيب يأخذ الآيات ويستفيد منها سعادة الدارين، والإنسان السيىء الخلق الشرس المشاكس كالأرض السبخة لا يستفيد منه الاهتداء إلى الحق ، بل يزيد به طغيانا وكفراً أعاذنا الله منه [كذلك نصرف الآيات] الدالة على شمول قدرة الباري لكل ممكن [لقوم يشكرون] نعم الله تعالى • ومنها إرسال الرسول الرؤوف الرحيم ، وإنزال آيات القرآن الكريم لدعوة الناس إلى سلوك الصراط المستقيم •

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ : إنا لَنَرِيكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٦٠) قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ على رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟!(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الفُلْكِ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ)(٦٤)

قوله تعالى : [لقد أرسلنا نوحا إلى قومه] : جواب قسم محذوف ، أي والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه [فقال : يا قوم اعبدوا الله] وحدَه [ما لكم من الهٍ غيره إني أخاف عليكم] إن لم تعبدوه وحده [عذاب يوم عظيم] هو يوم القيامة أو يوم الطوفان [قال الملأ من قومه : إنا لنريك] يا نوح [في ضلال مبين] أي واضح لا شبهة فيه [قال : يا قوم ليسَ بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين] يعني ليس بي ضلالة ولكن لست رجلا خاليا عن المواهب الربانية ، بل إني رسول من رب العالمين [أبلّغكم رسالات ربي] من جهة الاعتقاد والأحكام [وأنصح لكم] والمعنى كما إني أبلغكم الرسالات أرغبكم في قبولها وأتحرّى ما فيه صلاحكم بكل ما لديّ من الاستطاعة ، [وأعلَم من الله ما لا تعلمون] أي وأعلَمُ مِن الله بالوحي أموراً لا علم لكم بها ، وأنا أُلقيها إليكم لتأخُذوها وتنتفعوا بها .

[أوعَجبتم أَن جاءكم ذِكرٌ مِنْ ربكَم عَلى رَجُلٍ منكم] أي من عشيرتكم ووطنكم ، تعرفون أصله وفصله ومَولِدَه ومنشأه ، كما تعرفون أنّه ليس فيه ما يدعو إلى الشبهة والاشتباه . وإنما جاءكم ذكر من ربكم [لِيُنذِركم] ويُحَذّركُم عذاب الله [ولتتقوا] ولكي تتقوا [ولعلكم ترحمون] فعلة مجيء الذكر ثلاث : الأول الإنذار من موجبات عذاب النار . والثاني : تقوى ربكم ولزوم طريقة الإيمان والإحسان واجتناب مالا ينبغي . والثالث : نزول الرحمة وخلعة القبول منه تعالى عليكم . [فكذبوه] أي فاستمروا على تكذيبه ، وأنه ليس رسول الله تعالى فغضبنا على المكذبين فأمرنا نوحا بتهيئة سفينة ليدخلها واتباعه في حال الطوفان الموعود فهيأها [فأنجيناه والذين معه في الفلك] أي في السفينة المصنوعة بأعيننا [وأَغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوماً عَمينَ] أي عمى القلوب عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد . وأصل (عمين) عميين بياءين على وزن فرحين ؛

ثقلت الكسرة على الياء الأولى فنقلناها إلى ما قبلها وحذفناها لالتقاء الساكنين فصار عَمِينَ على وزن فعين .

(وإلى عادٍ أخاهُمْ هُوداً قالَ : يا قومِ اعبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غيرُهُ ، أفلا تَتَّقُونَ ؟(٦٥) قالَ المَلأُ الَّذينَ كفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : إنّا لنَراكَ في سَفاهَةٍ وإنّا لنَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ(٦٦) قالَ : يا قَوْمِ ليسَ بي سَفاهَةٌ ولكنّي رسولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ(٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبّي وأنا لكُمْ ناصِحٌ أمينٌ(٦٨) أوَعَجِبْتُمْ أنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ علَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟! واذكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وزادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً ، فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٦٩) قالُوا : أجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ونَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ؟ فأْتِنا بِما تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ(٧٠) قالَ : قَدْ وَقَعَ عَلَيكم مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أتُجادِلُونَني في أسماءٍ سَمَّيْتُموها أنْتُمْ وآباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، فانْتَظِرُوا إنّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ(٧١) فأنْجَيْناهُ والَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا ، وقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ)(٧٢)

قوله تعالى : [وإلى عاد أخاهم] متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا فيما سبق ، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم [هودا] بدل من أخاهم [قال] هود . [يا قوم اعبدوا الله] وحده [ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟] عذاب يوم

عظيم [قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنريك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين] في دعوى الرسالة . [قال] هود عليه السلام : [يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين] والرسالة من الله تقتضي الاتصاف بالرشد ، فكيف يكون الرسول سفيها خفيف العقل ؟ [أبلغكم رِسالاتِ ربي وَأَنا لكم ناصِحٌ أمين] وأصل النصح في اللغة : الخلوص يقال : نصحت العسل إذا خلصته من الشمع . وقد يستعمل لخلوص المحبة للمنصوح له والسعي في إرشاده إلى ما يسعده . وعلى ذلك حمل ما أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدين النصيحة . قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله تعالى ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » ومقصود سيدنا هود : أني فيما أبلغكم به لست متهما بخيانة ؛ لأني معروف بينكم بالنصح والإخلاص والأمانة .

[أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم] أتستغربون أن ينزل الله تعالى على عادته وسنته الماضية في الكائنات كتابا جامعا لأسباب سعادة الدارين على رجل من قومكم معروف النسب والحسب [لـ] يبشركم بالجنات على الإيمان والأعمال الصالحة و [ينذركم] بالدركات النارية على الكفر والأعمال السيئة . وذلك مما لا يتعجب منه لأنه من السنن الربانية المتواترة . وعلاوة على ذلك إذا نظرتم إلى أنفسكم في العالم رأيتموها فائزة بنعم لا تحصى فلا يجوز التغافل عنها [واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح] واستوليتم على ما استولوا عليه ، وجعلكم ملوكا ، فإن شدادا بن عاد ملك جزيرة العرب وما والاها [وزادكم في الخلق] أي وزاد اختصاصاتكم في ما بين المخلوقين ، ولم يؤت أحداً مثل ما آتاكم ، فصرتم سادةً على الخليج وبابِ المندب ، وممر البحار من جهتكم تحتَ سيطرتكم .

أو زادكم في الابداع [بسطة] زيادة في الجسم وقوة ، وخلقكم رجالا طوالا أبطالا مهولين ومهابين [فاذكروا آلاء الله] أي نعمه وفضائله الواردة عليكم من كثرة الأموال والأرزاق والكماليات [لعلكم تفلحون] بإسنادها إلى الله تعالى تهيئة اسباب وابداعا فتشكرونه عليها بتوحيده وعبادته • [قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟] فقابلوه على وجه لا عقل فيه ولا رعاية للواقع ، وجعلوا جملة دعوته متوجهة إلى ناحية خاصة دنيوية وهي عاداتهم التي كانوا عليها ، وجعلوها أساسا لرقيهم وشوكتهم على التوهمات المزيفة • وكأنهم يقولون له إنك تحسدنا على قوتنا وسيطرتنا في العالم وتريد هدم أساسنا بالحيلة والخديعة فلا تترك عاداتنا ونستمر عليها ولا نخاف وعيدك [فأتنا بما تَعِدنا إن كنتَ مِن الصادقين] بالإخبار بنزوله [قال : قد وقع عليكم من ربكم] أي من مالك أمركم [رجس وغضب] أي عذاب يؤول إلى ما يستقذر لأنهم بعد أن هلكوا بالرياح المتموجة صاروا أجسادا هامدة فتحولوا جيفا مستقذرة • فالمراد بالغضب بعدُ إما غضب الله الوارد عليهم ، ويكون عطف السبب على المسبب ، أو نوع آخر من العذاب في الدنيا أو في الآخرة •

وحاصل كلام سيدنا هود عليه السلام انه يقول : بعد ما عارضتموني على الإيمان بالله وتوحيده قد ثبت العذاب عليكم واستقر ما تستحقونه ، فما لكم من محيص عنه • ثم عاد يوبخهم على عاداتهم الدنيئة في عبادة أخشاب وأحجار جعلوها نصب أعينهم فقال : [أتجادِلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟] يعني أتخاصمونني في ذوات جامدة معمولة من الأخشاب والأحجار ، ووضعتم لها وضعا جعليا أسماء وألقابا لا تليق بها ، كاسم الاله الفلاني والفلاني ، من غير أن يكون هناك مدلول صحيح ومصداق واقعي ، وما نزل الله تعالى باعتبارها من أيّ

سلطان وبرهان يفيد القلب اطمئنانا على أنها مما يليق اعتبارها [فانتظروا] نزول العذاب الذي تستهزؤن به [إني معكم من المنتظرين] لوقوعه ، لكننا نعلم بحلوله عليكم عاجلا في الدنيا وإن عليكم في الآخرة عذابا أشدّ وأبقى تَبقَوْنَ فيه خالدين •

[فأنجيناه] أي هودا [والذين معه] أي من المؤمنين [برحمة منا] أي برحمة عظيمة منا [وقطعنا دابر الذين كذبوا باياتنا] أي استأصلناهم جميعا بسبب معصية هي من أشد المعاصي وأفظعها عند الله وهو تكذيبهم بآياتنا المنزلة على رسولنا هود ، [و] بسبب أنهم [ما كانوا مؤمنين] أي استمروا وأصروا على العناد بحيث لم يبق لهم نور الإيمان •

وقصتهم طويلة مكتوبة في التفاسير وخلاصتها : أن قوم عاد كانوا في الأحقاف جنوبي اليمن ، واستولوا على كثير من الأمم ، فأرسل الله إليهم هودا فكذبوه ، فابتلاهم الله بجدب وقحط ، حتى أن رأوا سحابا مظلما ظهر لهم من واد يسمى وادي المغيث ففرحوا به ، وظنوا أنه سحاب يمطرهم ، فجاءتهم من تلك السحابة ريح عقيم قوية ، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام على الدوام ، فدمّرت الدور والقصور والخيم ، وضَرَبَ بعضها على بعض ، وأهلك كل من فيها ، إلا من نجاه الله او خرج منها بوحي منه كسيدنا هود ومن معه (وقطع دابر القوم الذين ظَلَمُوا والحمد لله رب العالمين) •

(وَإلى ثمودَ اَخَاهُمْ صالِحاً قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِنْ اِلهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ؛ هذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوها تَأكُلْ في اَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسّوها بِسُوءٍ ، فَيَأخُذَكُمْ عَذابٌ اَلِيمٌ(٧٣) وَاَذْكُرُوا اِذْ جَعَلَكُمْ

خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ ، وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً ، وتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٧٤) قالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ، لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(٧٥) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ(٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وقالُوا : يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ المُرْسَلِينَ(٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمِينَ(٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ : يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)(٧٩)

قوله تعالى : [وإلى ثمود أخاهم صالحا] يعني وأرسلنا إلى القوم المعروف باسم جدّهم الأعلى ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، ـ وقد سكنوا بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، ـ وهم من قبيلة عاد ، ونزحوا إلى تلك البقعة (أخاهم صالحا) وهو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود [فقال: ياقوم اعبدوا الله] وحده [ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم] أي معجزة ظاهرة الدلالة على رسالتي • وقوله : [هذه ناقة الله] استئناف مسوق لبيان البينة ، أي ناقة مخلوقة بقدرة الله وإبداعه على غير قاعدة التناسل الحيواني • وهذه مبتدأ ، وناقة خبر أول ، ولكم خبر ثان • وآية حال من فاعل الظرف • [فذروها تأكل في أرض الله]

مما تعيش به [ولا تمسوها بسوء] أي لا تمنعوها من الرعي والسقي ولا تؤذوها [فيأخذكم عذاب أليم] لأن معارضة المعجزة مهلكة [واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد] أي خلفاء لهم بعدهم [وبوّأكم في الأرض] مكّنكم بالاستيلاء عليها وتعميرها واستغلالها والاستفادة من وجوه المعايش والمكاسب فيها [تتخذون من سهولها قصورا] أي تبنون في أراضيها المسطحة قصورا رفيعة تسكنون فيها وتتمتعون بأنواع من متاع الحياة [وتنحتون الجبال بيوتا] مسكونة • روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم اتخذوا القصور في السهول ليُصيّفوا فيها ، ونحتوا من الجبال بيوتا ليُشتّوا فيها ، [فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين] حال مؤكدة لمعنى العامل لأن عثا بمعنى أفسد • [قال الملأ الذين استكبروا من قومه] الملأ : الاشراف، لأنهم هم الذين يملأون مجالس الشورى وغيرها من مجالس الأمة [للذين استضعفوا] لا لكلهم بل [لِمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه؟ قالوا: إنّا بما أرسل به مؤمنون • قال الذين استكبروا : إنا بالذي آمنتم به كافرون • فَعقَروا الناقة] أي نحروها [وعتوا عن أمر ربهم] أي استكبروا عن امتثال أمره [وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا] من العذاب والدمار [إن كنت من المرسلين • فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين] هامدين موتى لا حركة لهم • والرجفة : هي الصيحة السماوية النازلة عليهم • وقيل الرجفة : خفقان القلب • ويجوز اعتبارهما معا على اعتبار أن خفقان قلوبهم وموتهم نشأ من الصيحة السماوية • [فتولى عنهم] سيدنا صالح بعد أن جرى عليهم ما جرى مغتما متحسراً على ما فاتهم من الإيمان [وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم] بما في طاقتي بلا قصور [ولكن لا تحبون الناصحين] على

حكاية الحال الماضية ، أي شأنكم الدوام على هذه الحالة الفاسدة ، فكان مآلكم هذه العاقبة السيئة والعياذ بالله .

وقصة ثمود باختصارها : إن عادا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها وتمكنوا في الأرض فاستوطنوا ديارهم بين الحجاز والشام ، وبنوا القصور في الصحراء للصّيف ، ونحتوا من الجبال بيوتا للشتاء ، فداموا في رفاه وأخذوا يعبدون الأصنام . فبعث الله تعالى إليهم صالحا وهو شاب ، فدعاهم إلى الله وتوحيده حتى شمط وكبر ولم يتبعه إلا قليل من المستضعفين . فلما ألحّ عليهم سألوه معجزة ، فقال لهم : أي شيء تريدون ؟ فقالوا : تخرج غدا معنا إلى عيدنا ، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم ، فتدعو إلهك ، وندعو آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا . فقال لهم صالح : نَعَمْ . فخرجوا وخرج معهم ، فدعوا أصنامهم أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به . ثم قال جندع بن حراش وهو في ذلك الوقت سيدهم : يا صالح اَخْرِجْ مِنْ هذه الصخرةِ [لِصخرةٍ واحدةٍ في الحجر] وتسمى بالكاثبة ناقَةً مخترجة ، أي تُشاكِلُ البُخْتَ فإن فَعَلْتَ صَدّقناك وآمَنا بك . فأخذ عليهم صالحٌ مَواثيقَهم ، وصلّى ركعتين ، ودعا ، فتَمخّضَتِ الصّخرةُ تَمَخُّضَ النَّتوجِ بولدها فانصَدَعَتْ عن ناقة عشراء جَوْفاءَ ووَبراءَ ، كما وَصَفوا ، ثم تنجت ولداً مثلها ! فآمن به جندع ورهطٌ مِن قومه ، وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به ، فَمنَعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحَبّاب صاحبُ أَوْثانِهم ، ورباب بن ضمر كاهنهم . فلمّا خرجت الناقة قال لهم : هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترده غبا فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن : بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها ،

ثم ترفع رأسها وتتفجج لهم فيحلبون ما شاؤا من اللبن فيشربون ويدخرون ، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها ، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاؤا ويدخرون ما شاؤا ليوم الناقة ، وما زالوا في سعة ورغد وكانت الناقة تصيّف إذا كان الحرّ بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم ، وتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه ، وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب ، فأضرّ ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم ، فعتوا عن أمر ربهم فأجمعوا على عقرها .

وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحديهما عنيزة بنت غنم بن مجلد وتكنّى بأم غنم ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وكانت عجوزا مسِنّة ذات بنات حسان ، وذات مال من إبل وبقر وغنم ، ويقال للأخرى : صَدوق بنت المختار ، وكانت امرأة جميلة غنية ذات مواش كثيرة ، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرّت بمواشيهما فدعت صدوق رجلا يقال له الحباب لعقر الناقة ، وعرَضَتْ عليه نفسَها إن هو فعل فأبى . فدعت ابن عم لها يقال له مصدع ابن مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فاجابها إلى ذلك . ودعت عنيزة أم غنم قَدّار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه لزَنْيةٍ ولم يكن لسالف ، لكنه ولد على فراشه ، فقالت : أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة ، وكان عزيزا منيعا في قومه ، فرضي وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود ، فأتبعهم سبعة ، فكانوا تسعة رهط ، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم بها عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت

عن وجهها ليراها قدار ، ثم حثته على عقرها فشدّ على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها ، فخرّت ، ورَغَتْ رُغاءً واحدة ، فتحدر سبقها أي ولدها الفصيل ، وانطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا هناك . وكان صالح عليه السلام قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب ! فخرجوا في طلبه ، فرأوه على الجبل وراموه ولم ينالوه ، وانفجت الصّخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : لكل رَغْوَةٍ اَجَلُ يومٍ ، (تمتّعوا في داركم ثلثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) . ولما جاء وقت العذاب على ثمود يقول سيدنا صالح ـ عليه السلام ـ ورأوا العلامات ، طلبوه ليقتلوه ، وهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم بنو غنم ، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب ، فطلبوه منه فقال : ليس لكم إليه سبيل ، فتركوه وشَغَلَهُم ما نزل بهم . ثم خرج عليه السلام ومن معه إلى الشام ، فنزل رملة فلسطين ، وكان رجل من ثمود يقال له : أبو رغال ، وهو أبو ثقيف في حرم الله ، فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصابهم ، فدفن ومعه غصن من ذهب .

وروي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بقبره فأخبر بخبره فابتدره الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأسيافهم ، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن .

وروي أنه عليه السلام خرج في مائة وعشرين من المسلمين ، وهو يبكي فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا ، وكانوا ألفا وخمسمائة دار . وروي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : إن صالحا لما نجا هو والذين معه قال يا قوم : إن هذه دار قد سخط الله عليها وعلى أهلها فاظعنوا والحقوا بحرم الله تعالى وأمنه ، فأهلوا من ساعتهم بالحج وانطلقوا حتى وردوا مكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا ، فتلك قبورهم في غربي الكعبة .

وروى ابن الزبير عن جابر أن نبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذي أصابهم . وذكر محي السنة البغوي أن المؤمنين الذين مع صالح عليه السلام كانوا أربعة آلاف وأنه خرج بهم الى حضرموت ، فلما دخلها مات عليه السلام ، فسميت لذلك حضرموت ، ثم بنى الاربعة آلاف مدينة ويقال لها حاضورا . ثم نقل عن قوم من أهل العلم أنه توفى بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، ولعله المعول عليه .

(ولُوطاً إذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِها مِن أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ ؟!(٨٠) إنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ !(٨١) وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٨٢) فَأَنْجَيناهُ وَأَهْلَهُ ، إلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِن الْغابِرِينَ(٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)(٨٤)

قوله تعالى : [ولوطا] أي وأرسلنا لوطا . فيكون قوله [إذ قال لقومه] ظرفا لأرسلنا . وأكثر النسابين على أنه ابن أخي إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ . ولم يذكر لقب قومه لأنهم لم يعهدوا باسم معروف ، وكانوا يسكنون سدوم ، واختصوا بالفاحشة المنكرة المشهورة . اي قال لقومه في مقام النصح والتوبيخ على المنكر واستنكاره : [أتأتون] الخصلة [الفاحِشَة] وحالها أنها [ما سَبقكم بها من أحَد مِنَ العالمين ؟!] بهذه الصورة

العادية المستبشعة [إنكم لتأتون الرجال] وتجامعونهم [شهوة] لأجل قضاء النفس الأمارة [من دون النساء] أي متجاوزين عنهن وهن محل الشهوة عند أصحاب الطباع السليمة [بل أنتم قوم مسرفون] كلمة بل للإضراب الانتقالي عن الإنكار المذكور إلى الإخبار بما أدى إلى ذلك وهو تعَوّد الإسراف والتجاوز عن الحدود • وإلا فإن كان الداعي لصرف الماء التناسل أو الاستيناس الاعتيادي ، أو تكوين عائلة تحصل بها راحة ، فالاستيناس بالنساء الطيبات الطاهرات كفيل به ، أو إراحة النفس من ثوران الشهوة فالوسيلة المشروعة كافية ، وإن كان ارتكاب الفواحش والاختباط في الأنجاس فهو عين الاسراف المحرم [وما كان جواب قومه] شيىء مستساغ نقلا أو عقلا [إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم] أي من محل سكناكم وبلدكم [إنهم أناس يتطهرون] فإنهم أناس يدعون النظافة وإنهم يتطهرون ويتباعدون عن هذه الأشياء [فأنجيناه وأهله] المختصين به [إلا امرأته] فما نجيناها من العذاب لأنها [كانت من الغابرين] أي الفائتين الهالكين •

ثم بين الله تعالى طريق تعذيبهم وإهلاكهم بقوله : [وأمطرنا عليهم مطرا] أي أمطرنا عليهم نوعا عجيبا من المطر كانت بدل قطرات الأمطار قطعات الأحجار ، كما قال في آية أخرى : (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) [فانظر] يا من يمكنه النظر للاعتبار [كيف كان عاقبة المجرمين ؟] أي كيف كان مآل تلك الفرقة المرتكبة لتلك الفعلة الشنيعة ؟

ثم إن لوطا ــ عليه السلام ــ بعد إنزال العذاب على قومه لحق بعمه إبراهيم ، فلم يزل معه حتى قبضه الله تعالى • وروي أن سارة زوجة إبراهيم ــ عليه السلام ــ كانت أخته لأنها بنت هاران ، كما أن لوطا كان ابنا له •

وفي الآية دليل على أن اللواطة من المعاصي الكبائر الفواحش ، ولذلك سببت إهلاك قوم بأسرهم •

روي أن لوطا بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام نزل بالأردن ، فأرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) وهي بفتح السين والدال المهملة أو المعجمة قرية سميت باسم بانيها ، وفي المثل (واجور من قاضي سدوم) فدعاهم إلى الله ، ونهاهم عما ابتدعوه من الفاحشة فلم ينتهوا عنها ، فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا . وقيل خسف بالمقيمين منهم ، وأمطرت الحجارة على مسافريهم . وهكذا صاروا مثلا في الهلاك والدمار لأهل العظة والاعتبار . أعاذنا الله تعالى من الأشرار وأعمالهم الموجبة للنار بمنه .

(وإلى مَدْيَنَ اخاهُمْ شُعَيْباً قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، قد جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَاوْفُوا الكَيْلَ والميزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ اشياءَهُمْ ، وَلا تُفسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ اصْلاحِها ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ انْ كُنتُمْ مُؤمِنِينَ ،(٨٥) وَلا تَقْعُدُوا بِكلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَها عِوَجاً ، وَاذكُرُوا اِذ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ(٨٦) وَإنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بالَّذِي اُرسِلْتُ بِهِ وَطائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين)(٨٧)

قوله تعالى : [وإلى مدين أخاهم شعيبا] أي وأرسلنا إليهم ، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله ، شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين . أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا يقول : « ذاك خطيب الأنبياء عليهم السلام

لحسن مراجعته قومه » والمراجعة مفاعلة من الرجوع وهي مجاز عن المحاورة . وإنما عني النبي صلى الله عليه وسلم ما ذكر في هذه السورة كما يعلم بالتأمل فيه [قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم] يريد المعجزة التي كانت له . ولم تذكر في القرآن الكريم ، كما لم تذكر أكثر معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام . وفي الكشــاف : إن من معجزاته محاربة عصا موسى عليه السلام للحيّات حين دفع إليه غنمه ليرعاها ووقوع عصا آدم عليه السلام في يده في المرات الســبع . وولادة غنمه الدرع حين وعده أن يكون الدرع من أولادها . وهو من الخيل والشاة ما اسودّ رأسه وابيض سائره . واعترض بأنه يحتمل أن يكون إرهاصا لرسالة موسى . ويجاب عنه : بأنه يجوز في مثــل ذلك أن يكون معجزة لرســول بالفعل وإرهاصا لرســول بالقوة . ويحتمل أن يكون معجزته إيحاء الله إليه نقص القوم من المكائيل والموازين متى وأينما نقصوا فيخبرهم بذلك . وفي بعض الكتب : إن معجزته أنه كلما صعد على جبل يَطْويهِ ويَصلُ إلى قمّته مع مَن معه من قومه ، فيكون ذلك دليلا على رسالته . كما يجوز أن تكون معجزته بلاغتــه الزائدة في خطبه ونصائحه بحيث لم يبق مجال لمنكريه إلا العناد والعدوان . فقال : ما دام جاءتكم البينة من الله على رسالتي فتأدبوا وأطيعوا الأمر والنهي الصادرين مني [فأوفوا الكيل والميزان] إذا عاملتم الناس [ولا تبخسوا الناس أشياءهم] يعني لا تنقصوا من الأشــياء التي تخص الناس في المعاملات وأدّوها إليهم كاملة وافية [ولا تفسدوا في الأرض] بالجور والعدول عن نهج العدالة في الأمور كلها [بعد إصلاحها] بالشريعة التي أَتَيتكُم بها أو بما استقرّ عندنا من شريعة أبينا إبراهيم عليه السلام [ذلكم] الذي بيّنت لكم [خير لكم] وحَسن ، وما عداه قبيح غير مرضي [إن كنتم مؤمنين] .

[ولا تَقْعُدوا بكل صراطٍ توعدون] أي ولا تقطعوا الطرق عن العابرين للتجارة وسائر المكاسب حالكونكم تخيفون من مرّ عليكم ، أو تخيفون من آمنَ بالقتل • فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن بلادهم كانت يسيرة ـ أي غنية بالموارد ـ وكان الناس يمتارون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق ويخيفون الناس ، أن يأتوا شعيبا ويقولون لهم : إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ! [وتصدون عن سبيل الله من آمن به] أي وتمنعون من آمن بالله وأراد السعي في الخير عن سبيل الله أي عن الطريق الموصلة إليه [وتبغونها عوجا] وتطلبون لسبيل الله عوجا وفسادا بإلقاء الشبه إلى أذهان المشتبهين الضعفاء ، فإن ذلك يعتبر جريمة كبيرة ، بل أكبر الكبائر وهو الكفر بالله ، والعياذ به من ذلك • [واذكروا إذ كنتم قليلا] من حيث العدد فكثركم الله وزادكم عددا • فقد حكي أن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت ، فجعل الله في نسله البركة والنماء • أو المراد بالقلة الإقلال من المال ، يعني كنتم فقراء فأغناكم الله من فضله [وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين] بتدمير ما عمروا وإماتة من ولدوا واعلموا أن كل عاقل يجب عليه الاحتراز عن أسباب الدمار [وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت بهِ وطائفة] منكم [لم يؤمنوا] به ، [فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين] يعني ما دام صار الأمر وعاقبته أنه لم يؤمن القوم كلهم ، ولم ينفعهم الإبلاغ والنصيحة ، وانقسموا إلى قسمين : قسم آمنوا ، وقسم بقوا على كفرهم [فاصبروا] على ما نلقاه من عاقبة الامر [حتى يحكم الله بيننا] المؤمنين والكافرين [وهو خير الحاكمين] لا مبدل لحكمه ، وهو أسرع الحاسبين • ففيه تنبيه للمؤمنين على أنهم يلقون الأذى من الكافرين وواجبهم الصبر عليه ، كما فيه تهديد ووعيد للكافرين بأنهم ينالون عقابهم •

الجُزْءُ التَّاسِعُ

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . قَالَ : أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّينَا اللهُ مِنْها ، وَما يَكونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنا ، وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)(٨٩)

قوله تعالى : [قال الملأ الذين استكبروا من قومه] : جملة مستأنفة لجواب سؤال ينساق إليه الذهن كأنه قيل : فماذا قال كبراء قوم شعيب له بعد أن أعلَن أنه لا ينفك عما هو عليه ويعد أتباعه ويتهدد أعداءه ؟ فأجيب بأنه [قال الملأ الذين استكبروا مِنْ قومه] ولهم المجلس والمقام والقوة والكلام بصراحة ووقاحة : والله [لنُخْرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا] ولا نبقي منكم أحدا ، فلابد اما أن تخرجوا منها [أو لتعودن] كلكم [في ملتنا] وآدابِنا المعلومة مِن عبادة الأوثان [قال] شعيب ــ عليه السلام ــ : [أو لو كنا كارهين ؟!] الهمزة فيه للاستفهام الإنكاري ، والواو حالية . ومعناها : وهل يجب أن نعود إلى ملتكم الباطلة ، والحال أنا لها كارهون ولا يمكن اجتماع الكره للشيء مع العود إليه بإيمان وإذعان ؟!

والحاصل : إن إخراجكم لنا والخروج منا عن البلدة أمر ممكن معقول ، ولكن العود إلى ملتكم مع الكره لها ممتنع • ثم اكد ذلك بقوله [قد افترينا على الله كذبا ، ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجينا الله منها] ونور قلوبنا بأنوار الإيمان بوجود الباري ووحدته وصفاته ، لأنا بعد هذا التنوير والتبصير إذا عبدنا الأوثان وقلنا : إن الله راض بعبادتها معه فقد جئنا بكذب مُفترىً عليه سبحانه وتعالى علوا كبيراً [وما يكون لنا] وما يصح وما يقع [أن نعود فيها] أي في تلك الملة الفاسدة في حال من الأحوال أو وقتٍ من الأوقات [إلا أن يشاء الله ربنا] أن يضلّنا بعد أن هدانا للإيمان فإنه مالك الملك وملك الملوك لا يسأل عما يفعل [وسع ربنا كل شيء علما] فهو أعلمُ العالمين وأحكم الحاكمين و [على الله] لا على غيره [توكلنا] في تثبيتنا على ما نحن عليه من الإيمان وحفظنا عن الركون إلى أهل الكفر والعدوان •

ثم لما تكدر قلبه واغبر صدره بهذه المناقشات مع الملأ المستكبرين من القوم الكافرين رجعَ إلى ربه بالدعاء والابتهال وقال : [ربنا افتح بيننا وبين قومنا] أي افصل بيننا وبينهم [بالحق وانت خير الفاتحين] بين الصالحين والطالحين والحمد لك يا رب العالمين •

(وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟)(٩٣)

قوله : [وقال الملأ الذين كفروا من قومه] يحتمل أن يكون الملأ فيه عين الملأ المذكور ، وأعلن عنهم سابقا بالاستكبار الذي ينشأ منه الكفر والدمار ، ولا حقا بما نتج من استكبارهم وهو الكفر بالله الواحد القهار ، ويحتمل أن يكون غير ما مر . وعلى كل فالكفر ملة واحدة . وخلاصة قولهم إعلان البراءة من شعيب ودينه ، حيث أقسموا : [لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون] في هذا الاتباع الشبيه بالابتياع باستبدالكم الضلالة بالهدى . ولما استقاموا على هذا الضلال ولم يبق مجال لاتباع شعيب عليه السلام أصدر الله امراً بإبادتهم [فأخذتهم الرجفة] وأتتهم الزلزلة ، وانهدمت عليهم بيوتهم ، وانقلب المكان غير المكان . [فأصبحوا في دارهم جاثمين] هامدين أجسادا لا حياة فيها [الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها] كأنهم لم يقيموا في دورهم حيث ماتوا وانقطع ربطهم بها [الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين] في الدنيا والآخرة . [فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم ، فكيف آسى على قومٍ كافرين ؟] أي لقد جاهدت واجتهدت بمقدار طاقتي في إبلاغ رسالات الله ، ووعظتكم ونصحت لكم ، ولكن كفرتم بما ألقيته لكم فلم يبق لي وسيلة الا صرفتها في ارشادكم وما اثرت فيكم لكفركم فكيف آسى وأتأسف على قوم كافرين ؟

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا ، وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ(٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ؟(٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟(٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ(٩٩) أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ؟(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ(١٠١) وما وجَدْنا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وإِنْ وجدنا أَكْثَرَهم لَفَاسِقِينَ)(١٠٢)

قوله تعالى : [وما أرسلنا في قرية من نبي] بيان إجمالي لأحوال الأمم العادية الطاغية التي أرسل الله اليها الرسل لإرشادها وردها من الغي الى الرشاد ، ومن الضلال الى الهدى أنه لم يفاجئها بالإهلاك والتدمير ، بل أرشدها ونورها ، وعند كفرها وإعلانها العناد عاجلها بمحن دون الاستئصال فيقول : [وما أرسلنا في قرية من نبي] اين كانت القرية ومتى [إلا أخذنا أهلها] بعد التمرد [بالبأساء] أي البؤس والفقر [والضراء] أي بالضرر والمرض [لعلهم يضرعون] ويبتهلون إلى الله تعالى ، ويتوبون [ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة] ثم بدلنا البؤس والمرض بالمال والصحة [حتى عفوا] أي ازدادوا في أنفسهم وأموالهم ، [وقالوا] بدل أن يقولوا الحمد لله على هذا التبديل الجميل والفضل الجزيل : [قد مسّ آباءنا الضراءُ والسراء] على ما جرت به العادة في أهل الأرض من سالِف الأزمان [فلما] أدركنا منهم

ذلك اللجاج واللوم وكفران نعمة الصحة والمال بعد الفقر والمرض وسوء الحال [أخذناهم بغتة] ألزمناهم البلاء المبيد مفاجأة [وهم لا يشعرون] بذلك ، ولا يتصورونه قطعا •

[ولو أن أهل القرى آمنوا] بما أنزل على أنبيائهم [واتقوا] وجوه الشقاوة [لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض] أي لفتحنا عليهم نزول الأمطار الوابلة وسائر الارزاق النازلة كالمن والسلوى ، وأخرجنا لهم من الارض أنواع الناميات للاقتيات والتفكه [ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون] ولما علمتم بسنتنا السنية في الخليقة • [أفأمن أهل القرى] الباقية الغير المدمرة أو المعمورة بعد التدمير [أن يأتيهم بأسنا] أي عذابنا [بياتا] أي وقت بيات [وهم نائمون ؟ أو أمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهُم بأسنا ضُحىً وهم يلعبون ؟] أي لا مجال لأهل العقل والمعرفة أن يتمرد ويصر على تمرده ويأمن مكر الله وعذابه لا ليلا ولا نهارا [أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون] الذين خسروا أنفسهم فأضاعوا فطرة العقل السليم وقبوله للإيمان بما يجب الإيمان به والتطبيق للأحكام العملية الموجبة للخلاص • [أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم] معناه أو لم يرشد الله تعالى أنهم الذين يرثون الارض من بعد أهلها وهم آباؤهم السابقون ان لو نشاء لاصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم [ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ؟] النصائح حقا حتى يستفيدوا منها •

[تلك القرى] أي قرى الأمم المذكورة من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم [نقص عليك من أنبائها] ما يوجب العظة والاعتبار لأولي الأبصار [ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات] أي المعجزات الواضحات [فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل] معناه فلم يصح منهم الإيمان بسبب شؤم تكذيبهم بآيات

الله من قبل رؤية تلك المعجزات [كذلك يطبعُ اللهُ على قلوب الكافرين] فلا يدخلها النور ولا الشعور • [وما وجدنا لأكثرهم من عهد] يوفى به [وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين] معناه وإنه وجدنا أكثرهم خارجين عن إطاعة رب العالمين •

(ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِها، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ(١٠٢) وقالَ مُوسى : يا فِرْعَوْنُ إنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ(١٠٣) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ(١٠٥) قالَ : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصادِقِينَ(١٠٦) • فَأَلْقى عَصاهُ فَإذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ(١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنّاظِرِينَ)(١٠٨)

قوله تعالى : [ثم بعثنا من بعدهم موسى] يعنى بعثنا موسى بن عمران بن يصهر [بآياتنا] التسع [إلى فرعون وملأِه] وأهل مجتمعه والشعب القبطي ، كما أرسلناه إلى بني إسرائيل • وفرعون : لَقَبٌ لكل من ملك مصر من العمالقة ، كما أن كسرى لقب مَنْ ملكَ فارس ، وقيصر لقبُ من ملك الروم ، والنجاشي لقب من ملك الحبشة ، وتُبع لقب من ملك اليمن • واسم فرعون الوليد بن مصعب بن الريان [فظلموا بها] أي الآيات أي كفروا بها ولم يعترفوا أنها من المعجزات المخلوقة لإثبات دعوى موسى الرسالة من الله تعالى بل جعلوها سحرا ، وظلموا أنفسهم برؤيتها حيث كان الواجب الايمان بها والاستفادة منها، فعاملوا بخلاف ذلك وتشددوا في الكفر والطغيان [فانظر

كيف كان عاقبة المفسدين] أي آخر أمرهم وجاء بالإظهار في موضع الإضمار للدلالة على أن أساس سوء عاقبتهم هو الإفساد •

[وقال موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين] إليكم ، وما دام أنا رسوله المرسل إلى ملك جبار شديد [حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق] فإن الحديد لا يفله إلا الحديد ، فكلما كانت الأمة غامرة في الضلال وَجَبَ أن يكون الرسول في أوج القوة والكمال ، فلا يماري ولا يجامل مجاملة توجب وهنا في الدين ، وإنما يبين ما هو الحق ليفهمه الخلق [قد جئتكم ببينة من ربكم] بمعجزة شاهدة ومبينة لرسالتي ومهمتي بعد دعوتكم إلى الله أن يطلق سراح بني إسرائيل [فأرسل معي بني إسرائيل] خلهم حتى يأتوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي موطن آبائهم [قال : إن كنت جئت بآية] تشهد لك على دعواك [فأت بها] فأظهرها لنبصرها [إن كنت من الصادقين] في أنك جئت بها [فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين] أي هي حيّة من الحيايا المهولة المهيبة ، وتوجهت نحو فرعون فخافها وانهزم منها وانهزم الناس من حوله مزدحمين [ونزع يده] أي من جيبه أو من تحت إبطه [فإذا هي بيضاء للناظرين] •

(قالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : إنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أرْضِكُمْ فَماذا تَأْمُرُونَ ؟(١١٠) قالُوا : أرْجِهْ وَأخاهُ وَأرْسِلْ في المَدائِنِ حاشِرِينَ(١١١) يأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ(١١٢) وَجاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ، قالُوا : إنَّ لَنا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالِبِينَ(١١٣) ، قالَ : نَعَمْ وَإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبِينَ(١١٤) قالُوا : يامُوسى إمَّا أنْ تُلْقِيَ وَإمَّا أنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ(١١٥) قالَ : ألْقُوا ، فَلَمَّا

أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ، وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وجاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (116) وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسى : أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإذا هي تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (117) فَوَقَعَ الحَقّ وبَطَلَ ما كانوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَانْقَلَبُوا صاغِرِين)(119)

قوله تعالى : [قال الملأ من قوم فرعون] في سورة الشعراء (قال الملأ حوله) وهو صريح في أن قوله (إن هذا لساحر عليم) قول فرعون والآية هنا صريحة في أنه كلام الملأ وأجيب بأن : الكلام قاله فرعون ابتداء ، ثم قاله الملأ بطريق الحكاية أو التبليغ عنه [إن هذا] أي موسى [لساحر عليم] ماهرٌ فنانٌ [يريد أن يخرجكم من أرضكم] أي ارضِ مصر [فماذا تأمرون ؟] أي تشيرون في امره • والآية دالة على أنّ المخاطبين كانوا أهل المشاورة من أهل مجلس الشورى والأعيان • [قالوا] أي المستشارون لفرعون مباشرة أو بواسطة السائلين : [أرجه وأخاه] أي أخر موسى وأخاه ولا تهتم [وأرسل في المدائن] مأمورين [حاشرين] للسحرة [يأتوك بكل ساحر عليم] في فن السحر فذهب المأمورون وجمعوا سحرةَ البلاد ويدل قوله (أرجه وأخاه) على أنه أراد فرعون قتلهما أولا ، لكنه نهى المستشارون عن ذلك لقضاء الله وحكمته •

تنبيه : قراءة حفص هنا (أَرجِه) بكسر الجيم وسكون الهاء ، واصله ارجئه ، أمر للمفرد المذكر المخاطب من باب الإفعال من الإرجاء بمعنى التأخير ، قلبت الهمزة ياء لسكونها وكسر ما قبلها ، ثم حذفت الياء تشبيها بالناقص ، وان كان خلاف القياس ، لأن الياء المبدلة من الهمزة لا تحذف بالجازم ، ولا في صيغة الأمر كما قاله الجلال السيوطي في فريدته في بحث الإعراب التقديري بقوله (والهمزة إن ابدل لينا) • والهاء ضميرٌ منصوب راجع الى موسى

ـ عليه السلام ـ ، وانما أسكن مع أن هاء السكت هي التي تسكن وهاء الضمير لا تسكن تشبيها لحال الوصل بالوقف ، أو لانه كانت مكسورة ولما ارتبطت بالواو العاطفة في قوله تعالى واخاه صار (جِهِوَ) بجيم وهاء مكسورتين بعدهما واو على وَزن (ابِل) والقاعدة اذ ذاك جواز إسكان العين فكأن الجيم فاء الفعل والهاء عين الفعل والواو لام الفعل هذا .

[وجاء السحرة فرعون] بعد دعوة المأمورين بلا تردد ، وإذا سألت أنهم ماذا قالوا عند لقاء فرعون ؟ فالجواب : أنهم على اعتمادهم بقوة تفننهم في السحر [قالوا : إن لنا لأجرا] أي جاها ووجاهة منك [ان كنا نحن الغالبين ؟ قال] فرعون : [نعم : وإنكم] حين ذلك [لمن المقربين] عندي وتعدون من ملأي ولا شك في وفرة نيلكم المادي بالطريق الاولى . فلما اطمأنت قلوبهم من جهة الامل توجهوا الى مجال العمل وواجهوا موسى ـ عليه السلام ـ و [قالوا : يا موسى إما أن تلقي] ما عندك قبلنا [وإما أن نكون نحن الملقين] قبلك [قال] موسى ـ عليه السلام ـ كرما واعتناء أو ازدراء لهم وعدم مبالاة بهم [ألقوا] ما عندكم [فلما ألقوا سحروا أعين الناس] أي حولوا أعين الناس الى ما أظهروه [واسترهبوهم] وأرهبوهم إرهابا شديدا [وجاؤا بسحر عظيم] بالنسبة اليهم . [وأوحينا الى موسى] في ذلك الوقت الذي كان يرتعب منهم لولا وقايتنا : [أنْ ألقِ عَصاك] فألقاها فصارت حيّة لها حيويتها [فإذا هي تلقف] وتبلع [ما يأفكون] أي ما يزورونه من الامور التي لا حقيقة لها .

روي أن سحرة فرعون ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضا ، وذلك لأنهم لونوها وجعلوا فيها زئبقا فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها ببعض فتخيل الناس ما تخيلوا . ولما قابلهم موسى بإلقاء عصاه وصارت حية كبيرة تبتلع ما عملوه

أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا [فوقع الحق] أي فثبت الحق [وبطل ما كانوا يعملون] من أسباب المعارضة [فغلبوا] أي سحرة فرعون [هنالك وانقلبوا صاغرين] أذلاء مبهوتين ممقوتين • [وألقي السحرة ساجدين] لله تعالى وعظمته يعنى فخرّوا ساجدين له تعالى • لكنه لما كان الخرور شيئا ناشئا من نفسيتهم المبهوتة ، فكأنهم ألقوا على الأرض مضطرين ولما خرّوا ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهرون الذي يعلو ولا يعلى ويغلب ولا يغلب •

(وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ(١٢٠) قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٢١) رَبِّ مُوسى وهرونَ(١٢٢) قالَ فِرْعَونُ : آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(١٢٤) قالُوا : إِنَّا إلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ(١٢٥) وَما تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بآياتِ رَبِّنَا لَمَّا جاءَتْنا ، رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ)(١٢٦)

ولما علم فرعون بهذا البهت والمغلوبية واطلع على سجودهم لله تعالى وكان ذلك مخالفا لهيبته المزعومة وفرعنته المشئومة [قال] فرعون مستنكرا ذلك : [آمنتم] أيها السحرة [به] أي برب العالمين [قبل أن] تطلبوا مني الرخصة و [آذن لكم ؟ إن هذا] الحادث الواقع أولا وتاليا [لمكر مكرتموه في المدينة] ومصر وما والاها ومؤامرة تآمرتم عليها [لتخرجوا] أنتم ومن وافقتموه من موسى ومن معه [منها] أي من المدينة [أهلها] البانين المواطنين المعمرين [فسوف تعلمون !] ماذا أفعل بكم [لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف]

أي من كل جانب عضوا مخالفا لما في الجانب الآخر [ثم لأصلبنكم أجمعين] على جذوع النخل العالية ليطلع عليكم العابرون والناظرون المتفرجون تفضيحا لكم ، فانظر ماذا قالوا جوابا لهذا التهديد الشديد [قالوا إنا] إذا فعلت بنا ما أوعدتنا به متنا و [إلى ربنا] ورحمته وكرمه [منقلبون] ولا شك أنه يحسن إلينا بالعفو والمغفرة لذنوبنا وإعلاء درجاتنا ، فقد ربحنا من جانب الله تعالى [و] أما من جهة عيوبنا وذنوبنا في المجتمع فكل عاقل خبير يعلم أنه [ما تنقم منا] أي ما تكره منا [إلا أن آمنا بآيات ربنا] وبمعجزاته المخلوقة لنصرة رسوله [لما جاءتنا] وذلك مما يفتخر به الانسان الكامل ولما عزمت على تحقيق ما أوعدتنا به لا مجال لنا إلا الابتهال إلى الله العليم بالدعاء : [ربنا أفرغ علينا صبرا] ينزل على قلوبنا [وتوفنا مسلمين] فإن السعادة الأبدية فوق المحنة الوقتية .

(وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ !(١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ(١٢٨) قالُوا : أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ، ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا . قَالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)(١٢٩)

قوله تعالى : [وقال الملأ من قوم فرعون] أي قالوا له بعدما علموا من انتصاره وبهتهم : [أتذر موسى وَقومهُ] أي تتركهم أحراراً يستعملون النشاط [ليفسدوا في الأرض] أي مملكة مصر بتوجيه الناس إلى دينهم

وترك دينك ودين آبائك من عبادة الكواكب [ويَذَرَكَ وآلِهتَك ؟] مهملينَ غير مَعبودين بل ومنبوذين مُحتَقرين ؟! [قال] فرعون في جوابهم : [سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم] على عادتنا قبل ذلك الحادث [وإنا فوقهم قاهرون] الظرف خبر ، وقاهرون خبر آخر ، أو قاهرون هو الخبر والظرف متعلق به ومتقدم عليه للاهتمام • ولما أقر فرعون ذلك المبدأ الفاسد المؤلم [قال موسى] ـ عليه السلام ـ [لقومه] بني اسرائيل : [استعينوا بالله] على قهر الاعداء [واصبروا] على ما يأتيكم من البلاء [إن الأرض لله] لا للفراعنة [يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة] الطيبة [للمتقين] وأنتم منهم والحمد لله •

[قالوا : قد أوذينا من قبل أن تأتينا] بالرسالة عندما كنا رعايا تحت أيدي الأقباط [ومن بعد ما جئتنا] رسولا فإن فرعون مغتاظ علينا أكثر مما كان منذ أتيته ، ودعوته للايمان وإطلاق سراح الاسرائيليين • وهذا الكلام منهم إظهار ضجر من قهر فرعون وطلب دعاء لدفع البلاء [قال موسى] لا تخافوا ولا تحزنوا : [عسى ربكم أن يهلك عدوكم] الذي قهركم وآذاكم فلا يبقي لهم سيطرة [ويستخلفكم] ويجعلكم خلفاء لهم في الحكم [في الأرض] أي في الأرض الموعودة [فينظر كيف تعملون] أخيرا أم شرا ؟ أعدلا أم ظلما ؟ إيمانا أم كفرا ؟

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(١٢٩) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣٠) وقالوا : مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(١٣٢)

فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ والْجَرادَ والْقُمَّلَ والضَّفادِعَ ، والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ ، فاسْتَكْبَرُوا وكانوا قَوْماً مُجْرِمِين)(١٣٣)

قوله تعالى [ولقد أخذنا آل فرعون] شروع في تفصيل أسباب الهلاك والانتقام الموعود •

و [السنين] : جمع سنة ، والمراد بها عام القحط ويؤرخ بها ، ولامها واو" أو هاء" ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القومُ ، بقلب لام الفعل تاء" إذا قحطوا [ونقصٍ مِنَ الثمرات] بكثرة عاهات الثمار [لعلهم يذكرون] أي يتعظوا فيتركوا ما هم عليه ، مع أنه لم يتذكروا واستمروا على ما هم فيه [فإذا جاءتهم الحسنة] كالخصب والرخاء والسلامة والعافية [قالوا : لنا هذه] أي مستحقّوها بالذات ، [وإن تصبهم سيئة] جدب أو شدّة أو مرض أو بلاء [يَطيّروا بموسى ومن معه] أي كانوا يتشاءمون بهم ، ويقولون : ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم ، وأصل ذلك ان العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وتَتَيمّن بالسانح • والسانح ما ولاك مَيامِنه ، والبارح : ما ولاك مياسره • ثم إنهم سموا الشؤم طيراً وطائرا ، والتشاؤم تطيراً • [ألا إنما طائرهم عند الله] أي ليس شؤمهم إلا عند الله ، أي من جهته وحكمه ، [ولكن أكثرهم لا يعلمون] ذلك [وقالوا : مهما تأتنا به] أي شيء تأتينا به [من آية لتَسْحَرَنا بها فما نحنُ لَكَ بمُؤمِنين] •

[فأرسلنا عليهم الطوفان] مصدر كنقصان اسم لكل شيء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع ، والموت الجارف ، وقد اشتهر في طوفان الماء وثبت أنه نزل المطر عليهم أسبوعا ، وأهلك الز. اعة ، وأفسد العمارة ، وخرب الدور ، وشوّه القصور ، [والجراد] معروف واحده جرادة ، فسلطه الله على زراعة الاقباط فأبادها ، [والقمل] بضم القاف وفتح المشددة

صغار الجراد التي لا أجنحة لها . وتضر اكثر من ذوات الاجنحة ، لأنها تأكل ولا تطير . وقيل : إنها البراغيث او السوس التي تأكل الزراعة [والضفادع] جمع الضفدع المعروف [والدم] معروف ، فسره زيد بن أسلم بالرعاف يعني ابتلاهم الله بالرعاف يعني نزيف الدم من الخشم . وأكثر أهل التفسير على أنه دم حدث في مياه المصريين . ويحتمل ان تكون الدماء النازلة مع الحليب بحيث تشوهه ولا يشرب بسلامة الطبع . حالكونها [آيات مفصلات] واضحات لا يشك عاقل في أنها آيات إلهية وحقائق واقعية لا سحر ولا شعوذة ، ولا تمويهات خيالية ، وإنما هي بلايا أنزلها الله على تلك البرايا لاستكبارها عن قبول الحق وأنانيتها وبقائها على بطرها وطغيانها . فأنزلها الله كأجهزة تعذيب للابتلاء والتأديب وتهذيب النفوس وانابتها الى الله من حيث حصول العلم منها بأن الكائنات مسخرة لله وتحت أمره في الظهور والخفاء ، وفي جلب المحنة والجفاء ، يؤمن بكونها كذلك كل عاقل نبيه ومتفكر وجيه ، وأما الغافل السفيه فيظن أنّها حوادث طبيعية ، ومواليد كونية تحدث عند حصول أسبابها، وتزول عند زوالها غافلا عن أنها لوكانت آثارا طبيعية لأخذت مجاريها في تحديد الأوقات ومدة البقاء ، وفي تفارقها وتقارنها مع أنها قد تأتي على التوالي ، وقد تأتي على التفارق ، وقد تجتمع في بلد وتتراكم بعضها على بعض ، وغافلا عن أنها إنما تشتد عند طغيان الأمة والاعتماد على قوتها وهواها ، والتصامم عن آيات الحق وهداها زاعمة انها قوية لا تغلب ، وأبدية لا تفنى ، فيأتيها العذاب من أدنى شيء كمخالفة شخص لآخر وحدوث شجار بينهما ، وتوسعها الى عداوة قوم لقوم ودولة لدولة ، فتحصل الصدامات وتنزل النكبات ، وقد قابل هذا الوضع الانسان الفاهم المطالع في التواريخ ، ولم يترك الله قاتلا بغير حق الا قتل ، وماكراً للناس الا حاق به المكر السيىء وخائنا مع الناس الا واقعا في شبكة المصائب والآلام ، وهذه

سنة الله في الكائنات ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ويكون برهانا إلهيا على ذلك عند كل ذي عقل أمين •

قوله تعالى [فاستكبروا وكانوا قوماً مُجرمين] أي استمروا على إجرامهم استكباراً •

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالوا : يا مُوسى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ(١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ الى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ اذا هُمْ يَنْكُثُونَ(١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ في الْيَمِّ بأَنَّهُمْ كَذَّبوا بِآيَاتِنا وَكانُوا عَنْها غافلينَ)(١٣٦)

قوله تعالى : [ولما وقع عليهم الرجز] يعني ولما وقع عليهم العذاب المذكور على التفصيل [قالوا] أي فرعون وقومه في كل مرة من وقوعه : [يا موسى ادْعُ لنا ربّك بما عَهِدَ عندك] أي بعهده سبحانه وتعالى معك ، وهو عهد الرسالة وتأييدها بالمعجزات •

[لئن كشفت عنا الرجز] الواقع علينا [لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل] فكان يدعو موسى لكشفه ونستجيب له ونكشف [فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه] الى حد من الزمان هم واصلون إليه حسب إرادتنا [اذا هم ينكثون] أي ينقضون العهد ولا يهتمون به ، وبما يقولون : إن ما قلنا لك يا موسى كان عن سخرية واستهزاء ، فإن الأرض أرض والسماء سماء والنعمة نعمة والبلاء بلاء ، ولا يخلو الزمان عما رأيت شئت أو أبيت فيتصاعدون بالجهل والعناد إلى الكفر والإلحاد • [فانتقمنا منهم] يعني فأردنا الانتقام منهم وأخذناهم نكال الآخرة والأولى ، [فأغرقناهم] أي فرعون

واتباعه [في اليم] أي نهر النيل وذلك [بما] بسبب انهم [كذبوا بآياتنا] ولم ينسبوها إلى الواقع والحقيقة ، بل قالوا : إنها سحر وخداع ، ولم يعتقدوا أنها آيات مقدمة إلى الأمة للايمان والسعادة ، بل قابلوها بوجه الشقاوة [وكانوا عنها] أي عن حقائقها ومغزاها [غافلين] وكأنهم بها كانوا جاهلين . فاجرينا سنتنا التي مضت في عبادنا ورَبِح الرّسول ومن تبعه [وخسر هنالك الكافرون] أعاذنا الله من كل نقمة وبلاء ، وسامحنا بفضله إنه رءوف رحيم .

(وَاوْرَثْنا الْقَوْمَ الّذينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأَرْضِ وَمَغارِبها الّتي بارَكْنا فِيها ، وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنى على بَني إسْرائيل بِما صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَونُ وَقَوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشُونَ(١٣٧) وَجاوَزْنا بِبَني اسرائيلَ البَحْرَ ، فأتَوْا على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أصْنامٍ لَهُمْ ، قالوا : يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا اِلهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ ! قالَ إنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(١٣٨) إنّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ماهُمْ فِيهِ وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(١٣٩) قالَ : اَغَيْرَ اللهِ اَبْغيكُمْ اِلهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ ؟!(١٤٠) وَإذْ اَنْجيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ : يُقَتِّلُونَ اَبْناءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ ، وفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)(١٤١)

قوله تعالى [وأورثنا] الآية معناه [وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضعفون] بالاستعباد وذبح الابناء [مشارق الأرض ومغاربها] أي أرض الشام فقد ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة المستولية عليها ، وبعد

العمالقة الاقوياء . ويدل على أن المراد بالارض أرض بيت المقدس وما والاها من الشام لا أرض مصر . اذ انه لم يسمع رجوع موسى وأتباعه الى مصر حتى يتمكنوا فيها ويملكوها . وتوصيفها بالموصول والصلة في قوله [التي باركنا فيها] لأنه إن أريد بها البركة المعنوية بالنبوة والرسالة فهي أرض بيت المقدس والشام لا أرض مصر ، لان محل ابراهيم شيخ الانبياء والمرسلين أرض القدس لا محل آخر ، وان أريد بها البركة المادية من حسن المناخ ، وطيب الهواء ، والاراضي الخصبة والبساتين والاشجار والاوراد وأشجار الفواكه فكل ما ذكر كانت في أراضي الشام [وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا] على الشدائد الجمّة [ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون] من الجِنانِ ، أو ما كانوا يَرفعون من البُنْيانِ .

[وجاوزنا ببني إسرائيل البحر] هذا شروع في ذكر بعض ما أحدثه بنو إسرائيل بعد أن خلصهم الله من فرعون ، وبعد أتعاب موسى عليه السلام في إطلاق سراحهم ، وعدم إجابته لذلك وإمداده تعالى له ولقومه بنعمة كبرى هي نقمة فرعون وأتباعه بالغرق ، وبركة نجاة موسى ومن معه بالتجاوز ، حتى يتبين الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أحوال الأمة وينشرح صدرُه بما حَدَث بعد ذلك . فقال : [وجاوزنا ببني إسرائيل البحر] يعني نهر النيل ، [فأتوا على قوم] كانوا ينسبون إلى لخم بن عدي بن عمرو بن سبأ [يعكفون على أصنام] لهم يقيمون ويداومون على عبادتها ، وكانت تماثيل بقر من نحاس ، [قالوا] أي بنو إسرائيل : [يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون] أي شأنكم الاستمرار على الجهل والغباوة ، حيث إنهم كانوا على ذكر آبائهم من يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم ، وتحمل مشاق الدعوة إلى الله وتوحيده ، وإنهم ابتلوا ببلايا على تلك الدعوة، فكان الحق أن تكون الدعوة إلى التوحيد من أهم مطالبهم ، والتنفير عن

الإشراك من أعظم مقاصدهم ، مع أنهم خالفوا ذلك وتمنوا أحقر الأشياء الروحية وهي التوثن وغاية العذر الواقعي هي أن ذلك الطلب كان من بعض شبابهم الباقين في حال المراهقة المناسبة للارتباط بالماديات والزخارف ، وعلى انطباعهم بديانة الأقباط . واستدل على فساد ما مالوا إليه من عادة القوم المشرك بقوله : [إن هؤلاء] القوم العاكفين على الأوثان [مُتَبّر] أي مُدَمَّر [ما هم فيه] من دَيْدَنِ الإشراك [وباطل ما كانوا يعملون] أي ما استمروا عليه ؛ لأن أيَّ دينٍ لم يكن على موافقة الحق والواقع لا يستحصل من ورائه إلا الرجوع إلى الوراء ، وإلا الدمار والانهيار في الدنيا ، والعذاب والنار في الآخرة . [قال] موسى مؤكدا لما أتى به من الدليل : [أغير الله] سبحانه وتعالى [أبغيكم إلهاً وهو الذي] هداكم إلى الخير ووفق آباءكم على التوحيد ، و [فضلكم على العالمين] في زمانكم ؟

وقوله تعالى : [وإذ أنجيناكم] فيه التفات من الغيبة إلى التكلم [من آل فرعون] من إصدارهم الأمر إلى الزبانية وهم [يسومونكم سوء العذاب] أي يكلفونكم به ، ويعذبونكم بأنواع التعذيب بالتحقير ، وتشغيل أهل الشّرف بالعمل الحقير ، وبسلب الحرية عن الغني والفقير : [يقتلون] من كل صوب وحدب [أبناءكم] حتى لا تبقى لكم شوكة [ويستحيون نساءكم] حتى يكثر الفقر والعالة والضعف والهوان في زمرتكم [وفي ذلكم] التعذيب [بلاء من ربكم عظيم] أي فتنة كبرى وابتلاء مهم لكم من ربكم قلَّ من يخلُصُ منه آمِناً ، ويلقى ربّه مؤمنا ، فكيف بعد تلك النعمة العظمى وهي الخلاص من النقمة العظمى تريدون الإشراك بربِّ العالمين ، وتبتغون الفساد في العالمين ؟

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ :

اخلُفني في قَوْمي ، وَأَصْلِحْ ، وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدينَ(١٤٢) وَلَمَّا جاءَ مُوسى لِميقاتِنا ، وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ، قال : رَبِّ أَرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ : لَنْ تَراني ، وَلكِنِ انْظُرْ إِلى الْجَبَلِ ، فإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَراني ، فَلَمَّا تَجلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ، فَلمَّا أَفاقَ قالَ : سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ، وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ)(١٤٣)

[قوله تعالى : وواعدنا موسى ثلثين ليلة] روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وَهُمْ بمصر أَنّه إن أَهلك اللهُ عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلكَ فرعونُ سأل موسى عليه السلام رَبَّهُ الكتاب فأمره أنْ يَصوم ثلاثين يوما ، وهو شهر ذي القعدة ، فلما أتمّ الثلاثين أنكر خلوفَ فمِهِ فتَسَوَّكَ ، فقالت الملئكة كنا : نشتمّ من فيكَ رائحة المسك فأفسدته بالسواك ! فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة ، وذلك قوله تعالى [وواعدنا مُوسى ثلاثين ليلةً ، وأتممناها بعَشرٍ فَتَمّ ميقات ربه أربعين ليلة] •

في الكشاف : هنا سؤالان : أحدهما على تفصيل الأربعين هنا إلى ثلاثين وعشر ، والاقتصار في البقرة على الأربعين • والآخر ذكر أربعين مع أنه من المعلوم أنّ ثلاثين وعشر أربعون • وأجابوا بأن الثلاثين للعبادة والعشر لإزالة الخلوف • أو أن الثلاثين للتقرب والعشر لإنزال التوراة ، ولما كان الوعد في الثلاثين والإتمام لعشر مطلقا يحتمل أن يكون تعيينهما بتعيين الله أو بإرادة موسى •• أفاد قوله فتم ميقات ربّه أن المراد الأول • إنتهى •

والحاصل : أن الله سبحانه وتعالى أمر موسى عليه السلام أولا بصيام ثلاثين يوما من غير أن يقول أزيد عليها أو لا ، وبعد إتمام الصيام قال تعالى عشرة أخرى لحكمة من حكمه تعالى منها : أن الشهر هو الواجب المهم ، والزيادة عليها لزيادة الأجر كما أن موسى خدم شعيبا عليهما السلام في المدة المقررة ثم زاد عليها لزيادة الفضل . ويمكن أن يكون الصيام للتخلّي عن أكدار ممارسة أمور بني إسرائيل بين الأقباط ورئيسهم فرعون ، والعشرة للتحلي بالأنوار للتقوى على تبليغ التوراة . ومنها أن تختص الرسل بزيادة أيام في الصيام على سائر الأفراد ، لأن العامة صيامهم شهر فقط ، ويمكن أن تكون الزيادة وبلوغ العدد أربعين ليكون كل عشرة أيام في مقابلة النصفية لأحد العناصر الأربعة الموجودة في كل إنسان ، وهي : الماء ، والتراب ، والهواء ، والنار ، فإن مجمل العناصر هذه الأربعة ، وإن كانت هناك تركيبات أخرى كتركيب الماء من عنصرين .

وهنا سؤال آخر هو ان ظاهر قوله تعالى وأتممناها بعشر أن عدد ثلاثين كان ناقصا فأتمه الله تعالى بعشر ، مع أن قوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ليس فيه إلا بيان تقرير ثلاثين للصيام بدون إشارة إلى نقص الموعود أو الزيادة . وأجيب عنه بجوابين : الأول أن الثلاثين كان عددا ناقصا عما قرره الله تعالى في علمه من مدة أربعين ، وأتمه بعشرة ، كما يفيده قوله تعالى فتم ميقات ربه أربعين . والثاني ان الإتمام بمعنى الإبلاغ والزيادة وقوله : [فتم ميقات ربه أربعين] معناه فصار ميقات ربه أربعين . وعليه يكون أربعين خبر القول (تم) وهو بمعنى صار . [وقال موسى] عند توجهه إلى المناجاة حسب أمره تعالى [لأخيه هرون اخلفني في قومي] أي كن خليفتي فيهم وراقب أحوالهم حتى لا يتغيروا ولا ينحرفوا عن الدين ، [وأصلح] أي خلل وقع بينهم بقدر الإمكان [ولا تتّبع سبيل المفسدين] أي ولا تتبع من سلك مسلك الإفساد

بغفلة نفسه عن قدسه ، وكسله عن طاعته وعن تربية أتباعه على شريعته ، فإن ذلك سبيل أهل الإفساد الغافلين [ولما جاء موسى لميقاتنا] أي في وقتنا الذي وقتناه له يعني لتمام الأربعين [وكلّمه ربّه] من غير واسطة الملك ، وسمع كلامه وحصل له أنس وحضور ونور ومزيد شعور وإدراك مزيد فضله ومحبته له [قال : رب أرني] ذاتك [أنظر إليك] ليمتزج البيان بالعيان ، وتلتذ الروح بالفتوح . [قال] الباري تعالى : [لن تراني] بالمشاهدة العيانية في هذه النشأة [ولكن] لا تعتقد أن فيك قابلية لها ولا أسمح لك ، بل لأنه لا قابلية لأيّة مادة موجودة الآن لقبول التجليات الحاصلة من المشاهدة . وان كنت في ريب من ذلك ف [انظر إلى الجبل] المعهود المحسوس الحاضر عندك عيانا وأظهر بعض تجلياتي عليه [فإن استقر] الجبل [مكانه] ولم يفتته التجلي [فسوف تراني] إذا تجلّيت لك [فلما تجلّى ربّه للجبل] أي ظهرت له جلوة ذاته حسب ما يليق به تعالى [جعله دكا] أي جعل التجلي الجبل المعهود مدكوكا متفتّتا والدك والدق أخوان .

وهنا ملاحظتان :

الأولى : أنه إذا اعتبرنا الجبل مادة لا إدراك لها ولا شعور فدكه يكون كذلك المواد التي تجعلها تحت المنظار المعروف بـ (المكبر) فكما أنها تحترق بوقوع أشعة الشمس عليها كذلك الجبل يحترق بوقوع تجلي الباري سبحانه وتعالى عليه ، ولكن لا مناسبة ولا مشابهة ، فإن إشعاع الشمس إشعاع لمادة مخلوقة ملتهبة ، وتجلي الحق سبحانه نور يظهر بإظهار واجب الوجود وتجلّيه عليها .

الثانية : أنه إذا اعتبرناه مادة مدركة مسبحة تسبيحا واقعيا لائقا كما يفصح عنها قوله تعالى (وإن من شيىء إلا يسبح بحمد ربه) فاندكاكه في مقابلة التجلّي في غاية الجلاء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما تجلى منه

سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فجعله ترابا ... الحديث . وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يُسْلَك فيها طريق التسليم وهو أسْلَمُ وأحْكَمُ ، او لتأويل بما يليقُ بجلال ذاته تعالى .

[و] لما أدرك موسى عليه السلام هذا الحادث العجيب الرهيب [خر موسى] وسقط من هول ما رآه [صعقا] صاعقا وصائحا وغشي عليه [فلما أفاق] وعاد إلى ما كان عليه قبلُ [قال : سبحانك] من كل ما يجري على القلوب من صفاتك وأحوالك ، وتنزيها لك من مشابهة خلقك في شيء [تبت إليك] من الإقدام على سؤال الإراءة بغير إذن [وأنا أوّل المؤمنين] بعظمتك وجلالك في هذه الأمة التي أرسلتني إليها ، أو أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد بدون إذنك في هذه النشأة الدنيوية .

واستدل أهل السنة على جواز رؤية الباري سبحانه وتعالى في هذه النشأة بهذه الآية من وجهين : الأول : أنها لو لم تكن ممكنة ما سألها موسى عليه السلام ؛ لأن الرسل الكرام لا يطلبون المستحيل من الله تعالى ، لأن طلب المستحيل خارج عن الأدب . والثاني : أن الله تعالى علق رؤيته لذاته العلية باستقرار الجبل عند ظهور التجلي وذلك أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن . والمنكرون ردوا الأول بأنه ليس من الواجب للرسل عليهم السلام العلم بدقائق الأعمال والأحوال للباري فيجوز أنه لم يكن عند ذلك عالما بالامتناع . والثاني بأنه تعليق بالاستقرار عند التجلي ، والاستقرار عند التجلي ممتنع . وعورض بأن الممتنع الاستقرار بشرط التجلي لا في وقت التجلي ، وهذا ممكن .

(قالَ : يا مُوسى إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ بِرِسالاتِي ، وَبِكَلامِي ، فَخُذْ ما آتَيْتُكَ ، وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ(١٤٤)

وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ، سأريكم دار الفاسقين(١٤٥) سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين(١٤٦) والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟)(١٤٧)

وبعد أن أعلم الله تعالى رسوله موسى أنّ رؤيته لا تقع ، وجرى ما جرى سلاّه وأكرمه ببيان خلعة الاصطفاء بالرسالة وتوابعها و [قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس] أي الموجودين في زمانك من بني إسرائيل [برسالاتي] أي بأسفار التوراة [وبكلامي] أي وبتكليمي إياك من غير واسطة . والمراد فضّلتك على غيرك بمجموع هذين الأمرين فلا ترد رسالة هرون عليه السلام لأنه وإن كان رسولاً لكنه لم يتلق كلام الله تعالى بلا واسطة . وكذلك لا يرد السبعون الذين كانوا معه في هذا الميقات وسمعوا خطاب الباري سبحانه وتعالى لأنهم لم يكن لهم من الرسالة شيء [فخذ ما آتيتك] أي ما أعطيتك من شرف الاصطفاء [وكن من الشاكرين] لما أنعم الله به عليك [وكتبنا له في الألواح من كل شيء] يحتاجون إليه من أحكام العقائد والحرام والحلال والمعاملات والأحوال الشخصية وغيرها من المهمات [موعظة وتفصيلاً لكل شيء] بدل من الجار والمجرور أي كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام . واختلف في عدد الالواح وفي

جوهرها ومقدارها . أما عددها فقيل : إنها كانت عشرة ، وقيل سبعة ، وقيل لوحين . وأما جوهرها فقيل : إنها من سدر الجنة . وأما مقدارها فكان اثني عشر ذراعا .

أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة ، كان طول اللوح إثني عشر ذراعا » [فخذها بقوة] أي وقلنا له خذها بجد وحزم [وأمر قومك يأخذوا بأحسنها] الباء زائدة أي يأخذوا أحسنها كالصبر بالنسبة إلى الانتصار والعفو بالنسبة إلى الاقتصاص ، أو بأحوطها كترك الشبهة خوفا من الحرام . أو بالعزائم في الاختيار ، وبالرخص في الاضطرار . والأخذ بالأحسن على هذا مندوب ، أو يأخذوا بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره . والأمر على هذا للوجوب ويؤول هذا التفسير إلى أنه يجب الأخذ بالواجب في المطلوبات المأمورات ، وترك الحرام في المنهيات . وهذا سبيل من اكتفى بما يمنع العقاب عن نفسه وإن لم يكتسب ما يوجب زيادة الفضل . وقوله : [سأريكم دار الفاسقين] للتأكيد على الأخذ بالأحسن يعني إنكم إذا أخذتم بأحسنها تأوون إلى دار الصادقين وسأريكم في الآخرة دار الفاسقين وهي الجحيم وبئس المصير . أو معناه اثبتوا على هذا الدين القويم واعلموا أن العاقبة للمتقين وسأريكم دار الفاسقين الخارجين عن الطاعة : فرعون وأتباعه خاوية على عروشها ، وخالية عن فروشها ، لتعتبروا بها ، فإن السعيد من اتعظ بغيره ليبقى على سعادته وخيره ، ولا يحل بهم ما حل بغيرهم .

وقوله تعالى : [سأصرف] الآية ... استئناف سيق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لإهمال التفكر في آيات الله الواردة في الألواح . معناه : [سأصرف] عن الانتفاع [بآياتي] الأشخاص [الذين يتكبرون في الأرض

بغير الحق] أي بإطاعة هواهم الباطل [وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها] أي وان يبصروا الآيات المحسوسة بالحواس لا يؤمنوا بأنها من الله تعالى أو أنها نزلت للزجر عن معصية الله ، وإن يعلموا تلك الآيات بالعقل كابتلاء قوم واستئصالهم واستيلاء قوم على مآربهم وأموالهم ومَنالهم لا يربطونها بأمر الله تعالى ، أو أنّها تأنيبٌ لقوم وتحبيب لآخر [وإن يروا سبيل الرشد] أي طريق الهدى والسداد [لا يتخذوه سبيلا] يمشون عليه فلا يهتمون به [وإن يروا سبيل الغي] والضلال وهو اتباع الهوى واجتناب الهدى [يتخذوه سبيلا . ذلك] المذكور [بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين] معناه وهذه الصفة الرذيلة صارت ملكة لهم بسبب وفور الغفلة وقلة الشعور ، وحصول الرين على قلوبهم حتى كذّبوا بآيات الله وصاروا كافرين .

[والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حَبطَت أعمالهم] وسقطت عن الاعتبار [هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟] أي إلاّ جزاء أعمالهم ، والجواب لا .

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِم عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ، أَلَمْ يَرَوا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اِتَّخَذُوهُ وكَانُوا ظَالِمِينَ ؟(١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قالُوا : لَئِن لم يَرْحَمْنا رَبُّنَا ويَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(١٤٩)

قوله : [واتخذ قوم موسى من بعده] أي واتخذ السّامري الصائغ الفنّان وقوم موسى على خداع السامري والموافقة معه من بعد ذهاب موسى إلى الجبل للمناجاة وأخذ التوراة [من حليهم] أي مِن حُلِيّ الإسرائيليين [عجلا] أي هيكلا على صورة العجل بأن صنع قالَباً على شكله ، ثم جاء

بالحلي المأخوذ من القوم فأذابه وصبه فيه فأخرج منه عجلا [جسدا له خوار] صوت كصوت العجل ، فاتخذوه إلها بإضلال السامري لهم .
والقوم في هذا الأمر كانوا على غاية من كفران النعمة والسفاهة والدناءة في الهمة [ألم يروا أنه لا يكلمهم] لا بالذات مباشرة ككلام الله تعالى مع موسى ، ولا بالواسطة ككلامه تعالى مع الناس بواسطة جبريل [ولا يهديهم سبيلا] ولا يعرف شيئا ولا يعقل حقيقة حتى يهدي عباده إليها . [اتخذوه] بدون أي داع ومبرر وبدون أي دليل أو حجة تقرر ، [وكانوا] في ذلك كافرين بمقدسهم و [ظالمين] لأنفسهم في حقوق الدنيا والدين . [ولما سقط في أيديهم] أي تندموا عما فعلوا ، [ورأوا أنهم قد ضلوا] أي علموا بضلالهم بسبب اتخاذ العجل لها [قالوا] داعين متضرعين [لئن لم يرحمنا ربنا] بإنزال التوبة علينا [ويغفر لنا] بالتجاوز عن سيآتنا [لنكونن من الخاسرين] في الدنيا لإضاعتنا حلينا وذهبنا بلا فائدة ، وفي الآخرة بعقاب هذا الكفر الواضح القبيح .

وجملة (سقط في أيديهم) بالفعل الماضي المجهول كناية عن شدة الندم ، فإن النادم إذا اشتد ندمه عض يده بقوة حتى يظن أن بعض اسنانه سقطن في يده فكانت الأسنان ساقطة واليد مسقوطا فيها وهو معنى سقط في أيديهم . وذكر بعضهم أن هذا التركيب لم يسمع قبل نزول القرآن ولم تعرفه العرب ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم ولذا خفي معناه على الكثير .
ثم هنا أمور :

الأول : إن المفسرين اختلفوا في ذلك العجل ؛ فكثير من المفسرين قالوا بأنه كان عجلا له حياة حقيقية ، لأن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فصار حيا ، وأيدوه بأن الخوار إنما يكون للبقر لا لصورته . وقليل منهم يقولون : إن العجل كان عجلا في

الصورة ، ولم يكن حيا ، لأن ظهور الحياة في مادة مصوغة جامدة على يدي إنسان فاسد كالسامري لا يمكن بحال من الأحوال ، لأن ظهور المعجزات على يد الكاذبين ممتنع والمراد بالخوار صوت يشبه صوت العجل ، وكان من دقة صناعة السامري فإنه صنع في هيكل العجل أجواءً خالية ، وجعل عليها منافذ تفتح وتسد ، وكلما فتحت دخلتها الرياح وظهرت أصوات كأصوات العجل . ومثل ذلك موجود في ساعات الزمان التي تصوت كالطيور أو السباع أو غير ذلك ...

ويقول في روح المعاني : وعن السدي أنه كان يخور ويمشي ، وعن وهب نَفْيُ الحَرَكَةِ . والآية ساكتة عن إثباتها ، وليس في الاخبار ما يعول عليها فالتوقف عن إثبات المشي أولى . وليست هذه المسألة من المهمات الاعتقادية .

الثاني : إن الحلي الذي صيغ منه العجل المشهور أنه كان حليّ الأقباط وأخذته نساء بني إسرائيل عارية في بعض المناسبات ، ولما وقع الفراق بين الفريقين صار هذا المال المنسوب إلى قوم من الكفار كالفيء العائد إلى المسلمين ، على أنه يقال إن الأقباط أخذوا أموال بني إسرائيل بكثرة ، فيكون الاستيلاء عليه من باب الظفر بأموال من غصب منك أموالا ويجوز للمغصوب منه القبض على حقه ظفرا أينما وجده . وتسميتها أوزارا من جهة أنها كانت أموالا للظالمين مكتسبة من جهات غير مشروعة . ومنهم من قال إن الحلي من أموال بني إسرائيل لبعد أن يوافق الأقباط على إعارة ذلك المقدار من الحلي إلى قوم ممقوتين مهتوكين مستضعفين تحت أيديهم ، وإنما سميت أوزارا على هذا لأن حلي النساء المسخرات لقوم طغاة لا يخلو عن استعمالها في مناسباتهم المحرّمة ، فهي كأنها اوزار .

الثالث : إنه كما يقال العجل لولد البقر يستعمل الحوارُ لولد الناقة ، ومَهْر لولد الفرس ، وجَحْش لولد الحمار ، وَحَمل لولد الشاة ، وجَدْي" لولد العنز ، وشِبْل" لولد الأسد ، ودغفل لولد الأسد ، وجرو لولد الكلب ، وخشف لولد الظبي ، وغَفْر" لولد التيس الجبلي ، وفَرْعَلُ لولد الضبع ، وديسم لولد الدّب" ، وخنوص لولد الخنزير ، وحريش لولد الحية ، ورأل لولد النعامة ، وفروج لولد الدجاجة ، ودرص لولد الفأر ، وحسل لولد الضب إلى غير ذلك ... وكما يقال خوار لصوت العجل والبقر يقال لصوت الغنم : الثغاء ، وللمعز اليعار ، وللتيس النبيب ، وللكلب النباح ، وللأسد الزئير ، وللذئب العواء والوعوعة ، وللثعلب الضباح ، وللخنزير القباع ، وللهرة المواء ، وللحمار النهيق والسحيل ، وللفرس الصهيل والضبح والقنع والحمحمة ، وللناقة الرغاء ، وللفيل الصني ، وللضبي البتغم، وللأرنب الضميب ، وللظليم العرار ، وللبازي الصرصرة ، وللصقر القعقعة، وللنسر الصفير ، وللحمام الهدير ، وللقمري السجع ، وللعصفور السقسقة ، وللغراب النعيق والنعيب ، وللديك الصقاء والزقاء ، وللدجاجة النقيقة والقوقاء ، وللحية الفحيح ، وللضفدع النقيق ، وللعقرب الصبيء وكذا للفأرة ، وللجراد الصرير . كل ذلك ذكره صاحب روح المعاني رحمه الله تعالى لمزيد اطلاع الطّالبين .

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إلى قَوْمِهِ غَضْبانَ اَسِفاً قالَ : بِئْسَما خَلَفْتُموني مِنْ بَعْدي ، اَعَجِلْتُمْ اَمْرَ رَبِّكُمْ وَاَلْقى الأَلْواحَ وَاَخَذَ بِرَأْسِ اَخيهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ قالَ : اْبنَ اُمَّ ! اِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفوني ، وكادُوا يَقْتُلونَني ، فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْداءَ ، وَلا تَجْعَلْني مَعَ الْقَوْمِ الظالمين(١٥٠) قالَ : رَبِّ

اغْفِرْ لي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنا في رَحْمَتِكَ ، وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في الْحَيوةِ الدُّنْيَا ، وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُم تَابُوا مِنْ بَعْدِها وَآمَنُوا إنَّ ربَكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(١٥٣)

قوله تعالى : [ولما رجع موسى] ـ عليه السلام ـ أي من الطور [إلى قومه غضبان أَسِفاً] شديدَ الغَضب مما أحدَثه قومُه بعدَه [قال] لهم مُستنكراً أعمال كلهم المحدثين من سوء ما أحدثوا وغيرهم من قلة غيرتهم وسكوتهم عن المفسدين : [بِئسَما خَلَفتمُوني مِن بعدي] وبئس فعل لإنشاء الذم ، فاعله مستتر فيه ، وما نكرة موصوفة بالجملة الفعلية ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقديرُ بئسَ خِلافةٌ خلفتُمونيها مِن بَعْدي خِلافَتُكم . [أعَجِلتم أمْر رَبكم] أي أعجلتم عما أمركم به ربكم من انتظار رجوعي إليكم واسْتَطَلتم مدةَ مكثي في الطور من غير شعور بأنّ الرسول مأمور لا آمرٌ . [وألقى الألواح] أي وضعها على الأرض كالطارح لها من شدة غضبه حميّة لدين التوحيد الذي أُرْسِلَ موسى ومَن سبقه ومَن لحقه ومَن بعده لنشره في الأمة ، فإن الألواح وإن كتب عليها الأحكام مِن كل باب ، لكن نسبتها إلى هدَف الأنبياء والمرسلين وشرف توحيد رب العالمين نسبة الكواكب إلى الشمس ، على أن القوم الذين قام موسى عليه السلام على قدم الجدّ وساق الاهتمام لتربيتهم لما ظهرت فيهم هذه النكثة الفاسدة لم يبق لسيدنا موسى أمل في الدوام على خدمتهم وتربيتهم ، فإن العمامة علامة العالم ، فإذا مات العالم لم يبق للعمامة اهتمام وقيمة بين الناس . ويؤيد ان غضبه عليه السلام كان لحمية الدين ما أخرجه أحمد وغيره وعبد بن حميد ، والبزار وابن أبي حاتم وابن

حيان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يرحمُ الله موسى ليس المعاينُ كالمُخبَر ، أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومَه فُتِنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسّر ، وأخَذَ برأس أخيه يَجُره إليه » من فرط غيظه وغَضَبه المؤدي إلى خروجه عن الحالة الاعتيادية فسرى إليه أن هذا الحادث نشأ من كسله وعدم قيامه بواجب الرّعاية [قال : ابنَ أمّ] بحذف حرف النداء على المنادى وإضافته إلى الأم للترقيق ، وإلا فهو كان شقيقا له ، وأمّ بالفتح لكونها بقية أما بالألف النائبة عن ياء المتكلم ، أي قال هرون مخاطبا موسى عليهما السلام : يا ابن أمّي [إن القوم] الذين أحدثوا ما أحدثوا [اسْتَضْعفوني] أي قهروني ولم يبالوا بي [وكادوا يقتلونني] وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك العمل الفاسد [فلا تُشْمِتْ بي الأعداء] فلا تفعل بي ما يفرحون به فإني بذلت ما في طاقتي فلم ينفع ذلك [ولا تجعلني مع القوم الظالمين] معدودا في عدادهم ، ولا تعتقدني واحدا من الظالمين • [قال] موسى عليه السلام لما عاده الهدوء : [رب اغفر لي ولأخي ، وأدخلنا في رحمتك] الواسعة بزيادة [وأنت ارحم الرّاحمين • إنّ الّذين اتخذوا العجل] أي سعوا في صنعه وتزيينه للعبادة [سَيَنالُهم غضب مِن ربّهم ، وذلة في الحياة الدنيا] بإحراق آلهتهم ونَسْفِهِ في النهر [وكذلك نجزي المفترين] على الله بما لا يناسب قدسيته [والذين عَملوا السيئات] أية سيئة كانت [ثم تابوا إلى الله من بعدها] أي بعد مباشرتها [وآمنوا] واشتغلوا بالايمان والأعمال التابعة له [إن ربك من بعدها] أي من بعد التوبة المقرونة بالإيمان [لغفور رحيم] وافر الرحمة مبالغ في إفاضة أنواع الرحمة عليهم •

(وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسى الْغَضَبُ أخَذَ الأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ(١٥٤)

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قال : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ؛ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ(١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ ، إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قال : عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)(١٥٦)

قوله تعالى : [ولما سكت عن موسى الغضب] معناه لما زال عن قلب موسى التهاب القوة الغضبية باعتذار أخيه وإنابة القوم [أخذ الألواح] التي ألقاها [وفي نسختها] أي وفي ما كتب فيها [هدى] إلى الأحكام [ورحمة] بإرشاد الأنام [للذين هم لربهم يرهبون] يخافون [و] لما أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل للاعتذار عن عبادة العجل ووعدهم موعدا [اختار موسى قومه] أي من قومه [سبعين رجلا لميقاتنا] المقرر للكلام مع الباري تعالى واعتذارهم مع موسى عليه السلام عن عبادة العجل ، واختار من كل سبط من الأسباط الاثني عشر ستة ، فوصل العدد اثنين وسبعين فقال عليه السلام : ليتخلف منكم رجلان ، فتنازعوا فيما بينهم ، فقال : لِمَن قَعَد منكم مثلُ أَجْر مَن خَرَج ، فقعد كالب ويوشع ، ثم خرج بالسّبعين إلى طور سيناء ، فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا فدنوا ، حتى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجدا ، فسمعوه وهو سبحانه

يكلم موسى ، يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه فطلبوا الرؤية فوعظهم ، ولم ينفع ، وألحّوا في طلبها [وقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة] أي لا نصدّق بقولك أن الذي يتكلم معك هو الله حتى نراه جهرة ، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها . والكثير على أنهم ماتوا ، والقليل على أنه أغمي عليهم بحيث ظن موسى عليه السلام أنهم ماتوا [فلمّا أخذتهم الرجفة قال : رب لو شئت أهلكتهم من قبل] أي من قبل رجوعي إليهم من الطور سابقا ، أو من قبل أن نصعد الجبل إليك للاعتذار [وإياي] أي أهلكتني معهم قبل الصعود إليه ، فلم يكن الناس يظنون أن هلاكهم بسبب عملٍ صادر منّي . [أتهلكنا بما فعل السفهاءُ] الخفاف العقول [منا ؟] من صنع العجل وعبادته [إن هي إلا فتنتك] أي ليس الحادثة أولا وأخيرا إلا ابتلاء منك وامتحاناً للأمة [تضل بها من تشاء] من الجاهلين بأسرار أعمالك وحكمتها [وتهدي من تشاء] من العارفين [أنت ولينا] أي متولينا والقائم بأمورنا في الدارين [فاغفر لنا] ما فرط منّا [وارحمنا] بإفاضة آثار الرحمة علينا [وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا في هذه الدنيا] التي ابتلينا فيها [حسنة] عفوا وحياة طيبة [وفي الآخرة] أي واكتب لنا في الآخرة حسنة وهي المثوبة الحسنى ولقاء وجهك الكريم [إنا هدنا إليك] يعني إنا رجعنا إليك للعفو والرحمة ، وأنت أرحم الراحمين .

[قال] الله تعالى في جواب دعائه : [عذابي أصيبُ به من أشاءُ] مِن عبادي [ورحمتي وسعت كل شيىء] أي شأنها الوسعة والشمول والاستيعاب [فسأكتبها] أي تلك الرحمة [للذين يتقون] الكفر والمعاصي [ويؤتون الزكوة] المفروضة عليهم للمستحقين منهم [والذين هم بآياتنا] كلها [يؤمنون] إيمانا مستمرا بعدك في العصور الآتية ، وهم أتباعك الذين

يؤمنون بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كما آمنوا بالتوراة ثم بالإنجيل وأمة ذلك الرسول الناشئة في عصره وبعده ، وينادي على هذا المعنى بوضوح قوله تعالى (الذين يتبعون الرسولَ النبي الأمي) الآية •••

تنبيه : فسرت قوله تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) بما علمت ، وحملت الميقات على الميقات المقرر من الله تعالى لاعتذار بني إسرائيل عن عبادة العجل ، لأنه هو الذي اعتقده أكثر المفسرين واستقر في قلبي واطمأن به والله اعلم •

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ، وَالأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ، ونَصَرُوهُ ، وَاتَّبَعُوا النُّور الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(١٥٧)

قوله تعالى : [الذين يتّبعون] مبتدأ خبره (يأمرهم) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين ، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل [الرسول] الذي أرسله الله لتبليغ الأحكام بالكتاب المختص به أو المشترك بينه وبين غيره كتوراة موسى عليه السلام [النبي] الإنسان المختار الذي رفع الله رتبته وأخبره بما قرره سواء كان له كتاب أولا [الأمّي] الذي لا يقرأ ولا يكتب وهو منسوب" إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم ذلك ، أو إلى أم القرى لأن أهلها كانوا كذلك ، أو إلى الأمّ كأنه على الحالة التي ولدته أمّه عليها [الذي يجدونه مكتوبا عندهم] باسمه ونعوته الشريفة ،

عندهم ظرف لمكتوبا [في التورية والإنجيل] اللذين يعتد بهما بنو إسرائيل [يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر] والمعروف ما استحسنه الشرع ، والمنكر ما استقبحه [ويحلّ لهم الطيّبات ، ويحرّم عليهم الخبائث] وفسر الطيبات بالأشياء التي يستطيبها الطبع السليم ، والخبائث بما يستخبثها كالدم • وفسر بعضهم الطيب بما طاب في حكم الشرع ، والخبيث بما خبث فيه كالربا والنشوة • وجوز بعضهم كون الطيب بمعنى ما استطابه الطبع أو الشرع والخبيث بما يستخبث طبعا أو شرعا [ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم] وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يمنعه من الحركة لثقله ، أي يخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب ، أو منه ومن البدن ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتعيين القصاص في العمد والخطأ ، وغير ذلك من الاحكام الثقيلة [فالذين آمنوا به] أي صدقوا برسالته ونبوته [وعزّروه] أي عظموه ووقروه [ونصروه] على أعدائه في الدين [واتبعوا النور الذي أنزل معه] أي واتبعوا أحكام القرآن الذي هو كالنور في الظهور ، أو القرآن الذي هو نور القلب ووسيلة بصيرته واهتدائه إلى الحق • ومعنى أنزل معه أنه أنزل مع نبوته أو إرساله عليه السلام • ومما لا شك فيه أن اتباعهم للكتاب الذي أنزل معه يوجب اتباعهم لسنته لأن فيه الأمر باطاعة رسوله والاقتداء به في الأحكام الغير المختصة ، وكذلك اتباعه يوجب اتباع الإجماع واستدلال الأئمة المجتهدين لأن في الكتاب إيجاب ذلك كما لا يخفى [اولئك هم المفلحون] معناه اولئك الموصوفون بتلك الصّفات الحميدة هم الفائزون بالمطلوب لا الموصوفون بأضداد ذلك ، وفي ترتيب الحكم على اسم الإشارة إشارة إلى علية الأوصاف المذكورة سابقا للحكم عليهم بالفلاح بل لحصر الفلاح فيهم وهو ظاهر •

تنبيه : على ما في قوله تعالى [الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل] الآية ... قد نزل في الكتب المنزلة على الرسل عليهم السلام بشارات بظهور نور سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، لاسيما التورية والإنجيل . وذكرها يحتاج إلى امَد كثير وفراغ وافر . ونكتفي بنبذة مما في التورية والإنجيل اكتفاء باليسير عن الكثير . ففي الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية في الترجمة العربية المطبوعة سنة ألف وثمانمائة وأربع وأربعين ميلادية ما يلي :

(وقال : جاء الرب من سيناء ، واَشرق لنا مِن ساعيرَ ، واستعلن من جبل (فاران) ، ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار) إنتهى وهذا الباب هو الباب الأخير من سفر التثنية . وفي الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل وفاته مباركا بها بني إسرائيل . وفي التراجم الأخيرة (سعير) بدل (سنة) والمراد بالسنة الشريعة . وترجمة الجزويت عن يمينه قَبَسُ شريعة لهم ، وليس فيها (ألوف الأطهار) فمجيىء الرب من سيناء إعطاء التّوراة لموسى عليه السلام ، واشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام واستعلانه من جبل (فاران) إنزاله القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنّ فاران جبل من جبال مكة . فقد جاء في بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين ٢١ ـ ٢٠ : (وكان الله معه وسكن في البرّيّة وصار شابّا يرمي بالسهام ٢١ ، وسكن برّية فاران وأخذت له أمّه امرأة من أرض مصر) ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكناه بمكة .

وفي سفر سيدنا شعياء من أنبياء بني إسرائيل عليه السلام ما ترجمته : (يا شعيا إني أرسل نبيا أميا إلى بني آدم ، وافتح به عيونَ العمْى ، وآذان الصّمّ ، وقلوبا مستورة بالغشاوة ، مولده مكة ومُهاجَرُه المدينة ، وقوته في الشام ، وذلك الرسول عبد متوكل على الله ، ومختار من الأمة ، وخالدٌ

ومحبوب ، وهو رءوف على الناس بحيث لا يقابل الإساءة بالإساءة بل بالعفو والسماح ، يتأثر على طفل يتيم في حضن أمه ، وعلى حَمولة حِملُها ثقيل ، ليس قاسيا ولا كلامه مُرّاً ، ليس له صخب في الأسواق ، ولا يتجمل بما ليس بمعروف ، ولا يخرج من شفتيه القول البذيء ، وحياؤه كثير بحيث لو مر على القصب لا يظهر من مروره الصوت ، أُرْسِلهُ بشيراً للطائعين ، ونذيراً للعاصين الذين لا يأخذون بتعاليمه ، أجعل أمته خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويخلصون لله في تطبيق أحكامه . وتلك الأمة يراعون حساب السنين والشهور والأيام والليالي لأداء شعائر دينهم ، يوحّدون الله ويسبّحونه ويحمدونه ويكبّرونه ، وأَجْعَل ثنائي في قلوبهم ، ويَصْطفّون في المساجد للعِبادة كصُفوف الملئكة في أطراف العرش . تلك الأمة أحبّائي ومُعينون لديني بهم أَنْتَقِمُ ممّن يعصيني . ويصلّون قياما وقعودا ابتغاء مرضاتي ، ويركعون ويسجدون لإطاعتي ، ويَخْرجون من بيوتهم أُلُوفاً للجهاد في سبيلي ، أختِمُ الأديانَ بدينهم ، والكُتُبَ بكتابهم ، وإذا اشتدّ بهم الغضب قالوا : لا اله الا الله ، وفي وقت العجز والملال يقولون : سبحان الله . ويغسلون وجوههم وأطرافهم للعبادة ، ويحفظون كتبهم . أجْعَلُ تلك الأمة أكبرَ الأمم والفضلُ لمن كان على دينهم وآدابهم ، ذلك فضلي نؤتيه من نشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وفي آخر أبواب إنجيل يوحنا عن التراجم العربية المطبوعة سنة ألف وثمانمائة وإحدى وعشرين ، وسنة ألف وثمانمائة واحدى وثلاثين ، وسنة ألف وثمانمائة وأربع واربعين في لندن : (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم (فار قليط ـ روح القدس) ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يراه ، لأنه ليس يراه ولا يعرفه ، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم) . إلى آخر ما ذكره

هناك ••• ويكفي لمن آمن بالله وكتبه في تشريف سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين قوله تعالى (وإذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم واخذتم على ذلكم اصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون)

ولما ذكر سبحانه وتعالى في ما تقدم بعضا من نعوت الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف أتباعه أمَره صلى الله عليه وسلم أن يعلن رسالته على عالَم العقلاء ، فقال مخاطبا له صلى الله عليه وسلم :

(قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ لا إله إلاَّ هُوَ يُحْيي ويُميتُ ، فَآمِنُوا باللهِ ورسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمِنُ بِاللهِ وكَلِمَاتِهِ ، واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١٥٨)

[قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا] الأبيض والأسود والأحمر والأسمر وأول ما أعلنه لكم أنه [الذي له ملك السماوات والارض ، لا اله إلا هو] فإن التوحيد أساس الطاعة ورأس مال البضاعة وأعظم آثاره في عالم الوجود أنه [يحي ويميت] فالحياة أهم النعماء والموت أدهم البلايا تحت أديم السماء [فآمِنوا باللهِ] الواحِدِ المُحْي المميت الباعث للأموات [ورسوله النبي الأمي] المبعوث دليلا للخيرات [الذي يؤمن بالله وكلماته] الآيات البينات [واتبعوه] في أوامره ومناهيه [لعلكم تهتدون] •

(ومِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلونَ(١٥٩) وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً ، وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى إذِ اسْتَسْقيهُ قَوْمُهُ : أَنِ اضْرِبْ

بِعَصاكَ الحَجَرَ فَانبَجَسَت مِنهُ اثنَتا عَشرَةَ عَيناً ، قَد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشرَبَهُم ، وَظَلَّلنا عَلَيهِمُ الغَمامَ ، وَأَنزَلنا عَلَيهِمُ المَنَّ وَالسَّلوى كُلوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقناكُم ، وما ظَلَمونا ، وَلكِن كانوا أَنفُسَهُم يَظلِمونَ)(١٦٠)

قوله تعالى : [ومن قوم موسى] الآية ... معناه (ومن قوم موسى) أي بني إسرائيل [أمة] جماعة عظيمة [يهدون بالحق] يرشدون بالإرشاد وبالوجه الحق الموافق لما أنزله الله تعالى [وبه يعدلون] أي وبالحق يحكمون فيما بينهم . والآية جاءت لبيان أنه أنزل الشرائع على رسله من آدم إلى الخاتم . فكل أمة تعمل بما أنزل الله في وقت ذلك الرسول وبعده إلى نزول الشريعة الناسخة ، فهي على الحق كالأمة المتبعة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم . وأما بقايا تلك الأمم السابقة بعد زوال شريعتها ونسخ دينها فواجبها الإيمان بالشريعة الجديدة النازلة . فأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إن اتبعوه وقبلوا شريعته أصلا وفرعا اعتقاداً وعملا فهم يعتبرون مؤمنين ، وإلا فليسوا مؤمنين ولا علاقة لهم بالمثوبة الحسنى يوم الدين .

[وقطعناهم] أي وصيرنا بني إسرائيل [اثنتي عشرة أسباطا] أي اثنتي عشرة فرقة أسباطا . وقوله [أسباطا] بدل من العدد وليس تمييزا له ، وإلا لكان الأسباط ستة وثلاثين لأن لفظ أسباط جمع وأقله ثلاثة ، وإثنا عشر جمعاً مثلثا يبلغ ذلك ، وقوله [أمما] بدل بعد البدل من العدد [وأوحينا إلى موسى إذ استسقيه قومه] عند غلبة العطش عليهم [أَنِ اضرِب بِعَصاكَ الحَجَرَ] فضربه [فانبَجَست منه اثنتا عشرة] أي انفجرت منه [عينا ، قَد عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم] أي قد علم كلّ سبط من الأسباط

العين المختصة بهم بعلامة خاصّة [وظلّلنا عليهم الغمام] أي وجعلنا الغمامَ بحيث يلقى عليهم ظلّه ليحفظهم من حرّ الشمس [وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى] أي الترنجبين والسماني ، فكان كل منهم يأخذ ما يكفيه [كلوا من طيبات ما رزقناكم] أي وقلنا لهم ذلك ، فظلموا وكفروا بهذه الأنعم الجليلة . [وما ظلمونا] بذلك [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] لأن وبال الكفران والعصيان من الخسران والعذاب يعود إليهم .

(وإذْ قِيلَ لَهُمُ : اسْكُنُوا هذهِ القَرْيَةَ ، وكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ، وقولُوا : حِطَّةٌ ، وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ، سَنَزِيد المُحْسِنِينَ (١٦١) فَبدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونْ)(١٦٢)

قوله : [وإذ قيل لهم] إذا نظرنا إلى سرد الآيات الشريفة وجدناها حاكية عن سلسلة من أحوال بني إسرائيل بعد إنجائهم من قهر فرعون وأتباعه فحالتهم السيئة الأولى أنه لما ذهب موسى عليه السلام إلى الطور لأخذ التوراة اتخذوا العجل المسبوك من أعمال السامري إلها وعبدوه . وحالتهم الحسنة الثانية أوّلا والسيئة أخيرا : هو أنهم ذهبوا مع موسى الى الطور لتقديم المعذرة إلى الله عن اتخاذ العجل وعبادته ، وبعد هذا الإقدام الحسن جاءوا بسيئه هي إلحاحهم على رؤية الباري جَهْرَةً ، فأخذتهم الصّاعقة ، وبعد ذلك خلصوا بدعاء موسى عليه السلام وابتهاله إلى الله الرءوف الرحيم .

وحالتهم الثالثة : بقاؤهم في صحراء سيناء تحت حرّ الشمس مع فقد الماء والزاد وترحم الباري تعالى عليهم بمعجزة انفجار العيون الموافقة لعدد

الأسباط من حجر واحد بحيث يعلم كل سبط مشـربه لدفع العطش وإنزال المن والسّلوى عليهم لدفع المجاعة في تلك الصحراء القاحلة .

وحالتهم السيئة الرابعة : مخالفتهم لأمر موسى عليه السلام بأن يدخلوا قرية اريحا أو بيت المقدس والابتهال إلى ذي الجلال لحطّ الذنوب فتوقفوا عَنِ الدخول في زمن حياة موسى عليه السلام إلى أن جاء عهد يوشع ، أو دخلوا ولكن بدّلوا ذلك القول الذي قيل لهم بغيره حيث أمروا بأن يقولوا : مقصودنا حطة وعفو لذنوبنا ، فقالوا : مقصودنا حنطة نأكلها . فيقول الباري سبحانه [وإذ قيل لهم] أي لبني إسرائيل الموجودين مع موسى عليه السلام في الصحراء [اسكنوا هذه القرية] القريبة منكم وهي بيت المقدس أو أريحا ، [وكلوا منها] أي من مطاعمها أقواتها وفواكهها ومستلذاتها [حيث شئتم] شرقا أو غربا جنوبا أو شمالا [وقولوا] إذا دخلتم : [حطة] أي مطلوبنا حطة وسقوط لذنوبنا [وادخلوا الباب سجّدا] أي وادخلوا باب بيت المقدس او باب أريحا ساجدين، إذا أطعتم في ذلك [نغفر لكم خطيئاتكم] كلها [سَنَزيد المُحسنين] فضلا وإحسانا زيادة على ما استحقوا من المثوبات [فبدل الذين ظلموا] منهم بالتوبة والإنابة والاستغفار [قولا] آخر [غير الذي قيل لهم] . ولما خالفونا [أرسلنا عليهم] إثْرَ ما فَعلوا [رِجْزا من السماء] عذابا نازلا من السماء عقابا ناشئا من الهواء الفاسـد وهو مرض الطاعون ـ اعاذنا الله تعالى منه ـ [بما كانوا يظلمون] أي بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق . فإن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فلما غيروها غيّرها الله .

(واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ

شُرَّعاً ، وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كذلك نَبْلُوهُمْ بِمَا كانوا يَفْسُقُونَ)(١٦٣)

قوله : [واسألهم] عطف على اذكر المقدر المقدّم • أي واسأل اليهود المعاصرين [عن] خبر [القرية التي كانت حاضرة البحر] مُشرِفة على شاطئه [إذ يَعْدون في السبت] أي يتجاورون حدود الله بالإصطياد يوم السبت [إذ تأتيهمْ حيتانهم يَومَ سَبْتهم شُرَّعاً] أي ظاهرةً على وجه الماء [ويومَ لا يَسْبِتون لا تأتيهم] ويوم لا يدخلون في السبت لا تأتيهم [كذلك نبلوهم] أي هكذا نعاملهم معاملة المختبرين [بما كانوا يفسقون] أي بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون ويذرون •

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ : لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ؟ قَالُوا : مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِين يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ(١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ !)(١٦٦)

قوله تعالى : [وإذ قالت أمة منهم] أي جماعة من صلحاء بني إسرائيل الذين كانوا يسعون بجد واهتمام في منع فساق بني إسرائيل عن الأعمال الرديئة والصيد في يوم السبت ، أي قالت تلك الجماعة لجماعة أخرى كانت تحرص على إرشاد الضالّين منهم إلى الحق : [لم تَعِظُونَ قوما الله مُهلِكُهُم] أي مُبيدهم ومُستأصلهم عن وجه الأرض [أو معذبهم عذابا شديدا ؟] دون الإبادة والاستئصال [قالوا] أي الجمع الذين قيل لهم لم تعِظون : [معذرة الى ربكم] أي نعظهم معذرة إليه تعالى حتى لا نُنْسَبَ

إلى القصور والتفريط في الإرشاد [فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكروا به] وتركوا الاستماع الى مواعظهم [أنجينا الذين ينهَوْنَ عَن السوء] لأنهم أدّوا حق الوعظ والإرشاد [وأخذنا الذين ظلموا] بالاعتداء مخالفة الواعظين [بعذابَ بَئِيس بِما كانوا يَفْسُقُون]

[فَلَمَّا عَتَوا عما نُهُوا عَنْهُ] أي تَعَدّوا على الحَق وتكبّروا وعَتَوا عن قبول المواعظ الحسنة [قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِين] روي عن ابن عباس : أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم، وهو يوم الجمعة فخالفوا إلى يوم السبت واختاروه ، فَحَرّم عليهم الصيد فيه وابتلوا به ، فكانت الحيتانُ تأتيهم يوم السبت شُرّعاً بيضاً سِماناً حتى لا يرى الماء من كثرة السمك عليه ، فمكثوا ما شاء الله لا يَصيدنو ، ثم أتاهم الشيطان فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض والشبكات ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه ، ثم يأخذونها يوم الأحَد ! فعذبهم الله تعالى بأن جعل المردة منهم قردة •

وعن قتادة : أن الشبان صاروا قردة ، والشيوخ خنازير ، وكان الحادث في عهد سيدنا داود عليه السلام ، ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام •

(وإذْ تَأَذَّنَ ربُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذابِ ، إنَّ رَبَّكَ لَسَريعُ الْعِقَابِ وَإنَّه لَغَفُورٌ رَحِيْمٌ)(١٦٧)

قوله تعالى : [وإذْ تَاذّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنّ عَلَيهم] الضمير المجرور راجع إلى اليهود العاتين عن أمر ربّهم ، فإن القوم كان منهم الصالحون ومنهم الطالحون العاتون ، ومن العاتين مَن جعلهم اللهُ قردة وخنازيرَ وأماتهم بعد ثلاثة أيام ، فالباقي لكونه مرجعا للضمير هو الباقي

من العتاة مع أن الظاهر أن الحكم مستوعب لليهود بأسرهم فإرجاع الضمير إلى الموجودين عند الحادثة وأمثالهم في جنسية اليهود . ولا شبهة في أن المراد اليهود الذين ثبتوا على الكفر واليهودية لا الذين آمنوا منهم واستقروا في الإسلام ، وليس المراد أيضا أنهم يبعث عليهم من يعذبهم في كل زمان ومكان ، فإن ذلك خلاف سنة الله تعالى بل المراد بسبب استمرارهم في غالب الأوقات على مخالفة الأنبياء الذين أرسلوا إليهم ونقضهم المواثيق وقتلهم الأنبياء وعتوهم على موسى وهارون في أمور كثيرة قرر الله تعالى أنه [ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب] وقد حقق الله ذلك منذ زمان سيدنا يوسف أنه كلما صارت لهم شوكة وقعت عليهم بوائق ومهلكات إما بين اليهود أنفسهم بعضهم على بعض أو من مجاوريهم كأحوالهم مع العمالقة وغيرهم من المجاورين لهم ، أو من ابتلائهم بظالم يستبد في القتل والفتك كابتلائهم بفرعون ملك الأقباط ، وبملوك الروم وبختنصر ملك بابل ثم ابتلائهم بإخراج عمر بن الخطاب رضى الله عنه لهم من الجزيرة ، ثم ضرب الجزية عليهم ، ثم تفرقهم في البلاد الآسيوية والاوربية وغيرها كما هو مسطور في التواريخ وذكرنا في سورة البقرة أدوارهم الخمسة التأريخية وأوضاعهم فيها . وبالخاصة ذكر الله في سورة الإسراء إفسادهم في الأرض مرتين وعلوهم علوا كبيرا ، وذكر معاقبته لهم بعد كل منهما أشد عقاب وهددهم في الأخير بقوله العظيم الأكيد (وإن عدتم عدنا) وقد تحقق عودهم وسيتحقق عود الله عليهم ومن شرطٍ كل شرطٍ جزاء . على أنهم في هذا الزمان الذي يظن بوجود شوكتهم ليست الشوكة منهم ولا القوة من أنفسهم ، وإنما صارت أرض فلسطين قاعدة حربية بحرية لبعض المستعمرين ولم يأمن على غيرهم فجعلهم حراساً هناك باسم الدولة اليهودية والكيان الصهيوني ، ولو تركهم ذلك المستعمر سنة لم يبق لهم مجال البقاء . ومن جهة أخرى كما أن

الله انتقم من بني إسرائيل بسبب عدوانهم وبغيهم وخروجهم عن الطاعة كذلك انتقم من المسلمين في الديار الإسلامية لاسيما المجاورين لهم من حيث أنهم ماأدوا واجبهم لصيانة الدين بالاتفاق ، ووحدة الكلمة ، وجمع القلوب ، واتفاق عسكري فيما بينهم ليخافهم اليهود وغيرهم من الأعداء . بل وقد تركوا نصرة قواعد الدين ، وعقائده حتى عاد الإسلام غريبا والمسلمون غرباء ، ولو عادوا إلى عقائدهم المتينة ومبادئهم الحصينة ما كانوا يبتلون بما ابتلوا به اليوم ، ولا تصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها . ونسأل الله تعالى كشف الكروب بجمع القلوب والاستمساك بالعروة الوثقى فإنه سبحانه له سنه لا تتبدل من جانب الإيجاب والسلب ، ولذلك ختم الآية بقوله الكريم [إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم]

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ . أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ؟ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلوةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)(١٧٠)

قوله تعالى [وقطعناهم في الأرض أمما] أي وفرقنا بني إسرائيل في الأرض حالكونهم جماعات كثيرة متمايزة في الأعمال والأفكار والإدارات بحسب مقتضيات البيئة والدولة التي عاشوا فيها ، أو إن كونها أمما باعتبار

أنهم من سلالة الأسباط الأثني عشر ، وكل سبط له تقاليد وآداب ، وفي الآية أيضا تأييد لمحتويات الآيات السابقة . يعني لما قررنا أن لا تكون لهم شوكة شائكة ووحدة مباركة .. فرقناهم في العالم وما جمعناهم في أرض واحدة على كيان واحد ودولة واحدة ، لأن وحدتهم سبب لإعلاء مقامهم وذلك مخالف لما أردنا لهم ، وهذه الآية إن كانت حاكية عن أوضاع اليهود قبل بعث سيدنا محمد فذلك ، وإن كانت منبئة عما يجري عليهم ويحصل منهم ففيها معجزة الإخبار بالغيب . [منهم الصالحون] الثابتون على الإيمان بالله ورسله [ومنهم دون ذلك] وهم المتزلزلون الذين امتثلوا بعضَ الأوامر دُون بعض والمجتنبون بعض المنهيات دون بعض . [وَبَلوناهُم بالحَسَناتِ] من الصحّة والخصب [والسيئات] من المرض والجدب ، [لعلهم يرجعون] عما كانوا عليه إلى ما يرتضيه الشرع المبين .

[فخلف من بعدهم خلف] بسكون العين ، لم تتحرك عيونهم لإبصار الحقائق على الوجه اللائق [ورثوا الكتاب] أي التوراة من أسلافهم الأشراف لكن لم يطبقوه بالعدل والإنصاف [يأخذون عرض هذا الأدنى] أي يأخذون متاع هذه الدنيا الدنية ولم يترقوا إلى طلب الرتب العالية من الإيمان والإخلاص ولزوم الطاعة والاجتناب عن المناهي [ويقولون] في جواب من يلومهم ويقول لهم ويلكم لا تقربوا الدنايا فإنها عيون الخطايا : [سيغفر لنا] ولا يؤاخذنا الله تعالى بما نعمل على مقتضى إرادتنا [وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه] يعنى وإن يأتهم أثناء الوعظ والزجر عن المعاصي شيء من حطام الدنيا يأخذوه ، كأنهم لم يسمعوا وعظ المرشدين بحجة أنهم أولاد آباء من الأنبياء ولا يعاقبون ! [ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب] أي الميثاق المكتوب في التوراة [أن لا يقولوا على الله إلا الحق] وهو أن الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ولا تزر وازرة وزر

أخرى ، وأن الناس سواسية أمام الحق [ودرسوا ما فيه ؟] معطوف بحسب المعنى على مدخول ألم يؤخذ ، أي ألم يدرسوا ما في الكتاب من أنه يجب على المكلّف أخذ طريق الصواب والاستقامة عليه . [والدار الآخرة خير للذين يتقون] من دار الدنيا ومطامعها [أفلا تعقلون ؟] أن الحق أحق بالاتباع والله يحب الصالحين .

[والذين يمسكون بالكتاب] قال مجاهد وابن زيد : هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال عطاء : هم أمة محمّد صلى الله عليه وسلم . ومعنى الآية على الأول : الذين تمسكوا بالتوراة في أمور دينهم [وأقاموا الصلوة] المفروضة عليهم ، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم عندما صادفوا زمانه . وعلى الثاني : الذين تمسّكوا بالقرآن وعملوا بما فيه ، وأقاموا الصلوات المفروضة في أوقاتها واستمروا على التمسك بذلك . ف [إنا] لا نضيع أجرهم لأنهم مصلحون ونحن [لا نضيع أجر المصلحين] .

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا ما فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١٧١)

قوله تعالى : [وإذ نتقنا الجبل] الآية ... ذكر حادثة من الحوادث المخيفة التي جرت على بني إسرائيل من شدة شكيمتهم وطغيانهم ، وذلك أن سيدنا موسى عليه السلام لما جاء بالتوراة في ألواح وقرأ أحكامها على بني إسرائيل استثقلوها وأبوا أن يلتزموا أحكامها ، فصعب الأمر على موسى فأمر الله سبحانه وتعالى جبريل فنزل ، وقلع جبل طور من محله ورفعه على رؤوسهم كانه مظلّة على رؤوس بني إسرائيل الساكنين في معسكرهم الواسع بقدر فرسخ في فرسخ ، فلما رأوه خافوا من تطبيقه عليهم والتزموا بأحكام

التوراة فأمر الله جبريل وأعاده إلى محله • وهذا هو معنى ظاهر الآية الموافق للروايات الواردة في الموضوع •

لا يقال إن هذا النوع من الإيمان والالتزام واقع بالإكراه ولا عبرة به لأنا نقول : إنما لا يعتبر إذا بقي الناس على الحالة الأولى التي يستنكرون فيها التزام الأحكام ويستكرهونه، وأما إذا انقلب الحال إلى انشراح الصدور ومعرفة حقيقة الأمر واستحبابه ثم التزامه ، فهو شيىء معتبر ومحبوب ، ألا يرى أنه كثيرا ما يأمر سيد القوم أو عميد العائلة بأمر يعارَضُ فيه من قبل الجماعة ثم بعد تنفيذ ما أمر به وفهم الناس للأمر استحبوه وتيقنوا ان ذلك الأمر شيىء موافق معقول ومستحب ومقبول ؟ وهكذا غالب الأحكام التي تجري في عالم الرسالات والادارات والتعليمات تستكره أو"لا" وتستكرم أخيرا •

ومعنى الآية الكريمة : [وإذ نتقنا الجبل فوقهم] واذكر إذ رفعنا جبلَ الطور فوقَ رؤوسهم لإخافة نفوسهم [كأنه ظلة] أي غمامة أو سقيفة أو مظلّة [وظنوا] واعتقدوا اعتقادا راجحا أنهم إذا لم يلتزموا الأحكام [أنه واقع بهم] أي ساقط عليهم [خذوا ما آتيناكم بقوة] أي قلنا لهم على لسان رسولنا موسى : خذوا ما آتيناكم من الكتاب بما فيه من الأحكام بقوة في القلب ونشاط في العمل ، واذكروا ما فيه لأولادكم جيلا بعد جيل لبقاء دينكم [لعلكم تتقون] بذلك عن الكفر والضلال والاختلال في الأعمال والفساد في الأخلاق بين العالمين •

(وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأشْهَدَهُمْ علَى أنْفُسِهِمْ ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنا أنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ(١٧٢)

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ؟!(١٧٣) وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)(١٧٤)

قوله تعالى [وإذ أخذ ربك] الآية ••• روى مسلم بن يسار الجهني أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِل عنها فقال : « إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرّية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مَسَحَ ظهره فاستخرج منه ذرّية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيُدخِلُه الله النار » وقال مقاتل : إن الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرج منه ذرية بيضاء كهيئة الذر تتحرك ، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر ، فقال : يا آدم هذه ذريتك ، ثم قال لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى • فقال للبيض : هولاء في الجنة برحمتي وهم أصحاب اليمين • وقال للسود : هؤلاء في النار ولا أبالي وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة • ثم أعادهم جميعا في صلب آدم • فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء • وقال تعالى فيمن نقض العهد الأول : (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) وهذا الحديث صحيح أخرجه مالك في الموطأ وكثير من المحدثين كما روينا عن مسلم بن يسار رضى الله تعالى عنه • فهذا الحديث الشريف يكون تفسيرا للآية الكريمة •

وقوله تعالى [من ظهورهم] بدل من قوله (من بني آدم) ويكون المضاف محذوفا على قوله بني آدم أي من أصل بني آدم وهو سيدنا آدم عليه السّلام ، فكل النسل والذر أخذ من ظهر أبيهم آدم مرة واحدة ، وجعلهم الله بحيث يتناسبون لفهم الخطاب والسؤال والجواب : ولا فرق في تحقيق العهود والمواثيق بين الصغير والكبير ، فإن الله تعالى لما أودع فيهم الفهم والإدراك جاز الخطاب والجواب منهم على ما أراده الله تعالى . وقد أفادت الآيات الكثيرة أن كل موجود يسبح بحمد ربه ، وأجاب عن غفلتنا عن ذلك بقوله الكريم : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ولو لم يكن التسبيح واقعيا لما كان وجه لذلك الاستدراك . وقد قال للسماء والأرض (إءتيا طوعا أو كرها) ، و (قالتا أتينا طائعين) . وقال (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) وقال تعالى في شأن سيدنا داود عليه السلام (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) وقد ثبت تسبيح الحصاة في كف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسليم الشجر والحجر له ، وورد في القرآن الكريم عهده تعالى مع الإنسان كثيرا ... وتأويلها وإرجاعها إلى بعض الوجوه المفهومة لسواد الناس مما لا وجه له .

وهنا قول ثان في تفسير الآية وسار عليه بعض المفسرين من أن المراد بهذا الإخراج والسؤال والجواب إيداع العقول في المكلفين وتمكينهم بها من معرفة الأحكام والتكاليف الربانية ، وعليه قال المفسر البيضاوي عليه الرحمة في تفسير (وأشهدهم على أنفسهم) : أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الاشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل . وهذا مما لا داعي له بعد تكرر النصوص الدالة على قابلية المواد لفهم خطاب الباري تعالى .

فتفسير الآية الكريمة على النقل الوارد أحسن بدرجات ولذلك قال الشهاب في حاشية البيضاوي ما نصه : والحديث ناطق بأن هذا معنى الآية لأنه ساقه مساق التفسير لها ، وإطباق المعتزلة على أن القرآن لايفسر بالحديث مخالف لإجماع من يعتد به • وكذا قول الإمام : إن ظاهر الآية يدل على إخراج الذرية من ظهور بني آدم ، وليس فيها ما يدل على أنهم أخرجوا من صلب آدم ولا ما يدل على نفيه ، إلا أن الخبر دل عليه فيثبت خروجهم من آدم بالحديث ومن بني آدم بالآية •• لا يطابق سياق الحديث مع جوازأن يراد ببني آدم هذا النوع الشامل لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما هو مشهور في الاستعمال • ولذا قيل الواجب على المفسر أن لا يفسر القرآن برأيه ، اذا وجد النقل عن السلف ، فكيف بالنص القاطع من حضرة الرسالة ؟ فإن الصحابي سأله عما أشكل عليه من معنى الآية • وكذا فهم الفاروق ـ رضي الله تعالى عنه ـ إنتهى •

وأقول : لو كانوا يؤولون ظاهر الآية الكريمة بما ثبت بالنقل أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، والمراد من سيدنا آدم روحه الشريفة ، ومن بني آدم أرواحهم المنبثقة من روحه الأصل الأبوي ، وجعل الإخراج عبارة عن خطابه تعالى مع أرواح أولاده لكان أوفق بالواقع ، وأسلم لأن هنا نقلا موضحا للنقل ، والأرواح في ذواتها قابلة للسؤال والجواب ، وعلمه تعالى الأزلي واسع شامل لجميع الأرواح والاجساد التي ستخلق وتكلف بالأحكام • وأما معارضة بعض بأنه لو كان هناك خطاب وسؤال وجواب مع الأرواح لكنا متذكرين لذلك في هذه النشأة كما تتذكر في الشيب أعمالنا في الصبا •• فكلام ساقط ، لأن تذكر الأرواح لأعمالها الواقعة سابقا مع الأبدان مما يعقل لوجود الجسد في الحالين ، وأما تذكر الأرواح المتعلقة

بالأبدان المشغولة بأنواع الهموم والمشاغل والملابسات لأحوال الروح المجرد عن البدن فأمر غير بينٍ ولا مبيّن" .

ومعنى الاية الشريفة على ظاهرها : [و] اذكر [إذ اخذ ربك] من ظهور بني آدم ذريتهم [وأشهدهم] فردا فردا [على أنفسهم] لا على غيرهم تقريرا لهم بربوبيته سبحانه وتعالى قائلا لهم : [ألست بربكم ؟] أي بمن أوجدكم وربّاكم متدرجين من نطفة إلى علقة فمضغة غير مخلقة فمخلقة ، ثم أخرجكم من بطون أمهاتكم إلى آخر ما يأتي عليهم [قالوا : بلى شهدنا على أنفسنا] بذلك وإنما فعل بكم ما فعل كراهة [أن تقولوا] يوم القيامة [إنا كنا عن هذا] أي عن ربوبيتك وعبوديتنا [غافلين] فليس علينا عقاب على كل ما جرى منّا سابقا أو لاحقا [أو تقولوا] لدفع الأذى عنكم [إنما أشرك آباؤنا من قبل] أي من قبل زماننا وصار الإشراك أمرا تقليديا مستمرا في آبائنا إلى أن وصل الأمر إلينا فلسنا مبتكرين لهذه الأشياء من الإشراك وملابساته . وكنا نحن ذرية من بعدهم لا نعرف حقوق الرب ولا نميز الطاعة عن المعصية [أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟] من آبائنا الضالّين المضلين ، ولا نراك وأنت الرب الرؤوف الرحيم أن تفعل ذلك .

[وكذلك] أي ومثل ذلك التفصيل البليغ لأخذ الباري تعالى العهود والمواثيق من الأرواح أو من الذريه حين كانت في صلب الأب علاوة على ما حققناه من شرائط التكليف في عالم الظهور ببعث الرسل بالكتاب [نفصّل الآيات لعلهم يرجعون] إلى الحق المبين .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي آتَيناهُ آيَاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ(١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ، وَمَن يُضْلِلْ ، فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ، أُولئِكَ كَالأَنعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولئكَ هُمُ الْغافِلُونَ)(١٧٩)

قوله تعالى : [واتل عليهم] أي واقصص على بني إسرائيل المفتونين بعلم التوراة ادعاءً وزعماً أو بالانتساب إلى دين موسى غرورا وكذبا [نبأ] العالِم الإسرائيلي [الذي آتيناه] علم [آياتنا] أي علم التوراة [فانسلخ منها] فتجرّد عن الإيمان بها [فاتبعه الشيطانُ] أي جعله تابعا لنفسه ومنحرفا عَنْ قدسه [فكان من الغاوين] فصار من الضالّين عَن طريق الحق والصّراط المستقيم •

أخرج ابن المنذر عن مالك بن دينار أنه كان من علماء بني إسرائيل وكان موسى عليه السلام يقدمه في الشدائد ويكرمه وينعم عليه ، فبعثه إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله تعالى وكان مجاب الدعوة ، فترك دين موسى عليه السلام واتبع دين الملك فصار من الضالين • والعياذ بالله •

والمشهور من عنوان هذا الرجل أنه (بلعم بن باعوراء) ومن بني إسرائيل •

[ولو شئنا] مشيئة قسر وإجبار [لرفعناه بها] أي بتلك الآيات بأن

يلاحظها ويعمل بها فيتقرب إلى الله ، [ولكنه] بسوء تصرفاته واختياره [أخلد إلى الأرض] يعني مال إلى الدنيا الدنية والشهوات النفسية [واتبع هواه] بأن تبع ملك مدين وترك دين موسى وهُداهُ [فَمَثَلُهُ كمثل الكلب] في ضيق النَّفَسِ وخِسّة النَفْس ، : [إن تحمل عليه] وتطرده (يلهث) يخرج لسانه بالنفس الشديد (أو تتركه) في محله وعلى حاله [يلهث] واللهث : إدلاع اللسان من التنفس الشديد أي إخراجه متتابعا مع نَفَسٍ عالٍ لشدّة خَفَقانِ القلب النّاشئ عن ضعفه [ذلك] أي صفة الكلب هذه وحاله [مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآياتنا] يريد بالقوم مشركي مكة كانوا يَتَمنّون هاديا يهديهم وداعياً يدعوهم إلى طاعة الله ، ثم لما جاءهم الصادق الأمين كذّبوه وأعرضوا عما معه من الآيات ، أو اليهود حيث قرأوا نعت الرسول صلى الله عليه وسلم في التوراة وبشروا الناس باقتراب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة وآياته البينات في نعت الرسول وكتابه القرآن وأصحابه في آخر الزمان [فاقصص القصص] يعني فاحك هذه القصة على المكذبين [لعلهم يتفكرون] في شقاوة الأشقياء وسعادة السعداء ، فيعتبرون ويأخذون بأسباب السعادة الأبدية ويبتعدون عن علل الشقاوة السرمدية • والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم •

[ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا] أي مثل القوم [وأنفسهم كانوا يظلمون] لا غيرهم [من يهد الله] إلى الصراط المستقيم هداية مع العناية [فهو المهتدي ، ومن يضلل] عنه [فأولئك هم الخاسرون] وليس خسرهم عدوانا من أحد عليهم ولكنه من إهمالهم العقل وتركهم الاعتبار والاستبصار الذين في دائرة الاعتبار والاختيار • وإذا لم نعتد بذلك فلا يبقى وزن ولا ميزان ولا إطاعة ولا عصيان ، ولم يبق إلا الفوضى في النواميس النفسية والقدسية ولا يرضى بذلك إلا الجاهلون •

[ولقد ذرأنا لجهنم] والتعذيب فيها [كثيرا من الجن والإنس] الذين لا يسمعون إلا إرشادات الحق ومواعظه ، بل ويعاندونها ولا يريدون أن يستمعوا لها ، فعطلوا جميع مشاعرهم وعقولهم وحواسهم ف [لهم قلوب لا يفقهون بها] لأنهم لا يريدون أن يتفقهوا بها [ولهم أعين لا يبصرون بها] لأنهم لا يحدقون النظر إلى ما أحاط بالحقائق لا إليها [ولهم آذان لا يسمعون بها] الدوال مع المدلولات ، أو إنما يسمعون الألفاظ بدون ملاحظة المعاني [أولئك] الموصوفون [كالأنعام] في الحرمان عن أسباب الخير والإنعام [بل هم اضل] لأن الضلال في الحقيقة لا يستند إلا إلى من من شأنه الاهتداء لا إلى ما ليس من شأنه إلا الرغاء [أولئك هم الغافلون] .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ(١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ(١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(١٨٣) أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ؟ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ(١٨٤) أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ؟ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ(١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(١٨٦)

قوله تعالى : [ولله الأسماء الحسنى] فيه تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلّين بذلك ، الغافلين عنه سبحانه . والمراد بالأسماء الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة ، والحسنى تأنيث الأحسن أفعل

تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجملها ، لأنها تنبيء عن أحسن المعاني . وقوله تعالى [فادعوه بها] إما من الدعوة بمعنى التسمية أي سموه بها ، أو من الدعاء بمعنى النداء أي نادوه بها . وقولوا : يا الله ، يا رحمن ، يا رحيم ... وقوله : [وذروا الذين يلحدون في أسمائه] أي واتركوا موافقة من يميلون وينحرفون فيها من الحق إلى الباطل . والإلحاد في أسمائه سبحانه أن يسمى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما في قول أهل البدو : يا أبيض الوجه ، يا سخي ، ونحوهما ... فالمراد بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك ، وبأسمائه ما اطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة . ومن فسر الإلحاد في الأسماء بما ذكر ذهب إلى أن أسماء الله تعالى توقيفية يراعى فيها الكتاب والسنة والإجماع ؛ فكل اسم ورد في هذه الأصول جاز إطلاقه عليه جل شأنه ، وما لم يرد فيها لا يجوز إطلاقه ، وإن صح معناه . ومأخذ استعمالها إنما هو الإطلاق والإذن من الشارع وإطلاق أسماء الله تعالى عليه باللغات الأعجمية ككلمة (تكرى) بالتركي أو (خدا) بالفارسي إنما هو لأخذها من الأنبياء المرسلين إليهم في وقته لقوله تعالى : (وإن من امة إلا خـلا فيها نذير) . ومالم يوجد فيه إطلاق ولا منع فقد قال الجمهور بالمنع منه لرعاية الأدب مع ذاته تعالى .

وقوله تعالى : [سيجزون ما كانوا يعملون] استئناف لجواب السؤال عن وجه ترك أولئك الناس الملحدين في أسمائه تعالى . وحاصله أنهم قوم عصاة ، وسيجزون عقابا على أعمالهم . فوجب تركهم لان من كان معهم يبتلى بمثل ما ابتلوا به ، وذلك خطر عظيم . ولما ذكر الباري أحوال الناس الضالّين ذكر أحوال الناس المهتدين الهادين لغيرهم إلى الحق فقال : [وممن خلقنا أمة] أي أناس طَيِّبُون مُطَيِّبُونَ يَهتدون و [يَهْدون] الناسَ [بالحق] أي بالوجه المطابق للواقع الموافق لمرضاته تعالى [وبه يعدلون]

أي وبالحق يحكمون سواء فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم [والذين كذبوا بآياتنا] ولم يصدقوا بما أنزلناه على رسلنا من البينات [سَنَسْتَدرِجُهُم مِن حيثُ لا يَعْلَمون] أي سننقلهم درجة فدرجة على مراتب اللذات والشهوات والأموال والأهل والبنين والبنات وسائر الملابسات المدعومة بالنفس والمرغوبة عندها من حيث لا يعلمون أنها نقمة من المنتقم لا رحمة ، أو من حيث لا يعلمون ماذا يراد بهم وماذا تكون العاقبة [وأملي لهم] يعني أمهلهم ولا أسلبها منهم بسرعة حتى لا يفهم الناس غاية الأمر ، وإذا سألت : لماذا ؟ فالجواب قوله تعالى [إن كيدي متين] لا يكاد يظهر لكل أحد بادي الرأي بل يختص بمعرفته أولو الالباب الذين مارسوا عهد الرسول والكتاب وانتقام الله تعالى من أهل العدوان والطغيان .

ومما يحسن أن يعلم أن الاستدراج استفعال من درج إما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي صاعد أو هابط ، ثم استعير لطلب كل نقل تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه . واستدراجه تعالى إياهم بإفاضة النعم عليهم مع استمرارهم في الغي والضّلال .

وإذا قيل : جرت سنة الله في الكون على استمرار النعم على الناس مدة من الزمن ثم زوالها بسبب من الأسباب سواء كان صاحبها من الصالحين أو لا ، فما الفارق بين الاستدراج بالمعنى المذكور واستمرارها على الصالحين مدة ثم زوالها ؟ قلنا : الفارق واضح على القواعد الإسلامية لمن آمن بها ؛ فإن صاحب النعمة إن كان مطيعا لربه وآخذا بهداه فهو من أهل الخير والنعم الفائضة عليه رحمة ربانية وإذا أزالها فلحكمة معلومة عنده ، ولكن لا يظهر من زوالها اضطراب وقلق وحيرة وكفران للنعم ، وإنما يقارن الزوال صبر وإنابة وتسلّ بما أعد له من جزاء الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس ، وأما المستدرج به والاستدراج بالمعنى المذموم فهو نعمة تفيض على بعض

الناس بدون شكرها وصرفها في الخير والاستفادة منها بل يزداد بها عتوا ونفورا وبطرا وغرورا ، ولما أزالها الله سبحانه ظهر من أصحابها الكآبة والحزن وسوء الأحوال وفساد المقال والكفر بحقوق ذي الجلال فتبين من ذلك أن صاحب النعمة كان صاحب النقمة ، وإن ماله أفاد فَسادَ حاله وسوءَ عاقبتهِ ومآلهِ ، وهناك آثار وفروعات كثيرة شهيرة تركناها خوفا من الإملال .

وقوله تعلى : [أو لم يتفكروا] إشارة إلى طريقة علمية واضحة للوصول إلى الحق إذا جاء أحد" برسالة أو إرشاد من شخص ذي شأن ، وهي أن الإنسان الذي جاءته الرسالة نظر إلى الرسالة ومحتوياتها وإلى من جاء بها وصفاته ؛ فإذا وجد الرسالة حقا بالبداهة أو البرهان فلا محالة أنه يجب عليه قبولها ، ولو لم يكن من أتى بها حائزا لمزية وفضيلة ، وإذا كان حائزا لها فبالأولى . ثم إذا نظر إلى مبدأ الرسالة ووجد فيه خللا من ناحية من النواحي جاز أنيتطرق إليه الشك في الرسالة بأن يقول ليست هذه الرسالة منه ؛ فإنه شخص نازل والرسول ومعنى الرسالة من أهل الفضائل والكرامات . وأما اذا وجده شخصا موصوفا بالكمال بعيدا عن الاختلال والاعتدال فبالطريق الأولى وجب عليه قبول الرسالة وإكرام الرسول . والكافرون المشركون والكتابيون إذا نظروا إلى الكتاب وإلى من جاء به وإلى الله الذي أرسله به لم يجدوا الا ما يؤيده العقل والنقل فلماذا لا يؤمنون ؟ فيقول تعالى : [أو لم يتفكروا ما بصاحبهم] وهو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم [من جنة] وجنون ، بل طبعه سليم مأمون وسر رسالته كالدر المكنون [إن هو] أي صاحبهم وهو الرسول الأمين [إلا نذير مبين] لأهل البغي والعدوان كما أنه بشير لأهل الصدق والسلامة والإيمان . هذه من جهة الرسول ويظهر من سلامته سلامة رسالته . وأما من جهة المرسل وهو رب العالمين فهو بسلامة

الفطرة رب عليم قدير خبير وبصير لأن أثر الأقدام يدل على المسير [أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض] مادة وصورة وبهجة وزينة وحركة وبركة وآثارا ودائرا ودورانا ومدارا [وما خلق الله] منهما وما فيهما وما بينهما [من شيىء] اي" شيىء كان ••• فهل وجدوا في ذلك فتورا وقصورا ونقصانا ؟ فلم لا ينظرون في ذلك نظر الاعتبار والاستبصار ؟ [و] إذا لم ينظروا في تلك العجائب فلم لا ينظرون إلى [أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم] وانحسر أملهم وانتهى عملهم ؟ وليس هناك شيىء آخر ليساوي ملكوت السموات والأرض ولا دليل آخر فيه بيان مثل أخلاق الرسول الذي هو صاحبهم ، فإذا لم يستفيدوا من هذه العيون النابعة النافعة ولم ينتفعوا بهذه المطالب الواسعة [فبأي حديث بعده] أي بعد الصاحب وما معه [يؤمنون ؟]•

[من يضلل الله فلا هادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون] فلم يبق هنا شيىء يذكر في تعليل تأخر الناس عن الاعتبار والاستبصار والإيمان بالله الواحد القهار ، وبرسوله النبي الزكي المختار ، والكتاب الذي أنزل معه لإرشاد الثقلين إلى السعادة في الدنيا وفي دار القرار إلا أن نقول من يضلل الله ويخلق فيه الضلال لسوء اختياره وعناده وتعنته فلا هادي له ، فإذا لم يبق لهم مجال الهداية والعناية فيذرهم الله في وادي الحيرة يتحيرون وفي مهالك الطغيان يعمهون ويترددون ولا ينتبهون أعاذنا الله سبحانه •

(يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسيها ؟ قُلْ : إِنَّما عِلْمُها عِندَ رَبِّي ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، لا تَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً ، يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ : إنَّما عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ : لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسى نَفْعاً وَلا ضَرّاً إلا مَا شاءَ

اللهُ ، وَلَو كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(١٨٨)

قوله تعالى : و [يسئلونك عن الساعة] . الساعة : في الأصل اسم لوقت قليل المقدار وعند الفلكيين عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزء من الليل والنهار . وفي عرف الشرع تطلق على يوم موت الخلائق ، وعلى يوم البعث يعني يوم قيام الناس لرب العالمين . وفسروها بيوم القيامة . ولعل المراد أحد ذينك اليومين . والسائل عن ذلك أناس من قريش . فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أن قريشا قالوا : يا محمد أسِرَّ إلينا متى الساعة ؟ لما بيننا من القرابة . فنزلت . والكثيرون على أن السائل أناس من اليهود . فقد أخرج ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال حَمَلُ ابنُ ابي قشير وسَمَولُ بنُ زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً كما تقول فانا نعلم متى هي ! وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها ، فأنزل الله تعالى الآية [أيان مُرسْيها ؟] كلمة أيان ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ، وهي في محل الرفع خبرُ مرسيها ، وهو مصدر ميمي من أرساه إذا أثبته ، يعني في أي وقت استقرارُ الساعةِ وتحققها ؟ [قل : إنما علمُها عند ربي] سبحانه وتعالى [لا يجلّيها لوقتها إلا هو] أي لا يكشفها في وقتها إلا هو ، يعني لا يكشف عنها ، ولا يظهر للناس أمرها الذي تسألون عنه إلا الرب سبحانه بالذات . [ثقلت في السموات والأرض] أي كبرت وعظمت على أهلهما لخوفهم منها [لا تأتيكم إلا بغتة] أي إلا فجأة على غفلة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصلح حوضه ، والرجل يَسقي ماشيته ، والرجل يُقَوم سلعته في سُوقه ، والرجل يخفض ميزانَه ويرفعه . » [يسئلونك كأنك حفي

عنها] يعني يسئلونك كأنك عالم بها ومطلع على وقتها [قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون] انحصار علم الساعة في ذات الباري ويتوهمون أن الناس يعرفونها أيضا [قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا] أي لا أملك لأجل نفسي جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما [إلا ما شاء الله] أي إلا وقت مشيئته سبحانه بأن يمكنني من ذلك فإني عند ذلك أملكه بمشيئته [ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير] أي لحصلت كثيرا من الخير الذي تعلق بترتيب الاسباب ورفع الموانع [وما مسني السوء] الناشىء عن عدم علمي بالحقائق [إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون] •

ومما يجب أن ينبه عليه أمران ؛ الأول : أن هناك من يتوهم ويقول : ما دامت الآية ناطقة بأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يعلم الغيب لزم أن لا يعرفه غيره بالطريق الاولى ، فما معنى نسبة الإخبار بالمغيبات إليه في إخباره بأمور تقع في المستقبل ، أو الى غيره من الاولياء والصالحين بالكشف ؟ والجواب : أن المنفي عن الرسول وغيره من الأنبياء والاولياء هو العلم بالغيب ، والعلم صفة ذاتية تلازم العالم ولا تنفك عنه ، وهذه لا توجد في غير الباري سبحانه وتعالى • وما اطلع عليه الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وغيره هو عرفان جزئي في مادة من المواد حصل له من الله بالوحي أو الإلهام ، وهذا ليس علما بالمعنى المذكور وهو ظاهر ، فإذا أعلمه المولى بشيء علمه وإذا لم يُعْلِمْهُ فلا •

والثاني : أنه يتشكل اللزوم في قوله تعالى (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) فإنه لا يلزم من العلم بالخيرات القدرة على استحصالها ولا من العلم بالمصائب دفعها وردها ! والجواب إن هذا اللزوم مبني على اعتبار العلم بتعلق إرادة الباري سبحانه بكون شيء سببا لجلب الخير أو لدفع الشر على قاعدة ترتب المسببات على الاسباب ،

ولا شك أن العلم بالدواء النافع واستعماله سبب لإزالة الامراض ، كما أن العلم بوجود منفعة هنالك وطرق جلبها ومباشرة أسبابها يوجب حصولها له فالسوء المنفي سوء يعالج بدواء مستعمل معلوم ، كما أن الخير الحاصل هو خير مسبب عن مباشرة سبب معلوم ، وهذا مما لا شك ولا شبهة فيه لأحد . وعلى ذلك يكون العلم بالغيب والاطلاع على أسباب الخير وكسبها كالعلم بالمقدمات المستلزم للعلم بالنتيجة لزوما عاديا عند الشيخ أبي الحسن الأشعري ، ولزوما عقليا عند الإمام الرازي فلا ينفك اللازم عن الملزوم . وكذلك العلم بالمصائب والاطلاع على موانعها ومباشرة تحصيل الموانع لدفع عروضها والخلاص منها .

فاللزوم بين الشرط والجزاء في الآية الكريمة لزوم عادي عند الأشعري ، وعقلي عند الامام الرازي رحمهما الله تعالى . ولا يتوهمن أحد أن من الخيرات ما لم يقدره الباري للإنسان فلا يكتسب له ، ومن المصائب ما تعلقت الإرادة بنزولها ، فلا يمكن رفعها ، فلا يتحقق اللزوم في الآية الكريمة لأنه من المسلمات عند الجمهور من المسلمين أن الله تعالى خالق كل شيء وأن العبد كاسب لما في طاقته ، وأن ما لم يقدره الباري تعالى للإنسان من الخير أو دفع الشر ليس مما يكتسب أسبابه . وكلامنا في ما يدخل تحت نظام المكاسب ، وإلا فبمقابلة القضاء والقدر مستحيل . فالملازمة بحسب ظاهر الكسبيات كلية ، وبالنظر الى مجموع المعلومات جزئية ، لأن المعلومات لا تتناهى ، ومنها ما يدخل تحت نطاق الكسب ، ومنها ما لا يدخل تحته . ولعل للإيماء الى هذه الدقيقة صدرت القضية بكلمة (لو) فإنها علامة القضية الشرطية المهملة ، وهي في قوة القضية الجزئية كما هو معلوم عند من مارس العلوم العقلية وأتقنها . هذا والله الهادي لطريق الصواب .

(هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها ، فَلَمَّا تَغَشَّيها حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ، فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوا اللهَ رَبَّهُما : لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٨٩) فَلَمَّا آتيهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فيما آتيهُما ! فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون(١٩٠) أَيُشْرِكُون ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ؟(١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً ، وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ(١٩٣) إنَّ الَّذِين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها ؟ أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ؟ قُلِ : ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ)(١٩٥)

قوله تعالى : [هو الذي خلقكم من نفس واحدة] جملة مستأنفة سيقت لبيان ما يقتضي التوحيد وهو حصر الخالقية فيه سبحانه وتعالى . يعني (خلقكم) أيها الآدميون (من نفس واحدة) وهو آدم ـ عليه السلام ـ [وجعل منها] أي من نفس جسدها [زوجها] وهي حواء [ليسكن اليها] أي ليستأنس بها ويطمئن قلبه بوجودها معه [فلما تغشيها] أي فلما جامعها [حملت حملا خفيفا] يعني محمولا خفيفا في بداية أمره عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة ، فإنها بالنسبة إلى ما بعد ذلك خفيف جدا ، [فمرت

به] أي استمرت به ، والمراد بقيت به كما كانت قبل [فلما أثقلت] أي صارت ذات ثقل بالنسبة الى بعض الاحوال ، وخافت حواء من الهلاك بسبب هذا الولد [دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين] والمراد بالصالح الولد المبارك المشرف بسبب مجيىء الأنثى معه ، وإن كان يحتمل أن يكون الصالح بمعنى الولد المطيع لله تعالى على ما هو المعروف في الإسلام [فلما آتيهما صالحا] كما أرادا [جعلا له شركاء] من الأوثان [فيما آتيهما] من الأولاد [فتعالى الله عما يشركون] وتعاظم وتبرأ عما يجعلونه شريكا له .

وفي الآية الكريمة إشكال لأنها بظاهرها تفيد أن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ قد أشركا بالله ، وذلك لا يتناسب مع مقام النبوة قطعا . وأجيب عنه بأجوبة :

الاول : إن الإشراك لم يكن من آدم ـ عليه السلام ـ وإنما كان شيئا في صورة الإشراك صادرا من أم البشر حواء فقط ونسب اليهما لكونهما للارتباط والألفة بينهما يعتبران كالشيء الواحد .

الثاني : إن المراد بقوله تعالى (جعلا له شركاء) جعل أولادهما له شركاء وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء ؛ لأنهما أصل لذريتهما كما في قوله تعالى (ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم) ويؤيد هذا الجواب قوله تعالى بعد (فتعالى الله عما يشركون ! أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ؟!)

الثالث : إن المراد بالصالح من يكتفي به في توليد النسل وتكثيره وهو الجماعة التي أقلها إثنان ذكر وأنثى ، لأن غاية آدم وحواء من ترتب الاولاد والنسل إنما تحصل بذلك . والضمير في قوله تعالى : (جعلا له شركاء)

يرجع إلى الصالح باعتبار المعنى وحقيقة الإشراك إنما ظهرت من هذين المولودين وهما ذكر وأنثى .

الرابع : إن الخطاب كان لقريش ، وإن المراد بالنفس الواحدة قصي ، والمراد بجعل زوجها منها أنها أيضا قرشية ، وأن المراد بشركهما تسمية أبنائها الأربعة بعبد مناف ، وعبد شمس ، وعبدالعزى ، وعبدالدار المناسبة للمشركين .

ثم استنكر إشراكهم وقال : [أيشركون] بذات واجب الوجود الخالق لكل موجود [ما لا يخلق شيئا] أي لا يقدر على خلق أي شيء من الأشياء [وهم يخلقون] ويخرجون من العدم إلى الوجود [ولا يستطيعون] أي أولئك الأصنام [لهم] أي للمشركين [نصرا] إذا ورد عليهم عدو [ولا أنفسهم ينصرون] أي ولا يقدرون على نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم [وإن تدعوهم] أي تلك الأصنام [إلى الهدى لا يتبعوكم] لأنها هياكل جامدة لا شعور لها [سواء عليكم] في عدم الاستفادة منهم [أدعوتموهم] إلى انجاز مرادكم [أم أنتم صامتون] .

ثم بين أن لا دربة لهم وقال : [إن الذين تدعون من دون الله عباد] مسخرون مقهورون لله تعالى [أمثالكم] لا فرق بينكم وبينهم بل هم أحقر لأنهم أجساد لا حياة فيها فإن كنتم في ريب من ذلك [فادعوهم فليستجيبوا لكم] وليلبوا دعوتكم [إن كنتم صادقين] في دعوى أنهم يفيدونكم شيئا .
ثم احتج على أنهم أحقر من الحيوانات العجم لخلوها عما هو موجود فيها فقال : [ألهم أرجل يمشون بها ؟] إذا عزموا على جلب شيء أو انهزموا خوفا من شيء [أم لهم أيد يبطشون بها ؟] إذا عارضهم شخص ذو بطش شديد [أم لهم أعين يبصرون بها ؟] حتى يميزوا العدو من الصديق [أم لهم آذان يسمعون بها ؟] نداء منادٍ أو دعوة داعٍ [قل : ادعوا شركاءكم]

واستعينوا بهم علي [ثم كيدون] جميعا [فلا تنظرون] أي لا تمهلوني بعد ترتيب مقدمات الكيد فإني لا أهتم بكم ولا أبالي .

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)(١٩٨)

قوله [إن وليي الله] جملة مستأنفة وقعت علة لعدم مبالاته بهم . يعني : ووجه عدم مبالاتي بكم هو أن الله [الذي نزل الكتاب بالحق] علي هو وليي ومحبي وناصري . [وهو] الذي [يتولى] شئون [الصالحين] ولا يتولى شئونكم لأنكم من الفاسدين [والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم] إذا أرادوا نصركم [ولا أنفسهم ينصرون] [وإن تدعوهم إلى الهدى] أي إلى أن يهدوكم إلى الخيرات في الحياة [لا يسمعوا] دعاءكم فضلا عن المساعدة [وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون] ما أمامهم فضلا عن ما بعد عنهم . فأي عاقل يعتمد على هياكل منحوتة جامدة خامدة لا خير فيها لأنفسها ولا لغيرها ولا قوة فيها للاستفادة منها ، وإنما هي أحجار وأخشاب منصوبة من قبل آبائكم بإغواء الشيطان وأعوانه ؟

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا

لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا : لولا اجْتَبَيْتَهَا ! قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ، هَذَا بصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، وهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٢٠٣)

قوله تعالى : [خذ العفو]أي إرض من الناس بما تيسر من أعمالهم وما آتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم الجَهْدَ وما يشق عليهم ، [وأمر بالمعروف] أي بالمعروف المستحسن من الافعال ، فإن ذلك أقرب الى قبول الناس [وَاَعرِض عن الجاهلين] أي ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم [وإما ينزغنك من الشيطان نزغ] النزغ والنخس والنسغ بمعنىً [فاستعذ بالله] أي فاستجر به والتجىء إليه سبحانه وتعالى [إنه سميع] لنداء الداعين و [عليم] بأحوال الناس أجمعين •

[إن الذين اتقوا] أي ان الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى [إذا مسهم طائف من الشيطان] أي لمة منه [تذكروا] أي تذكروا ما أمر الله به وما نهى عنه [فإذا هم مُبْصرون] ومدركون بسبب تذكر مواقع الخطأ [وإخوانهم] أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا [يمدونهم في الغي] يعني تعاونهم الشياطين في الضلال ، ويرغبونهم فيه ويحرضونهم على أسبابه وطرقه ، من عدم المبالاة بالحق ، وعدم استماع آيات الله ، وعدم إطاعة الرسول • [ثم لا يقصرون] أي أولئك الشياطين عن إغواء غير المتقين • وعلى هذا الوجه فالضمير المرفوع في يمدونهم راجع الى الشياطين • والضمير المنصوب فيه الى الإخوان وهم الناس الذين لا تقوى لهم • والجملة خبر للمبتدأ وجار على غير من هو له ، لأنه وقع بعد قوله [وإخوانهم] وضميره المرفوع عائد إلى غيره وهو الشياطين المستفاد من السياق • وعدم إبرازه مبني على تجويز الاستتار في نحو ذلك التركيب لا على وجوب الابراز كما هو عند البصريين •

[وإذا لم تأتهم] بآية من الله عند تأخر الوحي [قالوا] أي المشركون : [لولا اجتبيتها !] أي لولا جمعت آيات من عند نفسك فتقرأها علينا على عادتك • [قل] يا رسولي الصادق الأمين في رد كلام أولئك الكافرين : [إنما أتبع ما يوحى إليّ مِنْ ربي] ومالي شأن في هذا الموضوع وما ألقيت إليكم آية مخترعة من عند نفسي، وإنما هو وحي يوحى ونور يلقى إليّ فأنور به بصائركم و [هذا] القرآن [بصائر من ربكم] للقلوب وبشائر تأتي لكشف الكروب [وهدى] للمهتدين [ورحمة] للمتقين [لقوم يؤمنون] فمن آمن به فقد شملته رحمة رب العالمين ، ومَن لا فلا •

(وَإِذا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢٠٤) واذْكُرْ رَبَّكَ في نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بالغُدُوِّ وَالآصالِ ، ولا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ(٢٠٥) إنَّ الَّذِينَ عِنْدَ ربِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ)(٢٠٦)

قوله تعالى : [وإذا قرىء القرآن] في البيضاوى : نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها ، فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له • وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقا • وعامة الفقهاء على استحبابهما خارج الصلاة إنتهى •

وفي حاشية الشهاب : اختلف في سبب نزولها على وجه ينبني عليه معناه • فقال الجصاص : سببها كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ في الصلاة وقرأ معه أصحابه فخلطوا عليه ، فنزلت • وكذا روى الشعبي وغيره • وهي تدل للحنفية في أنه لا يقرأ المأموم في سرية ولا جهرية ، لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن

في الصلاة وغيرها . وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر ، وكذا في الإخفاء لعلمنا بأنه يقرأ وإن لم نسمعه .

وقال مالك رحمه الله تعالى : ينصت في الجهرية ويقرأ في السرية لأنه لا يقال له نستمع . وقال الشافعي ــ رضي الله عنه ــ : يقرأ في الجهرية والسرية في رواية المزني ، وفي رواية البويطي إنه يقرأ في السرية أم القرآن ويضم السورة في الأوليين ، ويقرأ في الجهرية أم القرآن فقط . وسبب نزول الآية كما رواه أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ : إنهم كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت ، فالنهي إنما هو عن التكلم لا عن القراءة وهو معنى قوله نزلت الخ . وكون الاستماع خارج الصلاة مستحبا متفق عليه . وقوله (فأمروا بالاستماع) إلخ ... ظاهره أنه لا يقرأ ، وهو مخالف لمذهبه إلا أن يكون مراده أنه يستحب للإمام في الجهرية سكتتان : سكتة بعد التكبير لدعاء الافتتاح ، وسكتة بعد الفاتحة ليقرأ المقتدي كما نقل في الأحكام . وسيشير إليه المصنف رحمه الله . والأوجه أن مراده أنها وردت في ترك الكلام لا في القراءة فيها لم يتعرض لها فلا يرد عليه ما ذكر . انتهى .

قلت : وفي المجموع للنووي أن الإمام يقرأ في السكتة الثانية بعد إتمام الفاتحة هذا الدعاء سرا : (اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي كما يغسل الثوب بالماء والثلج والبرد) والتفصيل في كتب الفقه . فيقول الباري سبحانه : [وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له] أي لتفهموا معناه وتتنور به قلوبكم وتطبقوا معناه حسب الاقتضاء [وأنصتوا] حتى لا يقع شيء أجنبي في أسماعكم ويحول دونكم ودون الاستفادة منه [لعلكم ترحمون . واذكر ربك في نفسك] والخطاب لرسول الله ــ صلى الله

عليه وسلم ـ وهو عام لكل ذكر فإن الإخفاء أقرب الى الإخلاص وأنسب بالقبول . وفي الخبر يقول الله تعالى : « ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » وفي رواية « خير من ملأه » وقال الإمام : والمراد بالذكر في نفسه أن يكون عارفا بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضرا لصفات الكمال والعز والعظمة والجلال ، وذلك لأن الذكر باللسان عاريا عن الذكر بالقلب كأنه عديم الفائدة ، بل ذكر جمع أن الذكر اللساني الساذج لا ثواب له أصلا . وقيل : الخطاب لمستمع القرآن ، والذكر القرآن . والمراد أمر المأموم بالقراءة سرا بعد فراغ الامام عن قراءته . ويستحب لمريد قراءة القرآن خارج الصلاة أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتعمم ويستقبل القبلة تعظيما له ، ومثله في ذلك العلم ولو قرأ مضطجعا فلا بأس إذ هو نوع من الذكر . وقد مدح سبحانه ذاكريه قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم . ويضم رجليه عند قراءة . ولا يمدهما لأنه سوء أدب ولو قرأ ماشيا أو عند النسج ونحوه من الأعمال ، فإن كان القلب حاضرا غير مشتغل لم يكره ، وإلا كره ، ولا يقرأ وهو مكشوف العورة ، أو كان بحضرته من هو كذلك ، وإن كانت زوجته ، وكره بعضهم القراءة في الحمام والطريق . قال النووي ومذهبنا لا تكره فيهما . وقوله : [تضرعا وخيفة] في موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أي متضرعا وخائفا .

وقوله : [ودون الجهر من القول] صفة لمعمول حال محذوفة أي ومتكلما كلاما دون الجهر [بالغدو] جمع غدوة . وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال وهو كما قال الأزهري جمع أصل ، وأصل جمع أصيل ، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس ، فهو جمع الجمع ، وليس للقلة وليس جمعا لأصيل لأن فعيلا لا يجمع على أفعال ، وقيل إنه جمع له ، لأنه قد يجمع عليه كيمين وأيمان . وخص الوقتان لأنهما من الأوقات اللطيفة

التي ترتاح فيها النفس ويطمئن القلب ، والمناجاة مع الله تناسب حالة الاطمئنان • [ولا تكن من الغافلين] عن ذكر الله في وقت من الأوقات لأنه كما تتوقف الحياة النفسية على التنفس ووجود القوت كذلك تتوقف الحياة القدسية الروحية على علاقته بربه سبحانه وتعالى •

[إن الذين] لهم منزلة [عند ربك] وهم الملائكة لاسيما أهل الملأ الأعلى [لا يستكبرون عن عبادته] بل يتشرفون بالوصول إليها [ويسبحونه] أي ينزهونه عما لا يليق بكبرياء ذاته [وله يسجدون] أي يخضعون ويتذللون غاية التذلل ويظهرون ذلك للكائنات بوضع أشرف نقاط الوجود أي الجبهة على الأرض في السجود • ويخصون ربهم بذلك ولا يشركون أحدا في الإيفاء بهذه الطاعة • وقد جاء الامر بالسجدة لآية أمرَ فيها بالسجود امتثالا لأمره وأخرج أحمد ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول في سجود القرآن بالليل مرارا (سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين) •

سورة الأنفال ، مدنية ، وهي خمس وسبعون آيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ، قُلِ : الأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ(١) إِنَّما المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم ، وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣) أولئِكَ هُمُ المُؤمِنُونَ حَقّاً ، لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ)(٤)

قوله تعالى : [يسألونك عن الأنفال] سبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ، ومن يَتَقَسَّم له ؟ المهاجرون منهم أو الأنصار ؟ وقيل : شَرَطَ رسولُ الله لمن كان لَهُ غَناءٌ أن ينفله ، فتسارع شبانهم حتى قَتَلوا سبعين وأَسَروا سبعين • ثم طَلَبُوا نَفَلَهم ، وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كُنّا رِدْءاً لكم وفئة تنحازون إليها • فنزلت فقسمها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بينهم على السواء • وعن سَعْد بنِ أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال : لما كان يومُ بدر قتل أخي عمير ، وقتلتُ به سعيدَ بن العاص وأَخذتُ سيفَه • فأتيت به رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستوهبته منه ،

فقال : ليس هذا لي ولا لك ، اطرحه في القبض فطرحته • وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي • فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال • فقال لي رسول الله : سألتني السيف وليس لي ، وإنه قد صار لي فاذهب فخذه •

وأصل معنى النفل الزيادة ، ولذلك يقال للتطوع نافلة • ولولد الولد نافلة • ثم صار حقيقة عرفية في العطية ، لأنها لكونها تبرعا غير لازم كأنها زيادة • وتسمى بها الغنيمة باعتبار أنها منحة من الله تعالى من غير وجوب •

ومعنى [يسألونك عن الأنفال] يسألونك عن حكمها [قل : الأنفال لله والرسول] أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به [فاتقوا الله] في الاختلاف والتنازع والطمع فيها [وأصلحوا ذات بينكم] أي الحال والصفة التي وقعت بينكم من ميل كلٍّ إلى اختصاصه ببعض الأشياء وغلبته على الآخرين • يعني استأصلوا عرق هذه الحالة الفاسدة واستسلموا لما يأمركم الله به ويبلغه رسول الله إليكم [إن كنتم مؤمنين] حقّ الإيمان فإنه يقتضي الخضوع لأمر الله وبلاغ رسوله والأمر الذي وصل إليه ، كما يقتضي التقوى أي الاحترازَ عن الكفر وسائر الكبائر وسفاسف الدنيا الدنية ، ويوجبُ اصلاح ذات البين بدفع الأحقاد والحزازات الواقعة الواردة على القلوب • وهنا ذكر من صفات المؤمن الكامل صفتين مهمتين : الأولى تقوى الله تعالى • والثانية إصلاح ذات البين • وتأتي من صفاته صفات أخرى بعدُ • [إنما المؤمنون] بالإيمان الكامل [الذين إذا ذكر الله] تعالى باسم ذاته أو صفة من صفاته السلبية أو الثبوتية الذاتية أو الفعلية [وجلت] وفزعت [قلوبهم] من هيبته تعالى ومن آثار صفاته [وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا] لأن تلك الآيات تدل على نسبة الصفات

العظيمة إليه تعالى ، ولما سمعها المؤمن تنوّر قلبهُ وانشرح صدره بأخذ مدلولات تلك الأسامي والصفات .

والإيمان إن كان مركبا من التصديق بالقلب والعمل بالآداب والتصديق باللسان ، فلا شك في قبوله للزيادة والنقصان ؛ فإن العمل بفرائض وسنن كثيرة فوق العمل بما دون ذلك . وإذا كان هو التصديق فالتصديق المعتبر في الإيمان هو الاعتقاد الجازم ، وفوقه اليقين ، وهو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع المعبر عنه بعلم اليقين ، وفوقه عين اليقين وحق اليقين . ولكل درجات فقبوله للزيادة محقق ، وما روي عن كثير من السلف من أنه لا يزيد ولا ينقص معناه أنه لا يعتبر الناقص من الاعتقاد الجازم ولا يطلب الزائد عليه ، فإن كانت زيادة عند شخص فهي فضيلة واردة له [وعلى ربهم يتوكلون] في أمورهم على الإطلاق . أي في إنجازها وتيسيرها وحصولها لأنها ولو كانت مربوطة بأسباب يباشرها المؤمن فمسبب الأسباب هو الله تعالى [الذين يقيمون الصلوة] بالوفاء بمقدماتها ومقاصدها شروطها وأركانها وأدائها في أوائل أوقاتها مع رعاية الخشوع والخضوع والرهبة لله تعالى . [ومما رزقناهم ينفقون] النفقات الواجبة على أنفسهم ومن في إدارتهم ، وكذا الصدقات الواجبة من الزكاة والكفارة والنذور الصحيحة . والمال الواجب صرفه للفقير المضطر في الجدب والبلاء والمستحبّة من وجوه الخيرات والحسنات والضيافات [أولئك هم المؤمنون حقا] يعني أولئك الموصوفون بالصفات المذكورة الخمس بعد الصفتين المأخوذتين فيما تقدم (هم المؤمنون) إيمانا حقا [لهم دَرَجاتٌ عند ربهم] بحسب زيادة ما عندهم من درجات الإخلاص [ومغفرة] لذنوبهم وخطاياهم [ورزق كريم] في دار النعيم .

(كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ(٥) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ

كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ(٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ(٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(٨)

قوله تعالى : [كما اخرجك ربك] خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أي حالهم هذه في كراهة التنفيل كحال إخراجك من بيتك للغزو في كراهتهم له . وكان إخراجك من بيتك إخراجا متلبسا بالحق المطابق لرضاء الله الموجب لانتصار المسلمين [وإن فريقا من المؤمنين لكارهون] وأصل الواقعة أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ، ومعها عدد قليل وهم أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام ، فأخبر جبريل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيّها لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة . فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة النجاء ! النجاء ! على كل صَعْب وذَلول عيركم ، أموالكم ، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبدا ! وقد رأت قبلَ ذلك بثلاث عاتكةُ بنتُ عبدالمطلب أن ملكا نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل فرماها من الجبل فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها ، فحدثت بها العباس ، وبلغ ذلك أبا جهل فقال : ما ترضى رجالهم أن يتنبؤا حتى تنبأت نساؤهم ! فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر . وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بوادي (دَقران) فنزل جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين : إما العيرُ ، وإما قريش . فاستشار أصحابه فقال بعضهم : متى ذكرتَ لنا القتالَ حتى نتأهب له ؟ إنّا خرجنا

للعير . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن العير مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل . فقالوا : يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو . فغضب عليه الصلاة والسلام ، فقام أبو بكر وعمر فأحسنا الكلام في اتباع أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله : إمض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحببت ، لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم قال : أشيروا علي أيها الناس . وهو يريد الأنصار ، لأنهم كانوا عدوهم ، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنهم براء من زمامه حتى يصل إلى ديارهم فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على عدوهم بالمدينة . فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ايانا تريد ؟ قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ... فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، ولا نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء . ولعل الله تعالى يريك منا ما يقر به عينيك فسر بنا على بركة الله تعالى فنشطه قوله .

ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « سيروا على بركة الله تعالى فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم » . ويتبين من ذلك أن بعض المؤمنين كانوا كارهين ، وبعضهم لم يكونوا كذلك وهو الأكثر .

[يجادلونك في الحق] الذي هو التوجه إلى الحرب التي هي من أسباب إعلاء كلمة الله العليا • [بعد ما تبين] ظرف لقوله [يجادلونك] بعد إعلامك لهم بأنهم ينصرون [كأنما يساقون إلى الموت] أي مشبهين بالذين يساقون بالقوة [وهم ينظرون] إلى علامات الموت وأسبابه • وكانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فيهم فارسان المقداد بن الأسود والزبير بن العوّام • وكان المشركون ألفاً قد استعدّوا للقتال • [وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين] واذكروا منة الله تعالى عليكم إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين [أنّها لكم] بدل اشتمال من إحدى مبيّن لكيفية الوعد • والطائفتان : القوم المحاربون الغزاة العتاة القاصدون إبادة الأصحاب ، والقافلة المجهّزة بأجمل أنواع الطعام واللباس وما يحتاج اليه الناس • [وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم] وهي أهل القافلة وما فيها ، أو معها ورئيسهم أبو سفيان • والشوكة في الأصل واحدة الشوك المعروف ، ثم استعيرت للشدة والحدة وتطلق على السلاح أيضا [ويريد الله أن يحق الحق] أي يظهره ويثبته [بكلماته] أي بآياته الموحى بها الى حبيبه [ويقطع دابر الكافرين] أي يهلكهم جملةً من أصلهم ، وعلل قوله ويقطع دابرَ الكافرين بقوله [ليحق الحق ويبطل الباطل] أي وإنما يقطع دابر الكافرين ليثبت الحق وهو الإسلام ، ويبطل الباطل وهو خرافة المشركين [ولو كره المجرمون] أي الكافرونَ من المشركين وغيرهم ، هذا الإحقاقَ والإبطالَ •

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٩) وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ،

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ(١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ)(١٤) •

قوله تعالى : [إذ تستغيثون ربكم] متعلق بأذكر المضمر ، أو بقوله ليحق الحق على اعتبار أن إذ يأتي بمعنى إذا للمستقبل ، واستغاثتهم قولهم بعد ما علموا أن لا مفر من القتال ، أي ربِّ انصرنا على عدوك وأغثنا يا غياث المستغيثين ، وقول الرسول بعد أن نظر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه وهم ثلاثمائة : « أللهم أنجز لي ما وعدتني ، أللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » [فاستجاب لكم أني ممدكم] أي بأني ممدكم [بألف من الملئكة مُرْدِفين] : بكسر الدال اسم فاعل باب الإفعال أي حالكونهم جاعلين المؤمنين خلفهم فتكون الملائكة مقدمة الجيش ، أو بفتح الدال أي حالكونهم متبوعين بالمؤمنين أي جعلوهم أمامهم ، فتكون الملئكة ساقة الجيش ومؤخرته • ويجوز أن تكون الملئكة منقسمين بقسمين : قسم منهم مقدمة الجيش ، والآخر منهم مؤخرته فتطبق القراءتان عليهم [وما جعله الله إلا بشرى] أي بشارة [لكم] بالنصر العزيز لأن المدد من الله ، فإذا حلّ حل النصر [ولتطمئن قلوبكم] بوجودهم بينكم ، فإخبار نزولهم تبشير ، واستقرارهم بينكم إطمئنان ، وحلول النصر المبين [وما النصر] في الحقيقة

[إلا من عند الله] لا من الملئكة ولا من غيرهم لأن الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مع الصحابة ، وهو أشرف الخلائق أجمعين [إن الله عزيز] أي غالب على أمره وقادر على تنفيذه [حكيم] في ما يفعله بالدوام .

[إذ يغشـيكم النعاس] بدل ثان من [إذ يعـدكم] أو متعلق بأذكر مضمرا . والنعاس أوّل النوم قبل أن يستوعب الإنسانَ . ومعنى الآية : واذكروا إذ يغشيكم النعاس ، ويجعله غاشـيا ومستوليا على رؤوسـكم [أَمَنَةً مِنه] أي فتنعسون لحصول الأمن الوارد من الله عليكم [وينزل عليكم من السّماء ماءً] روي أنهم كانوا في أشد حاجة إلى الماء للشـرب والتنظيف والطهارة من الحدث ، وقد غلب المشركون على الماء ، فأنزل الله المطر فأُمْطِروا ليلا حتى جرى الوادي ، فاتخذوا الحياض ، وسَـقَوْا الرّكابَ ، واغتسلوا ، وتوضأوا ، وتلبّد الرّمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وذلك الإنـزال والتنزيل للماء (ليطهركم به) من الحدثين [ويذهب عنكم رجز الشيطان] أي وسوسته في قلوبكم بالخوف من العطش [وليربط على قلوبكم] أي يقويها بالثقـة بعد إزالة التردد عنها [ويثبت به الأقدام] على الأرض عند المبارزة والمقابلة والمسافة ولا تنزلق ، أي وتثبت به أقدام الفكرة ويزيد نور البصيرة في أن الله معهـم [اذ يوحي ربك إلى الملئكة] متعلق بمضمر ، أي أذكر ، أو متعلق بقوله (يثبت) أي يثبت الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أي وقت إيحائه إليهم [أني معكم] في تثبيت المؤمنين وإعانتهم [فثبتوا الذين آمنوا] بالبشارة وإلقاءِ النورِ إلى قلوبهم ، أو بتكثير سوادهم في أنظار المشركين أو بالمحاربة في جنبهم ضد الكفار . ومعيتي لكم أني [سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب] الرعب : الخوف وانزعاج النفـس بتوقع المكروه . ولما ذكر التثبيت وإلقاء الرعب ومعلوم أنهما مقدمتان لغاية مهمة . ذكرها بقوله [فاضربوا] أي فاضربوا أيها

الملئكة [فوق الأعناق] أي أعالي الأعناق مما يلي الرأس أو نفس الرؤوس [واضـربوا] منهم [كل بنان] أي أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، والواحدة البنانة . وقيل : المراد بها مطلق الأطراف . لوقوعها في مقابلة الأعناق والمَقاتِلِ ، والمقصود اضربوهم كيفما اتفق مِن المقاتِلِ وغيرِها .

وقد كثرت الأقوال في أن الملئكة نزلت للبشارة والتثبيت الروحي فقط ، أو لهما وللقتال . وكل يقول ما يراه استنادا الى ما عنده من الدليل . ونحن بعد ملاحظة الروايات وبعد ملاحظة قوله تعالى (إذ يوحي ربك للملئكة) مع قوله (فاضربوا فوق الأعناق واضـربوا منهم كل بنان) وما روي عن ابن عباس أنه قال : بينما رجل من المسلمين يشتد في اثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وقائلا يقول أقدِمْ حَيْزُوم ، فخر المشـرك مستلقيا ، فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه ، فجاء فحدّث بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ . فقال : « صدقت ذلك من مدد السـماء الثالثة » .. لا يبقى لنا شبهة في أن الملئكة قاتلوا فعلا في بدر بإذن الله تعالى . وما يقال من : أنه لا حاجة إلى إنزال عدد كثير من الملئكة من الألف فصاعدا إذ يكتفى بواحد منهم ، فإن جبريل هو القوي الأمين فيكتفى به ، وأنهم لو نزلوا للقتال لرآهم المؤمنون ، ولو بعضا منهم ، أو أنه لو قاتلوا ما نجا واحد من المشركين ... فكله ناشىء عن الغفلة وسوء النظر في أمور الله تعالى ، وفي أن الأمور مبنية على أمر صادر وتوجيه من الله سبحانه حسب مشـيئته ، فجبريل كما يكتفى به في إهلاك القوم كان يكتفى بملك واحد لحمل العرش بدل أربعة في الدنيا وثمانية في الآخرة . وكان يكتفى بسبع من الملئكة على نار الآخرة ، وما كانت حاجة إلى تسعة عشر ، وبملك لكتابة الأعمال لا إلى اثنين ، والله تعالى عالم بأعمال العباد فلا حاجة إلى تعاقب الملئكة صنف لليل وصنف للنهار كما هو المقرّر . ثم لا ينزل الملئكة قليلا أو كثيرا إلا بأمر الله

سبحانه ، ولا يلزم من نزولهم للقتال رؤية الناس لهم ، فإن الملئكة ألطف من الجن ، وقد قال تعالى : (إنهم يرونكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) كما لا يلزم من نزولهم للقتال أن يباشر الجميع الحرب لجواز أن بعضا منهم أرسلوا للإلهام والتثبيت ، وبعض لأخذ الخطوط الخلفية أو الأمامية ، أو أنهم أنزلوا للقتال جميعا ، لكن ما كان لكل منهم أمر من الله تعالى إلا لبعض أعمال محدودة وقتل بعض الناس لا غير . فالحق الواضح من نصوص الآية والحديث أنهم نزلوا وشاركوا في القتال ولكن على وجه محدود حسب أمره تعالى .

والقول بأن الحصر في قوله تعالى : (وما جعله الله إلا بشرى لكم) يدل على أنه لم يكن لهم مهمة إلا البشرى ناش من توهم أن الحصر حقيقي وهو ممنوع ، فلم لا يجوز أن يكون الحصر في مقابلة النصر ؟ يعني وما جعل الله إنزال الملائكة الا لإلقاء البشارة إلى قلوبكم لا لتحقيق النصر بهم ، فإن النصر ليس منهم بل من الله تعالى ، ويؤيد ذلك بل ويحققه قوله تعالى : (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

فنقول بإيمان سليم : إنهم نزلوا ، وبشروا المؤمنين بإلهام النصر ، وثبتوا قلوبهم بأمر الله تعالى ، وقاتلوا على ما قدر الله تعالى لهم ، فضربوا أعناق المشركين وحدهم ، أو مع المؤمنين ، فضربوا كل بنان منفردين ، أو مع المؤمنين ، ولم يتجاوزوا ما قدره رب العالمين لأنهم يحكى عنهم هذا الأدب بقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) وبقوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها بأمر ربهم من كل أمر سلام) .

[ذلك] العذاب المذكور الوارد على المشركين يوم بدر [بأنهم شاقوا الله ورسوله] وخالفوه او عاندوهما وعادوهما [ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب] أي بالنسبة إليهم [ذلكم] أي الأمر المقرر لكم العذاب

الواقع أو ذوقوا ذلكم [فذوقوه] أو مبتدأ خبره محذوف أي ذلكم واقع فذوقوه مرّا [وأن للكافرين] أي ذوقوا ذلك مع ما أُجّل لكم من عذاب الآخرة ، لأن للكافرين [عذاب النار] وأنتم كافرون •

(يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زحْفاً فَلا تَوَلّوهُمُ الأَدْبَار(١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحيِّزاً إلى فِئَةٍ ، فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْويهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ، وَما رميت اذ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى • وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بلاءً حَسَناً ، انَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧) ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكافِرِينَ(١٨) ان تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وإنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَانْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً ، وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَانَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)(١٩) •

قوله تعالى : [يا ايها الذين آمنوا] خطاب للمؤمنين بحكم مستمرّ كلي فيما يقع من الحروب في جهادهم مع الكفار • ويقول تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم] المحاربين الأعداء [الذين كفروا] بالله ورسوله [زحفاً] أي لقاءَ زحف ، أو زاحفين ، أي مهاجمين ككتلة واحدة • والزحف : هو الدبيب ، ويقال : زحف الصبي إذا دَبَّ على أسْتِهِ قليلا قليلا • ثم ينعت به الجيش الدّهم المتوجه إلى العدو ، لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كجسم واحد متصل ، [فلا تولوهم الأدبار] والمعنى : إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالهم ، متوجهين لمحاربتهم ، أو ماشيا كل منكم إلى صاحبه فلا يدبروا ، وتقييد

النهي بذلك الوقت لأن الإدبار فيه أفحش بالنسبة إلى الإنسان المسلم الغيور من سائر العيوب ففيه عار الدنيا ونار الآخرة ! [ومن يُوَلِّهم يومئذ] أي يوم اللقاء في الحرب [دبره] ولو لم يفرّ [إلا متحرفا لقتال] أي إلا منحرفا ومنصرفا عن جهة المواجهة إلى الاستدبار لمصلحة القتال ومكيدة تناسبه ، [أو متحيّزا إلى فئة] أو إلا منحازا أو مائلا إلى جماعة من أصحابه المحاربين ليقاتلوا بخط واحد ونمط مضبوط [فقد باء بغضب من الله] أي فقد رجع وأوى متلبسا بغضب عظيم كائن من الله [ومأويه جهنم ، وبئس المصير] هي .

والآية تدل على تحريم الفرار من الزحف على غير المنحرف أو المتحيز . أخرج الشيخان عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يا رسول الله وما هي ؟ قال: الشرك بالله تعالى ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف » . وهذا إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى : (الآن خفف الله عنكم) الآية ... أما إذا كان أكثر ، كأن يكون في مقابلة واحد ثلاثة من الكفار فيجوز الفرار . ففرار الواحد من الإثنين فرار ، وفراره من الثلاثة ليس بفرار .

[فلم تقتلوهم] الخطاب للمؤمنين والفاء في جواب شرط مقدر مستفاد من إنزال الملئكة مَدَداً من الله . ومعنى الكلام : وما دام انتصاركم على المشركين كان بإمداد من الله فلم تَقْتُلوهُم أنتم بقوتكم وشجاعتكم ، [ولكن الله] تعالى [قتلهم] بقدرته ونصره ، وتسليطكم عليهم ، وإلقاء الرعب في قلوبهم ، فلا تقولوا : ضربنا وقتلنا وأسرنا [وما رميت إذ رميت] بالحصى يوم بدر إلى وجوه المشركين [ولكن الله رمى] ذلك إليهم [وليبلي المؤمنين منه بلاء حَسَنا] يعني ليعطي المؤمنين من عنده عطاء حسنا جزيلا جميلا .

[إن الله سميع] لدعائهم واستغاثتهم [عليم] بنياتهم وأحوالهم الداعية للإجابة [ذلكم] أي العطاء الحسن ذلكم [وأن الله موهن كيد الكافرين] وهذه الجملة المصدرة بأن المفتوحة معطوفة على اسم الإشارة ، أي المقصد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين ، وإبطال دسائسهم الشيطانية ٠

وهنا بحثان :

الأول : في المراد بالرمي المنسوب إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٠ فمنهم من قال : إنه رميه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحصى يوم بدر ، وما كان منه ، فقد روي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال : لما طلعت قريش من العقنقل (اسم موضع) ـ : « هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها : أللهم إني أسألك ما وعدتني ، » فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعَلِيّ كرّم الله تعالى وجهه : « أعطني قبضة من حصباء الوادي » فرمى بها وجوههم ، وقال : « شاهت الوجوه » فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، فهذا جاء من عدة طرق ، ذكرها الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى ٠

وذكر الطيبي : أنه كان يوم حنين ٠ ورده الحافظ السيوطي ٠ وذكر ما في حنين في هذه القصة بعيد جداً ٠ وروي عن الزهري وسعيد بن المسيب : أنه رميه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد فإن اللعين أبيّاً بن خلف قصده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فاعترض رجال من المسلمين له ليقتلوه فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « استأخروا » ، فاستأخروا فأخذ عليه الصلاة والسلام حربته بيده فرماه بها فكسر ضلعا من أضلاعه ٠ وفي رواية خدش ترقوته فرجع إلى أصحابه ثقيلا ، وهو يقول : قتلني محمد ،

فطفقوا يقولون : لا بأس عليك • فقال : والله لو كانت بالناس لقتلتهم ! فجعل يخور حتى مات ببعض الطريق •

والثاني : وجه الجمع بين السلب والإيجاب في قوله تعالى (وما رميت إذ رميت) وفيه تأويلات • والخلاصة : أنه ما دام لا يجوز حملهما على خلق الرمي لأن الخالق هو الله تعالى ، فلا يسند إلى العباد حتى يثبت أو ينفى ، ولا حملهما على الكسب ، لأن كسبهم ثابت بلا شبهة ، فإن علاقة كل فعل اختياري بالعباد تنحصر في الكسب ، فلا يجوز سلبه على معنى سلب الاكتساب وجب حمل المسلوب على جهة الخلق والموجب على الاكتساب أي ما خلقت الرمي إذ اكتسبت الرمي ، ولكن الله رمى وخلق ذلك الرمي بحيث يكون منشأ لتلك الآثار • أو حملهما معاً على الاكتساب لكن برعاية قيد موجه أي ما كسبت الرمي بحيث يكون منشأ لحصول تلك الآثار منه إذ كسبته صورة ، ولكن الله رمى وخلقه كذلك •

وقوله تعالى : [إن تستفتحوا] خطاب للمشركين على سبيل التهكم ، والمعنى إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما [فقد جاءكم الفتح] حيث نصر الله أعلاهما ، وقد زعمتم أنكم الأعلى والأهدى [وإن تنتهوا] عن الحرب مع الرسول وعدائه [فهو خير لكم] أى فالانتهاء عنها خير لكم من الحرب التي لا تنسون ضربها [وإن تعودوا] إلى حربه [نعد] لمعاداتكم ، وقد شاهدتم الآثار [ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت] ، أي لا تفيدكم اليوم ولا بعده إلى الأبد تلك الفئة ولو كثرت عددا وعدداً [وإن الله مع المؤمنين] أي والامر المقدر المقرر أنّ الله مع المؤمنين •

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا

سَمِعْنا ، وَهُمْ لا يَسْمَعُون(٢١) إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)(٢٣) •

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] الآية ••• المراد من الآية الشريفة الأمر بطاعة الرسول لأنه هو الذي أتى باحكام الله تعالى أصلاً وفرعا • والأمر بطاعة الله تعالى هو توطئة للأمر بطاعة الرسول ؛ لأن أحكام الله تعالى أوحيت إلى الرسول ، وإطاعته لا يتحقق إلا بطاعته فقد قال تعالى : (ومن يطع الرسول فقد اطاع الله) [ولا تتولوا عنه] أي عن الرسول [وأنتم تسمعون] القرآن الناطق بوجوب إطاعته [ولا تكونوا كالذين قالوا سَمعنا] كالمنافقين الذين يدّعون السماع [وهم لا يَسْمَعون] أي مطلقا أو سَماعاً نافعا لهم • فكأنهم لَيسوا بسامعين [إن شرّ الدّواب عند الله الصّمّ البكم] أي الذين لا يسمعون الحق والذين لا ينطقون به [الذين لا يعقلون] والذين أضافوا إلى العيبين عيبَ فقدانِ العاقلة التي عليها مَناط السعادة في الدارين •

والحاصل : ان الإنسان الذي لا يستعمل حواسه في ما يفيده ، ولا عقله في ما ينفعه هو ملحق بأفق الأنعام الصم البكم اللّائي حُرِموا من العقول وإحساس الحواس • بل هم أضلّ لأن الأنعام الغير المكلفة لا حَرَج عليها ، والإنسان مكلّف ويقع بما ذكر في أسوأ مآل وعاقبة •

ولما كان هنا مظنة سؤال هو : أن الله قادر على إسماعهم الخيرَ والرشد ، فلم لم يسمعهم حتى يسمعوا ويطيعوا ؟ استأنف لجوابه بقوله : [ولو علم الله فيهم خيراً] وحُسْن استعداد لقبول الخير [لأسْمَعَهم] كلامَه وآياتِه البينات وكلامَ الرسل المؤيدين بالمعجزات ، لكنه لم يتعلق علمه بذلك بل

تعلق علمه تعالى بسوء استعدادهم وانهم يعارضون الحق وينكرونه ، ولذلك لم يُسْمعهم إسماعاً ينفعهم . فاستعمال كلمة (لو) هنا على وضعها اللغوي للدلالة على انتفاء الثاني لانتفاء الأول . كما في قولك لمن بقي أعزب إلى أن شاب : لو تزوجت لاستفدت راحة نفسية من أهلك . فكلمة لو هذه ليست للاستدلال بانتفاء التالي المعلوم على انتفاء المقدم المجهول ، بل لبيان أن علة انتفاء التالي المعلوم هو انتفاء المقدم المعلوم أيضا . ولكن المخاطب غافل عن عليته له . وهذا معنى ما اشتهر بين النحاة من أن لو لامتناع الثاني لامتناع الأول وقد تستعمل كإن للشرط ، أي لتعليق الثاني بالأول في الاستقبال ، غير أنها لا تعمل الجزم كما أفاده ابن هشام في (مغني اللّبيب) وغيره من النحاة . وعليه قوله تعالى [ولو أسمعهم لتولوا] يعني إن أولئك الكافرين المعاندين في درجة من الاستكبار عن الحق لو أسمعهم الله تعالى بكل لطف ولين ورحمة لتولوا عن قبول الحق لأنهم طُغاة عُتاة ، وهم معرضون عن الله ورسوله الأمين .

فالجملتان المصدرتان بكلمة لو جملتان مستقلتان ، وكلتاهما تفيد فساد مزاج أولئك الكفرة وسوء استعدادهم وإباء نفوسهم الخبيثة عن قبول الدين ونظامه في العالمين . وليستا مرتبطتين كجملتي قياس اقتراني شرطي كما في قول المستدل : كلما كانت الشمس طالعة كان النهار موجودا ، وكلما كان النهار موجودا كان العالم مضيئا حتى يرد اعتراضا من بعض الأغبياء أن الآيتين قياس اقتراني شرطي من الشكل الأول مع أن النتيجة فاسدة وهي لو علم الله فيهم خيرا لتولّوا ، وذلك لأن القياس الاقتراني الشرطي مشروط بكون المقدمتين لزوميتين ، وكون كبراهما كلية ، والكل منتف . أما إنتفاء الأول فلأنه لا يلزم من علم الله بوجود الخير في أي قوم إرسال الرسول إليهم وإسماعهم الكتاب لأنه مضت أيام الفترة على كثير من

الناس ولم يأتهم رسول ، وكذا لا يلزم من الإسماع التولي والاستدبار بل يناسبه غيرهما . وأما انتفاء الثاني ، أي كلية الكبرى ، فلأن القضية المصدرة بكلمة لو مهملة ، وهي في قوة الجزئية ، ولا يصح وقوعها كبرى في الشكل الأول . ألا ترى فساد النتيجة في قولك كلما كان زيد إنساناً كان حساسا ، وقد يكون إذا كان الشيىء حساسا كان طيرا ، والنتيجة قد يكون إذا كان زيد إنسانا كان طيرا .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ ، واعْلَمُوا أنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ ، وأَنَّه إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ(٢٥) وَاذْكُرُوا اِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ اَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآويكُمْ ، وَاَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(٢٦)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] تكرير النداء مع وصفهم بنعت الإيمان تنشيط لهم على الإقبال على إطاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : [يا أيها الذين آمنوا استجيبوا] لحكم الله ورسوله وامتثلوا أوامرهما واجتنبوا ما نهيا عنه [إذا دعاكم لما يحييكم] أي إذا دعاكم إلى شرب ماء زلال الشريعة التي تورثكم الحياة الخالدة المباركة الطيبة ، وإلى التزام نظام تفيدكم الخلود في العلو والاعتبار ، فمن لم يشرب زلال الشرع فهو ميت ساقط في وادي الضلال ، ومن لم يلتزم النظام بقي حيران في الهيام [واَعْلَموا أنّ اللهَ يَحُول بَيْنَ المرء وَقلبِه] أي واعلموا أن الله قريب

منكم جدا بحيث كأنه بينكم وبين قلوبكم أي ومطلع على أسرار غيوبكم ، فيجازيكم بحسب عزائمكم ونياتكم • أو اعلموا أن الله يقدر أن يحول قلوبكم إلى صفة الاستكبار والعناد والاستنكار بحيث ينقلب إلى أعمال فاسدة ، وأخلاق كاسدة ، وعقائد خاسئة جاحدة • والقلب مورد للتقلبات والانحراف نحو الأشياء النافعة والضارة ، فاغتنموا أوقاتَ سلامتها ، فإن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ جاءكم لتوجيهكم إلى ملاحظة الخيرات ، [وأنه إليه تحشرون] أي واعلموا أن الشأن عبارة عن أنكم تموتون وتبقون أزمنة في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، ثم يحييكم ويبعثكم من القبور ثم إليه أي إلى حسابه وميزانه ولقائه تحشرون •

[واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة] أي واحفظوا أنفسكم من عذاب ناشيء من مخالفة أوامر الرسول إذا نزل عليكم عم الظالمين منكم على حسب بغيه وعناده جزاء وفاقا ، وغير الظّالمين منكم على جريان سنته السنيّة، بأنه إذا أراد إهلاك الملزوم أراد إهلاك اللازم، وإذا أراد فَناء العرَض أراد فَناء الجوهر ، وإذا أراد إماتة الوالدين العاصيين أراد افتقار اليتامى إلى الناس ، وإذا أراد إهلاك عُتاة ظَلَمة أراد إتعاب أتباعٍ مِن حولهم من الخادمين ، وإذا أراد إهلاك قوم بالقحط والجدب أراد إهلاك حشرات الولاية بإمحاء ما تعيش به من النبات والحاصلات ••• ومع ذلك فكل مكلف يبعث على نيته على أن الله مختار في تصرفه في كل موجود ، وهو الذي في كل فعاله محمود • [واعلموا أَنَّ اللهَ شَديدُ العقاب] لمن تعدى حدود الأحكام وأبى قبول الإسلام •

[واذكروا إذ أنتم قليل] في العَدد ، وضعيف في العُدَد في الواقع و [مستضعفون] عند الأعداء [في الأرض] أي ارض مكة وما حولها [تخافون أن يتخطفكم النّاسُ] أي يأخذوكم بسرعة خاطفة فيبيدوكم عن

بكرة أبيكم ، أو ينقلوكم إلى بلاد أخرى [فآويكم] إلى المدينة أرض المعيشة والاسترخاء فزدتم عدداً وعُدَدا [وأيدكم بنصره] وأخرجكم من الضعف والاستضعاف والهوان بمناصرة الأنصار [ورزقكم من الطيبات] من المكاسب والغنائم [لعلكم تشكرون] والشكر بالنسبة إليكم عبارة عن الاستقامة على ما تقرر لديكم من كتاب الله وسنة رسوله ، والعمل بمقتضاهما ليزيدكم بذلك نعما تتوالى عليكم .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تَخُونوا اللهَ والرَّسُولَ وَتَخونوا أمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)(٢٨) .

قوله : [يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول] الخون النقص ، والوفاء الإتمام . والمراد بالخيانة هنا : عدم العمل بما أمر الله به ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن خيانة الله تعالى بترك فرائضه ، وخيانة الرسول بترك سننه ، وارتكاب معصيته . ولعل ذلك على ملاحظة الاختصاص المستفاد من المتعلقين وإلاّ فخيانة أي واحد منهما خيانة للآخر لأن الحكم حكم الله والبلاغ من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . عن عبدالله بن أبي قتادة قال : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث أبا لبابة بن عبدالمنذر إلى قريظة ، وكان حليفا لهم لينزلوا على حكم رسول الله ، فاستشاروه في ذلك فقالوا له : ما هذا الأمر ؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح . فنزلت الآية . قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي حتى علمت أني خُنْتُ اللهَ ورسولَه . رواه سعيد بن منصور وابن المنذر .

فيقول سبحانه وتعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول] بمخالفة الأمر والنهي [وتخونوا أماناتكم] معطوف على المجزوم قبله أي ولا

تخونوا أماناتكم فيما بينكم [وأنتم تعلمون] أنكم تخونون ، فإن العصيان مع العلم أشد منه مع الجهل . [واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة] الفتنة بمعنى الإثم أو العقاب أو الابتلاء . وحملت على الأموال والأولاد لأنهما سبب الوقوع فيهما فإن مساعي الإنسان غالبا لجمع الأموال ولصيانتها ، وذلك لرعاية الأولاد وصيانتهم ، فهي السبب في المشاغل والمشاكل [وأنّ الله عنده أجر عظيم] لمن اختار رضاه على ما سواه .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ، ويُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّآتِكُمْ ، ويَغْفِرْ لَكُمْ ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ (٢٩) وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ)(٣٠) .

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] الآية ... نداء للمؤمنين وإرشاد لهم إلى وسيلة النجاح في الدارين فيقول لهم : [إن تتقوا الله] حق تقاته بالاحتراز عن الكفر وسائر الكبائر وأداء الواجبات [يجعل لكم فرقانا] أي هداية ونورا يفرق به بين المؤمن والكافر ، أو تفرقون به بين الحق والباطل ، أو قوة وتأييدا ونصرا يفرق به بين المحق والمبطل ، أو تمييزا من أهل العذاب بعطايا ومثوبات حسنة [ويكفر عنكم سيّآتكم] بسترها في الدنيا [ويغفر لكم] فلا تعذّبون بها في الآخرة . كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شأن أهل بدر : « لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم » . [والله ذو الفضل العظيم] فلا مانع له من اختصاص أي عبد بما شاء من الإحسان .

[وإذ يمكر بك الذين كفروا] نزلت في تآمرهم عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم اجتمعوا في دار النّدوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ ، وقال : مِن نَجْدٍ سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم وأن تسمعوا مني رأياً ونُصْحاً ، فقال أبُو البحتريّ : رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدّوا منافذَه غير كُوَّة تُلْقُونَ إليه طعامَه وشرابه منها حتى يموت . فقال الشيخ : بئس الرأي ، يأتيكم من يقاتِلُكم من قومه ويخلّصه من أيديكم . فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صَنَعَ . فقال : بئس الرأي ! يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كلِّ بَطنٍ غلاما وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلّهم ، فإذا طَلَبوا العقل عَقَلْنا . فقال : صدق هذا الفتى . فتفرقوا على رأيه . فأتى جبريلُ النبيّ عليه السلام وأخبره بالخبر ، فبيّت عليّاً رضي الله عنه في مضجعه ، وخرج مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار .

[وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك] بالوثائق محبوسا في بيت ، [أو يقتلوك أو يخرجوك] من مكة إلى بلد بعيد لا ترجع منه بسهولة إليهم ، [ويمكرون] أي ويحتالون بكل وجه في دفعك ، [وَيمكرُ الله] ويردّ مكرهم ويجعل وخَامَته وسوءَ عاقبته عليهم ، [والله خير الماكرين] لأن المكر إذا كان من مباشرة أدقّ طرق الوصول إلى المأمول فالله أعلم وأقدر على ذلك وإذا كان بمعنى الحيلة في دفع الأذى فالناس يحتالون في دفع الخير وهم فيه مخطئون ، والله سبحانه إذا فعل شيئا من ذلك الباب فهو عامل بالحق وعالم به ، ولا يصل أحد إلى علمه وعمله ورعايته الحق في مباشرة الأمور .

وادعى كثيرون أن المكر لا يطلق عليه تعالى دون مشاكلة لأنه حيلة تجلب بها مضرة إلى الغير وذلك مما لا يجوز في حقه تعالى . وردّ بأن حقيقة المكر : العمل بدقة في دفع مكروه عند الماكر ، ولما كان الناس يخرجون من الحق إلى الباطل في ذلك صار المكر مذموما . وأما إذا كان باقيا على نهجه وهو إتقان العمل فلا امتناع منه . وينسب إلى الله بدون المشاكلة . نحو (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فلا يأمَنُ مكرَ الله إلا القوم الخاسرون) .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا ، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ، إِنْ هذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) وإِذْ قالوا : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ومَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحرَامِ وما كانُوا أَوْلِياءَهُ ؟ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ المُتَّقُونَ ، ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وتَصْدِيَةً ، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتم تكفرون)(٣٥) .

قوله تعالى : [وإذ تتلى عليهم آياتنا] نَزَلَتْ في النضر بن الحرث من بني عبدالدار وكان يسافر إلى فارس وأرض الحيرة فيسمع أخبار رستم وأسفنديار وأمثالهما ، وكان يمرّ باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل ، فهو الذي قال : لو نشاء لقلنا ، وإنما أسند إلى الجمع في قوله تعالى (وقالوا) لأن اللعين كان رئيسهم وزعيمهم الذي يقولون بقوله .

[قالوا : قد سَمِعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا] أي مثل هذا القرآن ، [إن هذا إلا أساطير الأولين] وأساطير جمع أسطورة ، كأحدوثة وأحاديث ، ومعناه ما سُطِر وكتب • وفي القاموس : الأساطير الأحاديث لا نظام لها ، جمع أسطير وأسطار وأسطور ، وبالهاء في الكل • وقول ذلك البعيد كان عن مكابرة وعناد ، وإلا فالله سبحانه وتعالى تَحَدّاهم بمثله وبعَشْرِ سُوَرٍ مِن مثلِهِ وبسورة واحدة ، فلم لم يأتوا به ؟ ولو كانوا يأتون به لحُفِظَ ونُشر في العالم ، ولم يكن فلم يقع • [وإذ قالوا] أي المشركون ، لأنهم على أفجر قلب واحد ، وإلا فالقائل النّضر أيضا على ما روي عن مجاهد وسعيد بن جبير • أو أبو جهل على ما أخرجه البخاري فقال [: اللهم إن كان هذا هوالحق من عندك] أي إن محمدا هورسول الله وأكرمه الله بيننا بالرسالة ، أو إن القرآن كلام الله تعالى [فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حجارَةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم] فأجاب الله عن كلمتهم الشنعاء بقوله الكريم : [وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] لأنهم أرادوا عذاب الاستئصال وقد تعلقت إرادتي ببقائك وبقاء كثير من القوم المشركين ، لأنه علم الله إيمانهم ، أو أنه سيخرج منهم أولاد مسلمون عالمون عابدون [وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون] أي وفيهم من يستغفر كالمستضعفين من المسلمين ، أو كبعض من الكفرة بناء على قبول دعاء الكفار • [وما لهم ألا يعذبهم الله ؟] أي أيّ شيء حصل لهم ممّا يمنع تعذيب الباري تعالى لهم [وهم يصدّون عن المسجد الحرام] أي وحالهم المستمر منع المسلمين وصدهم عن زيارة المسجد الحرام ؟ وما كانوا أولياءَه اى وما كانوا مستحقين ولاية المسجد الحرام [إن أولياؤه إلا المتقون] عن الشرك وسوء التربية والمبتغون لإطاعة الباري تعالى • [ولكن

أكثرهم لا يعلمون] أن لا ولاية لهم عليه • فهم في جهلٍ مركبٍ متعمقون •
[وما كان صلوتهم عند البيت] أي المسجد الحرام [إلا مكاء] أي صفيرا وصياحا [وتصدية] أي تصفيقا بضرب إحدى اليدين على الأخرى ، كما هو دأب الجاهلين • فلا يتوهمن أحد أن المشركين كانوا على شيء من العبادات والصلاة التي هي صلة بين العباد وبين الله [فذوقوا العذاب] المعهود الذي طلبتموه [بما كنتم تكفرون] بالله ورسوله •

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٣٦) لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ(٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَيكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)(٤٠) •

قوله تعالى : [إن الذين كفروا] الآيـة ••• نزلت على ما روي عن الضحاك في المطعمين يوم بدر ، وكانوا إثني عشر رجلا من قريش يطعم كل يوم عشرَ جُزُرٍ • أو في أبي سفيان استاجر ليوم أُحُد ألفين سوى من استجاش من العرب ، أي أتاه من الجيش عن طلبه ، وأنفق عليهم أربعين

أوقية • أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا •

ومعنى الآية [إن الذين كفروا] من المطعمين الناس يوم بدر [ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله] أي ليمنعوا الناس عن الإرشاد في سبيل الله ونشر الإسلام في ربوع الأرض [فسينفقونها] أي أموالهم في مناسبات أخرى [ثم تكون عليهم حسرة] أي تكون تلك الأموال المصروفة في تلك المصارف حسرة وأسفا على قلوبهم لأنهم صرفوها ولم يصلوا إلى أيّ نفع عاجل أو آجل ، بل وصلوا إلى ضرر عاجل بضياع أموالهم ، وضرر آجلٍ بورود العذاب والعقاب عليهم يوم القيامة [ثم يُغْلَبون] في أماكن أخرى عند اللقاء [والذين كفروا] أي استمروا على الكفر منهم ولم يسلموا [إلى جهنم يحشرون] أي يساقون إلى جهنم ليعذبوا بالنار فيها وإنما يحشرون إليها [ليميز الله الخبيث من الطيب] أي الكافر من المؤمن [ويجعل الخبيث بعضه على بعض ، فيركمه جميعا] أي يضم بعضه إلى بعض [فيجعله في جهنم أولئك] المحشورون إلى جهنم [هم الخاسرون] في الدارين •

[قل للذين كفروا] أي للمعهودين منهم ، وهم أبو سفيان ومن معه [إن ينتهوا] عما هم عليه من معاداة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن دخلوا أو يدخلون في الإسلام [يغفر لهم ما قد سلف] منهم من الذنوب [وإن يعودوا] إلى معاداته ـ صلى الله عليه وسلم ـ [فقد مضت سُنَّتُ الأوّلين] أي سنة الله تعالى بإهلاكهم وإصابتهم بأنواع من الأذى والبلاء • [وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة] أي لا يكون ولا يوجد منهم إشراك بالله

سبحانه وتعالى [ويكون الدين كله لله] يعني ليضمحل جميع الأديان الباطلة بإهلاك أهلها ويبقى الدين الحق لله [فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير] فيجازيهم على انتهائهم [وإن تولوا] أي أولئك الفاسدون ولم يهتموا بالحق [فاعلموا أن الله مولاكم] أي ناصركم [نِعْمَ المَوْلى ونعم النصير]

الجُزْءُ العَاشِر

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ، وَلِذِي الْقُرْبَى ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ، وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ، وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا • لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ، وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ، إِذِ الْتَقَيْتُمْ ، فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)(٤٤) •

قوله تعالى : [واعلموا أنما غنمتم من شيء] أي ما يقع عليه اسم الشيء ، وهو الموجود قليلا او كثيرا غاليا أو رخيصا ، حتى الخياط والمخيط [فأن لله خمسه] والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم ، والمراد أنه مال أعطاه الله ورزقه • ويقسم بين الخمسة المذكورين بعد ، والحكم

ثابت مستمر غير أن سهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُصْرف إلى ما كان يصرفه إليه في حياته من مصالح المسلمين • وقيل : يوزع على الأصناف الأربعة الباقية • وقيل : يعطى للإمام يصرفه حسب رأيه المشروع • وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : سقط بوفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ سهمه وسهم ذوي القربى • وصار الكل مصروفا إلى الثلاثة الباقية ، وإذا كان من ذوي القربى مسكين يؤتى من سهم المساكين • وعند مالك رضي الله عنه الأمر فيه موكول إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم • وقال أبو العالية بظاهر الآية فيقسمه ستة أقسام ويجعل سهم الله إلى الكعبة إن كانت قريبة ، وإلا فإلى مسجد كل بلدة وقع فيه الخمس كما قاله ابن الهمام رحمه الله تعالى • وذوو القربى بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلا بنو عبد شمس وبنو نوفل ، ويعطون على مذهب الشافعي ولو كانوا أغنياء • وعند أبي حنيفة لا يعطون إلا عند الحاجة بالفقر والمسكنة • والآية نزلت ببدر وقيل : الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة • والأخماس الأربعة الباقية تصرف للغزاة • فعند أبي حنيفة رضي الله عنه : للفارس سهمان ، وللراجل سهم واحد • وذهب الشافعي ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم ؛ على أن الفرس له سهمان ولصاحبه سهم واحد ، وللراجل سهم واحد • وذلك قول أبي يوسف ومحمد بن الحسن رحمهما الله ـ وتعليل الأئمة في ما ذهبوا إليه وتفصيله في كتب الفقه ، فارجع إليه إن شئت •

فيقول الباري تعالى : [واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله] شرط وجزاؤه ما تقدم عليه ، أو محذوف وهو دليل على المحذوف ، وقوله [وما أنزلنا على عبدنا] معطوف على اسم الله الكريم • والعبد محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإضافة للتشريف [يوم الفرقان] ظرف لقوله [أنزلنا] أي يوم بدر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل [يوم التقى الجمعان] بدل منه . والجمعان : جمع الموحدين لله ، وجمع المشركين به . وما أنزل فيه يستوعب الآيات البينات ، والملئكة الكرام المبشرات ، والنصر العزيز المنتشر نوره في الكائنات . [والله على كل شيىء قدير] أي فيقدر أن يجمع الناس وينفع بعضهم ويضر الآخرين ، ويرفع بعضهم ويخفض الآخرين . وينزل آيات الأحكام لأهل الدين .

[إذ أنتم بالعُدْوَةِ الدنيا وَهُمْ بالعُدوة القصوى] بدل من يوم أو مفعول اذكروا المقدر . والعُدوة بالحركات الثلاث شط الوادي . والمراد بالدنيا القربى بالنسبة إلى المدينة المنورة ، وكان محل المسلمين . وبالقصوى البعدى بالنسبة إليها ، وكان محلا للمشركين . أي واذكروا زمان وجودكم في العدوة وأنتم في العدوة القربى ، وهم في العدوة البُعْدى [والركب أسفل منكم] أي وعير قريش كان : أسفل منكم بنحو ثلاثة أميال على طريق الساحل [ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد] أي ولو تواعدتم أنتم يا أهل الإيمان مع أهل الإشراك في تعيين زمان للقتال لاختلفتم هيبة ورهبة من الكفار وعَدَدهم وعُدَدهم [ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا] أي ولكن تلاقيتم على غير موعد بينكم ليقضي الله أمرا ، وهو إفاضة النصر للمؤمنين ، وإبادة المشركين وكان ذلك الأمر ثابتا وجوده حسب علمه الأزلي .

[ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حي عن بينة] أي ليموت من يموت من الناس عن حجة عاينَها ، ويعيش من عاش عن حجة شاهدَها . ومعنى ذلك أنه هلك الكافرون في حال وجود الحجة على أنهم غضب الله عليهم وسلب عنهم النصر من حيث أنهم مع كثرة عددهم ووفرة مُعَدّاتهم وحصانة محلهم قضى الله بنصر المؤمنين ودمار الكافرين حتى يكون الأمر

دليلا واضحا على أنهم كانوا كافرين كاسدين فاسدين . والمؤمنون نجوا مع قلة عددهم وزادهم وأسبابهم وفساد محلهم ليكون انتصارهم معجزة دالة على صدق الرسول في أمر الرسالة وجلالة قدره وعظمة أمره . وذلك لأن عسكر الرسول في أول الأمر كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهبة ، ونزلوا بعيدين عن الماء ، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضا رملية تغوص فيها أرجلهم ، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد وحصول الآلات والأدوات لأنهم كانوا قريبين من الماء ، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي ، ولأن العير كانوا خلف ظهورهم ، وكانوا يتوقعون مجيء المدد إليهم ساعة فساعة . ثم إنه تعالى قلب القصة وعكس القضية ، وجعل الغلبة للمسلمين والدمار للكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما أخبر به عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر فقوله (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) إشارة إلى هذا المعنى ، وهو أن الذين هلكوا إنما هلكوا بعد مشاهدة هذه المعجزة والمؤمنون الذين بقوا في الحياة شاهدوا هذه المعجزة الظاهرة . والمراد من البينة هذه المعجزة [وإن الله لسميع عليم] بكفر الكافرين وعقابهم وإيمان المؤمنين وثوابهم [إذ يريكهم الله في منامك قليلا] بدل من يوم الفرقان أو متعلق بأذكروا ، والجمهور على أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أري ما أري في النوم . والمعنى واذكر إذ يريكهم الله أي يريك الكافرين في منامك قليلا حتى تخبر أصحابك عنهم فيكون ذلك تثبيتا لهم [ولو أريكهم كثيراً لفشلتم] أي لو أراكهم الله كثيرا لأخبرت أصحابك بذلك وخافوا وجبنوا عن الإقدام على الحرب وفشلتم فيها [ولتنازعتم في الأمر] أي في أمر الإقدام على القتال ، وتفرقت آراؤكم [ولكن الله سلّم] أي أنعم عليكم بأن سلمكم وصانكم عن التنازع

والفشل [إنه عليم بذات الصدور] أي بالأمور والخواطر التي تختلج في الصدور [وإذ يُريكمُوهُم ، إذ التقيتم ، في أعينكم قليلا] واذكر إذ يريكم الله أعداءكم المشركين قليلا، حتى قال ابن مسعود - رضي الله عنه - لمن بجنبه : أتراهم سبعين ؟ فقال : أراهم مائة . وكل ذلك كان لتثبيت المؤمنين [ويقللكم في أعيُنهم] حتى قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور . وكان هذا قبل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال ليَجْتَرِئوا عليهم ، ويتركوا الاستعداد ، ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ، وذلك [ليقضي الله أمرا كان مفعولا] أي ليحقق في عالم الأعيان كائنا موجودا في عالم الصور العلمية [وإلى الله ترجع الأمور] عسرها ويسرها .

وفي روح المعاني ما نصه : وذهب بعض أصحاب المكاشفات وأرباب المشاهدات من الحكماء والصوفية إلى أن الرؤيا مشاهدة النفس صورا خيالية موجودة في عالم المثال الذي هو برزخ بين عالم المجردات اللطيفة المسمى عندهم بعالم الملكوت ، وبين عالم الموجودات العينيات الكثيفة المسمى بعالم الملك . وقالوا فيه موجودات متشخصة مطابقة لما في الخارج من الجزئيات مُثُل" لَها قائمة بنفسها مناسبة لما في العالمين المذكورين . أما لعالم الملك فلأنها صور جسمانية شبحية ، وأما لعالم الملكوت فلأنها معلقة غير متعلقة بمكان وجهة كالمجردات حتى أنه يرى صورا مثالية لشخص واحد في مرايا متعددة ، بل في مواضع متكثرة كما يرى بعض الأولياء في زمان واحد في أماكن متعددة شرقية وغربية . ثم إن لتلك الصور مجالي مختلفة كالمرايا والماء الصافي والقوى الجسمانية سيما الباطنة إذا انقطعت عن الاشتغال بالأمور الخارجية العائقة ، إذ بذلك يحصل لها زيادة مناسبة لذلك العالم كما للمتجردين عن العلائق البشرية . وإذا قويت تلك المناسبة كما للأنبياء

عليهم السلام والأولياء الكمل قدس الله تعالى أسرارهم ظهرت في القوى الظاهرة أيضا ، ولهذا كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشاهد جبريل عليه السلام حينما ينزل الوحي والصحابة رضي الله عنهم حوله كانوا لا يشاهدونه . هذا .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٤٦) ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً ورِئَاءَ النَّاسِ ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ والله بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُمْ ، وقَالَ : لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وإِنِّي جارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلى عقبَيهِ ، وقالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرى مالا تَرَوْنَ ، إِنِّي أخَافُ اللهَ ، والله شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : غَرَّ هؤلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٤٩) .

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] نداء عام ودعوة شاملة فيقول لهم : [إذا لقيتم فئة] من المشركين وغيرهم من مناصريهم [فاثبتوا] للقائهم وداوموا على الجهاد ولا تولوهم الأدبار أى إلا متحرفين أو متحيزين [واذكروا الله كثيرا] باللسان أو الجنان بالدعاء لدفع البلاء ، أو بالشكر والثناء على الآلاء ، أو بالتوجه إليه بالنداء نحو يا الله عليك التوكل وبك الاعتماد [لعلكم تفلحون] وتفوزون بمرامكم في الدنيا والآخرة . [وأطيعوا

الله ورسوله] في كل سلب وإيجاب ، [ولا تنازعوا] باختلاف الآراء على الأهواء [فتفشلوا] أي فتضعف قوتكم وتجبنوا عن اللقاء والمقاومة، [وتذهبَ ريحكم] والريح يستعمل مجازا بمعنى الدولة لتشبهها بها في نفوذها ودخول أمرها في الأقطار • وبمعنى ريح النصر وكلا المعنيين مناسب ؛ لأن في التنازع إنحلال الدولة وزوال النصر [واصبروا] على ما أصابكم من القتل والجرح والآلام [إن الله مع الصابرين] ومن الحكمة لا تبقى صدمة مع الصّبر •

[ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم] وهم أبو جهل وأتباعه حين خرجوا من مكة لحماية العير [بطراً] أي فخراً وأشَراً [ورئاء الناس] وأصل رئاء : رئاي ، قلبت الياء همزة لوقوعها طرفا بعد ألف زائدة والعين ياء لكسر ما قبلها • ونَصْبُ المصدرين على التعليل أو على الحالية • ورئاء الناس معناه ليثنوا عليهم بالسماحة والشجاعة •

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش : أن ارجعوا فقد سلمت العير فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ونشرب الخمور وتعزف علينا القينات ، ونطعم بها من حضرنا من العرب • فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا بدل الخمور ، وناحت عليهم النوائح بدل القينات ، وكانت أموالهم غنائم بدلا عن بذلها •

[ويصدّون عن سبيل الله] عطف على جملة [خرجوا من ديارهم] ويجوز عطفها على المصدر على الحالية لا التعليل لأن الجملة لا تكون مفعولا له وصدهم عن سبيل الله صدهم عن دخول الناس في الإسلام [والله بما يعملون محيط] فيجازيهم عليه •

[وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم] أي واذكر إذ زيّن الشيطان لأبي جهل ومن معه أعمالهم بإلقاء الأنانية والبطر في قلوبهم بصورة الوسوسة ،

[وقال] إلقاءً وإيهاماً : [لا غالب لكم] أي عليكم [اليوم من الناس ، وإني جارٌ لكم] وأنا مجير وحارس وحافظ ، وكلّ ذلك على منهج قوله تعالى (وإن الشياطين ليوحُون إلى أوليائهم زخرف القول غرورا) [فلما تراءت الفئتان] أي تلاقى الفريقان فريق الجنة وفريق السعير [نكص] أي رجع القَهْقَرى [على عقبيه] حال مؤكدة للعامل ، أي بَطَل كيدُه وتندم [وقال : إني بريء منكم] أي من مناصرتكم [إني أرى ما لا ترون] : أي أرى إمدادا من الملئكة لا ترونهم أنتم ، ومعنى ذلك إنهم منتصرون وأنتم منكسرون [إني أخاف الله رب العالمين] أي أخاف الله عليكم حيث يهزمكم ويخزيكم ويجازيكم ، أو على نفسي لأن لعذاب الله درجات بلا حساب [والله شديد العقاب] كلام رب العالمين ، أو تتمة ما قاله اللعين .

[إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض] أي الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد ، وهم فئة من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آباؤهم حتى خرجوا معهم إلى بدر . منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن منبه بن الحجاج ، والحرث بن زمعة ، وأبو قيس بن الفاكه : [غرّ هؤلاء] المؤمنين الذين مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [دينهم] حتى تعرضوا لقوم أولي بأس بنية أخذ عيرهم أو قتال أصحابها [ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم] والعزيز غالب لا يغلب ، والحكيم صاحب العلم الشامل والقوة الكاملة بحيث إذا عمل شيئا أتقنهُ .

(وَلَوْ تَرى إذْ يَتَوَفَّى الَّذينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وجُوهَهُمْ وَأدْبارَهُمْ ، وَذُوقُوا عَذابَ الحريقِ(٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمتْ أيْديكُمْ وَأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيدِ(٥١) كَدأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ ،

فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ . إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)(٥٤)

قوله : [ولو ترى] الخطاب مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو لكل أحد ممن له قابلية الخطاب [إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة] اذ الملائكة تقبض أرواحهم ، والجواب لرأيت أمرا مهولا ، وحال الملائكة أنهم [يضربون وجوههم وادبارهم ، وذوقوا عذاب الحريق] أي ويقولون لهم : ذوقوا عذابَ الحريق • [ذلك بما قدمت أيديكم] أي ذلك الضرب والعذاب والقول الانذاري بسبب ما قدمت جوارحكم وقلوبكم من الكفر والمعاصي [وأن الله ليس بظلام للعبيد] معطوف على ما في (ما قدمت) أي وبسبب تقرر أن الله ليس بظلام للعبيد ، وإلا فجاز أن يعذبهم بغير ذنب ، أو بذنوب غيرهم • [كدأب آل فرعون] خبر لمبتدأ محذوف ، أي دأب هؤلاء الكافرين الذين عذبتهم الملائكة كدأب فرعون وآل فرعون [و] دأب الاقوام [الذين من قبلهم] كقوم نوح وعاد وثمود وهو أنهم [كفروا بآيات الله] والرسل الذين نزلت هي عليهم [فأخذهم الله بِذُنُوبِهِمْ ، إن الله شديد العقاب] يسيطر على الطغاة العتاة والبغاة المارين ، الذين تكبروا وخرّوا لهواهم ساجدين ، وأبوا أن يكونوا لله عابدين • [ذلك] المذكور المقرر من سببية الكفر والطغيان للعذاب بسبب تقرير [أن الله لم يك] سابقا ولا يكون لاحقا [مغيرا نعمة أنعمها على قوم] من الأقوام [حتى يغيروا ما بأنفسهم] من

الأحوال والأعمال التي كانت تناسب النعمة المستفادة ، ولو كانت حالتهم السابقة سيئة لان الله سبحانه وتعالى لا يباغت الناس بجزاء الاعمال فقد تكون بعض الاعمال السيئة السلبية مقرونة ببعض الاعمال المناسبة الإيجابية فيسامح عنها ولا يستعجل بعقوبتها الى أن يتجاوز أصحابها الى الإتيان بأعمال اخرى أقسى وأقصى فينتقم الله منهم ، ويأخذهم الله نكال الآخرة والاولى [وأن الله سميع] للأقوال و [عليم] بالنيات والأعمال ، ومن راقب بهذه الدرجة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فيجازي ويعاقب .

[كدأب آلِ فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات رَبهم ، فأهلكناهُم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون ، وكل] من السابقين واللاحقين في الكفر والاستكبار ، ومعاندة الرسل الأخيار [كانوا ظالمين] أنفسهم بالكفر والعناد وغيرهم بالظلم والإفساد .

(إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(٥٥) الَّذينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ(٥٦) فإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٥٧) وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائِنِينَ(٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ)(٥٩)

قوله تعالى : [ان شر الدواب] شروع في بيان أحوال سائر الكفرة بعد بيان أحوال الهالكين بالعذاب ، فقال تعالى : [إن شرَّ الدَّواب عند الله] هم [الذين كفروا] أي وأصروا على الكفر وتمكنوا فيه لأن الإنسان

ممتاز عن سائر الدواب بالعقل ، وفائدة العقل الفرق بين النافع والضار ، وجلب النافع والاجتناب عن الضار ، فإذا لم يستفد من عقله كان حكمه وشأنه كالدواب ، ولما كان من المكلفين من سعى الله في قبولهم للدين ولم يقبلوه صاروا أفسد من الدواب لعدم توجه التكليف إليها . وقوله تعالى [فهم لا يؤمنون] حكم مترتب على تماديهم في الكفر والعناد الشديدين .

[الذين عاهدت منهم] بدل من الموصول ، أي الذين أخذت العهد منهم [ثم ينقضون عهدهم] أي عهدهم الذي أخذت منهم [في كل مرة] من مرات المعاهدة [وهم لا يتقون] نقض العهد وإخلاف الوعد .

ثم شرع في بيان الاحكام المترتبة عليهم فقال : [فإما تثقفنهم في الحرب] أي فإذا صادفتهم وظفرت بهم في الحرب [فشرد بهم من خلفهم] يعني ففرق بهم من كانوا خلفهم ، يعنى افعل بهؤلاء الكفرة الناقضين للعهد نوعا من التنكيل والتعذيب حتى يتشرد من خلفهم من الخوف والفزع ، ويخافوا منك ولا يأمنوا ولا يستريحوا في ديارهم [لعلهم يذكرون] أي لعل من خلفهم يتذكرون ويعتبرون بأحوال أولئك الكفار الناقضين .

ثم ذكر حكم أناس لم ينقضوا العهد ، لكنهم مشارفون على نقضه فقال : [وإما تخافن من قوم خيانة] معكم [فانبذ إليهم] العهد [على سواء] أي على طريق عدل مستوٍ بأن تبين لهم أسباب نقض هذا العهد وتخبرهم إخباراً واضحا بذلك . ثم علّل الحكم بنبذ العهد إليهم بقوله [إن الله لا يحب الخائنين] فلا تحبهم أنت أيضا اقتداء بالله العلي العظيم [ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا] أي ولا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين على الناس متقدمين عليهم بالفضائل ، بل إنهم مغمورون بالرذائل ، أو سابقين في الميدان وفائتين عن الحساب ولا يحاسبون بل يأتي بهم الملائكة الذين أمروا بالإتيان بهم [إنهم لا يعجزون] الله تعالى .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمْ ؛ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ(٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ(٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٣) يا أَيُّها النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(٦٤)

قوله تعالى : [وأعدوا لهم] الخطاب لكافة المؤمنين لأن إعداد العدة من وظائف الكل ، ولكن الامراء وأهل الحل والعقد منهم أدخل في الخطاب لأن إعداد العدة يحتاج إلى الثروة ، ونفوذ الأمر ، وتعلم العلوم ، ولا مجال فيها للضعاف . [ما استطعتم من قوة] القوة تشمل كل ما يتقوى به الإنسان في الحرب من العلم والتدريب والرياضات البدنية والسباحة والرماية للسهام أو البندقية أو المدافع أو الطيارات والسيارات والسفن الحربية وطرق استعمالها والاستفادة منها . فذكر قوله [ومن رباط الخيل] تخصيص فرد من العام بالذكر للاهتمام به . فكل ما روي من التفاسير للقوة بيان بعض من المحتملات أو فرد من المتناولات . والرباط بمعنى المربوط في سبيل الله على أن فعال بمعنى المفعول وإضافته إلى الخيل لبيان أحسن أنواع المركوبات في وقت النزول ، لأن الجهاد على الخيل خير من الجهاد على الحيوانات

الأخرى ، للسرعة في الكر والفر وخفة البدن [ترهبون به عدو الله] المخالفين لأمره من الكفار والبغاة [وعدوكم] المتربصين بكم الدوائر [وآخرين من دونهم] أي من غيرهم [لا تعلمونهم] بأعيانهم [ألله يعلمهم] لا غير • والمراد بعدو الله وعدوكم بحسب ذلك الوقت : المشـركون ، والمراد بالآخرين هم اليهود كبني قريظة وغيرهم سائر الكفار المتربصين بالمسلمين الدوائر • وأما بالنسبة إلى ما بعد زمان الرسـول ـ صلى الله عليه وسـلم ـ هم الكفار المجاورون المعاندون للدولة الإسلامية ، والمراد بالآخرين غير المجاورين من سائر الكفرة والمخالفين • ولاشك في تطبيق الجملتين عليهم ، لأن الله يعلمهم، ونحن لا نعلمهم فإن كثيرا من الكفار يظهرون للمسلمين بمظهر الأصدقاء وهم في الواقع أعداء ألدّاء •

[وما تنفقوا من شـيء قليل] أو جليل [يُوف إليكم] أي يؤدى جـزاؤه إليكم [وأنتم لا تظلمون] بترك الإثابة أو بنقصها ، [وإن جنحوا للسلم] بفتح السين ، أي وان مالوا إلى السـلم وترك العداء والعُدوان [فاجنح لها] فمل إليها [وتوكل على الله] فوض أمرك إليه في دفع الضرر من مكائد يطوونها في قلوبهم [إنه هو السميع] لما يقولون سرا و [العليم] بنياتهم ، وبما يخفونه منكم •

[هو الذي أيدك] عز وجل [بنصـره] العزيز بلا واسـطة أو بهـا [وبالمؤمنين] بصلاحهم وسلاحهم ، وبأقوالهم وأفعالهم [وألّف بينَ قلوبهم] تأليفا لم يؤلف في عالم البشـرية مع ما جبلوا عليه من العـداء المتوارث في الحروب والوقائع الجارية سابقا [لو أنفقت ما في الأرض جميعا] وسلمته إليهم بشتى وسائل التسليم أكلا وشربا ولبسا واسكانا [ما ألفت بين قلوبهم] لأن شأن المادة لا يتجاوز العادة ، وليس من آثار صـرف المادة إلا إسكات النفوس عن الحركات الطائشـة ، ولا يكتب بها صفاء القلوب واسـتراحة

الأرواح ، وإنما يكتسبان من الرحمة النازلة منه تعالى عليها ، ويختص برحمته من يشاء كما قال [ولكن الله ألف بينهم] نفسا وروحا ، قلبا وقالبا [إنه عزيز] غالب على أمره [حكيم] في إضافة المادة إلى المعنى وإفاضة الانوار على كل شخص بقدره .

[يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين] وهذه الآية نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال ، والظاهر على هذا شمولها للمهاجرين والأنصار . وعن الزهري أنها نزلت في الأنصار . وعن ابن المسيب أنها نزلت يوم أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مكملا أربعين مسلما ذكورا وإناثا ، وهن ست ، وحينئذ تكون مكية . وأما إعرابها : فحسب مبتدأ مضاف إلى الضمير ، واسم الجلالة خبره ، أو بالعكس ، ومن اتبعك إما في محل النصب على أنه مفعول معه كقول القائل : فحسبكَ والضحاكَ سيفٌ مُهَنّدُ . أو في محل الجر عطفا على الضمير المجرور وهو جائز عند الكوفيين بدون إعادة الجار . أو في محل الرفع إما على أنه مبتدأ والخبر محذوف أي ومن اتبعك من المؤمنين كذلك أي حسبهم الله تعالى . وعلى هذه التقارير يكون حاصل المعنى : يا أيها النبي إن الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين . ويؤيده الاستقرار لآيات القرآن في موضوع الكفاية فكلها دالة على أن الله هو الكافي لجميع عباده وحده . قال تعالى : (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا الى الله راغبون) وقال : (أليس الله بكاف عبده ؟) وقال : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) . وقال : (فإن تولوا فقل حسبي الله) .

وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف أي وحسبك من اتبعك ، وإما على أنه عطف على الاسم الجليل واختاره الكسائي وغيره ، وإن ضعف بأن الواو

للجمع ولا يحسن أن يقال حسبك الله ومن تبعك كما لا يحسن الجمع في قول القائل : ما شاء الله وشئت . وعلى هذا تؤول الآية بأن الله حسبك في العناية والوقاية ، ومن اتبعك حسبك في التعاون والرعاية . وإذا جعلنا البشر بعضهم عونا لبعض فلا مانع منه ، وقد قال : (وتعاونوا على البر والتقوى) وقد جرت سنته في العالم بأن يجعل بعض أعمال العباد سبب لبعض آثار خيرية للعباد ، فليكن المؤمن من الأسباب لصيانة الرسول وأمانته ونشر دينه في الآفاق ونصرته .

(يا أيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلى القِتَالِ ، إنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرونَ صَابِرونَ يَغْلِبُوا مِأَتَيْنِ ، وإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مأةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ ، وعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِأَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِأَتَيْنِ ، وإنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله ، واللهُ مَعَ الصابِرِينَ)(٦٦)

قوله تعالى : [يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال] التحريض : أن يحث الإنسان على شيىء حتى يعلم منه أنه حارض أي مقارب للهلاك ، فيقول سبحانه وتعالى للرسول : [يا أيها النبي] رغب بقوة [المؤمنين] على قتال الكفار [إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين وإن يكن منكم مأة] أي مائة صابرة [يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون] أي ذلك الحكم ثابت بسبب أن الكافرين جهلة لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فليست لهم نية قوية تكون سببا لثبات يليق بالمحارب . وذلك لكفرهم بالله واليوم الآخر . وإن يكن منكم ألف يغلبوا عشرة آلاف بتوفيق الله وتأييده لعباده بالنصر المبين .

ولما أوجب الله تعالى على المؤمنين مقاومة الواحد منهم للعشرة من الكفار في صدر الإسلام ، وكان ذلك لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين ، وقد كثر المسلمون بعد ذلك ، وكان مما يثقل عليهم مقاومة الواحد للعشرة ، نسخ الحكم السابق بوجوب مقاومة الواحد للاثنين وقال : [الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا] في البدن بكثرة ممارسة الأسفار والحروب [فإن يكن منكم مأة صابرة يغلبوا مأتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله] وقال المكي : إنها ليست ناسخة للآية الأولى وإنما هي مخففة لحكمها كالفطر للمسافر [والله مع الصابرين] •

(ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ له أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا واللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً ، واتَّقُوا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ(٦٩) يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ في أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرى : إِنْ يَعْلَمِ اللهُ في قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ ، فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٧١)

قوله تعالى [ما كان لنبي أن يكون له أسرى] أخرج أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : لما كان يوم بدر جيىء بالأسرى فيهم العباس ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ما ترون في هؤلاء الاسرى ؟ فقال أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله تعالى ان يتوب عليهم • وقال

عمر ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم فاضرب أعناقهم • وقال عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأضرم عليهم نارا • فقال العباس : وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك ! فدخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يرد عليهم شيئا فقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبدالله بن رواحة • فخرج رسول الله فقال : « إن الله ليُليّن قلوب رجال حتى يكون ألين من اللبن» وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة • مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال : من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » فيقول الباري سبحانه وتعالى [ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن] أي ما كان مناسبا لحال نبي من الأنبياء ، ولك بالذات ، أن يكون له أسرى ويراعى أسرى الحرب عنده ويبقيهم ولا يقتلهم حتى يثخن [في الأرض] ويغلب على أهلها بالإهلاك والتدمير والإبادة والإفناء ، لأن الرسول شأنه التبليغ والإرشاد الى الدين فإذا أطاع الناس ودخلوا في الدين فبها ونعمت ، وإن خالفوا وعاندوا وأخذوا يقاتلون ، واضطر الرسول وأتباعه للقتال دفاعا عن الدين فحق الرسول أن يقاتل حتى يثخن في الارض ويبالغ في القتل ولا يدع لهم شوكة وهيبة ، فاذا أثخن في الارض جاز أن يأخذ الاسرى ويرعاهم عنده الى أن تضع الحرب أوزارها فيعمل فيهم بما فيه صلاح الاسلام والمسلمين • وأما اذا لم يثخن في الارض ولم تكن له شوكة فلا يجوز له أن يأخذ الاسرى ويتركهم عنده •

ولما استشار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ورأى كل ما عنده أخذ يوافق قول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بابقاء اسرى حرب بدر ، وترك رأي عمر ابن الخطاب وغيره ممن أشار عليه بقتلهم •• أنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة الدالة على أنه لم يكن هذا الرأي مناسبا فإنه في مبادىء

القوة والشوكة ، وكان الأنسب قتلهم حتى تستأصل شأفة المشركين ومن يواليهم • وقوله [تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة] إلفات نظر الرسول والجماعة إلى أنهم يريدون أخذ الفدية من الاسرى وإطلاق سراحهم ، وتلك الفدية عرض الدنيا ومتاعها ولا ثبات له ، والله يريد لكم ثواب الآخرة والآخرة خير وأبقى [والله عزيز] غالب على أمره ينصر أولياءه على أعدائه [حكيم] يعمل ما يليق بالاحوال [لولا كتاب من الله سبق] أي لولا مكتوب في اللوح المحفوظ سبق أن لا يعذب قوما أنت فيهم ، أو لولا كتاب سبق بأن ما اقتضاه رأيك بعد المشاورة حق مقبول" [لمسكم فيما أخذتم] من الفدية [عذاب عظيم] لا يقادر قدره ، ولكن لما سبق الكتاب تحقق أن ما باشرتموه صواب [فكلوا مما غنمتم] سواء ما أخذتموه من أموال المحاربين بعد انكشافها ، أو من الاسرى كفدية لخلاصهم من القتل حالكونه [حلالا] مباحا ، أو أكلا حلالا [طيبا] لا يشوبه ألم مادي أو معنوي [واتقوا الله] في مخالفته و [إن الله غفور رحيم] •

[يا أيها النبي قل لمن في أيديكم] وتحت نفوذكم [من الاسرى] الذين أخذتم منهم الفداء : [إن يعلم الله في قلوبكم خيرا] أي يتعلق علمه تعالى بأثر طيب حادث في قلوبكم من الايمان والتصديق [يؤتكم خيرا مما أخذ منكم] من الفداء في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالمواهب الربانية والمكاسب البدنية ، وفي الآخرة بالمثوبات الحسنة والجنات العلية ولقاء ذات الباري [ويغفر لكم] ما فرط منكم في مجابهة الرسول وأصحابه [والله غفور رحيم] بعباده المؤمنين [وإن يريدوا] أي الاسرى [خيانتك] أي نقض ما عاهدوك عليه من أن لا يعودوا لمحاربتك [فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم] يعني وإن يريدوا الاستمرار على الاشراك ومخالفة الاسلام فلا تهتم بهم ولا تخف ولا تحزن فإنهم لن يبلغوا ولن يصلوا ما يريدون [فقد خانوا الله] والرسول [من قبل]

وحاربوا مع أن الله تعالى أقدرك عليهم حسبما رأيت في بدر ، [والله عليم] بنياتهم و [حكيم] في شؤونه كيف ينصر رسوله ومن معه ، وكيف يكسر ويهزم أعداءه انه على كل شيء قدير •

ومما ينبغي أن يعلم أن العلماء اختلفوا في آنه هل يجوز للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجتهد في استنباط حكم ديني آولا ؟ وعلى تقدير الجواز هل وقع ذلك ؟ وعلى تقدير وقوعه هل تجوز معارضة اجتهاده باجتهاد شخص آخر ؟ وجمهور الأصوليـين على أنه يجوز له أن يجتهد لعموم قوله تعالى (فاعتبروا يـ أولي الأبصار) فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلى الناس بصيرة ، وأكثرهم اطلاعا على شـرائط القياس ، فيكون مأمورا به • وكان الاجتهاد بالنسبة إليه واجبا فضلا عن الجواز ولأن الاجتهاد في الأحكام أشق وأدل على الفطانة فلا يتركه • ومن المجوزين لاجتهاده من قال بوقوعه في مسائل ، منها : قضية أسرى بدر التي رأى فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ الفدية عنهم وإطلاق سراحهم • ومنعه بعض منهم ؛ لأنه يوحى إليه في ما أشكل عليه وإذا وجد النص فلا مجال للاجتهاد • قال تعالى : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى) وحكى الإمام في المحصول قولا ثالثا ان اجتهاده جائز فيما يتعلق بالحروب ومنها قضية الاسرى • ونقل عن أكثر المحققين التوقف •

والحق ما رآه بعض المحققين وهو أنه وإن جاز الاجتهاد إلا أنه لم يقع ، وبيان ذلك أن هناك نصا واجتهـادا ورأيا مربوطا بأهل الفكر في رعايـة المصالح ، أما النص فواضح حيث ينزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيطبق مدلوله • وأما الاجتهاد وهو : اسـتفراغ العالم ما في وسـعه من الطاقات العلمية في استنباط حكم من الاحكام ، فلم يقع ذلك منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو كان ذلك من دأبه ما كان يتوقف في الاحكام إلى أن تنزل الآية

لبيانها ، وما وقع منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بعض المسائل الدينية كاستثناء الإذخر مما يحرم قطعه من نبات الحرم فهو من الإلهامات الآنية التي وردت على خاطره الشريف ، والوحي يشمل الإلهام ، وإلهام الرسول مصون عن الخطأ .

وما وقع منه في قضية أسرى بدرٍ وامثالها فلم يكن اجتهادا ، وإنما كان ناتجا من استشارة أهل الخبرة من أصحابه ، فقال تعالى : (وشاورهم في الامر) وقال : (وأمرهم شورى بينهم) وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مخولا باختيار ما رآه مناسبا من الآراء . ولم يكن ذلك اجتهادا وسعيا وتكلفا لاستنباط الحكم ، وإنما كان أخذا برأي كان صوابا عنده . وما نزل بعدها من آيات تدل على تنسيب لغير ما اختاره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلم يكن لتخطئة رأيه وإنما كان لبيان أن رأيه وإن كان صوابا حسنا لكن كان هناك أحسن منه كما في قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكما في قضية الاسرى هنا . فإن الآية لا تدل على أن الرأي كان خطأ والصواب غيره ، بل غايته أن وجود الاسرى وأخذ الفداء منهم لم يكن لأي نبي سابق حتى يثخن في الأرض ولكنه أبيح لك لمصلحة رأيتها ، ولو لم يسبق حكم منا بإباحة ذلك لكم لكان وبالا عليكم ، ولكنه أبيح لكم ولم يرد عليكم شيء .

والحاصل : ان أحكام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إما كانت تطبيقا للآيات المنزلة ، أو بإلهام من الله سبحانه وتعالى ، أو باعتبار رأي من الآراء الدائرة إذ ذاك . ولما كانت الاستشارة مأمورا بها كان اعتبار ما اختاره ـ صلى الله عليه وسلم ـ نتيجة لما أمر الله تعالى به .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهَاجَرُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ(٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(٧٥)

ثم أخذ الباري سبحانه في بيان مناقب المؤمنين من المهاجرين والانصار المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين • فقال : [إن الذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا] وهم المهاجرون الذين تركوا أوطانهم وأموالهم لأعدائهم ، ووصلوا إلى بلاد لم يكن لهم بها أنس وألفة ، وتحملوا في الوصول إليها أنواع الكلفة [وجاهدوا بأموالهم] أي بصرفها في الكراع والسلاح [وأنفسهم] بمباشرة القتال [في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا] أي آووا المهاجرين وأنزلوهم في منازلهم ، بل وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم على أعدائهم [أولئك] الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الجميلة [بعضهم أولياء بعض] في الميراث على ما هو المروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ والحسن ومجاهد ، والسدي وقتادة فإنهم قالوا : آخى رسول الله ــ صلى

الله عليه وسلم ـ بين المهاجرين والانصار ـ رضي الله عنهم فكان المهاجري يرث أخاه الانصاري اذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجري ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري ! واستمر أمرهم على ذلك الى فتح مكة ، ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة • فالولاية في الآية الكريمة على هذا الوراثة المسببة عن القرابة الحكمية [والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر] أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين [إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق] فلا تنصروهم عليهم لما في ذلك من نقض العهد [والله بما تعملون بصير] •

[والذين كفروا بعضهم أولياء بعض] منهم أي في الميراث كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقال قتادة : في المؤازرة [إلا تفعلوه تكن فتنته في الارض] أي إلا تفعلوا ما أمرتم به في الآيتين تحصل فتنة عظيمة ، وهي اختلاف الكلمة وضعف الايمان ، وظهور الكفر [وفساد كبير] وهو سفك الدماء على ما روي عن الحسن •

[والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم] لا تَبِعَةَ عليه ولا مِنَّةَ [والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم] أي من جملتكم أيها المهاجرون والانصار [وأولو الأرحام] أي ذوو القرابة [بعضهم أولى ببعض] آخر منهم [في كتاب الله] أي في اللوح المحفوظ [إن الله بكل شيء عليم] •

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : توارث المسلمون لما قدموا المدينة بالهجرة ، ثم نسخ ذلك بهذه الآية • واستدل بها على توريث ذوي الأرحام الذين ذكرهم الفَرَضِيّون • وذلك لأنها نسخ

بها التوارث بالهجرة ، ولم يفرق بين العصبات وغيرهم فيدخل من لا تسميه لهم آي نصيب مسمى كذوي الفروض ، ولا تعصيب ، وهم ـ هم . وبهـا أيضا احتج ابن مسـعود كما أخرجه ابن أبي حاتـم والحاكم على أن ذوي الأرحام أولى من مَوْلى العَتاقَةِ .

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ(٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ : أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ ، وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ)(٦)

ووجه مناسبتها للانفال أن : فيها قسمة الصدقات لثمانية أصناف ، كما فيها قسمة الغنائم لخمسة أصناف ، وهنا نبذ العهد وفي الأنفال ذكرها •

وفي ترك كتابة البسملة أولها أقوال : قيل : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزلت عليه سورة أو آية يعين موضعها ، وبعد نزول البراءة توفي ولم يبين موضعها ، فاختلفت الصحابة أنها مع الأنفال سورة واحدة ، أو سورتان ففصلوا بينهما نظرا لكونهما سورتين • وتركوا التسمية نظرا إلى أنهما سورة واحدة •

والحق أنهما سورتان ولم تكتب البسملة في اولها لأن البسملة آية الأمان والرحمة ، وبراءة نزلت بالسيف ونبذ العهود • وأما قراءة البسملة في أولها ففيها أقوال ، والراجح أنه يستحب تركها ، ويقرأ القارىء أعوذ بالله من الشيطان الرجيم •

[براءة من الله ورسوله] من لابتداء الغاية ، أي هذه براءة واصلة من الله ورسوله [إلى الذين عاهدتم من المشركين] والمعنى إن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين •

وذلك أن المسلمين عاهدوا المشركين فنكثوا إلا أناسا منهم بنو ضمرة وبنو كنانة • فأمرهم الله بنبذ العهد إلى الناكثين • وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاءوا فقال : [فسيحوا في الارض أربعة أشهر] : شوال ، وذي القعدة ، وذي الحجة ، والمحرم ، لانها نزلت في شوال • وقيل : هي عشرون من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر ، لما روي أنها لما نزلت أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ راكبا على ناقته العضباء ليقرأها على أهل الموسم •

وكان قد بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال : لا يؤدي عني إلا رجل مني ، فلما دنا علي ــ رضي الله عنه ــ سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف وقال : هذه رغاء ناقة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور . فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر ــ رضي الله عنه ــ ، وحدثهم عن مناسكهم . وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة ، وقال : أيها الناس إني رسول الله إليكم فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية . ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده.

وإرساله سيدنا عليا ــ رضي الله عنه ــ بهذا ، وعدم الاكتفاء ببيان أبي بكر مع أنه كان أمير الحج جار على ما استقر من عادة العرب من أنه إذا عاهد شيخ قبيلة شيخ قبيلة أخرى وجاء وقت لنقض ذلك العهد كان الناقض نفس المعاهد أو واحداً من عَصَابته ، لأنهم ما كانوا يقتنعون بنقض شخص آخر من غير عصباته ، وإلا فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث لأداء الاحكام عنه كثيرا لم يكونوا من عترته ، فالخصوصية للعهود ونبذها .

[واعلموا أنكم غير معجزي الله] في تلك المدة ولا في غيرها [وأن الله مخزي الكافرين] في الدنيا أو في الآخرة [وأذانٌ منَ الله ورسوله] أي اعلام [إلى الناس] عامةً [يوم الحج الأكبر] والمراد به يوم عيد الأضحى ، لأن فيه أكثر أعمال الحج ، ولما ثبت أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فقال : أي يوم هذا ؟ قالو : يوم النحر . قال : هذا يوم الحج الاكبر . وروي ذلك عن علي ــ كرم الله وجهه ــ ، وابن عباس ، وابن جبير ، وابن زيد ، ومجاهد وغيرهم ... وعلى ذلك فالحج الأصغر يوم عرفة لأنه يجتمع الناس فيه أيضا كما يجتمعون في

يوم العيد في منى ، وفي المطاف ، أو وصف الحج بالاكبر لانه في مقابل العُمرة وهي الحج الاصغر .

وأما تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة بالاكبر فلم يذكروها كما قاله صاحب روح المعاني ، وإن كان ثواب ذلك الحج زائدا على غيره كما نقله الجلال السيوطي في بعض رسائله وقوله [أن الله بريىء من المشركين ورسوله] أي أذان وإعلام بأن الله بريىء من المشركين ورسوله بريىء منهم كذلك [فإن تبتم من الإشراك] ودخلتم في دين الإسلام دين التوحيد ، وآمنتم بالله ورسوله وبما جاء به من الله تعالى [فهو خير لكم] في الدارين [وإن توليتم] عن التوبة والرجوع إلى الله [فاعلموا أنكم غير معجزي الله] لا تفوتون من مجال نفوذ قدرة الباري [وبشر الذين كفروا بعذاب أليم] في الدنيا أو في الآخرة . وقوله تعالى [إلا الذين عاهدتم من المشركين] إستثناء من المشركين المذكورين أولا أو ثانيا لأن المقصود البراءة من عهدهم لا من ذواتهم ، لأن الله ورسوله بريئان منهم بلا استثناء وتقييد . ومعنى الاستشهاد حينئذ أنهما ليسا بريئين من عهدهم الذي وفوا به ، أو من المقدر في قوله [فسيحوا في الأرض] على معنى قولوا لهم سيحوا في الأرض بدون تعرض لكم أربعة أشهر فقط [إلا الذين عاهدتم] معهم ووفوا بالعهد [ثم لم ينقصوكم شيئا] من شروطه ، وأدوها إليكم بتمامها [ولم يظاهروا عليكم أحدا] من الأعداء ، وهم : بنو كنانة ، وبنو ضمرة . وروي عن ابن عباس أنهم حي من بني كنانة [فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم] وقد بقي منها تسعة أشهر [إن الله يحب المتقين] المراعين للعهود .

روي أنه عدت بنو بكر على بني خزاعة في حال غيبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظاهرهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي

على رسول الله وأنشده أبياتا مستنجدا به ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا نُصِرتُ إنْ لم أنصركم » .

[فإذا انسلخ الأشهر الحرم] التي عينت للناكثين لا الأشهر التي حرم الله فيها القتال ؛ لأن حرمتها نسخت بالإجماع . وقد صح أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم [فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ] أي فاسروهم ، واحبسوهم ، واقعدوا للاستيلاء عليهم في كل ممر ومعبر ومجتاز يختارونه في أسفارهم [فإن تابوا] أي عن الاشراك بسبب الإيمان بالله وحده وبرسوله محمد خاتم النبيين والمرسلين [وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم] أي فاتركوهم ، بل وباركوا فيهم ، أو خلوا سبيلهم إلى طواف البيت ؛ لأنه مطاف المؤمنين [إن الله غفور رحيم] لمن آب وتاب ومات على الصواب .

[وإن أحد من المشركين] الذين ظهرت منهم مبادىء الرجوع إلى الحق [استجارك] وطلب منك المجاورة بعد انقضاء المدة المضروبة [فأجره حتى يسمع كلام الله] أي فأمّنه [حتى يسمع كلام الله] وكلام رسوله ويألف المسلمين وآدابهم [ثم] إذا أراد أن يرجع إلى محله [أبلغه مأمنه] الذي يأمن البقاء فيه [ذلك] الحكم المار ثابت بسبب [أنهم قوم لا يعلمون] ما الإسلام والإيمان ، وما كلام الله ورسوله . ويمكن أن يستفيد من الإذن في الجوار ما يدعوه إلى النور ويبعده من النار . ودين الاسلام دين السماح والكرم والاعتبار .

(كَيْفَ يَكُونُ للمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَما

اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ(٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثمناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً ولا ذِمَّةً ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ(١٠) فَإِنْ تَابُوا وأقامُوا الصلاة وآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ، وَطَعَنُوا في دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ(١٢) أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٣) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ(١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَما يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ ، وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ؟ واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)(١٦)

قوله تعالى : [كيف يكون للمشركين عهد] بيان للحكمة الداعية للبراءة من المشركين الناكثين . والاستفهام لإنكار الوقوع ، ويكون تامة ،

وكيف في محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف ، ومعناه : لا يكون ولا يحصل ولا يتحقق للمشركين الأعداءِ عَهدٌ عند الله وعند رسوله [إلا] المشركين [الذين عاهدتم عند المسجد الحرام] ووفوا بعهدهم [فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين] الذين يراعون العهود ويفرقون بين الناقضين للعهد والماضين عليه • [كيف] يكون لهم عهد [و] حالهم أنهم [إن يظهروا عليكم] أي يظفروا بكم [لا يرقبوا فيكم] لا ينتظرون ولا يراعون في المعاملة معكم [إِلاً] أي حلفا أو قرابة [ولا ذمّة] أي عَهدا وميثاقا [يُرضونكم بأفواههم] وبألسنتهم المُدَرّبَة على التلفظ بما يشاءون [وتأبى قلوبُهم] التزام ما يتكلمون به من المحبة والوداد معكم [وأكثرهم فاسقون] خارجون عن طاعة الله ، متمردون عن دينه لا عقيدة لهم تَزَعُهم ، ولا مُروءة تَرُدُّهم • وتخصيصُ الحكم بالأكثر أمر لا ريب فيه ، لأن في كل قومٍ فاسِدٍ أناساً مخصوصين بقيادتهم إلى الفساد •

[اشتروا بآيات الله] المتضمنة للأمر بالتزام الإسلام وإطاعة سيد الأنام [ثمنا قليلا] من حُطام الدنيا وشهواتها الوقتية [فصدّوا] وَأعْرضوا [عن سبيله] وَهُوَ الدين الحق [إنهم ساء ما كانوا يعملون] أي ساء الذي يعملونه أو ساء عملهم [لا يرقبون في مؤمن] أينما كان ومن أي قوم كان [إلاّ ولا ذمة] أي حلفا أو قرابة أو عهدا ، لا أنهم لا يرقبون فيكم فَحسبُ بل إن عداءهم عداء للحق والدين وشريعة السماء ، ولكن ظهر العداء لكم حسب اللقاء • [وأولئك] المشركون الموصوفون بالصفات السابقة [هم المعتدون] المتجاوزون عن الحدود [فإن تابوا] عما هم عليه من الكفر وسائر الكبائر كنقض العهد المشروع [وأقاموا الصلاة ، وآتَوُا الزكاة] أي والتزموا أحكامَ الإسلام وأركانه من كل الجوانب [فإخوانكم في الدين] وهو الاسلام ؛ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم [ونفصل الآيات]

المبينة لأحكام الدين اعتقادا وعملا [لقوم يعلمون] الحقائق ويميزون بين الحق والباطل لعلّهم يَرْشدون •

[وإن نكثوا أيمانَهم مِن بعد عَهدهم] كما نكثوا سابقا [وطَعَنوا في دينكم] فهم في هذه الحالة أئمة الكفر وقادة الناس إليه [فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمانَ لهم] على الحقيقة ، فلا يراعونها بالحقيقة ، ويتحولون في كل فرصة ودقيقة [لعلهم ينتهون] عما استمروا عليه ويتوجهوا الى الدين •

قوله : [ألا تقاتلون] فيه تحريض على قتال أولئك المشركين ، فإن الاستفهام فيه للإنكار ، وإنكار النفي يفيد الإثبات • فيقول : [ألا تقاتلون قوما نكثوا] أي نقضوا [أيمانهم] أي التي حلفوها عند المعاهدة معكم على أن لا يعاونوا أحدا عليكم ، فعاونوا حلفاءهم بني بكر على بني خزاعة حلفاء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ [وَهَمّوا بإخراج الرسول] أي حين تشاوروا أخيرا في دار الندوة [وهم بدأوكم] أي بالمقاتلة [أول مرة ؟] وذلك يوم بدر • وقالوا بعد أن وصلهم خبر مرور القافلة بسلامة : لا نرجع إلى مكة حتى نستأصل محمداً وأتباعه [أتخشونهم] أي أتتركون قتالهم مع كفرهم وإشراكهم وعدولهم عن مقتضى العهود والأيمان خشية أن يصيبكم منهم مكروه ؟! [فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين] حق الإيمان حتى تعرفوا أنه يجب الجهد لإزالة الكفر في العالم •

[قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم] بالقتل والجرح والأسر ويخزهم ويلق عليهم الهزيمة الموجبة للخزي [وينصركم عليهم] أي يجعلكم غالبين عليهم [ويشف صدور قوم مؤمنين] من الذين تألموا من جهتهم بشتى الاساليب • عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنهم بطون" من اليمن وسبأ قدموا مكة وأسلموا [ويذهب] عطف على يشف [غيظ قلوبهم] بما نالهم من الاذى ، ولم يتمكنوا من دفعه ، ومن أهم الاذى انتهاك محارم الله تعالى والكفر به

وتكذيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [ويتوبُ الله على مَن يشاء] منهم إن يتوبوا [والله عليم حكيم] لا تخفى عليه خافية ، ولا يعمل إلا ما فيه حكمة أو حِكَمٌ وافية [أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم] حق الجهاد [ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجَةً] أي بطانة وصاحب سِرٍّ ، لأن علم الله تعالى كما تعلق أزلاً بجميع المعلومات كذلك يتعلق بجزئياتها التي تحدث في المستقبل وهذا التعلق هو تابع لحدوث الحوادث ، فإذا لم يتحقق الحادث لم يتوجه التعلق به [والله خبير بما تعملون] بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها .

(ما كانَ للمُشْركينَ أنْ يَعْمُرُوا مَساجِدِ اللهِ شاهِدينَ على أنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ ، أولئِكَ حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ وفِي النّارِ هُمْ خالِدونَ(١٧) إنّما يَعمرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصّلاةَ ، وآتى الزّكاةَ ، ولَمْ يَخْشَ إلا اللهَ ، فَعَسى أولئِك أنْ يَكونوا مِنَ المُهْتَدِينَ(١٨) أجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ وعِمارَةَ المَسْجِدِ الحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وجاهَدَ فِي سَبيلِ الله ؟ لا يَسْتَوونَ عِندَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمينَ(١٩) الّذِينَ آمَنوا ، وهاجَروا ، وجاهَدوا فِي سَبيلِ اللهِ بِأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ أعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ ، وأولئِكَ هُمُ الفائِزونَ(٢٠) يُبَشِّرهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ورِضْوانٍ ، وجَنّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعيمٌ مُقيمٌ(٢١) خالِدِينَ فِيها أبَداً إنَّ اللهَ عِنْدَهُ أجْرٌ عَظيمٌ)(٢٢)

قوله تعالى : [ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله] أخرج أبو الشيخ وابن جرير عن الضحاك : أنه لما أُسِر العباس عيره المسلمون بالشرك ، وقطيعة الرحم ، وأغلظ عليه علي ـ كرم الله وجهه ـ في القول فقال : تذكرون مساوئنا وتكتسون محاسننا : إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونقري الحجيج ، ونفك العاني ... فنزلت . يقول سبحانه وتعالى : [ما كان للمشركين] ولا ينبغي لهم [أَنْ يَعْمُرُوا مساجد الله] أي شيئا من المساجد أيّاً كان . وعن عكرمة : أن المراد به المسجد الحرام ، واختاره بعض المحققين . وعبر عنه بالجمع لأنه قبلة المساجد وإمامها ، وتتوجه إليه محاريبها [شاهدين على أنفسهم بالكفر] بإظهار ما يدل عليه [أولئك حبطت أعمالهم] التي يفتخرون بها [وفي النار هم خالدون] .

[إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر] على الوجه الذي نطق به الشرع الشريف [وأقام الصلاة وآتى الزكاة] أي وجاء بها الى الرسول في حياته ، ثم الى أمير المسلمين بعده ثم يوزعها بنفسه [ولم يخش] أحداً [إلا الله] فلم يمنعه شيىء من إطاعة الباري جل جلاله [فعسى أولئك] الناس الموصوفون بالصفات السابقة أن يكونوا من المهتدين الى الجنة ونعيمها خالدين [أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام] أي أهلهما [كمن آمَنَ بالله واليوم الآخر وجاهَدَ في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله] فإذا كان الأول من المشركين فهو لا يخلصه من السعير ، وان كان من المؤمنين فهو أدنى من الأخير بكثير [والله لا يهدي القوم الظالمين] بارتكاب الشرك الى دار النعيم [الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله] من الذين لم يتصفوا بتلك الصفات ، فإن كان المفضل عليه من المؤمنين فهناك مجال لبحث الدرجات ، وإلا فلا مجال لبيان التفاوت بين أهل الدرجات وأهل الدركات [وأولئك] الموصوفون بالإيمان

وما بعده [هم الفائزون] بالنسبة إلى غير المؤمنين فوزاً مطلقا ، وبالنسبة الى المؤمنين فوزا مقيدا بزيادةحسب مااختاره رب العالمين [يبشرهم ربهم] فيالدنيا على لسان رسوله الكريم [برحمة منه] واسعة [ورضوان] شامل [وجنات لهم فيها نعيم مقيم] ثابت [خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم] •

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٣) قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ، وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ ، وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ••• أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(٢٤)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نزلت في المهاجرين ؛ فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وابناءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا ، وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا ، وبقينا ضائعين ، فنزلت ، فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ، ولا ينزله ، ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم في ذلك •

فيقول الباري سبحانه وتعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء] أي أحباء لكم [إن استحبوا الكفر على الإيمان] وأصروا عليه بحيث لا يرجى خلاصهم منه [ومن يتولهم] أي كلهم أو بعضهم [منكم فأولئك هم الظالمون] بوضعهم الودّ والموالاة في غير محلها اللائق • [قل] يا حبيبي للمؤمنين [إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

وعشيرتكم] أي أهل قرابتكم [وأموال اقترفتموها] أي اكتسبتموها [وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها] للبقاء فيها [أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله] وتفارقون الله والرسول وتتركون الجهاد للاستمتاع بملازمة المذكورين والمذكورات [فتربصوا حتى يأتي الله بأمره] أي فانتظروا حتى يأتيكم الله بعقوبة عاجلة وعذاب آجل [والله لا يهدي القوم الفاسقين] أي الخارجين عن إطاعة الله ورسوله لموالاة أولئك الأشياء المحقرة في نظر العارفين .

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٢٧)

قوله تعالى : [لقد نصركم الله في مواطن] خطاب للمؤمنين ، وبيان المنة عليهم بالنصر على الاعداء . واللام موطئة للقسم أي أقسم بالله لقد نصركم الله في مواطن [كثيرة] ، منها وقعة بدر ، ووقعة قريظة ، والنضير والحديبية . [ويوم حنين] ،وهو واد بين مكةوطائف فحارب فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون، وكانوا اثنى عشر ألفا، العشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة والألفان انضموا إليهم من الطلقاء وهم الذين منّ عليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما التقوا مع الأعداء : هوازن ، وثقيف قال بعض المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة إعجابا بكثرتهم واقتتلوا اقتتالا شديدا ، وانهزموا

كما قال تعالى [فلم تغن عنكم] أي الكثرة [شيئا] من الإغناء [وضاقت عليكم الأرض بما رحبت] أي برحبها وسعتها لا تجدون فيها مقرا تطمئن فيه نفوسكم . [ثم وليتم مدبرين] منهزمين حتى وصل بعض منكم مكة ، ولم يبق مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا عدد قليل نحو عشـرين شخصا منهم أبو سفيان ابن الحرث ابن عم الرسول ، والعباس عمه . فقال للعباس : صح بالناس وكان صيّتا فنادى : يا عباد الله ، يا أصحاب الشجرة . يعني أصحاب بيعة الرضوان ، يا أصحاب سورة البقرة ، أي الذين حفظوها وهم عظماء أصحابه ـ صلى الله عليه وسـلم ـ ورضي الله عنهـم ـ ... فكرّوا عنقاً واحداً يقولون : لبيك ! لبيك ! فاقتتلوا مع المشركين . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هذا حين حمى الوطيسْ » .

[ثم أنزل الله سكينته] أي رحمته التي سكنوا بها [على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها] بأعينكم يعني الملائكة ، وكانوا خمسة آلاف فغلبوا على الاعداء الألداء [وعذب الذين كفروا] بالقتل والاسـر والسبي [وذلك جزاء الكافرين] في هذه الدنيا [ثم يتوب الله] من بعد ذلك [على من يشاء] منهم بهدايته للإسلام [والله غفور رحيم] روي أن ناسا منهم جاؤا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسـلموا وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّهم ، وقد سبي أهلونا وأولادنا ، وأخذت أموالنا ، وقد سبي يومئذ ستة آلافِ نفسٍ ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى . فقال ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ : اختاروا إما سـباياكم وإما أموالكم ، فقالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : إن هؤلاء جاؤا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئا فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا فليعطنا ، وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه

مكانه . فقالوا : رضينا وسلمنا . فقال : إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا ، فرفعوا أنهم قد رضوا .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)(٢٩)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس] النجس مصدر والاخبار به عن اسم العين للمبالغة ، حتى كأنهم عين النجاسة . أو المضاف مقدر أي ذوو نجس في الاعتقاد لفساده وضلالهم فيه ، وصفات نفسية خبيثة لخزنهم الحقد والبغض والعداء للمسلمين ، بله أحوالهم الفاسدة بينهم وعداء بعضهم لبعض . أو المعنى بمنزلة النجس لأنهم لا يراعون الجنابات والاحداث ، ولا يهتمون باجتناب النجاسات في المأكل والمشرب ، فمشربهم الخمر ومأكلهم الخنزير . أو إن النجس صفة مشبهة أي قوم نجس [فلا يقربوا المسجد الحرام] والنهي عن القرب كناية عن النهي عن الدخول . وعن عطاء : نهوا عن دخول الحرم كله . فيكون النهي عن القرب على ظاهره ، وبه أخذ أبو حنيفة [وإن خفتم عيلة] أي فقرا بسبب منعهم عن القرب من المسجد الحرام لأن مجيىء أفواج المشركين للطواف يستلزم صرف الأموال في المعاملات والمحاباة والهدايا ونحوها . وإذا منعتم عن الطواف فقد فاتت الفوائد ، فلا تهتموا بذلك قليلا أو كثيرا [فسوف يغنيكم الله من فضله]

حيث تفتحون البلاد ويأتيكم الطائفون من كل فج عميق [إِنْ شاء] زاده لإفادة أن كل عطائه من فضله وإحسانه ، ولا يدخل عمله تحت سيطرة الوجوب والإيجاب [إن الله عليم] بأرزاقكم ووجوه اكتسابها [حكيم] في تخصيص كل نفس بعطاء .

[قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله] أي ما ثبت تحريمه بالوحي [ولا يدينون دين الحق] أي الدين الثابت النازل بالوحي ، وهو دين الإسلام [من الذين أوتوا الكتاب] أي جنسه الشامل للتوراة والانجيل ، فإنهم وإن كانوا يدعون الدين ولكنها دعوى فارغة لا تسمع ، أو على بطلانها الادلة القاطعة عن الدليل النقلي المؤيد بالمعجزة . والدليل العقلي البرهاني [حتى يعطوا الجزية] أي المال المفروض عليهم إعطاء جزاء لكفرهم وبقائهم في بلادنا إعطاء ناشئا [عن يد] أي عن اعتراف بقدرتنا عليهم ، أو مسلمة عن يد الى يد [وهم صاغرون] أذلاء لحكمنا .

وهذه الجزية مرتبة على وصفين الكفر والبقاء في بلادنا ؛ فمن أسلم منهم لا تؤخذ منه ، وكذلك من بقي على كتابيته وخرج عن بلادنا . وتؤخذ الجزية أيضا من المجوسي ، فقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سُنُّوا بِهِم سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتابِ غيرَ ناكحي نِسائِهِمْ ، ولا آكلي ذبائحهم » ويختلف مقدارها بالغنى والفقر والتوسط . وتفصيله في كتب الفقه .

(وقالتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ! وقالتِ النَّصَارى : المَسِيحُ ابْنُ اللهِ ! ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ !)(٣٠)

[وقالت اليهود] أي بعض" من متقدميهم ، وشاع نسبة العمل القبيح الصادر من بعض القوم إلى الكل مجازا : [عزير ابن الله] وجه تخصيصهم له بهذه المرتبة الكاذبة المفتعلة أنه كان من المختصين ببعض المزايا الدينية من حفظ التوراة ، ورعاية الاحكام ، ومعرفة أسبابها • ولكن كل ذلك لا يوجب إلا احترامه بما يستحقه من العبودية لربه الغني عن العالمين [وقالت النصارى] أي بعضهم : [المسيح ابن الله] سرى هذا إليهم من ولادته بلا أب ، وظهور المعجزات على يده ، واستعماله كلمة الأب وإطلاقه على الله العظيم • وليس شيىء منها بما يشتبه به أدنى عاقل لاندفاع الشبهة الاولى بوجود آدم ــ عليه السلام ــ بلا أب ولا أم • والثانية بظهور المعجزات على يد كثير من الأنبياء • وانظروا إلى الناقة الخارجة عن الصخرة بدعاء سيدنا صالح ــ عليه السلام ــ • والثالثة بأن استعمال الأب والابن كان عرفا طارئا وذلك على معنى المرشد والمسترشد • واين هذا المعنى من ذلك المختلق ؟! [ذلك] القول الصادر من الفريقين [قولهم بأفواههم] لا قولهم بقلوبهم أي قول بلا برهان [يضاهئون] بقولهم ذلك [قول الذين كفروا من قبل] كالمشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله [قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟] كيف يصرفون عن الحق الى الباطل ، وجملة قاتلهم الله دعاء عليهم بالإهلاك ، فإن من قاتله الله فلا شك هالك • وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن المعنى لعنهم الله ، وهو معنى مجازي لأن اللعن منتهى درجات الإهلاك •

(إتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلهاً واحِداً لا إلَهَ إلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ(٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالهُدى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ(٣٣) يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيم(٣٤) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ : هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ)(٣٥)

قوله تعالى : [إتخذوا أحبارهم] الآية ••• زيادة بيان لما سبق من كفرهم بالله تعالى والأحبار : علماء اليهود ، ومفرده حبر بفتح الفاء وكسرها • والصحيح إطلاقه على العالم ذميا كان أو مسلما • والرهبان : علماء النصارى جمع راهب ، ويجمع على رهابين ورهابنة ، وكثر إطلاقه على متنسكي النصارى ، وهو مأخوذ من الرهبة أي الخوف • يقول الباري سبحانه وتعالى : [إتخذوا] الضمير لليهود والنصارى أي انحرفوا عن المنهج ووقعوا في الحرج بأن اتخذاليهود [أحبارهم] وعلماءهم الذين يراجعونهم فيحل مشكلات دينهم [و] اتخذ النصارى [رهبانهم] كذلك [أربابا من دون الله] يطيعونهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله • عن عدي بن حاتم ــ رضي الله عنه ــ قال : أتيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : « يا عدي إطرح عنك هذا الوثن » • وسمعته يقرأ في سورة براءة [إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله] فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم • فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ « أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون ؟ » فقلت : بلى •

قال : « ذلك عبادتهم » وقيل اتخاذهم أربابا بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله عز وجل فحينئذ لا مجاز ، إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . [والمسيح ابن مريم] عطف على رهبانهم أي واتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربا معبودا بأن جعلوه ابنا لله [وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً] موصوفا بالكمال منزها عن النقائص ، ويعبدوه ولا يعبدوا غيره . لا إله إلا هو [سبحانه عما يشركون] .

أقول : يظهر بوضوح من قوله تعالى [اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله] ومما رواه عدي بن حاتم عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تفسير الموضوع بتحريم ما أحل الله وإحلال ما حرمه الله ، ومن عطف قوله (والمسيح ابن مريم) على (أحبارهم) .. أن موجب الكفر والضلال بالنسبة إلى السواد العام إطاعة العلماء وكبار الامة في تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحله الله تعالى بحيث يخرجون بها عن قواعد الدين المبين لا إطاعتهم في الأحكام المستنبطة من الكتاب أو السنة ، وإن الكلام فيما اذا كان هناك شريعة سمحة نازلة من الله الى رسوله ، وقد خالفها العلماء لا في طاعتهم لهم في الامور المستنبطة من الكتاب والسنة ، ولا إطاعة السوادية لعلماء الامة في ما يفتون به ، ولا إطاعة الناس قادتهم وسادتهم في أمور فيها مصالح دينية أو دنيوية بعد أن عرفوا أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم ، وحصل عندهم بالممارسة أنهم مخلصون لله ويريدون توجيه العباد إلى طريق الرشاد فإن الناس وإن كانوا سواسية أمام الله تعالى وأمام أحكام الاسلام لكنهم ليسوا سواسية في العقل والمعرفة وقابلية معالجة المشاكل والمعضلات . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجمع من الانصار : « قوموا لسيدكم سعد » وقال سبحانه وتعالى في شأن سيدنا يحيى : (وسيدا وحصورا ونبيا من

الصالحين) والحاصل : إن الفرق بين أفراد الانسان في الاوصاف والاخلاق والليافة كثير ، وإن إطاعة السواد للقادة في الخير خير ، والله يختص برحمته من يشاء [يريدون] أي أولئك اليهود والنصارى [ليطفئوا نور الله] أي نورا جعله الله وسيلة لتنوير القلوب بالافكار السليمة ، وهو نور القرآن الكريم المنزل على حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشع على العالم ببيانه وحجته ، وبرهانه على وجود الباري ، ووحدته وكماله المطلق ، والتزام النظام ، ووجوب الشعور بالمسؤولية على كل فرد من الأنام • وقوله [بأفواههم] معناه أن إرادتهم لإطفاء ذلك النور العالمي ليس بإقامة حجة وبرهان ، ولا بعمل له قيمة واقعية في الأعيان ، وإنما هي بعبارات تخرج من أفواههم أشبه بالهذيان منه بكلام الإنسان من أهل العرفان [ويأبى الله] ويمنع كل شيء [إلا أن يتم نوره] أي إلا إكمال آثار ذلك النور في العالم وتأييده [ولو كره الكافرون] ذلك الإتمام •

[هو الذي أرسل رسوله] محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ [بالهدى] متلبسا بالهدى أي القرآن الذي هو هدى للمتقين [ودين الحق] أي دين الإسلام الذي يدعو العقل إلى مراعاة الحق الثابت في الواقع المشروع من الله وهو دين الاسلام الذي ارتضاه رب العالمين أن يكون العروة الوثقى في العقيدة والعمل [ليظهره] أي ليظهر ذلك الرسول [على الدين كله] أي على أهل الدين أو ليظهر دينه على الدين كله [ولو كره المشركون] بهذا الإظهار ، فإن الحق أحق بالاتباع • وإذا ظهر لأرباب العقول وجب رعايته بلا نزاع •

ثم شرع الباري سبحانه في بيان حال الأحبار والرهبان في إغوائهم للناس وسوء معاملتهم معهم فقال : [يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل] أي يأخذونها منهم بالارتشاء لتبديل الاحكام والشرائع والمماشاة مع أهل النفوذ وسائر طرق الفساد

[ويصدون] الناس [عن سبيل الله] أي السلوك في طريق دين الإسلام المبين [والذين يكنزون الذهب والفضـــة] أي يجمعونهـا مع الدفن أولا [ولا ينفقونها في سبيل الله] أي لا يؤدون زكاتها ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المسلمين [فبشرهم بعذاب أليم] وذلك العذاب [يوم يحمى عليها في نار جهنم] أي توقد نار ذات حَمىً وحرٍّ شديد عليها ، وأصلها تحمى بالنار من قولك حَميْتُ الميسمَ وأحميته • فجعل الإحماء للنار مبالغة لان النار في نفســها ذات حمى ، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على شــدة توقدها ، ثم حذفت النار وحولت الاسـناد الى الجار والمجرور [فتكوى بها جباهُهُم وجنوبهم وظهورهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم] أي يقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم [فذوقوا ما كنتم تكنزون] أي ذوقوا طعم ما كنتم تكنزون على تشبيه المكنوز بالمطعوم واستعارة الثاني للأول في النفس وجعل الذوق قرينة • أو ذوقوا حلاوة ما تكنزون على تشبيهه بالفاكهة الحلوة تهكماً •

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوتِ والأَرْضَ مِنها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كما يقاتِلونَكم كافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ (٣٦) إنَّما النَّسِيءُ زِيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَاماً ويُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ)(٣٧)

قوله تعالى [إن عدة الشهور] أي مبلغ عدد شهور السنة [عند الله] أي في حكمه [إثنا عشر شهرا] وهي الشهور القمرية ، وعليها تدور الأحكام

الشرعية [في كتاب الله] أي في اللوح المحفوظ ، أو في القرآن ، لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر [يَوْمَ خلق] الله [السماوات والارض] أي في ابتداء إيجاد هذا العالم [منها اربعة حُرُم] إما صفة لقوله اثنا عشر شهرا ، أو جملة مُستأنَفَة" [ذلك الدين القَيِّمُ ، فلا تَظْلموا فيهن أنْفُسكم] بهتك حرمتهن وارتكاب القتال فيها [وقاتلوا المشركين كافَّةً كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مَعَ المتقين] المراعين حدود الله في الأوامر والنواهي ، فاتقوا الله لتفوزوا بنصره المبين •

واختلف في ترتيبها : فقيل : أولها المحرم وآخرها ذو الحجة ، فهن من شهور عام واحد ، وظاهر ما أخرجه سعيد بن منصور وابن مردويه عن ابن عباس يقتضيه • وهناك أقوال أخرى • ومحرم جعل أول السنة في زمن الخليفة الثاني عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان يؤرخ قبله بعام الفيل ، وكذا بموت هشام بن المغيرة • ثم أرخ بصدر الاسلام بربيع الاول • وقالوا : إنه كان في العرب تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفا عن سلف باعتبار حوادث وقعت في الأيام الماضية • ولما هاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذ المسلمون هجرته مبدأ التاريخ وتناسَوْا ما قبله وسَمَّوا كل سنة أتت عليهم باسم حادثة وقعت فيها كسنة الإذن في القتال ••• وهكذا الى خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ فسأله بعض الصحابة في ذلك فاختار ـ رضي الله عنه ـ عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها ، فاستحسنت الصحابة رأيه في ذلك • وكان أول هلال المحرم في التأريخ الهجري ليلة الخميس • والسنة القمرية مبنية على الاشهر واعتبروا كل شهر بمطلع الهلال أوله ، وبما أن تجدد الهلال في اثني عشر شهرا يستوعب ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوما اصطلحوا على جعل الاشهر شهرا كاملا وشهرا ناقصا ، وإنما جعل الاشهر كذلك حتى يعرف العالم والعامي مبادىء معاملاتهم وصناعاتهم وزراعاتهم ،

لأن الهلال مرئي لكل ذي بصر يرى الأشياء . وأما السنة الشمسية فثلاثمائة وستة وستون يوما ، وفيها كسور يعرفها أهل الحساب .

وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ، ولا يتقاتلون فيها ويستريحون ، ويسافرون ويتاجرون بلا منع وخوف حتى أن الرجل يلقى أحد أعاديه وقاتل أبيه وأخيه فلا يتعرض له . ولكنهم أخيرا غيروا تلك الآداب وأحدثوا النسيىء كما سيذكره تعالى . وقوله تعالى : (إنما النسيىء زيادة في الكفر) بيان لسوء معاملة الناس في رعاية الاشهر الحرم لانتهاك حرماتها . ذلك لأنه اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر ، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإن احتاجوا أيضا أحلوه وحرموا ربيعا الأول . وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها . وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الاشهر المعلومة ، وربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ، ويجعلون أربعة أشهر من السنة حراما فيقول الباري سبحانه [إنما النسيىء] اي تاخير الاشهر الحرم عن محلها [زيادة في الكفر] الذي هم عليه لأن تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه الله [يضل به الذين كفروا] إضلالا على إضلالهم القديم [يحلونه] أي الشهر المحرم المؤخر [عاما] من الاعوام [ويحرمونه] أي يحافظون على حرمته [عاما] وإنما يفعلون ذلك [ليواطئوا عدة ما حرم الله] أي ليوافقوا رعاية عدة الاشهر الاربعة التي حرمها الله ويخالفوا خصوصها [فيحلوا ما حرم الله] أي فيخالفوا ما توارثوا عليه من تحريم ما حرمه الله بإحلال ما حرمه الله تعالى بحيث إذا سأل سائل : ما الذي دعاهم إلى هذه الاعمال ؟ يجاب بأنه : [زين لهم] من جانب النفس والشيطان [سوء أعمالهم] التخريبية الهادمة لحرمات الله ، فالنفس تدعوهم الى إحلال الحرام حتى يغلبوا على أعدائهم ، والشيطان يدعوهم إلى ذلك

يكونوا من أعوانه في إغواء الناس ، وهم بذلك لا يصلون إلى مآربهم ، وإن ظهر ذلك بادي الرأي [والله لا يهدي القوم الكافرين] الى حقيقة الحق ومنهم القادة المغيرون لأحكام الله ، ومنهم جنادة بن عوف الكناني ، كان يقوم على جمل في الموسم فينادي : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادي في القابل : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه . وهناك رواية أن غيره أحدث ذلك .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلى الأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ(٣٨) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) إِلاَّ تَنْصُرُوه فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا ! فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠) إنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقالاً ، وَجاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٤١) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاَتَّبَعُوكَ ، ولكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ : لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُم ! يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَاللهُ

يَعْلَمُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ؟ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ، وَقِيلَ: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً، وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ، وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)(٤٨)

قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا] الآية ••• كانت غزوة تبوك في شدة الحر وحمارة القيظ حين طابت الثمار، واشتهوا الظلال؛ فتخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذه الغزوة فريقان: فريق من المؤمنين، وآخر من المنافقين • وكان يوصي بعضهم بعضا بالتخلف، ويقول بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر ـ فأنزل الله تعالى ـ في عتاب من تخلف من المؤمنين قوله تعالى [يا أيها الذين آمنوا مالكم] إلى قوله تعالى [والله عزيز حكيم] وأنزل أمراً للمؤمنين بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في جميع الحالات في العسر واليسر في المنشط والمكره في قوله تعالى [إنفروا خفافا وثقالا] الآية ••• ثم أنزل تعالى موبخا من تخلف عن رسول الله في هذه الغزوة من المنافقين وقعدوا بعدما استأذنوه في التخلف مظهرين أنهم

ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك هذه الآيات من قوله تعالى : [لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك] إلى (ويتولوا وهم فرحون) غير أنه وسط بين هذه الآيات خِطابَه للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إذنه لبعض الناس في التخلف عن هذه الغزوة قبل أن يتبين له المعذور في التخلف من غيره في قوله تعالى (عفا الله عنك) الآية ...

فيقول الله تعالى [يا أيها الذين آمنوا مالكم] أي أيّ نفع يحصل لكم [إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله] أي أخرجوا للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله [اثاقلتم إلى الارض] أصله تثاقلتم أي تباطأتم وتكاسلتم ولم تسرعوا الى الجهاد . وقوله [إلى الارض] متعلق بقوله [اثاقلتم] على تضمين معنى الميل أي اثاقلتم مائلين الى أرض الدنيا وبساتينها وثمارها متمتعين بها . أو متعلق بالمشي المفهوم من اثاقلتم أي اثاقلتم في المشي إلى أرض المعركة في سبيل الله .

وكان هذا التثاقل في غزوة تبوك وكانت في رجب سنة تسع ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن رجع من الطائف أقام بالمدينة قليلا ثم استنفر الناس في وقت عسرة وشدة من الحرّ وجدب من البلاد ، وقد أدركت ثمار المدينة ، وطابت ظلالها ، مع بعد الشقة ، وكثرة العدو ، فشق على الناس الشخوص لذلك وذكر ابن هشام : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصعد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينها ليتأهبوا لذلك أهبته .

[أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟] أي بدل الآخرة ونعيمها [فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل] لا قيمة لها في مقابل الآخرة الخالدة . ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى من أسلوب الاستفهام الإنكاري الى التهديد

وقال : [إلا تنفروا] أي إن لا تخرجوا من أرضكم الى ما دعاكم الله له من الجهاد بالأموال والأنفس [يعذبكم عذابا أليما] بالإهلاك والاستخفاف أو الإبقاء على حياة تعسة [ويستبدل] بكم بعد تنحيتكم [قوما غيركم] يغايرونكم في النعوت فيجاهدون ويعلون كلمة الحق ، ويسجلهم التاريخ بشرافة التضحية في سبيل الله [ولا تضروه شيئا] من الضرر فتخسرون الدنيا والآخرة [والله على كل شيء قدير] .

[إلاّ تنصرُوهُ] أي فلا ضرر يعود على الله تعالى ولا عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ [فقد نصرهُ الله] تعالى [إذ أخرجه الذين كفروا] أي تسببّوا في إخراجه من مكة [ثاني اثنين] أي حالكونه أحد اثنين هما : الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصاحبه أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ ، وقوله [إذ هما في الغار] بدل من إذ أخرجه أو ظرف لثاني اثنين . والمراد بالغار : ثقب في أعلى ثور وهو جبل في الجهة اليمنى لمكة على مسير ساعة ، مكثا فيه ثلاثة أيام يختلف اليهما بالطعام عامر بن فهيرة ، وعلي كرم الله وجهه يجهزهما ، فاشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهما دليلا ، فلما كان في بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي ــ كرم الله وجهه ــ بالإبل والدليل فركبوا وتوجهوا نحو المدينة [إذ يقول] بدل ثان من قوله : إذ أخرجه [لصاحبه] وهو أبو بكر الصديق ــ رضي الله تعالى عنه ــ : [لا تحزن إن الله مَعَنا] أي بالمعونة والحفظ فهي معية مخصوصة ، وإلا فهو تعالى مع كل واحد من خلقه .

روى الشيخان وغيرهما عن أنس قال : حدثني أبو بكر قال : كنتُ مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه لأَبْصَرنَا تحت قدمه ! فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟! »

وروى البيهقي وغيره : أنه لما دخلا الغار أمر الله تعالى العنكبوت فنسجت على فم الغار ، وبعث حمامتين وحشيتين فباضتا فيه ، وأقبل فتيان قريش من كل بطن رجلاً بعصيهم وسيوفهم حتى اذا كانوا قدر أربعين ذراعا تعجل بعضهم فنظر في الغار ليرى أحدا فرأى حمامتين فرجع الى أصحابه فقال : ليس في الغار أحد ولو كان قد دخله أحد ما بقيت هاتان الحمامتان .

وأول من دخل الغار أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ، فقد أخرج ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال : لما انطلق أبو بكر ـ رضي الله عنه مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الغار قال أبو بكر : لا تدخل يا رسول الله حتى أستبرأه فدخل الغار فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن أصبعه وهو يقول :

ما أنتِ إلا إصبع دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وروى البيهقي في الدلائل وابن عساكر أنه لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا اتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما هذا يا أبا بكر ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصد فأكونُ أمامك ، وأذكرُ الطلب ، فأكونُ خلفك ، ومرةً عن يمينك ، ومرةً عن يسارك لا آمَن عليك ! فمشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه . فلما رأى ذلك أبو بكر حمله على كاهله ، وجعل يشتد به حتى أتى فَم الغارِ فأنزله . ثم قال : والذي بعثك بالحق ! لا تدخلُ حتى أدخله فإن كان فيه شيء نَزَل بي قبلك ! فدخل فلم ير شيئا ، فحمله فأدخله ، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاعٍ وخشِي أبو بكر أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فألقمه

قدمه فجعلن يَضْرِبنه ويلسعنه ، وجعلت دموعه تنحدر وهو لا يرفع قدمه حبّاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! وفي رواية : أنه سد كل خرق في الغار بثوبه قطّعه لذلك قطَعاً ، وبقي خرق سَدّه بعقبه ـ رضي الله عنه ـ .

[فأنزل الله سكينته عليه] أي أنزل الطمأنينة القلبية على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وأيده بجنود لم تروها] والمراد بالجنود الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين . وقيل هم ملائكة أنزلهم الله تبارك وتعالى ليحرسوه في الغار . ويؤيده ما أخرجه أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن أبا بكر رآى رجلا يواجه الغار ، فقال : يا رسول الله إنه لرآنا قال : « كلاّ إن الملائكة تستره الآن بأجنحتها » فلم ينشب الرجل أن قَعَدَ يبول مُسْتَقبلهما ! فقال رسول الله : « يا أبا بكر لو كانَ يرانا ما فَعَلَ هذا » [وجعل كلمة الذين كفروا السفلى] أي جعل كلمتهم التي اتفقوا عليها في أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دار الندوة حيث نجّاه ربّه سبحانه على رَغم أنوفهم ، وَحَفِظَه من كيدهم ، مع أنه لم يَدَعوا في القوس مَنْزَعاً في إيصال الشرّ إليه ، وجعلوا الدية لمن يقتله أو يأسره عليه السلام ، وخرجوا في طلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجالا وركبانا ، فرجعوا صِفْرَ الأكفّ ..

ثم يحرض الناس الأصفياء على الجهاد ويقول : [انفروا] أيها الناس [خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون] . وقوله تعالى : (خفافا وثقالا) حالان من ضمير المخاطبين . أي انفروا على كل حال من يسر أو عسر حاصلين من أي سبب من الصحة والمرض ، أو الغنى والفقر ، أو قلة العيال وكثرتهم ، أو الكبر

والحداثة ، أو السمن والهزال ، إلى غير ذلك من الأحوال بعد الإمكان والقدرة في الجملة •

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي يزيد المديني قال : كان أبو أيوب الانصاري والمقداد بن الاسود يقولان : أمرنا أن ننفر على كل حال ويتأولان الآية • وأخرجا عن مجاهد قال : قالوا : إن فينا الثقيل وذا الحاجة ، والصنعة والشغل ، والمنتشر به أمره • فأنزل الله تعالى خفافا وثقالا ، وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافا وثقالا وعلى ما كان منهم • فما روي في تفسيرهما من قولهم خفافا من السلاح وثقالا منه ، أو وركبانا ومشاة ، أو شبانا وشيوخا ، أو أصحاء ومرضى الى غير ذلك ليس تخصيصا للامرين المتقابلين بالإرادة من غير مقارنة للباقي • وقوله تعالى (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) أي بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما • والجهاد بالنفس واضح ، وبالمال عبارة عن إنفاقه على السلاح ، وتزويد الغزاة ، ورعاية عائلتهم في غيابهم ، أو بعد استشهادهم • وقوله (ذلكم خير لكم) كلمة خير صفة مشبهة أي ذلكم خير عظيم لكم • وقوله (إن كنتم تعلمون) أي إن كنتم تعلمون الخير تعلمون أن ذلكم خير لكم أجمعين •

ثم قال الباري تعالى مؤنباً للمتثاقلين : [لو كان] أي ما دعوا إليه من النفر للجهاد في هذا الموسم الحرج [عرضا قريبا] أي متاعا سهل المأخذ [وسفرا قاصدا] أي وسطا بين القريب والبعيد ، والقاصد كالتامر واللابن ، أي ذا قصد وتوسط [لاتبعوك] أي لوافقوك في النفير والمسير [ولكن بعدت عليهم الشقة] أي المسافة تطوى وتقطع بمشقة [وسيحلفون بالله] أولئك المتخلفون [لو استطعنا لخرجنا معكم] إلى ما تدعوننا إليه [يهلكون أنفسهم] بهذا التخلف والحلف الكاذب [والله يعلم إنهم لكاذبون] ولما حلف أولئك المنافقون على وجود العذر لهم في التخلف ،

وعدم مساعدة ظروفهم للسفر ، واستأذنوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البقاء في المدينة ، وأذن لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. أنزل الله تعالى قوله [عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ؟] أي لاي سبب أذنت لهم حين استأذنوك معتذرين بعدم الاستطاعة وكان الأنسب بواقع الحال أن لا تأذن لهم وتمنعهم عن التخلف [حتى يتبين لك الذين صَدَقوا] في ما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة [وتعلم الكاذبين] يعني لِمَ سارَعْتَ إلى الإذن لهم وما توقفت حتى تستكشف حقيقة أحوالهم ؟ ولو توقفت وحققت عنها تبينت أن لا عذر لهم في التخلف ، وأن اعتذارهم ناشيء عن سوء أفكارهم وفساد اعتبارهم ، وعلمت أنهم كاذبون في ما أخبروا به من المعاذير ، ولو كانوا مؤمنين حقا ما تخلفوا ، لأنه [لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر] في التخلف عن [أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم] فإنهم من المتقين عن مخالفة الله ورسوله [والله عليم بالمتقين . وإنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم] ووقعت في ظلمات الشكوك والأوهام [فهم في ريبهم] وشكهم المستمر [يترددون] ويتحيرون ، وكان مقتضى طبع المرتابين التكاسل والتقاعس عن الخروج الى الجهاد بل ما أرادوه .

[ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة] أي أهبة من الزاد وما يحتاجون إليه في السفر [ولكن كره الله انبعاثهم] أي خروجهم للجهاد لعلمه بسوء أحوالهم وأفعالهم [فثبطهم] أي أقْعَدهُم وعَوّقهُم [وقيل لهم] من جانب الحق تعالى : [اقعدوا مع القاعدين] ولله الحمد في قعودهم وركودهم عن الخروج معكم و [لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا] أي شرا وفسادا بإلقاء الوساوس والاوهام إليكم [ولأوضعوا خلالكم] والايضاع : سير الإبل بسرعة ، أي وأسرعوا النمائم خلالكم ، وجعلوا فيها وسائل النزاع حالكونهم [يبغونكم الفتنة] أي يطلبون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما

بينكم وتهويل العدو عليكم ، وإلقاء الخوف في قلوبكم [وفيكم سماعون لهم] لا لضعف إيمانهم بل لضعف عرفانهم وصفاء صدورهم . فإن المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبٌّ لئيم [والله عليم بالظالمين] وليس دأبهم الفاسد المفسد شيئا حادثا بل شييء سابق راسخ في قلوبهم .

[لقد ابتغوا الفتنة] وتفرق جمعكم [من قبل] أي من قبل هذا اليوم مرات ، وبالأخص في يوم أحد حين انصرف عبدالله بن ابي بن سلول مع أتباعه المنافقين الفاسقين المارقين ، [وقلبوا لك الأمور] المكايد [حتى جاء الحق] أي النصر من الله والفتح [وظهر أمر الله] أي دينه المأمور به [وهم كارهون] لذلك النصر المبين .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : ائذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي ، أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وإنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ(٤٩) إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَانْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا : قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ(٥٠) قُلْ : لَنْ يُصِيبَنا إلاَّ ما كَتَبَ اللهُ لَنا ، هُوَ مَوْلينا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُون(٥١) قُلْ : هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ انْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ اوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوا إنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ)(٥٢)

قوله تعالى : [ومنهم من يقول إئذن لي] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : لما أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس : « يا جدّ بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر ؟ »

فقال : يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الاصفر أفتتن ! فائذن لي ولا تفتني • فنزلت الآية • أي ومنهم من يقول : ائذن لي في التخلف ، ولا توقعني في المعصية والإثم بمخالفة أمرك في الخروج إلى الجهاد • وفي هذا الكلام على هذا إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لم يأذن • ومنهم من فسر الفتنة بالضرر أي ائذن لي ولا توقعني في الضرر فإني ان خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم وجود من يقوم بمصالحهم • ومنهم من فسر الفتنة بالتعب أي ائذن لي ولا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر ، فلقوله تعالى [ولا تفتني] هذه التفاسير [ألا في الفتنة سقطوا] قابلهم الله تعالى بجملة تدل على اختصاص الفتنة بهم ، وقال ألا في الفتنة سقطوا لا في شيىء مغاير لها • وذلك في الدنيا والآخرة أو في الدنيا [وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] لا يخلصون فيها من عقوبة الآخرة • وهذا وعيد لهم بتحقق عقاب أخروي على جزاء ما فعلوه في الدنيا •

[إن تصبك] يا حبيبي [حسنة] من النعماء والغنيمة والظفر بالأعداء [تسؤهم] تلك الحسنة أي تورثهم مساءة وحزنا لفرط حسدهم [وإن تصبك مصيبة] كافتقار وانكسار [يَقولُوا : قَدْ اَخَذْنا اَمْرَنا مِنْ قبلُ] أي وَصَلْنا إلى مُرادنا ونجونا من قبل أنْ تتورط في السير والحرب والهزيمة [ويتولوا] أي وينصرفوا [وهم فرحون] بما أصابك من المساءة والآلام • [قل] في الرد عليهم : [لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا] وقدره في علمه الأزلي من الأفراح والأتراح [هو مولينا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون] اي يفوضوا الامور اليه تعالى ويرضوا بما يجري •

ومما ينبغي أن يعلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان سيد المتوكلين ، وكان متخلقا بأخلاق جميع الانبياء والمرسلين ، ومنذ بدء نزول

الوحي اليه لم يتكاسل عن سبب من الاسباب المشروعة في الوصول الى نتائج حسنة من إبلاغ رسالته . وأهم تلك الاسباب السعي في نشر شريعته ، والجهد لتكثير أتباعه ، وإعداد الاسباب للظفر بالأعداء مع التذرع بالصبر والصدق في السراء والضراء وحين البأس ، فليس معنى التوكل على الله التكاسل عن العمل المشروع ، والسعي حول تحصيل المعيشة المباحة والراحة ، إنما التوكل الاعتماد على الله والإيمان بأن كل ما أتاه من الخيرات من الأسباب والمسببات أتاه بخلقه وإحسانه وكرمه وجوده ، ولم يكن لأسبابه تأثير إيجابي إلا حسب المعتاد المقرر للعباد ، فإذا تكاسل إنسان قادر على العمل والسعي عن أداء واجبه ، وتباطأ في السير نحو الخير فهو مغرور مخالف لأخلاق الرسول . نعم العاجز عن مباشرة الاسباب لا مجال له إلا التوجه الى العليم القادر الوهاب .

فعليكم بالجهد في تحصيل العلوم النافعة ، وعليكم بمباشرة الصناعات الرفيعة والدوام على الاعمال بدون إهمال ، سواء كانت في ترك المحرمات والمكروهات ، او في فعل الواجبات والمندوبات ؛ فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى ، وليتنبه المسلم لاغتنام الفرصة والاهتمام بالعمل اللازم في اليوم بدون التسويف والتأخير إلى الغد ، وليستعد لمقابلة ما يعارضه بانشراح الصدر والتذرع بالصبر ، فإن الله مع الصابرين . [قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين] أي قل لأولئك المنافقين : أنتم تتربصون بنا وتنتظرون إحدى خصلتين هي بالنسبة إلينا إحدى الحسنيين ، فإنكم تحبون أنْ تتورط في الحروب مع الكفار لعلنا نقتل وتبقى الدنيا وزخارفها لكم تمرحون فيها ، ونحن إذا تورطنا وظفرنا وانتصرنا أخذنا الغنائم ، وهي الخصلة الحسنى في الدنيا . واذا غلب الاعداء علينا وقتلونا متْنا شهداء ، والشهادة هي الخصلة الحسنى لنا بالنسبة للآخرة . فلا تتربصون بنا إلا إحدى

الحسنيين لنا • وقد صح من حديث أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة » [ونحن نتربص بكم] إحدى السوءيين الأولى [أن يصيبكم الله بعذاب من عنده] فيهلككم كما أهلك الأمم الطاغية السابقة • الثانية ما ذكره بقوله الكريم [أو] يصيبكم بعذاب [بأيدينا] فنقتلكم ونرسلكم الى جهنم وبئس المصير ، فإذا كان الامر كذلك [فتربصوا] وانتظروا العاقبة [إنا معكم متربّصون] ما هو عاقبة أمر كل من الجانبين •

(قُلْ : أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ(٥٣) وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وبِرَسُولِهِ ، وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاّ وَهُمْ كُسالى ، وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ(٥٤) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ولا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الحَياةِ الدُّنْيَا وتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ(٥٥) وَيَحْلِفُونَ باللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ، ولكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)(٥٧)

قوله تعالى : [قل أنفقوا طوعا أو كرها] نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ جوابا عما في قول الجدّ بن قيس حين قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « هل لك في جِلادِ بني الاصفر ؟ » أي جهادهم : إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ، لكن أعينك بمالي • ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم •

ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه • فأنزل الله تعالى الآية • واخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في مساواة الإنفاق طوعا والإنفاق كرها في عدم القبول • كأنهم أمروا أن يجربوا الامرين ، وينظروا هل يتقبل منهم في أحدهما • وقال : يا رسولي [قل] للجمع المذكورين : [أنفقوا أموالكم طوعا أو كرها] رغبة أو عن سخط وعدم رضا ، إن أنفقتم على أي الحالين [لن يتقبل منكم] أي لا يؤخذ منكم لأنه مال خرج عن خبث النية ، والعطاء عن خبث النية خبيث ، والخبيث لا يتسلمه الطيب ، أولا ثواب فيه لأن الثواب ناشيء عن الاحتساب ، ولا احتساب في إنفاقكم لأنا لا نرى الاحتساب في الفاسقين و [إنكم كنتم قوما فاسقين] •

[وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى] أي إلا حال كونهم متثاقلين عن القيام إليها [ولا ينفقون إلا وهم كارهون] للإنفاق • ومن لم يتنور قلبه بنور الإيمان بالله ورسوله ، ولم يتحضر بالنشاط للوفاء بفريضة الله ، ولم يصرف نفقات الجهاد بالمحبة والاستعداد فالله بريء منه ، ورسوله فارغ عن الميل إليه [فلا تعجبك أموالهم] ولو كانت كثيرة وفيرة [ولا أولادهم] ولو كانوا على جمال الصورة ، فلا خير لا في هذه ولا في تلك [إنما يريد الله ليعذبهم] أي أصحاب تلك الاموال والاولاد [بها في الحياة الدنيا] بالمكابدة في جمعها وحفظها ، والمقاساة في تربيتها بدون أي نفع منها يعود إليهم في الدنيا أو الآخرة • وقوله [وتزهق] معطوف على (يُعَذب) أي إنما يريد لتزهق [أنفسهم] أي تخرج بصعوبة من الدنيا [وهم كافرون] خاسرون • [ويحلفون إنهم لمنكم] ويريدون انتصاركم [وما هم منكم] ولا يحبون بقاءكم بل يكرهون لقاءكم [ولكنهم قوم يفرقون] أي يخافون منكم أن تُعاملوهم معاملة المشركين فينطقون بالشهادتين وقاية لدمائهم ولأموالهم •

[لو يجدون ملجأ] أي حصنا يتحصنون به [أو مغارات] وكهوفا يختفون فيها [أو مدّخلا] ونفقا وسراديب يتحجرون فيه [لولّوا] أي توجهوا [إليه] أي الى ما ذكر [وهم يجمحون] أي يخرجون عن الإطاعة ويسرعون إليه بكل قوة وطغيان ، كالفرس الجموح .

(ومِنْهُمْ مَنْ يَلمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَم يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ(٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتيهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا : حَسْبُنَا اللهُ ، سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُه انَّا إِلى اللهِ رَاغِبُونَ(٥٩) إِنمَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلينَ عَلَيْهَا ، وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ ، وابْنِ السَّبِيلِ . فَرِيضَةً مِنَ الله ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٦٠)

قوله تعالى : [ومنهم من يلمزك] أي ومن المنافقين من حضر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يُقسّم غنائِم حنين فقال لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : اعْدلِ ، فإن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ! فقال لَه الرسولُ : « ويحك ومن يعدلُ إذا لم أعدلْ ! خِبْتُ وخَسرتُ إن لم أكن أعدل » فقال له عمر بن الخطاب : ائذن لي يا رسول الله فأضربَ عنقَ هذا المنافق . فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « دَعْهُ . ثم قال : رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » وفيه نزلت (ومنهم من يلمزك في الصدقات) الآية ... رواه البخاري وغيره . واسم هذا المنافق حُرقوص بن زهير التميمي الملقب بذي الخويصرة .

يقول الباري سبحانه وتعالى : [ومنهم من يلمزك] أي يعيبك [في الصدقات] أي في شأنها ، وكيفية تقسيمها [فإن أعطوا منها رَضُوا] أي

إن خلقهم الحرص على الدنيا وجمع الأموال ، فإن أُعطوا من تلك الصدقات رضوا بالقسمة واستحسنوها ، [وإن لم يُعْطَوا منها] شيئا أو ما يقتنعون به [إذا هم يَسخطون] أي يفاجئهم السخط [ولو أنهم رَضُوا ما آتيهُمُ الله ورسوله] طيبي النفوس به قليلا أو كثيرا [وقالوا : حسبنا الله] أي كفانا فضله ورحمته وما قسمه لنا [سَيُؤتينا الله من فضله] بعد هذه الساعة إن عاجلا أو آجلا [إنا إلى الله راغبون] ولا يهمنا الا ما قسمه الله • والجواب محذوف أي لكان خيرا لهم •

ثم بين سبحانه وتعالى أن أفعاله ــ صلى الله عليه وسلم ــ موافقة للحق ومناسبة لإصلاح الدين وأهله لا لأغراض نفسانية ، فقال : [إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين] الفقير عند الإمام الشافعي : من ليس له مال ولا كسب يقع موقعا من كفايته • وذلك كأن يكتسب يوميا أقل من نصف ما يحتاج إليه ، فله أقسام ثلاثة :

الاول : من لم يكن عنده مال ولا كسب أصلا •

الثاني : من له كسب لا يليق به كأصحاب العلم والشرف والبيوت الذين يقدرون على كسب لا يناسب مقامهم •

الثالث : من له مال أو كسب لائق لكنه لا يفي إلا بأقل من نصف ما يحتاج إليه •

والمسكين : من قدر على مال أو كسب يقع موقعا من حاجته ولا يكفيه ، كأن احتاج الى عشرة دراهم ، وهو قادر على خمسة فصاعدا إلى العشرة ، فالمالك للتسعة فقط مسكين •

وعند الإمام أبي حنيفة ــ رضي الله عنه ــ معناهما بعكس ما عند الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ •

ولا يمنع الفقر والمسكنة مسكنه وثيابه ، ولو للتجمل في بعض المناسبات ، وكذا حُلِيّ المرأة اللائق بها المحتاجة إليه للتزين ، وكُتُب علم يحتاجها ، وماله الغائب عنه بمرحلتين ، والدَّينُ المؤجل ، والكسبُ الذي لا يليق به شرعاً ، لكونه حراما ، أو عرفا كأن يخل بمروءته . ولا يمنعهما أيضا اشتغاله عن كسب يناسبه بحفظ القرآن الكريم ، أو الفقه ، أو التفسير ، أو الحديث أو ما كان آلة لذلك كالنحو والصرف ، والبلاغة ، والأصولين ، والمنطق وآداب البحث ، أو بتدريسها وكان ممن يحتاج إليه فيه .

[والعاملين عليها] كجابي الصدقات [والمؤلفة قلوبهم] بالعطية وهم من أسلموا ونيتهم ضعيفة كجديدى الإسلام ، أو له شرف يتوقع بإعطائه إسلام غيره من نظرائه ، فيعطى لأجل ذلك [وفي الرقاب] أي وللصرف في فك الرقاب [والغارمين] وهم الذين عليهم دين ولا يجدون وفاءً . نعم الغارم لإصلاح ذات البين للمصالح العامة كبناء المدرسة والمستشفى يجوز صرفها له، ولو كان عنده الوفاء من ماله ، إبقاءً لهذه الخدمة الشريفة . والظاهر أن من يؤلف وينشر تأليفه مجانا لإرشاد المسلمين كذلك [وفي سبيل الله] المراد به عند أبي يوسف منقطعو الغزاة ، وعند محمد منقطعو الحجيج . وقيل : المراد طلبة العلم . واقتصر عليه في الفتاوى الظهيرية ، وفسره في البدائع بجميع القرب . فيدخل فيه كل من سعى في طاعة الله وسبل الخيرات . وقال في البحر : ولا يخفى أن قيد الفقر لابد منه على الوجوه كلها فحينئذ لا تظهر ثمرته في الزكاة وانما تظهر في الوصايا والأوقاف . إنتهى . [وابن السبيل] وهو المسافر المنقطع عن ماله . ولا يجوز أن يأخذ أكثر من حاجته [فريضة من الله] مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي فرض لهم الصدقات فريضة من الله [والله عزيز حكيم] بأحوال الناس واستحقاقهم .

(ومِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ . قُلْ : أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، والَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦١) يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ، واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ(٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيها ؟ ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ)(٦٣)

قوله تعالى : [ومنهم الذين يؤذون النبي] أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم الحلاسُ بن سويد بن صامت ، ورفاعة بن عبدالمنذر ، ووديعة بن ثابت ... وغيرهم قالوا : ما لا ينبغي في حقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رجل منهم : لا تفعلوا ، إنا نخاف أن يبلغ محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما تقولون فيقع بنا . فقال الحلاس : بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول ، فإن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُذُنٌ ، وفي رواية أذُنٌ سامِعة .

وعن محمد بن إسحاق أنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له : نبتل بن الحرث ، وكان رجلا آدم ، أحمر العينين ، أسفع الخدين ، مشوه الخلقة ، وكان ينم حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المنافقين ، فقيل له : لا تفعل . فقال : انما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُذُنٌ : من حدثه شيئا صدقه ، نقول شيئا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا ، وهو الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أراد أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحرث » وأرادوا ـ سوّد الله وجوههم وأصمهم وأعمى ابصارهم ـ بقولهم [هو أُذنٌ] أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع ما يقال له ويصدقه،

وإطلاقه عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل [قل : هو أذن خير لكم] من قبيل رجل صدق أي نعم هو أذن ، ولكن نعم الاذن هو أذن خير لكم يسمع ما يقال وما كان خيرا من مسموعاته يستفيد منه ما يعود بالنفع لكم ، وما كان على خلاف ذلك ألهمه الله تعالى تركه وإهماله وعدم الاهتمام به [يؤمن بالله] ايمانا لائقا بأشرف الانبياء والمرسلين [ويؤمن للمؤمنين] ويصدق الكلام المنتسب للمؤمنين المخلصين في التنوير والتبصير والتذكير والتحذير [و] كل سيد للامة شأنه ذلك فهو [رحمة للذين آمنوا منكم] إيمانا خالصا عن النفاق [والذين يؤذون الله ورسوله] بالاعمال والاقوال الفاسدة الناشئة من نفاقه وشيطنته [لهم عذاب أليم] في الدنيا أو الاخرة بالعار ونار الجحيم .

ثم نبه سبحانه وتعالى عباده المؤمنين المخلصين من أصحاب رسوله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على بعض أحوال المنافقين لينتبهوا ولا ينخدعوا بهم وقال : [يحلفون بالله لكم ليرضوكم] أولئك المنافقون ولا يدرون أنه لا ينفعهم إرضاؤكم بالأحلاف الكاذبة [والله ورسوله أحق أن يرضوه] بالإيمان الخالص والأقوال الصادقة ، والأعمال الصالحة [إن كانوا مؤمنين] صادقين [ألم يعلموا] أي أولئك المنافقون [أنه من يحادد الله ورسوله] أي يخالف أمر الله ورسوله [فأن له نار جهنم] أي فحق أن له نار جهنم [خالدا فيها] أي مقدرا خلوده فيها [ذلك الخزي العظيم] الذي لا مخلص منه .

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ : اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَنَلْعَبُ ، قُلْ : أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟!(٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧) وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخلاقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ ، وخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أولئكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وأولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(٦٩)

قوله تعالى : [يحذر المنافقون] يعني يخاف المنافقون [أن تنزل عليهم] أي تنزل من الله على رسوله في شأنهم وبيان أحوالهم الناشئة عن نفاقهم [سورة تنبئهم] أي تنبىء المنافقين وتعلن للصادقين بما في قلوبهم من النفاق والشقاق والعداء للرسول ولمن معه ، حتى لا يطلع الناس على ما عندهم من الاستهزاء والسخرية بالمسلمين [قل : استهزءوا] أي استهزؤا قلبا ، أو أظهروه بينكم سرا [إن الله مخرج ما تحذرون] أي ان الله تعالى ينزل السورة التي تخافون من نزولها حتى يطلع الناس على ما عندكم من النفاق والعداء

للإسلام وأهله ، كي تبتلوا بالعار من أحلافكم الكاذبة ، وأخلاقكم الفاسدة حتى لا تبقى ثقة المسلمين بكلامكم ، ولا يطمئنوا من سلامكم ، فإن من السعادة أن يعرف الانسان أهل الزمان ويميز الأعداء من الخلان [ولئن سألتموه] عن سبب ما قالوه من الكلمات التي أفشوها بينهم [ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب] ولم تكن الكلمات خارجة عن ألسنتنا بالجدّ والاهتمام [قل : أبالله ، وآياته ، ورسوله كنتم تستهزءون ؟!] أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : بينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في غزوته إلى تبوك إذ نظر الى أناس بين يديه من المنافقين يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات ! هيهات ! فأطلع الله نبيه ــ عليه الصلاة والسلام ــ على ذلك فقال : « إحْبِسُوا عليَّ هؤلاء الركب » فأتاهم ، فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قلتم كذا وكذا » قالوا : يا نبي الله إنا كنا نخوض ونلعب ، فنزلت • وأصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسما لكل دخول فيه تلويث وأذى •

[لا تعتذروا] أي لا تستمروا على الاعتذار عما فرط منكم فلا يفيدكم ذلك [فقد كفرتم بعد إيمانكم] أي أظهرتم الكفر البواح بعد إظهار الإيمان [إنْ نَعْفُ عن طائفة منكم] لتوبتهم وخلاصهم من سوء الأفكار وصحبة الأشرار [نعذب طائفةً] أخرى منكم لدوامهم واستمرارهم على النفاق والإثارة ومحبة الفجار [بأنهم كانوا مجرمين] مستمرين على الإجرام والآثام • [المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض] متوافقون في المبدأ الفاسد ، ومتعاونون في العمل الكاسد [يأمرون بالمنكر] وهو تكذيب الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ [وينهون عن المعروف] وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [نسوا الله] وتوحيده ،

[فنسيهم] الله أي عاملهم معاملة الناسي لهم بمنع لطفه وفضله عنهم [إن المنافقين هم الفاسقون] الخارجين عن طاعة الله ورسوله [وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار] جهارا [نار جهنم خالدين فيها] مقدرين الخلود فيها [هي حسبهم] عقابا وجزاء [ولعنهم] وأبعدهم عن رحمته وخيره [ولهم عذاب مقيم] أي نوع من العذاب ثابتين فيه [كالذين من قبلكم] من الكفار [كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا] وتمتعوا جدا [بخلاقهم] أي بنصيبهم من دنياهم [فاستمتعتم] أيها المنافقون [بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم] في المناهي [كالذي خاضوا] أي كالجمع الذي خاضوا ، فإن الجمع مفرد لفظا وجمع معنى [أولئك] المتصفون بالصفات الذميمة في طرفي التشبيه [حبطت أعمالهم] التي يظهر أنها توجب المثوبة الحسنى [وأولئك] الموصوفون بحبوط الأعمال [هم الخاسرون] الكاملون في الخسران .

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ ، وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ والمُؤْتَفِكَاتِ ؟ : أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٧٠)

قوله تعالى : [ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم] يعني [ألم يأت] المنافقين [نبأ] هلاك الكفار الطغاة [الذين من قبلهم] وأبدل من الموصول قوله [قوم نوح] ـ عليه السلام ـ وقد هلكوا بالطوفان [و] قوم [عاد] وأهلكوا بالريح [و] قوم [ثمود] أهلكوا بالرجفة [وقوم إبراهيم] ـ عليه السلام ـ أتباع نمرود الذي أهلكه الله ببعوض دخل في انفه ، وتمزق قومه من بعده [وأصحاب مدين] أي أهلها وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ ،

وقد أهلكوا بالنار يوم الظلة ، أو بالصيحة والرجفة أو بالنار والرجفة [المؤتفكات] أي أهل القرى المنقلبة بجعل أعاليها أسافلها ثم أمطر عليها حجارة من سجيل • وهي قرى قوم لوط ـ عليه السلام ـ وتلك الامم الهالكة [أتتهم رسلهم بالبينات] أي بالايات الواضحات والمعجزات التي شهدت لهم بالرسالة من الله ، فكذبوا الرسل وأنكروا البينات ، فأهلكهم الله تعالى جزاء عنادهم وتمردهم على الحق [فما كان الله ليظلمهم] أي لم يكن من سنة الله في الكون أن يعمل شيئا يشبه الظلم كالعقوبة بلا جرم [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] حيث تمردوا بالعقائد الفاسدة المفسدة وبالاعمال السيئة بسوء اختيارهم ، فعاقبهم الله تعالى وجزاهم بالطوفان والرياح والرجفة والصيحة والظلة وما شابهها •

(وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(٧٢)

قوله تعالى : [والمؤمنون والمؤمنات] بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات بعد بيان سوء حال المنافقين بكمال الفسق فيقول [والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض] أي أحباء وأصدقاء ونصراء لبعضهم ، وعادتهم أنهم [يأمرون بالمعروف] اعتقادا وعملا [وينهون عن المنكر] كذلك [ويقيمون الصلاة] يؤدونها على رعاية آدابها وشروطها وأركانها

خاشعين لله متواضعين [ويؤتون الزكاة] مستحقيها في وقتها بدون مَنٍّ وأذىً [ويطيعون الله ورسوله] في سائر الأحكام المندرجة في الاسلام [أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز] غالب على كل ما أراده [حكيم] يَضَعُ الاشياء في مواضعها [وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومَسَاكِنَ طيبة] قصوراً عالية من لآلٍ غالية [في جنات عدن] وهو مكان مخصوص على ما أخرج البزار والدار قطني ، وابن سردويه من حديث أبي الدرداء قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « عَدْنٌ دار الله تعالى لم تَرَها عين ، ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصديقون ، والشهداء • يقول الله سبحانه طوبى لمن دخلك » [ورضوان من الله أكبر] أي وأقَلُّ رضوانٍ من الله بالنسبة الى أي عبدٍ من عباده أكبر من كل عطاء آخر [ذلك] العطاء [هو الفوز العظيم] دون ما يتصوره الناس من متاع الحياة الدنيا •

(يا أيُّها النبي جاهِدِ الْكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ وَمَأْويهُمْ جَهَنَّمْ وبِئْسَ المَصيرُ(٧٣) يَحْلِفُونَ باللهِ مَا قَالُوا وَلَقَد قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ • كَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَما نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإنْ يَتوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ ، وَإنْ يَتَوَلَّوا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَليماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ في الأرضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)(٧٤)

قوله تعالى [يا أيها النبي جاهد الكفار] أي الكفرة المجاهرين بالكفر [والمنافقين] أي الكفرة المظهرين للإيمان المبطنين للكفر بعد ثبوت كفرهم بالدلائل القطعية ، أو المراد جهادُ الاولين بالسيف ، وجهاد الآخرين

بالحرف ، والتنبيه والتأنيب والتوبيخ [واغلظ عليهم] في الجهاد بقسميه [ومأويهم جهنم] لكفرهم [وبئس المصير] لأهل القصور ، ومن جملة جرائمهم أنهم [يحلفون بالله ما قالوا] كلمة فاسدة تنال من شرف الإسلام [ولقد قالوا كلمة الكفر] وهي كلمات الشتائم وسوء الأدب مع الله ورسوله ، وقد سمعها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وكفروا بعد إسلامهم] أي جَهَرُوا بالكفر المستور في قلوبهم بعد أن كتموه وأعلنوا إسلامهم نفاقا . والحاصل أنهم تحولوا من النفاق الى الجهر بالكفر والشقاق [وهموا بما لم ينالوا] من الفتك برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رجع من غزوة تبوك [وما نقموا] أي وما عابوا شيئا [إلا ان أغناهم الله ورسوله من فضله] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم . أي ما كانوا يجدون عيبا يعيبون به الله ورسوله إلا عيباً وهو أن الله شرع دية القتيل والرسول طبق ذلك التشريع وسلم الدية الى آخذها وهو الجلاس . أو أغناهم الله ورسوله بعد مجيئه الى المدينة بتجهيز الجيوش ، وإرسال السرايا ، وأخذ الغنائم من المحاربين وتقسيمها بين المجاهدين [فإن يتوبوا] أي أولئك الفاسدون عما هم عليه من الذنوب [يك خيراً لهم] أي يكن رجوعهم الى الله خيرا لهم في الدارين [وان يتولوا] ويستمروا على الكفر والشقاق [يعذبهم الله] عذابا أليما [في الدنيا] على كفرهم ونفاقهم وسوء معاملاتهم بمتاعب ومصائب [و] في [الآخرة] بعذاب النار [ومالهم في الارض من ولي] يتولاهم [ولا نصير] ينصرهم .

أخرج ابن جرير والطبراني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا في ظل شجرة ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعيني شيطان ، فاذا جاء فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين ، فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال : على مَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله تعالى ما قالوا حتى تجاوز عنهم . فأنزل الله تعالى الآية في تكذيبهم ، وإغناء الله ورسوله له أنه كان له غلام قُتل ، وقد غلب على دينه فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باثني عشر ألفا فأخذها واستغنى .

(ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ : لَئِنْ آتينا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٧٥) فَلَمَّا آتيهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ، وَتَوَلَّوا وهُمْ مُعْرِضُونَ(٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كَانُوا يَكْذِبُونَ(٧٧) أَلَم يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ونَجويهُمْ ، وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ ؟(٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُون مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٩) اِسْتَغفِر لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إنْ تَسْتَغفِر لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، ذلك بأَنَّهُمْ كَفَروا بِاللهِ ورَسُولِهِ ، وَاللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ)(٨٠)

قوله تعالى : [ومنهم من عاهد الله] الآية ... نزلت في ثعلبة بن حاطب ويقال له ابن أبي حاطب وليس هو البدري لأنه قد استشهد بأحد ـ رضي الله عنه ـ أخرجَ الطبراني والبيهقي في الدلائل ، وابن المنذر وغيرهم عن أبي أمامة الباهلي قال : جاء ثعلبة ابن حاطب الى رسول الله قال : يا رسول الله ادْعُ الله تعالى أن يرزقني مالا ، فقال ـ صلى الله

عليه وسلم ـ : ويحك يا ثعلبة ! أما تحب أن تكون مثلي ؟ فلو شئت أن يسير الله تعالى ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت • قال : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يرزقني مالا ، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالا لأعطين كل ذي حق حقه • فقال : ويحك يا ثعلبة ! قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه قال : يا رسول الله أدع الله تعالى • فقال : اللهم ارزق ثعلبة مالا • فاتخذ غنما فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة ! فتنحى بها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يشهدها بالليل • ثم نمت كما ينمو الدود ، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة الى جمعة مع رسول الله ، ثم نمت كما ينمو الدود ، فضاق به مكانه حتى تنحى بها • فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الاخبار • وفقده رسول الله ، فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنما وأن المدينة ضاقت به فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ويح ثعلبة بن حاطب ! ويح ثعلبة بن حاطب ! ثم إن الله أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ الصدقات وأنزل : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) الآية ••• فبعث رجلين : رجلا من جهينة ، ورجلا من بني سَلمة يأخذان الصدقات • وكتب لهما أسنان الابل والغنم ، وكيف يأخذانها • وأمرهما أن يمرا على ثعلبة ورجل من بني سليم • فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة ، فقال : أرياني كتابكما • فنظر فيه ، فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا بي • فانطلقا ، وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا : إنما عليك دون هذا فقال : ما كنت أتقرب الى الله الا بخير مالي • فقبلا ، فلما فرغا مرا بثعلبة فقال : أرياني كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا الا جزية انطلقا حتى أرى رأيي •

فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال قبل أن يكلمهما : ويح ثعلبة بن حاطب ، ودعا للسلمي بالبركة ! وأنزل الله تعالى : (ومنهم من عاهد الله) الآيات الثلاث ... فسمع بعض من أقاربه فأتاه فقال : ويحك يا ثعلبة ! أنزل فيك كذا وكذا . فقدمَ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ان الله قد منعني أن أقبل منـك ، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعني » فلم يقبل منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أبا بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الانصار . فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقبلُها ؟! فلم يقبلهـا أبو بكر . ثم ولى عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي . فقال : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟! ثم ولى عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، فلم يقبلهـا منه ، وهلك في خلافتـه ـ رضي الله عنه ـ . فيقول الباري سبحانه ومن المنافقين من عاهد الله تعالى والتزم أنه إن آتانا من فضلـه وخيراته لنصدقن عليها ونخرج منها الصدقات الواجبة وننفق منها في سبيل الله ، ولنكونن من الصالحين العاملين المطيعين لله ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . [فلما آتيهم من فضله بخلوا به] أي بالمال أي بأداء الواجب منه [وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا] أي فجعل الله تعالى عاقبة فعلهم اعتقادا فاسدا وعملا غير صالح [في قلوبهم الى يوم يلقونه] أي الى يوم يلقون الله تعالى أي يوم الموت ، أو يوم اللقاء والحسـاب [وذلك بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون] وذلك النفاق والشقاق بسبب

إخلافهم بوعدهم الذي وعدوا الله به ، وبسبب كذبهم مع الله ومع رسوله [ألم يعلموا] أي من عاهدوا الله وأخلفوا [أن الله يعلم سرهم] المستور في القلوب [ونجواهم] الملقى الى الأصدقاء الفاسدين [وأن الله علام الغيوب ؟] لا تخفى عليه خافية .

[الذين يلمزون المطوّعين] أي الذين يعيبون الناس المؤمنين الصادقين الذين يتطوعون بأموالهم حالكونهم من المؤمنين فيعيبونهم [في الصدقات] ويقولون : إنما يصدقون بها رياء أو سمعة وليس لوجه الله [والذين لا يجدون الا جهدهم] أي ويعيبون المؤمنين لا يجدون أموالا يصرفونها في سبيل الله الا شيئا قليلا يبلغون بجهدهم وصرفهم له غاية الطاقة [فيسخرون منهم] بقلة الصدقة [سخر الله منهم] أي يستهزىء بهم وينظر اليهم نظرة الى انسانٍ تافهٍ لم يكن له خيرٌ لأي أحد [ولهم عذاب أليم] على معاملتهم هذه لانهم لا ينتمون الى الحق والحقيقة ، وإلا فكيف يعيبون الناس المنفقين من الصدقات مع كثرتها ويعيبون الفقراء من أرباب الحاجات الذين ليس لهم طاعة في الصرف إلا قليلا ؟

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حث الناس على الصدقة في خطبة خطبها قبل خروجه الى غزوة تبوك فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لي ثمانية آلاف ، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بارك الله لك فيما أعطيت ، وفيما أمسكت » فبارك الله له في ماله حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم ، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق تمر ، وجاء أبو عقيل الانصاري بصاع تمر ، فتكلم المنافقون على المكثر والمقل . وكانوا يقولون : إن المكثرين يراؤن الناس ، وإن المقلين إن أرادوا الا معرفة الناس بأحوالهم الاقتصادية حتى يتصدقوا عليهم ، فنزلت الآية

الكريمه • ورد الله عليهم بها وآفادت آن الامر موكول الى الله تعالى • ولا ينبغي لأحد أن يتهم أحدا بسوء الظن ويضيع حقوق الناس ، وأن الذين يسخرون من المؤمنين يسخر الله تعالى بهم ، ولهم في الآخرة عذاب أليم •

[استغفر لهم] أي للذين يلمزون المتطوعين الذين سخر الله تعالى منهم [أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم] بيان لعدم المغفرة وان استغفر لهم [ذلك] أي امتناع المغفرة لهم [بأنهم] أي بسبب أنهم [كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين] أي المتمردين •

وقوله تعالى : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) ظاهره أن كلمة أو فيه للتخيير بين الاستغفار وعدمه • ويؤيد إرادته هنا فهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذلك فكأنه قال سبحانه وتعالى له ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ان شئت فاستغفر لهم وان شئت فلا • ولذلك قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما قال له عمر في حادثة موت عبدالله بن ابي حين أراد أن يستغفر له : كيف تستغفر لعدو الله وقد نهاك الله عنه ؟ قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما نهاني ولكن خيرني » •

وقال كثير من المحققين ومنهم البيضاوي : إن كلمة أو للتسوية ، والآية جملة طلبية استعملت خبرا يعني أن الاستغفار وعدمه سيان في عدم إفادة المنافقين العفو والمغفرة ، وذلك لكفرهم وسيئات أعمالهم • فتكون كلمة أو كما في قوله تعالى (أنفقوا طوعا أو كرها) ويدل على ذلك ظاهر قوله تعالى ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم • وأما قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ما نهاني ولكن خيرني » فكأنه قال لي ان شئت فاستغفر وان لم تشأ فلا تستغفر لهم • فذلك بالنظر الى ظاهر لفظ

الآية ، فإنه يدل على الجواز في الجملة ، لانه لما سوى الباري تعالى بين الاستغفار وعدمه ورتب عليه عدم القبول ولم ينه عنه فهم أنه مخير ومرخص فيه • وهذا مراده ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أنه فهم التخيير من كلمة أو حتى ينافي التسوية المرتب عليها عدم المغفرة •

وأما عزمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الاستغفار لهم مع وجود قوله تعالى (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فكان مبنيا على فهمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذكر العدد التحديد لا التكثير ، وراعى مفهوم المخالفة كما يظهر من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « خيرني الله وسأزيد على سبعين » أي خيرني ربي بين أن أستغفر لهم سبعين مرة ولا يغفر لهم إذا زيد على ذلك العدد من الاستغفار ويغفر لهم وسأزيد عليه • على أن التسوية في الاستغفار وعدمه متوجه الى الكل من المنافقين لا الى كل فرد بطريق القطع ، فيجوز أنه نظر الى احتمال خروج بعض الافراد من العام ، بل له ملاحظة كثرة رأفته بالعباد وحرصه على شمول المغفرة لهم •

وفي فتح الباري ما نصه : ومنهم من قال : ان النهي عن الاستغفار لمن مات مشركا لا يستلزم النهي عن الاستغفار لمن مات مظهرا للاسلام لاحتمال أن يكون معتقده صحيحا ، وهذا جواب جيد • انتهى

ثم انه ظهر مما مر أن هـذه الآية وان كانت مربوطة بردّ اللامزين للمتطوعين في غزوة تبوك ، وكذلك مربوطة بموت عبدالله بن أبي بن سلول ، فإنه ذكر في فتح الباري ما نصه : ذكر الواقدي ثم الحاكم في الإكليل أنه مات أي عبدالله بن أبي بن سلول بعدمنصرفهم من تبوك، وذلك فيذي القعدة سنة تسع ، وكانت مدة مرضه عشرين يوما ابتداؤها من ليال بقيت من شوال • وقالوا : وقد كان تخلف هو ومن تبعه من غزوة تبوك وفيهم نزل

قوله تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا) وهذا يدفع قول ابن التين ان هذه القصة كانت في أول الاسلام قبل تقرر الاحكام . انتهى

ووجه الدفع : أنها كانت في السنة التاسعة من الهجرة كما نقلته قبل .
قلت : وكذا يدفع قول الشهاب إيرادا على البيضاوي في قصة موت عبدالله ابن أبيّ بن سلول ونص عبارة البيضاوي : روي أن عبدالله بن عبدالله بن أبي ، وكان من المخلصين سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مرض أبيه أن يستغفر له ، ففعل ـ عليه الصلاة والسلام ـ . فنزلت الآية . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأزيدن على السبعين فنزلت : (سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) انتهى .

وحاصل إيراد الشهاب هو أن سورة براءة آخر ما نزل فكيف تكون هذه الآية نازلة بعدها وهي من سورة (المنافقون) ؟! فإن أجيب أنه باعتبار أكثرها وصدرها فلا مانع من تأخر نزول بعض الآيات عنها ، منع بأن هذه الآية من سورة المنافقين ، وصدرها يقتضي أنها نزلت في غير هذه القصة لأن أولها : (واذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ؛ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) وكونها نزلت مرتين لا يقال بالرأي فالحق أن هذا مشكل . انتهى . ووجه دفع إيراد الشهاب ما في فتح الباري ونصه : روى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة قال لما نزلت (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لأزيدن على السبعين » فأنزل الله تعالى (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) ورجاله ثقات مع إرساله . ويحتمل أن تكون الآيتان معا نزلتا في ذلك ، انتهى . يعني يحتمل أن تكون آية (سواء عليهم أستغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن

يغفر الله لهم) المثبتة في سورة المنافقين نزلت مع آية (استغفر لهم او لا تستغفر لهم) المثبتة في سورة براءة معا كما نزلت آية (سواء عليهم) وحدها في سورة المنافقين ، واكتفى بكتابتها في المصحف هنا ، كما يقال في سورة الفاتحة أنها نزلت مرتين وكتبت في محل واحد والله اعلم •

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ ، وكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا : لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ : نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ(٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كانُوا يَكْسِبُون(٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ الى طائفَةٍ مِنْهُمْ ، فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ، وَلَنْ تُقَاتِلوا مَعِي عَدُوّاً ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ(٨٣) وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً ، وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ(٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيَا وتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)(٨٥)

قوله تعالى : [فرح المخلفون] الآية ••• عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس أن ينبعثوا معه الى تبوك ، وذلك في الصيف • فقال رجال من المنافقين : يا رسول الله الحر شديد ، ولا نستطيع الخروج في الحر • فنزلت الآية • رواه ابن أبي حاتم • فيقول الباري سبحانه وتعالى : [فرح المخلفون] أي الذين خلفهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وأذن لهم في التخلف ، أو خلفهم الله تعالى بخذله إياهم وَصَدّهم عن مَكْرمة الجهاد لحكمة [بمقعدهم خلاف رسول الله] أي بقعودهم وبقائهم بعد خروج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ [وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله] إيثارا للتمتع بمتاع الحياة على الجهاد ، [و] علاوة على تخلفهم ذاتا [قالوا لإخوانهم] تثبيطا لهم عن الجهاد : [لا تنفروا في الحر] أي لا تخرجوا الى الجهاد لان الخروج في هذا الوقت غير مستطاع عادة . [قل : نار جهنم أشد حرا] من هذا الحر الذي تنفرون منه ، فإن خلصتم من حر الدنيا وقعتم في حر الآخرة وحرها أشد وأبقى [لو كانوا يفقهون] ذلك ما آثروا البقاء على اللقاء [فليضحكوا] أي أولئك المتخلفون [قليلا] في مدة دنياهم [وليبكوا كثيرا] في دار عقباهم . أو فليبكوا في الدنيا كثيراً وليضحكوا فيها قليلا ، لان من كان مقاله ذلك وجب أن يكون حاله كذلك [جزاء بما كانوا يكسبون] من فنون المعاصي وأنواع مشتهيات النفس والابتداع من إطاعة رب العالمين .

[فإن رجعك الله] أي من سفرك هذا [الى طائفة منهم] أي من المنافقين المتخلفين [فاستأذنوك للخروج] معك الى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة حتى تكون هذه الغزوة جبرا لما فاتهم وتداركا لذلك العمل المبرور [فقل : لن تخرجوا معي أبدا] ما دمت ودمتم [ولن تقاتلوا معي عدوا] من الاعداء [إنكم رضيتم بالقعود] والاستراحة في أوطانكم بدل السير والتعب في الغربة [أول مرة] من الخروج الى الغزوة في تخوم الجزيرة [فاقعدوا] في أماكنكم [مع الخالفين] أي المتخلفين . [ولا تصل على أحد منهم مات أبدا] لانهم خرجوا عن قابلية الروح والرحمة بالكفر بالله ورسوله كفر بالذات وكفر بالنعمة [ولا تقم على قبره] أي ولا تقف عليه ولا تتولّ دفنه

ولا تدع له بالخير بعد مماته [إنهم كفروا بالله ورسوله] واستمروا على ذلك [وماتوا وهم فاسقون] .

[ولا تعجبك أَموالهم وَأَولادُهم ، إنما يريدُ اللهُ أن يُعذبهم بها في الدنيا] بالتعب لتحصيل المال وتحسين الحال والسعي في الزواج ومقدماته حتى اذا حصل المال والأزواج ووجدوا الاولاد وقعوا في محن الادارة وشئونها ، وصيانة المال والمنال ، وتربية الاولاد ومعاونتهم ، وربما يجرهم المال والولد الى اتعاب ومحن لا تحد ولا تحصى . وهذا بالنسبة الى الدنيا . وأما في الآخرة فالعذاب أشد وأبقى .

وفي مورد نزول قوله تعالى (ولا تصل على أحد منهم) روى عن ابن عمر أنه لما توفى عبدالله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبدالله الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه ، فأعطاه . ثم سأله أن يصلي عليه فقام ليصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين ؟ قال : « انما خيرني الله » فقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين . قال : انه منافق ، فصلى عليه فأنزل الله الآية ، فترك الصلاة عليهم ، أخرجه الشيخان .

(وإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أن آمِنوا بِالله ، وجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ، اسْتَأذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ، وقَالُوا : ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ(٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ ، وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهونَ(٨٧) لكِنِ الرَّسولُ والَّذِين آمنوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ واوُلئكَ هُمُ الْمُفلِحُونَ(٨٨) أَعدَّ

الله لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذلك الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(٨٩)

قوله تعالى : [وإذا أنزلت سورة] المراد بها هذه السورة المعنية التي تهم عالم الاسلام في الاعتماد على الله والتضحية في الجهاد . وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد [أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله] أي أنزلت بالامر بالايمان بالله وبالجهاد مع رسوله في سبيل اعلاء كلمة الله [استأذنك أولوا الطول منهم] طلب الاذن منك في القعود والتخلف عنه اولو الفضل والسعة من المنافقين وقالوا لرسول الله : [ذرنا نكن مع القاعدين] أتركنا وخل سبيلنا لنستريح ونقعد مع القاعدين المتخلفين . ثم استأنف لبيان سوء فكرهم وفساد أمرهم ، وقال [رضوا] أي أولئك المستأذنون [بأن يكونوا مع الخوالف] أي مع المتخلفات القاعدات من النساء ، وأعجبهم البقاء في متاع نفسي حقير [و] سر ذلك أنه [طبع على قلوبهم] فلا يدخلها ما يرشدهم الى الخير [فهم] بسبب ذلك [لا يفقهون] أي لا يفهمون ما ينفعهم [لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم] استدراك لما يفهم من الكلام على ضرب من التوهم ان تركهم للجهاد يضر القائمين به فيقول : لكن الذين قاموا بحق الاطاعة تقرر لهم كامل الجزاء ، ولهم الخيرات والمنافع في الدارين . أما في الدنيا فظفر وفتح وشرح صدر وكلمة عالية مقبولة . وأما في الآخرة فجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين [وأولئك هم المفلحون . أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم] .

(وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلا عَلَى

المرضى ، وَلاَ علــى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنفِقُونَ حَــرَجٌ إذا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ ، ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، واللهُ غَفورٌ رَحِيمٌ(٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إذَا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لا أجِدُ ما أحْمِلُكُــمْ عَلَيْه تَوَلَّــوا وَأعْيُنُهُــمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألا يَجِدُوا ما يُنْفِقُون (٩٢) إنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أغْنِياءُ ، رَضُوا بِأنْ يَكُونُوا مَــعَ الْخَوالِفِ ، وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِــمْ فهم لا يَعْلَمُونَ)(٩٣)

قوله تعالى : [وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم] شروع في بيان أحوال الأعراب بعد بيان أحوال أهل المدينة • والمعذرون : بتشديد الذال من باب التفعيل ، من عذر اذا قصــر في الأمر وتوانى وتأخر ، وحقيقته أن يوهم أن له عذرا في ما يفعله ، ولا عذر له في الواقع ، فيكــون المعذرون كاذبين في أمرهــم ، أو من باب الافتعال من اعتذر ، والاصل المعتذرون ، فيحتمل صدقهم وكذبهم في الاعتذار • وقرأ يعقوب المُعذرُون اسم فاعل من باب الافعال من اعْذَرَ إذا كان له عذر • ويحتمل صدقهم وكذبهم على هذه ايضا • فعلى الاحتمال الاول من القراءة الاولى الدال على كذبهم قطعا يكون قوله تعالى : [وقعد الذين كذبوا الله ورسوله] مخبرا عن كذبهم ، وانما أعاده للتنصيص على كذبهم ، وإظهار ذمهم بعنوان الموصول والصلة الدال على تقرير الحال • وكذا احتمال الكذب في المستفاد من أصل باب الافتعال ، ومن القراءة الثانية المأخوذة من باب الإفعال • وأما على احتمال الصدق المستفاد منهما ، فيكون المراد بالموصول والصلة فيه غيرهم ، ويكون المراد بهم أناســا من الاعراب أيضا منافقين وكاذبين في دعوى الايمان بالله

ورسوله • أو في الاعتذار أيضا ان اعتذروا كالاولين [سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم] وكلمة من اما للبيان أو للتبعيض ان كان فيهم من آمن بالله ورسوله واعتذر صادقا لعدم استطاعته الخروج •

[ليس على الضعفاء] كالشيوخ ومن فيه نحافة خلقية [ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون] من نفقات السفر وأسباب الجهاد [حرج] في تخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [إذا نصحوا لله ورسوله] أي أخلصوا دينهم وأتوا بما في وسعهم مما يُعلي كلمة الله تعالى [ما على المحسنين] أي الناصحين [من سبيل] من حرج إذ لا وجه لإحراجهم مع سلوكهم على منهاجهم [والله غفور] للعباد [رحيم] بهم في عفو ما جرى من التفريط اذا لم يخرجوا عن منهج الرشاد [ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] الى الجهاد في سبيل الله [قلت : لا أجد ما أحملكم عليه] من الظَّهْرِ ونفقة السير • وقوله [تولوا] مستأنف اذا كان الجواب قلت: وجواب اذا حذفت حرف العطف عليه أي وقلت لاأجد [وأعينهم تفيض] أي تسيل [من الدمع] أي دمعها • ومن بيانية ، وهي مع مجرورها في محل النصب على التمييز [حزنا] مفعول له ، أو حال ، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله [ألا يجدوا] أي من أن لا يجدوا [ما ينفقون] في حاجياتهم للسفر مع خير البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ [إنما السبيل] بالمعاتبة [على الذين يستأذنونك] في التخلف عن السفر [وهم أغنياء] والسبب في استئذانهم أنهم [رضوا بأن يكونوا مع الخوالف] أي القاعدات المتخلفات من النساء [وطبع الله على قلوبهم] من سوء اختيارهم وفساد رغباتهم [فهم] بحيث [لا يعلمون] عواقب ما هم فيه •

الجُزْءُ الحَادِي عَشَر

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ : لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ، قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ والشَّهادَةِ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمأْوِيهُم جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانوا يَكْسِبُونَ(٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)(٩٦)

[يعتذرون إليكم] في تخلفهم عنكم [إذا رجعتم إليهم] من هذا السفر [قل : لا تعتذروا] بأكاذيبكم الواضحة عندنا [لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم] أي بعض أخباركم حول ما في ضمائركم من الشر والفساد [فسيرى الله عملكم ورسوله] هل تبقون على ما أنتم عليه أو لا [ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة] علما شاملا أزليا أبديا بحيث لا تخفى عليه خافية [فينبئكم بما كنتم تعملون] في الحياة ، وما تلقونه بعد الممات ، ويطبق عليكم جزاء السيئات •

[سيحلفون بالله لكم] على صدقهم فيما اعتذروا به على تخلفهم [إذا انقلبتم إليهم] أي اذا رجعتم الى أوطانكم ووجهتم التوبيخ إليهم ، وانما يحلفون لكم [لترضوا عنهم] وتصفحوا عما جرى منهم [فأعرضوا عنهم] لا إعراضا عن الأحباب بل إعراضا عمن يستحق الاجتناب [إنهم رجس]

أي أهل رجس في الاعتقاد والأعمال [ومأويهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون [يحلفون لكم لترضوا عنهم] وتعدوهم من أفراد الأمة المسلمة وليسوا كذلك [فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] وهم منهم بعلم اليقين .

(الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ، وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٩٧) وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ، أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٩٩)

قوله تعالى : [الأعراب] هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب ، لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد ، فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقا ، والأعراب سكان البادية منهم . ولذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل : أعرابي ولو كان جمعا لكانت النسبة إليه كالنسبة الى العرب . ويفرق بين الواحد والجمع بالياء فيهما ، فيقال للواحد : عَرَبي وأعرابي ، وللجمع عَرَبٌ وأعراب ، وكذا أعاريب [أشد كفرا ونفاقا] من أهل الحضر لبعدهم عن التعليم والتربية ، والتزام النظام ، وعدم اختلاطهم بأهل الحكمة والسلام . عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : مَنْ سَكَنَ البادية جفا ، ومن اتبع الصيدَ غَفَلَ ، ومن أتى السُّلطانَ افتتن . ثم إن الحكم أغلبي ، وإلا فقد يكون من الاعراب من يكون أوفى وأصفى من أهل المدن بدرجات . والآية نزلت في أسد وغطفان ، ولكن العبرة بعموم

اللفظ • [وأجدرُ ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله] من الأحكام التكليفية والوضعية • وقيل : المراد إطاعة الرسول في الجهاد [والله عليم] بأحوال الناس كلهم [حكيم] فيما يقرره من جزاء الأعمال •

[ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق] أي يصرفه في سبيل الله تعالى [مغرما] أي غرامة وخسرانا [ويتربص بكم الدوائر] أي ينتظر نزول النوائب والمصائب عليكم لتشتغلوا بها ويتخلصوا منكم [عليهم دائرة السوءِ] جملة دعائية كناية عن حلول الغضب عليهم لسوء نياتهم وسيئاتهم [والله سميع] بأقوالهم الفاسدة وأعمالهم الكاسدة [عليم] بها •

[ومِنَ الاعراب من يؤمنُ بالله واليوم الآخر ، ويَتخذُ ما ينفق قُربات ٍ عند الله وصلوات الرسول] أي ويجعل ما ينفقه في سبيل الجهاد سواء من الصدقات الواجبة المقررة للاصناف الثمانية ، أو المقصودة للغزاة في سبيل إعلاء الحق مما ينفقه عليه وعلى أصحابه في تلك الاسفار كسفر غزوة تبوك ونحوها •• وسائل للقرب من الله وقبوله ِ ورضاه ، ولصلوات الرسول ودعواته لهم على عادته وسنته الشريفة من الدعاء للمتصدقين والمتصدقات • وعلى هذا التفسير تكون الصلوات معطوفة على القُرَبات ِ ويجوز عطفها على الموصول أي ويتخذ صلوات الرسول لهم وسائل قربةٍ من الله تعالى ـ عز وجل ـ • ولما كان كونها قربات عند الله حسب رجائهم ولم يكن متيقنا أكد الله ذلك وقرر كونها قربات ٍ قطعية فقال : [ألا إنها قربة لهم] أي تنبهوا أيها المسلمون أن تلك الصدقات ِ والنفقات قربة لهم من الله تعالى [سيدخلهم الله في رحمته] الواسعة باستيعابها لهم في الدنيا بانشراح الصدور وتسهيل الامور ، وفي البرزخ بتنوير القبور والراحة لهم والحبور ، وفي البعث والنشور بالسعادة الابدية ولقائه تعالى ونضارة وجوههم بلقاء الودود الغفور [إن الله غفور رحيم] ويزيد لهم الرحمة زيادة على ما

يستحقونه من الاجور • وهذه الآية نزلت في بني مقرن من مزينـة ، وقال بعض : نزلت في اَسْلَم وغِفارٍ وجُهَينة •

(والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأنْصارِ ، وَالَّذين اتَّبَعُوهُم بِإحسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَاَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأنْهارُ خَالِدِينَ فِيها اَبَداً ، ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(١٠٠)

قوله تعالى : [والسـابقون الاولون من المهاجرين والانصار] المراد بالأولين من المهاجرين من كانوا من أهل بدر ، أو الذين صلوا الى القبلتين ، أو أهل بيعة الرضوان ، وكانت بالحديبية • ومن الانصار أهل بيعة العقبة الاولى وكانت في سنة احدى عشرة من البعثة ، وهم سبعة أشخاص وأهل البيعة الثانية ، وكانت في سنة اثنتي عشـرة منها ، وكانوا سـبعين رجلا وامرأتين ، ومن أسلموا من المدينة حين جاءهم من قبل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وكان قد أرسله ـ عليه الصلاة والسـلام ـ مع أهل العقبة الثانية يعلمهم القرآن ويفقههـم في الدين • ولاشـك في أن من اعتبر أهل بدر ، أو أهل بيعـة الرضوان ، أو الذين صلوا الى القبلتين من المهاجرين من السابقين الاولين اعتبر من دخل فيهم من الانصار كذلك [والذين اتبعوهم بإحسـان] أي متلبسين بالإحسان ، والمراد به الخصال الحسـنة ، وبالموصول اللاحقون بالسابقين من الفريقين ، وهم باقي المهاجرين والانصار • هذا اذا كانت كلمة (من) للتبعيض أي السابقون الأولون في الهجرة والنصرة الذين هم بعض من المهاجرين والانصار ، وأما إذا كانت للبيان بمعنى والسابقون الاولون في الايمان بالله ورسوله وهم المهاجرون والانصار كلهم ، فيكون المراد بالتابعين

لهم جميع المؤمنين الذين تبعوهم في دين الاسلام بإحسان الى يوم القيامة ، وهو معنى شامل وواسع ورحمته تعالى واسعة الى أبد الآبدين [رضي الله عنهم] بقبول كل ما قدموه من العقائد والاعمال الصالحة ، والمسامحة عما فرط منهم من العوارض السانحة ، [ورضوا عنه] في الدنيا بأنوار في الصدور واطمئنان في القلوب وتسلية لما لقوه من الكروب ، وفي الآخرة بالرضا والرضوان وجنة فيها لقاء الملك المنان ، وعصمة من الزلل والخلل وكل ما يورث الأسى والأسف للإنسان [وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم] الذي لا فوز فوقه وهو منتهى النعيم •

ومن هنا يظهر ظهور الشمس في رابعة النهار لأولي البصائر والابصار بعد مدح الباري للامة المحمدية بصورة عامة في قالب الاخبار وثناء أصحاب محمد في قوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) الآية وإظهار الرضاء عن أصحاب الحديبية بقوله : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) ، أن الامة الاسلامية أفضل الامم ، وأن أصحابه الكرام من المهاجرين والانصار ممن تأخر أو تقدم كلهم على درجات عالية عند الله الاكرم ، وأن السعيد من يعتقد هذه العقيدة بالوجه الأسلم •

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقُونَ ، وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لا تَعْلَمُهُمْ ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ)(١٠١)

قوله تعالى : [وممن حولكم] شروع في بيان منافقي أهل المدينة ومن حولها من الاعراب بعد بيان حال أهل البادية • يقول سبحانه وتعالى : (وممن حولكم) أناس يظهرون الايمان ويضمرون الكفر فهم منافقون والمراد بهم كما ذهب اليه جماعة من المفسرين قبائل : جهينة ، ومزينة ، وأشجع ،

وأسلم ، وغفار من اللاّئي كانت منازلهم قريبة من المدينة المنورة . ولا ينافي ذلك ثناء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما روي عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « قريش وجهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيرهم » وقوله : « أسلم سالمها الله تعالى ، غفار غفر الله لها . أما إني لم أقلها لكن قالها الله تعالى » ، لأن القبائل مستوعبة لأناس كثيرين من الصالحين الأخيار ، ومن المنافقين الأشرار ، فيتوجه المدح إليهم باعتبار جماعة ، والقدح باعتبار أخرى [ومن أهل المدينة مردوا على النفاق] أي ومن أهل المدينة أناس تمرنوا وتمهروا واستمروا على النفاق [لا تعلمهم] أنت لحذاقتهم في أمر النفاق ، أو لا تعلمهم بالتفصيل في جهات النفاق [نحن نعلمهم] كذلك [سنعذبهم مرتين] مرة في الدنيا بالفضح . كما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام خطيبا يوما من أيام الجمعة ففضح ستة وثلاثين منهم ، وأخرجهم من المسجد الشريف . ومرة في البرزخ في قبورهم . أو في الدنيا مرة بالجوع ومرة بالقتل [ثم يردون] يوم القيامة [الى عذاب عظيم] هو عذاب نار الجحيم .

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِم ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ صَلواتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ، وَيَأْخُذُ الصَّدقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ ؟(١٠٤) وَقُلِ : اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ، والمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(١٠٦)

قوله تعالى : [وآخرون اعترفوا بذنوبهم] الآية ••• بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين • فيقول سبحانه وتعالى [و] يوجد عندكم جمع [آخرون] غير من سبق ذكرهم [اعترفوا بذنوبهم] ومن جملتها التخلف عن غزوة تبوك ، ورضاهم بالجوار للمنافقين ، ولم يعتذروا بالمعاذير المفتعلة • ولما حضر رجوع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذا رجع الى المسجد مر عليهم فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وجمع معه تخلفوا عنك يا رسول الله ، وقد أقسموا أن لا يُطلِقوا أنفسهم حتى تكون أنتَ الذي تُطلقهم • فقال رسول الله : « وأنا أقسم بالله لا أطلق سراحهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هُوَ الذي يطلقهم » فأنزل الله تعالى الآية • فأرسل ــ عليه الصلاة والسلام ــ إليهم فأطلقهم ، وأعذرهم •

وفي رواية أنهم كانوا ثلاثة ، وأخرى كانوا ثمانية ، وأخرى كانوا خمسة • وتتفق روايتان على أن أبا لبابة بن عبدالمنذر منهم • [خَلطوا عملا صالحا] وهو الخروج مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بعض الجهاد ، [وآخر سيئا] وهو التخلف عنه في غزوة تبوك • وقيل : العمل الصالح يشمل كل عمل بر وطاعة ، والسيء ما كان ضده [عسى الله أن يتوب عليهم] مطلقا [ان الله غفور رحيم] أي إن الله تعالى كثير المغفرة وواسع الرحمة • وهذا تعليل لما أفاده قَبلُ من قبول توبتهم • عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنهم لما أطْلقوا انطلقوا فجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا

فتَصدق بها عنا واستغفر لنا فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « ما امرتُ أن اخذ من أموالكم شيئا » فنزلت الآية فأخذ ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها الثلث • فليس المراد بالصدقة الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأمورا بها ، وانما هي كفارة لذنوبهم كما ينبيء عنه قوله عز وجل [تطهرهم] أي عن أوساخ المخالفة والتخلف عن غزوة تبوك مع رسول الله [وتزكيهم بها] خبر مبتدأ محذوف ، والجملة حال من ضمير فعل الامر • وقيل : جملة مستأنفة ، أي وأنت تزكيهم بها • أي تنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم [وصل عليهم] أي أدع لهم واستغفر لذنوبهم • وعن ابن عباس أن المراد وصل عليهم صلاة الجنازة اذا ماتوا • واستدل بالآية على استحباب الدعاء للمتصدقين • واستحب الامام الشافعي أن يقول للمتصدق آجركَ الله • [ان صلاتك سكن لهم] يعني ان دعواتك بالرحمة ومغفرة الذنوب ونماء الاموال راحة لقلوبهم ، وسكون لأنفسهم • فإن الله تعالى يقبل منك الدعاء ويفيدهم الخير وراحة النفوس [والله سميع عليم] يسمع الاعتراف بالذنوب ، وعليم بما في ضمائرهم من الندم على ما فرط منهم ، والالتجاء الى الله الرؤوف الرحيم •

[ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده] التائبين بالصدق والاخلاص [ويأخذ الصدقات] ويقبلها قبولا حسنا بإعطاء الجزاء عليها أضعافا مضاعفة • [وأن الله هو التواب الرحيم] أي القابل للتوبة ، كثير الرحمة •

[وقل : اعملوا] أي ما تريدونه من الأعمال [فسيرى الله عملكم] خيرا أو غيره [و] يراه [رسوله والمؤمنون] من أنفسهم فيما يطلع عليه وبإعلام الله تعالى لرسوله بالذات وإبلاغ الرسول للمؤمنين فيما يهم الاطلاع عليه [وستردون] أي بعد الموت [الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم] عند الحساب والميزان [بما كنتم تعملون] في الدنيا [وآخرون مرجونَ لأمر الله] أي ومنهم أناس آخرون غير المعترفين المذكورين مؤخرون وموقوف حكمهم

لأمر الله الى أن يظهر أمر الله في شأنهم • والمراد بهم كما في الصحيحين : هلال ابن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع • وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع الهمّ باللحاق به ــ عليه الصلاة والسلام ــ • فلم يتيسر لهم ، ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، لأنهم كانوا من المخلصين • فلما قدم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان ما كان من المتخلفين • قالوا : لا عذر لنا الا الخطيئة ، ولم يعتذروا ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري • وأمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ باجتنابهم وشدد الامر عليهم الى أن نزل قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار) الآية ••• [إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم] بأحوال المخلصين والمنافقين و [حكيم] فيما يطبقه من الاحكام عليهم وهو أحكم الحاكمين •

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً ، وكُفْراً ، وَتَفْرِيقاً بيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَارْصَاداً لِمَنْ حارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ : انْ أرَدنا الاَّ الحُسْنى وَاللهُ يَشْهَدُ انَّهُمْ لَكاذِبُونَ(١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ ابَداً ، لَمَسْجِدٌ أسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ اوَّلِ يَوْمٍ احَقُّ انْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ انْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرينَ(١٠٨) افَمَنْ اسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوىً مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أمَّنْ أسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ ؟ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠٩) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبِهِمْ الاَّ انْ تَقَطَّعَ قُلوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(١١٠)

قوله تعالى [والذين اتخذوا مسجدا] • عن ابن عباس أن جماعة من الانصار قال لهم أبو عامر الراهب العدو لدين الاسلام : ابنوا مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرجُ محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم اتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة فنزلت •

وأخرج ابن اسحاق وابن مردويه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال أتى أصحاب مسجد الضرار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتجهز الى تبوك فقالوا : يا رسول الله انا بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه • فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما رجعَ رَسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سفرهِ ونزل بـ (ذي أوان) بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار أتاه خبر المسجد فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، وأخاه عاصم بن عدي ، فقال : انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدِماه وأحرِقاهُ • فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رَهْطُ مالِكٍ ، فقال مالك لصاحبه : أنظرني حتى أخرج لك بنار من أهلي • فدخل الى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه فأحرقاه وهدماه • وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل •

وكان البانون له اثني عشر رجلا : خذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج المسجد ، وعباد بن حنيف من بني عمرو بن عوف أيضا ، وثعلبة بن حاطب ، ووديعة بن ثابت وهما من بني أمية

بن زيد رهط أبي لبابة بن عبدالمنذر ، ومعتب بن قشـير ، وأبو حبيبة ابن الازعر ، وحارثة بن عامي وابناه مجمع وزيد ، ونبيل بن الحرث ونجاد بن عثمان ، وبجدح من بني ضبيعة • فيقول تعالى : [والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بينَ المؤمنين وإرصادا لمن حاربَ الله ورسوله من قبل] اي وفيمن ذكرناهم من المنافقين الجمع الذين اتخذوا مسجدا ، وبنوه لا لطاعة الله بل لمضارة المؤمنين وإلقاء الضرر عليهم ولإنشاء الكفر وتقويته وتفريق المؤمنين بعضهـم عن بعض ، ولترقب رجوع أبي عامر الراهب الهارب الى الروم الذي حارب الله ورسوله من قبل ظهور النفاق في الناس ، أو من قبل بناء المسجد ، فإنه كان أعدى أعداء الرسول ، وقد قال له يوم احد : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ! فلم يزل يقاتله الى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن ، وهرب الى الشام ليأتي من قيصر بجنود يُحارب بهم رسول الله فلم يتمكن من ذلك ومات بقنسرين وحيدا طريدا •

وقيل : كان بجمع الجيوش يوم الأحـزاب فلما انهزموا خـرج الى الشام ، وأوعز الى جماعته أن يبنوا مسجدا بدعوى إعانة الاسلام للأغراض الفاسدة المذكورة • فدمرهم الله تعالى وهدم مسجدهم واستأصلهم وجعلهم أحاديث للناس وعبرة للمعتبرين •

وقيل : إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما وصل في طريق هجرته الشريفة قباء ونزل هناك أسس مسجد قباء وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنـين الى الجمعة ، ثم إن بني عمرو بن عوف بنوه وأخبروا الرسـول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعوه الى المسـجد فذهب وصلى فيه للبركة ، فحسدهم بنو غنيم بن عوف فبنوا مسجدا • ولا مانع من أن يكون بناؤه لذلك ولامتثال ايعاز أبي عامر الراهب أيضا •

[وَلَيَحلِفُنّ : إن أردنا إلا الحسنى] المضارع لجمع المذكر الغائب ، وقد أكد بالنون الثقيلة ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين ، ودلالة ضمة ما قبلها عليها . يعني : ويقسمون القسم المؤكد أنهم ما أرادوا ببناء ذلك المسجد إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله تعالى [والله يشهدُ إنهم لكاذبون] فيما أقسموا عليه [لا تقم] يا رسولي للصلاة [فيه] أي في ذلك المسجد [ابداً ، لمسجد اُسس] أي بني أساسه [على التقوى] أي تقوى الله تعالى وطاعته [من أول يوم] من أيام وجوده ، وهو مسجد قباء أسسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصلى فيه أيام بقائه بقباء من الاثنين الى الجمعة [أحق أن تقوم فيه] أولى وأليق بأن تصلي فيه من مسجد الضرار الذي له شرف مزعوم عند من بناه ، وليس المفضل عليه المسجد الذي بناه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعده وهو مسجد المدينة النبوية المتصل بحجرة قبره الشريف ؛ لأنه لو كان كذلك لكان مسجد قباء أفضل من المسجد النبوي ، وكان يداوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصلاة فيه، وليس كذلك إجماعا . والحاصل أن مسجد قباء أليق بالصلاة من مسجد الضرار وما سواه ، غير المسجد النبوي المعروف . ثم أكد ما قرره بقوله الكريم : [فيه رجال يحبون أن يتطهروا] أي في مسجد قباء رجال يحبون أن يتنظفوا ويستنجوا بالماء . أخرج أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في تأريخه أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهل قباء : ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية أي آية (فيه رجال يحبون ان يتطهروا) ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته [والله يحب المتطهرين] أي يرضى عنهم ويجزيهم الجزاء اللائق بهم . ثم قرر سبحانه وتعالى شرف أهل مسجد قباء البانين له ، وفضلهم على من عداهم ممن لا يصلون الى درجاتهم فضلا عن شرفهم على أناس لا مقام لهم ولا كرامة ،

بل لهم الدرك الاسفل من النار فقال : [أفمن أسس بنيانه] أي مبنيه [على تقوى من الله ورضوان] من جانب الله وارد عليه ورضاء من جانبهم عن الله تعالى [خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار] أي على حافة بئر رخو التراب لم يُطْوَ ، ومنصدع ومشرف على السقوط [فانهار به في نار جهنم ؟] أي فأدى به لخوره وقلة استمساكه الى السقوط في النار وهارٍ : نعت لجرف ، وأصله هاور" أو هاير ، فقلبت العين الى محل الياء وبالعكس وأعل إعلال قاض • وفيه استعارة مصرحة تحقيقية حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرفٍ هارٍ في قلة الثبات ثم استعير لذلك ، والقرينة المقابلة • وقوله تعالى [فانهار به في نار جهنم] ترشيح وباؤه اما للتعدية أو للمصاحبة [والله لا يهدي القوم الظالمين] أي الواضعين للأشياء في غير مواضعها • والمراد الجاعلين للمساجد التي بنيت لعبادة الله مكامن لبث الفتنة والفساد بين الناس • ثم أكد على عقدة قلوبهم ومزيد ضلالهم وكروبهم فقال : [لا يزالُ بنيانهم الذي بنوا] أي بناؤهم الذي بنوه [ريبة في قلوبهم] أي عقدة شبهة وسدة شهوة فاسدة وداء محنة في قلوبهم في كل وقت من الاوقات [إلا] وقت [أن تقطع قلوبهم] وتمزقت وخرجت عن قابلية تحمل الادراك [والله عليم] بأحوال الناس [وحكيم] بمعاملته معهم في الدارين •

(إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهم : بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقاتِلونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْرِيةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ ، وذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ العَابِدونَ الحامِدُونَ السَّائحُونَ

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)(١١٢)

قوله تعالى [إن الله اشترى] ترغيب للمؤمنين في الجهاد بعد أن بين أحوال المتخلفين وما افتعلوه من المعاذير غير الواقعية فيفيد سبحانه وتعالى أنه تعالى لا تحابب له إلا مع أهل الصدق والاخلاص الذين يضحون بما يملكون في سبيله ، فإذا استقبل بابه قوم" قائمون على قدم الاستقامة فعند ذلك يعاملهم • ويقول : [إن الله اشترى من المؤمنين] أي المخلصين [أنفسهم] التي هي أنفس شيىء عندهم [وأموالهم] التي عليها قيام أمورهم [بـ] بديل بلا مثيل وهو [أن لهم الجنة] خالدين فيها على أساس أنهم [يقاتلون في سبيل الله] أي ابتغاء مرضاته [فيقتلون] الأشرار من الكفار ومن حذا حذوهم [ويقتلون] مستشهدين [وعدا عليه حقا] من حيث الوفاء به وعدا مذكورا مقررا [في التورية والانجيل والقرآن] وذكر ذلك في الأولين على وجه التبشير بأن أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ستجاهد في سبيل الله الكريم على الوجه المذكور ، أو أن فيهما ذلك تشريعا عند الإيجاب ، فيكون أصلا من أصول أحكام الله تعالى في الكتابين كما في القرآن [وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟] يعني ومن سلكَ مسلك الوفاء بما تقرر من صرف الانفس والاموال في الجهاد والقتال [فاستبشروا] إلتفات الى خطابهم لزيادة الاحترام والتشريف [ببيعكم الذي بايعتم به] حيث انكم صرفتم أموالكم في حسن مآلكم وبذلتم أرواحكم في قالب أبدانكم المؤقتة المحددة بأرواح في أجسام نورانية خالدة مؤبدة [وذلك] المنتوج الحاصل لكم [هو الفوز العظيم] الذي لا فوز فوقه •

ثم ذكر الباري سبحانه المختارين من عباده المؤمنين فقال : [التائبون] أي هم التائبون [العابدون] والمراد التائبون عن الكبائر كفرا أو دونه

والعابدون بالإخلاص لله رب العالمين [الحامدون] له تعالى بالقلب واللسان وسائر الأركان في السراء والضراء [السائحون] أي الصائمون [الراكعون الساجدون] في الصلاة [الآمرون بالمعروف] شرعا وهو الواجب والمندوب [والناهون عن المنكر] كذلك وهو الحرام والمكروه [والحافظون لحدود الله] المراعون لها بإقامتها بقتل القاتل قصاصا وقطع السارق وجلد الزاني والشارب للمسكرات والقاذف للمحصنات [وبشر المؤمنين] الموصوفين بالصفات السابقة بأنهم أصحاب مثوبات لا تعد ولا تحصى .

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)(١١٦) .

قوله تعالى : [ما كان للنبي] الآية ... الصحيح أنها نزلت في أبي طالب . فقد أخرج احمد ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل ، وآخرون عن المسيب ابن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أبو جهل وعبدالله ابن ابي أمية ، فقال النبي : أي عم قل لا اله الا الله أحاج لك بها عند الله . فقال : أبو جهل وعبدالله ابن أبي أمية :

يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه وأبو جهل وعبدالله يعاودانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبدالمطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك فنزلت (ما كان للنبي) واستبعاد ذلك بأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .. مردود بأن النازل منها آخر ما نزل غالبها ، فلعل هذه الآية مما نزل عند موت أبي طالب . ولا يبعد أيضا أن يقال أن الرسول ـ عليه السلام ـ استمر في الاستغفار لعمه حتى نزلت هذه الآية أخيرا فتركه . ويؤيد الجواب الاول ما أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن علي ـ كرم الله وجهه ـ ، قال : أخبرت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بموت أبي طالب فبكى ، فقال : « اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » فَفعلت وجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستغفر له أياماً ، ولا يخرج عن بيته حتى نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه الآية (أي ما كان للنبي) فإنه ظاهر في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مُغَيّاً به .

يقول الباري سبحانه : [ما كان] أي ما صح [للنبي] في حكم الله عز وجل [ولا للذين آمنوا بالله] على الوجه المقرر أن يستغفروا للمشركين به سبحانه [ولو كانوا] أي المشركون [أولي قربى] أي ذوي قرابة للمستغفر [من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم] أي ماتوا على الكفر او علم ذلك بالوحي .

[وما كان استغفار إبراهيم لأبيه] أي آزر [إلا عن موعدة وعدها إياه] أي وعد ابراهيم أباه بذلك الاستغفار [فلما تبين له] أي ظهر لإبراهيم [أنه عدوّ لله] أي أن آزر عدو لله بسبب كفره وإشراكه به [تبرأ منه]

أي قطع ابراهيم الصلة عنه ، وابتعد عن الاستغفار له وتركه [إن ابراهيم لأواه حليم] أي كثير الرأفة والرحمة ورقة القلب وكثير الحلم ، أي صبور على الاذى وصفوح عن الجناية عليه • أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كان من حلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه اذا آذاه الرجل من قومه قال له : « هداك الله » [وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هديهم] أي ما يستقيم من لطفه تعالى ورحمته أن يضل قوما بعد هدايته لهم الى الاسلام [حتى يبين لهم ما يتقون] أي حتى يكشف لهم بالوحي الى الرسول الى ذلك القوم ما يتقون أي ما يجب اتقاؤه والابتعاد عنه • عن مقاتل أن قوما قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل تحريم الخمر وصرف القبلة الى الكعبة ، ثم رجعوا الى قومهم فحرمت الخمر وصرفت القبلة ، ولم يعلموا ذلك حتى قدموا بعد زمان الى المدينة فعلموا ذلك ، فقالوا : يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن في ضلال ، فأنزل الله تعالى الآية [إن الله بكل شيىء عليم] ومن جملته حاجتهم إلى البيان ، فبين لهم كي يكونوا على بصيرة في دينهم ومعرفة في الأحكام •

[إن الله له ملك السماوات والارض يحيي ويميت ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير] أي إن التصرف بإنزال الاحكام وبيانها من جملة ما يقع في الكائنات وأهمها أحكاما فاذا لم يبين فانتظروا ، واذا بين فاعملوا بها واعتبروا ، وان ما تعتمدون عليه من متاع الدنيا تابع للحياة ، والله يحي ويميت فإذا وفيتم بالآداب يوف لكم الحساب ، والا فمالكم من دون الله ولي يتولى أموركم ، ولا نصير يدافع عنكم •

(لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ

رَحِيمٌ (١١٧) وعلى الثلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أنْفُسُهُمْ ، وظَنُّوا أنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاّ إلَيْهِ ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)(١١٩)

قوله تعالى [لقد تاب الله] الآية ... قال أبو حيان في تفسيره المعروف بالبحر المحيط ما نصّه : قال ابن عطية : التوبة من الله رجوعه لعبده من حالة الى حالة أرفع منه ، وقد يكون في الأكثر رجوعا من حالة المعصية الى حالة الطاعة ، وقد يكون رجوعا من حالة طاعة الى أكمل منها ، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه رجع به من حالهِ قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها الى حالة بعد ذلك أكمل منها . وأما توبته على المهاجرين والانصار فحالها معرضة لان تكون من نقصان الى طاعة وجِدّ في الغزوِ ونصرة الدين . واما توبته على الفريق فرجوع من حالة محطوطة الى حالة غفران ورضا . إنتهى .

قلت : رحم الله الناقل والمنقول منه للافادة والاجادة ، وهذه العبارة الذهبية تفيد أن ليست التوبة من الله غفران الذنوب والآثام حتى تحتاج الى تأويل ما ورد منها على سيد الانام ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا من العبد عبارة عن طلب المغفرة عن معصية كبيرة أو صغيرة ارتكبها صاحبها ، بل التوبة من الله عبارة عن رجوعه بالتجليات الى عباده سواء كان في مقابلة كبيرة ارتكبوها من أكبرها الى أصغرها ، أو صغيرة اكتسبوها ، أو غفلة من الله تعالى غفلوها ، كما لكبار الناس من الاولياء والانبياء ، أو برفع درجة استحقوها ، كما في هذه الآية الكريمة حيث ان الله تعالى رجع

والتفت ونظر الى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برفع درجاته على قبول محنة غزوة تبوك بلا نفقة زائدة ولا أموال عائدة ومحنة خذل بعض الناس الجاهلين الاغبياء الاغنياء ، حيث حرموا الجيش من المتابعة والمشايعة والمساعدة بالاموال ، ومحنة تخلف المنافقين ، والاتيان بالمعاذير المفتعلة الباطلة التي تحتها نفاق وشقاق ، وهذه محنة لا محنة فوقها ، ولو كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ راجعا من تبوك خائبا منهزما لطالت اليه ألسنة النفاق وسيوف أهل العداء والشقاق ، وكانوا ينقلبون عليه في الآفاق فلله الحمد والمنة على نصرة رسوله ووصوله الى مأموله . وقد رجع من الغزوة منصورا ومسرورا ، وتهافت المتخلفون عليه بالاعتذار والانفعال والخجل والحرمان فصفح وسامح وعفا وأوفى . فيقول سبحانه وتعالى [لقد تاب الله على النبي] أي بالتجليات ، ورفع الدرجات ، وبث نفوذه في البريات [والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة] بإفادة العزة والمنعة والنصرة ورفع الدرجات لهم على اتباع سيد الكائنات ـ صلى الله عليه وسلم ـ [من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم] من المؤمنين الضعفاء ، أي يميل الى الظن بأن لا نصرة ترد عليهم ولا منحة ولا مدد توصل اليهم فكاد أن يقعدوا خائبين [ثم تاب عليهم] أي على هذا الفريق لإرجاع الضمير الى أقرب المراجع . فكرر التوبة بالنسبة اليهم لمزيد حاجتهم اليها، ويجوز إرجاع الضمير الى الكل فالتكرار تأكيد لإفاضة الرحمة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الاخيار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وقوله تعالى : [انه بهم رؤوف رحيم] استئناف تعليلي لأن من له الرأفة والرحمة من آثار فضله الكرم والتوبة .

[وعلى الثلاثة الذين خلفوا] أي خلف أمرهم وأخر عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل منهم معذرة ، ولا رُدَّتْ ولم يقطع بشيء في

شأنهم • وقد يفسر المتعدي باللازم أي الذين تخلفوا عن الغزو وهم : كعب بن مالك من بني سلمة ، وهلال بن أمية من بني واقف ، ومرارة بن الربيع من بني عمرو ابن عوف [حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت] غاية للتخليف أي آخر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم [حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت] شرط جوابه محذوف وقوله : [وضاقت عليهم أنفسهم] من عطف العلة على المعلول • أي ضاقت عليهم آفاق تجوال أنفسهم ليجدوا شيئا مما يخلصهم عن المحنة ، صار ذلك سببا لضيق الارض عليهم مع رحبها وسعتها فإن الانسان اذا اغتم فوق العادة لا تبقى له فسحة ، فيرى الدنيا كأنها قفص ضيق لمحكوم في قفص الاتهام • وذلك لانه لما تركهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تركهم الاحباب والاقارب فلم يبق لهم مؤنس يستأنسون به ومسعف يستنجدون منه •

واعتقادي أن هذا المعنى أقوم من جعل ضيق الارض سببا لضيق أنفسهم عليهم ، فإن السعة والضيق مبدآن من النفس ، فاذا ضاقت النفس ضاقت الارض عليه •

[وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه] أي علموا أن لا لجوء من سخط الله الا اليه وقوله [ثم تاب عليهم] مرتبط بالجواب المحذوف ، أي وفقهم للتوبة والإنابة والاستغفار عما اعتراهم من الغفلة وعدم الاهتمام بتبعية سيد الأنام ، فتجلى عليهم بالإقدار على إظهارها [ليتوبوا] ويعلنوا التوبة ، وذلك بإنزال قوله الكريم (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أي لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا [إن الله هو التواب الرحيم] ولذلك يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويلهم المخطئين الغير المتجاسرين الانابة والاستغفار •

ولما كان سبب تخلف الثلاثة عن السير للجهاد الغفلة والابتعاد عن حضور الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله] عما لا يرضى به [وكونوا مع الصادقين] أشباحا وأرواحا حتى تتنزل عليكم البركات مساء وصباحا • والكينونة الشَّبَحية عبارة عن المجاورة والمحاورة والاستفادة من كلامهم وسلامهم • والكينونة الروحية عبارة عن الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم ، ولذلك شرعَ الله سبحانه وتعالى في الصلاة التي هي صِلَة العباد بالمعبود ومعراج المؤمن الى مناجاة واجب الوجود الخطاب مع الرسول المسعود بجملة : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) •

وفي الكشاف : روي أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم من بدا له وكره مكانه (أي تندم على تخلفه وكره بقاءه كذلك) فلحق به ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأبي ذر وأبي خيثمة ـ رضي الله عنهما ـ ومنهم من بقي ولم يلحق به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومنهم الثلاثة • قال كعب ـ رضي الله عنه ـ : لما قفل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعدما ذكرني ، وقال : ليت شعري ما خلف كعبا ؟ فقيل له : يا رسول الله ما خلفه الا حُسنُ بُرديه ، والنظر في عطفيه ! فقال معاذ : أالله (أي والله) ما أعلَم عنه الا فضلا واسلاما • ونهي عن كلامنا ايها الثلاثة (من باب الاختصاص) فتنكر لنا الناس ، ولم يكلمنا أحدٌ من قريب ولا بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذ انا بنداء من ذروة سَلَعَ أبشِر يا كعب بن مالك ! فخررت ساجدا وكنتُ كما وصفني ربي سبحانه وتعالى : (وضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم)

وتتابعت البِشارة فلبست ثوبي وانطلقت الى رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون ، فقام إليّ طلحة بنُ عُبيد الله يهرولُ حتى صافحنـي ، وقال لِتَهْنِكَ توبـةُ الله عليك فلن أنساها لطلحة • وقال لي رسول الله وهو يستنير استنارة القمر : « أبشـر يا كعب بخيرِ يومٍ مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك ! » ثم تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا الآية •

(ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ ، اَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ، وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُم ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ اللهِ ، ولا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ ، وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ ، إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ اَجْرَ المُحْسِنِينَ)(١٢٠)

ثم بعد بيان أحوال المتخلفين على اختلاف مشـاربهم أخذ يعاتبهم ، ولاسيما الذين لهم طول وحول ، على تخلفهم من الرسول في الجهاد الذي يعود بإحدى الحسـنيين للمجاهدين • فقال : [ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب] كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وأضرابهم [أن يتخلفوا عن رسول الله] ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند توجهه الى غزوة تبوك الغزوة التي فيها القوة والصيت والانتصار للحق على الباطل [ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه] أي ولا يصرفوا ولا يبعدوا بأنفسهم عن نفسه النفيسة المقدسة النافعة للمسلمين بإرشادها لهم الى سلوك سبيل التوحيد والعبادة الخالصة لله وكسب العزة والرفعة في الدارين ، وما كان ينبغي لهم أن يترفعوا بأنفسهم عن نفسه العالية بأن يكرهوا المكاره لأنفسـهم ولا يكرهوها له

[ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله] يعني وذلك النفي المعروف في معنى النهي المستفاد منهما وجوب الاتباع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبب أنه لو كانوا معه واتبعوه في سبيل الله ما كان يصيبهم عطش في ذلك الجهاد ولا تعب جسمي أو نفسي ولا مجاعة في سبيل الله [ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار] أي ولا يجعلون القدم في أرض تكون موطئا للاقدام بحيث يغيظ الكفار أي يغضبهم ويضيق صدورهم [ولا ينالون من عدو نيلا] أي ولا يصابون من أعدائهم بمصيبة كالقتل والاسر والجرح وغيرها [إلا كتب لهم به عمل صالح] أي كتب في كتاب الاعمال لهم بسببه ثواب عمل صالح لله [إن الله لا يضيع أجر المحسنين] على إحسانهم وأعمالهم الصالحة لله •

(ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ، ولا يَقْطَعُونَ وادِياً إلاّ كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ)(١٢١)

[ولا يُنفِقُون نفقة صغيرة] تمرة فما دونها [ولا كبيرة] حسب المعروف كما أنفقه سيدنا عثمان ـ رضي الله عنه ـ في جيش العسرة المتوجه الى تبوك [ولا يقطعون واديا] وهو المنعرج من الجبال والآكام التي يسيل فيها الماء [إلا كتب لهم] أي أثبت لهم في صحائف أعمالهم الحسنة [ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون] على معنى أن الله تعالى ينظر في أعمالهم فأيها كان أحسن يجعله مقياسا لجزاء باقي الاعمال لهم ، وان لم يكن على تلك الدرجة من الحسن والبهاء وذلك من فضله تعالى والله ذو الفضل العظيم •

(وَمَا كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً ، فَلَولا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّين ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)(١٢٢)

قوله تعالى : [وما كان المؤمنون] الآية ••• عن عكرمة قال : لما نزلت (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) وقد كان تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم ، فقال المنافقون : قد بقي ناس في البوادي ، هلك أصحاب البوادي فنزلت هذه الآية • رواه ابن أبي حاتم •

وعن عبدالله بن عبيد بن عمير قال : كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد اذا بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرية خرجوا فيها وتركوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة في رِقّةٍ من الناس • فنزلت الآية رواه ابن أبي حاتم •

فقوله تعالى : [وما كان المؤمنون لينفروا كافة] معناه : ما صح وما استقام للمؤمنين أن ينفروا جميعا لنحو غزوٍ أو طلب ، كما لا يستقيم لهم أن يتقاعدوا ويتكاسلوا جميعا • فإن الطرفين خارجان عن الاعتدال ، والخروج عن الاعتدال يوجب اختلال الامور في الحال والمآل [فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة] أي فهلا نفر من كل جماعة كثيرة طائفة قليلة ولو اثنين أو ثلاثة [ليتفقهوا في الدين] أي ليسعوا وليتكلفوا الفقاهة والفهم في أحكام الدين أصولا وفروعا [ولينذروا قومهم اذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون] وانما خص الانذار بالذكر مع أنه يجب على الفقهاء الانذار والتبشير اشارة الى أن رفع المفاسد أهم من جلب المصالح فيجب قبل كل شيىء منع الناس عن الانكار لوجود الباري ، ثم عن القول بالاشراك له تعالى ، ثم عن الغفلة عن عبادته وطاعته بالقدر المستطاع ، ثم الأمر بالإيجابيات فيها ، ثم النهي عن ترك اتباع الرسول بحجة الاكتفاء بالعقول ، وارشادهم الى أن طور الانبياء أعلى من طور العقول ، فإنها لا تظفر بالغيبيات من السؤال والجواب ومحاسبة الله تعالى وجزاء الاعمال وخلود المكلفين في داري الثواب والعقاب •

ويستفاد من قوله الكريم : (ليتفقهوا في الدين) وقوله : (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) انه يجب أخذ الفقه من الاساتذة أصحاب الاسانيد المتصلة بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يجوز بحال من الأحوال الاغترار بالعلم الشخصي الناتج عن الثقافة العادية ، لأن الدين ، وإن نزل باللغة العربية ، لكن فيه اصطلاحات كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ... المنقولات من المعاني اللغوية الى المعاني الشرعية المشروطة بشروط ، والمتحققة بأركان وغير ذلك . وكلها يحتاج الى الاخذ والتلقي من الاستاذ العالم ، كما يحتاج هو الى أستاذ آخر وهكذا ... حتى يصل الى ينبوع الحكمة والرحمة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد الامة . كما يستفاد أن تفسير القرآن الكريم وبيان الاحكام المأخوذة منه محتاج الى الفقه والفهم الدقيق الواسع الذي يفرق به بين الخاص والعام ، والمقيد والمطلق ، والمجمل والمبين ، والناسخ والمنسوخ . وقواعد التعادل والتراجيح في الآيات التي ظاهرها يخالف ظاهر آية أخرى . وهذا الفهم هو المعبر عنه بالاجتهاد لمن وصل فيه الى درجة ملكة الاستنباط بشرط أن يكون صاحبه مسلما عادلا ليوثق بكلامه في البيان، فلايجوز لأي عامي أومثقف غير متوسع أن يستقل برأيه ، لانه لا يعلم حقيقة الموضوع وقد قال تعالى (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) فكما يحتاج العالم الى فهم معاني اللغات يحتاج الى فهم أصناف المفردات والمركبات كما ذكرنا . وكذلك يجب معرفة السنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية في ما يتعلق بفهم آيات الاحكام ، لأن الله سبحانه وتعالى قال : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) فصار بهذه الآية الكريمة معرفة البيانات النبوية شرطا في أخذ الأحكام من الكتاب الذي يحتاج الى البيان .

كما أن كل إنسان مسلم فاهم عالم يدرك أن الكتاب والسنة رغبا في اتباع ما درج عليه جمهرة المؤمنين العالمين قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم) وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » ولا شك أن المراد بالمؤمنين العلماء الامناء الغيارى ، كما أن المراد بالامة هي الامة العالمة الامينة المخلصة في الدين ، فصار اتباع اجماع الامة المسلمة واجبا على كل فرد من أفراد المؤمنين .

وقد تقرر الإجماع على اتباع المجتهدين في أحكام الاسلام والعمل بما استنبطوه من الكتاب والسنة النبوية ، فاستدلال المجتهد دليل معتبر من أدلة الدين .

وكذلك يستفاد من الآية الكريمة أن خبر الآحاد يجوز العمل به بل يجب اذا كانت مستوفية لشروط الاعتبار من العدالة والابتعاد عن الابتداع ، وذلك لان أقل الفرقة ثلاثة وطائفة من ذلك أقل مما يوجب اليقين من الاخبار المتواترة . فالآية الكريمة محتوية على فوائد هي قواعد للدين المبين .

ثم الفقه لغة : الفهم ، وفي عرف أصول الفقه : الفقيه المجتهد ، والمجتهد هو الفقيه ، وهو العالم بالاحكام الشرعية العملية المكتسبة من الادلة التفصيلية . وفي روح المعاني : قال حجة الاسلام الغزالي ـ عليه الرحمة ـ : كان اسم الفقه في العصر الاول اسما لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الاعمال ، وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، وتدل هذه الآية عليه ، فما به الإنذار والتخويف هو الفقه دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والاجارات . انتهى .

وقال الحسن : انما الفقيه الزاهد عن الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم . ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى . انتهى وهو من الحسن بمكان ، لكن الشائع اطلاق الفقيه على من يحفظ الفروع مطلقا ، سواء كان بدلائلها أم لا . انتهى

قلت : اذا نظرنا الى اللغة : فالفقه هو الفهم والفقيه هو الفاهم . أو الى عرف أهل الفروع فالفقيه العالم الحافظ للفروع مطلقا . واذا نظرنا الى أصول الفقه فهو العالم بالاحكام الشرعية العملية ، واذا نظرنا الى مقاصد الاسلام والدين فهو المعنى الذي بينه الامام حجة الاسلام فهو النافع للمسلمين يوم لقاء الملك العلام .

وقد يستدل بالآية الكريمة على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية لقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) هذا اذا كان المراد بالفقه المعنى الواسع كما ذكرنا . وأما اذا أردنا من الفقه العلم بالواجبات الدينية أصلا وفرعا فهو فرض عين على كل مكلف مطلقا لكن على وجه يكون سهلا على الناس أي بالاقتصار على المجملات من الآداب وهي الشروط والاركان للعبادات ، وما اتفق عليه المسلمون في باب الاعتقادات ، ولا شك أن على هذا يلزم تأثيم كثير من المسلمين المتمكنين من معرفة تلك المجملات والمتغافلين عنها . نسأل الله الصيانة والامان .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)(١٢٣)

قوله تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] الآية تخطيط ووضع تنسيق لجهاد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع الكفار ، فيأمره بقتال الأقرب مكانا فالاقرب ، لان صاحب الامر اذا لم تصف جوانبه المتصلة به من الكفر والشقاق يصعب عليه الحركة الى البعيد وتجهيز الجيش ، فربما يغتنم الاقربون مكانا فرصة الهياج على الضعفاء في المركز من النساء والرجال والشيوخ ، وتدور الدائرة عليهم . ثم لا تخلو قلوب المجاهدين من القلق اذا كان نساؤهم وأولادهم تحت رحمة الاعداء حولهم ، وهذه سنة الرسول ويجب أن تكون سنة من ينتسب اليه كذلك . فيقول الباري تعالى اقتلوا الكفار الذين يقربون منكم ، [وليجدوا فيكم غلظة] أي شدة في الجلادة والجسارة والعنف ، والصبر على القتال ، أي اتصفوا بهذه الصفات العالية حتى يجدوها منكم ، ولا يجدوا نقطة ضعف في الامة الاسلامية [واعلموا أن الله مع المتقين] ومن التقوى الاستعداد للجهاد ، والتوكل على رب العباد ، والصبر والاستقامة في الحرب مع الكفار الغلاظ الشداد . ومنهم من يقول : المراد بالذين يلونكم الاقرب فالاقرب نسبا حتى تصلوا إلى الابعد . ولذلك قاتل الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أولا قومه ، ثم انتقل الى قتال سائر العرب ، ثم الى قتال يهود قريظة والنضير وخيبر وأضرابهم ، ثم الى قتال الروم . وجرى الخلفاء الراشدون ــ رضي الله عنهم ــ على سنته وسيرته القويمة على المنهج المستقيم .

(وَإِذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرونَ(١٢٥)

أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ؟(١٢٦) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ : هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)(١٢٧)

[وإذا ما أنزلت سورة] من سور القرآن الكريم [فمنهم من يقول] أي فمن المنافقين من يقول لسائر المنافقين استهزاء بالقرآن واستنكارا لها ، وتثبيتا لإخوانه على الكفر والنفاق : [أيكم زادته هذه] السورة ايمانا ؟ [فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا] لأن نور الإيمان بشيء يجلب نور الايمان بمثله فيكون هناك نور على نور [وهم يستبشرون] بنزولها ، لانه مدد على مدد [وأما الذين في قلوبهم مرض] من الكفر والنفاق [فزادتهم] السورة النازلة [رجساً إلى رجسهم] أي كفرا لاحقا مضافا الى كفرهم السابق ، لأن ظلمة الكفر السابق تجلب ظلمة الكفر اللاحق ، والشر لا يأتي الا بالشر : ظلمات بعضها فوق بعض [وماتوا] على هذه الحالة السيئة [وهم كافرون] بالله ورسوله وبكتابه المبين .

ثم إنه تعالى ترك جواب المنافقين ان كان السؤال موجها لهم فقط ، وجوابهم وجواب المؤمنين الحاضرين ان كان السؤال موجها اليهم جميعا اكتفاء بجوابه ، والتفصيل المبني على حقيقة الامر لان الله أعلم بأحوال الناس منهم بأحوالهم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) ثم استمر الباري في الموضوع موبخا لهم فقال : [أو لا يرون أنهم] أي المنافقين [يفتنون في كل عام مرة أو مرتين] بأنواع البلايا المخزية التي لا تفيدهم أجرا ولا سمعة طيبة [ثم لا يتوبون] عما هم فيه [ولا هم يذكرون ؟] أن تلك البلايا خزايا أتتهم من فساد نياتهم وأعمالهم .

[واذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض] ليتفاهموا على ترك المجلس معاً قائلين رمزا واشارة : [هل يريكم من أحد ؟] حتى اذا رآنا لا نخرج حذرا عن اتهامنا بالنفاق واستكراه سماع السورة ، أو هل يراكم من أحد حتى إذا رآنا خرجنا لنفهمهم أنا نستكره سماع ذلك الكلام إذ ليس بشيء عندنا حتى نستمع له [ثم] بعد ظهور ما رأوه من الصلاح [انصرفوا] وخرجوا عن المجلس المبارك [صرف الله قلوبهم] عن الإيمان ومحبة الله ورسوله وكلامه بدليل انصرافهم عن المجلس ، وذلك الانصراف [بـ] سبب [أنهم قوم لا يفقهون] الصلاح لهم حالا ولا مآلا .

(لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ : حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)(١٢٩)

قوله تعالى : [لقد جاءكم رسول] الخطاب للعرب فيقول : لا شك أنه قد جاءكم من الله العزيز الحكيم رسول عظيم القدر ، واسع الأمر ، صاحب الغلبةوالنصر ، [من أنفسكم] من سلالة أصنافكم العربية الأمية الأمينة .

وقيل : الخطاب للبشر على الاطلاق . ومعنى كونه من أنفسهم أنه من نوع البشر . وقرأ ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وابن محيصن والزهري (من أنْفَسكم) بفتح الفاء أفعل تفضيل من النفاسة ، أي من أشرف العرب .

أخرج الترمذي وصححه والنسائي عن المُطَّلِبِ بن ربيعة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد بلغه بعض ما يقوله الناس فصعد المنبر فحمد الله تعالى واثنى عليه وقال : « مَن أنا ؟ » قالوا : أنت رسول الله . قال : « أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، ان الله تعالى خلق الخلق

فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفساً » .

ثم جاء بنعوت متوالية : أولها [عزيز عليه ما عنتم] أي يعز ويصعب عليه عَنَتكم وهلاككم ، ومعناه أنه جاء مساعدا لكم وطالبا لسعادتكم في الدارين شأن الوالد الرؤوف الرحيم . ثانيها أنه [حريص عليكم] أي راغب جِدا في إيمانكم وأمانكم وعقلكم وعِلمكم وأيمانكم وعُهُودكم ... ثالثها : أنه [بالمؤمنين رؤوف رحيم] .

ثم لون الباري الخطاب ووجهه الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : [فإن تولوا] أي أعرضوا عن الايمان بك وهو سبب لأمانهم في الدارين [فقل : حسبي الله] وكفى [لا إله إلا هو عليه توكلت] لا على غيره [وهو رب العرش العظيم] الذي لا يعلم مقداره إلا هو . وفي الخبر : « إن الارض بالنسبة الى السماء الدنيا كحلقة في فلاة ، وكذا السماء الدنيا بالنسبة الى السماء التي فوقها ، وهكذا الى السماء السابعة وهي بالنسبة الى الكرسي كحلقة في فلاة ، وهو بالنسبة الى العرش كذلك » .

قلت : ويحق أن نقول بما روي من الحديث الشريف « سقف الجنة عرش الرحمن » أي أن الجنة التي عرضها السماوات والارض أعظم وأوسع مما دونها ، وهي تحت العرش ، والنار أيضا وإن لم يتعين محلها في النصوص لكنها في محل آخر من هذه الكائنات الواسعة التي لا يقدر قدرها أحد إلا الله . فإنهما بحسب ظاهر النصوص مخلوقتان الآن ، وستبقيان إلى الأبد . ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة منصوص في سورة الأعراف ، وقد مر تفسيره سابقا . والباري سبحانه وتعالى قادر على إبراز صورة واقعية يرى

عينية بحيث لا يكون المنادي ممنوعا من النداء إلى من أراد ، ولا يكون الرائي ممنوعا من رؤية من أراد بشرط إرادة الباري تعالى لذلك ، وتهيئة الظروف المعتبرة في عالم الآخرة كمكالمة الناس اليوم بعضهم مع بعض ، ولو كانت المسافة بعيدة ، فإن كل ذلك ممكن ، والله على كل شيء قدير . هذا ونسأل الله تعالى قبولنا في زمرة أمة ذلك النبي العظيم الرؤوف الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فرغت من تفسير سورة التوبة قبيل ظهر يوم الخميس الثالث من رجب من شهور سني ألف وأربعمائة وأربع هجرية ، المصادف لليوم الثالث من الشهر الخامس من سنة ألف وتسعمائة وأربع وثمانين ميلادية . وأنا المؤلف عبدالكريم بن محمد الكردي الشهرزوري غفر الله تعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً اَنْ اَوْحَيْنا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ اَنْ أَنْذِرِ الناس وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنوا اَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ؟ قالَ الْكافِرُونَ : اِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ(٢) اِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماوات وَالأرْضَ في سِتَّةِ اَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، ما مِنْ شَفيعٍ اِلاّ مِنْ بَعْدِ اِذْنِهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(٣) إلَيْهِ مَرْجِعُكُم جَمِيعاً ، وَعْدَ اللهِ حَقّاً ، اِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُم يُعيدُهُ ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ والَّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ اَليمَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ)(٤)

قوله [الر] الأكثرون على أنها اسم للسورة ، فمحلها الرفع على أنها خبرٌ لمبتدأ محذوف ، أي هذه السورة مسماة بكذا ، وهذا أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعدُ فحقها الإخبار بها لا جعلها عنوانَ الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بجهة انتساب الخبر اليه [تلك

آيات الكتاب الحكيم] اشارة الى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي ، والمراد من الكتاب أحدهما ، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم [أكان للناس عجبا] أي أكان لمشركي العرب أمراً متعجبا منه وشيئا غريبا [أن أوحينا] في تأويل المصدر اسم كان [الى رجل منهم أن أنذر الناس] أي أخبرهم بما فيه تخويف لهم من مغبة عقائدهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة وجزائهما يوم القيامة ؟ والاستفهام لاستنكار ذلك أي لم يكن ، ولا يكون ذلك الإيحاء غريبا غير معروف ، فإن الناس من أول نشوئهم الى يوم بعث الرسول الكريم استمرت فيهم الرسالة والدعوة الى الحق القويم والصراط المستقيم ، وهو الاعتراف بواجب الوجود ووحدته وقدمه وبقائه واستغنائه عن الحوادث وعدم مماثلته لما سواه ، واتصافه بالصفات الذاتية من : الحياة ، والعلم والقدرة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . وأن الناس خُلِقوا لعبادة الله وطاعته وسيجزي الله كلا حسب اعتقاده وأعماله . فالرسول العربي ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول من الرسل ، ولم يكن بعثه بين قومه غريبا يتعجب منه [وبشر الذين آمنوا بما أوحيناه إليك ، أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم] أي سبقا وعلوا في المنزلة عند الله . والقدم هو العضو المخصوص ، وهو هنا مجاز مرسل عن السبق والتقدم في المنزلة ؛ لأن السبق يكون بها ، كما تستعمل اليد مجازا عن النعمة لصدورها منها . والصدق اذا نسب الى الكلام هو الخبر المطابق للواقع سواء طابق الاعتقاد أو لا ، أو الى المتكلم وهو الشخص الجائي بخبر مطابق للواقع كذلك . وقد يستعمل في الأفعال كقولك : صدق زيد في القتال اذا وفاه حقه . وقوله تعالى : [قال الكافرون : ان هذا لساحر مبين] جملة مستأنفة مبنية على السؤال ، كأنه قيل ماذا قالوا بعد التعجب ؟ فقيل : قال الكافرون : إن هذا لسحر مبين ، أي ظاهر لا شك في كونه سحرا . وفي هذا

القول دلالة على أنهم رأوا في تضاعيف معاني الآيات المنزلة أمورا خارقة للعادة من التأثير في قلوب الناس وإفادة النكات الدقيقة ، وبيان الامور التي لم يكن من عادة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بيانها .

وقوله [إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام] جملة مستأنفة ذكرت لابطال تعجبهم من الإيحاء المذكور ، يعني أن الموحي له التصرف في ملكوت الكائنات ، فكيف يتعجب من إيحائه المذكور حيث [إن ربكم الله الذي خلقَ السماوات والارض في ستة أيام] أي في ستة برهة من الاوقات كل برهة منها كيوم من أيام الدنيا كما هو المناسب لإظهار قدرة الله تعالى في تصرفاته وأعماله ، أو في ستة أيام من أيام الآخرة التي كل يوم منها كألف سنة مما تعدون [ثم استوى على العرش] على المعنى الذي أراده سبحانه وتعالى ، أو أنه استولى وملكَ العرش المحيط بالكرسي المحيط بالسماوات والارض [يدبر الامر] استئناف آخر لبيان حكمة استوائه . والتدبير في اللغة النظر في أدبار الامور وعواقبها ، لتقع على الوجه المحمود ، وفي العرف عبارة عن التقدير والابداع الجاري على مقتضى الحكمة . والمراد بالامور كل ما جرى في علمه الازلي وجوده على وجه مخصوص . وهو سبحانه وتعالى مستقل في تحقيق شؤونه بلا تدخل أحد حتى انه [ما من شفيع] يشفع لأحد في وقت من الاوقات [إلا من بعد إذنه] في شفاعته له [ذلكم الله ربكم] أي ذلك الذات المعروف الموصوف بتلك الصفات العلية هو ربكم المستحق لان يعبد هو لا غيره [فاعبدُوه] لا غيره ، لأن غيره لا يستحق العبادة [أفلا تذكرون] أي أفلا تعلمون أن المعبود هو الله الموصوف بالكمال المذكور [اليه مرجعكم جميعا] بدون استثناء أحد لاالى غيره [وعد الله] مصدر لفعل محذوف اي وعد وعد الله وهو مؤكد لمضمون الجملة السابقة [حقا] مصدر مؤكد لما دل عليه المصدر الاول

مع عامله ، وكيف يكون مرجع الناس عليه لأنه [هو الذي يبدأُ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط] أي بالعدل وتطبيق الجزاء على الاعمال بالوجه الموافق المناسب [والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب ألیم بما كانوا يكفرون] أي فيجزي الذين كفروا بسبب كفرهم بشرب شراب حار جداً ، وبالتعذيب بعذاب شديدٍ مديد الى الأبد والعياذ بالله .

(هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً والْقَمَرَ نوراً ، وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسابَ ، ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ إلا بالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥) انَّ في اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ ومَا خَلَقَ اللهُ في السَّماواتِ والْأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقونَ)(٦)

ثم بين بعض وجوه تدبير الباري سبحانه وتعالى لأمر الكائنات فقال : [هو الذي جعل الشمس ضياء] أي ذا ضوء أو مضيئا أو ضوءً منبعثا من حقيقته الشخصية في أصل خليقته بحيث يستنير بها الكواكب الموجودة تحت إشعاعها [والقمر نورا] أي ذا نور ، ومنيرا أو نورا مبالغة في قوته النورية المستفادة من مقابلة الشمس كما قاله العلماء الفلكيون أو نورا مخلوقا في ذاته [وقدره منازل] أي قدر مسيره في منازل . وهي ثمانية وعشرون . وهي السرطان والبطين ، والثريا والدبران ، والهقعة ، والهنعة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والزبرة ، والصرفة ، والعواء ، والسماك الاعزل ، والعفرة ، والزباني ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذابح ، وسعد بَلَع ، وسعد السّعود ، وسعدُ الأخبية ، وفرع الدلو المقدم ، والفرع المؤخر ، وبطنُ الحوت . وهي

مقسمة على البروج الاثني عشر المشهورة • فيكون لكل برج منزلان وثلث" • والبرج عندهم ثلاثون درجة حاصلة من قسمة ثلثمائة وستين أجزاء دائرة البروج على اثني عشر • والدرجة عندهم منقسمة بستين دقيقة ، وهي منقسمة بستين ثانية وهكذا • ويقطع القمر بحركته الخاصة في كل يوم بليلته ثلاث عشرة درجة ، وثلاث دقائق ، وثلاثا وخمسين ثانية ، وستا وخمسين ثالثة • وتسمية ما ذكر منازل مجاز ، لأنه عبارة عن كواكب مخصوصة من الثوابت قريبة من المنطقة •

والمنزلة الحقيقية للقمر الفراغ الذي يشغله جرم القمر على أحد الأقوال في المكان فمعنى نزول القمر في هاتيك المنازل مسامتته اياها ، وكذا تعتبر المسامتة في نزوله في البروج ، لانها مفروضة أولا في الفلك الأعظم ، وأما تسمية نحو الحمل والثور والجوزاء بذلك فباعتبار المسامتة أيضا • انتهى نقلا •

قلت : هذه مبنية على نظريات الفلكيين المتقدمين ، وأما المتأخرون فلهم منهج آخر في ذلك الموضوع •

[لتعلموا عدد السنين والحساب] أي لتعلموا عدد السنين التي يتعلق بها غرض متعلق بمضي السنوات والحساب الكسري المبني على معرفة الاشهر والأيام لمقدار الاعمار ، والإيجار ، والتجارات ، والديون ، والمعاملات ، والمناكحات ، والعدد ، والنفقات ••• فإن كل ذلك مبني عند جمهرة الناس على معرفة السنين والاشهر والايام [ما خلق الله ذلك إلا بالحق] أي ما خلق ذلك بحال من الاحوال الا متلبسا بحال حق من رعاية مصالح العباد في البلاد [يفصل الآيات] الكونية المفيدة للبصيرة في رعاية المصالح [لقوم يعلمون] الحكمة وأسرار الأحكام •

[إن في اختلاف الليل والنهار] نورا وظلمة ، طولا وقصرا ، أو بحسب ما فيها من الوقائع والحوادث ، أو في تعاقبهما على وجه الاستمرار [وما خلق الله في السماوات والارض] من الاشياء البديعة من الحركات البطيئة والسريعة ، والاجرام النازلة والرفيعة ، والتجاذب من بعض الاجرام مع بعض ، وتبعية الحاصلات لاختلاف الفصول الناشيء عن اختلافهما ... [لآياتٍ لقوم يتقون] أي يعرفون ربهم وكمال قدرته فيتقونه ويعبدونه .

(إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالحَياةِ الدُّنْيا واطْمَأَنُّوا بِهـا ، والَّذين هُـمْ عَنْ آياتِنـا غافِلُون(٧) أُولئكَ مأويهُـمُ النَّارُ بِمـا كانُوا يَكْسِبُونَ(٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِـمْ رَبُّهُمْ بإيمانِهِـمْ تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأنْهارُ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٩) دَعْويهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ، وآخِرُ دَعْويهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ)(١٠)

قوله تعالى [إن الذين لا يرجون لقاءنا] بيان لمآل حال الكافرين وسوء عاقبتهم ، فيقول : إن الذين لا يرجون لقاءنا يوم القيامة لأنهم يكفرون بالبعث والنشور والحساب والميزان وجزاء الأعمال [ورضوا بالحياة الدنيا] والتمتع بها وإيثارها مع خستها على الجنة ونعيمها الخالد [واطمأنوا بها] وسكنت قلوبهم واستراحت بمباشرة حالها وانتظار مآلها [والذين هم عن آياتنا غافلون] يعني لا ينظرون الى الآيات النفسية والافاقية ، ولا يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم ، ولا يعتبرون بما يجري فيها من الأحوال [أولئك مأويهم] ومرجعهم [النار بما كانوا يكسبون] باتباع النفس الأمارة واستيفاء اللذائذ والمشتهيات ، والاغترار بالاستراحة فيها [إن الذين آمنوا

بالله ورسوله] وما أتى به من عنده [وعملوا الصالحات يهديهم ربهم] إلى إيثار الآخرة على الدنيا بسبب [إيمانهم] به وبكتابه المنزل على رسوله • [تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم] أي في جنات هي ظروف للنعيم [دعويهم فيها] أي في تلك الجنات : [سبحانك اللهم] أي هذا الكلام وتقديره : أللهم إنا نسبحك تسبيحا لائقا بكبرياء ذاتك وعظيم صفاتك ، والدعوى وإن كانت مشهورة في الادعاء لكنها وردت بمعنى الدعاء أيضا [وتحيتهم] فيها أي وتحيتهم لله الذي شرفهم بالجنات [سلام] أو تحية الملائكة لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين [وآخر دعويهم] أي وخاتمة دعائهم [أن الحمد لله رب العالمين] والخلاصة : أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله مجدوه وعظموه وسبحوه تسبيحا مناسبا لجلال الباري تعالى • ثم حيتهم الملائكة بالسلام مما كانوا يخافون منه قبل دخول الجنة ، فلما سمعوا التحية وأطمأنوا بها قالوا (الحمد لله رب العالمين) •

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِليهِمْ أَجَلُهُمْ ، فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١) وإذا مَسَّ الإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أو قائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانوا يَعْمَلُونَ)(١٢)

قوله تعالى : [ولو يعجل الله للناس الشر] يعني إن الناس الفاسدين المفسدين يستعجلون الشر استهزاء وسخرية استعجالهم بالخير ، ويقولون : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق فأمطر علينا حجارة ! ولكن الله لا يستعجل لهم الشر ، ولا يجيب طلبهم ذلك ، كما يجيب طلبهم للخير ، ولو كان استعجل

لهم ذلك [لقضي إليهم أجلهم] وماتوا وهلكوا ، ولكنه يؤخر عذابهم وعقوبتهم كما قال [فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم] وتجاوزهم عن الحدود [يعمهون] ويتيهون ويتحيرون • ثم ذكر الباري وأفاد أن الإنسان مخلــوق عجيب إذا جاءته فرصة من الصحة والمنحة والراحة طغى وبغــى واستهتر وسخر بالدين واستحقر •

[و] مع ذلك [إذا مس الإنسان الضرّ] من مرض وفقر وحقارة [دعانا] ورجاءا لكشفه وإزالته [لجنبه أو قاعدا أو قائما] أي تضرع إلينا مضطجعا أو قائما [فلما كشفنا عنه ضره مرّ] على طريقه السابق المعتاد واستمر على بغيه وعناده غير مبال بما كان [كأن لم يدعنا إلى ضر مسه] أي الى كشــف ضرّ مسه [كذلك زين للمسرفين ما كانوا يَعملُونَ] •

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنا الْقُرونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَموا ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وما كانوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(١٣) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلونَ(١٤) وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قالَ الَّذِين لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا : ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أوْ بَدِّلْهُ ! قُلْ : ما يَكونُ لِي أَنْ اُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي ، اِنْ اَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحى إليَّ ، اِنِّي أَخافُ اِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ(١٥) قُلْ : لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْريكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلون ؟(١٦) فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ اِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُون)(١٧)

قوله : [ولقد أهلكنا القـرون] جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران لاقتران الناس بعضهم مع بعض في الاعمال والاحوال • وقيل اربعون سنة ، وقيل ثمانون ، وقيل مائة • يعني والله قد أهلكنا أهل الأزمنة الماضية من المتمردين عن طاعة الله ورسوله ، كقوم نوح وعاد وثمود الذين كانوا [من قبلكم لما ظلموا] أنفسهم بعصيانهم وطغيانهم [و] الحال أنهم [جاءتهم رسلهم بالبينات] أي بالأدلة الواضحة الموضحة على ان الله حق ورسالة رسله حق [وما كانوا ليؤمنوا] أي وأصروا على كفرهم بحيث ما كانوا على حالة ليؤمنوا بالله ورسوله عليها فهذه التي ذكرناها سـنتنا في خيلقتنا لا تتبدل [كذلك نجزي القوم المجرمـين] الموجودين في الحال أو المستقبل ، فكلما جاءهم الرسول بالبينات وعصوا وتمردوا أهلكناهم وجئنا بقوم آخرين [ثم جعلناكم خلائف في الارض] أي ثم استخلفناكم في الارض بعد إهلاك أولئك القرون التي تسمعون أخبارها وتشـاهدون آثار ديارها المدمرة [لننظر كيف تعملون ؟] أي ليتعلق علمنا بأعمالكم وكيفياتها وكمياتها ، فيجازيكم عليها كالأولين [وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات] أي الآيات الدالة على التوحيد وبطلان الشرك دلالة واضحة لا شبهة فيها لمن ليس على قلبه غبار العناد [قال الذين لا يرجون لقاءنا] أي قالوا لرسولنا الذي يتلو عليهم الآيات : [ائت بقرآن غير هذا] في الصفة أي في الدلالة بأن لا يكون فيه نداء الى التوحيد لله ولا الآيات الدالة على البعث بعد الموت وحساب للأعمال والميزان ، وذلك بأن يكون القرآن على ذلك الاسلوب من البلاغة لكن يخلو عن التوحيد والبعث وما يتبعه [أو بدله] ذاتا بكلام آخر وأسـلوب آخر كالعبارات الاعتيادية [قل] يا رسولي في جواب أولئك المتعنتين في الطلب الذين لا يريدون إلا الإنكار لآيات الله والاستنكار للتوحيد والبعث وجزاء الأعمال [ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي] أي لا يصح ولا يمكن لي

تبديل القرآن ذاتا ولا صفة، فإنه قرآن مجيد في لوح محفوظ نازل إلي بالعناية ومحفوظ إلى الأبد بالرعاية ، وليس لي صلاحية في تغييره وتبديله [إن أتبع إلا ما يوحى إلي] بحفظه وكتابته وتبليغه ورعايته ، إني لستُ على طبيعتكم وعلى قلوبكم المستنكرة للحق المتجاسرة على الدين القويم ، وهذا الذي تقترحونه عصيان يليق باللئيم [إني أخافُ إن عصيت ربي عذابَ يوم عظيم • قل] لهم : [لو شاء الله] أن لا أتلوه على الناس [ما تلوته عليكم ولا أدريكم] الله ولا أعلمكم [به] على لساني والفعل من الدراية وماضي باب الإفعال ، وفاعله راجع الى الله تعالى ، أي ما كنت أتلوه عليكم حتى تستمعوا ألفاظه ، ولا أعلمكم الله بمعانيه • وعن الحسن قراءة [ولا أدراتكم] بقلب الياء همزة أي ولا أعلمتكمْ به اي لا أسمعتكم أنا ألفاظه ولا فهمتكم معانيه [فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قَبلِه] هذا كالتعليل لما سبق ، يعني أنه لو كان هذا القرآن من مبتكرات فكري كنت تلوت بعضا منه قبل وقت نزول القرآن لأني لبثتُ فيكم عمرا ، أي مدة قبل هذا الوقت [أفلا تعقلون ؟] أي أفلا تتأملون بالعقل حتى تعلموا أن هذا القرآن كلام الله تعالى ولا علاقة فيه لمن سواه من العالمين ؟ [فمن أظلم ممن افترى على اللهِ كذباً ، أو كذب بآياته ؟] أي لا أحد اظلم ممن افترى على الله كلاما على وجه الكذب في نسبته إليه تعالى ، فلو ألفت كلاما من جانب نفسي ونسبته الى جانب القدس كنت أظلم الناس حيث افتريت على الله رب العالمين ، وكذلك لا أحد أظلم ممن جاءته الآيات البينات من الله على لسان رسوله وكذب بها وعاندها وأنكر نسبتها الى الله ، أو استنكر معانيها وعاندها عاصيا ، فلو كان إنسان على ذلك المنهج المعوج لكان مجرما وما كان ينجو من العذاب الأليم [إنه لا يفلح المجرمون] ولا ينجو من المعائب والمصائب في الدنيا والآخرة •

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ : هؤلاءِ شُفَعاؤُنَا عِندَ اللهِ ! قل : أتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّماواتِ ولا في الأَرْضِ ؟! سُبْحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ !(١٨) وَما كانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فيهِ يَخْتَلِفُونَ)(١٩)

قوله تعالى : [ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم] استئناف لبيان خصلة أخرى من خصالهم الذميمة وهي أنهم يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، أي يعبدون أوثانا جامدة هامدة لا يضرهم بمنع الخيرات عنهم ، ولا ينفعهم بجلبها اليهم ، فهي أشباح بلا أرواح ، وهياكل منحوتة منصوبة ، ومن شأن المعبود أن يستقل بالاضرار والانفاع من كل الوجوه لمن شاء نفعه أو ضره ، أو المعنى لا يضرهم ان تركوا عبادتها ، ولا ينفعهم ان عبدوها [ويقولون] في مقام التبرير لمواقفهم الضيقة والحرجة في الجدال : [هؤلاء] الأوثان [شفعاؤنا عند الله !] في يوم اللقاء والعرض والحساب [قل] لهم يا رسولي : [أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الارض] أي بشيء باطل لا وجود له في الكائنات قطعا حيث لم يتعلق به علمه تعالى ، ولو كان موجودا متحققا فيه لتعلق به علمه كذلك ، أي أن كونهم شفعاء لكم عند الله تعالى لا أصل له ولا اساس [سبحانه وتعالى عما يشركون] أي عن إشراكهم لمن سواه في عبادته واطاعته مطلقا فضلا عن اشراك الهياكل الجامدة المستلزم لتلك المقالة الباطلة .

[وما كان الناس إلا أمة واحدة] أي ما كان الناس كافة من أول الخليقة إلا متفقين على الحق والتوحيد وعبادة الله تعالى وحده . فقيل من عهد آدم

الى أن قتل قابيل هابيل ، أو الى زمن ادريس ـ عليه السلام ـ ، أو الى زمن نوح ـ عليه السلام ـ الى أن توغل الانسان في مطامع الدنيا الدنية وحصل الاختلاف بينهم ، وحدث الخروج عن نظام العدل والمسؤولية وكفر بعضهم وأنشأ عبادة الأوثان والهياكل [فاختلفوا] بذلك في الاصول والنظام وفي الكفر والإسلام [ولولا كلمة سبقت من ربك] وحكم جرى به القضاء على تأخير العقاب الى مسافة زمنية في الدنيا أو الى البرزخ أو الى يوم الميزان والحساب لهم [لقضي بينهم] في الدنيا عاجلا [فيما فيه يختلفون] من التوحيد وغيره بإنزال آيات ملجئة الى الايمان ، أو بتعجيل العقوبة وإهلاك الكافرين •

(وَيَقُولُونَ : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ ! فَقُلْ : إِنَّمَا الغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ، قُلِ : اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً • إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)(٢١)

قوله تعالى : [ويقولون] حكاية لمذمة أخرى لهم ، يعني [ويقولون] في مقام القدح عن رسالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [لولا أنزل عليه آية من ربه] أي آية من الآيات التي اقترحناها كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص من عيسى ـ عليه السلام ـ ومعنى إنزالها إظهارها وإحداثها • وانما طلبوا احداثها تعنتا ، والا فقد رأوا من الرسول معجزة القرآن المعجز الذي لم يظهر في الكائنات مثله ، وقد ظهرت معجزة شق القمر ، وتسليم الحجر ، ومجيء الشجر إليه ، بل وفي ظهور نفس الرسول وما آتاه الله من النجاح في مهمته معجزة عالية عالمية ، كما أن أخلاقه من : صبره ، وصدقه ، وأمانته ، وثباته ، واستقامته ، وترحمه ، ووفائه بعهوده ••• معجزات تدهش

العقول • [فقل] يا حبيبي في جواب أولئك المقترحـين : [إنما الغيب] أي الحكم الغائب عن الابصار وهو التصرف في هذه الامور وإبداعها وظهورها حسب الميسور [لله] القادر على كل شيىء يُظهرها لمن يشاء ويسترها عمن يشاء • أو أن الامر الغائب عنكم وهو عقوبة الله المنصبة على المتعنتين لله عاجلا أو آجلا [فانتظروا] حدوث ما أراد الله حدوثه [إني معكم من المنتظرين] لذلك •

ثم هذه الاقتراحات الواقعة على سبيل التعنت والاستهزاء انما هي من غرورهم الحاصل من وفور النعمة عليهم [و] إنا [إذا أذقنا الناس رحمة] كالصحة والجاه والمال والاولاد ووسائل السيطرة في العباد [من بعد ضراء مستهم] أي من بعد الحالات المضرة بالعظمة كالفقر والحقارة والمرض والنذالة وقلة الاولاد التي خالطتهم وامتزجت بهم حتى أثرت فيهم وظهرت آثارها في وجوههم ••• [إذا لهم مكر] وخديعة [في] إنكار [آياتنا] والطعن فيها وتشويه سمعتها [قل : الله أسرع مكرا] ومكيدة وانتقاما ببلايا شديدة [إن رسلنا] المراقبين لكم بامرنا [يكتبون ما تمكرون] ويكونون شهداء عليكم عندما تحاسبون ، فلا محالة تدركون سوء عاقبتكم وأحوالكم في الدنيا أو في مآلكم •

(هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إذا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ ، وَجاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ(٢٢) فَلَمّا أَنْجيهُمْ إذا هُم يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ • يا أَيُّها

النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ ، مَتَاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا . ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٢٣)

قوله تعالى : [هو الذي يسيركم] شروع في بيان غَلَبَة محبة الدنيا ومطامعها على ذكاء النفس الإنساني وميلها الى جانب الرشد والزهد وعبودية الله تعالى ، ونسيان نعمة الله على ذكرها وشكرها ، وتقلبها وتجوالها مع الهوى على ثباتها واستقامتها ، فقال : [هو الذي يسيركم في البر] بتسييركم في القوافل الكبيرة والصغيرة الى أقطار الارض والبلاد البعيدة [و] يسيركم في [البحر] الواسع بالسفن ذوات الأعمدة الروافع [حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة] ملائمة لسيرها [وفرحوا بها] لتقريبها لكم الى الموانيء المقصودة [جاءتها ريح عاصف] أي قاهر كاسر موافق للاضطراب ومخالف للاقتراب [وجاءهم الموج] أي المياه الكثيرة المائجة الهائجة [من كل مكان] مِن الأمام والخلف والشمال والجنوب [وظنوا] أي الساكنون فيها [أنهم أحيط بهم] بجيش البلاء الموجب للفناء ، واعتقدوا بالهلاك [دعوا الله] المجيب [مخلصين له الدين] قائلين : [لئن أنجيتنا من هذه] المصائب [لنكونن] في مستقبل عمرنا [من الشاكرين • فلما أنجاهم] منها [إذا هم يبغون في الارض بغير الحق] ولما ذكر الباري أحوالهم هذه ناداهم بصورة الخطاب ووجه لهم اللوم والعتاب قائلا : [يا أيها الناس انما بغيكم] وطغيانكم وجسارتكم وعدوانكم [على أنفسكم] لا على غيركم ولا تريدون بذلك الا أن تتمتعوا [متاع الحياة الدنيا] الفانية [ثم الينا مرجعكم] يوم القيامة [فننبئكم بما كنتم تعملون] •

(إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعامُ ، حَتَّى

إِذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهاوازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتيها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً ، فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٢٤) وَاللهُ يَدْعُو الى دارِ السَّلام وَيَهْدي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ، وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ولا ذِلَّةٌ ، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِن عاصِمٍ ، كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وجُوهُهُمْ قِطَعاً مِن اللَّيْلِ مُظْلِماً ، أولئِك أَصْحاب النَّارِ هُمْ فيها خالِدونَ)(٢٧)

قوله تعالى : [إنما مَثَلُ الحياة الدنيا] ••• الآية كلام مستأنف نزل لوصف تمتع الانسان بالحياة الدنيا وقلة مدتها ثم استعقاب التمتع للأخطار والاضرار من جهات شتى • والمثل ماشبه مضربه بمورده ويستعار للامر العجيب المستغرب ، فيقول : إنما مثل الحياة الدنيا في نضارتها ونظارتها أولا ، ثم انتهائها آخرا [كماء أنزلناه من السماء فاختلط به] أي فكثر بسببه [نبات الارض] من أفراد وأصناف وأنواع كثيرة [مما يأكل الناس والأنعام] من البقول والزروع والعشب والمراعي [حتى اذا أخذت الارض زخرفها] أي استكملت حسنها وبهجتها [وازّيّنت] بوجوه الزينة [وظن أهلها أنهم قادرون عليها] أي قادرون على الاستمتاع بتلك الارض وما نبت فيها [أتاها أمرنا ليلا أو نهارا] أي نزل بها حسب صدور أمرنا بالإمحاء والإفناء ما قررنا وقدرنا لها من العذاب في جزء من ليل أو نهار ببردٍ أو بَرَد أو سموم معلوم [فجعلناها حصيدا] أي فجعلنا ثمارها شبيهة بما حصد من

أصلها [كأن لم تغن بالأمس] أي كأن لم تلبث ولم تكن تلك الثمار بالامس .
وهذا المثل مثل في الوقت القريب ، والممثل به زوال خضـرة النبات فجأة
وصيرورته حطاما بعد أن كان غضا طريا ، وزين الارض وطمع فيه أهلكه .
وحاصله اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس كقول الشاعر :

كما أبرقت قوما عطاشا غمامـةٌ   فلما رأوها أقشعت وتجلت

[كذلك] المثل [نفصل الآيات القرآنية لقوم يتفكرون] في مبادئها
ليعرفوا مقاصدها [والله يدعو] المكلفين من الجن والإنس [الى دار السلام]
المؤبد بإطاعته في مدة وجيزة [ويهدي من يشاء] هدايته ممن توجه بحسن
استعداده الى طريق رشاده وسلكه سلوكا مناسـبا لإسعاده ، وهو المراد
بقوله [الى طـراط مسـتقيم] لا عوج فيه بحيث لا يتحير فيه السـائر
ويسترشد به الحائر ، فإن الله بفضله وكرمه قرر أن للذين أحسنوا العقيدة
والعمل المثوبة الحسنى . ومعنى إحسـان العقيدة والعمل أن يتصف بهما
بإخلاص كامل لذات الباري بأن يكون له حضور وشعور كأنه يرى ربه وان
لم يره يعتقد أنه يراه تطبيقا لتفسيره ـ صلى الله عليه وسـلم ـ له بقوله
« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [وزيادة]
هي النظر الى وجه ربه الكريم ، كما روي مرفوعا الى رسول الله ـ صلى
الله عليه وسلم ـ بطرق كثيرة [ولا يرهق وجوههم قتر] أي غبار من الغم
والحزن [ولا ذلة] من الهوان والحقارة [أولئك أصحاب الجنة] الملازمون
لها [هم فيها خالدون] .

[والذين كَسَبوا السيئات] أي جنسـها كبيرة أو صغيرة [جزاءُ
سيئة بمثلها] جزاءً وفاقا بموجب العدالة الربانية وهذا إذا لم يغفر له بأن
كانت السـيئة كفرا أو دونه ولم تتعلق الارادة بالغفـران وإلا فلـه ذلك
[وترهقهم ذلة] أي وتغشى أولئك الكاسبين للسيئات هوان عظيم [ما لهم

من الله من عاصم] أي ليس لهم أحد يعصمهم من سخط الله [كانما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما] أي يعلو وجوههم يوم القيامة قتر وسواد كانما أغشيت وألبست قطعا من سواد الليل مظلما ذلك الزمان [أولئك] الموصوفون بتلك الصفات القبيحة [أصحاب النار] الملازمون لها [هم فيها خالدون] لا يخرجون منها أبدَ الآبدين •

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ : مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢٨) فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ(٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلِيهُمُ الْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)(٣٠)

قوله تعالى : [ويوم نحشرهم جميعا] كلام سيق لبيان بعض ما يأتي عليهم يوم القيامة . وكلمة [يوم] منصوب بفعل مقدر ، أي خوفهم بذلك اليوم [يوم نحشرهم] أي المؤمنين والكافرين [جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا] من بينهم : الزموا [مكانكم أنتم وشركاؤكم] أي الذين زعمتم أنهم شركاء لله في العبادة من جانبكم [فزيلنا بينهم] وفرقنا بينهم لا في الجسم والتواصل الحسي بل في العلاقة المعنوية والوصلة النفسية بينهم لأنه لما تبين الحق من وحدته تعالى وعدم دخالة أحد في العبادة معه صار الفريقان فريقين متعاديين ، [وقال] لهم [شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون] بل كنتم تعبدون أهواءكم ونزعاتكم التقليدية الفاسدة وهذا القول بإنطاق الله الجمادات ان كانوا من الأوثان والأصنام ، وعلى المنهج المعتاد ان كانوا من الملائكة الكرام وعزير والمسيح ـ عليه السلام ـ وعليه فقوله فقال

الالهة : [كفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا] أي إنه قد كنا [عن عبادتكم] إيانا في الدنيا [لغافلين] غير عالمين لان الجمادات لا علم لها أو غير راضين وغير مقتنعين لان الملائكه والأنبياء الكرام براء" من الرضا بالكفر والإشراك . [هنالك] يوم القيامة وساعة المواجهات [تبلو] تعلم [كل نفس] حقيقة [ما أسلفت] ه من العقائد والاعمال حقة أو باطلة وجزاءها خيرا أو شرا ، فيبدو عز" المؤمنين وخزي المشركين ، [موليهم الحق] المطابق للواقع [وضل] أي ضاع وذهب [عنهم ما كانوا يفترون] من أن لهم آلهة دون الله ويشفعون لهم عنده يوم الحساب .

(قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبصارَ ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللهُ ، فَقُلْ : أَفَلا تَتَّقُون ؟(٣١) فَذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ ، فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟(٣٢) كذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)(٣٣)

[قل] : يا حبيبي لأولئك المشركين في مقام الاستدلال على توحيد الباري سبحانه [من] الذي [يرزقكم] رزقا ناشئا [من] جانب [السماء والارض] بالامطار وإنباتِ الزروع ؟ [أمَّنَ يملك السمعَ والابصار ؟] أي بل من الذي يملك خلق السمع وإبداع قوة الاستماع فيها ، ويملك الابصار وايجاد قوة الابصار فيها الجهازين الذين يحار من وقف على تحليلهما والاطلاع على ما أودع فيهما من الدقائق المفيدة للقوتين والمبيدة لما يخالفهما؟ [ومن يخرج الحي من الميت] أي الحي بالحياة الاعتيادية الموجبة للحس والحركة

الإرادية من مادة لا روح فيها فعلا وان كان فيها قابلية تعلقها كالانسان من النطفة والفروخ من البيض ؟ [ويخرج الميت من الحي] ويخرج النطفة من الانسان مثلا والبيض من الطيور ؟ أو من يخلق المهتدي من الضال ويخرج الضال من المهتدي ؟ [ومن يدبر الأمر] ومن الذي يتولى تدبير أمر العالم العلوي والسفلي وعالم الغيب والشهادة [فسيقولون] بعد رعاية الانصاف والتفكر الصافي أن المبدع المدبر هو [الله] جل جلاله وعم نواله فقل : [أفلا تتقون ؟] عذاب الله الذي تعترفون بأنه الملك والمالك وغيره مملوك هالك [فذلكم الله ربكم الحق] الذي اليه الامر كله [فماذا بعد الحق] أي بعد اتباع الحق والاهتداء بنوره [إلا الضلال] والحيرة والهيمان في بيداء الخسران [فأنى تصرفون ؟] أي فكيف تصرفون عن الحق الى الضلال وأنتم تدعون العقل والعلم والكمال .

[كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا] أي كما حقت كلمة الربوبية والوحدة لله تعالى حقت كلمة الله وحكمه وقضاؤه على الذين خرجوا عن طاعته ولم يوفوا حقه ذلك بسبب [أنهم لا يؤمنون] ويستمرون على التمرد والعصيان . أو أن الكلمة هي [أنهم لا يؤمنون] لصرفهم الاستعداد الى جانب الهوى والعناد ، وابتعدوا عن الهدى والرشاد .

(قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ : اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟(٣٤) قُلْ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ : اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟(٣٥) وما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً ، إِنَّ

الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)(٣٦)

قوله تعالى : [قل هل من شركائكم] استدلال آخر على توحيد الباري سبحانه وتعالى فيقول : [قل] يا حبيبي لهؤلاء المشركين : [هل من شركائكم] أيا كان [من يبدأ الخلق] والايجاد وله قدرة إخراج الحقائق العلمية من العلم الى العين [ثم يعيده ؟] أي وله قدرة قاهرة باهرة على إبادة أولئك المبدوئين بالوجود وتحويلهم الى العدم والفناء ثم على اعادتهم الى الوجود العيني في عالم النشأة الثانية ؟ وبعد إلقاء هذا السؤال الى العقلاء منهم لا يمكنهم الاجابة الا بسلب الوجود عمن يقدر على الابداع ثم الاعادة إلا الله ، فإذا اعترفوا بذلك [قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده] قل لهم مرشدا لهم الى الحق والحقيقة : الله هو الذي يبدأ الخلق أولا ثم يميته ثم يعيده ، ولا أحد غيره قابلا لهذه المضغة التكوينية والإفنائية والإعادة [فأنى تؤفكون ؟] فكيف تصرفون قلبا وقولا الى نسبة ما ليس في الامكان أن يتحقق من غيره تعالى الى ذلك الغير البريء من الخير وهو عاجز عن رعاية نفسه فضلا عن التصرف في ما عداه من أجزاء العالمين .

[قل] يا حبيبي للاحتجاج على المطلوب : [هل من شركائكم] الذين تدعون لهم القابلية للالتجاء والاعتماد عليه [من يهدي] الضال [إلى] طريق [الحق ؟] وبحسب الواقع لا تسمعون الجواب الا بالسلب ، واذا توقفوا فـ [قل : الله يهدي للحق] لا غيره من الخلق لان الايصال الى المطلوب لا يمكن الا منه تعالى ، فان اتفقتم على ان الله هو الهادي الى الحق قل [أفمن يهدي الى الحق أحق] وأليق بـ [أن يتبع] ويعبد [أمن لا يهدي] بكسر الهاء والدال المشددة أي لا يهتدي لنفسه [الا أن يهدى ؟] من غيره

[فمالكم] تغفلون عن الحق والواقع و [كيف تحكمون ؟] بأن الضال يهدي الحائرين •

[وما يتبع أكثرهم] أي أكثر المشركين في معتقداتهم الفاسدة الباطلة [إلا ظنا] واعتقادا راجحا غيرمستند على سند يعتمد عليه [وإن الظن] الموصوف بما سبق [لا يغني] الانسان [من] اتباع [الحق شيئا] من الاغناء [إن الله عليم بما يفعلون] من اتباع الظنون الفاسدة •

(وَمَا كَانَ هذا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ ؟ قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنَ دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ، كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)(٣٩)

قوله تعالى : [وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله] شروع في الرد على من ادعى أن القرآن المنزل على حبيب الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس منزلا من الله تعالى وإنما هو كلام مختلق ومفترى على الله من جانب الرسول ، ومعاذ الله وتعالى كتاب الله أن يكون كذلك • فيقول الباري سبحانه وتعالى : [وما كان] أي وما صح وما استقام أن يكون [هذا القرآن] مما [افترى] به على الله تعالى وصادر [من دون] جانب [الله] تعالى لأدلة قاطعة :

الاول : ما أشار اليه بقوله : [ولكن تصديق الذي بين يديه] وبيانه أن من أنزل عليه القرآن رجل أمي لم يدرس ولم يصاحب أهل العلم بالتواريخ

ولم يخرج من مكة المكرمة بحيث يظن أنه غاب لدراسة الكتب السابقة فلم يطلع على ما في التوراة والانجيل من العقائد والاحكام مع انه جاء ببيان أحوال صاحبي الكتابين وهما موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وبيان ما جرى وما ايد الله به سبحانه ذينك الرسولين وأحوالهما ونشوءهما في آيات متعددة وسور كثيرة ، ولولا أن القرآن منزل من الله تعالى ما أمكن لهذا الرجل الأمي بيان الكتابين وصاحبيهما بذلك الوجه الوجيه السليم .

الثاني : أن هذا القرآن مشتمل على تفصيل الشرائع السابقة المنزلة على الرسل الكرام وبيان أحوال الرسل القدماء السابقين على موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ من : آدم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ويعقوب والأسباط ... ولو لم يكن هذا القرآن منزلا من الله تعالى لم يكن كذلك لأنه يمتنع أن يعلم انسان غير ممارس لتلك الشرائع في العهود القديمة أن يبحث عنها وعن أصحابها ، وعليه يكون المراد من [تفصيل الكتاب] تفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع وأصحابها . وفي التأويلات النجمية أن المراد بتفصيل الكتاب تفصيل الجملة التي هي المقدرة المكتوبة في الكتاب الذي عند الله لا يتطرق اليه المحو والاثبات ، لانه أزلي أبدي ودلالته على صحة نسبة القرآن الى الله واضحة لائحة ، لان المراد بالكتاب حينئذ هو علمه القائم بذاته ، لكنه لابد على هذا أن يراد بتفصيل الكتاب تفصيل نبذة منه .

الثالث : ما أفاده بقوله تعالى [لا ريب فيه] وحاصله أن هذا القرآن مشتمل على قواعد كونية رصينة وعلى عقائد صحيحة حصينة وأمور عقلية من أحوال العالم العلوي والسفلي ، ولا يمكن بيانها الا من عليم خبير ، ولهذا ربط هذه الفقرة بقوله [من رب العالمين] أي ان القرآن جاء بحقائق لا يرتاب فيها أصحاب العقول السليمة ، أو لا ينبغي أن يرتابوا فيها ، وذلك دليل على

آنه نازل من رب العالمين . وقوله تعالى : [أم يقولون افتراه] أم فيه منقطعة وهي مقدرة بكلمة بل الاضرابية والهمزة الاستفهامية الاستنكارية . والمعنى أبل هم يقولون افتراه ويأتون بهذه الدعوى الباطلة ؟ وما دام جاؤا بذلك [فقل] يا أيها الرسول المبلغ لوسيلة الوصول : [فأتوا] أيها المدعون لذلك [بسورة مثله] أي مثل ما فيه من السور طويلة أو قصيرة حاوية على ما فيه من وجوه الإعجاز بلاغة أو إخباراً عن الغيب ، أو مغايرة بأسلوبه لأسلوب كلام الناس ، أو مؤثرا بما فيه من الحقائق والأمور الواقعية في قلوب العاقلين المنصفين الصافين عن كدر العناد [وادعوا] للمدد والعون وتأييدكم في هذا المطلوب [من استطعتم] دعوته من آلهتكم التي ألهتكم عن ملاحظة الحقائق التي تزعمون أنها تعينكم في النوائب والمهمات ، أو من الكتّاب والادباء والشعراء وأصحاب البيان حالكونه [من دون الله] أي متجاوزين عن الإتيان بشيء من الله ، أو المقصود ادعوا غيرَ الله من شئتم من خلقه للتعاون معكم في ما سبق [ان كنتم صادقين] في أن القرآن ليس كلام الله وأنه مفترى عليه ، وان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا الله رب العالمين .

[بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه] إضراب وانتقال من الله تعالى عن إظهار بطلان دعواهم بالتحدي إلى الاتيان بسورة مثله الى إفادة أن أولئك الجهال ليسوا في مستوى العقلاء المستدلين حتى يناظروا ، وانما كذبوا القرآن الكريم ونزوله من الله تعالى لانهم ليسوا في درجة أناس عارفين ولم يحيطوا بعلم ما فيه ، وليست الحقائق المندرجة فيه من الاصول والفروع مما يصل اليه عقولهم . فالكلام معهم كلام عاقلٍ عالم مع صبية غافلين وزاد على ذلك قوله [ولما يأتهم تأويله] أي لم يقفوا إلى الآن على تأويل معانيه وعواقب أسراره الدقيقة الدالة على علو شأنه ومستواه ، وإلا كانوا يتوقفون عن ذلك الهذيان ، ووقفوا على قدم الصدق والتصديق به بين الاعيان . أو

معناه ولما يأتهم مآل هذا القرآن المنزل لتنبيه الغافلين وتوجيه العاقلين الدال على أنه كلام نازل من رب العالمين الذي يُمْلي للناس ثم يؤاخذهم بغتة ويفاجئهم دفعة ، أو لم يأتهم إلى الآن جزاء من وقف في مقابل كلام الله تعالى بالتعاند والتخاصم ، وسيأتيهم الجزاء يوم لا يوجد فيه خلة ولا شفاعة، وهو يوم عقاب الكافرين وهذه سنة الله تعالى مع الناس في الدنيا ، [كذلك] أي مثل تكذيبهم [كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين] الذين ظلموا أنفسهم وسيأتيهم مثل ما أتى الظالمين •

(وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ(٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لي عَمَلي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيؤُنَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنا بريءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَو كانُوا لا يَعْقِلُونَ ؟(٤٢) ومِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيكَ ، أَفَأَنْت تَهْدي العُميَ ولوْ كانُوا لا يُبْصِرون ؟(٤٣) إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٤٤)

قوله تعالى : [ومنهم من يؤمن به] أي ومن الناس من يؤمن ويصدق به في نفسه أنه حق منزل من الله تعالى [ومنهم من لا يؤمن به] أي لا يصدق به في نفسه كما لا يصدق به ظاهرا نفرط غباوته المانعة عن العلم به • [وربك أعلم بالمفسدين] الذين لا يؤمنون به [وإن كذبوك] أي أصروا على ما هم عليه من الضلال والكفر والتكذيب بك وبالكلام المنزل عليك [فقل] لهم [لي عملي] وتبليغي للرسالة [ولكم عملكم] من الإفساد والتكذيب [أنتم

بريؤن مما أعمل] ذاتا وجزاءً [وأنا بريء مما تعملون] إذ لا يسري جزاء أعمال أي مكلف الى غيره •

[ومنهم من يستمعون إليك] يعني ومن أولئك المشركين ناس يستمعون إليك ويسمعون كلامك عند تلاوة القرآن أو في الأوقات الاخرى ولكنهم لا يستفيدون بما يسمعون اذ ليس عندهم عقل وشعور يكتفى بهما ، فهم كالصم الغفل [أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟] والجواب بالسلب لأن الأصم اذا كان عاقلا أمكن أن يستفيد شيئا بالفراسة لكن اذا أضيف عدم العقل الى الصمم فهناك فقدان الفوائد والعوائد [ومنهم من ينظر إليك] لكن لا نظر الناقد الخبير بل نظر الجاهل الفاقد فهو والاعمى سواء في عدم إدراك المقصود [أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون] أي ولو أضيف الى عماهم في الابصار عماهم في البصائر ؟ والجواب هو السلب أيضا كما مر [إن الله لا يظلم الناس شيئا] مما ارتبطت به مصالحهم حسب ما يباشرونه من الاعمال وما يحفظونه من العقائد ان كانت على حسب الواقع السليم [ولكن الناس أنفسهم يظلمون] بترك الاستبصار والاعتبار والاستدلال بالآفاق والأنفس ، فمن عاند الله ورسوله هو الذي منع وصوله ، ومن أساء الاختيار فهو الذي اختار لنفسه الخسران ، ومن سلك سبيل الاهتداء الى الحق فهو الذي ترقى طبقا عن طبق • فالناس أمام الله سواء ، والفارق هو صرف الاختيار الى جانب الإقبال أو الإدبار • أعاذنا الله من الفساد وهدانا سبيل الرشاد •

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ، يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي

نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)(٤٧)

قوله تعالى : [ويوم يحشرهم] يوم منصوب بمضمر ، أي أذكر لهم أو أنذرهم يوم نحشرهم ونجمعهم لموقف الحساب وجملة [كأن لم يلبثوا] في موقع الحال من مفعول يحشرهم • يعني وأنذرهم يوم يحشرهم الله تعالى للميزان والحساب وأخذ الثواب ونيل العقاب ، حالكونهم متأسفين من عدم انتفاعهم بالحياة السابقة ، أو قلتها وعدم الاعتبار بها بالنسبة الى عالم الآخرة الأبدية كأنهم لم يلبثوا في الدنيا [الا ساعة من النهار] أي مقدارا قليلا منه [يتعارفون بينهم] أي يعرف بعضهم بعضا بالذوات والاحوال والاوضاع التي جرت بينهم • ومعناه أنه ليس ذلك الوقت وقت الغفلة والجهل بما مضى ، أو ليس وقتا وهميا يدركونه بلا شعور بالحقائق ، بل يعلمون أنهم هم الناس السابقون الذين جرى عليهم ما جرى في الدنيا من الطاعة والمعصية ، وفي تلك الساعة [قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله] ولم يؤمنوا به فلم يطيعوا رسوله ولم يخضعوا لاحكام كتابه المنزل [وما كانوا مهتدين] الى الصراط المستقيم • فهذا حالهم في الآخرة • وأما في الدنيا [فإما نرينك بعض الذي نعدهم] من الدمار والهلاك كما أريناك عذابهم يوم بدر [أو نتوفينك] قبل ذلك وان لم تبصر ما يأتي عليهم في الدنيا وتوفيناك قبل ذلك فلا تظن أنهم يخلصون من العذاب [فـ] إنهم [إلينا مرجعهم] في الآخرة [ثم الله شهيد على ما يفعلون] من الاعمال السيئة ولا شك أنه يجزيهم عليها •

ثم أتى بمجمل ما يجري يوم القيامة وقال : [ولكل أمة] يوم القيامة [رسول] تدعى باسمه [فإذا جاء رسولهم] ووقف بين يدي الله ليشهد على أعمالهم [قضى بينهم بالقسط] بالعدل [وهم لا يظلمون] •

(وَيَقولونَ : متى هذا الوَعْدُ إن كُنْتُمْ صادِقينَ ؟(٤٨) قُلْ : لا أمْلِكُ لِنَفْسي ضَرّاً ولا نَفْعاً إلاّ ما شاءَ اللهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلٌ ، إذا جاءَ أجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأخِرونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمونَ(٤٩) قُلْ : أرَأيْتُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُهُ بَياتاً أوْ نَهاراً ، ماذا يَسْتَعجِلُ مِنْهُ المُجْرِمونَ ؟(٥٠) أثُمَّ إذا ما وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ ؟ الآنَ وقَد كنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلونَ ؟(٥١) ثُمَّ قيلَ لِلَّذينَ ظَلَموا : ذوقوا عذابَ الخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبونَ ؟(٥٢) ويَسْتَنْبِؤنَكَ : أحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إي وَرَبِّي ! إنَّهُ لَحَقٌّ ، وَما أنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥٣) ولو أنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الأرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ ، وأسَرّوا النَّدامَةَ لَمّا رَأوا العَذابَ ، وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، وهُمْ لا يُظْلَمون)(٥٤) •

قوله تعالى : [ويقولون : متى هذا الوعد] أي يقول الكافرون : متى وفي أيّ زمان يتحقق هذا العذاب الموعود به في الدنيا [إن كنتم صادقين] في الاخبار بوقوعه وروده علينا [قل] في جوابهم [لا أملِكُ لنفسي ضَرّاً] بإنزال العذاب الموعود [ولا نفعا] بدفعه عنكم [إلا ما شاء الله • لكل أمّة] من الأمم المكذّبين [أجَل] وقتٌ معين لحلول العذاب عليهم [إذا جاء أجلُهُم] المقرّر [فلا يَستأخرون] عنه [ساعة ولا يستقدمون] قيل إذا جاء أجل العذاب فطلب تأخيره معقول دون طلب تقدمه فما وجه قوله ولا يستقدمون ؟ وأجيب بأجوبة :

الأول : إن صيغتي الاستفعال بمعنى صيغة التفعل ، فالمعنى لا يتقدم أجلهم ولا يتأخر •

الثاني : إنّ ربط الجواب بالشرط مؤخر عن اعتبار العطف أي إنه إذا جاء آجلهم فلا مجال للتأخر والتقدم ، وكلاهما مستحيل •

الثالث : إنّ جملة لا يستقدمون عطف على جملة الشرط ، أي إنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرونه كما أنه لايتقدم الأجل على الزمان الموعود المقرر له •

[قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا] أي وقت بيات أي في الليل [أو نهارا] عند اشتغالكم بأمور المعيشة [ماذا يستعجل منه المجرمون] أي أيّ نوع من العذابين يستعجل المجرمون : عذاب الليل أو عذاب النهار ؟ أي فالكل مكروه فماذا يريد المجرمون ؟ معناه إنّ العذاب الموعود سيتحقق بلا شبهة إما في الليل أو في النهار وكل منهما مكروه لا ينبغي الاستعجال له ، والواقع إن الكافر ينكر ورود العذاب ، فلا يتحقق في زعمه واستعجاله مبني على الاستنكار لوجوده • والباري تعالى يَرُدّ عليه ويقول : إنّ ورود العذاب عليهم محقق لا شبهة فيه فلا وجه لاستعجاله والسؤال عن زمان وروده [أثُمّ إذا ما وقع آمنتم به] أي أإذا وقع العذاب عليكم آمنتم به ؟ [آلآنَ وقد كنتم به تستعجلون ؟] أتؤمنون به الآن ، أي بعد أن خَرَج من القوة إلى الفعل ومِنَ العدم إلى الوجود فما هي فائدة هذا الايمان والحال انكم قد كنتم به تستعجلون استهزاء واستنكارا وإنكاراً لوروده ؟! والكلام على ما قيل مسوق من جهته تعالى •

[ثم قيل للذين ظلموا] بعد ورود العذاب عليهم في الدنيا بلسان الملك الموكل به ، أو في الآخرة على لسان المأمورين به : [ذوقوا عذاب الخلد] أي تعذبوا بعذاب مؤبد خالد وارد عليكم جزاء وفاقا لما صدر عنكم ، ولا مجال للتعجب من ذلك العذاب الخالد [هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟] من

الكفر والجحود والعناد إزاء رب العباد ورسوله الآتي بالرشاد والإرشاد [ويستنبؤنك أحق هو ؟] أي يستخبرونك ويسألونك أَحَقٌّ ذلك العذاب الموعود ؟ [قل] يا حبيبي : [اي وربي !] نعم قسماً بربي [إنه لحق وما أنتم بمعجزين] أي بفائتين العذاب وإنه وارد بكم حقا [ولو أن لكل نفسٍ ظلمت ما في الارض] أي ولو أنها ملكت جميع ما في الارض [لافتَدَت] به عن نفسها للتخلص من العذاب [وأسروا الندامة] عما صدر عنهم [لما رأوا العذاب] ولكن لا ينفع الندم إذ ذاك [وقضي بينهم بالقسط] أي وحكم بينهم بالعدل [وهم لا يظلمون] عندما يحكم عليهم بالعذاب •

(ألا إنَّ لله ما في السَّماواتِ وَالأَرْضِ ألا إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ولكِنَّ أَكثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ(٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُميتُ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ(٥٦) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ ، وهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنِينَ(٥٧) قُلْ : بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)(٥٨)

قوله تعالى [ألا إنّ لله ما في السماوات والأرض] فيه تذكير وإرشاد إلى الإيمان بالباري سبحانه وتعالى ، وبوجوب وجوده ووحدته من جهة الاستدلال بالآثار على وجود المؤثر وبإتقانها على علمه وباستمرار نظامها على وحدته • فيقول : أيها الناس انتبهوا إن [لله] سبحانه وتعالى خلقا وإيجادا وإبداعاً كل [ما في السماوات والارض] من الجماد والنبات والحيوان ، فوجودها الممكن المحتاج الى المرجح يدل على وجوده تعالى ، وإتقان صنعها يدل على علم الباري وقدرته ، ونظامها المستمر يدل على وحدته تعالى ، وكما أن وجوده بصفاته الكمالية حق كذلك [إن وعد الله] بفناء العالم

وموت الأحياء ثم بعثهم وحسابهم ، وميزان أعمالهم [حق] وكل ذلك مما يرشد إليه الرسول الكريم فهو حق أيضا وتبليغه حق ، والإيمان بما يبلغه حق [ولكن اكثرَهُم لا يَعْلَمون] هذه الحقائق الثابتة لتماديهم في الغفلة وقلة تفكرهم في العواقب [هو يحيي ويميت] أي هو الذي يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا ، لأن كل عاقل بصير يعلم أن الوجود وفيضه على الممكن من آثار واجب الوجـود دلالة من الأثر على المؤثر الغني عما عداه [وإليه ترجعون] وكما أنه هو الذي يحيي ويميت فهو الذي يبعث الأموات لإيصال جزاء العاملين إليهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وهذه شيمة أعدل العادلين .

ثم يرغب الناس في الاستفادة من ينبوع القرآن ويقول : [يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين] هذه الآية الكريمة من الآيات المهمة الدالة على درجات القرآن الكريم من حيث إفادته للعقلاء ما يوجب سعادة الدارين بوجوه :

الاول : إنه موعظة وتنوير وتذكير بوجه لَيّن مُليّنٍ للقلوب يوجههم إلى الخير ، فيرشدهم إلى الاعتدال في كل الأمور المادية والمعنوية ، يرشدهم إلى اكتساب العلم والمعارف لتحصيل المعيشة من الوجه الحلال ، وصرفه في ما ينفعه في الحال والمآل ، وإلى صرف بعض الأوقات في طاعة خالق الأرض والسماء الذي أنعم عليهم بما لا يُعَد ولا يحصى . وذلك شـكراً للنعمة وجلباً لمزيدها مع الرحمة ، وإلى أنّ جزاء الاعمال الحسنة جزاءٌ مؤبد خالد لا نهاية له ، فإن الإنسان ، وإن كان حادثا يفنى ومركبا يَبْلى ، لكن هذه العوارض مختصة بالدنيا ، وأما في الآخرة فالإنسان في نشـأة ثانية أبدية ومخلوق في بنية قوية وإدراك شامل وإحساس كامل وروحانية سالمة صافية خالدة أبدية ... وهذه الموعظة الوافية الكافية [جاءتكم من ربكم] العليم العظيم .

الوجه الثاني : إن القرآن قرآن وشفاء لما في الصدور من أكدار الجهل والغباوة ، ومن أقذار العناد والشقاوة ، فإن القرآن حاوٍ على علوم الأولين والآخرين ، فمن تعلمه وعمل بما فيه انشرح صدره بعلوم كثيرة وفوائد وفيرة ، ومن تنور بأنوار معانيه ومقاصده شُفِيَ من مرض الكفر والإلحاد والعداوة والعناد ، وتوجه بروحه إلى رب العباد ، وبقي صحيحاً سالماً إلى يوم الميعاد ، وهناك لا يكون فساد وخلل من العرض والمرض .

الوجه الثالث : إن القرآن هَدْي" وهداية وعَوْن" وعناية على مستويات معلومةٍ عند أصحاب الدراية فإن فيه هدى إلى بيان العقائد والأحكام الإسلامية ، ومن أخذها على وجه السلامة اهتدى إلى مستوى المسلمين الرابحين ، ومن استفاد من الإخلاص في تطبيقها بالإذعان بها ورعاية الأدب والخشوع والخصوصية فيها تَرَقّى الى مستوى الأولياء والصالحين ، ومن اعتنى به زائدا على هذه الدرجة وصل الى مستوى الصديقين ، وأي هدي وأي رحمة وفضل أحلى وأعلى من الوصول إلى تلك المستويات الرفيعة والمقامات العالية ؟ وكل المؤمنين مشتركون في هذه الهبات الوافرة على حسب درجاتهم في العلم والعمل والإخلاص ، ومن حيث عناية الله تعالى بهم ، ولذلك ختم الآية الكريمة بقوله للمؤمنين .

[قل] يا رسولي للناس ليفرحوا : [بفضل الله ورحمته] وليغتنموا ما في القرآن الذي أنزل موعظة وشفاء وهدى ورحمة من الفضل ومن النور المشتعل في القلوب بتلاوته وحفظه ورعايته والعمل بآدابه [فبذلك فليفرحوا] لا بغيره من الشهوات النفسية والملذات الحيوانية ، ومطامع النفس الدنية [هو] أي المذكور من فوائد القرآن الكريم [خير مما يجمعون] أي يجمعونه من الأموال والأنعام والحرث ونحوها ، فإنها سائرة الى الفناء .

(قل : أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً ؟ قل آللهُ أذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُون ؟!(٥٩) وما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيامَةِ ؟ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَشْكُرُونَ)(٦٠)

قوله تعالى [قل أرأيتم] أي قل يا حبيبي أخبروني [ما أنزل الله لكم] من مقام المنعم الرفيع القدر إلى مستوى العباد النازلين [من رزق] لكم من المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات وسائر ما تمتعتم به [فجعلتم منه حراما وحلالا] بهوى النفس لا بهدى القدس [قل آ اللهُ أذن لكم] في تبعيضه وتقسيمه إلى الحرام والحلال فقسمتموه كذلك [أم على الله تفترون ؟] والجواب الصحيح أنهم افتروا على الله الكريم في ذلك . وحاصل الآية الشريفة أمره برسوله ـ عليه السلام ـ أن يستنكر تصرفاتهم الهوائية في نعمة الباري تعالى وتقسيمه إلى الحلال والحرام والاعتراف بأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله ، ورجوعهم إلى الإيمان به تعالى في سائر التصرفات والشؤون بدليل تهديدهم على ذلك بقوله الكريم [وما ظن الذين يفترون على الله الكذب] أي ماهو ظنهم بجزائهم وعذابهم [يوم القيامة ؟] هل يظنون أن لا عذاب عليهم في ذلك اليوم وهو ظن مخالف لسنة الله في عباده أو أنهم يعذبون وهذا هو الحق الواقع فلم لا ينتهون عن إجرامهم وآثامهم ؟ [إن الله لذو فضل على الناس] في تأجيل عذابهم إلى ذلك اليوم [ولكن أكثرهم لا يشكرون] فضله .

(وَما تَكُونُ في شَأنٍ ، وَما تَتْلُو مِنهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ، إِذْ تُفِيضُونَ

فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦١) أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٦٥)

قوله تعالى : [وما تكون في شأن] الآية ... نزل تطمينا لخاطر الرسول وتنويراً لقلبه الشريف بأن الله تعالى يراقبه في حالاته كلها ، فهو تحت الرعاية والعناية فيقول تعالى [وما تكون] أنت يا حبيبي ورسولي [في شأن] من الشؤون التي يُعْتَنى بها [وما تتلو منه] أي من ذلك الشأن [من قرآن] وحاصله رأي شأن من شئونك يتلى وذلك هو القرآن . فالضمير المجرور راجع إلى الشأن و [من قرآن] بيان لذلك الشّأن المتلوّ [وما تعملون من عمل] أيا كان [إلا كنا عليكم شهودا] رقباء مُطّلعين حافظين [إذ تفيضون فيه] أي تشرعون فيه [وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء] أي في الجهتين العالية والسافلة . والمراد بهما دائرة الوجود [ولا أصغر] من ذلك أي من مثقال ذرة [ولا أكبر] أي منه [إلا في كتاب مبين] أي واضح عند صاحبه وهو علم الله الأزلي أو اللوح المحفوظ . [ألا إن أولياء الله] جمع ولي وهو القريب والمحب والنصير [لا خوف عليهم] من لحوق مكروه [ولا هم يحزنون] على فوات مطلوب . واستشكل بورود نصوص تدل على وجود الخوف والحزن للرسل الكرام الذين هم أكبر الأولياء كقوله تعالى [فأوجس في نفسه خيفة موسى] وقوله

حكاية عن يعقوب ـ عليه السلام ـ (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) وأجيب عنه بأنه ليس المراد بالخوف والحزن المنفيين الخوف والحزن الغريزيان اللذان يلزمان العقلاء ، ولا الخوف من الله تعالى الذي يلزم كل عبد صالح ، ولا الحزن من القصور في حق عبادته ، وإنما المراد أن أولياء الله تعالى محفوظون بفضل الله وعونه من الآثام والذنوب التي توجب الخوف يوم القيامة ، ومن القصور في أداء الواجبات وترك المحرمات التي توجب الحزن عليها . فهم في يوم القيامة يغْشيهمُ الأمن والفرحُ من بشرى الملائكة لهم كما أن الناس الغافلين يغشيهم الخوف والحزن من مباشرة الآثام والمعاصي ، فهم على مقابلة لهم (يختص برحمته من يشاء) وعلى هذا يكون نفي الخوف والحزن عن الأولياء بالنسبة إلى يوم القيامة فقط لا في الدنيا أيضا لأنهم بشر كسائر الناس .

وقد يقال : إن لأولياء الله تعالى حالتين حالة اعتيادية ناشئة من ملاحظة الأسباب والمسببات حسب جريان سنة الله تعالى ، وحالة ربانية أي ذات علاقة بالاستغراق في مراقبة الباري جلّ جلاله . فهم في هذه الحالة في الدنيا لا يأتيهم الخوف ولا الحزن من أية جهة من الجهات ، لأن القلب المشغول به تعالى كالعضو المخدر لا يبقى فيه الإحساس بالآلام ، ويتبعون الرضا بجريان القضاء ، وفيهم حالة نفسية وقوة إيمانية مانعة من ورود الخوف والحزن عليهم من هذه الجهة لرضائهم المطلق بما يجري به القضاء .

والأولياء في الآية الشريفة هم [الذين آمنوا] بجميع ما جاء من عند الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة والبداهة لا مما اختلف فيه بين كونه من الدين أولا [وكانوا يتقون] عما يجب الاتقاء منه من الكفر بأنواعه والكبائر بأنواعها وسائر ما يبعدهم عن الله تعالى ، وهو المراد في قوله تعالى (اتقوا الله حَقّ تُقاته) [لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة] أما في

الحياة الدنيا فبطرق كثيرة منها : الرؤيا الصالحة التي يراها وتوجب رفع الكدر عن قلبه ، أو دفع البلايا والأذى وما يوجب ابتلاءه به • ومنها تيسير أموره وحل مشاكله بسبب الناس المتعاونين معه ولذلك وجوه كثيرة • ومنها إلهامه ببعض الحلول التي ليس مما يعرفه بذاته • ومنها إهلاك أعدائهم بدون مباشرتهم لأسباب إهلاكهم • ومنها تحويل قلوب الأعداء من السخط إلى الرضا ومن القهر والعناد الى اللطف والمحبة • ومنها انشراح صدورهم بلطف من الله بحيث تحصل لهم حالة عالية غالبة على مشاعرهم حتى ينمحي عندها كل ما في قلوبهم من الفزع والقلق • ومنها تهافت الأرواح الصالحة أو الملائكة عليهم عند احتضارهم • ويدل على ذلك ما يخبرون به في ذلك الوقت من مجيىء الناس الصلحاء إليه ، أو نطقهم بعض آيات أو أبيات أو كلمات مبشرة بحيث يعلم الحاضرون أنه مبشر بها • وأما في الآخرة فبحشره مع الأخيار الأبرار ، وببشارة الملائكة له ، وبانقضاء دور الموقف وأتعابه عليه بسهولة وبشرف لقاء الباري تعالى سبحانه وتعالى ، وبشفاعة سيد الأنام له برفع درجاته وبسائر وجوه الخير الموجبة لرضاه واستبشاره في دار القرار •

[لاتبديل لكلمات الله] من أقواله الواردة في البشارات للأولياء والصالحين بوجود البشرى لهم في الدنيا والآخرة • ومنها سائر وعوده بالخير لدرجات المؤمنين ، ومنها كلماته المقررة لثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار ، ومنها إعلان قبول التوبة ممن تاب إليه [ذلك] النيل بالبشرى في الدارين [هو الفوز العظيم] بالخيرات من الله الكريم [ولا يحزنك قولهم] أي قول أعدائك وأعداء دينك في إنكار رسالتك والتقول على الكتاب المنزل عليك ونسبة العزة إلى أنفسهم ونسبة غيرها إليك وإلى أمتك [إن العزة لله جميعا] بكل أقسامها وطرقها في الدنيا والآخرة من كان يريد العزة فلله العزة

جميعا • وقد أخبر الله تعالى بحصرها فيمن يستحقها بقوله ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين • وقد حقق الله عزتك بتخليد دينك ونشره في ربوع العالم ومهابة أهله ما داموا يمشون على منهجه القويم • ونسأل الله أن يجعلنا من أمته الأعزة في الدنيا والآخرة آمين • [وهو السميع] لأقوالهم [والعليم] بنياتهم وأفعالهم ، وسيجزيهم يوم الدين •

(ألا إنَّ للهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ ، وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ ، اِنْ يَتَّبِعُونَ اِلاَّ الظن ، وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ(٦٦) هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً ، اِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٦٧) قالوا : اتَّخَذَ اللهُ وَلداً ! سُبْحانَهُ ، هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا في السَّماواتِ وما فِي الأَرْضِ ، إنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهذا ، أَتقُولونَ عَلى اللهِ ما لاتَعْلَمُونَ ؟(٦٨) قُلْ : إنَّ الَّذينَ يَفْتَرونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحونَ(٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذَابَ الشَّديدَ بِما كانُوا يَكْفُرونَ)(٧٠)

قوله تعالى : [ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض] ينبه ويبين أن الله سبحانه وتعالى مالِك رِقاب العقلاء مِن الجن والإنس ، فكيف بالحيوان والنبات والجماد المخلوق لانتفاعهم [وما يتبع الذين يدعون مِن دُون الله شركاء] يعني وما يتبع الذين اتخذوا شركاء لله طريقاً مستوياً مبنيا على اليقين المطلوب في الاعتقاديات [إنْ يتبعونَ إلاّ الظن] وليس الظن المتبع لهم ظناً مبنيا على أدلة فيها قدر وقيمة ، بل هو ظن موروث من التقليد

الباطل المبنيّ على العادة [وإن هم إلا يخرصون] أي يَحْزرون ويُقدّرون أنهم شُركاء بدون دليل مبين [هُوَ الذي جَعَلَ لكم الليل لتسكنوا فيه والنهارَ مبصرا] يعني إن الله تعالى الذي يكلفنا توحيده هو القادر الذي جَعَل لكم الليل زماناً مستورا هادئا لتسكنوا فيه بأمانٍ وَرَحمة ، وجَعَلَ لكم النهار مبصرا أي ذا إبصار لكم فيه [إن في ذلك] الجعل والتصرف وإظهار القدرة القاهرة [لآيات] وبراهين ساطعة على وجوب وجوده وتوحيده واتصافه بسائر صفات الكمال [لقوم يسمعون] الأدلةَ القاطعة والبراهين الساطعة . وأما من لا يسمعها فلا ينفعه ما في الكائنات من الآيات البينات قطعا .

[و] إنما يتبعون بعض العقائد الزائغة الضائعة المأخوذة من أهل الهوى ومن جملة عقائدهم هذه أنهم [قالوا : اتخذ الله ولدا] لقولهم أن الملائكة بناتُ الله [سبحانه] وتعالى عن تلك النسَب الفاسِدة فإنه [هو الغني] المستغني عن جميع الكائنات [لَهُ ما في السماوات وما في الأرض ، إن عندكم من سُلْطانٍ] أي حجة دامغة [بهذا] القول المذكور الباطل [أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟] من المختلقات الكاذبة . [قل] لهُم [إن الذين يفترون على الله الكَذِبَ] فينسبون إليه الولدَ والشريكَ [لا يفلحون] من عذاب الآخرة [متاع في الدنيا] أي تلك الأكاذيب متاع نفساني حقير في الدنيا [ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون] أي بسبب كفرهم المستمر .

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ : إذْ قالَ لِقَومِهِ : يا قَوْمِ إنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامي وتَذْكِيري بآياتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ، ثُمَّ لا يَكُنْ

أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)(٧٣)

قوله [واتل عليهم نبأ نوح] يعني واتل على المشركين من أهل مكة وغيرهم نبأ نوح [إذ قال لقومه : إن كان كَبُرَ عليكم مَقامي وَتذكيري بآيات الله] أي إن كان يثقل ويشق عليكم شخصي وإقامتي بينكم وتذكيري إياكم وإرشادي لكم بتلاوة آيات الله عليكم لتسمعوها مني ولتؤمنوا بها وتأخذوا طريقكم المستقيم في التوحيد [فعلى الله توكلت] أي فلا اعتماد لي على أحد إلاّ على الله ، لأنه هو الذي يعين الضعفاء وينجي من لا قوة له من قهر الأعداء [فَأجْمعُوا أمْركم وشركاءكم] أي فاعزموا مع شركائكم على أمركم في مقابلتي [ثم لا يكن أمركم عليكم غمة] أي لا يكن أمركم ومقصودكم مستوراً غير مكشوف عليكم أي فليكن عزمكم على عداوتي ومخاصمتي علنية [ثم اقضوا إليّ ولا تُنظِرونِ] أي ثم أتوا عليّ ولا تمهلوني • فإن قتلتموني فَقَد خلصتم مني ، وإن رجعتم عن عدائي وآمنتم فلله الحمد والمنة ، وإن بقيتم على ما أنتم عليه وتركتموني فما خسرتم في الدنيا ولا خسرت أنا • أما أنتم فما خسرتم شيئا لأنه ما سألتكم مقابل تذكيري وإرشادي لكم من أجر أطالبكم به حتى تقعوا في المدافعة ومحاولة الخلاص وتخسروا هنالك شيئا ، وأما أني فما خسرت شيئا فلأني عبد مطيع لله ، وأمرت أن أكون من المسلمين المنقادين له تعالى ، والواجب عليّ التبليغ

وقد بلغتْ [فكذبوه] أي فاستمروا على تكذيبه كما كانوا عليه ، فحقت عليهم كلمة العذاب ، فأمرنا السماء بالإمطار والأرض بالانفجار ، وحصل الطوفان ، وطغى الماء على البسيطة ، فأمرنا نوحا أن يدخل هو وأتباعه الفلكَ المصنوع لهذا اليوم ، فدخلوا [فنجيناه] أي نوحا [ومن معه في الفلك] وكانوا في المشهور أربعين رجلا وأربعين امرأة ، وقيل دون ذلك [وجعلناهم خلائف] عمن هلك بالغرق بسبب الطوفان [وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا] وهم المتمردون من قوم نوح [فانظر كيفَ كانَ عاقبةُ المُنْذرين] .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ ، فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، كذلِكَ نَطْبَعُ على قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ)(٧٤)

قوله تعالى : [ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم] يعني أنه بعد أن أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم زمنا طويلا ، وأرشدهم إلى الصراط المستقيم ، وهم عاندوا واستكبروا وكذبوا وكفروا حتى أغرقتهم بالطوفان .. بعثنا رسلا آخرين إلى أقوامهم ، وذلك بعث سيدنا هود إلى عاد ، وبعث صالح إلى ثمود ، وغيرهما من الرسل كل إلى قومه ، [فجاؤهم بالبينات] أي أي فجاء أولئك الرسل الكرام إلى تلك الأقوام بالمعجزات القاهرة ، والأدلة الواضحة المتوافرة ، لإثبات رسالتهم من الله تعالى [فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل] يعني فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بالحكم الإلهي الذي كذبوا به من قبل مجيىء تلك الرسل إليهم ، وذلك لأن تلك الأقوام لما سمعوا أخبار الرسل السابقين وقصص هلاك الأمم التي أرسلوا إليها لم يؤمنوا برسالتهم ، وحملوا هلاك أقوامهم على الكوارث الاعتيادية من البركان والعواصف وغيرها ... ولما جاءت الرسل إليهم استمروا على ما

كانوا عليه من التكذيب . وعلى ذلك فضمائر الافعال الثلاثة راجعة الى الاقوام المرسل اليهم ، أي كما أن الأمم السابقة عليهم لم يؤمنوا بهم كذلك اللاحقة . والباء في قوله تعالى (بما كذبوا) للصلة هذا . ويحتمل أن يكون سببية ، أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاء به إليهم الرسل بسبب عناد راسخ في قلوبهم من تكذيبهم بالرسل سابقا ولاحقا .

وقوله تعالى : [كذلك] الطبع [نطبع على قلوب المعتدين] يعني أن مثل هذا الطبع الذي طبعنا على قلوب أولئك الأقوام الضالين بسبب شدة شكيمتهم وعتوهم وعنادهم مع الحق نطبع على قلوب الكافرين المعتدين على الرسل بالتكذيب ، وعلى الله بعبادة غيره ، فمن اعتدى على الله ورسوله طبعنا على قلبه ومنعناه من وصول الحق إليه .

(ثُمَّ بعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهرونَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلأِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَروا وَكانوا قَوْماً مُجْرِمِينَ(٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا : إنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ(٧٦) قال : مُوسى : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ ، أَسِحْرٌ هذا ؟ ولا يُفْلِحُ الساحِرُونَ)(٧٧)

[قوله تعالى ثم بعثنا] أي أرسلنا من بعد نوح ـ عليه السلام ـ رسلا كراما الى قومهم منهم مَن قصصنا عليك كهود أرسل الى قوم عاد ، ثم صالح أرسل الى قوم ثمود . ومنهم من لم نقصص عليك فإن الرسل بين نوح وإبراهيم كانوا كثيرين . [فجاءُوهم بالبينات] أي بالآيات الواضحة الدالة على رسالتهم ، أو بالمعجزات كذلك [فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل] أي فاستمروا على كفرهم وعنادهم [كذلك نطبع على قلوب المعتدين . ثم بعثنا من بعدهم] أي من بعد أولئك الرسل عليهم السلام ، من هود

وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من بني إسـرائيل وغيرهم [موسى وهرون إلى فرعون] الطاغي [وملأه] أي أشراف خواصه الباغين الذين كانوا يجتمعون على رأى من الآراء الدائرة في البين فملأوا أعين الناس رهبة وهيبة [بآياتنا] المعجزات القاهرات للأعمال المدهشة الأخرى كعصا موسى ، ويده البيضاء ، وغيرهما [فاستكبروا] عن الانصياع لرسـالتهما [وكانوا قوماً مجرمين] شأنهم البغي على الحق والعناد لأهله [فلما جاءهم الحق من عندنا] أي المعجـز الحق الثابت في الواقـع المنزل من عندنا من المعجزات [قالوا] في تبرير موقفهم العنادي الاستكباري [إن هذا] الأمر الذي أظهره موسى لكسر شوكتنا [لسحر مبين] واضح كونه سحرا .

[قال موسى] ـ عليه السـلام ـ في الرد عليهم مسـتنكرا لمقالتهم الباطلة : [أتقولون للحق] المنزل من الله تعالى لما جاءكم [أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون] وإنا الحمد لله من المفلحين ، فلست بساحر ، وليس عملي سحرا قطعا .

(قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ ؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ(٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ(٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى : مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ(٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ(٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي

الأرْضِ ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى : يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فقالوا : عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا ، رَبَّنا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)(٨٦)

قوله تعالى [قالوا : أجئتنا لتلفتنا] يعني قال فرعون وملأه لموسى ــ عليه السلام ــ حين قال لهم ما قال : [أجئتنا] يا موسى [لتلفتنا] أي لتصرفنا [عما وجدنا عليه آباءنا] من الآداب والتقاليد [وتكون لكما الكبرياء] أي لك ولأخيك هرون الكبرياء أي الملك العظيم في الأرض ؟ أرض مصر [وما نحن لكما بمؤمنين] أبدا ولا نصدقكما فيما جئتما به [وقال فرعون] لما استقر رأيه ورأى أتباعه على أن ما جاء به موسى هو السحر [أئتوني بكل ساحر عليم] حاذق في معرفة السحر ليغلبوا على موسى فيه [فلما جاء السحرة] وحضروا في الساعة المقررة للمبارزة [قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون] أي تقدموا بإلقاء ما تريدونه من أعمالكم [فلما ألقوا] ما ألقوه من الحبال وغيرها [قال موسى] ــ عليه السلام ــ : [ما جئتم به السحر] لا غيره [إن الله] تعالى [سيبطله] لأن سنة الله جرت بإعلاء كلمة المرسلين وتنزيل كلمات المبطلين ، لأنهم مفسدون [وإن الله لا يصلح عمل المفسدين] سواء كان من الواقعيات أو الأوهام والخياليات [ويحق الله الحق] أي يؤيده وينصره [بكلماته] أي بأوامره النافذة [ولو كره المجرمون] ذلك .

[فما آمن لموسى] ــ عليه السلام ــ مع انتصاره [إلا ذرية من قومه] إلا جمع قليل من بني إسرائيل من الذين كانت قلوبهم مشتعلة بنور الحق

والتضحية لله وذلك [على خوف من فرعون وملأهم] الضمير راجع إلى فرعون وملأه ، أي وكان إيمانهم مع خوف من فرعون وأركان دولته العصاة القساة [أن يفتنهم] مربوط بالخوف ، أي على خوف من أن يفتنهم فرعون . وإفراد الضمير هنا لأنه المبدأ للسيئات ، وجمعه في ما تقدم نظرا له وللمباشرين من أعوانه [وإن فرعون لعالٍ في الأرض] مستكبر طاغ باغ [وإنه لمن المسرفين] المتجاوزين في البغي والعناد وتعذيب العباد ، لأن قسوة قلبه أضاعت خلقه وأدبه [وقال موسى لقومه] بعد أن علم ببوادر سيئات اتباع فرعون : [يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا] وعليه اعتمدوا [إن كنتم مسلمين] مطيعين لله رب العالمين [فقالوا] له ــ عليه السلام ــ مجيبين مستجيبين [على الله توكلنا] لا على غيره [ربنا لا تجعلنا فتنة] أي محل بلاء ومحنة وفتنة [للقوم الظالمين] أي فرعون وأعوانه المفسدين الطاغين [ونجنا برحمتك من القوم الكافرين] المعاندين المعهودين وغيرهم .

(وَأَوْحَيْنا إلى مُوسى وَأَخِيهِ أنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً ، واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ)(٨٧)

قوله تعالى : [وأوحينا إلى موسى وأخيه أنْ تبوءا] الآية ... كلمة [أن] إما مصدرية ، أو تفسيرية بمعنى أي ، لأن الجملة السابقة فيها معنى القول لا لفظه [وتبوأ] قيل إنه يتعدى إلى مفعول واحد ، يقال تبوأ القوم بيوتا ، فإذا دخلت اللام على الفاعل فقيل تبوأت للقوم بيوتا تعدى إلى ما كان فاعلا باللام ، فيتعدى لاثنين كما هنا . وقال أبو علي : هو متعد الى اثنين بنفسه واللام زائدة . فقوله تعالى [لقومكما] أحد المفعولين [وبيوتا] هو المفعول الأخير . أي اتخذا بيوتا لقومكما مباءة ومرجعا ومنزلا . وقيل هو

متعد لمفعول واحد ولقومكما متعلق بمحذوف وقع حالا من البيوت . وقوله [واجعلوا] أي أنتما وقومكما . ففيه تغليب للمخاطب على الغائب وقوله [بيوتكم] أي البيوت المتخذة [قبلة] أي منازل يصلى فيها . أو مساجد للصلاة خاصة . فقوله قبلة على الأول مجاز عن المصلى ، أي اجعلوا منازلكم هذه مُصَلّيات لكم . وعلى الثاني مجاز عن المساجد لأنها فيها جهة القبلة . أي اجعلوا بيوتكم المتخذة للصلاة مساجد متوجهة للقبلة . أي ابنوها على اتجاه القبلة . والمراد بالقبلة هذه الكعبة فإن موسى ــ عليه السلام ــ كان يصلي إليها .

وفي روح المعاني : واعترض القول بحمل القبلة على المساجد المتوجهة إلى الكعبة بأن المنصوص عليه في الحديث الشريف الصحيح ان اليهود تستقبل الصخرة ، والنصارى مطلع الشمس ، ولم يشتهر أن موسى ــ عليه السلام ــ كان يستقبل الكعبة في صلاته فالقول به غريب . وأغرب منه ما قاله العلائي من أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كانت قبلتهم كلهم الكعبة . قيل : وجعل البيوت مصلى ينافيه ما في الحديث « جعلت لي الارض مسجدا وطهورا » من أن الأمم السابقة كانوا لا يصلون إلا في كنائسهم . وأجيب عن هذا بأن محله إذا لم يضطروا ، فإذا اضطروا جازت لهم الصلاة في بيوتهم كما رخص لنا صلاة الخوف . فإن فرعون لعنه الله تعالى خرب مساجدهم ومنعهم من الصلاة ، فأوحى الله إليهم : أن صلوا في بيوتكم كما روي عن ابن عباس وابن جبير . وقد يقال إنه لا منافاة أصلا بناء على أن المراد تعيين البيوت للصلاة وعدم صحة الصلاة في غيرها ، فيكون حكمها إذ ذاك حكم الكنائس اليوم ، وما هو من الخصائص صحة الصلاة في أي مكان من الأرض ، وعدم تعين موضع منها لذلك . إنتهى .

[وأقيموا الصلاة] فيها • قيل : أمروا بذلك في أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم [وبشر المؤمنين] بحصول مقصودهم أي النصر المبين •

(وَقالَ مُوسى : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً في الحَياةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبنا اطمِسْ عَلى أمْوالِهِمْ ، واشْدُدْ عَلى قلوبِهِم ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الأَلِيمَ(٨٨) قالَ : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما ، فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)(٨٩) •

قوله تعالى : [وقال موسى ربنا] الآية ••• يعني إن موسى ـ عليه السلام ـ لما رأى بوادر فتنة بني إسرائيل من فرعون وملأه آخذ يدعو عليهم ، وقال : ربنا [انك آتيت فرعون وملأه] أي أركان دولته [زينة] مما يتزين به الناس في مرأى غيرهم من : اللباس ، والحلى ، والنساء ، والأسلحة الخفيفة المحمولة ، والمراكب العالية الغالية ، والقصور والحدائق ••• إلى غير ذلك [و] آتيتهم [أموالا] كثيرة من النقود والمزارع والمستغلاّت في الحياة الدنيا [ربنا ليضلوا عن سبيلك] واللام إما لام الأمر والأمر للدعاء والفعل مجزوم ، أو لام العاقبة والصيرورة والفعل منصوب • ومعرفة عاقبتهم كانت بالوحي ، أو لام التعليل • ومعناه إخبار موسى ـ عليه السلام ـ بأنه تعالى إنما زوّدهم بالزينة والأموال الكثيرة استدراجا لهم ليزدادوا إثما وضلالاً كقوله تعالى إنما نملي لهم • [ربنا اطمس على أموالهم] أي أهلكها فإن الطمس هو الإهلاك أي أمْحِها من الأساس بالإبادة أو أخرجها عن أن ينتفعوا بها بحيث تجعل تناولها وأكلها وشربها ولبسها أسباب أمراض وأتعاب ودمار ونغص في العيش ، وتعب في الحياة حتى لا يستفيدوا منها لأنفسهم ، فضلا عن جعلها وسائل للسيطرة على المستضعفين وإبادتهم [واشدد على قلوبهم] أي اجعلها

مشدودة مسدودة قاسية عاصية لا تنفتح لدخول روح الرحمة فيها حتى لا تنشرح للايمان [فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم] ويعاينوه بحيث لا ينفعهم الإيمان

[قال] الله سبحانه وتعالى في جواب هذا الدعاء الناشيء من موسى وهرون المحكي بلسان الأول منهما لتقدمه : [قد أجيبت دعوتكما] وإني قضيتُ بإبادة فرعون وجنوده وغرقهم في الماء ثم عرضهم على النار غدوا وعشيا إلى قيام الساعة وإدخالهم في أشد العذاب في الآخرة خالدين ، وقضيت بحرمانهم من أموالهم وزينتهم وحدائقهم وشوكتهم إلى يوم يبعثون [فاستقيما] واثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزام الحجة والصّبر على ما تلقونه من سواد الناس [ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون] سنة الله في العالمين بإمهال الظالمين إلى وقت معلوم ثم الانتقام منهم أشد الانتقام كما آذوا الرسل وأتباعهم الكرام •

فإن قيل : كيف ساغ لسيدنا موسى ــ عليه السلام ــ الدعاء على فرعون وأتباعه بالكفر المستلزم لاستحبابه والرضا به والمشهور أن الرضا بالكفر كفر؟ أجيب بأن المطلوب منه ــ عليه السلام ــ بدعائه قضاء الله تعالى وحكمه وتأثيره في قلوبهم بذلك ، والرضاء بفعل الله تعالى وقضائه جائز بل واجب ، فللكفر والمعاصي الكبائر والصغائر أيضا جهتان : جهة الإبداع والإيجاد والتأثير ، والرضاء بذلك واجب على أهل الإيمان بلا شك وشبهة ، وإنما المنهي المنفور المحرم الرضا بكفر الإنسان وارتكابه للذنوب من حيث إنه صفته وأثر ثابت عنده وهو واضح • فسيدنا موسى ــ عليه السلام ــ دعا عليهم بذلك وتأثير الله تعالى فيهم لينتقم منهم جزاءً لما ارتكبوه من دعوى الربوبية والألوهية والطغيان والبغي والاستكبار وذبح الأولاد الصغار

وسائر ما ارتكبوه من الجرائم الشنعاء ... وليس في ذلك إلا طلب الانتقام من الكفرة اللئام .

وقد يجاب بأن المذموم الدعاء بالكفر على من جهلت عاقبته ، لا من علم موته على الكفر بالوحي وموسى علم ذلك بذلك .

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءآلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ !؟(٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(٩٣)

قوله تعالى : [وجاوزنا ببني إسرائيل البحر] الآية ... أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أنه أجيبت دعوته ودعوة أخيه على فرعون وملأه وجاء وقت أخذ الانتقام منهم فاخرج ببني إسرائيل واعبر النيل ، فأطاع الله سبحانه وتعالى ، وأمر بني إسرائيل بالخروج من مصر ليلا ، وكانوا ستمائة ألف نسمة فخرج بهم على حين غفلة من فرعون وجنوده ، فلما أحس بذلك خرجوا إثرهم مسرعين فالتفت القوم ، فإذا الاعداء الكفرة وراءهم ، فقالوا : يا موسى هذا فرعون وجنوده وراءنا ، وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص ؟! فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه ، فانفلق اثني عشر

فَلْقاً كل فرق كالطود العظيم ، وصار لكل سبطٍ طريق" ، فسلكوا ووصل فرعون ومن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ، ومسلكهم باق على حاله ، فسلكه فرعون بمن معه أجمعين ، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم ، وذلك قوله تعالى [وجاوزنا ببني إسرائيل البحر] أي جعلناهم متجاوزين من النيل [فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا] أي للبغي والعدوان على بني إسرائيل حصولا أو تحصيلا للزائد على ما كان [حتى إذا أدركه] أي فرعون [الغَرَق] مع الغارقين [قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمَنَتْ به بَنُو إسرائيلَ ، وأنا من المسلمين] الذين انقادوا لله وأسلموا نفوسهم له .

فقال الباري سبحانه إظهارا لما استنكروه من إيمان فرعونَ حال اليأس بعدما جرى منه ما جرى من دعوى الربوبية والبغي والعدوان على من خالفه ، ولاسيما على بني إسرائيل قبل مجيء موسى وهرون ـ عليهما السلام ـ إليه وبعده ، وعلى لسان الملك المأمور بذلك القول ، أو على لسان موسى بعد إطلاعه على ما قاله بوحي من الله : [آلآن] يعني أتؤمنُ الآنَ حين اليأس من كل معين ، ونزول البأس عليكم أجمعين [وقد عصيتَ قبلُ] بنفسك وبزبانيتك ، ويتحمل كبير القوم كلّ ما فعلوه [وكنت] أنت وإياهم [من المفسدين] في العالم بشتى جهات الإفساد في العباد ؟! [فاليوم نُنَجيك] يا فرعون [ببدنك] الهامد الهالك [لتكون لمن خلفك] من الباقين بعد غرقك من معاصريك ومَن يأتي في المستقبل ويطلع على أمرك [آية] وحجة قاطعة على أن الله تعالى ينصر الحق المبين ويقهر الباغين ، وقادر على كل ما أراده بالعالمين [وإنّ كثيراً من الناس] وهم الناسون لله تعالى وقدرته القاهرة الباهرة [لغافلون] لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، وكذلك الإنسان على مَر الأيام والأزمان .

يروى أنه بعدما أغرق الله فرعون ومن معه ونجا موسى وأتباعه قال بعض الغلاة الضالين : إن فرعون لم يغرق وذهب إلى رب السماء للتفاهم معه في قضية بني إسرائيل . فأظهر الله بدن فرعون وجعله على شاطئ النيل ، فوجده الأقباط وعرفوه وأخذوه وحنطوه على ما هو المرسوم للملوك الأقباط فبقي بدنه إلى يومنا هذا . فصار آيةً لمن رآه في ذلك الزمان أو بعده ، على أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ثم أخذ الباري تعالى يستأنف لبيان إفاضة نعمه الكثيرة على بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون ، فملكهم ما عاشوا فيه على ترفيه ويقول : [ولقدْ بوأنا بني إسرائيلَ مبوأَ صِدْقٍ] أي أنزلناهم بعد أن أنجيناهم مُبَوَّءاً ومنزلا مرضيا يقال له المبوأ بالصدق [ورزقناهم من الطيبات] أي اللذائذ من اللحوم والشحوم والحلاوى وبقوا فيه متنعمين منفقين [فما اختلفوا] في أمور دينهم وكانوا متبعين أمر رسولهم ـ عليه السلام ـ [حتى جاءهم العلم] بأمور دينهم أصلا وفرعا اعتقادا وعملا . أو لم يختلفوا في بعث محمد العربي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما توارثوه من أسلافهم حتى جاءهم العلم ببعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بشارات التوراة [إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] من أحكام دينهم في تلك الأوان أو في بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول آخر الزمان .

(فَإنْ كُنْتَ في شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلنا إليك فَسْئَلِ الَّذينَ يقرأونَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(٩٤) وَلا تكونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبوا بِآياتِ اللهِ فَتَكونَ مِنَ الْخاسِرِينَ(٩٥) إنَّ الَّذينَ حَقَّتْ

عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الأَليمَ (٩٧) فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمانُها ، إلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ، كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزْيِ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إلى حِين)(٩٨) •

قوله تعالى : [فإن كنت في شك] الآية ••• الخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سبيل العرض والتقدير لأن تحقق الشك منه محال عادة ، والمعنى إن كنتَ في تردد [مما أنزلناه إليك] من قصص إهلاك فرعون وجنوده أو غير ذلك [فاسأل الذين يقرأون الكتاب] المنزل من الله تعالى من قبل بعثك فإن ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم ، وكذلك نزول الأحكام الإلهية الأصلية أو الفرعية محققة عندهم [لقد جاءك] القول [الحق من ربك] العالم بالحقائق كلها [فلا تكونن من الممترين] الشاكين والمقصود إن الشك في آيات الله تعالى لا ينبغي تحققه من أي عاقل عالم مؤمن بذات الله تعالى وصفاته الكمالية التي من آثارها ما يمكن أن يوجد •

[ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله] أي بشيء منها من الاعتقاديات أو العمليات أو قصص الماضين او المستقبل مما هو آت [فتكون] بالتكذيب [من الخاسرين] حالا ومآلاً [إن الذين حقت عليهم كلمة ربك] أي حكمه وقضاؤه لسوء ما يسوقه إليه نزعاته وهواؤه بل غوايته وهواه [لا يؤمنون] أبدا [ولو جاءتهم كل آية] تدل دلالة قطعية على وجود الباري و كرمه وجوده [حتى يروا العذاب الأليم] بالإهلاك فلا ينفعهم الإيمان إذ ذاك •

وبيان ذلك : إن أفعال العباد بأسرها معلومة له تعالى ومرادة له ، ولا يكون إلا ما أراده سبحانه وتعالى وتعلق به علمه ، وهما متوافقان بالوجه

الواقع ، ولكن الإرادة تابعة للعلم كما ان العلم تابع للحياة تبعية ذاتيـة . والعلم المتعلق بأفعال العباد يحكي صورة ما يتوجه إليه قصدهم وعزمهم في ما لا يزال على حسب علمهم بما يرونه مناسباً لهم ، سواء كانت طاعة أو معصية ، فكلما توجهت إليه إرادتهم خلقها الله لهم ، ومعنى قوله تعالى (وما تشاؤن إلا أن يشاء الله) إنهم لا يريدون إلا ما أراده الله في الأزل إرادة تابعة للعلم الحاكي لأفعالهم ، وتوجهت قدرتهم بعد تعلق إرادتهـم التابعة لعلمهم فلما كانت إرادة الله تابعة لعلمه وعلمه حاك للصورة اللايزالية ظهر أن أساس خلق الباري لها إرادتهم لها المعلومة للباري أزلا والمرادة له بالوجه المذكور ، فليس معنى قوله تعالى وما تشاؤن إلا أن يشـاء الله أن إرادة الله الأزلية موجبة ومقتضية وعلـة لإرادته تعالى متبوعة لإرادتهـم ومقدمة عليها تقدم الحاكي على المحكي وتقدم ظهور صورة المرآة على ذي الصورة ، لأن إرادة الباري تعالى لشيء تابعة لعلمه به ، وعلمه يحكيه كما يحصل من العبد في المستقبل ، وذلك واضح لائح . والحمد لله رب العالمين .

[فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونـس] أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكت هلاك الاستئصال آمنت قبل نزول العذاب فنفعها ذلك ، وكان سـببا لنجاتها منه . وعلى هذا يكون قوله (إلا قوم يونس) استثناء منقطعا لعدم اندراجهم في الهالكين الذين لم يؤمنوا حتى حل بهم العذاب ، لأن المروي انه لما غاب سـيدنا يونس عن القوم تذكروا وتابوا فكشف الله عذاب الدمار عنهم ولم ينزل عليهم . وأما إذا أريد من القرية القرية العاصية المستعدة للاستمرار في العصيان وعدم الإنابة والتوبة الى الله المنان فتكون كلمة (لولا) في معنى حرف النفي والاستثناء متصلا ، والتقدير وما كانت قرية عاصية رجعت عن عصيانها وآمنت بربها فنفعهـا إيمانها إلا قوم يونس فإنهم تابوا عن العناد وآمنوا بالله وبرسوله و [لما

آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم] أي بعد كشف العذاب عنهم [الى حين] مقرر عند الله تعالى .

وكان من قصة قوم يونس على ما روي من غير واحد ان يونس ـ عليه السلام ـ بعث الى أهل (نينوى) من ارض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك ، فدعاهم الى الايمان بالله وحده وترك ما يعبدون من الاصنام ، فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم انّ العذاب مُصبحهم الى ثلاث ، فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل ، فلما اصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ... وجاء انّه غامت السماء غيماً اسود هائلا يدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت اسْطِحَتُهُم ، فلما ايقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه ، فخرجوا الى الصحراء بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، ولبسوا المسوح وأظهروا الايمان والتوبة ، وفرقوا بين الوالدة وولدها من الناس والدواب ، فحنّ البعض الى البعض ، وعلَت الأصوات وتضرّعوا اليه تعالى وآمنوا واخلصوا النية ، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءَهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب ، وكان ذلك يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة .
ولما خرج يونس ودخل السفينة وتوقفت ورموه في البحر وابتلعه الحوت ثم نجاه الباري .. رجع الى اهل نينوى فآمنوا به واكرموه ، فعادت الراحة في الأمة جميعا وعاشت الامة خير عيش ... وذلك معنى قوله تعالى (ومتعناهم الى حين) .

(وَلَوْ شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِه النَّاسَ حتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟(٩٩) وما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلاّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(١٠٠) قُلِ : انْظُروا ماذَا فِي السَّماواتِ

وَالْأَرْضِ ، وما تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ(١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ قُلْ : فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ(١٠٢) ثم نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)(١٠٣)

قوله تعالى : [ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا] بيان وإعلان لدوران إيمان المكلفين كلهم على مشيئته سبحانه وتعالى وجودا وعدما ، فمن شاء إيمانه آمن ومن لم يشأ إيمانه لم يؤمن ، كما أن من شاء كفره كفر ، ومن لم يشأ كفره لم يكفر ، فلا يجري في ملكه إلا ما يشاء لكن مشيئته مبنية على علمه ، وعلمه ناظر إلى ما له ثبوت فعلي ماضيا أو حالا أو مستقبلا ، والثبوت الفعلي مبني على تحقق الحكمة فيه ، وهذه الحكمة مقررة بالنسبة إلى آثار المكلفين في ما توجه إليه استعدادهم واختيارهم المرتب على علمهم حتى يتناسب فعل الخير للمثوبة الحسنى وفعل الشر للعقوبة ، وإلا فلو أراد أن يجبر المكلفين كلهم على الإيمان لآمنوا ، كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) فإذا كان الأمر كذلك أي إن الله تعالى لم يشأ إيمان جميع المكلفين لعلمه بسوء صنيعهم واختيارهم [أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين] بعد أن لم يتعلق مشيئته بإيمانهم [و] الحال إنه [ما كان لنفس] أي ما صح لها [أن تؤمن إلا بإذن الله] أي بمشيئته وإرادته . والأصل في الإذن بالشيء الإعلام بإجادته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه [ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون] أي ويقرر الكفر ويحققه على قلوب الذين لا يعقلون الخير والسعادة لهم في الإيمان ، بل يعقلونهما فيما يوافق الهوى والملاذ النفسية الفاسدة ، فأولئك الناس ناس لا عقل لهم أساسا أي إن عيون قلوبهم عُمْيٌ

عن إبصار الخير وتمييزه عن الشـر ، أولهم العقول وإحسـاس الحواس وإدراك الحقائق لكن أهواءهـم غلبت عليها حتى عاندت الحق الواضح الأبلج واختارت الطريق العوج الموجب لكل زلة وحرج •

وخلاصة الأمر : إنه ليس لك ولا لسـائر الهداة في أمتك إلا تبليغ الآيات البينات والاسـتدلال بما في الأرض والسـماوات ، والجهد بقدر الإمكان في توجيه القلوب إلى طريق السعادة وسبيل العبادة ، وما عليك إيمانهم وقد قال تعالى : (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) [قل] يا رسولي الجليل لمن تنذره : (انظروا ماذا في السماوات والأرض ؟) من عجائب الآثار المكشوفة أو المكتشفة الدالة على أنها كائنات ممكنة الوجود وتحتاج في ترجيح وجودها على عدمها إلى واجـب الوجـود ، ووجوب وجوده يدل على قدمه ووحدته وبقائه وعدم مماثلة الحوادث واستغنائه عما سواه واتصافه بجميع الكمالات الذاتية والفعلية بحيث لا ترى نقصا وفتورا أمامه أو وراءه وكل شيىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون • فإن اعتبروا بقولك البليغ ونظروا واستفادوا فلله الحمد على الإنعام ولك الأجر على إرشاد الأنام ، وإن لم يعتبروا فأولئك هم الخاسرون •

[وما تغني الآياتُ والنذر] وما ترفع حجاب الغفلـة [عن] قلوب [قوم لا يؤمنون] فإن أصروا على الكفر والعناد [فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهـم] أي مثل الوقائع التي وقعت والفظائع التي نزلت على الذين خلوا ومضوا من قبلهـم ، فإن انتظروا ذلك جهلا وعنادا [قل فانتظروا] ذلك [إني معكم من المنتظرين] له فالانتظار واحد والمنتظر واحد ، وجهة الانتظار متعددة ، فإنكم تنتظرونه جهلا للدمار ، وإنا ننتظره لتحقيق وعيده تعالى على الكفار الأشـرار ، فإذا نزل العذاب بسـاحتهم نُهْلِكُ المستكبرين [ثم نُنَجّي رُسُـلَنا] عطف على مقدر يدل عليه

قوله مثل آيام الذين خلوا من قبلهم ، وما بينهما اعتراض جيىء به مسارعة إلى التهديد ، كأنه قال نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا المرسلين إليهم [والذين آمنوا] بهم معهم وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورتها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك ليتصل به قوله تعالى [كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين] .

(قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ ، إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(١٠٧)

قوله تعالى : [قل يا أيها الناس] الآية ... يعني [قل] يا حبيبي لجميع الناس الذين في شك وتردد في دينك [يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني] الذي أدين به وأعامل عليه وأدعو الناس إليه [فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله] فإني متيقن في أن دينكم باطل لا أساس له ، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله [ولكن أعبد الله الذي يتوفيكم] ولكني أعبد الله الذي يليق بالعبودية له ، لأنه هو الذي خلقكم ورزقكم ، وهو الذي يتوفيكم عند انقضاء أجلكم [وأمرت] من الله تعالى [أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا] أي وأمرت بإقامة وجهي وتوجيهه

إلى تطبيق الدين الذي شرعه الله ، حالكونى مائلا عن الباطل إلى الحق [ولا تكونن من المشركين] أي لا تكونن منهم بحال من الأحوال اعتقاداً وعملا [ولا تدع من دون الله] استقلالا ولا اشتراكا أي ولا تعبد [ما لا ينفعك] إذا دَعَوته [ولا يضرك] إذا تركته [فإن فعلتَ فإنك إذا من الظالمين] الذين ظلموا أنفسهم بتوجيه الطلب إلى ما لا يستحق ذلك .

ومما يجب أن يعلم أنه لا يندرج في ذلك طلب الإنسان من الرجل الصالح الدعاء له بدفع البلاء ، أو رفعه أو بجلب خير ونعمة سواء كان الرجل حيا حياة اعتيادية أو ميتا ، لأن أي طلب يتوجه إلى أي إنسان فإنه يتوجه إلى روحه ، والروح باقية خالدة ، ومن فرق بين روح الإنسان الحي المرزوق والميت فهو لم يعرف معنى الروح . ونسبة التأثير والإيجاد إلى الحي دون الميت كفر وخروج عن دين الإسلام إذ لا تأثير إيجادا وإبداعا لغير الله تعالى مطلقاً [اللهُ خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل] وطلب الطالب ليس لتأثير المخاطب بل للدعاء وتوجه همته إلى المقصود [وإن يمسسك الله بضر] من المرض أو الفقر أو الذل [فلا كاشف له إلا هو] وحده ولكنه قد يكون كشفه بتيسير الله أسبابه كوجدان الطبيب الحاذق للمرضى ، والصديق الوفي للسعي في بعض أمور نافعة ، وكبذل المال صدقة في سبل الله أو غيرها [وإن يردك بخير فلا راد لفضله] الذي أراده لك لأن تخلف المراد عن الإرادة محال [يُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ] أي يصيب بذلك الخير من يشاء [وَهو الغفور الرحيم] .

(قل : يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ(١٠٨) وَاتَّبِعْ ما

يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ)(١٠٩)

قوله تعالى : [قل : يا أيها الناس] أي بعد أن وفيت بواجب التبليغ وأتعبت نفسك في سبيل الله تعالى قل للناس المكلفين [قد جاءكم] الكتاب [الحق] الثابت المطابق للواقع من ربكم يرشدكم الى ما فيه سعادة الدارين علما وأخلاقا [فمن اهتدى] إلى المتابعة بذلك القرآن [فإنما يهتدي لنفسه] ونفعه يعود إليها [ومن ضل] عن الطريق ولم يأخذ بعمل التطبيق [فإنما يضل عليها] أي على نفسه ومضرة الضلال تعود اليها [وما أنا عليكم بوكيل] أي بحفيظ موكول إليّ أمركم [واتبع ما يوحى إليك] على سبيل الاستمرار [واصبر على] ما ينوبك من المصائب [حتى يحكم الله] بالنصر والغلبة لك عليهم [وهو خير الحاكمين] إذ لا يوجد الخطأ في حكمه •

وفي هذه الآية تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعد للمؤمنين ووعيد للكافرين • والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين محمد وآله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين •

سورة هود ، مكية ، وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ(١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ(٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ(٣) إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤)

قوله تعالى : [الر] اسم للسورة أو القرآن الكريم ، أو إشارة إلى اسم من أسمائه تعالى ، أو صفة من صفاته • وقيل : إنها من المتشابهات • [كتاب] خبر لها على تقدير ابتدائيتها ، أو لمبتدأ محذوف ، والتنوين للتعظيم [أحكمتْ آياته] أي أنزلت آياته من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة ، ومنه إلى رسولنا محمد خاتم النبيين والمرسلين إنزالاً متقنا مَحفُوظا منْ تطرقِ الخلل إليها مِن شياطين الإنس والجن ، حتى استقرت في صدره المنشرح [ثم فصلت] وبُيّنت ما يحتاج منها إلى البيان ، وجُعِلَت سُوراً مرتبة [من لَدُنْ حكيم] ذي حكمة في أقواله وأفعاله [خبير] بمواضِعها بحيث لا يأتيها الباطل لفظاً ومعنىً ومَقاماً ، وهكذا تبقى إلى أبد الآبدين •

[ألاّ تعبُدُوا إلاّ الله] في موضع العلة للفعلين السابقين على تقدير اللام على أن المصدرية . أي أحكمت آياته وفصلت لتفهموها ولا تعبدوا إلا الله [وأنِ استغفِروا ربكم] عما فرط منكم من القصور عن أداء حق عبادته [ثم توبوا إليه] وترجعوا إلى الله أدبا وإخلاصاً له تعالى ، فإذا استغفرتموه وتبتم إليه [يمتعكم متاعا حسنا] يرشدكم إلى التخلق بأخلاق حَسَنَة تَنبعث منها أعمالٌ حسنة تُوجبُ تمتعكم في الدارين متاعا حسنا ، او يمتعكم متاعا مقرونا بنور في القلب يطمئن به ويرتبط بربه فيشكر على نعمته ويصبر على عذابه ونقمته ، لأن المؤمن وإن كان غالبا في الأذى والتعب كما روي « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . و « إن أشدّ الناس بلاءً الأمثل فالأمثل » لكنه لما استقر في قلبه الإيمان بالجزاء يوم اللقاء يفرح بما آتاه كائنا ما كان . وذلك التمتع إلى أجل مسمى معلوم مقرر عند الله تعالى [ويؤت] الباري تعالى بفضله [كل ذي فضل] أي زيادة في العمل الصالح [فضله] أي جزاء فضله في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما [وَإن تَوَلّوا] أي تتولوا أي تستمرّوا على العناد وتركِ سبيل الرشاد [فإني أخافُ عَليكم] بمقتضى الرأفةِ بكم [عذاب يومٍ كبير] لكبرِ ما يقع فيه [إلى الله مرجعكم جميعا ، وهو على كلّ شيىء قدير] فيقدر على جزاء اعمالكم .

(ألا إنّهُمْ يَثْنُونَ صُدورَهُم لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، ألا حينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرّونَ وَما يُعْلِنُونَ إنّهُ عَليمٌ بِذَاتِ الصّدورِ)(٥)

قوله تعالى : [ألا إنهم يَثْنُونَ صُدُور هُم] استئناف لبيان جواب ما يقال : ماذا يعمل المشركون بَعْد إلقاء الرسول عليهم احْسَنَ الكتاب وفصل الخطاب ؟ وحاصله إنهم لفرط جهالتهم ووفرة ضلالتهم [يثنون

صدورهم] ويتحولون بوجوههم عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [ليستخفوا منه] أي يستتروا منه ويخفوا عنه ظناً منهم أنهم إذا استخفوا منه عليه السلام يستخفون عن الملك العلام [ألا] أيها الغافل عن شمول علم الله تعالى للكليات والجزئيات [حين يستغشون ثيابهم] وغشوا وجوههم بثيابهم [يعلم] الله تعالى [ما يسرون وما يعلنون] وما دام حين الاستغشاء والاستخفاف يعلم أحوالهم فهو يعلمها حين الاستجلاء ، لأن من يعدم فيه يعلم في غيره بالطريق الأولى [إنه عليم بذات الصدور] بالخفايا المستترة فيها ، فكيف بغيرها !

وقوله تعالى [إنه عليم بذات الصدور] نص قاطع في أنه تعالى لم يزل عالما بكل ما يمكن أن يعلم علما مناسباً لذلك المعلوم ، فهو يعلم الممتنعات بصورة أنها ممتنعة والممكنات المعدومة بصورة أنها ممكنات معدومة ، والممكنات الموجودة بصورة أنها ممكنات موجودة ، فالعلاقة التي بين الله وبين المعلومات ثابتة مستمرة أزلا وأبدا ، وهي تعلق تقتضيها حقيقة العلم ، وهو قديم لأن أشباح الموجودات وأمثالها معلومة بالذات فإن الله يعلم ذاته أزلاً ويعلم أنه علة فاعلية" لجميع الموجودات الممكنة ويكفي ذلك لعلمه بها مطلقا ، ولا يلزم منه قدم المعلومات ذاتا وشخصا لأن تلك المعلومات صور" يكفي في علمه بها علمه بذاته الجليلة ، وهناك تعلّق آخر للعلم بذات المعلومات التي تحدث في المستقبل ، وهذا التعلق أيضا موجود" عند حدوث كل موجود بقدرته تعالى عينا أو عرضاً أو أمراً اعتباريا كإمكان زيد وحدوثه ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والارض وما بينهما وما وراءهما وذلك على الله يسير .

الجزء الثاني عشر

(وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ(٦) وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ ، وكانَ عَرْشُهُ على الماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)(٧)

[وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها] والدّابة اسم لكل حيوان ذي روح ذَكَر أو أنثى ، عاقل أو غيره ، تدبّ على البطن أو القوائم مطلقا واختصاصها بالفرس أو بذات القوائم الأربع عُرْفٌ طارىء • وإنما خص الدابة الأرضية بالذكر لأنها محط أنظار الناس الذين يهمهم الرزق أو أن المراد بالأرض المستقر أرضا كانت أو لا • ومعنى على الله التزامه له لا وجوبه عليه ، لأنه لا يجب عليه ولا عنه شيء [ويعلم مُسْتَقَرّها ومُسْتَودَعَها] قالوا : المستقر موضع قرارها في الأصلاب ، والمستودع موضعها في الأرحام وما يجري مجراها من البيض ونحوه • فالمستقر والمستودع اسما مكانٍ • ويجوز أن يكون المراد بالمستقر محل القرار الغالب كدار الوطن ، وبالمستودع محل القرار الغير الثابت كمنازل المسافر والمستشفيات ونحوها •

[كلّ في كتاب مبين] أي كل ما ذكرنا من الدوابّ وأرزاقها ومستقرها ومستودعها مثبت في كتاب واضح وهو اللّوح المحفوظ [وهُوَ الّذي

خلق السماوات والارض] إظهاراً لقدرته [في ستة أيام] إعلانا لتدريجه حسب سننه لأنّ من كان قادراً على إخراج الصّور العلمية إلى الأعيان قادر على تصرفه وقوته وإمكان إيجاده لما يشاء وجوده باللحظات واللمحات ، ولكن كان حكمه بالتدريج فيما مضى وما هو آت لِحكم لا يعلمها إلا أصحاب المواهب والبينات ٠

وتلك الأيام أيامٌ عند الله وإن يوماً عند ربك كألفِ سنة مما تعدون ٠ فالمراد باليوم الوقت لا ما هو المتعارف عند الحكماء أي مقدار حركة الفلك الأعظم ، أو ما هو عند العامة كمقدار دورة يومية ، إذ لم يكن هناك فلكٌ ولاً حركة ومقدار ولا الدورة اليومية والليل والنهار ٠

[وكان عرشه على الماء] والمراد بكون عرشه على الماء اتصاله به وعدم وجود حائلٍ بينهما ، لا أنه كان موضوعا على سطح الماء ، لأن كل موجود أمهات الموجودات له جاذبية خاصة يحفظ نفسهُ بنفسه ، ولا يحتاج إلى الاعتماد على شيئ آخر ، ولا دَخل لشيء فيه سوى قدرة الباري سبحانه وتعالى ما دام لم يكن الموجودانِ مُمتزجَيْنِ كشيء واحِدٍ مثل الكرة الأرضية مع الماء ٠ والمقصود هنا أن العرش والماء من أسبق المخلوقات ، وإن كانا حادثين ، فإن الأدلة القطعية والبراهين العقلية حاكمة بأنه لا قديم ذاتا وزمانا إلا الله تعالى وحده لا شريك له ، ومن هنا يفسر العلماء الراسخون قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) بقولهم الرحمن على العرش استولى لبداهة بطلان استواء الباري على العرش بالمعنى المعروف ، فإنه تعالى ليس بجسم ولا جسماني ، وإلا لزمت الحاجة إلى غيره ، ومُساواة المتمكن للمكان وتجزي المتمكن بقدر أجزاء مكانه واستغناء الباري عن المحل قبلَ خلق العرش وحاجته إليه بعده ٠٠٠ وكل

ذلك مستحيل بقاطع الدليل ، وإنما خلق السماوات والأرض وما فيهما ومنه البشر [ليبلوكم أيكم أحسن عملا] فيجازيكم على حسبه .

(وَلَئِنْ قُلْتَ إنكم مَبْعُوثون مِن بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)

أي وَبَعدَ ان بيَّنا أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، وَأوجَد العالم العلوي والسفلي مع النظام البديع والشكل العجيب في مدة وجيزة ، وبعد أن ذكرنا أن عرشه كان على الماء ، وأن الغاية من خلقها وخلق البشر هو الابتلاء لكم في شؤونكم وأعمالكم ليجزيكم الجزاء الوافي ، ومع أن هذا الوضع دليلٌ جلي قاطع على أن الله قادر على كل شيء [و] الله [لئن قلت] لهم [إنكم مبعوثون من] قبوركم [بعد الموت] يوم المعاد والنشور [ليقولَنَّ الذينَ كَفروا] بالله وقدرته على التصرّف في الكائنات : [إن هذا] أي ما هذا القول الذي أنت تقوله [الا] شبيه بالسحر الواضح . ووجه الشبه بينهما التأثير في قلوب العقلاء العارفين بأمور الدنيا حيث ينقادون لك ، أو أنّ وجه الشبه بينهما هو البُطلانُ وعدمُ حصول أثر واقعي منه ، ومقصودهم من كلامهم ذلك نفي البعث وإنكار الحشر .

(وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إلى أُمَّةٍ معدودة لَيقولُنَّ : ما يَحْبِسُهُ ؟ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ(٨) ولَئِن أَذَقْنَا الإِنْسانَ مِنَّا رَحمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاها مِنْهُ إنَّه لَيَؤُوس كَفورٌ(٩) ولَئِن أَذَقْنَاهُ نَعْماءَ بَعْد ضَرَّاءَ مَسَّتْه لَيَقولَنَّ : ذَهَبَ

السَّيِّئَاتُ عَنِّي • إِنَّه لَفَرِحٌ فَخُورٌ(١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)(١١)

قوله : [ولئن أخرنا عنهم العذاب] أي العذابَ المترتب على بعثهم يوم القيامة ، أو العذاب المتوعد به لهم [إلى امة معدودة] أي إلى زمان قليل في المستقبل [ليقولن : ما يحسبه ؟] أي ليقولن من جهالتهم وضلالتهم أيّ شيء يمنع ذلك العذاب الموعود في الدنيا ، أو لماذا لا يأتي بيوم العذاب حتى نرى ذلك العذاب ؟ [ألا يومَ يأتيهم] ذلك العذاب الدنيوي أو الأخروي [ليس مصروفا عنهم] يعني إنه عذاب محتم جرى به القضاء ولا مجال لدفعه قبل الورود ، ولا لرفعه بعده [وَحاقَ بهم ما كانوا بِهِ يَسْتَهزؤن] أي وورد ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤن به • وعند ذلك يعلمون أن العذاب حق وارد على سنة الله في عباده •

ثم استانف الباري سبحانه وتعالى لبيان بعض أحوال أخرى للناس من ضجره وضيق صدره فقال : [ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه] لحكمة منا [انه] أي الإنسان حينئذ [ليؤوس كفور] أي قانطٌ قنوطاً زائدا وكثيراً لكفره ما سبق له من نعم رَبّه حتّى أنه إذا سئِل عنها أنكر ورودَها عليه [ولئنْ أَذَقناهُ نعماءَ بعدَ ضراءَ مستهُ] قبلُ [ليقولن] مِنْ قوة البطر عنده [ذهبَ السيئاتُ عنى] أي ذهبت المصائب التي كانت تردُ عليّ لبعض الاسباب ولا تعود إليّ بعد أبدا [إنه لفرِحٌ فخور] أي إنه كثيرُ البطرِ ومُفرحٌ ومغتر بالنعم ، وينظر إليها من زاوية الاستحقاق الذاتي بدون حجة ودليل ، وفخورٌ متكبر متعاظم على الناس بدون أي سبب لتكبره وتعاظمه يجعله موصوفاً بتلك الصفة [إلا الذين صبروا] على ما أصابهم من الضرّاء إيمانا بأنها وردت عليهم من الله كفارَةٌ للسيئات أو ترفيعا للدرجات [وعملوا الصالحات] وفاءً

بالأمر بها من الله [أولئك لهم مغفرة] عظيمة لذنوبهم [وأجر] جميل وثواب جليل لأعمالهم الحسنة [كبير] عند الله ، لأنه فائض من إرادة الرحمة السرمدية به ، وعند أهل الإدراك لأن توفيق الله سبحانه وجههم إلى أسبابها •

(فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يقولُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ! إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ، واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكيلٌ(١٢) أَمْ يَقُولُونَ : افْتَراهُ ! قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَأَنْ لا إِله إِلاّ هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟(١٤) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيهَا ، وهُمْ فيهَا لا يُبْخَسُونَ(١٥) أُولئكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاّ النَّارُ وحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيهَا ، وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)(١٦)

قوله تعالى : [فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك] فيه ترجٍّ لترك بعض مما يُوحى إليه فرضاً استهزاءً بمن ترجى ذلك ، ومثل ذلك واقع في المحاورات كثيرا • ومعنى ظاهره لعلك يا رسولي تارك بعض ما يوحى إليك من ربك من التوحيد والاعتماد على الله تعالى وحده [وضائق به صدرك] حيث تتتابع آيات التوحيد القاصمة لظهور المشركين ، ولا ينزل شيىء مما يناسب طبائعهم المطبوعة على الكفر والإشراك ، وأنت مأمور

بتبليغها إليهم مخافةَ [أن يقولوا] أي المشركون : [لولا أنزل عليه كنز !] أي مال نافع كثير يصرفه في الناس لينتصر أتباعُه وتزداد الرغبة في اتباعه ، وعند ذلك يتحقق صدقه [أو جاء معه ملك !] أي لولا جاء معه ملك ليعلنَ أنه رسول الله إعلانا بالرهبة الملكوتية حتى تزداد رغبة النفوس في رسالته وجلالته وقبول آياته ودعوته والتزام شريعته . فيا أيها الرسول المختار لحمل أعباء الرسالة لا تضق صدرا برغبة أهل الضلالة او الجهالة ، وبلغ ما أنزل إليك بكل عزة وجلالة ، ولا تهتم بأحوال المشركين [إنما أنت نذير] بما أوحي اليك ، وليس عليك إلا الإنذار [والله على كل شيء وكيل] حافظ مراقب ، فتوكل عليه وارجع في كل مضيق إليه .

[أم يقولون : افتريه] بل أيقولون إن هذا الكلام الذي يبلغه افتراه على الله وليس بكلامه ، وإذا كان ذلك [قل] لهم إن كان الأمر كما تزعمون [فأتوا] أنتم وتدعون أنكم من العرب العرباء [بعشر سور مثله] في بيان ملكوت السماوات والارض والاحتواء على المغيبات ، وإرشاد الناس الى الحقائق وتزهدهم عن زخارف الدنيا مشتملة على أسرار البلاغة [مفتريات] كما أن ما عندنا مفتريات بزعمكم [وادعوا] للتعاون معكم في ذلك الأمر [من استطعتم] دعوته [من دون الله] من آلهتكم المزعومة والكهنة المدعومة والأدباء ، وأهل القصص وغيرهم [إن كنتم صادقين] في دعوى الافتراء . [فإن لم يستجيبوا لكم] أي أولئك المدّعون لافتراء ما عندك في دعوة الناس القادرين على سبك الكلام وما دعوهم للإتيان بالعشر من السور . أو المعنى : فإن دعوتموهم أيها المدعون للافتراء أي دعوتم من استطعتم دعوته للتعاون في الإتيان بها ولم يستجيبوا لكم ، فخبتم في دعواكم وخابوا

في الاستجابة لكم [فاعلموا أنما أنزل] الكلام الموحى به إليك [بعلم الله] الذي لا عجز فيه لشمول المعلومات ، وقدرته التي لا تعجز عن السيطرة على الممكنات [وأن لا إله إلا هو] أي وإن التوحيد الذي أمرتَ بتقريره في قلوب العاقلين حق لا ريب فيه [فهل أنتم] بعد ذلك التهالك في معارضة القرآن والعجز عن الإتيان بمثل بعض منه في البيان [مسلمون ؟] ومنقادون لله وداخلون في الإسلام ومُصَدّقون بما جاء به النبي الأمي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الدين وقواعد الحق واليقين .

[من كان يريد] أي بأعماله الصالحة ظاهرا [الحياة الدنيا وزينتها] أي ما يزينها من النساء والبنين وغيرهما ، ولا يريد غير ذلك من ثوابها في الآخرة [نوف إليهم أعمالهم فيها] أي نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا إذا شئنا [وهم فيها لا يبخسون] أي وهم في الحياة الدنيا لا ينقصون من الأجور . وهذا كما مر آنِفاً مربوط بالمشيئة بقرينة آيات أخرى في الموضوع . كقوله تعالى في سورة الإسراء : [مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد] وإلاّ فكثير من الكفار لا حَظّ لهم في حياتهم إلاّ الفقرُ والمسكنة والمرض وغيرها من الأتعاب [أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار] لأن الجزاء منوط بالعمل والنية ، وما داموا متوجهين إلى الزخارف ومنحرفين عن الطاعة وكفروا بربهم لا يبقى لهم إلا النار في تلك الدار [وحَبِطَ ما صنعوا فيها] أي وسقط عن الاعتبار في الآخرة ما صنعوا في الدنيا لأخذ لذائذها [وباطل] في الآخرة لا طائل تحته [ما كانوا يعملون] في دنياهم لأنه وإن كان ظاهره الخير لكن لما لم يكن بنية رضاء الله تعالى بل مع إنكار وجوده او وحدته فكأنه لم يعمل شيئا .

(أفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلوهُ شاهِدٌ مِنْهُ ، ومِنْ قَبْلِهِ كِتابُ موسى إماماً ورَحْمةً ؟ اولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ،

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)(١٧)

قوله تعالى : [أفمن كان على بيّنة من ربه] قال الشهاب فيه وجهان :

أحدهما أنه مبتدأ والخبر محذوف ، تقديره أَفَمن كان على هذه الاشياء كغيره ؟ كذا قرره ابو البقاء ، وأَحْسَنُ منه أفَمن كان كذا كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ وحذف معادل الهمزة ومثلـه كثير . والهمزة للتقرير أي لحمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه في الموضوع ويجده موافقا للحق عنده سلبا أو ايجابا ، كأن يقول في مثالنا هذا [لا يستويان] مثلا .

والوجه الثاني : وهو الذي نحاه الزمخشري أنه معطوف على مقدر تقديره : أَمَنْ كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة سواء" أو يعقبونهم في المنزلة أو يقاربونهم ؟ لما بينهما من التفاوت البعيد . وهو أحدُ المذهبين في مثله ، والاستفهام على هذا إنكاري . إنتهى .

قلت : لأن الاستفهام وارد على المعطوف ، وهو جملة أفمن كان على بينة من ربه يعقبونهم في المنزلة ويقاربونهم، فيكون الاستفهام إنكاريا إبطاليا، لأن ما بعده غير واقع ومُدَّعي قُرْب مَن كان على البينة المذكورة عمن يُريدُ زينة الحياة الدنيا فقط كاذب ، لا إنكارياً توبيخياً ، وهو ما كان ما بعده واقعا ويُلامُ فاعلـه عليه نحو (أتعبدونَ ما تنحتون ؟) والموصول على هذا الوجه ايضا مبتدأ خبره محذوف وهو قوله سواء ، أو يعقبونهم أو يقربون منهم في المنزلة كما ذكر سابقا .

والبينة : الدلالة الواضحة عقلية أو محسوسة . وتطلق على الدليل . وهاؤها للمبالغة أو النقل ، وهي وإن قيل إنها من بان بمعنى ظهر واتضح

لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له . وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة ، والتنوين فيها للتعظيم أي بينة عظيمة الشأن ، والمراد بها ما في قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نور الرسالة الكاشف الشارح لصدره الشريف الهادي له إلى التوجه إلى الله تعالى بكمال قوته والإخلاص له والاعتماد والتوكل عليه . وباعتبار هذا النور الذي يكون برهانا للرسول على ما يدعى له ذكر الضمير في قوله تعالى [ويتلوه شاهد] والمراد بالشاهد هو القرآن المعجز للجن والإنس النازل من حضرة القدس ؛ لأن الشاهد إنما يؤتى به على الشيىء الخفي ، والرسالة ونورها أمر معنوي خفي والقرآن بإعجازه وبيانه شاهد على صدقه في دعواه ، ويؤيده قوله تعالى [ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة] والمراد بقوله [أولئك] هو من كان على بينة من ربه كسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واتباعه وهم المؤمنون بنور الرسالة أو بالقرآن الكريم ، والمراد بالأحزاب أهل مكة من المشركين ومن تحزّب معهم على رسول الله .

وحاصل الآية الشريفة ومعناها [أفمن كان على بينة] ونور رسالة [من] فضل [ربه ، ويتلوه] ويتبعه ويؤيده ويثبته [شاهد] نازل من ربه وهو القرآن المعجز [و] كذلك يتبعه ويثبته [من قبله] أي من قبل هذا الشاهد [كتاب موسى] وهو التوراة حالكون ذلك الكتاب [إماما] للناس الموجودين إذ ذاك [ورحمة] لهم ، وحالكون ذلك النور أن [أولئك] الناس الذين ذكرناهم وهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه [يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب] أي مشركي أهل مكة وأعوانهم [فالنار موعده] المقرر لأخذ عقابه [فلا تك في مرية منه] أي من الموعد أو النور أو القرآن الكريم . ومعادل الهمزة هو كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها محذوف . وحذف ذلك كثير . [إنه الحق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون] لقلة نظرهم أو

لتعاميهم عنه • ويجوز أن يكون المراد بالبينة القرآن ، وبقوله يتلوه يقرأه ، والتذكير باعتباره ، وبالشاهد جبريل ـ عليه السلام ـ والمعنى ظاهر •

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ؟ أولئك يُعْرَضُونَ على ربِّهِمْ ، وَيَقُولُ الأَشْهادُ : هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ ، أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (١٩) أولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ في الأَرْضِ ، وَما كانَ لهم من دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلياءَ ، يُضاعَفُ لَهُمُ العَذَابُ ، ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ، وَما كانوا يُبْصِرونَ (٢٠) أولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمى والأَصَمِّ وَالبَصِيرِ والسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ؟! أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟)(٢٤)

قوله تعالى : [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا] بأن نسب إليه تعالى ما لا يليق به ، كقولهم : الملائكة بنات الله ، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله [أولئك] الناس المفترون على الله [يُعْرَضُون] يوم القيامة [على ربهم] الحاكم العدل عند محاكمتهم على سيئاتهم • ومنها افتراؤهم على الله [يقول الأشهاد] عليهم وهم الحفظة من الملائكة أو الملائكة والأنبياء وسائر المؤمنين : [هؤلاء الذين كذبوا على ربهم] وافتروا عليه [ألا لَعنَةُ الله على الظالمين] أنفسهم

بالافتراءات وبالتكذيب للآيات البينات ، وعلى أنفس الناس الآخرين بمنعهم لهم من الإيمان بالله وبرسوله وبالقرآن [الذين] أي الظالمين الذين [يَصُدُّونَ] الناس [عن] سلوك [سبيل الله] وهو دينه القويم دين الإسلام [ويبغونها عوجا] أي يطلبون لها انحرافا ويصفونها بذلك [وهم بالآخرة هم كافرون • أولئك لم يكونوا معجزين] لله تعالى عن أن يأخذهم وينتقم منهم [في الأرض ، وما كان لهم من دون الله أولياء] يناصرونهم ويعاونونهم في مهماتهم أو يدفعون عنهم العذاب النازل عليهم [يضاعفُ لهم العذابُ] أي في يوم القيامة لأنهم [ما كانوا] في الدنيا [يستطيعون السمع] للحق الذي جاء به الرسول [وما كانوا يبصرون] آيات الله تعالى •

[أولئك] الناس الموصوفون بتلك القبائح [الذين خسروا أنفسهم] باشتراء الاشراك بالتوحيد والعصيان بالطاعة والشقاوة بالسعادة [وضل عنهم] وضاع [ما كانوا يفترون] من أن آلهتهم يشفعون لهم [لا جَرَمَ أنهم في الآخرة هم الأخسرون] في كلمة جَرَمَ أقوال كثيرة منها : أنه بمعنى المنع فالمعنى لا منع ولا مانع من أنهم في الآخرة هم الأكثرون خسرانا • وتستعمل في معنى القطع والجزم بما بعدها [إنّ الذين آمنوا] أي صَدَّقوا بكل ما جاء به الرسول من عند الله [وعملوا الصالحات] أفعالاً وتروكا [وأخبَتوا إلى ربهم] واطمأنّوا إليه [أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون] دائمون مستمرون •

[مَثَلُ الفريقين] من الكفار والمؤمنين [كالأعمى والأصم والبصير والسميع] فالكافر كالأعمى لتعاميه عن إبصار آيات الله الواضحة ، وكالأصم لِتَصامه عن استماع كلام الله تعالى وتمانعِه عن التدبر فيه • والمؤمن كالبصير الذي يبصر ما أمامَهُ مِن المنافع فيستفيد منها ، ومن المضارّ فيبتعد عنها ، وكالسميع الذي يَسْمَعُ نداءَ المنادي ودعوة الداعي فينتبه لما فيه

خيره ، فكل منهما مشبه باثنين باعتبار وصفين ، أو مشبه بشخصٍ واحد جامع بين وصفين ، فالمؤمن مشبه بمن جمع بين السمع والبصر ، والكافر مشبه بمن جمع بين العمى والصمم [هل يستويان] أي الفريقان المذكوران [مثلا ؟] أي حالا وصفة . والجواب : كلاّ . فالاستفهام إنكاري إبطالي ومُدعى المساواة كاذب [أفلا تذكرون ؟] لتفهموا أن الفريقين متباينان .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ : إنّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٥) أنْ لا تَعْبُدُوا إلاّ اللهَ إنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ(٢٦) فَقالَ المَلأُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : ما نَرِيكَ إلا بَشَراً مِثْلَنا ، وَما نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هُمْ أراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ ، وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ(٢٧) قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتيني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيكُمْ ، أنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ ؟(٢٨) وَيا قَوْمِ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ مالاً ، إنْ أجْرِي إلاّ عَلى اللهِ ، وَما أنا بطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إنَّهُمْ مُلاقوا رَبِّهِمْ ، وَلكِنِّي أَريكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(٢٩) ويا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ ، إنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(٣٠) ولا أَقُولُ لَكُمْ : عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ ، وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ ، وَلا أَقُولُ : إنّي مَلَكٌ ، وَلا أقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ، اللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ ، إنّي إذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ)(٣١)

قوله تعالى [ولقد أرْسَلنا نوحا] الواو ابتدائية ، واللام واقعة في جواب قسم محذوف ، ويقدر حرفه بالباء أي [و] بالله [لقد أرسلنا] لا بالواو لئلا يجتمع واوان .

وقد أنزل الله تعالى في هذه السورة سبع قصص : الأولى قصة نوح مع قومه . الثانية قصة هود مع قومه . الثالثة قصة صالح مع قومه . الرابعة قصة إبراهيم مع الملائكة . الخامسة قصة لوط مع قومه . السادسة قصة شعيب مع قومه . السابعة قصة موسى مع فرعون . وذكر هذه القصص على حسب الترتيب الزماني . ونوح عليه السلام في المشهور أنّه ابن لمك بن متوشلخ بن إدريس ـ عليه السلام ـ ، وأنه أول نبي بعث بعده . وفي مولده ومدفنه أقوال قيل : مولده في دمشق ، وقيل كرك في أصل جبل لبنان ، وقيل الكوفة . وكان التنور الذي فار منه الماء أول الطوفان تنور داره . وأمّا مدفنه فقيل في الكوفة وقيل في الموصل ، واسمه عبدالغفار ، ولقب بنوح لكثرة بكائه . قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : بعث ـ عليه السلام ـ على رأس أربعين سنة من عمره ، ولبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، وكان عمره ألفا وخمسين سنة .

[إني لكم نذير مبين] أي نذير موضح" لكم ما يوجب عذابكم من الإشراك والطغيان والعدوان على الحقوق وما يوجب نجاتكم منه من التوحيد والاستسلام لأوامر الله تعالى . وإنما خص صفة الإنذار بالذكر مع أنه كان مبشرا أيضا لمن أطاعه لكثرة تمردهم ، فإن قومه كانوا مثلا في الغباوة والقساوة والعناد ، بحيث كانوا يسخرون من نوح ومن كل نصيحة ينصحهم بها [أن لا تعبدوا إلا الله] أي بأن لا تعبدوا إلا الله . على أنّ أنْ متعلقة بأرْسَلْنا أي أرْسلناه متلبساً بنهيهم عن الإشراك [إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم] علة للنهي ، وذلك إنذار خاص من جملة إنذاراته لهم ، والمراد

باليوم الأليم يوم الطوفان ، أو يوم القيامة ، أو كلاهما ، أو سائر أيام عذابهم إن أريد باليوم الجنس ، وتوصيفه بالأليم مجاز لأن الأليم هو العذاب الواقع فيه [فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نريك إلا بشرا مثلنا] وليس فيك مزية تخصك من بيننا كالرسالة من الله التي تدعيها [وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا] وأن تتميز بمن تبعك من العامة فليس ذلك بمميز معتبر حيث ما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا المحقرون المسخرون في الأعمال البسيطة ، وليس عندهم شوكة وشأن ، وكونهم من الأراذل ظاهر في أول التفكر بدون تعمق ، وكان معتمدهم في ذلك القول أنه لم تكن عند اتباعه ثروة هائلة ولا قوة طائلة ولم يكونوا من أصحاب السلطة المعتادة عندهم ، وذلك هو المثار لاستكبار الناس بعضهم على بعض ، غافلين عن أن العزة لله ، وأن الغلبة بأمره المتين [وما نرى لكم] خطاب له ــ عليه السلام ــ ولأتباعه أي وما نرى لك ولأتباعك الذين تعتمد عليهم [علينا من فضل] أي زيادة تؤهلكم لاتباعنا لكم ونحن أولو قوة ومنعة وجاه ومال [بل نظنكم كاذبين] في دعوى العلاقة الشريفة المميزة لكم كالرسالة لك وتصديقها من أتباعك .

[قال : يا قوم أرأيتم] أي أخبروني [إن كنت على بينة من ربي] أي شريعة وتعاليم واضحة في ذاتها وموضحة طريق السعادة للغير [وآتاني رحمة من عنده] ومنشأ تلك الشريعة والتعاليم أنه آتاني الله رحمة من عنده موهوبة لي لا مكسوبة ، وهي الرسالة السماوية المقدسة وأرسلني إليكم بها ، أي وأنتم بهذه الحالة السيئة من العناد والعدوان [فعميت عليكم] وأخفيت ووقعت في غطاء ظلمات جهلكم وغباوتكم الشديدة أخبروني ماذا أقول لكم وكيف أتمكن من إفادتكم من هذه البينة والرحمة الربانية ؟ [أنلزمكموها] أي انجبركم على التزامها والإيمان بها والاستفادة منها [وأنتم لها كارهون ؟] والحال أنكم تكرهونها ولا تختارونها وتعاندتم بالاستكبار عن قبول الحق والاستماع لي في بيانه .

ولما كان قومه يتوهمون أن قصد سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ هو استفادة ثروة مادية منهم حتى يصعد إلى مستواهم ، وظهر له من عنادهم واستكبارهم أنهم لا يستمعون لكلامه ما دام أتباعه من الأراذل الذين يستنكف عن محاورتهم ومجاورتهم رفض كلا الأمرين فقال عطفا على ما قاله لهم [ويا قوم لا أسئلكم عليه مالاً] أي لا أسئلكم على تبليغ تعاليم الله إليكم مالا تؤدونه إلي بعد استسلامكم وإيمانكم بأن يكون أجرا لي على ما أقوم به [إن أجري إلا على الله] فهو يثيبني من فضله بما يشاء فلا تتوهموا أن لي أملا في أموالكم [وما أنا بطارد الذين آمنوا] بربهم وأخلصوا له دينهم [إنهُمْ مُلاقو رَبّهم] علة لقوله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، أي لأنهم مقربون عند الله تعالى لحسن تلقيهم لأوامره ونواهيه [ولكني أريكم قوما تجهلون] كل ما ينبغي أن يعلم في الإلهيات جهلتم ربكم ، وجهلتم وجوب وجوده ووحدته وكماله ، وجهلتم قوته وجلاله ، وجهلتم أن نسبة المؤمن إلى ربه نسبة المحب الى المحبوب وبالعكس ، وجهلتم أن شرف الإنسان بالإحسان لا بالأموال والجاه عند أهل الزمان ، وجهلتم ما سيرد عليكم من عذابه في الدنيا والآخرة • ثم رجع إلى بيان عزة المؤمنين التابعين له وشرفهم عند الله وأنه ناصرهم فقال : [ويا قوم من ينصرني من الله ؟] أي من يصونني ويحفظني من عذابه ويدفع عني حلول سخطه [إن طردتهم] أي أبعدتهم [عني] وهم المقربون عند الله [أفلا تذكرون ؟] أي أفلا تتفكرون في الحقائق الثابتة حتى لا تغتروا بما عندكم من العزة المادية •

ثم لما قال قومه في مقام الاستكبار عن قبول تبليغاته ودعوته [ما نريك إلا بشرا مثلنا] وأرادوا أنه ليس لك اختصاص بمميزات تميزك عنا فليس عندك أموال طائلة دنيوية ، ولا علم بالمغيبات والمعنويات حتى تسيطر به علينا ، ولا أنت ملك ومن غير نوعنا حتى تكون لك قوة وغلبة علينا ، وإنما

وسيلة الجرأة علينا بتفنيد ما عندنا من الشعائر أتباعك وهم أراذل" لا فضل لهم وليس لهم شأن في الدنيا أو في الآخرة يسلم لهم كل" ما أرادوا من قولهم إلا بعضا منها مع ما يستلزمه فقال : [ولا أقول لكم عندي خزائن الله] من الماديات أو المعنويات [ولا أعلم الغيب] إذ لا يعلم الغيب إلا الله ، وإذا علم شخص" شيئا منه فإنما هو بإعلامه تعالى له لا من ذاته [ولا أقول إني ملك] فإن الملك نوع خاص" ممتاز بفصل خاص" يمتاز به عن الإنس والجن وغيرهما [و] لكني [لا] أسلم كلامكم الأخير في حق من تبعني من المؤمنين فلا [أقول للذين تزدري أعينكم] أي تستحقرهم أعينكم وتنظر إليهم بعين الرذالة والدناءة لفقدهم بعض الميزات المادية التي تعتمدون عليها : [لن يؤتيهم الله خيرا] في هذه الدنيا أو في الآخرة [الله أعلم بما في أنفسهم] من النيات [إني إذا لمن الظالمين] المعتدين على حقوقهم إذا قلت ذلك ، فإن لله سنته المقررة إن من أطاعه وأطاع رسوله فله في الآخرة جنات ودرجات ورضوان وإحسان ، وأما في الدنيا فيختص برحمته من يشاء .

(قالوا : يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنَا ، فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣٢) قالَ : إنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ ، إِنْ شَاءَ ، وما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٣٣) ولا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي ، إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٣٤)

[قالوا] أي الملأ الذين كفروا من قومه : [يا نوح قد جادَلْتَنا] في إثباتِ مطلوبك [فأكثرت جدالنا] أي أتيت بنوع واحد وأطلْتَ الكلامَ أو بأنواع كثيرة فلا نستمع لجدالِك بعدُ [فَأْتِنا بما تَعدنا] من العذاب [إنْ كنتَ من الصادقين] في استحقاقنا له ، أو في نزوله علينا [قال : إنما

يأتيكم به الله إن شاء] فليس الإتيان به من شأني [وما أنتم بمعجزين] له تعالى ومانعين له من إنزاله أو الفرار منه لخلاص أنفسكم [ولا ينفعكم نصحي] أي إخلاصي لكم في الإرشاد ، فإن النصح تحري قول أو فعل فيه صلاح للمنصوح له ، وهو كلمة جامعة ، وقيل : هو إعلام مواقع الغي ليتقي ، ومواضع الرشد ليقتفى ، وهو من قولهم نصحت له الود أي خلصته [إن أردت ان أنصح لكم] شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه وليس ذلك جوابا لامتناع تقدم الجواب على الشرط على الأصح • أي إن أردتم أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي • والجملة كلها دليل جواب قوله سبحانه وتعالى [إن كان الله يريد أن يغويكم] والتقدير : إن كان الله يريد ان يغويكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي • والآية من باب ورود الشرط على الشرط • وادعى ابن مالك رحمه الله أن الشرط الثاني مقيد للاول بمنزلة الحال ، فكأنه قال تعالى حكاية عن نوح ــ عليه السلام ــ : إن أردت أن أنصح لكم في حال إرادة الله تعالى إغواءكم فلا ينفعكم نصحي [هو ربكم] أي خالقكم ومالك أمركم [وإليه ترجعون] فيجازيكم بما تستحقون •

(أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ! قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ(٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ : أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ(٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(٣٨)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)(٣٩)

قوله تعالى : [أم يقولون افتريه] أي بَلْ أيقول قوم نوح إن نوحا إفترى ما جاء به وأسنده إلى الله عز وجل [قل] يا نوح : [إن افتريته] فرضاً [فعليّ إجرامي] أي وبالُ إجرامي واكتساب ذنبي لا يتعدى إليكم [وأنا بريء مما تجرمون] • ولكن الواقع أنكم مجرمون بنسبة الافتراء إلي ، وأنا مُحق في ما بلغته إليكم [وأُوحِي إلى نُوحٍ : أنهُ لنْ يُؤْمِنَ منْ قومكَ إلاّ مَنْ آمَنَ] وهذا إقناط له ــ عليه السلام ــ من إيمانهم ، وإعلام بأنه لم يبق فيهم من يتوقع إيمانه [فلا تبتئس بما كانوا يفعلون] أي فلا تحزن ولا تلتزم البؤس بما يباشرونه من تكذيبك فيما تبلغه إليهم [واصْنَع الفلك بأعْيُنِنا وَوحْينا] الأمر للوجوب بناء على أن صيانة الروح واجبة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وأن السفينة وسيلة النجاة من الغرق ، واللام في الفلك للعهد ، وإشارة إلى ما أوحي اليه ــ عليه السلام ــ أنه سيهلك قومه المعتدين بالطوفان ، وينجي أتباعه المؤمنين بالفلك • وقوله : بأعيننا أي برقابة عيوننا وحراستها عن الكفار القاصدين لكسرها • وقوله : ووحينا أي بوحينا إليك كيف تصنعها بحيث تصلح للاستعمال والبقاء [ولا تخاطبني في الذين ظلموا] أي ولا تشفع إلي في إنجاء الذين ظلموا منهم كلهم أو بعضهم [إنهم مغرقون] أي محكوم عليهم منا بالإغراق •

[ويصنع الفلك] حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها • وروي أن طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ، وارتفاعها ثلاثون • وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وصنع لها بابا في وسطها ، وأتم صنعها على ما روي عن مجاهد في ثلاث سنين ، وعلى كل فوسعتها لما حمل فيها كانت بلطف من الله تعالى •

[وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه] أي استهزأوا به في عمله ، إما لعدم سماعهم لكلامه وعدم معرفتهم لها ، أو لأنهم ينكرون رسالته من الله تعالى ، وأن عمله ذلك على علم منه وتعليم [قال] نوح ــ عليه السلام ــ : [إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم] أي إن تسخروا منا باشتغالنا في صنع السفينة الوسيلة للنجاة فإنا نسخر منكم في غروركم وعدم مبالاتكم بأمر داع من الله لكم إلى الحق ثم إصراركم على حالكم [كما تسخرون] والتشبيه صوري ، وإلا فسخريتهم كانت عن جهل وغرور ، وسخريته ــ عليه السلام ــ عن علم وشعور [فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه] أي يذله ويفضحه في الدنيا [ويحل عليه عذاب مقيم] أي دائم في الآخرة .

(حَتَّى إذا جاءَ أَمْرُنَا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنا : احْمِلْ فِيها مِنْ كلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَأَهْلَكَ إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَما آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قليل(٤٠) وَقالَ : ارْكَبُوا فِيها بِسم اللهِ مَجْرِيها ومُرْسيها ، إنَّ ربِّي لَغَفُورٌ رَحيمٌ(٤١) وَهِيَ تَجْري بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالْجِبالِ ، ونادى نُوحٌ ابْنَهُ ــ وكانَ فِي مَعْزِلٍ ــ : يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا ، ولا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ(٤٢) قال : سَآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ . قالَ : لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إلاَّ مَنْ رَحِمَ ، وَحالَ بَيْنَهُما الْمَوْجُ ، فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ(٤٣) وَقِيلَ : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ ، وَيا سَماءُ أَقْلِعِي ، وغيضَ الْماءُ ، وَقُضِيَ الأمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٤) وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ ، فَقال : رَبِّ إنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإنَّ وَعْدَكَ

الْحَقّ ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (٤٥) قالَ : يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إنه عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ ، فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٤٦) قالَ : رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الخاسرين (٤٧) قِيلَ : يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٤٨)

[حتى إذا جاء أمرنا] غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما حال من الضمير فيه أو ابتدائية وهي التي يبتدأ بعدها الكلام [وفار التنور] ونبع الماء منه وارتفع بقوة ، وكان التنور تنور الخبز وفي داره عند الجمهور • وكانت داره إذ ذاك بالكوفة • ووزنه تفعول من النور ، وأصله تنور ، فقلبت الواو الأولى همزة لانضمامها ، ثم حذفت تخفيفا ، وشددت النون عوضا عما حذف • وقيل : منقول من تنور ماضي باب التفعل من النور ثم غيرت بنقل التضعيف والتشديد من الواو إلى النون • وقيل : أعجمي ولا اشتقاق له • والمشهور أنه مما اتفق فيه لغة العرب والعجم كالصابون والسمور [قلنا : احمل فيها] أي في الفلك وتأنيث الضمير باعتبار معنى السفينة [من كل] بالتنوين أي من كل نوع من الحيوانات التي تريد بقاءها [زوجين] وهو تثنية زوج بمعنى الفرد الواحد المزدوج بآخر من نوعه ، فالمراد به فردان من نوع ، ولذا عقبه بقوله [اثنين] وحاصل المعنى احمل ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوانات [وأهلك] معطوف على زوجين ، أي احمل أهلك • والمراد بأهله امرأته المسلمة وبنوه منها •

[إلا من سبق عليه القول] بأنه من المغرقين لكفرهم وظلمهم ، ومنهم زوجته الأخرى وتسمى واعلة بالعين المهملة وابنه منها . وهو كنعان [ومن آمَن] معطوف على الأهل أي المؤمنين والمؤمنات من غير أهلك [وما آمن معه إلا قليل] والرواية الصحيحة أن عدد غير أهله وعائلته اثنان وسبعون نفرا .

[وقال] أي نوح ـ عليه السلام ـ : [اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها] مصدران ميميان أو اسما زمان أي اركبوا فيها قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسائها أي حركتها واستقرارها [إن ربي لغفور] لمن أراد أن يغفر له و [رحيم] لمن أراد أن يرحمه [وهي تجري بهم في موج] أي والسفينة تجري بهم في موج من الماء ، والموج ما ارتفع منه عند اضطرابه ، واحده موجة [كالجبال] صفة للموج أي في موج مرتفع متفاوت في الارتفاع كالجبال . وقوله تعالى [ونادى نوحٌ ابنَه] استئناف لبيان حال سيدنا نوح مع ابنه الداخل في من سبق عليه القول ، فيقول : ونادى نوح أي قبل ركوب السفينة وانقطاع علاقتها بالبر ابنه كنعان [وكان في معزل] أي مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته ، ومن آمن من قومه ، والمراد بعده عنهم [يا بُنَيَّ اركب معنا] وبني بضم الباء وفتح النون والياء المشددة وحذف يائه مصغر ابن مضاف إلى الياء ، وكل من التصغير والإضافة لإفادة الرحمةواللطف به باقتضاء الغريزةالأبوية وظنابأن فيه إيمانا بقرينة قوله [ولا تكن مع الكافرين] أي أنت مؤمن وهم كفار ، فلا تكن معهم [قال] معلنا لانقطاعه عنه وعدم مبالاته بندائه وبالطوفان [سآوي إلى جبل] مرتفع [يعصمني] ويحفظني [من] الغرق بـ [الماء . قال] نوح موضحا له حقيقة الأمر : [لا عاصم اليوم من أمر الله] أي لا حافظ اليوم من نفاذ حكم الله بالطوفان وغرق الناس به [إلا من رحم] أي رحمه

الله بنجاته من هذا البلاء . [و] بينما يتحاوران إذ [حال بينهما الموج] أي حال بين نوح ـ عليه السلام ـ وابنه الموج من الماء [فكان] ابنه [من المغرقين] والحكم لله رب العالمين .

[وقيل] من جانب القدّوس ربّ العالمين : [يا ارض ابلعي ماءَكِ] والبلع يستعمل للمأكول والمشروب . قال الليث : يقال : بلع الماء إذا شربه ، والمراد هنا انشفي وتَيَبسي [ويا سماء أقْلعي] أي أمسكي عن إرسال المطر . يقال : أقلعت السماء إذا انقطع مطرها [و] التزم كل منهما الأمر المقدس فـ [غيض] الماء ونقص ونضب . قال الجوهري : غاض الماء إذا قل ونضب ، وغيض الماء فُعِل به ذلك . والمآل النقص والنضوب [وقُضِي الأمرُ] أي نفذ ما وعد الله به عبده نوحا ـ عليه السلام ـ من إهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين [واستوت على الجوديّ] أي استقرت السفينة ورست على الجبل المشهور بالجودي ، وهو جبل بالموصل . وقيل: بالشام. والمشهور الأول. وكان استواؤها عليه يوم عاشوراء عاشر محرم الحرام . أخرج أحمد وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : مر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا الصوم ؟ فقيل : هذا اليوم أنجى الله تعالى فيه موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصامه نوح وموسى ـ عليهما السلام ـ شكرا لله تعالى . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا أحق بموسى ـ عليه السلام ـ وأحق بصوم هذا اليوم » فصامه ، وأمر أصحابه بالصوم . وأخرج الأصبهاني في الترغيب عنه ـ رضي الله عنه ـ

أنه اليوم الذي ولد فيه عيسى ـ عليه السلام ـ أيضا ، وأن صيامه يعدل سنة .

وكان ركوبه ـ عليه السلام ـ السفينة فيما روي عن قتادة ، في عشر خلون من رجب [وقيل : بُعْداً للقوم الظالمين] أي هلاكا لهم ، واللام صلة المصدر ثم [ونادى نوح ربه] عند امتناع ابنه من الركوب معه وقبل علمه بغرقه ، [فقال : رب إن ابني من أهلي وإن وعدك] بنجاة أهلي [حق] كسائر وعودك ، [وأنت أحكم الحاكمين] في الحكم بنجاته أو بهلاكه . [قال : يا نوح إنه ليس من أهلك] لأن مدار الأهلية هو القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر [إنه عمل غير صالح] أي ذو عمل غير صالح ناشىء من كفره بربه فلا يناسب الشفاعة وقبولها [فلا تسئلن ما ليس لك به علم] أي فلا تسألني مطلبا لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة [إني أعظك] أي أرشدك وأمنعك [أن تكون من الجاهلين] بما يجوز وما لا يجوز وعفو الكافر المصر غير جائز . [قال نوح] ـ عليه السلام ـ : [رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم] وأكرره وأعود عليه [وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين] أي وإن لا تغفر لي ما فرط مني من السؤال لنجاة ابني وترحمني بالتوبة والتفضل عليّ أكن من الخاسرين أعمالا . وتأخير ذكر هذا عن مناسبه ، وهو قوله تعالى (فكان من المُغرقين) لأنه أمر مستقل بالعناية والرعاية حيث إنّ فيه موعظةً عامةً هي أنّ قرابة النسب لا علاقة لها بقرابة العقيدة والحسب ، وأن المعتمد في أصول الدين هذا .

وسياق ما يأتي دليل على أن الله تعالى أكرمه وأنعم عليه بزيادة لطف وإحسان . ولذلك خوطب من جانب الحق [وقيل : يا نوحُ اهبط بسلام مِنا وبركاتٍ عليك ، وعلى أمَم ممن معك] روي أن السفينة استوت على

الجودي في عاشر ذي الحجة فأقام بمن معه هناك شهرا ، ثم قيل له : اهبط فهبط بأرض الموصل ، وبنى قرب الجبل قرية يقال لها (قرية الثمانين) أي قيل له بوحي من الله يا نوح اهبط من السفينة إلى الارض متلبسا بسلام وأمان من جهتنا ، وبركات وخيرات نازلة عليك وعلى أمم ناشئة ممن معك ، والمراد بهم أولاده ، فالعبارة من إطلاق العام وإرادة الخاص ، فالناس كلهم من ذرية نوح ـ عليه السلام ـ ويدل عليه قوله تعالى (وجعلنا ذريته هُمُ الباقين) والله قادر على ما يشاء وقوله تعالى [وأمم سنمتعهم] جملة مستأنفة [وأمم] مبتدأ حذفت صفته المخصصة وقوله تعالى [سنمتعهم] خبره أي وأمم منهم سنمتعهم أو مبتدأ وسنمتعهم صفته ، والخبر محذوف أي وأممٌ سنمتعهم تبقى في الدنيا [ثم يمسهم] فيها أو في الآخرة [منا عذاب أليم] جزاءً لما اقترفوه من الأعمال السيئة والعقائد الفاسدة .

هذا ومما يحسن الإطلاع عليه أنه دار الكلام بين المفسرين ولاسيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الارضية أو اختصاصه بالإقليم الذي كان فيه سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ ، ونحن إذا نظرنا بدقة إلى النصوص القرآنية علمنا عمومه لها وذلك من وجوه :

الأول : إن سيدنا نوحا ـ عليه السلام ـ دعا ربه وقال : (ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ودعوة الأنبياء مستجابة .

الثاني : قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) الآية ... بالحصر المعلوم منها .

الثالث : إن الطوفان كان قويا وصاعدا وهائجا جدا بنص قوله تعالى (وهي تجري بهم في موج كالجبال) فإن الموج المشبه بالجبال بصورة الجمع وعدم العهد ظاهر في أن ارتفاع الماء كان متصاعدا فوقها .

الرابع : قوله تعالى (واستوت على الجودي) النص في ارتفاع الماء فوق مستوى جبل الجودي ونزوله فوقه بعد نضوب الماء .

الخامس : قوله تعالى : (قيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) الآية ... فإن ظاهره يدل على أن الماء كان نابعا من جميع بقاع الأرض ونازلا من جميع أقطار السماء .

فوجود هذه الأدلة يرشدنا إلى عموم الطوفان جميع الكرة ولا محيد عنه إلا إذا كان هناك برهان قاطع يجبرك على تأويل تلك الآيات بما يوافقه وأنّى ذلك !

(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)(٤٩)

قوله تعالى : [تلك] أي قصة نوح التي مَرَّتْ عليها القرون [من أنباء الغيب] بعض من أخبار الغيب التي لها شأن واعتبار ، فهي قصة نَتَجَت من سوء معاملة الأمة العاصية القاسية التي اغترت بنفسها ، ولم تصغ لأوامر الله تعالى ونواهيه . وعلاوة عليه قد تمردت وتجاسرت على رسولِهِ الكريم .

وقد ذكروا أن الغيب قسمان : غيب مطلق ؛ وهو الذي لم يتعلق به علم مخلوق أصلا كمبدأ حدوث العالم ، ونهايته ، وأمور كثيرة مما وراء الطبيعة، منها سر القضاء والقدر ... وغيب" مضاف" ؛ وهو الذي للعلم به سبيل إما على صورة خرق العادة كما للأنبياء والمرسلين بالوحي ، وللأولياء بالإلهام ، ولسائر الناس بالأسباب والأجهزة كالعلم بما في رحم المرأة من الجنين وأمثال ذلك ... فليس علم الغيب أبدا صفة ذاتية لغير الله ، وما يمكن علمه هو

الذي أعلم الله به بعضا ممن ارتضاه وأعلمه ، أو وفقه لتحصيل أجهزةٍ تكون وسيلة لاستكشاف المجهولات .

[نوحيها إليك] لتعلمها [ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا] أي من قبل هذا الوقت ولما علمت بما جرى على نوح ـ عليه السلام ـ [فاصبر] أنت أيضا على مشاق التبليغ وأذى القوم الظالمين [إن العاقبة] الحميدة بالظفر في الدنيا والفوز بالنعيم والرضوان الأتمين الأكملين [للمتقين] الحائزين أعلى درجاتِ التقوى ، وأنت من المتقين .

(وَإلى عاد أَخاهُمْ هُوداً ، قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(٥١) ويا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ ، وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)(٥٢)

قوله تعالى : [وإلى عاد أخاهم هودا] أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم في النسب وواحداً منهم لا أجنبيّا لا يعرفونه أو غريبا لا يحترمونه [قال] استئناف بياني ، كأنه قيل ماذا قال لهم ؟ فأجيب بأنه قال : [يا قوم اعبدوا الله] وحده حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام [ما لكم من إله غيره] إذ ليس لكم إله تعبدونه ويستحق العبادة غيره [إن أنتم إلا مفترون] عليه تعالى بارتضائه شريكا أو شركاء له في العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا . [يا قوم لا أسألكم عليه] أي على هذا التبليغ [أجراً ، إِنْ أَجْرِيَ إلاّ على الذي فطرني] أي خلقني وأبدعني من العدم [أفلا تعقلون ؟] فتقبلوا نصيحة الناصح الأمين .

[ويا قوم استغفروا ربكم] من الشرك الذي هو أعظم الجرائم عند الله ولا خلاص منه إلا بالرجوع إلى التوحيد [ثم توبوا إليه] بالطاعة والسعي في امتثال الأوامر واجتناب المناهي ، وإذا استغفرتم وتبتم [يرسل السماء عليكم] بالمطر [مدرارا] كثير الدر والخير لكم ولأنعامكم ومزارعكم وبساتينكم وسائر ما يحتاج إلى الماء [ويزدكم قوة إلى قوتكم] بزيادة الأحفاد على الأولاد وزيادة الحجم والقوة في الأجساد ، وبتكثير المعدات الحربية لطرد الأعداء عن البلاد [ولا تتولوا] ولا تستدبروا عن طاعة الله حالكونكم [مجرمين] مصرين على الإجرام والآثام .

(قَالُوا : يا هود ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ ، وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَيكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ، قال : إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دونه ، فَكِيدُونِي جميعاً ثُمَّ لا تُنْظِرونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيرَكُمْ ، وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)(٥٧)

[قالوا] في جواب نصيحته الصافية الواضحة : [يا هودُ ما جئتنا ببينةٍ] أي بدليل ساطع وبرهان قاطع على دعواك ، لأن الماديين لا يقبلون إلا الملموسات المادية ، ولا يقتنعون إلا بالشهوات العادية [وما نحن بتاركي آلهتنا] أي بتاركي عبادتها التقليدية [عن قولك] بسبب قولك المجرد عما نريده [وما نحن لك بمؤمنين] بل [إن نقول] لك أي ما نقول لك [إلا]

أنه [اعتريك] أي أصابك [بعض آلهتنا بسوء] وهو إزالة الشعور عنك ، ولما أدرك هود منهم تلك الردود الفاسدة ، وعلم أنهم لا تلينُ عريكتُهم لعبادة الله وحده ، بل أحس منهم نية السوء [قال] لهم [: إني أشهِدُ الله] تعالى وكفى به شهيدا ، [واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه] أي من عبادة الآلهة التي تشركونها لله ، او من إشراككم لله تعالى [فكيدوني جميعا ، ثم لا تنظرون] أي إن صح ما أشرتم إليه من قدرة آلهتكم على إضرار الناس فاستعملوا عليّ طرق الكيد بجميعكم أنتم وشركاؤكم ، ثم لا تمهلوني أحْيا وأبقى زمانا [إني توكلت على الله] تعالى وحده [ربي وربكم] أي خالقي وخالقكم [ما من دابة إلا هو] تعالى وحده [آخذ بناصيتها] أي قادر عليها يصرعها متى شاء وإن أراد [إن ربي على صراط مستقيم] أي إن ربي ليس برب يعبد بالتقليد والاصطناع والأوهام والابتداع ، وإنما هو خالق للحقائق وجارٍ على صراط مستقيم ، وهو طريق سننه الكَوْنية التي لا تبديل لها ، يخلق من يشاء كما يشاء ويكلف العقلاءَ منهم بالشرائع ، فإن أطاعوه بها فبها ونعمت ، وإلا دمرهم وقهرهم ونَصر جنوده عليهم . وهذه سنة الله في العالمين .

[فإن تولوا] بحذف إحدى التاءين أي تتولوا فلا بأس عَلي [فقَد أبلَغْتكم ما أرسلت به إليكم] وما على الرسول إلا البلاغ المبين [و] اعلموا أنه [يستخلف ربي] عنكم [قوما غيركم] بأن يقهركم ويغلب عليكم بعض جنوده ممن يعاديكم ، أو يدمركم ببلاء خارج من الأرض أو نازل من السماء فتهلكون ، فيأتي بقوم من غيركم بجعلهم في محلكم . وكم فَعَلَ مثلَ هذا بالأقوام الأولين ؟ والحالُ إنكم [لا تضرونه شيئا] من الضرر [إن ربي على كل شيء حفيظ] حافظ وشهيد .

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ

جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(٥٩) وَاُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)(٦٠)

قوله : [ولما جاء أمرنا] أي ولما وقع أمرنا بالعذاب ، ونزل العذاب على عادٍ [نجينا هوداً والذين آمنوا مَعَهُ] وكانوا أربعة آلافٍ ، وقيل : ثلاثة آلاف ، [برحمة مِنّا] مختصة بهود وَمَنْ آمن به وسببها الإيمان [ونجيناهم من عذاب غليظ] وهي الريح التي كانت تهدم المساكن المستحكمة ، وتحمل الظعينة ، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أدبارهم • [وتلك] القبيلةُ الهالكة بذلك العذابِ [عادٌ جحدوا] وسبب نزوله عليهم أنهم جحدوا [بآياتِ ربهم] النازلة بالوحي على هود وجحدوا الآيات الآفاقية التي تدل على عظمته وَوَحْدَتِه وقدرته على الانتقام ، وبالآيات التي ترد على الكفار المعاندين من أنواع العذاب [وعَصَوا رسله] من هود ومن سَبَقَهُ لأنه كان يذكر لهم هلاك قوم نوح وغيره نتيجة الطغيان ، أو لأن تكذيب رسول تكذيب رسل لان مبادئهم المهمة متحدة [واتَّبَعُوا أمر كل جَبار عنيد] والجبار هو الذي يجبر الناس على ما يريده أو العظيم في نفسه المتعاظم على غيره • وقال الراغب : هو المعجب بما عنده • والجوهري : هو من خالف الحق ورده • والمقصود أنهم اتبعوا أمر رئيسهم وكلٌ مَن كان يبلغ أوامره [وأتبِعُوا في هذه الدنيا لعنة] أي طردا وإبعادا عن رحمة الباري [ويومَ القيامة] أي وفي يومها فهم المتبعون باللعنة في الدارين [ألا] أيها العقلاء الناظرون [إن عاداً كفروا ربهم] أي كَفَروا وَحْدَتَه وانكروا نعمته وعاندوا رسوله [ألا بعداً لعاد قوم هود] ومن

تفكر في صياغةِ الجمل المتوالية تنور بمعرفة أبعادِ إبعاد الذين يَجْحدون بالله ورسوله ويحيدون عن سُبُله في الدين •

ذكر الزمخشري في الفجر أن عقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح يقال لهم عاد كما ، يقال لبني هاشم : هاشم • ثم قيل للأولين منهم عاد الأولى ، وإرم تسمية لهم باسم جدهم ، ولمن بعدهم عاد الأخيرة • هذا •

(وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها ، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قالوا : يا صالحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوّاً قبْل هذا ، أَتَنْهينا أن نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ؟ وَإِنَّنا لَفي شكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيهِ مُرِيبٌ)(٦٢)

قوله تعالى [وإلى ثمود أخاهم صالحا] أي وأرسلنا إليهم أخاهم نسبا يعرفون حاله [قال : يا قوم اعبدوا الله] وحده ولا تشركوا به شيئا [مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض] وابتدأ خلقكم منها ، والخالق هو المستحق للعبادة لا غيره [واستعمركم فيها] الاستفعال بمعنى الإفعال يقال : أَعْمرتُهُ الارض واستعمرته إياها إذا جعلته عامِرَها ، وفوّضت إليهِ عِمارتها • وقال زيد بن أسلَم : إن المعنى أَمَرَكُمْ بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء المساكن ، وحفر الأنهار وغرس الأشجار ••• فالسين للطلب ، أي طَلَبَ منكم إعمار الارض •

واستدل بها على أن العمارة منها واجبة ، وهي ما يحتاج إليها لحفظ النفوس ، وأداء العبادات الواجبة ، والسير عليها لتحصل الأرزاق كالقناطر والجسور ، ومنها مندُوبة كعمارة المساجد فوق الحاجة الضرورية ، ومنها

مباحة كعمارة المنازل للترفه ، واضافة الواردين . ومنها محرمة كعمارة المنازل التي تشرب فيها الخمور ويطرب فيها اهل الفجور .

[فاستغفروه ثم توبوا إليه] أي فاطلبوا منه أولاً مغفرة الذنوب والجرائم المكتسبة ثم ارجعوا إلى طاعته وملازمة عبادته [إن ربي قريب] كرماً ورحمةً لمن استغفره ودعاه و [مجيب] للدعاء والإنابة والتوبة . [قالوا] متأسفين على ما قاله لهم : [يا صالح قد كنت فينا مرجوا] أي فاضلا كريما يرجى منك الخير لقومك [قبل هذا] أي قبل هذا الوقت الذي باشرت بدعوتنا إلى ترك ما كنا عليه [أتنهينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟] وهذا لا يتصور من رجل يُرجى خيره [وإنا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه] من التوحيد وترك الإشراك والاستغفار والتوبة [مُريب] لنا وموقعٍ لنا في الريبة والقلق . وليس المراد بالشك ما هو المعروف من تصور طرفي النسبة على المساواة ، بل المراد به التوهم أو التخييل حيث كانوا مذعنين بخلاف ما يدعوهم إليه ومعتقدين اعتقادا متينا بما هم عليه من الكفر والإشراك .

(قالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتيني مِنْهُ رَحْمَةً ، فَمَنْ يَنْصُرُني مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَما تَزيدُونَني غَير تَخْسيرٍ(٦٣) وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً . فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَريبٌ(٦٤) فَعَقَرُوها ! فَقالَ : تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)(٦٥)

قوله تعالى : [قال : يا قوم أرأيتم] أي أخبروني [إنْ كنت على بينة] أي حجة واضحة تدلكم على أني مُحقٌ في دعواي ، وتلك البينة أتتني [من ربّي] أي من وهبه لا من مفتعلات كسبي [وآتيني رحمة] أي

نبوة منه ثم خالفته وما بلغت ما آمرت به [فمن ينصرني من الله] ويمنعني من عذاب الله [إن عَصَيتُه ؟] بالكسل في تبليغ أوامره ومنع الناس عن الإشراك به [فما تزيدونني غير تخسير] أي فإن كان الأمر كذلك فما تزيدونني شيئا غير تخسيري وإيقاعي في الخسارة .

وقوله تعالى [وَيا قوم هذه ناقة الله] واقع بعد قصةٍ مقدرة مقررة في غير هذه السورة بيانها : أنهم طلبوا منه معجزة تقهرهم على الإيمان ، بطلب من الله تعالى خلق ناقة معها فصيلها من صخرة معلومة لهم في محل بروزهم لمراسم الأعياد ، وقالوا له : إن خَرَجَتْ مِنها ناقة كذلك آمَنا بك ، فطَلَب صالح ما أرادُوه فخلق الله لَهُمْ نَاقةً من الصخرة وخرجت منها مع فصيلها. وبعد ذلك قال لَهم صالح ـ عليه السلام ـ [يا قوم هذه ناقة الله] التي لا يقدر على خلقها إلا هو خرجت حالكونها معجزة [لكم] وآية دالة على آني صادق في دعوى الرسالة [فذَروُها تأكُل في أرض الله] بنَفْسِها بدُونِ مؤونة عليكم [وَلا تَمَسّوها بسُوءٍ فيأخذكم] منصوب بأنْ لوقوعه جوابا للنهي بعد مسها [عذاب قريب] لا يتأخر عنه إلا قليلا [فَعَقَروها] أي فخالفوا نهيه وعَقَروها . والعقر النحر . ويجيىء بمعنى الجَرح ، وقيل : قطع عضو يؤثر في إزهاق الروح . والعاقر هو قدار على وزن هَمام صيغة مبالغة ، ويقال : إنه أحمرُ ثمود ، أو اشقرُ ثمود . وبه يضرب المثل في الشؤم ونُسِب الفعل إلى القوم لرضاهم بفعله [فقال] لهم صالح ـ عليه السلام ـ : [تَمَتَّعُوا في داركم] أي في بلدكم [ثلاثة أيام] فقط ثم يأتيكم عذاب الدمار [ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذوب] أي غير مكذوب فيه .

(فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنَا صالِحاً وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيّ

الْعَزِيزُ(٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ !(٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ! أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ)(٦٨)

قوله تعالى [فلما جاء امرنا] أي أمرنا بنزول العذاب [نجينا صالحا والذين آمنوا معه بِرَحْمَةٍ مِنَّا] أي بسببها ، أو متلبسين بها [ومن خزي يومئذ] أي ونجيناهم من خزي يومئذ لأن المعمول لا يعطف على عامله فهو متعلق بمحذوف هو المعطوف ، وقيل : الواو زائدة والمقصود نجاتهم من الهلاك بالصيحة مثل القوم . وأعتقد أنه لا حاجة إلى تقدير العامل لأن المقصود من قوله تعالى نجينا صالحا والذين آمنوا معه أن الله تعالى وفقهم على خروجهم من ديار القوم مع أنه كانوا يقتلونهم إذا انتبهوا أنهم يخرجون للخلاص من العذاب للعداء الواقع بين الفريقين . فالتقدير نجينا صالحا والذين آمنوا معه من تعرض القوم لما خرجوا من الديار برحمة منا ومن خزي يومئذ ، فما دخلوا في الهلاك بالصيحة . فقوله تعالى ومن خزي معطوف على مقدر ، أي تعرض القوم [ونجيناهم] أي ونجينا هودا والذين آمنوا معه [من عذاب غليظ] هو عذاب قوم هود الكافرين في يوم القيامة ، أي كما نجيناهم في الدنيا من تعرض القوم ومن الهلاك بالصيحة كذلك نجيناهم من العذاب الوارد على القوم يوم القيامة [إن ربك] يا حبيبي يا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ [هو القوي العزيز] أي القادر على كل شيء والغالب عليه في كل وقت ومكان .

[وأخذَ الذين ظلموا] أي قوم هود الكافرين [الصيحة] أي صيحة جبريل ، أو صيحة سماوية فيها كل صاعقة وصوت مفزع [فأصبحوا في ديارهم] أي في منازلهم وديارهم [جاثمين] هامدين مَوْتى لا يتحركون [كأن لم يَغْنَوا فيها] أي فانقطع تمتعهم بها ، كأنهم لم يقيموا بها [ألا

إنَّ ثمودَ كَفَروا ربَّهُم ، ألا بُعْداً لثمود] ومَن مَنَعَ ثمود عن الصرف نظر إلى القبيلة ، ومن صرفه نظر إلى الحي أو الأب الأعلى المسمى بثمود .

(وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهيمَ بِالبُشْرى قالُوا : سَلاماً ، قالَ : سَلامٌ ، فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ(٦٩) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ ، وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً ، قالُوا : لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمِ لُوطٍ(٧٠) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ ، فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْناها بِإسْحاقَ ، وَمِنْ وَراءِ إسْحاقَ يَعْقُوبَ(٧١) قالَتْ : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلي شَيْخاً ؟! إنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجيبٌ !(٧٢) قالُوا : أَتَعْجَبينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ؟ رَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ ، إنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ(٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبْراهيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ البُشْرى يُجادِلُنا في قَوْمِ لُوطٍ(٧٤) إنَّ إبْراهيمَ لَحليمٌ أَوَّاهٌ مُنيبٌ(٧٥) يا إبْراهيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، إنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وإنَّهُمْ آتيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)(٧٦)

قوله تعالى : [ولقد جاءت رسلنا إبراهيم] المراد بالرسل الملائكة الكرام . روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر ملكا أرسلهم الله تعالى بالبشرى له بالأولاد [قالوا : سلاما] أي سلمنا أو نسلم عليك سلاما [قال] إبراهيم في جوابهم : [سلام] أي وعليكم السلام ، وقد حياهم بالجملة الاسمية وهي دالة على الدوام والثبات [فما لبث أن جاء بعجل حنيذ] أي فما أبطأ وما تأخر إبراهيم عن مجيئه إليهم بعجل سمين أو بعجل مشوي ، فوضعه بين أيديهم للأكل فامتنعوا عنه [فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه] أي

لا يَمُدّون الأيدي إليه ، والمقصود أنهم لا يأكلون [نَكِرَهُمْ] أي أنكر ذلك منهم [وأوجس] أي أضمر [في نفسه] منهم [خيفة] أي خوفا ، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف ، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكرهُ الله تعالى ، فلما أحسّوا بخوفه أمّنوه و [قالوا : لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط] ـ عليه السلام ـ خاصة [وامرأته] وهي سارة بنت هاران بن ناحور وهي بنت عمه [قائمة] في الخدمة . قال وهب : كانت قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم [فضحكت] وكان الضحك سرورا بزوال الخوف عن إبراهيم ، وقيل : كان سرورا بهلاك أهل الفساد . [فبشرناها بإسحاق] أي عقبنا سرورها بسرور أتمّ منهُ ، وذلك على ألسنة رسلنا .

[قالت : يا وَيْلَتى أألِدُ وأنا عَجُوز] من الويل وهو الخزي ويستعمل في كل أمر فظيع ، والمراد بها هنا التعجب وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء ، والألف بدل عن ياء المتكلم . قيل : إنها كانت إذ ذاك ابنة تسعين سنة [وهذا] الذي تشاهدونه [بَعْلي] أي زوجي وأصل البعل القائم بالأمر ، فأطلق على الزوج لقيامه بأمر الزوجة [شيخا] ابن مائة سنة ، ونصبه على الحال عند البصريين والعامل فيه معنى الإشارة [إن هذا] الأمر المذكور من حصول الولد من هَرِمَيْنِ [لشيء عجيب] لم تَجْرِ به عادة الله تعالى في عباده [قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟] أي من قدرته وحكمته [رحمت الله] المتوالية [وبَرَكاته عليكم أهل البيت] منصوب على الاختصاص أو على النداء [إنه حميد] في كل فعاله [مجيد] كثير الإحسان والخير [فلما ذهب عن إبراهيم الروع] أي زال عنه الخوف [وجاءته البشرى] بالولد والحفيد [يجادلنا في قوم لوط] أي يجادل رسلنا في حالهم وشأنهم وربما يقول لهم في جدالِهِ : كيف يأتيهم هذا العذاب الشامل وفيهم الصبيانُ المعصومون والرّجال البعيدون عن تلك الأفعال ، والنساء العفائف وغيرهن

من الأجانب من النساء والرجال ؟ [إنّ إبراهيم لحليم] غير عجول على الانتقام [أوّاه] كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس [منيب] راجع إلى الله تعالى ، ولهذه الأوصاف كان يجادلهم [يا إبراهيم] أي قالت الملائكة: يا إبراهيم [أعرض عن هذا] الجدال [إنه] الشأن [قد جاء أمر ربك] وصدر المرسوم الإلهي به [وإنهم آتيهم عذاب] لا شك في إتيانه في وقته المحدد ، وذلك العذاب [غير مردود] بجدال ودعاءٍ وغيرهما ، لأن القضاء المبرم لا يَدْفَعُه شيء .

(وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ، وضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقالَ : هذا يومٌ عَصيبٌ(٧٧) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ، ومِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، قالَ : يا قَوْمِ هؤلاءِ بَناتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا الله وَلا تُخْزُونِ في ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ؟!(٧٨) قالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ مالَنا في بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ !(٧٩) قالَ : لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ !)(٨٠)

قوله تعالى : [ولما جاءت رسلنا لوطا] أي انطلقوا من عند إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قرية لوط ـ عليهما السلام ـ ، وكان بين القريتين أربعة فراسخ ، ودخلوا عليه في صورة غلمان حسان الوجوه ، وذلك [سيء بهم] لخوفه من قومه الفساق المتعرضين للواردين بالسوء [وضاق بهم ذرعا] أي طاقةً وجهدا ، وهو في الأصل مصدر ذرع البعير بيديه في مسيره إذا سار مادا خَطْوَهُ ، مأخوذ من الذراع ، وهي العضو المعروف ، ثم توسع فيه فاستعمل في محل الجهد والطاقة [وقال : هذا يوم عصيب] أي يوم شديد .

وأصله من العصب بمعنى الشدّ . قال ابو عبيدة : سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر .

[وجاءه] أي وجاء لوطاً وهو في بيته مع أضيافه [قومه] الفساق [يُهْرَعُونَ إليْه] أي يستحثونَ إليه كأنه يَحُث بعضُهم بعضا أو يَحثُّهم كبيرهم ويسوقهم ، أو يسوقهم الطمع في الفاحشة ، والعامة على قراءته مبنيا للمفعول ، والجملة في موضع الحال من القوم . [ومن قبل كانوا يعملون السيئات] جاء لبيان أنهم كانوا متعودين على فعل المنكرات ، ولذلك سلبوا جلباب الحياء ، فلذلك أسْرعوا لطلب الفاحشة [قال : يا قوم هؤلاءِ بناتي هنّ أطهر لكم] فتزوجوهن ، وكانوا يطلبونهن من قبلُ ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، فجاءته المصيبة من القوم الفاسق ، وكان يرضى بأن يداريهم لعلهم ينتهون ثم يتفاهَمُونَ على قواعِدِ الزواج المشروعة في شريعتهم الثابتة [فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي] أي واتقوا الله بترك الفواحش ، ولا تخزوني بسوء المعاملة مع ضيفي فإن إخزاء الضيف إخزاء المضيف [أليس منكم رجل رشيد] يهتدي إلى الحق وَيَرْعَوي عن الباطل ؟ [قالوا] أي قومه : [لقد علمت] ما لنا [في بناتك من حق] أي قضاء الشهوة ، أو مالنا في بناتِك الآن رغبة في زواجهن بالصورة المشروعة عندك [وإنك لتعلم ما نُريد] من عمل الفحش بهن [قال] لُوطٌ ــ عليه السلام ــ : [لَوْ أنّ لي بكم قوةً] أي لو ثَبت أنّ لي قوةً متلبسة بكم بالمقاومة على دفعكم بنفسي لفعلتُ [أو آوي إلى ركنٍ شديد !] أي أو أنضمّ إلى قوي أتمنع به عَنكُم وأنتَصِرُ به عليكم . فالمراد بالركن وهو في الأصل الناحية من البيت أو الجبل هو الملاذ القويّ من رئيس عشيرةٍ أو مَلك جبار . وهذا بحسب ما يجري في الدنيا من امتناع الإنسان عن المخازي بقوة نفسية أو بالالتجاء برئيسه .

روي أنه ـ عليه السلام ـ أغلق بابه دون أضيافه ، وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسوّر الفساق الجدار لدخول الدار .

(قالُوا : يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُم أَحَدٌ ، إِلا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)(٨٣)

قوله تعالى : [قالوا : يا لُوطُ إنا رُسُلُ رَبكَ لَنْ يَصلُوا إِليك] أي لما رأت الملائكة ما على لوطٍ من الكَرب قالوا : يا لُوطُ إنّا رسل ربكَ أي إنا ملائكة مرسلون من ربك لإهلاك قومك الفاسقين فلَنْ يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ، فافتح الباب واتركنا وإياهم ، فَفتحَ الباب فدخلوا فأذهب الله نور أعينهم ، فانطلقوا عميا يركب بعضهم بعضا ، وهم يقولون : النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سَحَرَةً ! [فَأَسْرِ بأهلِك] بقطع الهمزة مِن الإسراء [بقطع من الليل] أي بطائفة منه [ولا يَلتفِتْ منكم أحد] أي لا يتخلف ، أو لا ينظر إلى ورائه [إلا امرأتك] بالنصب استثناء من قوله [فَاَسر بأهلك] ويدل عليه قراءة عبدالله [فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك إنه مُصيبها ما أصابهم] وضميرُ إنه للشأن [وما أصابهم] مبتدأ [ومصيبها] خبره . والجملة خبر إنّ [إن مَوعدَهم الصبح] أي موعد هلاكهم الصبح [أليس الصبح بقريب ؟!] تأكيد للتعليل المأخوذ من الجملة السابقة . فإن قرب الصبح داع للإسراع بالتباعد عن موقع العذاب ، وإنما جعل ميقات عذابهم لأنه موقع الراحة وما من أحد إلا

وهو نائم في ذلك الوقت ، فيكون العذاب أشمل ، أو لأنه وقت الراحة ومجيىء العذاب في وقتها أفظع وأشد وقعاً [فلما جاء أمرنا] أي أمرنا بالعذاب أي وقته [جعلنا عاليها سافلها] وضمير عاليها سافلها لمدائن قوم لوط المعلومة من السياق وهي المؤتفكات ، وهي خمس مدائن : ميعة ، وصعره ، وعصره ، ودوما ، وسدوم ، وهذه أعظمها وكان فيها لوط ـ عليه السلام ـ .

والمروي أن جبريل ـ عليه السلام ـ قلع المدائن بيده بالقدرة المودعة له ، في صورة بركان هز المدائن وقلعها من محلها وطيرها الى ارتفاع بقدر ما شاء الله ، فقلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان .

[وأمطرنا عليها] أي على المدائن أو على شذاذ أهلها [حجارة من سجيل] والسجيل الطين المتحجر ، وذلك زيادة في تفظيع حالهم أي إنه لم يكتف بقلبها بل زيد عليه مقدار آخر حتى لا يتوهم خروج شيىء من آثار القوم الهالكين [منضود] أي نضد ووضع بعضها على بعض مهيأ لعذابهم ، أو نضد في الإرسال [مسومة عند ربك] أي معلمة للعذاب . وقيل : معلمة ببياض وحمرة . أو بما تتميز بها من حجارة الأرض ، أو باسم من يرمى بها . ولا شك أن التسويم كان من الله سبحانه وتعالى ، أي في خزائنه الغيبية العلمية ، أبدعها متى شاء ، أو في خزائنه الحسية المغيبة عنا [وما هي من الظالمين ببعيد] فإن الطريد يرمى بالحجارة زيادة في التحقير والخسارة . والمواد الحديدية من الحجارة جنسا ، وإن لم تكن من نوعها وإمطارها على الناس الظالمين تطبيق للمقررات الإلهية كما يراها الناس في عصرنا .

(وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إني أريكم

بِخَيْرٍ ، وَإِنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ(٨٤) ويا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٨٥) بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ(٨٦) قالُوا : يا شُعَيْبُ أَصَلواتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا ما نَشاءُ ؟ إنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(٨٧)

قوله تعالى [والى مَدين أخاهم شعيبا] أي وأرْسلنا إلى أولاد مدين ابن ابراهيم [أخاهم شعيبا] نسيبهم [قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره] فلا تشركوا به أحدا [ولا تَنقُصوا المكيالَ والميزانَ] عند المُعاملة أي لا تنقصوا حجم المكيال والميزان أو لا تنقصوا الناس من المكيال والميزان بأن تكيلوا الناس وتزِنوهم مخسرين وتكيلوا وتزنوا منهم مستوفين [إني أريكم بخير] أي متلبسين بمال زائد وثروة واسعة فلستم في حاجة إلى أمثالِ هذه التّجاجة [وإني أخاف عليكم عذابَ يوم محيط] أي عذابا في الدنيا أو في الآخرة لا يُخلص منه أحدٌ منكم إن خالفتموني فيما نصحتكم به •

[ويا قوم أَوْفوا المِكْيالَ والميزانَ بالقسط] أي وأتِموهما بالعَدل من غير زيادة ولا نقصان [ولا تَبْخَسوا الناس أشياءهم] أي ولا تُخسِروا الناسَ في ما يتعاملون عليه مكيلاً أو موزونا أو معدوداً أو مذروعا [ولا تَعْثَوا في الارض] أي ولا تُفْسدوا فيها بتنقيص الحقوق حالكونكم [مفسدين] لها [بقية الله] أي ما أَبقاه الله لكم من الحلال [خير لكم] مما تجمعون من المال بالغش والخديعة [وما أنا عليكم بحفيظ]

أحفظكم من القبائح بل عليكم حفظ أنفسكم منها . [قالوا : يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا] من الأصنام [أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟] أو أن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا من التطفيف وغيره [إنك لأنت الحليم الرشيد] على ما علمنا من صفاتك سابقا فكيف تأمر وتنهى على خلاف ما يقتضيه الحلم والرشد . أو جملة خبرية واستعارة تهكمية كما تقول للضعيف أنت قوي عزيز . أو قدر فيها الاستفهام الإنكاري أي أإنك لأنت الحليم الرشيد ؟ وليس غيرك موصوفا بهما حتى تتحامل علينا بهذه العبارات .

(قالَ : يا قَوْمِ أرأيتم إنْ كُنْتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ؟ وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ ، إنْ أُرِيدُ إلاّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَما تَوفِيقِي إلاّ باللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيبُ(٨٨) وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ ، أَوْ قَوْمَ صالِحٍ ، وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ(٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ ، إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(٩٠) قَالُوا : يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ، وَإنَّا لَنَرَيكَ فِينا ضَعِيفاً ، وَلَولا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَما أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ)(٩١)

قوله تعالى : [قال يا قوم أرأيتم إن كُنْتُ عَلى بَينةٍ مِنْ ربي] أي كنتُ على حجة دالّةٍ على صدقي في دعوى الرسالةِ واستحقاقي لنصحكم [وَرَزَقَني مِنه رزقا حَسَنا] أي ورزقني منه النبوة والرسالة والحكمة وانشراح الصدر ، هل يصح لي أَن أترككم ولا أبلغكم رسالاتي

والأحكام التي أُمرت بتبليغها [وما أريدُ أنْ أُخالِفكم إلى ما أنهاكُم عَنْهُ] يعني ولا أريد على عادة الحيالين الذين يَنهَوْنَ الناسَ عن بعض الأمور ، ورأيهم على خلافِ ما يقولون ويرتكبونها غياباً ، فأنا لا أريدُ أنْ أخالفكم في تلك الأمور وأميلُ غياباً إلى ما أنهاكم عنه ، بل عقيدتي وإيماني على أنّ ما ترتكبونه فاسد ولا ينبغي للعاقل ارتكابه ، ولستُ بمرتكب له بتوفيقِ الله تعالى [إنْ أريدُ إلاّ الإصلاحَ] أي ما أريد بما أقوله لكم إلاّ إصلاحكم وإصلاحَ عقيدتكم مِن الإشراك إلى التوحيد ، ومن الخيانة إلى الأمانة والانصات [ما اسْتَطَعْتُ] أي مدة استطاعتي لذلك [وما توفيقي] أي وما تيسير الأسباب لي موافقا لما يرضاه [إلا بالله] وعونه [عليه توكلت] واعتمدت في كافة شؤني [وإليْهِ أُنيبُ] أي أرجعُ في تحصيل ما أعْمَلهَ أو أنا راجع إليه بكل قواي بالمعنى الكامل للإنابة .

[ويا قوم لا يَجْرِمنكم شقاقي أنْ يُصيبكم مثل ما أصابَ قوم نوح] أي لا يَحْملنكم ولا يُكْسِبَنّكم شقاقي ومعاداتي لكم ووقوعي في شق مقابلٍ لشقكم أي استمراركم في العناد والكفران وعبادة الأوثان [أن يصيبكم] مصيبة [مثل ما أصاب قوم نوح] من الغرق بالطوفان [أو] أصاب [قوم هود] من الهلاك بالريح العاصفة [أو قوم صالح] من الهلاك بالرجفة والزلزلة والصيحة المفاجئة . فكلمة لا للنهي [ويجرمنكم] بمعنى يكسبنكم من باب الإفعال (وشقاقي) فاعله ، ونسبة الفعل إليه مجاز عقلي (وَأن يُصيبَكم) في تأويل المصدر ومنصوب بنزع الخافض أي على أن يُصيبكم ، ومثل فاعل له ومُضاف إلى ما بعده [وما قوم لوط منكم ببعيد] زماناً وهلاكهم معلوم لكم ، ولم يكن الاّ من ارتكاب الفواحش والتمرد على النظام الالهي .

[واستغفروا ربكم] الذي خلقكم من عبادة غيره [ثم توبوا إليه] واختصّوا به بكل قلوبكم ليغفر لكم [إن ربي] وربكم [رحيمٌ] عظيم الرحمة جسيم النعمة [ودودٌ] كثير الود والمحبة فيتوب على من تاب.

[قالوا] أي أولئك المتمردون لشعيب مع سلاسة كلامه وسهولة معناه واشتماله على غاية الرقة والموعظة ، استهزاءً وسخريةً ، أو استهتاراً وتعنتاً به [يا شعيبُ ما نفقهُ كثيرا مما تقول] والمقصودُ إنك تتكلم معنا كثيرا ، وكثير من كلامك غير مفهوم لنا وما لا يفهم كثيره لا يفيد يسيره [وإنا] إذا استمعنا لكلامك استمعنا له ترحّماً منّا وشفقةً عليك لا ترهبّا منك لأنا [نريك فينا ضعيفاً] لا منعةَ لك ولا قدرةَ وراءك تنصُرُك [ولولا رهطك] ورعاية جانبهم لبعض الاعتبارات [لرجمناك] بالحجارة حتى تموت محقرا [وما أنتَ علينا بعزيز] ومحترم حتى نتأسف عليك بعد موتك .

(قالَ : يا قومِ أرهطِي أعزُّ عليكُمْ منَ اللهِ واتّخذتُموهُ وراءكُمْ ظِهْرِيّاً ؟! إنّ ربِّي بِما تعمَلُونَ مُحِيطٌ)(٩٢)

[قال] شعيب ــ عليه السلام ــ بعدما استفاد من كلامهم المبني على سلب جميع وجوه المنع من رعايته إلاّ رعاية رهطه وملاحظة عزتهم عندهم : [يا قوم أرهطي أعز عليكم منَ الله] مع أن العزة لله جميعا [واتخذتموه] لعدم اعتدادكم به وبرسوله الذي لا يبلغ إليكم إلا ما أمر به [وراءكم ظهريا ؟] أي شيئا منبوذا إلى ما وراء الظهر لا يُنظَر إليه وكادَ أن يكون منسيا ؟ والظهري منسوب الى الظهر ، وأصله المرمى إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما يقال في النسبة الى أمس إمسي بكسر الهمزة . وإلى الدهر دُهري بضم الدال . [إن ربي بما تعملون محيط] عالم بكل

ما فيه من الطغيان والتمرد والغرور والتباعد من الحق وقد جرت سنته على نصرة دينه والقائمين به بحق .

(وَيا قَوْمِ اعْمَلوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، اِنّي عامِلٌ سَوفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، وَمَنْ هُو كاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إنّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ(٩٣) وَلَمَّا جاءَ أمرُنا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِين آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فأصْبَحُوا في دِيارِهِمْ جاثِمِينَ(٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها ، ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ)(٩٥)

قوله تعالى : [ويا قومِ اعملُوا على مكانتِكم] أي اعملوا بكل قُوَّةٍ على قَدَر مكانتكم واستطاعتكم ولا تقصروا في ما تريدون من التمرد على الله وقضاء ما يقتضيه طبعكم وإيذائي و [إني عاملٌ] على مكاتتي حسبما يؤيدني ربي [سَوفَ تَعْلمون مَنْ يأتيهِ عَذابٌ يُخْزيهِ] إخزاءً أفظع مما هَدَّدتمُوني بهِ مِنَ الرجم بالحجارة فإن رَجمَ شعبٍ أخزى من رجم شخص [ومن هو كاذِبٌ] هل أنا كما كان يظهر من نسبة دعواي إلى الهراء والهذيان وغير المفهوم ، أو أنتم وأنتم أهل الافتراء والكذب على الله كما هُو معلوم ؟ [وارتقِبُوا] لِما يجري في المستقبل [إني معكم رقيبٌ] لما يجري فيه .

[ولما جاء أمرنا] بتعذيبهم [نجَّينا شعيبا والذين آمنوا مَعَهُ بِرحمة منا] وهو الإيمان الذي كانوا مختصين به بين القوم [وأخذت الذين ظلموا] بالإشراك والانهماك في الشهوات [الصيحة] صيحة جبرائيل الأمين على القوم الخارجين على الرسول الأمين ، فهي كانت صيحة على الحقيقة ، وكذا إذا كانت الصيحة صيحة صاعقة نارية سماوية عليهم . وما جوزه البلخي مِن

أن المراد بها نوع من العذاب ، والعرب تقول صاحَ بهم الزمان إذا هلكوا مجازاً ، مأخوذ من هذه الحقيقة فافهم هذه النكتة فإنها دقيقة .

[فأصبحوا] أي قوم شعيب ـ عليه السلام ـ [في ديارهم جاثمين] هامدين ميتين ، وهنيئاً بموتى القلوب مَوْتُ القوالب وصاروا في انمحاء الآثار [كأن لم يغنوا فيها] أي في تلك الديار . [ألا بُعْداً لمدينَ كما بَعِدَتْ ثمود] والكفارُ كلهم مَصيرُهم النار .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ(٩٦) إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرعَوْنَ ، وما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ(٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ(٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً ، وَيَوْمَ القِيامَةِ ، بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ(٩٩) ذلِكَ مِن أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْها قائِمٌ وحَصِيدٌ(١٠٠) وَما ظَلَمْناهُمْ ، وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَما زادوهم غَيْرَ تَتْبِيبٍ(١٠١) وكذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرى وهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) إنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ، وذلِكَ يَومٌ مَشْهُودٌ)(١٠٣)

قوله تعالى [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] وهي الآيات التسع : العصا واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونقص

في الأموال والأنفس [وسلطان مبين] أي المعجزات الباهرة التي قهرت أشد الناس في الديار [إلى فرعون وملأه] ينهى فرعون عن الجريمة العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها من أنه رب الناس وآلهتهم وملأه من أتباعه فيها ، وعن سائر المعاصي التي كانوا يرتكبونها من إيذاء المستضعفين ، ويأمر بإطلاق سراح بني إسرائيل من القسر والأسر [فاتبعوا أمر فرعون] أي اتبعوا أمر فرعون ببقائهم على الكفر وإطاعة نفسه والتمرد على موسى [وما أمر فرعون برشيد] أي براشد .

[يَقْدُمُ قومَه يَوْمَ القيامَةِ فأوْرَدَهُمُ النّارَ] أي يتقدم على قومه يوم القيامة إلى جهنم فيورد قومه النار السعير الملتهبة وهو أمامهم و [بئسَ الوِرْد المورود] وبئس الشراب الذي يتناولونه نار جهنم . فإن الورد عبارة عن شراب يؤتى به لتسكين التهاب العطشان . والنار تزيد من الالتهاب وتفتت الأعضاء والأكباد [وأتبعوا] أي فرعون وملأه [في هذه الدنيا لعنة] عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الأمم الصالحة [ويوم القيامة] أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف [بئس الرفد المرفود] أي بئس العطاء المُعْطى لهم . والرفد بمعنى العطية ويأتي بمعنى العون . وفي الآية استقباح وتحقير فوق التحقير [ذلك] أي ما قصصنا عليك من أنباء الأمم السابقة [من أنباء القرى] المُهْلَكَة بالعذاب [نقصه عليك] لننورك بالعلم بها وتبليغها كاملة إلى الناس كي يتعظوا فيسلكوا مسلك الخير وهو الإسلام الموجه إلى دار السلام [منها قائم] لم يحصد بالخسف [و] منها [حَصيد] قد خُسِف [وما ظلمناهم] أي أهل القرى [ولكن] هُمْ [ظَلَموا أنفسهم] بترك اتباع الرسل في بيان السبل [فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون] أي يعبدونها [من دون الله من شيء] أي شيئا من الإغناء أو شيئا من الأشياء [لَما جاءَ أمْر ربك] أي وقت ورود العذاب عليهم من أمر

ربك [وما زادوهم] أي الآلهة [غير تتبيب] أي غير تخسير وجعلهم في الخسارة •

[وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة] وكالأخذ للأقوام السابقة أخذ الاقوام اذا أخذهم الله تعالى في حال ظلمهم واستغراقهم في ظلمات جهالاتهم [إن أخذه أليم شديد] أي ان أخذ الله للفرد وللأمة وجيع لا يرجى منه الخلاص [إن في ذلك] النبأ المقصوص عليك [لآية] وعبرة [لمن خاف عذاب الآخرة] فإنه هو الذي يتعظ بأخبار الهالكين بالعذاب [ذلك] أي يوم القيامة المفهوم من عذاب الآخرة [يَوم مجموع له الناس] أي يجمع فيه الناس كلهم الجن والإنس للمحاسبة على المكاسب وأخذ الجزاء على المراتب [وذلك يوم مشهود] أي يوم القيامة يوم مشهود فيه ، يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد •

(وما نُؤَخِّرُهُ إلاّ لِأَجَلٍ مَعْدودٍ(١٠٤) يَومَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاّ بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعيدٌ(١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهيقٌ(١٠٦) خالِدِينَ فيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ إلاّ ما شاءَ رَبُّكَ ، إنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ(١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضَ ، إلاّ ما شاءَ ربُّكَ ، عَطاءً غَيرَ مَجْذوذٍ(١٠٨) فَلا تَكُ في مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤلاءِ ، ما يَعْبُدُونَ إلاّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)(١٠٩)

قوله [وما نؤخره إلا لأجل مَعْدُود] أي وما نُؤخر ذلكَ اليومَ الملحوظ بعنوان الجمع والشهود إلا لانقضاء مدة محدودة في علمي [يَوْمَ

يأت] ذلكَ اليَوْم بانقضاء أجَله [لا تَكلَّم نفس"] أي لا تتكلم نفس" بما يفيدها النَّجاةَ من الحساب أو الميزانِ أو الشفاعة [إلا بإذنه] أي إلاّ بإذن الله تعالى [فمنهم شقيٌّ وسعيد"] أي فَمِن أهل الموقِفِ إذ ذاك صنف شقيّ وصنف" سَعيد" [فأما الذين شَقوا فَفي النارِ لهم فيها زفير وشهيق] والزفير : إخراج النَفَسِ ، والشهيق : ردّه [خالدين فيها] أي في تلك النار [ما دامتِ السماواتُ والأرض] والمراد بالسماوات والأرض سماوات الآخرة وأرضها لأن كل مسلم عاقل يعلم أن عالمي الجنة والنارِ عالمان عينيان مَوْجُودان محققان ، وكل موجود عيني من الممكنات التي تدخل في حيطة الزمان والمكان ، له أرض تقله وسماء تظله ، ألا ترى قوله تعالى : (يوم تُبَدل الأرض غير الأرض والسماوات مطويات بيمينه) وقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) ... الآية ولا شك أن من تبوأ في الجنة حيث شاء له سماء حيث كان ، وكذلك أهل النار له محل للاستقرار بالنسبة إليه أرض وفوقه شيء يظله وغيره وهو السماء . وصحة إرادة ذلك مما لا ينبغي أن يتنازع فيه مؤمنان . وقد يقال : إن ذلك الكلام عبارة عن التأييد وعَدَمِ الانقطاع على نَمط قول العرب . « لا أفعل كذا ما لاح كوكب" وما أضاء الفجرُ وما اختلف الليل والنهارُ » إلى غير ذلك من كلمات الاستمرار والتأبيد .

وقوله تعالى [إلا ما شاء ربك] استثناء من الضمير المستتر في خالدين وتكون ما واقعة على نوع من يعقل كما في قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) أو واقعة على من يعقل على مذهب من يرى وقوعها عليه مطلقا . والمراد بما شاء بمعنى من شاء فسّاقُ المُوحدين فإنهم من الأشقياء بالمعنى العام ويَدْخلونَ النارَ ، ولكنهم يُخْرَجُون منها بعد مدة عذابهم كما نطقت الأخبار . وذلك كاف في صحة الاستثناء وإن لم يشمل أحدا من

أشقياء الكفار لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض أو يراد الكفار أيضا ، والاستثناء لانتقالهم من النار إلى الزمهرير . والحق الذي لا يجوز غيره هو أن الاستثناء في الآيتين مبني على مذهب أهل الحق المقرر في العقائد من أن الله تعالى لا يجب عليه شيىء وهو المختار في كل أفعاله فيجوز له أن لا يعذب الكفار أبدا ، كما يجوز له أن لا يثيبَ المؤمنين . فالاستثناء معناه استثناء من شاء أن لا يعذبه من الأشقياء لكن ذلك لا يقع لإخباره تعالى بأنه لا يغفر أن يشرك به ، فالاستثناء حينئذ في قوة التعليق بالمحال لأنه أخبر بأن مشيئته لذلك لا تتحقق أبدا . ويناسب ذلك جدا قوله تعالى [إن ربك فعال لما يريد] فلو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لأخرج الكفار من النار ، لكنه لا يشاء ذلك لما تواتر من الآيات والاخبار .

[وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض] أي ما دامت سماوات الجنة وأرضها ، أو أنه مبني على ما جرت به عادة العرب ، وإن قلت في الإيجابيات كقول القائل : أنا خادمك ومحبك ما دامت السماوات والارض . وقوله تعالى [إلا ما شاء ربك] أي إلاّ من شاء الله تعالى أن يخرج عن الجنة ويسيح في ملكوت العالم الموجود أو يتشرف بلقاء الله المعبود ، فإن أهل الجنة طلقاء في عالم البقاء . ويناسب ذلك قوله [عطاءً غير مجذوذ] أي عطاء غير مقطوع عنهم [فلا تك] الخطاب للحبيب ، أو لكل مخاطب يخاطبه [في مرية مما يعبد هؤلاء] أي فلا تشك في أن عبادتهم لهم ضلالة وجهالة [ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل] أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم المبنية على تقليد فاسد وهَوىً كاسد [وإنا لمُوفوهم نصيبهم غير منقوص] أي وإنا لموفوهم نصيبهم من العذاب بلا نقصان .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(١١٠) وَإِنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ، إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)(١١١)

قوله تعالى : [ولقد آتينا موسى الكتاب] أي التوراة [فاختلف فيه] أي في أنه من عند الله أو من موسى نفسه ، فآمن به قوم ، وكفر به آخرون ، فلا تبال باختلاف قومك في القرآن الكريم ، فإن الناس ناس ، والشيطان لباس . [ولولا كلمة سبقت من ربك] أي ولولا كلام سبق من ربك في القضاء بتأجيل العقاب على المستحقين [لقضي بينهم] أي بين المختلفين في التوراة ، وكذا في القرآن الكريم . ولكن القضاء سبق فلم يقض بينهم عاجلا . والمقدم والتالي متساويان فصح إنتاج رفع المقدم لرفع التالي [وإنهم] أي كفار قومك [لفي شك منه] أي من القرآن [مريب] موقع لهم في الريبة . [وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم] أي وإن كلاً من الفريقين المختلفين المؤمنين والكافرين لمن جمع والله ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم [إنه بما يعملون خبير] أي ببواطن أعمالهم خبير فلا يفوته الجزاء ولا مقداره . فكلمة إن مشددة ، وكلا اسمه منصوب والتنوين عوض عن المضاف اليه ، أي كل الفريقين . وأصلُ لما بالتشديد : لمن ما باللام المفتوحة، ومِن الجارة ، وما الموصولة ، بمعنى الجمع أو الفريق ، قلبت النون بما لتوالي الأمثال ، وحذفت إحدى الميمات ، وأدغمت إحدى الميمين في الأخرى ، فما موصولة ، وجملة ليوفينهم قسمية صلة الموصول ، وهو وصلته خبر إن هذا .

وإنما فسرت الآية الكريمة على هذه القراءة أي بتشديد إن ولما لأنها قراءة ابن عامر وحمزة وحفص وأبي جعفر وهي القراءة الدائرة عندنا . ومما

يحسن هنا نقل عبارة الصاوي لإيضاحه المقام ونصها : والاعراب السالم من ذلك كله أن يقال إن القراءات السبعية أربع تخفيفهما وتشديدهما (أي إن ولما) وتخفيف إن فقط وتخفيف لما فقط مع نصب (كلا) في الجميع . فعلى الأول إن مخففة من المثقلة وكلا إسمها واللام الأولى لام الابتداء وما اسم موصول ، واللام الثانية موطئة للقسم محذوف ، ويوفينهم جواب القسم ، وجملة القسم وجوابه صلة الموصول ، والموصول وصلته خبر إنْ .

وعلى الثانية إن عاملة ولما أصله لمن ما بدخول اللام على مِنِ الجارة قلبت النون ميما لتوالي الأمثال ، وحذفت إحدى الميمات ، وأدغمت إحدى الميمين في الاخرى ، فما اسم موصول ، وجملة ليوفينهم قسمية صلة الموصول ، وهو وصلته خبر إن .

وعلى الثالثة : فإن المخففة عاملة ، وأصل لما لمن ما فعل بها ما تقدم .

وعلى الرابعة : إن المشددة عاملة ، واللام لام الابتداء ، وما اسم موصول ، وليوفينهم جملة قسمية صلة الموصول وهو وصلته خبر إن ، فتحصل أن إن عاملة ، وما اسم موصول في جميع الأوجه كلها ، واللام الثانية موطئة للقسم ، والاولى لام الابتداء فتأمل . وما قررناه زبدة كلام طويل في هذا المقام فليحفظ .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ، وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى

لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)(١١٥)

قوله تعالى : [فاستقم كما أمرت] الآية ... لما أطنب الباري سبحانه وتعالى في ذكر أحوال الامم السابقة وتمردها ، ثم إهلاكها في الدنيا والتوعد على تعذيبها في الآخرة ، وأن ذلك داء عضال لا دوام لها إلا إطاعة الباري سبحانه وتعالى بإخلاص كامل في الاجتناب عن المحرمات والأداء للواجبات ، وأن ذلك لا ينفع إلا مع الاستقامة والاستمرار .. قال تعالى خطابا لسيد العابدين المجاهدين المجيبين بقوله الكريم : [فاستقم كما أمرت] إعلانا لأن ملاك النجاة من أهوال الدين وعذاب الآخرة هو الاستقامة على فعل الواجبات وترك المحرمات ، ويختلف ذلك باختلاف الاشخاص والزمان والمكان ، وإن كان هناك قدر مشترك بين الكل من أركان الإيمان والإسلام وترك المحرمات . فالاستقامة بالنسبة إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على تبليغ الأحكام الاعتقادية والعملية والقيام بوظائف الرسالة وإلى غيره بما هو فيه ومكلف برعايته كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته » وهناك حديثان شريفان مرويان :

أحدهما قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « شيبتني هود وأخواتها » وليس في الأخوات الأمر بالاستقامة . وإنما فيها ذكر الأمم وإهلاكها ، ولكنه يضاف إليها في سورة هود قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) فكل من الموضوعين أي موضوع إهلاك الأمم والاستقامة في الدين من أهم المهمات ، وإن كان الثاني أهم .

والثاني « شيبتني هود » وما روي أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ سئل : هل شيبك منها إهلاك الأمم ؟ فقال : لا بل قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) ليس معناه أن إهلاك الأمم لا دخل له في التشييب ، بل أراد أن

الاستقامة هي أشد ما يخاف منها لأن الاستقامة تنشأ عن صفة نفسية وهي مراقبة عظمة الله تعالى وأهمية مخالفته والانحراف عن شريعته ، وذلك أمر عظيم وخطب جسيم كاد أن تذوب منه الجبال لو كان عندها إدراك الحال قال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) وقوله تعالى : [ومن تاب معك] أي وليستقم من رجع معك إلى الله تعالى بالإيمان به وبوحدته والتزام الامتثال للأوامر والاجتناب عن المناهي .

وقوله [ولا تطغوا] أي ولا تنحرفوا عن حدود الله تعالى وراعوها حق الرعاية [إنه بما تعملون بصير] أي كل ما تعملونه من الخفايا التي لا تدرك بالعين فإنه عند الله مشهود ، ويبصره الباري ، فبصره وإن كان للبصارة لكنه يعمل عمل البصيرة أيضا ، فيجازيكم على كلها خفيها وجليها [ولا تركنوا إلى الذين ظلموا] أي لا تميلوا أدنى ميل بالمحبة والوداد إلى الذين ظلموا أنفسهم بالإشراك وارتكاب المعاصي ، والمراد بالموصول المشركون كما روى ذلك ابن جرير . وقد يفسر بما هو أعم من ذلك ، ويشمل النهي حينئذ مداهنتهم وترك التغيير عليهم مع القدرة وتعظيم ذكرهم ومجالستهم بلا موجب شرعي ، وقوله [فتمسكم النار] أي سواء عملتم بما عملوا به أم لا ، وذلك لأن الميل القلبي والمحبة المكسوبة بالنسبة إليهم محبة من حيث أنهم ظلموا ، ومحبة الظالم من حيث أنه ظلم محبة لظلمه فتوجب عذاب النار . نعم إن الميل الغريزي كميل الوالد الى ولده الظالم لا من جهة ظلمه فلعله مسموح به ، وإلا لم يخلص كثير من الناس عنه . [وما لكم من دون الله من أولياء] من أنصار يمنعون عذابه عنكم ، ويبقى عون الباري لكم [ثم] بعد ميلكم إليهم [لا تنصرون] من جهته تعالى لمخالفتكم له في ذلك .

[وأقم الصلاة] أي أد الصلوات المفروضة أداء حسنا [طرفي النهار] منصوب على الظرفية للأمر أي أوله وآخره ، [وزلفا من الليل] والزلف جمع زلفة والمعنى ساعات قريبة من النهار ، والمراد بطرفي النهار وقتا الصبح والعصر ، وبصلاة الزلف المغرب والعشاء . فلا يدخل الظهر هناك . وارتضى بعضهم تفسير طرفي النهار بالصبح والمغرب ، أما الصبح فبالحقيقة وأما المغرب فلأن الطرف القريب من الشيىء كأنه منه ، وزلف الليل بالعشاء والتهجد . وقوله تعالى : [إن الحسنات يذهبن السيئات] في قوة التعليل لما قبله ، يعني إن الصلاة من الحسنات والحسنات يذهبن السيئات ، والنتيجة ، إن الصلوات يذهبن السيئات ، والمراد بالسيئات الصغائر بدليل مورد النزول وهو أبو اليسر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرا ، فقلت لها : إن في البيت تمرا أطيب من هذا . فدخلت معي البيت فقبلتها ، فأتيتُ أبا بكر ذكرتُ ذلك له ، فقال : استرْ على نفسِك وتب ولا تخبر احداً . فأتيتُ عُمَر فذكرتُ ذلك له فقال : استرْ على نفسك وتب ولا تخبر أحداً . فلم أصبر حتى أتيتُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرتُ ذلك له فقال : « أخُنْتَ رجلاً غازيا في سبيل الله في اهلِه بمثل هذا ؟! » وأطْرَقَ طويلاً حتى أوحِي إليه (وَاَقِمِ الصلاة) إلى (الذاكرين) فقرأها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقلتُ : أليَ هذا خاصة ام للناس عامة ؟ فقال : « بل للناس عامة » .

وللمفسرين هنا آراء كثيرة يمل ذكرها . والقول الفصل أن اللام في الحسنات والسيئات إما للاستغراق أو للجنس المتحقق في ضمن البعض الغير المعين المفسر بالعهد الذهني ، أو للجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية أو للعهد الخارجي ، ولا شبهة في أنها ليست للاستغراق ، لأن كل حسنة مهما كانت لا تُذْهِبُ كلَّ سيئة ، ولا للجنس

المتحقق في ضمن البعض الغير المعين لأنه بديهي تقريبا نظرا إلى الأدلة الدينية العامة ولا يحتاج إلى الذكر ، وليس للعهد الخارجي إذ لا جمع معهودا هنا . وإنما هناك في مورد النزول حسنة خاصة أذهبت سيئة خاصة ، فتعين أنها الجنس المتحقق في ضمن الأفراد بدون التعرض للكلية والجزئية ، كما في قولهم الرجل خير من المرأة ، أي ما من مرأة إلا وفي الرجال من هو خير منها .

ومعنى الآية على هذا : إنه ما من سيئة إلا وتذهبها حسنة في مقابلها ، فالكفر يذهبه الإيمان ، والمعاصي التي عليها الحدود تذهبها حسنات إجراء الحدود ، فإنها كما أن تطبيقها من جانب الإمام حسنة كذلك التزامها من جانب الجاني حسنة والأموال المغصوبة تذهبها حسنة ردها ، أو الاستعفاء من الغاصب والعفو من المغصوب منه . وترك الصلاة والصيام والزكاة يذهبه قضاؤها . والذنوب الصغائر تذهبها مكفرات كثيرة منها : اجتناب الكبائر ، ومنها الوضوء ، والصلوات النافلة ، وصيام الايام المحبوب صيامها . فإن السيئة في مورد النزول أذهبتها صلاة الرجل ، وذلك لأن الأدلة القطعية دلت على أن حقوق الناس لا براءة منها إلا بردها أو الاستعفاء والعفو من الجانبين . والأحاديث الواردة في تكفير بعض العبادات لجميع ما تقدم من ذنب العابد محمولة على ما إذا اجتنب الكبائر كما صرح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا الشرط في كثير من الأحاديث .

والتوبة الماحية للذنوب مشروطة بشروطها من : رد المظالم بقدر الإمكان ، أو الاستعفاء من أصحابها وعفوهم عنها ، وكذلك الواجبات الفائتة من الصلاة والصيام وغيرها يكفرها قضاؤها . نعم من ارتكب المعاصي أو كان عليه حقوق الناس، او عليه حقوق الله تعالى ثم تندم عليها متأسفا تأسفا عميقا وعزم على عدم العود إليها ، ثم حال دون أدائها الأجل أو الهرم المفني والفقر المدقع بحيث لم يتمكن من أدائها وتوفاه الله فالمرجو من رحمته

الواسعه العفو عن جميعها ، ودلت ايضا للأدله القاطعه الداله على أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . وهذه هي الطريقة السليمة الجامعة بين الروايات والأقوال الكثيرة المتضاربة في هذا الموضوع والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى [ذلك ذكرى للذاكرين] أي ذلك البيان الشافي المذكور ذكرى وموعظة للذاكرين المتعظين فإنهم هم المُنتَفِعون بإلقاء الآيات البينات . [واصبر] أيّها الرسول على مشاق امتثال ما كُلفت به من التبليغ ، والصبر على أذى المبلغين كما صَبرَ أولو العزم من الرسل [فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] والصابرون هم الصف السابق منهم .

(فَلَوْلا كانَ مِنَ القُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنهَوْنَ عَنِ الفَسادِ في الأَرْضِ إلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنا مِنْهُمْ، واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَموا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦) وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ(١١٧) وَلَو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إلاَّ مَنْ رَحِمَ ربُّكَ ، وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩) وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ ، وَجاءَكَ فِي هذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلمُؤمنين)(١٢٠)

قوله تعالى [فلولا كان] تحضيض فيه معنى التفجع أي فهلا كان ! أي لم يكن [من القرون من قبلكم] أي من أهل القرون الفائتة من قبل زمانكم [أولو بقية يَنهَوْنَ عن الفَساد في الأرض] أي قوم ذَوُو خصلة

باقية واقية من العقل وحصافة الرأي يَنهَوْنَ الناس عن الفساد في الأرض ويعاونون الرسل في مهامهم الصعبة [إلا قليلا ممن أنجينا منهم] وهم الذين هديناهم برحمتنا وجعلناهم متظاهرين على الحق واتَّبَعوا المرسلين ، وأما الكثيرون منهم فكانوا ظالمين غير ناهين عن الفساد بل كانوا آمرين به وناهين عن سلوك سبيل الرشاد [واتبع الذين ظَلَموا] أنفسَهم بعدم النهي عن الفساد [ما أترفوا فيه] أي ما أُنعِموا فيه مِن الثروة والعيش الناعم والشهوات الدنيوية [وكانوا مُجْرِمين] أي مرتكبي الجرائم مما لا يعلمه إلا العليم الخبير .

[وما كان ربك لِيهلِكَ القرى بظلم وأهلُها مصلحون] أي وما صحّ وما وافق حكمة ربك حسب جريان عادته أن يهلك أهل القرى والمجتمعات بدوية أو حَضَرِيّة حالكونه تعالى متلبسا بظلم وأهلُها مُصلحونَ . أي في حالِ أنَّ أهلها مُصْلِحونَ لِعقائدهم وأعمالهم ومُراعون لنظام العدل الإلهيّ . والمراد بها تنزيه الله تعالى عن ذلك على أبلَغ وَجْه ، وإلا فلا ظلم منه تعالى فيما يَفْعَلُهُ بعبادِه مطلقا . أو المراد بالظلم التجاوز عن مُوافقَة العادةِ والأنظمة ؛ فقتل الإنسان القاتل قصاصا ليس بظلم ، وقتل الإنسان السالمِ ظلم" أو المراد بالظلم الشرْكُ . والمعنى أن الله لا يُهلِك القرى بَسببِ إشراك أهلها إذا كانوا هُم مصلحين في أعمالهم ، ولم يتجاوزوا حُدُودَ الحق في النظام حتى خرَجوا عنها وأضافوا إلى شركهم فُسوقاً وفجورا وطغيانا وغرورا . ولذلك يقال (الدنيا تبقى مع الكفر ولا تبقى مع الجور) وهذا ضعيف لأن الإشراك بالله تعالى أفسدُ المفاسد . ومنه تتبع المنكرات والبغي والفحشاء فلا يكون الأهل مع الإشراك من المصلحين .

[ولو شاءَ ربكَ لجعَلَ الناسَ أمةً واحدة] مجتمعين على الدين الحق ، كما أنه لو شاء لجعلهم أمة واحدة مجتمعين على الكفر والضلال ، ولكن مع إدخالهم في دائرة القسر والإلجاء ، ولا فضلَ عند ذلك في إيمان المؤمن كما لا نقص في الكفر ، لأن الاختيار لا يبقى مع الإلجاء وإنما يبقى ذلك الفرق في هذه الطريقة الجارية وهي أن الله تعالى خلق الإنسان على الاستعداد للجانبين ، وأرشده إلى الخير وميزه عن الشر برسالة رسله ، ووهب لهم العقول المميزة لهما ، فمن صَرَفَ طاقته في الخير فهو فاضل ومن صرفها في الشر فهو سافل [ولا يزالون مختلفين] في اختيار أحد الطرفين في كل شيء ، وتوحيد الناس إنما هو في الفترات المعينة بالقوة الغالبة عليهم قدسية كنور الأنبياء أو نفسية كسطوة الأمراء [إلاّ من رحِم ربك] أي إلا من رحمة الله ربك بتوجيه قلوبهم إلى اتباع الحق ، فهناك يتفقون عليه ويؤيد بعضهم بعضا ، وعلى هذا الاتفاق نتج ما نتج من الخير والرحمة في أي عصر من العصور ، فإن الناس إذا اتفقوا ملكوا وإذا اختلفوا هلكوا •

[ولذلك خلقهم] أي ولصيرورة حالهم وتوجهها إلى الاختلاف خلقهم لكن على معنى العاقبة لا على معنى الغاية ، أي إن عاقبة أمرهم ذلك وهو الذي يعلم عواقبهم ، وذلك لآيات كثيرة دالة على أن الحكمة في خلق العالم العلوي والسفلي والإنس والجن السعادة والعبادة • قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) والحقيقة أن الله تعالى خلق الإنسان والجن للعبادة والسعادة والخير ويحبها ولا يحب غيرها ، إن الله لا يرضى لعباده الكفر ، ولكنه عالم بأعمالهم وصرف استعدادهم ، فيريد كلّ ما صرفوا فيه الاستعداد ، ولكنه يحب الخير منها لا الشر • نعم إذا خص بعض عباده برحمةٍ فهو أهلها يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم [وتمت كلمةُ ربك] أي نَفَذَ قضاؤه وعلمه إذ يستحيل جهلُ الباري بشيء من

الأشياء . وهذه الجملة متضمنة لمعنى القسم ولذا جيئ باللام في قوله الكريم [لأَمْلأَنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين] والجنة والجن بمعنى واحد ، ويطلق كل منهما على الواحد والجمع وتاء الجنة للمبالغة . وإذا كان الجنّ يقع على الواحدِ فالجِنة جمعُه على ما قاله ابن عطية رحمه الله تعالى .

[وكُلاًّ نَقُصّ عليكَ مِن أنباءِ الرُّسُلِ] أي ونقص عليك كلّ نبأ من أنباء الرسل الدّارجة مَعَ أمتهم إجابة وردا . وقوله [ما نثبت به فؤادك] عَطفُ بيانٍ للأنباء ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، أي وهو ما نُثبت به فؤادَك على التزام ما أودِعَ إليك ورعايتهِ بقدر الإمكان . [وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين] أي وجاءَك في هذه السورة الأمر الثابت المطابق للواقع ، وهو أن الله واحد لا شريك له وأنه أرسل الرسل لبيان السبل ، وأن من تمرد عليهم وعاندهم فعاقبته الهلاكُ ، وأن الله قادر على كل شيء ومريدٌ لكل ما كان ويكون . وأنّ مَنْ عَمِل الخير فجزاؤه خير ومن عمل الشر فجزاؤه شرّ ، وأن الله يجازي المكلفين بالجنة والنار حسب الاستحقاق ولا شك أن ذلك موعظة وذكرى للمؤمنين المتثبتين في اعتقادهم وأعمالهم .

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إنّا عامِلُونَ(١٢١) وانْتَظِرُوا إنّا مُنْتَظِرُونَ(١٢٢) ولله غَيْبُ السَّماواتِ والأَرْضِ وَإليهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ)(١٢٣)

قوله تعالى : [وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم] أي قل لهم : اعملوا كلّ ما تريدون عمله في معارضة الرسالة الإلهية على كل إمكانيتكم وجهات قدرتكم [إنا عاملون] على مكانتنا وجهات قدرتنا في

تبليغ رسالتنا [وانتظروا] بنا الدوائر [إنا منتظرون] أن يحيق بكم ما يُبيدُكُم • والأمر للتهديد ، وقد حاق بهم ما لم يترك لهم أثراً إلا في الحكايات • [ولله غَيْبُ السّماواتِ والأرض] أيْ وفي قبضة قدرته كل ما غاب عنكم وثبت في السماوات والارض وفي دائرة علمه ، وهو قادر على أن يتصرف فيها ويَجعلَ بعضها وسيلةً لإنماءِ البَعْض أو لإمحائه • [واليه] أي إلى الله لا إلى غيره [يُرْجَعُ الأمر] والقضاء والقدر بالسلب والإيجاب [كُلّه] فيرجع بلا شبهة أمرك وأمرهم إليه تعالى [فَاعْبُدْهُ وتوكل عليه] فاعبده وحده وتوكل واعتمد عليه في منع الأعداء ورد البلاء وجلب النعم والآلاء [وما ربك بغافل عما تعملون] أنتم ويعملون هم •

سورة يوسف ، مكية ، وهي مائة وإحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ(١) إنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذا القُرْآنَ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغافِلِينَ(٣) إِذْ قالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ : يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ(٤) قالَ : يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً ، إِنَّ الشَّيْطانَ لِلإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٥) وكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ ، ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَعَلى آلِ يَعْقُوبَ ، كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٦)

قوله تعالى [الر] الكلام فيه كما في أشباهه [تلك آياتُ الكتاب المبين] وتلك إشارة إلى آيات السورة المعلومة لله المنزلة لنا منزلة المحسوس. [والمبين] من أبان بمعنى بان أي ظهر [إنا أنزلناه] أي ذلك الكتاب حالكونه [قرآنا عربيا] أي مقروءً على الألسنة عربيا باعتبار المفردات

وأساليب التركيب ، ولا يقدح في ذلك التوصيف أمثالُ التنور والسجيل ، إما لأنّها من أصل اللغة العربية ، وإن وافقتْ سائرَ اللغات ، وإما لأنها مُزِجت وأُدرِجت في التركيب المفهوم المعنى بحيث لا يتصور عربي أنه غيرُ عربيٍّ •

والقرآن : اسمُ جنسٍ يقع على الكثير والقليل ، فكما يُطْلق على الكل يطلق على البعض ، نعم إنه غَلَب على الكلّ عند الإطلاق معرفا لتبادره • وهل وصلَ بالغلبة إلى حد العلمية أولا ؟ فيه خلاف ، والحق أنه يستعمل للكل ولكل جزء مركب منه ، فالقول بالوصول إلى حد العلمية للكل بعيدٌ ، وقد يقال إن له وضعين وضعاً للكل ووضعا لما يعمه • والبعض أعني اللام المنقول في المصحف تواترا كما ذكر في كتب الأصول •

[لعلكم تعقلون] أي لكي تفهموا معانيه وتحيطوا بدقائق أسراره البلاغية ، أو تعقلوا ان هذا الكلام المنزل باللغة العربية ليس من كلام البشر، فإن البشر لم يتكلم بهذا الأسلوب لا من حيث المجموع ، ولا من حيث تركيب سورة من أقصر سوره كما تحدى بها ربّ العالمين الجن والإنسَ ، فلم يأت أحد بما يدانيه • [نَحن نَقُصُّ عليك أحْسَنَ القَصص] أي نحكي ونذكر لك أحسن حكايةٍ وذكرٍ إن كان القَصَصُ مصدراً بمعنى الاقتصاص • أو أحسن ما يُقَصّ ويُحكى إن كان صفةً مشبهة على فعل كالقبض بمعنى المقبوض •

ووجه كونه أحسنَ اشتماله على العجائب الكثيرة : منها أن الحسد غريزة وقلما يخلو منه أحد • ومنها أن الرؤيا حق ، وأنّ كتمها عن الحاسدين مستحب • ومنها أن أثر النجابة والكرامة يبدو من أوائل نشوء الإنسان • ومنها أن الأولاد قد يتجاسرون على الآباء فيما كان هناك تصور منافع مادية •

ومنها أنهم لا يهتمون بقدسيتهم وذلك لمزيد الألفة وارتفاع الهيبة عن صدورهم . ومنها اتقاء مواضع التهم بقدر الإمكان . ومنها اختيار النَّصب على زوال الحسب . ومنها اشتمالها على سير الملوك والمماليك ومكر النساء . ومنها دفاع الله سبحانه وتعالى عن كرامة أهل العفة واظهار براءتهم عن التهم . ومنها العفو بعد الاقتدار . ومنها ، وهو أهمها ، أن لا ينقطع رجاء البائس عن رحمة ربه مهما بلغ الأمر . ومنها أن للأمور المقدرة أسبابا مقررة لا يعلمها إلا الله . ومنها أن الله غالب على أمره وإذا أراد إعزاز عبدٍ أعَزّه أو اراد إذلاله أذله ... إلى غير ذلك من الأمور .

ولا يلزم أن يكون أحسن القصص مطلقا لجواز اعتباره بالإضافة إلى بعض أوجه الاقتصاص إذا كان القصص مصدراً ، وإلى بعض قصص وحكايات إذا كان صفة مشبهة ، أو أن يعتبر بالنسبة إلى هذا الموضوع بالذات ، وان كان موضوع ذكر الالهيات مثلا أرفَع وأحْسَن من كل ما يقص ويحكى .

[بما أوحيْنا إليك هذا القرآن] أي بإيحائنا إليك هذه السورة [وإن كنت من قبله لمن الغافلين] أي وإن كنت قبل حكايتنا لك من الغافلين عن هذه القصة ولم تخطر ببالك [إذ قال يوسف] منصوب" بإضمار أذكر ، أو بدل من أحسن القصص بَدَلَ اشتمال لاشتمال الظرف على المظروف [لأبيه] يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ــ عليهم السلام ــ [يا أبَتِ] أصله يا أبي فعوض عن ياء المتكلم تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة [إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين] رأيت من الرؤيا الحلمية لا من رؤية البصر بدليل قوله [لا تقصص رؤياك] روي عن جابر ــ رضي الله عنه ــ فقال ــ : أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف فسكت ، فنزل جبريل فأخبَره بذلك فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إذا أخبرتك

فهل تسلم ؟ قال : نعم . قال : جَرِيّانُ ، والطّارق ، والذيّال ، وقابِس ، وعمودان ، والفَليقُ ، والمِصْبَحُ ، والضّروح ، والفَرْغ ، ووثّاب ، وذو الكتفين . رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له . فقال اليهودي : آي والله إنها لأسماؤها . وهذا الحديث ، وإن انكره أبو ذرعة وابن الجوزي ، وقال إنه منكر موضوع ، لكن قال الحاكم : إنه صحيح على شرط مسلم . وجملة [رأيتهم لي ساجدين] إما تأكيد للأولى لطول العهد ، وإما استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها يوسف ـ عليه السلام ـ [قال : يا بني] تصغير ابن صغره لصغر سنه إذ ذاك لكونه ابن ثنتي عشرة سنة ، أو للشفقة [لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا] أي فيحتالوا لإهلاكك حيلةً عظيمة لا تقدر على دفعها ، أو دقيقة لا تعلم بها حتى تدفعها [إن الشيطان للإنسان عدو مبين] أي ظاهر العداوة فلا يقصر في تمويل إخوتك وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على ما لا تحمد عواقبه لا سيما وأن إذلال أهل بيت النبوة يحصل به فجوة واسعة لشياطين الإنس وبث السموم في قلوب المسلمين البسطاء .

وفي حقيقة الرؤيا أقوال وآراء في حاشية السيالكوتي على شرح المواقف ما نصه : في الطيبي شرح المشكاة قال المزني : مذهب أهل السنة أن حقيقة الرؤيا خلق الله في النائم اعتقادات كخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ولا يمنعه نوم ولا يقظة ، ويخلق هذه الاعتقادات علائم على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال كالغيم علَما على المطر انتهى . والمراد بالاعتقادات ما يعم المتخيلة والمتحققة ليشمل القولين المذكورين في المتن أعني كونها خيالا باطلا أو حقا . إنتهى .

وفي روح المعاني بعد نقل ما تقدم وقيل : هي أحاديث الملك الموكل بالأرواح إن كانت صادقة ، ووسوسة الشيطان والنفس إن كانت كاذبة ،

ونسب هذا إلى المحدثين وقد يجمع بين القولين بأن مقصود القائل بأنها اعتقادات يخلقها الله تعالى في قلب النائم أنها اعتقادات تخلق كذلك بواسطة حديث الملك أو بواسطة وسوسة الشيطان ، مثلا المسببات في المشهور عن الأشاعرة مخلوقة له عند الأسباب لا بها فتدبر . وقال غير واحد من المتفلسفة: هي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك . والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك . ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة . ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت إليه .

والذي أعتقده : هو أن عالم المثال الذي يقول به الأولياء الكاملون موجود ، سواء كان هو اللوح المحفوظ أو غيره ، وفيه صور جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، بل وما يجري فيه من صورة البعث والحشر والنشر والحساب ، والعبور على الصراط ، والجنة والنار ، وما ناسبهما . ووجودها فيه بحيث لايعلمها إلا من كوشف بإدراكها والإطلاع عليها، والنفس الناطقة الإنسانية كيفما كانت مشغولة في حال اليقظة بتدبير البدن وما يحتاجه عادة . وإذا فرغت عنه بواسطة النوم تفرغت وتعلقت بذلك العالم وعلمت وأدركت ما شاء الله إدراكها له من الصور، فإنكانت النفس صافية عن الموانع والأكدار في تلك الحالة رآتها وحفظتها كما هي ، وبعد الانتباه يستحضرها واضحة لا تحتاج إلى التعبير ، وإذا كانت مكدرة بالعوارض والموانع من أي جانب كان أدركتها بصور تناسبها ، وتحتاج إلى التعبير والتفسير ، وقد لا تدركها لا بعينها ولا بالصور المناسبة ، بل تدركها إدراك الجاهل بالجهل المركب ، فلا يستفيد هو منها مطلقا . ومثال ذلك ملاحظة طلاب العلوم

للكتب العالية ؛ فمنهم من يفهمها حق الفهم ، ومنهم من يفهمها أدنى من ذلك ، ومنهم من لا يفهم منها شيئا إلا ما سولت له نفسه وعبرت له بالعلم وهو الجهل المركب المشهور .

وسر النهي في قول يعقوب ـ عليه السلام ـ (لا تقصص) أنه علم بالوحي أو فهم من حسن صورته وسيرته أن له حظا من النبوة والرسالة وأنه إذا قص عليهم رؤياه فهموا ذلك لظهور تعبير رؤياه واحتالوا عليه بما يخاف منه . والرؤيا مصدر كالرؤية ولكنها مختصة بالرؤية الحلمية فميز بينهما باختصاص كل بعلامة من علامتي التانيث وهي التاء للبصرية والألف للحلمية كالفرق بين القُربَة بمعنى التقرب الى الله ، والقُربى للقرابة النّسبية .

والإخوة جمع الأخ والمراد بهم الإخوة الذين يخشى عواقبهم وغوائلهم . و (يكيدوا) منصوب بأن مضمرة لوقوعه في جواب النهي وعدي باللام مع أنه متعد بنفسه لتضمنه معنى الاحتيال . والتأكيد بالمصدر وتعليل الحكم بالجملة بعد للاهتمام .

ومما ينبغي أن يعلم هنا أن الذي عليه الأكثرون سلفا وخلفا أن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكونوا أنبياء أصلا ، وليس في القرآن الكريم ، ولا في ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا عن أحد من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أن الله تعالى نبأهم . والمراد (بالأسباط) في آيتي البقرة والنساء ذرية يعقوب ـ عليه السلام ـ لا أولاده من صُلبه . وقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقوله تعالى (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا) صريح في أن المراد بالأسباط هم الأمم من بني إسرائيل من ذرية يعقوب لا أولاده من صلبه . وقد صرحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل ، وإنما سموا أسباطا من عهد موسى ـ عليه السلام ـ ومما يؤيد ذلك أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية

إبراهيم قال (ومن ذريته داود وسليمان) ولم يذكر الأسباط . ولو كان إخوة يوسف قد نبئوا كما نبيء لذكروا كما ذكر .

[وكذلك يجتبيك ربك] أي وكما اجتباك واختارك لهذه الرؤيا الدالة على عاقبة حسنة لك يختارك ربك للنبوة والملك ولأمور هامة تقوم بها . [ويعلمك] ربك [من تأويل الأحاديث] أي من تأويل غوامض كتب الله تعالى ، وسنن الأنبياء ، وكلمات الحكماء والآراء الواقعة في إدارة الملك وسياسة الأمة من الأصول الجارية المحكية المحتملة لوجوه كثيرة فتفهم الحق منها وتطبقها . [ويتم نعمته عليك] بأن يضم إلى نبوتك واجتبائك لها الملك والاحترام وكثرة الذرية والنسل [وعلى آل يعقوب] بالخلاص من المكاره من القحط والبلاء وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصى [كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق] فأتم النعمة على إبراهيم بانتصاره في المناظرة مع نمرود ، وإنجائه من النار ، ومن سيطرة أعوانه على أتباعه المهاجرين ، ومن ميلان قلب ملك مصر إليه بعد الهجرة ، وإلهامه أن يذهب بإسماعيل وأمه إلى ارض مكة وحفظ الباري لهما حفظا لا يدانيه حفظ ، وبإنجائه من ذبح إسماعيل ، وبتوفيقه لبناء الكعبة الشريفة ... إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله ، وعلى إسحق بإخراج يعقوب من صلبه وتكثير الذرية الكبار في الدنيا والدين من نسله او غير ذلك مما هنالك . ولا يلزم من إتمام النعمة على آل يعقوب اختيار أولاده من صلبه للنبوة غير يوسف لأن المراد بالآل معنى عام يشمل أولاده الصّلبية وغيرهم من الذرية القريبة أو البعيدة ، وكان فيهم ما كان من المُلْك والنبوة ويكفي ذلك لإتمام النعمة عليهم ، ولا يلزم من التشبيه اشتراك الطرفين في كل ما يتحقق به المناسبة والمشابهة وذلك واضح لدى كل ذي بصيرة [إن ربك عليم] بكل شيء و [حكيم] في كل ما يفعله .

(لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧) إِذْ قالُوا : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ، وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ(٩) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ، إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ)(١٠)

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى ما ذكر من رؤيا يوسف ــ عليه السلام ــ وحكايته لها عند أبيه ونهيه عن بيان القصة عند إخوته علم الناسُ أن هناك وقائع هامة وانتظروا بيانه . فقال تعالى : [لقد كان في يوسف وإخوته] المذكورين من أبيه [آيات] علامات عظيمة في الدلالة على قدرته القاهرة الباهرة على حفظ مَن شاء وتدريجه على مدارج الصعود إلى حيث يشاء بحيث يعجز عن الإحاطة بأسراره قلوب العارفين . وتلك الآيات نافعة [للسائلين] الطالبين لكشفها المعتبرين بها ، وإلا فالكلام مع من ليس له طلب واهتمام كالكلام مع القوم النيام . [إذ قالوا : لَيُوسُف وأخوهُ] بنيامين [أحَبُّ إلى أبينا منا] حيث يألفهما ويخصهما بالكلام والدَّلال وحُسْنِ المقال وبذل المالِ وغيرِها من الأحوال [ونحن عصبة] أي والحال أنّا أولادَ يعقوب من غير أم يوسف جَماعَةٌ أقوياء على العمل لكسب المعيشة وقادرون على حماية البيت وخدمة الضيوف وطرد الاعداء . والعصبة عشرة فما زاد [إن أبانا لفي ضلال مبين] واضح اذ يخصه واخاه بمزيد العناية ونحن احق بها منهما . ومن جملة مقولهم [اقتلوا يوسف] حتى لا يبقى له أثر منّا [أو اطرحوه أرضا] بعيدة من العمران ، مهجورة عن العبور عليها حتى يموت

[يخل لكم] مجزوم بحذف اللام على أنه جواب الأمر ، أي يصفُ لكم [وجه أبيكم] ولا يزاحمكم في التوجه إلينا غيركم ، أي وأمّا بنيامين فنظره إليه بالتبع لا بالاصالة [وتكونوا من بعده] أي من بعد موته ، أو بعده عن أبيه [قوما صالحين] تائبين إلى الله ، ومسامحين مع أبينا بجلب قلبه إلينا .

[قال قائل منهم] أي أحد الإخوة المجتمعين للتآمر عليه وإبعاده عن وجه أبيهم [لا تقتلوا يوسف] لأن القتل جريمة كبيرة وهو أخونا ومعصوم ويورث قتله موتَ أبينا من الأسف ، وفي الغائب أمل . [وألقوه في غيابت الجبّ] أي في قعر البئر وغوره . والظاهر أن الجبَّ كان معهودا بينهم ، ولم يكن ماؤه مغرقاً ، وإلا فهو قتل بغير المحدّد . وقال الهروي : الغيابة في الجبّ شبه كهف أو طاقٍ في البئر فوق الماء يغيب ما فيه عن العيون . والجبّ الرّكيّة التي لم تطوَ ، فإذا طويت فهي بئر [يلتقطه بعض السيارة] أي يأخذه على وجه الحفظ والصيانة عن الضياع بعض جماعة تسير في الأرض [إن كنتم فاعلين] أي إن كنتم عازمين على تفريقه من أبيه واتفقوا على هذا الرأي كما سيظهر من النص .

(قالوا : يا أبانا مالكَ لا تأمنّا على يوسفَ وإنّا لهُ لناصحونَ ؟(١١) أرسلهُ معنا غداً يرتعْ ويلعبْ وإنّا لهُ لحافظونَ(١٢) قالَ : إنّي ليحزنني أنْ تذهبوا بهِ وأخافُ أنْ يأكلهُ الذئبُ وأنتمْ عنهُ غافلونَ(١٣) قالوا : لئنْ أكلهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنّا إذاً لخاسرونَ(١٤) فلمّا ذهبوا بهِ وأجمعوا أنْ يجعلوهُ في غيابتِ الجبِّ ،

وأَوْحَيْنا إليْهِ لتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)(١٥)

ولما اتفقوا عليه [**قالوا : يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف**] أي شيء حصل لك حالكونك لا تجعلنا أمناءَ على يوسف مع أنك أبونا ونحن بنوك وهو أخونا ؟ وظاهر الكلام أنه سبق منهم سؤال أن يخرج معهم فلم يرض أبوهم به [وإنا له لناصحون ؟] نريد به الخير والنمو في الجسد والعلم والأدب [أرْسِله مَعَنا غداً يرتع] مجزوم في جواب الأمر أي يتسع في أكل الفواكه أو المواد الصحراوية [ويلعب] بوجوه الألعاب الدائرة إذ ذاك [وإنا له لحافظون] من أن يناله مكروه .

[قال : إني ليحزنني أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكلهُ الذئب] أي قال : لا أرضى بذلك لأمور . منها : أنه يحزنني بالتأكيد أن تذهبوا به الى الخارج ويفارقني ، لأن مفارقته أصعب شيءٍ على نفسي . ومنها أنه أخاف أن يأكله الذئب . والمشهور أن الأرض كانت مَذأبةً [وأنتم عنه غافلون] لاشتغالكم بألعابكم ، أو لذهابكم الى الاصطياد ، أو لغير ذلك . وجاء بهذه الجملة تنبيها على أنه لا يتهمهم بالخيانة ، وإنما يخاف عليه من السباع الضارية في وقت غفلتهم عنه .

[قالوا : لئِنْ أكَلَهُ الذئبُ ونحنُ عُصْبة] أي قالوا : والله لئن أكله الذئب والحال أنا جماعة مُستعدة لمراقبته حتى لا يتعدى عليه الذئب ، وإن تعدى عليه فمن شأننا أن ندفعه عنه [إنا إذا لخاسرون] أي ضُعفاء مغبونون ، أو واقعون في الخسارة المادية والمعنوية بإضاعة أخينا وإزعاج أبينا وتشهيرنا لأنفسنا بالضعف وعدم الإفادة [فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يَجعلوه في غيابتِ الجُب] الجبُ : البئر التي لا حجارة فيها من الجب وهو

القطع، وغيابتها حفرتها وقرارها. وسميت الحفرة غيابة لغيبتها عن النظر. وهو مصدر مفرد على وزن فَعَالة بفتح الفاء كزهادة ، وقرىء بالإفراد وهو ظاهر ، وبالجمع لأن كل جانب منها غَيَابَةٌ . قيل : هو بئر على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب ـ عليه السلام ـ بكنعان التي هي من الأردن . وجواب لما محذوف إيذانا بظهوره وإشعاراً بأن تفصيله لا يحويه فَلَكُ العبارة . ومجمله فَعَلوا ما فَعَلوا [وأوحينا إليه] أي الى يوسف بالمنام كما قيل ، أو بالإلهام ، أو بإرسال مَلك والموحى إليه ما بعده من قوله تعالى [لَتُنَبِّئَنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون] أي أوحينا إليه أنك تخلص من هذه البئر وسيكون لك شأنٌ ومقام ، ويأتيك إخوتك محتاجين إليك فتخبرهم عند ذلك بأنكم فَعلتم بأخيكم يوسف كذا وكذا وهم لا يشعرون بأنك أخوهم يوسف . وكان الايحاء إليه مقصورا على ذلك ، ولم يكن إيحاءٌ به وبالشريعة لأنه كان مراهقا عند ذلك ولم يبلغ الحلم ، وغالبُ الأنبياء بل جمهورهم آتاهم الله النبوة في الأربعين من أعمارهم . ولقوله تعالى (ولما بلغَ أشُدَّه آتيناه حُكماً وعلما) . نعم أوحى إلى عيسى ويحيى ـ عليهما السلام ـ في الصغر .

(وجَاؤُا أبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦) قَالُوا : يا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ، وتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنا ، فَأكَلَهُ الذِّئْبُ ، ومَا أنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ، ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ(١٧) وجاءُوا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فصَبْرٌ جَمِيلٌ ، واللهُ المُسْتَعَانُ عَلى ما تَصِفُونَ)(١٨)

قوله تعالى [وجاؤا أباهم عشاء] أي وجاؤا إلى أبيهم يعقوب ـ عليه السلام ـ في عشاء اليوم الذي ذهبوا فيه ، أو في عشاء يوم آخر . والعشاء لغة من صلاة المغرب إلى العتمة ، أي ظلام الليل ، وتخصيصه بالوقت المقرر لصلاته عرف الشرع . والحاصل أنهم بعد أن فعلوا ما فعلوا لطخوا قميص يوسف بدم سخلة ذبحوها في الصحراء . وقوله تعالى [يبكون] أي متباكين لأنهم كانوا في غاية الفرح من عملهم ولم يكن عندهم أي خوف لكنهم تكلفوا في البكاء [قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق] أي إنا لما وصلنا محل اللعب المقرر ذهبنا متسابقين في العدو على الأقدام ، أو في الرمي بالسهام ، أو في أعمال تتوزعها من سقي ورعي واحتطاب ، أو في الصيد وأخذه كما قيل [وتركنا يوسف عند متاعنا] أي ما تتمتع به من الثياب والأزواد [فأكله الذئب] عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد ، فكأنهم قالوا إنا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته ، وتركناه في مجمعنا بمرأى منا وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة ، فصار ما صار [وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين] أي ما أنت بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا صادقين في الواقع . وذلك لفرط محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا ، فكيف إذا كنا كاذبين فيه وغير متثبتين في كلامنا كما هو شأن الكذبة ؟ [وجاؤا على قميصه] أي قميص يوسف [بدم كذب] أي بدم معه دعوى كاذبة ، وهي أن هذا الدم دم جسد يوسف من عض الذئب وتمزيقه له . [قال] يعقوب ـ عليه السلام ـ بعد السماع لكلامهم والنظر إلى ارتباكهم في البيان ولهجة التقرير ، وسلامة القميص من أثر عض الذئب ، وتجربة أعمالهم السابقة السالفة مع يوسف وغيره : [بل سولت لكم أنفسكم أمرا] التسويل : تفعيل من السول أي الأمنية . ومعناه تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح بصورة الحسن أي بل زينت لكم أنفسكم أمراً منكرا وهو إفناء يوسف أو ابعاده عن أبويه

بشبهة استيلائكم على أمنياتكم [فصبرٌ جميل] أي فأمري صبر جميل على قضاء الله بدون التشكي إلى الناس وتفويض الأمور داءً ودواءً الى الله تعالى [والله المستعانُ على ما تصفون] أي والله هو الذي يطلبُ منه العون على كشف ما تذكرونه ، أو على الصبر على أكل الذئب ليوسف .
وإنما أحال الأمر إلى الله تعالى مع أن الرضاء بالقضاء وان كان واجبا فالسعي في إزالة المقضي بطريق مشروع أيضا واجب أو مستحب أو مباح ؛ فإن من انكسرت رجله وجب عليه أن يجبر كسرها ، ومن هاجمه العدو استعان بمن ينجيه من العدو ، لأمور منها احتمال أن الله سبحانه وتعالى ألهمه بما استراحت به نفسه من أن يوسف حيٌّ مرزوق ويعود إليه ولو بعد زمان ، كما ذكر بعد بيان يوسف لرؤياه : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث) ومنها أنه أراد وهو رسول من الرسل الدّوام على الصبر في المحنة لزيادة المنحة من الله .
ومنها أنه لو كان يستعين بأتباعه المؤمنين في القضية لكانوا يفتشون أطراف المحل لأثر من آثار جسد يوسف ، وبعد التحقق من أنه لا أثر هناك كانوا يقتلون أولاده المحتالين ، وهم وإن كانوا مبغوضين لسيدنا يعقوب على عملهم المنكر لكنهم كانوا محبوبين على اقتضاء الغريزة الأبوية . ومنها خوفه منهم لو كان يعمل شيئا من هذا القبيل لأنهم بعد ارتكابهم هذه الجريمة كانوا مستعدين لقتل أبيهم وابنه بنيامين وأمه وغير ذلك من المحذورات .
ومنها أنه بما علم من شريعة البيت وكرامة أهله وسعادتهم وصبرهم وتوجيه الأمور إلى الله لم يشأ أن يأتي بأعمال انتقامية حتى يتجاسر أعداؤه بإطالة اللسان وإلقاء الكلمات الفاسدة إلى الناس ، فأراد ان تنطفىء النار في المنار ولا تسري إلى إحراق الدار ، والله أعلم .

(وَجاءَتْ سَيّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ ، قالَ : يا بُشْرى هذا غلامٌ ، وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً ، واللهُ عَليمٌ بِما يَعْمَلُونَ(١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ : دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكانُوا فيهِ مِنَ الزّاهِدِينَ(٢٠) وَقالَ الَّذي اشْتَريهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأتِهِ : أَكْرِمي مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وَكَذلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْويلِ الأَحاديثِ ، واللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٢١) وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ)(٢٢)

قوله تعالى : [وجاءَت سَيّارَةٌ] شروع في بيان ما جرى على يوسف في الجبّ • والسيارة جمع سائر أي مسافر ، سموا بذلك لسيرهم في الأرض وكانوا رفقة تسير من جهة مدين إلى مصر • وكان ذلك بعد ثلاثة أيام مضت من زمن إلقائه • وقيل في اليوم الثاني • والظاهر أن الجبّ كان في طريق سيرهم المعتاد لأن إخوته في القرار الأخير قرروا أن لا يقتلوه ويلقوه في جب ليلتقطه بعض العابرين [فأرسلوا] أي السيارة [واردهم] وهو الذي يرد الماء ويسقي لهم ، وكان ذلك مالك بن زعر الخزاعي • والتأنيث في جاءت والتذكير فيما بعد باعتبار اللفظ والمعنى [فأدلى دلوه] أي فأنزل هذا الوارد دلوه الى محل الماء من الجب ليخرج الماء فلما ملئت ، وأخذ الوارد يرفعها تعلق يوسف ــ عليه السلام ــ بعلاقتها فرفعه معها ، ولما وصلت الدلو الى حافة البئر ومعها يوسف ــ عليه السلام ــ [قال] الوارد : [يا بُشرى هذا غلام] والبشرى : البشارة ونوديت على سبيل الاستعارة ، أو المنادى محذوف أي يا أصحابي بشرى لكم • والغلام الولدُ الطارُّ الشاربِ

[وَأسرّوه بضاعةً] أي أخفاه الواردُ ومن معه مِن سائر القافلة حالكونه بضاعةً لهم أخذوها من بعض الناس ليبيعوه في مصر ، وكان إذ ذاك بيعُ الغلمان معتادا . وقوله تعالى [والله عليم بما يعملون] فيه إشارة إلى الوعيد للوارد وأصحابه على أنهم جعَلوه كبضاعة مُسلمة إليهم ليَبيعوه ، ولم يُعلِنُوا أمره حتى يعلم الناسُ به ويرجعوه إلى أبيه ، لأن المسافة بين البئر والقرية كانت قليلة . أو على أنه ما أظهروه بين الرفقة ليعيش معهم عيشا رغدا في مدة السفر ، أو على أنه قرَعت سمعهم حادثة البيت ، ولكنهم لم يهتموا بها .

[وشرَوْهُ بثمن بخسٍ دراهِمَ مَعدودةٍ] أي ولما وصلوا مصر باع الوارد وأصحابه يوسف ـ عليه السلام ـ بثمن ناقص لا يعبأ به ، وَأبدل عنه دراهم معدودة ، أي والثمن كان دراهم لا دنانير ، وكانت قليلة حيث كانت العادة وزن الكثير وعد القليل [وكانوا فيه مِنَ الزاهدين] أي وكان الوارد وأصحابه من الزاهدين أي الراغبين عنه وعن بقائه في أيديهم . والحاصل أنهم نظروا إليه نظرة السارق للمال المسروق ، وأرادوا خلاصهم منه ولو بثمن تافه وذلك إمّا لإخفائه عن أهل القافلة ، أو لأنهم عرفوا أنه هو ولد يعقوب ـ عليه السلام ـ وأنه لو بقي عندهم لأمكن أن يعرفه بعضُ الناس ويقعوا في بعض محنة وبلاء . وبعد بيعه بذلك الثمن البخس أخذه المشتري وَعرَضه للبيع في السوق ، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ وزنه مِسكا ، ووزنه وَرِقاً ، ووزنه حريراً ! فاشتراه العزيز الذي كان على خزائن مصر ، أي مثل وزير المالية في عصرنا هذا واسمه (قطفير) .

[وقال الذي اشتريه من مصر] أي هذا العزيز الوزير على المالية ، فهذه الصفقة غير الصفقة السابقة ، وذلك لأمرين : الأول أن الأولى كانت بثمن بخس وهذه كانت بمال محترم . والثاني: أنه لوكانت عين الأولى لم تبق لقوله

(من مصر) فائدة كثيرة ، لأنّ القافلة وردت مصر ، وكان البيع الاول هناك بلا شبهة ، وكان الملك يومئذ الريّان ابن الوليد العمليقي ، وآمن بيوسف ـ عليه السلام ـ ، ومات في حياته فملك بعده قابوس ابن مصعب فدعاه إلى الإيمان فأبى [لامرأته] وهي راعيل بنت رعابيل المشهورة بزليخا على هيئة المصغر ، ومقول قوله [أكرمي مثواه] أي اجعلي محلّ ثوائه وإقامته كريماً حسَناً مرضيا ، وذلك كناية عن إكرامه ، إذ المقصود أحسني تعهّده والنظر في شؤونه [عسى أن ينفعنا] أي في قضاء حاجاتنا ورعاية مصالحنا [أو نتخذه ولدا] أي نتبناه ونقيمه مقام الولد ، لأنه كان عقيما وذلك لِما تفرس فيه من الرشد والكمال ، علاوةً على حسن الصورة والجمال . ولذلك قيل : أفرسُ الناسِ ثلاثة : عزيزُ مصر حين تفرس في يوسف وقال لامرأته أكرمي مثواه ... الآية . وابنة شعيب حين تفرست في موسى الأمانة علاوةً على قوته في رفع الحجر ووضعه على رأس البئر . وابو بكر الصديق حين تفرس في عمر العدلَ والقوة والأمانة واستخلفه .

[وكذلك مكنا ليوسف في الأرض] أي وكما مكنا ليوسف في قلب العزيز حتى وصى امرأته بإكرامه واحترامه مكنا ليوسف في أرض مصر في أيامه [ولنعلمه من تأويل الأحاديث] عطف على مقدر مفهوم ، أي ليتصرف فيها بالأخلاق العالية ونعلمه من تأويل الأحاديث من تعبير الرؤى أو ادارة أمور الناس ورعاية العدالة وفهم أسرار الكتب ووقائع العالم [والله غالب على أمره] أي امره المراد له أن يحققه فلا يمنعه عنه أحد ، ولا ينازعه في ما يريد [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أن الأمر كذلك [ولما بلغ أشُدّهُ] أي بلغ زمان انتهاء اشتداد جسمه وهو ما فوق خمسٍ وثلاثين الى غاية أربعين [آتيناهُ حكماً] الحكم يكون بمعنى الحكمة وهو في لسان الشرع العلم النافع لكن بشرط العمل ويضعفه قوله [وعلما] والظاهر أن المراد

بالحكم نفوذ الأمر حين جعله الملك مأمورا على خزائن الأرض ، وبالعلم علم النبوة والرسالة وفهم إدارة الأمور وشؤون الناس ، وتعبير الرؤى وسياسة المدن • وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن الحكم النبوة ، والعلم الشريعة ، وتنكيرهما للتفخيم ، أي حكما وعلما لا يقدر قدرهما [وكذلك نجزي المحسنين] أي مثل ذلك الجزاء الجميل نجزي الذين يحسنون أفكارهم وأعمالهم ، فإن وصلوا فيهم الى درجة استحقاق النبوة والرسالة أعطيناهم ، أو الى درجة المحبة والولاية أوليناهم ، أو إلى درجة صفاء القلب والأخذ باللب أصفيناهم • وفوق كل درجة درجة ، ولا ينافي ذلك أن النبوة موهوبة لا مكسوبة لأن الحصول على الإحسان في تلك الدرجات ليس على منهاج اكتسابي مقرر لنيلها إنما هم يحسنون ، والله يجزيهم على إحسانهم بالإحسان •

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ ! قَالَ : مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ(٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ : ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ؟(٢٥) قَالَ : هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا : إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ

قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، قَالَ : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ انَّ كيدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ)(٢٩)

[وراودته التي هُوَ في بيتها] والمراودة المطالبة لأمرٍ ما برفقٍ ولطف من راد يرود إذا رَفَقَ • والموصول وصلته لإفادة وصول يوسف ـ عليه السلام ـ إلى قمة العفة والكرامة لأن مراودة امرأة معروفة بالجمال مع شاب في باكورة الشباب والإقبال في بيت مختص بها لا يدخلها غير من أرادت دخوله فيها بأمر من مقتضيات الغريزة الإنسانية مع صيانة المقابل للعفاف •• أمرٌ فوق طور المدح بالاوصاف ، أي وطالبته بغاية الرفق واللطف والدلال المرأة التي هو في بيتها [عن نفسه] ومن أجل الوصول الى المأمول من نفسه [وغلقت الأبواب] بناء الباب للتكثير أي غلقت أبواب جميع الغرف والمجازات حتى لا يرد عليهما أحد [وقالت : هيت لك !] أي ولما غلقتها وسدت الطرق واطمأنت بالخلوة قالت ليوسف ـ عليه السلام ـ: هَيْتَ لك أي أسرع في المجيىء ، فهي اسم فعل أمر مبني على الفتح كأين [قال : معاذ الله] منصوب على المصدرية أي قال يوسف ـ عليه السلام ـ في جواب أمرها معاذ الله بمعنى عذت معاذاً مما تريدين مني • وعلله بقوله [إنه ربي أحْسَنَ مثواي] أي أن الله ربي ومولاي ، وأحسن مثواي ، وأكرمني بأن جعلني من بيت النبوة فلا أرتكب ما يخالف دينه • أو أن الشخص الذي أنا في بيته رباني وأحْسَنَ مثواي فلا أخونه ولا أسيىء إلى كرامته • وإذا خالفتُ فقد ارتكبتُ الخيانة [إنه لا يفلح الظالمون] والجملة تعليلٌ بعد تعليل أي أنه أحسن مثواي وجزاءُ الإحسان هو

الإحسان لا الاساءة • ثم قال : إنه لا يفلح الظالمون أي إن ارتكبت ما تطلبين فقد ظلمت نفسي بالعصيان ولا يفلح الظالمون والضمير للشأن •

[ولقد همت به] أي والله لقد همت امـرأة العزيز بمخالطته • قال الأشموني في كتاب الوقف والابتداء : ومثله وهمت به (أي الوقف هنا وقف كاف كما فيما قبله) وبهذا الوقف يتخلص القارىء من شيىء لا يليق بنبي معصوم ، وهو أن يهم بامرأة ، وينفصل من حكم القَسم قبله في قوله (ولقد همت به) ويصير [وهم بها] مستأنفا إذ الهم من سيدنا يوسف منفيّ لوجود البرهان والوقف على برهان ربّه ، إنتهى المقصود نقله •

ولما كانت جملة وهمّ بها مستأنفة منقطعة عما قبلها كانت جوابا لكلمة لولا • والتقدير على الترتيب لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، لكنه رأى البرهان فما هم بها قطعا • وقد ذهب إلى جواز تقديم الجواب على أدوات الشرط الكوفيون وأبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد من أعلام البصريين • ويجوز أن نقول : إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب : أنت ظالم إن فعلت كذا • فيقدرونه إن فعلت كذا فأنت ظالم • والحاصل إنه كان يوجد همه [لولا أن رأى برهان ربه] لكنه رأى برهان ربه فما وجد الهم منه •

وفي البرهان أقوال منها : أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ • ومنها : أنه تمثل له يعقوب عاضّاً على أنامله • ومنها : أنه نزلت سكينة على قلبه الشريف ورهبة ربانية شملت قواه النفسية بحيث لم يبق عنده مجال أي خيالٍ كالولد المعصوم • ويدل على ذلك بوضوح قوله تعالى [كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء] أي فعلنا مثل ذلك التثبيت وأريناه برهاننا لنصرف عنه السوء أي خيانة الرب ، والفحشاء أي الزنا ، ولما كان الفحشاء هو الزنا والسوء خيانة الرب الشاملة لمقدماته من النظر بشهوةٍ ، والقبلة ،

والخلوة المحرمة ، والهم السيىء علِمَ براءته من كل كدرٍ هنا • وأوضح دلالة على نزاهته من الهم وما فوقه قوله تعالى [إنه من عبادنا المخلصين] أي من الذين استثناهم الله تعالى من إغواء الشيطان الذي (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) لأنه نص قاطع دال على أن العباد المخلصين لا يقدر الشيطان على إغوائهم • وقوله تعالى (إنه من عبادنا المخلصين) نص قاطع أيضا يؤكد على أن يوسف ـ عليه السلام ـ من العباد المخلصين ؛ فيرتب برهان من الشكل الأول وهو أن يوسف من العباد المخلصين ، وكل من كان منهم لا يستولي الشيطان عليه ينتج أن يوسف لم يستول عليه الشيطان ، فإذا شهد الباري سبحانه وتعالى بعصمته وبرأته من هم الفساد لم يبق أدنى ريب في قلوب أهل الرشاد • والله الهادي الى سواء السبيل •

ولما تبرأ يوسف من الهم المؤسف وتنازعا فر يوسف من يدها متجها الى الخارج ، وكلما اقترب من باب مغلق انفتح له بسلطان الإله الحق ، وتعقبته المرأة وتمسكت بقميصه من الوراء فقدته فلم يتوقف يوسف ، وهذا هو الذي يقول الباري سبحانه [واستبقا البابَ وقدت قميصه من دبر] أي ركض يوسف الى الباب ليخرج والمرأة اليه لتمنعه وترده وتمنعه عن الخروج حتى لا تفتضح عند الناس [و] بينما هما في هذا الأمر إذ [ألفَيا سَيدها] أي زوجها أي وجد يوسف وامرأة العزيز سيدها أي زوج المرأة [لدى الباب] أي عند الباب الخارجي يريد أن يدخل مع ابن عم لها فبادرت المرأة إلى الكلام شاكية اياه عنده [قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءً] عملا سيئا يستقبحه العقل السليم تعني الزنا [إلا أن يُسْجَنَ أو عذاب أليم ؟] أي ليس جزاؤه إلا أحد الأمرين على طريقة منع الخلو • فكلمة ما نافية ويجوز أن تكون استفهامية ، أي ما الجزاء الذي يليق به ويستحقه إلا أحد الأمرين ؟

وعند ذلك [قال] يوسف ـ عليه السلام ـ دفاعاً عن كرامته وبياناً لبراءته : [هي راودتني عن نفسي] أي طالبتني بالمخالطة بكمال الدقة والحزم ، وقد خالفتها وفررت منها وعقّبتني ، وقدّت قميصي لاسترجاعي [و] عند ذلك [شهد شاهد من أهلها] وهو ابن عمها الذي دخل مع العزيز : [إن كان قميصه قدّ] أي خُرِقَ [مِنْ قبل فصدقت] هي لدلالة القد هنالك على أنه استقبلها بعزم السوء فمنعته وقدت قميصه مواجهة له [وهو من الكاذبين] في دعواه أنها راودته [وإن كان قميصه قد من دبر] دبره [فكذبت] في دعواها [وهو] أي يوسف [من الصادقين] وما فسرنا به الشاهد قول مرجوح لبعض الناس ، والصحيح أن الشاهد كان طفلا رضيعا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته ـ عليه السلام ـ إرهاصا لنبوته ، فقد ورد عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تكلم أربعة في المهد وهم صغار : ابن ماشطة ابنة فرعون ، وشاهد يوسف ، ـ عليه السلام ـ وصاحبُ جريج ، وعيسى ابن مريم عليهما السلام » وتعقّب ذلك الطيبيّ بقوله : يرده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبيٌّ كان يرضع أمّه فمرّ راكبٌ حسنُ الهيئةِ فقالت أمُّه : أللهم اجعل ابني مثل هذا ! فترك الصبي الثدي وقال : أللهم لا تجعلني مثله » إنتهى .

وردّه الجلالُ السيوطي فقال : هذا منه على جاري عادته من عدم الإطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، وصححه من حديث ابن عباس ، ورواه الحاكم أيضا من حديث أبي هريرة وقال : صحيحٌ على شرط الشيخين ، وفي حديث الصحيحين المشار اليه آنفا زيادة على الأربعة

« الصبي الذي كان يرضع من أمه فمر راكب" الحديث ... » فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ففي صحيح مسلم تكلم الطفل في قصة أصحاب الأخدود .

[فلما رأى] السيدُ بعد شهادة الشاهد [قميصه قُدَّ من دُبُر] اطمأن قلبه بهذه الشهادة القدسية الخارجة عن عادة الناس بشهادة أهل البلوغ والعقل ، وعن قاعدة الحاكم بعدم الاكتفاء بشهادة أقل من النصاب التي تحول السامع إلى درك الحقيقة كما هي وتطمئن النفس بإخبار القدس و [قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم] فإنه أعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس لامتزاج داعية المقال بداعية الجمال . وقال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان ، فإنه تعالى يقول : (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) ويقول في النساء : (إن كيدكن عظيم) ولأن الشيطان يكيد بالخيال والنساء تكيد بالجمال ، وكم من العوائل ابتليت من النساء بالغوائل دينا وأدبا ، وعقيدة ومذهبا ؟! وإذا استولت فكرة على ربة البيت استولت منها على صغار أولادها وبناتها ، ورب البيت مجبور ومغمور ، وتفصيل ذلك في التواريخ مسطور .

[يوسف] مُنادىً بحذف الحرف أي يا يوسف [أعْرِض عن هذا] واكتمه وليبقَ سِرا عندك [و] يا مَرأة [استغفري لذنبك] الثابت عندي بالشهادة التي اطمأن بها قلبي وبما رأيت من العلامة عليه [إنك كنت من الخاطئين] أي من القوم المتعمدين للخطأ بمعنى الجريمة .

(وَقالَ نِسْوةٌ في الْمَدِينَةِ : امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتيها عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَها حُبّاً ، إنّا لَنَرىها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ، وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ،

وَقَالَتِ : اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وَقُلْنَ : حاشَ للهِ ما هذا بَشَراً ! إِنْ هذا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ(٣١) قَالَتْ : فَذلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّنِي فيهِ ، وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصّاغِرِينَ(٣٢) قالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ(٣٣) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٣٤)

[و] لما جرى ما جرى ظهر الأمر وانكشف السر واشتهر بين الناس [قال نسوةٌ في المدينة] على سبيل العادة في اغتياب الناس : [امرأة العزيز تُراودُ فَتيها عن نفسه] أي تطلب موافقته إياها في ما تريده من المؤانسة والمجالسة [قد شَغَفَها حُبّاً] أي شَقَّ حُبه شِغاف قلبها ، وهو جلدة رقيقة يقال لها : لسان القلب [إنا لنراها في ضلالٍ مبين] إذا نظرنا إلى الضلال وهو أمر معنوي لا يرى بالبصر قلنا : إن الرؤية هنا علمية ، وإذا نظرنا الى إرادة علاملت الضلال من المحلورة مع الفتى ، وإظهار الأمور المشبوهة ، وهي ترى ، قلنا : إن الرؤية بصرية ، وهذه أيضا لا تخلو عن المجلز لأن تلك النسوة ما رأين تلك المقدمات ، ووجه قولهن إنا لنراها في ضلال مبين واضح أنه لا يجوز ولا ينبغي للحرة العاقلة اقتحام أمر هائل مشبوه بدون سبق مقدمات مُعدّة ، فكان الواجبُ عليها وهي امرأة العزيز أن تدلل معه وترتب المقدمات إلى أن تعلم علما قطعيا أنه يوافقها في ما تريده ، وعند ذلك ما كانت تقع في هذه المشكلة ، وأما إذا وجدته في مدة دوامه في

البيت مؤدبا مهذبا أمينا وقورا لا يدخل في ما لا يعنى ولا يرتكب ما لا يناسب قدره وعنده الإطمئنان النفسي •• فواجبها أن لا تميل إلى مثل ذلك العمل من غلق الأبواب وتهيئة الأسباب حتى تقع في ما وقعت فيه •

[فلما سمعت بمكرهن] أي باغتيابهن وسوء مقالتهن أقدمت على عمل معهن حتى يرين من يوسف ـ عليه السلام ـ من الكمال والجمال وحسن الصورة والسيرة ما يبرر توريط زليخا في ذلك الشأن الخطير ولذلك [أرسلت إليهن] تدعوهن إلى البيت ، فدعت صاحبات المقالات السابقة مع جماعة اخرى [وأعتدت لهن مُتَّكَأً] يتكئن عليه من النمارق والوسائد [وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنهُنَّ سِكيناً] لتستعمله في قطع ما يقدم بين أيديهن من المواد المحتاجة إليه ، وغرضها من ذلك أن يقع منهن عمل لا يناسب صاحب الشعور الكامل لتبكيتهن بالحجة ، وقدمت إليهن المواد التي تقطع وتؤكل كالنارنج وأمثاله [وقالت] امرأة العزيز ليوسف ـ عليه السلام ـ عند ذلك [اخْرُجْ عَليهن] وذلك ليَرَيْنَهُ بجمال صورته فيشغلن به عن أنفسهن ، [فلما] خرج و [رأينه ، اكْبَرنَهُ] أي أعظمنه ودُهِشْن بجماله [وَقَطعْنَ أيديَهُنَّ] جرَحْنَها بما في أيديهن مِنَ السكاكين لخروجهن عن الحال الطبيعي ، وعدم تمييزهن بين أيديهن والمواد المأكولة [وقلنَ : حاشَ لله] حاشَ حرف وضع للاستثناء وأصله حاشا اللهِ ، وكانت دالة على الاستثناء والتنزيه معاً ، ثم نقل وجعل اسماً للتنزيه وتجرد عن معنى الاستثناء ، ولم ينون مراعاة لأصله فإن الحرف لا تنون ، وزيدت اللام على الجلالة للبيان ومعناه تنزيها لله تعالى عن العيب والاعتراض إذا خلق البشر كالملك لكن [ما هذا بشرا] فإن هذا الجمال لم يعهد في نوعه [إن هذا إلا ملك كريم !] أي ما هذا إلا ملكٌ شريف مُحَلّىً بالمحاسن خَلقاً وخُلقاً •

[قالت] أي امرأة العزيز : [فذلكنّ الذي لمتنني] فيه أي فإذا أدركتن جمال صورة هذا الغلام الخارج عليكن وشعرتن بما عرضت عليكن من الحيرة والدهش فهو الذي لمتنني فيه وفي الافتتان به ومراودته وعيّرتنني في التعلق به [ولقد راودته عن نفسه] أي ولا أكتم منكن ما في قلبي من الارتباط به والله لقد راودته ، وتحايلت بكل نوع معه [عَنْ نفسِهِ] أي للاستيلاء على نفسه [فاستعصم] وأخذ بعصمته على أبلغ وجه [ولئن لم يفعل ما آمره] في مستقبل الأوقات . وآمر صيغة المضارع للمتكلم وحده من الباب الأول خفف بقلب الهمزة الثانية ألفا [ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين] الفعلان واقعان في جواب القسم المدلول باللام الداخلة على كلمة الشرط ، والأول مضارع مجهول مؤكد بالنون الثقيلة ، والثاني معلوم مؤكد بالنون الخفيفة ، والضميران راجعان إلى يوسف ، والفعل الأخير مكتوب بالألف على قاعدة الوقف عليه بالألف ، إذ الاصل في كل كلمة أن تكتب أولها بتقدير الابتداء وآخرها بتقدير الوقف . والصاغر هو الذليل المهان .

ولما سمع يوسف كلامها الكاشف عن سرها وسترها وأنه أعلنت بما في قلبها وبما تفعله عند المخالفة دعا ربه و [قال : ربِ السجنُ أحبّ إليّ] أي يا رب السجنُ الذي توعدتني بالحبس فيه على تقدير مخالفتي لها أحب إليّ [مما يدعونني إليه] أي من ارتكاب العمل الفاحش الذي يدعونني إليه ؛ لأن عذاب السجن إما مؤقت أو مستمر إلى موتي ويأتي بعده الثواب . وأما العمل المشئوم المطلوب منّي فيورثُ عذاباً شديداً في الآخرة وعاراً وعيباً على بيت النبوة في الدنيا . والفعل لجمع المؤنث ، والواو لام الكلمة ، وإسناد الدعوة إليهن بلعتبار قبولهن لمعذرتها ،أو أمرهن ليوسف

بموافقتها كما روي ذلك . ولعله كان في ذلك العصر نوع من الاستهتار وعدم الاعتبار بالشرف والأعراض ، وإلا لم يقبل منها تلك المعذرة السابقة ولا هذا الوعيد اللاحق [وإلاّ تَصْرِفْ عني كيدهُن أصْبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين] أي وإلا تدفع عني كيدهن وحيلتهن بالدلال وعرض محسنات الجمال وذلك بالتبعيد عنهن بحيث لا يصلن إليّ أصب إليهن وأمل إلى ما يملن إليه بمقتضى الطبيعة البشرية وحكم القوة الشهوية ، وأكن من الجاهلين أي الذين لا يعملون بما يعلمون ؛ لأن من لا رادع له من علمه عن فساد عمله فكأنه لا علم له ، وسلك على موجب جهله . وهذا الدعاء فزع منه إلى الله تعالى طلبا للعفة جريا على سيرة الأنبياء والمرسلين في حصر الحول والقوة في الله ، لا أنه يطلب الإلجاء إلى عدم وقوع الفساد مع أن في قلبه داعية إليه ، وإلا لو كان كذلك لما جرى فإن الأنبياء معصومون من الكبائر والعزم عليها قبل النبوة ، كما أنهم معصومون بعدها . [فاستجاب له ربه] أي أجاب له إجابة أكيدة ، وألهم أهل المرأة سجنه كما قال [فصرف عنه كيدهُنّ] بأن ثبته على العِصْمَة وحال بينه وبين المعصية [إنّه هو السميع] لدعاء المتضرعين [العليم] بأحوال الراعين لحقوقه .

(ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتّى حِينٍ(٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ ، قالَ أَحَدُهُما : إنّي أَراني أعْصِرُ خَمْراً ، وقال الآخَرُ : إنّي أَراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نبِّئْنا بِتَأْويلِهِ إِنّا نَريكَ مِنَ المُحْسِنينَ(٣٦) قالَ : لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْويلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ، ذلِكُما مِمّا عَلَّمَني رَبّي ، إنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَهُمْ

بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهِيمَ وَإسْحقَ وَيَعْقُوبَ ، ما كانَ لَنا أنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شيْءٍ ، ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا ، وَعَلَى النّاسِ ، وَلكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٣٨) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أأرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ؟!(٣٩) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ أسْماءً سَمَّيْتُمُوها أنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ، ما أنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إنِ الْحُكْمُ إلاّ للهِ ، أمَرَ أنْ لا تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ ، ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلكِنَّ أكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(٤٠)

قوله تعالى [ثم بدا لهم مِنْ بعدِ ما رَأوا الآيات] يعني ثم ظهر للعزيز وأشياعه من أهل الرأي بعدما رأوا الآيات البينات الشاهدة ببراءة يوسف وبمراودة المرأة له ، وبعد أن قرع أسماعهم أنها دَعَتِ النسوةَ إليها وأمرت بخروج يوسف وما جرى بينهن من كلمات المرأة ، وبيانات النسوة ، أنه إذا بقي يوسف يتجدد العيب والعار ، وإخراجه وبيعه لبعض التجار يوجب نشر المخازي في الديار ، وأن الطريق الأقوم الأسلم أن يسجنوه مدة حتى يهدأ الحال ويتقلل المقال . وقوله تعالى [ليسجننه] بصيغة جمع المذكر الغائب المصدر بلام التأكيد جواب للقسم المستفاد من قوله (بدالهم) لأن العرب تجري تلك الجملة مجرى القسم . وقال بعض : إن اللام في ليسجننه موطئة لقسم محذوف ، والجملة في محل النصب مفعول لقول محذوف ، والتقدير : ثم ظهر لهم سجنه قائلين : والله ليسجننه [حتى حين] وهو سبع سنين كما هو المشهور ، فأرسلوه إلى السجن .

[وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَان] غلامان للملك أحدهما مأمور طعام ، والآخر مأمور سقيه اتهما بإرادة تسميم المطعوم والمشروب لقتل الملك ، وبقوا في السجن زمانا ، واتفق أن كلا منهما رأى رؤيا . ولما كانا مرتاحين من صحبة يوسف في تلك المدة واعتقدا فيه الفراسة والعلم بالتعبير .. جاءا إليه لحكاية الرؤيا له وأخذ تعبيرها [قال أحدهما] وهو الشرابي : [إني أريني] أي رأيتني في المنام [أعصر خمرا] أي عنبا . روي أنه قال : رأيت جملة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد عنب ، فكنت أعصرها وأسقي الملك . وكلمة خمرا مجاز مرسل بعلاقة الأولِ [وقال الآخر] وهو الطعامي : [إني أريني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه] روي أنه قال : رأيت أني أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسي ثلاث سلال فيها خبز ، والطير تأكل من أعلاه [نبئنا بتأويله] أي أخبرنا بتعبيره الذي تؤول إليه [إنا نريك من المحسنين] تعليل لطلب التعبير منهما . والمراد من المحسنين لتعبير الرؤى أو من أهل الإحسان وصفاء القلب وهم غالبا أصحاب فراسة وفهم لإدراك الأسرار .

[قال] يوسف ـ عليه السلام ـ : [لا يأتيكما طعام ترزقانه] أي لا يأتيكما طعام مما قرر للسجناء ترزقانه وصار رزقا لكما وتأكلانه [إلا نبأتكما بتأويله] أي بإيضاحه وبيان مادته وكميته وكيفيته [قبلَ : أنْ يأتيكما] والمراد بالتأويل الإيضاح والبيان لا تفسير المشكل . وإنما قال ذلك مع أن فيه دعوى اختصاصِه بالمزايا الروحية وكشف الأشياء الخفية للتحدث بنعمة الباري سبحانه وتعالى وإعدادهما لطلب الإيمان منهما بالله الواحد الأحد ، فإن الطالب إذا كانت عنده الخوارق اعتبر من الصادقين وأجيب إلى مطلوبه [ذلكما مما علمني ربي] جواب لسؤالهما حيث قالا بعد ما قال الكلام الهام : من أين لك هذا ، وأنت لست بكاهن ولا منجم ؟ فقال : ذلكما مما علمني ربي بالوحي أو بالإلهام . واقتصر بعض على الأول

واستدلوا به على أنه ـ عليه السلام ـ كان في ذلك الوقت نبيا ، ولما كان كلامه ذلك بعيدا من مستوى أفكارهما وكيف يوحى إلى إنسان كذلك بدون وجود أتباع له قال [إني تركتُ ملة قوم لا يؤمنون بالله] أي إني رفضت دين قوم كفار مشركين بالله تعالى [وهم بالآخرة هم كافرون] خاصة دون باقي الأمة من الكنعانيين الذي هم على ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ [واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب] أي وأنا ثابت مستقيم على دين التوحيد الذي جاء به آبائي إبراهيم ، وإسحق ابنه ، ويعقوب حفيده وهم من الرسل الكرام [ما كان لنا] معاشر الأنبياء المكرمين من الله تعالى المأمورين بتبليغ الأوامر الإلهية ونواهيه إلى العباد لتثقيفهم وتوجيههم إلى الله الواحد الواجب الوجود المعبود [أن نشرك بالله من شيء] جامدٍ أو نامٍ ، حيوانٍ أو إنسان فإنه لا يليق بالعقل الإنساني أن ينحط إلى درك يُعتبر فيه المناسبة بين الخالق والمخلوق وبين الواجب والممكن [ذلك] الدين والتوحيد [من فضل الله علينا] ومن تأييده ومواهبه الإلهية حيث خصنا برسالته [وعلى الناس] حيث جعلنا وسائط إرشادية لتبليغ الحقائق ، وتنوير القلوب ، وبث محاسن الاعتقادات والأعمال والأخلاق فيهم [ولكن أكثر الناس لا يشكرون] الله بتوحيده حتى يجعلوه مبدأ ومصدرا للخيرات الواصلة إليهم ، ورافعا للبلايا النازلة عليهم ، وإلا فكيف يكفرون به وبوحدته ؟

ثم بعد بيان ما من الله به عليه ، وإصغائهما له ، وظنه أن كلامه يؤثر فيهم .. بدأ بعبارة رقيقة لطيفة وبعنوان الصحبة التي هي لأهل الأخلاق من موجبات المحبة يعظهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد [قال : يا صاحبي السجن] أي يا صاحبي في السجن العارفين بمجمل أحوالي وحسن جواري أنظروا بعين الاستبصار ، وتفكروا بقلب الاتعاظ والاعتبار [أأرباب متفرقون] متعددون كاللات والمناة والعزى لمشركي العرب في عهد ما قبل

الإسلام ، وكالأصنام المتعددة المنحوتة المنصوبة في المعابد ، أو أرباب متفرقون مختلفو الأجناس من واجب الوجود وممكنه ، أو من الجواهر والأعراض كالنور والظلمة [خير] للعبادة والإطاعة والالتجاء إليه [أم الله الواحد القهار ؟] أي أم الذاتُ الواجبُ الوجودِ الواحدُ القادرُ الغالبُ على كل ما أرادَ ، ولا يُمانَع في أيّ مُراد ، مع أن الكثرة والتعدد في الآلهة إن دل على شيء فإنما يدل على عدم استحقاق أي واحد منها للعبادات ، لأن كلا من أولئك الأرباب إما كامل أو ناقص ، فإذا كان كاملا فالواحد كاف ، وإن كان ناقصا فإضافة النقص إلى الناقص لا يجعل الناقص كاملا ويبقى على نقصه ، والناقص لا يفيد المقصود ، فإن ذاته هو المحتاج إلى الكمال فكيف يورث غيره الكمال مع العلم أن تلك المعبودات المصطنعة ليس لها حظ من الكمال والكرامة قطعا ، وإنما هي مواد جامدة منصوبة ؟ و [ما تعبدون من دونه] أي من دون الله تعالى [إلا أسماء] أي إلا ألفاظا فارغة لا حقائق لها تعبد ، وإنما حقائقها هي المواد المجتمعة من الحجارة والأخشاب وغيرها [سميتموها أنتم وأباؤكم] أي ذكرتموها واعتبرتموها واحترمتموها، وإلا فهي ليست إلا ألفاظا مجردة عن المعنى المقصود . هذا إذا أرجعنا الضمير إلى الأسماء ، وأما إذا أرجعناه إلى مسمياته المستفادة من المقام فالمعنى سميتم أنتم وآباؤكم تلك المسميات الجامدة السافلة بتلك الأسماء الدالة عليها . [ما أنزل الله بها] أي بتلك الأسماء واعتبارها للعبادة أو بمسمياتها والعبادة لها [من سلطان] أي حجة دالة على صحة الاعتبار بها [إن الحكم إلا لله] إن نافية ، والحكم بمعنى القضاء الفعلي أو الخطاب المتعلق بأفعال المكلفين ، أي لا قضاء في شأن العبادة إلا لله ، وقد قضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، أو لا خطاب مع المكلفين في شأن العبادة إلا لله . وخطابه هو اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وقوله تعالى [أمر أن لا تعبدوا إلا إياه] جملة مستأنفة

جواب لسؤال ، وأمر بمعنى قضى وحكم ، أو أصدر الأمر بصيغة الطلب ، وأن مصدرية أي إذا سأل سائل ما هو حكم الله في شأن العبادة ؟ فالجواب : حكم وقضى أن لا تعبدوا إلا إياه ، أو بماذا أمرَ فالجواب أنه أمر بتخصيص العبادة بذاته تعالى . وقال اختصوا ربكم بها [ذلك الدين القيّم] أي الحكم والقضاء بالتوحيد أو الأمر بتخصيصه بها هو الدين القيم الثابت الحق ، وأصل قيّم قويم نقلت الواو الى محل الياء وبالعكس ، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] أن التوحيد هو الدين القيم . لعدم نظرهم إلى المقدمات القطعية التي يؤلف منها برهان التوحيد .

ومنشأ ذلك الوقف عند المحسوسات والمألوفات وذلك بسبب التوغل في الشهوات النفسية ، وهذا بالنسبة إلى الطبقة الأولى . وأما في باقي الطبقات فيضاف إليها رعاية التقليد الأعمى والمشي مع العادة ، ومنها تركز في القلوب عبادة الشمس والقمر وسائر الكواكب والجمادات الأخرى بشبهات واهية أوهن من بيت العنكبوت ، ومنها نشأ الخروج عن الصراط المستقيم وهو الذي كان عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ . وقد يضاف إلى ما ذكر المطامع الدنية للأموال المكتسبة من أصحاب الحيل الأجنبية ولهذا الموضوع أفق عريض طويل أعاذنا الله والمسلمين من كل أمر فاسد دخيل . ثم إن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ بعد إرشاد الصاحبين وتوجيههما إلى الدين القيم أخذ في تعبير رؤياهما وقال :

(يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خمراً ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (٤١) وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُما : اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)(٤٢)

قوله [يا صاحبي السجن] أي يا صاحِبي في السجن [أما أحدكما] وهو الشرابي [فيسقي ربه خمرا] أي فيخلص من السجن ويعود إلى وظيفته السابقة ويسقي سيده خمرا .

روي أنه ـ عليه السلام ـ قال : ما رأيت مِن حَبْلة الكَرْمِ الحسنة عبارة عن الملك ، وأما القضبان الثلاثة ، فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعودُ إلى ما كنتَ عليه [وأما الآخر] وهو الخباز [فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ من رأسه ، قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تَسْتَفتيان] وهو ما تؤول إليه الرؤيا من نجاة الأول وهلاك الثاني . أي قضى به الله تعالى وأبرَمَ الأمر .

[وقال] يوسف : [للذي ظن أنه ناج منهما] والظن هنا بمعنى اليقين كما في قوله تعالى [الذين يظنون أنهم مُلاقوا ربهم] والدليل عليه ما سبق من قوله [قضي الأمر الذي فيه تستفتيان] والمراد بالموصول هو الشرابي . [اذكرني] بما أنا عليه من ضيق السجن واغترابي عن أبي وأمي وانا من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ [عند ربك] الذي تسقيه وتلازمه لعله يترحم عليّ ويأمر بإطلاق سراحي [فأنساه الشيطان ذكر ربه] أي فأنسى الشيطان بإلقاء الوساوس وأمور الدنيا في قلب ذلك الناجي ذكر أوضاع يوسف عند سيده ، فإضافة الذكر إلى الرب للملابسة وهو في التقدير مضاف إلى المفعول وهو الإخبار ، أي فأنسى الشيطانُ ذلك الصاحب الناجي ذكرَ أخبار يوسف عند ربه [فلبث في السجن بضع سنين] أي فمكث يوسف ـ عليه السلام ـ بسبب ذلك الانساء في السجن عددا من السنين ما بين الثلاث إلى التسع . والمشهور أنها سبع سنين . أي فلبث بعد قوله ذلك للشرابي بضع سنين أو صار مجموع لبثه من قبل القول ومن بعده بضع سنين .

(وَقالَ المَلِكُ : إنّي أرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ ، وَأُخَرَ يابِساتٍ ، يا أَيُّها المَلأُ أَفْتوني في رُؤْيايَ ، إنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ(٤٣) قالوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، ، وما نَحْنُ بِتَأْويلِ الأَحْلامِ بِعالِمينَ(٤٤) وَقالَ الّذي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : أنا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْويلِهِ فَأَرْسِلُونِ(٤٥) يُوسُفُ أَيُّها الصِّدِّيقُ أَفْتِنا في سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ، وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ ، وَأُخَرَ يابِسات ، لَعَلّي أَرْجِعُ إلى النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(٤٦) قالَ : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنينَ دَأَباً ، فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ إلاّ قَليلاً مِمّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ، إلاّ قَليلاً مِمّا تُحْصِنُونَ(٤٨) ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فيهِ يُغاثُ النّاسُ ، وَفيهِ يَعْصِرُونَ)(٤٩)

قوله تعالى [وقال الملك] وهو الريّان ، وكان إذ ذاك كافرا ففي إطلاق ذلك عليه دلالة على جواز تسمية الكافر بالملك [إنّي أرى] أي رأيت • وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية [سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ] أي ممتلئات لحما وشحما [يأكلهن سَبْعٌ عجاف] أي سبع بقرات مهزولة جدا [وَسَبْعَ سُنبلات خُضْر] قد انعقد حبها [وأُخَر يابسات] أي وسَبْعَ سنبلات أُخَرَ يابسات قد أُدركت والتَوَتْ على الخضر حتى غلَبَتْها ولم يبق من خضرتها شيىء ظاهر [يا أَيُّها الملأ افتوني في رؤياى] هذهِ ، وبينوا حكمها وعاقبتها • والخطاب إما للأشراف الملازمين له في مجلسه

الخاص من أهل مشورته ، والتعبير هو الانتقال من الصور الخيالية المدركة في الرؤيا إلى الصورة الموافقة للواقع ، أو لعلماء البلد المعروفين بالفراسة وتعبير الرؤى بقرينة قوله تعالى [إن كنتم للرؤيا تعبرون] أي إن صح ما اشتهر عنكم من أن لكم معرفة بالتعبير . وعليه ففي الآية إيجاز الحذف ، أي ثم جمع الملك المعبرين وقال لهم يا أيها الملأ ... [قالوا] في جواب الملك : [أضغاث أحلام] والعبارة من باب لجين الماء أي أحلام" هي كالأضغاث ، أي النبات المختلط بعضه ببعض لا يعرف أصول طاقاته ، ولا يميز بعضه عن بعض ، ومرادهم أن هذه الرؤيا مزدوجة من فروع مختلفة التف واختلط بعضها ببعض ، فلا يميز بينها ، ولا يعرف المقصود منها . والأضغاث : جمع ضِغْثٍ وهو أقل من الحزمة وأكثرُ من القبضة من أخلاط النبات . وفي الكشاف : إن أضغاث الأحلام تخاليطُها وأباطيلُها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان . والأحلام : جمع حلم بضمة وبضمتين : المنامات الباطلة على ما قاله جمع . وقال بعضهم : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم مطلقا . لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيىء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفي الحديث : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان » وقال التورپشتي : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها الشارعُ ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ للفصل بين الحق والباطل ، كأنه . كَرِهَ أن يسمى ما كان من الله تعالى وما كان من الشيطان باسم واحد [وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين] أي بتأويل المنامات الباطلة بعارفين . فكأنهم قالوا : هذه رؤيا باطلة ، وكل رؤيا كذلك لا نعلم تأويلها .

[وقال] الرجل [الذي نجا منهما] أي من الصاحبين من الموت ورجع إلى وظيفته عند الملك [وادكر بعد أمةٍ] أي وتذكر ما سبق له مع يوسف

من ذكره عند الملك بعد مدة كثيرة من الزمان : [أنا أنبئكم بتأويله] أي أخبركم بتأويل ذلك الذي خفي عليكم بالأخذ ممن عنده علم" به لا من تلقاء نفسي [فأَرْسِلونِ] إلى صاحبي السابق الذي كان عنده علم بالتعابير • وضمير الجمع إما لتشريف الملك أو لأنه خاطب القوم الحاضرين عنده الذين خفي عليهم التعبير • وفي الآية : إيجاز حذف أي وأرسلوه فأتاه فقال : [يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبع" عجاف" ، وسبع سنبلات خضر ، وأُخَرَ يابسات ، لعلي أرجع إلى الناس] أي إلى الملك ومن عنده [لعلهم يعلمون] تأويله منك ويعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك وعلمك وأنت باق على هذه الاحوال •

[قال] يوسف ــ عليه السلام ــ في جوابه : [تزرعون سبع سنين دأباً] أي حالكونكم دائبين مستمرين على عادتكم السابقة في الزراعة فهو مال أو زرع دأبٍ وعادةٍ لكم ، فهو مفعول مطلق مجازي [فما حَصدتم] أي في كل سنة [فذروه في سنبله] ولا تذروه حبوبا كي لا يأكله السوس كما هو شأن غلات مصر إذا مَضَت عليها أعوام [إلا قليلا مما تأكلون] في العام فصفوه وكلوه [ثم يأتي من بعد ذلك] أي ذلك العدد المذكور من السنين السبع الخفيفة [سَبْع شِداد"] أي سبع سنين صعاب على الناس لقلة الأرزاق فيها [يأكلن ما قدمتم لهن] أي يأكلن ما ادخرتم لهن [إلا قليلا مما تحصنون] أي تحفظونه لبذور الزراعة [ثم يأتي من بعد ذلك] الزمان المنعوت بما ذكر [عام] أي سنة [فيه يغاث الناس] أي يصيبهم غيث أي مطر ، فالفعل يائي أو فيه يفرج على الناس بإغاثة الباري تعالى لهم بفيض الرحمة من المطر والوسائل الاخرى الاقتصادية [وفيه] أي وفي ذلك العام المبارك [يَعْصرون] الفواكه للمشروبات ، والقصب للسكر ، والزيتون للدهن ، ونحوها •••

(وَقالَ المَلِكُ : ائْتُوني بِهِ ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ : ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسْأَلْهُ : ما بالُ النِّسوَةِ اللاّتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إنَّ ربّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ(٥٠) قالَ : ما خَطْبُكُنَّ إذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ : حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ! قالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ ، أَنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ(٥١) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ ، وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائِنِينَ)(٥٢)

قوله تعالى [وقال الملك] أي وبعدما رجع السفير من عنده بالتعبير الذي اشتم منه عبير العلم والتدبير ، وأدرك من فضله القدر الكثير [ائتوني به] فإنه مما ينبغي أن يدرك ولا يترك ، ويستفاد من علمه وتدبيره [فلما جاءه الرسول] وهو صاحبه الناجي ودعاه إلى حضور الملك كان يوسف ـ عليه السلام ـ ثابتا على قدم التمكين ، ولم يكن عجولا يتحرك لليسار واليمين ، وأراد أن لا يرى الملك إلا مع لباس الأمانة ، والبراءة من كل خيانة ، فلم يذهب و [قال] للرسول : [ارجع إلى ربك] أي سيدك الملك [فاسأله] أن يحقق القضية عن أهل بيت العزيز والنسوة المصريات اللاتي عرفتهن امرأته وراودته أيضا حتى يتبين [ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟] عند خروجي عليهن [إن ربي بكيدهن عليم] وفي هذا الطلب من جانب يوسف ـ عليه السلام ـ غاية قوة القلب والاعتماد على الله وأنه ينصر الحق ولا يدحره ، ويدحر الباطل ولا ينصره ، حيث لم يخف من أن يتكلمن بخلاف الحق فيشتهر بسوء الحال في المآل ، ومع ذلك راعى جانب الأدب ولم يقترح السؤال عن امرأة العزيز ، كما انه لاحظ الخوف من بيانهن لغير الواقع ،

ولذلك قال إنّ ربي بكيدهن عليم . وكان في تدبير يوسف هذا منفعة عظيمه لتطهير ساحته عن الخيانة ، فإن كل من كان في موضع تهمة ونسب إليه شيىء وجد من الناس من يلوثه بتلك التهمة ولو كان بريئا . ولذا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم » وأخرج مسلم من رواية أنس ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه وقال : « هذه زوجتي » فقال : يا رسول الله مَنْ كنتُ أظنّ به ، فلم اكن أظن بك . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

فلما رجع السفير وقدم التقرير أحضر الملك امرأة العزيز مع النسوة المصريات و [قال : ما خطبكن إذا راودتن يوسف عن نفسه ؟] والخطب في الأصل الأمر العظيم ، أي ما هي قصتكن إذ راودتنه . فهل كان هو أساسَ المراودة أو نشأت منكن ؟ وهل كان له إجابة لَكُنّ عندَ المراودة ؟ فاجابت نسوة مصر و [قلن : حاش لله !] تنزيها له وتعجيبا من نزاهته ـ عليه السلام [ما علمنا عليه من سوء] لا في البداية ولا في النهاية والمراد تبرئته بأبلغ وجه . ويستفاد من تقديم قولهن حاش لله تنزيه أنفسهن أيضا عن المراودة لأنهن لو راودنه كان المناسب بعد قول الملك : إذ راودتن يوسف عن نفسه أن يقلن : نحن راودناه ولكن ما علمنا عليه من سوء . ولما جاء دور كلام امرأة العزيز [قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق] أي ظهر الحق وتبين بعد خفاء مّا . وأصله من الحصة أي تميزت حصة الحق عن حصة الباطل [أنا راودته عن نفسه] لا أنه راودني عن نفسي ، وقالت ذلك لتأكيد براءته كما تظهر أيضا من قولها [وإنه لَمِن الصادقين] في قوله عند العزيز هي راودتني عن نفسي [ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد

الخائنين] ذلك من كلام يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي ذلك التثبت والوقوف حتى يسأل الملك النسوة وامرأة العزيز ويجبنه بما أجبن به ، ليعلم العزيز أو ليعلم كل من يهمه الأمر أني لم أخنه ، أي العزيز بالغيب أي غائبا عنه حيث كان في مقر الوظيفة وأنا في داره دار المقامة ، وأن الله لا يهدي كيدَ الخائنين • أي لا يهدي من خان وكاد ، فإن ذلك مكر سيىء ولا يَحيقُ المكر السيىء إلا بأهله •

الجزء الثالث عشر

وَما أُبرِّىءُ نَفْسي ، إنَّ النَّفْسَ لأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إلاَّ ما رَحِمَ ربي ، إن ربِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٥٣)

[وما أبرىء نفسي] أي ولستُ قاصداً بما فعلته تَبرِئَةَ نفسي عن الخبايا والخفايا ، أو أنا بعدما ثبتت براءتي لا أبرىء نفسي ولا أدعي أنه ليس عندها أي رذيلة [إن النفس لأمارة بالسوء] خِلقَةً وفِطرة [إلا ما رحم ربي]أي إلا وقت رحمة ربي أو إلا ما رحمه الله من النفوس . فما على الأول ظرفية مصدرية زمانية ، أي إن النفس لأمارة بالسوء كُلَّ وقت إلا وقت ورود رحمة الباري عليها لحفظها . وعلى الثاني موصولة بمعنى مَنْ ، أي إن نفوس الناس لأمارة بالسوء إلا من رحمه الله تعالى وغمره برحمته فنفسه لا تغلب عليه ولا تأمره بالسوء . [إن ربي غفور رحيم] عظيم المغفرة . فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها وواسع الرحمة ومبالغٌ فيها فيعصمها من الجَرَيان على مُوجَبِ ذلك .

ومما ينبغي أن يعلم أن للفظ النفس وكذا لكل من الروح والقلب والعقل معنيين :

والأول من معنيي النفس : القوة المودعة في الإنسان الجامعةُ لقوة الغضب والشهوة وسائر الرذائل . وهذا المعنى هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الجامع للصفات المذمومة في الإنسان ولابد من مجاهدة النفس وكسرها . وإليه الإشارة بقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أعْدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » وهي بهذا المعنى صفة للروح الإنساني .

والثاني من معنييها : شخص الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى ، فإنها مُبْعَدة عن الله وهي من حزب الشيطان . وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه قال الله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء . قال الله تعالى إخباراً عن يوسف ـ عليه السلام ـ أو امرأة العزيز : [وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء] ويجوز أن يقال : المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول . فإذا النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان ، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

والأول من معنيي الروح جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والبصر والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يُدار في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت الا ويستنير به . والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان . والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه والأطباء إن أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب .

والثاني من معنيي الروح هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان • وهو الذي أراده الله تعالى بقوله (قل : الروح من أمر ربي) وهو أمــر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته •

والاول : من معنيي القلــب هو اللحم الصنوبري الشــكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح الحيواني ومعدنه •

والثاني : من معنييه هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني • وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهــي تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان •

والاول من معنيي العقل أنه العلم بحقائق الأمور فيكــون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب • والثاني أنه المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم له في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه ، والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم ، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك وهو المــراد بقوله ــ صلى الله عليه وســلم ــ : « أول ما خلق الله العقل » فإن العلــم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق ، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ، ولأنه لا يمكن الخطاب معه ، وفي الخبر « أنه قال له تعالى : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدْبِرْ فَأدبَرَ » الحديث ••• فإذا قد انكشف لك أن معاني هذه الأســماء موجودة ، وهي القلب الجســماني والروح الجســماني ، والنفس الشهوانية والعلوم • فهذه أربعة معان يطلق عليهــا

الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الاربعة بجملتها تتوارد عليها . فالمعاني خمسة والالفاظ أربعة ، وكل لفظ أطلق لمعنيين . هذا ما أخذناه من أول الربع الثالث من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ــ رحمه الله ــ ، لتسهيل فهم الآية الشريفة بواسطته .

(وَقَالَ الْمَلِكُ : ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(٥٤) قَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ(٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ : يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)(٥٧)

قوله تعالى : [وقال الملك : ائتوني به أستخلصه لنفسي] أي ولما أحضر الملك النسوة وامرأة العزيز وشهدن على براءة يوسف واعترفت امرأة العزيز بخيانتها .. علم الملك أن في يوسف الأمانة ورعاية حقوق المولى والعفة عن الشهوات النفسية ... ولما علم بتوقفه عن الخروج عن السجن حتى يحقق الملك معهن علم أن فيه صبرا وثباتا ووقارا وحفظا لسمعته من الإشاعات الكاذبة . ولما وقع في قلبه تعبيره للرؤيا علم أن له علما بالتعبير . ولما ذكر في الرؤيا كيفية استخلاص الأمة من السنين المجدبة علم أن له معرفة بكشف الحقائق ، ولياقة بالاستشارة في المهمات ... فعلى تلك المقدمات المهمة قال : ائتوني به أستخلصه لنفسي يكون معي في البلاط الملكي للاستفادة من رأيه ، والانتفاع من أمانته ورعايته وقدرته على إنجاء الأمة من المشكلات المهمة [فلما] أتوا يوسف إليه و [كلمه] أي كلم الملك يوسف وقال : إني أحب

أن أسمع منك تعبير الرؤيا فعبرها له ، واستحسن الملك حسن المحاضرة ، وعرض الموضوع ورأى حسن منطقه وجوابه وحواره [قال] الملك له : [إنك اليوم لدينا مكين] أي ذو مكانة ومنزلة رفيعة و [أمين] أي مؤتمن على كل شيىء من الأسرار والأخبار والأموال ، ولم يرد جعل اليوم ظرفا لمكانته وأمانته بل جعله مبدأ لهما مدة بقائه .

ولما علم يوسف عليه السلام أن بقاءه عنده في البلاط يوجب كثرة الاختلاط وكثرة المنافسة والمناقشة مع الأخلاط ، وأن مجاورة الملوك مهلكة إلا لأصحاب الاستقامة وحسن السلوك ، وأنه لا يحصل منه منفعة عامة للامة حيث أن أموره تنحصر في بعض الاستشارات الخارجية والداخلية ، وخاف على نفسه من أمور لا توافق قدسية أهل بيت النبوة ، وأنه إذا خول إليه أمور المالية نفع الأمة المصرية ، وفي ذلك خير عظيم وفيه جلب لقلب الأمة وتسهيل لأخذ النصائح منه في توحيد رب العالمين [قال : اجعلني على خزائن الأرض] في مبادىء جمعها وصيانتها وتنميتها وصرفها فيما يجب صرفه إليه ، ولما خاف من أن الملك ربما يتوهم أنه لا مقدرة له على حفظها فإن الأموال منبع الأهوال ومطمح الآمال ومعترك الرجال . أو أنه لا يعرف وجوه صرفها فإن الملوك قد يصرفون آلافا في تأليف شخص واحد أو في دفع شرور إنسان فاسد قال : [إني حفيظ عليم] أي قادر على حفظ الأموال ، وعليم بكيفية صيانتها واستثمارها وصرفها . وإنما سأله هذا المنصب مع أن العزيز كان وزيرا للمالية لمصادفة وصوله إلى الملك وفاة العزيز وشغور محله ، ولأنه علم من رؤيا الملك أن الأمة مستقبلة لأحداث هامة ، وأن الغلاء والجدب على وشك الحلول فأحبَّ أن يخدم الحق ويرعى الأمة ويفيد أقطار البلاد المجاورة من الخيرات ، وكان يعلم من نفسه الكفاءة لذلك المقام بحيث يكون انفع من غيره ، وعند ذلك يجوز أو يستحب أو يجب السَّعْي لتحصيل مثل

ذلك المنصب ، وبطبيعة الحال ومعرفة يوسف ـ عليه السلام ـ بالحقائق طلب ذلك المنصب بصورة مستحسنة مستدعية لإجابة الملك وقبول اقتراحه فأمر به وعينه حافظاً لخزائن مصر ، فصار وزيراً للمالية على تعبير أهل عصرنا الحاضر .

روي أن عمر سيدنا يوسف في هذا الوقت كان ثلاثين سنة ، وهو في قوة الشباب ، فزوجه الملك من راعيل (زليخا) امرأة العزيز ، وأخرج الحكيم الترمذي عن وهب قال : أصابت امرأة العزيز حاجة" فقيل لها : لو أتيت يوسف بن يعقوب فسالتيه : فاستشارت الناس في ذلك فقالوا : لا تفعلي فإنا نخافه عليك . قالت : كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله تعالى فدخلت عليه ، فرأته في ملكه ، فقالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته . ثم نظرت إلى نفسها فقالت : الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته ! فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها .

[وكذلك مكنا ليوسف في الأرض] اي ومثل ذلك التمكين البديع العجيب مكنا ليوسف وجعلنا له مكاناً في أرض مصر [يتبوء منها حيث يشاء] أي يستقر ويأخذ الدار والقصور حيث يشاء من البلد أو الضواحي أو على حافة النيل [نصيب برحمتنا من نشاء] بمقتضى حكمتنا ورحمتنا ، [ولا نضيع اجر المحسنين] بالإيمان والصدق والصبر والأمانة والعفة والوفاء ، فلهم أجورهم كاملة غير منقوصة [ولأجر الآخرة خير" للذين آمنوا وكانوا يتقون] الكفر والكبائر ورذائل الأمور .

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا

خَيْرُ المُنْزِلِينَ ؟(٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ(٦٠) قالُوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ : اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قَالُوا : يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخانا نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كما أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ فالله خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (٦٤)

قوله تعالى : [وجاء إخوة يوسف] يعني وجاء إخوة يوسف إلى مصر ، وسبب مجيئهم أنه حلّ بأرض كنعان ، محل يعقوب وأولاده وسائر من حوله ، غَلاء" شديد فقال لأولاده ، ماعدا بنيامين : يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحا يبيع الطعام فاقصدوه بما عندكم من البضاعة لعلكم تشترون منه طعاما يفيدكم في هذه الظروف القاسية ، فجهزوا ما عندهم وقصدوا مصر فوصلوا إليها [فدخلوا عليه] أي على يوسف وهو في مجلس ولايته [فعرفهم] لقوة فهمه [وهم له منكرون] أي والحال إنهم منكرون له لنسيانهم إياه بطول العهد وبُعْدِ مظنة وصُول يوسف إلى هذا المقام الرفيع •

[ولما جهزهم بجهازهم] أي قضى حاجتهم وأصلحهم بما جاؤا له من الحبوب وسائر الأطعمة [قال] لهم يوسف : [ائتوني بأخ لكم من أبيكم] قيل إن طلبه ذلك لأنهم طَلَبُوا منه الطعامَ بقدر عَدَد رؤوس أهل البيت ، وَعدّوا بنيامين ، فقال : ما دام أنتم صادقون في قولكم ذلك فأتوني به لأعرفه ويأخذ حصته وتقعون موقع الثقة مني ، وحرضهم على امتثال أمره

بقوله : [ألا تَرَونَ أني أوفي الكيل] يعني ألا تعلمون أني اعطيكم الطعام المقصود بمعيار واف غير ناقص [وأنا خيرُ المنزِلين ؟] أي خير المضيفين والمحسنين في إنزالكم وضيافتكم [فان لم تأتوني بهِ] أي بأخيكم من أبيكم [فلا كيلَ لكم عندي] في المرة الثانية فضلا عن إيفائه [ولا تَقرَبونِ] بدخول بلادي فضلا عن الإحساس في الإنزال والضّيافة [قالوا سَنرُاود عَنهُ أباه] أي سنخادع أباه ونستميله بكل ما عندنا من اللطف والحيلة [وَإنا لفاعلون] أي لقادرون على ذلك لا نعجز عنه ، أو إنا لفاعلون ذلك بحسب قدرتنا ولا نتكاسل فيه .

[وقال لِفتيانِهِ : اجعلوا بضاعتهم في رِحالِهم] وقال يوسف ــ عليه السلام ــ لغلمانه الكيالين : اجعلوا بضاعَةَ كل واحد منهم ، أي المتاع الذي جاء به ليشتري بمقابله الطعام في رحله ، أي في الظرف الذي على ظهر مركوبه [لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم] أي يعرفون أن البضاعةَ بضاعتهم ومالهم عينه إذا رجعوا إلى أهلهم وفكوا الأحمالَ ، ويطمئنوا بحسن مُعامَلتي معهم في هذه السنة المُجْدِبة والغلاء الفاضح [لعلهم يرجعون] إليّ مع أخيهم من أبيهم ، وأَقضى اشتياقي من أخي الشقيق .

[فلما رجعوا إلى أبيهم] في أرض كنعان [قالوا : يا أَبانا مُنع مِنا الكيلُ] وحكم بمنعه بعد هذه المرة إن لم نذهب بأخينا من أبينا بنيامين حسب أمْرِ الملك [فأرسِل مَعَنا أخانا] بنيامين إلى مصر [نَكْتَلْ] مِنَ الطعام ما نريده [وإنا له لحافظون] مِن أن يصيبه مكروه [قال] أبوهم يعقوب ــ عليه السلام ــ : [هل آمَنُكُم عليه] أي على بنيامين ، والاستفهام إنكاري [إلاّ كما أمِنتُكُمْ على أخيه] يوسف [من قبل ؟!] أي قبل هذا الزمان ، وقد قلتم في حفظه ما قلتم ، ثم صار ما صار ، ومع ذلك لما كان الأمر خطيراً والغلاء بلاءً مَريراً ، أوافقكم على ما تريدون في أن

تذهبوا بأخيكم بنيامين إلى مصر ، وقال [فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين] أي وما دام الأمر كذلك فأرجوا أن يحفظني ربي • ويرحمني في عدم عود مثل مأساة فراق يوسف إلى نفسي لأن الله خير حافظ وهو أرحَمُ الراحمين • وحافظا منصوب على التميز كالمشتق في لله درّه فارسا •

(ولمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليْهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنا رُدَّتْ إلَيْنَا ، ونَمِيرُ أَهلَنَا ، ونَحْفَظُ أَخَانَا ، ونَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (٦٥)

(ولما فتحوا متاعهم) الذي جاؤا به من مصر [وَجَدُوا بِضاعتهم] التي سلموها ثمنا للطعام [رُدَّتْ إليهم] وهي في رحالهم ، ووجَدَ كلٌ بضاعته عنها في رحلهِ ، ولما اطمأنوا بذلك على كرامة الملك ومروته [قالوا : يا أَبانا مانَبغي ؟] أي ما الذي نطلب وراء ما أحْسَنَ إلينا الملك [هذه بِضاعتنا رُدَّتْ إلينا] لنشتري به مثلَ ما اشترينا في المرة الأولى بشرط أن يكون معنا أخونا بنيامين [ونميرُ أهلنا] أي نجلب لهم الميرة وهي طعام الإنسان أي يجلبه من بلد إلى بَلَد [ونحفظ أخانا] بنيامين [ونزداد] بواسطته [كيل بعير] أي مقداراً يحمله البعير وهو وِسقٌ مَن الطعام [ذلك كيل يسير] أي ذلك الذي أخذناه في المرة الاولى مكيل يسير قليل لا يكفي أولادَنا وأضْيافنا •

(قالَ : لَنْ اُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ الله لتَأتُنَّنِي بِهِ ، إلاَّ اَنْ يُحاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ : اللهُ عَلىٰ ما نَقُولُ وَكِيلٌ ' (٦٦) وقالَ : يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ ، وَادْخُلُوا مِن اَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وما اُغْنِي

عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ولَمَّا دَخَلُوا مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضيها ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ : إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بما كانُوا يَعْمَلُونَ) (٦٩)

قوله تعالى : [قال لن أرسله معكم] يعني ان الموافقة التي أبديتها لكم كانت شيئا مبدئيا ولكنه لها شرط ، وعلى ذلك [لن أرسله] أي أخاكم بنيامين [معكم] الى مصر [حتى تؤتون] أي تعطوني [مَوْثِقا من الله] أي ما أتوثق به من جانب الله تعالى [لَتَأْتُنني به] أي والموثِقُ هُو أنْ تَحلفُوا لَتَأْتُنني بهِ [إلا أنْ يحاطَ بكم] أي تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينكَ به إلا أن يُغلَبَ علينا من جانب المخالف ، فلا نقدرَ عَلى ذلك . ولما قال يعقوب ـ عليه السلام ـ ذلك واشترط عليهم ايتاء الموثق والحلف بالله حلف كل منهم حسب ذلك [فلما آتوه موثقهم] وحلفوا بالله تعالى [قال] يعقوب : [اللهُ على ما نقولُ وكيل] أي مطّلع ورقيبٌ [و] لما اطمأنّ الطرفان [قال] يعقوبُ ـ عليه السلام ـ ناصحاً لهم : [يا بني لا تدخلوا] مصرَ [من بابٍ واحد] لأنكم جماعة ذاتُ شأن ، وعَرفَ الناس أن لكم شأنا عند الملك ، فأخاف أن تُصابوا بِعيُونِ الجاسدين [وادخلوا من ابواب متفرقة] حتى لا تُرى لكم الأبَّهةُ الحاصلة من الاجتماع [وما أغني عنكم من الله من شيء] أي ولا أدفع عنكم القضاء من الله من أي قضاء صدر منه ، سواء بالإنزلاق فقط ، أو به وبكسر عضو

منكم ، أو بالقبض عليكم من جانب الحكم ، أو بالقتل ، أو بغير ذلك . فان الحذرَ لا يُغني من القدر لكنا أمِرنا بالحذر حِفظا لنظام سنة الله في الكون ، حيث لا ندري أن في هذا اليوم قضاءً أو لا ، وإلا فاذا كان اليوم يوم القدر فلا يفيد الحذر ، وإلا فلا خطر حتى يُحْذر [إِن الحكمْ] أي ما الحكم مُطلقا [إلا لله] لا يشاركه أحد فيه [عليه توكلت] في صياتني وصياتكم وفي سائر الأمور لا على غيره [وعليه] جلّت قدرته لا على غيره [فليتوكل المتوكلون] أي المريدون للتوكل .

وما ذكر في بيان جهة خوف يعقوب ـ عليه السلام ـ من إصابة أولاده بأثر عين السوء هو الراجح ، فان العين حق كما صح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بزيادة : « ولو كان شيء سابق القدر سَبَقته العينُ ، وإذا اُستُغْسلتم فاغْتَسلوا » . وقد وَردَ أيضا « إن العينَ لتدخِلُ الرجلَ القَبْرَ والجمل القِدْرَ » وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُعَوِّذُ الحَسَنَين ـ رضي الله عنهما بقوله : « أعيذكما بكلمات الله تعالى التامّة من كل شيطانٍ وهامة ، ومن كل عين لامّةٍ » وكان يقول : « كان أبوكما يُعَوِّذ بهما إسماعيلَ وإسحاق ـ عليهم السلام ـ » . وقد ثبت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم أَمَر العائِنَ بالوضوء ، ومن أصيب بالاغتسال . وكيفية ذلك : أن يغسل العائن وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره ، أي ما يلي جسده من الإزار ، ويصب الغسالة على رأس المعين . وقد مر : وإذا استغسلتم فاغتسلوا . وهو خطاب للعائنين أي إذا طلب منكم ما اعتيد من الغسل فافعلوا . والأمر للندب عند بعض . وقال الماوردي تبعا لجماعة : للوجوب . فيجب على العائن أن يغسل ثم يعطي الغسالة للمعين، لأنه الذي يقتضيه ظاهر الامر، ولأنه قد جرب ذلك وعلم البرء به ، ففيه تخليص من الهلاك كإطعام المضطر . وذكر ان ذلك

امر تعبدي . وفي روح المعاني : ولبعضهم في هذا المقام كلام لا بأس بالإطلاع عليه ، وهو أن تأثير شيىء في آخر إما روحاني أو جسماني ، وكل منهما إما في روحاني أو جسماني ، فالأنواع أربعة يندرج تحتها ضروب الوحي والمعجزات والكرامات والإلهامات والمنامات وأنواع السحر والأعين والنيرنجات ونحو ذلك ...

أما النوع الأول ، أعني تأثير النفساني في النفساني ، فكتأثير الباري تعالى في النفوس الإنسانية بإفاضة العلوم والمعارف عليها . ويندرج في ذلك صنفان أحدهما ما يتعلق بالعلم الحقيقي بأن يُلقِيَ إلى النفس المستعدة لذلك كمال العلم من غير واسطة تعليم وتعلم حتى تحيط بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية ، كما أُلقي الى بينا ــ صلى الله عليه وسلم علومُ الأولين والآخرين ، مع أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ما كان يتلو من قبل كتابا ولا يخطه بيمينه . وثانيهما ما يتعلق بالتخيل القوي بأن يلقى إلى من كان مستعداً ما يَقوى به على تخيلات الأمور الماضية والإطلاع على المغيبات المستقبلة . والمناماتُ والإلهاماتُ داخلة في ذلك النوع ، وقد يدخل تحته نوع من السحر وهو تأثير النفوس البشرية القوية التي فيها قوتا التخيل والوهم في نفوسٍ بشرية أخرى ضعيفة هاتان القوتان كنفوس البله والصبيان والعوام الذين لم تقو قوتهم العقلية ، فتتخيل ما ليس بموجود في الخارج موجودا فيه وما هو موجود فيه على ضد الحال الذي هو عليها .

وأما النوع الثاني ، أعني تأثير النفساني في الجسماني ، فكتأثير النفوس الإنسانية في الأبدان من تغذيتها وإنمائها وقيامها وقعودها الى غير ذلك . ومن هذا القبيل صنف من المعجزات وهو ما يتعلق بالقوة المحركة للنفس بأن تبلغ قوتها الى حيث تتمكن من التصرف في العالم تمكنها من التصرف في

بدنها كتدمير قوم بريح عاصفة ، أو صاعقة ، أو زلزلة أو طوفان . وربما يستعان فيه بالتضرع والابتهال إلى الله تعالى كأن يستسقي للناس فيسقون ويدعو عليهم فيهلكون ولهم فينجون .

وأما النوع الثالث ، وهو تأثير الجسماني في الجسماني ، فكتأثير الادوية والسموم في الأبدان ، ويدخل فيه تأثير بعض المركبات في بعض بسبب خواص فيها ، كجذب المغناطيس للحديد ، واختطاف الكهرباء لِلتبن .

وأما النوع الرابع ، وهو تأثير الجسماني في النفساني ، فكتأثير الصور المستحسنة أو المستقبحة في النفوس الإنسانية من استمالتها إليها ، وتنفيرها عنها ، وعد من ذلك تأثير أصناف الأغاني في بعض النفوس ، وتأثير البيان في من له ذوق ، كما يشير إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اِنّ من البيان لسحراً » إنتهى باختصار على المقصود .

[ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم] من الأبواب المتفرقة من أبواب سور البلد [ما كان] ذلك الدخول [يغني عنهم من الله] أي من جانبه سبحانه وتعالى [من شيء] مما قضاه سبحانه [إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها] استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفس يعقوب ـ عليه السلام ـ وهي شفقته ورحمته الأبوية وحِرازته من أن يُصابُوا بالعين قضاها وأظهرَها . وجوز الطيبي كونَ الاستثناء متصلا على أنه من باب :

ولا عيب فيهم غيرَ أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

فالمعنى ما أغنى عنهم ما وصاهم به أبوهم شيئا إلا شفقته التي في نفسه ، ومن الضروري أن شفقة الأب مع قدر الله تعالى كالهباء ، فإذن ما أغناهم شيئا أصلا .

واعترض بأن الغرض لم يكن إلا دفع اصابة العين عنهم ، وقد حصل بدخولهم متفرقين ، فكيف يقال ما كان يغني عنهم من الله من شيئ ؟ وأجيب بأن المراد بدفع العين أن لا يمسهم سوء" مّا ، وإنما خصت إصابة العين لظهورها . وقد أصابهم شر آخر لم يخطر بباله كجعل السقاية في رحل آخيه وإخزائهم في وجدانها فيه ، واضطراب قلوبهم من ذلك ، فلم يفد دفع ما خافه شيئا . وحينئذ يدعي أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم كان مفيدا لهم من حيث أنه دفع العين عنهم إلا أنهم لما أصابهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك مع أخيهم بوجدان الصواع في رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم .. لم يعد ذلك فائدة فكأن دخولهم لم يفدهم شيئا .

والحق إن الإنسان مأمور بأن يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لا يصل إليه إلاّ ما قدره الله ، وأن الحذر لا يغني من القدر ، فإن الإنسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة والأغذية الضارة ، ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الإمكان ، ثم إنه مع ذلك ينبغي أن يكون جازما بأنه لا يصل إليه إلا ما قدره الله تعالى ، و لايحصل في الوجود إلا ما أراده الله . فقوله تعالى : (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) إشارة إلى رعاية الأسباب المعتبرة في هذا العالم ، وقوله : (وما أُغْني عنكم من اللهِ من شيئ) إشارة إلى عدم الالتفات إلى الأسباب وإلى التوحيد المحض والبراءة من كل شيئ سوى الله تعالى .

وقول القائل : كيف السبيل إلى الجمع بين هذين القولين فهذا السؤال غير مختص به ، وذلك لا نزاع في أنه لابد من إقامة الطاعات والاحتراز عن المعاصي والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقى في بطن أمه فكذا هنا نأكل ونشرب ونحترز عن

السموم وعن الدخول في النار مع أن الموت والحياة لا يحصلان إلا بتقدير الله تعالى ؟ فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام بل هو بحث عن سر مسألة القدر والجبر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة ، وبعد ذلك السعي البليغ والجهد الجهيد فإنه يعلم أن كل ما يدخل في الوجود فلابد أن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته .

قال الامام حجة الإسلام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في باب التوكل في الجزء الرابع من كتابه إحياء علوم الدين : إعلم أن الضرر قد يَعْرِض للخوف في نفسٍ أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأسا ، أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المَسْبَعَة أو في مجاري السَّيل من الوادي ، أو تحتَ الجِدار المائل والسقف المنكسر ... فكل ذلك منهي عنه وصاحبُه قد عَرّض نفسه للهلاك بغير فائدة .

نعم تنقسم هذه الاسباب الى مقطوع بها ومظنونة والى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتُها إلى دفع الضرر نسبة الكيّ والرقية . فإن الكيّ والرقية قد يقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع . وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة . ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكيّ والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خَرَجوا الى موضع بارد لم يَلبَسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الأسباب . نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهييجا لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها ، فيكاد يقرب من الكيّ بخلاف الجبة .

ولترك الأسباب الدافعة ، وإن كانت مقطوعة ، وجه إذا ناله الضرر من انسان ، فانه إذا أمكنه الصبرُ وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل

الاحتمال والصبر قال تعالى : (فاتخذه وكيلا • واصبر على ما يقولون) وقال تعالى : (ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال عز وجل : (ودع أذاهم وتوكل على الله) وقال سبحانه وتعالى : (فاصبر كما صبَرَ أولو العزم من الرسل) وقال تعالى : (نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) وهذا في أذى الناس • وأما الصبر على أذى الحيّات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء اذ لا فائدة فيه ، ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانته على الدين ، وترتب الأسباب هنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالإعادة ، وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ، ولا بأن يُعْقَل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعا وإما ظنا • ولذلك قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ للاعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله : « أعْقلها وتوكّل » وقال تعالى : (خذوا حِذْرَكم) وقال في كيفية صلاة الخوف : (وليأخذوا أسلحتهم) وقال سبحانه : (وأعِدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وقال تعالى لموسى ــ عليه السلام ــ (فَأسر بعبادي ليلا) والتحصن بالليل اختفاء" عن أعين الأعداء ونوعُ تَسببٍ واختفاءُ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الغار اختفاء" عن أعين الأعداء دفعا للضرر ، وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب ، فإنه دافع قطعا ، ولكن أخذ السلاح سبب مظنون • وقد بَيَّنّا أن المظنون كالمقطوع وإنما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه •

فإن قلت : فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ! فأقول : وقد حكي عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه • فلا ينبغي أن يغرك ذلك المقام ، فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح

للاقتداء بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك شرطا في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها • إ نتهى بنصه فاحفظه ، فإنه نافع جدا •

[وإنه] أي يعقوب [لذو علم] جليل موافق للواقع [لما علمناه] أي لتعليمنا إياه بالوحي والإلهام ونصب الأدلة على أن الحذر لا يغني من القدر [ولكن أكثر الناس] أي من عدا من علمناه [لا يعلمون] هذه الحقائق •

[ولما دخلوا] أي أولاد يعقوب [على يوسف آوى إليه أخاه] أي ضمه إليه وأسكنه معه [قال] أي يوسف لبنيامين : [إني أنا أخوك] يوسف [فلا تبتئس] ولا تحزن [بما كانوا يعملون] أي في الزمان الماضي من الجور والغدر معنا • أو لا تحزن بما أنا سأعاملهم به ، فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقت ليمكن لي ردك بعد تسفيرك معهم ، وهم يتكلمون بعض الكلام ويعملون بعض الأعمال فلا تهتم بهم •

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ، جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ !(٧٠) قَالُوا : وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا : نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ(٧٢) قَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ! (٧٣) قَالُوا : فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟(٧٤) قَالُوا : جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ

عَلِيمٌ (٧٦) قالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ ، مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ ، قَالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (٧٧)

قوله تعالى : [فلما جهزهم بجهازهم] أي فلما وفى لهم الكيل وأعطاهم ما أرادوه كاملا غير منقوص [جَعَلَ السقاية] وهي إناء يشرب به الملك وبه كان يكال للناس . وقيل : كانت تسقى بها الدواب ، ويُكال بها للحبوب ، وكانت من فضة مرصعة بالجواهر [في رحل أخيه] بنيامين من حيث يدري أو لا يدري [ثم أذن مؤذن] بعد ارتحالهم من محل الاكتيال ، ونادى بملء صوته : [أيَّتُها العيرُ إنّكم لسارِقون !] والعيرُ الإبل التي عليها الأحمال ، سُميت بذلك لأنها تعير أي تذهب [قالوا ، وأقبلوا عليهم : ماذا تَفقِدون ؟] أي قال إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ والحال إنهم أقبلوا بوجوههم وصدورهم على المؤذن وزملائه إقبالَ رجال أُمَناء كرماءَ لا خائنين لئاماً وذلك لصفاء صدورهم اذ ذاك من غبار الغباوة والخيانة .. ماذا تفقدون ؟ أي ما الذي ضيعتموه وتسعَوْنَ وراءه لتجدوه [قالوا] أي المنادي ومن معه [نفقِدُ صُواعَ الملك] أي مكياله الذي يكتال به للناس [ولمن جاء به] إلينا من عند نفسه أو غيره [حِملُ بعير] جَعالةٌ له في مقابلة ذلك [وَأنَا به زعيم] أي وأنا به كفيل خاص يطلبه مني إذا جاء به . وذلك من كلام المنادي .

[قالوا] أي إخوة يوسف : [تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض] التاء حرف قسم وأصل برأسه ، وقيل بدل من الباء ، لأنه الأكثر استعمالا فيه ، وقيل من الواو كما في تراثٍ وتقوى . أي قالوا لهم في تبرئة أنفسهم من الموضوع : نقسم بالله أنا ما جئنا لمباشرة الخيانة التي هي بذرة الفساد في الأرض ، ولاسيما السرقة التي تجمع إلى الخيانة دناءة الطبع [وماكنا]

سابقا من مبادىء نشوئنا ولا من ديدن آبائنا [سارقين] متعودين على هذه الرذيلة [قالوا : فما جزاؤه] أي فما جزاء الكيل وأخذه على وجه الخيانة [إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه مَنْ وُجِدَ في رَحْلِهِ] أي أخْذُ مَن وجد في رَحْله واسترقاقه مدة حياته ، وكان ذلك شريعة عندهم ، فالحكم قد تم ببيان طرفيه . وأما قوله فهو جزاؤه جاء به لبيان أن ذلك الحكم حق ، لأن نفس السارق دنيئة وحق الدنيىء استرقاقه [كذلك نجزي الظالمين] بارتكاب السرقة [فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه] أي فبدأ المنادي بتفتيش أوعية الإخوة لأبي يوسف ـ عليه السلام ـ قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق حتى لا يتهم بأنه هو الذي أخفى الصواع فيها [ثم استخرجها] أي السقاية [من وعاء أخيه] بنيامين [كذلك] الكيد المشروع [كدنا ليوسف] أي صنعنا له ودبرنا لأجل الاستيلاء على أخيه يعني جاء بيان ذلك الحكم على ألسنة إخوته وسنة دينهم [ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله] أي ما كان يوسف ـ عليه السلام ـ قابلا ومستعدا ومستحقا لأن يأخذ أخاه جزاءً لوجود الصواع في رحله على وجه السرقة في دين الملك وسلطان شريعته في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله تعالى لذلك بأن يوافق شريعة من وجد في رحله . فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا وحاصل المعنى: إن شريعة الملك لم تكن على أخذالسارق إلا إذا وافقته شريعةالسارق، كما هنا فتتوافق الشريعتان على أخذه وإرقاقه . ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا أي ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك وشريعته ، ولكن أخذ بشريعة يعقوب لمشيئة الله تعالى لأخذه .

[قالوا] أي إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ بعد إخراج المنادي الصواع من رحل بنيامين [إن يسرق] أي بنيامين [فقد سرق أخ له من قبل] أي إن يسرق هذا فلا تعجب منه لأنه تَعَوَّدَ السرقة من أخيه فقد سرق

اخٌ له من قبلُ أي من قبل هذا الزمان يريدون بهذا الإسناد ما جرى عليه من جهة عمته • فقد روي أنها حضنته فاحبته بحيث لا تطيق فراقه فطلبه يعقوب ـ عليه السلام ـ وكانت لها منطقة أبيها إسحاق فشدتها على جسد يوسف من تحت بعض ثيابها ، ثم فقدتها فاكتشفوها على يوسف ، وأخذته وبقي عندها إلى أن ماتت فرجع إلى بيت أبيه • واعترض على هذه الرواية بأن الدقة فيها تشهد بأنها كذبة مفتعلة ، فإن أخت يعقوب الناشئة من بيت الكرامة والنبوة لا تكيد لأخذ ابن أخيها بتلك الطريقة • وكيف لا يدري يوسف بما شُدَّ على جسده حتى يحكي ذلك لوالديه ؟ وكيف يسند السرقة إلى صبي ابن اربع سنين أو اقل ؟ وأي حاجة الى هذا الافتعال مع أن عمته أمكنها أن تبقى في بيت أخيها يعقوب وتنظر الى يوسف على العادة ؟ فهذه الروايات لا عناية بها • وإنما أرادوا سرقة شيىء طفيف جرت بينهم في الصبا ، واتهموه اتهاما ناشئا من الحسد الواقع من بعضهم على بعض بلا تثبت • ويشهد بذلك تصدير الجملة بأل الشرطية الغالبة في الجمل المزعومة الموهومة ، وقالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبلُ [ف] حصل في قلب يوسف ـ عليه السلام ـ من إسناد ذلك إليه حزازة نفسية ولكنه [أسرها يوسف] واضمرها [في نفسه ، ولم يبدها] أي لم يظهرها [لهم] ولم يواجه إخوته بجواب مُخزٍ مُحزنٍ بل [قال] اي في نفسه او قال لهم [أنتم شَرٌّ مكاناً] ومنزلة في الطبع والخلق من هذا الولد لأنه فرد من أفراد عائلتكم ، ومن غير الغالب أن يَتَعوَّدَ وَلد في بيت رفيع صفةً رذيلة إلاّ وهي عادة فيهم ، أي فإن كان هو سارقا فأنتم أيضا من السارقين [والله أعلم] منّا ومنكم [بما تَصِفُونه] وتذكرونه أي يعلم علما لا شبهة فيه أن الأمر ليس كما تذكرونه فليس هو سارقا ولا أخوه فانتهى الأمر إلى هذه الدرجة ، وانفضوا على حزن شديد مما جرى عليهم ، وقرروا بعد

المشاورة أن يأتوا إلى يوسف ويترجوا إطلاق سراح أخيهم وأخذ واحد منهم كرهن عنده فأتوه .

(قالوا : يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ، إنا نريك من المحسنين (٧٨) قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون (٧٩) فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً ، قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ؟ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ! فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين (٨٠) إرجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين (٨١) واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون (٨٢) قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم) (٨٣)

قوله تعالى : [قالوا يا أيها العزيز] يعني بعدما اعتقدوا أنه لا يفيد الكلام في حضرة يوسف إلا بالاسترحام والاستعطاف يا أيها العزيز [إن له] أي لهذا الولد الباقي عندك وهو بنيامين [أباً شيخاً كبيراً] طاعناً في السن جليل القدر ، لطيف القلب ، قليل الدم ، إذا علم ببقائه في بلد آخر كاد أن يتوقف قلبه ويموت [فخذ أحدنا مكانه] بدلا عنه ، ولسنا مثله في العلاقة القلبية [إنا نريك من المحسنين] فنرجو قبول رجائنا بإحسانك [قال]

يوسف ــ عليه السلام في جوابهم : [مَعاذ الله أن نأخذَ إلا من وجدنا متاعنا عِنده] أي نعوذ بالله من أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده [إنا إذاً] أي إذا أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده [لظالمون] حَسَبَ شريعتكم وليس لنا ذلك .

[فلما استيأسوا منه] أي يئسوا من إجابة يوسف ــ عليه السلام ــ لهم [خلصوا نجيا] أي انفردوا واعتزلوا الناس حالكونهم نجيا بعضهم مع بعض [قال كبيرهم] أي رئيسهم وهو شمعون : [ألم تعلموا أن أباكم قد أخذَ عليكم موثقا مِنَ الله ؟] أي عَهداً يوثقُ به وهو حلفهم بالله ليرجعون بنيامين الى أبيه إلا أن يُحاط بهم [ومن قبل ما فرطتم في يوسف !] أي ألم تعلموا جريمتكم وتفريطكم السابق في شأن يوسف واعتذاركم لأبيكم بالأكاذيب ، فإذا أضفتم التهاون في شأن بنيامين إلى جريمتكم كاد أن ينقطر عرق الانفعال من الجبين وأنا لا أتحمل هذا الحال [فلن أبرح الأرض] أي أرض مصر حتى يأذن لي أبي بالرجوع إليه [أو يحكم الله لي] بخلاص أخي بنيامين بسبب من الأسباب [وهو خير الحاكمين] إذ لا يحكم إلا بما فيه الحكمة [ارجعوا إلى أبيكم فقولوا] له : [يا أبانا إن ابنك سَرَقَ] مكيال الملك [وما شهدنا] عليه [إلا بما علمنا] من سرقته حيث شاهدنا إخراج الصُّواع من رحله [وما كنا للغيب حافظين] أي وما كنا مطلعين على الأمر الغائب عنا ، وهو أنه سيسرق عندما أعطيناك الميثاق على الإتيان به إليك [واسأل القرية التي كنا فيها] وهي مصر [والعير التي أقبلنا فيها] أي واسأل أصحاب العير التي توجهنا معهم إلى مصر أو أقبلنا معهم إليك عند الرجوع من مصر [وإنا لصادقون] فيما أخبرناك به .

[قال] أبوهم يعقوب ــ عليه السلام ــ [بل سولت لكم أنفسكم أمرا] حين قلتم إن يسرق فقد سرق اخٌ له من قبل ، وإلا فملك مصر من

أين يدري أن العائلة قد وقع فيها ما وقع [فصبرٌ جميل] أي فأمري [صبر جميل] لا يكون فيه شكوى إلى الناس أو صبر جميل وهو ما لا شكاية فيه إلا الى الله أجمل من الصبر الذي فيه الشكاية إلى العباد [عسى الله أن يأتيني بهم] أي بيوسف وأخيه بنيامين ومن معهما [جميعا إنه هو العليم] بحالي وحالهم [الحكيم] الذي يبتلى ويرفع البلاء حسب الحكمة البالغة •

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ! وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ! (٨٤) قالُوا : تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً ، أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ : إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦)

قوله تعالى [وَتَوَلى عنهم] جملة مستأنفة بيانٌ لِما عَرض على يعقوب ــ عليه السلام ــ بعد وصول أولاده إليه وإلقاء هذا الخبر المحزن عليه • فيقول وتولى وأعرض عنهم أي عن أولاده الواصلين الموصلين إليه هذه الأحزانَ واختلى ، لأن الإنسان إذا رَابَهُ ما خَرج عَن طاقته أحَبَّ أن لا يراه الناس على تلك الحال ، وينفرد بنفسه حتى يقضي ما عنده من البكاء والحزن ، ويتبرد ما عنده من اللهيب على فراق الحبيب • وقال منادياً الأسى والأسفَ من أي جانب كان ومن أي طرف [وقال : يا أسفي] أي يا أسفي تعال إلى كَنَفي فهذا أوانُكَ وأوانُ احتضانك ، ولم ترَ وَقتاً مثل هذا الوقت لظهورك ، ولا أحَداً من إخوانك مثلي ، أناديك [على] فراق [يوسف] فإنه كان يؤسِفني فراقه واشتياقه ، وأضيف إلى ذلك فراق شقيقه بنيامين ، ولم يبق لي مؤنس إلا رحمة أرحم الراحمين [و] قد [ابيضت عيناه من الحزن] لأن الحزن يوجب فوران القلب

وفيضان الماء الحار إلى الدماغ وسيلانه إلى العيون وتمحق سوادها وتقلبه إلى البياض • والفاء في قوله [فهو كظيم] لعطف السبب على المسبب ،أي وعلة ما جرى عليه أنه كان كظيماً مملوء الصدر من الحزن ، وصار ذلك سببا لفوران القلب ،وفيضان العبرات الحارة على العيون ؛ وهي من أسباب انمحاق سوادها وظهور بياضها هذا •

ولا يرد أن هذه الحال تنافي مقام النبوة والرسالة واستغراق القلب في الحضور والنور ؛ لأن المنافي لذلك المقام هو القيام بما لا ينبغي من التشكي عند الأنام وإظهار ما يخالف الأدب والنظام ، وإلا فالإنسان ما دام إنسانا يتعذب من احتراق الجسد ، ولهيب القلب والكبد فإن الغريزة غريزة والألفة بالأولاد والأحباب عزيزة ، ألا ترون أن سيد الرسل ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما توفي ولده إبراهيم بكى عليه وقال : « إن العين تدمع ، والقلب يخشع ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وانا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » رواه الشيخان من حديث أنس ــ رضي الله عنهم ــ •

[قالوا] أي أولاده لما ظهر حزنه وارتعاده : [تالله تفتأ تذكر يوسف] أي لا تفتأ تذكره ولا تزال على ما أنت عليه حتى تكون حرضا ، أي مريضا مشرفا على الهلاك أو تكون من الهالكين فعلا • والحرض كحسن صفة مشبهة وهو من أذابَهُ هم أو مرض وجعله مهزولا نحيفا • [قال] يعقوب ــ عليه السلام ــ في جواب هذا الملام : [إنما أشكو بثي وحزني إلى الله] وأعتزل الأنام وأتوجه إلى العلام كي يوفقني على الثبات والاستقامة على طريق الآباء الكرام [وأعلم من الله ما لا تعلمون] فأرجو من رحمته الاستقامة ومن كرمه السلامة •

(يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ

إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ، فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قال: هَلْ عَلِمْتُم ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ؟ (٨٩) قَالُوا: أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ؟! قَالَ: أَنَا يُوسُفُ وهذا أَخِي، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا: تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ: لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)

قوله تعالى [يا بني اذْهَبُوا فتحسسوا] روي أنه رأى رؤيا وبشر في المنام بأن يوسف حي مرزوق وأنه سيراه مع أخيه فانتبه واستبشر برؤياه هذه . وبينما هو كذلك إذ تهيأ أولاده لسفر آخر إلى مصر للميرة فقال لهم : [يا بني اذهبوا] لمهمتكم [فتحسسوا] وتعرفوا [من يوسف وأخيه] واطلبوا من أهل الأمانة والخبرة وجودهما وأحوالهما [ولا تيأسوا من روح الله] ولا تقنطوا من رحمته وفرجه ، فإن انتظار الفرج من الله عبادة [إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون] وهم إذ يئسوا يئسوا من رحمته بصفة أنه إله واحد لا شريك له ، فالكافر إما يكفر بوجوده أو بوجوب وجوده أو بوحدته وكرمه وجوده . قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ « إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء » .

وفي حقيقة الأمر إن الكافر على طرف النقيض من المؤمن فلا يرجوه في البلاء ولا يحمده في الرخاء .

[فلما دخلوا عليه] أي على يوسف ـ عليه السلام ـ بعدما وصلت قافلتهم إلى مصر وقد جاؤا للطعام [قالوا : يا أيها العزيز] الغالب على أمور الاقتصاد في البلد [مَسَّنا وَأهلَنا الضرُّ] أي الهزال من الجوع [وجئنا ببضاعة مزجاة] أي بمتاع مدفوع مطرود عند التجار غير مرغوب فيه . اسم مفعول من باب الإفعال وفعله أزجاه أي دَفعه . قيل كان من متاع الأعراب صوفا وسمنا ونحوهما [فأوف لنا الكيل] أي أتممه إتماما لائقا بمقامك لا بمتاعنا [وتَصَدَّقْ علينا] بما تزودنا به زائدا على الاستحقاق كما هو شأن الأمراء من ذوي الأخلاق [إن الله يجزي المتصدقين] على بني الإنسان بموائد الكرم والإحسان .

فلما سمع منه الكلام المملوء من الاستعطاف والاسترحام امتلأ صدره من نور خلق الشفقة والرحمة زائداً على ما عنده من غريزة العطف وإفاضة النعمة فعزم على إظهار العلاقة الأخوية والشفقة النسبية ، و [قال] لهم مؤنبا ولائما ومصرحا بجريمتهم ومعتذرا : [هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه] أما بيوسف فبإلقائه في غيابة الجب وتعريضه لمتاعب وأذى في مستقبل حاله ، وأما بأخيه فبتفريقه عنه ، وبهما معا بتفريقهما من الوالدين ، وذلك [إذ أنتم جاهلون ؟] بقبح فعالكم وسوء جزائها في مآلكم . فلما صرح بذلك وأوضح ما هنالك ، علموا أنه يوسف فاستفهموا استفهام تقرير : [قالوا أإنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف] أي نعم أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم [وهذا أخي] بنيامين بن يعقوب [قد مَنَّ الله علينا] بإنجائنا من البلايا ، وإبعادنا عن الخطايا ، وبتقريرنا على الفضائل والمزايا ، وقرب كُلاًّ منا عن الآخر بَعْدَ أن بعد كلامنا عن الآخر [إنه من يتق ويصبر

فإن الله لايضيع أجر المحسنين] يعني إن من يتق الله في جميع أحواله ، ويصبر في آلامه في نفسه وماله ، فإن الله لا يضيع أجره لأنه من أهل الإحسان ، والله لا يضيعُ أجر المحسنين [قالوا] أي إخوته : [تالله لقد آثرك الله] واصطفاك [علينا] بحسن الصورة والسيرة وفضلك علينا بالمواهب الجزيلة والعطايا الجميلة [وإن كنا لخاطئين] أي والحق إنا كنا من مرتكبي الخطأ والذنب متعمدين له . ولما أقروا بذنوبهم فاضت نفس يوسف ـ عليه السلام ـ لعفوهم و [قال : لا تثريب] ولا تجريح ولا تقريع [عليكم اليوم] من جانبنا فقد عفونا عنكم و [يغفر الله لكم] من التبعات الثابتة من حقوقنا ، وأما من جانب الله تعالى فالكرم أوسع [وهو أرحم الراحمين] فنرجو أن يغفر الله لكم ذلك أيضا .

ثم قال لهم بعد هذه الملاطفات : [إذهبوا بقميصي هذا فألقُوهُ على وجه أبي يأتِ بصيراً] أي يصير بصيرا ، وإنما علم ذلك بالوحي أو الإلهام ، وكلٌّ من مميزات الكرام ، أو ألقوه على وجهه فيعاد له نور عينيه ويأتي إلى مصر فيراني بعينيه فيعرفني كما كنت لديه [وأتوني] أنتم [بأهلكم] من النساء والذراري والأولاد والبنات والخدام والخادمات وأولي العلاقات والقرابات ... [أجمعين] لا تتركوا منهم أحداً . وبهذه المحاورات اللطيفة قد زال عن قلوبهم غبار الأكدار وامتلأت من المسرة والاستبشار ، واستعدوا للرجوع إلى أرض كنعان بنور ولمعان .

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونَ (٩٤) قَالُوا : تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ؟ (٩٦) قَالُوا : يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا

كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(٩٨)

قوله تعالى [ولما فصلت العير] أي لما خرجت العير من عريش مصر قاصدة أرض كنعان مكان يعقوب ــ عليه السلام ــ [قال] يعقوب ــ عليه السلام ــ لمن عنده [إني لأجد ريح يوسف] أي لأَشم رائحته بإشمام الله لشامتي لإحسانه إلي وكرامتي [لولا أن تفندون] أي لولا أن تنسبوني إلى الكذب لعلمتم بما قلته لكم فالجواب محذوف بقرينة ما تقدم [قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم] أي لفي انحرافك عن الرأي المصيب كما كنت سابقا . وهذا ، والعياذ بالله ، نشأ من سوء تفكيرهم وقلة عقلهم وتدبيرهم ، وإلا فلا معنى لأن يختار الله إنسانا ويجعله مظهرا لوحيه ورسالته ويخوله إرشاد الأنام إلى أصول الأحكام وفروعه على مر الأيام ، ومع ذلك يكون ذلك الرسول ضعيف العقل سخيف الرأي عديم البصيرة ، ومع الأسف إن الناس منهمكون في الشهوات ولهم مزيد ألفة بالماديات فلا يعترفون بالمعنويات ، ولاسيما إذا كان صاحبها ممن لهم معه ألفة ومجاورة مزيلة للمهابة والاحتشام ، وهذه العلة سارية في أغلب الناس ، فعقولهم تابعة لحواسهم ، وهذا لعوام الناس لا لخواصهم [فلما أن جاء المشير] مستعجلا قدام العير [ألقيه] اي القميص [على وجهه] أي وجه يعقوب [فارتد بصيرا] معجزة لصاحبه يوسف ــ عليه السلام ــ إن لم تشترط بالتحدي وإلا فكرامة له . وروي أنه أخذه وشمه فجعله على وجهه وعينيه وارتد بصيراً [قال] يعقوب بعدَ وجدان هذه المعجزة الكبيرة : [ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟] .

فلما تبين الأمر وانشرح الصدر وظهر القدر [قالوا] أي إخوة يوسف ــ عليه السلام ــ معتذرين إلى الوالد المحبوب [يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا]

بما فعلنا مع يوسف وأخيه [إنا كنا خاطئين] متعمدين للذنوب [قال] يعقوب [سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم] .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ : ادْخُلوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ، وخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ، وقال : يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حقاً ، وقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ، وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوَتي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّه هُوَ الْعَلِيمُ الحكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيث ، فَاطِرَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، أَنْتَ ولِيِّي فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : [فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه] في الكلام إيجاز والتقدير : فرحل يعقوب ـ عليه السلام ـ بأهله من أرض كنعان إلى مصر ، وساروا حتى أتوا يوسف ، فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه ، أي ضمهما إليه واعتنقهما . والمراد بالأبوين أبوه وخالته ليا لوفاة أم يوسف سابقا ، ونزلت منزلة الأم لكونها زوجة ابيه وخالته ، ولأنها ربته قبل ما جرى عليه ، فكانت كأمه .

وفي التوراة انه ـ عليه السلام ـ أعطى لكل من أخوته خلعة ، وأعطى بنيامين ثلثمائة درهم وخمس خلعٍ ، وبعث لأبيه بعشرة حمير موقرة بالتحف وبعشرة أخرى موقرة برّا وطعاما . إنتهى .

وما هو المعقول المعتقد في الموضوع أنه قد أكرم أهل بيته بما يكون سببا لإجلالهم عند ورودهم مصر من شتى الجهات • [وقال ادخلوا مصر] أي تمكنوا منها واستقروا فيها [إن شاء الله آمنين] والتعليق بالمشيئة للبركة إذ بعد الدخول ليس للتعليق قبول • وقيل : إن الكلام فيه إيجاز حذف • والأصل إن يوسف قد خرج من مصر مع أتباعه وحشمه مستقبلين لهم خارجه ، فلما دخلوا على يوسف هناك آوى إليه أبويه في الخيمة المضروبة لهم ، وبعد فترة الراحة ومراسيم الاستقبال طلب منهم دخول البلد وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل مكروه مادي أو معنوي ، فهناك لقاآن ودخولان ، أحدهما خارج مصر ، والثاني لقاء ودخول في بلدة مصر والله أعلم •

[ورفع] يوسف ــ عليه السلام ــ [أبويه] عند نزولهم داره بمصر [على العرش] أي على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله بإخوته [وخروا] أي أبواه وإخوته [له] ليوسف [سُجّداً] أي على الجباه سجود تشريف كما كان عادة الواردين على الملك ووزرائه في ذلك العهد تحية وإكراماً مثل القيام وتقبيل اليد والمصافحة ونحوها في عصرنا • وقيل المراد بالسجود إنحناء" كالركوع دون وضع الجبهة • وقيل : التواضع والكل خلاف الظاهر • ويدفع كل ما يورد خيالا أن ذلك كان من التحية الاعتيادية عند لقاء الكبار • و [قال] يوسف ــ عليه السلام : [هذا تأويل رؤياي من قبل قد جَعَلَها ربّي حقّا] أي مطابقاً للواقع ، ولم يقتصر الباري عز شأنه على ذلك فقط بل عاملني بأشياء أخرى [وقد أحسن] الله [بي إذ أخرجني مِنَ السّجن] الذي طَلَبته بنفسي بَدَل ما أرادته مني نسوة المدينة ، وجَعَلَني متمكنا في الأرض معروفا بالقدر والمقام بَعد أن كنت

غلاما مبيعا في سوق الأنام [وجاء بكم من البدو] أي بادية كنعان وضمكم إليّ [مِن بَعْدِ أن نَزَغَ الشيطانُ بَيْني وبين إخوتي] أي أفسَدَ ما بيني وبينهم [إن ربي لطيف] في التدبير [لما يشاء] فيجعل الصعب سهلا [إنه هو العليم] بأسباب ما أراد حصوله [الحكيم] في خلقها حتى يوصل إلى كل شخص محصُولَه •

روي أن سيدنا يوسف طاف بأبيه في خزائنه وأراه ما عنده من الإمكانيات ، فقال : يا بني أنت لما وصلت إلى هذا المقام ما منعك عن إرسال كتاب إليّ تخبرني ببقائك ومقامك حتى نصل إلى لقائك ؟ فقال : أمرني جبريل ــ عليه السلام ــ بالتوقف عن ذلك لحكمة هنالك ، وهي نيل كل منا جزاء الفراق في تلك المدة • وقد كانت المدة أربعين سنة • وقيل خمسا وثلاثين • وقيل ثماني عشرة سنة ، والله أعلم •

ثم استقر أبواه وإخوته وأتباعهم في مصر وهو على مقامه حسب مرامه إلى ما شاء الله تعالى من الزمان • ولما قَرُبَ أجلُه دعا ربَّه وقال : [ربّ قد آتيتني مِنَ المُلك] ما أتملك به زمام أمري ، وأتنعم به حَسَب قدري ، [وعلمتني من تأويل الأحاديث] أي بعضا من ذلك من تعابير الرؤى على اختلافها ، وفهم دقائق الأمور على أصنافها ، ومن أسرار الكتب الإلهية الدائرة بين أهل النبوة وأشرافها [فاطر السماوات والأرض] أي يا خالقهما ومبدعهما في الطول والعرض [أنت وليّي] ومتولي أموري [في الدنيا والآخرة ، توفني] واقبض روحي [مسلما] مطيعا لك [وألحقني بالصالحين] من عبادك ، وعاملني بما يليق بكرمك وإحسانك • وأورد على ذلك أن طلب الموت لا يستحب لأهل الخير بدون ضرورة ، وأجيب بأجوبة :

الأول : أنه أوحي إليه أنه اقترب أجله فطلب من الله تعالى أن يقبض، ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي ، فالمشرك المصدق بوجود الصانع روحه على ذلك الوجه الجميل .

والثاني : أن طلبه عند شدة اشتياق لقاء الباري غير مكروه بل هو حسن ممدوح .

والثالث : أنه كلما استمر الزمان عليه بين المصريين أتاه ما لا يعجبه من اضطراب الناس الطغاة ، وإلقاء الشكوك على الأنام كما ذكر الباري تعالى بقوله في سورة الغافر : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به) الآية ... فطلب من الله تعالى أن يقبض روحه الشريفة بأمان وتسليم حتى يخلص منهم ويلقى وجه ربه الكريم .

روي أنه ـ عليه السلام ـ لم يمر عليه أسبوع حتى توفاه الله تعالى . وروى المؤرخون أن يعقوب ـ عليه السلام ـ عاش مع يوسف أربعا وعشرين سنة ، ثم توفي وأوصى أن يُدْفَن بالشام إلى جَنْب أبيه ، فذهب به يوسف ـ عليه السلام ـ ودفنه ثمة . وأن يوسف ـ عليه السلام ـ عاش مائة وعشرين سنة ، وقد ولد له من امرأة العزيز أفرائيم وهو جد يوشع ـ عليه السلام ـ ، وميشا ، ورحمة زوجة أيوب ـ عليه السلام ـ . ولما توفي يوسف جعلوا جنازته في صندوق المَرْمَرِ ودفنوه في مصر . ثم أخرجه موسى ـ عليه السلام ـ ونقله إلى مدفن آبائه ودفنه هناك . والحمد لله الذي لا يبقى إلا وجهه، ولا يدوم إلا ملكه ، وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون .

(ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَلَوْ حَرَصْتَ ، بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وما تَسْأَلُهُمْ

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ ؟ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ؟(١٠٧) قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وسُبْحَانَ اللهِ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (١٠٨)

قوله تعالى [ذلك] إشارة إلى ما قصه الله تعالى من أنباء يوسف ـ عليه السلام ـ • والكاف للخطاب مع الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أي ذلك المنزل عليك [من أنباء الغيب] الذي لا يحوم حوله أحد • وقوله (ذلك) مبتدأ وقوله [من أنباء الغيب] خبره وقوله [نوحيه إليك] خبر بعد خبر [وما كنت لديهم] أي لدى إخوة يوسف [إذ أجمعوا أمرهم] أي إذ قرروا مطلوبهم وهو جعله في غيابة الجب [وهم يمكرون] أباهم ويتوسلون لإبعاد يوسف ـ عليه السلام ـ ، فبيان تلك الأنباء الغيبية دليل قاطع على رسالتك ، وإن تلك الأنباء جاءتك بالوحي [وما أكثر الناس ، ولو حرصت] على أن يؤمنوا بالله ورسوله [بمؤمنين] لتمردهم وعنادهم وغلبة الشهوات النفسية على أنفسهم [وما تسألهم عليه من أجر] تأخذه منهم كما هو عادة الأحبار [إن هو إلا ذكر للعالمين] وهو كالعلة لما قبله ؛ لأن الوعظ والتذكير أمر عام ليس مختصا بأحد أي واجب كل إنسان عاقل فاهم أن يعظ ويرشد بقدر الإمكان ، وواجبه أيضا أن يتعظ ويسترشد كذلك ، فلا معنى لأخذ الأجرة على مثل ذلك لأنه كالإرشاد إلى طريق عام للعابرين ، أو لأن هذه الذكرى بالنسبة إلى الرسول تبليغ للوحي والتبليغ من واجباته

الخاصة ، وهي لا تؤخذ الأجرة عليها إلا إذا أفضى ترك الأجرة إلى إهمال ذلك الواجب ، كأن يكون المبلغ لا يعيش بدونها ولا يمكنه الوفاء بواجبه .

[وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها] يعني وكثير من الآيات الدالة على وجود الباري ووحدته وانفراده بالخلق والإبداع كائنة تلك الآيات في السماوات من: الكواكب وحركتها، وأضوائها وسرعتها وبطئها في الحركة ، ودلالتها على المواسم والفصول ، والأرض من الصحارى القاحلة ، والجبال الموحشة الهائلة ، وما فيها من المعادن والنبات والحيوان ، على أنواع كثيرة وأصناف وفيرة ، مع اختلاف الألوان والأشكال والاصوات والنبرات ، ومن البحار المائجة ، والأسماك الهائجة ، وأصناف الأصداف ، والمنافع المستخرجة منها ، يمرون أي الكفار المشركون عليها [وهم عنها] وعن التدبر فيها وفي آثارها النافعة الدالة على الله تعالى [معرضون] كبصير يمرّ على الجواهر فيتعامى ، وسَميعٍ يسمع الحقائق فيتصامم . فإذا كان الأمر كذلك تبين أنهم بعيدون عن الإيمان لا يؤمنون [و] إن آمنو فـ [ما يؤمن أكثرهم بالله] بوجوده [إلا وهم مشركون] به في عبادته وطاعته ما لا يستحق فضلا ، وليس لتقديره أهلا . وهل يستوي الواجب والممكن والصانع والمصنوع والقوي والضعيف ؟ فجملة [وهم مشركون] حال وكلمة إلا للاستثناء من أعم الأحوال . أي لا يؤمنون على شيىء من الأحوال إلا على حال الإشراك بالله المتعال . وهذا الايمان المقارن للاشراك هو الايمان اللغوي المستعمل بمعنى التصديق المجرد بشيىء ما . وأما الإيمان في عرف الشرع الشريف الذي جاء به سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الله وهو الإيمان بالله تعالى على ميزان (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) وعلى منهاج (فاعلم أنه لا إله إلا ألله) وعلى وزان (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، ألله لا إله الا هو الحي

القيوم) وعلى أساس تبليغ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك مع الإيمان برسالته وجلالته ، فيشهد المؤمن ويقول بقلب سليم ولسان فصيح : أشهد أن لا إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. فهو الايمان في عرف الشرع ولا يمكن مقارنته مع الإشراك بأي وجه من الوجوه .

قال السعد في شرح العقائد النسفية : وإذا عرفت حقيقة معنى التصديق فاعلم أن الإيمان في الشرع هو التصديق بما جاء به النبي من عند الله تعالى أي تصديق النبي ـ عليه السلام ـ بالقلب في جميع ما علم بالضرورة مجيئه به من عند الله تعالى إجمالا ، وأنه كاف في الخروج عن عهدة الإيمان ، ولا تنحط درجته عن الإيمان التفصيلي ، فالمشرك المصدق بوجود الصانع وصفاته لا يكون مؤمنا إلا بحسب اللغة دون الشرع لإخلاله بالتوحيد . وإليه أشار بقوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) إنتهى .

وعلاوةً على ذلك يعتبر في الإيمان الشرعي الإقرار بكلمتي الشهادة المصرحتين بتوحيد الباري تعالى ورسالة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والتوحيد هو التوحيد في وجوب وجوده تعالى ، وفي أنه خالق ، وفي أنه هو المعبود ، ألا له الخلق والأمر . والآية الكريمة نزلت في أهل مكة آمنوا بالله وأشركوا به ، كانوا يقولون في التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ! وعن مجاهد : أن كفار العرب مطلقا أقروا بالخالق الرازق المميت ، وأشركوا بعبادة الأوثان والأصنام . وقيل غير ذلك . والحق أنه وإن كان هناك مورد خاص لكنه يشمل كل كافر له إيمان بالله ويشرك به غيره في وجوب الوجود ، أو في الخلق ، أو في استحقاق العبادة ، فإن أركان التوحيد توحيد في الذات ، وتوحيد في الخلق ، وتوحيد في العبادة .

ثم رجع الباري سبحانه يهدد المشركين بقوله الكريم [أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله] أي عقوبة تغشاهم وتشملهم كالاحتراق بالنار ، والغرق

في البحار ، أو الإبادة بأيدي الاشرار ، او الحرب المدمرة ، او الغلاء الشاملة للديار والعياذ بالله منها [أو تأتيهم الساعة بغتة] فجأة من غير سابقة علامة ، كما في مجيىء زلزلة الساعة عند غفلة الناس عنها ، فمنهم من ينظف حوض مائه ، ومنهم من يحلب حلائبه ، ومنهم من يزرع زرعه ولا يقدرون على إتمام العمل إلا والدنيا تزلزلت ! أو مجيىء أمر مباعت على قوم مخصوص كالبركان والعواصف والقواصف السماوية وغيرها ... والعياذ بالله وما يعلم جنود ربك إلا هو [وهم لا يشعرون] بما يداهمهم من الطامة الكبرى او الصغرى ... ولا ملجأ من الله إلا إليه رب العالمين .

[قل] يا حبيبي لكل من يسمع الكلام : [هذه سبيلي] أي إرشاد الأنام إلى الإسلام سبيلي وطريق سلوكي في حياتي [أدعو إلى الله] لا إلى غيره جميع الأنام إنسا وجنا الى الايمان والاسلام ، الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وإلى شهادة ثابتة نابتة من القلب شهادة بتوحيد الله سبحانه وتعالى ذاتا وصفة وفعلا ، وشهادة برسالة النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم الى كافة الثقلين . حالكوني [على بصيرة أنا ومن اتبعني] والبصيرة إدراك باتنباه بلا شبهة واشتباه ، يميز بين الحق والباطل في العاجل والآجل . [وسبحان الله] أي وأسبحه سبحانا وأنزهه تنزيهاً من كل ما لا يناسب كمال ذاته وجمال صفاته [وما أنا] ولا من يتبعني بالبصيرة [من المشركين] .

(وما أَرْسَلْنا مِنْ قبلك إلاّ رِجالاً نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ القُرى ، أَفَلَمْ يَسيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذينَ اتَّقَوا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا ، فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ ، وَلا يُرَدُّ

بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ، ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى ، ولكِنْ تَصْدِيقَ الَّذي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١١١)

قوله تعالى : [وما أرسلنا مِن قبلك إلا رجالاً] رد لقول المشركين (لو شاء ربك لأنزل ملائكة) ويستفاد منها حصر النبوة والرسالة في الرجال أي إن ارسالَ النساء أو الملائكة لم يكن من سنتنا في إرشاد المكلفين ، ولم تتعود أيضا إرسالَ كبارِ رجال الأمة من الملوك والجبابرة ، وإنما تعودنا على أن أرْسَلنا قبلك رجالا خيرةً منتخبة [نوحي إليهم من أهل القرى] فالذين آمَنُوا بهم أمنوا مِن عذاب الدنيا والآخرة ، والذين كفروا بهم نالوا شقاءهم فيهما [أفلَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] من المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود [ولدار الآخرة خير للذين اتقوا] الكفر والكبائر ، لا دار الدنيا فلا خير فيها ، أو دار الآخرة أحسن من دار الدنيا لهم ، وإن كان فيها محاسن ولذات مباحة أيضا [أفلا تعقلون] الحقائق حتى تميزوا بين خيرها وشرها • وقوله تعالى [حتى إذا استيأس الرسل] غاية لمحذوف معلوم من المقام ، تقدير الكلام فاستمر الرسل في أداء الواجب والكفار في التمرد على أهل المراتب ، حتى إذا استيأس الرسل من النصر عليهم في الدنيا أو من إيمانهم [وظنوا أنهم قد كذبوا] أي كذبتهم أنفسهم قبل الاقتحام في الآلام بالوعد بالانتصار على الكفار [جاءهم نصرنا فَنُجيَ مَن نشاء] أي مَنْ شئنا إنجاءَهم يعني الرسل وأتباعهم ، وأهلك من أردنا إهلاكه وهم الكفار المتمردون ، ولم تنفعهم محاولاتهم لرد العذاب والبأس • [ولا يُرَد بأسُنا عن القوم المجرمين • لَقَدْ كانَ في قصصهم] أي الرسل ومنها قصة يوسف ـ عليه السلام [عبرة

لأولي الألباب] أي لذوي العقول الصافية عن الأقذار المانعة عن الاعتبار [ما كان] القرآن المنزل الحاكي عن الماضي والمستقبل [حديثا] عاديا [يفترى] ويختلق [ولكن] كان كلاما منزلا من الله إلى الرسول محترما لديه و [تصديق] الكتاب [الذي بين يديه] من الكتب النازلة على عيسى وموسى ومن قبلهما [وتفصيل كل شيء] من مهمات ما يسأل عنه ويجاب [وهدى] من الضلال [ورحمة لقوم يؤمنون] إيمانا كاملا لائقاً بالذين ينقادون للحق ويطيعون رب العالمين •

بسم الله الرحمن الرحيم

(المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ، وَالَّذي اُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحقُّ ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ(١) أَللهُ الَّذي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، تَرَوْنَها ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخرَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لأَجَلٍ مُسَمّىً ، يُدَبِّرُ الاَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ(٢) وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنهاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ ، ونَخِيلٌ ، صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، اِن فِي ذلِك لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٤)

قوله تعالى : (المر) الكلام فيه معنىً وإعراباً مثل ما تقدم في أمثاله .
وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن معنى

ذلك أنا الله أعلم وأرى (تلك آياتُ الكتاب) الإشارة إلى آياتها باعتبار أنها لتلاوة بعضها ، وكون الباقي في معرض التلاوة صارت كالحاضرة مع الملك . والمراد بالكتاب السورة أو القرآن أو اللوح . أي تلك الآياتُ آياتُ السورة أو القرآن أو اللوح المحفوظ (والذي أنزِلَ إليكَ من ربك الحقّ) مبتدأ وخبر ، والمراد وكل ما أنزل إليك من الله تعالى من آيات هذه السورة أو غيرها هو الأمر الثابت المطابق للواقع منشأً ونزولاً وغايةً . فهي من الله لا من غيره ، ونزل مع المَلك الأمين لا مع الأرواح الخبيثة . وغاية النزول غاية شريفة هي إرشاد المكلفين إلى طريق سعادة الدارين (ولكن أكثر الناس) ممن نزل لإرشادهم (لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لأن سوء استعدادهم وغلبة الشهوات النفسية عليهم جعَلتهم كمن لا عقل له ولا نظر ولا فكر في شيىء يدل على أنه الحق ، فإن هناك أشياء محسوسة وأشياء معقولة يدل كل منها على أن العالم له صانع واجب الوجود موصوف بالكمال ، منزه عن النقص وكل فِعلٍ من أفعاله مقرون بحكمة كما سَرَدَها بقوله الكريم :

(الله الذي رَفَعَ السماواتِ بغير عمدٍ ترونها) أي رفع المواد العالية المسماة بالسماء ، وتجمعُ على سماوات مرتفعا بعضها فوق بعض ، وعددها سبع، وهي شداد لا تنخرق ولا تتمزق.أما عددها فلآياتٍ منها : قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء فسواهُنّ سبع سماوات) وأما أن بعضها فوق بعض فلقوله تعالى : (الذي خلق سبع سماوات طِباقا) وقوله : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا) . وأما أنها شداد فلقوله تعالى (وبَنينا فوقكم سبعاً شدادا) واما أنها لا تتمزق ولا تنخرق فلقوله تعالى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) فصريح هذه الآيات الابداعية تدل على أن السماوات

أجرام" علوية واسعة بعضها فوق بعض وبعضها متصل بالبعض ، وأنها موجات" مكفوفة وثابتة على حد محدود بجاذبية خاصة تحافظ على شخصيتها ، فليست السماوات السبع عبارة عن السيارات السبع التي تسبح في مدارات مختلفة حسب موازينها الخاصة ، بل إنها مع كبر حجمها كجوهرة محدودة في بحر محيط ، ولا يعلم مقدار طولها وعرضها إلا الله ، وان الشمس والقمر وسائر الكواكب مكشوفة أولا كلها في السماء الدنيا الأولى التي هي أقرب السماوات إلينا لقوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بمصابيح) وإن جرم الكرسي فوق السماوات السبع لقوله (وسع كرسيه السماوات والأرض) وأن الجنة فوق السماوات لقوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السماوات والأرض) ولقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) وهي فوق الكرسي وتحت العرش : « سقف الجنة عرش الرحمن » إلى غير ذلك من الآثار • وان الماسكة هي قوة جاذبية لا تدرك بالأجهزة المادية لقوله تعالى (بغير عمد ترونها) •

وأن العرش فوق الكل لظاهر قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) أي إستولى عليه • أو على معنى آخر أراده الله تعالى موافقا لنزاهته من التحيز والتمكن ومن الحاجة إلى ما يماسه وغير ذلك مما لا يليق بذاته الواجب الوجود • وهذه المفاهيم واضحة ظاهرة لكل ذي عقل وإدراك وبصيرة • وأما كشفها والإحاطة بما فيها فهو عائد إلى الله سبحانه وتعالى •

وقوله تعالى (وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما لما أراد منهما من الحركة المستمرة (كل يجري لأجل مسمى) أي لمدة معينة محدودة ببقاء هذا العالم ، إذ عند انتهائه وقيام الساعة لا تبقى هذه السماوات ولا الشمس ولا القمر ولا باقي الكواكب ، إذ يُشرقُ العالمُ بنور يَخلُقُه الله تعالى

(وأشرقت الأرض بنور ربها) ونور الله تعالى المخلوق لإضاءة العالم يكفي لإنارة سمائه وأرضه بطوله وعرضه ، فإن عالم الآخرة عالمُ الخلود وعالـمُ البقاء بدون الأمراض والأعراض ، وعالم كذلك لا يتناسب إلا مع إشـراق رباني ونور سبحاني ، وذلك هو العالم الثاني والدار الآخرة التي خـلِقَت للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، وذلك العالم هو العالم الذي يليق بلقاء ذاته الكريم والنظر إلى الرب العظيم كما قال : (وجـوه يومئـذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وكما أفاده بقوله الكريم (للذين أحسنوا الحسـنى وزيادة) فالواجب على المؤمن الوقوف على هـذه الظواهر والتوقف عـن التأويلات الزائفة التي لا قيمة لها في الواقع ، فكم من وجـوه أبْدَوْهـا وبعد مدة وجيزة ثبت أنها اغلاط" واخلاط ؟ وقوله تعالى (كل يجري لاجل مسمى) ظاهره جريان كل من الشمس والقمر . أما جريان القمـر فلا كلام فيه . وأما الشمس فكان الناس القدامى يقولون بحركتها كمـا هو مذكور في كتبهم . وأما الأخراء فكانوا يؤولون جريانها بجريانٍ في الحس لا جريانا واقعيا لأنهم اعتبروها مركزا لحركات السيارات حولها واعتقدوا سـكونها في محلها ، لكن اليوم بدأ القول بأنها مع مجموعتها الشمسية في حركـة في العالم كما يعلمها الله تعالى .

وقوله تعالى (يدبر الأمر) جملة مستأنفة وجواب لما يقال : من الـذي يدبر أمر هذه السماوات وما فيها من النيرات والمصابيح ؟ فقال : (يدبـر الأمر) أي الله الذي يدبر أمر العالم العلوي والسفلي . والمقصـود أن الله سبحانه وتعالى كما خلقها ورفعها وزينها بمصابيح كذلـك دبـر أمرهـا وسيدبرها ويدبر شئونها إلى أجل مسمى إذ وجب الإعتراف بالمعلول عنـد الإعتراف بالعلة والتصديق بالمدلول عند التصديق بالدليل ، فما دام علمنـا أن هذه المواد العلوية والسفلية ممكنات مستوية الوجود والعدم في ذاتهـا

وانما رجح وجودها على عدمها واجب الوجود وعلمنا أنها حادثة والحادث يحتاج الى المحدث •• علمنا أنها ذاتا وصفة حدوثاً وبقاءً مربوطة بخالقها العالم بها القادر على التصرف فيها • وقوله تعالى (يفصل الآيات) أي ينزل آيات الكتاب المبين منفصلة واضحة لمن تدبر فيها • أو يفصل الآيات الكونية الدالة على وجود الواجب وكماله لمن يستدل بها بإمعان وتفكر • وقوله تعالى : (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أي لعلكم تتفكرون في عظمة الباري وقدرته الغالبة على الممكنات فكما خلقكم وأوجدكم من العدم كذلك إلى الوجود ، وتلقون ربكم وتحاسبون على أحوالكم واعمالكم وتستفيدون من هذا التدبر شعورا بالمسؤولية وتستسلمون للرسول الأمين الآتي بالكتاب المبين • (وهو الذي مد الارض) أي خلقها ممدودة محدودة ، وجعل لها طولا وعرضا وأطرافا ومناطق على وضع خاص مناسب لمعيشة الحيوانات عليها ، وموافق لرعاية الشروق والغروب ومعرفة الأبعاد بين البلاد حتى يسعد البشر عليها بإدراك المعلومات من العالم العلوي والسفلي ، وبتطور في مراتبها ، ويستدل بها على نظام خالقها ، وأن الله لم يخلق هذه المواد العزيزة عبثا بل كل جزء من أجزائها فيه حكمة ورحمة ، ويستفاد منه بركة ونعمة ، فيتمتع بتلك النعم ويشكر الخالق المنعم على الوجه الأتم • (وجعل فيها رواسي) أي جبالا ذوات استقرار في محالها على قواعدها الرصينة حتى تكون وسيلة لتوازن أطرافها في الحركات ، ولا تميد بكم في المدارات ، وتستفيد من الثلوج والأمطار والهواء الصافي النقي فيختزن فيها العيون ، وتأخذ مجراها في سطوح الأرض وتتكون الانهار ، وتستغل في الزراعات والبساتين والغابات والأشجار (وجعل فيها أنهارا) يستفاد منها بشتى وجوه الإستفادة (ومن كل الثمرات) جعل فيها (زوجين اثنين) أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا صنفين مختلفين في اللون كالأسود والابيض ،

أو في الطعم كالحلو والحامض ، أو في المقدار كالصغير والكبير ، أو في الحرارة والبرودة إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف ... (يُغشي الليل النهار) أي جعل الليل غاشيا ساترا للنهار ، فيصير الجو مظلما ويستريح المتعبون بالنهار في دار القرار ، ويخرج المختفون في النهار إلى وسائل معيشتهم في الديار (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فإن جولان النفس في المعلومات المخزونة عندها ووجدان المواد المناسبة للإستدلال بها، أو التعريف لمجهولاتها يفيد أصحاب العقول القوية فوائد فرائد وعوائد توضع على الموائد فيأخذ اللاحق من السابق وجوه الحقائق .

(وفي الأرض) الممدودة كما ذكر (قطع) منها (متجاورات) وهي مختلفات في الصورة النوعية والصفات فمنها طيبة نقية تنبت الزرع والأشجار ومنها فاسدة خبيثة لا تنبت إلا الأشواك بدون الثمار (وجنات) أي وفي الأرض جنات أي بساتين كثيرة (من أعناب) أي من أشجار الكرم يستفاد منها رطبا ويابسا جامدا وسيالا (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب (ونخيل صنوان) جمع صنو وهو الفرع الذي يجمعه وفرعا آخر أصل واحد ، وأصل الصنو المثل (وغير صنوان) أي ونخيل غير مضمومة بعضها إلى بعض وغير متفرعة من أصل واحد (يسقى) ماذكر (بماء) واحد لا اختلاف في طبعه (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) بإرادتنا بدون تأثير شيىء آخر في ذلك الإختلاف . (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) شمول قدرة الباري للمكنات كلها على حد سواء .

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ: أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٥)

ويَسْتَعْجِلونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ المَثُلاتُ ، وإنَّ رَبَّكَ لَذُومَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ !إنَّما أنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ(٧) اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وما تَغِيضُ الأرْحَامُ ، وما تزْدَادُ ، وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(٨) عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ الْكَبِيرُ المُتَعَالِ(٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هو مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهارِ(١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أمْرِ الله ، إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإذَا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءً فلا مَرَدَّ لَهُ ، وما لَهُم مِنْ دونِهِ مِنْ والٍ)(١١)

قوله تعالى (وإن تعجب فعجب قولُهُم) عبارة تستعمل في إظهار التعجب من شييء غريب يستحق أن يتعجب منه ، فيقول الباري سبحانه وتعالى خطابا لحبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن ترد أن تتعجب من شيء مناسب فعجب أي فأمر عجيب غريب لم يسبق له في عقول العقلاء إستقرار (قولهم) في مقام إستنكار البعث (أإذا كنا ترابا) ورفاتاً لا يتميز فيه العظم من العصب ولا العصب من اللحم ولا اللحم من غيره (أإنا) في ذلك الطور والدور (ل) حادثون (في خلق جديد ؟) أي إنهم يعدون أنفسهم من العقلاء مع أنهم بعد رؤية آثار قدرة الله في الكائنات الغالبة على إماتة الأحياء وإحياء الأموات يستنكرون الإحياء مرة ثانية ، ولا يتفكرون أن الله قبل

وجود أية مادة من المواد وأية صورة من الصور خلق المادة وصورتها وتصرف بالوجوه المختلفة فيها فأحيا بعضا منها وأبقى بعضا على حالها ، ثم أزال الحياة عن الأحياء وهي في كل دور مسخر ، لتأثير القادر العليم الخبير ، ومع ذلك ينكر تصرف الباري فيها بإحيائها بعد فناء تلك الصورة ، ولا يدرى أن من قدر على الإيجاد قبل الوجود قادر على إعادة الوجود في ذلك الموجود ، لأن القابل باق والفاعل أبقى والقدرة لم تتغير ، فإنكار التأثير في وقت دون آخر مكابرة لا طائل تحتها • (أولئك الذين كفروا بربهم) أي أولئك المنكرون للبعث وإنشاء الخلق الجديد بعد ما رأوا الآيات الدالة على أنه يسير على الله القدير هم الذين كفروا بربهم واستمروا على الجهالة العمياء في الدنيا ، (وأولئك الأغلال في أعناقهم) في الآخرة جزاء لهذه البادرة المنكرة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها أبدا •

ثم ذكر الباري تعالى بعد بيان كفرهم وسوء عاقبة أمرهم بعض أحوالهم الفاسدة فقال (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) أي يطلبون منك استعجال العقوبة قبل الحسنة وهي الستر والأمان والعافية (وقد خلت من قبلهم المثلات) وقد مضت وانقضت من قبل زمان مجيئهم إلى الدنيا المثلات وهي جمع مثلة بمعنى العقوبة الفاضحة • يعني لو لم تسبق قبلهم العقوبات ولم تقرع أسماعهم أخبار حوادث الكائنات كانت لهم معذرة في الجراءة وطلب بعض المصائب لكن مع سبق ذلك وقرع السمع مما هنالك يطلبون إنزال العقوبة عليهم ، وإنّ ذلك مما يتعجب منه العاقلون (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أي مع وجود ظلمهم على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي ، فما داموا تابوا إلى الله وانتهوا عن تلك المعاصي فالله غفور رحيم (وإن ربك لشديد العقاب) على من عاند واستمر على المعاصي ولم يزل إلى أن جاءه الأجل لأنه مقتضى كلامه ومنتهى نظامه وأحكامه •

ثم ذكر حالا أحرى بالتعجب من الأولى وهو أنه (يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه) أي على محمد (آية من ربه) مثل آيات عيسى وموسى من قلب العصا حية تسعى (إنما أنت منذر) يعني فإذا فوجئت بذلك فاسكت واصبر إنما أنت منذر مرسل للإنذار من سوء عاقبة أولئك الناس ، ولست مخولا بإظهار المعجزة كما يريدون (ولكل قوم هاد) يبشر قومه وينذرهم ، فمن آمن به فهو المهتدي للصراط المستقيم ومن كفر به فهو الخاسر الذي خسر رأس مال العقل والحلم ورجع إلى سواء الجحيم .

ثم ذكرهم ببعض صفات الباري تعالى حتى يهتموا بها فينتبهوا وقال (الله يعلم) بالذات بدون الحاجة إلى أي جهاز وآلة (ما تحمل كل أنثى) من الذكر أو الأنثى أو الصنفين (وما تغيض الأرحام ، وما تزداد) أي وبما تنقصه الأرحام وما تزيده في الجثة والاعضاء (وكل شيىء عنده) متلبس (بمقدار) محدود لا يزيد ولا ينقص منه (عالم الغيب والشهادة الكبير) العظيم الشأن (المتعال) .

ولما كان الشيىء عندنا هو الموجود ، والكل أداة الإحاطة صار معنى الآية الشريفة : إن كل موجود عيني جوهرا أو عرضا له في مراحل حدوثه وبقائه كمية محدودة مشخصة لا يزيد عليها ولا ينقص منها ؛ فتستوعب الآية دقائق وجود الأعيان والأعراض وتفيد أن زيدا مثلا في مبدإ حدوثه ومسافة بقائه وآخر أمده في كل دقيقة له مقدار مقرر في علمه تعالى لا تتبدل ولا تتحول . هذا إذا فسرنا الشيىء بالموجود الخارجي ، وأما إذا فسرناه بما يعم الشخص والصنف والنوع والجنس مطلقا ، فمعناها أن كل جنس مطلقا وكل نوع وكل صنف وكل شخص من الصنف له أفق خاص لا يزيد عليه ذلك الشيىء ولا ينقص ، وأوسع الآفاق أفق الجنس العالي ، ثم المتوسط ، ثم السافل ، ثم النوع ، ثم الصنف ، ثم الشخص . ومعنى ذلك إحاطة علم

الله وقدرته بجميع الكائنات بحيث لا يشذ شيىء عنهما سواء كان مشهودا عندنا أو غائبا ، وبذلك يتناسب مع قوله تعالى (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) ويدخل في ذلك أحوال الإنسان وأعراضه وأمراضه وأغراضه وأعماله وآجاله وآماله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) فإذا آمن الإنسان بذلك استراح واطمأن قلبه ولم يبق عنده قلق من كل ما يجري عليه في مبدإ حياته إلى منتهاها ، ولا ييأس من روح الله لأن كل آن وكل دقيقة وكل ساعة له ميزان خاص مقرر في علمه تعالى ، فقد يكون حاله في الآنات التالية غيرها في الحالات السابقة .

ويترتب على إحاطة علمه تعالى قوله (سواء منكم من أسر القول) أي أخفاه في نفسه ولم يتلفظ به ، أو تلفظ به ولم يسمعه نفسه ، أو تلفظ به واسمعه نفسه فقط دون غيره (ومن جهر به) بحيث أسمعه من يليه أو أسمعه نفسه (ومن هو مستخف بالليل) أي من يبالغ في الإختفاء علاوة على ما عليه من غشاء ظلمته (وسارب بالنهار) أي ظاهر فيه من سرب إذا ذهب في طريقه ؛ فإن من كان عالما بالغيب والشهادة لا يخرج عن علمه شيىء مما ذكر . وقوله (له معقبات) أي لمن تقدم ممن أسر بالقول إلى آخره ملائكة معقبات تعتقب في حفظه وصيانته من المضار والمصائب (يحفظونه) من بين يديه ومن خلفه حراس له أمامه ورقباء خلفه يحفظونه حفظا ناشئا (من أمر الله) أي من أجل إصدار الأمر من الله تعالى لهم بحفظه ، وذلك كما في قوله تعالى : (إن كل نفس لما عليها حافظ) ودائرة الحفظ تسع الحفظ من الماديات والمعنويات من شياطين الجن والإنس ومن الأعداء والسباع والحشرات والأمراض ... وذلك مربوط بأمره تعالى ليلا ونهارا ويبدو ذلك بكثرة في صيانة الصبيان والبله الذين لا يقدرون على رعاية أنفسهم ، وإلا فلو لم يكن عليه حفظة من

الله لتاه الإنسان في متاهات وتراكمت عليه المصائب والبليات ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

والأخبار الدالة على هذه المحافظة كثيرة وفيرة مؤيدة ومفسرة للآية الكريمة ، فإن قيل ما وجه هذا الحفظ وما معناه ؟ فإن كل مقدر لابد أن يكون ، وكل ما لم يقدر لم يكن كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » ! قلنا : إن ما شاء الله وقضاه وقدره منها ما هو مربوط بشرائط وأسباب معلومة لنا ، ومنها ما هو مربوط بشرائط وأسباب غير معلومة لنا ، وتيسير تلك الأسباب كلها من الله سبحانه ، فاذا أراد شيئا هيأ أسبابه ، وإذا لم يهيىء أسبابه فمعناه أنه ما أراده ، ومن أسباب الصيانة والحفظ شعور الإنسان وانتباهه وسعيه في أسباب أمنه وراحته . ومنها الملائكة المأمورون بها كما في الآية الكريمة . ومنها الدعوات والصدقات فإن تسببها في حصول المأمول بأمر الله تعالى ثابت محقق لا مجال لإنكاره من أهل الشعور ، كما أن الباري تعالى جعل على العيون أجفانا ، وعلى الألسنة شفاها ، وعلى المنافذ أوكية وعلى الدور أبوابا فالماديات والمعنويات متظاهرة ومتضافرة في هذا الموضوع . وينص على ذلك قوله تعالى (وآتيناه من كل شيىء سببا فأتبع سببا) والصدقات والنذور من جملة أسباب الأمان والصيانة ، وما ورد من « أن الحذر لا يغني عن القدر » فحق لا شبهة فيه ، ولكنه في ما إذا أبرم الله القضاء فإنه هو الفاعل المختار ، ومنه العوارض والآثار ، فعلى المؤمن العاقل أن ينتبه لهذه الأمور ويشرح لها الصدور حتى يتنور بنور الحق ويسلك مسلك الحبيب أكرم الخلق في رعاية الأسباب وإعداد المعدات ، وإلا فلم يشرب العطشان ، ولم يأكل الجوعان ، ولم يكتسب الانسان أسباب معيشته في طول الزمان ، فالملائكة من جملة الأسباب ، والإكساب من جملة الأسباب ، وأدعية الصالحين من

جملة الأسباب ، وبركات أهل التقوى وعصمة الصبيان واحترام الشيوخ من أهل الصدق والإيمان ، من جملة أسباب جلب الخيرات ودفع البلايا والمصائب وكذلك التوسل بالأرواح الطيبة النقية التقية فإن بركاتها وأنوارها ظاهرة في حياتها ومماتها ، وإلا فلم يأمر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمن معه من أصحابه أن يسرعوا في الخروج من ديار ثمود وينتقبوا ولا يتفرجوا عليها مع مضيّ قرون وأحقاب على هلاكها ودمارها ، أليس ذلك دليلا على إستحباب التبرك بالعدوة في بدر مهبط الأنوار ونزول الملائكة الأنصار ؟ والنقطة الوحيدة التي هي قطب دائرة الإيمان والأمان هي التصديق بأن كل ما كان وما يكون من هذه الأنواع فهي أسباب موجودة مرتبة والفاعل والمؤثر والخالق هو الله تعالى لا غيره •

قال السعد في تهذيبه : ولما كان الموجد عندنا هو الله تعالى وحده فمعنى العلية والتأثير في الممكن هو التسبب العادي انتهى • أي لما كانت الممكنات مستندة إلى الله تعالى إبتداء فمعنى مباشرة الأسباب هو التسبب العادي ، أي مباشرة أسباب الجذب والدفع حسب جريان عادة الله تعالى بها •

ويدل على وجوب رعاية الأسباب ومباشرتها بصورة مشروعة نافعة والسلوك على مسلك سنة الله تعالى في خلقه قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فإن هذه الآية أو الجملة الجميلة تليق بأن تكتب بالنور على الصدور • ومعناها : إن الله تعالى هو الذي خلق الانسان من العدم وزوده بالصفات العالية ، وعلمه ما لم يعلم ، وألهمه التحرير بالقلم، والمشي على القدم ، وهداه بعد العقل السليم الى الشرع الشريف الذي جاء به الرسول الكريم وشرع له طريق الشورى في المهمات والإعتصام والوحدة لدفع النائبات والإبتعاد عن العقائد الفاسدة والاعمال السيئة الكاسدة وسوء الأخلاق من الشقاق والنفاق ، وأذ يرى خيره في خير بني مبدإه الأمين ،

وينقاد في أحواله وأعماله لدستور رب العالمين • فإذا نظروا إلى ما شرعه الله تعالى وتفكروا في ما يستفاد منه من الآيات البينات والبراهين القاطعة والأدلة اللامعة ، وسعوا في تحصيل النتائج الخيرية ، ودفع المصائب والبلية ، وتحولوا من سيىء إلى حسن ، ومن الحسن إلى الأحسن ، وغيروا ما بأنفسهم من الرذائل وتنوروا بالفضائل فقد وعد الله تعالى ، ومن أوفى منه بالعهود ؟ إنه يغير ما بهم من النقصان ويرقّيهم إلى قمة الكرامة والإحسان • وهذه سننه في كل فرد وجماعة ، ولكن التنصيص على القوم إشارة إلى أن خير الخيرات هي نتائج أعمال الجماعة ، فإنها رحمة وجالبة لكل خير ونعمة (وإذا أراد الله بقوم سوء) لجريان علمه بسوء إستعدادهم وفساد عقائدهم وأعمالهم وابتلوا بالنفاق والشقاق وسوء الأخلاق ، وإظلام القلوب بالكروب ، والإستمرار على الأعمال المشينة ، وعدم المبالاة بنصائح الناصحين (فلا مرد له) أي فلا رد له (وما لهم من دونه من وال) يلي أمرهم ، فإنه تعالى في الحقيقة صاحب كل شيىء ووال عليه يتولاه برفق ورحمة ولطف ، ولا سيما للصالحين • ولذا قال تعالى (وهو يتولى الصالحين) •

(هو الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً ويُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(١٢) ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، والملائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ ، وهُوَ شَدِيدُ المِحالِ(١٣) لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْىءٍ إلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وما هُوَ بِبَالِغِهِ ، وما دُعاءَ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلالٍ(١٤) ولله يَسْجُدُ مَنْ فِي

السَّماوات ِ والأرْض ِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وظِلالُهُمْ بِالغُدوِّ والآصال ِ)(١٥)

قوله تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) من جملة ما أنزله الله تعالى من صفات ذاته وأفعاله الدالة على كماله في كل باب من الأبواب ، سواء من ناحية علمه الشامل للغيب والشهادة ، وحفظه لعباده بالمعقبات فيقول هو الذي يريكم البرق إخافةً لكم من الصاعقة وإطماعاً لكم في الغيث النازل المفيد لأرزاقكم ، فالقادر القوي الذي سخر السماوات وما فيها لإحداث ما يريد هو الذي يُعْبَد وحدَه لا من لاحظ له من الوجود الثابت والجود المفيد . هذا . وأوَّلْنا الخوفَ والطمع بالإخافة والإطماع حتى يتحد العامل والمفعول من أجله في الفاعل فيتحقق شرط النصب ، ومنهم من لم يشترط هذا الشرط ونصبهما مع بقائهما على معناهما المعروف الذي هو من صفاتنا . ففي شرح الكافية للرضي وبعض النحاة : لا يشترط تشاركهما في الفاعل ، ويسندون هذا الرأي الى سيبويه ويستدلون عليه بظواهر النصوص والآثار الواردة ، ومنها هذه الآية التي نفسرها هنا .

ثم إنهم فسروا الخوف والطمع بالخوف للمسافر من أذى المطر والطمع للمقيم في نفعه ، وبالخوف من العذاب والطمع في الثواب أو الخوف من الصواعق والطمع في النباتات النابتة النامية بها (وينشىء السحاب) أي الغمام المنسحب في الهواء (الثقال) بالماء وجمعه ، وإن كان الموصوف مفردا لكونه اسم جنس في معنى الجمع ، ويذكر ويؤنث فكأنه جمع سحابة ثقيلة (ويسبح الرعد بحمده) والرعد اسم للصوت المعلوم . وفي إسناد التسبيح إليه تجوز أي يسبح سامعوه ويتلبسون بحمده على حدوثه لدلالته على القوة القاهرة في جمع السحب وإصعادها ، واحتكاك بعضها ببعض ، وحدوث ذلك الصوت المهول منها ، وعلى النعمة الوافرة مما يحدث بالأمطار النازلة منها . أو تجوز

على طريق الإستعارة تشبيها لدلالة الرعد بنفسه على تنزيهه تعالى عن الشريك بالتسبيح والتنزيه اللفظي ، ودلالته على فضله ورحمته بحمد الحامدين . ومنهم من يقول : إنه إسناد حقيقي والرعد اسم للملك الموكل بإدارة هذا الصوت وإنشائه ويناسبه قوله تعالى (والملائكة من خيفته) أي ويسبح الملائكة الكرام ـ عليهم السلام ـ من هيبته تعالى وإجلاله جل جلاله (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهي النار النازلة من السحاب مع صوت شديد (فيصيب بها من يشاء) إصابته فتحرقه وتهلكه ، وتلك النار تحدث من إحتكاك أجزاء السحاب بعضها مع بعض . (وهم يجادلون في الله) أي أولئك الذين كفروا وكذبوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجادلون في الله أي في وجوده ، أو في وحدته ، أو في تأثير قدرته ، أو في الجميع (وهو شديد المحال) أي والله هو شديد المماحلة والمكايدة . لا يعارضه أحد إلا هلك .

(له دعوة الحق) أي آختص به الدعاء والطلب لدفع البلاء والغلاء وإنزال الرحمة والنعماء ، فهو الذي يدعى فيجيب ، وأنه هو السميع القريب (والذين يدعون) أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون (من دونه) أي من دون الله (لا يستجيبون لهم) أي للمشركين الداعين (بشيىء) من آمالهم ومقاصدهم المطلوبة (إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) أي إلا إستجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد يطلبه ليأتي ويصل إلى فمه (وما هو ببالغه) أي وليس كذلك الماء ببالغ إلى فيه لأن الماء جماد لا يشعر بعطش العطاش وطلبهم حتى يستجيب لهم (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أي في ضياع وخسار وعدم افادة .

واستشكل عدم إستجابة دعواتهم باستجابة دعاء إبليس عندما قال (رب فانظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين) . وأجيب بأن المراد

دعاؤهم في شأن الآخرة ورفع العذاب عنهم . وقد يقال : إن الإستجابة نوعان : نوع مقرون باللطف والرفق والرحمة بالداعي ، فهذا هو المسلوب إجابته عن الكفار ، وقسم فائض من إنعامه العام والرفق بكل ذي روح ، ولو من السباع الضارية والحشرات العادية والكفار الغاوية ، فهذا يشمل الكل ، ولكن لا من باب إستجابة الدعاء .

ثم قال الباري تعالى : (ولله يسجد من في السماوات والأرض) أي ولله تعالى وحده لا لغيره أو مع غيره يسجد ويخضع ويعبد من في السماوات والارض من الملائكة والجن والإنس (طوعا أو كرها) طائعين في حال الإسلام، وكارهين في حال القهر والاستسلام فان الشخص المؤمن بالله ساجد طوعا خوفا وروعاً ، ويخضع ويتذلل ويبتهل إليه تعالى لرفع عذابه وعقابه ونيل خيره وثوابه ، والشخص الحي الكافر والمتمرد المعاند له تعالى والجامد الذي لا شعور له حادث مسخر لتصرفه تعالى ومتذلل له أينما كان .

(و) معنى السجود هو الخضوع للمعبود اي لا يسجد هؤلاء بانفسهم فقط بل ويسجد كذلك (ظلالهم) الحادثة مع الطول تارة ومع القصر اخرى. هذا للماديات ، وأما لغيرها فالمراد بها الآثار والتفرعات الناتجة منها ، والمقصود أن كل موجود حادث فهو في إدارة ربه ، ومنقاد لحكمه ، ومطيع لشوكته ، (بالغدو والآصال) خلافا لسجود الكل . والمراد إما الوقتان المعلومان نفسهما ، فإن الوقت الأول يشبه زمان بداية الخلق ، والثاني يشبه زمان إنتهائه ، أو المراد بهما الإستمرار في هذا الإنقياد والتذلل في كل وقت وحين .

(قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلِ اللهُ . قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلياء لاَ يمْلِكُون لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً

وَلا ضَرّاً ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكاء خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ : اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحِدُ القَهّارُ(١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءٍ فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها ، فاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والباطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وأمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ(١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنى ، والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ لا فْتَدَوْا بِهِ ، أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ ، وَمَأْوِيهِمْ جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ)(١٨)

قوله : (قل من رَبُّ السماواتِ والارض ؟) هذا الأمر والإستفهام للإنتباه ، وأخذ الجواب الحق وتقرير أن خالقهما وصاحب شئونهما هو الله الذي لا إله إلا هو القادر على كل ممكن عالٍ أو سافل ، ولذلك يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يجيب عن الإستفهام بقوله (قل الله) يعني أن العالِمَ حقيقة بشخصية الخالق هو نفسه لا غيره ، ومنه يسري العلم إلى غيره، وإذا أنت أقررت وقررت أن خالقهما هو الله، وأخذتَ العلم بهذا الأمر المهم منه تعالى يُقِرُّ العقل السليم في أي زمان ومكان بذلك فحينئذ لك المجال أن تستفهم الناس المشركين إستنكارا على انحرافهم عن ذلك الأمر الحق ، ولذلك قال له ــ صلى الله عليه وسلم (قل) يا حبيبي (أفاتخذتم من دونه أولياء) لمناصرتكم حالكونهم (لا يملكون لأنفسهم) وهي أعز الأشياء عليهم

لو كانوا عقلاء (نفعا ولا ضرا ؟) فضلا عن إنفاع الغير وإضراره . (قل) لهم للمثيل بعد تحقيق الفرق بين المحسوسين المتقابلين : (هل يستوي الأعمى والبصير) المشرك الجاهل بالعقائد الحقة والموحد العارف بها (أم هل تستوي الظلمات والنور ؟) حتى تستوي غياهب الكفر والضلال ومراتب الأنوار والهدى ، فإن جهل المشرك وعلم الموحد معنويان، والعمى والإبصار ماديان ومحسوسان باعتبار مبدإ الإنتزاع ، وكذلك الظلمات والنور محسوسان والكفر والإيمان معقولان ، فإذا أدركتَ الفرقَ الواضح بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور أدركت الفرق بين المشرك والموحد والكافر والمؤمن . وكلمة (أم) في قوله تعالى (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم ؟) منقطعة بمعنى بَلْ للاضراب ، وهمزة الإستفهام يعنى ابَل جَعلوا أي أولئك المشركون لله جل جلاله الرفيع شركاء من الأوثان والأصنام خلقوا المواد العلوية والسفلية كخلقه تعالى لها فالتبس عليهم خلقه تعالى بخلقهم ، وجعلوا لهم خلقا وإيجادا كما لله تعالى واعتقدوا إستحقاقهم للعبادة كاستحقاقه تعالى لها . والإستفهام إنكاري لأن إنتفاء ما بعدها محقق . (قل) لإعلان الحق وبيان الواقع (ألله خالق كل شيىء) من الجواهر والأعراض ، (وهو الواحد القهار) .

ثم أخذ يذكر من أفعال الباري تعالى ماتنقاد له العقول وتعترف بأن فاعلها هو الفعال لما يريد . فقال (أنزل) أي الله تعالى (من السماء) أي من جهتها على ما هو المشاهد (ماء) أي مياها كثيرة تعم الأقطار والأقاليم ، أو نوعا منه وهو الماء الذي ينبت به النبات (فسالت به) أي بذلك الماء (أودية) كثيرة أراد تخصيصها به بحسب حكمته ، ونسبة السيلان اليها مجاز لأنها محل سيلانه (فاحتمل السيل زبدا) أي غثاء يطرحه الوادي اذا جاش الماء واضطربت الامواج (رابيا) أي عاليا منتفخا فوق الماء ،

وقوله : (ومما يوقدون عليه ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) إبتداء جملة أخرى ، أي ومن المعادن التي يوقدون عليها في النار أي في المجمر الموضوع على النار ، لطلب حلية تتحلى بها النساء والصبيان كثيرا والرجال قليلا ، أو لطلب ما يتمتع باستعماله كالأواني والكؤس زبد مثل زبد الماء المائج (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله مثل الحق والباطل (فأما الزبد) الرابي على الماء السائل ، أو على المواد المعدنية التي يوقد عليها النار (فيذهب جفاء) فيفوت خاليا عن الفائدة ويتفرق في الهواء ، أو في الأرض وينمحي بدون منفعة فيه (وأما ما ينفع الناس) من الماء الصافي عن الغثاء ، أو الجواهر الخالصة المعدنية من الذهب والفضة وغيرهما (فيمكث في الأرض) ويبقى فيها للسقي والزرع وغيرهما ، أو للحلية وسائر الأمتعة النفيسة (كذلك يضرب الله الأمثال) في كل باب لإرشاد العباد .

ولما بين الباري تعالى شأن كل من الحق والباطل شرع في بيان أهل كل منهما وهم المستجيبون لله وغير المستجيبين له فقال : (للذين استجابوا لربهم) ولبّوا دعوته إذا دعاهم إلى الحق (الحسنى) أي المثوبة الحسنى وهي الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا وفسدوا وأفسدوا لهم مصيرٌ شر مصير ومآل شر مآل فيقعون في العذاب والعقاب والنكال والوبال في المآل (لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) عن أنفسهم ليتخلصوا من العذاب الذي ابتلوا به ، ولكن لو افتدوا به وبأضعافه ما تقبل من أحد منهم ، لأنهم أصروا على العقيدة الفاسدة والعقدة النفسية الخالدة ، والجزاء على وزان الاعمال ، ولا نجاة لهم (أولئك لهم سوء الحساب) أي حساب سيىء جدا لا يسامح منهم قيد ذرة لابتعادهم في الدنيا عن كل خير ومبرة (ومأويهم جهنم وبئس المهاد) والمستقر جهنم .

وفي تلك الأمثال عبرة للمعتبرين ، وعظة للمتعظين ، وذكرى للمتذكرين، ذلك أن الله سبحانه وتعالى إستدل بالآيات الآفاقية والأنفسية على وجوده ووحدته وكمال صفاته ، ثم وعد الملبين له الجنات والدرجات وأوعد المتمردين بالعذاب والدركات ، وأفاد أن ذينك المآلين ليسا أزمنة مؤقتة يخلص منها وإنما هما مآل موصوف بالدوام والخلود ، وقرر في تضاعيفها أن الثراء والمال ورفعة الحال أشياء تافهة لا قيمة لها عند أولي العقول النيرة النابهة ، وأن ما ينفع هو العقيدة السليمة والعمل الصالح والخلق العالي .

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ، وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ :(٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)(٢٥)

قوله تعالى (أفمن يعلم) يعني أبعدَ بيانِ حال الفريقين من المؤمنين والكافرين يكون مَنْ يعلم (أنّ ما أنزل إليك من ربك) وهو القرآن الكريم

(هو الحق) لا ريب فيه (كمن هو أعمى) لا يبصره ببصره ولا ببصيرته،وابتلى بسوء سريرته ، ولا يؤمن بالله الواجب الوجود ، ولا يؤمن أنه هو الخالق المعبود ، ولا يصدق بأن الرسول هو الواسطة الصادقة بين الخالق والخليقة في تبليغ العقائد والأحكام ؟ وجواب الإستفهام كلا ومعاذ الله لا يستويان لأن الإيمان موقوف على التذكر و (إنما يتذكر أولو الألباب) الذين يوفون بعهد الله عهدا روحيا في ما مضى من الأوقات ، وعهدا على أيدي الرسل أولي الكرامات أي أصحاب العقول الخالية عن الإرتياب (الذين يوفون بعد الله) أي بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بوجوده ووحدته والتزام شريعته (ولا ينقضون الميثاق) الذي وثقوا به بينهم وبين الله أو بينهم وبين الناس على الوجه المشروع • ومنها المبايعات والمراهنات والإيجارات والشركات والعقود الجارية بينهم فيالأحوال الشخصية وغيرها فإنالعالم مبني علىالنظام والنظام لا يفيد إلا مع الإلتزام وهذا الإلتزام هو الفارق بين أهلالحق والباطل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) كنفقات الزوجات وأفراد العائلة والمماليك وأجور العمال وصلة الأرحام ورعاية حقوق الأساتذة والاصدقاء الاوفياء ومن له حق على الإنسان ديناً أو دنيا (ويخشون ربهم) أي يخافون وعيده من عدم الوفاء بالملتزمات ، أو الخلل في الوفاء بها (ويخافون سوء الحساب) من إضافة الصفة الى الموصوف ، أي يخافون الحساب السيىء ، والحساب السيىء هو المحاسبة على الأعمال السيئة ، وإلا فمحاسبة الباري لعباده كلها حسنة (والذين صبروا) على مكاره ترد عليهم من الإلتزامات والوفاء بها من أداء الصلوات في الأوقات الحرجة ، وإسباغ الوضوء ، والغسل في المكاره ، والصيام في وقت التعب ، والمصابرة مع الأعداء في الحرب ، والرباط في الثغور ، ورعاية الواجبات بالشعور ، وإنما صبروا عليها (ابتغاء وجه ربهم) أي طلبا لمرضاته لا للرياء والسمعة وغيرهما من الرذائل

(وأقاموا الصلاة) المفروضة والمسنونة (وأنفقوا مما رزقناهم سرا) لا يعلم به إلا الله (وعلانية) إذا استحب الإعلان (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يدرؤن بالأقوال والأعمال والأخلاق الحسنة الأقوال والاعمال والاخلاق السيئة • فإذا سمعوا الشتام تصامموا ، وإذا رأوا الاعمال البذيئة تعامَوا ، وإذا عوملوا بالإعتداء عفوا عن المعتدين (أولئك) الناس الموصوفون بالنعوت المذكورة (لهم عقبى الدار) أي العاقبة الحسنة لأصحاب هذه الدار وتلك العاقبة (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم) من أبواب المنازل المعدة لهم قائلين لهم (سلام عليكم) سلاما خالدا من كل بلاء وآفات مادية ومعنوية وذلك جزاء لكم (بما صبرتم) على مشاق ترك المحرمات وأداء الواجبات (فنعم عقبى الدار) أي فنعم الدار الواصلة إليهم في العاقبة ، وهي الجنة ، أو فنعم عاقبة الدنيا الجنة •

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أي ذلك حال الذين وفوا بالعهود ووقفوا عند الحدود ، وأما الذين (ينقضون عهد الله) أي أبطلوا العهد الذي عاهدوا الله عليه من الإيمان والإحسان وترك المحرمات وأداء الواجبات (من بعد ميثاقه) وهو الإعتراف بالإلزام في عالم الارواح ، أو بتوديع العقل السليم ، أو بالقبول من الأنبياء والرسل في عهودهم ونوابهم العلماء الأمناء بعدهم (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) أي ما أمر الله بوصله على غرار ما قدمناه (ويفسدون في الأرض) بذور الإشراك والمعاصي وتعدي الحدود وترك العهود (أولئك لهم اللعنة) والطرد الأبدي النازل عليهم من الله (ولهم سوء الدار) أي سوء عاقبة الدار والدار الدنيا وسوء عاقبتها الموت بلا إيمان أو الدار الآخرة وسوء عاقبتها عذاب جهنم أعاذنا الله تعالى بفضله منه •

(اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاء وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بالحَيوةِ الدُّنْيا وَمَا الحَيوةُ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ(٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّه ! قلْ : إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إليْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧) ، الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلوبُ(٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ طوبى لَهم وحُسْنُ مآبٍ(٢٩) كذلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إلَيْكَ ، وهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحمنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لا إله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليْهِ مَتَابِ)(٣٠)

قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) إستئناف لبيان أن البسط في الرزق ليس من محبة الله تعالى للمرزوق والقبض فيه ليس عن كراهيته له، وإنما ذلك من جريان الإرادة الأزلية التابعة لعلمه تعالى باكتساب المرزوق رزقه ومعيشته ، فمنهم من يتيسر له أسباب البسط ، ومنهم من لا يتيسر له ذلك ، مع أن شيئا من البسط والقبض ليس من أسباب الحب والكراهية . وعلى أي حال فالبسط في الدنيا ، وإن كان يفرح به الناس على العادة، لكن الفرح به ليس منأخلاق المؤمن المخلص لأن العاقبة الحسنة في إطاعة الله تعالى . (وفرحوا) أي أهل مكة ، أو الكفار مطلقا ، أو أهل الدنيا مطلقا ، بالحياة الدنيا لقصور نظرهم فيها . (وما الحياة الدنيا في الآخرة) أي في جانب نعيمها (إلا متاع) قليل يسير حقير لا قيمة له .

(ويقول الذين كفروا) أي أهل مكة أو منافقو أهل المدينة : (لولا نزل عليه آية من ربه) وذلك من أقصى مراتب الجهالة ، وأقسى مراتب القلوب الغافلة ، فإنهم لو كانوا ينظرون إلى نشأته ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونموه ونمو شريعته والقرآن النازل عليه الهادي للعقول إلى الطبائع وماوراءها وإلى أخلاقه وسيرته لعلموا أنه هو عين الأعيان، وكلام الله النازل عليه أعظم آية وأجلى برهان . (قل) في جواب أولئك الناس الذين عميت أبصارهم عن إبصار الحقائق وبصائرهم عن إدراك الدقائق : (إن الله يضل من يشاء) إضلاله لعلمه أزلاً بغفلته عن سلوك مسالك الحق (ويهدي إليه من أناب) أي أقبل إلى الله وهداه ، وترك شهواته وهواه . يعني لو لم يكن هذا الضلال العميق لم يكن كلامكم ذلك الكلام الخريق (والذين هداهم الله) وأنابوا إليه وكانت لهم مكانة لديه هم الذين آمنوا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله ، ويداومون على ترك المحرمات وأداء الواجبات ، وتطمئن قلوبهم أي تستقر وتستكن بذكر الله قياما وقعودا ركوعا وسجودا ويقظة وهجودا (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) لا بغيره من المتاع الحقير الذي يميل إليه الطبع الحقير . والمراد بذكر الله تعالى كل فكر وقول وعمل يقرب صاحبه من الله ، سواء كانت ترك المحرمات لله ، أو أداء الواجبات لله ، أو إرشاد الناس إلى الخير لله ، أو ذكر توحيده وتقديسه وتمجيده وتوحيده وتهليله وتسبيحه وتكبيره لله .

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) أي يقال لهم طوبى لكم وحسن مآب . فهو دعاء لهم بالطيب في العيش الخالد الأخروي والهناء . وقال القرطبي : الصحيح أنها شجرة في الجنة واحدة بالذات متفرعة منها فروع وأغصان تعم حدائق الجنة ، أو نوع من الأشجار توجد في حدائقها . (كذلك) أي مثل ذلك الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن

الكريم والخلق العظيم (أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) كثيرة أي ليس إرسالك إليها أمراً خارقا للعادة ، ولم يسبق مثله ، بل سبقت أمثاله ، فإن الله تعالى ما خلى أمة إلا وقد خلا فيها نذير ، وكل ذلك توفير لنعمة الله وتوسيع دائرة رحمته وبسط لمائدة نعمته وإنما أرسلت (لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك) من آيات القرآن لتوجيه العباد بحسن الإرشاد إلى الإعتراف بواجب الوجود ووحدته ورسله وشريعته وينبثق من ذلك نور وشعور بالمسؤولية أمام الله العلام ، فإن الكائنات لا تبقى بدون نظام ، ولا نظام بدون التزام. (وهم) معهذه الجهود الجبارة (يكفرون بالرحمن) ويستنكرون العهود والأيمان والإيمان . (قل) معرضا عن أهواء الخلق ومتوجها إلى هدي الخالق : (هو) أي الرحمن الذي يكفرون به (ربي) خلقني وسواني وهداني وأيدني بالعقل السليم ، وأنعم علي بالرسول الكريم (لا إله إلا هو) أي لا واجب ولا خالق ولا معبود إلا هو (عليه) لا على غيره (توكلت) حق التوكل (وإليه) لا إلى غيره (متاب) أي مرجعي فإنه إلى الله تصير الأمور .

(ولَوْ أنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ، أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ، أوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتى ، بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِين آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهدى النَّاس جَمِيعاً ؟ ولا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ، إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ المِيعَادَ(٣١) ولَقَدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ للَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ؟(٣٢) أَفَمَنْ هُو قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؛

وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ ؟ قُلْ : سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ في الأَرْضِ ؟ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَما لَهُم مِنْ اللهِ مِنْ واقٍ)(٣٤)

قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) معناه إن هذه الفرقة الضالة الفاسدة يتعللون بما ليس بعلة ويعتذرون بما ليس معذرة، ولا يريدون إلا إستمرارهم على استكبارهم ، فهم في نفسية خبيثة فاسدة بحيث (لو أن قرآنا) ، أي قرآنٍ كان ، (سيرت بهِ الجبال) بظهور آثار عظمة الله (أو قطعت به الأرض) قطعا مختلفة فجعلت أنهارا وغابات وعيونا وأشجارا مرتبة مثمرة مظللة (أو كلم به الموتى) بأن يقرأه أحد عليهم فيحيوا ، ويتكلم معهم وظهرت هذه الخوارق بذلك الكلام المنزل ما آمنوا به وأصروا على عنادهم واستكبارهم لأن فكرتهم صارت عقدة نفسية ، ولا تحل العقدة النفسية إلا النجدة القدسية (بل لله الأمر) الذي يدور عليه الهداية والإضلال وسائر أمور العالم في الماضي والحال والإستقبال (جميعا ، أفلم ييأس الذين آمنوا) من الرسل ومن معه عن إيمان أولئك المتمردين المعاندين ولم يعلموا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) ولو لم تظهر له تلك الآثار العجيبة ، ولكن الباري بحكمته السارية لم يشأ ذلك ، فما دام الأمر كذلك تبين أن القلم قد جف (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من سوء الأعمال (قارعة) أي ما يقرعهم من صاعقة سماوية كما خلت ، أو من قاصفة جوية ، كما نراها ، فتقع عليهم بالذات وتهلكهم (أو تحل قريبا من دارهم) على سيئات أعمالهم وآثارهم (حتى يأتي وعد الله) بتحقيق عذاب يوم القيامة الموعود (إن الله لا يخلف الميعاد) بمعنى الوعد كالميلاد بمعنى الولادة .

ويا أيها الرسول ليس هذا الإستكبار مختصا بهم معك (ولقد استهزىء) (برسل) كثيرين (من قبلك فأمليت للذين كفروا) أي أجلت عذابهم إلى وقت معلوم مقرر (ثم أخذتهم) بعد أن جاء وقت عذابهم (فكيف كان عقاب ؟) لا يعلم كيفيته إلا من ذاقه أو شاهده (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) ومراقب عليها وعلى أعمالها لمن لا حياة فيه ولا شعور (وجعلوا) أي الكفار (لله شركاء ؟) من هذا القبيل (قُلْ : سَمّوهُم) تبكيتٌ إثرَ تبكيت أي سموهم منْ هم ؟ وماذا أسماؤهم ؟ وفي البحر : إنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى، إنما يذكر ويسمى من ينفع ويضر لا ما لا ينفع ولا يضر. (أم تنبؤنه بما لا يعلم في الأرض ؟) أم منقطعة أي أبل تخبرون الله تعالى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم سبحانه وتعالى ؟ وهذا أمر مستحيل لأنه يخرج عن علمه تعالى شيىء ، فإذاً ليسوا بشيىء (أم بظاهر من القول ؟) وقوله (أم بظاهر من القول) كلمة أم فيه أيضا منقطعة أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول الذي لا مدلول له في الواقع ونفس الأمر ؟ (بل زين للذين كفروا مكرهم) إضراب عن الإحتجاج عليهم ، أي ليسو أهل حجة ودليل يناظرون ويستدل عليهم بالأدلة ، بل هم قوم سفهاء الأحلام توارثوا شيئا من الأوهام وجعلوها حقائق ودقائق عليها ، واستمروا عليها . والمكر يحتمل أن يراد به مكرهم بأنفسهم لأنهم إحتالوا على أنفسهم باعتناق هذه التقاليد الباطلة بشبهة أنها أخذوها من آبائهم ، أو مكرهم بغيرهم أيضا لأنهم يغررون بها أناسا جَهَلَةً لا علم لهم بالحقائق الإعتقادية (وصدوا عن السبيل) أي مُنعوا بسوء إختيارهم عن سلوك سبيل الحق وأضلهم الله (ومن يضلل الله فما له من هادٍ) يهديهم إلى الخير (لهم عذاب في الحياة الدنيا) بالتقلب في نار الحسد والعناد والقتل والأسر وسائر المصائب إنتقاما منهم (ولعذاب الآخرة أشق) لشدته وبقائه (وما لهم من الله من واق)

أي من حافظ يحفظهم وناصر ينصرهم وملجأ يلتجئون إليه ، إذ (إلى الله تصير الامور) •

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)(٣٧)

قوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون) المثل في أصل اللغة صفة مشبهة بمعنى الشبيه • وجاء بمعنى المَثَلِ السائر ، أي الكلام الدائر المشهور بين الناس مثل « لا يلدغ المؤمن من جحْرٍ مرتين » وذلك في الاستعارات التمثيلية المشتهرة • وجاء بمعنى الصفة الغريبة ، وهو معنى مجازي مأخوذ من المثل بالمعنى المذكور آنفا بعلاقة الغرابة لأن المثل إنما يسير بين الناس لغرابته ، وهو في هذه الآية على هذا المعنى ، أي الصفة الغريبة العجيبة للجنة التي وعد المتقون أنها منازل غالية وقصور عالية ، (تجري من تحتها الأنهار) فتسقي الاشجار وتنمو وتنضج بها الثمار (أُكُلها دائم) لا مقسومة على الموسم (وظلّها) كذلك لا تتناثر الأوراق منها بالرياح والمهالك و (تلك) الجنة العزيزة (عقبى الذين اتقوا) ربهم ولم يكفروا به، ولم يشركوا به، ولم يعصوا أمره ونهيه، أي تلك عاقبة حالهم وجزاؤهم في مآلهم (وعقبى الكافرين) بالله (النار) وبئس القرار •

(والذين آتيناهم الكتاب) نزلت في مؤمني أهل الكتابين كعبدالله بن سلام وكعب وأضرابهما من اليهود ، والثمانين المشهورين من النصارى ، وهم أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة . فالمراد بالكتاب المعنى الشامل للتوراة والإنجيل (يفرحون بما أنزل اليك) . لأن الله لما شرح صدورهم للإسلام وآمنوا بالرسول فبالطبيعة الإسلامية يفرحون بالكلام المنزل عليه لأن الإيمان مستلزم للمحبة ، والمحبة سارية في المحبوب وفي ما له علاقة صحيحة به (ومِنَ الأحزاب) أي أحزابهم الكفرة الفجرة المارقين (من ينكر بعضه) أي بعض ما أنزل إليه وهُوَ الذي لا يوافق أغراضهم الفاسدة (قل) ياحبيبي : (إنما أُمرتُ أن أعبد الله ولا أشرك به) فمن لا يؤمن بالله أو يشرك به فليس منّا ولسنا منه (إليه أدعوا) المكلفين لا إلى غيره (وإليه مآب) ي ومرجعي وَحدَه (وكذلك أنزلناه حُكْماً) أي ومثل إنزال الكتابين السابقين أنزلنا القرآن ، حالكونه حكما من الله (عربيا) باللغة . وكما أن الهدي في السابق ما كان موافقا لتلك الكتب فالهدي في عصرك هو ما وافق كتابك ، وما عداه هو من الأهواء الباطلة التي لا تفيد (ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم) بأن ما أنزل إليك هو الحق (ما لك من الله من واق) يحفظك عن عقابه . والآية تعريض بالناس الموجودين ، وإلا فمعاذ الله أن يتبع سيد المسعودين غيرما أمره الله رب العالمين .

(وَلَقَدْ أَرْسَلنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً ، وَما كانَ لِرَسُولٍ انْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩) وَاِمّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الّذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنا

الْحِسابُ(٤٠) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِها ؟ وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وهُو سَرِيعُ الْحِسَاب(٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ فلِلهِ الْمكرُ جميعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ(٤٢) ويقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرسَلاً ! قُلْ : كَفى بِاللهِ شهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَاب)(٤٣)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روي أن اليهود عَيَّرَتْ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا : نرى هذا الرجل مهتما بالنساء والأولاد وما يتعلق بهما مع أن شأن الأنبياء الزهد عنها وقطع العلاقة والتوجه الصرف إلى الدين وقدسياته • فرد الله عليهم بقوله : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) من آدم إلى عصرك هذا (وجعلنا لهم أزواجا) حرائر (وذرية) بنين وبنات وحفدة مكرمين ومكرمات ، ولم يقدح ذلك في جلالة رسالتهم ، ويعلم القادحون أن مسألة الأزواج والجواري في عهد أنبياء بني إسرائيل كانت على نسبة متصاعدة ، فما بالهم لم تقدح فيهم وتَقْدَح فيكَ وأنت واحد منهم ؟ ثم إنهم لم يزنوا الأمر بالقسطاس المستقيم ، فمن الذي قال إنّ أهل النبوة والرسالة والتقوى والجلالة يجب أن يُحرموا من الطيبات التي أحلها الله لعباده ؟ ثم إن الإشتغال بتلك العلاقات في ساعات محدودة معدودة لا يمنع من الإشتغال بالدين والدعوة إلى الله وإلى الأعمال الصالحة والأخلاق السليمة • فهذه الدعاوى كلها خالية من رعاية الحق والعدل ، وإنما هي ناشئة عن الاستكبار والعناد والجهل • (و) إذا أرادوا من وراء هذه الدعاوى أنه لو لم يكن لهم هذه العلاقة كان لهم مجال أَنْ يأتوا بآيات من الله تعالى

لإرغام الناس على الإيمان فذلك أيضا شيىء باطل لأنه (ما كان لرسول) كائنا ما كان (أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله) سواء كانت الآية معجزة تعجز الناس عن الإتيان بمثلها أو دعاءً مستجابا لتدمير المتمردين أو آيات بالغة في تنوير أفكار الناس ، فإن كل ذلك في قبضة قدرة الباري تعالى • وإذا أتى اللوم على بعض منهم لابد من إتيانه على الآخرين ، وحاشاهم عن ذلك ! وقد أعلن أنه (ما على الرسول إلا البلاغ المبين) وأن ارسال الرسل من سنة الله تعالى في الكائنات بحسب الآجال المتسلسلة و (لكل اجل كتاب يمحوا الله) تعالى بحسب حكمته (ما يشاء) محوه من الفروع السابقة (ويثبت) مايشاء ثبوته ، وأما الأصول فهي مقررة لا تبديل لها أبد الآبدين (وعنده) أي عند الباري جل شأنه (أم الكتاب) وهو اللوح المحفوظ الجامع لكل شريعة مقررة في أي زمان من الأزمان ، ومادام الأمر كذلك فلا مجال لأي قائل في أي قول بالنسبة إلى المرسلين •

ثم بعد تقرير المعنى المذكور في الآية الشريفة أن هذه الآية الكريمة معترك آراء العلماء والعقلاء من حيث أن الله تعالى إذا تعلق علمه الأزلي بشيىء فلا يقبل الزوال والتغير وإلا انقلب العلم جهلا وتعالى عنه فما معنى (يمحو الله ما يشاء ويثبت ؟) والجواب : إنه بعد وجود النصوص الدالة على هذا المعنى كهذه الآية ، وآية (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) وبعدما تواتر من أدعية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكثير من الناس بطول العمر ومزيد العلم والعمل الصالح، ودعائه للوقاية من شر القضاء، وبعد الأحاديث الكثيرة الواردة في أن الصدقات تدفع البلاء وتزيد العمر ، بل وفي تقرير الباري سبحانه ترتب المسببات على الاسباب •• لا وجه قطعا للتردد في أن القضاء منه مبرم لا تعلق له بأي شيىء وأي سبب من الأسباب المعروفة عند الناس ، ومنه ما يتعلق بالأسباب والشروط التي ترتب عليها

المشروط والمسبب • ومن جملة القضاء المعلق ربط الشفاء للمرضى بإجراء العمليات ، وشرب الأدوية ، وإسعافهم حسب الأصول ، وربط كل أمر ذي علاقة بشرط أو علة أو سبب عادي بذلك ، وإن إنكار ذلك مكابرة مع النقل والعقل •••

والحاصل إن بعض القضاء جرى بحيث لا يتعلق بشيىء من الأشياء التي تقبل الجذب والدفع ، وهذا النوع مبرم نافذ ولا يفيد في مقابله أي عمل إيجابي أو سلبي ، وبعض منه مربوط بوجود أسباب كزيادة رزق فلان بسعيه في تحصيله ، وزيادة عمره بسبب تداويه ومباشرة أسباب الصحة ، وزيادة العلم بسبب زيادة السعي في تحصيله ، وزيادة الأحباب بسبب كثرة المجاملة والخيرات الواصلة منه إليهم •••

وكما أن هذا النوع من القضاء قضاء معلق قد جرى علمه الأزلي بأن فلانا يأتي بالأسباب والشرائط فيتحقق القضاء فيه ، وبعضهم لا يأتي بها فلا يتحقق فيه ذلك ، فالمحو لقضاء تعلق علمه تعالى بأن فلانا باشر سبب محوه ، والإثبات لقضاء تعلق علمه بأنه باشر سبب إثباته ، ونحن لا نعلم ذلك ، وانما نعلم على القواعد الإعتيادية أو العلمية أن ذلك الشيىء سبب لذلك أو مانع عنه ، وعلينا إذا اطلعنا على تلك القواعد السعي بقدر الإمكان، فما تحقق في حقنا عَلِمنا أن علمه تعلق بوجود أسبابه وقد صار ، وما لم يتحقق علمنا أن علمه تعالى لم يتعلق بسعينا في تحصيله •

وأما الحديث الشريف الوارد في بعض النذور بأن ذلك لا يرد شيئا من القضاء فقد يجاب عنه بأنه محمول على مادة جرى القضاء فيها بتحقيق الشيىء المعهود ، ومعلوم أنه لا رادّ له ، أو المراد به أن هذا المنذور وإن كان له سببية ما في دفعه لكن المؤثر في الواقع هو الله تعالى لا السبب وهو عين مذهب أهل الدين أو أنه يراد به استكراه النذور بصورة المعاوضة

والمقابلة ، وإلا فرد الصدفات للبلايا معلوم بالتجارب عبر القرون والأزمان. نعم إن الله سبحانه وتعالى يعلم أزلا من الذي يأتـي بالأسباب ومن الذي لا يأتي بها ، فالأمر بالنسبة إليه محقق مقرر مبرم معلوم لا خدشة فيه قطعا ، فالمحو والإثبات من شئونه الفعلية الجارية الثابتة بقوله تعالى كُلَّ يوم هُوَ في شأن ، وبعبارة أخرى من مكتوبات اللوح المحفـوظ ، والثبات وعدم التبدل بالنسبة إلى علمه الأزلي اللازم لذاته الجليل المعبر عنه بأم الكتاب . هذا والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُم أَوْ نَتَوفينك فَإِنَّما عليكَ البلاغُ وعَلَيْنا الحساب). أصل إمّا : إن ما، وكلمة إن للشرط، وما زائدة لتأكيد معنى الشرط،ولذلك لحقت نون التأكيد بالفعل،والفعل مضارع باب الإفعال للمتكلم مع الغير ، وأصله نرئينك كنكرمنك ، حذفنا الهمزة للتخفيف، بعد نقل كسرتها إلى ما قبلها ، والفاعل نحن ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذي نعدهم مفعول ثان . والمراد به بعض ما وعدناهم من إنزال العـذاب. وقوله أو نتوفينك معطوف على الشرط السابق ، وحاصل المعنى وكيفما دارت الحال أي إن أريناك بعض الذي وعدناهم من العذاب في الدنيا ، أو توفيناك وأخرنا عذابهم فعلينا ذلك وما عليك إلا البلاغ فلا تهتم بما وراء ذلك ونحن نكفيكه ونكمل ما وعدناك به من الظفر وفتح مكة وسائر البلاد ، فظهر أن قوله تعالى فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ليسا جوابين للشرطين ، لأنهما لا يترتبان عليهما وهو ظاهر ، فيحتاج إلى تأويل وهو أن يقدر لكل شـرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء له مترتبا عليه . وإجمال الجوابين ما ذكرناه أي فلا تهتم بهم . وتفصيلهما : وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك يشفيك من ألم أعدائك لأنه دليل صدقك ، وإما نتوفينك قبل حلوله بهـم فلا لوم عليك ولا عتب . وقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ) دليـل على الجوابين .

والذي وقع من الشرطين هو الأول الحادث في غزوة بدر الكبرى • وقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ) أي ليس عليك إلا تبليغ ما أنزلنا عليك لا تحقيق مضمون الوعيد • وقوله (وعلينا الحساب) أي محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات • وفي كل من الجملتين حصران : الأول هو المستفاد من تقديم الخبر ؛ أي عليك البلاغ لا على غيرك ، وعلينا الحساب لا على غيرنا • والثاني : هو المستفاد من كلمة إنما فيكون المقصور في الجملة الأولى الأمر الثابت على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم والمقصور عليه البلاغ أي إنما عليك البلاغ فقط لا تحقيق المقترح منهم • وفي الجملة الثانية المقصور هو الأمر الثابت على الله بمقتضى وعده وسنته والمقصور عليه الحساب ، أي إنما علينا محاسبتهم في الآخرة دون جبرهم على اتباعك أو إنزال مقترحهم فافهم هذه المعاني فإنها نافعة •

ثم أشار الباري تعالى الى ظهور تباشير الظفر فقال عزّ من قائل ليدركوا او يفتهموا (أو لم يروا) بالعيون ليبصروا (أنا نأتي الارض) أي أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها ؟) وجوانبها بأن نفتحها شيئا فشيئا ، ونلحقها بدار الإسلام أفبعد ذلك يشكون في سيطرة الإسلام ؟ (والله يحكم) بما يشاء على من يشاء (لا مُعقب) ولا مُغير (لحكمه وهو سريع الحساب) في الآخرة فكما حكم عليهم بالدمار والتباب في الدنيا يحكم عليهم بالحساب والعقاب في الآخرة •

(وقد مكر) الكفار (الذين) خلوا (من قبلهم) أي من قبل كفار مكة بأنبيائهم ورسلهم وبالمؤمنين من أتباعهم ، ولم يفد المكر الماكرين ، ولم يمنع رسالة الرسل الشاكرين (فلله المكر) إبداعه وإضراره بالناس من الأنبياء والرسل وغيرهم (جميعا) فلا قدر له ولا قيمة (يعلم) الله (ما تكسب كل

نفس) من الخير والشر ومن الخديعة والمكر ولا تأثير لشيىء من مكاسبهم في أي شيىء من مطاليبهم إلا بإذن الله ، وتنتهى السيئات والحسنات (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أي العاقبة الحميدة في دار القرار ، هل لهم أو للأنبياء والرسل وأتباعهم الأبرار (ويقول الذين كفروا) جهلا وتعنتا وعنادا وتزمتا : (لَسْتَ مُرسلا) يا محمد ، قيل إن قائله رؤساء اليهود ، وقيل أسقف يمنيّ سأله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هل تجدني رسولا في الإنجيل ؟ فقال : لا . فأنزل الله الآية . (قل) في رد من قال هذا القول : (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) فإنه إذا شهد بشيىء فمن عداه كالفيىء (ومن عنده علم الكتاب) لإلزام أصحاب العناد والعتاب ، وليس الحق مربوطا بقول الخلق .

سورة ابراهيم ، مكية ، وهي اثنتان وخمسون آية نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتابٌ أَنزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(١) اللهِ الَّذي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً ، أولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ(٣) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٤)

(الر) أنا الله أعلم وأرى (كتاب أنزلناه إليك) هذا كتاب مبين وهو القرآن العظيم أنزلناه إليك (لتُخْرِجَ الناس) أي الجن والإنسان (من الظلمات) أي ظلمات الجهل المركب من العقائد الباطلة (إلى النور) أي العلم وهو العلم بالعقائد الحقة ، وذلك الإخراج ثابت (بإذن ربهم)لأنه لا تأثير للأسباب إلا بإرادة الله تعالى وخلقه وإيجاده وقوله (إلى صراط العزيز الحميد) بدل من قوله إلى النور بدلَ الكل من الكل • أي هذا العلم هو

الشرع الشريف الجامع للعقيدة والعمل الذي هو صراط مستقيم قرره الله سبحانه وتعالى لسلوك المسلمين عليه ليصلوا إلى منزل الرحمة الأبدية والنعمة السرمدية ، وهذا الصراط قرره ربّ عزيز غالب على ما أراد وفعّال لما يريد ، وحميد في كل فعاله ، إذ لا يشوبها عَيْب ، وذلك عبارة عن (الله) فقوله (الله) بالجر على قراءة السبعة بدل مما قبله (الذي له مافي السموات وما في الارض) والمراد بما في السماوات وما في الارض الظرف والمظروف فإن التعبير لبيان حيازة الله لكل موجود (وويل للكافرين) الذين يكفرون بوجود ذلك المالك أو بوحدته (من عذاب شديد) لا يتحمل إلا بالإلجاء .

ثم جاء بصفات لأولئك الكافرين تؤهلهم لِذلك العذاب الشديد بقوله (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) وهذه الصفة مِلاك الجهل والسفاهة ، فإن من لم يتفكر في ملكوت السماوات والأرض ونظامهما وميزان دورانهما وما يجري على نظام متقن عجيب بديع حتى يعترف بخالق حي قيوم قادر ويشعر بمسؤليته إزاءه وإزاء سائر ماخلقه الخالق ، ولم يعرف نفسه إلا بصفة كائن حي مرزوق يعيش مدة ويموت ويمحى مستحق لذلك العذاب الشديد وبقوله (ويصدون عن سبيل الله) يعني علاوة على ما سبق مما كان مدلوله عدم الإيمان برب العالمين أضافوا صفة فاسدة إلى ذلك وهي أنهم يصدّون الناس ويمنعونهم عن سلوك سبيل الله وهو الدين الإسلامي القويم، وأي جريمة أشنع من تجهيل الناس وتعطيل حواسهم ومشاعرهم عن ادراك الحق واتباعه بالأوهام والخرافات والشبهات ؟ وقد كان كفار مكة كذلك ، إذ كلما رأوا واحدا آمن بالله وبرسوله مَنَعَوه ، فإن امتنع وإلا عَذّبوه وهجروه . وبقوله (ويبغونها عوجا) يعني علاوة على كفرهم بالله وصدهم عن سبيل الله يَرمون نفس الدين والصراط بالإعوجاج . وأنه ليس مما

يناسب الإنسان ويحتمل أن يكون هذا الكلام من تتمة الصدّ والمنع ، أي يجعلون هذا الوصف المفترَى دليلا على وجوب صد الناس عن دين الإسلام وأن يكون كلاما مستقلا ودليلا قائما بذاته لأن الدين المعوج الذي لا استقامة فيه على مزاعمهم الباطلة لا يجوز اعتناقه ، ويجوز أن يكون اضافته إلى الصد بالنسبة للأقوياء ، وإلا فالضعفاء يمنعون قهرا بدون تعليل واستدلال (أولئك في ضلال بعيد) عن الوصول الى الصراط المستقيم لأن في طبائعهم نفورا عن الدين ، وزاد عليها التقليد الاعمى ، وأضيف اليهما العناد والاستكبار •

(وما أرسلنا) في الأمم السابقة والأزمنة الغابرة (من رسول إلا بلسان قومه) أي إلا متكلما بلغة من أرسل إليهم (ليبين لهم) الشريعة بيانا شافيا لأمراض القلوب كافيا لهم الحقائق ذلك لأن لاتفاق لغتي المتكلم والمخاطب وتوافقهما في اللهجات التعبيرية والأمثال والآداب الحكمية والمصطلحات القومية دَوْراً هامّاً في الإفهام والتفهيم والإرشاد والتعليم وكان غايتنا من إرسالك إلى قومك ذلك المعنى المطلوب ، وكان الواجب عليهم والمناسب لسعادتهم أن يسمعوا ويَعُوا ويطيعُوا لأن كلامنا منزل على أفصح لهجة من لغتهم وهي لغة مضر ، والمبلغ أفصح إنسان في العرب وأوضح بيانا منهم وأشرح صدرا من حكمائهم وشعرائهم وخطبائهم ، مع أن كثيرا منهم تمردوا وعاندوا فضلوا وأضلوا فتبين من تجاريب عصور النبوة والرسالة أنه (يضل الله من يشاء) ضلاله (ويهدي) الى الحق بعنايته (من يشاء) هدايته وهو العزيز الغالب على ما أراد والحكيم في صنعه مع العباد •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ

لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ أَنْجِيكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ(٧) وقال مُوسى: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)(٨)

قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أي ومن جملة أولئك الرسل الذين أرسلناهم بلغة قومهم موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ (أن أخرج قومك) أي أخرج قومك (من الظلمات الى النور) أي من ظلمات الجهل التي أتت عليهم من سيطرة فرعون وأشياعه وهي ظلمات عبادة الأوثان والركون إلى المادة ونسيان المعنى • وظلمات الإسترقاق والتسخير لخدمة من لا تأتيهم إلا بالوهن على الوهن والضعف على الضعف إلى نور الحرية والعمل للذات المثمر لكرامة صيانة تراث النبوة في النسل ، وإلى نور عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، كما قررها في الأرض جدهم إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ (وذكرهم بأيام الله) أي بأيام نعمه وبلاياه ، أي ذكرهم بأن الله كما بيده إفاضة النعم على عباده في أيام ومواسم ، كذلك بيده إنزال المصائب والنقم في أيام وأزمنةٍ ، فلا تيأسوا من روح الله ولاتأمنوا مكره (إن في ذلك) التذكير (لآياتٍ) عظيمةٌ (لكل صبار شكور) أي لكل إنسان كثير الصبر على بلائه وكثير الشكر على نعمائه فإذا جاءه بلاء ينتظر الجلاء ، وإذا جاءته نعم يشكره عليها حتى لا يعقبها نقم (وإذ قال موسى لقومه) امتثالا لما أمره به الله تعالى : (اذكروا نعمة الله عليكم إذ

أنجيكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) أي يبغونكم ويولونكم سوء العذاب حيث سلبوا عنكم كل الحريات الدينية والدنيوية وحقروكم وسخروكم في الخدمات الصعبة (ويذبحون أبناءكم) حتى لا يبقى فيكم مُطالِبٌ للحقوق مُحارب (ويستحيون نساءكم) لا رحمة بكم ولا بهن بل ليستخدموهن في المهن البيتية وسائر الأمور (وفي ذلكم) الأفعال الشديدة (بلاء من ربكم عظيم) لا يتحمله إلا مضطر متعود على الإعتساف (و)اذكروا (إذ تأذن ربكم) أي أذن إيذانا بليغا وأعلن إعلانا بالغا درجته (لئن شكرتم) على نعمة إنجائكم من فرعون وأتباعه (لأزيدنكم) نعما على النعم فنزيدكم نعمة السلطة على الوطن بعد أن خلّصناكم من سطوتهم (ولئن كفرتم) بتلك النعمة (إن عذابي لشديد) وعوده عليكم لا يحتاج إلى زمان مديد (وقال موسى) لقومه : (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض) من الناس (جميعا فإنّ الله لغني حميد) مستوجب للحمد بذاته تعالى فشكركم له تعالى مما تحتاجون إليه أنتم وليس هو محتاجا إلى ذلك ٠

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ؟ : قَوْمِ نُوحٍ ، وَعَادٍ ، وَثَمُودَ ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ٠٠٠ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاّ اللهُ ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا : إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٩) قالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ؟ قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ(١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ

إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وما كانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ(١١) وَمالَنا ألاّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا ؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمونا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ)(١٢)

قوله تعالى (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) قال بعض المفسرين : من تتمة كلام موسى ـ عليه السلام ـ لقومه بعدما نَصَحَهم بالأوجه السابقة • وقال بعض منهم : إنه استئناف كلام من الله تعالى ، وتوجيه خطاب وعتاب للمشركين ومن حاذى حذوهم ، فيقول في مقام النصح والوعيد : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبلكم) وقوله (قوم نوح) بدل مما قبله أي وهم قوم نوح (وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم) عَدَداً أو عدداً (إلا الله • جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالآيات الواضحة لبيان العقائد والأحكام ، أو بالمعجزات الواضحة التأثير وواضحة الدلالة على أنها من الله تعالى ، وأن من نزلت عليه رسول من الله • (فردوا أيديهم في أفواههم) أي فرَدوا أناملهم في أفواههم وعضوا عليها غيظا وحقدا (وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به) على زعمكم يعني لسنا مؤمنين ولا نؤمن بالكتاب الذي تزعمون أنكم أرسلتم إلينا به لتبليغه (وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) وإنا بلاشبهة وتردد في قلوبنا شك مورث للقلق العميق في ما تدعون إرسالكم به إلينا فلسنا مؤمنين لا بالله الذي أرسلكم ولا برسالتكم ، ولا بالكتاب الذي تقولون أنكم أرسلتم به إلينا •

(قالت رسلهم) في استنكار ما أبدوه من وجود الشك والريب فيما جاؤا به : (أفي الله شك فاطر السماوات والارض) أي هل يصح وهل ينبغي

أن يكون لكم شك وتردد في الذات الجامع للكمالات المنزه عن النقائص، المُعْلَم باسم الجلالة ، الموصوف بفاطِرِ السماوات والارض ومبدعهما من العدم إلى الوجود مع أن كل عاقل له نور وشعور ويتفكر بقلبه وينظر بعينه في آثار قدرة الله تعالى اللائحة على العالم على نظامٍ ثابتٍ مستمر يعلم ويتيقن أن هذه الكائنات ، وأن هذه الحركات ، وأن هذا الليل والنهار ، وأن هذا الدوران والإستمرار لا يمكن إلا من خالق حي قيوم قادر قهار ؟! والحال انه (يدعوكم) إلى عبادته وإطاعته (ليغفر لكم) بسببه (من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مُسمى) أي ويؤخر مماتكم وانتقالكم من هذه النشأة إلى وقت سماه الله وعينه لانتهاء أمدكم • ومعنى الآية أن طول حياتكم معلقة بإيمانكم ، فإن آمنتم تأجل الموت إلى أمد مديد وإلا عجل الله لكم بالاستئصال والعذاب الشديد • (قالوا) أي القوم الذين أرسل الرسل إليهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) من غير اختصاص بمزية وفضل (تريدون أن تصدونا) وتمنعونا بما تدعوننا إليه (عما كان يعبد آباؤنا) من الأوثان والأصنام فأتونا بسلطانٍ مبين على رسالتكم (قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم) كما تقولون ولكن كلامكم هذا لا يوجب مطلوبكم وهو مساواتنا معكم في كل الأمور ، فإن الله يمنّ على من يشاء من عباده المستوين لغيرهم في البشرية ببعض المواهب والمزايا فجعلنا من هذه الزاوية مشمولين لرحمته وشرفنا برسالته (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) أي بحجة من الحجج فضلا عما اقترحتموه إلا بإذن الله (وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون) في شئونهم كافة • فما ادعيتم من استوائنا معكم في البشرية صحيح ، ولكنه لا يوجب منع المواهب الخاصة كالرسالة وغيرها ، وما ندعيه من الرسالة حق ولكنها لا يوجب أن نقدر على شيء من الآيات إلاّ بإذن الله • فلنعد جميعا الى الإعتدال (وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟) أي وقد أرشد

كلا منا إلى طريق سعادته في دنياه من أسباب معيشته بشتى أصناف المكاسب من الزراعة والتجارة والصناعة والفنون الدقيقة الارضية والسماوية من علم الانواء وغيرها ، وفي دينه عن طريق نجاحه بالنوافل وأصناف الخيرات والمبرات باليد وباللسان وبسائر الجوارح والقوى ولا يدري أحد من أين جاء هذا المدد والتوفيق ومن أين حصل هذا الثراء والترزيق (ولنصبرن) ومادام الله عاملنا وجاملنا وهدانا سُبُلَنا فوالله الذي له الأمر كله لنصبرن على (ما آذيتمونا) فإنها أمر مؤقت يذهب ويفنى (وعلى الله) لا على غيره (فليتوكل المتوكلون) لأنه مصدر كل خير في الدنيا والدين •

(وَقالَ الَّذِين كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنا ، فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ : لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ(١٤) واسْتَفْتَحوا وَخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَما هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ(١٧) • مَثَلُ الَّذِين كَفَرُوا بربِّهِمْ : أَعمالهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ، لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبوا علىشَيْءٍ ذلك هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ)(١٨)

قوله : (وقال الذين كفروا) أي وقال قادةُ الذين كفروا وسادَتهُم (لِرُسُلِهِم) مُتَوَعدين لهم مستكبرين (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) وهذا الكلام مبني على التوزيع • أي وقال قائد القوم

الكافرين في كل زمان لرسول ذلك الزمان لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن الى ملتنا • فالحلف جار على المنفصلة الحقيقية وهي إخراجهم عن الأمة مع بقائهم على مهمة الرسالة أو بقائهم فيها مع العود الى الكفر • (فأوحى اليهم ربهم) في تلك الحالة الحرجة أن اثبتوا على المهمة مع علو الهمة ، ولا تهتموا بوعيد أولئك المتمردين فوالله (لنهلكن الظالمين) المتوعدين لكم بحيث لا يبقى لهم أي مجال ومقال (ولنسكننكم الارض) التي طغوا فيها (من بعدهم) أي من بعد إهلاكهم (ذلك) الإيحاء (لمن خاف مقامي) أي لرسول خاف موقفي الرهيب (وخاف وعيدي) وهم الرسل الكرام وأتباعهم المؤمنون الصادقون الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه لأنهم هم المؤمنون الذين يخافون الموقف الذي تقام فيه العباد للحكم يوم القيامة ، وهم الذين يخافون وعيد الباري سبحانه وتعالى وعقابه ، وهذا الخوف خوف الهيبة والرهبة والإجلال فلا ينافي كونهم معصومين مبشرين بلقاء الله تعالى يوم الآخرة ، فإن أهل الشرف هم أهل المخافة •

(واستفتحوا) أي وبعد أن أوحى إليهم ربهم بما ذكر طلبوا الفتح من الله تعالى بقوة القلب والعزيمة الصادقة لأنهم علموا أن الوقت وقت التضرع والابتهال الى ذي الجلال ، ولعلهم عند الإيحاء إليهم بما ذكر أمروا أيضا بالإستفتاح حتى يكون إهلاك الظالمين على حسب دعواتهم ويكون له منة عليهم • ويؤيد هذا المعنى قراءة واستفتحوا بصيغة الامر أي فاستفتحوا • وتقبل الله طلب الفتح والنصر منهم (وخاب كل جبار عنيد) معاند للحق متكبر طاغ على الاستغناء • (من ورائه جهنم) أي حالكونه من قدامه وبين يديه جهنم أي أن خيبته لم تكن خاتمة آلامه بل كانت مقدمة لعذابه وعقابه ونكاله ووباله (ويسقى) بعد عطشه من حرّ جهنم (من ماءٍ صديد) وهو الذي يسيل من أجساد أهل النار أو من ماءٍ مستكره يصد عنه ويعرض لأنه

لا يطفىء حر العطش وحال ذلك الماء أنه يتجرعه طالبه (ولا يكاد يسيغه) ولا يقرب له إساغته واحداره من الحلقوم الى محله المعتاد لشدة حرارته أو لاختلاطه بمواد مانعة عن الإنحدار بسهولة (ويأتيه الموت من كل مكان) أي ويقاربه الموت من كل جهة وجانب . يعني أنه يقع في هول شديد ويحاول الخلاص بشتى الوسائل ، لكنه أينما توجه وَجَدَ بوادِرَ الهلاك ولم يأنس الخير والخلاص (وما هو بميت) أي والحال أنه ليس بميت حقيقة ولم يبق مجال عروض الموت لأن تلك الدار دار الخلود (ومن ورائه عذاب غليظ) أي إذا اعتبرنا الأحوال السابقة أحوال الكفار في البرزخ فالمراد بقوله (ومن ورائه) زمان مجيىء الآخرة ويكون غلظ عذابه مبنيا على انتهاء حسابه وعلمه بدوام عقابه وعذابه ، وان كانت أحواله في الآخرة فمعناه ليس له مجال تخفيف العذاب لأن الكفار لا يخفف عنهم العذاب ، بل في كل زمان وأوان يعذبون فيه يكون وراء ذلك عذاب غليظ قوي يناسب حالهم وكفرهم واعتقادهم الإستمراري في أيام دنياهم . أعاذنا الله بفضله ورحمته عن كل عقيدة فاسدة وعمل سيىء .

ولما كان المقام مقام أن يسأل كيف يكون هذا الجزاء الشديد المديد للكفار في ذلك اليوم مع أن كثيرا منهم كانت له الأعمال الحسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام والطاعة حسب أصول أديانهم وتسوية الطرق وإنشاء الجسور وهندسة القصور ونشر علوم يستفاد منها .. أجاب عن ذلك الباري تعالى بقوله الكريم : (مثل الذين كفروا بربهم) أي صفتهم الغريبة هي أن (أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح) أي حملته وأسرعت للذهاب به (في يوم عاصف) أي يوم مشتد الريح ، فكما أن ذلك الرماد لا يبقى له أثر في ذلك اليوم كذلك أعمالهم (لا يقدرون) أي يوم القيامة مما كسبوا في أيام حياتهم على شيىء من الجزاء الحسن أو تخفيف عذاب ، وهذا شامل لكل

الكفار • روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : يا رسول الله إن ابن جدعان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين هل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين •

وهنا سؤال آخر هو أن الكفار منهم من له أنواع من الحيل والأعمال المدمرة بالنسبة للناس من المسلمين وغيرهم ، وأشكال من التعذيب بالنار ، وبالأشرار وبالحيوانات الضارية المعلمة ، وبالسجون المظلمة •• فكيف يتساوى جزاؤه وجزاء كافر مستور في محل يعيش على كسبه لا يضر ولا ينفع ؟ والجواب إن الذي تحقق هو أن عذاب الكفر الصرف عذابٌ مقرر ومقدر ، وأما عذاب الأعمال السيئة مما قلتم فذلك يزاد عليه موافقة لأعماله حتى يكون جزاؤه جزاء وفاقا • وهذا هو المناسب لفضل الله تعالى وعدله ورحمته وحكمته • ويرى بعض العلماء أن الأعمال الصالحة الدنيوية تقابل بجزاء لهم في الدنيا فيكون المراد بقوله تعالى (فحبطت أعمالهم) أنها حبطت بالنسبة إلى الآخرة ويؤيده قوله تعالى : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) • (ذلك) الذي دل عليه البيان بالمثل المذكور (هو الضلال البعيد) عن الوصول إلى طريق الحق والصواب •

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ؟ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخلقٍ جَدِيدٍ(١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(٢٠) وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ؟ قالُوا : لَوْ هَدَانا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَواءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ، ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ(٢١) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ : إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ

الحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا أنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي ، فَلا تَلومُوني ولُومُوا أنْفُسَكُمْ ، ما أنَا بِمُصْرِخِكُمْ ، وَمَا أنتُم بِمُصْرِخِيَّ إنّي كَفَرْتُ بِما أشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ، إنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ(٢٢) وَأدْخِلَ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خالِدين فيها بِإذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ)(٢٣)

قوله تعالى : (ألَمْ تَرَ أنَ اللهَ خَلَقَ السماوات والارضَ بالحق ؟) خطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به أمته ، أو خطابٌ لكل من يصلح للخطاب • أي ألَم تُدرِكْ بالعقل والعلم الناتج منه استدلالاً قطعيا (أن الله) سبحانه وتعالى (خلق) وحده بدون علاقة غيره (السماواتِ والارض) أي العلويات والسفليات بالنسبة لكل مخاطب خلقا متلبسا بالحكمة منها ظهور ذاته العظيم على العقلاء ، ومنها طاعتهم له وحده ، ومنها تعمير الكائنات بالأعيان والاعراض النافعة بدون حاجة إليها • وإذا أدركتم أن الله هو الذي خلق هذه الاشياء بالحق علمتم أنه (إن يشأ يذهبكم) يبدكم عن بكرة أبيكم ويمحكم إمحاء صرفا بحيث لا يبقى منكم شيىء إلا الخبر (ويأت بخلق جديد) في محلكم إذا كنتم كافرين فهم مؤمنون ، وإذا كنتم جاهلين فهم عالمون ، وإن كنتم كسالى عن العمل فهم عاملون بحيث لا تكون بينكم وبينهم مناسبة إلا بالمباينة ، فبأي شيىء تعتزون ؟ وعلى أي سند تستندون ؟ (وما ذلك)الإذهاب والإتيان (على الله) العليم القدير (بعزيز) أي بمتعذر أو متعسر بل سهلٌ في سهل من الامور •

ثم بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الناس في دنياهم أخذ يذكر حالهم في دار آخرتهم ويقول : (وبرزوا لله جميعا) أي وسيبرزون ويظهرون يوم القيامة أمام الله لمحاسبة الأعمال وتقرير المصير والمآل ، فلما اجتمعوا وظهرت بوادر الأحوال والأهوال ، وأن هذا اليوم هو اليوم الموعود المشهود ، وندم المجرمون على جرائمهم وفَرِحَ المؤمنون بمكارمهم (قال الضعفاء) من الكَفَرَةِ للذين استكبروا : (إنا كنا) في الدنيا (لكم تبعا) في إنكار دين الله وبعث رسول الله (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي أنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال ، فهل أنتم اليوم دافعون عنا من عذاب الله من شيء ؟ (قالوا) أي المستكبرون في جواب الضعفاء : (لو هدانا الله) في الدنيا إلى الخير من الإيمان والعمل الصالح (لهديناكم) إليهما أي لو هدانا الله اليوم إلى وسيلة خلاص من هذه الأَهوال لهديناكم إليها ، ولكن لا هداية فلا رعاية ولا وقاية لنا ولكم (سواء علينا) والحالة هذه (أجزعنا أم صبرنا) على الحساب والعذاب (ما لنا من محيص) أي مَيلٍ وفرارٍ • والمحيص إما مصدر ميمي أو اسم مكان ، أي لا مفر نفرّ إليه •

وبعد إتمام الحساب وإصدار الأمر بالعذاب لامَ الناسُ ضعفاؤهم وكبراؤهم الشيطان ، وقالوا إنك أنت الذي أغوانا وحولنا إلى هذا المصير فأين وعودك وعهودك ؟ (وقال الشيطان) في جوابهم : (إن الله وعدكم) على ألسِنَةِ الأنبياء والرسل (وعد الحق ووعدتكم) وعد الباطل (فأخلفتكم ، وما كانَ لي عليكم من سلطان) في الدنيا (إلا أن دعوتكم) دعوة فارغة عن سلطانٍ وحجة (فاستجبتم لي) بدون بصيرة وشعور ولا دليل يأتي بالنور (فلا تلوموني) على إخلافي لموعدي فإن المُشتَبِهَ لا وعد له حتى يُطلَبَ منه الوفاء أو يلامَ إذا أخلَف (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لي

(ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم ومنجيكم من العذاب الذي أنتم فيه (وما أنتم بمصرخي) أي بمنجين لي مما وقعت فيه (إني كفرت بما أشركتموني) أي كفرت بإشراككم إياي لله تعالى في الطاعة في الدنيا (من قبل) أي من قبل هذا اليوم ولا مجال لي لأي محاولة لنفسي ولا لكم (إنّ الظالمين لهم عذابٌ أليم) وهذا قطع كلي لأطماعهم في أي نوع من الفائدة المأخوذة من الشيطان وأعوانه ، وهم ، وإن لم يشركوه ظاهرا في الأعمال ، لكنهم اشركوا غيره على تلبيسه •

(و) لجريان قضاء الله تعالى بالعدل الرباني ولرغم أنوف الشيطان وأتباعه الكبراء والحقراء (أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) وذلك بإذن ربهم الرءوف الرحيم العادل الحكيم (تحيتهم) أي تحية الداخلين (فيها) أي في الجنة من جانب الملائكة الكرام المستقبلين لهم (سلام) وقد أتى هذا مفصلا في أواخر سورة الزمر بقولهم (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) •

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثَابِتٌ وفَرْعُها فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ؟ ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مالَها مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ)(٢٧)

قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا ؟) الخطاب للحبيب ، أو لكل عاقل مجيب • أي ألم تعلم كيف ذكر الله تعالى مثلا ووضعه في الموضع اللائق وهو استعماله مع أمة الرسول العربي الكريم الذي هي خير أمة أخرجت للناس ليستفيدوا منه ؟ (كلمة طيبة) الصفة والموصوف بدل من قوله مثلاً، وقوله (كشجرة طيبة) صفة للبدل، ويجوز تراكيب اخرى (أصلها ثابت) أي ضارب ذلك الأصل بعروقه في أعماق الأرض بقدر ما يتطلبه نوع الشجرة (وفرعها في السماء) أي والأغصان العالية منها ارتفعت نحو السماء (تؤتي أكلها كل حين) أي تعطي ثمارها في كل وقت وزمان (بإذن ربها) بإرادة خالقها جل جلاله • وفي بيان الكلمة الطيبة أقوال منها : أنها شهادة أن لا إله إلا الله ، ومنها أنها القرآن الكريم ، ومنها أنها التسبيح والتنزيه ، ومنها أنها الطاعات ، ومنها أنها كل كلمة حسنة • وإذا نظرنا إلى المشبه به فتفسيرها بالشهادتين أوفق التفاسير ، لأنهما صنوان على أصل واحد وهو الإيمان ، ولهما أغصان وفروع لا تتناهى مثمرة وتوجدان عند كل مؤمن في كل زمان ومكان (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) فيفتهمون المعاني المقصودة منها ويقتدرون على تصوير المعاني المعقولة بصور المباني المحسوسة • (ومثل كلمة خبيثة) وهي كلمة ناطقة بما يخالف الإسلام أو كل كلمة لا يرضاها الله ورسوله (كشجرة خبيثة) لا يرغب فيها أحد لا فيها ثمر ولا خير (اجتثت) أي أقتلعت ووقعت (من فوق الارض ، ما لها من قرار) على استقامتها لأن المقتلعة لا تنبت مرة أخرى فشأنها البقاء على الارض لتيبس أو تحرق وتذروها الرياح • والمقصود من المثالين بيان حال المؤمن وكلمته ومنفعته وثمرته وبقائه نافعا لبني دينه وشريعته وأمته •

ثم الكلمة الطيبة هي القول الثابت المطابق للواقع الآتي به الأنبياء والرسل الكرام مَرَّ العصورِ والأيام وذلك القول قول المؤمن الموحد

توحيدا سالما من الشوائب الذي استقر في العالم ببعث النبي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويمدح الله تعالى اصحابه بقوله (يثبت الله الذين آمنوا) أي بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . والمعنى إن الله يثبت أولئك المؤمنين على العقائد السليمة ، والأعمال القويمة ، والأخلاق الكريمة ؛ فلا يؤثر فيهم إضلال الناس وإخلالهم ، ولا تعذيب الناس لهم وتأنيبهم ، فيكونون كالطّود الشامخ ببركة ذلك القول الثابت وقوته ورباطه في مدة الحياة الدنيا حتى يكون آخر كلامهم ، وفي وقت الدخول في عالم الآخرة أي عند عود الحياة البرزخية في القبر أو أي محل آخر كان . فكما تكلموا به في الدنيا تكلموا به في آخر أوانها ، وكما أعلنوا بها فيها ، أعلنوا بها في جواب الملكين في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة .

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا له : من ربك ؟ قال : ربي الله . قالا : وما دينك ؟ قال : ديني الإسلام . قالا : ومن نبيك ؟ قال نبيي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وعلى هذا فالمراد بالآخرة يوم القيامة، وبالحياة الدنيا الحياة في الدنيا وملحقاتها وهي القبر الموجود في البرزخ . وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول في هذه الآية أي (يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة .. القبر) وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة . وإلى ذلك ذهب الجمهور من العلماء . وليعلم المؤمن أن تلك الحياة الموجودة في القبر حياة برزخية تتصور عند الميت بأنه إنسان يرى في نومه أنه جالس بين جمع من الأصدقاء والأحباء يتفاهمون ويتكلمون فيما بينهم ، وهذا النوع من الحياة البرزخية والإدراك لا ينفك

عن الميت في عالم البرزخ إلى يوم البعث والنشور . وإن كانت لها درجات على مناسبة قدسية أرواح للفرق الفارق بين النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وتلك الحياة موجودة عند الكافرين أيضا . وعلى ذلك خاطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتلى بدر بقوله : « إنّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ » ولذلك أجاب عن كلام عمر : « هل تسألهم وهم أجساد جِيَف ؟ » بقوله الكريم : « والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكنهم لا يطيقون الجواب » أو كما قال .

(ويضل الله الظالمين) أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت عليه المؤمنون لسوء اختيارهم الناشيء عن سوء استعدادهم (ويفعل الله ما يشاء) من تثبيت المؤمنين وإختلال الكافرين حسبما توجبه مشيئته التابعة لعلمه الحاكي عن أحوال العباد وأفكارهم وأعمالهم من أهل الغي والرشاد .

(أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُم دارَ البَوارِ ؟(٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئْسَ القَرارُ(٢٩) وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ : تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إلى النَّارِ !(٣٠) قُلْ لِعِبادِي الَّذِين آمَنُوا : يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خِلالٌ(٣١) اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ(٣٣)

وَآتيكُم مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إِنَّ الإِنسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ)(٣٤)

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا) لما كان القائد السيىء الأفكار والأخلاق يقود قومه إلى الدمار ، والقائد الحسن التدبير والأفكار والآثار يقودهم الى السعادة في الدنيا وفي دار القرار جعل الله سبحانه وتعالى أعمال القادة المفسدين منشأ لسوء عاقبة الامة التابعة لهم فقال على وجه التعجيب لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ؟) أي ألم تنظر الى سوء أفكار وأعمال القادة المفسدين الذين بدلوا شكر نعمة الله كفرا ؟ فبدل أن يشكروه عليها كفروا به وبها .والمراد بهم قادة أهل مكة ؛ فإن الله تعالى أسكنهم حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكفروا بنعمة الله ، فضربهم الباري تعالى بالقحط سبع سنين ، ووقع فيهم القتل والأسر والتمزق والتفرق ، فحصل لهم الكفر بدل الشكر والنقمة بدل النعمة . ومع أنهم كانوا مورد النزول فالآية عامة لكل قادة يقودون القوم إلى الفساد . أعاذنا الله تعالى (وَأَحلوا قومهم دار البوار) أي أنزلوا قومهم في دار الهلاك أي في منزل أو منزلة لا يكون نصيبهم فيها إلاّ الهلاك . وذلك المنزل (جهنم) عطف بيان للدار (يصلونها) حال من الدار أي يدخلونها (وبئس القرار) والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم .

(وجعلوا) أولئك الكبار (لله) الواحد الأحد الصمد (أندادا) أي أمثالا في العبادة (ليضلوا) قومهم (عن سبيله) أي عن سبيل الله القويم (قل) لاولئك القادة الى السوء : (تمتعوا) بما تلتذونه وتستفيدون منه زمانا قليلا (فإن مصيركم) بعد زمان حقير قليل (إلى النار . قل لعبادي

الذين آمنوا) بالله ورسوله : (يقيموا الصلاة) إقامة بها الثمرات المجتناة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر (وينفقوا) على الفقراء والمساكين وفي سائر طرق الإحسان (مما رزقناهم سراً وعلانية) الأولى بمقام يخاف منه الفتنة كالرياء وما شاكلها ، والثاني أولى بمقام منزه عن ذلك أو كان مناسبا لتعويد الناس على الإنفاق في الخيرات (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) حتى يعامل الناس مع غيره معاملة تجلب الأرباح وتجبر الخسارات (ولا خلال) أي مخاللة ومحابية وتعاون مبني على الصداقة بينهم لدفع مكروه أو جلب محبوب .

وقوله تعالى (الله الذي خلق) مبتدأ وخبر ، والجملة في صورة الإستئناف في تحصيل مايوجب مرضاته تعالى ، ولكنه بحسب المقام خبر لمبتدأ مستفاد من بيان حال السعداء والأشقياء الذين سعدوا بطاعة الله أو شقوا بمعصيته ، فكأنه هو اي الذات الذي سعد السعداء به وشقي الاشقياء به (الله الذي خلق السماوات والارض) بالوحي المتوارث من الرسل المؤيدين بالمعجزات وبالبراهين القاطعة المستقاة من المقدمات البديهية . (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من المزروعات والمغروسات وغيرهما كأنواع النبات النابت به على الارض (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره) وحكمه وإقداره لعباده الصانعين للمراكب البحرية (وسخر لكم الانهار) التي ليست قابلة لسير السفن سخرها للعبور بدون السفن ، ولأخذ المياه منها بالجداول لسقي الاراضي المكروبة وشرب المياه المطلوبة (وسخر لكم الشمس) لإضاءة العالم حتى يستفيد أهله من المكاسب والمعايش (و) سخر لكم (القمر) بالليالي حتى تسير القوافل في أشعة نوره حالكونهما (دائبين) أي دائمين في عملهما حسب ما سخرهما الله تعالى له (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان حتى يتهيأ زمان لهدوء

أعصاب العمال واستراحة نفوسهم وأبدانهم من كدّ مشاق الأعمال ويتجدد زمان للإستمرار في العمل النافع للحال والمستقبل مَرَّ الأجيال • (وآتاكم) أي هيأ لكم ووفر اسباب تحصيله عندكم (من كل ما سألتموه) حسب مجاري العادات وتطور الأزمان فهيأ السدود لخزن المياه لتتوفر المحصولات والمكائن لحرث الاراضي وبث البذور فيها ، وللحصاد وتصفية الحبوب وإخراجها إلى مقام الإستفادة منها • والسيارات لنقل الركاب والطيارات لقطع المسافات الشاسعة أرضا وجوا لنيل المطالب من وصول البلاد في بضع ساعات• وهيأ الكهرباء لتنوير الدنيا ورفع ظلمة المنازل فيالليالي والسراديب في النهار ولوقاية الإنسان وحوائجه من الحر الشديد ولدفع برودة الهواء في الشتاء القارص ، وعلم الناس الطب الوافي بمدافعة الأوبئة والأمراض ••• وكل ذلك ناتج عن إلهامه العلم لأصحاب المعارف ببعض فوائد المواد المصنوعة ، ويمكن أن يكون فيها فوائد أخرى لم تكتشف بعد يقربها إليكم العلم في المستقبل القريب أو البعيد • (وإن تعدوا نعمت الله) أي وإن أردتم عدها لا تحصوها ولا تضبطوها ؛ إذ كلما اطلعتم على نعمة استفدتم نعمة أخرى ••• وهكذا فيطول العدّ بلا مقدار ولا حدّ • (إن الإنسان لظلوم) بإنكار المنعم ونعمته (كفار) بالقصور عن أداء شكرها ونسأل المولى الكريم أن يجعلنا من الشاكرين وبالقلوب والألسنة من الذاكرين آمين •

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ، وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ(٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا

لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، فاجْعلْ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ(٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وما نُعْلِنُ ، وما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ(٣٨) الحَمْدُ للهِ الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الكِبَرِ إسماعيلَ وإسْحاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ(٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعاءِ(٤٠) رَبَّنا اغْفِرْلِي ولِوالِدَيَّ ولِلمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسابُ)(٤١)

قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم) مفعول لفعل محذوف أي أذكر ذلك الوقت (رب اجعل هذا البلد) يعني مكة المكرمة زادها الله شرفا (آمنا) أي ذا أمنٍ (واَجْنُبني وَبني أن نعبدَ الأصنام) بعدنى وإياهم عن التذلل التقليدي المفتعل للأخشاب والأحجار (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) أي تسببن في ضلال الناس بسبب بعض أوهام تقليدية لا أصل لها ولا أساس (فمن تبعني) في عبادة الله وحده لا شريك له (فإنه مني) أي كجزء مني أو قريب مني (ومن عصاني) اي لم يتبعنى (فإنك غفور رحيم) أي قادر على أن تغفر له وان جرى اخبارك المقدس بأنك لا تغفر لمن يكفر بك وتغفر مادون ذلك لمن تشاء (ربنا إني أسكنت من ذريتي) أي بعض ذريتي أي إسماعيل ونسله (بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) بتحريمك إياها عن تعرض الناس لصيدها وأشجارها ونباتها ، أو المحرم بصيانتك عن إستيلاء الجبارين وقهرهم على أهلها (ربنا) أسكنتهم هناك (ليقيموا الصلاة) لا لغاية أخرى ، وخص الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين وركنه الركين (فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم) أي تسرع إليهم شوقا إلى

طواف كعبة وودّاداً لها ووتذكراً لبنائها لإقامة الدين وتوحيد الناس في التوجه إليها ليكون ذلك سببا للوحدة والإعتصام (وارزقهم من الثمرات) التي تجلب إليها من النقود المعدنية الذهب والفضة والأقوات والأدهان والألبسة والفرُش والمواعين وسائر الأشياء المحببة للناس (لعلهم يشكرون) الله أي يأخذونها ويتنعمون بها ويشكرون الله تعالى على تلك النعم التي لا تحصى •

ثم لما بين أن ذريته التي سكنت في الوادي تحتاج إلى المعونة بالرزق والإمتاع من كل الثمرات وأنه طلب منه تعالى إمدادهم بها قال : (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) فتعلم أن ما نريده للتقوية على الطاعة ونشر توحيد الله تعالى في الأرض ، ولا نريد تخصيص بعض ذرياتنا لذلك • أو إنك تعلم ما نخفي من الحاجيات لجهلنا به أو لعدم سماح الوقت ببيان كلها ، وما نعلن منها لكونها معلومة محدودة (وما يخفى على الله من شيىء في الأرض ولا في السماء) لأن العالم بعلم هو صفته الأزلية يستوي إدراكه لكل معلوم جزئي أو كلي علوي أو سفلي •

ثم شرع بحمد الله تعالى على أن أضاف الى خوارق العادات التي أعطيها من نجاحه ونجاته من نار نمرود وغلبته عليه في المحاجة مع ذلك العدو اللدود ، وخلاصه من أولئك المتمردين إلى أرض فلسطين المباركة بأهل الركوع والسجود ، وتلقي ملك مصر له بالإكرام والإحترام ، وإعطائه الجارية أم إسماعيل وإسكانهما في أرض مكة ، وإقدار الله تعالى على بناء الكعبة الشريفة أن وهب له وهو في عمر لا يناسب التوليد إسماعيل وإسحاق الأبوين الطاهرين للأنبياء والرسل الكرام •• فقال : (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق) أي وهب لي مع تجاوز عمري عن حد الايلاد ذينك الابنين الجليلين (إن ربي لسميع الدعاء) ولذلك أجابني عندما

طلبت منه الأولاد فإذا تقبلت مني أدعيتي في ما مضى من حياتي فيا (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين) بك وبرسلك (يوم يقوم الحساب) •

وقد يستدل بهذه الآية على أن آزر الذي كان يدعوه باسم الأب عندما استغفر له وقال (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) لم يكن والده وإنما كان عمه ويدعوه باسم الأب لتربيه عنده • وأما هذا الذي استغفر له هنا فهو والده الذي ولده فجمعه مع والدته ، وإلا فلو كان ذلك ما كان يستغفر له بعد النهي عنه • فتأمل •

(وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عمَّا يَعمَلُ الظَّالِمُونَ ، إنمَّا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ(٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ ، فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنا أخِّرْنا إلى أجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ! أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مالَكُمْ مِنْ زَوالٍ ؟(٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الأَمْثَالَ(٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُم وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزولَ مِنْهُ الجِبَالُ(٤٦) فلا تَحسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرضِ والسَّماواتُ ، وَبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشَى وجُوهَهُمُ

النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ (٥٢)

قوله تعالى : (ولا تحسبَن الله غافِلاً) بعد ما سرد من قصة أبيه إبراهيم توجه إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُسلياً له عن تحمل اتعاب المشركين وقالَ : (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) من تعدي الحدود ، ومن الجحود بالله الواجب الوجود ، أو الإشراك به في العبادة أو الظلم على حقوق العباد وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، أو تماديهم في غفلتهم وإعراضهم عن إطاعة ربهم (إنما يؤخرهم ليوم) هائل (تشخص فيه الأبصار) أي ترتفع أبصار أهل الموقف وتتوقف من الهول والدهشة فلا تتحرك ولا ترى (مُهطعين) مسرعين إلى داعي الحق (مُقْنِعي رُءوسهم) أي رافعيها مع شخوص الأبصار (لا يرتد إليهم طرفهم) أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم (وأفئدتهم هواء) أي وقلوبهم خالية عن الفهم • ومادام تكون عاقبة الظالمين هكذا (فأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أي من يوم يأتيهم عذاب جهنم (فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب) أي رجعنا إلى حال حياتنا الدنيوية (نجب دعوتك)الى الإيمان بك وبوحدتك (وتتبع الرسل) فيما جاءوا به من عندك • فيرد عليهم الباري جل شأنه ، أو ملائكته بأمره ويقول لهم : (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) أي من قبل حلول الآخرة ومشاهدة عذابها (مالكم من زوال ؟) على ما أنتم عليه من المتاع والشهوات النفسية والإعراض عن الطاعات القدسية (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) بالإشراك وسائر المعاصي (وتبين) وظهر (لكم كيف فعَلنا بهم) من الإبادة والإستئصال ، أو التمزيق والتفريق في البلاد بالعذاب او النكال (وضربنا لكم) في القرآن الحكيم أو على ألسنة كل

رسول كريم (الأمثال) أي صفات أمثالكم قبل الدمار وصفاتهم بعد الوبال ، لتكون ذلك عبرة لكم ، ولم يفدكم إلا مزيدا من العناد في الحال .

(وقد مكروا مكرهم) وأولئك الناس لم يكونوا ضعفاء لا يعرفون شيئا بل كانوا صناديد أهل القوة والمكر والإحتيال ، وفعلوا ما في طاقتهم من العصيان والعتو على الله ذي الجلال ، وعلى رسله وأتباعهم بكل حال (وعند الله مكرهم) أي وكان معلوما عند الله مكرهم . والمكر إذا كان معلوما عنده كان دفعه وإبطاله معلوما كذلك فلا يفيدهم ذلك لأن مكر سنةٍ يَبْطُل في سِنَةٍ أو كان عند الله جزاءُ مكرهم بمعنى أنّ كل حيلة ووسيلة لهم للمتمرد كان عليه عقاب عند الله وأجّلها لهم إلى يومه المقرر (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) والحقيقة أن مكرهم كان جسيما وكيدهم كان عظيما ، إذ كان في أيديهم شتى أصناف العلم والإطلاع بما يجري في البلاد والبقاع ، ورصدوا في مقابل كل ذلك طرقا للاستيلاء على مناوئيهم ومقابليهم فكان مكرهم لو تجسم كمعاول أو مكائن تدميرية لأزالت الجبال وأقلعتها عن أماكنها . فعلى هذا المعنى كلمة إن شرطية وصلية ، واللام حرف جر ، والمضارع منصوب بأن المضمرة . يعني وعند الله إبطال مكرهم وإن كان مكرهم مناسبا وموافقا لزوال الجبال لكنه ما بقي بل انمحى ولم يبق له أثر . وزعم بعض أن إن نافية يعني وما كان مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي قويا جدا ، بل كان ضعيفا حقيرا .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رُسُلَه) بانتصارهم وانتصار أتباعهم المخلصين على الكافرين ، ولا وعده بحلول العقاب المدمر عليهم إن عاجلا أو آجلا ، ولا وعده بالانتقام منهم وعقابهم بما يناسب أفكارهم وآثارهم ، (إن الله عزيز) غالب على ما أراد ، (ذو انتقام) من ظلمة العباد وإن أجلهم إلى يوم المعاد . (يوم) ظرف لعامل مقدر مستفاد من النهي المذكور ،

أي ينجز ما وعد به يوم (تبدل الارض غيرَ الارض والسماوات) أي وتبدل السماوات غيرَ السماوات . والتبديل قد يكون في الذات كما في : بدلنا الدراهم دنانير . وقد يكون في الصفات كما في : بدلت الحلقة خاتما إذا غيرت شكلها . والآية الكريمة ليست بنص في واحد منهما . وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال تبدل الارض أي يزاد فيها وينقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وأشجارها وما فيها ، وتمد مدّ الأديم العكاظي ، وتصير مستوية لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، وتبدل السماوات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها ... وحاصله يغير كل عما هو عليه في الدنيا . وقال ابن الأنباري : تبدل السماوات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومرة وردة كالدهان . والحق الذي يجب أن يعتبر أن النصوص إذا أضيف بعضها إلى بعض تدل على أنه لا تبقى هذه الارض يوم القيامة ولا السماوات ولا الشمس والقمر والنجوم ، وإنما هناك عند قيام الساعة عالم آخر لا الأرض أرضنا ولا السماء سماؤنا . وقد قال تعالى : (يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار) أي وبرز الخلائق من الظالمين وغيرهم ، أو الظالمون فقط . وبروزهم لله كناية عن عرضهم للحساب بصورة مخزية . فالسكوت عن تفصيل ذلك بدون نص يدل عليه واجب . على أن عالم الآخرة حسب ظاهر النصوص محصور في عالم الجنة والنار . والجنة عرضها السماوات والارض . والنار مسافتها في علم العزيز الجبار . ولا تفي هذه الارض ولا هذه المسافات المحدودة المحسوسة لأن تكون مستقرا لأهل الدارين .

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين) أي يوم إذ برزوا لله مقرنين بعضهم إلى بعض (في الأصفاد) جمع صفد وهو القيد الذي يوضع في الرّجل ، أو الغل الذي يكون في اليد والعنق (سرابيلهم) أي ما يستر أجسادهم (من

قطرانٍ) وهو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق بحدته وحرارته الجرب في الجلد (وتغشى وجوههم النار) أي تعلو وجوههم وتحيط بها النار التي تسَعَّر بأجسادهم المُسَربَلَةُ بالقطران . وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعالي الأجساد ، فإذا علت الوجوه فقد علت الوجود ، ويعاملون بما ذكر (ليجزي الله كل نفس) ظالمة مجرمة جسورة على الله وعلى عباده ، ومتعدية على حدوده (ما كسبت) من الكفر والمعاصي لاسيما من التعدي على حقوق الناس (إن الله سريع الحساب) لا يشغله كتاب عن كتاب ولا حساب عن حساب . (هذا) البيان الذي عرض الآخرة في معرض العيان من قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا) إلى هنا (بلاغ للناس) أي كفاية لهم في الموعظة (ولينذروا به) أي ولينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ الكافي (وليعلموا أنما هو إله واحد) أي وليعلموا بالتأمل في الأنفس والآفاق ، أو بالإيمان بالرسول صاحب محاسن الأخلاق ، أنما هو إله واحد أي أن الله الذي له السيطرة في الدنيا والآخرة هو إله واحد لا شريك له ذاتا أو صفة أو فعلا (وليذكر أولوا الألباب) فيأخذوا حذرهم من عقاب يوم الحساب .

الجزء الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقرآنٍ مبين(١) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ(٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ، ويُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣) وما أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلومٌ(٤) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرونَ(٥) وَقالُوا : يا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنونٌ(٦) لَو ما تَأْتِينَا بالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧) ما نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ(٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ)(٩)

(الـر) قد تقدم الكلام فيه • (تلك)إشارة إلى هذه السورة (آياتُ الكتاب) أي الكتاب الكامل المحقق المختص اسم الكتاب به (وقرآن مبين) مظهر لما فيه من الأحكام للأنام والقرآن تفسير للكتاب للتفخيم •

وقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) جاء لبيان حالة نفسية وندم شخصي يعتري الكفار عند البعث ورؤية ما يستحقونه من الأهوال التي لا مرد لها ، فكان الباري ــ جل شأنه ــ يقول لهم : أيها

الناس لا تستمروا على الكفر والعناد وتوجهوا إلى طريق الرشاد قبل أن يأتيكم يوم تتندّمون فيه على ما فاتكم من الإيمان بدون أية استفادة . وأما مورده الخاص ففيه روايات . منها : ما روى عن ابن مسعود أن الآية نزلت في كفار قريش ودوا ذلك يومَ بدرٍ حين رأوا الغلبة للمسلمين . ومنها ما أخرج الطبراني وابن مردويه بسندٍ صحيح عن جابر عن عبدِ الله قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إن ناساً مِن أمّتي يُعذبون بذُنوبهم فيكونونَ في النار ما شاء الله تعالى أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى مُوَحد إلاّ أخرجه الله تعالى من النار ثم قرأ رسول الله الآية . وذكر ابنُ الأنباري أن هذه الوِدادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ويسلمُ المُسْلِمُ .

وربّ على كثرةٍ وقوعها في كلام العرب لم تقع في القرآن إلاّ في هذه الآية . وهي للتكثير لأن الكفار كثيرا ما يرون المسلمين في راحة وأمان وهدُوء ونعمةٍ ورِضوان فيتمنون ذلك بدون استفادة من تمنيهم . ومن الناس من قال إنها في الآية للتقليل لأن عذابَ الآخرة يدهشهم فلا يبقى لهم مجال أن ينظروا إلى غيرهم ويتعرفوا على أحوالهم إلا في قليل من الأوقات وذلك لمزيد الحسرات عليهم حيث يرون سلامة المسلمين فيتمنون ذلك .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) أي أترك أولئك الكفار الغافلين عن الحال والمآل يأكلوا مما يشاءون ويتمتعوا كيف يشاءون (ويلههِمُ الأمل) أي وذرهم يشغلهم التوقع للمتمنيات التي هي ابعد من آجالِهم (فسوف يعلمون) ماذا ينالون من العذاب والعقاب . والطلب تهديدي فإنّ الله لا يرضى لعباده الأعمال السيئة والآمال الدنيئة (وما أهلكنا مِنْ قرية) من القرى الكبيرة او الصغيرة ، أي وما دمرناها بأهلها أو أهلكنا أهلها (إلاّ ولها منذرون)

قبل ذلك يُنذِرهم به قبل حلوله وبشدته قبل نزوله و (ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون) أي وما يتقدم أي أمة على وقتِ عذابها ، ولا تتأخر عنه فالوقت مقدر والحساب مقرر • وكما أن وقت العذاب مقدر كذلك وقت النعيم ولكن التهويل في الأول لا في الثاني • (وقالوا) أي أولئك الكفار المشركون السفهاء الذين لا يميزون بين صاحبي العقل والجنون في مقام إيذاء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيه الذكرُ) أي القرآنُ (إنك لمجنون) لأن من تعود الأمور السافلة الرذيلة وابتعد عن مستوى الأمور العالية والفضيلة يرى العقل جنونا والجنون عقلا ، ويرى اليقظة غَفْلَةً والغفلة يقظة • ألا ترونَ بعض الحشرات السافلة لا تنزل إلا على النباتات ذوات الرائحة الكريهة وتنفرُ عن ذوات العطور الكريمة ؟ ويقولون له (لو ما تأتينا بالملائكة) المأمورين بإهلاكنا أو بالملائكة الذين يشهدون بصحة دعواك للرسالة (ان كنت من الصادقين) أن الله يعذبنا عقابا لنا على مخالفتك ، أو أن الله أرسلك للناس رسولا • (ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أي ولا يعلمون أنا لا ننزل الملائكة إلا متلبسين بالوجه الحق المطابق والحكمة الموافقة لإدارة شئون العباد المقتضية لإرسالهم للإفادة حين الافادة ، ولإبادة الأمة حين الإبادة ، ولو أنزلنا الملائكة لقضوا عليهم عن بكرة أبيهم (وما كانوا إذاً منظرين) ساعةً من الساعات في اي ساحة من الساحات (إنا نحن نزلنا الذكر) العظيم وهو القرآن الكريم على الرسول الهادي لإنذار الناس من العذاب الأليم وتبشيرهم بالنعيم المقيم (وإنا له لحافظون) أي وإنا لهذا الذكر لحافظون من تطرق أيدي العابثين ، فيبقى مادام العالم باقيا لاستفادة أحكام الدين وكل من تعرض لصاحبه الذي نزل عليه نسحبه إلى جهنم ونعذبه بالعذاب العقيم •

ولقد حقق الله وحده وعده ونصر ذكره وقرآنه المنزل وجنده ولم يقدر احد أن يأتي بمثله أو بمثل سورٍ منه حتى تنكسر شوكته وتزول دولته ، ولم يقدر أحد أن يحرف حرفاً أو كلمة أو جملة أو آيةً من آياته ، فبقيت على ما نزلت عليه من سماواته . وكما حفظ هذا القرآن فقد حفظ صاحبه وصانه عن أعدائه إلى أن تمم مهمته وأكمل رسالته ونشر شريعته فتحقق ماقاله الباري جل جلاله (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) والخوف كل الخوف من أن يأتي الناس يحرفونه عن معانيه الثابتة التي درجت عليها الأمة المرحومة ويحولونه الى أهوائهم ، ولكن الله لهم بالمرصاد ونلتجيء إليه في كافة الأمور إنه بصير بالعباد .

ومع ذلك فقد ثبت تأريخيا أن كل من جاء بهذا النوع من التفسير ، وأراد أن يغير المعاني المقررة الموافقة لظواهر النصوص وقواعد الدين قد رد الله كيده في نحره وسهمه الى صدره، وقيض أناساً مخلصين عارفين بالمباني والمعاني ، وأبطلوا كلّ ما قرروا ونقضوا كل غزل غزلوا ، ورجعوا الحقائق إلى الأذهان . فلله المنة والحمد مر الزمان .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في شِيَعِ الأَوَّلِينَ(١٠) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ(١١) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ في قُلُوبِ المُجْرِمِينَ(١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ(١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقالُوا : إنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)(١٥)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن تمرد الكفار المشركين ليس شيئا مستحدثا في

زمانك بل إنه عادة مستمرة على الأشقياء حيث عارضوا الأنبياء والرسل (و) الله (لقد أرسلنا رسلا) مبشرين ومنذرين في شعوب من الأناس الأولين (وما يأتيهم من رسول) في أي حال من الأحوال (إلا) في حال (كانوا به يستهزءون) في تلك الحال (كذلك) أي مثل السلك الذي سلكناه في قلوب المجرمين المستهزئين الأقدمين (نسلكه) أي ندخله (في قلوب المجرمين) الآخرين أي إن الإنسان نوع واحد والطبيعة طبيعة نوعية واحدة، ومن وفقه الله للسلوك على مسلك الحق والسداد كلما أرسل إليهم رسول سلكوا معه مسلك الرشاد ، وكل مَنْ خَذَله الله عاندهم وتمرد عليهم وسلك مسلك العناد ، ولم يهتم الرسل إلا بأداء واجب التبليغ فبلغوا ونالوا خيرهم في الدارين . ولا تهتم باقتراحات أولئك الفاسدين لأنها ليست بنية الاستصلاح وإنما هي للاستهلاك الوقتي والاسترواح (و) إلا فـ (لو فتحنا عليهم باباً من) أبواب (السماء) أي من المواقع التي يجوز ويمكن العروج فيها (فَظَلّوا فيهِ) أي في ذلك الباب (يَعرُجُون) أي يصعدون حسبما تيسر لهم (لقالوا) من شدة العتوّ والغلوّ في المكابرة : (إنما سُكِّرَتْ أبصارنا) أي مُنِعت من إبصار الحقائق ، والذي نراه ليس من السماء ولا من عجائب آلاءِ الله تعالى (بل نحن مسحورون) أي أعرض عن سَدّ الأبصار ومنعها عن الإبصار ، وقل إنه قد فتحت أبصارنا وترى الحقائق ولكنا قوم مسحورون ، وغَلَب محمد على عقولنا وندرك الحقائق على غيرما هي عليه . فالجواب الأول الإختلال في الحواس . والجواب الثاني مما وقع بعد الإضراب الاختلال في العقول فلا ينفع فيهم أي دليل وأي تعليل، لأن حواسهم وقلوبهم مؤوفة بآفة العناد والعناد مع الحق حماقة .

لكل داءٍ دواء يُستَطَبّ به ... إلاّ الحماقَةَ أعْيَت مَنْ يُداويها

(وَلَقَدْ جَعَلْنا في السَّماءِ بُرُوجاً ، وزَيَّنَّاها للنَّاظِرِينَ(١٦) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ(١٧)إلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ(١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْناها وأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ ، وأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزونٍ(١٩) وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ(٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢١) وَأَرْسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ ، فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ ، وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ونُمِيتُ وَنَحْنُ الوَارِثُونَ(٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَأْخِرِينَ(٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٢٥)

وبعد أنْ ذكر الله سبحانه وتعالى تمرد الأشقياء على الأنبياء ، وأنهم استمروا في عنادهم .. أخذ يعظ أولئك الناس وغيرهم إلى الإيمان بالله القادر القهار الذي خلق الكائنات من الأرض والسماوات حتى إذا اعترفوا بذلك سهلت طرق المباحثة معهم . ويمكن توجيههم بأن الله القادر على هذه الأشياء قادر على بعث الرسل لتنوير العقول ، وأن ذلك البعث المزين لأحوال أهل الأرض مناسب لتزيين السماوات بالبروج وسائر الامور المستحسنة . فقال : (ولقد جعلنا في السماء بُروجا) أي قررنا فيها منازل ودرجات مسماة بالبروج تكون مدة سير الشمس فيها على مرأى الناس دليلا على الفصول والمواسم ، وهي اثنا عشر برجا ، ستة منها في بلادنا شمالية هي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، للربيع . والسرطان ، والاسد ،

والسنبلة ، للصيف • وست منها جنوبية وهي : الميزان ، والعقرب ، والقوس، للخريف • والجدي ، والدلو ، والحوت للشتاء • وبالسير فيها تنتهي أيام السنة فتتجدد إلى ما شاء الله • وقيل : البروج الكواكب العظام لأن البرج في أصل اللغة القلعة أو القصر العالي • (وزيّنّاها للناظرين) أي وزينا السماء بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت للناظرين بأبصارهم في الليل الصافي فيرون فيها عجائب اللمع وعجائب المجموعات على أشكال مختلفة من أشكال الحيوان والأوراد المجتمعة والميزان وغيرها فكأنها فرش معلقة في الجو منقوشة بالنقوش المستحسنة • أو زيناها لعقول الناظرين ورتبناها بحيث يستدل بوجودها وأضوائها المختلفة وحركاتها كذلك سرعة وبطء وجهة ومواسم طلوعها وغروبها في ملك المسافات الشاسعة على وجود فاعل قادر مختار يتصرف في الكائنات بما يشاء • (وحفظناها) أي تلك البروج أو سماءها (من كل شيطان رجيم) أي منعناهم من الوصول إليها والتعرف على أحوالها ومد الأيدي إليها بالتغيير والتبديل فهي عوامل ثابتة قائمة بامر ربها • وقوله (إلا من استرق السمع) إستثناء منقطع • أي لكن من لم يصل إليها ووصل إلى حيث يسترق السمع أي يسترق بعض الكلمات من الملائكة هناك لينزل بها ويبثها بين شياطين الإنس والجن بالإلقاء والوسواس (فأتبعه شهاب مبين) والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو • يعني إن الشياطين إذا أرادوا أن يصلوا الى السماء ، أو إلى تلك البروج لا يصلون إليها ولكن يصلون إلى منازل في الجو فهناك يستمعون كلام الملائكة • بينما هم في ذلك الوضع إذا امتدت إليهم الشهب النارية وأحرقتهم •

ولا قدح في أن يكون في الجو كواكب وشهب من قديم الزمان وتكون بحيث يترتب عليها حكم ومصالح كثيرة نعلمها أو لا نعلمها • ومن جملتها

رجم الشياطين المسترقة في الجو لاستماع كلام الملائكة لنشرها في الأرض . وأما القول بأن الجن خلقن من النار فكيف تؤثر فيها نار الشهب وتحرقها ؟ فجوابه : أن الجن مركب وفيه أجزاء كثيرة ، وإن كانت النار أغلب أجزائها ، ولا مانع من تأثير النار الخالصة في المركب منها ومن غيرها . وإلا لزم أن لا تؤثر نار جهنم في المعذبين من الجن في نار جهنم ، وذلك خلاف الإجماع الصّرف والنصوص القطعية من الكتاب والسنة السنية . وإذا نظرنا إلى الواقع السليم وجدنا أنه إلى الآن لم تكشف السماوات وما فيها من الكواكب السيارة أو الثوابت إلا شيىء قليل من آثارها وفوائدها ، ولعل في تلك الكواكب العالية عالما من أصحاب العقول ومن الحيوانات الغير العاقلة كما أن في المحيطات أصنافاً من الحيوانات بأشكال مختلفة لم تر نظائرها في الصحارى والجبال . هذا من جهة المادة . وأما من جهة المعنويات والأرواح الطيبة والخبيثة فلا كاشف لها إلا الله ، وقد يطلع الله على بعض غيوبه بعض الناس من الأنبياء والرسل الكرام ، فإذا قرر الله سبحانه وتعالى أن بعض الجن يصعدون في السماوات لتلقي بعض الأمور فإذا وصلوا الى منزلة معينة رماهم بالشهاب وأمحاهم ؛ فذلك بيان جزئي لبعض المغيبات السماوية ولا عجب فيه أبدا ولا مجال لإنكار أحد من العقلاء ذلك بحال من الأحوال .

(والأرض مددناها) أي جعلناها ممدودة مبسوطة ، ولا ينافي هذا المد والبسط كونها كروية أو بيضية ، أو اهليلجية ، فإن المادة كيفما كانت ما دامت كبيرة الحجم يرى كل مقدار منها كالفرش المبسوط . ولو نظرنا إلى الجبال العالية لم نجد لها منعا من كونها كروية أو بيضية مثلا ، فإن نسبة ارتفاع أعظم الجبال إلى الارض كنسبة سبع عرض شعيرة إلى قطر كرة هو ذراع كما حقق في محله من علم الهيئة . (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا عالية مستحكمة ثابتة القواعد في أعماق الارض ، وذلك لفوائد منها

أن تحفظ الجذور النارية الملتهبة من الإنفجار الهائل وتدمير الارض • ومنها حفظ توازن الكرة في الحركات اليومية والسنوية • ومنها امتصاص الثلوج والأمطار وخزنها في طياتها لتتفجر منها العيون والانهار • ومنها إنبات النباتات المختلفة النافعة فيها وبقاؤها في صفاء الهواء حتى تصل إلى مستواها المناسب المقرر لها ••• إلى غير ذلك مما يعلمه أهله • كما قال تعالى (وأنبتنا فيها من كل شيىء موزون) والضمير يعود إلى الأرض الشاملة للجبال أو إلى الرواسي • (وجعلنا لكم فيها) أي في الأرض (معايش) ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما يتعلق بها بقاء الإنسان والحيوان (ومن لستم له برازقين) كلمة من إما معطوفة على الضمير المجرور عند من لم يشترط إعادة الخافض على المعطوف • أي وجعلنا فيها معايش لمن لستم له برازقين من العيال والمماليك والخدم والدواب وغيرها • أو عطف على معايش • أي وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين كما ذكرناه آنفا •

(وان من شيء) أي وما من شيء (إلا عندنا خزائنه) من الأقوات والفواكه والملابس ومواد الأثاث والمواعين وغيرها • (وما ننزله إلا بقدر معلوم) محدود مناسب لتطور البشر في الدنيا وحاجتها إلى الأمور الخمسة المذكورة وغيرها من المعدات الحربية والأدوية والعقاقير الطبية وغيرها • يعني إن الخزينة موجودة عندنا وهيأنا البشر لتعلم العلوم والفنون والصنائع ليستخدمها في استحصال ما يفيده من الأرض برحابة الصدر لتكميل ما يحتاج إليه في العسر واليسر • ولا ينال أي قوم وأي فرد من أي قوم إلا بقدر قابليتها علماً وعملاً وطموحاً وأملاً •

(وَأَرْسَلنا الرياح لَواقحَ) أي أرسلناها من الأرض إلى الهواء المرتفع ومن بلد إلى بلد آخر لواقح أي حاملات بمواد الأمطار الغزيرة (فأنزلنا من السماء) حيث شئنا (ماء) بقدر ما تعلقت به إرادتنا (فَأَسقَيْنا كمُوهُ)

أي فأسقيناكم به نفوسا ومزارع وبساتين ومراتع (وما أنتم له بخازنين) أي وما كنتم بجامعين حافظين لذلك الماء ، وإنما انبعثت الرياح بأمرنا وأخذت مواد الأمطار بإرادتنا وأفاضتها على الاراضي بمشيئتنا (وإنا لنحن نحي) بإيجاد الحياة في المواد القابلة لها (ونميت) بإزالتها عنها (ونحن الوارثون) أي الباقون بعد فناء الخلق قاطبة والمالكون حقيقة لما ملكوه مجازا (ولقد علمنا المُسْتَقْدِمِين منكم) أي الذين ماتوا (ولقد علمنا المستأخرين) الذين لم يموتوا بعد (وإن ربك هو يحشرهم) بعد أن أماتهم ثم بعثهم • يعني أن الله سيبعث الجميع ويحشرهم في صعيد واحد ، ويحاسبهم ويقرر مصيرهم أجمعين (إنه حكيم) في خلقهم وإحيائهم (وعليم) بجزاء أعمالهم •

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ(٢٦) والجانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمومِ(٢٧) وإذ قالَ رَبُّك لِلْمَلائِكَةِ : إنِّي خالِقٌ بشراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسنونٍ(٢٨) فإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ(٢٩) فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٣٠) إلاَّ إبْلِيسَ ؛ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ(٣١) قالَ : يا إبْلِيس مالَكَ ألاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ؟(٣٢) قالَ : لَمْ أكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ !(٣٣) قالَ : فَاخْرُجْ مِنها فإنَّكَ رَجِيمٌ(٣٤) وَإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ(٣٥) قالَ : رَبِّ فَأنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٣٦) قالَ : فإنكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ(٣٧) إلى يَوْمِ الْوَقْتِ المَعْلُومِ)(٣٨)

قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) أي (ولقد خلقنا) أصل هذا النوع وأول فرد من أفراده (من صَلْصالٍ) أي من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقره ناقر (من حمأ) أي من طين تَغَيَّرَ واسْوَدَّ مِن مُجاوَرة الماءِ (مَسْنونٍ) مُصَوَّر من سُنَّةِ الوَجه أي صورته • أو مَصبوب من سنّ الماء صَبَّه • (والجانّ) أي ولقد (خلقناه) أصل نوع الجن وهو الجانّ يعنى به أبا الجن (مِن قبلُ) أي من قبل خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلم كلّها إلاّ الله تعالى (من نار السموم) قيل:السموم نار لا دخان لها فالإضافة من إضافة العام إلى الخاص • وقيل السموم المُفْرِطُ في الحرارة والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة • وقد جاء في بعض الآثار أَن النار التي خلق منها الجان أشد حرارةً من النار المعروفة عندنا • ولا يخفى أنا إذا نظرنا إلى هذه الكائنات الموجودة المحسوسة عندنا وَجدنا أنّ هناك مواد كثيفة لا تغور فيها الأقدام ، ومواد لطيفة تغور هي فيها • ونحسّ بالمعيشة في جوّ منطلق ومملوء بالمادة اللطيفة المسماة بالهواء وقد تكون هادئة ، وقد تكون هابّة قوية الحركة بحيث تقلع البناء والاشجار ، وإذا نظرنا إلى ما فوق رؤوسنا رأينا جوّاً منفتحا واسعاً لا يدرك مداه مزيناً بالمواد المشعة التي تسمى بالكواكب ومنها ما هو أعظم حجما وأكثر نورا وأقوى تأثيرا وهو الشمس ومنها ما هو أقل من ذلك وهو المسمى بالقمر ، وعليهما مدار حساب الايام والليالي والشهور والسنين في القلة والكثرة ، واذا دققنا النظر فيما على سطح الارض والبحر وما فوقهما من الأجواء وجدنا أنواعا من الحيوانات أي الأجسام الحساسة النامية المتحركة بإرادتها ، متشكلة بأشكال مختلفة ؛ ومتلونة بألوان مختلفة وموصوفة بصفات مختلفة ، وعندما حققنا النظر فيها وجدنا أن هذا النوع المعروف بالإنسان هو أشرف أنواع الموجود لأن لها العقل والعلم الهاديين إلى العمل

المثمر النافع وتبديل السيىء بالحَسَنِ ، وتحويل الحَسَنِ إلى الأحسن . وتقدير النظام للمعيشة ، والإستفادة من المواد المخلوقة أمامَنا .

وهذا النوع العريق في الوجود المتطور في العالم بالعلم والصناعة الواصل إلى هذا الحد الموجود الآن وَجَدَ بَعدَ الإمعانِ أن هذا المجموع من العالم ، وان كان نوعُهُ باقيا ، ولكن كل جزء من أجزائه التي وَصَلَتْه أيْدِينا مُسَخّرة للقدرة وعاجزة أمام القوة ، فتبين له أنه ليس هذا العالم وهذه الأجزاء واجبةَ الوجود ، وإلا لم يكن متأثرا ومتغيرا وأن وجوده ناشيء من فاعِل حي عالم قادر مريد مختار ، لأنه بعد ثبوتِ أنه ليس واجب الوجود ثبت أنه محتاج الى الصانع ، ولا يجوز أن يكون الصانع شيئا لا يعقل ولا يعلم ولا يهتدي لأن ظهور النظام في الكون عن قوة لا شعورية لا يقبله الشعور السليم ، ومن هنا وَصَلَ الفكر السليم إلى الخالق القادر الحكيم ، وهذا الخالق القادر الحكيم ميّز في العُصور السابقة الى اللاحقة أُناسا ممتازين بالفضائل وأرسلهم لتنوير باقي البشر وأيّد صدقهم بالمعجزات القاهرة الباهرة الى يومنا هذا .

وآخر فرد من هذه السلسلة الذهبية الاصيلة أي سلسلة الرسل الكرام وهو سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بالقرآن الكريم والكتاب العظيم المحتوي على زبدة معلومات بُني عليها النظام الحق ، وهذا الكتاب ناطق بأن أصل نوع اشرف الموجود أعني الإنسان مخلوق من صلصال ، وهناك نوع ثان مزود بالعقل والعلم وهو الجن ، وأن أصل سلسلته وهو الجانّ أبو الجنّ خُلق من نار ، وكان خلقُ الجانّ ووجوده في العالم قبلَ خلق الإنسان بعصور وأزمان لا يعلمُها إلا الله . وهذان النوعان مستمران في العالم على سبيل التوالد والتناسل ومنهم المذكر والمؤنث والمطيع والعاصي ، وأن الرسل كما أرسلوا الى الانسان أرسلوا الى الجان ،

وأن رسولنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسل الى النوعين كافة عامة . وأن في العالم نوعا آخر يسمى بالملائكة ، وخلقوا بأمر إبداعي يعبر عنه في سرعة النفوذ بعبارة (كن فيكون) ومعناه أنه ليس فيهم الذكور والإناث وكلهم مطيع لأمر الله جل جلاله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهذا المقدار مما يجب على المكلف الايمان به إجمالا فيما علم اجمالا وتفصيلا فيما علم تفصيلا . وتفصيل خلق الأنواع الثلاثة وسر القدر فيها موكول الى علم الباري تعالى . ولكن الجن والملائكة ليسا من عالم الحس والعيان ، فلا يدرك الجن ولا الملائكة بالعين المجردة إلا بخرق العادة كما للأنبياء والرسل الكرام .

وكما أن نصوص الكتاب العظيم والقرآن الكريم ناطقة بخلق الأنواع الثلاثة كلها كذلك الدليل العقلي يرشدنا الى وجود الجن والملائكة ، فإن الإنسان إذا راجع وجدانه علم أنه قد يكون في حيرة من أمر ما لا يتبصر ولا يهتدي ، فإذا هو تأتيه إلهامات منيرة للقلوب توجهه إلى المطلوب ، ولا شك أنها ليست من نفسه وإنما هي أتته من قوى قدسية مباركة يعبر عنها بالملائكة ، كما يشير إليه قوله تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

وربما يسكن الإنسان في منزله فارغ البال عن الدنيا فتأتيه إلقاءات فاسدة تزعجه وتثيره على الناس وتحمله على أعمال لا تحمد عواقبها أو على ارتكاب الشهوات النفسية أو غير ذلك مما لم يكن له فيه قصد وإقدام ، وذلك ليس من أحواله النفسية المجردة ، وانما هي من الواردات الاجنبية الدنية ، كما في قوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم

ليُجادِلوكم) وعلى كل فالسند لوجود الجن والملائكة هو النص الوارد ، ولكن لا بأس في تأييد العقل للنقل ولا في عكس ذلك • وفي هذه السورة الكريمة بَيّن اللهُ خَلْقَ الانسان والجانّ،وذَكَرَ أنّ الله تعالى لَمّا خَلَق أوّلَ فرد من الإنسان أمرَ الملائكة بسجود التشريف له ، لانه مَجْمَعُ المادة والمعنى ، ومَجمعُ العقل والعلم ، ومنبعُ الخيرات ومقوّماتِ خلافة الله تعالى في الارض • وكان أحد أفراد الجان المدعو بعزازيلَ بينهم ، فَسَجدتِ الملائكة له وأبى ذلك واستكبر عنه ، فطرده الله من ساحة السعادة وألقاه في وادي الشقاوة ، فصار من ألد أعداء آدَمَ وذريته إلى يوم الدين ، كما ذكر ذلك الباري تعالى بقوله (وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مَسْنون • فإذا سَوَّيْتُه ونَفَخْتُ فيه مِن رُوحي فقعوا لَهُ ساجدين) •

أي فإذا فعلتُ فيه مايصير به مُسْتَوياً مُستعداً لفَيضان الروح ونفختُ فيه من روحي ، وأَفَضتُ ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وصار إنسانا حيا مُتمتعا بآثار الروح والحواس (فَقَعُوا له ساجدين) أي فَأحْنُوا رؤسكم واجعلوا جباهكم على الارض على وجه الإكرام والتشريف له بأمر الله تعالى (فَسَجَد الملائكة) أي فَخلقه وسَوّاه ونَفَخَ فيه من رُوحه فَسجَد لَهُ الملائكة (كلّهُم اجمَعُون) بحيث لم يتأخر أحدٌ منهم عن أحَدٍ (إلا إبليسَ أبى أن يكون مع الساجدين• قال) الله تعالى : يا ابليس (مالك) اي ما هو السبب لك (ان لا تكون مع الساجدين) أي في أن لا تكون مع الساجدين (قال) في جوابه تعالى (لم أكن لأسْجُدَ لبشر خلقته من صَلصال مِنْ حَمأ مسنون • قال) الله تعالى : (فاخرج منها) أي مِنَ الجنة ، وإن لم يجر ذكر لها لاستفادتها من السياق (فإن) الله خلق آدم فيها وأمر بسكونه مع حواء هناك ، وسجدت الملائكة له فيها وقوله

(فانك رجيم) أي مطرود من كل خير وبَرَكَة ورحمة (وإن عليك اللعنة الى يومِ الدين) أي يوم الجزاء (قال : رب فَأَنظِرني الى يومِ يُبْعثون) أي فأمْهلني ولا تُمِتْني إلى يوم بعث آدَمَ وذريته للجزاء . وقصد بذلك أن تكونَ لَهُ فَسحة لإغوائهم وينتقم منهم لأن سجودَ آدم كان سببا لطرده عَن رحمة الله تعالى حيثُ لَم يَسجد له (قال : فإنكَ مِنَ المنظرين) أي من جُمْلة المنظرين الذين قرر لهم الإمهالَ والتأجيلَ (إلى يوم الوقت المعلوم) وهو خروجُهم عن الدنيا وعالم التكليف ، ويعتبر ذلك وقت النفخة الاولى لأن الإنسان يبقى منهم جيل الى ذلك الوقت وهو معلوم عند الله تعالى

فإن قيل : إن كان إبليس من الملائكة فكيف خالف أمر الله سبحانه وتعالى . بسجوده لآدم ــ عليه السلام ــ مع أن الله تعالى أخبر أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن كان من الجن فكيف يشمله أمر الله تعالى الملائكة بالسجود حتى يكون عاصيا بمخالفة الأمر ؟ قلنا : إنه كان من الجن بلا شبهة لأدلة :

الأول قوله تعالى في شأنه : (كان مِنَ الجن ففسق عن أمر ربه) .

الثاني : أن له الذرية لقوله تعالى : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ) والملائكة لا ذرية لهم .

الثالث قوله تعالى : (خلقتني من نار وخلقته من طين) فإن الملائكة لم يخلقوا من النار ، وإنما خُلقوا من النور بأمر إبداعي آني ، والمادة النارية محرقة والنور مضيء مشرق .

الرابع : أنه لو كان من الملائكة ما كان يخالف أمر الباري تعالى لإخباره تعالى بعصمة الملائكة ، وإخبارُه تعالى لا يتغير ولا يتبدل . وإذا ثبت كونه من الجن فشمول أمره تعالى إما لأنه كان مغمورا بينهم ومعدوداً

منهم إذ ذاك فالإستثناء يكون متصلا في الصورة ، وإما لأنه تعالى أمره أمراً خاصا متوجها إليه علاوةً على أمر الملائكة بدليل قوله تعالى : (وما مَنَعكَ أن لا تسجد إذ أَمَرتُكَ ؟) .

(قال : رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ(٣٩) إلاّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ(٤٠). قالَ : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ(٤١) إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ، إلاّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ(٤٢) وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أجْمَعِينَ(٤٣) لها سَبْعَةُ أبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ(٤٤) إنَّ المُتَّقِينَ في جَنَّاتٍ وعُيونٍ(٤٥) أدْخُلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ(٤٦) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ ، وَما هُم مِنْها بِمُخْرَجِينَ(٤٨) نَبِّىءْ عِبادِي انِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٤٩) ، وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذابُ الأَلِيمُ)(٥٠)

قوله تعالى : (رب بما أغويتني لأزَيِنَنّ لهم في الارض) قال الشيطان مخاطبا ربه : يا رب بسبب اغوائك إيّاي ، وخذلِكَ لي ، وحِرماني مِن النعيم المقيم أُقسِمُ بالتأكيد لأزين لآدم ولذريته في الارض كل ما كان سببا للإغراء والإغواء من المشتهيات النفسية والمال والجاه والامور التي يتنافس فيها الناس ، حتى يعارض بعضهم بعضا وتقع الفتنةُ بين أخص الأحبّاء ، فضلا عن الناس الآخرين ، (ولأغْوِينّهم) أجعلنّهم من الغُواة الهواة للفَسادِ (أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين) الذين اخترتهم وأخلصتهم لطاعتك ومحبتك ومعرفتك . (قال) الله تعالى : (هذا صراطٌ

علَيّ مستقيم) لابد أن أراعيه • بمحض حكمتي في شئوني أي أن المخلصين لا قدرة لك عليهم ، وأن المفلسين من الإخلاص تؤثر فيهم بشتّى جهات التأثير ، و (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتبعك من الغاوين • وإن جهَنم لموعدُهم أجمعين) أي لموعد الغاوين (لها سبعة أبواب) أي سبع طبقات بحسب مراتب أحوالهم في الغواية (لكل بابٍ منهم) أي من الأتباع والغواة (جزء مقسوم) فريقٌ معين محدود منهم حَسب استحقاقهم ونعوذ بالله الستار الرؤوف الرحيم من أخفها فضلا عن أشدّها وأعْنَفها •

(إن المتقين في جنات وعيون) يعني إن الذين اتقوا الكفر والفواحش وسائر ما يتقى منه مستقرون في جنات وعيون مباشرةً • وأما من اتقى الشرك ولم يتق الفواحش أو اتقى الفواحش ولم يتق سائر المحرمات فاستقرارهم فيهما مربوط بالعفو أو بمرور مدة العذاب الذي يستحقونه • وسواء في العفو عندنا من تاب ومن لم يتب • فإن دخول الجنة ليس مربوطا بالإجتناب عن الكبائر ولا بالتوبة (أدخلوها بسلام آمنين) أي يقال لهم من جانب الملائكة المأمورين لها : أدخلوها سالمين أو مسلما عليكم ، آمنين من طروءً العذاب بعد ذلك ، فإن الجنة دار السلام الخالد (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ) ورفعنا ما في صدورهم من غلّ أي حقد سواء كان قَبَلِياً أو شخصيا فكما لا يبقى عذابُ النيران كذلك لا يبقى عذابُ الوجدان من الخزي والعار (إخوانا) حال من فاعل أدخلوها (على سرر متقابلين) صفتان لقوله اخوانا أي إخوانا مستقرين على سُررٍ ويقابل بعضهم بعضا لمزيد الصفاء وراحة القلوب حالكونهم (لا يمسهم فيها) أي في الجنات (نَصب) وتعب من المرض أو الملل أو خلل في الصحة أو في غير ذلك (وما هم مِنها بمخرجين) أي هم خالدون في الجنات ولا يخرجون منها (نبىء) يانبيي ورسولي (عبادي) المؤمنين بي حق الإيمان (أَني أنا الغفور الرحيم) أي

بأني أنا الغفور للذنوب والرحيم بكشف الكروب وستر العيوب لا غيري• (وأن عذابي هو العذاب الأليم) لمن عذب به سواء كان عذاب الخلود كما لأهل الكفر والجحود أو العذاب المحدود كما للمؤمن العاصي اللدود • ونسأله العافية منه بمنّه ورحمته •

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إبراهيمَ(٥١) : إذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقالُوا : سَلاماً • قالَ : إنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ(٥٢) قالُوا : لاتَوْجَلْ إنّا نُبَشِّرُكَ بِغلامٍ عليم(٥٣) قالَ : أبَشَّرْتُمُوني عَلى أنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ؟! فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟(٥٤) قالُوا : بَشَّرْنَاكَ بالحَقِّ ، فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ(٥٥) قالَ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاّ الضالّونَ ؟!(٥٦) قال : فَما خَطْبُكُمْ أيُّها الْمُرْسَلُون ؟(٥٧) قالُو : إنّا أُرْسِلنا إلى قوْمٍ مُجْرِمِينَ(٥٨) إلاّ آلَ لوطٍ إنّا لَمُنَجّوهُمْ أجْمَعِينَ(٥٩) إلاّ امْرأتَه قَدَّرْنا إنّها لَمِنَ الغابِرِين)(٦٠)

قوله تعالى (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) كان لسيدنا إبراهيم دار" لها اربعة أبواب من الجهات الأربع حتى لا يفوته الضيف • ولذلك كان يُكنّى أبا الضّيفان • والضيف في الاصل مصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث • وكان الضيف من الملائكة المرسلين لتبشيره بالغلام ، ثم بخلاص لوط ابن أخيه من خزي المجرمين • وفي الحكاية تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه قد مضى في الدنيا رُسُل جاءَهم ما ساءَهم وصبروا حتى جاءهم النصر ، ولك بهم أسوة حسنة (إذ دخلوا عليه) متعلق بالضيف لتضمنه معنى الورود والنزول (فقالوا : سلاما) أي نُسلّم عليك سلاما (قال) بعد رد السلام لهم : (إنا منكم وَجِلُون) أي خائِفون • وهذا

القول بَعْد أَن قرَّب إليهم لَحم العجل وامتنعوا عن الأكل ، فظن إبراهيم أنهم جاؤا بقصد الإساءة إليهم ، ولذلك لا يأكلون طعامهم • (قالـوا) في تهدئة باله : (لا توجل • إنا نبشرك بغلام عليم) أي بولـد يولـد فيصير شخصا عليما بالكتاب والصحف المنزلـة عليه علمـا وافيا كافيا • (قـال : أبشرتموني) بذلك (على أن مسّني الكبر) وأثر في ظهري ويئست من الإيلاد (فبم تبشرون ؟) أي فبأي شيء تبشرونني بولد ولادته خارقـة للعـادة ناشئة عن سلطان الإرادة الربانية ، او بولد وجوده غير محقق وانمـا يبشر به لفظا ؟ (قالوا : بشرناك بالحق) أي بالأمر الثابت الذي لا خلاف فيـه وهو ولد ناشيء عن الإرادة ، وليس إخبارنا محض التلفظ الذي لا أصل له (فلا تكن من القانطين) عن ظهور الامور الخارقة للعادة بحسب الإرادة (قال) إبراهيم : (ومن يقنط) و ييأس (من رحمـة ربـه إلا الضالون) المخطئون طريق معرفة الباري تعالى ومعرفة سيطرتـه وقدرتـه على كـل ما تعلقت به إرادته ؟ وبعد أن تعرف على أنهم مبشرون لا منذرون (قال : فما خطبكم) أي شأنكم الخطير الداعي لنزولكم جماعـة لا وحدانا (أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) هم قوم لوط الموصوفون بالإستهتار وعدم المبالاة بالخزي والعار علاوة على عدم الإستحياء من الملك الجبار (إلا آل لوط ، إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته) فآل لوطٍ مستثنى من القوم المجرمين ولا يعذبون ، وامرأته مستثناة من آل لـوط الناجـين فتعذب معَ المجرمين (قدرنا انها لمن الغابرين) أي قررنا كونها من الباقين في العذاب ولا تنجو منه وكسرت همزة إن لأن التقدير متضمن لمعنى العلم • وقد علق عن العمل فيما بعده بسبب وجود لام الإبتداء التي لهـا صـدر الكلام • وهذا التعليق هو إبطال العمل لفظا لا محلا فيجوز العطف علـى تلك الجملة مع نصب جزءيها •

(فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ المُرْسَلُون(٦١) قالَ : إِنَّكُمْ قَومٌ مُنْكَرُونَ(٦٢) قالُوا : بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ(٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ(٦٥) وقَضَيْنَا إليهِ ذلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ)(٦٦)

قوله تعالى (فلما جاء آل لوط المرسلون) أي فلما جاء المرسلون إلى بيت لوط مباغتة وما عرفهم قبل ذلك خاف أن جاؤه لشر يريدونه ، أو لما رآهم على سَمتٍ حَسن وخاف أن يصيبهم قومه بسوء (قال : إنكم قوم منكرون) أي غير معروفين ذاتا وشخصا ، أو منكر مجيئهم إلينا بهذا الوجه لأنه يخاف عليكم من المس بسوء الأدب • فأضربوا في الجواب عن إرادة السوء به أو عن جهل بأحوال قومه الفاسدين المتمردين (وقالوا) أعرض عن خيال أنا جئناك لشر نريده لك أو جئناك جاهلين بأحوال قومك (بل جئناك) عارفين بأحوال أولئك الناس الطغاة وطالبين الخير لك لنُهْلِكهم فتبقى سالماً من أذاهم وأحوالهم المختلة المستكرهة المنفورة • وجئناك (بما) أي بالعذاب الذي (كانوا فيه يمترون) ويشكون ولا يؤمنون نزوله عليهم (واتيناك بالحق) أي بالأمر المتيقن الذي لا مجال للشك فيه (وإنا لصادقون) فيما نقوله لك (فَأَسْر بأهلك بِقطع من الليل) أي مع بقاء طائفة من الليل (واتبع أدْبارَهم) وتتبع واطلع على أحوالهم كيف يهلكون (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يرى من الهول ما لا يطيقه فيختل عقله (وامضوا حيثُ تُؤمَرون) أي إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضيِّ إليه وهو الشام أو مصر أو الأردن • وقيل : موضع نجاة غير معين (وقضينا إليه ذلك الأمر)

أي وأوحينا إليه ذلك الأمر وهو مبهم يفسره (أنّ دابرَ هؤلاء مقطوع مُصبحين) أي حالكونكم داخلين في الصبح • والمعنى أنهم يستأصلون لا يبقى منهم أحد إذا دخلوا في الصبح •

(وَجاء أَهْلُ المَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ(٦٧) قَالَ : إِنَّ هؤلاءِ ضَيْفي فَلا تَفْضَحُونِ(٦٨) واتَّقوا اللهَ ولا تُخْزونِ(٦٩) قالوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ ؟(٧٠) قال : هؤلاء بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ(٧١) لَعَمْرُكَ ! إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٧٣) فَجعَلْنا عالِيَهَا سافِلَهَا وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ(٧٤) إِنَّ فِي ذلِك لآياتٍ لِلمُتَوسِّمِينَ(٧٥) وَإِنهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ(٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً للمُؤْمِنِينَ)(٧٧)

قوله تعالى : (وجاء أهلُ المدينة يستبشرون) إستئناف لبيان ما صدر من القوم البُغاة بَعدَ علمهم بنزول الضيف على بيت لوط ــ عليه السلام ــ • فيقول : ولما علم القوم بذلك جاء أهل المدينة منهم أي الذين تعودا مباشرة البغي مستبشرين مسرورين إذ سمعوا أن عنده ــ عليه السلام ــ ضيوفا كذا وكذا • (قال : إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) أي قال لوط عليه السلام ــ لما جاؤا : ان هؤلاء الواردين ضيوفي ونزلوا في بيتي وإهانتهم إهانة لي فلا تتعرضوا لهم بسوء (واتقوا الله) أي واتقوا عذابه على بغيكم (ولا تخزون) أي لا تهينوني بالتعرض لمن نزل بيتي •

(قالوا : أولم نَنهكَ عن العالمين ؟) أي إيواء أحد منهم ومنعك لنا عن التعرض لهم (قال : هؤلاءِ بَناتي) أي نساؤكم اللاتي في إدارتكم وهن كبناتي بالنسبة إلى مقام رسالتي ، أو نساء

القوم اللاتي يمكن تزوجهن بسهولة وهن كبناتي، أو بناتي الموجودات عندي إذا رغبتم في نكاحهن (إن كنتم فاعلين) شيئا أقولُ لكم ويرضى بـه الله تعالى • وقوله تعالى (لَعَمركَ إنهم لَفي سكرتهم يَعمَهُون) قَسَم من الله تعالى بحياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنهم ، أي الطغاة ، من قوم لوط ـ عليه السلام ـ منهمكون في غوايتهم وضلالتهم يتحيرون بحيث لا يُصغُون إلى نصيحة الناصح أيّاً كان •

والذي ظهر من الروايات في الموضوع أن الملائكة الواردين على سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ كانوا عبارة عن جبريل ـ عليه السلام وجمع آخرين كانوا مأمورين بالنزول إلى بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ في قرية الخليل ، ثم الذهاب إلى بيت لوط ـ عليه السلام ـ في سدوم على أربعة فراسخ من محل إبراهيم ، ونزلوا على إبراهيم بعد نصف النهار وكـان الوقت وقـت الغذاء ، فقدم إليهم عجلا حنيذا فأبوا أن يأكلوا منه ، فأوجَس إبراهيم خيفة منهم فهدأوه وبشروه بالولد وولده ، وودعوا مِن عِندِه ، وجاؤا إلى بيت لوط والوقت تريب من المغـرب ، فنزلوا عليه ولـم يعرفهم لـوط ـ عليه السلام ـ أول الأمر ، وأظهر الخوف منهم ، فأخبروه بالامر الذي جاؤا له ، وأن يرتحل في آخر الليل مع أهله والمؤمنين معه ، إلاّ امرأته • ولما علم قومه بنزول الضيف عليه أسرعوا الى بيت لوط فاستقبلهم لوط ـ عليه السلام ـ وترجاهم أن يتركوا بيته وضيفه ، فأبوا ، فرجع لوط الى بيته وسد عليهـم الباب ، ولما اقتحموا عليه الباب وأرادوا دخول البيت استأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبته فأذن له ، فتحول إلى صورته التي يكون فيهـا ، ونشر جناحيه فضرب بهما وجوههم فأعماهم ، وطمس أعينهـم حتى ساوت وجوههم، فصاروا لا يعرفون الطريق فانصرفوا وهم يقولون:النجاء النجاء، في بيت لوط سحرة قد سحرونا • يالوط سترى مناغداً ما ترى ! ولما قـرب

الصباح ارتحل لوط وآله ومن معه من القرية الى حيث أمرهم الله • ولما دخل الفجر حلّ الأمر (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة هائلة (مشرقين) أي داخلين في شروق الشمس • والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والإنتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق • ومعنى أخذتهم الصيحة قهرتهم وغلبتهم وتمكنت منهم ودمرت بلدتهم • فأماتتهم وجعلتهم في أعماق الارض المقلوبة الى يوم البعث والنشور ومثواهم ملئت نارا بدلَ النور • كما قال تعالى (فجعلنا عاليها سافلها) أي فجعلنا أعالي الارض أسافلها ، فقلبت عما كانت (وأمطرنا عليهم) في تضاعيف ذلك (حجارة من سجيل) أي من طين متحجر (إن في ذلك) الأمر الهائل وقلب المكان بالقوم المتمرد الغافل (لآيات) لعلامات يستدل بها على مسؤلية الإنسان إزاء أحكام ربه • وإن سنة الله تعالى جارية بإهلاك القوم عند خروجه عن حده وأدبه تظهر تلك الآيات (للمتوسمين) الناظرين من القرن الى القدم، ويستقصون وجوه التعريف والتمييز لأهل اللؤم من الكرم • وإلا فغير المتفكر لا ينتفع من العبر ولو نزلت عليه كالمطر •

(وإنها) أي مدينة لوط المقلوبة (لبسبيل مقيم) أي لفي طريق ثابت يسلكه الناس (إن في ذلك) أي إن في ادراك ذلك (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

(وإنْ كانَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ لَظالِمينَ(٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمامٍ مُبِينٍ(٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ(٨٠) وآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ، فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ(٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ(٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ(٨٣) فَما أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا

يَكْسِبُونَ(٨٤) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ(٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ)(٨٦)

قوله تعالى : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) كلمة إن مخففة من المثقلة ، والأيكة في الأصل الشجرة الملتفّة واحدة الأيك • والمراد بها غيضة أي بقعة كثيفة الاشجار • وأصحاب الايكة قوم شُعيب من نسل مدين ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام • بعث الله اليهم شعيبا وكانوا يخسرون في المكيال والميزان ، فنصحهم ولم تفدهم النصيحة • والمعنى لا شك أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين أنفسهم بالمعصية وأنفس الناس بالخيانة في معاملاتهم (فانتقمنا منهم) أي جازيناهم على جنايتهم السابقة وبعثنا عليهم نارا في غمام مطبق ، فأهلكتهم في يوم الظلّة (وإنّهما) أي وإن مَحَلّي قوم لوطٍ وقوم شعيب (لَبإمامٍ مُبين) لفي طريق واضح تَمُرّون بهما في أسفارِ التجارات الى الشام (وَلَقَد كذب أصحابُ الحجر) وهم قوم ثمود والحجر وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنون به •

قال الراغب يسمى ما يحيط به الحجارةِ حجراً • وبه سُمي حجرُ الكعبة وديارثمود •

وقد نهى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أن يكونوا باكين حَذَراً من أن يصيبهم مثلُ ما أصابهم كما في صحيح البخاري وغيره • وجاء عن ابن عمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ أن الناس عام غزوة تبوك استقوا من مياهِ الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ، ونصبوا القُدور باللحم فأمرهم النبي ــ صلى

الله عليه وسلم ـ بإهراق القدر ، وأن يعلفوا الإبل العجينَ ، وأمرهم أن يَستَقُوا من البئر التي كانت تَرِدُه الناقة هذا .

وأخذ بعض العلماء من هذا الحديث بطريق دليل العكس أن البقاء في موارد أهل العلم والدين والإحسان مبارك ومرغوب فيه ، لأن آثار الرحمة ليست أقل من آثار النقمة . فكما يبقى شؤم محل الظلم وديار الفساد كذلك تبقى ميمنة ديار الخير والرشاد . وذلك على غرار قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أرأيتم لو وضعها في حَرَامٍ أكان عليه وزر ؟ قالوا : نعم . قال : فكذلك إذا وضعها في حلال كانَ له أجْر » وقوله تعالى : (المرسلين) مع أن من أرسل إليهم هو سيدنا صالح لأن من كذّب رسولاً فكأنما كذب رسلا ، وذلك لأن الهدف واحد وأسباب الاثبات من قبيلة واحدة .

(وآتيناهم آياتنا) من الناقة المخلوقة من الصخرة وسقيها وشربِها ودرّها . وقد روي أنه كان لسيدنا صالح ـ عليه السلام ـ معجزات كثيرة غير الناقة (فكانوا) أي أصحاب الحجر (عنها) أي عن قبول تلك الآيات (معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً) حالكونهم (آمنين) من الإنهدام ، وهجوم الاعداء ، وتخريب المخالفين لهم (فأخذتهم الصيحة مصبحين) حالكونهم داخلين في الصبح (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) من نحت البيوت واتخاذ الملاجيء الحصينة (وماخلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق) أي إلا خلقا متلبسا بالحكمة بحيث لا يُلائمه ولا يناسبه استمرار إفساد الطغاة البُغاة على الحق (وإن الساعة) أي يوم البعث والحشر والميزان والحساب والثواب والعقاب (لآتية) بلا شك وشبهة (فاصفح) عن الكفرة (الصفح الجميل) الخالي عن عتاب من الله يرد عليك ومن محبة لهم ترجع بالوبال عليك . والصفح الجميل : ما خلا من العتاب

(إن ربك هو الخلاق) لكل موجود (العليم) بأحوال كل ما دخل في الوجود، ولا يهمل حق العابد ولا المعبود •

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنَ العَظِيمَ(٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ، ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤْمِنِينَ(٨٨) وَقُلْ : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ(٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٩٣) فَاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئِينَ(٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ(٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ(٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ)(٩٩)

قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) والقرآن العظيم يعني آتيناك ووهبنا لك من رحمتنا وأنزلنا إليك من مخزن لوحنا المحفوظ سبعا من الآيات القرآنية التي تحتوي على مجمل جميع ما في القرآن الكريم ، وهي سورة الفاتحة وتسمى بالسبع المثاني ، لأنها سبع آيات بالإتفاق إلا أن منهم من عد البسملة آية منها دون أنعمت عليهم ومنهم من عكس • وتكرر في جميع الصّلوات والمثاني جمع المثنى بمعنى المكرر أو لأنها نزلت مرتين ، إن صح ذلك مرة بمكة حين فرضت الصلاة ، وبالمدينة حين حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة • وقوله تعالى (والقرآن العظيم) إما

المراد به نفس الفاتحة فيكون بيانا لصفة ثانية للفاتحة : الأولى السبع المثانى ، والثانية القرآن العظيم . ووجه عظمتها اختصاصها بالتكرار في أحد أركان الإسلام أعني الصلاة ، أو احتواؤها على إجمال جميع القرآن الكريم. وإما المراد به كل القرآن فيكون ذكره من ذكر الكل بعد الجزء كما يقول القائل مدحت عيون حبيبتي وشخصها . وإذ قد خَصَّصْناكُم بهذه المنحة العجيبة العظيمة التي لا مثل لها (لا تمدّن عينيك إلى ما متعنا بـه أزواجا) أي أصنافا (منهم) من الكفرة كاليهود والنصاري والمشركين (ولا تحزن عليهم) حيث إنهم لم يؤمنوا (واخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم . وَأصْلُ ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بَسَطَ جناحيه لـه . وحكى بعض في سبب نزول الآية أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير في يوم واحد ، فيها أنواع من البرّ والطيب والجواهر ... فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى . فنزلت فكأنه سبحانه وتعالى يقول : قد أعطيناكم سبعا من الآيات هي خير من تلك القوافل السبع (وقل : إني أنا النذير المبين) أي المنذر من الله تعالى الموضح والكاشف لنزول عذابه على من لم يؤمن به ، وقوله تعالى (كما انزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين) أي مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم فالجار والمجرور وصف لمفعول النذير أقيم مقامه . والمقتسمون هم الرجال الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة المكرمة أيام المواسم لينفروا الناس الواردين عن اللقاء بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الإيمان به فأهلكهم الله تعالى يوم بدر .

ولا يقدح في صحة التركيب كون الإنذار من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكون العذاب المشبه به من افعاله تعالى لان الرسول لما كان رسول الله وأوامره أوامر الله وإنذاراته لهم جاءته من الله ... فكأنه

من أهل إنزال العذاب أيضا كما أنه لا يضر بصحة المعنى كون العذاب المشبه به غير واقع بعد ، لأن الآية مكية ونزول العذاب بالمقتسمين كان في بدر بعد الهجرة لأن المستقبل المحقق كالماضي الفائت والحال الحاضر . والمقتسمون هم أبو جهل ، و الوليد بن المغيرة المخزومي ، وحنظلة ابن أبي سفيان ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ... وسائر أصحابهم الذين قتلوا يوم بدر . وعِضينَ جمع عِضَةٍ ، وأصلها عِضَو" حذفت الواو وعوض عنها تاء التأنيث . أي جَعَلوا القرآن أجزاء وأعضاء عديدة يؤمنون ببعض منه مما يوافق طبعهم ويكفرون ببعض آخر منه وهو الذي يخالفه . أو لأنهم وصفوه بصفات متخالفة ، فمنهم من يقول : إنه سحر ، ومنهم من يقول إنه قول كاهن ، ومنهم من يقول إنه قول مجنون يتكلم بما لا يقصده إلى غير ذلك من الاوصاف...

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) من التقسيمات حيث اقتسموا أعتاب مكة وأنقابها وفِجاجها . ويقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الرجل الذي خرج عن عادتنا وتقاليدنا ، ويدعي النبوة إلى التوحيد فإنه مجنون . وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا كاهن . وسُمّوا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق فأماتهم الله شر ميتةٍ . وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَما على باب المسجد فإذا سألوه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال صَدَق أولئك الناقمون عليه . أو مما كانوا يصفون به القرآن الكريم من الصفات الذميمة أو من كل ما فعلوه من طرق العناد مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، أو من كل ما فعلوه من الكفر والمعاصي أي الأمور الفاسدة الإعتقادية والعملية . (فاصدع بما تؤمر) أي اجهر بما تؤمر به ، وأعلنه على رؤس الأشهاد ، من صدع بالحجة إذا تكلم به جهارا ، أو فرق ببيان القرآن الذي اُمرت بتبليغه بين الحق والباطل (وأعرض عن المشركين) فلا تهتم بهم ، فإن أجوافهم خالية وأحرفهم بالية ، وإن كانت

أصواتهم عالية • فعما قليل تخمد نارهم ويخلد عارهم ولا يؤخذ ثارهم (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وإهلاكهم ومنعهم عن استمرار الإفساد وهم خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي ابن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب • وكل منهم أصيب بداء عضال مات به والحمد لله • و (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) ما ينالونه من العقاب الصارم الخالد (ولقد نعلم إنك يضيق صدرك بما يقولون) من شتى الكلمات القادحة في الله تعالى وفي كلامه وفي رسوله وفي شريعته التي جاء بها (فسبح بحمد ربك) أي فافزع إلى الله في دفع الشر عنك وكشف غمك وشرح صدرك وظهور نصرك بالتسبيح والتحميد ، فإنه يكفيك شر كل كفار عنيد (وكن من الساجدين) أي من المصلين الذين أقرب أحوالهم من الله أن يكونوا ساجدين لأنهم يضعون أشرف أعضائهم على أدنى الأماكن التي تطأها الأقدام إعزازا لله العلام • وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة • وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين) (واعبد ربك) واثبت واستقم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أي الموت ، فإنه أمر متيقن لا شبهة في عروضه لكل حي • أو فاعبد ربك حتى يأتيك العلم اليقين بما نهدد به المشركين المستهزئين من الهلاك والدمار في بدر وحنين وسائر الديار • وهذا الخطاب وإن كان متوجها إلى حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنه يراد به خطاب كل مؤمن لوجوب ثباته على اعتقاده وأعماله حتى يأتيه الموت ، وبالنسبة إلى غيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجوز أن يقال واعبد ربك حتى يزداد إيمانك ويصل اعتقادك إلى مقام اليقين الذي لا مقام فوقه •

سورة النحل مكية ، وهي مائة وثمان وعشرون آية نزلت بعد سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

(أتى أمْرُ اللهِ فلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(١) يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ : أنْ أنْذِرُوا أنَّه لا إلهَ إلاّ أنا فاتَّقُونِ(٢) خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ بالحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٣) خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)(٤)

قوله تعالى (أتى أمْرُ اللهِ فلا تستعجلوهُ) قال المفسرون كان المشركون يستعجلون نزول العذاب الذي أوعدهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ به فأنزل الله الآية • أي إن نزول العذاب المنتظر محقق لا شك فيه ترونه عاجلا أو آجلا ، فلا تستعجلوا وقوعه فانه لا خلاص لكم منه إذا نزل ولا خير لكم فيه • ولما كانوا يقولون إن نزل العذاب الموعود علينا فرضاً فلنا شفعاء من الشركاء يخلصوننا منه قال الله سبحانه (تعالى عما يشركون) تبرأ جل جلاله عن أن يكون له شريك فيدفع عن الكافرين مانزل عليهم منه • ولما كان إنكارهم لنزول العذاب متفرعا عن إنكار رسالة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدقه في دعوى الرسالة قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره) أي إن الله تعالى قادر يقتدر على تنفيذ كل ما أراده وأنه ينزل الملائكة المأمورين عنده بالوحي الذي هو كالروح للاجساد ، وذلك الروح ينزل بسبب أمره بنزوله (على من يشاء من عباده) الأنبياء الذين خصّهم الله تعالى بهذه المواهب الجليلة (أنْ أنذروا) أي بأن أنذروا الناس (بأنه لا إله) أي

لا واجب فيالوجود ولا خالق ولا معبود (إلا أنا) لا شريك لي ذاتاً وصفةً وفعلاً (فاتقون) فاحذروا مخالفتي عن أيشيء مما لا أرضى به •

ولـما جعل مناطَ الإنذار ومدار الإعتبار هو نشر كلمةِ التوحيد وحصر العبادة فيه •• إستأنف ببيان خلق السماوات والارض الدال على استحقاقه للعبادة ، وأن لا شريك له فيها ؛ فقال (خَلَقَ السماوات والارض بالحق) أي خلقا متلبسا بالحق فاوجدهما على مقدار محدود وأشكال وآثار وصفات مختلفة خصصها بها بمحض إرادته المرجحة لهـا بالوجود • و (تعالـى) وتبارك ذلك الخالق المبدع (عما يشركون) أي عن إحتياجه لما يشركونه له فلم يفتقر ، لا في خلقها وإبداعها ، ولا في تخصيصها بصفاتها ، ولا في إبقائها الى شريك له يعاونه فيها ، لأن القدرة الابداعية لا تقبل أي إضافةٍ وانضمامٍ لغيرها إليها لكفايتها في تنفيذ ما شاء تعالى • وكما خلق السماوات والارض وعمرهما خلقَ الإنسان الذي هو أشرف الموجودات المفيدة للفضائل العلمية والعملية من نطفة أمشاج خلقها أطواراً من المائية فالدموية فالمضغية فسـائر الأطوار الاخرى الملحقة بما تقدم ••• حتى صار انسانا سويا قويا قادرا على اكتساب الفضائل من شتى الوجوه ، فمنهم من اختصه برحمته وجذبه الـى حضرة قدسه بحكمته ؛ ومنهم من تَدَهْوَرَ بدَلَ أن يتطور إلى الإتصاف بكمال الإنسان ، فاتصف بمبادىء النقصان (فإذا هو خصيمٌ مبين) للحجة، أو خصيم مكافح لخلقه قائلا من يحيى العظام وهي رميم ؟

(وَالأنْعامَ خَلَقَها ، لَكُمْ فيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ(٥) وَلَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) وَتَحمِلُ أَثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إلاّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ، اِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رحِيمٌ(٧) وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ(٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، ومِنهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ)(٩)

قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء) الأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز • ولا يقال لها أنعام إلا إذا كان فيها إبل • وهو منصوب بفعل مضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) وهذا التركيب أرجح من رفعه على الابتداء لتتناسب مع الجملة الفعلية السابقة (لكم فيها دفء) أي مايدفأ به فيحفظ من البرد (ومنافع) هي نسلها ودَرّها وظهورها (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان (ولكم فيها جمال) أي زينة (حين تريحون) أي تردّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) أي تخرجونها بالغداة إلى المراعي • وهذه نعمة دنيوية ، وقد تنقلب نعمة دينية لمن يريد اقتناءها لمنفعة المسلمين (وتحمل أثقالكم) أي أحمالكم الثقيلة • والحامل منها الإبل والثور (الى بلد لم تكونوا بالغيه) واصلين إليه بأنفسكم (إلا بشق الأنفس) أي بمشقة الأنفس وتعبها (انّ ربكم لرؤف رحيم) ولذلك خصكم بهذه النعم المفيدة من شتى جهات الإفادة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل • وذكر الراغب أنه يطلق على الأفراس والفرسان (والبغال) جمع بغل (والحمير) جمع حمار ، ويجمع في القلة على أحمرة وفي الكثرة على حُمُرٍ (لتركبوها) أي خلقها لكم لتركبوها (وزينة) أي ولتتزينوا بها زينة• او مفعول به لفعل محذوف أي وجعلها زينة لكم فيحياتكم الدنيوية•

وقوله تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون) بيان لكثرة مخلوقات الله تعالى بحيث يفوت نطاقَ البيان في التعبير عنها ، فمنها ما في البراري والجبال

والوديان والكهوف والبحار مما يمكن تربيتها والاستفادة منها . ومنها ما ليس كذلك • أو إيماء إعجازي لما خلقه الله في عالمنا من السيارات والطيارات والغواصات البحرية والنهرية والمكائن والأجهزة المستعملة في الحرث والحصاد والتصفية والتنقية ، والآلات المستعملة في استخراج المعادن والمياه الجوفية ••• وغير ذلك فإن كلها تحصل من المواد المخلوقة لله تعالى بلا شبهة من أهل العقل السليم • وهذه الجملة على غرار قوله تعالى في سورة (يس) وخلقنا له من مثله ما يركبون • فكل ذلك من مخلوقات الله تعالى لأن أجزاءها التكوينية من المعادن والبخار والهواء والأثير والوقود•• كلها من خلقه تعالى • وكذلك إنشاء تفكير الصنع وتركيبه ونفس الصانع لهذه الأشياء أو المخترع لها من مخلوقاته تعالى (وعلى الله قصد السبيل) والقصد بمعنى القاصد أي المستقيم ، والسبيل هو الطريق ، فالإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي وعلى الله بيان الطريق المستقيم وهو الشرع المبعوث به الرسول الكريم ، لأن الله هو الحق ويهدي المكلفين إلى الحق • وقوله تعالى : (ومنها جائر) أي ومن السبل سبيل جائر منحرف عن الحق إلى الباطل ، وهو ما اتخذه أهل الضلال من طرق عبادة غير الله سبحانه من الكواكب والأشجار والأحجار والحيوانات ••• وغير ذلك • ومعنى قوله (وعلى الله) هو الإستقرار والبدء أي هو يبدأ بتشريعها ؛ ويستقر هذا الأمر عليه فضلا ورحمة لا وجوبا منه أو عليه ، لأن الله سبحانه مختار في كل فعل من أفعاله تعالى • والحاصل أن الله تعالى بين طريق الحق وأرشد الناس إليه فمنهم من سلك فيه حتى وصل إلى ما يبتغيه ، ومنهم من لم يسلك فيه فهلك فيما يرتئيه ، لا يجب على الله تعالى خلق الإهتداء القسري فيهم ، وإلا ما كان للثواب والعقاب طريق مع أنه تعالى قادر على

كل شيء (ولو شاء لهداكم أجمعين) لكن لم يشأ ذلك لأنّ مشيئته تابعة للحكمة ، ولا حكمة في تلك المشيئة ، لما أن المدار للتكليف هو الاختيار لا القسر والإجبار .

(هُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ ومِنْهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمُونَ(١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنابَ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ، إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١) وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ ، والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يذَّكَّرونَ(١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥) وَعَلامَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ ؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟!(١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١٨) وَاللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ)(١٩)

قوله تعالى (هو الذي أَنزل من السماء ماء لكم) شروع في بيان نوع آخر من النعم الدالة على توحيده تعالى يعني هو الخالق المنفرد بالتأثير الذي أنزل من السماء من نفسها أو من السحاب ماء لا تنفاعكم (منه شراب) أي

بعض منه شراب تشربونه (ومنه شجر) أي ومن ذلك الماء أو بعض ذلك الماء نبات (فيه تُسيمُونَ) أي تَرْعَونَ مواشيكم (ينبت لكم به الزرع) من الأقوات وغيرها (والزيتون) الذي فيه منافع كثيرة في نفس ثمرها وعصارتها (والنخيل) الّذي يتكفل حياة القوم (والأعناب) الّتي يتفكّه بها ويجعل منه الزبيب والدبس وسائر ما يستحصل منها (وينبت) لكم به (من كل الثمرات) أعم مما ذكر وغيره لو استقصيته لمللت دون الوصول إلى منتهاه (إنّ في ذلك) المذكور (لآية لقوم يتفكرون) في أنّ الجنّة كيف خُصّت بأن تكون أساسا لاستمرار نوع الشجرة إلى الأبد .

(وسخر لكم الليل والنهار) أي وسخر لكم المتحرك الذي من شروقه وغروبه يحصل الليل والنهار (والشمس والقمر) أي وسخر لكم الشمس والقمر ، إذا كانا متحركين في السماء فقد سخرهما للحركة المدورة الدائمة المستمرة التي يحصل منها الليل والنهار ، وإن كانا ساكنين فقد سخرهما للبقاء في محلهما . والمقرر اليوم[1] هو أن الشمس مسخرة للسكون والارض والقمر وسائر الكواكب للحركة اليومية حول أنفسها ، وللحركة السنوية للارض حول الشمس والقمر حول الارض ، ونسمع اليومَ من بعض الناس أن الفلكيين اكتشفوا أن للشمس حركة لنفسها ولمجموعتها التابعة لها جوا . (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر ، أي وسائر النجوم مسخرات بأمر الله تعالى لما خلق له والمقصود من ذلك أن كل ما في الوجود من المحسوس المشهود شيىء مسخر بأمر المعبود فوظيفة الخدمة والسجود لمن له العزة فتعالى وتبارك الملك المعبود (إن في ذلك) المذكور (لآيات) باهرة ظاهرة على أنها ممكنات حادثة ، وحدوثها كان بأمر الله تعالى وتلك الآيات ثابتة أو مفهومة (لقوم يعقلون) ولا يغفلون (وما ذرأ لكم في

(١) علما بأننا نؤمن بجريان الشمس على ظاهر الآية .

الأرض) أي وخلق مانشر لكم في الأرض (مختلفا ألوانه) من حيوان ونبات ومَعْدَن وسائر ما يتفرع منها (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) يتفكرون في أن اختصاصها ببعض الجهات والأمكنة والأزمنة والأحوال ليس إلا بإرادة الفاعل المختار رب العالمين .

(وهو الـّذي سخر البحر) فجعله هادئا بحيث يغوصُ فيه الغواصون ليُخرجوا منه الأسماك وسائر الحيوانات الناعمة (لتأكلوا منه لحماً طريا) طريفا ظريفا نظيفا (وتستخرجوا منه حلية) من اللآلي وسائر المواد المضيئة بحيث تتزينون بها و (تلبسونها . وترى الفلك مواخر فيه) مقبلة ومدبرة وقوله (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا ، وما عطف عليه ومابينهما اعتراض، أي ولتبتغوا بالسير فيه (من فضله) من رزقه الواسع (ولعلكم تشكرون) على تلك النعم (وألقى في الأرض رواسي) أي وأثبت في أعماق الارض جبالا رواسي ثابتة فيها (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميل بكم الارض في سيرها ودورانها ، أي جعلها بحيث تعتدل بها أثقال الاطراف حتى تتحرك على المنهج المعتدل، ولا تنحرف يمنة ويسرة "ككُرة نصفها حديد" ونصفها خَشَب (وأنهاراً وسُبُلا) أي وألقى فيها أنهارا وسبلا ، وجعلها طرقا لمقاصدكم (لعلكم تهتدون) بها إلى ماتريدونه من المنازل والمقاصد (وعلامات) أي وجعل لكم معالم يستدل بها أهل العقل والمعرفة من العوام والخواص حسب مستوياتهم المختلفة ، فمن الناس من يستدل بمطلع الشمس ومغربها أو بمطلع القمر ومغربه ، ومنهم من يستدل بالجبال وبحركات الأنهار ، ونبت النباتات والاشجار وروائح الارض ، ومنهم من يستدل بالخطوط الطولية والعرضية وبحسب ما وجده من طول النهار وقصره . فيستدل بذلك على خط السير نحو الشمال أو الجنوب والمشرق أو المغرب ، أو يستدل بها على أوقات الليل والنهار (وبالنجم هم يهتدون) في البر والبحر وقت الليل . وكانت

تلك المعالم سابقا غير مضبوطة ولا محدودة ، واليوم وصل العلم الى درجة ضبط الاوقات باجزاء الثواني ، وضبط حرارة المنطقة وبرودتها وعروض الرياح والأمواج الباردة والحارة ، وأوقات الزوابع •• وظاهر الآية الإهتداء بجنس النجم أيا كان • ولا مانع من أن يكون بعض النجوم أنفع وأوسع في الإهتداء من بعض فإن نجم الجدي وهو أصغر الكواكب من بنات النعش الصغرى الواقعة شمالي أفقنا يستدلّ به للشرق والغرب واتجاه سمت القبلة • ففي العراق إذا وقفت بحيث تراه وراء الأذن اليمنى عند الإلتفات فذلك الموضع موضع اتجاهك للكعبة المشرفة ، وفي الشام يكون وراء الرأس، وفي اليمن يكون أمام وجهك ، وفي مصر يكون في المشرق منك ، وكذلك يستدل بها لاختلاف الفصول والمواسم ، فكلما طلعت الشعرى كان دليلاً على حلول وقت البرودة بالليل ثم انطفاء حرارة النهار • ومنهم من خص الثريا والفرقدين وبنات نعش • ولكل وجهة •

(أفمن يخلق) أي أفمن يخلق ماذكر من النعم التي عمت الإنسان أو يخلق كلّ شيىء أراده (كمن لا يخلق شيئا) جليلا أو حقيرا ؟ والجواب : كلاّ • فإن الفرق بين المعدوم والموجود بأن الاول لا يكون أو ليس بكائن حتى يحصل منه أثر ، والثاني كائن ومبدأ للآثار بديهي لا ريب فيه • وكذلك الفرق بين موجود لا يحصل منه أثر وموجود تحصل منه الآثار واضح (أفلا تذكرون ؟) ذلك حتى لا تبقى لكم شبهة في أنّ الله هو الخالق المعبود والمالك ، وأن غيره مخلوق هالك • (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فإن تعدادها فَرعٌ عن العلم بأعدادها ، ولا علم بها إلا بشيىء قليل مما نشاهده فينا وفي غيرنا (إن الله لغفور) حيث يستر كفركم لِنِعَمِهِ (ورحيم) حيث لا يستعجلكم بالعذاب عليه • أو لا يمنعها عنكم مع قصوركم عن شكرها (واللهُ يعلم ما تسرّون) من إضمار ما لا يوافق رضاء الحق (وما تعلنون) من إشراك الخلق •

(والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقُونَ(٢٠) أَمْواتٌ غَيْرُ أحياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٢١) إلهُكُمْ إلهٌ واحِدٌ فالَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُنْكِرَةٌ ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ(٢٢) لا جَرَمَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ومَا يُعْلِنُونَ ، إنَّه لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِين)(٢٣)

قوله تعالى (والذين يدعون من دون الله) شروع في إثبات أن آلهتهم المزعومة معزولة عن استحقاق العبادة ، فيقول تعالى (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا) من الأشياء أصلاً (وهم يخلقون) ومن لا يخلق شيئا ليس قابلا للعبادة ، لأن العبادة تذلّل وخضوع ، ولا يصح ذلك إلا للخالق العزيز الحكيم . (أموات غير أحياء) أي الذين يُدْعَوْنَ من دون الله أموات لا حياة فيها غير أحياء . وفائدة ذكره التنبيه ، على أنّ بعض ما لاحياة فيه قد تعتريه الحياة كالنطفة والمواد الغذائية . وتلك الأصنام كما لا حياة فيها ليست قابلة لعروضها عليها . (وما يشعرون أيّان يبعثون) أي ما يشعر أولئك الاصنام أيان يبعث الذين يعبدونهم . فعجيبٌ أن يعبد الإنسان الذي يدّعي الشعور بالأشياء شيئا جامدا هامدا لا شعور له بنفسه ولا شعور بغيره ! فانتبهوا أيها الناس وابتعدوا عن هذه الجهالات والضلالات (إلهكم إلهٌ واحِد) واجب الوجود قديمٌ لا أول له ، باق لا نهاية له ، واحد لا نظير له ، قائم بذاته لا حاجة له الى ما سواه ، مخالف لغيره بذاته وصفاته ، حي ، قيوم ، عليم ، سميع ، بصير ، قادر ، مريد ، متكلم مع رسله بتشريع سُبُله (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحوالِها وأهوالها (قلوبهم منكرة) لذات موصوف بالكمال

منزه عن النقص (وهم مستكبرون) عن قبول دواء نافع يتداوون به لجهلهم وإنكارهم للحقائق واستكبارهم عن قبول الحق . وذلك غاية في حمقهم .

(لا جرم) أي حَقَّ وثَبتَ (أن الله يعلم مايسرون) مِن الإنكار (وما يعلنون) من الإستكبار ، فلا ينظر الله إليهم ولا يحبهم (إنه لا يحب المستكبرين) .

وفي لا جَرَمَ أقوال : منها أنه اسم مركب مع لا تركيب خمسة عشر وبَعْدَ التركيب صار معناه حق ، وما بعده مرفوع على الفاعلية له . ومنها أنه مركب كلا رجل ومابعده خبر ، ومعناه لا محالَةَ . وقيل : معناه لا صَدَّ ولا مَنع . وجرم اسم لا بمعنى القطع ، وأن وما بعدها خبر حذف منه الجار اي لامنع في أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون . ومنها غيرُ ذلك .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم : ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قالُوا : أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ !(٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ألا ساءَ ما يَزِرُونَ(٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَأَتَى الله بُنيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ ، فَخَرَّ عليهم السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتيهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ(٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاقُّونَ فِيهِمْ؟ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوءَ عَلى الْكافِرِينَ(٢٧) الَّذِينَ تَتوفَّيهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ! بَلى

إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ)(٢٩)

قوله تعالى (وإذا قيل لَهُم : ماذا أَنْزَل ربكم ؟) أي وإذا نزلت آية من آيات الله تعالى في شأن من الشئون ، وقيل لأولئك المستكبرين : (ماذا أنزل ربكم ؟) استكبروا واستنكروا الحق ، (وقالوا) : الذي نزل هو (أساطير الأولين !) يعني ماكتبه الأولون من شتى جهات الحياة ، ويُملى على هذا الرجلِ ويَنشُرُه بدَعوى أنه آية من آياتِ الله ، فيأتون بهذا الجمود والجحود عناداً وعتوا ، ولا يعرفون أن الأساطير لا تخرج عن نطاق بعض أشياء إعتيادية ، وإذا كانت لها قيمة فهي محدودة وأما هذه الآيات المنزلة ففي ألفاظها براعة وفصاحة وسماحة ، وفي معانيها بلاغة وعلُوٌ على مراتب الجمال من مطابقة المقام والحال ، وفيها أحوال ما وراء الطبيعة ، وفيها أمورٌ علمية لا يعلمها إلا الراسخون ، وفيها تنظيم لحياة السعادة ، وبيان شئون العبادة ، وطريق معيشة البشر بكرامة ، وتنويرُ القلوب بتزويد العمل زاداً ليوم القيامة • وقالوا ذلك (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) بسبب فساد اعتقادهم وأعمالهم (و) يحملوا { من أوزار الذين يضلونهم) بهذه الإضلالات الجامدة الهدامة حالكون الذين يضلونهم متلبسين (بغير علم) عندهم حتى يميزوا به بين الصالح وغيره وشر التعليم وخيره (ألا) أيها العقلاء (ساء ما يزرون) أي ساء ما يحمله أولئك المستكبرون المضللون •

وليس هذا أوّل قارُورة كُسِرت في العالم بل (قد مكر الذين من قبلهم) كقوم عيسى وموسى ومَنْ سبقهما من الرسل فأتوا بما في إمكانهم من المقالات والمعاول الهدامة للدين (فأتى اللهُ بنيانهم من القواعد)

أي فأتى اللهُ ودمّرَ أعمدة بيوتهم التي بنوا عليها (فَخَرَّ عليهم السقفُ من فوقهم) إذ لما انقلع الاساس وتدمرت القواعد انهدم البناء ، وما بقيت لها فائدة من الفوائد (وأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) بإتيانه منه ، بل كانوا يتوقعون تدمير مقابليهم وتعمير موافقيهم ومقاوليهم • فجاء الله بضد ذلك • هذا في الدنيا (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي يذلهم ويحقرهم ويعذبهم (ويقول) الله تعالى لهم : (أينَ شركائى الذين كنتم تشاقون) الرّسل وتنازعونهم (فيهم ؟ قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء ـ عليهم السلام ـ والمؤمنون الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد أو الملائكة الحاضرون : (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين • الذين تتوفيهم الملائكة) حالكونهم (ظالمي أنفسهم) باستمرارهم على الشرك والمعاصي (فَأَلْقَوُا السَّلَمَ) أي فأظهروا خضوعهم واستسلامهم لله حيث لم يبق عندهم معذرة يعتذرون بها ولا قوة يقتدرون بها • وأصل الكلام وألقوا السلاح أمامَ الغالب شعارا للسلم والطاعة قائلين : (ماكنا نعمل من سوء) يعني أنا لما عملنا ما عملناه في الدنيا وارتكبنا ما ارتكبناه فيها اعتقدنا أن ما فعلناه عَمَلُ خير لا فساد وسوء ، والآن وقد تبين الأمر وحصحص الحق فنطلب العفو والسماح ، فيأتي عليهم الرد من جانب الباري جل شأنه أو من جانب الملائكة المأمورين هناك (بلى) فعلتم ما فعلتم وأنتم مستكبرون ومنكرون ولا ينفعكم هذا الكلام (إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم ، وهذا اليوم أوانه (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أي مقدرين الخلود فيها (فلبئس مثوى المتكبرين) أي مأويهم ومنزلهم الحقير جهنم •

(وقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا : ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْراً • لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هذهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ ، وَلَدارُ الآخِرَةِ

خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ لَهُم فِيهَا ما يَشَاءُونَ ، كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ المُتَّقِينَ (٣١) الَّذينَ تَتَوفّيهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ : سَلامٌ عَلَيكُم ، ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ أنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ ، أَوْ يأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ ، ولكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصابَهُم سَيِّئَاتُ ما عَمِلوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُون)(٣٤)

قوله تعالى : (وقيل للذين اتقوا) بيان لمقابل ماذكره ، يعني قد علمتم الجواب من الذين استكبروا عن الذي أنزل الله ، وأما الذين اتصفوا بالتقوى فإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أَنزَلَ خيراً • روي أن قبائل العرب كانوا يَبْعثونَ في أيام مواسم الحج مَنْ ينظر في الأحوال ويأتيهم بأخبار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا جاء الوافد المستكبرين المقتسمين من صناديد قريش وسألهم : ماذا أنزَلَ ربكم ؟ قالوا أساطيرُ الأولين • وإذا جاء إلى المؤمنين وسألهم أجابوهم بأنه أَنْزَلَ خيراً حتى يكون الجوابُ موافقا للحق من جهةٍ وترغيباً للوافد وأهله في اعتناق دين الإسلام المبين • ومقصودهم من قولهم أنزل خيراً أن الله تعالى ترحم على عباده ، وبعث اليهم رسولاً جليلا ، وأنزل عليه كتابا مبينا يهديهم الى الحق والى صراط مستقيم ، يهديهم الى التوحيد والايمان بالله المجيد ورسوله وما جاء به حتى يكون لهم نظام مبارك يمشون عليه ويفوزون به بسعادة الدارين •

وقوله تعالى (للذين أحسنوا) بيان من الله تعالى لجزاء جواب أولئك المتقين المجيبين على الواقع فيقول الله تعالى : (للذين احسنوا) وأتوا بالأقوال الصادقة والاعمال الصالحة المبنية على الإعتقاد بالله تعالى ورسوله وما جاء به من عند الله تعالى (في هذه الدنيا حسنة) وهي بشارة واطمئنان روحي ونشاط نفسي واعتماد على الله في كل الامور فإذا جاءتهم حسنة شكروا الله عليها ، واذا جاءتهم سيئة صبروا • وأما في الآخرة فجزاؤهم أحسن (ولدار الاخرة خير) أي ولثواب دار الآخرة خير من جزاء دار الدنيا بدرجات• (ولنعم دار المتقين) أي دار الآخرة (جنات عدن يدخلونها، تجري من تحتها الانهار ، لهم فيها ما يشاؤن) من النعيم واللذات المحترمة المشروعة (كذلك يجزي الله المتقين الذين) اي المتقين الذين (تتوفاهم الملائكة) وتتسلم أرواحهم حال كونهم محفوظين (طيبين) من نجاسة الفسق والمعاصي وقبائح الاعمال ، ومزينين بالعلم والايمان ومحاسن الاعمال ، (يقولون) أي يقول الملائكة لهم : (سلام عليكم) لا يأتيكم بعد اليوم مكروه (ادخلوا الجنة) التي أعدها الله لكم جزاء (بما كنتم تعملون) مخلصين لله •

(هل ينظرون) أي ما ينتظر كفار مكة (إلا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم أو لإنزال العذاب عليهم (أو يأتي أمر ربك) أي بقيام الساعة (كذلك فَعلَ الذين من قبلهم) أي مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين كانوا قبلهم (فأصابهم) جزاء (ماعملوا ، وما ظلمهم الله) إذ عاملهم بما يستحقونه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون • فأصابهم سيئات ماعملوا) أي جزاء ما عملوا من السيئات (وحاق بهم) أي أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب ولا يستهزأ بعذابٍ استهزىء بهِ •

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللهُ ما عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنَا ، وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ

شَيْءٍ ! كَذلِكَ فَعَلَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ(٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً : أَنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ، وَمِنهُمْ مَنْ حَقَّت عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ، فَسِيرُوا في الأَرْضِ فانْظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ(٣٦) إنْ تَحْرِصْ على هُديهِمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ، وَما لَهُم مِنْ نَاصِرِينَ(٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ! بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا : أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ(٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنا لِشَيْءٍ ، إذا أَرَدْناهُ ، أَنْ نَقُولَ لَه : كُنْ ، فَيَكُونُ)(٤٠)

قوله تعالى (وقال الذين أشركوا) أي واستدل المشركون عند إنزال الحجة بما تعوّدوا عليه من قولهم : (لو شاء الله ما عَبَدْنا من دونه من شيىء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرّمْنا من دونه من شيىء ! كذلك فعلَ الذين من قبلهم) من الأمم الضالة المشركة ، واستدلوا بمثل هذا الدليل ولكنهم لا ينفعهم هذا الدليل العليل ، ولا تفيدهم هذه الشبهة الواهية ، لأن كل من يؤمن بصانع العالم الحي القيوم يعلم أن جميع الممكنات تحت مشيئته ، ولا يجري في ملكه إلاّ ما يشاء ، وأنه لو شاء الله إيمانَ جميع الكفار لآمنوا لأنهم تحت الأمر وفي مجرى السيطرة والقهر ، ولكن لم تجر سنةُ الله تعالى بإلجاء الناس إلى الإيمان والأعمال الحسنة ، لأن الإلجاء يخرج المُلْجأَ عن دائرة التكليف ،

ولا يخلي له كل شيىء يناسب التشريف ، بل السنة جرت بتكليف جميع المكلفين بعد تزويدهم بالعقل والعلم و بعث الرسل وبيان السبل ، فمن اختار الحق والهدى اهتدى ، ومن اختار الباطل والضلال تردى ، حيث ضيّع ماعنده من الإستعداد لقبول الرشاد ، ثم قولهم ذلك وحجتهم هذه ليس عن علم بجريان المشيئة السابقة ، لأنه لا علم لهم بها ، بل من شؤم ضلالاتهم وجهالاتهم اللاحقة ، لأنه بعد العتو والعناد ، وترك طريق الرشاد ، وما آلت إليه القلوب من الفساد ، يتمسكون بمشيئة رب العباد • وهذه شبهة كل جاهل عاطل لا يحصل من حياته على طائل ، فإن تبعية المشيئة حقّ الإتّباع هي أن يعرف التابع بها قبل أن يبدأ بالعمل فيعمل بما شاءه عز وجل • (فهل على الرسل) المأمورين بتبليغ الرسالة (إلاّ البلاغ المبين ؟) والإبلاغ ؟ وقد فعلوا ما كلفوا به ، وسيعلم الناسُ كلهم من المشرّف بالإطاعة ومن المحقّر والمخفف بالإضاعة يوم يجري الحساب بين يدي رب العالمين •

(وَلقد بَعَثنا في كلّ أمةٍ) من الأمم السابقة (رَسولاً : أن اعبدوا اللهَ) وحده (واجتنبوا الطاغوتَ) الداعي الى الضلالة من الإشراك وسائر المفاسد (فمنهم من هدى الله) أي هداه الله إلى الحق واجتناب الطاغوت بحسن إستعداده واختياره الحسن ، وتوجهه إلى ما يليق بإطاعة صاحب الملك والملكوت (ومنهم من حقت عليه الضلالة) لاختياره طريق الجهالة ، فأهلكناهم بذنوبهم ودمرناهم ، فإن لم تعلموا ذلك (فسيروا في الأرض) أرض عادٍ وثمود ونمرود (فانظروا) إلى آثار بلاد أهل الجحود حتى تشاهدوا فتشهدوا (كيف كان عاقبة المكذبين) فقد سبق الأمر وتحقق الخبر وانتهى الأثر (إن تَحرص على هُداهم) وتلك أحوالهم (فإن الله لا يهدي من يُضل) أي من يضله لسوء أفكاره وآثاره (وما لهم من ناصرين)

ينصرونهم في قلب الدين وأوامر رب العالمين (وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم) أي وحلفوا أيماناً جهدَ الأيمان (لا يبعث الله من يموت ! بلى) إنه يبعثهم جميعا فإنه وعدهم بالبعث (وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنه وعدهم ويبعثهم لجهلهم بشؤن رب العالمين • وإنما يبعثهم (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) من البعث والجمود من الحساب والجهود (وليعلم الذين كفروا) بالله المعبود (أنهم كانوا كاذبين) فيخزون في اليوم المشهود وقصارى ماوصلوا إليه من وسائل إنكار البعث إستبعاد إعادة الحياة الى الموتى ولا يعلمون أنه لا صعب علينا (انما قولنا لشيىء اذا أردناه) أي أردنا خروجه من القوة الى الفعل ومن الصورة العلمية الى الصورة العينية (أن نقول له : كن) موجودا عينيا (فيكون) إياه •

(وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللهِ ، مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَلأجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٤٢) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٤٣) بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ؟(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ؟ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ(٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وَهُمْ داخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَللهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (والذين هاجروا) أي والمؤمنون الذين هاجروا من ديارهم في سبيل إعلاء كلمة الله (مِن بَعدِ ما ظُلِموا) من جانب الكفار بإزعاجهم وإخراجهم عنها ظلماً (لنبوئنهم في الدنيا حَسَنَة) أي مَباءَةً واستقرارةً حسنة فالدار تبدل بالدار والرائد رضا الجبار (ولأجرُ الآخرة أكبر) مما استُعجِل لهم في الدنيا (لو كانوا يَعلَمُون) أي أولئك المؤمنون المهاجرون لفرحوا بهجرتهم • أو لو كانوا يعلمون أي أولئك الكفار المُخرِجُون لهم عن الديار بما نال المهاجرون لكانوا معهم في الدين (الذين صبروا) بَدَل من الذين سابقا أي صبروا على ما نالهم من الظلم ولم يتندموا عن ما فعلوا (وعلى ربهم يتوكلون) منقطعين إليه ، أو خبر مبتدأ محذوف • وما نقموا به عليك من كونك رجلا منهم ليس محل النقمة أبداً فإن ذلك جارٍ على سنتنا (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً) أمثال أفراد قومهم في أكلهم وشربهم وقيامهم ونومهم ••• وفي سائر مقتضيات الطبيعة البشرية من الأعراض والأمراض لكننا (نوحي إليهم) من فضلنا ، ونخصهم بالإيحاء إليهم ، وهذه رتبة عالية سنية ومزية بشرية علية (فاسألوا أهل الذكر) أي أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى (إن كنتم لا تعلمون) وجواب هذا الشرط ما تقدم إن جوز التقديم ، وإلا فمحذوف يدل ذلك عليه وأرسلنا أولئك الرجال (بالبينات) من المعجزات

(وبالزبر) والآيات والبينات للتصديق والآيات للتطبيق (وأنزلنا إليك الذكر) أي القرآن الجامع لجانبي الإعجاز والتطبيق (لتبين للناس ما نزل اليهم) والبيان بالنسبة الى النصوص الواضحة هو التبليغ كما نزل ، وبالنسبة إلى ما يحتاج إلى الإيضاح هو تفسيره وكشف الغطاء عنه بتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وإيضاح المجمل ، ونسخ ما نسخ منه وغير ذلك (ولعلهم يتفكرون) الضمير راجع إلى الكفار ، والمقصود لتبين ما نزل لعل الناس الجاهلين المعاندين يتأملون بعقول صافية في تلك الحقائق ويؤمنون بها أو إلى الناس جميعا ، أي ليتأمل الكل فينال الكل نصيبه بحسب مستواه ، فيهتدي الكافر الى الإيمان ويزيد المؤمنون هُدىً بربهم (أَفَأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئاتِ) مِن أهل مكة الذين مكروا بك (أن يخسف الله بهم الأرضَ ؟ أو يأتيهم العذابُ من حيث لا يشعرون ؟) كجهة مأمنهم أو جهةٍ لا يتصور مجيىء العذاب منه (أو يأخذهم الله في تقلبهم) يمنة ويسرةً ، فإن عذاب الله لا يحتاج إلا إلى آن النزول (فما هم بمعجزين ؟) وفائتين من الله بالهرب فلا ملجأ من الله إلا إليه (أو يأخذهم على تخوف) أي على حين مخافة وحذر من الله تعالى بأن يهلك قوما قبلهم فيخافون من نزول العذاب عليهم كما نزل على تلك الامة السابقة لوجود العلة فيهم أيضا ، أو يأخذهم على تَنَقُّصٍ من نفوسهم وأموالهم ووسائل معيشتهم شيئا فشيئا ، فإن الناس إذا أتاهم نقص في النفوس ثم في الاموال ثم في المقام والاحترام خافوا من هذا الترتيب في النقصان مآسِيَ وعقوباتٍ أخرى ، فان لم يأتهم بما يخافون منه (فإن ربكم لرؤف رحيم ؟) حيث لا يأتيكم بما تخافون منه .

ومما ينبغي أن يعلم أن ليس المراد من الآية الشريفة حصر أسباب هلاك القوم ، لأن الأسباب لا تدخل في الحساب . وقد قال تعالى

(وما يعلم جنودَ ربك إلا هو) فإن من جنده الهجوم من الأعداء ، او نزول العذاب من السماء ، أو حدوث الأمراض والوباء ، او الموت بالقحط والغلاء ، أو بوقوع الفتنة بين الناس فيقتل بعضهم بعضا ، أو باجتياح الحشرات السامة أو السباع الضارية أو السيل والغرق والحرق أو الزلازل والبراكين وغير ذلك مما لا يكاد يحصى • ولكن الله تعالى أراد أن يهددهم بما سمعوا من المصائب الواردة على الأقوام المجاورة الساكنة في جزيرة العرب وحاصل ذلك إما عذاب الإستئصال أو لا ، والأول قد كان بالبركان كما لقوم ثمود فخسف الله بهم الأرض ، أو بالرياح المهلكة كما لقوم عاد • والثاني إما عند السفر إلى خارج البلد في الاعمال التجارية • واما اتى عليهم في مساكنهم وأوطانهم من البلايا المهلكة للناس شيئا فشيئا لا مرة واحدة وهذا القسم أخفها كما ترى ولذلك عقبه بقوله الكريم (فان ربكم لرؤف رحيم) ثم إنه ليس سياق القرآن الكريم سياق الفلسفة الواردة المترددة بين النفي والإثبات حتى تتباين الأقسام • وعلى العموم بعضها مع بعض لجواز اجتماع البراكين الارضية مع نزول العذاب السماوي كأن يكون مع البركان الخاسف للناس في الأرض نوازل سماوية تهلك المشردين من القوم في أطراف البلد كامطار الحجارة مِن السماء على أرض ثمود التي تسببت في قتل ما بقي من أفراد القوم والأمر في رعاية ذلك سهل يسير •

ثم إن في قوله تعالى (والذين هاجروا) إلى قوله تعالى (فان ربكم لرؤوف رحيم) فوائد مهمة •

الأولى : إن الذين أرادوا إعلاء كلمة الله في الأرض وتسبب ذلك لهجرتهم وتركهم الديار وصلوا إلى السعادة الكاملة بالرفاه والراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، بشرط مقارنة هجرتهم بالصبر وتحمل الأذى والأتعاب ، فإن الصبر هي دعامة الوصول إلى السعادة •

الثانية : وجوب النظر إلى الرجال البارزين في العالم سواء كانوا من أهل الدين أو الدنيا نظرة واقعية، فإنهم لم يكونوا من النحاس ولا من الذهب، بل كانوا بشرا كسائر البشر ، وكان لهم مناسبة مع سائر الناس في الهيكل والصورة ، ولكنهم خالفوهم في السيرة وجهات الإختصاص في تلك الطبقة تميزهم عن سائر الناس بالأخلاق العالية من : الفكرة السليمة ، والمشاورة ، والإنتباه ، وإعداد العُدّة ، والنَظر إلى المستقبل ، والإستقامة ، والوفاء بالعهود والوعود ، وسائر مايتقدم به الانسان على بني نوعه ...

الثالثة : أن القادة هم أعلم بمبادىء النظام المقرر للحركة الدينية أو الدنيوية ، ويجب مراجعتهم لشرح نصوص المبادىء في حياتهم ومراجعة من قام بأعباء مهماتهم بعد مماتهم .

الرابعة : أن الأمة كائنة ما كانت يجب أن لا تغفل في طريق سيرها عن العثرات والزلات ، ومن أهمها الكفر لنقمة الله تعالى والتولي عن الحق ، والتوغل في الشهوات ، فإن الله لعباده بالمرصاد ، وإن جنود الله لا تُعَدّ ولا تُحصى فكم من أمة أتاها عذاب الله تعالى من حيث لم تتصور ورود ذلك العذاب عليها سواء كان العذاب عذاب الإستئصال أو عذابا نزّلها إلى محل لا يليق بها حتى تزول عن مكانها ومكانتها . وأهم أسبابه البَطَر والغرورُ والكفرُ بنعم الله تعالى وتركُ ما استقر عليه كيانها أوّلاً . وفي ذلك كفاية لأهل العناية .

ثم نبه الله سبحانه وتعالى أولئك الكفار المبتعدين عن ادراك الحقائق بالقلوب إلى احساسها بالحواس يعني هب إنهم ليسوا من أهل العقول ، أليسوا من أهل الحواس حتى يستعملوها في ما يفيدهم فائدة تخرجهم من العناد والإستكبار وترجعهم إلى إطاعة الملك الجبار ، وقال : (أوَ لم يَرَوا إلى ما خَلَقَ اللهُ من شيىء) أيّ شيىءٍ كانَ مِن الشواخص المادية

المتظللة التي ترى ظلالها عند ظهور الشمس على الأفق إلى غروبها عن الأفق المقابل حيث (يتفيؤ) أي ترجع وتميل (ظلاله عن اليمين) نحو الغرب إذا طلعت الشمس (وعن الشمائل) نحو الشرق إذا مالت نحو المغرب حالكون الظلال أو أصحابها (سجدا لله) أي منقادة له جارية على ما أراد من الإمتداد والتقلص وغيرهما ، غير ممتنعة عليه ، أليس ذلك الوضعُ من ظهورِ الشمس وارتفاعها ووصولها إلى خط نصف النهار وميلها إلى المغرب ؟ وأليست الشمسُ كوكباً نهاريا يستضيىء أكثرُ من نصفِ الكرة الارضية بنورها ؟ أليست هذه الكرة وأمثالُها والأرض والأعيان والشواخص مسخرة بأمره تعالى أليست الكرة الارضية تظلم بغيابها عن الافق وتضيىء بظهورها وطلوعها مرةً اخرى منه تعالى ؟ وقوله (وهم داخرون) بوصف المذكر العاقل وضميره لمراعاة وصف السجود الذي لا يليق إلا بأهل العقل والإدراك والشهود لا بالحيوان الغير العاقل ولا بالجماد الواقع بلا إدراك للوجود • أي والظلال وأصحابها داخرون متصاغرون وأذلاءُ خاضعون لله الواجب الوجود الخالق لكل ممكنٍ موجود ، المعبود بالحق لمن يتأتى منه السجود •

ثم نبه الباري تعالى على أن ليس السجود مختصا بها ، بل يعمها وغيرها وقال : (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة) أيّةَ دابةٍ في الأرض أو البحر أو الجو أو السماء (والملائكة) الكائنة فيها أو في الارض أو غيرهما (وهم لا يستكبرون عن عبادته) تعالى والسجود له (يخافون ربهم) أي يخافون مالك أمرهم وخالقهم الغالب (من فوقهم) واستيلاء الفوق والغلبة منه استيلاء على باقي الوجود (ويفعلون مايؤمرون) وإذا أرجعنا الضمائر إلى العقلاء مما ذكر فالمعنى واضح ، واذا أرجعناه الى الكل فمعنى الخوف واطاعة الامر الخضوع وعدم المعارضة لما يرد ويتوجه

إليها حسب مستواها . واستدل بالآية على أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء . أما دلالتها على التكليف فلقوله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) وأما على الخوف فهو أظهر من أن يخفى ، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له ولكنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(وقالَ اللهُ : لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إنمَّا هُوَ إلهٌ واحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَلَهُ الدِّينُ واصِباً ، أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ؟(٥٢) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ، ثُمَّ اِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ(٥٣) ثُمَّ إذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ اِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٥٤) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسوفَ تَعلَمُونَ(٥٥) ويَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عمّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ(٥٦) ويجعلونَ للهِ البناتِ سُبحانَهُ ! ولهُمْ ما يشْتَهُونَ(٥٧) وَاِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُو كَظِيمٌ(٥٨) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ اَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ أَلا ساءَ مايَحْكُمُونَ ! (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، ولله الْمَثَلُ الأَعْلى وهوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٦٠)

قوله تعالى (وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين) عطف على قوله تعالى (ولله يسجد) الآية ... فيقول (وقال الله) أي وحكم الله تعالى وقرر أن

(لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إلـه" واحد" فإياي َ فارْهَبُون ِ) أي فخافوني ولا تخافوا غيري • والفاء في قوله (فارهبون) واقعة في جواب شرط مقدر، وإيّايَ مفعول لفعلٍ محذوف يقدر مؤخرا يدل عليه فارهبون : أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارْهَبوا • (وله ما في السماوات والارض وله الدين) وحده (واصبا) واجبا لازما لا زوال له (أفغير الله تتقون ؟!) والهمزة للإنكار والفاء للتعقيب ، أي أبعد ما تقرر من تخصيص جميع الموجودات للسجود به تعالى ، وكون ذلك كله له سبحانه ، ونهيه عن اتخاذ الالهين ، وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به تعالى تتقونَ غيرهُ ؟!

(وما بكم من نعمة فمن الله) أي أيّ شيىء يلابسكم من نعمة ، أيّ نعمة كانت ، فهي منه تعالى واعلموا أن منه تعالى لا من غيره (ثم إذا مَسكم الضرّ فإليه تَجئرون) أي فإليه تتضرّعون في كشفه لا إلى غيره (ثم إذا كَشَف الضرّ عنكم) أي رَفَع ما مَسّكم من الضرّ (إذا فريق" منكم بربهِمْ يُشركون) أي يتجدّدُ إشراكُهم ويستمرّ ذلك (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة كشفِ الضرّ (فتَمتّعوا) أمرُ تهديدٍ (فسوف تعلمون !) عاقبة أمرِكم وما ينزل بكم من العذاب (ويجعلون لما لا يعلمون) أي لآلهتهم المزعومة مما لا يعلمون شيئا ولا يهتدون سبيلا (نصيبا مما رزقناهم) من الحرث والأنعام وغيرهما ، وهذا اجتراء" وافتراء على الغيب (تالله لتسئلنّ عما كنتم تفترون) من قولكم بأنها آلِهة وأنها تُعبدُ وأن لها شأنا من الإختصاصات (ويجعلون لله البنات) أي يعتقد بعض من العرب المشركين وهم خزاعة وكنانة أن الملائكة بناتُ الله تعالى ، وأطلقوا عليها اسم البنات لاستتارهن عن العيون كالنساء المخدرات (سبحانه !) تنزيه

وتقديس له تعالى عما نسبوا اليه حسب زعمهم (ولهم ما يشتهون) أي وجعلوا لله البنات وجعلوا لأنفسهم ما يشتهونه ويحبونه من البنين .

(وإذا بشّر أحدهم بالأنثى) أي وإذا أخبر أحدهم بولادة أنثى له (ظل وجهه مسودا) من الكآبة والحزن والحياء من الناس (وهو كظيم) أي مملوء غيظا (يتوارى) أي يتستر ويختفي (من القوم من سوء ما بشر به) بحسب عرفهم ، وإلا فالبنت قد تكون أسعد وأنفع من الابن . ويتردد في قلبه : (أيمسكه على هون ؟) يعني أيبقي ما بشر به ويخدمه ويربيه مع حقارة وهوان له (أم يدسه في التراب ؟) أم يحفر له حفرة ويخفيه في التراب ؟ (ألا ساء ما يحكمون !) به من اختيار البنين لأنفسهم واختيار البنات له تعالى ، مع أنهم لا يرضون بها ، ويخجلون من وجودها ، هذا من ناحية اختيار أنفسهم بالخير ، ومن ناحية أخرى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم المشركون (مثلُ السوءِ) أي صفة السوء وهي الحاجة الى الولد (ولله المثل الأعلى) وهو الإستغناء عنه (وهو العزيز) المنفرد بالقدرة الكاملة الدائمة (الحكيم) الذي يفعل ما يفعل بالحكمة ، ولا حاجة الى ذات واجب الوجود كامل الصفات إلى غيره بأي وجه من الوجوه .

(وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِن دابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى اَجَلٍ مُسَمّى ، فَإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(٦١) وَيَجْعَلُونَ لله ما يَكْرَهُونَ ! وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى ، لاجَرَمَ اَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ(٦٢) تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(٦٣)

وَما أَنزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي اخْتَلَفُوا فيهِ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٦٤)

قوله تعالى : (وَلَو يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ) يعني ولو يؤاخِذُ اللهُ النّاسَ الظالمين مطلقا من أيّ وَجه ، أو الظالمين بالإشراك بظلمهم ، أي بسبب ظلمهم (ما تركَ عليها) أي على الأرض (من دابة) أي من أيّ إنسان يدب على الأرض من الظالمين ، لأن فساد الظلم يوجب إبادة الظالم جزاء وفاقا ، أو ماترك على ظهرها من دابة من الإنسان الظالم وغيره ، أما الظالم فلظلمه ، وأما غير الظالم فلشؤم ظلم الظالم على جريان سنة الله تعالى في الكون ، من ان إهلاك الملزوم اهلاك اللازم ، فإذا أراد إغراق الظالمين بالماء فقد أراد إغراق ما في مجرى الماء • ولذلك قال تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) والمشهور في تفسير الآية أنه لويؤاخذ الله الناس الظالمين بظلمهم ماترك على الارض من دابة من انسان أو غيره من ظالم أو غيره • أما الظالم فلظلمه ، وأما غيره مطلقا فلشؤم ظلمه الساري الى غيره• وقال بعض : معناها أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم كانَ أَهلكَ آباءنا الظالمين بظلمهم فما كان يحصلُ وراءهم عَقَب، وما من سلسلة الا وفي أصلها ظالم أو ظالمون • وإذا أهلك الاصل والنسل أهلك الدواب أيضا لانها خلقت لمنفعة الناس بالذات أو بالواسطة ، كما أفاده قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) ولكن لا يؤاخذهم بذلك بل يؤخرهم الى أجل مسمى عينهُ سبحانه وتعالى لكل ما دَبَّ عَلَى الارض (فاذا جاء أجلهم) المعين في علمه تعالى (لا يستأخرون) عنه (ساعة) أي أقلّ مدة (ولا يستقدمون) •

قيل ان الإستئخار معقول ، فما معنى الإستقدام ؟ وأجيب عنه بأجوبة :

الاول : أن عطف جملة (لا يستقدمون) على ما قبلها مقدم على ربطهما بصدر الكلام ، فالمعنى فإذا جاء أجلهم لا مجال للتبدل مطلقا •

الثاني : أن جملة (ولا يستقدمون) معطوف على الشرط لا على جوابه. فالجملة الأولى انتهت في قوله (لايستأخرون ساعة) • ثم عطف جملة ولا يستأخرون على قوله (إذا جاء أجلهم) فتكون بيانا لاستحالة طلب التأخير •

الثالث : أن في الكلام طيّا ونشراً فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ؛ وإذا لم يجىء لا يستقدمون • أي وقبل مجيىء الأجل لا يطلب أحد تقديم أجله ، لأن الله مادام عين ذلك الوقت للفوت لا يُخلي الإنسانَ يَطلبُ تقديمه ولا يقدمه •

(ويجعلون لله ما يكرهون) : أي ويعتقد الكفار المشركون ثبوتَ مايكرهونه من البنات لله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذبَ) أي ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذبَ وهو (أن لهم الحُسنى) أي العاقبة الحسنى عند الله تعالى • وأي حمقٍ أوفى من عِداء ذاتٍ يكون مرجعا للخيرات ، واعتقاد إختصاص أعدائه بأوفى الحظوظ منها ؟ (لاجرم أن لهم النار) أي لا شبهة في أن لهم النار جزاء لتلك العقائد الفاسدة والاعمال السيئة (وأنهم مفرطون) أي معجل" بهم إليها ، أي فكما ماتوا وقعوا في العذاب ، وما في البرزخ يكون مقدمة نزلهم يُبشرهم بلذة ماوراء ذلك من النار •

ثم صبر رسوله وسلاه بأنّ هذه الامة المشركة الفاسدة ليست مختصة بك بل قد كان في السابق مثل أمتك أو أعلى منها في غلوها في الفساد فقال (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) أي رسلا (فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم) أي قرينهم (اليوم) أي يوم زين لهم الاعمال وأضلهم اضلالا (ولهم عذاب أليم) وهو عذاب نار الجحيم (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه) من البعث والحشر والنشور (وهدى ورحمة) عظيمين (لقوم يؤمنون) فإنهم المغتنمون بخيراته في الدارين •

(وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَحيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِقومٍ يَسْمَعُونَ(٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ في الأَنْعامِ لَعِبْرَةً : نُسقِيكُمْ ممَّا في بُطونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشّارِبينَ(٦٦) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخيلِ والأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٦٧) وَأَوْحى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ(٦٨) ثُمَّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ، فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ)(٦٩)

قوله تعالى (واللهُ أنزل من السماء ماء) جرى الباري بحكمته على ما تقرر من سنته في إرشاد العباد من بيان نعمه التي لا يحصى المحسوس منها والمعقول فقال (والله أنزل من السماء ماء) أي من السحاب ، أو من الجهة العليا النظيفة اللطيفة التي ليس فيها شائبة الأدناس والاوساخ ماءً ومادة من أنفع المواد لمعيشة الحيوانات وإنبات النبات وبث الرخص في الكائنات (فأحيا به الأرض) بما أنبت فيها من أنواع النبات (بعد موتها) أي بعد يبسها • فالإحياء استعارة للإنبات ، والموت للجدَبِ واليَبس واليأسِ مِن المُخضّراتِ (إن في ذلك) العمل المتقن الحكيم أي إنزال الماء من السماءِ لإحياء الأرض (لآيةً) وعلامةً عظيمة على وجوده وقدرته وعلمه وحكمته واختصاصه بالتأثير ووجدته (لقوم يَسْمَعُون) أي يسمعون الآيات ويَقبلونها وينتفعون بها في الاستدلال على الحق واليقين (وإن لكم في الأنعام) أي في خلقها وجعلها محتوية على المنافع (لعبرة) أي لأمراً يعتبر

ويتعظ به ويتجاوز به من الجهل الى العلم ، فاستأنف لبيان ما فيها وقال : (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا) مُصفى مما يصحبه من المواد الكثيفة بتضييق مخرجه ، سائغا للشاربين سهل المرور في حلقهم لدهنيته ، والفرث على ما في الصحاح : السرجين مادام في الكرش ، والجمع فروث . وفي البحر : إنه كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المعى . وبين تقتضي متعددا ، وهو هنا الفرث والدم ، فيكون مقتضى الظاهر توسط اللبن بينهما . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن البهيمة إذا اعتلفت وانضج العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دماً . وفي البيضاوي : ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة للبن ، وأعلاه مادة للدم الذي يغذي البدن ، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش ، ويبقى تفله وهو الفرث ثم يُمسكها ريثما يهضمها هضما ثانيا فيحدث اخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين ، وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها، ثم إن كان الحيوان أنثى زادت أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها ، فيندفع الزائد أوّلاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغُدَدِية البيض فيصير لبنا . ومن تدبر صُنْعَ الله تعالى في إحداث الأخلاط والألبان وإعداد مقارّها ومجاريها ، والاسباب المُولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به أضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته انتهى .

وقوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب) متعلق بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما وتتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، كشف لكنه الأسقاء . والسَّكر مصدر سمي به الخمر

والرزق الحسن كالتمر والزبيب والدبس والخل • والآية سابقة على تحريم الخمر لأنها مكية والتحريم كان بالمدينة • وفيها إشارة إلى كراهة شربها إذ ذاك لمقابلتها بالرزق الحسن • ولعل أصل الكراهة أمر" ذاتي قبل ملاحظة الشرع ، وذلك لتشويشها للعقل الذي هو مداد السعادة • وقيل : السكر النبيذ (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم بالنظر والاستدلال بالآيات على النتائج النظريات •

(وأوحى ربك إلى النحل) أي ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه الا اللطيف الخبير ، وكذلك كل ما كان من الغرائز في تربية النسل وصيانته وتداوي الامراض والجروح الحيوانية ، وحتى في كثير من الاوضاع النباتية في التفافها حول الشواخص ، والتفاتها الى الحرارة الشمسية وما شابه ذلك ••• (أن اتخذي من الجبال بيوتا) أي أوكارا ومحلات قرارٍ تناسب أوقات الحرارة والبرودة وتربية العسل وتوليد النسل وغير ذلك مما تحتاج إليه • (ومن الشجر) أي واتخذي من الشجر بيوتا (ومما يعرشون) أي ومما يعرشه الناس أي يرفعه من الكروم • ومن في المواضع للتبعيض ، فإن النحل لا يتخذ البيت في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش (ثم كلي من كل الثمرات) التي تناسب طبعك وتوافق منتوجك (فاسلكي سبل ربك) أي فاسلكي في تحصيل ما تتغذينَ به ، وفي العود إلى المقرات الاساسية السُبُل التي ألهمك بها ربك حالكونها (ذُللا) أي مُذَللة ذللها الله تعالى وسهلها لكَ (يخرجُ من بطونها شراب) أي عسل" يشرب (مختلف ألوانه) بالبياض والصفرة والحمرة والسواد على اختلاف المراعي حسب سنته تعالى في مناسبة الناتج للأصول أو لغير ذلك • (فيه شفاء للناس) إما بنفسه أو مع امتزاجه بغيره وليس معنى الآية الكريمة أن في العسل شفاءً لكل الناس من كل الأمراض ، بل أن فيه شفاء الكلهم من الامراض التي

تعالج بشربه حسب إرادته تعالى (إن في ذلك) المذكور من اعمال الباري جل جلاله (لآيةً) عظيمة (لقوم يتفكرون) فإن من تفكر في خلقِ النحلِ بتلك الاوصاف والمُهماتِ الدقيقة لأخذ البيوت من الجبال والأشجار والعريش ، ولصنع الكوارة المسدسة التي تُعجِبُ المهندسين ، وفي رعيها من الثمار ، ورجوعها الى الأوكار ، وإدارة العسل ، وتربية النسل ، ثم في إلهام النظام الى ذلك النوع من حيث إطاعة الأمير والإصطفاف حوله ، والتغني بأصوات رنانةٍ كالموسيقى العجيبة حتى يخرج الأمير ويطير فيطيرون وراءه .. لآياتٍ للمهتدين .

(وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّيكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ، لِكَيْلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئاً ، إنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٧٠) وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ في الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذينَ فُضِّلُوا برادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ؟(٧١) وَاللهُ جَعَلَ لكم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ؟(٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالأرْضِ شَيْئاً ، وَلا يَسْتَطِيعُونَ(٧٣) فَلا تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ ، إنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)(٧٤)

قوله تعالى : (والله خلقكم ثم يتوفاكم) إستئناف لبيان قدرته تعالى على إبداء الإنسان من النطفة المعينة وتعريضه للعوارض فقال : (واللهُ

خلقكم) وأخرجكم من عالم صورةٍ نوعية الى صورة نوعية أخرى وأبْقاكم حسبما تقتضيه علمه وإرادته (ثم) إذا جاءَ الأجل المسمى (يتوفاكم) ويقبض أرواحكم فتعودون إلى عالم البرزخ إلى يوم تُبعثون (ومنكم مَن يُرَدّ إلى أرذل العُمر) أي وبعد أن خَلَقكم فمنكم من يتوفى قبل الوصول الى أرذل العمر (ومنكم) من يرد الى أخسّ العمر وأحقره ، وهو وقت الهَرَم الذي تنقص فيه القوى والحواسّ ويعود الانسان كالطفل الضعيف عقلاً وإدراكاً • وأرذل العمر لا حَدّ مُعيناً لهُ ، وانما هو يختلف باختلاف الأمزجة ، فربّ معمر واصل الى المائة لم تنقص قواه ، ورب منتقص في القوة لم يتجاوز ثمانين • وكان من دعائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما اخرجه البخاري عن أنس « اللهم إني أعوذ بك من البُخل والكَسَل وأرْذَلِ العمر وعذابِ القبر وفتنة الدجال وفتنة المَحيا والممات » وقوله (لكي لا يعلم بعد علم شيئا) اللام فيه للعاقبة وهي في الأصل للتعليل ولكنها استعيرت للصيرورة والعاقبة كما في قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) والكلام كناية عن غاية النسيان، أي ليصير الإنسان ، نَسّاءً بحيث إذا كسب علما في شيىء لم يلبث أن ينساه ان الله عليم بكل شيىء قدير على كل شيىء فهو قادر على كل شيىء وعليم به •

(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) وجعلكم متفاوتين فيه (فما الذين فُضّلوا) على غيرهم فيه (بِرادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) أي لا يقدرون على أن يَرُدوا رزقهم الذي رزقهم الله على مماليكهم • أي أن السادة المُفَضّلين على العبيد في الرزق لا يقدرون أن يجعلوهم مستوين لأنفسهم في الرزق ، فكلٌ يستوفي رزقه • ومعنى ذلك أن السادة وإن كانوا مفضلين في الرزق وأغنياء لا يقدرون على زيادة أرزاق العبيد على ما قدره الله تعالى وقرره ، (فهم) أي السادة والعبيد فيه أي في الرزق سواء لا قدرة

لاحد الطرفين أن يزيد في رزق الآخر ، فإن الكل مرزوق لله ورزقه من الله تعالى ، وما يرى ظاهراً من أن السيد قادر على زيادة رزق العبيد ليس كذلك فالإنسانُ أينما كان ، وفي أي زمانٍ فرزقه من الله لا مِن غيره ، فكيفَ ينسبُ أولئك الكفار المشركون أرزاقهم الى الأصنام ويجعلونها مبدأ لسعة أرزاقهم دون الله ؟ (أفبنعمة) الله تعالى وهي الأرزاق الواردة منه إليهم (يجحدون) وينسبونها إلى أولئك الهياكل الجامدة ؟ فسبحان الله عما يشركون •

(واللهُ جَعَلَ لكم من أنفسكم) أي من بني نوعكم (أزواجا) تَستأنسون بهن وتقيمُون مَعَهُن مَصالِحكم في الدنيا وتَبْنونَ اساس النسلِ والعائلة (وجعل لكم من أزواجكم بَنينَ) في الدرجة الاولى (وحَفَدَة) في سائر الدرجات (ورزقكم من الطيبات) في طبائعكم للزواج من النساء كما قال تعالى (فَانكحوا ما طابَ لكم من النساء) أو رزقكم مع أزواجكم وبنيكم وحفدتكم الطيباتِ من الأقوات والألبان واللحوم والفواكه وغيرها (أفبالباطل) وهو نسبة هذه المنافع الى الاصنام (يؤمنون وبنعمة الله) وهي النعم المخلوقة لله الواصلة منه تعالى (هم يكفرون ؟!) •

(ويعبدون) أي أولئك المشركون (من دون الله ما لايملك لهم رزقا من السماوات والارض شيئا) أي ما لا يقدر أن يرزقهم شيئا (ولا يستطيعون) تملكَ شيءٍ لأن التملك يتفرع من الحياة والعلم والقدرة والاصنام بَراءٌ من تلك الصفات (فلا تضربوا لله الأمثال) أي فلا تجعلوا لله الموصوف بالكمال الأمثال والاكفاء تعالى عن ذلك ، ولَم يكن لَهُ كفواً احَدٌ ، إن الله يعلم كنه ما تفعلون فيعاقبكم عليها (وأنتم لا تعلمون) كنه ذاته وصفاته • او لا تضربوا الأمثال كما يضرب الله الامثال ، فإن الله يعلم الامثال المناسبة

وضربها ، وأنتم لا تعلمون فقفوا عند حدودكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين •

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً، فهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وجَهْراً •• هَل يَسْتَوونَ ؟ الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ ؛ لا يَقْدِرُ على شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلِيهُ ، أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ، هَل يَسْتَوي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟(٧٦) وَللهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، وَما أَمْرُ السّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٧٧)

قوله تعالى (ضرب الله مثلا) بعد أن نهاهم الله عن ضرب الأمثال لأنهم لا يقدِرُون اللهَ حقَّ قدرِه والله سبحانه وتعالى عالم بكل مادق وجل فيضرب الأمثال مطلقا وهو حقيق بذلك •• قال (ضَرَبَ اللهُ مثلا) أي وذكر لكم مثلا تعتبرون به وتتركون الإشراك • وقوله (عبداً مملوكا) بدل من قوله مثلا • والحاصل أن الله سبحانه ذكر أن هناك عبدا مملوكا ضعيفا نحيفا جاهلاً بالحقائق (لا يقدر على شيء) فهو جامع لموجبات الوهن أي العبودية والإنقياد لأمر سيده ، وجهله وعدم قدرته على الوفاء بأية مهمة من المهمات (وَمَنْ رَزَقناه) أي وشخصا حرا في تصرفاته رزقناه (رزقا حسنا) حلالا طيباً أو مستحسنا عند الناس (فهو ينفق منه) أي مما رزقناه (سرا وجهرا) لأنه ملكه المختص به والناس يستفيدون منه (هل يستوون ؟) أي ذانك الإنسانان في الحيازة للأموال والصرف على الناس مع النساء

والرجال ، وهل يستويان في عقول العقلاء قدرا وشرفا ؟! والجواب : لا • فالشركاء الجامدون الهامدون أمثال للعبد المملوك بل العبد المملوك أقوى وأقدر ، لأن فيه إنسانية وعلما وقوة وحركة ذاتية ، والباري سبحانه وتعالى مثل للشخص الحر القوي القادر المتنفذ الباذل ماله للناس حسب ما أراد ، ولا يستوي الطرفان بأي عقلية وتصورٍ ناشيء من المتصورين الخبراء • وإنما جَمع الضمير مع أن المرجع مثنى للإشارة إلى أن المقصود هنا من اتصف بالأوصاف المذكورة المتخالفة لا الفردان • (الحمد لله) على خلقه المميز بين الصالح وغيره (بل أكثرهم لا يعلمون) الحقائق فيضيفون النعم إلى غيره •

(وضرب الله مثلا) أي مثلا آخر : (رجلين أحدهما أبكم) بكماً وخرساً خُلقيا لا ينطق بخير يستفاد منه ولا بشر يستفاد من اعتبار مقابله (لا يقدر على شيىء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو غيره (وَهُوَ كَلٌ) أي حَملٌ ثقيل وعيال دخيل (على مَوْلاه) أي على من يتولى امره سيدا أو غيره (أينما يوجه) مولاه (لا يأت بخير) ولا يستحصله له (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) وهو ناطق فصيح بليغ مفيد مُريحٌ (وهو على صراط مستقيم ؟) لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب فرصة سانحة • والمثل مذكور للفرق بين الجامد والنامي ، والجاهل والعالم ، والعاجز والقادر ، والأصنام الجامدة المصنوعة ، والذات الواجب الوجود الذي هو في كل فعال محمود (ولله غيب السماوات والارض) أي ولله العلم بما غاب عن علم من سواه في السماوات والارض والسيطرة عليها (وما أمر الساعة) التي تحدث بدمار هذا العالم وحدوث عالم جديد (إلا كلمح البصر) أي كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، (أو هو أقرب) لان ذلك اللمح الآني ينقسم إلى ما هو أدق منه بمرات ، وقدرته تعالى نافذة في أصغر وقت يمكن

تحقق الحادث فيه (إن الله على كل شيء قدير) ومن الشيء تحقق الممكن في أقل وأدق من لمح البصر كما هو معلوم •

(وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوا إلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ ؟ ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ اللهُ ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُيُوتاً، تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ، وَيَوْمَ إقامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إلى حِينٍ (٨٠) واللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً ، وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فإنْ تَوَلَّوا فَإنَّما عَلَيْكَ البَلاغُ المُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها ، وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ)(٨٣)

قوله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومربوط به لفظا ومعنى ، وكلاهما من الأدلة على وجود الباري تعالى وكمال صفاته ووحدته ذاتا ووصفا وفعلا • وقوله (لا تعلمون شيئا) النفي فيه لعموم السلب ، أي يستغرق النفي فيه سائر المعلومات المتغايرة لذات العالم فلا ينافي أن يلازم النفس الناطقة علمها بنفسها ، لأن كلامنا هنا في العلم بالمعلومات المباينة لها ، (وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة) أي وخلق لكم حاسة السمع

والبصر ، وكذلك سائر الحواس ليستعملوها في إحساس ما خلقت له ، وجعل لكم القلب أي قوة الإدراك المودعة فيكم ، فتأخذ من مدركات الحواس وتربط بعضها ببعض وتكتسب الأمور المكتسبة بحسب قوتها وقابليتها . والحاصل إن الله تعالى خلق من النطفة الطفل وهو برىء من المعلومات ، إلا ما لزم ذاته ثم أبدع فيه الحواس وجعلها وسيلة لاكتساب العلوم النظرية ، فالمبدع للذوات والصفات بهذا النمط البديع هو الله الذي يجب أن يُعبَدَ وحدَه ولا يُشرك به أدنى موجودٍ مُفتَعَلٍ مَصنوع خالٍ عَن كل كمال وفضيلةٍ ؛ لأن الله تصرف فيكم بذلك التصرف العجيب (لعلكم تشكرُون) نعمة الإبداع وإيداع الصفات وجعلها وسيلة لاكتساب الكمالات لا للكفر به وإنكاره، أو للإشراك به ما لا يفهم شيئا ولا يهتدي إلى خير في الدنيا والدين .

(ألم يَروا) أي أولئك الناس الذين نَسُوا نعمة الله وتركوا توحيده (إلى الطير مسخرات في جو السماء) في الهواء المتباعد من الأرض، وجعل لها جناحين، وأودع فيها قوة تحريكهما المستعجل حتى تقطع المسافات في مدة يسيرة ، وقد تبقى في الجو بدون حركة وانتقال (مايمسكهن) في الجو وما يمنعهن عن النزول إلى الارض مع أن الأثقال مائلة الى المركز (إلا الله ؟) الخالق فيها قوة حافظة لها عن الوقوع والنزول (إن في ذلك لآيات كثيرة) مهمة (لقوم يؤمنون) بالله وبتأثير قدرته ومقارنته مع حكمته في التكوين .

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أي مَقراً تسكنون فيه وتستريحون على حسب عادتكم (و) جَعَل لكم (من جِلود الأنعام) من الإبل والبقر وأمثالهما وأدنى منهما (بيوتا) مغايرة لبيوتكم المعهودة في دار المقامة ، وهي بيوت الأمم الرحالة ، أو الذين يسكنون الجزر في البحار المعرضين للمد والجزر الموجبين للانتقال منها الى محل آخر حسب الأوضاع الجارية

فيها (تستخفّونها) أي تجدونها خفيفة الوزن (يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) أي للحمل يوم ارتحالكم وللحط يوم الإقامة (ومن اصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها) والضمائر للأنعام . الصوف للغنم ، والوبر للابل ، والشعر للمعز (أثاثا) أي متاعا للبيت كالفرش وغيرها (ومتاعا) أي شيئا يتمتع به ، ويحصل التمتع بوجوه كثيرة منها : واجبة كالستر والوقاية من الحر والبرد الواجبين ، ومنها سنة ، ومنها زينة وجمال ، ومنها ما هو عرضة للبيع والتصدير وسائر وجوه المتاع من النسج ... كل ذلك (إلى حين) معين عند الله فإن ما في الدنيا زائل .

(والله جعلَ لكم مما خلق) أي من غير صنع منكم (ظلالاً) أي أشياء تستظلون بها (من الجبال) والكهوف والأشجار ، وكالغمام في بعض الأوقات من الأيام (وجعل لكم من الجبال أكنانا) أي محلات للتستر من الأعداء ونزول البلاء كالأمراض المحوجة إلى الصافي من الهواء (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) وكذا البرد إلا أن الأول أهم ولذا قدم بالإختصاص بالذكر (وسرابيل) من الجوشن والدروع (تقيكم بأسكم) أي تحفظكم عن الجرح أو الموت في يوم حربكم (كذلك يتم نعمته عليكم) أي بهذا النوع من الإتمام للحوائج التي تنفعكم يتم الله تعالى إفاضة نعمه عليكم (لعلكم تسلمون) وتنقادون ظاهرا وباطناً لله تعالى . وكل هذه النعم المذكورة وأمثالها مخلوقة لله تعالى مباشرة ، أو موادها مخلوقة ، وألهم الله تعالى عباده الساعين في العلم والصناعة تركيبها وتطويرها إلى درجة الإنتفاع والإعتبار (فإن تولوا) أي أولئك الناس الناسون لنعم الله تعالى ، فلا يضر نسيانهم وتركهم شكرها إلا أنفسهم ولا يصل الضرر إليك (فإنما عليك البلاغ المبين) الواضح المفهوم . (يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها ، وأكثرهم الكافرون)

يعني أن الناس المتولين من نعم الله تعالى وشكرها يعرفون نعمة الله ؛ فإنها واضحة جلية ولا ينكرها إلاّ أولو الأذهان الكليلة والطبائع الغبية ، وأكثرهم من الكافرين وأقلهم من المؤمنين الغافلين .

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ، ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ(٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عنهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٨٥) وَإِذا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءهُمْ قالُوا : رَبَّنا هؤلاء شُرَكاؤنا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ : إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ(٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ(٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كانُوا يُفْسِدُونَ)(٨٨)

قوله تعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) الآية ... المراد باليوم يوم القيامة أي (و) اذكر (يوم نبعث) ونرسل (من كل أمة) وجماعة من الناس (شهيدا) يشهد لهم بالإيمان والطاعة إن كانوا من المؤمنين وبالكفر والعصيان ان كانوا من الكافرين ، وذلك الشهيد نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا منهم) بالإعتذار عن كفرهم (ولا هم يستعتبون) اي لا يطلب منهم أن يزيلوا عتبهم ، أي عَتَبَ ربهم وغضبه عليهم . وكأن هذه الجملة تفسير لماسبقها ، فإنهم اذا لم يؤذن لهم حتى يتكلموا لا يعتذرون عن ذنوبهم ولا يدفعون غضب ربهم عن أنفسهم (وإذا رأى الذين ظلموا) بالكفر والمعاصي (العذاب) أي العذاب الذي يستحقونه يوم القيامة (فلا يخفف عنهم) ذلك العذاب لأنه عذاب وارد بحكم صادر

من الله تعالى ، وإذا حكم الله بشيىء فلا مرد لحكمه (ولا هم ينظرون) أي يُمهلون • يعني إن العذاب إذا جاء أوانه تحقق ولم يتخلف بأي شيىء •

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) الذين كانوا يزعمونهم شفعاء (قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) أي نعبدهم ونطيعهم (فألقوا إليهم القول : إنكم لكاذبون) أي فأجابهم شركاؤهم وقالوا لهم : إنكم لا شبهة لكاذبون في دعوى أنكم تعبدوننا وتطيعوننا ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وأغراضكم الفاسدة ومطامعكم الدنيئة ، وإلا فإذا جاء الحق وأتاكم كتاب الله وبرهانه مع الرسول فلم كنتم تعاندونهم وتعادونهم ؟ (وألقوا) أي الشركاء (إلى الله يومئذ السلم) والإطاعة (وضل عنهم ماكانوا يفترون) لله سبحانه من الشركاء الجامدين •

(الذين كفروا بالله تعالى وصدوا عن سبيل الله) أي وأضافوا إلى كفرهم فسادا آخر وهو منعهم الناس عن سلوك سبيل الله أي دين الإسلام (زدناهم عذابا) في مقابلة صدهم للناس (فوق العذاب) أي عذاب كفرهم ، لأن كفرهم إفساد لأنفسهم ، وصدّهم إفساد لغيرهم (بما كانوا) يباشرونه من طرق القوة والحيلة وأنواع الدسائس الدنية لابعاد الناس عن إطاعة الله وهذا العمل الشنيع إفساد" ما فوقه إفساد كما قال تعالى : (بما كانوا يفسدون) أي ومازدناه على عذاب كفرهم حصل بسبب إفسادهم لغيرهم وتنفيرهم لهم عن دين رب العالمين •

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هَؤُلاء ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ)(٨٩)

وهذه الآية الكريمة عرض واستعراض مهول ومهيب ليوم القيامة وأحوال الأمم في ذلك اليوم كما يظهر منها . وحاصلها أنه تعالى يقول يا حبيبي اذكر يوم القيامة (يوم نبعث في كل أمة من الأمم شهيداً عليهم) وهو رسولهم المبعوث إليهم فيشهد على المؤمنين بإيمانهم وأعمالهم وعلى الكافرين بكفرهم ومعاصيهم وأحوالهم ، وذلك ليكون أقطع للمعذرة . ومعنى كونه (من أنفسهم) أنه منهم ويشهد على علم (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أي على أمتك ، يعني أنه كما بعثنا رسل الأمم السابقة شهداء عليهم بعثناك شهيدا على أمتك ، فلا تبقى أمة من الامم إلا ويشهد عليها شاهد من أزكى الشهداء وهو رسولها ، فلا يفوتنا عقيدة من العقائد ولا عمل من الاعمال إلا يتحقق بإثبات وبرهان (ونزلنا عليك الكتاب) القويم الهادي إلى الصراط المستقيم (تبيانا لكل شيء) من العقائد والقواعد بحيث ينص على بعض ، ويظهر في بعض ، ويؤيد ويفسر على حسب المقصود في بعض ، وقرر أموراً تدل على المراد في بعض وهي القياس والإستدلال من جانب من هو أهل لذلك، فإن الناس علىدرجات مختلفة منالإدراك والشعور والنور. أي حالكون الكتاب تبيانا له (وهدىً ورحمةً) له بشرط قبوله بصورة عامة (وبشرى للمسلمين) بصورة خاصة ، فإنهم هم المستبشرون به .

وما أحسَنَ هذه الآية الكريمة الجامعة للصفات الموجودة فيه ، وهي أنه يوضح طريق الحق للناس ويبين الأحكام الدينية الإعتقادية والعملية بطريق مسَلَّمٍ عند أهل العقل والعلم والمطالعة ، وذلك البيان بالنص أو بغيره بطريق من الطرق التي اعتادها العلماء الراسخون في معرفة الأمور الخفية بحيث لا تبقى عندهم مسألة من المسائل إلا وعليها دليل من الدلائل حتى يكون المتمسك بهذا الكتاب على بصيرة في سلوكه على الحق إلى أن يلقى ربّ العالمين .

وفي روح المعاني : والمراد من كل شيء على ما ذهب إليه جمع ما يتعلق بأمور الدين ، أي بيانا بليغا لكل شيىء يتعلق بذلك . ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ . وكذا ما أخبرت به هذه الآية من بعث الشهداء وبعثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فانتظام الآية بما قبلها ظاهر . والدليل على تقدير الوصف المخصص للشيىء المقام وأن بعث الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما هي لبيان الدين . ولذا أجيب عن السؤال عن الاهلة بما أجيب . وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وكون الكتاب تبيانا لذلك باعتبار أن فيه نصا على البعض ، وإحالة للبعض الآخر على السنة حيث أمر باتباع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل فيه (وما ينطق عن الهوى) وحثا على الإجماع في قوله سبحانه (ويتبع غير سبيل المؤمنين) الآية ... فإنها على ما روى عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وجماعة دليل الإجماع . وقد رضي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته باتباع أصحابه حيث قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ» وقد اجتهدوا وقاسوا ووطأوا طرق الإجتهاد، فكانت السنة والقياس والإجماع مستندة إلى بيان الكتاب ، وذهب بعضهم الى ما يقتضيه ظاهر الآية غير قائل بالتخصيص ، فقال : ما من شيىء من أمر الدين والدنيا إلا يمكن استخراجه من القرآن .

وقد بين فيه كل شيىء بيانا بليغا واعتبر في ذلك مراتب الناس في الفهم، فرب شيىء يكون بيانا بليغا لقوم ولا يكون كذلك لآخرين ، بل قد يكون بيانا لواحد ولا يكون بيانا لآخر ، فضلا عن كون البيان بليغا أو غير بليغ ، وليس هذا إلا لتفاوت قوى البصائر ، ونظير ذلك اختلاف مراتب الاحساس لتفاوت قوى الأبصار . وقيل : معنى كونه تبيانا أنه كذلك في نفسه وهو

لا يستدعي وجود مُبَيِّنٍ له فضلا عن تشارك الجميع في تحقق هذا الوصف بالنسبة إليهم بأن يفهموا حال كل شيىء منه على أتم وجه • ونظير ذلك الشمس ، فإنها منيرة في حد ذاتها وإن لم يكن هناك مستنير أو ناظر • ويغني عن هذا الإعتبار إعتبار أن المبالغة بحسب الكمية لا الكيفية ، ويؤيد القول بالظاهر أن الشيخ الأكبر قدس سره وغيره قد استخرجوا منه ما لا يحصى من الحوادث الكونية • وقد رأيت جدولا حرفيا منسوبا الى الشيخ كتب عليه أنه يعرف منه أحوال أهل المحشر ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل الجنة ، وآخر كتب عليه أنه يعرف منه حوادث أهل النار • وكل ذلك ـ على مايدعون ـ مستخرج من الكتاب الكريم • ومثلُ هذا الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ ، فإنهم قالوا : إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية ، وهو أيضا مستخرج من القرآن العظيم • إنتهى مع ترك غير المقصود منه •

﴿ إنَّ اللهَ يأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبى ، وَيَنهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرونَ(٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ماتَفْعَلونَ(٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً ، تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٩٢) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، ولكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يشاءُ ، وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٣) ولا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سبيلِ اللهِ ، ولَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٩٤)ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ الله ثَمَناً قليلاً ، إنَّما عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٩٥) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وما عِنْدَ اللهِ باقٍ ، ولَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(٩٦) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ)(٩٧)

قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى) قال ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ هذه الآية أجمعُ آيةٍ في القرآن للخير والشر ، وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون ــ رضي الله عنه ــ ، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين. ولعل إيرادها عقيب قوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) للتنبيه عليه .

والمراد بالعدل التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها ، ويندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة وهي القوة المتوسطة بين الجربزة والغباوة . وفضيلة القوة الشهوية البهيمية وهي العفة المتوسطة بين الفجور والجمود . وفضيلة القوة الغضبية السبعية وهي الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن . ويشمل العدل التوسط في الإعتقاد والأعمال والأكل والشرب واليقظة والمنام ، والعدل في الحكم بين الأنام ، وبين الأولاد في الرعاية والوئام ، وبين الزوجات في المقام والمنام ، وبين

الأصدقاء في الحب والإحترام ، وبين سائر الناس من الرعايا والحكام .. إلى غيرذلك.وعن سفيان بن عيينة أن العدل : إستواء السريرة والعلانية في العمل .

والمراد بالإحسان إحسان الأعمال والعبادة أي الإتيان بها على الوجه اللائق وهو إما بحسب الكيفية كما يشير إليه مارواه البخاري من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » أو بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل الجابرة لما في الواجبات من النقص ويجوز أن يراد بالإحسان الإحسان المتعدي بإلى أي الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم . فقد أخرج ابن النجار في تأريخه قال : مرّ علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه على قوم يتحدثون . فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا : نتذكر المروءة . فقال أوماكفاكم الله ـ عز وجل ـ ذاك في كتابه إذ يقول (إن الله يأمر بالعدل والاحسان) ؟ فالعدل الانصاف والاحسان التفضل ، فما الذي بقي بعد هذا . وأعلى مراتب الاحسان على هذا الإحسان إلى المسيىء ، وقد أمر به نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وروي عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم ـ عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وفسر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ العدل بالتوحيد . وفسر الإحسان بأداء الفرائض . والمراد بإيتاء ذي القربى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر . وهذا داخل في العدل أو الإحسان . وصرح به إهتماما بشأنه .

وقوله تعالى (وينهى عن الفحشاء) أي الإفراط في متابعة القوة الشهوية ، كالزنا مثلا . وفسرها ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ بالزنا . والمنكر : كل ماينكر على مباشره من الإفراط في إظهار القوة الغضبية وفسر بالشرك وبمباشرة ماتوعد عليه بالنار ، وبمخالفة السريرة للعلانية ، وبكل

ذنب لا يوجب الحد في الدنيا ، لكن يوجب العذاب في الآخرة . والبغي : الإستعلاء والإستيلاء على الناس والتجبر عليهم . وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التي هي حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوانية والغضبية. وفي تفسير الآية أمور مهمة إيجابية وسلبية هي الأساس للأحكام الإسلامية . ولكن الذي يظهر من ملاحظة استعمال الكلمات الواردة هنا في الكتاب والسنة والأدب العربي أن المراد بالعدل رعاية الإعتدال والإنصاف في الأحكام الواردة على الناس ، وبالإحسان العفو بالنسبة الى ما يخص الإنسان في ذاته فإنك إذا حكمت في قضية مربوطة بالغير لاحظت العدل ، أو مربوطة بنفسك مما يمكن لك فيه السماح لاحظت العفو والإحسان وصرف النظر عن حقك وبإيتاء ذوي القربى بذل المبرات الى الناس الاقرب فالاقرب . وأن المراد من الفحشاء المنهي عنه ما يتعلق بالشرف والأعراض سواء كان زنا أو مقدماتها . وبالمنكر كل ذنب لم ينشأ من الإستيلاء والسيطرة وبالبغي كل عدوان ناشىء عنهما . وقوله تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) أي يرشدكم وينبهكم بما يأمر به وينهى عنه سبحانه وتعالى أحسن تنبيه ، ابتغاء أن تتعظوا بذلك وتأخذوا طريقكم إلى الله رب العالمين .

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أي وأدوا واجب بيعة الاسلام اذا بايعتم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن الآية نزلت في بيعة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ . أو المراد به العموم في كل موثق مشروع جار بين شخصين أو طائفتين أو الرعايا وصاحب الأمر في الإسلام حتى يكون الناس في أمان واطمئنان قلب من المقابل في العهود والمعاملات الجارية بينهم ، فإن الأمة هي الأخلاق ، وأعلى صفاتها رعاية الامانة والصدق حضورا وغيابا . وماعدا ذلك يكون كذبا ونفاقا ولا يحصل منهما إلا العداء والشقاق المدمران للعالم. وقوله تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) نهي عن إبطال نفس

العهود المواقعة بينهم . والمعطوف عليه للوفاء بما تعاهدوا عليه ، والمعطوف لإدامته والبقاء عليه فإن الناس كانوا يعلنون نقض العهد في بعض الاحيان إذا زاد النفع في نقضه ، ولا يستمرون إلى تمام المدة . وقوله تعالى : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وعيد لهم على مخالفة الفقرتين . أي وقد جعلتم الله شاهداً وكفيلا على العهد ورعاية بنوده وإدامته فمخالفة شيىء منها حرام عليكم . وكذلك قوله : (إن الله يعلم ما تفعلون) أي من مخالفة البنود وعدم الإستمرار على العهود .

(ولا تكونوا) في نقضها (كالتي نقضت غزلها) أي مغزولها (من بعد قوة) أي من بعد غزلها وإحكامها (أنكاثا) جمع نِكث بكسر النون ، وهو ما ينكث فتله . والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه أيّاً كان . وقيل المراد امرأة معلومة وهي ريطة بنت سعد بن تيم القرشية ، فإنها كانت خرقاءَ تفعل ذلك في غزلها . وقوله : (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أي لا تكونوا متشبهين بامرأةٍ هذا شأنها متخذي أيمانكم وعهودكم مفسدة بينكم ، فإن من لا يراعي العهود لا يعتبرها كأشياء أساسية واجبة الرعاية ، وإنما يعتبرها كأمور خارجية غير مهمة يعتبرها تارة ويبطلها أخرى ، فيؤل ذلك العهد المنقوض إلى أساس فتنةٍ وفساد ومنشأ أحقاد وحزازات بينهم وقوله تعالى (أن تكونَ أمة هي أرْبى مِن أمة) أي بسبب أن تكون جماعة وهي الامة المعاهدة بالكسر أربى واقوى واكثر عدداً وعددا من الامة الاخرى المعاهد معها ، أي لكثرتكم وقوة المقابل لكم ، أو المراد أمة اخرى غير الذين عاهدتموه بأن تجدوا قوماً آخر أقوى من القوم الذين عاهدتموه فتنقضون عهدكم معهم وتعاهدون ذلك القوم الاقوى وذلك ينشأ من قلة المروءة والشهامة (إنما يبلوكم الله به) أي إنما يمتحنكم الله تعالى بنقض عهدكم ذلك (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أي ما كنتم تخالفون

من أحكام الدين ، أو ما تختلفون فيه في الدين ، فبعضكم يرجح الدوام على العهد وبعضكم يرجح نقضه (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) على ملة واحدة هي الإسلام ، أو أمة واحدة غير متعددة ، لا تحتاج إلى معاهدة بعضهم مع بعض (ولكن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) يختار لدينه من كان أهلا له ، ويترك من ليس أهلا له (ولتسئلن عما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه حسب ميزان الإستحقاق .

وقوله تعالى : (ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلاً بينكم) تصريح بالنهي المستأنف عما نهي عنه ضمن قيود نسبة أخرى. فيقول ناهيا متوعداً مُهدّداً : (ولا تتخذوا أيمانكم) وعهودكم (دخلا بينكم) أي دغلا ومكراً وخديعة (فتزل قدم) لكم عن طريق إطاعة الله تعالى (بعد ثبوتها) عليه بإبرام العهد (وتذوقوا السوء) يوم القيامة (بما صددتم) أي بسبب صدكم وإعراضكم عن سلوك سبيل الله وهو إبرام مبايعة الإسلام (ولكم عذاب عظيم) عند حلول وقت العقاب (ولا تشتروا بعهد الله) أي بدل بيعة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ثمنا قليلا) بالنسبة إلى ثواب الآخرة (إنما عند الله) من الثواب (هو خير لكم) من ذلك الثمن القليل (إن كنتم تعلمون) ذلك. والآية نزلت في قوم بمكة أسلموا وزين لهم الشيطان نقض الإسلام لما رأوه من غلبة قريش ، ولكن الله تعالى ثبتهم على الإيمان واستمروا عليه (ماعندكم) أي متاع الدنيا (ينفد) وينقضي (وما عند الله) من الثواب (باق) لا نفادَ له (ولنجزين الذين صبروا) على أذى المشركين واستمروا على الايمان (أجرهم) وثوابهم (بأحسن ما كانوا يعملون) واحسنه الصبر ، فإن جزاءه عند الله ، ولا يعلم بمقداره أحد غيره ، يعني أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى أعمال الصابرين وما آتاهم من الشدة والمحنة ، ويختار أحسنها

عنده ، ويجعل كلها في درجة ذلك الأحسن ويجزي أولئك الصابرين بذلك المستوى العالي عنده فيختار لهم أحسن النعيم •

(من عمل صالحا وهو مؤمن) بالله ورسوله ويعمل ذلك لإطاعة الله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) والمراد بالحياة الطيبة إما الحياة في الدنيا وطيبها مقارنتها لانشراح الصدر واطمئنان القلب وسروره بجزائه يوم لقائه تعالى ، فإن هذه الحياة توجب نسيان المصائب والمعائب والمعاتب ولو كان في أسوأ أهوال الدنيا • وإما الحياة في الآخرة في الجنة ، إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاء • روي عن الحسن أنه ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) والحمد لله رب العالمين •

(فإذا قَرأتَ القُرآن فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ، إنَّهُ لَيْس لهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إنَّما سُلْطَانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ والَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشرِكُونَ (١٠٠) وَإذا بَدَّلْنا آيةً مكَانَ آيَةٍ ـ واللهُ أعْلَمُ بما يُنَزِّلُ ـ قالُوا: إنَّما أنْتَ مُفْتَرٍ • بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذينَ آمَنُوا وهُدىً وبُشرى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ولَقَدْ نَعْلَمُ أنَّهُمْ يَقُولُون إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذابٌ

أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

قوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله) جملة مستأنفة وَعودٌ من حكاية ما مضى على الرسل من أذى الكافرين ، وبيانِ هول البعث والحساب والميزان وشهادة الأنبياء والمرسلين ، وبيان أن الكتاب المنزل على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه دواء كل داء وحصانة كل سقم وشقاء ، وأن محتواه الإيجابي أمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، والسلبي نهي عن الفحشاء والمنكر والبغي الى التمسك بالقرآن الكريم وأحكامه وأخلاقه ، ويؤديه في تلاوته بأنك إذا قرأت القرآن على الكافرين لدعوتهم الى الدين فاستعذ بالله (من الشيطان الرجيم) كي يبتعد عن الناس الذين تقرأه عليهم ، وإذا أردت تلاوة القرآن عادةً فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم أي فاسأله عز وجل أن يعيذك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله كي لا يوسوسك في قراءة القرآن ويشغل قلبك .

وكيفية الإستعاذة عند الجمهور من القراء وغيرهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتضافر الروايات على أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يستعيذ كذلك .

(إنه) أي الشيطان (ليس له سلطان) واستيلاء (على الذين آمنوا) بالله وبرسوله (وعلى ربهم يتوكلون) أي يعتمدون عليه تعالى لا على غيره (إنما سلطانه على الذين يتولونه) أي يجعلونه واليا عليهم فيحيونه ويجيبونه ويطيعونه (والذين هم به مشركون) أي وعلى الذين هم بسبب إغواء الشيطان لهم يشركون بالله (وإذا بدلنا آية مكان آية) أي إذا نسخنا آية لفظا ومعنى بآية أخرى حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (قالوا) أي الكفار (إنما أنت) يا محمد (مفتر) أي متقول على الله تعالى تأمر بشيىء ثم

تتندم منه فتنهى عنه (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون شيئا أصلا • أو لا يعلمون أن في النسخ والتبديل مصلحة • (قل نزلـه) أي القـرآن الناسخ (روح القدس) أي جبريل ـ عليه السلام ـ وأطلق ذلك عليه لانه روح له علاقة خاصة بالذات المقدس جل جلاله ، أو روح ذو قدس ونظافـة ونزاهة وبراءة من الأدناس النفسانية (من ربك) أي من أمر ربك أو مـن جانب ربك متلبسا (بالحق) أي الحكمة المطابقة للواقع (ليثبت الذين آمنوا) على الإيمان والأعمال الصالحة (وهدى وبشـرى للمسلمين) أي وليكون ذلك الحكم المنزل هداية وبشارة للمسلمين •

(ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يُعلمه بشر) وعنوا بذلك البشر غلاما لعامر بن الحضرمي وكان قد قرأ التوراة والإنجيل (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) أي لغة ذلك الرجل الذي ينسبون تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه أعجمي ، أي لغة ركيكة مبهمة لا يستفاد منها المقصود بوجـه واضح (وهذا لسان عربي مبين) وهذا القرآن الذي جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسان عربي ذو بيان وإيضاح وفصاحة في المفردات وبلاغة في المركبات علاوة على ما يحتويه من الأخبار الماضية والمستقبلة ، وعلوم العالم الغيبي ، ومواقف البعث والحشر والنشر وأسرار الآخرة • وفي نقل هـذا القول إشارة إلى أن أولئك الكافرين لا عقل لهم ولا خبرة يميزون بهـا بين الكلام العالي والسافل ، فقولهم ذلك عند منزلتهم السافلة الفاسدة • (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي لا يصدّقون بأنها نازلة من عند الله تعالى (لا يهديهم الله) إلى طريق إدراك الحقائق ، ويبقيهم في الجهالة والضلالـة لجهلهم وغيهم وعَيهم وعتوهم وعنادهم ، بل يجعلهم على طريـق الإشتباه لقلة إنتباههم (ولهم في الآخرة عذاب أليم) على ما نسبوه من الأمور الغير السليمة إلى ذلك النبي الزكي الصالح السليم (إنما يفتري الكـذب) على الله ويتكلم بكلام من عند نفسه أو من انسان آخر من هو فاسد" مائن ٍ على

سلوك الفاسدين وهم المفترون (الذين لا يؤمنون بآيات الله) لا النبي الزكي والرسول الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته (وأولئك) المفترون على الله (هم الكاذبون) •

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إيمانِهِ ، إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٦) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيا عَلَى الآخِرَةِ ، وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ(١٠٧) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وأولئِكَ هُمُ الغافِلُونَ(١٠٨) لاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرونَ(١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ، ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ ربَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)(١١١)

قوله تعالى : (من كفر بالله مِن بَعد إيمانه) مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله فعليهم غضب ، والجملة مستأنفة لبيان حال من كفر بآيات الله تعالى بعدما آمن بها • وقوله (إلاّ مَن أكرِهَ وَقلبُهُ مُطمئن بالإيمان) إستثناء من الموصول وصلته ، أي فليس عليه ذنب لعذره بالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر ، ويجتمع ذلك التلفظ مع وجود الايمان في القلب ، وخبر المبتدأ مقدر أي فهو معذب معدود من الكافرين (ولكن من شرح بالكفر صدراً) أي إعتقده وطابَ به نفسا (فعليهم غَضَبٌ من الله) وربطَ الغضب بقوله من

الله للتهويل والإشعار بعظمة الغضب (ولهم عذاب عظيم) إذ لا أعظم من جرمه • روي أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الإرتداد ، فأبوا فربطوا سُمية بينَ بعيرين ووجئت بحربة في قُبُلِها ، وقالوا : إنما اَسْلَمتِ للرجال • فقتلوها وقتلوا ياسراً ، وهما أوّل قتيلين في الإسلام وأما عمار فأطاعهم بلسانه وأعطاهم ما أكرَهُوه عليه • فقيل : يا رسول الله إن عماراً كَفَرَ • فقال رسول الله : كلاّ إن عماراً مليىء" إيماناً مِن قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه • فأتى عمار" رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبكي فجعلَ رسولُ الله ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ يمسح عينيه ، وقال : مالَكَ ؟ إن عادُوا فَعُدْ لَهم بما قلت •

(ذلك) الغضب الوارد عليهم (بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أي اختاروها وقدّموها على رعاية دار الآخرة ، وهو العبادة والطاعة (وَأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أي الذين ثبت كفرهم في علم الله تعالى بسوء أفعالهم في الدنيا ومعاندتهم لأوامر رب العالمين (أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يُصْغُون لقول الحق ولا يُبْصرون الآيات البينات المرشدة الى اطاعة الرسل (وأولئك هم الغافلون) أي الكاملون في الغفلة (لاجَرَمَ أنهم في الآخرة هم الخاسرون) حيث ضيعوا ما عندهم من رأس مال الأعمار وصرفوها فيما لم يفدهم إلا النار (ثم إن ربك للذين هاجروا) الى دار الإسلام وهم أمثال عمار (من بعد ما فُتنوا) أي عذبوا على الإرتداد (ثم جاهدوا) الكفار (إن ربك من بعدها لغفور) لسيآتهم التي فعلوها قبل ذلك (رحيم) ينعم عليهم مجازاةً لما صنعوا • (يوم) ظرف منصوب برحيم (تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) أي تدافع عنها وتسعى في استخلاصها من العذاب بالإعتذار إلى الله تعالى

(وَتُوَفى كل نفسٍ ما عملت وهم لا يظلمون) بزيادة العذاب على ما يستحقونه •

(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطمئِنَّةً يَأتِيهَا رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعُمِ اللهِ ، فَأَذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوع والخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنهُمْ فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمُ العَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ(١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً واشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(١١٤)

قوله تعالى (وضرب الله مَثلاً قرية) والمعنى جعلها الله تعالى مثلا لأهل مكة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فَأبْطَرَتْهُمُ النعمةُ ففعلوا ما فعلوا فجوزوا بما جُوزُوا ه.ودخل فيهم أهلُ مكة دخولا أولياً (كانت آمنة) أي ذات أَمْنٍ لا يأتي عليها مايوجب الخوفَ (يأتيها رزقها) أقواتها وما يتمتعون به (رَغداً) واسعا (مِن كل مكان) أي من جميع نواحيها (فكفرت بأنعم الله) وأنكرت أنها من الله بل نسبوها الى قوة سواعدهم وكثرة مساعيهم (فَأذاقَها اللهُ لباسَ الجُوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنعون) في اللباس إستعارة مصرحة حيث شبه ما غشي القومَ مِن أثر الخوف والجوع وضررهما الشامل لهم ، باللباس فاستعير له اسمه إستعارة مصرحة تحقيقية لأن ما غشي القرية أو القوم من أثرهما أمر محقق محسوس كما يحتمل أن يكون فيه إستعارة مكنية بأن يشبه لباس الجوع والخوف بالطعم المرّ البشع بجامع الإستكراه • وقد طوى ذكر المشبه به فتكون هناك إستعارة مكنية ، وقرينة الأولى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف ، وأما قرينة المكنية فهي الاذاقة الموهومة المستعارة للإذاقة الحقيقية ادّعاءً

إستعارة أصلية ، ثم يشتق من الإذاقة الفعل المذكور المستعار للفعل المطوي المعبر عنه بقوله أذاقها الله المراد به إذاقة واقعية كاستعارة الأظفار الوهمية لأظفار السبع المحقق ادعاءً في قولهم « أظفار المنية نشبت بفلان » وقوله تعالى بما كانوا يصنعون متعلق بقوله تعالى فأذاقها الله لباس الجوع والخوف أي أن تلك الإذاقة تنشأ عما صنعوه من كفران نعمة الله تعالى ولقد جاءهم رسول منهم أي من عشيرتهم فكذبوه في رسالته من الله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون ومتلبسون بالظلم حين ذاك ، (فكلوا مما رزقكم الله) أيها الناس الباقون من الجماعة الظالمة (حلالاً طيبا) وذروا ما تفترونه مما تحرمونه بهواكم (واشكروا نعمة الله) واعترفوا بأنها من الله المنعم في الحقيقة واحمدوه عليها (إن كنتم اياه تعبدون) أي إن صح ما تزعمونه من أن عبادتكم لأي شيىء عبادة لله رب العالمين .

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ : هذا حَلَالٌ وَهذا حَرَامٌ ، لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(١١٩)

قوله تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) تعليل لحل ما أمرهم الله بأكله مما رزقهم يعني لم يحرم عليكم ربكم إلا ماذكر هنا فكلوا مما سواه • ثم الحصر إضافي أي إنما حرم الله تعالى أكل هذه الأشياء دون ماحرمتموه أنتم من البحائر والسوائب ونحوها • فلا تنافي الآية الكريمة تحريم أشياء غير ماذكر فيها كذوات الأنياب من السباع وذوات الأظفار من الطيور والحشرات السامة والحيوانات المستقرة ونحوها (فمن اضطر) أي دعته الضرورة إلى تناول شيىء من تلك المحرمات حالكونه (غير باغ) على مضطر آخر (ولاعاد) متجاوز مقدار الضرورة وسد الرمق (فإن الله غفور رحيم) لا يؤاخذه على ذلك • (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) مفعول به للقول و (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه، وما في قوله تعالى (لما تصف ألسنتكم) موصولة واقعة على البهائم، وعائد الموصول محذوف وبيان الوصف محذوف مستفاد من شهرة توصيفهم لها بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام• يعني ولا تقولوا للبهائم التي تصفها ألسنتكم بوصف من الأوصاف المذكورة الكلام الكذب المخالف للواقع، وهو قولكم (هذا حلال وهذا حرام) وقوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) اللام فيه للعاقبة والصيرورة ، أي وعاقبة قولكم ذلك الإفتراء على الله تعالى بأن تلك البهائم محرمة (إن الذين يفترون على الله الكذب) ويتعمدون الكذب عليه (لا يفلحون) أي لا يفوزون بمطلوب له شأن ووزن في الآخرة (متاع) أي لأن المنفعة التي قصدوها وراء ذلك متاع (قليل) يتمتعون به في الدنيا (ولهم في الآخرة عذاب أليم • وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أي قبل نزول هذه الآية ، وذلك ما في سورة الأنعام من قوله تعالى (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر) الآية (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك

كما ذكره الباري بقوله (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم ثم إن ربك للذين عملوا السوء) من كفر أو معصية أو افتراء على الله تعالى (بجهالة) أي بسبب جهالة تدعوهم إلى تلك الضلالة (ثم تابوا من بعد ذلك) فآمنوا بعد الكفر وصدّقوا بعدَ الإفتراء وأنابوا إلى الله وتابوا إليه (وأصلحوا) أعمالهم (إن ربك من بعدها) أي من بعد عمل السوء والتوبة (لغفور) لذنوبهم و (رحيم) بهم يقبل توبتهم • فإنه يحب التوابين •

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ، وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ ، وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(١٢٤)

قوله تعالى : (إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا) إرشاد للرسول النبي الأمي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالثبات على العزم والقوة والتخلق بأخلاق أبيه ابراهيم في نشره التوحيد في العالم بدون مبالاة بمزاعم المشركين ، وأنانياتهم ، والصبر على أذاهم ، وبيان لبطلان مزاعم المشركين من العرب أنهم على دين ابراهيم بأن ابراهيم كان عابدا لله وحده مائلا عن الباطل الى الحق وموحدا مخلصا ولم يكن من المشركين ، فمزاعم أولئك الكفار باطلة عاطلة فاسدة ، وإيذان بأن نسبة اليهود أنفسهم إلى دين ابراهيم ، أو أن ابراهيم كان على دينهم لا أصل لها ولا أساس للتباين بين آداب اليهود وآداب سيدنا إبراهيم فإنه ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن

كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين • والأمة بضم الهمزة الرجل الجامع للخير والإمام ومن هو على الحق ومخالف لسائر الأديان ، وهذه المعاني تطلق على سيدنا إبراهيم بالحقيقة • وجاءت بمعنى الجماعة الكثيرة من الناس ، ويجوز اطلاقها بهذا المعنى عليه أيضا تجوزا لاستجماعه كمالات لا توجد إلا متفرقة في أمة جمة • والقانت : المطيع • والحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق (ولم يك من المشركين) في أمر من أمور دينهم الإعتقادي أو العملي (شاكِراً لأنعُمِهِ) صفة ثالثة لأمة والجار والمجرور متعلق بشاكرا (اجتباه) ربه واختاره لحمل أعباء الرسالة (وهديه إلى صراط مستقيم) سالم من الخلل موصل إلى الله عز وجل (وآتيناه في الدنيا حَسَنَة) وهي صفة الرسالة ودعوة الناس إلى توحيد الله وقد كان أهلها ووفى بحقها (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) لحمل أعباء الرسالة الواصلين إلى الدرجات العالية المناسبة لمقام المرسلين •

(ثم أوحينا إليك) يا رسولي الكريم المولود من نسل إسماعيل بن إبراهيم (أن اتبع ملة ابراهيم) وعقيدته الراسخة الرفيعة الوحيدة وهي توحيد الباري سبحانه (حنيفا وما كان من المشركين) الذين جَعَلوا مع الله إلهاً آخر • وهذا الأصل أمر مشترك بين جميع الأنبياء والمرسلين لقوله : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) • وهذا الإتباع هو الموافقة في أصل الدين (إنما جعل السبت) يعني إنما فرض تعظيمه والتخلي للعبادة فيه (على الذين اختلفوا فيه) أي على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم فيه حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود ، وليس السبت من شرائع إبراهيم ــ عليه السلام ــ كما زعمت اليهود (وان ربك ليحكم بينهم) أي بين المختلفين (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي

يقضي بينهم بالمجازاة على اختلافهم على نبيهم ومخالفتهم له في ذلك حيث لم يقبلوا منه يوم الجمعة حتى بدله بيوم السبت وفرض عليهم العبادة وحرّم عليهم الصيد فيه مع أنهم خالفوه في ذلك أيضا حتى غضب الله تعالى عليهم وجعلهم من الممقوتين •

(ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(١٢٥) وإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ(١٢٦) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، ولاتَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(١٢٧) إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون)(١٢٨)

قوله تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة) معناه مادام أنت من الرسل الهداة الى الطريق القويم وعلى عقيدة جدك العظيم ابراهيم فادع الى سبيل ربك أي الاسلام الذي هو سبيل معين للوصول الى رضاه بالحكمة أي بالحجة القاطعة المحكمة المزيلة للشبه عن قلب المدعويين، وهذا إذا كانوا في مستوى فهمها وكانوا من أهل الاستفادة من البراهين القطعية والحجج العقلية (والموعظة الحسنة) وهي الخطابات المُقْنِعَة للغير النافعة للناس على مجاري عرفهم وعاداتهم أي بأن تكون مقدمات الدليل مقبولة عندهم (وجادلهم بالتي هي أحسن) أي وجادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة من الرفق واللين، وعدم جرح عاطفة المقابل ، والتنازل له بحسب المقام ، والاستماع لكلامه ، واستعمال المقدمات المشهورة ••• وهذا النوع من طرق الدعوة هو المطلوب منك للوفاء بتبليغ الرسالة ، وليس عليك الهداية وإخراج الناس من الضلالة

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذي أمرك بدعوة الناس اليه (وهو أعلم بالمهتدين) إليه فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أحكم الحاكمين •

(وإن عاقبتم) أي وإن أردتم معاقبة الناس الذين يعاندون الحق وقاتلوكم وقتلوا منكم (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي مثل ما فعلوا بكم (ولئن صبرتم) عن المعاقبة بالمثل (لهو خير للصابرين) أي فالصبر خير من المعاقبة والإنتصار بها للصابرين الذين يبتغون وجه الله (واصبر) على ما أصابك من جانبهم من أنواع الآلام (وما صبرك) مصحوبا بالشيىء وملابسا به (إلا بالله) فإنه هو المفيض لقوة الصبر على القلوب عند تفاقم الكروب (ولا تحزن) عليهم أي على الكافرين الماكرين (ولا تك في ضيق) صدر (مما يمكرون) فإن نفحة من نفحات القدس تزيل هموما واردة من أعداء الجن والإنس (إن الله مع الذين اتقوا) معية الرأفة وإفاضة الرحمة وشرح الصدر وتقوية الهمة (والذين هم محسنون) في الطاعة ويخلصون لله حتى تحصل لهم وحدة الشهود ولا يرون الخير والشر إلا من الله تعالى •

الجزء الخامس عشر

سورة الاسراء ، مكية ، وهي مائة واحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(١)

قوله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) كلمة (سبحان) مصدر سبح تسبيحا بمعنى نزه تنزيها • وذلك الوزن مسموع في المصادر كالغفران • وقيل إنه اسم مصدر لأن قياس مصدر سبح التسبيح، وقد يستعمل علما للتسبيح بمعنى التنزيه فيقطع عن الاضافة لأن الاعلام لا تضاف • ومع أنه موضوع للتنزيه فلا ينافيه إرادة التعجب • والمقصود : ما أبعد اللهَ الذي له قدرة الإسراء بعبده ليلا عن جميع النقائص فله الكمال المطلق والتصرف المطلق في الممكنات كلها ما خفي منها وما انجلى ، وما سفل منها وما علا ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده المخصوص به إلا حكمة وصوابا • وأسرى وسرى بمعنى واحد وهو سير الليل أو أكثره فليست همزة أسرى للتعدية ، وقيل : الهمزة للتعدية

ومفعول محذوف ، والتقدير : أسرى ملائكته بعبده أي سبحان الذي جعل ملائكته ساريا بعبده . وليلاً منصوب على الظرف ، وفائدة ذكره مع وضوح أن السرى لا يكون إلا في الليل الدلالة بتنكيره على تقليل مدة الإسراء (من المسجد الحرام) بعينه (الى المسجد الاقصى) وهو بيت المقدس ؛ لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، أو لنظافته وبعده عن الأقذار (الذي باركنا حوله) لكونه مهبط الوحي من لدن موسى ـ عليه السلام ـ إلى زمان الرسول ـ عليه السلام ـ ، ومتعبد الأنبياء ومحفوفا بالأنهار والأشجار والبساتين وإنما أسرى بعبده قال تعالى ملتفتا من الغيبة الى التكلم (لنريه من آياتنا) كذهابه في برهة من الليل الواحد مسافة مسيرة شهر تقريبا ، ومشاهدة بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء له ـ صلى الله عليه وسلم ـ هناك ، وسائر ما شاهده من ملكوت العالم ... (إنه هو السميع) لأقوال الكافرين و (البصير) لأفعالهم ويعلم أن حبيبه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأذى منهم فجازاه بما ينسيه تلك الأذى وما فوقها أو أنه هو السميع لأقوال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبصير بأفعاله ، ويعلم أنه عبد مستحق للإعلاء والترقية واراءة عجائب الأمور مما يطمئن به وتسكن به نفسه المقدسة ، وتتوجه به إلى الحي القيوم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض .

وهذا الإسراء ، وإن كان فيه وفي وقته وكيفيته أقوال كثيرة ؛ إلا أن الراجح منها أنه كان بالروح والجسد في ليلة الإثنين السابع والعشرين من رجب ، عندما كان الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجر إسماعيل ـ عليه السلام ـ عند الكعبة الشريفة لما روي أنه ـ عليه السلام ـ قال : « بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق ... » الحديث الشريف . والظاهر أن المراد بالمسجد الحرام

المسجد المشهور بين الخاص والعام بعينه ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك في الحجر منه . فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بينا أنا في الحجر ... » وفي رواية في الحطيم « بين النائم واليقظان ، إذ أتاني آت فشق مابين هذه الى هذه ، فاستخرج قلبي فغسله ؛ ثم أعيد ، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار ، أبيض يقال له : (البراق) فحُمِلْتُ عليه » قال الراوي : وهو البراقُ يضع خطوه عند أقصى طرفه .

وفي رواية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في بيت عمته فاختة بنت عبدالمطلب المكناة بأم هانىء الصحابية . فقد أخرج النسائي عن ابن عباس وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير من حديثها أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان نائما في بيتها بعد صلاة العشاء فأُسري به ورجع من ليلته وقص القصة عليها . وقال : « مُثّلَ لي النبيون فصليتُ بهم » ثم خرج إلى المسجد وأخبر به قريشا ... الحديث وهذا هو الإسراء .

وفي الحديث وسعى رجالٌ إلى أبي بكر وأخبروه بالقصة ، فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : إني أُصدقه على أبعد من ذلك، أُصدقه خبر السماء غدوةً أو روحةً ! فسمي الصديق .

وكان في القوم من يعرف بيتَ المقدس فاستنعتوه إياه ، فجلي له فطفِق ينظر اليه وينعته لهم ، فقالوا أما النعتُ فقد أصاب فيه . فقالوا : أخبرنا عن عيرنا فهي اهم إلينا ، هل لقيتَ منها شيئا ؟ قال : نعم مررت بعير بني فلان ، وهي بالروحاء ، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه ، وفي رحالهم قدحٌ من ماء ، فعطشتُ فأخذته وشربته ووضعته كما كان . فاسألوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا ؟ قالوا : هذه آية . قال : ومررت بعير بني

فلان ، وفلانٌ راكبان قعودا ، فنفر بعيرهما مني ، فانكسر فاسألوهما عن ذلك . قالوا : هذه آية أخرى . ثم سألوه عن العدة والأحمال والهبات ، فمثلت له العير فأخبرهم عن كل ذلك . وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، وفيها فلان وفلانٌ يقدمها جملٌ أورق عليه غرارتان مخيطتان ، قالوا : وهذه آية أخرى . فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية ، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه ، إذ قال قائل هذه الشمس قد طلعت وقال آخر : هذه العير قد أقبلت يقدمها بعير أورق فيها فلانٌ وفلانٌ كما قال . فلم يؤمنوا وقالوا : هذا سحر مبين ! قاتلهم الله أنّى يؤفكون .

وأما السنة التي وقع فيها الإسراء ففيها أقوال منها ما ذكره النووي في الروضة أنه كان بعد النبوة بعشر سنين وثلاثة أشهر . ونقل عنه بعض المحققين أنه كان في السنة الثانية عشرة من المبعث . وعن ابن حزم دعوى الاجماع على ذلك .

وأما معراجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففي صحيح البخاري أول كتاب الصلاة ما نصه : عن انس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كان أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ يحدث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ ، فَفَرَجَ صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانا فأفرغه في صدري ، ثم أطْبَقَه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء الدنيا ، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء : افتح . قال : مَن هذا ؟ قال جبريل . قال : هل معك احدٌ ؟ قال : نعم مَعِي محمد ـ صلى الله عليه وسلم فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح عَلَونا السماء الدنيا ، فإذا رَجَلٌ قاعد على يمينه أسْوِدة ، وعلى يساره أسْودة ، إذا نظر قبل

يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . حتى عرج بي إلى السماء الثانية ، فقال لخازنها : افتح . فقال له خازنها مثل ما قال الأول . فَفَتَحَ » قال أنس : فذكر أنه وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف منازلهم . غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس : فلما مر جبريل ـ عليه السلام ـ بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بادريس قال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا إدريس . ثم مررت بموسى فقال : مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت : من هذا ؟ قال : هذا موسى . ثم مررت بعيسى، فقال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح، قلت: من هذا قال: هذا عيسى . ثم مررت بإبراهيم . فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت: من هذا؟ قال: إبراهيم ـ عليه السلام ـ . وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصاري يقولان : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام . قال أنس ابن مالك : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاةً فرجعت بذلك حتى مررت على موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : ما فرض الله لك على أمتك ؟ قلت : فرض خمسين صلاة . قال : فارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا تُطيق ذلك . فراجعت ، فوضع شطرها ، فرجعت إلى موسى قلت : وَضَعَ شطرها . فقال : راجعْ ربك فإن أمتك لا تطيق . فراجعت فوَضع شطرها . فرجعت إليه ، فقال : ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك .

فراجعته ، فقال : هي خمس ، وهي خمسون لا يبدلُ القول لدي • فرجعت إلى موسى فقال : ارجع الى ربك ، قلت استحييتُ مِنْ ربي • ثم انطلق بي حتى انتهى بي الى سدرة المنتهى وغشيها ألوان ما أدري ما هي • ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حَبائِلُ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك ، إنتهى •

وفي فتح الباري : وقال بعض من اعتنى بالبخاري : الحبائل جمع حبالة ، وحبالة جمع حبل على غير القياس ، والمرادُ أنّ فيها عقودا وقلائد من اللؤلؤ إنتهى •

ثم إن الإسراء والمعراج بالروح والجسد معجزتان من أهم المعجزات وأقصاها في الإدراك ، ومع ذلك ، فمادامتا من الممكنات ، والله تعالى قادر على كل ممكن ، فلا محالة يجب على كل مؤمن الإيمان بهما • أما الإسراء فهو منصوص الكتاب بقوله تعالى (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا) فإن العبد اسم للروح والجسد ، والسري بالليل ظاهر في حركته بهما وإلا فلا غرابة في الإسراء بالمنام ولا مجال للتعجب عنه بقول تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ، ولما كانت المعجزات من خوارق العادة فلا فرق بين سري شخص في بعض ليل المسافة البعيدة ولا صعوده من الأرض إلى ما فوق السماوات ، وبين قلب العصا من الخشب حية تسعى ، وجعل نهر النيل يبسا تمر عليه القوافل ، وبين إحياء عيسى للأموات وإبراء الأكمه والأبرص ، وكل من له إيمان بالقرآن الكريم يعلم ذلك كله ، ويعلم ان وصول عرش بلقيس من سبأ الى القدس خارق للعادة في طرفة العين ، ومن لا إيمان له بالقرآن يعلم سرعة حركة المجموعة الشمسية حول الشمس ، وحركة بعض تلك الكواكب على نفسها دورة في كل يوم وليلة • وكل ذلك واقع محسوس بالإرصاد ونسبتها مع جذبها ودفعها ودورانها المستمر الى قوة

لا شعورية خارجة عن أفق الشعور السليم ، فلم تبق إلا نسبتها الى الفاعل القادر المختار ونسبة قدرته الى كل ممكن من الممكنات على حد سواء .

وفي كون الإسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعروجه منه الى السماء إرشاد الى الاهتمام بمهمتين :

الأولى : أن المسجد الاقصى كان مجمعا للانبياء والمرسلين ومهبطا لوحى رب العالمين ، والتبرك بآثارهم من شعار أهل الذكر والرسالة من رب العالمين .

والثانية : تعلق علم الله سبحانه وتعالى بأن الكفار بالدوام حاقدون على المسلمين وهم بالمرصاد للإستيلاء على تلك البقعة المقدسة وجعلها مركزا لبث سمومهم الى آسيا وأفريقيا الموطنين للمسلمين ، وعلى ذلك أثاروا فتنة الحروب الصليبية هناك ، وبعد إخراجهم منها أعادوا الكرة على المسلمين ، بإرجاع اليهود اليها واسكانهم فيها حتى يتسنى لهم تطبيق ما يريدون من الوقيعة بالمسلمين ، وفي ذلك عظة للامة المسلمة وعبرة وإرشاد لهم لليقظة والانتباه الواسع للدفاع عنها واستعادتها إلى حظيرة الإسلام بأي ثمن كان . ومن أهم أسباب ذلك الوحدة والإعتصام بحبل الله المتين والرجوع الى إرشاد القرآن المبين ، فإن المسلمين قد ذاقوا أمر الأمرين في صيانتها حتى صانوها ، ولم يرجع الأجانب إليها إلا بعد اضعاف قوى المسلمين وتفريق قواهم المتحدة وجعلهم على أصناف شتى . ولا تعود الكرة إلى المسلمين إلا بالتسلح بالإيمان والوحدة والاعتصام بالدين .

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً(٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً)(٣)

قوله تعالى : (وآتينا موسى الكتاب) الواو عاطفة لهذه الجملة على جملة (سبحان الذي أسرى بعبده) والجامع بينهما أن كلا منهما يدل على مفخرة عظيمة لذات عظيم ؛ فإن اعطاء التوراة لموسى ـ عليه السلام ـ ، وكلامه تعالى معه بدون واسطة بمنزلة معراج سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه منح موسى التكليم كما دعا عبده محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسرى به وعرج به إلى ما شاء الله من المقام العالي وكلمه وناجاه وفرض عليه وعلى أمته الفرائض ، وجعلها عماد دينه وأساس تقواه • أو اعطينا موسى التوراة (وجعلناه) أي الكتاب أو موسى (هدى لبني إسرائيل) ثم فسر جعله ذلك هدى لهم بقوله : (ألا تتخذوا من دوني وكيلا) أي ربّاً تفوضون إليه أموركم غيري وقوله : (ذرية من حملنا معَ نوح) منصوب على النداء ، أو على الإختصاص • أي يا من مننا عليهم بحملهم في سفينة النجاة مع نوح حتى يسلموا من الغرق ويبقوا لنشر التوحيد في العالم (إنه) أي نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر لمولاه على ما أولاه من نعمة الرسالة وإخراج الناس من الجهالة والضلالة إلى الهداية والجلالة • عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ قال : كان نوح ـ عليه السلام ـ إذا لبس ثوباً ، أو طعم طعاما حمد الله تعالى فسمي عبدا شكورا • وعن عبدالله بن احمد قال شكره ـ عليه السلام ـ أنه كان يسمي اذا اكل ، ويحمد الله تعالى اذا فرغ •

(وَقَضَيْنَا إلى بَنِي إِسْرائِيل في الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً(٤) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أولِيهما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ، وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً(٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُم

الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ ، وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً(٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنْفُسِكُم ، وَإِنْ أَسَأْتُم فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ، وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً(٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ، وَجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً)(٨)

قوله تعالى: : (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) أي أعلمنا بني إسرائيل في التوراة (لتفسدن في الأرض) جواب قسم محذوف ، وحذفه متعلق القضاء للعلم به ، والتقدير وقضينا الى بني اسرائيل بفسادهم وعلوهم وقلنا : والله لتفسدن إلخ ويكون هذا تأكيدا لتعلق القضاء • ويجوز جعله جواب (قضينا) بإجراء القضاء مجرى القسم فيجاب بما يجاب به القسم و (مرتين) منصوب على أنه مصدر لقوله (لتفسدن) من غير لفظه والمراد إفسادين • (ولتعلنّ علواً كبيراً) أي لتستكبرن عن طاعة الله أو لَتَغْلبنّ على الناس بالظلم والعدوان (فإذا جاءَ وعدُ أوليهما) أي أولى مرتي الإفساد (بَعَثْنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسُوا خلالَ الديار) أي تردّدوا وسط ديار بني اسرائيل لطلب الناس ليقتلوهم (وكان وعداً مفعولاً) محتم التحقق في علمنا • وكان ذلك أيام الملك يواقيم الإسرائيلى سنة خمسمائة وسبع وثمانين قبل ميلاد عيسى ــ عليه السلام ــ في الدور الثالث من الأدوار الخمسة لبني اسرائيل ، وكان سببه أنه صار بينه وبين بختنصر البابلي حرب فانتصر على الاسرائيليين ، ولكنه بعد بُرهة من الزمان إستعاد الملك يواقيم قوة وثار على بختنصر وصارت هذه الثورة سبباً لعودة

بختنصر على ديار الإسرائيليين ودخوله (أورشليم) القدس الحالي وتخريبها وقاد أكثر أهلها أسرى (ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّةَ عليهم) أي الغلبة والإنتصارَ على الأعداء البابليين (وأمددْناكم بأموال وَبنين) كثيرةً بعدما نُهبت أموالكم وقتل اولادكم (وجعلناكم أكثرَ نفيراً) والنفير من ينفرُ معَ الرجل من عشيرته وأهل بيته للحرب (إن أحسنتم) أعمالكم إزاء اللهِ وعباده (أحسنتم لأنفسكم) أي لنفعها أي إن أحسنتم عادت منفعةُ الإحسان إليكم (وإن أسأتم فلها) أي فالإساءة تعود لأنفسكم (فإذا جاء وعدُ) المرّة (الآخِرَة) من مرتي افسادكم (ليسوءوا وجوهكم) أي بعثنا عليكم عباداً آخرين ليقهروكم وتظهر آثارُ قهرهم وعتوهم في وجوهكم (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة) في عهد البابليين (وليتبروا ما علَوا تتبيرا) أي وليدمروا ما غلبوا عليه تدميرا .

وذلك كان في الدور الرابع من الأدوار الخمسة لبني إسرائيل وفي سنة مائة وخمس وثلاثين بعد الميلاد ، وذلك أنه في سنة اثنتين وأربعين قبل الميلاد استعاد (أنتيفون) ابن أريستوبولَ الإسرائيلي حرية البلاد واستقلالها، ولكن لم تأتِ سنة (٣٧) قبل الميلاد حتى ساعدَ الرومانيين الملكُ هيرود الإسرائيلي على تدويخ مملكة يهودا فاستولى عليها وقتل (انتيفون) و (هيركانَ) الذي هو آخر ولدٍ من ذرية (ماكابيه) وتحت حكم (هيرودانتياس) حكم على عيسى ـ عليه السلام ـ بالإعدام . ولكن الله تعالى عصمه كما يقول تعالى : (وَما قتلوهُ وما صلبوه ولكن شبه لهم) فلما عسف الرومانيون باليهود وساموهم سُوءَ العذاب ثاروا فاضطر الرومانيون لأخذ (أورشليم) سنة سبعين بعدَ الميلاد وأمرَ ملكهم (تيتوسُ) بإحراق معبدهم وذبح معظم أهلها وبيعِ من بقي منهم ، فلم يمض غيرُ قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ، ولكن ثورة أخرى

جَعَلَتِ الإمبراطورَ الروماني (ادرْيان) سنة مائة وخمس وثلاثين ميلادية يأمرُ بهدم المدينة من أساسها وذبح خمسمائة الف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم في جميع أرجاء المملكة • ولكن هذا التشريد الهائل لم يزد اليهود إلا تمسكاً بدينهم وتقاليدهم ومن هذا التأريخ بدأ الدور الخامس الإسرائيلي إلى أن جاءَ دورُ وعدِ بلفور المشئوم واعطاء اليهود أرض فلسطين وإسكانهم هناك بحماية خاصة وقوة هائلة من الاوربيين كما نراها بعيوننا وإن في ذلك لعبرةً لأولى الأبصار •

وإنما فَسرتُ وَعدَ أولاهما بوعدِ استيلاء بختنصر البابلي على أورشليم وَوَعْد الاخرى باستيلاء (أدريان) الروماني عليها ، مع أنه كان لملك بابل بختنصر قبل ذلك استيلاء على أورشليم وقادَ الملك (يواقيم) و (سَدْياس) إلى أرض بابل أسيريْنِ ، وكان لملك آشور (سالمانازار) قبل بختنصر إستيلاء على مدينة السامِرَة وقادَ أهل مملكة إسرائيل إلى بلاده ، لأن الحركة الهائلة المُخيفة التي وردت على بني إسرائيل في عهد بختنصر وغارته الأخيرة في عهد الملك (ادَرْيان) الروماني لم يكن لها نظير في تأريخهم ، ولذلك نُفَسر الوعدين بما ذكرنا •

وما يتخيل من ظاهر الآية الكريمة أن الداخلين في البلاد الاسرائيلية أخيراً هم أعيان الداخلين فيها أولا ليس بمراد ، وأن الاعداء وان كانوا من غير صنف الاولين فهم اعداء والعدوّ عدو كيفما كان وأينما جاء •

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعدَ البعث الثاني ان تبتم وانزجرتم عن المعاصي (وإن عدتم) للافساد في البلاد على عادتكم السابقة (عُدْنا) لمعاقبتكم على سنتنا • وكثيرٌ من المفسرين قالوا : إن الشرط تحقق في تكذيبهم للنبي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقصدهم قتله فعاد

الله عليهم بقتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير وضرب الجزية على الباقين ، ولكن المحققين يقولون : إن العود لم يتحقق إلا في تأريخ ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ميلادية عند اعتراف الغربيين بدولة اليهود وإسكانها في فلسطين ، لأن العود إلى الدولة والسلطة لم تتحقق إلا في ذلك الوقت . لان ظاهر قوله تعالى (وإن عدتم) العود إلى الدولة والسلطة الرسمية والبغي على العباد والإفساد في البلاد . والعود بهذا المعنى لا يتحقق إلا بما تقرر لهم من السيادة الرسمية . ويؤيد هذا المعنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر او الشجر : يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فاقتله ، إلا الغرقد ، فإنه من شجر اليهود » . والغرقد شجر معروف له شوك ينبت بأرض بيت المقدس ، وهناك مقتل اليهود . وأول بعض شجر الغرقد ببعض الكفار الموالين لليهود ، أي يكون الكفار على عدائهم إلا بعضا مخصوصا منهم ، فهو لا يرغب في قتالهم . ومما يستأنس على هذا المعنى بقوله تعالى (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي سجنا حاصرا لهم محيطا بهم فإنه يدل على اقتراب تلك الأيام من أيام آخر الزمان الذي تحقق أهم علاماته من قلة العلم والإيمان والأمان وسائر أخلاق المؤمنين .

(إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً(١٠) وَيَدْعُ الإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً(١١) وجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ،

فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً)(١٢)

قوله : (إن هذا القرآن يهدي) جملة مستأنفة لبيان نعمة أخرى أحْرى من نعمة الإسراء والمعراج وهي القرآن المعجز بألفاظه ومبانيه ، الهادي بأنواره ومعانيه • فيقول : (إن هذا القرآن) الذي آتيناكه (يهدي) الجن والإنس كافة بلا فرق بين عنصر وعنصر إلى الحق أي الطريقة (التي هي أقوم) الطرق الموصلة الى سعادة الدارين (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) بعد الإيمان بالله ورسوله المؤيد بالآيات البينات (أن لهم أجراً كبيرا) لا يدرك مداه الشامل لما ذكرناه (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما) وقوله (وإن الذين) عطف على (أن لهم أجرا كبيرا) والمعنى : أنه يبشر المؤمنين ببشارتين : ثوابهم ، وعقاب أعدائهم • أو عطف على يبشر بإضمار يخبر •

قوله تعالى : (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) بيان لحال الإنسان وضعفه عن مقاومة الشدائد والبلايا كما هو ضعيف عن شكر النعم والعطايا فقال : (ويدع الإنسان) على نفسه بالشر وهو الموت والفناء عند تفاقم البلاء (دعاءه بالخير) أي دعاء كدعائه بالخير وطلب الأولاد والأموال والجاه (وكان الإنسان عجولا) يسارع الى طلب كل ما يخطر بباله • روي أنه ـ عليه السلام ـ دفع أسيرا إلى سَوْدَةَ بنت زمعة أم المؤمنين فترحمت عليه فأرْخَتْ كِتافه ، فهرب ، فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم ، فقال ـ عليه السلام ـ : « اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له » فنزلت •

وقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) شروع في بيان بعض الأدلة على القدرة القاهرة الباهرة التي كما تدل على وجود الباري ووحدته تدل على أن معجزة الإسراء والمعراج وأمثالهما ليس بأعظم من خلق الشمس والقمر ودوران القمر حول الارض ودوران الارض حول الشمس بطول الأزمان بدون فتور ، حتى يستنتج منهما العقلاء وذوات الأرواح والاحساس أوقات منامها ومقامها وعملها وراحتها فقال : (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أي جعلناهما آيتين دالتين على قدرة الباري وحكمته في خلق النهار للعمل والتعب ، والليل للراحة والإستراحة (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) أي فجعلنا الليل مظلما والنهار مضيئا أو جعلنا لهما آيتين هما الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) وهي القمر وجعلناها في نفسها مطموسة لا نور لها إلا ما يستفيد من آية النهار أعني الشمس (وجعلنا آية النهار) وهي الشمس (مبصرة) أي مضيئة أو مبصرة للناس من أبصره اي جعله مُبصراً وذلك (لتبتغوا فضلا من ربكم) وهو كسب العلم والرزق في النهار وكسب الراحة للحواس والأعضاء بمنام الليل (ولتعلموا عدد السنين) التي يتعلق بها غرض الإنسان لمعرفة الحوادث التأريخية وأسبابها ، وجعلها درسا نافعا ودفترا واسعا لاكتساب المعلومات القيمة ومعرفة طريق الحياة والحذر من البينات(و) لتعلموا (الحساب) لأوقات العمل والراحة التي يتعلق بها أعمال البشر في التعليم والتدريب والتهذيب وما يحتاج إليه البشر من استخدام الأجراء والعمال وأوقات العبادات وأداء المناسك وغيرها (وكل شيىء) مما تفتقرون إليه للمعاش والمعاد وطرق تطور العباد ، وإصلاح الأنفس وتعمير البلاد ، ومكافحة أهل الفساد بإعداد العدة وتوفير الزاد (فصلناه) في هذا القرآن وفي سائر الكتب المنزلة على الرسل الهداة إلى السبل (تفصيلا) مناسبا لتطور أهل الزمان .

(وَكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقيهُ مَنْشُوراً(١٣) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً(١٤) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً(١٥) وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً(١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ؟ وَكَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(١٧)

قوله تعالى (وكل إنسان) منصوب على الإشتغال (ألزمناه طائره) أي عمله الصادر منه بكسبه واختياره • وسمي طائرا بالمجاز كأنه طار إليه من الغيب (في عنقه) أي ثابتة في رقبته وذمته ، هذا في الدنيا (ونخرج له يوم القيامة كتابا) هي صحيفة عمله (يلقيه) الانسان المقيد به (منشورا) غير مطوي أي واضحا غير مخفي : (إقرأ كتابك) أي ويقال له من جانب ملائكة الحساب : اقرأ كتابك واعلم ما فيه (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا • من اهتدى) بهدايته وعمل بما يرضاه ربه (فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل) عن طريق عنايته ولم يهتد بهدايته (فإنما يضل عليها) أي فإنما وبال ضلاله على نفسه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى (وما كنامعذبين حتى نبعث رسولاً) أي وما كنا معذبين أحدا من العقلاء البالغين حتى نبعث إليه بالذات أو بالواسطة رسولا يهديه إلى الحق ويبين منهج عقيدته وعمله وطموحه وأمله • وهذه الآية صريحة في أن الانسان العائش في الفترة وانقطاع الوحي السماوي واندراس الشريعة السابقة ،

ليس مكلفا في الدنيا ولا معاقبا في الآخرة، وبما أنه ليس هناك واسطة بين الجنة والنار فهم في الجنة لكن على درجة تناسب حالهم ، وكما أن نص الكتاب هذا فأصول أهل العلم تدل دلالة قاطعة على أن الغافل لا يكلف ، وأما إلزامه غرامة ما بتلف فمن باب خطاب الوضع ، ومن هنا يظهر بوضوح ما أفاده المحققون كالغزالي ــ رضي الله عنه ــ أن الناس المتوطنين في الجزر البعيدة عن المعمورة ، وسكان الوديان العميقة السحيقة ، وأهل قمم الجبال الشاهقة ممن لم تصلهم البعثة ليسوا مكلفين ماداموا كذلك. وأما اليوم الذي نرى ما يجري ، ونسمع ما يقال ، ويذاع فيه فلم يبق مجال لأحد من العقلاء أن يعتذر بعدم وصول البعثة إليه . نعم إن الناس الضعاف في العلم والمقدرة الواقعين تحت سيطرة دعاة السوء عذابهم أقل من عذاب المسيطرين عليهم المحرفين لهم عن طريق الحق والصواب .

ولما بين الباري سبحانه أنه جرت سنته على ترتب الحساب والعذاب على البعث وتمرد الناس العابثين اللاهين اللاعبين بأصول الدين عقب الآية السابقة بقوله الكريم (وإذا أردنا أن نهلك قرية) أي نهلك أهلها وندمر ساحة العمارات كأن لم يكن عليها قصر (أمرنا مترفيها) بالطاعة وكف النفس عن الغفلة والغرور والفسق والفجور ، وبشكر الخالق على النعمة والدثور (ففسقوا فيها) وخرجوا عن طاعة باريها وتمردوا وعاندوا الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر (فحق عليها القول) أي كلمة العذاب (فدمرناها تدميرا) بحيث لم يجدوا للدفاع وليا ولا نصيرا .

(وكم أهلكنا من القرون) تميز لكم ، وهي خبرية . أي وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية (من بعد نوح ؟) ــ عليه السلام ــ كعاد ، وثمود ، وشعب نمرود ، وأهل مدين المردود ، وفراعنة مصر ذوى الكفر والجحود ، وأصحاب الأخدود النار ذات الوقود ... والقرن مائة سنة على

الراجح • ولم يكن إهلاكها منا إلا لتمردها وطغيانها وبغيها وعدوانها على بني الإنسان (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) محيطا بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وكفى بربك على العقاب قديرا •

(مَنْ كانَ يُرِيدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ، ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَيها مَذْمُوماً مدحوراً(١٨) وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها ، وَهُوَ مُؤمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً(١٩) كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وهؤلاء مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً(٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١) لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً)(٢٢)

قوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) يعني انا أرسلنا الرسل وأوضحنا السبل ، وبينا على لسان المبلغ الصادق أن الله خلق العباد للرشاد ، لا للبغي والعناد والغي والسفه والفساد ، وأن الدنيا دار المتاع المؤقت وأن الآخرة دار الجزاء المؤبد • وبعد ذلك (من كان يريد العاجلة) أي متاع الدنيا الحاضرة عنده (عجلنا له فيها) أي في الدنيا العاجلة (ما نشاء) من المتاع (لمن نريد) أي لمن نريد تعجيله له منهم • وإلا فليس كل ما يريده أهل العاجلة يأخذه فما كل ما يتمنى المرء يدركه (ثم) بعد وفاته وبعثه وحسابه (جعلنا له) مكان ما عجلنا له (جهنم يصلاها مذموما) عند الله (مدحورا) أي مطرودا من رحمته تعالى (ومن أراد الآخرة) أي الدار الآخرة (وسعى لها سعيها) أي السعي اللائق لنيلها (وهو) مع ذلك السعي (مؤمن) بالله ورسوله إيمانا صحيحاً لا يشوبه ما يقدح فيه (فأولئك

كان سعيهم مشكورا) مقبولا مثابا عليه هناك • (كُلاً نمدّ ، هؤلاء وهؤلاء) أي ونمد كلا من الفريقين هؤلاء المريدين للعاجلة وهؤلاء المريدين للآخرة (من عطاء ربك) أي من معطاه الواسع الذي لا منتهى له (وما كان عطاء ربك محظورا) أي ممنوعا عمن يريده ، بل هو واصل إلى كل من أراده له ربه •

(أنظر) أيها الناظر المتبصر المتفكر (كيف فضلنا بعضهم على بعض) في الدنيا (وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا) أي أكبر من درجات الدنيا وتفضيلها ، لأن التفاوت فيها بالجنة ودَرَجاتها العالية ومثوبة الله ، وبزيادة على ذلك من اللقاء هناك ، وما النسبة بين من يراه مسرورا ومن يُحْرَم منه مقهورا • وفي بعض الآثار أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن بَيْن أعلى أهل الجنة وأسفلهم درجة كالنجم يرى في مشارق الأرض ومغاربها • وقد أرضى الله تعالى الجميعَ فما يغبط أحدٌ أَحَداً • وصح ان الله تعالى اعد لعباده الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشر • (لا تجعل مع الله إلها آخر) الخطاب مع الرسول والمراد به أمته (فتقعد) أي فتمكث في أسوإ حال (مذموما) عند الله (ومخذولا) حائراً تائها متفكرا •

(وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما ، فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ، وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً(٢٣) وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً(٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ ، إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلأَوَّابِينَ

غَفُوراً(٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً(٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً)(٢٨)

قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) من هذه الآية إلى آخر آية الثماني والثلاثين بيان لصفات وأعمال هامة من شعار الإنسان الكامل والعبد الفاضل بحيث إذا حاز عبد تلك الصفات اعتبر متميزا بأحسن الصفات ومتوسما بأعلى السمات ، منها ما يتعلق بالإعتقاد ، ومنها ما يتعلق بغيره ، وهو إما متعلق بأقرب الإنسان إلى الإنسان وأحقهم بالرعاية أعني الوالدين . أو بمن يليه من الأقارب وغيرهم . ومنها ما هو نهي عن اقتراف الرذائل وما يتعلق بها من الحقوق الثابتة بينه وبين غيره ، ومنها مايتعلق برذائل نفسية شخصية ، ويختمها بما بدأ به أولا . فيقول سبحانه وتعالى : (وقضى ربك) أي وأمر أمراً مقطوعا به بأن لا تعبدوا إلا إياه أي خصصوا عبادتكم به تعالى (وبالوالدين إحسانا) أي وبأن تحسنوا إليهما إحسانا . وقوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) كلمة إما فيه مركبة من إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد . ولذلك صح إلحاق نون التأكيد بالفعل بعدها . وقوله (عندك) بمعنى في كنفك ورعايتك . وقوله (الكبر) مفعول به و (أحدهما) فاعل يبلغن ، والجملة مع مابعدها بيان لجملة (وبالوالدين إحسانا) باعتبار بعض الصور ويعلم حال سائر الصور بالأولى. وحاصله فإن بلغ أحد الوالدين أو كلاهما حد الكبر وضعف القوى مطلقا ، ولانَتْ قلوبهما بحيث لا تتحمل أي عنفٍ (فلا تَقل لهما) أو لأحدهما

في حال من الأحوال المزعجة لك (أفّ) ولا تتضجر مما يستقذر منهما ، ولا تستثقل من مؤنتهما أو مؤنة أحدهما شيئا (ولا تنهرهما) أي ولا تزجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ (وقل لهما) بدل التأفيف والنّهر (قولا كريما) محترما لا خشونة ولا سوء أدب فيه .

ولما نهى الله سبحانه وتعالى عن التأفيف والنهر لهما نهيا تحريميا علم أنّ ما فوقهما من الاقوال والافعال الغير المناسبة لهما حرام بالطريق الأولى . وذلك المعنى اما مستفاد من القياس الجليّ ، أو من العرْف ، أو بطريق المجاز . (واخفض لهما) أي للوالدين (جناح الذل) أي تذلل وتواضع لهما ففي الذل إستعارة مكنية حيث شبه الذل بطائر يطير في الهواء وينحط ويتنزل من علو ، وذكر الجناح قرينة لها ، وفيها إستعارة تخييلية . أو في الجناح إستعارة مصرحة حيث شبه العطف ولين القلب بالجناح وإضافته إلى الذل قرينة ، وذكر الخفض ترشيح لمناسبته للمشبه به . وقوله (من الرحمة) أي من فرط رحمتك عليهما . وتنبه حتى لا يظن الوالدان أو أحدهما فيك تعنتا ويرَيا أن خفض الجناح منك نوع من التأثر وتضجر القلب فيزداد الّمهمّا النفسيّ من ذلك (وقل رب ارحمهما) أي وادع الله سبحانه أن يرحمهما برحمة خالدة (كما ربّياني صغيرا) أي كما ترحما عليّ عندما كنتُ صغيراً لا أدبّر نفسي وأتيا بما احتجْتُ إليه ، وترَجيا مع ذلك دوامي وبقائي في الدنيا .

روي أن رجلا قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن أبَويّ بلغا من الكبر بحيث أنّي ألي منهما ما وَليا مني في الصغر، فهل قضيتهما ؟ قال: « لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد فوتَهما » وقوله تعالى (ربكم أعلم بما في نفوسكم) تأديب وتنبيه للأولاد على تصفية النفس من كل ما يخالف الإخلاص فان العمل بدون اخلاص ليس

له نتيجة إلا الإفلاس • فقال ربكم أعلم بما في نفوسكم من قصد البرّ إليهما وفاءً بحقهما وأداء وامتثالاً لأمر الله تعالى أولا (إِنْ تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) أي إن تكونوا صالحين وقاصدين للصلاح تكونوا أوّابين رَجّاعين إلى الله ، وعند ذلك يغفرُ الله تعالى لكم فإنه كان للأوابين غفورا •

ولما أمر الله تعالى عبده المخلص بإخلاص العبادة له وتخصيصه بالطاعة والتذلل وتوحيده ، ثم أمره بالإحسان إلى الوالدين ، وهما أحق الناس بالرعاية ، أمره بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم وقال : (وآت ذا القربى) أي صاحب خصلة القرابة من العصبات وذوي الفروض وذوات الأرحام (حقه) من الصلة وحسن المعاشرة في الحضور ، وحفظ الغيب في الغيبة ، والمساعدة بما يمكن عند الكرب • وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ : حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم (والمسكين وابن السبيل) أي وآتهما حقهما وهو الزكاة إذا كان الأمر للوجوب ، وحقهما من زيادة المساعدة اذا كان الامر للندب ، فإن رعاية المساكين وأبناء السبيل صدقة تطوع (ولا تبذر تبذيرا) أي ولا تصرف المال فيما لا ينبغي فأعطِهِمْ مقدار الكفاية ،ولا تنفق مالك فيما لا يحتاج إليه ، ولا في المعاصي ولا للسمعة ولا للرياء • (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)أي كانوا أمثالهم في الشرارة (وكان الشيطان لربه كفورا) أي مبالغا في الكفر والتعنت والعناد وبذلك خرج عن طريق الرشاد ولعن إلى أبد الآباد (وإما تُعْرِضَنّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربك ترجوها) أي وإن أعرضت عن المذكورين لفقدان المال وانتظار حصوله في المستقبل (فقل لهم قولا ميسورا) أي فقل لهم في طلب السماح منهم قولا لينا يرتضونه ولا يتأذون به حتى إذا حصل المجال آتيتهم بقدر الحال •

(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ ملوما مَحْسُوراً(٢٩) اِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ اِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً(٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ اِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَاِيّاكُمْ ، اِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً(٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنا اِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبِيلاً)(٣٢)

قوله تعالى (ولا تجعل يدكَ مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ••• الآية في الآية الكريمة تمثيلان بليغان لمنع الإنسان الشحيح من الشح والمبذر من التبذير زجراً لهما عن الصفتين الرذيلتين ودعوة لهما الى التوسط بينهما، لأن خير الامور أوسطها• عن ابن عمر ـ رضي‌الله عنهما ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الإقتصاد نصف المعيشة » وفي رواية عن انس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » ويستفاد ضمن الآية تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الموجود وحاجة الإنسان إليه وعدم صرفه في قضاء الحوائج بوجود اليد والقوة لصاحبها وربطها بالعنق بحيث لا يقدر على تحريكها ودفع أي أذى من صاحب وجلب أي خير اليه • كما أنه يستفاد تشبيه الهيئة الحاصلة من المال الكثير وإفاضته على الناس المحتاجين وغير المحتاجين وصرفها المناسب وغير المناسب بإنسان له يدان مبسوطتان ممتدتان يمنة ويسرة بحيث لا تتحركان لمنع الأذى وعمل مفيد له ، فكأن الإنسان ما له يد ، أو له يدان لا تعملان ولا تأتيان بنفع لصاحبهما وقوله تعالى : (فتقعد ملوما محسورا) متفرع عن المتعاطفين أي فتصير لذينك الأمرين ملوما مذموما عند الله وعند عقلاء الناس بالبخل

واللؤم والإسراف وإتلاف المال وسوء التصرف نادما متحسرا ، أو منقطعا عن الناس لا يميل إليك أحد ولا يأتيك من أحد مَدَد" .

وقوله تعالى (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل لقوله السابق (وإما تعرضن عنهم) الآية وللنهيين الواقعين قبلها . يعني إن أعرضت عن الانفاق على الناس أولا وإن بخلت على الناس في صرف المال ، أو بسطْتَ اليدين على الكل ، فإن ذلك لا يؤثر في تغيير ما قسمه الله تعالى بين الناس من المعيشة ، فلا تجعل نفسك عاصية عن إطاعة أوامر قدسك (إنه كان بعباده خبيرا) عالما بسرائرهم بصيرا عالما بظواهرهم ، فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم بل يخفى على كل أحد سواه (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي فقر وقلةٍ في الأرزاق ، فالمراد بالأولاد البنات وبالقتل وَأدهن في الحفرات (نحن نرزقهم وإياكم) أي نحن نرزقهم لا أنتم ونحن نرزقكم أيضا وأنتم آباؤهم لا انتم ترزقون أنفسكم (إن قتلهم كان خِطأً) في حد ذاته لأنه إبادة نفس معصومة بدون موجبات معلومة ، فهذا التعليل كاف في منع الآباء عن قتل الأولاد ، وإنما العلة الأولى لردع النفوس المخطئة المتوهمة عما توهمته من تحمل أعباء النفقات .

(ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مقدماته كالنظر بشهوة ، والمسّ ، والغمز ، والخلوة ، والكلام الفاسد لهن ، واستمالة قلوبهن ... فضلا عن مباشرة نفس الإيلاج المحرم (إنه) أي الزنا (كان) في جميع الملل ولم يزل (فاحشة) يستنكرها الطبع السليم (وساء) سبيل الزنا (سبيلا) لقضاء الشهوات الجنسية لأن صاحبها إذا تعوده استمر عليه وذلك موجب لجلب الفتن والمنازعات والويلات وخراب العائلات وعدم استقرار النفوس بمن يصاحبه من الازواج والزوجات ، وطبيعة المرء متحاشية عن قبول تلويث الفراش بالعمل الفاسد ، وحتى الحيوانات والطيور فكيف بالإنسان الشهم

الجسور الغيور ! علاوة على كبر اثمها في الدين . فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ... » وجاء في روايات « إنه إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان » ولذلك عد من الكبائر وشرع عليه حد الجلد لغير المحصنين ، والرجم بالحجارة لهما ، وكفى بذلك عارا وبوارا .

(وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً(٣٣) وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً(٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٣٥) وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً(٣٦) وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً(٣٧) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً(٣٨) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)(٣٩)

قوله تعالى : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) يعني حرم الله قتلها (إلا بالحق) أي إلا بسبب من الأسباب التي توجب قتلها ، بأن قَتَلَتْ نفسا معصومة فقُتِلت قصاصا ، أو كان رجلا مُحصناً وزنى ، أو امرأة

محصنة وزنت ، أو ارتد عن دين الإسلام ، وفسر الحق بما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيّب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وأما قتل الصائل على الانسان فلاعتباره في حكم القاتل في الجملة ، وقتل تارك الصلاة لاعتباره من المرتدين ، وقتل اللائط لاعتباره زانيا . والتفصيل في المطولات . (ومن قتل مظلوما) أي بغير حق يوجب قتله (فقد جعلنا لوليه) أي لمن يلي أمره وارثا أو سلطانا إذا لم يوجد الولي (سلطانا) أي تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : القصاص ، أو الدية . وقد تتعين الدية كما في قتل الخطأ (فلا يُسرف) أي الولي (في القتل) أي فلا يتجاوز الحد المشروع بأن يقتل اثنين بواحد ، أو يقتل القاتل بطريق يؤذي إيذاء زائدا على العادة كأن قتل شخص بالسيف الحاد فيقتل القاتل بالسكين الكالّ ، أو بأن يأتي بالمثلة كقطع الأنف والأذن وغيرهما (إنه) أي الولي (كان منصورا) من الله حيث أحل له القصاصَ وأخذَ الدية . فلا يجوز أن يجعل نفسه مكسورا بارتكاب ما لا يحل في الدين .

(ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن) أي إلا بالخصلة التي هي أحسن الخصال وهي صيانته وتنميته (حتى يبلغ أشدهُ) أي حتى يبلغ أوانَ قوته في العقل وهو وقت البلوغ رشيدا ، وعند ذلك لا يجوز التصرف في ماله إلا بإذنه وظاهر إطلاق الآية الكريمة النهي عن التعرض له قليلا أو كثيرا ، فالمطلق يبقى على إطلاقه ويجب على المسلمين التورع عن إضاعة أموال اليتامى بأي وجه كان . نعم يجوز لإخوة اليتيم إذا كانوا في دار واحدة ولهم أموال مشتركة وزراعات وبهائم التصرف في ذلك المال بحيث

لا يتضرر مال اليتيم ، وذلك بتخويل القاضي عند وجوده أو أهل الخبرة عند فقده أو إهماله لذلك الأمر أحد الإخوة في بيع حصته مع ماله إذا كان فيه منفعة حتى يتسنى له إدارة شؤن اليتيم كسوة وتربية وتعليما . (وأوفوا بالعهد) أي بما عاهدتم الله عليه من أحكام الدين إيجابا وسلبا ، وبما عاهدتم عليه غيركم سواء" كان بالأحلاف المشروعة أو بالمعاملات والعقود الشرعية أو النذور الصحيحة (إن العهد كان مسؤلا) أي مسؤلا عنه . وفيه إستعارة بالكناية حيث شبه العهد برجل رشيد إلتزم أمرا ، وذكر مسؤلا قرينة (وأوفوا الكيل) أتموه ولا تخسروه (إذا كلتم) للمشترين (وزنوا) المواد الموزونة عادة في المعاملات (بالقسطاس المستقيم) أي بالميزان المعتدل صغيرا كان أو كبيرا (ذلك) المذكور من إيفاء الكيل والوزن بالميزان المعتدل (خير) مما يختاره الناس ، ويعدونه خيرا لأنفسهم في المعاملات لأن المذكور خير تشريعي وما كان مختارا عند الناس خير جعلي (وأحسن تأويلا) أي أحسن عاقبة لما يترتب عليه من الثواب (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي ولا تتبع ما ليس لك به علم فيما يطلب فيه العلم من المعتقدات والشهادات ، ولا تشهد بالزور ولا تقذف أحدا بدون العلم بعمله السيىء ، ولا تقل سمعت من فلان أو رأيت فلانا فيما لم تسمعه ولم تره ، ولا تنسب إلى أحد كفراً أو كبيرة بدون علمك به (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) أي يسأل كل تلك الأجهزة عما نسب إليه ، فيسأل السمع : هل سمعت ؟ والبصر هل رأيت ؟ والفؤاد هل علمت ؟ أو يسأل أصحابها عن العلم بسببها (ولا تمش في الأرض مرحا) أي فخرا وكبرا (إنك لن تخرق الأرض) إذا وطئتها بالقوة (ولن تبلغ الجبال طولا) اذا رفعت قامتك تكبرا (كل ذلك) المذكور في جملة الأوامر والنواهي (كان سيئه) أي السيىء منها (عند ربك) الناهي

عنه (مكروها) غير محبوب وغير مرضي وإن كان مرادا له تعالى إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن • وليس بين الإرادة والكراهة تضاد حتى يمتنع إجتماعهما في محل لأنهما أعم وأخص من وجه مادة اجتماعهما اولئك الناس الآتون بتلك المنهيات ومادة افتراق الارادة عن الكراهة ارادة الباري لإيمان المؤمن فانه مراد غير مكروه ومادة افتراق المكروه عن الارادة كراهة كفر المؤمن فانه مكروه وليس بمراد لانتفائه • (ذلك) المذكور المتقدم في التكاليف (مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أي من الشرائع التي هي مشتملة على الإتقان والخير والمناسبة مع سعادة المكلفين ، وأهمها هو الابعاد عن الاشراك الذي هو شرك الهلاك المؤبد فاذكر ربك (ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما) من جهة نفسك اللوامة على ما فعلت من موجبات الندامة (مدحورا)مبعدا من رحمته الواسعة • والخطاب ، وإن كان مع الحبيب ، فإنه يراد به غيره من البعيد والقريب •

(أَفَأَصْفَيكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلائِكَةِ إِنَاثاً ؟! إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَولاً عَظِيماً(٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَما يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورا(٤١) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ـ كَما يَقُولُونَ ـ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً(٤٢) سُبْحانَهُ وَتَعالى عمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً(٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً)(٤٤)

قوله تعالى : (أفأصفيكم ربكم بالبنين) الهمزة للإستفهام الإنكاري ، والخطاب مع المشركين الذين قالوا الملائكة بنات الله •فيقول : أيها الجهلة

المحتارون في وادي الضلال أفلا تتفكرون في أن خالق العالم ليس ممن يحتاج الى النسل لحفظ نوع الأصل فانه أصل فرد صمد ليس مثله أحد ، ولو فرض فارض بالتقدير إختياره لنسل فكيف اختاركم بأشرف صنف منه وخص نفسه بصنف لا تختارونه لأنفسكم ؟! (واتخذ منَ الملائكة إناثا ؟!) وهذا خلاف ما عليه عقولكم (إنكم لتقولون قولا عظيما) ثقيلا على السماوات والارض قبولـه (ولقد صرّفنا في هذا القرآنِ) كررنا في مواضع منه إنكارَ نسبةِ النسلِ إليه مطلقا ، لأنه الغني المطلق الموصوف بالكمال المطلق (ليذكروا) أي ليتفكروا في الحقائق ويختاروا لأنفسهم الإعتقاد الصحيح اللائق (وما يزيدهم) تصريفنا ذلك (الا نفورا) عن الحق الى الباطل وذلك عادة كل إنسانٍ عار عن العقل جاهل .

وبعد أن بينت لهم إستغناءه تعالى عن الاولاد بين لهم استحالة وجودِ الشريك له تعالى ، فانه الواجب الوجود ، القادر المعبود الذي يفعل ما يريد ولا مجال لوجود الشريك له . و (قل) لهم : (لو كان معه آلهة ـ كما يقولون ـ) أيها المشركون لكان بينهم وبينه مناسبة ومراسلة (وإذا لابتغوا) أي أولئك الآلهة (إلى ذي العرش) المجيد الفعال لما يريد (سبيلاً . سبحانه وتعالى) تنزيهاً له (عما يقولون) من وجود الآلهة أو وجود إله واحد معه (علوّا كبيرا) فليس هو من الموصوف بالإمكان والحدوث حتى يمكن أن تكون فيه شائبة الحاجة ويكون له افتقار إلى الشريك والمعاون في الأمور وذلك معلوم عند ذوي الفطنة والشعور . فهو المتوحد بالكمال والجمال والجلال والمتفرد بالإستيلاء على الكائنات الموجودة كلهن وجزئهن (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن) من الملائكة والجن والإنس (وإنْ مِن شيىء) من الجمادات والنبات والحيوانات (إلا يسبح) له تعالى

متلبساً (بحمده • ولكن لا تفقهون تسبيحهم) إذ ليس تسبيحهم بتقطيع الأصوات أو تركيب الحروف والكلمات ، فإن لكل موجود حدودا ولكل موزونٍ ميزاناً فبقاؤها في الجوّ الواسع ، ودورانها المستمر لإفادة المنافع، ورعاية مقدار الحركات على الوجه اللائق الرائع ، وتغيرها بإرادة الباري في إنزال الثلوج والبرد والأمطار على البراري والبحار لتفجير الينابيع وجريان الأنهار كل ذلك تسبيح وتقديس أفصح من تسبيحات أهل النفوس للملك الديان القدوس • وكيف تفقهون تسبيح ذواتٍ لا فتور لها عنه بالساعات والدقائق والثواني ؟ فتبينَ أنا ما وجدْنا في الإنسان مثلهنّ مسبحا شكورا ، ولكن الله يسامحُ العباد (إنه كان حليما غفورا) •

(وَإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتوراً(٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً انْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً ، وَإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى ادْبارِهِمْ نُفُوراً(٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ، اذْ يَسْتَمِعُونَ الَيْكَ ، وَإذْ هُمْ نَجْوى إذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : انْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً(٤٧) أنْظُرْ : كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ ، فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً)(٤٨) •

قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن •••) هذه الآية الكريمة تمثيل لهم في عدم استماع الحق بمنْ كانَ وراء حجاب يمنعه عن رؤية منْ يمرّ وراءه أو عن سماع كلامه كما أنّ الأكنة كذلك أي (وإذا قرأت القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) لا يُبْصر بالعين المجردة فلا يرونك حتى لا يؤذوك وهذا الحجاب مانع عن رؤيتك فقد روي أنها

نزلت في أبي جهل والنضر وأم جميل وأمثالهم إذ كانوا يؤذونه إذا قرأه فحجب الله أبصارهم عنه فكانوا يمرون ولا يرونه (وجعلنا على قلوبهم أكنة) تكنها وتسترها وتحول دونها عن إدراك معناه أي منعناهم (أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً) أي صمما وثقلا عظيما مانعا عن استماعه ، وكل هذه الجعليات ترتبت منه تعالى على اعتقادات وسخة راسخة في قلوبهم ، وأعمال سيئة أبرزوها في معاندة أبرز رسول هادٍ ناشر لأحكام الإسلام ، وإلا فالباري سبحانه قال (ومن اصدق من الله قيلا ؟) ، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) أي غير مذكور معه آلهتهم (ولّوا على أدبارهم نفورا) أي نفرة وهربا من استماع التوحيد لله المجيد (نحن أعلم بما يستمعون به) أي بسببه ولأجله (إذ يستمعون إليك ، وإذهم نجوى) أي ونحن أعلم بغرضهم حين هم مستمعون للقرآن عند قراءته ونحن أعلم بحالهم حين هم ذوو نجوى متناجون به (إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) أي رجلا سحر فزال عقله (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال) أي ذكروا لك الأشباه والنظائر فمثلوك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون وليس عندهم من ذلك النوع صنف آخر وإلا كانوا يمثلونك به أيضا ولكن لا تهتمّ بهم فإنما المشركون بهائم بُهْمٌ لا يُهِمُّهم إلا فروجُهم وبُطُونهم (فَضَلّوا) عن طريق الحق (فلا يستطيعون سبيلا) إلى طعن واقعي يطعنونك به •

(وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟(٤٩) قُلْ : كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً(٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ • فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ،

وَيَقُولُونَ : مَتى هُوَ ؟ قُلْ : عَسى أنْ يَكُونَ قَرِيباً(٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وتَظُنُّونَ اِنْ لَبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً)(٥٢)

قوله تعالى : (وقالوا : أئذا كنا عظاما ورُفاتاً) أي وقال المشركون المنكرون للبعث واستفهموا استفهاما انكاريا : (أئذا كنا عظاما) أي أئذا متنا ولم تبق لحومنا وبقي منا العظام المجردة (ورفاتا) والرفات : ما بُلِيَ فَتَفَتَّتَ • وقيل إنه التراب (أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟) على غضاضة الحي وطراوته مع ما بينها وبين يبوسة الرميم من مباعدة ومباينة تامة (قل) يا حبيبي في جوابهم : (كونوا حجارة أو حديداً أوْ خَلْقاً مما يكبرُ في صدوركم) ويبتعد عن قبول الحياة أيّاً كان فإنكم تحيون وتبعثون (فسيقولون) بعد قولك هذا : (من يعيدنا ؟ قل : الذي فطركم) أي قل يعيدكم الرب القادر الذي خلقكم (أول مرة) وكنتم ترابا باعتبار الأصل ، ثم كنتم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة (فسينغضون إليك رءوسهم) أي فإذا قلت لهم ذلك وكان يحتوي دليلا دقيقا جليلا ، فَبَدَلَ أن يقبلُوا منك الكلامَ السليم سيحركون إليك رءوسهم استهزاء وتعجبا (ويقولون) لاستبعاده : (متى هو ؟) أي في أي زمان يتحقق ذلك العود (قل) لهم : (عسى أن يكون قريبا) فإن كلّ آتٍ قريب • وذلك يتحقق (يوم يدعوكم فتستجيبون) أي يوم يبعثكم فتبعثون استجابة لدعوته متلبسين بحمده على كمال قدرته أو تعلمون أن كل ما وعد به فهو حق (وتقولون) إذ ذاك سبحانك اللهم وبحمدك وتظنون في ذلك اليوم (إن لبثتم) في الدنيا (إلا قليلا) •

(وَقُلْ لِعِبادي : يَقُولُوا الّتي هي أَحْسَنُ ، اِنَّ الشَّيْطانَ ينزَغُ بينهم ، إنَّ الشيْطانَ كانَ لِلإنسانِ عَدُوّاً مُبِيناً(٥٣)

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ، إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ، أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ، وما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً(٥٤) ورَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وآتَيْنَا داوُدَ زَبُوراً)(٥٥)

قوله تعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي احسَن) أي وقل يا حبيبي لعبادي المؤمنين يقولوا في المحاورات مع أولئك المشركين المستكبرين الكلمة التي هي أحسن الكلمات المناسبة في المخاطبة، وليأتوا باللين منها، ولا يخاشنوهم (إن الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويهيج الشرّ بينهم وبين الكافرين • والمداراةُ والملاينة انسَبُ بهم لإصلاح ذات البين من المخاشنة (إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) واضح العداوة • وهذه العداوة قد تكون بافساد نفسه في ذاته ، وقد تكون بإيقاع الفتنة بينه وبين إنسان آخر ، أو أناسي آخرين • (ربكم أعلم بكم ، إن يشأ يرحمكم) بالتوفيق للنيات الطيبة والأعمال الحسنة (أو إن يشأ يعذبكم) في الدنيا أو في الآخرة بخلق العزم على ما لا تحسن عاقبته وبمباشرة الأعمال السيئة في نفسه أو مع غيره (وما أرسلناك عليهم وكيلا) اي وما أرسلناك مفوضة إليك أمورهم وإنما أرسلت للتوجيه والتنبيه والإرشاد إلى كسب سعادة المعاش والمعاد (وربك أعلم بمن في السماوات والارض) بنياتهم وأعمالهم وحالهم ومآلهم فيختار منهم من يختاره للرسالة وإخراج الناس من الضلالة إلى الهدى باختيار سلوك طريق الحق ، ومنهم من يختاره لقبول ما وصل إليه من التوجيهات ، ومنهم من كان على غير ذلك (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالمواهب القدسية ، والمراتب النفسية ، والأخلاق العالية الزكية ، أو بالمعجزات

الجسيمة ، أو بعموم الرسالة ، أو بفضائل الأمة (وآتينا داود زبورا) وفيها الأذكار الصباحية والمسائية (وسخرنا الجبال يسبحن معه بالعشي والإشراق) وقد كتبنا فيه من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأن القدس يأخذها الأمة المحمدية الصالحون المصلحون باختيار الدين على الدنيا كما ورثها الأصحاب الكرام في سابق الأيام ، وكما ورثها جيش الحق جيش صلاح الدين بعد استيلاء الكفار عليها مدى من الأعوام وسترثها الأمة الإسلامية بالنصر العزيز والفتح المبين بعون الله العلام •

(قُلِ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ ، فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ، وَلا تَحْوِيلاً(٥٦) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ : أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ ، إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً(٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً)(٥٨)

قوله تعالى : (قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه) جاء الزعم بتثليث الزاء قريبا من الظن • ويقال : إنه القول المشكوك فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب حتى قالوا : إن كل ما ورد منه في القرآن الكريم فهو بمعنى القول الكذب ، كما أنه جاء بمعنى القول المحقق • وهذا مورده الكذب البواح ، ومفعولاه محذوفان ، والتقدير قل يا حبيبي للكفار المشركين : (ادعوا) الشركاء (الذين زعمتم) وهم آلهة (من دونه) أي من دون الله • وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها نزلت في المشركين الذين أشركوا بالله تعالى فعبدوا عيسى وأمه وعزيراً والشمس والقمر والكواكب • هل يجيبونهم في

مايدعونهم له والجواب كلا . فإذا تبين أنهم (لا يملكون كشف الضر عنكم) من المرض والفقر وما ابتليتم به (ولا تحويلا) لذلك الضر عنكم إلى غيركم. ومن لا قدرة له على ذلك لا يستحق أن يعبد لأن العبادة وصحتها مترتبة على اتصاف ذلك المعبود بقدرة الخلق والإبداع والإيجاد (أولئك الذين يدعون) أي أولئك الآلِهة الذين يدعوهم المشركون ويسمونهم آلهة (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أي القربة بالطاعة والعبادة والإنقياد (أيهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون . يعني إن أي واحد منهم أقرب الى الله تعالى بامتيازه عن غيره بالنبوة والرسالة كعزير وعيسى ـ عليهما السلام ـ ، أو بكرامة حاصلة بالطاعة والإخلاص كسائر أعيان الأمة الذين كانوا من الصالحين فنقشوا صورهم وحولوها الى الاصنام وعبدُوها بعد بالتدريج العادي (ويرجون) من الله (رحمته . ويخافون عذابه) فكيف يتصورون أنهم آلهة وكيف يعقل أن لهم ابداعا في الكائنات من الارض أو السماوات وانما يرجون رحمته ، ويخافون عذابه كهيبة عذاب الله في قلوبهم ؟ (إن عذاب ربك كان محذورا) وحقيقا بأن يخاف ويحذر منه أعاذنا الله تعالى منه .

ولما ذكر أن عذاب الله سبحانه وتعالى كان مهيبا مهولا يخاف ، وأن العذاب لا ينزل إلا باستحقاق الإنسان له بالعقائد الفاسدة والأعمال السيئة ، لاسيما الظلم والطغيان والبغي والعدوان ، وأن الامة في آخر أدوار الدنيا تستحق بهما العذاب . قال تعالى (وإن من قرية) أي ما من معمورة في الدنيا (إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) أي مهلكو أهلها إهلاكا عاما (أو معذبوها عذابا شديدا) بابتلائهم بأنواع البلايا المحيرة للعقول ورفع الأمان عنهم (كان ذلك) المذكور من الإهلاك الجماعي أو العذاب الشديد (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوباً .

ثم إن من الناس من ادعى أن الإهلاك والتعذيب المذكورين مختصان بالكفار وبلادهم ، وذلك لكفرهم • ومنهم من قال بعمومهما لجميع البلاد والعباد سواء كانت بلاد الإسلام أو غيرها ، والعباد من المسلمين أو الكافرين• وهذا هو الظاهر لدليلين : الاول دلالة ظاهر الآية الكريمة ، فإنها ليس فيها التخصيص ببلد دون بلد ولا بقوم دون قوم • والثاني : أن الظاهر من الكتاب والسنة أن نزول العذاب ناتج من المعاصي وخروج الناس عن إطاعة الباري • وهذه العلة موجودة في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها• ومعاصي أمة الإسلام لو فرضنا أنها لا تصل الى درجة معاصي الكفار ، لكنها لما كانت مسلمة وعارفة بالآيات والآداب كان الواجب أن تتنزه عنها بالمرة • فالذنوب الصغيرة الناشئة من المسلم كبيرة وكبيرته من أكبر الكبائر• وعلى كل حال فقد رأينا تغييرات هامة وتخريبات عامة في بعض المناطق الإسلامية ، ونسترحم المولى جل شأنه أن يسامحنا ولا يستمر في تعذيبنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيىء إنه رؤوف رحيم •

(وَمَا مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ، فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً(٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ ، فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً)(٦٠)

قوله تعالى : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا ان كذب بها الأولون) يعني بالآيات التي اقترحتها قريش على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فقد أخرج أحمد والنسائي والحاكم ، وصححه والطبراني وغيرهم عن ابن

عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سأل أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا • فقيل له : إن شئت أن تستأنيَ بهم ، وإنْ شئتَ أن تؤتيهم الذي سألوا ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لا بل أستأني بهم » فأنزل الله تعالى هذه الآية • والحاصل أنه ما منعنا ان نرسل الآيات التي اقترحتها قريش الا أنه كذب بها الأولون المقترحون لنوع تلك الآيات ، فلما آتيناهم تلك الآيات كذبوا بها فأهلكتهم ، وهذه سنتي ولا تبديل لها فإذا أرسلناها كذبت بها قريش ، ولابد أن نهلكهم ولا نريدُ أن نهلكهم وانت فيهم ، أو لا نريدُ أن نهلكهم ونعلم أن من أولادهم من يؤمن بالله ورسوله (وآتينا ثمودَ الناقة) أي التي اقترحتها حالكونها (مبصرة للناس) العقلاء أي جاعلة لهم أهل بصيرة بالحق أي كان من شأنها ذلك (فظلموا بها) أي فكفروا بها ، وعقرها أشقى ثمود (فأهلكناهم ، وما نرسل بالآيات) المقترحة (إلا تخويفا) لمن أرسلناها إليهم • يعني أنه كلما أرسلت آية مقترحة كانت كإنذار للناس المقترحين بهلاكهم عند إنكارهم لها ، ومازال هذه سنتنا في الكائنات ، ولن تجد لسنتنا تبديلا •

وقوله تعالى : (وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس) مناسبته مع ما قبله هي أن القوم لما طالبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعجزات القاهرة وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه ، وأن يقولوا له : لو كنت رسولا حقا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك كما أتى بها موسى وعيسى وغيره من الأنبياء ، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصرُهُ ويؤيده • فقال : (وإذ قلنا لك انّ ربكَ أحاط بالناس) أي إن قدرته محيطة بالناس فهم في قبضة قدرته • ومادام الأمر كذلك فهم لا يقدرون على

أمر من الأمور إلاّ بقضاء الله وقدره ، فلا تهتم بما يقولون ، فإنا ننصرك وتقويكَ حتى تبلغَ رسالتنا وتُظهر ديننا • أو المراد : إن الله تعالى أحاط بالناس المشركين المستولين على مكة وما حولها ، وستفتحها بجيش المؤمنين المجاهدين وتظفر بهم ، ونحن نريد بك وبأتباعك الخير ، وكل ما ظهر منك وكان محلا لاستهزاء الناس وتطويل ألسنتهم عليك وعلى دينك كان مآله خيراً لك ولأمتك (وما جعلنا الرؤيا التي اريناك) عامَ الحديبية أن تدخل أنتَ وأصحابك المسجد الحرام (إلاّ فتنة للناس) حيث عبروها بدخولكم في تلك السنة ولم يعلموا أن المراد دخوله في العام القابل وأن صدهم لكم عن دخوله في تلك السنة وجريان الصلح بينكم صار خيراً للمسلمين • أو ماجعلنا الرؤيا التي رأيتها عام واقعة بدر وأنك بينت مصارع الكفار •• إلا فتنة لهم حيث سخر المشركون منك واستهزأوا مع أن النتيجة كانت لكم والعاقبة للمتقين • (والشجرة الملعونة في القرآن) أي وما جعلنا بحث الشجرة البعيدة عن رحمتنا أي شجرة الزقوم ، وأنها تخرج في أصل الجحيم إلا فتنة للناس حيث استهزأوا وقالوا : كيف تنبت الشجرة في الجحيم وهي مجتمع النار ؟! ولم يعلموا أن الله قادر على ذلك ، وأنه جعلَ من الشجر الأخضر ناراً ، وانه جعلَ طير النعامة بحيث يبتلع الجمر ولا يحترق ، وقطع الحديد المحماة الحمر ولا تضره وجعل السمندل بحيث يتخذ من وبره مناديل إذا توسخت تلقى في النار فتذهب أوساخها وتبقى هي سالمة وتستعمل كالسابق ! وعلى كل حال ومقال فلا تعتمد إلا على الله القادر العليم (ونخوفهم) في الأوقات بآيات جسام من الغلاء والوباء وغير ذلك (فما يزيدهم) التخويفُ (إلاّ طغيانا كبيراً) ونحن لهم بالمرصاد فنجزيهم على طغيانهم وعدوانهم بما تقتضيه الحكمة الإلهية وأنَا احكم الحاكمين •

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ؟!(٦١) قالَ: أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ؟ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً(٦٢) قالَ اذْهَبْ ، فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً(٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ، وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ ، وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً(٦٤) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفى بِرَبِّكَ وكِيلاً(٦٥) رَبُّكُمُ الَّذي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً)(٦٦)

قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدُوا لآدم) من سنة الله تعالى في إنزال كتابه الكريم أنه يذكر الناس في كثير من المناسبات بأمره الملائكة بالسجود لخليفته المخلوق من التراب (فسجدوا) له (إلا إبليس أبى واستكبر) فطرد من باب الرحمة لغروره وذلك ليتفكر الإنسان في أصل خلقته ويعلم أن إطاعة خالقه رحمة وأن مخالفته نقمة فقال : (وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم) تحية وأدبا واحتراما (فسجدوا إلا إبليس) لم يسجد لغروره (قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟) أي خلقته من طين ولم يكتف بالمخالفة وإبائه عن السجود بل (قال : أرأيتك هذا الذي كرَّمت عَلَيَّ ؟) الكافُ حرف خطاب لتأكيد معنى التاء قبله ، ورأيتَ بمعنى علمت ، وهذا مفعوله الاول ، والموصول وصلته صفته ، والمفعول الثاني

محذوف ، والتقدير : لا يستحق التكريم عليّ وقوله (لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته) أي لأستولينّ عليهم إستيلاءً كاملا ، أو لأستأصلنهم وأهلكنهم جميعا (إلا قليلا منهم) وهم المخلصون (قال) سبحانه وتعالى له (: اذهب) يعني أنت مخول ومؤجل (فمن تبعك منهم) وضل عن طريق الحق (فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفورا) أي مكملا لا يُدَّخَر منه شيىء (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) والمراد بصوته وسوسته التي أعلى وأندى من الصوت في الوصول إلى الأسماع ، ولا يبعد أن يراد به صوتُ دعاته الداعين الى الضلال بالطرق الإحتيالية ووضع الشبكات الإصطيادية (واجلب عليهم بخيلك ورجلك) والباء مزيدة أي اجمع على الناس أتباعك الخيالة والمشاة • وهذا كناية عن استيعاب الأتباع ، أي اجلب لمعونتك وإغواء الناس المفلسين جميع من تقدر عليهم أن تستعملهم في هذه المهمة التي ليس شيىء أهم منها عندك • (وشاركهم في الأموالِ) بكسبها من الجهات المحرمة وانفاقها فيها (والأولاد) بالإستيلاء على أمهاتهن بالعقود المشبوهة ، والإنفاق عليهن من المحرمات والمشبوهات ، حتى إذا ولدنَ فبإرضاع الأولاد من حليب النساء بدون التقيد بالصلاح والعفة ، ثم بتربيتهم على غير منهج الدين المبين ، حتى اذا بلغوا أوان البلوغ والعمل عملوا ما شاؤا بدون رعاية الدين (وعِدْهم) بالمواعيد الباطلة ، وأملهم بالآمال الفاسِدة ، وقال معترضا بين خطابه والإلتفات الى الغيبة (ومايعدُهم الشيطان إلا غروراً) وهو تحسينُ الخطأ وتمويهه بما يوهم أنه صواب •

ثم قال تعالى مثبتا لقلوب العباد المخلصين (إن عبادي ليس لكَ عليهم سلطانٌ) أي قدرةٌ واستيلاء لإغوائهم (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه • (ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر) أي يجريه فيه بالرياح

اللينة أو إلهام العلوم السليمة الهينة (لتبتغوا من فضله إنه كان) ولم يزل (بكم رحيما) والموصول وصلته صفة الرب المجرور بالباء الزائدة للتأكيد .

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّيكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً(٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً(٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً)(٦٩)

قوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) تجهيل لعباد الأصنام من حيث انهم يعبدون ما يعلمون أنه لا نفع فيهم ومع ذلك يعبدونهم تجاهلا وعناداً واستمرارا على الحماقة التقليدية بدليل أنه اذا مسكم الضر وخوف الغرق في البحر ضل من تدعون إلا إياه . وذهب عن خواطركم بحيث لا تعتمدون عليهم ولا تلتفتون اليهم لعلمكم بأنها لا تضر ولا تنفع ولم تنتفعوا بها قطعا (فلما نجيكم الى البر) وحصل لكم الأمان من الغرق (أعرضتم) عن ذكره تعالى بعد أن كنتم مستغرقين فيه (وكان الانسان كفورا) لنعمته تعالى طبيعة (افأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) الذي هو مأمنكم أي ان يغيبه الله تعالى ويذهب به في أعماق الارض وأنتم عليه (أو يرسل عليكم) أي من فوقكم (حاصبا) وهو مطر الحجارة أي مطراً يحصبكم أي يرميكم بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك ، أو يصرفه عنكم غيره (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) أي في البحر (تارة اخرى) أي مرة غير المرة الاولى (فيرسل عليكم قاصفا من الريح) وهي الريح الشديدة التي تقصف ما تمر به من الشجر

ونحوه (فيغرقكم) الله سبحانه بواسطة ما ينال فلككم وذلك (بما كفرتم) أي بسبب كفركم السابق (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي نصيرا ينصركم وينجيكم من هذا الغرق •

(وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْناهُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً(٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَأُونَ كِتابَهُمْ ، ولا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١) وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢) وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ ، وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً(٧٣) وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً(٧٤) إِذاً لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ المَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً)(٧٥)

قوله تعالى : (ولقد كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ) ••• هذه الآية الكريمة عرض إجمالي لنعم الله تعالى على الآدميين مما يوجب شكره والاستمرار في طاعته ويقول (ولقد كرمنا بني آدم) أي والله لقد كرمناهم وشرفناهم صورةً وسيرةً • أما صورةً فبالمشي على رجلين ، وبوجود يدين عاليتين قابلتين للبسط والقبض والجذب والدفع ، وبوجهٍ جميل وملامح جذابة ، ورأس محتوٍ على مشاعر مهمة ، وأما سيرةً فبالعقل والعلم والصفات الحسنة والاخلاق العالية ، والتطور والترقي من السيىء الى الحسن ، ومنه الى الأحسن ، وبالتعلم فالتعليم والإسترشاد فالإرشاد ، وتوجيه الجيل للمستقبل

المفضل ، وحفظ مآثر السلف الشرفاء علماً وعملاً وأدباً وحسبا وغير ذلك، بتأريخ يضبط الحوادث النافعة والضارة ، وأسبابها وطرق الإستفادة منها ، وبطهارته في الحياة والممات ، وبصيانة هيكل المقدسين منهم من البلى والآفات ، وبتحمله للقوى النفسية مع التقوى والتوجه الى الحضرة القدسية، ولذلك راعيناهم بإبقاء الأصل والنسل في العسر واليسر (وحملناهم) على أكباد رطبة في (البر) وأعواد يابسة (في البحر) وجعلناهم مستولين على الحيوان الإنسي والوحشي من السبع والطير ، ومقتدرين على تسخير الاجواء والصحارى والبحار ، وجعلناهم شاكرين لأنعم الله وذاكرين في الأسحار (ورزقناهم من الطيبات) من فنون المشتهيات وصنوف المستلذات المستفادة من آثار القدرة أو من الصناعات (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا).

وبعد أن أعلن الله سبحانه وتعالى أنه كرم بني آدم بأمور لا اختيار لهم فيها كحسن الصورة والسيرة وإنشاء العقل فيهم الذي هو ينبوع واصل يتفجر منه فوائد وكمالات لا تحصى بينَ أنه فضلهم وميزهم على كثير ممن خلقه باكتساب صناعات وأمور إختيارية لهم فيها الكسب والإختيار . فالتكريم متعلق بمباديء لا اختيار لهم فيها ، والتفضيل مربوط بأمور اكتسابية لهم فيها شأن واعتبار . وأما تقييد المفضل عليه بالكثير فوجهه أنه خلقَ حملة العرش على تلك الطاقة العظيمة ، وخلق جبريل على تلك القوة الشديدة ، وخلق الجن بحيث يتمكن من أعمال شاقة في البر والبحر والجوّ خارجة عن طاقة الانسان ألا ترى أن عفريت سليمان قال له : (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) ؟ وتلك الطاقات أعلى وأقوى وأوسع من طاقة البشر .

ولا يلزم من امتياز البعض من الملائكة والجن على البشر في تلك الأمور زيادتهما على البشر في القدر والمقام عند الله تعالى ؛ فإن الإمتياز الإكتسابي

دون الامتياز الوهبي ، فقد جعل الله سبحانه في البشر رسلا هادين مهتدين مرشدين حاملين لأعباء الرسالة وأنوار الجلالة ، وخلق لخاتمهم امة هي خير أمة أخرجت للناس رضي عنهم وأحب أن يرضوا عنه ، وخلق فيها أفرادا من العباد تقربوا الى الله مع ابتلائهم بموانع من القوى النفسية الهائلة الى أعلى درجات القرب بحيث لم يصلها غيرهم . وأما الملائكة فلا يمكن منهم الفسوقُ والفجور ، ولا مزية لذات خلقت عاريةً عن الموانع والشهوات أن يُطيع آمرهُ في الإتيان بالأعمال الممتازة من الحسنات . فقول أهل العقائد بتفضيل البشر على الملائكة : خواصهم على خواصهم ، وعوامهم العادلين على عوامهم ثابت محققٌ ولا يعارضه تفضيلهم وتفضيل الجن في بعض الاعمال على البشر . هذا والله الهادي الى الصواب .

ولما بينَ الله سبحانه وتعالى نعمهُ الموهوبة والمكسوبة على عباده من بني آدم ، بين أنهم مع كل تلك النعم المتوفرة انقسموا قسمين بالإجمال ؛ فقسمٌ تبعوا أئمة الهدى والكمال ، وقسم تبعوا أئمة الغيّ والضلال . فقال : (يومَ) أي اذكر يا حبيبي (يومَ ندعوا كل أناس بإمامهم) سواء كان إمامهم إمام هدى ، أو إمام ضلال ، وينادي المنادي يا أمة آدم ، أو نوح، أو ابراهيم ، أو موسى ، أو عيسى ، أو محمد المصطفى ــ صلوات الله عليهم ــ . أو يا أمة عاد ، أو ثمود ، أو فرعون ، أو نمرود . ويا أتباع الأئمة المجتهدين والمرشدين الى طريق الحق واليقين ، ويا أتباع الدّ ُعاة المبتدعة الضالين الخارجين عن الإسلام والدين ، فيدعون للميزان والحساب ، ويسلم الى كل فرد من أفرادهم صحيفة الأحوال ودفتر الاعمال ، مميزين بين السعداء والأشقياء بإعطاء كتاب الاوائل بالأيمان ، وكتاب الأشقياء وراء الظهور بالشمال (فمن أوتي كتابه بيمينه) بشروا واستبشروا ، وجعلهم الله قارئين ، ولو كانوا من الأميين لأن قراءة الإنسان كتاب أعماله بنفسه إعتبار

وعناية (فاولئك يقرأون كتابهم) ويقفون على تفصيله ، ويستبشرون بما فيه ، ويعلمون أنهم أوتوا جزاءً فوق الإستحقاق (ولا يظلمون) أي ولا ينقص من أجورهم (فتيلا) أي قدر فتيل ، وهو القشر الذي في شق النواة •

وبعد أخذ الكتاب بالأيمان وقراءته وتسليمه لأقرانه ليطلعوا عليه زيادة في الإستبشار ، كما قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه) ، (فيحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا) وَذَكَرَ مقابله بقوله (وَمن كان في هذه) أي في هذه الدنيا التي اغترّ بها (أعمى) لا يبصر طريق النجاة ولا يهتدي الى الحق (فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أي وأما من أوتي كتابه بشماله وحوسب حسابا عسيرا فهو الذي كان في هذه الدنيا أعمى وقد علم حاله ومآله • ونسأل الله الرؤوف الرحيم والعفو الكريم أن يدخلنا في زمرة عباده الصالحين وينجينا من عذابه وعسر حسابه ، إنه هو الجواد الهادي الى الرشاد الراحم بالعباد في الدنيا والدين • وهذه الآيات البينات كافية لمن اكتفى بالإرشاد ، والمرجو منه تعالى شرح الصدور وتيسير الامور والصيانة عن كل مكروه وفساد إنّه أرحم الراحمين •

قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشا أتوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا له : إن كنتَ أرسلت الينا فاطردِ الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم ، لنكون نحن أصحابك ! فنزلت أي (وإن) الشأن قد قرب أن يميلوك عن الذي أوحينا اليك من ملازمة المسلمين الفقراء لرقة قلبك وشدة رغبتك في إيمانهم (لتفتري علينا غيره) أي لتتقول علينا غير الذي أوحيناه اليك مما اقترحه عليك بعض من المشركين (وإذا لا تخذوك خليلا) أي لو

فعلت ذلك ليتخذنك صديقا لهم (ولولا أن ثبتناك) على ما أنت عليه من الحق بحفظنا لك (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) أي ولولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم، وشدة احتيالهم لكن ادركتك العصمة فمنعتك من أن تقرب أدنى الأدنى من الميل إليهم فضلا عن نفس الميل • (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أي ولو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركون لأذقناك ضعفا وهوانا في الحياة بعدم النجاح في مهمة الرسالة وضعفا وهوانا في وقت الممات بعدم اكتراث الناس بوفاتك أو بعد الممات بإصابة ما لا يحمد في البرزخ وما وراءه • وقيل : معناها لأذقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة مضاعف ما يعذب به غيرك في الدارين ؛ لأن ذنب الكبير أخطر وعقابه اكثر (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع العذاب أو يرفعه عنك •

روي عن قتادة أنه لما نزل قوله تعالى : (وإن كادوا) الى هنا قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أللهم لا تكلنى الى نفسي طرفة عين » وينبغي للمؤمن اذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها ، وأن يستشعر الخشية وازدياد التصلب في دين الله• ويقول كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا، وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً(٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً(٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً(٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً(٧٩) وَقُلْ : رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ

وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، واجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً(٨٠) وَقُلْ جاءَ الْحَقّ ، وَزَهَقَ الباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً(٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ ، وَلا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إلاّ خَساراً)(٨٢)

قوله تعالى (وَإِن كادوا ليستفزونكَ منَ الارض ليُخرجوك منها) أي أن المشركين كما قرب أن يستميلوك إليهم ولم ينجحوا في مرادهم كادوا وقربوا أن يزعجوك ويستخفوك بعداوتهم ومحاولاتهم البائسة اليائسة ليخرجوك من الارض أي الارض التي أنت فيها وهي مكة المكرمة الارض التي أنت أحق بها ، لأن فيها بيت العز والكرامة بيت العبادة والطاعة ، وبيت الشرف والسعادة ، وذلك أول بيت وضع للناس ، وأول بيت بني في تلك الديار على التقوى ، وحقه أن يكون مقرا لك لانك كنت مقصودا بدعاء أبيك إبراهيم ، ومفتاحُ بيتِ الكرامة يُسلم الى الكريم • وكان هذا الإستفزاز بما فعلوه من حصره ــ صلى الله عليه وسلم ــ في شعب أبي طالب والتضييق عليه وعلى أقاربه المختصين به وأتباعه ، ووقع ذلك بعد نزول الآية كما في تفسير البحر ، وصار سببا لخروجه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مهاجرا (وإذاً لا يَلبثون خلافك إلا قليلا) أي وإن استفزوك فخرجت منها لا يبقون فيها بعدك إلا زمانا قليلا • وهذا وعيد لهم بإهلاكهم ، وقد كان في بحر عشر سنين •

(سُنّةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أي سننا سنة من قد أرسلنا وهي أن لا ندع أمةً تستفِز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تَلبث بعده إلا قليلا • والسنة : سنة الله وإضافتها الى المرسلين للملابسة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أي ولا تجد لسنتنا تحويلا منا لجريان القضاء بها ، ولا من

غيرنا إذ لا قدرة لهم على تحويلها (اقم الصلاة لدلوك الشمس) أي لزوالها عن خط نصف النهار ، ويدل عليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر (إلى غسق الليل) أي الى وقت تقرر ظلمته ، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة (وقرآن الفجر) أي وأقم صلاة الفجر أي صلاة الصبح . وسميت قرآنا لأنها ركنها ، وخص بها لأن وقتها وقت الجهر وفراغ القلب ونشاط الإنسان والصوت إذ ذاك يخرج صافيا وافيا بنزعات الضمير وما أسره الانسان ، ولان الوقت مبارك وتجتمع فيه ملائكة الليل وملائكة النهار كما قال تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهودا) أي تشهده الملائكة . والآية الكريمة جامعة للصلوات الخمس المفروضة ، فإن زوال الشمس من نصف النهار الى ظلمة الليل يستوعب الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح فهذه الصلوات موجودة ومفروضة في مجموع ذلك الوقت .

وأما تخصيص كل منها بوقتها المحدود فمأخوذ من الإجماع ومن سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقد روى أبو داود وغيره وصححه الحاكم وغيره أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : أمَّنى جبريلُ عند البيت مرتين فصلى بي الظهر حين زالت الشمس ، وكان الفيىء قدر الشراك ، والعصر حين كان ظله (أي الشيىء) مثله . والمغرب حين أفطر الصائم (أي دخل وقت إفطاره) . والعشاء حين غاب الشفق . والفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم . فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله . والعصر حين كان ظله مثليه . والمغرب حين أفطر الصائم والعشاء الى ثلث الليل . والفجر فأسفر وقال : هذا وقت الانبياء من قبلك . الوقت ما بين هذين الوقتين . وأما الجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما تقديما أو تأخيرا ، وكذلك المغرب والعشاء فإنما أخذ من الحديث الوارد في الموضوع.

والسنة الفعلية وتقريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأسباب خاصة مذكورة في كتب الفقه في مواضعها المعينة . وأما جمعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الظهر والعصر بدون سبب من الاسباب من الخوف والمرض والسفر والمطر فأجاب الفقهاء عنه بأجوبة . منها أن صورته كانت صورة الجمع ولم تكن جمعا في وقت واحد منهما ، أي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى الظهر في آخر وقته ، وبعد فراغه عنه مباشرةً دخل وقت العصر وصلاه بلا فصل . وعلى الطالب المراجعة لأماكنها في كتب الفقه والحديث .

(ومن الليل فتهجد به) أي وفي بعض أجزاء الليل تجنب النوم واتركه للصلاة خالكونها (نافلة لك) أي فريضة زائدة على الصلوات المفروضة فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك . فالنافلة بمعنى الزائدة على معناها اللغوي . وهذا بناء على أن قيام الليل كان واجبا عليه ، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم خاصة أمر بقيام الليل وكتبت عليه دون أمته . لكن صحح النووي أنه نسخ عنه فرضية التهجد ، ونقله أبو حامد من الشافعية وقال : انه الصحيح . وفي مسلم ما يدل عليه . (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أي مقاما يحمده كل من عرفه ، وهو مطلق يحتمل كل مقام كرامة ، لكن المشهور أنه مقام الشفاعة لما روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي » وذلك حين فرض قيام الليل في أول الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس ، والجمهور على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما جاءه الملك في غار حراء وحاوره بما حاوره رجع الى خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال : « زملوني زملوني » فنزلت (يا أيها المدثر قم فأنذر) وعلى أثرها نزلت (يا أيها المزمل) كما سنذكره بالتفصيل إن شاء الله تعالى في تفسير السورتين .

(وقل : رب أدخلني) أي في القبر (مدخل صدق) أي إدخالا مرضيا (وأخرجني) أي منه عند البعث (مخرج صدقٍ) إخراجا مرضيا • وقيل : المراد إدخال مكة ظاهرا عليها بالفتح وإخراجه منها آمِناً من المشركين • وقال محمد بن المنكدر : إدخاله الغار قبل الهجرة وإخراجه منه • وقيل : الإدخال في الصلاة والإخراج منها • وقيل : الإدخال في المأمورات والإخراج من المنهيات • وقيل : الإدخال فيما حمله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أعباء النبوة وأداء الشرع وإخراجه منه مؤديا لما كلّف به من غير تفريط • وقيل : المراد إدخاله في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أي أمر كان وإخراجه منه فيكون عاما في جميع الموارد والمصادر • وقالوا : هذا هو الموافق لظاهر اللفظ والمطابق للمقام • (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة تنصرني على من خالفني • وعن الحسن أنه أريد به التسلط على الكافرين • وقيل : أراد به عزا ينصر به الإسلام على غيره سواء كان من الغيب أو الشهادة ، بأهل الجهاد بالسيف أو بالحرف • والحق أن المراد من السلطان كل مايفيده الغلبة على أعداء الله تعالى وظهور دينه ووصفه بقوله نصيرا للمبالغة •

(وقل) مبشرا نفسك وغيرك من الأصحاب بأمر الله تعالى وإذنه (جاء الحق) أي الإسلام والدين الثابت (وزهق الباطل) أي زال واضمحل ولم يبق له كيان في جزيرة العرب وسائر البلاد الإسلامية (إن الباطل كان زهوقا) أي زائلا مضمحلا غير ثابت الآن أو فيما بعد ، أو مطلقا لكون الباطل باطلا في الواقع • أخرج الشيخان وجماعة عن ابن مسعود قال : دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نُصبٍ فجعل يطعنها بعود في يده ، ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) (جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) وفي رواية الطبراني

في الصغير عن ابن عباس أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء ومعه قضيب فجعل يهوي به الى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) حتى مر عليها كلها •

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أي وننزل من القرآن المخصوص بالنبي الذي أرسل رحمة للعالمين ما هو شفاء لمرض الكفر والرذائل النفسية بكافة أصنافها ولمرض الجهل البسيط ، وهو عدم العلم بالمقصود ، والمركب اذا أنصف الجاهل ولم يعاند البديهة ، ولسائر الامراض البدنية من الاعصاب ، والاوجاع ، والاورام ، والحميات ، وغيرها ••• لمن شاء الله أن يكون شفاءً له • فإذا كان المعنى هذا فتكون كلمة من للبيان ومقدمة على المبين لرعاية الفواصل أو للاهتمام بالمقدم • أما شفاؤه لمرض الكفر فظاهر لمن نظر الى كثير من الناس الكافرين الذين أسلموا بمحض استماعه وفهم مدلوله المنبيء عن أسرار الغيب وأنوار الحق ، وأما للرذائل فمن جهتين : الاولى جهة كشف أسباب المرض وهي محبة الدنيا والامور العاجلة التي لا قيمة لها ، وأن مردها الى الفناء ، والثانية أن طاعة الله هي التي تنفع وتبقى عند الله تعالى ، وأما للجهل البسيط فيظهر من أن الناس لم يكونوا عالمين بأن الله هو الخالق للسماوات والارض وما بينهما ومن يعيش فيها ، وأن الإنسان والجن مخلوقون للعبادة ونيل السعادة الأبدية الخالدة ؛ فإذا نزل القرآن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغه الى الامة وانتشر بينهم ، وأدركوا معانيه ومقاصده خرجوا من ظلمات الجهل الى أنوار العلم • وأما شفاؤه من مرض الجهل المركب فلأن الإنسان ، كائنا من كان ، إنما يكون معذورا بجهله بالحقائق واغتراره بما يعتقده في نفسه من الدوام أو الخلود أو الإستغناء من غيره ، أو عدم المسؤولية إذا لم يسمع الحقائق ولم يعش في المجتمع المكتسب للفوائد والمترقي من البساطة إلى أفق العلم

والرقي . وأما بعد ذلك كله وبعد فهم القرآن ونشر مبادئه واعتناق الناس لها لا يبقى عذر لأي مكلف أن يبقى على فساد اعتقاد ورسوخ عناده ، واختيار الضلال في شأن مسؤليته ومعاده . وأما شفاؤه لأمراض البدن فقد ثبت من قراءة أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ الفاتحة على اللديغ من الحي الذي مروا عليه وشفائه وتقريره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك . وكل آية تقرأ على أي مريض فلها بركة ودخل في شفائه من مرضه ، ولاسيما الآيات التي فيها مادة الشفاء وهي ست : (ويشف صدور قوم مؤمنين . وشفاء لما في الصدور . فيه شفاء للناس . وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين . واذا مرضت فهو يشفين . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) قال السبكي : وقد جربت كثيرا . وعن القشيري : أنه مرض له ولد يئس من حياته فرأى الله في منامه فشكا له ذلك ، فقال له اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه ، أو اكتبها في إناء واسقه فيه ما محيت بـه ، ففعل فشفاه الله تعالى . والأطباء معترفون بأن من الأمور والرقي ما يشفى بخاصية روحانية، كما فصله الأندلسي في مفرداته . نعم العلماء اختلفوا في جواز نحو ما صنعه القشيري عن اثر الرؤيا وعرفوها بأن يكتب شيىء من أسماء الله تعالى ، أو من القرآن ثم يغسل بالماء ، ثم يمسح به المريض أو يُسْقاه . فمنع ذلك بعض من التابعين ، وأجازه بعض ، وهو الراجح كما في فتح الباري على صحيح البخاري . والنشرة التي منعها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان مشتملا على ألفاظ لا يعرف معانيها أو على أسماء الأصنام . وأما ما فيه أسماء الله الحسنى أو الآيات القرآنية الكريمة ، ولاسيما ما هي من الآيات الست المذكورة فجائز بلا شبهة . وقال مالك ـ رضي الله عنه ـ : لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله تعالى على أعناق المرضى على وجه التبرك بها . وما بينته من أن القرآن كله شفاء للمرضى على الوجه المذكور هو الحق .

والإمام الرازي عمم شفائيته ، وقد أحسن فقال : هو شفاء للامراض الروحانية ، وهي نوعان : إعتقادات باطلة ، وأخلاق مذمومة . فلاشتماله على الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفى عن النوع الاول من الأمراض . ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد الى الاخلاق الفاضلة والاعمال المحمودة يشفى عن النوع الآخر . والشفاء إشارة الى التخلية . والرحمة إشارة الى التحلية . ولان الاولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة . هذا وقوله تعالى : (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) نص في أن القرآن كما أنه عسل لأهل الإنصاف كذلك أسل لأهل الظلم والإعتساف ، فإن الدواء إنما ينفع من يشربه لا من يصبه ، والظالمون أنفسهم باستمرار العناد لا يهتدون إلى سبيل الرشاد .

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ ، وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً(٨٣) قُلْ : كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً(٨٤) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً(٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً(٨٧) قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا الْقُرآنِ لاَيَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً)(٨٩)

قوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان) بيان لنقص الإنسان من ناحية الصفات الفاضلة ويحتاج إلى مدد ومعونة من الله تعالى بتخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل . وذلك موقوف على الإسلام والإنقياد للرسول الكريم في ما جاء به من الله تعالى ويقول : (وإذا أنعمنا على الإنسان) أي إنسان كان إلا من تخلى عن الرذيلة وتحلى بالفضيلة ، فأعطيناه الصحة والأمن وسعة ذات اليد (أعرض) عن ذكرنا كأنه مستغن عنا من كافة الجهات (ونأى بجانبه) أي لوى عطفه عن طاعتنا ولم يهتم بها (وإذا مَسَّهُ الشرُّ) من مرض أو خوف أو فقر (كان يؤسا) شديد اليأس من رحمتنا ، لأنه لم يحسن معاملته في حال الرخاء حتى يرجو الفرج منا ويطلب الخروج من ذلك الشر ويبقى تائها متأثرا الى ان يفرج الله تعالى عنه ، أو يبقى على ما كان عليه حتى يلقى ربه . فالدواء النافع للانسان اتباع طريق الرسول الهادي الى الحق بالشكر على النعمة والصبر على النقمة وبذلك يصل الى سعادة الدارين .

(قل : كل يعمل على شاكلته) والشاكلة كما في القاموس : الشكل والنية والطريقة والمذهب . وكل من هذه المعاني مناسب للمقام ، لأن كل إنسان يعمل على حسب ما يناسب شكله وطبعه ويمارس أعماله على طريقته المختصة به ، وهي عبارة عن كيفية استعمال عقله وسائر قواه في سبيل أداء واجباته في حياته وترك المحرمات مع رعاية الشريعة اذا كان من المهتدين ، أو بدونها اذا كان من المعتدين ، ويجوز أن يراد بالشكل الوارد في معنى الشاكلة الصورة العلمية للمكلف الموجودة في علم الباري تعالى أزلا وأبدا المشابهة للصورة العينية الخارجية بلا فرق . أي أن كلا من المكلفين يعمل على طبق ما تعلق به العلم الأزلي المربوط بالصورة العلمية ، فإن الله يعلم أن المكلف الذي سيخلقه ويخرجه من العلم الى العين ماذا يعلم وكيف يصرف إرادته واختياره وماذا يكتسب والعمل بهذا الوجه يحقق الكسب والإختيار ، فإن

العلم الأزلي حاك عن المعلوم الخارجي وتابع له ، فصح أن كلا يعمل على شاكلته •

ومنهم من فسر الشاكلة بجوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه ، أي فمن كان جوهر روحه منورا مشرقا ظهرت منه الاعمال الحسنة ، ومن كان جوهر روحه مظلما صدرت منه الاعمال السيئة ، ولكن هذا التفسير ليس بمرضي لأنه على ذلك تكون الاعمال تابعة لذلك الجوهر المخلوق كذلك فلا يبقى مجال" لتصرف صاحب الروح على خلاف مقتضاه ، فإن الماهيات الانسانية متحدة أو مختلفة اذا كانت مطبوعة ومجبولة على الاشراق ، أو على خلاف ذلك تكون الآثار الصادرة من لوازم الماهية كالزوجية للاربعة ، والفردية للثلاثة ، ولازم الذات لا يزول ، فالحق في التفسير غير هذا الاخير والله الهادي الى سواء السبيل (فربكم) أي الذي برأكم (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أي أحسن طريقة وأسلم منهاجا •

(ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : كنت أمشي مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في خرب المدينة وهو متكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه • فسألوه فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب ، فظننت أنه يوحى إليه فلما نزل الوحي قال « ويسألونك عن الروح » الآية ••• وفي السير عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن قريشا بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم : سلوهم محمدا ، فانهم أهل كتاب عندهم من العلم ما ليس عندنا فخرجا ، حتى قدما المدينة فسألوهم • فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح • فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن

أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فجاؤا وسألوه فبين لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ القضيتين وأَبْهَمَ أمر الروح وهو مبهم في التوراة ، والآية على هذا مكية ، وعلى السابق مدنية . والمقصود بالسؤال الروح الإنساني المتصف بالكمالات العلمية والعملية والقُوَى النفسية على اختلافها وكثير من العلماء قالوا : إنها مباينة للروح الحيواني الذي يوجب الحس والحركة الإرادية ، وقالوا : انه جوهر مجرد عن المادة متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، واستدلوا على ذلك بوجوه :

منها أنها بتعقلها وادراكها للاشياء تكون محلا لما ليس بمادي كالمجردات وللاشياء التي لا تختص بوضع ومقدار كالكليات ، ولما لا يقبل الانقسام كالوجود والوحدة والنقطة وسائر البسائط التي إليها تنتهي المركبات ، وما كان كذلك لا يكون جسما ولا جسمانيا بل يكون مجردا عن المادة .

ومنها : أنها تدرك ذاتها وآلاتها وإدراكاتها ، ولا يلحقها ضعف وكلال بضعف الاعضاء والآلات بل تزداد قوة وكمالا ولا شيىء من القوى الجسمانية كذلك .

ومنها أن القوة العاقلة لو كانت في جسم فإما أن يكفي في تعقله له حضوره عنده فلزم أن لا ينقطع تعقلها عنه ، وإن لم يكف حضوره بل كان الإدراك بحصول الصورة لزم أن لا يحصل لها إدراك له لامتناع تعدد الصور لشيىء واحد ، فلابد أن تكون جوهرا مجردا عن المادة .

ثم إن من العلماء الذين قالوا بتجردها من قال إن النفوس الانسانية متحدة بالنوع والاختلاف بين أفرادها بالاوصاف والعوارض ولا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» لأن اختلاف الأفراد في الاوصاف وصل الى حد كاد أن يلتحق باختلاف في الذات والماهية. ومنهم من يقول إنها ماهية جنسية تحتها أنواع مختلفة تحت كل نوع أفراد

متحدة الماهية متناسبة الاحوال وهذا هو الموافق للحديث الشريف المذكور آنفا ، فإن الذهب والفضة نوعان مختلفان من جنس المعدن . وذكر الإمام أن السؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة ، وليس في قوله تعالى (ويسئلونك عن الروح) ما يدل على وجه منها ، إلا أن الجواب المذكور في الآية لا يليق إلا بوجهين : الاول أن السؤال عن حقيقتها ، والجواب أنها جوهر بسيط مجرد محدث" بأمر الله تعالى وتكوينه وتأثيره إفادة الحياة للجسد . والثاني السؤال عن قدمها وحدوثها ، والجواب أنها من أمر الله وفعله فهي حادثة . ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة عدمه فإن أكثر حقائق الأشياء ماهياتها مجهولة ، ولا يلزم من كونها مجهولة نفيها . ويشير اليه قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ومبنى هذا أيضا الفرق بين عالم الامر وعالم الخلق وحاصل الجواب على الثاني أنه حادث حصل بفعل الله تعالى وتكوينه وإيجاده ، وجعل قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) إحتجاجا على الحدوث بمعنى آن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها ذلك ، فلا تزال في تغير من حال الى حال وهو من أمارات الحدوث هذا .

ثم حاصل المعنى : أن الناس يسألونك عن الروح الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره ، قل : الروح من الإبداعيات الكائنة بأمر ربي بكلمة كن من غير مادة وتركيب منها ، ووجد وحدث بإحداثه وتكوينه ، وماهيتها غير معلومة ولا يلزم من عدم العلم به عدم وجوده (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ولو لزم من عدم العلم عدم الوجود لزم أن لا يكون كثير" من الاشياء المحققة موجودة لعدم علمنا بها .

وهنا بحثان : الاول في حقيقة الإنسان ، والثاني في حدوث الروح مع البدن أو قبله .

أما البحث الاول ففيه عند المحققين قولان : الاول أن الانسان عبارة عن جسم نوراني حي علوي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سارٍ فيه سَرَيانَ الماءِ في الورد ، والدهن في الزيتون ، والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل ، والتفرق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحا لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع من السريان كالأخلاط الغليظة ، ومتى حدث ذلك حصل الموت لانقطاع السريان . والروح عبارة عن ذلك الجسم واستحسن هذا القول الإمام ، فقال : هو مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت . وقال ابن القيم في كتابه الروح : إنه الصواب ولا يصح غيره . وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة .

الثاني إنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح ، وليس بداخل العالم ولا خارجه لا متصل به ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وهو قول أكثر الالهيين من الفلاسفة . وذهب اليه جماعة عظيمة من المسلمين منهم الشيخ أبو القاسم الراغب الاصفهاني وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي وأكثر أهل المكاشفة والرياضة وجمع كثيرون من غيرهم .

واما البحث الثاني أي حدوث الروح مع البدن أو تقدمها عليه : فذهبت طائفة الى حدوثها قبل حدوث البدن منهم محمد بن نصر المروزي وابن حزم الظاهري ، واستدل لذلك بما في الصحيحين من حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « الأرواح جنود" مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر إختلف » قال ابن الجوزي في تبصرته : قال أبو سليمان الخطابي : معنى هذا الحديث الإخبارُ عن كون الأرواح مخلوقة قبل الأجساد . وزعم ابن حزم أنها في برزخ وهو منقطع العناصر فماذا استعد

جسدٌ لشيىء منها هبط إليه وأنها تعودُ الى ذلك البرزخ بعد الوفاة • وبعضهم استدل على ذلك بخبر خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بألفي عامٍ • وتعقبه ابن القيم بأنه لا يصح إسناده وذهب آخرون منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي الى الحدوث بعده • ومن أدلة ذلك كما قال ابن القيم الحديث الصحيح : « إن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح » ووجه الإستدلال : أن الروح لو كان مخلوقا قبل لقيل ثم يُرْسَل إليه الملك بالروح فيدخلهُ فيه • واختار الجمهور هذا القولَ • وبابُ التأويل والاستدلال مفتوح للفريقين • ولكن الذي يطمئن إليه القلب على مايستفاد منظواهر الاخبار، وظاهر قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) القول الاول ، وأن الأرواح خلقت قبل الأجساد بمدة يعلمها الله تعالى وحديث خلق ابن آدم يظهر تأويله على أن الله أمر الملك المخصوص الموكل به بأخذ الروح المختص به وربطه بذلك الجسد على وجه يعلمه الله سبحانه وتعالى ، ولا نكرةَ في ذلك قطعا • ثم التحقيق أن الروح والنفس الانسانية شيىء واحد وتعدد الأسامي للنفس بحسب استعدادها واتصافها بالقوة الخيرة والشريرة ، كما ذكرناه سابقا هذا •

وأما مستقر الارواح بعد مفارقة الابدان ، فالذي دلت عليه الاخبار أن مستقر الأرواح بعد المفارقة مختلف ؛ فمستقر أرواح الأنبياء عليهم السلام في أعلى عليين • وصح أن آخر كلمة تكلم بها ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أللهم الرفيق الأعلى » وهو يؤيد ما ذكر • ومستقر أرواح الشهداء في الجنة ، تردُ من أنهارها ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي الى قناديل معلقة بالعرش • وروي في أرواح أطفال المؤمنين ما هو قريب من ذلك • وروى ابن المبارك عن كعب قال : جنة المأوى جنة فيها طير خضر ، ترعى فيها أرواح

الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا . ولعل هذا في عوام الشهداء ، وما تقدم في خواصهم ، أو لعل هذا في شهداء الآخرة كالغريق والمبطون الى غير ذلك .

وأما مستقر أرواح سائر المؤمنين ، فقيل في الجنة أيضا . وهو نص الإمام الشافعي . وقد أخرج الإمام مالك عن كعب بن مالك مرفوعا « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تعالى في جسده حين يبعثه » ورواه الإمام أحمد في مسنده ، وخرجه النسائي عن طريق مالك ، وخرجه ابن ماجه ، ورواه خلق كثير . وروى ابن منده من حديث أم بشر مرفوعا ما هو نص في أن مستقر أرواح المؤمنين هو مستقر أرواح الشهداء . وقيل : مستقر أرواح الموتى أفنية قبورهم ، وحكى هذا ابن حزم عن عامة أهل الحديث . واستدل له بعضهم بحديث ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى » وبأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين زار الموتى قال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » هذا .

ولكن الحق كما أفاده بعض المحققين الأصفياء أن لا تتقيد أرواح الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بمستقر واحد ، لأنهم طلقاء في الكون تستقر في العرش وفي الجنة وفي أي مكان شاؤا ، وأن أرواحهم أينما استقرت فلهم علاقة برقية حضورية بمقابرهم ومشاهدهم ، فيخلق الله تعالى فيهم إدراك زوارهم ، وأن من سلم عليهم يعلمون بسلامه بإعلام من الله تعالى . ومستوى أرواحهم فوق مستويات الشهداء والصديقين والصالحين ، وأن أرواح غيرهم أيضا من السعداء أينما استقرت فلهم علاقة حضورية بمقابرهم ، وهذه العلاقة علاقة إستيعابية عامة تشمل كل من زارهم

وأهدى لهم التلاوة ، وثوابَ الاعمال على ما قرره المحققون من أنه يصل مثل ثواب ما قرأ لهم من آيات القرآن ، وثواب الصدقات التي يتصدق بها لهم بإذن الله تعالى ، ويفرحون بتلك الهدايا كما يفرح الأحياءُ من الأحباء بالهدايا والكلمات الترحيبية وما شاكل ذلك . ولا تكن في ضيق صدرٍ مما تلونا عليك فإن رحمة الله وسعت كل شيىء وهي مكتوبة للمتقين . وإن شئت أن تحقق ما قلنا فارجع الى محله من كتب المسانيد لاسيما مسند الامام أحمد ـ رضي الله عنه ـ وكتب الفقه المدونة المعتمدة من المذاهب الاربعة ، وخلاصتها الصافية من الأكدار والاضطرابات وعلى ذلك عقيدة الاكثرية الساحقة من أئمة المسلمين .

وقوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) يعني أن هذا القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين أنزلناه اليك رحمة بك وبأمتك تفضلا واحسانا لا وجوبا وتحتما ، ولئن شئنا والله لنذهبن بالقرآن الذي أوحيناه إليك أي لنمحينه من صدور من هو في صدورهم وسطور من هو في سطورهم ، ونمنع الملك الجليل جبريل من التنزيل ، إذ لا يتنزل الا بأمرنا (ثم لا تجد لك به) أي لهذا القرآن وتنزيله وابقائه عندكم (وكيلا) أي متعهدا وملتزما باسترداده بعد الذهاب بأي وجه من وجوه الاسترداد (إلا رحمة) من ربك تعاونك وتردّ عليك ما ذهب منك ، فإنها تكون وكيلا إعتباريا لك بذلك الأمر الخطير لفضله الشامل وكرمه الكامل ، لاسيما بالنسبة اليك (إن فضله كان) ولم يزل ولن يزال (عليك كبيرا) من كل وجه من وجوه الإصطفاء والتفضيل والتخصيص بالرسالة العامة الخاتمة للنبوة والتنزيل . (قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنعوت بما سبق له من التوصيف في البيان (لا يأتون بمثله) أو ما يقارب المثل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ومُعيناً بكل جهةٍ من جهات المعونة

(ولقد صرفنا) كررنا وغيرنا أسلوب التعبير للناس أهل مكة ومن بلغ (في هذا القرآن) المعجز بالبيان والمعاني وبدائع الاستحسان (من كل مثل) أي من كل موضوع مهم مرفوع (فأبي أكثر الناس) وهم الناسون لحق الله تعالى عليهم ورعاية الحق المطابق للواقع (إلا كفورا) وجحودا بأنعم الله تعالى المتوالية عليه من كل جانب •

(وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً(٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً(٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ ـ كما زَعَمْتَ ـ عَلَيْنا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ : سُبْحانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ إلا بَشَراً رَسُولاً ؟(٩٣) وما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدى إلاَّ أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ؟(٩٤) قُلْ : لَوْ كانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً(٩٥) قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)(٩٦)

قوله تعالى : (وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) تفجر من الباب الاول ، والينبوع مصوغ من نبع الماء كيَعبُوبٍ من عب الماءُ اذا زَخَرَ وكَثُر مَوْجُه ، فالياء زائدة فيهما للمبالغة ، والمراد بالينبوع عين لا ينضب ماؤها • وعن السدي أن الينبوع هو النهر الذي يجري من العين (أو تكون لك جنة) بستان كثير الأشجار (من نخيل وعنب) خصوهما بالذكر لإفادتهما القوت والقوة ، أو لغلبتهما في بعض أنحاء

الجزيرة (فتفجر الأنهار) من باب التفعيل (خلالها) أي وسط تلك الجنة فنصبه على الظرفية (تفجيرا • أو تسقط السماء) وما يرى فيها من المواد (كما زعمت) عند التهديد والوعيد (علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة لفظا ومعنى (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي مقابلا لنا نرى كلا منهما • وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تفسير القبيل بالكفيل ، أي كفيلا بما تَدّعيهِ يريدون شاهدا لك بصحة ما تدعي (أو يكون لك بيت من زخرف) أي ذهب ، أو من مواد ذوات زينة عجيبة (أو ترقى في السماء) أي تصعد في معارجها (ولن نؤمن لرقيك) أي لن نستسلم لها ولا نعترف بها (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) بلغتنا وفيه تصديقك (قل) لهم ردا عليهم وتعجبا من جهلهم بطاقات الرسل : (سبحان ربي !) عن أن يظهر شيىء في ملكه بدون أمره وإرادته (هل كنت إلا بشرا رسولا ؟) كسائر الرسل ليس لهم وظيفة إلاّ تبليغ ما نزل عليهم ، ولا قدرة لهم على الإتيان بشيىء من تلك المقترحات وأمثالها (وما منعَ الناس) الذين اقترحوا مااقترحوا (أن يؤمنوا) بالله ورسوله (إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا) إستثناء من أعم الفواعل أي ما منعهم من الإيمان شيىء إلا قولهم الفاسد في مقام الإستنكار : (أبعثَ الله بشراً رسولا ؟) مستنكرين بعثَ الرسل من البشر الى البشر •

(قل) في مقام تحقيق الحق وإزهاق الباطل وأن إرسال الرسل الى بني نوعهم مملوء من الرحمة والحكمة والنعمة : (لو كان في الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون) مشيهم ولا يصعدون إلى السماء (مطمئنين) مقيمين فيها (لنزلنا عليهم) من السماء (ملكاً رسولا) إليهم من نوعهم يُعلمهم ما لا يصِلُ إليه علمهم وإدراكهم • يعني إن تأييد العقل المادي بالعقل الروحي، وإعانة أهل الشهادة بعلوم الغيب وترقية قلوب الضعفاء القلوب بالمعلومات المهمة من سنة الله تعالى في الكون ولا تجدون لسنته تبديلا • (قل) لهم

بعدما ألزمتهم الحجة وبينت لهم ما يوافق الحق والحكمة (كفى بالله شهيدا) بيني وبينكم في تبليغ ما أرسلت به والنصح في أدائه والمداراة معكم بما يمكن مني ، فليس على الرسول عتب بعد النصب (إنه كان) ولم يزل ولن يزال بعباده (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر الأعمال وبواطن الحال ، وإليه المرجع والمآل .

(وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ، مَأْوِيهُمْ جَهَنَّمُ ، كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً(٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا : أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ؟(٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ ؟ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً(٩٩) قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً)(١٠٠)

قوله تعالى : (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء) أي أنصارا (من دونه) أي من دون الله عز وجل (ونحشرهم يوم القيامة) عند قيامهم عن قبورهم (على وجوههم) أي كائنين عليها إما مشياً بأن يزحفوا منكبين عليها ، واما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها كقوله تعالى (يوم يسحبون في النار على وجوههم) (عمياً وبكماً وصمّا ، مأويهم جهنم كلما خبت) أي سكن لهيبها (زدناهم سعيراً ذلك) العذاب الشديد المنتقل إلى الأشد عذابهم المقرر لهم على هذا المنهج الذي لا يتبدل ولا يتخفف (بأنهم) أي بسبب أنهم (كفروا بآياتنا)

البينات النازلة في كلام العليم الخلاق والواضحة بالنظر في أنفسهم أو في الآفاق (وقالوا) في بيان كفرهم : (أإذا كنا عظاما ورفاتا) أي عظاما باليات متفرقات (أإنّا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) مستأنفا لعالم ثان من الزمان .

ثم يقول الباري جل شأنه مستنكراً إستفهامهم الإنكاري (أولم يروا) أي أولئك الكفار المنكرون للبعث والخلق الجديد (أن الله الذي خلق السماوات والارض قادر على أن يخلق مثلهم) من الانس والجن حتى يحشرهم ويحاسبهم فيثيبهم أو يعاقبهم . (وجعل لهم أجلا) أي وجعل لإعادتهم بخلق جديد وقتا معينا محدودا (لا ريب فيه) ولا شبهة في تحققه ووجوده (فأبى الظالمون إلا كفوراً) وإنكاراً لتلك الإعادة .

ثم ظاهر الآية الكريمة أن الكفار أنكروا إعادتهم يوم القيامة على معنى جمع أجزائهم المتفرقة وإفاضة الحياة عليها كما كانت في الدنيا فرد عليهم بطريق برهاني هو أن الله قادر على خلق السماوات والارض ، وكل قادر على ذلك قادر على إعادة الأجزاء المتفرقة فيما عدا من أخبرَ الصادقُ بعدم تفرق الأجزاء له بعد الموت كالأنبياء والرسل الكرام ، ومن لم يعمل خطيئة قط والمؤذنين احتسابا والشهداء في القتال لإعلاء كلمة الله ونحوهم ممن حُرِمَت أجسادهم على الأرض ، وتلك الأجزاء هي الأجزاء الاصلية الحاصلة في أول الفطرة حال نفخ الروح ، وهي عندهم محفوظة من أن تصير أجزاءً لبدنٍ آخرَ فضلا عن أن تصير أجزاءً أصليةً له ، وذكر المثل إما جارٍ على طريقة (مثلك لا يبخل) أي أنت لا تبخل . أو المراد به المماثلة في التركيب والشكل . وذهب بعض إلى أن الباقي في من عدا من لا يبلى هو عَجبُ الذنب الذي في آخر سلسلة الفقرة الظهرية ، ويعاد عليه أمثالُ ما كان موجوداً في أعدل أوقاته في الحياة ، والمماثلة ظاهرة بين المخلوق الجديد والمخلوق الفاني ، وحقيقة الإنسان هي كما كانت بلا تبدل . ولو نظرنا

الى الأدلة الكثيرة الواردة في أن نشوء أهل السعادة على وجه أحسن وأملح مما كان بحيث يتعجب من حسنه ، وأن نشوء أهل الشقاوة على وجه يكون أفظع وبعيدا عن الحسن والملاحة ، لقلنا أن الله سبحانه يعيد الإنسان على ما كان يريد أن يعيده بجمع أجزائه الاصلية كلها أو بعضها ، وخلق صورة أخرى مثل ما كانت في الدنيا تركيبا ، وإن كانت أحسن نضارة ونظارة وجمالا وملاحة ، أو كانت أبعد صورة من الجمال والحسن والنضارة بحيث تناسب حال الشقاوة ، وذلك يكون موافقا لتلك الأدلة الواردة في الموضوع .

(قل) يا أيها المنكرون للرسالة ونزول القرآن على بشر مثلكم يهدي المكلفين إلى الحق والحاسدون على أولئك الناس الموهوبين الذين أنزل الله عليهم رحمته إنما أنتم تقيسون أحوال الغيب على الشهادة ، وتنظرون إلى ألطاف الباري على عباده نظركم الى بخلكم بالخير والإحسان والإفاضة ، وذلك قياس سقيم عقيم (لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) أي خشية الفقر ونفاد الخزائن ، وأما الباري سبحانه وتعالى لو أعطى كل مكلف في الدنيا مقدار ما لا يدخل في العد والإحصاء فهو قادر على ذلك ولا يخشى إقلالا ونفادا ، ولذلك خص الأنبياء والمرسلين بهبات كثيرة وعطايا وفيرة ، وخص عبده المختار محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببعثه رحمة للعالمين ، وإنزال القرآن عليه وإبقاء دينه إلى يوم الدين . (وكان الإنسان قتورا) أي ممسكا بخيلا ، وأما الباري سبحانه وتعالى فلم يزل ولا يزال ولن يزال كريماً جليلاً .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ ، فَقالَ لهُ فِرْعَوْنُ : إِنِّي لأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً(١٠١) قالَ : لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤلاءِ إلاَّ ربُّ

السَّماواتِ وَالأَرْضِ بَصائِرَ وَإِني لأظُنُّكَ يا فِرعَونُ مَثْبُوراً(١٠٢) فَأَرادَ أنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأرْضِ فَأغْرَقناهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعاً(١٠٣) وقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي اِسْرائِيلَ : اسْكُنُوا الأَرْضَ ، فإذَا جاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً(١٠٤) وبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبِالْحقِّ نَزَلَ ، وَما أَرسَلناكَ إلاَّ مُبَشِّراً ونَذِيراً)(١٠٥)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أي تسع أدلة واضحات الدلالة على نبوة موسى ـ عليه السلام ـ وصحة ما جاء به من عند الله تعالى • وفي تعيين هذه الآيات التسع أقوال : فمن المفسرين من قال : هي العصا ، ثم الضفادع ، ثم القمل ، ثم موت البهائم ، ثم بردٌ كنار أنزل مع نارٍ مضطرمة أهلكت ما مرت به من نبات وحيوان ، ثم جراد ، ثم ظلمةٌ ، ثم موتٌ عم كبار الآدميين وجميع الحيوانات • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد والقمل، والضفادع ، والدم والتنين ، ونقص من الثمرات • وروي غير ذلك • (فاسئل بني إسرائيل إذ جاءهم) فقلنا له سلهم عن فرعون ليرسلهم معك ، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسال على صيغة الماضي بغير همز وهو لغة قريش • أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم • (فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) أي سُحِرْتَ فتخبط عقلك • (قال) موسى ـ عليه السلام ـ ردا لقول فرعون : (لقد علمت) يا فرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات التسع أو جنسها ولو في البعض وهذا أظهر ، اذ لم تنزل الآيات كلها إذ ذاك (إلا رب السماوات والارض) أي خالقهما القادر على

ما أراد حالكونها (بصائر) تبصرك صدقي (وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) أي مصروفا عن الخير .

(فأراد) فرعون (أن يستفزهم من الأرض) أي يخرج موسى ومن معه من قومه من أرض مصر التي هم فيها (فأغرقناه ومن معه جميعا) أي فعكسنا عليه مكره ، فإنه أراد إهلاك موسى وقومه وبقاء نفسه وأتباعه من الأقباط فأهلكنا فرعون وقومه ونجينا الآخرين (وقلنا) على لسان موسى ـ عليه السلام ـ (من بعده) أي من بعد فرعون (لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) التي أراد فرعون أن يستفزكم منها وهي أرض مصر ، وهذا إن ثبت أنهم دخلوا أرض مصر بعد ذلك أو المراد بالأرض الأرض المقدسة وهي أرض الشام ومعناه حينئذ التمكين من الإستيلاء على الارض المقدسة والبقاء فيها كما تحققت في زمان يوشع ـ عليه السلام ـ . (فإذا جاء وعد الآخرة) أي وعد الحياة الآخرة أي قيام الساعة (جئنا بكم لفيفا) أي مختلطين مع من قابلكم وعاداكم حتى تعلموا ماذا نعمل بهم يوم الحساب والميزان والعذاب (وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل) عاد إلى بيان حال القرآن الكريم بعد بيان أحوال الناس على اختلافها، فقال وبالحق أنزلناه أي أنزلنا القرآن إنزالا متلبسا بالحكمة والصيانة حتى لا يشوبه شيىء مما يخالفه ، وبالحق نزل كذلك (وما أرسلناك إلا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي بالعقاب .

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ : آمِنُوا بِهِ أَوْلا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ : سُبْحَانَ رَبِّنَا ! إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩) قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ،

أَيّاًمَّا تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً)(١١١)

قوله تعالى (وقرآنا فرقناه ...) منصوب على قاعدة الإشتغال ، أي وفرقنا قرآنا فرقنا آياته بين أمر ونهي ، وحكم ، وأحكام ، ومواعظ ، وأمثال ، وقصص ، وأخبار مغيبات أتت ... (لتقرأه على الناس على مكث) أي على تدريج ومهلة ، فإنه أيسر لفهم المعنى وحفظ المبنى ، والإحتواء على أسراره المكنونة ، وأحكامه المقصودة (ونزلناه) في مرات كثيرة (تنزيلا) على حسب الحاجة للجواب عن السؤال ، ولبيان أحكام الحرام والحلال والوعد والوعيد في الامتثال والإحتيال (قل) للذين كفروا : (آمنوا به أو لا تؤمنوا) سواء عندنا (فإن الذين أوتوا العلم من قبله) أي العلماء الذين قرأوا الكتب السابقة في النزول ، وعرفوا حقيقة الوحي وعلموا بنبوتك ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزول القرآن عليك (إذا يتلى) القرآن (عليهم يخرون للأذقان) يسقطون عليها بسرعة حالكونهم (سُجَّداً) أي ساجدين لله تعظيما له تعالى ، أو شكرا للوفاء بوعده تعالى بإنزاله عليك .

وفسر الخرور للأذقان بالسقوط على الوجوه ، والسجود ، وإن كان على الجبهة والأنف ، لكنه ذكر الأذقان لإفادة المبالغة في سجودهم وتحاملهم على الوجه والأنف أي أنهم يتحاملون على الجبهة والانف بحيث يلتحق بهما الاذقان وتكون مساوية لهما في وقوع الاعتماد عليها . والآية نزلت في عبدالله بن سلام وأتباعه الذين دخلوا في الاسلام بإخلاص تام . (ويقولون)

في سجودهم : (سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إنه كان وعده ببعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونزول القرآن عليه محققا (ويخرون للأذقان يبكون) فرحة بإنجاز الوعد السعيد المنيد لكل مسعود الموصل إلى أهم مقصود (ويزيدهم) بكاؤهم (خشوعا) فإن البكاء إذا كان عن حرارة القلب يجر إلى مزيد من الخشوع ، أو يزيدهم القرآن الكريم بسماحهم له خشوعا لله تعالى .

(قل ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا) أيْ أيَّ واحدٍ من الاسمين تدعو ذاته به (فله الأسماء الحسنى) روي أنه صلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه : ياالله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين ، فنزلت . وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم فدعا الله تعالى فقال في دعائه : يا ألله هذا الاسم فنزلت . والمراد على الأول التسوية بين اللفظين ، فإنهما يطلقان على ذات واحدة ، وإن اختلف الإعتبار والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق . وعلى الثاني أنهما متساويان في حسن الإطلاق والإيصال الى المقصود . والدعاء في الآية بمعنى التسمية ، وهو يتعدى الى مفعولين ، حذف أولهما استغناء عنه ، و (أو) للتخيير ، وأيا اسم شرط وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، و (ما) صلة لتأكيد ما في أي من الإبهام والضمير في قوله (فله) راجع إلى المسمى المستفاد من المقام ، لأن التسمية له لا للاسم ، وكان أصل الكلام : أياما تدعو فهو حَسَن لأن له الأسماء الحسنى أي وكل منها تعبير عن ذات الواحد الواجب الوجود والمغايرة في اعتبار الاوصاف المفهومة منها ، أو أياما تدعو فهو حسن لعدم الفرق بالحقيقة بين اسم الله واسم الرحمن ، فاستعمال كل منهما حسن تساويا في الإستعمال أو تخالفا

فيه بأن تكثر الاول وتقل الثاني ، أي ومادام له الأسماء الحسنى فقل : يا الله أو يا رحمن ، أو يا رحيم ، أو يا ملك ، أو يا قدوس ... وهكذا إلى آخرها . وهي تسعة وتسعون كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » أي من ضبطها وتلفظ بها وذكر الله تعالى بها مؤمنا بمعناها وثبوتها للذات الجليلة دخل الجنة .

واعلم أن تلك الأسماء ، وان كان كلها دالة على ذات الباري تعالى ومتساوية في ذلك ، لكن فيها الاسم الأعظم ، وفي تعيينه أقوال : روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع رجلا يدعو وهو يقول : ألهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده لقد سأل الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى » وروي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وفاتحة آل عمران : الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ونص حجة الإسلام الغزالي في كتابه المقصد الأسنى على أن لفظ (الله) أعظم الأسماء التسعة ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها وسائر الأسماء لا يدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص الاسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا ، وسائر الاسماء قد يسمى به غيره عز وجل ، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها . واسمه تعالى الرحمن لا يطلق على غيره تعالى ، وهو من هذا الوجه قريب من اسم الله سبحانه ، وإن كان مشتقا من الرحمة قطعا ، ولذا جمع عز وجل بينهما في قوله سبحانه (قل ادعو الله أو ادعو الرحمن) إنتهى .

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا) أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : نزلت ورسول الله مختف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله تعالى لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ولا تجهر بصلاتك) أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تُسمِعُهُمُ القرآنَ حتى يأخذوه عنك (وابتغ بين ذلك سبيلا) أي وسطا بين الجهر والمخافتة ، وظاهره أن المراد بالصلاة القراءة التي هي أحد أجزائها مجازا . (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصاري وبنو مليح ، حيث قالوا : عزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ! (ولم يكن له شريك في الملك) وهذا رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية . ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون ردا على الوثنية . (ولم يكن له ولي من الذل) أي ناصر ومانع له عن الذل لاعتزازه بنفسه ، أو لم يتخذ وليا يواليه لكونه ذليلا يعتز بمناصرتهم ، حيث يستحيل أن يعتريه الذل وهو ذو الجلال والإكرام (وكبره تكبيرا) والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال . روى غير واحد أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يعلم الغلام من بني عبدالمطلب اذا افصح الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات ، وسماها ــ صلى الله عليه وسلم ــ آية العز كما أخرج أحمد والطبراني عن معاذ ــ رضي الله عنهم ــ ، وأخرج أبو ليلى عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : خرجت أنا ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويدي في يده فأتى عَلى رجلٍ رَثّ الهيئة فقال : « أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال : السقم والضرّ . قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ

: « ألا أُعَلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ ؟ توكلت على الحـي الذي لا يموت ، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا » الآية فأتى عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد حسنت حالته فقال : «مهيم ؟» فقال لم أزل أقول الكلمـات التي علمتنـي •

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفـَرج ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن إسماعيل ابن أبي فديك ، قال قال رسول الله : « ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد قل : توكلت على الحي الذي لا يموت ، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك" في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا » • واخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها : « إذا أخذتِ مضجعك فقولي : الحمد لله الكافي ، سبحان الله الأعلى ، حسبي الله وكفى ، ما شاء الله قضى ، سمع الله لمن دعا ، ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجا، توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم • الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، وكبره تكبيرا » • ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما من مؤمن يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره » • وهذه من المأثورات ، ومن قرأها إنتفع بهـا بإذن الله رب العالمين •

سورة الكهف ، مكية ، وهي مائة وعشر آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الَّذي أَنزَلَ على عَبْدِهِ الْكِتَابَ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً(١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بأساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ الْمؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْملونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراًحَسَناً(٢) ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً(٣) ويُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا : اتَّخذَ اللهُ وَلَداً(٤) ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلمْ ، وَلاَ لآ بائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، اِنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِباً(٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ اِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً(٦) اِنَّا جَعَلْنا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ اَحْسَنُ عَمَلاً(٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً)(٨)

قوله تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) أي كل فرد من أفراد الحمد والثناء الوارد من كل فرد من أفـراد الحامدين ، أو جنس الحمد وماهيته ، أو الحمد المعين المعهود الذي حمد الله تعالى به ذاته (لله

الذي) أنعم على أفراد المكلفين وغيرهم بأن (أنزل على عبده) المعين المخصوص المضاف إلى ربه إضافة معنوية (الكتاب) الكامل الذي امتاز بأن ينزل لاستيعاب أحكام الدين الإعتقادية والعملية الأصلية والفرعية (ولم يجعل له) أي لذلك الكتاب (عوجا) أي شيئا من العوج والاختلال لفظا بمخالفته لأصول الفصاحة ومعنى بمخالفته لاصول البلاغة وتناقض المعنى أو عدم تناسبه مع واقع حاجة المكلفين المنصفين المتصفين بالإعتدال في القوى الثلاث : الشجاعة ، والعفة ، والحكمة (قيما) على سائر الكتب السماوية شاهدا بصحتها ، أو قيما على مصالح العباد باحتواء حاجات المعاش والمعاد ، وقد أنزله الله تعالى (لينذر) العباد (بأسا شديدا) صادرا (من لدنه) على من خالفه بأن كفر به ، أو آمن ولكنه خالف أحكامه (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) أي ويبشر من جمع بين الإيمان به وإطاعة أحكامه (أن لهم أجرا حسنا) هو نعيم الجنة الخالدة حالكونهم (ماكثين) مقيمين (فيه) أي في ذلك الأجر (أبدا) من دون الإنقطاع والإنتهاء (وينذر) بالأخص الكافرين (الذين قالوا اتخذا الله ولدا) كبني حريث المعتقدين بكون الملائكة بنات الله واليهود القائلين بأن عزيرا ابن الله والنصارى المدعين أن المسيح ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيراً .

(مالهم به) أي باتخاذ الولد (من علم) حتى يكون اعتقادهم ناشئا عن معرفة (ولا لآبائهم) المؤسسين لهذه الإعتقادات الفاسدة حتى يكون تقليدهم لهم في ذلك تقليدا سديدا رشيدا ، وإنما اعتقادهم بذلك سفه على سفه وظلمات بعضها فوق بعض (كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم) أي عظمت مقالتهم تلك في الكفر والضلال إذ فيها نسبة غير معقولة وغير مقبولة ، حيث لا مناسبة بين واجب الوجود الموصوف بالكمال والممكن المعروف بالنقص والاختلال ، حتى يزعم زاعم أن الواجب محتاج إلى هذا الممكن ، وأن

التناسل والحاجة إليه موقوف على قبول المحتاج للفناء واحتياجه الى ما يبقى به نوعه ، والواجب تعالى حي قيوم لم يزل ولا يزال ولن يزال • وصيغة كبر بضم العين ، وكل ما كان على منوالها كظرف ، أو محولاً من وزن فعل بفتح العين أو كسرها تفيد المبالغة وتلحق بباب التعجب • ففاعل (كبرت) هنا ضمير راجع إلى المقالة السابقة (وكلمة) منصوب على التميز ومابعدها صفتها، أي كبرت تلك المقالة كلمةً تخرج من أفواههم•والعبارة في قوة ماأكبرها كلمةً خارجة من أفواههم ، وذلك قول المبرد والأخفش • وأمّا أكثرُ النحاة فعلى إلحاقها بباب نعم وبئس ، وأثبت لها جميع أحكامها • فكبرت هنا بمعنى بئس ، وفاعلها راجع إلى التميز بعده ، وتخرج صفته على جواز الصفة للتميز أو صفة للمخصوص بالذم المحذوف • وقوله تعالى (إن يقولون إلا كذبا) أي ما يقولون في ذلك الموضوع إلا قولا كذبا ، تصريح بأن الجملة السابقة لإنشاء الذم ولا شيىء أحق بالذم من الإفتراء على الله رب العالمين •

وقوله تعالى (فلعلك باخع نفسك) بيان لواقع حال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من تأسفه وتأثره على إصرار المشركين واستمرارهم في الكفر وإنكار ذلك الهادي إلى الصواب وتسليته بما بعدها من بيان فناء الدنيا ورجوع الناس إليه تعالى ويقول له بحسن الخطاب : (فلعلك) يا أيها الرسول الرؤوف الرحيم (باخع نفسك) ومهلكها (على آثارهم) أي من بعدهم على إصرارهم على الكفر وتوليهم عن الإيمان (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي بهذا الكتاب المنزل عليك (أسفا) منصوب على كونه مفعولا له لقوله (باخع) ويقول له (إنا جعلنا ما على الأرض) من كل ما يبصر بالعين ويدرك بالعلم ويستخرج ويستفاد منه (زينة لها) تتزين به وتمتاز به من سائر الأشياء يتنعم بها الإنسان (لنبلوهم) ونختبرهم بها

(أيهم أحسن عملا • وإنا لجاعلون ما عليها) من تلك الزينة (صعيدا) أي ترابا (جُرُزاً) لا نبات فيه ، فمآلها إلى الفناء وبعد فناء هذه الزينة ومن تنعم بها يرجع الكل الى اللقاء والحساب وينال كل ما يستحقه وما أشقى من تعس بالشقاء ، وما اَسْعَدَ من سعِد بحسن المواجهة واللقاء •

(اَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آيَاتِنا عَجَباً(٩) اِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الْكَهْفِ فَقالُوا : رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ اَمْرِنَا رَشَداً(١٠) فَضَرَبْنَا عَلىآذانِهِمْ فِيالْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً(١١) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ اَيُّ الحِزبَيْنِ اَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً)(١٢)

قوله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن الكريم للإنذار والتبشير وجمع المكلفين على الإيمان بالله وحده ، وأن الدنيا وزينتها آيلتان إلى الفناء ، وأن الباقي هو الباقيات الصالحات •• أتى بذكر أصحاب الكهف الذين آمنوا بربّهم وتركوا الدار والديار لعبادة الواحد القهار ، فعاملهم الله تعالى بالكرامة وذكر آثارهم في العصور مرّ الليل والنهار ، وبذكر أصحاب الرقيم الذين ابتلاهم الله تعالى في الغار فنجاهم ببركة أعمالهم الصالحة ، وقال (أم حسبت) والخطاب لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمقصود جميع المكلفين الفاهمين للآيات • وأم منقطعة مقدرة ببل التي هي للإنتقال هنا من غرض لا للإبطال • أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا في بقائهم ونجاتهم وثمرات إخلاصهم عجبا ذات عجب ، لا بل كل آية من آياتنا الكونية في أسرارها واتقانها وحكمتها مما يتعجب منه لكن الناس لا يتعجبون إلا مما يخالف العادة المستمرة وإلا فجميعها آيات من مهمات الآيات (صنع الله الذي اتقن كل شيىء) •

ثم إن من المفسرين من قال : إن أصحاب الكهف والرقيم عبارة عن طائفة واحدة بدليل أنه بعد أن ذكر الله تعالى أصحاب الكهف لم يذكر عن أصحاب الرقيم شيئا ، والمحققون منهم على أن أصحاب الكهف قوم وأصحاب الرقيم جمع آخرون . وقصتهم مروية في الصحيحين وغيرهما فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر ، فأَوَوا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ ، فليدعُ كلٌّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه ، فقال واحدٌ منهم : أللهم إن كنتَ تعلمُ أنه كان لي أجير عمل على فرق من أرز فذهب وتركه ، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً ، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت : إعمد إلى تلك البقر فَسُقْها . فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرُزٍّ، فقلت : إعمَدْ إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرَقِ ، فساقها ! فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرّج عنا ! فانساخت عنهم الصخرة .

فقال الآخر : أللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، فكنت آتيهما كلَّ ليلة بلبن غنمٍ لي ، فأَبطأتُ عليهما ليلة ، فجئت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاعون من الجوع ، فكنت لا أسقيهم حتى يشربَ أبواي فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدَعهما فيستكينا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ! فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها فأبَتْ ، إلاّ أن آتيها بمائة دينار ، فطَلَبتُها حتى قدرْتُ فأَتيتُها بها ، فدفعتُها إليها فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت

بين رجليها ، قالت اتق الله تعالى ولا تَفُضّ الخاتم إلا بحقه ! فقمت وتركت المائة دينار . فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك فَفرج عنا ! ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا » . وروي نحو ذلك عن ابن عباس وانس والنعمان بن بشير ، كلّ يرفعه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

والرقيم على هذا بمعنى محل في الجبل . وقيل : بمعنى الصخرة . وقيل بمعنى الجبل . ويكون ذكر ذلك تلميحا الى قصتهم وإشارة الى أنه تعالى لا يضيع عمل أحدٍ خيراً أو شراء ذلك أصحاب الرقيم كما في الصحاح .

وأما أصحاب الكهف فهم كما في الآية الكريمة فتية" شباب" ، وكانوا من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا وهربوا خوفاً منه الى الكهف كما قال سبحانه وتعالى (إذ أوى الفتية الى الكهف) واتخذوه مأوى وملجأ لهم . والفِتية جمع قلةٍ لفتىً (فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي رحمة عظيمة بالستر والصيانة عن الملك وأتباعه في الدنيا وبالعفو والمغفرة والدرجة في الآخرة (وهيىء لنا من أمرنا) الذي نحن عليه من مهاجرة الملك وأعوانه الكافرين (رشَدا) أي إصابة ووصولا الى الطريق الموصل الى المطلوب (فضربنا على آذانهم في الكهف) أي فجعلنا على آذانهم سترة وحجابا مانعا من استماع الأصوات وأنَمناهُم براحة وهدوءٍ (سِنين عَدَداً) أي سنوات متعددة أي ذوات عدد كما يأتي في الآية .

روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن ملكا من الملوك يقال له (دقيانوس) ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها (أفسوس) وقيل : هي (طرسوس) وكان بعد زمن عيسى ـ عليه السلام ـ . فأمر بعبادة الأصنام، فدعا أهلها إلى عبادتها ، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله تعالى سرا ، فرفع خبرهم الى الملك وخافوه فَهَرَبوا ليلاً ، ومروا براع مَعَه كلب

فتبعهم ،فأَوَوا الى الكهف ، فتبعهم الملك إلى فم الغار فوجدَ أثرَ دخولهم ولم يجد أثرَ خروجهم ، فدَخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا هذا •

(ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من منامهم (لنعلم أي الحزبين) أي منهم وهم القائلون لَبثنا يوماً أو بَعْضَ يومٍ ، والقائلون ربكم أعْلَم بما لبثتم (أحْصى) فعل ماض أي ضبط ، وفاعله ضمير راجع الى أي ، وما في قوله تعالى (لما لبِثوا) مصدرية والجار والمجرور حال مقدم عن قوله تعالى (أمدا) وهو مفعول أحصى ماضي افعال • والأمد الزمان المحدود • وقيل : أحصى اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد بناء على ما اختاره سيبويه من جواز بناء أفعل التفضيل والتعجب من المزيد بحذف الزوائد ، أي أكثر جمعاً وضبطاً له • وأمَداً نصب بفعل دل عليه أحصى لا به لأنه لا ينصب المفعول بـه إلا على قول ضعيف ، ويجوز أن يكون نصبه على كونه تميزا •

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحقِّ انهم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَدْنَاهُمْ هُدًى(١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلوبِهِمْ إذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً(١٤) هؤلاءِ قَوْمُنا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلاَ يأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ ! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْترى عَلَى اللهِ كَذِباً ؟!(١٥) وَاِذ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إلاَّ اللهَ فَأْوُوا إلىالْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِنْ اَمْرِكُمْ مِرْفَقاً(١٦) وَتَرى الشَّمسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ ، وَاِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ

منْ آياتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِداً(١٧) وَتَحْسبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً)(١٨)

قوله تعالى : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أي نحكي لك خبرهم وما كان منهم بالوجه المطابق للواقع : (إنهم فتية) جمع فتِيٍّ كصبي وصبية (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) بالتثبيت (وربطنا على قلوبهم ، إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والارض) أي قوينا قلوبهم حين قاموا بين يدي الملك وعارضوه وقالوا ربنا رب السماوات والارض وحده لا شريك له (لن ندعوَ من دُونهِ إلهاً) لا بالإستقلال ، ولا مع الخالق المعبود الموصوف بالكمال (لقد قلنا إذاً شططا) أي والله إذا دَعونا من دونه إلها قد قلنا قولاً ذا شطط وبعد عن الحق مفرطٍ في التجاوز على حق الربوبية (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة) على وجه السفه ومخالفة الحق بدون أي دليل (لولا يأتون عليهم) أي على عبادتهم (بسلطانٍ بينٍ) بدليل واضح يفيد مدعاهم الفاضح ، فإن الإعتقاد بدون دليل يهدي للرشاد فساد ماوراءه فساد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) بنسبة الشريك أو الشركاء إليه .

ولما قاموا وقالوا ذلك أمهلهم الملك مدةً وجيزة لإعادة النظر في أحوالهم ولما خرجوا من عنده تشاوروا فيما بينهم بأنهم إذا بقوا عند الملك والقوم المشركين صاروا من الهالكين وقالوا (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلاّ اللهَ) أي وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم الإشراكية الفاسدة (فأووا الى الكهف) تختفوا عن أعينهم وان احتجتم الى الطعام والشراب أو الى مخرج

من الاعداء (ينشر لكم ربكم من رحمته) من كل الجهات (ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً) ماترتفقون وتنتفعون به بحيث لا تقعون في عسر لا يطاق ، فإن الله وعدَ من هاجر اليه بالسعة في المعيشة ، والبسط في الحال ، والسعادة في المآل .

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم) أي تعدل وتتجاوز عنهم . والفجوة : المتسع والمحل الواسع . وبيان الآية الكريمة : أن الكهف كان بحيث قابل بابه بنات النعش الصغرى التي فيهن كوكب القطب المسمى بالجدي ، وأقرب المشارق الى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه . والشمس اذا كان مدارها مداره طلعت مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن ، وهو الذي يلي المغرب وغربت محاذية لجانبه الايسر ، وهو الذي يلي المشرق فيقع شعاعها على جنبه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم ، وتبلي ثيابهم ، ولعل ميل الباب الى جانب المغرب كأن اكثر ، ولذلك وقع التزاور على كهفهم ، والقرض على أنفسهم . وقال الزجاج : ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله تعالى الشمس بقدرته عن أن تصيبهم على منهاج خرق العادة كرامة لهم واحتج عليه بقوله (ذلك من آيات الله) أي ذلك الوضع الثابت للشمس بالنسبة اليهم من آيات قدرة الله تعالى (من يهد الله) أي الى الإيمان بها (فهو المهتد ، ومن يضلل) ولم يؤمن بها (فلن تجد له وليا مرشدا) يهديه الى الحق ويخلصه من الضلال .

(وتحسبهم) أي أصحاب الكهف (أيقاظا) أي غير نائمين لانفتاح عيونهم على هيئة الناظر (وهم رقود) أي والحال أنهم رقود أي نائمون حقيقة (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) أي ونقلبهم في حال رقدتهم إلى جهة أيمانهم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) الكلب هو الحيوان المعروف.

والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسط • (وذراعيه) منصوب على أنه مفعول به وعمل فيه (باسط) مع أنه اسم فاعل بمعنى الماضي لأن المراد هنا حكاية الحال الماضية فكأنه يراد به الحال (والوصيد) موضع الباب ومحل العبور من الكهف • وقوله (لو اطلعت عليهم) أي لو عاينتهم وشاهدتهم ، وأصل الإطلاع الوقوف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة • وقوله (لوليت منهم فرارا) أي لأعرضت بوجهك عنهم فاراً (ولملئت منهم رعبا) أي لملئت منهم خوفا يملأ الصدر • ونصب رعبا على أنه مفعول به ثان ، والمفعول الاول صار نائبا للفاعل بعد تحويل الفعل الى المجهول • وحاصل المعنى أنهم كانوا في الكهف نائمين على شكل خاص ، وكلبهم في معبر الكهف موجود متيقظ للحراسة • وهيئتهم من كثرة الشعور والمنام على وجه قرب بعضهم من بعض في ذلك المحل كانت مخوفة مدهشة ، فكنت لو شاهدتهم فيه أيها المشاهد لأعرضت عنهم دهشة وقلقا ، ولملئت منهم رعبا وخوفا ، وكنت تلوذ بالفرار من المحل •

(وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَساءَلوا بَيْنَهُمْ قالَ : قائِلٌ منهم : كَم لبِثْتُمْ ؟ قالوا : لَبِثْنا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ • قالُوا : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا اَحَدَكُمْ بوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً ، فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ، وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشعِرَنَّ بِكُمْ اَحَداً(١٩) اِنَّهُم اِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا اِذاً أَبَداً)(٢٠)

قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) أي وكما أنمناهم في الكهف بعثناهم فيه من المنام والغاية المترتبة على البعث أشياء ، منها : أنه

يسأل بعضهم بعضا عن مدة منامهم ولبثهم في الكهف ، ليترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة (قال قائل منهم : كم لبثتم ؟) هنا والسائل كبيرهم مكسلينا. (قالوا) : أي قال بعض منهم في الجواب (لبثنا يوما أو بعض يوم) والمراد أنه لم يتحقق لنا مقدار لبثنا ، أي لا ندري أن مدة ذلك هل هي مقدار مدة يوم أو مقدار مدة بعض يوم منه . والظاهر أن هذا القول المردد فيه كان في أول انتباههم قبل أن تزول عنهم غفلة النوم حتى ينظروا الى الأمارات الدالة على الوقت المحدد (قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم) أي وقال بعض آخر منهم بعد النظر إلى الامارات الدالة على طول مدته من طول الاشعار وتغير وضع المحل القول المذكور ، أي انتم لا تعلمون مدة لبثكم والعلم عند الله تعالى .

وبعد ان ظهر لهم أن المدة غير معلومة وكانوا في حال المنتبه المتأثر بطول الزمان من الجوع ورخاوة الجسد والحاجة الى المعونة (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) المعهودة لنا التي خرجوا منها . ويقال أنها كانت مدينة طرسوس في محافظة الاسكندرونة القريبة من (سورية) . والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة (فلينظر أيها أزكى طعاماً) أي أنظف على أصول الدين ، وأطيب من حيث الطراوة (فليأتكم برزق منه) أي من نوع ذلك الطعام الأزكى (وليتلطف) أي وليبالغ في لطف الكلام ولين الجانب وإعطاء البدل (ولا يشعرن بكم أحدا) أي لا يفعلنّ مايؤدي الى شعور الناس بكم وبأنكم من أهل المدينة ومن المختفين عن الملك (إنهم إن يظهروا عليكم) أي يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأنتم أولئك الناس المخالفون لقوانين ذلك الوقت (يرجموكم ، أو يعيدوكم في ملتهم) أي جعلوا شأنكم دائراً بين أحد أمرين لا ثالث لهما وهو : إما الرجم بالحجارة حتى تموتوا ، او الإعادة وإرجاعكم الى ملتهم التي هي عبادة الاصنام (ولن تفلحوا إذا أبدا) أي إن عدتم الى ملتهم بعد أن خلصتم منها لن تفوزوا

بفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة ،لأنكم ، وإن عدتم اليها بالإكراه ، لكنه بعد ذلك تستحسنون ما هم عليه ، واستحسان الكفر كفر" بواح" مانع عن الفلاح ، أما في الدنيا فلذهاب أعماركم في الكهف وورود الخزي عليكم خزياً تأريخيا يوجب ذكركم بالسوء مادامت الدنيا باقية • وأما في الآخرة فلموتكم على الكفر وابتلائكم بالنار فلا مآل لكم إلا العارُ والنارُ •

(وَكذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا اَنَّ وَعْدَ اللهِ حَق" ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فيها ، إذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالوا : ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً ، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى اَمْرِهِمْ : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً(٢١) سيَقُولُونَ : ثلثَة" رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : خَمسَة" سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ، رَجْماً بِالْغَيْبِ ، وَيَقولُونَ : سَبْعَة" وثامِنُهُمْ كلْبُهُمْ • قُلْ رَبِّي : أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيل"، فَلا تُمارِ فِيهِمْ إلاَّ مِراءً ظَاهِراً ، وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (٢٢) وَلا تَقُولَنَّ لشَيْىءٍ إنِّى فاعِل" ذلِكَ غَداً(٢٣) إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ ، وَقُلْ : عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ ربِّي لأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَداً(٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاثَ مِأةٍ سِنِينَ وازْدادُوا تِسْعاً(٢٥) قُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالأَرْض ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)(٢٦)

قوله تعالى : (وكذلك أعثرنا عليهم) أي وكما نجيناهم من الملك القاهر وآويناهم الى الكهف وحفظناهم فيه من المؤذيات ، وأنمناهم المدّة الطويلة وبعثناهم لتزداد بصيرتهم وقوة إيمانهم بربهم (أعثرنا عليهم) الناس وأطلعناهم

عليهم (ليعلموا) أي ليعلم أهل المدينة الذين اطلعوا عليهم (أن وعد الله) بالبعث بعد الموت حق (وان الساعة لا ريب فيها) لأن استنكار البعث انما هو استنكار لأمرٍ بعيد حسب العادة . وتلك الأحوال الواردة على أولئك الاصحاب الفارين بدينهم من قدرتهم على معارضة الملك ، وخلاصهم منه ، وفرارهم الى الكهف ، وصيانتهم من اتباع الملك وسترهم عنهم ، وصيانتهم في ذلك الكهف ، وإنامتهم تلك المدة الطويلة بلا عروض فساد في أجسادهم ، ولا غلبة السباع والحشرات عليهم ... كل ذلك أمر بعيد في مجاري العادة ومستنكر الوقوع ، لاسيما إنامتهم تلك المدة وصيانتهم من العوارض . وقوله تعالى (إذ يتنازعون) ظرف لقوله (أعثرنا) أي أعثرنا الناس وأطلعناهم عليهم وكشفنا لهم بعض أحوالهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) أي أمر دينهم ومآل حالهم عند البعث والنشور . فمنهم من يقول المعاد روحاني فقط ولا تعاد الأجساد معها ، فيكون عالم الآخرة كعالم الرؤيا في النوم فبعض الناس في راحة وبعضهم في عذاب وبعضهم يقول : المعاد روحاني وجسماني معاً .

ولما علموا بأحوال أصحاب الكهف وأنهم انتبهوا بعد النوم في المدة الطويلة بلا خَلل وملل علموا أن البعث في الآخرة يكون بالأرواح والاجساد، وأن عالمها عالم" جسماني وروحاني عيني" خارجي" أو يتنازعون بينهم أمر أولئك الفتية الفارين بدينهم الى الجبال والكهوف فهل سترهم الله وحفظهم من ذلك الملك الظالم وماذا جرى عليهم في الكهف هل ماتوا هناك وتفتتوا وتمزقت أجسادهم أو حفظهم الله تعالى بوجه من الوجوه التي أراد أن يلطف معهم بها ؟ فلما أعثرناهم على أحوالهم علموا أن تلك الواقعة كانت واقعية ، وأنهم دخلوا الكهف وكفاهم ربهم بكفايته ووقاهم بوقايته وحفظ أجسادهم في منامهم الطويل ، ثم بعثهم على الصحة الإعتيادية حتى يتبينوا أن وعد

الله بالبعث والنشور والساعة حق لا ريب فيه ، وأن الله على كل شيء قدير أو يتنازعون فيهم بعد الإطلاع على أحوالهم وموتهم ثانية فقالت طائفة نبني عليهم بنيانا يسكنه الناس فيصير المحل قرية عامرة على تلك الذكريات الحسنة • وقال آخرون لا بل نتخذ عليهم مسجدا ليسكن فيه من أرادَ السكون فيه ويعبد ربه كما قال تعالى (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا) وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة وهي إما قول الله تعالى ردا على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين ، أو من المتنازعين فيهم في زمانهم أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

حكي أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم (دقيانوس) اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك ، وكان نصرانيا موحداً ، فقص عليه القصص • فقال بعضهم : إن آباءنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء ، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم • ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك من شر الجن والإنس ، ثم رجعوا الى مضاجعهم ، فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبنى عليهم مسجدا • وقيل : لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم : حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا ، فدخل فعمى عليهم المدخل ، فبنوا ثم مسجدا على حسب غلبتهم على أمرهم وتنفيذ ما أرادوه من بناء المسجد ، لأن معنى غلبتهم على أمرهم أنهم إذا أرادوا أمرا لم يتعسر عليهم ولم يحل بينهم وبينه أحد" • كما يقال في قوله تعالى : (والله غالب على أمره) •

وقوله تعالى : (سيقولون) مصدراً بسين الاستقبال دليل على أنه قول الخائضين في قصتهم في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود والنصارى ومن له شأن في ذلك الموضوع (ثلاثة رابعهم كلبهم) أي

هم كانوا ثلاثة رجال ويربعهم كلبهم بانضمامه إليهم ، والقائل بهذا من اليهود . وقيل : هو قول رئيس من نصارى نجران وكان يعقوبيا . (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) والقائل بهذا من النصارى أو قول العاقب منهم وكان نسطوريا (رجما بالغيب) منصوب على المصدرية ، أي ويرمون بالخبر رميا بالغيب وهذه الجملة استعارة للتكلم بكلام لم يطلع عليه المتكلم لخفائه وعدم كشفه للحقيقة فيه ، وأصله هو الرمي بالحجارة التي لا تنفذ ولا تصيب غرضا ومرمى لعدم معرفة راميها بالهدف ، أو بكيفية الرمي المصيب وحاصله أن القائلين لم يكن لهم مستند" في قولهم وتعقيب القولين بذلك يدل على أنه لا أصل لهما (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) وهذا قول المسلمين على استناد إخبار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم من جبريل ـ عليه السلام ـ ، فيكون هو القول الحق ويزيده قوله تعالى : (قل : ربي أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل) بإسناد العلم الى القيل بعد رفض قول الفرقتين السابقتين بقوله (رجما بالغيب) والله أعلم بحقيقة الحال (فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرا) أي ولا تجادل في شأن الفتية وعددهم أولئك الناس الجاهلين بالحقيقة المتكلمين رجما بالغيب إلا جدالا بسيطا بدون اهتمام به ، فإنهم مصرون على مزاعمهم وظنونهم ، والظن لا يغني من الحق شيئا (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد ، فإن فيما علمت من أحوالهم لكفاية .

وقوله (ولا تقولن لشيىء : إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) نهي تأديب من الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ترك الاستثناء في مايقول أنه يفعله في المستقبل . أي لا تقل ذلك الكلام الا مقيدا بقولك (إن شاء الله) مثلا لأن تركه كان السبب في تأخر الوحي عنك عندما سألتك قريش بإيعاز اليهود عن الروح ، وأصحاب الكهف وذي القرنين . فقلت ائتوني

غدا فأخبركم وما استثنيت ، ولو قلت إن شاء الله لأتاك الوحي مستعجلا • فقوله تعالى (إلا أن يشاء الله) إستثناء من النهي أي انت منهي عن ذلك القول كل وقتٍ الا وقت تقييده بقولك إن شاء الله •

وأما إذا كان استثناء من قوله (فاعل) باعتبار ظرفه أي (إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فإن أردت مقارنة المشيئة لفعله أي إني فاعل ذلك غدا إلا اذا قارنت مشيئة الله لذلك افعل فيكون المعنى باطلا ، إذ كيف لا يفعله إذا اقترنت به مشيئة • وإن أردت معارضة المشيئة له ومنعها عنه ، أي إني فاعل ذلك غدا إلا ان عارضت ومنعت مشيئته تعالى ذلك فالمعنى صحيح لكنه لا مجال للنهي عن التكلم بكلام كذلك •

وقوله تعالى (واذكر ربك إذا نسيت) أي واذكر مشيئة ربك (وقل) إن شاء الله بعد صدور ذلك الكلام عنك إذا نسيت التقييد به معه ، ولو بعد زمان وذلك لرعاية الأدب وملاحظة أن حدوث الحوادث موقوف على مشيئة الله تعالى وارادته لها • وأما بالنسبة الى كونها قيدا معتبرا في العقود والحلول والأقارير والاحلاف فالجمهور على أنه يشترط فيه شيئان : الاول نيته قبل انتهاء الكلام • والثاني اتصاله به عرفا • وما روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ من جواز تأخيره عنه ، ولو زمانا طويلا ، فالجمهور على خلافه ، إذ لو جاء ذلك لم يتقرر شيىء مما مر الى أن يموت أصحابها لجواز إتيانهم به بعده إلى الممات • وقل (عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا) أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يتكلم بكلام فيه رجاء لإعلاء شأنه أكثر ولزيادة علمه أوفر بأن يقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عسى أن يهدين ربي ويوفقني لشيىء يكون أقرب وأظهر فائدة للأمة المحمدية من نبأ أصحاب الكهف ، فإنه لا يزيد على بيان إخلاص فتيةٍ في دينهم وتوحيد الله سبحانه وفرارهم بدينهم إلى الكهف • والله

سبحانه وتعالى يوحي إليك الشرائع والأحكام والإستعداد للجهاد في نشر الإسلام ، ويزودك بالإطلاع على حوادث كانت أو ستكون في مستقبل الأيام ، فليس مستوى رسالتك العامة الخالدة الوقوف مع الجواب عن عدة أسئلة لا قيمة لها بالنسبة الى ما أنت عليه من المهام .

ثم استأنف الباري لبيان مدة لبثهم أحياء نائمين في الكهف لأنها هي النقطة الوحيدة الخارقة للعادة في القصة فقال (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهذه الآية جملة مستأنفة مبينة للإجمال في قوله تعالى (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) يعني إن مدة الضرب على آذانهم هذه . قالوا ووجه العدول عن العبارة المعتادة وهي ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر وأظهر .. الإشارة إلى أن المدة بحساب السنة الشمسية ثلاثمائة سنة وباعتبار السنة القمرية ثلاثمائة وتسع.

والإعتراض على ذلك بأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمس وستون يوما وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة على مقتضى الرصد الإيلخاني ، والسنة القمرية ثلاثمائة واربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمان واربعون دقيقة ، فيكون التفاوت بينهما عشرة أيام وإحدى وعشرين ساعة ودقيقة واحدة . وإذا كان هذا تفاوت سنة كان تفاوت مائة سنةٍ ألف يومٍ وسبعة وثمانين يوما وثلاث عشرة ساعة وأربع دقائق ، وهي ثلاث سنين وأربعة وعشرون يوما واحدى عشرة ساعة وست عشرة دقيقة . فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة تسع سنين وثلاثة وسبعين يوما وتسع ساعات وثمانيا وأربعين دقيقة . أي واذا اعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا اربعة وعشرين يوما وإحدى عشرة ساعة واحدى وعشرين دقيقة .. مدفوع بأن : الخلل في حساب الرصد لا في حساب الصمد . أو أن الكلام مبني على المسامحة بتلك الدقائق والساعات والأيام ، ومثل ذلك جار متعارف بين الأنام . وقال

بعض : بأن التفاوت نشأ من اختلاف قول المتنازعين في أمرهم ، فمنهم من قال : مدة لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة ، ومنهم من قال ثلاثمائة وتسع سنين أي ازدادوا تسعا على قول الأولين •

(قل الله أعلم بما لبثوا) ولذلك أخبر عنهم بقوله (ولبثوا في كهفهم) الآية (له غيب السماوات والارض) أي له العلم بما غاب فيها وخفي من الأعيان والأعراض وحدوثها وبقائها فلا تخفى عليه خافية (أَبصر به وأَسمع) صيغة من صيغتي التعجب ، أي ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله لا يقدرُ أحدٌ أن يُحيط بإحاطة سمعه تعالى بالمسموعات واستيعاب بصره للمبصرات، صورتها الأمر ومعناها الخبر ، والضمير المجرور عائد إلى الله تعالى ، ومحله الرفع على الفاعلية ، والباء مزيدة ، وأصلها أبصر وأسمع من باب الإفعال ، أي كان ذا بصر وسمع ، ثم تحول إلى صورة الأمر بمعنى الإنشاء فأبرز الضمير المستتر لعدم قابلية الصيغة له (ما لهم من دونه من ولي) أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله تعالى ولي يتولى أمورهم (ولا يشرك في حكمه)أي في تنفيذ قضائه أحدا فهو المشرع وهو المنفذ في الكائنات •

ثم لما كان الوافي بجواب سؤال السائلين هو القرآن الكريم الذي أظهر ما في الغيب من القصص وجاء عليه بنص ، وتبين عظمته وأخباره بالمغيبات بحيث اندهشت منه عقول العقلاء •• رغب الله تعالى حبيبه في تلاوته وملازمته والاعتماد على ما فيه بصفة أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال مخاطبا حبيبه الكريم :

(وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا ، واتَّبَعَ هَواهُ ، وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً(٢٨) وَقُلِ : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرابُ ، وَساءَتْ مُرْتَفَقاً(٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، مُتَّكِئِينَ فيها عَلَى الأَرائِكِ ، نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً)(٣١)

قوله (واتلُ ما أوحي إليك من كتابِ ربك) أي اعتمد على مولاك الذي اصطفاك وأنزل عليك كتابه (واتلُ ما أوحي اليك من كتاب ربك) واحفظه واعمل به وبلغه المكلفين من عباده ، فإن تلاوته عبادة ، والعمل به سعادة ، وتبليغه الى عباده أجر ومثوبة وزيادة (لا مبدل لكلماته) لا أحد يقدر على تبديلها غيره (ولن تجد من دونه) أي من دون الله (ملتحدا) أي ملتجأ تلتجيء اليه للصيانة عن شره ، كما لا مترجى غيره لنيل خيره (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي واحبس نفسك وثبتها وقررها في المساجد والمعابد وفي السفر والحضر مع المسلمين الذين يدعون ربهم لطلب خيره والهرب عن شره ، ولا يدعون غيره.

أو يعبدون ربهم بالغداة والعشي كناية عن استيعاب الأوقات ، أو عبارة عن طرفي النهار ، ويشمل الدعاء والعبادة فيهما الصلوات المفروضة ، فإنّ صلاة الصبح غدائية والصلوات الاخرى عشائية • ويريدون وجهه حال عن فاعل الجمع المذكور المشكور ، أي حالكونهم يريدون بطاعتهم رضاء ذاته واستجلابَ هِباته والاستنارة بتجلياته (ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم) نهي العين عن التجاوز إلى الغين ، والمراد نهى عينِ الأعيان أعني الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي لا تتجاوز يا حبيبي عنهم الى النظر إلى من لا يهمهم إلاّ شهوات بُطونهم وفروجهم حالكونك (تُريدُ زينة الحياةِ الدنيا ، ولا تطعْ منْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وأمِنَ مكرنا (واتَّبَعَ هواه) وتركَ طريقَ هُداه (وكان أمره فرطا) مصدر سماعي لفرط وهو تجاوز الحد أي وكان أمره تجاوزاً عن أمر الله وإسرافاً في المال والحال وضياعا للحال والمآل •

والآية نزلت في عُيينة بن حصن الفزاري وأتباعه ، أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يُسلم وعنده جماعة من الفقراء ، منهم سلمان ، وعليه شملة صوف قد عرق فيها ، وبيده خوص يشقه وينسجه • فقال عُيينة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما يؤذيك ريح هؤلاء ؟ ونحن سادات مُضرَ وأشرافها إن أسْلمنا تسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاءِ ، فَنحهم عنك حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا • وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان في حُنين من المؤلفة قلوبهم فأعطاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها مائة بعير ، وكذا أعطى الأقرع بن حابس وأعطى العباس ابن مرداس أربعين بعيرا • وقيل : نزلت في أصحاب الصُّفَّة وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخرجون إلى تجارة ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى ،

فلما نزلت قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : الحمد لله الـذي جعل في أمتي من أمرت أن اصبر نفسي معهـم •

(وقل) لهُ ولمن معه (الحقّ من ربكم) أي من القرآن الحق نـازل من ربكم ، أو الأمر الحق ما يكون من جهة الله لا ما يأتي من الهوى واتباع الشهوات النفسية ، ولا تطرد أحداً من عباد الله المسلمين لا فقيراً ولا أميراً لا صغيراً ولا كبيراً (فمن شـاء فليؤمن) فـإن ايمانه ينفـع نفسـه (ومن شاء فليكفر) فإن كفره يضر نفسه ولا تبال بأحد الجانبين إلا بقدر ما يخصك في الدين ، إلا أنه قرر الله سبحانه وتعالى جزاء وفاقا للفريقين كما قال (إنا أعتدنا للظالمين) أي هيأنا لهم (نارا أحاط بهم سرادقها) أي دخانها ولهيبها الشبيه للفسطاط أي الخيمة يعني أنهم يعذبون في نار أحاط بهـا اللهيب والدخان كالخيمة المحيطة بمن فيهـا (وإنْ يستغيثوا) من العطش بالزبانية (يغاثوا بماء كالمهل) أي دردي الزيت وخلطه (يشوي الوجوهَ) من فرط حرارته عند أخذه لشربه وقربه منها (بئس الشراب) المهلُ (وساءت مرتفقا) أي شيئا يرتفق به ويستراح به هذا جزاء الفريق الثاني •

وأما جزاء الفريق الاول فهو ما أفاده بقوله (إن الذين آمنـوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) خبر إن ، والموصول لعمومه قائم مقام العائد ، أي أجرهم وأجرهم هو المبين بقوله تعالى (أولئك لهـم جنات تجري من تحتهم الأنهار يُحلون فيها) أي يتحلون فيها (من أساور) هي (من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضراً) لأن الخضرة تزيل الحزن كالمـاءِ والوجه الحسن وعندهم الأنهار الجارية والحورُ العينُ التي تجري فيهـا الصفاء كاللآلي العارية ، وتلك الثياب الخضر (من سندس) الرقيق مـن الديباج (واستبرق) الغليظ منهـا في النساج حالكونهم (متكئين فيها على

الأرائك) جمع أريكةٍ بمعنى السرير حتى يسروا بنظرهم الى حورهم متقابلين (نعم الثواب) ثوابهم (وحسنت مرتفقا) مرتفقاتهم •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ، وَجَعَلْنا بَيْنَهُمَا زَرْعاً(٣٢) كِلْتَا الجَنَّتَين آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ، وَفَجَّرنا خِلالَهُما نَهَراً(٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ لِصاحِبِهِ ـ وَهُوَ يحاوره ـ : أنَا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً(٣٤) وَدخَلَ جَنَّتَهُ ، وَهُوَ ظالِمٌ لنَفْسِهِ ، قالَ : ما اظُنُّ أَنْ تَبيدَ هذِهِ أَبَداً(٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً(٣٦) قالَ لَهُ صاحِبُهُ ـ وَهُوَ يُحاوِرُهُ ـ : أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَويكَ رَجُلا ؟!(٣٧) لكِنَّا هُوَ اللهُ ربِّي ، وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً)(٣٨)

قوله تعالى : (واضرب لهم مثلا) أي واذكر للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي حتى يتأكدوا على مثوبتهم الحسنى ، أو للكافرين الذين لا يؤمنون بالله لعلهم يتذكرون ويتعظون فيتوجهون الى الله ويتوبون اليه ، فاذكر لهم للغرض المذكور مثلا وأبدل عن المثل (رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) أي جعلنا النخل محيطة بهما مطبقة بجانبيهما (وجعلنا بينهما زرعاً) أي وجعلنا وسطهما زرعاً لإضافة الأقوات إلى الفواكه (كلتا الجنتين آتت أُكُلَها) ولما كانت كلتا مفردا لفظا ومثنى معنى جاز الإخبار عنه بالمفرد كما هنا • وإرجاع ضمير المثنى اليه فيما بعده• أي

أعطت ثمارها وبلغت مبلغ الإستفادة منها (ولم تظلم منه شيئا) أي ولم تنقص من الثمر شيئا من النقص (وفجرنا خلالهما نهرا) أي وفجرنا فيما بين كلتي الجنتين نهرا ليدوم شربهما ، وتزيد نضارتهما ، وتحلو ثمارهما (وكان له) أي لذلك الأحد (ثمر) من أنواع المال والخيرات (فقال) هذا (لصاحبه) المؤمن (وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً) ورجالاً • (ودخل جنته) في هذه الحالة من البطر والإستغناء (وهو ظالم لنفسه) بنسبة ماله إلى نفسه وإهماله لجانب قدسه (قال : ما أظن أن تبيد) أي تفنى (هذه) الجنة والثروة (أبدا) طول حياتي وأعيش عليها متنعما الى أن أموت فأنمحى مثل معز يرعى في المرعى فيموت بلا عود حياة ولا سؤال وجواب ولا حساب وكتاب (وما أظن الساعة) المشهورة وهي عالم المعاد وحساب العباد (قائمة) ثابتة (ولئن رددت إلى) لقاء (ربي) فرضاً جدليا (لأجدن خيراً منها) أي من هذه الجنة (منقلبا) أنقلب وأتحول إليه كما أن لي في هذه الدنيا ما تراه من الجنان الخارجة عن الحسبان •

(قال له صاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) أيضا : عجبا منك وحسرةً وأسفاً عليك (أكفرتَ بالذي خلقك من تراب) في ضمن خلق أبيك الأعلى آدم ـ عليه السلام ـ (ثم من نطفة) مخلوقة في الأصلاب والأرحام ثم أخرجك من بطن أمك حيا حياة مستقرة سليما (ثم سواك رجلا ؟) لا امرأة أر رجلا من الرجال البارزين المعتدلين المتمولين وكان الواجب عليك أن تشكره •

(لكنا هُوَ الله ربي) أصله لكن أنا ، وقرأ به أبي بن كعب • فنقلت حركة همزة أنا الى ما قبلها وحذفت الهمزةُ ثم الحركةُ ، ثم أدغمت النون في النون • وأنا مبتدأ أول وهو ضمير الشأن ومبتدأ ثان ، والله مبتدأ ثالث ، وربي خبره ، والجملة خبر ضمير الشأن ، وهي غنية عن الرابط لان الجملة

بعدها تفسيرها والجملة بكمالها خبر أنا ، والرابط للكل ضمير المتكلم المضاف إليه • ويقرأ لكن بفتح النون بلا ألف ، والمعنى ولكنني بريء عن اعتقادك الفاسد ، واعتبر الشأن والواقع أن الله تعالى هو ربي لا غيره (ولا أشرك بربي أحدا) •

(ولَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : ما شاءَ اللهُ ، لا قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ ، إِنْ تَرَنِ أنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً(٣٩) فعسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ، ويُرْسِلَ عَلَيْها حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً(٤٠) أو يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً(٤١) وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أَنْفَقَ فِيها ، وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ، ويَقُولُ : يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً(٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَه فِئَةٌ يَنْصُرونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، ومَا كانَ مُنْتَصِراً(٤٣) هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ للهِ الحقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وخيْرٌ عُقْباً)(٤٤)

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) حَضٌ للتنديم على ما فرط منه أي لماذا تركت أن تقول (ما شاء الله) أي الامر ما شاءه الله ، أو ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن (ولا قوة) على تحصيل أي خير أو تذليل أي شر (إلاّ) بسبب تأثير (الله) ثم استأنف لمعارضته في بطره ودعوى كبريائه عليه وقال (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا • فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما (ويرسل عليها) أي على جنتك (حسبانا) مصدر بمعنى المحسوب المقدر من العذاب النازل (من السماء) كحر محرق أو بردٍ ممزق (فتصبح) جنتك (صعيدا)

أي أرضا (زلقا) لا نبات فيها ولا تثبت بها قدم (أو يصبح ماؤها غوراً) أي غائِراً في أعماق الارض (فلن تستطيع له طلبا) أي فلن تستطيع الوصول اليه حتى تطلبه • وقوله تعالى (إن ترنِ) شرط وقوله (فعسى ربي) الى آخره جوابه ، أي ان ترني أفقر منك وأقل مالاً وولدا وتطغى عليّ فأنا اتوقعُ من الله على سنته الثابتة لدفع الطّغاة البغاة أن يبدل ما عندي وما عندك فيرزقني لإيماني بهِ جنةً خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك به نعمته بالنقمة والعذاب • وترى إما من أفعال البصر وفاعله مستتر والياءُ مفعوله وأنا تأكيد له ، وأقل حال منه ، أو من أفعال اليقين فأقل مفعول ثان ومالاً وولداً تمييز على الوجهين • وقوله تعالى (وأُحيطَ بثمره) أي وبعد أن جرى ما جرى بينهما من الحوار وافترقا على مابينهما من الشجار أحيطَ بثمر الرجل الطاغي المتكبر الكافر وأهلك أمواله المعهودة من الجنتين وما فيهما • وهو مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه أي إستدارته من جميع جوانبه كيلا يفر ويُبادَ (فأَصبحَ يقلب كفيه) أي صار يقلبهما أو مضت عليه ليلة ونزلت على الجنتين مانزل من البلية فأصبح الرجل يقلبهما • ومعنى تقليبها أن يبدي بطن كل منهما ثم يحول يديه حتى يظهر ظهرهما أي فأصبح متندما على ما أنفق فيها أي أنفقه في عرصة جنتيه حتى ظهرت عليها جنتان ، ولذلك أفرد الضمير (وهي خاوية) أي ساقطة (على عروشها) المصنوعة لجمع الثمار ، أو على العروش المصنوعة لبسط أغصان الكروم • أو المراد بالعروش العروق فإن العرش جاء بمعنى قوام الأمر كما في القاموس لأنها أعمدة الأشجار وأغصانها • ويقول متحسراً ومتندماً من حيث لا ينفعه الندم : (يا ليتني لم أشرك بربي أحدا) قال بعض المفسرين كأنه تذكر موعظة صاحبه المؤمن وعلم أنه أتى به من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يهلك اللهُ بستانه •

واستشكلت الآية بأن ظاهر قول الرجل أنه كان كافرا ملحدا لأنه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة • وأجيب عنه بجوابين :

الأول أنه كان مشركا ، ولما كان المشرك ضعيف العقل ونحيف العقيدة فكلما اضطرب حاله اضطرب مقاله ، وربما ينفي وجود الله ، والعياذ بالله ، فضلا عن الاعتراف بشريكه المزعوم ، وفي نتيجة دمار بستانه رجع الى عقله ووجدانه ، وآمن بربه ورفض الإشراك ولكنه لم يقبل منه ، لأنه لم يكن عن صفاء ضميره بل من أثر هلاك ملكه وتدميره •

والجواب الثاني : أنه يتبين من الآية الثانية أنه كان له اعتراف بالله ولكنه لما طغى وبغى وتكبر على صاحبه واعتمد على نفسه فكأنه جعل نفسه مؤثرا وخالقا لأعماله ، ولذلك قال ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منه منقلبا ، فاعتبر لهذا مشركا •

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله) أي ولم تكن جماعة من الأعوان تقدر على نصره إما بدفع الهلاك قبل وقوعه ، أو برد المهلك بعينه أو باقامة جنتيه وإعادتهما كما كانتا ، (وما كان) في نفسه (منتصرا) أي ممتنعا عن حدوث ما حدث وطرأ عليه • (هنالك الولاية لله الحق) أي هنالك علم وتبين له أن النصرة لله الحق وحده لا يتولاها أحد غيره (هو) أي الباري تعالى (خير ثوابا وخير عقباً) أي خير من كل ما يتصور أنه مثيب نافع ثواباً وعاقبةً لأحبائه• والعقب بضم الاول وسكون الثاني العاقبة •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً(٤٥) المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ،

وَالْباقِياتُ الصالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وخَيْرٌ أَمَلاً(٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرى الْأَرْضَ بارِزَةً ، وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً(٤٧) وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُم أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً(٤٨) وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فيهِ ، وَيَقُولونَ : يا وَيْلَتَنا ما لِهذا الْكتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إِلاَّ أَحْصيها ؟ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)(٤٩)

قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) المثل إما بمعنى الشبيه أو الصفة العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل ، أي واذكر لهم ما يشبهها في الزهرة والنضارة وسرعة الزوال • أو اذكر لهم صفتها العجيبة الغريبة • وقوله (كماء أنزلناه) أي هي كماء أنزلناه من السماء (فاختلط به نبات الأرض) أي فنبت به نبات الأرض فاشتبك وخالط بعضه بعضا (فأصبح) أي فصار ذلك النبات الملتف بعد بهجته ونضارته (هشيما) أي يابسا متفتتا (تذروه الرياح) وتفرقه تجيىء به وتذهب به حيث شاءت • وظاهر الآية الشريفة أن المشبه هو شبيه الحياة الدنيا، والمشبه به الماء نفسه، وليس كذلك بل المشبه والمشبه به كلاهما هيئة منتزعة ، الأولى من نمو الإنسان وتصاعده وتطوره من الصبا إلى المراهقة فالبلوغ فالرجولة المعتمدة مع الترقي من الجهل الى العلم على اختلاف مراتبه ، ومن شخصيته الواحدة الى النمو من الزواج وحصول النسل والجاه والمال والحال ثم الوقوف فالذبول فالبؤس والإفتقار والضعف الى المرض فالموت•والثانية من نبت النبات فازدياده في الأقطار والإكثار من الفروع الى حال التكامل ، فإخراج الأوراد أو الثمار ثم

الوقوف عن النمو ، ثم طرو الضعف واليبس والإنكسار الى الانقلاع والتطير بالرياح (وكان الله على كل شيىء مقتدرا) وتأثيره في الإبداء والإفناء والإعادة على حد سواء .

ثم استأنف لبيان شأن منشأ افتخار الناس من محسنات الحياة فقال : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) وعلى المال تبنى أسباب الجاه والرفعة والمنعة والشأن عند الناس والزواج الموجب للتناسل والبنين والبنات . ولكن الزينة النافعة هي التي توجب سعادة الإنسان سعادة خالدة وهي الحاصلة من الإيمان والأعمال السليمة ، وهي التي تبقى ثمارها ونتائجها لأصحابها كما قال تعالى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا) أي في الآخرة (وخيرٌ أملاً) حيث ينال بها صاحبها كلَّ خير ينتظره ويؤمله ويبقى له ذلك الخيرُ الى الأبد .

(ويوم نسير الجبال) أي اذكر حال الناس يوم نسير الجبال ، أو أن الباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسير الجبال ، أي يوم نقلع الجبال من قواعدها في الأرض ونسيرها في الجو ثم نسقطها فتصير كثيباً مهيلا . وظرفيته باعتبار امتداد ما يأتي بعده من أيام الجزاء اللا متناهية من الجنة ونعيمها ولقاء الباري تعالى ورحمته (وترى الأرض بارزة) بعد قلع الجبال مستوية (وحشرناهم) أي الناس الموجودين فوقها المتنعمين بأنواع خيراتها المستعجلة الفانية ، أي جمعناهم في صعيد واحد للحساب (فلم نغادر منهم أحدا) أي لم نترك منهم أحدا (وعُرِضوا على ربك صفا) أي مُصطفين . روي عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ ان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله تعالى ينادي يومَ القيامة : يا عبادي أنا الله لا إله إلا أنا ، أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين . أحضِروا حجتكم ويسروا جواباً فإنكم مسئولون مُحاسبون . يا ملائكتي أقيموا عبادي

صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » • وفي الحديث : « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر » •وقيل : تقام كل أمة وزمرة صفا (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أي ونقول للكافرين المنكرين للبعث منهم : لقد جئتمونا مجردين عن كل ناصر ينصركم وحجة تحتجون بها ، وملجأ تلتجئون إليه ، كما خلقناكم أول مرة (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) وهذا إضراب وانتقال من كلام الى كلام أي بل زعمتم أن لا عود ولا حساب ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب وهذا أوان إدراك ما كنتم تنكرونه •

(ووضع الكتاب فترى المجرمين) كلهم (مشفقين) أي خائفين (مما فيه ، ويقولون) عند اطلاعهم على ما فيه من العقائد الفاسدة والأعمال السيئة : (ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ؟) وضبطها بدون إفراط وتفريط فيه (ووجدوا ما عملوا) أي ما اكتسبوه في الدنيا من العقائد والاعمال (حاضرا) مسطورا في الكتاب مفصلا مشروحا زمانه ومكانه وكميته وكيفيته وكل ما اكتنف به من الأدلة والشواهد (ولا يظلم ربك أحدا) بكتابة ما لم يكتسبه أو بكتم ما اكتسبه ، واعتبار الظلم مع أن الله سبحانه وتعالى هو السيد المطلق المتصرف المالك لكل شيىء ولا ينسب اليه الظلم أبدا ، أنه لو فرضنا أنه محاسب لعباده محاسبة اعتيادية من حاكم لغيره لم نجد في كتاب أهل الحساب شيئا غير مكسوب ولا مطلوباً غير مكتوب حتى يقال إنه ظلم فلانا بالزيادة على ما عمل أو إهمال ما فعل ، وكيف لا وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ؟

(وَإِذْ قُلْنا لِلملائِكَةِ : اسْجُدُوا لآدَمَ ، فَسَجَدُوا إلا إبليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَولِياءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ

لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً(٥٠) ما أَشهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ، وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً(٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ : نادُوا شُركائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً(٥٢) وَرَأى المُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أنَّهُمْ مُواقِعُوها ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً(٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكانَ الإنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)(٥٤)

قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة) أي واذكر زمان قولنا للملائكة (اسجدوا لآدم) سجود تحية وإكرام (فسجدوا كلهم إلا إبليس) لم يسجد لأنه (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) هذه الجملة نص على أنه كان من الجن وأن سبب فسقه وخروجه عن أمر ربه كونه من الجن وعنصره ساعده في معصية ربه لأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون •

وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل كقولهم سرق فقطعت يده أي لأجل سرقته وكقولهم سها فسجد أي لأجل سهوه • وأما وجه دخوله في الملائكة فقد قالوا : إن الله أمر الملائكة بقتال الجن فقاتلوهم ووقع في الأسر وبقي فيهم وصار من المتعبدين لكنه بقي فيه بذر الشقاق إلى أن أظهره في ذلك الوقت • وقيل : إنه كان جنيا مجتهدا في العبادة غاية الإجتهاد ، وبسبب دوام طاعته أمره الله أن يدخل في صفوف الملائكة فدخل وصار مقدمهم ومعلمهم وأشدهم اعتصاما بالطاعة ، وكان يعتقد أنه ليس في الأرض والسماء من هو أخلص منه في العبادة ، وبقي على هذه الكبرياء إلى أن جرى عليه ما جرى والعلم عند الله • وما أمرنا بالكشف عن حقيقته

لكن المنصوص أنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، وهذا دليل واضح على أنه لم يكن من عنصر الملائكة ويدل على ذلك أيضا أن له ذرية ، ومعلوم أن الملائكة لا ذرية لهم ولا يحصلون من جهة التناسل بل من جهة الأمر الابداعي .

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) والهمزة للإنكار والتعجيب لأن من خرج عن أمر ربه بعيد عن أن يكرم ويطاع في أوامره لاسيما فيما يكون سببا للابتعاد عن طاعة الله تعالى ، والحال (وهم لكم عدو ؟) أي والحال أنهم لكم عدو فيجتمع فيه وفي ذريته مانعان عن اتخاذهم أولياء . الأول خروجهم عن أمر ربه والثاني عداوتهم لأولاد آدم من جهة أن سبب طرده عن رحمته تعالى امتناعه عن السجود له (بئس للظالمين بدلا !) أي بئس الشيطان من حيث كونه بدلا عن الله عندهم في الولاية والعبادة . ثم بين دناءة رتبتهم وقلة قيمتهم فقال تعالى (ما أشهدتهم) أي إبليس وذريته (خلق السماوات والارض) كناس محترمين وكجمع مكرمين مدعوين للنظر في آثار إدارة ملك وملاحظة معداته المناسبة لسلطنته (ولا خلقَ أنفسهم) أي وما أشهدت بعضا منهم عند خلق بعض منهم على وجه الإعتزاز والإعتبار (وما كنت متخذ المضلين عضدا) وهذه الفقرة تشم منها رائحة التعليل للجملتين السابقتين يعني أنهم ذوات" شأنهم الإضلال والإخلال والإفساد ، وما كنت متخذا لأمثال أولئك الفاسدين عضداً وعوناً في الخلق . وهذا الكلام إرخاء للعنان ومماشاة مع أهل الكفر والعصيان ، وإلا فأولئك الجمع أي إبليس وذريته أحقر موجود في عالم الوجود ، فكيف يهتم بهم الخالق الواجب الوجود ؟ (ويوم يقول : نادوا شركائي الذين زعمتم) أي واذكر حال الكفار المشركين يوم يقول الله تعالى لهم نادوا شركائي الذين زعمتموهم شركاء لي وشفعاء لكم يوم القيامة (فدعوهم) لإغاثتهم والشفاعة

لهم عن الدخول في النار (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم (وجعلنا بينهم) أي بين الفريقين من المشركين والشركاء المزعومين (موبقا) أي مهلكا يشتركون فيه وهو عذاب جهنم • وهذا إذا كان الشركاء عبارة عن إبليس وذريته الذين اتخذهم الكفار أولياء من دون الله • وأما إذا كانوا من أهل الخير والطاعة كعزير وعيسى بن مريم المتخذين آلهة وشركاء لله والعياذ بالله فالموبق هو العداوة ، ومعنى الآية الكريمة : وجعلنا بين الفريقين عداوة يعادي بعضهم بعضا • (ورأى المجرمون النار) والرؤية بصرية (فظنوا أنهم مواقعوها) أي وعلموا أنهم مخالطوها وداخلوها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أي مكانا ينصرفون إليه •

(ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس) أي لإرشادهم (من كل مثل) أي كل مثل وأمر مهم يستفيد منه المسترشد ، ومن زائدة فهو كما يقال سيف خطيب يأخذه ولا يستعمله • أو من كل مثل على أن يكون للتبعيض أي ذكرنا لهم في هذا القرآن شيئا من كل باب (وكان الإنسان أكثر شيىء جدلا) أي وكان بحسب جبلته أكثر الحيوانات جدلا ونزاعا ، فذكرت لهم ما يقطع جدال بعض ويقل جدال بعض ولا ينفع بعضا أي بعض ولكننا نذكر ما أردنا أن نذكره إلزاما للحجة عليه •

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا(٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا(٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ

ما قَدَّمتْ يداهُ ؟ إنّا جَعَلْنا عَلى قُلوبِهِمْ أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ، وَفي آذانِهِمْ وَقْراً ، وإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إذاً أبداً(٥٧) وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُم بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دونِهِ مَوْئِلاً(٥٨) وتِلكَ القُرى أهْلَكْناهُمْ لَمّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً)(٥٩)

قوله تعالى : (وما منع الناس) استئناف لتوبيخ أولئك المشركين الذين مرت أباطيلهم • فيقول سبحانه وتعالى وما الذي منع أولئك الناس (أن يؤمنوا) بربهم الواحد الأحد ورسوله المبعوث رحمة للعالمين وبالكتاب المنزل عليه لبيان الشرائع والأحكام (إذ جاءهم الهدى من ربهم) أي دليل الهداية ووسيلة الوصول الى أولى المنافع وأجل المكارم وهو القرآن الذي يهدي للتي هي اقوم (ويستغفروا ربهم) بالتوبة عما حدث منهم من العقائد الفاسدة والأعمال الكاسدة (إلا أن تأتيهم سنة الأولين) استثناء من أعم الموانع أي ما منعهم شيىء إلا أن تأتيهم سنة الله تعالى في الأولين بالإهلاك والإبادة أو يأتيهم العذاب (قبلا) بضمتين • أي أنواعا وقرىء بكسر ففتح أي عيانا ومقابلة كما جاءهم يوم بدر (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي وما نرسلهم مخولين بقلب السماوات والارض وللإتيان بالمقترحات ذات الطول والعرض ، وليست وظيفتهم إلا التبليغ والتبشير والإنذار لأهل الإعتبار وكان حق الناس أن لا ينسوا هذه النعمة العظيمة ويشكروها بالقبول مع أنه يمارس الناس غير الحق(ويجادل الذين كفروا بالباطل) أي بالشيىء الباطل الذي لا حق لهم فيه وذلك لا لغرض سليم بل (ليدحضوا به الحق) ويزيلوه به (واتخذوا آياتي) المبشرات والمنذرات (وما انذروا)

به من العقاب والعذاب (هزوا) أي سخرية واستهزاء • فقد تبين أنهم هم الظالمون وكل ما يأتي عليهم فهو جزاء لظلمهم على أنفسهم بل هم أظلم الناس •

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) المنزلة مع جبريل الامين (فأعرض عنها) فلم يتدبرها ليفهم مغزاها وأنكرها وكفر بها (ونسي ما قدمت يداه) أي نفسه من الكفر والمعاصي • ثم استأنف لبيان سبب ذلك وقال (إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة) جمع كنان بمعنى الغطاء أي جعلنا على قلوبهم أغطية تحجبهم عن وصول نفحات الحق إليها مانعةٍ لهم مِنْ أن يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي وجعلنا في آذانهم ثقلا مانعا عن استماعه (وإن تدعهم الى الهدى) بعد ذلك (فلن يهتدوا إذاً) جزاء وجواب (أبَداً) أي ماداموا في الدنيا مكلفين والسر في ذلك السبب أنهم أبوا وأنكروا وعاندوا وكفروا واستمروا على ذلك وأصروا ومن سنة الله تعالى أن يجزي المتمردين بإبعادهم عن الرحمة أبد الآبدين (وربك الغفور) للناس المذنبين بالذنوب الموجبة للعذاب العاجل بالعفو تارة وبتأجيل العذاب أخرى (ذو الرحمة) على عباده بحكم لا يعلمها إلا هو (لَو يؤاخِذهُم بما كَسَبُوا لعجل لهم العذاب) لاقتضاء أعمالهم لذلك (بل لهم موعدٌ) مقرر هو يوم بدر أو يوم آخر (لن يَجدُوا مِن دُونِهِ مَوئلا) أي منجىً منه وليس ذلك سنتنا اليوم بل هي سنتنا الثابتة مر الأعصار والأزمان (وتلك القرى) بلاد عاد وثمود وقوم لوط وبلاد مَنْ قبلهم ومن بعدهم (أهلكناهم) أي أهلكنا العباد وَاَبَدْنا بلادهم (لما ظلموا) أنفسهم قبل كل أحد بالكفر والامتناع عن استماع الحق ، ثم ظلموا الناس بسفك الدماء ، وهتك الاعراض ، ونهب الأموال ، وسلب الجاه والحال ، وما عذبناهم في تلك الايام باديءَ بدْءٍ ، بل أنذرناهم وأخبرناهم (وجعلنا لمهلكهم مَوْعِدا) ثم بَعدَ مجيء الموعد المؤخر المقرر أتاهم العذابُ المدبر •

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتيهُ : لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَو أَمْضِيَ حُقُباً(٦٠) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهما ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً(٦١) فَلَمَّا جاوزَا قالَ لِفَتَيهُ : آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً(٦٢) قالَ : أَرَأَيْتَ اِذْ أَوَيْنا اِلى الصَّخْرَةِ فإنّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنسانِيهُ إلاّ الشَّيطانُ أَنْ اَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً(٦٣) قالَ : ذٰلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً(٦٤) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)(٦٥) •

قوله تعالى : (وإذ قال موسى) هو ابن عمران نبي بني إسرائيل ــ عليه السلام ــ على الصحيح • فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي وجماعة من طريق سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ــ رضي الله تعالى عنهما ــ : إن (نوفا البكالي) يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني إسرائيل • فقال : كذب عدو الله • ثم ذكر حديثا طويلا فيه الإخبار عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما هو نصٌ في أنه موسى بني إسرائيل• وزعم أهل الكتاب ومن تبعهم أنه ليس موسى المشهور وإنما هو موسى بن مَيشا ابنُ يوسف ابن يعقوب ــ عليهم السلام ــ ، وقيل موسى ابن افرائيم ابن يوسف • ومنشأ إنكارهم شيئان : الأول إنكار أن يتعلم نبيهم ورسولهم وهو من أولي العزم من غيره • والثاني أن موسى بعد خروجه من مصر دخل هو وقومه في التيه وتوفي فيه ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته• والقصة تقتضي خروجه من التيه لأنها لم تكن عندما كان في مصر • وتقتضي القصة غيبته عن قومه أياما ولو وقعت لعلمها كثير من بني إسرائيل الذين

كانوا معه ، ولو علمت لنقلت لتضمنها أمراً غريبا تتوفر الدواعي على نقله ، فحيث لم يكن لم تكن . والجواب أن أخذ الفاضل من المفضول والأعلم من العالم كان ولا يزال يكون وليس بشيء عجيب ، ولاسيما أن ما اختص بمعرفته الخضر ليس على أصول الشريعة الظاهرة ، وإنما هو شيىء ممّا خصه الله تعالى به لحكمته ، وإن كان موسى أفضل منه رتبة وأعلم منه من جهات أخرى . وأن القصة يجوز أنها كانت في مصر بعد إهلاك فرعون وأتباعه الأقباط . وعلى تقدير وقوعها بعد الخروج من مصر يجوز أنها كانت في أيام التيه وكانت له غيبة أياما على وجه خفي على بني إسرائيل أو على وجه كان خارقا للعادة ، أو أنه غاب عنهم وظنوا أنه ذهب الى الميقات لمناجاة ربه على عادته المقدرة المعلومة بينهم . وعلى كل حال فإنكارهم لشيىء وقع بنص ظاهرٍ من الكتاب ليس في محله ولا قيمة له فإنهم ينكرون دين الإسلام من أساسه وينكرون كثيرا من الوقائع المقررة في دين الإسلام فلتكن هذه القصة منها .

وقوله (لفتيه) صلة القول التبليغي ، وفتاه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف ــ عليه السلام ــ ، وكان ابن أخت موسى وكان يلازمه ويخدمه ويتعلم منه ولذا أضيف إليه . والعرب كانت تقول للخادم (فتى) لأن الخدمة غالبا في زمان الفتوة . وعليه يقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي » وقوله (لا أبرح) مقول القول أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) أي بحر فارس والروم ، وهو محل قناة السويس اليوم وملتقى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر (أو أمضي حقبا) أي أسير زماناً طويلاً . والحقب بلغة قريش ثمانون سنة ، وقيل سنة واحدة ، ويجمع على أحقاب كعنق وأعناق . روي أن موسى ــ عليه السلام ــ سأل ربه أي عبادك أحب إليك ؟ قال الذي يذكرني

ولا ينساني قال : فأي عبادك أقضى ؟ قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى . قال فأي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترد عن ردى . فقال : إن كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه . قال : أعلمُ منك الخضر . قال : أين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة . قال : كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك . فقال لفتاه إذا فقدت الحوت فاخبرني . فذهبا يمشيان .

(فلما بلغا مجمع بينهما) أي مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أي نسي موسى ـ عليه السلام ـ أن يطلبه ويعرف حاله ونسي يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر . وهذا قول" بأن يوشع شاهد حياته . وفيه خبر صحيح ففي حديث رواه الشيخان وغيرهما « أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا ميتا فهو حيث ينفخ فيه الروح . فأخذ ذلك فجعله في مكتل . فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوتُ قال : ما كلفتَ كثيراً . فبينما هما في ظل صخرة إذ اضطرب الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره » . وفي حديث رواه مسلم وغيره « أن الله تعالى قال له آية ذلك أن تزود حوتاً مالحاً فهو حيث تفقده . ففعل حتى إذا انتهيا الى الصخرة انطلق موسى يطلب ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة فاضطرب ودخل البحر . فقال فتاه : اذا جاء نبي الله تعالى حدثته فأنساه الشيطان » وقوله (فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا) أي مسلكا كالسرب وهو النفق . فقد صح من حديث الشيخين والترمذي والنسائي وغيرهم « أن الله تعالى أمسك عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق » والمراد به البناء المقوس كالقنطرة . (فلما جاوزا) أي جاوزا المكان الذي فيه المقصد من مجمع البحرين (قال لفتيه : آتِنا غداءنا لقد لقينا من سفرِنا هذا نصبا) أي آتنا الطعام الذي يؤكل

أول النهار ، والمراد به الحوت على ما ينبىء عنه ظاهر الجواب • لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً واعياءً وافرا • (قال) أي فتاه في جواب موسى ـ عليه السلام ـ (أرأيت إذ أوينا الى الصخرة ؟ فإني نسيت الحوت) كلام فيه تهويل وتعجيب ومعناه : سبحان الله الذي يُنسي الإنسانَ نفسه ويُعميه عما يشاهده فأخبرني ماذا طرأ عليَّ اذْ وَصلنا الى الصخرة واسترحنا ورأيت بعيني ما رأيته من دخوله البحر مع أنى نسيتُ أن أذكر قصته لك مع تأكيدك علي (وما انسانيه) بضم الهاء على خلاف العادة لأن ذلك النسيان أيضا كان على خلافها أي وما أغفلني عن بيان حاله إلا الشيطان فانه أشغلني وملأ قلبي ببعض أمور تافهةٍ فتركت بيانه لذلك • وقوله (أنْ اذكره) بدل اشتمال عن الهاء • أي ما أنساني ذكره لك إلا الشيطان (و) حاله أنه (اتخذ سبيله في البحر عجبا) مفعول ثان لقوله اتخذ أي جعل سبيل دخوله وسيره في البحر أمراً متعجبا منه • ويجوز أن يكون حالا أو منصوبا بفعل مضمر أي وأعجب عجبا فيكون الإتخاذ على غير معنى التصيير •

فلما قال له فتاه ما قال جوابا له (قال) موسى ـ عليه السلام ـ : (ذلك) الذي ذكرت لي من أمر الحوت (ما كنا نبغِ) هو الأمر المقصود الذي كنا نطلبه من حيث أن الله جعله علامة على لقاء المطلوب (فارتدا على آثارهما) أي فرجعا على طريقهما الذي جاءا منه (قصصا) أي حالكونهما يقصانه قصصا ، أي يتبعانه اتباعا (فَوجدا عبداً من عبادِنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) قال في أضواء البيان : هذا العبد المذكور في هذه الآية هو الخضر ـ عليه السلام ـ بإجماع العلماء ودلالة النصوص الصحيحة على ذلك والخضر لقبه ، ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه جلس على فروة[1] بيضاء فإذا هي تهتز من

(١) هي قطعة من الارض •

خلفه خضرا فذلك من كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وفي المـراد بالرحمة في الآية أقوال وفي روح المعاني : والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد اطلقت الرحمة على ذلك في مواضع من القرآن • وهذا قول من يقول بنبوته ـ عليه السلام ـ وفيه أقوال ثلاثـة : فالجمهـور على أنه ـ عليه السلام نبي وليس برسول ، وقيل هو رسول ، وقيل هـو ولـي ، وعليه القشيري وجماعة • والمنصور ما عليه الجمهـور وشواهده مـن الآيـات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين • قلت: ومن الشواهد المستفادة من الآيات الدالة على رتبته العليا من النبوة أو الرسالة لهجة كلامه في جـواب سيدنا موسى ـ عليهما السلام ـ ، فإن من أنصف ولم يأخذه العناد علـم أن ذلك النوع من الكلام والإلقاء إلى شخص رسول مـن أولـي العـزم كموسى ـ عليه السلام ـ لا يخرج عادة إلا مـن شخص يعلو على مقابله أو يساويه • أنظر الى قوله تعالى حكاية عن العبد (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟) والى قوله في جوابه : (قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصـي لـك أمـرا) •

وأما طول حياته كما هو المشهور بين المسلمين فهو ايضا مجال أقـوال ومحل جدال كثير ، ففي تفسير روح المعاني : ذهب جمهور العلماء إلى أنه حي موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عند الصوفية قدست أسرارهم قالـه النووي ، ونقل عن الثعلبي المفسر أن الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن أبصار أكثر الرجال • وقال ابن الصلاح : هو حي اليوم عنـد جماهير العلماء والعامة معهم في ذلك واستدلوا على حياته بأدلة :

منها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن علي ـ رضي الله تعالى عنـه وكرم وجهه قال : بينا أنا أطوف بالبيت اذا رجل معلق بأستار الكعبة يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا تغلطه المسائل ، ويا من لا يتبرم

بإلحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك . قلت : يا عبدالله أعد الكلام . قال : اسمعته ؟ قلت : نعم قال : والذي نفس الخضر بيده (وكان هو الخضر) لا يقولهن عبد" دبْرَ الصلاة المكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت مثل رمل عالج وعدد المطر وورق الشجر .

ومنها ما نقله الثعلبي عن ابن عباس قال : قال علي ــ كرم الله وجهه ــ : إن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما توفي وأخذنا في جهازه خرج الناس وخلا الموضع ، فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسلوا محمداً ، فانه طاهر طهر فوقع في قلبي شيىء من ذلك ، وقلت : ويلك من أنت ! فإن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذا أمرنا وهذه سنته ؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته : اغسلوا محمدا فإن الهاتف الاول كان إبليس الملعون حَسَدَ محمداً أن يدخل قبره مغسولا . فقلت : جزاك الله خيرا قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت ؟ قال : أنا الخضر حضرت جنازة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن جابر قال : لما توفى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واجتمع الصحابة دخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت الى الصحابة فقال : إن في الله تعالى عزاء عن كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا وإليه تعالى فارغبوا ، ونظره سبحانه إليكم في البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبر فقال أبو بكر وعمر ــ رضي الله عنهما ــ : هذا الخضر ــ عليه السلام ــ .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما الى مثلها من قابل .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أيضا والعقيلي والدارقطني في الأفراد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: « يلتقى الخضر والياس كل عام في موسم فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه ويتفرقان عن هذه الكلمات : ـ بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ـ » .

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال : بينما عمر بن الخطاب يصلي على جنازة إذا بهاتف يهتف من خلفه لا تسبقنا بالصلاة يرحمك الله تعالى فانتظره حتى لحق بالصف الاول فكبر عمر وكبر الناس معه ، فقال الهاتف : إن تعذبه فكثيرا عصاك وإن تغفر له ففقير إلى رحمتك . فنظر عمر وأصحابه الى الرجل فلما دفن الميت وسوى عليه التراب قال : طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عريفا أو جابيا أو خازنا أو كاتبا أو شرطيا . فقال عمر : هذا والله الذي حدثنا عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا الإستدلال مبني على أنه عني بالمحدث عنه الخضر ـ عليه السلام ـ الى غير ذالك .

وحكايات الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذ منه في سائر الأعصار أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر . نعم أجمع المحدثون القائلون بحياته ـ عليه السلام ـ على أنه ليس له رواية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما صرح به العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وهذا خلاف ما عند الصوفية فقد ادعى الشيخ علاءالدين استفادة الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة . وذكر السهروردي في السر المكتوم أن الخضر ـ عليه السلام ـ حدثنا بثلاثمائة حديث سمعه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شفاها .

وفي روح المعاني : قال ابن قتيبة في المعارف أنه ابن ملكان بن فالغ بن عابد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ • ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال ، بيد أن صنيع النووي ـ عليه الرحمة ـ في شرح مسلم يشعر باختيار أنه بليا بن ملكا وهو الذي عليه الجمهور والله تعالى اعلم • والمعروف أن الخضر لقبه كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء •

وفي روح المعاني أيضا : وروى أيضا أنه لما سلم عليه (أي لما رجعا الى الصخرة وقد وجداه هناك) عرفه أنه موسى ، فرفع رأسه فاستوى جالسا ، وقال : ـ وعليك السلام ـ يا نبي بني إسرائيل ؟ فقال موسى وما أدراك بي ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل ؟ فقال : الذي أدراك بي ودلك عليّ • ثم قال : يا موسى أما يكفيك أن التوراة بيدك ، وأن الوحي يأتيك ؟ قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك •

وذهب جمع الى انه ليس بحي اليوم ، ولهم أدلة استدلوا بها على مماته :

منها أنه قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته بقليل : « ما من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية » • وفي رواية : « لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » •

ومنها أنه لو كان حيا في زمان الرسول لزاره واتبعه وجاهد معه لأن الله أخذ الميثاق من النبيين على ذلك •

ومنها قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) فلو بقي حيا إلى آخر الزمان لكان له الخلود وهو باطل بظاهر الآية إلى غير ذلك من الأدلة وإن كان أقواها ما ذكرناه •

ويجاب عن الدليل الأول بأجوبة ، منها :

أن تلك العبارة الشريفة كناية عن انقراض العصر وفناء جمهرة الناس الذين يعتمد عليهم في تسيير الامور •

الثاني أنه وان جرى على ظاهره من عموم السلب لكنه ما من عام الا وقد خص منه بعض وذلك معلوم عند من تتبع الأدلة العامة ، فليكن مخصوصا بغير الخضر وأمثاله من الشواذ الذين بقوا بعد مائة سنة من تأريخ قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

الثالث : أنه لو بقي على عمومه بلا تخصيص جاز أن يقال إن الخضر لم يدخل في مضمون الحديث الشريف لجواز كونه على البحر لا على ظهر الأرض إذ ذاك •

وعن الدليل الثاني بأن الملازمة الواقعة في دليله ممنوعة ، كيف وسيد التابعين أويس القرني ـ رضي الله عنه ـ كان موجودا في ذلك الوقت ، ولم ير الرسول ، ولم يزره الى وفاته ثم إنه يجب تخصيص تلك الملازمة بمن لم يكن مشغولا بعمل آخر مشروع لجواز أن يكون الخضر مشغولا بتوفية واجبات مقررة عليه ، واستمر في الوفاء بها فكيف تسعه الزيارة أو الجهاد معه ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ولو سلمنا الملازمة فلم لا يقال : إنه زاره مرة أو مرارا ولم يعلم به الصحابة ولم يخبر الرسول عن زيارته لأنه لا يجب عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يخبر الناس بكل ما جرى عنده وبكل من زاره ؟ ألا ترون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر حذيفة ابن اليمان بوقائع مهمة تقع في المستقبل ولم يخبر بها غيره ولم ينشرها حذيفة أيضا كما لا يخفى على من تتبع شروح البخاري الشريف في كتاب الفتن ؟

وأما الجواب عن الدليل الثالث فهو أن تلك الآية الشريفة تدل على عدم الخلود لأحد ومن ادعى حياته لم يدع خلوده ، وإنما غاية أمره أنه ادعى حياته وطول عمره مدة مديدة بعيدة عن العادة المستمرة . وبعد الشيىء عن العادة لا يدل على استحالته ، فإنا نعتقد أن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله الى السماء وأسكنه حيث شاء ويبقى الى وقت نزوله في آخر الزمان كما نطق به ما رواه مسلم في صحيحه : « يوشك أن ينزل فيكم بن مريم ... » الحديث ولا حاجة الى أن نستدل بطول عمر الجن أو أي شخص آخر مدة كثيرة وذلك معروف عند أهل العلم .

وأما الاستدلال على وفاة الخضر بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر : « أللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض » وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم فأين كان الخضر ؟ فاستدلال عليه مقال ، لأن المراد لا تعبد بعد بقوم لهم ظهور في الأعيان ، ونظام في الزمان ، وشهرة بين بني الانسان والا فقد كان على تقدير هلاك العصابة نساء كثيرات وشيوخ كثيرون وأناس مسلمون في غير تلك البقعة ، فكيف يدل على انتفاء المسلم وأهل العبادة في العالم ؟ والحق أنا إذا نظرنا الى اتفاق الطرفين على وجود ذلك العبد وحياته في ذلك الوقت فليس هناك دليل قاطع على موته في وقت خاص إلا استمرار العادة على موت الناس في نحو مائة سنة أو أزيد ، والعادة لا توجب القطع بموته ، بل والاستصحاب دليل على حياته ، ولا سيما الروايات الكثيرة التي تؤيد بعضها بعضا على أنه حي مرزوق موفق للوفاء بالواجبات التي ألقيت عليه ، وأن اجتماع كثير من الصلحاء على أنه حي مما يغلب على الذهن حياته الى وقته المقرر المقدر ، ولا تغتر بمن تأخذه العصبية الخالية عن كل إنصاف والداعية الى الحكم بموته مع أن أدلة الطرفين لا يوجب القطع في الموضوع ، لا بالسلب ولا بالإيجاب ، وليس

شيىء منهما من الامور الاعتقادية المهمة المقصودة في الدين فإن كان ميتا فإلى رحمة الله ، وإن كان حيا فهو في أداء ما في ذمته من أوامر الله . ومن آمن بأنه كان حيا ومأمورا بخرق سفينة المساكين العاملين في البحر لمصلحة ما ، وبقتل الصبي المعصوم لحكمة في علم الله ، وبإقامة جدار اليتيمين بلا أجرة ولا بدلٍ يصل إليه في وقت الحاجة الى لقمة طعام أو شربة ماء ، وتيقن أن هذه الامور تحققت في الواقع على رعاية أمر الله علم أن وجود رجل بهذه الصفة من نوادر الزمان والأيام وأن بقاءه زمانا طويلا ليس بأعجب من حدوث هذه الامور في الأذهان والأفهام .

(قالَ لَهُ مُوسى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟(٦٦) قالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلىمالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً(٦٨) قالَ:سَتَجِدُني إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصي لَكَ أَمْراً(٦٩) قالَ : فإِنِ اتَّبَعْتَني فَلا تَسْئَلْني عَنْ شَيىءٍ حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً)(٧٠)

قوله تعالى (قال له موسى) إستئناف لبيان ماجرى بينهما بعد الالتقاء. فيقول قال موسى للخضر ـ عليهما السلام ـ بعد التفاهم والتعارف : (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت) أي هل تأذن وتجيز لي أن أتبعك وأصاحبك في السفر والحضر والمقام والمجلس وأعيش معك عيشة التلميذ مع الأستاذ المعلم له (على) شرط (أن تعلمني) وتبذل تعليمك إياي فيما يمكن ان اتعلمه (مما علمت) من العلوم اللدنية القابلة للتجاوز إلى الغير ، وذلك لأجل (رشدي) وإصابتي لخير صالح لي في ديني ودنياي وفي معاشي ومعادي ؟

فإن قيل كيف يتعلم موسى ـ عليه السلام ـ وهو صاحب التوراة ومن أولي العزم ومن الرسل البارزين على صفحات الايام من رجل غاية أمره أنه نبي لم يرسل أو رسول لم تتبين رسالته ومقامه وأنه أعلم من موسى ؟ قلنا : يختص برحمته من يشاء وفوق كل ذي علم عليم ، وعلوم الله متوفرة لا تحصيها ضابطة ، وما أوتينا من العلم إلا قليلا • ويجوز أن يختص الخضر بعلوم لدنية ممتازة عما أوتي الخضر • وهذا الفارق تجده كثيرا بين المعاصرين من علماء الزمان ، فكم من عالم متفرد بعلم أو علوم ليس منها عند غيره كثيره ولا قليله ؟

(قال) الخضر في جوابه (إنك لن تستطيع معي صبرا) أتى بحرف التأكيد ولن النافية البليغة ونفي الإستطاعة لأن الصبر على المشاق ومعرفة أسرار ما يختلج في قلب الطالب موقوف على طاقة قوية واستطاعة مهمة فإذا انتفت الطاقة انتفى ما يبنى عليها من الصبر ، فنفي الصبر كنفي رفع المتاع من صاحب يد ضعيفة ، ونفي إستطاعته كنفيه ممن لا يد له ، وسر ذلك أن أعمال الخضر كانت مخالفة ومباينة للشريعة السماوية الإعتيادية الجارية بين الأنام وموسى أرسل بتلك الشريعة ، فاستطاعة صبر موسى عليها كاستطاعة من لا يد له على حمل المتاع حيث لا علم له بمبادىء هذه الأعمال وأسرارها، ولذلك عقبه بقوله (وكيفَ تصبرُ على ما لم تحطْ به خبرا ؟) إيذانا بأنه يتولى أمورا خارجة عن نظام شريعة موسى ، وصاحبها لا يتمالك الصبر على ما يخالفها •

(قال) موسى : (ستجدني إن شاء الله صابرا) على ماأراه معك بلا اعتراض (ولا أعصى لك أمر) أي شيئا مما تأمرني بعمله • أو إطاعة أمر يصدر منك عليّ في أي شيء أردته • وذكر المشيئة إن كان للتبرك فبها ونعمت ، وإن كان للتعليق فهو من غاية التوفيق حيث يسد باب الكذب

عليه في وعده بإطاعته له • (قال) الخضر ـ عليه السلام ـ : (فإن اتبعتني) يا موسى (فلا تسألني عن شيء) أي مما تشاهده من أعمالي فضلا عن المناقشة معي (حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أبدي لك بيانا على ما تعلق به العيان •

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَها • قالَ : أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً !(٧١) قالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرا ؟!(٧٢) قال:لا تُؤَاخِذْني بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْري عُسْرا(٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ ، قالَ أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ؟! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً !)(٧٤)

قوله تعالى : (فانطلقا) أي الركنان في الموضوع • وهما المعلم والمتعلم ولم يضم إليهما يوشع لأنه بعد لم يرفّع • أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ انهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة ، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول أي أجرة (حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) أي ركبا في السفينة المعهودة بين الناس في الإناقة وحسن الصنعة لم يمر في ذلك الوقت سفينة أحسن منها • ويروى أنها كانت ذاهبة الى (ايلةَ) فلما دخلاها لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواحها بالقدوم ، فـ (قال) موسى : (اخرقتها لتغرق أهلها ؟) أي لغرض أن تغرقهم ولا يصلح ذلك لك حيث إنك من أهل التقوى ، أو حتى يغرق أهلها ولو لم ترد ذلك فإنه أيضا مصيبة تحدث هناك وعلى كلتا الحالتين (لقد جئت شيئا إمْرا) أي داهيا منكرا (قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ؟!) وهو تذكير لما

ألقاه إليه أول الأمر (قال : لا تؤاخذني بما نسيت) إعتذار بنسيان الوصية أي لا تؤاخذني بنسياني للوصية التي وصيتها بي فإن أول الناس أول ناسٍ . أو لا تؤاخذني بفعل اعتراض نسيت الوعد بتركه (ولا ترهقني) أي ولا تحملني (من أمري) وهو اتباعك مع السمت والسكوت (عُسْرا) اي صعوبة وهو انجاز الفراق بما لا يطاق (فانطلقا) الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة وانطلقا وهما يمشيان على الساحل ، كما في الصحيح . وفي رواية مرا بقرية (حتى إذا لقيا غلاما) يلعب مع الغلمان واسمه كما روي جيسور وكان أحسنهم (فقتله) وفي طريق القتل روايات أقربها أنه أخذه وضرب رأسه بالجدار فمات . (قال) موسى لما رأى ما رأى منه مستنكرا لعمله : (أقتلت نفسا زكية) أي طاهرة من الذنوب لم يبلغ زمان الكلفة وقوله (بغير نفس) أي بغير قصاص نفس عليها وكان القصاص على الصغار في تلك الشريعة ، وقد نقل البيهقي في كتاب المعرفة : أنه كان في شرعنا ـ أيضا ـ قبل الهجرة ، ثم نسخ . (لقد جئت شيئا نكرا ؟!) أي جدّ منكر .

الجزء السادس عشر

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبرا ؟! (٧٥) قَالَ : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً(٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فأَبَوْا أنْ يُضَيِّفُوهُمَا ، فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ، فَأَقامهُ ، قالَ : لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيهِ اَجْراً ؟(٧٧) قَالَ : هذَا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِيكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)(٧٨)

(قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ؟!) وزيادة لك في هذه المرة لزيادة المكافحة والمصارحة له بالعجز عن صحبته • (قال : إن سألتك عن شيىء بعدها فلا تُصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) أي بلغت الى الغاية القصوى في الأسباب التي تعذر بسببها في مفارقتي حيث خالفتك مرارا (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) الجمهور على أنها بلدة أنطاكية (استطعما أهلها) وكانوا لئاماً (فأبوا أن يضيفوهما) غاية في اللؤم (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط من قدمه واختلال بنائه • والإرادة مجاز مرسل عن القرب منه (فاقامه) الخضر بيده (قال)

موسى : (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تتقوى به على المعاش لاسيما في هذه البلدة البعيدة عن الكرامة والانتعاش (قال : هـذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) من تلك الاعمال الصادرة مني الموافقة لدستورنا والمخالفة لما أنت عليه من الشريعة السماوية .

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا(٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا(٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)(٨٢)

قوله (أما السفينة) شروع في بيان تأويل الأعمال التي باشرها وتسببت في استنكار موسى ـ عليه السلام ـ لها فقال (أما السفينة) أي التي خرقتها (فكانت) ملكا (لمساكين يعملون في البحر) ويتعيشون بما يحصل من أجرة حمل الركاب وأمتعتهم في الذهاب والأياب (فأردتُ أن أعيبها) أي أجعلها ذات عيب بالخرق ، ولم أرد إغراق أهلها كما زعمت لأني كنتُ عالما بأن الملك الظالم يمر عليها قريبا ويتركها لوجود العيب فيها ويصلحها أصحابها قبل دخولها في الأمواج والأماكن التي يحصل منها خطر دخول الماء فيها وغرقها (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة) أي كل سفينة

حسنة غير معيبة وبرؤية العيب فيها خَلَصَت مِن الغَصْب . ولما كان العيبُ من الأمور الغير المحمودة نسب إرادته الى نفسه لصيانة جانب قدسه ، وإن كان العيب والكمال كلاهما كمالاً بالنسبة الى انه آثار شخصه، (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟) وهذا العمل وإن كان بظاهر الحال مقبوحا فهو بالنسبة الى المآل ممدوح لأن منِ اغتصّ بالتمر وكان مضطرا في كشف الامر استسهله بشربة من الخمر ، فالفاسد صالح للخلاص مِن الأفسد ، وهذا عينُ الحق والرشد . (وأما الغلام) الذي قتلته (فكان أبواه) أي أبوه وأمه على سبيل التغليب كالقمرين والعُمرين (مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أي فخفنا خوفا شديدا أن يحمل هذا الولد السيىء الاخلاق في كبره أبويه اللذين يُسخران لأمره طغياناً عن الحدود ، ومجاوزَةً عن شريعة المَعبود ، وكفراً بالله الواجب الوجود .

ونسبة الخوف إليه تعالى لمجاورة أهل العرف إذ لا خوف يجري على من هو مُسلَّط على كل أمر ، أو معنى الخشية العلم أي فعلمنا أنه على تقدير بقائه في بغيه وارتقائه أن يغشيهما ماذكرناه ، وخلقه مع علمه بحاله من أسرار القدر وإلا فيردُ مثلُ ذلك على خلق الكفار من الجن والبشر (فأردْنا أن يبدلهما ربهما) أي ذينك الأبوين (خيراً منه) أي من ذلك الولد الطاغي المنفور عنه (زكوة) أي طهارةً في القلب (وأقرب رحما) أي رحمة وشفقة للأبوين . والتفضيل عائد إلى اعتبار أصل الرحمة ووجودها غريزةً في كل ولد . ونسبةُ الإِرادة الى نفسه مع جانب قدسه لأن المأمور المختص يعتبر نفسه من عداد الآمر ، ولما كان المتعلق من المحسنات علقها بها وأسندها إلى فاعلها (وأما الجدار) المُشْرِف على السقوط الذي اقمته (فكان لغلامين يتيمين) مات أبوهما وهما دون البلوغ (في المدينة)

التي أبت من عزّ التضييف (وكان تحته كنز لهما) أي مال مدفون من ذهب أو فضة ، كما أخرجه البخاري في تأريخه • والكنز مصدر بمعنى المكنوز • ولو سقطَ الجدارُ على قاعدته لظهر ذلك الكنز واستولى عليه غيرهما (وكان أبوهما صالحا) مستحقا لأن يتولاه ربّه ويحفظ ما يرتبط به من أموره وضياعه وظاهر الآية هو الأب الذي ولدهما • وروي أنه كان الاب السابع والله واسع الرحمة (فأراد ربك) الذي رباك على نظارة أعدى أعْدائك حيث أراد بك النمو والارتقاء على مدارج الإصطفاء (أن يبلغا) أي اليتيمان (اشدهما) أي سن الرشد والقوة في العقل (ويستخرجا كنزهما) بايديهما مع الصيانة بعد ملاحظة الأوراق الموجودة في صندوق الوالد الصالح (رحمة من ربك) مفعول له لقوله أراد (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي (ذلك) الذي ذكرته لك (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي لم تستطع وهو من باب الإستفعال مضارع استطاع بهمزة الوصل ، وأصله استطاع ، وقد تحذف التاء تخفيفا ، وحذفها هنا إشارة الى أن وقت صحبتنا ضيق يناسب الحذف والإختصار •

فإن قلت : هب أن سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ قبل ذلك التأويلَ من صاحبه الخضر لأن الله سبحانه وتعالى ذكرَ له أنه عبد من عباده وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً ، ولكن كيف يمكن لنا أن نقبل الأعمال المخالفة لظاهر الشريعة ، معَ أن الشرائع كلها اتفقت على وجوب صيانة الدين والنفس والعرض والعقل والمال ؟ وأنا اذا قبلنا فتح مثل ذلك الباب على الناس لم يبق احترام للدين وأصوله • وقد صرح القطب الرباني الشيخ عبدالقادر الكيلاني ــ قدس سره ــ بأن جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله ورسوله ولا يعملون إلا بظاهرهما • وقال سيد الطائفة الجنيد نور الله روحه : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثرَ الرسول ــ عليه

الصلاة والسلام ـ • وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا العلم لأن عِلمنا مُقيد بالكتاب والسنة • وقد صرح الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ـ قدس سره ـ في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل حراما ولا يحرم حلالاً ، ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن • وقال أيضا في المكتوب السادس والثلاثين من المجلّد الاول أيضا : للشريعة ثلاثة أجزاء : علمٌ ، وعملٌ وإخلاص • فما لم تتحقق هذه الأجزاء لم تتحقق الشريعة ، وإذا تحققت الشريعة حصل رضا الحق سبحانه وتعالى وهو فوقَ جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة متكفلة بجميع السعادات ولم يبق مطلبٌ وراء الشريعة ، فالطريقة والحقيقة اللتان امتاز بهما الصوفية كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص ، فالمقصود منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء ذلك • وقال رحمه الله في المكتوب التاسع والعشرين من المجلد المذكور بعد تحقيق كثير : فتقرر أن طريق الوصول الى درجات القرب الإلهي جل شأنه سواء كان قرب النبوة أو قرب الولاية منحصرٌ في طريق الشريعة التي دعا إليها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم وصارت مأمورا بها في آية (قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعنى) وآية (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) تدل على ذلك أيضا ، وكل طريقٍ سوى هذا الطريق ضلالٌ ، وكل طريقة ردتها الشريعة فهي زندقة • إنتهى كلامه •

والذي ينبغي أن يعلم أن كلام العارفين المحققين وان دل على أنه لا مخالفة بين الشريعة والطريقة والحقيقة لكنه يدل أيضا على أن في الحقيقة كشوفا وعلوما غيبية ولذا تراهم يقولون : علم الحقيقة هو العلم اللدنيّ وعلم المكاشفة وعلم الموهبة وعلم الاسرار والعلم المكنون وعلم الوراثة إلا

أن هذا لا يدل على المخالفة فإن الكشوف والعلوم الغيبية ثمرة الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة فهي بالحقيقة مترتبة على الشريعة ونتيجة لها . ومع هذا لا تغير تلك الكشوف والعلوم الغيبية حكما شرعيا ولا تقيد مطلقا ، ولا تطلق مقيدا فاحفظ هذا فالحفظ مبارك وحبذا .

قلت في الجواب : إن ما قلتم هو الحق والصواب ولا يفتح لأي إنسان ذلك الباب وكلما وجدنا شيئا مخالفا للكتاب والسنة وإجماع الأمة ولم تشمله أصول الأقيسة الجلية والاستدلال أنكرناه ورددناه على صاحبه، ألا ترى أن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لما رأى ما فعله الخضر ـ عليه السلام ـ مخالفا للشريعة التي نزلت عليه أنكره ورده عليه مع أنه كان من المناسب أن يصبر عليه ويسكت لأن الله هو الذي دله عليه وأرشده إليه ولكنه مع ذلك لما غلبته حرارة الشريعة والغيرة على الدين ما صبر بل رد وانكر نعم بعد أن بين له الخضر ـ عليه السلام ـ أسباب أعماله وأنه ما فعله عن أمره بل كان بأمر وارد من الله الواحد سكت عليه وفارقه ، فظهر أن لله تعالى سنتين : سنة شرعية ، وسنة عرشية . أما السنة الشرعية فهي في شريعته المنزلة على رسله الكرام من آدم إلى الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلما رأى صاحب الشرع ما خالفه أنكره وحوله الى دار القضاء ليطبق عليه الحكم فالجزاء . وأما السنة العرشية فهي تنفيذ ما أراده بقدرته وله مأمورون على تطبيقها من الملائكة والجن والسباع والحشرات والرياح والسيول والزلازل والطوفان والأمراض والآفات ... وما يعلم جنود ربك إلا هو . فكما أنه لا مجال لإنكار ما يحكم به في الأرض والسماوات من الكسوف والخسوف وتدمير البلاد بالبركان والزلازل ، وإهلاك العباد بالطوفان والسيول والأمراض الفتاكة والحروب المدمرة وقتل النساء والأطفال والرجال والغلاء والقحط وسائر البلايا الخارجة من الأرض أو

النازلة من السماء ، ولا ينكر عليه إرسال الملائكة بالويل على قوم وارسال عزرائيل لقبض أرواح آباء وأمهات وترك الأطفال في ويلات ، كذلك لا ينكر عليه في إرسال عبد من عباده اخذ بتعليمه وإرشاده لخرق سفينة أو إهلاك واحد من الصغار ، أو إقامة جدار للدار ، مع أن اقامة الجدار إحسان لا ينكر وخرق السفينة من دفع الأفسد بالفاسد وهو الاصل المعتبر غير أن قتل الصغير فيه تعجيب لاهل التفكير . وعلى كل فنحن نؤمن بأن الخضر ــ عليه السلام ــ كان وليا مطيعا لربه في تنفيذ الاحكام أو رسولا برسالة خاصة كما للملائكة ونفذ ما أمر به الملك العلام والشرع أنكر عليه كما جرى لموسى ــ عليه السلام ــ وينكر على غيره ما يخالف ظاهر الإسلام . والله هو الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(وَيَسْئَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ . قُلْ : سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً(٨٣) إِنَّا مَكَنّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبا(٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبا(٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ، وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً ، قُلْنا : يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ، وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً(٨٦) قالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً(٨٧) وَأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً)(٨٨)

قوله تعالى (ويسألونك عن ذي القرنين) كان السؤال على وجه الإمتحان والسائلون في المشهور قريش بتلقين اليهود . وقيل : اليهود

أنفسهم . واختلف في شخص ذي القرنين على أقوال أشهرها وأقربها أنه : أسكندر ابن فيليبيس بن مهريم بن هرمس اليوناني . وكان سرير ملكه مقدونيا ، وهي اليوم مقاطعة في اليونان . وهو الذي غلب على (دارا) مَلِكِ الفرس وتزوج ابنته ، وقتل الرجل الفارسي الذي قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه وأظهر كرما وشجاعة وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة وثلاثين سنة ، وقد تولى الملك بعد أبيه ، وقد كان تلميذا لأرسطو ، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه في السياسة ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالا ذوي شجاعة ووجاهة وأبهة وجمال من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه أن لا فضل في قتلهم وأن قتل الرؤساء تؤجج النار في قلوب الأمة ولا تخمد ، وأمره أن ينعم عليهم ويعطي كلا منهم ملك أبيه ، ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائما ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوبا فمشى على تلك السياسة . وبنى الأسكندرية بمصر وعاش ثلاثا وثلاثين سنة ، واستولى على الغرب والشرق ، ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل إلى بلاده والمشهور أنه مات في العراق ، قيل في قلعة مركز ناحية كولعنبر (خورمال) ، وقيل : في قصبة الاسكندرية غربي بغداد الآن . ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التي أسسها . هذا رأي .

وهناك رأي آخر قاله أبو الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بـ (الآثار الباقية من القرون الخالية) أنه من حميرَ واسمه أبو كرب ابن أفريقش ، وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها ، فسميت القارة كلها باسم (أفريقيا) هذا ملخص ما قاله العلماء .

وانما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس ، أو لأنه كان على رأسه من شعره ضفيرتان ، أو لأنه كان على تاج رأسه مادتان عاليتان من الجواهر تشبهان القرنين .

(قل) في جواب السائلين عن ذي القرنين (سأتلو عليكم منه ذكراً) أي قرآنا نازلا من الله سبحانه وتعالى . ثم شرع في تلاوة الذكر فقال : (إنا مكنا له في الارض) أي جعلنا له قدرة وقوة من حيث : التدبير والرأي ، وكثرة الجنود والآلات الحربية ، وتنظيم الجيش ، وتوفير المعيشة ، وتقوية المعنويات ، والتدريج في الحركات ... (وآتيناه من كل شيىء) علما وعملا وصنعة ومالا ومعدات وأفرادا وآراء (سببا) أي طريقا يوصله إليه (فاتبع سببا) يوصله إلى مقصوده ، ولم يهمل ما آتيناه من جيشه وجنوده وغير ذلك ، فتحرك نحو اليمين واستولى على البلاد والعباد (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أي منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يقدر أحد على مجاوزته لكونه بحرا محيطا مائجا ليس فيه المعمورة الأرضية القريبة حتى يصل إليها الجيش بسهولة (وَجَدَها تغرب في عينٍ حَمِئة) أي ظن أن الشمس تغرب في مادة ذات حمأة وهي الطين الأسود وذلك لأن البحر كان واسعا لا يرى منتهاه والشمس عند غروبها فيه يتكدر محل غروبها كأنه ماء أسود، أو لأن قرص الشمس منعت عن رؤية ما تغرب فيه فيرى أسود مظلما (ووجد عندها) أي عند تلك العين أي المادة المائية على الساحل (قوما) ألبستهم من جلود السباع وأطعمتهم ما يلفظه البحر من الأسماك (قلنا : ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) والقول مفسر بالإلقاء في القلب بالتفكير السليم أو بالإلهام إن كان صالحا عابدا لله ، أي فهمناه أن القوم قوم فاسدون ، وقد باشروا أمورا يستحقون عليها العذاب لمخالفتهم لما ألقى إليهم من النصائح المشروعة ، فأمرك الان أحد شيئين : إما أن تعذبهم بلا

مهلة لاستحقاقهم السابق الثابت ، وإما أن تتخذ فيهم حسنا أي وجها ذا حسن ، وهو دعوتهم الى التوبة عن الإفساد والرجوع الى الحق والرشاد (قال) ذو القرنين بعد أن أفهم ذلك لأولئك القوم (أما من ظلم) نفسه ولم يقبل دعوتي ولم يتوجه الى الحق (فسوف نعذبه) بالقتل (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا) أي منكرا فظيعا لائقا بالكافرين (وأما من آمن) بالله (وعمل صالحا) على موجب دعوتي (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي فله المثوبة الحسنى جزاءً له (وسنقول له) مادام حيا (من أمرنا) أي مما نأمر به (يسرا) أي سهلا مُيَسَّراً غير شاق عليه . فمن عصى وخالفه نال العقاب أو فرّ من ذلك المكان ومن أطاعه فاز بالخيرات .

(ثم أَتْبَعَ سَبَباً(٨٩) حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرا(٩٠) كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً(٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً(٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوماً لا يَكادُونَ يَفقَهُونَ قَولاً(٩٣) قالُوا : يا ذَا القَرْنَيْنِ اِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى اَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟(٩٤) قالَ : ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَينَهُمْ رَدْماً(٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ، حَتَّى اِذَا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ، قالَ : انْفُخُوا ، حَتّى اِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ : آتُوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرا(٩٦) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ، وَما اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً(٩٧) قال : هذَا رَحْمَةٌ

مِنْ رَبِّي ، فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاءً ، وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً(٩٨) وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ في بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً(٩٩) وعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرينَ عَرْضاً(١٠٠) الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ، وكانُوا لا يَسْتَطِيعونَ سَمْعاً)(١٠١)

قوله تعالى (ثم أتبع سببا) أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها (حتى إذا بلغ مطلعَ الشمس) يعني الموضع الذي تطلع منه الشمس أولاً من معمورة الارض بالنسبةِ الى أهل المغرب (وجدَها تطلعُ على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أي لباسا • يعني أنهم كانوا بعيدين عن التمدن ، وعمل النسيج والحياكة فألبستهم إما من جلود السباع وكانت قليلة نادرة ، أو كانت حرارة من الشمس تأتيهم كالفقراء في أوقات البرد يتدفأون بها من البرودة ، ومعلوم أن ذلك كان في وقت الحاجة الى اللباس من وقت الخريف والشتاء ، أو لم تكن لهم أبنية يسكنون فيها كما قيل وهو في غاية البعد ، لأن تلك البلاد كانت قابلة لحفر السراديب ورفع الابنية بها إلا أهل الجزر البحرية فإنهم ما كانوا يبنون بها لكثرة الأمواج والجزر والمدّ الذي تتسبب في هدم الأبنية •

وجعل العبارة كناية عن فقر حالهم وقلة أموالهم أولى وأنسب لأن نظير العبارة دائر في زماننا أيضا بالنسبة الى بعض الناس ، فيقال : فراشهم الأرض ولحافهم السماء •

(كذلك) أي أمر ذي القرنين في بلوغه أقطار الأرض ذلك (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود والمعدات والأرزاق (خبرا) أي علما ولا يعلم به غيرنا لكثرته وخروجه عن الإحصاء المعتاد لغالب العباد •

(ثم أتبع سببا) أي سلك طريقا ثالثا متوجها نحو الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) أي بين الجبلين الآتي أحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب المتقاربين وبينهما فتحة يعبر منها العابرون من الجنوب الى الشمال وبالعكس • وكان وراءهما من الناحية الشمالية الباردة جدا قوم متوحشون كما قال تعالى (وجدَ من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً) أي وجد ذو القرنين بوسيلة الإستعلامات العسكرية وراء السدين قوما في غاية الوحشية والغباوة لا يكادون يفقهون قولا يقال لهم لأجل التفاهم ، أو لبعدهم من الناس الآخرين وعدم احتكاكهم بهم ، أو لشرارة طبعهم فإنهم كانوا بحيث يتحاشى الناس عن الوصول إليهم للخوف من صولتهم وقساوتهم وهجماتهم •

(قالوا) أي قال الذين من دونهم ، أي القوم الذين تقرب بلادهم من بلادهم وهم الصينيون الساكنون في القرب من فتحة الجبلين الذين كانوا يتأذون من صولاتهم من وراء الجبلين عليهم : (إن يأجوج ومأجوج) أي إن القوم الذين اشتهروا باسم يأجوج إذا عُرِبَ عنوانهم ، وهم قبيلتان من أولاد يافث ابن نوح ــ عليه السلام ــ ، ويعرفون بالمغول في تعداد أسماء الأمم في الأرض ويسكنون في الشمال الشرقي من قارة آسيا (مفسدون في الأرض) أي في أرضنا بالقتل وأخذ الأموال والارزاق والتعرض للأعراض • قيل : انهم كانوا يخرجون عندما انكشفت الثلوج والحواجز أمامهم إلى البلاد المجاورة الجنوبية فيغيرون عليهم ويقتلونهم ويأخذون مالديهم كالوحوش الضارية الواصلة الى المواشي الضعيفة (فهل نجعل لك خرجا) أي خراجا وجُعْلاً من أموالنا (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟) •

(قال) ذو القرنين في جوابهم : (ما مكّنّي) بتشديد الكاف وادغام نون اللام في نون الوقاية من باب التفعيل ، وقرىء مكّنني بالفك (فيه ربي) أي جعلني مكينا قادرا عليه (خير) أي مما تريدون أن تبذلوه لي من الخراج ، فإن صاحب شرف التاج يضع عن الامة الخراج ولا يجعل عليهم ما يوجب الإحراج (فأعينوني بقوة) وعمل يدوي تتقوى به على المقصود (أجعل بينكم وبينهم ردما) أي حاجزا حصينا وحجابا منيعا يسد عنهم طريق الوصول إليكم بسهولة ، فإني آمر الصنّاع يذيبون الحديد ويصبونه في القالب كاللبنات وأبني به السدّ فـ (آتوني زبر الحديد) أي قِطَعِ الحديد المصبوبة فأتوه بِهِ بَعد الصنع (حتى إذا ساوى) أي عمالهُ البناؤن (بينَ الصدفين) أي جعلوا ما بين الجبلين مملوء من المواد الحديدية بحيث ساوى السد الجبلين يمنة ويسرة في العلو ، وبعد إكمال هذه العملية وضع المنافخ على المواد الحديدية بالطرق العامية (قال) للعمال : (انفخوا) بالمنافخ في زبر الحديد الموضوعة بين الجبلين (حتى إذا جعله نارا) قال (آتوني) أيها المتولون أمر النحاس قطرا أي نحاسا مذابا (أفرغ عليه قطرا) أي نحاسا مذابا فصار السد جبلا حديديا نافذا في جانبي الجبلين مساويا لهما في الإرتفاع غالبا عليهما في الملاسة والإمتناع من تنفيذ وسائل الصعود والإرتفاع (فما اسطاعوا) أي فما استطاع يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أي يعلوا عليه (وما استطاعوا له نقبا) أي فتح منافذ فيه للصعود عليه أو للخروج منه كالباب الى الناحية الجنوبية مما يلي الصين • فخلصوا من إفسادهم بتوفيق الله ذا القرنين على صنعِ السد في البين •

(قال) ذو القرنين بعد ذلك : (هذا) السد وبناؤه (رحمة) عظيمة (من ربي) أفاضها عليّ لنيل لسانِ الصدق في الآخرين والمثوبة الحسنى يوم الدين ، وعلى الصينيين الساكنين في تلك الأصقاع لحفظهم من شر

المفسدين (فإذا جاء وعد ربي) أي وقت وعده بعبور المفسدين من ذلك الطريق (جعله دكاءً) أي أرضا مستوية (وكان) ولم يزل (وعد ربي حقا) ثابتا واقعا لا محالة ٠

(وتركنا) أي صيرنا (بعضهم) أي بعضا من قوم يأجوج ومأجوج يومئذ (يموج في بعض) أي يدخل في بعض وراء السد في بلادهم لسدّ طريق الخروج عليهم (ونفخ في الصور) أي وسيأتي ويقرب وقت النفخ في الصور لخراب العالم (فجمعناهم جمعا) أي فنجمعهم عند ذلك جمعا للحساب على ما فعلوا بالأمم المجاورة وعلى ما ارتكبوا من فظائع الأعمال من القتال والهتك والدمار في البلاد والعباد (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) أي وأظهرناها لهم بلا خفاء واشتباه (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) أي في حجاب ساتر عن رؤية آياتي التي ينظر إليها فيسترشد بها ويؤخذ بها طريق الايمان والاعمال الصالحة والإخلاص (وكانوا) مع وجود الغطاء على عيونهم (لا يستطيعون سمعا) أي ليس عندهم استطاعة استماع لآياتي البينات ٠

وإذا ذكرنا الآية التي فيها بحث يأجوج ومأجوج فلا بأس أن ننقل لكم عبارة المفسر طنطاوي الجوهري للإطلاع على بعض المفاهيم ٠ قال في هذا الموضوع : لقد كتب كاتب هندي حوالي سنة ألف وثمانمائة وتسع وتسعين ١٨٩٩ ميلادية في مجلة (الهلال) يسأل علماء مصر والشام : أين يأجوج ومأجوج ؟ وهل هم موجودون ؟ وإذا كانوا موجودين فأين هم ؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب في الأرض وهل قول الله تعالى يتغير ؟ واذا كان قول الله حقا وصدقا فأين هؤلاء ؟ وقد كرر هذا الموضوع مجلة الهلال ثلاث مرات فلم يجب أحد" ٠ وقد كنت إذ ذاك في أول خدمتي في المدارس المصرية بصفة مدرس ، وكان لي إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته في اللطيفة الاولى كما ذكرته لك فكتبت ما يأتي

وأرسلته الى مجلة الهلال ، وهذا أول موضوع كتبته ونشر في الجرائد فأحمد الله أنني وفقت أن أسير في تفسير القرآن اليوم سنة ألف وتسعمائة واربع وعشرين (١٩٢٤) وإنى أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره في الجرائد بأمد طويل فهاكه :

فكتبت المقالة الثامنة التي كتبتها في كتابي نظام العالم والأمم : يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا في القرآن الشريف في سورة الكهف وسورة الأنبياء قال تعالى (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) وقال في سورة الأنبياء قال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون • واقترب الوعد الحق •••) الآية فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التي ليس لها مساس به ، ولنحصره في خمسة مباحث : المبحث الاول في معنى لفظ يأجوج ومأجوج • المبحث الثاني في إفسادهم في الأرض ، ويستلزم ذكر تأريخهم • المبحث الثالث في معنى فتحت يأجوج ومأجوج ، وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك • المبحث الرابع في ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين • المبحث الخامس اقتراب الوعد الحق •

المبحث الاول :

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح ، مأخوذان من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها تشيران لكثرتهم وشدتهم • وذكر بعض المدققين في البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له (ترك) وهو نفس الذي سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج ، وهم كانوا يشغلون

الجزء الشمالي من آسيا تمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيط المنجمد الشمالي وتنتهي غربا بما يلي بلاد التركستان كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الاخلاق) وفي رسائل إخوان الصفا فقد ذكروا أن هؤلاء هم قوم يأجوج ومأجوج .

المبحث الثاني في الكلام على افسادهم في الارض :

وقد ذكر المؤرخون أن هذه الامة كانت تغير قديماً في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدوا وقبلوا الأمم قلباً قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا ؟ فهم مفسدون في الأرض بنص القرآن وشهادة التأريخ . فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ، وذهبت الى أوربا في قديم العهد فمنهم أمة (السيت) و (السمرياق) و (المسجيت) و (الهون). وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء ؟ وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديما قبل نزول القرآن كما تقدم في بعض الأحاديث أيضا . ثم إنهم لم يزالوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة ، إذ ظهر منهم رجل يسمى (تموجين) لقب نفسه (جنكيزخان) وقال مؤرخو الأفرنج أن معناه بلغة المغول (مَلِكَ العالم)[1] . ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذا أعدّ نفسه فاتحا لكل العالم ، وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في أوائل القرن السابع من الهجرة ، فإنه بَعْدَ أنْ جمَعَ أمة التتار تحت حكمه أخضع الصينَ الشمالية أولا . ثم ذهب الى

(١) قلت : بل معناه مثير الحرب ، لان الكلمة مركبة من (جنكك) و (أنكيز) والاولى بمعنى الحرب ، والثانية المثير .

بلاد الإسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها • وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا ، وسقطت الدولة الخوارزمية بعد حرب دامت عشر سنين • وقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع ما لم يسمع مثله في التاريخ • فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية فَقَتَلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعاً • ولقد حسبوا القتلى في مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع (جنكيز خان) التي لا تحصى عدا أربعة وعشرون قتيلا ، وأحرقوا المدينة ، وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهاراً فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما ، وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب ، وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى في واقعة (مرو) فكانوا مليونا وثلاثمائة وثلاثين الفا ! هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم • راجع دائرة المعارف ، وابن خلدون ، وفاكهة الخلفاء •

وقس على ما ذكرناه جميع البلاد التي سنذكرها فقد اخضعوا بلاد الهند ومات (جنكيز خان) بعد قفوله من غزوها • ولما ملك بعده ابنه (آقطاى) أغار ابن اخيه المدعو (باتو) على الروس سنة سبعمائة واثنتين وعشرين هجرية ودمروا (بولونيا) وبلاد المجر وأحرقوا وخربوا ومات (آقطاى) فقام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه الى دفع الجزية ، ثم مات جالوك ، وقام مقامه ابن أخيه (منجوا) فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمروا في طريق الفتح فاتجه الأول الى بلاد الصين وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان

الخليفة إذ ذاك (المستعصم بالله) فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات ، وأخذت بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهرا ! وهو أمر معلوم مشهور ، وطرحوا كتب العلم في دجلة فجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم ! وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم ما لديه من الكنوز التي لا تحصى ، وقد ورثها من أجداده ذبح وعلقت جثته في ذنب حصان ، وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد ؛ وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوربا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشأوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة (كيلاى) بالصين والمغول ، وملك جافاتاى أخو (آقطاى) تركستان ، وملكت ذرية (باطوخان) البلاد التي على شواطىء نهر (فلجاى) (أولكا) وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمنا طويلا ، وانضمت بلاد الفرس الى (هولاكو) الذي دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول الى بلاد الشام .

المبحث الثالث قال تعالى : (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج)

أي فتحت جهتهم على أحد تفسيرين . ولقد فتحت تلك الجهة في أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا في التأريخ . وخرج جنكيزخان وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا . وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشير إلى ذلك كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (اتركوا الترك ماتركوكم ، فإن أول من يسلب أمتي ملكهم بنو قنطورا) أي الترك ، ومع ملاحظة ماذكرناه في التاريخ لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها إلا هؤلاء . وقد ورد أيضا في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون في الشام وساقتهم بخراسان .

فهذه اشارة الى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم اذ لم يتجاوز الشام الى مصر ولا إلى أفريقيا • وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لا يدخلون مكة ولا المدينة ولا البيت المقدس ، ومن العجيب أن جنكيزخان وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ، ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الاماكن الثلاثة فما أجلها من معجزة ظاهرة •

ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث « يخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب ، أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ، يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق ، يورثهم الله مشارق الارض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء قديما على جنكيزخان المذكور • وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره في التأريخ قتل رسل (جنكيز خان) والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم ، وأغار على أطراف بلاده • فاغتاظ جنكيزخان وكتب اليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه مانصه : « كيف تجرأتم على أصحابي ورجالي وأخذتم تجارتي ومالي ؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا اموال الاتقياء او تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفو عيش من صادقكم وصافاكم ؟ اتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم ؟ وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن ظلم الضعيف قويكم •• أو ما خبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم اتركوا الترك ما تركوكم ؟ وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع أنكم ماذقتم طعم شهد أوصى به ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه ؟ ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا هذا التلف قبل أن ينهض داعي الانتقام ، وتقوم سوق الفتن ، ويظهر من الشر ما بطن ،

ويروج بحر البلاء ويموج ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج ، وسينصر الله المظلوم ، والانتقام من الظالم أمر معلوم ، ولابد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته ، وآثار عدله في بريته ، فإن به الحول والقوة ، ومنه النصرة مرجوة ، فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب ... » إنتهى المقصود من عبارات كتاب جنكيزخان .

وانظر كيف كان صريحا بجميع ما يراد من هذه المقالة بأوفى بيان ، وهذا مصداق ما رواه البخاري بسنده عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب ابنة جحش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها يوما فزعا يقول : « لا اله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » ، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها . قالت زينب ابنة جحش : فقلت : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال : « نعم إذا كثر الخبث » ولقد اتسع ذلك الفتح من ذلك التأريخ في القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخر وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا . ولقد عثر على آثاره كما قدمنا ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم ، ولما صار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد في المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التي لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ما جاورها من بلاد خوارزم . وهذه من أجل المعجزات !

ثم إنه كان بين مملكة خوارزم وبلاد جنكيزخان مملكة تسمى (أنذار) كأنها حد فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين فغزاهم الملك السلجوقي واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح . وكان إذ ذاك في (نيسابور) عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الارض بدموعهما . فَسُئِلا عن موجب هذا

البكاء والناس فرحون بنصر الله ! فقالا : « وأنتم تَعُدون هذا الثلم فتحاً ؟ وتتصورون هذا الفساد صلحا ؟ وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ! ونحن نقيم العزاء على الاسلام والمسلمين ، وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين ، ولتعلمن نبأهُ بعدَ حين » فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ، ونص في فحواه ؛ ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره . وانظر كيف ظهر صدق كلامهما في حينه كما قدمناه ، وظهر التتر وأفنوا المسلمين ، وماج الناس بعضهم في بعض فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فرارا وكذلك أهل اوربا .

المبحث الرابع :

قال تعالى : (وهم من كل حدبٍ ينسلون) الحدب ما ارتفع من الأرض ، وينسلون أي يسرعون في النزول من الأكام والتلال المرتفعة ، وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم جنكيزخان المتقدمين ، فإنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا .

المبحث الخامس :

قال تعالى : (واقترب الوعد الحق) أي القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى : (ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا) في مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة . ولكن هذا لا يدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة ، ألا ترى الى قوله تعالى : (إقتربت الساعة وانشق القمر) ؟ وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى . ومع ذلك فقد مضى نيف

وثلاثمائة وألف سنة • فهكذا قال في آية يأجوج ومأجوج (واقترب الوعد الحق) فكلاهما إقتراب ، ورب قائل يقول : أين الإقتراب في الموضوعين ؟ قلنا : معلوم أن ما مضى من الزمان لا يتناوله الإحصاء وما بقي من عمر الأرض قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ، ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بُعدا ويعده الله الباقي الدائم قُرباً • قال تعالى : (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) فآلاف السنين لا تنافي القرب مهما امتدت وطالت بالنسبة الى الزمن كله ، إذ من البديهي أن الآلاف لا تذكر في جانب الملايين • ولذلك ورد في حديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عز وجل ، وهذا ما عنّ لي ، وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندي في حينه من أمد غير بعيد في مجلة الهلال في آخر القرن التاسع عشر• إنتهى •

ثم كتب بعد صحيفتين • ما نصه : فائدة ومن العجب أن الأخبار التي ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة قسمين : قسم الجنوب ، وقسم الشمال ، فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد ، وقسم الشمال متهمون في وطنيتهم وصدقها • وجاء في الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين ، وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى (الجنكيزخانية) فلما قرأت هذا الاسم في أخبار البرق العامة عجبت كل العجب ، وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقا لا يزالون يحافظون على تأريخهم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم بدليل أنهم سموا فرقة باسم (جنكيزخان) الذي شتت شمل المسلمين قديما وشمل أكثر الأمم هو وذريته • وقد جاء في الأخبار اليوم (أي ٧ يونيه سنة ١٩٢٨) أن الوطنيين في الصين دخلوا (بكين) العاصمة أفلا ترى أن العالم الذي

نعيش فيه سينقلب انقلابا تاما ؟ الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة وقد ارتقت • أفلا يقال أنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويحصل في الأرض اضطراب آخر وهلاك لا ندريه مصداقا للآية ؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقا إذ قال (ويل لأوروبا من الصين وسماه (الخطر الأصفر) أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية ؟ الله أعلم بالمستقبل • فإذا صح هذا كان الخروج الاول خروجا جزئيا لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم ، لأن قطب الدين أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم ، ولذلك قتل رسلهم التي أرسلوها ، فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم • ويكون قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ويل للعرب من شر قد اقترب » الخ راجعا للخروج الأول • أما خروجهم الثاني فهو الذي يقلب الأرض قلبا كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة ، فإذا خرجوا أهلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديما قبل التأريخ ، وكونوا أمما في أوربا ثم خرجوا ثانيا لإبادة ملك العرب • والآن يخرجون لقلب وجه الأرض ويكون قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم » راجع للخروج السابق • أما الثاني فلا ندري ما الله فاعل بالناس والله يعلم وانتم لا تعلمون • فجدير بالأمم الإسلامية أن يفكروا في مستقبلهم فإنهم اليوم بين أوربا الظالمة والشرق الأقصى •

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ؟ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) قُلْ : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعاً(١٠٤) أولئِكَ الَّذينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً(١٠٥) ذلِكَ جزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتي ورُسُلي هُزُواً(١٠٦) اِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(١٠٧) خالدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً)(١٠٨)

قوله تعالى (أفحسب الذين كفروا) الإستفهام إنكاري ، وحَسُنَ موقعه وقوعه بعد بيان إحاطة علمه بما يسأل عنه ويجاب من الأمور الغيبية الماضية والإستقبالية • وشمول قدرته لكل ممكن من الممكنات التي تعلقت إرادته بوصول الناس اليها علما وعملا • أي أبعد ثبوت وجود واجب كذلك ظنّ (الذين كفروا) من أهل الكتاب والمشركين إصابتهم ونجاحهم في (أن يتخذوا عبادي) من الملائكة والأنبياء وغيرهم (من دوني أولياءَ) وأنصاراً لهم على مطالبهم السيئة ومآربهم الخبيثة ومع ذلك يتركون ولا يعاقَبون ؟! كلا ثم كلا (إنا اعتدنا) وهيأنا (جهنم للكافرين) المعهودين وأمثالهم (نزُلا) كشيىء يحضرُ ويعد لتمتع الواردين • (قل) يا حبيبي : (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) منصوب على التمييز ، وجاء به جمعا مع أن الاصل في التمييز الإفراد للدلالة صراحةً على تنوع أعمالهم ، أي ننبئكم بالذين هم أخسر الناس من حيث العمل وجزاؤه (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا) أي ضاع سعيهم ولم ينتج لهم خيراً (و) مع ذلك (هم يَحْسَبُونَ) أي يظنون (أنهم يُحسِنون صُنعاً) أي أنهم يعملون ما يعملون على الوجه اللائق الموافق لنيل السعادة الإنسانية (أولئك الذين كَفَروا بآيات ربهم) أي بالآيات البينات الدالة على وجوده ووحدته وسائر

صفاته (ولقائه) أي البعث والحشر والحساب والميزان ، ونتيجة ذلك من الجزاء هناك (فحبطت أعمالهم) وسقطت عن درجة الإعتبار بالمعيار لكفرهم بالله الواحد القهار (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) أي فلا نهتم بهم ولا نعتبر لأعمالهم قيمة تنفعهم يومَ الحاجة إليها (ذلك) أي الأمر والشأن ذلك وهو خفي يفسره قوله (جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) أي مَهزوءً بها .

ولما ذكر أحوال الكافرين ومآلهم بين على عادته في كتابه أحوال المقابلين لهم وقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس) أي الجنات المشتملة على البساتين نزلا (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود فيها (لا يبغون) أي لا يطلبون (عنها حولا) مصدر كالصغر والكبر أي لا يطلبون عنها تحولا إذ لا يتصورون أن يحصل لهم شيىء أعز وألذ من ذلك فيطمئنون بها والحمد لله .

(قُلْ : لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً(١٠٩) قُلْ : إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إليَّ أنَّما إلهُكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ ، فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَداً)(١١٠)

قوله تعالى : (قل لو كان البحر مدادا) أمرٌ ناشيءمن فيضان تجليات علمِه وتعلقات قدرته بالممكنات ، يعني قل للناس يا حبيبي (لو كان البحر) وجنس المياه السيالة (مدادا لـ) تحرير كلمات (ربي) أي كلماته الدالة على تعلقات علمه وإرادته وقدرته وتنفيذها لما يريده تعالى (لنفد

البحر) وانتهى ماؤه ويبس مع كثرته وفيضانه ووفرته (قبل أن تنفد) وتنتهي (كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله) أي بمثل ذلك البحر أو أضعافه (مددا) عونا وزيادة عليه ؛ وذلك لأن البحر وأضعافه من الممكنات متناهية وكلماته تعالى الحاكية عما جرى ويجري اللازمة لذاته تعالى من الأزل إلى الأبد غير متناهية ، فلا تتساوى كلماته وما خلقه من مقدوراته من البحر أو أضعافه ، قال بعض العلماء على وجه اللطيفة : لا تكفى كل قطرة منه لتحرير ما جرى عليها من الاحوال فضلا عن تحرير غيرها .

(قل) يا رسولي بعد بيان شأن الكلمات : (إنما أنا بشر مثلكم) ولا أجمع بين البشرية والإحاطة بكلمات الله تعالى وبيان كل ما تسألونني عنه لولا أن يمن الله عليّ بالبيان ، ولا يلزم من ذلك أن لا أكون رسولا فإنه خصني رحمة وفضلا بالوحي و (يوحى إلى أنهما إلهكم إله واحد) لا يتجاوزه إلى جواز الإشراك به تعالى عن ذلك علوا كبيرا . (فمن كان يرجو لقاء ربه) لقاء ممتازا بالعز والكرامة ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة فليعمل عملا صالحا مناسبا للقائه حسب وعده (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) لا إشراكا جليا كعبادة الأصنام ولا خفيا كما يكون في عبادة اللئام رياءً وسمعة موجبة للآثام ، فإنه تعالى لا يقبل إلا عبادة المخلصين جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين .

ومما يجب أن يعلم أن التوحيد الخالص لله تعالى يتم بتوحيده في وجوب الوجود، أي أنه لا واجب سواه وغيره من الممكنات المستوى وجودها وعدمها، وفي الخالقية أي أنه لا خالق سواه ؛ وفي المعبودية أي أنه لا معبود بحق سواه ،

فمن آمن بوحدته تعالى فيها فهو الموحد ، وليس من الإشراك له تعالى مباشرة الأسباب التي قررها الباري تعالى كالاستفادة من الأستاذ المفيد ، والإستمداد من المرشد الرشيد ، وطلب العون من الناس فيما يحتاج فيه إلى التعاون . وأما من جعل الرياء شركا خفيا فمراده إذا كان عمله لغير الله تعالى، كأن يعمل له ويطلب الثواب منه ، وإلا فالمجاهد الذي يعمل لإعلاء كلمة الله تعالى ونيل الغنيمة معاً فهو مؤمن موحد غير مشرك ، ولكنه ينقص من أجره بقدر نية نيلها فقط فاغتنم ذلك فإنه الحق الحقيق بالقبول .

سورة مريم ، مكية ، وهي ثمان وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(كهيعص(١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا(٢) إِذْ
نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً(٣) قال : رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي
وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ، وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً(٤)
وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ، وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً ،
فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً(٦) يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً(٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى
يَكُونُ لِي غُلَامٌ ؟ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
الْكِبَرِ عِتِيّاً(٨) قَالَ : كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ،
وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً(٩) قَالَ : رَبِّ اجْعَلْ
لِي آيَةً • قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ
سَوِيّاً(١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ : أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً(١١) يا يَحْيَى خُذِ
الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً(١٢) وَحَنَاناً مِنْ
لَدُنَّا وَزَكَوةً ، وَكَانَ تَقِيّاً(١٣) وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ

جَبَّاراً عَصِيّاً(١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً)(١٥)

قوله تعالى (كهيعص) روي في معنى هذه العبارة أقوال منها أنها اسم لله تعالى ، ومنها أنها اسم للقرآن ، ومنها أنها اسم للسورة ، ومنها أن تلك الاحرف للإشارة الى معان متمايزة • وفوض بعضٌ علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب • وهذا القول هو الذي أعتقده ، فإن القرآن الكريم بيان للناس ، وليس كل كلام منه بيانا لكل إنسان • فالظاهر أن هذه الأحرف التي افتتحت بها السور العديدة رموز بين الله وبين رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان المقصود منها معلوما عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وإعرابها مبني على المقصود منها فإذا كانت اسما للقرآن أو السورة جاز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله (ذكرُ رحمت ربك عبده زكريا) أي هذا القرآن أو هذه السورة مشتملة على ذكر رحمة ربك عبده زكريا • ويحتوي على بيان كرم الباري سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عبده زكريا ـ عليه السلام ـ • ففي العبارة إضافات متتالية لاختصاصات متعالية ، أي أن هذه السورة مشتملة على بيان الرحمة الواسعة الفائضة من الخالق العظيم الشأن الذي رباك ورقى بك مدارج العلو ، وأوصلك مقام النبوة والرسالة العامة ، وهو الرب الذي تعرفه بإفاضة هذه النعمة الجليلة عليك رحم الإنسان الذي اتصف برتبة عبوديته له وهو زكريا ـ يليه السلام ـ • فقوله (زكريا) بدل أو عطف بيان للعبد وقوله (إذ نادى) ظرف لرحمة ربك ، أي رحمه إذ ناداه بصفة أنه رباه وأنعم عليه بتربية جَميلة وتَعْلية جَليلةٍ ، فأوصَلَه من العدم الى الوجود ، ومن الضعف الى القوة والفتوة ، ومن الجهل الى العلم المعتاد بالأمور العامة ، ومنها الى العلم بأسرار الباري في خليقته ، ومنها الى افاضة العلم بشريعته

بأن جعلَه رسولاً من رسل بني إسرائيل ، وكان نداؤه له (نداء خفيا) مستورا من الناس ومن اسماعهم ، أي أنه كان في معبده الخاص وعند اعتزاله عن الناس لعبادة ربّه ، فناداه بوصف الربوبية و (قال رب إني وهن العظم مني) أي ضعف العظم الذي هو عماد الجسد والهيكل الخاص ضعفا ينذرُ بالموت والفناء (واشتعل الرأس شيباً) تمييز من نسبة الإشتعال الى الرأس ومحول عن الفاعل أي اشتعل شيب الرأس ، ومعناه أن شعر الرأس ابيض كلّه وصفا البياض من الشيب ، فصار كلمعةٍ ذات بريقٍ ولمعانٍ ، وأنا إذ أناديك أُناديك على رغبة في الإجابة وثقة بسعة رحمتك العامة للناس والخاصة بالنسبة إليّ إذ (لم أكن) في سالف الزمان إلى الآن (بدعائك شقيا) أي لم أكن في دعائي إياك خائبا في وقتٍ من الأوقات سواء دعوتُك لدفع آفة من الآفات أو جلب كرم وهبة من الهبات ، (و) دُعائي هذا مقرون بخوف البلاء فـ (إني خفت الموالى) أي الرؤساءَ (من ورائي) ، والمراد بنو أعمامِي المتوجهين إلى الدنيا الذين لا يُراعون قواعد الشريعة فأخاف فوات تراث النبوة والرسالة فينا (وكانت أمرأتى عاقرا) أي لا تلد من حين شبابها الى شيبها •

(فَهبْ لي من لدنكَ وليا) أي ولدا من صلبي (يرثني ويرثُ من آل يعقوب) والجملة صفة لقوله وليا وآل الرجل خاصته الذين يؤول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ • والمراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة والرسالة والقيام بأمر الدين وتوجيه الأمة الى رب العالمين ، على نهج قوله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا • وليس المراد إرث المال والملك لأن آل يعقوب من عهده الى عهد زكريا ـ عليه السلام ـ ما كان يعلم عددهم وأحوالهم إلا الله فلا ينال أيّ واحد منهم من متملكات آل يعقوب إلا قرصة

وهي بالفرصة. فليس في الآية منافاة مع قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ماتركناه صدقة) لأن الحديث الشريف في الملك والمال ، ودعوة زكريا ـ عليه السلام في النبوة والإجلال والدين ، ولما كانت النبوة موهوبة والإرث كالموهوب لأنه ليس تملكا اختياريا ناسبه التعبير عن وصولها إلى النبي بالتوريث وقيل أراد بالأول النبوة وبالثاني الملك والرئاسة. ويؤيد ذلك ماروي أن بني ماثان كانوا رؤوس بني إسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا ـ عليه السلام ـ رئيس الأحبار يومئذ ، فأراد أن يرث ولده الحبورة ويرث من بني ماثان ملكهم أيضا ، فتكون الوراثة مختلفة في المتعاطفين . ويؤيد ذلك قوله (واجعله رب رضيا) أي مرضيا عندك قولا وفعلا ، فإن الملوك قلما يرضى عنهم ، فأجابه ربه واستجاب نداء عبده ودعاءه وقال (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وكان القول بواسطة الملك جبريل ـ عليه السلام ـ ، والغلام الولد الذكر ، وفي تعيين اسمه ـ عليه السلام ـ تأكيد له وتشريف له ـ عليه السلام ـ من حيث أنه تعالى وضع له الاسم المشعر ببقائه وحياته حياة مباركة طيبة ، ولذلك قال : (لم نجعل له من قبل سميا) أي شريكا وعديلا له في هذا الاسم ، فلما علم باستجابة ربه له وعلم أن امرأته عجوز وهو كذلك استأنف و (قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً) عقيما (وقد بلغتُ من الكبر عتيا ؟!) حال مؤكدة لاستبعاد حدوث الولد له . والعتي : مصدر بمعنى اليبس والقحول في المفاصل . وأصله عتوو كقعود قلبنا الواو المتطرفة المضموم ما قبلها ياء ، فقلبنا الواو الواقعة قبلها ياء لقاعدة الاجتماع ، وأدغمنا الياء في الياء ، وكسرنا ما قبلها وما يليها للمناسبة واللين في اللسان فصار عِتِيا . أي قد بلغتُ انا من أجل كبر السن يبسا وقحولا ، أو حالة لا سبيلَ إلى إصلاحها .

وإنما قال ــ عليه السلام ــ ذلك مع سبق دعائه وقوة يقينه بقدرة الله تعالى إستعظاما لا إستبعادا لأنه شهد وجود الولادة بدون السبب الاعتيادي وذلك مما لا بأس به ولو من الأنبياء والرسل ــ عليهم السلام ــ . وقد يقال : إنه سأل بذلك بعد تيقنه بحصول المقصود لإظهار قدرة واجب الوجود بين أهل الإيمان والجحود ليزداد الذين آمنوا إيمانا وليتنبه الجاحدون عسى أن يتوبوا إلى ربهم .

(قال) الله سبحانه (كذلك قال ربك هو علي هين) والمعنى قال الله تعالى كذلكَ قالَ ربكَ ، وقال هو عليّ هين أي سهل" (وقد خلقتكَ من قبلُ ولم تكُ شَيئاً) أي وما كُنتَ مَوجوداً بل كنت معدوما . فالخلق وإن كان على سبيل تسلسل الأسباب الإعتيادية لكن خلق كل سبب منها كان مربوطا بإبداع وإيجاد آني ، حتى لو فرضنا أنّ الأسباب اللاحقة مرتبة على وجود الأسباب السابقة التي هي من المعدات للواحق لكن السبب الاول ليس له سبب إلا تعلق إرادة الفاعل المختار والأمر إليه بالاعتبار . (قال : رب اجعل لي آية) أي علامة على علوق الولد ، فإن البشارة كانت مطلقة (قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أي علامته حدوث حالة غير اعتيادية لك وهي عبارة عن عجزك عن التكلم والتعبير مدة ثلاث ليال متساوية ، أو حالكونك سويا في الخلق سليما في البدن يعني أنك تقدر على التكلم مع نفسك . وقراءة أسفار التوراة (وليس فيك عجز عن مرض مع أن الله جعلك بحيث لا تقدر على التكلم مع الناس) وهذه خارقة للعادة (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) أي فلما فاجأه ما قدر له ربه من العلامة وعرض عليه تلك الحالة أشار الى قومه أن سبحوا ربكم وأتوا بواجبات عباداتكم بكرة وعشيا بدون انتظار حضوري معكم . والتسبيح جاء بمعنى التصلية أي صلوا صلاتكم

المشروعة في دينكم ، أو المراد سبحوا الله واحمدوه واذكروه بكرة وعشيا • وانما ذكر التسبيح لمناسبة المقام فإنه مقام التعجب من قدرة الباري تعالى في خلق الولد من عجوزين عاجزين يابسين كما يتعجب من انعقاد الثمرات على أغصان شجرة يابسة •

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة) وقلنا للولد لما ولد وتربى وبلغ مجال الفهم والتمييز : يا يحيى خذ الكتاب المستطاب المعهود بينكم وهو التوراة لقراءته وفهمه وحفظه ونشره وترويجه بين الناس بقوة بدون ضعف وفتور ، وبجد بدون توانٍ وكسل وقصور (وآتيناه الحكم) أي العقل المستقيم أو الحكمة في الأمور كلها في ما يتداول بينهم ، أي فهم الأحكام والقضاء بين الناس ، أو الحكم الإلهي بإعطاء النبوة والرسالة على منهج الرسل السابقين من آبائه وأعمامه الكرام حالكونه (صبيا) قيل : إنه كان في السنة السابعة من عمره • ولم ينبأ نبي قبل الأربعين إلا يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ (وحنانا من لدنا) أي وآتيناه من لدنا عطفا ورحمة بالناس لاسيما الضعفاء بالجهل وقلة ذات اليد (وزكاة) أي طهارة في النفس فيكون كالعلة للوصف السابق ، لأن الشفقة تنبت من القلب الطاهر ، أو زكاة وصدقة منه للناس أي اثريناه فأخذ يتصدق على المستحقين • أو برا وإحسانا لوالديه • والكل معروف من أهل المعروف (وكان تقيا) موصوفا بالتقوى بأركانها وهي التقوى عن الكفر والجحود ، والتقوى عن المعاصي ، والتقوى عن الإنهماك في الدنيا (وبراً بوالديه) مُحْسِناً إليهما بمعنى الكلمة (ولم يكن جبّارا) متعاليا على الناس (عصيا) أي مخالفاً أمر مولاه أو مستبدا برأيه عاصيا على الناس فيأخذ بآرائهم كلما ظهر له إصابتها • (وسلام) من الله نازل عليه (يومَ ولد) من مس الشيطان (ويوم يموت) من وحشة النفس من مفارقة

الخلان (ويوم يُبْعث حيا) قاصداً لقاء ربه المنان من العذاب وأهوال النيران ، أو من النقصان في الحساب والميزان .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً(١٧) قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً(١٨) قَالَ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ؟!(٢٠) قَالَ : كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً(٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً(٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ، قَالَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً !(٢٣) فَنَادِيهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ، فَقُولِي : إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً)(٢٦)

قوله تعالى (واذكر في الكتاب مريم) كلام مستأنف خوطب به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد بالكتاب القرآن الكريم أو السورة المباركة، إذ هي التي صدرت بقصة زكريا ـ عليه السلام ـ المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها للمناسبة الملحوظة ، أي واذكر للناس النبأ العظيم العجيب المتعلق بمريم ـ رضي الله عنها ـ من حيث ولادة سيدنا عيسى منها

بلا علاقة أب وقوله (إذ انتبذت) ظرف للنبأ المقدر المستفاد ، أي واذكر نبأ مريم إذ انتبذت واعتزلت من أهلها مكاناً شرقياً من بيت المقدس ، أو انتبذت من دارها مكانا شرقياً لتغتسل من الحيض محتجبة بحائط أو الستر المقدر كما يفيده قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) أي لأداء حاجتها في أدب واحتجاب (فأرسلنا إليها روحنا) أي روحا من عندنا أي ملكا من عندنا تحيا بالوحي الذي معه قلوب العباد وهو جبريل ـ عليه السلام ـ (فتمثل لها) أي فتصور لها (بشراً سويا) في الخلق كامل الأعضاء حسنا وجيهاً نبيهاً ، ولما تمثل لها ورأته انزعجت و (قالت إني أعوذ بالرحمن منك) حيث ظهرت في مظهر لا يناسب أهل العفة والإيمان فإني امرأة محتجبة ومعتزلة في محل مستور عن الأعين لقضاء واجبي بالأدب والكرامة (إن كنت تقيا) شرط وجوابه مقدر يدل عليه ما تقدمه وهو فابتعد عني . أي إن كنت من أهل التقوى والصيانة فاتركني واذهب من حيث جئت .

ولما علم انزعاجها هدأها و (قال) لتطمينها : (إنما أنا رسول ربك) لا المعتدي على أدبك ، وأرسلت (لأهب لك غلاماً زكيا) أي لأكون سببا في اعطاء ولد طاهر من الذنوب أصلا وفصلا . فلما سمعت كلامه (قالت) مستنكرة : (أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر) بالوجه الحلال (ولم أك بغيا ؟!) زانية وما مسني أحد بالوجه الحرام . قال جبريل ـ عليه السلام ـ (كذلك قال ربك) أي قال ربك قولاً مثل ذلك الذي قلت لك من إعطاء ولد لك (هو علي هين) أي وهو علي هين سهل يسير وقوله (ولنجعله آية للناس) تعليل لحكم محذوف أي ونهب لك ذلك الغلام لنجعل ذلك الوهب آية وبرهانا للناس المنصفين على قدرتنا الباهرة ، ليعتقدوا أنا كما قدرنا على خلق أبي البشر بلا أب ولا

أم نقدر على خلق إنسان من أعيان النوع بلا أب (و) لنجعله (رحمةً مِنا) أي وسيلة انتشار رحمة منا ، وهي الاهتداء بهديه والاسترشاد بإرشاده ، أو رحمة منا للعباد المبتلين بالأمراض والأعراض حيث تجلينا بقدرتنا عليه ، فتبعث الحياة في أجساد مصورة بصورة الطيور بنفخ مبارك منه ، وتحيي الأمواتَ المدفونين في القبور بإيقاظ مِنه وتبرىء الأكمه والأبرص بمساسٍ من راحته (وكان) ذلك (أمْراً مقضيا) لنا أزلاً .
وقوله : (فحملته) فيه إيجاز الحذف أي فاطْمأنّت بكلامهِ ، ونَفخ جبريل في جيبها فدخلت النفخة في جوفها فحملته أي الولدَ الموعودَ وَسِنها إذ ذاك خمس عشرة سنة في أرجح الأقوال ، ومدةُ حملها به تسعة اشهر كما في سائر النساء ، والفاء في قوله تعالى فانتبذت للإتصال العرفي المعتاد وقيل حملته في ساعة النفخ وصور فيها ووضعته في ساعة بعدها حين زالت الشمس من يومها (فانتبذت به) أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة (مكانا قَصِيّا) أي مكانا بعيداً من أهلها استحياءً منها .

(فأجاءها المخلص إلى جدع النخلة) أي ألجأها وجع البطن المعهود عند الولادة إلى جذع النخلة ، وهي مابين العرق ومتشعب الأغصان من الشجرة ، وذلك لتسند اليها عند الولادة . والتعريف إما للجنس أي جذع أية نخلة للغاية المذكورة ، أو نخلة معهودة هناك لكبرها وسترها لها وصلاحيتها للاستناد أيضا . (قالت) عند ذلك حياء وانفعالا نفسيا منها (ياليتني مِتّ قبلَ هذا) الوقت العسير (وكنت نَسياً) أي شيئا تافها (مَنْسيّاً) لا يخطر ببال أحد فينسى من حقارته . ومِتّ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف ، أو مات يميت كجاء يجيىء وقريء بضمها من مات يموت كصان يصون. ونسيا بفتح النون وكسرها الشيىء التافه الذي لا يعتد به ، وشأنه أنه ينسى كخرقة الطمث ، وهما لغتان سيان . وقال بعض :

الأفصح الفتح ، وبعض الكسر • وقال بعض اللغويين بكسر النون اسم لما ينسى وبفتحها مصدر نسي ينسي من الرابع • (فناداها من تحتها) أي فولدت الولد وهو عيسى ـ عليه السلام ـ لدلالة المخاض عليه وناداها من تحت ثيابها (ألا تحزني) أي أن لا تحزني ، وكلمة أن مفسرة للفعل ، أي لا تحزني من هذا الحادث بل افرحي واشكري ربك على نعمة ولادة هذا المولود المسعود (قد جعل ربك تحتك سريا) أي ولدا رفيع الشأن عند الله وعند الناس ، وكون المنادي عيسى ـ عليه السلام ـ معجزة تليق بمقام حزنها لتطمئن •

وروي أن المنادي جبريل (ومن تحتها) أي من جانب مكان أخفض من مكانها بعيدا منها (والسري) جدول الماء والكل محتمل • وأعتقد أن الأول أولى وزاد المنادي في أسباب اطمئنانها وقال : (وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) أي هزيها وحركيها إلى جانبك ، فإذا هززت بها تساقط عليك رطبا أي تسقط عليك رطبا مجنيا بلا تكدر بغبار لأن فيها مسكة وقواماً • وفي هذا الطلب إعجاز من جهات :

الأولى : أن الطلب من صبي لم يشرب اللبان بعد •

الثانية : أن النفساء المريضة النحيفة اللطيفة غير قادرة على هز العود الصلب لتهتز بحيث يسري اهتزازه إلى الأغصان •

الثالثة : أن الوقت لم يكن وقت الثمر كما روي عن بعض •

الرابعة : أنها أثمرت فوراً ووقع الرطب على الارض القريبة منها بدون تأثر بتراب الأرض • وكل ذلك حتى تطمئن نفسا بأنها متبركة قدسا •

(فكلي واشربي) أي كلي من الرطب الحار المعتدل المناسب للنفساء ، واشربي من الماء الزلال (وقري عينا) أي طيبي نفسا وارفضي عنها ما أحزنها فكأنك بالوادي القدسي لا في البيت المعتاد الشخصي . ومعنى الفعل أصلاً وتبردي عيناً ، فإن ماء القلب إذا فار فرحاً يفور بارداً ، وإذا شرد ووصل إلى العين بردها (فإماترين من البشر أحدا) وتكلم معك حول الموضوع (فقولي) له بالإشارة (إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسيا) أي نذرت له صمتا وسكوتا . وإلا فالصوم حرام في وقت الحيض . ولا يقتضي السكوت أيضا حتى يفيدها ، أللهم إلا أن يكون ذلك جائزا كذلك في تلك الشريعة . وإذا كان قولها ذلك بالكلام فالمعنى نذرت السكوت بعد هذا الكلام . وإنما أفادها ذلك حتى يكون الولد الرضيع هو الذي يتكلم ويدوي صوت المعجزة في كهوف الأدمغة الجوفاء ، فيجفو من جفا ويصفو من صفا .

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً !(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ؟!(٢٩) قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيّاً(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً(٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً(٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً(٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا

يقول كن فيكون (٣٥) وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)(٣٦)

قوله تعالى : (فأتت به قومها تحمله) أي فلما اطمأنت نفسا بجانب قدسها وأن المولود من مواليد كن فيكون ، جاءت قومها حاملة له بعزة نفس وقوة أنس ، راجية من ربها العزيز القدير أجراً غير ممنون • فلما رأوها وفي حضنها ولد بدون سابقة زواج وأفراح وابتهاج ظنوا بها من سوء المزاج و (قالوا : يامريم لقد جئت شيئاً فريّا) أي فعلت شيئا فريا أو جئت بشيىءفري •وفريا معناه عظيماً أو عجيباً، وأصله من فري الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد ، ونصبه على أنه مفعول به • وقيل : مفعول مطلق ، أي جئت مجيئاً عجيباً • وعبر عنه بالشيىء تحقيقا للإستغراب كأن ذلك الشيىء مجهول غير معتاد • (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) هذا النداء مستأنفلتأكيد التوبيخ•والمراد بهارون أخ لها من أبيها ، وكان صالحاً • وقيل : رجل صالح مشهور في بني إسرائيل • وقيل : المراد هارون أخو موسى ــ عليه السلام ــ ، والمراد بالأخت المشابه والمماثل في التقوى ، أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الصالح المشهور ، أو هارون أخو موسى ، ما كان أبوك امرأ صاحب سوء في الأعمال والأخلاق ، وما كانت أمك بغيا أي زانية • والاصل إذا كان زكيا فالغالب أن الفرع يكون كذلك ، فمن أين لك هذا الولد ؟

(فأشارت) مريم (إليه) أي الى الولد أن كلموه ، فغضبوا عليها و (قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟!) والمراد بالمهد حجر الأم، فأنطق الله عيسى ــ عليه السلام ــ معجزة قاهرة باهرة إذا كان نبيا منذ الولادة ، أو إرهاصا • و (قال إني عبدالله آتاني الكتاب) أي الكتاب

المختص بي وهو الإنجيل • وقيل : الإنجيل والتوراة (وجعلني نبيا) رفيع الشأن مخبرا من عنده (وجعلني مباركا) صاحب بركة وخير لنفسي بعبوديتي لله وإخلاصي ومحبتي له ولغيري بإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من مائدة الرحمة أين ما كانت في الأرض أو في السماء (وأوصاني بالصلاة) وفاءً بحق العبودية ومعراجا لروحي (والزكاة) وفاء بحق المستحقين وابتهاجا لنفوسهم (ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي) أي وجعلني براً محسنا بوالدتي بخدمتها في حضرتها والدعاء لها في غيبتها (ولم يجعلني جبارا) متكبرا على غيري (وشقيا) ذا شقاوة وعصيان لربي ولا ذا إتعاب وتعذيب لغيري (والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً) سلام من مس الشيطان في أول أمري ، ومن النقص في الإيمان في آخر أمري ، ومن سوء الحساب ونقص الميزان في وقت البعث وأحوال الحشر •

(ذلك) المولود المسعود المبارك وذلك الشخص الموصوف بتلك الصفات الحميدة (عيسى ابن مريم) شخصية شريفة من والدة عفيفة (قول الحق) وأقول هذا قول الحق الحي القيوم (الذي فيه يمترون) أي يشكون ويتنازعون • فيقول اليهود : هو ساحر • ويقول النصارى : هو ابن الله • تعالى الله عن كل ذلك علواً كبيرا ! (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ما صح وما استقام في إدراك المدركين وعقل العاقلين بالنسبة إلى واجب الوجود المستغني عن كل موجود (أن يتخذ من ولد) في عالم الإمكان والحدوث والشهود ، فإن الواجب الوجود المطلق بريء مما هو يناسب الممكنات المستفيدة للوجود الموقت من إرادة الباري وقدرة ذات الحق (سبحانه) فننزهه تنزيهاً وجيهاً من هذه العلائق الغير المعقولة ، فإن الافتقار الى الولد انما للتعاون مع الغير ودوام السلسلة في السير ، والباري

سبحانه غني مطلق في إيجاد كل موجود من كل عونٍ (وإذا قضى أمراً) وأراد وجوده (فإنما يقول له) أي لصورته العلمية (كن) أي كُنْ ذا عين أعيانيٍّ (فيكون) • وقوله تعالى (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه) معطوف على قول عيسى ـ عليه السلام ـ إني عبدالله أي إني عبدالله وإن الله ربي وربكم فاعبدوه • هذا ما صرح به الواحدي وقرره • وكلام مستأنف مبني على حذف الأمر المشتق من القول خطابا لسيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ • أي وقل يا رسولي بعد حكاية قصة عيسى ـ عليه السلام ـ للناس : إن الله ربي وربكم فاعبدوه (هذا) الذي قررناه من وحدانية الله تعالى واستغنائه عن النسل (صراط مستقيم) سَلَكَه الهُداة من الأنبياء والمرسلين وكلُّ ذي عقل سليم ، وضلَّ عنه كلُّ ذي قلب سقيم • ونسأله تعالى أن يسلك بنا مسالك الأنبياء والمرسلين ، ويوصلنا إلى لقائه ورضاه يوم الدين •

(فاخْتَلَفَ الأحزابُ مِن بَيْنِهِمْ ، فَوَيلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يأتُونَنَا ، لكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ في ضَلالٍ مُبِينٍ(٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ، وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)(٤٠)

قوله تعالى (فاختلف الأحزاب من بينهم) أي فاختلف اليهود والنصارى بينهم في شأن عيسى ـ عليه السلام ـ ، فقال اليهود : هو ساحر مُرتاب • وقال النصارى : بل رسول من الله إلى أولي الألباب • أو فاختلفت فرق النصارى فيما بينهم ، فقالت النسطورية : إنه ابن الله ،

واليعقوبية : إنه هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء • وقال الملكانية : هو عبدالله ونبيه (فويل للذين كفروا) من اليهود والنصارى وغيرهم (من مشهد يوم عظيم) أي من شهودهم وحضورهم في يوم عظيم مهول للحساب والجزاء (أَسمعْ بِهِم وأبصرْ) أي أسمع بالذين كفروا • وأبصر بهم صيغة التعجب تفيد أن أسماعهم تدرك كلّ صوتٍ ضعيف رقيق وأبصارَهم تبصر كل شيىء دقيق في ذلك اليوم فيدركون ما حاق بهم من الويلات والعذاب بعدما كانوا في الدنيا صمّا وعميا لا يسمعون الخطاب من الرسل الكرام ولا يبصرونَ أي شيىء يزجرهم عن سيىء الآداب (يومَ يأتوننا) أي يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) عن طريق الحق المستبين (وأنذرهم) يا رسولي النذير (يوم الحسرة) بعذاب يوم الحسرة الذي يتحسر الناس فيه (إذ قضي الأمر) أي فُرغَ مِن الحساب والميزان وأخذَ كلٌ من الفريقين طريقه الى النار أو الجنة (وهم في غفلة) عن ذلك (وهم لا يؤمنون) بأنهم يأتيهم ذلك اليوم فينتبهون من النوم (إنا نحن نرث الارض ومن عليها) لا يبقى أحد منهم إلاّ (وإلينا يرجعون) لا إلى غيرنا فنعلم ما يستحقونه ويلقون جزاءهم •

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ : يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ، وَلا يُغْنِي عَنْك شَيْئاً ؟(٤٢) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً(٤٣) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ، إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمن عَصِيّاً(٤٤) ياأَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمنِ ، فَتَكُونَ للشَّيْطانِ وَلِيّاً(٤٥) قالَ : أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتي

يا إبْراهيمُ ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْني مَلِيّاً(٤٦) قالَ : سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إنَّهُ كان بي حَفِيّاً(٤٧) وَأَعْتَزِلُكُم وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي ، عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيّاً(٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ وَهَبْنا لَهُ إسحقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلاًّ جَعَلْنا نَبيّاً(٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)(٥٠)

قوله تعالى (واذكر) عطف على أنذرهم أي على (أذكر) السابق • أي واذكرْ في القرآن أو في هذه السورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ • وقصته العجيبة العظيمة (إنه كان صديقا) ملازما للصدق لم يكذب قط مع أهله وأولاده وعترته وعشيرته في أمور دينه ودنياه و (نبيا) استنبأه الله تعالى حين كانت الديار خالية عن دِثار التوحيد وشعارِ الإسلام ، وغلب الجهلُ والتقليد على الأنام ، وطغَتِ المادة على الهُمام • والصديق من صيغ المبالغة • والنبي من النبوة بمعنى الرفعة ، أو من النبأ بمعنى الخبر لأن النبي رفيع المقام ومخبر عن الملك العلام • ومعنى الكلام أنه كان جامعا بين الصدق الوافي والنبوة وتقديم الصدق للدلالة على أن الله لا يأمر سحاب الكرم أن يُمْطِرَ النبوة على أهل الدناءة من الأمم ، وإنما يأمره بالإمطار على أصحاب الهمم ، والهمة لا تتحقق إلا حيث يكون الصدق والصبر والقوة على تحمل أذى الأمم • واذكر حاله وأدبه (إذ قال لأبيه) وناداه نداء أدب واستحياء : (يا أبت لم تعبُدُ ما لا يسمعُ) شيئا من المسموعات (ولا يبصر) شيئا من المبصرات في ذاته (ولا يغني عنك شيئا) من الأشياء أو شيئا من الإغناء •

وانظر إلى بلاغة قوله تعالى حكاية عن خليله حيث قال (يا أبَتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) ولم يقل له إنك جاهل بحقيقة الشريعة الإلهية وهي لا ترضى إلاّ بالتوحيد ، بل أفاده أنه جاءه من العلم من الله ما لم يأته وَتَرجى منه الإتباع وقال (فاتبعني أهْدِكَ صراطاً سَوِيّاً) أي مستقيما يصل السالك عليه إلى ربه وينالُ منه كلّ خير لديه . ثم بين له أنّ عبادة الأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يوسوس في قلب الإنسان أن يبتعد عن إطاعة قدسه ويتقرب من هواه ونفسه ، ويعبد الأحجار والأخشاب التي ليس لها روح ولا فتوح فقال : (يا أبَتِ لا تعبد الشيطان، إنّ الشيطان كان للرحمن عصيا) فهو مستعص على من خَلَقَه ورَزَقَه وشملته نعمتهُ ، والمطيع للعاصي عاصٍ ، ثم ترقّى من هذا الطور الى مقام الخوف عليه فقال : (يا أبتِ إني أخافُ أن يمسك عذابٌ من الرحمن) أي عذاب من الله المنان الذي اختص بالرحمانية ، وأعاذنا الله وإياكم من عذابه ، فإنّ الرحمانَ إذا عَذّبَ أوجَع (فتكونَ للشيطانَ وليّا) أي قرينا في العذاب سَوْطٌ عليه وسَوطٌ عليك، فلا يَبْقى أيّ وسيلةٍ لديك .

وبعد هذه المحاورة اللطيفة استنكر أبوه كلامه وانقلب عليه ولامَهُ و (قال) مستنكرا : (أراغبٌ أنت عن آلهتي) المختصة لي بالرعاية (يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجُمنك) أي والله لئن لم تنته عن هذا النوع من الكلام وتدعونا إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام لأرجمنك بالحجارة ، وهذا الرجم أفظع عذابٍ حيثُ فيه القتل والتحقير والتعذيب والتلطخ بالدماء . (واهجرني مليّا) أي واتركني واحذرني زمانا كثيرا حتى أهدَأ يَسيرا ، ومع ذلك التهديد والوعيد وأمْرِهِ بالتغيب عنه إلى زمان بعيد كالمه وسالمه وقال لأبيه (سلام عليك) ومع الجفاء الذي لديك (سأستغفر لك ربي) أي اترجى وأدعوه تعالى أن يغفر لك بأن يوفقك للإسلام فيجب

ما قبله من الآثام (إنه كان بي حفيا) أي إنّ ربي كان بليغا في البرّ بي وحفيا مغنيا بإكرامي والإحسان إليّ (وأعتزلكم) أي أتباعد عنكَ وعن قومك (و) اعتزل (ماتدعون من دون الله) وأهاجر بديني إلى محل غير محلكم (وأدعو ربي) وأعبدُه وحده (عسى ألا أكون بدُعاءِ ربي شقياً) خائباً ضائع السّعي (فلما اعتزلهم ومايعبدون من دُونِ الله) أي فلما اعتزلهم ومعبودهم وأصرَّ على مقصوده وخالف مقصودهم ورموه في النار وصانه ربّه عن احتراق جسده ، وحفظه بعونه ومدده ، وبعّدَه نمرودُ من البلاد العراقية ، وهاجرَ الى أرض كنعان من مملكة الأردن أقررناه وأثبتناه وجزيناه وأكرمناه (ووهبنا له إسحق و) من اسحق (يعقوب ، وكُلاًّ) منهما (جعلنا نبيا • ووهبنا لهم) أي لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والموهوب النبوة والرسالة والاحترام والجلالة والصيانة عن التحقير والملالة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) أي وجعلنا لهم مكانة ومحبة في قلوب الناس حتى يذكروهم جيلا بعد جيل بلسان ناطق بمدحهم والثناء عليهم بوجه صدق موافق للواقع حالكونه عليا في المقال ينطق بما يرضى به ذو الجلال •

(وَاذكُرْ فِي الكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً ، وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً(٥١) وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيّاً(٥٢) وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رحْمَتِنا أَخاهُ هارونَ نَبِيّاً (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الكِتَاب إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً(٥٤) وَكانَ يَأمرُ أهْلَهُ بالصلاةِ وكانَ عِنْدَ ربِّهِ مَرْضِيّاً(٥٥) وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً(٥٦) وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيّاً(٥٧) أولئكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ، ومِمَّنْ حَمَلْنا

مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ، وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)(٥٨)

قوله تعالى (واذكر في الكتاب موسى) قدم على بيان حال إسماعيل لربطه بسيدنا يعقوب عليهم السلام أي واذكر في القرآن أو في هذه السورة أحوال موسى ابن عمران من ذرية يعقوب (إنه كان مخلصا) لله في أخذ رسالاته وتبليغها وتحمل الأذى عليها (وكان رسولا نبيا) أي أكرمه الله بالرسالة بعد أن أكرمه بالنبوة يستفاد من الآية الكريمة أن النبوة والرسالة وإن كانتا موهوبتين ولكن الله سبحانه له في إفاضتهما على عباده رعاية التدرج على الوجه المناسب لحكمته أي وكان رسولا حالكونه نبيا فالذوق السليم يستفيد أن نبوته تقدمت على الرسالة فإن النبوة صفة صفاء شخص قدسي والرسالة تزيد على ذلك بتخويل تربية من عداه من الجن والإنس ولكنه قدم في الربط الرسالة على النبوة رعاية للفواصل •

وأخذ يذكر مبدأ أحواله والشروع في استكماله ويقول (وناديناه من جانب الطور الأيمن) أي من الجانب الأيمن من جبل الطور عندما توجه موسى إلى الجبل ، فإن الجهة ماعدا العلو والسفل إعتبارية فالمتوجه إلى القبلة في بلادنا يقع الشمال في يمينه والجنوب في يساره (وقربناه نجيا) أي وقربناه من المحل الذي كالمناه فيه حالكونه مناجيا مَعنا كرامة (ووهبنا له) أي لموسى (من رحمتنا) أي وهبا ناشئا من رحمتنا (أخاه هارون) عطف بيان (نبيا) معه يعاضده ويشدّ أزره إجابة لطلبه ذلك بقوله (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) • (واذكر في الكتاب إسماعيل) بن ابراهيم لأنه الجانب الأيمن الأكبر سنا ومقدما على إسحاق

ولادة وينبوعا لعين رسالة محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي العدناني القيداري الإسماعيلي فهو رئيس برأسه ورأس سلسلة ممتازة من قدسه (إنه كان صادق الوعد) بالصبر على الذبح في قضية الرؤيا المشهورة ، وبما وعد به الناس ، فقد روي : أنه وعد رجلا أن يقيم له بمكان فغاب عنه حولا فلما جاءه قال له : أما بَرِحتَ مِن مكانك ؟ فقال : لا والله ماكنتُ لأُخلف مَوْعدي • وثباتُه هناك كان على الوجه المعتاد من دوامه في تلك المنطقة وليس المراد الوقوف على محل معين بما لا يوافق الواقع • (وكان رسولا) إلى الساكنين في أم القرى وما حولها على شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وصحفه المنزلة من الله العلام ، إذ لا يشترط في الرسول أن تكون له شريعة مستقلة كما حقق في محله • وكان مع جمعه للصدق الذي هو من مهمات الأخلاق الحسنة وللنبوة والرسالة حائزا للجد والسعي فيه (وكان يأمر أهله قبل) الناس (بالصلاة) وملازمتها في أوقاتها (والزكاة) للمستحقين ، ويجمع بذلك بين تصفية النفس بصلته مع ربه وتطهيرها من حب المادة باعطائها لمن فرضت له (وكان عند ربه مرضيا) لاستقامته في طاعته وعبادته وتبليغ رسالته ومرضيا أصله مرضوو بواوين لأنه من الرضوان فقلبت الواو الأخيرة ياء فصار مرضوى فقلبت واوه ياء على الأصل المقرر ، وأدغمت الاولى في الثانية وكسر ما قبلها للمناسبة •

(واذكر في الكتاب إدريس) هو نبي قبل نوح بألف سنة•وهو أول من نظر في النجوم والحساب، وأول من خطّ بالقلم وخاط الثياب،وكانوا قبل يلبسون الجلود ، وأول مرسل بعد شيث ، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة ، كما أرسل على شيث خمسين ، وعلى آدم عشرة ، ، وعلى إبراهيم عشرة ، وبها كملت الصحف المائة ، وبعدها الكتب الأربعة : التوراة التي احتوت أحكام الشرع المعمول به في بني اسرائيل ، وزبور داود كان إرشادا ومواعظ

وأذكاراً ، وإنجيل عيسى ، والقرآن المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • (إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكاناً عَلِيّاً) وهو شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى • وفسره كثير من الناس بالسماء لكن الروايات تختلف في تعيين تلك السماء أهي الرابعة أو السادسة أو السابعة ؟ وفي رواية عن الحسن أنه الجنة ، ولا شيىء أعلى منها سوى العرش •

وعن النابغة الجعدي أنه لما أنشدَ رَسُولَ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشعر الذي آخره :

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وسناؤنا وإنا لنرجُو فوق ذلك مظهرا

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ له : « إلى أين المظهر يا أبا ليلى ؟ » قال : إلى الجنة يا رسول الله • قال : « أجَلْ إن شاء الله تعالى » وأكثر القائلين برفعه حساً قائلون بأنه حي حيث رفع (أولئك) المذكورون في السورة الكريمة (الذين أنعم الله عليهم) بنعمه الدينية والدنيوية (من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا مع نوح، وهم من عدا إدريس لسبقه عنه (ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل) أي ومن ذرية إسرائيل ، وهو يعقوب ـ عليه السلام ـ ، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى ـ عليهم السلام ـ وكانوا (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجّداً وبُكِيّاً) أي ساجدين لله وباكين من خشْيتِهِ • وسجدا بضم السين وفتح الجيم المشددة جمع ساجد، وبكياً أصله بُكُوي صار إياه بالإعلال • وهو جَمْعُ باكٍ كشهود وشاهدٍ •

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً(٥٩) إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ

وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً(٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً(٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً ، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيّاً(٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيّاً(٦٣) وَما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَما خَلْفَنا وَما بَيْنَ ذلِكَ ، وَماكانَ رَبُّكَ نَسِيّاً(٦٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فاعْبُدْهُ، وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ؟)(٦٥)

قوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف) الخلف بسكون العين الأولاد سواء الجمع فيه والآحاد ، وبالفتح البدل ولداً كان أو غيره • والمشهور أنه بالسكون : العقب السيىء ، وبالفتح : ضده • أي فجاء بعدهم عقب سُوءٍ (أضاعوا الصلاة) أي تركوها ، أو أقاموها مع إخلال بشروطها وأركانها ، أو ما كانوا يصلونها بالجماعة (واتبعوا الشهوات) أي توغلوا في ما اقتضاه هواهُمْ من المعاصي عَلَى اختلافِ أنواعِها (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غيّا) وهو نَهْرٌ في أسفل جهنم فيه من المستقذرات ما لاعينٌ رأت ولا أذن سمعت • وقيل : الغيّ الضلال • والمراد أنهم لا يجدون في القيامة طريق الجنة (إلا من تابَ وآمنَ وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلَمُونَ شيئا) أي لا ينقصون من جزائهم شيئا من الجزاء • أو لا ينقصون شيئا من النقص وشيئا على الأول مفعول به ، وعلى الثاني مفعول مطلق • وقوله (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها اشتمال الكل على الجزء ، على أنها عَلَم لإحدى الجنات الثمان (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) أي متلبسة بالغيب عنهم • أي وعدهم عندما

كانوا في الدنيا وكانت غائبة عنهم (إنه) أي الشأن (كان وعدُه مأتيّاً) لمن وعد له بها ، فإن الواعد هو الله ووعده حق لا خلف فيه .

(لا يسمعون فيها لغوا) أي فضولَ الكلام ، وهو ما لا طائل تحته (إلا سلاما) الظاهر أن الإستثناء منقطع لأن السلام من غير صنف اللغو . ويجوز أن يكون استثناء متصلا على اعتبار تأكيد المدح بما يشبه الذم . أي إلا لغواً على تقدير كون السلام لغوا ، وليس كذلك . أو على أن المراد بالسلام الدعاء . وما دام أهلُ الجنة في غِنى من هذا الدعاء كان داخلاً في اللغو (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً) والمراد بهذه الجملة استمرار نعيمهم إذ لا وجود لليل والنهار في الجنة ، وإنما هناك حالة واحدة من النور والضياء كما في وقت الأسحار في الدنيا . (تلك الجنة التي نُورث من عبادنا من كان تقيا) تلك إشارة إلى جنات عدن السابقة ، فإن كانت عبارة عن قسم ممتاز من الجنان الثمانية فالمراد بمن كان تقيا المتصفون بالتقوى الكامل أي التقوى عن الكفر وعن الكبائر من المعاصي وعن الإنهماك في الدنيا ، وإن كانت عبارة عن جنات يقيمُ فيها أهل الجنة من أي قسم من الثمانية فالمراد به من كان تقيا عن الكفر بالمعنى المقابل للإيمان ، أي من آمن بالله ورسوله ، ولو كانت له المعاصي لكنها إما توجب العذاب الموقت قبل الدخول في الجنة، أو يشملها العفو فيدخل فيمنزله المخصوص به منها.

وقوله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل ـ عليه السلام ـ ؛ فقد روي أنه احتبس عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أياما حين سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، فلما نزل قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم احتبستَ عني حتى ضاق صدري واشتقتُ إليك ؟ فقال : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) أي يعود الى الله الزمان الذي بين أيدينا من المستقبل وما خلفنا من الماضي

وما بين ذلك المذكور من زمان الحال . أي فلا تتنزل في زمان دون زمان إلا بأمره سبحانه وتعالى ومشيئته (وما كان ربك نسيّاً) اي ناسيا أحداً أنبيائه ورسله فضلاً عنك وأنت المبعوث رحمة للعالمين ، ولكن الحكمة اقتضت ذلك وكيف يكون ربك نسيا وهو (رب السماوات والارض وما بينهما) ؟ من الموجودات ولو بمقدار الذرة ، وكل ذلك مرتبط به وبعلمه وإرادته وقدرته حدوثا وبقاء (فاعْبُدْهُ) مُخلصا له (واصطبر لعبادته) فإنه هو الذي يستحق أن يعبد ويسجد له ويصبر على مشاق تكاليفه وليس أحد شريكا له في الذات والصفات والأفعال والأسماء المختصة (هل تعلم له سميا ؟) أي عديلا في الاسم ؟ كلاّ .

(وَيَقُولُ الْإِنسانُ : أَئِذا ماِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ؟(٦٦) أَوَ لا يَذْكُرُ الإنْسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَم يَكُ شَيْئاً(٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً(٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّا(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيّاً(٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً(٧١) ثُمَ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَنَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً)(٧٢)

قوله تعالى (وَيَقُولُ الإنسان :أئذا ما مت لسوف أخرج حياً ؟!) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنها نزلت في العاص بن وائل . وعن عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل : في أبي جهل وقيل في ابي بن خلف .. أي ويقول أحد أولئك مستنكرا للبعث (أءذا ماِت) وتمزقت وصرت رفاتا

(لسوف أخرج) من مقر أجزائي (حيا) ذا حياة مستقرة مع الحس والشعور والعقل ؟! فيرد الباري على كفره الجاري ويقول (أو لا يذكر الإنسان) المستنكر (أنا خلقناه) وأخرجناه من العدم إلى الوجود (من قبل) أي من قبل الحالة التي هو فيها (ولم يك شيئا) فحيث خلقناه في حالته السابقة المنافية للوجود والشهود فلأن نبعثه بإعادة ما عدم منه وقد كان متصفا بالوجود في وقت ، على ما اختاره بعض أهل السنة ، أو بجميع المواد المتفرقة وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض ، على ما اختاره بعض آخر منهم أيضا .. أولى وأظهر . فما له لا يذكر تلك الحالة فيقع فيما يقع فيه من النكير ؟!

وبعد نقل ذلك الاستنكار من أهل الاستكبار يقسم الباري بالاختيار بذاته المقدسة وهو رب المخاطب المختار ويقول : (فوربك لنحشرنهم) أي لنجمعن أولئك القائلين بما قالوا (والشياطين) أي قرناءهم من الإنس والجن الذين كانوا يغرونهم (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) حالكونهم باركين على الركب ، وهو جمع جاث وأصله جثوو فأعل مثل إعلال عتوو (ثمّ لننزعن من كل شيعةٍ) أي جماعة منهم تشايعت وتظاهرت وتعاونت على الباطل (أيّهم أشد على الرحمن عتيا) أي عُتوّا ونُبُوّاً وارتفاعا عن الطاعة (ثم لنحنُ أعلَمُ بالذين هم أولى بها صِليا) أي ثم لنحن أعلم بالمراتب المُرتبة للكافرين الذين هم أولى وأحق بجهنم دخولا ، فندخلهم فيها الأول فالأول .

ثم التفت الباري تعالى وخاطب الناس عموماً وقال : (وَإن منكم) أي وما منكم من أحد (إلاّ وارِدُها) أي داخل جهنم كما ذهب إليه جمع كثيرٌ من سلف المفسرين وأهل السنة ويؤيد بما رواه أبو سمية عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماعاً منه قال قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا » وذكر الرازي في تفسيره لهذا الدخول فوائد فراجعه (كان) ذلك الدخول لكل فرد من الناس (على ربك حتما مقضيا) أمرا واجبا منه تعالى بمقتضى إرادته وحكمته فالواجب بمعنى الثابت لا بمعنى المرفوض منه أو عليه ، إذ لا إيجاب منه ولا وجوب عليه كما حقق في موضعه (ثم ننجي الذين اتقوا) ربهم وابتعدوا عن الكفر بالله وبرسله وكتبه (ونذر الظالمين فيها جثيا) أي ونترك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بربهم في جهنم جاثين على الركب ذائقين عذابهم •

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً(٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ؟(٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ، وَإِمَّا السَّاعَةَ ، فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً(٧٥) وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً)(٧٦)

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا) هذه الآية إلى آخرها حكاية لما قاله المشركون عند سماع الآيات البينات الناعية عليهم بسوء أعمالهم ومآلهم • أي وإذا تتلى عليهم الآيات الواضحات الموضحات للحقائق (قال الذين كفروا للذين آمنوا) مستفهمين عنهم (أي الفريقين) منا ومنكم (خير مقاما) أي مكانا ومنزلا (واحسن نديا) أي مكاناً ومجتمعا وهم في

غباوة وجهالة وضلالة وقساوة ، ولا يدرون بما جرى على الأمم الطاغية العاتية (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أي من أهل قرن (هم أحسن أثاثا ورئيا) من هؤلاء المشركين في زمانك ؟ ف (قل) لهم في جواب مقالهم ذلك : (من كان في الضلالة فليمدُدْ لهُ الرحمن مداً) بطُول العمر وهناء العيش (حتى إذا رأوا مايوعدون إما العذابَ وإما الساعة) أي إما العذاب في الدنيا (وإما) حلول (الساعة) التي هي مآلهم الأخير للعذاب الوفير (فسيعلمون) إذا جاء وقت الإستبصار لهم (من هو شر مكانا) منهم ومن المؤمنين (وَمَنْ هُوَ أضعفُ جُنداً) أي فئةً وأَنصارا .

(ويزيد الله الذين اهْتدوا هدى) في الدنيا إلى طريق السعادة . وهذه الجملة معطوفة على الشرطية الواقعة مقولا للقول أي وقل : من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا فيها ، وقل : يزيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى لإغاظة أولئك الذين كانوا في الضلالة (والباقيات الصالحات) المختصة بأهل الهدى (خير عند ربك ثوابا وخيرٌ مَرَدّاً) ومرجعا وعاقبة وهي العاقبة الخالدة .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ : لأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَدا ؟!(٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ؟ اَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمنِ عَهْدا ؟(٧٨) كَلاّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ ، وَنَمدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدّاً(٧٩) وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً(٨٠) واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً(٨١) كَلاّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً(٨٢) اَلَمْ تَرَ أَنّا أَرْسَلْنا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُم أزّاً؟(٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً(٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلى

الرَّحْمنِ وَفْداً(٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً(٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً)(٨٧)

قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) أي بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث •

أخرج البخاري ومسلم والطبراني وابنُ حبان وغيرهم عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قيّنا ، وكان لي على العاص بن الوائل دين ، فأتيته أتقاضاه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد • فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تموت ثم تُبْعَثَ • قال : فإني إذا مِت ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمَّ مال" وولد فأعطيكَ ! فأنزل الله تعالى (أفرأيت) ••• الآية والهمزة للتعجب من حال أولئك الكافرين أي أنَظرتَ فرأيتَ الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقها أن يؤمِنَ بها كلّ من اطلع عليها (وقال) مستهزئا بها مصدرا كلامه باليمين الفاجرة قائلا : والله (لأوتين) في الآخرة (مالاً وولدا) وكيف تجاسر على هذه اليمين الفاجرة (أطلع) عَلَى (الغيب) الذي استأثر الله تعالى بعلمه (أم اتخذ عِندَ الرحمن عهداً ؟) أي أم أعطاهُ الله تعالى عهداً وموثقا وقال له إن ذلك كائِن" لا محالة (كلا) زجر" عن التكلم بالكلام السابق المؤكد باليمين (سنكتب مايقول) أي سنظهِرُ مايَقُولهُ (ونمد له مِن العذاب مدا) بدَلَ ما يدّعيه مِنْ قبلِ نفْسه وهواه من إيتاء المال والولد ، أي نطول له من العذاب ما يَستحقه (ونرِثهُ ما يقول) أي نَسْلبُ منه ذلك ونأخذه أخذ الوارث التركة من مورثِهِ • (ويأتينا يَومَ القيامة فرداً) ليس معه ماله ولا ولدهُ الذان كانا معه في الدنيا •

(واتخذوا مِنْ دون الله الهة) أي وليس كذبهم مختصا بما سبق وليس القائل بالكلمات الفاسدة شخصا واحدا بل هم كثيرون لهم أكاذيب (واتخذو من دون الله آلهة) مزعومة (ليكونوا) أي تلك الآلهة (لهم عزّاً) وعوناً (كلاّ) ردع عن ذلك الاتخاذ وعن إفادته شيئا فإنهم (سيكفرون بعبادتهم) يوم القيامة أي يُنْطِق الله تلكَ الأحجار والأشجار بإنكار مافَعَلُوا واستنكار عبادته ويشهد منكان له نطق بذلك (ويكونون عليهم ضدا) أي بدل أن يكونوا عزاً وعونا لهم يكونون من أسباب الهُونِ والحقارة والذل لهم ، وإذا لم تعلم أسباب ذلك الغرور والأكاذيب الصادرة منهم فاعلم أنها إلقاء الشياطين .

(أَلم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) وجَعَلناهُم قُرناء لهم مُسيطرين على قلوبهم (تؤزهم أزّاً) أي تغريهم إغراءً على الأكاذيب والأباطيل وتُهيجهم على المعاصي وهم يستمرون عليها ، لذلك (فلا تعجل عليهم) أن يهلكوا من قريب فإنهم لا يفرون من قدرة الله (إنما نعد لهم) الأيام والأنفاس (عدّاً) محدوداً ، وهذه كناية عن اقتراب أجلهم فإن من كان محتضرا لم يبقَ له إلا أنفاسٌ قليلة قابلة للعد لقلتها حتى إذا هلكوا جاءَ وقتُ مجازاتهم (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) أي ركبانا بعز وكرامة وراحة (ونسوقُ المجرمينَ الى جهنم) حالكونهم (ورْدا) أي عطاشا والورد مصدر ورد أي صار إلى الماء . وهنا بمعنى الوصف المفرد الواقع في معنى الجمع أي واردين (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) الضمير يرجع الى العباد المستفاد من ذكر المتقين والمجرمين أي لا يملك أحد منهم الشفاعة لأي واحد من العصاة المجرمين اِلاّ من تحلى بفضائل وكمالاتٍ نفسية حاصلةٍ له من عبادة ربه بإخلاص واستأهل لأن يشفع لهم ، وقد أذن له الرحمن بالشفاعة لهم كالأنبياء والمرسلين

والصالحين من العباد لاسيما سيدهم صاحب المقام المحمود ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه فاتح أبواب الشفاعة لهم كما صرح به الصحاح• ونسأل الله أن يجعلنا من المستحقين لها بفضله ورحمته إنه قريب مجيب •

(وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً(٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وتَنْشَقُّ الأَرْضُ ، وتَخِرُّ الْجِبالُ هَدّاً(٩٠) أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمن وَلَداً(٩١) وَما يَنْبَغي للرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً(٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً(٩٣) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً(٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً(٩٥) إِنَّ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً(٩٦) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً(٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ! هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)(٩٨)

قوله تعالى (وقالوا) أي المجرمون من العباد المذكورين بقرينة المقول: (اتخذ الرحمن ولدا) وهم اليهود القائلون بأن عزيرا ابن الله ، والنصارى القائلون بأن عيسى ابن الله ، والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله • فرد الله عليهم على وجه الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقال (لقد جئتم) أيها القائلون بما لا يوافق (شيئا إدّاً) أي بشيء منكر لا يقادر قدره والأد بالفتح مصدر أَدَّ يَئِدُّ أدّاً أي جاء بشيء منكر وبالكسر اسم"للأمر الفاسد المنكر العجيب (تكاد السماوات يتفطرن منه) جملة مستأنفة لبيان عظم شأن ما افتروهُ يعني يقرب أن تتفطر السماوات من هيبة ذلك الإفتراء

(وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا) أي تسقط الجبال على قواعدها سُقوطاً (أنْ دعوا للرحمن ولدا) أي لأن دعوا للرحمن ولدا (إنْ كلّ من في السماوات والأرض) أي ما كل من في السماوات من الملائكة والجن والإنس (إلا آتي الرحمن عبدا) أي إلا آتيه بصفة العبودية وفي حالِ كونه عبداً مملوكا له تعالى (لقد أحصاهم وعدّهم عدا) أي والله لقد ضبطهم وأحاط بهم وعدهم شخصا شخصا (وكلهم آتيه يومَ القيامة فرداً) منفرداً من كل من يعاونه .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ ودّاً) أي مَوَدّةً في القلوب لإيمانهم وأعمالهم الصالحة . فقد أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببتُ فلانا فأحبوه ، فينادي في السماء ، ثم تنزل له المحبة في الأرض . فذاك قولُ الله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) » ... الآية (فإنما يسّرناه بلسانِك) أي فإنما يسرنا القرآن الكريم وجعلناه على لغتكَ العربية الفصيحة (لتبشر بهِ المتقين) بامتثال الأوامر والنواهي (وتنذر به قوماً لدا) وهو جمع ألدّ أي قوما شديد الخصومة مع الله ورسوله . (قوله تعالى : وكم أهلكنا قبلهم من قرن) وعيد للمشركين وسائر الكافرين الذين آذوا الرسول ـ عليه السلام ـ بالإهلاك أسوة بالكفار السابقين ، كما أن فيه وعدا وتبشيرا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنجاح والبقاء واللقاء (هل تحس منهم من أحد) أي هل لك إحساس بواحد منهم (أو تسمع لهم ركزا) ؟ أي صوتا خفيا . وأصل التركيب للخفاء والغيبوبة . والمعنى أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحدا ولا تسمع منهم صوتاً خفيا فضلا عن صوت عال . والمعنى محوناهم وأسماءهم وأما أسماء الانبياء فباقية إلى الأبد .

سورة طه ، مكية ، وهي مائة وخمس وثلاثلان آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه(١) ما أنزلنا عليكَ القرآن لِتشقى(٢) إلاّ تذكرةً لِمَن يخشى(٣) تنزيلاً مِمَّن خلقَ الأرضَ والسّماواتِ العُلى(٤) الرَّحمنُ على العرشِ استوى(٥) لهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ ، وما بينهما ، وما تحتَ الثَّرى(٦) وإنْ تجهَر بِالقولِ فإنَّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفى(٧) اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُو لهُ الأسماءُ الحُسنى)(٨)

قوله تعالى : (طه) من الفواتح التي تصدر بها السور الكريمة • وفي معناها أقوال مرّت نظائرها في باقي افواتح • واعتقد أنها من الرموز الواقعة بين الله وبين حبيبه • وقوله (ما أنزلنا عليكَ القرآن لتشقى) معناه ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب وتهلِكَ نفسكَ بمكابدة الشدائد والأذى الواردة عليكَ من مجابهتهم ومخاطبتهم ، ولا لإيصالهم إلى مايراد فإن ذلك من أفعال الخالق • وقوله : (إلا تذكرة لمن يخشى) إستثناء منقطع يعني لكن أنزلنا عليك القرآن إرشادا وتذكيرا لمن يخشى، أي لمن فيقلبه رقة وخشية إذا سمع التذكير تذكر ، وإذا صادف الوعظ والإرشاد تأثر • وقوله (تنزيلا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي نُزل تنزيلا • أو حال" من القرآن على تأويله باسم المفعول ، أي حالكون القرآن منزلا (مِمَّن خلق الأرض

والسماوات العلى) أي ومبدأ هذا التنزيل من الله الواجب الوجود الذي خلق الأرض التي ترونها بهذه المناظر العجيبة وتعلمونها محتوية على المعادن النفيسة . وخلق السماوات السبع العُلى ، وعلى جمع عالية أو مصدر بمعنى العلو ، والمضاف محذوف أي ذوات العلو ، ومن كان قادرا على خلق هذه المواد بتلك الصفات إذا نزل كلاما لإرشاد الأنام على حبيبه الهمام لابد أن يبلغه إلى غاية المرام منه ويوفق رسوله الذي نزله عليه لتبليغه ونشر الإسلام .

وقوله (الرحمن) مرفوع على المدح أي هو الرحمن يريد من إنزال القرآن عليك أن يرحمك ويرحم الناس المتقبلين له . وقوله (على العرش استوى) خبر بعد خبر للمبتدأ المقدر وهذه الجملة الجميلة المهمة المهيبة بدلالتها على استيلاء الرحمن على العرش وما تحته وأمثالها من قوله (بل يداه مبسوطتان) و (وهو معكم أينما كنتم) وغيرهما فيها للمفسرين رأيان :

أحدهما : أنها مجازات مستعملة في العرف في معانيها المقصودة من استيلاء الباري ووجود قدرة البسط والقبض له ، وإحاطة علمه بسائر المعلومات إلى غير ذلك فإن الله تكلم بها مع الناس العقلاء ولهم عرف معروف في المراد بها .

والثاني أنها باقية على معانيها الحقيقية ، والإيمان بها واجب لكن تفويض المراد إلى خالق العباد وتجريدها عن لوازمها الموجبة للجسمية والتمكن في المكان وغيرهما ، بدليل الآيات المحكمات والأخبار الناطقة بأنه تعالى لا يحويه زمان ولا مكان وليس له أجزاء واحتياج إليها ، وإلا فكل عاقل يؤمن بأن العرش وما سواه حادث فهل كان الله تعالى قبل خلق العرش في مكان آخر ثم تحول عنه إلى العرش ؟ وإذا هو في السماء فأين كان قبل خلق السماء ؟ ثم هو في سماءِ أي قطرٍ من الأقطار ؟ تعالى عن ذلك علوا

كبيرا ، ليس كمثله شيىء ، ولم يكن له كفواً أحد" ، وهو غني عن العالم والعالمين • فالحق أنها مجازات لمرادات مخصوصة للقرائن العقلية المحيطة بالموضوع ، وإذا لم تحمل عليها فلابد أن يؤمن بها مع تنزيه الباري عن كل ما يناسب الممكنات الخاصة ويؤيد ذلك الآيات" التالية لها من قوله تعالى (لهُ ما فِي السماواتِ وَما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى ، ألله لا إله إلاّ هو له الأسماء الحسنى) •

فإن الآية الأولى دليل على ان جميع محتويات السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات الكائنة فيه التي لا يعلمها إلا الله • • مختصة بالله تعالى، ومن آثار قدرته وتجليات تكوينه ، وكلها كقطرة في بحر علومه الا متناهية• وذكر ما تحت الثرى لخفائه على العيونِ الناظرة • والمراد به ما تحت الطبقة الأخيرة من طبقات الأرض يريد أن ما اختفى على الورى يَجْلُو عَلَى الله ولَوْ تحت الثرى •

والآية الثانية تدل على أن علمه تعالى محيط بكل شيىء بعد بيان إحاطة قدرته به وأن الجهر بالقول والإسرار به متساويان عنده فلا يزيده الجهر به علماً ولا الإسرارُ به يقتضى كتماً • كما يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلا يخفى عليه ما يحدث وراء الحجب والستور •

والآية الثالثة تدل على أن المنزلَ للقرآن الخالق للاكوان ذات" واحد معلم" باسم الجلالة (ألله) أي هو الله ، ولا إله إلاّ هو أي لا معبود بحق سواه فإن ما سواه هو الذي سواه ، ولولا هو ما كان له ذاته ولا ماتهواه ، وان له الاسماء الحسنى التي هي أحسن الأسامي لدلالتها على تنزيه المسمى بها من كل نقصان يتصوره الإنسان • وتلك الأسامي ، وإن كانت متعددة

في التعبير المعقول وتحرير المدلول ، لكنها كلها ما عدا اسم الذات تدل على صفات تليق بوحدة الذات وعلى وحدته يتحقق الفرق بين الواجب والممكن الوجود

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل على شيء من الحسن واجد

وكل من هذه الآيات تعبير عن وجوب وجوده وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وسمعه وبصره ، وأنه ليس من نوع الأعيان ولا مما يحتويه الذكر والبيان فسبحانه من إله ينطق كل موجود بأنه واجب الوجود وأن ما سواه مخلوق وبه جاء إلى عالم الشهود وكل من أفراد تلك الموجودات مسخر لنوع من المقصود وخادم حسب إرادة الملك المعبود ، فلا اله غيره ولا معبود سواه ومن أراد الفوز بالسعادة في دنياه وأخراه فليلزم إيمانه به وكماله ثم يلتزم تقواه •

(وَهَلْ أتيكَ حَدِيثُ مُوسى ؟!(٩) إذ رَأى ناراً ، فَقالَ لِأَهْلِهِ : امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ ، أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدى(١٠) فلمّا أتيها نُودِيَ يا مُوسى(١١) إنِّي أَنَا رَبُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ، فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى :(١٣) إنَّنِي أَنَا اللهُ لا إلهَ إلاّ أنا فَاعْبُدْنِي ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(١٤) إنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى(١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَاتَّبَعَ هَوَيهُ فَتَرْدى)(١٦)

قوله تعالى : (وهل أتيك حديث موسى) جملة مسوقة لبيان أنباء موسى وإرساله إلى أطغى طاغ وأعصى عاص في عصره • وكان يخاف منه خوفا شديداً ، ومع ذلك فقد أطاع وذهب إليه وبلغه ما أمره به ربه ، وأنت من أولئك الرسل وعليك التأسي بهم في تحمل ما ينالك من أذى الكفار المتمردين • والإستفهام للتقرير وقيل لا إستفهام حقيقة • وهل بمعنى قد • وقيل : الإستفهام إنكاري ، ومعناه : إنه لم يأتك إلى الآن نبأ موسى بهذا التفصيل المذكور هنا ، والحديث بمعنى الخبر ، ويصدق على القليل والكثير، ويجمع على أحاديث بغير القياس •وقال الفراء : نرى أن واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعا للحديث • وقال الراغب : الحديث كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظة أو منام ، ويكون مصدرا بمعنى التكلم ، وعليه يتعاق به الظرف أي (إذ رأى نارا) في وقت احاجة إليها ، (فقال لأهلِهِ : امكثوا) أي أقيموا مكانكم (إني آنَستُ ناراً) أي أبصرتها إبصارا بيناً لا شبهة فيه (لعلي آتيكم مِنها) أي أجيئكم من النار (بقبس) أي بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه ، فقبس بمعنى مقبوس وهو المراد بالشهاب القبس وبالجذوة في آية أخرى ، (أو أجد على النار هُدًى) أي هاديا يدلني على الطريق • رُوي أن موسى ـ عليه السلام ـ استأذنَ شعيباً في الخروج من مدين إلى مصر لزيارة أمه وأخيه ، وقد طالت مدةُ جنايته بمصر ورجا خفاء أمره ، فأذِن له وكان ـ عليه السلام ـ رجلاً غيوراً ، فخرج بأهله ولم يصحب رفقة لئلا ترى أمرأته ، وكانت على أتان ، وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت ، ومعهُ غنم له ، وأخَذَ ـ عليه السلام ـ على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام ، فلما وافى وادِيَ طُوى وهو بالجانب الغربي من الطور ولدت زوجته له ولدا في ليلة مظلمة شاتئة مثلجة ، وكانت ليلة الجمعة ، وقد ضل الطريق وتفرقت

ماشيته ولا ماء عنده ، وقدح فصلد زنْدُهُ ، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً على يسارِ الطريق من جانب الطور ، فقال لأهله ما قال . (فلما أتاها) أي أتى النارَ التي آنَسَها وكانت كما قال ابن عباس في شجرة عناب خضرةٍ يانعة حتى وقف منها قريبا ينظر إليها وبينما هو كذلك إذ (نودي : يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك) أي أزِلْهما من رجليك (إنك بالواد المقدس طوى) تعليل لموجب الخلع المأمور به وبيان لسبب الأمر بذلك من شَرَف البقعة وقدسها . وروي أنه ـ عليه السلام ـ حين أُمِرَ خَلَعَهما وألقاهما وراءَ الوادي . وطوى علم لذلك الوادي ، ومن نونه صرفه باعتبار المكان ، ومن لم ينونه جَعَلَه غيرَ مُنصرف للعلمية والتأنيث باعتبار البقعة .

(وأَنا اخْترتك) أي اصطفيتك من الناس أو من قومك للنبوة والرسالة (فاسْتمع لما يوحى) ويُقال لك (إنني أنا اللهُ لا إله إلا أنا فاعبدني) وحدي (وأقم الصلاة لذكري) أي لتذكرني بإقامتها وقوله (إن الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة وإقامة الصلاة أي إن الساعة كائنة لا محالة (أكاد أخفيها) ولا أقول آتية" في ذلك الوقت المعين بالذات حتى يبقى قدر الإيمان بالغيب وإتيانها المحقق (لتجزى كل نفس بما تسعى) فيه فمن عبدني وأقام الصلاة لذكري إستحق الجزاء بالخير في جنتي ، ومن خالف ذلك خولف في حقه على حسب مخالفته وابتعاده عن رحمتي (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) قيل الضميران راجعان للصلاة ، وقيل : ضمير عنها راجع الى الصلاة ، وضمير بها إلى الساعة أي فلا يمنعك عن العبادة وإقامة الصلاة من لا يؤمن بالساعة وحلول يوم الجزاء (واتبع هواه) أي ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية فتهلك ، فإن الغفلة عن الساعة وما فيها من الجزاء مقتض للشقاء والهلاك الأبدي أعاذنا الله عنه .

(وما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى ؟(١٧) قالَ : هِيَ عَصايَ ، أَتَوَكَّؤُ عَلَيْها وَأَهُشُّ بها عَلى غَنَمي ، ولِيَ فيها مآرِبُ أُخْرى ...(١٨) قالَ : أَلْقِها يا مُوسى(١٩) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى(٢٠) قالَ : خُذْها وَلا تَخَفْ سَنُعيدُها سيرَتَها الأُولى(٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أخْرى(٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنا الْكُبْرى(٢٣) اِذْهَبْ اِلى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغى(٢٤) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري(٢٥) وَيَسِّرْلي أَمْري(٢٦) واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني(٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي(٢٨) واجْعَلْ لي وَزيراً مِنْ أَهْلي(٢٩) هرونَ أَخي(٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْري(٣١) وَأَشْرِكْهُ في أَمْري(٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثيراً(٣٣) ونَذْكُرَكَ كَثيراً(٣٤) إنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصيراً)(٣٥)

قوله تعالى : (وما تلك بيمينك ياموسى ؟) شروعٌ في بيانِ ما كلفه به من الأمور المتعلقة بخلعة النبوة والرسالة ، وتقريرٌ له بأن ما عنده لا يزيد على كونه عصاً من الخشب ، وأن ما يراه منه بعدُ فإنما هو من خوارق العادة التي يخلقها خالق الكائنات والنواميس المعتادة وغير المعتادة فيها حتى يطمئن قلبا في تبليغ رسالته . اي وما حقيقة تلك العصا التي أخذتها بيمينك؟ وما آثارها ومنافعها ؟ (قال : هي عصاي) أي حقيقتها خشب من الأخشاب المعلومة ، وأما منافعها وعوارضها فهي أني (أتوكؤ) أي أعتمد (عليها) وأتحاملُ في المشي والتخطي الممتاز على الحفراتِ والأنهار (وأهُشّ بها على غنمي) أي أخبِطُ بها أوراق الأشجارِ وأضربها لتسقط على غنمي فتأكلها (ولي فيها مآرِبُ أخرى) أي حاجات أخرى جمع مأرب بمعنى

الحاجة ، وعُومِلَ في وصفه معاملة المفرد فقال أخرى كبشرى ، ولم يقل أُخَرَ جمع أخرى ، وذلك في غير الفواصل وفيها أجودُ وأحسن .

وقد روى الإمام أحمد في تعيين هذه المآرب : إنه كان لها شعبتان ومحجن" تحتهما ، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن ، وإذا أراد كسره لوّاه بالشعبتين ، وكان إذا وقع في البرية حيث لا ظل له ركزها ثم عرض بالزندين الزند الأعلى والزند الاسفل على شعبتيها وألقى فوقها كساءه فاستظل بها ما كان يرتفع ، وكان إذا ورد ماء يقصر عنه رشاؤه وصل بها ، وكان يقاتِل بها السِّباع عن غَنَمِهِ ، وكان إذا شاء ــ عليه السلام ــ ألقاها على عاتقه فعلق بها قوسه وكنائنَهُ ومخلاته وثوبه وزاداً كان معه .

ولما ذكر له تعالى ما علمه منها قال تعالى له : (ألْقِها يا موسى) لترى مِن شأنها ما ترى (فألقيها فإذا هِيَ حيّة تَسْعى) تمشي وتنتقل بسرعة فخاف منها موسى (فقال) تعالى له (خذها ولا تخفْ) منها (سنُعيدها سيرتها الأولى) حتى يكون عودها إليها معجزة أخرى مضافة الى الأولى وخوف الرسل على الطبيعة الأنسية والغريزة النفسية وعدمه على العلم بالهيبة القدسية ، فإنها إذا وَرَدت على النفس منعت الخوفَ ، ولا تخاف إلا من جانب القدس وقوله تعالى (واضمم يدكَ إلى جناحِك تخرج بيضاء من غير سُوء آية أخرى) والجناح : اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد . وهذه الفقرة إضافة معجزة أُخرى إلى ما علمه سابقا توثيقا له وتطمينا وتأمينا لنفسه من جانب قدسه . أي واضمم يدك إلى إبطك أو الى جانبك تخرج بيضاء منيرة مُشرقة كأنها مشعلة مصباح ترى بها ما أمامكَ وذلك حاصل من غير سوء اعتراها من برص أو علّة أخرى حالكون هذه الظاهرة آيةً أخرى من الآيات التي أُوتيتها (لِنُرِيكَ مِن آياتنا الكبرى) أي آتيناكها لنريك بعض آياتنا التي هي كبريات الآياتِ لأن خلقَ الحياة في غصن

يابسٍ مِن نَبات ٍ ثم عوده إلى حالة اليبس والممات وإشعال مادة ليس فيها الضوء ذاتا ولا ربط" بما فيه ذلك معجزة أيةُ معجزة !

ولما اعْدَدتُ لك هذهِ المُعدات ِ (فاذهب إلى فرعونَ) ملك الأقباط (إنه طغى) أي جاوز الحد في التكبر والطغيان ، فإن الإنسان يمكن أن يدعي ما يصلُ إليه من العقل والعلم والإمارة والأفكار ، ولكن لا يمكن أن يصل إلى الربوبية وقهر السماوات والأرض وما فيها • ثم إن الإنسان العاقل المعتدل هو الذي يعيش مع العقل بالأمان ويعامل به مع بني الإنسان كما يحب أن يعامل به في دنياه وهو المعبر عنه بأهل الوجدان ، وإذا وصلَ إلى درجة التغابي عن تعذيب الناس وقتل الأبرياءِ وهتك الأعراض ونهب الأموال فقد ذهب إلى جانب اليبس والشقاء وجحد إنسانيته وكرامته الإجتماعية ، وسنة الله تعالى جرت على أن إنساناً كذلك لا يفوته القضاء المبرم الذي يأتيه ليلا أو نهارا سرّاً أو جهارا ، كما أن سنة الله جرت بإسماعِهِ المواعظ الزواجر لعله يرجع إلى الاعتدال •

ولما علم موسى ـ عليه السلام ـ بأمره تعالى وأنه مأمور بالقيام بهذا الأمر الخطير الذي يحتاج في القيام به إلى حلم وصبر وقابلية تامة دعا ربه وقال : (ربِّ اشرح لي صدري) أي وسعه بحيث يسع ما يرد عليه من الأذى والكلام المؤلم من فرعون وأتباعه (ويسر لي أمري) وسهل هذا الأمر الخطير الذي لا يقدم عليه إلا أصحاب الهمم والعزائم المتينة المؤيدة منك • وشرح الصدر بسطه بنور إلهي وسكينة منه تعالى كما وهبه لموسى وأسكن قلبه بحيث لم يضطرب بمواجهة فرعون ومجابهته (واحلل عقدة من لساني) روى أنه كان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه في صغره • وذلك أنّ فرعون حمله يوماً فأخذَ خِصلة من لحيته لما كان فيها من الجواهر فتطير منه ، فدعا بالسياف • فقالت آسيةُ بِنتُ مزاحِم امرأته ، وكانت تُحِبُّ موسى ـ عليه السلام ـ ، :

إنما هو صبيّ لا يفرق بين الياقوت والجمر فأحضروا لديه وأراد أن يمد يده الى الياقوت لحسنه ، فحول جبرئيل ـ عليه السلام ـ يده إلى الجمرة فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه . وفي ذلك إرهاص" له ـ عليه السلام حيث لم تُحرق النار يدَه ، وحِكمة" حيث أن يده كانت آلة لإهانة فرعون بجر لحيته .

وقوله (يفقهوا قولي) جواب للطلب وباجابته يحصل مزيد من الإطمئنان له في قبول دعواته في مهماته ، ومقصوده أن تزول تلك العُقدة المانعة من سلاسة أقواله ليفهم الناس كلامه في بيان مرامه ، وقد أجابه ربه بالإستجابة كما سيظهر (واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي اشدد به أزري) أي واجعله لي معاونا في تحمل أعباءِ الرسالة وتبليغها . والوزير من الوزر بمعنى الحمل الثقيل ، أي مساعدا يحمل معي بعض أعبائي العسيرة . وقوله (هرون) عطف بيان إذا لم يشترط التوافق في التعريف والتنكير ، وإلا فبدل منه . وقوله (أخي) عطف بيان لهارون لدفع توهم إرادة شخص آخر مسمى بذلك الاسم . وقوله (اشدد به أزري) أي اشدد به قوتي ، بيان لحاجته إلى المعونة في الأمر وقوله (وأشركه في أمري) رجاء لإعطائه شرف الرسالة . وقوله تعالى (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيراً) غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة . وقوله (إنك كنت بنا بصيرا) أي عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به من مصالحنا غاية" في إظهار عجزه وضعفه عن أداء ما كلف به بدونِ عون منه ومزيد رعاية وعناية إلهية ، وهو كذلك .

(قالَ : قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يامُوسى(٣٦) وَلَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى :(٣٧) اِذْ أَوْحَيْنا اِلى أُمِّكَ ما يُوحى(٣٨): أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التّابُوتِ ، فَاقْذِفيهِ فِي اليَمِّ ، فَلْيُلْقِهِ

الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وعدوٌّ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ، وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ؟ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يا مُوسَى(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)(٤١)

قوله تعالى : (قال : قد أوتيت سُؤلكَ يا موسى) إعلانٌ لاستجابة طلباتِ موسى ـ عليه السلام ورغباتِه والسؤل بمعنى المسئول كالخبز بمعنى المخبوز ، أي قد أعطيت كل ما طَلبته مني من : شرح الصدر ، وتيسر الأمر ، وإمدادك بأخيك هارون ـ عليه السلام ـ في حمل أعباء الرسالة ، وإشراكه لك في ذلك الأمر (ولقد مننا عليك مرةً أخرى) في وقتٍ غير هذا الوقت ، يعني أن إجابة طلبك هنا كانت منة منا عليك كما كانت لنا منة أخرى من غير طلب وهي ما تحققت (إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى) أي أَلهمنا اُمك بأمر مهم جدا عندما خافت عليك من زبانية فرعون • وتفسير الإيحاء : (أنِ اقذفِيه في التابوت) أي ضعي ولدك موسى في صندوق (فاقذفِيه في اليمّ) أي ألقيه في نهر نيل (فليلقه اليمّ بالساحل) أي بالشاطىء وهو الجانب الخالي من الماء (يأخذهُ عدو لي وعدوٌّ له) جواب للأمر بالإلقاء ، وتكرير العدو للمبالغة في عداوته • وفي سوق صيغة الأمر للبحر وهو غير فاهم بناء على تشبيهه بعاقل فاهِم مطيع للأوامر ، ففي اليم إستعارة بالكناية وتوجيه الأمر إليه تخييل وفيه إشارة إلى أن اليم سيطيعني في إنجائك وإغراق عدوك ، وقوله تعالى : (وألقيت

عليك محبة مني) معطوف على قوله أوحيت إلى أمك فتكون واقعة في حيز بيان المنة المراد بها الجنس .

روي أن أمه ـ عليه السلام ـ حين أُوحي إليها ما أُوحي جعلته في تابوتٍ ، من خشب ، وسدت خروقه ، وفرشت فيه نِطعاً ، وقيرته ، وألقته في اليم ، فبينما فرعون في موضع يشرف على النيل وامرأته معه إذ رأى التابوت عند الساحل . فأمر به ففتح ، فإذا صبيٌ أصبحُ الناسِ وجهاً ، فأحبه هو وامرأته حباً شديداً ، وكان بحيث إذا رآه أيّ إنسانٍ أحبَّهُ .

وقوله (ولتصنع على عيني) متعلق بقوله (ألقيتُ) على أنه عطفٌ على مقدر أي ليتعطف عليك ولتصنعَ على عيني . أي وليفعل بك الصنيعة والإحسانَ في رعايتي ومراقبتي الك وقوله (إذ تمشى أُختكَ) ظرف لتصنع أي تمشى أختك إلى بيتِ فرعون (فتقول) لأهله : (هلْ أدلكم على من يكفله ؟) أي يضمه إلى نفسه ويخدمه بالإرضاع والحضانة والملاحظة . فلبى أهلُ فرعون كلامها (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها) بلقائك (ولا تحزنَ) من فراقك، وما يأتى عليك من العوارض (وقتلت نفساً) هي نفس القبطي المتكاونِ معَ الإسرائيلي المستغيث بموسى واسمه قانون (فنجيناك من الغم) الناشيء من قتله اي مخافة الله وعقابه على القتل ، ومخافة آل فرعون من قتله في قصاصه . ونجاته من الأول بالمغفرة حين قال ربّ إنى ظلمت نفسي فاغفر لي . ومن الثاني بالمهاجرة من مِصْرَ إلى مدْين (وفتناك فتونا) أي ابتليناك ابتلاء لأن فتوناً مصدر كجلوس (فلبثتَ سنين في أهل مدين) بيان لنجاته باعتبار المهاجرة ، أي فهاجرتَ من مصر إلى مدين وبقيتَ هناك على الهناء في أهل مدين ، وتزوجت (ثم) ألقيت الى قلبك حبّ لقاءِ الأهل ف (جئت) إلى المكان

الذي قررته (على قدر) وتقدير أي في الوقت الذي عينته لك (يا موسى واصطنعتكَ لنفسي) أي وإنما عاملتك بهذه المعاملة الجميلة والوجوه المناسبة لأني خلقتكَ لتكونَ من خواصي وأحبائي شبهه فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه لنفسه .

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخوكَ بِآياتي ، وَلا تَنِيَا في ذِكْرِي(٤٢) إذهَبا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى(٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أوْ يَخْشى(٤٤) قالا: رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى(٤٥) قالَ : لا تَخافا إنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى(٤٦) فَأْتِياهُ فَقُولا : إِنّا رَسُولا رَبِّكَ ، فَأَرْسِلْ مَعَنا بَني إسْرائيلَ ولاتُعَذِّبْهُمْ ، قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ، وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى(٤٧) إنّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّى)(٤٨)

قوله تعالى : (اذهب أنتَ وأخوك بآياتي) إستئناف سيق لبيان المقصود من الإصطناع لنفسه جل جلاله ، يعني ما دام الأمر كذلك فاذهب أنت يا موسى وأخوك هارون مع آياتي البيّنات ومعجزاتي القاهرات الباهرات من : العصا ، واليد البيضاء ، وإجابة باقي المطالب ... او مع سائر الآيات التي ستحتاجون إليها في ترويج أمركم وغلبتكم على المقصود (وَلا تَنيا في ذكري) أي ولا تفترا ولا تهنا في ذكري ونشر توحيدي وتمجيدي ودعوة الناس الى شريعتي . وجمع هارون مع موسى ــ عليهما السلام ــ في الخطاب مع غيبته للتغليب باعتبار أن نبوته ورسالته لما كانتا باقتراح سيدنا موسى فكأنه حاضر معه أبدا (إذهبا الى فرعون انه طغى) ومن سنتنا أنه كلما طغى جبار في الأرض وتجاوز الحدّ أن نكسرَ شهرته

ونقطع نصرته ونبيدَ أسرته ، لاختصاصنا بالكبرياء والتزامنا معونة الضعفاء، لكنه رجل جبار عنيد لا يقبلُ دماغـُه سماعَ الكلام الشديد (فقولا لـه قولاً ليناً) مناسبا ولا تعنفاه في قولكما وارفقا بـه في الدعاء حتى تكونَ الحجة لكما في انتقامنا منه و (لعله يتذكر) ويتأمل في حاله ومستقبله فيذعنَ للحق ويؤمنَ (أو يخشى) أن يكون كما تصفانه له فيتوجه أيضا إلى الإيمان فإنه ينشأ من العقل والتفكر والتذكر ، أو من خوف العقاب من الرب المتعالي المصيطر . وهكذا شأن العباد المدعويين إلى الإيمان إما يستعملون العقل والتذكر حتى يتبصروا ، أو يخافون من الابتلاء فينقادون . وبعد ذلك يتدرجون بالمهلة حتى يصير الإيمان المشوب بالخوف إيمانا واقعيا متسرباً إلى القلب والمشاعر .

وقوله تعالى : (قالا : ربنا إننا نخافُ أن يفرطَ علينا أو أن يطغى) بإسناد القول إليهما يفيد أنه أوحى الى هارون وهو بمصر أن يتلقى أخاه موسى ــ عليهما السلام ــ فجاء إليه . وقيل سمع بإقباله فأتى إليه . وعلى كل حال فقالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا ويعجل بإصدار الأمر بعقوبتنا ، ولا يصبر إلى إتمام كلامنا معه في الدعوة ، أو أن يطغى في مقام قدسك ويتجاوز بالقول بما لا يناسب ذات الحق أو أن يطغى ويأمر بإبادة جميع الإسرائيليين الموجودين في مصر . (قال : لا تخافا) من ذلك (إنني معكما) بالحفظ والصيانة عما يضركم أو يضر أهلكم (أسمع) كلامَ الطرفين (وأرى) كليهما (فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك) الذي خلقك ، أرسلنا إليك للتفاهم معك في الإيمان بربوبيته والإذعان لحكمه بالعدل والإحسان ، فإن كنت تقبل ذلك (فأرسل معنا بني إسرائيل) وأطلقهم من الأسر والسجن حتى يعودوا الى أرض الشام ، (ولا تعذبهم) بإبقائهم على ما كانوا عليه من الأسر والحبس والتحقير والتسخير للأعمال ، (قد جئناك بآيةٍ)

عظيمة (مِن ربك) شاهِدةٍ على رسالتنا (والسلام) من العذاب والردى (على من اتبع) الحق والهدى بتصديق ما ألقى إليه من الرسل فإذا أَطعتَ سلِمْتَ مِن كل عذاب فـ (إنا قد أوحي إلينـــا أن العذاب على من كذب) بآياته البينات (وتولى) عن قبولهـــا •

(قالَ : فَمَنْ ربُّكمَا يا مُوسى(٤٩) قالَ : رَبُّنَا الَّذي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَــدى(٥٠) قالَ : فَما بــالُ الْقُــرُونِ الأُولى ؟(٥١) قالَ : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي في كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسى(٥٢) الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْــداً ، وَسَــلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً وَأنْزَلَ مِــنَ السَّماءِ مــاءً فَأَخْرَجْنا بِــهِ أَزواجاً مِنْ نَباتٍ شَتى(٥٣) كُلُــوا وَارْعَوْا أَنعامَكُــمْ إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِأولِي النُّهى(٥٤) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيهَا نُعيدُكُــمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْــرى(٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنــاهُ آياتِنــا كُلَّهــا فكذَّبَ وَأَبــى)(٥٦)

قوله تعالى : (قال : فمن ربكما يا موسى ؟) معناه قال فرعون بعــد سماع كلامهما متكبرا عن إسناد الرب إليه : فإذا كنتما رسولي ربكما الذي أرسلكما فأخبراني من ربكما الذي أرسلكما سائلا عــن شخصيته وصفته المميزة له ؟ فـ (قال) موسى ــ عليه السلام ــ (ربنا الذي أعْطى كل شيىء خلقه) والخلق مصدر بمعنى الإيجاد والإبداع أي أعْطى كُلَّ فرد يسمى شيئا من الموجودات خلقه وإبداعه وإخراجه من العدم إلى الوجــود ، أي ربنا الله الذي هو الموجِدُ لكلّ موجود ، أو هو بمعنى المخلوق وإضافته الى الشيىء للملابسة والإختصاص • أي أعْطى كلّ فــرد مــن أفــراد الموجودات من الأعيان وأجزائها وأعراضها الوصف المخلوق الــذي يناسبه

بحسب ما خُلِق له ويَطْلُبُهُ لسانُ استعداده فأعطى الإنسانَ من حيث هو إنسان تصويره وتقويمه ، ورفعَ رأسه إلى السماء وجعل رجليه الى الأرض ، ويديه الى الجانبين وخلق أجزاءه من : الرأس ، والوجه ، والسمع ، والبصر واللسان ، والحلق ، والحلقوم ، والصدر ، وما فيه ، وما دونه ، ماينا سبه ويوافقه • أي خلقَ المخلوقات على أحكم وجه وأتقنه على ما أراده الباري من تخصيصه بحصةٍ زائدة عالية أو سافلة أو مناسبة (ثم هدى) وأرشد ذلك الموجود إذا كان من ذوي العقل المتفكر أو الحواس الى معرفة ربه أو العلم بحاجياته وما يتطلبه ، أو هداه إذا كان عاقلا إلى الإستدلال على وجود خالقه أو على وسائل تطوره •

وأما سؤاله عنه بكلمة ما كما في سورة الشعراء فكان بعد السؤال الاول لأنه لما وصفه بتلك الاوصاف المختصة المفيدة لهويته الذهنية طلب ماهيته ، أو كان بينهما لقاءات فمرة يسأل عن هذا وأخرى عن ذلك (قال) فإذا كان ربكما موصوفا بما قلت ، وهو يستدعي أن يعبده الإنسان جيلا بعد جيل (فما بال القرون الاولى ؟) التي عصت وتكبرت ولم تهتم بعبادته وإطاعته (قال) موسى (علمها عند ربي) وهي من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى الذي ثبتَ وتحقق معلومه (في كتاب) بمعنى الصفة الذاتية الكاشفة للمعلومات أزلا وأبدا أو بمعنى اللوح المحفوظ المحتوي على كل ملحوظ و (لا يضِلّ ربي) ولا يخطىء أي شيىء في مكانه فيعلمه علما يقينا (ولا ينسى) ذلك المعلوم ، فمعلومه معلومه أزلا وأبدا (الذي جعل لكم الارض مهدا) تستقرون فيه (وسلك لكم فيها) أي وجعل لكم فيها سبلا أي طرقا تعبرون عليها لكسب المعايش والمصالح من كافة الوجوه (وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) جمع شتيت أي متفرقة (كلوا وارعوا أنعامكم) أي قائلا لكم على لسان رسوله كلوا مما

تجدونه أي تحصلون عليها ، وارعوا أنعامكم الإبل والبقر والغنم منها (إن في ذلك) التصرف والخلق والإبداع ومتعلقاتها (لآيات) بينات وبراهين ساطعات (لأولى النهى) أي لأصحاب العقول على وجوب وجود ذلك الرب الذي سألتنا عنه . والنُّهى بضم النون المشددة وفتح الهاء جمع نهيةٍ بمعنى العقل لأنه ينهى عما لا خير فيه (منها خلقناكم) أي قائلا : منها خلقناكم في ضمن خلق أبيكم آدمَ (وفيها نعيدكم) بالإماتة وتفريق الأجزاء (ومنها نخرجكم تارةً أخرى) بجمع أجزائكم وتأليفها على الهيئة التي نُريدها (ولقد أريناهُ آياتِنا) الموجبة للإنتباه والرجوع الى الحق مدة بقاء موسى بينهم قبل أمرنا بخروجه ببني إسرائيل كلها وهي الآيات التسع المختصة بموسى (فكذّب) فرعون موسى من فرط عناده (وأبى) الإيمانَ والطاعة لقوة عتوّه .

(قالَ : أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى ؟(٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ، فاجْعَلْ بَيْنَنا وبَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكاناً سُوىً(٥٨) قالَ : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاسُ ضُحىً(٥٩) فَتَوَلّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى(٦٠) قالَ لَهُمْ مُوسى : وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى(٦١) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوى(٦٢) قالُوا : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما ، وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثْلى(٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ،

وَقَدْ أَفْلَحَ اليَوْمَ مَنِ اسْتَعلى(٦٤) قالوا : ياموسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى(٦٥) قالَ:بَلْ أَلْقُوا، فإِذا حِبالُهُمْ وعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ انَّها تَسْعى(٦٦) فَأَوجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى(٦٧) قُلْنا :لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلى(٦٨) وأَلْقِ ما فِي يَمينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا ،إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ ، وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى(٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى)(٧٠)

قوله تعالى : (قال : أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟!) إستئناف لكيفية مخاصمته لموسى ومعاندته معه فقال له مستنكرا (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) وديارنا بسحرك المُدْهِش لعقول الناس ، وتحل محلنا في الإستيلاء عليها (ياموسى ؟!) فإنا نعلم أن لا وسيلة لك إلى ذلك إلا سحرك ، وأن عندنا سحرة ماهرين في ذلك الفن (وَلَنأتينك بسحرٍ مثله) فإن كنتَ صاحبَ صدق فيالمقابلة والمعارضة (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي وعداً (لا نُخلفه نحن ولا أنت مكاناً سُوى) أي في مكان للإجتماع متساوين في الوصول إليه • (قال) موسى ــ عليه السلام ــ : (موعدُكم) أي اعِدُكم بالإجتماع معكم ومع سحرتكم وزمانُ وعدكم (يومُ الزينة) الرسمية المقررة في كل سنة يتزينون فيه ويزيبون أسواقهم (وان يحشرَ الناس ضحىً) عطف على الزينة أي ويومُ حَشْرِ الناس واجتماعهم في وقت الضحى وارتفاع الشمس الى ربع النهار ، وعند ذلك يمكن اجتماع الناس على اختلاف أصنافهم وأفرادهم في المحل المعهود •

(فتولى فرعون) أي انصرفَ عن المجلس ، أو تولى الأمر بنفسه مهتمّاً به (فجمع كيده) أي أصحاب كيده سِن السحرة وما يحتاجون إليه (ثم أَتى) في الموعد المقرر ، وكذلك أتى موسى ـ عليه السلام ـ • واجتمع السحرةُ والمتفرجون على الواقعة (قال لهم موسى) على ما هو شأن الأنبياء والمرسلين والناصحين المخلصين للسحرة : (وَيلكم لا تفتروا عَلى اللهِ كذبا) بأن تقولوا لمايظهر على يَدَيَّ مِن المعجزات أنها سحر ، أو لما يظهرُ منكم أنه مما يعارَضُ به آياتُ اللهِ المخلوقةُ لتأييد رُسُله (فيُسْحِتكم) أَي فيستأصِلَكم (بعذاب) هائِلٍ مُبيدٍ (وَقَدْ خاب من افْتَرى) على الله تعالى أي انسانٍ كانَ (فَتنازَعوا) أي السحرة (أمرهم) أي في أمرهم الذي أريد منهم (بينهم) في كيفية المعارضة وتجاذبوا أطراف الكلام وتشاوروا (وأسروا النجوى) وبالغوا في إخفاءِ الكلام حتى لا تتسرب أسرارهم إلى موسى أو أخبار تنازعهم وتخاذلهم إلى فرعونَ (وقالوا) بطريق الإسرار (ان هذان لساحران) وإن مخففة من المثقلة وهذان مبتدأ واللام لام الفرق وساحران خبر (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) أي أرض مصر بالغلبة والإستيلاء عليها (بسحرهما) الذي يدهشُ عقولَ الناس (ويذهبا بِطريقتكم المُثْلى) مؤنث الأمثل، أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب في معيشة الدنيا وإدارة أهلها وحفظ البلاد والعباد من الأعداء • (فاجمعُوا كيدكم) الفاء فصيحة أي فإذا كان الأمر مبنياً على عمل السحر لغاية مادية وهي إخراجكم من أرضكم واستيلاؤهم عليكم (فأجمعوا كيدكم) وأهله واجعلوه مُجْمَعاً عليه بحيثُ لا يتخلف عنه منكم أحَدٌ (ثم أتوا صفاً) مصطفين فإن ذلك أخوفُ للناظرين (وقد أفلح اليوم من استعلى) من طلب العلو وسعى له ، أو من قد علا وغلبَ على استعمال المزيد بمعنى المجرد •

ولما أن تم الشور وعزموا على مباشرة الأمر (قالوا : يا موسى اما ان تلقي) جهازَ عملك أولاً (وإما أن نكونَ) نحن (أوَّلَ مَن ألقى) قال موسى ـ عليه السلام ـ غير مكترث بما يعملون : (بل ألقوا) أولا كُلَّ ما تلقونه (فألقوا) أجهزتهم السحرية (فإذا حبالهم وعصيُّهم) الملقاةُ في الميدان (يُخيَّلُ إليه) أي إلى موسى تخييلا ناشئا (من سحرهم أنها) حيايا (تسعى) والسر أنهم موهوا تلك المواد بالزئبق فلمّا ضربتها الشمسُ تدفأت وتحركت واهتزت في عين موسى وخيل إليه أنها حيات تسعى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) أي فأخفى موسى خوفا منها فأوحينا إليه (قلنا : لا تخَفْ) مما توهمت (إنكَ أنتَ الأعلى) في ذلك العصر على سحرة مصر فإنهم على باطل وأنت على الحق ، وإذا جاء الحق زهق الباطل وكان زهوقا (وألق ما في يمينكَ) أي وألق عصاك التي تهتم بها كأنه نقد في يمينك (تلقف ما صنعوا) أي تبتلع ما صنعوه (إنما صنعوا كيدُ ساحرٍ ، ولا يُفلحُ الساحر حيث أتى) أي حيث كانَ وأينَ أقبل .

توهم بعضُ الناس من قوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أن السحر ليس بشيىء ، ولا يفيد شيئا واقعيا . ولكن ذلك توهم باطل ؛ لأن لا شيئيته إما من حيث العمل وإما من حيث الغاية ، وكلاهما موجود واقعي لأن الأسباب كيفما كانت فهي أمور واقعية كحبال السحرة وعصيهم ، وتمويهها بالزئبق وغيرها مما فعلوا ، والناتج كان تخييلا لموسى ـ عليه السلام ـ وإلقاءً في خياله أنها تضره حتى خاف منها ، ولذلك نهاه ربه بقوله (لا تخف) فالسحر علوم وأعمال تنتج نتائج كما قال تعالى (ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) غيرَ أن هذا العمل عمل مذموم شرعا لابتنائه على

تعلم مقدمات مذمومة ومزاولة أشياء غير مشروعة ، فهي حيل ودسائس وأمور مستنكرة تباشر للوصول إلى غايات فاسدة غير مشروعة ، ولذلك نهت عنه الشريعة السمحة فهو في بعض الصور كاغتيال إنسان بريء بأعمال منكرة بذيئة وفي بعض الصور تنتج أقبح منه أو ما هو أدون كخدعٍ في أخذ شيء بسيط منه . ولذلك قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أخذتم الساحرِ فاقتلوه » وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) المقصود الفلاح والظفر في مقابلة الحق كسحر السحرة في مقابل موسى ـ عليه السلام ـ ، أو الفلاح في الآخرة فإن ثوابها لمن آمن بالله وعمل صالحا واستقام عليه .

ولما أمرَ اللهُ تعالى موسى بإلقاء ما في يمينه ألقاه ولَقَفَ جميعَ ما ألقاه السحرة وعلموا أن مابيد موسى معجزة ربانية لا عملٌ مفتعلٌ من الساحر ، فأخذتهم هيبةٌ رحمانية قدسية غلبت على ما عندهم من الكبرياء النفسية (فألْقي السحرة سجداً) والملقي هو الله بهيبته الخارقة للطاقات ، والسجود سجود إيمان بعظمته في المعجزة الخارقة للنواميس الطبيعية و (قالوا : آمنا برب هرون وموسى) ودخلوا في سلك عباد الله المؤمنين به وبرسله وبما أتى إلى البشر من سُبُلِهِ .

ولما علم فرعون بما جرى ضاقت عليه السماء والأرض إلى ماتحت الثرى حيث غلب صاحبُ الحق على باطله وطالب الآجلِ على عاجله ، ولاسيما أن السحرة سخروا به ولم يستأذنوه صورةً ، وهذا الأمر يخدش كيانه وينبش بنيانه فقال :

(قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِنْ خِلافٍ ، وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ، وَلَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقى !(٧١) قالوا : لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ وَالَّذي فَطَرَنا ، فَاقْضِ ماأَنْتَ قاضٍ ، إِنَّما تَقْضي هذِهِ الحَياةَ الدُّنْيا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقى(٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ العُلى(٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، وذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى)(٧٦)

قوله تعالى : (قال آمَنتُم لَه قبلَ أن آذَنَ لكم ؟) أي قال فرعون للسحرة مهدداً لهم ومتوعداً إياهم : آمنتم لموسى قبل ان تطلبوا الإجازة مني وآذَنَ لكم في هذا الأمر الخطير ؟ وهذا إخبار على سبيل الإستنكار • وقد قرأ الأكثر أآمنتم على الإستفهام الإنكاري (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهو منكم وأنتم منه ، وتبين أنكم قد تآمرتم عليّ ، فإذا كان الأمر كذلك (لأُقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلافٍ) أي اليد اليمنى والرجل اليسرى ، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوعها تصليبا مشددا لا تنقطع أعضاؤكم عنها ومستمرا حتى تتمزقوا عليها (ولنعلمنّ) أي والله لتعلمن عند ذلك (أيُّنا) أي أنا أو موسى (أشدّ عذابا وابقى) سيطرة وعتاباً • يريد أن موسى خوفكم على مخالفتكم بالتعذيب ولذا كنتم أطعتموه ، وأنا أهددكم بالتصليب وسيظهر لكم تفاوت تعذيب كل من الجانبين لكم •

(قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) قالوا مجيبين لفرعون على تهديده ووعيده غير مكترثين به : لن نؤثرك ولن نختارك بالإيمان والإنقياد على ما جاءنا من الله رب العباد من البينات الواضحات أي المعجزات التي تقهر الألباب وتذعن النفس من هيبتها لرب الأرباب (والذي فطرنا) أي ولن نؤثرك على الإله الذي خلقنا من العدم الى الوجود (فاقض ما أنت قاض) أي فاحكم في حقنا بما أنت حاكم به (إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) أي إنما تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب ، ومالنا رغبة في البقاء فيها ولا رهبة من عذابها (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التي اقترفناها من الكفر والمعاصي ولا يؤاخذنا بها في الآخرة (وما أكرهتنا عليه من السحر) أي وليغفر لنا ما اكرهتنا عليه من السحر في مقابل من أرسله الله بالحق لإرشاد الخلق (والله خير) في حد ذاته (وأبقى) ذاتا وأدوم جزاء ثوابا أو عقابا (إنه من يأت ربه مجرما) بان مات على الكفر والمعاصي (فإن له جهنم لا يموت فيها) فينتهى عذابه (ولا يحيى) حياة طيبة هنيئة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به عز وجل وبرسوله (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) أي المنازل الرفيعة (جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى) أي تطهر من دنس الكفر والمعاصي .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في البَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَلا تَخْشى(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ(٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى(٧٩) يا بَني إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وواعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ، وَنَزَّلْنا عَلَيْكُمُ المَنَّ والسَّلْوى(٨٠)

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مارَزَقْناكُمْ، وَلاتَطْغَوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ، وَمَنْ يَحلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوى(٨١) وَإِنِّي لغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى)(٨٢)

قوله تعالى : (ولقد أوحينا إلى موسى) بيانٌ لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه والمرادُ أنه لما ظهر أمر موسى وغلب معنويا على فرعون وقومه واستمر زمانا على ذلك ، وأراد أن يبطش فرعون به وبأتباعه (أوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) أي ببني اسرائيل الذين اختصوا بعنوان عبوديتي صابرين على ما ابتلوا به من فرعون حتى لا يضربهم فرعون ولا يدمرهم واذهب بهم إلى أن تصل الى البحر واذا وصلت (فاضرب لهم طريقا في البحر) بعصاك ، والأصل اضرب البحر ليصير لهم طريقا (يبسا) أي يابسا لا ماء فيه (لا تخاف دَرَكاً) أي لا تخاف أن يدرككم فرعون وجنوده من خلفكم (ولا تخشى) أن يغرقكم البحر من أمامكم •

ولما أوحي اليه ذلك سرى بهم ليلا ولما اطلع الناس على ذلك (اتبعهم فرعون بجنوده) أي تبعهم ومعه جنوده ، وقيل اتبع متعد الى اثنين هنا كما في قوله تعالى(فأتبعنا بعضهم بعضا) • والمفعول الثاني جُنوده ، والباء سيفُ خطيبٍ أي اتبعهم فرعون جنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) وفي الآية الكريمة إيجاز حذف أي فنجا موسى ـ عليه السلام ـ وقومه ، ثم اقتحم فرعونُ وجنوده اليم تعقيباً لهم ، فغشيهم من اليم ما غشيهم بحيث لا يعرف مقداره ولا يوصف عيارُه (وأضل فرعون قومه) حيث سلك بهم مسلك الكفر والضلال وذهب بهم إلى هذا البحر فغرقهم مع نفسه (وما هدى) أحدا منهم الى طريق الرشاد لا في الدنيا ولا في الآخرة •

والمراد بذلك انتهكم بفرعون في عقيدته الباطلة وأعماله السافلة حيث تسبب في إهلاك نفسه وإهلاك من معه .

ثم بعد إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوهم قال تعالى : (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وأتباعه حيث يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم (وواعدناكم جانب الطور الأيمن) بالنصب صفة للجانب ، ليصعد موسى عليه السلام ويأخذ أحكام ربه تعالى (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) الترنجبين والسماني حيث كنتم في التيه (ولا تطغوا فيه) وقلنا لكم على لسان موسى لا تطغوا في مارزقناكم بالإخلال بشكره أو بغصب حصة الناس وضمها إلى حصتكم (فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى) أي سقط من علو الإيمان والشكر والإنصاف إلى درك الكفر وكفران النعمة والإعتساف (وإني لغفار لمن تاب) من الشرك وسائر المعاصي (وآمن) بما يجب الإيمان به (وعمل صالحا) مستقيما عند الشرع الشريف (ثم اهتدى) أي لزم الهداية والإستقامة عليه . والاهتداء الثبات على الهدى .

وَما أعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى ؟(٨٣) قالَ : هُمْ أُولاءِ عَلى أثري ، وَعَجِلْتُ إلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى(٨٤) قالَ : فإنّا قَدْ فَتَنّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ، وَأَضَلَّهُمُ السّامِريُّ(٨٥) فَرَجَعَ مُوسى إلى قومهِ غَضْبانَ أَسِفاً ، قالَ : يا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وعداً حَسَناً ؟ أفَطالَ عليكُمُ العهدُ ؟ أم أردتُمْ أن يَحِلَّ عليكمْ غضبٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدي ؟!(٨٦) قالُوا : ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا ، ولكِنّا حُمِّلْنَا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ ، فَقَذَفْناها

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ(٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ ، فَقَالُوا : هذا إلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ(٨٨) أفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيهِمْ قَوْلاً ولا يمْلِكُ لهم ضَرّاً ولا نَفْعاً ؟(٨٩) وَلَقَدْ قالَ لَهُمْ هرونُ مِنْ قَبْلُ : يا قَوْمِ إنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ، وَإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِي وأَطِيعُوا أَمْرِي(٩٠) قالُوا : لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسى)(٩١)

قوله تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا مُوسى ؟) بيانٌ لِما جَرى بينه وبين الله تعالى من الكلام عند ابتداء موافاة الميقات بموجب المواعدة المذكورة يعني أن الله قرر له أن يأتي إليه في الميقات مع النقباء السبعين • والمراد من التعجيل تقدمه عليهم • أي ايَّ شيىء عجل بك عن قومك فتقدمتَ عليهم ؟ (قال : هُم أولاءِ على أثري وعجلتُ إليكَ ربِّ لترضى) قال ـ عليه السلام ـ : يا رب إن قومي أولاء الناس الموجودون المباشرون للمجيء معي وإنما تقدمت عليهم وعجلت في الوصول إلى الميقات لترضى أعمالي وسرعة امتثالي في الوصول إلى ساعة الجلال ، واعتقدت أن تأخرهم عني بخطى قليلة لا يقدح في أمري بل هو الغاية في إطاعة الله • فسؤال الرب سبحانه وتعالى عن سبب العجلة وتقدمه عليهم في الوصول إلى الطور، والجواب بأنه الإستعجال في الوصول اليك وتحصيل الرضا منك ، واني أطعت أمرك في المجيىء معهم إليك ، وإنما أخطأت في عدم اعتبار حضورهم معي في زمان واحد ، ولم أعلم أن حضورهم معي شرط في الامتثال (قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامري) أي قد أوقعنا قومك في فتنة من بعد مجيئك الى ميقاتنا •

وفتنتهم أنه أضلهم السامري الصائغ الزائغ في الدين ؛ ذلك أنه قال لهم بعد أن غاب موسى ـ عليه السلام ـ عشرين ليلة : أنه قد كملت الأربعون ، فجعل العشرين ليلة مع أيامها أربعين ليلة وليس من موسى عين ولا أثر وليس إخلافه ميعادكم إلا لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم . فجمعوه وسلموه إليه فأذابه وصبه في قالب العجل ، فطلع عجلاً جسداً له خوار . والمراد بقومك هنا الذين خلفهم مع هارون . ولما سمع موسى ما أفاده ربه استرجع وتأثر ، ولكنه ماذا يفعل بعد أن وقعت الواقعة ؟ فبقي على الطور واستوفى الأربعين ؛ ذا القعدة وعشر ذي الحجة ، وأخذ التوراة .

(فرجع موسى إلى قومه) بعد ذلك (غضبان) على الذين أحدثوا هذا الحادث المهم (أسفا) على دين الله وضياعه في قومه بعد كل ما تحمله من الأذى لاستخلاصهم (قال : يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) لا سبيل لكم الى انكاره وهو إعطاء التوراة وتشريع النظام في الحياة ؟ (أفطال عليكم العهد) أي أفطال عليكم زمان إنجاز ما وعد به ؟ (أم أردتم أن يحل عليكم غضب) شديد لا يعلم مداه (من ربكم فأخلفتم موعدي ؟ قالوا) أي القوم المستخلفون الواقع فيهم ما وقع لموسى : (ما أخلفنا موعدك) بالثبات على الدين وإيثاره على غيره (بملكنا) أي باختيارنا واستيلائنا على شئوننا (ولكنا حملنا أوزاراً) أي أحمالا ثقيلة (من زينة القوم) الأقباط وهو ما استعرناه منهم من الحلي لرسم الزينة في العيد الرسمي ، فأتانا السامري وأضلنا بكلامه وشوش علينا حساب غيابك ، وجعل عدم رجوعه من أثر شؤم تلك المواد المستعارة (فقذفناها) إليه وصنع لنا أسوأ صنيعة (فكذلك) أي فمثل ذلك القذف الذي قذفناه إليه (ألقى السامري) ما وصل إليه منا وما كان عنده ، فألقاها في النار وصبها في قالب العجل (فأخرج لهم عجلا) حالكونه (جسداً) أي جثة ذا لحم ودم أو جسداً

مصبوباً من ذهب لا رُوح فيه (له خوار) إعتيادي لأنه خلق الله فيه الروح أو خوار اصطناعي بجعل منافذ فيه مصنوعة على أوضاع خاصة تدخل فيها الرياح والنفخات القوية في أوقات خاصة (فقالوا) أي السامري ومن معه وتبعه في دجله : (هـذا إلهكـم وإلهُ موسى فنسي) أي فغفل عنه وتركه وذهب يطلبه في الطور • فأنكر عليهم الباري تعالى بقولـه (أَفلا يرون ألا يرجعْ إليهم قولا ؟) أي لا يرجع إليهم كلاما ولا يرد إليهم جوابا لا بنفسه مع مختار القوم ولا من المختار إلى القوم (ولا يملك لهـم ضرا ولا نفعا) أي لا يقدر أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب اليهم نفعا •

(ولقد قال لهم هرون من قبل) أي من قبل رجوع موسى إليهـم : (يا قوم إنما فتنتم به) أي ما حصلتم على شيىء إلا أن فتنتم بـه ، فـإن الحصر المستفاد من إنما قد يكون بالنسبة الى الفعـل بالقياس الى مقابلـه لا بالقيد المذكور بالقياس الى قيد آخر كأن يراد إنما فتنتم به لا بغيره (وإن ربكم الرحمن) المنان بالرحمة والفياض بالنعمة الثابت بالقدرة (فاتبعونـي وأطيعوا أمري) لكم بالثبات على ما ترككم عليه موسى (قالوا) لهـارون ردا عليه (لَنْ نبرحَ) عليه أي على العجل وعبادته (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) ويرشدنا الى ما هو خير لنا •

(قالَ : يا هارُون ما مَنَعَـكَ اِذْ رأيْتَهُمْ ضَـلُّوا(٩٢) ألاّ تَتَّبِعَنِ ؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي(٩٣) قالَ : يا ابنَ أُمَّ لا تَأْخُـذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسي ، إنّي خَشيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَني إسرائيلَ وَلَـم تَرْقُـبْ قولـي(٩٤) قالَ : فَمـا خَطْبُـكَ يا سامِريُّ ؟(٩٥) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً من أثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها ، وَكذلِـكَ سَوَّلَتْ لِـي

تَفْسي(٩٦) قَالَ : فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ، وَانْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ، لَنُحرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً(٩٧) إِنَّما إِلهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً(٩٨) كذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكراً(٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وزراً(١٠٠) خالِدينَ فيهِ وَساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلاً(١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ونَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً(١٠٢) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً(١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً)(١٠٤)

قوله تعالى : (قال : يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن ؟) أي ما المانع لك إذ رأيت القوم ضلوا سبيلَ الحق بعبادة العجل ولم ينظروا الى فساد عملهم ذلك أن تتبعن ؟ وكلمة لا تستعمل عادة كسيفِ الخطيبِ في خطبة العبادة أي ما منعك عن اتباعي في التمسك الشديد بالنظام ومنع القوم عن الفساد (أفعصيت أمري ؟) لك بحسن سياستهم ورعاية شئونهم (قال : يا ابن أم لا تأخذ باحيتي ولا برأسي) أي ولا بشعرِ رأسي ولا تَلُمْني على حالي (إني خَشيتُ أن تقول فرّقْتَ بين بني إسرائيل) أي إني ما تعاركْتُ ولا تحاملتُ عليهم فوق المعتاد ، لأني خشيت من أن تقول لي في نهاية المطاف فرقتَ بين بني إسرائيل ، وجعلتهم فرقتين متقابلتين، فرقة مطيعة وفرقة عاصية ، (ولم ترقب) ولم تُراعِ قولي في حُسن إدارتهم والعناية بهم .

ولما اعتذر هارون من سكوته وعدم النزاع الزائد معهم وعلم أن أساس الفتنة كان من السامري ، وكان رجلا من عباد البقر وقع في مصر ودخلَ في بني إسرائيل ، وامتزج معهم (قال : فما خطبك يا سامري ؟) أي ما هو الداعي المهم الذي ساقك ودعاك الى أن تبتدع هذه الفتنة العظيمة من عبادة العجل ؟ ولم ذلك ؟ (قال) السامري مجيبا له : (بصرت بما لم يبصروا به) أي تفطنت لما لم يتفطنوا له واطلعت على ما لم يطلع الناس عليه وهو أني رأيت يوم خروجنا من مصر رجلا راكبا على فرس وكنت أنظر الى حوافره كلما وضعها على محل من الأرض ورفعها إخضر وحصل فيه نبات ؛ فعلمت أن في ذلك سر الحياة (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي من أثر حافر فرس الرسول (فنبذتها) على الحلي المذاب الذي سبكته في قالب العجل حتى دخلت فيه الحياة (وكذلك سولت لي نفسي) أي زينته وحسنته إليّ (قال) موسى عليه السلام (فاذهب) أي من بين الناس (فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) أي أن لك في الحياة نصيبا من المرض الساري الى المجاور بحيث تقول للناس : لا مساس بيني وبينكم ولا جوار حتى لا تبتلوا بما ابتليت به ، وذلك أنه ابتلى بحمى شديدة يصيح من وجعها ، وإذا اقترب منه أحد أصيب بها ، فتحامى الناس وتحاموه حتى مات (وإن لك موعداً) في الآخرة (لن تخلفه) أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل لينجزه ألبتة إضافة الى عقوبتك في الدنيا (وانظر الى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا) أي إلى العجل الذي صرت مقيما على عبادته مع من معك (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) أي لنذرينه (في اليم نسفا) فأنجز ما هدد به ، وأحرق العجل حتى صار رمادا ، ثم أذرى ونثرَ رماده في النيل إذراء بليغا بحيث لم تبق منه مادة وأثر .

(إنما الهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيىء علما) تمييز محول عن الفاعل أي وسع وشمل علمه كل شيىء مهما كان (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) خطاب" مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق الوعد المنجز أي مثل ذلك البيان الصادق الصريح السالم نقص عليك من أنباء ما سبق من الوقائع والحوادث التي لها علاقة بالتشريع والتوحيد (وقد آتيناك من لد"نا ذِكراً) كتابا يذكر ويتلى بمر الأيام محتوياً على القصص المفيدة لأهل الاعتبار والاستبصار ، من أقبل عليه أخذَ أجرا و (من أعرض عنه) أي لم يؤمن به (فإنه يحمل يوم القيامة وزرا) أي حملا ثقيلا من العقوبة (وساء) لهم (يوم القيامة) ذلك (حملا • يوم ينفخ في الصور) بدل منه باعتبار أنه مبدأه ، والمراد به الجسم المصور الذي ينفخ فيه الملك المأمور به مرتين : مرة لخراب العالم ونسف الجبال وإعدام الحياة ، ومرة أخرى بعدها بمدة أربعين سنة كما روي ذلك للبعث وإعادة الحياة والحشر في العرصات (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) في العيون أو في الأبدان ، إذ تزرق الأبدان من مكابدة الشدائد (يتخافتون بينهم) أي يتكلمون بخفض الصوت والإخفاء لشدة هول المطلع قائلين : (إن لبثتم إلا عشراً) من الليالي ، يقللون مدة مكثهم في الدنيا لزوال الإدراك التام ، أو لهول ما عندهم من الآثام ، أو لقلتها بالنسبة الى ما يرى من طول تلك الأزمان والأيام (نحن أعلم بما يقولون) وحقيقة ما يتكلمون عنه (إذ يقول أمثلهم طريقة) وأفضلهم تقريرا وبيانا (إن لبثتم إلا يوما) واحدا ، والمراد إلا زمنا قليلا جدا •

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ ، فَقُلْ : يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً(١٠٥) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً(١٠٦) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدّاعِي لا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً(١٠٨) يَوْمَئِذٍ

لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩) يَعْلَمُ مابَيْنَ أَيْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً(١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ للحَيِّ القَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً(١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً(١١٢) وَكَذلِكَ أَنزَلْناهُ قُرْآناً عربيّا وصَرَّفْنا فيه مِنَ الوَعيدِ ،لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً(١١٣) فَتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ ولا تَعْجلْ بالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ ربِّ زِدْني عِلْماً)(١١٤)

قوله تعالى : (ويسئلونك عن الجبال) السائلونَ منكرو البعث من قريش ، وقيل : جماعة من ثقيف ، وقيل : أناسٌ مِن المؤمنين ، أي إنهم يسألونك عن أحوالها في اليوم الموعود ، (فقُل) في جوابِهم (ينسفها ربي نسفاً) يجعلها سبحانه وتعالى كالرمل ثم يرسلُ عليها الرياحَ فتفرقها في الجوّ ، فإنْ إحداث الجبال وإعلاءها ونصبها في أماكِنها ، وقلعها وتمزيقها وتفريقها الى أجزاء ترابية ناعمة تنشرها الرياح في الجوّ كلّ ذلك من الأمور الممكنة السهلة على صاحب القوة القاهِرَة التي لا تبقي ولا تذر (فيذرها قاعاً صفصفاً) أي فيجعل الجبال المتمزقة إذا وقعت على سطح الارض (قاعا) سهلا مستويا مع الأرض ، أو أنه إذا مزقها ونشرها في الجو والتحقت بالهواء بقي محلّها قاعاً مستوياً من الأرض (لا ترى فيها) أي في مقار الجبال (عوجاً ولا أمْتا) العوجُ عبارة عن عدم استقامة تدرك بالبصيرة لا بالبصر ، والأمت نُتوءٌ وارتفاع يُدْرك بالعين (وخَشَعَت الأصواتُ للرحمن) أي خَفيت لتجلي الحق بالهيبة والرهبة على أهل

الموقف (فلا تسمع) من المصوتين (إلا همساً) أي صوتا خافتا يشبه النجوى (يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعة إلا من أذِنَ له الرحمن) أي إلاّ من شافع أذن له الرحمن في الشفاعة (ورضي له قولا) أي رضي قوله للمشفوع له • أو لا تنفع الشفاعة أحداً من المذنبين إلا مذنبا أذن الرحمن في الشفاعة له ورضي قولَ الشافعِ لأجلهِ (يَعلَمُ مابينَ أيديهم وما خلفهُم ولا يحيطون به علما) أي لا يحيط علمهم بمعلوماته تعالى فعلماً تمييز محول عن الفاعل ، وقيل المراد لا يحيط علمهم بذاته وصفاته (وَعَنَتِ الوجُوهُ للحيَّ القيومِ) أي ذلت وخضعت وانقادت خضوع العبد الذليل والأسير العاجز لذاته الحي بالذات والقيوم القائم بذاته المقيم للأرض والسماوات (وقد خاب) أي خسِرَ هنالك (من حملَ) على ذمته (ظُلْماً) سواء كان على نفسه بالإشراك بربه ، أو على غيره بالتعدي على دينه أو نفسه أو أهله أو ماله أو عقله وأحواله • وكل ما ضر بالغير وصدر منه فهو ظلم منه عليه إلا ما كان فى وجه مشروع •

(ومن يعمل من الصالحات) مقابل لقوله تعالى وعنتِ الوجوه للحي القيوم ، أي ومن يعمل من الأعمال ما يعد من الصالحات وهي ما يترتب عليه ثواب (وهو مؤمن) بما يجب الإيمان به من الله ورسوله وما جاء به من عند الله (فلا يخاف ظلما) من أحد عليه ، أما من غير الله تعالى فلأنه لا مجال فيه لأحد هناك وليس المقام مقام الاستعلاء والتعدي ، وأما من الله تعالى فلأنه لا يُنسَبُ اليه ظلم ولا يعمل إلا ما يستحقه العبد بمقتضى وعده ، وذلك معنى قول المفسرين للظلم بمنع ثواب المستحق بموجبِ الوعد بأن لا يثاب ويُحبط عمله (ولا هضما) وكسراً له بمنع بعضٍ من ثوابه • وروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما : فلا يخاف ان يظلم فيزداد في سيئاته ، ولا أن يهضم حقه فينقص من حسناته •

وقوله تعالى : (وكذلك أنزلناه) عطف على قوله (وكذلك نقص) أي ومثل إنزال الآيات البينات في شأن الساعة والبعث والحشر ومخاوف الناس (أنزلناه) أي القرآن حالكونه (قرآنا عربيا) أي بلغتهم ولهجتهم مفهوما واضحا (وصرفنا فيه من الوعيد) أي غيرنا وجوه الوعيد من الوعيد على الكفر الى الوعيد على ما دونه من المعاصي والسيئات (لعلهم يتقون) أي الكفر والمعاصي (أو يحدث لهم ذِكراً) أي عظة واعتباراً مؤديا الى التقوى (فتعالى الله الملك الحق) أي فتبارك وتعالى الواجبُ الوجودِ المصيطرُ على العالم أن يكون في إنزاله للكتاب وإرساله للرسول شيىء غير محتوٍ على الحكم والمصالح ، ذلك لأنه الملك الحق الثابت ذاته بذاته ، وذاتٌ شأنهُ ذلك لا يصدر منه إلا ما فيه الحكم والمصالح بالنسبة الى برياته • (ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يقضى إليكَ وحيه) أي وإذ تنبهت على عظمة ذاته وحكم آياته وحسن تصرفه في برياته فاعلم أن الوحي المنزل عليك صدر بوجه حق متقنٍ حتى تسمعه وتفهمه وتعيه وتبلغه للمكلفين ، وذلك مقدر من الله ومقرر ، فلا تعجل بقراءة كلمات القرآن من قبل أن يقضى ويتم من جانب جبريل الأمين وحيه إليك ، تمهل وتريث حتى تأتيك الجملة بتمامها فتقرأها وراء قراءته ، وهذه الآية مثل قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) لأنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ألقى اليه جبريل ـ عليه السلام ـ القرآن يتبعه عند التلفظ بكل حرف وكل كلمه مخافة أن يصعد الملك من حيث نزل ويفوت عليه حفظ الكلمات من الآيات الكريمة ، فنبّه على ذلك وأمر بالتريث والتمهل ، (وقل) في نفسك عند نزول القرآن ، أو بلسانك في سائر الأزمان (رب زدني علما) بألفاظ القرآن ومبانيه ، وفهماً بمعاني القرآن ومغانيه[1] • أو زدني علما بما ينفعني

(١) مغاني : جمع مغنى بمعنى المنزل والمراد الهدف .

علمه في عالم الوجود الى وقت الحضور ولقائك في اليوم الموعود ، فإن لله سبحانه كلمات ومعلومات وكل ذلك مما يمكن أن يلقى الى رسله في البريات ، وفوق كل ذي علم عليم .

(وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً(١١٥) وَاِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إلاّ إبْليسَ أَبى(١١٦) فَقُلْنا : يا آدَمُ اِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى(١١٧) اِنَّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيها وَلا تَعْرى(١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُ فِيها ولا تَضْحى(١١٩) فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ : يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى ؟(١٢٠) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما ، وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى(١٢١) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى)(١٢٢)

قوله تعالى (والقد عهدنا إلى آدم من قبلُ) لما نبه الله سبحانه وتعالى حبيبه على التمهل والتؤدة في أخذ القرآن من جبريل ـ عليه السلام ـ وأن العزم والقوة على الضبط في الأمور متصورة في كل حال ذكره بما جرى من أبي البشر وأن الإنسان بطبيعته مستعجل قليل الصبر والعزم فينبغي لمن يأتي بعده أن يجعل ذلك الوضع الذي جرى عليه درسا ثابتا لرعاية أموره ، فقال : (وَلَقد عهِدْنا إلى آدم) أي وصيناه وقررنا له بعض الأمور المهمة من قبل الحادثة من جملتها عدم قربان الشجرة (فنسي) وصيتي وعهدي (ولم نجد له عزما) أي تصميما وثباتا قويا على حفظ ما وصي به فوقع في مخالفة

ما نهيته عنه فجرى ما جرى ووقع ما وقع • وبيان ما عهدنا إليه يندرج فيما يلي (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود التشريف والإجلال والاحترام (فسجدوا إلا إبليس أبى) عن السجود إستكباراً وإستنكاراً لسجود الفاضل بزعمه للمفضول (فقلنا : يا آدمُ إن هذا) الذي رأيته أبيا عما أمرته به وهو إبليس (عدو لك) لانك كنتَ سببا لما أتى عليه (ولزوجك) لأنها من متعلقاتك النافعة لك في الحياة ومعين العدو عدو كعينه (فلا يخرجنكما من الجنة) بحيله ودسائسه (فتشقى) وتتعب بمتاعب الدنيا ، فإنك إذا بقيت في الجنة بقيت مسعوداً متنعما (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) لأن غذاءك بما تتغذى به من الثمار ، ولباسك ما تتستر به من اللباس الساتر كالدراري أحسن أنواع الستار (وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى) أي لا تصيبك شمس فتتدفأ بها ولا يصيبك الظمأ والعطش •

قال الشهاب : الآية فيها سرّ بديع من أسرار المعاني ، وهو الوصل الخفي وسماه الاتصاف (قطع النظير عن النظير) وهو أنه كان الظاهر أن يقال : لا تجوع فيها ولا تظمأ ، ولا تعرى ولا تضحى • ووجه أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها ، وهي أن الجوع خلو الباطن والعرى خلو الظاهر ، فكأنه قيل : لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما ، وجمع بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس المورث حرارة الظاهر ، فكأنه قيل : لا تؤلمك حرارة الباطن والظاهر • إنتهى باختصار •

(فوسوس إليه الشيطان) أي فأنهى الشيطان وسوسته إليه (قال : يا آدمُ هل أدلكَ على شجرة الخلد) من اضافة السبب أي على شجرة يكون الأكل من ثمرتها سببا لخلود آكلها • وقوله (وملك لا يبلى) أي ومملوك لا يفنى يعني تلك الشجرة • أو المراد رئاسة على الحياة والمتاع بحيث لا يفنى أمدها • وسيدنا آدم خلق بشراً مركباً من الصفات والغرائز

الإنسانية ، وكان قابلا لنسيان عهد ربه فنسيه ، فأكل منها وأكلتْ زوجته حواء معه كما قال تعالى (فأكلا) أي هو وزوجته (منها) أي من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) أي عوراتهما فإنهما قبل الأكل كانا مستورين بغلاف نوريٌّ كالصدف ، ولم يكن لهما حاجة إلى الأكل والهضم والدفع ، فلما أكلا احتاجا ، فكشف اللهُ عنهما اللباس وظهرت عوراتهما لخروج الخارج (وطفقا يخصِفان عليهما من ورقِ الجنة) أي فشرعا يلزقان ورق الجنة بعوراتهما حتى لا تتبين (وعَصى آدمْ ربهُ) بأكل الشجرة (فَغَوى) أي ضل عن مطلوبه الذي هو الخلود لان كل آكل فانٍ زائل" ، أو عن المطلوب الذي يليق بالقصد وهو البقاء في الجنة الى اللقاء ، وهذه الحادثة كانت قبل الإنباء وحدوثها ، وإن كان عن نسيان ، لكن النسيان لا يخلو عن النقصان لاسيما بالنسبة إلى من خاطبه ربه بالإحسان .

ولما جرى عليه ما جرى ألهمَهُ اللهُ الإلتجاء والإنابة اليه والتوبة فالتجأ وأناب وتاب . (ثم) قبل الرب سبحانه وتعالى دُعاءه و (اجتباه) واختاره واصطفاه للنبوة والرسالة حَسَبَ علمه (فتاب عليه) أي رجع إليه بالرحمة (وهدى) أي إلى الثبات على التوبة والى النبوة والرسالة والى الأبوة للأنبياء والمرسلين .

(قالَ : اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإمَّا يَأتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى(١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإنَّ لَه مَعِيشَةً ضَنْكاً ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمى(١٢٤) قالَ : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ؟(١٢٥) قالَ : كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنَا فَنَسِيتَها ، وَكَذلِكَ اليَوْمَ تُنْسى(١٢٦) وَكَذلِكَ نَجْزِي

مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وأبْقى(١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهلَكْنا قَبلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولي النُّهى (١٢٨) وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزاماً وأَجَلٌ مُسَمىً)(١٢٩)

قوله تعالى : (قال : اهبطا منها جميعا) إستئناف لبيان ما صدر منه تعالى في حق آدم وحواء لما تاب عليه واجتباه فيقول : (قال اهبطا منها جميعا) أي إنزلا من الجنة إلى الأرض الواقعة في محل أسفل من العرش بدرجات لا تحصى • والخطاب له ولحواء واسكنوا فيها على ما هو المعتاد ، وكلوا واشربوا من رزقها وتناسلوا فيها ليكثر منكما البشر بما في علم الله حالكونكما معهم في كل جيل (بعضكم لبعض عدو) بسبب التجاذب والتدافع بينكم فيما يجري لأن كل إنسان حائز للقوة النطقية والشهوية والغضبية ، وكل يريد مستحباته ويكره مستنكراته (فإما يأتينكم مني هدى) أي كتاب وشريعة منزلة (فمن اتبع هُداي) وضع الظاهر موضع الضمير للإهتمام (فلا يضل) في الدنيا (ولا يشقى) في الآخرة (ومن أعرض عن ذكري) أي كَفَرَ بِهِ وأنكره (فإن له معيشة ضنكا) والضنك الضيق ، أي فإن له في الدنيا معيشة وحياة ضيقة شديدة بانحباس الصدر وقلة الصبر ومعاناة كل أمر عسير ، فإن المؤمن شاكر على النعم وصابر على النقم ، ومع ذلك ، فهو وسيع الصدر بما ينتظره من الأجر ، وأما الكافر فهو حريص وطموع في السراء للزيادة وبعيد عن الشكر والطاعة والعبادة وبائس وجزوع في الضراء وتضيق عليه الدنيا مع وسعتها ويائس عن الجزاء في الآخرة إذ لا يؤمن بها حتى ينال خيرها (ونحشره) أي من أعرض عنه (يوم القيامة

أعمى) في البصر أو في البصيرة ويؤيد الأول قوله تعالى في سورة الإسراء (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمْياً وبكما وصما) وقوله تعالى (قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟) أي في الدنيا (قال) الله تعالى في جوابه : (كذلك أتتك آياتُنا فَنَسيتَها) أي تركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلا (وكذلك اليومَ تُنْسى) أي تترك في العمى والعذاب جزاء على الحساب (وكذلك) أي ومثل ذلك الجزاء (نجزي من أسرف) بالإنهماك ولم يُؤمن بآيات ربه (ولعذابُ الآخرة أشدّ وأبقى) أي أشد من عذاب الدنيا على الإطلاق وأكثر بقاء منه .

وقوله تعالى (أفلم يهد لهم) إستئناف لبيان التذكير والتفكير في أحوال الأمم الطاغية الباغية السابقة ، فإن كل عاقل عالم يعلم بمطالعته أو بمجاورته أحوال من مضى وعصى وما جاء عليه من ربه جزاء له في الدنيا . أي أفلم يهد لهم ولم يبين لهم طريق الهداية ما يستفاد من مضمون قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) أي من أهل القرون الخالية كقوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن اطلعوا عليه حالكونهم (يمشون في مساكنهم ؟) ويتقلبون في ديارهم مشاهدين لآثار عماراتهم البالية التي كانت قوية مستحكمة عالية (إن في ذلك لآيات لأولى النهي) أي لأولي العقول الناهية عن مباشرة أعمال تشبه أعمال أولئك الأمم العاصية . ومضمون الآية المذكورة كثرةُ المُهْلكين والمعذبين من الأمم الظالمة التي حقها أن يعتبر بها العقلاء .

ثم استأنف الباري تعالى لبيان حكمة عدم نزول العذاب على الكفار الموجودين في عصره ــ عليه السلام ــ بقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهي تقدير تأخير العذاب عنهم (لكان) العقاب الذي يستحقونه (لزاما) أي لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة وقوله (وأجل

مسمى) عطف على (كلمة) أي ولولا كلمة سبقت في تقدير التأخير وأجل مسمى معين لتقرير المصير لجرى عليهم ما يليق بهم •

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)(١٣٢)

قوله تعالى : (فاصبر على ما يقولون) أي فإذا علمت أن جزاء الاعمال لابد منه ، وأن تأخيره بحسب التقدير •• فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر وسوء الأدب مع الله تعالى وعلى ما يفعلون ويقولون لك ولأتباعك ، ولا تضطرب فإن كلا من الناس ذاهب الى يوم جزائه ، (وسبح بحمد ربك) وصل وأنت متلبس بحمده تعالى ربك الذي أوصلك الى ما وصلته (قبل طلوع الشمس) أي صلاة الفجر (وقبل غروبها) أي صلاة الظهر والعصر (ومن آناء الليل) أي وبعض أوقات الليل وساعاته والمراد صلاة المغرب والعشاء • وآناء أفعال جمع أنى بكسر الهمزة وفتحها مقصورا جمع على أفعال فصار أأناي ، قلبت الهمزة الثانية ألفا والياء بعد الألف همزة ، فصار آناء • (واطراف النهار) أي الصبح والمغرب وكررهما لمزيد الإعتناء بهما •

ومن المفسرين من قال : إن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة • أما دلالتها على الصلوات فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين ، فأوقات الصلوات

الواجبة دخلت فيهما • بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار للنوافل من سنة الوتر والتهجد في الليل وسنة الإشراق والضحى في النهار • وهذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة وأما اذا حملناه على التنزيه والإجلال فالمعنى إشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات علاوة على فعل الصلوات الواجبةوالمندوبة لتكونمنعداد الذاكرين لله ذكرا كثيراً ولا تكون من الغافلين • وقوله (لعلك ترضى) مربوط بقوله (وسبح بحمد ربك) أي وسبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك من الثواب •

(ولا تمدنّ عينيكَ الى ما متعنا به أزواجاً منهم) أي الى الزخارف والمغريات التي متعنا بها أصنافا منهم من الأولاد ، والأموال ، والمنازل ، والملابس ، والمطاعم ، وغيرها من الرتب ••• (زَهْرةَ الحياة الدنيا) بدل" من محل به أو منصوب بما يستفاد من متعنا ، أي وجعلناه زهرة الحياة الدنيا • وقوله : (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا أي متعناهم بها لنختبرهم فيه (ورزق ربك) أي ما ادخر لك في الدنيا من الخدمات الإسلامية ونشر الحق في ربوع العالم وفي الآخرة من اللقاء والرضاء والخلود في النعماء (خير) مما متعنا به هؤلاء (وأبقى) فإنه خالد أبدَ الآبدين (وأمُرْ أهْلك) أي من معك في بينك أو من تبعك في دينك (بالصلاة وَاصطبر عليها) أي استمر واستقم واثبت عليها في العسر واليسر ، وَأدّها حقّ الأداء بخشوع ، وإذا مر ببالك أن الاشتغال بها ربما يضرّ بأمر المعاش فلا تبال بهذا الهاجس (نحن نرزُقكَ) وما أعطيناه لا مانع له (والعاقبة) الحميدة في الدنيا والآخرة (لـ) أهل (التقوى) لأن من اتقى ما يخالف أحكام مولاه راعاه بالحق وتولاه وهو يتولى الصالحين •

(وَقَالُوا : لَوْلا يَأْتِينا بآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ! اَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الأولى ؟(١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا : رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ اَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى(١٣٤) قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدى !)(١٣٥)

قوله تعالى : (وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض الأقاويل الفارغة التي تعودوها • أي هلا يأتينا بآية أي معجزة أو بجملة منزلة واضحة من ربه تدل على صدقه في دعوى الرسالة (او لم تأتهم بينه ما في الصحف الأولى ؟) رد من جانب الباري سبحانه وتكذيب لهم بأنه أتتهم آيات القرآن الكريم التي هي أم الآيات السماوية وأس المعجزات ، وتحتوي على ما كانت في الصحف الأولى ، فإنكار إتيانه بما اقترحوه ذنب جديد وكذب عظيم اقترفوه • وقوله تعالى : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) إستئناف لتقرير كونِ القرآنِ آية بينةً حاويةً للمعجزة والحكم الالهي مع أنهم ينكرون ويقترحون الآية البينة ، وهم ، وإن كانوا ومايزالون منكرين ، لكنا أتينا بما تقرر من سنتنا وهو الإنذار قبلَ الإهلاك ، وإرسال الرسل لقطع معذرة الكل لأنا لو أهلكناهم بعذاب مستأصل من قبلِ إنزال القرآن (لَقالوا : لولا أرسلتَ إلينا رسولا) مع آيات (فنتبع آياتك) التي أرسلت (من قبلِ أن نذِلّ) بالعذاب (ونخزى) بدخول النار• (قل) يا حبيبي (كلٌّ) من الجانبين أنا وأنتم (متربصٌ) لمآل الأمر إلى أن يأتي وقتهُ (فتربصوا) له (فستعلمون من أصحاب الصراط السوي) أي المستوي ومن أصحاب الصراط المنحرف ، وستعلمون من ضَلّ من الجانبين (ومن اهتدى) منهما •

الجزء السابع عشر

سورة الانبياء ، مكية ، وهي مائة واثنتا عشرة آية
نزلت بعد سورة ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(إقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ ، وَهُمْ يَلعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا : هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ؟ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟(٣) قال رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَيهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كما أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكناها أَفَهُمْ يؤمِنُون ؟!)(٦)

قوله تعالى : (إقترب للناس حسابُهم) المراد بالناس فيه المشركون بدلالة ما بعده من الآيات عليه • وآثر الحساب على الساعة لأن غفلتهم منها لغفلتهم منه وخوفهم منها على الغرض لخوفهم منه ، والإقترابُ محقق لأن الرسول إحدى آيات الساعة ، ولأن كل آت قريب ويقترب آناً بعد آن (وهم في غفلة) أي في غفلة عظيمة وجهالة

تامة منه ، لأنهم لا يؤمنون بمن يأتي به ويزعمون أن لا كتاب ولا حساب (معرضون) عن الآيات البينات والمعجزات الدالة على أن يكون لهم سؤال وجواب • ومن صفات أولئك الناس الناسين لحقوق الله أنه (ما يأتيهم من ذِكر) نازل (من ربهم محدثٍ) جديد نزوله (إلا استمعوه و) الحال أن (هم يلعبُون) ويستهزؤن به (لاهِيةً قلوبهم) غافلة عن أنه ذكرٌ نازل لإرشاد الناس الى الحق وزجرهم عن الباطل من الشرك وغيره من المعاصي (وَأَسروا النجوى الذين ظلموا) أي الذين ظلموا أسروا النجوى أو الذين بدل من ضمير الفاعل أو ورد على أن الواو حرف للجمع لا ضمير له قائلين (هل هذا) الرجل المدعى للرسالة (إلا بشر مثلكم) في الصورة والهيكل بما يدهش عقولكم (أَفتأتون السحر) وتعملون بمدلوله (وأنتم تبصرون) صاحبه على مثالكم •

وكل هذه العبارات شاهِدَةٌ على أن الناس انغمروا في الغفلة والجهالة بحيث لم يعترفوا بشيىء من الفضائل والكمالات العلمية والعملية المكسوبة والموهوبة ، وذلك حمق وسفاهة ليس فوقها شيىء • ولما قالوا ذلك دافع الله سبحانه وتعالى عن رسوله وحكى من جهة قدسه ما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في مجابهتهم من أنه (قال) أي الرسول (رَبّي يعلم القول في السماء والأرض) أي أن الله تعالى يعلم كل قول ناشيء من أي قائل في السماء والارض ويعلم سركم وجهركم (وهو السميع) لما يقال سرا كما يقال جهراً (العليم) بجميع المعلومات الخفية والجلية ، وسيعاقبكم في وقته • (بَلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراه بلْ هو شاعر) ولما كان القدح في القرآن الكريم قدحاً فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقول : إنهم أضربوا عن كون الرسول ساحرا يأتي بعمل متقن وعبارات رقيقة تسيطر على الألباب إلى أنه يغمى عليه وتأتيه صور فاسدة مخلوطة من الزين والشين ،

وبعد انتباهه وخلاصه عنه يلقيه الى الناس ، أي بل هو مثل نائم بالليل تأتيه رؤى مخلوطة من المتقابلات المستحيل جمعها .

ولما كانت هذه الدرجة تقدح الكلام لا المتكلم لأن النائم والمغمى عليه ليس عليهما وزر انتقلوا الى أنه كاذب مفترٍ على الله ويتعمد صنع عبارات تدل على أمور أرضية وسماوية وطبيعية وغيبية ويلقيها إلى الناس لخدعهم والغلبة على عقولهم . ولما كان المفتري قد يكون على صورة معقولة واقعية وهم لا يعترفون بأن كلامه معقول واقعي قالوا إنه شاعر ينظم الكلام بحسب المقام، ولا يهمه أن يكون صحيحا مطابقا للأعيان أو فاسدا يروق في البيان ، وقالوا بل هو شاعر ، وإذا كان صادقا في دعوى الرسالة وكلامه كلاما منزلا من الله تعالى فليأتنا بآية كما أرسل بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، أو موسى من العصا واليد البيضاء وغيرهما . ولكنهم عموا عن إبصار الأعيان وغفلوا عن إدراك الحقائق فإنهم يعلمون أن السحر فن من الفنون يحصل بالتعلم بمزاولة أعمال دقيقة عن إتقان وأخذٍ عن أستاذ ماهر ولم يروه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتغيب عن مكة لتعلم ذلك العلم ، ولم يكن في مكة من يعلم ذلك ويعلمه الناس وينشره فلم يكن ساحرا ولا كلامه سحرا ، كما علموا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد يجلس بين الناس ويأتيه الوحي بدون عروض النوم وإرخاء الأعصاب، وعندما يتلوه على الناس فإذا هو كلام يبين حقائق ماضية معلوم اجمالها لأهل التواريخ ، أو حقائق كونية أرضية أو سماوية يعجز عن فهمها الناس ماعدا العلماء الراسخين ، وقد يأتي بأشياء تقع في المستقبل حسب ما ذكره ، وقد يذكر ما يتعلق بجزاء الأعمال في عالم الغيب عالم الآخرة التي يؤمن بوجوده كل عاقل منصف يحسب للأعمال الحسنة والسيئة حسابها ، ووجود جزائها ، فإذا ليس هو براء يرى الطيف المخلوط ، ولا مغمى عليه تأتيه أشياء غير مضبوطة ، وإذا

أمعنوا النظر في القرآن الكريم علموا أن مهمات مافيه هي الدعوة إلى القول بوجود خالق الأرض والسماوات ووحدته وجزاء الأعمال والى صلة الأرحام وصيانة النفوس والأموال والعقول والاحترام وكل ذلك مما يعترف به العاقل الذي لم يكذب ولم يفتر على الواقع .

ويبقى القول بمجيء البعث والنشور وعالم الآخرة وهذا هو الذي جاء به عيسى وموسى وسائر الأنبياء والمرسلين ، فإذا كانت الشبهة من أهل الكتاب فهم مؤمنون به ، وإن كانت من المشركين فليعلموا أنهم قائلون بواجب الوجود ،غير أنهم يدعون وجود الشريك له . وعلى كل تقدير فالقول بوجود الواجب تعالى يوافق ويؤيد وجود عالم الآخرة ويحقق الجزاء فتبين أن ما أتى به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق وليس كلاما مُفترى . وأما دعوى أنه شاعر وكلامه شعر فليعلم المتنبه أنه كلام ساقط لأن الشعر موضوع على تفاعيل وموازين خاصة مباينة لعبارات القرآن الكريم ، وأن الأشعار تُصاغ وتحسن بالأكاذيب والمُفْتعلات والامور اللاغية التابعة للأهواء وكيف ذلك مع قوله تعالى (وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همسا ؟) .

وأما اقتراحهم أن يأتي بآية كما أتى بها الأولون فهو اقتراح جاهل أو متجاهل ، وذلك : لأن المنصف يعلم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بأعجبَ مما أتى به الأولون لأن ما أتى به الأولون كان على نسبته الى الله وخلقه وإيجاده ، ولم يكن لهم عمل فيه ، وأي صنعٍ لموسى في قلب العصا حيةً وتحويل الحية الى العصا ، وأي عمل كان لعيسى في إحياء الموتى لولا إعادة الله الروح إليهم ؟ وأما أعمال الرسول وأخلاقه الخارقة من صدقهِ في السراء والضراء وصبره على البلواء وشكره على النعماء ودوامه في الجهاد ومجاهدة النفس وطاعة القدس وحلمهِ وحكمه وحكمته وشجاعته

وسخائه ... كل ذلك اشياء تنبع من القوة الإنسانية وتعتبر من آثاره ، وهي من أفضل ما يُنسب الى شخص يدعي الرسالة من الله . ثم معجزة الإسراء والمعراج والقرآن الكريم الحاكي عن الغيب والشهادة المتحدي لجميع الفصحاء والبلغاء الى المعارضة مع عجز الكل عنها وماتواتر عنه من سائر الخوارق ... كلها معجزات خارقة ومواهب بارقة . واليهود والنصارى يؤمنون بزعمهم بأنبياء بني اسرائيل ورسالتهم ولم يكن لغير موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ تلك المعجزات ، فيلزم من قولهم إذا كانوا هم القائلين به أن لا يكونوا رسلا ، والمشركون يعترفون برسالة إسماعيل وإبراهيم ولم يتواتر منهم إحياء الأموات ، وأمثال عصا موسى ويده البيضاء . والحق الحقيق بالتصديق أن الرسالة اختيار وهبي من الله الكريم لعبد من عباده متصف بكمال العقل السليم والخلق المستقيم بعثه الله لإرشاد الأنام الى الاعتراف بالخالق ودينه ويوم الجزاء ، وليست المعجزة شرطا أساسيا للرسالة فضلا عن نوع خاص منها ، فاقتراح ما اقترحوه من العناد وقوله (ما آمَنَتْ قبلهم مِنْ قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ؟) أي ما آمَنَتْ قبلهم من أهل قرية أهلكناها باقتراح الآياتِ لما جاءتهم أفهم يؤمنون لو جئت بها وهم أعصى منهم وأشقى . وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بها للترحم عليهم إذ لو جئتهم بها ما آمنوا واستوجبوا عذابَ الإستئصال .

(وَما أَرْسَلنا قَبْلَكَ إلاّ رِجالاً نُوحي إلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ ، وَما كانُوا خالِدِينَ(٨) ثم صَدَقْناهُمُ الوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا

الْمُسْرِفِينَ(٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وأَنْشَأْنَا بَعْدَها قَوْماً آخَرِين ؟(١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بأْسَنا اِذَا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ(١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ(١٣) قالُوا : يا وَيْلَنَا اِنَّا كُنَّا ظَالِمِين(١٤) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْوٰهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِين)(١٥)

قوله تعالى : (وما ارسلنا قبلكَ إلا رِجالاً) جوابٌ لما زعموه مِن أنّ الرسُول لابُد أن يكون ملكاً ، أو إذا كان بشراً وجبَ أن يرسلَ معَ آياتٍ كبرى ملموسة محسوسةٍ كما أرسل بها الأولون • وحاصلهُ أن دعواهم ذلك يعارضها مجيء الرسل الأولين من البشر وقد كان بعض منهم له المعجزات وبعضهم لا فيقول تعالى : (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والمواعظ على حسب مناسبة ظروف الرسالة (فاسئلوا أهل الذكر) والعلم بإرسال الرسل (إن كنتم لا تعلمون) أنتم في حد ذاتكم (وما جعلناهم) أي الرسل (جسداً لا يأكلون الطعام) يعني وما جعلناهم جسداً مستغنيا عن الغذاء وقد كانوا يعتادون النوم والإنتباه، والمرض والشفاء ، والبلاء والجفاء، وسائر مايرِدُ على امثالهم (وماكانوا خالدين) في الدنيا أبداً ودواما ، أو ماكثين مدة كثيرة تتجاوز العادات المستمرة في الدنيا •

(ثم صدقناهم الوعدَ فَأَنجيناهُم ومن نَشاءُ وأهلكنا المُسرفين) يعني ولما بلغ الرسل ما أمروا به عارضهم الكافرون وآذوهم فوعدْناهم بالنصر المبين وإهلاك أعدائهم (وصدقناهم الوعد) ونصرناهم عليهم

(فأنجيناهم) أي الرسلَ (ومنْ نشاء من المؤمنين) بهم (وأهلكنا المسرفين) أي الكافرين المتجاوزين عن الحدود • ثم قال سبحانه وتعالى توبيخاً للكافرين المعرضين عن القرآن (لقد أنزلنا إليكم كتابا) مُوجها للعقلاء إلى الخير في الدارين وموجباً للسعادة الأبدية و (فيه ذكركم) أي ذكركم في التأريخ العالمي بأن ذلك الكتاب منزل بلسانكم ومنزل على نبي منكم تتشرفون بشرفه (أفلا تعقلون) ما في ذلك الكتاب من الفوائد العامة وإعلاء قدركم خاصة (وكم قصمنا من قرية) فيه بيان لإهلاك المسرفين • والقصم الكسرُ بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية • يعني وكم كسرنا ومحوْنا (من قرية) معمورة مغمورة بالرجال والأبطال (كانت) تلك القرية أي أصحابها (ظالمة) بسبب كفرهم بآيات الله ومعاداة الرسل ومعاندة المؤمنين (وأنشأنا بعدها) أي بعد إهلاكها وتدميرها بمن فيها (قوماً آخرين ؟) لن يكونوا منهم أو لم يكونوا على دأبهم (فلما أحسوا) أي أهل القرية الظالمة (بأسنا) وعقابنا (اذا هُمْ منها يركضون) فكم من الاوبئة نزلت عليهم فركض الناس الى الأطراف خوفاً من الإتلاف ؟ وكم من جيوش للأعداء وَرَدت عليهم ففروا وانهزموا الى البلاد ؟ وكم من القحط والغلاء أو الغارة الشعواء ، او السيول الجارفة سالت بهم وفر الباقون الى أماكن قاصية لتحصيل المعيشة والأرزاق ؟ (لا تركضوا) أي فقال لهم الله تعالى بلسان الرسل أو قال لهم الملك كهاتف غيبي أو قال لسانُ حال البلاد المعمورة سابقا لا تركضوا من المحل (وارجعوا الى ما أترفتم فيه) من النعم واللذائذ الموجبة للبطر (و) إلى (مساكنكم) وقصوركم المُشيدة (لعلكم تسئلون) عما جرى عليكم ونزل بأنفسكم وأموالكم فتجيبوا السائلين عن علم وتقولوا كل ماجرى علينا كان من نتائج اعمالنا كما قال تعالى •

(قالوا) جوابا لسؤال الحال بالحال أو قالوا قبل ذلك لما يئسوا من الخلاص (ياويلنا إنا كنا ظالمين • فما زالت تلك دعواهم) أي تلك الجملة (حتى جعلناهم حصيداً خامدين) أي جعلناهم بمنزلة النبات المحصود والنار الخامدة في منع القيام والدوام •

(وَما خَلَقْنا السَّماءَ والأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِين(١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا إِنْ كُنّا فاعِلِينَ(١٧) بَلْ نَقْذِفُ بالْحقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ(١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُون(١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لايَفْتُرُونَ(٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ؟(٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ(٢٢) لا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)(٢٣)

قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) إستئناف للإرشاد وتنبيه لعقلاء العباد على أن هذه الكائنات المرتبة من الأرض الى السماوات ، وما فيهما من النيرات والأمور العجيبة النفيسة من المعادن والحيوانات والنبات ، مع هذه الحركات المتوازنة المتنسقة لا يتغير حال أيّة منطقة منها على ما خلق فيها من الفصول والمواسم ••• أمور وحقائق ثابتة ولها آثار عجيبة ، ولا يليق أن يقال إنها ألعوبة غافل لاه لاعب • فإذا تحقق عند أهل البصيرة قوله تعالى (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما

لاعبين) لأن اللّعب هو الفعل الذي لا يقصد به مقصد" صحيح ، وحاشاه أن يُخلق ذلك كذلك . وفي الوقت عينه إشارة الى الإستدلال على وجود ذاته الواجب بآثاره النافعة الجامعة للنظام يستدل بها المقرون بالحكم والمصالح ، فإن مطلق الأثر يدل على المؤثر ، والأثر البديع على الوجه المتقن المُحكم الذي يُعجِبُ الناظرين من أهل الأبصار والبصائر يَدل على مؤثر عظيم جبار قادر مقتدر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، كما أنه إشارة إلى الاستدلال بهذا العالم البديع على أن إرسال الرسل حقّ يطلبُ مراعاته فإن هذا العالم الواسع بما فيه من الموجودات وبالأخص الإنسان المدني بالطبع المتطور الجاذِب الدافع لا يعيش بدون النظام ، والنظام إذا كان صنعيا فكل قوم يصنعونه على ما ينفعهم ولا ينظرون الى منافع غيرهم ، فلزم أن يكون النظام إلهيّاً جامعا يصلحُ به أمور الناس كلهم وعلى ذلك أرسل الله تعالى الرسل الى العالم بشيرا ونذيرا وأنزل عليهم الكتاب الجامع لسعادتهم في معاشهم ومعادِهم ، فيجب على كل عاقل الإنقياد له ، والسعيد من التزمه وجعله منهجا له لينال السعادة ، والشقي من أنكره وجعل نفسه بحيث تعمل على ما تهواه ، ولو كان أخس عادة .

ثم قال (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) أي لو كان الباري مريداً لاتخاذِ لهوٍ لاتخذه في عالم الغيب بحيث يخصه وما اتخذ صورة عيانية لكم تتفرجون عليه وتقضون به شهواتكم ، أو لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا لأن الملك المسيطر يختص بما يريده لنفسه ، لكن التالي باطل لأن اتخاذ اللهو بمعنى الأمر الذي لا يكون له عاقبة حميدة ممتنع ، فكذا المقدم وهو إرادة اتخاذ اللهو ، فإذاً ليس في العالم وأجزائه إلاّ الأعيان والأعراض المقرونة بالحكم الراسخة . ومنها بعث الرسل وإرشادُ الناس إلى السبلِ وتقرير المصير بالثوابِ والعقاب للكل .

فليس في عالم الإمكان للهو من مكانٍ (بل نقذف بالحق) وهو إرادة التشريع وطلب الطاعة والمعرفة من المكلفين (على الباطل) وهو عمل اللهو واللعب الفارغ عن الخير فيه (فيدمغه) أي فيمحقُ ذلك الحقُّ وهو خلق الكائنات لإطاعة رب الأرض والسماوات ، الباطلَ الذي لم يكن فيه حكمة فيما مضى ولا فيما هو آتٍ (فإذا هُو زاهِقٌ) يعني ولما دمغ الحقُّ الباطلَ فاجأنَا العلم بأن الباطل ذاهبٌ عاطِل . ومن هذا البيان يظهر أن مصير الكفر الى الفناء ومصير الكافرين الى الدمار (ولكم الويل) يا قريشُ (مما تصفون) الله به من اتخاذ الشريك أو الولد ، أو اتخاذ اللهو واللعب إلى الأبد .

ولا يفتقر الباري إليكم ولا إلى غيركم ولا إلى السماوات والارض ومن فيهما (ولهُ من في السماوات والارض) أي مسخر منقاد يعمل فيهم ما يشاءُ (ومن عِنده) من الملائكة (لا يستكبرُون عن عبادته) أي لا يتعظمون عنها (ولا يستحسِرون) أي ولا يتعبون من عبادته . (يسبحونَ الليلَ والنهار) أي في الأوقات كلها (لا يفترون) أي لا يأتيهم الفتور عنها .

وقوله تعالى (أم اتخذوا آلهَةً من الأرض هُم يُنشرون) حكاية لأشد جناياتهم أعني اتخاذ آلِهَة غير الله يعني أبَلْ اتخذوا من آلهة من أجزاء الارض من الحجارة والمعادن والجص هم ينشرون ، حالكونهم هُمُ الذين يبعثون الموتى في يوم القيامة للميزان والحساب وتعيين الثواب والعقاب ؟ وهذا القيد هو الذي يدور عليه التشنيع والتجهيل فإن المواد الجامدة الهامدة لاحسَّ لها ولا شعُور حتى تكونَ لها قدرة ويتوهم منها أنها تبعث الموتى ، ويقول لرد ذلك : (لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لَفسَدتا) أي لو كان فيهما آلهة بصفة الكمال المقتضية لوجوب الوجود والخالقية المقتضية للمعبودية لفسدتا ، أي لم تتكون الأرض والسماوات

من أساس لأنّ هذه الآثار لا يمكن إبداعها وإحداثها من العدم إلا بذات واجب الوجود غير قابل للعجز والمنع ولو كان آلهة موصوفة بتلك الصفات وجب أن يكون من شأنها منع الغير عن آثار غير محبوبة عنده فيلزم جواز منع هذا لذاك وذاك لهذا وإمكان المنع لأي إله يوجب أن لا يكون واجب الوجود فلم يكن شيء منهما إلهاً واجب الوجود فلم يحدث العالم ولم تتكون السماوات والأرض لكن التالي باطل لتكونهما مشاهدة وعيانا فالمقدم وهو تعدد الآلهة بتلك الصفة باطل» ، وهذا هو حقيقة معنى الآية الكريمة فتكون دليلا قطعيا على امتناع تعدد الآلهة الموصوفة بوجوب الوجود .

وأما حملُ الآية الكريمة على معنى أنه لو كان فيهما آلهة لعارضَ كلٌ الآخر وتنازعا باقتضاء هذا لحركةِ الشيء المعهودِ والآخر لسكونه حتى تمنعَ الملازمة بسندِ جواز توافقهما على شيء معين ويحتاجَ إلى إثبات الملازمة ببنائها على الغالب من التعارض بين المشركين فليس بشيء يعتمد عليه في امثال هذا المقام المهم . نعم يجوز اعتباره على أن يكون دليلا خطابيا لا غيرُ .

ولما ثبتت نظافة ساحة التوحيد عن توسخها باعتبار الشريك قال تعالى : (فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون) أي أنزه غاية التنزيه الذاتَ الموجودَ المعلم باسم الجلالة (ألله) المنعوت بربوبيته للعرش المحيط بعالم الإمكان عما يزعمون من إسناد الشريك إليه . وفي نعته برب العرش إشارة إلى استدلال آخر على وحدته بأن الله رب العرش الذي لا يصلُ العقلاءُ الى وصفه كمال الوصف ، فكيف يمكن أن يكون له شريك في ربوبيته لذلك ؟ ولما انفرد الخالق المعبود بوحدة الذات ووحدة ذاته تقتضي امتيازه بصفات لا يمكن أن توجد في غيره تبين أنه الكامل المطلق ، وسبحان

الله الكامل المطلق أن يعمل شيئا فاسدا خارجا عن الحكمة ولذلك (لا يسئل عما يفعل) على وجه النقد والاعتراض لأن أعماله مصونة عن العيب ولا يسأل عن سر خلقه لشيء وحكمته لأن آثار الذات الأزلي الأبدي لا تتناهى ولا تسع علم أي عالم أسرار خلقه وخليقته ولا يستوعبها ، وإنما يظهر بعض الحكم على بعض عباده إذا شاء (وهم يسئلون) أي ومن عداه من المكلفين يسألون عن لمية أعمالهم الإكتسابية وكيفيتها ، لأنهم ناقصون ذاتاً بالإمكان والحدوث ، وصفة بثبوتها لذلك الموصوف ، وعملاً لمقارنته للقصد المؤف • فإن أعمالهم ناشئة عن قدرة تابعة لإرادة ترجح جانباً على جانب لأغراض نفسية وعوارض شخصية وتلك لا تخلو عن العيوب قطعا •

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُم هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحي إِلَيْهِ أَنَّه لا إِلهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ ! بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ(٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى وهمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مشفِقُونَ(٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجزي الظّالِمينَ(٢٩)

قوله تعالى : (أمِ اتخذوا من دونه آلهةً) إضراب وانتقال من بيان بطلان كون ما اتخذوه آلهةً الى الاستدلال على ذلك ببيان خلوها عن

خصائص الألوهية ، وهي ظهور آثارها الثابتة الدالة على ألوهيتها فيقـول لحبيبه ـ عليه السلام ـ : (قل) لهؤلاء المتخذين من دون الله آلهةً (هاتوا برهانكم) على ما تدعونه من اتخاذ الآلهة (هذا ذِكْرُ مَنْ معي وذكر من قبلي) أي هذا الذي تلوته عليكم من أدلة توحيده تعالى واتصافه بالكمال المطلق ذكـرٌ ودليـلٌ لمـن معـي مـن أمتـي ، وذكـر ودليل لمـن قبلـي مـن أمـم الرسـل السـابقين ، فأتـوا أيضـا بدليـل سـليم يـدل على اتخـاذ الشركاء (بـل أكثرهم لا يعلمون الحـق) إضرابٌ عن طلب الدليل منهم على دعواهم الى أنه لا ينبغي أن يتكلم معهم لأن أكثرهم لا يعلمون الحق ولا يميزونه عن الباطل ، وأقلهم مغمور بينهم وأذلّ ، ولا مجال له حتى يظهر في ميدان سماع الحوار (فهم معرضون) مستمرون على الإعراض عن الحق وسماع أدلة التوحيـد .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول) الى بني إسرائيل أو غيرهم (إلاّ نوحي إليه) أي الى ذلك الرسول (أنه لا إله الا أنا فاعبدوني) وخصوني بالعبادة (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) استئناف لبيان نوع آخر من خرافاتهم وهو أن لله الرحمن الرحيم ولداً فقالت بَطْنٌ مِن خزاعة : الملائكة بنـات الله ، واليهودُ :عزيرُ ابن الله ، والنصارى المسيحُ ابن الله ... (سبحانه) وتعالى عن اتخاذه للولد بأي وجهٍ لا من الملائكة ولا من الرسل ولا مـن غيرهم ، لأن التناسل فرع الاحتيـاج الى حفظ النـوع وهو تعالى أزلـي وأبدي وحي بذاته وقيوم لخليقته من أرضه وسماواته وغيرهما (بل عبادٌ مكرمون) أي مُكرمُون عند الله باختيار الملائكة للعبادة والطاعة المستمرة وعزير والمسيح بالإصطفاء والرسالة لتبليغ أوامره الى عباده (لا يسبقونه بالقول) أي لا يتقدمون على الله بكلام ، وهذه كناية عـن أنهـم لا يقولون

شيئا حتى يقوله تعالى (وهم بأمره) تعالى (يعملون) لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) ويراقبهم في كافة سرهم وجهرهم ولا يجول في خاطر أي واحدٍ منهم الا ما يرضى به تعالى (ولا يشفعون) يوم القيامة (إلا لمن ارتضى) من المؤمنين الذين يستحقون الشفاعة لغفران الذنوب أو الإخراج من العذاب ، أو لرفع الدرجات ، وشفاعتهم ممنوعة عن الكافرين (وهم من خشيته مشفقون) أي وهم بسبب مخافتهم المستمرة من هيبة الله وعظمته مرتعدون خائفون غاية الخوف ومضطربون غاية الإضطراب (ومن يقل منهم) أي من الملائكة وغيرهم إني إله من دونه تعالى (فذلك نجزيه جهنم) كسائر المجرمين (كذلك نجزي الظالمين) بإسناد ما لا يليق بهم الى انفسهم .

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ؟(٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٣٣)

قوله تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتْقاً ففتقناهما ؟) يعني لم لا يستدل الكفار الملحدون حسب ما يسمعونه من كتب الحكماء السابقين والاحقين بسيطرتنا على العالم على وحدتنا وكمالنا الذاتية

والوصفية والفعلية؟ ألم يعلموا بأنفسهم أو بحسب الإستفادة من الغير أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة في بدء الخليقة ففتقناهما وميزنا بعضهما عن بعض وجعلنا بعضها أرضا واقعة في جو خاص ومحل معين وجعلنا بعضها سماءً أعلى منها • أو ألم يعلموا أن السماوات كانت واحدة فجعلناها سبع سماوات طباقا ؟ والارض كانت قطعة واحدة فقسمناها الى سبعة أقسام من الارض القشرية والترابية وغيرها • أو ألم يعلموا أن السماوات والارض كانتا في ذاتيهما ملتحمتين يابستين لا يحصل منهما شيىء ففتقناهما وجعلنا السماء ممطرة والارض منبتة أي رتبنا أمورهما ، وجعلنا طبقات السماوات الأثيرية بعضها فوق بعض وميزنا الأرض الى مواد معدنية وغيرها والى جبال شاهقة وأراضٍ نافعةٍ واسعة وعيون نابعة وأنهار جارية (وجعلنا) أي وخلقنا (من الماء كل شيىء حي) أي كل جسم نام حساس متحرك بالإرادة كثيفة الخلقة • أو خلقنا من الماء كل نام يزيد في الأقطار فيشمل النباتات ولا يشمل الملائكة والجن مطلقا لأنها ليست مركبات مادية كثيفة • ويقرب من هذه الآية الشريفة قوله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء) ووجه كون الماءِ مبدأ ومادة للحيوان أو الدواب أنه أعظمُ مواده وكثرة إحتياجه إليه فإن الحي لا يعيش بدون رطوبة في بدنه ودمٍ في عروقه • وقال جماعة المراد بالماء النطفة سواء دخلت في الرحم كما في الحيوان الوَلُودِ أو في البيض كما في الحيوانات البائضة (أَفلا يؤمِنون ؟) بذلك المالك الحي القادر العليم الذي خلقَ الكائِناتِ من الارض والسماوات ورتبها بما يفيدُ البريات •

(وجعلنا) أي وخلقنا (في الأرض رواسي) جمع راسية بمعنى ثابتة أي جبالا ثوابت مغروزة في الارض لفوائد جليلة منها حفظ الارض (أن تميد بهم) أي تميل وتضطرب بهم في حركاتها اليومية والسنوية لأن الكرة

المتحركة اذا لم تتعادل أجزاؤها لم تتناسق حركتها فلها اقتضاء سرعة من الجانب الخفيف وبطء من الجانب الثقيل . ولما تعادلت بغرز الجبال فيها على وجه مُنسق كما قرره الباري تعالى اعتدلت حركتها (وجعلنا فيها) أي في الأرض (فجاجا) جمع فج وهو شقة يكتنفها جبلان . وقال الزجاج : كل مخترق بين جبلين فهو فج . وقال بعضهم : هو مطلق المعبر الواسع سواء كان بين جبلين أم لا ، وقوله (سُبُلا) جمع سبيل بدل من الفجاج لأنها موسعة للسابلة (لعلهم يهتدون) الى الاستدلال بهذه الآثار على وحدة القادر المختار ، أو لعلهم يهتدون بالسبل الى السير الى مقاصدهم .

(وجعلنا السماءَ سَقفاً) للأرض وأهلها (محفوظاً) عن البلى والتغير والإنفطار والسقوط الى المركز حتى يأتي زمان انفطارها ، أو محفوظا عن النفوذ فيها والخروج عنها الا بسلطان منا ، أو عن الشياطين واستراق السمع . وهذا مقيد بعصر الرسالة الخاتمة (وهم عن آياتها) الدالة على عظمة رافعها وحافظها ، أو عن كشف آياتها المودعة فيها كالكواكب والقمر والشمس (معرضون) ذاهلون غافلون لا يستدلون بها، أو معرضون عن السعي في كشفها باقتناء العلوم الفلكية (وهو الذي خلقَ الليلَ والنهار والشمسَ والقمر) أي وهو الذي خلق ستار الظلمة على نصف الكرة بمجيىء وقت غروب الشمس إلى طلوعها ، وخلق أنوار النهار على سطحها بطلوعها الى وقت الغروب وخلقَ الشمس لإفادة الأنوار في سطح الارض حتى تحصل الظلمة في السطح المقابل والقمر لخلق الأضواء إذا جاء الستارُ وقت الميل (كل) منهما (في فلك) ومدار خاصٍ (يسبحون) يستمرون في السباحة .

ففلك القمر ومداره قريب من الارض حتى يقال اليوم إنه من توابع كرة الارض . وفلك الشمس في مدار أعلى بما لا يعلمه إلا الله والسّباحة تشعر بأن السماء أثير صافٍ قابل للخرق والذهاب والإياب والطلوع

والغروب . وما اشتهر من امتناع الخرق والإلتئام كلمات" لاكتها العقول المُبتلاةُ بالأوهام ، وصيغة الجمع ملاحظة" للكل وعلامة الجمع لتنزيلهما في هذا العمل العجيب منزلة العقلاء . ثم الظاهر من الآية الكريمة هو أن كُلاًّ من الشمس والقمر يجري في فلكه ويتحرك في ملكه وهذا بالنسبة الى القمر مسلم معلوم وأما بالنسبة الى الشمس فقد قيل انه مجاز من نسبة صفة المراقب المجاور الىمجاوره يعني أن الارض هيالتي تتحرك ولكن الواقف عليها يعتقد أن الشمس هي المتحركة ، وإلا فالشمس ثابتة في محلها كمركز لحركات دوائر المجموعة الشمسية وهي باقية في الوضع . نعم إنه قد اشتهر في العصر الأخير أن الشمس تتحرك بمجموعتها في فضاء العالم الواسع الى ما شاء الله تعالى ، وذلك عائد الى علم العليم الخبير ، وعليه اعتقادي فإن الخالق هو العالم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) .

(وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ ؟(٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ، وَنَبلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ(٣٥) وإذا رَآكَ الَّذينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إلاّ هُزُواً أَهذا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُم ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمن هُمْ كافِرُونَ(٣٦) خُلِقَ الإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي ، فلا تستعجلون(٣٧) وَيَقُولُونَ : مَتى هذا الْوَعْدُ اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وجُوهِهِمُ النَّارَ ، وَلا عَنْ ظُهورِهِمْ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ

بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ)(٤١)

قوله تعالى : (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) نزلَ لما قال الكفار نتربص به ريبَ المنونِ ، أي أنه بَعْدَ مدة يموت ودينه يفوت ونخلص من بث فكرة التوحيد . فقال سبحانه وتعالى : وما جعلنا لبشرٍ من قبلك كائناً من كانَ الخلود والدوامَ والبقاء مادامت الدنيا باقية ، بل لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب" فكما أنك تموت فهم يموتون فاسألهم أفهم الخالدون دونك ؟ كلاّ لا خلود لأحمد ولا لمحمود ولا لشقي ولا مسعود . وبموتِ الشخص اذا كان سائرا على الحق وناشرا للحق لا يموت دينه وديدَنه . وهكذا كان الزمان وكذلك يكون فلا ينفع أهلَ الضلال موتُ أهل الهدى وهم بعدهم أو قبلهم يموتون (كل نفسٍ ذائقة الموْتِ) المر على مذاق الطبع الحيواني (ونبلوكم بالشر والخير) أي بالمكروه والمحبوب هل يشكرون على الثاني ويصبرون على الاول ؟ (فتنة) أي إبتلاء ، فهو مصدر مؤكد لما قبله (وإلينا ترْجعون) لا الى غيرنا ونحن نعلم بأحوالهم عند الإبتلاء وعلينا الجزاء وإلينا المصير .

(وإذا رآك الذين كفروا) أي المشركون (إن يتخذونك إلاّ هزوا) أي محل هزء أي مهزوء به قائلا على وجه التهكم : (أهذا الذي يذكر الهتكم ؟) بسوء ويرفض عبادتهم (وهُم بذكر الرحمن) الذي شملت رحمته كل شيء (هُم كافرون) فانظر إلى سوء شعورهم يهزأون بالنور ويعززون الخشب الموزور ! وقوله (خلق الإنسان من عجل) نزل لبيان استعمال الكفار المستحقرين لمواعيد الرسول بالعقاب والعذاب والمستعجلين له على أساس إنكارهم له فقال خلق الأنسان أي هذا! النوع بأسره من عجل أي من طبيعة غالب صفاته الغريزية الاستعجال لما يهواه ، وبما أنه غالب" فيه فكأنه

خلق منه ، وإن كان العرض محتاجا للجوهر ولا ينشأ الجوهر منه (سأريكم آياتي) أي سأجعلكم ممن يرون بأمّ العيون صنوف عذابي من القتل والفتك والهتك والحقارة والخسارة في الدنيا والعذاب والعقاب في الآخرة (فلا تستعجلون) .

(ويقولون) أي أولئك المستعجلون : (متى هذا الوعد) أي متى وقت وقوع الساعة الموعود بها (إن كنتم) أيها الرسول وأتباعه (صادقين ؟) في مجيئه وحلوله فأجابهم الله تعالى بما يتحقق فيه مما يدهش العقول وقال (لو يعلم الذين كفروا) أي شدة عذابهم و حدة النار عليهم (حين) يقعون فيها و (لا يكفّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم) عند إحاطتها بجوانبهم (ولا هم ينصرون) من غيرهم حتى تبعد عنهم لعلموا شيئا هو أشد الأشياء عليهم هو°لا (بل تأتيهم) أي الساعة (بغتة) أي فجأةً مفعول مطلق لتأتيهم على غير لفظه ، أو مصدر في موضع الحال أي مباغتة لهم فتبهتهم ، أي فتجعلهم في بهت ودهش وتحير (فلا يستطيعون ردها) أي رد الساعة التي فاجأتهم (ولا هم ينظرون) أي يمهلون ليستريحوا أقلَّ وقتٍ وزمان . (ولَقد استهزِئَ برسلٍ من قبلك) من آبائِك وأعمامِك شرفاء كُرماءَ عند الله فصبروا على أذى الإستهتار واستهزاء الكافرين بهم فنجوا من كل مكروه ونالوا عند الله كل محبوب ، ووصلوا الى كل مطلوب مرغوب (فحاق بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل (ما كانوا به يستهزؤن) من وجوه الحقارة والنذالة والبذاءة التي استعملوها مع أولئك الرُّسُل المكرمين .

(قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ(٤٢) امْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِم وَلا هُمْ

مِنّا يُصْحَبُونَ(٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وآباءَهُمْ حَتّى طالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، أفَلا يَرَوْنَ أنّا نأتي الأرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أطْرافِها ؟ أفَهُمُ الغالِبُونَ ؟(٤٤) قل : إنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالوَحْيِ ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إذا ما يُنْذَرُونَ(٤٥) ولَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يا وَيْلَنا إنّا كُنّا ظالِمِينَ !(٤٦) ونَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها ، وكَفَى بِنا حاسِبِينَ)(٤٧)

قوله تعالى : (قُل مَن يكلؤكم بالليل والنهار منَ الرحمن ؟) أمرٌ من الله لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم أن يقولَ لهؤلاء المستهزئين : كيفَ تتجاسرون على الله وهو الحافظ لجميع العالم ؟ وإلا فقولوا لي (مَنْ يكلؤكم) أي من الذي يحفظكم (بالليل والنهار) الطرفين لكل نائبة وحادثة (من الرحمن) أي بأسه الشديد بالنار أو الحديد ، أو من كلّ بلاء جديد • ولا شك أنّ المجيب المؤمن يقولُ : ألله هو الحافظ للمخلوق من باسٍ يأتي من الخالق ، وإذا كانت من لابتداء الظهور وجب أن يُجابَ بأن الحافظ للإنسان هو ملائكة الرحمن ، فقد قال تعالى : (له مُعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) • (بل هم عن ذكر ربهم مُعرضونَ) أي أعرض عن سؤالهم عمن يحفظهم من بأس الله ، فإنهم أناس مُعرضون عن ذكر ربهم ، ولا يجيبون بما فيه إسناد العمل إليه أبداً •

(أم لهم ألهة تمنعهم من دوننا ؟) إعراض عن وصفهم بالإعراض عن الله تعالى إلى بيان اعتمادهم على غيره تعالى من آلهة مفتعلة مصنوعة من أحجار وأخشاب ، ويعتقدون أن مولاهم وناصرهم آلهة تمنعهم عن كل

ضارّ من دوننا ، أي من غيره تعالى ولا يسندون ذلك العمل إلى الله قطعاً . ولكنهم أخطأوا في ذلك فإنهم (لا يستطيعون نصر أنفسهم) إذا أراد شخص أن يكسرهم ، (ولا هم منا يصحبون) أي ولا هم يصحبون ويؤيدون بناصرٍ ينصرهم ويدافع عنهم (بل متعنا هؤلاء وآباءَهُم حتى طالَ عليهم العمرُ) إضرابٌ عن إلقاء النوع السابق من الكلام إلى وعيدهم بأنهم يستحقون أشد العذاب لأنا متعنا هؤلاء وآباءهم بالملذات والمشتهيات في سنين طويلة حتى طال عليهم العمر وبقوا منطبعين بما هم فيه ويعلمون أن العاقبة لهم ومن عداهم كزبدٍ ما له أمد .

(أفلا يرونَ أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟) فنحولها الى ديار المسلمين بعدَ أن كانت من ديار الكافرين ، وجعلنا المسلمين غالبين عليهم بحيث لم تبق لهم شأفة وشوكة (أفهُم الغالبون ؟) على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين بعد مشاهدتهم ذلك . وقيل في معنى الآية : أفلا يرون أنا نقتدر على كل تصرف في الأرض والسماوات ونأتى الأرض ننقص من مادتها الترابية ونقشرُها من كلِ جانب كما ننقص من كرة سائر الكواكب الى القمر والشمس كذلك . فما دام أنّ لنا قدرةً كذلك وأردنا أن نأتي بدين الإسلام فلا شك في تحقق ما أردنا من إعزازه وإعزازِ الرسول المبعوث به أفهم الغالبون على ذلك الرسول الجليل بعد كل ذلك ؟ كلاّ ثم كلاّ .

(قل : إنما أنذركم بالوحي) أي أنذركم من جانبه تعالى على الوحي الصادق بما تستعجلون به من الساعة وعذابها وليس الإتيان به من شأني (ولا يسمعُ الصمُّ الدعاء اذا ما ينذرون) ولكن لا يسمع الناس المبتلون بآفة في السمع دعوة الرسول لهم الى الحق إذا هم ينذرون ، أي إذا أتاهم بالإنذار والمراد لا يسمعون كلامه سماع إجابة ، ومعَ ذلك فهم أناس ضِعاف

لا يقاومون أية مصيبة تأتيهم (ولئن مستهم نفحة" من عذاب ربك) أي والله إن أصابهم شيىء قليل من آثار عذاب الله الوارد عليهم (ليقولن) متحسرين متأسفين متندمين عما كانوا عليه : (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أنفسنا بإبائنا عن سماع كلام الله وكلام رسوله الأمين (ونضعُ الموازين القسط) أي ونضع الموازين العادلة التي توزنُ بها صحائف الاعمال (ليوم القيامة) أي فيه فلا تظلم نفس أية نفس كانت شيئا من الظلم أيّاً كان (وإن كان) الوزن (مثقال حبةٍ من خردل) أي مقدار حبة كائنة من نبات خردل وهي في غاية الصغر (اتينا بها) أي جئنا بها للحساب حتى لا تضيعَ (وكفى بنا حاسبين) للدقائق في الأعمال ، فإنه لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين •

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وضِياءً وَذِكْرى لِلمتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشفِقُون(٤٩) وَهَذا ذِكْر" مُبارَك" أَنْزَلْناهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ منكِرُونَ ؟(٥٠) وَلَقَدْ آتَيْنا إبْراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكُنَّا بِهِ عالِمِين(٥١) اِذْ قالَ لأَبِيهِ وقَومِهِ : ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتي أَنْتُم لَها عاكِفُونَ ؟(٥٢) قالُوا : وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ(٥٣) قال : لَقَدْ كُنْتُم أَنْتُم وَآباؤكم في ضَلالٍ مُبِينٍ(٥٤) قالُوا : أَجِئْتَنا بِالحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ؟(٥٥) قالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرْضِ الَّذي فَطَرَهُنَّ ، وأَنا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٥٦) وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ(٥٧) فجَعَلَهُمْ جُذاذاً ، اِلاَّ كَبيراً لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجِعُونَ)(٥٨)

قوله تعالى : (ولقد اتينا موسى وهارون الفرقان) تفصيلٌ لما أجمل في قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) أي والله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستفاد منه للخروج من ظلمات الجهل والضلال (وذكراً للمتقين) أي الذين يريدون تقوى اللهِ وطاعته (الذين يخشونَ ربَّهُمْ بالغيب) أي يخافون ربهم والحال أنه غائب عنهم لقوة الإيمان ، أو يخشون ربهم في وقت الغيب عن الناس فلا يباشرون الذنوب والآثام (وهم من) لقاء (الساعة) وهولها وما يلقونه بعدها من الحشر والحساب والميزان والنار (مُشفِقون) خائفون بالاستمرار • (وهذا) القرآن الكريم (ذكرٌ) يتذكر به من تذكر (مبارك) كثير البركة والخير من نفحات رحمة المتكلم به ، فإن الكلام صفته (أنزلناه إليك لتنذرَ بهِ امّ القُرى ومن حولها) الى نهاية أقطارِ الكرة (أَفأنتم لهُ منكرون ؟) أي منكرون أنه أُنزل من الله على رسوله ، أو أنه منزل ولكن ليس فيه خير وبركة • كلاّ فإنه يعلم ما فيه من البركة كلّ من في قلبه حركة ، فقد سمعناه وأثار في القلوب نور الرحمن ، وأنار القلوب بنور الإذعان والإيمان ، ووجدْنا مِن قراءته علينا في بعض الأحيان فَوْحاتٍ تُعطر الصدور بالروح والريحان •

(ولقد آتينا إبراهيم رشده) أي الرشد المناسب له لمقاومته أعظم عاتٍ متكبر في الزمان (من قبلُ) أي قبل موسى وهارون (إذ قال لأبيه وقومه) على سبيل النصح والإرشاد وإرخاء العنان : (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟) أي ما حقيقتها ؟ أهي هياكل موجودة في ذاتها ؟ أم تماثيل ركبتموها من أجزاء متباينة ؟ فهل تستحق أن تعبدَ ؟ او ما وجهُ عبادتكم لهذه التماثيل التي أنتم لأجل عبادتها عاكفون ومقيمون وملازمون لأداء شعار العبادة ؟ (قالوا : وجدنا آباءَنا لها عابدين) أي ما ندري

حقيقتها بالذات ، ولكن وجدنا آباءنا عابدين لها ونحنُ ملازمون لعبادتها تقليداً لهم ، أو لا وجه مكشوفا عندنا إلا تقليد آبائنا ، ونزعم أنهم مصيبون • (قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الأئمة في تلك العبادة (في ضلال مبين) واضحٍ بديهي لا يحتاج الى الدليل لأن العبادة للجمادات ضلال لا ضلال فوقه (قالوا) عندما سمعوا كلامه تعجبا من تضليله ـ عليه السلام ـ لهم ولآبائهم : (أَجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟) أي أجئتنا بكلام ناشيء من الجد والقصدِ أم انه من اللاعبين الهازلين ؟ فلم يريدوا بالحق ما هو المطابق للواقع ؛ لأن حقية عبادة الأصنام لم يقبل الترديد عندهم ولو فرضا ، بل أرادوا أن هذا الكلام الباطل الذي جئتَ به تكلمت به عمدا وجِدا أم لهواً ولعبا (قال : بل ربكم ربّ السماوات والارض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين) أي اعرضوا عن هذه الترديدات والإعتبارات اللاغية فاني أتيتكم بكلام حق ناشيء عن علم وعمد وقصد وبيان لنوع الانسان منكم ومن غيركم و (ربكم ربّ السماواتِ والأرض الذي فطرهنّ) وخلقهن بما فيهن وعليهن وما بينهن من العدم وأخرجهن الى الوجود (وأنا على ذلكم) الكلامِ الحق (من الشاهدين) في الدنيا والآخرة • ولم يكتف بذلك بل هددهم مؤكدا بالقسم، وقال : (وتالله لأكيدن أصنامكم) أي لأحاولن وأسعين في كسر أصنامكم بما يمكن لي من الإستطاعة بعد ان تولوا وتستدبروا عن عبادتها الى مراسم عيدكم الرسمي مدبرين عنها ، فلما انفض الجمع وولوا الى عيدهم أتى إبراهيم ـ عليه السلام ـ الى الاصنام فجعلهم جذاذا أي قطعاً متفرقة (إلا كبيراً لهم) أي للأصنام (لعلهم إليه يرجعون) أي لعل القوم العابدين لها يرجعون الى ذلك عند المناقشة معه ـ عليه السلام ـ •

(قالُوا : مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا ؟ إِنَّهُ لَمِنَ الظّالِمِينَ (٥٩) قالُوا : سَمِعْنا فَتىً يَذْكُرُهُمْ ، يُقالُ لَهُ : إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النّاسِ ، لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ ؟!(٦٢) قالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذا ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ ، فَقالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ؛ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟!)(٦٧)

قوله تعالى : (قالوا : من فعل هذا بآلهتنا) أي قالوا حين رجعوا من عيدهم ، وزاروا معبدهم ، ورأو ما رأوا من كسر الأصنام غير كبيرهم (من فعل هذا) العمل المخزي (بآلهتنا) ولما لم يسمعوا الجواب قالوا : (إنه) أي المباشر لهذا العمل العظيم (لمن الظالمين) المعدودين من جملة الظلمة على أنفسهم بالتعريض لها لأشد العقوبات المحتملة في الدنيا ، ولما فتشوا عن المباشر هنا وهناك وجدوا أُناسا (قالوا : سمعنا فتى) أي شابا (يذكرهم) أي الآلهة بسوء ويعيبهم (يُقالُ له إبراهيمُ • قالوا) أي عِلْيَةُ القوم الذين سألوا أول مرة عن المباشر : (فأتوا به) أيها الناس السامعون لذلك الفتى الذي يذكرهم (على أعينِ الناس لعلهم يشهدون) أي لعل السامعين لكلامه يشهدون بفعله كما شهدوا بسماعهم لكلامه ، أو يجدوا أناسا آخرين علموا بعمله فيشهدوا عليه ، فذهبوا وفتشوا عنه حتى وجدوه ، وأتوا بهِ الى الجماعة (فقالوا) أي المستنطقون منهم : (أأنتَ

فعلت هذا) العمل المخزي (بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قالَ : بل فَعله كبيرهم) أي كبير الأصنام (هذا) الباقي على حاله (فاسألوهم) أي الأصنام المكسورين وقوله (إن كانوا ينطقون) أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا ببيان الفاعل المباشر للعمل شرط" وقوله السابق (فعله كبيرهم) جزاء مقدم • وقوله فاسألوهم جملة معترضة حتى لا يرد لزوم الكذب عليه ــ عليه السلام ــ إن كان كلامه مبنيا على الحقيقة • وأما اذا كان مبنيا على التجوز لأن كبيرهم هو الذي تسبب في استنكاره ــ عليه السلام ــ لعبادتهم فإنهم كانوا يعظمونه تعظيما بليغا ، فلا يكون هناك كذب" ولا حاجة الى تأويل الآية الشريفة أي القول بربط (بل فعله كبيرهم) بقوله إن كانوا ينطقون • فإن كبيرهم كان سببا لإغاظة إبراهيم ــ عليه السلام ــ حتى فعل بهم ما فعل ، وأسند الفعل الى السبب نحو هزم الأمير الجند وذلك شائع ذائع •

(فرجعوا) أي علية القوم (الى أنفسهم) وشاوروا عقولهم وعلموا أن قول إبراهيم حق (فقالوا) أي بعضهم لبعض : (إنكم أنتم الظالمون) بعبادة من لا يضر ولا ينفع ، أو بالمناقشة مع من تعلمون ان كلامه حق ، لا إبراهيم في اعتراضه عليكم • (ثم نكسُوا على رُؤُسِهِم) أي قلبوا من جانب النفس الأمارة ، والشياطين المكارة والتقاليد الباطلة الجبارة ، و (قال) بعضهم له ــ عليه السلام (لقد علمت) يا إبراهيم بلا شبهة (ما هؤلاءِ ينطقون) وأن عبادتنا لهم ليست ناشئة من نطقهم ، وبيانهم بل لاحترامٍ وتقديس تقليدي لأعيانِهِم فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ (قال إبراهيمْ) هب أنهم لا ينطقون ، وأن عبادتكم لهم ليس على أساس النطق والبيان ، لكن ألا تشعرون بأن العبادة لا تليق إلا بذات كامل الصفات يتصرف في الكائنات ، ومعلوم أن أصنامكم ليسوا كذلك (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم

شيئاً ولا يضركم ؟) إذ ليس لهم أيّ قدرةٍ وتصرف في عالم الوجود ، (أُف لكم ولما تعبدون من دون الله ! أفلا تعقلون ؟!) قبح صنعكم ذلك .

(قالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلعالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً ، وكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْناهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ، وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣) ولُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً ونَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الخَبائِثَ ، إِنَّهُم كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، فَنَجَّيْناهُ وأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ العَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنا ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ، فَأَغْرَقْناهُم أَجْمَعِين) (٧٧)

قوله تعالى : (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) معناه : إنه لما عجزوا عن معارضته ـ عليه السلام ـ بالكلام لجأوا الى طريق العناد والتعذيب والإيلام ، فإن ذلك دأب المستكبرين و (قالوا) لأتباعهم المطيعين : (حرقوه) حتى لا يبقى منه أثر ويذهب رماده أدراج الرياح (وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) أي إن كنتم فاعلين شيئا ما فحرقوه وانصروا آلهتكم، أو إن كنتم فاعلين ما به تنتصرون فحرقوه فجمعوا الوقود

وأشعلوا فيه النار ورموا إبراهيم فيها ولكن منعناها من الإضرار به وإحراقه و (قلنا : يانار كوني برداً وسلاماً) أي ذات بردٍ وسلامة (على) جسد (إبراهيم) أي تحولي من صفتك اللازمة الى غيرها، أو ابقي كما كنت ولكن لا تضري إبراهيم ولا تحرقيه . والأول مبني على جواز إنفكاك لازم الذات عنها ، والثاني مبني على امتناعه وجواز خلق المعارض في المقابل حتى لا يتأثر (وأرادوا به كيداً) أي أراد عبادُ الأصنام كيدا بإبراهيم بأن يحتالوا عليه ويمحوه (فجعلناهم الأخسرين) أي أخسر من كل خاسر حيث خسروا المصاريف والمتاعب التي ارتكبوها لإحراقه ولم تفدهم شيئا وعادت كأن لم تكن ، وخسروا السمعة حيث اشتهر في العالم أن إبراهيم غلبهم من بكرة أبيهم ، وخسروا دينهم لأن بقاء إبراهيم صار حجة قاطعة على أن دين إبراهيم حق وأن التصرف بيد مالك الملك وملك الملوك ، وأن ديدنهم عاطل باطل ما فيه طائل ، وخسروا الإهتداء بهذا الرسول الرشيد لأن كلامه كان موجبا للإنتباه فصار عندهم مزيداً للاشتباه ووقعوا في ما وقعوا فيه ، واستحقوا عذاب جهنم وذلك مثوى الظالمين .

(ونجيناه) أي إبراهيم (ولوطا) وهو ابن أخيه (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) يريد أنه بعدَ أن أنجيناه من النار هيأنا له وسيلة التهجير حتى لا يبقى مُلاماً معاتبا بين قومه المشركين ونجيناه من مجاورتهم ، ونجينا لوطا معه لأنه من آلهِ إلى الارض أي الشام التي باركنا فيها للعاملين ، خلقنا البركة المادية والمعنوية فيها لأهل العالم ، أما البركة المادية فبكثرة المياه والأراضي الزراعية ، وطيب المناخ ، ووقوعها في محل مناسب للتجارة وصيد الأسماك وغيرها . وأما البركة المعنوية فبجعلها مركزا للعبادة والتوحيد وبناء أولى القبلتين فيها ، وجعلها منتهى للإسراءِ ومبدأ للمعراج .

وروي أنه ـ عليه السلام ـ خرج من العراق ومعه لوط وسارة بنت عمه هاران الأكبر ، فنزل أرض حران فمكث بها ما شاء الله تعالى ثم انتقل مسافراً الى مصر ، ثم رجع منها الى الشام ، فنزل السبع من أرض فلسطين، ونزل لوط بالمؤتفكة على مسيرة يوم وليلة من السبع أو أقرب ، وسكن هناك . ولما زار مصر وهبه ملكها جارية اسمها هاجر وأتى بها معه (ووهبنا له إسحق) من زوجته سارة (ويعقوب نافلة) أي زائدة على الولد وهو ابن إسحق (وكلا) من الأربعة المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للعمل الصالح في الدين والدنيا فرضي الله والناس المنصفون عنهم (وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا) أي وجعلناهم أئمة للناس الطالبين للهدى ويهدون الناس إلى الإيمان بالله ورسله وشرائعه بأمرنا ووحينا (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) من الأعمال النافعة لهم وللناس لإتمام الكمال الإنساني بإضافة العمل إلى العلم (وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) لأهلها بحسب ما شرعناه إذ ذاك (وكانوا لنا) لا لغيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم إلا امتثال أمرنا .

(ولوطا) منصوب بمضمر يفسره قوله (آتيناه) أي وآتينا لوطا (حكما) أي نبوة ورسالة وهي وسيلة الحكم في الأمة بالشريعة أو الفصل بين الخصوم في القضاء (وعلما) بما ينبغي علمه للأنبياء (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) أي الاعمال الخبيثة من اللواطة والمكيدة على الأبرياء والإستهتار بأهل المروة والحياء (إنهم كانوا قوم سوء) أي قوما ملابسين للعمل السيىء (وفاسقين) خارجين عن إطاعة الله ورسوله (وأدخلناه) أي لوطا (في رحمتنا) أي في أهل رحمتنا أي جعلناهم مرحومين (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى .

(ونوحا) أي واذكر نوحا أي نبأه وإرساله الى قومه وتبليغ رسالته لهم وتمردهم عليه حتى تعب من أعمالهم والتجأ الى الله في رد كيدهم كما قال تعالى (إذ نادى) أي دعا الله تعالى (من قبل) أي من قبل هؤلاء الرسل الذين ذكرناهم آنفاً (فاستجبنا له) دعاءه بأن أمرنا السماء بالإمطار والأرض بالإنفجار ، فحدث الطوفان في الكرة فأغرقنا الكافرين (ونجيناه وأهله من) ذلك (الكرب العظيم) العام في الارض لذوات الأرواح ممن سكن فيها (ونصرناه) أي ومنعناه (من) أذى (القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي حفظناه من شرهم بإبادتهم وإبقائه مع أتباعه المؤمنين (إنهم كانوا قوم سوء) أي أصحاب سوء وفساد في العقائد والاعمال (فأغرقناهم) أي بالطوفان (أجمعين) على حسب سنتنا في الجبارين •

(وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ اِذْ يَحْكُمانِ في الحَرْثِ ، إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ(٧٨) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ ، وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وعِلْماً ، وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنّا فاعِلينَ(٧٩) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ اَنْتُمْ شاكِرونَ ؟(٨٠) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ اِلى الأَرْضِ الَّتي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شيءٍ عالِمِينَ(٨١) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِك وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ(٨٢) وَاَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ : أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَاَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ(٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)
وإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ••• كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥)
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ)(٨٦)

(وداود وسليمان) عطف على (نوحا) أي واذكر داود وسليمان ابنه، وداود كان من نسل يهوذا ابن يعقوب ــ عليهما السلام ــ ، جمع اللهُ له بين النبوة والملك • ونقل النووي عن أهل التأريخ أنه عاش مائة سنةٍ ومدة ملكه منها أربعون ، وكان له إثنا عشر ابنا ، وسليمان أحدهم ، وكان يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه لوفور عقله وعلمه ، ويتعلق بذلك العامل المقدر قوله (إذ يحكمان في الحرث) والمراد به الزرع ، وقال الخفاجي : لعله بمعنى الكرم مجازا على التشبيه ، أي يحكمان في غرامة ما تلف منه (إذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعتْ فيه ليلا بلا راعٍ فأفسدته (وكنا لحكمهم شاهدين) أي حاضرين علماً •

روي أنه دخل على داود ــ عليه السلام ــ رجلان فقال أحدهما : إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلا فأفسدته، فقضى له بالغنم فخرجا ، فمرا على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم فقال : كيف قضى بينكما أبي ؟ فأخبراه • فقال : غير هذا أرفق بالجانبين ، فسمعه داود ــ عليه السلام ــ فدعاه فقال له : أخبرني بالذي هو أرفق • فقال : أرى أن تدفع الغنم الىصاحب الحرث لينتفع بدرها ونسلها وصوفها ، والحرث الى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يترادا • فقال : القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك ، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة • وللناس أقوال في أن الحكمين كانا باجتهاد ، أو نص ، أو أحدهما بالإجتهاد والآخر بالنص ؟ والظاهر أنهما لم يكونا عن النص إذ لم يكن سليمان إذ

ذاك نبيا ، ولا حكمُ داود بالنص وحكم سليمان بالإجتهاد لأن الإجتهاد لا يرد النص ، فبقي أنهما كانا بالإجتهاد ، ولكن لما علم داود أن حكم سليمان أوفق رجع من قوله الاول ، واختار ما ذهب اليه سليمان . وقد يكون للمجتهد قولان أو أقوال في مسألة حسب ما يبدو له من الأدلة ، وذلك ما أفاده قوله تعالى : (ففهمناها سليمان) أي ففهمنا الحكومة السالمة إياه (وكلا) من داود وسليمان (آتيناه حكما) أي قضاء في فصل الخصومات (وعلما) بما يبني عليه الحكم والقضاء ، ولكن فوق كل ذي علم عليم ، وعلم سليمان في هذه القضية كان أوفق ، ولا يلزم من ذلك خطأ داود لأن حكمه كان مما يعيد لصاحب الزرع حقه أيضا ، ولكن كان حكم سليمان أرفقَ لبقاء الأصول لأصحابها ووصول صاحب الحق الى مثله .

ثم أخذ في بعض اختصاصات سيدنا داود ــ عليه السلام ــ فقال : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) إذا سبح هو بلسان القال كما سبح الحصى في كف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسمعه بعض أصحابه الكرام ، وكان داود ــ عليه السلام وحده يسمعه على ما قاله يحي بن سلام وقيل يسمعه كل أحد (والطير) معطوف على الجبال أي وسخرنا الطير يسبحن معه . وفي الآثار تصريح بأنها كانت تسبح معه ــ عليه السلام ــ كالجبال (وكنا فاعلين) تذييل لما قبله أي وشأننا أن نفعل أمثال ذلك فإنا قادرون على ما أردناه ، وهذه من الإختصاصات المعنوية . وأما من جهة الماديات فقد أفاده بقوله (وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم) أي صنع درعٍ تلبسونها في الحرب (لتحْصنكم من بأسكم) أي لتصونكم من الجراحات الناشئة من ضرب أعدائكم (فهل أنتم شاكرون ؟) ربكم الذي أنعم على داود بما يعود نفعه لكم .

(ولِسُليْمانَ الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح (عاصفة) أي حالكونها هابَّةً بشدة (تجري بأمره) على وفق إرادته من مستقره بإصطخر في شيراز الى الارض التي باركنا فيها أي الى الشام رواحاً أي بعد أن جرت به من الشام الى إصطخر بكرة كانت تعود به إليها عشية . وقيل : المراد بالأرض التي باركنا فيها ما أراد النزول فيها ، فكل ما حلّ فيها فهي مبروكة لأنها تكون منزلا لرسول من الرسل .

وفي القصة روايات كثيرة ، وأوثقها أنه صنع له ـ عليه السلام ـ بساط بقدر ما يحتاجه من الأهل والخدم والخواص والحرّاس ، فإذا أراد السفر إلى مكان ساروا إليه ويقعد كل في محله الخاص فتأتى الريح وترفعه وتصعد به إلى مستواه المناسب لسفره ، وكانت قوتها في الحركة بالغدوة مسافة شهر بالأقدام ، وبالرواح كذلك . والله على كل شيىء قدير .

(وكنا بكل شيىء عالمين) فما شرفناه بتلك المعجزة العجيبة إلا لما فيها من الحكمة البالغة (ومن الشياطين) أي وسخرنا له من الشياطين (منْ يغوصون له) أي يدخلون تحت ماء البحر لاستخراج ما يجدونه من الدراري اللامعة المحبوبة لسليمان ـ عليه السلام ـ (ويعملون) أي أولئك الشياطين (له عملا) كثيرا (دون ذلك) الغوص في البحار من صنع الأبنية والحصون والقلاع والمحاريب والتماثيل الجائزة في شرعه . (وكنا لهم حافظين) عن الخروج عن طاعته أو المؤامرة عليه أو حافظين لهم عن عروض موانع تمنعهم عن الوفاء بالأعمال التي وُسدت إليهم .

(وأيوب) أي واذكر أيوبَ ـ عليه السلام ـ وهَبَ الله له أموالاً وأولاداً كثيرين ، فابتلاه الله تعالى بفناء أولاده بهدم بيت عليهم وبإصابته بمرضٍ مدةَ سبعِ سنين وسبعة أشهر كما قالوا وبضياع أمواله . ولما وقع

عليه ما وقع من البلاء استمر ما شاء الله فلما كاد أن يخرج عن طاقته دعا الله تعالى لكشفه عنه كما قال تعالى (إذ نادى ربه أني مسني الضر) وهو بالفتح عام في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال وملال • (وأنت أرحم الراحمين) أي أعظم وأوفى رحمةً من كلٍّ من يتصف بالرحمة الواسعة (فاستجبنا له) دعاءه ورفعنا عنه بلاءه (فكشفنا ما به) أي ببدنه (من ضرّ) •

ويروى أنه دعا ربه لكشف ما به في السجود فقيل له : ارفع رأسك فقد استجيب لك (أركض برجلك) فركض فنبعت من تحته عينُ ماء ، فاغتسل منها ، فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلاّ سقطت ولا جراحةٌ إلا برئت، ثم ركض مرة أخرى فنبعت عينٌ اخرى ، فشرب منها فلم يبق في جوفه داءٌ إلا خرج وعاد صحيحاً ورجع إليه شبابه وجماله • وروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما قال : سألت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ردّ الله تعالى امرأته اليه وزاد في شبابها حتى ولدت له ستا وعشرين ذكراً » وقال ابن مسعود والحسن وقتادة في الآية : إن الله تعالى أحيا له أولاده الذين هلكوا في بلائه ، وأوتي مثلهم في الدنيا • والظاهر أن المثل من صلبه ــ عليه السلام ــ أيضا • وقيل كانوا نوافل • واخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « بينما أيوب ــ عليه السلام ــ يغتسل عرياناً خرّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب ــ عليه السلام ــ يحثي في ثوبه ، فناداه ربه سبحانه : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك لكن لا غنى بي عن بركتك » وعاش ــ عليه السلام بعد الخلاص من البلاء على ما روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ سبعين سنة •

وقوله تعالى : (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أي آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب ـ عليه السلام ـ وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب (واسماعيل وادريس وذا الكفل) أي واذكرهم • وظاهر الآية أن ذا الكفل كان من الأنبياء وهو الذي ذهب إليه الأكثر • واختلف في اسمه فقيل : بشر، وهو ابن أيوب ـ عليه السلام ـ بعثه الله تعالى نبيا بعد أبيه ، وأمره سبحانه بالدعوة الى توحيده وكان مقيماً بالشام مدة عمره ، ومات وهو ابن خمسٍ وسبعين سنة وأوصى الى ابنه عبدان ، ثم بعث الله تعالى شعيبا • وزعمت اليهود أنه حزقيل وجاءته النبوة وهو في وسط سبي بختنصر على نهر خريار (كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) أي أدخلناهم في مقام النبوة وكانوا كاملين في الصلاح •

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ : أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ : رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ، وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ، وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)(٩١)

قوله تعالى : (وذا النون إذ ذَهَبَ مُغَاضِباً) أي واذكر صاحبَ الحوتِ يونس ـ عليه السلام ـ ابن متّي وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره وصححه ابن حجر • قال : ولم أقف على شيء من الأخبار

على اتصال نسبه . واختلف المفسرون في أن وقوعه في بطن الحوت كان قبل اشتغاله بأداء رسالته من الله أو بعده . أما القول الأول فهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، فقال : كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك (وهو ملك آشوري من نينوى) وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا ، وبقي منهم سبطان ونصف فأوحى الله تعالى إلى شعيا النبي ـ عليه السلام ـ : أن اذهب الى حزقيل ملك بني اسرائيل وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا الى ملك آشور لإعادة بني اسرائيل إلى وطنهم ، وكان اذ ذاك خمسة من أنبياء بني إسرائيل موجودين ، فاختار حزقيل يونس ابن متي لهذه المهمة ، فدعاه وقال له : اذهب الى (نينوى) فإنك قوي أمين ، وانصح ملكها واطلب منه الإيمان بالله ، وأن يرسل معك بني إسرائيل فقال له يونس : هل أمرك الله بإرسالي خاصة ؟ قال : لا . ولكني أراك قويا أمينا ، فأبى ذلك وخرج من عنده غضبان وتوجه الى بحر الروم ناويا الخروج من البلاد ، فركب سفينة وذهب زمانا فانكفأت السفينة وكاد أن يغرق جميع من فيها فاقترعوا لإخراج الرجل العاصي على أساس تقاليدهم وظنهم أنه لا تأتي على السفينة وقفة وانقلاب الا من وجود انسان عاص فخرجت القرعة على يونس عليه السلام وقال : إني أنا العاصي وألقى نفسه في البحر ، فالتقمه الحوت ولكن الله منعه عن إتلافه فسبح في بطنه بالتسبيح المشهور « لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فأمر الله الحوت فألقاه على الساحل فخرج بضعف في البدن ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وبقي في ظلها زمانا ، ثم أوحى الله اليه : أن اذهب الى نينوى وأمر ملكها بالإيمان ، وأن يرسل معك الاسباط من بني اسرائيل ، فذهب اليهم وآمنوا كما هو مذكور في الآية الشريفة .

وأما القول الثاني فهو أن قصة الحوت كانت بعد دعوته أهل نينوى وتبليغ رسالة الله • وخلاصته : أنه مكث فيهم مدة فلم يؤمنوا ، فأنذرهم بعذاب الله في موعد خاص إن لم يؤمنوا ، ثم تركهم وبعد غيابه عنهم تابوا إلى الله ، فرفع عنهم العذاب الموعود ، فلما جاء الموعد ولم ينزل العذابُ ترك يونس البلدَ استحياءً منهم حيث وجد وعده غير واقع حتى ركبَ في سفينة على دجلة ، فصارت السفينة في توقف ودورة ، فاقترع أهل السفينة ــ كما قلنا ــ فخرجت قرعته فألقوه في البحر ، فالتقمه الحوتُ ، وسبح في بطنه ، ثم ألقاه الحوت إلى الساحل وبعد خلاصه من المصيبة وضعف الحال علم أن أهل نينوى تابوا ويبحثون عنه ليجدوه ، فذهب إليهم وآمنوا بـه • والله أعلـم •

فقوله تعالى (إذ ذهب مغاضبا) على الاول معناه مغاضبا على حزقيل ملك الإسرائيليين إذ ذاك في تخصيصه بالإرسال إلى نينوى • وعلى الثاني معناه مغاضبا على أهل نينوى في تمردهم عليه • وقوله (فظن أن لن نقدر عليه) أي فظن أن لن نقضي عليه بابتلائه بمصيبته ، لأنه على القول الأول لم يكن أمر الملك بذهابه الى نينوى إلا برأيه وحسبانه أن يونس رجل قوي أمين ، وعلى القول الثاني كانغضبه على أهل نينوى لتمردهم على الله وإبائهم عن قبول رسالته وأوامره • فظن أن غضبه ذلك ينفعه ولا يوقعه في العـذاب •

وقوله (فنادى في الظلمات) أي ظلمة بطن الحوت، وظلمة أعماق البحر، وظلمة الليل • (أن لا إله إلا أنت) أي نادى بأنه لا إله إلا أنت على أنَّ أن مخففة من المثقلة ، أو نادى أي لا إله إلا انت على أنها مفسرة (سبحانك) أي أنزهك تنزيها لائقا بعظمة ذاتك وتعاليك من أن يعجزك شيىء (إني كنت من الظالمين) أي من الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للمصائب • (فاستجبنا

له) أي لدعائه (ونجيناه من الغم) الذي أصابه حين التقام الحوت له (وكذلك ننجي المؤمنين) أي ومثل ذلك الإنجاء الواقع عند قلة الصبر وضيق الصدر وعسر الأمر وظن أن لا خلاص من الهلاك إلا بقدرة الله تعالى ننجي المؤمنين الذين قاموا بمقتضيات الإيمان ودعوا الله مخلصين وطلبوا منه الأمان •

(وزكريا) أي واذكر زكريا ودعاءه وقبول دعائه (إذ نادى ربه) و (قال رب لا تذرني فردا) وحيدا بلا ولد يرثني (وأنت خير الوارثين) أي وأنت خير حي يبقى بعد الميت (فاستجبنا له) دعاءه (ووهبنا له) ولدا وسميناه (يحيى وأصلحنا له زوجه) العقيم تلد على كبر السن (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) بيان لسبب تفضله عليه باستجابة دعائه بأنهم كانوا يتسابقون الى كل خير على مناسبة الايام والليالي ، ويرغبون في الأعمال الحسنة لقوة ايمانهم بالله (ويدعوننا رغباً ورهباً) وكانوا اذا دَعوْنا دَعوْنا جامعين بين الرغبة في الإجابة والرهبة عن الإجابة (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين ومتضرعين • وكل قوم شأنهم الإنابة فشأن الله لدعائهم الاجابة •

(والتي أحصنت فرجها) واذكر شأن المرأة المباركة التي منعت عورتها عن الرعونات ولم تتزوج على عادة النساء الواصلات (فنفخنا فيها من روحنا) أي فأوصلنا نفخة من جانب الملك المقدس عندنا اليها فولدت ابناً ما أحسنه (وجعلناها وابنها آية) عظيمة تأريخية نادرة عجيبة (للعالمين) من عقلاء الإنس والجن ، فإن من تدبر حالة الأم التي ولدت بلا مساس بشر، والابن الذي أنطقه الله بالرسالة، وهو طفل، علم أن الله قادر على كل ممكن من الممكنات وهو المصيط على الأرض والسماوات وسائر الموجودات • فتعالى الله رب العالمين •

(إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنا رَبُّكُمْ فاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤) وحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا : يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ، بَلْ كُنّا ظالِمِينَ)(٩٧)

قوله تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) خطاب للناس عامة ، والاشارة الى ملة التوحيد والاسلام • أي ان دين التوحيد دينكم دينا واحدا وأمة حال" لكونها في معنى معتقداً ، والعامل فيها اسم الاشارة (وأنا ربكم) جميعا لا إله غيري (فاعبدون) خاصة والإتيان بالامر بالعبادة بعد تقرير أنه ربهم إشارة الى أن الموجب للعبادة هو الخالقية ، فالخالق هو المعبود والمعبود هو الخالق (وتقطعوا أمرهم بينهم) أي جعلوا أمر دينهم بينهم قطعا مختلفة متفرقة فمنهم من بقي على التوحيد ، ومنهم من أشرك به غيره ، أو تفرقوا في أمر دينهم بينهم (كلٌّ إلينا راجعون) كل منهما راجع إلينا للجزاء ثوابا وعقابا (فمن يعمل من الصالحات) أي بعضا منها (وهو مؤمن) بما يجب الإيمان به (فلا كفران لسعيه) أي لا نكران من جانبنا لسعيه في العقيدة السليمة والأعمال المستقيمة (وإنا له) أي لسعيه في أي باب (كاتبون) فلا تخفى علينا خافية (وحرام على قرية أهلكناها) ودمرناها بسبب كفر أهلها (أنهم الينا لا يرجعون) أي عدم رجوعهم إلينا للجزاء لأن البعث والحشر والحساب وأخذ الجزاء حق مقرر لا محيد عنه • ويجوز أن

تكون كلمة لا صلة . أي حرام على أهل قرية قدرنا إهلاكها وأهلها أنهم يرجعون للتوبة والإنابة ، لأنا لما علمنا بأحوالهم السيئة وأخلاقهم الرذيلة وعقائدهم السفيلة أزلا علما ناشئاً من نقل صور عقائدهم وأعمالهم ، فلا مجال لتبدل هذا العلم ولا مجال لرجوعهم الى التوبة والإنابة . وتلك القرى الظالمة تبقى كذلك وأهلها مستمرون على الكفر والعناد والأعمال السيئة يوما فيوما .

(حتى إذا فتحت يأجوجُ ومأجوج) أي فتحت أبوابُ الخروج إلى البلاد للإفساد عليهما (وهم من كل حَدَب) ومرتفع من الأرض (يَنسلون) يسرعون . (واقترب الوعد الحق) بقيام الساعة وقوله (فإذا هي شاخصة أبصار الذين ظلموا) جواب الشرط ، وإذا للمفاجأة ، وهي تسد مسد الفاء الجزائية ، أي فإذا هي شاخصة أبصار الكافرين قائلين : (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا) الذي فاجأنا ودهمنا من الساعة وأهوالها (بل كنا ظالمين) لأنفسنا حيث أهملنا الحواس لإبصار الحقائق واستماع المواعظ ، والعقول للنظر في الكائنات الدالة على وجود الخالق وثبوت الرسالة .

(إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ(٩٨) لَوْ كانَ هؤلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فيها خالِدُونَ(٩٩) لَهُمْ فِيها زَفيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ(١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ(١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسيسَها ، وَهُمْ فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدونَ(١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقّيهُمُ المَلائِكَةُ : هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِجِلِّ لِلْكُتُبِ ،

كَما بَدَأنا أَوَّل خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا ، إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ)(١٠٤)

قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لمشركي مكة وبيان لعاقبة أمرهم ، وكلمة ما في (وما تعبدون) عبارة عن الاصنام التي عبدوها • يقول الباري سبحانه وتعالى : إنكم يا كفار مكة وأصنامكم اللاتي تعبدونها من دون الله (حصب جهنم) والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه إذا رماه بالحصباء وهي صغار الحجارة ، فهو خاص وضعا وعام إستعمالا • وقرىء حطب جهنم بالطاء المشالة، ونقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تفسير الحصب بالحطب• وقال : إنه الحطب بالزنجية • وفسر بالوقود لأنه المراد • وعلى ماذكرناه لا يشمل ما تعبدون للعقلاء المعبودين كالملائكة وعزير والمسيح وعلى تعميم الخطاب واستعمال ما للفريقين يخص بغير العقلاء • ويكون قوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) بيانا للتخصيص تأخر عن الخطاب وقوله (أنتم لها واردون) استئناف نحوي مؤكد لما قبله ، أو بدل من الحصب لأن إبدال الجملة من المفرد شائع ثم استدل الباري تعالى على بطلان عبادتهم لها وعدم كون مايعبدونه آلهة بقوله الكريم : (لو كان هؤلاء آلهة) كما يزعمون (ما وَرَدوها) أي جهنم لكن التالي باطل لقوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ولقوله (وكل فيها خالدون) على اعتبار التخصيص (لهم فيها زفير) أي للمتنفسين منهم فيها زفير وهو صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف (وهم فيها لا يسمعون) أي يصيرون صمّاً لا يسمعون الأصوات ، أي ولا يسمع بعضهم صوت بعض لشدة الهول أو كثرة تداخل الأصوات •

(إن الذين سبقت لهم مِنا الحُسنى) أي الخصلة الحسنة وهي التوفيق للطاعة (أولئك عنها) أي عن جهنم مُبعدون ، لأنهم في الجنة وشتان بينهما وبين النار (لا يسمعون حسيسها) أي حسيس النار وهو صوتها الذي يحس به من حركتها أو حسيس الداخلين فيها • ووجه اعتبار الحسيس الإشارة الى أنه لا يبقى لهم الصوت الجهوري (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أي أنهم دائمون ثابتون على التنعم (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وفسر بإطباق جهنم على أهلها وغلقها عليهم • وقيل المراد بها النفخة الثانية الحادثة لقيام الناس من القبور (وتتلقيهم الملائكة) أي تستقبلهم بالإكرام قائلين لهم : (هذا يومكم الذي كنتم توعدون) في الدنيا وتبشرون به فيها • وقوله تعالى : (يوم نطوي السماء) منصوب بأذكر، وقيل : ظرف لقوله لا يحزنهم الفزع أي اذكر حال المكلفين يوم نطوي السماء ونلفها (كطي السجل للكتب) كطي مأمور الأوراق المكتوبة لها • معناه أنه يسهل على ملائكتنا المأمورين طي السماوات كطومار كما يسهل على مأمور الاوراق طيها (كما بدأنا أول خلق نعيده) أي نعيد الخلق كما بدأناه في السهولة (وعدا علينا) أي وعدنا وعدا ثابتا علينا أي الوفاء بالموعود في ذلك الوعد (إنا كنا فاعلين) أي إنا لا شك نفعل تلك الاعادة فلا تشكوا فيها •

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ : أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبادِيَ الصَّالِحُونَ َ(١٠٥) إِنَّ في هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ َ(١٠٦) وَما أَرْسَلناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ َ(١٠٧) قُل : إِنَّمَا يُوحى إِليَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ ؟(١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُل : آذَنْتُكُمْ عَلى سَوَاءٍ ،

وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ ؟(١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ(١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ(١١١) قال : رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ)(١١٢)

قوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون) كثرت أقوال المفسرين في معنى هذه الآية • فقيل : إن المراد بالزبور زبور داود ، أو كتب الانبياء ، وبالذكر التوراة أو اللوح المحفوظ• وبالأرض الأرض المقدسة أو الشام كلها، أو أرض الدنيا أو الجنة• وبقوله (عبادي الصالحون) المؤمنون من أي أمة كانوا • أو من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وأظهرُ الإحتمالات أن المراد بالزبور الزبور المنزل على داود، وبالذكر التوراة، وبالأرض أرض الجنة، وبالعباد الصالحين جميع المؤمنين من أتباع كل رسول من الرسل • وذلك لأن الآيات السابقة في بيان اختصاص المؤمنين بالجنة وخلودهم في ما اشتهت أنفسهم والكافرين بالنار• ويدل على إرادة أرض الجنة قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) ويظهر أيضا أن يكون المراد من الارض الارض الموعودة الشاملة للقدس وبيت المقدس وسائر بلاد فلسطين • وبالعباد الصالحين أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • ومعنى الآية على الأول أن الله سبحانه وتعالى أوحى الى داود أن أرض الجنة يرثها العباد الصالحون من أية أمة كانت على الحق • وعلى الثاني أنه أوحى إليه أن الارض المقدسة يرثها العباد الصالحون من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقد تحقق ذلك في عهد الخليفة الثاني حيث وقعت تلك الارض تحت سيطرة المسلمين • ويتحقق أيضا في المستقبل بانتزاعها من أيدي اليهود المستولين عليها بإمداد من الأجانب ورجوعها الى الصالحين من أمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أفاد ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء (وإن عدتم عدنا) أي وإن عدتم للإفساد في الأرض عدنا الى الانتقام منكم• وقد تحقق الشرط ولا شك في تحقق الجزاء بعده • ولا يجوز أن يراد بالارض الارض الموعودة وبالعباد الصالحين اليهود ، لأن اليهود الصالحين استولوا في زمن يوشع وفي زمان داود فلم يبق مجال لوعدهم بها لأن الامر كان منجزا إذ ذاك واليهود بعد زمان الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخلوا في عداد الكافرين ولم يبق مجال لتوصيفهم بالصالحين •

(إن في هذا) أي فيما ذكرناه في هذه السورة من الأخبار والمواعظ البليغة وغيرها (لبلاغا) أي كفاية أو سبب بلوغ المقصود وهو سعادة الدارين (لقوم عابدين) أي مستمرين على العبادة • روي أنهم الذين يصلون الصلوات الخمس بالجماعة (وما أرسلناك) بما تلوناه عليك من الأحكام (إلا رحمة للعالمين) استثناء من أعم العلل • أي وما أرسلناك لعلة من العلل إلا لنرحم العالمين بإرسالك ونعرضهم للرحمة فإن منها تعليم العقلاء طريق سعادة الدارين عقيدةً وعملا وتنويرهم لإدراك الخير والوصول الى حُسْن المعاش والمعاد • ومنْ تعامى عن ذلك وأعرض فإنه سدّ بنفسه أبواب الخير والرحمة على نفسه • ومثله كمثل عاطش يعْطى الماءَ ويرده ، أوجائع يؤتى الطعام فينفر منه •

(قل) يا حبيبي (إنما يوحى إليّ) في شأن وحدة الإله وتعدده (أنما إلهكم إله واحد) لا يتجاوز الوحدة الى غيرها ، وحاصله ما يوحى إلينا في ذلك الباب إلا قصره على الوحدة ، وان كان يوحى الينا في غير ذلك الباب

أمور وأحكام كثيرة . (فهل أنتم مسلمون ؟) أي منقادون لما يوحى الينا من التوحيد (فإن تولوا) أي أعرضوا عن الإنقياد لذلك (فقل) لهم (آذنتكم على سواءٍ) أي أعلمتكم ما يوحى إليّ على سواء بينكم وبين غيركم ، ولم أرجح أحداً منكم على غيره من المكلفين (وإن أدري أقريب أم بعيد" ما توعدون) أي ولا أدري أن ما توعدون من العذاب والعقاب قريب أو بعيد ، ولا تظنوا أن الله سبحانه وتعالى لا يعلم أقوالكم وأعمالكم (إنه يعلم الجهر من القول ، ويعلم ما تكتمون) منه كما يعلم بأعمالكم سواء" ما تجهرون به أو تسرون (وإن أدري لعله فتنة لكم) أي وما أدري بالتأخير الذي جرى في نزول الإنتقام منكم لعله (فتنة لكم) وابتلاء وامتحان أو إستدراج لكم (ومتاع) لكم (إلى حين) الى وقت محدود عنده تعالى . وبعد إبلاغ ذلك اليهم (قال) ـ صلى الله عليه وسلم ـ داعيا عليهم (رب احكم بالحق) أي رب اقضِ بالعدل حتى يتميز الأهل من غير الأهل ثم قالَ (وربنا الرحمن) البالغ في الرحمة ومنها تأجيل العذاب والعقاب (والمستعان) أي المطلوب منه العون لنا (على ما تصِفون) وتذكرونه من أنّ الغلبة لكم ، ونطلب منه أن يجعلنا غالبين عليكم لتعلو كلمة الحق والدين .

سورة الحج مدنية ، وهي ثمان وسبعون آية •

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرى النَّاسَ سُكَارى ، وَما هُم بسُكَارى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ(٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ(٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّه فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذابِ السَّعِيرِ)(٤)

قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه جميع المكلفين الموجودين عند النزول، وغيرهم من الموجودين الغير المكلفين الذين سيوجدون إلى يوم القيامة بطريق التغليب • فالتقوى عما لا يرضى به الله تعالى مأمور به • وقوله (إن زلزلة الساعة شيىء عظيم) تعليل لموجب الأمر بذكر حادثة هائلة ؛ فإن ملاحظة ذلك وهوله وفظاعة ما هو من مباديه ومقدماته من الأهوال يوجب مزيد التدرع بدرع التقوى • وزلزلة الساعة زلزلة تحدث من النفخة الاولى عند إرادة الباري تعالى إماتة ذوات الأنفس• وروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ان زلزلتها زلزلة عند قيامها وبعث الأموات من القبور •

وقوله تعالى (يوم ترونها) منصوب بإضمار اذكر . ثم إن قوله تعالى (تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها) إن كان مبنيا على الفرض والتقدير أي لو كنتم ترونها عيانا علمتم أنه تذهل كل مرضعة عما أرضعت . فذاك جائز على الإطلاق أي سواء كانت زلزلة الساعة من النفخة الاولى أو من الثانية . وإن كان مبنيا على الواقع وجب أن يراد من زلزلة الساعة الزلزلة الاولى التي هي مقدمة لخراب الأرض وما عليها من الجبال . فإن الناس اذ ذاك موجودون والنساء المرضعات والحوامل والحوائل موجودات ، ويتحقق ما أخبر به الصادق (وترى الناس سكارى) أي يراهم كلٌّ واحدٍ في صورة السكارى (وما هم بسكارى) في حقيقة الحال (ولكن عذاب الله شديد) أي إن شدة الهول في ذلك اليوم تجعلهم كما ترى .

وقوله تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) أي يجادل في وحدة الله وإنزال الكتاب على الرسول ، وإحياء الموتى ، ووجود الحساب والميزان بغير علم موهوب أو مكتسب من الأساتذة بالطرق المعتادة (ويتبع كلَّ شيطانٍ مريد) أي متجرد للفساد والإفساد . من قولهم شجرة مرداء لا ورق لها . والشيطان يشمل شياطين الإنس والجن . والآية نزلت في النضر بن الحرث . وقيل : في أبي جهل . وقيل : في أبي بن خلف . ولا مانع من نزولها في الكل (كُتِبَ عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) وفي الآية وجوه من التراكيب ، وأظهرها : أن كتب فعل مجهول وما بعده نائب فاعله بتأويله بالمصدر . وضمير أنه للشأن، وباقي الضمائر لمن وهي اما شرطية والفاء داخلة على جملة الجزاء ، وإما موصولة والفعل بعده صلة ، ووجود الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط .

وعلى التقديرين فالجملة مبتدأ وخبر ، وجملة ويهديه إلى عذاب السعير معطوف على الخبر .

(يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ، لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً ، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّه يُحْيِ الْمَوْتى ، وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبورِ)(٧)

قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث) إقامة للحجة على البعث بإظهار آثار قدرته وحكمته في خلق الإنسان . فيقول يا أيها الناس إن كنتم في أقل ريب وشك وشبهة من البعث ، أي من قدرتنا على إحياء الموتى وبعثهم من القبور ، فانظروا وتفكروا تفكراً مقرونا بدقة في آثار قدرتنا في خلقنا لأشرف الموجودات العالمية وهو الإنسان (فإنا خلقناكم) يا بني الإنسان باعتبار أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ (من تراب ثم) خلقناكم عند إرادة البث والتناسل (من نطفة) أي من ماء صافٍ ممزوج من ماء الوالدين باق في رحم الوالدة أربعين يوما (ثم من علقة) أي قطعة

من الدم المتكون من ماءِ المنى (ثم من مُضغة) أي قطعة من اللحم متكونة من ذلك الدم (مخلقة) أي مصورة باعتبار آخر أحوالها (وغير مخلقة) أي غير مصورة باعتبار أول أحوالها (لنبين لكم) متعلق بقوله خلقنا ، أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم ما لا تحصره العبارة من الدقائق التي من جملتها أمر البعث ، فإن من أمعنَ النظر فيها جزم بأن الأثر الذي هو ممكن من الممكنات لا يترجح وجوده على عدمه بدون مرجحٍ يُرَجح ذلك الجانب على هذا ، وهو الفاعل المختار ، وأن الفاعل لا يمكن أن يكون مجردا من الشعور والإختيار ، لأن هذه الأشكال الغريبة والصور العجيبة تدل دلالة قاطعة على أنها أثر فاعل كامل قادر على التصرف في ما يخلقه ، فإن هذا المخلوق الفائق الممتاز بالصفات العالية لا يحصل من فاعل بلا شعور ، فتبين أن الفاعل حي قادر مختار ، فإذا ثبت هذا ثبت أن البعث بعد الإماتة سهل يسير .

(ونقر في الأرحام) بعد ذلك (ما نشاء) أن نقره فيها (إلى أجل مسمى) ووقت معين هو وقت الوضع . وأدناه ستة أشهر غير لحظتي العُلوق والوضع ، أقصاه أربع سنين عند الشافعي ، وسنتان عند أبي حنيفة ــ رضي الله عنهما ــ .

وهذه الفقرات من هذه الآية الكريمة ينبوع ما رواه عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ . قال : حدثنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وهو الصادق المصدوق ، « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكونُ علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملكُ فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . فوالله الذي لا إله إلا هو ! إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل

بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » رواه البخـاري ومسـلم .

ومن الناس من يقع في الإشتباه من هذا الحديث الشـريف زاعماً أن الكتاب الذي يسبق عليه كتاب ناشىء من قهر الباري وسلب الإختيار عنه ، وحاشاه من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لو جعل الأعمـال تحـت القهـر والسيطرة فلماذا أرسل الرسل وهدى المكلفين إلى الصراط المستقيم وبين لهم طريق الهدى والضلال ؟ بل إن ذلك الكتاب ناشىء من علمه الأزلي بأنه تعالى يخلق ذلك الإنسان ويخلق فيه العلم والقـدرة والإرادة وإمكانيـة التصرف والتوجه إلى ما يريده سلبا وإيجابا ، وأن ذلك الإنسـان صاحب شعور كامل واختيار تام وبحسب اختياره أحد الجانبين يتوجه اليه خيرا كان أو شرا ، والله تعالى يخلقه له . فمن الإنسان من تكون توجهاته مطلقا الى الخير وهم المعصومون . ومنهم من تكون توجهاته مطلقا الى الشـر وهـم الكافرون الخاسرون، ومنهم من تكون توجهاته أولا الى الخير ثم تتحـول إلى الشر فيدخل النار ، ومنهم من تكون توجهاته أولا الى الشر ثم تتحـول الى الخير فيدخل الجنة . وهو في كل ذلك صاحب شعور وإرادة واختيـار . وعلى علمه بهذه الأحوال أيضا قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه» يعني أن السعيد من علم الله تعالى سعادته في بطن أمه لأنه علم أنه يتوجه الى الخير ويموت عليه ، وأن الشقي من علم الله شقاءه في بطن أمه ، لأنه علم أنه يتوجه الى الشر ويموت عليه . فكل ذلك مبني على أعمال الإنسان نفسه المعلومة للباري تعالى أزلا قبل خلقه وعند خلقه وهو في بطن أمه وبعد ذلك عندما يخرج الى الأعمال .

وإذا كان الأمر كذلك اندفع توهم من قال أنه مادام كنت سعيدا في بطن أمي فلا أعمل أي عمل صالح لأنه تقررت سعادتي وأنا في بطن أمي ، أو مادام كنت شقيا في بطن أمي فلا تنفعني الأعمال الصالحة ، وذلك لأن علمه تعالى متوجه الى أعمال الإنسان في أيام حياته يعلم أنه يعمل الخيرات أو يعلم أنه يعمل غيرها ، وهذا التوهم مثل توهم من يقول : مادام الله علم أن عمري مائة سنة فلا آكل ولا أشرب شيئا وأبقى لقضاء تلك المدة بلا زاد ولا ماء وذلك لأن الله علم ببقائه مائة سنة حسب علمه بأنه يأكل ويشرب ما يناسبه حسب العادة ويداوي مرضه ويدفع مهلكاته إذا عرض شيىء منها والحاصل أن علمه تعالى مربوط بجميع أعمال الإنسان ومكتسباته وعليه يتقرر امره في العاقبة . وكذلك يسقط توهم من يقول : إن البلاء الوارد مادام جرى به القضاء فكيف تدفعه الصدقة أو الدعاء وذلك لأنه تعالى علم أنه كلما أنزل عليه بلاء ألهمه دعاءً أو صدقة تكون حافظة له عن مضرة ذلك البلاء ، وإلا لزم سدّ باب الدعاء من أي داع لجلب أي خير أو دفع أي شر مع أن الدعاء مخ العبادة ، ورغب فيه الباري سبحانه ورسوله ـ عليه السلام ـ ، فعلم من هذا التفصيل أن ما جرى به علمه تعالى لا يتبدل ولا يتغير ولكن علمه جارٍ بذلك حسب انكشاف أعمال المكلفين عنده .

وإن قال قائل : فإذا كان علم الله لا يتغير ولا يتبدل فما معنى ما اشتهر في بعض الأدعية من قول الداعي (إن كنت كتبتني شقيا أو مطرودا أو مقترا عليّ في الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وطردي واقتار رزقي ؟) فالجواب أن ذلك مبني على كتابته في اللوح المحفوظ القابل للتغيير والتبديل ، كما قال تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وعليه قوله تعالى : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) ويجوز أن

يكون دعاء ذلك الداعي شرطا ومعلقاً عليه لتحقق ذلك المطلوب المرغوب فيه فاحفظ ما ألقيته إليك فإنه مأخوذ من تحقيقات العلماء المحققين •

(ثم نخرجكم) أي من الأرحام حالكونكم (طفلا) ضعيفا نحيفا تحتاجون في كل وقت وساعة الى رعاية ورقابة من جهة الغذاء والملبس والمسكن وغيرها حتى تتقوى أعضاؤكم (ثم لتبلغوا أشدكم) أي كمالكم في القوة بدنا وعقلا وعلما ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة الى ثلاثين • وأشد مفرد جاء على وزن الجمع كآنك ولا ثالث لهما • أو جمعٌ لا واحد له من لفظه ، أو مفرده شدة بالكسر وهو جمع على خلاف القياس ، لأن فعلةً بالكسر لا تجمع على أفْعل (ومنكم من يتوفى) أي قبل بلوغ الأشدّ (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أي أردإه وأدناه مثل زمن الطفولة (لكيلا يعلم من بعد علم) كثير أخذه كسبا أو وهبا (شيئا) أي شيئا يعتنى به، وإلا فلزوم علم الإنسان بنفسه من ضرورياته التي لا تنفك عنه • وهذه التطورات الواردة على الإنسان حجة قاطعة للإنسان على وجود خالقه القدير واتصافه بالكمال وعلى بعث الموتى في وقته لمحاسبته على عمله وأخذه لمصيره أي مصير •

ثم جاء بحجة أخرى عليه وقال (وترى الارض هامدة) أي ميتة يابسة لا تنبت (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) أي تحولت ونفشت أجزاؤها الداخلية (وربت) وَعَلَتْ وانتفخت (وأنبتت) النبات (من كل زوج بهيج) أي كل صنفٍ حَسنٍ وهذه الأحوال العارضة على الارض اليابسة حجة أخرى على بعث الموتى إذا أراده تعالى (ذلك) الامر المذكور المقرر من تكوين الإنسان وتدرجه في مدارج الشخصية واهتزاز الارض اليابسة وإنباتها النبات (بأن الله هو الحق) الثابت بالذات والوجود الواجب ووجود الغير مستفاد من إرادته ومربوط بدوام تعلقها (وأنه يحي الموتى) أي شأنه

وعادته ذلك (وأنه على كل شيىء) من الممكنات (قدير) سلبا وإيجابا ونفيا وإثباتا (وأن الساعة) المعروفة لتميز أهل المعروف من أهل المنكر (آتية) في وقتها المقرر (لا ريب فيها) ولا يليق بأن يرتاب فيها العاقل (وأن الله يبعث من في القبور) يوم البعث والنشور •

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ(٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ(٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ(١٠) ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ ، ذلِكَ هُوَ الْخُسران المُبِينُ(١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ(١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ المَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشيرُ(١٣) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ)(١٤)

قوله تعالى (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) نزلت هذه الآية الكريمة فيما نزلت فيه الآية السابقة ، فالتكرار مبالغة في الذم ، أي ومن الناس من يجادل ويتكلم بغير حق فينكر وجود الباري تعالى أو وحدته أو سائر ما شرعه الله تعالى حسب ما تسمح به نفسه وهواه بغير علم ذاتي فطري من البديهيات ولا هدى يهتدى به إلى

الحق بطريق الإستدلال ، ولا استمداد من كتاب نزل من السماء ينير القلب ويرشده إلى الصراط المستقيم لأن حق المتكلم أن يتكلم عن علم ، وعلمه إما من البديهيات الحاصلة بدون نظر أو من النظريات الحاصلة بالاستدلال أو من تعليم المرشد الأرشد الذي يرشد العالم الى الصراط المستقيم وهو الوحي والكتاب المنزل من الله تعالى فإذا لم يكن له سند من هذه الوجوه فسكوته في تلك المواضع واجب • وقوله (ثاني عطفه) حال من ضمير يجادل أي حالكونه يلوي جانبه ويتولى ويستدبر كُلٌ من أرشده الى الخير وذلك (ليضل عن سبيل الله) أو يجادل ليضل عن سبيل الله من لا قوة له على رد كلامه (له في الدنيا خزي) وهوان وحقارة لما يلقاه كالقتل يوم بدر أو كالفشل في مهمته بين الناس (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أي عذاب النار البالغة في الإحراق ويقال له في وقت إحراقه (ذلك) العذاب (بما قدمت يداك) أي بسبب ما اكتسبته من الكفر والمعاصي (و) الحق (أن الله ليس بظلام للعبيد) إذا جازى المسيئين بالتعذيب جزاء وفاقا •

وقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) استئناف لبيان أحوال الناس المذبذبين الغير الثابتين على الإيمان فيؤمنون إذا جاءهم الخير ويكفرون إذا جاءهم غير ذلك فقال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أي على طرف وجانب من الأحوال والعوارض الواردة (فإن أصابه خير) أي عافية وثروة وأولاد وجاه وما شاكل ذلك (اطمأن به) وثبت قلبه على إيمانه (وإن أصابته فتنة) أي ما يفتتن به الإنسان من البلايا والمحن النفسية أو غيرها (انقلب على وجهه) أي أكب على وجهه غير راءٍ يمينه وشماله وأمامه وخلفه (خسر الدنيا) لافتتانه فيها وإصابته المحنة (و) خسر (الآخرة) معها لعدم ثباته على الإيمان (ذلك) الخسران الذي أصابه (هو الخسران المبين) الواضح أنه خسران بدون شبهة وريب • ومع أنه خسر الخسران

المبين (يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) من الأصنام المفتعلة و (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الطريق فإن الضال القريب من الطريق يسهل وصوله اليه بسببٍ ما ، وأما الضال المبتعد عن معبر الناس فقلما يهتدي الى الطريق المعتاد (يدعو لمنْ ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) يدعو بمعنى يزعم أو يقول ، واللام واقعة في الجملة الواقعة مقولا له وهي لام الابتداء و (مَن) مبتدأ و (ضره أقرب من نفعه) مبتدأ وخبر ، والجملة صلة من ، وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس العشير) جواب قسم مقدر واللام فيه جواب القسم وجملة القسم وجوابه خبر من ، أي يقول الكافر برفع صوته لمنْ ضره أقرب تحققاً من نفعه والله لبئس المولى الذي يتخذ ناصرا ولبئس الذي يعاشر من أمثاله • وإنما كان ضره أقرب من نفعه لأن من يعبده يتضرر فِعلاً باشتغاله بالعكوف حوله وتهيئة لوازم عبادته رسماً ، وأما النفع فلا تحقق له قطعا •

ولما ذكر أحوال الكافرين المصرين المستمرين على الكفر ، والناس المذبذبين المترددين بين الكفر والإيمان بين كمال حسن أحوال المؤمنين الثابتين على الإيمان فقال تعالى : (إن الله يدخلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) وهو تعالى يحقق ذلك بلا شبهة (إن الله يفعل ما يريد) وفي هذه الجملة تقرير وتعليل لما قبله •

(مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيدُهُ ما يَغيظُ ؟(١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وَأَنَّ اللهَ يَهْدي مَنْ يُريدُ)(١٦)

قوله تعالى : (من كانَ يظنُّ أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) الضمير في ينصره الله عائد الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المستفاد من المقام (فليمدد بسبب الى السماء) أي فليمدد حبلاً الى سقف بيته (ثم ليقطع) أي ثم ليختنق من قطع إذا اختنق كان أصله قطع نفسه (فلينظر هل يُذهبنّ كيدُه ما يغيظ) أي فليتفكر الآن قبل مباشرته لذلك العمل هل يذهبن عمله ذلك سبب غيظه وهو نصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والحاصل أن الله قد قدر وقرر نصرة دينه ونصرة رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم في دعوته ومهمته وهذا شيىء مقرر لابد منه . فمن لا يرضى بذلك فليختنق بحبل في بيته وليتفكر قبل الحادثة : هل يُذهبُ اختناقه بحبل معونة الرسول ونصره ؟ واذا أجبنا الإستفهام قلنا : كلا ولا يفيده ذلك العمل شيئا أبدا .

(وكذلك أنزلناه آيات بينات) أي ومثل ذلك الإنزال المشتمل على الحكم والمصالح أنزلنا القرآن الكريم حالكونه آيات واضحات الدلالة على المقصود (وأن الله يهدي من يريد) أي وأمره أن الله يهدي من يريد هدايته .

(إنَّ الَّذِين آمَنُوا، والَّذِين هادُوا ، والصَّابِئِينَ ، والنَّصارى والمَجُوسَ ، والَّذِينَ أشْرَكُوا ، إنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد" (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ ومَنْ في الأَرْضِ ، والشَّمْسُ والقَمرُ والنُّجومُ والْجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وكثيرٌ حقَّ عَلَيهِ العَذابُ ؟ ومَن يُهِنِ اللهُ فَمالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ)(١٨)

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) الصابئون : قوم كانوا يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرأون الزبور • وفي القاموس : هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح ـ عليه السلام ـ وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار • وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، وكان يقال لمقابليهم الحنفاء أي الإبراهيميون • وكانوا يقولون : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته ، وأمره وأحكامه جل جلاله الى متوسط روحاني (كالملائكة) لا جسمانيٍ • هذا •

والحاصل إنهم موجودون في العالم من قديم الزمان ، ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات ، وكانوا يعظمونها تعظيما مفرطا ، ولما لم يتيسر لهم الاتصال بهم ذاتا نزعوا الى ما اعتبروه هياكل لهم كالكواكب السيارات ، وبعض الثوابت • ولما لم يكن لهم كتاب معلوم ادعوا الانتساب إلى النصرانية ، وبذلك خلصوا أنفسهم من بعض أمور تعتري غير الكتابيين • ولفظ الصابئة مأخوذ من صبأ أي مال • وفي العرف خرج من دين الى آخر لأن أساس اعتقادهم على عبادة الروحانيات ، ومنها الى عبادة الكواكب ، ثم الى أديان معتادة بحسب الأزمان من دين نوح أو ابراهيم الى داود أو المسيح ـ عليه السلام ـ وتحقيق أحوالهم في الدين والإعتقاد يحتاج الى مماشاة معهم ومداراة لهم دهراً طويلاً ، لا في بقعة واحدة فقط بل في بقاع كثيرة ، وهذا لا يمكن إلا لصاحب قدرة وثروة ونفوذ يرسل المفتشين إلى بلاد عديدة •

وحاصل ما تقرر في الفقه أنهم يدعون في زماننا الانتساب الى دين النصرانية فيسأل علماؤها إذا اعترفوا بهم اعترفنا بهم ، وإلا فلا •

وأما المجوس فهم يعبدون النار ويعظمونها وفي كتاب الملل والنحل للشهرستاني ما يدل على أنهم طوائف وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وأنهم يقولون بالشرائع بخلاف الصابئة ، وأن لهم شبهة كتاب ، وأنهم يعظمون النار ، وأن بيوت النيران للمجوس كثيرة • وقال بعض في تحقيق لفظ (مجوس) أن أصله منج كوش أي صغير الأذنين ، وهو الذي أسس هذه النحلة • وقال بعض آخر : إن أصله موكوش يعني أنهم لا يحلقون شعر رؤوسهم فيتركونه حتى توصل شعور رءوسهم الى آذانهم •

والمراد بقوله (والذين أشركوا) عبدة الأوثان • وقيل يعمهم وسائر من عبد مع الله تعالى الها آخر من ملك أو كوكب • وحاصل معنى الآية : إن الله سبحانه وتعالى لا يترك الناس على ما اعتقدوه حقا أو باطلا ، وإنما يؤخرهم ليوم المحاكمة ، وهو يوم القيامة ،فيفصل فيه بينهم ، ويأخذ منهم كتاب أعمالهم ، وكل يجزى بما يستحقه ، ولا مجال لاختفاء أي واحد من حضور المحكمة التي يفصل فيها الباري سبحانه •

وقوله تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ؟) الخطاب فيه جار مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع كل من يمكن منه الرؤية • والرؤية هنا رؤية علمية • وفي معنى السجود أقوال كثيرة ، فجاء بمعنى الخضوع والتذلل ، وجاء بمعنى وضع الجبهة على الارض • والرأي المصيب هو أن المراد بالسجود هنا الإطاعة اختيارا ، فأسند الباري تعالى ذلك السجود الى المذكورات في الآية الكريمة • وكل منها يسجد للباري سبحانه وتعالى سجودا يعرفه هو لا غيره • وذلك على وزان قوله تعالى : (وإن من شيىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) • (و) كذلك (كثير

من الناس) وهم الموفقون (وكثير حق عليه العذاب) فلا يفتح له إلى السجود باب ، وذلك يصرف إرادته الى ما لا يرضى به الله ورسوله ، ويستمر عليه فيطبع على قلبه . وهذا الصنف من الناس أهانهم الله تعالى (ومن يُهن الله فما له من مكرمٍ) إذ لا مجال لمعارضته إرادة الباري تعالى (إنّ الله يفعلُ ما يشاءُ) .

(هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نَارٍ ، يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ(١٩) ، يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ وَالجُلُودُ(٢٠) ، وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ(٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها ، وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ(٢٢) إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، ولِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ(٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إلى صِراطِ الْحَمِيدِ(٢٤) إنَّ الذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ والمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سواءً الْعاكِفُ فِيهِ والْبادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ)(٢٥)

قوله تعالى :(هذا خصمان) المراد به فريق المؤمنين وفريق الكافرين على الإطلاق ، وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : تخاصم المؤمنون واليهود . فقالت اليهود : نحن أولى بالله تعالى منكم وأقدم نبيا وكتابا . وقال : المؤمنون نحن أحق بالله تعالى ، آمنا بمحمد ـ صلى الله

عليه وسلم ــ وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله تعالى من كتاب ، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا وتركتموه وكفرتم به حسدا • فنزلت الآية •

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والطبراني وغيرهم عن أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ إن كان يحلف حلفاً أنّ هذه الآية الى قوله تعالى (إن الله يفعل ما يريد) نزلت في الثلاثة ، والثلاثة الذين بارزوا يومَ بدر ، وهم حمزةُ بنُ عبدالمطلب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبيدة بن الحارث من جهةٍ • وعُتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عُتْبَة من جهةٍ أخرى • وفي الآية تقسيمٌ وجمعٌ وتفريقٌ • فالتقسيم (إن الذين آمنوا) الى قوله تعالى (والذين أشركوا) والجمع (إن الله يفصل بينهم) الى قوله (هذان خصمان اختصموا في ربهم) والتفريق في قوله تعالى (فالذين كفروا قُطّعَت لهم ثيابٌ من نار) • وفي قوله تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) إستعارة تمثيلية تهكمية حيث شبهت الهيئة الحاصلة من أمواج النار المتراكمة وإصابتها لكل عضو من أعضائهم وتأثرهم بها تأثرا فاجعا بالهيئة الحاصلة من تقطيع الثياب على حسب حجم أعضاء البدن ولبس بعضها فوق بعض ، وذكر اللفظ الدال على المشبه به •

وقوله : (يصبّ من فوق رؤسهم الحميمُ) جملة مستأنفة لزيادة وجوه أُخر من أصناف التعذيب على ما ذكره • أي ويفاض من فوقهم الماء الحار الذي وصلت حرارته الى درجةٍ لا تطاقُ (يصهر به) أي يذابُ به (ما في بطونهم) من الأجزاء الباطنة كالكرش والإمعاء والأحشاء (والجلود) ذكرها لإفادة شدة تأثير النار بإيهام أن تأثيرها في الباطن أَقدمُ من تأثيرها في الظاهر ، مع أن ملابستها بالعكس (ولهم مقامعُ من حديد) أي وَأعد لهم عند الزبانية مطارق من حديد (كلما أرادوا أن يخرجوا منها) أي كلما أشرفوا على الخروج من النار (من غم) أي من أجل الهرب عن غم عَرَضَ

عليهم (أعيدوا فيها) أي ردوا الى أعماقها (وذوقوا عذاب الحريق) أي ويُقال لهم : ذُوقُوا عذاب الحريق . ذلك أحوال الفريق الكافرين .

وأما أحوال فريق المؤمنين فقد أفادها بقوله الكريم : (إِنَّ الله يُدخلُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، يُحلونَ فيها) منْ جانب الملائكة بأمره تعالى (من أساور من ذهب ولؤلؤاً) عطف على محل الجار والمجرور (ولباسُهُمْ فيها حريرٌ) ناعِمٌ يلتذ به بشرة الإنسانِ (وهدوا إلى الطيب من القول) أي وارشدوا الى القول الطيب وهو (الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض تتبوأ من الجنة حيث نشاء) . (وهُدوا إلى صِراطِ الحَميد) أي في الدنيا . وحاصله أنهم لما أرشدوا في الدنيا الى صراط الله العزيز الحميد وهو الإسلام وعملوا بمقتضاه هُدوا في الآخرة الى الطيب من القول ، فكان مبدأهم ومُنتهاهم خيراً .

(إن الذين كفروا ، ويَصُدّون عَنْ سبيل الله والمسجد الحرامِ) أي ان الذين كفروا بالله ورسوله ويصدون الناس عن السلوك في سبيل الله أي الإسلام أي يمنعون الناس عن أن يسلِموا ، وعن الدخول في المسجدِ الحرامِ لاجل العبادة أو لطواف بيت الله (الذي جعلناه للناس) أي المسجد الحرامَ الذي قررناه للمسلمين من الناس (سواء العاكف) أي المقيم (فيه والبادي) أي الطارىء الوارد عليه من الخارج (ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم) أي ومن يرد فيه أيَّ سوء بالناس حالكونه متلبساً بإلحاد أي ميل عن الحق الى الباطل وقوله (بظلمٍ) أي إما في معنى الإلحاد فيكونان حالين مترادفين ، أو بدل من قوله بإلحاد ، أو متعلق به وقوله (نُذقْهُ من عذاب أليم) جواب الشرط ، وخبر إِن محذوف يدل عليه هذه الجملة ، أي فلهم عذاب أليم .

وهذه الآية نزلت في مشركي مكة الذين منعوا دخول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه مكة لأداء نسك العمرة عام الحديبية حيث منعوهم عنه ، ثم صالحوه على عودهم في العام القابل . وقد استشهد بها بعض الأئمة على عدم جواز بيع دور مكة وإجارتها ، وإلا لما استوى العاكف فيها والباد . وقد ورد التصريح بذلك في بعض الأحاديث الشريفة . واتفق فقهاء الحنفية على جواز بيع بيوتها ، وأما أراضيها فعند الإمامين جائز بلا كراهة . وعن الإمام أبي حنيفة روايتان : الجواز ، وعدمه . والمفتى به الجواز . وأما الشافعي فيجوز عنده بيع البيوت والأراضي التي أحْيَوْها، كما دلت عليها الأخبار ، ولم يزل الناس يتبايعونها . وأما خبرُ (مكةٌ لاتباع رباعُها ، ولا تؤجر دورها) فضعيف . وأما قوله تعالى (سواءٌ العاكف فيهِ والبادِ) فالمقصود مساواة المقيم وغيره في المسجد الحرام وما ألحق به من محلات أداء المناسك . والوعيد في الآية الكريمة لمن يصدون الناس المسلمين عن زيارة المسجد الحرام وأداء المناسكِ مِن الحج والعمرة .

جرت مناظرة بمكة بين الإمام الشافعي وإسحاق ابن راهويه ـ رضي الله عنهما ـ . وكان إسحاق لا يُرخص في كراء دور مكة . فاحتج الشافعي بقوله تعالى : (أُخرِجوا من ديارهم بغير حق) فأضيفت الديار إلى مالكيها . وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة : « من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وبأنه قد اشترى عمر ـ رضي الله عنه ـ دار السجن ، أترى أنه اشترى مِن مالكيها أو غير مالكيها ؟ قال إسحاق : فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركتُ قولي .

(وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً ، وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ ، فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا البائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَاحِلَّتْ لَكُمُ الأَنعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيكُمْ ، فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)(٣٣)

قوله تعالى : (وإذ بوأْنا لإبراهيم مكانَ البيت) أي اذكر لهؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيلِ اللهِ وَعن المسجد الحرام وقتَ جَعْلِنا مَكان البيت مَباءَةً لجدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة ، أو بينا له مكان البيت ليبنيه ويكون مباءة له ولعقبه يرجعون اليه ويحجونه (أن لا تشرك بي شيئا) أن مفسرة لبوّأنا من حيثُ أنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة ، أو مصدرية موصلة بالنهي ، أي فَعَلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وَوَصل أن بالخبر والإنشاء سائغ (وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) أمره الله

تعالى بتطهير بيته للجمع المذكورين ، والطهارة يراد بها ما يشمل الحسية بأن يطهر من الأوساخ والأقذار ، والمعنوية كعبادة الأوثان والأعمال اللاغية للإنسان . والمراد بالطائفين الذين يطوفون بالبيت لأداء النسك وبالقائمين المصلون . وذكر الركع السجود لإفادة معظم أركانها مع القيام . ويجوز أن يُراد بالطائفين الناسكون القادمون من خارج الحرم وبالقائمين المقيمون فيه منهم فيبقى الركع السجود لبيان المصلين فيه .

(وأذِّنْ فِي الناس بِالحج يأتوك رِجالاً وَعلى كُل ضامِرٍ يأتينَ مِنْ كل فج عميق) أذن أمر من التأذين بمعنى النداء والإعلان ، ورجالا جمع راجِلٍ كقيام جمع قائم ، والضامر البعير المهزول ، والفج الطريق ، والعميق البعيد . أو المراد به الطريق الغائر في الأرض لكثرة عبور العابرين عليه . روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : لما فرغ إبراهيم ــ عليه السلام ــ من بناء البيت قال : رب قد فرغتُ ، قال أذن في الناس بالحج . قال : يا رب وما يبلغُ صوتي ؟ قال أذن وعليّ البلاغ . قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل : يا أيها الناس كُتب عليكم الحج الى البيت العتيق . فسمعه أهل السماء والأرض . ألا ترى أنهم يجيبونَ من أقصى البلاد يلبون ؟ وفي الآية دليل على جواز المشي والركوب في الحج . والحاصل أنك لما بنيت البيت بأمري أعلن وناد بالناس ليأتوا الى الحج مشاة على الأقدام أو ركبانا على كل حيوان مهزول يأتين من كل طريق بعيد من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها . وقد نادى وأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء . وإيقاع الإتيان على ضمير المخاطب في يأتوك لأنه أول مَنْ نادى ، فكأنّ المجيبين أتوه على ندائه . وقوله (ليشهدوا منافع لهم) أي ليشهدوا منافع دنيوية أو دينية على سبيل منع الخلو ، وذلك كالتجارة واشتراء ما يراه من الحاجيات التي قلما توجد في غير الحجاز ، والإطلاع على

البيت ومحلات أداء المناسك ، والعلم بكيفية السلوك والمسالك ، والتفاهم مع العلماء والقادة الوافدين من سائر الممالك •وبذلك يتبصر العاقل لأموره في مستقبل حياته • (ويذكروا اسمَ اللهِ) عند النحر والذبح (في أيام معلومات) وهي أيام التشريق : يوم العيد وثلاثة أيام بعده (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) الإبل والبقر والضأن والمعز السليمة من العيوب المخلة باللحم ، فإذا ذبحتموها (فكلوا منها وأطعموا البائس) الذي أصابه بؤس أي شدة من المرض والعمى والعرج وغيرها (الفقير) المحتاج • وذكر البائس الفقير للترغيب في رعايته لا للتخصيص ، فإن الضحايا يأكل منها أصحابها والأغنياء والفقراء ، ولا يختص بالفقراء إلا المنذورة ونحوها على ما فصل في الفقه •

(ثم ليقضوا تفثهم) أي يزيلوا عنهم كقضاء الواجب الفائت ما يتوسخ به الإنسان من العوارض أي يزيلوا ذلك بتقليم الأظفار والأخذ من الشوارب، وحلق الرأس ونتف الإبط والعانة ، فإن إزالتها ممنوعة بعد الدخول في الإحرام بالنسك (وليوفوا نذورهم) ما ينذرون به من أعمال البر في حجتهم (وليطوفوا بالبيت العتيق) أي الكعبة الشريفة طواف الإفاضة ويسمى طواف الزيارة ، وهو ركن من أركان الحج • ويوصف بالعتيق لأنه عتق من استيلاء الجبابرة عليها أو يعتق من الخلود في النار من يطوف به مؤمنا بالله ورسوله• (ذلك) أي الأمر ذلك (ومن يعظم حرمات الله) أي التكاليف التي احترمها الشارع وحرّم على الناس الإعتداءَ فيها بأن يأتي بها على الوجه المشروع المقرر علما وعملا (فهو خير له عند ربه) أي فتعظيمه خير له لأنه يثاب عليه عند ربه • وليس المراد بالخير التفضيل لأنه لا فضل في المقابل ، وإذا كان المراد بالتعظيم الأداء على الوجه الأكمل فللتفضيل وجه وجيه لأن أداءه كاملا خير، وذلك خير منه• وقوله تعالى:(وأحلت لكم الأنعام) جملة معترضة مقررة لما

قبلها من الأمر بالأكل والإطعام دافعة لما عسى أن يتوهم أن الإحرام يُحرم ذلك كما يحرم الصيد • وقوله (إلا ما يُتلى عليكم) أي يتلى عليكم تحريمه إستثناء متصل بناءً على أنّ ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهلّ به لغير الله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الرجس الشيء المستقذر ، ومن للبيان أي فإذا تبين لكم الحج المشروع وأنه زيارة بيت الله لذكره والإختصاص به والتزام دينه وهو التوحيد فاجتنبوا وابتعدوا عن الشيء المستقذر وهو الأوثان • ولما كانت ذواتها ووجودها في أماكن العبادة مما يوهم عبادتها والإشراك لها مع الله سبحانه وتعالى صارت من جملة المستقذرات ، وإن كان المستقذر هو طاعتها واحترامها (واجتنبوا قول الزور) أي مطلق الكذب في أي موضوع وفي أي بابٍ كان ، أو شهادة الزور مطلقا ، أو على استحقاق الأوثان للعبادة •

(حنفاء لله غير مشركين به) أي مائلين عن الباطل إلى الحق حالكونكم غير مشركين شيئا من الأشياء جامدا أو ناميا ، نباتا أو حيوانا أو إنسانا (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفهُ الطيرُ) أي فتأخذه وتأكله او (تهوي به الريح) أي تسقطه وتقذفه (في مكان سحيق) أي بعيد عن المعمورة لا يجده من يتفقده فينمحي ذاتا وأثراً ، فإن الإنسان بفطرته السليمة في مقام عال والمسلم المنقاد لله كذلك فاذا ضيع صفاء الفطرة أو ترك ما هو عليه من علو التوحيد وأشرك بربه فيشبه إنسانا قائما على مقام عال وبينما هو كذلك إذ سقط إلى الأسفل وتمزق وخطفت أجزاءه الطيور الضارية ، أو رمت به الريح من فوق ذلك المكان العالي الى محل ناصٍ غائرٍ لا مجال فيه للراحة • وحاصل المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكتْ نفسه هلاكاً يشبه الهالكين •

(ذلك) أي الامر ذلك (ومن يعظم شعائر الله) أي أركان عبادات الله من الحج وغيره ، أو يعظم الأنعام التي يذبحها في الحج بأن يأخذها كثير اللحم وفير الشحم (فإنها) أي فتلك الشعائر باعتبار اتخاذها أي اتخاذها كما أمرنا (من تقوى القلوب لكم فيها منافع الى اجلٍ مسمى) أي لكم في الشعائر بمعنى الأنعام منافع من : الدَّر ، والنسل ، والصوف ، وركوب الظهور ، إلى وقت معين وهو وقت اعتبارها هديا (ثم محلها الى البيت العتيق) أي وجوب نحرها منتهٍ إلى البيت العتيق أي إلى ما يليه بعلاقة أداء المناسك فيه وهو المنحر كمنىً •

(ولِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَالصّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ ، وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ، فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ، كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها ، وَلا دِماؤُها ، وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ، كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ)(٣٧)

قوله تعالى (ولكل أمة جعلنا منسكاً) عطف على قوله سبحانه (لكم فيها منافع) والمنسك إما اسم مكان أي مكان النسك ، أو مصدر ميمي

وهو في الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع استعماله في أعمال الحج ، وبالخاصة الذبح . أي ولكل أهل دين جعلنا متعبدا أو قربانا يتقربون به إلى الله تعالى وذلك (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) عند ذبحها دون غيره تعالى (فإلهكم إلهٌ واحد) أي وإنما جعلنا ذكر اسم الله غاية في النسك لأن إلهكم إله واحد هو الله تعالى فلا اعتبار ولا صحة لذكر غيره (فله أسلموا) أي فله تعالى أطيعوا وانقادوا (وبَشِّر) يا رَسُولي (المخبتين) أي المتواضعين له تعالى .

(الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) خافت قلوبهم من فيضان أنوار الإيمان عليها (والصابرين على ما أصابهم) من متاعب الإستقامة في دين الله وتحمل ما يعرض عليهم من الواجبات كالجهاد وإرشاد العباد وغيرها من مهمات المسلم (والمقيمي الصلاة) في أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) أي يصرفون المال المرزوق الموجود عندهم بطريق أداء الواجبات المالية كالزكاة والنذور والكفارات ، أو الصدقات التطوعية كالهدايا وماشاكلها (والبدنَ جعلناها لكم من شعائر الله) البدن جمع بدنة وهي ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، وفي القاموس هي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم أي وجعلنا البدن لكم من أعلام دين الإسلام التي شرعها الله تعالى (لكم فيها خيرٌ) أي نفع في الدنيا وأجْرٌ في الآخرة (فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ) بأن تقولوا : بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك ، عند ذبحها حالكونها قائمات قد صففنَ أَيديَهُنّ وأرجُلَهُنّ . فقوله (صَوافّ) جمعُ صافةٍ ومفعوله مقدر كما ذكرناه (فإذا وَجَبَت جُنُوبُها) أي سقطت جنوبُها على الارض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا القانع) أي الذي يرضى بما يُعْطى من غير سؤال (والمعترّ) أي المعترض للسؤال . والمقصود تعميم الإعطاء

للسائل وغيره (كذلك سخرناها لكم) أي مثل ذلك التسخير سخرناها لكم حتى تذبحوها مع كمال قوتها ومنعتها (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم •

(لن ينالَ الله لحومها ولا دِماؤها) أي لن يصيب رضا الله تعالى لحومها المتصدق بها ولا دماؤها المُهْراقَةُ (ولكن يناله التقوى منكم) أي ولكن يصيب رضاه مايصحب ذلك من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى ذبحها تقرباً (كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ماهداكم) أي مثل ذلك التسخير سخرها لتعظموا ربكم سبحانه وتعالى وتعرفوا عظمته على هدايته لكم على التقرب بذبحها إلى الله وحده ، أو على طريق تسخيرها (وبشر المُحسنين) أي المخلصين لله تعالى فيما يأتون ويذرونَ •

(اِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنوا اِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفورٍ(٣٨) اُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) اَلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللهُ ، وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ ، وبِيَعٌ ، وصَلَوَاتٌ، وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسْمُ اللهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) اَلَّذِينَ اِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوا عَنِ المُنْكَرِ ، وللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ)(٤١)

قوله تعالى : (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام سيق لإفادة استقرار قلوب المؤمنين وترغيبهم في الاستقامة على ما أمروا به وتأكيد اعتمادهم على الله ببيان أن معهم التأييد من الله ، وأنه يدافع عن الذين آمنوا

وكلما احتاجوا إلى معونة ومدد أعانهم الله وأمدهم وأنه لا يحب الكافرين لأنهم خائنون مع أهل الحق ومع أمتهم ومجتمعهم وأنه لا يحب كل خوان كفور . وقوله تعالى (أذن للذين يُقاتلون) الآية أول آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيف وسبعين آية على ما روى الحاكم في المستدرك . وعن أبي العالية : إن أول آية نزلت فيه قوله تعالى (وقاتِلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم) وفي الإكليل : إن أول آية نزلت قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وروى جماعة أنها نزلت في أناس مؤمنين خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاتبعهم كفار قريش فأنزل الله تعالى لهم في قتالهم . والمعنى إن الله تعالى رخص لهم أن يقاتلوا الكفار بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم . وقوله (إن الله على نصرهم لقدير) وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر .

(الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله) أي لا موجب لإخراجهم إلا توحيدهم لله فالكلام من قبيل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) تحريض للمؤمنين على القتال المأذون فيه ، ويفيد أن هذا القتال فيه فائدة كبيرة إذ لولا دفع الله الناس بعضهم الظالمين ببعض من المحاربين الأبطال المدافعين عن الحق (لهدمت) المعابد من (صوامع) الرهابنة (وبيع) النصارى (وصلوات) اليهود أي كنائسهم سميت بذلك لأنها يصلى فيها (ومساجد) للمؤمنين (يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره) أي من ينصر دينه (إن الله لقوي) على نصرهم (عزيز) لا يمانعه شيء وقوله (الذين إن مكناهم في الأرض) وصف للذين أخرجوا أي إنهم الذين إن مكناهم في

الأرض (أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكان ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور) والمراد بالصلاة والزكاة الركنـان المعلومان للإسـلام ، والمراد بالمعروف كل أمر واجب أو مندوب ، والأهم التوحيد ، والمراد بالمنكر كل حرام ومكروه والمهم هو الشرك بالله • ومعنى قوله (ولله عاقبة الأمور) إن مرجعها إلى حكمه تعالى ، وتقديم الظرف للحصر والاهتمام •

(وَإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وثمودُ(٤٢) وقَوْمُ إبْراهِيمَ وقومُ لُوطٍ(٤٣) وأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى، فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكير ؟(٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ اَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ، وبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ؟(٤٥) اَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ؟ فَإنَّها لاتَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦) وَيَسْتَعْجِلونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَاِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ اَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَاِلَيَّ الْمَصيرُ ؟)(٤٨)

قوله تعالى (وإن يكذبوك) ••• الآية تسلية للرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ما جرى عليه من التعب والملال في تبليغ رسالته فيقول الباري تعالى (وإن يكذبوك) فاصبر على أذى التكذيب كما صبر الرسل السابقون على تكذيب قومهم لهم إذ (قد كذبت قبلهم) أي قبـل قريش (قوم نوح) نوحا (و) كذَّبَتْ (عادٌ) هودا (وثمودُ) صالحاً (و)

قوم (إبراهيم) إبراهيم (وقوم لوط) لوطا (و) كذبت (أصحابُ مدْين) شعيباً (وكذبَ موسى) من جانب الأقباط (فأمليتُ للكافرين) أي أمهلتهم (ثم أخذتهم) أي أخذت كل فريق منهم (فكيف كان نكير ؟) أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الملذات . (فكأين من قرية أهلكناها) أي أهلكنا كثيرا من القرى (وهي ظالمة) والحال أنها ظالمة (فهي خاوية على عروشها) أي فهي ساقطة على سقوفها بأن لم تتحمل البنيان السقوف فسقطت أولاً ثم انهارت الحيطان عليها (وبئر مُعَطلة) أي وكم بئر معطلة لا يُسْتقى منها لموت أهلها (وقصر مشيد ؟) أي وكأين من قصْر مشيدٍ مرفوع البنيان أخليناه عن ساكنيه . (أفلم يسيروا في الأرض) حث لهم على التجوال في العالم ليروا معالم بيوت الهالكين (فتكون لهم قلوب يَعْقلونَ بها) أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من توحيد رب العالمين (أو آذان يسمعونَ بها) ما يجب أن يسمع من الوحي ومن أخبار الأمم التي يعتبر بها المعتبرون . وسبحان الرب الخالق من أحوال الناس الذين نسوا الإعتبار بكلمات الوحي ، وأهملوا التفكير في ما ينفعهم من الآثار الدالة على وجوب إتباع الحق والإستفادة من أخبار الأمم الماضية فإن قوما لم يكونوا كذلك قلوبهم معمية لا تدرك الحقائق ، وهي المصيبة العظمى (فإنها لا تعمى الأبصار) أي لا يضر عمى الأبصار بعد إدراك البصائر (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي ولكن المضر هو عمى القلوب التي أودعت في الصدور للتفكر في ما ينفع وما يضر والإحتراز عن الثاني والإقتراب من الأول .

(ويستعجلونك) أي مشركو قريش (بالعذاب) الذي تتوعدهم به (ولَنْ يخلفَ الله وعده) بأي شيء في الدنيا أو في الآخرة ومن أصدقُ من الله قيلا والزمان البعيد عندكم قريب عند الله تعالى والايام الكثيرة عندكم

قليلة عند الله (وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) وهذه الجملة مستأنفة وبيان لِتمادي صبره وتأنيه بحيث يستقصر المُدَدَ الطوال يعني إنه يأتيكم العذاب الموعود إن لم تتوبوا الى الله ولم تؤمنوا به وبرسوله ولو بعد مدة طويلة عندكم فإن الطويل عندكم قصير عندنا ، أو إن الجملة لبيان طول الآخرة ومدة عذابهم فيها ، ولهم في العذاب أحقاب وأيام لا نهاية لها وإن يوما من ايامه في الآخرة كألف سنةٍ مما تعدون • أو لبيان شدة عذابهم عند التعذيب فيوم من أيام عذابهم كألف سنة مما يعدون • (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة) أي كم من سكنة القرى باشروا بالظلم أعمالا فاسدة وأمهلناهم الى وقت مقدر لتعذيبهم (ثم أخذتها ؟) بالعذاب والنكال بعد طول الإمهال هذا في الدنيا (وإليَّ المصير) أي مصيرهم في الآخرة فأعاقبهم بما يستحقون •

قُلْ : يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٤٩) فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لهُمْ مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ(٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوا في آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ(٥١) وَما أَرْسَلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلوبُهُمْ ، وإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٤) ولا يَزَالُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ، أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)(٥٧)

قوله تعالى : (قل يا أيها الناس) خطاب عام للمؤمن والكافر والمنذر به قيام الساعة • أي أيها الناس إنما أنا لكم منذر إنذاراً بينا واضحا بقيام الساعة وما بعدها من الأهوال فالكافر العاقل يجب أن يتفكر في عواقبه ولا يستمر في ضلاله ويتوب إلى الله ويؤمن به وبرسوله ، والمؤمن يجب أن يزيد في أعماله الصالحة ولا يغتر بها ويخاف من عواقب أمره في مستقبله حتى لا يقع في المتاعب بعد قيام الساعة • (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي حتى وافاهم الأجل (لهم مغفرة) من الله لزلاتهم وأخطائهم (ورزق كريم) في الجنة • (والذين سعوا في آياتنا) أي بذلوا الجهد في معارضتها وإلقاء الشبه الى قلوب الناس منها حاكونهم (مُعاجزين) أي مسابقين للمؤمنين ومعارضين لهم في أفكارهم وأعمالهم (أولئك أصحاب الجحيم) وملازموها إلى أبد الآبدين •

ولما أنزل الله تعالى هذه الآية الدالة على وجود أناس كافرين مشاكسين له ولأتباعه المؤمنين ، وأنهم سعوا وبذلوا ما في طاقاتهم لمعارضة الرسول وإيقاع الشكوك والشبه في قلوب الناس واستمروا على ذلك أنزل سبحانه وتعالى ما يكون تسلية لقلبه الشريف فقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي ما أرسلنا قبلك أحدا منهما إلا بحيث اذا قرأ مانزل عليه من الله ألقى الشيطان الشبه في قراءته

وفيما يقرأه الى أوليائه من شياطين الإنس والجن حتى يوسوسوا بهـا في قلوب المؤمنين ليرتدوا عن دينهم وفي قلوب الكافريـن حتى يستمروا علـى الكفر ولا يدخلوا في الإيمان • وهذه الآية نظير قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وقوله : (وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم بالباطل) ومثال تلك الشبه كما قالوا عند سماع قوله تعالى : (حرم عليكم الميتة) ••• الآية مابال هذا الرسول يحل ذبيحته ويحرم ذبيحة الله ؟ ومرادهم بها الميتة وكقولهم عند سماع قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) أنه عبد عيسى من قبل النصارى وعزير من قبل اليهود والملائكة من قبل قريش فيلـزم أن يعذبوا في نار جهنم وقوله تعالى : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) معنـاه فيبطل ويمحو الله تعالى تلك الشبه التي ألقاها الشياطين في قلوب أوليائـه وألقاها أولياؤه في قلوب الناس بسبب توارد الآيات الواضحة الخالية عن مظان الإحتمالات الواهية وبتوفيق الله تعالى لرسوله في رد تلك الشبه (ثم يحكم الله) آياته أي يثبت الله تعالى تلك الآيات بإظهار معانيها الواقعيـة المحققة (والله عليم) بأحوال عباده (حكيم) في أعماله بحيث لا يخلو شيء منها عن حكمة جلية أو خفية يدركها أهل البصائر •

ومن جملة الحكم في الآيات الإحتمالية إختبار أهل القـوة في الإيمان وامتيازهم من أصحاب الضعف فيه • ومنها تصدي المؤمنين لرد تلك الشبه حتى ينالوا الأجر منه تعالى وحتى يتمرنوا في الدفاع عـن الدين • ومـن جملتها ظهور أهل الزيغ بين الناس حتى يعرفهم المسلمون كما يظهـر مـن قوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان) أي الشبه التي ألقاها الشيطان في قلوب أوليائه وهم ألقوه في قلوب المؤمنين (فتنة للذين في قلوبهم مرض) أي بلاء ومحنة وزيغا وانحرافا للذين في قلوبهم مرض مـن الكافريـن والمنافقـين

وضعفاء الإيمان (والقاسية قلوبهم) أي وفتنة للكفار الذين قست قلوبهم وأبت عن قبول الحق كأبي جهل وأبي لهب والنضر وعتبة (وإن الظالمين) من الفريقين المذكورين يعني الذين في قلوبهم مرض والذين قست قلوبهم (لفي شقاق بعيد) أي لفي عداوة شديدة ومخالفة كاملة لله ولرسوله وللمؤمنين . (وليعلم الذين أوتوا العلم) أي العلم الصحيح الموافق للواقع (أنه الحق من ربك) أي أن تلك الآية المنزلة التي جعلوها وسيلة لإلقاء الوسوسة في قلوب الناس هي الحق من ربك ولا كدَرَ ولا غبار عليها (فيؤمنوا به) أي فيؤمن الناس به من الذين لم يؤمنوا بعد ، ويثبت الذين آمنوا على الإيمان به أو يزداد إيمانهم به (فتخبت) أي تتواضع (له قلوبهم) فتنقاد وتطيع (وإن الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) من النظر الصحيح الموصل الى كشف معاني الآيات بحيث لا يتمكن أي كافر من إلقاء الشبهِ فيها .

(ولا يزال الذين كفروا في مريةٍ منه) أي في شك من النازل إلى الرسول (حتى تأتيهم الساعة بغتة) أي فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) شديد العسرة لا مجال فيه للإلتجاء الى أي واحد .

وفي روح المعاني : ما نصه وقيل (تمنى) قدر في نفسه ما يهواه و (أمنيته) تشهيهِ وما (يلقيه الشيطان) ما يوجب اشتغاله في الدنيا . وجعله فتنة ما يظهر منه من الاشتغال بأمور الدنيا ، ونسخه إبطاله بعصمته عن الركون إليه والإرشاد الى مايزينه إنتهى .

ومعنى الآية الكريمة على هذا : أنه (ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى) واشتهى مقاصده الخيرية من نصر الله تعالى له ونشر دينه وكثرة أتباعه (ألقى الشيطان في أمنية) ما يخالف مقامهما ويعارض كرامتهما كالاعتلاء على الناس والعظمة والشهرة (فينسخ الله) تعالى برعايته

لهما وصيانتهما عن الرذائل (ما يلقي الشيطان) الى قلوبهما ويحكم آياته أي آثاره الناتجة من نصرهما وإعزازهما بحيث لا تشوبها المفاسد وتكون صافية عن الأكدار والأقذار حتى لا يبقى من آثارهما الا ما يناسب مقامهما إنه عليم بكل ما يختلج في القلوب وحكيم في حفظ أحبابه من العيوب وهذا المعنى أوفق بالواقع من الاول ، لأن النبي هنا عام مقابل للرسول • والعام المقابل للخاص يراد به غيره ، والرسول له الكتاب والقراءة غالبا ، وقد لا يكونان للنبي فلا تكون عنده آيات مقروءة حتى يلقي الشيطان فيها ما يوسوس به في صدور المؤمنين الضعاف أو الكافرين ما ينحرفون به عن الحق وسلوك سبيل الرشاد • لكنه يحتاج هذا المعنى الى تأويل الآيات بالآثار الدالة على قدرة الباري ونصر الأنبياء والمرسلين •

(الملك يومئذ لله) أي السلطنة والعظمة يوم تأتي الساعة أو عذابها لله وحده لا شريك له (يحكم بينهم) بمقتضى عدله (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهم أهل العقيدة الثابتة والأعمال الصالحة (في جنات النعيم) لا يتحولون عنها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) وهم الذين يستمرون في المعارضة والمقارعة والقاء الشبه الواهية (فأولئك لهم عذاب مهين) محقر مرذل • وهنيئا لمن حقر الحق التحقير والترذيل ولمن أهان الإسلام ونظام السعادة الإهانة والتذليل •

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ

بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الباطِلُ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ)(٦٢)

قوله تعالى : (والذين هاجروا في سبيلِ اللهِ) أي في سبيل إعلاء كلمة الله ، ثم قُتِلُوا في الجهاد أو غيلةً ، (أو ماتوا) أي في تضاعيف المهاجرة أو بعد الوصول الى المهجر (ليرزقنهم اللهُ) أي في البرزخ (رزقاً حسنا) ممتازا عن أرزاق سائر المؤمنين • وفي الآية تشريفهم وتبشيرهم بهذا الوعد الصادر ممن لا يخلف الميعاد • ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشرين من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ (وإن الله لهو خيرُ الرازقين) فإنه يرزقُ من يشاء بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحدٌ غيره (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) وظاهر الآية واتصالها بما قبله أن الإدخال يتحقق في البرزخ أي أن مدخلهم واسع جامع للذات الروحية بعيد عن المنغصات • ويحتمل أن يراد به مدخله في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وإن الله لعليم) بأعمالهم وما يستحقونه من درجات النعيم (حليم) في السماح وصرف النظر عن هفواتهم في الدنيا •

(ذلك) أي الامر ذلك (وَمَن عاقبَ بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه) مرة ثانية (لينصرنه الله) قيل إن الآية نزلت في قوم قاتلهم المشركون في محرم فقاتلوهم ، ثم عاد المشركون عليهم فحاربوهم ونصرهم الله على أولئك المشركين (إن الله لعفو غفور) للمنتصر حيث اتبع هواه في الإنتقام وأعرض عما ندب إليه من الصبر والسماح (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ،

ويولج النهار في الليل) أي ذلك النصر على المشركين بسبب أن الله تعالى قادر على كل شيء فيقدر على تغليب بعض مخلوقاته على بعض كما هو قادر على تحريك الكرة الأرضية مع كبر حجمها إلى أن تغرب عنها الشمس ثم تحريكها الى أن تطلع عليها مع التصرف في هذا التحريك بجعله على مدارات متعددة ، في بعضها يتساوى الليل والنهار ، وفي بعضها يدخل بعض أوقات الليل في النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وفي بعضها يعكس ذلك (وإن الله سميع) بكل المسموعات و (بصير) بكل المبصرات ، ومن جملتها ما يقع من الأقوال والأعمال الموافقة للحق والمخالفة له و (ذلك بأن الله هو الحق) الثابت المتصف بالكمالات الذاتية (وان ما يدعون من دونه هو الباطل) أي وأن ما يعتبرونه إلها معبودا بالحق هو في ذاته باطل ، أي معدوم من حيث الألوهية ولا يستحق الاعتبار (وأن الله هو العلي) العالي على جميع الاشياء المعتبرة (الكبير) المتعالي عن أن يكون له شريك في ذاته أو صفاته أو أفعاله .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(٦٣) لَهُ ما في السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ الحميد(٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الأَرْضِ ، وَالفُلْكَ تَجْرِي في البَحْرِ بِأَمْرِهِ ؟ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الإِنسانَ لَكَفُورٌ(٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ ، وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً

مُسْتَقِيمٍ(٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ(٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماء وَالأَرضِ ؟ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ)(٧٠)

قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) إستئناف لتوجيه العقلاء الى النظر في آثار قدرة الله ليستدلوا بها على وجوده ووحدته وكماله ولا يدعوا من دونه أحدا • فقال تعالى (ألم تر) يا من يمكن منه الإبصار للأعيان والعلم بالأشياء (أن الله أنزل من السماء) أي من جهة العلو (ماء) على أرض هامدة فتصبح (الأرض) أي فتصير (مخضرة) بالنبات ؟ (إن الله لطيف) بعباده يعاملهم برفق ومجاملة فيحول الأرض التي هي كالفرش تحت أقدامهم من اليبس والجمود إلى الإخضرار بالورود و (خبير) بدقائق الحقائق وجلائلها ، ويسري علمه في الأشجار والاوراق الحاصلة منها ، والأوراد الناشئة عليها (وله ما في السماوات وما في الارض) خلقاً وملكا (وإن الله لهو الغني) عن الناس ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم ، وإنما يأمرهم بالإعتقاد السليم لتتنور قلوبهم فتهيج جوارحهم على اقتضائها لعبادة ربها فيفوزوا برضاه عند لقاه (الحميدُ) بإنعامه على عباده •

(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض) أي جعل ما فيها منقادة لكم بالذات أو بالقوة المودعة عندكم المسيطرة عليها (والفلك تجري في البحر بأمره) أي ألم تر أن الفلك تجري في البحر بأمره أي بقدرته التي جعلت المياه قابلة لسير السفن عليها والإنسان عالما بكيفية سوقها وإرسائها وتحريفها يمينا وشمالا (ويمسك السماء أن تقع على الارض ؟) أي ألم تر أنّ الله يمسك السماء كراهة أن تقع على الارض فتدمرها وتهلك من عليها وذلك

بخلق جاذبية في المواد العلوية والسفلية تجذبها في الجو الى مراكزها أو قوله (إلا بإذنه) استثناء مفرغ من أعم الأسباب أي أمسكها أن تقع على الارض بسبب من الاسباب إلا بسبب إذنه لها في الوقوع عليها لأنها إذا انشقت السماء وانفطرت وتلاشت وقعت أجزاء منها على الارض • (إن الله بالناس لرءوف رحيم) حيث سخر لهم ما سخر ومنع السماء من وقوعها عليهم •

(وهو الذي أحياكم) أي خلق الحياة فيكم بعد أن كنتم مادة لا حياة فيها (ثم يميتكم) بعد انتهاء مدة بقائكم أحياء (ثم يحييكم) إذا جاء وقت البعث والحشر (إن الإنسان لكفور) أي لجحود بالنعم مع وصولها إليه (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه) أي لكل أمة قررنا شريعة تمشي عليها، وأمة الإسلام أمة من الأمم (فلا ينازعنك في الأمر) أي أمر الدين ، ولا حق لهم فيه ولا يحق لهم النزاع معك (وادع الى ربك) أي الى توحيده وعبادته حسب شريعتك (إنك لعلى هدى مستقيم) أي إنك على طريق مستقيم بلا شك وشبهة (وإن جادلوك) في أمر الدين بعد ظهور الحق (فقل : الله أعلم بما تعملون) أي إنه تعالى أعلم منكم بأعمالكم وبجزائها وسترون الجزاء عن قريب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ويميز الحق من الباطل ويعين المحق عن المبطل فيرى كل جزاءه موافقا لعقيدته وعمله (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض ؟) فلا يخفى عليه شيء (إن ذلك في كتاب) أي ما في السماء والارض في كتاب هو اللوح المحفوظ (إن ذلك على الله يسير) سهل •

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وإذا

تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ في وجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ ، يَكادُونَ يَسْطُونَ بالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنَا ، قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمْ ؟ : النَّارُ وَعدَها اللهُ الَّذينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٧٢)

قوله تعالى (ويعبدون من دون الله) حكاية لبعض أباطيل الكافرين فيقول : (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سُلطاناً) أي حجة (وما ليس لهم به علم) أي وأوثانا ليس لهم علم باستحقاقه العبادة ، أي لا دليل عقليا على جواز عبادته كما لا دليلَ نقلا عليه ، وما دام دأبهم ذلك فهم من الظالمين (وما للظالمين من نصير • وإذا تتلى عليهم آياتنا) حالكونها (بينات) أي واضحات (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) أي الشيء المنكر والمراد به علامة الإنكار (يكادون يسطون بالذين يتلونَ عليهم آياتنا قل) يا رسولي : (أفأنبئكم) أي أخاطبكم أو أتسمعون فأخبركم (بشر من ذلكم) الذي فيكم من غيظكم على الذين يتلون القرآن عليكم وهو (النار وعدها الله الذين كفروا) يعني إنكم الآن مبتلون بنار في صدوركم وهي العداوة مع المسلمين التالين لآيات الله ، وفي الآخرة تبتلون بنار أشدّ من هذهِ النار (وبئس المصير) أعاذنا الله منها •

(يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ !(٧٣) ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤) أَللهُ يَصْطفي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً ، ومِنَ

النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ، وإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمورُ)(٧٦)

قوله تعالى : (يا أيها الناس ضُربَ مَثَل) أي بين لكم قصة بديعة عجيبة (فاستمعوا له) استماع تفكر للإعتبار وهي التي تذكر في قوله تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أي إن جميع ما تدعونه من دون الله باعتبار أنها آلهة لا يقدرون على خلق ذباب واحد مع صغر حجمه ، ولو اجتمع كلهم ؛ فإن اجتماع الجامد مع الجامد لا يلزم منه إلا المزيد في الجمود ، واجتماع الضعيف مع الضعيف في العقل تحصل منه قوة فيه لكن لا يبلغ مبلغ الاقتدار على الإبداع للمعدوم وإيجاد الروح في ما لا روح له • ومن لوازم الإله السيطرة والتصرف في الممكنات بالإيجاد وخلق الروح والصفات الفاضلة بحسب تعلق إرادته ، وعلاوةً على أن لا قدرة لهم على الإفادة لا قدرة لهم على الإسترداد لما فات (وإن يسلبهم الذباب شيئا) أي شيء كان (لا يستنقذوه منه) أي لا يقدرون على استرداده منه (ضعف الطالب) وهو عابد غير الله (والمطلوب) وهو الإله المفتعل المَصنوعَ العاجز عن كل شيء حتى عن أن يبالَ عليه فضلا عن التصرف فيما لديه • (ما قدروا الله حق قدره) يعني إن أولئك الذين اتخذوا آلهة من دون الله ما عرفوا الاله الذي يستحق العبادة فما عرفوا الله الجامع للكمالات الواجب الوجود المهيمن على كل موجود الخالق المعبود (حق قدره) حق معرفته وإلا كانوا يخجلون من نسبة الآثار الى غيره تعالى (إن الله لقوي) على جميع الممكنات (عزيز) أي غالب على ما تعلقت به مشيئته في الكائنات • وبيده العزة والجبروت يُعز ويذل وينبىء ويرسل •

(الله يصطفي من الملائكة رسلا) بأوامره في العالم ويتوسطون بين ذاته وبين رسله من البشر بالإيحاء (و) كذلك يصطفي (من الناس) رسلا

إلى عباده لتبليغ الاحكام (إن الله سميع بصير) بجميع المسموعات والمبصرات ويعلم ما وراءها من الأفكار والنيات ، (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) من أحوالهم من كل باب (والى الله ترجع الأمور) كلها للجزاء لا الى غيره •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧) وجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ ، هُوَ مَوْلاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)(٧٨)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) لما قرعَ أسماع المشركين بالدليل القاطع على جهالتهم وضلالتهم نظر إلى عباده المهتدين الراشدين وقال : (يا أيها الذين آمنوا) بالله ورسوله وسلكوا سواء سبيله أدوا صلواتكم بكمال أركانها ، واهتموا بأقوى أركانها (واركعوا) لمن ركعت له السماوات (واسجدوا) لمن سجدت له جباه الممكنات (وافعلوا الخير) أي ما هو خير من كيفيات الإتيان بالفرائض والنوافل من آدابها ، فخذوا الأكمل بدل الكامل حتى تؤدوها خير الأداء ، فإنها صلة بين العبد وربه ومعراج المؤمن للوصول الى غاية إربه ، أو افعلوا الخير من سائر الوجوه من الصدقات والصيام ، وإطعام الطعام وإسعاف المحتاجين من الأنام لتؤدوا حق الاسلام (لعلكم تفلحون) أي وحالكم أنتم راجون الفلاح من الله تعالى •

(وجاهدوا في الله حق جهاده) أي جاهدوا لإعلاء كلمة في سبيل مرضاة الله لا لغاية أخرى ، أو جاهدوا النفس في كبح جماحها ، والشيطان في رد تلبيسه فإن هذه المجاهدة في غيرما إذا كان الجهاد فرض عين أكبر من جهاد الكفار كما يشعر به ما أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال قدم على رسول الله قوم غزاة فقال : « قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » وفي إسناده ضعف مغتفر في مثله (هو اجتبيكم) أي هو جل شأنه اختاركم من بين الأمم (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي ضيق خارج عن نطاق القدرة ويشتد القيام به (ملة أبيكم إبراهيم) منصوب بفعل دل عليه ما قبله أي قبل نزول القرآن (وفي هذا) أي وفي القرآن وتلك التسمية جرت في أي وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم (هو سماكم المسلمين من قبل) قوله : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يوم القيامة أنه قد بلغ الدين إليكم (وتكونوا شهداء على الناس) روي أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لانبيائهم : هل بلغتم أممكم ؟ فيقولون نعم بلغناهم ، فينكرون ، فيؤتى بهذه الأمة فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) أي اعتمدوا عليه وثقوا به في جميع أموركم (هو موليكم) أي متولي أموركم وناصركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو إذ حق النصير حق النصرة أن يكون قديرا ، والقدير المطلق هو الله تعالى وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

الجزء الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون ، مكية ، وهي مائة وثماني عشرة آية

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ (٩) أُولٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فيها خالِدُونَ)(١١)

قوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) من هنا إلى تمام الآيات العشر آيات مدحها رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه ، والضياء في المختارة وغيرهم عن عمر ابن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قال : كان إذا نزل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الوحي نسمع عند وجهه كدويِّ النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : « اللهم زدنا ولا

تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثِرْنا ولا تؤثِر علينا ، وَارضَ عنا وَأرضِنا » ثم قال : « لقد أنزلت عَلَيَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر .

وأفلح لازم بمعنى دخل في الفلاح أي في الفوز بالمرام . وقد يجيىء متعديا ، وعليه قراءة أفلح بالبناء للمفعول ، والمراد بالمؤمنين ، اما المتصفون بأصل الإيمان بما علم مجيىء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ به بالضرورة من أركان الإيمان الستة ، والإسلام الخمسة ، فتكون الصفات الآتية بعدها مُخصّصه . واما المؤمنون الجامعون بين الإعتقاد والأعمال فعلا وتركا فتكون صفاتٍ مادحةً وموضحةً (الذين هم في صلاتهم خاشعون) أي أذلاء خائفون ساكنو الجوارح ، عليهم كساء الحياء والوقار ، متفكرون في عظمة الملك الجبار ، لا يلتفتون يمينا وشمالا ، ولا ينظرون إلى السماء خبالا ، ولا يتحركون حركات توجب بطلان صلاتهم أو سوء الأدب في مناجاتهم ، فإن الصلاة صلة رابطة بين العبد وربه ، وهي معراج لقربه من دربه . وخلاصة الخشوع : ترك مبطلات الصلاة ومكروهاتها ، وملازمة الحضور مع الله تعالى . وهذه هي الصلاة الرافعة للطاعة إلى سماء القبول (والذين هم عن اللغو معرضون) واللغو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال. والشائع استعماله في كلام لا يصدر عن روية وفكر فيجري مجرى اللغاء وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور . والمقصود استمرار الإعراض عن ذلك حتى يكون الأدب ملكة نفسية له (والذين هم للزكوة فاعلون) أي فاعلون لأدائها وإخراجها وتسليمها للمستحقين عند حولان الحول أو وجوب الأداء في الأقوات وما شاكلها من الركاز والكنوز المستخرجة .

(والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) هذه الآية الكريمة آتية ببيان صفة من الصفات الجلية للإنسان التي من

اتصف بها فاز بالسعادة ، وهي العفة وصيانة النفس عما هي راغبة فيه من قضاء الشهوة الفرجية التي تورث الخير على الوجه المشروع ، وتورث الشر على غيره . فكم من فتنة دينية ودنيوية ، وفوات مال ، وضياع حال ، واختلال صحة بدن نشأت منها ؟ ولما كانت الشهوة المذكورة لازمة لطبع الإنسان ويصعب الإنفكاك عن مقتضاها استثنى عن المذكور وقال : (إلا على أزواجهم) في اصطلاح الشرع (أو ما ملكت أيمانهم) بشرط أن يكون المالك رجلا فان التسري للنساء لا يجوز بالإجماع ، ومستنده واضح من الكتاب والسنة ، فالرجال هم المجاهدون الآخذون للغنائم ، وهم القوامون على النساء المنفقون عليهن ، وهم الأوساط طبعا والأحقاء بأن تكون إدارة النساء بأيديهم (فإنهم غير ملومين) تعليل للاستثناء أي فإنهم غير ملومين على ترك حفظها منهن قضاء لدغدغة الماء المعهود ، وإبقاء للنسل في الوجود على مر العهود ، واستيناسا بالمألوف على الوجه المعروف .

وعدم اللوم في هذا الباب مقيد بشروط في السنة والكتاب من خلوها عن الموانع كالإحرام ، والحيض ، والنفاس ، ومدة عدة الشبهة ، وتوقف الردة ، والصغر ، والمرض المانع كما هو معلوم .

(فمن ابتغى وراء ذلك) أي فمن ابتغى ما عدا ذلك المذكور من الأزواج الصاعدة إلى الاربع والإماء كيف شاء (فأولئك هم العادون) أي المتجاوزون عن الأمر المشروع ، الكاملون في التعدي والإعتداء على حدود الله . ويدخل في ذلك إفراغ المني بطريق الخيال ، أو النظر في ذات الجمال ، أو الملامسة ، أو الزنا ، أو اللوط ، أو مواقعة البهائم ، أو السحاق ... وغير ذلك كالاستمناء ما لم يكن هناك خوف الوقوع في الأفسد .

واستدل بهذه الآية الجليلة على بطلان نكاح المتعة وهو النكاح إلى أجل مسمى معلوم في مقابل أجرة معلومة بلا احتياج إلى شهور ولا إعلان بين الناس ، ولا إلى الطلاق ، لأن انتهاء المدة لها طلاق ، وبعد فراغ المدة فعدتها تكون لمن تحيض بحيضتين ، ولمن سواها بخمسة وأربعين يوما ، ولا يجب فيها غير الأجرة شيىء من النفقة وما شاكلها ، ولا توارث بينهما إذا مات أحدهما في المدة المذكورة . هذا أصلها وقد تفرع عليه أمور كثيرة يطول ذكرها . ودلالتها على بطلانه لأن المنكوحة بذلك النكاح ليست بزوجة لما ذكرنا ، وليست مملوكة ملك اليمين ، ومن لم تكن من إحدى هاتين فنكاحها باطل .

فان قيل : إن هذه الآية الكريمة ونظيرها في سورة المعارج من السور المكية فكيف تكون دليلا على حرمة ما كانت مباحة بعد الهجرة ؟ أجيب بأن في استعمال المكي والمدني وجوها ثلاثة :

الاول : ان المكي مانزل قبل الهجرة ، والمدني مانزل بعدها .

والثاني : ان المكي مانزل في مكة ولو كان نزولها بعد الهجرة كالآيات التي نزلت عام الفتح في مكة ، أو في حجة الوداع ، والمدني مانزلت بالمدينة المنورة .

والثالث : ان المكي ما وقع خطابا لأهل مكة في أي محل كان ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة كذلك . فهذه الآية ونظيرها في سورة المعارج يحتمل نزولهما في مكة في عام الفتح ، أو في حجة الوداع ، فتكونان مكيتين على الوجه الثاني . والتحريم يكون في أواخر أيام حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولئن تنازلنا وقلنا : إنهما مكيتان على الوجه الأول فنقول : تقرر عند الأصوليين أنه يجوز نسخ الكتاب بالسنة فلا مانع من نزولهما قبل

الهجرة لتشريع حرمة نكاح المتعة الشبيهة بالسفاح الدائر سابقا ، ولكنه لما اضطر الناس في الغزوات إلى ذلك ولم تكن مندوحة عنه أباحه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدةً لاقتضاء الضرورة ويظهر ذلك مما رواه عبدالله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنهم كانوا إذا غزوا اشتدت عليهم العزوبة فأذن لهم في الإستمتاع • حيث إنّ الإسلام ينكر الفوضى وسوءَ المعاشرة مع الناس ، وفسادَ الأخلاق ، وجوز للمضطرين التوافق مع بعض النساء وأوليائهن على نكاح مؤقت كذلك في مقابل أجرة معلومة ، ولكنه كان مقيدا بمقدار الضرورة • فقد روي أنه أبيح بعد الهجرة في بعض الغزوات قبل فتح خيبر ثم أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعلان تحريمه في خيبر ، وبعد مدة أخرى أبيح أيضا في عام فتح مكة الذي حدث فيه حرب أوطاس للضرورة عينها ، ثم حرم وأعلن التحريم بعد غزوة أوطاس، وكرر إعلان التحريم عام حجة الوداع كما نص عليه الشيخ ابن حجر العسقلاني في شرح البخاري في باب نهي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نكاح المتعة حيث ذكر أقوالا كثيرة فقال ما نصه • وقال النووي : والحق الصواب أن تحريمها أو إباحتها وقعا مرتين فكانت مباحة قبل خيبر ، ثم حرمت فيها ثم أبيحت عام الفتح وهو عام أوطاس ، ثم حرمت تحريما مؤبدا، ولما كان نسخ الإباحة وإعلان التحريم لم يسمعه بعض المسلمين أجازوه حتى أن انتشر في البلاد بين العباد واطلع الناس عليه •

وخلاصة المقام بعد تسليم أن الآيتين نزلتا بمكة قبل الهجرة نقول ان المتعة كانت دائرة في الجاهلية لاسيما للمسافرين من ذوي الحاجات النفسية• ولما كان منشأ لترتب كثير من المفاسد والمشاكل الإجتماعية والأخلاقية نزلت الآيتان في مكة لرفع تلك العادات الفاسدة عادات الجاهلية وحصر النكاح في النكاح المشروع والمزاوجة المشروعة ، ومعاشرة المملوكات ملك

اليمين حسب الأصول . ولكنه لما كانت تلك العادة عريقة في الناس وصعبت إزالتها مرة واحدة واحتاج اليها بعض الغزاة في الحروب حاجة ملحة أبيحت بعد الهجرة مدة من الزمن ثم حرمت في خيبر ، ثم أبيحت ، ثم حرمت تحريما مؤبدا الى آخر الزمان .

وليس في القرآن الكريم آية يستدل بها على إباحة المتعة ، وما استدل به بعض المخالفين من قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) حيث حملوا الإستمتاع على التمتع المعهود بالنساء في النكاح المعهود ، والأجور على أجرة المرأة .. لا دلالة فيه على مقصودهم كما سنذكره . والقرآن الكريم خال عن إجازة ذلك . ومادة المتعة نزلت في آيات كثيرة لمعان عديدة ترجع إلى أصل واحد .

الأول : متعة التسريح بإحسان كما في قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) وقوله تعالى : (فمتعوهنّ وسرّحوهنّ سراحا جميلا) وقوله تعالى (ومتعوهن على الموسر قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقوله تعالى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) والمتعة بهذا المعنى واجبة على الرجال لا تسقط بحال .

الثاني : متعة الحج يسميها الفقهاء المتعة ، وقد ذكرها القرآن الكريم بالتمتع وهو الاعتمار زمن الأمن في أشهر الحج كما في آية : (فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي) . وقيمة الهدي على ما ذكره القرآن الكريم طعام عشرة أيام قياماً للناس رزقاً لأهل الحرم .

والمعنى الثالث للتمتع هو الانتفاع بطيبات الرزق ولذائذ الحياة .

وقد نزل في آيات كثيرة باسم المتاع ، ومن باب التفعل وباب التفعيل والإستفعال . قال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) . وقال : (نمتعكم متاعاً حَسَناً) . وقال : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها).

أما متعة النكاح ونكاح المتعة فلم ينزل القرآن بها أبدا . وإذا علمت ذلك علمت أن دعوى المخالفين بكون قوله تعالى (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) نازلا في نكاح المتعة دعوى بلا دليل ، وليس مستنداً إلى حجة من العلم والدين ، ومخالف لظواهر الآيات الكريمة النازلة في باب النكاح .

وكيف تحمل تلك الجملة الجليلة على تلك الصورة الرذيلة ؟ واكتنفها صدرها والآية التي تليها وهما مخالفان لجواز نكاح المتعة ، وصدرها (والمحصنات من النساء) أي وحرمت عليكم ذوات الأزواج الحرائر من النساء (إلا ما ملكت أيمانكم) أي فلا تحرم عليكم (كتاب الله عليكم) أي كتب كتابا من الله عليكم . ثم يقول (وأحل لكم ماوراء ذلكم) أي وأحل لكم نكاح ماوراء ذلك المذكور من أصناف المحرمات من الأمهات وغيرهن (أن تبتغوا بأموالكم) أي أن تطلبوا الزواج بأموالكم المصروفة في المهور (محصنين غير مسافحين) حال من فاعل الفعل السابق أي حالكونكم محصنين غير مسافحين أي متعففين من الزنا غير صابين ماءكم في ما لا يحل لكم (فما استمتعتم به منهن) أي باشرتموهن (فآتوهن أجورهن) أي مُهُورهن ، فإن المهر مذكور في القرآن بعنوان الأجور في آيات ، وأما تاليتها فهي قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم ، بعضكم من بعض فانكحوهنّ بإذن أهلهن ، وآتوهنّ أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) ... الآية فإنها تنادي بأعلى صوتها :

إن المؤمن إذا لم يمكنه الزواج من المحصنات فلا مجال له إلا الإستفادة من الإماء التي ملكتها الأيمان ، وهن من المؤمنات ، وأنه ممنوع من السفاح واتخاذ الأخدان ، فلو جاز نكاح المتعة لقال : فمن ما ملكت أيمانكم أو ما نكحتم بأجور إلى أجل . فهذا النوع من النكاح لا محل له في كتاب الله ولا جواز له لمن يدين بدين الله ، ولا يجوز نسبة القول بجوازه إلى أئمة أهل البيت . فقد روى الإمام الشافعي عن ابن عينية عن الزهري عن الحسن عن أبيه الباقر محمد بن علي زين العابدين عن ابيه عن علي ابن أبي طالب أن منادي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نادى يوم خيبر ألا إن الله ورسول الله ينهيانكم عن المتعة » . وروى صاحب الكافي وهو من أوثق الكتب عندهم ذلك . فقد روى عن محمد بن أحمد بن يحيى عن أبي جعفر عن أبي الجوزاء عن الحسين ابن علوان عن عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن آبائه عن علي ابن أبي طالب أنه قال : حرم النبي يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة .

وبالجملة فنكاح المتعة عقد محرم لا مساغ له بأدلة :

الأول إجماع الأمة على تحريمه بعد تقرر نهي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه وثبوت النسخ في شورى الصحابة في عهد عمر ـ رضي الله عنه ـ وكان علي ـ كرم الله وجهه ـ حاضرا بالمجلس . وثبت إجماع المسلمين أهل السنة وغيرهم برواية زيد ابن زين العابدين عليّ ، ورواية محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ على تحريم المتعة تحريما مؤبدا والرواية ثابتة قطعا . ودعوى التقية ساقطة ؛ لأن التقية من حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستحيلة ؛ فإن الشارع واجبه التشريع ، ومن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ غير سائغ ؛ لأنه مبلغ عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وواجبه الوفاء بأداء الأمانة .

الثاني : إن كل آية فيها حل النكاح أو حرمته يدل على تحريم المتعة فان النكاح اذا أطلق لا يشمل نكاح المتعة لا لغة ولا شرعا ، اذ لا يطلق على المتعة ولا على التمتع اسم النكاح كما لا يطلق على ماء الورد اسم الماء إلا بالإضافة ، ولا يطلق اسم الأزواج واسم امرأة الرجل واسم نساء المؤمنين ونساؤكم على المتمتع بهن . وهذه بينة لغوية وإنكارها مكابرة ، فإذا كان الأمر كذلك فليست المتمتع بها زوجة كما أنها ليست مملوكة فابتغاؤها عدوان وتجاوز على الحدود الشرعية .

الثالث : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ، فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) الأحزاب آية ٤٩ . يدل دلالة قطعية على أن عقد النكاح المشروع لا ينقطع إلا بطلاق أو ما في معناه كالفسخ من أحد الزوجين أو الحاكم . فالتمتع لا يكون عقدا حلالاً ، لأنه ينقطع وينتهي بغير الطلاق. ويدل أيضا على أن عقد النكاح الحلال يوجب متاع التسريح ، ونكاح المتعة لا يوجب متاع التسريح فلا يكون عقدا حلالا ، ويدل واضحا على أن عقد النكاح لا يوجب العدة إلا على الأزواج لقوله تعالى : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فكل نكاح لا يوجب القرآن الكريم عليه العدة يكون باطلا بالضرورة ، ولا آية فيه توجب العدة في المتعة .

الرابع : كل آية من آيات الطلاق والصداق والعدة والمواريث والحقوق مثل : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) تدل دلالة ظاهرة على أن العقد الحلال إنما هو النكاح الذي تثبت به كل هذه الحقوق ، فكل عقد لا يترتب عليه طلاق أو لا يترتب عليه إرث ، أو كل عقد لا يكون لها عليه مثل الذي عليهن لا يكون حلالا مشروعا .

الخامس : قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) يحرم بنصه نكاح المتعة لأن من لم يستطع طولا أن ينكح المحصنات لو كان يحل له التمتع بأجرة وإلى أجل مسمى لذكره القرآن الكريم حتى لا يكون قاصرا في بيان شرعه وحصره للنكاح المشروع في القرآن الكريم . السادس : الكتاب الكريم يقول في نكاح النساء : (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) . ويقول في نكاح الرجال : (محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان) ونكاح المتعة لا إحصان به ، والمتعة فيها سفاح ماء في غير حرث ، والمتعة هي اتخاذ خدن في كلا الطرفين فالمتعة إذاً حرام بنص القرآن .

السابع : قوله تعالى : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ، إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) .

فإن هذه الآية الكريمة وحدها من بين سائر الآيات تكفي تمام الكفاية في إظهار أن المتعة كانت محرمة في صدر الإسلام ، ولو حلت المتعة لما كان لهذه الآية الجليلة وجه وتعالت عن ذلك . ويظهر للمنصف أن الآية لما حرمتها على الإماء كانت حرمتها على الحرائر أولى .

الثامن : إن المتعة بأجرة إلى أجل إجارة ، وإجارة المنفعة بيع وتجارة ، ولم يحل دين من الأديان تجارة المرأة بشرفها وعرضها ، ولو جاز لامرأة بذل شرفها مقابل أجرة في مقابل هواها وجب القول بجواز كل عمل فاسد يجري في المحلات المعينة للبغاء بالأجور ، اذ لا تزيد المتعة التي لا يعتبر فيها

الشهود ولا الإعلان على البغاء، بل يزيد البغاء عليها في يومنا هذا بوجود أطباء اختصاصيين لمكافحة الامراض المعديـة .

ويظهر من تلك الأدلة أن المراد بالإستمتاع في قولـه تعالى (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) هو الإستمتاع اللغوي العربي ، ويراد به المباشرة ، وإنها توجب تقرر كامل مهرها . وتسمية المهور أجورا واردة في كثير من الآيـات . وأما دعوى زيـادة (إلى أجل مسـمى) في بعض القراءات فلا اعتماد عليها لأن القرآن لا يثبت بخبر الآحاد ، وروايتها كخبر مروي لا قيمة لها في معارضة تلك الأدلة الكثيرة الواضحة . هذا ونسأل الله الوصول إلى خير مأمول إنه معطي كل حاصل ومحصول .

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) وهذه الأمانات تشمل كـل مايؤتمن المكلف عليه من أمانات الحق كشرائعه وتكاليفه أو الخلق مما اودِعوا او جُعِلوا حرّاساً أو أمناء عليه . والعهد مصدر وأريد به ماعوهد عليه، فإن كان من الشرائع فذكره تاكيد للأمانات ، وإن كان مما جـرى بين الناس علـى موافقة الحق وإصلاح ما فسد من الأمور فذكره تأسيس . وأصل الرعي حفظ الحيوان والمراد به هنا الرعاية والمحافظة على ما قرره الله من كافـة النواحي (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أي الذين هـم يحافظون باستمرار على رعاية الصلوات مـن حيث أداؤها في أوائل الأوقـات مـع الجماعة وفي المسـاجد والجوامـع . صدر الباري تعالى أوصاف المؤمنين وختمها بأمر الصلاة اهتماما بها . والصدر للخشوع فيهـا والختم لباقـي الأمور المرعية إشارة إلى أن روح الصلاة عبارة عن الخشوع فيها الموجـب لمزيد الحضور (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس) أي أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات الحميدة هم الذين ينالون الفردوس ،

وهو أعلى الجنة و (هم فيها خالدون) لا يخرجون منها أبدا • والجملة حال مقدرة من فاعل (يرثون) ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها •

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحماً ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ(١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ)(١٦)

قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) السلالة الخلاصة التي سلت وأخذت من مجموعة مكدرة بعد تصفيتها • والإنسان إن أريد به سيدنا آدم أبو البشر فالمعنى واضح ، وإن أريد به الجنس ، أي نوع الانسان ، فوجه الكلام أنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفا بعدَ أدوارٍ جرت عليها • (ثم جعلناه) أي جعلنا نسله (نطفة) أي خلقناه من نطفة ثابتة (في قرارٍ مكينٍ) أي مستقرٌ حصين (ثم خلقنا النطفة علقة) أي جعلنا النطفة قطعة دمٍ منجمدة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أي جعلنا تلك القطعة من الدم قطعة من لحم (فخلقنا المضغة عظاما) أي صلبناها وجعلناها عظاما (فكسونا العظام لحماً) أي فجعلنا العظامَ مكسوة باللحم• وهذا على أحد وجهين فإما جعل بعضا من المضغة عظاما وجعل بعضا آخر منها لحما لِكسوة العظام وهذا هو الظاهر أو جعل المضغة قطعة عظم ، وجاء بلحم مخلوق في الرحم كساء لها • (ثم أنشاناه خلقا آخر) يعني أنشأناه حالكونه مخلوقاً آخر غير ما كان سابقا وهو الإنسان الكامل الأجزاء الذي خلق فيه الروح وصار مدركا للكليات والجزئيات بحسب ما قدر له من

الهيآت (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي فتعظم وتقدس الله الذي هو أحسن الخالقين أي أحسن من كل خالق يزعمه الشركاء خالقا . وتمييز أفعل التفضيل محذوف أي أحسن الخالقين خلقا . أو أن الخالقين من الخلق بمعنى التقدير والتصوير العلمي أي أحسن من كل ذات يعتبر مقدرا ومصورا لأمور الكائنات .

(ثم إنكم بعد ذلك) أي بعد ذلك الخلق والدخول في عالم الحياة الإنسانية والعيش المقرر (لميتون) أي لمتصفون بالموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) أي تبعثون وتعادون إلى عالم الحساب والثواب والعقاب وذلك بخلق جديد وإعادة للإنسان السابق من أجزائه الأصلية التي دفنت أو سترت في الماء ، أو جعلت غباراً وذرت في الهواء كما يظهر من قوله تعالى (قال : من يحي العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة) أو من مثل تلك الاجزاء كما يظهر من قوله الكريم (أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) .

(ولَقَدْ خَلَقْنَا فَوقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ، وَما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلينَ(١٧) وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسكنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلى ذهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ(١٨) فَأَنْشأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ لَكُمْ فيها فَواكِهُ كَثيرَةٌ ومِنْها تَأْكُلُونَ(١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلينَ(٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها، وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثيرَةٌ، ومِنْها تَأْكُلُونَ(٢١) وعَلَيْها وعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ)(٢٢)

قوله تعالى : (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) لما ذكر الله سبحانه وتعالى تأثيره في تكوين العباد على تلك الدرجات الدقيقة الحقيقة بالتفكير العميق فيها ، وذكر أنهم بعد أن استقروا على الارض وقضوا أعمارهم في استيفاء لذاتهم ومقتضى شهواتهم ، ومانالهم من تبعاتهم يموتون ، وبعد ذلك الموت المؤسف المُحْزِنِ المُبكي يبقون في البرزخ بحيث ينساهم ذووهم ، ثم إذا جاء وقت الحساب والميزان يبعثهم من القبور لميدان العرض والحساب وأخذ ما يستحقونه من الثواب والعقاب •• وجهَ عباده إلى ماوراءه من جهاته ، وما يحتاج إليه في حياته من السماوات والارض وما فيهما من آثار قدرته التي يعجز عن إحصائها العقول فقال : (ولقد خلقنا فوقكم) أي في الجهة التي لا يتبدل اسمها بالنسبة وهي جهة الفوق مع مقابلها من التحت (سبع طرائق) أي سبع سماوات هي طرائق للملائكة في الصعود والنزول ، أو طرائق للكواكب السيارة على دوام المسير في الإشراق والغروب ، أو سبع سماوات هي طرائق أي مبسوطات من طرقت الحديد إذا بسطته ، أو سبعة أنواع لأن لكل سماءٍ أحوالا وأمورا من وجوه تصرف الباري كجعل السماء الدنيا مزينة بزينة الكواكب، وتخصيص كل سماء بجاذبة تقتضي أن تكون فوق الأخرى أو تحتها بدرجة أو درجات ، أو على صفات خاصة مغايرة لصفات البواقي (وما كنا عن الخلق غافلين) وما كنا غافلين عن تقدير الخلق والإيجاد، أي أنا ازلي وعلمي بالمخلوقات وأحوالها أزلي • أو ماكنا عن المخلوق غافلين ومهملين شئونهم ، فكل مخلوق له أمد في البقاء وأجل للفناء ، وحاجة خاصة بينهما ، وأنا عالم بذلك •

وفي الحقيقة إذا نظر الإنسان نظر العاقل في شئون السماوات وكواكبها، واختلاف حركاتها جهة وسرعة وأثرا ، ودورانها على محورها على كيفية خاصة من الجاذبة ، ورعاية موازينها بحيث لا يختل شيء منها أبدا ••• آمَن

بأن لها ربا قادراً خبيرا ، ولا يؤده حفظ أي كبير أو صغير ما دام تعلقت به إرادته . ولو تحققت الغفلة عنها ثانية من الثواني بل آنا من الأوان لتحطم العالم . فسبحان من رب مهيمن . وهذا الوضع البديع المتقن المنظم على أحسن نظام بعيد حتى في شعور أي إنسان أن ينسب إلى مبدأٍ بلا شعور .

(وأنزلنا من السماء) أي من نفسه أو جانبه وجهته ، أو السحاب الثابت في حركته (ماء) هو المطر ذائباً ، والحالوب منعقداً ، والثلج متفشيا،والصقيع واقعا على البسيط ، والندى على النباتات وأوراق الأشجار لاسيما في الربيع بالأسحار ، متلبسا (بقدر) على مقدار ماتقتضيه حكمتي في صنعتي ، سواء وافق مصلحة الناس أو لا (فأسكناه في الأرض) أي فجعلناه ثابتا قارا فيها ، ومن ذلك مياه العيون ولا يقدح في قدرة الباري المتعالى تكون الماء من انقلاب البخار أو اعتبار أي عاملٍ إعتيادي فإن أمور الكائنات في الارض والسماوات كلها على أسباب ومسببات . وقال تعالى (وآتيناه من كل شيء سببا) وهل يقدح في قدرته نبت النبات من البذور ، وعمل العامل من الشعور ، وضوء البيت من النور ؟ لكن العاقل إذا تفكر قليلا علم أن تلك الأسباب عاطلة إذا لم تكن هناك إرادة عاجلة ، فانّ البحار موجودة ، والأبخرة لا محدودة ، وقد لا ينزل من السماء مطر كاف للنبات ، والإنسان إنسان والنطفة نطفة و (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

والحاصل إنا لا ننكر الأسباب ولكن التأثير وخلق المقصود متعلق بإرادة المعبود كما قال تعالى (وإنا على ذهاب به لقادرون) أي وإنا لقادرون بلا ريب على الذهاب بالماء عن المائية أي إخراج الماء بتحجيره ، أو تغويره في الأرض ، أو بنحو ذلك . وفي هذه الجملة بلاغات ذكرها المفسرون ، ولم يلتفت الباري سبحانه إلى تعداد النعم الناتجة من الماء النازلة من السماء

لكثرتها بحيث لا يعلمها إلا الله ، ولكن ذكر بعض المنافع الخاصة فقال : (فأنشأنا لكم به) أي بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب) قدمهما لكونهما من الأقوات والفواكه ، وفيها أنواع الطعوم من الحموضة والحلاوة والتوسط (لكم فيها) أي في تلك الجنات (فواكه كثيرة) من أنواع الحوامض والحلويات (ومنها تأكلون) أي ترزقون أي تبيعون منها وتأخذون بدلها ما تعيشون به من المساكن والملابس وسائر الأقوات واللحوم والحاجيات ، ويجوز أن تعطف هذه الجملة على جملة أخرى مقدرة مستفادة من سياق النعم وهي منها تبيعون . أي منها تبيعون ومنها تأكلون . وإنما أظهر المعطوف لأن غالب البساتين للأكل لا للبيع ، ولكن هذا يكون عند المتمولين .

ذكر الراغب في الفاكهة قولين : الأول أنها الثمار كلها . والثاني أنها ماعدا العنب والرمان . وصاحب المختار اختار الأول وقال : قولُ مخرجِ التمرِ والرمانِ منها مستدلاً بقوله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان) قولٌ باطلٌ . ولا خلاف في أن اليابس منها كالزبيب والتمر وحَبّ الرمان ليس بفاكهة .

(وشجرة تخرج من طُور سيناء) أي أنشأنا لكم شجرة تخرج من طور سيناء ، وهو جبل موسى ــ عليه السلام ــ الذي ناجى ربه عليه ، وهو بين مصر وأيلة . ويقال لها اليوم (العقبة) . وقيل بفلسطين من أرض الشام ، ويقال له طور سينين . وجمهور العرب على فتح سين سيناء ، وهو اسم للبقعة والطور اسم للجبل المخصوص ، أو لكل جبل وهو مضاف إلى سيناء كما أجمعوا عليه (تنبت بالدهن) أي تنبت ملابسة بالدهن وهو عصارة كل ما فيه دسم والمراد ملابسة ثمرها له . وقيل الباء للتعدية أي تنبِت الدهن . ولا يخفى بعده لأن ربط الإنبات بالدهن لا دهنَ فيه للذهن .

(وإن لكم في الأنعام لعبرة) بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان بعد بيان النعم الواصلة من الأمطار والنبات ، ثم فصل ما فيها من مواقع العبرة . فقال (نسقيكم مما في بطونها) أي مما في أجوافها (ولكم فيها منافع كثيرة) من أصوافها وأشعارها وأوبارها وغير ذلك ... (ومنها تأكلون) عند ذبحها (وعليها وعلى الفلك) أي السفن (تحملون) في البر والبحر بأنفسكم وأحمالكم . وضمير عليها راجع للأنعام باعتبار بعض منها أي الإبل والبقر الأول بالوفرة والثاني بالندرة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ، فَقالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟(٢٣) فَقالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : ما هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شاءَ اللهُ لأَنْزَلَ مَلئِكَةً ، ما سَمِعْنَا بِهذا فِي آبائِنا الأَوَّلِينَ(٢٤) إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ(٢٥) قالَ : رَبِّ انصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ(٢٦) فأَوْحَيْنا إلَيْهِ انِ اصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا ، فَإذا جاء أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلك ، إلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِين ظَلَمُوا إنَّهُمْ مُغْرَقُونَ(٢٧) فَاِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ فَقُلِ : الحَمْدُ للهِ الَّذي نَجَّينا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٨) وقُلْ : ربِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنزِلِين(٢٩) انَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ وَإن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)(٣٠)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) • أقول صنع الله الذي أتقن كل شيء كل سورة وكل آية وكل جملة في القرآن الكريم لها علاقة مع أطرافها ، ومناسبة لائقة بحكمة الباري في تنزيل الكتاب العزيز • ذكر الفلك المناسب لسيدنا نوح ، وذكرنا بما جرى معه من قومه الطغاة ، وقهر الباري عليهم بالطوفان لعبرة القراء والسامعين • فأكد وقال : (ولقد أرسلنا) أي والله لقد أرسلنا (نوحاً الى قومه) المخصوص الذين أرسل إليهم (فقال : يا قوم اعبدوا الله) أي وحده ولا تشركوا به (مالكم من إله غيره) فإن المعبود يجب أن يكون مختصا بالخلق والرزق (أفلا تتقون ؟) عذابه بعد حسابه مما تشركون (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أي بعضهم لبعض مستنكفين من الخطاب معه ـ عليه السلام ـ : (ماهذا إلا بشر مثلكم) نوعا وصنعا ووصفا لا يتميز بالرسالة والعناية (يريد أن يتفضل عليكم) وأنتم أنتم فلا تخلوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه (ولو شاء الله) إرسال الرسول (لأنزل ملئكة) أي رسلا منهم • وقوله تعالى حكاية عنهما : (ما سمعنا بهذا) أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر (في آبائنا الأولين) يدل على فرط جهلهم بأحوال الامم الماضية ، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهورا معهودا معلوما ، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به) وانتظروا واصبروا وتحملوا كلامه (حتى حين) لعله يفيق عن هذا المرض فيعقل مانعقله أو يموت فيزول ماتتحمله ولما سمع نوح" كلامهم (قال : رب انصرني) عليهم بإضعافهم ليطيعوا أو بإبادتهم حتى ينقطعوا وذلك (بما كذبون) ي أي بسبب تكذيبهم لي •

(فأوحينا إليه) عقب ذلك (أن اصنع الفلك) أي اصنع الفلك (بأعيننا) أي متلبسا بمزيد حفظنا ورعايتنا (ووحينا) أي أمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها

(فإذا جاء أمرنا) أي وحينا (وفار التنور) بيان وتفسير لمجيىء الأمر • وكان سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ في ذلك الوقت بالجزيرة قرب الموصل • وقيل في (عين وردة) بالشام • وقيل في مسجد الكوفة • والله أعلم (فاسلك فيها من كـل) أي أدخل فيها من كل أمة (زوجين) أي فردين متزاوجين ولذلك بينه بقوله (اثنين) فإنه ظاهر في الفردين • يعنى إن زوجين تثنية زوج بمعنى الفرد المزاوج لا بمعنى الشفع من النوع ، وإلا لزم حمل أربعة أشخاص من كل نوع (وَأهلكَ) أي واسلك أهلك ، والمراد بهم من تبعه من المؤمنين والمؤمنات (إلا من سبق عليه القول منهم) إستثناء من الأهل إستثناء منقطعا، لأنهم لم يدخلوا في الأهل بالمعنى المذكور والمراد بهم زوجته وابنه الذي لم يؤمن ، وكان مع سائر الكافرين • ولو حمل الأهل على المعنى المشهور وإرادة امرأته وبنيه منه ، كما في سورة هود ، كان الاستثناء متصلا (ولا تخاطبني) بالشفاعة للإنجاء (في الذين ظلموا) أي أشركوا بالله (إنهم مغرقون) لظلمهم وإشراكهم • (فاذا استويت أنت ومن معك في الفلك فقل : الحمد لله الذي نجينا من القوم الظالمين) على نعمة إنجائنا وإهلاكهم (وقل : رب أنزلني منزلا مباركا) أي أنزلني من الفلك إنزالا أو مَسْكَناً ومنزلاً يكون سبباً للبركة او الرحمة بأمنه مِن الحَشَرات والسباع والأعداء الأرضية وصيانته من البلايا السماوية ، والاستفادة من البركة المادية في المحل باشتماله على المياه والمزارع وسائر ما يعيش به الناس والأنعام ، والمعنوية بأن يكون معمورا بالذكر والطاعة ووجوه الخيرات (وأنت خيرُ المُنزلين) أي خير من ينزل أتباعه في المحل المبروك • (إن في ذلك) الذي ذكر من أحوال نوح وقومه (لآيات) لمن يعتبر بها (وإن كنا لمبتلينَ) وإنا كنا مختبرين له ولقومه ومن نجح ربح •

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رسولاً منهم أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ (٣٢) وَقالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الحَيوةِ الدُّنيا : ما هذا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ؟ (٣٥) هَيهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِباً ، وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٣٩) قال : عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُم غُثاءً ، فَبُعْداً لِلْقَومِ الظَّالِمين) (٤١)

قوله تعالى (ثم أنشأنا مِن بَعدهِم قرنا آخرين) أي أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان أهل قرن آخرين • قالوا : هم قومُ عادٍ أو ثمود، والمشهور أن قوم عاد هم الذين جاءوا من بعد قوم نوح • ويشكل عليه قوله تعالى : (فأخذتهم الصيحة بالحق) لأن إهلاك قوم عاد كان بالريح العاتية • وأجيب عنه بأن جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روى في بعض الأحاديث • وأما إذا فسرنا القرن بقوم ثمود فلا اشكال لأن هلاكهم كان بالصيحة (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) هو هود أو صالح ـ عليهما السلام ـ • ولا يشكل على الثاني قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء

من بعد قوم نوح) لأنهم كانوا بعدهم ، ولو توسط بينهما قوم عاد • (أنِ اعبدوا الله) كلمة أن مفسرة لتضمن الإرسال معنى القول (مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟) عذاب الآخرة على اتخاذ غير الله إلهاً (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة واترفناهم في الحيوة الدنيا) أي أنعمنا عليهم إنعاما زائداً فوقعوا في ترف من حيث المعيشة واللذة الدنيوية : (ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة ، وادعاء أن المماثل في الأكل والشرب لا يكون رسولا من الله تعالى ، ولا تصح إطاعته ، ولذا قالوا : (ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أي في تصرفات العقلية ، مغبونون في آرائكم •

ثم استأنفوا لتقرير الزجر السابق بقولهم (أيعدكم) ذلك البشر المماثل لكم (أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ؟) من القبور للحشر والحساب والميزان والنشور • (هيهات هيهات لِما توعدون) هيهات اسم لفعل ماض وهو بعدَ كحسن ، وهيهات الثاني تأكيده ، والغالب في هذه الكلمة استعمالها مكررة • وفاعله راجع إلى الموضوع المذكور في الآيات السابقة ، وقوله لما توعدون بيان له ، فهو متعلق بمقدر كما في سُقياً لك ، أي البُعدُ المذكورُ كائن لما توعدون • وقيل : إن اللام زائدة ، وما توعدون فاعل لاسم الفعل ، أي هيهات ما توعدون (إن هي إلا حياتنا الدنيا) أصله إن الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ثم وضع الضمير موضع الحياة لأن الخبر يدل عليها ، فالضمير عائد على متأخر وعوده على متأخر مفسرٍ له جائزٌ إذا كانَ خبراً عنه • وكلمة إن نافية أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وإذا متنا فليست لنا حياة أخرى (نموت ونحيا) أي يموت جيل ويولد جيل آخر فيحيا بعد الجيل الأول (وما نحن بمبعوثين) بعد موتنا لحياة ثانية نثاب فيها أو نعاقب (إن هو إلا رجل افترى على الله) بدعوى أنه أرسله

إلينا وما نحن (بمؤمنين) أي بمصدقين له فيما يدعيه ويقوله (قال : رب انصرني) أي قال رسولهم بعد أن يئس من إيمانهم (رب انصرني) عليهم بإبادتهم (بما كذبوني) أي بسبب أنهم كذبوني ، وتكذيبهم لي تكذيب لك وأنت المنتقم المقتدر على الظالمين (قال : عما قليل ليصبحن نادمين) أي قال الله تعالى إجابة لذلك الرسول الجليل ليُصْبِحُنّ أي أولئك القوم المكذبون لك عن زمانٍ قليل نادمين عما قالوا وفعلوا لحلول العذاب عليهم .

(فاخذتهم الصيحة بالحق) اي فاخذت ذلك القوم الظالم صيحةُ جبريل ـ عليه السلام ـ بالامر الوارد من الله وهذا ظاهر ان كان القوم قوم صالح واما ان كانوا قوم عاد فالامر مشكل واجابوا عنه بان جبريل صاح بهم من الريح . قلت : ويجوز ان يراد بالصيحة صيحة الريح العاتية لانه قد تكون فيها صيحات هائلة تقطع القلوب ولاسيما اذا امرت من الله باهلاك قوم كعادٍ العادين (فجعلناهم غثاء كغثاء السيل) وهو مايحمله من الاوراق والعيدان البالية والاعشاب (فبعدا للقوم الظالمين) إما اخبار اي بعدوا بعداً ثابتا للقوم الظالمين ، او إنشاء ودعاء عليهم بذلك والدعاء على النسق المعتاد ، والا فلا حاجة الى الدعاء بالهلاك بعد الاهلاك الا اذا اريد البعدُ من رحمة ملك الملوك ومالك الأملاك .

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرى ، كُلَّما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ ، فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هرُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ (٤٦) فَقالُوا

أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنَا عابِدُونَ ؟(٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ المُهْلَكِينَ(٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٤٩) وَجَعَلْنا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ، وَآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ(٥٠) يا أَيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، وَاعْمَلُوا صالِحاً إنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٥١) وَإنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنا رَبُّكُمْ فاتَّقُونِ(٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مانُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْراتِ ؟ بَلْ لا يَشْعُرُونَ)(٥٦)

قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) هم عند أكثر المفسرين قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغير ذلك (ما تسبق من أمةٍ أجلها) ما نافية ، وكلمة من زائدة لتأكيد النفي ، والأجل بمعنى مدة البقاء كلها ، أو آخر الوقت المقرر لها • أي ما تتقدم أية أمة صالحة أو طالحة على الوقت الذي قدر لبقائها ، بل تنتهي عنده فإن كانت صالحة فإلى حسن المصير ، وإن كانت طالحة فإلى سوء المصير (وما يستأخرون) أي ومايقتدرون وما يستطيعون تأخير ذلك الوقت دقيقة ، وكل شيء عنده بمقدار (ثم أرسلنا رسلنا تترى) والتاء الأولى بدل من الواو كما في تراث وتجاه يدل على ذلك الإشتقاق من الوتر والوراثة والوجه وأصله وترى وتترى مصدر • وقرىء بالتنوين وعدمه[1] • والمواترة المتابعة بين

(١) أي قرىء تترى منونا وغير منون ؛ فمن نون قال : ان الفه للالحاق بجعفر كملقى ، فلما نون ذهب الفه لالتقاء الساكنين . ومن لم ينون قال : ان الفه للتانيث كدعوى .

الأشياء بشرط أن يكون بينها فترة زمنية وإلا فهي مُدارِكة" وملاحقة" (كلما جاءَ أمة رسولها كذبوه) وكلما ظرف لتكرار ما بعدها ، وناصبها جوابها (فَأَتبَعْنا بعضهم بعضا) في الإهلاك والدمار (وجعلناهم أحاديث) جمع أُحدُوثة وهي ما يتحدث به تعجباً وتلَهِيا ، أي لم يبق منهم شيء إلا حكايات يسمر بها (فبعداً لِقوم لا يؤمنون) بالحق إلى مسافات طويلة من رحمة الباري وفيضه الساري إلى العباد .

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) البينات أي المعجزات كالعصا واليد البيضاء أو البلايا المزعجات كالحشرات والضفادع والدم آيات مفصلات (وسلطان مبين) إحدى الآيات الكبريات أو ثنتان ، أعني العصا واليد البيضاء ، خص بعد دخوله في العموم للاهتمام . أو المراد بالسلطان المدد الغيبي الكامل والروح المعنوي بحيث لم يَهابا ذلك الظالم وأتباعه الظالمين المذكورين في قوله تعالى (إلى فرعون وملأه) أي أرسلناه إلى فرعون رئيس الأقباط لا إليه وحده بل إليه وإلى ملأه وليست الدعوة إلى الحق مختصة ، بل عمتهم وغيرهم لكنهم كانوا رؤساء الأمة . والملأ أشراف يسمون بالملأ لأنهم هم الذين يملأون مجالس الإستشارة أو مواقع الاهتمام بالأمور (فاستكبروا) أي فرعون وملأه استكبروا عن قبول دعوته (وكانوا قوماً عالين) على الأمة بالقوة والعزة فاستغنوا وبغوا وطغوا (فقالوا :أنؤمن لبشرين مثلنا) في القامة والقيافة والصورة والعادات البشرية (وقومهما لنا عابدون ؟) أي والحال إن قومهما أذلاء عندنا نستسخرهم ونستخدمهم في الأعمال بشوكتنا وقوتنا (فكذبوهما) فاستمروا على تكذيبهما (فكانوا من المهلكين) بالغرق في اليم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة بعد عبوره مع قومه النيل وإهلاك فرعون وقومه المشايعين له

(لعلهم يهتدون) إلى طريق طاعة رب العالمين بعد خلاصهم من فرعون وملأه المستكبرين •

(وجعلنا ابن مريم) أي عيسى ـ عليه السلام ـ (وأمه) العذراء (آية) وحيدة لم يكن لها نظير في عالم الوجود قبلهما ، والآية ولادة ابن من أم بدون أب (وآويناهما إلى ربوة) أي جعلناهما يأويان إلى محل مرتفع مادة ومعنى وهو بيت المقدس (ذات قرار ومعين) أي ذات أرض واسعة تليق باستقرار أهل الشرف والكرامة والطاعة والعبادة ذوات ماء جار لا ينقطع (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) أي وقلنا لكل رسول منهم: كل من طيبات الأطعمة معنى لكونها حلالا ، ومادة لكونها لذيذة خفيفة على المعدة (واعملوا صالحا) أي وقلنا لكل منهم : اعمل عملا صالحا موافقا للشريعة التي أنزلت اليك (إني بما تعملون) كلا وبعضا (عليم) فأجازيكم جزاء لائقا بالرب الرحيم (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أي وإن هذه الشريعة المنزلة إليكم شريعة واحدة لا تفاوت في معتقداتها مقدار شعرة ، ولا اختلاف في موافقة فروعها للمصلحة في عقل أهل الخبرة • فالعقيدة واحدة بالشخص ، والأعمال واحدة بالنوع ، والمجموع واحدة وحدة عقلية جلية ، وعنوانها شريعة الله تعالى في عباده المؤمنين •

هذا إذا كانت الأمة بمعنى الملة والدين • وأما إذا كانت بمعنى الجماعة من المكلفين أصحاب العمل بالشرائع فالمعنى قلنا للرسل : إن هذه أمتكم التي أرسلتم إليها حالكونها أمة واحدة مضبوطة لا اختلاف فيها قبل إرسال الرسل لأنهم على الفترة والأهواء الغريزية التي ليس بينها شريعة (فاتقون) في قبول الأحكام لأني أنا ربكم الذي خلقكم وأوصلكم إلى درجة التكليف بالنظام الإلهي • وحاصل المعنى : إنا أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليتحدوا تحت راية النظام الحق ، ولكنهم خالفوا واختلفوا (فتقطعوا أمرهم بينهم

زبرا) أي قطعوا أمر دينهم وجعلوه أديانا مختلفة وبدل أن يعبدوا ربا واحدا عبدوا أربابا متفرقة ، وبدل أن يوحدوا الله أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وجعلوا الدين زبرا مختلفة وقطعاً غير مؤتلفة ، وصاروا أحزابا متفرقة (كل حزب بما لديهم فرحون) أي وكل جماعة من الجماعات المختلفة بما لديهم من الذي اختاروه فرحون مستبشرون ، وكلما كان أمرهم أقرب إلى الهوى اعتنقوه والتزموه أشد وأزيد (فذرهم في غمرتهم) أي اتركهم ودعهم حيارى في شئونهم المشئومة (حتى حين) وهو حين مجيىء الوقت لمعاقبتهم أو محاسبتهم ، وليس لهم مستمد سليم يستندون إليه ويستمدون منه إلا الأموال والبنين •

(أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ؟) أي أيظنون أن الذي نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم من الأموال والأولاد نسارع به لهم فيما فيه خيرهم (بل لا يشعرون) عطف على مقدر أي كلا لا تفعل ذلك بل لا يشعرون ، أي ليس من شأنهم الشعور •

(إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا، وَلَدَيْنا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا ، وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دونَ ذَلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (٦٣) حَتّى إذَا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذابِ إذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا اليَوْمَ إنَّكُمْ مِنَّا

لا تُنْصَرُونَ(٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ(٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)(٦٧)

قوله تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي إن الذين آمنوا بربهم إيمانا ثابتا في قلوبهم جعلهم بحيث يخافون من عذاب ربهم في الدنيا والآخرة (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي كما آمنوا بوجوده سبحانه وتعالى يؤمنون بآياته المنزلة على رسله (والذين هم بربهم لا يشركون) يعني آمنوا بالله إيمانا محفوظا عن ضلال الإشراك فلم يشركوا به أحدا (والذين يؤتون ما آتوا ، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أي والعباد المكلفون الذين يعطون الناس المستحقين من الصدقات ، والحال إن قلوبهم وجلة وخائفة من أن لا تقبل منهم الصدقات ، لأنهم يؤمنون بأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبهم على أعمالهم ونفقاتهم (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات الحميدة (يسارعون في الخيرات) أي هم الذين يسارعون في نيل الخيرات دون أولئك الكفرة الموصوفين بأضداد تلك الصفات (وهم لها سابقون) أي وهم لأجل تلك الخيرات يسعون في السبق ويظفرون بها ، أو هم لأجل نيلها يعتبرون من الجمع السابقين •

(ولا نكلف نفسا) أي أية نفس من الأعمال الصالحة الخيرة (إلا وسعها) أي إلا ما كان في وسعها وطاقتها (ولدينا كتاب ينطق بالحق) أي ولدينا كتاب مستوعب لصحائف أعمالهم ينطق ببيان ماعملوه بالوجه الحق (وهم لا يظلمون) بمنع جزاء الاعمال الصالحة منهم (بل قلوبهم في غمرة من هذا) إضراب عن بيان أحوال المؤمنين ورجوع إلى بيان أحوال الكافرين، أي بل قلوب الكفرة في غفلة وجهالة من هذا التفصيل الناطق بأن المؤمنين

العاملين للصالحات جزاؤهم عند ربهم ، وعلى غرار ذلك جزاؤهم أيضا مقدر ومقرر (ولهم أعمال من دون ذلك) أي ولهم أعمال سيئة كثيرة من دون غفلتهم ، أي ليست سيئتهم منحصرة في الغفلة بل لهم وراء ذلك سيئات (هم لها عاملون) أي لتلك السيئات عاملون (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) أي استمروا في العمل السيىء ومكابرة الرسل ومعاندة الحق حتى إذا أخذنا كبراءهم المترفين الذين أغروا سائرَ الناسِ بالكفر والعناد بالعذاب الشديد الذي يستحقونه (إذا هم يجئرون) أي يصيحون بالويل والثبور (لا تجئروا اليوم) أي فقلنا لهم : لا تجئروا اليوم بلا فائدة (إنكم منا لا تنصرون) أي لا تنالكم نصرة مِنا (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) إستئناف لبيان علة عدم نيلهم النصرة ، أي لأنه قد كانت آياتي البينات المنزلة على الرسول المؤتمن تتلى عليكم من جانبه فكنتم عند سماعها ترجعون على أعقابكم ، ورجوع الشخص على أعقابه رجوعه في طريقه الأولى (مستكبرين به) أي بالبيت الحرام الذي جعلتموه نصب العين للاستكبار والافتخار فحسب (سامراً) أي ذاكراً للبيت ، أو للقرآن المعلوم من المقام ، او للرسول التالي للآيات (تهجرون) الرسول وتتركون الكلام معه ، أو تهجرون الحق غيرَ مبالين به .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ؟ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ؟(٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ(٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ(٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ(٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ

خَرْجاً ؟ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ(٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)(٧٧)

قوله تعالى : (أفلم يدبروا القولَ ؟) الهمزة للإنكار واستقباح عدم تدبرهم ، أي أفعلوا ما فعلوا فلم يتدبروا القرآن ليعلموا ما فيه من الحقائق ووجوه الإعجاز التي ترشد المتفكر إلى الإيمان بأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مطلقا (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ؟) أي بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم السابقين حتى استبعدوه فوقعوا في الكفر والضلال (أم لم يعرفوا رسولهم ؟) إضراب من توبيخ إلى توبيخ آخر ، أي بل ألم يعرفوا رسولهم الذي أرسل إليهم بالأمانة والصدق والأخلاق العالية ، ولذلك استنكروه (فهم له منكرون) أي من جهة عدم معرفته وعدم الإطلاع على أحواله (أم يقولون به جنة ؟) إضراب وانتقال إلى توبيخ آخر ، اي بل أيقولون بهِ خلل وفي شخصه جنون واختلالُ عقلٍ (بل جاءهم بالحق) إضراب عما يدل عليه الكلام السابق ، أي ليس الأمر كما زعموا في حق القرآن والرسول ، بل جاءهم بالكلام الحق الثابت المطابق للواقع وذاته الجائي به شخص مبارك منزه عن سوء الأخلاق والأحوال ، وليس مجهولا من حيث الذات والصفات ، وليس في عقله خلل وملل ، وإنما هو إنسان كامل في الصفات العالية ، فالإله الذي يدعو المكلفين إليه حق ، والكلام

الذي نزل عليه حق مطابق للواقع ، وشخصيته قدسية أمينة عالية ذاتا وصفة فهو حق ومعه الحق (وأكثرهم للحق كارهون) أي ولكن لما في الحق من مخالفة النفس وهواها جبلةً ولا تنمحى آثار تلك الجبلة إلا برياضة ومرونة وأقلهم ليسوا كارهين له فمنهم من أسلم ، ومنهم من بقي على كفره خوفا من تعيير قومه .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) الحق هو التوحيد ومقتضى الأهواء التعدد والإشراك فلو تبدل التوحيد ووحدة الإله بالإشراك وتعدد الآلهة لفسدت السماوات والارض على وزان (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أو الحق عبارة عن رعاية العدالة في العالم والأهواء عبارة عن الفوضى والإختلال ، فلو مال الحق وزال وجاءت الأهواء والفوضى لم يبق عيش من كثرة الطيش ، ولم تبق راحة من تعدي أهل الإباحة ، ففساد السماوات والارض ومن فيهن كناية عن كثرة الاختلال بحيث لا يبقى للصلاح مجال ، أو الحق عبارة عن سلامة الاعتقاد والاعمال ، والاهواء عن سقم الإعتقاد وسوء الاعمال فلو كان الامر كذلك لغضب الله تعالى على الكائنات وغيرها أو دمرها ، والمآل للاعتبارات واحد (بل أتيناهم بذكرهم) إضراب وانتقال من تشنيعهم بكراهة الحق إلى تشنيعهم بالإعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خير كالقرآن الذي فيه ذكرهم لله وفي ذلك السعادة الأبدية ، وذكرهم في حياتهم ومماتهم بأنهم قوم نبع فيهم ينبوع الحكمة ونزلت عليهم آيات الرحمة (فهم عن ذكرهم) لله تعالى أو عن فخرهم وشرفهم (معرضون . أم تسألهم خرجا ؟) إنتقال الى توبيخ آخر على زعم أنك تسألهم على تبليغ الدين خرجاً ماديا وجعلاً ماليا يصعب عليهم أداؤه ، وليس كذلك لأنك لم تطلب ذلك قط ، ولن تطلبه عوضً . ومهما كان الأمر (فخراج ربك خير) أي فرزقه المحول منه إلى

عبده خير من كل ما يسعى له الناس من غير جهته (وهو خير الرازقين) في التصور ، فهو الذي هيأ للناس ، بل لكل حيوان بل لكل فرد من أفراد الثقلين رزقاً (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) تشهد عقول المنصفين باتصافه بالإستقامة (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة) مثل كفار قريش (عن الصراط) المستقيم الذي تدعوهم إليه (لناكبون) لمنحرفون إلى الجانب (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ) من سوء حال سواء كان من الفقر أو المرض (للجوا في طغيانهم) لتمادوا وتطاولوا في طغيانهم وإفراطهم في العتوّ والاستكبار حالكونهم (يعمهون) أي عامهين متحيرين مترددين في بحر من الضلال •

(ولقد أخذناهم) أي كفار قريش (بالعذاب) من القحط والمجاعة (فما استكانوا لربهم) أي فما خضعوا لربهم وما استسلموا ، فإن الجاهل الجاحد والغافل الجامد لا يسند البلايا الى الله ، ولا يجعلها ناتجة من كفره بالله ووحدته ، وإنكاره لعطائه ونعمته • وإنما يجعلها من الصدقات ، أو ناتجة من أسباب عادية ولا يدرك أن مرجع الاسباب الى إرادة الباري جل شأنه العظيم (وما يتضرعون) في الحال أو في المستقبل لأنه لما كانت قلوبهم مطبوعة على ما هم عليه سد باب الإنتباه والتضرع إليه فيبقون كما كانوا إلى يوم القيامة (حتى اذا فتحنا عليهم) يوم القيامة (بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون) متحيرون •

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ(٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(٨٠) بَلْ قالُوا

مِثْلَ ما قالَ الأوَّلُونَ (٨١) قالُوا : أءِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إنْ هذا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِينَ (٨٣)

قوله تعالى (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعني قل لهم يا رسولي : هو الذي أنشألكم أي خلق لكم هذه الحواس الظاهرة النافعة ، وأهمها : السمع ، والبصر ، وخلق لكم الأفئدة أي القلوب المتفكرة لتستفيدوا بها العلم بالمجهولات وتميز المنافع من المضار لكسب الخير والسعادة في المعاش والمعاد وانتم (قليلا ما تشكرون) أي تشكرون الخالق شكرا قليلا (وهو الذي ذرأكم) أي خلقكم وبثكم (في الأرض) فتناسلتم واكتسبتم ما تعلقت به إرادتكم في حياتكم الدنيوية (وإليه تحشرون) يوم البعث والحساب وجزاء الأعمال (وهو الذي يحي ويميت) يخلق الحياة في مواد مستعدة للحياة بإرادته ويخلق الموت عند انقضاء الآجال (وله اختلاف الليل والنهار) أي ويختص التأثير في الكرة الأرضية به حتى تتحرك ويحصل من حركتها الليل والنهار (أفلا تعقلون ؟) أي فلا تتصورون هذه الأمور وتنسبون هذه الآثار إلى الله تعالى •

(بَلْ قالُوا مثلَ ما قال الأولون) أي آباؤهم السابقون المنكرون للبعث والنشور (قالوا : أءِذا متنا وكنا ترابا وعظاماً) يعني تمزقنا وصارت أجسادنا ترابا يابسا (أءِنا لمبعوثون ؟) ونحيا حياة ثانية ونحاسب على أعمالنا في حياتنا الأولى (لقد وعدنا نحن) في أيامنا (و) وعد (آباؤنا هذا) الأمر الموعود وهو البعث بعد الموت (من قبل) أي من أزمنة قبل هذا الزمان (إن هذا) أي ما هذا الوعد (إلا أساطير الأولين) أي إلا أكاذيبهم التي سطروها وتناقلت بينهم إلى يومنا ، ولم يتفكروا في أن هذا الموعود

وارد من رسول مؤيد بالمعجزات الباهرة القاهرة مبلغ من الله العلي العظيم الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهما وما عليهما • ومن كان قادرا على خلق الأشياء من العدم فهو قادر على إعادتها كما كان وهو العليم القدير •

(قُلْ : لِمَنِ الأَرْضُ ومَنْ فِيها إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ؟(٨٤) سَيَقُولُونَ : للهِ • قُلْ : أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(٨٥) قُل : مَنْ رَبُّ السَّموات السَّبْعِ ورَبُّ العَرْشِ العظيم ؟(٨٦) سَيَقُولُونَ: للهِ قُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ ؟(٨٧) قُلْ : مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ ولا يُجارُ عَلَيْهِ ؟ إنْ كُنْتُمْ تَعْلمونَ(٨٨) سَيَقولُونَ : للهِ • قُلْ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ(٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ(٩٠) ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ومَا كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ ، إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ ، ولَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ !(٩١) عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ، فَتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(٩٢)

قوله تعالى : (قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) أراد بهذا الأمر والخطاب لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسأل المنكرين للبعث أسئلة ليظهر في جوابها أنهم ملزمون حسب الأجوبة بالإعتراف به فقال تعالى : (قل) يا حبيبي لأولئك المنكرين للبعث : (لمن الارض ومن فيها) أي الأرض ومن فيها من العقلاء ملك لأي مالكٍ وملك" لأى مَلِكٍ ؟ ومن الفاعل القادر الذي خلقهما ؟ ولا شك أنك إذا سألتهم (سيقولون) في الجواب : إنهما (لله • قل) عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم (أفلا تذكرون ؟) أي أتقولون ذلك فلا تتذكرون فتعلمون أن من خلق الارض ومن فيها ابتداء

قادر على إعادة المكلفين ثانيا فإن الإعادة أهون من البدء (قل : من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون : لله) وفي قراءة بدون اللام ، وهذا على الظاهر والأول على المعنى ، وكلاهما جائز ، فإذا سألت من صاحب هذه الدار فقيل زيد كان جوابا على ظاهر اللفظ ، واذا قيل لزيد فهو جائز أيضا بحسب المعنى (قلْ : أفلا تتقون ؟) أي أتعلمون ذلك ولا تتقون عقابه (قل : من بيدهِ ملكوتُ كل شيىء وهو يجير ولا يجار عليه) أي من الذي بيده وفي قبضة قدرته التصرف والملك والاستيلاء والسيطرة على كل شيىء ، وهو يمنع من يشاء لمن يشاء ولا يمنع أحدٌ أحداً منه تعالى (إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنى تسحرون ؟) أي إنكم إذا علمتم ذلك فمن أين تخدعون وتنحرفون عن الرشد (بل أتيناهم بالحق) إضراب عن قولهم إن هذا إلا أساطير الأولين . أي أعرضوا عن ذلك فإنا أتيناهم بالحق ، أي بالأمر المطابق للواقع وهو الوعد بالبعث المحقق (وإنهم لكاذبون) في قولهم إن هذا الا أساطير الأولين (ما اتخذ الله من ولد) لأي غاية ومرام (وما كان معه من إله . إذا لذهب كل إله بما خلق) أي لاستند بالذي خلقه واستقل بالتصرف فيه (ولعلا بعضهم على بعض) أي لوقع التنازع بينهم حسب العادة ، ولزم من ذلك انحصار الألوهية في العالي وانتفاؤها في المستعلى عليه . وهذا بناء على ملاحظة العادة من وجود التنازع بين مالكين .

والحق إن هذه الآية إشارة إلى برهان قاطع على الوحدة للإله . وتقريره : ولو كان معه من إله لأمكن بينهما تخالف الإرادة بأن يريد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه ، ولو أمكن التخالف بينهما لزم انتفاء الألوهية لهما ، أو لواحد منهما . أما الأول فعلى تقدير عدم تحقق مراد شيىء منهما

لأنهما حينئذ يكونان عاجزين • وأما الثاني فعلى تقدير تحقق مراد واحد منهما دون الآخر •

وبوجه آخر نقول : لو كان هناك إلهان لزم أن لا يكون شيء منهما إلهاً ، إذ لو وجدا لأمكن التخالف بينهما في الإرادة ، ولو أمكن التخالف لزم إمكان غلبة كل على الآخر بمقتضى الألوهية ، لكن التالي باطل لاستحالة عجز الإله ومغلوبيته لأي شيء •

(سبحان الله) أي تنزيها بليغا كاملا لله تعالى (عما يصفون) أي عن اتخاذ كل ولد أو شريك يصفه المشركون به ابنه أو شريكه ، أو عن وصفهم وذكرهم الولد والشريك له (عالم الغيب والشهادة) بدل عن الاسم الجليل، أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فتكون صفة مشبهة ، والإضافة معنوية مفيدة للتعريف (فتعالى عما يشركون) تعاليا كبيرا •

(قُلْ : رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ(٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٩٤) وإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ(٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ،نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ(٩٦) وَقُلْ : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ(٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ(٩٨) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ، قالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ، كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها ، وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(١٠٠)

قوله تعالى (قل : رب إمّا ترينى ما يوعدون • رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) روي عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه ــ عليه السلام ــ أن

له في أمته نقمة ولم يُطلعه على وقتها ، فامر بهذا الدعاء . ودعاؤه ــ صلى الله عليه وسلم ــ امتثال لامر الله تعالى وسر الامر به مع أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ معصوم هو المحافظة على دوام المخافة من الله وإرشاد الناس إلى ذلك المسلك والإهتمام بطلب شمول الرحمة من الله تعالى ، كي يصان من شمول شؤم المعصية . قال تعالى : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلمو منكم خاصة) فلما نزلت الآيةالكريمة دعا بها وقال: (رب إما تريني ما يوعدون)... الآية أي يارب إن كنت أردت أن تريني ما يوعدون ويأتيهم العذاب في حياتي (فلا تجعلني مع القوم الظالمين) المعذبين ولا تعذبني بعذابهم ، ثم قال تعالى (وإنا على أن نريكَ ما نعدهم لقادرون) ولكنا لا نفعل ذلــك بل نؤخره عنهم لعلمنا بأن منهم من يتوبُ ومنهم من سيؤمِنُ أعقابــه ويدخلون في الإسلام (ادْفع بالتي هي أحسنُ السيئة) أي إدفع بالحسنة التي هــي أحسن الخصال الخصلة السيئة منهم ، أي قابل السيئة من أعمالهم وأقوالهم بالحسنة من أعمالك وأقوالك ، وإذا أدركت عملا سيئا منهم فقابله بعمــل حسن منك ، لكن بحيث لا يوجبُ وهناً في قواعد الدين . (نحن اعلــم) منك (بما يصفون) أي بما يصفونك به من الصفات الذميمة وأنت بريىء مــن كلهــا .

(وقل : رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أي من الدسائس التي يلقونها إلى القلب (وأعوذبك رب أن يحضرون) أي من حضورهم حولي أو في قلبي (حتى إذا جاء أحدهم الموتُ) أي جاء أحــد الكفار المشركين الموت (قال : رب ارجعون) إلى الدنيا وحياتها وإلــى القــوة ونشاطهــا (لعلي أعمل) عملا (صالحا فيما تركتُ) من الإيمان وما يتفــرع عنه مــن الأحكام . فإذا كان مني كفر" بالله ورسوله بدلته بالإيمان بهما ، وإذا كان عندي قصور في أداء الواجبات أبدلها بعملها على وجه الكمال (كلا) ردع

عن طلب الرجعة واستبعاد لها (إنها) أي جملة رب ارجعون (كلمة هو قائلها) أي جملة يستمر على قولها ولا تفيده أبدا (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) أي وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا التي يريدون الرجوع إليها وهذا الحاجز يخرجهم إلى يوم البعث والنشور ، وفي ذلك اليوم يدخلون في عالم الآخرة إلى الأبد .

(فَاِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا اَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ(١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ(١٠٢) ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُه فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ(١٠٣) تَلْفَحُ وجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فيها كالِحُونَ(١٠٤) اَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ؟(١٠٥) قالُوا: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ(١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ(١٠٧) قالَ : اخْسَئُوا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ(١٠٨) اِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادي يَقُولُونَ : رَبَّنا آمَنّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّاحِمِينَ(١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(١١٠) إنّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا، أَنَّهُمْ هُمْ الفائِزُونَ(١١١) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟(١١٢) قالُوا : لَبِثْنا يَوْماً اَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العادِّينَ(١١٣) قالَ : اِنْ لَبِثْتُمْ اِلاّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَاَنَّكُمْ اِلَيْنا

لا تُرْجَعُونَ ؟(١١٥) فَتَعَالَى اللهُ الملك الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الكَرِيم(١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ(١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)(١١٨)

قوله تعالى : (فإذا نفخ في الصور) لقيام الساعة وهي النفخة الثانية التي تقع عند البعث والنشور (فلا أنساب بينهم يومئذ) والمراد أنها لا تنفعهم شيئا ، فهي منزلة منزلة العدم لاشتغال كل شخص بنفسه . عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله تعالى الأولين والآخرين ثم ينادي مناد ألا إن هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق قِبله فليأت إلى حقه فيفرح ويحب المرءُ أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا .

والمراد بهذه الآية الشريفة تهويل شأن ذلك الوقت ببيان أنه يذهل فيه كل أحد عمن بينه وبينه نسب ، ولا يلتفت إليه ولا يخطر هو بباله ، فضلا عن أنه ينفعه أولا ينفعه . وهذا لا يدل على عدم نفع كل نسب فضلا عن عدم نفع نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فإذا تقرر أن الآية واردة في شأن وقت النفخ في الصور للبعث والنشور لا يبقى مجال شبهة في أنها لا تنافي وجود النفع في السبب والنسب يوم القيامة عند الحساب والميزان أو قبلهما أو بعدهما فإن الشفاعة الكبرى ثابتة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي لا ينكرها إلا من حُرِم من الشفاعة . ويدل على ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :«كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي» فقد

روي ذلك عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويقول سمعتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولهُ .

(ولا يتساءلون) أي ولا يسأل بعضهم بعضا عن حاله ، وممن هو ، ونحو ذلك لاشتغال كل إنسان بنفسه . (فمن ثقلت موازينه) أي موزونات حسناته (فأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بكل مطلوب، والناجون من كل كرب (ومن خفت موازينه) أي موازين أعماله الحسنة (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أي ضيعوها بتضييع زمان استكمالها بالأعمال الصالحة وصرف العمر في الأعمال الطالحة (في جهنم خالدون) خبر ثان لأولئك ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هم خالدون (تلفح وجوههم النارُ) واللفح مسّ لهب النارِ للشيىء ، والمراد تحرق وجوههم النار (وهم فيها كالحون) أي متقلصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللفحِ (ألم تكن آياتي تتلى عليكم) أي فيقال لهم من الله سبحانه توبيخا وتعنيفا (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟) حينذاك (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) التي اقتضاها سوء اختيارنا للشهوات بحيث لم يبق لنا مجال الخلاص منها (وكنا قوما ضالين) أي وكنا بسبب ذلك قوما تائهين في مسافة الحياة ضالين مضيعين فرص التوبة والإنابة (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أي أخرجنا من هذه النار اللفاحة وارجعنا إلى الدنيا للعمل فإن عدنا إلى ماكنا عليه من الأعمال الفاسدة والعقائد الكاسدة فإنا ظالمون لأنفسنا إذ ذاك ونستحق كل عقاب .

(قال) الله تعالى في جوابهم : (اخسئوا فيها) أي ذلوا وانزجروا انزجار الهوان (ولا تكلمون) أي ولا تتكلموا معي ولا تسألوني إخراجكم من النار وإرجاعكم إلى الدنيا لأنكم كنتم فساقاً مستهترين (إنه كان فريق من عبادي) وهم المؤمنون (يقولون) في الدنيا (ربنا اغفر لنا وارحمنا ، وأنت

خير الراحمين • فاتخذتموهم سخريا) أي هزءًا على وجه المبالغة لأنهم ما كانوا هزءً لهم بل كانوا محل هزئهم ، وسخريا قرىء بكسر السين وضمها وهما مصدرا سخَر زيدت فيهما ياء النسبة للمبالغة • واختلف أهل اللغة هل هما بمعنى واحد أو بينهما فرق ؟ فاختار بعض الإتحاد في المعنى • وقال بعض : إن أصله التسخير وهو الإحضار قهرا ، فإن كان للهزء به فهو السخرية بالكسر ومنه المسخرة • وإن كان للعمل والاستخدام من غير أجرة فهو بالضم • وقيل غير ذلك • (حتى أنسوكم ذكري) أي حتى أنسوكم بتشاغلكم بالاستهزاء بهم ذكري ، أي خوف عقابي فلم تخافوني في أحبائي (وكنتم منهم تضحكون) وذلك غاية الاستهزاء (إني جزيتهم اليوم بما صَبَرَوا) أي بسبب صبرهم على الأذى الذي لقيهم منكم (أنهم هم الفائزون) إما في موضع المفعول الثاني لقوله جزيتهم ، لأنه يتعدى بنفسه وبالباء ، وإما في موضع الجر بلام التعليل المقدرة أي لفوزهم بالتوحيد المؤدي إلى كل سعادةٍ وأمان •

(قال) الله تعالى او الملك المأمور بذلك لهم : (كم لبثتم في الأرض) أي في الدنيا التي تطلبون الرجوع إليها (عدد سنين ؟) ظرف زمان لقوله لبثتم (قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصارا واستقلالا لمدة لبثهم فيها (فاسأل العادين) أي المتمكنين من التعداد فإنا لم يبق لنا مجال له (قال : إن لبثتم إلا قليلا) أي مالبثتم إلا زمانا قليلا (لو أنكم كنتم تعلمون) أي لو كنتم أهل العلم والمعرفة (أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً ؟) الفاء للعطف على مقدر، أي ألم تعلموا الحقيقة فحسبتم أنا خلقناكم للعبث والأمر الخالي عن الفائدة (و) حسبتم (أنكم إلينا لا ترجعون) ولا تحاسبون على أعمالكم (فتعالى الله الملك الحق) الذي لا عبث في أفعاله (لا إله إلا هو) وماعداه من الآلهة المزعومة عبيد له (رب العرش الكريم) وهو جرم

عظيم فوق عالم الأجسام والأجرام لا يحيط بعلمه إلا الله ، والكريم إما بمعنى المبروك ، أو المراد الكريم ربه وصاحبه .

(ومن يدعُ مع الله إلها آخر) إفراداً أو إشراكا ، موصوفا بأنه (لا برهان له به) أي بوجوده وصفا لازما فإن من لوازم كل محال أن لا يكون برهان على وجوده لاستحالة البرهان على وجود المحال . وقوله (فإنما حسابه عند ربه) جزاء الشرط ، ومعناه لا يعرف مقدار جزائه وعقابه إلا ربه (إنه لا يفلح الكافرون) أي لا يفلح أبدا ، ومن لا يفلح أبدا لا يعلم حسابه إلا ربه (وقل رب اغفر وارحم) أي اغفرلي ولأمتي وارحمني ومن تبعني ، ولذا حذف المفعول (وأنت خير الراحمين) .

سورة النور ، مدنية ، وهي اربع وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ، وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)(٣)

قوله تعالى : (سورة أنزلناها) خبر مبتدأ مقدر ، أي هذه سورة أو هي مبتدأ وما بعدها خبر ، وسوغ الإبتداء بها وهي نكرة ما فيها من إرادة العظمة والإعتناء لأنها مشتملة على أحكام مهمة كثيرة . والمعنى سورة كبيرة مهمة أنزلناها وفرضناها ، أي فرضنا على الأمة أحكامها (وانزلنا فيها آيات بينات) أي واضحات الدلالة على معانيها (لعلكم تذكرون) أي لعلكم تتذكرون ما سمعتم من شريعة أبيكم إبراهيم وحفظ الكرامة الإنسانية فيها وتمشون على شريعتكم الموافقة لشريعته في العقائد ومهمات الدين . أو أريد من التذكر لازمه أي لعلكم تتقون المحارم وتبتغون المكارم.

وقرىء تذكرون بالتخفيف أي لعلكم تذكرون ربكم وتشكرونه على إنزال هذه السورة وأمثالها .

ثم شرع في تفصيل الاحكام ، وقدم بيان الحد على هتك الاعراض فقال : (الزانية والزاني) مرفوعان على الابتداء ، وجملة (فاجلدوا كل واحد منهما مأة جلدة) خبر ، والفاء الداخلة عليها لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، أو هما مبتدآن بحذف المضاف ، والخبر مقدر ومقدم ، أي مما يتلى عليكم حكم الزانية والزاني ، والفاء سيف خطيب . وقدم الزانية على الزاني لأن القوة الشهوية فيها أكثر ، أو لأنه لا يمكن عادة ذلك العمل إلا بمطاوعتها ، وإلا فإذا عصت وصاحت اجتمع الأهل أو أهل الغيرة أو النظام لدفع الرجل ومنعه وتعذيبه .

والجلد ضرب الجلد وقد اطرد صوغ فَعَلَ المفتوح العين الثلاثي من اسماء الاعيان فيقال : رأسه وظَهره ، وبطنه ... إذا ضرب رأسه وظهره وبطنه . وجوز الراغب أن يكون معنى جلده ضربه بالجلد ، نحو عصاه أي ضربه بالعَصا . والمراد هنا المعنى الاول ، فإن الاخبار قد دلت على أن الزانية والزاني يضربان بسوط لا عقدة عليه ، ولا فرع له . ثم الظاهر من ضرب الجلد أعم من أن يكون بلا واسطة أو بواسطة . وقال الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ : أنه ينزع عن الزاني عند الجلد ثيابه إلا الإزار فإنه لا ينزع لستر عورته به . وعن الإمام أحمد والإمام الشافعي ـ رضي الله عنهما ـ أنه يترك عليه قميص أو قميصان . وفي بعض الأخبار ما يدل على أن الرجل والمرأة سواء في عدم نزع الثياب إلا الفرو . وكان من لا يقول بنزع الثياب يقول إن الجلد في العرف الضرب مطلقا وليس خاصا بضرب الجلد . والحق أنه إذا كان من وجب عليه الحد ضعيف الخلقة بحيث يخاف عليه الهلاك بنزع الثياب لا ينزع منه وإلا فينزع منه ماعدا ساتر

العورة إلى درجة يسبب الضرب إيلامه إيلاما يطاق ويناسب للتأديب الشرعي، بشرط اتقاء الأعضاء اللطيفة كالعيون والخدود وأمثالهما مما يضر المحدود ضررا غير مشروع .

والزنا في اللغة والشرع وطء الرجل المرأة في القبل بإدخال الذكر أو قدر الحشفة في فرجها . وأما زنا المرأة فتمكينها له من هذا العمل الفاحش والحكم عام فيمن زنى وهو محصن أي متزوج وفي غيره ، لكن نسخ في حكم المحصن قطعا فإن الحكم في حقه الرجم .

فالشافعية يقولون : إن الناسخ هو الحكم الوارد في الآية المنسوخة التلاوة ، يعني قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل" . ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الإعتراف . وروى أبو داود أنه خطب وقال : إن الله عز وجل بعث محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق ، وأنزل عليه كتابا فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، يعني بها قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) فقرأنا وعيناها إلى أن قال : وإني خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل لا نجد الرجم . الحديث بطرقه وقال : لولا أن يقال إن عمر زاد في الكتاب لكتبتها على حاشية المصحف الشريف وهذا الحكم أيدته السنة النبوية المتواترة حيث أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجم ماعز ورجم المرأة الغامدية (بالمعجمة نسبة الى غامد من جهينة) وبقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنيس : اغد على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها .

وقال العلامة ابن الهمام من الحنفية : إن كون الناسخ السنة القطعية أولى من كون الناسخ ماذكر من الآية ، لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها ، وإن ذكرها عمر ـ رضي الله عنه ـ ، وسكت الناس فإن كون الإجماع السكوتي حجة مختلف فيه ، وبتقدير حجيته لا نقطع بأن جميع المجتهدين من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا اذ ذاك حضورا ، ثم لا شك في أن الطريق في ذلك إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ ظني . ولهذا والله تعالى أعلم قال علي ـ كرم الله وجهه ـ حين جلد شرحة ثم رجمها : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله . ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ التلاوة . ويعلم من قوله المذكور ـ كرم الله تعالى وجهه أنه قائل بعدم نسخ عموم الآية (أي آية الجلد) فيكون رأيه أن الرجم حكم زائد في حق المحصن ثبت بالسنة ، وبذلك قال أهل الظاهر وهو رواية عن احمد .

وزادت الشافعية على جلد الزاني الغير المحصن تغريب عام إستنادا إلى حديث عبادة بن الصامت : « خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » . إلا أنهم تركوا الجلد مع الرجم لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأمر به في حد ماعز والغامدية . وخلاصة البيان أن الحكم في الزانيين كان بالأول إيذاء وبعده حبسا للنساء حتى يتوفين ، وبالأخير مائة جلدة لغير المحصنين مع تغريب سنة على خلاف ، والرجم للمحصنين .

(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) أي ولا تستول عليكم رأفة وعاطفة نفسية في طاعة الله وإقامة الحد الذي شرعه في الدين ، فإن الحدود سدود . وكلما طبق الحد استحكم السد ، فيبقى الناس في أمان على النفس والعرض والمال ، وكلما وقع الخلل في إقامتها شاعت الخيانة وضاعت الأمانة ، وتزلزل إيمان المؤمنين ، ولذلك عقب ذلك بقوله الكريم (إن كنتم تؤمنون بالله

واليوم الآخر • وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أي ليحضروا عند إقامة الحد زيادة في التنكيل بزيادة التخجيل • والأمر للندب ، والطائفة اثنان فصاعدا عند مالك • وقال قتادة والزهري ثلاثة فصاعدا • وعند الشافعي وزيدٍ أربعة • وهو رواية عن مالك •

(الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ ، وحرمَ ذلك على المؤمنين) قالوا : إن الآية الكريمة نزلت في فقراء المهاجرين عندما هموا أن يتزوجوا الزواني لفقرهم وعدم اقتدارهم على صداق العفائف ، ولرغبتهم في الاستفادة من أموالهن •• فحرم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك عليهم ، لأنه تشبه بالفساق ، وتعرض للتهمة، وتسبب لسوء مقالة الناس فيهم ، وتشويه لسمعة الإسلام والمسلمين • والحكم مخصوص بالأناس الذين نزلت الآية فيهم ، أو عام لهم ولغيرهم ، ولكنه نسخ بقوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) فإنه يتناول المسافحات والصالحات • ويؤيد ذلك أنه لما سئل ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه قال : « أوله سفاح وآخره نكاح » والحرام لا يحرم الحلال ، فإن ظاهره أنه كان يعتبر سابقا من السفاح فنسخ وصار نكاحا شرعيا معتبرا •

ونقل في روح المعاني عن النيسابوري أن قوله (الزاني لا ينكح إلا زانية) ••• الآية حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيىء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا • وذلك أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا لا يرغب غالبا في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة • والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة والمشركين • ونظيرُ هذا الكلام : لا يفعل الخير إلا تقيٌ فانه جارٍ مجرى الغالب ومعنى التحريم

على المؤمنين على هذا قيل : التنزيه وعبر به عنه للتغليظ ، ووجه ذلك أن نكاح الزواني متضمن للتشبه بالفساق والتعرض للتهمة ، والتسبب لسوء المقالة ، والطعن في النسب إلى كثير من المفاسد ، وقيل : التحريم على ظاهره وذلك الفعل يتضمن محرمات ، والحرمة ليست راجعة الى نفس العقد ليكون العقد باطلا ، وعلى القولين الآية محكمة ، إنتهى ،

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٥)

قوله تعالى : (والذين يرمون المحصنات) شروع في بيان حكم من نسب الزنا الى غيره بعد بيان حكم من فعله ، والإحصان هنا بالحرية ، والبلوغ ، والعقل والاسلام ، والعفة عن الزنا ، والموصول مع صلته في محل الرفع مبتدأ ، وقوله (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) معطوف عليها وقوله : (فاجلدوهم ثمانين جلدة) خبره ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، وتخصيص المحصنات لأن قذف النساء أغلب وأشنع وإلا فلا فرق في القذف بين النساء والرجال ، فاذا قذف إنسان ، رجل أو امرأة ، وهما بالغان عاقلان رجلا عفيفا أو امرأة عفيفة ، ولم يأت على ما أسنده الى المقذوف بأربعة شهداء يشهدون عليه وجب عليه حد القذف ، ولا يسقط هذا الحد بعد ثبوته عند الامام أبي حنيفة ، الا أن يقول المقذوف : لم يقذفني ، أو كذب شهودي ، وعند الشافعي يصح العفو ، وعن أبي يوسف مثله ، وكان المراد أنه إذا عفا سقط الحد ،

ولا يشترط اجماع الشهود عند الاداء ، ولا تعتبر شهادة زوج المقذوفة ، خلافاً لأبي حنيفة •

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) أي مدة حياتهم عند أبي حنيفة ، وما لم يتب عند الإمام الشافعي (وأولئك هم الفاسقون) المحكوم بفسقهم (إلا الذين تابوا) أي رجعوا عما قالوا وندموا على ماتكلموا به ، (من بعد ذلك) القذف (وأصلحوا) أي أصلحوا أعمالهم بالاستحلال عمن رموه إن بقي حيا ، وإلا فبالإستغفار لمن رماه ، واستغفاره لنفسه عن ذلك القذف• وهذا الإستثناء راجع إلى قوله وأولئك هم الفاسقون عند أبي حنيفة ، وإلى أصل الحكم عند الشافعي وهو اقتضاء الرمي الغير المقترن بشهادة الشهود الأربعة للجلد ، وعدم قبول الشهادة وتحقق الفسق • فإذا استسلم وجلد وقد تاب من القذف تقبل شهادته ، ولا يحكم بفسقه ، فلا يتحقق الجمع المذكور • وإذا استحل من المقذوف وتاب لا يتحقق واحد منها ، لأن طلب المقذوف شرط للجلد ، ولا يلزم سقوط الحد به كما قيل ، لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال • وقوله تعالى (فإن الله غفور رحيم) علة للإستثناء •

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)(١٠)

قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصة ، وهو ناسخ لعموم المحصنات ، وكانوا قبل نزول هذه الآية يفهمون من آية (والذين يرمون) ... الآية أن حكم من رمى الأجنبيةَ وحكم من رمى زوجته واحد • فقد أخرج أبو داود وجماعة عن ابن عباس قال : لما نزلت : (والذين يرمونَ المُحْصَنات) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ قالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، وما طلق امرأة فاجترأ رجل منّا على أن يتزوجها من شدة غيرته • فقال سعد : يا رسول الله إني لأَعْلَمُ أنها حق وأنها من عند الله تعالى ، ولكني تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أُهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء ! فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته • قال : فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلالُ بن أُميّةَ ، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني • فكره رسول الله ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ هلال بن أمية ، وتبطل شهادته في المسلمين • فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله تعالى لي منها مخرجا •

فقال : يا رسول الله إني قد أرى ما اشتد عليك مما جئتُ به ، والله تعالى يعلم أني لصادق ، فوالله إن رسول الله يريد أن يأمر بضربه إذ نزل على رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي • فنزلت (والذين يرمون أزواجهم) ...

الآية فسرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أبْشر يا هلال قد كنت أرجو ذلك من ربي • وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أرسلوا إليها فجاءت ، فتلاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما ، وذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا • فقال هلال : والله يا رسولَ الله لقد صدقت عليها : فقالت : كذب • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاعنوا بينهما ••• الحديث وكذا من رواية أخرى ذكرها البخاري في صحيحه والترمذي وابن ماجه يعلم أن قصة هلال سبب نزول الآية •

(ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) يعني ولم يكن لهم شهداء أربعة كما مرت (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) أي فشهادة كل واحد من أولئك الرامين أزواجهم أربع شهادات متلبسة بذكر اسم الله تعالى (إنه لمن الصادقين) أي فيما رماها به من الزنا • فيقول أربع مرات : أشهد بالله إني لصادق فيما رميت به زوجتي من الزنا (والخامسةُ) بالرفع على الابتداء أي والشهادة الخامسة للأربع المتقدمة أي الجاعلة لها خمسا (أن لَعْنَتَ اللهِ عليه إن كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا • فقوله تعالى والخامسة مبتدأ وخبره أن المفتوحة مع مابعدها ، وهذا الخبر يدفع عنه الحدّ ، وينفي الولدَ إن كان ، ويوجب الحد عليها (ويدرأ عنها العذاب) أي العذاب الدنيوي وهو الحبس عند الحنفية ، وحد الزنا عند الشافعية (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) أي الزوج الرامي لها بما ذكر من الكاذبين فيما رماها به من الزنا (والخامسة أنغضب الله عليها إن كان من الصادقين) فيما رماها به وقرىء لفظ الخامسة هنا بالرفع على الابتداء ومابعده خبره • وبالنصب على ربطه بقوله تشهد أي وأن تشهد الشهادة الخامسة فيكون الجملة بعدها بدلا •

وحكمة تخصيص الرجل باللعنة والمرأة بالغضب أن اللعن معناه الطرد والبعد عن رحمة الله ، وفي لعانه إبعاد الزوجة والولد ، وفي لعانها إغضاب الرب والزوج والأهل إن كانت كاذبة . وبلعانها يتأبد تحريمها ويدفع الحد عنها .

(ولولا فضل الله عليكم) بالستر في ذلك (ورحمته) بكم (وأن الله تواب حكيم) والجواب محذوف ، أي لوجب حد القذف على الزوج مع أن الظاهر صدقه . أو لولا فضل الله عليكم بتشريع هذا الحكم لحصلت فتن عمياء حارت فيها الأذكياء وحذف جواب لولا شائع في كلام الفصحاء .

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ(١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ! فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ(١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ(١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ : مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا ، سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ !(١٦) يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٧) وَيُبَيِّنُ اللهُ

لَكُمُ الآياتِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(٢٠)

قوله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفكِ عصبة منكم) الإفك بكسر الهمزة الكذب مطلقا ، وكثيرا ما يفسر بالافتراء والاختلاق . وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك ، وأصله من الافك بفتح الهمزة بمعنى القلب والصرف لأن الكذب مصروف ومقلوب عن الحق . والقصة ما أخرجه البخاري وغيره عن عروة عن عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالت : « كان رسول الله إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأَيتهُنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة (وهي غزوة بني المصطلق ، وكانت في سنة ستٍّ) فخرج سهمي فخرجتُ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدما نزلَ الحجاب فأنا أحملُ في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك وقفلَ ودنَونا من المدينة قافلين ... آذنَ ليلة بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش . فلما قضيت شأني أقبلت إلى رَحْلي فإذا عَقْدٌ لي من جزعِ ظفارٍ قد انقطع ، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلون لي ، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم ، إنما نأكل العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السنّ ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة في

منزلي غلبتني عيني فنمت . وكان صفوان بن معطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج فاصبح عند منزلي ؛ فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك .

وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن ابي بن سلول ، فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيىء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أنّي لا أعرف من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت ، فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن تتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن عبدالمناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة ، فأقبلت أنا وأمّ مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئس ما قلت ! أتسبين رجلا شهد بدرا ؟! قالت : أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت : قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبويّ ؟ قالت : وأنا

حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت أبَوَيّ فقلت لأمي (وهي أم رومان زينب بنت دهمان) : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنيةُ هوّني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! قالت فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟! قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقألي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالذي يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله أهلك وما نعلم إلا خيرا . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة ، وإن تسأل الجاريةَ تَصْدُقْكَ .

قالت : فدعا رسول الله بريرة ، فقال : أي بريرة هل رأيت من شيء يريبكِ ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستعذر يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول . قالت فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا . وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فقام سعد بن معاذ الانصاري فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه : إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال

لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيْد بن حُضَير وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق ، تجادل عن المنافقين . فثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

قالت فمكثت يومي ذلك لا يَرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . قالت : فأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوما لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالقٌ كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل قبلها . وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني . قالت : فتشهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين جلس، ثم قال : أما بعد يا عائشة قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي : أجبْ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله . فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله . قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم أني بريئة ، والله يعلم أني بريئة ، لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني بريئة منه، لتصدقني.

والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة وأن الله مبرئني ببرائتي • ولكن ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى •

ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النوم رؤيا يبرئني الله بها • قالت : فوالله ما رام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات ، من ثقل القول الذي ينزل عليه • قالت : فلما سرى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرى عنه وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة أما اللهُ فقد برأكِ • فقالت أمي : قومي إليه • فقلت : والله لا أقوم ولا أحمدُ إلا اللهَ وأنزل الله (إن الذين جاءوا بالإفك) العشر الآيات كلها •

وقوله تعالى (عصبة منكم) خبرُ إنّ ، والعصبة جماعة من العشرة إلى الأربعين • وكذلك العِصابة • وقيل إن العصبة والعصابة العشرة فصاعدا لتعصبهم في المهمات ، فلها هنا موقع حسن ، وكونهم إلى الأربعين يرده ما في مصحف حفصة ـ رضي الله عنها ـ (عصبة أربعة) • وقيل : العصبة لغة فرقة متعصبة مطلقا ، وهي هنا واردة على حقيقتها الوضعية • والمراد بها عبدالله بن أبي بن سلول ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم ••• ومن الناس من برّأ حسان بن ثابت وهو خلاف ما في صحيح البخاري • وقوله : (لا تحسبوه شرا لكم) والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأبي بكر ، وعائشة ، وصفوان ـ رضي الله تعالى عنهم ـ • والهاء راجع إلى الإفك •

ويجوز أن يكون خطابا عاما للمسلمين لأن الشر والخير العائدين إلى الرسول وأهله عائدان إلى أمته المسلمة .

(بل هو خير لكم) في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فلأن هذه العوارض نصائح وزواجر ومنبهات للأمة ولاسيما القادة والسادة حتى يكونوا على يقظة وانتباه في رعاية الشئون ، وعدم إفساح المجال للاعداء بإلقاء التهم والإشاعات المغرضة . وهي أيضا توقظ الإنسان وتخبره بمدى صداقة من يدعي الصداقة، والمخلص وغير المخلص، والعاقل وغير العاقل، ودرجاتهم وأموالهم، فإن الصديق الحقيق بالإعتناء والإعتبار هو الذي لا يتزلزل كيان صداقته باستماع أمثال هذه الامور ، ويتبين بها أيضا إمتياز الأنبياء والمرسلين وسائر القادة عن سائر الناس من حيث التريث والإصطبار والأخذ بالأعصاب وانتظار الفرح من الله العلي العظيم . وأما في الآخرة فلأن كل ساعة تمضي على الإنسان في هذه المحن والمشاكل لها درجات ينالها أصحاب العزيمة يوم الجزاء . وأما في الدنيا والآخرة فلأن الله سبحانه وتعالى أظهر كرامة أهل البيت بإنزال الآيات في براءتهم وعفتهم ، وتعظيم شأنهم ، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيهم ، وبيان سوء العاقبة لمن دخل في هذا الأمر ، وإشاعة السوء فيهم بقوله : (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم) أي بقدر ما خاض فيه ولاسيما رأس الفتنة ورئيسها وهو عبدالله بن أبي بن سلول الذي بين الله سوء مآله بقوله : (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أي والمفسد الأثيم الذي تولّى معظمَ الإفك وبدأ يشيعه ويحرك سلسلته ، ويشعل ناره عند خمولها وهو رئيس المنافقين له عذاب عظيم في الدنيا بالخزي وسوء الحال وفي الآخرة بحرّ نار جهنم وبئس المصير وأما من عداه فإنهم عذبوا في الدنيا بتطبيق حد القذف عليهم ، وأما في الآخرة فهم مغفورون لقبول توبتهم، بإجراء الحد المشروع عليهم ، والأمر إلى الله رب العالمين .

وقوله (لولا إذ سمعتموه) إلتفات إلى خطاب المؤمن من أهل الإفك أي غير عبدالله بن أبي بن سلول وقوله (ظن المؤمنون والمؤمنات) المراد بهم من هو أهل الإيمان من أهل الإفك ، وغير الأسلوب إلى الغيبة ، وجاء في التعبير بصفة الإيمان لمزيد التوبيخ معناه أن الإتيان بالإفك من أهل الإيمان بعيد كلّ البعد . وقوله (بأنفسهم) المراد بها المتهم من أهل الإيمان يعني أم المؤمنين وصفوان ، وعبر بالأنفس لاعتبار إتحاد المسلك والمبدأ كاتحاد الذوات . وحاصل المعنى : لولا ظن أهلُ الإفك وهم من المؤمنين والمؤمنات بالمتهمين الذين كأنفسهم في الإيمان خيرا وبراءة من ذلك الأمر الذي أمَرّ من كلّ مُرٍّ (إذ سمعتموه) من الأفاك المعلول عبدالله بن أبي بن سلول . ولولا قالوا في رده ورفضه (هذا إفك مبين) ظاهر مكشوف من صنيع الشيطان اللعين ، قبل أن ينزل الله حكم براءة المتهم بالنص الموجب لليقين ، فكان الواجبُ على أولئك الأفاكين أن ينظروا بعين البصيرة إلى نزاهة أخلاق تلك السيدة الناشئة في بيت الصديق ، والواصلة على نعومة الأظفار إلى المربي الحاذق الوثيق ، وإلى سلامة أحوالها وأعمالها طيلة السنين في روضة الرسول الأمين ، فكيف يتجاسر مؤمن عاقل ذو بصر وبصيرة إلى اختلاق هذه البادرة الشريرة ؟ فسبحان من لا مرد لقضائه ونزول بلائه وابتلائه ولو على أكرم أنبيائه ، إنه أحكم الحاكمين .

ثم جاء الباري عز اسمه بكلام مستأنف يقرر به أن ذلك القول كان إفكا والقائلون أفاكون فقال : (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) من ذلك الجيش الكثير الساتر للبيداء (فإذ لم يأتوا بالشهداء) ولم يكن لهم سند لتلك التهمة السوداء (فأولئك) الأفاكون (عند الله هم الكاذبون) في الإسناد ، وهم الخاسرون بين العباد .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا) بالإمهال للتوبة (و) في (الآخرة) بالعفو والمغفرة لتلك الحوبة (لمسّكم) أيها المؤمنون (في ما أفضتم فيه) أي بسبب ما خضتم فيه من تلك الأقاويل الباطلة والأوهام العاطلة (عذاب عظيم) يستحقر دونه الحد والعذاب الأليم •

وبيّن الباري سبحانه وتعالى زمان مس العذاب لهم بقوله (إذ تلقونه) أي تتلقون ذلك الإفك الذي أفضتم فيه (بألسنتكم) أي يسمع بعضكم ذلك الكلام الفاسد ويأخذه من بعضكم بألسنتكم أي بمحض الأخذ باللسان بدون تفكر في صحته وفساده بالدليل والبرهان (وتقولون بأفواهكم) بدون تصديق من العقل (ما ليس لكم به علم) مأخوذ من العيان أو مستفاد من الدليل والبرهان (وتحسبونه هينا) أي وتحسبون التكلم به سهلا لا تبعة له (وهو عند الله عظيم) لا يقادر قدره في جر العذاب يوم الميزان والحساب •

(ولولا إذ سمعتموه) أيها المؤمنون من ذلك المفترى غير المأمون (قلتم ما يكون لنا) أي ما يصح منا وما يجوز لنا (أن نتكلم بهذا) القول الذي لا أساس له (سبحانك !) نتعجب ممن ينطق به (هذا بهتان عظيم) يبهت ويحير سامعه ولو كان ذا عقل سليم (يعظكم الله) ويمنعكم (أن تعودوا لمثله أبدا) فإن الوعظ يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيه معنى يمنع (إن كنتم مؤمنين) فاقبلوا وعظه تعالى (ويبين الله لكم الآيات) التي هي بينات على براءة أم المؤمنين من تهمة المنافق اللعين (والله عليم) ببراءتها و (حكيم) في ابتلائها حتى تكون رمزا للشرف إلى يوم الدين •

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) أي الخصلة القبيحة التي وصلت ذروة القباحة (في) مجالس (الذين آمنوا لهم) بسبب ذلك الحب الفاسد (عذاب أليم) في الدنيا والآخرة وهذا منطبق على رئيس الأفاكين عبدالله بن

أبي ابن سلول فإنه أصيب بالخزي والهوان في الدنيا وسيعذب في الآخرة بأمر رب العالمين (والله يعلم) جميع ما يترتب عليه الحساب والعذاب (وأنتم لا تعلمون) ذلك • (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أيها المؤمنون المشايعون للأفاك الأثيم المعلول عبدالله بن أبي بن سلول (و) لولا (أن الله رءوف رحيم) لجرى فوق ما جرى عليكم من العذاب الأليم •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً ، وَلكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٢١)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) ولا تسلكوا مسالكه في الافتراء والاختلاق (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء) وهو ما افرط قبحه (والمنكر) وهو ما ينكره الشرع أي (ومن يتبع خطوات الشيطان) فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنه يأمر بهما فما بعد الفاء علة للجزاء المقدر • (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) ومن جملتهما إنزال هذه الآيات البينات والتوفيق للتوبة الماحية للسيئات (ما زكى منكم من أحد أبدا) لأنكم ارتكبتم ما يوجب هلاككم (ولكن الله يزكي من يشاء) أي ولكن الله يطهر من أوساخ الذنوب من يشاء تزكيته (والله سميع) للأقوال (عليم) بكل الأشياء • وفي هذه الآيات البينات زجر وتوبيخ للأفاكين بتسعة زواجر : الأول لولا إذ سمعتموه • والثاني : لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء • والثالث : ولولا فضل الله عليكم ورحمته • والرابع : إذ تلقونه بألسنتكم • الخامس : ولولا إذ سمعتموه • السادس : يعظكم

الله • السابع : إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة • والثامن ولولا فضل الله عليكم • التاسع : يا أيها الذين آمنوا إلى سميع عليم •

(وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أولِي الْقُرْبى وَالمَساكينَ وَالْمُهاجِرينَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ(٢٢) إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ(٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ(٢٥) الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، والْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، والطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ، والطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ ، أُولئكَ مُبَرَّءونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كريمٌ)(٢٦)

قوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم) سبب نزوله أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ لما رأى براءة بنته ـ رضي الله عنها ـ حلف أن لا ينفق على مسطح شيئا أبدا ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا، وكان ابن خالته • وذلك لأنه كان في جماعة الإفك • فنزلت ولا يأتل أي ولا يحلف افتعال من الالية أي ولا يحلف أولو الفضل والزيادة في الدين والسعة في المال على أن لا يؤتوا أو كراهة أن يؤتوا أي يعطوا (أولي القربي والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) أموالهم ليعيشوا عليها (وليعفوا) عما فرط منهم (وليصفحوا) بالإغضاء عنه (ألا تحبون) أيها المثرون المنفقون

(أن يغفر الله لكم) بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم (والله غفور) مبالغ في المغفرة (رحيم) مبالغ في الرحمة ، ولاسيما لمن كان مبالغا فيهما .

ونزلت هذه الآية بعد أن أقبل مسطح إلى أبي بكر معتذرا فقال : جعلني الله فداك والله الذي أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماقذفتها وماتكلمت بشيىء مما قيل لها أي خالي . فقال أبو بكر : ولكن قد ضحكت وأعجبك الذي قيل فيها . فقال مسطح : لعله قد كان بعض ذلك. وفي الآية من الحث على مكارم الأخلاق ما فيها .

(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات) عما نسب إليهن (المؤمنات) أي المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به (لعنوا في الدنيا والاخرة) حيث يلعنهم اللاعنون والملائكة في الدارين (ولهم عذاب عظيم) هائل لا يعلم مقداره (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وذلك بإنطاق الله الذي أنطق كل شيء سواء كان النطق كما هو المعتاد الآن أو بنوع آخر . ويحتمل أن تكون الشهادة بما ذكر مجازا بظهور آثاره على هاتيك الأعضاء بحيث يعلم من يشاهدهم كل ماعملوه ، وذلك على الله يسير (يومئذ) أي يوم الشهادة المذكورة (يوفيهم الله) ويكمل لهم (دينهم الحق) جزاءهم الثابت في دفتر الاعمال (ويعلمون) أي أولئك المجزيون (أن الله هو الحق المبين) أي أن الله هو الموجود الكامل الثابت مع الإستغناء عما سواه ، والظاهر وجوده وكماله على أهل البصيرة من العالمين .

وقوله الكريم (الخبيثات للخبيثين) الآية بيان وإعلان لحكمة الباري في خلقه ووضعه كل شيء في محله المناسب وجعله الإجتماع والإزدواج غالبا على رعاية التكافؤ والتناسب ، فلما ميز الأنبياء والرسل الكرام بصفات

عالية ميزهم باختيار أزواج عفائف مؤمنات بالله حافظات لكرامتهن كما قال : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك) الطيبات والطيبون (مبرءون مما يقولون) أي المتقولون في حقهم (لهم مغفرة) من الله لهفواتهم (ورزق كريم) مناسب لدرجاتهم يوم الدين .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلِّمُوا على أَهْلِها ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فيها أَحَداً فَلا تَدخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ : ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ، هُوَ أَزْكى لَكُمْ ، وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخلُوا بُيوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتَاعٌ لَكُمْ ، واللهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ)(٢٩)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) سبب نزوله أنه جاءت امرأة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أكون في بيتي فيأتيني آتٍ فيدخل عليّ فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية الكريمة . يعني يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا هي غير بيوتكم المسكونة لكم (حتى تستأنسوا) أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها المالكين إن كانت تحت أيديهم ، أو المالكين لمنفعة سكناها بالأجرة كالمستأجرين أو بالهبة كالمستعيرين (وتسلموا على أهلها) أي الساكنين فيها . وظاهر الآية الكريمة أن الإستئذان قبل التسليم (ذلكم) الدخول بالإستئذان والتسليم (خير لكم) من الدخول بغتة والدخول على تحية الجاهلية ، وأرشدتكم إلى هذا الأدب (لعلكم تذكرون) أي كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بمقتضاه .

(فإن لم تجدوا فيها أحدا) بأن كانت خالية من الأهل (فلا تدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) من جهة من يملك الإذن (وان قيل لكم ارجعوا) أي إن أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر من يملك الإذن (فارجعوا) ولا تلحوا فإن ذلك صادر من جهة تطاع (هو أزكى لكم) أي فالرجوع أزكى وأطهر لكم من اللجاج والعناد والوقوف على أبواب العباد (والله بما تعملون عليم) فيجازيكم على مقدار أدبكم ونياتكم وقبولكم لأحكام الإسلام .

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أي غير مقررة لسكنى جماعة خاصة كالخانات والرباط والفنادق العامة لمن يحتاج النزول فيها بقدر الحاجة . وقوله (فيها متاع لكم) صفة للبيوت وللاحتراز عما إذا لم يكن له فيها متاع ولا حاجة ملحة ، فإن دخولها حينئذ موجب للتهمة والريبة . (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد لمن يريد أن يدخل تلك البيوت بالنية الفاسدة كيف كانت ، ان الله لا يحب المفسدين .

(قُلْ لِلمُؤْمِنِينَ : يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما يَصْنَعُونَ(٣٠) وقلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ مِنْها ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيوبِهِنَّ ، وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ ، أوْ آبائِهِنَّ ، أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ ، أَوْ أَبْنائِهِنَّ ، أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ ، أو بَنِي إِخْوانِهِنَّ ، أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ، أَوْ نسائِهِنَّ ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، أَوِ

التّابِعينَ غَيْرِ أولي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ، أَوِ الطِّفْلِ الَّذِين لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّسَاءِ ، ولا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، وتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(٣١)

قوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ••• الآية شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين وغيرهم • ولما كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مهبط الوحي ومظهر الشريعة خاطبه الله تعالى بقوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) والمفعول مقدر أي من النظر إلى ما لا يحل النظر إليه • وجزم يغضوا لوقوعه بعد الشرط المضمون من الكلام ، أي قل لهم ما يُهذبهم ، وان تقل لهم غُضوا أبصاركم يغضوا • وكلمة من تبعيضية • والمراد غض البصر عن بعض المنظور وهو الممنوع شرعا من الأجنبيات وزينتهن لا كل المنظور ، فإن النظر إلى الزوجة والمحارم حلال على ما تقرر في الدين فجعل الغض عن بعض المبصر غض بعض البصر ، وفيه كناية حَسنة •

وقد يستفاد من هذه الكلمة العفو عن بعض النظر الى الاجنبيات مما يقع بلا تعمد من الناظر • قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لا تتبع النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » فإن قلت : إذا كان هذا النظر بلا قصد ولا تكليف فما معنى العفو ؟ قلت : لأنه قلما يخلو ذلك عن مقدار الواقع فجأةً • وبدأ الله سبحانه وتعالى بغض البصر لأن البصر بريد الخطر والمفاسد تنشأ من الابصار (ويحفظوا فروجهم) أي عما لا يحل من الزنا والسحاق وإتيان النساء في أوقات الحيض والنفاس أو في أدبارهن ، وعن استعمالها في الذكور • ولم يأت بكلمة التبعيض هنا كما هناك لأن خطر

الفرج أشد من خطر البصر ، وذلك واضح (ذلك أزكى لهم) وأطهرُ من أوساخ الحرام وتطرق الأوهام وأبعد عن مظان الفتن الواقعة في الأيام فإنّ أكثرها من النساء (إن الله خبير بما يصنعون) فيما يأتون ويمتنعون فليكونوا على حذر عندما يخلون ويجتمعون .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن من عورات الرجال والنساء . وقال ابن حجر المكي : كما يحرم نظر الرجل للمرأة يحرم نظرها إليه ، ولو بلا شهوة وخوف فتنة . نعم إن كانت بينهما محرمية نسب أو رضاع أو مصاهرة نظر كل إلى ماعدا ما بين سرة الآخر وركبته إنتهى . ويستدل على ما قاله بما روى البيهقي في سننه عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وميمونة ، قالت : فبينما نحن عنده أقبلَ ابن أم مكتوم فدخل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « احتجبا منه . فقلت : يا رسول الله هو أعمى لا يبصر . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أَفَعَمياوان أنتما ؟ أَلَستُما تُبصرانِه ؟ » واستدل به من قال بحرمة نظر المرأة إلى شيىء من الرجل الأجنبي (ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق . ثم زاد سبحانه وتعالى في أحكام النساء فقال : (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أي ولا يظهرن للرجال ما يتزين به من الحلي ونحوها من المفتنات إلا ما ظهر منها وجرت العادة والجبلة على ظهورها كالخاتم والكحل والخضاب ، لا ما خفي منها كالسوار والخلخال والقرط والقلادة وأمثالها من حليهن . هذا من جهة الزينة . وأما من جهة الأعضاء فقال : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر جمع خمار ، والجيوب جمع جيب ، وهو فتح في أعلى القميص يبدو منه بعض البدن من الترقوة

والصدر وصفحة الرقبة ، أي وليجعلن خمرهن على جيوبهن ليسترن ما أقبل من رقابهن ونحورهن وصدورهن •

ولما نزلت هذه الآية سارعت النساء المهاجرات إلى الامتثال فشققن مروطهن فاختمرن بها وسترن تلك الأعضاء تصديقا وتطبيقا لما أنزله الله تعالى ثم كرر الله تعالى النهي لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعدما استثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور فقال : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) أي أزواجهن ، فيجوز لهم النظر إلى كل الزينة والبدن إلا المحل المعهود على خلاف فيه (أو آبائهن أو آباء بعولتهن، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن، أو إخوانهن، أو بني إخوانهن، أو بني أخواتهن، أو نسائهن) المختصات بهن بالخدمة أو الصحبة من حرائر المؤمنات ، فإن الكوافر ممنوعات عنها إذ لا مانع لهن عن وصفها للكافرين ، ولا فرق في ذلك بين الذميات وغيرهن (أو ما ملكت أيمانهن) من الإماء ، ولو كوافر ، وأما العبيد فهم كالأجانب ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحد قولي الشافعي ـ رضي الله عنهما ـ (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) أي الرجال الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل الطعام غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنيت شهواتهم ، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم بحيث لايمكنهم مايمكن لغيرهم ، (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أي الأطفال الذين لم يعرفوا ما العورة وما الشهوة • ثم بالغ في النهي عن إظهارهن لزينتهن فقال (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن) أي ليعلم الناس أنهن ذوات خلاخل •

ثم أمر الباري تعالى عامة المكلفين بالرجوع والإنابة إليه فقال (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أي تنجون من العذاب وتفوزون بالسعادة يوم اللقاء •

وخلاصة المقام أنه ظهر من الآية الكريمة حرمة نظر الرجال الاجانب الى النساء مطلقا والعكس كذلك ، إلا في المواد المستثناة وتأيدت الآية الكريمة ومدلولها بأحاديث شريفة تقرر ماذكرنا من حرمة نظر كل صنف الى الآخر • نعم فسر بعض الناس الزينة في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) بمواقع الزينة • وفسر قوله تعالى (ما ظهر منها) بالوجه والكفين ، وأباح النظر إليهما على ذلك التفسير • ولكن لا دلالة لها على ذلك ، فإن الآية الكريمة كما دلت على جواز كشفهن للوجه والكفين بناء على ذلك التفسير فقد دل صدرها على وجوب غض الأبصار من كل صنف وحرمة نظر كل صنف إلى الآخر في غير المواد المستثناة ، ويلزم من وجوب الغض حرمة النظر لكن لا يلزم من حل الكشف حل النظر ، فحكم النظر هو الحرمة إلا في حال الضرورة لتعليم أو تداو أو شهادة تحملا أو اداء وأمثالها • نعم نقل الإمام النووي عن القاضي عياض الإجماع على أنه لا يلزمها في طريقها ستر وجهها وإنما هو سنة ، وعلى الرجال غض البصر عنهن للآية الكريمة كما في تحفة الشيخ ابن حجر الهيتمي في أوائل النكاح ، ولكن لا يستلزم ذلك جواز نظر الرجال لهن ، بل يجب ستر الوجوه عليهن إذا تحقق نظر الأجنبي إليها ، وعليه ما نقل من اتفاق المسلمين على منع النساء أن يخرجن سافرات الوجوه لأن جميع بدنها عورة في النظر سواء الوجه والكفان وغيرهما وإن لم يكونا من العورة في الصلاة • وأما صوتهن فالمذكور في معتبرات كتب الشافعية أنه ليس بعورة فلا يحرم سماعه إلا إن خشي منه فتنة ، وكذا إن التذ به كما بحثه الزركشي • وأما عند الحنفية فقال الإمام ابن الهمام : صرح في النوازل أن نغمة المرأة عورة ، ولذا قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « التكبير للرجال ، والتصفيق للنساء » •

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ ، إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ، وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)(٣٤)

قوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) أتى الله سبحانه وتعالى بكلامه الوافي شفاء لداء عضال يبتلى به الناس ويقعون به مواقع السوء وذلك الشفاء هو الزواج المشروع الذي يوجب الأنس والراحة للنفس ، والنسل المطيع لجانب القدس المانع من الوقوع في مهالك الشهوات فقال (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم): وأيامى مقلوب أيايم جمع أيم ،لأن فيعل لا يجمع على فعالى،فقدمت الميم وفتحت للتخفيف،فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها • وذهب ابن مالك ومن تبعه الى أنه جمع شاذ لا قلب فيه ، ووزنه فعالى • والأيم كل أنثى لا ذكر معها وكل ذكرٍ لا أنثى معه • ويقال : آم وآمت إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين • وقد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته ، وفي المرأة إذا مات زوجها • وعن محمد بن الحسن

أنها الثيب ، واستدل بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر يستأمرها أبوها » •

يعني وزوجوا مولياتكم ومماليككم عند الحاجة إلى الزواج حتى لا يقع الناس في الزنا ، وتحصل العفة في الدين • وتخصيص الصالحين بالذكر إما للاهتمام بشأنهم أو المراد من يصلح للنكاح والقيام بحقوقه • وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وعد من الله عز وجل بالإغناء وعدا مقيدا بالمشيئة كما في قوله تعالى : فإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، وحث وترغيب للسادة في تزويج العبيد والإماء ، وعدم مبالاتهم بجانب فقر المال وأنهم لا يقدرون على اكتساب ما يعيشون به (والله واسع) أي غني ذو سعة لا ينقصه إغناء الخلائق (عليم) بأحوال الناس يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة الربانية •

ثم أرشد التائقين العاجزين عن مؤن النكاح بقوله : (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أي فليجتهد في العفة وصون النفس الرجال الذين لا يجدون أهبته حتى يغنيهم الله من فضله • وهذا وعد كريم من الله الكريم بالتفضل عليهم بالمال وسعة ذات اليد في المستقبل إن شاء • واستدل بهذه الآية من قال ندب ترك النكاح لمن لا يملك أهبته مع التوقان، وكثير من الناس ذهب إلى استحبابه له لقوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله •

وقوله تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا)••• الآية نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح، سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا امتثالا لقوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم •

والموضوع يناسبه تفصيل هو أنه كان عادة من قديم الأزمان أن كل قومين تحاربا وَوَقع بينهما حرب واستولى جانب على الآخر ، وأسر منهم الرجال والنساء والذراري أضافوا رؤوس أولئك إلى الاموال المنهوبة ، وأخذوها وقسموها ، فكل من وقع في سهمه رجل استرقه أو امرأة استرقها وتصرف فيها على حسب المعتاد بين الناس . ولما جاء الإسلام وبدأت الحرب بين المسلمين وبين المشركين استمرت العادة المذكورة، ولم يمكن للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إبطال هذه العادة العريقة مرة واحدة حتى ولم يمكن للعبيد إطلاق سراحهم ليكتسبوا ويعيشوا ، وما كان من المصلحة إرسالهم وإعادتهم إلى قومهم ليحاربوا المسلمين مرات اخرى . بل كانوا يبقون تحت أمر المالكين بعد القسمة ، أو تحت أمر الرسول قبلها فقد كان يعفو عمن يناسبه العفو مجانا ، أو يؤخذ منه فداء" ، أو يجعل فداءً لأسيرنا عند الاعداء ، أو يستعبدون . ومن أراد صيانة بعض النساء لنفسه كان ذلك جائزاً له ، وكان يعتبر الملك كعقد النكاح على تفاصيل مقررة في محلها . وسماحة الإسلام ورأفة صاحبه كانت تقتضي دوماً الافراج عن العبيد والإماء بشتى الطرق والوسائل حتى قررت شريعة الإسلام بنوداً فوق الثلاثين بنداً لإطلاق سراح العبيد والجواري مذكورة في محلها من الكتب المعتمدة . ومن جملتها : الكتابة مع أمةٍ أو عبد يريد استخلاص نفسه في مقابل المال يقدمه إلى سيده أقساطا ، وإذا سلمها له صار عتيقا . وكان واجبا على سيده إعادة بعض من ذلك المال إليه مساعدة له في الخلاص كما في الآية الشريفة فيقول الباري سبحانه وتعالى: (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم) أي والعبيد الذين يطلبون منكم الكتاب المسطور فيه ما يجري بينكم من القرار على تسليمهم مبلغا معينا من المال لاستخلاصهم من الرق (فكاتبوهم) واعطوهم ذلك الكتاب (إن علمتم

فيهم خيرا) أي علمتم أنهم لهم قابلية تحصيل ذلك المبلغ • وإذا سلموه إليكم فأعطوهم من مال الله الذي أعطاكم بأيديهم حتى يخلصوا من الرق وتنالون أنتم الجزاء الجميل •

وقوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) نزلت في ست جوار عند عبدالله بن أبي بن سلول وفيهن مسلمات ، وكان يكرههن على البغاء لأخذ المال منهن فنزلت وقوله (إن أردن تحصنا) أي تعففا يعني لا تكرهوهن على البغاء ما دمن مريدات العفة • أي لا تكرهوهن بشرط إرادتهن التعفف ، وذلك لأن الإكراه لا يوجد إلا إذا وجد منهن الرغبة في العفة والأمانة • أي إنهن مع كونهن جواري ضعافا مادام أردن التحصن والعفة فكيف يصح لكم وأنتم رجال وتدعون الشهامة أن تكرهوهن على البغاء لاستفادة مال منهن ؟! ويجوز تعلق الشرط بالنهي • وحاصل المعنى إني أنهاكم عن إكراههن على البغاء إذا أردن التحصن ، وأما إذا لم يردن التحصن فلا أنهاكم عن إكراههن ؛ لأنهن إذا لم يردن التحصن لا يبقى مجال للإكراه حتى ينهى عنه • وقوله (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) قيد للإكراه أي تكرهوهن ليبغين ويحصلن المال فتبتغوا بذلك الإكراه على الزنا مادة تنفعكم في الحياة الدنيا • (ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور) يغفر لهن (ورحيم) بهن حيث وقعن في المعصية إكراها لا بالإختيار •

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) للأحكام ، (و) أنزلنا إليكم (مثلا) وقصصا عجيبة (من الذين خلوا من قبلكم ، وموعظة للمتقين) الذين يسعون في امتثال الأوامر والنواهي الواردة من رب العالمين •

(اللهُ نورُ السَّموات ِ وَالأرْض ِ، مَثَلُ نُوره ِ كَمِشْكاة ٍ فِيها مِصْباحٌ المِصْباحُ في زُجَاجَة ٍ ، الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ ، ولا غَرْبِيَّةٍ ، يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ ، وَلَوْ لَمْ تَمسَسْهُ نارٌ ، نورٌ على نُورٍ ، يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصالِ(٣٦) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإِقامِ الصَّلوةِ وَإِيتاءِ الزَّكوةِ ، يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ(٣٧) ، لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٣٨)

قوله تعالى (ألله نور السموات والأرض) الآية ... تكلم المفسرون في تفسير النور هنا بأوجه وجيهة عديدة . وفسروا الآية الكريمة بتفاسير حسنة سديدة . وفي الحقيقة إنها لمن الآيات الكبريات التي تليق بأن تفسر وتنور بها البصائر والأبصار . فمن جملة ما فسروا به النور أنه بمعنى المنور يعني الله منور السماوات والارض فقد نور السماوات بالشمس والقمر والكواكب المضيئة ، وكذلك نور الارض بها كما نورها بنوع الإنسان وما يظهر منه من الطاعة والإحسان والعلوم والمعارف المتطورة التي تزداد يوماً على يوم .

ومنها أنه بمعنى الحق بمعنى أن الانقياد له هو الحق لأنه واجب الوجود وينبوع كل فيض وجود ، وإضافته إلى السماوات والارض بمعنى أنه هو المعبود الحق لأهل السماوات والارض .

ومنها أنه بمعنى الموجد والخالق .

ومنها أنه بمعنى الظاهر بذاته المظهر لغيره على معنى أن الله سبحانه وتعالى مادام متصفا بوجوب الوجود وجمع الكمال والنزاهة عن النقص ، وما عداه من الممكنات الخاصة المحتاجة الى الخالق يستنير بذاته ويتصف بالوجود بصنعه وتأثيره ، ويبقى تحت قوته وتأثيره .. فهو نور السماوات والارض أي ظاهر بنفسه على أهل السماوات والارض من أهل العقل والإدراك والإنصاف والتسليم السليم . فإن كل ذرة من ذرات عالم الوجود عاليه وسافله محتاج إلى خالق مدبر مؤثر فيه وفي صفاته لأنها من الممكنات المستوي لها الوجود والعدم ، ولا يترجح أحد الجانبين إلا بإرادته وتعلق قدرته . فالنور في أول الآية الكريمة صفة مشبهة بمعنى الظاهر بنفسه المظهر لغيره ليصح حمله على الله.وأما النور فيقوله (مثل نوره) فهو على معنى المصدر أي الظهور ، لكونه مضافا إلى الله تعالى .

فخلاصة معنى الآية الكريمة بيان أن الله تعالى ظاهر على البصائر كالنور على المنائر لا يخفى على المنصف . ومثل نوره وظهوره على أهل الإدراك كمثل نور المصباح على أهل الأبصار . وحاصله أن وجود الباري تعالى لا يحتاج إلى استدلال وتكلف اعتبارات ، فكل الكائنات من السماوات والارض شاهد على وجوده ، وكل من فيهما من الجماد والنبات والحيوان مسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، وكل إنسان ذي عقل وإنصاف يؤمن ويعترف به لأنه يعرف أن حركة الكون قائمة بالمتحرك والمتحرك محتاج إلى المحرك والمحرك بدون الشعور لا يكون له نظام ودستور ، فخالق السماوات والأرض ومن فيهما وعليهما هو الله الذي لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله فتعالى العلي الكبير .

وقوله تعالى (مثل نوره) أي مثل ظهوره في القوة والوصول إلى درجة العيان وقوله : (كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة

كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيىء ولو لم تمسه نار نور على نور) الآية ••• التشبيه الواقع فيه كالتشبيه الواقع في قوله تعالى مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء من حيث أن ترتيب الكلام يستفاد من المقام • والمعنى مثل نوره وظهوره سبحانه وتعالى كمثل نور مصباح في زجاجة كأنها كوكب دريّ ، والمصباح يوقد ويشتعل من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية فقط ، ولا غربية كذلك ، بل نبتت من بستان معتدل المكان ، يكاد زينتها يضيىء ويشتعل بنفسه ولو لم تمسسه نار • وهذا المصباح في مشكاة ، وهي الكوة غير النافذة حتى لا ينتشر ضوء المصباح الموضوع فيها •

وقوله (نور على نور) ليس معناه أنه نور واحد فوق نور آخر ليصيرا نورين ، بل معناه نور عظيم كائن على نور عظيم ، فإنه تحقق في المشبه به أنوار : نور الزيت الصافي ، ونور من اشتعاله في المصباح ، ونور من صفاء الزجاجة التي كأنها الكوكب الدري ، ونور آخر من وضع المصباح في كوة غير نافذة لا ينفذ نور المصباح فيها إلى الخارج ، بل يتراد بعضه على بعض فيحصل من تموجها ودخول بعضها في بعض قوة أخرى ونور آخر وظهور أزيد •

وتطبيق ذلك في موضوعنا أن الشجرة المباركة الزيتونة عبارة عن الإنسان المؤمن العاقل المتفكر ، وزيتها عبارة عن التفكر الصافي الناشيء من خزانة العقل • وزجاجة المصباح هي قلوب المؤمنين • والمصباح اشتعال تلك الفكرة الصافية بنار الاقتباس من الآيات القرآنية ، والآيات الأنفسية ، والآيات الآفاقية • والمشكاة إما عبارة عن هيكل الإنسان المتفكر او مادة السماوات والارض التي هي طاقة غير نافذة ، إذ ليس وراءها وراء •

ويجوز أن تمثل الشجرة بالإنسان المصلي في المعبد من البيوت المرفوعة بإذن الله تعالى ، أو غيرها من أماكن الطاعات ، وزينها بعبادته وطاعته وذكره وشكره ، والزجاجة بصدور المؤمنين المصلين والمشغولين بأصناف الطاعات . والمصباح بالاشتغال بها ، والمشكاة بالبيوت المذكورة ، والنور على النور بل الأنوار على الأنوار بأنوار أفراد المصلين المتعاونين المصطفين في الجوامع، ونور الأئمة الراشدين ، ونور قراءة القرآن واستمرارهم على طاعاتهم في كل وقت مقرر مبين .

ويدل على هذا التطبيق الأخير قوله تعالى (يهدي الله لنوره من يشاء ، والله بكل شيء عليم) مع ملاحظة تعلق قوله تعالى (في بيوت) به . والحاصل : إن ظهور الباري تعالى إنما يكون على أولئك الناس المباركين . (يهدي الله لنوره) أي يوصل الباري تعالى إلى العلم بظهوره (من يشاء) من عباده أين كانوا ولكنه جرت سنته السنية بهداية عباده الملازمين لطاعته في المساجد غالبا ، وذلك لتضافرهم وتظاهرهم على الطاعة واجتماعهم على الدعوات (ويضرب الله الأمثال للناس) في تضاعيف إنزال الآيات البينات للاعتبار والاستبصار (والله بكل شيء عليم) فيعلم من يهتدي بالحق ويقتدي بأهله ويستعد لإدراك وجوب وجوده وظهور ذاته وكمال صفاته . وقوله تعالى : (في بيوت أذن الله أن ترفع) استئناف لبيان من حصلت لهم الهداية لذلك النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره المستور ، فيكون الجار متعلقا بقوله يسبح ، وعلى هذا يجوز أن يكون متعلقا بمحذوف دل عليه هذا الفعل ، والتقدير سبحوا ربكم في بيوت الآية ... وعلى ذلك فالوقف على عليم ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور صفة لمشكاة أو لمصباح أو لزجاجة ، أو متعلقا بتوقد .

والرأي عندي أن يتعلق بقوله (يهدي الله لنوره) وإنما ترك ذلك الوجه أهل التفسير فيما نعلم لأن هداية الله الناس لنوره ليس مختصا بأهل تلك البيوت • ووجه اختياري لذلك الإعراب أن هدايته تعالى لعباده المشتغلين بالطاعة في تلك البيوت أكثر وأوفر لما ذكرنا من التظاهر والتضافر• والمراد بالبيوت عامة المساجد والمعابد المؤسسة على التقوى • وقيل المساجد الأربعة : الكعبة ، ومسجد المدينة المنورة ، والمسجد الأقصى ومسجد قباء • لأنها أسست على التقوى من جانب الرسل الكرام إبراهيم وإسماعيل ومحمد وداود وسليمان ــ عليهم الصلاة والسلام ــ (أذن الله أن ترفع) أي أمر الله أن ترفع حسا بأن يستحكم أساسها وجدرانها وتعلى إلى مستوى الأبنية القريبة منها أو تعلي عليها لتظهر في أنظار أهل الطاعة • أو معنىً وقدرا بصيانتها عن دخول الجنب والحيض والنفساء ، وعن وقوع الأقذار فيها لاسيما ما يخاف منها تلويثها • وعن دخول أصحاب الروائح الكريهة من الثوم والبصل والفجل وأمثالها • وعن إدخال الصبيان غير المميزين والمجانين والنعال المتوسخة بالأوساخ الرطبة أو اليابسة التي يخاف تنجيس المساجد وفروشها بها وعن إشغالها بالمعاملات والملاهي والكلمات البذيئة ••• إلى غير ذلك مما لا يناسب مقامها • (ويذكر فيها اسمه) أي أمر الله أن يذكر فيها اسمه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع وجوه ذكره المشروع بتلاوة الأسماء الحسنى والقرآن الكريم ، وما يتعلق بطاعة الله كتدريس القرآن والأحاديث الشريفة والفقه وأصوله والعلوم التي لابد منها في فهمها كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها ••• كما يشمل جميع الأدعية المأثورة وغيرها مما يدعى بها لجلب خير أو دفع شر • وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : المراد به توحيده ــ عز وجل بقوله لا إله إلا الله كما يشمل أداء الصلوات المفروضة والمندوبة مؤكدة أو غيرها ، وصلاة تحية

المسجد ، وسنة الوضوء • (يسبح له فيها بالغدو والآصال) استئناف لبيان أعمال من حصلت لهم الهداية • والتسبيح التنزيه والتقديس ، والمراد به إما ظاهره كأن يقول القائل : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أو إقامة الصلوات لاشتمالها على التسبيحات في الركوع والسجود • وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن صلاة • والغدو جمع غداة كفتى وفتاة ، أو مصدر أطلق على الوقت ، والاصال جمع أصيل كأشراف وشريف • وقوله (رِجال) فاعل للفعل السابق وقوله (لا تلهيهم تجارة) صفة له مؤكدة لما في إفادة التنوين من التفخيم ، فإن كمال الرجال بانقطاع قلوبهم عن الدنيا وتوجههم إلى الله سبحانه وتعالى والتجارة المعاوضات للاسترباح (ولا بيع) يشمل جميع البيوعات من بيع المعين والموصوف في الذمة (عن ذكر الله) أي بالتحميد والتسبيح وغيرهما (وإقام الصلوة) أي أدائها لأوقاتها والمواظبة عليها (وإيتاء الزكاة) أي المال المفروض إخراجه للمستحقين • وقوله (يخافون يوما) صفة أخرى للرجال ، أو حال من مفعول لا تلهيهم (تتقلب فيه القلوب والأبصار) أي تضطرب فيها القلوب من الهول والفزع ، وتضعف الأبصار من إبصار الأشياء من شدة الوجل والخجل •

وقوله تعالى (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) متعلق بقوله يسبح أي يفعلون ما يفعلون من التسبيح وإيتاء الزكاة وإقام الصلاة ليجزيهم الله تعالى على ميزان أحسن ما عملوه من الأعمال فيكون لهم ثواب زائد (ويزيدهم من فضله) أي يتفضل عليهم بمثوبات ومكارم لم توعد لهم بها وبمقدارها ولم يخطر ببالهم كمياتها وكيفياتها ، كما في قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حكاية عن الباري جل جلاله : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (والله يرزق من يشاء بغير

حساب) وهذا وعد كريم بأنه تعالى يعطيهم ما لا يفي به الحساب مما وراء جزاء أعمالهم تفضلا عليهم وإحسانا إليهم •

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ، وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيهُ حِسَابَهُ ، وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَيهُ مَوْجٌ ، مِنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرِيهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلوتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ؟ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَللهِ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)(٤٢)

قوله تعالى : (والذين كفروا) الآية ••• عطف على ما قبله عطف القصة على القصة • يقول الله سبحانه بعد بيان أجزية أعمال المؤمنين بكل تقدير واحترام (والذين كفروا أعمالهم كسراب) أي أعمالهم التي يعدونها من الحسنات بزعمهم (كسراب بقيعة) والسراب : ما ترقرق من الهواء في الهجير في صحراء واسعة • وقيل : هو الشعاع الذي يرى في نصف النهار عند اشتداد الحر في البر يخيل للناظر إليه أنه ماء سارب (يحسبه الظمآن ماءً) صفة أخرى لسراب ، أي يظنه ماء فراتا يرويه إذا شربه (حتى إذا جاءه) أي وصل إليه (لم يجده شيئا) أي لم يجد ما ظنه ماء شيئا أصلا ، لأنها لم يكن أمرا ثابتا يلمس ويؤخذ وينتفع به (ووجد الله عنده) أي ووجد آثار قدرة الله بالنسبة إليه وهو خلق الأسى في قلبه واستمرار العطش في

كبده (فوفيه حسابه) أي أعطاه وافيا ما ينتظره الإنسان من نظير ذلك العمل والركض وراء الأمل الفارغ الموجب للانفعال • ويحتمل أن يربط قوله تعالى (ووجد الله) عنده بموضوع (الذين كفروا) أي والذين كفروا أعمالهم حابطة لا تفيد وبالنتيجة يجدون الله عندما ييئسوا من كل نفع فوفاهم جزاء أعمالهم وهو الخلود في النار (والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عن حساب (أو كظلمات) عطف على قوله كسراب أي أو أن أعمالهم التي يزعمونها حسنات كالظلمات في الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق (في بحر لجي) أي في بحر عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر (يغشاه موج) أي يغطي ذلك البحر ويستره موج هائج من الماء (من فوقه موج) آخر وليس المراد على الأثنينية بل على التراكم والتتابع أي يستره موج وراءه أمواج أخرى كثيرة عند هيجان البحر بالأمواج • وقوله (من فوقه سحاب) صفة لموج الثاني أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماتي ستر أضواء النجوم وحجب وقوعها على سطح البحر • وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج حتى كأنها بلغت السحاب (ظلمات بعضها فوق بعض) أي هذه ظلمات بعضها فوق بعض (إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي من ابتلي بها إذا أخرج يده من الكم وجعلها في مرأىً منه لم يكد يراها فضلاً عن أن يراها فعلا • وقوله (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) تذييل جيء به لتقرير ما قبله وإثبات أن ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره •

وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والارض) خطاب لحبيبه محمد خاتم الأنبياء والمرسلين • والفعل مشتق من الرؤية العلمية • والآية لتقرير أن الله نور السماوات والارض • ويقول ألم تعلم يا حبيبي بالوحي أو بالإلهام أن الله سبحانه وتعالى يسبح له وينزهه عن العيوب وعن الشريك (من) أي كل عاقلٍ (في السموات) من الملائكة

على اختلاف أصنافها وكل عاقل (في الأرض) من الأنبياء والرسل السابقين واللاحقين ومن آمن بهم من الصادقين ◆ وقوله (والطير) معطوف على الموصول أي ويسبح له الطير في الجو حالكونها (صافات) أجنحتها بحيث يتمكن بها من الوقوف في الجو والحركة فيه إلى أي جهة شاءت بإرشادها وإلهامها كيفية استعمالها بالقبض والبسط والتحريك ◆ وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) جملة مستأنفة جيء بها لبيان رسوخ كل ما ذكر في شأنه بحيث يعلم كل من في السماوات والارض ويعلم الطير ما يصدر عنه من الافعال التي تكون بالنسبة إليها طاعة وإظهار عبودية للباري تعالى ◆ أما صلاة العقلاء وتسبيحهم فمعلوم أن العاقل المباشر لها يعلم بها وبوجوبها أو استحبابها وكمياتها وكيفياتها ◆ وأما الطير فالجمهور على أن تسبيحها حقيقي ، ولا يلزم كون التسبيح الحقيقي بالألفاظ المعتادة لنا ، لأن كل نوع من المخلوقات له نوع من المألوفات (والله عليم بما يفعلون) والمستفاد من الآية الكريمة أن عقلاء عالم العلو والسفل والطيور لما آمنت بالله الذي هو نور السماوات والارض فما قيمة الجهلاء فيهما إذا عاندوا الحق والحقيقة ولم يؤمنوا بالله الذي هو نورهما ولم يظهر على عيون رؤوسهم ونفوسهم هذا النور الظاهر بنفسه المظهر لغيره ؟ (ولله ملك السماوات والارض وإلى الله المصير) أي رجوع الكل بعد الموت والبعث للمعاد ◆

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً ، فَتَرى الْوَدْقَ يَخرُجُ مِنْ خِلالِهِ ؟ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن جِبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ ، يكادُ سَنابَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، إِنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً

لِأُولِي الْأَبْصارِ(٤٤) وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي على بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي على رِجْلَيْنِ ، ومِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي على أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ)(٤٦)

قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجي سحابا) جملة مستأنفة وفي المعنى مقررة ومؤكدة لما قبلها من سيطرة الباري على العالم وظهوره على العقلاء وإطاعتهم له فيقول (ألم تر) بالعين (أن الله يزجي سحابا) أي يسوقه سوقا برفق وتؤدة (ثم يؤلف بينه) أي وبين سحاب آخر أو يؤلف بين أجزاء ذلك السحاب الأول المتفرق بعضه عن بعض (ثم يجعله ركاما) أي متراكما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أي المطر شديدا كان أو ضعيفا (يخرج من خلاله) أي من فتوقه ومخارجه ومنافذه (وينزل من السماء) أي من السحاب العالي (من جبال فيها من برد) أي قطع كبيرة من البرد المتكون هناك بإرادته سبحانه وتعالى بأسباب خاصة هيّأها تشبه الجبال في الحجم والارتفاع (فيها) أي في السماء من بَرَدَ أي من الحالوب المعروف المسمى بالبرَد لأنه يكسو سطح الارض كالبردِ الملبوس (فيصيب به) أي بذلك البرد (من يشاء) إصابته في نفسه أو مواشيه أو بساتينه أو مزارعه (ويصرفه عمن يشاء) صرفه وانحرافه عنه (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أي ويحصل من ذلك السحاب المتراكم الضاغط بعضه على بعض برْقا مشرقا مضيئا يكاد سنا برقه وضوئه الحديد الشديد يذهب بالأبصار من فرط الضوء وسرعة الورود وغلبته على أضواء العيون (يقلب الله الليل والنهار) أي يغير الله الليل والنهار كلا بالآخر بالحركات المتوالية الجارية على الكواكب السفلية

والعلوية (إن في ذلك) التصرف البديع البارع المدهش للعقول (لعبرة لأولي الأبصار) أي دلالة واضحة على وجوده وقدرته وتصرفه في الكائنات يتصف بتلك العبرة أولو الأبصار للنظر في مظاهر العالم وأولو البصائر للنظر في الأنفس والدقائق •

ثم أظهر قدرته من جهة أخرى فقال (والله خلق كل دابة) أي كل حيوان يدب على الارض (من ماء) هو جزء من أجزاء مادته المخلوق هو منها (فمنهم من يمشي على بطنه) كالزحافات (ومنهم من يمشي على رجلين) كالآدميين والطيور (ومنهم من يمشي على أربع) كذوات القوائم ، ومنهم غير ذلك مما لم يذكر (يخلق الله ما يشاء) لا يعجزه شيء عن شيء (إن الله على كل شيء قدير) فيتصرف في العالم كما يشاء (لقد أنزلنا آيات مبينات) للمهمات مما يتعلق بالعقائد والأحكام وانتظام أمور الأنام (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) فيسلكه ويصل بسلوكه الى النور الذي يطمئن به قلبه ويفهم به معاني الآيات •

(وَيَقُولُونَ : آمَنّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ، وما أولئِكَ بالمُؤْمِنِينَ(٤٧) وإذَا دُعُوا إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذا فَرِيقٌ مِنهُمْ مُعْرِضُونَ(٤٨) وإنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ(٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؟ أَمِ ارْتابُوا ؟ أَمْ يَخَافُونَ أن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظّالِمونَ(٥٠) إنّما كانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللهِ وَرسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا

وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فأُولئِكَ هُمُ الفائِزُونَ)(٥٢)

قوله تعالى (ويقولون : آمنّا بالله وبالرسول) الآية ... نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه وبين علي ـ كرم الله وجهه ـ خصومة في أرض فتقاسما فوقع لعليّ ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة ، فقال المغيرة : بعني أرضك، فباعها إياه وتقابضا ، فقيل للمغيرة : أخذت سبخة لا ينالها الماء . فقال لعلي ـ كرم الله وجهه ـ : اقبض أرضك ، فإنما اشتريتها إنْ رضيتُها ، ولم أرضها فإن الماء لا ينالها . فقال علي : قد اشتريتها ورضيتها وقبضتها وأنت تعرف حالها ، لا أقبلها منك . ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أما محمد فلست آتيه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ فنزلت . يعني إن أولئك الناس (يقولون) باللسان (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أي أطعنا الله ورسوله في كل أمر ونهي (ثم يتولى) أي يعرض عن مقتضى هذا القول (فريق منهم من بعد ذلك) الذي صدر منهم من ادعاء الإيمان بالله ورسوله والطاعة لهما (وما أولئك بالمؤمنين) في الواقع حيث تبين بتوليهم وإعراضهم عن رفع المحاكمة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم لا يصدقونه في ما يصدر منه من الأحكام كما قال تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) أي وبين خصومهم (إذا فريق منهم معرضون) أي فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وإن يكن لهم الحق) أي لا عليهم (يأتوا إليه مذعنين) منقادين مطيعين لـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . (أفي قلوبهم مرض ؟) أي كفر ثابت جعلهم بحيث يقطعون أن الرسول ليس رسولا من الله وليست أحكامه صادرة عن الوحي (أم ارتابوا ؟) أي أهم مترددون في شأن الرسول وحائرون بين الكفر والإيمان فتارة يحكمون بأنه ليس رسولا فيحكم

بالباطل ، وتارة يعودون فيقولون : إن أحكامه حق (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟) يعني أم ليس الكفر سائدا على قلوبهم ولا التردد بل هم مؤمنون ضعاف الايمان وضعاف القلب، ويتصورون أن الله ورسوله قد يرجحان جانب بعض المراجعين على بعض لقرابة أو اختصاص أو سبق في الإسلام، (بل) أعرض عن هذه التقسيمات ، وإنما (أولئك هم الظالمون) المشركون الكافرون المصرون على الكفر ولا يؤمنون بالله ورسوله وليس عندهم ما يسوقهم إلى الرضا بالمحاكمة إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وليسوا من المؤمنين قطعا •

(إنما كان قول المؤمنين) إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم في شجار وخصام (أن يقولوا : سمعنا) الحكم (وأطعنا) ه (وأولئك) الناس القائلون بذلك (هم المفاحون) الفائزون بالخير في الدارين • (ومن يطع الله ورسوله) فيما أمرا به ونهيا عنه (ويخش الله) على ما جرى منه من المعاصي سابقا (ويتقه) في ارتكابها لاحقا (فأولئك هم الفائزون) بسعادة الدارين • ولفظ مضارع المذكر الغائب المعلوم من باب الافتعال معطوف على الشرط السابق ومجزوم بحذف لام الفعل ، وفيه قرآت ، والمعروف عندنا منها قراءة حفص لها بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة • والضمير المنصوب راجع الى الله تعالى •

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ، قُلْ : لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ ، وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِي ، لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ(٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلوةَ ، وَآتُوا الزَّكوةَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ، وَمَأويهُمُ النّارُ ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٥٧)

قوله تعالى (وأقسموا بالله) حكاية لبعض أحوال أخرى من أحوال الكفرة غير ما سبق ، فيقول تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أي حالكونهم يجهدون أيمانهم جهدا ، أو جاهدين أيمانهم ، ومعنى جهد اليمين بلوغها غايتها في التأكد والاهتمام بها (لئن أمرتهم) بالخروج إلى الجهاد (ليخرجن) بكمال الإطاعة والإقدام (قل : لا تقسموا) على ما تريدون الإقسام عليه من الطاعة ، سلمنا أنكم تطيعون لكنها (طاعة معروفة) منكم ليست محل الاشتباه لأنها طاعة لسانية فقط (إن الله خبير بما تعملون) ومنه ما تظهرونه من الأكاذيب (قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) حق الإطاعة وقوله تعالى (فإن تولوا) خطاب للمنافقين على وجه الإلتفات بتغيير الأسلوب ، والفعل مضارع لجمع المذكر المخاطب المحذوف منه إحدى التاءين ، أي فإن تتولوا عن إطاعة الله وإطاعة رسوله أيها الناس الفاسدون (فإنما عليه) أي فعلى الرسول (ما حمل) من التبليغ ، وقد شاهدتموه وسمعتم ما بلغه إليكم (وعليكم ما حملتم) أي ما كلفتم به من الإطاعة

الخالصة الغير المشوبة بالنفاق (وإن تطيعوه) فيما أمركم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ (تهتدوا) إلى الحق الذي لا شيء فوقه (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقد بلغ الرسول ما أوحى إليه من الله •

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم) أي ليجعلنهم خلفاء في الأرض متصرفين فيها تصرف الملوك (كما استخلف الذين من قبلهم) وهم بنو إسرائيل ، إستخلفهم الله بعد إهلاك الجبابرة (وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وهو دين الإسلام (وليبدلنهم من بعد خوفهم) من أعدائهم (أمناً) واسعا نافعا حالكونهم (يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك) أي ومن اتصف بالكفر واستمر عليه ولم يتأثر بهذه الآيات البينات والمواعظ من أولئك الكافرين (فأولئك هم الفاسقون) أي الكاملون في الفسق الخارجون عن دائرة الخير واستحقاقه أبد الآبدين •

واستدل كثير من العلماء بهذه الآية على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ لأن الله تعالى وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء ، ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع التخلف في وعده تعالى ، ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم ، فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد الباري جل جلاله • ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين ، بل وقوعه فيهم مثل بنو فلان قتلوا فلانا فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع ، وكون من بيانية ، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، وكذا في خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ من الفتن ، لأن المراد من الأمنِ الأمنُ من أعداء الدين وهم الكفار •

(وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) هذه الآية الشريفة معطوفة على قوله تعالى (وأطيعوا الله) والفاصل بين

المتعاطفين ليس أجنبيا من كل وجه ، فإنه وعد على المأمور به وبعضه من تتمته (لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض) أي لا تحسبنهم معجزين لله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم أينما كانوا من أقطار الأرض فلا شك أنه تعالى يدركهم ويهلكهم (ومأويهم النار ، ولبئس المصير) نار جهنم . أعاذنا الله منها بمنه وكرمه آمين .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ ثلاثَ مَرَّاتٍ : مِنْ قَبْلِ صَلوةِ الْفَجْرِ ، وحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلوةِ العِشاءِ . ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ ولا عَلَيهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ ،كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٨) وَإِذا بَلَغَ الأَطْفالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كذلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٩) وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ، واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(٦٠)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا) رجوع إلى بيان تتمة الأحكام السابقة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب إطاعة الله تعالى ورسوله فيقول : (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم) أي من أولادكم المميزين الذين لم يبلغوا وقت البلوغ والإحتلام (ثلاث مرات) أي ثلاث أوقات في اليوم والليلة .

وقد اتفق الفقهاء على أنه إذا احتلم الصبي فقد بلغ ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم . فقال ابو حنيفة في المشهور : لا يكون بالغا حتى يتم له ثماني عشرة سنة ، وكذا الجارية إذا لم تحتلم أو لم تحض أو لم تحبل لا تكون بالغة عنده حتى يتم لها سبع عشرة سنة . وقال صاحباه والشافعي وأحمد : إذا بلغ الغلام والجارية خمس عشرة سنة فقد بلغا . وهو رواية عن الإمام ــ رضي الله عنه ــ وعليه الفتوى .

وقد بين الله تعالى المراد بثلاث مرات فقال : (من قبل صلوة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) بيان للحين ، والظهيرة الظهر (ومن بعد صلوة العشاء) لأنه وقت التجرد عن لباس اليقظة والالتحاف بثياب النوم ، وكثيرا ما يتعاطى فيه مقدمات الجماع ، وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل (ثلاث عورات لكم) أي هن ثلاث عورات لكم . أي هي ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث (طوافون عليكم بعضكم على بعض) أي هم طوافون عليكم ، وبعضكم طائف على بعض . (كذلك يبين الله لكم الآيات) الدالة على ما فيه سعادتكم في الدارين (والله عليم) بجميع المعلومات (حكيم) في جميع أفعاله وتشريعاته .

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) المذكورين في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) الآية ... (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم . والقواعد من النساء) أي العاجزات القاعدات في مساكنهن لعجزهن عن المشي (اللاتي لا يرجون نكاحا) أي لا يطمعن فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أي الثياب الظاهرة التي لا يفضي وضعها إلى كشف

العورة كالجلباب ، والرداء ، والقناع الذي فوق الخمار • (غير متبرجات بزينة) التبرج التكلف في إظهار ما خفي ، أي غير مظهرات زينة مما أمر باخفائه في قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن) (وأن يستعففن) بالتستر وترك وضعهن (خير لهن) من الوضع لبعده عن التهمة والغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهن عن وضع الثياب خير لهن ، فما ظنك بذوات الزينة من الشوابّ ؟ (والله سميع) لما يجري بينهن بصوت خفي (عليم) بمقاصدهن •

(لَيْسَ عَلَى الأَعْمى حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ، وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ ، اَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ ، أَو بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ، أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ ، أَو بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ ، أَوْ بُيوتِ عَمَّاتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ أَخوالِكُمْ أوْ بُيوتِ خَالاتِكُمْ ، أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ، أَوْ صَدِيقِكُمْ • لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ اَشْتَاتاً ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(٦١)

قوله تعالى : (ليس على الأعمى حرج) الآية ••• عن سعيد بن جبير والضحاك أنه كان العرجان والعميان يتحرجون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يستقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذرا ، فأنزل الله هذه الآية •

وقيل : كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو إلى بعض من سماهم الله تعالى في الآية الكريمة ، فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون : ذهب بنا إلى بيت غيرنا ولعل أهله كارهون لذلك . وكذلك كانوا يتحرجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها ، وأذنوا لهم أن يأكلوا مما فيها مخافة أنلا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم . وكان غير هؤلاء أيضا يتحرجون من الأكل في بيوت غيرهم ؛ فعن عكرمة كانت الأنصار في أنفسها قزازة فكانت لا تأكل من البيوت التي ذكر الله تعالى .

وقال السدي : كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لأجل أنه هناك رب البيت . والحرج لغة كما قال الزجاج الضيق من الحرجة وهو الشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه . وقال الراغب : هو في الأصل مجتمع الشيء ثم أطلق على الضيق وعلى الإثم . والمعنى على الرواية الأولى : ليس على هؤلاء حرج في أكلهم مع الأصحاء . ويقدر على سائر الروايات ما يناسب ذلك مما لا يخفى . وكلمة (على) باقية على معناها في جميع ذلك . وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنه لما نزل (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقيل : كانت العرب ومن بالمدينة قبل البعث تجتنب الأكل مع أهل هذه الأعذار لمكان حولان يد الاعمى ، وانبساط جلسة الأعرج ، وعدم خلو المريض من رائحة تؤذي ، او جرْحٍ ينض ، او أنفٍ يَذن . فنزلت

ومن ذهب الى هذا جعل كلمة (على) بمعنى (في) أي ليس في مؤاكلة الاعمى حرج وهكذا ... وإلا لكان حق التركيب ليس عليكم حرج أن تأكلوا مع الأعمى . وكذا يقال فيما بعد .

(ولا على أنفسكم) حرج (أن تأكلوا) أنتم وهم معكم (من بيوتكم) من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد ، ولأن بيت الولد كبيته لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنت ومالك لأبيك » . وقوله ـ عليه السلام ـ « إن أطيب ما يأكل المؤمن من كسبه ، وإن ولده من كسبه » (أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أو ما ملكتم مفاتحه) مما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظا (أو صديقكم) أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم (ليس عليكم جناح أن تاكلوا جميعا أو أشتاتا) أي مجتمعين أو متفرقين . نزلت في بني ليث بن عمرو من كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ، وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفا . وقيل : وهذا التحرج سنة موروثة من الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ . (فإذا دخلتم بيوتا) من البيوت المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أي على أهلها لأنهم منكم فكأنكم سلمتم على أنفسكم (تحية من عند الله مباركة طيبة) تطيب بها نفس المستمع (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي آيات الأحكام الاجتماعية (لعلكم تعقلون) ما في تضاعيفها من الشرائع والآداب الإسلامية .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ،

فَإِذا اسْتَأْذَنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لا تَجعَلُوا دُعاءَ الرَّسولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ، قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلونَ مِنْكُمْ لِواذاً ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ للهِ ما فِي السَّماواتِ والأرض ، قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم)(٦٤)

قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) آية من الآيات البينات المهمة في التزام المؤمنين لإطاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم في أوامره ونواهيه فيقول الله تعالى مصدرا بأداة الحصر : (إنما المؤمنون الذين آمنوا) أي ليس المؤمن بالمعنى الكامل إلا من آمن بالله ورسوله إيمانا صافيا عن شوب التردد والأوهام المخالفة (وإذا كانوا معه) أي مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (على أمر جامع) للناس مهم مهتم به أي أمرٍ كان • وقال بعض : المراد أمر مهم يجب اجتماعهم معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية الى الاجتماع لغرض من الاغراض (لم يذهبوا) عنه أي لم ينفكوا عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (حتى يستأذنوه) ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الذهاب والانفكاك فيأذنلهم به فيذهبون • وذلك لأن الاستئذان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقف سير المؤمن على إذنه ملاك الأدب • ولذلك قال تعالى : (إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقد جعل المستأذنين هم المؤمنون كما جعل سابقا المؤمنين هم المستأذنون ،

فيحصل هنا المساواة بين المؤمنين والمستأذنين ، حيث صدق كل مؤمن مستأذن وكل مستأذن مؤمن (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم) أي لبعض أمر من أمورهم المهمة (فأذن لمن شئت منهم) على اختيارك فإن تلك الأمور أي الإذن لمن شئت وعدمه لمن شئت مفوض إليك (واستغفر لهم الله) فإن الاستئذان لا يخلو عن شائبة فاسدة هي تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (إن الله غفور) كثير المغفرة لفرطات العباد (رحيم) في إفاضة الكرم عليهم .

ثم قرر الله تعالى معنى الآية السابقة بقوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أي لا تقيسوا دعاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياكم لأمر من الأمور على دعاء بعضكم بعضا فإن بين الفرع والأصل فوارق عديدة كثيرة (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) وعيد لمن خالف الحكم الماضي ، وكلمة قد للتحقيق ، أي لا شك أن الله تعالى يعلم الذين يتسللون ويخرجون من الجماعة قليلا ـ قليلا على خفية ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) أي بلاء ومحنة في الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) في الآخرة . (ألا إن لله ما في السموات والارض) من الجمادات والنبات وأصحاب الحياة من العقلاء وغيرهم ، فالكل عائد إلى الله تعالى خلقا وملكا وتصرفا إيجادا أو إعداما بدءا أو إعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) من الصفات والأحوال إيمانا وكفرا موافقة ومخالفة (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) من الحسنات والسيئات لأنه توزن أعمالهم ويحاسبون عليها (والله بكل شيء عليم) لا تخفى عليه خافية . وفيه بشارة للمؤمنين ، ووعد لهم بنيل الجزاء والثواب ، وإنذار ووعيد للكافرين وتهديد لهم بما يلقونه يوم القيامة . ونسأل الله الرءوف الرحيم السلامة من موجبات الندامة ، وإفاضة العفو والرحمة علينا بالإحسان والكرامة آمين

سورة الفرقان ، مكية ، وهي سبع وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً(١) الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّموات وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شريكٌ فِي المُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً(٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً ولا حَيوةً وَلا نُشُوراً)(٣)

قوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

افتتح الباري سبحانه هذه السورة الجليلة بفعل لا يسند غالبا إلا إلى الله سبحانه ، ولا يتصرف فيه بالمضارع والأمر والنهي في الأغلب ، وهو بمعنى تعاظم وتعالى ، وجاء بالموصول والصلة تنبيها على أن هذا التنزيل التدريجي المنجم على حسب اقتضاء الحكمة لا يمكن إلا منه • وعبر عن الكلام المنزل بالفرقان ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل إشارة إلى أن ذلك الكلام يفرق بين كل حق وباطل ، وما قرره حقا فهو الحق ، وما قرره باطلا فهو الباطل ، وما أتاه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نزله على إنسان ينبوع للخير والإحسان ، مخصوص بصفة العبودية الخالصة لربه

الموصوف بصفة السيادة الخالصة ، فالعبد هو العبد الذي نظر بكل مشاعره إلى مولاه ، وقطع النظر عن جميع ما سواه ، ولا يخفى ما في إضافة هـذا العبد إلى نفسه من التشريف • وقوله ليكون للعالمين نذيرا لإفادة أن دفع المفاسد أهم من جلب المصالح وأهل الفساد أكثر من أهـل الرشاد • وفيه براعة الإستهلال لأن الآيات النازلة فيها تدق أعناق المعاندين (الذي له ملك السماوات والأرض) دون غيره مطلقا ، لا اسـتقلالا ولا اشـتراكا فلـه السلطان القاهر (ولم يتخذ ولدا) من الذكور ولا من الإناث ، لأن وجوب الوجود معناه الاستغناء المطلق عن كل موجود (ولم يكـن له شـريك في الملك) والسلطنة والاستيلاء ، وهو الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كـن فيكون (وخلق كل شيء) أي كل ما يدخل تحت الإرادة والمشيئة (فقدره) فأعده لما خلق له وأراد به من الخصائص والاعمال وأكد ذلك بقوله (تقديرا) أي تقديرا بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ قعـره •

(واتخذوا) أي الكفار المشركون (من دونه) أي من دون الله تعالى (آلهة) تائهة لا حياة فيهـا ولا شعور (لا يخلقون شيئا وهـم يخلقون) فإنها هياكل منحوتة نصبت بأيد أثيمة اكتسبت من الجرائـم ما اكتسـبت (ولا يملكون) أي أولئك الآلهة (لأنفسهم ضرا ولا نفعا) ومعلوم أن الخالق هو الضار والنافع (ولا يملكون موتا ولا حيوة ولا نشورا) والخالق يجب أن يكون قادرا على الموت والحياة والنشور •

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً(٤) وَقَالُـوا : أَسَاطِيرُ الأَوَّلِـينَ اكْتَتَبَهَـا فَهِـيَ تُمْلَـى عَلَيْـهِ بُكْـرَةً وَأَصِيلاً(٥) قُلْ : أَنْزَلَهُ الَّـذِي يَعْلَمُ السِّـرَّ فِي السَّـمٰوَاتِ

وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً(٦) وَقالُوا : ما لِهذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمشي فِي الأَسْواقِ ؟ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيراً(٧) أو يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها ، وَقالَ الظَّالِمُونَ : اِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورا(٨) اُنظُرْ كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثالَ ؟ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبيلاً(٩) تَبارَكَ الَّذي اِنْ شاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً)(١٠)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) القائلون هم جمع من مشركي العرب منهم النضر بن الحرث ، وعبدالله بن أمية ، ونوفل بن خويلد • يعني إنهم قالوا : (إن هذا) أي ما هذا القرآن (إلا إفك) أي كذب (افتراه) أي اخترعه من عند نفسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وأعانه عليه) أي على افترائه (قوم آخرون) غير العرب من اليهود بأن يلقوا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبار الأمم السابقة المستقاة من الأسفار الدائرة إذ ذاك أو من الحكايات المروية ، (فقد جاءُوا ظلماً وَزوراً) أي فقد جاءوا بتعد هائل وظلم وافر حيث جعلوا الآيات البينات البليغة المتضمنة للحكم الثمينة وللمواعظ المبينة وللاصول الرصينة الموجهة لأصحاب العقول الى الاعتدال في الدنيا والدين (إفكا) مفترى مع أن الأكاذيب الاعيبُ تافهة (وزورا) أي كذبا عظيما وكل من هذين اللفظين منصوب بنزع الخافض أي فقد جاءوا بظلم عظيم وزور لئيم • ويجوز أن يكونا في تأويل اسم الفاعل حالين من الفاعل ، أي ظالمين ومزورين أي جاءوا الى مقام الدعوى كذلك • (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها) أي بعد أن قالوا لهذا القرآن المعجز

بأسلوبه ورصانة مبانيه ودقائق معانيه أنه إفك أعانه عليه آخرون بينوا كيفية الإعانة بأنه أساطير الأولين اكتتبها وكتبها لنفسه وينسبها إلى جانب قدسه (فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) أي تلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها صباحا ومساء ليحفظها من أفواه من يلقيها عليه • (قل) يا حبيبي رداً عليهم : (أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض) أي لو كنتم من أهل العلم والعقل ما أتيتم بتلك الشبه الواهية التي يعلم بطلانها كل من يعلم بوجود أجلى البديهيات ، فإن الأساطير أمور قديمة مكررة ليس فيها جديد ، وهذا القرآن الكريم أصول معقولة وأحكام مقبولة مناسبة لعصر نزوله ، وليس فيه أحكام الأمم السابقة الدارجة ، بل أحكامها محكمات مناسبات لهذا الزمان ، وأنتم أصحاب الأبصار متى رأيتم أستاذا أو أساتذة في مكة المكرمة التي عاش فيها صاحب هذا القرآن حتى يأخذ منهم هذه العبارات وهذه الاعتبارات في زمان مخصوص فضلا عن تكررها بكرة وأصيلا ؟ ومتى وجدتم محمدا يكتب كتابا أو يصاحب كتّابا ليكتب هذا القرآن له ؟ ثم من هو الذي يأتي بأمثال عباراته في الفصاحة والبلاغة حتى يقال إنه أخذه منه ؟ وبعد ذلك من هو الذي يستوعب هذه المعاني الجليلة الجامعة لمنافع الدارين والمتضمنة لدقائق الأسرار من البشر حتى تنسب إليه ؟ فيتبين ببعض الملاحظات واللمحات الفكرية من الإنسان العاقل أن هذا القرآن ليس كلام البشر بل كلام الله العليم العلام وأنزله الذي يعلم السر في السماوات والارض • وإلا فمن الذي يستوعب هذا القرآن المشتمل على أسرار مطوية بعيدة عن مستوى عقول البشر ؟ وأنتم أيها المشركون المشاغبون مستحقون لإنزال العقوبات الصارمة من الله عليكم لكن الله أمهلكم إلى أجل مسمى (إنه كان غفورا رحيما) وإلا لعذبكم بالعجل عذابا أليما •

(وقالوا) أي المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟) أي ما الذي حدث لهذا الرجل الذي يدعي الرسالة من الله وهو إنسان من أمثالنا يأكل الطعام كما نأكله ويمشي في الأسواق لابتغاء الأرزاق كما نبتغيه وهو فقير محتاج إلى ذلك العمل (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) والناس يلبون إذ ذاك طلبه ويتبعون أدبه (أو يلقى إليه كنز) حتى لايحتاج إلى المشي في الأسواق (أو تكون له جنة يأكل منها) فيخلص من قلة المال وفقر الحال (وقال الظالمون) أي الكفار المشركون : (إن تتبعون) أي ماتتبعون (إلا رجلا مسحورا) سحر فغلب على عقله • (أنظر) يا حبيبي (كيف ضربوا لك الأمثال ؟) أي كيف قالوا في حقك الأقاويل الباطلة العجيبة الخارجة عن العقول (فضلوا) وتاهوا عن طريق العقل والفهم الصحيح وبقوا متحيرين لا يجدون مخرجا (فلا يستطيعون سبيلا) للقدح في نبوتك ورسالتك بحيث يستقر عليه العقل ، فإنهم قد سمعوا برسالة إبراهيم الخليل أبي إسماعيل باني البيت الجليل ، وبرسالة موسى صاحب التوراة وعيسى صاحب الإنجيل • وكل أولئك الرسل الكرام كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ولم ينزل الله تعالى إلى أي واحد منهم ملكا كريما يكون معه ، ولا ألقى إليه كنزاً ، ولا أعطي بستانا • وإنما هذه الكلمات تخرج من أفواههم بلا شعور وإدراك صحيح ولا عقل ولا نور•

(تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الذي اقترحوه في الدنيا وأبدل عنه قوله (جنات تجري من تحتها الانهار) في الفردوس (ويجعل لك قصورا) في عالم الآخرة يقصر عن نعتها ووصف كميتها وكيفيتها ألسنة المتكلمين •

روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن جمعا كثيرا من عظماء قريش اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ــ صلى الله عليه

وسلم ـ وكلموه وخاصموه حتى تعذروا منه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فجاءهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسودك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما بي مما تقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوهُ عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله عز وجل بيني وبينكم » قالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك فسل لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله تعالى بعثني بشيرا ونذيرا» فأنزل الله تعالى فيقولهم ذلك (وقالوا ما لهذا الرسول) الآية..

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً(١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا

هُنالِكَ ثُبُوراً(١٣) لاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً ، وادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً(١٤) قُلْ : اَذلِكَ خَيْرٌ اَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ؟ كانَتْ لَهُمْ جَزَاءً ومَصِيراً(١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاءُونَ خالِدِينَ ، كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً(١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَيَقُول : ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُم عبادي هؤلاءِ ؟ اَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟(١٧) قالُوا : سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِن أَولياءَ ، وَلكِن مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وكانُوا قَوْماً بُوراً(١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِما تَقُولُون ، فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً ولا نَصْراً ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبيراً(١٩) وما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ اِلاَّ إنَّهُمْ لَيأْكُلُون الطَّعامَ ويَمْشُونَ فِي الأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً)(٢٠)

قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة) انتقال إلى حكاية نوع آخر من خصالهم المذمومة يعني أعرض عن هذه الأقوال التافهة التي يأتون بها إلى منشأ لها وهو تكذيبهم بالساعة وجزاء الاعمال ، فإنهم استمروا على هذه العقيدة المعقدة المخالفة للواقع وكذبوا بالساعة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) فليقولوا ما يقولون وليفعلوا ما يفعلون • ثم ذكر بعض أوصافها وقال : (إذا رأتهم من مكان بعيد) إذا رأت السعير أولئك الأفاكين المكذبين

بالساعة من مكان بعيد هو أقصى ما يمكن أن يرى منه (سمعوا لها) أي للسعير (تغيظا) أي صوتا ناشئا عن الغضب والتغيظ (وزفيرا) وهو إخراج النَّفَس بعد مده ۰ ونسبة هذه الاشياء اليها يجوز أن تكون على سبيل الحقيقة بناء على أنها من الممكنات ولها جهات شتى في الوجود والحدوث ، ويجوز أن تكون على ضرب من التجوز كما لا يخفى ۰ و (إذا ألقوا منها مكانا ضيقا) صفة مقيدة لزيادة كرب من يجعل فيه أي مكانا ضيقا من السعير حالكونهم (مقرنين) قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالحبال الحديدية أو مقرنين مع قرنائهم من شياطين الإنس والجن (دعوا هنالك ثبورا) أي هلاكا ، ويقولون : يا ثبوراه ، أو تمنوا عند ذلك موتا يخلصهم من الحس والشعور لو كانوا يموتون ، ولكن لا يموتون ۰ فيقول لهم الملك المأمور بالأمر الجاري : (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) والمقصود من هذا النهي أن عذابهم يستمر ولا ينتهي ، وفي كل عذاب وعقاب ثبور ، فالثبور يتكرر إلى الأبد ۰

(قل) يا حبيبي لهم (أذلك) الجزاء (خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ؟) وجنة الخلد إما من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي جنة من دخلها كان خالدا ، أو علم لجنة مخصوصة كجنة عدن (كانت) تلك الجنة في علم الله تعالى مقررة (لهم جزاء ومصيرا) أو كانت جزاء ومصيراً لهم (فيها ما يشاءون) أي للمتقين في تلك الجنة ما يشاءون من اللذائذ الروحية والنفسية كان على ربك (وعدا) أي موعودا (مسئولا) أي مسئولا واعده

بالوفاء به بمقتضى إحسانه ورحمته (ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله) أي واذكر لهم يوم يحشر الله الكافرين وما يعبدونه من دون الله من الأوثان وغيرها فيقول الباري تعالى لأولئك المعبودين : (ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا : سبحانك) تنزيها لك (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) لأنك أحسنت إلينا فجعلتنا ملائكة أو أنبياء ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون • هذا إذا كان المخاطبون منهم ، أو ماكان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء لأنا كنا جامدين خامدين لا حس لنا ولا شعور فاين الآمر والمأمور ؟ وهذا إذا كانوا من الأوثان والأصنام (ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) يعني إنك يا ربنا ابتليتهم فأنعمت عليهم فطغوا وبغوا حتى نسوا الذكر أي غفلوا عن ذكرك أو تذكر نعمك وآلائك والتدبر في آياتك (وكانوا قوما بورا) أي بائرين هالكين في علمك • أو صاروا قوما هالكين بسوء السلوك • وقوله تعالى : (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على عبدة الأوثان بطريق تلوين البيان • أي فقد كذبكم ما اتخذتموهم من دون الله أولياء (بما تقولون) أي في ما تقولون أنهم آلهة أضلونا واستنكروا ذلك وقالوا ما أضللناهم قطعا (فما تستطيعون صرفا) أي دفعا للعذاب الذي تستحقونه (ولا نصرا) وعونا من جهة الآلهة المفتعلة ولا من جهة أخرى فقد بينا لكم صورة ما يجري يوم القيامة بيانا كافيا صافيا (ومن يظلم منكم) أي يستمر على ظلمه وإشراكه بالله غيره (نذقه عذابا كبيرا) لا يعلم قدره إلا الله •

وأما ما يقولونه طعنا في مقامكم بأكل الطعام والمشي في الأسواق فليس بشيء ولا وزن له ، فإن ذلك جار على سنتنا في الكون فإن الإنسان على

حسابه المادي محتاج إلى كسب الأرزاق في الأسواق وغيرها (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أي وجعلنا بعض الناس أسباب ابتلاء ومحنة لبعض، فجعلنا الاغنياء فتنة للفقراء والكافرين فتنة للمسلمين وللأنبياء والمرسلين . وإذا فتناكم بأولئك المشركين (أتصبرون ؟) على تلك الفتن والبلايا حتى نجزيكم بالهبات والعطايا ؟ (وكان ربك) ولم يزل (بصيرا) بعباده عليما خبيرا .

الجزء التاسع عشر

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلئِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا ! لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً(٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلئِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ : حِجْراً مَحْجُوراً(٢٢) وَقَدِمْنَا إِلى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً(٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً)(٢٤)

قوله تعالى : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي وقال الذين لا يأملون الخير لكفرهم بيوم الحساب : (لولا) أي هلا (أنزل علينا الملئكة) فتخبرنا بصدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أو نرى ربنا !) فيتكلم معنا مشافهة ويأمرنا بتصديقه في الرسالة (لقد استكبروا في أنفسهم) أي فقد طغوا وبغوا وتجاوزوا حدودهم حتى اقترحوا ما لا يتحقق للأفراد من الأنبياء والمرسلين (وعتوا عتوا كبيرا) أي وتجاوزوا عن الحد تجاوزا لا يقادر قدره • وكيف يرون الملئكة على اقتراحهم المبني على جسارة وتعنت وعناد ؟! (يوم يرون الملئكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) لأنه يأتيهم العذاب من وجوههم وأدبارهم (ويقولون حجرا محجورا) أي ويقول الملئكة للمجرمين هذه الكلمة الشديدة الدالة على ردع المجرمين وطردهم من ساحة القبول ومنعهم من اللقاء والوصول ، فيقال لهم حجرا محجورا عنكم الخير والرضا والرحمة من الله تعالى • (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) أي وعمدنا ونظرنا

إلى ماعملوا من عمل وحسبوه صالحا نافعا لهم (فجعلناه هباء منثورا) أي غبارا متفرقا في الجو لا نفع فيه ولا ينتفع به أحد (أصحاب الجنة يومئذ) أي يوم إذ طرد المجرمون من الرحمة ويقال لهم حجراً محجورا (خير مستقرا) أي مكان قرار (وأحسنُ مقيلاً) أي أحسن مكانا يؤوى إليه للاستراحة والتفضيل باعتبار ما كان فيه المجرمون المترفون في الدنيا يعنى أنهم وإن كان لهم مستقر لطيف جدا ومقيل جميل الى درجة لكن مستقر أهل الجنة ومقيلهم خير من ذينك بل ولا مناسبة بينهما فإتياننا بصيغة التفضيل بين التجوز والتأويل •

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ المَلئِكَةُ تَنْزِيلاً(٢٥)المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ ، وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً(٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ : يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً !(٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً !(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَني ، وَكانَ الشَّيْطانُ لِلإِنْسانِ خَذُولاً(٢٩) وَقالَ الرَّسُولُ : يا رَبِّ إِنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً(٣٠) وكذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ ، وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً ونَصِيراً(٣١) وَقالَ الَّذين كفروا : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ! كذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً(٣٢) وَلا يَأْتونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً(٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إلى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ سَبِيلاً)(٣٤)

(ويوم تشقق السماء بالغمام) أي ويوم تشقق بسبب خروج الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله تعالى : (هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملئكة ؟) (ونزل الملئكة تنزيلا) في ذلك ومعهم صحائف أعمال الثقلين (الملك يومئذ الحق للرحمن) السلطنة والقهر والجبروت حق محصور في الباري سبحانه وتعالى لا شريك له ، كما لم يكن له شريك حتى ولا إضافة لأدنى علاقة مجازية وقد كانت في الدنيا (وكان) ذلك اليوم (يوما على الكافرين عسيرا) لأنه يوم القبض على المجرمين والجر والسحب إلى حساب المعتدين (ويوم يعض الظالم) المشرك (على يديه) من فرط الحسرة والأسى والتأسف والندم حيث لا ينفع (يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) طريقا إلى الجنة إذا كان المراد بالرسول شخصه الكريم فالظالم هو من عانده في عصره كعقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسته صلى الله عليه وسلم وقد كفر به وعانده • وإن كان المراد أعم منه وممن ورثه الدعوة إلى الحق فالظالم كل معاند للدين (يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا) أي الذي جذبه الى النار (خليلا) حتى لا أقع فيما وقعت فيه (لقد اضلني) ذلك المضل (عن الذكر) أي ذكر الله أو كتابه أو كلمتي الشهادة (بعد إذ جاءني) ولم يكن هناك مانع يمنعني عن القبول (وكان الشيطان للإنسان خذولا) أي تاركا لنصرة صاحبه إذا أغواه • والخذول هو الذي يواليه حتى يسخره لبعض شئونه فإذا أشغله فيه وتم أمره تركه كأن لم يكن بينه وبين قرينه مودة ، وهذا شأن الفاسدين في الصحبة (وقال الرسول) معطوف على قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه : (يا رب إن قومي) الذين أرسلتني إليهم وأنزلت عليّ الكتاب فيهم وبلسانهم (اتخذوا هذا القرآن) العظيم الحكيم المستوعب لسعادة الدارين (مهجورا) متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا إليه رءوسهم فضلا عن أن يتلوه ويعملوا به •

وقوله (وكذلك جعلنا) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة له إلى تحمل الأذى والتصبر على أحوال الكفار كالأنبياء السابقين الأخيار ، فيقول : هذا العداء بينهم وبينك ليس مختصا بعصرك بل أمر سابق استمر إلى أن وصل الى اللاحق حيث جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) الذين لاتهمهم إلا شهوات أنفسهم وميول طبائعهم (وكفى بربك هاديا) لك إلى الدوام والثبات على ما كنت عليه من الدعوة إلى الحق (ونصيرا) لك على كل من عاداك • (وقال الذين كفروا) هذا بيان لحلقة أخرى من سلسلة كلماتهم الفارغة : (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) حتى نلمس الكتاب مرة واحدة فرد عليهم الباري سبحانه وتعالى بقوله (كذلك) أي نزلناه عليك كذلك ، أي منجما ومفرقا على أقساط وجمل ومجموعات واقعة لتشريع الأحكام حسب استعداد أمة الإسلام ومناسبة الأجوبة للاسئلة الموجهة إلى سيد الأنام (لنثبت به فؤادك) كلما انزلنا عليك ما يوافق مرادك (ورتلناه ترتيلا) أي وفرقناه آية بعد آية وجملة بعد جملة وسورة بعد سورة ، مفرقا على المناسبات •

وفي إنزال الكتاب العظيم الإلهي منجما فوائد :

الأولى : التدريج والإمهال في تعليم الأمة أحكام دينها ، فإن أفراد الأمة كالطالب للعلم لا يمكنه التعلم إلا تدرجا ، وفي كل منزلة منها يستعد لفهم ما سينزل على الرسول ويبلغه إليهم •

الثانية : التسهيل في الأخذ والحفظ فإن الفقرات المختصرات لا يصعب حفظها ، وإذا تكثرت وتراكمت صعب ذلك عليهم •

الثالثة : وقوع الجملة المنزلة موقعها ، فإن الإنسان إذا احتاج الى جواب سؤال واشتاق إليه فإذا ورد عليه أخذه بلهف واشتياق وضبطه •

الرابعة : حصول التطور في الأذهان ، فإن الإنسان البسيط ليس بقابل لأخذ المعاني الواقعة في المستويات الرفيعة أول الأمر وأما إذا مارس الأبحاث والاوضاع والاسئلة والأجوبة ترقى ذهنه بحسب ما ورد عليه وحسب درجاته •

الخامسة : قوة الإيمان بأن ذلك الكتاب كتاب الله فإنه إذا نزل مرة واحدة وبقي في الأمة تصور الناس أشياء لا واقع لها من أنه كتاب ألقي عليه من جانب معين وأريد به غاية معينة • وأما إذا نزل حسب المناسبات وأجوبة الأسئلة الواردة علم كل منصف أنه كلام أنزله الرب الحكيم لمعالجة طرف من القضايا الواردة بحيث تتشبث به قلوب الناس كلهم من الرسول وأصحابه الذين لهم إطلاع على الوقائع •

السادسة : مناسبة المنزل لتشريع الأحكام فإن تشريعها مرة واحدة مما لا يكاد يستسيغه الفكر الإنساني ، وأما إذا نزل منجما فجاء بالتخفيف أولا ثم التوسط ثم جاء بالتشديد قبله الإنسان المتطور •

السابعة : مناسبة الكلام للمخاطبين فإن الكلام مع من يدعوهم الى الاسلام غير الكلام مع من يدعو المسلمين الى قبول الاحكام ، والكلام مع البدوي غير الكلام مع المدني ، والكلام مع الاعداء غير الكلام مع الاصدقاء الى غير ذلك من الفوائد في التنجيم •

(ولا يأتونك بمثل) من الأمثال التي اقترحوها عليك (إلا جئناك بالحق) أي بالجواب الحق المطابق للواقع المدافع عنك وعن دينك (وأحسن تفسيراً) أي وجئناك بجواب أحسن من كلام الناس تفسيرا وبيانا للموضوع (الذين يحشرون على وجوههم) أي يحشرون ماشين ومكبين على وجوههم (أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) من القوم المقابل لهم يعني أنهم يقترحون

اقتراحات غريبة ، ويأتون باسئلة عجيبة تعنتا واستهزاء بالمسلمين وتحقيرا لمقامهم وتنزيلا لمكانتهم، لكنهم أحقر وأنزل مكانا ومقاما وأضل طريقا قطعا .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الْكِتابَ ، وَجَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هرُونَ وَزِيراً(٣٥) فَقُلْنا : اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا ، فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً(٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَجَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً(٣٧) وَعاداً ، وَثَمُودَ وَأَصْحابَ الرَّسِّ ، وَقُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً(٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ ، وَكُلاًّ تَبَّرْنا تَتْبِيراً(٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها ؟ بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً)(٤٠)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) جملة مستأنفة لتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ببيان نصر رسله على من عاداهم ، ويقول : (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً) أي نبيّاً وَوَزِيراً . (فقلنا : اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) أي إلى القوم الطغاة الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الآفاق وفي أنفسهم ، أو كذبوا تبعا لآبائهم الذين كذبوا بآياتنا عند إرسال يوسف ـ عليه السلام ـ إليهم . وقوله (فدمرناهم) ليس من جملة المقول بالقول السابق بل معطوف على مقدر تقديره : فذهبا إليهم ، وكذبوهما ، فدمرناهم تدميرا . وقوله (وقوم نوح) منصوب باذكر أو بمضمر يفسره أغرقنا بناء على أن لما ظرف زمان . وأما إذا كان حرف وجود لوجود فلا ، وذلك لأن (أغرقناهم)

حينئذ يكون جوابا لها فلا يفسر ناصبا لاقتضائه قطعه عن الجواب (لما كذبوا الرسل) أي نوحا والرسل المتقدمين عليه ، أو لأن تكذيبه في قوة تكذيب الكل (وجعلناهم للناس آية) أي آية عظيمة من شاهدها أو علم بها كان حقا عليه أن يعتبر بها (وأعتدنا للظالمين) منهم ومن غيرهم (عذابا أليما) •

(وعادا) أي واذكر عادا (وثمود وأصحاب الرس) وهم قوم كان لهم آبار ومواش وكانوا يعبدون الأصنام أرسل الله إليهم شعيبا ، والرس : البئر • (وقرونا بين ذلك كثيرا) أي واذكر أهل قرون واقعة بين تلك الأمم كثيرا (وكلا) منهم (ضربنا له الأمثال) أي ذكرنا لهم القصص العجيبة الماضية الكاشفة عن حلول العذاب عليهم لتكذيبهم الرسل (وكلا تبرنا تتبيرا) أي وتبرنا وكسرنا وفرقنا كلا من تلك الأمم الطغاة تتبيرا موافقا لأعمالهم •

(ولقد أتوْا على القرية التي أمْطرت مطر السوءِ) أي والله لقد مرت قريش وتجارهم ، مروا في متاجرهم الى الشام على القرية الكبيرة المشهورة بسدوم ، وكان قاضيا جائراً فيها يحكم بهواه ، وفي المثل (أجْوَرُ من سدوم) وهي القرية التي أرسل إليها لوط ـ عليه السلام ـ أهلكها الله تعالى بالحجارة التي مَطَرَتْ عليهم من السماء • وروي أنها كانت خمسا أهلكها الله إلا قرية واحدة تسمى زغر لأن أهلها لم يرتكبوا الفواحش الواقعة في غيرها (أفلم يكونوا يرونها ؟!)توبيخ على عدم تذكرهم برؤيتها عند المرور عليها (بل كانوا لا يرجون نشورا) إضراب عما قبله من عدم الرؤية أي أعرض عن ذلك فإنهم رأوها ولكن لم يتذكروا برؤيتها لأنهم كانوا لا يرجون نشورا بعد الموت وبعثا في عالم الآخرة • ولذلك استمروا في الأعمال الفاحشة حتى أهلكهم الله تعالى •

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً : أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ؟(٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً(٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ؟(٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٤٤)

قوله تعالى (وإذا رأوك) بيان لسوء خصال المشركين وغاية جهالتهم فيقول (وإذا رأوك) أي أولئك الضالون (إن يتخذونك) أي ما يتخذونك (إلا هزوا) أي شخصا مهزوءً به أي يعتبرونك كذلك قائلين (أهذا الذي بعث الله رسولا ؟) أي أهذا الرجل الذي لا زيادة له جسدا وقوة مادية علينا اختاره الله وبعثه رسولا الى العالمين ؟ ولم يعلموا أن هناك قوة نفسية قدسية وروحا عالية عالمية وهي ينبوع الحكمة وعين النعمة أنعم الله بها على عباده • ألم يروا الى الجبال المتعالية من الاحجار وإن منها لما يتفجر منه الأنهار (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) أي الامر المعلوم أنه قرب أن يبعدنا عن طريق عبادة آلهتنا (لولا أن صبرنا عليها) فان شئت اجعل لولا وما بعدها قيدا لما تقدمها ، أي إنه كاد أن يضلنا عن آلهتنا بشرط عدم دوامنا على عبادتها • وإن شئت اجعلها صدراً لكلام محذوفا جوابها أي لولا أن صبرنا عليها لخسرناها • فيقول الباري تعالى : (فسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) يعني أنهم يزعمون في حالهم الحاضر أنهم سالكون سبيل الحق ولا يعلمون ماذا جرى عليهم من سوء أفكارهم وقلة اعتبارهم

(وسوف) أي يوم القيامة (يعلمون حين يرون العذاب) المقدر المقرر لهم (من أضل سبيلا) أهم أضل أم محمد وأصحابه الموحدون .

(أرأيتَ مَنِ اتخذ إلهَهُ هَوَاه) تعجيب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شناعة حالهم وبيان أن من ابتدع شر الأمور وسد على نفسه أبواب الشعور كيف يختار سلوك سبيل الخير ؟ ومتى يرجى منه الرجوع الى الحق ؟ فأخبرني يا حبيبي (من اتخذ إلهه هواه ؟) أي من جعل معبوده ما تهواه نفسه أو جعل إلهه عين هواه كيف ترجو له رشده وهداه (أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) أي حفيظا وحافظا ومراقبا عليه فترشده الى طريق الحق والاستقامة عليه ؟ والجواب : لا وحاشا وكلا ، فلا يصل الى سبيل الهدى إلا من ابتعد عن طريق الهوى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟) أم منقطعة للإضراب عن إنكار أحوالهم الى إنكار حسبان الرسول وظنه وجود الخير فيهم فيقول : بل تحسب وتعتقد أن أكثرهم أي أكثر المشركين يسمعون أي المواعظ والإرشاد والدعوة الى الحق أو يعقلون الحق في أنفسهم بأنفسهم ؟ والمعطوف عليه للأدلة العيانية والمعطوف للأدلة الفكرية، أي إن أولئك الناس توغلوا في الضلال فلم يبق لهم قابلية الاستفادة لا من الحواس ولا من العقل ، فسدّ الله عليهم السبيلين سبيل العلم والعين ، ثم بين حقيقة حالهم فقال (إن هم إلا كالأنعام) أي ما هم إلا مثل الأنعام حيث يستفيدون من حواسهم أمورا تافهة مربوطة بمعيشتهم ولا يستفيدون غير ذلك (بل هم أضل سبيلا) لأنها تنقاد لاصحابها وتعرف أعداءها وتميزها من أحبابها فتنفر من الذئاب وتميل إلى الأصحاب ، وهم بخلاف ذلك .

(أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثمَّ جَعَلْنا الشمسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً(٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً(٤٦) وهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً ، والنَّومَ

سُباتاً ، وجَعَلَ النَّهارَ نُشوراً(٤٧) وَهُوَ الّذي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشرىً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً(٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ، ونُسْقِيَهُ مِمّا خَلَقْنا أَنْعاماً وأَناسِيَّ كثيراً(٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ، فَأَبى أَكْثَرُ النّاسِ إلاّ كُفُوراً(٥٠) وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً(٥١) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ ، وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبيراً(٥٢) وَهُوَ الّذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : هذا عَذْبٌ فُراتٌ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وحِجْراً مَحْجُوراً(٥٣) وَهُوَ الّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً ، فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً)(٥٤)

قوله تعالى (ألم تر إلى ربك) الآيات ••• توجيه لحبيبه المحبوب المكرم بالرسالة وحسن الاخلاق الى أدلة وجوده وعلمه وقدرته في الأنفس والآفاق بخلق الليل والنهار والظل والضوء والقيام والمنام والمطر المنبت لأرزاق الأناسي والانعام والبراري والبحار النافعة للبشر من جهات شتى ، ومنها المسافرات على السفن الجارية فيها للتجار ، ومنها البحر العذب والمالح المختص كل منهما بآثار خاصة ، وخلق البشر ذكورا وإناثا لبقاء النوع في العالم إلى ما شاء الله القادر المقتدر الجبار • وفي قوله : (ألم تر إلى ربك) تشريف للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جهتين :

الأولى : إسناد الرؤية الظاهرة في الرؤية البصرية إليه إشارة إلى أن رؤيتك العلمية آلت إلى رؤيتك العيانية •

والثانية : أنه جعل الرب مبدأ للإستدلال حتى يجعل الخلاق دليلا على الآفاق لا الآفاق دليلا على الخلاق كما أفاده المولوي بقوله :

مِـمن بهِ لمن عليه يستدل   مسافة" لا تستظل لا تستزل

فيقول : ألم تنظر الى آثار قدرة ربك المقتدر (كيف مدّ الظل ؟) على نصف الكرة من بعد غروب الشمس الى شروقها اذا اعتبرت سواد الليل ، أو من طلوع الفجر الى طلوع الشمس اذا اعتبرت وضوح الظل وإبصاره بالعيون المجردة (ولو شاء) أن يبقى على حده ومده ثابتا في ما عليه ، أو لو شاءه ساكنا غير متحرك بالتناقص والتزايد (لجعله ساكنا) لا يزول أو ساكنا لا يجول (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أي ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهوره وتميزه في الحس • إذ لو لم تطلع الشمس لم يكن ولم يحدث هناك ضوء • فلم يتميز الظل من غيره • (ثم قبضناه) أي الظل (إلينا) أي الى عالم غيبنا (قبضا يسيرا) قليلا قليلا متدرجا بالمهلة في التناقص ثم نشرناه من مبدإ العدم الى الوجود يسيرا ـ يسيرا الى ان غربت الشمس فَعَمّ الظل المكانَ الذي عليه الضوء • وبهذا الإبداء والإمحاء والزيادة والنقصان جعلنا الزمان لكم وسيلة لكسب المعيشة وأخذ الراحة ، فجعلنا منه ليلا ونهارا •

(وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) أي ساترا لكم كاللباس (و) جعل (النوم) أي منامكم فيه (سباتا) أي راحة للأبدان عن عمل وللحواس عن الإحساس تسهيلا على الناس (وجعل النهار نشورا) أي وجعله محلا لنشور الناس وانتشارهم في الأرض والبحر والجو لابتغاء المعيشة وما يتوقف عليه سعادة الإنسان المعتدل • وفي جعل النهار النشور مبالغة لا تخفى وإشارة كافية وافية الى استحباب العمل واستكراه الكسل •

(وهو الذي أرسل الرياح) المشهور أنها متى ذكرت مجموعة فهي للرحمة ومتى ذكرت مفردة فهي للعذاب • وفي الحديث إذا هبت الريح : « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » وقوله : (بشرا) بضم الباء وسكون الشين تخفيف بشرا بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر ، أي أرسل الرياح مبشرات (بين يدى رحمته) اي أمام المطر النازل النابت عنه النبات والنامي به الاشجار والمتفتح به الازهار (وانزلنا من السماء) اي وانزلنا بما رتبنا بقدرتنا من ارسال الرياح من السحاب المتراكم في جهة العلو (ماءً طهورا) أي ماء وافر الطهارة فكما أنه طاهر في نفسه مطهر لغيره (لنحيي به) أي بما أنزلنا من السماء (بلدة) أي أرضا معمورة أو غيرها (ميتا) ليس لها أثر خير من النبات فهي شبيهة بالميت الذي لا حركة له إرادية (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) أي ولنسقي ذلك الماء أنعاما وأناسي كثيرا مما خلقنا • وخص ذلك بالذكر لأن أشرف الموجودات الإنسان وأقرب المنافع الحيوانية له هي الأنعام ، وإلا فالمستفيد من ماء السماء كل ذي حياة ونماءٍ (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) أي ولقد غيرنا ذلك الماء بينهم فنسقي بلدة ونبقى أخرى ، ونكثر منه في مكان ، ونقل منه في آخر ، وننفع به في بلدة ، وندمر به في أخرى••• حتى يتذكروا ويعلموا أنه مأمور من الله لا علاقة لها إلا بإرادته النافذة لا مرد لها ، وأن الرياح، وإن كانت مثيرة للسحاب ، ولكن كثيرا ما نرى السحاب ولكن ليس قطرة ماء ، وكم من ايام واسابيع وشهور ومواسم يحتاج الناس فيها الى المطر وما ينزل منه شيء ؟ وإذا أراد الله ذلك سال الوادي بحيث يقع الناس في أخطار وويلات • والحاصل أن العاقل لا ينكر الأسباب ولكنها بدون تعلق إرادة الله علة ناقصة لا يحصل منها أثر مقصود • (فأبى أكثر الناس) وهم الجاهلون الذين لا يقدرون الله حق قدره (إلا كفورا) اي الا كفرانا بنعمة الله وإحسانه •

(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) أي رسولا مبشرا ونذيرا فتخف عليك أعباء النبوة، لكن خصصناك برحمتنا، وجعلناك ينبوعا للخير كله، وجمعنا آثار الرسل وأخلاقهم مجتمعة في شخصيتك ، وبعثناك رحمة للعالمين . (فلا تطع الكافرين) فيما يريدون منك ولا تركن إليهم (وجاهدهم به) أي بالقرآن الكريم ببلاغته للمتحدين ، وببراهينه للمعاندين (جهادا كبيرا) لا يتمكن منه غيرك . ثم ذكر الباري سبحانه أثرا آخر من آثار قدرته الباهرة فقال : (وهو الذي مرج البحرين) أي خلطهما أي خلط كلا بالآخر ، أي جعل أحدهما متصلا بالآخر بحيث لا حد فاصل بينهما (هذا) أي هذا القسم منه (عذب فرات) شديد العذوبة وقوي الكسر للعطش (وهذا ملح أجاج) أي مالح شديد الملوحة مع أن واحدا منهما لا يختلط بالآخر بحيث يؤثر في طعم الآخر وصفاته (وجَعَل بينهما برزخا) أي حاجزا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه ومثالهما الواقعي ككل ماء مستبحر ينصب في البحر ، كماء شط العرب المنصب في بحر الخليج ، وماء النيل المنصب في البحر الأبيض المتوسط ، فإن ماء الأنهار عذب فرات وماء البحار ملح أجاج ولا امتزاج بينهما ، بل هناك حدٌ كخط فاصل مع أن الماء لطيف بالطبع وحقه تأثير القوى في الضعيف والكثير في القليل (وحجرا محجورا) أي ومنعا للآخر وتنافرا بليغا ، فإن كل وصف يبالغ فيه يشتق منه وصف يحمل عليه ، يقال : سواد أسود ، وبياض أبيض . كما يقال : ليل أليل ، ويوم أيوم .

وأورد على ظاهر الآية بأنه خلاف المحسوس ، فإن الأنهار العظيمة كدجلة وما ينضم إليها ، والنيل وما ينضم اليه ، مما يشاهده الناس إذا اتصلت في البحر تغير طعم غير قليل منها في جهة المتصل ، وكذا يتغير طعم

غير قليل من البحر في جهة المتصل أيضا ، ويختلف التغير قلة وكثرة الى آخر ما قالـه .

وأقول : ليس المقصود من الآية أن لا يكون هناك تأثر وتغير من أحـد الجانبين في الآخر ، فإنه خلاف المحسوس بل المقصود أن الطبيعة الواحـدة إذا قويت وزادت وطغت واتصلت بشيء يخالفها في اللوازم فالظاهر الى العقل أن يغلب القوي الضعيف ويسري فيه بالمرة ، مع أنا نرى الأنهـار المستبحرة المتصلة بالبحار لا يتغير إلا شيء قليل ومسافة يسيرة منها ، ويبقى الآخر على حده وحقيقته وصفاته وليس ذلك إلا لأن الله تعالى جعل هناك حاجزا مـن قدرته يفصل بين الجانبين ولا يسري إلى ماوراء ذلك الحد أبدا .

(وهو الذي خلق من الماء بشرا) قيل : المراد هو الماء الذي خمرت به طينة آدم ـ عليه السلام ـ وجعل جزء من مادة البشر لتجتمـع وتسلـس وتستعد لقبول الأشكال والهيئات ، فالمراد بالماء الماء المعـروف ، والمـراد بالبشر آدم ـ عليه السلام ـ . أو المراد جنس البشر الصادق عليه وعلى ذريته . ويجوز أن يراد بالماء النطفة وحينئذ يتعين حمل البشـر على أولاد آدم ـ عليه السلام ـ كما يجوز أن يراد به المادة السائلة سواء كانت نطفة كما في الحيوانات الوالدة الولودة ، أو بيضا كما في الحيوانات البائضة . وعلى كل ففي هذا الخلق إبداع باهر وإيجاد قاهر ، حيث خص كل جزء من أجزاء النطفة مثلا لجزء من أجزاء البدن كالرأس ومحتوياته مـن الدمـاغ والسمع والبصر وغيرهما ، والظهر وفقراته ، والكتف وعضلاتها ، والرقبـة ومستوعباتها ، والصدر وما فيه ، والبطن وما يحويه ، والفخذين والركبتين والكعبين والقدمين ... وفي كل ذلك عروق وأعصاب وأشياء لطيفة لا يبقى ذلك العضو بدونه ، بله ما أودع الله في الإنسان من العقل والشعور وسائر اللطائف على وجه دقيق مشتمل على أسرار لا تستوعب إلا بتشريح للأعضاء

ودراسة على مقوماتها ، ومنافراتها وينجر ذلك الدرس والتشريح الى معرفة الأمراض ومعالجاتها والأدوية السريعة التأثير من غيرها . وذلك في حد الذات ، وأما من حيث المجتمع (فجعله نسبا وصهرا) أي جعله قسمين ذكورا وإناثا ، فجعل الذكور ينسب إليهم والإناث يُصاهر بهن .

(وكان ربك قديرا) أي وافر القدرة مبالغا فيها حيث قدر على أن يخلق من شيء قليل أشياء جليلة .

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ ، وكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً(٥٥) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً(٥٦) قُلْ : ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً(٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ، وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً(٥٨) اَلَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً(٥٩) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اسْجُدُوا لِلرَّحمنِ ، قالُوا : وَمَا الرَّحْمنُ ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنا ؟! وَزادَهُمْ نُفُورا(٦٠) تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً(٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً)(٦٢)

قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله) إستئناف لبيان تعمقهم في الجهل والدوام على التقليد الأعمى الذي لا يمت إلى عقل وشعور ، فيقول : (ويعبدون) أي أولئك المشركون (من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم)

من الأصنام اللاتي لا تنسب اليها قابلية الإنفاع ولا الإضرار لهم ولا لغيرهم، لأنها أخشاب وأحجار ومواد جامدة مفتعلة منصوبة جعلوها سندا للأهــواء (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أي كان معاونا وظهيرا للشـيطان في عــداء ربه سبحانه وتعالى • (وما أرسلناك في حال من الأحوال إلا) حال كونك (مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين ، وقد بشــرت وأنذرت ولا شــيء عليك إذا حصل لهم العناد والاستكبار • (قل : ما أسئلكم عليه) أي على تبشيري وإنذاري (من أجر إلا) أجر (من شاء أن يتخذ إلى ربــه سبيلا) فإن الأجر الواصل منه إليّ مرادي ومبتغاي فإن من سن سنة حسنة فله أجره واجرُ من عمل به إلى يوم القيامة • (وتوكل على الحي الذي لا يموت) في الإغناء عن أجور الناس (وسبح بحمده) أي ونزهه سبحانه متلبسا بالثناء عليه (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) لأن الخبرة الواقعية معرفة النيــات قبل الأعمال وهو بها خبير لا يخفى عليه منها شيء (الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام) من الأيام الملحوظة عنده (ثم استوى على العرش) واستولى عليه وأعلن عظمته في عالم الســماوات والأرض ومــن فيهمــا (الرحمن) أي هو الرحمن (فاسئل به خبيرا) ولا خبير به بحق إلا هــو نفسه ، فخذ من صفاته ما وصل إليك منها بحق واكتف بذلك فإن المحدود لا يعلم من اللا محدود إلا ما شاء أن يفهمه منــه •

وهذا الإله الأزلي القديم الباقي اللا متناهي اثار صفاته الذي تــدل الآفاق والأنفس على وجوده ووجوبه ووحدته وعظمته •• ينبغي أن تسجد له الكائنات بأسرها • (وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن ، قالوا) متجاهلين : (وما الرحمن ؟) وكيف هو ؟ (أنسجد لما تأمرنا ؟!) أنت (وزادهــم) أمرك لهم بالسجود (نفورا) من الإيمان والسجود •

ولما نفروا عن السجود وأكثروا من الكفر والجحود أشاد بصفات عظمته وعزه وقال (تبارك الذي جعل في السماء بروجا) وجدنا النصوص القاطعة في أن السماوات سبع، وأن في السماء بروجا، والبروج في الأصل القصور العالية . وعن الزجاج : أن البرج كل مرتفع ، واشتق منه التبرج بمعنى الظهور. كما وجدنا في عالم الارض مناطق متعددة تختلف فيها أوضاع النيرين قربا وبعدا من سمت رءوس أهل البلاد ، ومنها منطقتا القطب الشمالي والقطب الجنوبي الذين السنة فيهما يوم وليلة ، كل منهما ستة أشهر عندنا ، وعلمنا أيضا أن السنة الشمسية عندنا عبارة عن ثلثمائة وستة وستين يوما وكسرا ، أي أن مدة مابين طلوع الشمس من نقطة معينة أفقية وطلوعها مرة أخرى منها تلك الأيام المعدودة . وهذه المدة تنقسم الى اثني عشر قسما ، ستة منها تقع في شمال الخط الإستوائي يتكون منها الربيع والصيف ، والأسماء على الترتيب : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة . وستة منها تقع في جنوب ذلك الخط ، ويتكون منها الخريف والشتاء ، والاسماء : الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . وبعد انتهاء الحوت تطلع الشمس من أول نقطة من برج الحمل وهو أول الربيع ، وهكذا إلى ما شاء الله تعالى ... وعليه يكون أيام الشهور ثلاثين يوما وواحدا وثلاثين يوما ، إلا شهرا واحدا وهو شباط يكون ثمانية وعشرين يوما ، وفي كل أربع سنوات يزيد يوما واحدا . هذه هي السنة الشمسية وبروجها أي منازل الشمس منها على نهج ما ذكرناه لك آنفا .

فالبروج هي الأقسام الاثنا عشر المذكورة ، وهي عالية وظاهرة في السماء (وجعل فيها) أي في السماء (سراجا) هي الشمس لقوله تعالى (وجعلنا الشمس سراجا) . (وقمرا منيرا) وكل منهما ينور السماء والأرض

مما يقابله (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً) أي ذوي خلفة ونيابة لأنه يخلف كل منهما الآخر لقيامه مقامه وذلك التكرر نافع (لمن أراد أن يذكر) أي يتذكر ما فاته من العبادة فيقضيها ، أو يتذكر حقوق الباري تعالى ونعمه الوافرة عليه ، فإنه إذا كان في وقت الشباب غافلا لاهيا غير مبال بالطاعة فإذا شاب تذكر ما فاته من الأوقات وخلاها عن الطاعة (أو أراد شكورا) أي أو قصد شكر ربه تعالى على نعمة تكرار الليل والنهار وما ناله من الخيرات فيهما .

(وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ، وإذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلونَ قالُوا : سَلاماً(٦٣) وَالَّذِين يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً(٦٤) والَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إنَّ عَذابَها كانَ غَراماً(٦٥) إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً(٦٦) وَالَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً(٦٧) وَالَّذِين لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً(٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذَاب يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدْ فيهِ مُهاناً(٦٩) إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً(٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإنَّهُ يَتوبُ إلَى اللهِ مَتاباً)(٧١)

قوله تعالى : (وعباد الرحمن) استئناف لبيان أوصاف عباد الله الخالصين ، وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال الكافرين المعاندين

فقال (وعباد الرحمن) الآية ••• والعباد جمع عبد ، وقال بعض جمع عابد كصاحب وصحاب • ويوافقه قراءة وعبّاد بضم العين وتشديد الباء • والعبد من العبودية وهي الرضاء بما يفعله الرب تعالى • والعابد من العبادة وهي فعل المأمورات وترك المنهيات رجاء الثواب ، والنجاة من العقاب بذلك وعلى كل فالعباد مبتدأ ، وخبره الموصول وصلته أي (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بهون ورفق ولين ، أو المراد يمشون هينين في سكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ويريدون بذلك التواضع ويناسبه قوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي واذا خاطبهم السفهاء وقليلو الادب (قالوا سلاما) أي قالوا تسلما منكم ومتاركة لاخير بيننا وبينكم ولا شر ، والمراد مدحهم بالإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم •

(والّذينَ يَبيتُونَ لِربهم سُجّدا وقياما) جمعان لساجد وقائم ، والبيتوتة أن يدركك الليل نُمتَ أو لم تَنَم ، أي والذين يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة • وهذه الفقرة وصف لحالهم في الليل كما أن الفقرة السابقة وصف لحالهم بالنهار • وفي الآية الكريمة ترغيب في صلاة الليل ، وقيل : المراد فعل الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء ، وقيل : من شفع أو أوتر بعد أن صلى العشاء فقد دخل في عموم الآية• (والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) أي يدعون الله تعالى في أعقاب صلواتهم أو في عامة أوقاتهم (ربنا اصرف عنا) وبعد عنا (عذاب جهنم ،إن عذابها كان غراما) أي ثقيلا أو لازما أو دائما ، ودوامه بالنسبة إلى الكافرين فإن المسلم يخرج من النار ويدخل الجنة كيفما كان (إنها ساءت مستقرا ومقاما) وساءت من أفعال الذم وفاعله مستتر راجع الى تمييز النسبة أعني مستقرا ومقاما • أي أنها ساء من حيث كونها مستقرا ومقاما لمن يكون فيها •

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا) أي لم يتجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) أي لم يضيقوا تضييق الشحيح • وهذا الوصف يشمل حال العباد بالنسبة إلى أنفسهم وعائلتهم وكذا بالنسبة الى الواردين والسائلين من شتى الجهات • وقال بعض : الإسراف هو الانفاق في المعاصي ، والقتر الامساك عن الطاعة (وكان بين ذلك قواما) أي وكان إنفاقهم بين الإسراف والقتر عدلا وسطا • والقوام بالفتح العدل ، وبالكسر نظام الأمر وعماده • يقال هذا قوام الأمر وملاكه الذي يقوم به •

(والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) أي لا يشركون به غيره سبحانه وتعالى (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرم قتلها (إلا بالحق) أي إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان وقتل النفس البريئة • فالاستثناء من أعم الأسباب (ولا يزنون) أي ولا يطأون فرجا محرما • وهذه الصفات وإن كانت من صفات عباد الرحمن لكن ذكر هنا للتعريض بالكفار المشركين الجامعين أو الآتين بهذه الصفات الذميمة • (ومن يفعل ذلك) الأمر المذكور من الجرائم والذنوب (يلق) يوم القيامة (أثاما) أي عذابا لا يقادر قدره (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من جملة يلق أثاما (ويخلد فيه) أي في ذلك العذاب (مهانا) محقرا فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) أي من تاب في الدنيا ورجع إلى الله تعالى ، وندم على مافرط في جنب الله ، وعزم على أن لا يعود إلى ما اقترفه ، وأدى ما يترتب عليه من الحقوق ، واستمر على الأعمال الصالحة من فعل الواجب وترك الحرام فإنه كف النفس وذلك فعل • ودخول الايمان في المستثنى يفيد دخول الكفر في المستثنى منه ، أي إلا من آمن منهم إذا كان كافرا وفعل ما فعل في وقت الكفر ، وكذا يدخل أهل الإيمان لأن المؤمن

المرتكب إذا تاب واستمر إيمانه وعمل الصالحات دخل في قوله تعالى (فأولئك) الناس الموصوفون بالصفات المذكورة بعد الاستثناء (يبدل الله سيآتهم) التي عملوها في الدنيا (حسنات) في ميزان الأعمال يوم الحساب وقرر ذلك بقوله الكريم (وكان الله غفورا رحيما) وقوله تعالى (ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا) في قوة التعليل لما قبله ، ومعناه أنهم بتوبتهم ورجوعهم الى ربهم يكونون من زمرة عباده المخلصين المختصين به تعالى فلا جرم أنه تعالى يحبهم ويبدل الله سيآتهم حسنات وما ذلك على الله بعزيز .

(وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً(٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً(٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً(٧٤) أولئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً(٧٥) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً(٧٦) قُلْ : ما يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعاؤكُمْ ؟ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً)(٧٧)

(والذين لا يشهدون الزور) أي لا يشهدون الشهادة الكاذبة خوفا من الله المنتقم الذي يراعي حقوق العباد ويكره أن يبغي بعضهم على بعض (وإذا مروا باللغو) أي بالأمر الذي ليس من شأنه أن يعتنى به (مروا كراما) مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) أي وعظوا وأرشدوا بتلاوة الآيات القرآنية عليهم (لم يخروا عليها صمّا وعمْيانا) جمعان للأصم والأعمى وذكرهما كناية عن الإعراض وعدم

الاهتمام • أي إذا وعظوا بآيات الله أصغوا لها باهتمام ، واستمعوا لها بجد ونشاط ، ونظروا إلى الآثار المشهودة التي دلت عليهما وأبصروه إبصارا دقيقا ، وعملوا بمقتضاها ، فامتثلوا أوامرها وتركوا ما نهت عنها • (والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) أي اجعل لنا من أزواجنا ما يعيننا على التقوى وقريرة العين ، ومن ذرياتنا ذرية طيبة تأتي بثمار الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة حتى نفرح بها في الدنيا والآخرة • (واجعلنا للمتقين إماما) أي واجعلنا أئمة للمتقين يقتدون بنا في الاعتقاد والإيمان والعهود والأيمان والأعمال الصالحة بحسب الإمكان (أولئك) العباد الموصوفون بتلك النعوت الجليلة (يجزون الغرفة) أي الدرجة العالية من درجات الجنة (بما صبروا) أي بسبب صبرهم على ما نابهم من المتاعب في طريق الطاعات (ويلقون فيها) أي في الغرفة (تحية وسلاما) من الملائكة المستقبلين لهم والمستبشرين بقدومهم حالكونهم (خالدين فيها) أي مقدرين الدوام والخلود فيها (حسنت مستقرا ومقاما) بقدر ما ساءت جهنم مستقرا ومقاما والاشياء تعرف بأضدادها • (قل) يا حبيبي لاولئك الناس الكافرين المستكبرين عن قبول الحق والإيمان بالله وتوحيده ورسله (ما يعبأبكم ربي) أي عبء يعبأ بكم وأي اعتداد يعتد بكم (لولا دعاؤكم) أي لولا عبادتكم وطاعتكم ، أو لولا إرادة دعوتكم الى قبول الحق ؟ (فقد كذبتم) أي فقد دعوناكم وأنتم كذبتم ولم تلبوا دعوتنا (فسوف يكون لزاما) أي فسوف يكون جزاء تكذيبكم للحق جزاء لازما يحيق بكم على أمره سبحانه وتعالى•

سورة الشعراء ، مكية ، وآياتها مائتان وسبع وعشرون
نزلت بعد سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم(١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ المُبينِ(٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِن السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ(٤) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥) فَقَدْ كَذَّبُوا ، فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ ؟(٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(٩)

قوله تعالى (طسم) الكلام فيه كالكلام في أمثاله من فواتح السور ♦ (تلك آيات الكتاب المبين) أي هذه السورة آياتُ القرآن الظاهر إعجازه ، فإن كانوا في ريب من نزولها من الله تعالى فليأتوا بمثلها (لعلك باخع نفسك) أي لعلك قاتل نفسك من شدة الأسى والأسف على (ألا يكونوا) أي أولئك المشركون (مؤمنين) فلا تبخع نفسك ولا تهتم بأحوالهم ، فإن منهم من يؤمن في المستقبل ، ومنهم من يكون في نسله المؤمنون فنمهلهم لذلك الذي جرى في قضائنا ، وإلا فـ (إن نشأ) إلجاءهم للإيمان (ننزل عليهم من السماء آية) ملجئة لهم إليه (فظلت أعناقهم لها) أي لتلك الآية (خاضعين)

أي منقادين ، وهو خبر الأعناق في الأصل ، وتذكيره لاكتساب المبتدأ التذكير من المضاف إليه . ويحتمل أن يقال إن نشأ إهلاكهم رأسا حتى تكون في راحة من أذاهم ننزل عليهم من السماء آية من القواصف وغيرها فظلت أعناقهم لها خاضعين أذلاء عاجزين لموتهم بها ، فلا تبقى منهم قابلية العصيان والتمرد لموتهم عموما . (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم ، وسوء جريمتهم ، وفساد طبيعتهم . فيقول سبحانه وتعالى ما يأتيهم من ذكر من الرب الرحمن جديد تنزيله حسب حكمتنا في التنزيل إلا كانوا عنه معرضين ومستمرين على الإعراض (فقد كذبوا) بما نزلنا عليك قريبا (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون) أي فسيطلعون على ما يحيق بهم من جراء تكذيبهم إن عاجلا أو آجلا .

(أو لم يروا إلى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم ؟) أي من كل فرد من النبات له مزاوج من صنفه ، فإن كان من الذكور فزوجه من الإناث أو بالعكس فبالعكس (إنّ في ذلك لآية) عظيمة دالة على وفور قدرته وشمول علمه وعلى سائر شئونه التي يجب عليهم الإيمان بها (وما كان أكثرهم مؤمنين) حسب تعلق علمه بسوء اختيارهم في المستقبل (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أي الغالب على كل ممكن من الممكنات وبالغ الرحمة على ذوات الارواح في الارض والسماوات .

(وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ؟(١١) قالَ : رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي ، وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي ، فَأَرْسِلْ إِلى هرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قالَ : كَلاّ فاذْهَبا بِآياتِنا إِنّا مَعَكُمْ

مُسْتَمِعُونَ(١٥) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ(١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ)(١٧)

قوله تعالى : (وإذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف لتذكير الأمة المعاصرة بسوء أحوال الكافرين في مقابلة دعوة المرسلين ، وتسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن إيذاء الكفرة لدعاة الحق من سنة الله في العالمين • أي واذكر إذ نادى ربك موسى (أن ائت القوم الظالمين) بالكفر والمعاصي واستعباد الناس وقوله (قوم فرعون) عطف بيان للقوم الظالمين قائلاً لهم على وجه الترغيب : (ألا يتقون ؟) الله وعذابه وعقابه وكيف يستمرون على تلك الأفعال الشنيعة المضافة إلى الكفر والإشراك بالله الواحد الأحد ؟ (قال) أي موسى : (رب إني أخاف أن يكذبون) من أول الوهلة وباديء ذي بدء ، وذلك خوفا من محذور خارجي (ويضيق صدري ، ولا ينطلق لساني) معطوفان على خبر إن ، أي وعندي مانعان ذاتيان هما ضيق الصدر عند مجابهة الأمر الخطير وعدم انطلاق لساني وعدم مساعدته لي في البيان والتقرير (فأرسل إلى هرون) أي فأرسل الملك المأمور بالوحي وهو جبرائيل إلى هرون أخي ، وأشركه معي في الرسالة ، فإن صحبته لي تخفف من ضيق صدري وينوب عني في بيان المهمات ، وربما يرفع عني خوف التكذيب ، فإن الإنسان إذا كان مع غيره لا يهمه ما يأتيه من أذى عدوه وشره (ولهم علي ذنب) أي تبعة ذنب وجريمة عندهم ، يعني جريمة قتل الرجل القبطي الخباز في بيت فرعون (فأخاف أن يقتلون) وإذا كان أخي هرون معي أمكن أن يصرفوا النظر عن قتلي ، لأن له مناسبة وألفة مع بعض أتباعه فيمكن أن نستفيد من ذلك •

(قال : كلا فاذهبا بآياتنا) يعني فأجاب الله سبحانه وتعالى طلبه لإرسال أخيه هرون وردعه عن خوف قتله وقال له : جعلتُ أخاك رسولا معك ،

فاذهبا إلى فرعون وأتباعه ولا تخف أنت بالذات أو لا تخافا كلاكما (إنا معكم مستمعون) لما يقوله ، ويراءُونَ له ولأتباعه وأعمالهم • وهذه المعية معية النصرة والقوة وربط الجأش (فأتيا فرعون فقولا : إنا رسول رب العالمين : أن أرسل معنا بني إسرائيل) واترك استعبادهم وارفع اليد عنهم ، وكان بنو إسرائيل قد استعبدوا أربعمائة سنة مابين وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ وبعث موسى وهرون ، وكان عددهم ستمائة وثلاثين ألفا على ما ذكره البغوي •

(قال : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ؟ وَلَبِثْتَ فِينا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ ؟(١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ ؟(١٩) قالَ : فَعَلْتُها إِذاً وَأَنا مِنَ الضّالِّينَ(٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّا خِفْتُكُمْ ، فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيل ؟!)(٢٢)

ولما وقفا موقفهما المتين من رسالة رب العالمين ، وطلبا من فرعون الطاغي الإيمان بالله تعالى والانقياد لحكمه وإطلاق بني إسرائيل من استعباده •• رفع فرعون رأسه ونظر إليه متعجبا مستنكرا لدعواه وثورة نفسه • و (قال : ألم نربك فينا وليدا ؟ ولبث فينا من عمرك سنين ؟) أي ألم تكن أنت كما سمعت من الناس وليدا ضعيفا جعلوك في تابوت مخافة من سطوة زبانيتي وذبحهم لك ، وأخذناك رحمة منا عليك وربيناك حتى وصلت الى حد الاكتفاء الذاتي ، وتوقفت فينا من عمرك سنين تخدم دائرتنا وأهلنا كغلام في البيت وأنت تحت رعايتنا ، وتعرف مقامنا ونفوذنا وشوكتنا ••• فكيف تتكلم بما تكلمت به وتدعونا

إلى اطاعتك في أوامرك واطلاقي لبني إسرائيل أن يكونوا معك كخدام ؟ (وفعلْت فعلْتك التي فعَلْت) وبعد ذلك الإحسان والتربية والبقاء فينا فعلت فعلتك المنكرة التي يستكرهها الناس حيث قتلت أحد أفراد رعايانا وخاصتنا من الأقباط (وكنت) أنت (من الكافرين) بحقوق نعمتي وتربيتي وإلا ما كنت تقدم على ذلك العمل ؟ (قال : فعلتها) أي نعم فعلت تلك الفعلة (إذاً) أي إذ كان الأمر كذلك أي إذا استغاث بي المستغيث (وأنا من الضالين) أي من الجاهلين بأن وكزتي تقضي عليه ويموت ، وإنما ظننت أنها تزعجه وتدفعه بحيث لا يرجع الى ضرب الفقير المستغيث • ومن اللازم لأهل الوجدان السليم دفع الظالم عن المظلوم وذلك شيء مقرر معلوم (فـ) لما أفضت الوكزة إلى قتله ووقعت فيما وقعت فيه (فررت منكم) ومن عقابكم (لما خفتكم) وذلك حين تكرر مثل حادثة قتل القبطي وأراد أن يسطو بالرجل المتعارك على أحد بني إسرائيل فهدده بأنك تريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ، وذهب الرجل وأخبر عنه بما صدر منه ، والناس تدبروا في الأمر وقرروا معاقبته ، فجاء رجل مؤمن إليه وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج من البلد إني لك من الناصحين • (فوهب لي ربي حكما) أي أنه بعد أن فررت من الجبارين إلى الله وعبرت النيل وسيناء ووصلت الى شعيب النبي وخدمته ، وزوجني بنته وتبركت بمصاحبة بيت الرسالة ، وهب لي ربي الذي رباني ومن الكافرين نجاني حكما الى نبوة ورسالة لإخراج الناس من الضلالة ، وحكما ونفوذا في قلوب الناس بما خصني به من المعجزات (وجعلني من المرسلين) إليك وإلى من تبعك من الغاوين •

(وتلك نعمة تمنها عَلَيّ) اي وتلك التربية التي ذكرتها الآن وتعدها عليّ نشأت من (أن عَبّدتَ بني إسرائيل) واستضعفتهم وقد ذبحت أبناءهم واستحييت نساءهم ، ومن أجل ذلك جعلتني أمي في التابوت والقتني في اليم

بإلهام ربها مرتجية فتح باب الكرم وصياتني من الذبح والألم • فهذه التربية وإن كانت بالنسبة إليّ نعمة ولكنها بالنسبة إليك كانت فرعا من فروع تعذيبك لبني إسرائيل المساكين المضطهدين الواقعين تحت يديك وأيدي زبانيتك الجبارين الفارغين من كل رعاية لحقوق الإنسان لاسيما المستضعفين •

(قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ العالَمِينَ ؟(٢٣) قَالَ : رَبُّ السَّموات وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ موقِنِينَ(٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : ألا تَسْتَمِعُونَ ؟(٢٥) قَالَ : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ(٢٦) قال : إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ(٢٧) قال : رَبُّ الْمشرقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلونَ(٢٨) قالَ : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ(٢٩) قالَ: أوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ؟(٣٠) قالَ : فَأْتِ بِهِ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٣١) فَألْقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ(٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإذا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)(٣٣)

قوله تعالى : (قال فرعون : وما رب العالمين ؟) أي بعد أن سمع فرعون كلام موسى وقوة نفسه ومعنويته سأله مستفهما عن مرسله : (وما رب العالمين ؟) أي ما حقيقته المختصة التي نعرفها ؟ (قال : رب السماوات والارض وما بينهما ، إن كنتم موقنين) قال موسى ـ عليه السلام ـ في جوابه على نهج أسلوب الحكيم الذي يجيب بما يفيد السائل (رب السموات والارض) أي إن رب العالمين لا طريق لنا الى معرفة كنهه وحقيقته فإنها لا تكشف لنا وكيف يصل العقل المحدود الى الحقيقة

اللا محدودة الموصوفة بوجوب الوجود والأزلية والأبدية والاستغناء المطلق وعدم مماثلة شيىء من الاشياء واتصافه بالوحدة ذاتا وصفة وفعلا وانما يعرف بالصفات والآثار الناشئة من قدرته ؟ فهو رب السماوات والأرض (وما بينهما) من الهواء وما فيه (إن كنتم موقنين) بالآثار محققين لها وعالمين بأنها من الممكنات الخاصة وهي لا توجد بدون فاعل يرجح وجودها على عدمها • (قال فرعون) عند سماع جوابه ــ عليه السلام ــ (لمن حوله) من أشراف قومه : (ألا تستمعون ؟) جوابه الذي ليس فيه مقصودي فإني أسأله عن حقيقة رب العالمين وهو يجيبني ببيان الاعمال والآثار • (قال) موسى ــ عليه السلام ــ منتقلا إلى جواب أوضح من الاول : (ربكم ورب آبائكم الأولين) أي إن رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم الأولين الذين خلقهم من نطفة ثم من علقة • ثم من مضغة ونفخ فيها الروح وأودع في الارواح العقول والشعور والهداية الى الظلمات والنور (قال فرعون) مبالغا في الرد : (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) حيث يسأل عن شيء ويجيب عن آخر (قال) ــ عليه السلام ــ مشيرا إلى أنكم لستم أهلا لذلك الباب وليس من حقكم السؤال عن حقيقة الحق سبحانه لأنه لا يسأل عن شي لا تصل إليه العقول وموضحا للجواب الاول : هو (رب المشرق والمغرب وما بينهما) من الدرجات المختلفة لسير الشمس (إن كنتم تعقلون) أي إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الامر كما قلته وأشرت إليه •

(قال فرعون) بعد أن فهم أن موسى حكيم يأتي بالأسلوب الحكيم ولا يذكر أسرارا يعجز عن إدراكها أفهام الأوساط ، وهو لا يفحم بالمقال : (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) المحكومين بالسجن المؤبد

حتى لا تخرج فتحرج الناس وتدعوهم إلى ما تعودوا عليه من اتخاذ الهياكل واعتبار أولى النفوذ الدنيوي أربابا (قال) موسى ــ عليه السلام ــ : (أو لو جئتك بشيء مبين ؟) أي أتحكم بتعذيبي وسجني ولوجئتك بشيء من المعجزات الإلهية الخارقة للعادة مبين وموضح لأهل العقل أن للكائنات ربا قادرا على الممكنات وتحويل الاشياء الى ما هو على غير صفاتها الاعتيادية (قال) فرعون : (فأت به إن كنت من الصادقين • فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) ظاهر ثعبانيته (ونزع يده) من جيبه (فإذا هي بيضاء للناظرين) أي أن بياضه يدعو الناس إلى النظر إليها •

(قالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ : اِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ(٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ اَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَماذا تَأْمُرُونَ ؟(٣٥) قالُوا : أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ(٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ(٣٧) فجُمِعَ السَّحَرَةُ لِميقاتِ يَوْمٍ مَعْلُوم(٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ : اَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ؟(٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ اِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِين(٤٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ : أَئِنَّ لَنا لأَجْراً اِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ؟(٤١) قالَ : نَعَمْ وَإِنَّكُمْ اِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)(٤٢)

قوله تعالى (قال للملأ حوله) أي قال فرعون للأشراف الذين استقروا حوله بعد أن رأى من موسى ــ عليه السلام ما رأى (إن هذا لساحر عليم) إن هذا الرجل الذي عرفتموه ورأيتموه أتى بما أتى به لساحر عليم فائق في فن السحر (يريد أن يخرجكم من أرضكم) التي قد ولدتم فيها وتربيتم وعمرتم وعشتم مستريحين (بسحره) أي بجلب نظركم إليه به فيلقى في قلوب الناس مهابة له واحتراما فيتبعونه بكثرة فتكون له القوة والنفوذ

ويجبر الناس على اطاعته وأنتم تخالفونه وتحاربونه فيغلبكم ويخرجكم منها (فماذا تأمرون ؟) به في دفعه قبل استفحال أمره (قالوا : أرجه وأخاه) أي اخر أمرهما الى أن تجمع السحرة من البلاد التي لك قدرة عليها (وابعث في المدائن) مأمورين محصلين (حاشرين) لأهل السحر (يأتوك بكل سحار) كثير التفنن في السحر (عليم) فائق في فنه يغلب غيره بمكيدته •

وفي (أرجه) لغات ، لأن اصله أرجئه ، أمر باب إفعال من الإرجاء بمعنى التأخير ، فقرأ الكثيرون أرْجئهُ بإبقاء الهمزة وضم هاء الضمير على الأصل • وقرأ عاصم وحمزة أرجه بحذف الهمزة وسكون الهاء لأن الهمزة ما دام تنقلب ياء لسكونها وكسر ما قبلها والياء تحذف آخر الأمر حقها الحذف ، وسكنا الضمير لشبهه بهاء أصل الكلمة • والكسائي وخلف أرجهِ بحذف الهمزة وكسر الهاء •

(فجمع السحرة لمقيات يوم معلوم) أي فذهب الحاشرون وجمعوا السحرة المعهودين أو جميع السحرة لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة • (وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟) في ذلك الميقات متفرجين على ما يحدث (لعلنا نتبع السحرة) في دينهم (إن كانوا هم الغالبين) على موسى ـ عليه السلام ـ ومرادهم بذلك أن لا يتبعوا موسى فإن معاندته هي الأمنية الغالية لهم (فلما جاء السحرة) واجتمعوا في البلاط الملكي وتشاوروا فيما بينهم في حالهم ومستقبلهم اتفقوا على طلب أجور معينة عندَ الغلبة (وقالوا) لفرعون : (أئن لنا لأجراً إن كنا نحنُ الغالبينَ ؟ قال) فرعون : (نعم) لكم الأجر اللائق (وإنكم) علاوة على الأجر المادي المناسب لكم (إذا) إذا كانت الغلبة لكم (لمن) الناس (المقربين) إلينا تدخلون علينا قبل الداخلين ، وتخرجون بعد الخارجين •

(قالَ لهُمْ مُوسى : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ(٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُم وعصيَّهُمْ ، وقالُوا : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالِبُونَ(٤٤) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ(٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ(٤٦) قالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ العالَمِينَ(٤٧) رَبِّ مُوسى وَهرُونَ(٤٨) قالَ : آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ! : لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قالُوا : لا ضَيْرَ إنَّا الى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ(٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ المُؤْمِنِينَ)(٥١)

قوله تعالى (قال لهم موسى) أي بعد أن قال له السحرة إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ماأنتم مُلقُون) أي فوضهم الى ميل أنفسهم الاشتهاء بدون تخصيص وتقييد استعملوا ما تستعملونه وألقوا الى مرأى الناس (ما أنتم ملقون) له وذلك لعدم الاعتناء بأعمالهم (فألقوا حبالهم) أي الحبال التي بللوها وغذوها بالزئبق (وعصيهم) التي يعتمدون عليها في إبراز عمل السحر (وقالوا) عند إلقائها : (بعزة فرعون) وقوته الجبارة (إنا لنحن الغالبون) لا شك ولا غالب غيرنا (فألقى) موسى (عصاه) (فإذا هي تلقف) وتبتلع (ما يأفكون) أي المواد التي يأتون بالإفك عليها (فألقي السحرة) من القوة القدسية على وجوههم (ساجدين) لله تعالى على ما شاهدوه من معجزة موسى مقارنة بالهيمنة والرهبة الربانية (قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهرون) أي الرب الذي يعرفانه من دون شبهة وريب إيمانا لهما به من أعماق القلوب (قال فرعون) لما شاهد ذلك :

(آمنتم) أيها السحرة له (قبل أن آذن لكم ؟) وأعلمكم بإجازتي لكم في هذا الأمر الخطير الذي يمس كيان الدولة المدعية أنها القوة الهائلة فوق قوى العالم إن هذا الامر لمكر مكرتموه وشيىء دبرتموه ، ومؤامرة علينا تآمرتم واتفقتم عليها سرا و (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فاتفقتم على ما فعلتم (فلسوف تعلمون) النتائج التي تحيق بكم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم) من جهة (خلاف) جهة الاخرى أي لاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ، ثم أيديكم اليسرى وأرجلكم اليمنى (ولأصلبنكم) على جذوع النخل العالية حتى لا تنالها أيدي المتناولين وتتمزقوا وتأكلكم الطيور والحشرات الجوية (أجمعين) بلا استثناء أحد منكم حتى لا تبقى لكم باقية •

(قالوا) أي السحرة : (لا ضير) أي لا ضرر علينا في تطبيق ماهددتنا به (إنا إلى ربنا) العالم بالخفيات (منقلبون) ويهب لنا الثواب الجسيم والجزاء العظيم البتة (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) السابقة وما كنا عليه (أن كنا أول المؤمنين) أي لأنا كنا بهذا الإيمان المعلن في هذا الموقف المحمود واليوم المشهود أول المؤمنين بصورة جماعية معروفة بين العالمين •

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ(٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ(٥٣) إِنَّ هٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ(٥٥) وَإِنّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ(٥٦) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ(٥٨) كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ(٥٩) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ(٦٠) فَلَمّا تَراءَ الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى : إِنّا لَمُدْرَكُونَ(٦١) قالَ كَلّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ : اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فانْفَلَقَ ، فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(٦٨)

قوله تعالى (وأوحينا الى موسى) يعني أنه بعد أن صارت المقابلة بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين السحرة وغلب عليهم ، وانقلب المعارضون صاغرين ، بقي موسى وهرون ومن تبعهما من بني إسرائيل في مصر ، ولكنهم كانوامضطهدين ، وكان سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ يدعوهم الى الايمان واتباع الحق وهم يعاندون ، فأوحى الله إلى موسى ـ عليه السلام : أن فرعون فيصدد المهاجمة عليك وعلى من تبعك، فالطريق لخلاصكم منه (أن أسر بعبادي) المؤمنين ، وتحرك من مصر معهم ليلاً مختفين (إنكم متبعون) واسعوا في قطع مسافات واسعة بمدة قليلة لعلكم تنجون ، فسرى بهم ليلاً وارتحلوا من ديار مصر متوجهين الى سيناء ، (ف) لما علم فرعون أنهم ارتحلوا وكانوا كثيرين (أرسل فرعون في المدائن) أي مدائن مصر رجالا (حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم قائلا لهم (إن هؤلاء) اي بني اسرائيل (لشرذمة") أي طائفة من الناس وقيل هي السفلة منهم (قليلون) عدداً وعددا . وفي الواقع كانوا ستمائة ألف وعشرين ألفا واتبعهم فرعون لتعقيبهم بعدد زائد على ذلك (وإنهم لنا لغائظون) أي حاقدون فإذا أمكنهم النزاع والحرب حاربونا (وإنا لجميع حاذرون) أي وإنا لجمع من سيرتنا الحذر وملاحظة العواقب (فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام

كريم) معناه أنا كدْناهم وهيأنا لهم وسيلة خروجهم من ديارهم المحتوية على البساتين والحدائق والعيون الجارية فيها • ومن أموال مكنوزة عندهم مخزونة في خزائن خاصة مقفلة ، ومقامات للراحة والمنام والقعود والقيام • والمراد بها القصور المسكونة لهم فتركوها واتبعوا بني إسرائيل لإبادتهم أو أسرهم واستعبادهم أو لأجل إبعادهم الى ممالك أخرى ولم يعلموا أنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وإنا بعد خروجهم لا نخليهم يرجعون على آثارهم ، وفعلاً لما خرجوا ما رجعوا (وأورثناها) أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم (بني إسرائيل) •

وظاهر هذه الآية الكريمة أن بني إسرائيل هم الذين استولوا عليها : فمن الناس من يقول إن المراد أنهم بعد هلاك فرعون وقومه المحاربين وعبور موسى مع من كان معه من بحر النيل رجعوا إلى مصر وسكنوا فيها مدة عشر سنين • ومنهم من يقول أنه بعد العبور من النيل رجع بعض بني إسرائيل الى مصر وهم الذين أورثوا أموال القبط ، وذهب الباقون مع موسى ـ عليه السلام ـ الى أرض الشام • قلت : ويحتمل أنه كان بعض من بني إسرائيل الساكنين في مصر سياسيين موالين لفرعون وأتباعه ، ولم يخرجوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وأتباعه فبقوا هناك وبعد غرق فرعون وأتباعه الشداد المقاتلين في النيل استولوا على تلك المساكن والبساتين والحدائق والكنوز بشتى أساليب الإستيلاء ، فإنا نجد في بعض الأماكن كثيرين من قوم يوالون قوما آخر كأنهم منهم فيستفيدون منهم أموالا طائلة ، ولعل هذا الإحتمال أوفق وأنسب وأقوى تأريخا ومدركا •

ولنرجع إلى تسلسل موضوع الآيات الكريمة فيقول الباري سبحانه (فأتبعوهم) أي لما جمع الحشد الكبير الكثير عنده ، وعزم على السير وراء بني إسرائيل اتبعوهم أي أتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل (مشرقين

حالكونهم داخلين في وقت شروق الشمس أي طلوعها من صباح ليلة اجتماع الجيش ، فساروا وراءهم (فلما تراء الجمعان) أي تقارب الجمعان جنود فرعون واتباع موسى ــ عليه السلام ورأى بعضهم بعضا (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي لملحقون من جهة جيش العدو (قال) موسى ــ عليه السلام ــ في جوابهم وتشجيعهم : (كلا) لا ندرك ابدا (إن معي ربي سيهديني) قريبا الى ما فيه النجاة الأبدية (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) أي بحر النيل (فانفلق) أي فضربه فانفلق أي فانفصل البحر بعضه عن بعض وتفرق الى أقسام (فكان كل فرق كالطود العظيم) أي كالجبل العالي الثابت في مقره . ورأوا أن سطح أرض النهر ليس فيه ماء بحيث يمنع المارة من المرور الإعتيادي . ويروى أن عدد الفرق كان على عدد الأسباط فمر كل منهم في ممر خاص والله أعلم (وأزلفنا ثم الآخرين) أي وقربنا هنالك الجمع الآخرين من أتباع فرعون معه (وأنجينا موسى ومن معه) أجمعين بمرورهم في فجوة الفرق ولم يمسّ أحداً منهم السوء (ثم أغرقنا الاخرين) فرعون وجنوده بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى ومن معه من البحر (إن في ذلك لآية) عظيمة ومعجزة جسيمة (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي وما كان أكثر من كان مع سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ مؤمنين بأن هذه الآية العظيمة كانت من الله لنصرة موسى ونجاة من معه، بل كانوا يحملونها على الصدف فإن من شأن الضال التائه الغويّ أن لا يعتبر بأية عبرةٍ ترد عليه سواء كانت من المهلكات كالقحط والحرب والأمراض ، أو من المنجيات كالنصرة والخلاص من الزحمة ووفور النعمة الى غير ذلك .

وقد فسر بعض المفسرين الأعلام هذه الآية على معنى أن في ذلك القصص المذكورة في شأن موسى ــ عليه السلام ــ مع فرعون وإنجائه مع من معه وإغراقه مع جنوده لآية عظيمة للناس الذين يقصها الرسول محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وحقهم أن يعتبروا بها ويقيسوا المتمردين من المشركين على فرعون وأتباعه العتاة الطغاة ، ويقيسوا سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين على موسى ومن معه ، ويؤمنوا بأنه كما كان العاقبة لموسى والعقاب لفرعون وأهله وجنوده تكون العاقبة الحسنى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين به والعقاب والعذاب للمتمردين من مشركي العرب ، مع أن أكثرهم لم يؤمنوا بذلك ، ولم يأخذوا منها عبرة تنفعهم وتسوقهم الى الايمان بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وإن ربك لهو العزيز) الغالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم مايريد وينصر من شاء على من شاء (الرحيم) حيث لا يأخذ العتاة فورا بل يمهلهم الى أجل مسمى كما يقال : إن الله يمهل ولا يهمل •

(وَاتْلُ عَلَيهمْ نَبَأَ اِبْرَاهِيمَ(٦٩) : إذ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ما تَعْبُدُون ؟(٧٠) قالُوا : نَعْبُدُ أَصناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ(٧١) قالَ : هَلْ يَسْمَعُونَكُم إذْ تَدْعُونَ ؟(٧٢) أو يَنْفَعُونَكُمْ اَوْ يَضُرُّونَ ؟(٧٣) قالُوا : بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤) قالَ: أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥) أَنْتُم وآباؤُكُمُ الأَقْدَمُون ؟(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلاَّ رَبَّ العالَمِينَ(٧٧) اَلَّذي خَلَقَني فَهُو يَهْدِينِ(٧٨) والَّذِي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقِينِ(٧٩) وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠) والَّذي يُميتُني ثم يُحْيِينِ(٨١) وَالَّذِي اَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْم الدِّينِ(٨٢) رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلْحِقْني بِالصّالِحينَ(٨٣) واجعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين(٨٤)

واجعلني من ورثة جنة النعيم(٨٥) واغفر لأبي ، إنه كان من الضالين(٨٦) ولا تخزني يوم يبعثون(٨٧) يوم لا ينفع مال ولا بنون(٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم)(٨٩)

قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ إبراهيم) عطف على العامل المقدر في إذ نادى ، أي اذكر ذلك لقومك ، واتل عليهم نبأ إبراهيم ، ويتعلق بالنبأ إذ اي النبأ الحاصل (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟) أي ماالذي تعبدونه وذلك ليسمع جوابهم ويبني عليه ما أراد إعلانه من أن ما يعبدونه جوامد هامدة لا أرواح لها ولا يحصل منها أثر من نفع أو ضر لأحد • (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) زادوا في الجواب على ما أريد بالسؤال ليزيدوا من إظهار ما في ضمائرهم من التعمق في الضلال وأنهم عاكفون لعبادتها بالاحترام والإجلال (قال) إبراهيم ــ عليه السلام ــ بعد ماسمع من الكلام : (هل يسمعونكم) أي يسمعون كلامكم (إذ تدعون أو ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون ؟) أي يضرونكم بتركها (قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) أضربوا عن أن تكون عبادتهم لها لطمع نفع أو قطع ضرر ، وأظهروا أن لا سند لهم فيها سوى تقليد آبائهم (قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟) أي أرأيتم شيئا من الخير تحصلونه على عبادتها أنتم واباؤكم السابقون ؟ فكأنهم قالوا لا ما رأينا شيئا فقال إبراهيم عليه السلام (فإنهم عدولي) ولا شك في عداوتهم لي وعداوتي لهم (إلا رب العالمين) فإنه ليس عدوا لي ولا لغيري بل هو رءوف بي وبغيري • وهو (الذي خلقني) من العدم وسواني إنسانا مكرما داخلا في أمة من الأمم (فهو يهديني) إلى ما يهمني ويصلحني من أمور المعاش والمعاد (والذي هو يطعمني) إذا جعت (ويسقيني) إذا عطشت فإن الطعام والشراب نصيب

والنصيب مغيب والمعين له هو الرزاق القريب (وإذا مرضت فهو يشفين) أي ويرشدني الى طبيب يداويني أو يدفع عني المرض بسلام يأتيني (والذي يميتني) اذا جاء أجلي فأبقى ما شاء الله ، (ثم يحييني) للحساب وميزان الأعمال في الدين • يعني إن هذه الامور كلها من ابتداء خلق الانسان ونشوئه وبقائه وامراضه وسائر عوارضه وإماتته وإحيائه ••• كل في كتاب وذلك عائد الى الله سبحانه وتعالى لا غير (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) قالوا استعظم أن يصدر منه شيء مخالف لميزان إلا لصورة الخطأ ولذلك قال : خطيئتي ، ولكن الواقع أن الانبياء ـ عليهم السلام ـ وان كانوا معصومين من الذنوب ، كما حقق في محله ، لكنهم لما تعمقوا في الايمان وإدراك عظمة الباري جل جلاله وجدوا أنفسهم في ذلك المقام قاصرين عن الإتصاف بأداء حق العبودية وعدوا ما صدر منهم ، وفيه شائبة من اشتهاء النفس أو الغفلة عن جانب القدس ذنوبا واستغفروا الله عنه وكفى في ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة » أو كما قال وماروي عنه من قول سيدنا إبراهيم إني سقيم وقوله (بل فعله كبيرهم) هذا وقوله لزوجته سارة هي أختي ليست من باب الإخبار بالكذب قطعا بل أراد من الاول الحيرة في جلال الذات ومعرفة الحق سبحانه وتعالى • وكان القول الثاني تعريضا والثالث صدقا وحقا وهي أخته ديناً وإيماناً • وقوله (رب هب لي حكما) حمله على هذا الدعاء الجليل ما أتى به من صفات الباري وإسناد الأمور إليه فلما استغرق في ذلك غلبه الشهود ، وأتاه المقصود وهو طلب المهم منه فقال (رب هب لي حكما) أي القوة والسيطرة على نفسي لرعاية جانب القدس أو كمال القوة العلمية لأفهم كل شيء على حقيقته أو النفوذ لتطبيق الحق في العالم •

(وألحقني بالصالحين) أي بالعباد الصالحين في اعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي واجعل لي قوة على آثار نافعة خالدة يكون لمن يذكرني بها لسان صدق أي لسان يتكلم بالصدق ، أي إذا ذكروني بالخير يكون كلامهم صدقا وحقا ولا أريد ذلك في طبقة خاصة بل في كافه الآخرين مادام أهل الدين موجودا إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه فجعل ذكره بالخير منتشرا في ربوع الدنيا وسيبقى ذلك مادامت الدنيا باقية . (واجعلني من ورثة جنة النعيم) أي من الذين ياخذون مقامهم في الجنة موهبة رحمانية كإرث الورثة من المورثين ، وذلك إشارة إلى أن من دخل الجنة فقد دخلها برحمة الباري وموهبته لا باستحقاقه في مقابل طاعته ، وهو ظاهر (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) عن طريق الحق أي طريق التوحيد لله (ولا تخزني) بتعذيبه (يوم يبعثون) أي الناس هو وغيره (يوم لا ينفع مال ولا بنون) أي لا ينفع مال بذاته ولا بصرفه في الخير ، ولا ولد بذاته ولا بأعماله ودعواته لي . وقد استغفر له قبل أن يعلم بأن الدعاء لأمثاله غير مقبول وقد وعده به كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة) الآية ... وظاهر الآية أن ذلك الرجل المدعو (آزر) كان والده وكان استغفر له سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لموعدة وعدها اياه . وعند بعض المحققين من المؤرخين أنه كان عمه وتربى عنده لوفاة أبيه سابقا فكان يدعوه باسم الأب . وقوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من قوله تعالى (يوم يبعثون) وقوله تعالى (إلا من أتى الله بقلب سليم) استثناء من أعم المفاعيل ، أي يوم لا ينفع مال أحد ولو كان مصروفا فيجهاتالخيره ولا ينفع بنون بذاتهم ولا بدعواتهم أو أعمالهم أحدا إلا من أتى الله بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل ما يتعلق بالإنسان بالإيمان الثابت الخالي عن الخلل . جعلنا الله تعالى من أصحاب القلب السليم إنه هو الرءوف الرحيم .

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللهِ ؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْيَنْتَصِرُونَ ؟ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا : وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ : (٩٦) تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٠٤)

قوله تعالى : (وأزلفت الجنة) معطوف على قوله (لا ينفع) أي يوم أزلفت الجنة الآية • والتعبير بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع • ويجوز أن يكون هو وما بعده جملا مذكورة لبيان ظهور آثار النعمة للمؤمنين والنقمة للكافرين وبيان الأسئلة الموجهة على القسم الثاني في الآخرة ومعنى الآية : وقربت الجنة للمتقين عن الكفر والنفاق مبتهجة ومزينة بجهات الزينة وفنون المحاسن بحيث يشاهدونها فيفرحون بأنهم يدخلونها ويخلدون فيها (وبرزت الجحيم للغاوين) أي الضالين عن طريق الحق والدين وهو التقوى والإيمان الخالص • وطريقة تقريب الجنة وتبريز الجحيم مع أن أرض المحشر لا تسعهما بكشفهما عن أهلهما فإن المنظار القوي يدرك به الأمكنة البعيدة كأنها قريبة وأمام الناظر وإدراك عالم الخلود لا يقاس على إدراك عالم الفناء في الدنيا (وقيل لهم) أي للغاوين ، والقائل هو الله أو الملائكة المأمورون بذلك : (أين ما كنتم تعبدون من دون الله) في الدنيا (هل

ينصرونكم) بدفع ما تشاهدونه من الجحيم وما فيها من العذاب (أو ينتصرون ؟) بدفع ذلك عن أنفسهم •

(فكبكبوا فيها) أي ألقوا على وجوههم في الجحيم (هم) أي المعبودون من دون الله (والغاوون) الضالون وهم عُبّادُهم (وجنود إبليس) من شياطين الجن والإنس (أجمعون) بلا استثناء (قالوا) أي الغاوون (وهم فيها) أي في الجحيم (يختصمون) يخاصم بعضهم بعضا : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين) أي لا شك أنا كنا في ضلال مبين واضح • (إذ نسويكم) أيها الأصنام المفتعلون (برب العالمين ، وما أضلنا) عن طريق الحق وهو عبادة الله الواحد الأحد (إلا المجرمون) من شياطين الثقلين (فما لنا اليوم من شافعين) أي شافع من الشافعين (ولا صديق حميم) أي ولا صديق شفيق حار في الصداقة يسعى لخلاص صديقه (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) أي ليت لنا رجوعا إلى الدنيا فنكون من المؤمنين بالله وبرسوله (إن في ذلك لآية) أي إن في بيان قصة إبراهيم عليه السلام لحجة وعظة لمن أراد أن يتعظ بها ، فإن الإنسان العاقل إذا تأمل في أعمال رجل كإبراهيم ـ عليه السلام ـ بين أظهر قوم كافرين عابدين للأصنام ، ولما أن وقع في قلبه أن أعمالهم باطلة ثار عليهم وناظرهم وأرشدهم ولم يخف من بطشهم واستمر على أمره حتى نصره الله استفاد من هذا أن من نصر الحق نصره الله ومن سلك على الصراط المستقيم أوصله الله (وما كان أكثرهم) أي أكثر قومه (مؤمنين) أو وما كان أكثر القوم الذين تقص عليهم هذه القصة العظيمة مؤمنين بك وبكلام الله الذي أنزل عليك القصة الماضية (وإن ربك لهو العزيز)الغالب على أمره (الرحيم) لمن خصه برحمته •

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ؟(١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمينٌ(١٠٧) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعُونِ(١٠٨) وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ ، اِن أَجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ العَالَمينَ(١٠٩) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعونِ(١١٠) قالوا : أَنُؤمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ؟(١١١) قالَ : وما عِلْمي بِما كانوا يَعْمَلونَ ؟(١١٢) اِنْ حِسابُهُمْ إلاَّ عَلى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ(١١٣) وما أَنَا بِطارِدِ المُؤْمِنِينَ(١١٤) اِنْ أَنَا إلاَّ نَذيرٌ مُبينٌ(١١٥) قالُوا : لَئِنْ لَم تَنْتَهِ يانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ(١١٦) قالَ رَبِّ اِنَّ قَومي كَذَّبُونِ(١١٧) فَافْتَحْ بَيْني وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّني وَمَنْ مَعِيَ مِنَ المؤمنين(١١٨) فأنجَيْنَاهُ ومَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ الْمَشْحُونِ(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ البّاقِينَ(١٢٠) اِنَّ فِي ذلِكَ لآيةً وَماكانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٢١) وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٢٢)

قوله تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ، ولذلك يصغر على قويمة • وقيل هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة أو الجماعة ، وفي ألفية السيوطى :

وابن القبيلَ والبِلادَ وَالْكلم على الذي قَصَدْته كما رُسِم

وتكذيب القوم للمرسلين باعتبار أن تكذيبهم لسيدنا نوح كان في توحيد الله تعالى والرسل متفقون عليه ، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل• وقوله (إذا قال لهم) ظرف للتكذيب أي كذبوهم إذ قال لهم (أخوهم نوح) ـ عليه السلام ـ (ألا تتقون ؟) أي ألا تخافون الله تعالى حيث تعبدون

معه غيره وتشركونه به تعالى ؟ (يا قوم إني لكم رسول) من الله (أمين) مشهور بالأمانة في ما بينكم ، أو أمين على أداء الرسالة من الله (فاتقوا الله وأطيعون) في ما آمركم به من التوحيد وعبادته تعالى وحده (وما أسألكم عليه) أي على ما أبلغكم من أجر من المال أو غيره (إن أجري) أي ما أجري (إلا على رب العالمين • فاتقوا لله وأطيعوني • قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟) أي السفلة وأصحاب الخسة من القوم • (قال) نوح ـ عليه السلام : (وما علمي بما كانوا يعملون) أي وما أدري بأعمالهم ومكاسبهم إذا كانت سافلة أو عالية وليست تلك الملاحظة وظيفتي ، وإنما وظيفتي دعوة الناس الى توحيد الله (إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون) أي ليس حسابهم فيما يعملونه من حسن الصناعة وجودتها لبعض دون آخر• يعني إذا كان هناك محاسبة عليهم فالمحاسبة تعود الى عملهم وذلك على الله ولا عتب في رذالة أعمالهم لأن الناس تختلف ظروفهم في المعيشة • وعلى كل فالحساب والمراقبة في الدنيا أو الحساب والسؤال في الآخرة على الله وحده وهو العليم بأعمال الكل ونياتهم • ولو شعرتم بذلك مانظرتم إلى قلة مالهم في هذا العالم (وما أنا بطارد المؤمنين) عن الحضور إلي ومجالستهم ودعوتهم إلى التوحيد والطاعة الخالصة موافقة لرغبتكم المبنية على الأنانية والتكبر الفارغ (إن أنا إلا نذير مبين) أي ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين أياً كانوا •

ولما علموا بنية سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ وثباته على ما هو عليه (قالوا : لئن لم تنته يا نوح) عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوة الناس الى التوحيد ورفض عبادة الأصنام التقليدية (لتكونن من المرجومين) أي لتقتلن برمي الحجارة عليك حتى تموت بالحقارة ، أو لتكونن من المشتومين بالكلمات البذيئة • ولما بلغت وقاحتهم الى هذه الدرجة (قال : رب إن قومي

كذبون) أي استمروا على ما هم عليه من التكذيب (فافتح بيني وبينهم فتحا) أي افتح بيني وبينهم بابا لأخرج منه وأكون محفوظا من شتامهم وإيذائهم ، أو احكم بيننا بما يستحقه كل منا من الفتاحة بمعنى الحكومة (ونجني ومن معي من المؤمنين) من قصدهم الفاسد وعملهم الكاسد (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) أي فأوحينا إليه أن اصنع الفلك واسلك فيه من سلك في الدين فإني أغرقهم بالطوفان ، فصنعه وجعل فيه من آمن به ، وأمرنا السماوات بالإمطار والأرض بتفجيرها بالماء حتى صار الطوفان ، فدخل نوح ومن معه في الفلك المملوء بالناس وما لهم إليه حاجة (ثم أغرقنا بعد) أي بعد الحكم بإنجائهم (الباقين) من قومه الكافرين (إن في ذلك لآية) عظيمة دالة على عظم قوته ونفوذ قدرته وإنجاء من يؤمن به ونصرته (وما كان أكثرهم مؤمنين) ولذلك غرق الناس عدا من في السفينة اجمعين (وإن ربك لهو العزيز) الغالب على ما أراد (الرحيم) بمن شاء من العباد .

(كَذَّبَتْ عادٌ المُرْسَلِينَ (١٢٣) إذْ قالَ لَهُمْ أَخوهُمْ هُودٌ : أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٢٤) إنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؟ (١٢٨) وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) واتَّقُوا الَّذي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قالُوا : سَواءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ

لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٤٠)

قوله تعالى : (كذبت عاد المرسلين) تأنيث الفعل باعتبار أنَّ المرادَ بعاد القبيلة ، وهو اسم أبيهم الأعلى (إذ قال لهم أخوهم هود) والتذكير لإرادة بني عاد (ألا تتقون ؟) الإشراك بالله سبحانه وتعالى (إني لكم رسول أمين) ناصح لكم وأريد الخير لكم في الدارين (فاتقوا الله) في الإشراك به ومباشرة المعاصي (وأطيعون وما أسئلكم عليه) أي على تعبي في نصيحتكم ودعوتكم الى توحيد الله وطاعته (من أجر) مادي أو معنوي (إن أجري) أي ما أجري (إلا على رب العالمين) والتصريح بالبراءة عن طلب الأجر لإعلان أن الأنبياء والرسل منزهون عن المطامع الدنيوية الدنيئة وأن المقدار الذي يكفي لمعيشة الإنسان يوجد بلا اهتمام زائد ، ولا يجوز للراشد أن يضيع وقته النفيس إلا في الطاعة والتقديس •

ثم زجرهم على صرف الاموال الهائلة على ما لا طائل تحته من بناء القصور في الطرق من هنا وهناك وقال : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) أي أتبنون بكل طريق يكون ممرا للناس ، أو بكل فج بين الجبلين قصرا يكون آية من آيات قواتكم وعلوكم في بنائه وعلوه وإتقانه وحديقته ومرافقه للفخر والكبرياء تعبثون ببنائها وتصرفون في بنائها مالا كثيرا (وتتخذون مصانع) أي تبنون مآخذ للماء ومجاري تحت الارض وبركا وحياضا للتفرج والأنس بها (لعلكم تخلدون) أي عاملين عمل من يرجو الخلود في الدنيا • وسر النهى عن ذلك أنهم صرفوا أموالا كثيرة في أمور ممتعة زائدة

على الحاجة للبطر والأشر واللهو واللعب وقضاء شهوات النفس وإشباعها فيما يخالف الكرامة الإنسانية مع أن صرفها في الأمور الحيوية المعتدلة والدفاع عن الأمة وإنعاشها بالسدود المستحكمة القوية لإجراء الانهار وإرواء الأراضي القحلة ، والإستفادة من المزارع والبساتين والثمار بقدر ما يكفي الامة ، وتصدير مازاد عليها الى البلاد أنفع وأعْدَلُ بكثير من الإنهماك في تلك الملذات الحيوانية التي ليس لها نتائج إلا ضعف الأمة ونزول أخلاقها وكرامتها وإحداث المنافسة والشجار بين أبنائها الى أن يعادي بعضهم بعضا ويتقاتلوا فيفشلوا وتذهب قوتهم ، ويطمع فيهم الطامعون من كل صوب وحدب فيستَعْبدوا أذلاء صاغرين . فهذه النصيحة الإلهية أقوى نصيحةٍ لسعادة الدارين. (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أي وإذا كرهتم عملا وأردتم الإنتقام من أهله بطشتم بطش الجبارين بلا نظام مقرر ودستور معتدل حتى يتأدب الفاسد ويتهذب الراشد (فاتقوا الله) في ارتكاب هذه الامور (وأطيعون) .

(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) ولا يدخل في نطاق العد والبيان ، ولكن المهم منه أنه (أمدكم بأنعام وبنين) تستفيدون من الانعام الدر والدهن واللحم والصوف المتخذ منه ألبسة فاخرة ، ومن البنين قوة وسيطرة على العباد والبلاد وغنائم ومنافع ظاهرة (وجنات وعيون) تأخذون منها أنواع الثمار والأقوات المتكاثرة وتتنعمون بكل ذلك غافلين عن إطاعة من أولاكم هذه النعم الوافرة ، فإن تستمروا على هذه الاحوال ولا ترجعوا إلى الإيمان بالله وحده وبشرائعه وميزان عدله وشكر نعمه فـ (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) في الدنيا للإبادة والإهلاك، وفي الآخرة عقابا على الكفر والإشراك (قالوا) في جوابه : يا هود اهدأ وكن من الصامتين (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فلسنا بوعظك من المتعظين (إن هذا إلا

خلق الاولين) أي ما هذا الوعظ والكلام والتهديد والوعيد إلا خلق الناس الأولين ، فلم تمض أمة إلا ومضت فيها ثلة من القوالين والواعظين ، ولم يستند ذلك إلا الى الوفاء بما يقتضيه طبع جمع من الناس من حرب الذين يعيشون متنعمين أو ما هذا الذي نحن عليها من عبادة الاصنام إلا خلق الاولين من آبائنا الأقدمين وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ولا قيمة في الواقع لما تهددنا به (وما نحن بمعذبين) فكذبوه في آخر مرة تكذيبا صارما لا يقبل ردا • فاهلكناهم بريح صرصر عاتية سخرناها عليهم سبع ليال وثمانية أيام فكانوا من الهالكين • (إن في ذلك) الأمر المذكور (لآية) عظيمة لأهل الشعور (وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) بالمؤمنين في الدارين ، وبالكافرين في الدنيا ، وفي ذلك بلاغ للعالمين •

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ المُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قالَ لَهُم أَخُوهُمْ صالِحٌ: أَلا تَتَّقُون ؟(١٤٢)إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٤٣) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطيعُونِ(١٤٤) وَما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ العالَمِينَ(١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي ما هَهُنا آمِنِين ؟(١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيونٍ(١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ(١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ(١٤٩) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ(١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ(١٥٢) قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ(١٥٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ(١٥٤) قالَ : هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(١٥٥) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٥٩)

قوله تعالى : (كذبت ثمود المرسلين) القول في تأنيث الفعل وربط التكذيب بالمرسلين على مامر سابقا • وثمود قيل : إنه أعجمي منع من الصرف للعجمة والعلمية • وقيل عربي ومنع صرفه للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة • وهو من الثمد أي قليل الماء (إذ قال لهم صالح ألا تتقون ؟) أي الإشراك برب العالمين (إني لكم رسول أمين) أي رسول من الله أمين على التبليغ وعلى رعايتكم بكل وجه يمكن (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به وأنهاكم عنه من الله (وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري) أي ما أجري (إلا على رب العالمين) الذي يجزي بفضله ما يزيد على ثواب العمل بدرجات • ثم قال موبخا وزاجرا لقومه : (أتتركون في ماههنا) من النعم المتلاحقة والهبات المتوافقة (آمنين ؟) من كل عذاب ينزل عليكم من السماء لعدم شكركم على النعماء ، أو يخرج من الارض من البراكين والزلازل والحشرات والسباع الضاريات ومن الأعداء المهاجمين عليكم في المفاجآت ، والحال أنتم ثابتون وساكنون (في جنات وعيون) جنات مثمرة وعيون متفجرة (وزروع ونخل طلعها هضيم) متداخل بعضه في بعض (وتنحتون من الحبال) أي من الاراضي الصخرية الصلبة في الجبال بيوتا مستحكمة لا يصل إليها الاعداء والسباع والمؤذيات حالكونكم (فارهين) أي أشرين بطرين متنعمين • يعني لا تتصوروا الخلود في هذا الامر فإن الله قائم بالمرصاد على العباد يفتح عليهم أبواب النعمة والرحمة ، فإذا آمنوا به وشكروا نعمته زادهم منها ، وإذا كفروا بالله وكفروا بنعمته أزالها عنهم وهذه سنة الله في عباده • (فاتقوا الله) في الإشراك به (وأطيعون) في ما أبلغكم به (ولا تطيعوا أمر المسرفين)

أي سادتكم المتجاوزين عن الحدود (الذين يفسدون في الارض) أي لا يكتفون بضلالهم في أنفسهم بل يضلون غيرهم • (ولا يصلحون) أنفسهم فضلا عن أن يصلحوا غيرهم •

(قالوا) في جوابه على هذه النصائح القيمة : (إنما أنت من المسحرين) من الشياطين المتمردين فغلبوا على عقلك فصرت من المجانين ، وعللوا كلامهم ذلك بقولهم (ما أنت إلا بشر مثلنا) ولست حائزا لرتبة الرسالة من الله حتى تلقي الينا ما تلقيه (فأت بآية) أي بعلامة ودليل على صحة دعواك (إن كنت من الصادقين) وأرادوا بالآية ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم سقباً ، فقعد ــ عليه السلام ــ يتذكر فقال له جبريل ــ عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك • ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وتنجت سقبا ، وعند ذلك (قال) صالح ــ عليه السلام ــ : (هذه ناقة) كما اقترحتموها (لها شرب) أي نصيب مشروب من الماء كالسقي والقيت للنصيب من السقي والقوت وكان هذا الشرب من عين عندهم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) لعظم ما يقع فيه من البلاء •

(فعقروها) العاقر هو قدار بن سالف ، لكن لما كان عقره لها بأمرهم نسب العقر إليهم • وفي رواية أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب (فأخذهم العذاب) الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم • وصب عليهم حجارة خلال ذلك (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم) •

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ(١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلَا تَتَّقُونَ(١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أَمِينٌ(١٦٢) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ(١٦٥) وَتَذَرُونَ مَاخَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(١٦٦) قَالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ(١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ(١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ(١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ(١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ(١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٧٥)

قوله تعالى : (كذبت قوم لوط المرسلين • إذ قالَ لَهُم أخوهم لوط) وكانوا من أصهاره ــ عليه السلام (ألا تتقون ؟) عذاب الله تعالى (إني لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون • وما أسالكم عليه من أجرٍ ان أجري إلاّ على ربّ العالمين) ثم وبخهم على عملهم الشنيع الفاحش وقال : (أتأتون الذكران من العالمين ؟) أي الذكور منهم مع أن هذا العمل السيء لم يسبق في العالم من غيركم ، ويزيل الغيرة من الرجال فإن الإنسان إذا صرف عرضه صرف ماله وجاهه وأرضه ، وإن الغاية إن كانت قضاء الشهوة الجنسية فأولى ما تصرف وتقضى به هو الزواج المشروع لمن هي من نوعه وجنسه • (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) وتتركون الإستمتاع بما خلقها الله تعالى لاستمتاعكم وانتفاعكم بهن أنساً وألفة ، ولإدامة النسل وحفظ

الأصل لأن المتعرض للاعراض يقتل إن كان هناك غيرة" عليها (بل أنتم قوم عادون) أي إنه حقيق بنا أن لا نصرح بذنب واحد منكم وجريمة واحدة وفاحشة من الفواحش لانكم قوم متعدون عن الحدود ومتجاوزون الدين والوجدان ولا تتيسر لكم جريمة وعمل سيء الا ارتكبتموه ، سواء الكفر أو الإشراك ، أو نهب الاموال، أو هتك الأعراض الى غير ذلك من المهالك .. (قالوا) له بدل أن ينزجروا بمواعظه : (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) أي المطرودين من قريتنا والمنفيين من عشيرتنا . ولما يئس من إصلاحهم (قال : إني لعملكم من القالين) أي الباغضين . وحيث لا أستطيع رد المنكر بيدي ولا بلساني لم يبق لي إلا أضعف آثار الإيمان وهو الكراهية بالقلب ، ثم لم يكتف بذلك ودعا ربه لخلاصه من شؤم إعتقادهم وأعمالهم و (قال : رب نجني وأهلي مما يعملون) أي من شؤم عملهم ، فإن القريب من النار كاد أن يحترق بها (فَنَجَّيناه وأهْلَه أجْمعين . إلا عجوزا في الغابرين) أي إلا عجوزا مقدرة في الباقين من العذاب بعد سلامة من خرج. أو عجوزا من الباقين في الدار ولم تخرج مع لوط ـ عليه السلام ـ . أو عجوزا من الطاعنين في السن أي عمرها كان طويلا . وعلى كل فالمراد بها زوجته ، وكانت مائلة الى القوم الفاسدين ، لأنها كانت من بناتهم (ثم دمرنا الآخرين) أي أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه بالإئتفاك أي جعل أعالي البلاد أسافلها وبالعكس (وامطرنا عليهم مطرا) أي نوعا من المطر اللا معهود ، فقد كان حجارة من سجيل ، وذلك كما في قوله تعالى (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) . (فساء مطرُ المنذرين) مطرهم (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

(كَذَّبَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ المُرْسَلِينَ(١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ : أَلا تَتَّقونَ ؟(١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(١٧٩) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى ربِّ العالَمِينَ(١٨٠) أَوْفُوا الكَيْلَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ(١٨١) وَزِنُوا بِالقِسْطاسِ المُسْتَقِيمِ(١٨٢) وَلاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالجِبِلَّةَ الأوَّلِينَ(١٨٤) قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ(١٨٥) وما أنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذِبِينَ(١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ(١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً وما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ(١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ)(١٩١)

قوله تعالى : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر ، وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين ، يسكنها طائفة ، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب ـ عليه السلام ـ ، وكان أجنبيا عنهم ، ولذلك قال تعالى : (إذ قال لهم شعيب : ألا تتقون ؟) ولم يقل أخوهم . وقيل الأيكة الشجر الملتف ، وكان شجرهم الدوم ، وهو المقل وعلى القولين أصحاب الأيكة غير أهل مدين . ومن غريب النقل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنهم أصحاب مدين . (إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على

رب العالمين) وذكر نبذة مما يتقون الله في رعايته وهي الإحسان في المعاملة مع الناس فقال : (أوفوا الكيل) أي أتموه إذا كلتم للناس كما توفونه إذا اكتلتم لأنفسكم (ولا تكونوا من المخسرين) أي ولا تجعلوا الناس في خسارة مالية بالتطفيف (وزنوا بالقسطاس المستقيم) الذي يكون الوزن به موافقا للحق ولا يكون مما يزيد وينقص بسبب خلل في جهازه ، أو المراد بالقسطاس المستقيم القسطاس الذي صاحبه مستقيم الحال ومخلص في المعاملة على اعتبار أن لا ضرر ولا ضرار • وقوله تعالى (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أي لا تنقصوهم شيئا من حقوقهم إما جيء به تأكيدا للحكمين السابقين ، أو المراد به رعاية الحق والعدل في كافة المعاملات والديون وأشباهها • وذلك من باب التعامل والتجارة • وقوله تعالى : (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي ولا تفسدوا في الأرض مفسدين للنظام بالقتل والسلب والنهب وهتك الأعراض وقطع الطرق والسرقة وغيرها مما يكون سببا للإخلال بالحياة الاجتماعية ، فإن ذلك ظلم شديد والدنيا إذا بقيت مع الكفر لا تبقى مع الظلم ، لأن حق الكفر بين العبد وبين ربه ، وأما الحقوق المهضومة بالظلم فبين الظالم والعباد المظلومين ، والله مهيمن عليهم •

(واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) ثم ترقى شعيب ـ عليه السلام ـ عن النهي عنهم في الأمور الحيوية إلى الأمر برعاية جانب الباري سبحانه فقال واتقوا الذي خلقكم ، أي واتقوا الإشراك بربكم الذي خلقكم وخلق أصحاب الجبلة والغريزة الأقدمين ، يعني إن الذات المختص بالخالقية هو المختص بالمعبودية فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا (قالوا) أي قومه الغافلون (إنما أنت من المسحرين) يا شعيب أي سحرك الناس أو تسلط عليك الجن فصرت ممن يندهشون ولا تبقى عقولهم سالمة من الاختلال (وما أنت إلا بشر مثلنا) وليس فيك وصف فضيلة يجعلك مختصا بالرسالة من الله ، وإن

نظنك لمن الكاذبين فيما تدعيه من الرسالة (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) أي فما دام لك علاقة بـرب السماوات والارض فاطلب منه أن يسقط علينا قطعا من السماء تقع علينا وتهلكنا وتخلص منّا (فكذبوه) أي فتشددوا في التكذيب وصارحوه به (فأخذهم عذاب يوم الظلة) • وذلك كما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الله تعالى بعث عليهم حراً شديدا ، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البريّة ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس وهي الظلة فوجدوا لها بردا شديدا ولذة، فنادى بعضهم بعضا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عز وجل عليهم نارا فأهلكتم جميعا (إنه كان عذاب يوم عظيم) في الشدة والهول (إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين • وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وهذه القصة آخر القصص السبع المذكورة التي سيقت للاعتبار والاستبصار ، فلم تكن نافعة إلا لمن اختاره الله •

(وإنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلى قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّه لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاؤُ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كذلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلوبِ المُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فيَقُولُوا : هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ؟(٢٠٣) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ؟(٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ

إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ماكانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ما اَغْنى عَنْهُمْ ماكانُوا يُمَتَّعُونَ ؟)(٢٠٧)

قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) الضمير راجع إلى القرآن الكريم المستفاد من قوله تعالى في مطلع السورة (تلك آيات الكتاب المبين) وقيل إنه راجع إلى ما قصه الله على رسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قصص الأنبياء ومناظرتهم مع أقوامهم • ومعناه وإن ماقصصناه عليك لا شك أنه تنزيل من رب العالمين وتلقيته من إيحاء الله تعالى إليك (نزل به الروح الأمين على قلبك) أي نزل بذلك التنزيل بمعنى المنزل جبريل المشهور بالروح الأمين على قلبك في حال اليقظة والإدراك الكامل ، لا في النوم وحالة النقص في الإدراك • وإنما اشتهر جبريل ـ عليه السلام ـ بالروح لأنه يحيا به الخلق في الدين ، أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح • ووصفه بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى إلى كافة الرسل ـ عليهم السلام ـ • والمراد بالقلب الروح الإنساني المدرك للكليات والجزئيات المجردة عن المادة بالذات وللجزئيات المادية بواسطة الحواس والمشاعر •

والآية الكريمة نص في أن القرآن الكريم نزل بألفاظه بدون نقصان على حبيب الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بواسطة جبريل • أي ودور جبريل فيه إبلاغه فقط وإيصاله وقراءته له عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وطريق وصول ألفاظ القرآن إلى جبريل هو أن الله أودع تمام ألفاظ القرآن في روح جبريل فضبطها ، وكلما أراد الباري سبحانه وتعالى إنزال آية أو آيات أو سورة إليه ـ عليه السلام ـ نزل جبريل بها عليه ، أو أمره أن يتلقاها من اللوح المحفوظ فإن القرآن كله مكتوب فيه ، أو من المجموع المنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا • وفي وصوله إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقتان :

إحداهما أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ انخلع من الموانع البشرية بحيث ناسبت ذاته الشريفة ذات الملك جبريل فأخذه منه بقراءته عليه .

والثانية : أن جبريل انخلع من الأوضاع الملكية بحيث ناسب الأوضاع البشرية فقرأه عليه في هذه الحالة وأخذه منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وتلك الحالة التي كانت تأتي على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند نزول الوحي من تلبسه بشبه رعدة وقشعريرة كما للمحموم هي ذلك . فخذ هذا المنهج السليم في نزول القرآن الكريم على الحبيب ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ بألفاظه الواضحة الجلية الدالة على معانيها الواقعية .

حتى لو قررنا أن بعض الآيات القرآنية ألقاها الله تعالى إلى حبيبه في ليلة المعراج وكلم بها معه بلا واسطة فلابدّ أن نؤمن بأنها نزلت مرة أخرى مع جبريل الأمين إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وقوله تعالى (لتكون من المنذرين) متعلق بنزل أي نزل به لتنذرهم به (بلسان عربي مبين) واضح (وإنه لفي زبر الأولين) أي وإنّ ذكر القرآن وبيان نزوله مع جبريل إلى محمد خاتم الأنبياء ثابت في كتب الأنبياء الأولين الأقدمين من آدم إلى سائر الرسل من أولاده . ولاسيما في التوراة والإنجيل. أو المراد أن أحكامه التوحيدية الأصلية وهي أهم حكم يحتوي عليه ثابت في كتب الأولين ، لأن الأنبياء متفقون في الإلهيات (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟!) إستفهام إنكاري للتوبيخ . أي أليس آيةً واضحةً وحجةً مقبولة للجمهرة من المشركين واليهود والنصاري على أنّ القرآن كلامُ الله المنزل على حبيبه محمد مع جبريل الأمين عِلْمُ علماءِ بني إسرائيل بذلك ؟ لأنهم عندما كانوا يقرأون التوراة والإنجيل ويفهمون نعوت رسول آخر الزمان محمد العربي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يبعث

في قوم كذا ، وينزل عليه الكتاب العربي٠٠افتهم الناس كل ذلك ، وأنه ينزل عليه قرآن عربي مبين ٠

وبعد ذلك كله لابدّ أن تعلموا أنّ إنكار المشركين للقرآن المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاندة ومعارضة للحق بمحض الهوى ٠ فإنهم علموا أن محمدا لم يقرأ في مكة ولم يجاور من يعلمه شيئا من الكتب،ولم يسافر إلى خارج البلاد ليستفيد مايستفيد ٠ فظهور كلام بليغ في مستوى أرفع البلاغات بحيث لا يقاربه كلام العرب العرباء دليل على أنه كلام الله المنزل على حبيبه المبعوث رحمة للعالمين إلى كافة الثقلين أجمعين ٠ فإنكارهم للقرآن ولتنزيله من الله الجليل على حبيبه ليس لأنه منزل بلسان عربي على رجل عربي يمكن أن يتوهم أنه كلام أنشأه بنفسه ، بل لأنه لا يروق لهم كلام يدعوهم إلى التوحيد ورفض عبادة الأصنام ، حتى **(ولو نزلناه على بعض الأعجمين)** الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية **(فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين)** لأن مدلوله يجعلهم من المعلولين **(كذلك)** أي كذلك الوجه الغير المرغوب فيه **(سلكناه)** أي أدخلناه **(في قلوب المجرمين)** الذين أصروا على الإنكار والاستكبار مع الحق حتى طبع الله على قلوبهم ٠ وقوله تعالى **(لا يؤمنون به)** إما بيان لما يستفاد من قوله **(كذلك سلكناه)** أو جملة مستأنفة سيقت لبيان أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية للإيمان به **(حتى يروا العذاب الأليم)** الملجىء لهم إلى الإيمان ، وذلك لا ينفعهم لأن إيمان الإضطراب غير مقبول **(فيأتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون)** بإتيانه **(فيقولوا)** تحسرا : **(هل نحن منظرون ؟)** أي مؤجلون من حيث العذاب ومؤخرون ٠

ثم عاد الباري سبحانه وتعالى إلى إنكار استعجالهم العذاب تعنتا وقال (أفبعذابنا يستعجلون ؟) يطلبون نزوله قبل حلول موعده (أفرأيت إن متعناهم سنين) مدة طويلة من الزمان (ثم جاءهم ماكانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم ماكانوا يُمتعون) به من وجوه التمتع في تلك المدة الطويلة فليس ما حل بهم من العناد والاستنكار للحق إلا لإعراضهم عن مقتضى الحق والفطرة السليمة •

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ(٢٠٨) ذِكْرَى وَمَاكُنَّا ظَالِمِينَ(٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُم ، وَمَا يَسْتَطِيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِين)(٢١٣)

قوله تعالى : (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) تهديد وإرشاد يهدد المشركين بأننا من سنتنا إرسال المنذرين ، فإذا لم يتعظ الناس أهلكناهم فقد أرسلنا إليكم رسولنا محمدا ، وقد وعظكم ونصحكم فإن لم تتعظوا أهلكناكم • وفي الوقت نفسه إرشاد لهم إلى الإيمان والعمل الصالح ليخلصوا من عذاب الدارين • وقوله تعالى (إلا لها منذرون) استثناء من أعم الأحوال يعني وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال الا حال كون أهلها منذرين ، فإن كان منذرون مبتدأ لها خبر مقدم فالحال جملة ، وإن كان فاعلا للظرف فالحال مفرد • وقوله (ذكرى) حال عن فاعل (منذرون) بتقدير مضاف ، أي منذرون ذوي ذكرى أي أصحاب تذكير وإرشاد لأهلها (وما كنا ظالمين) أي وليس من شأننا أن يصدر عنا الظلم والتعدي على حقوق أحد • وقوله : (وما تنزلت به الشياطين) رد لزعم من قال إن هذا القرآن ليس كلام الله ولا كلام نفسه ، وإنما تنزلت به الشياطين عليه فيرد ذلك الزعم ويقول

وماتنزلت به الشياطين لأن ذلك الكلام المتين المعجز المبين ليس في مستوى كلام أنفسهم فإذا أخذوه فإنما أخذوه من عالم الملائكة في السماء وذلك ليس في حدود قابلياتهم بعد البعث (وما ينبغي لهم) وما يناسبهم ، لأن الشياطين أشرار ، وهذا القرآن يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم (وما يستطيعون) أي وما يقدر الشياطين على ذلك أصلا (إنهم عن السمع) لما يتكلم به الملائكة (لمعزولون) أي ممنوعون فإن الله قرر الرمي بالشهب إلى الشياطين المسترقين ، وبعد أن جاهدت واجتهدت في دعوة أولئك المشركين ولم يستمعوا ولم يتعظوا فاتركهم (ولا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) فإن صيانة النفس أعز شيء على النفس . وأمثال هذه الآيات الكريمة تعريض بعذاب المشركين وترغيب في التوحيد للموحدين .

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(٢١٧) الَّذِي يَرَيكَ حِينَ تَقُوم(٢١٨) ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٢٢٠)

قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) حكم مربوط بما قبله من سلسلة أحكامه . أي مادام المشركون لم يصعد طبعهم الوضيع إلى أن يستمعوا لك ويطيعوك في الإيمان بالله ورسوله فاهتم بنفسك ومن يليك من أقاربك (فلا تدع) انت (مع الله إلها آخر ، وأنذر عشيرتك الأقربين) الأقرب منهم فالأقرب فإن السعي في خلاصهم أهم من السعي في خلاص الغير لوجوب حق صلة الأرحام .

روي أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه ، فقال : لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدِّقي ؟ قالوا : نعم . قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ...) أخرج أحمد وجماعة عن أبي هريرة قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الاقربين) دعا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قريشا وعم وخصّ . فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ؛ فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يامعشر بني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا . ألا إن لكم رحما وسأبلها ببلالها .

ثم ظاهر هذا الحديث الشريف وماشابهه أنه لا يملك بنفسه شيئا ينفع اولئك الناس ، أما بالنسبة الى الكفار منهم فمعلوم أن الكفر يسد كل باب من أبواب الرحمة (إن الله لا يغفر أن يشرك به) وأما بالنسبة إلى المؤمنين فالرسول في الحقيقة لا يملك شيئا من النفع إلا إذا أكرمه ربه وخوله الشفاعة لهم ، فيشفع . فلا تنافي هذه الآية الكريمة نفع الشفاعة التي ثبتت بأدلة جليلة واضحة .

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) ولين الجانب لهم وراعهم وساعدهم وساندهم وتعاون معهم (فإن عصوك) في ارتكاب المعاصي (فقل: إني بريء مما تعملون) أي أظهر سخطك وعدم رضاك بذلك وأنكره عليهم، (وتوكل على العزيز) الغالب على كل ما أراد (الرحيم) بالعباد ولا يهمنك

ما يصدر منهم من البغض والعناد (الذي يريك حين تقوم) أي إلى الصلاة (وتقلبك) وحركات عضلاتك (في الساجدين) وخص وصف الساجدين بالذكر مع أن المصلين قائمون وراكعون وساجدون لأن حال السجود أقرب أحوال العباد إلى الله ، وإنما خص وقت الصلاة بالذكر مع أن الله يراه في كل وقت لأن الصلاة معراج المؤمن ، وأشرف العبادات البدنية ، وعليها يدور فلك المؤمنين فإن الاجتماع في المعبد كل يوم خمس مرات فيه شوكة للإسلام والمسلمين (إنه هو السميع) لمناجاتكم وطلب حاجاتكم و (العليم) بما تستحقون من درجاتكم •

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟(٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أفَّاكٍ أَثِيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ(٢٢٣) والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ(٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ؟(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلون ؟(٢٢٦) إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وذَكَرُوا الله كَثِيراً ، وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ !)(٢٢٧)

قوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) نزلت للرد على الكافرين الذين ادعوا أن القرآن ليس كلام الله تعالى ، وإنما كلام تنزل به الشياطين عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيرد الباري تعالى عليهم هل أنبئكم وأخبركم ، ولا ينبئكم مثل خبير ، على من تنزل الشياطين ؟ (تنزل على كل أفاك) كذاب (أثيم) مبالغ في اقتراف الآثام والجرائم كالكهنة والفساق من الناس (يلقون السمع) للشياطين ، ويتلقون الأوهام منهم ويتلقون منهم أمورا مظنونة لا تمتّ إلى الواقع أبدا ويضيفون إلى تلك

الظنون الكاذبة أكاذيب أخرى كثيرة لم يتلقوها من تلك الشياطين ، ولذلك قال تعالى وأكثرهم كاذبون ، أي وأكثرهم كاذبون في نسبة تلك الظنون والأباطيل المضافة من عندهم الى مايتلقونه ، لأنها من مفتعلاتهم • والحاصل أن مصادر الأفاكين هي الشياطين التي تلقي إليهم الأوهام والأباطيل ومع ذلك فهم يضيفون إليها اكاذيب أخرى من تلقاء أنفسهم ويدعون أنها من مسموعاتهم فالأصل فاسد لأنه مأخوذ من الشياطين المتمردين ، والفرع أفسد لأنها مفتعلات اخترعوها ونسبوها إليهم • ولتنوير أذهانكم قد وجدنا بعض الناس المرتزقة يأخذون من رؤسائهم أوامر باطلة مخالفة للحق لتنفيذها وتطبيقها بين الناس ، ولا يكتفون بذلك ، بل يضيفون إليها أمورا فاسدة أخرى لا علم لرؤسائهم بها فينشرونها باسم الرؤساء•وهذه كما يقال ظلمات بعضها فوق بعض •

وأما حبيب الله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين فقلبه الشريف كرة نورانية أقوى من الكرة النارية لا يمكن للشياطين أن تحوم حولها وتقرب منها وتلقي إلى قلبه مايريدون وإنما يصل الروح الأمين المناسب للنور بل هو النور فيلقي إليه كلام ربه كأصل للسعادة في العالم ونظام ودستور يحتوي على الإلهيات والشرائع والأحكام من الأخلاق والإجتماعيات والعبادات والعادات وسائر مايلزم للبشر في حياته السعيدة بدون أن يشوبها شيء من الشين ، ولما تلقاه الرسول منه قرأه على عرفاء أمته فكتبوه وحفظوه ونشروه بين الأمة وتربت شجرة سعادتها بنماء ماء هذا الكلام المبارك الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وإن كنتم في ريب من ذلك فتعالوا إلى آيات القرآن الكريم وقارنوا بينها وبين الدساتير الموضوعة حتى يظهر لكم الفرق بينه وبينها بما بين الثرى والثريا ، بل بما لا حد له ولا منتهى •

واما اتهامه بأنه شاعر وكلامه شعر فهو أكذب من الاتهام السابق • فرده الباري تعالى بقوله العزيز الكريم : (والشعراء يتبعهم الغاوون) أي أصحاب الغي والضلال ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتبعه الهادون أي الذين اهتدوا بنور الحق ، ويهدون الناس إلى الحق والرشاد ، وليسوا من الغاوين، ينتج من الشكل الثاني أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس من الشعراء • وتأليفه بالوجه المعروف أن يقال : كل شاعر يتبعه الغاوي ، ولا شيء من الرسل ، ومنهم خاتمهم محمد ـ عليه السلام ـ ، بمن يتبعه الغاوي ، ينتج أن لا شيء من الشعراء برسول ، وتنعكس النتيجة السالبة الكلية إلى نفسها ، فتحصل أن لا شيء من الرسل ومنهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشاعر • أما الصغرى فلأن الشعراء يبنون نظام نظومهم على المبالغات والإفراط والتفريط في الهجاء والمدح وبيان المشتهيات النفسية ، ولا يروق لهم الكلام إلا بذلك • وأما الكبرى فلان الكلام المنزل على الرسول دستور سماوي عدل يدعو إلى الحق ويأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ويدعو الى إيتاء كل ذي حق حقه ، ويوصي بتوسيد الأمور الى أهلها ، ورد الأمانات إلى أصحابها والمشاورة في المهمات، والاستقامة على الحق والقول به وتطبيقه ولو كان فيه ضرر صاحبه ، وهذا الأمر لا يتبعه إلا أصحاب الهدى والرشاد • وأثبت الله تعالى ذلك بقوله الحكيم : (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟) أي أن الشعراء يهيمون في كل واد من أودية القيل والقال ، وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال • وقد يتطرقون إلى البهتان وشهادة الزور والتكلم بالقول المهجور ، وأين ذلك من القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم ، وينصح العالم بالوجه الأسلم ؟ تعالى القرآن عن ذلك علوا كبيرا • (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) غير مبالين بما يتبعه من اللوم على الأكاذيب والمفتعلات •

ولا يلزم من أن القرآن الكريم ليس بشعر وأن الرسول ليس بشاعر وجود بعض أجزاء آيات موافقة لمصرع من بعض الأبحر العروضية ، كما في سورة يوسف ــ عليه السلام ــ (تالله لقد آثرك الله علينا) وكقوله (وأملي لهم إن كيدي متين) لأن المقصود من الشعر أن يكون هنا أبيات مرتبة على تفاعيل بحر من البحور العربية في الأدب ، وإلا فما من رجل يخطب أو يتكلم إلا وأمكن جعل بعض عباراته شطرا من بيت من بحر من تلك البحور كما هو ظاهر • كما لا يلزم من عدم كونه ــ صلى الله عليه وسلم ــ شاعرا أن لا يكون عالما بأيام العرب وشعرائهم وأدبائهم ، فإنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان كبحر مواج في معرفة الناس وأحوالهم وأخلاقهم وأدبهم ونظمهم ونثرهم وربما مدح بعض بيت من الشعراء كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «أصدق كلمة قالها الشاعر» قول لبيد :

ألا كل شيىء ماخلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وقوله تعالى : (إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعدما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله ، ويوجهون الناس إلى محاسن الأخلاق والآداب ، وإلى ترك المحرمات وأداء الواجبات ، وترويج الآيات البينات • والشعراء الذين يقابلون ويكافحون شعراء الكفار الهجاة للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودينه وأصحابه ، فانتصروا بذلك وغلبوا عليهم (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون !) تهديد شديد لمن ظلم الإسلام بتشويه آدابه ،

والرسول بقلب صفاته وأخلاقه الحسنة العالية وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بصفات كانوا مبتعدين عنها ، ويشمل سائر الظالمين المتعدين على حقوق الناس وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم إلى غير ذلك أعاذنا الله تعالى منها بمنّه وفضله وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ،وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سورة النمل ، مكية ، وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

(طس تِلْكَ آياتُ الْقُرآنِ وكِتابٍ مُبِينٍ(١) هُدًى وبُشْرى لِلمُؤْمِنِينَ(٢) الَّذِين يُقِيمُونَ الصَّلوة ويُؤْتُونَ الزَّكوةَ ، وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣) اِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ(٤) أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ(٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(٦)

قوله تعالى (طس) الكلام فيه كالكلام في أمثاله (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) أي هذه السورة المنزلة المعروفة بسورة النمل آيات القرآن المعروف في السماوات والارض ، وآيات كتاب مبين هو القرآن • فهذه الآيات موصوفة بأنها آيات القرآن المتلو المتعبد بتلاوته ، وآيات الكتاب الواضح بالذات الموضح للأحكام على المكلفين • وذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ حالكون القرآن أو الكتاب (هدى وبشرى للمؤمنين) يهديهم الى الإعتقاد والأعمال ويبشرهم برحمة من الله ورضوان • ثم نعت المؤمنين بقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة) أي يؤدون الصلاة في أوقاتها مع

رعاية شروطها وأركانها ، أو يروّجونها ويهتمون بها من حيث الوفاء بكل ما يقصد بالصلاة من المناجاة مع الله تعالى ، وحضور القلب معه ، والخشوع والتواضع لجلاله وهيبته • (ويؤتون الزكوة) أي ومع إقامة الصلاة يؤتون زكاة أموالهم المفروضة عليهم للمستحقين بدون تعلل وتأخير (وهم بالآخرة هم يوقنون) أي وهم مع أداء ما وجب عليهم من الصلاة وإعطاء الزكاة يؤمنون بمجيىء يوم الآخرة وهو يوم القيامة ويوم البعث والنشور ويوم حساب الأعمال ووزنها وخلود الكافرين في النار والمؤمنين في الجنة • وإلا فأداء الصلاة وإيتاء الزكاة بدون الإيمان بالآخرة لا اعتبار به قطعا •

(إن الذين لا يؤمِنون بالآخرة) ويحسبون أنهم حدثوا في العالم بدون صانع خالق محدث ، وهم الذين يعدون أنفسهم كالنباتات والحيوانات البهم التي لا يُكَلَّفْنَ ، أو يؤمنون بوجود الصانع ، ولكن لا يؤمنون بمجيىء يوم القيامة كما مرّ (زينا لهم أعمالهم) اللاغية التي يمشون عليها من التنعم بأنواع المأكولات والمشروبات والتلذذ بأنواع الملذات بسبب سوء الفكر ، وقلة النظر ، وعدم الملاحظة للأدلة الواضحة الدالة على وجود الخالق الحكيم للعالم (فهم يعمهون) ويتحيرون ويَتَرَدَّدُونَ في هاوية الافكار الباطلة والاعمال العاطلة (أولئك الذين لهم سوء العذاب) في عالم الدنيا لأنه كما قد قضت النواميس بأن يتمتع الأقوياء برهة من الزمان بمتاع الحياة كذلك قد قضت بأن الدنيا محكمة عدل لابد أن يؤدوا بعض الحقوق وجزاء بعض الاعمال التي جرت ظلما وتعديا على نفوس الناس وحقوقهم (وهم في الآخرة هم الأخسرون) أي أخسر في الآخرة منهم في الدنيا فالحنظل أمر عند النضوج منه عند الخروج (وإنك) أيها الرسول البشير النذير الأمين (لتُلَقّى القُرآنَ) أي لتعطى القرآن (من لدن حكيم) في الأفعال

(عليم) بها وبالأقوال بل وبكل سِرّ له تجوال ، فلا يغرب عن علمه شيء من الأشياء .

(إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ : إِنّي آنَسْتُ ناراً سَآتيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ ، أَوْ آتيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ ، لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ : أَنْ بُورِكَ مَنْ في النّارِ وَمَنْ حَوْلَها ، وَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العالَمينَ(٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ(٩) وَأَلْقِ عَصاكَ ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ ، وَلّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يا مُوسى لا تَخَفْ إِنّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ(١٠) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ، فَإِنّي غَفُورٌ رَحيمٌ(١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، في تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ(١٢) فَلَمّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا : هذا سِحْرٌ مُبينٌ(١٣) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدينَ)(١٤)

قوله تعالى (إذ قال موسى لأهله) منصوب بفعل مضمر مفهوم من السياق أي اذكر مما تلقيته من القرآن أحوال موسى إذ قال لأهله أي زوجته (إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر) أي خبر من صادق يرشدنا إلى طريق العابرين على الطريق المستقيم (أو آتيكم بشهاب قبس) أي بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من أصلها فأوقد لكم بها ناراً (لعلكم تَصْطَلون) أي رجاء أن تستدفئوا وتستريحوا من ألم البرد .

وقد روي أنه ـ عليه السلام ـ لما خرج من مدين مع أهله لزيارة وطنه وذويه في مصر أجازه شعيب وجاء مع أهله متوجها إليها ، وبينما هم في الطريق إذ أتى زوجته المخاض ، والوقت ليل بارد ، وقد انحرفوا عن الطريق العام ، فأراد أن يوقد النار ، فأصْلَدَ زنده ولم تخرج منها النار . وفي نفس الوقت بدت من جانب جبل الطور نار فقال ما قال (فلما جاءها) أي جاء النار ، أي المحل الذي ظهرت له فيه لم يجدها، ولكن (نودي) من جانب الطور (أن بورك من في النار ومن حولها) كلمة أن بمعنى أي لأن في النداء معنى القول والمضاف محذوف على النار ، أي بورك من في محل النار والنار هي النار التي ظهرت لموسى ـ عليه السلام ـ ، ولم تكن نارا بل كان نورا مخلوقاً من إرادة الحق سبحانه وتعالى . وذلك المحل هو المعبر عنه بالبقعة المباركة في قوله تعالى (نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة) الآية ... وموسى ـ عليه السلام ـ في وقت النداء كان واقفا في محل النار ، والمراد بمن حولها إما الملائكة الموجودون إذ ذاك أو أهل موسى ـ عليه السلام ـ ، لأن أهله كانت قريبة من محلها ، أو المراد كل مسلم يكون هناك (وسبحان الله رب العالمين) أن يكون هو النار أو النور المتجلي هناك أو مستقرا في مكان ، وإنما صدرت إرادته السنية بأن يتجلى على عبد من عباده المصطفين الأخيار هناك ويرسله إلى ملك عاص جبار ليكسر شهوته وشوكته ويهدم كيانه وعظمته ويعلمه درسا من دروس الحق أنه خاب من طغى وبغى وادعى الألوهية بدون أي شيء إلا أن أمهله في برهة من الزمان ، واستدرجه حتى حصل له الطغيان ففعل به مافعل .

(يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) يا موسى إن الشأن والواقع أنا الله الذات الجامع للكمال المنزه عن النقص المعلم بلفظ الله ، ولا يمكن لغيري أن يشاركني في الربوبية والخلق والعبادة وأنا العزيز الغالب على كل

ما أريده لا يمنعني شيء من أي شيء الحكيم في التصرفات السلبيات والإيجابيات في الارض والسماوات • (وألق عصاك) لترى بعض العجائب من المصنوعات (فلمّا رآها تهتز) أي فألقاها فصارت ثعبانا وقعت في الجولان ، فلما رآها تهتز بكل سرعة (كأنها جان) أي حية صغيرة الجثة خفيفة في التقلب والحركة (ولى) موسى (مدبرا) منهزما منها (ولم يعقب) أي لم يرجع على عقبه فناداه ربه وقال (يا موسى لا تخف) من غيري لا من الحية ولا من غيرها (إني لا يخاف لدي المرسلون) أي لا يناسب المرسلين الذين ينزل عليهم الوحي ، ويستأنسون بأنوار الباري عند نزول كلامه عليهم أن يخافوا من أي شيء بل حقهم الاستغراق في التنور بالأنوار القدسية التي تضيء القلوب وتزيل الشكوك والأوهام عنها • فالكلام منزل على وجه الإرشاد والتنوير لا على وجه الإخبار عن شيء كان أو لا يكون ، فإن الخوف صفة غريزية كسائر الغرائز يشترك الناس فيه سواء العوام والخواص الأولياء والأنبياء والمرسلون • وقد أخبر الباري عن خوف موسى ـ عليه السلام ـ في آيات فقال فأوجس في نفسه خيفة موسى ، وقال هنا فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب •

وأما قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملئكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فبيان لأحوالهم في الآخرة وكذا نظائره • وقوله تعالى (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم) استثناء منقطع عند كثير من المفسرين • والمراد بمن ظلم غير الأنبياء والمرسلين ، أي لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فإني أغفر له • ومتصل عند جماعة منهم ، والمراد من صدر منهم من الأنبياء ما هو في صورة الظلم ثم تاب ورجع عنه فإني أغفر له فلا ينبغي أن يخاف أيضا وهو شامل لمن فعل منهم شيئا من ذلك قبل رسالته هذا • ومنهم من

قال يجوز أن يكون المراد أعم مما قبل الرسالة وبعدها وتعبيره عنه بالظلم بالنظر الى علو مقامهم وعزة شأنهم فإن حبة من الغفلة بالنسبة إليهم قبة .

(وأدخل يدك في جيبك) أي جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح الى الصدر (تخرج بيضاء من غير سوء) وهو احتراس عن أن يتوهم أن البياض حصل من مرض أو عرض مثلاً (في تسع آيات) أي آية واحدة معدودة من جملة تسع آيات وهي : فلق البحر ، والطوفان ، والجراد، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، وهي جعل أسبابهم حجارة ، والجَدَبُ في بواديهم والنقصان في مزارعهم (إلى فرعون وقومه) أي اذهب إلى فرعون وقومه ممن له مكانة ومقام (إنهم كانوا قوما فاسقين) أي كافرين (فَلَمّا جاءتهم آياتنا مُبْصِرةً) أي لما ظهرت عندهم آياتنا التسع الصادرة على يد موسى ـ عليه السلام ـ واضحة ، وإسناد الابصار إليها مجاز لأن المبصر لها فرعون وقومه (قالوا : هذا سحر مبين) أي هذا الذي ظهر على يده سحر واضح لاخفاء في كونه سحرا وليست معجزة من الله لإظهار صدقه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) أي وكذبوا بها ، والحال أنه استيقنتها أنفسهم ، وعلمت أنها ليست إلا من الله تعالى (ظلما) على أنفسهم وقومهم وسائر من كان يستفيد منها (وعُلُوّاً) على موسى وقومه (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) في الارض ، أو كيف كانت عاقبتهم في الدنيا ؟ ذهبت عنهم الجنات والعيون والكنوز وغيرها ، واعلم أن عاقبتهم في الآخرة أفظع وأشنع أبد الآبدين .

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وسُلَيْمانَ عِلْماً ، وَقالا : الحَمْدُ للهِ الّذي فَضَّلَنَا عَلى كَثيرٍ مِنْ عِبادِهِ المُؤمِنينَ(١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ، وقالَ : يا أَيُّها النّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ

وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شيْءٍ ، إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦)
وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ(١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِي النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ :
يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها
وقالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ
وَعَلى والِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصّالِحِينَ)(١٩)

قوله تعالى : (ولقد آتينا داود وسليمان علما) استئناف لإلقاء بعض علوم غيبية أخرى في الماضي إلى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام (وقالا) أي قال كل منهما شاكرا لهذه النعمة : (الحمد لله الذي فضلنا) بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين • وورث سليمان داود) أي ناب منابه في النبوة والملك والهيبة ، وخصه بأشياء • (وقال) للإفصاح عن نعم الله وإعلان رسالته وبيان اختصاصه ببعض المواهب : (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) المنطق بمعنى النطق والمراد به المنطوق به ، يعني إن الله سبحانه وتعالى علمنا بمنه وإحسانه مدلولات ما يحصل من أصوات الطيور ، وهي ما يفهمها بعضهن من بعض من المعاني والأغراض عند تصويتهن في الأوقات • فإن الله سبحانه وتعالى جعل الحيوانات البرية والبحرية أمما مختلفة وأعطاهن قابليات لإدارة أنفسهن وأصواتا للتفاهم بينهن ، وقد لا يكون وسيلة التفاهم الصوت بل يكون نظرا بالعين أو حركة بالبدن أو ببعض أجزائه ، فإنا جربنا بعض الحركات الحادثة من أذناب الحيوانات تدل

على اختلاف الأنواء الجوية ونزول المطر والثلج وغير ذلك • ولله في خلقه شئون وقوله تعالى (وأوتينا من كل شييء) إشارة إلى الملك والسلطة والقوة التي وهبت له • والجملتان المتعاطفتان شارحتان لقوله تعالى (وورث سليمان داود) قوله تعالى (إن هذا) أي المذكور من التعلية والإيتاء (لهو الفضل المبين) والإحسان الواضح إلينا من الله رب العالمين •

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير) والمقصود أن الله سبحانه وتعالى منّ عليه وخوّله تسخير مايريد من الإنس والجنّ والطيور لاستخدام ما أراد فيما يريد • ولا يلزم من ذلك تسخير الكل من الكل وذلك ظاهر (فهم يوزعون) أي يحبسون ، يعنى أنه يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيأمرهم بما يهمه (حتى إذا أتوا على وادي النمل) أي فساروا في ركب سليمان ــ عليه السلام حتى إذا أتوا على وادي النمل وهو وادٍ بأرض الشام كثير النمل • وقال كعب : هو وادي السدير بأرض الطائف • وقيل : واد بأقصى اليمن ، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها (قالت نملة) جواب إذا أي صوتت بما فهم سليمان ــ عليه السلام ــ منه معنى قوله (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وليس لقول سليمان ــ عليه السلام ــ حصر" حتى يقال إنه فهم منطق الطير ، وكيف يفهم منطق النمل أيضا ؟ مع أنه لم يكتف بقوله علمنا منطق الطير ، بل أضاف إليه قوله وأوتينا من كل شيء (فتبسم ضاحكا من قولها) سرورا بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده وأنهم لا يتعمدون إيذاء شيء ولو صدر منهم إيذاء فهو على الجهل والغفلة لا من التعمد • (وقال : رَبّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمتَ عَلَيّ وعلى والدي) يعنى رب اجعلنى أزَعْ شكر نعمتك أي أكْفيهِ وأرْبُطُه لا يَتَفلّت عني النعمة التي أنعمت عليّ وعلى والدي من نعم النبوة والرسالة والاحترام

والجاه والجلالة وخدمة الإنسان والجهد في نشر الفضائل وإطاعة الباري وعبادته الخالصة (وَأنْ أعمَلَ صالحاً ترضيه) أي وأوزعني أن أعمل عملا صالحا بحيث ترضاه (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) أي اثبتني في جملتهم واجعلني من أهل جنتك التي أعدت للمتقين .

(وتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ : ماليَ لا أرَى الهُدْهُدَ أمْ كانَ مِنَ الغائِبينَ ؟(٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَديداً ، أوْ لأَذْبَحَنَّهُ ، أوْ لَيَأتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبينٍ !(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعيدٍ ، فَقالَ : أحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقينٍ(٢٢) إنّي وَجَدْتُ امْرَأةً تَمْلِكُهُمْ وأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظيمٌ(٢٣) وَجَدْتُها وقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ(٢٤) ألاّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ(٢٥) اللهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظيمِ)(٢٦)

قوله تعالى (وتفقد الطير) كان سليمان ــ عليه السلام ــ يتفقد جنوده ليعلم الموجود منهم والغائب كما هو عادة الملك ، فتفقد الطير فلم ير الهدهد ، وقيل إن سليمان ــ عليه السلام ــ نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء في داخل الارض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فيحفر الارض الى أن يصل الماء ساعة ، فاحتاجوا الى الماء ، فتفقد لذلك الطير ولم يره (فقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟) لما تفقده فلم

يره سأل عن سبب عدم رؤيته هل أنه حدث في عينه مانع من رؤيته ، ثم لما تبين له أنه لم يحدث فيه أي مانع من الرؤية أضرَبَ عن ذلك السؤال وقال (أم كان من الغائبين) أي بل كان من الغائبين فتوعده وقال (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل بنتف ريشه وإلقائه تحت الشمس ، وقيل بإلزامه مرافقة طير لا يوافقه (أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين) أي بحجة تبين عذره في غيابه (فمكث غير بعيد) أي مكث الهدهد وتوقف عن الحضور زمانا غير كثير • يروى أنه ــ عليه السلام ــ أرْسَلَ العُقابَ لإحضاره فطار يتفقده ، فلما وَجَدَه أمره بالحضور أمام سيدنا سليمان ، فطار معه ووصلا إليه ، ولما سأله ــ عليه السلام ــ عن سبب غيابه أجابه (فقال : أحَطْتُ بما لم تُحِطْ به) أي أحَطْتُ بعلمٍ واطلاعٍ لم تحط به أنتَ (وجئتك من سبأ) أي طِرْتُ للاستطلاع على الدنيا حتى وصلتُ السبأَ وحصلت لي معلومات خطيرة فأتَيتُكَ (بنبأ) عظيم (يقين) لي به علم ثابت جازم مطابق للواقع •

ثم أوضحه بقوله : (إني وجدت امرأة تملكهم) أي تتصرف فيهم بدون اعتراض من أحد (وأوتيت من كل شيىء) من الأشياء التي تحتاج إليها الملوك (ولها عرش عظيم) تقعد عليه صنع له سريرُه من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حَسَن الصنعة غالي الثمن • هذه من ناحية المادة والأُبَّهَة ، وأما من حيث المعنى فـ (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي قوامها عبادة الشمس (فصدهم) أي الشيطان (عن السبيل) أي سبيل الحق (فهم لا يهتدون) وقوله تعالى (ألا يسجدوا لله)قرىء ألاّ بفتح الهمزة وتشديد اللام ، فيحتمل أن يكون أصله أن لا بحذف الخافض ، يعني فصدّهم الشيطان عن السبيل لئلا يسجدُوا لله ويبقوا على عبادتهم للشمس • ويحتمل أن

يكون ألاّ للتحضيض والكلام مستأنفا من الهدهد ، لأنه ملهمٌ من ربّه ومسبح بحمده ، فيقول : ألا يسجدوا لله • أو يكون كلاما مستأنفا من الله تعالى وقع في البين ، أي ألا يسجدوا لله (الذي يخرج الخبء) أي الشيء المخفي المكنون (في السموات والأرض) أي يُظهِرُ كُلَّ خفيّ دقيق أو جلي فيهما لشمول علمه بالجزئيات والكليات (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وهو (الله لا إله إلا هو) وحده لا شريك له (رب العرش العظيم) •

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ ؟(٢٧) اِذْهَبْ بِكِتابِي هذا فأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ(٢٨) قالَتْ : يا أَيُّهَا الْمَلَؤُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ(٢٩) اِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ(٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ، وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١) قالَتْ : يا أَيُّهَا الْمَلَؤُ أَفْتُونِي في أَمْرِي ، ماكُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتّى تَشْهَدُونَ(٣٢) قالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ، فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ(٣٣) قالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً ، وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ(٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(٣٥) فلما جاءَ سُلَيْمانَ قالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ؟ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمّا آتَيكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ(٣٦) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ

فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ)(٣٧)

قوله تعالى : (قال سننظر أصدقت أم كنتَ من الكاذبين) استئناف بياني كأنه قيل : فماذا فَعلَ سليمانُ ــ عليه السلام ــ عند قوله ذلك ؟ فقيل : قال : سننظر أي فيما ذكرته لنا ، أي تتفكر لِنعلمَ أصدَقْتَ فيما أخبرت به أم كنت من الكاذبين ؟ وقوله (اذهب بكتابي هذا) استئناف مبيّن لكيفية النظر فيقوله (اذهب بكتابي هذا فألقِه إليهم ، ثم تَولّ عنهم) أي خذ جانبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) أي فانظر ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول ، أي ماذا يقول بعضهم لبعض في موضوع الكتاب • فيكون الهدهد هناك مراقبا لكلامهم ومشاوراتهم فيما بينهم ، ثم إذا كتبوا جوابَ المكتوب يفهم جانبُ سليمان ــ عليه السلام ــ هل ما في المكتوب موافق لما تكلموا به أم شيىء يتسترون به عنه • ولا يبعد أن يكون الهدهد فاهما لكلامهم بقوة من الله تعالى أي بإلهامه له معنى كلامهم أو بفهمه بالذات كلامهم •

(قالت : يا أيها الملؤ) يعني إن سليمان ــ عليه السلام ــ أمر الكاتب فكتب الكتاب ثم سلمه إلى الهُدهُد وذهب به وألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما كان مأمورا به فسمع من الملكة أنه قالت لملأها (يا أيها الملؤ إني أُلْقِي إليَّ كتابٌ كريم) أي مختوم (إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) وجملة إنه من سليمان إستئناف وجواب لقول الملأ : ذلك الكتاب الكريم ممن صدر ؟ فقالت : إنه من سليمان • وكذلك جملة إنه بسم الله الرحمن الرحيم استئناف وجواب لقولهم : ماذا في الكتاب ؟ فقالت انه بسم الله أي أن نص الكتاب او ما يؤخذ منه باللغة العربية ، والحال انه مكتوب باللغة العبرية بسم الله الرحمن الرحيم (أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين) وأن مفسرة بمعنى

أيْ ومُفَسَّرهُ الكتاب فيقوله ألقي إلي كتابٌ كريم ، يريد بمضمون كتابه لهم مقام أن يُحارِبوا سليمان ـ عليه السلام ـ .

ولما قرأت الملكة عليهم الكتاب أو اطلعوا عليه (قالت) مستشيرة (يا أيها الملؤ أفتوني في أمري) أي أشيروا علي بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته . وأكدتْ استشارتها بقولها (ما كنتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون) أي ما أقطع أمراً من الأمور المربوطة بإدارة الحكم والملك حتى تشهدوا . (قالوا) في جوابها (نحن أولوا قوة) أي في الأَجْسام والأحْشام (وأولوا بأس شديد) أي فيالسيوف والرماح وسائر المعدات الحربية الحديدية وغيرها (والأمر إليك) أي والبتّ في القضية إيجابا أو سلبا إليك (فانظري ماذا تأمرين) به من المقاتلة أو المصالحة (قالت : اِن الملوك إذا دَخَلُوا قريةً أَفسَدوها) بتخريب قلاعها ومواقعها الحصينة (وجعلوا أعزّة أهلها أذلة) لأن الأعزة هم الذين كانوا على دست الحكم قبل دخول الأعداء ، ولما استولى الأعداء ودخلوا بلادهم قبضوا عليهم وأبادوهم بالقتل والتشريد والتبعيد (وكذلك يفعلون) إذا استولى سليمان علينا (وإني مرسلة إليهم) أي إلى سليمان وأهله وقادة جنوده (بهدية) تناسبُ مستوياتهم ، وأطلبُ منهم التحابب فيما بيننا حتى نعيش في ظل الأمان ولا يقتل بعضنا بعضا (فناظِرَةٌ بم يرجع المرسلون ؟) أي بماذا من الجواب يرجع الذين أرسلوا إليهم .

(فلما جاء سليمان) يعني فأرسلت الهدية اللائقة بمقام سليمان ـ عليه السلام ـ إليه ، فلما جاء المالُ سليمان (قال أتمدّونني بمال) أي قال للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب : أتمدّونني بمال أي تساعدونني بمال لأكتفي به وأترُكَكم على ما أنتم عليه ؟ كلاّ (فما آتاني الله) من النبوة

والملك الذي لا غاية وراءه (خيرٌ مما آتاكم) أي من المال الذي آتاكم ومن جملته ماجئتم به إلي (بلْ أنتم بهديتكم تفرحون) بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهْدى إليكم من جانب الناس لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها (ارجع إليهم) أي ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وملأها (فلَنَأتينهم) أي فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبلَ لهم بها) أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها (ولنخرجنهم منها أذلة) أي من بلدة سبأ (وهم صاغرون) أي وهم أسرى أذلاء بين أيدينا •

(قالَ : يا أَيُّهَا الْمَلَؤُ أَيُّكُمْ يَأْتيني بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأتوني مُسْلِمينَ ؟(٣٨) قالَ عِفْريتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ، وَإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمينٌ(٣٩) قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ : أَنَا آتيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ : هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَني ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإنمَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَريمٌ(٤٠) قالَ : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ : أَتَهْتَدِي أَمْ تَكونُ مِنَ الَّذينَ لا يَهْتَدونَ ؟(٤١) فَلَمَّا جاءَتْ قيلَ : أَهكَذا عَرْشُكِ ؟ قالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وأُوتينا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمينَ(٤٢) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرينَ(٤٣) قيلَ لَها : ادْخُلي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها ،

قالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ ، قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)(٤٤)

قوله تعالى : (قال يا أيها الملؤ) في الكلام إيجاز حذف أي فرجع الرسول إليها ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان ، فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله ، فتوجهتْ إلى سليمان ـ عليه السلام ـ وكتبت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظرَ ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ، فلما كانت على فرسخ من سليمان قال : (يا أيها الملؤ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني) أي بلقيس وقومها (مسلمين ؟) منقادين مطيعين ومقصوده ـ عليه السلام ـ من استدعاء عرشها في سبأ لِيُريَها القدرة التي هي من عند الله تعالى لتؤمن بالله وحده ويؤمن قومها معها (قال عفريت من الجن) أي جن خبيث مارد (أنا آتيك به) أي بعرشها (قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة ، وكان ـ عليه السلام ـ يجلس من الصبح إلى الظهر (وإني عليه لقويٌّ أمين) و (قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أَنا آتيك بِهِ قبلَ أَنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ) .

كثرت أقوال المفسرين في تعيين ذلك الرجل ، وما المراد بعلم من الكتاب ؟ فمنهم من قال : هو جبريل ـ عليه السلام ـ تمثل لهم هناك ، وقال ما قال . ومنهم من قال : هو سليمان نفسه ـ عليه السلام ـ وخطابه في أنا آتيك به مع العفريت ، وكلاهما خلاف الظاهر . أما جبريل فلأنه لم يكن حاضرا في صفوف أصحاب سليمان على العادة فكيف يدعى حضوره اذ ذاك بلا دليل ؟ وأما سليمان ـ عليه السلام فلأن العرش إنما أتى به لأجل سليمان فيبعد خطاب سليمان مع العفريت بقوله أنا آتيك به . ومنهم من قال : هو وزيره وابن أخته آصف بن برخيا من بني إسرائيل ، والمراد بعلمٍ من الكتاب

الاسم الأعظم الذي تلقاه من سليمان ـ عليه السلام ، وإذا قيل : فما دام الامر كذلك فلم لم يأت به سليمان ـ عليه السلام ـ وطلبه من الحاضرين بصورة العموم وقال أيكم يأتيني بعرشها ؟ فالجواب أنه سأل كذلك ليتصدى كل من عنده قابلية لذلك العمل ، وليظهر اختلاف درجاتهم فإن مابين العفريت وبين آصف مابين الثرى والثريا . وليتبين الناس أن من كان في أتباعه شخص يأتي بالخوارق فدرجة نفسه أرقى وأعلى بمراتب كثيرة ، وكيف لا وقد خصه الله تعالى بما لم يتيسر لغيره ؟

ويظهر من المقام أن ذلك العمل كان خارقا معنويا وكرامة لآصف ، ومعجزة لمتبوع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ ، ولم يكن أمرا مبنيا على علوم مادية وأجهزة دقيقة ، فإن المادة قاصرة عن الوصول إلى مستوى المعنويات التي لا يكون بين الطلب والمطلوب بها إلا ما بين العلة والمعلول الذي بينهما تقدم وتأخر بالذات لا بالزمان . وليتبين أيضا أنه يجوز التوسل بأصحاب القوة القدسية في تحصيل المطالب الشخصية لأنها لا تخرج عن نظام الأسباب والمسببات . وقد قال تعالى وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا ، وأنه يجوز هذا الطلب مع إمكان حصوله بالطلب من الله سبحانه وتعالى . والطرفُ تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيىء ثم تجوز به عن النظر ، وارتدادُه انقطاعه بانضمام الأجفان . والمعنى أنا آتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعدَ فتحه .

(فلما رآه مستقرا عنده) أي فلما رأى سليمان ـ عليه السلام ـ العرش مستقرا عنده على الحالة الطبيعية (قال) تلقيا للنعمة بالشكر : (هذا) الفيض (من فضل ربي) عليّ (ليبلوني) أي ليعاملني معاملة المختبر (ءأشكر) ربي على ذلك بأن أراني خالص كرمه سبحانه وتعالى من غير حول وقوة مني (أم أكفر) ه بأن أجد لنفسي مدخلا في العين (ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه) أي لنفعها (ومن كفر فإن ربي غني كريم) لا يهمه كفره بنعمائه• وفي عين الحال له كرم وإمهال لا يؤاخذه بالاستعجال •

(فقال) سليمان ــ عليه السلام ــ : (نكروا لها عرشها) أي اجعلوه نكرة عندها أي بحيث لا تعرفه وتشتبه فيه ، وذلك بقلبه وجعل أسفله أعلاه (ننظر أتهتدي) الى معرفته لحذقها وقوة فكرها (أم تكون من الذين لا يهتدون ؟) الى معرفة العرش (فلما جاءت) أي وصلت بلقيس إلى سليمان ــ عليه السلام ــ (قيل) من جانب سليمان بالذات أو بالواسطة (أهكذا عَرْشُكِ ؟) أي أمثل هذا العرش العجيب الذي تَرينه عرشُكِ الذي تركته ببلادك (قالت : كأنّه هو) فأجابت بما يدل على كمال عقلها حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله ، بل أتت بأداة التشبيه الدالة على غلبة ظن الإتحاد (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) إن كان من كلامها فالمعنى أنه يبدو أن هذا العرش هو عرشي ، وقد أوتينا العلم من قبل هذه الحركة بأن سليمان ــ عليه السلام ــ رسول من الله وله معجزات، ومنها نقل عرشي إلى بلاده قبل وصولي إليها ، وكنا مسلمين مؤمنين بالله وبرسالة رسوله • وإن كان من كلام سليمان ــ عليه السلام ــ وملأه فالمعنى أصابت بلقيس في ما قالت وهي عاقلة فاهمة وأوتينا العلم من قبل هذه السفرة بأحوالها وكنا مسلمين ومعتقدين أنها فهمت الحق وأطاعت وأسلمت لله رب العالمين •

وقوله (وصَدّها ما كانت تعبد) إما استئناف من جانب الباري سبحانه ، أو من جانب سليمان ــ عليه السلام ــ • والمعنى هي فاهمة ذكية مستعدة بصفاء عقلها للإسلام والإيمان ، ولكن صدّها ومنعها منه ماكانت تعبدُ من دون اللهِ (إنها كانت من قوم كافرين) تعودوا الكفرَ والإشراك وعبادة الشمس ، فلذلك بقيت فيهم على تلك الحالة الفاسدة (قيل لها :

ادخلي الصَّرح) كأنَّ ماقيل لها من الاستفهام عن العرش وقع عندما دخلت في منزل الاستراحة قبل الدخول في القصر الخاص الملكي ، فقيل لها بعد الاستراحة : ادخلي الصرح أي القصر الملكي لشرف اللقاء مع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ .

روي أنه أمر الجن فبنوا له صرحا وجعلوا له صحنا على طوابق من قوارير كأنها الماء ، وجعلوا في باطن الصحن كلّ ما يكون من الدوابّ في البحر ثم أطبقوه ، ووضعَ سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والإنس والجنّ ، وفعلَ ذلك امتحاناً لها أيضا على ماقيل . وقيل ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته وثباتا على الدين .

(فلما رأته) أي رأت صحنه بناء على أن الصّرح بمعنى القصر (حَسِبَتهُ لُجَّةً) أي ظَنَّتْه ماءً كثيراً (وكشفتْ عن ساقيها)لئلا تبتلّ أذيالُ ألْبِستها (قال) سليمان ـ عليه السلام ـ منبها لها على الواقع : (إنّه صرحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير) أي إن ما حسبته لجة وماء كثيراً صَرْحٌ مُمَلّسٌ وصحن كذلك مصنوع من الزجاج ، وهو جمع قارورةٍ (قالت : ربّ إني ظلمت نفسي) أي قالت لما عاينتْ هذا البناء العجيب وذلك الصحن المستوي من الزجاج يا رب إني ظلمت نفسي بما كنتُ عليه من عبادة الشمس ، أو ظلمت نفسي باعتقادي أن سليمان ليس بنبي (وأسْلمتُ معَ سليمانَ لله رب العالمين) وكأنّ هذا القولَ تجديدٌ لإسلامها على أتَم وجهٍ وآكده بإعلانه بين الخدم والحشم وملأها الذين كانوا معها ، وإلا فقد اعترفت بإسلام نفسها سابقا بقولها (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) .

واختلف في أمرها بعد الإسلام فقيل : إن سليمان ـ عليه السلام ـ تزوجها وأحبَّها وأقرها على ملكها ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له . والله أعلم .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ(٤٥) قالَ : يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ؟ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكم تُرْحَمُونَ !(٤٦) قالُوا : اطَّيَّرْنَا بِكَ وبِمَنْ مَعَكَ قالَ : طائِرُكُم عِنْدَ اللهِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ(٤٧) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، وَلا يُصْلِحُونَ(٤٨) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللهِ : لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ، وَإِنَّا لَصادِقُونَ(٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا ، إِنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ)(٥٣)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا) عطف على قوله (ولقد آتينا داود وسليمان علما) وأقسم عليه اعتناء بشأن الحكم ، أي (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) أن بمعنى أي للتفسير لأن في الإرسال معنى القول (فإذا هم فريقان يختصمون) أي ففاجأ إرسالنا إلى ثمود تفرقهم فيما بينهم واختصامهم ، ففريق آمن وفريق كفر (قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) يعني نادى صالح الفريق الكافر من قومه بعبارة ترحمية وخصوصية كأنهم كل قومه و (قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) أي لم تستعجلون بسيئة الكفر الموجب لحلول

العقوبة قبل وصولكم إلى الحسنة التي هي التوبة والإيمان الموجب لحسن المآب (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون !) هلا تستغفرونه قبل نزول العذاب لعلكم ترحمون من الله الرءوف الرحيم فيرفع عنكم الغباوة ويدفع عنكم العذاب (قالوا) في جواب هذه النصيحة المباركة (اِطّيّرْنا بك وبمن معك) أي تطيرنا وتشاءمنا بك وبمن معك حيث تتابعت علينا المصائب والشدائد منذ تدعونا إلى ما تريده وأصل اطير تطير ، قلبنا التاء طاء ، وأدغمناها فيها ، فجلبنا همزة الوصل فصار اطيرنا • (قال) صالح ــ عليه السلام ــ : (طائركم عند الله) أي سبب شؤمكم ونزول المصائب عليكم عند الله ومن قضائه (بل أنتم قوم) اي بل الداعي الى طائركم هو انكم (تفتنون) وتختبرون من الله بتعاقب السراء والضراء • أو أن سبب طائركم أنكم قوم تفتنون وتقعون في فتنة زيغ الشيطان ويلقي إليكم الكفر وتتبعونه فيغضب الله عليكم وينزل العذاب عليكم •

(وكان في المدينة) أي مدينة ثمود المعروفة بالحجر (تسعة رهط) هو اسم جمع ويطلق على الثلاثة فصاعدا إلى العشرة (يفسدون في الأرض) كلها مما كانت لهم السيطرة عليها ومجال الإفساد فيها (ولا يصلحون) وليس في نياتهم الإصلاح أبدا (قالوا) أولئك الجماعة بينهم ، أي قال بعضهم لبعضٍ (تقاسموا بالله) فعل وقع مقولا للقول أو ماض بدل عن قالوا ، أو حال بتقدير قد • أي قالوا وقد تقاسموا بالله : (لنبيتنه وأهله) أي لنباغتن صالحا وأهله ليلا وتتزاحم عليهم حتى يقتلهم بعض منا وهم المقدّمون الواصلون إليهم ، (ثم) إذا أصبحنا وظهر أنهم قتلوا واتهمنا وليّ صالح ورهطه المؤمن به (لنقولن لوليه) أي ليقول الجمع الخلفي منا الذين لم يصلوا إلى صالح وأهله ولم يباشروا قتلهم والله (ماشهدنا مهلك أهله) أي والله ماحضرنا مهلك صالح وأهله (وإنا لصادقون) في حلفنا لأن الحاضرين

على قتلهم هم الجمع المقدمون المباشرون لقتلهم لا نحن المتأخرين خلفهم • والحاصل إنا نذهب جميعا ونقدم بعضا لقتلهم ونبقى نحن وراءهم وغدا نحلف كما ذكرنا ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا التفسير فإن هذا بالقبول جدير •

(ومكروا مكرا) أي واحتالوا وتآمروا واتفقوا على قتله وقتل أهله (ومكرنا مكرا) أي وفعلنا شيئا أدق وأوفق بالمقام حيث منعناهم عن الوصول إليه وإلى أهله وهم لا يشعرون بمكرنا وعملنا • روى انه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلى فيه فقالوا : زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فانحدرت عليهم صخرة فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة • وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أفاده قوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) أي أهلكناهم وقومهم بعضهم بالبقاء في الشعب حتى الموت وبعضا بالصيحة (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) أي فتلك البيوت الخاوية الخالية عن الناس الساقطة على قواعدها لو كنت تمر عليها مباشرة بعد تدميرها في عصر صالح بُيُوتهم الخاوية • أو تلك البيوت الساقطة على الارض بيوتهم ، وتحولت إلى تلك الحالة بسبب ظلمهم على أنفسهم بالإشراك بالله تعالى وعلى صالح وأهله بالمعارضة والإيذاء وإساءة الأدب والمؤامرة لإبادته مع أهله • وبيوتهم هي التي قال فيها سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه عام تبوك : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين •••» الحديث (إن في ذلك) أي في ذلك التدمير العجيب (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) شيئا (وأنجينا الذين آمنوا)

أي صالحا ومن معه (وكانوا يتقون) الكفر وسائر المعاصي إيمانا برب العالمين •

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ؟(٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(٥٥)

قوله (ولوطا إذ قال لقومه) أي وأرسلنا لوطا إذ قال لقومه ، أو اذكر حال لوط إذ قال لقومه مستنكرا ومستقبحا لأعمال قومه (أتأتون الفاحشة) أي أتفعلون الفعلة الفاسدة المتناهية في الفحش والقبح والرذالة ؟ (وأنتم تبصرون) أنفسكم عليها أو وأنتم أهل إدراك وشعور بدناءة العمل وقبحه (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟) أي هل تقبلون على ضوء العقل أن تقضوا شهواتكم في أدبار الرجال ولا تقضوها في فروج النساء اللاتي خلقن لها وللاستئناس بهن (بل أنتم قوم تجهلون) أي بل أنتم تفعلون فعل الجاهلين بقبح القبائح ، أي توغلتم فيها وتعودتموها حتى لا تميزون بين القبيح وغيره •

الجزء العشرون

(فَما كانَ جَــوابَ قَوْمِهِ إلاّ أَنْ قالُــوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٥٦) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إلاّ امْرَأَتَهُ ، قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ(٥٧) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ(٥٨) قُلِ : الْحَمْدُ للهِ ، وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى ، آللهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ ؟)(٥٨)

(فما كان جواب قومه إلا أنقالوا : أخرجوا آل لوط) أي من تبع دينه معه (من قريتكم) التي بنيتموها وسكنتم بها (إنهم أناس يتطهرون) من أعمالنا التي يعدونها أقذارا (فأنجيناه وأهله) أي بعد تدمير القوم (إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أي من الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) أي فقلبنا ديارهم عليهم وأمطرنا على مقلوبها

مطرا غير معهود من الحجارة التي كانت تتطاير من السماء بقوة دفع البركان لها إليها ، أو أمطرنا من سماء غضبنا مطراً مخلوقا أجزاؤه من الحجارة (فساء مطرُ المنذَرين) ذلك المطرُ •

وبعد أن أتاك أخبار الأولين وقصص الأنبياء والمرسلين من الله تعالى وإنجاء الرسل مع أتباعهم وأن سنة الله في العالمين تبقى كذلك (قل الحمد لله) على تلك النعم الجسام (وسلام على عباده الذين اصطفى) أشخاصهم لنيل الرسالة • وقل لمن يجوز خطابه وله عقله وحسابه (آلله) الواجب الوجود المنبع لكل خلق وخير وجود (خير) للعبادة له (أمّا) أي ام ما (يشركون) من الاحجار والأخشاب ؟

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّموات ِ وَالأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ، ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً ، وَجَعَلَ خِلالَها أَنهاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ،وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؟قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّنْ يَهْديكُمْ في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ ؟ تَعالَى اللهُ عمّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّنْ يَبْدَءُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟ ءَإِلهٌ مَعَ اللهِ قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ(٦٤) قُلْ :

لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّموات ِ والأَرْض ِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ ، وَما يَشعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٦٥) بَل ِ ادّارَكَ عِلْمهُمْ فِي الآخِرَة ِ ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ، بَلْ هُمْ مِنها عَمُونَ)(٦٦)

قوله تعالى (أمَّن خَلَقَ السّموات ِ والارض) أي أم من ، وأم منقطعة ، يعني بل أعرض عن المذكور سابقا واسأل من الذي خَلَقَ السماوات والأرض التي هي أصول للكائنات المحسوسة ومنها تظهر المنافع الحيوية (وأنزل لكم) ولانتفاعكم بالوجه المشروع (من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) أي ذات بهاء ومنظر حَسَن ٍ (ماكان لكم أنْ تُنبتوا شجرها ءإله مَعَ الله ؟) يعني أيقرن به غيره ويجعل شريكا له تعالى (بل هم قوم" يَعْدِلون) عن الحق ويتجاوزون عنه (أمَّن جَعَلَ الأرض قراراً) أي مَقَرّاً لبقاء الناس وسكناهم ومنامهم ومقامهم وممشاهم في كسب سعادة المعاش والمعاد (وجَعَل خلالَها) أي في أوساطها (أنهارا) جارية ونافعة للمزارع والمنافع (وجعل لها رواسي) أي جبالا عوالي ثابتة داخلة في أعماق الأرض (وجعل بين البحرين) العذب والمالح حاجزاً يمنعهما عن استيلاء أحدهما على الآخر (ءَإله مَعَ الله) أي في هذه التصرفات (بل أكثرهم لا يعلمون) الحق حتى يقدروا على الجواب به أو لا يعرفون الإله الحق الواجب الوجود ولذلك يشركون به .

(أمّن يجيب المضطرّ) وهو الذي ألجأته الحاجة الشديدة إلى اللجوء إلى الله تعالى بعد يأسه عن كل واسطة وسبب (ويكشف) عن المضطر الأمر (السّوء) من النّوائب المدمرة (ويجعلكم خلفاء الأرض) بأن أهلك أهلها وأسكنكم في أماكنهم وتتصرفون فيها تصرف الملاك (ءإله مع الله) في هذا التطوير لأهل الأرض ورفع بعضهم ببعض وجعل قوم خلفاء لقوم (قليلا

ما تذكرون) في تيسير الأسباب من العلم والعمل والعدل والإستقامة وربط الجأش والصبر وحرمان الآخرين منها . (أمّن يهديكم في ظلمات البرّ والبحر) بالشمس والقمر والنجوم ومصابيح الأرض وعلاماتها (ومن يرسل الرياح بشرا) بضم الباء وسكون الشين مخفف بشرا بضمهما جمع بشور كصبور بمعنى المبشر ، فالمعنى ومن الذي يرسلُ الرياح مبشرات (بين يدى رحمته) أي قبل نزول المطر النازل من بحر رحمته أو من ترحمه ؟ (ءإله مع الله ؟) يقدر على شيء من ذلك فيكون شريكا له تعالى ؟ حاشا وكلاّ (تعالى الله عما يشركون) عن إشراكهم أو عن الصنم الذي يشركونه به .

(أمن يبدأ الخلقَ) بدون سبق مادّة وعادة (ثم يعيده) للبعث بجمع الأجزاء من أصل عجب الذنب أو بخلق أمثالها (ومن يرزقكم من السماء) بإنزال المطر والمن والسّلوى وسائر الخيرات (والأرض) بما فيها من الأنهار والعيون والنبات والأشجار المثمرة والكمأة وأمثالها وبالمعادن والمنافع المخلوقة فيها الخارجة بذاتها أو المستخرجة بالعلاج (ء إله مع الله ؟) يفعل شيئا كذلك فإن عاندوا وقالوا نعم (قل : هاتوا برهانكم) على وجود من يفعل شيئا كذلك (إن كنتم صادقين) في دعواكم ذلك . وإذا لم يأتوا بالبرهان بل ولا بشبهة عليه وثبت أنه الخالق ثبت أنه المعبود الحق المبين .

وبعد أن بينت لهم أن القدرة المؤثرة من صفات الله تعالى ، ومعلوم أنها تابعة للإرادة والإرادة تابعة للعلم ، وعلم الخالق لابد من استيعابه للشهادة والغيب (قل) للمشركين الجاحدين المعاندين : (لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) ولا يطلع على غيبه المضاف إلى الأسباب المادية إلا من وفقه عليها ، ولا على الغيب المضاف إلى الكشف عما وراء

الطبيعة إلاّ من اختاره وخصه بنور منه يتنور له به الأمور المخفية عن الأبصار والبصائر يختص برحمته من يشاء ، وإلا فليس من شئون من في السماوات والارض بالذات (وما يشعرون أيان يبعثون) أي وما يشعرون أين يحيون ويستقرون ولا أين يموتون ، ولا أي زمان يبعثون للحشر والحساب ونيل الثواب والعقاب (بل ادارك علمهم في الآخرة) وأصل إدارك تدارك قلبت التاء الزائدة دالا ، وأدغمت الدال في الدال ، وجلبت همزة الوصل لدفع الابتداء بالساكن • ومعنى تدارك تتابع تقول : تدارك بنو فلان إذا تناهوا في الهلاك • والمعنى تتابع علمهم في الآخرة وأحوالها حتى لم يبق لهم علم بها ، وفني علمهم بذلك الموضوع • والمقصود أنهم لم يقتدوا بالمخبر الصادق ولم يتبعوه فيما بينه لهم من أحوالها وتفكروا حسب أهوائهم وملاحظاتهم لها فحصل من ذلك أن لم يحصلوا على شيء • بل لا مجال بالنسبة إليهم إلى حصول العلم وغاية ماحصل لهم ظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا (بل هم في شك منها) أي بل ذلك الظن والإدراك الراجح انفلت عنهم لغلبة الإنكار والجحود عليهم فهم في شك وتصوّر ساذج لا رجحان فيه لأحد الطرفين من النسب على الآخر (بل) اضرب عن وجود هذا التصور الساذج لأنهم تعمقوا في المواد الملموسة ولا يصل إدراكهم إلى أيّ أمر مغيب غير مربوط بالمشاعر والحواس فـ (هم منها) ومن أحوالها (عمون) لا يبصرون شيئا •

وعمون جمع عم بإعلال قاض وأصله عميٌ بالياء كحذر بمعنى الأعمى• ففي الآية الكريمة ترق بالنسبة إليهم من السيىء إلى الأسوء ففي الأول قال بل ادّارك علمهم في الآخرة أي لم يبق علم يقين بها • وهنا كان مجال لوجود إدراك راجح لهم وهو الظن فترقى إلى أنهم في شك أي تصور بلا حكم ، ثم ترقى إلى نفي الإدراك عنهم مطلقا • فقال بل منهم عمون أي قلوبهم

عامية لا تبصر شيئا • إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور • أعاذنا الله من كل جهالة وضلالة وأوصلنا إلى الإيمان بما جاءنا من الرسالة بفضله وكرمه آمين •

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : ءَاِذَ كُنَّا تُراباً وَآباؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟(٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وآباؤُنا مِنْ قَبْلُ ، اِنْ هـذا إلا أساطِيرُ الأَوَّلِينَ(٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُجْرِمِينَ(٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلا تَكُنْ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(٧٠) ويَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٧١) قُلْ : عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ(٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ(٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وما يُعْلِنُونَ(٧٤) وما مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّماءِ والأَرْضِ إلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ(٧٥) اِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ(٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ المُبِين(٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى،ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) وماأَنْتَ بِهادِ العُمْيِ عَنْ ضلالَتِهِمْ اِنْ تُسْمِعُ إِلاّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)(٨١)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا : ءإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون ؟) الهمزة للاستفهام ، وإذا ظرف زمان ، والعامل فيه لمخرجون • وهذه الآية الكريمة بيان لعمى قلوبهم وحيرتهم في أمور الآخرة ، فإن الإنسان الذي له بصيرة في الأمر يؤمن بأن الذي خلق السماوات والارض قادر على إحياء الموتى • وقوله (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أي من قبل بعث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (إن هذا) أي ماهذا الكلام الدال على البعث والحساب (إلا أساطير الأولين) وكلماتهم الدائرة بينهم جيلاً بعد جيل ويقوم بها الّذين يَدّعُونَ الرسالة ولا يتفكرون في أنّ وجود الكائنات دليلٌ على وجود خالق موصوف بالكمال ووجوده بتلك الصفة يدل على أنه ماخَلق الإنسانَ عبثا، وأنّ هناك دستوراً للطاعة والمعاملة في الدنيا ، وأنّ عليها مسئولياتٍ ، ولابد من وجود يوم تتحقق فيه المسئوليات ومايترتب عليها من الثواب والعقاب • فإذا قام إنسان مختار من بني آدم فهل يجوز أن يقال إنه صاحب الأساطير ؟ كلاّ فإنهم في بحر الأهواء يسبحون ويمرحون ، ويعارضون كل رسول ناصح أمين بأمثال تلك العبارات الفارغة • (قل) في معارضتهم (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) وكيف أهلكناهم ودمرنا بلادهم (ولا تحزن عليهم) أي على تكذيبهم لك (ولا تكن في ضيق) أي حرج صدر (مما يمكرون) أي مما يأتون به في إزعاج المؤمنين وإزعاجك نتيجة لمكرهم ومؤامراتهم •

(ويقولون متى هذا الوعد) أي العذاب الموعود (إن كنتم صادقين ؟) في الأخبار والإنذار بها (قل عَسى أن يكونَ رَدف لكم) أي ردفكم ولحقكم (بعض الذي تستعجلون) أي بعض من العذاب الذي تستعجلون حلوله ونزوله وهو عذابهم يوم بدر بالقتل والأسر والإخزاء (وإن ربك لذو فضل على الناس) بتأخير عذابهم (ولكنّ أكثرهم

لا يشكرون) الرب على ذلك (وإن ربك ليعلم ماتكنّ صدورهم) أي ماتكنّه وتخفيه صدورهم من العناد والعداء لك ولمن يتبعك(وما يعلنون) من الاستهزاء والاستهتار (وما من غائبة) أي خافية (في السماء والارض إلا في كتاب مبين) والمراد به اللوح أو علمه الأزلي (إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) من مباحث الجنة والنار وعزير والمسيح (وإنه لهدًى ورحمة للمؤمنين) لأنّ المعتقد هو المنتفع (إن ربك يقضي بينهم) أي بين بني إسرائيل (بحكمه) أي بدستور حكمه (وَهُوَ الْعَزِيزُ العليمُ • فتوكل على الله) ولا تهتم بأحوالهم (إنك على الحق المبين) ومن كان على الحق المبين فحقه التوكل على رب العالمين (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أي إن أولئك الكفار قلوبهم ميتة لا تدرك الحقائق وآذانهم صمّ لا تسمع المواعظ ، ولاسيما عندما يولون عن الناصح الأمين مدبرين فإنك لا تسمع أولئك الموتى ولا تُسمعُ أولئك الصم لاسيما إذا ولوا مدبرين • (وما أنت بهادي العُمْي عنْ ضلالتِهِم) أي بمخرجهم عن العمى ومرشدهم إلى الصّراط إلا إذا أطاعوا أمرك وانقادوا لحكمك (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) حسب علم الله تعالى بتصرفاتهم الحسنة (فهم مسلمون) منتفعون بإرشادك وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين •

(وَإذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(٨٣) حَتَّى إِذا جاءُوا قالَ : أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً ؟ أَمّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟(٨٤)

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ(٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآ ياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٨٦)

قوله تعالى (وإذا وقع القول عليهم)...الآية هذه الآية من الآيات الخفية شرحا وبيانا ، وهي من علامات الساعة وقرب حلولها جدا . فيقول الباري سبحانه وتعالى : (وإذا وقع القول عليهم) أي إذا دنا وقرب وقوع مدلول القول المذكور ، أي آن قيامِ الساعة وبعث الأموات (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) أي تكلم الناس (أن الناس) الكافرين (كانوا بآياتنا لا يوقنون) ولا يؤمنون بها .

وتكلم المفسرون عن حقيقة هذه الدابة ، وتعيين الارض التي تخرج منها ، وعن معنى قوله (تكلمهم أن الناس) الآية ... أما أصل الدابة فقد وَرَدَ في صحيح مسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « بادِروا بالأعمال قبل ستٍ : طلوعِ الشمسِ من مغربها ، والدخان، والدّجال ، والدابة ، وخُويصة أحدكم ، وأمر العامة » وورد فيه أيضا أن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها . وخروج الدابة على الناس ضُحىً ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا . ولم يرد في الصحيح على ما أعلم ماذكر من صفاتها . وأما الارض التي تخرج الدابة منها فقال بعض : المسجد الحرام ، وقال بعض : هي الصفا . وقيل : تخرج باليمن ، ثم تخرج من بين الركن والمقام حذاء دار بني مخزوم . وأما معنى تكلم بصيغة مضارع باب التفعيل فهو التكلم والنطق المعتاد على ما هو الظاهر . وقيل : هو من الكلم بمعنى الجرح ، والتفعيل للتكثير ، ويؤيده قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جبير وأبي زرعة والجحدري وأبي حيوة

(تكلمهم) بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام وتخفيفها . وكأنه أريد بالجرح النطق بالتوبيخ واللّوم والعتاب . يعني تلوم الناس على ما هم عليه من سوء الاعتقاد وفساد الاعمال ، والغفلة عن البعث وحلول الساعة ودخول يـوم القيامـة .

فيكون معنى الآية الكريمة : إذا قرب قيام الساعة ووقع وثبت القول في تعذيب الكفار ، وحقت كلمة العذاب على الإنسان فجهلوا المعنويـات وعكفوا على الماديات وتمرنوا على الكذب والنفاق .. أخرجْنا لهم دابـةً من الأرض تكلمهم نطقا وتجرحهم باللّوم والتوبيـخ بأنّ النّاس كانـوا بآياتنا لا يوقنون . ولقد جاء وقت المعاينة والمشاهدة لما لم يؤمنوا به .

(ويوم نحشر) أي واذكر يوم نحشر (من كل أمة) من أمم الأنبياء (فوجا) أي جمعا (ممن يكذب بآياتنا) فإن في كل أمة بعث إليها الرسول مصدقين ومكذبين (فهم يوزعون) أي يحبس أولهـم على آخرهـم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ (حتى إذا جاءوا) إلى موقف السؤال والجواب (قال) الله سبحانه وتعالى : (أكذبتم بآياتي) الدالة على مجيىء هذا اليوم (ولم تحيطوا بها علما ؟) أي والحال أنكـم لم تكونـوا عالمين بحقيقة الأمر وأن الله قادر على أن يأتي بهذا اليوم (أماذا كنتم تعملون ؟) وهذه الفقرة لمزيد التوبيخ لأنهم لم يكن لهم حـال إلا التكذيـب . وأماذا أصلها أم ماذا . (فوقع القول عليهم) أي حل بهم العذاب (بما ظلموا) أي بسبب ظلمهم على أنفسهم وتكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقـون) بشـيء لأنهم لا حجة لهم حتى يحتجوا بها ولا فائدة في الكلام اللاغي فيسكتون .

ثم رجع الباري سبحانه إلى توبيخ المشركين بعد بيان أهوال الأفواج المحشورة يوم القيامة فقال : (ألم يروا) بالقلب (أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟) أي وجعلنا النهـار مبصرا بالإسـناد المجازي ، أي

ليبصروا بما فيه من الإضاءة (إن في ذلك) التصرف والجعل (لآيات) عظيمة (لقوم يؤمنون) بوجوده تعالى وعلمه وقدرته .

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّور فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ، وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ(٨٧) وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ ، صُنْعَ اللهِ الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ(٨٨) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ(٨٩) وَمَن جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٩٠) إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ، فَمَنِ اهْتَدى فَإنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ : إنَّما أَنا مِنَ الْمُنْذِرِينَ(٩٢) وَقُلِ : الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)(٩٣)

قوله تعالى : (ويوم ينفخ في الصور) معطوف على قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمّة فوجا) ... الآية أي واذكر يوم ينفخ في الصور . والمشهور في الدين أن صاحب الصور النافخ فيه هو الملك المسمى باسرافيل إحدى الملائكة الأربع المقربين . والمشهور أن الصور مادة تشبه القرن أو البوق العسكري ، وفيها منافذ بعدد أرواح الأحياء . والنفخ فيه مرتان : مرة لتخريب الجبال والوهدان وجعل الأرض صافية وإماتة الأحياء إلا من

شاء الله • ومرة لإعادة الأرواح وبعث الأموات وسوقهم إلى الحساب • وروي أن مابين النفختين مدة أربعين سنة • ونص الكتاب الكريم على النفختين في قوله تعالى في سورة الزمر (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله • ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وكيفية ذلك الصور ، ومقداره ، ووضع النفخ فيه موكول إلى علام الغيوب • وماثبت في بعض الأحاديث الشريفة وارد لتفهيم الأمة الموضوع بحسب مستوى قابلياتها والمراد بالنفخ في هذه الآية الكريمة النفخة الثانية • وإليه ذهب كثير من المفسرين •

وقوله تعالى (ففزع من في السموات ومن في الأرض) أي من شدة الخوف والهيبة الجبليين العارضين عند مشاهدة الأمور الهائلة • وقوله تعالى (إلا من شاء الله) استثناء متصل كما هو الظاهر ، والمستثنى هو أصحاب الحسنات لقوله تعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) وقوله تعالى (وكلّ أتوهُ داخرين) أي وكل واحد من الفازعين حضروا الموقف بين يدي رب العالمين أذلاء مطيعين منقادين • وقيل : إن المراد بالنفخة هنا النفخة الاولى لمناسبة قوله (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) أي وترى بالعين المجردة الجبال الراسية على الأرض تحسبها جامدة أي ثابتة غير متحركة وهي متحركة وتمرّ في الجو مرّ السحاب أي تتحول إلى الهباء وتنتشر في الفضاء • فإن هذه الأوضاع الواردة على الجبال إنما هي عند النفخة الأولى كما في سورة القارعة (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنقوش) • ومنهم من قال : إن إحالة الجبال إلى تلك الحالة إنما هي عند النفخة الثانية كالفزع المذكور عند سوق الخلائق للحشر فيبدل الله تعالى الأرض والجبال كما في قوله تعالى (ويسئلونك عن الجبال فقل : ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا امتا ،

يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) •

(صنع الله الذي أتقن كل شيء) مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة الحالية يعني صَنَعَهُ صنْعَ اللهِ الذي أتقن كل شيء أي أتقن خلقه وسواه على ماتقتضيه الحكمة الإلهية (إنه خبير بما تفعلون • من جاء بالحسنة) من الإيمان وما يتبعه من الأعمال الصالحة (فله خير منها) إذ الحسنة بعشر أمثالها إلى ماشاء الله (وهم من فزع يومئذ آمِنون) أي وهم آمنون من فزع البعث ومابعده (ومن جاء بالسيئة) وهي الكفر ومايتبعه (فكبت وجوههم في النّار) أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين ، فالإسناد مجازي (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) وارد على أسلوب الإلتفات لأخذ العبرة بهذه الآيات وقوله تعالى (إنما امرت) استئناف بتقدير قل أي قل يا حبيبي إنما أمرت (أن أعبد رب هذه البلدة) أي مكة المعظمة الرب (الذي حرمها) أي جعلها حرما آمنا (وله كل شيء) خلقا وملكا وتصرفا من غير مشاركة أحَدٍ سواه (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي استقيم على ما هداني إليه من الإيمان والإسلام (وأن أتلو القرآن) أي وأمرت أن أتلو القرآن (فمن اهتدى) بهدي الحق ومنار الإسلام والتزام الأحكام واتباع الأنام (فإنما يهتدي لنفسه) ومنافع هداه ترجع إليه في أولاه وأخراه • (ومن ضل) عن الهدى فكفر وانحرف (فقل) له : (إنما أنا من المنذرين) • وقد خرجت عن عهدة الإنذار إذ أنذرت وبلغت • (وقل الحمد لله) على ماهداني إليه ووفقني عليه (سيريكم آياته) إن عاجلا أو آجلا (فتعرفونها) والمراد بها ماحلّ بهم من النقمات أو سيحل (وما ربك بغافل عما تعملون) فتأخذون الجزاء كما تستحقون •

سورة القصص ، مكية ، وهي ثمان وثمانون آية نزلت بعد النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم(١) تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ موسى وَفِرعَوْنَ بِالْحقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ : يُذَبِّح أَبْناءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدينَ(٤) ونُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثينَ(٥) وَنُمكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانوا يَحْذَرُونَ)(٦)

قوله تعالى (طسم) الكلام فيه مثل ما في أشباهه (تلك آياتُ الكتاب المبين) إشارة إلى السورة وآياتها ، أي إن هذه السورة وآياتها آيات الكتاب المبين والقرآن الواضح الموضح للأحكام (تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أي نتلو ونقرأ ونوضح عليك يا حبيبي (من نبأ موسى وفرعون) بالوجه (الحق) الموافق له الواقع (لـ) إفهام (قوم مؤمنين) قال الجلال السيوطي : لما حكى الباري في الشعراء قول فرعون لموسى (ألم نربك فينا وليدا) ثم حكى سبحانه قول موسى لأهله (إني آنست نارا) وكانا على وجه الإجمال بَيَّنَهُما في سورة القصص

تفصيلاً للمؤمنين . (إن فرعون علا في الأرض) أي تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة (وجَعَلَ أهلها شيعا) أي فرقا وطوائف يشيعونه ويتبعونه في كل ما يريد . وذلك لأن الأمة إذا تفرقت إلى طوائف وجماعات تقع بينهم بطبيعة الحال حزازات من اختلاف مصالحهم ، فيحصل بينهم العداء والبغضاء ، فإذا أراد الملك تسخير أيّ طائفة منهم لأغراضه أطاعه بكمال الإطاعة ولا يخالفه خوفا من الطائفة المعادية له ، أو حتى لا تبادر هي للإطاعة وتسبقها ولضعفها في ذاتها ، لأنها ليست إلا حَفْنَةً من مجموعة مرفوعة (يستضعف طائفة منهم) وهي طائفة بني إسرائيل لعداء سابق ثابت بينه وبينهم دينا وسياسة ، وللحذر من صعودهم واستيلائهم على ملك مصر كما علم ذلك من بعض الكهنة والنجومين . وبيان الاستضعاف أنه (يذبح أبناءهم) كلما ولد منهم واحد خوفا من نمائه وبقائه واستيلائه (ويستحي نساءهم) إذ لا منعة فيهن فيبقيهن للاستخدام والاستمتاع (إنه كان من المفسدين) الثابتين في الإفساد ولذلك تجاسر على ذبح المعصومين الأبرياء .

روي أنه رأى بالمنام أن نارا أقبلت من بيت المقدس إلى مصر حتى وصلت واحرقت القبط ، وتركت بني إسرائيل الموجودين فيها ، فسأل العلماء تعبير المنام ، وقالوا له : إنه يخرج من بني إسرائيل ولد يكون هلاك اهل مصر على يده . فقرر مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد وإبقاء الإناث . وهذا دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك كان شريعة فرعونية . (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً) وقدوة في الدين والدنيا (ونجعلهم الوارثين) لجميع ماكان في ملك فرعون مما يناسبهم (ونُرِي فرعَوْن وهامانَ وجنودهما منهم) أي من جانب أولئك المستضعفين (ماكانوا يحذرون) ويتوقون منه من فناء ملكهم وسلطنتهم في

الديار المصرية . ولما كان هامان هو رئيس ملأ فرعون والنائب عنه في ما يأمر به وينهى عنه ربطه بفرعون في إضافة الجنود إليهما .

(وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ ، وَلا تَخافي وَلا تَحْزَنِي ، إِنَّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ(٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ(٨) وقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ: قُرَّةُ عَيْنٍ لي وَلَكَ ، لا تَقْتُلُوه عَسى أَن يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُم لا يَشْعُرُونَ(٩) وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغا إنْ كادَتْ لَتُبْدي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتكونَ مِنَ المؤْمِنِينَ(١٠) وَقالَتْ لأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١١) وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فقالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَه ناصِحُونَ ؟(١٢) فَرَدَدْناهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ ولِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ)(١٣)

قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) المراد بالإيحاء هنا الإلهام والإيقاع في القلب بصورة يطمئن لها . وقال بعض المفسرين : إنّ الايحاء كان بإرسال مَلَكٍ فأخبرها بما أمر به ربها سبحانه وتعالى . ولا يلزم من إرسال الملك وتكلمه معها النبوة والرسالة ، لأن الملائكة قد

ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم . وعلى كلٍّ ألهمها الباري سبحانه بما في الآية الكريمة .

وأنْ تفسيرية لأن الإيحاء فيه معنى القول (فإذا خفت عليه) من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء (فألقيه في اليم) أي في البحر والمراد به نهر النيل (ولا تخافي) مِنَ المَضار الواردة (ولا تحزَني) عليه (إنا رادّوه إليك) قريباً بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون) الفاء فصيحة ، والتقدير ففعلت ما ألهم إليها من إرضاعه وإلقائه في اليم عندما خافت عليه .

روى أنها لما ضَرَبَها الطّلقُ دَعَتْ قابلةً من الموكلات بحُبالى بَني إسرائيلَ فعالجتها ، فلمّا وقع موسى على الأرض هالَها نورٌ بين عينيه وارتعشت مفاصلُها ودخل حُبُّه في قلبها بحيث مَنَعَها من السّعاية فأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألحّ فرعونُ في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتا فقذفته في النيل (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) اللام للتعليل استعيرت للفاء تشبها لمطلق الغاية بمطلق العلة ، ثم استعملت اللام الموضوعة للتعليل الجزئي في الفاء المستعملة في الغاية الجزئية ، فإنهم لم يلتقطوه إلا لأن يكون أحد الجنود المخلصين لدولة فرعون ، ولكن الله تعالى جَعَلَهُ داءً مهلكاً لملّة فرعون (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) في الأصول والفروع والعقائد والأعمال وفي تقرير دستور الاستيلاء على بني إسرائيل وتسخيرهم لخدمة الأقباط ، وإذا كانوا كذلك فلا بدع في قتل الأبرياء المستضعفة لبقاء الكبرياء المزخرفة . ولما أخذ آلُ فرعونَ التابوتَ وفتحوها وأخرجوا موسى منها وأرادوا قتله على دستورهم المقرر (قالت امرأة فرعون) له : (قرة عين لي ولك) نستأنس

به و (لا تقتلوه عسى أن ينفعنا) بعد الكبر بخدمة قصر الملك (أو نتخذه ولدا) ونتبناه (وهم لا يشعرون) بعواقب الأمور •

(و) لما سمعت أم موسى بوقوع التابوت في أيدي آل فرعون وتبنيه له (اصبح فؤاد أم موسى فارغا) خاليا عن القلق من ابتلاع حوت للتابوت، أو وقوعه في مهلك ، أو اطلاع فرعون عليه وقتله (إن كادت لتبدي به) أي إنه كادت أن تصرح بأن الصبي الذي جعل في التابوت ابنها (لولا أن ربطنا على قلبها) بإنزال السكينة والوقار عليه • وإنما ربطنا عليه (لتكون من المؤمنين) أي لتطلع على ما يجري على موسى في المستقبل وتؤمن بأن الله الذي قال لها إنا رادوه إليك يحقق ما ألقاه وألهمه إليها كاملا • (وقالت) أم موسى (لأخته : قصّيه) أي تتبعي أثره وتتبعي خبره (فبصرت به عن جنب) أي فذهبت على امرأتها وتتبعت فبصرت به موسى عن جنب اي عن بُعْدٍ (وهم لا يشعرون) بأنها أخته وتقص أثره • (وحرمنا عليه المراضع) جمع المرضع أي ومنعناه من أن يرتضع من أية مرضعة بُغْيَةَ أن نرجعه إلى أمه (مِنْ قبلُ) أي من قبل تتبع أخته أثره (فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) أي مخلصون لا يقصرون في إرضاعه وحضانته وخدمته (فرددناه إلى أمه كي تقرعينها ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن ما وعدنا الله به واقع لا ريب فيه •

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وعِلْماً ، وكَذلِكَ نَجْزي الْمُحْسِنِينَ(١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ ، يَقْتَتِلانِ : هذا مِنْ شيعَتِهِ ، وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شيعتِهِ

عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ، قالَ : هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ"(١٥) قالَ : رَبِّ إنّي ظَلَمْتُ نَفْسي ، فَاغْفِرْ لي ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحِيمُ(١٦) قالَ : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)(١٧)

قوله تعالى (ولما بلغ أشده) أي ولما بلغ موسى المبلغ الذي تتكامل فيه القوة الإدراكية واستوى أي وتم واستقر وصار مهيمنا على المنازعات النفسية (آتيناه حكما) أي نبوة ورسالة موجبة للحكم والتصديق بما أمر به من الإيجابيات ، وما نهى عنه من السلبيات • فإن النبوة والرسالة موقوفة على التكامل النفسي قبل كل شيىء ، وإذا تكاملت شرع صاحبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة المكلفين إلى الله الأكبر (وعلما) بالشريعة المنزلة عليه فالحكم عبارة عن التصديق بما يجب التصديق به سلبا أو إيجابا ، والعلم عبارة عن الشريعة الموحاة إليه • وقوله تعالى : (وكذلك نجزي المحسنين) أي وبمثل ذلك الإيتاء الذي كان لموسى نجزي المحسنين للأعمال التبليغية إلى الناس المربوطة بالأمة التي أرسل إليها المرسلون • أي لا تؤتى الحكم والعلم بمعنى الدين والشريعة إلا لمن تعلّق علمنا بأنّه من المحسنين القائمين بأعباء الرسالة في عهده وهذا الإيتاء ، وإن لم يكن جزاء للأعمال بل موهبة من الله تعالى ، لكن لما لم تجر عادة الباري بإيتائه إلا لمن في ذروة الأعمال الحسنة والأخلاق الفاضلة صار كأنه جزاء في مقابل الاعمال • ولا ينافي كون الآية دالة على إعطاء مقام النبوة أن موسى ــ عليه السلام ــ بعدُ ، في مصر ولم يخرج عنها ، ولم يمض عليه زمان السفر إلى شعيب ــ عليه السلام ــ وبقائه عنده كأجير يخدم مواشيه ، وتزوجه لبنته ،

ثم رجوعه إلى مصر لأن سرد الآيات هنا وربط بعضها ببعض بالواو التي هي لمطلق الجمع لا بالفاء ولا بثم فاحفظه •

ومن المفسرين من قال : إن هذه الآية ليست في إيتاء النبوة والرسالة بل المراد بها إيتاء الحكمة ، وعلم تهذيب الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن ، والعلم بالتواريخ التي تزيد الإنسان ثقافة وقوة في رعاية شئون الناس وبروزه في المجتمع • وذلك لأن النبوة وهبية وليس كسبية محصولة في مقابل الإحسان والأعمال الصالحة • وسياق الآيات لا يناسب بيان إرسال موسى ـ عليه السلام ـ وهو بعدُ في باكورة الشباب ، ولم يدخلْ في المشاكل الموجبة لخروجه إلى البلاد البعيدة ثم رجوعه منها ونيله مقام النبوة والرسالة والأمر كما ترون •

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) أي ودخل موسى المدينة التي يتنزه فيها فرعون ، وهي بلدة منف على نهر النيل في وقت لا يتوقع أهلها دخول الناس عليهم ، وكان الوقت بين العشاء والعتمة وذلك أن فرعون ركب يوما وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت (فوجدَ فيها رَجلين يقتتلان) أي يتحاربان (هذا من شيعته) أي ممن شايعه وتابعه في الدين (وهذا من عدوّه) أي من الأقباط (فاستغاثه الذي مِن شيعته على الذي من عدوه) أي فطلب منه الغوث والنصر عليه (فوكزه موسى) أي فضرب موسى القبطي بجمع كفه أي بكفه المضمومةِ أصابِعُها (فقضى عليه) أي فقتله موسى • وأصله أنهى حياته أي جعلها منتهية منقضية ، ولما قتله تندم و (قال : هذا من عمل الشيطان) أي هذا العمل الذي عملته من تزيينه له في عيني (إنه عدو مضل مبين) أي إن الشيطان ولا شك عدو مضل للإنسان عن طريق الخير مبين العداوة وظاهرها •

(قال) موسى : (رب إني ظلمت نفسي) بوكز القبطي بحيث ترتب عليه القتل (فاغفر لي ، فغفر له ، انه هو الغفور الرحيم) أي لما استغفر موسى ـ عليه السلام ـ من ربه غفر الله له لأنه هو الغفور الرحيم ولا يردّ المستغفرين • (قال) موسى ـ عليه السلام ـ : (رب بما أنعمت) أي اُقسم بإنعامك (عليّ) لأمتنعن عن مثل هذا العمل (فلن أكونَ ظهيراً) وعونا (للمجرمين) كالرّجل المستغيث بي •

وإذا نظرنا إلى الواقع علمنا أن الرجل الذي من عدوّه كان من الأقباط المتعودين على قتل بني إسرائيل وذبحهم عند الولادة وتحقيرهم وإهانتهم في الكبر ، ووقع الإسرائيلي تحت سيطرته وخاف من أن يقتله ، ولذلك استغاث بموسى ـ عليه السلام ـ لوجوده في قصر فرعون وحيازة اعتبار وحصانة لنفسه ، فأغاثه موسى ـ عليه السلام ـ على وجه دفع الصائل ، ولم يكن وكزه له مما يقتل الإنسان الكبير غالبا ، ولكنه صادف محلا كان مقتلا وقتله ، وليست هذه الإغاثة ذنبا وجريمة ، بل إنها خصلة حميدة واجبة أو مندوبة ، فاستغفار موسى ـ عليه السلام ـ في القضية لأنه في عقيدته لم يرد إلا معونة للرجل الإسرائيلي لا قتل القبطي ، فكان قتله شيئا كبيرا عنده • والتعبير عن الإسرائيلي المستغيث بالمجرم إما لأن بداية المعركة كانت منه ، أو أنه لما صار سببا لهذا القتل كان كأنه هو القاتل ، فلا تعد القضية من المنافيات لعصمة الأنبياء ـ عليهم الصلوة والسلام ـ • وهذا هو الذي أراه وأعتقده في هذه القضية والله اعلم •

(فَأَصْبَحَ في المَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإذا الَّذي اسْتَنْصَرَهُ بالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قالَ لَهُ مُوسى : إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبينٌ(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذي هُوَ

عَدُوٌّ لَهُمَا ، قالَ : يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمسِ ؟! إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ(١٩) وجاءَ رَجُلٌ مِنْ أقصى المَدِينَةِ يَسْعى ، قَالَ : يا موسى إنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلوكَ فاخْرُجْ إنِّي لكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ : رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظالِمِينَ)(٢١)

قوله تعالى (فأصبح في المدينة خائفا يترقب) أي فلما صدر من موسى ذلك العمل المستبشع ظاهرا ، وعلم به بعض الناس أصبح موسى ــ عليه السلام ــ خائفا من وصول خبر قتل القبطي إلى فرعون وملأه (يترقب) الحادث في المستقبل (فإذا الّذي استنصره بالأمس) يعني الإسرائيلي الذي قتل موسى القبطيَّ في نصرته (يَسْتصرخه) أي يطلب المعونة والنصر منه على هذا القبطيّ الثاني • والإستصراخُ من الصراخ وهو الصياح ، ثم صار مجازا عن الإستغاثة ، فصار منقولا عرفيا لها (قال له موسى : إنك) أيها الإسرائيلي المستغيث بي (لغوي) ضالّ عن الطريق (مبين) واضح الغواية لأنك تريد أن تكون وسيلة لإثارة الفتن وإحياء الأحقاد الميتة • ومع ذلك لما ظن أنّ القبطي قوي وغالب على الإسرائيلي أخذته الغيرة وذهب إليه (فلما أن أرادَ) موسى (أن يَبطِش بالذي هو عدو لهما) أي يأخذه بصولة وسطوة (قال) القبطي له : (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً)قبطية أخرى بالأمس ؟ (إن تريد) أي ما تريد (إلا أن تكون جبارا في الأرض) أي فاعلا ما أردت فعله لاعتزازك بنفسك وبعمادك (وما تريد أن تكون من المصلحين) في أرض مصر بين الناس بدفع التخاصم وتقوية التفاهم • فامتنع موسى من البطش لأنه علم أن الناس اطلعوا على الجناية

السابقة وهو واقع في الحرج : (و) بينما هو قلق من أمره (جاءَ رجل من أقصى المدينة) أي مدينة فرعون وملأه وهو الرجل المؤمن الذي كان من آل فرعون (قال : يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك) أي يتشاورون بسبب قتلك للقبطي• وسمي التشاور ائتمارا لأن المتشاورين يأمر بعضهم بعضا ليقتلوك (فاخرج) من البلاد قبل أن يظفروا بك (إني لك من الناصحين • فخرج) فورا من المدينة (خائفا) أي من جنود فرعون (يترقب) لحوقهم به (قالَ : رَبِّ نَجّني مِنَ القَوْم الظالمين) •

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ ، قال : عَسى ربّي أَن يَهْدِيَني سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمّا وَرَد ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاس يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَينِ تَذُودانِ ، قالَ : ما خَطْبُكُما ؟ قالَتا : لا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، وَأَبُونا شَيْخٌ كبِيرٌ(٢٣) فَسَقى لَهُما ، ثُمَّ تَوَلَّى إلَى الظِّلِّ ، فَقالَ : رَبِّ إنّي لِما أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢٤) فجاءَتْهُ إحْدِيهُما تَمْشي عَلَى اسْتِحْياءٍ ، قالَتْ : إنَّ أَبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا ، فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ •• قالَ : لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ(٢٥) قالَتْ إحْديهُمَا : يا أَبَتِ اسْتأْجِرْهُ إنّ خَيْرَ مَنِ اسْتأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ(٢٦) قالَ إنّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إحْدى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَن تأْجُرَني ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فَإنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فمِنْ عِنْدِك ، وما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّالِحِينَ(٢٧) قالَ : ذلكَ بَيْني وَبَيْنَكَ أَيَّما

الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ ، وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكيلٌ)(٢٨)

قوله تعالى : (ولما توجه تلقاء مدين) كلمة تلقاء في الأصل مصدر انتصب على الظرفية و (مدين) بلدة شعيب ــ عليه السلام ــ سميت باسم مدين ابن إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، لأنه كان له إسماعيل من هاجر ، وإسحاق من سارة ، ومدين ومدان • وتوجهه إلى مدين بإلهام من الله تعالى، إذ لم يكن في سلطان فرعون وكان بين مصر وبين مدين مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربي أن يهديني سَواءَ السبيل) لأنه كان مسبوقا بألطاف ربه من جهات كثيرة ، وقد حقق الله ماترجاه • وروي أنه وصل إلى مفرق طرق ثلاث فأخذ الوسطى منها ، وذهب طالبوه على غير طريقه فلم يجدوه (ولما ورد ماء مدين) أي وصل إلى الماء المشهور الذي يستقي منه الناس (وجد عليه أمة من الناس) أي جماعة كثيرة يسقون مواشيهم على ماتعارف بينهم من التناوب (ووجد من دونهم امرأتين تذودان)غنمهما من التفرق والانتشار (قال : ما خطبكما ؟) مما أنتما عليه من التأخر والذود ، ولم لم يأت غيركما ؟ (قالتا) أما تأخرنا فلأنه (لا نسقي) غنمنا (حتى يصدر الرعاء) أي يصرف الراعون مواشيهم بعد ريّها إلى المرعى ، وتخلو أطراف الماء من الناس • وأما أنه لم يأت غيرنا فلأنه ليس عندنا أحد إلا أبونا (وأبونا شيخ كبير) في الجلالة والقدر لا يناسبه الاختلاط بالناس من كل أصناف ، وفي العمر فلم تبق عنده قوة السعي وراء الأغنام ورعيها وسقيها • وأما مجيئنا فلأن مجيىء النساء عادة أهل البلد ولا تخرم المروءة ، فمشينا على ما هو المعتاد •

وقوله تعالى : (فسقى لهما) معناه أنه لما سمع كلامهما ، وعلم أن تأخرهما لعدم الاختلاط والضعف عن مقاومة المتزاحمين هناك قام إلى خدمتهما وسقى لهما أغنامهما • (ثم تولى إلى الظل) الذي كان هناك من شجرة مظللة

واستراح (فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) أي أنت تعلم أني مسافر غريب ليس لي مأوى ولا ملجأ للعيش الإعتيادي والناس لا يعتدون بمن لا يعرفونه فالأمر موكول إلى رحمتك الواسعة يا ألله (فجاءته إحديهما تمشي على استحياء) أي وبينما هو يدعو ربه وينتظر كرمه إذ جاءته إحدى البنتين اللتين صادفهما على الماء تمشي على استحياء وأدب في مشيها ومجيئها حتى وصلت و (قالت) لموسى ـ عليه السلام ـ (إن أبي يدعوك) إلى حضوره (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أي يجزيك من عنده بلا طلب وقرار مثل جزاء سقيك لنا بدون طلب منك لشيء ، أو أنت سقيت المواشي ماء العادة وهو يسقيك ماء السعادة ، فقام ملبيا دعوة عمه شعيب ، ومتوكلا على ربه عالم الشهادة والغيب •

(فلما جاءه) واستراح ، وطلب منه شرح حاله (وقص) موسى (عليه القصص) من الأول إلى الأخير (قال) شعيب ـ عليه السلام ـ له مسكنا له ومبشرا : (لا تخف) منهم (نجوت من القوم الظالمين) وليس لهم سلطان على بلدنا وأنت أمين • (قالت إحديهما) وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى ـ عليه السلام ـ واسمها صغيراء بالتصغير ، واسم الكبرى الصغراء : (يا أبت استأجره) أي لرعي الأغنام (إن خير من استأجرت القوي الأمين) اطلعت على قوته في جرأته النفسية وحركته الجسمية إذ سقى مواشيهما ، وعلى أمانته بغض البصر من النظر اليهما •

ويؤخذ من الآية الكريمة قياس من الشكل الأول تقريره : موسى قوي على العمل وأمين ، وكل قوي أمين خيرُ أجير ينتج من الضرب الثاني من الشكل الأول : موسى خير أجير •

فلما توسم شعيب ـ عليه السلام ـ فيه القوة والأمانة وشهدت عليهما من شهد من أهله قال له (إنّي اُريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على

أن تأجرني ثماني حجج ، فإن أتممت عشرا) في الخدمة والعمل (ف) هو (من عندك) من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام (وما أريد أن أشقّ عليك) بإلزام عمل فيه كلفة إياك (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب • (قال) موسى ـ عليه السلام : (ذلك بيني وبينك) أي الذي قلت وعاهدتني ثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منّا (أيما الأجلين) أطولهما أو أقصرهما (قَضَيْتُ فلا عُدوان عليّ) والمراد من أمثال هذا الكلام التسوية بينهما في الانتفاء ، وإلا فهو إذا قضى أطول الأجلين لا يتوجه ولا يتصور أي عدوان من أحد عليه (والله على مانقول) من الشروط (وكيل) أي شهيد •

فان قيل : إن صورة ما جرى بين شعيب وموسى ـ عليهما السلام ـ إن كانت إنشاء عقد النكاح فهي مختلفة من جهة إبهام البنت المزوجة ، وأخذ أجرة عائدة إلى الولي من الزوج ! أجيب بأن ذلك ليس إنشاء العقد بل وعد بإنشائه بعد إتمام مدة الخدمة • ولو سلمنا أنها العقد فشريعة شعيب غير شريعتنا ، وقد جاز العقد في شريعته على الخدمة والرعي مدة معلومة وإبهام المنكوحة لفظا مع نية العاقدين لمنكوحة معينة ، على أنّ جعلَ الصداقِ رعي المواشي جائز على قول بعض الأئمة في شريعة الإسلام •

(فَلَمّا قَضى مُوسى الأَجَلَ ، وَسارَ بِأَهْلِهِ ، آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لأَهْلِهِ : امْكُثُوا إنّي آنَسْتُ ناراً لَعَلّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمّا أَتيها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ : أَنْ يا مُوسى إنّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها

جانٌ ولّى مُدْبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ ، يا مُوسى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ(٣١) اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، واضْمُمْ إلَيْكَ جَناحَكَ من الرَّهْبِ ، فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ ومَلَإِهِ إنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ(٣٢) قال : ربِّ إنِّي قَتَلتُ مِنْهُمْ نَفْساً فأَخافُ أَنْ يقتُلُونِ(٣٣) وأَخِي هرُونُ هُو أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً ، فأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْأً يُصَدِّقُني ، إنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ(٣٤) قالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، ونَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً ، فلا يصلون إلَيْكُما بِآياتِنا ، أَنْتُما ومَنْ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ)(٣٥)

قوله تعالى (فلما قضى موسى الأجل) أي أتم المدة المعينة للخدمة وتزوج المطلوبة (وسار بأهله) نحو مصر لزيارة أمّه وأخيه وذويه (آنس من جانب الطور نارا) أي رأى نارا من الجهة التي تلى الطور (قال لأهله : امكثوا) أي أقيموا مكانكم ، وأهله كان عبارة عن زوجته وولدين وخادم (إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر) وإيضاح للطريق وقد كانوا ضلوا الطريق (أو جذوة من النار) أي عود مشعول (لعلكم تصطلون) أي تستدفئون .

روي أنه ـ عليه السلام ـ خرج بأهله وماله في فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل لا يدري أليلا تضع أم نهارا . فسار في البرية لا يعرف طرقها فألجأه السير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، وأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصْلَدَ أي فلم تخرج منه النار . فنظر فإذا نار تلوح من بعد . فقال لأهله : امكثوا (فلما أتيها) أي أتى النار التي آنسها ورآها من بعد (نودي

من شاطئ الوادي الأيمن) أي أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى ـ عليه السلام ـ (في البقعة المباركة من الشجرة) بدل من قوله من شاطئ الوادي (أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين) .

قيل : إن حكاية هذا النداء وقعت في صور متعددة بعبارات مختلفة ، وذلك مستشكل ! وأجيب : بأن النداء كان مشتملا على مفاهيم متعددة ، فذكر الله تعالى في كل سورة بعضا منها . وقد يقتضي المقام ذكر بعض الأشياء من وقائع دون بعض .

وللعلماء المفسرين الاجلة عبارات في كيفية سماع موسى ـ عليه السلام ـ كلام الله تعالى . والقضية قضية دقيقة جدا . فمنهم من قال : إنه تعالى خلق الألفاظ الدالة على المعاني في تلك الشجرة ، وانتشر الصوت منها كما نسمع نحن الأصوات من أجهزة المذياع . ومنهم من قال : خلق الله الأصوات في الهواء هناك وأخذها موسى ـ عليه السلام كما هي . والحق أن بيان كيفية سماعه لكلامه سبحانه وتعالى يحتاج إلى توفيق من جانب المبين، وتوفيق من جانب المخاطب الفاهم للبيان ، وأن الله سبحانه وتعالى تكلم مع عبده موسى مباشرة بدون وساطة أيّ واسطةٍ ، كما تكلم مع حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات المفروضة ، وذكرَ له أشياء أخرى ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ استغرق في تجلي الكلام عليه وسمع كلام الحق من كل الجوانب وبالسمع والقلب ، وأنّ ذلك الطور ظاهر على أهله فإن الله قادر على إنطاق كل جزء من أجزاء البدن كاللسان ، وقادر على خلق قوة السمع في كل جزء من أجزائه ، ولذلك اختص باسم الكليم ، وهذا ظاهر عند من له ذوق سليم .

(وأنْ ألْقِ عَصاك) عطف على أنْ يا موسى (فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب) يعني فألقى عصاه امتثالا لأمره تعالى ، ولما ألقاها

رآها تهتز وتتحرك بسرعة زائدة كأنها صغار الحيات الخفيفة الجثة والسريعة الحركة ، وعند إحساسه ـ عليه السلام بها خاف منها وولى مدبرا خوفا من لدغها وإيذائها له ولم يعقب ولم يرجع الى محله السابق •وعند ذلك ناداه الله بقوله (أقبل) إلى عصاك (ولا تخف إنك من الآمنين) من المخاوف، ولا مجال للخوف عند الإيحاء • (اسلك يدك في جيبك) أي أدخلها فيه • وجيب الكساء فتحه من حيث يخرج الرأس (تخرج بيضاء من غير سوء) أي إن أدخلتها فيه ثم أخرجتها منه تخرج بيضاء مشعة بارقة يظهر أثر برقها في مقابلها من غير عروض عيب عليها (واضمم إليك جناحك من الرهب) أي واضمم إليك عضدك وذراعك وهو الجناح (إلى جنبك) من أجل المخافة من العصا أي من أجل دفعها • ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أنه يتخفف ويخلص منه (فذانك) الأمران أي العصا واليد (برهانان) حجتان ظاهرتان على صدقك في دعوى الرسالة (من ربّك) تعالى وقوله (إلى فرعون وملأه) متعلق بمحذوف أي واصلتان إلى فرعون وملأه (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين من حدود الظلم والعدوان •

(قال : رب إني قتلت منهم نفسا ، فأخاف أن يقتلون) في مقابلها (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي) حالكونه (ردأً) أي عونا وظهيراً لي في المكالمات حتى يأتي بالحجة الكلامية ويلقيها إليهم علاوة على المعجزة الربانية (إني أخاف أن يكذبون) إذا تكلمت معهم لأن كلامي ضعيف والمعاند لما أدرك الضعف في الكلام غلب على مقابله (قال) سبحانه وتعالى : (سنشد عَضُدَك بأخيك) إجابة لك فيما أردته (ونجعل لكما سلطانا) أي سيطرة عظيمة جدا (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أي مع وجود آياتنا معكم (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لا غيركم من المعاندين •

(فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا : ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرىً ، وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنا الأَوَّلِينَ(٣٦) وَقالَ مُوسى : رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٣٧) وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ، فَأَوْقِدْ لِي ياهامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ(٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ(٣٩) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ(٤٠) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ(٤١) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ(٤٢) وَلَقَدْ آتينا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنا الْقُرُونَ الأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون)(٤٣)

قوله تعالى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أي ظاهرات الدلالة على صدقه في دعوى الرسالة من الله لأن تلك الآيات من خوارق العادات ولا يقدر أحد على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد ادعى موسى الرسالة منه تعالى ، وقالوا له ما حجتك على صدقك فكأنّه قال حجتي أن يخلق لي ربي من عصاي ثعبانا مبينا ، ومن يدي مصباحاً مضيئاً . وقد أتى بما قاله فقد صدّقه ربه وثبت بين الناس صدقه . ومع ذلك لمّا جاء موسى

بالآيات (قالوا) أي فرعون وملأه : (ماهذا إلا سحر مفترى) أي مختلف مفتعل لم يسبق له مثيل (ما سمِعْنا بِهذا في آباءنا الأولين) واقعا في أيامهم و (قال) موسى ـ عليه السلام ـ بكل سكونة واطمئنان (ربي أعلمُ بمن جاء بِالهُدى من عندِه ، ومن تكون له عاقبة الـدار) وأراد بالموصولين نفسه المباركة يعني لا نهتم بتكذيبكم فإنه عارض يذهب أدراج الريـاح (إنه لا يُفلح الظالمون) أي لأنه ثبت على حسب سنة الله تعالى في العالـم أنه لا يفلح الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالكفر والإشراك والمعاصي ، وغيرهـم بالقتل والتعذيب والمآسي . فالدنيا محكمة العدل وإذا بقي شيء فالآخـرة أجمعُ وأبقـى .

(وقال فرعون) قولا ناشئا من أحد أمرين : فإما كان سيّاسا وحيالا يَعلمُ بوجود الباري تعالى ، ويَعلَمُ أنه ليس في مقام من السماء يصـل إليه ، ولكن علم أن قومه جهلاء حمقى فإذا بنوا له صرحا وصعده ونزل منه إلى الأرض وقال لقومه ماوجدتُ أحدا هناك صدّقوه واعتبروه إلهاً لهم ، وإما أنه كان غبيّاً من الأغبياء ، كما أنه كان من أشقى الأشقياء وظنّ أنه إذا كان موسى صادقا فربه موجود في مستوى معين من السماء ، وإذا صـعد الصرح رآه ، فإن لم يـره فمعناه أنه ليس بموجـود ، ويغلب نفسيا على موسى ـ عليه السلام ـ وهـذا الاحتمال أظهر وأنسـب بتوارثهم على الجهالة العمياء فقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) إلى يومنـا والآن لما جاء موسى يدعي وجود رب للسماوات والأرض فإذا كان صادقا فلابد أن يكون موجودا في الأرض او في السـماء ومادام ليس في الأرض فهو لابد أن يكون في السماء (فأوقد لي ياهامان على الطين) أي اصـنع لي آجُراً (فاجعل لي) منه (صرحا) أي بناء مرتفعا جدا مكشوفا (لعلي أطلعُ إلى إلهِ موسى) أي لعلي أصعد على الصرح ، وأقرب من السماء ،

وأطلع على إله موسى (وإني لأظنه من الكاذبين) في ما يقول من أن الله موجود وهو رب السماوات والأرض •

(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق) أي فبنى له هامان صرحا عاليا في مستوى ارتفاع زائد فصعد عليه وبقي زمانا ، واستعمل ما في إمكانه العالمي من أجهزة الاستطلاع والاستعلام ، ولم يصل إلى أيّ نتيجة ، ونزل وبقي على جهله وغبائه وشقائه أقوى مما كان قبل (واستكبر هو وجنوده في الأرض) أي أرض مصر ونظر إلى من عداهم بنظر التحقير (بغير الحق) بل على وجه الأنانية والاستنكاف من رعاية الغير (وظنّوا أنهم إلينا لا يرجعون) أي وظنوا أن لا إله غير فرعون ، وأن لا حياة إلا ما في الدنيا ، وأنهم إذا ماتوا لا يبعثون ، ولا يرجعون إلى الله للحساب وأخذ الجزاء من العذاب والعقاب (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) بعد عبور موسى وقومه من النيل (فانظر) يا حبيبي (كيف كان عاقبة الظالمين) المعروفين بأشد المنكرات •

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أي وجعلناهم لسوء اختيارهم ، وقلة شعورهم ، وترجيح العادة على العقل ، والمعجل على المؤجل والمؤقت على المؤبد ••• قدوة الضلال يدعون من عداهم إلى الكفر والمعاصي والسيئات فأهلكناهم في الدنيا (ويوم القيامة لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم قطعا • (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) طردا وإبعادا من الله والملائكة والناس على ظلمهم وطغيانهم واعتدائهم على الأبرياء (ويوم القيامة هم من المقبوحين) بين الخلائق أجمعين • (ولقد آتينا موسى الكتاب) بعدما خلص هو وقومه من استيلاء الأقباط وعبورهم النيل (من بعدما أهلكنا القرون الاولى) أقوام الأنبياء المتقدمين (هدى للناس) إلى الشريعة (ورحمة) لهم حيث كان دستورا من مشى عليه سلم (لعلّهم يتذكّرون)

بذلك الكتاب ويذكرون أن الإنسان كائنا من كان إذا تمرد وعصى فعاقبته الخسران ، وإذا آمن وعمل الصالحات فهو من أهل النجاة بين العالمين •

(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأَمْرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَيهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا : رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ !(٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَاأُوتِيَ مُوسَى ! أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا اوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ قَالُو : سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ، وَقَالُوا : إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ : فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَائَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ؟ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(٥١)

ثم أخذ الباري تعالى يبين حقية رسالة حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويدفع عنها أوهام المتوهمين المعاندين ، فيقول : (وماكنت بجانب الغربي) أي بجانب الجبل الغربي من مقام موسى (إذ قضينا إلى موسى

الأمر) أي إذ أنفذنا إليه حكم رسالته والتكلم معه، وأحكمنا نبوته (وما كنت من الشاهدين) أي من جملة الحاضرين للوحي إليه (ولكنا أنشأنا قرونا) من الزمن بعد موسى (فتطاول عليهم العمر) أي فتطاول على أهل القرون الأمد ، فتغيرت الشرائع والأحكام وانحرف الناس عن الحق (وماكنت ثاويا في أهل مدين) أي مقيما في أهل مدين شعيب حتى تسمع منهم بعض ما قصصنا من ورود موسى على ماء مدين ، وما جاء عليه بعد ذلك بحيث (تتلو عليهم) أي تقرأ عليهم بطريق التعلم منهم (آياتنا ولكنا كنا مرسلين) لك وأوحينا إليك آياتنا البينات الناطقة بأحوال موسى من أول نشوئه إلى آخر شئونه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى وقلنا : يا موسى إني أنا الله رب العالمين (ولكن رحمة من ربك) أي ولكن أوحينا إليك القصص رحمة من ربك (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) كطوائف العرب في أم القرى وماحولها (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون بهذه الآيات البينات الواصلة إليك •

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) مما اقترفوه من الكفر والمعاصي (فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أي هلا أرسلته إلينا (فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) وجواب لولا الأولى الامتناعية محذوف أي ما أرسلناك إليهم • ولولا الثانية تحضيضية (فلما جاءهم الحق من عندنا) أي فلماء جاء أهل مكة الكلام الحق من عندنا وأنزلناه على حبيبنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (قالوا : لولا أوتي) أي محمد ــ عليه السلام ــ (مثل ما أوتي موسى) ــ عليه السلام ــ من الكتاب المنزل عليه جملة • يعني أنه لو كان ينزل عليه الكتاب جملة واحدة لآمَنّا به ، فرد الله عليهم بقوله (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟) والحال أنه نزل عليه جملة واحدة • ومن قبل متعلق بقوله تعالى يكفروا أي كيف يدعون

أنه لو نزل القرآن جملة واحدة كما نزل التوراة على موسى جملة واحدة لآمَنّا به ؟ مع أنهم كفروا بما أوتي موسى من قبل هذا الوقت عندما بَعَثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فقالوا : (نجده في التوراة بنعته وصفته) فلما رجع الرهط إلى مكة وأخبروهم بما قالت اليهود أنكروا كتاب موسى كما أنكروا القرآن (وقالوا) هما : (سحران تظاهرا) أي التوراة والقرآن سحران تظاهرا وتعاونا بتصديق كل منهما للآخر (وقالوا : إنا بكل كافرون) أي قال أهل مكة : إنا كافرون بكل من القرآن والتوراة • (قل) يا حبيبي لهؤلاء المشركين الكافرين بكل من الكتابين : (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) في دعوى أنهما سحران تظاهرا وتعاونا (فإن لم يستجيبوا لك) أي فإن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) وهذا القيد لزيادة التقدير فإنه لا شك في أن من اتبع هواه ليس متلبسا بهدى من الله تعالى (ولقد وصلنا لهم القول) أي ولقد تابعنا المذكرات لأهل مكة فانزلنا آية بعد آية لعلهم يتذكرون فيؤمنون بما فيه •

(الَّذِينَ آتَيناهُمُ الكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يؤْمِنُونَ (٥٢) وَإذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا : آمَنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا ، ويَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ اعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقالُوا : لَنا أَعْمالُنا وَلَكُم أَعْمالكم ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الجاهِلِينَ (٥٥) إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ

أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(٥٦)

قوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) يعني الذين آتيناهم الكتاب من قبل نزول القرآن (هم به يؤمنون) أي هم الذين يؤمنون بالقرآن لا أولئك المشركون الذين قالوا سحران تظاهرا • والآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب ، وقيل في أربعين من أهل الإنجيل إثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنّا من قبله مُسْلِمِين) ليس إيماننا شيئا مستحدثا وإنما هو عن معرفة تقادم عهدها وتوارثناها (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن (بما صَبَرُوا) أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين ، أو على الإيمان بالقرآن • (ويدرءون بالحسنة السيئة) أي بالطاعة المعصية ، أو بالحلم أذى الجاهلين، أو بالمعروف المنكر ، أو بالخير الشر ، أو بالعلم الجهل ، أو بالكظم الغيظ ، أو بشهادة لا إله إلا الله الشرك ، أو بالايمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عناد أهل الكتاب (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الله (وإذا سمعوا اللغو) سقط القول (أعرضوا عنه) تكرّما (وقالوا) للاّغين الطاعنين فيهم على إيمانهم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) متاركة لهم (سلام عليكم) قالوه توديعا لا تحية وترفيعا (لا نبتغي الجاهلين) أي لا نبتغي صحبتهم (إنك لا تهدي من أحببت) أي كل من أحببته هداية موصلة إلى المطلوب ، وإنما ترشده وتوجهه إلى الحق وتبلغه كلام الله (ولكن الله يهدي من يشاء) هِدايَتَه (وَهُو أعْلم بالمُهتَدين) أي بالمستعدين لذلك وهو من علم الله تعالى منه حسن الفكرة والاختيار •

(وقالوا : إنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ، أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا ؟ ولكنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعيشَتَها ؟ فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَليلاً ، وكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إلاّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فمتاعُ الحَيوةِ الدُّنْيا وَزينَتُها ، وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟(٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فهُو لاقيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الحيوةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ؟)(٦١)

قوله تعالى : (وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف مِن أرضنا) نزل في الحرث ابن عثمان ابن نوفل ابن عبد مناف حيث أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ، وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا • فرد الله عليهم خوف الخطف ومعنى الخطف الاختلاس بسرعة يعني قالوا : إن اتبعناك وتركنا تقاليد العرب في عبادة الأصنام هاجمتنا واختطفتنا • فقال تعالى في ردهم : (أَوَ لَم نمكن لهم حرماً آمِنا) أي ألم نُهيىء لهم مكانا آمِنا وجعلناه حرما محفوظا من أيدي العابثين ومجمعا للخيرات (يجبى إليه ثمرات كل شيء ؟) أي ثمرات كل شيء مثمر من المأكولات والمشروبات والملبوسات حالكونها (رزقاً) صادراً (مِن لدنا) والجواب إذا كان من العاقل (بلى)

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الحرم آمن بعصمة الله ، وظنوا أن أمنه من موافقة العرب في عبادة الأصنام مع أن الاصنام وعبادتها من محدثات عمرو بن لحى الجار أمعاءه في النار ، ولا يعلمون أن الثمرات تجبى إليهم إجابة لدعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، ويظنون أنها من مسافراتهم بالشتاء إلى اليمن وبالصيف إلى الشام ، ولا يعلمون أن قسما كبيرا من أرزاقهم يأتيهم من الخارج بإلهامنا إلى الناس الطائفين الحجاج والمعتمرين ، وإن كثيرا من التجار يخسرون ولكنهم يربحون بتوفيقي لهم في تيسير اشتراء المواد النافعة وتيسير بيعها للناس فإن معنى قوله (رزقا من لدنا) ليس أن الأرزاق مطلقا تأتيهم من السماء أو من الارض بدون كسب ومحاولة منهم ، فإن ذلك خلاف سنة الله في عباده ، بل معناه أن هناك أسبابا خفية في تحصيل المسببات وتوفيقات وإلهامات في قلوب الناس لتحصيل وسائل المعاش والمعاد ، وذلك لا يوجد إلا من لدن حكيم خبير •

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أي وكثيرا من أهل معمورة في الارض حالتهم الأصلية كانت فقرا ثم مكناهم في الارض وترفهوا فبطروا واغترّوا ولم يشكروا نعمة الله الذي أنعم عليهم ، فأهلكناهم وخلت ديارهم (فتلك مساكنهم) التي في ممرهم في أسفار التجارة وغيرها وتدمرت بحيث (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أي إلا زمانا من المارّة والعابرين، أو إلا قليلا من تلك المساكن عمروه وسكنوا فيه (وكنا نحن الوارثين) منهم إذ لم يبق منهم أناس يخلفونهم أو بقي منهم أناس استبشعوا البقاء فيها فتركوها وانتقلوا إلى بلاد أخرى ، وقومك من الذين كانوا في فقر حال فأسكناهم في أرضنا وأغنيناهم فزادت معايشهم واغتروا ، فإذا لم يؤمنوا ولم يستسلموا لله فإنا نحن نعلم ماذا نفعل بهم ونقدر عليهم في كل تصرف شئناه ونحن أحكم الحاكمين •

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) أي آياتنا البينات الواضحة التي تدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، فإذا قبلوا الدعوة رضيناهم في الدنيا والآخرة، وإذا ردوها رددناهم ودمرناهم على بغيهم وظلمهم (وما كنا مُهْلكي القُرى) أي مُهلكي أهلِها ومدمري أنفسها (إلاّ وأهلُها ظالمُون) وهذه سنتنا في عبادنا إلى يوم الدين • (وما أوتيتم من شيء) من أمور المعيشة (فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها) وتبقى لكم مدة معينة محدودة (وما عند الله) من الجنة ورضوانها ومن محبة الله ورضاه (خير) في حد ذاته لأنه لا ألم معه (وأبقى) وجودا نوعا أو فردا لأنه يستمر ابد الآبدين (أفلا تعقلون ؟) الفرق بين الأمرين أيها العاقلون (أفمن وعدناه وعدا حسنا) في نفسه لأنه من الله وفي متعلقه الموعود به لأنه دخول الجنة (فهو لاقيه) أي فذلك الموصول الموعود مدركه ذلك الأمر الموعود به لأن الله لا يخلف الميعاد (كمن متعناه متاع الحيوة الدنيا) الفانية الفاني ما فيها (ثم هو) أي ذلك الموعود المقطوع (يوم القيامة من المحضرين ؟) للحساب والعقاب والعذاب • والجواب الحق أن ليس الموصولان على حد سواء ، بل الأول فوق الثريا ، والثاني فيما تحت الثرى والأمر كما ترى •

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذين كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟(٦٢) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : رَبَّنا هؤلاءِ الَّذينَ أَغْوَيْنَا ، أغْوَيْنَاهُمْ كَما غَوَيْنَا ، تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ(٦٣) وَقِيلَ : ادْعُوا شُرَكائَكُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، وَرَأَوُا الْعَذابَ لَو أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدونَ(٦٤) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ ، فَيَقُولُ : ماذا أَجَبْتُمُ

المُرْسلِينَ ؟(٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلونَ(٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ(٦٧) ورَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتارُ ماكانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ ، سُبْحانَ اللهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٨) ورَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُم ، وما يُعْلِنُونَ(٦٩) وهُوا اللهُ لاَ إِلهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأولى وَالآخِرَةِ ، ولَهُ الحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٧٠)

قوله تعالى (ويوم يناديهم) ظرف منصوب بأذكر ، أي واذكر يوم يناديهم الله تعالى فيقول : (أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) أي تزعمونهم شركاء لي ، ولما كان موقف النداء موقف الترهيب والإخافة ، وكان توجيه السؤال إلى المشركين توجيها إلى شركائهم أجاب الشركاء عنهم (وقال الذين حق عليهم القول) أي الشركاء الذين ثبت عليهم مقتضى قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، أي قال الشركاء المستحقون لدخول النار : (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أي أغويناهم عن عبادتك وحدك (أغويناهم كما غوينا) أي أغويناهم غيّاً مثل ما غوينا • أي أضللناهم وكانوا مثلنا في الضلال ، (تبرأنا إليك) منهم (ماكانوا إيانا يعبدون) بل كانوا يعبدون هواهم (وقيل : ادعوا شركاءكم) أي فلما تبرأ الشركاء من العبّاد قيل من طرف الله أو من طرف الملك المأمور : ادعوا شركاءكم لعلكم تتفاهمون وتعتذرون (فدعوهم ، فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن كل معونة ونصر لهم (ورأوا العذاب) لأربابهم (لو أنهم كانوا يهتدون) إلى حيلة لدفع العذاب عنهم لنجوا ،ولكن لم يهتدوا ، أو لو كانوا يهتدون في الدنيا إلى الحق ما وقعوا في هذه المآسي •

(ويوم يناديهم) الله تعالى (فيقول) لهم : (ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء ، يومئذ) أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم ، فقد شبهت الأنباء بمن توجه إلى شيء فأتاه العمى ، ولم ير المقصود يومئذ أي يوم القيامة (فهم لا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا (فأما من تاب) إلى الله في وقت الحياة المستقرة (وآمن) بالله وحده لا شريك له (وعمل صالحا) من كف النفس عن المحرمات وفعل الواجبات (فعسى أن يكون) ذلك التائب المؤمن العامل للعمل الصالح (من المفلحين) الناجين من النار (وربك يخلق ما يشاء) من الأعيان والأعراض (ويختار) ويرجح أحد الجانبين على الآخر بمحض إرادته السنية لا موجب عليه ولا مانع (ماكان لهم) أي للناس (الخيرة) أي التخير في خلق الله وأمره أي لا شريك له لأنه هو الخالق وحده ، ولا موجب ولا مانع عليه لأن الله هو المختار . ومعنى هذا نفي تصرف العباد وعلاقتهم في خلق الله ، وهذا هو الإيمان السليم بأن الله هو الفاعل المختار ، وكل شيء يسند إليه بالذات بدون توسط شيىء إلا تلك الأسباب الإعتيادية التي خلقها وأثبتها في قوله وآتيناه من كل شيىء سببا .

وليس معنى قوله تعالى (ما كان لهم الخيرة) أي الإختيار في أفعالهم وآثارهم لأن الكلام هنا في أفعال الباري لا في أفعال العباد . وكذلك أثبت للعباد المكاسب والأفعال في آيات . وقال (لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت) وقال (والله عليم بما يعملون) وقد ثبت بالأدلة القاطعة أن للعباد أفعالا إختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، ولكن للعلماء في تحقيق الاختيار آراء ، والمختار منها رأيان : الأول : رأي أبي الحسن الأشعري . والثاني : رأي أبي منصور الماتريدي ــ رضي الله تعالى عنهما ــ .

اما رأي الإمام أبي الحسن الأشعري ـ رضي الله عنه ـ في كسب العبد فهو مقارنة قدرته وإرادته المتوجهة للعمل الذي يفعله بقدرة الباري تعالى وإرادته . وتوضيحه : أن الله تعالى خلق العبد وخلق فيه حواسا سليمة ، وعلما إجماليا بالأفعال الإختيارية قبل صدورها ، وعلما بحسنها وقبحها ، وخلق فيه إرادة تابعة لذلك العلم مرجحة لبعض الأفعال على بعض . وقدرةً متعلقة بالفعل تابعةً لتلك الإرادة بحيث لو كانت مستقلة في الإيجاد لأوجدها . وينبعث من هذه الإرادة شوق ورغبة في إنجاز الفعل ، وعند ذلك يخلق الله تعالى ذلك الفعل الذي رغب فيه . فكسبه عبارة عن توجيه إرادته للقدرة نحو العمل ، وهذا التوجيه سبب إعتيادي لخلق الله تعالى ذلك الفعل له .

وحقق العلامة الكوراني أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة في العمل بإذن الله تعالى ، وادّعى أن ذلك هو مذهب الاشعري ، لا أنّ قدرته غير مؤثرة أصلا وهذا واضح .

وأما رأي الإمام أبي منصور الماتريدي ـ رضي الله عنه ـ فهو أن الكسب عبارة عن صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل المرغوب عنده ، وأن ذلك أثر لقدرة العبد وصادرة عنه ، وإيجاد الله تعالى الفعل عقب ذلك خلق ، والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين ، فالفعل مقدور لله بجهة الخلق والإيجاد ، ومقدور للعبد بجهة الكسب ، أي صرف قدرته وإرادته إليه . وظواهر الآيات شاهدة بأن العبد كاسب وله كسب صادر منه يترتب عليه الثواب والعقاب ، وأن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . فاختر ما تشاء من الرأيين ، والله سبحانه وتعالى هو الموفق والمعين . ولما قرر الله تعالى أنه بذاته يخلق ما يشاء ويختار ، وما كان لأحد التخير في أفعاله تعالى أكد ذلك بقوله : (سبحان الله) أي

تنزه تعالى بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أو يزاحمه أحد في خلقه واختياره (وتعالى عما يشركون) أي عن إشراك الأصنام التي كان المشركون يزعمون مشاركتها له تعالى في أي عمل من أعماله (وربك يعلم ماتكن صدورهم) أي ما يخفونه في صدورهم (وما يعلنون) من عبادات شاهدة على دناءتهم وقصورهم (وهو الله) أي وهو الذات الواجب الوجود الجامع لكمالاته المنزه عن النقائص المعلم بالاسم الأعظم بين الاسماء الحسنى ، وهو (الله) كما بينه العلماء المحققون (لا إله إلا هو) أي لا واجب في الوجود، ولا خالق للموجود ، ولا من يستحق أن يكون معبودا إلا هو (له الحمد في الأولى والآخرة) لأنه هو المنعم بالنعم الباطنة والظاهرة (وله الحكم) في خليقته بالمغفرة لأهل الطاعة والعذاب لأهل المعصية (وإليه ترجعون) للحساب والجزاء والثواب والعقاب •

(قُلْ : أَرَأَيتُم إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمداً إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِياءٍ ؟ أَفَلا تَسْمَعُونَ ؟(٧١) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟(٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فيهِ ، ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ(٧٣) وَيَوْمَ يُناديهِم فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟(٧٤) ونَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّة شَهِيداً ، فَقُلْنا : هاتُوا بُرْهانَكُمْ ، فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ للهِ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ماكانُوا يَفْتَرُونَ)(٧٥)

قوله تعالى (قل أرأيتم) أي أخبروني (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) أي دائما وهو عند البعض من السرد بمعنى المتابعة ، والميم زائدة فوزنه فعمل ، ونظيره دلامِصٌ من الدلاص ، يقال : درع دلاص أي لينة (إلى يوم القيامة) متعلق بسرمدا (من إله غيرُ الله يأتيكم بضياء ؟أفلا تسمعون) الدلائل التي ترشدكم إلى حق اليقين (قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله" غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟) الآثار والشواهد الدالة على أن الله رب العالمين • فإن قيل إذا جعل الله سبحانه وتعالى الليل أو النهار مستمرا إلى يوم القيامة فلا مجال للإتيان بخلافه لأن يوم القيامة ليس فيه المَلَوان على ما نعلم • أجيب بأن المراد من الجعل إرادته أي أنه إن أراد أحد الأمرين فمن هو القادر على منازعته في إرادته ذلك ؟

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي بالنهار • ففي الآية أمر بديع معروف باللف والنشر المرتب • ويمكن أن يقال : إن كلا من الليل والنهار قابل للسكون فيه وابتغاء الفضل مما يكفيه ، فالكل للكل • كما يمكن أن يقال : إن الخالق عليم وخبير بأن الليل عندنا نهار والنهار ليل في نصف الكرة المقابل ، فليلنا الذي هو محل لسكوننا نهار بالنسبة إلى أهله والعكس بالعكس ، والمعنى حينئذ من يأتيكم بليل تسكنون فيه أنتم وغيركم يبتغون من فضل الله فيه ؟ لأنه نهارهم ومن يأتيكم بنهار تبتغون فيه من فضل الله أنتم ويسكن فيه غيركم ؟ لأنه ليله (ولعلكم تشكرون) أي ولكي تشكروا نعمته تعالى جعل لكم الظرفين بالوجهين المعروفين (ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) أي تزعمونهم شركائي (وَنَزَعْنا مِن كل أمة شهيدا) يشهد عليهم بما كانوا عليه • وذلك الشهيد الذي شهادته كافية شهادةً نبي تلك

الأمة كما تشهد به الآيات الأخرى • (فقلنا) لكل أمة من تلك الأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ماكنتم تدينون به (فعلموا أن الحق لله) في الألوهية لا يشاركه فيها أحد (وضل عنهم) وغاب عنهم (ما كانوا يفترون) •

(إنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ ، وآتَيناهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ : لا تَفْرَحْ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ(٧٦) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ، وَلا تَبْغِ الفَسادَ فِي الأَرْضِ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ(٧٧) قالَ : إنَّما أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِي، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً ؟ وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ(٧٨) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ، قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيوةَ الدُّنْيا : يالَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ ، إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(٧٩) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ ، وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً ، وَلا يُلَقَّيها إلاَّ الصّابِرُونَ(٨٠) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ ، فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَيَقْدِرُ ! لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا ، وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ !(٨٢)

تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانوا يَعْمَلُونَ)(٨٤)

قوله تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى) أي كان من بني إسرائيل، فقيل : إنه كان ابن عم موسى ـ عليه السلام ـ • وقيل ابن خالته • وقوله (فبغى عليهم) أي فطلب الفضل عليهم بأن يكون آمرا لهم يأمرهم وينهاهم، أو تكبر عليهم ، وكان له كبرياء (وآتيناه من الكنوز) أي الأموال الثمينة التي تدخر للمستقبل (ما إنّ مفاتحه) أي المقدار الذي أن مفاتيح صناديقه (لتنوء) أي لتثقل حملاً (بالعصبة) أي بالجماعة الكثيرة من (أولي القوة) قيل في عدده من الخمسة عشر الى الأربعين • وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة • وقيل غير ذلك (إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين) أي لا تبطر بهذا المال الوافر ، ولا تتكبر بسببه على ضعفاء الأحوال (إن الله لا يحب الفرحين) كذلك (وابتغ في ما آتيك الله) من الأموال (الدار الآخرة) بصرفها في وجوه الخير (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أي حظك من متاعها المباح من المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح ••• وسائر ما طاب ولذّ حسب العادة (وأحسن) أي إلى عباد الله (كما أحسن الله إليك) بإفاضة هذه الأموال الطائلة عليك (ولا تبغ الفساد في الأرض) بصرفه في طرق الشرور والفسوق والفجور النفسية وإثارة الشغب والعداء بين الناس (إن الله لا يحب المفسدين • قال) قارون بكل صلافة ما آتاني الله بإفادة منه وإفاضة (إنما أوتيته على علم عندي) أي على وجه الاكتساب بالطرق العلمية في الاقتصاديات عندي ، ولم ينظر إلى أن كل إنسان خلقه ورزقه وماعنده بتوفيق منه تعالى (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من

القرون من هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعا ؟) يعنى إن قارون لما قال ما قال في جواب إرشاد المرشدين ونصيحة الناصحين كان معتمداً على قوته الاقتصادية ، وكثرة جماعته وطغى وبغى وجهل وغفل ، ولم يدر أن القوة والعزة لله جميعا ، وأن من طغى وبغى فعاقبته الدمار ؟ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من أهل القرون الطاغية الباغية على الحق أناساً بغاة طغاة ممن هو أشد قوة من قارون وأكثر جمعا منه ؟ ولا شك أنه سيحيق به ما حاق بهم ويهلكه القادر المقتدر كما أهلك الأولين (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) عند حلول وقت الانتقام .

ثم أخذ الباري سبحانه يحكي مقدمات هلاكه وقال : (فخرج على قومه) متبرجا (في زينته) من فرسه وحشمه وأتباعه بحيث حصل تظاهر لهم على عيون الناس حتى (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) أي نصيب كبير لا يقدر قدره (وقال الذين أوتوا العلم) بأمور الآخرة ونعيمها وجحيمها : (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقيها) أي ولا يلقى تلك المثوبة الحسنى (إلا الصابرون) على تعب كف النفس عن الشهوات وصرف العزيمة لأداء الواجبات . (فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له) أي لقارون (من فئة) أي جماعة مشتق من فأوت قلبه إذا ميلته ، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض ، أو من فاء يفيىء إذا رجع لرجوع الأفراد بعضهم الى بعض أو رجوع كلهم الى سيدهم (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) الغالبين بنفسه أو من الممتنعين عن عذاب الله تعالى في الآخرة .

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) أي تمنوا نيل ما ناله في الأيام السابقة (يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي

يبسطه ويقدره بمقتضى مشيئته لا لكرامة ذلك الشخص عنده ؛ فرب كافر في نعمة ورب مؤمن في زحمة (لولا أن من الله علينا) بأن أعطانا الكفاف ولم يعطنا ما يوجب البغي والخلاف (لخسف بنا) مثل ما خسف بقارون لتوليده فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله مثل ما خسف به (ويكأنه لا يفلح الكافرون) بالله أو بنعمته أي الذين يعتبرون أرزاقهم من أنفسهم لا من خلاقهم (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض) أي غلبة وقهرا على العباد الصالحين (ولا فسادا) ظلما عليهم (والعاقبة) أي العاقبة الحسنة والعافية المستمرة الهنيئة المريئة (للمتقين) الذين يتقون مخالفة ربهم بإيمان ويقين •

(من جاء بالحسنة) إعتقادية أو عملية (فله خير منها) من عشرة إلى سبعمائة أو أزيد (ومن جاء بالسيئة) كذلك (فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ماكانوا يعملون) وإذا كان ما عمله من باب تسنين السنن السيئة فوزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة له أصل الجزاء لا مضاعفاته •

روي أنه كان يؤذي ــ موسى عليه السلام ــ كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد ، فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بني إسرائيل ليرفضوه فأغرى امرأة بغيَّة بالمال لترميه بنفسها • فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا ، فقال : من سرق قطعناه ، ومن زنى محصنا رجمناه ، ومن زنى غير محصن جلدناه • فقال قارون: ولو كنتَ • قال: ولو كنتُ • قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فاستحضرت ، فناشدها موسى ــ عليه السلام ــ بالله أن تصدقَ فقالت : جعل لي قارون جعلا على أن أرميك بنفسي ، فخرّ موسى شاكيا منه إلى ربه • فأوحى الله إليه أن مُرِ الأرض بما شئت • فقال : يا أرض خذيه ، فأخذته إلى ركبتيه • ثم قال : خذيه ، فأخذته إلى وسطه ، ثم قال : خذيه،

فأخذته إلى عنقه • ثم قال : خذيه • فخسفت به • وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه • فأوحى الله إليه : ما أفظك ! استرحمك مرارا فلم ترحمه • وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته • ثم قال بنو إسرائيل إنما فعله موسى ليرثه • فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله •

(إنَّ الَّذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ ، قُلْ : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ(٨٥) وما كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ(٨٦) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٨٨)

قوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) نزلت على الرسول بالجحفة بعد أن خرج ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مكة مهاجرا واشتاق إليها • فيقول تعالى (إن) الله (الذي فرض عليك القرآن) أي أنزله عليك وفرض عليك العمل به وتبليغه إلى العالمين وجعلكَ بحيث يأتيك الملك الموكل بالوحي من عالم الغيب هو يَردّك غالبا منتصرا إلى بلدك الذي تشتاقه ، ويسمى بلد الرحيل معادا لأنه ينصرف في البلاد لكسب المعيشة ثم يعود إليه • ويحتمل أن يقال معاد لقب لمكة لأنه يعود إليها الناس في كل سنة لأداء فريضة الحج • (قل ربي أعلم من جاء بالهدى) وهو محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ومن هو في ضلال مبين) وهم المشركون المفسدون (وما كنتَ ترجو أن يلقى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك) أي إن رحمة الله واسعة وقد اختصك الله بحظ وافر منها من

جملتها إنزال القرآن إليك بدون حسبان منك ، إذ ماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بأي وسيلة إلا وسيلة فيضان الرحمة بدون اكتساب لك فيه (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) وهذه العبارة تعريض بالناس حتى لا يكونوا عونا للمشركين •

(ولا يصدنك عن آيات الله) أي ولا يمنعنك عن تلاوة آيات الله واتباع أحكامها وتبليغها للناس بعد إذ أنزلت إليك أي بعد استقرارها عندك (وادع إلى ربك) جميع المكلفين في العالم فإنك مبعوث رحمة للعالمين (ولا تكونن من المشركين • ولا تدع مع الله إلها آخر) وابلغ الناس أن لا يدعوا مع الله إلها آخر ، فإن التوحيد أساسُ الإسلام •

(لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه) أي كل حي يموت إلا ذاته الذي هو حي لا يموت ، وكل ممكن قابل للهلاك والفناء إلا ذاته (له الحكم) أي القضاء النافذ على الكائنات (وإليه ترجعون) عند البعث والنشور لنيل الجزاء عذابا وعقابا أو جنة ورضوانا • جعل الله رضاءه نصيبنا عند اللقاء برحمته ، إنه أرحم الراحمين •

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ؟(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ(٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ أَنْ يَسْبِقُونا ؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ(٤) مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥) وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ(٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئآتِهِمْ ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ)(٧)

قوله تعالى (الم) الكلام فيه كما في نظائره . وقوله (أحسب الناس) ... الآية نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين ، وقيل : في عمار ـ رضي الله عنه ـ وقد عذب في الله تعالى ، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، رماه عمار بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله ، فجزع عليه أبواه وامرأته . وحسب هنا من أفعال القلوب فيقتضي مفعولين

أولهما أن يتركوا ، وثانيهما أن يقولوا • وأن في الموضوعين ناصبة • ومعنى الآية الكريمة : أحسب الناس تركهم حالكونهم غير مفتونين لمحض قولهم آمنا بالله ورسوله ؟ لأن الإيمان بالله ورسوله وإن كان ينجي الإنسان من النار لكن يقتضي الصعود في الدرجات التي تترتب على المشاق من المهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ، وقوله تعالى : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) حال من الناس أي والحال إنه جرى أمرنا وقضت سنتنا في العباد بإلقاء المكلفين المطيعين في مشاق الأمر والنهي ، وقد فتنا الذين من قبلهم فلم تمض مدة بدون التبعات والمصائب على المسلمين الذين سبقوهم (فليعلمن الله الذين صدقوا) في قولهم آمَنّا (وليعلمن الكاذبين) في ذلك • وذلك لأن قبول البلاء والمصائب دليل الثبات والإخلاص في الإيمان كما أن المقابل دليل المقابل • ومعنى علمه تعالى بذلك تعلق علمه بحسب الحال الجاري ، وإلا فهو عالم بجميع الأحوال من الأزل إلى الأبد •

وقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟) معناه كما أن الناس المؤمنين لا يخلصون من الفتن كذلك الناس العاملون للسيئات لا يفوتون من أيدينا ولا يخرجون من دائرة قدرتنا (ساء مايحكمون) به حكمهم بأنهم يسبقوننا وإنا لا نأخذهم ولا نؤاخذهم (من كان يرجو لقاء الله) أي من آمن بالله ورسوله وسعى في الإطاعة ورجا لقاء الخير من لقاء ربه يوم الحساب فإنه فائز بالخير لا شبهة فيه لأن أجل الله أي الأجل المحدود المعين لنيل الجزاء (لآت) لا محالة ولا شك (وهو السميع) لأقوال العباد و (العليم) بأعمالهم وعقائدهم (ومن جاهد) في الدين (فإنما يجاهد لنفسه) وجزاؤه عائد إليه (إن الله لغنيّ عن العالمين) • (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) السابقة على الإيمان بالإيمان واللاحقة

بما عمله من الصالحات (ولنجزينهم أجرهم) على الأعمال الحسنة (أحسن الذي كانوا يعملون) أي أحسن جزاء أعمالهم .

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً ، وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي مالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ(٩) وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمَنَّا بِاللهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ، وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّك لَيَقُولُنَّ : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ . أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ العالَمِينَ ؟(١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المُنافِقِينَ)(١١)

قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) أي أمرناه برعايتهما حق الرعاية . ويدخل في ذلك الإنفاق عليهما عند إعسارهما ويسار الولد ، واحترامهما وإطاعتهما حسب العادة في الأمور الحيوية وأمور أخرى مفصلة في محلها (وَإن جاهداكَ لِتُشرِكَ بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) يعني وإن كلفاك بأن تشرك بي ما ليس لك علم بمشاركته معي في القدرة وسائر صفات الألوهية فلا تطعهما ، لأن الإشراك بالله إهلاك للنفس أبديا ، ولا يرضى به الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . (إلي مرجعكم فَأُنَبئكم بما كُنتم تعملون) أي مرجع من آمن ومن كفر ومن أخذ بتوصيتنا ومن تركها فأجازي كلا منكم ، وأطلعكم على ما تستحقون . والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، فإنه حين أسلم أمرته أمه أن يتراجع فلم يطعها ، وأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصلتها والعطف عليها

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في زمرة الخيار منهم في الدين .

(ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله) أي في سبيل الله بأن عذبهم المشركون على الإيمان بالله تعالى (جعل فتنة الناس) وتعذيبهم له في الدنيا (كعذاب الله) أي كتعذيب الله تعالى له في الآخرة ، فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه ، وأطاعوا الناس ورجعوا إلى الكفر ، والعياذ بالله (ولئن جاء نصر من ربك) أي للمؤمنين بأن صارت لهم غنيمة (ليقولُنّ : إنا كنا معَكم) فأشركونا فيما عندكم من الغنائم والخيرات (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟) والجواب : بلى أي فيعلم أن أولئك الناس كانوا من الكافرين ولم يكونوا مع المسلمين (وليعلمن الله الذين آمنوا) مخلصين لله (وليعلمن المنافقين) في الدين .

(وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ ، وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكاذِبُون(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ ، وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ)(١٣)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) أي أنهم لتوغلهم في الكفر وشدة حالهم فيه ومحبتهم له يسعون في إرجاع المسلمين إلى الكفر ويعدونهم بحمل خطاياهم ، كما قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) السابق الذي كنتم فيه معنا (ولنحمل خطاياكم) إن كان ذلك خطيئة (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) قليل أو كثير (إنهم لكاذبون) في أنهم يحملونها ، لأنّ أحدا لا يحمل أوزار أحد (وليحملن

أثقالهم) أي أثقال ما اقترفوه من الكفر والفسوق والسعي في إرجاع المسلمين إلى الضلال (وأثقالا مع أثقالهم) هي أثقال تسببهم في إضلال المسلمين وإرجاعهم إلى الكفر إذا لم يطيعوهم وما يساوي أثقال كفرهم الإرتدادي إذا أطاعوهم بدون أن ينقص من أثقال المطيعين شيىء (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) من الكلمات الكاذبة التي ينطقون بها في خدع الناس وردهم إلى الضلال •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ ، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وهُمْ ظالِمُونَ(١٤) فَأَنجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ(١٥) وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : اعبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ(١٦) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً، وَتَخلقُونَ إِفكاً ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ، فابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ ، وَاعْبُدُوهَ وَاشكُرُوا لَهُ ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَما عَلى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ)(١٨)

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه) تذكير لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بسنته التي مرت في العالم بين الأنبياء وأممهم بإطاعة بعض وعصيان بعض ، وبأن العاقبة الحسنى للمتقين ، فقال : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم) أي فيدعوهم ويرغبهم في الطاعة ويرهبهم عن المعصية لاسيما الإشراك الذي هو رأس الخطايا (ألف سنة إلا خمسين عاما) والظاهر أن هذه المدة مدة دعوته الناس إلى الله ، وأما عمره قبل ذلك وبعده فغير

مقصود بالذكر ، وطول أعمار الأحياء تحت قدرة من بيده الخلق والإحياء والإماتة • ولا مانع من أن يكون هناك أسباب لقوة الأجساد وتركيبها ومقاومتها للأمراض والأعراض فإن ذلك مما يدعيه أهله (فأخذهم الطوفان) عقيب المدة المذكورة على قضاء مقرر من الله • والطوفان مصدر يطلق على كل مايطوف بالشيء على شدة سواء كان سيلا أو نارا أو عدوا أو ريحا أو غيرها (وهم ظالمون) أي والحال أن القوم ظالمون أنفسهم بالإشراك وسائر المعاصي (فأنجيناه) أي نوحا (وأصحاب السفينة) أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه (وجعلناها آية) أي عبرة وعظة (للعالمين) •

(وابراهيم) منصوب بأذكر (إذ قال لقومه) العابدين للأصنام (اعبدوا الله) أي وحده واتقوه عن أن تشركوا به شيئا (ذلكم خير لكم) مما أنتم عليه في الواقع (إن كنتم تعلمون) أي تعلمون الحقائق وتميزون بين الخير والشر ذلك لأن عبادتكم التي أنتم عليها لا منفعة فيها ، ولا يوافق واقع العقل (إنما تعبدون من دون الله أوثانا و تخلقون) أي وتختلقون (إفكا) أي كذبا (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) يصل إليكم لانتفاعكم من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغيرها (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) أي اعبدوا الله وحده (واشكروا له) على نعمه التي لا تحصى (إليه ترجعون) فاعبدوه كي ترجعوا إليه وأنتم مقبولون (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ولم تكن عاقبتهم إلا الخسران المبين (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أي التبليغ الواضح للمكلفين •

(أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ

الآخِرَةَ ؟ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ ، وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ(٢١) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ولا فِي السَّماءِ ، وما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ(٢٢) والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ ولِقائِهِ أولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(٢٣) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قالُوا : اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ، فَأَنجيهُ اللهُ مِنَ النَّارِ ، إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٤) وَقالَ : إنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيوةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْويكُمُ النَّارُ وما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ(٢٥) فآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ : إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي إنَّه هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(٢٦) وَوَهَبْنا لَهُ إسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنيا ، وَإنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)(٢٧)

قوله تعالى (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق) كلام من جانب الباري سبحانه يستنكر به إنكار الناس للبعث وإهمالهم للنظر في الدلائل الدالة على وجود خالق واجب الوجود يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد • أي أو لم ينظروا إلى كيفية خلق الله تعالى للحوادث سواء كانت لها مادة سابقة كالأولاد من النطف ، والشجرات والمزارع من البذور ؟ أو لم تكن لها مادة كذلك كخلقه تعالى لبعض أشجارٍ ونباتٍ أورادٍ لم تكن أمثالها موجودة في البلاد (ثم يعيده ؟) أي ثم بعد فناء ذلك المخلوق في وقته المعين يعيده

في السنة التالية مثل ماكان أو أحسن منه . فهذه الحوادث المرئيّة التي يرونها بالعين ثم تفنى ثم تعاد دليل على أن الله سبحانه وتعالى يخلق عباده في الدنيا ويربيهم ويرزقهم ثم يميتهم ، وإذا جاء وقت البعث يعيدهم ويبعثهم وليس ذلك من قدرة الله تعالى إلا كخلق النبات والأوراد (إن ذلك) المذكور من الخلق وإفنائه ثم الإعادة (على الله) تعالى (يسير) سهل لا تعب فيه بالنسبة لقدرته تعالى فإن الممكنات متساوية بالنسبة إليه تعالى (قل) يا إبراهيم لقومك سيروا في الأرض وانظروا إلى الموجودات المدركة فيها (كيف بدأ الله الخلق) فأنشأها من العدم ورباها وأوصلها إلى منتهى ما قرر لها من المراتب وهي على أطوار متنوعة وعلى جهات شتى من الأفكار والأعمال . فهذا البدء والإنشاء المعلومان دليل على قدرته تعالى على الإعادة ، فإذا تفكرتم فيها علمتم أنه تعالى يبدأ خلق ما شاء ثم يفنيه ويميته (ثم الله) تعالى (ينشىء النشأة الآخرة) بعد هذه النشأة الأولى التي ترونها (إن الله على كل شيء قدير) وإذا جاء وعد الآخرة (يعذب من يشاء) من عباده (ويرحم من يشاء) منهم (وإليه) تعالى لا إلى غيره (تقلبون) أي تردّون (وما أنتم بمعجزين) لله (في الأرض) أي بالهرب منه والالتجاء إلى ملجأ (ولا في السماء) كذلك (وما لكم من دون الله من ولي) يتولى أمركم فيحرسكم من البلايا ويمنع نزولها (ولا نصير) يدفعه عنكم .

(والذين كفروا بآيات الله) البينات الدالة على قدرته في كل ما أراد التصرف فيه (و) كفروا بـ (لقائه) أي بالبعث بعد الموت (أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب) مهين محقر لهم على رءوس الأشهاد في الآخرة و (أليم) شديد الألم لا يستطاع تحمله في هذه النشأة ولكن لا ممات في النشأة الآخرة فيبقون معذبين (فما كان جواب قومه) أي قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ (إلا أن قالوا) أي أمراؤهم لغلمانهم أو بعضهم لبعض

(اقتلوه) أي إبراهيم (أو حرّقوه) واتفقت كلمتهم أخيرا على إحراقه فأوقدوا له نارا ملتهبة عديمة النظير ، ورموه فيها بالمنجنيق ، وكان اليوم يوما مشهودا رهيبا فأنجاه الله من النار كما قال تعالى (قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم • إن في ذلك لآيات) عجيبة عظيمة عالمية (لقوم يؤمنون) بالله وآياته •

(وقال) إبراهيم ـ عليه السلام ـ مخاطبا لهم بعد نجاته منها : (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مَوَدَّةَ بينكم في الحيوة الدنيا) أي لتجعلوا عبادتها والاجتماع عندها ذريعة لمحبة بعضكم مع بعض في مابينكم لاستفادة ماينفعكم في الحياة الدنيا أي أن عقلاءكم وساستكم يعلمون أن ليس وراء عبادتها منفعة واقعية إلا هذه الأشياء التي ذكرناها (ثم يوم القيامة) عندما يظهر الحق ويزهق الباطل (يكفر بعضكم ببعض) أي بعض الكفار الصغار يكفر بالبعض من الكبار ، ويقول له : أنتم الذين أغويتمونا وعودتمونا على هذه الخرافات (ويلعن بعضكم بعضا) أي يلعن فريق منكم فريقا آخر على المنهج نفسه (ومأويكم) جميعا الكافر والمكفور واللاعن والملعون (النار) نار جهنم التي برزت للغاوين (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم هناك كما خلصني ربي من ناركم الموقدة في هذه الدنيا (فآمن له لوط) أي فآمن به ابن أخيه لوط عندما استنبأ الله إبراهيم واستقر على الدعوة إلى التوحيد (وقال) إبراهيم بعد النجاة من النار (إني مهاجر) من وطني العراق ومن قومي الوثنيين (إلى ربي) أي إلى الجهة التي أمرني ربي بالمهاجرة إليها (إنه هو العزيز الحكيم) •

(ووهبنا له إسحق ويعقوب) أي ووهبنا لإبراهيم إسحق ولدا من صلبه ويعقوب نافلة له (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) فمن ذريته إسماعيل وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن من ذريته إسحاق

ويعقوب ونسله الأسباط الاثنا عشر الذين انتشرت فيهم النبوة والكتاب ، وكما أن من ذرية ابنه مدين شعيب ـ عليهم السلام ـ (وآتيناه أجره في الدنيا) بإنجائه من النار ومن نمرود الجبار ، وتوفيقه على بناء الكعبة المشرفة ، وقبول دعوته في ذريته ، وإبقاء لسان الصدق له في الآخرين (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي الراسخين في الصّلاح المثابين بجزيل الثواب إلى أبد الآبدين .

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ(٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ، وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا : ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ(٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا : إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ(٣١) قَالَ : إِنَّ فِيهَا لُوطاً ، قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ؛ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، وَقَالُوا : لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(٣٥)

قوله : (ولوطا) عطف على إبراهيم ومنصوب بفعل مقدر ، أي اذكر لوطا (إذ قال لقومه) موبخا لهم (إنكم لتأتون الفاحشة) أي الفعلة الفاحشة حالكونها (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) أي إنكم أبدعتم هذه الفاحشة فعليكم وزرها ووزر من يعمل بهاإلى يوم القيامة • ثم استفهم على سبيل الاستنكار وقال : (أئنكم لتأتون الرجال) أي تطأونهم (وتقطعون السبيل) أي تقطعون الطريق المعتاد لسير الناس مخافة أن تفعلوا بهم هذه الفاحشة (وتأتون في ناديكم المنكر ؟!) من الهمز واللمز والحذف بالمارين وغير ذلك من أعمالكم القبيحة الحقيرة (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فيما تهددنا به وأنت على بصيرة عن وقوعه ونزوله • ولما أن جاوبوه بهذه العبارة (قال : رب انصرني على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وغيرها من وجوه الفساد • (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أي بالبشارة بإسحاق ويعقوب (قالوا) أي لإبراهيم (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) أي قرية سدوم وهي أكبر قرى قوم لوط (إن أهلها كانوا ظالمين) بابتداع الفاحشة وغيرها من أنواع المعاصي • (قال) أي إبراهيم (إن فيها لوطا) فكيف تهلكون أهلها (قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أي الباقين في القرية حتى تهلك مع أهلها •

(ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) أي عرض المساءة والسآمة عليه انفعالا وتألما من ترقب تعرض أهل قريته لهم (وضاق بهم ذرعا) أي وضاق بتدبير أمرهم ونجاتهم طاقته فإن ضيق الذرع كناية عن عدم القدرة بالأمر (وقالوا : لا تخف ولا تحزن) أي لا تخف من تمكنهم منّا ولا تحزن على سوء قصدهم إيانا أبدا (إنا منجوك وأهلك) فلا يصيبكم العذاب (إلا امرأتك إنها كانت) في قضاء الله (من الغابرين) أي الباقين في العذاب •

وقوله تعالى (إنا منزلون) أي إنا منزلون بأمر الله تعالى (على أهل هذه القرية) الظالم أهلها (رجزا من السماء) أي عذابا نازلا منها (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم ، ثم قال تعالى (ولقد تركنا منها) أي من قرية لوط (آية بينة) أي علامة واضحة على عظمتنا وغلبة قدرتنا وهي الآثار الباقية المشهودة . وقيل : هي الماء الأسود على وجه الارض . وقيل : هي الحجارة التي أمطرت عليهم ... وتلك الآية نافعة (لقوم يعقلون) .

(وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، فَقالَ : ياقَوْمِ اعبُدُوا اللهَ وَارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ ، ولا تعْثَوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٣٦) فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَتهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ(٣٧) وعاداً وثَمُودا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ(٣٨) وقارُونَ وفِرْعَوْنَ وهامانَ ، ولقد جاءَهُمْ موسى بِالبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ ، وَما كانُوا سابِقِينَ(٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً ، ومِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، ومِنهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأرضَ ، ومِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٤٠)

تقع بين الشام والحجاز

قوله تعالى (وإلى مدين) أي أرسلنا إلى أهل مدين (أخاهم شعيبا ، فقال) لهم (يا قوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليوم الآخر) أي وتوقعوا رحمته ومغفرته عند ذلك . وأما إذا لم تعبدوا الله وحده فأنتم كافرون ولا مجال لتوقع المغفرة (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أي ولا تفسدوا

في الأرض بما يقال له إفساد قليلا أو كثيرا ، فالحال مؤكدة لمعنى العامل ومعنى التأكيد ذلك (فكذبوه) في رسالته ونصيحته وتهديده (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجفة) أي الزلزلة الشديدة ، وجاء في سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) ولا منافاة فهناك ذكر السبب وهنا المسبب فإن الرّجفة نشأت من تلك الصّيحة . وإذا قيل : إن الصيحة والصوت الشديد كان من انشقاق الأرض فالانشقاق أيضا حادث بقدرة الله والملك الصائح مأمور من الله (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي باركين على الرُّكَب ، وهو كناية عن الموت أي فأصبحوا ميتين . ولا يلزم من ذلك بقاء جثثهم لأن منهم من وقع تحت الارض ، ومنهم من دفعته الزلزلة إلى غير المحلّ المستقرّ ، والمقصود أنهم ماتوا هناك (وعادا وثمودا) أي وأهلكنا عادا وثمودا (وقد تبين لكم من مساكنهم) أي وقد ظهر لكم إهلاكهم من مشاهدة تدمير مساكنهم ويجوز أن يكون الفاعل من بمعنى بعض أي وقد ظهر لكم بعض أجزاءِ مساكنهم المدمرة بحيث تطلعون من ذلك على فناء سكانها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) بالاغترار والأهواء الباطلة (فصدهم عن السبيل) المعهود لعباد الله المؤمنين (وكانوا مستبصرين) أي عقلاء بصراء في الدنيا وكان بإمكانهم التمييز بين الحق والباطل لو كانوا متفكرين .

(وقارون ، وفرعون ، وهامان) أي وأهلكنا . وإنما قدم قارون للدلالة على أن الاغترار بالمال ربما يكون أفحش من الاغترار بالسلطنة والجاه ، ولتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ابتلائه على أيدي أقاربه وذلك لأن قارون كان ابن عم موسى أو ابن خالته ، ومع ذلك حفر له بئرا يضيع فيها شخصه وشرفه ، ولكن لا يحيق المكر السيء إلا بأهله (ولقد جاءهم موسى بالبينات) بالأدلة الواضحة على وجود الله تعالى وقدرته

وثبوت شريعته ورسله (فاستكبروا في الأرض) من قبول الإيمان (وما كانوا سابقين) أي فائتين أمر الله أي ماخلصوا وقد أدركهم رب العالمين •

(فَكُلاًّ أخذنا بذنبه) وإذا علمت استكبارهم فاعلم أن كلا منهم أخذناه وعذبناه بسبب ذنبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أي ريحا شديدة الهبوب والتموج فيها حصباء تلقيها عليهم وهم قوم عاد ولوط (ومنهم من أخذته الصيحة) وهم قوم ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون (ومنهم من أغرقنا) وهو فرعون ومن معه وكذا قوم نوح ـ عليه السلام ـ (وما كان الله ليظلمهم) أي وما كان الله تعالى محبا للمعاملة معهم معاملة تشبه الظلم ، أي يأخذهم بدون كفر وعصيان (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالإشراك والاعتداء على نفوس الناس وأموالهم وأحوالهم •

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٤١) إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ(٤٣) خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(٤٤) اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)(٤٥)

قوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) المثل الشأن والصفة العجيبة • والعبارة تحتمل تشبيه المفرد بالمفرد • ويحتمل

التشبيه المركب وبما أنّ المقصود من التشبيه لا يتحقق بتمامه إلا بملاحظة الملابسات فالأحسن أن يعتبر من التشبيه المركب ، وحاصله أن صفة الذين اتخذوا من دون الله أولياء من الأصنام المصنوعة الجامدة التي لا يحصل منها أي نفع أو ضرر مع أنهم يعتمدون عليها ويفرحون بها كمثل العنكبوت حيث اتخذت بيتا وسكنته واطمأنت به ، وتحسبه مستقرا رصينا حصينا ، (والحال إنّ أوهن البيوت) المبنية من جانب الإنسان والسّباع والطيور والحشرات (لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلمون) بالمآل لمحاولاتهم اليائسة اليائسة ما اتخذوا الأوثان والأصنام أولياءَ ولكن لا يعلمون •

(إن الله يعلم مايدعون من دونه من شيء) وما إما نافية أي يعلم أنهم لا يدعون شيئا له قيمة ، أو استفهامية ومعلقة لما قبلها عما بعدها ، أو موصولة أي يعلم الذي يدعونه من دونه فيكون من شيىء بيانية ، كما يحتمل أن تكون مصدرية (وهو العزيز) الغالب على أمره (الحكيم) في الإمهال والاستعجال للكافرين (وتلك الأمثال نضربها للناس) لتوضيح المعقول بتشبيهه بالمحسوس ولتزكية النفوس عن أقذار الجهل وأوساخ الكفر (وما يعقلها إلا العالمون) أي وما يفهم الدقائق المودعة في تلك الأمثال ونتائجها ومدى تأثيرها في العقول إلا العالمون بالأمور المتبصرون (خلق الله السموات والأرض) وما فيهما وما في ضمنهما وما عليهما وما يصدر من سكانهما (بالحق) أي الوجه المطابق للواقع فكيف يكون الخلق أو إرسال الرسل وإنزال الكتب عبثا ؟ بل كل ذلك حق روعي فيه الحكم والمصالح (إن في ذلك لآية للمؤمنين) •

(اتل ما أوحي إليك من الكتاب) أي لازم تلاوته لأنها شرح للصدر ، وتيسير للعسر ، وتقرب إلى الله ، ورفعة للدرجات (وأقم الصّلوة) أي أقمها كما تعلمها أنت وبكيفياتها التي شرعت لها (إن الصلوة) المعهودة التي تؤدى

كمناجاة مع الله سبحانه وتعالى (تنهى عن الفحشاء والمنكر) أي تدفع اتصاف المصلي بها ، ويبقى نظيفا عفيفا وترفعه عن المتوسخ بها فإنها دواء يعالج به الداء . ذلك لأن الصلاة ذكر الله أي تذكر وجوده وآلائه وجوده وحضور للنور الحاصل في ركوع المصلي وسجوده (ولذكر الله أكبر) ثوابا ودرجة من غيره لأن غيره وسيلة والذكر غاية وأين البداية من النهاية ؟ (والله يعلم ما تصنعون) من الخير والطاعة فيجازيكم على ذلك أحسن المجازاة . ومما يصنعه الناس صلاتنا في الأوقات الخمس ، وعليها درجات في فعلها على مقدار إحسان فاعلها ، ودركات في تركها . ونسأله تعالى الفوز برحمته والخلاص من موجبات نقمته ، إنه هو السميع المجيب .

الجزء الحادي والعشرون

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا : آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) وكذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، ومِنْ هؤلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ(٤٧) وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ، ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلونَ(٤٨) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظالمون)(٤٩)

قوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أي لا تتكلموا معهم في قالب المناظرة والجدال (إلا بالتي هي أحسن) أي إلا بالخصلة أو الصورة التي هي أحسن الصور الممكنة هناك كمعارضة الخصومة بالصداقة ، والخشونة باللين ، والمشاغبة بالمناصحة (إلا الذين ظلموا منهم) بالتجاوز عن حدود الدين بأن لا يستساغ كلامه ومرامه ، وكلما تأدبت معه عذبك بالقول البذيء فعند ذلك دافع عن دينك بما هو الحق إذا أمكنك ، وإلا فسلم عليه واتركه ومالديه . (وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل إليكم) من القرآن الكريم الجليل والتوراة والإنجيل (وإلهنا وإلهكم واحد) لا شريك له ولا مثيل ولا ولد ولا نظير (ونحن له مسلمون) فإن هذه العبادة الصحيحة السّليمة تكون بيانا للجهة الجامعة وجهة الوحدة الإسلامية لمن يريد الإسلام (وكذلك

أنزلنا إليك الكتاب) أي وكما أنزلنا إلى الرسل السابقين الكتاب من عندنا وبوحي منا بحيث لم يرد عليه أي خلل أنزلنا إليك الكتاب المستبين وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (فالذين آتيناهم الكتاب) وهديناهم إلى السعادة كعبدالله بن سلام وأضرابه، (يؤمنون به ، ومن هؤلاء) أي من العرب (من يؤمن به) وهم الذين هداهم الله لما يحبه ويرضاه (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) المتعمقون في الضلال •

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) وقد أنزل عليك الكتاب جامعا لسعادة الدارين من كافة النواحي ومانعا من كل الرذائل النفسية والأعمال السيئة ، ولو نظر عاقل منصف إليك لعلم أنك لرسول وأن كتابك وحي منه ، ولو كنت تتلو وتخط قبل (إذا لارتاب المبطلون) • (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) أي أعرض عن كل قول صادر عن جاهل أو معاند متجاهل ادعى أن القرآن كتاب استنسخه محمد ـ عليه السلام ـ من بعض الناس الذين أملوه عليه ، فإن ذلك لا يمت إلى الواقع قطعا فإن العالم المشاهد له علم أنه لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب ومادارس ومامارس أهل القراءة والكتابة ، ولم يكن في جزيرة العرب آنذاك رجل فصيح بليغ يتكلم بكلام عربي مبين يسمع منه ويكتب كلامه فضلا عن إنسان تصل درجة فصاحته وبلاغته إلى مايقارب درجة القرآن الكريم ، وإنما القرآن آيات بينات واضحات الدلالة على المعتقدات والأحكام وماتحتاج إليه الأمة من كافة نواحي الحياة ، وهي ثابتة في صدور الذين أوتوا العلم ، نزلت أوّلا على قلب سيد من أوتي العلم وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم ، فكانت سطورهم في صدورهم ، ولم يستقر إلا في قلوب صافية عن الأكدار وممتلئة من الأنوار ، ولحفظه وبقائه بمرور الزمان أمرَ الكتّاب الأمناء ليكتبوه ،

فيكون المكتوب سندا لما حفظوه ، وما حفظوه سندا لما كتبوه ، فيكونان أي المحفوظ والمكتوب متعاونين في بقاء هذا النبراس بين طبقات الناس، وقد بقي مأمونا محفوظا بصيانة الله تعالى كما قال تعالى:(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فصدور الذين أوتوا العلم عبارة عن صدور الملك جبريل وسيدنا محمد الجليل وأصحابه الكرام الأمناء الحافظين للتنزيل ، وتشمل كل من يحفظه من المسلمين جيلا بعد جيل • (وما يجحد بآياتنا) المنزلة مع الروح الأمين على حبيبي المبعوث رحمة للعالمين ولا يقول أنها ليست من الله وإنما هي مأخوذة من بعض الكتاب الأجانب (إلاّ الظّالمون) على العلم والعقل وعلى التأريخ والنقل •

(وَقالُوا : : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّما الْآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ ؟ إِنَّ في ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١) قُلْ : كَفى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وكَفَرُوا بِاللهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ(٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، ولَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ(٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ ، وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ(٥٤) يَوْمَ يَغْشيهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٥٥)

قوله تعالى : (وقالوا) الضمير راجع إلى أهل الكتاب . أي قالوا لولا أنزل عليه آيات من خوارق العادات مثل ناقة صالح . وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ (قل) في جوابهم (إنما الآيات) الخوارق الكونية (عند الله) ينزلها حسب مشيئته وليست داخلة تحت تصرفي (وإنما أنا نذير مبين) فمن أنذر أعذر • (أو لم يكفهم) أي أولئك الطالبين لنزول الخوارق (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟) أي أليس من الخوارق في الكائنات والآيات البينات (أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فيسمعونه ويفهمونه ، ويعلمون أنّه عبارة عن آيات فيها جُمل" ومفردات مصوغة من حروف الهجاء التي أمام أيديهم وهم أهل اللغة والأدب والفصاحة والبلاغة مع أنهم يتحيرون من سماعه ويندهشون من أقراعه ولا يقدرون على أن يأتوا بمثل كله أو سورة من مثله (أو لم يكفهم) أنه كتاب استوعب نظام الحكم بالعدالة بين كافة الناس من كافة الجهات وأنه يراعي كل فرد وجماعة ويؤتي كل ذي حق حقه ؟ (أو لم يكفهم) أنه كتاب أخبر عن قصص الأمم الماضية وأنبيائها وتكلم عن مصيرهم وأنبأ عن مغيبات أخرى لم يدركها أحد من الناس ؟ (أو لم يكفهم) أنا أنزلنا عليك كتابا يتطرق إلى الإلهيات والماديات من العلويات والسفليات بحيث يتحير فيه أكابر العلماء الفلكيين والرياضيين ؟ (أو لم يكفهم) أنا أنزلنا عليك الكتاب الآتي بالصدق في المدح والقدح ولم يتجاوز الحق والواقع قيد شعرة عند أهل الشعور ؟ فحقيقة الخارقة الكونية ذلك وليس منحصرا في عصا تنقلب حية ،أو نهر يتوقف عن التموج ويتفرق جانب منه عن جانب بل تلك خارقة تدهش عقول الماديين ، وهذا الكتاب خارق يدهش أرباب الروحانيات والمعنويات وأصحاب الأفكار السليمة المتطورة ، وأين تلك من هذا ؟ (إن في ذلك) الكتاب (لرحمة) عظيمة عامة (وذكرى) أي تذكرة هامة (لقوم يؤمنون) أي لقوم همهم بل أهم

مطالبهم الإيمان بخالق هو بديع السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح الغيب (قل) لأولئك الناس الذين يدعون أنك لستَ برسول الله أو لست بمبلغ آياته إلى الناس (كفى بالله بيني وبينكم شهيدا) أي عالما حق العلم برسالتي إلى الناس كافة وبتبليغي اياها إليهم حسب الأصول حالكونه (يعلم ما في السموات والأرض) لا يخفى عليه شيء من الأشياء فضلا عن شأني وشئونكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما اتخذوه من الأصنام (وكفروا بالله) الذي هو الواجب الخالق المعبود (أولئك هم الخاسرون) المغبونون في الدنيا والدين (ويستعجلونك) أي كفار قريش (بالعذاب) على وجه الاستهزاء (ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) حسب استعجالهم (وليأتينهم بغتة) أي فجأة (وهم لا يشعرون) بإتيانه (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لحيطة بالكافرين) يعني أنهم يستعجلون عذاب الآخرة تعنتا واستهزاء وإن جهنم لمحيطة بالكافرين استيعابا وعذابا أي إن ما طلبوه من عذاب الآخرة إنما طلبوه لجهلهم به وبشدته وباستيعابه وإحاطته وإن جهنم لمحيطة بالكافرين • ولو علموا بذلك ماطلبوه (يوم يغشيهم العذاب من فوقهم) أي من فوق رءوسهم (ومن تحت أرجلهم ، ويقول) القائل الصادق (ذوقوا ما كنتم تعملون) أي جزاء ما كنتم تعملون •

(يا عِبادِيَ الَّذينَ آمَنُوا إنَّ أَرْضي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدينَ فيها ، نِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها ، اللهُ

يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ ؟ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (٦٠) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُون ؟(٦١) اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها ؟ لَيَقُولُنَّ : اللهُ ، قُلِ : الحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَما هذِهِ الْحَيوةُ الدُّنيا إِلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَو كانُوا يَعْلَمُونَ)(٦٤)

قوله تعالى : (يا عبادي الذين آمنوا) نزل في المستضعفين من المؤمنين بمكة ، أُمروا بالهجرة عنها . يقول تعالى : (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياى فاعبُدونِ) أي ان لم تمكنكم العبادة في مكة فهاجروا إلى المدينة مثلا . وقال بعضٌ : الحكم عام لكل من لم تتسهل العبادة له في أرض ، أي إذا لم تتيسر لكم العبادة في أرض فاخرجوا منها إلى حيث تمكنكم العبادة برحابة الصدر .

ويظهر أنه إذا كانت الفتن عامة لم يبق فرق بين أرض وأخرى فالأحسن البقاء في الأرض التي هو فيها ، ويلزمَ خويصةَ نفسه .

فالفاء في قوله تعالى : فإياي جزائية للشرط المحذوف ، وإياي مفعول لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور ، ولا يجوز أن يكون معمولا له لاشتغاله بضميره ، فإن أصله فاعبدوني بالياء ، وذلك الفعل المحذوف جزاء الشرط ، حذف وعوض عنه هذا المعمول . الفاء في فاعبدون هي الفاء الواقعة في الجزاء ، إلا أنه لما وجب حذفه جعل المفسر المؤكد له قائما مقامه . وقوله

تعالى (كل نفس ذائقة الموت) جاء للترغيب في العبادة الخالصة والهجرة من أرض لا تسهل العبادة فيها إلى غيرها ، والمقصود أن الحياة لا تستمر لأي ذي روح ولا قيامة لها ، وما دام الأمر كذلك فالهجرة النافعة نافعة • وقوله : ثم إلينا ترجعون جملة مقررة لما سبق •

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) والغرف العلالي ، ومن الجنة بيان لها قدم عليها • وقوله (تجري من تحتها الأنهار) صفة الغرف و (خالدين فيها) حال عن المفعول و (نعم أجر العاملين) للمدح (الذين صبروا) على أذى المشركين (وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) لعدم قابليتها لذلك (الله يرزقها وإياكم) والمعنى الدواب التي لا تقدر على حمل أرزاقها تساوي الإنسان العاقل الذي يحملها في أصل تقدير الرزق وتيسيره ، وإن كان الثاني أقوى من الأول في تدبير تحصيله وأخذه ، (وهو السميع) للأقوال (العليم) بالأحوال (ولئن سألتهم) أي أهل مكة (من خلق السموات والارض) بهذه الوضعية المشاهدة (وسخر الشمس والقمر) للاستفادة منهما (ليقولن الله) إذ لا مجال لهم لإنكاره (فأنى يؤفكون ؟) أي إذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفون عن الاعتراف بتفرده تعالى بتلك الأمور ؟ (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي يضيق عليه (إن الله بكل شيء عليم) رزقا أو مرزوقا أو غيرهما (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله ، قل الحمد لله) على اعترافهم بذلك (بل أكثرهم لا يعقلون) ولا يعترفون بهذه الحقائق •

(وما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) • يقايس الله تعالى في هذه الآية الكريمة بين الحياتين الحياة الدنيوية المحدودة والمتناهية والحياة الأخروية الأبدية الباقية ، فيقول : إن هذه

الحياة الأولى ليست إلا كما يلهو ويلعب به الصبيان ، يجتمعون عليه ساعة من الساعات ثم يتفرقون عنه ، وأما الحياة الثانية فهي حياة مستمرة باقية أبدية لا يدرك العقل لها منتهى . هذه بالنسبة إلى نفس الحياتين لا مع ملابساتهما ، وإلا فالحياة الدنيا قد تكون مع أفراح وأشواق ولكن آلامها ومعارضاتها من الألم النفسي والبدني ، والعمى والعرج ، والمرض والحرج ، وضيق المعيشة ، وسوء معاملة الناس معه ، أو سوء معاملته مع الناس ، والحقارة ، والذل والهوان ، وما يعرض عليه من فراق الأحباب بالغياب والموت ، وفقدان الخير وما شاكل ذلك ... وحرمان الإنسان من الوصول إلى المقاصد .. فمن هذه الجهات أتعس وأشد وأقسى الأمور الموجودة في العالم ، فالغرض من الآية أو نقول : الغاية منها هي أنها منتهية لا قيمة لها بالنسبة إلى الحياة الأخروية فليس من المعقول الاعتماد عليها ، والإطمئنان بها ، ولاسيما بصرفها في الأمور التي تعود على الإنسان بالخسران والآلام في الدنيا والآخرة . وإلا فليس المقصود أن لا يهتم بالحياة الدنيا بل المقصود أنه يجب صرفها في المنافع وأسباب الثواب والخير ويجب السعي فيها بالتعليم والتربية والعمل الصالح ، وتعمير البناء النافع من المساجد والمدارس والمساكن المشروعة ، والسعي في الصناعات النافعة له والدافعة للبلايا الواردة من الأعداء ، وتوفير وسائل الراحة والاقتصاديات وفنون الطب التي يعالج بها الأمراض والعاهات فإن كل ذلك من مهمات الإسلام لأن الإسلام جاء للتعاون مع العقل في سلوك سبيل سعادة الدارين . (لو كانوا يعلمون) شرط جوابه لما اختاروا عليها الحياة الفانية الموقتة .

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّيهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا

أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)(٦٩)

قوله تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) يعنى إن أولئك الكافرين المشركين اعترى عليهم مرض يعارض عقولهم ، فإنهم عاقلون ويعلمون أن المؤثر في الكائنات وخالق الأرض والسماوات ومنزل الأمطار هو الله وحده ، وإذا سألتهم أجابوا بالحق ، وكذلك (إذا ركبوا في الفلك) ووجدوا هناك علامة على حراجة الموقف وتموج البحر علموا أن لا منجي لهم إلا الله ف (دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجيهم إلى البرّ) عاودهم المرض النفسي ، ودعاهم إلى الشرو (إذا هم يشركون) على عادتهم السيئة السابقة ، فلا تهتم بهم وخلهم وضلالتهم (ليكفروا بما آتيناهم) من النعم الجلية والخفية التي يعلمونها (وليتمتعوا) بما أمكنهم (فسوف يعلمونَ) عاقبة ذلك .

ثم أخذ الله تعالى يعدد عليهم من نعمه التي يكفرون بها ما لا مجال لإنكاره ، وقال (أو لم يروا أنا جعلنا) أي بلدهم (حرما) مكانا حرم فيه كثير من الأشياء التي ليس حراما في غيره كقلع الأشجار وقطعها وأخذ النبات وقصها إلا نوعا محدودا وصيد الحيوان ، و (آمنا) أهله محفوظين عن التعرض ، (ويتخطف الناس من حولهم) أي يختلسون بالأخذ والقتل والنهب (أفبالباطل) وهو الأصنام (يؤمنون) ولا يستحق أي نظر واهتمام

(وبنعمة الله) وهي الإيمان والأمان والرزق الموفور المجلوب لهم من كل مكان (يكفرون ؟) وهي تستوجب الشكر للمنعم وحده والعبادة له وحده ، ويكذبون على الله تعالى بأنه رضي بإشراك الصنم له في العبادة (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) وقال إنه يرضى بعبادة الصنم ، (أو) أظلم ممن (كذب بالحق ؟) وهو توحيده وإنزاله الكتاب وإرساله الرسول المرشد إلى طريق الصواب (أليس في جهنم مثوى) ومقام ومقر للكافرين . واعلموا أن أولئك الكافرين بالله ونعمه نبقيهم في الضلال لأنهم لا يقتبسون من نور الهدى فبقوا حائرين .

(والذين جاهدوا فينا) واجتهدوا لأجل تحصيل مرضاتنا بأن آمنوا بنا وبرسولنا والتزموا ديننا (لنهدينهم سبلنا) أي لنرشدنهم ولنوصلنهم إلى سبل رضانا فنوفقهم كلا حسب ما يناسبه من كثرة العبادات البدنية ، أو التزكية النفسية،أو الإرشادات العلمية، أو إطعام الطعام،أو الخدمة للأنام، وإخراجهم من الشدائد والظلام ، وسائر الأعمال التي كل منها كركن من أركان السعادة في الدارين ، ومنها مثلا التوسل لخلاص المقهورين وإصلاح ذات البين وتربية اليتامى وخدمة الغرباء المحرومين ، ومعاونة المعوزين بالمال والجاه عند أهل النفوذ في الدنيا وغير ذلك مما لا يحصى من أعمال المسلمين ... ذلك لأن المجاهد المذكور محسن (وإن الله لمعَ المُحْسنين) أحسن اللهُ بفضله إلينا في الدنيا والدين برحمته إنه أرحم الراحمين .

سورة الروم ، مكية ، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) غُلِبَتِ الرُّومُ(٢) في أَدْنى الأَرْضِ وَهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣) في بِضْعِ سِنِينَ ، للهِ الأمرُ مِن قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ(٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥) وَعدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ(٦) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَيوةِ الدُّنيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلونَ(٧) اَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّموات وَالأَرْضَ وما بَيْنَهما اِلاَّ بالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمىً ؟ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ(٨) اَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً وَأَثارُوا الأَرْضَ وعَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجاءَتْهُمْ رُسُلهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ؟ فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٩) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ اَساءُوا السُّوءى أَن كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِئُون)(١٠)

قوله تعالى (الم) الكلام فيه مثل مافي أمثاله (غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض) الفعل مجهول ، والروم أمة عظيمة وكان مقر سلطنتها في وقت نزول الآية بلدة (قسطنطينية) فتلك الأمة كانت تحارب الفرس ، وقد غلبت في واقعة في أرض تقع بين أذرعات وبُصرى ، وهما بلدان من بلاد الشام ، وتلك أدنى الأرض أي أقرب أرض من أراضي دولة الرّوم إلى الحرم المكي. وتلك الواقعة وقعت بعد بعث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل الهجرة إلى المدينة المشرفة (وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) والبضع ما بين الثلاث إلى التسعة أو العشرة . وقد غلبت الروم على الفرس كما ذكر في الآية الكريمة . روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى فغلبوهم فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهم بمكة ، فشق ذلك عليهم . وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم . وفرح الكفار بمكة وشمتوا ، فلقوا أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى (الم غلبت الروم) الآيات ... فخرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ، ولا يقرن الله تعالى عينكم فوالله تعالى ليظهرن الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقام إليه اُبيّ بن خلف فقال : كذبتَ . فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : أنت أكذب ياعدو الله تعالى أناحبك [أي أراهنك] عشر قلائص مني وعشر قلائص منك ، وإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ ، وإن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين فناحبه ثم جاء ابو بكر الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال ـ عليه الصلاة

والسلام ـ : « ما هكذا ذكرتُ ، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايدْهُ في الخطر وماده في الأجل » فخرج أبو بكر فلقي أبيّا ، فقال : لعلك ندمتَ . قال : لا تعالَ أزايدك في الخطر وأمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين . قال : قد فعلتُ . فلما أراد أبو بكر الهجرة طَلَبَ منه أُبَيٌّ كفيلا بالخطر إن غلب فكفل به ابنه عبدالرحمن . فلمّا أرادَ أبَيٌّ الخروج ، إلى أحد طلبه عبدالرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ومات أُبَيٌّ من جُرْحٍ جرحه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة .

وروي أنه لما ظهرت الروم على فارس أخذ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الخطر من ورثة أبي وجاء به إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ تَصَدَّق به . (لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ) أي إن القضاء بيد الله قبل الغلبة وبعدها . ولا يتوهمن أحدٌ أن أي الفريقين يغلب الآخر بدون إرادة الباري وقدرته (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أي وفي ذلك الوقت يفرح المؤمنون ، ويستبشرون بنصر الله أهل الكتاب على من لا كتاب له ، أو يفرح المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على المشركين لأن تلك الغلبة كانت بعد الهجرة وحين ظهرت شوكة للمؤمنين وقوة بعث السرايا إلى أطراف البقاع ، ولم يبق زمان الضعف الذي كان في مكة المكرمة (ينصر من يشاء) من عباده على من شاء منهم (وهو العزيز الرحيم) أي المبالغ في العزة والرحمة .

(وعد الله) مصدر مؤكد لمضمون الجملة المتقدمة في قوله تعالى (سيغلبون). (لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنّ الله لا يخلف وعده ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالله العلي العظيم بما يجب له ، وما يجوز له ، وما يمتنع . وإنما يعلمون منه اسماً فقط (يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا)

وهو ما يحتاجون إليه في المعيشة وما يدخر منه ووسائل تحصيله (وهم عن الآخرة هم غافلون) أي وهم غافلون عن البعث والنشور وسائر أوضاع الآخرة ولقاء الله تعالى • ولو كانوا يعلمون تلك الأمور لتنبهوا لمعرفة الذات القادر عليها وعلموا أن الله صادق الوعد ولا يخلف الميعاد •

ثم وبخهم على غفلتهم وقصر نظرهم وقال : (أو لم يتفكروا في أنفسهم ؟) يعني أو لم يتفكروا بأنفسهم بدون ملاحظة الناس وسماع أقاويلهم واشتباهاتهم حتى يعلموا أنه تعالى إله قادر حكيم عظيم ، وأنه (ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أي بالوجه الحق الموافق للحكمة ، وخالق الكائنات بالحق والحكمة ، يكون صادق الوعد والوعيد (وأجل مسمى) أي ما خلق ماخلقه إلا محدودا بأجل ووقت معين وهو وقت قيام الساعة التي لا يبقى فيها هذه المظاهر والآثار ، وإذا جاء ذلك الوقت تحقق فيه وعده تعالى بلقاء الله وحساب الأعمال (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ومن كفر باللقاء كفر بوعده تعالى وبقيام الميزان والحساب •

(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ؟) أي كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا (وأثاروا الأرض) أي قلبوها للحرث والزراعة وحفر الأنهار ، (وعمروها أكثر مما عمروها) أي وعمروها عمارة أكثر من عمارة هؤلاء الموجودين حالا (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات التي تشهد لهم بالصدق كالبينة على الدعوى أو بالآيات الواضحات لبيان العقائد وتشريع الأحكام (فما كان الله ليظلمهم) ويعاملهم معاملة تشبه الظلم صورة (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي ولكن هم ظلموا أنفسهم حيث تعاموا عن إبصار المعجزات وتصامموا عن سماع المواعظ والإرشادات وتغافلوا عن إدراك الحقائق

وعاندوا الرسل ، وقوله تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى) كلمة ثم فيه للتراخي في الرتبة ، وكان ناقصة ، وعاقبة خبرها ، والسوءى اسمها ، أي وكانت الخصلة السوءى عاقبة الذين أساءوا مع الرسل عليهم السلام . وقوله (أن كذبوا) بتأويل المصدر بدل من السوءى (وكانوا بها) أي بالآيات (يستهزءون) عطف على كذبوا وداخل معه في حكم البدلية وهذا الاعراب إحتمال من احتمالات كثيرة في الآية .

(اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)(١٩)

قوله تعالى : (الله يبدأ الخلق) يعني أن الله ينشىء الخلائق فيخلقهم ويسويهم ويربيهم ويبقيهم إلى الأجل المسمى فيميتهم ، ثم بعد أن مات كلّ حي يخليه في البرزخ إلى يوم البعث (ثم يعيده) إلى عالم الجسم والتركيب السابق (ثم إليه ترجعون) للحساب والجزاء (ويوم تقوم الساعة يُبلِسُ

المجرمون) أي يسكتون لوقوعهم في دهش ورهبة من هيبة الباري وملاحظة أعمالهم السيئة أو الناقصة التي لا تناسب تقديمها للحساب (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) على مازعموا حتى يجيروهم من العذاب (وكانوا بشركائهم كافرين) أي كافرين بوجود شركائهم فضلا عن عزتهم وقابليتهم للشفاعة (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أي يتفرق كل الخلائق إلى أصناف وجماعات بحسب أعمالهم وأحوالهم وبحسب إخلاصهم وآمالهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة) واسعة تسع أهلها (يحبرون) أي يسرون ويفرحون بما آتاهم الله من فضله •

(وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أي وأما الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وجوب التزام الاحكام الإلهية ومن ذلك كذبوا بلقاء الآخرة ، وبالبعث بعد الموت فإنه من البديهي أن الذين كذبوا بالآيات يكذبون بالبعث ولقاء الله ولقاء دار الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب (فاولئك في العذاب محضرون) موجودون لا يغيبون عنه ولا ينفك عنهم والعياذ بالله (فسبحان الله حين تمسون ، وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) وإذا علمتم أحوال الناس ومآلهم فلا سبيل إلى الخلاص من العقاب ولا إلى نيل الثواب إلا بالطاعة والذكر والتسبيح ، فقولوا : سبحان الله حين تمسون أي تدخلون في المساء ، وحين تصبحون أي تدخلون في الصباح • وقوله : (وله الحمد) مربوط بتقدير القول أي وقولوا وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا معطوف على حين تمسون ، وحين تظهرون أي تدخلون في الظهر أي نصف النهار • وحاصل الآية الكريمة وما دامت أحوال الناس كما عرفتم فمنهم من دخل الجنة والرضوان ومنهم من دخل في عذاب النيران داوموا واستمروا على تسبيح الباري تعالى وتحميده في الأوقات المذكورة حتى

يغلب عليكم الذكر ، ولا تكونوا من الغافلين . ومنهم من فسر التسبيح بالصلاة أي فصلوا حين تمسون صلاة العصر وصلاة المغرب ، وحين تصبحون صلاة الصبح ، ووعشيا صلاة العشاء ، وحين تظهرون صلاة الظهر .

(يخرج الحي من الميت) أي الإنسان من النطفة (ويخرج الميت من الحي) كعكسه (ويحيى الأرض بعد موتها) ويخلق فيها قوة الإنبات والتنمية بعد أن لم يكن فيها لأنها باليبس والجدب تتعطل تلك المبادىء عن العمل ، وإذا نزل المطر عليها تنبعث وتدخل في دور العمل (وكذلك تخرجون) أنتم من الأرض عند البعث والنشور ، فقدرة الباري على هذا مثل قدرته على ذلك .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ(٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٢٧)

قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب) أي ومن أدلته الباهرة الدالة على كمال قدرته أن خلقكم أي خلق أصلكم وهو آدم ــ عليه السلام ــ من تراب (ثم إذا) مفاجأة (أنتم بشر تنتشرون) في ربوع الارض لأغراضكم ومقاصدكم ، وفي البحر لاستخراج ما ينفعكم أو للسير عليه إلى أماكن تستفيدون ، وفي الجو لاكتشاف حقائق علوية ترشدكم إلى معلومات أخرى لم يكن في أذهانكم اكتسابها . (ومن آياته) الدالة على رحمانيته ولطفه (أن خلق لكم من أنفسكم) ونوعكم المألوف المرغوب (أزواجا) تألفكم وتألفونها (لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) بالزواج الذي جمع بينكم وبينهن ، فالمودة للألفة النفسانية ، والرحمة للعلاقة الإنسانية في وقت المرض والغيبة والحاجة ، وبعد الموت لإدارة أولاد المتوفى (إن في ذلك لآيات) عظيمة دالة على دقائق آثار قدرته (لقوم يتفكرون) في ما يحصل من هذه الألفة والتواد والتراحم .

(ومن آياته) الظاهرة الدلالة على أنه حي عليم قادر قيوم (خلق السموات) بموادها الأثيرية ، وكواكبها النيرة الساكنة والسيارة (والأرض) بما فيها من المنابع والمعادن ، وما عليها من النبات والأشجار والأحجار (واختلاف ألسنتكم) في تقطيع الهواء السيار الذاهب والراجع من الشفتين إلى ما فوق الحلقوم على مقاطع مختلفة ذاتا وصفة (و) اختلاف (ألوانكم) من البياض والسواد والسمرة والحمرة وغيرها ، وإن كان للمناخ والقرب والبعد من مدار الشمس ومجاورة البحار والسكون في قمم الجبال وأعماق الوديان تأثير واضح جلي ، فإن النوع له أصناف معلومة ، وكل فرد من

أي صنف إذا تحول من وطنه إلى وطن مغاير تحول وضعه من البياض إلى السواد ومن اللين إلى الخشونة والعصبية ، ومن الطول إلى القصر ومن ملامح وجهه إلى ملامح أخرى كما هو معلوم بالتجارب في الأيام (إن في ذلك لآياتٍ للعالمِين) بأنّ الله تعالى جعل في كل مناخ نوعا من السببية لتلك الاختلافات .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار) أي جعل النوم غالبا عليكم بالليل والنهار فيزول عنكم الشعور المعتاد وتستريح القوى النفسانية ، إذ لا تشتغل بالأخذ من الحواس وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) أي ومن آياته قوة طلبكم مايكفيكم أو يزيد عليه من فضله أي من رزقه أو أسباب تحصيل الرزق من العلوم والصناعات بالليل والنهار (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) الإرشادات والمواعظ سماعَ قبولٍ (ومن آياته يريكم البرق) أي أن يريكم البرق (خوفا وطمعا) أي إخافةً لكم من التضرر به ، وإطماعاً في المطر النازل بعده (وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض) ويجعل فيها قوة الإنبات والتنمية (بعد موتها) من الجدب (إن في ذلك لآيات) دالة على قدرة الباري للتصرف في السماوات والأرض (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في إدراك الأسرار الدقيقة (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره) أي بحكمه ونفوذ قدرته فطبقات السماوات الأثيرية من السماء الدنيا إلى السماء السابعة وما فيها من كرات الكواكب سواء كانت سيارة أو ثابتة وكذلك كرة الأرض المزوجة مع الماء ككرة واحدة ، كل ذلك حافظة لنفسها في الحركة حول مركز نفسها ، وفي الحركة حول الشمس ، وكذلك الشمس لها قوة حافظة لنفسها ، ومانعة لها من السقوط في فضاء العالم الواسع جدّا (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أي ومن آياته قيام السماء والارض بأمره ثم خروجكم

من قبوركم الموجودة في الأرض بسرعة إذا دعاكم للحساب ، وذلك عند البعث الناشىء من النفخة الثانية • وقوله (وله من في السماوات والارض) كالتعليل لما قبله والمعنى وخروجكم من قبوركم عند الدعوة إنما هو لأن له ملكا وتصرفا مَنْ في السموات والارض من الإنس والجن والملك (كل له) أي للباري تعالى (قانتون) مطيعون (وهو الذي يَبْدَأ الخلق ثم يُعيده) بعد الموت (وهو أهوَن عليه) أي والإعادة في النشأة الثانية أهون على الباري تعالى من البدء في مجاري عقولكم وعاداتكم لأن الإبداء خلق بدون مادة وأصل مناسب ظاهرا ، وأما الإعادة فهي خلق الإنسان مثلا في المرة الثانية على الأجزاء السابقة الثابتة بمادتها ، ولو تحولت إلى التراب أو الماء أو الهواء (وله المثل الأعلى) أي ولله تعالى الوصف والشأن العجيب الأعلى الذي ليس لغيره ، لأن شئون واجب الوجود أرقى درجةً بل لا مناسبة لها بشئون الممكن الخاص الموجود ، وهذا المثل جار (في السموات والارض وهو العزيز) الغالب على مايريد (الحكيم)في فعله المنزه المجيد •

(ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ : هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِيما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهم كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ ؟ وَما لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)(٢٩)

قوله تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أي ذكر الله سبحانه وتعالى لكم قصة عجيبة متعلقة بأنفسكم وتعلمونها على حسب وجدانكم

في إبطال اعتقاد الشرك ووجود الشريك (هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) يعني هل يوجد لكم شركاء من مماليككم وعبيدكم الذين ملكتموهم ملك اليمين في مارزقناكم (فأنتم فيه سواء) أي أنتم ومماليككم على مقام وعلاقة متساوية بينكم أي كما أنكم تتصرفون في مارزقناكم كذلك يتصرف فيه عبيدكم ومماليككم حالكونكم (تخافونهم) تخافون من أولئك المماليك الشركاء في التصرف في مارزقناكم بدون إجازتهم (كخيفتكم أنفسكم ؟) أي كما تخافون من شركائكم الأحرار في التصرف فيه بدونها والجواب لهذا الاستفهام : حاشا وكلا . والمقصود أنتم أيها الكفار المشركون كيف تتجاسرون على اعتقاد الشركاء من الأصنام لله تعالى في السموات والارض مع أنكم لا تقبلون أن يكون لكم عبيد يشاركونكم فيما رزقناكم مع أنهم اناس مثلكم ويجوز أن يكون بعض منهم أرقى وأعلى شأنا منكم في العقل والعلم . (كذلك) التفصيل بالتمثيل والتشبيه (نفصل الآيات لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في إدراك الأشياء (بل) إضراب عن مخاطبتهم وتنويرهم بالتمثيل لأنه (اتبع الذين ظلموا أهواءهم) الزائفة (بغير علم ، فمن يهدي من أضل الله ؟) أي لا يوجد هاد لمن أضله الله تعالى (وما لهم) أي لأولئك المتبعين للأهواء (من ناصرين) في الآخرة أبدا .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلوٰةَ ، وَلا تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا

شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٣٢) وَإِذا مَسَّ النّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٣٣) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣٤) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ؟(٣٥) وَإِذا أَذَقْنا النّاسَ رَحْمَةً فَرِحوا بِها ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ(٣٦) اَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؟ اِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٣٨) وما آتَيْتُمْ مِن رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوالِ النّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)(٣٩)

قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا) أي لما علمت بإنزالنا الآيات البينات هدى ورحمة فتلقاها المشركون بالإباء والعناد ، ولم يأخذوا سبيل الرشاد فلا تهتم بهم ، بل توجه إلى الله وارجع إلى نفسك لتوجيهها إلى جانب قدسك وأقم وجهك للدين حنيفا أي اقصد واعزم على إخلاص نفسك لله في إقامة دينه مائلا عن كل الأمور التي اعتادها أولئك الغافلون والزم (فِطْرَتَ اللهِ التي فطر الناس عليها) روي عن انس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ أنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فطرة الله التي

فطر الناس عليها هو دين الإسلام • والمراد بفطرهم على ذلك أن الإنسان المتميز بالعقل السليم والحواس السليمة إذا خلي وطبعه اعترف بوجود خالق للكائنات حي عليم قادر مريد ، والتزم النظام السليم الذي هو خير وسيلة لسعادة الدارين ، ومتكفل برعاية الحقوق ورفض العناد والعقوق . وهذه الفطرة خلق الله ، ولا تبديل لخلق الله ، فإذا خالفها إنسان فمثله كمثل بصير يعمى عينه ، وناطق يقطع لسانه بنفسه فيقع في الدار بين أعمى وأخرس ، فالباري سبحانه جهز الإنسان للإحسان ، وإذا منع الإنسان نفسه عنه فقد ظلم نفسه (ذلك الدين القيم) أي ذلك المذكور وهو إقامة الوجه لله هو الدين القيم المستوي الذي لا انحراف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين إليه) حال من الناس في قوله تعالى فطر الناس عليها • أي حالكون الناس الباقين على الفطرة منيبين إلى الله تعالى راجعين إليه ، ثم غير الأسلوب إلتفاتا إلى الخطاب فقال (واتقوه وأقيموا الصلوة ، ولا تكونوا من المشركين) المبدلين للفطرة الحسنة بالفعلة السيئة واتباع الأهواء والإشراك بالواجب وصاروا من الضالين (من الذين فرقوا دينهم) الواحد بتوحيد معبودهم إلى أصناف ، وارتكبوا خلاف الحق وكانوا شيعا طوائف مختلفة على أهواء مزيفة مختلفة يعاند بعضهم بعضا • و (كل حزب بما لديهم فرحون) أي فرحون بما يوجد لديهم من العقيدة والرأي لأنها توافق أهواءهم ، وعما قليل يتندم منم العاقلون • (وإذا مس الناس ضرّ) أي شدة (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه مستغيثين (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) يسرا وخلاصا منها (إذا فريق منهم بربهم يشركون • ليكفروا بما آتيناهم) من المال والمنال (فتمتعوا) أيها المغترون بما أتاكم بعدما آذاكم وكان الواجب أن تشكروا لا أن تكفروا (فسوف تعلمون) مآل هذه الغفلة والفراغ عن ذكر رب العالمين (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أم منقطعة أي بل أانزلنا عليهم

سلطانا أي حجة وبرهانا على هذه الأهواء الباطلة والأعمال العاطلة (فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أي يدل دلالة قاطعة وينتج إنتاجا ساطعا بحقية ما به يشركون رب العالمين من أصنام وأوثان يبول عليها الثعلبان •

(وإذا أذقنا الناس رحمة) من صحة وثروة وجاه وعشيرة (فرحوا بها) وبطروا (وإن تصبهم سيئة) شدة وبؤس (بما قدمت أيديهم) أي جزاء على ما قدمته أيديهم من السيئات (إذا هم يقنطون) من رحمته تعالى مع أن باب الرحمة واسع على مصراعيه • ورحم الله من قال : إن أشد البلايا على الإنسان قنوطه • (أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه وليس ذلك الإنعام بنفسه من الإكرام (ويقدر) أي ويضيق الرزق على من يشاء وليس ذلك من الإهانة بل كل ذلك مبني على تدبير وتخطيط وتقدير رباني موافق لحكمة الملك العلام •

فاذا وجدت الناس على هذه الأحوال ، وقل من يعتمد منهم على ربه المتعال فتجاوز عنهم (وآت ذا القربى حقه) من الصدقة وصلة الأرحام (والمسكينَ وابنَ السبيل) بما يستحقانه من كثير أو قليل و (ذلك) الإيتاء (خير للذين يريدون وجه الله وأولئك) القائمون بهذه الآداب (هم المفلحون) وهذه العطايا هي التي يستفيد منها المسلمون المعطون والآخذون (وما آتيتم من ربا) أيها المتعاملون المستدينون (ليربو) ويزيد ذلك (في أموال الناس) المعطين حتى يتعاملوا على ذلك الذي أخذوه بالربا والآخذين لها (فلا يربو عند الله) لأنه حرام والحرام نار والنار محرقة لا منمية (وما آتيتم من زكوة تريدون) به (وجه الله فأولئك هم المضعفون) أي يزيدون في أموال المعطين أضعافا مضاعفة ببركة الاخلاص لله رب العالمين •

(أللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ

شَيْءٍ ؟ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٠) ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرجِعُونَ(٤١) قُلْ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ(٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ(٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الكَافِرِين)(٤٥)

قوله تعالى (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) يحتمل أن يكون الاسم الجليل مبتدأ والموصول مع صلته خبره ؛ كما يحتمل أن يكون الموصول وصلته صفة له ، وجملة هل من شركائكم خبره . لكن الإعراب الأول انسب بسياق الكلام مع المشركين والاعراب ، لأنهم لا يعترفون بالإحياء والبعث فلا تكون أجزاء الصلة كلها معهودة ومعلومة لهم • والمعنى اعبدوا الله وحده فإن الله هو (الذي خلقكم ثم رزقكم) في بطون أمهاتكم وبعد الخروج منها إلى مماتكم (ثم يميتكم) عند آجالكم (ثم يحييكم) بالبعث والنشور • ومن كانت هذه الأفعال صادرة منه فهو المستحق للعبادة ف (هل من شركائكم) المزعومين (من يفعل من ذلكم من شيىء ؟) والجواب لا • فقل (سبحانه وتعالى عما يشركون • ظهر الفساد في البر والبحر) بالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات وغيرها (بما كسبت أيدي الناس) أي بشؤم معاصيهم التي نشأت من قوتهم، فلا عجب فيذلك الفساد ليكون جزاء وفاقا(ليذيقهم) أي الناس (بعض

الذي عملوا) أي جزاء بعض أعمالهم السيئة (لعلهم يرجعون) إليه ويتوبوا عن تلك السيئات . وهذه سنة الله في خلقه ، فإن صدقوا بها فذاك ، وإن أنكروها فـ (قل : سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتشاهدوه (كان أكثرهم مشركين) فابتلاهم الله تعالى بالتدمير والإهلاك فكانوا من الهالكين (فأقم وجهك للدين القيم) القائم المستقيم جدا (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له) من أيّ رادّ لأنه كان (من الله) وقد شاءه وما شاء الله كان (يومئذ) أي يوم البعث الذي لا مردّ له (يصدعون) أي يتفرقون فريقا فريقا ، ففريق إلى الجنة وفريق إلى السعير . (من كفر فعليه كفره) ولا ينال جزاء كفره غيره (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أي فيمهدون ويسوون لأنفسهم منزلا في الجنة (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، إنه لا يحب الكافرين) فلا يجزيهم إلا بما يستحقون .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ، وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(٤٧) أللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ، فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، فإذا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ(٤٩) فَانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ

عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)(٥٣)

قوله تعالى : (وَمِنْ آياته أن يرسل الرياحَ مُبَشرات) الرياح المبشرات بالأمطار هي الشمال والصبا والجنوب ، فإنها رياح الرحمة • وأما الدبور فريح العذاب • ومنه قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » وذكروا أن الثلاثة الأول تلقح السحاب الماطر وتجمعه ، فلذا كانت رحمة • وأما الدبور فللبلاء ، وأهونها أن تثير غبارا •

(وليذيقكم) أي الباري تعالى عند هبوب الرياح (من رحمته) يريد المنافع التابعة لها لسقي الاشجار ، وتصفية الحبوب في البيادر ، وإزالة الغبار عن أوراق الأشجار ، وتنشيط المرضى والمتعبين (ولتجري الفلك بأمره) يعني السفن التجارية (ولتبتغوا من فضله) أي ولتطلبوا بالرياح ركوب السفن البحرية التي كانت تسير بقوتها عند الهبوب (ولعلكم تشكرون) بظهورها لأنها أمارات الخير (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) أي فكذبوهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) بالتكذيب (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) •

(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء) متصلا (كيف يشاء) سائرا أو واقفا (ويجعله كسفا) أي قطعات متفرقة منفصلة (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) في حالتي الاتصال والانفصال (فإذا أصاب به من يشاء من عباده) بالأمطار النازلة على مزارعهم ومراتعهم

(إذا هم يستبشرون • وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله) أي من قبل السحاب (لمبلسين) أي آيسين قانطين (فانظر إلى آثار رحمت الله) أي المطر (كيف يحي الأرض بعد موتها ، إن ذلك) الخالق القادر الحكيم الذي أحيا الأرض بعد موتها (لمحي الموتى) أي لقادر على أن يحيي الموتى (وهو على كل شيء قدير • ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) أي فرأوا السحاب الحاصل منها مصفرا يدل على عدم وجود المطر فيه (لظلوا من بعده يكفرون) بالله جهلا وسفها وتزلزلا من قلوبهم السخيفة فأولئك الناس موتى في القلوب و (إنك لا تسمع الموتى) إلا بقدرة الله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وإنما قيده بالظرف لأن الأعمى المستقبل قد يدرك شيئا بعلامة ما ، وأما الأعمى المستدبر فكما لا يسمع لا يرى العلامة على الدعوة حتى تحصل له حالة تشبه السماع (وما أنت بهادي العمي) عَمىً ناشئا (عن ضلالتهم) أي عمى ناشئا عن فقد البصيرة وفقد الإيمان (إن تسمع) وتهدي (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) ومنقادون لما تأمرونهم به •

(اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنَ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَليمُ الْقَديرُ (٥٤) ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ، كذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقالَ الَّذينَ أوتُوا الْعِلْمَ والإيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إلى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ ، وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ مِنْ

كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ)(٦٠)

قوله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف) استدلال على وجوده الواجب بنفوذ قدرته في التكوين وتصرفه في المواد الضعيفة فيحولها إلى مادة قوية ثم يرجعها إلى شيىء ضعيف . ومعنى العبارة : خلقكم من شيىء ذي ضعف، أو أنه مثل خلق الإنسان من عجل أي أن الإنسان لما خلق خلق بلا قوة كأنه خلق من عرض الضعف ، أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم (ثم جعل من بعد ضعف قوة) بأن أوصلكم إلى درجة النشاط الدموي وقوة الأعصاب والعضلات (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) بأن جعل الدم قليلا وجريانه كذلك ، والعظم بلا رطوبة ، والعضلات يابسة ، والمعدة باردة فضلا عن الأمور التي تساعد الهرم والشيبوبة (يخلق ما يشاء) من الضعف والقوة (وهو العليم) بكيفية الخلق و (القدير) على تنفيذ ما يعلمه (ويوم تقوم الساعة) ويحشر الناس للحساب والميزان (يقسم المجرمون) أنهم (ما لبثوا) في الدنيا (غير ساعة) أي زمانا قليلا أو جزء من أربعة وعشرين جزء من يوم ، وذلك لقلة زمان حياتهم الدنيوية بالنسبة إلى بقائهم في البرزخ أو موقفهم الطويل في المحشر (كذلك كانوا يؤفكون) أي مثل ذلك الإفك والصرف عن الصدق كانوا يؤفكون عنه في الدنيا . أي كذبهم هنا في الآخرة مثل كذبهم في الدنيا باختلاق الأصنام وغيرها .

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان) من كبار الإنس المؤمنين (لقد لبثتم في كتاب الله) أي علمه مدة متمادية من أيام الدنيا والبرزخ (إلى) أن

وصلتم (يوم البعث ، فهذا يوم البعث) الذي كنتم تنكرونه (ولكنكم كنتم لا تعلمون • فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا) في الدنيا (معذرتهم) في الآخرة (ولا هم يستعتبون) أي ولا هم يزال عتبهم بالتوبة والندم ، إذ لا توبة هناك ولا ينفع الندم إذ ذاك من قولهم : استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فأرضيته •

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي ولقد وصفنا الناس بالصفات الكثيرة المناسبة لهم كالمؤمنين والمخلصين والكافرين والمشركين ، أو لقد ذكرنا لهم من كل قصة عجيبة أو وصف عجيب يفيدهم التنبه والتوجه إلى الله وتوحيده والاستقامة عليه (ولئن جئتهم بآية) من آيات الله لحملهم على الإيمان والإذعان بحقية دينكم (ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون • كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي لا يعلمون الحقائق أو أمور الدين ، أولا يطلبون العلم وإنما يحبون الخرافات والأوهام (فاصبر) أي على أذاهم (إن وعد الله) أي بنصرك عليهم والانتقام منهم (حق) لا ريب فيه (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أي ولا يحملنك على الخفة والاضطراب والقلق النفسي بعباراتهم وجساراتهم (الذين لا يوقنون) ولا اكتسبوا الإيقان والإيمان بالشريعة السماوية التي نزلت عليك من القرآن المبين •

سورة لقمان ، مكية ، وهي اربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الـم(١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلوةَ ويُؤْتُونَ الزَّكوةَ ، وهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يوقِنُونَ(٤) أولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سبيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَها هُزُواً أولئكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ(٦) وَاِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ(٧) إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(٨) خَالِدينَ فِيها ، وَعْدَ اللهِ حَقّاً ، وهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ(٩) خَلَقَ السَّموات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ(١٠) هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُوني ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(١١)

قوله تعالى (الـم) الكلام فيه كما في أمثاله (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي تلك الآيات المشرفة على النزول آيات القرآن الموصوف بالحكمة في إنزاله مرة من اللوح إلى سماء الدنيا وتنزيله منها إلى رسوله محمد ـ عليه السلام ـ في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ودلالته وتشريعاته للعقائد والأحكام ومقابلته لطبقات الناس بمقتضى الحال والمقام ، حالكون الكتاب (هدى ورحمة للمحسنين) أي هدى للمهتدين ورحمة للداخلين في الدين العاملين الحسنات بقوة الإيمان والإخلاص لرب العالمين • ثم كشف عن المحسنين بقوله المتين (الذين يقيمون الصلوة) أي الفرائض في أوقاتها الخاصة بخشوع وتمكين (ويؤتون الزكاة) من أموالهم للمستحقين (وبالآخرة هم يوقنون) أي ومع أدائهم للواجب يوقنون بمجيىء يوم القيامة ونيل الناس جزاءهم ثوابا أو عقابا (أولئك) الناس الموقنون بذلك (على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أي الناجون من عذاب رب العالمين •

(ومن الناس من يشتري لهو الحديث) أي الحديث الذي يلهي الإنسان عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها ، وفضول الكلام ، والمضاحيك والتي تجذب الإنسان إلى ما لا تحمد عواقبه • وغايته من ذلك أن يضل الناس عن طريق الحق كما قال تعالى (ليضل عن سبيل الله) قالوا : نزلت في النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم ، وكان يحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار (ويتخذها هزوا) أي ليضل الناس عن سبيل الحق ويتخذ ذلك السبيل سخرية ومهزوءً به في المجتمع (أولئك) الناس (لهم عذاب مهين) لإهانتهم بالحق فيكون جزاؤه موافقا لعمله وقصده (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) استدبر مستكبرا عن الاستماع لها (كأن لم يسمعها ،

كأن في أذنيه وقرا) وهنا تشبيهان ففي الأول تشبه حالـه في الاسـتكبار الموجب للإعراض عن الكلام الحق بحال من لم يقرع سمعه صوت ولو أراد سماعه ولم يستكبر كان يسمعه • وفي الثاني تـرق إلى درجة أنـه صـار استكباره وعتوه موجبا لعاهة في أذنيه منعتهما عن وصول الصوت إليهمـا ، حتى أنه لو أراد أن يستمع ليسمع لم تكن فيه قابلية لذلك (فبشره بعذاب أليم) مؤلم جدا ، لأنه علاوة على استكباره عن أخذ طريق الحـق يمنـع الناس عـن سـلوكها •

ولما ذكر أولئك الناس المستحقين للعـذاب الأليم ذكر مقابلهم وقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) أي اختصت بهـم على اقتضاء رحمته تعالى جنات" حاوية على النعيم الثابت أبـدَ الآبدين • (وعدَ اللهِ حقّاً) أي وعد الله بذلك وعداً وأحقه حقا (وهو العزيز) الذي لا يقدر عليه أحد (الحكيم) الذي كل أفعاله مقرون بحكمة جلية أو خفية (خلق السماوات بغير عمد ترونها) أي ليس لهـا عمد ولو كان لها عمـد لرأيتموها ، أو خلقها بعمد هي قوة لا ترى أودَعَها الله فيهـا تَحفظُ بهـا نفسها عن الاختـلال في سكونها وحركات المتحرك منهـا بحيث تبقى على استمرارية الوضع (وألقى في الارض رواسـي) أي جبالا عالية ثابتة (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميد بكم وتميل وتنحرف إلى غير المحل المقـرر والمدار المعين (وبث فيها) أي نشر فيها (من كل دابة) أي من كل زوج وصنف مما تعلق به إرادته ومشيئته من الحيوانات الماشية على القدمين أو الأقدام القليلة أو الكثيرة ، ومن الزحافات والحيوانات البحرية والطيـور وغيرها مما لا تحصى • وفي كل دلالة على سعة علمه وقدرتـه وحكمتـه (هذا) المقدار المذكور (خلق الله) ومخلوقه الذي أخرجه من العدم إلـى الوجود (فأروني) أي أعلمُوني (ماذا خلق الذين من دونه ؟) من الأصنام

المفتعلة (بل الظالمون) المشركون (في ضلال مبين) لا يستحسن أن يسأل عنهم ويستفهم .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ للهِ ، وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢) وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣) وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي ولِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ(١٤) وَإِنْ جاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلا تُطِعْهُما ، وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أو فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(١٦) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ ، وانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ ، إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ(١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ(١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ)(١٩)

قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف سيق لبيان بطلان الشرك وانه نهى عنه كل عاقل ذى حكمة . وفي حكاية هذه الجملة

عن لقمان إرشاد إلى أن حق الإنسان أن يأخذ الحكمة من أي شخص كان ، وأنها كالماء الزلال يشربه العطشان في أي ظرف كان . والحكمة علم بأحوال الموجودات من الأعيان والأعراض بقدر الطاقة البشرية ، فإن كان في تلك الأحوال اختيار" للبشر فالعلم بها حكمة" عملية كتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل وسياسة المدن ، وإلا فالحكمة حكمة نظرية منها طبيعية كعلم الطب ، ورياضية كالفلكيات ، وإلهية كالعلم بالباري تعالى وصفاته ، وقد تفسر الحكمة بالقيام بالأمور على ما ينبغي علماً أو عملا . وهذا المعنى هو المراد في الآية . ولقمان كان ابن أخت أيوب ــ عليه السلام ــ أو ابن خالته . (أن اشكر لله) أي اشكر لله ، فتكون أن مفسرة (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن الشكر من أعظم الطاعات وثوابها عائد إلى أصحابها (ومن كفر فإن الله غني حميد") أي غني عن العالمين فلا يحصل بعدم شكره نقص في شأنه تعالى ولائق للحمد والشكر في حد ذاته بتجليات صفاته فمن حمده أو لم يحمده لا يزيد به ولا ينقص .

(وإذ قال لقمان لابنه) بيان لبعض جمل جميلة من حكمته الجليلة أي واذكر إذ قال لقمان لابنه تاران أو ماثان (وهو يعظه) أي والحال أنه يعظه موعظة الوالد الحنون لابنه العزيز (يا بني لا تشرك بالله) أي احداً (إن الشرك لظلم عظيم) لا يساويه ذنب آخر فإن الله واجب الوجود وأكبر الموجودات وأعظمها ، والإشراك به أعظم الخطايا وأشدها وأقساها ، فذلك ظلم عظيم لا يساويه ظلم آخر . وقوله تعالى (ووصينا الإنسان) كلام مستقل وجملة معترضة أثناء كلام لقمان وكأنه إشارة إلى أنه كلما وجهت العباد إلى توحيدي وعبادتي وجهتهم إلى إطاعة الوالدين وبرهما ولما لم يكن في موعظة لقمان ذلك أذكركم به وأقول ووصينا الإنسان (بوالديه) . أما الوالد فلأنه الأصل الأصيل لوجوده . وأما الوالدة فلما أقوله وهو أنه

(حملته أمه وهنا على وهن) أي ضعفا على ضعف أي في حال ضعف على ضعف . وليست التثنية مقصودة ، وإنما المراد تتابع الضعف فإنها تضعف في حمله أولا ثم يزداد الضعف كلما ازداد وزنه في بطنها ، وتضعف في مخاض الولادة وتضعف في عسرها وربما تموت وتضعف في جريان الدم في النفاس وتضعف في حمله في حضنها وتربيته ، ولا سيما في سهرها عليه بالليالي وفي مرضه .

وكلما تأذى بأذى فهو في عينها قذى (وفصاله) أي فطامه (في عامين) أي في انقضاء عامين . وظاهر الآية أن مدة الرضاع عامان . وعليه الإمام الشافعي ، والإمام أحمد ، وأبو يوسف ، ومحمد وروي عن مالك ، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن مدة الرضاع ثلاثون شهرا (أن اشكر لي ولوالديك) تفسير لقوله وصينا (إلي المصير) أي المرجع يوم القيامة وعندي ما تستحقون من الثواب (وإن جاهداك) أي الوالدان أو أحدهما (على أن تشرك بي ما ليس لك به علم) أي ما ليس لك علم باستحقاقه لشراكته معه بل لك علم لو تفكرت بعدم استحقاقه لها (فلا تطعهما) إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (وصاحبهما في الدنيا معروفا) أي صحابا معروفا بأن تتأدب منهما وتنفق عليهما ، وتتحمل أذاهما ، وتعاهد المريض منهما وما شاكل ذلك ... (واتبع سبيل من أناب إلي) أي رجع إلي بالتوحيد وإخلاص العمل (ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وبعد الإنباء أجازيكم حق الجزاء .

روي أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص قال : كنت رجلا باراً بأمي ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت لَتَدَعَنَّ دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فَتُعَيَّرَ بي فيقال ياقاتل أمّه ! قلت : لا تفعلي يا أمّه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكلُ ، فأصبحت قد جَهَدَت ، فَمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها . فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله

لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت ديني هذا لشيء فان شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكَلَتْ فنزلت هذه الآية •

ثم رجع سبحانه وتعالى إلى بقيــة موعظــة لقمان لابنــه حيث قــال (يا بني) تصغير ابن للترحم (إنها) أي الخصلة أو الفعلة الناشئة من المكلف (إن تك مثقال حبة من خردل) أي إن تكن مثلاً في الصــغر كحبة الخردل (فتكن في صخرة) أي فتكن مع كونها صغيرة جدا في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة (أو) تكن (في) العالم العلوي كـ (السماوات ، أو في) العالم السفلي كـ (الأرض يأت بها الله) أي يعلمها الله تعالى ويبينها ويحسبها للمكلف أو عليه (إن الله لطيف) يصل علمه إلى كل شيء • (خبير • يابني أقم الصلاة) المفروضة عليك تكميلا لنفسك وإخراجاً لها من الظلمات إلى النور (وأمر بالمعروف) في الدين (وانه عــن المنكر) فيه تكميلا لغــيرك (واصبر على ما أصابك) من الأذى والبليات سواء كانت في مقابل الأمــر والنهي أو من القضاء الإلهي في الأبواب المنتظرة أو غيرها كالمرض والوفيات والفقر والذل وما شاكل ذلك (إن ذلك) أي الصبر على المصائب (من عزم الأمور) أي من معزومات الأمور ، أي من الأمور التي قطعها وقررها الله ، وجعلها مركز دائرة الأعمال والأخلاق الحسنة (ولا تصعر خدك للناس) أي لا تُمِلْه عنهم ولا تُولِهِمْ صفحة وجهك على عادة المتكبرين (ولا تمش في الأرض مرحا) أي لا تمش في الأرض التي هي أحطّ الأماكن منزلة بطراً وفرحا ، فانك تدفن فيها وتتمزق فيها (إن الله لا يحب كل مختال فخور) أي كل متبختر في المشي فخور على غيره (واقصد في مشــيك) واعتدل فيــه لا مسرعا متعجلا ولا متباطئا متكاسلا (واغضض من صوتك) أي وانقص بعض صوتك وحُطّ من درجته (إن أنكر الأصوات) الناشئة من الإنسان والحيوان (لصوت الحمير) لجهارة زفيرها وشهيقها ، والإنسان إذا رفــع

صوته وخرج من العادة الحسنة يشبه صوته صوتها • وأنكر أفعل التفضيل المصوغ من المجهول على خلاف القياس • والحمير جمع حمار • وكفى بهذا التشبيه تقبيحا للأصوات الإنسانية المرفوعة الخارجة عن العادة •

(أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّموات وَما فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٢٠) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ قالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا ، أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى ، وَإِلَى اللهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ، إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ)(٢٤)

قوله تعالى : (أَلَم تَروا أنّ الله سَخر لكم ما في السموات وما في الأرض) رجوع إلى سنة التنزيل وإلقاء الوحي الجليل بدعوة الناس من الأحرار والعبيد إلى الاعتراف بوجود الواجب ، والتزام التوحيد ببيان قدرته وآثارها ، وذكر إفاضة النعم وإظهارها • فيقول ألم تروا يا من تمكن لهم الرؤية ان الله تعالى سخر لكم (ما في السموات) من الشمس والقمر وسائر الكواكب الثابتة والسيارة المشعة والمشتعلة التي تكون وسيلة لمنافع معلومة (وما في الأرض) من المعادن والنبات والأشجار والأنهار والجبال

الراسية ذوات المنابع والعيون والأوراد والأزهار (وأسبغ عليكم نعمه) أي أتم وأوسع عليكم نعمه التي لا تحصى ظاهرة محسوسة وباطنة معقولة ، ومن أهمها حسن الصورة والسيرة، وإعانة الإنسان بالعقول المتفكرة الجساسة، والمشاعر والحواس الحساسة ، والمشي على الرجلين والبطش باليدين إلى غير ذلك ...

(ومن الناس من يجادل في الله) أي في وجوده وتوحيده (بغير علم) مستفاد مكتسب من الاستدلال (ولا هدى) مأخوذ من رسول ذي الجلال (ولا كتاب منير) للقلوب نازل من الله سبحانه وتعالى أي ذي نور في ذاته واضح معقول (وإذا قيل لهم) أي لأولئك الناس (اتبعوا ما أنزل الله) من توحيده تعالى وسلوك شريعته (قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة ما يعبدونه من دون الله (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) أي أو لو كان آباؤهم يدعونهم إلى اتباع الشيطان وهو يدعوهم إلى عذاب السعير (ومن يسلم وجهه إلى الله) بأن يفوض إليه تعالى جميع أموره (وهو محسن) أي وهو يعبد ربه بحيث لا يوجد في عبادته شوب الرياء (فقد استمسك) ذلك الإنسان بالعروة الوثقى أي فقد تمسك بأوثق عروة يتمسك بها وهو القرآن الكريم الذي جاء به من الله تعالى رسوله الموصوف بالخلق العظيم المعروف بأنه رءوف رحيم • (وإلى الله عاقبة الأمور) أي أن الأقوال والأفعال الصادرة من المكلف راجعة إلى الله سبحانه وهو الذي يقبل منها ما يقبل ، ويرد منها مايرد وهو الذي يجازي عليها بالثواب والعقاب (ومَن كفر فلا يحزنك كفره) أي فلا يهمنك ذلك كل يعمل على شاكلته ولاتزر وازرة وزر أخرى (إلينا مرجعهم) رجوعهم (فننبئهم بما عملوا) أي بعملهم أو بالذي عملوه أو بجزائه (إن الله عليم بذات الصدور) أي بما يختلج فيها من كل دقيقة (نمتعهم قليلا) أي تمتيعا

قليلا في مـدة محدودة (ثم نضطرهم إلى عـذاب غليظ) ثقيل لا يتحمل عادة إلا بالتحميل الاضطراري •

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّموات والأَرْض ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ • قُلِ الحَمْدُ للهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٢٥) للهِ ما في السَّمواتِ والأَرْضِ إنَّ اللهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ(٢٦) ولَوْ أَنَّ مافِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ، مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ••• ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧) ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ ، إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٢٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أجَلٍ مُسَمّىً ، وَأَنَّ الله بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٩) ذلِك بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الباطِلُ ،وأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ)(٣٠)

قوله تعالى : (ولئن سألتهم : من خلق السموات والارض ؟ ليقولن : الله) أي ليقولن : خلقهن الله • (قل : الحمد لله) أي على أنهـم اعترفوا بهذا الحق وألزموه وألجئوا إليه (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون أن التزامهم ذلك يوجب عليهم أن لا يشركوا به • يعني أن اعترافهم بأن الله خالق السماوات والارض لو كان اعتراف إنسان عارف بالأمور لاقتضى أن لا يشركوا به شيئا ولكنهم جاهلون بالحقائق يعلمون بعضا منها علماً ساذجا تقليديا ، ولو كان علما عن نظر واستدلال لامتنعوا عن الإشراك به تعالى •

(لله ما في السموات والأرض) خلقا وملكا وتصرفا ، ومع ذلك (إن الله هو الغني) عن كل ما سِواه وحميد" ومستحق للحمد في كل ما سو"اه .

(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) يكتب بها (والبحر) أي البحر المحيط لتبادره (يمدّه) أي يكون مدادا وحبرا للكتابة بها (من بعده سبعة أبحر) إذا نفد البحر المحيط نابت عنه في الكتابة بها (ما نفدت كلمات الله) لكون هذه الأقلام والمدادات محدودة متناهية وكلمات الله ومعلوماته الأزلية الأبدية لا متناهية (إن الله عزيز) غالب على كل شيء (حكيم) لا يخرج عن حكمته شيىء (ما خلقكم) أيها الناس أو أيها المشركون من العدم وإخراجكم إلى الوجود (ولا بعثكم) للنشور وأخذ الأجور (إلا كنفس واحدة) أي إلا كخلق وبعث نفس واحدة ، لأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون (إنه سميع) لأقاويل الناس (بصير) بأعمالهم (ألم تر) يا من يتمكن من الرؤية بالبصر أو بالبصيرة (أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي جعل زمانهما في الاعتدال على السواء ، وكلما انحرف المدار وبعد عن الاعتدال لحصل الزيادة والنقصان في الليل والنهار ، فإما تدخل حصة النهار في الليل فينقص النهار ويطول الليل ، أو العكس فبالعكس (وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى) محدود معين في علمه تعالى (وأن الله بما تعملون خبير ؟) أي ألم تر أنه بما تعملون خبير وتخصيص ذلك بالذكر لأنه هو مدار السعادة والشقاء . (ذلك) المذكور المقرر ثابت (بأن الله هو الحق) الواجب الوجود لا غيره (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أي غير الثابت ذاتا أو صفة (وأن الله هو العلي) العالي على كل ما يتصور (الكبير) المتعالي من أن يكون له شريك .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ؟ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(٣١) وَإذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّيهُمْ إلى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، ومَا يَجْحَدُ بِآياتِنا إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)(٣٢)

قوله تعالى : (ألم تر أن الفلك تجري في البحر) بيان لبعض من نعم الله تعالى من نعمه التي لا تحصى وأن العباد قاصرون عن شكرها فيقول : ألم تر أننا ألهمنا عبادنا صنع السفن للمشي عليها في البحار للتجارة وكسب أسباب المعيشة ، وذلك (ليريكم من آياته) أي بعض آياته الدالة على شمول قدرته ، وذلك من سعة البحار وشدة أمواجها وهياجها ، وكثرة الحيوانات البحرية الهائجة والهادئة ؟ (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور • وإذا غشيهم) أي أتاهم (موج كالظُّلَلِ) مثلَ ما أظل الناس من سحاب أو جبل (دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) أي سالك للطريق المستقيم ومنهم منحرف (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) أي غدار (كفور) بالنعم •

(يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُو جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً ، إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيوةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ(٣٣) إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ ما فِي الأَرْحامِ ، وَما تَدْرِي نَفْسٌ

ماذَا تَكْسِبُ غَدَاً ، وما تَدْرِي نَفسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٣٤)

قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما) نداء عام للناس يطلب إقبالهم عليه ليأخذوا تعاليمه القدسية ، فيقول : (اتقوا ربكم) أي احفظوا أنفُسَكم عن مخالفة أمر ربكم ، أي ونهي ربكم فإنّ التقوى الإيمان والإيمان سعادة الدارين • ثم يذكرهم ببعض مخاوفَ هامةٍ فيقولُ (واخشَوا يوماً) أي واخْشَوا عقابه في يوم (لا يجزي والدٌ عن وَلَدِهِ) أي لا يغني والد عن ولده ولا يُفيدُه شيئا (ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئا) أي واتقوا عذاب يوم لا مولود هو جازٍ عَنْ والِدِهِ شيئاً باقتضاء الرّحم يجزي عن والده شيئا في ذلك اليوم • فلفظ مولود عطف على والد وفاعل يجزي ، وقوله هو جاز عن والده شيئا جملة وقعت صفة للمولود ، والمنفي عنه محذوف وهو يجزي عن والده شيئا كما قدرناه (إن وعد الله) أي بالثواب والعقاب (حق) لا خلف فيه ، فمن واجب العاقل التقوى حتى ينال سعادة الدارين (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بلذاتها ومغرياتها عن التقوى والطاعة (ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان الذي يغر الناس بخداعه •

وقوله (إن الله عنده علم الساعة) الآية ••• نزل بعد أن جاء رجل إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقال له الوارث ، فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت ؟ فنزلت هذه الآية أي إن الله تعالى عنده علم حلول الساعة وهي يوم القيامة ، وهذه من العلوم التي استأثر الله

بها لا يعلمها إلا هو ، وقد سئل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، (وينزل الغيث) في وقته بلا تقديم ولا تأخير ، فتنزيله للغيث فعله ، وعنده علمه القطعي بالذات ، (ويعلم ما في الأرحام) بالذات ويدري أنه ذكر أم أنثى أم خنثى . فإنه هو الخالق له . والخالق عالم بالمخلوق (وما تدري نفس) بالذات (ماذا تكسب غدا) أي في الوقت المستقبل وإلا أن يعلمه ربه ، كنبي أعلمه به ربه (وما تدري نفس بأي أرض تموت) إلا إذا أعلمه الله بها (إنّ الله عليم" خبير) بهذه المغيبات وبغيرها .ومعنى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى عنده العلم بهذه الأشياء علما قطعيا لا شبهة فيه علما ذاتيا غير مكتسب وأما غيره تعالى فليس له علم بها بالذات فإن كان المعلوم مما استأثر الله به فلا يعلمه أحد إلا هو وإلا فيجوز أن يعلمه بإعلام الله تعالى أو بوسيلة سبب لذلك العلم كجهاز يكشف به الأمور البعيدة أو الأمور المغيبة . وأما ذاتا فلا يعلمه قطعا .

سورة السجدة ، مكية ، وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم(١) تَنْزِيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ(٢) أمْ يَقُولُونَ افْتَرِيهُ ؟ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتيهُمْ مِنْ نذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣) اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّموات ِ والأَرض وما بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ ، مالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا شَفِيعٍ ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ؟(٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إلَى الأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ(٥) ذلِكَ عالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ(٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسانِ مِنْ طِينٍ(٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ(٨) ثُمَّ سَوّيهُ ، وَنَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ، وَالأَبْصارَ ، وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ)(٩)

قوله تعالى : (الم تنزيل الكتاب) الآية ... إن جعل الم اسما للسورة أو القرآن فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هذا الم . وقوله تعالى

تنزيل الكتاب خبر بعد خبر وقوله لا ريب فيه خبر ثالث ، وقوله من رب العالمين خبر رابع . ويحتمل أن يكون الم مبتدأ ومابعده إخبارا له أي المسمى بالم الكتاب المنزل . ويحتمل أن يكون تنزيل الكتاب مبتدأ ومابعده خبراً له سواء بقي على ظاهره ، أي هذا التنزيل لا ريب فيه ، أو بعد اعتبار التنزيل صفة مضافة مؤولة باسم المفعول ، أي الكتاب المنزل لا ريب فيه ، وهو من رب العالمين لا علاقة فيه بمن سواه . (أم يقولون : افتريه ؟) أي أبل يقولون افتريه ؟ يعني اختلقه على الله وليس كلامه تعالى . (بل هو الحق من ربك) أي بل هو الكلام الحق لفظا ومعنى ونسبة ونزل من ربك (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) وهم قريش ، فإن هذا القوم بل ومن قبلهم إلى عدنان لم يأتهم نذير من قبل مجيء الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم . وهذا مبني على أن دعوتي موسى وعيسى لم تكونا دعوة عامة لبني إسرائيل والعرب ، وهو كذلك وأما دعوة إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ ، وإن كانت شاملة لهم لكنهم وقعوا في زمن الفترة وانقطاع الوحي ، ولم ينذروا قبل زمان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما تشهد بذلك آيات عديدة (لعلهم يهتدون) بهذا الكتاب المبارك المنزل إليهم ، والمعنى راجيا الاهتداء لهم به . والترجي في كلام الباري مستعار لمعنى الإرادة أو المحبة .

(ألله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش) بالمعنى الذي أراده سبحانه وتعالى أو استولى على العرش المحيط بالكل بلا منازع (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع) أي مالكم إذا تجاوزتم عن الالتجاء إلى الله تعالى من ولي ناصر لكم ينصركم بالقوة ولا شفيع يترجى لكم من الله العفو والمغفرة إذا أشركتم به أو عصيتم أمره (أفلا تتذكرون ؟) أي أفلا تستمعون هذه الآيات كي تتذكروا بها في عاقبة أموركم (يدبر

الأمر) أي أمر العالم وشئونه (من السماء إلى الأرض) بالملك المأمور بذلك (ثم يعرج) أي الملك يصعد (إليه) أي إلى المحل الذي عينه الله تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) لو كنتم أنتم تباشرون ذلك العروج • والحاصل أن الله سبحانه وتعالى يأمر الملك المأمور المخصوص بتدبير أمور الدنيا وشئونها من الأمطار والرياح والخصب والغلاء والسلم والبلاء وغير ذلك • فينزل مع ملك الأوامر إلى الأرض وبعد اكمالها يعرج إلى المحل الخاص المعين له في داخل يوم ووقت لو كنتم أنتم تباشرون العمل فيه لأخذ مدة ألف سنة وأما ذلك الملك فيجوز أن يقطع تلك المسافة في لحظة • وأمثال هذه الأمور موكولة إلى العليم الخبير وربطه المسببات بالأسباب ، وإلا فهو غني عن كل مباشر للأمور التي أرادها لأنه قال إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) أي ذلك الخالق الموصوف بتلك الصفات السابقة عالم الغيب والشهادة أي العالم بكل ما غاب عنكم وماتشهدونه أنتم ، وإلا فلا غيب عند الله سبحانه العزيز الرحيم الغالب الذي لا يغالَبُ والرحيم بعباده فيما يطالب (الذي أحْسَنَ كل شيء خَلَقَه) أي أحْسَنَ وأتْقن خلق كل شيء خلقه على حسب تعلق إرادته الأزلية بخلقه ليس في شيء من الصنع المتعلق بأي مصنوع فطور وقصور ، وإن كان بين أفراد المخلوقات وأصنافها وأنواعها تفاوت في النقص والكمال حسب الخطوط المرسومة ، وذلك لأن كمال الإنسان وفضله بالنسبة إلى الحيوانات والنبات والمعادن معلوم (وبدأ خلق الإنسان) المعهود وهو آدم ـ عليه السلام (من طين) كما خلقه بقدرته ونفخ فيه الروح من رحمته (ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مَهين) أي من ماء النطفة وهو ماء لا يعتنى به (ثم سواه) أي النسل وصوره كما أراد (ونفخ

فيه من روحه) أي نفخ فيه نفخا كائنا من الملك المأمور بذلك ويسمى بالروح للطافته وأضيف إلى الله للتشريف ٠

ويفسر هذه الآية الشريفة قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما رواه ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ٠٠٠) الحديث ٠ وفي فتح الباري : ومعنى إسناده لذلك أن يفعله بأمر الله ٠ والمراد بإسناده إلى الله تعالى أن يقول له كن فيكون ٠ ثم قال تعالى مخاطبا عباده على وجه الالتفات (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) وتقديم السمع لكثرة فوائده فإن أكثر أمور الدين لا تعلم إلا من جهته وأفرد لأنه في الأصل مصدر ٠ وقيل : للإيماء إلى أن مدركه نوع واحد وهو الصوت ، بخلاف البصر فإنه يدرك الضوء واللون والشكل والحركة والسكون والاجتماع والافتراق (قليلا ما تشكرون) هذه النعم الكثيرة الجليلة ٠ أي شكرا قليلا أو في زمان قليل تشكرونها ٠

(وَقَالُوا : أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ : يَتَوَفَّيكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ : رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَيهَا ، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(١٤)

قوله تعالى : (وقالوا : أئذا ضللنا في الأرض) روي أن القائل بهذا القول هو أُبَيّ بن خَلَف ، وإنما نسب القول إلى الجميع لرضاهم به . أي أئذا ضِعنا وصار الجسد من التراب الضائع في الأرض (أئنا) بعد ذلك (لفي خلق جديد ؟) ونشوء ثان مستوعب للقوة الحيوية ولوازمها (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أي أعرض عن قولهم هذا إنهم كافرون بلقاء ربهم ، وكافرون بالله تعالى ، وينكرون وجوده في الواقع ، وإلا فلو كانوا مؤمنين به لعلموا أن الإحياء والبعث للحساب والجزاء من أسهل ما يكون (قل) لهم يا حبيبي أنتم تموتون ولا شبهة أنه (يتوفيكم) ويقبض أرواحكم (ملك الموت الذي وكل بكم) أي وكل بقبض أرواحكم (ثم إلى ربكم ترجعون) بالبعث والإحياء والإعادة كما كنتم وتحاسبون بين يدي الله رب العالمين .

ثم يستعرض الباري تعالى أحوالهم يوم القيامة فيقول : (ولو ترى) يا حبيبي (إذ المجرمون) وهم الذين أنكروا البعث (ناكسوا رءوسهم عند ربهم) أي مطرقو الرءوس لا يرفعونها من الخزي والخجل قائلين : (ربنا أبصرنا وسمِعنا) أي تحولنا إلى أناس مبصرين وسامعين بعد أن كنا عميا في الدنيا عن إبصار الأدلة ، وصما عن استماع الآيات البينات والمواعظ الحسنة ، (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحا) حسب اقتضاء الآيات (إنا موقنون) أي مؤمنون يقينا بالله ورسوله وكتابه المنزل ، ولم تبق لنا شبهة فيها .

وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول في جواب الذين قالوا ربنا أبصرنا وسمعنا ، أي ونقول لهم في جواب كلامهم (لو شئنا لآتينا كل نفس هداها) في الدنيا وكان الناس كلهم مهتدين قسراً واجباراً ، (ولكن) أحبْبنا أن نعرض الناس للتكليف فيها حتى يتبين المكلف المطيع والمسيء باختياره ،وكنتم من القسم الأخير وكفرتم بي وبرسولي

فـ (حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) من المعاندين منكم ومن سائر العاصين (فذوقوا) عذاب جهنم (بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) والذوق الأول ذوق على سوء الاعتقاد ونسيان لقاء رب العباد . والثاني على المعصية وعمل الفساد .

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ(١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً ؟ لا يَسْتَوُونَ(١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)(٢٢)

قوله تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكروا بها) جُملة مستأنفة لحصر الهدى في غير المعاندين أعني العباد (الذين إذا ذكروا بها) أي وعظوا وأرشدوا بها (خَرّوا سُجّداً) من غير توقف وتردد (وسَبّحُوا بحمد ربهم) أي ونزهوه تعالى عن النقائص حامدين له على نعمه الفائضة (وهم

لا يستكبرون) عن الإيمان والاعتراف باللسان والعمل بالأركان (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حالكونهم ترتفع جنوبهم الملصقة بفراش الاستراحة عن مضاجعهم يتوضأون ويصلون و (يدعون ربهم) ويطلبون من ذي الجلال بالتضرع والابتهال (خوفا) من سخطه عليهم من سوء العقيدة والأعمال (وطمعا) في فيض رحمته الواردة في كل وقت وحال (ومما رزقناهم) من العلم والجاه والمال (ينفقون) على المستحقين لله المتعال (فلا تعلم نفس) أي أية نفس من النفوس (ما أخفي لهم) أي لأولئك الذين سبقت أوصافهم الحميدة (من قرة أعين) أي من درجات وجنات وهبات تقرّ بها أعينهم وذلك (جزاء بما كانوا يعملون) زائدا بدرجات على مايستحقون .

(أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟) أي أفمن كان مؤمنا موصوفا بتلك الحسنات ومستحقا لهذه الدرجات كمن كان فاسقا خارجا عن الإيمان والطاعات (لا يستوون) لا استواء ولا مماثلة بينهم بوجه من الوجوه وتفصيل الفرق فيما يلي (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) أي جنات هي مأويهم في الآخرة حالكونها (نُزُلاً) أعدت لهم (بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا) أي كفروا وخرجوا عن إطاعة الباري تعالى (فمأويهم النار) المستعرة (كلما أرادوا أن يَخرجوا منها) أي من تلك النار (أُعيدوا فيها) جَبْراً استمراراً لعذابهم (وقيل لهم ذوقوا عذاب النارِ) العذابَ (الذي كنتم به تكذبون) في الدنيا بالاستمرار (ولنذيقنهم منَ العذاب الأدنى) في هذه الدنيا من القحط والمرض والبلاء (دون العذاب الأكبر) الذي سيلقونه في الآخرة على تقدير دوام عنادهم (لعلهم يرجعون) إلى الهدى والرشاد ، أو لعل من عاصرهم يتوب فإذا تابوا تابوا ، وإذا استمروا على العناد استحقوا العذاب لأنهم هم الظالمون (وَمَنْ أَظْلم ممن ذكر بآيات ربه) أي لا بآية واحدة من آياته (ثم

أعرَض عنها ؟) بأسرها (إنّا من المجرمين) وهم المعرضون عن الآيات (منتقمون) .

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقائِهِ ، وَجَعَلْناهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرائيلَ(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكانُوا بِآياتِنا يُوقِنونَ(٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢٥) أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ في ذلِكَ لآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ؟(٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرونَ ؟(٢٧) وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟(٢٨) قُلْ : يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ(٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)(٣٠)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) استئناف لبيان رسالة موسى ــ عليه السلام ــ وتوجيه الرسول إلى أنه كان صاحب كتاب سماوي مثلك ، ومع ذلك آذاه الإسرائيليون من وجوه كثيرة ، ولكنه مع ذلك لما صبر هو وأتباعه نجحوا وجعلنا منهم أئمة للهدى وقادة في الجهاد والإرشاد فيجب عليك وعلى خواص أصحابك أن تصبروا وتجاهدوا وترشدوا الناس ليكون النصر حليفكم وتحصل منهم سادة قاده وقد لبوا هذا التوجيه الوجيه فصبروا وجاهدوا وأرشدوا ونجحوا حتى اهتز العالم بهم فيقول سبحانه

وتعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (فلا تكن في مرية من لقائه) أي لقاء موسى ذلك الكتاب وتبليغه للإسرائيليين (وجعلناه) أي موسى أو كتابه (هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم) أي من بني إسرائيل (أئمة) للناس (يهدون بأمرنا) فإن كانت الأئمة بمعنى الأنبياء فمعناه يهدون الناس بوحينا ، وإن كانت خيار الأمة فمعناه يهدون الناس على حسب أمرنا علماء الدين وقدوة الأمة أن يهدوا ويرشدوا الناس إلى الحق • وقوله تعالى (لما صبروا) ظرف لقوله تعالى وجعلنا ، أي ولما صبرو او تحملوا الأذى جازيناهم بأن جعلناهم أئمة للأمة • ومعناه أن الدرجات العالية تكون من نصيب أهل الصبر وقوله (وكانوا بآياتنا يوقنون) عطف على قوله صبروا لإفادة أن الصبر وحده لا يكفي للنجاح إذا لم يكن مقرونا بالإيمان الثابت واليقين الراسخ ، وتلك سنة الله تعالى في خليقته فكل قوم صبروا في الجهاد وأيقنوا بآيات رب العباد نجحوا (إن ربك هو يفصل بينهم) أي بين أولئك الأئمة ومن خالفهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وكذلك يفصل بينك مع أصحابك وأمتك المجاهدين المخلصين وبين الناس الذين عاندوهم وآذوهم يوم حشر الأمة أجمعين •

ثم رجع الباري إلى توبيخ المشركين فقال : (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) حالكونهم (يمشون في مساكنهم ؟) أي في مساكن أولئك المهلكين في تجاراتهم • وكم في محل النصب مفعول أهلكنا والمعنى أغفلوا ولم يهدهم إلى الحق كثرة إهلاكنا للأمم السابقة المعاندة للرسل ـ عليهم السلام ـ كديار عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة (إن في ذلك) البحث المذكور والوضع المشهور (لآيات) كثيرة للناس (أفلا يسمعون ؟) آياتي •

(أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) أي التي لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر . وهي صفة مشبهة ، وفيها أربع لغات : ضم الفاء والعين ، أو سكونها ، وفتح الفاء وسكون العين ، أو فتحها : (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) كالبقول والحبوب التي يقتاتها الإنسان (أفلا يبصرون ؟) في الحالتين أي حالة المحل وحالة البقل فمن الذي أنزل المطر عليها (ويقولون) على سبيل الاستهزاء : (متى هذا الفتح) أي الفصل للخصومة بيننا وبينكم (إن كنتم صادقين ؟) في أن الله يفصل بين المحقين والمبطلين (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) يعني لا تستعجلوا فإن الفتح لا شك في حلوله ، ولكن انظروا إلى ندمكم بلا فائدة عنده ، فإنه لا ينفع الذين كفروا إيمانهم إذ ذاك ولا هم ينظرون أي يمهلون لتأجيل العذاب . (فأعرض عنهم) أي عن هؤلاء المكذبين ولا تهتم بهم (وانتظر) وقت النصر لانصركم عليهم وأهلكهم (إنهم منتظرون) أي للغلبة عليكم أو إنهم منتظرون هلاكهم في الواقع ، وإن لم يؤمنوا بوقوعه في المستقبل .

وروى أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن جابر قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك . وروى البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل السجدة) و (هل أتى على الإنسان) .

سورة الاحزاب ، مدنية ، وهي ثلاث وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً(١) واتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْلَمُونَ خَبِيراً(٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً(٣) ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ ، وما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْواهِكُمْ واللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(٤) ادْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ ، جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُم بِهِ ولكِنْ ما تَعَمَّدتْ قُلُوبُكُمْ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(٥)

قوله تعالى : (يا أيها النبي اتق الله) افتتح الله تعالى هذه السورة بنداء حبيبه بوصفه الذي هو أرفع أوصافه • وأمره بالتقوى التي هي أقرب صلات العبد بمولاه تشريفا له وتكييفا • أما الأول فلأن النبوة تنبىء عن رفعة الرتبة والمنزلة الثابتة عند الله • وأما الثاني فلأنه اشتملت هذه

السورة على أمور هامة نفسية وعائلية واجتماعية يحتاج الإنسان في الثبات عندها على تقوىً راسخة وحالة نفس مطمئنة لا يتزلزل بشيء مما يرد عليه ، ولا يهتم بأمر من الأمور كيف كان ، ويجعل رضاء مولاه نصب عينه إلى لقائه . فيقول (يا أيها النبي اتق الله) في جميع الاحوال (ولا تطع الكافرين) في العقائد الفاسدة ، والأعمال الكاسدة ، واتباع الهوى والانحراف من الهدى (والمنافقين) المضمرين لكل سوء في كلامهم المعسول وعملهم المرذول (واتبع ما أنزل إليك من ربك إن الله كان) ولم يزل (عليما) بك وبغيرك و (حكيما) فيما يفعله بك وبغيرك . والمراد اثبت على ماأنت عليه ولا تهتم بهم فانهم لا قدر لهم عند ربك ، ولا يقدرون على الإضرار بك إلا ما شاء الله .

روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه نزلت عندما دعاه بعض أهل مكة أن يرجع عن قوله وعن دعوى التوحيد وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة انه ان لم يرجع عما هو عليه قتلوه .

(واتبع ما يوحى إليك من ربك) في كل ما تفعل وتترك (إن الله كان بما تعملون خبيرا) فإذا أراد الأعداء بك مكيدة فإنه يحفظك عنها ، إنه كان لك نصيرا (وتوكل على الله) وفوض جميع أمورك إليه تعالى (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا إليه الأمور (ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) روي أنها نزلت في أبي معمر الفهري كان أهل مكة يقولون : له قلبان من قوة حفظه . وكانت العرب تزعم أن كل لبيب أريب له قلبان حقيقة ، وأبو معمر هذا اشتهر بين أهل مكة بذي القلبين . وروي أيضا أنها نزلت عندما كان المنافقون يقولون : إن له قلبا معكم وقلبا مع أصحابه (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) وهذه الجملة الجميلة إبطال لما كان في الجاهلية من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها ، وكان الناس

في الجاهلية إذا قال زوج لزوجته : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، والمعنى أنت محرمة عليّ لا أركب عليك كما لا أركب على ظهر أمي كناية بالظهر عن البطن ، وخصوا الظهر لأنهم يستقبحون ذكر الفرج .. حرمت الزوجة عليه ، فأبطلها الإسلام وقرر على من أتى بهذه العبارة أو بأمثالها وجوب كفارةٍ مِن : عتق رقبة ، أو صيامِ شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكينا إذا عَجزَ عن الصيام . والتفصيل في كتب الفقه .

(وما جعلَ أدعياءَكم أَبناءكم) إبطال لما تقرر في الجاهلية وصدر من الإسلام من أنه إذا تبنى الرجل ولد غيره أجريت أحكام البنوة عليه . وقد تبنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل البعثة زيد بن حارثة . والأدعياء جمع دعي ، وهو الذي يُدْعى ابنا (ذلكم قولكم بأفواهكم) الإشارة متوجهة إلى الجمل الثلاث المذكورة . يعني أن وجود قلبين لإنسان واحد ، وصيرورة الزوجة أمّاً للمظاهر ، وكون الدعي ابنا للمتبنى .. قول يجري في العادة على اللسان ولا حقيقة له . ورأى بعض أنها إشارة إلى الجملة الأخيرة فقط بقرينة قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم) والاقتصار عليه (والله يقول الحق) أي الأمر المحقق المطابق للواقع (وهو يهدي السبيل) أي يهدي الناس إلى طريقه (ادعوهم لآبائهم) أي انسبوا الأدعياء إلى آبائهم وخصوهم بهم (هو أقسط عند الله) أي تلك النسبة والاختصاص أعدل عند الله لأنها ليس فيها إلا رعاية العطف والمحبة وهذه النسبة فيها المحبة وموافقة الواقع (فإن لم تعلموا آباءهم)فتنسبوهم إليهم (فإخوانكم في الدين ومواليكم) أي وأولياؤكم في الدين فادعوهم بالأخوة والمولوية وقيل : معنى مواليكم عتقاؤكم وقيل بنو أعمامكم وذلك يكون تطييبا لقلوبهم وتحبيبا لهم (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أي وليس عليكم جناح وإثم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل النهي (ولكن

ماتعمدت قلوبكم) أي ولكن الإثم في ماتعمدتموه بعد النهي بأن تدعوهم باسم الأبناء على أصول التبني ، وأما إذا قال شخص لآخر يا ابني أو يا بني بالتصغير على معنى الشفقة أو التلمذة والتربية أو على سبيل التشبيه بالابن في رعاية حقوقه فلا بأس فيه قطعا . ومما ينبغي العلم به أنه إذا جعل التبني أمرا مقررا في الناس ففيه مخالفة صريحة للنهي فيكون حراما من الكبائر ، وفيه أضرار كثيرة من حيث الدين لأنه يجعل الأجنبي بمنزلة المحرم بين أفراد العائلة من البنات والزوجات والأخوات ، فينظر إليهن وينظرن إليه ، ويجعل غير الوارث وارثا ، وربما يحجب الورثة كما إذا كان للرجل المتبني إخوة أو بنو إخوة أو أعمام أو بنو أعمام . علاوة على بعض أضرار أخرى كدناءة الطبع أو مرض موروث عند الولد المتبني إلى غير ذلك من المفاسد فليحذر (وكان الله غفورا) لما فرط منكم سابقا (رحيما) بهم في غفران ذنوبهم .

(اَلنَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَزْوَاجُهُ أمَّهاتُهُمْ وأولوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهاجِرِينَ، إلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً ، كانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً(٦) وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَهِيمَ ، ومُوسى ، وعيسى ابْنِ مَرْيَمَ ، وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً(٧) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً)(٨)

قوله تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) روي أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال أناس منهم :

نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت • يعني إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا ينهاهم إلا بما فيه الخير والحكمة ، بخلاف النفس فإنها أمارة بالسوء • وعلى تقدير سكونها واطمئنانها فإنها جاهلة بالحقائق والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتيه الوحي فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم • أي فلا مجال للتوقف والتردد قطعا في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه • وقرىء (وهو أب لهم) أي في الدين ، فإن كل نبي أب لأمته (وأزواجه أمهاتهم) أي منزلات منزلتهن في تحريم النكاح واستحقاق التعظيم والاحترام وفيما عدا ذلك كالنظر والخلوة وغيرها كالأجنبيات (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) أي في التوارث • وهذه ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة في الدين • وقوله : (في كتاب الله) أي في ما أنزل وهو هذه الآية أو آية المواريث والمفضل عليه (من المؤمنين والمهاجرين) أي من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة ، أي فالميراث بعد نزول الآية للأقارب حسب الأصول المقررة لا للمؤمنين والمهاجرين الأجانب • وقوله تعالى (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع ، والمراد بالمعروف الوصية • ومعنى الكلام وأولو الأرحام أولى من الأجنبي من المؤمنين والمهاجرين في كل نفع من صدقة وهدية وميراث ، إلا في الوصية ، فالأجنبي أحق بها من القريب الوارث ، فإنها لا تصح لوارث (كان ذلك) المذكور من الأحكام (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ أو القرآن (مسطورا) •

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أي واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والصبر على أذى الأعداء ، ونصرة بعضهم لبعض ، وإعلان التوحيد (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن

مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين لإظهار شرفهم على من سواهم لكونهم من أولي العزم • وأكد أخذ الميثاق بقوله (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) عظيم الشأن قويا وأخذ ذلك الميثاق في وقته (ليسئل الصادقين عن صدقهم) أي يوم القيامة (وأعد للكافرين عذابا أليما) أعاذنا الله منه •

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ : إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٩) اِذ جاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَاِذْ زَاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونا(١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً(١١) وإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه إِلاّ غُروراً(١٢) وَإِذ قَالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ : يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وما هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأَتَوْها ، وَما تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً(١٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبارَ ، وَكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً(١٥) قُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ اِلاَّ قَلِيلاً(١٦) قُلْ : مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ اِنْ أَرادَ

بِكُمْ سُوءً أَوْ أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً(١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالقائِلِينَ لأِخْوانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنا ولا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلاّ قَلِيلاً(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ، كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، فَإِذا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ ، وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً(١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وإِنْ يَأْتِ الأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ ، وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاّ قَلِيلا)(٢٠)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) شروع في قصة الأحزاب . وهي واقعة الخندق ، ووقعت في شوال سنة خمس من الهجرة . أي اذكروا نعمته عليكم وتوفيقه . (إذ جاءتكم جنود) والمراد بالجنود الأحزاب ، وهم قريش ويقودهم أبو سفيان ، وبنو أسد ويقودهم طليحة ، وغطفان ويقودهم عُيَينة ، وبنو عامر ويقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم ويقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير ورؤساؤهم حُيَي بن أخطب وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله عهد ونبذه بسعْي حيي ، وكان مجموعهم عشرة آلاف ، وفي قول خمسة عشر ، وقيل : اثنا عشر ألفا . فلما سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإقبالهم حفر خندقا قريبا من المدينة المنورة محيطا بها بإشارة

سلمان الفارسي أعطى كل أربعين ذراعا لعشرة • ثم خرج ـ عليه الصلاة والسلام في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فدفعوا في الآطام ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق كما قص الله تعالى • ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبال والحجارة من وراء الخندق إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود ، وكان يعد بألف فارس ؛ وعكرمة ابن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، وهبيرة ابن أبي وهب ، ونوفل ابن عبدالله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا ضيقا فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق والسلع • فخرج علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ في نفر من المسلمين ـ رضي الله عنهم ـ حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها ، فأقبلت الفرسان منهم وقتل علي ـ كرم الله وجهه ـ عمرا في قصة مشهورة ، فانهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة ، وقتل مع عمرو منبه بن عثمان بن عبدالدار ، ونوفل بن عبدالعزى ، وقيل : وجد نوفل في جوف الخندق فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة أجملُ من هذه : ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوّام • وذكر ابن إسحاق أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه فمات في الخندق ، وبعث المشركون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشترون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هو لكم ، لا نأكل ثمن الموتى » ثم أنزل الله النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لَم تروْها) وهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ ، وكانوا على ما قيل ألفا • روي أن الله تعالى بعث عليهم صبا باردة في ليلة باردة فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم ، وأمر الملائكة ـ عليهم السلام ـ فقلعت الأوتاد ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت

النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها في بعض ، وقذف في قلوبهم الرعب ، وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم ، فقال طليحة ابن خويلد الاسدي : أما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاءَ فانهزموا (وكان الله بما تعملون بصيرا) أي بصيرا بما فعلتم من حفر الخندق وترتيب مبادىء الحرب إعلاء لكلمة الله تعالى ، ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم • وقوله تعالى (إذ جاءوكم) بدل من إذ جاءتكم أي اذكروا نعمة الله عليكم بالنصر والمدد إذ جاءوكم أي الأعداء (من فوقكم) اي من أعلى الوادي من جهة المشرق (ومن أسفل منكم) أي من أسفل الوادي من جهة المغرب • والجائي من ذلك قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة • وقيل الجائي من فوق بنو قريظة ومن أسفل قريش وأسد وغفطان وبنو سليم وقيل غير ذلك • ويحتمل أن يراد من ذكر الجهتين الإحاطة من جميع الجوانب (وإذ زاغت الأبصار) أي مالت عن عادتها فشخصت (وبلغت القلوب الحناجرَ)أي تزلزلت واضطربت حتى كنت تظن أن القلب وصلت إليها وإلا فالقلبُ لا يتحرك لاسيما نحو الصعود (وتظنون بالله الظنونا) فيظن المنافقون أنه يُدَمّرهم ولا يفلتُ منهم أحد ، ويظن بعض المخلصين أن الله يبتليهم للإمتحان ، وبعض آخر أن الله ينصرهم نصرا عزيزا (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أي اضطربوا اضطرابا شديدا •

وقوله (وإذ يقول) معطوف على إذ زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة أي وإذ يقول (المنافقون والذين في قلوبهم مرض) وضعف من وساوس المنافقين وإلقائها في قلوبهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) أي وعد غرور أو قولا باطلا (وإذ قالت طائفة منهم) هم عبدالله بن أبي بن سلول ومن معه ، وقيل غيرهم (يا أهل يثرب) اسم للمدينة المنورة ، أو اسم بقعة

وقعت المدينة في ناحية منها ، واستعمل قبل الهجرة وكره استعماله بعدها لدلالته على التثريب واللوم • (لا مقام لكم) أي لا تمكن الإقامة لكم عند الخندق في مقابلة الأحزاب (فارجعوا) أي إلى منازلكم بالمدينة هي أحصن لكم وأستر ، ومرادهم من ذلك القول أمرهم بالفرار (ويستأذن فريق منهم النبي) ـ صلى الله عليه وسلم ـ روي أنهم بنو حارثة بن الحرث قيل أرسلوا أوس بن قيظى وهو منهم للاستئذان (يقولون : إن بيوتنا عورة) أي ذليلة الحيطان يصعد منها السراق بسهولة (وما هي بعورة) كما يقولون (إن) نافية أي ما (يريدون) بقولهم هذا واستئذانهم (إلا فرارا) من الحرب مع الأحزاب (ولو دخلت) أي البيوت او المدينة والفاعل محذوف ، أي ولو دخل الداخل وهو العدو (عليهم من أقطارها) أي من جوانبها (ثم سئلوا الفتنة) أي الردة أو مقاتلة المسلمين (لأتوها) أي لأعطوها أي قبلوها (وما تلبثوا بها إلا يسيرا) أي وما توقفوا من إجابتهم إلا زمانا قليلا •

(ولقد كانوا) أي اولئك المستأذنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للخروج (عاهدوا الله من قبل) أي قبل يوم الخندق (لا يولون الأدبار) وتولية الأدبار كناية عن الفرار والانهزام (وكان عهد الله مسئولا) عن الوفاء به ويجازي على إخلافه بلا عذر مشروع (قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) أي لن ينفعكم ذلك ولن يدفع عنكم ماأبرم في الأزل (واذا لا تمتعون الا قليلا) اي ولو فرضنا جدلا انه ينفعكم بان رفع عنكم ما أبرم ومنعتم فلم يكن ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا فيما بقي من العمر المفروض بقاؤه • (قل من ذا الذي يعصمكم من الله) أي يحفظكم من عذاب الله ونقمته (إن أراد بكم سوء) وقوله (أو أراد بكم) على تقدير أو يمنع الخير منكم إن (أراد بكم رحمة) ويجوز الاكتفاء بما في العصمة من معنى المنع • والخلاصة أن ما قدره الله تعالى لا مغير له ، (ولا يجدون) أي أولئك

المستأذنون (وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع الضرر عنهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) أي الناس المثبطين للناس عن رسول الله (والقائلين لإخوانهم هلم إلينا) أي ويعلم الناس القائلين لإخوانهم هلم إلينا أي أقبلوا إلينا حتى تسلموا من القتل والجروح (ولا يأتون البأس إلا قليلا) اي وهؤلاء لا يأتون الحرب إلا قليلا من الزمان (أشحة عليكم) أي حالكونهم بخلاء بالإنفاق عليكم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) أي أحداق عيونهم من الاضطراب وشدة الخوف (كالذي يغشى عليه من الموت) أي كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت أي من معالجة سكراته (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أي وإذا جاء وقت الأمن آذوكم بكلام خشن بألسنة حداد أشحة على الخير أي بخلاء حريصين على مال الغنائم أو على أموالهم التي ينفقونها ، وقيل بخلاء بأن يتكلموا بكلام فيه خير (أولئك لم يؤمنوا) أي أولئك الناس الموصوفون بهذه الصفات الذميمة لم يستقر الإيمان في قلوبهم (فأحبط الله أعمالهم) وأسقطها عن درجة الاعتبار (وكان ذلك) أي ذلك الإحباط (على الله يسيرا • يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أي هم في حالة من الجزع والخوف بحيث بعد أن هدم الله الأحزاب يظنون أنهم لم يذهبوا (وإن يأت الأحزاب) أي كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) تمنوا أنهم خارجون إلى البدو وساكنون مع الأعراب (يسألون عن أنبائكم) أي لا يعرفون أخباركم إلا إذا سألوا عن القادمين من المدينة (ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا) وذلك رياء أو خوفا من سوء السمعة وأناس هذا حالهم ليس فيهم خير بكل حال •

(لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً(٢١) ولمّا رأى الْمُؤمِنُونَ الْأَحْزَابَ قالُوا : هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُه

وصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُه ، وَمازَادَهُمْ إلاّ إيمَاناً وَتَسْلِيماً(٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً(٢٣) لِيَجْزِيَ اللهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ المُنافِقِينَ ، إنْ شاء ، أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رحيماً(٢٤) وَرَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً ، وَكَفى اللهُ المُؤْمِنِينَ الْقِتالَ ، وَكانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً(٢٥) وأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ : فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وتَأْسِرُونَ فَرِيقاً(٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وأمْوالَهُمْ ، وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها ، وكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شيْءٍ قَدِيراً)(٢٧)

قوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) الأسوة الخصلة والصفة والمراد بها الثبات والصبر على مقاساة الشدائد ، والمخاطب عبارة عن المؤمنين المخلصين الذين ظهر في قوله تعالى (يسألون عن أنبائكم) أي لا شك أنه كان وحصل وظهر لكم في شخص رسول الله خصلة حسنة من أعظم خصال الإنسان وهي الثبات والصبر ، وهذا (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا) أي هذه الخصلة لا تكون صفة إلا لنفس من كان يؤمن بالله ويرجو منه الخير والعفو والستر ، ويرجو جزاء اليوم الآخر أي الثواب فيه • (و) علاوة على ذينك (ذكر الله كثيرا) حتى تنور قلبه • ويحتمل أن تكون الأسوة بمعنى المؤنس به والمقتدى ، وكينونته في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما يكون على رعاية صفة التجريد ، وهو أن

ينزع من شخص ذي صفة شخص آخر مثله فيها مبالغة في اتصافه بذلك الوصف ، نحو لقيت من زيد أسدا ، ويكون بكلمة في نحو لهم فيها جنات النعيم ، وبمن كهذا المثال والآية كالمثال الأول . وقد تحققت تلك الصفة الحميدة في المؤمنين المخلصين كما يظهر من قوله تعالى (ولما رأى المؤمنون) أي المخلصون الكاملون في الإيمان (الأحزاب) الواردين على أطراف المدينة المنورة (قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) أي هذا الإبتلاء بهذا الجيش العظيم هو الذي وعدنا الله تعالى به في قوله (أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟) وفي قوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؟) وكذا وعدَ به رسوله في إرشاداته ومواعظه بأنكم تبتلون بالمحن على ضوء الآيات الواردة الدالة على ذلك الموضوع . وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه : « إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا » أي في آخر تسع ليال أو عشر ليال من وقت الإخبار ، أو من غرة الشهر ؛ فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك فمرادهم بذلك ما وعد بهذا الخبر وتعقبه ابن حجر بأنه لم يوجد في كتب الحديث (وما زادهم إلا إيمانا وتسليما) أي إيمانا بصدق ما وعد الله به ورسوله . وتسليمهم لذلك . (من المؤمنين) أي المخلصين الذين ذكرت صفاتهم (رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) أي صدقوا في ذلك وثبتوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثباتا حائزا للقبول . وفي المراد بأولئك الرجال أقوال :

الاول : إنهم أنس بن نضر وسائر الشهداء في واقعة أحد . ويقال إن فيهم نزلت (من المؤمنين رجال صدقوا) ... الآية .

الثاني : إنهم عثمان بن عفان ، وطلحة ابن عبيدالله ، وسعيد بن زيد ، وعمرو بن نفيل ، وحمزة ابن عبدالمطلب ، ومصعب ابن عمير وغيرهم ...

الثالث : إنهم أهل العقبة السبعون أهل البيعة .

ثم إنهم انقسموا قسمين كما قال سبحانه وتعالى (فمنهم من قضى نحبه) أي قضى أجله المحتوم والنحب في اللغة النذر المحكوم بوجوبه . ثم استعمل في الموت لوجوب تحققه (ومنهم من ينتظر) يوما فيه جهاد فيقضي نحبه فيه، ويؤدي نذره (وما بدلوا تبديلا) ماعاهدوا الله عليه بأمر آخر مخالف لذلك (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أي بسبب صدقهم (ويعذب المنافقين إن شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) إن شاء ذلك فإنه تعالى قادر على كل ممكن فيمكن أن يغفر للمنافقين من الكفار لكنه أخبر بانه لا يقع منه ذلك حيث قال : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) .

ثم ذكر الباري سبحانه تتمة قصة الأحزاب فقال : (وردّ الله الذين كفروا) وجاؤا متظاهرين متعاونين على الباطل لإزهاق الحق فرجعوا خائبين خاسرين متلبسين (بغيظهم) وحقدهم (لم ينالوا خيرا) بزعمهم وهو الظفر بخير البشر ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ولم يؤثروا في كيان الحق والإسلام بل غلب الحق وانهزم الباطل بدون قتال (وكنى الله المؤمنين القتال) أي وقاهم وعصمهم من ذلك (وكان الله قويا) على إضعاف كل قوي (عزيزا) غالبا على كل ما أراده . (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) أي كما أنه تعالى رد الأحزاب إلى مأويهم الذي جاؤا منه خائبين خاسرين أنزل اليهود الذين كانوا متعاونين معهم في المجيء آلى حرب الرسول وأصحابه ، وهم أهل الكتاب الذي فيه نعوته ونعوتهم مع أن الواجب عليهم أن يتعاونوا معه في رد الأعداء لا أن يتعاونوا عليه في زيادة البلاء فنزلهم من صياصيهم وحصونهم المنيعة التي كانوا يتحصنون بها في المخاوف (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف الشديد من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ

وأصحابه (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) أي تقتلون فريقا منهم وهم الرجال المقاتلون المتعاونون وتأسرون فريقا غيرهم من الشيوخ والنساء والذراري انتقاما منهم على نقض العهد والتعاون مع الأعداء الأشداء المتآمرين المتظاهرين على إبادة الرسول وأصحابه • قيل : لم لم يناسب في الجملتين المتعاطفتين بتقديم المعمولين أو العاملين ؟ وأجيب بأنه : لما لم يفرق الله في الحكم عليهم بين القتل والأسر ، ولم يجعل هناك واسطة لا تقتل ولا تؤسر بل يبقى بعض منهم في محله لم يفرق بين الفعلين في اللفظ ، وقدم فعل القتل لأنه أهم للمسلمين في الأمان من كيدهم وعودهم مرة أخرى ، وللغاية المتحققة عينها في إمحاء المقاتلين قدم المفعول على الفعل • وأما في جملة الأسر فمشى على الترتيب الواقعي من تقديم العامل على المعمول لأن الأسر هو المطلوب والمأمول (وأورثكم أرضهم) التي عليها مدار حياتهم من المزارع والمراتع والبساتين (وديارهم) أي دورهم السكنية وقلاعهم الأمينة (وأموالهم) من الأثاث والنقود والمواشي وما إلى ذلك (و) كذلك أورثكم (أرضا لم تطؤها) لحد الآن تشمل جميع ما فتحت ووقعت تحت أيديهم • ولو لم تصر من الغنائم كمكة المكرمة التي فتحت بعد هذا التأريخ بسنتين ، ولكن روي عن مقاتل ويزيد بن رومان وابن زيد أنها أرض خيبر التي فتحت بعد بني قريظة • (وكان الله على كل شيء قديرا) روي أنه بعد رجوع الأحزاب إلى أماكنهم ورجوعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المدينة المنورة مع أصحابه أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : أتنزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح ؟! إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد" إليهم فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة فحاصرها إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار ، فقال : تنزلون على حكمي ؟ فأَبوا • فقال : على حكم سعد بن معاذ فرضوا به • فحكم سعد بقتل

مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم . فكبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة . فقتل منهم ستمائة او أكثر ، وأسر منهم سبعمائة .

(يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ : إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيوةَ الدُّنيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً(٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ اَجْراً عَظِيماً(٢٩) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَيْنِ ، وكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً)(٣٠)

قوله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك) إستئناف لأمره تعالى حبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخير أزواجه بين الدين والدنيا ، بين الله ورسوله وبين طبع الإنسان ومأموله ليتبين أهل الإخلاص من غيره فيقول (قل لأزواجك إن كنتن تردن الحيوة الدنيا) أي التنعم والبطر فيها (وزينتها) أي زخرفها وبهجتها من الملابس الفاخرة والمساكن العالية والأثاث وما شاكلها (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) أي فأقبلن عليّ حتي أسرحكن وأطلقكن طلاقا لا يعود به ضرر عليكن من طول العدة وغيرها وأعطيكن حق المتعة الثابتة بالفراق (وإن كنتن تردن الله ورسوله) أي رضاء الله ورسوله أي إطاعة الله في الحقوق التي أوجبها وإطاعة الرسول في أداء حقوق الزوجية (والدار الآخرة) أي ثواب الدار الآخرة ونعيمها الباقي أبد الابدين (فإن الله أعد للمحسنات منكن) وهن من أردن الله ورسوله (أجرا عظيما) لا تستقصى عظمته .

روي أنهن سألنه ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة ــ رضي الله عنها ــ فخيرها فاختارت الله ورسوله ، ثم اختارت الباقيات اختيارها ، فشكر الله لهن ذلك فأنزل : (لا يحل لك النساء من بعد) وتقديم التمتيع على التسريح وإن كانت المتعة ناشئة من التطليق من الكرم وحسن الخلق ، ثم قال تعالى مؤدبا لأهل البيت (يا نساء النبي من يات منكنّ بفاحشة مبينة) أي بمعصية كبيرة ظاهرة القبح (يضاعف لها العذاب ضعفين) الحصة الاولى على ارتكاب المعصية ، والثانية على تشويه سمعة بيت النبوة والرسالة وفتح الباب لجسارة أهل الضلالة (وكان ذلك) أي تضعيف العذاب (على الله يسيرا) سهلا فإنه لا مانع من حكمه كيف كان .

الجزء الثاني والعشرون

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً(٣١) يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ؛ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً(٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وَأَقِمْنَ الصَّلَوةَ، وَآتِينَ الزَّكَوةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً(٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً(٣٤) اِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ، وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)(٣٥)

(ومن يقنت منكن لله ورسوله) أي تخشع وتطع عن أدب القلب وسكينته (وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أي ضعفين مرة على القيام بالحسنة، ومرة على تشجيع غيرها من أمثالها على مثل تلك الطاعة (واعتدنا لها رزقا كريما) عظيم القدر لا يناله إلا أمثالها •

ولما نصحهن الله على إطاعة الله ورسوله وعلى عدم الاعتناء بزينة الدنيا وعلى تضاعف الأجر على الطاعة والوزر على المعصية أدبهن في رعاية بعض الدقائق التي تكون سببا في رعايتها للكمال وفي الخروج عنها للاختلال فقال : (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) قال صاحب روح المعاني روّح الله روحه : إن أحد الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة ، وأحد الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد ، فإذا تغاير مسماهما تغاير اشتقاقهما ، لأنه لابد فيه من المناسبة بين اللفظ والمعنى، ولا يكفي فيه أحدهما ، فإذا كان المقصود به الإنسان فهو الذي لا يستعمل إلا في النفي ، وهمزته أصلية ، وإن قصد به العدد ونصف الاثنين فهو الصالح للإثبات والنفي وألفه منقلبة عن واو إنتهى • ولا يخفى أنه إذا سلم الفرق المذكور ينبغي أن تكون الهمزة هنا أصلية • وإلى أن همزة الواقع في النفي أصلية ذهب أبو حيان فقال : إن ماذكره الزمخشري من قوله : ثم وضع في النفي العام غير صحيح لأن الذي يستعمل في النفي العام مخصوص بمن يعقل • وذكر النحويون أن مادته همزة وحاء ودال ومادة أحد بمعنى واحد أصله واو وحاء ودال ، فقد اختلفا مادة ومدلولاً • وذكر أن ما في قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) يحتمل أن يكون الذي للنفي العام ، ويحتمل أن يكون بمعنى واحد ، ويكون قد حذف معطوف ، أي بين واحد وواحد من رسله •

ثم قال : وقال الراغب : أحد يستعمل على ضربين في النفي لاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد نحو ما في الدار أحد أي لا واحد ولا اثنان فصاعدا لا مجتمعين ولا متفرقين . وهذا المعنى لا يمكن في الإثبات لأن نفي المتضادين يصح . ولا يصح إثباتهما فلو قيل : في الدار أحد لكان إثبات أحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومتفرقين وهو بيّن الإحالة . ولتناوله مافوق الواحد صح نحو (وما منكم من أحد عنه حاجزين) وفي الإثبات على ثلاثة أوجه استعماله في الواحد المضموم إلى العشرات كأحد عشر وأحد وعشرين واستعماله مضافا أو مضافا إليه بمعنى الأول نحو (أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) وقوله يوم الأربعاء ، واستعماله وصفا وهذا لا يصح إلا في وصفه تعالى شأنه . أما أصله أعني وحد فقد يستعمل في غيره سبحانه كقول النابغة :

كأنّ رحلي وقد زال النهار بنا

بذي الجليل على مستأنس وَحَدٍ

وهو محتمل لدعوى انقلاب همزته عن واو مطلقا ، ولدعوى انقلابها عنها في الإستعمال الأخير . ثم قال : ولا يخفى على المنصف أن كون المعنى في الآية ماذكره الزمخشري ، وهو قوله إن المعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء .. أظهر ، وتفضيل كل واحدة من نسائه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على كل واحدة واحدة من سائر النساء لا يلزم أن يكون لهذه الآية ، بل هو لدليل آخر إما عقلي أو نص مثل قوله تعالى : (وأزواجه أمهاتهم) وقيل : يجوز أن يكون ذلك لها فإنها تفيد بحسب عرف الإستعمال تفضيل كل منهن على سائر النساء لأن فضل الجماعة على الجماعة يكون غالبا لفضل كل منها . إنتهى ما نقلته عن روح المعاني .

وإذا تأملت في ذلك بإنصاف علمت أن الحق هو ما قاله الراغب ، وهو أن استعمال أحد في النفي لاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على الاجتماع والانفراد ، وذلك لأن الاحتمالات في الآية الكريمة أربعة : نفي مساواة الجماعة للجماعة ، ونفي مساواة الواحدة للواحدة ، ونفي مساواة الواحدة للجماعة، ونفي مساواة الجماعة للواحدة • وهذا الاحتمال الأخير لا قيمة له ، إذ ليس المقصود أن جماعتكن ليست كواحدة من النساء قطعا ، وتبقى الاحتمالات الثلاثة صحيحة موافقة للمقصود ، لأنه إذا أريد أنه ليست جماعتكن كأية جماعة من النساء يلزمه غالبا أن لا تكون أية واحدة منهن كأية واحدة من سائر النساء • وإذا اريد أن ليست واحدة منهن كجماعة من النساء بل أشرف منهن •• أفاد المدح الزائد لثبوت شرف الواحدة على الجماعة فعلى الفرد يكون بالأولى • وإذا أريد أن ليست واحدة منكن كواحدة من النساء يلزمه أن لا تكون جماعتهن كجماعة من النساء • وهذه الاحتمالات السليمة كلها توافق ما قاله الراغب من استعمال أحد في النفي لاستغراق الجنس قليلا أو كثيرا ، وهذا واضح •

وقوله (ان اتقيتن) شرط وجوابه قوله تعالى (فلا تخضعن بالقول) أي لا تجعلن قولكن ذا لين وخنث (فيطمع الذي في قلبه مرض) ، أي نية فاسدة (وقلن قولا معروفا) أي معتادا من الحرائر بعيدا عن الريبة • (وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنّ) من قر يَقَرّ من باب علم أصله إقْرَرْنَ ، فحذفت الراء الأولى ، وألقيت فتحتها على ما قبلها ، وحذفت الهمزة للاستغناء عنها بتحريك القاف أي اُسْكُنّ في بيوتكن ولازِمْنَها • وملازمة البيوت أمر مطلوب من سائر النساء •

أخرج الترمذي عن ابن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أن المرأة عورة إذا خرجت من بيتها استشرفها

الشيطان • وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها » وأخرج البزار عن أنس قال : النساء جئن إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى ، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين في سبيل الله تعالى ؟ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى » • وقد استثني من خروج النساء ما فرضه الشرع أو أباحه وسنه ، كالخروج للحج ، وزيارة الوالدين ، والأولاد ، وعيادة المرضى وتعزية أهل الميت ، والتداوي ، واشتراء ماتحتاج إليه إذا لم يكن لها من يكفيها ، وزيارة من تصادقها من النساء أو الأقارب المحارم كالعم والخال ونحو ذلك • ولكنه يجب عليها غض البصر عن النظر المحرم في خارج البيت وداخله • ومن المحرمات خروجهن متعطرات ومتزينات بدون ضرورة كالسيل وخوف الحرق وأمثالها •

(ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى) والتبرج : أن تخرج فتلقاها بدون خمار على رأسها يستر عنقها وقرطها وقلائدها فيبدو ذلك منها • وقال المبرد : التبرج أن تظهر من محاسنها ما يجب عليها ستره • وقال الليث يقال : تبرجت المرأة إذا أبدت محاسنها (وأقمنَ الصّلوةَ وآتينَ الزكوة . وَأطِعْنَ الله ورسوله) في كل ما تأتِينّ وتَذَرِنّ ، لاسيما فيما أُمِرْتُنّ به ونهيتُنّ عنه (إنما يريدُ الله) بأمره ونهيه خطاباً معكن (ليذهب عنكم الرجس) أي الإثم في الدنيا والعذاب في الآخرة الخالدة يا (أهلَ البيت ويطهركم) مما صدر جهلا وغفلة ونسيانا (تطهيرا) بليغا مناسبا لمقام الرسول وبيته وأهله في الدنيا والدين ونصب أهل في أهل البيت على النداء أو على المدح أو على الاختصاص والمراد بأهل البيت أزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المخاطبات بالأوامر والنواهي الواردة قبلُ • والبيت : هو البيت

المصنوع من الطين والخشب ، وذلك للقرائن الدالة على ذلك من الآيات السابقة واللاحقة مع أنه ـ عليه الصلاة والسلام لم يكن له بيت يسكنه سوى سكناهن ، روى ذلك غير واحد • فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن طريق عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنه قال نزلت (إنما يريد الله) ••• الآية في نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة• وأخرج ابن مردويه عن طريق ابن جبير عنه ذلك بدون لفظ خاصة وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة أنه قال في الآية ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم • وروى ابن جرير أيضا ان عكرمة كان ينادي في السوق أن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت) نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام• وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج الطاهرات باعتبار الإضافة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيت واحد ، وجمعه في ما سبق باعتبار الأزواج المطهرات اللاتي كن متعددات، وجمعه في قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) دفعا لتوهم إرادة بيت زينب التي نزلت الآية عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيتها • وأورد ضمير جمع المذكر في (عنكم) و (يطهركم) رعاية للفظ الأهل وهذا كما في قوله تعالى خطابا لسارة زوجة الخليل ـ عليه السلام ـ : (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) • قيل المراد بأهل البيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواجه الطاهرات وضمير جمع المذكر لتغليبه ـ عليه السلام ـ عليهن • وقيل : المراد بالبيت مايعم بيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيت النسب ، وكان في البيت إذ ذاك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلي والحسن والحسين وفاطمة ـ رضي الله عنهم ـ •

فقد أخرج الترمذي والحاكم وصححاه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة ــ رضي الله تعالى عنهـا قالت : في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجلّلهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكساء كان عليه ، ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فَأذْهِب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا •

(واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله) أي القرآن (والحكمة) وهي السنة فالذكر بالنسبة إلى القرآن الكريم عبارة عن تلاوته وحفظه وفهم معناه ونشره بين المسلمات والمسلمين ، وبالنسبة إلى السنة عبارة عن حفظها وفهم معناها ونشرها بين الفريقين من أهل الدين • (إن الله كان لطيفا خبيرا) يعلم كل شيء وما يناسب كل فرد أو فئة مما له فيه مصلحة في الدين•

وإنما جعلت قوله تعالى : (إن اتقيتن) شرطا لما بعده لأن ماتقدمه ليس مقيدا به في اعتقادي ، لأن المقصود من الآية الشريفة أنكن يا نساء النبي ؛ يا أمهات المؤمنين ، يا مرجع المؤمنات في أخذ أحكام الآيات البينات والسنة السنية النبوية مقامُكنّ غيرُ مقام باقي النساء المؤمنات في الدنيا فإنكنّ قدوة، وإنكن في مقام عال على المقامات، وكيف عشتن سابقا ولاحقا فكلامي معكن كلامي مع نساء سيداتٍ زلةٌ صغيرةٌ منهن كبيرةٌ عند العالم ، وحبة ترد عليهن قبة في نظر الناظرين ، وليس كلامي مع أشخاصكن بل كلامي معكن بحسب مقامكن من بيت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فاتركن من الأحوال الشخصية الاعتيادية والاجتماعية كل قول وفعل ، وكل عادة تخالف جلالة مقام الرسالة فإن اتقيتن مخالفة أمر الله ورسوله (فلا تخضعن) إلى آخر الآيات ففضيلتهن فضيلة مكتسبة من إطاعتهن لله ولرسوله ، ورعايتهن لذلك البيت الرفيع ، ولا كلام مع أية واحدة منهن في ذاتها بدون ملاحظة ذلك • وإلا فكل صالح

وصالحة في عالم الإسلام حقه محفوظ ونصيبه ملحوظ بلا إضاعة لحقوق أحد .

(إن المسلمين والمسلمات) الداخلين في الإنقياد لحكم الله تعالى (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب التصديق به إجمالا أو تفصيلا (والقانتين والقانتات) أي كل من دخل في الطاعة والعبادة المفروضة والنافلة لله (والصادقين والصادقات) في الأقوال (والصابرين والصابرات) على المتاعب والشدائد والمكاره ومخالفة النفس والشيطان (والخاشعين والخاشعات) لله تعالى في أداء العبادات ، أو المتواضعين والمتواضعات للناس حياءً من الله (والمتصدقين والمتصدقات) على الناس أموالهم بالصدقات المفروضة أو المندوبة ، والصائمين والصائمات صياما مفروضا أو تطوعاً (والحافظين فروجهم والحافظات) فروجهن عما لا ير[illegible] الله تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بالألسنة والقلوب . [illegible]ع أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » (أعد الله لهم) بسبب أحوالهم السابقة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بالأعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على طاعاتهم لله مخلصين . أخرج ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على نساء النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلن : قد ذكركن الله تعالى في القرآن وما ذكرنا بشييء ، أما فينا مايذكر ؟ فأنزل الله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات) الآية ...

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)(٣٦)

والآية ، على ما روي عن ابن عباس ، نزلت في زينب بنت جحش من عمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُميمة بنت عبدالمطلب وأخيها عبدالله ، خَطَبَها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمولاه زيد بن حارثة ، وقال « إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة ، فإني قد رضيته لك » فأَبَتْ وقالَتْ : يا رَسُولَ الله لكني لا أرضاه لنفسي ، وأنا أيِّمُ قومي وبنت عمتك ، فلَم أكُن لأَفعَلَ • وفي رواية أنها قالت : أنا خَيْر منه حَسَباً، ووافقها أخوها عبدُالله على ذلك • فلما نزلت الآية رضيا وسلما • فأنكحها ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيداً بعد أنْ جَعَلَت أمرَها بيده ، وساقَ إليها عشرة دنانير وستين درهما مهرا ، وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مدا من الطعام وثلاثين صاعا من تمر •

قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أي ما صح وما استقام لرجل ولا لامرأة من المسلمين (إذا قضى الله ورسوله أمرا) أي قضى رسول الله على وحي من الله بأمر من الأمور (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أي أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا ، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ • والخيرة مصدر من تخير كالطيرة من تطير ، ولا ثالث لهما على ما قالوا (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا) أي واضح الانحراف عن سنن الصّواب •

(وَإذ تَقُولُ لِلَّذِي أَنعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوجَكَ وَاتَّقِ اللهَ ، وتُخفي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبديهِ ، وَتَخشَى الناسَ ، وَاللهُ أَحقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزواجِ أَدْعِيَائِهِمْ ، إذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وكَانَ

أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وكانَ أمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إلا اللهَ ، وكَفى بِاللهِ حَسِيباً (٣٩) ماكانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكِنْ رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)(٤٠)

قوله تعالى : (وإذ تقول) الآية ... خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي اذكر وقت قولك للرجل الذي أنعم الله عليه بأن رزقه صحبتك، وألهمه اختيار بقائه عندك لما أتاه أبوه يطلب رجوعه إلى محله ، وانت خيرته بين البقاء عندك وذهابه مع أبيه فاختارك ، ووفقه للإسلام فأسلم وحسن إسلامه (وأنعمت عليه) بتبنيه في وقته ، وجعله من أفراد عائلتك ، ثم عتقه وتزويجه من بنت عمتك ورعاية شئونه باعطاء مهر زوجته وتزويده بما يحتاج إليه في بيته : (أمسك عليك زوجك) زينب بنت عمتك ، وذلك أنها كانت ذات حدة في الطبع ، وتفخر على زيد بشرفها حسباً ونسبا ، ويسمع منها ما يكره ، فجاء رضي الله عنه يوما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله إن زينب قد اشتد علي لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أمسِكْ عليك زوجك واتق الله » في أمرها فإن الطلاق غير محبوب عند الله ، ولا تطلقها تعللا بتكبرها واشتداد لسانها عليك (وتخفي في نفسك ما اللهُ مُبديه) وهو على ما أخرج الحكيم الترمذي وغيره عن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ عبارة عما أوحى الله تعالى به إليه أن زينب سيطلقها زوجها وتتزوجها أنت وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي

أبي بكر بن العربي وغيرهم (وتخشى الناسَ) أي تستحي من قولهم أن محمدا تزوج زوجة ابنه ، والناس هنا هم المنافقون لأن المؤمنين الصادقين علموا أن حكم التبني قد نسخ ، وأنه يعتبر الدَّعِيُّ أجنبيا (والله أحق أن تخشيه) أي والله تعالى وحده أحق أن تخشاه في كل أمر ، وتفعل ما أباحه لك وأذن لك فيه بدون مبالاة بغيره (فلما قضى زيد منها وَطَرا) أي الحاجة النفسية من الزوجة ، أو أكمل وانفذ مدة الحاجة إليها وصار بحيث لم يقدر على صحبتها وطلقها وفارقها (زوجناكها) أي جعلناها زوجة لك وأمرناك بتزوجها (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أي إثم وذنب (في أزواج أدعيائهم) أي في تزوج أزواج أولاد أجانب وذكروا باسم أبنائهم على التوهم والعادة الجاهلية (إذا قضوا منهن وطرا) أي إذا طلقهن الأدعياء فيكون تزوجهن أمرا مشروعا لأن تلك النساء كن زوجات لرجال أجانب عن الأب الموهوم (وكان أمر الله مفعولا) محققا لا محالة .

ثم أعلن الباري سبحانه وتعالى أن هذا الزواج كان زواجا مشروعا حكم به الحق ، وأن خرق هذا الحجاب الجاهلي الموهوم على يد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بأمر الله ووحيه وتشريعه الحق فقال : (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَرَج وعتب فيما فرض الله له وقسم له وقرر وقدر وشرع له من تزوج زوجة دعيه بعد طلاقه لها (سنة الله في الذين خلوا من قبل) بل سنّ الله للرسول سنة كسنته في الأنبياء الذين خلوا من قبل أي من قبل هذا الزمان . فقد كانت في العهود السابقة أحكام مشروعة أو عادات متبعة ، ولما جاء عهد الرسول اللاحق نسخ تلك الشريعة السابقة أو تلك العادة القديمة (وكان أمر الله قدرا مقدوراً) أي وكان أمر الله تعالى بتشريع أيّ حادث في العالم إرادة أزلية جارية في

الأزل وواقعة في المستقبل أي تابعا لإرادة أزلية يتحقق المراد بها بلا شك وشبهة • وقوله تعالى : (الذين يبلغون) صفة للذين خلوا أي الأنبياء والرسل الذين كانوا يبلغون (رسالات الله) إلى القوم بدون مبالاة بعتاب ولوم (ويخشونه) أي وكانوا يخافون الله تعالى في كل ما يفعلون ويتركون (ولا يخشون أحداً إلا الله) ولا يخشون ولا يخافون في تبليغ الوحي أحدا إلا الله (وكفى بالله حسيبا) فإن قلت قد أثبت الله لنبيه خشية من الناس فكيف ينفيها هنا ؟ قلنا : تلك الخشية الثابتة لم تكن خوفا منهم ، بل كانت استحياء من انتشار كلماتهم الهوجاء أو أن الخشية المنفية الخشيةُ في تبليغ الوحي لا خشية وخوف آخر من أي ظالم أو عدو أو سبع كما سبق في قوله تعالى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) • وكان أساس ذلك الاستحياء اشتهار بنوة زيد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكانوا يدعونه بزيد ابن محمد مع أنه لم يكن ذلك الاشتهار ناشئا عن الواقع كما قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) حتى تحرم عليه زوجته (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وبصفة رسالته السماوية وكونه خاتم الأنبياء ، ولا يكون بعده نبي أو رسول إلى قيام الساعة كان من المهم أن يزيل الاشتباهات الواردة المستقرة في قلوب الناس من أي باب لاسيما في باب الزواج الذي هو وسيلة التناسل وبقاء النوع الإنساني ، فقدر الله تعالى أن يطلق دعيُّهُ وهو زيد بن حارثة زوجته وأمرَ اللهُ حبيبه أن يتزوجها لخرق ذلك الحجاب الموهوم • وإلا فلو كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغبة في نكاحها لتزوجها أول الأمر بكل سهولة ، لكنه تعالى أراد أن يرفع به الحجاب الموهوم ويصعد بتشريعاته إلى أوج المقام المعلوم • (وكان الله بكل شيء عليما) ذاتا وصفة ذاتية أو اعتيادية فلا يغيب عن علمه شيء من الأشياء •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلى النُّورِ ، وَكانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً(٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً(٤٤) يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٤٥) وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً(٤٦) وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً(٤٧) وَلا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً)(٤٨)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) من سنة الله تعالى في كتابه الكريم أنّه كلما نزلت آيات في أمور هامة تشغل القلوب بالبحث عن أخطار واردة أو أوهام باطلة عقبها بآيات تدعو المؤمنين إلى الرجوع إلى الله بذكره والإنابة • فعلى هذا المنهج عاد الباري تعالى إلى سنته في كتابه وقال : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) يشمل أحوالكم وأوقاتكم بحيث تعدون من الذاكرين لا من الغافلين فإن القلب مائدة الفوائد والعوائد ، فإذا أهملت نهبت الشياطين ماعليها (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي ونزهوا ذاته وصفاته عن كل ما لا يليق وتخصيص الوقتين لأنهما محيطان بأوقات العمل وتعقيب الأمل ، فإذا استعملا في الخير لا يتسرب الشر إلى ما بينهما • وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المراد بالتسبيح الصلاة وقوله تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملئكته) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، يعني أنه مادام الباري ـ عز وجل ـ يفيض عليكم الرحمة والنعمة وملئكته الكرام يدعون لكم بأمره تعالى فمن حقكم أن لا تتوانوا

دقيقة من الزمن في تسبيحه وتحميده وذكره وشكره والاشتغال بما يقربكم إليه • والصلاة إذا نسبت إلى الله تعالى فمعناها الرحمة وإفاضتها ، أو إلى الملائكة فالاستغفار، أو إلى الإنس والجن فالدعاء • واستعمالها هنا في المعنيين الأولين إما مبني على جواز استعمال المشترك في معنيين أو أكثر أو بطريق عموم المجاز وهو أن يراد من اللفظ معنى مجازي عام لتلك المعاني كالاعتناء بالشأن أو نحوه وذلك (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أي ظلمات الجهل إلى نور العلم ، أو من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ، أو من أنوار هي ظلمات بالنسبة إلى مقامكم إلى أنوار أخرى هي نور بالنسبة إليها كما يقال حسنات الأبرار سيئات المقربين (وكان) أي الباري تعالى (بالمؤمنين رحيما) كامل الرحمة (تحيتهم يوم يلقونه سلام) أي تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم سلام منه عليهم • ورد أن الله تعالى يقول لهم يوم القيامة ووقت اللقاء : سلام عليكم عبادي أنا عنكم راض فهل أنتم عني راضون ؟ فيقولون بأجمعهم : يا ربنا إنا راضون كل الرضاء • وقيل تحييهم الملئكة بذلك يوم القيامة إذا دخلوا الجنة كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (وأعد لهم أجرا كريما) أي وهيأ لهم ربهم ثوابا حسنا يرضونه ويطمئنون به •

ثم توجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مركز دائرة الوصول فقال : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) على كل من بعثت إليه بإطاعته لله أو بعصيانه وخروجه عن حكمه (ومبشرا) للمطيعين بالجنة والرضوان (ونذيرا) للعصاة بعذاب النيران (وداعيا إلى الله) جميع المكلفين من الجن والإنس (بإذنه) أي بتسهيله وتيسيره (وسراجا منيرا) للقلوب المظلمة بما تلقيه إليها من نور الإيمان والتوحيد (وبشر المؤمنين) المخلصين (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) وهو اطمئنان القلب وانشراح

الصدر في الحياة وأخذ البشرى عند الممات ، وسلام الملائكة عند النشور والسير في العرصات ، وسلام الله تعالى لهم في الجنات ، ولقاء وجهه الكريم من زيادة الهبات (ولا تطع الكافرين والمنافقين) في اقتراحاتهم فإنك إن أطعتهم ضيعوك وإن خالفتهم سلمك الله ورفعك (ودع أذاهم) أي ولا تبال ولا تهتم بأذاهم أي بإيذائهم لك أو أهلك أو أصحابك بالمعاندة والافتراءات وسوء المكالمات ، فإن كل أذية توجب لكم مزية (وتوكل على الله) في كل ما تفعله لله أو تتركه لله (وكفى بالله وكيلا) حافظا للذي يفوض الأمور إليه ويعتمد عليه في الدنيا والدين •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ المُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها ، فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً(٤٩) يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَماملَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ ، وبَنات عَمِّكَ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ، وَبَنات خالِكَ، وَبَنات خَالاتِكَ اللاَّتي هاجَرْنَ مَعَكَ ، وامْرَأَةً مُؤْمِنَةً ، إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ ، اِنْ أَرادَ النَّبيُّ أَن يَسْتَنْكِحها ، خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ في أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَكانَ اللهُ غَفوراً رَحِيماً(٥٠) تُرْجِى مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ ، وتُؤْوي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ ، وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فلا جُناحَ عَلَيْكَ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ ، وَيَرْضَيْنَ بِما

آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ، وَاللهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وكانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً(٥١) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ، وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ، إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً)(٥٢)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) عود إلى ذكر النساء ، والنكاح هنا العقدُ أي إذا عقدتم على المؤمنات عقد الزواج الصحيح الجامع للشرائط والأركان (ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن) أي تطأوهن (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) لأن العدة ، وإن كان فيها شوب التعبد ، لكن الحكمة الأساسية معرفة براءة رحم المرأة ، وما دامت غير موطوءة فلا احتمال للعلوق حتى توجب العدة (فمتعوهن) أي فأعطوهن مالاً تسمى المتعة لتمتعها به ، ولدفع الوحشة الناشئة عن الفراق (وسرحوهن سراحا جميلا) أي أخرجوهن من منازلكم إخراجا مقرونا بكلام جميل لين موافق لدفع وحشة المفارقة . وهذا الطلاق طلاق بائن بينونة صغرى لا تحل الزوجة بعدها إلا بعقد لأنه جرى قبل الدخول . وضابط الطلاق البائن والرجعي أنه إن استوعب العدد الثلاث فبائن بينونة كبرى لا تحل للزوج إلا بعد أن تنكح زوجا غيره ، وإلا فإن كان قبل الدخول مطلقا أو بعده بعوض فبائن بينونة صغرى ، وترجع إليه بعقد جديد جامع لجميع الآداب ، وإلا فالطلاق رجعي يجوز للزوج رجعتها في العدة بنفسه ، فإن تركها حتى انقضت عدتها فبائن أيضا ويحتاج رجوعها إلى عقد جديد .

ثم انتقل المولى إلى أحكام زواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أي أعطيتهن مهورهن ، وسميت المهور أجورا لأنها في معنى الأجور على

الاستمتاع بها بوجوه التمتع المشروع في الدين ، وتقييد الإحلال بإعطاء الأجور لإيثار الوجه الأفضل لا لتوقف الحل عليه (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أي من الجواري المسبيات في الجهاد التي أرجعها الله إليك وجعلها مملوكة لك ، وتقييد المملوكة بقوله مما أفاء الله عليك لرعاية الواقع لأنه لم تكن عنده جارية مشتراة ، أو لأن المشتراة لا يعلم بدء أمرها لاحتمال أن السبي لم يكن بوجه مشروع • وما يقال أن مارية القبطية ـ رضي الله عنها ـ لم تكن مسبية بل هدية له من أمير القبط جريج بن مينا صاحب الأسكندرية •• فيجاب عنه بأن هدايا أهل الكفر الذين في صدر الحرب حكمها حكم السبايا • أو لأن إهداءها كان قبل نزول الآية الكريمة (وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة) أي أحللنا لك امرأة مؤمنة (إن وهبت نفسها للنبي ، إن أراد النبي أن يستنكحها) وهذا الشرط شرط لإفادة الوهب، أي إنما تفيد هبتها نفسها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن أراد النبي أن يستنكحها ، وإلا فلا تفيد شيئا •

واختلف في تعيين الواهبة فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها ميمونة بنت الحرث الهلالية • وعن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ أنها أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية ، ولكن لم يقبلها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم تتزوج حتى ماتت وعن عروة والشعبي هي زينب بنت خزيمة من الأنصار كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم ، فقبلها ولم تلبث عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا قليلا حتى توفيت ـ رضي الله عنها ـ • وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها خولة بنت حكيم وقد أرجأها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتزوجها عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ بإذنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وعلى هذه الروايات فالواهبات

المقبولات ثنتان ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة • وأنكر بعضهم وقوع الهبة وقال : إن جملة (إن وهبت) مصدرة بكلمة إن وكذا تنكير امرأة يؤيدان هذا الرأي ، فالمراد الإعلام بالإحلال في هذه الصورة إن وقعت• وأنكر بعضهم قبوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطلقا •

خالصة لك من دون المؤمنين • قد علمنا مافرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) وتقرر واشتهر بين الناس • والمعنى أن الله تعالى قد علم ما ينبغي من حيث الحكمة وفرضه على المؤمنين في حق الأزواج والإماء ، وعلى أي حدٍّ وصفة ينبغي أن يفرض عليهم ففرضه واختصك سبحانه وتعالى بالتنزيه واختيار ما هو أولى وأفضل في دنياك حيث أحل لك جل شأنه أصناف المنكوحات ، وزاد لك الواهبة نفسها من غير عوض (لكيلا يكون عليك حرج) أي ضيق في دينك وتكون لك سَعَة فيما تشاء من موجبات راحتك (وكان الله غفورا رحيما) وافر الرحمة ، ولذا وسع عليك بما أباح لك • (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخر من تشاء من أزواجك وتترك مضاجعتها (وتؤوي إليك من تشاء) أي وتضم إليك من تشاء منهن (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أي ومن طلبت رجوعها إليك ممن تركت مضاجعتها فلا جناح عليك (ذلك) أي ذلك التفويض إليك بأن تعاملهن حسب مشيئتك ورغبتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن) لأن ذلك التفويض إلى اختيارك حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا ورحمة منك ، وإن رجحت بعضهن على بعض علمن أنه بحكم الله تعالى (والله يعلم ما في قلوبكم) خطاب له ـ صلى الله عليه وسلم ولأزواجه الطاهرات على سبيل التغليب ، أي يعلم ما في قلوب الجميع من الاطمئنان ومحبة صحبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرضا بما يعامل به معهن (وكان الله عليما) بما في القلوب

(حليما) لا يستعجل عقوبة المخالف لعله يرجع إلى الحق • وهـذه الآيـة الكريمة ، كما ترون ، دليل قاطع على أن أمر القسم مفوض إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومع ذلك فقد اتفق أهل السير على أنـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لازم القسم كما هو العدل بحيث لم تظهر منه مخالفة إلى وفاتـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

وقوله تعالى : (لا يحل لك النساء) الآية ••• أخرج ابن سعد عن عكرمة قال : لما خَيَّرَ رسول الله أزواجه واخترنه أنزل الله تعالـى هـذه الآية أي لا يحل لك النساء بعد هؤلاء الأزواج اللاتي اخترنك فحرم عليك تزوج غيرهن علاوة عليهن ، أو بطريـق التبدل كما قـال (ولا أن تبـدّل بهن مِن أزواج ، ولو أعجبك حسنهن) صورة أو سـيرة (إلا ما ملكت يمينك) وقد أخذ جاريةً من زينب بنت عمته اسمها نفيسة وهبتها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شـهر ربيع الأول الـذي قبض فيـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي مراقبا وعالما بكل ما يجـري في العالـم •

ومما يستحسن معرفته أنه كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحـدى عشرة زوجة؛ ستة من قريش : خديجةُ بنتُ خويلد ، وعائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأمّ حبيبة بنت أبي سُفيان ، وأمّ سلَمَة بنت أبـي اُمَيَّة ، وسودة بنتُ زَمْعَةَ • وأربعٌ عربيات : زينب بنتُ عمته أميْمة، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة الهلالية أمّ المساكين ، وجُوَيرية بنت الحـارثِ المُصْطَلَقية • وواحدة غير عربيـة مـن بني إسرائيل وهي صفية بنتُ حُيَيْ من بني النَّضير • وماتت عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتان منهن : خديجةُ ، وزينبُ أمّ المساكين • ومـات ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن التسع الباقيات• وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

اختصه الله بإباحة الزوجات زائدة على سائر المؤمنين لحكم ومصالح دينية لا لأمر آخر ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوج خديجة بنت خويلد في مكة وعمره خمس وعشرون سنة وعمرها أربعون ، وبقيت عنده إلى سنة خمسين ، ولما توفيت تزوج سودة بنت زمعة ، وهي كبيرة السن ، لرعاية أولاده وبناته ، وتزوج عائشة بنت الصديق بعد سنتين من الهجرة وعمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنتان وخمسون ، وباقي زوجاته تزوجهن إما لمصلحة تقوية الارتباط بينه وبين الاصهار ، وإما لكونها أرملة ذات صغار كأم سلمة ، أو لتقريب عشيرتها إلى الإسلام كأم حبيبة بنت أبي سفيان ، أو لدفع النزاع بين الناس كصفية ، أو لتعليم النساء أحكام الإسلام وآداب النساء فإنها لا تمكن بامرأة أو اثنتين ، فإن كلا من عائشة وحفصة وأم سلمة كن كمعلمات لنساء المسلمين ، كما يعلم من كتب السيرة النبوية . وأما الجواري فكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمرهن مثل باقي الناس ، فإن عددهن ليس محدودا في ملك اليمين لأي إنسان ، وكان له منهن أربع : مارية القبطية ام ابراهيم ابن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،أهداها له المقوقس عظيم القبط في الأسكندرية . وريحانة القرظية ، وماتت قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونفيسة جارية زينب بنت عمته وهبتها له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرابعة أصابها في بعض السبي .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ، إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ ، لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ

أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً ؛ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً(٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوه فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً(٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ ، وَلا أَبْنائِهِنَّ ، وَلا إِخْوانِهِنَّ ، وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ ، وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ ، وَلا نِسائِهِنَّ ، وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، واتَّقِينَ اللهَ ، إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً)(٥٥)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) شروع في بيان بعض الحقوق الواجبة على الناس المتعلقة به ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كان عند نسائه ، والحقوق الواجبة المتعلقة بهن ـ رضي الله عنهن ـ . والآية نزلت يوم تزوج ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش . روي عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش دعا القوم فطَعِموا ، ثم جَلَسوا يتحدثون ، وإذا هو كأنه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، ولما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدخل فاذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئتُ فأخبرتُ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم قد انطلقوا ، فجاءَ حتى دخل فذهبتُ أدخُلُ ، فَألقى الحجابَ بيني وبينه فأنزل الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) ... الآية والنهي للتحريم والباء المقدرة في قوله (إلا أن يؤذن) للسببية أي لا تدخلوا بيوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بسبب أن يؤذن لكم، والأقرب أن تكون للمصاحبة أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا في حال مصاحبتكم لإذنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقوله إلى طعام متعلق

بيؤذن • وقوله (غير ناظرين إنيه) حال من ضمير المخاطب ، وقيد للفعل السابق أي إلا في حال عدم انتظار طبخ الطعام •

والحاصل أن دخول البيت الشريف مقيد بقيدين : الأول الإذن فيه • والثاني أن لا يكون في حال انتظار طبخ الطعام بأن تدخلوا وقت حصوله حتى لا تبقوا فيه زمانا طويلا • وقوله تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا) استدراك مما يتوهم أن الدخول بالإذن المطلق كاف في الدخول ، فاستدرك ذلك بأن المراد من الإذن الدعوة إلى الطعام ، أي إذا دعيتم فادخلوا (فإذا طعمتم فانتشروا) مباشرة وقوله (ولا مستأنسين لحديث) معطوف على ناظرين أي وإلا غير مستأنسين لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له (إن ذلكم كان يؤذي النبي) لأنه ـ عليه الصلاة ـ له وقت نفيس يصرفه في غير هذه الأمور التافهة التي لا تفيد (فيستحي منكم) أن يصرح بأن له شغلا يحتاج فيه إلى الفراغ (والله لا يستحي من الحق) أي من بيان الواقع المفيد النافع (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أي وإذا طلبتم من أمهات المؤمنين شيئا تنتفعون به مما تحتاجون إليه من المواعين وغيرها فاسألوهن من وراء حجاب أي فاطلبوه منهن وراء الستره حتى لا تواجهوهن (ذلكم) الطلب وراء الحجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي أكثر تطهرا وابتعادا لقلوب الجانبين من الخواطر النفسية • (وما كان لكم) أي وما صح وما استقام لكم (أن تؤذوا رسول الله) بعمل يستكرهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده) أي من بعد وفاته أو من بعد فراقه لها بشرط المباشرة فإن ذلك مما يؤذي قلبه الشريف إيذاء عائداً إلى وجوب رعاية الدين لأن الإنسان ربما تجري التخيلات الفاسدة في نفسه فيتمنى موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فراقه لإحدى زوجاته فيتزوجها ، وفي ذلك فتح الباب لعدم الاعتناء بمقامه الشريف

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أي إن ذلك الإيذاء لقلبه الشريف كان عند الله عظيما أي أمرا عظيما وخطبا هائلا ولا يعرف مقدار ذلك إلا من يعرف مقداره عند الله العظيم • (إن تبدوا شيئا) مما يتجول في قلوبكم (أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء) خفي أو جلي (عليما) علما شاملا لا يعزب عنه ما دخل في الوجود أو بقي في ستار العدم •

(لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن) وهذه الآية الكريمة إستئناف لبيان من لا يجب عليهن الإحتجاب عنه • روي أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحنُ يا رسولَ الله نكلمهن أيضا من وراء حجاب ؟ فنزلت ••• ولم يذكر الله العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات • والمعنى أنه لا إثم عليهن في ترك الحجاب من آبائهن وسائر المذكورين في الآية ، وفي حكمهم كل ذي رحم محرم من نسب أو رضاع (ولا نسائهن) أي النساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) الظاهر أنه يشمل العبيد والإماء وإليه ذهب الإمام الشافعي ومذهب أبي حنيفة أنه مخصوص بالإماء (واتقين الله) في كل ما يخالف رضاه إيجابا أو سلبا (إن الله كان على كل شيء شهيدا) حاضرا عالما لا تخفى عليه خافية •

(إنَّ اللهَ وملائِكَتَه يُصَلّونَ على النَّبِيِّ ، يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صلوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(٥٦)

إستئناف لبيان شرف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند الله تعالى وأنه وملائكته يصلون عليه وإشارة إلى التعليل لما سبق • يعني أن النبي الزكي الذي شرفه بالصلاة عليه وأمر ملائكته بأن يصلوا عليه حقيق جدّاً

بوجوب رعاية قدره واحترامه وعدم إيذائه بأي وجه من الوجوه . وذكره باسم النبي إفادة لاستحقاق الصلاة عليه بصفة الرسالة بالطريق الأولى بناء على أن درجة الرسالة أعلى من درجة النبوة .

أخرج الإمام مالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قولوا أللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . وأخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك قد علمنا فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا أللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم » ووردت بروايات أخرى كيفية الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعضها أطول من بعض ويستفاد منها أن ليس المقصود الحصر في رواية واحدة وكيفية بل المقصود التوسعة في عبارات الصلوات عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف كانت ، بل نقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم ـ رضي الله عنهم ـ أن كيفية الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يوقف فيها مع المنصوص ، وأن من رزقه الله تعالى بيانا فَأَبانَ عَن المعاني بالألفاظ الفصيحة الصريحة التي تُعرب عن كمال شرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعظيم حرمته فله ذلك . واحتج له بما أخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : إذا صليتم على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا : فَعَلّمنا . قال : قولوا أللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك

على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة ، أللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون ، أللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وأفضل الكيفيات في الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما علمه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحابه بعد سؤالهم إياه لأنه لا يختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنفسه إلاّ الأشرفَ والأفضل . ونقل ابن عرفة عن ابن عبدالسلام أنه لابد في الصلاة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يزيد التسليم ، كأن يقول : أللهم صل على محمد وسلم تسليما ، أو صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما . واستدل النووي رحمه الله تعالى بالآية الكريمة على كراهة إفراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الأمر بهما معا فيها . والأمر في الآية عند الأكثرين للوجوب بل ذكر بعضهم إجماع الأئمة والعلماء عليه ، فقيل : واجبة في التشهد مطلقا ، وقيل : واجبة في مطلق الصلاة ، وقيل : يجب الإكثار منها من غير تعيين عدد ، وقيل : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرارا . وقيل : تجب في كل دعاء . وقيل : تجب كلما ذكر ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وبه قال جمع من الحنفية منهم الطحاوي ، وعبارته : تجلب كلما سمع ذكره من غيره أو ذكره بنفسه . وجمع من الشافعية منهم الإمام الحليمي والاستاذ أبو إسحاق الأسفرائني والشيخ أبو حامد الأسفرائني وجمع من المالكية منهم الطرطوشي وابن العربي والفاكهاني وبعض من الحنابلة .

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً(٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَدِ احْتَمَلُوا

بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً(٥٨) يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِساءِ المُؤْمِنِينَ : يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ، ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْنَ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً(٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ المُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، وَالمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إلاَّ قَلِيلاً(٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا ، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً(٦١) سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)(٦٢)

قوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) عام في كل من يؤذي الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم بأي وجه من الوجوه فمن إيذاء الله ورسوله الكفر بالله والإشراك به تعالى وقول اليهود (يد الله مغلولة) أو قولهم (عزير ابن الله) وقول النصارى : المسيح عيسى ابن مريم ابن الله ، وسلب أية صفةٍ كمالية عنه تعالى الله عن ذلك كله • ومن إيذاء الرسول قولهم فيه : هو ساحر ، أو كاهن ، أو شاعر ، أو مجنون • أو إيذاؤه بإساءة الأدب مع زوجاته أمهات المؤمنين في أيّ وقت وبأي وجه من الوجوه وإساءة الأدب مع آله وأصحابه ، أو نسبة الخيانة إليهم في شئون الدين ونسبةِ الضلال إلى جمهرة أمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وايذاء أولياء الله تعالى من العلماء العاملين والصالحين وغير ذلك مما هو مشروح في الكتب المعتمدة كالشفاء والمواهب اللدنية وغيرهما وخبر أهل التحقيق (لعنهم الله) في الدنيا والآخرة في المبتدأ والمنتهى أي طردهم وأبعدهم من رحمته بحيث لا ينالون شيئا منها (وأعد لهم عذابا مُهينا) وهذا في حق الله ورسوله مباشرة (و) أما (الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير

ما اكتسبوا) أي بغير جناية يستحقون بها الأذية حسب الشرع الشريف ويدخل فيه طرق الإيذاء كلها من هتك الأعراض ونهب الأموال وسلب الجاه والحال والسعاية فيهم والوشاية عليهم والبهتان ، وما التحق بها (فقد احتملوا بهتانا) أي فعلا شنيعا يبهت عليه الرجل أو المرأة المظلومة ، وذكره بعبارة البهتان إيماء إلى فظاعة البهتان بين وجوه الإيذاء (وإثما مبينا) ذكره للتأكيد على أن ذلك الإيذاء إثم واضح وفسوق فاضح .

وبعد إنزال التهديد على الناس الناسين لحقوق الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين والمؤمنات التفت إلى الحبيب وأمره بأن يقول لأهله خاصة ولغيرهن عامة أن يدركن خطر موقفهن من الناس ويحترمن حقوقهن حتى لا يتورطن في عقوقهن ، فقال تعالى : (ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) أي يقربن على أبدانهن جلابيبهن أي السترات الزائدة على الكسوة المعتادة بحيث تسترُ الرءوسَ والرقاب والنحور والصدور ومواقع الزينة منهن ، وهذا حكم شامل لنساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبناته ونساءِ المؤمنين بلا فرقٍ وتفاوت بينهن ، وأما الحجاب بمعنى ستر جميع البَدَن من الرأس إلى القدم بحيث لا يظهر أشخاصهن فهذا خاص بأمهات المؤمنين وبناته ـ رضي الله تعالى عنهن بنص قوله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب) لأنهن عندما سُئلن متاعاً فربما تسأل إحدى الأمهات وربما تسأل إحدى البنات ، لأن الكلام جرى في دخول بيوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فرعاية احترام المقام لا تفرق بين الأمهات والبنات . هذا إذا كان الناس سالكين مسلك السداد ، وأما إذا سلكوا مسلك الفساد فلا يبقى فرق عند ذاك بين نساء المؤمنين وسائر النساء من حيث وجوب التستر وتغطية الوجوه عن أنظار الفاسدين ، وإلا كان التبرز إفسادا للدين . ثم

عاد إلى تأكيد الرعاية بقوله الكريم : (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أي ذلك المذكور من إدناء الجلابيب عليهن وانتهاج منهج الأدب أقرب إلى حصول نتيجة هي أن يُعْرفن بأنهن من نساء النبي وبناته أو من نساء المؤمنين الحرائر العفيفات فيحتشمن ولا يؤذين من جانب أصحاب الأمراض النفسية بالتحرش بهن ، والوقوف على طريقهن ، والنظر إليهن ، وغير ذلك من سوء الآداب ... (وكان الله) ولم يزل (غفورا) كثير المغفرة للمتجاوزين عن الحدود (رحيماً) كثير الرحمة وإلا صب على الناس العذاب صبّاً فلم تبق معذرة لأي مؤمن ومؤمنة بأنه سيقف للمحاسبة عند الله رب العالمين .

وبعدَ أن سَدّ باب الفساد بالمواعظ والإرشاد وإحكام الأحكام التَفَتَ من جانب المؤمنين الصادقين إلى المارقين المنافقين فقال مُهددا متوعدا لهم : (لَئِن لَم يَنْتَهِ المنافِقون) عما هم عليه من إثارة الفساد بين العباد (و) لم ينته (الذين في قلوبهم مرض) من ضعف الإيمان أو اضطراب الحال (والمُرْجفونَ في المدينة) أي المزلزلون للقلوب فيها بنشر أخبار السوء عن المسلمين الداخلين والخارجين،وهم اليهود الحاقدون على الإسلام وأهله دينا ودنيا بجهاتهما (لنُغرينكَ بهم) أي لنأمرنك بقتالهم وإبادتهم حتى لا تنتشر المفاسد العائقة عن الإسلام (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) لفنائهم بالمرة أو ابتعادهم عن الحرة (ملعونين) منصوب على الذم ذما أينما كانوا وبانوا لأنهم خانوا (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) وصيغة التكثير لتأكيد التدمير ، وليس هذا الحكم سنة مشروعة في الحال بل (سنة الله في الذين خلوا من قبلُ) أي سن سنته هذه في تدمير المعاندين قبل وتجد باستمرار الحال إلى الاستقبال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) فلا تغيير لقضائه الأزلي فيما لا يزال وهو الكبير المتعال .

(يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، ومايُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً(٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ : يالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولا(٦٦) وَقَالُوا: رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنَا سادَتَنا وَكُبَرَاءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا(٦٧) رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً)(٦٨)

قوله تعالى (يسئلك الناس عن الساعة) أي عن وقت قيامها (قل إنما علمها عند الله) لا يطلع عليه أحدا لا ملكا ولا إنسا ولا جنا • ثم خاطب حبيبه فيقول : (وما يدريك) أي أي شيء يعلمك بها أي لا يعلمها أحد إلا الله (لعل الساعة تكون قريبا ؟) أي لعلها توجد في زمان هو قريب من زمانكم هذا وكان المشركون يسألونه عن وقتها تعنتا وتعاندا واستهزاء بها وبوجود العذاب فيها ثم قال تعالى (إن الله لعن الكافرين) كلهم (وَأَعَدَّ لهم سعيراً) أي نارا شديدة الاتقاد وشديدة الالتهاب (خالدين فيها) أي حالكونهم خالدين فيها (لا يجدون وليا) يتولى أمورهم ويحفظهم ويمنعهم عن دخولها (ولا نصيرا) ينصرهم فيخرجهم منها وذلك (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) حتى لا نبتلي بهذا العذاب الشديد • (وقالوا) عند ابتلائهم به : (ربنا إنا أطعنا سادتنا) أي ماوكنا وأمراءنا (وكبراءنا) أي وجهاء منا في المجتمع للذين كنا نستمع لهم (فأَضلونا السبيلا) بما دعونا إليه وأغرونا به وزينوه عندنا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أي عذابين يماثل كل الآخر عذابا على كفرهم في أنفسهم ،

وعذابا على إضلالهم لنا ونحن جاهلون (والعنهم لعنا كبيرا) أي واطردهم من بيت رحمتك وسدّ عليهم باب الرجوع •

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا ، وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً(٦٩) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزاً عَظِيماً)(٧١)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) نزلت عندما سمع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المؤمنين الضعفاء النفوس المختلطين باليهود والمنافقين بعض كلمات تافهة مؤلمة ، فيقول سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا) ضعفاء في العقول والنفوس ولا تستمعوا لأقوالهم ولا تكونوا (ك) الأسرائيليين (الذين آذوا موسى) بنسبته إلى بعض العيوب كالأدرة ، ولم تكن فيه (فبرأه الله مما قالوا) أي فأظهر براءته من قولهم أو من العيب الذي قالوه في حقه بأن أظهر على مرأى ومسمع منهم أنه ليس فيه ذلك العيب • أخرج الإمام أحمد والبخاري والترمذي من طريق أبي هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، وقالوا:مايستتر هذا الستر إلا لعيب بجلده إما برص واما أدرة وإما آفة،وأن الله أراد أن يبرئه مما قالوا ، وأن موسى ـ عليه السلام ـ خلا يوما وحده ، فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وأن الحجر غدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر • حتى انتهى إلى ملأ بني إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن

ما خلقَ الله وبرأه مما يقولون ، وقام الحجرُ فأخذَ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضربا بعصاه » (وكان عند الله وجيها) أي ذا جاه ومنزلة عند ربه تعالى •

واخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال (وجيها) مستجاب الدعوة • وزاد بعضهم : ما سأل شيئا الا أعطي إلا الرؤية في الدنيا • ولا يخفى أن استجابة الدعوة من فروع موافقة القدر (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) في كل ماتفعلون وتتركون حتى تكون سلبيات أموركم وإيجابياتها على مرضاة الله تعالى (وقولوا) في كل ما تتكلمون به أو عنه (قولا سديداً) مستحكم الأساس موجبا للخلاص ومصلحا للنفس والناس (يصلح لكم أعمالكم) بالإثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) لا يقدر قدره إلا الله •

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّموات وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ ، إِنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ والمُشْرِكات ، وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المؤمنين والمُؤْمِنَاتِ ، وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(٧٣)

قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) ••• الآية كثرت أقوال المفسرين في بيان المراد بالأمانة في هذه الآية الشريفة على أساس روايات عديدة عنه ــ صلى الله عليه وسلم ففسروها بالإيمان وبالتوحيد وبالصلاة والصيام والغسل من الجنابة والوفاء بالعهود وبرعاية القوى الإنسانية وبالحواس • وقال أبو حيان : والظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا ، وتشمل الأمانة بهذا المعنى كل ما يجب

رعايته فعلا من الواجبات وتركا من المحرمات ، وتخصيصها ببعض ما ورد في الأحاديث الشريفة ليس للحصر ، وإنما هو لبيان المهم بحسب المقام ، وكذلك تكلموا في أن عرض الأمانات على السماوات والأرض والجبال مع أنها جوامد على أي وجه يكون ، فمنهم من قال إن المقصود من ذلك ليس العرض في الواقع بل التمثيل بمعنى أن القيام بهذه الأمانات في درجة من الأهمية لو كان الله سبحانه وتعالى عرضها على تلك الأجرام العظيمة ما كانت تقبلها اختيارا لصعوبة القيام بحقها ومع ذلك حملها الإنسان .

ومنهم من قال : إن الآيات والأحاديث أدلة متضافرة على أن كل موجود له إدراك مناسب لشخصه وعلاقة شريفة وارتباط بجانب قدسه ، كما أن الإنسان مزود بالعقل الذي يستتبع العلم بالضروريات ، ويصلح لاكتساب النظريات ، فهو سبحانه وتعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما ، وقال لها : إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها ، ونارا لمن عصاني. فقلن : نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نبتغي فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا . ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله فكان الحامل لتلك الأمانة ظلوماً لنفسه بتحمل مشاقها وجهولاً بوخامة عاقبتها .

وقوله تعالى : (ليعذب الله) ... الآية متعلق بقوله عرضنا ، واللام لام العاقبة ، أي فكان عاقبة ذلك العرض وإباء الموجودات وتحمل الإنسان أن (يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفورا رحيما) حيث عفا عن كثير من أهل العصيان وترحم وأفاض الرحمة على عباده من الإنسان والجن . ومما يجب الانتباه له أن نوع الجن من حَمَلة الأمانة كالإنسان والرسل الكرام أرسلوا إليهم كما أرسلوا إلى الإنسان ، لكن اكتفى عن ذكره بذكر مقابله لأن الكلام في ظلم الإنسان وجهالته ، ولاسيما من عاصر سيدنا محمدا خاتم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما في السَّمواتِ وما فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ(١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وما يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢) وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لاتَأْتِينا السَّاعَةُ قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّموَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنا مُعاجِزِين أولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ(٥) وَيَرَى الَّذِين أوتُوا الْعِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُو الْحَقَّ ، وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)(٦)

قوله تعالى : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي له السماوات والأرض وما فيهما خلقا وملكا وتصرفا (وله الحمد في الآخرة)

أي له الحمد على آلائه ورحمته ونعمته في الآخرة كما له الحمد في الاولى .
وقال بعض إن في الآية الكريمة احتباكا أي حذف شيىء سابقا بقرينة موجودة في اللاحق وبالعكس . وبيانه : الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض في الدنيا ، وله الحمد على ما في الآخرة من الثواب والنعيم الخالد في الآخرة . وذكر الآخرة رد على من قال : إن نعيم الآخرة من متفرعات العبادة والطاعة في الدنيا ، ويجب عليه إفاضته فلا يستحق الحمد عليها .
ووجه الرد أن واجب الوجود خالق لكل موجود فكل طاعة ناشئة من العباد ومن مخلوقاته تعالى إذ لو كانت من مخلوقاته لأتى كلّ عابدٍ بعبادة تفوق سائر العبادات ، على أن التوفيق على اكتسابها لا دخل لأحد فيه إلا الله تعالى (وهو الحكيم) الذي يفعل ما يفعله مقرونا بالحكمة ويترك ما يترك مقرونا بها (الخبير) بمبادىء كل موجود وعواقبه وبسريات كل إنسان وبجهرياته ، فلا تخفى عليه خافية من كائناته .

وقوله تعالى : (يعلم ما يلج في الأرض) ... الآية استئناف لبيان إحاطة علمه تعالى بالأشياء أو لتفسير الخبير فيقول : (يعلم ما يلج) أي يدخل (في الأرض) فيشمل ما يدخل بذاته من الحشرات والذرات الدقيقة التي يصعب دركُها بالعين المجردة ، أو يدخل فيها بالمعالجة كالأموات ، وما يسري في أَعْماقها من الأمطار والسيول (وما يخرج منها) من النبات بأصنافه ، أو من الحشرات المنبعثة منها بإرادته تعالى وإجراء سننه الكونية ؛ فإن كل ما يكسب الوجود فهو ممكن من الممكنات ويجب أن يكون له مرجح يرجح وجوده على عدمه ، وليس ذلك شيئا مثله ، وإنما هو فاعل يستغني في وجوده عن خيره أو من المعادن النابعة السيالة كالماء والنفط وما شاكلهما (وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) من الملائكة والطيور

والأمطار والثلوج والبرد والصواعق والهواء ، وسائر المواد النازلة منها كالمنّ النازل في مواسم معينة ، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله .

ومنه ما حدث في عصرنا من صعود الصواريخ والإنسان والحيوانات والكواكب والأقمار الصناعية التي تصعد وتنزل وتدور في الجوّ ، ولم يخطر شيء منها ببال أحدٍ ، ويمكن حدوث أشياء أخرى في المستقبل القريب أو البعيد ، فإن كل ذلك مما تعلق به علمه تعالى (وهو الرحيم) بالعباد في الإنزال والإصعاد والخروج والعروج (الغفور) لذنوب المؤمنين المغترين بمكاسبهم العلمية غافلين عن أن كل ما يجري مشمول لعلمه تعالى ويحدث بالأمر (وقال الذين كفروا) بالله وعلمه وقدرته وبخروج أنفسهم وخروج الكائنات من العدم إلى الوجود بقدرة واجب الوجود . متناسيا كل ذلك : (لا تأتينا الساعة) أي الساعة الموعودة الواقعة بعد فناء هذا العالم وإيجاد عالم آخر ، وبعث الموتى من القبور للحساب والميزان والجنة والناس (قل : بلى وربي لتأتينكم) أي الساعة الموعودة (عالم الغيب) بدل من ربي أي عالم كل شيء لاسيما الأمر الغيب عندكم من الساعة وما وراءها (لا يعزب) أي لا يبعد (عن) علمه (مثقال ذرة) مقدار أصغر نملة (في السماوات ولا في الأرض) وقولهُ (ولا أصغرُ من ذلك ولا اكبر) منه (إلا في كتاب مبين) جملة مؤكدة لنفي العزوب مبتدأ وخبر، والخبر، قوله : الا في كتاب مبين. والمراد بالكتابِ المبين هو اللوح المحفوظ . وقوله (ليجزي الذين آمنوا) متعلق بقوله لتأتينكم أي لتأتينكم الساعة ليجزي الذين آمنوا (وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) لا تعب فيه (والذين سعوا في آياتنا) أي ردها ومعاندتها حالكونهم (معاجزين) أي مسابقين للرسول وأصحابه أو لنوابهم في مستقبل الأزمان (أولئك لهم عذاب من رجز) أي من سيىء العذاب (أليم) أي مؤلم .

وقوله تعالى : (ويرى الذين) ابتداء كلام مسوق للاستشهاد بأولي العلم على أولي الجهل المعاندين أي ويرى الذين (أوتوا العلم) من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يأتي بعدهم أو من آمن من علماء أهل الكتاب وقوله : (الذي أنزل إليك من ربك) مفعول أول وقوله (هو الحق) مفعول ثان ، والمراد بالموصول القرآن الفاصل بين الحق والباطل ، وقوله (ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) معطوف على الحق عطف الفعل على الاسم لأنه في تأويله •

(وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ(٨) أَفَلَمْ يَرَوْا الى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؟ إنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَو نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ، إنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٩)

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) القائلون هم كفار قريش فقال بعضهم لبعض على وجه التعجب : والاستهزاء (هل ندلكم على رجل) يريدون به سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ينبئكم) أي يخبركم بأمر مستغرب جدا ، وهو أنه (إذا مزقتم كل ممزق) وصرتم ترابا في القبور (إنكم لفي خلق جديد) أي إنكم إذا متم وتبدلتم بمادة ترابية فإنكم تبعثون من قبوركم وتعودون الى الصورة والسيرة السابقة في الدنيا (أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟) أي أكذب على الله متعمدا بكل عقل وشعور ؟ أم كذب عليه وهو متلبس بالجنون والاختلال في العقل ؟ وخلاصته : أنهم

قرروا أنه كاذب في إخباره بذلك ، ولكن رَدَّدُوا بين الكذب على التعمد أو على الجنون والاختلال في العقل (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) إبطال لما قاله الكافرون بقسميه بمعنى أنه ليس ما أخبر به من الكذب لا تعمدا ولا جنونا ، ولكن الذين لا يؤمنون في شعور فاسد يوجب حلول العذاب بهم في الآخرة وفي الضلال البعيد عن الحق وبعد أن رد عليهم زعمهم الفاسد ذَكَّرهُم بما يَقطَعُ عرقَ الضلالِ أو يقلعه من أساسه إذا نَظَروا إليه نَظَر الاعتبار فقال : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ؟) إلى الحقائق التي أحاطت بهم من كل جانب من السماء والأرض ، ونحن في إمكانية بحيث (إن نشأ نخسف بهم الأرض) كما خسفناها بقارون (أو نُسقِطْ عليهم كسفاً) أي قِطعا كباراً من السماء حتى تهلكهم وتدمرهم (إن في ذلك) التذكير (لآية) واضحة الدلالة على أن الإعادة وبعث الأموات عندنا كبدء خليقتهم ، وأن لا صعب علينا . وهذه الآية نافعة (لكل عبد منيب) راجع إلى الله ويريد أن يكون من عباده العقلاء المتفكرين .

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، ياجِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ ، وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ(١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، واعْمَلُوا صالِحاً إنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١) ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ ، ورَواحُها شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ، ومِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، ومَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ(١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ : مَحَارِيبَ ، وَتَمَاثِيلَ ، وجِفَانٍ كَالْجَوابِ ،

وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ، وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فلمَّا قَضَيْنَا عليه المَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأرضِ تَأْكُلُ مِنْسأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَو كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مالَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ)(١٤)

قوله تعالى (ولقد آتينا داود مِنّا فضلا) أي نعمة زائدة على رتبة النبوة والرسالة وهي التي تستفاد من الآيات التالية من حسن الصوت البارع ، وتسبيح الجبال والطير معه ، وإلانة الحديد له • قيل : وباختصاصه بولد شاركه في رتبة النبوة ، واختص بملك لم يكن لأحد من الملوك بعده • وقوله (يا جبال أوبي معه) بدل من فضلا بتقدير قولنا بالنصب ، أو من آتينا بتقدير قلنا ، أي ولقد آتينا داود منا فضلا قولنا يا جبال أوبي معه أو ولقد آتينا داود منا فضلا قُلنا (يا جبال أَوّبي معه) أي سَبّحي معه قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ • والفعل أمر للمخاطبة من التأويب ، والمراد رجعي معه التسبيح وردّديه • روي أنه ـ عليه السلام ـ كان إذا سبح سبحت معه الجبالُ مثل تسبيحه بصوت يسمع منها • وذلك خارق للعادة خلقه الله له كتسبيح الحصى في كف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وقوله (والطير) بالنصب بإضمار فعل تقديره وسخرنا له الطير ، أي للتسبيح معه كالجبال (وألَنّا له الحديدَ) أي وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا ضربٍ بآلة • والفعل ماض للمتكلم مع الغير من باب الإفعال مجرده لان ، أجوف يائي نقل إلى بابه وأعلّ بحذف العين • وقوله : (أن اعمل سابغات) أن مصدرية ، وهي على حذف حرف الجر ، أي وألنا له الحديد لعمل سابغات أي دروعٍ سابغات أي كاملات واسعات وقوله (وَقدرْ في السَّرد) معطوف على قوله أنِ اعْمل سابغات أي لتقدير السرد أي لتقدير النسج في الدّروع بحيث تكون حَلَقاتها متناسبة•

وقوله : (واعملوا صالحا) خطاب لداود وآله ـ عليهم السلام ـ (إني بما تعملون بصير) أي لا أُضيعُ عملَ عاملٍ منكم في الدين .

وقوله : (ولسليمان الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح فيقعد هو وأتباعه على الفرش المخصوص فتحركه الريح وتصعد به إلى مستوى مناسب للسير وتوصلهم إلى المكان المعين المقصود (غدوها شهر ورواحها شهر) أي حركتها بهم بالغداة مسيرة شهر وحركتها بالعشي كذلك (وأسلنا له عين القطر) وأريد بعين القطر معدن النحاس ، ولكنه سبحانه وتعالى أساله كما ألانَ الحديدَ لداود فنبع كما ينبع الماء من العين . وقال بعضهم : القطر النحاس وعين بمعنى الذات ، ومعنى أسلنا أذبنا ، فالمعنى اذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلين لداود ـ عليه السلام ـ ، فكانت الأعمال تتأتى منه وهو بارد دون نار . عن ابن عباس والسدي ومجاهد قالوا : اجريت له ـ عليه السلام ثلاثة أيام بلياليهن وكانت بأرض اليمن ، وقيل : كان يسيل له في الشهر ثلاثة أيام أي لسد حاجته بذلك .

(ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) أي أن الله تعالى سخر له الجن لأعمال مقصودة منه (ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أي في دار الآخرة . وقال بعض : في الدنيا وقوله تعالى : (يعملون له ما يشاء) إستئناف لبيان نوعية أعمال الجن فقال تعالى (يعملون له) أي لسليمان (ما يشاء) عمله (من محاريب) جمع المحراب بمعنى القصر أي يعملون له القلاع الحصينة والقصور المنيعة . والمحراب في الأصل صيغة مبالغة اسم لمن يكثر الحرب فسمي به القصر تسمية للمكان باسم المتمكن . ويطلق على المكان المعروف الذي يقف الإمام بحذائه في وسط الحائط ، ولم يكن ذلك في الصدر الأول ، وأحدثوه بعدُ إشارة إلى جهة الكعبة الشريفة زادها الله شرفا . (وتماثيل) جمع تمثال والمراد بها صور الملائكة والأنبياء

والصلحاء السابقين ، ولم يكن التصوير في شريعته حراما (وجفان) جمع جفنة وهي ما يوضع فيها الطعام (كالجواب) جمع جابية بمعنى الحوض ، أي جفان واسعة جدا . (وقدور) جمع قدر وهو ما يطبخ فيه الطعام (راسيات) أي ثابتات في أماكنها لا تنزل عنها لكبر حجمها (اعملوا آل داود شكرا) بتقدير القول أي وقلنا اعملوا آل داود شكرا كثيرا مكافئا لبعض النعم (وقليل من عبادي الشكور) لأن الشكور هو الذي يشكر ربه على كل حال . (فلما قضينا عليه) أي على سليمان ــ عليه السلام ــ (الموت) وتوفيناه (مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسَأَتَهُ) الدابة هنا السوس والمنسأة العصا (فلما خرّ) أي سقط سليمان عند سقوط منسأته (تبينت) أي علمت (الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب) كما زعموا (ما لبثوا في العذاب المهين) أي لعلموا بموت سليمان ــ عليه السلام ــ ، ولم يستمروا على الأعمال التي سخرهم لها ، وروي في القصة روايات أقومها أن داود ــ عليه السلام ــ أسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى ــ عليه السلام ــ فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الجن بإتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل الله تعالى أن يُعمي عليهم موته حتى يفرغوا من بناء المسجد ولتبطل دعواهم علم الغيب وكان من عادة سليمان ــ عليه السلام ــ أنه إذا دخل المحراب للعبادة لا يتكلم معه أحد ولا يزعجه حتى يفرغ منها ، فأتى محل عبادته حسب عادته واعتمد على عصاه وبينما هو كذلك توفاه الله ، وبقي كما كان على عصاه ولم يتجاسر أحد على تنبيهه أو ازعاجه حتى يعلموا بموته ، فأرسل الله السوس تأكل عصاه حتى سقطت فسقط سليمان ــ عليه السلام ــ ، وعلم بوفاته فنقلوه ودفنوه في المقبرة الخاصة ، فعلمت الجن وغيرهم أن الجن لا يعلمون الغيب كما زعموا معرفتهم له وإلا كانوا يعلمون بموت سليمان قبل سقوط عصاه وسقوطه عليها وما

استمروا على العمل في بناء المسجد ، ولكنهم جهلوه فعملوا حتى تم بناء المسجد ولله تعالى في شئونه حِكَم لا يدركُ إلا قليل منها • بقى أن في هذه الرواية أشياء •

الأول أن قوله : إن داود أسس بناء بيت المقدس معناه خطط تجديد بناء المسجد القديم الذي أسسه جدهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما روي من أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الذي أسس بيت المقدس بعد الكعبة بأربعين ثم خرب وأعاده داود ومات قبل أن يتمه ، فتم بناؤه على يد سليمان إلا قليل منه كمل بعد موته ، ولم يعلم العمال به •

الثاني أن الفسطاط وهو نوع من البناء كغرفة خاصة لم يبنه موسى ـ عليه السلام ـ لموته في التيه وكأنه كان بناءً رمزيا بناه يوشع ـ عليه السلام ـ بعد فتح بيت المقدس إبقاء لاسم سيدنا موسى بينهم • وما روي من أن سليمان فرغ من بناء بيت المقدس وتعبد فيه وتجهز بعده للحج شكرا لله تعالى على ذلك •• فإن صحت الرواية فمعناه أنه قرب إتمام المسجد الأساس وصلى فيه وأعلن أنه ينوي حج بيت الله الكعبة شكرا لله تعالى ، لكنه توفى قبل الوفاء بما نواه ، ولله حكم في ماقضاه والله أعلم •

(لَقَدْ كانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ؟(١٧) وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظَاهِرَةً ، وَقَدَّرْنا فِيهَا

السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا : رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ ، ومَزَّقْناهُم كلَ مُمَزَّقٍ ، إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَه عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)(٢١)

قوله تعالى : (لقد كان لسبأ) جملة سيقت لتذكير الناس بأن جزاء من كفر بأنعم الله الابتلاء بالنقمة كقوم سبأ • وهو اسم لجد القبيلة • وفي بعض الأخبار عن فروة بن مُسَيّك قال : أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يا رسول الله أخبرني عن سَبَأٍ ؛ أرَجلٌ هو أم امرأة ؟ فقال : « هو رجل من العرب ، وَلَدَ عشرة ، تَيامَنَ منهم ستة (أي أخذوا جهة اليمين من البلاد) وتشاءم منهم أربعة (أي أخذوا جهة الشمال) فأما الذين تيامَنوا : فالأزد ، وكندة ، ومَذحج ، والأشعريون ، وأنمار • ومنهم بجيلة وأما الذين تشاءموا : فعاملة، وغسان، ولَخْم، وجذام » والسبأ بن يشجب كينصر بن يَعْرب بن قحطان • والسبأ أوّل ملوك اليمن في قولٍ ، واسمه عبد شمس ، وإنما سمي سبأ لأنه أول منْ سَبا السَّبْيَ مِن ولد قحطانَ فيقول اللهُ سبحانه (لقد كان لسأ) أي القبيلة المشهورة باسم أبيها الأعلى (في مسكنهم) أي في موطنهم الذي استقروا فيه (آية) آية عظيمة دالة على توفير نعمة الله لهم وقوله (جنتان) بدل من آية (عن يمين وشمال) أي إحديهما عن يمين المسكن والأخرى عن شماله (كلوا من رزق ربكم) أي فقلنا لهم على لسان نبيهم ، أو بلسان الحال الذي يفهمه أهل الحكمة

(واشكروا له) برعاية العدل فيها ، فلا يظلم أحد أحداً بالاستيلاء على حقه وتنقيص رزقه ، وأدوا واجب الله منها للمستحقين واثبتوا على عبادة من أنعم عليكم بها ، ولا تشركوا به أحداً (بلدة طيبة ، وربّ غفور) أي هذه البلدة المحفوفة بالجنتين (بلدة طيبة) المناخ والهواء ، وافرة الرزق كثيرة الفواكه ، حلوة المناظر • (و) الرب الذي رزقكموها (رب غفور) كثير المغفرة لأهل الإنابة والندم والرجوع إليه • فأعرضوا عن الشكر وأنكروا نسبة النعمة إلى منعمها (فأرسلنا عليهم سيل العرم) من إضافة الموصوف إلى الصفة أي السيل الباطش الشديد إذا أتى على شيء قلعه عن أساسه ولم يبق له أثرا • وذلك السيل حصل من انشقاق السد الذي بنوه بين الجبلين وخزنوا فيه المياه الكثيرة الكافية للجنان والمزارع والشرب وسائر الحاجيات ••• وبعد أن انشق السد اختل توازن الماء مع الجنان فهلكت وضاعت ، ولم يبق منها إلا أشواك تعيش بلا ماء كما قال تعالي (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) أي ثمر مرّ لا ينجرع (وأثل) وهو ضرب من الطرفاء (وشيىء من سدر قليل • ذلك) الجزاء (جزيناهم بما كفروا) أي بسبب كفرهم بالله وبنعمته (وهل نجازي) مثل هذا الجزاء (إلا الكفور) بأنعم الله الشكور • (و) كما جعلنا لهم جنتين عن يمين وشمال يسقيان بماء السدّ في الايام والليالي كذلك (جعلنا بينهم) أي بين سكان البلدة (وبين القرى التي باركنا فيها) أي بكثرة الأرزاق والأمتعة وسائر الأشياء الاقتصادية ، وهي دمشق وما حولها ، وكانوا يتاجرون فيذهب أهل السبأ إلى الشام وأهل الشام إلى سبأ براحة (قرى ظاهرة) على خط طريق المرور كبلاد مهيأة للنزول بعد السير في النهار والاستراحة فيها • ومعنى ظهورها عمارتها وتخطيطها على الشارع العام للقوافل وتهيئته المواد الاستهلاكية شأن القرى التي على خطط الطرق (وقدرنا فيها السير) أي جعلنا المسافة بينها

على نسب محدودة متناسبة مع أهل القوافل (سيروا فيها ليالي وأياما آمنين) بتقدير القول ، أي وقلنا لهم بلسان الحق : سيروا فيها أي في تلك القرى ليالي وأياماً آمنين عن الأذى الوارد على السابلة لرعاية الجوانب الأمنية فيها من كل جهة (فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا) أي ثم كفروا بنعمة الله الواردة عليهم داخلا وخارجا ، في الحضر والسفر وبطروا واغتروا بالأوهام والاعتبارات السافلة واعتمدوا فقط على الأسباب المادية ونسوا قدرة الخالق المسبب وتيسيره للأسباب فكأنهم دعوا الله تعالى لإزالة مابهم من النعمة فقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل المنازل التي كنا ننزل فيها في تجاراتنا متباعدة لا يصل الإنسان من نقطة إلى أخرى بدون تهالك وزحمة أو هذا كناية عن زوال النعمة والأرزاق وقلة ذات اليد وضيقها ، بحيث لم يبق عندهم طاقة المسافرات والتجارات (و) منشأ كل ذلك أنهم (ظلموا أنفسهم) بمقابلة النعمة بالكفران ، والحقوق بالعقوق ، والطاعة بالعصيان (فجعلناهم أحاديث) فجعلنا أحوالهم ، وما جرى عليهم كحكايات يتحدث بها الناس في المجالس للاستراحة (ومزقناهم كل ممزق) أي مزقناهم كل تمزيق أي بعدنا بعضهم عن بعض لا يعرف الأخ أين مات أخوه ولا الولد أين ذهب بنوه • وصارت قصتهم مثلا سائرا فيقال عن قوم جرت عليهم المصائب (تفرقوا أيادي سبأ) • (إن في ذلك) الحادث الرهيب (لآيات) عديدة (لكل صبار) على الشهوات ليكف نفسه عنها حتى يفوز ببقاء النعمة وابتعاد النقمة (شكور) لله على ما أنعم به عليه حتى تزيد نعمته إلى أن يرجع إليه (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه) أي وجد ظنه بهم صادقا فإن الشيطان ظن بأكثرية الناس ومنهم أهل سبأ الفساد والغرور والعناد ، فوجد ظنه مطابقا للواقع (فاتبعوه) أي اتبع سبأ أو الناس الشيطانَ (إلا فريقا من المؤمنين) من سبأ أو من باقي الناس (وما كان له عليهم من سلطان)

أي وما كان لإبليس على أولئك الناس الفاسدين من سلطان وقوة فعلية يجبرهم بها على الكفر والعصيان ، وما اتبعوه لعلة من العلل (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أي واتبعه من اتبعه ليتعلق علمنا في ما يزال بمن يؤمن بالآخرة ويترك الشكوك والاوهام ممن هو منها أي من الآخرة في شك (وربك على كل شيء حفيظ) أي وكيل قائم على أحواله وعالم بماضيه وحاله ومآله .

(قُلْ : ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ ، وَلا فِي الأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ؟ قُلِ : اللهُ ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَو فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٢٤) قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٢٥) قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثم يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦) قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٧) وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)(٢٨)

قوله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم) أي قل يا حبيبي للمشركين الذين ضرب لهم المثل بقصة سبأ ادعوا الذين زعمتم أي زعمتموهم آلهة من

دُونِ اللهِ • وقوله (لا يملكون مثقال ذرة) كلام مستأنف في موقع الجواب ، ولم يمهلهم ليجيبوا هم بأنفسهم إشعارا بأن هذا الجواب متعين ، فلا فرق بيننا وبينهم في الإتيان به (في السموات ولا في الارض) أي في عالم العلويات والسفليات (وما لهم فيهما) أي في السماوات والارض (من شرك) أي شركة أي نصيب (وما له منهم) أي من جانب الآلهة المزعومة (من ظهير) أي معين يعينه على ما أصابه من العذاب والآلام (و) إذا زعموا أنهم يشفعون لهم في وقت الحاجة فاعلم أن زعمهم هذا موهوم إذ (لا تنفع الشفاعة عنده) لأي شخص (إلا لمن أذن له) الرحمن أن يشفع ولا أذن لأي شافع يشفع لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أي يتربصون وينتظرون صدور الإذن بالشفاعة حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوعين لهم بالإذن (قالوا : ماذا قال ربكم ؟) في الشفاعة (قالوا : الحق) أي قالوا قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون • (وهو العلي الكبير) إن كان من تتمة كلام الشفعاء فهو من جملة ما حمدوا به ربهم ، وإن كان مستأنفا من الحق سبحانه وتعالى فهو ثناء منه على ذاته بعلوه وكبريائه على برياته •

(قل : من يرزقكم من السموات والارض ؟) أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه أن يقول لهم تبكيتا لهم (قل : الله) فإن الجواب الحق هو هذا (وأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) أي وإن أحد الفريقين منا ومنكم إما مهتد أو معتدٍ • وأو للإبهام على سبيل إرخاء العنان ، وإلا فالأمر جلي لا يحتاج إلى البيان • (قل) لهم يجب على كل عاقل أن يعرف حاله ويطلب حسن مآله ؛ فإنه يأتي يوم الحساب (لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون • قل يجمع بيننا) أي بين الفريقين (ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) أي يقضي بيننا به (وهو الفتاح العليم) القاضي العليم بما

ينبغي القضاء به (قل) لهم (أروني الذين ألحقتم به شركاء) له بالدعوى (كلا) زجر لهم عن اقتراف اكبر الكبائر (بل هو الله العزيز الحكيم وما أرسلناك إلا كافة للناس) الظاهر أن كافة حال قدم على صاحبه فيفيد بظاهره ما يفيده قوله المبين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (بشيرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي بالعقاب (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيدعوهم الجهل إلى البقاء على ضلالهم المبين •

(وَيَقُولُونَ : مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ (٢٩) قُلْ : لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً ولا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذا القُرآنِ ولا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ والنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً ، وأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ، وَجَعَلْنا الأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ ؟)(٣٣)

قوله تعالى : (ويقولون : متى هذا الوعد) أي يقول المشركون استهزاء وتعنتا متى هذا الوعد أي وعد الجمع بيننا وبينكم للحساب (إن

كنتم صادقين ؟) فيه (قل : لكم ميعاد يوم) أي وعد يوم الجمع بيننا وبينكم للحساب (لا تستأخرون عنه ساعة) إذا فاجأكم (ولا تستقدمون) هاتان الجملتان المتعاطفتان ملحوظتان معا كالمتضائفين • والمعنى إن الوعد جِدّيّ وحَدّيّ لا يقبل التخلف ولا التغير في وقته بأن يتحقق الموعد قبل الوقت أو يتحقق بعده (وقال الذين كفروا) وهم مشركو العرب : (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) كالإنجيل والتوراة ولكنهم سفهاء الأحلام خفاف العقول لا يعرفون ماذا أمامهم من شدة البعث والنشور والحساب والميزان (ولو ترى) يا رسولي (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) حالكونهم (يرجع بعضهم إلى بعض القول) والجواب لرأيت أمرا عجيبا (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم) أي منعتمونا عن الإيمان (لكنا مؤمنين) بما جاء به الرسول (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟! بل كنتم مجرمين) في حد ذواتكم ، ولم يكن إجرامكم ناتجا عن صدنا لكم عن الهدى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) إضرابا عن إضرابهم : (بل مكر الليل والنهار) أي بل صدنا ومنعنا عن الإيمان مكركم بنا واحتيالكم علينا في الليل والنهار (إذ تأمروننا) بدل من الليل والنهار (أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي أن نكفر بالله الواحد • ونجعل له أندادا أي أمثالا في الألوهية أو أضداداً في الصفات والأفعال (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) لأنهم بهتوا لما عاينوه (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) سواء المستكبرون والمستضعفون في أصل العذاب ، ولكن يختلف الأمر بمقدار تأثير الكبير في إضلال الفقير (هل يجزون) أي أولئك الناس (إلا ما كانوا يعملون ؟) والجواب : لا ، فلا يجزون إلا مثل الذي كانوا يعملونه •

(وَما أَرْسَلْنا في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُتْرَفُوها : إنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ(٣٤) وقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٣٥) قل : إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إلاّ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحاً، فأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ، وَهُمْ في الغُرُفاتِ آمِنُون(٣٧) والَّذِينَ يَسْعَوْنَ في آياتِنا مُعاجِزِين أولئِكَ في العَذابِ مُحْضَرُونَ(٣٨) قُلْ : إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ويَقْدِرُ لَهُ ، وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وهوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ(٣٩) ويَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلئِكَةِ : أَهؤُلاءِ إيّاكُمْ كانُوا يَعْبُدونَ ؟(٤٠) قالُوا : سُبْحانَكَ أَنْتَ وليُّنا مِنْ دونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ(٤١) فَالْيَومَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً ولا ضَرّاً ، وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذابَ النّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ)(٤٢)

قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها) أي أهل الترف والراحةوالنعمة فيها (إنا بما أرسلتم به كافرون) أي لا نصدق بالرسالة ولا بالمرسل ولا بالرسول (وقالوا) في بيان الحجة على ما قالوا : (نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذبين) أي إنه إن كان الإله موجودا فمادام أعطانا أموالا وأولادا كثيرة فقد أحبنا ، والمحب لا يعذب من أحبه ،

وإن لم يكن موجودا فأموالنا وأولادنا من عند أنفسنا ومن استحقاقنا والمستحقون للكرامة في هذه الدنيا لا يعذبون في دنيا أخرى. (قل) لهم (إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي وينقصه وليس زيادة الرزق دليل الكرم والإكرام ولا تقديره دليل الإهانة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وإذا تستكبرون بوجود الأموال والأولاد (فما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) أي قربى مصدر من معنى الفعل لا من لفظه . وقوله (إلاّ من آمن) استثناء منقطع أي لكن من آمن (وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف) من إضافة المصدر إلى المفعول ، أي يجزيهم الله بالجزاء المضاعف . وقد قرر على الحسنة عشر أمثالها فيجزيهم عليه عشرين ، ويزيد على حسب اقتضاء رحمته وحكمته وذلك (بما عملوا) أي بسبب ما عملوه من الصالحات (وهم في الغرفات) أي غرفات الجنة ومنازلها (آمنون) مما يؤذي قلوبهم (والذين يسعون في آياتنا) أي في ردها بالطعن فيها (معاجزين) بحسب زعمهم ودعواهم أنهم يقدرون على ردها (أولئك) الناس الفاسدون المفسدون (في العذاب محضرون) ولا ينفعهم أيّ نافع . (قل : إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أي يوسعه عليه (ويقدر له) أي ويضيقه على من يشاء منهم ، فانفقوا لله ولاتنافقوا ، وتقربوا اليه ولا تبتعدوا (وما أنفقتم من شيىء فهو يخلفه) أي يعطيكم بدله خَلَفا عنه وعوضا (وهو خيرُ الرازقين) وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : أللهم اعط مُنفِقا خَلَفا ، ويقول الآخر : أللهم أعْطِ مُمسكا تلفا » (ويوم يحشرهم) أي المستكبرين جميعا (ثم يقول للملئكة : أهؤلاء إياكم كانوا يَعبدون ؟ قالوا) أي الملائكة (سبحانك أنت ولينا من دونهم) أنت الذي نواليه ونحبه ولا نواليهم

ولا نحبهم فلا علاقة بيننا وبينهم فكيف يعبدوننا (بل كانوا يعبدون الجن) أي شياطين الجن (أكثرهم بهم مؤمنون) وموالاتهم معهم (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من كلام الباري سبحانه وتعالى مع أولئك الملائكة معلنا في اليوم المشهود أن الملك والنفع والضر لله الواحد القهار (ونقول للذين ظلموا) بعبادة الملائكة أو الجن أو الإنس : (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) .

(وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا : ما هذا إلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ ، وقالُوا : ما هذا إلاَّ إفْكٌ مُفْتَرىً ، وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ : إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها ، وما أَرْسَلْنا إلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ(٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ؟(٤٥) قُلْ : إنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إنْ هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٤٧) قُلْ : إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(٤٨) قُلْ : جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وما يُعِيدُ(٤٩) قُلْ : إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي ، وإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إلَيَّ رَبِّي ، إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ(٥٠) وَلَوْ تَرى إذْ فَزِعُوا فَلا

فَوْتَ ؛ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ(٥١) وَقالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ؟(٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، ويَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كما فُعِلَ بِأَشياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِي شكٍّ مُرِيبٍ)(٥٤)

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لصنف آخر من أصنافِ ما عاندوا به الكتابَ المبين بطعنهم فيمن نزلت عليه بأن (قالوا : ماهذا) أي هذا الرجل الذي جاءكم بها ويقصدون به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إلا رجل يريد أنْ يَصُدكم) أي يمنعكم بشتى الوسائل للمنع (عما كان يعبد آباؤكم) ليجعلكم من اتباعه (وقالوا ما هذا) الكلام المنزل عليه (إلا إفك مفترى) أي كلام منحرف عن الحق لا مصداق له في الواقع ، مختلق ومفترى بإسناده إلى الله العزيز (وقال الذين كفروا للحق) أي لأمر النبوة والرسالة (لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أي واضح لا شك في كونه سحرا ، وذلك لأنه يدهشهم فلا يمكنهم رد معناه ومغزاه الواقع لأنه يدعو إلى الاعتراف بالخالق وبنظام الدين المعين للعقل وبوجوب تعلم العلم والاستفادة منه مع رعاية النظام ، وكلامٌ يجري هكذا لا مجالَ لرده بالأباطيل • (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) تقتضي صحة ما يدعون ومن جملته أباطيل الشرك (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يعلمهم مايتكلمون به اليوم ، وحاشا رب العباد إذا أنزل كتبا للإرشاد أن يكون فيه ما يوجب الفساد وحاشاه إذا أرسل الرسل أن يرسل غير من يوجه الناس إلى الرشاد، ولكن المراد من الجملتين أن دعاواهم ليست مبنية على كتب مدروسة معقولة ولا أقوال أنبياء منقولة ، فإنكار وحدة الخالق العلاّم

للغيوب ليس إلا كلاما نابعاً من قلوب مريضة تستُرُ الحقائق وتُظْهِرُ الأوهام وتوجبُ الريوب •

(وكذب الذين من قبلهم) أي كذب الكفار الذين كانوا من قبل كفار قريش رسلهم الذين أرسلوا إليهم (وما بلغوا) أي كفار مكة (معشار ما آتيناهم) أي عُشر ماآتيناهم، وقال بعض المعشار عشر العشر أيجزء منمأة جزء من الشيء ، يعني أن قوتهم المالية والعددية والجوارية بالاستعانة من المجاورين كانت تفوق ما عند كفار مكة بمأة على واحد أو بعشرة عليه (فكذبوا رسلي) فكذبت عاد هودا، وثمود صالحا (فكيف كان نكير ؟) ي أي إنكاري عليهم بالتغرير والتدمير • فليعتبر كفار مكة بهم فإنهم مثلهم ، فقياس المساواة ، أو أدنى منهم فقياس الأولى لأن الأضعف يبتلى أضعاف ما يبتلى بـه الأقوى •

(قل) يا حبيبي لكفار مكة : (إنما أعظمكم بواحدة) أي بخصلة واحدة هي (أن تقوموا لله) أي أن تجتهدوا لوجه الله (مثنى وفرادى) إثنين إثنين أو واحدا واحدا حتى تكونوا في أمان من الازدحام المشوش للأفكار (ثم تتفكروا) في صفات الرسول وأعماله وأخلاقه حتى تعلموا (مابصاحبكم من جنة) أي جنون واختلال عقلٍ • فكلمة ما نافية ، ومن زائدة في النفي ، وتقدير تعلموا إما لدلالة التفكر عليه أو أن قوله تعالى تتفكروا مجاز عن تعلموا ، ولذا عمل في الجملة المعلق عنها أعني مابصاحبكم من جنة (إن هوَ إلاّ نذير لكم بين يَدَي عذابٍ شديد) هو عذاب الآخرة • (قل) لهم يا رسولي (ماسألتكم من أجر) ونفع على التبليغ (فهو لكم) ولا أريده وهذا كناية عن نفي السؤال بدليل قوله (إن أجري إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) حاضر عالم مراقب مطلع فيعلم صدقي وإخلاصي (قل إن ربي يقذف بالحق) أي يرمي بالدفع المقارن للهيبة كلامه الحق وهو القرآن

إلى قلبي حتى أحفظه وأبلغه إلى المكلفين ، وأسعى في سبيل الهدف الشريف ، وهو التوحيد لله رب العالمين • (وهو علام الغيوب) فيعلم حيث يجعل رسالته (قل جاء الحق) أي الإسلام أو التوحيد (وما يبدىء الباطل) أي الكفر أو الشرك (وما يعيد) أي ذهب الباطل واضمحل ولم يبق له أثر ، فإن الحي قد يبدىء شيئا ويعيده أي يعمل شيئا ابتداءويعيده ويكرره ثانيا • وإذا مات لا يعمل شيئا فلا يبدىء ولا يعيد • ويحتمل أن يكون الباطل عبارة عن الصنم أي جاء الحق أي التوحيد ، واستقر الإيمان بالله الواحد القادر الذي يبدىء الخلق في الدنيا ثم يعيده في النشأة الثانية • وأما الباطل وهو الصنم فقد ظهر أنه لا يبدىء شيئا ولا يخلقه ابتداء ولا يعيده يوم البعث ، فبين الحق والباطل بَوْنٌ شاسع •

(قل إن ضللت) أي عن طريق الحق (فإنما أضل على نفسي) ولا يرد عليكم ضرر من جانبي (وإن اهتديت) أي إلى الحق (فبما يوحي إلى ربي) فإن الاهتداء في الواقع إنما يكون من الله (إنه سميع قريب) من الضال والمهتدي وإليه ترجع الأمور • ثم استعرض الباري أحوال الكافرين في يوم القيامة وما سيجري عليهم فقال : (ولو ترى إذ فزعوا) أي ولو ترى المشركين يوم القيامة إذ فزعوا واعتراهم الانقباض النفسي والبهت (فلا فوت) ولا خلاص لهم من عذاب الله (وأخذوا من مكان قريب) من الملائكة المأمورين بإلقاء القبض عليهم فيأخذونهم ويسوقونهم إلى النار (وقالوا) هنالك: (آمنا به) أي بالله عز وجل وقد ابتعدوا عن الإيمان المقبول بمسافة مابين الدنيا والآخرة (وأنى لهم التناوش) أي مناوشة الإيمان وأخذه والاتصاف به بعد ذهاب وقته (من مكان بعيد عنه) فإن الإيمان كان فاكهة الصيف في الدنيا وقد وقعوا في زمهرير شتاء الآخرة •

(وقد كفروا به) أي والحال أنهم كفروا به من قبل (و) كانوا (يقذفون بالغيب) أي يتكلمون بالكلام الغيب أي الخفي الغير الظاهر عندهم . فكانوا يقولون : الملائكة بنات الله ، والقرآن إفك مفترى ، والرسول كاهن أو ساحر أو مجنون ، وكل تلك الجمل التي خرجت عن أفواههم الخبيثة كانت جملا مغيبة عنهم غير ظاهرة ، بل كانت أكاذيب توارثوها عن آبائهم الوثنيين واحدا تلو الآخر إلى الشيطان ، فإن مصدر هذه الأباطيل هو إبليس الشيطان الرجيم . وقذفهم بالغيب كان (من مكان بعيد) من جهة بعيدة عن حظيرة القدس الذي تكلموا عنه مثل الباري تعالى ورسوله الكريم (وحيل بينهم وبين مايشتهون) أي وقد وقعت الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون وهو نفع الإيمان في الآخرة أو الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا إيمانا نافعا (كما فعل بأشياعهم من قبل) أي كما فعل بأمثالهم من الكفار السابقين أي أنهم يؤمنون في الآخرة ولا ينفعهم ذلك (إنهم) أي السابقين ، أو اللاحقين ، أو كلا الفريقين إذ كانوا أحياء في الدنيا (كانوا في شك) في وجود الله تعالى ووحدته وقدرته وسائر صفاته ، وفي رسوله وصدقه في تبليغ الحق (مريب) ذلك الشك أي موقع للناس في ريبة وشبهة نكراء . أعاذنا الله منها رب العالمين .

سورة فاطر ، مكية ، وآياتها خمس واربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

(اَلْحمدُ للهِ فاطِرِ السَّموات ِ وَالأَرْضِ ، جاعِلِ الْمَلئِكَةِ رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ : مَثْنى ، وثُلاثَ ، ورُباعَ ، يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ، اِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ)(٢)

قوله تعالى (الحمد لله فاطر السموات والأرض) أي موجدهما من غير مثال ، ومبدعهما بقدرته وإرادته بدون وجوب أو إيجاب وبلا واسطة في التأثير ، فإن الرأي السائد في المسلمين اقتداء بسيد المرسلين ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو أن الله خالق كل شيىء بلا واسطة يتوقف الخلق عليه وبالاختيار الكامل من دون ضرورة تدعو إليه ، وكل ما يكون له دخل في حصول أمر وحدوثه كالنطفة للاولاد ، والبذور للنبات ، والامطار للتنمية ، والاشعة للتربة الى غير ذلك من أسباب تعلقت إرادة الباري تعالى بها مع المسببات ، فليست المسببات حاصلة بها ، بل حاصلة بإرادته معها ، فإنكار الاسباب جهل وخرق لسنة الله تعالى في الكائنات ونسبة الآثار إليها بالفاعلية

من الأباطيل والخرافات ، والمؤمن العاقل يباشر الاسباب من كل باب ويتوكل للنتيجة على الله الوهاب (جاعل الملئكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلـق ما يشاء) .

والملائكة أجسام لطيفة نورانية يخلقها الله بالإبداع بدون التوقف على التناسل والتوالد ، فليست الملائكة ذكورا ولا إناثا ، بل عبـاد مكرمـون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمـره يعملون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والمعلوم عندنا على ضوء السنة الواردة أنها أربعة أصـناف : الكروبيون ، والروحانيـون وحملـة العـرش ، والمقربون . فالكروبيون مأمورون للعذاب في الدنيا والآخرة . ومنهم الملائكة المأمورون بتعذيب أهل النار ورئيسهم هناك اسمه (مالك) . والروحانيون ملائكة الرحمة المأمورون بتربية ما يحتاج إليها وحفظه . يقول تعالى : (له معقبات من بين يديه ومـن خلفه) . وحملة العرش أربعة في النشأة الأولى ، ويصيرون ثمانية في النشأة الاخرى . والمقربـون : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل . وجبريل مأمور بالوحي والتنزيل أي يأتي بالآيات من الله تعالى للانبياء وبالإلهـام إليهم وإلى سائر الصالحين المُلهَمـين . وعزرائيل مأمـور بقبض الارواح لكل ذي روح . وإسرافيل مأمور بالنفخ في الصور فينفخ فيها مرتين : مرة لإماتة الأحياء ، ولهدم الجبال وتمزيقها وتفشيتها كالعهن المنفوش وتسطيح الأرض . ومرة لاحياء الموتى . (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربـي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً) ومن الروحانيين من هو مأمور في الجنة ويستقبلون أهلها بسلام ، ورئيسهم رضوان . والقرآنُ الكريمُ صريح في وجود الملائكة الحافظين للاشياء والمأمور على كتابة الاعمال والمأمور على السؤال في القبر وعلى تعذيب أهله أو تنعيمه حسب الأمـر ، والأحاديث دالة على ذلك . وكل ما جرى مبني على سنة الله تعالى في العالم

وإلا فالعالم في قبضة قدرته ، (ألله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) وإذا كانت الأمور مبنية على الاسباب فلا مانع من أن تكون هناك أرواح بشرية صافية عن الكدورات منورة بالطاعات ، لها مأمورية محدودة في بعض الأمور ، فإن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، ولا مانع من وجود المأمورية لهم كبعض الملائكة ومنهم من قال تعالى في حقه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) كما أنه تعالى خلق من البشر رسلا مبشرين ومنذرين • وكما قال تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أي إلى الأنبياء والرسل بالوحي والإلهام ، وكذا جعلهم واسطة لإلهام الصالحين كما هو معلوم لأهل الدين •

ويجوز أن يراد برسالتهم ارسالهم إلى أماكن من البر والبحر والسماء والارض لتنفيذ ما أمروا بها • وكذلك في عالم الآخرة كما في عالم الدنيا ، ولله في ملكه شئون •

وقوله تعالى : (أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع) الظاهر أن الأجنحة جمع جناح بمعنى الجناح الجسمي ، ولكن كيفية تركيبها في الجسم غير معلومة لنا، وأن قوله مثنى وثلاث ورباع صفة للأجنحة والعدد فيها ليس للحصر بل إشارة إلى الاختلاف بينها في القوة والضعف فتفسير الأجنحة بالقوى المعنوية تأويل بلا داع يدعو إليه ، وقد أخرج الشيخان والترمذي عن ابن مسعود في قوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أنه رأى جبريل له ستمأة جناح ، فهذه الرواية أيضا تدل على أن ليس المقصود من الآية الحصر بل التفاوت في الاجنحة • وكذلك قوله تعالى : (يزيد في الخلق) أي يزيد في خلق أجنحة الملئكة ما يشاء بدون الاقتصار على ماذكر ، فيجوز الزيادة عليها إلى ما شاء الله ، فالجملة استئناف مقرر لما قبلها من تفاوت الملائكة في عددها •

(إن الله على كل شيء قدير) تعليل لما تقرر فإن شمول قدرته لجميع الأشياء مما يوجب قدرته على خلق كل ما يشاء خلقه . (ما يفتح الله للناس من رحمة) أي ما يرسله للناس من رحمته من أي جانب من الجوانب المتصورة عمرا وعلما ورزقا وجاها ووجاهة ودينا وأدبا وأموالا وأولادا ... وغيرها (فلا ممسك لها) أي فلا أحد يقدر على إمساكها ومنعها (وما يمسك فلا مرسل له) أي وما يمنعه منها فلا معطي له من بعده ولذلك صار وردا واردا من حضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت . وقوله (من بعده) أي من بعد إمساكه وهو العزيز الغالب الذي لا يغالب والحكيم في تخصيص من شاء بما شاء وسلب ما شاء عمن شاء .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟(٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ؟ فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)(٨)

قوله تعالى : (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) أي ما أنعم الله به عليكم من المال والاولاد والسكن والعقل والعلم والحواس السليمة ، ومن أهمها أنه أسكنكم حرماً آمنا ومقاما محترما (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض) بالمطر والنبات وسائر الأرزاق التي تحصل منهما جميعا أو من أحدهما (لا إله إلا هو) جملة مستأنفة مقررة للجواب المنفي المقدر فكأنهم قالوا في جواب الاستفهام لا خالق غير الله ثم أكدها بقوله لا إله الا هو (فأنى تؤفكون ؟) أي إذا تبين تفرد الباري تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟ (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) أي فلا تبتئس بتكذيبهم لك لأن ذلك أمر جار في الماضي فيجري في الحال ، وقد كذبت رسل من قبلك ، ولابد أن تكذب أنت أيضا أسوة بمن سبقك من الأنبياء والمرسلين (والى الله ترجع الامور) لا الى غيره فيجازي كلا منكم بما يناسبه من العذاب الأليم أو النعيم المقيم (يا أيها الناس إن وعد الله) بالبعث والنشور (حق ، فلا تغرنكم الحيوة الدنيا) بأن تذهلكم عن طاعة الباري والتقرب إليه وحده (ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان المبالغ في الغرور أو أعوانه من الجن والإنس الكفور (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) .

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) بسبب كفرهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) عظيمة (وأجر كبير) لا نهاية له . ثم استفهم مستنكرا وقال (أفمن زين له سوء عمله) من النفس والشيطان وأعوانه (فرآه حسنا) أي كمن يزين له سوء عمله ولم يره حسنا ، بل وفقه الله تعالى حتى عرف الحق واستحسنه وعرف الباطل واستقبحه، وفي الحقيقة إن جواب الاستفهام سلبي أي لا يتساويان ولا يتقاربان ، وإذا سئلتم عن

سبب تزين العمل السيء عند الأولين واستقباحه عند الآخرين أقول في الجواب (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم) أي على الذين يرون القبيح حسنا ، ولا تضيع ولا تفوت (حسرات) لأجل تراكم حسرات على أولئك الفاسدين (إن الله عليم بما يصنعون) فيجازيهم عليه .

(واللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ(٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّآتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ(١٠) واللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ، وما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ، وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ، ولا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيرٌ)(١١)

قوله تعالى (والله الذي أرسل الرياح) مبتدأ وخبر ، يعني إن الله هو الذات الذي أرسل الرياح الساكنة وحركها (فتثير سحابا) أي فترفع سحابا إلى مسافة محدودة من الجو العالي (فسقناه) أي ذلك السحاب الحامل للماء (إلى بلد ميت) أي إلى قطعة أرض لا نبات ولا خضرة فيها كالميت الذي لا يحصل منه فائدة (فأحيينا به الأرض) أي المطر النازل منه (بعد موتها) أي يبسها (كذلك النشور) أي إحياء الأموات في يوم الحساب ، أي من كان له قدرة على إرسال الرياح لإثارة السحاب ثم سوقه إلى بلد ميت يابس لإحيائه بإنبات النبات فيها قادر على أن يجعل من مواد

الإنسان الممزقة هيئة اجتماعية متلاصقة وينفخ فيها الروح فيكون بشرا سويا فيسوقه إلى المحشر . وفي هبوب الرياح دليل ظاهر على الخالق الفاعل المختار ، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك ، وعند حركته قد يتحرك الى اليمين ، وقد يتحرك الى اليسار ، وفي حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر .

(من كان يريد العزة) والشرف (فلله العزة جميعا) أي فليطلبها من الله تعالى فإن لله العزة جميعا ، وطريق طلبه لها من الله تعالى أن يتقرب إليه بالكلم الطيب والعمل الصالح ، أي بالقول الحسن والفعل الحسن ، فإذا قال قولا حسنا، أو عمل عملا صالحا يصعدان إليه، فيقبلهما فيفيض من رحمته العزة على صاحبها كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وفسروا الكلم الطيب بذكر الله تعالى ، وقيل : هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وفي أثر عن ابن مسعود أنه القرآن الكريم . والحق أن الكلم الطيب عبارة عن كل قول مفيد مقبول عند الله ، وإن كان أفضله كلمة التوحيد أو القرآن الكريم ، وذلك لأن ناتج الإنسان القول والفعل ، وكل قول حسن أو عمل حسن فهو مما يتقرب به إليه ، ومن القول الحسن كلمة ترشد الضال إلى الصراط المستقيم ، أو تنجي مصابا من العذاب الأليم ، أو تبين الحق عند حاكم جائر ذي طبع سقيم ، أو كلمة تصلح بها بين فردين أو فئتين من المتخاصمين ... إلى غير ذلك من الأقوال الحسنة .

واعلم أنه ذكر في إعراب قوله تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وجوه عديدة أرجحها عندي أن يكون العمل معطوفا على الكلم يعني إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح . وقوله تعالى يرفعه جملة

مستأنفة وفاعله ضمير راجع إلى الله تعالى ، والضمير المنصوب عائد إلى العمل ، ووجه تخصيص الرفع بالعمل هو أن العمل فيه كلفة زائدة ومشقة فوق العادة ، فمنه جهاد النفس وكبح جماحها بقصد إصلاحها وذلك من أصعب الأعمال ، ومنه جهاد الكفار ، ومنه إسباغ الغسل والوضوء في الليل والنهار ، ومنه صرف الأموال في سبيل الله تعالى . وهذه الأعمال الشاقة منوطة بتوفيق خاص من الله ولا يمكن إحداثها إلا بلطف منه تعالى ولشرفها نسب رفعها الى الله فقال يرفعه أي يرفع الله ذلك العمل الصالح إليه أي إلى نفسه وقدسه .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور) أي يفسد ويضيع (والله خلقكم من تراب) أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب (ثم من نطفة) أي ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم أزواجا) أي أصنافا مختلفة في القامة والوجاهة والحسن والقيافة والاستعداد وقابلية العمل والتخلق بالاخلاق العالية ... (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر) أي وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) يعني أن المد في عمر أي إنسان طويل العمر ، أو النقص الوارد على عمره كله مكتوب في اللوح المحفوظ .

ومما ينبغي أن يعلم أن هذه الآية الكريمة مطرح أنظار العلماء ، وفسروها بوجوه كثيرة قريبة وبعيدة ، وأرجحها تفسيران :

الاول أنه مايقرر عمر أحد زائدا كأن يقرر عمر زيد مأة سنة ، وعمر شخص آخر ناقصا كأن يكون عمر خالد خمسين إلا في كتاب .

الثاني : أنه مايزاد في عمر أحد ولا ينقص عمر ذلك الشخص عينه كأن يكون عمر زيد مأة سنة على تقدير أن يداوي مرضه ، أو يتصدق بصدقة ،

أو يدعو هو نفسه أو شخص آخر له ، أو أن يكون عمره خمسين على أن يهمل التداوي ، أو لا يهتم بالصدقات أو بالدعوات أو بصلة الأرحام إلا في كتاب مبين .أي في علمه الأزلي . وهذا هو الصحيح لأن الله سبحانه وتعالى ربط المسببات بأسبابها في كل فصل وباب ، فالعامل يأخذ الأجور والكاسل يموت في الفقر والجوع . وعلى ذلك جرت سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولا تتوهمن أن هذا ينجر إلى تعدد الأجل لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أن ذلك الإنسان يباشر الأسباب أولا ولا تخفى عليه خافية فالأجل عنده واحد وموت الإنسان معلوم في ذلك ويعلم ذلك محققا بلا شبهة ، وذلك نظير باقي الأمور كالعلم الحاصل من التعلم، والمال الحاصل من الكسب، والنجاح الحاصل من السعي والغلبة الناتجة من الكفاح . وكل تلك الاسباب أمر الله بها وبلغها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس أصناف، منهم من يمشي على طريق مباشرة الأسباب ، ومنهم من يمشي على الكسل والإهمال . وإلا فلماذا يأمر الرسول بالصدقات وبالدعاء وبالتداوي ؟ ويقول : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أو لماذا يأمر الله سبحانه وتعالى بالتشاور في الأمور وبإعداد العدة ؟ فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو لنفسه أو لأهله أو لأمته رجاء أن يكون ذلك الدعاء سببا لذلك المأمول وأمر غيره بذلك لذلك ، فإذا قال رب زدني علما يدعو حسب الأمر بالدعاء من الله لأنه يعتقد أن هذا الدعاء سبب لمزيد علم الرسول حسب جريان علم الله الأزلي به . وقد ينهى الله سبحانه عن بعض تلك الأسباب لجريان علمه بأنه أبرم الأمر ولا ينفع ذلك كما في قضية دعائه على قاتلي قراء بئر معونة المشهورة . ويدل على ذلك بداهة العقل في الموضوع الحاكمة بأن البركة من الحركة ، ونص القرآن الكريم كهذه الآية وآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)

وأحاديث كثيرة يكاد أن يكون القدر المشترك منها متواترا لا يمكن رده قطعا • فقولك اللهم إن كنت كتبتني شقيا أو قليل العمر أو ضيق الرزق فاكتبني يا ربي سعيدا أو طويل العمر أو واسع الرزق ، معناه يارب إن كانت سعادتي أو طول عمري أو وسعة رزقي مسببة عن تضرعي إليك ودعائي ومناجاتي فبدل ذلك بهذا •

ولا ينافي هذا ما روي من « أن السعيد من سعد في بطن أمه وأن الشقي من شقي في بطن أمه» أبدا لأن الإنسان عندما يكون في بطن أمه، بل قبل وجود والديه، بل في الأزل قبل حدوث العالم، تعلق علم الباري بأن فلانا الذي سيولد يكون سعيدا لأنه يتضرع إلى ربه ويتندم عن معاصيه فيغفر الله له ، وهذا الدعاء هو ذلك السبب المعلوم في الأزل ، وكذلك تعلق علمه بأنه يكون فلان شقيا لأنه علم منه عدم مباشرة أسباب السعادة قطعا • وكل ذلك من أجلى البديهيات • وكل حادث من الحوادث مثل السعادة والشقاوة في أنها معلومة عند الله مع أسبابها أزلاً •

وقوله (إلا في كتاب) روي أن المراد بالكتاب هو صحيفة الإنسان ، وروي أنه اللوح المحفوظ • وأما أم الكتاب فالراجح أنه علمه الأزلي الشامل لكل شيىء• ويؤيد أن المراد بالكتاب اللوح ماثبت من أن ما في اللوح قابل للمحو والإثبات كما قال تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت وأن أم الكتاب هو علمه الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل •

وحاصل الأمر أنا معاشر المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة على منهج الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومناهج خلفائه الراشدين وأصحابه الفقهاء نعتقد أن الله عالم بجميع الكليات والجزئيات ، وأن علمه لا يتبدل ولا يتغير ، وأن الأجل واحد ، وأن مباشرة الأسباب المعنوية من الصدقات والدعاء والالتجاء إلى الله ، والمادية من التداوي وسائر

الوجوه المرعية في الحياة من أسباب الخير والسعادة ، وأن خلق الأمور موكول إلى ذاته سبحانه وتعالى ، وأنه سبحانه وتعالى إذا تقبل دعاء شخص لشفاء مريض ، أو جعل الشفاء في دواء يداوي به المريض ، أو في صدقة يتصدق بها على الفقراء ماشية على الحق وعلى السنة الجارية في شريعة الله سبحانه وتعالى ، وأن علينا مباشرتها وإن لم نعلم نتائجها ونتوكل على الله في كل الأمور وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقوله تعالى : (إن ذلك على الله يسير) معناه إن زيادة العمر ونقصه أو إن ما بعد ذلك من الإعادة والبعث والنشور كل ذلك على الله تعالى يسير سهل لا مانع منه قطعا ، فإن الإنسان إذا آمن بأن الله موجود وهو واجب الوجود ومتصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وأن ما يجري في ملكه عدل ومقرون بالحكمة كفاه ذلك .

(وما يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ، هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائِغٌ شَرَابُهُ، وهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، ومِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً ، وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا، وتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ،ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) يولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ ويُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ، والَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(١٣) إنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ، ولَوْ سَمِعُوا ما استجابُوا لَكُمْ ، ويَوْمَ القِيمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)(١٤)

قوله تعالى (وما يستوي البحران) المراد به ضرب مثل للمؤمن والكافر يعني تشبه الهيئة الحاصلة من ملاحظة رجلين مؤمن وكافر يشتركان في بعض المنافع والأمور العامة ، ويختص كل بأمور مباركة في الأول ومشئومة في الثاني بالهيئة الحاصلة من ملاحظة بحرين يشتركان في استخراج المنافع منهما ، واختصاص أحدهما بصفاء مائه وسلامته ، والآخر بملوحته وحراقته للحلقوم • ويقول كما لا يستوي البحران المذكوران لا يستوي الإنسانان أيضا ، فالمؤمن له حال مبارك ومآل أبرك ، والكافر له حال فاسد ومآل أفسد ، فيقول تعالى (وما يستوي البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج) العذب الطيب ، والفرات الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره ، والأجاج الذي يحرق بملوحته • (ومن كل تأكلون لحما طريا) أي غضا جديدا وهو السمك والطير • (وتستخرجون حلية تلبسونها) الظاهر أنه يستخرج من كل منهما ، وإن كان الاستخراج من المياه العذبة نادرا • والمستخرج من المياه المالحة اللؤلؤ والمرجان • ويحتمل أن يقال يستخرج عظام السمك من كل منهما ويصنع منها قبضات السيوف والخناجر والسكاكين وغير ذلك ، ويعتبر ذلك لحسنها حلية (وترى الفلك فيه) أي في كل من البحرين (مواخر) شواق للمياه والسفن في وقت النزول كانت تجريها الرياح ، واليوم تجريها المكائن القوية فتحركها وتشق الماء بقوة ، ومنها ما يغوص في أعماق البحور ، كل ذلك (لتبتغوا من فضله) بسبب السير فيها على البحار (ولعلكم تشكرون) نعمه التي لا تحصى • وما ذكر منها جزء قليلٌ قليلٌ •

(يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل) بإضافة بعض من الأول إلى الثاني وبالعكس (وسخر الشمس والقمر) كلا في فلكه ومداره لإضاءة العالم بالليل والنهار (كل يجري لأجل مسمى) على مداره الخاص

إلى يوم القيامة (ذلكم الله) أي القادر المقتدر الذي يفعل هذه الأمور هو الله (ربكم له الملك) والسلطان (والذين تدعون من دونه) من الأصنام والأوثان (ما يملكون من قطمير) وهو القشرة على رأس النواة بينها وبين التمر (إن تدعوهم) لجلب خير أو دفع شر (لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا) فرضا (ما استجابوا لكم) إذ ليس فيهم قوة النطق (ويوم القيامة) عندما تحتاجون إليهم (يكفرون بشرككم) فضلا عن أن يستجيبوا لكم ، وأنا الله العالم بذلك (ولا ينبئك مثلُ خبير) أي ولا يخبرك بشيء فتستفيد منه العلم مثل مخبر كان مطلعا وخبيرا عليه •

(يا أيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى اللهِ ، واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(١٥) إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ(١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ(١٧) ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ، وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى ، إنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ ، وَأَقامُوا الصَّلوةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وإلى اللهِ الْمَصِيرُ(١٨) ومَا يَسْتَوِي الأَعْمى والْبَصِيرُ(١٩) ولا الظُّلماتُ ولا النُّورُ(٢٠) ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ(٢١) وما يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْواتُ ، إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبورِ(٢٢) إنْ أَنْتَ إلاّ نَذِيرٌ(٢٣) إنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً ونَذِيراً ، وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاّ خَلا فِيها نَذِيرٌ(٢٤) وإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ المُنِيرِ(٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ؟)(٢٦)

قوله تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) إرشاد للناس ودعوة لهم إلى ربهم بأن الله غني عن العالمين ، وإنما يدعوكم إليه لسعادتكم ، وإلا فأنتم الفقراء المحتاجون إلى الله في وجود الذات وبقائها ، وفي رزقكم وملابسكم ومساكنكم ، وشفائكم من الأمراض والأسقام ، ومعونتكم عند الملمات (والله هو الغني) عن كل موجود (الحميد) المنعم ذو الإحسان والجود (إن يشأ) أن يذهب بكم (يذهبكم ويأت بخلق جديد) فإذا أراد أن يبدل الإنسان بغيره أفنى جميع البشر وجاء بالسباع في أماكنهم ، أو أراد أن يبدل قوما بقوم فكذلك ، فقد وجدنا بأنفسنا إذهابه بقوم عن أرض وإتيانه بقوم آخرين ، (وما ذلك) الإذهاب (على الله بعزيز) ولا يغرنكم ما تعتقدون من أن كبراءكم يحملون أوزاركم فإن ذلك لا واقع له .

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس آثمة آثام أخرى بل تحمل كل نفس وزرها (وإن تدع مثقلة) أي نفس مثقلة بالآثام نفسا أخرى (إلى حملها) أي إلى حملها الذي أثقلها (لا يحمل منه بشيء) ولم تجبها لحمل بعض أثقالها (ولو كان) المدعو (ذا قربى) من الداعي (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) أي ربهم المستور عنهم بستار الغيب أو يخشونه حالكونهم متلبسين بالغيب من الناس أي إنهم يخشونه سرا كما يخشونه جهرا ، أو يخشونه بسبب الجزاء الغيب (وأقاموا الصلوة) وواظبوا عليها بشرائطها وأركانها (ومن تزكى) وتطهر من الأوساخ والأدناس النفسية والمعاصي فإنما يتزكى لنفسه لاقتصار الثواب عليه (وإلى الله المصير) فيأخذ كل جزاءه من القليل والكثير (وما يستوي الأعمى والبصير) هما مثلان للكافر والمؤمن كالبحرين (ولا الظلمات ولا النور) أي ظلمات الباطل ونور الحق (ولا الظل ولا الحرور) أي ولا راحة الفيىء البارد ولا شدة الحرارة (وما يستوى الاحياء ولا الأموات) أي الضمائر

المستنيرة بالعقل والعلم والإيمان والوجدان والضمائر الخالية عن كل ذلك لا في الإفادة ولا في الاستفادة (إن الله يُسمع من يشاء) حيا أو ميتا ، وفي القصر أو في القبر (وما أنت بمسمع من في القبور) يعنى إن الكفار الذين تعظهم وتدعوهم إلى الله كأموات هامدين في القبور ولست بقادر على إسماعهم الكلامَ على الوجه المعروف من التكلم مع الأحياء للإفادة والاستفادة •

ولا ينافي هذا ما وقع من كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قتلى بدر من المشركين ، وجوابه لعمر ـ رضي الله عنه ـ بقوله : « والله ما أنتم بأسمع منهم ، ولكن لا يطيقون الجواب » لأن ذلك الإسماع والسماع كان إسماعاً للروح في عالم البرزخ وهو حق ثابت لكل أحد وفي كل حال • والمقصود هنا أنك لا تسمع الموتى إسماعا حسب العادة من إسماع المخاطب الحي ، وإلا فالأدلة على الإدراك البرزخي للأموات كثيرة (إن أنت إلا نذير) وحقك أن تبلغ ما نزل عليك إلى المكلفين أجابوا أولا (إنا أرسلناك بالحق بشيرا) لأهل الطاعة (ونذيرا) لأهل العصيان (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) يعني وإرسالنا إياكم إلى الأمة بشيرا ليس ببدع من الأمور ، بل هو جار على سنتنا في الكون حيث ما مضت أمة إلا خلا فيها نذير من رسول أو أحد نواب الرسول من العلماء المبلغين (وإن يكذبوك) أي أولئك الكفار المشركون فلا تهتم بذلك التكذيب لأنه عادة جارية والرسل صبروا أمامها (فقد كذب) الكفار (الذين من قبلهم) أي كذبوا الرسل السابقين حيث (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحة (وبالزبر) أي الصحف كصحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ (وبالكتاب المنير) للقلوب كالتوراة والإنجيل (ثم أخذت الذين كفروا) أي وكذبوا بالرسل (فكيف كان نكير) أي نكيري بياء المتكلم ، ثم الوقف عليه بحذفها •

وهذه الآية الكريمة نزلت تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتصبيرا له على معاندة الكفار ، لأنه ختمها بأنه انتقم من الكفار المكذبين للرسل السابقين ولا شك أنه سينتقم من الكفار المعاندين لك بلا شبهة .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ؟ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ(٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(٢٨)

قوله تعالى : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) تقرير لوحدانيته تعالى بأدلة سماوية وأرضية إثر تقريرها بأمثال ضربها جل شأنه . والاستفهام لتقرير الرؤية ، أي لا شبهة عندكم أن الله أنزل من السماء ماء من نوع واحد وصنف واحد (فأخرجنا به) أي بذلك الماء الواصل إلى الارض (ثمرات) من نباتات متعددة (مختلفا ألوانها) إما من النبات فمثل الكمأ بأصنافها المختلفة اللون ، والنباتات الخضرة الشديدة الخضرة والصفرة والبيض ، وإما من ثمار الأشجار فَحدِّثْ ولا حَرَجَ . ومن المفسرين من حمل الألوان على معنى الأصناف ، فلولا قدرة الباري وإرادته المتعلقة باختلاف أصناف النبات والثمار كان المعقول أن تكون متحدة لأن الماء واحد والأرض واحدة والموسم واحد . وقوله تعالى (ومن الجبال) عطف على ما قبله بحسب المعنى أي ألم تر أنه من الجبال (جدد) أي طرائق وخُطَط (بيض وحمر) كل منها (مختلف ألوانها) فمن الأبيض ما هو نباتي وما هو ثلجي وما هو عاجي ، ومن الحمر ما هو شديد الحمرة أو خفيفها اومتوسطها (وغرابيب سود) جمع غربيب عطف على جدد أي صخور

شديدة السواد يقال أسود غربيب كثيرا ، وغربيب اسود قليلا • (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) أي بعض مختلف ألوانه (كذلك) صفة لمصدر محذوف أي إختلافا كذلك أي كاختلاف الثمرات والجبال • وهذه الآيات الدالة على شمول قدرة الباري إنما يعقلها العلماء المنورون بنور العناية الربانية فلا يستفيد منها إلا أولئك العلماء لأن الاستفادة من الآيات مشروطة بالخشية ، و (إنما يخشى الله من عباده العلماء) المعهودون (إن الله عزيز) غالب على أمره لا يغالب (غفور) لمن يتكاسل في فهم آياته •

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ(٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ(٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ(٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٣٣) وَقَالُوا : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ(٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ، وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)(٣٥)

قوله تعالى : (إن الذين يتلون كتاب الله) أي يواظبون على تلاوته حتى صارت سمة لهم وعرفوا بها (وأقاموا الصلوة) أي واظبوا عليها مع رعاية شرائطها وأركانها والخشوع فيها (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) مصدر على وزن فعالية أي علنا ، أي أنفقوا بحسب الإمكان سواء صادف السرّ أو العلن (يرجون تجارة) في سوق طاعة الله يصرفون ما لديهم من نقد الحال والمال ويأخذون الثواب من الله المتعال فتجارتهم (لن تبور) ولن تكسد أبدا فيبقى حق تجارتهم عند الله سبحانه (ليوفيهم أجورهم) من حسنة إلى عشر أمثالها (ويزيدهم من فضله كما يشاء) بتضعيف درجات الثواب أو بشرف رؤية ذاته الكريم الوهاب (إنه غفور) لما فرط منهم و (شكور) يقبل ما قدموا من الطاعات (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق) الثابت من كلامي (مصدقا لما بين يديه) من الكتب السماوية (إن الله بعباده لخبير) يعلم مايوافق كل أمة من الكتاب لبيان الشريعة والآداب (بصير) بمن يؤمن به من عباده ومن يكفر ويبقى في عناده وعذابه أبد الآبدين (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) يعني بعد ذهاب مدة الكتب المنزلة سابقا أعطينا القرآن الكريم الذين اصطفينا من عبادنا ، وعلى رأسهم حبيبنا محمد المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه وسائر امته الى يوم الدين ، وجعلناه شريعة لهم اعتقادية وعملية (فمنهم ظالم لنفسه) فمن أولئك العباد من هو ظالم لنفسه يظلمها وينحرف عن ذلك الكتاب (ومنهم مقتصد) يعمل لا كل العمل ، ويترك لا كل الترك (ومنهم سابق) يسبق إلى نيل الثواب (بالخيرات) أي بسبب مباشرته للحسنات (بإذن الله) وتوفيقه وتيسيره •

أخرج الإمام أحمد وجمع آخرون ـ رضي الله عنهم ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال

في هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب) إلى (الخيرات) : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة » • وقوله ـ عليه السلام ـ وكلهم عطف تفسيري لما قبله • وعن أسامة بن زيد أنه قال في الآية قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « كلهم من هذه الأمة ، وكلهم في الجنة » وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « سابقُنا سابق" ، ومقتصدُنا ناج ، وظالمُنا مغفور له » وأخرج الإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته ، فهم الذين يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » (ذلك هو الفضل الكبير) أي ذلك الإيراث والإصطفاء هو الفضل الكبير ، لأن جزاء أهله كلهم هو الجنة ونعم المصير (جنات عدن) بدل من الفضل الكبير وصف بقوله (يدخلونها) و (يُحلون فيها من أساور) جمع أسورة حلى يجعل في اليدين (من ذهب) من بيانية أي تلك الأساور مصوغة من ذهب أو من جنسه (ولؤلؤا) بالنصب عطف على محل مِن أساور (ولباسُهم فيها حرير) أي ابريسم" مَحض (وقالوا) أي ويقولون (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) أي حزن تقلب القلب وخوف العاقبة في الدنيا ، وحزن أهوال المحشر في القيامة (إن ربنا لغفور) للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذي أحلنا دار المقامة) أي دار الإقامة الأبدية الطينية المباركة (من فضله) لا من

عمله ؛ لأن الخير والطاعة في بضع سنين لا يكافىء الجنة والرضوان أبد الآبدين (لا يمسنا فيها نصب) أي تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) أي كلال وملال وفتور ، والحمد لله على ذلك مر الدهور .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ؛ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا ، فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللهَ عالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)(٣٨)

قوله تعالى (والذين كفروا) ... الآية لما بين حسن عاقبة المؤمنين قابله ببيان سوء عاقبة الكافرين ليعتبروا ويأخذوا طريق الإيمان ، فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم) بالابدية لا لغيرهم كذلك (لا يقضى عليهم) أي لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) أي ويستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) المقرر لهم (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء (نجزي كل كفور) مبالغ في الكفر (وهم يصطرخون فيها) من الصراخ وهو شدة الصياح ، ويستعمل في الاستغاثة كثيرا ، وذلك لأن الصوت العالي لإبلاغ الناس غالبا فيقصد وصول مدد للنجاة قائلين (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) أي نوحدك ولا نشرك بك أحدا (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ؟) فيجاب عن فزعهم وصياحهم واستغاثتهم من جانب الباري أو لم نعمركم زمانا يتذكر فيه من تذكر بالاعتبار ، أو تجاريب الليل والنهار في الأدوار أو بالنظر والتفكر في الآيات والآثار أو بالنظر في أخلاق الرسول المختار . أخرج

الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أعْذَرَ اللهُ تعالى إلى امْرِىءٍ أخّر عمره حتى بلغ ستين سنة » (وجاءكم النذير) عطف على جملة الاستفهام أو حال بتقدير قد ، أي وقد جاءكم النذير وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علاوة على كل مالديكم من أدلة التذكر والاعتبار ، (فذوقوا) أي العذاب (فما للظالمين) أي الكافرين الذين ماتوا على الكفر (من نصير) يدفع عنهم العذاب (إن الله عالمُ غَيب السموات والارض ، إِنه عليمٌ بذاتِ الصدور) أي عليم بما فيها من قصد الخير أو الشر والعزم عليه والعمل به فيجازي كلا بما هو أهله •

(هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خلائِفَ في الأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إلاَّ مَقْتاً ، ولا يَزِيدُ الكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إلا خَساراً(٣٩) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِي ماذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَواتِ ؟ أَمْ آتيْناهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلاَّ غُروراً(٤٠) إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمواتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُولا ، وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً)(٤١)

قوله تعالى : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) الخلائف جمع الخليفة ، يعني هو الذي جعلكم خلفاء له في الأرض أسوة بأبيكم الأعلى آدم ـ عليه السلام ـ • وألقى إليكم مقاليد التصرف ليبتليكم كيف

تعملون ؟ هل تعدلون حتى تنالوا الثواب أو تجورون حتى يصيبكم العقاب والعذاب ؟ أو هو الذي جعلكم خلفاء عمن قبلكم من الأمم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا ليمتحنكم هل تطيعون ربكم فيما بأيديكم حتى تنالوا الخير في الدنيا والآخرة ؟ أو تعصونه حتى يدمركم الله كما دمر الظالمين ممن قبلكم . والخطاب عام والمقصود التنبيه على خطورة الموقف حتى لا يصر الإنسان على الغفلة والجهالات (فمن كفر فعليه كفره) وعقابه ووباله (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) لهم واحتقارا وهوانا (ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) في الدنيا بموت ضميره وضيق صدره والحيرة في أمره ، وفي الآخرة بذوق الحميم والعذاب الشديد الأليم .

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعُونَ من دون الله ؟) أي آلهتكم المزعومة (أروني ماذا خلقوا من الأرض) أي أعلموني أو أبصروني أيّ جزء من أجزاء الأرض خلقوه حتى يستحقوا التقديس والعبادة ؟ (أم لهم شرك في السموات) أي بل ألَهُم شراكة مع الله تعالى في خلق السموات والمواد العاوية (أم آتيناهم كتابا) أي بل آتينا أولئك العباد للأصنام كتابا ينطق بأن اتخذنا أولئك الأصنام شركاء لنا (فهم على بينة) وحجة واضحة من ذلك الكتاب ؟ (بل) أضرب عن كل ذلك واعلم أنه ليس لهم خلق وتصرف في الارض ولا في السماوات ، وليس عباده على بينة لصحة هذه الخرافات ، وتلك الأصنام أجسام حجرية جامدة كاسدة لا تساوي شيئا له قدر وما (يعد) أولئك الكافرون (الظالمون) على أنفسهم بالإشراك بالله وما يبلغون (بعضهم بعضا إلا غرورا) وبطرا من اتباع خرافات أسلافهم الجاهلين (إن اللهَ يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تزولا) عن محلهما ومحورهما (ولئن زالتا) أي أشرفتا على الزوال فرضا (إن أمسكهما) أي ما أمسكهما (من أحد من بعده) أي من بعد إمساكه تعالى له فمن الذي

تكافىء قدرته قدرة هذا الرب القادر القاهر الحي القيوم القائم بذاته المقيم لغيره حتى يشاركه في الالوهية ؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا (إنه كان حليما) لا يستعجل بعقوبة المشركين (غفورا) لذنوب المؤمنين •

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ مازادهم إلا نُفُوراً(٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ ومَكْرَ السَّيِّئِ ، وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً(٤٣) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وما كانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّموات وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً(٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ ، وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً، فَإِذَا جاء أَجَلُهُمْ فإِنَّ اللهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً)(٤٥)

قوله تعالى : (وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم) يريد تذكيرهم بما عاهدوا الله عليه وهم رجال يدعون المروءة والوفاء بالعهود لعلهم يتذكرون ويوفون بها ويؤمنون ، فيقول وحلفوا أي أولئك المشركون من أهل مكة (لئن جاءهم نذير) من الله آمنوا به إيمانا متينا ثابتا على أساس القوة والعزيمة وكانوا (أهدى من إحدى الأمم) التي لها دور في العالم كأمة اليهود أو النصارى أو غيرهما مما كان له شأن ومقام • أو معناه ليكونن أهدى من

أمة عالية نادرة الوجود يقال في شأنها أنها إحدى الأمم (فلما جاءهم نذير) وهو أحدُ الأحدين وفرد العصور ومصباح النور ـ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (مازادهم) طلوع شمس قدسه (إلا نفورا) والخفاش تنفر من الشمس ، وكان نفورهم (استكبارا في الارض) بالمال والحال والأنف والعنف والطول والعرض (ومكر السيىء) أي وخداعا مع الحق ومكراً مكرَ السيىء ، فإن كل مكرٍ كان لغير الحق فهو المكر السيىء ، أو وكانوا عند مجيئه ماكرين في حقه المكرَ السيىء لقتله أو فشله في دعوته (ولا يحيق المكر السيىء) أي ولا يحيط (إلا بأهله) الماكرين (فهل ينظرون) أي ينتظرون (إلا سنة الأولين) أي سنة الله في الكفار الأولين بإهلاكهم في الدنيا وتعذيبهم في الآخرة (فلن تجد لسنت الله تبديلا) بأن يبدل التعذيب بالتنعيم (ولن تجد لسنت الله تحويلا) من محلها إلى آخر بأن ينقل عذابه من الكافرين إلى المسلمين •

(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أي أو لم يمروا على ديار عاد وثمود في متاجرهم الصيفية أو الشتوية لينظروا إلى تلك الديار المغضوب عليها بالدمار حتى يعلموا كيف كان عاقبة الذين كانوا مكذبين للرسل من قبلهم حتى يعلموا أنهم سيبتلون إذا لا يتوبون (وكانوا) أي الكفار الذين كانوا من قبلهم (أشد منهم) أي من كفار مكة (قوة) بالعَدَد والعُدَد (وما كان الله ليعجزه من شيىء في السموات ولا في الارض إنه كان عليما قديرا) كامل العلم والقدرة وشاملهما (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من السيئات (ما ترك على ظهرها من دابة) تدب وتمشي على الارض إما لعصيانه أو ابتلائه بشؤم المعاصي كما في قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وشمول شؤم المعاصي للصالحين ليس لاستحقاقهم للدمار بل لجريان سنة الله تعالى في الكائنات ،

فإنه إذا أراد خسف إقليم انخسف بمن عليه وما عليه وما فيه للزوم وجود الحال بوجود المحل ، فالمحل إذا علا يعلو معه الحال وإذا نزل ينزل معه ، والمكلفون العصاة يأخذون حقهم واستحقاقهم من العذاب والمطيعون يأخذون أجورهم بغير حساب . وكان هذا العمل يشبه خطاب الوضع الجاري على المكلف وغير المكلف وليس كخطاب التكليف المختص بالعقلاء البالغين (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أي لكنه لا يؤاخذهم بما كسبوا بل يؤخرهم الى أجل ووقت معين لتعذيبهم ولا يبالي الباري بتعذيب المستحق في الحال أو الاستقبال فإن الزمان بالنظر إليه لا قيمة له (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) فيفرق بين درجات عذابهم ، ويعذبهم على حسابهم . أعاذنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وجعل مآلنا خيرا من حالنا بمنه وفضله وكرمه آمين .

سورة يس ، مكية ، وهي ثلاث وثمانون آية

بسسم الله الرحمن الرحيم

(يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُم فَهُم غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ فهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كريمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ المَوْتى ونَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ ، وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيناهُ فِي إِمامٍ مبينٍ)(١٢)

قوله تعالى (يس) الكلام فيه كالكلام في الم ونحوه من الحروف المقطعة (والقرآن الحكيم) الواو للقسم أي أقسم بالقرآن الموصوف بالحكمة في تنزيله وفي مدلوله ، أو للعطف على يس إذا كان مقسما به .
وجواب القسم قوله (إنك لمن المرسلين) أي إنك لمن المختارين من العباد المرسلين للإرشاد وقوله (على صراط مستقيم) خبر ثان لحرف التأكيد وقوله (تنزيل العزيز الرحيم) بالرفع خبر لمبتدأ محذوف أعني هو راجع إلى القرآن أو الصراط ، والتنزيل بمعنى المنزل اسم مفعول أي القرآن هو المنزل من العزيز الرحيم ، أو الصراط المستقيم هو الكلام المنزل من الله العزيز الغالب على أمره الرحيم بكل ذي روح في عُسره ويُسره . وبالنصب على المدح ، أي أعني بالقرآن أو بالصراط المستقيم (تنزيل العزيز الرحيم) على الوجه المذكور ، وبالجر بدل من القرآن أو الصراط كذلك . وقوله (لتنذر) متعلق بأرْسِلْتَ المستفاد من قوله لمن المرسلين ، أي لتنذر بعذاب الدنيا والآخرة على الإشراك بالله (قوما ما أنذر آباؤهم) الأقربون (فهم غافلون) عن وجوب التوحيد .

ومما ينبغي الانتباه له أنه طيلة المدة الواقعة بين وفاة اسماعيل ـ عليه السلام ـ وبعث سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرسل الله رسولا إلى أمة العرب وقد اندرست شريعة إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ في القسم الأخير من هذه المدة ، فلم يكن هناك صحيفة بين العرب تدرس وتؤخذ منها أحكام الدين ، لا أصولها ولا فروعها ، وبالخاصة لما ذهب عمرو بن لُحَيّ إلى الشام وجاء بالصنم إلى الكعبة الشريفة ، ولوثها بالإشراك لم تبق شريعة إسماعيل بين الناس إلاّ بنوع من الحكاية عن الماضي البعيد ، ولذلك قسم العلماء تلك المدة الى أقسام ثلاثة : القسم الاول منها كانت شريعة إسماعيل فيه واضحة والناس

كانوا على بصيرة منها ويعملون بها • والقسم الثاني ابتعد الناس فيه عن أخذها وفهمها ولم يبق منها إلا شيىء قليل • وأما القسم الثالث ولا سيما ما وقع منه مقارنا لوجود الأصنام في الكعبة الشريفة وانتشار عبادتها فيه ، فقد كان الناس جاهلين بالأحكام فيه وغافلين عن وجوب التوحيد والتزام أحكام الدين وسموه عهد الفترة •

وبعد نص الباري تعالى على أنهم لم ينذروا بقوله في سورة القصص : (لتنذر قوما ما أتيهم من نذير من قبلك) وفي سورة سبأ : (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) ونصه على أن من لم ينذر فهو غافل بقوله في هذه السورة (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وبعد نصه على أن الفاعل بسبب عدم مجيىء الرسول إليه لا يعذب بقوله الكريم في سورة الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا • ولمفهوم قوله في سورة النساء : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) •• وجب الاعتقاد بأن أهل الفترة ناجون من عذاب النار ، وأن حكمهم دخول الجنة ، إذ لا منزلة بين المنزلتين ولا واسطة بينهما عند جمهور المسلمين • وإذا تقرر ذلك ظهر أن كل ما روي من الأخبار الدالة على عذاب أهل الفترة وهم منهم بنص قوله الكريم : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) إن كانت من الاحاديث الضعيفة فلا مجال للاستدلال بها ، وإن كانت من الأحاديث الحسنة أو الصحاح وجب تأويلها بحملها على من كان من غير القسم الثالث، أو على من كان فيه وقد بقي إلى أن أدرك بعث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو على من سافر إلى بلاد النصارى ، وعلم من الدين ما ألزمه برعاية الأحكام والآداب ، وإلا فلا وجه للاستدلال به واعتباره في مقابل تلك الآيات الصريحة في أنهم لم ينذروا حيث ما أتيهم الرسول وكانوا غافلين عن أحكام الدين •

وقوله (لقد حق القول على أكثرهم) أي ثبت قول الله تعالى في مقابل إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين على أكثرهم وهم عبارة عمن سبق في علمه تعالى أنه بسوء اختياره ينحرف عن الصراط المستقيم ، فإذا كان كذلك (فهم لا يؤمنون) بإنذارك إياهم ولقد أعذر من أنذر ، فليس عليك إلا تبليغ ما أنزلناه إليك وقد بلغت . ولما كان الكفار على سوء حال منعهم عن النظر الى الحال أو الاستقبال ، وأصروا على عنادهم واستمروا في فسادهم وإفسادهم بحيث لا ينفع فيهم الوعظ والإرشاد، وصمموا على ذلك مثلهم الله تعالى بالذين جعلت في أعناقهم الأغلال الغليظة بحيث استوعبت المسافة من صفحة الرقبة الى الذقن ، ولم يقدروا على تحريك رؤسهم الى جانب الصدر وما أمامه ، فقال (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) منخيوط أوهامهم الفاسدة وأحوالهم الكاسدة بحيثملأت الخلاء (فهي إلى الأذقان) فهي أي تلك الأغلال واصلة إلى الأذقان جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين وقوله (فهم مقمحون) كالنتيجة للجعل السابق ، يعني أنه لما وصلت الاغلال الى الاعناق فهم مرفوعو الرؤس بحيث لا يستطيعون النظر الى الامام وكذلك مثلهم بالذين أحيطوا بالسدود بحيث لا يستطيعون التجاوز الى الحدود فقال : (وجعلنا من بين أيديهم سدا) أي سدا عظيما لا يعرف كمهوكيفه (ومن خلفهم سدا) كذلك (فأغشيناهم) يعني فغطيناهم بالسدين (فهم) بسبب ذينك (لا يبصرون) أي لا يقدرون على إبصار ما وراءهم من الجهتين بل من الجهات .

فصار ما سيأتي كالنتيجة لهذا التمثيل وهو قوله تعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) فإن قوما لم يقوموا إلا على قدم الضلال والجهالة ولم يعيشوا إلا على زاد العناد والاستكبار فعميت قلوبهم قبل الأبصار وتمرضت أبصارهم برمد خائنة الأعين وسوء النظر الى أدلة

الاعتبار .. كيف يؤثر فيهم الإنذار ؟ فالإنذار وعدمه متساويان بالنسبة إليهم . وأما بالنسبة الى الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكل إنذار يجلب أوقارا من الأجور ، وكل اصطبار في مقابل استكبارهم يفيد مزيد الدرجات ليوم النشور .

وحاصل ما هنا أن من آمن برب العالمين وإرساله الانبياء والمرسلين يعلم أن العباد لهم شأن وقابلية للتكليف واستطاعة العمل إيجابا وسلبا ، وإلا كان التشريع عبثا ، وحاشاه أن يجعل عبثا في الكائنات ، وهو تعالى مع أنه له قدرة على هداية الناس جميعا قرر نظاما شاملا يتميز به العاصي والمطيع والوضيع والرفيع ، وهو الخوف من مقامه تعالى ومنعه نفسه عن الهوى ، فمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، واما من تكبر واستغنى وطغى على الحق وبغى فجزاؤه النار جزاء وفاقا جزاء الأبد على القصد ونية الإطاعة أو العصيان إلى الأبد .

(إنما تنذر من اتبع الذكر) أي القرآن بتلاوته وتدبر معانيه والعمل بما يقتضيه أو أخذ زبدته من المبلغين وعمل بما قرره إلى يوم الدين . (وخشي الرحمن) أي عقابه على العصيان ورجا رحمته على الطاعة والإحسان . وقوله (بالغيب) أي متلبسا ذلك العقاب بالغيب والخفاء لأنه في دار الجزاء أو متلبسا ذات الرحمن إذ لا ترى ذاته وإنما ترى آثار خلقه وآياته ، أو متلبسا ذلك الخاشي بالغيب عن أعين المراقبين (فبشره بمغفرة) لذنوبه (وأجر كريم) من هباته وكرامته . ثم جاء بآية من الآيات البينات على وجه التذييل للفريقين من أهل الكفر والمعاصي أو من أهل الإيمان والطاعات . فقال (إنا نحن نحيي الموتى) في وقت البعث والنشور لميزان الأعمال وحساب الأجور (ونكتب) بأيدي الكرام الكاتبين (ما قدموا) من الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة ، أي اسلفوها لنيل الجزاء في دار

البقاء من المؤمنين وبطراً وعبثا من الكافرين (و) نكتب (آثارهم) التي أبقوها بعدهم من الحسنات والسيآت ، ويدخل في ذلك علم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو ملك وقفوه ، أو مسجد أو جامع بنوه ، وغير ذلك من وجوه البر والخير ••• وكذلك ماتركوه من الآثار السيئة والسنن المذكورة ؛ كتأسيس مبادىء الكفر والظلم والبغي والعدوان ، وسوء الجوار ، وسوء الظن بالأخيار الى غير ذلك ••• أخرج الإمام أحمد في الزهد عن ابن عباس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريبا من المسجد فنزلت (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فقالوا : بل نمكث مكاننا • وعلى تلك القصة ورد قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « إنه تكتب آثاركم » (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أي وأحصينا كل شيء من الأشياء صغيرا أو كبيرا سرا أو جهرا سيئة أو حسنة في إمام مبين أي في أصل واضح عظيم الشأن • وهو دفاتر الأعمال أو هو اللوح المحفوظ • أو معناه إنا كشفناه وعلمناه بعلمنا الأزلي الواسع الجامع •

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَها الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ، فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(١٤) قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ(١٥) قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦) وما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ(١٧) قالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ(١٨) قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)(١٩)

قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) عطف على ما قبله عطف القصة على القصة ، والمعنى واجعل لهؤلاء المشركين أصحاب القرية مثلا . فأصحاب القرية مفعول أول ، ومثلا مفعول ثان . وإنما أخر المفعول الأول ليتصل به ما هو شرحه وبيانه . وقوله (إذ جاءها المرسلون) بدل من أصحاب القرية بدل اشتمال ، لأن المقصود ذكر مجيىء المرْسلين إليهم ومعاندتهم لهم ، والقرية (أنطاكية) والمرسلون رُسُلُ عيسى ـ عليه السلام ـ من الحواريين ، لكن نسب الله إرسالهم إلى نفسه في قوله (إذ أرسلنا إليهم اثنين) لأن إرسال عيسى لهما كان بأمر الله تعالى ، وهما يوحنا وبولس ، أو سمعان ويُوحَنا (فكذبوهما) أي فلما وصلا إلى أصحاب القرية كذبوهما (فعززنا بثالث) أي فقويناهما وشددناهما بثالث وهو شمعون (فقالوا) أي ثلاثتهم : (انا إليكم مرسلون) أو واحد منهم مع موافقة الباقين (قالوا) أي أصحاب القرية خطابا للثلاثة (ما أنتم إلا بشر مثلنا) ولا مزية فيكم توجب اختصاصكم بالرسالة (وما أنزل الرحمن من شيىء) تدعون أنه وحي من الله (إن أنتم إلا تكذبون) فيما تدعون ، فلما رأوا شدة إنكارهم عليهم زادوا التأكيد في الجواب . و (قالوا) أي المرسلون : (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) واستشهدوا بعلم الله تعالى بذلك وهو جار مجرى القسم ، والإتيان به فيما يخالف الواقع كفر لأنه نسب إليه العلم بخلاف المعلوم ، وذلك نسبة الجهل اليه تعالى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(قالوا) أي أصحاب القرية : (إنا تطيرنا بكم) أي تشاءمنا بكم جريا على حال الجهلة حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وإن كان جالبا للشر ويتشاءمون بكل ما يخالفها وإن كان وسيلة إلى الخير . وتطيرهم كان من حبس المطر عليهم مدة ، أو بظهور الجذام فيهم . والله (لئن لم تنتهوا)

عن مقالاتكم (لنرجمنكم) بالحجارة (وليَمَسَّنكم منا عذاب أليم) قيل هددوهم بالحرق (قالوا) أي المرسلون في جوابهم (طائركم معكـم) أي شؤمكم معكم لبقائكم على الكفر والضلال (أإن ذكرتم) أي أإن وعظتم وذكرتم بما فيه خيركم وسعادتكم تتطيرون أو تتوعدون ؟ (بل أنتم قـوم مسرفون) أي بل أنتم عادتكم الإسراف في الإفساد وتجاوز الحدود .

روي أن أصحاب القرية (أنطاكية) كانوا عبدة أصنام ، فأرسل إليهم عيسى ــ عليه السلام ــ اثنين ، فلما قربا من المدينة رأيا حبيب النجّار يرعى غنما فسألهما فأخبراه ، فقال : أمعكما آية ؟ قالا : نشفي المريض بإذن الله ، ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرىء ، فآمـن حبيب وفشا الخبر ، فشفي على أيديهما خلق كثير ، وبلغ حديثهما إلى الملك فدعاهما ، وقال لهما : ألنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك. قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما .

ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكرا وعاشر أصـحاب الملـك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فآنس به . فقال له يوما : سمعتُ أنـك حبست رجلين . فهل سمعت مايقولانه ؟ قال : لا . فدعاهما : فقال شمعون : من أرسلكما ؟ قالا : الله الذي خلق كل شيىء وليس له شـريك . قـال : صِفاهُ وَأوْجِزا . قالا : يفعل ما يشاء ويحكم مايريد . قال وما آتاكما قالا : ما يتمنى الملك . فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشـق له بصر ، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهمـا . فقال : شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولهما الشرف . قال : ليس لي عنك سِرٌ آلهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع . ثم قال : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به ، فأتوا بغـلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام . وقال : إني أدخلت في سبعة أوديـة

من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه ، فآمنوا! . وقال : فتحت أبواب السماوات فرأيت شابا حسنا يشفع لهؤلاء الثلاثة شمعون وهذين . فلما رأى شمعون ان قوله قد أثر فيه نصحه فآمن في جمع ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل ـ عليه السلام ـ فهلكوا .

(وجاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رجُلٌ يَسْعى ، قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهتَدُونَ (٢١) وَمالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلِهَةً ؟ إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونَ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قيل : ادْخُلِ الجنَّةَ ، قال : يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(٢٧)

قوله تعالى (وجاء من أقصى المدينة) أي من أبعد مواضعها (رجل) وهو حبيب (يسعى) أي يسرع في مشيه حرصا على نصح قومه (قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون) أي ثابتون على الحق والاهتداء (وما لي لا أعبد الذي فطرني) تلطف في إرشاد قومه بايراده الكلام في معرض المناصحة (واليه ترجعون) مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الذي يرجعون اليه وهو شديد العقاب (أأتخذ من دونه آلهةً ؟ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . إني إذا) أي إذا اتخذت من دونه آلهة (لفي ضلال مبين) أي

واضح فإن إشراك ما لا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال ، وإذا كان جامدا هامدا فالضلال مبين والعلم به يقين (إني آمنت بربكم فاسمعون) أي فاسمعوا قولي فإني أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك • وبعد أن قال ما قال وبرأ ذمته عند الله المتعال قتلوه • فقيل : رموه بالحجارة حتى مات • وقيل : ألقوه في بئر • وقيل : قاموا عليه بالأرجل والأقدام وغير ذلك • و (قيل) أي من جانب الملك الآمر المتعال أو الملك المامور بذلك المقال : (ادخل الجنة • قال : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) وإنما تمنى ذلك ليكسبهم الإيمان كإيمانه فينالوا الأمان كأمانه •

الجزء الثالث والعشرون

(وَما أَنْزَلْنَا عَلى قوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ ومَا كُنَّا مُنزِلِينَ(٢٨) إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذَا هُمْ خَامِدونَ)(٢٩)

(وما أنزلنا على قومه من بعده) أي من بعد إهلاكه (من جند من السماء) للانتقام منهم (وماكنا منزلين) وما صح في حكمتنا إذ ذاك أن ننزل جندا ، لإهلاكهم لأن أمورنا مقررة على الحِكَم (إن كانت) أي ما كانت الأخذة أو العقوبة (إلا صيحة واحدة) صاح بها جبريل بأمر الجبار الجليل ، ولو فرض أن الصيحة منه كانت موجبة لبركان ناري من أعماق الارض في تلك البلدة بالطول والعرض (فإذا هم خامدون) ميتون •

(يا حَسْرَةً عَلَى الْعبادِ ! ما يَأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كانُوا بِهِ يستَهْزِءُونَ(٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرونِ أَنَّهُمْ إلَيْهِمْ لا يَرجعُونَ ؟(٣١) وَإنْ كلٌّ لمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ(٣٢) وآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخرجْنا مِنها حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣) وَجَعَلْنَا فيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَأَعْنابٍ ، وفَجَّرنا فِيها مِن الْعيُونِ(٣٤) لِيأْكُلُوا

مِنْ ثَمَرِهِ وما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟(٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ)(٣٦)

قوله تعالى : (يا حسرة على العباد) الحسرة الغم على ما فات ، كأن المتحسر انحسرت قواه النفسية والبدنية من فواته ، فيقول : ياحسرة على العباد وعقولهم ونور فطرتهم وشعورهم ! كيف ذهبت وفاتت وما استفادوا منها فوصلوا إلى مرحلة من الجهالة والغباوة ؟ (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون) أي ما يأتيهم أي رسول في أي حال من الأحوال إلا حال استهزائهم به وضحكهم عليه ، وما يتفكرون فيما لديه من التعاليم القيمة التي في العمل بها سعادة الدارين . ألم يتفكروا في أخلاق الرسول الذي هو وسيلة الوصول ؟ ألم يتفكروا في أنفسهم وهم أصحاب عقول ومسئوليات وأن وراء هذه الحياة حياة وجزاء" وثواب" وعقاب" ؟ ألم ينظروا إلى غضب الله وانتقامه منهم ؟ (ألم يرواكم أهلكنا قبلهم من القرون) أي كم أهلكنا قبلهم من الأمم في القرون الماضية من الذين تكبروا على الأنبياء والمرسلين (أنهم إليهم لا يرجعون) بدل اشتمال لقوله كم أهلكنا قبلهم من القرون ، يعني ألم يروا أهل القرون التي مضت قبلهم هالكين ؟ ألم يروا أنهم لا يرجعون إلى أهل مكة كما زعم الخرافيون أن الاموات بعد مدة من مماتهم يرجعون الى الدنيا ؟ (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) إن نافية ، وكل مبتدأ ، ولما بمعنى إلا ، أي وما كل منهم إلا جميعهم لدينا مُحضرون للحساب والميزان ونيل جزائهم بالإتقان .

(وآية لهم الأرض الميتة) أي الأرض اليابسة الجامدة التي لا تنبت شيئا آية عظيمة لهم دالة على قدرتنا على الإحياء والإماتة (أحييناها) بالأمطار ، وخلقنا فيها قوة الإنبات

للنبات والأشجار (وأخرجنا منها حبا) أي جنس الحب من الأقوات المختلفة (فمنه يأكلون) للاقتيات أو التنعم والتلذذ (وجعلنا فيها) أي في الأرض (جنات من نخيل وأعناب) أي ومن تين وزيتون ورمان وعناب وغيرها من الاشجار المثمرة بلا حد وحساب ... (وفجرنا فيها من العيون) تجري على مر الليل والنهار ، وفي كل المواسم ، أو في بعضها حسب الأسباب المودعة لتفجيرها (ليأكلوا من ثمره) أي من المذكور كله بلا معالجة لذواتها أو بها لعصيرها وما يستحصل منها (وما عملته أيديهم) أي الحال أنه ما عملته أيديهم ، لأن الجعل من الله لا من العباد ، أو ليأكلوا مماعملته أيديهم مما لهم فيه صنعة وعلاج (أفلا يشكرون ؟) أي أبعد إفاضة هذه النعم الجسيمة من الأقوات والفواكه والنباتات للاستهلاك والتصدير والعيش عليها بالكثير واليسير لا يشكرون الخالق القدير ؟

وليس الخلق محصورا في ذلك بل يوجد ما لا يدخل تحت الإحصاء هنالك فـ (سبحان الذي خلق الأزواج) أي الأصناف أو الذكر والأنثى (كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وذلك لعدم إطلاعهم عليه لحد الآن ، أو لأنه يخلقها تعالى في مستقبل الأزمان والحمد لله رب العالمين .

(وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ

الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ)(٤٤)

قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) جرت سنة الله في كتابه المنزل على توجيه العباد إلى الله وتذكيرهم بنعمه السماوية والأرضية التي فيها العبر عبر الأزمان على مستويات مختلفة ظاهرها ومباديها للعامة ، واسرارها وحقائقها ودقائقها للخاصة ، وكلما زادت الطبقة علما وعقلا زادت الأسرار فيها دلالة وبيانا . وقد ذكر الله تعالى في آياته السابقة نعمه الأرضية التي تظهر من الأقوات وغيرها . وهنا يذكرهم بالنعم الزمانية من الليل والنهار وأسباب تكونهما . فقال وآية لهم الليل أي والليل آية عظيمة للمعتبرين في تكونه وتحققه فهو زمان مظلم كجسد حيوان جسيم نسلخ منه النهار الذي يشبه جلد الغنم فإذا هم مظلمون واقعون في ظلام دامس .

وقوله (والشمس) معطوف على الليل أي وآية لهم الشمس وقوله : (تجري) استئناف لبيان أحوالها الدالة على قدرة خالقها ، وهي أنها (تجري لمستقر لها) أي إلى وقت استقرار وسكون لها (ذلك) الجريان الى المستقر، ثم الاستقرار (تقدير العزيز العليم) أي تقدير الرب القادر على إجرائها وحركتها العليم بكمية تلك الحركات وكيفيتها ودوامها وانقطاعها . وفي الحقيقة إن الإنسان إذا فتح عينه على الأفق ورأى الشمس تطلع من الأفق فتنور نصف الكرة تهتز مشاعره لو كان له نور الشعور ، ولكن العادة والاستمرارية تؤثر فيه فتجعل العجيب غير عجيب والعظيم غير عظيم . وقوله تعالى تجري ظاهر في جريانها وحركتها . وأهل الرياضيات القديمة كانوا يقولون بدورانها حول الارض . وفي العهد الأخير تغيرت الآراء والأفكار بسبب اختراع المجاهر واستحصال الأصول الهندسية ، وقرروا

أن الكواكب في الكون ، ومنها الارض وكوكبها التابع لها أعني القمر هي التي تتحرك حول الشمس ، فالسيارات منها ، والمكشوفات منها لحد الآن ثلاثة عشر تدور حول الشمس ، والارض منها تدور حول نفسها في كل يوم وليلة مرة ، وحول الشمس في كل سنة شمسية أعني ثلثمأة وستة وستين يوما مرة . والآن نسمع بوجود اكتشافات تدل على أن الشمس أيضا تجري حول نفسها وذلك تحقيق معنى قوله الكريم (والشمس تجري لمستقر لها) ويحتمل أن تكون حركتها في الكائنات على مدار خاص تقطعها في زمان عينه الله تعالى لها .

وقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل) أي وقدرنا سير القمر في منازل متعددة من مدار حركته . وبما أنه يستفيد النور من الشمس ويستضيىء أكثر من نصفها في مقابلتها دائما ، ولكن يختلف مقابلته لمن على الارض بحيث يرى في أول الشهر مقدار هلال منه ، ثم في الدور الثاني يزيد اتساع المقابل منه إليه ، فيرى منه أزيد من الأمس الى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، فيقابل نصفه الكامل لنا ويتكامل نوره ثم في اليوم الخامس عشر يبدأ بالتناقص على عكس ما سبق في النصف الاول من الشهر الى أن ينتهي الى المحاق ، وهو أن يكون وجهه المظلم إلينا تماما ثم ينكشف في الدور الآتي بمقدار هلال منه كما قال تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) والعرجون عود عزق النخلة من بين الشمراخ الى منبته منها . ووزنه فعلول من الانعراج وهو الإعوجاج . وهذا الوضع هو الذي نراه بطول الزمان ، وجعله كذلك لمعرفة أوقات المعاملات والمزارعات وسائر الامور المؤقتة بالأزمنة كما قال تعالى ويسألونك عن الأهلة ، قل : هي مواقيت للناس والحج . وهذا المقدار هو الذي ينفعنا معرفته بصورة عامة ، وأما أسماء المنازل والفرق بين الشمالية والجنوبية منها ومدة بقائه في كل منها فراجع

الى علماء علم الهيئة • (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهـار) مما لا يخفى أن الشمس والقمر كوكبان مخلوقان لله عليهما مدار تحديد الأزمنة بالساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين والقـرون ، فالشمس آية النهار أي أنها آية من آيات الله إذا طلعت من الأفق فذلـك الوقت يسمى بالنهار إلى غروبها •

والقمر آية الليل أي أنه هو الذي يظهر سلطانه بعد الغروب على الارض ويستفيد أهلها منه وهاتان الآيتان موجودتان في الفلـك على مـر الزمـن ، ولا يفارق وجود أحدهما وجود الآخر • فمعنى قوله تعالى (لا الشـمس ينبغي لها) الآية ••• انه في وقت ظهور نور القمـر وسـلطانه على الأرض ليست الشمس ظاهرة ، وإلا فلو كانت ظاهرة لانمحى نـور القمـر تحت شعاع الشمس ، ومعنى (ولا الليل سابق النهـار) ولا آيـة الليل أعنـي القمر سابق وغالب على آية النهار وأعني الشمس لأنه اذا طلعـت الشمس وظهر نورها فالقمر ، وإن كان موجودا في مقابـل الارض وأهلها لا يظهـر نوره ولا يستفاد منه • (وكل في فلك يسبحون) أي وكـل مـن الشمس والقمر في مدار خاص به يسيرون سير السابح في الماء • يعني أن الله تعالى سخر المر لهما بحيث يمران فيه مر السابح في الماء ، وإنما جاء بصيغة جمع المذكر العاقل لأن السباحة عمل العقلاء على الأغلب • وفي قوله تعالى (كل في فلك) صنعة بديعة تسمى القلب ، وهو أن تساوي قراءة اللفظ من أوله الى آخره قراءته من آخره إلى أوله • وفي هذه الصنعة إشارة إلى أن حركتهمـا بالاسـتدارة لا على الإسـتقامة •

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون) يعني كما أن الليـل والنهار والشمس والقمر كل منها آية من آيات الله تعالى تدل على عظيـم قدرته ، كذلك آية عظيمة لهم أنا علمناهم صنع السفن فصنعوها ، فحملنـا

ذريتهم في الفلك المشحون أي المملوء بالإنسان وغيره ، وذلك عند طوفان الماء في عهد سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ • أو في الأسفار الواقعة في البحار فإنه لولا إلهامي للأنام لم يكونوا متمكنين من صنعها وتسييرها على البحار • والفلك السفينة ، ويستوي فيه المفرد والجمع ، والمشحون المملوء •

(وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أي وخلقنا لهم مثل الفلك ما يركبونه في الصحارى القفار الفاقدة المنار أعني الإبل ، ولكن المماثلة بعيدة بينهما جدا فيجوز أن يفسر بأنواع أخر من الغواصات البحرية أو الطيارات الهوائية أو الطيارات البرمائية التي تركب وتستعمل في البر والبحر • والله قادر على ذلك وأمثالها •

كتب صاحب نور الأنوار في تأريخ ألف وستين هجرية أنه كان في مجلس شيخه شهاب الدين الحسني الشاذلي الكاكو زكريائي ، فقرأ أحد القراء آيات من سورة يس حتى وصل إلى هذه الآية والشيخ رفع رأسه وقال : سبحان الله رأيت الآن كثيرا من المركوبات البرية والبحرية التي لم نرها سابقا •

(وإن نشأ نغرقهم) أي الناس الراكبين في الفلك (فلا صريخ لهم) أي فلا صوت لهم يصل إلى أحد ينجيهم أو لا مغيث لهم بناء على أن الصريخ جاء بمعنى المغيث (ولا هم ينقذون) بأنفسهم بأي سبب من الأسباب (إلا رحمةً منا) كسفينة أخرى تصلهم أو سباحين ينجونهم (ومتاعاً) أي تمتيعا لهم ببقاء الحياة إلى حين الأجل المسمى لهم •

(وإذا قيلَ لَهُمُ : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِم إلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضينَ (٤٦) وإذَا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قالَ الَّذِين كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ

يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ؟! إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٤٧) وَيَقُولُونَ : مَتى هذا الوَعْدُ إن كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟(٤٨) ما يَنْظُرُونَ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ولا إلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠) ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ(٥١) قالُوا : يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ(٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ(٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٥٤)

قوله تعالى (وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم) يعنى وإذا قيل لهم اتقوا عذاب الأمم التي قبلكم وعذاب الآخرة التي يأتيكم في المستقبل (لعلكم ترحمون) والجواب محذوف أي أعرضوا بقرينة قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) أي وما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بوجوب التوحيد ورفض الإشراك في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين أي إلا في حال إعراضهم عنها وعدم قبولهم لها (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) على ذوي قرابتكم المحتاجين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أي خطابا لهم (أنطعم من لو يشاء الله أطعمهُ) قيل : لما أسلم حواشي الكفار من أقربائهم ومواليهم من المستضعفين ، قطعوا عنهم ماكانوا يواسونهم به ، وكان ذلك بمكة قبل نزول آيات القتال ، فدعاهم المؤمنون إلى صلة حواشيهم ، فقالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟! وكانوا يتكلمون بذلك الكلام استهزاء ، لأنهم كانوا يسمعون من المؤمنين تعليق الأفعال

بمشيئة الله تعالى • وقوله تعالى (إن أنتم إلا في ضلال مبين) يجوز أن يكون من كلام المشركين للمؤمنين الذين يندبونهم إلى الإنفاق • كما يجوز أن يكون من كلامه تعالى خطابا للمشركين المستهزئين ، وفي الحقيقة إن جوابهم بذلك يدل على غاية ضلالهم وجهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء (ويقولون : متى هذا الوعد) أي وعد البعث والنشور (إن كنتم صادقين ؟) فيما تعدون به (ماينظرون) أي أولئك الكفار المستعجلون (إلا صيحة واحدة) وهي النفخة الأولى في الصور التي يموت بها أهل الأرض (و) الحال أن (هم يخصمون) أي يختصمون في ما بينهم على المعاملات والمتاجرات وغيرها •

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ، ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته الى فمه فلا يطعمها » (فلا يستطيعون توصية) في شيىء من أمورهم بين الأهل (ولا إلى أهلهم يرجعون) في الخارج (ونفخ في الصور) مرة ثانية ، وبينها وبين الأولى مدة أربعين سنة (فإذا هم من الأجداث) أي من القبور (إلى ربهم ينسلون) أي يسرعون بسوق ملائكة الحشر وإجبارهم (قالوا) أي المبعوثون في ابتداء بعثهم من القبور (يا ويلنا) أي احضر فهذا أوانك (من بعثنا من مرقدنا ؟) أي من الذي بعثنا ونبهنا وأقامنا من مرقدنا أي من محل رقودنا يريدون بها القبور ، ولما انتبهوا وعلموا أن هذا هو البعث الموعود قالوا (هذا ما وعد الرحمن) أي وعد به الله (وصدق المرسلون) في وقوعه وتحققه (إن كانت إلا صيحة واحدة) أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة

من المأمور المختص إسرافيل ــ عليه السلام (فإذا هم جميع لدينا محضرون) فإذا هم مجموع لدينا محضرون أي عندنا وفي محل حكمنا محضرون للحساب (فاليوم لا تظلم نفس) أي من النفوس المكلفة شيئا من الظلم فإن الله لا يظلم مثقال ذرة (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أي وما تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملونه •

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأرائِكِ مُتَّكِئُون(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟(٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟(٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)(٦٥)

قوله تعالى ان اصحاب الجنة اليوم بيان لحسن حال المؤمنين لزيادة تحسر الكافرين واغاظتهم فيقول انهم اليومَ متلذذون وفي أنواع النعمة متنعمون ولذلك نكر الشغل وأبهمه (هم وأزواجهم في ظلال) جمع ظل لإفادة أن مالهم من الظل أصناف ، فمنه ظل رحمة الله تعالى بسبب تحاببهم مع إخوتهم وأصدقائهم ، ومنه ظل حصل لهم من إيواء الناس الفقراء في ظلال خيامهم في البدو ، أو بيوتهم في الحضر • وعلى كل فالمراد بهذا الظل

أنهم تحت ستار الرحمة والكرم والإحسان من الله المنان ، وإلا فالآخرة ليس فيها شمس ، والجنة ليس فيها حرارة حتى يحتاج الناس فيه إلى الظل (على الأرائك) جمع أريكة بمعنى السرير (متكئون) معتمدون اعتزازا واستراحة (لهم فيها) أي في الجنة (فاكهة) جليلة الشأن عديمة النظير في الدنيا والتنكير للتنويع (ولهم ما يدعون) أي يطلبون من المشتهيات مادية أو معنوية (سلام) بدل من ما في ما يدعون (قولا) مفعول مطلق أي قيل قولا (من رب رحيم) صفة أي ذلك السلام مقول لهم من جانب رب عظيم الشأن جسيم العطاء • ويحتمل أن يكون السلام منه تعالى مباشرة ، تشريفا لهم أو من بعض الملائكة بأمر من الله تعالى وبينما يقال لهم السلام لمزيد الإكرام يقال للكافرين من الرب المنتقم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) أي انفردوا عن المؤمنين ليتميز الخبيث من الطيب ويقال زيادة على ذلك لزيادة التقريع (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) ولا تطيعوه في عبادة الأصنام (إنه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ؟) فلم خالفتم أمري وأطعتم الشيطان اللئيم (ولقد أضل منكم جِبِلاّ كثيرا) والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام أصله جبلل كزبرج الجماعة العظيمة أو الأمة (أفلم تكونوا تعقلون ؟) أبعد أن علمتم بآثار عقوباتهم الناشئة عن إضلاله لهم ما كنتم تعقلون أن إطاعته شرّ لكم في الدارين • (هذه) أي ما أمام أعينكم (جهنم التي كنتم توعدون) بدخولها على ألسنة الرسل المنذرين (إصلوها اليوم) أدخلوها اليوم (بما كنتم تكفرون) بالأمس (اليوم نختم على أفواههم) ونمنعهم عن التكلم لئلا يأتي بالباطل على وجه الجدال (وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) فلا يبقى مقام شبهة لأي عاقل منصف في جرائمهم والاكتفاء بشهادة الأيدي والأرجل في مقام لا ينافي وجود شهادة

السمع والابصار والجلود بما كانوا يعملون في مقام آخر ، ويجوز أن تكون هناك شهادات أخرى من أعضاء أخر ومن غيرها لزيادة الخزي وتوفيره عليهم.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟!(٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يرجعونَ(٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ(٦٨) وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي لَه ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ(٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)(٧٠)

وقوله تعالى : (وَلَو نشاء لطمسنا) تهديد للمشركين بأنهم اليوم في قبضة قدرتنا ونقدر أن نسلبهم حواسهم ومشاعرهم والطمس : إزالة الأثر بالإمحاء أي لو نشاء الطمس على أعينهم وإزالة صنوفها لفعلنا فعموا (فاستبقوا الصراط) أي فأرادوا الإستبقاء الى الطريق (فأنى يبصرون) وهم عُمْي (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم) أي لحولنا صورهم الى صور أخرى قبيحة مغايرة بالنوع بأن نجعل الإنسان حيوانا آخر ، أو بالصنف بأن نجعل اللون الأبيض أسمر أو أسود . وقوله (على مكانتهم) أي على مقامهم الذي فيه ، أو على مكانتهم وشرفهم الذي هم عليه بأن نغير صورة الإنسان الشريف الى صورة حيوان رديء (فما استطاعوا) بواسطة المانع العارض (مضيا) أي ذهابا إلى مقاصدهم (ولا يرجعون) إلى أماكنهم لو جرى ذلك عليهم وهم خارجون على الموطن والمقام ، وما دامت هذه الأحوال داخلة في قبضة قدرتنا فكيف يستمرون على المعاندة معنا ومع رسولنا ، أفلا يتنبهون ؟

(ومن نعمره ننكسه في الخلق) ومن نطل عمره ننقص ونغير في أعضائه وأعصابه ودمه ولحمه بحيث تنقلب ألف القامة نونا، والرجل العاقل العارف مخبلا مجنونا ، (أفلا يعقلون ؟) أن من قدر على التصرف في هيكل الانسان بالزيادة والنقصان قدر على طمس الأعين والمسح على المكانة ، فما بالهم لا يرجعون إلى الطاعة ولا يؤمنون ؟ وكيف ترمون الرسول الجليل بالشاعر وكتابه الجميل بالشعر (وما علمناه الشعر) لا سليقة ولا اكتسابا (وما ينبغي) الشعر وصياغته وقراءته وصنعته (له) لأنه غالباً يدور حول الشهوات النفسية والخطابات القصصية والهجاء والمدائح المبالغ فيها حسب النزعات الوطنية والجنسية ، وهو رسول أرسل لتخلية النفوس عن الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، وإبعادها عن جهات النقص وتقريبها إلى جناب القدس. (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أي ما القرآن إلا ذكر يذكر به المكلفون وينتفع به المؤمنون ، وقرآن منزل من الله جامع لأحكامه الاصلية والفرعية واضح مبين (لينذر من كان حيا) في الشعور ومحبا للنور وقابلا للدستور (ويحق القول على الكافرين) .

(أو لم يَرَوا أنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ ؟(٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ(٧٢) وَلَهُمْ فيهَا مَنافِعُ وَمَشارِبُ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟(٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ(٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ،وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ(٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، اِنَّا نَعْلَمُ مايُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ)(٧٦)

قوله تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم) أي أو لم يتفكروا ولم يعلموا (أنا خلقنا لهم) أي لأجل انتفاعهم (مما عملت أيدينا) أي مما خلقناه بقدرتنا الشاملة (أنعاما) والمراد بالأنعام الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز (فهم لها مالكون ؟) أي متملكون لها (وذللناها لهم) أي وجعلناها مذللة مسخرة لهم لانتفاعهم بها بالركوب في الأسفار للتجارات وغيرها، والاستفادة من أحمالها وأشعارها وألبانها وأوبارها وأدهانها ولحومها كما قال تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟) الله الذي أولاهم هذه النعم العظام ، وإذ لا يشكرون نعماءه فَلِماذا يُشرِكُونَ به ؟ (واتخذوا من دون الله آلهة) أي لا لجلب خير نافع ، ولا دفع شر وارد ، بل ليستمروا على قضاء شهواتهم بطرقها المتنوعة ، وإذا قضوا أعمارهم وجدوا عالما آخر وأحاط بهم جزاء سيىء لأعمالهم السيئة (لعلهم ينصرون) أو أنهم إذا أصابتهم مصائب دنيوية ينصرون من جانبهم ، ولا يعلمون أنهم (لا يستطيعون نصرهم ، وهم) أي هؤلاء المشركون (لهم) أي لحراسة تلك الهياكل الجامدة (جند محضرون) من قبل الشيطان وأعوانه من الجن والإنس ، ومنها قوى الرذائل الفاسدة المفسدة (فلا يحزنك قولهم) إنه مجنون ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو شاعر، فإن الناقد البصير يعلم أن إنساناً مثلك بعيد من تلك الرذائل وسعيد بالاتصاف بالفضايل • ومن جهة أخرى (إنا نعلم مايسرون) من العقائد الفاسدة ، ومن معاندتهم لك ولكتابك وأصحابك (وما يعلنون) بين الأنام من الاقوال والافعال المخالفة ، ولا شك أنهم لا يفوتوننا ويرون الجزاء الموافق في عالم الجزاء •

(أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ؟(٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ :

مَنْ يُحْيِ العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨) قُل : يُحْيِيها الَّذِي أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(٨٠) أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى وهُو الْخَلاَّق العَلِيمُ(٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَه كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) فسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٨٣)

قوله تعالى (أو لم ير الإنسان) إستئناف لبيان حال من أحوالهم الفاسدة، وهي أفسد مما بينه آنفا بين هناك أن الإنسان الكافر المشرك يشرك بربه مع إفاضة النعم عليه ، وبين هنا أنه نسي خلقه وأنكر بعثه يوم القيامة فيقول (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) فجعلنا فيها صورة إنسان وأعضاءه الكاملة ، وروحا مدركة للحقائق ، وصفات بها قابلية التطور والوصول الىأعلى مدارج الرقي والكرامة، ومعهذه الآثار العجيبة الناشئة من قدرتنا نسي كل ذلك (فإذا هو خصيم) أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل (مبين ؟) ظاهر (وضرب لنا مثلا) وأورد في شأننا قصة عجيبة تشبه المثل في الغرابة هي إنكار إحيائنا له بعد موته (ونسي خلقه) الأولي من جانبنا و (قال : من يحي العظام وهي رميم ؟) ممزق مفتت ، لم يقل رميمة لحمله على فعيل بمعنى مفعول ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث (قل) يا حبيبي تبيكتا له بتذكير مانسيه (يحيها) أي تلك العظام الرميم الخالق القادر (الذي أنشأها أول مرة) أي بادىء بدء عندما لم يسبقه شيىء من الوجود (وهو بكل خلق) أي مخلوق (عليم) واسع العلم يعلم جميع أجزائه المفتتة لكل شخص من الأشخاص (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا)

وهو صفة للشجر وقرىء الخضراء . وأهل الحجاز يؤنثون الجنس المميز واحده بالتاء مثل الشجر إذ يقال في واحده شجرة . وأهل نجد يذكرونه . والمشهور أن المراد بهذا الشجر المَرْخُ والعَفارُ يتخذ من المرخ وهو الذكر الزند الأعلى ، ومن العفار بفتح العين وهو أنثى الزندة السفلى ويسحق الأول على الثاني وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتنقدح النار بإذن الله (فإذا أنتم منه توقدون) أي فاذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون النار في الواقع .

ثم انتقل الباري سبحانه وتعالى إلى الاستدلال بخلق شيىء لا يكون للإنسان قيمة بالنسبة إليه أعني السماوات والأرض وقال : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى) هو قادر ، وبلى جواب للنفي فتفيد الإثبات أي هو قادر على ذلك (وهو الخلاق) المبالغ في الخلق لكل مايريد أن يخلقه (العليم) الوافر العلم بكل شيىء (إنما أمره) أي شأنه تعالى (إذا أراد شيئا) أي أراد إيجاده (أن يقول له) أي لذاته في حضرة العلم (كن) أيها الموجود بالوجود العلمي عينا خارجيا عينيا (فيكون) أي فهو يكون موجودا عينيا تترتب عليه الآثار (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيىء) أي الملك التام والتصرف الكامل في كل شيىء بالإيجاد والإعدام، والإيجاب والسلب (وإليه ترجعون) أي الفاهسون لخطاب الحق جل جلاله . وفي ذلك وعيد للمجرمين المبعدين ووعد للمؤمنين المقربين . قربنا الله تعالى منه بفضله وكرمه إنه ارحم الراحمين .

سورة الصافات ، مكية وهي مائة واثنتان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالصَّافَّاتِ صَفّاً(١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً(٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً(٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ(٤) ربُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا وربُّ الْمَشَارِقِ(٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ(٦) وحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلى المَلأِ الأَعْلى ، ويُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)(١٠)

قوله تعالى (والصافات صفا) إقسامٌ من الله سبحانه وتعالى بالملائكة ـ عليهم السلام أي أقسم بالملائكة (الصافات) في مقامها المعين صفا (فالزاجرات زجرا) أي الملائكة الزاجرات الفاعلات للزجر فيما نيط بها زجره من الأجرام العلوية او السفلية ، ففي السماء للشياطين المسترقات ، وفي الارض لمن أراد إلقاء الفتن بين عباد الله تعالى بإلقاء الملائكة المخاوف الى قلوبهم . وقيل : المراد بالزاجرات آيات القرآن لزجرها النفوس عن المنهيات الشرعية

(فالتاليات ذكرا) أي أقسم بالملائكة التاليات للذكر أي آيات الوحي على قلوب الرسل ـ عليهم السلام ـ • أو الملائكة التاليات لذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد والتقديس وغيرها لقوله تعالى في آخر هذه السورة (وإنا لنحن المسبحون) وجواب القسم قوله تعالى (إن إلهكم لواحد) ولا شريك له ذاتا ولا صفة ولا فعلا وذلك (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وهي المطالع المتعددة للشمس في أيام السنة فإنها في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب ، فالإله القادر على خلق السماوات والارض وما بينهما والمحرك للشمس كل يوم من درجة لا يقبل وجود الشريك لأن ذلك الخالق واجب الوجود ، ووجوب الوجود منبع كل كمال ولا يحتاج إلى غيره أبدا • وليست قدرتنا منحصرة في إبداع ما مر بل لها تعلقات أخرى •

(إنا زينا السماء الدنيا) أي أقرب السماوات من أهل الأرض (بزينة) تقرأ غير منونة بالإضافة إلى (الكواكب) إضافة بيانية وبالتنوين على أن تكون الكواكب بدلا منها • وقوله (وحفظا) نصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف معطوف على زينا أي وحفظناها حفظا (من كل شيطان مارد) أي متعرّ عن الخير وقوله (لا يسمعون) بتشديد السين والميم جملة مستأنفة بيان لأحوال تلك الشياطين المرَدَة أي لا يستمعون (إلى) كلام (الملأ الأعلى) بعد حفظ السماء عنهم ، والملأ الأعلى أشراف الملائكة المختصون بجهة العلو في مقابل ملائكة الأرض المختصين بها للوفاء بمأموريتهم هناك (ويقذفون) أي يُرْمَون ويرجمون أي أولئك الشياطين (من كل جانب) من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها وقوله (دحورا) مفعول له يقذفون لدحرهم وطردهم وإبعادهم منها (ولهم) في الآخرة (عذاب واصب) أي ولتلك الشياطين في الآخرة عذاب دائم (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب)

استثناء متصل من فاعل يسمعون ، أي إلا من اختلس كلام الملائكة مسارقة فتبعه شهاب أي مادّة نارية مضيئة فتحرقه وهو في الأصل الشعلة الساطعة من النّار .

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً . أمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ(١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ(١٢) وإذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ(١٣) وإذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤) وقالُوا : إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ(١٥) أَئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُرَاباً وعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟(١٦) أَوَ آباؤُنا الأَوَّلُونَ ؟(١٧) قُلْ : **نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخرون(١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ** فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ(١٩) وقالُوا : يا وَيْلَنَا هذا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هذا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ؟(٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزْواجَهُمْ وَما كَانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إلى صِرَاطِ الجَحِيمِ(٢٣) وَقِفُوهُمْ إنَّهُمْ مَسْئُولُونَ(٢٤) ما لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ؟(٢٥) بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ(٢٦) وأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَساءَلونَ(٢٧) قالُوا : إنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليَمِينِ(٢٨) قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونوا مُؤْمِنِينَ(٢٩) وما كانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ؛ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ(٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنَا إنَّا لذائِقُونَ(٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إنَّا كُنَّا غاوِينَ(٣٢) فَإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)(٣٣)

قوله تعالى (فاستفتهم) الاستفتاء في الأصل الاستخبار عن أمر حدث • والآية نزلت في أبي الأشَدّ بن كلدة الجمحي وكني بتلك الكنية لشدة بطشه وقوته ، واسمه أسيِّد • والفاء فصيحة • أي إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت فاستفتهم أي مشركي مكة واستخبرهم (أهم أشَدّ خلقا) أي أقوى جسما وبنية (أم من خلقنا) من السماوات والأرض وغيرها (إنا خلقناهم) أي أولئك الناس المشركين (من طين لازب) أي ملتصق بعضه ببعض التصاقا قويا •

قال الطبري : خلق آدم ـ عليه السلام ـ من تراب وماء وهواء ونار • وهذا كله إذا خُلِّط صار طينا لازبا يلزم ما جاوره • واللازب قريب من اللازم •

(بل) إضراب عن عدم إقرارهم بالله • أي أضرب عن ذلك فإنه ليس بمهم وانظر إلى أنك (عجبت) من إنكارهم للبعث (ويسخرون) بتعجبك من ذلك يعنى أنهم لا يعترفون بمنزلة ومقام للرسول ولتبليغاته ودائما في حال العناد والاستكبار والسخرية بأقوال الرسول وأفعاله (وإذا ذكروا) بالله وأرشدوا إلى معرفة الله تعالى وتوحيده (لا يذكرون) أي لا يتعظون (وإذا رأو آية) أي معجزة تدل على صدقك (يستسخرون) أي يبالغون في السخرية ويحقرونها ويشوهونها أمام الناس حتى لا يجعلوها ذريعة للإيمان (وقالوا) في ردها (إن هذا إلا سحر مبين) أي سحريته واضحة جلية (أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أي صرنا أجزاء مختلطة من تراب وعظامٍ مُفَتّتَةٍ (أإنّا لَمَبْعُوثون ! أو آباؤنا الأولون ؟) أي مبعوثون (قل نعم) تبعثون أنتم وآباؤكم الأولون (وانتم داخرون) أي صاغرون أذلاء تحت قدرة الصانع المقتدر الحكيم (فإنما هي زجرة واحدة) أي وليس ذلك الأمر من البعث شيئا بعيدا عن قدرتنا فإنما تلك البعثة والنشور من القبور إثر

زجرة واحدة أي نفخة واحدة هي النفخة الثانية (فإذا هم قيام ينظرون) أي ينظر بعضهم الى بعض أو ينتظرون ما يفعل بهم بعد البعث •

(وقالوا : يا ويلنا هذا يوم الدين) أي يوم جزاء الأعمال (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) وهذا تتمة كلام المبعوثين بعضهم لبعض أي هذا يوم فصل القضاء الذي كنتم لا تعترفون به ، فيخاطب الباري سبحانه وتعالى ملائكته المأمورين هناك ويقول الباري للملائكة (احشروا الذين ظلموا) أي أشركوا بالله (وأزواجهم) أي وأمثالهم من المشركين أو أزواجهم اللاتي عاشروهن ووافقنهم في الإشراك (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الأصنام (وقفوهم) أي احبسوهم في الموقف (إنهم مسئولون) وفي الحديث الشريف : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن شبابه فيم ابلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله مم كسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به » (مالكم لا تناصرون ؟ أي ويقال لهم من جهة الملائكة المأمورين: مالكم لا ينصر بعضكم بعضا (بل هم اليوم مستسلمون) أي أعرض عن سؤالهم لم لا ينصر بعضكم بعضا فإنهم في ذلك اليوم أذلاء منقادون لحكم الله تعالى وعاجزون غاية العجز فلا مجال لذلك السؤال •

(وأقبل) بعضهم وهم المشركون الضعفاء (على بعض) وهم المشركون الكبراء (يتساءلون) يسأل بعضهم الأولون عن بعضهم الآخرين قالوا لهم (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أي عن جهة القوة والرئاسة وتتكلمون معنا لصدنا عن الإيمان بالله ورسوله (قالوا) أي الكبراء جوابا لهم (بل لم تكونوا مؤمنين) في حد ذاتكم (وما كان لنا عليكم من سلطان) وقوة وتسلط عليكم حتى نسلبكم الاختيار ونجبركم على الكفر (بل كنتم قوما طاغين) اضرب عن عدم تسلطنا عليهم فإنكم في ذاتكم كنتم قوما طاغين مجاوزين الحد في العصيان : وكنتم اخترتم الكفر بطغيانكم (فحق علينا

قول ربنا) أي فثبت علينا قول ربنا في حقنا بدخولنا جهنم ، أو قوله الذي خاطب به إبليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك فلابد لنا من العذاب (إنا لذائقون) العذاب (فأغويناكم إنا كنا غاوين) أي والحقيقة إنا تكلمنا معكم ودعوناكم إلى الغواية لأنا كنا غاوين ، والغاوي يحب غواية الناس كلهم حتى تزداد زمرته (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) لاشتراكهم في أس الفساد وهو العناد مع صاحب الرشاد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ(٣٤) إِنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إله إلا اللهُ يَسْتَكْبِرونَ(٣٥) ويَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونَ ؟(٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ(٣٧) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الأَلِيمِ(٣٨) ومَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٣٩) إِلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ(٤٠) أولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ(٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(٤٤) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ(٤٧) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ(٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)(٥٠)

قوله تعالى (إنا كذلك) أي إنا مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة (نفعل بالمجرمين) أي بالمشركين (إنهمْ كانُو إذا قيلَ لَهُمْ لا إله إلا الله يَسْتكبرون) أي إنهم كانوا يستكبرون ويستنكفون عن توحيد الباري سبحانه وتعالى (ويقولون أإنا لَتارِكُوا آلِهَتنا لِشاعِر مجنون) أي إنه

لسرد عبارة كتابه المكنون بكل لطافة بحيث تجلب قلوب الناس إليه لا شك شاعر ولاختلال كلامه لخرقه نظام عبادة الأصنام لمجنون ، (بل) اضربوا عن تلك التهم الباطلة فإنه (جاء) بأمر الله ورسالته متلبسا (بالحق) من النبوة والرسالة (وصدق المرسلين) السابقين عليه من أبيه آدم إلى أن يصل عيسى ـ عليهم السلام ـ • ثم التفت الحق سبحانه إلى المشركين المعاندين وقال لهم : (إنكم لذائقوا العذاب الأليم) لاستكبارکم ومعاندتكم الرسول الرءوف الرحيم (وماتجزون إلا ما كنتم تعملون) ولا يزاد على ما تستحقونه مثقالَ ذرة • وقوله (إلاّ عبادَ الله المخلصين) استثناء من فاعل ذائقوا ، وما بينهما اعتراض ، والاستثناء منقطع ، لأن العباد المخلصين ليسوا داخلين في المشركين الذائقين للعذاب الأليم أي فإنهم لا يذوقون العذاب لوجود الإيمان والإخلاص فيهم (أولئك) العباد المخلصون (لهم رزق معلوم) من الله تعالى (فواكه) بدل من رزق ، والمراد بها مايؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات ، وكذلك جميع ما يأكله أهل الجنة وكذا جميع ما يشربونه ليس إلا للتلذذ ، فإنه لا جوع ولا عطش فيها (وهم مكرمون) عند الله تعالى لا يلحقهم هوان (في جنات النعيم) أي في جنات لا تضاف إلاّ إلى النعيم (على سرر) اي وهم على سرر وقوله (متقابلين) حال من المستكن عن المرفوع المستتر في مكرمون أي ويقابل بعضهم بعضا للتلذذ بالمواجهة الكاملة (يطاف عليهم بكأس) أي بخمر (من معين) اي من منبع ظاهر للعيون (بيضاء) كالفضة أشد بياضا من اللبن (لذة للشاربين) وكفى بحمل المصدر على المسند إليه مبالغةً (لا فيها غول) أي غائلة من أي نوع من الأضرار الواردة من شربها على الإنسان (ولا هُمْ عنها ينزفون) أي ولا هم يسكرون وتذهب عقولهم من أجل شربها • وأصل النزف نزع الشيىء وإذهابه وإفناؤه (وعندهم قاصرات الطرف عين) أي وعندهم أزواج من حور قصرن البصر على النظر إلى

أزواجهن محبة لهم وجذبا لقلوبهم إلى أنفسهن وهن بيض ، وعين جمع عيناء وهي الواسعة العين ، وجمعت على فُعْلٍ بوزن قُفلٍ فكُسِرَت العينُ لمناسبة العَين (كأنهن بيض مكنون) البيض معروف وواحده بيضة ، والمكنون المستور بالريش لم يصبه غُبار (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أي يشربون فيتحادثون على الشرب كما هو عادة الناس المجتمعين المتمتعين ، وذلك التحادث والتواجه ألذ من الشرب •

(قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : إنّي كانَ لي قَرِينٌ(٥١) يقول : أإنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ ؟(٥٢) أإذَا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ؟ (٥٣) قالَ : هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ ؟(٥٤) فاطَّلَعَ فَرَآهُ في سَواءِ الْجَحِيمِ(٥٥) قالَ : تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(٥٦) ولَوْلا نِعْمَةُ ربِّي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ(٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨) إلاَّ مَوْتَتَنا الأُولى، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟(٥٩) إنَّ هذَا لَهُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ(٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ(٦١) أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إنَّا جَعَلْنَاها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(٦٣) إنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجَحِيمِ(٦٤) طلْعُهَا كأَنَّه رءوسُ الشَّياطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلونَ مِنْها فمالِئُونَ مِنها البُطونَ(٦٦) ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ(٦٧) ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلى الْجَحِيمِ(٦٨) إنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ(٦٩) فَهُمْ على آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ(٧٠) ولَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأوَّلِينَ(٧١) ولَقَدْ

أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إلاّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)(٧٤)

قوله تعالى (قال قائل منهم) أي قال قائل من أصحاب الجنة المتقابلين أثناء المحاورات (إني كان لي قرين) أي في الدنيا (يقول) على طريق الاستنكار بما كنت عليه من الإيمان : (أإنك لمن المصدقين) بالبعث والنشور (أئذا مِتنا وكنا تُراباً وعظاماً أئنا لمدينون ؟) أي لمجزيون أي أئنا لمبعوثون للجزاء (قال) أي ذلك القائل لزملائه : (هل أنتم مطلعون ؟) أي على أهل النار للتفتيش عن ذلك القرين في الدنيا لعلنا نجده ؟ (فاطلع) أي على أهل النار (فرآه في سواء الجحيم) أي في وسطها (قال) هذا المطلع لقرينه : (تالله إن كدتَ لَتُرْدين) أي إنه كاد أن تهلكني في الدنيا بأن أكفر بالله مماشاة معك فأدخل في عذاب السعير (ولولا نعمة ربي) ورحمته (لكنت من المحضرين) للعذاب في المعذبين ، ثم رجع الى كلامه مع جلسائه في الجنة ، وقال (أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ؟) أي هل لسنا بميتين إلا موتتنا الأولى عند إتيان الأجل (وما نحن بمعذبين ؟) أي بمبعوثين للحساب والعذاب حسب الاستحقاق (إن هذا لهو الفوز العظيم) أي إن هذا النعيم الحاصل في الجنة واستقرارنا على كراسي متقابلين لهو الفوز العظيم و (لمثل هذا) الفوز (فليعمل العاملون) .

(أ ذلك خير نزلا) أهذا النعيم خير من جهة كونه معدا لأهل الجنة (أم شجرة الزقوم) وهذا من كلامه تعالى (إنا جعلناها فتنة للظالمين) أي محنة وعذابا لهم في الآخرة ، أو جعلناها من أسباب الفتنة والضلال للظالمين المشركين المستسخرين بها والمنكرين لها (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم) أي في قعر نار جهنم (طلعها) أي ثمرها (كأنه رءوس الشياطين) أي في قبح المنظر . والعرب تشبه الشيىء القبيح بالشيطان أو

وجهه أو رأسه (فإنهم) أهل النار (لآكلون منها) أي من ثمرها (فمالئون منها البطون) لغلبة الجوع أو لإجبارهم على أكلها (ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) أي لشرابا ممزوجا بماء شديد الحرارة (ثم إن مرجعهم) بعد الأكل والشرب (لإلى الجحيم) أي يعادون بل يساقون اليها إجبارا وسر ذلك ما في قوله تعالى (إنهم ألفوا آباءهم) في الدنيا (ضالين) فأعجبهم ضلالهم وفساد أحوالهم (فهم على آثارهم يهرعون) أي يسرعون (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) من الأمم (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أي رسلا منذرين لهم من عذاب يوم القيامة (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ؟) من العذاب الشديد (إلا عباد الله المخلصين) أي الذين أخلصوا دينهم لله ، وهذا الاستثناء كالسابق منقطع لمثل ما تقدم هناك .

(وَلَقَدْ نادينا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ونجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ على نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) اِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) اِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنا الآخَرِينَ)(٨٢)

قوله تعالى : (ولقد نادينا نوح) شروع في تفصيل ما أجمله قبلُ ، أي ولقد دعانا حينَ أيسَ مِنْ قومِهِ (فلنعم المجيبون) أي فأجبناه أحسن الاجابة:فوالله لنعم المجيبون نحن.(ونجيناهوأهله منالكربالعظيم) وأهله من آمن به، والكرب الغم الشديد وهو الغرق هنا (وجعلنا ذريته هم الباقين) حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . وروي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث . وهذا هو المعتمد . وقيل : كان لغير ولد نوح أيضا

نسل (وتركنا عليه في الآخرين) أي وأبقينا عليه ثناء حسنا في الآخرين من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة (سلام على نوح في العالمين) أي سلام من الله وارد على نوح في مابين العالمين ، أو سلام على نوح وذلك السلام مستقر في العالمين من الملائكة والإنس والجن ، أي كل من آمن وأسلم يسلم عليه ويدعو له (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي مثل ذلك الجزاء الكامل نجزي الكاملين في الإحسان بعبادة الله والدعوة إليه والصبر على أذى أعداء الدين . وقوله إنه كان من عبادنا المؤمنين تعليل لكونه من المحسنين . وقوله تعالى (ثم أغرقنا الآخرين) كلمة ثم للتراخي الذكري لأن إغراق من لم يؤمن به كان قبل بقائه ـ عليه السلام ـ مع من معه .

(وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ(٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : مَاذَا تَعْبُدُونَ(٨٥) أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ(٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العَالَمِينَ ؟(٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ(٨٨) فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ(٨٩) فَتَوَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ(٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِم فَقَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟(٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟(٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ(٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ(٩٤) قَالَ : أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ !؟(٩٦) قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ(٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ(٩٨) وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ

أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى ؟ قالَ : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُني إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحقَ نَبِيّاً مِنَ الصّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحقَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ)(١١٣)

قوله تعالى (وإن من شيعته لإبراهيم) أي وإن ممن شايع نوحا وتابعه في أصل الدين لإبراهيم أو ممن شايعه في التصلب في الدين ومصابرة المكذبين ، وكان بينهما ألف ومائة واثنتان وأربعون سنة • وقيل ألفان وستمائة وأربعون سنة وبينهما هود وصالح (إذ جاء ربه بقلب سليم) أي سالم من آفات الارتباط بالغير والعلائق الدنيوية والظرف منصوب باذكر وقوله (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟) بدل من إذ الأولى (أئفكا آلهة دون الله تريدون ؟) أي أتريدون آلهة من دون الله إفكا وكذبا (فما ظنكم برب العالمين ؟) أي أيّ شيىء ظنكم بالله رب العالمين ؟ وكيف تتركون هذا الرب المؤثر والمربى في عالم الوجود (فنظر نظرة في النجوم) أي فتأمل نوعا من التأمل في أحوالها وهو على طراز تأمل الكاملين في خلق السماوات والارض ليعتبر بها ويجعلها أدلة على وجود الباري تعالى (فقال إني سقيم) أي وأراهم أن نظره إلى النجوم لم يكن للاستدلال على وجود الباري تعالى ووحدته ، وإنما كان لمعرفة حاله من الصحة والسقم وأنه ظهر له أنه

سقيم ، وذلك لأنه أراد أن لا يأخذوه معه إلى عيدهم الرسمي (فتولوا عنه مدبرين) أي أعرضوا عنه وتركوا قربه .

(فراغ إلى آلهتهم) أي ولما تركوه وبقي وحده راح وذهب الى آلهتهم (فقال) لهم (ألا تأكلون ؟) أي من الطعام الذي عندكم وكان المشركون يضعون في أيام أعيادهم طعاما لدى الاصنام للتبرك عليه ثم قال لهم (ما لكم لا تنطقون) بجوابي (فراغ عليهم ضربا باليمين) أي فمال عليهم بالضرب وضربهم ضرباً باليمين أي باليد اليمنى بالقوة (فأقبلوا إليه يزفون) أي يسرعون .

(قال) إبراهيم ـ عليه السلام ـ لهم (أتعبدون ما تنحتون) أي أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم (والله خلقكم وما تعملون) أي وماتعبدون الله الذي خلقكم وعملكم فهل هذا المعمول الذي خرج من أيديكم يليق بأن يعبد ؟ أم ذلك الإله الذي خلقكم وخلق أعمالكم ومن جملتها الاصنام التي تركبونها بالنحت والربط ، ولما نازعهم في عبادة الاصنام ووصل الكلام بينهم الى ذلك المقام (قالوا : ابنوا له بنيانا) أي حائطا توقدون عليه النار أو منجنيقا ترمونه به إلى جهنم (فألقوه في الجحيم) أي في النار التي لشدة لهيبها كأنها الجحيم (فأرادوا به كيدا) أي سوء وهو التعذيب بالنار وإهلاكه بها (فجعلناهم الأسفلين) الأذلين وذلك بنجاة إبراهيم وإهلاك أولئك المتمردين .

ولما نجيناه من ذلك الجحيم (قال إني ذاهب الى ربي) أي الى حيث أمرني ربي (سيهدين) الى مافيه صلاح العباد (رب هب لي من الصالحين) أي ولماذهب الى تلك الدار التي أرادها واستقر عند ذلك قال لله سبحانه : رب هب لي من الصالحين قرة عين لي ولوالدته (فبشرناه بغلام حليم) وهو إسماعيل ـ عليه السلام ـ (فلما بلغ معه السعي) أي فوهبناه له فنشأ نشأة

حسنة ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وأعماله (قال) إبراهيم (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) ورؤيا الانبياء حق واجب التطبيق (فانظر ماذا ترى ؟) من الرأي هل توافقني فيه أولا ؟ (قال) اسماعيل في جوابه (يا أبت افعل ما تؤمر) أي الذي تؤمر به (ستجدني إن شاء الله من الصابرين) أي على قضاء الله تعالى ذبحا كان أو غيره (فلما أسلما) أي استسلم إبراهيم وإسماعيل لأمر الله (وتلّه للجبين) أي وصرعه على شقه فوقع جبينه على الارض • وأصل التل الرمي على التل ، وهو التراب المجتمع ، ثم عمم في كل صرعٍ ، والجبين أحد جانبي الجبهة •

(وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) بالعزم ومباشرة مقدمات المقصود • وقيل : انه أمرّ السكين بقوته على حلقه مرارا ولم يقطعه • وجواب لما محذوف أي كان ما كان من الفدية واستبشارهما بفضل الله ورحمته • وقوله تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين) إستئناف وتعليل لإفراج تلك الشدة • وقوله تعالى (إن هذا لهو البلاء المبين) كأنه بيان لإحسانه حيث أدى ما كان عليه من تطبيق الرؤيا ، ولكن الله بدله بما شاء كما قال تعالى : (وفديناه بذبح عظيم) أي بحيوان يذبح بدله وهو عظيم الجثة وسمين وكان كبشا أبيض أقرنَ أعْين ، أو عظيم القدر حيث كان مختصا بجانب الغيب والقدس ومددا في حالة الشدة • وعن الحسن أنه وَعَلٌ أهبط عن جبل ثبير • (وتركنا عليه في الآخرين) أي وأبقينا عليه الثناء في الناس الآتين في الجيل الآخرين والمقصود استمرار الثناء عليه في الدنيا (سلام على إبراهيم) من الله العلي العظيم (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء المادي والمعنوي (نجزي المحسنين • إنه من عبادنا المؤمنين) إيمانا كاملا واصلا درجة الحق واليقين •

(وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) أي من كبارهم (وباركنا عليه وعلى إسحق) أي أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وجعلنا في أعقابهما دعوة الثقلين الى الله رب العالمين. هذا جناح إسماعيل الواصل الى خاتم الانبياء والمرسلين محمد المبعوث الى الجن والإنس رحمة للعالمين . وذلك إسحاق ويعقوب والأسباط ، ومنهم موسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى وسائر الانبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ .

(ومن ذريتهما مُحْسِنٌ وظالمٌ لنفسهِ مُبين) المحسن مع النفس بالإيمان والاعمال الصالحة والأخلاق الحسنة ومع غيره بالأخيرين ، والظالم بالكفر والاعمال السيئة والاخلاق السافلة ظاهر خيره وشره وأحسن المحاسن الخير الساري وأسوأ المساوىء الشر الساري وما بينهما على تفاوت الدرجات .

(وَلَقَدْ مَنَنَّا على مُوسى وهرون(١١٤) ونَجَّيْنَاهُما وقوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ العَظِيمِ(١١٥) ونَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ(١١٦) وآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ(١١٧) وهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ(١١٩) سَلامٌ عَلَى مُوسَى وهرون(١٢٠) إنا كذلِكَ نجزِي الْمُحْسِنِينَ(١٢١) إنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ)(١٢٢)

قوله (ولقد مننا على موسى وهرون) قدم ذكرهما على من بعدهما لمناسبتهما مع من سبق في الابتلاء بمعاندة الجبابرة العظام . وقد عد موسى ـ عليه السلام ـ من الرسل أولي العزم ، وهم خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم السلام ـ . فيقول الباري تعالى مؤكدا : (ولقد مننا على موسى وهرون) أي بالنبوة والرسالة والانتصار

على الجبار وإنجاء قومهما من عذاب الأشرار كما قال سبحانه وتعالى (ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم) في الدين وهو الدعوة الى ألوهية فرعون ، وفي الدنيا وهو ذبح البنين وترك البنات وتركهن كخادمات (ونَصَرناهُمْ) أي موسى وهرون وقومهما (فكانوا هم الغالبين) على فرعون بذلك النصر والعون (وآتيناهما الكتاب المستبين) البالغ أحسن درجات البيان (وهديناهما الصراط المستقيم) الواصل إلى الله الواحد الأحد الصمد العظيم (وتركنا عليهما في الآخرين) كما تقدم (سلام على موسى وهرون • إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين) •

(وإن إلياسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ (١٢٣) اِذ قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ ؟(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالِقِينَ ؟(١٢٥) اللهَ رَبَّكُمْ ورَبَّ آبائِكُمُ الأَولِينَ (١٢٦) فكذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ (١٢٧) إلاَّ عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ على إلْ ياسِينَ (١٣٠) إنَّا كذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ (١٣١) اِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُؤمِنِينَ (١٣٢) وَإنَّ لُوطاً لَمِنَ المُرْسَلِينَ (١٣٣) إذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنا الآخَرِينَ (١٣٦) وإنَّكُمْ لَتَمرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وبِاللَّيْلِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ)(١٣٨)

قوله تعالى (وإن إلياس لمن المرسلين) قال الطبري : هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزاز بن هارون أخي موسى ـ عليهم السلام ـ (إذ قال لقومه) وهم سبط من بني إسرائيل أسكنهم يوشع لما فتح الشام المدينة المعروفة ببعلبك ، وبعل اسم صنم لهم (ألا تتقون ؟) عذاب الله

(أتدعون بعلا) لقضاء حوائجكم (وتذرون أحسن الخالقين) أي أحسن وأقدر من كل من تتصورونه خالقا لأنه خالق بالحق ، وأولئك خالقون بالوهم (ألله ربكم) بالنصب على البدلية من أحسن (ورب آبائكم الأولين) إلهاً واحدا في العالمين (فكذبوه) فيما اقتضاه كلامه وهو أن لا إله إلا الله (فإنهم لمحضرون) في العذاب بسبب ذلك (إلا عباد الله المخلصين • وتركنا عليه) الثناء (في) القوم (الآخرين) (سلام على إلياسين • إنا كذلك نجزي المحسنين• إنه من عبادنا المؤمنين• وإن لوطا) ابن أخي إبراهيم ـ عليهما السلام ـ (لمن المرسلين) الى قرى سدوم في الاردن (إذ نجيناه وأهله أجمعين) من العذاب النازل على القوم الفاسقين (إلا عجوزا) هي زوجته كانت (في الغابرين) الفائتين (وإنكم لتمرون عليهم) في أسفاركم (مصبحين) داخلين في الصباح (وبالليل) أوله لأنه زمان السير (أفلا تعقلون ؟) أن تلك الديار أصابها الدمار من غضب الجبار على العصاة الأشرار •

(وإن يُونُسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ(١٣٩) إذ أَبَقَ إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدْحَضِينَ(١٤١) فالتَقَمَهُ الحُوتُ وهو مُلِيمٌ (١٤٢) فلولا أنَّهُ كان مِنَ المسبِّحِينَ(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاءِ وهُو سَقِيمٌ(١٤٥) وأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ(١٤٦) وأَرْسَلْنَاهُ إلىمِأةِ أَلْفٍ أَوْ يزِيدُونَ(١٤٧) فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ)(١٤٨)

قوله تعالى (وإن يونس لمن المرسلين) يروى أنه ـ عليه السلام ـ نبىء وهو ابن ثمان وعشرين سنة • واشتهر أنه ابن متي ، والأصح عند ابن حجر

أنه اسم أبيه • (إذ أبق) أي هرب وأصله الهرب من السيد ، وكان ـ عليه السلام ـ هرب من قومه بغير إذن ربه سبحانه وتعالى ، أي لم يصبر في ضيق صدره حتى ينزل عليه الوحي في أمره (إلى الفلك المشحون) أي المملوء (فساهم) فقارع ـ عليه السلام ـ الناس الذين فيه (فكان من المدحضين) أي المغلوبين في القرعة ، فألقوه في البحر (فالتقمه الحوت) أي ابتلعه (وهو مليم) أي يلوم نفسه على أن الهمزة للتعدية ، فأخذ يسبح ربه ويقول : لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين أو ما يؤدي معناه (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون) أي الى أن يموت ولا يبقى له لبث في الدنيا الى يوم يبعثون أي هو وغيره ، ولكنه سبح فأنجاه ربه كما قال تعالى (فنبذناه بالعراء) أي بالمكان الخالي عما يغطيه من الستار والاشجار (وهو سقيم) من الأذى وحرارة بطن الحوت وغير ذلك (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) أي أنبتناها مطلة عليه مظلة له كالخيمة وأرسلناه الى مأة ألف أو يزيدون ، أي فأمرناه وأكدنا إرساله الى قومه الذين أرسل إليهم (فآمنوا) هذه المرة (فمتعناهم) بالحياة ولم نهلكهم (إلى حين) الأجل المسمى • روي انه كان من بني اسرائيل ومن الساكنين في فلسطين ، فأرسل إلى أهل (نينوى) بالعراق ودعاهم الى التوحيد فلم يؤمنوا به فوعد قومه بالعذاب وخرج من بينهم قبل أن يأمر الله به، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: ههنا عبد آبق ، فخرجت القرعة عليه ، فقال : أنا الآبق ، ورمى بنفسه في الماء وروي في قصته غير هذا •

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلٰئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟(١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ اللّٰهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحكُمُونَ ؟(١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟(١٥٥) أَمْ لَكُم سُلْطانٌ مُبِينٌ ؟(١٥٦) فأْتوا بِكتابِكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٥٧) وَجَعَلوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إنَّهُمْ لَمُحضَرونَ(١٥٨) سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٥٩) إلاّ عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ(١٦٠) فإنَّكُمْ وماتَعْبُدُونَ(١٦١) ماأَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ(١٦٢) إلاّ مَنْ هُوَ صالِ الجَحيمِ(١٦٣) وما مِنَّا إلاّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ(١٦٤) وإنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) وإنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ(١٦٦) وَإنْ كانُوا لَيَقُولُونَ(١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ(١٦٨) لكُنَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ(١٦٩) فكفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(١٧٠)

قوله تعالى (فاستفتهم) معطوف على مثله في أول السورة • أمر الله رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث ، وأمره ثانيا بالاستفتاء عن وجه نفيهم للنسل بينهم وبين الله تعالى ، مع أنه بريء من قاعدة التناسل (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ثم لماذا اختاروا لأنفسهم البنين ولله تعالى البنات ؟ (أم خلقنا الملئكة إناثا) اي بل أخلقنا الملائكة إناثا حتى تجعل بنات الله مع أن الملائكة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، وليس وجودهم إلا بالأمر الإبداعي من الله سبحانه وتعالى وهل هم شاهدون على أنوثتهم ؟ وفي ذلك تجهيل لهم وتضليل (ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون) فيما يقولون (أصطفى البنات على البنين ؟) بهمزة مفتوحة استفهامية وحذف همزة الوصل للاستغناء عنها ، يعني هل اختار الباري تعالى البنات على البنين ؟ وماوجه اختياره لهن ؟ (مالكم كيف تحكمون ؟) بهذا الحكم الذي تقضي البداهة ببطلانه ؟ (أفلا تذكرون ؟) بطلان

ما تعتقدونه أو تتكلمون به (أم لكم سلطان مبين ؟) وبرهان مفيد لليقين بوجود كتاب منزل يحكم بذلك (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة ما تدعونه (إن كنتم صادقين) .

(وجعلوا بينه وبين الجنة) أي الشياطين (نسبا) أي علاقة انتساب بالمصاهرة ، حيث قالوا إن الله صاهر الجن وتزوج منهن وخرجت الملائكة إلى غير ذلك من الخرافات ... (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أي ولقد علمت الشياطين أن الله يحضرهم للعذاب في النار ، ولو كان بينهم وبينه علاقة ما عذبهم (سبحان الله عما يصفون) من المزاعم الباطلة من نسبة الاولاد اليه . (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من نائب فاعل محضرون ، ثم عاد الباري تعالى إلى خطابهم على سبيل الالتفات فقال (فانكم وما تعبدون ما انتم عليه) اي على الله (بفاتنين) اي بمفسدين وجاعلين في الفتنة (إلا من هو صال الجحيم) أي إلا من سبق في علمه تعالى أنه داخل في نار الجحيم ومعذب بها فيها (وما مِنّا إلا لَه مَقام معلوم) حكاية لاعتراف الملائكة بالعبودية لله تعالى للرد على من يزعم خلافها فيهم ، فهو من كلامه تعالى لكنه حكى بلفظهم ، وأصله وما منهم إلاّ لَهُ مقام معلوم ، وكذلك باقي الآيات على ميزان هذه الآية . ويجوز ان تكون الجنة المذكورة سابقا بمعنى الملائكة لاستتارهم عن الأعين ، فيكون المعنى : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا أي وجعل المشركون بين الله وبين الملائكة نسبا واتنسابا وعلاقة ، وزعموا أن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك (ولقد علمت الجنة) أي الملائكة (إنهم لمحضرون) أي إن المشركين لمحضرون للعذاب جزاء لهذه العقيدة الفاسدة والزعم المردود ويقولون (سبحان الله عما يصفون) أي عما يذكر المشركون من نسبة الولد إلى الله تعالى (إلا عباد الله المخلصين)

استثناء من نائب فاعل لمحضرون فإن المخلصين لا يحضرون للعذاب أو عن فاعل يصفون فإن العباد المخلصين لا يصفونه بذلك (فإنكم) أيها المشركون (وما تعبدون من دون الله ما أنتم عليه بفاتنين) أي مفسدين الناس عليه (إلا من هو صال الجحيم) أي من سبق في علمه أنه يدخلها. ثم عادوا للاعتراف بالعبودية وقالوا (وما منا إلا له مقام معلوم) أي وما منا أحد إلا له مقام معلوم في العبادة والطاعة والانتهاء إلى أمر الله في تدبير العالم ولا نستطيع الانحراف عنه (وانا لنحن الصافون) أنفسنا أو أقدامنا في أداء الطاعة (وإنا لنحن المسبحون) أي المنزهون لله تعالى عما لا يليق به .

وقد أخرج الترمذي وحسنه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطَّتْ وحَقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته ساجدا لله » .

وقوله تعالى (وإن كانوا ليقولون) إن هي المخففة ، واللام هي الفارقة ، والضمير لكفار قريش أي وإنهم كانوا يقولون قبل مبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لو أن عندنا ذكرا من الأولين) أي كتابا من جنس الكتب التي نزلت عليهم من عند الله (لكنا عباد الله المخلصين) مع أنه لما جاءهم كتاب كما وصفوا عاندوا كما قال تعالى (فكفروا به فسوف يعلمون) عاقبة كفرهم كيف يكون .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ(١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ(١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ(١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ

بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ(١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ(١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ(١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ(١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(١٨٢)

قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) أي وبالله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين (إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) في تحقيق النصر النهائي والدعوة إلى الله رب العالمين • (فتول عنهم) أي أعرض عن المشركين (واصبر حتى حين) إلى وقت انتهاء مدة الكف عن القتال (وأبصرهم) أي أنظر إليهم في ذلك الحين (فسوف يبصرون) ما يلقونه في وقته (أفبعذابنا يستعجلون) توبيخ لهم على استعجالهم للعذاب (فإذا نزل) أي العذاب (بساحتهم) أي بأطراف دورهم (فساء صباح المنذرين • فتول عنهم حتى حين • وأبصر فسوف يبصرون • سبحان ربك رب العزة) تنزيه لله العظيم (عن) كل (ما يصفون وسلام على المرسلين) تشريف لهم من أولهم إلى آخرهم (والحمد لله رب العالمين) في البداية والنهاية وبه العون والعناية •

سورة ص ، مكية ، وهي ثمان وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(ص وَالقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ(١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ(٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ ؟(٣) وعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقالَ الْكَافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ(٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ؟ إِنَّ هذا لشَيْءٌ عُجابٌ(٥) وانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ اَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا على آلِهَتِكُمْ ، اِنَّ هذا لَشيْءٌ يُرادُ(٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ ، اِنْ هذا اِلاَّ اختِلاقٌ(٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُمْ فِي شكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، **بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ(٨) اَمْ عِنْدَهُمْ** خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ ؟(٩) اَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ؟ فَلْيَرْتَقُوا فِي الاَسْبابِ(١٠) جُنْدٌ مَّا هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزابِ)(١١)

قوله (ص) هو بالسكون على الوقف عند الجمهور ، ومعناه مفوض إلى العليم الخبير (والقرآن ذي الذكر) الواو للقسم والمُقسَم عليه محذوف بقرينة الآية الآتية • أي والقرآنِ ذي الذكر إنكَ نذير" مبين ، وذي الذكر صفة للقرآن ، وإضافته تفيد القوة في إفادته الذكر بالمعنى الواسع أي إنه صاحب ذكر العقل وإدراكه للحقائق بمعنى أن من حفظ هذا القرآن أو حفظ شأنه ورعاه هو صاحب التذكر والإدراك ، أو بمعنى أنه مشتمل على آيات الترغيب في الذكر والأمر به والمداومة عليه ، أو أنه يوجب ذكر صاحبه وهو الله ، أو من نزل عليه وهو الرسول ، أو من نزل فيهم وهم أمة الإسلام المتمسكون به • وقوله تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك) شاهد صدق على ذلك • وإذا قلنا : إن المراد بالقوم من قام برعاية مقام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسالته وأعانه في تبليغاته وأداء رسالته وتنوير الناس بها ، فقد أتينا بحق يتزلزل عنده الباطل ، ويفهم هذا المعنى كل منصف كامل • وقوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) إضراب عن القسم والمقسم به وعليه إلى بيان أن الكافرين في استكبار وتعزز مبني على الهوى وشقاق وعناد مع الرسول وكتابه ، وصاحب الكتاب بحيث لا يكتنه كنهه ، ولا يدرك غوره ، فإن تنكير المتعاطفين يفتح الباب للقلب والعين ، ترى بأم العين ما يصدر من الكافرين ، وتدرك بالقلب عنادهم المُشين •

ولما أفاد شدة اعتزازهم وشقاقهم أجاد في تهديدهم بقوله (كم أهلكنا من قبلهم من قرن ؟) أي من أهل قرن مئوي لهم قرنان في النطاح مع أهل الخير والصلاح أهلكناهم بعد أن أنذرناهم ، ومن أنذر فقد أعذر ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الهلاك (فنادوا) عند حلوله كل من ينادي من القريب والبعيد ، أو نادوا ورفعوا أصواتهم بالتوبة والإنابة إلى الله المجيب المجيد • (و) الحال (لات حين مناص) أي ولات حين النداء

حين مناص وخلاص لهم ، إذ جرت السنة أنه لا فائدة في التوقي بعدَ جَرح الأسِنة . (و) أساس عزتهم وشقاقهم أنهم (عجبوا) من بعث هذا الرسول الكريم ومن (أن جاءهم منذر منهم) وكلمة منهم نيل" منهم وأي" نيلٍ ، لأن وجود الرسول العظيم المنذر الثابت من بني جلدتهم شرف لهم ، وبعث الرسول ليس بشيء غريب منهم ، فإذا تعجبوا من هذا الشيء القريب فمعناه أنهم في بعد متناه عن العقل والإدراك (و) لم يتوقفوا عند هـذا التعجب الذي لا سبب له معقول بل (قال الكافرون) المتجاسرون : (هذا ساحر كذاب) ولم يعلموا أنهم هم الكذابون فإن نسبة عمل المعوج الى من لم يدركوا منه إلا الأمانة والاستقامة ، ونسبة الكذب الى من اشتهر بالصادق والمبالغة فيه ، يفيد المبالغة في كذبهم أنفسهم . وعللوا ذلك بدليل عليل يعرف كل سليم العقل علته . وقالوا مستنكرين (أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيىء عجاب !) أي يبالغ في التعجب منه مع أن جعل الإله الواحد آلهة متعددة هو الذي يتعجب منه ، لأن الإله الواحد إذا كان قادرا على التصرف في الكائنات فذلك كاف وماعداه مستغن عنه ، ولا يناسب الألوهية الاستغناء عنه بأي وجه من الوجوه .

(وانطلق الملأ منهم) أي أشرافهم بعد أن ذهبوا إلى عمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبي طالب وطلبوا منه إسكات ابن أخيه من الدعوة إلى التوحيد ووعده بأنواع الخير ومع ذلك رفض الرسول كل ذلك وأبى إلا الله الواحد الاحد (أن امشوا واصبروا) أن للتفسير وليس المراد بالمشي المشي على الأقدام في المسيرة ، بل المراد الاستمرار على أخلاقهم وآدابهم ، وإن كانت باطلة فارادوا بقاء ماكانوا عليه ، فكأنهم قالوا استمروا وأصروا واصبروا (على) عبادة (آلهتكم) وقالوا (إنّ هذا) الأمر الذي يدعيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (شيء يراد) إثباته وإقراره في العالم .

(ما سمعنا بهـذا في الملة الآخرة) أي ما سمعنا بهذا التوحيد الـذي يدعو إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عهد الملة الآخرة والدين الآخر وهو دين النصارى حسب اعتقادهم ، لأنهم كانوا يدعون التثليث ، وكان كلامهم هذا تجاهلا عما اشتهر بين الناس أنه سيأتي نبي يدعو إلى توحيـد الباري عز وجل • ويجوز أن يكـون مرادهم بالملة الآخـرة ما اسـتقر عليه دأب العرب المشركين ، فإنهم كانوا على ثقة واعتماد به وعليه ، وكانوا يرونه حقا ومخالفه باطلا لجهلهم وغباوتهم واستمرار آبائهم على الإشراك ، وإلا فهـم ما كانوا يؤمنون بدين النصـارى حتى يعتمـدوا عليه ويجعلـوه أساسـا لمعتقداتهم (إن هذا إلا اختلاق) أي ما هذا الدين الداعي الى التوحيد الا افتراء وكذب ، ولكنه هم الكاذبون وهم الجاهلون ، ويـدل على جهلهـم انتقالهم من إنكار التوحيد إلى استنكار الرجل الذي جاء به ، يعنـى أنـه لو كان غيره يأتي به لكان مقبولاً •

وقالوا : (أأنزل عليه الذكر) أي القرآن (من بيننا بل هم في شـك من ذكري) أي من القرآن الذي أنزلته على رسولي ، لأنه لو كان لهم علم وإيمان بالدين لقبلوه من أي إنسان يأتي به لكنه ليس لهم علم به (بل لما يذوقوا عذاب) إضراب عن مجموع الأمرين السابقين حديث الحسد وحديث الشك ، ويقول سر هذا البطر وهذا الفساد هو أنه إلى الآن لـم يذوقـوا عذابي الذي أذقته المعاندين السابقين ، فإذا أذقتهم ذلك زال شكهم وخفت شكيمتهم • قال تعالى (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيـز الوهاب ؟) ويتصرفون فيها حسب إرادتهم حتى يعطوها لمن شاءوا ويمنعوهـا عمـن يشاؤن (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) أي العوالم العلويـة والسفلية حتى يتصرفوا فيها ، أو يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية ، فإذا كان لهم ذلك (فليرتقوا في الأسباب) أي فليصعدوا

على المعارج التي يصلون عليها إلى السماء فيتصرفوا فيها ويدبروا أمرها إن كانوا صادقين (جندما هنالك مهزوم من الأحزاب) هذه جملة ذات جهتين : الأولى أن أولئك المشركين الذين يقولون تلك الأقوال الباطلة ليست لهم أهمية ، أي هم جندما هنالك . والجهة الثانية تستفاد من قوله مهزوم الواقع صفة للجند يعني وذلك الجمع من الناس قوم مهزوم من أحزاب المشركين وجماعاتهم ستقع عليهم الهزيمة والفضيحة والخزي والعار .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذو الأوْتادِ (١٢) وثمودُ وقَوْمُ لُوطٍ وأصْحابُ الأَيْكَةِ ، أولئكَ الأحزَابُ (١٣) إنْ كُلٌّ إلاّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إلاّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مالَها مِنْ فَوَاقٍ (١٥) وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسابِ)(١٦)

قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) ... الآية جملة مستأنفة موضحة ومبينة لوجود كثيرين من العصاة العتاة المتمردين المعاندين قبل أولئك المشركين من أهل مكة ، ومثالهم قوم نوح في العراق ، (وعاد) أي وقوم عاد في الأحقاف من اليمن ، (وفرعون) مع قومه في مصر (ذو الأوتاد) التي كان يستحكم بها المخيمات في الصحراء للاستيناس والترف والتفرج ، أو المراد بها الأوتاد التي كان يغرزها ويشد بها اليدين والرجلين من المظلوم الذي يريد تعذيبه فلا يقدر على الحركة حتى يموت تحت العذاب (وثمود) اي وقومه (وقوم لوط) كلاهما في مملكة الأردن (وأصحاب الأيكة) أي الغيضة التي أرسل إليها شعيب ـ عليه السلام ـ كما أرسل إلى عاد هود والى فرعون موسى وهارون وقوله (أولئك الأحزاب) مبتدأ وخبر (إن كل)

أي ما كل منهم (إلاّ كذب الرسل فحق عقاب) أي عقابي، والمعنى فاستحقوا التعذيب فثبت تعذيبي ومعاقبتي لهم على إرادتي •

(وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) والفواق بفتح الفاء اسم مصدر على وزن ذهاب بمعنى الإفاقة والرجوع إلى الصيحة ، وبالضم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع عبارة عن زمان قليل • ومعنى الآية الكريمة إن الكافرين السابقين نالوا عذابهم وما ينظر هؤلاء المجرمون في عصرك يا حبيبي إلا صيحة واحدة هي الصيحة الناشئة من نفخ الصور ، أي إلا زمان الآخرة فيعذبون فيها ، أو إلا صيحة كالصيحات الواردة على الكفار السابقين ما بعد تلك الصيحة راحة وخلاص (وقالوا) أي لما سمعوا أن لهم عذابا أُجِّلَ إلى حلول الآخرة (ربنا عجل لنا) وقدم لنا (قطنا) أي قسطنا ونصيبنا من العذاب (قبل يوم الحساب) وأساس هذا أنهم لا يؤمنون بالآخرة ويقولون إذا كان هذا الوعد صادقا وهناك قادر على تحقيقه فليأتنا في الدنيا قبل ذلك اليوم • وقد أتاهم في بدر وفي سائر المواقع التي شتت الله فيها شملهم ، وهو العزيز ذو الانتقام •

(إصْبِرْ عَلى ما يقولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوّابٌ(١٧) إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالأِشْراقِ(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّابٌ(١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ(٢٠) وَهَلْ أتيكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ؟(٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا : لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بالْحقِّ وَلا تُشْطِطْ ، واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراطِ(٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ

نَعْجَةً ، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)(٢٦)

قوله تعالى (اِصبرْ على ما يقولونَ ، واذكر عبدَنا داودَ ذَا الأيدِ انهُ اوّاب) يعني اصبر يا حبيبي على ما يقولون من تلك الأقوال الباطلة الناشئة عن الغفلة والهوى والابتعاد عن الحق والهدى ، واذكر لهم جميعا عبدنا داود وأحواله من بدء نشأته إلى أيام شبابه وقوته ، فإن الأيد مصدر بمعنى القوة ، واذكر لهم أن الغفلة ساعة واحدة تبعد الإنسان عن الإحسان زمانا طويلا ، واذكر لهم أن الله بصير بأحوال العباد في الغفلة وحال التوبة لعل المشركين يتوبون إلى الله والمسلمين يزيدون في طاعته ، واذكر لهم أن داود مع ملكه ونبوته وقوته وفتوته كان أواباً رجاعا إلى الله حتى ينال المثوبة الحسنى والقرب إليه في الدنيا والآخرة •

(إنا سخرنا الجبال معه) استئناف لبيان قصته وكرامته عند الله بحيث سخر الجبال للتسبيح مع تسبيحه كواحد يوافق واحدا ويقارنه فيما يقوله ، أو كمرجع يرجع الكلمات بعد قرينه • فهن (يسبحن) معه (بالعشي

والإشراق) قيل يسبحن بلسان الحال أو بلسان مقال لا يفهمه إلا أولو الكمال • والظاهر أن تسبيحهن كان بعين عبارة سيدنا داود ـ عليه السلام ـ وبلسانه ولغته ، كتسبيح الحصى في كف الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ باللغة العربية المسموعة المفهومة فإن التشريف الاختصاصي إنما يظهر بذلك والله على كل شيء قدير • ويجوز أنه كان بحيث يسمعه الناس الموجودون عنده ، أو بحيث لا يسمعه إلا من اختص بفضل منه تعالى • وكان ذلك التسبيح والتسخير له فيه بالعشي والإشراق أي مساء وصباحاً • ووقت الإشراق وقت طلوع الشمس وإضاءتها وصفائها وذلك من ارتفاعها كرمح • فمنهم من يقول أن مابعد ذلك الوقت إشراق إلى الزوال ، وبهذا يدخل وقت صلاة الإشراق في الضحى ، ومنهم من يفرق ويخص الإشراق بما ذكرنا أولا • وما بعد ذلك الى الزوال يجعله ضحىً فيختلف الإشراق والضحى وصلاتهما وتفصيله في الفقه • والجمع بينهما أحوط بفعل صلاة الإشراق بعد ارتفاعها كرمح ، وصلاة الضحى بعد ذلك ، والصلاة خير موضوع أقْلِلْ منها أو أكثر • (والطير محشورة) أي وسخرنا له الطير محشورة مجتمعة فوقه •

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان ـ عليه السلام ـ إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرُها •

وقوله (كل له أوّاب) أي وكل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح (وشددنا ملكه) أي قويناه بالهيبة والنصر ودخول الرعب في قلوب أعدائه (وآتيناه الحكمة) النبوة والعلم الصحيح والعمل الصالح (وفصل الخطاب) أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل •

(وهل أتيك نَبَؤ الخصم) أي نبأ الرجلين المتخاصمين (إذ تسوروا المحراب) أي علَوا سور المحراب ونزلوا اليه (اذ دخلوا على داود ففزع

منهم) أي فخاف منهم قصد الاغتيال إذ كان له أعداء وخصوم في الداخل والخارج • ولما علما بفزعه واستعداده للدفاع عن نفسه (قالوا : لا تخف) فإنا لسنا بأعداء لنقصدك بسوء ولكنا (خصمان بغى بعضنا على بعض) وطلب منه غير ما ينبغي له (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أي ولا تتجاوز عنه (واهدنا إلى سواء الصراط) أي الصراط السوي أي المستوي • فلما هدأ داود وتهيأ لسماع الكلام قال المدعي (إن هذا) الرجل الذي تسور المحراب معي هو (أخي) أي في النسب أو في الحسب (له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها) أي اجعلها كفلا لي ونصيبا • والظاهر أنه أراد نصيبا لي بالقوة والعدوان ، وإلا فإذا أراد الاستيهاب أو الاشتراء فلا داعي لأخذه وجلبه إلى الحاكم (وعزني في الخطاب) أي غلبني في الكلام والطلب بلا موجب شرعي ، وقد جئنا إليك للمحاكمة ورفع الغدر عني وتعزيره ودفعه فهل هذا الطلب والإلحاح حق له أو ظلم ارتكبه (قال) داود ــ عليه السلام (لقد ظلمك) وتعدى عليك (بسؤال نعجتك إلى نعاجه) وضمها إليهن (وإن كثيرا من الخلطاء) أي الشركاء في الأموال (ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإنهم يتحاشون عن البغي (وقليل ما هم) أي وهم قليل جدا وما زائدة لتأكيد القلة • وروي أنه لما جاوبهما غابا من عنده غيبة غير اعتيادية (وظن داود) أي وعلم داود ــ عليه السلام ــ من تسورهما المحراب على خلاف الأصول المعمولة وغيابهما ، وقوة عبارة القائل فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط •• أنهما كانا من الملائكة و (أنما فتناه) أي ابتليناه وأرسلنا الملكين إليه لانتباهه فانتبه لعمل جرى منه غير مناسب لمقام الأنبياء الكرام فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين (فاستغفر) داود (ربه) عن ذلك (وخر راكعا) أي ساجدا على أن الركوع بمعنى السجود مجازا مرسلا بعلاقة السببية أو استعارة لتشابه الأمرين

بخروجهما عن الاعتدال وأناب إلى ربه فغفرنا له ذلك العمل (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) في الجنة •

وفي بيان ما جرى منه أقوال وأقربها أنه مر ببستان أحد رعاياه ، وأعجبه من حيث كثرة الأشجار والثمار والأنهار والأوراد والأزهار ، فعزم على اشترائه من مالكه وقد تعلق قلبه به ولا يعجبه وتعلل عن ذلك ، وبينما الأمر جار في البين أي يحب سيدنا داود اشتراءه وصاحبه على إبائه إذ دخل داود في محل خلوته للعبادة على عادته ، ووقع تسور المحراب فانتبه وتفطن أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملكين لانتباهه ، وترك الطلب واستراح المالك•

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) مقول لقول مقدر معطوف على قوله تعالى فغفرنا له أي فغفرنا له وقلنا ياداود إنا جعلناك خليفة لنا في الأرض كما جعلنا آدم ، وكذلك كل رسول من بعده خليفة لي في تطبيق الحق والعدل ، أو خليفة عمن سبقك فيها ولاسيما قد جمعت بين الملك والنبوة في بني إسرائيل (فاحكم بين الناس بالحق) المطابق للبينة والشهود (ولا تتبع الهوى) أي ما تهواه النفس من محبة رجحان جانب على آخر بدون حجة واضحة (فيضلك) اتباعه (عن) سلوك (سبيل الله • إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أي بسبب نسيانهم يوم الحساب وما يجري قبله من موجباته ، وما يقع فيه من تبعاته ، ومايقع بعده من العذاب •

(وما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ، ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي

الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟(٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ)(٢٩)

قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا) أي وما خلقناها خلقا باطلا لا حكمة فيه ، بل خلقناها خلقا مقرونا بالحكمة ، ومنها ظهور عظمة ذات واجب الوجود والاعتراف به والعبودية والخضوع له ، وكون المخلوقات على نظام ومسئوليات وكون العدل مطبقا عليه ، وليس ذلك على جهة الاحتياج تعالى عنه بل لإرادة ظهور النور والطاعة من الشعور إلى القبور والمسئولية عن تطبيق الدستور • (ذلك) أي خلقها باطلا (ظن الذين كفروا) أي مظنون الذين كفروا ومعتقدهم ، فإن الكافر لا يعترف بوجود الخالق الفاعل المختار حتى يكون هناك نظام وفيه مسئوليات في الدنيا أو في الآخرة (وويل للكافرين من النار) إما بيانية أي أن الويل نار على ضرب من المبالغة ، أو ابتدائية أي ذلك الويل ناشىء من عذاب النار (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ؟) أي أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في الأرض (أم نجعل المتقين) الذين هم صفوة المؤمنين (كالفجار ؟) المباشرين للأعمال الفاسدة المخزية علاوة على الاعتقاد الفاسد (كتاب أنزلناه إليك مبارك) أي هذا كتاب انزلناه اليك مبارك لفظا ومعنى وتطبيقا ، فمن أخذه بحقه نال السعادة على وفقه وإنما أنزلناه إليك (ليدبروا آياته) المعربة عن أسرار التكوين والتشريع (وليتذكر أولوا الألباب) وليتعظوا به •

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ(٣١) فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ

بِالحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ، وأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) والشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هذا عطاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآبٍ)(٤٠)

وقوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان) هذه الآية تدل على موهبة أخرى من الله تعالى لعبده داود بعد أن سخر الجبال والطيور له يسبحن معه ، وبعد أن جمع له الملك والنبوة وجعله خليفة في الأرض ، فقد وهب له ولدا ماجدا قرت به عيون الآباء والأجداد حيث كان جامعا للملك والنبوة ونشر الحق في العباد ويمدحه الله تعالى بقوله (نعم العبد) أي نعم العبد سليمان (إنه أوّاب) أي رجاع إلى الله تعالى بحيث لم يكن ملكه وشغله بإدارته مانعا له عن طاعته واستغراقه في عبوديته (إذ عرض عليه بالعشي) أي أواخر النهار (الصافنات الجياد) والصافن من الخيل هو الذي يرفع احدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافره • وقال ابو عبيدة هو الذي يجمع يديه ويسويهما • وأما الذي يقف على طرف الحافر هو المتخيم • والجياد المتصفة بالجودة في المشي والركض (فقال إني أحببتُ حب الخيرِ عن ذكرِ ربي حتى توارت بالحجاب) الخير هو المال وهنا بمعنى الخيل ، وكانت ألف فرس ، وكان ــ عليه السلام ــ تعرض عليه أفراس الحرب والمعدات الحربية ، وجيء بتلك الأفراس يوماً من الأيام بعد

الزوال فاشتغل بها حتى فاتته أوراده اليومية في ذلك اليوم لغياب الشمس ، فلما تنبه لذلك استاء • ومعنى الآية الكريمة إني أحببت الخير حبا أشغلني عن ذكر ربي ووردي المعتاد في يومي حتى توارت الشمس واستترت بحجاب الأفق • وعلى ذلك أمر برد الأفراس وقال (ردوها علي) فردوها عليه (فطفق مسحاً بالسوق والاعناق) فشرع يمسحها بالسيف البتار على سوقها وأعناقها فعقرها وذبحها وجعلها قربةً وإطعاماً للفقراء ، وكان أكل لحوم الأفراس معتادا إذ ذاك • ونسبة المسح إليه ــ عليه السلام ــ على الإسناد المجازي كما في قول الناس هزم الأمير جيش الأعداء •

(ولقد فتنا سليمان) أي ألقينا على قلبه فتنة هي الغفلة عن الاستثناء بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله ، فطاف عليهن ولم تحمل منهن إلا واحدة ولدت ولدا ناقص الهيكل ، وتعجبت منها القابلة ، وجاءت به وألقته على كرسيه ليعلم به النبي سليمان ــ عليه السلام ــ • وذلك معنى قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) وبعد إطلاعه على ما ألقي على كرسيه انتبه لغفلته وأناب إلى الله تعالى كما قال تعالى (ثم أناب) أي رجع إلى ربه بالمعذرة وطلب السماح والعفو عن غفلته وقال رب اغفر لي فغفر له ربه ، وتجلى عليه بالرحمة بحيث انشرح صدره ، وتنور قلبه ، وعلم أنه غفر له ربه • وفي هذا المجال المبروك (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) حتى يكون معجزة له ويسدّ أفواه الأعداء والحاسدين عليه من نسبة أعماله إلى أسباب مادية معتادة في العالم (إنك أنت الوهاب) فسخر له الريح لطي البر والبحر ، والجن للغوص في البحر ، والعمل الشاق في البر ، والشياطين المرَدَة حتى قيدهم وأمن من شرهم ، وذلك قوله تعالى (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) يعني فجعلنا له الريح

مسخرة منقادة حيث اراد ، وكلما شاء الوصول إلى محل حضر هو وأتباعه في السفر على بساطه فرفعته الريح إلى مستوى رفيع وأوصله الى مقصده فتنزل بهم بكل لين وسهولة وكان غدوها شهرا ورواحها شهرا . (والشياطين كل بناء وغواص) أي وسخر له الشياطين الذين كان لهم العلم بصفة البناء للدور والقلاع ، والشياطين الذين يغوصون في البحر لإخراج اللؤلؤ والمرجان وما شاكلهما (وآخرين مقرنين في الأصفاد) أي وسخر له شياطين آخرين من ألدّ الأعادي فقرنهم في الغل الجامع الذي يسمى بالصفد ، وهو غل يرتبط به جمع من العصاة في موقف واحد ، وتقييده للجن كان بقوة ربانية لم تكن عند غير سليمان ـ عليه السلام ـ ، حتى تكون هبة خاصة وهيبة له وتوجب رهبة الأعداء منه ، وكيفية ذلك وأنه كان الشياطين بالمرءى والمسمع من الناس أو غائبين عنهم ، سكتت عنه الآية الشريفة ونحولها إلى الله تعالى (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أي وأوحينا إليه وقلنا له هذا المذكور من المسخرين عطاؤنا لك فخذه وانتفع به وأعط ما نشاء لمن نشاء وأمسك ما نشاء عمن نشاء . (وإن له عندنا) أي وإن لسليمان عندنا (لزلفى) لقربة وكرامة (وحسن مآب) في الجنة .

(وَاذكُرْ عَبْدَنا أيُّوبَ إذْ نادى ربَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وشَرَابٌ (٤٢) ووهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وذِكْرى لأُولِي الألْبَابِ (٤٣) وخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، إنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) واذْكُرْ عِبادَنا إبْرَاهِيمَ ، وإسحقَ ، ويَعْقوبَ أولي الأَيْدِي وَالأَبْصارِ (٤٥) إنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى

الدَّارِ(٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ(٤٧) واذْكُرْ إسميعيلَ ، وَالْيَسَعَ ، وَذا الْكِفْلِ ، وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ(٤٨) هذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ(٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرات الطَّرْفِ أَتْرَابٌ(٥٢) هـذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ(٥٣) إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا ما لَهُ مِنْ نَفَادٍ)(٥٤)

قوله تعالى (واذكر عبدَنا أيوب) هو من أنبياء بني إسرائيل (إذ نادى رَبَّهُ أنى مَسَّنِي الشيطان بنُصب وعذاب) النصب الألم في الجسد ، والعذاب في الأهل والمال ، يشكو مرضه ووفيات في أهله وقلة في ماله ومس الشيطان له إلقاء وساوس إليه ، وهي وإن لم تؤثر في قلبه ـ عليه السلام ـ حقيقة لكنها تؤذيه كبعض الذبان تؤذي ولا تعضّ (أركض برجلك هـذا مغتسل بارد وشراب) أي فقلنا له وحياً أو إلهاما : اركض برجلك في المكان الفلاني فركض بها فنبع ماء ، وقلنا له اشرب من ذلك الماء فشرب منه وبـرأ جوفه من أساس المرض ، ثم قلنا له اغتسل به فاغتسل وبرأ ظاهـره منـه (ووهبنا له أهله) بإحيائهم بعد إهلاكهم (ومثلهم معهم) فكان لـه ضعف ما كان (رحمة منا) أي لرحمة عظيمة منا (وذكرى لأولي الألباب) وتذكيرا لهم بذلك ليصبروا على الشدائد •

روي عن قتادة أنه ابتلي سبع سنين وأشهراً فصبر ففرج الله عنه وأعظم له أجرا • وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى رأسه قرحة واحـدة ، وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى إليه ، فقالت يوما : أما ترى يا أيوب قد نزل بي والله من الجهد والطاقة ما أن بعت فروتي

برغيف فـأطعمتك فادع الله تعالى ان يشفيك ويريحك ! فقال : ويحك كنا في النعيم سبعين عاما فاصبري حتى نكون في الضر سبعة أعوام ! فكان في البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فأخذ بيده ثم قال : قم فقام عن مكانه . وقال أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة ، فتنحى فجلس في ناحية من بيته ، وجاءت امرأته فلم تعرفه . فقالت يا عبدالله أين المبتلى الذي كان ههنا ؟ وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي . ورد الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم ، وأمطر عليه جرادا من ذهب فجعل ياخذ الجراد بيده ، ويجعله في ثوبه وينشر كساءه فيجعل فيه ، فأوحى الله تعالى إليه يا أيوب أما شبعت ؟ قال : يارب من الذي يشبع من فضلك ورحمتك ؟ (وخذ بيدك ضغثا) وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان (فاضرب به) زوجتك رحمة بنت أفرائيم ابن يوسف ـ عليه السلام ـ (ولا تحنث) بيمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمة عليه . وذلك أنه صدر منها جملة عن الكلام فغضب عليها ، وحلف ليضربنها إن برىء منه ضربة ، فأمره الله تعالى بذلك حتى لا يحنث في يمينه (إنا وجدناه صابرا نعم العبد) أي أيوب (إنه أواب) أي رجاع الى الله .

(واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) أي أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين (إنا أخلصناهم بخالصة) أي بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها وهي ذكرى الدار الآخرة (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أي المختارين من بين أبناء نوعهم ، وأصل المصطفين بياءين على وزن المجتمعين جمع مذكر لاسم مفعول باب الافتعال فقلبت الياء الأولى ألفا وحذفت لالتقاء الساكنين .

(واذكر إسميعيل واليسع) هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء ، (وذا الكفل) وهو ابن أيوب . وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده ، وكان مقيما بالشام حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة (وكل من الأخيار ، هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب) في الآخرة (جنات عدن) بدل اشتمال عن حسن مآب (مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة) من أصناف الفواكه من أنواعها (وشراب) طهور (وعندهم قاصرات الطرف) أي حور قاصرات الطرف على الأزواج (أتراب) أي لِداتٌ على سِنٍّ واحد (هذا ما توعدون ليوم الحساب ، إن هذا) أي ماذكر من أنواع النعم والكرامات (لرزقنا ماله من نفاد) أي انقطاع ونهاية .

(هذا وإنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ (٥٦) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ (٥٧) وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (٥٩) قالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قالُوا : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (٦١) وقالُوا : مالَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ (٦٢) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا ؟ أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصارُ ؟ (٦٣) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ ، وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ : هُوَ نَبَؤٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ

مُعْرِضُونَ(٦٨) ما كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأعْلَى إذْ يَخْتَصِمُونَ(٦٩) إنْ يُوحى إليَّ إلا أنَّما أنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)(٧٠)

قوله تعالى (هذا . وإن للطاغين لشر مآب) كلمة هذا فصل الخطاب ، أي خذوا هذا ، أو الأمر هذا ، أو هذا جزاء المؤمنين . ثم يقول في جزاء الكافرين (وإن للطاغين لشر مآب) أي وإن للذين طغوا في الدنيا على أوامر الله ورسوله وعاندوها لشرّ مرجع ، من إضافة الصفة الى الموصوف أي مرجعا شرا . وقوله (جهنم) بدل حالكونهم (يصلونها فبئس المهاد) أي الفراش جهنم (هذا) مثل هذا الذي ذكرناه (فليذوقوه) جملة مرتبة على الجملة السابقة (وقوله حميم وغساق) أي هو حميم وغساق . وقوله (وآخر من شكله أزواج) أي ومذوق آخر من شكل الحميم ، أو عذاب آخر من شكله وقوله (أزواج) أي هذه أصناف من المذوق والحميم الماء الشديد الحرارة ، والغساق عين ماء يسيل في جهنم منتن جدا وقوله تعالى (هذا فوج مقتحم معكم) من مقول ملائكة العذاب لأهله فتقول لهم : هذا فوج ، أي جمع كثير من أتباعكم في الضلال مقتحم معكم أي داخل في الشدة والعذاب معكم . وقوله تعالى (مرحباً بهم) دعاء من رؤساء الضلال المتبوعين على أتباعهم ، يعني لما قالت الملائكة للمتبوعين ورؤساء الضلال الكلام المذكور ، قال الرؤساء في الجواب لا مرحبا بهم (إنهم صالوا النار) أي لا أهلا بهم ولا مرحبا لأنهم ليسوا أناسا طيبين ، فإنهم صالوا النار أي داخلون في نار جهنم . ولما سمع الأتباع ذلك (قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم) أي أنتم أحق بما قيل لنا (أنتم قدمتموه) أي العذاب (لنا) إذ لولا أنتم لكنا مؤمنين ، ولكنكم ورطتمونا في الكفر وقدمتم ذلك العذاب لنا جميعا . (فبئس القرار) أي فبئس المقر جهنم (قالوا) أي الأتباع أيضا : (ربنا

مَنْ قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) لأن من سنّ سنة سيئة تحمل وزرها ووزر مَن عمِل بهـا .

(وقالوا) أي الكفار الطاغون بعضهم لبعض : (مالنا لا نرى رجالا كنا) في الدنيا (نعدهم من الأشرار ؟) أي من الفاسدين المفسدين . وقولـه تعالى (اتخذناهم سخريا) إن كان بكسر الهمزة كانت الجملة صفة ثانية لقوله (رجالا) فيكون قوله (أم زاغت عنهم الأبصار ؟) مقابـلا لقولـه مالنـا لا نرى رجالا . والمعنى مالنا لا نرى الرجال الذين كنا في الدنيا نعدهم من الأشرار وكنا اتخذناهم سخريا نسخر بهم ، أليسوا فيها فلذلك لا نراهـم ، أم زاغت عنهم أبصارنا وما رأيناهم وهم فيها ، وإن كان بفتح الهمـزة أي الاستفهامية الداخلة على همزة الوصل فيكون قوله أم زاغت عنهم مقابـلا لقوله اتخذناهم سخريا . وأم متصلة يعني مالنا لا نـرى اليوم في جهنـم رجالا كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار . هل علة عدم رؤيتهم اليـوم هـو أننا اتخذناهم سخريا في الدنيا أو أن أبصارنا كانت تعلـو وتتكبـر عـن النظر إليهم ، ولذلك جزاهم الله تعالى بدخول الجنة فـلا نراهم بين أهـل النار ؟ ويجوز أن تكون أم منقطعة على معنى مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ هل علة عدم رؤيتهم أنا اتخذناهم سخريا في الدنيا فأكرمهم الله تعالى اليوم بدخول الجنة ، أو شيىء آخر ؟ بل ليس علة عدمها الاستسخار بهم في الدنيا واضرب عن ذلك حيث زاغت عنهم الأبصار وما كنا ننظر إليهـم استكبارا . فاليوم لا نراهم لدخولهم الجنة . وقوله تعالى (إن ذلك لحق) أي إن ما ذكر من أقوال الكفار بينهم بعضهم لبعض (لحق) وهو (تخاصم أهـل النـار) .

(قل) يا حبيبي لمشركي مكة (إنما أنا منذر) أنذركم بعذاب الله يوم القيامة ولست مسـيطرا عليكـم أو أنـا منذر ولست بسـاحر ولا كذاب

ولا كاهن ولا مجنون ، وإن كلامي حق وصدق وليس شيئا مبنيا على التنبؤ ، ولا كلاما يشوبه اختلال العقل (وما من إله) يعبد بحق (إلا الله الواحد) الذي لا يقبل الكثرة في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله على معنى أن كل صفة منها مختصة به تعالى لا يشاركه فيها غيره ، وأن كل فعل من أفعاله هو الذي ينفرد به وليس مما يعاونه فيه غيره (القهار) المسيطر على كل شيء (رب السموات والارض وما بينهما) من الموجودات (العزيز الغفار) المبالغ للمغفرة يغفر كل ذنب سوى الكفر (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) أي أن ما أخبرتكم به وهو إنما أنا نذير نبأ عظيم وخبر خطير أنتم مستمرون في الإعراض عنه . والدليل على أني أنا النذير المبين أنه (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يَخْتَصِمُونَ) أي الملائكة الكرام المتكلمين بينهم في مسائل تكلما يشبه التخاصم وليسوا متخاصمين بل متقابلون في الكلام (إذ قال ربك للملئكة : إني خالق بشرا من طين) . (إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين) واضح الإنذار ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

(إذ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلئِكَةِ : إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ(٧١) فإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ(٧٢) فَسَجَدَ المَلئِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ(٧٣) إلاّ إبْليسَ اسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرِينَ(٧٤) قالَ : يا إبْليسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ : أسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ العالِينَ ؟(٧٥) قالَ : أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦) قالَ : فاخْرُجْ مِنْها فإنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) وإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتي إلى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨) قالَ : رَبِّ فأنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قالَ : فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ(٨٠) إلى يَوْمِ

الوَقْتِ المَعْلُومِ (٨١) قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ (٨٣) قالَ: فَالحَقُّ والحَقَّ أَقولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ : ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(٨٨)

قوله تعالى (إذ قال ربك) ظرف لما قبله أو متعلق بأذكر المقدر أي واذكر إذ قال ربك (للملئكة إني خالق بشراً من طين) والبشر هو الجسم الكثيف الذي يمسك ويباشر أو يبدو بشرته للعين ، ومعنى خلقه منه أن أغلب مادته ذلك فلا ينافي وجود الماء وغيره (فإذا سويته) أي صورته بالصورة الإنسانية على أحسن تقويم (ونفخت فيه من روحي) أي أفضت عليه الروح الانسانية التي هي من أمري بسهولة كنفخ في شيىء ، وصار إنسانا حيا له مقامهُ (فقعوا له ساجدين) أي فضعوا جباه الكرامة على أرض الخدمة تحية وتشريفا له لا عبادة وتقديساً (فسجد الملئكة) أي ولما خلقه وسواه ونفخ فيه الروح سجد الملائكة حسب الأمر (كلهم) بكل احترام (أجمعون) لم يبق منهم أحد (إلا إبليس) إما استثناء متصل على التغليب لأن إبليس كان مغمورا بينهم وموصوفا بصفاتهم ، أي موظفا بوظائفهم ومعدودا منهم ، فكأنه من أفراد نوعهم ، فيكون قوله تعالى استكبر استئنافا لبيان كيفية إبائه عن السجود ، وإما استثناء منقطع ، وإلا بمعنى لكن ، فيكون قوله استكبر خبرا ، أي لكن إبليس استكبر ، والاستثناء المنقطع في القرآن الكريم كثير (استكبر) من السجود لآدم (وكان من الكافرين) لاستكباره عن تلبية أمره تعالى وعناده لا لنفس ترك السجود ، فإن تارك المأمورات كثير ولكن لا نكفر أحدا منهم بمحض ذلك .

(قال) الله تعالى (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بِيدَيَّ ؟) أي بقدرتي المؤثرة إيجابا وسلبا سويته على ما أردت ومنعت دخول شيء في طينة خلقه مخالفا لما قررت (أستكبرت) وعددت نفسك كبيرا من غير استحقاق (أم كنت من العالين ؟) واقعا وذاتا ومستحقا للعظمة (قال : أنا خير منه) ذاتا وحقيقة ، فأنا من العالين في الواقع بالنسبة إلى آدم وسره أنه (خلقتني من نار) وهي جوهر لطيف (وخلقته من طين) وهو عنصر كثيف (قال فاخرج منها فإنك رجيم) أي مرجوم ومطرود ومبعد عن الرحمة حيث اعترفت بأنك مخلوق لي وأنا خالق لك ، واخترت جوهرا لطيفا لذاتك مع أنك عصيتني وخالفت أمري على ملأ عظيم من ملائكة التكريم (وإن عليك لعنتي) أي وإن طردي وإبعادي لك من رحمتي باقية (إلى يوم الدين) لأنك عارضتني وعارضت حكمتي في خلق ما أردت خلقه ومعارضة الحكمة توجب الابتعاد عن الرحمة .

(قال فأنظرني الى يوم يبعثون) أي مادام قد أبعدتني عن ساحة الرحمة إلى الأبد فأمهلني لإغواء العباد وإبعادهم عن الرشاد (قال : فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) الذي قدرته للإمهال (قال) إبليس : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) باتباع هواهم بحيث يضلون عن طريق هداهم (إلا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصهم الله عن غشاء الهوى ، أو الذين أخلصوا قلوبهم لاتباع سبيل الهدى . قال سبحانه وتعالى (فالحق) مبتدأ أي فالقول الحق الثابت المطابق للواقع (والحق أقول) حال أي وأنا لا أقول إلا الحق والخبر (لأملأن جهنم منك) أي من جنسك من مردة الشياطين (وممن تبعك منهم) أي من الإنس والجن التابعين لك (أجمعين) بلا استثناء .

(قل) يا حبيبي لكفار مكة وسائر الكافرين : (ما أسألكم عليه) أي على هذا القرآن الكريم المرشد إلى الصراط المستقيم وتبليغه إليكم وبيانه بحيث يتضح لكم (من أجر) جليل أو قليل ، وليس أجري إلا على الله (وما أنا من المتكلفين) أي من الذين يتصنعون بغير ما في صنعهم ، ويتحلون بما ليسوا من أهله حتى آتي بهذا القرآن من عندي (إن هو) أي ما هذا القرآن (إلا ذكر) جليل باللسان تهليلا وتحميدا وتسبيحا وتقديسا ، وبالقلب إيمانا وشكرا واعترافا وانقيادا وبسائر جوارحي فيما كلفت به من إطاعة رب العالمين ، وليس بالذكر الخاص بنوع أو بصنف أو فرد بل هو ذكر عام (للعالمين) من العقلاء المطيعين لرب العالمين (ولتعلمن نبأه) أي ولا شك أنكم تعلمن نبأه أي نبأ نفوذه في العالم ، واستفادة المكلفين منه ، أو ما أخبر به من الثواب للمطيعين والعقاب للعصاة المجرمين ، وذلك (بعد حين) من الزمان ، أي في الدنيا أو في الآخرة في موقف الحساب عند أحكم الحاكمين .

سورة الزمر

مكية ، وهي خمس وسبعون آية ، نزلت بعد سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا الى اللهِ زُلْفَى ، إِنَّ اللهَ يحكُمُ بينَهُمْ فِيمَا هُم فيهِ يَخْتَلِفونَ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَو أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ، سُبْحانَهُ ! هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ، أَلا هُوَ العَزِيزُ الْغَفَّارُ)(٥)

قوله تعالى (تنزيل الكتاب) مبتدأ مضاف وقوله (من الله العزيز الحكيم) خبره أي هذا التنزيل الجليل المزيل لغشاوة الجهل والكفر

والرذائل عن القلوب لمن يداويه ، نازل من الله العزيز الذي لا يقهر ولا يغالب الحكيم في شئونه كلها (إنا أنزلنا إليك) يا محمد (الكتاب) وهو القرآن بالحق أي متلبسا بالحكم الحق وهو أن الله هو المعبود لا غير (فاعبُدِ الله) وحده لا شريك له (مُخلِصاً له الدين) عن شوائب فاسدة مفسدة خفية وهي الإشراك بالله والرياء وإرادة غير الله تعالى بها ، وعن المبطلات في آدابها وشروطها وأركانها ، وإذا عبدته كذلك سعدت في الدارين وصعدت إلى الكرامة (ألا للهِ الدينُ الخالص) أي إن العمل والطاعة لله وحده لا شريك له فيه ، فلا يمكن أن يعمل أحد عملا ويتوجه إلى الله به إلا إذا كان مجرداً عن شوائب اختلاط الغير ، سواء كان بطريق الشرك الجلي أو الخفي ، ولكن الشرك الجلي كفر ، والشرك الخفي مكر سيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، ومعنى إحاطة هذا المكر بأهله إما حبوط العمل المقرون به كما هو المشهور من أن العمل مع الرياء ساقط بالذات أو نقص ما يساويه من الجزاء كما هو الظاهر وأشار إليه بعض المحققين • (والذين اتخذوا من دونه أولياء) من الأصنام الذين يعبدونها معه حالكونهم قائلين : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أي قربة (إن الله يحكم بينهم) وبين خصومهم الموحدين (فيما هم فيه يختلفون) ويأمر بإهانة المشركين بالتعذيب وإكرام الموحدين بالتنعيم ؛ فالموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره • أو ما دام أولئك المتخذون من دون الله أولياء باقين على ما هم عليه من الكذب في الكلام وتكذيب رسول الإسلام والكفر بالله الواحد العلام فلا ينظر إليهم الله تعالى ولا يهديهم (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) وهذه الدعاوى الفارغة التي عندهم من أن الله اتخذ أولاداً ، وأن الملئكة بنات الله ، وأن عيسى ابنه إلى غير ذلك من الأشياء ••• خرافات لا أصل لها •

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) والمخلوق أثر حادث لا مناسبة له مع ذات واجب الوجود حتى يمكن أن يصير ولدا له قطعا فيمتنع تحقق ولد له في الواقع ، فآل الكلام إلى أنه لو أراد الله أن يتخذ ولدا له لزم أن يكون الولد الحادث واجبا من نوع أصله ، لكن التالي باطل فالمقدم كذلك . ولذلك نزه الله سبحانه وتعالى ذاته المقدس عن مثل ذلك الدنس ، وقال (سبحانه) أي ننزهه تنزيها بليغا عن ذلك (هو الله الواحد القهار) أي هو الذات الواجب الوجود الجامع لكماله الواحد في الخلق والمعبودية الغالب على كل شيء .

(خلق السموات والارض بالحق) أي متلبسا بإرادة الحق وهو العرفان والإيمان والإحسان من مخلوقه المكرّم (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وتصرفه المبدئي الإجمالي الاستمراري هو أنه يلف الليل على النهار فيستر ضياءه ويكور النهار على الليل فيستر ظلامه بالضياء (وسخر الشمس والقمر) لتطبيق هذا التكوير (كل يجري) على مدار خاص وميزان خاص مضبوط لا يختلف على مر العصور والدهور (لأجل مسمى) إلى نهاية مدة محدودة معينة لهذا التصرف (ألا) تنبهوا يا أصحاب العقول (هو العزيز) القادر على كل مايريد (الغفار) لكل عاص لا يكفر بربه المجيد .

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ، يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ، ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ المُلْكُ ، لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟(٦) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا

يَرْضَهُ لَكُمْ ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدورِ)(٧)

ثم أتى بدليل آخر على وحدته بقوله (خلقكم من نفس واحدة) أي بعد أن خلق العالم أحبّ أن يخلق فيه من يعرف خالق الكون فيعبده فخلقكم أيها البشر من نفس واحدة ، أي آدم ـ عليه السلام ـ (ثم جعل منها زوجها) حواء فإنها خلقت من أسفل أضلاعه اليسرى على معنى أنها خلقت من جزء منها وبقي الباقي لصاحب الأصل (وأنزل لكم) أي لمعيشتكم (من الأنعام ثمانية أزواج) من الإبل والبقر والضأن والمعز الذكر والأنثى ، فإذا خلي البشر ونفسه وكان مع هذه الأزواج عاش بالابتهاج يلبس من الجلود والأشعار والأوبار والصوف ويشرب من الألبان ، ويأكل من اللحوم فإذا اعتادها استغنى عن كثير من الأتعاب • وقرر بعض الناس أن هذه الفقرة دليل آخر على وجود الباري ، ولكن النفس تتحاشى عن ذلك ويؤخذ منها أدلة جليلة على ذاته وصفاته •

ثم أخذ يبين كيفية خلق ما ذكر عما ذكر إنسانا أولا وقال (ويخلقكم) أي أنتم والأنعام معكم (في بطون أمهاتكم) من نطفة تنزل من آبائكم تمتزج بماء أمهاتكم (خلقا من بعد خلق) إنسانا سويا أو حيوانا بهيا بعد المضغة ، وخلقها بعد العلقة ، وخلقها من النطفة (في ظلمات ثلاث) ظلمة المشيمة بعد ظلمة الرحم ، بعد ظلمة البطن (ذلكم) الخالق الباري المصور (الله ربكم ، له الملك) والسلطنة على الاطلاق (لا إله إلا هو) وحده لا شريك له (فأنى تصرفون) أي فكيف تصرفون عن عبادته مع كثرة موجباتها ودواعيها وانتفاء موانعها إن كنتم تتفكرون ؟

ثم وعظ الباري عباده ببيان استغنائه عنهم ، وإنما يعظهم لنفعهم ورفع درجاتهم وقال (إن تكفروا) أيها الناس مع مشاهدة جميع هذه الأدلة النفسية والأفقية (فإن الله غني عنكم) ولا يعود ضرر كفركم إليه تعالى (وان تشكروا يرضه لكم) لما فيه من موافقة الأمر (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل نفس قابلة لحمل الأثقال أثقال النفس الأخرى (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) إنه عليم بذات الصدور فضلا عما يجري علنا من الأمور .

(وَإِذا مَسَّ الإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ للهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النّارِ(٨) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ؟ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ(٩) قُلْ : يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا في هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ ، وأَرْضُ اللهِ واسعةٌ ، إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ(١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المُسْلِمِينَ(١٢) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(١٣) قُلِ : اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي(١٤) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، قُلْ : إِنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيمة ، أَلا ذلِكَ

هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ)(١٦)

قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّ الإنسان) بيان لحال النوع المتذبذب الغير المستقر فيقول تعالى : (وإذا مَسَّ الإنسان ضر) أي من خوف أو فقر أو مذلة أو هوان (دعا ربه منيبا إليه) أي تضرع إلى ربه ودعاه لكشف ضره ، راجعا إليه ونادما مما كان يعتمد عليه سابقا (ثم إذا خوله) أي أعطاه (نعمة منه) أي نعمة عظيمة لها قدر (نسي ما كان يدعو إليه من قبل) أي نسي الضر الذي كان يدعو الله من قبل لكشفه ودفعه (وجَعَلَ لله أندادا) الأنداد من الأضداد يستعمل بمعنى المثل والضد ، وكلاهما يجوز اعتباره هنا أي وجعل لله شركاء زعمهم مساوين مماثلين له تعالى ، ليضل بذلك الجعل الناس عن سبيله (قل) لهذا الإنسان البعيد عن الإحسان (تمتع بكفرك قليلا) أي متاعا قليلا أو زمانا قليلا (إنك من أصحاب النار) أي من المعذبين بها والمداومين فيها على الاستمرار •

ثم ذكر التباين بين هذا الصنف الفاسد وصنف آخر من الإنسان الماجد فقال (أمن هُو قانت آناء الليل) أي عابد في أوقات الليل بأداء الفرائض والواجبات وغيرها من صلاة الليل (ساجدا وقائما) حالان من فاعل الوصف ، أي حالكونه جامعاً بين الوصفين المحمودين (يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه (قل) له أيضا بيانا للحق : (هل يستوي الذين يعلمون) فيعملون بمقتضى علمهم (والذين لا يعلمون ؟) الأحكام فيعملون على الجهل • وكذا الذين يعلمون ولا يعملون على مقتضى العلوم (إنما يتذكر أولوا الألباب) جملة مستأنفة

لبيان الواقع وحصر التفكر السليم والتذكر المستقيم في أولي الألباب والعقول الخالصة .

(قل : يا عبادي الذين آمنوا) بالله ورسوله (اتقوا ربكم) أي احذروا مخالفة أمر ربكم ونهيه لتكونوا من المحسنين ، فإن (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) بأن أطاعوا الله ورسوله وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي بإخلاص (حسنة) عظيمة لا يقدر قدرها (وأرض الله واسعة) جدا فإن لم يمكنكم الإحسان في أرض ووجدتم سبيلا إلى أرض أخرى أوفق له فتحولوا إليها ، وإذا أتعبتكم موانع فاصبروا (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أي أجرا لم يكن في حسبان المأجور أو أجرا لا يعد ولا يحسب بسهولة .

(قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) فمن تبعني فليعبده موحدا مخلصا ليكون من الناجين (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) في هذه الرسالة ، أو أكون أول وأرقى مسلم من المسلمين لأن حق المتبوع أن يكون رفيع القدر على أتباعه وعظيم الجاه . وجاهدوا حتى تكونوا من الأقربين إلى الأوائل (قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة (قل : الله أعبد مخلصا له ديني) أي عملي وطاعتي (فاعبدوا ما شئتم من دونه) إن أردتم أن تكونوا من الخاسرين .

(قل) يا رسولي (إن الخاسرين) أي الناس الكاملين في الخسران (الذين خسروا أنفسهم) باختيارهم الكفر والضلال والإشراك بالله الواحد المتعال (وأهليهم) أي وخسروا أهليهم أي أولادهم وأتباعهم حيث عرضوهم للعذاب السرمدي (يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسرانُ المبين) الواضح (لهم من فوقهم ظلل) من النار يعني تعلو على رءوسهم لهيب النار كالمظلة

فوق الرءوس (ومن تحتهم ظلل) أي أطباق من اللهيب وتسميتها ظللاً للمشاكلة (ذلك) العذاب والظلل المحيطة بالجوانب (يخوف الله به عباده) في الدنيا لعلهم يتعظون ، ثم يناديهم تأكيدا على حفظ مبادئهم ويقول : (يا عباد فاتقون) بالدخول في الإطاعة الكاملة لنيل المثوبة الحسنى يوم الدين •

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ، وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ؟ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟(١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَعْدَ اللهِ ، لا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ)(٢٠)

قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت) ••• الآية والطاغوت مصدر طغى يطغى، وأصله طغووت على وزن فَعَلوت كالجبروت والملكوت ، فقلب اللام إلى محل العين صار طوغوت ، ثم قلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها • وقال ابن زيد : إن الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلاّ الله : زيد بن عمرو بن نفيل ، وسلمان ، وأبو ذر • وقال ابن إسحاق : أشير بها إلى عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، والزبير • وذلك لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاءوه وقالوا : أسلمت ؟ قال : نعم ، فآمنوا بأجمعهم ، فنزلت فيهم • وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة •

والطاغوت وإن كان مصدرا بمعنى الطغيان فهو كناية عن الشيطان ، والمراد هنا الأصنام الذين أمر الشيطان أولئك الكفار بعبادتهم • وحاصل

المعنى والمؤمنون الذين اجتنبوا الطاغوت أي الأصنام (أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله) وأقبلوا إليه سبحانه وتعالى (لهم البشرى) من الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون ، وبعد ذلك أيضا (فبشر عباد) ي (الذين يستمعون القول فيتبعونَ أحسنهُ) وهنا ثناء جميل بأنهم مميزون بين الحسن والأحسن ويختارون الأفضل بالنسبة الى الثواب في الآخرة ، فإذا سمعوا أمرا بشيء واحتمل الأمر الندب والوجوب حملوه على الثاني للخروج عن العهدة بيقين وأخذ المزيد من الأجر • وإذا دار الحال بين العفو والقصاص اختاروا العفو ، وإذا اختلف في مقدار الدين الواجب عليهم بين الناقص والزائد اختاروا الزائد لبراءة الذمة ، وهكذا (أولئك الذين هداهم الله) إلى سعادة الدارين (وأولئك هم أولوا الألباب) أي العقول السليمة •

ثم ذكر الله تعالى أضداد المذكورين وقال : (أفمن حق عليه كلمة العذاب) كأبي جهل وأمثاله ، والكلمة قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (أفانت تنقذ) وتخرج (من في النار ؟) وفي الآية استعارة مكنية تمثيلية ، حيث شبهت الهيئة المنتزعة من استحقاق جمع من المشركين في الدنيا لعذاب الآخرة ، وجهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إرشادهم وزجرهم عن الإشراك ، وعدم وجود النفع في ذلك بهيئة منتزعة عن جمع واقعين في نار جهنم معذبين ، وسعي الرسول الشفيع لإخراجهم عنها ، وعدم الاستفادة من ذلك لعدم استجابة الباري جل شأنه لذلك لصدور إرادته بعدم المغفرة لمن أشرك به والقرينة هي أفأنت تنقذ من في النار • وحاصل المقصود أن أولئك المشركين المصرين على الإشراك صدرت الإرادة بدخولهم نار جهنم فجهدك في إرشادهم كجهدك في إخراج من في نار جهنم عنها بعد صدور إرادة الله تعالى ببقائه فيها •

وقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) استدراك ودفع لما يتوهم من قلة الفرق والتفاوت بين القبيلين المتقابلين أعني المؤمنين والكافرين على اعتبار أن الفرق كبير جداً لا يدخل تحت التقرير ، وهو ما أفاده بقوله ، (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ، تجرى من تحتها الأنهار ، وعد الله) أي وعدهم الله بذلك وعدا صادقا (لا يخلف الله الميعاد) .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لأُولِي الأَلْبابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ؟ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢) أَللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ، ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ؟ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ؟ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتيهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الحَيوةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ)(٢٦)

قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف لبيان آثار قدرته تعالى من حيث إنزال الماء من السماء وجعله من أسباب تكوّن الينابيع في الأرض سهولها وجبالها ، وإنبات الأشجار والنبات منها ، وفي الوقت عينه لإفادة أن الحياة الإنسانية البادية أولاً بنضارة وبهجة ، ثم عروض العوارض عليها كنبات ينبت بماء السماء ثم يصير حطاما ، أي أن الدنيا متاع مؤقت والآخرة خير وأبقى ، يعني ألم ترَ يا من تمكن منه الرؤية ان الله انزل من السماء ماء (فسلكه) أي أدخله في (ينابيع) وعيون كائنة (في الأرض) كالعروق في الأجساد (ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه) أي أن الأرض أرض واحدة بالصنف ، وكذلك الماء ومع ذلك يخرج الله تعالى حسب إرادته زروعها مختلفة الألوان (ثم يهيج) أي ييبس (فتراه مُصْفَرا) من بعد الخضرة (ثم يجعله حُطاماً) أي فُتاتاً مُتكسِّرة (إن في ذلك) العمل المذكور (لذكرى) لتذكيرا (لأولي الالباب) بخالق قادر مريد مراقب عالم بالجزئيات والكليات إلى غير ذلك مما يبدو للعاقلين .

وقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) إفادة واضحة لانقسام المكلفين الى قسمين فقسم شرح الله صدره للإسلام بعنايته ورعايته على حسب السعي والميل والرغبة الذاتية له نحو الخير (فهو) أي ذلك القسم مستقر (على نور) روحي آتاه (من ربه) إفاضة من رحمته على حسب علمه بحسن نيته وجودة عطفه وعنايته ، وخبر الموصول محذوف مفصول مدلول عليه بما يأتي بقوله (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي ليس من شرح الله صدره وصرف عمره في إطاعة مولاه كمن قسا قلبه وكسلت جوارحه عن أداء واجباته .

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية فقلنا : يا رسول الله كيف انشراح الصدر ؟ قال : « إذا

دخل النور القلب انشرح وانفسح » قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزوله » • وإذا تقرر أن القسمين متباينان وأن الفريقين متخالفان أتى بما يناسب القسم الأخير فقال (فويل) وعذاب هائل (للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي للفرقة القاسية قلوبهم عن ذكره تعالى (أولئك) الناس القساة قلبا (في ضلال مبين) عن الصراط المستقيم ، وفي نكال ووبال وفي العذاب المقيم •

(الله نزلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً مثانيِ تقشعر منه جلودُ الذين يخشون ربهم) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أن قوما من الصحابة قالوا : يا رسول الله حدثنا بأحاديث حِسانٍ وبأخبار الدهر ، فنزلت • وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملّةً فقالوا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ : حدثنا فنزّلت • أي إرشاداً لهم الى مايزيلُ مَلَلهم وهو تلاوة القرآن واستماعه منه غضاً طرياً • بنى الله الكلام على اسم الجلالة إجلالاً للخبر ، وتكثيراً لخيره ، واهتماماً بالحكم • وفي صيغة التفعيل بيان لدفعات نزوله التدريجي المفيد للحكم والمصالح المخصوصة المنصوصة • وقوله (أحسن الحديث) بيان لتفوقه على جميع الكتب السماوية من حيث أنه تعبد بتلاوته ، وتحدي ببلاغته ، وأديم بشريعته مُفصلاً ببيان الأحاديث لاسيما الأحاديث الصحاح الواردة من حضرة صاحب الرسالة التي تخلو من العيوب والريوب• وأبدل عنه (كتاباً) لبيان أنه كتاب من كتبه تعالى الذي يجب الإيمان به واعتبر ركنا من إيمان المؤمن وقوله (متشابها) معناه أنه يشبه بعضه بعضا من حيث الصحة والصدق والفصاحة والبلاغة والاشتمال على الأحكام الاصولية والفروعية وغيرهما من القصص والمواعظ والإرشادات (مثاني) مكررة في التلاوة وفي الصلوات وفي إفادة الأحكام ومكررة في التأثير

للقلوب ، فإن آياته الجليلة كالسيوف المسلولة كلما تليت أثرت في القلوب وساعدت في تفريج الكروب بحيث (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) لتأثير خاص فيها بالرهبة والهيبة الربانية (ثم) بعد برهة من الوقت (تلين جلودهم وقلوبهم) ساكنة راغبة (إلى ذكر الله) ذلك هدى الله يهدي به من يشاء أي ذلك الكتاب وسيلة الوصول الى المأمول الحق يهدي به بإرادته وتوفيقه من يشاءهدايته إلى صراط مستقيم • (ومن يضلل الله) أي يخلق الضلالة فيه بسبب إعراضه عن الإرشاد الحق (فما له من هاد) يهديه ويخلصه من ورطة الضلال •

(أفمن يتقي بوجهه) الذي هو أشرف أعضائه (سوء العذاب ؟) الوارد عليه يوم القيامة وخبر الموصول محذوف أي كمن لا يعذب بل يتنعم في الجنة مع الأحباب وقوله (وقيل للظالمين) جملة مستقلة مستأنفة لبيان تعذيبهم بالقول إضافة الى تعذيبهم بالنار ، أي وقيل للظالمين وهم المتقون بالوجوه سوء العذاب : (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أي وبال وجزاء ما كنتم في الدنيا تكسبونه من السيئات • (كذب الذين من قبلهم) من المشركين (فأتاهم العذاب) المقرر لهم في الدنيا (من حيث لا يشعرون) أي لا يحتسبون مجيئه منه كالبركان والريح والسيل وما شاكلها (فأذاقهم الله الخزي في الحيوة الدنيا) من وجوه كثيرة منها الوجوه المذكورة (ولعذاب الآخرة أكبر) وأشد وأفزع وأفظع من عذاب الدنيا (لو كانوا يعلمون) •

(وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنا عَرَبِيّاً غَيْرَ ذي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً : رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ، وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ؟

الْحَمْدُ للهِ ، بلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعلَمُونَ(٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ؟(٣٢) والَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ(٣٣) لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ(٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذي كانُوا يَعْمَلُونَ(٣٥) أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، ومَنْ يُضْلِلِ **اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ(٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ،** أَلَيْسَ اللهُ بعَزِيزٍ ذِي انتِقامٍ)(٣٧)

قوله تعالى : (ولقد ضربنا للناس) أي ولقد ذكرنا للناس (في هذا القرآن) العظيم من (كل مثل) يحتاجون إليه في الاتعاظ والاعتبار (لعلهم يتذكرون) به ويتقون الله ويطيعونه ورسوله ، حالكون هذا القرآن (قرآنا عربيا) في المفردات والمركبات ، مراعى فيه أسلوب العرب العرباء من حيث المطابقة لمقتضى الحال والمقام (غير ذي عوج) أي غير ذي اختلال فيما ذكر ولا في أصل المعنى والمفهوم (لعلهم) أي الناس (يتقون) أي يتقون مخالفة أحكام الله .

ومن جملة الأمثال المضروبة ما يأتي في قوله الكريم : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) أي جعل الله رجلا مثلا أي ذا قصة بديعة يعتبر بها أعني (رجلا) كان عبدا (فيه شركاء متشاكسون) أي متعاكسون في الرأي وكل منهم يأمره بشيء وينهاه عن شيء لسوء أخلاقهم واختلاف ميولهم

(ورجلا سلما) أي ورجلا خالصا مملوكا (لرجل) واحد يأمره وينهاه (هل يستويان مثلا ؟) أي هل يستويان في الحال والوضع ؟ والجواب : كلا ؛ فإن الأولى في عناء وحيرة وفي جفاء من عدم البصيرة ، فإذا أطاع الكل عارضه جمع الضدين أو النقيضين ، وإذا عصى الكل جعلوه في القيد والغل . والثاني إما في راحة مطلقا إن كان الرجل يأمر بالمستطاع وينهى عنه أو في راحة قلبية وعناء بدني إن كان المأمور به أو المنهي عنه ثقيلا لا يتحمل بسهولة . فالإنسان المشرك كرجل بين شركاء متشاكسين متعاكسين ، والموحد كالإنسان الخادم لمولى واحد شريف ماجد (الحمد لله) على فهم عدم الاستواء بين الجانبين فان ذلك من مقتضيات الفطرة السليمة (بل أكثرهم لا يعلمون) عدم الاستواء بينهما وإن كان من البديهيات ، وذلك لاختلال عقله واعتلال نظره .

وإن لم ينتفعوا بضرب الأمثال وإن كانت من البديهيات فلا تهتم بالمشركين الغرقى في السيئات والضلالات (إنك ميت وإنهم ميتون) إن قريبا أو بعيدا (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فتحتج عليهم ويحتجون ، تحتج بالتبليغ على وجه الأمانة ، ويحتجون عليك بأكاذيب تافهة يردها عليهم الشهداء من أسماعهم وأبصارهم وأرجلهم وأيديهم ، ومن الليل والنهار ، ومن ملائكة الجبار (فمن أظلم ممن كذب على الله) بأن أضاف إليه اتخاذ الولد أو الشريك (وكذب بالصدق) أي وكذب بالأمر الذي هو الحق والصدق من التوحيد لرب العالمين (إذ جاءه) ذلك (أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟) .

(والذي جاء بالصدق) وهو التوحيد أو القرآن المشتمل عليه (وصدق به ، أولئك هم المتقون) والموصول هو الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالدرجة الأولى ، وأصحابه بالدرجة الثانية والتابعون بالدرجة الثالثة .

وهكذا فإن كلا من الكل جاء أصالة أو وكالة في التبليغ بما ذكر وصدق به والحمد لله • (لهم ما يشاءون عند ربهم) من المثوبة الحسنى وزيادة عليها (ذلك جزاء المحسنين) الذين عبدوا ربهم كأنهم رأوه (ليكفر الله عنهم) بحسن ما قاموا به (أسوأ الذي عملوا) على فرض وجوده (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) فيأخذ الباري تعالى من عباداتهم أحسنها ويجزيهم على مستواه • وإذا خوفوك ببعض الأمور التي توجب القلق في النفس من قتلك أو قتل أتباعك ، أو إيذائك أو إيذائهم فلا تهتم بهم (أليس الله بكاف عبده ؟) لمعارضة الأعداء المتوعدين بالمخاوف والمهالك والجواب بلى ؛ فإنه هو الكافي حسبنا الله ونعم الوكيل (ويخوفونك) على تقاليدهم الخرافية (بالذين من دونه) أي لوصول الأذى إليكم من الذين يدعونه من دونه ولكنه لا قيمة لتخويفهم ولا لتهديدهم (ومن يضلل الله) عن طريق الحق والاستنصار بالحق (فماله من هاد) إلى الطريق السليم وهو الاستنصار بالناصر الحق المبين (ومن يهد الله) إلى التوكل عليه والرجوع إليه (فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟) ينتقم من أعدائه الضالين لأوليائه المهتدين •

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ؟ لَيَقولُنَّ اللهُ ، قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؛ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرادَني بِرَحْمَةٍ ، هَل هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ

لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)(٤١)

قوله تعالى (ولئن سألتهم : من خلقَ السموات والأرض ؟ ليقولُن : الله) أي خلقهن الله • وذلك لوجود الأدلة الواضحة من الآفاق والأنفس على أن نوع الممكنات يحتاج إلى فاعل مؤثر فيها يرجح الوجود على العدم • (قل)تبكيتا لهم (أفرأيتم ما تدعون من دون الله ؟) من الأصنام (إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضُره ؟) ويقدرن على منع تأثير قدرته أو إزالة ما أثبته على نفسي من المضار (أو أرادني) أي أرادني (برحمة) من المال أو الأولاد أو الجاه أو القربة إليه (هل هُن مُمسِكات رحمته ؟) وفي واقع الحال الجواب نفي للمجال • فإذا آل الأمر إلى صاحب الخلق والأمر فقل (حسبي الله) جاذب البلاء وجالب النعماء ، حسبى الله خالق كل شيء من النور والفيىء ، حسبي الله وبه يؤمن المؤمنون (وعليه يتوكل المتوكلون) فإذا قررت هذا فتوجه إلى الناس و (قل : يا قوم اعملوا) ما شئتم (على مكانتكم) وحالتكم التي أنتم عليها (إني عامل) على حسب وحي العليم العلام الكامل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم) ولا شك أنه المنحرف عن الصراط المستقيم •

(إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس) كافة عامة فإنه مناط سعادتهم في الدارين ، وأنزلناه متلبسا (بالحق) وهو العدل الشامل ، أو أنزلنا بالحق وهو التوحيد لله الكامل (فمن اهتدى) للعمل بما فيه (فلنفسه ، ومن ضل) عن طريق العمل به (فإنما يضل عليها) أي على خسارة نفسه (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم ، وإنما أرسلت لتبلغهم وما على الرسول إلا البلاغ المبين •

(أَللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ، وَالَّتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الأُخْرى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ، إنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ ؟(٤٣) قُلْ : للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ، لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ، وَإذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(٤٦)

قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) أي يقبضها ويأخذها ويقطع فعلها وتصرفها عن الأبدان حين حلول أجل موتها فتستقر في عالم الأرواح مع بقاء علاقتها بأبدانها تعلقا برزخيا (والتي لم تمت في منامها) يعني ويتوفى ويقبض الأنفس التي لم تمت في حال منامها أي يمنعها عن الفعل والتصرف الإعتيادي في الأبدان بالقيام والقعود والتكلم المنتظم والكتابة وغيرها مما هو المعتاد (فيمسك التي قضى عليها الموت) إلى وقت البعث والنشور (ويرسل الأخرى) أي المقبوضة عند المنام إلى البدن (إلى أجل مسمى) أي إلى منام آخر فيتوفاها أيضا ، وهكذا إلى الأجل المحتوم للقبض النهائي بالموت (إن في ذلك) القبض والإمساك والإرسال (لآيات) بينات على قدرته تعالى (لقوم يتفكرون) فيعلمون أن الإنسان نفسه وأوصافه وأحواله كلها من الله سبحانه وتعالى .

لا شك أن الشارع أمسك عن بيان الروح ، فنمسك عن تفاصيلها ، ولكن المعلوم بالأدلة أن الجسد الحيواني والإنساني لما كمل تركيبه واعتدل مزاجه تعلقت به الروح وهذه الروح سواء كانت إنسانية أو حيوانية جسم لطيف عند جمهور المسلمين ، سار في البدن سريان الماء في الورد ، وعند بعض المحققين كالإمام الغزالي رحمه الله تعالى : جوهر مجرد متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وهي في كل الحيوانات كذلك . والبخار الناشىء من التجويف الأيسر من القلب من شروط تعلق الروح بالأبدان . ولكن الأرواح تختلف في القابليات الى درجات عديدة لا يعلمها إلا الله تعالى . والأرواح على الإطلاق مشغولة بتدبير البدن والتصرف حالا ومآلا باستعمال الحواس والمشاعر وبالفكر والنظر في حال اليقظة والقوة ، فإذا تعبت الحواس وما أنيط بها من الأبدان أراحها الله تعالى بالاستيلاء على أرواحها وإغفالها عن تدبير الأبدان . وهذا الإستيلاء توفية وقبض للأرواح ، لكن لا قبضاً إخراجيا بقطع العلاقة ، وإنما هو قبض واستيلاء عليها بمنعها عن الاستفادة من الحواس والمشاعر ، فإذا تمت مدة الاستراحة أعادها الله إلى حالتها الأولى . وإذا جاء الأجل المسمى لحياة صاحبها توفّاها وقبضها قبضاً نهائيا إلى يوم البعث والنشور .

ولكن أرواح الأنبياء والرسل الكرام ــ عليهم الصلاة والسلام ــ طلقاء في الكائنات في الأرض والسماوات والجنة والعرش أينما شاءت لاحبس عليها ، ومع ذلك لها تعلق بالأبدان تعلقا فوق تعلق أرواح الصديقين والشهداء والصالحين ، فإذا زارهم الزائرون انتبهوا بأمر الله تعالى لرد السلام ، وإذا صلى على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مسلم في مشارق الأرض أو مغاربها أخبر بذلك وأجابه اجابة برزخية لائقة بمقامه الرفيع . وكذلك أرواح من عداهم على اختلاف درجاتهم ، فالأموات في القبور

كالأحياء وراء الستور ، فلهم إدراك للزائرين بأمر الله تعالى ، لأن للروح علاقة بهم، والروح خالدة لا تفنى أبداء ويكفي في صدق ذلك قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر عندما قال له كيف تتكلم معهم (أي قتلى بدر من المشركين) وهم جيف ؟؟: « والذي نفسي بيده إنكم لستم بأسمع منهم ولكن لا يطيقون الجواب » .

(أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟) أي أبل اتخذ قريش من دون الله تعالى شفعاء تشفع لهم عند الله تعالى لدفع العذاب عنهم يوم القيامة (قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ؟) يعنى قل لهم أو يتخذونهم شفعاء إذا علموا أنهم لا يملكون شيئا من المنفعة ولا يعقلون شيئا من المعقولات ؟ (قل) لهم يا حبيبي : (لله الشفاعة جميعا) أي كل شفاعة سواء في الدنيا أو الآخرة ولا علاقة لها بأحد مطلقا إلا بإذن الله ولا يأذن لأحد يشفع إلا لعبد مطيع مخلص صرف حياته في مرضاته ، لأن الشفاعة صفة تحدث في الكائنات و (له ملك السموات والأرض) وما فيهما (وإليه ترجعون) فتطلعون على حقيقة كلام رب العالمين .

ثم ذكر الله تعالى بعض أوصافهم الذميمة فقال (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت) أي انقبضت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة (وإذا ذكر الذين من دونه) وهم الأصنام (إذا هم يستبشرون) لزيادة محبتهم لهم وافتتانهم بهم .

(قل : اللهم فاطرَ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أمر الله تعالى حبيبه بهذا الدعاء تسلية له عن مقاساة شدائد أقوال المشركين وأعمالهم الفاسدة ، وعقائدهم الباطلة فإذا تعب الإنسان وانقبض قلبه فاللجوء إلى الله دواؤه وشفاؤه .

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما في الأَرْضِ جَمِيعاً ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ(٤٧) وَبدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٤٨) فَإِذَا مَسَّ الإنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ، ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قال إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ! بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٤٩) قَدْ قالَها الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ(٥٠) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥١) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٥٢)

قوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا) بيان لفظاعة العذاب الذي يرد عليهم يوم القيامة إذا حكم الباري تعالى بينهم • يعني ولو أن للذين ظلموا أنفسهم بالإشراك به تعالى (ما في الأرض جميعا ومثله معه لافْتَدَوا به مِن سُوءِ العذاب يوم القيامة) اي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد (وَبَدا لهم مِن اللهِ ما لَم يكونوا يحتسبُون) أي ظهر لهم من صنوف العقوبات ما لم يكن في حسابهم زيادة في الوعيد • (وَبَدا لَهُمْ سيئاتُ ما كسَبوا) حين اطلعوا على الحقيقة (وحاق بهم ماكانوا بهِ يستهزءُون) أي وأحاط بهم جزاؤه (فإذا مَسَّ الإنسان ضرٌّ دعانا) لكشفه (ثم إذا خولناه) أي أعطيناه (نعمة مِنا قال : إنما أوتيته على علم) أي على ما كسبته بمقتضى علمي بالأمور وشئون التصرف في

المكاسب والأعمال (بل هي فتنة) أي بل ذلك امتحان وبلوى من رجح الحق على الباطل نجح ، ومن عكس الأمر افتضح (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كذلك • (قد قالها الذين من قبلهم) أي قد أضاف النعمة الى علمه بعض من سبق في جهله وحلمه (فأصابهم سيئات ماكسبوا) أي أصابهم جزاء ماقالوا وما فعلوا (والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا) كما أصاب السابقين (وما هم بمعجزين) العزيزَ المنتقم أبدا (أو لم يعلموا أن الله يبده مقاليد السموات والارض ، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسط له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدر له ، ولا دخل لأي شخص وأيّ شيىء في ذلك إلا بالتسبب المعتاد وأن الله هو المسبب لها (إن في ذلك لآيات) تدل على أن الحوادث كلها من الله وتلك الآيات حجة نافعة (لقوم يؤمنون) •

(قُلْ : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ(٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ(٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ)(٥٩)

قوله تعالى (قل يا عبادي) أي قل لهم على لساني يا عبادي الذين أفرطوا في المعاصي جانين عليها (لا تقنطوا من رحمة الله) ولا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتعالى (إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم) أي لا تقنطوا فتظنوا أنه لا تقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى (وأسلموا له) وانقادوا وأطيعوه (من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) • أخرج ابن جرير عن ابن عمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا ، فنزلت هذه الآيات ، وكان عمر ــ رضي الله عنه ــ كاتبا فكتبها بيده ، ثم كتب بها إلى عياش والى الوليد والى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا • واخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث (قل يا عبادي) الى (وأنتم لا تشعرون) بالمدينة في وحشي وأصحابه وتخلل قوله (إن الله يغفر الذنوب جميعا) بين المتعاطفين تعليلا للجزء الأول قبل الوصول الى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى ، وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لاسيما وقد عقب بقوله تعالى (إنه هو) ••• الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ ، فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر ، ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلى باللام وقد أكد بما صار نصا في العموم والاستغراق •

(واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) إذا كان الخطاب للجنس على خلاف الظاهر فالمراد بما أنزل الكتب السماوية ، وبأحسنه القرآن ، وإن كان الخطاب للمخاطبين في أول الآية فالمراد بما أنزل هو القرآن ، وأحسنه

ما تضمن الإرشاد إلى التوحيد والإخلاص في الطاعة والتخلق بالأخلاق الحسنة • وذلك الاتباع (من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة) أي مفاجأة (وأنتم لا تشعرون) بمجيئه • وقوله (أن تقول نفس) في موضع المفعول له بتقدير مضاف وهو كراهة مثلا ، وهو منصوب بفعل محذوف أي أنذركم بأحسن ما أنزل إليكم من ربكم كراهة أن تقول نفس (يا حسرتي) بالألف بدل ياء الإضافة (على ما فرطت) أي بسبب تفريطي وقصوري (في جنب الله) أي في جهته (وإن كنت) أي وإني كنت (لمن الساخرين) أي المسخرين، أي المستهزئين بكتاب الله ورسوله (أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين) من الشرك والمعاصي (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة) أي رجوعا إلى الدنيا (فأكون من المحسنين • بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت) أي عن قبولها (وكنت من الكافرين) •

(ويَوْمَ القِيامةِ تَرى الَّذِينَ كَذَبُوا على اللهِ وجُوهُهُمْ مُسْودَّةٌ ، أليْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلمُتَكبِّرِينَ ؟(٦٠) ويُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦١) أللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(٦٢) لَهُ مَقالِيدُ السَّمواتِ والأرْضِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ أولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ(٦٣) قُلْ : أفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أعْبُدُ أيُّها الجاهِلُونَ ؟!(٦٤) ولَقَدْ أُوحِيَ إلَيْكَ وإلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ : لَئِنْ أشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ(٦٥) بَلِ اللهَ فاعْبُدْ وكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ(٦٦) وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، والأرْضُ جَمِيعاً

قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمينِهِ ، سُبْحانَهُ وتَعالى عَمَّا يُشْرِكونَ !)(٦٧)

قوله تعالى (ويوم القيامة) عود على سننه القويمة من مزج الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ليتخذ المعتبرون طريق السعادة ويتوجهوا إلى هدف الطاعة فيقول : (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) باتخاذ الولد والشريك حالكونهم (وجوههم مسودة) سوادا واقعيا من جزاء تبديل لون الصورة في مقابلة تبديلهم الفطرة السليمة بسوء السيرة أو سوادا عارضا مثل ما قال (خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة) وقال (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) فيقال مستنكرا من جانب الباري أو الملك المأمور (أليس في جهنم مثوى) أي مقام (للمتكبرين) عن طاعة الله العلام ؟ والجواب الحق (بلى) •

(وينجي الله الذين اتقوا) عن الكذب على الله (بمفازتهم) بسبب فوزهم برضاء الله تعالى فيخلصون عن السواد والغبرة على الوجوه (لا يمسهم السوء) أي العذاب أيّاً كان (ولا هم يحزنون) على عمل فاسد لأنهم لم يرتكبوا المفاسد •

(ألله) الذي نجاهم هو (خالق) كل شيىء وحده فهو المعبود وحده (وهو على كل شيء وكيل) متول وكفيل (بيده مقاليد السموات والارض) أي مفاتيحهما ، والمقاليد جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ، وجعل اسما للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) من حيث الاطمئنان النفسي في الدنيا والراحة في الآخرة •

(قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟!) بالآيات البينات الدالة على وحدة المعبود (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك) من الأنبياء والمرسلين (لئن أشركت ليحبطن عملك) ولئن أشركتم ليحبطن أعمالكم (ولتكونن من الخاسرين) وهذا الإيحاء حق في ذاته وتعريض للمشركين به تعالى (بل الله فاعبد) والفاء جزائية لشرط مقدر ، أي إن كنت عابدا فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا عنه (وكن من الشاكرين) لإنعامه عليك بما لا يعد ولا يحصى (وماقدروا الله حق قدره) أي وما عظموه حق تعظيمه (والأرض جميعا قبضته) والجملة حالية أي ما عظموه والحال إنه كذلك . أي له السلطان الباهر بحيث أن الارض جميعها بطبقاتها القشرية والصخرية وغيرها مادة حقيرة صغيرة في كف قدرته الجبارة القوية (والسموات مطويات بيمينه) من غير سقوط ما في قبضته عنها (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي عن إشراكهم بذات صاحب سلطان كذلك . والطي باليمين مفسر باللف والإمحاء بقدرته تعالى .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ(٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ، وَوُضِعَ الْكِتابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ)(٧٠)

قوله تعالى (ونفخ في الصور) المشهور أن النافخ فيه ملك واحد واسمه إسرافيل ــ عليه السلام ــ ، بل حكى القرطبي الإجماع عليه (فصعق من في السموات ومن في الأرض) في الأساس صعق الرجل إذا

غشي عليه ، وقد نقلنا سابقا الحديث الشريف حول الموضوع ، وأنه عندما سمع الصوت يغشى على الناس فيموتون اينما كانوا (إلا من شاء الله) وهم الأربعة المقربون ، وحملة العرش (ثم نفخ فيه) أي في الصور (أخرى) أي نفخة أخرى بعد مدة أربعين سنة (فإذا هم قيام) من أماكن دفنهم (ينظرون) بعضهم الى بعض أو ينتظرون ما يؤمرون ، أو ينتظرون ماذا يفعل بهم (وأشرقت الأرض) أي أرض المحشر وهي الأرض المصفاة عن الجبال والأوهاد والتلال الصافية جدا ، كما يستفاد من قوله تعالى (ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) وحينئذ يجوز أن تكون أرض المحشر نفس الأرض السابقة ، ولكنها بدلت بأن أحدث فيها صورة أخرى ، وتكون بحيث تسع الخلائق المحشورة . ويجوز أن تبدل بأرض أخرى ذاتا وصفة وصورة ، وتكون أوسع من أرض الدنيا بما لا يعلمه إلا الله كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض) وعلى هذا تكون المغايرة ذاتا وصفة ، وعلى الأول تكون المغايرة وصفا فقط . والله تعالى قادر على كل شيء ، وقد أضاءت هذه الأرض وأشرقت (بنور ربها) أي بنور حادث من أمر ربها لا بالشمس والقمر ، لأن الشمس كورت والنجوم انتشرت ، وهذا النور حادث من الأمر الإبداعي لله تعالى ، وروي أن العالم يكون كما بين الطلوعين في وقت الربيع الصحو الصافي عن الغبار (ووضع الكتاب) أي كتاب حساب المكلفين وهي صحائف أعمالهم ونسخة منها سلمت لأصحابها إما من اليمين إن كان صاحبها أمينا ، أو من الظهر أو اليسار إذا كان من أهل الخيانة (وجيء بالنبيين والشهداء) فيؤتى بالنبيين لا للمحاسبة بل ليسئلوا عن أحوال الأمم التي بلغوها أحكام الله تعالى كما قال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب)

وليشهدوا للأنبياء الآخرين على أممهم بالتبليغات أو ليحضروا محاسبة أممهم حتى إذا كان منها إنكار رده الأنبياء الأبرار . والمراد بالشهداء إما شهداء للناس على الناس من الملائكة والناس ، أو الشهداء المتوفون في الحرب ، ومجيئهم للتشريف ، وقد يكون للشهادة على من قتلهم غيلة أو قتلهم ظلما ، أو قتلهم في ميدان الجهاد . ويحتمل احتمالا قريبا أن يكون المجيىء بالشهداء للشهادة على الأمم الكافرة المكذبة بالدين والله أعلم (وقضى بينهم بالحق) أي بين العباد بالحق (وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شيىء لا يعلمه لكن لجريان سنته بالمحاكمة بين الناس حسب شريعته المحكمة .

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّى إِذَا جاءُوها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ : خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ؟ قالُوا : بَلى ، ولكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (٧١) قيلَ : ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها ، فَبِئْسَ مثوى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إِلى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حتَّى إذا جاءُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (٧٣) وَقالُوا : الحَمْدُ للهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْملئِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَولِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وقِيلَ : الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ)(٧٥)

قوله تعالى (وسيق الذين كفروا إلى جهنم) تفصيل لقوله الكريم (ووفيت كل نفس ما عملت) وتوفية ذلك بأنه سيق أي يساق الذين كفروا إلى جهنم بسوق ملائكة العذاب ، وتفصيل كيفية السوق وزمانه ومكانه عند الملك العلام • وقوله (زمرا) أي زمرة زمرة وفوجا فوجا ، ومجمله أنهم يساقون إليها بالعنف والإهانة أفواجا متفرقة بعضها إثر بعض ، والأفواج تحتمل الترتيب على إنكار الذات الواجب أو الإقرار به مع الإشراك به ، أو إنكار الرسل أو سائر أركان الإيمان ، أو بحسب فظاعة الإجرام والمعاصي من القتل والتعذيب للأبرياء أو ارتكاب الفواحش أو نهب الأموال أو البهتان وهكذا • ويمكن أن تكون الأفواج مرتبة على ترتيب الرسل ثم يرتب كل أمة على ماذكرنا • والزمر جمع زمرة بمعنى الجماعة (حتى إذا جاءوها) أي وصلوا إلى الجنة (فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها) أي الملائكة البوابون أو خزنة جهنم وزبانيتها على سبيل التوبيخ : (ألم يأتكم رسل منكم) أي من جنسكم ونوعكم وبني عشيرتكم يعرفكم وتعرفونه (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) أي وقتكم هذا (قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب) أي الحكم الرباني بالشقاء الموجب للعذاب (على الكافرين) أي علينا نحن لكفرنا والعياذ بالله (قيل : ادخلوا أبواب جهنم) أي فليدخل كل منكم من بابها الذي اختص به حسب مراتب الإجرام (خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أي وبئس مثواهم جهنم •

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَراً) أي جماعات مرتبة حسب درجات فضلهم ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في

السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل » (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) والجملة حال أي جاءوها وقد فتحت أبوابها لهم كقوله تعالى جنات عدن مفتحة لهم الأبواب (وقال لهم خزنتها : سلام عليكم) أي من جميع المكاره والآلام ، وهو يحتمل الإخبار والإنشاء (فادخلوها خالدين) أي مقدرين الخلود (وقالوا : الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أي الحمد لله الذي صدقنا وعده بالبعث والحساب اليسير والدخول في الجنة وأورثنا أرض الجنة نتبوأ حيث شئنا منها (فنعم أجر العاملين) وهذا من كلام الداخلين ذكروها في مقام التحدث بنعمة قبول العمل فضلا ورحمة واعتبارهم عاملين (وترى الملئكة حافين) أي محدقين أي محيطين مصطفين (من حول العرش) بجوانبه (يسبحون بحمد ربهم) أي يسبحونه ويحمدونه لأن الباء للملابسة ، ولا يمكن الملابسة بالحمد في آن التسبيح فمعناه متلبسين بالحمد بعد التسبيح فوراً فيئول الأمر إلى معنى يسبحونه ويحمدونه بلا فصل • أي يقولون سبحان الله والحمد لله (وقضي بينهم) أي بين العباد المختلفين في الدنيا (بالحق) وقال بعض بين الملائكة فإنهم وإن كانوا معصومين لكن لهم درجات مختلفة في الفضل والثواب • والمعنى أعطي كل واحد منهم ما يناسب مقامه من الفضل الروحي والثواب المناسب • وقيل من جانب العباد (الحمد لله رب العالمين) على ما قضي بينهم بالحق وأوصل كلا إلى مقامه المناسب •

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

سورة غافر ، مكية وهي خمس وثمانون آية

نزلت بعد الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم(١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٢) غافِرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوْبِ ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذي الطَّوْلِ ، لا إلهَ إلاَّ هُوَ إلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣) ما يُجادِلُ فِي آيات الله إلاَّ الَّذين كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ(٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيأْخُذُوهُ ، وَجادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ ؟(٥) وَكذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّار)(٦)

قوله (حـم) بتفخيم الألف أى قراءتها على الاستقامة لا على وجه الإمالة وسكون الميم . والكلام فيه هو الكلام في نظيره (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) إما خبر عن حم ، أو خبر مبتدأ محذوف راجع إلى القرآن الكريم المعهود المعروف بين المسلمين ، والعزيز العليم نعتان ، وكذلك

قوله (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول) والأوصاف لكونها مستعملة بدون قصد الحدوث بل بقصد الاستمرار كانت كالأسماء الجامدة فإضافتها معنوية مفيدة للتعريف مصححة لكونها نعوتا لاسم الجلالة • وذكرها كذلك للترغيب والترهيب • والتوب مصدر بمعنى التوبة • وتوسيط الواو بين الاولين لإفادة الجمع بين الوصفين وأن مغفرة الذنوب ليست متوقفة على التوبة ، فإن شاء عفا بدون التوبة ، واذا تاب العاصي جاز ردها وعدم قبولها • والطول التفضل بترك العقاب عن المستحق (لا إله الا هو) فهو المعبود لانه هو الخالق المستحق للمعبودية من حيث أنه واجب الوجود وما سواه مستفاد من ارادته وقدرته فلا يُعْبَدُ قطعا و (إليه المصير) فقط لا الى غيره •

(ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا) أي ما يجادل في آياته تعالى لغرض ردها والطعن فيها ومنع الناس عن الايمان بها الا الذين كفروا بها (فلا يغررك تقلبهم) ونفوذ أقاويلهم في قلوب أمثالهم من الجهلة ومشايعتهم لهم بعضهم لبعض ووصول أخبارهم أو نفوذ كلامهم (في البلاد) فإن البلاد قيمتها بأهل الرشاد لا بأهل السفه والبغي والعناد • وهم يمهلون مدة من الزمن ولكن لا يهملون فيؤخذ منهم من جانب العزيز المنتقم وهو شديد الأخذ (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) أي وكذبت الاحزاب من بعدهم يعني الكفار المتحزبين على معاداة الرسل كعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم فأهلكهم الله وأبادهم وكذلك من يمشي مشيتهم يغشاه من العذاب ماغشيهم (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أي ليتمكنوا من ايقاع ما يريدون به من السوء وجادلوا بالباطل (ليدحضوا به الحق) أي ليزيلوا به دين الله الحق (فأخذتهم) بالاهلاك (فكيف كان عقاب ؟) كان عقابا صارما خارجا عن الحساب (وكذلك) أي وكما وجب حكمه على

الكفار الذين سبقوا (حقت كلمة ربك) أي حكمه بالاهلاك (على الذين كفروا) في عهدك (أنهم أصحاب النار) أي لأنهم أصحاب النار ومستحقون للتعذيب فيها .

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ، وَمَنْ حَوْلَهُ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا : رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ؛ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتبعوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)(١٠)

قوله تعالى (الذين يحملون العرش) مبتدأ يأتي خبره ، والعرش في عرف الشرع جسم عظيم له قوائم ، ومعرفة حقيقته موكولة الى الله العليم ، وهو في الكبر بحيث يعد الكرسي وما فيه وما تحته من السماوات والارض بالنسبة اليه كحلقة في فلاة (ومن حوله) أي والذين من حول العرش وهم ملائكة ولا يعلم عددهم الا الله (يسبحون بحمد ربهم) أي يسبحون الله ويحمدونه ويؤمنون به إيمانا كاملا بمعناه التام وهذا التقييد للتشريف (ويستغفرون للذين آمنوا) فإن المؤمنين إخوة ولو كان أخ وليد عالم الخلق والآخر وليد عالم الأمر قائلين : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) يعني

لا يفوت من علمك شيىء ولا تقصر رحمتك عن شيىء (فاغفر للذين تابوا) أي رجعوا إليك من الكفر الى الايمان ومن العصيان الى الطاعة والاحسان (واتبعوا سبيلك) أي واستقاموا على سلوك سبيلك وهو الصراط المستقيم (وقهم) أي واحفظهم (عذاب الجحيم • ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح) أي ووعدت به من صلح (من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز) أي الغالب المطلق (الحكيم) ذو الحكمة في كل تصرفاتك (وقهم السيئات) أي واحفظهم من العذاب الوارد على السيئات ، أو احفظهم من العقوبات التي هي سيئات وأمور صعبة غير مرغوبة على الانسان (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تحفظه من العقوبات يوم القيامة فقد رحمته (وذلك هو الفوز العظيم) أي الظفر بالسعادة ظفرا عظيما جليل القدر عند كل مؤمن برب العالمين • (إن الذين كفروا ينادون) يوم القيامة عند تعذيبهم في جهنم (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) المقت البغض الشديد • يعني إنكم كنتم عندما يدعوكم الرسول الى الإيمان بالله وحده فتكفرون به بدلا عن الايمان أبغضتم أنفسكم وعاديتموها أو لما دعي انسان الى خير فامتنع فمعناه أنه يعادي نفسه بنفسه فأبغضكم الله سبحانه جزاء لذلك ، ولكن بغض الله لكم أكبر وأشد وأشق عليكم من بغضكم لانفسكم لان بغضكم لانفسكم كان بمنعها عن الايمان ولكن بغض الله لكم صار عذابا ووبالا ونكالا عليكم في دار الآخرة الى الابد •

(قَالُوا : رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ، فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ(١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ

تُؤمِنُوا ، فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ، ذُو الْعَرْشِ ، يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(١٧)

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين) أي خلقتنا أمواتا في بدء الخليقة حيث كنّا نطفة في صلب الآباء وترائب الأمهات ، وأحدثت فينا الموت مرة ثانية عند انقضاء آجالنا (وأحييتنا اثنتين) إحياءة عند نفخ الروح فينا في بطون أمهاتنا ، وإحياءة عند البعث من القبور ولـمّا أحييتنا للمرة الثانية للبعث النشور وكنا قد أنكرناها في الدنيا (فاعترفنا بذنوبنا) واجرامنا من حيث نكار البعث الذي علمناه قطعا (فهل الى خروج من سبيل ؟) أي فهل هناك سبيل وطريق الى خروجنا من هذه النار ورجوعنا الى الحياة السابقة حتى نطيع رسولك ونؤمن بكل ما أتى به من عندك وجواب هذا الاستفهام بالنفي القطعي ، أي لا سبيل لكم إليه ، ويجب عليكم الاستمرار في العذاب (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده) بلا ملابسة الشريك (كفرتم) بتوحيده (وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير) وهذه الجملة اما مخرجة في مقام اظهار الأسف كما هو المعتاد أي ماذا نقول بعد أن تحقق القضاء بكفركم ؟

أو معناها فما دام أنتم كفرتم بالتوحيد وآمنتم بالإشراك على خلاف ما هو المشروع فالحكم بوجوب بقائكم في النار لله العلي الكبير الجبار .

(هو الذي يريكم آياته) أي يجعلكم بحيث ترون آياته الدالة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية (وينزل لكم من السماء رزقا) أي سبب رزق وهو المطر وبه تنبع المياه من العيون وينبت النبات والاشجار المثمرة والزراعات والفواكه (وما يتذكر) بتلك الآيات البينات (الا من ينيب) أي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) من الشرك (ولو كره الكافرون) .

وقوله (رفيع الدرجات) خبر لمبتدأ محذوف أي هو رفيع الدرجات أي درجات صعود ملائكته من الارض الى السماوات فإلى العرش . وقيل : درجات ثوابه لأهل طاعته من أنبيائه الى أوليائه الى صلحاء عباده ، فهناك درجات ، وكل قوم واقع على درجة ، وكل شخص متصف بمقام خاص كما قالت الملائكة (وما منا إلا له مقام معلوم) وقيل معناه رفيع الصفات ، وقيل معناه رفيع الدرجات أي له درجات لعباده في معرفة ذاته وصفاته ، فمنهم من يعرفه بوجوه واعتبارات وضيعة حسب مستواه العلمي ، ومنهم من يعرفه بشئون أعلى من ذلك ، فمثله كمثل جوهر معدني له آثار وصفات" خاصة مختلفة لا يعرفها الا المتخصصون بها . وقيل : انه عالي الجاه ومرتفع المقام ، ومن العباد اليه مقامات معنوية كثيرة لا تتناهى ولا يمكن طيها ، فغاية ما يصل اليه العبد هو العرش وهو (ذو العرش) وصاحبه وخالقه ولا يناسب مقامه لأنه موصوف بوجوب الوجود فلا علاقة له بما هو ممكن خاص يستوي في حقه العدم والوجود (يلقي الروح) أي الوحي (من أمره على من يشاء من عباده) أن يكون مظهرا لتلك الروح (لينذر يوم التلاق) أي لينذر عباده بعذابه يوم لقائه في الآخرة (يوم هم بارزون) أي ظاهرون

ذاتا وأعمالا (لا يخفى على الله منهم شيء) أما ذواتهم فبذواتهم ، وأما أعمالهم فبما كتب في سجلهم (لمن الملك اليوم ؟) أي يقال من جانب العزيز الجبار : لمن الملك اليوم ؟ ويجيب عنه ذاته المتعال فيقول : (لله الواحد القهار . اليوم) أي في هذا اليوم (تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب) .

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ، كاظِمِينَ ، ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ(١٨) يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ(١٩) وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ(٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ ، إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ)(٢٢) .

قوله تعالى (وانذرهم يومَ الآزفة) الآزفة القريبة ، أي وأنذرهم بما يقع من العذاب يَومَ الساعةِ الآزفة (إذ القلوب لدى الحناجر) بدل من يوم الآزفة ، أي زمان كون القلوب لدى الحناجر يعني أنهم من شدة خوفهم تقرب قلوبهم من حلاقيمهم ويكاد أن يموتوا . وقوله (كاظمين) حال من القلوب بتقدير أصحابها أي حالكون أصحاب القلوب ماسكين عليها حتى لاتخرج من فزعهم (ماللظالمين من حميم) أي ليس لمن ظلم نفسه في الدنيا بالكفر والاشراك من قريب

مشفق ينفعه بماله أو مقاله (ولا شفيع يطاع) من الله في شفاعته لهم (يعلم خائنة الأعين) أي النظرة الخائنة كالنظر الى وجه المرأة الأجنبية عمداً (وما تخفي الصدور) أي وما تخفيه الصدور من العزم على العداء بغير حق، واضرار شخص بلا موجب مشروع (والله يقضي بالحق) لأنه يقضي على علمه بالحقائق قضاء موافقا للعدل ، فهو دائما يقضي بالحق (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيىء) رحم الله من قال ان السالبة لا تقتضي وجود الموضوع • فالقضاة في هذه القضية جمادات لا وجود لهم بصفة كونهم قضاة في الحقائق حتى يقضوا بشيىء (إن الله هو السميع البصير) تقرير بعلمه بخائنة الأعين •

(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أي مآل الذين كذبوا الرسل من قبلهم (كانوا هم أشد منهم) أي من قريش وأشياعهم (قوة) في المال والعدَد والعُدَد وكانوا مسيطرين على بلاد غنية بالحاجيات والكماليات (وآثارا في الارض) مثل المدن المحصنة ، والقلاع المستحكمة ، والارزاق المتوفرة (فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق) أي حافظ يحفظهم من تلك الأخذة الشديدة (ذلك) الاخذ (بأنهم) أي بسبب أنهم (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي المعجزات أو الآيات الواضحات (فكفروا بها فأخذهم الله انه قوي شديد العقاب) أعاذنا الله من سوء الحساب •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وسُلْطانٍ مُبِينٍ(٢٣) إلى فِرْعَوْنَ وهامانَ وقارُونَ ، فَقالُوا : ساحِرٌ كَذّابٌ(٢٤) فَلَمّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا : اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ ، وَماكَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاّ في

ضَلالٍ(٢٥) وقالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسادَ(٢٦) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ(٢٧) وقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ؟ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ)(٢٨)

قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) هي معجزاته الباهرة القاهرة لأكبر طاغ في البلاد (وسلطان مبين) أي قوة قوية واضحة ، إما تفسير وبيان لما قبله ، وإما عبارة عن الحجج الظاهرة منه عند الكلام مع فرعون (إلى فرعون وهامان) وزيره (وقارون) وكان مقدم جنود فرعون • وخصهم بالذكر لانهم كانوا أصحاب الامر والرأي (فقالوا : ساحر كذاب) أي هو ساحر في إبداء هذه الامور المعجزة ، وكذاب في دعوى أنه رسول الله (فلما جاءهم بالحق من عندنا) أي فلما استمر على دعواه وبلغهم من جانب الله تعالى ما أمر بتبليغه (قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أي أعيدوا عليهم ما تعودتموه من القتل والفتك والإزعاج والإزهاق والارهاب وحرب الانفس والاعصاب (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) من المطلوب ولا يصل الى جانب المقصود •

ولما رأى فرعون موسى ـ عليه السلام ـ قوة العزيمة وشدة الشكيمة وأنه لا تلين عريكته في هذا الميدان (قال فرعون) لملائه (ذروني أقتل موسى) لنخلص من شره (وليدع ربه) لينصره أو يخلصه مني (إني أخاف أن يبدل

يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتيهُمْ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذينَ آمَنُوا ، كذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ)(٣٥)

قوله تعالى (يا قوم لكم الملك اليوم) يتبين من الآية الشريفة أنه كان من الجماعة المالكة واشتهر أنه كان ابن عم فرعون وصاحب شرطته وفي محل ولي العهد ، وقد هداه الله للايمان قال يا قوم لكم الملك أي السلطان اليوم (ظاهرين في الارض) عالين على الرعايا من الاقباط وبني اسرائيل (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟) يعني لا تفسدوا في الارض وأطيعوا الله ورسوله حتى يرحمكم ، وان كفرتم أتاكم بأسه وعذابه ومن ذا الذي ينصركم ويحفظكم من بأس الله إن جاءنا ، وهذا الكلام خاطب به فرعون وملأه (قال فرعون) بعد سماع ذلك : (ما أريكم إلا ما أرى) أي ما أشير عليكم الا بما أريده وأختاره وأستصوبه لنفسي (وما أهديكم الا سبيل الرشاد) أي طريق الصلاح (وقال الذي آمن) يعني المنادى المذكور بعد سماع كلام فرعون : (يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب) وفسره بقوله (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) كقوم لوط كفروا بالله وكذبوا رسله فدمرهم الله شر تدمير وكل ما فعله فهو حق (وما الله يريد ظلما للعباد) أي فما فعله بهؤلاء كان جزاء لكفرهم وعنادهم ، واذا كفرتم أتاكم مثل ما أتاهم ، وليس ذلك الا احقاقا للحق وازهاقا للباطل (ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد) أي العذاب الوارد يوم ابتلاء الكفار في الآخرة ونداء بعضهم بعضا استغاثة واستنجادا للخلاص ولات حين مناص قطعا . (يوم تولون مدبرين) أي يوم تولون عن الموقف منصرفين الى النار (ما لكم من الله) أي من عذاب الله (من عاصم) أي حافظ يحفظكم منه (ومن يضلل

الله) أي في الدنيا (فما له من هاد) يهديه الى الحق واذا لم يهتد ضل ضلالا بعيدا ، وإذا ضل كذلك أذاقه الله في الآخرة عذابا شديدا .

ثم أخذ يقص عليهم قصص الزمان السابق للاعتبار فقال (ولقد جاءكم يوسف) بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم (من قبل) أي من قبل مجيىء موسى وهارون (بالبينات) أي بأعمال صالحة وأخلاق عالية تدل على صدقه في دعوى النبوة (فمازلتم في شك مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . كذلك) الاضلال (يضل الله من هو مسرف مرتاب) أي شاك في دينه حتى ولو شهدت عليه البينات . وظاهر قوله ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ان فرعون موسى كان فرعون زمان يوسف فقد ذكر بعض أصحاب التأريخ ان وفاة يوسف ـ عليه السلام ـ كانت قبل ولادة موسى ـ عليهما السلام ـ بأربع وستين سنة . واستظهر في البحر أن فرعون يوسف هو فرعون موسى ـ عليهما السلام ـ ، وأن عمره كان أربعمائة وأربعين سنة . ولكن الذي ذكره أغلب المؤرخين أن فرعون موسى غير فرعون يوسف ، وأن اسم فرعون موسى (الريان) وان فرعون يوسف اسمه الوليد وأن يوسف مات في زمنه والله أعلم . وقوله (الذين يجادلون في آيات الله) بدل من الموصول السابق في قوله من هو مسرف مرتاب يعني يضل الله الذين يجادلون في آيات الله (بغير سلطان أتيهم) أي من جهة الباري تعالى اما على أيدي الرسل ـ عليهم السلام ـ ، واما بطريق الافاضة على عقولهم وقوله (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) توكيد وتقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم ، وفاعل كبر راجع الى الجدال الذي دل عليه يجادلون ، أي كبر الجدال في آيات الله بغير حجة مقتا عند الله (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) بإضافة القلب الى متكبر أي على كل قلب كل متكبر جبار

بتقدير كل ، والا لزم أن يكون لمتكبر واحد قلوب متعددة . وأما اذا قرىء بالتنوين فلا حاجة فيه اليه .

(وَقالَ فِرْعَوْنُ : يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ(٣٦) أَسْبابَ السَّمواتِ ، فأَطَّلِعَ إلى إلهِ مُوسى ، وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كاذِباً ، وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَونَ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ في تَبابٍ(٣٧) وقالَ الَّذي آمَنَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ(٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ(٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها ، وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ(٤٠) وَيا قَوْمِ مالِي أَدْعُوكُمْ إِلى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلى النّارِ(٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنا أَدْعُوكُمْ إِلى الْعَزِيزِ الْغَفّارِ(٤٢) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلى اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النّارِ(٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ(٤٤) فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا ، وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ(٤٥) النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً ، وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ)(٤٦)

قوله تعالى : (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا) أي بناء مكشوفا عاليا (لَعَلّي أبلغُ الأسباب) أي الطرق ولما كانت مبهمة بينها بقوله (أسباب السماوات)قيل : أمر بذلك لانه كان منجما فأراد أن يبني رصدا يصعد عليه فيترقب مع أعوانه أحوال النجوم كي يعرف عاقبة ماداهمه من دعوة موسى ـــ عليه السلام ـــ • وقيل : بل أراد أن يوهم الناس أنه إله الارض فيصعد الى برج يمكنه هناك أن يتفاهم مع إله السماء كما قال (فأطلع الى اله موسى) هل يوجد في السماء لانه اذا كان موجودا فهو إما في الارض او في السماء ، وليس في الارض بحسب اطلاعه فلابد أنه يكون في السماء . ولم يتفهم أن من كان موجودا قبل الارض والسماء لا استقرار له في الارض ولا في السماء (وإني لاظنه كاذبا) في دعواه أن ربه رب الارض والسماء أو أنه مرسل منه الى العبــاد لارشادهم الى الله (وكذلك زين لفرعون سوء عمله) وزعم أن ذلك ينفعه ويوصله الى الحقيقة ، ولم يدر أن الله نــور السماوات والارض ولا يهتدي الى النور الا بالنور ، وبذلك كاد قومه وأغفلهم (وما كيد فرعون الا في تباب) أي في انقطاع ويبس وخسار •

(وقال الذي آمن) بالله ورسوله في مقابلة ما يدبره فرعون من المكيدة (ياقوم اتبعون) بحذف ياء المتكلم (أهدكم سبيل الرشــاد) أي ســبيل الوصول الى الله فانه هو العبادة لله المتعالي لا بناء الصرح العالي (يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع) يتمتع به فيستهلك ولا يستملك (وإن الآخرة هــي دار القرار) لخلودها ودوام ما فيها • (من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلــون الجنــة يرزقون فيها بغير حساب) وتقدير منهم ولما رأى من قومه نوم الغفلة عــن الحق ولا يريدون الا ما أراده فرعون من الضلال قال (ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ؟ تدعونني لاكفُرَ بالله وأشرك به ما ليس لي

به علم) أي بوجوده الحقيقي أو باشتراكه مع الله علم ولا ظن (وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) الذي يدل عليه كل ما تعلمون من الانفس والآفاق والآثار (لا جَرَمَ) لا شك (أنما تدعونني اليه ليس له دعوة) أي لا يستحق أن يدعى لاتباعه ، وليس له قابلية الدعوة (في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا الى الله ، وأن المسرفين) المنصرفين من الحق الى الباطل (هم أصحاب النار • فستذكرون) في المستقبل القريب عند هلاك فرعون وجنوده • أو في القيام عند توقيف كل عامل على حدوده وتطلعون وتفهمون (ما أقول لكم) الآن (وأفوض أمري الى الله) في عدم افادة ارشادي لكم (ان الله بصير بالعباد) بأهل الارشاد وبأهل العناد (فوقيه الله سيئات ما مكروا) من متاركتهم له أو معاندتهم له (وحاق بآل فرعون) أي بفرعون وآله (سوء العذاب) الغرق بالماء والحرق بالنار كما قال تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) في عالم البرزخ بعد زهوق أرواحهم وانغراق أشباحهم ، ومعنى عرضهم عليها احراقهم بها • ولو فرضنا أن العرض هو الاظهار أمامهم في مقام تذكيرهم بأنكم ستعذبون بذلك في الآخرة فهو عذاب أي عذاب • والجمهور من المسلمين على أن تعذيب الاموات في عالم البرزخ أي مدة مابين الموت والبعث هو على مجموع الروح والجسم البرزخي •

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ، فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ؟(٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا : أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟

قَالُوا : بَلَى، قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ(٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ(٥١) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)(٥٢)

قوله تعالى (وإذ يتحاجون) منصوب على المفعولية لأذكر المحذوف أي أذكر زمان تحاججهم واستدلالهم بعض على بعض وتخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء للذين استكبروا) في الدنيا (إنا كنا لكم تبعا) اتباعا كالخدام (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟) بتحمل بعض عذابها عنا (قال الذين استكبروا) للضعفاء (انا كل فيها) أي في النار (إن الله قد حكم بين العباد) فجعل الجنة لأهلها والنار لأهلها وما دام كل أخذ حقه ومستحقه من قضاء الباري تعالى فلا حق لكم علينا ولا يمكن لنا التحمل عنكم (وقال الذين في النار) عندما ضاقت بهم الحيل (لخزنة جهنم) أي للقائمين عليها المأمورين بتعذيب أهلها (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا) في جوابهم : (أو لم تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى) أي أتونا بالبينات فعاندناهم واستكبرنا (قالوا : فادعوا) أي اذا كان الأمر كذلك فلا نقدر نحن أن ندعو لكم فادعوا أنتم لأنفسكم (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) أي في ضياع وبطلان • وهذه الجملة اما من المحولين للدعاء الى أنفس الطالبين أو من كلام الباري سبحانه وتعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) كلام مستأنف من الله سبحانه وتعالى لتأييد الرسول وأمته ، فيقول : انا لننصر رسلنا والذين آمنوا (في الحياة الدنيا) بالحجة والتأييد (ويوم يقوم الاشهاد) أي يوم القيامة الذي فيه جمع الاولين والآخرين وشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب • (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ،

ولهم اللعنة) أي الطرد في عالم الدنيا والآخرة من مراحمه الباطنة والظاهرة. (ولهم سوء الدار) أي ولهم الدار السيئة وهي دار جهنم •

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)(٥٩)

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الهدى) أي ما يهتدي به هو وأتباعه من المعجزات الباهرة التي تطمئن بها نفسه وتتذلل بها اعداؤه ، ومن الصحف والشرائع (وأورثنا بني اسرائيل الكتاب) وأعطينا ذلك الهدى المتمثل في الكتاب أنبياء بني اسرائيل يسترشدون به هم وأتباعهم (هدى وذكرى لاولي الالباب) ليكون ذلك الكتاب وسيلة الرشاد والوصول الى الحق ومذكرا بحقوق الله على عباده • وذلك انما يستفاد لاصحاب العقول الخالصة (فاصبر) أنت ايضا مثله على أداء رسالتك وان ابتليت بما لا يطيقه الا أولو العزم (إن وعد الله) اياك بالظفر والنجاح وإعلاء الكلمة وسعادة الدارين (حق) لا شبهة فيه أبدا (واستغفر لذنبك) واطلب السماح والمغفرة من الله تعالى

لما صدر منك مما لا يناسب علو مقام الرسالة أو ما يكون عائقا عن الفكر والذكر الروحي لك (وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار) والمراد بالعشي والإبكار إما الوقتان الخاصان أو الاوقات جميعا بذكر الطرفين • وعلى كل فالمراد بالتسبيح والتحميد معناهما المعروف ، والمراد دوامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على التسبيح والتحميد وأن لا يكون غافلا عن ذكر ربه تعالى وليس المراد الصلاة المفروضة لانها فرضت ليلة الإسراء والمعراج • ومن الناس من قال : إن المراد ركعتان مفروضتان عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكرة ، وركعتان عشية •

(إن الذين يجادلون في آيات الله) أي في الآيات المنزلة من الله بقولهم إنها ليست من آياته وانما هي قول شاعر أو كاهن أو مجنون ، أو أنها أساطير الاولين ، أو أنها أخذت من بعض الاعجمين وتلك المجادلة منهم (بغير سلطان أتيهم) من النقل أو العقل (إن في صدورهم إلا كبر) ليس في صدورهم شيىء الا كبر وتكبر وتعظم وترفع فارغ غير مبني على موجب معقول و (ما هم ببالغيه) أي بواصلين نتيجة ذلك الكبر ، فإن ما يريدونه منها إمحاء الرسالة الاسلامية واطفاء نور الله وإفناء رسول الله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وازالة التوحيد ، وابقاء الشرك ، وقد أراد الله أن لا يبقى كذلك ، فقد جاء الحق وزهق الباطل (فاستعذ بالله) من شرهم وافسادهم والوصول الى مآربهم (إنه هو السميع) لدعائك واستعاذتك (البصير) بحالات الطرفين وحركاتهما • (لخلق السماوات والارض أكبر من خلق الناس) فاذا كنا قادرين على خلق العلويات والسفليات وقد خلقناها فعلا فكيف لا نقدر على بعث الموتى للحشر والحساب ؟ وهذا هو أساس إنكارهم للتوحيد وبقائهم على الاشراك • أو اذا قدرنا على خلق العالم فكيف لا نقدر على اماتة

أولئك المشركين وخلق أناس اخرين موحدين ؟ (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) هذه الحقيقة ، ولذلك عموا عن إبصار طريق الحق •

(وما يستوي الاعمى والبصير) أي الكافر والمؤمن والمشرك والموحد (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيىء) بتبديل الإيمان بالكفر والاعمال الصالحة بالسيئات • (قليلا ما تذكرون) أي في قليل من الاوقات تذكرون فتذكرون الحق (ان الساعة لآتية لا ريب فيها) وهناك يتبين الحق ويتميز المفسد من المصلح (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أي لا يصدقون بذلك لقصر نظرهم •

(وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (٦٠) أَللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيهِ والنَّهارَ مُبْصِراً ، إِنَّ اللهَ لَذُوا فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شيْءٍ لا إله إلاَّ هُوَ . فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اَللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً، وَالسَّماءَ بِناءً . وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إله إلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٦٥) قُلْ : إِنِّي نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ)(٦٦)

قوله تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) أي اعبدوني وحدي أثبكم ، وأطيعوني واطلبوا الخير مني ، وكونوا مع عبادي أعطكم في الدنيا قريرة وفي الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) أي محتقرين أذلاء •

(الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أي لتستريحوا فيه بالمنام والمقام وتستعيدوا قوتكم المعتادة وتستعدوا للعمل المشروع في النهار (والنهار مبصرا) أي وجعل لكم النهار مبصرا أي ذا إبصار ، وهذا الاسناد مجازي والمرادمبصرا فيه، اسم مفعول لانه في الحقيقة زمان الابصار وظرفه (ان الله لذو فضل على الناس) أي لمولى النعم وفياض الكرم على البر والفاجر (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) نعمته وفضله وكرمه ورحمته لجهلهم بصاحب النعمة وفياض الرحمة (ذلكم الله) أي ذلكم المنعوت بما ذكر ربكم ومولاكم، فتبارك الله رب العالمين (خالق كل شيء) من النعمة والمنعم عليه (لا إله الا هو فأنى تؤفكون ؟) وتصرفون ولأي سبب ينحرفون عن الاتجاه السليم والصراط المستقيم (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أي مثل ذلك الإفك بلا داع مبرر ولا حجة وبرهانٍ مقرر (يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) فهذه الخصلة القبيحة ماشية فيهم وفيمن سبق من الكافرين •

(الله الذي جعل لكم الارض قرارا) أي محل قرار (والسماء بناء) أي قبة مضروبة عليكم علق بها المصباح المضيء والمنور (وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات) أي المستلذات المقبولة للاقتيات والتفكه والتداوي (ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين • هو الحي) المنفرد بالحياة الذاتية (لا إله) حق (الا هو • فادعوه) أي فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه أحدا حالكونكم (مخلصين له الدين) أي العبادة ، ولا تشركوا به غيره (قل

إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات) أي التجليات الربانية والوحي السماوي والالهامات القدسية ، والبصيرة القلبية ، بحيث لم يبق لي مجال أي شبهة حيث وصلت الى الدرجة العالية من اليقين (من ربي ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين) وأنقاد له قلبا وقالبا ، روحا وشبحا .

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّىً ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ(٦٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ؟(٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ(٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ(٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)(٧٧)

قوله تعالى (هو الذي خلقكم من تراب) أي في ضمن خلق أبيكم آدم منه (ثم يخرجكم طفلا) اسم جنس يقع على القليل والكثير وبذلك تحصل المطابقة بين الحال وصاحبها (ثم لتبلغوا أشدكم) أي ثم يبقيكم ويربيكم لتبلغوا أعلى درجات قوتكم (ثم لتكونوا شيوخا) ثم يبقي بعضا منكم لتكونوا شيوخا (ومنكم من يتوفى من قبل) أي من قبل الشيخوخة (ولتبلغوا أجلا مسمى) متعلق بفعل مقدر أي ويفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى هو ما قرر لانتهاء أمد حياتكم (ولعلكم تعقلون) معطوف على قوله لتبلغوا ، أي ويفعل ذلك لعلكم تعقلون ما في تلك التنقلات والاحوال من نسبة الآثار المختلفة الى فاعل قادر مختار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد • (هو الذي يحي) الاموات (ويميت) الاحياء (فإذا قضى أمرا) أي أراد حدوثه (فانما يقول له كن فيكون) من غير احتياج الى مساعد ومعاون •

(ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله) أي لأجل رفعها أو اهمالها (أنى يصرفون ؟) على أي حال يمنعون عنها مع ظهورها وقوتها (الذين كذبوا بالكتاب) أي بجنس الكتب السماوية (وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الشرائع (فسوف يعلمون) حقيقة ما فعلوا ومقدار ما ارتكبوا من المعاصي والآثام (اذ الاغلال في أعناقهم ، والسلاسل) فيها (يسحبون في الحميم) أي الماء الحار (ثم في النار يسجرون) أي يسحبون فيها أو يحرقون بها (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا) أي تبين لنا اليوم أنا لم ندع شيئا موجودا قائما بذاته نافعا لنفسه أو غيره فكأنّا دعونا المعدومات (كذلك يضل الله الكافرين) أي هكذا يحيرهم حتى يفزعوا بالآخرة الى الكذب (ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أي تتوسعون في الفرح (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين) أي فبئس مأوى ومستقر المتكبرين عن

قبول الحق جهنم (فاصبر ان وعد الله) أي بدحر أعدائك في الدنيا وبتعذيبهم في الآخرة (حق) لا شبهة فيه (فاما نرينك بعض الذي نعدهم) من الخزي والنكال فتراهم بعينك (أو نتوفينك) قبل ذلك واذا كان الامر الثاني (فالينا يرجعون) يوم القيامة وتعلم أحوالهم وعذابهم هناك .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هنالِكَ الْمُبْطِلُونَ(٧٨) أَللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ(٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ(٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ؟ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَاكَانُوا يَكْسِبُونَ(٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)(٨٥)

قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك) أي رسلا أولي قدر وخطر من قبل ارسالك (منهم من قصصنا عليك) أي أنزلنا عليك أخبارهم في القرآن

كآدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ (ومنهم من لم نقصص عليك) وهم أكثر الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ • أخرج الامام أحمد عن ابي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله كم عدد الانبياء ؟ قال « مأة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلثمأة وخمسة عشر جما غفيراً » •

(وما كان لرسول أن ياتي بآية الا باذن الله) أي بآية من الآيات المنزلة أو بمعجزة من المعجزات الا باذن الله (فاذا جاء أمر الله) أي بالعذاب والنكال في الدنيا أو الآخرة (قضي بالحق) أي حكم باثبات الحق وازهاق الباطل (وخسر هنالك المبطلون) أي وخسر وقت مجيىء أمر الله تعالى المتمسكون بالباطل (الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها) كالإبل (ومنها تأكلون) كالانعام كلها (ولكم فيها منافع) أي غير الركوب كالأكل والشرب واللباس وسائر وجوه الأطعام (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) كحمل الاثقال من محل الى آخر (وعليها) أي على تلك الانعام باعتبار بعض منها أعني الابل وهي سفن البر (وعلى الفلك) وهي سفن البحر (تحملون • ويريكم آياته) يعني ويريكم ويظهر لكم الله آياته ودلائله الدالة على كمال حكمته في أفعاله (فأيّ آيات الله تنكرون) فإن وجود الآيات وظهورها بديهي غني عن الحاجة الى الإثبات وكونها من آثار الصانع الواجب الوجود وآثاره الناشئة من العلم والإرادة والقدرة ثبت بالعقول السليمة من الآفات •

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أي أقعدوا في دورهم مكتفين بقلة الشعور (فلم يسيروا في الأرض) العربية التي فيها آثار دمار الامم الظالمة (فينظروا) بالابصار ويتفكروا بالبصائر (كيف كان عاقبة) أحوال الكافرين (الذين كانوا من قبلهم) وعاندوا الرسل الكرام (كانوا أكثر منهم) عددا (وأشد قوة وآثارا في الارض) من الدور المستحكمة

والقلاع الحصينة ، والمخابىء والمخازن المستورة ، حتى يتوسلوا بها لدفع ما يرد عليهم من المضار ؟ (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون • فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) من الآيات والمعجزات (فرحوا بما عندهم من العلم) المحدود الناشىء من السيطرة على العباد والحرية في الاعمال وتصديق الضعفاء والعجزة والجهال ، ومن المدارس المبنية لترصد الافلاك وادارة الاملاك ورعاية التقاليد الجارية التي تميل اليها قلوب الناس بحيث غدوا أنفسهم من نوابغ العصر ، ولم ينظروا الى اكتساب العلوم الربانية المسيطرة على النفوس لحفظ النفوس عن الشهوات الفاسدة ، وقتل الابرياء وهتك الاعراض ، واتباع الاغراض ، فعاندوا الرسل واتبعوا ما عندهم من السبل ، فغضب الله عليهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون • فلما رأوا بأسنا) أي شدة عذابنا النازل من السماء أو الناشىء من الارض (قالوا آمنا بالله وحده) ولا نشرك به شيئا (وكفرنا بما كنا به مشركين • فلم يك ينفعهم ايمانهم) لخلاصهم من العذاب المحتم الوارد عليهم (لما رأوا بأسنا) لان التوبة المقبولة انما هي عند الاختبار لا الالجاء والاضطرار (سنت الله التي قد خلت في عباده) من أن الإنذار أعذار ، فإن لم ينفع لم ينفع الرجوع الى المقصود بالاضطرار (وخسر هنالك) أي زمان رؤيتهم البأس (الكافرون) المعاندون لله ولرسوله المبلغ الأمين •

سورة فصلت ، وتسمى حم السجدة ، وهي مكية ، وآياتها أربع وخمسون
نزلت بعد غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

(حـم(١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمن الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قُرآناً عَربيّاً لِقَومٍ يَعْلَمُونَ(٣) بشيرا ونذيرا ، فَأعْرَضَ أكْثَرُهُم فَهم لا يَسمعُون(٤) وقَالُوا : قلُوبُنا في أكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إلَيْهِ وَفي آذانِنا وَقْرٌ ، وِمِنْ بَينِنا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ، فَاعْمَلْ إنَّنَا عامِلُونَ(٥) قُلْ : إنَّما أنَا بَشرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إليَّ أنَّما إلهكُمْ إلهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيموا إلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، ووَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ(٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ ، وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافِرونَ(٧) إنَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٨) قُلْ : أئِنَّكُمْ لَتَكفُرُونَ بالَّذي خَلَقَ الأرْضَ في يَوْمَيْنِ ، وتَجعَلُونَ لَهُ أنْداداً ؟ ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ(٩) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها ، وَبارَكَ فِيها وَقَدَّر فِيها أقْواتَها فِي أرْبَعَةِ أيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلينَ(١٠) ثُمَّ

اسْتَوَى إلى السَّماءِ ، وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها ولِلأَرْضِ : أْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً ، قالَتا : أتَيْنا طائِعِينَ (١١) فَقَضيهُنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحى في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها ، وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بمصابِيحَ وَحِفْظاً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم(١٢) •

قوله تعالى (حم) كنظائره واذا جعلناه اسما للسورة فاما خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره (تنزيل) على المبالغة ، أو تأويله بمتنزل ، وقوله (من الرحمن الرحيم) متعلق به ومؤكد لما أفاده التنوين من العظمة وقوله (كتاب) بدل منه وصف بقوله (فصلت آياته) أي بينت آياته بأقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأفعاله ، أو أوضحت آياته ، فإذا كانت آية مطلقة وجد القيد في آية أخرى وهكذا • وقوله (قرآنا عربيا) إما حال أو منصوب على المدح • وقوله (لقوم يعلمون) أي لانتفاع قوم يعلمون معناه ويعملون به ، لان العلم بلا عمل لا نفع له إلا الامتياز عن الجهل لو كان في نفس الامتياز فضل ، وكذلك (بشيرا ونذيرا) منصوبان أيضا على الحالية أو على المدح • وقوله (فأعرض أكثرهم) يعني به ذم الكفار المعرضين عن الخير يريد أنه مع حيازته لتلك المحاسن أعرض أكثر الناس المشركين عنه ولم يؤمنوا به ، فهم لا يسمعون المواعظ والارشاد ولا يريدون الخير لانفسهم ولا لغيرهم من العباد •

(وقالوا : قلوبنا في أكنة) أي أغطية متكاثفة (مما تدعونا إليه) من الإيمان بالله ورسوله أي بينه وبين قلوبنا حواجز تمنعه عن الوصول اليها (وفي آذاننا وقر) أي ثقل وصمم من سماعها لكلامك (ومن بيننا وبينك حجاب) يحجبنا عن رؤيتك أي لا نراك مطلقا ، أو لا نراك بعين المحبة يعني

أن الأمر بيننا هو الفصل لا الوصل (فاعمل) على دينك و (إننا عاملون) على ديننا . وهذا الكلام اما متاركة مثل لكم دينكم ولي دين ، واما معاركة ، والمقصود اعمل أنت للانتصار علينا ونحن نعمل للانتصار عليك ، لنعلم أي الجانبين أقوى في عاقبة الامر . قل في جوابهم (انما أنا بشر مثلكم) لست ملكا ولا ملكا ولا جنيا حتى لا يمكنكم الوصول اليّ وفهم ما أقوله والعمل به (يوحى الي أنما الهكم اله واحد) وهذا الامر ليس شيئا غير معقول حتى يتحاشى عنه القلوب ، بل أمر يدعو الناس الى وحدة المبدأ ووحدة الطريق ، وهذا الاله الواحد موصوف بصفات الكرم والرحمة الواسعة (فاستقيموا) على الحق سالكين (اليه واستغفروه) مما صدر منكم من الذنوب يغفر لكم (وويل للمشركين) الذين من صفاتهم اللؤم والبخل بما في أيديهم ومنعه عن المستحقين (الذين لا يؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع (قل : أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أندادا ؟) أى أمثالا شركاء له من الملائكة والجن وغيرهم (ذلك رب العالمين) وموجدهم من العدم الى الوجود .

(و) لما خلق الارض (جعل فيها رواسي) أي جبالا عالية (من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) أي بين أي تعلق علمه الشامل بالمرتزقة عليها ، وبكمية أرزاقها من مختلف الوجوه فقدرها لهم للمستقبل الى نهاية الحياة الاعتيادية (في أربعة أيام) أي في تتمة أربعة أيام وهي يومان . والخلاصة أن خلق الارض في يومين ، وتقدير أقواتها وأرزاقها للمرتزقة فيها من النبات وسائر الأطعمة في يومين (سواء للسائلين) حال من أربعة أيام أي حالكونها عبارة واحدة غير مشوبة بالخلاف بالنسبة الى كل من يسأل عن مدة زمان خلق الارض والاقوات (ثم استوى الى السماء) أي توجه الى خلقها (وهي دخان) أي مادة ظلمانية وهي التي تركبت السماوات منها والله أعلم بحقيقتها (فقال

لها) أي للسماء (وللارض : ائتيا) أي تحققا واتصفا بالهوية الشخصية أو ائتيا بما خلقت فيكما من المنافع المخزونة فيكما (طوعا ، أو كرها) أي طائعات أو مكرهات أو طائعين أو مكرهين (قالتا : أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات) أي فخلق السماء سبع سماوات ، أو جعلها سبع سماوات في يومين ، والمراد باليوم في هذا الخلق والتقدير اما اليوم المعروف عندنا أي زمان وجود الشمس فوق الأفق فلابد أن يقدر المقدار لان الشمس لم تكن مخلوقة في ذلك الوقت واما اليوم الذي قال تعالى في بيانه (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) • (وأوحى في كل سماء أمرها) أي خلق في كل منهن ما استعدت له واقتضت الحكمة وجوده فيها مما يعلمه الله سبحانه (وزينا السماء الدنيا) من تلك السماوات السبع (بمصابيح) مشرقة لماعة بالذات أو باستنارة بعضها من بعض كما يقال نور القمر مستفاد من الشمس ، وكذلك سائر الكواكب (وحفظا) مفعول لفعل مقدر أي وجعلناها وسيلة حفظ وصيانة للسماء من الشياطين المسترقة • وظاهر الآية الكريمة أن جميع الكواكب اللماعة الموجودة التي يشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بالمجاهر ، والتي لم يكتشف لحد الآن بواسطة بعد المسافة كلها في السماء الدنيا أي القربى من الارض ، وأما السماوات الست الباقية فلا يعلم ما فيها وما عليها الا العليم الخبير • وفي ذلك الخلق هيبة ورهبة عظيمة ولذلك قال سبحانه وتعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) أي جميع ماذكرناه من الاعمال المدهشة كخلق الارض والمواد السفلية من الماء والهواء معها ، وخلق السماوات والكواكب تقدير وتأثير للاله العزيز الغالب على كل شيء العليم بكل موجود ومعدوم بوجه الامتياز •

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ اللهَ ، قالُوا : لَوْ شاءَ رَبُّنا لأَنْزَلَ

مَلائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ(١٤) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وقالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وكانوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ !(١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ(١٦) وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى على الْهُدى ، فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ(١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ)(١٨)

قوله تعالى (فان أعرضوا) مرتبط بقوله السابق (قل أئنكم) أي فان أعرضوا عن التدبير فيما ذكر من عظائم الامور التي تدعو الانسان الى الايمان (فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) صيغة الماضي في محل المضارع مجاز لإفادة التحقق الاكيد • والصاعقة في الاصل جثة وهي قطعة نار تنزل من السماء فتحرق ، وبما أنه لم تنزل الصاعقة على قوم عاد وثمود ، وانما هلاك عاد بالريح وثمود بالبركان أو بصيحة جبريل ــ عليه السلام ــ قالوا ان المراد من الصاعقة لازمها وهي العذاب • وقال بعض : ان الصاعقة جاءت بمعنى العذاب • وعلى كل فالمراد من الآية الكريمة : فقل أنذركم أيها المعرضون بعذاب مثل ما جاء على قوم عاد وثمود فأدمركم كما دمرتهما (اذ جاءتهم الرسل) أي جاءت قوم عاد وثمود الرسل (من بين أيديهم ومن خلفهم) أي من الجهات الكثيرة ، والمراد بالرسل هود وصالح ومن معهما من المؤمنين المعاونين لهما كل في عصره • قائلين : (ألا تعبدوا الا الله • قالوا) أي قوم عاد في مقابل هود ، وقوم ثمود في مقابل صالح : (لو شاء ربنا لانزل ملائكة)

إلينا فإنكم بشر لا تستحقون رتبة الرسالة من الله (فانا بما أرسلتم به) من الشريعة (كافرون) لانها لا يأتي بها البشر •

ثم أخذ في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين فقال (فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق) إذ لا يجوز لأحد ولا يحق له أن يتكبر في مقابل الرسول (وقالوا) لبيان أساس تكبرهم : (من أشد منا قوة) أي لا أشد منا قوة ، فلا أحد يقاومنا (وكانوا غافلين) عن قدرة الله (أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟) فانه تعالى قادر قدرة ذاتية متناهية ولا تتمثل في أناس يحاربون عادا حتى يظنوا أنهم أقوى منهم بل له جنود كثيرة ، (وما يعلم جنود ربك الا هو فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) أي شديد الحرارة السموم ، وفسره بعضهم بشديد البرد والاول أنسب بالمكان (في ايام نحسات) مشئومات بالنسبة اليهم • قيل : ان هذه الايام كانت من آخر شباط الشرقي وتسمى أيام العجوز ، وكانت في ما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء ، وانما أرسلناها عليهم (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) فيها بأي وجه من الوجوه •

(وأما ثمود فهدَينا‌هم) أي فأرسلنا اليهم صالحا فأرشدناهم بإرشاده وبينا لهم طريق الحق والسلامة والسعادة في الدارين (فاستحبوا العمى) والبقاء على الضلال بدون البصيرة (على الهدى ، فاخذتهم صاعقة العذاب الهون) واضافة الصاعقة الى العذاب بيانية ، وإضافته الى الهون لامية سببية ، أي أخذهم عذاب كان سببا لخذلهم وذلهم وحقارتهم في الدنيا (بما كانوا يكسبون) أي وذلك بسبب ماكانوا يكسبونه من اختيار الضلالة على الهدى (ونجينا الذين آمنوا) وهم للاولين هود" ومن معه ، وللآخرين صالح ومن معه من أهل الايمان (وكانوا يتقون) •

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إذا ماجاءُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهم وجلودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ؟ قالُوا : أَنطَقَنَا اللهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلا أَبْصاركم وَلا جُلُودُكُمْ ، وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذي ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ ، أَرْدِيكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخاسِرين (٢٣) فَإنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ، وإنْ يَسْتَعْتِبوا فما هُمْ مِن المُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ، وحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ والإنسِ ، إنَّهُمْ كانُوا خاسِرينَ (٢٥) وقالَ الَّذينَ كَفَرُوا : لا تَسْمَعُوا لِهذا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَديداً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذلكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا : رَبَّنا أَرِنا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ نَجْعَلْهما تَحْتَ أَقدامِنا لِيَكونا مِنَ الأسفَلين)(٢٩)

وقوله تعالى (ويوم يحشر أعداء الله الى النار) شروع في بيان عذابهم يوم القيامة ، ويوم منصوب بأذكر مقدرا ، أو بفعل مستفاد من قوله (فهم يوزعون) أي اذكر زمان حشر الكفار المشركين الذين عادوا ربهم الذي خلقهم الى نار جهنم فهم يوزعون ، ويحبس آخرهم الى مجيىء أولهم ، أو يوقف أول جمع واصل منهم الى مجيىء آخر جمع منهم (حتى إذا ما جاؤها) سئلوا من جانب الزبانية عما أجرموا أو سئلوا عن جمعهم للمحاسبة عند الله ثم إرسالهم الى النار فأنكروا تحقق الاجرام منهم وعند ذلك (شهد عليهم سمعهم) باستماع ما لا يحل استماعه (وأبصارهم) بابصار ما يحرم النظر اليه (وجلودهم) أي جلود أبدانهم ، وأيديهم وأرجلهم بمساس ما لايحل مسه وبالمشي والحركة والبطش للمحرمات والمعاصي وللقول الحرام والفعل الحرام، وبغير ذلك (بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟) وانما العذاب يمسكم ويصيبكم (قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة) بلا مادة ، فإخراج الشيء من العدم الى الوجود أهم من اجراء الكلام على ما لا يعتاد التكلم (واليه ترجعون) للجزاء فلابد من اثبات موجبات العقوبة حتى تجزون بما كنتم تعملون وسؤالهم من الجلود فقط يمكن أن يكون لعظم الذنوب التي تحصل من مساس الجلود أو للاشارة الى أن الشهادة جرت مما يعذب باديء بدء ، فان الجلود تنضج فتحرق ويتأذى صاحبها ، ومع ذلك لما كان الاستشهاد من الله لم تكن لها طاقة الكتمان فشهدت بجميع ما حصلت من الاجرام الموجبة للعقاب والآلام •

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) هذا من قول الباري تعالى لهم يوم القيامة بعد شهادة الاشهاد ، فيقول لهم : ما كنتم تستترون في الدنيا عند الاتيان بالفواحش مخافة أن يشهد عليكم اليوم سمعكم وأبصاركم وجلودكم (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما

تعملون) فكنتم تستترون عن أعين الناس لبعض الاعتبارات فقط • (وذلكم) الظن الفاسد (ظنكم الذي ظننتم بربكم أرديكم) أي أهلككم (فاصبحتم من الخاسرين) على رأس مال الحواس والجوارح التي أعطاكم الله تعالى لكسب السعادة بها فصارت وسيلة لكسب الشقاوة (فان يصبروا) على عذابهم (فالنار مثوى لهم) أي محل ثواء واقامة (وان يستعتبوا) أي يسألوا العتبى أي الرجوع الى ما يحبونه (فما هم من المعتبين) أي من المجابين اليها (وقيضنا لهم) في الدنيا لسوء أدبهم وجسارتهم على الله بالاشراك وعلى رسوله بقصد الإهلاك (قرناء) أخدانا وأحباء من شياطين الإنس والجن فزينوا لهم مابين أيديهم أي ما أمام عيونهم من متاع الدنيا (وما خلفهم) من الاهواء المأمولة في المستقبل (وحق عليهم القول) أي فتوغلوا فيها وعاندوا الحق فحقت عليهم مقتضى قولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس) أي مع أمم كافرة خاسرة باغية طاغية قد خلت من قبلهم من الجن والانس (إنهم كانوا خاسرين) في صرف نقد حياتهم بموجب عقوباتهم ولبئست التجارة •

(وقال الذين كفروا) أي بعضهم لبعض : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) اي وأتوا بلغو الكلام عند قراءته لتنشوشوا على الناس المستمعين (لعلكم تغلبون) بعملكم ذلك على الطالبين له ولمنهاجه (فلنذيقن الذين كفروا) فوالله لنذيقن أولئك الذين كفروا وتآمروا على القرآن بما سمعتم (عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون) أي لنحبطن أعمالهم الحسنة ظاهراً حيث لم تقترن بالايمان بالله الكريم (ولنجزينهم) على السيئات بأسوأ الاعمال التي كانوا يعملونها ، لانه لما قارن الكفر بالله استحق العذاب عليه (ذلك) أي الجزاء المذكور (جزاء أعداء الله) وأعداء رسوله وهو (النار ، لهم فيها دار الخلد) أي لهم في الساحة الواسعة الممتلئة بالنار مواقع خاصة

هي دار الخلد الابدية لهم أو لهم فيها أي في تلك الدار دار فالنار في شدتها وقوتها تجرد منها دار أخرى (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون • وقال الذين كفروا) وهم منقلبون في النار : (ربنا أرِنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا) ندوسهما بأقدامنا (ليكونا من الاسفلين) ذلا وحقارة فمن كان له القلب الواعي يعلم ما هي نتيجة البطر والغرور والخروج من استماع الحق والدين •

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ : أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ : إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟(٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ، ادفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَما يُلَقّيها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَما يُلَقَّيها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ والْقَمرُ ، لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ ، وَاسْجُدُوا للهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاه تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ باللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، وَهُمْ لا يَسْئَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى

ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاها لَمُحْيِ المَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٣٩)

قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله) شروع في بيان أحسن أحوال المؤمنين فيقول ان الذين قالوا قولا موافقا للقلب ربنا الله (ثم استقاموا) على ذلك ومقتضاه من ترك المحرمات وأداء الواجبات متوجهين الى الله ومتوكلين عليه غير غافلين (تتنزل عليهم الملائكة) عند الموت • وقال بعض عند البعث ، وبعض عند نزول القبر (ان لا تخافوا) ما تقدمون عليه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم وأن مصدرية ولا ناهية أو نافية أو مخففة من المثقلة ، واسمه ضمير الشأن ، والجملة تفسير له وفي محل الخبر (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) بها على ألسنة الرسل الكرام ــ عليهم السلام ــ والمبلغين لكم منهم (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) أي أعوانكم في المهمات والملمات بالإعداد وإلهام الصبر والطمأنينة وتذكير التوكل على الله (وفي الآخرة) نمدكم بالشفاعة والشهادة لاعمالكم الحسنة وتتلقاكم بالإكرام عند تلقي الكافرين بالإهانة (ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم) من الملاذ والمشتهيات الطيبة في الطباع السليمة (ولكم فيها ما تدعون) أي تطلبون لانفسكم من الرحمة والرضوان ولقاء ذات المنان حالكون ذلك كله (نزلا من غفور رحيم) ستار للعيوب غفار للذنوب • ثم أخذ في الثناء على أهل الايمان والدعوة الى الله المنان والتزام الإسلام وأداء الواجبات وترك العصيان فقال (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله) أي الى الاعتراف بوجوده ووحدته (وعمل صالحا) أي عملا صالحا (وقال) متحدثا بنعمة ربه (إنني من المسلمين) •

ثم استأنف لبيان الفرق بين أحوال الناس واختلاف درجاتهم فقال : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) وكلمة لا الثانية زائدة للتأكيد والتحسين أي

لا تستوي الاعمال الحسنة والسيئة فهما أمران متباينان يتباين الموصوفون بهما وللموصوف بالحسنات درجات كما أن للموصوف بالسيئات دركات (ادفع) أيها المؤمن المحسن ادفع (بالتي هي أحسن) أي واذا اعترضتك من أحد الناس أو من أحد أعاديك الخصلة السيئة من أي باب كانت بالخصلة التي (هي أحسن) أي أحسن الوجوه وأحسن الطرق في دفعها فاذا قابلك بالشتام فقابله بالسكوت أو بالسلام أو بالإكرام (فاذا الذي بينك وبينه عداوة) انقلب عن حاله وغرق في انفعاله ويواجهك بوجهه (كأنه ولي حميم) أي قريب أو صديق حار الصداقة (وما يلقيها) أي هذه الخصلة الجميلة المباركة في دفع السيئة (الا الذين صبروا) على مكابدة المحن والإحن بحيث صار الصبر من غرائزهم (وما يلقيها إلا ذو حظ عظيم) ونصيب جسيم من الله الكريم (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) وهو في الأصل المس بطرف أصبع أو قضيب بعنف مؤلم ، والمقصود به هنا وسوسة فاسدة مؤثرة في القلب حاملة له على ارتكاب أمر غير محمود العاقبة (فاستعذ بالله) الحافظ من شره ولا تطعه (إنه هو السميع العليم) أي السميع لاستعاذتك اذا كانت لفظية ، والعليم بها اذا كانت نفسية .

ثم شرع في عظمة ذات الخالق البارىء المصور الواحد القهار ، فقال : (ومن آياته) أي آيات عظمته وأدلة توحيده (الليل والنهار) تعاقبهما بطول الزمان ودخول الليل في النهار والنهار في الليل (والشمس) التي هي آية النهار (والقمر) الذي هو آية الليل فكلها مخلوق لله تعالى ومن آثار قدرته (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) فإنهما لا يستحقان أن تسجد لهما (واسجدوا لله الذي خلقهن ، إن كنتم اياه تعبدون) فان الخالقية هي المبدأ للمعبودية (فان استكبروا) أي أولئك الكفار المشركون عن السجود له فلا تهتم بهم (فالذين عند ربك) ومقربون من حضرة قدسه كالانبياء والرسل وسائر

الخلائق في العالم من جنه وإنسه (يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسئمون) لا يملون من ادامة التسبيح والذكر والحمد له والقنوت والركوع والسجود (ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة) أي يابسة متطامنة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أي فاذا أنزلنا المطر تحركت بالنبات وانتفخت (إن الذي أحياها) بانزال المطر عليها لمحي الموتى بالبعث (انه على كل شيء قدير).

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ اِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠) اِنَّ الَّذِين كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ اِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، اِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا : لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ! ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ : هُوَ لِلَّذِين آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً ، أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ(٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ(٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ :

أَيْنَ شُرَكَائِي ؟ قَالُوا : آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ)(٤٨)

قوله تعالى (ان الذين يلحدون في آياتنا) أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة (لا يخفون علينا) فنجازيهم على إلحادهم ، أي نجعلهم في نار جهنم (أفمن يلقى في النار خير" أم من يأتي آمِناً يَوْمَ القِيامةِ ؟ اِعْمَلُوا ما شِئتم انه بما تعملون بصير") والامر للتهديد ، وهذه الآية للوعيد على الملحدين (ان الذين كفروا بالذكر) أي بالقرآن (لما جاءهم، وانه لكتاب) أي والحال انه لكتاب (عزيز) نادر الوجود وليس له مثيل (لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا من خلفهِ ، تنزيل من حكيم حميد) وخبرُ ان محذوف أي معاندون متعنتون • وقوله تعالى (ما يقال لك) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما أصابه من كلمات الكفرة المشركين وتعنتهم وعنادهم فيقول (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك) من الكلام الذي لا واقع له ، وكما صبروا عليها ينبغي أن تصبر عليها (إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) •

(ولو جعلناه) أي هذا الكتاب المنزل (قرآنا أعجميا) أي قرآنا مكتوبا بلغة العجم (لقالوا) أي أولئك المتمردون (لولا فصلت آياته) أي لولا بينت وأوضحت لنا • أي ولم لم ينزل بعبارة عربية واضحة (ءَأعجمي وعربي) ؟ أي أكلام أعجمي ورسول عربي (قل هو للذين آمنوا هدى) يهدي الى الحق (وشفاء) لما في الصدور (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر) أي ثقل (وهو عليهم عمى) أي القرآن واسطة العمى لهم • (أولئك ينادون من مكانٍ بعيد) أي أولئك الذين في آذانهم وقر من استماع القرآن الكريم كأنهم ينادون من

مكان بعيد لا يبلغ اليهم صوت الدعاة ، فلا تبتئس أيها الرسول الكريم بما يعاملونك في شأن الكلام المنزل عليك ، فان لك سلفا فيه .

(ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (فاختلف فيه) من جانب الإسرائيليين فمنهم من يصدق بأنه كتاب الله ومنهم من لا يصدق (ولولا كلمة سبقت من ربك) في حق أمتك وهي الوعد بتأخير عذابها (لقضي بينهم) بابادة المكذبين (وانهم لفي شك منه مريب) أي وان كفار قومك لفي شك من كونه كلام الله مريب موجب للقلق (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها) ضره لا يتجاوز الى غيره (وما ربك بظلام) أي بذي ظلم (للعبيد) لا من القديم ولا من الجديد .

(اليه يرد علم الساعة) أي اذا سئلت عن الساعة فقل : علمها عند ربي . وفيه وعيد للكافرين أي ان الساعة التي فيها عذابهم معلومة لله وهي قريبة فينالون عذابهم الموعود (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) أي واليه يرد علم ما يخرج من الثمرات من أوعيتها ، ومن عنده ذلك العلم ، فعنده العلم بأعمال المعاندين للرسول ولكتابه (وما تحمل من أنثى) أي حمل (ولا تضع) من الرحم الى الارض (الا بعلمه) أي ملابسا بعلمه (ويوم يناديهم : أين شركائي ؟) أي شركائي المزعومون (قالوا : آذناك مامنا من شهيد) أي قال الذين نودوا : أعلمناك ياربنا ما منا من أحد يشهد لهم بالشركة معك . والمراد بالاعلام الاخبار ، فان الله تعالى يعلم كل شيىء بلا اعلام أحد (وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل) أي وغاب عنهم أو ضاع شركاؤهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم لهم (وظنوا) أي وأيقنوا أنه (مالهم من محيص) أي مهرب يهربون اليه فيخلصون من العذاب والعقاب .

(لَا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : هذا لي ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غليظٍ(٥٠) وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الإِنسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ(٥١) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُم كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ ؟(٥٢) سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟(٥٣) أَلا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ)(٥٤)

قوله تعالى (لا يسئم الإنسان من دعاء الخير) أي لا يمل ولا يفتر من طلب الخير ووسعة العيش ورغده (وان مسه الشر فيؤس قنوط) أي فهو يؤس قنوط من رحمة الله ، وهذا صفة الكافر والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل في عتبة بن ربيعة ، وإلا فالمؤمن على رجاء من رحمته وفضله في كلتا الحالتين .

(ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) أي لئن وسعنا عليه بصحة بعد مرض أو بغنى بعد فقر أو بعز بعد ذل (ليقولن هذا لي) أي هذا الأمر العارض هو استحقاقي ولابد أن يحصل لي ولا ينسبه الى فضل الله ورحمته (وما أظن الساعة) أي يوم القيامة (قائمة) حاصلة في المستقبل (ولئن رجعت الى ربي) على فرض مجيىء يوم القيامة (إن لي عنده للحسنى) ان لي عنده للعاقبة الحسنى من النعمة والكرامة وانما يقول ذلك للبطر وعدم

اعترافه بالدين وأصوله (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أي لنخبرنهم في المستقبل بحقيقة أعمالهم ولنفهمنهم أن الامر على عكس ما اعتقدوا (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) أي شديد لا يمكنهم الهرب منه (واذا أنعمنا على الانسان أعرض) عن ربه وطاعته وشكره (ونأى بجانبه) وابتعد عن الحق بجانبه أي اذا دعي الى عمل خير يعمله يعطف وينقلب على جانبه الآخر معرضا عن الحق (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) واذا مسته نقمة ونكبة فله دعاء كثير مستمر جدا .

(قل أرأيتم ان كان) أي القرآن الكريم (من عند الله ثم كفرتم به) مع قوة جانب الايمان به (من أضل ممن هو في شقاق بعيد) وخلاف مع القرآن ومن بلغه ومن أنزله . أي ان ذلك الكافر بالقرآن ضال بل أضل الضالين ، فإذا استمروا في هذا الضلال فقل لهم (سنريهم آياتنا) أي آيات عظمتنا وقدرتنا ، وأن القرآن كلامنا ، وأنه أنزل على رسولنا (في الآفاق) فنريهم أن الله مقتدر ، وأن الإسلام ينتصر ، ورسوله يفتح البلاد ، ويؤمن به العباد ، ويكون القرآن نبراس الهدى والرشاد (وفي أنفسهم) فيرون بالعيون انهزامهم أمام الحق وان كثيرا منهم يتراجعون ويؤمنون (حتى يتبين لهم أنه) أي القرآن (الحق) لا كلامهم وأقاويلهم . والشاهد على تحقق هذه الإراءة هو الله وهو خير شاهد . (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) ومن الشيىء المشهود عليه خذلانهم وخزيهم ، وعلو الاسلام وانتصاره (ألا إنهم) أي ان أولئك الكافرين المارقين (في مرية) وشبهة (من لقاء ربهم) يوم الدين (ألا انه) أي الباري تعالى (بكل شيىء محيط) فيعلم كفر الكافرين وايمان المؤمنين .

سورة الشورى ، مكية وآياتها ثلاث وخمسون
نزلت بعد فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

(حـم(١) عسق(٢) كذلِكَ يُوحي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣) لَهُ ما فِي السَّمواتِ وما فِي الأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ العَظِيمُ(٤) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ، وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥) والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(٦) وكذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها، وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَرَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ ، وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ(٨) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ؟ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، وهُوَ يحيي المَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ)(٩)

قوله تعالى : (حم عسق) الكلام في أنهما اسمان للسورة أو اسم واحد لها ، وفي المراد بهما •• مفوض الى الله العليم بالاسرار • وقوله تعالى (كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) جملة مستأنفة وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل ، اذ معناها مثل ذلك الإيحاء يوحي اليك والى الذين مضوا من قبلك من الرسل إلهكم وإله العالمين المعلم بالاسم المقدس الله الواجب الوجود العزيز الغالب على كل شيء الحكيم في صنعته (له ما في السماوات وما في الارض وهو العلي العظيم • تكاد السماوات يتفطرن) أي يتشققن تشققا بادئا (من) جهة (فوقهن) أي يتشقق الاعلى فالاعلى الى أن تتشقق الارض فتصير العوالم أجزاء متفرقة بل ذرات منتشرة في الجوّ من هيبة ذات الباري وعظمته (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن في الارض) تسبيحهم لله على وسعته في الرحمة والاحسان واستغفارهم لمن في الارض على ابتلائهم وعصيانهم وزيادتهم في النقصان (ألا ان الله هو الغفور الرحيم) اذ ما من مكلف الا وله نوع من الذنب الداعي للمغفرة بمعناهما الواسع ، وحفظ من رحمته تعالى ، فهو المبالغ في المغفرة وافاضة الرحمة •

(والذين اتخذوا من دونه أولياء) وجعلوهم شركاء وأندادا (الله حفيظ عليهم) ورقيب على أعمالهم وعقائدهم وسيجزيهم جزاء وفاقا (وما أنت عليهم بوكيل) أي بموكول اليك أمرهم (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى) أي أهل أم القرى (ومن حولها) أي جميع أهل الارض لانا اذا جعلنا مكة نقطة انطلاق الدين ومركز الدائرة الاسلامية فجميع أهل الارض يقع تحت مدار من المدارات الدائرة حولها ، سواء كانت مكة سرة الارض أو لا ، لأنا جعلناها نقطة القطب بالنسبة الى كرة الاسلام لا بالنسبة الى كرة الارض وفهم هذا يحتاج الى تأمل صادق (وتنذر يوم الجمع) أي ولتنذر الناس من

هول يوم الجمع وهو يوم القيامة اذ فيه تجمع الخلائق كلها (لا ريب فيه) أي في يوم الجمع (فريق في الجنة وفريق في السعير) أي فريق من أولئك الناس المجموعين في يوم القيامة في الجنة وفريق منهم في السعير (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) مهتدين أو ضالين (ولكن يدخل من يشاء في رحمته) فيجعلهم من المهتدين لعلمه بحسن توجيه استعدادهم الى السعادة (والظالمون) الذين شاء أن يدخلهم في نقمته وعذابه لعلمه الازلي بسوء توجيهاتهم وسوء تصرفهم أولئك (ما لهم من ولي) أي صديق يتولى أمورهم (ولا نصير) ينصرهم ويدفع عنهم العذاب • وانما غير الباري أسلوب المقابلة للدلالة على أن العلة هي ظلمهم على أنفسهم في توجيهاتهم السيئة • ومن المفسرين من قال ان المراد ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة مهتدية على غرار قوله تعالى فلو شاء لهداكم أجمعين وأمثاله لانه قادر على كل شيء ممكن من الممكنات ، ولكن لم يشأ ذلك بل شاء أن يدخل بعض الناس في رحمته وهم المطيعون ، وبعض الناس في نقمته وهم العاصون الظالمون •

وقوله تعالى : (أم اتخذوا من دونه أولياء ؟) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء وجود الولي والنصير للظالمين من حيث أنهم اكتسبوا أفظع الجرائم وهي أنهم اتخذوا من دونه أولياء شركاء وأندادا مع أن عملهم ذلك عمل باطل عاطل فاسد (فـ) الحق أن (الله هو الولي) الحميد والمحصي المبدىء المعيد كما قال (وهو يحي الموتى) يوم البعث (وهو على كل شيىء قدير) فلا معنى ولا وجه لاعتبار الاولياء من دونه ، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا •

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ، وَمِنَ

الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ(١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم)(١٢)

قوله تعالى (وما اختلفتم فيه من شيىء) حكاية لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين ، أو خطاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله وأمته، أي وماخالفكم الكفار فيه منأمور الدين فحكمه إلىالله، أي فاتبعوا فيه ماجاءكم من الله ولا تميلوا إلى مايعتقدونه ، أو المعنى فحكمه وفصل الحق من الباطل فيه الى الله ، أو المعنى فجزاؤه موكول الى الله يجزي كلا من الطرفين جزاء وِفاقاً (ذلكم الله ربي عليه توكلت) في كافة أموري لا على غيره (واليه أنيب) أي ارجع لا إلى من سواه (فاطر السماوات والارض) خبر آخر لقوله ذلكم (جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الانعام أزواجا ، يذرؤكم فيه) أي يكثركم بسبب هذا الجعل والتأثير على طريق التوالد والتناسل (ليس كمثله شيىء) لا ذاتا ولا صفة ولا فعلا (وهو السميع البصير) المحيط سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات لا يخرج منها شيىء (له مقاليد السماوات والارض) أي خزائنها (يبسط الرزق لمن يشاء) بسطه له (ويقدر) أي ويضيق الرزق على من يشاء ضيقه عليه (انه بكل شيىء عليم) وهو في كل ما يفعله من البسط والقبض حكيم •

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وعيسى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُم إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ

مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا ، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)(١٦)

قوله تعالى (شرع لكم من الدين) لما قرر أن الله له مقاليد السماوات والارض ، بين أن خلقه لها لم يكن عبثا بل كان حسب علمه وارادته الازليين لتشريع الاحكام وارسال الرسل لإرشاد الانام حتى يكونوا على معرفة بالخالق وعبادة له على الوجه اللائق فقال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) وقوله (أن أقيموا الدين) أن فيه مصدرية على أنه مفعول شرع وما عطف عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي وهو إقامة الدين وقوله (ولا تتفرقوا فيه) الخطاب شامل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وسائر الانبياء والمرسلين ، أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو الاعتقاد بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، فإن الاصول عبارة عن ذلك وأما الفروع فهي أحكام عملية تختلف بحسب الزمان وأحوال الامم ، وأساس هذا الدين هو التوحيد لرب العالمين ، ويؤيده قوله تعالى (كبر على المشركين

ما تدعوهم اليه) على الاستمرار من التوحيد لرب العالمين ، واذا كبر عليهم ذلك وعاندوك فلا تهتم بذلك (ألله يجتبي إليه من يشاء) ويختاره لأعباء الرسالة (ويهدي اليه من ينيب) اليه ويريد طاعته (وما تفرقوا) أي أمم الانبياء بعد وفاة أنبيائهم (الا من بعد ما جاءهم العلم) من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وكان ذلك (بغيا) وعداءً (بينهم) فهذا الفريق لم يقبل دأب فريق آخر ، وتجسمت العداوة واستفحلت حتى كفرت الامم السابقة بالرسل اللاحقين (ولولا كلمة سبقت من ربك) من تأخيرهم إلى أجل مسمى (لقضي بينهم) باستئصال كل مبطل (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) أي من بعد القدامى منهم ، وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لفي شك منه مريب) •

(فلذلك) التفرق وعدم الثبات على الهدى (فادع) الى الالفة والاعتصام (واستقم كما أمرت) أي اثبت على الدعاء الى الله كما أوحى إليك (ولا تتبع أهواءهم) الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أي من جنس الكتاب أي بجميع ما أنزله الله (وأمرت لأعدل بينكم) أي أمرني ربي لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع فلا أخص جمعا بشيىء أبدا (الله ربنا وربكم) أي خالق الكل ومعبود الكل (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) لا يعاقب أحد بمعصية أحد ولا يثاب أحد بحسنة أحد (لاحجة بيننا وبينكم) أي لايحتج بعض على آخر على وجه الخصومة والتفرق لأن الحق قدظهر فلم يبق للاحتجاج ثمر (الله يجمع بيننا وإليه المصير) •

(والذين يحاجون في الله) أي يخاصمون في دينه (من بعد ما استجيب له) أي من بعد ما قبل الناس دينه ودخلوا فيه (حجتهم داحِضة" عند ربهم وعليهم غضب) عظيم من الله لمكابرتهم ولهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره •

(اللهُ الَّذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ ، وما يُدريكَ لعلَّ السّاعةَ قريبٌ (١٧) يستعجلُ بها الَّذينَ لا يؤمنون بها والَّذينَ آمنوا مشفقونَ منها ، ويعلمونَ أنَّها الحقُّ من ربِّهم ، ألا إنَّ الَّذينَ يُمارونَ في السّاعةِ لفي ضلالٍ بعيدٍ (١٨) الله لطيفٌ بعبادهِ يرزقُ من يشاءُ وهوَ القويُّ العزيزُ (١٩) من كانَ يُريدُ حرثَ الآخرةِ نزدْ لهُ في حرثهِ ، ومن كانَ يُريدُ حرثَ الدُّنيا نُؤتهِ منها ومالهُ في الآخرةِ من نصيبٍ (٢٠) أم لهم شركاءُ شرعوا لهم من الدِّينِ ما لم يأذنْ بهِ اللهُ ؟ ولولا كلمةُ الفصلِ لقُضيَ بينهم ، وإنَّ الظّالمينَ لهم عذابٌ أليمٌ (٢١) ترى الظّالمينَ مشفقينَ ممّا كسبوا وهوَ واقعٌ بهم ، والَّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ في روضاتِ الجنّاتِ لهم ما يشاءونَ عندَ ربِّهم ذلكَ هوَ الفضلُ الكبيرُ (٢٢) ذلكَ الَّذي يُبشِّرُ اللهُ عبادهُ الَّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ ، قلْ : لا أسئلُكم عليهِ أجراً إلّا المودَّةَ في القربى ، ومن يقترفْ حسنةً نزدْ لهُ فيها حُسناً ، إنَّ اللهَ غفورٌ شكورٌ)(٢٣)

قوله تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق) أي أنزل جنس الكتاب بالحق اذ لا ينزل من الحق الا الحق (والميزان) أي العدل أعني رعاية الحقوق على الاطلاق ، أو الميزان بين الله وعباده وبين الرسول وأمته وبين أولي الأمر والمؤتمرين بأوامرهم ، وكذلك كل من عليه حق الاطاعة لغيره كالعبد بالنسبة الى مولاه ، والمتعلم بالنسبة الى معلمه ، والاولاد بالنسبة الى

آبائهم . ويفسر هذا المفهوم الحديث الشريف : « إن لنفسك عليك حقا ، ولربك عليك حقا ... » الحديث أو الآلة المعروفة المستعملة لمعرفة التساوي والاختلاف في الموازين . وإنزال الكتاب وما بعده لشعور العاقل بالمسئولية ، والجزاء يتبين في الآخرة ، ولذلك عقبه بقوله (وما يدريك لعل الساعة قريب) أي لعل حلولها قريب وهناك يتبين الناس كل ما يحكم الله رب العالمين (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) استعجال استهزاء واستنكار (والذين آمنوا مشفقون) أي خائفون (منها) لإيمانهم بوجودها (ويعلمون أنها الحق من ربهم) بلا ارتياب ومراء (ألا إن الذين يمارون في الساعة) أي يجادلون في مجيئها وزمانه (لفي ضلال) عن الصراط المستقيم (بعيد) جدا ، لا يرجعون الى الصراط السوي الا بلطف رب العالمين وقوته .

(الله لطيف بعباده يرزق من يشاء) بكافة الوجوه المادية والمعنوية ، وأفضل الأرزاق المعنوية العقل فالعلم ، وأهمه الايمان بالله ايمانا كاملا فالصحة في القلب وطاقة إدارة الناس وتوجيههم الى السعادة ، وأفضل الارزاق المادية الصحة في الجسم ، والكفاف ، وموافقة الاهل والاولاد ، والجار العاقل الامين (وهو القوي) ذو القوة المتين القادر على تنفيذ ما أراده (العزيز) الذي لا يغالب أبدا .

(من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه) والحرث في الأصل إلقاء البذر في الارض ، يطلق على الزرع الحاصل منه ، ويستعمل في ثمرات الاعمال ونتائجها . وحاصل معنى الآية : من كان يريد ثمرات الاعمال الحسنة في الآخرة أي يعمل في الدنيا بأمل حصول ثوابها في الآخرة نَزِدْ له في ثمرات أعماله ونعطه جزاء فوق ما تقتضيه أعماله (ومن كان يريد حرث الدنيا) أي اللذة الحاصلة من مكاسبها الدنيوية التي ليس فيها ابتغاء مرضات الله وانما المقصود العيش حسب الهوى في الدنيا (نؤته منها) أي

شيئا منها يتمتع بها في دنياه (وما له في الآخرة من نصيب) يتمتع به في الآخرة •

وقوله تعالى (أم لهم شركاء) كلمة أم منقطعة بمعنى الهمزة وبل للإضراب عن مضمون شرع لكم من الدين الآية ••• يقول : أضرب عن ذلك فان الراعي لتلك الآية من رافقته العناية الربانية من الموحدين وأما أولئك الكفار المشركون فقد قرروا بلا أصل وأساس شركاء لله تعالى وأقروها لهم و (شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وهو دين الهوى ودين الكفر ودين الضلالة والجهالة بحيث استجلب مقت الله عليهم (ولولا كلمة الفصل) أي القضاء من الله في سابق الزمان بتأجيل عذاب الكافرين الى الاوقات المحدودة (لقضي بينهم) أي بين الكافرين في الدنيا واستعجل عذابهم فيها ، ولكن القضاء جرى بأن يكون عذابهم في وقت محدود وهو يوم القيامة الذي هو يوم الفصل بين العباد في كافة الاعمال • (وان الظالمين) الذين ذكرناهم ومن حذا حذوهم من المشركين أو مطلق الظالمين بالمعاصي (لهم عذاب أليم) في الآخرة • ويحتمل أن يكون العذاب منتشرا في دنياهم وأخراهم بقدر ما قرر الله لهم (ترى الظالمين مشفقين) أي خائفين خوفا شديدا (مما كسبوا) أي من السيئات (وهو واقع بهم) أي والعذاب وارد عليهم وواقع لهم بلا ريب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم) أي انه هو المقرر لهم (ذلك) الجزاء الطيب ذلك الجزاء (هو الفضل الكبير • ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي به •

(قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى) أي لا أسألكم على ما أعمله وأتكلفه لكم أجرا يصل إليّ إلا المودة في القربى ، أي الا مودتكم في من لهم معكم صلة القرابة ، فودادكم لهم هو أجري أو المودة في ذوي

قرباكم ومعاونتهم وأنا من ذوي قرباكم أي لا أطلب منكم أجرا الا مودتي . فان لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتي لاجل حق القرابة وصلة الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها • والخطاب لقريش وذلك أنهم جمعوا له مالا وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت • وله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جميعهم قرابة • أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى الا المودة في القربى ، فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن بطن من قريش الا كان له فيه قرابة أو للانصار بناء على ما قيل أنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينويه ، فنزلت فرده • وله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قرابة منهم لانهم أخواله فان أم عبدالمطلب وهي سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا أخوال آمنة أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا على ما في بعض التواريخ من الانصار أيضا •

وفي روح المعاني : وذهب جماعة الى أن المعنى لا أطلب منكم أجرا الا محبتكم أهل بيتي وقرابتي • وفي البحر أنه قول ابن جبير والسدي وعمرو بن شعيب• و (فى) على هذا المعنى للظرفية المجازية، والقربى بمعنى الاقرباء، والجار والمجرور في موضع الحال • أي إلا المودة ثابتة في أقربائي متمكنة فيهم • ولمكانة هذا المعنى لم يقل الا مودة القربى • وذكر أنه على الاول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق •

والمراد بقرابته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا القول قيل : ولد عبدالمطلب وقيل علي وفاطمة وولدها ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ، وروي ذلك مرفوعا •

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قل لا أسئلكم ؛ قالوا : يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم ؟ قال : « علي وفاطمة وولدها ـ صلى الله تعالى على النبي وعليهم ـ » وسند هذا الخبر على ما قال السيوطي في الدر المنثور ضعيف ، ونص على ضعفه في تخريج أحاديث الكشاف ابن حجر . وأيضا لو صح لم يقل ابن عباس ما حكي عنه في الصحيحين وغيرهما . وقد تقدم الا أنه روي عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك .

ثم قال : والحق وجوب محبة قرابته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من حيث أنهم قرابته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف كانوا ، وما أحسن ما قيل :

داريت أهلك في هواك وهم عدا

ولاجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القربى أقوى كان طلب المودة أشد فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم القربى ، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضا باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات . وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام . انتهى باختصار .

(ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) أي ومن يكتسب أيَّ حسنة كانت نزد له فيها حسنا بمضاعفة الثواب عليها . (ان الله غفور) يستر الذنوب ويغفرها و (شكور) يجزي من أطاع منهم بمزيد الثواب .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ؟ فَإِنْ يَشَأْ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

عَنْ عِبادِهِ ، وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ، وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ(٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ(٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ(٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ، وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ(٢٨) وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ ، إِذا يَشاءُ ، قَدِيرٌ(٢٩) وما أصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ(٣٠) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَما لَكُم مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)(٣١)

قوله تعالى (أم يقولون افترى) أي بل أيقولون افترى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الله كذبا بدعوى الرسالة منه وانزال القرآن عليه ؟! والاستفهام للاستنكار (فان يشأ الله يختم على قلبك) فكيف يوسع لك المجال ويعطي القوة والقابلية حتى تفتري على الله ، أو أنك انسان ذو بصيرة فائقة وذو سريرة لائقة والافتراء لا يناسب انسانا مثلك فان يشأ الله أن تفتري عليه يختم على قلبك يجعلك مختوما على القلب غير منشرح الصدر حتى تكون مثل أولئك الناس الفاسدين المنقبضين في العقل والمشاعر وتقدر أن تفتري على الله ، فان هذا العمل الفاسد لا يحصل الا من الفاسدين • وقوله تعالى (ويمح الله الباطل ويحق الحق) تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي لاتهتم بقولهم ان محمدا افترى على الله الكذب ، وهو ليس برسول منه ، وليس القرآن كلامه ، فان الله يمحو كل قول باطل

مثل أقوال أولئك المشركين الطاعنين فيك (ويحق الحق) ويثبت الحق (بكلماته) وهو أنك رسوله الامين ، وأن القرآن كلام نزل به جبريل الامين لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ، والمراد بكلماته قضاؤه وتأييده للرسول من كل الجهات حتى يستقر أمره ويتحقق نصره ويجوز أن يراد بالكلمات الآيات التي نزلت بعد ذلك وأيدت رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ (انه عليم بذات الصدور) يعني ان الله عليم بالخيالات الجارية في القلوب التي في الصدور فيؤيدها ان كانت متوجهة الى الخير ويمحيها اذا كانت متوجهة الى الشر .

(وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) صغائرها وكبائرها (ويعلم ماتفعلون) فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره اذا شاء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي يجيبهم ويقبل دعاءهم وينصرهم ويقهر أعداءهم (ويزيدهم من فضله) الواسع جل شأنه (والكافرون لهم عذاب شديد) .

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) أي لتكبروا وتعاظموا على الفقراء ، أو طغوا وبغوا وتجاوزوا الحدود المقررة (ولكن ينزل بقدر) أي بتقديره (ما يشاء) أي ما اقتضته حكمته ورحمته (انه بعباده خبير بصير) خبير بالخفيات بصير للجليات (وهو الذي ينزل الغيث) أي المطر الذي يغيثهم من الجدب (من بعدما قنطوا) أي يئسوا منه (وينشر رحمته) أي مطره على أكناف البلاد وأطرافها حتى تصبح الارض مخضرة ، أو ينشر ما نتج من المطر وهو الحبوب (وهو الولي الحميد) الذي يتولى عباده باللطف والاحسان .

(ومن آياته) أي ومن دلائل رحمته وقدرته (خلق السماوات والارض وما بث فيهما من دابة) وظاهر الآية الكريمة أن ما يسمى بالدابة في اللغة

أو العرف موجود في كل من السماوات والارض ولا داعي الى تفسير الآية بوجود الملائكة في السماوات والانسان والحيوان في الارض لان الملائكة لا تسمى بالدابة لا في اللغة ولا في العرف • وكذلك لا يسمى الانسان بالدابة عرفا (وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) أي والله تعالى قادر على حشرهم بعد البعث للمحاسبة أينما كانت ويحتمل أن يكون المعنى والله تعالى قادر على جمع ما في السماوات والارض في صعيد واحدٍ لان العلوم الكونية أخذت تتطور فيمكن أن يصل الانسان الى بعض الكواكب السماوية المعمورة بالدواب وينزلها من السماء الى الارض في المستقبل •

(وما أصابكم من مصيبة) مما عرضت عليكم في الدنيا من الاشياء الخارجة عن المعتاد كالسيل والجدب والآفات الواردة على المزارع والاشجار والامراض الفاسدة والحروب الحاصدة (فبما كسبت أيديكم) أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها ، ونسبتها الى الايدي لانها آلة البطش والاخذ • ومن أهم تلك المعاصي الجالبة للمآسي انتشار فساد الاعتقاد بالمعتقدات الاساسية وكثرة القتل وارتكاب الفواحش (ويعفو عن كثير) من الذنوب الجالبة للكروب (وما أنتم بمعجزين في الارض) أي ولستم بقادرين على تعجيز الباري سبحانه وتعالى ومنعه من أن يصيبكم بالمصائب فهو قادر عليكم أينما كنتم (وما لكم من دون الله من ولي) يتولى أموركم باللطف والرحمة (ولا نصير) يدفع عنكم المصائب بالقوة •

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ (٣٢) ، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(٣٥) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَياةِ الدُّنيا ، وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبقى لِلَّذِين آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ(٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كبائِرَ الإِثْمِ وَالْفواحِشَ ، وَإِذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرونَ(٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرونَ(٣٩) وَجَزاؤُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها ، فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ(٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(٤١) إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ)(٤٣)

قوله تعالى (ومن آياته الجوار) أي ومن آيات علمه وحكمته وقدرته إلهام عباده صنع السفن الشراعية التي تستعمل للسير في البحار الجارية فيها حالكونها مرتفعات (كالاعلام ، إن يشأ) الله (يسكن الريح) التي تجرى بقوتها السفن (فيظللن رواكد على ظهره) أي فتصير تلك السفن المتحركة واقفة ثابتة على ظهر البحر (إن في ذلك) الأمر الماخوذ مما ذكر من إلهام صنع السفن ، وركوب الناس عليها ، وسلوكها على البحر ، وجريانها بالرياح الموافقة للمقصد أو ايقافها على ظهر البحر .. (لآيات لكل صبارٍ شكور) لكل إنسان وقف على أحوال السفن الشراعية وركبها فتوقفت بسكون الريح ، وصبر حتى تحركت ، أو ركبها فتحركت نحو المقصد وشكر

الله على ذلك (أو يوبقهن) عطف على يسكن أي أو يهلكهن ويغمسهن في أعماق البحر (بـ) سبب شؤم (ما كسبوا) أي ركابها (ويعفو عن كثير) (ويعلم الذين يجادلون في آياتنا) عطف على مقدر مقرون بلام العلة أي لينتقم منهم ويعلم الذين أو ليظهر عظيم قدرته تعالى ويعلم الذين (يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص) أي مهرب ومخلص من العذاب (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا) أي فهو متاعها وتتمتعون بها مدة محدودة فقط (وما عند الله) من ثواب العقيدة السليمة والاعمال الصالحة (خير) في ذاته لانه لا يشوبه ألم روحي أو مادي (وأبقى) زمانا حيث لا يفنى (للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره تعالى أصلا . وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه اجتمع لأبي بكر مال فتصدق به كله في سبيل الله ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت (والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ما غضبوا) . أي على شخص (هم يغفرون) .

وفي الكبائر آراء فمنهم من قال : هي ما ترتب عليه الوعيد . ومنهم من قال : ما يوجب الحد . ومنهم من قال : كل مادل على عدم مبالاة مرتكبه بالدين . وقيل : كل ما نهى الله عنه كبيرة بالنسبة الى عظم من نهى عنه ؛ فيشمل الذنوب كلها . وظاهر قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم) يدل على أن بعض ما نهى عنه من الصغائر . وقيل : المراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع ، وبالفواحش ما يتعلق بالشهوات . وبقوله واذا ما غضبوا ما يتعلق بالقوة الغضبية . وقوله تعالى : (والذين استجابوا لربهم) نزلت في الانصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للايمان به وطاعته فاستجابوا له ، فأثنى عليهم جل وعلا بما أثنى به . والآية ان كانت مدنية فالامر ظاهر ، وان كانت مكية فالمراد بالانصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة ، أو المراد بهم أصحاب العقبة (وأمرهم شورى

بينهم) أي ذو شورى لانها مصدر كالبشرى • والامر ما تشاوروا فيه • قال الراغب : والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض الى البعض ، من قولهم شُرْتُ العَسَلَ وأشرته استخرجته • والشورى الامر الذي يتشاور فيه • إنتهى • فعليه لا يحتاج الى تقدير المضاف لانه ليس بمصدر حينئذ • (ومما رزقناهم ينفقون) أي في سبيل الخير ، وقد يستأنس به على أن أهل الشورى هم الاغنياء من أهل الحل والعقد •

(والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله لهم ولكن لايعتدون • يدل على هذا قوله تعالى (وجزاؤ سيئةٍ سيئة مثلها) والجزاء على المماثلة انتصار ، وعلى الزيادة ظلم • والأحسن ما أفاده بقوله (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فيجزيه أحسن الجزاء وأعظمه (انه لا يحب الظالمين) تأكيد على اعتبار المماثلة (ولمن انتصر بعد ظلمه) اى بعد أن ظلموه فصار مظلوما ثم انتصر عليهم فلا سبيل عليه كما قال تعالى (فأولئك ما عليهم من سبيل) لأي أحد لذكرهم بسوء أو أخذهم بعمل سيىء لأنهم حازوا حقهم ، ومن حاز حقه فقد فاز • (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق) أي يتكبرون فيها ويتجبرون (أولئك لهم عذاب أليم) جزاء وفاقا (ولمن صبر) في ما أوذي (وغفر) عند قدرته على الانتقام والانتصار (إن ذلك لمن عزم الامور) أي لمن أصحاب عزائم الامور وله أجر موفور • أو أن عمله وحالته من الصبر والمغفرة لمن عزم الامور ، ومن كان له ذلك فهو على أوفى الاجور • قالوا : النجاة في الصدق ، قلنا والصدق في الصبر ، وتحقق بعد تجاريب الامور أن من صبر ظفر ، والعاقبة للصابرين •

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وليٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظّالِمينَ لَمّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقولونَ : هَلْ إلى مَرَدٍّ مِنْ

سَبِيلٍ ؟(٤٤) وَتَرَيهُم يُعْرَضُونَ عَلَيْها خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ، يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ(٤٥) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ اَوْلياءَ يَنْصُرونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ(٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ، مالَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ، وما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً اِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ، وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها ، وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسانَ كَفُورٌ(٤٨) للهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ(٤٩) اَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً ، اِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ)(٥٠)

قوله تعالى (ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده) أي ما له من ناصر يتولاه من بعد أن خذله الله (وترى الظالمين لما رأوا العذاب) يوم القيامة (يقولون : هل الى مردّ من سبيل ؟) أي هل لنا من وسيلة لرجوعنا الى الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحا يرضاه الباري تعالى ؟ (وتريهم يعرضون عليها) أي على النار (خاشعين) متنكسين (من الذل) والهوان (ينظرون من طرف خفي) الى من يأخذهم للتعذيب (وقال الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا انفسهم وأهليهم) للحمل على الكفر ومعاندة الرسول حتى

يلحقهم العذاب (يوم القيامة ، ألا ان الظالمين في عذاب مقيم) اما من تتمة قول الذين آمنوا ، أو اعلان من الله سبحانه وتعالى (وما كان لهم من اولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله) والله سبحانه وتعالى لا يرفع عنهم العذاب لانه لا يغفر أن يشرك به (ومن يضلل الله فما له من سبيل) الى الهدى في الدنيا أو النجاة في الآخرة .

(استجيبوا لربكم) اذا دعاكم على لسان رسوله (من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له) أي لذاته ولا لما يقع فيه من العذاب والعقاب (من الله ، ما لكم من ملجأ) يومئذ تلتجئون إليه (وما لكم من نكير) أي انكار (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ) وقد بلغت كاملا (وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها) على مقتضى فطرته الانسانية (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) من السيئات (فان الانسان كفور) مبالغ في الكفر بنعمة ربه ونسيانها .

(لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء) على حسب اختياره وارادته (يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور) من الاولاد (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) بنين وبنات (ويجعل من يشاء عقيما) لا تلد أبدا (انه عليم قدير) مبالغ في العلم والقدرة .

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"(٥١) وكذلك أَوحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإيمانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنَا ، وإِنَّكَ لَتَهْدي إلى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ(٥٢) صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)(٥٣)

قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا) أي وما صح لفرد من أفراد البشر أن يتكلم معه (الا وحيا) أي تكلما متحققا في ضمن الوحي، وهو القاء المقصود في قلب من يتكلم معه بصورة خفية عن الناس ، ويختص به كليمه سواء كان في المنام كما كان مع الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أوائل النبوة ستة أشهر ، وكما كان مع سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ في قضية ذبح سيدنا اسماعيل ـ عليه السلام ـ ، أو في اليقظة كايحائه تعالى الى أم موسى ـ عليهما السلام ـ (أو من وراء حجاب) أي أو كلاما باللفظ المسموع من وراء حجاب كما وقع مع سيدنا موسى في الطور ، ولسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة المعراج عند فرض الصلوات الخمس (أو يرسل رسولا) أي أو إلا وحيا بأن يرسل رسولا وهو جبريل ـ عليه السلام ـ (فيوحي) أي فيلقي ذلك الرسول (بإذنه) أي بإذن الله (ما يشاء) أي ما يشاء الله تعالى أن يلقيه اليه كجميع ما أوحي الى سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ماعدا الاشهر الستة الابتدائية التي كان الوحي بالرؤيا الصادقة • فوصول القرآن اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحي بالمعنى الثالث أي تكلم الله مع رسوله ، بتوسط جبريل بعين الألفاظ الواصلة بأمره تعالى اليه بدون تغيير وتبديل ، وبدون تصرف من جبريل عليه• وكذلك الاحاديث القدسية فكلها جاء بها الملك جبريل اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والفرق بينها وبين آيات القرآن أن الآيات وصلت درجة الإعجاز دون الاحاديث القدسية • وأن القرآن متعبد بتلاوته دونها ، وأن القرآن أحكام وقصص وغيرها دون الاحاديث القدسية • ومن الناس من

قال : ان الاحاديث القدسية لم ترد عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالالفاظ وانما ألهم معناه • وأما اللفظ فمن الرسول وهذا الرأي مرجوح لا قيمة له ، والحق هو الاول • وصرح به أحمد بن حجر الهيتمي ـ رحمه الله ـ في الفتح المبين (انه علي) متعال عن صفات المخلوقين (حكيم) تجري أفعاله على سنن الحكمة •

(وكذلك أوحينا إليك) أي ومثل ذلك الإيحاء المذكور أوحينا وأرسلنا اليك (روحا) أي ملكا مقربا وهو جبريل (من أمرنا) من إرادتنا لتأخذ حقائق الشريعة الالهية في ضمن الآيات البينات حالكونك (ماكنت تدري) سابقا قبل الإيحاء (ما الكتاب) المنزل من الله (ولا الايمان) برب العالمين وبسائر ما يؤمن به (ولكن جعلناه) أي ذلك الروح أو ما معه وهو القرآن الكريم الذي نزل به (نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي) بهذا الروح وذلك النور الباهر عبادنا (الى صراط مستقيم) هو الاسلام وشرائع الاحكام من الاصول الاعتقادية والفروع العملية (صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض ، ألا الى الله تصير الامور) • أي أمور من فيهما ابداعا ورعاية وحفظا وابقاء • سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة والى الله تعالى العلم بتفاصيل الامور التي ترجع اليه •

سورة الزخرف ، مكية وهي تسع وثمانون آية
نزلت بعد الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم(١) والكتابِ المبينِ(٢) إنّا جعلناهُ قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلونَ(٣) وإنّهُ في أُمِّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيمٌ(٤) أفنضربُ عنكمُ الذّكرَ صفحاً أنْ كنتم قوماً مسرفينَ ؟(٥) وكم أرسلنا من نبيٍّ في الأوّلينَ(٦) وما يأتيهم من نبيٍّ إلاّ كانوا بهِ يستهزءونَ(٧) فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً ، ومضى مثلُ الأوّلينَ(٨) ولئن سألتهم من خلقَ السّمواتِ والأرضَ ؟ ليقولنَّ : خلقهنَّ العزيزُ العليمُ(٩) الّذي جعلَ لكمُ الأرضَ مهداً ، وجعلَ لكم فيها سبلاً ، لعلّكم تهتدونَ(١٠) والّذي نزّلَ منَ السّماءِ ماءً بقدرٍ ، فأنشرنا بهِ بلدةً ميتاً ، كذلكَ تخرجونَ(١١) والّذي خلقَ الأزواجَ كلّها ، وجعلَ لكم منَ الفلكِ والأنعامِ ما تركبونَ(١٢) لتستووا على

ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)(١٤)

قوله (حم) الكلام فيه كما في نظيره (والكتاب المبين) أي القرآن الواضح لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم (إنا جعلناه قرآنا عربيا) جواب للقسم بالكتاب • ومعنى كونه عربيا عربية مفرداته وتراكيبه وأسلوب تنسيقه بنوع عجز عنه البلغاء (لعلكم تعقلون) أي لكي تفهموه بسهولة (وانه في أم الكتاب) أي اللوح المحفوظ الثابت (لدينا لعلي) رفيع الشأن (حكيم) ذو حكمة بالغة • ووجه كونه عليا اعجازه ببلاغته وسائر وجوه الاعجاز ، ووجه كونه حكيما أنه ثابت لا ينسخ • وأما أحكام غيره فمنها ما نسخ (أفنضرب عنكم الذكر صفحا) مفعول مطلق لقوله نضرب على غير لفظه • أي فنعرض عنه إعراضا بتبعيده عنكم (ان كنتم مسرفين) أي لكونكم منهمكين في الإسراف وتجاوز الحدود يعني أن الحكمة تقتضي انزال القرآن فيكم وتذكيركم به ، ولو كنتم مسرفين غاية الاسراف مصرين عليه •

(وكم أرسلنا من نبي في الاولين) أي في الامم المتقدمة (وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزءون • فأهلكنا أشد منهم) أي من القوم المسرفين الذين أرسلناك اليهم (بطشا) أي قوةً وهجمةً (ومضى مثل الاولين) أي سلف وسبق في القرآن الكريم مرارا كثيرة قصة الظالمين الاولين والكافرين السابقين (ولئن سألتهم : من خلق السماوات والارض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الارض مهدا) أي محل استقرار ونموّ (وجعل لكم فيها سبلا) للعبور والمراد يسلكونها بسهولة (لعلكم تهتدون) بسلوكها الى غاياتكم ومقاصدكم (والذي أنزل من السماء ماء بقدر) أي بمقدار

تقتضيه الحكمة (فأحيينا به بلدة ميتا) خالية من النماء . وتذكير ميتا لان البلدة في معنى البلد ، أو باعتبار المكان (وكذلك تخرجون) أي مثل ذلك الانشاء والاخراج للنبات تخرجون أي تبعثون من قبوركم (والذي خلق الازواج كلها) أي أصناف المخلوقات (وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون) أي تركبونه (لتستووا على ظهوره) وتستريحوا عند مروره (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا) وذلله لنا (وما كنا له مقرنين) اي مطيقين (وانا الى ربنا لمنقلبون) أي راجعون أي تذكروا عند علوكم واستوائكم على ظهوره نزولكم وانحطاط منزلكم في القبر .

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءً اِنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفيكُمْ بِالْبَنِينَ ؟(١٦) وَاِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً ، وَهُوَ كَظِيمٌ !(١٧) اَوَ مَنْ يُنَشَّؤُ فِي الحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ ؟(١٨) وَجَعَلوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ ؟(١٩) وَقالُوا : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، مالَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إنْ هُمْ اِلاَّ يَخْرُصُونَ(٢٠) أم آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ؟(٢١) بَلْ قَالُوا : اِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ ، وَاِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ(٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاَّ قالَ مُتْرَفُوها : إنَّا وَجَدْنا

آباءَنا علىٰ أُمَّةٍ ، وَإِنَّا علىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ(٢٣) قالَ : أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ ؟ قالُوا : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ(٢٤) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(٢٥)

قوله تعالى : (وجعلوا له مِن عباده جزءاً) مرتبط بقوله السابق (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض) يقول سبحانه وتعالى أنظروا الى هؤلاء الكافرين المعاندين كيف يناقضون أنفسهم بأنفسهم ، فهم اذا سألتهم من خلق الكائنات أجابوا بأن الله هو الخالق وهو المسيطر على السماوات والارض ، ومعنى ذلك أنه غني عن العالم وأجزائه ، وخالق للكل مع أنهم جعلوا لله تعالى من عباده المخلوقين له جزء اي ولدا هو لوالده كالجزء من وجوده كما اشتهر أن أولادنا أكبادنا (ان الانسان لكفور مبين) بالله الحق كفرانا واضحا لا يحتاج الى البيان • (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفيكم) أي واختاركم (بالبنين ؟) • (و) الحال أنهم (اذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أي والحال أنهم بحيث اذا بشر أحدهم باحدى البنات التي ذكروها للباري تعالى ونسبوها اليه صار وجهه مسودا من شدة ما أخبر به عنده (وهو كظيم) أي ممتلىء غضبا وحزنا وألما (أو من ينشؤ في الحلية) استفهام آخر استنكاري تقريرا وتأكيدا للاول ، يعني أو جعلوا من تنمو وتتربى في كسوة الحلية من القلادة والسوار والخلخال وغيرها مبتعدة عن أعمال الرجال (وهو) مع ما ذكر من النقص (في الخصام) والجدال الدائر بين الناس عادةً (غير مبين) أي غير موضح جعلوه جزءً الله ومن بناته مع القصورين في الفعل والقول ؟ ثم قرر ما استنكره عليهم بقوله الكريم (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) أي اعتبروها بناتٍ لله تعالى عن ذلك علوا

كبيرا • وجعلهم ذلك مما يوجب العجب لكل عاقل (أشهدوا خلقهم ؟) أي أحضروا خلق الله تعالى لهم ذلك والجواب : لا •

ولما كانت دعواهم لهـا كذبا وافتراء على الله تعالى ف (ستكتب) في ديوان أعمالهم (شهادتهم) التي شهدوا بها على الملائكة مـن كونهم اناثا وبنات لله تعالى (ويسئلون) عنها يوم القيامة •

(وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أي وقالوا : نحن نعبد الملائكة وعبادتنا لهم أمر" حسن اعتيادي داخل تحت المشيئة ولو شاء الرحمن أن لا نعبدهم ما عبدناهم • وقولهم ذلك باطل عاطل (ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون) ويخمنون ويقولون ذلك رجما بالغيب • وقولـه تعالى (أم آتيناهم كتابا من قبله) اضراب عن نفي العلم بذلك ، أي لا تبحثوا عن عدم علمهم وانظروا هل آتيناهم كتابا من قبل بعث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو من قبل القرآن ، وفي ذلك الكتاب أمرناهم بعبادة الملائكة (فهم به) أي بذلك الكتاب (مستمسكون ؟) ويعتصمون به ويجعلونه عمـدة وسندا لعقيدتهم (بل) اضربوا عن ذلك أيضا فانه ليس لهـم علم بذلـك ولا نزل عليهم كتاب يتمسكون به وانما نهاية أمرهم أن (قالوا انا وجدنـا آباءنا على أمة) أي على دين وملة (وانا على آثارهم مهتدون) أي حاصل قولهم أنهم وجدوا آباءهم على تلك العقيدة ، وهم يهتدون بهـم ويقتدون بهم ، أي أنهم أناس مقلدون على العمى بآبائهم الضالين ، ولا حجة لهم أبدا (وكذلك) أي والامر كما ذكر من عجزهم عن الحجة (ما أرسلنا قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها) أي متنعموها (إنا وجـدنا آباءنا على أمة) أي ملة ودين (وانا على آثارهم مقتدون) بهم (قال) حكاية لما جرى بـين الرسل المنذرين وبين اممهم المقلدين : (او لو جئتكم بأهدى مما وجدتـم عليه آباءكم ؟) من الامور المفتعلة المزعومة (قالوا : انا بمـا أرسلتم بـه

كافرون • فانتقمنا منهم) أي ولما آل الأمر الى هذه الدرجة من الوقاحة وسوء المقال انتقمنا منهم شر انتقام (وجعلناهم) عبرة للايام (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ؟) من الاستئصال وإبادة الناس من النساء والرجال •

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ)(٣٠)

قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم) أي واذكر لهم وقت قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيه آزر وقومه المتهالكين على عبادة الاصنام كيف تبرأ من عقائدهم وأعمالهم وقال (انني براء مما تعبدون) وبراء صفة مشبهة أي بريء ، أو مصدر كالطلاق والعتاق وصار خبرا بطريق المبالغة • ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث (الا الذي فطرني) استثناء متصل ان كانت ما عامة لذوي العقول وغيرهم ، وان كانت مختصة بغير ذوي العقول فمنقطع ، ويجوز أن تكون الا صفة بمعنى غير على أن ما في وما تعبدون نكرة موصوفة ، والتقدير : انني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني وخلقني (فانه سيهدين) يثبتني على الهداية ، فالسين للتأكيد لا للاستقبال لانه جاء في الشعراء يهدين بدونها (وجعلها) أي كلمة الاستثناء باعتبار ما يستفاد منها ، أو جعل جملة انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني أو كلمة التوحيد المستفادة من الآية (كلمة باقية في عقبه) أي في ذريته وفي من تبعه (لعلهم يرجعون) الى التوحيد وهو تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد منهم (بل متعت هؤلاء)

الكفار المعاصرين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وآباءهم) السابقين بطول العمر ومزيد النعمة (حتى جاءهم الحق) أي دعوة الحق أو القرآن أو الموت والكل سائغ في المعاصرين (ورسول مبين) ظاهر الرسالة بما له من الآيات البينات (ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وانا به كافرون) فزادوا كفراً على كفر •

(وَقَالُوا : لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(٣٢) وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ ، سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ(٣٤) وَزُخْرُفاً ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)(٣٥)

قوله تعالى (وقالوا : لولا نزل) بيان لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة المبنية على الهوى فقالوا : كيف نزل القرآن على هذا الرجل الذي ليس له مال وثروة ؟ ولم لم ينزل على رجل عظيم الشأن عليّ المقام نافذ الامر من احدى القريتين الكبيرتين : مكة أو المدينة ؟ (أهم يقسمون رحمت ربك ؟) فيرد عليهم الباري سبحانه وتعالى ويستنكر كلامهم ، ويقول : أهم يقسمون رحمة ربك حتى يعطوا المقام لمن يريدونه أم نحن (نحن قسمنا بينهم

معيشتهم) أي أسباب معيشتهم وكذلك أسباب عزهم وكرامتهم وشرفهم (في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) في الرزق وسائر ما يتفاوت فيه الناس من المكارم والمعالي وغيرها ، وذلك (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليستعمل بعضهم بعضا في مصالحهم ويستخدموهم في مهمات أمورهم ليحصل بينهم ترابط وتحابب وتآلف فينتظم بذلك نظام الحياة الاجتماعية . وفي بعض التفاسير ليتخذ بعضهم بعضا محل هزء ومسخرة فتتفكك عرى المحبة وينتقم الله منهم . وقوله تعالى (ورحمتُ ربك خير مما يجمعون) معناه أن نظرهم الى أهل القرى الكبيرة وعظمة مقام رجالها أمر دنيوي لا قيمة لها في سعادة البشر عند ربه ، ورحمة ربك واعزازه للناس في الآخرة وشرف لقائه فيها خير مما يجمعونه في الدنيا .

(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أي ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم أمة واحدة كافرة بها بواسطة النظر الى تنعم الكافرين (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج) أي مصاعد منها (عليها يظهرون) أي يعلون على السطوح (ولبيوتهم أبوابا) نفيسة ثمينة (وسررا) من قوائم عالية غالية (عليها يتكئون . وزخرفا) وزينة في أجزائها وفرشها ونواعمها وغيرها (وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أي إلا متاع الحياة ، وان نافية أو أنه لمتاع الحياة الدنيا واللام فارقة ، وما زائدة على تخفيفها (والآخرة عند ربك للمتقين) ومعنى العندية الاعتبار ، أي والآخرة المعتبرة المرضية عند ربك للمتقين .

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ

بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ(٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ، وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؟(٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ(٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ(٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ(٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا : أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟)(٤٥)

قوله تعالى (ومن يعشُ عن ذكر الرحمن) يعني ان من يتعام ويعرض عن ذكر الرحمن ، أي عن هذا القرآن الذي هو ذكر الله تعالى حيث نزل بتسبيحه وتحميده وتوحيده ودعوة الناس الى طاعته وعبادته في ركاب رسوله الذي أرسله رحمة للعالمين (نقيض له شيطاناً) أي نهييء له شيطانا ماردا ليستولي على قلبه ويجعله وكره لإلقاء مكره وفكره الفاسد حتى يحركه للاعتقاد الباطل والعمل العاطل (فهو له قرين) أي فذلك الشيطان قرين لذلك الشخص المعرض عن ذكر الله (وانهم ليصدونهم عن السبيل) أي وان تلك الشياطين لا شك أنهم يمنعون أولئك الناس عن السبيل أي عن سلوك سبيل الحق (ويحسبون أنهم مهتدون) أي أن أولئك الشياطين مهتدون لطريق الحق ولذلك يتبعونهم ، أو الضمير عائد الى العاشين أي ويحسب أولئك الناس المتعامون عن ذكر الرحمن أنهم باتباعهم للشياطين مهتدون لطريق الخير (ولا يعلمون) أن أولئك الشياطين غربان .

إذا كان الغراب دليل قوم ‏ ‏ ‏ سيهديهم طريق الهالكينا

(حتى اذا جاءنا) أي فيستمر مقارنة ذلك الشيطان لذلك الانسان العاشي حتى اذا جاءنا ذلك العاشي أي مات وتحول الى الله ، ورأى يوم القيامة بأمّ عينه واطلع على حقيقة الحال وأن نفع الشياطين له محال (قال) ذلك الانسان العاشي لذلك الشيطان (يا ليت بيني وبينك) في الدنيا (بعد المشرقين) والمراد بهما المشرق والمغرب على التغليب أو بعد مشرق الصيف عن مغربه وبعد مشرق الشتاء عن مغربه (فبئس القرين) أنت وقد ملكتني وأهلكتني . ويقول الله سبحانه وتعالى لذلك الانسان المتندم عما ارتضاه في دنياه (ولن ينفعكم اليوم) هذا التمني فإن وقت الندم قد فات وقوله تعالى (اذ ظلمتم) بدل من اليوم بتقدير مضاف اليه أي اذ صح أنكم ظلمتم أو تبين أنكم ظلمتم في الدنيا ، وقوله (أنكم في العذاب مشتركون) بفتح الهمزة مقدر بلام العلة لعدم النفع ، أي لن ينفعكم الندم والتمني في هذا اليوم يوم القيامة زمان تبين ظلمكم في الدنيا لتقرر أنكم في العذاب مشتركون مع الشياطين . وقرىء بكسر الهمزة فتكون جملة مستأنفة مقررة لعدم النفع . وقوله اذ ظلمتم يكون علة لعدم النفع ، أي لن ينفعكم التمني اليوم لانكم ظلمتم أنفسكم بالاشراك في الدنيا والاشتراك مع الشياطين فيه انكم اليوم أنتم وقرناؤكم الشياطين في العذاب مشتركون كما كنتم في الدنيا في الظلم مشتركين . وقوله (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي) مصدر بهمزة الاستفهام الانكاري ليستريح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن اتعاب النفس في ارشادهم فيقول : أبعد ما جرى من الكفار المشركين في مكة أنت تقدر أن تسمع القوم الصم عن سماع الحق ، أو تهدي القوم العمي عن ابصاره (و) تهدي (من كان في ضلال مبين) واضح بعلم اليقين ؟! أي فلا تبال بهم ولا تهتم .

(فإما نذهبن بك) وتتوفينك الينا (فإنا منهم منتقمون) بعدك (أو نرينك الذي وعدناهم) وننصرك عليهم (فانا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذي أوحي اليك) من القرآن نزل عليك (انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك) أي وان ما أوحي اليك لذكر وبيان حال وكمال ونضال في سبيل الحق وشرف عند الله وعند الناس العقلاء لك ولقومك الذين أجابوا دعوتك من المهاجرين والانصار وسائر الصحابة الاخيار (وسوف تسئلون) يوم القيامة أنت وقومك المجيبون عن مدى القيام بأعباء الرسالة وكفاح أهل الضلالة (واسأل من أرسلنا) أي أمم من أرسلنا (من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) أي هل حكمنا بعبادة غير الله رب العالمين •

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بآياتِنا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلأِهِ ، فَقالَ : إنّي رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إذا هُمْ مِنْها يَضحَكُونَ (٤٧) وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إلاّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ، وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقالُوا : يا أَيُّها السّاحِرُ ادْعُ لَنا ربَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدكَ إنَّنا لمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) ونادى فِرْعونُ فِي قومِهِ قَال : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ؟ أَفَلا تُبْصِرونَ ؟ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ ؟ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ

قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنهُمْ ؛ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ)(٥٦)

قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) أي متلبسا بآياتنا أي معها معية استعدادية قريبة (الى فرعون وملأه) أي أشراف قومه الذين يملأون ديوانه (فقال : اني رسول رب العالمين) اليكم لإطاعة الله الجليل وإطلاق الحرية المعقولة لبني اسرائيل (فلما جاءهم بآياتنا اذا هُمْ منها يضحكون) أي استهزءوا بهوبالآيات التيأتىبها استنهزاءعميقا بحيثجاءهم الضحك الناشيء من التعجب عن مجيئه وقوله ذلك ، وهو أضعف انسان ، عندهم ولم يصدقوا بأن معه آيات ربانية ومعجزات خارقة وتعاليم موافقة للعادات التي مشوا عليها (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) يعني وقد أريناهم آياتنا الدالة على كمال قدرتنا بتتابع تكون الثانية منها أكبر وأوقع في النفوس من الأولى ، بحيث تدهش العقول وتأخذ بالألباب فلم تفدهم (وأخذناهم بالعذاب) أي بالقحط سنين وبالجراد والقمل وغيرها(لعلهم يرجعون) الى رشدهم ويأخذون طريق رشادهم في الدين واعتقدوا به أنه ساحر .

(وقالوا : يا أيها الساحر ادْعُ لنا ربك بما عهد عندك) أي بعهده الموجود عندك وهو عهد النبوة والرسالة منه الى عباده ، ومعناه أن من كان ثقة مأمونا مختارا عند صاحبه لمهمة عالية عالمية فله وجه عنده ، واذا دعاه وترجاه لمهمة تقبل دعاءه وأجابه ، فان دعوته وأجابك فـ (إننا لمهتدون) الى سلوك سبيل الايمان والطاعة لربك (فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون) أي فدعانا موسى لكشفه فأجبناه ولما كشفنا العذاب كان الحق أن يؤمنوا فلم يؤمنوا واذا هم ينكثون ذلك القرار الجاري بينهم وبين موسى ونقضوه .

(ونادى فرعون في قومه) أي جمعهم ، ونادى فيهم كمن يطلب تصويت الامة للانتخاب : (يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار) أي الجداول والفروع المأخوذة من النيل في كل جانب وأراد بملك مصر كل البلاد من أسكندرية شمالا الى أسوان جنوبا مع ما يليهما شرقا وغربا ، وكان ملك مصر عندهم كملك الدنيا وقوله (تجري من تحتي ؟) اما المقصود تجري تحت مستقره وعرشه وساحة جلوسه ، أو المراد من تحت تصرفي للاستثمار والاستغلال (أفلا تبصرون ؟) كل ذلك . وأراد من وراء ذلك أن يشتهر خضوع الامة له واعترافها بأن الملك ملكه وتخويف الناس من الايمان بموسى وأتباعه في أهدافه التي كان يتزلزل بها عرشه وقوله (أم أنا خير) أم فيه منقطعة أي بل أنا خير وأفضل وأشرف (من هذا) الرجل الذي (هو مهين) أي ذليل حقير (ولا يكاد يبين ؟) أي ولا استعداد له أن يأتي بعبارة فصيحة يظهر منها مقصوده بسهولة وراحة (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ؟ أو جاء معه الملائكة مقترنين ؟) قال مجاهد : كانوا اذا سودوا رجلا سوروه بسوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسؤدده . فيقول فرعون للناس في اغفالهم عن الحق : ان كان موسى أميرا وملكا دنيويا فلم لم يسور بأسورة من ذهب كما هو العادة ؟ وان كان ملكا دينيا ربانيا فلم لم يجيء معه الملائكة مقترنين له ومحيطين به ؟ ولم يدر هو وأتباعه الفاسدون أنه رسول من رب العالمين فلا حاجة له الى اقتران الملائكة كما أنه لا يدعي الملكية الفرعونية حتى يلبس الأسورة وشعائر السلطنة . (فاستخف قومه فأطاعوه) أي فطلب فرعون من قومه الخفة في اطاعته بهذه الكلمات الاحتيالية فأطاعوه واعترفوا بأن ملك مصر له وان موسى لا يعتمد عليه (انهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن اطاعة الله وبذلك دخلوا في طاعة الكافر الذي لا شرف له عند الله .

(فلما آسفونا) أي أسخطونا وجعلونا في ما لا نستحبه من الاعتقادات الفاسدة والاقوال الفارغة والاعمال الكاسدة (انتقمنا منهم) أي من فرعون وملأه (فأغرقناهم) في نهر النيل (أجمعين • فجعلناهم سلفا) أي اماما للكفار الذين يتمردون بعدهم (ومثلا) أي قصة ذات شأن وعظة ذات قيمة (للآخرين) بأن يقال لمن يتمرد بعده مثلك مثل فرعون يأتي عليك ما أتى عليه •

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وقَالُوا : ءَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاّ جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أَنعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَني إسْرائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّه لَعِلمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّه لَكُمْ عَدوٌّ مُبِينٌ (٦٢) ولمَّا جاءَ عِيسى بِالبَيِّنَاتِ قالَ : قدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللهَ هُوَ ربِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)(٦٥)

قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا) أي ولما ذكر عيسى ابن مريم مثلا وشبيها لآلهة الكفار ، أي قيل انه يعبد من طرف النصارى كآلهتنا فإذا كان حَصَبا لجهنم فلتكن آلهتنا أيضا حَصَبا لها • وجواب لما قوله تعالى

(اذا قومك منه يصدون) أي يضجون ويفرحون ويبطـرون • (وقالــوا) للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ءآلهتنا خير") من عيسى (أم هو) أي عيسى خير من آلهتنا • وفي واقع الحال تقول يا محمد انه خير من آلهتنــا فاذا صار هو حصب جهنم فلتكن آلهتنا حصبها (ماضربوه لك الا جدلا) أي ما جاؤا بذكر عيسى ــ عليه السلام ــ الا للجدال والزامك واسكاتك (بل هم قوم خصمون) ابطال لاقوالهم اجمالا ، وانتقال الى بيان أنهــم قوم مبالغون في الخصومة والعداوة مع الحق • (ان هو) أي عيسى (الا عبد أنعمنا عليه) وشرفناه بشرف النبوة والرسالة (وجعلناه مثلا) أي عبرة (لبني اسرائيل) • (ولو نشاء لجعلنا ملائكة في الارض) أي لخلقنــا ملائكة في الارض (يخلفون) لكم كما يخلفكم أولادكم ، أو يكونون خلفا ونسلا لكم ؛ ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليدا كما تخلق ابداعا ، فمن أين لهم استحقاق الالوهية والانتساب اليه سبحانــه وتعالى بالبنوة له ؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها) أي وان نزول عيسى من السماء الى الارض لعلامة تكون سببا للعلــم بقرب حلول الساعة فلا تشكن في الساعة وحلولها ، أو أن وجود عيســى من الام بلا أب له علامة لقدرة الله تعالى على خلق الانسان بلا والد ولا والدة وبلا والد كعيسى ، وبلا والدة كحواء ، وعلى خلق الانسان واعادة حياتــه وبعثه من القبور يوم الساعة فلا تشكن بها • أو أن وجود عيسى واحيــاءه للموتى بإذننا علامة لتحقق الساعة لانا اذا أقدرنا عبدا على احياء الموتى فنحن أقدر منه على احيائهم عند البعث وحلول الساعة فلا تشكن فيها (واتبعوني) فيما أبلغه اليكم من أن الله واحد لا شـريك له وأنه لا يعبد ســواه ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن كل مكلف له دفتر حســاب يحاســب على

مقتضاه (هذا صراط مستقيم) موصل الى الحق القويم (ولا يصدنكم الشيطان) أي ولا يمنعنكم الشيطان عن اتباعي (انه لكم عدوّ مبين) •

(ولما جاء عيسى بالبينات) أي بالمعجزات الواضحات أو بالإنجيل (قال) أي لبني اسرائيل : (قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه) من أمر الدين والشريعة وحساب الموتى بعد البعث والنشور (فاتقوا الله) يا بني اسرائيل (وأطيعون) فيما أقول لكم (ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه) لا غيره (هذا صراط مستقيم) أي هذا التوحيد والتزام الحق صراط مستقيم لا يضل من سلك فيه (فاختلف الاحزاب من بينهم) في أن عيسى ورسالته وعبوديته لله (فويل للذين ظلموا) من المختلفين بالانكار لرسالته أو بالقول بأنه ابن الله (من عذاب يوم أليم) هو يوم القيامة •

(هل ينظُرُونَ إلاّ السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ؟(٦٦) الأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ الْمُتَّقِينَ(٦٧) ياعِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وأَكْوابٍ ، وفيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ(٧١) وتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُموها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢) لَكُمْ فِيها فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ)(٧٣)

قوله تعالى : (هل ينظرون إلا الساعة) الضمير عائد الى قريش وقوله (أن تأتيهم) بدل من (الساعة) و (ينظرون) بمعنى ينتظرون • أي هل

تنتظر قريش شيئا الا حلول الساعة واتيانها عليها مفاجأة (وهم لا يشعرون ؟) بإتيانها وغشيانها عليها كما تغشى سائر الناس • وحاصل الآية : ان أولئك الكفار لا يقبلون أية نصيحة ولا يخافون من أي انذار ولا يرفع رءوسهم الا حلول الساعة في حال لا يشعرونها فيه كما روى أبو سعيد قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة ، والرجلان يطويان الثوب » ثم قرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟

(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) والآية نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، ومعناها أن المحبات تنقطع يوم اذ تأتيهم الساعة ، ولا تبقى الا محبة المتقين ، وهم المتصادقون في الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحابب في الله عز وجل (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) أي ويناديهم الباري سبحانه وتعالى بقوله : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون (الذين آمنوا) اما صفة للمنادى ، أو بدل ، أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه • وأفاد بقوله آمنوا اتصافهم بالعلم بما جاء به الرسول من الله تعالى وبقوله (وكانوا مسلمين) اتصافهم بالإذعان الفعلي وهو الانقياد النفسي لما جاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) أي تسرون سرورا ظاهرا يعرفه الناس (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة (بصحاف من ذهب) والصحاف جمع صحفة قيل هي كالقصعة (وأكواب) جمع كوب بمعنى المشربة الصغيرة التي ليس فيها عرى (وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين) أي تستلذ وتقر بمشاهدته وتستطيبه العقول السليمة (وأنتم) يا عبادي (فيها خالدون) •

(وتلك الجنة التي أورثتموها) أي أوتيتموها إيتاء قسريا كإيتاء المواريث ، وذلك (بـ) سبب (ما كانوا يعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها

تأكلون) وكثرة الفواكه بحسب تعدد الانواع • وقوله منها يعني لا تأكلون الا بعضا منها وذلك لكثرتها •

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ : إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)(٨٤)

قوله تعالى (ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون) أي ان الراسخين في الاجرام وهم الكفار (في عذاب جهنم خالدون • لا يفتر عنهم) أي لا يخفف العذاب عنهم (وهم فيه) أي في العذاب (مُبْلسون) حزينون (وما ظلمناهم) بذلك (ولكن كانوا هم الظالمين) أنفسهم لسوء اختيارهم (ونادوا) أي المعذبون في جهنم خازنها وقالوا : (يا مالك ليقض علينا ربك) أي ليمتنا (قال : إنكم ماكثون) أي مقيمون في العذاب لابد لكم من ذلك (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون • أم أبرموا) أي الكفار (أمرا ؟) أي أم أبرموا أمرا وجعلوه مقطوعا في الاضرار بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(فإنا مبرمون) أي كدنا حقيقة نحن لا هُم (أم يحسبون أنّا لا نسمع سرهُمْ ونجواهم ؟) المراد بالسر حديث النفس ، وبالنجوى ما يتناجون به بينهم بالاخفاء عن غيرهم (بلى) نسمع ونعلم ونطلع على كل ذلك وغيره (ورسلنا لديهم يكتبون) ما أمروا بكتابته لا لعلمنا فإننا لا نحتاج الى كتابتهم بل للاحتجاج به عليهم يوم القيامة عند الميزان والحساب • وظاهر الآية الشريفة أن حديث النفس مسموع للباري تعالى ، كما أنه يدل على أن الكتبة مطلعون أيضا على حديث النفس ، والكلام السري في النجوى ، ولا مانع من أن يكشف الله ذلك لهم حتى يحيطوا بما في باطنهم وظاهرهم •

(قل ان كان للرحمن ولد) كما تدعون أن الملائكة بنات الله (فأنا أول العابدين) لذلك الولد ، فإن تعظيم الوالد يوجب تعظيم الولد • وحاصل الكلام أنه ان صح وثبت وجاز أن يكون للرحمن ولد فأنا أولَ وأقدم العابدين ، وكانت عبادة ذلك الولد أنسب بحالي لاني أعلمكم بالله وبما يناسب مقامه من تعظيمه وتنظيم علاقته ، ولكن ليس له ولد ولا يصح له ، فإنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود ، ولا يتناسبان في الحقيقة والماهية بأي حال • وقد ظهر أن وجه الملازمة كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلم الناس بشئون الباري وتعظيمه • ومما يجب أن يعلم أن صحة الشرطية لا تتوقف على إمكان الشرط والجزاء لجواز تركيبها من محالين ، كما تقول : لو كانت الثلاثة زوجا لانقسمت بمتساويين بلا كسر • ولو كانت النار باردة ما أحرقت اليد الماسة لها ، ولو كان زيد أسدا كان مفترسا (سبحان رب السماوات والارض رب العرش عما يصفون) أي عن الذي يصفونه به من تحقق الوالدِ له (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) في دنياهم غافلين عما يحتاجون اليه في عقابهم (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وهو يوم القيامة • وقال جمع انه يوم بدر (وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله) الظرفان متلعقان

بما في اله من معنى المعبودية (وهو الحكيم) في تأجيل العقاب وتعجيله (الخبير) بأعمال كل عامل وما يستحقه •

(وتبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ ومَا بَيْنَهما ، وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، فَأَنَّى يُؤفَكُونَ ؟ (٨٧) وَقِيلِهِ : يا ربّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنهُمْ وَقُلْ : سَلامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(٨٩)

قوله تعالى (وتبارك الذي له ملك السماوات والارض وما بينهما) أي السلطنة والتصرف في كل ذلك ، لأنه الخالق له والخالق حقه التصرف المطلق (وعنده) لا عند غيره (علم الساعة) ووقت تبدل عالم الدنيا بعالم الآخرة (واليه ترجعون) للجزاء (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة) كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله (الا من شهد بالحق) وهو التوحيد فهم لاعترافهم بالتوحيد والتزامهم الطاعة لله تعالى يستحقون الشفاعة ممن أذن له الرحمن • وقوله (وهم يعلمون) دليل على أن اعتبار الشهادة بالحق والتوحيد انما ينفع اذا كانت من علم وتصديق ذاتي ، وان كان بدليل مجمل لا من تقليد صرفٍ (ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولن الله) لتعذر المكابرة في ذلك (فأنى يؤفكون ؟) أي وما دام هم معترفون بأن الله خلقهم وأخرجهم من العدم الى الوجود فأنى يؤفكون ، أي فكيف يصرفون عن

طاعته الخالصة وتوحيده (وقيله) معطوف على الساعة ، أي وعند الله علم قيله أي قول الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وندائه بـ (يا رب إن هؤلاء) المشركين (قوم لايؤمنون) فما دام الله يعلم بذلك القول وذلك النداء فلا تهتم ولا تحزن . (فاصفح) وأعرض (عنهم) لتستريح ولا تطمــع في ايمانهم (وقل سلام) أي أمري معكم سلام ومتاركة (فســوف يعلمون ﴾ جزاءهم جزاء وفاقا .

سورة الدخان ، مكية وآياتها تسع وخمسون آية ،
نزلت بعد الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

(حمَ(١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(٤) أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ(٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ؟(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)(١٦)

قوله تعالى (حـم) الكلام فيه كما سبق (والكتاب المبين) أي أقسم بالكتاب المبين الواضح الموضح للحقائق والمقسم به قوله (انا أنزلناه) أي ذلك الكتاب المبين (في ليلة مباركة) هي ليلة القدر بدليل قوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) اذ يتركب من هاتين الآيتين الكريمتين قياس من الشكل الثالث تقريره : القرآن الكريم أنزل في ليلة مباركة ، والقرآن الكريم أنزل في ليلة القدر ، والنتيجة أن تلك الليلة المباركة هي ليلة القدر . وهذه النتيجة اذا لوحظت مع قوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) يظهر بحق أن ليلة القدر ليلة من ليالي شهر رمضان فطوبى لمن أحياها بطاعة الرحمن (إنا كنا منذرين) أي ومبشرين بذلك الكتاب جميع المكلفين (فيها) أي في تلك الليلة المباركة (يفرق كل أمر حكيم) ويفرق بمعنى يفصل ويلخص والحكيم بمعنى المحكم لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة ـ عليهم السلام ـ بخلافه قبله وهو في اللوح المحفوظ ، فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت .

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب : يحج فلان ... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي ؟ قال : أي والله انها لفي كل رمضان ، وانها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق الى مثلها . وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء (فيها يفرق كل أمر حكيم) هي ليلة القدر يجاء بالديوان الاعظم السنة الى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء .

وفي كثير من الاحاديث الشريفة أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان بحيث لا يمكن انكارها • فقال بعض الأجلة : كون التقدير في هذه الليلة يشكل عليه قول كثير أنه ليلة النصف من شعبان وهي المراد بالليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم • وأجاب بأن ههنا ثلاثة أشياء : الاول نفس تقدير الامور ، أي تعيين مقاديرها وأوقاتها وذلك في الأزل • والثاني اظهار تلك المقادير للملائكة ـ عليهم السلام ـ بأن تكتب في اللوح المحفوظ ، وذلك في ليلة النصف من شعبان • والثالث : اثبات تلك المقادير في نسخ وتسليمها الى أربابها من المدبرات ، فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والامطار الى ميكائيل ـ عليه السلام ـ ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف الى جبريل ـ عليه السلام ـ • ونسخة الاعمال الى إسرافيل ـ عليه السلام ـ • ونسخة المصائب الى ملك الموت وذلك في ليلة القدر • هذا وسيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير سورة القدر مزيد تفصيل للموضوع •

وقوله تعالى (أمرا من عندنا) منصوب على الاختصاص وتنكيره للتفخيم ، والجار والمجرور في موضع الصفة له (إنا كنا مرسلين) وقوله (رحمة من ربك) تعليل ليفرق أو لقوله تعالى أمراً من عندنا، ورحمة مفعول به لمرسلين وتنوينها للتفخيم ، والجار والمجرور في موضوع الصفة لها (انه هو السميع) لكل مسموع (العليم) لكل معلوم (رب السماوات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين) أي من أهل الايقان (لا إله الا هو) أي لا اله حق إلا هو (يحي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين) خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من رب السماوات •

(بل هم في شك) اضراب ابطالي حالكونهم (يلعبون) ما يقولون بشيىء مطابق للواقع (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) أي يوم تأتي بجدب

ومجاعة فان الجائع يرى ما أمامه الى السماء كهيئة الدخان • أو يوم ظهور الدخان المعدود في أشراط الساعة ، لما روي أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر » قيل : وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الآية وقال : « يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخره وأذنيه ودبره » • (يغشى الناس) يحيط بهم وقوله (هذا عذاب أليم • ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون) مقدر بقول وقع حالا ، وانا مؤمنون وعد بالايمان ان كشف العذاب أو اعتراف به وتضرع وتشفع به عند الله تعالى • وقوله تعالى (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ؟) بين لهم واجبهم وثوابهم على تقدير الاجابة وعقابهم على تقدير العناد ، وذلك الرسول هو محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون) أي قال بعضهم : انه معلم من أعجمي ، وقال بعضهم : انه مجنون • وقوله (إنا كاشفوا العذاب) أي انا كاشفوه ورافعوه عنكم بدعاء الرسول ، فانه لما دعا رفع القحط (قليلا) كشفا قليلا أو في زمان قليل (انكم عائدون) هذا جواب من جانب الباري سبحانه وتعالى عن قولهم واخبارهم بالعود على تقدير الكشف • وقوله (يوم نبطش البطشة الكبرى) ظرف لقوله (إنا منتقمون) •

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(١٧) : أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(١٩) وإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ(٢٠) وإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ

مُجْرِمُونَ(٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ(٢٣)
وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ)(٢٤)

قوله تعالى (ولقد فتنّا قبلهم) تذكير للكافرين المشركين بما جرى قبلهم على فرعون وقومه على أثر عنادهم مع موسى ـ عليه السلام ـ لعلهم يتعظون ويعتبرون فقال (ولقد فتنا) وامتحنا وابتلينا (قبلهم) أي قبل أولئك المشركين المعاصرين لك (قوم فرعون) أي فرعون وقومه لكن لما كان قوامه بقومه قد اكتفى بهم (وجاءهم) أي قوم فرعون (رسول كريم) مكرم محترم عند الله وهو موسى ـ عليه السلام ـ (أن أدوا الي عباد الله) أي قائلا أن أدوا إلي وسلموا الي عباد الله أي بني اسرائيل المعذبين لانهم اشتهروا بأنهم عباد الله أي يعبدونه ويوحدونه (اني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله) أي لا تستكبروا على الله باستكباركم على رسوله (إني آتيكم بسلطان مبين) أي بحجة ظاهرة تدل على سلطنة الباري وقدرته على الممكنات ، يتصرف فيها كيف يشاء فيقلب العصا حية مثلا • ولما أدرك موسى ـ عليه السلام ـ سوء نيتهم قال (واني عذت بربي وربكم أن ترجمون) أي التجأت وتحصنت به من أن تؤذوني بالضرب أو القتل (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) أي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا عليّ (فدعا ربه) أي فلما علم بقصدهم السيىء دعا ربه (أن هؤلاء قوم مجرمون) مصرون على العداء والعناد • وقوله تعالى (فأسر بعبادي) أي فأوحى اليه (أن أسر بعبادي ليلا) أي بقطع من الليل (انكم متبعون واترك البحر رهوا) أي ولما وصلت البحر انفتح لك وانفرج فيكون طريقا لعبورك بسلامة ، ولما عبرت فلا تضرب البحر بالعصا حتى يعود الى حاله القديم ، واتركه رهوا أي منفتحا منفرجا ليطمع فرعون وجنوده في عبوره ، فاذا خاضوه انطبق عليهم وهلكوا (فانهم جند مغرقون) في علمي ، ولابد أن يغرقوا في هذا السفر • فسرى موسى بقومه ، ولما وصل النيل وجده

على ما ذكرنا فعبروا منه ، وتركه على حاله رهوا ، ولما وصله فرعون وجنوده على تلك الحالة اقتحموه ، ولما وصلوا كلهم الى مابين حافتيه انطبق عليهم فصاروا مغرقين . وعلى هذا تكون جملة انهم جند مغرقون علة لتركه رهوا .

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ)(٣٣)

قوله تعالى (كم تركوا) كم منصوب محلا على المفعولية لما بعده ، أي تركوا كثيرا في مصر (من جنات وعيون ، وزروع ، ومقام كريم) أي مواقع حسنة للبقاء فيها (ونعمة كانوا) أي فرعون وأتباعه (فيها) أي في تلك النعم (فاكهين) أي أصحاب فاكهة أو طيبي الانفس (كذلك) أي الامر كذلك (وأورثناها قوما آخرين) وهم بقايا بني اسرائيل من الذين كانوا موالين لفرعون وما أمكنهم أن يخرجوا مع موسى ـ عليه السلام ـ أو المراد قوما آخرين ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وتفسيره ببني اسرائيل الخارجين مع موسى ـ عليه السلام ـ لا يوافق الواقع لانهم لم يرجعوا الى مصر (فما بكت عليهم السماء والارض) كناية عن عدم الاكتراث بهم ، فانه اشتهر بين العامة أن كل قوم شريف اذا هلكوا تبكي عليهم السماء والارض بنزول نوع من الندى من السماء أو بظهور بعض الصعيق على سطح الارض ، فيقول

انه بعد هلاك فرعون وقومه لم يتحقق ذلك . والمقصود الإهانة كما ذكرنا . (وما كانوا منظرين) ممهلين مؤجلين الى وقت آخر يهلكون فيه .

(ولقد نجينا بني إسرائيل) بتلك الحادثة (من العذاب المهين من فرعون انه كان عاليا) متكبرا جبارا (من المسرفين) في الشر والاضرار بالناس (ولقد اخترناهم) أي بني اسرائيل (على علم) باستعدادهم واستحقاقهم أو مع علمنا بعواقبهم (على العالمين) أي من الموجودين في زمانهم فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنص قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وأدلة أخرى (وآتيناهم من الآيات) كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وانزال المن والسلوى وغيرها ... (ما فيه بلاء مبين) أي اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون .

(إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) : إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنا الأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ ؟ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وما خَلَقْنَا السَّماوات وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨) ما خَلَقْناهُما إلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مَوْلىً شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى، وَوَقَيهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ)(٥٩)

قوله تعالى (ان هؤلاء) أي ان كفار قريش (ليقولون : ان هي الا موتتنا الاولى) أي ما العاقبة الا موتتنا الاولى القريبة منا وهي الموتة بعد الحياة الدنيوية ، أي ليست القصة التي نتلقاها من الرسول من الموت ثم البقاء في البرزخ الى الساعة ، ثم البعث والحشر والميزان والحساب ، ثم السوق الى النار أو الى الجنة متحققة في المستقبل الا جزء منها وهو الموت وهو انمحاء كلي بلا أثر ولا خبر ولا حشر ولا نشر ولا مسئولية في الآخرة ، ولا ثواب ولا عقاب ، فاذا كفرت أو آمنت أو صدقت أو كذبت ، وعدلت أو ظلمت ، وقتلت أو أبقيت ، وزنيت أو تعففت ، وأصلحت أو أفسدت فالكل لا جزاء وراءه ، وهـذا تفصيل قولهم (وما نحن بمنشرين) أي بمبعوثين بعدها ، فانظروا أيها العقلاء هل يستوي الخير والشر ؟ والنور والظلمة ؟ والعدل والجور ؟ وسائر المتقابلات ؟ والذي خلق العقل والشعور لا يقول بالاستواء من له مستوى في العقل والشعور ومن في عين قلبه نور . وكانوا يقولون في مقابل من وعدهم بالنشور من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين : (فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) في قولكم وانظروا أيضا الى

هذا الكلام الفارغ الغير الموجه في مقابل الرسول القائل بأن الله الذي خلقكم يميتكم ثم يحييكم لمحاسبة أعمالكم فهو كما قدر على خلقكم واماتتكم قادر على بعثكم ومحاسبتكم ، ولم يقل أنا قادر على إحياء الموتى حتى يتوجه طلبهم في فأتوا بآبائكم ان كنتم صادقين ؟ فلم يكن كلامهم ذلك الا ناشئا عن عناد للحق واستكبار على الخلق .

ولما كان المنشأ تلك العظمة رد عليهم الباري وقال (أهم خير) أي في الحال والمال والعدد والعدة التي تكون داعية الى التكبر (أم قوم تبع) هو تبع الاكبر الحميري ، واسمه أسعد بهمزة ، وكنيته أبو كوب ، وكان باليمن وسار بالجيوش ، وحير الحيرة ، وبنى سمرقند وقيل : هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين . وقيل لملوك اليمن : التبابعة لانهم يتبعون كما قيل لهم الاقيال لانهم يتقيلون (بصيغة المجهول) أي يقتدى بهم . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تسبوا تبعا فانه كان قد اسلم » (والذين من قبلهم) أي قبل قوم تبع كعاد وثمود ، أو قبل قريش (أهلكناهم انهم كانوا مجرمين) فليحذر كفار قريش من الإهلاك اذا بقوا متمردين مجرمين ، وكيف نتركهم كذلك بلا نصيب في الدنيا ولا عذاب في الآخرة .

(وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين) أي عابثين والعابث هو الذي يعمل بدون حكمة في عمله وغاية في تصرفه (ما خلقناهما الا بالحق) أي ما خلقنا في حال من الاحوال الا في حال رعاية الحق والعدل وتشريع للنظام (ولكن أكثرهم) أي أكثر قريش أو أكثر الناس (لا يعلمون) ذلك ، وأقلهم وهم المؤمنون يعلمون . ولذا قال المؤمنون : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ثم هددهم بقوله المبين : (ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) أي يوم فصل الحق عن الباطل وهو يوم القيامة ميقاتهم

للحساب ونيل الجزاء بلا استثناء (يوم لايغني مولى عن مولى شيئاً) والمولى الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره ، فيدخل في ذلك السيد والخادم وابن العم والصديق والمعاهد • ويغني من الإغناء بمعنى الإجزاء ، وشيئا مفعول به ، أي لا يجزي مولى عن مولى شيئا قليلا أو كثيرا (ولا هم ينصرون) من أي ناصرٍ (الا من رحم الله) وهو الذي كان مؤمنا وترحم عليه ربه وعفا عنه بذاته أو بشفاعة من يقبل شفاعته (انه هو العزيز) الغالب (الرحيم) بمن أراد أن يرحمه •

ثم ذكر الباري ما لأهل النار من الفجار ، ومالأهل الجنة من المتقين الابرار فقال : (ان شجرة الزقوم طعام الاثيم) أي الكثير الآثام (كالمهل) وهو خلط الزيت (يغلي) من حرارته (في البطون) فيقطع الأمعاء (كغلي الحميم) أي الماء الحار الشديد الحرارة فيقول مالك النار (خذوه فاعتلوه) أي وجروه واسحبوه (الى سواء الجحيم) أي وسطه (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) أي من الحميم المورث للعذاب (ذق) بجميع أجزاء جسدك ما يصب عليك (انك أنت العزيز الكريم) فيما كان والآن أنت الذليل المهان ، أو يقال له ذلك باعتبار حال الآخرة اهانة له وتحقيرا (ان هذا) أي هذا العذاب (ما كنتم به تمترون) تشكون وتمارون وتجادلون المسلمين فيه (ان المتقين في مقام أمين) من المكاره (في جنات) محيطة به من الجوانب (وعيون) لكل منها تلك لمناظرهم ومآكلهم (يلبسون من سندس واستبرق) من ناعم الحرير وغليظ يختارون ما يختارون (متقابلين) في مجالسهم يستأنس بعضهم ببعض وذلك اذا أرادوا (كذلك) أي الامر (وزوجناهم بحور عين) والحور جمع الحوراء وهي البيضاء ، وقيل شديد سواد العين وبياضها ، وقيل الحور سواد المقلة كلها كما في الظباء • والعين جمع العيناء وهي عظيمة العينين • (يدعون فيها بكل فاكهة) يريدونها (آمنين) من الضرر

الناتج من أكلها (لا يذوقون فيها) أي في الجنة (الموت الا الموتة الاولى) وهي الموتة عقب الحياة في الدنيا والاستثناء مقيد أي ان كانت الموتة الاولى يستقيم ذوقها هناك وليس فليس (ووقيهم عذاب الجحيم ، فضلا من ربك) قيد للوقاية والرعاية أي ان ما أعطوا في الجنة كان فضلا ووقايتهم عن الجحيم كانت فضلا (ذلك) المذكور من الرعاية والوقاية (هو الفوز العظيم) ولا ينال الفوز العظيم الا من الرب العظيم لعبده الكريم (فانما يسرناه) اي القرآن (بلسانك) الموافق للسانهم (لعلهم يتذكرون) ويتعظون ويتوبون ويؤمنون فيؤتيهم الله أجرا غير ممنون (فارتقب) أي فان لم يتذكروا فانتظر ما يحل بهم من الجزاء (انهم مرتقبون) ما يحل بك ولا يحل بهم الا ما أعد الله لهم من العذاب ولا يحل بك الا ما آتاك الله من حسن الثواب .

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون ، نزلت بعد الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم(١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ(٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ ، وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماء مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ، آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٥) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟)(٦)

قوله تعالى (حم) ان جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه السورة مسماة بحم ، أو مبتدأ خبره تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وقوله تعالى (ان في السماوات والارض لآيات) استئناف للتنبيه على الآيات الكونية التي تدل دلالة ظاهرة على وجود صانع قادر ، وتلك الآيات فيها دلالة على المقصود (للمؤمنين) لأن المؤمن

هو الذي يتفكر بالبصيرة السليمة وأما الكافر فليس له بصر يحس بما لا يشتهيه وبصيرة ترشده الى حقيقة ما يبتغيه (وفي خلقكم) على بسيط الارض مع القوة العقلية والحواس والمشاعر الدقيقة (و) في (ما يبث) أي وفي خلق ما ينتشر عليها (من دابة) تدب على الارض على أحوال مختلفة وأوجه متنوعة (آيات) على عظمة الله (للموقنين) أي لأناس من شأنهم النظر في النسب العقلية حتى يحصل لهم الإيقان بها ، والتوسل بمعرفتها الى أمور هامة يجب ادراكها والتوسل بمعرفتها الى سعادة الدارين (واختلاف الليل والنهار) أي وفي اختلافهما ومجيىء الواحد تلو الواحد ، أو في اختلاف مقدار أوقاتهما بحسب المدارات المختلفة (وما أنزل الله من السماء من رزق) أي من مطر يحصل منه الرزق للانسان وغيره مما يعيش على الارض (فأحيا به الارض بعد موتها) أي بعد جمودها وعدم انباتها نباتا (وتصريف الرياح) أي وفي تصريفها من جهة الى جهة ومن حال الى حال واثارتها السحاب (آيات لقوم يعقلون) أي يدركون بالعقل مبادئها وعواقبها ومنشأها ومصرفها (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) أي نتلوها عليك متلبسين بمحبة الحق واستفادة الناس منها ، أو نتلوها تلاوة بالحق (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟)

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ(٧) يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ(٨) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ(٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً ، وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ ، وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ(١٠) هذا هُدىً ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ

لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ(١١) اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماوَاتِ وما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(١٣) •

قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم) نزلت في أبي جهل وقيل في النضر بن الحرث وكان يشتري حديث الاعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل فيه من نزلت فيه دخولاً أوليا أي ويل لكل كذاب كثير الاثم (يسمع آيات الله) الجملة صفة بعد صفة لأفاك (تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا) عن قبول معانيها (كأنْ لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم • وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا) بادر الى الاستهزاء بالآيات كلها (أولئك لهم عذاب مهين) أي مذل محقر لهم (من ورائهم جهنم) أي من قدامهم في مستقبلهم جهنم (ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا) من عذاب الله أو شيئا من الإغناء (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) عطف على ما كسبوا أي ولا يغني عنهم ما اتخذوه أولياء من دون الله (ولهم عذاب عظيم هذا هدىً) أي هذا القرآن هدى للمكلفين اذا اهتدوا به وآمنوا (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) أي من أشد العذاب •

(الله الذي سخر لكم البحر) بأن جعله أملس السطح (لتجري الفلك فيه بأمره) أي بامر الله (ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون • وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه) أي من الله (ان في ذلك) التصرف البارز البديع (لآيات لقوم يتفكرون) •

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بما كانُوا يَكْسِبُونَ(١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(١٥) وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، ورزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ، وفضلْناهُمْ على الْعالَمِينَ(١٦) وآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١٧) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْها ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ(١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ ، واللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ(١٩) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)(٢٠)

قوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا) حذف المقول لدلالة يغفروا عليه ، يعني قل للذين آمنوا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله يغفروا . وفي مورد نزول الآية روايات فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنها نزلت في عمر ـ رضي الله عنه ـ ، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهم أن يبطش به فنزلت. وهذا ظاهر في كونها نزلت بمكة . وروي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيع ، فأرسل عبدالله بنُ أبي غلامه ليستقي فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على طرف البئر فما تركَ أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرب أبي بكر ـ رضي الله ـ تعالى عنه .

فقال ابن أبي : ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل : « سمن كلبك يأكلك » فبلغ ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه ، فأنزل تعالى الآية . وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية . وروي عن ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي قال لما أنزل الله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) : اجتاج رب محمد ! فبلغ ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طلبه حتى رده فنزلت . وهذا أيضا يدل على مدنيتها .

ومعنى الآية قل يا رسولي للذين آمنوا : اغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، أي لا يتوقعون أن يأتي يوم القيامة وهو يوم الله الذي يجزي فيه الناس حسب أعمالهم ويعصون الله ورسوله ، ويتكلمون بالباطل ويشتمون الناس حتى لا يحصل شغب بين الناس ، ويأتي يوم الجزاء فينالون عقابهم كما يستحقون . واذا كانت الآية مكية كان هذا الامر لضعف المسلمين اذ ذاك ، وكان الرسول يخاف من المقابلة النزاع والفتنة وعذاب المؤمنين . وأما اذا كانت مدنية فالوجه أن هذه الامور التافهة تقع كثيرا بين الناس لاسيما بين الفريقين المتخالفين فيجب حينئذ السماح وصرف النظر حتى لا يتزلزل النظام ولا يبتلى الناس بالمحن والآلام . وقوله تعالى (ليجزي قوما بما كانوا يكسبون) تطمين للمؤمنين بأن الله تعالى لا يهمل شأن أولئك الناس الفاسدين ويجزيهم جزاء حسب أعمالهم ، ولا حاجة الى أخذهم في الدين بالبطش والإيلام . وكذلك قوله (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) .

(ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) أي التوراة ، وفي الحقيقة أنها هي الموسوعة المفيدة في ذلك العصر لبني اسرائيل وكل أنبيائهم يعملون بها ، وزبور داود ـ عليه السلام ـ كان فيه القصص والمواعظ ، وأما الاحكام

فكانت كما في عهد موسى ـ عليه السلام ـ . وأما الانجيل فقد كان فيه من الاحكام الطارئة ولكنها كانت قليلة . (والحكم) أي القضاء وفصل الخصومات ، وذلك لأن الملك كان فيهم . واختاره أبو حيان ، أو الفقه في الدين وخصه بالذكر مع دخوله في التوراة للاهتمام به لوسعة الفقه في الاحكام على عهد موسى ـ عليه السلام ـ . ومنه ما هو منصوص التوراة ، ومنه ما جرى على لسان موسى ـ عليه السلام ـ (والنبوة) حيث كثر فيهم الانبياء ما لم يكثر في غيرهم ، وسره كثرة المشاجرة والمنازعة وابداء الآراء بينهم فما كان يعالجها الا الانبياء ـ عليهم السلام ـ (وآتيناهم بينات من الأمر) أي دلائل ظاهرة واضحة تطمئن بها القلوب ، أو معجزات تندهش عندها الاعداء ، أو آيات ظاهرة في رحمة الله عليهم كالمن والسلوى عندما كانوا بالتيه (فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم) وهذا من سوء الحظ ومن النكبات الأممية اذ لا نزاع بعد العلم الا من العناد والكفر والاستكبار وذلك دليل الدمار للديار أعاذنا الله . ولذلك عقبه بقوله (بغيا بينهم) يعني كان الاختلاف ناشئا من البغي لا من الجهل بالاحكام وكانوا يعلمون الحق ويعاندونه (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين .

(ثم جعلناك) وأنت الرسول الوحيد من بني إسماعيل ـ عليهما السلام ـ (على شريعة من الأمر) أي أمر الدين وأحكامه الاصلية والفرعية الاعتقادية والعملية (فاتبعها) وأمر أمتك تتبعها بنشر العلماء العاملين واستنباطاتهم من المنطوق ، والمفهوم ، من عبارة النص ، ودلالة النص ، واقتضاء النص ، واشارة النص ... كما أنزلنا عليك (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) ويتبعوا النصوص الداعية الى الاعتصام والاجماع ، وكونوا على حذر من الجمود والجحود ، ولا يغرنهم البساطة

والتنازل والتسافل ، فإن الله يحب معالي الامور ويكره سفسافها ، واعلموا أن الشيطان وأعوانه لكم بالمرصاد والله عليكم بالمرصاد (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) الحق ويكتفون بما عندهم من الخيالات السافلة والخزعبلات الباطلة ، لاسيما الاجانب الذين لا يرقبون فيكم الا ولا ذمة ، ويتربصون بكم الدوائر، فإنهم ظالمون، ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار • (إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا) من الاشياء لا في الدين ولا في الدنيا ، أما في الدين فظاهر ، وأما الدنيا فلأنهم لا ينفعونهم بقيمة درهم حتى ينتفعوا بقيمة دينار (وان الظالمين بعضهم اولياء بعض) فالظلم صفة سخيفة واحدة وجريمة كبيرة واحدة وأصحابها أمة واحدة (والله ولي المتقين) وأهل التقوى هم أهل الحق وماذا بعد الحق الا الضلال •

(هذا) أي هذا القرآن وهذه الشريعة الشريفة (بصائر للناس) أي أسباب تنوير البصائر فهو كحل لعيون القلوب وشفاء لأهل الامراض والكروب (وهدى ورحمة) عظيمة (لقوم يوقنون) أي فائزون باليقين •

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحياهُمْ وَمَماتُهُمْ ؟ ساءَ ما يَحْكُمُونَ !(٢١) وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً ؟ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟)(٢٣)

قوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) استئناف سيق لبيان حال المسيئين والمحسنين بعد بيان حال الظالمين والمتقين • وأم منقطعة ، والاضراب للانتقال من بيان الى بيان ، واجتراح السيئات كسبها بالجوارح ، والمراد هنا أعم من ذلك فان أهل الاعتقاد الفاسد ليسوا مع أهل الاعتقاد السليم متساوين • والمعنى أبل حسب الذين اكتسبوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات • وقوله (سواءً) بدل من الكاف في كالذين فانه بمعنى المثل • و (محياهم) فاعل سواء بمعنى مستو ، و (مماتهم) عطف عليه • وقوله : (ساء ما يحكمون) انشاء لذم حكمهم بالمساواة بين الفريقين ، فانه يعارضه الشرع الإلهي في كل عهد وعصر ، كما يعارضه العقل البهي في كل زمان (وخلق الله السماوات والارض بالحق) أي متلبسا ذلك الخلق بالحق • ومعنى تلبسه بالحق موافقته للحكمة ورعاية الإنصاف ومراعاة العدالة في الامور وقوله (ولتجزى) معطوف على مقدر أي ليدل به على قدرته (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) •

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) تعجب من أحوال من اتبع الهوى فصار يتبعه كما يتبع الصبي الرضيع ثدي أمه • والهوى ما تحبه النفس من مستلذاتها حقا أو باطلا ، وفساد النفس الأمارة وعداؤها للانسان انما هو لانها الامارة بالهوى ، وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها • وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ما ذكر الله الهوى الا ذمه • فالهوى اذا توجه الى الحق صار الانسان مؤمنا كاملا • قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به » وكفى في مدح تسخيره للحق قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى) قال سهل التستري ـ رضي الله عنه ـ : هواك داؤك فان خالفته فدواؤك • فيقول الباري جل شأنه : أخبرني عن حال من اتخذ إلهه

هواه ؟ أي اتخذ هواه الها له ومعبودا يطيعه في كل ما يأمر به وينهاه (وأضله الله) عن سلوك سبيل الخير (على علم) به ، فلو كان جاهلا أمكن أن يكون معذورا ، ولكنه عالم واتبع الباطل مغرورا (وختم على سمعه) فلا يسمع آيات الذكر الحكيم ولا مواعظ المرشد السليم (وقلبه) فلا يتفكر في عاقبته ولا يسعى في عافيته (وجعل على بصره غشاوة) غطاء يمنعه عن ابصار ما أمامه من المستوي والمعوج ، والشارع المستوي والطريق المنهار فيصل الى شفا جرف هار فينهار به في النار (فمن يهديه) أي فمن يهدي ذلك الهاوي في نار جهنم (من بعد الله ؟) فهل هناك هادٍ أهدى من الله للعباد ؟ لا حاشا وكلاّ لا يوجد الى يوم التناد (أفلا تذكرون ؟) أي أفلا تلاحظون الادلة حتى تتذكروا ما ينفعكم في الدارين •

(وَقالُوا : ما هِيَ الاّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ، وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ اِنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ(٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إلاّ أَنْ قالُوا : ائْتُوا بِآبائِنا اِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(٢٥) قُلِ : اللهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَلكِنَّ اَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ(٢٦) ولله مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ(٢٧) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِها : الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، اِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) فَأَمّا

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ)(٣١)

وقوله تعالى (وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا) الضمير ضمير مبهم مفسر بالحياة أي ما الحياة الا حياتنا الدنيا ، أي هذه الحياة المعلومة في هذا العالم عالم التعب والألم عالم الأكل والشرب والمنام والمقام ولا حياة جديدة في عالم آخر يسمى بعالم الآخرة (نموت ونحيا) أي نموت نحن معاشر الآدميين الموجودين فنفنى ولا يبقى منا أثر ، ونحيا • أي باعتبار جيل ينوب مناب الأموات سواء كانوا من أولادهم أو من غيرهم • والحاصل أنه يعيش جيل في قرن فيموتون ، وينبعث جيل ثان لقرن آخر وهكذا الى الابد • وعلى هذا المعنى لا يبقى مجال للقول بأن المناسب أن يقول نحيا ونموت • (وما يهلكنا الا الدهر) أي الزمان الطويل المستمر (ومالهم بذلك من علم) مستند الى عقل أو نقل أي كلام يخرج من الافواه مستند الى الاوهام (ان هم الا يظنون) ظنا مأخوذا من تقليد آباء بنوا تقليدهم على تقليد آخر ، والتقاليد اذا لم تصحب نوعا من البصيرة آل أمرها الى خيالات فارغة • (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم) في معارضتها ورفضها (الا أن قالوا : ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) في دعوى البعث بعد الموت • ومعلوم أن ماجعلوه حجة كخيط العكبوت لأن الرسول لم يدع أنه يأتي بالبعث بعد الموت ، وانما يقول ان الله يبعثكم فصارت حجتهم داحضة ساقطة • ولذلك قال سبحانه وتعالى (قل : الله يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انتهاء الاجل للحياة (ثم يجمعكم الى يوم القيامة) أي فيه

(لا ريب فيه) أي في ذلك الجمع (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وذلك سهل يسير على الله • (ولله ملك السماوات والارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) اذ لا يبقى عندهم أية شبهة فضلا عن حجة •

(وترى كل أمة جاثية) على ركبها أي وترى كل أمة من الامم المجموعة يوم القيامة جاثية أي جالسة على أطراف أصابع رجليها مستوفزة للحركة والسير الى حيث يساقون اليه (كل أمة تدعى الى كتابها) أي تدعى الى محل خاص يؤتى في ذلك المحل كتابها من اليمين أو الشمال أو الظهور ويقال لهم (اليوم تجزون ما كنتم تعملون • هذا) الكتاب الذي تؤتونه (كتابنا ينطق عليكم بالحق) أي يشهد عليكم بالحق (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أي نأمر كرام الكاتبين يستنسخون في دقائق الاعمال ما كنتم تعملونه في الدنيا وليس في ذلك شبهة قطعا • فالكتاب ينطق عليكم بالحق القويم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته) أي في جنته التي هي دار رحمته (ذلك هو الفوز المبين • وأما الذين كفروا) فيقال لهم (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم) عن استماعها وقبولها (وكنتم قوما مجرمين ؟) •

(وإذَا قِيلَ : إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا ، قُلْتُمْ : ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنَّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئَاتُ ما عَمِلُوا وحَاقَ بِهِمْ ماكانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وقيلَ : الْيَوْمَ نَنْسيكُمْ كَمَا نَسيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، ومَأويكُمُ النَّارُ ، وَما لَكُم مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً ، وَغرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيا ، فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها ولا هُمْ

يَسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٣٧)

قوله تعالى (واذا قيل ان وعد الله حق) أي اذا قيل ان ما وعد الله تعالى به من الامور المنتظرة التي تأتي في يوم القيامة حق (قلتم) في الجواب لعنادكم : (ما ندري ما الساعة) أي شيىء هي استغرابا واستنكارا (ان نظن الا ظنا) أي ان نظن بوجودها ووقوعها في المستقبل الا ظنا حقيرا كاد أن يلتحق بالتصورات (وما نحن بمستيقنين) لها استيقانا يكون أساسا للتقوى ومبنى للاعتراف الثابت بالساعة وما يقع فيها •

ومما ينبغي التنبيه عليه أن أمثال قوله تعالى (ان نظن الا ظنا) من استثناء المصدر التأكيدي من الفعل مشكل لانه يوجب استثناء الشيىء من نفسه أي ما ظننت الا ظننت ! وأجيب عن هذا الإشكال بأمرين :

الاول ــ تحويل المفعول المطلق التأكيدي الى النوعي بأن يقال في الآية الكريمة : للظن مراتب مختلفة بالقوة والضعف ويراد من المصدر مرتبة مخصوصة مناسبة للمقام فيكون المعنى ما ظنّنا أو ما نظن بالساعة آتية الا ظنا ضعيفا حقيرا كما مر آنفا • فيكون هذا المستثنى مرتبة واحدة من مراتب المستثنى منه •

والثاني ــ أن يقال ما دام سياق كلام المتكلم على تأكيد تحقق الظن يؤوّل نظن بنعتقد أي ما نعتقد بالساعة الا اعتقاد الظن بالمعنى العام الشامل لما عدا اليقين ، وما نحن بمستيقنين للساعة ، وعلى اليقين يبنى الاعتراف بالساعة وما فيها • ويؤول نحو ما ضربت الا ضربا بما فعلت شيئا الا ضربا وهكذا •

(وبدا لهم) أي وظهر لهم حينئذ (سيئاتُ ما عملوا) في الدنيا (وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) أي وأحاط بهم جزاء استهزائهم في الدنيا بوعود الباري سبحانه وتعالى (وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم) أي نترككم في العذاب كما تركتم أسباب حصول لقاء يومكم هذا (ومأويكم النار وما لكم من ناصرين) ينصرونكم ويدفعون عنكم العذاب (ذلكم) العذاب (بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) أي مهزوءً به (وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أي لا يطلب منهم ارضاء الباري لانه قد ولى زمان التوبة وارضاء البارى تعالى (فلله الحمد رب السماوات ورب الارض رب العالمين) تقديم الخبر للحصر وعلة اختصاص الحمد به تعالى على كل الفقرات أن الكل نعمة منه تعالى • والاول أنه رب السماوات التي ينزل منها المطر الذي من اسباب الارزاق • والثاني أنه رب الارض التي استقر عليها الحامد أيا كان • والثالث أنه مصدر الخيرات والنعم الكثيرة وأهمها أنه رب حبيبه محمد الذي أرسله رحمة للعالمين (وله الكبرياء في السماوات والارض ، وهو العزيز الحكيم) والكبرياء العظمة والملك • وقال الراغب : الترفع عن الانقياد • ووجه تخصيص الكبرياء بالأمرين ظهور آثاره فيهما • ونسأله أن يسترنا بستار كبريائه عن الابتلاء بشر أعدائه ، وأن يتغمدنا برحمته وآلائه انه سميع قريب مجيب •

الجزء السادس والعشرون

سورة الاحقاف ، مكية وآياتها خمس وثلاثون
نزلت بعد الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم(١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إلاّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً ، وَالَّذين كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِروا مُعْرِضُونَ(٣) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أروني ماذا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّموات ائْتُوني بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَو أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجيبُ لَهُ الى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ ؟(٥) وَإِذا حُشِرَ النَاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ)(٦)

قوله (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الكلام فيه ما في نظائره (ما خلقنا السماوات والارض وما بينهما) من المخلوقات المكشوفة لحد الآن أو غير المكشوفة (إلا) خلقا متلبسا (بـ) رعاية (الحق) العدل

والحكمة ، ومن الحكمة الاعتراف بخالقها المسيطر على الوجود والفياض بالجود (والذين كفروا) بالله وصفاته وآثاره المستندة اليه (عما أنذروا) به (معرضون) فان الكافر بالذات كافر بالصفات وبالآثار في الكائنات وبطبيعة كفرهم يُعْرِضون عن كل ما أنذروا به من البعث للحساب والميزان ودخول النار أو الجنة مع الابرار الى غير ذلك من الامور التي وردت بها الآيات (قل) يا رسولي لهم توبيخا (أرأيتم) أيها المشركون (ما تدعون من دون الله ؟) من الاصنام والنار وسائر المعبودات الباطلة (ماذا خَلَقُوا من الارض) ترابها أو أحجارها معادنها أو نباتها أو حيوانها (أم لهم شرك في السماوات ؟) أضرب عما تقدم في الارض هل لهم نصيب مع الله سبحانه في السماوات ذواتها الاثيرية الخالصة أو كواكبها الدرية الثابتة أو السيارة ، أو ما في أي كوكب منها من الاجزاء النافعة والنابعة (ائتوني) ان كنتم على بصيرة في أمركم (بكتاب من قبل هذا) القرآن الناطق بالتوحيد فيه ماتدعون، أو ان لم يكن لكم كتاب فأتونى (بأثارة من علم) أي بقايا من علم العلماء والحكماء السابقين تعتمدون عليه فيما تتوجهون اليه من الإشراك (ان كنتم صادقين) في مبادئكم ومقاصدكم ، فإن الإنسان الصادق مع نفسه أو غيره يجب أن يعتمد في اعتقاده وأقواله وأفعاله على نقل مستقيم أو علم من عقل سليم والا فهو مريض سقيم ، وكل ما يدعيه عاطل عقيم .

واذا علمنا أنه ما عندهم مدرك من المعقول والمنقول فاعلموا أنهم أهل ضلالة لا ضلالة فوقها (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) في مطلب ولا يؤويه في مهرب من يومنا هذا (الى يوم القيامة و) الحال أن (هم) أي الذين يدعونهم (عن دعائهم غافلون ؟) لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفهمون ولا يعقلون . وهذا الذي ذكرنا من أحوال شركائهم في الدنيا (واذا حشر الناس) عند قيام الساعة (كانوا) أي الشركاء المعبودون (لهم)

أي للمشركين العابدين كافرين مكذبين (أعداء) ألداء (وكانوا بعبادتهم) لهم (كافرين) منكرين مكذبين • قالوا لهم : ماعبدتمونا وانما عبدتم النفس والشيطان والهوى ، وما كنا طالبين منكم أي تذلل وسجود •

(وَاِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ، لما جاءَهُمْ ، : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ(٧) أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرِيهُ ؟ قُلْ : اِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لي مِنَ الله شَيْئاً ، هو أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٨) قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ ، وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بي وَلا بِكُمْ ، اِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يوحى إِليَّ ، وما أَنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٩) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ اِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ الله وَكَفَرْتُم بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن بَني اِسْرائيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ؟ اِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ(١٠) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذينَ آمَنُوا : لَو كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، وَاِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ : هذا اِفْكٌ قَدِيمٌ(١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ موسى إِماماً ورَحْمَةً ، وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وبُشْرى للمُحْسِنين)(١٢)

قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أي واضحات وموضحات للطريق (قال الذين كفروا للحق) أي في رد ذلك الحق (لما جاءهم : هذا سحر مبين) أي ظاهر لا شك في كونه سحرا • وانما قالوا ذلك لانهم لما عجزوا عن معارضته وهم من العرب العرباء ظنوا أن ذلك مقرون بسر مانع

للناس عن مقابلته ، وهذا أيضا يدل على جهلهم بالحقائق ، والا كان الاقرب الى العقل أن يتفكروا في أسلوبه المخالف لاسلوب كلام الناس ، وبذلك كانوا يصلون الى الايمان بأنه كلام الله تعالى (أم يقولون افتريه) أي كذب على الله (قل : ان افتريته) على الفرض والتقدير (فلا تملكون لي من الله شيئا) أي فان الله يعاقبني على افترائي عليه كما قال سبحانه وتعالى (ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين وما منكم من أحد عنه حاجزين) واذا عاقبني فلا طاقة لكم على الدفاع عني وترونني من الهالكين أمامكم ، فكيف أنا مع علمي بذلك أتجاسر على الافتراء على الله ؟ ولما ردهم وعارضهم بذلك قال (هو أعلم بما تفيضون فيه) بالذي تخوضون فيه من القدح في ذاتي وفيما يوحى الى من كلامه ، ولا شك أن الله لا يهملكم وان امهلكم مدة من الزمان (كفى به) أي بالله العليم (شهيدا بيني وبينكم) حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ والبيان ، وعليكم بالكذب والعناد والكفران (وهو الغفور الرحيم) لكم اذا تبتم ورجعتم اليه .

(قل) يا رسولي لهم : (ماكنت) أنا (بدعا من الرسل) أي شخصا مبتدعا مخالفا لسيرتهم وأعمالهم وآمالهم وآدابهم فقد سمعتم أنه جاء الرسل ، وأوضحوا السبل ، وبلغوا للكل حسب نطاق رسالتهم ، وأنا جئتكم على ذلك المنهاج أبلغكم رسالة ربي أن آمنوا به ووحدوه واعبدوه (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) في الدارين على التفصيل وان اخبرت من الله تعالى بأني وأصحابي منتصرون ، وأن نور الله يتم ولو كره الكافرون ، وأننا ندخل الجنة في الآخرة ، وأن الكافرين هم أصحاب النار (ان اتبع) في أعمالي وحركاتي (الا ما يوحى اليّ ، وما أنا الا نذير) لاهل العصيان بالعقاب ، ولاهل الطاعة بالثواب ، وانذاري وتبشيري وارد حسب الوحي المبين .

(قل : أرأيتم ان كان) أي ما يوحى الي (من عند الله) ولم يكن سحرا ولا مفترى (وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله) أي على مثل ما أوحي الي من القرآن حسب ما أخذه من التوراة من التوحيد وبعث الرسول العربي في آخر الزمان ، وأنه خاتم النبيين (فآمن) أي بما أوحي إلي مع أنه ليس من قومي (واستكبرتم ؟) أنتم وكفرتم به مع أنكم من قومي وبني جلدتي . وجواب الشرط وهو ألا يتبين أنكم قوم ظالمون محذوف بقرينة قوله (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) .

(وقال الذين كفروا) أي كفار مكة أي في شأنهم ولاجلهم : (لو كان خيرا ماسبقونا اليه) أي لو كان ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقا وسعادة للبشر وسائر المكلفين ما سبقونا اليه أي ما سبقنا محمد وأتباعه اليه ، ولا يعلمون أن الملازمة في كلامهم ممنوعة لان الخير من الرسالة وغيرها عائد الى الله وفي تصرفه . وهو أعلم حيث يجعل رسالته والقرآن والدين خير ، ويختص به محمدا وأتباعه ولا يؤتيه من عاند الحق وأشياعه (واذ لم يهتدوا به) أي بالقرآن (فسيقولون : هذا افك قديم ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة) أي أن الكفار المشركين يعاندون الحق من التاريخ الثابت ويعتبرون دعوى الوحي والرسالة افكا قديما وكذبا دارجا في العهود السابقة مع أنهم يعلمون علما قطعيا أنه كان كتاب موسى وهو التوراة من قبل القرآن الكريم والناس يعلمون أنه كان لذلك الكتاب دور مهم في العالم ، وكان موسى اماما للمهتدين ورحمة لاهل الدين كما كان كتابه اماما لسائر الكتب النازلة بعده ورحمة للمسلمين في عهده . وهذا أمر محقق لا ينكره الا المعاندون (وهذا) القرآن الذي نزل ويقولون في شأنه انه كذب مفترى كلام صدق وحق و (كتاب مصدق) لكتاب موسى وسائر الكتب (لسانا عربيا) أي ذا لسان عربي (لينذر الذين ظلموا) أنفسهم بالاشراك بربهم وظلموا

الكعبة الشريفة بتحويلها من بيت التوحيد الى بيت الاشراك ، وظلموا الناس لمنعهم عن الاهتداء بالدين المبين، ومع ذلك كله فهو (و بشرى للمحسنين) الى أنفسهم بالتوحيد والى الناس بنشر الدين المجيد •

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٤) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً : حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ : أُفٍّ لَكُمَا ! أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ، وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ : وَيْلَكَ آمِنْ ! إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ : مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)(١٩)

قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) اي ان الذين جمعوا بين الاعتقاد السليم والدوام على ذلك الاعتقاد مع الاعمال الصالحة (فلا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوت محبوب معناه ان العباد المؤمنين المستقيمين على الحق تأتيهم البشرى عند الموت بالعافية في العاقبة فلا يرد عليهم بعد ذلك خوف من المحاذير المستقبلة ولا حزن على فائت ، لانهم يستغنون بهذه البشارة ويكتفون بها (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء) أي يجزون جزاء (بما كانوا يعملون) من الحسنات الاعتقادية والعملية .

(ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها) أي حملا ذا كره ومشقة وتعب (ووضعته كرها) أي وضعا ذا كره ومشقة وألم (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) منها أربعة وعشرون شهرا للرضاع لقوله تعالى : (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) (حتى اذا بلغ أشده) أي فعاش واستمر حتى اذا بلغ واكتهل وبلغ أربعين سنة (قال : رب أوزعني) أي وفقني ورغبني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي) أي اجعل الصلاح ساريا مستمرا في ذريتي (اني تبت اليك) عما لا ترضاه (واني من المسلمين . أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا) من الطاعات (وتتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) على لسان الرسول . والآيتان نزلتا في شأن أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ .

(والذي قال لوالديه) عند دعوتهما له الى الايمان (أفّ لكما) اسم مبني على الكسر مبتدأ ولكما خبر ، وأف اسم صوت يصدر عن الانسان عند تضجره (أتعدانني) اتعطيانني الوعد (أن أخرج) من القبر بعد الموت (وقد خلت القرون من قبلي) أي مضت القرون ولم يخرج واحد منهم منه

(وهما يستغيثان الله) أي يقولان الغياث بالله تعالى منك ، ومن كلامك ، قائلين له : (ويلك آمِن !) وأصل ويل الدعاء بالثبور يقام مقام الحث والترغيب على الفعل المقصود للمتكلم ، أي خذ ويلك ان لم تفعل ، وآمِن فعل أمر من آمن يؤمن ايمانا مشتق من تؤمن بحذف حرف المضارعة ، واعادة همزة القطع المحذوفة وتخفيف الهمزة الثانية بقلبها ألفا وبنائها على السكون (ان وعد الله) أي بالبعث بعد الموت (حق فيقول : ماهذا الا أساطير الاولين • أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) الكافرين (إنهم كانوا خاسرين• ولكل درجات مما عملوا) أي ولكل من الفريقين درجات مما عملوا من النبيين الى الصديقين الى الشهداء والى الصالحين • وكذا لأهل الكفر دَرَكات في جزاء كفرهم وجزاء ما عملوا ، فالكفر قدر مشترك ، وأما باقي الاعمال السيئة فلها حساب ، فعذاب الكافر المستور في زاوية تخالف جزاء كافر داعٍ الى الفساد ، داعٍ للباطل ، حيال على الامم ، دساس على البلاد والعباد ، يُعذب الناس أشد التعذيب ، ويخرب البلاد أقسى تخريب • وكل من أفراد الكافرين أيّ مقدار من العذاب قرر له لا يخفف ذلك عنه قليلا أو كثيرا (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) بنقص ثواب لمن أثيب أو زيادة عذاب لمن عذب وهو الحكم بل أحكمُ الحاكمين •

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ(٢٠) وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ : أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٢١) قالُوا : أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢٢) قالَ : إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلكِنِّي أَرَيكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ(٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا: هذَا عارِضٌ مُمْطِرُنا ، بَلْ هُوَ ما اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ : رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ ، كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ(٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ(٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى ، وَصَرَّفْنا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْباناً آلِهَةً ، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ)(٢٨)

قوله تعالى : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أي اذكر يوم يعذب الذين كفروا بالنار : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) أي فيقال لهم في مقام اللوم والتوبيخ على غفلتهم عن الآخرة : أذهبتم حصتكم من الطيبات في حياتكم الدنيا لانكم استوفيتموها وما تركتم مشتهى الا وأخذتم منه شيئا (واستمتعتم بها) فلم يبق لكم منها للآخرة (فاليوم تجزون عذاب

الهون) أي عذابا هو الهوان والحقارة والذل (بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق) بغير استحقاق لذلك (وبما كنتم تفسقون) أي تخرجون من طاعة الله أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين •

(واذكر) لكفار مكة (أخا عاد) وهو هود ـ عليه السلام ـ (إذ أنذر قومه بالأحقاف) جمع حقف وهو رمل مستطيل فيه اعوجاج يقال : إحقوقف الشيىء اذا اعوج ، وكانوا بدويين بين اصحاب خباء وعمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن (وقد خلت النذر) أي الرسل (من بين يديه) أي من قبله ـ عليه السلام ـ (ومن خلفه) فقد كان قبله نوح وبعده صالح ـ عليهما السلام ـ قائلا لهم (ألا تعبدوا الا الله ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم • قالوا : أجئتنا لتأفكنا) أي لتقلبنا وتحولنا (عن) عبادة (آلهتنا) الاصنام (فأتنا بما تعدنا) من معاجلة العذاب (ان كنت من الصادقين) في وعيدك وتهديدك لنا بنزوله اذا بقينا على الاشراك (قال) هود : (انما العلم) أي بوقت نزول العذاب (عند الله) وحده لا علم لي بذلك (ولكني أراكم قوما تجهلون) ومن أدلة ذلك أنكم تستعجلون عليّ ما ليس من شأني ولا قدرة لي عليه ولا ادعيته •

وقوله (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم) أي فأتاهم العذاب فلما راوه عارضا أي سحابا مستقبل أوديتهم أي متوجه أوديتهم (قالوا : هذا عارض ممطرنا) ولنا فيه منفعة (بل هو ما استعجلتم به) من العذاب (ريح فيها عذاب أليم • تدمر كل شيىء) من الخيام والبيوت والأعمدة المستحكمة (بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم (كذلك نجزي القوم المجرمين ولقد مكناهم) أي قررنا وأحكمنا قوم عاد (فيما إن مكناكم فيه) أي في شيىء من القوة والسلطة والنفوذ ما

مكناكم فيه يا قوم قريش ، فأنتم في الثرى وهم في الثريا ، فإن معيشتكم على كد الأكتاف ، وتجارة الأطراف ، والبيوع والاستسلاف ، وليس لكم إدارة ولا ملك من الأشراف ، وهم كانوا دولة عادية يمنية ترضخ لها الأطراف والأكناف ، وكانوا مسيطرين على البحر عند جنوب اليمن ، وكان لهم نفوذ على البحر ، وكانوا أهل عمارات لم يخلق مثلها في البلاد (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) أي كانوا أهل شعور وإحساس وإدراك يستفيدون من النظر العقلي كما استفادوا من المشاعر والحواس (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزءون) أي وأحاط بهم جزاء إنكار حق والهزء بحق من الرسالة والقرآن وأحكامه كانوا به يستهزءون •

(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) كحجر ثمود ، وقرى قوم لوط ، ومدين شعيب وسائر القرى التي تمرد فيها سكانها (وصرفنا الآيات) أي كررناها وغيرناها وبدلنا آية بآية (لعلهم يرجعون • فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله) أي فهلا نصرهم أولئك الأصنام التي اتخذوها من دون الله (قرباناً آلهة) أي آلهة متقرباً بها الى الله (بل ضلوا عنهم) أي بل فقدوهم فلم يبق أثر (وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أي ضلال آلهتهم عنهم اثر افكهم وافترائهم •

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ،

وآمِنوا بِهِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، ويُجِرْكُمْ مِنْ عذَابٍ أَليمٍ(٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ ، ولَيْسَ لَهُ مِنْ دونِهِ أوْلِياءُ ، أولئكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شيْءٍ قدِيرٌ(٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ ؟ قالُوا : بَلَى وَرَبِّنا ، قالَ : فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٣٤) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ ، بَلاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ ؟)(٣٥)

قوله تعالى (وإذ صَرَفنا إليك) أَي وَجَّهْنا إليكَ وَأَمَلْناهُم ورغبناهم في الاقتراب منك والاستماع لما أوحي إليك من القرآن والانتفاع به (نفرا من الجن) أي جمعا منهم ، والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ، والنفر من النفير أي الخروج إلى المهمات ، فإن القوم إذا داهمهم أمر خطير خرج جمع منهم للمدافعة والمكافحة ، والجن أمة خلقها الله تعالى قبل الإنسان ، وأبوهم (الجان) خلق من مادة نارية أي أكثر عناصرها النار ، وهم جسم لطيف يقبل التشكل بأشكال مختلفة يتوالدون ويتناسلون ، وأرسل إليهم الرسل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وإرساله إليهم معلوم من الدين بالضرورة وإنكار ذلك كفر واضح ، ومنهم المؤمن والكافر ، ومن المؤمنين أمثال ما في البشر من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، كما أن منهم العامة الفسقة ، ومن الكافرين فئة متمردة يسمّون بالشياطين ، وإن

الشيطان المعروف بالمنكرات منهم ، ولقب بإبليس لأن من شأنه الإغواء والتلبيس للباطل بالحق والحق بالباطل .

وفي القرآن الكريم ذكرهم في عدة مواضع ، وفي سورة الجن ذكر دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لهم إلى الإسلام ، وقد آمن به كثير ، وكالانس منهم المؤمن ومنهم الكافر قال تعالى : (وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وأن ذلك النفر كانوا من جن نينوى أو نصيبين في ديار بكر جاءوا إليه بوادي النخلة على مسافة ليلة من مكة المكرمة . فقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو وأصحابه بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له هذا والله للذي حال بيننا وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعوا إلى قومهم .

وفي رواية ابن المنذر عن عبدالملك : أنهم (لما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضي) وفرغ صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح (ولّوا إلى قومهم منذرين) مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل (قل أوحي) إلى (أنه استمع نفر من الجن) وأولئك النفر كانوا سبعة ولما ولوا منذرين إلى قومهم جاءوا وافدين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثمائة ، فانتهوا إلى الحجون فجاء واحد منهم واسمه الأحقب فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك فواعده رسول الله صلى الله عليه وسلم لساعة من الليل بالحجون .

وفي وفادة الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم روايات . وذكر الشهاب الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك . وقوله تعالى (يستمعون القرآن) أي قراءته صلى الله عليه وسلم للقرآن في صلاة الصبح كما ذكرنا (فلما حضروه قالوا : أنصتوا) أي فلما حضروا قراءته للقرآن قال بعضهم لبعض : أنصتوا أي اسكتوا لسماعه (فلما قضي) أي تم وفرغ صلى الله عليه وسلم عن قراءته (ولّوا إلى قومهم منذرين) أي مقدرين إنذارهم لهم عند وصولهم إليهم . ولما وصلوا (قالوا : يا قومنا أجيبوا داعي الله) أرادوا به ما سمعوه من القرآن والداعي إلى الله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى واعملوا به (يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء) ينصرونه من العذاب (أولئك في ضلال مبين ، أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ) أي لم يتعب (بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير) وبكل شيء خبير بصير .

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار قال : أليس هذا بالحق ؟) أي ليس هذا العرض على النار المعدة للعذاب حقًا ؟ (قالوا : بلى وربنا) تصديق بحقيقته (قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) الفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان الإرشاد لا ينفع أهل العناد فاصبر على ما يصيبك من جهتهم ليزداد أجرك عند الله كما صبر أولو العزم من

الرسل للغاية عينها • والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيىء وعلى الصبر عليه • واختلف في عدتهم وتعيينهم على أقوال فقال الحسن بن الفضل ثمانية عشر وهم المذكورون في سورة الأنعام لأنه سبحانه وتعالى قال بعد ذكرهم (فبهداهم اقتده) وقيل : تسعة نوح لصبره على أذى قومه طويلا ، وإبراهيم لصبره على الإلقاء في النار ، وإسماعيل لصبره على الذبح ، ويعقوب لصبره على فقد يوسف ، ويوسف لصبره على البئر والسجن ، وأيوب لصبره على البلاء ، وموسى لصبره على إلحاح قومه القائلين إنا لمدركون فقال إن معي ربي سيهدين ، وداود لصبره واستقامته على حرب أعدائه ، وعيسى لصبره على أذى اليهود حتى أرادوا صلبه فرفعه الله تعالى •

وقال الجلال السيوطي : الاصح أنهم خمسة : نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ •

(ولا تستعجل لهم) أي لكفار مكة (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) أي من العذاب (لم يلبثوا) أي في الدنيا (الا ساعة من نهار) لما يشاهدون من شدة العذاب (بلاغ) أي هذا الذي يجب عليك هو البلاغ أي وصول القرآن الى المكلفين وقد بلغت بالحق (فهل يهلك الا القوم الفاسقون ؟) الخارجون عن اطاعة الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ •

جاء في بعض الآثار أن هذه الآية لها خاصية في قضاء الحوائج • أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : اذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل : لا اله الا الله وحده لا شريك له العلي العظيم ، لا اله الا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم ، بسم الله الذي لا اله الا هو الحي الحليم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين • كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها • كأنهم يوم

يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون • أللهم اني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برٍّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، أللهم لا تدع لي ذنبا الا غفرته ، ولا هما الا فرجته ، ولا دينا الا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة الا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين • وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وأتباعه بإحسان الى يوم الدين • وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

سورة محمد ، مدنية وآياتها ثمان وثلاثون
نزلت بعد سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الباطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ)(٣)

هذه السورة مدنية الا آية (وكأين من قرية) الى آخرها ، فانها نزلت بعد أن خرج ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مكة الى الغار وتأسف على فراقها •

وقوله تعالى (الذين كفروا) أي الذين أعرضوا عن الإسلام (وصدوا) الناس بقدر امكانهم (عن) سلوك (سبيل الله) وهو الذي جاء به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ (أضل أعمالهم) أي جعلها ضائعة غير مفيدة كمن

ضاع في مفازة لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي آمنوا بالله وعملوا الصالحات (وآمنوا بما نزل على محمد) من القرآن وخصه بالذكر مع اندراجه في الايمان بالله بناء على أن الايمان به كان بسبب دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهتماما بمقامه وتنويها بشأنه الشريف ، ويؤكده قوله تعالى (وهو الحق من ربهم) والموصول مبتدأ وخبره (كفر عنهم سيآتهم) أي سترها بالايمان والعمل الصالح (وأصلح بالهم) أي حالهم في الدارين ، أما في الدنيا فبالبصيرة الحاصلة له من التزام نظام الحق ، وأما في الآخرة فبالخلود في الجنة والرضوان (ذلك) الأمر المذكور من اختصاص كل من الفريقين بما خص به (بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) وهو سيرة الهوى (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق) النازل (من ربهم) وهو القرآن الكريم الهادي الى الصراط المستقيم • (كذلك) أي مثل ذلك الذكر الوارد هنا (يضرب الله للناس امثالهم) أي يذكر الله للناس أحوالهم ومآلهم •

(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الوَثاقَ ؛ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ ، وَإِمَّا فِداءً ، حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزارَها ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعمالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ(٦) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ(٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ) (٨)

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) يعني بعد أن ظهر لكم حال المؤمنين ورشادهم وحال الكافرين وعنادهم وأرادوا أن يناجزوكم ، فإذا لقيتم الذين كفروا وهم مستعدون لضربكم فضرب الرقاب أي فبادروا بالعمل واضربوهم ضرب الرقاب (حتى اذا أثخنتموهم) أي أكثرتم فيهم من القتل وتمكنتم من الاستيلاء عليهم (فشدوا الوثاق) أي فأسروا من بقي منهم غير مثخن ، واحفظوهم وراعوهم بالتداوي والاطعام على العادة بما في الامكان (فاما منا بعد ، واما فداء) أي فاما تمنون عليهم منا بلا شيء وتطلقون سراحهم على أن يبقوا أحرارا في ذمة المسلمين يعطون الجزية كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ ذلك في أهل السواد ، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدين ، فانهم لا يقبل منهم جزية ، ولا يجوز استرقاقهم بل الحكم فيهم اما الاسلام أو السيف ، وان اسلم الأسرى بعد الاسر فلا يجوز قتلهم لاندفاع شرهم بالاسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم ، فان الاسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الاصلي ، والحال أنه وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء . (واما) تفدون (فداء) أي تسلمونهم الى أميرهم ، أو ترجعونهم الى دارهم فدية لاجل استرجاع الاسرى المسلمين عندهم .

ويجوز أيضا اطلاق سراح الاسرى في مقابل فدية يأخذها منهم الامام حسب مصلحة المسلمين في ذلك . وكما يجوز للامام أن يبقيهم ويسترق الرجال والنساء ويقسمهم بين المحاربين يجعل الكل خمسة أقسام أربعة للمحاربين ، وقسم واحد لبيت المال على ما قسمه الله تعالى في القرآن .

ومسألة استرقاق الكافرين فرع لعادة مستمرة ابتدأت من فجر التأريخ الى عهد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فكان الغالب من المتحاربين يسترق جانب المغلوب رجالا ونساء ، فاذا وقعت أية أمرأة في سهم أي محارب تكون مملوكة له ملك اليمين ، ويجوز له أن يعتقها ثم يتزوجها كسائر الحرائر ،

ويكون لها نكاح وطلاق على الاصول • ويجوز أن لا يتزوجها بل يجامعها بقوة ملك اليمين ، لان الله جعل نكاحها في تملكها كما جعل نكاح الحرائر بالتلفظ بالإيجاب والقبول والشهود والصداق للمرأة • ولما جاء دور الاسلام ما كان ممكنا ابطال هذه القاعدة المقررة من قديم الزمان والغاؤها حيث كان هناك عبيد وجوار للمالكين يعيشون في البيوت كأفراد العائلة وطردهم عنها ليكتسبوا ويعيشوا بأنفسهم كان في ذلك العصر جد عسير عليهم • لكن الاسلام قرر لعتقهم واطلاق سراحهم ليعيشوا احرارا ستة وثلاثين أصلا شرعيا •

منها : عتق الرقبة في كفارة اليمين ، وفي كفارة الظهار ، وفي كفارة القتل، وفي كفارة الافطار بالجماع في رمضان • الى غير ذلك من الاصول يطلع عليها المراجع المتتبع للامور ومع ذلك احترمهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، أطْعِمُوهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فان كلفتموهم فأعينوهم » وأعتقد أنه لو بقي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى عمر سبعين كان يؤول الامر الى زوال الرق الا ما شذ •

وقوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) غاية للمقررات السابقة ، والأوزار بمعنى وزر بمعنى الثقل ، والمقصود حتى تنتهي الحرب ، وأهمل استعمال آلاتها (ذلك) أي الامر ذلك الذي نزل (ولو يشاء الله لانتصر منهم) أي لانتقم من الكافرين بإبادتهم بدون حرب (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) اي ولكن أمركم بالقتال ليختبر بعضكم ببعض ويظهر من الذي يحارب ويجاهد في سبيل اعلاء كلمة الحق ومن الذي لا يحارب أو يحارب لغاية أخرى (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أي لا يضيعها أبدا بل هي تثبت في دفتر أعمالهم ويجزون عليها في مآلهم (سيهديهم) أي سيرشدهم في دار الآخرة الى مقر استراحتهم ونيل ثوابهم (ويصلح بالهم)

أي شأنهم بإعلان كرامتهم (ويدخلهم الجنة) المخصوصة المهيأة لهم و (عرفها لهم) أي يجعل عليها علامات واضحة بحيث يعرف كل محله ومنزله •

(يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) وتجتهدوا وتجاهدوا في سبيل اعلاء كلمته (ينصركم) على أعدائكم بالتوفيق على اعداد العدة ، واتحاد الكلمة ، واطاعة أولي الامر ، وتحقيق المشورة في المخاطر ، وخلق المشاكل لدى أعدائكم ، وتشتيت قلوبهم ، وتضعيف كروبهم (ويثبت أقدامكم) عند اللقاء فتكونون كالحديد المغروز في الارض ولا تتزلزون أمام الاعداء ولا تهتمون بما تسمعون من أسباب الخذل وضعف الهمة حتى تنالوا احدى الحسنيين • (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) والتعس الهلاك ، وانتصابه على المصدرية لفعل محذوف واجب الحذف لانه للدعاء كسقيا ورعيا، أي فتعسوا تعسا لهم أي فهلكوا هلاكا لائقا بهم •

(ذلِكَ بِأَنَّهم كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرينَ أَمْثالُها ؟(١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِين آمَنوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الأَنْعامُ ، والنّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢) وكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتي أَخْرَجَتْكَ ، أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا

أَهْوَاءَهُمْ ؟(١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ(١٥) وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)(١٥)

(ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) أي ذلك الاضلال للاعمال والخزي في المآل بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن وقد أنزله لارشاد العقل الى السعادة (فأحبط) الله جزاء لهم (أعمالهم) ثم أخذ الباري على لطفه الجاري ينصحهم ويقول : (أفلم يسيروا في الارض) أي أرض ديار العرب حواليهم (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الفاسدة الكارهة لدين الله (دمر الله عليهم) أي دمر الله دورهم عليهم (وللكافرين) الناهجين منهجهم (أمثالها ذلك) الامر المنتج لنتيجة الفرق بين الفريقين (بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) فينصرهم ويدفع ما حل بهم •

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ، والذين كفروا يتمتعون) بمتاع الدنيا بلا مراعاة للآخرة (ويأكلون كما تأكل الانعام) من الاشواك والاوراد ، ومن الانجاس والاقذار ، ومن الكسب والغصب ، ولا ينظرون الى الحق ، ولا يتبعون ما أنزل الله فعاقبتهم العذاب (والنار مثوى لهم) أي موضع اقامة لهم يقيمون فيها مع العذاب الذي أعد لهم حسب ما تناسب النفوس الشريرة وتكفيها (وكأين من قرية) ظالمة (هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)

وستكون عاقبة أهل قريتك كعاقبة أهالي تلك القرى إذا لم يرجعوا الى ربهم ومولاهم .

(أفمن كان على بينة من ربه) أي فمن كان على شهود عدول تشهد بحقية اعتقاده وعمله وتلك الشهود جاءته من ربه كالآيات النازلة من الله على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (كمن زين له) من النفس وهواها والشيطان الذي أغواها (سوء عمله) من الإشراك والفسوق وما والاها فاستمروا في اتباع شهواتهم (واتبعوا أهواءهم) وجواب الاستفهام موكول الى أولى الافهام ، وهو أنه ليس بين الفريقين الا كما بين المشرقين ، أولئك الأولون من صفوة المختار وأولئك الآخرون من شر الأشرار ، ولذلك يجزى الاولون بالجنة والاخرون بالنار (مثل الجنة التي وعد المتقون) أنها جنة (فيها أنهار من ماء غير آسن) لم يتغير لا طعمه ولا لونه ولا ريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) لم يحمض ولم يصر قارصا شديد الحموضة ، ولا حاذرا أي فوق الحامض (وأنهار من خمر لذة للشاربين) بلا ذهاب عقل ولا صداع ولا غول ولا تأليم ولا تأثيم (وأنهار من عسل مصفى) من الشمع وفضلات النحل وغيرها (ولهم فيها) أي في الجنة (من كل الثمرات) أي كل فرد من كل صنفٍ من كل نوعٍ من الثمرات (ومغفرة) أي ولهم فوق هذه الامور المادية مغفرة من ربهم أي نعومة ولطافة حاصلة (من) مغفرة (ربهم) وقوله (كمن هو خالد في النار) خبر لمبتدأ محذوف أي أمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار (وسقوا ماءً حميما) أي حارا (فقطع امعاءهم ؟) من فرط الحرارة . قلنا في الجواب : لا .

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : ماذا قالَ آنِفاً ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)

وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زادَهُمْ هُدىً وَآتيهُمْ تَقْوِيهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاّ السّاعَةَ أنْ تَأتِيَهُمْ بَغْتَةً ؟ فَقَدْ جاءَ أشْراطُها ، فَأنّى لَهُمْ إذا جاءَتهُمْ ذِكريهُمْ ؟(١٨) فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلهَ إلاّ اللهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْويكُمْ)(١٩)

قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك) استئناف لبيان أحوال بعض من المنافقين فيقول : ومنهم من يستمع اليك ، ولكن لا يهتم به ولا يريد أن يستمع استماع فهم وقبول ، (حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم) من باب الاسلام أو من استماع كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ماذا قال آنفا ؟) أي قبيل هذه الدقيقة ، وليس مقصوده من هذا السؤال فهم المقال بل أراد التحقير والاستهزاء بكلامه (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم • والذين اهتدوا) الى طريق الحق (زادهم) الله (هدى) اليه (وآتيهم تقويهم) أي وآتاهم سكينة تحملهم على تقويهم (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) أي مفاجأة (فقد جاء أشراطها) من بعث الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي آخر الزمان وانشقاق القمر •

(فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) أي فأنى لهم ذكراهم ، وكيف يحصل لهم التذكر والندم اذا باغتتهم أي لو كانت عندهم بصيرة لتوجهوا الى الله وآمنوا به وبرسوله قبل أن يأتيهم الموت وأنى لهم ذلك ؟

وللعلماء في أشراط الساعة كتب مختصرة ومطولة • وثبت من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا تتحقق الساعة حتى تظهر كبْريات الآيات منها : الدخان ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ ، وظهور

المهدي ، وخروج الدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وقلة العلم والحياء ، وكثرة الجور والهرج والفوضى .. ولكن الامر الذي يطمئن له القلب في قرب وقوعها ما روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبق منها الا أسف أي شيء قليل فقال : « والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقى منها الا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقى منه ، وما بقى منه الا اليسير » وهذه النسبة المفهومة هنا لا تتحد الا اذا تحددت مدتها من الاول ، فالعلم بحلولها عند الله العليم الخبير . غير أنا نعلم أن هذه الاضطرابات والتزلزل لقواعد الدين الموجودة من كل الوجوه في عصرنا الحاضر تهدد بأن الساعة قريبة جدا والله أعلم .

(فاعلم أنه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) أي واثبت على العلم بالتوحيد كما كنت ، واستغفر لذنبك بالنسبة الى علو مقامك من خلاف الاولى ، ولذنوب المؤمنين كيفما كانت (والله يعلم متقلبكم) في الدنيا (ومثويكم) في الآخرة .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ! فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ ؟ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ) (٢٣)

قوله تعالى (ويقول الذين آمنوا) أي حرصا ورغبة في الجهاد (لولا نزلت سورة) أي هلا نزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد (فإذا أنزلت سورة محكمة" وذكر فيها القتال) بصورة الامر به ، والمراد بقوله محكمة واضحة مبينة لا اشتباه فيها ، أو سورة ثابتة لا نسخ عليها (رأيت الذين في قلوبهم مرض) أي نفاق وقيل ضعف في الدين (ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) أي نظر المحتضر الذي يشخص بصره (فأولى لهم ، طاعة" وقول" معروف) • في قوله تعالى فأولى لهم وجوه من المعاني ، والاحسن من بينها أن يكون أولى أفعل تفضيل ومبتدأ ولهم صلته ، واللام بمعنى الباء ، وطاعة خبرا له ، وقول خبر بعد خبر ، ومعروف صفته • أي فالاولى والاليق بأولئك الناظرين نظر المغشي عليه من الموت طاعة لله في مباشرة الجهاد ، وقول معروف مع العباد (فإذا عزم الامر) أي جد الامر وتحقق (فلو صدقوا الله) في دعاويهم ووعودهم بالجهاد (لكان خيرا لهم) ولا خير في هذه الحالة تجدونها فيهم •

ثم خاطب الباري تعالى أولئك الذين في قلوبهم مرض على طريق الالتفات فقال (فهل عسيتم ان توليتم) أمور الناس وصرتم متولين عليها (أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم ؟) تكالبا على مطامع الدنيا الدنية ، أو فهل عسيتم ان توليتم أي استدبرتم عن الاسلام ورجعتم الى حالكم في الجاهلية أن تفسدوا في الارض بمنع الناس عن الاسلام وتقطعوا أرحامكم بمقاتلة الاقارب وعداء المسلمين ؟ (أولئك الذين لعنهم الله) أي أبعدهم عن رحمته (فأصمهم) عن استماع الحق ورعايته (وأعمى أبصارهم) عن النظر الى الحق والعناية به •

(أفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ امْ على قُلُوبٍ أقْفَالُهَا ؟(٢٤) إنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا على أدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ماتَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدى

الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ، واللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ؟ (٢٧) ذلك بأنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللهَ ، وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغانَهُمْ ؟ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى ، لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ)(٣٢)

قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) كلام مع أولئك الناس المرضى القلوب فيقول تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) أي لا يلاحظونه ولا يتأملون فيه وفي ما اشتمل عليه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا في ما وقعوا فيه (أم على قلوب أقفالها ؟) أي أم تدبروا ولكن لم يدخل ما افتهموه في قلوبهم لانه كانت أقفال حديدية على قلوبهم فما كانت تنفتح ولم تدخل المفاهيم فيها حتى ينتفعوا بها (ان الذين ارتدوا على أدبارهم) أي رجعوا الى ما كانوا عليه من الكفر قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم • وقال بعض : نزلت في اليهود ارتدوا عن

الهدى بعد أن عرفوا أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي ورسول (من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم) أي زين لهم ذلك الارتداد (وأملى لهم) أي ومد لهم الشيطان في الاماني والآمال (ذلك) أي الارتداد (بأنهم) أي بسبب انهم (قالوا للذين كرهوا ما نزل الله) سنطيعكم في بعض الامر أي في بعض الشئون والاحوال التي ترد عليكم ونعينكم فاغتروا بذلك ولم يفدهم ما قالوه (والله يعلم اسرارهم فكيف) تكون أحوالهم (اذا توفتهم الملئكة) أي قبضت أرواحهم حالكونهم (يضربون وجوههم وادبارهم ؟) وبما أن الجملة حال والاصل فيها المقارنة يستفاد من الآية عذاب عالم البرزخ أي عالم ما بين الموت والبعث للحشر (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) من الاعتقاد الفاسد والعمل السيىء (وكرهوا رضوانه) أي ما يرضى به سبحانه وتعالى (فأحبط) الله (أعمالهم) الحسنة التي عملوها قبل الارتداد •

(أم حسب الذين في قلوبهم مرض) وهم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الفاسدة (أن لن يخرج الله أضغانهم) أم منقطعة والاخراج الابراز والاظهار • والاضغان جمع ضغن بمعنى الحقد • والمعنى بل حسب أولئك الناس المنافقون الحاقدون على الاسلام أن لن يظهر الله أحوالهم للمؤمنين ولا يكشف عن نفاقهم ويبقون متسترين (ولو شئنا لاريناكهم) أي لعرفناكهم أو لأبصرناكهم ويؤيد الاول قوله تعالى (فلعرفتهم بسيماهم) أي وكانت سيماهم تؤيد ما علمته • (ولتعرفنهم في لحن القول) جواب قسم محذوف أي والله لتعرفنهم في لحن القول أي في مفهوم كلامهم فانه كان بحيث يستفاد منه مخالفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ • أو المراد وضع التلفظ بالكلام ولهجته الخالصة (والله يعلم أعمالكم • ولنبلونكم) بالأمر بالجهاد والاعمال التي فيها المشقة على النفس (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على

مشاق التكاليف والاعمال العسيرة (ونبلو أخباركم) عن الايمان وموالاة المؤمنين ومعاداتهم ، فانه اذا تتبع الانسان أخبار قوم أدرك مدى ما بينهم وبين غيرهم من الولاء أو العداء .

(إن الذين كفروا وصدوا) أي ومنعوا الناس عن سلوك (سبيل الله) وهو الاسلام (وشاقوا الرسول) أي نازعوه وصاروا في شق غير شقه وعلى سبيل غير سبيله (من بعد ما تبين لهم الهدى) لما شاهدوا من نعوته في الأسفار السابقة ومطابقة أخباره اللاحقة لها ، وظهور أخلاقه الحميدة العالية حتى شهد بحسنها الاعداء الاغبياء والاذكياء (لن يضروا الله شيئا) ولا يقدرون أن يوقفوا ركب الرسالة عن الحركة نحو الامام (وسيحبط أعمالهم) المكائد التي يكيدونها لعرقلة الحركة الدينية ، أو أعمالهم الحسنة التي عملوها قبل الارتداد عن الاصول السنية .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِين كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا اِلى السَّلْمِ ، وَأَنتم الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعمالَكُمْ (٣٥) إِنَّما الحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَاِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦) اِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧) ها أَنتُمْ هؤلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَمِنكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَراءُ ، وَاِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ)(٣٨)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم) قيل ان بني أسد أسلموا وقالوا نرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم مَنوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية • وقوله تعالى (يمنون عليك أن أسلموا) ولذا قيل في تفسير قوله الكريم (ولا تبطلوا أعمالكم) لا تبطلوها بالمن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاسلام (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أي ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله وهو دين الاسلام (ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) عام في كل من مات على الكفر ، وان صح نزوله في أهل قليب بدر من الكفار المشركين المقتولين الذين ألقوا هنالك (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم) أي اذا علمتم أن الله مبطل أعمالهم ومعاقبهم فلا تشكوا في أن الله خاذلهم ، فلا تهنوا أمامهم ولا تظهروا ضعفا عندهم ولا تدعوهم الى السلم حتى يظنوا أنكم تخافون منهم (وأنتم الاعلون) أي أنتم الاغلبون (والله معكم) أينما كنتم (ولن يتركم) أي ولن ينقصكم (أعمالكم • انما الحياة الدنيا لعب ولهو) لا عاقبة حميدة لها ولا نفع فيها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أي ثواب إيمانكم وتقويكم من الباقيات الصالحات (ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها) أي أموالكم (فيحفكم) أي فيجهدكم بطلب الكل (تبخلوا) بإعطائها (ويخرج أضغانكم) أي ويظهر للناس حبكم لها (ها أنتم هؤلاء) أيها المخاطبون (تُدْعَوْن لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل) أي ناس يبخلون بالانفاق (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه) أي فانما يمنع الخير عن نفسه ولا يسري الضرر الى غيره (والله الغني وأنتم الفقراء) الكاملون في الفقر والاحتياج اليه (وان تتولوا عن الايمان والتقوى يستبدل قوما غيركم) أي يستبدلكم بقوم غيركم يخلفونكم (ثم لا يكونوا أمثالكم) في التولي عن الايمان والتقوى •

سورة الفتح ، مدنية ، نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية وآياتها تسع وعشرون نزلت بعد سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً(١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، ويَهْدِيَكَ صِراطاً مستقيماً(٢) وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً(٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا ايماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ، وَللهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حكيماً(٤) لِيُدْخِلَ المُؤْمِنين وَالمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ خالِدِينَ فِيها ، ويُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ، وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً(٥) وَيُعَذِّبَ المُنافِقِينَ وَالمُنافِقاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكاتِ الظانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَعَنَهُمْ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً(٦) ولله جُنُودُ السَّموات وَالأَرْضِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً)(٧)

قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) اخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور ، قال ابن عطية وهو الصحيح : وأصل الفتح إزالة الاغلاق عن أي عقدة، وفتح البلد ازالة غلق باب سوره وفتحه للظافرين الغالبين الذين يدخلونها من الباب . وقال بعض : ان المراد بالفتح هنا : فتح خيبر . وقال بعض : فتح مكة . وعليه تكون الآية الكريمة وعداً بالفتح ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع . والظاهر أنه اذا حملناه على فتح البلاد فالمراد به فتح مكة ؛ لانه هو الذي كان نصب العين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والهدف الاشرف ، فانه بعد فتح أم القرى ففتح ما سواها سهل يسير والله على كل شيىء قدير . واذا حملناه على ازالة الاغلاق فالمراد به الوعد بإزالة الموانع التي كانت أمامه حتى يصل الى غايته القصوى وهي النجاح في مهمته ونشر شريعته واعتناق الامة لدينه والالتفاف حول لوائه في تنوير العباد وتعمير البلاد مادة ومعنى ، وهذا هو الفتح المبين والنصر العزيز لسيد المرسلين .

وقوله : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) قالوا ان اللام ليست للتعليل لان أفعال الله تعالى ليست معللة بالاغراض ، بل بمعنى الفاء التي تدخل على الغايات المترتبة على الاسباب وهذا البحث بحث طويل قد دار بين العباد ، ولكن الحق الذي يجب قبوله أن العلل الواقعية موجودة بسيطة أو مركبة ، وأنه قد يترتب عليها المعاليل اذا قارنتها الارادة ، وقد لا فهي الجزء الاخير من العلة كما أن الغايات المتفرعة والمترتبة عليها موجودة أيضا . وان أفعال الله تعالى يجوز تعليلها بالعلل المناسبة المقرونة بالحكم والمصالح التي يراعيها لكن لا بمعنى أن الفاعل المختار والمبدأ الفياض يحتاج الى تلك العلل لترتب المعاليل عليها ، بل بمعنى تطبيق سننه وجريان عادته بها . وأما تفسير قوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فهو عبارة عن

ستر ما يكاد لا يناسب مقامه الشريف ورتبته العالية ، ويعبر عنها بخلاف الاولى ، وذلك لان النصوص متكاثرة على أن الانبياء والرسل الكرام هم المصطفون الاخيار وهم صفوة العباد وخيار الامة على بسيط الارض ، والادلة دالة على عصمتهم من الذنوب والمعاصي • ويمكن أن يقال : ان بعض الامور الاجتماعية التي لابد من ورودها على الانسان ويصعب العدول عنها وقد يراها بعض الناس الضعفاء العقول كالذنوب في الصورة أعلن الله تعالى أنها مغفورة بالنسبة اليك ولا تعتبر جريمة لانسان يقود الناس بأسرهم الى السعادة ويريد تهذيب وتصفية أحوالهم عن المفاسد والعيوب • ولابد من حلق رأس ضربته الجروح وجبر مكسور الايدي والارجل ، وان حصل منها آلام • (ويتم نعمته عليك) باضافة فتح البلاد التي تبعد عن الجزيرة اليها ،والملك الى النبوة ، وأن يهيىء لك من الامم التي تدخل تحت لواء الاسلام من يأخذ به ويجعله على كتفه ويوصله الى المشارق والمغارب (ويهديك صراطا مستقيما) بقوة الاخلاق العالية والسيرة السامية حتى يسهل سلوك ذلك السبيل عليك وعلى من يتبعك في الحال والاستقبال (وينصرك الله) على كل من عاداك في عصرك وينصر من ينصر دينك على عدوه في عصره ، فان نصره نصر" لك وعونه عون لك • (نصرا عزيزا) في الوجود لم يسبق مثله ولا يتحقق في المستقبل نظيره ، وقد كان الامر كذلك •

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) قلنا هذه السورة نزلت عند رجوع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الحديبية الى المدينة المنورة بعد المصالحة مع قريش على أن يرجعوا للعمرة في السنة الآتية ؛ وفي وقت الصلح كان الاصحاب الكرام منزعجين من عدم الوصول الى الهدف المقصود أعني العمرة ، لكن بعد أن تحلل ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الاحرام تحللوا ، وزالت تلك العقدة وذلك الانزعاج عنهم ، وتبدلت بالسكينة

والاطمئنان كما قال تعالى هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) أي ليزدادوا ايمانا برحمة الله المتوالية عليهم ، وأن الله معهم، وانه ناصر الرسول وأصحابه وأتباعه المستقيمين على الحق الى يوم القيامة • وهذا الايمان علاوة على ما كان في قلوبهم من الايمان (ولله جنود السماوات والارض) وما يعلم جنود ربك الا هو ، ومن جنوده الايمان ، وقوة المعنويات ، وزيادة العدة ، والاجهزة والآلات الحربية والعينة والنفقات ، وتوجه الناس في الآفاق الى المبدأ المرسوم كما أن من جنوده ملائكة السماوات حيث تنزل عند الحاجة اليها ، وقد أنزلها الله تعالى في بدر ، وفي حنين ، وفي أحد ايضا ، وفي مواضع أخرى على المؤمنين لمعونتهم • وكذلك من جنوده تشتت قلوب الاعداء والشقاق والخلاف بينهم وعدم اجتماع اسباب حركاتهم وهجماتهم على المسلمين • والمقصود هنا تنبيه المؤمنين على الرجاء القوي من الله تعالى لمزيد النصر والتأييد في المستقبل وأن الله معهم ماداموا هم مع الله (وكان الله عليما) بأحوال الرسول والمؤمنين وغيرهم (حكيما) في أفعاله ونصره للرسول في كل أمر عسره ويسره •

وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات) متعلق بما يدل عليه ما تقدم ، أي ويؤيدكم على ما أنتم عليه ويقهر الكافرين (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم) بما عملوا من حسناتهم (وكان ذلك) الادخال والتكفير (عند الله فوزا عظيما) لا يعلم مقداره الا من قرره وقدره • وقوله ويعذب معطوف على ما قبله أي (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) وهو أن الله لا ينصر الرسول وأصحابه (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرا) جهنم (ولله جنود السماوات والارض) ينصر بهم

من ينصر ويقهر بهم من يقهر (وكان الله عزيزا) منيعا لا يغالب في أمره (حكيما) لا تخلو أفعاله من الحكم والمصالح •

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً(٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُعَزِّرُوهُ ، وَتُوَقِّرُوهُ ، وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً)(١٠)

قوله تعالى : (انا أرسلناك شاهداً) أي على أمتك لقوله تعالى : ويكون الرسول عليكم شهيدا (ومبشرا) بالثواب لاهل الطاعة (ونذيرا) بالعقاب على المعصية • وقوله (لتؤمنوا بالله) خطاب للنبي وأمته أي لتؤمنوا أنتم أيها الرسول والمؤمنون بالله ورسوله (وتعزروه) أي تنصروه(وتوقروه) تعظموه (وتسبحوه بكرة وأصيلا) أي تأتون بتسبيحه في الوقتين بأن تقولوا سبحان الله العظيم ، أو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، لان ضم الحمد الى التسبيح توقير وتعظيم مليح • أو لتصلوا له غدوة وعشيا أي صلاتي الصبح والعصر • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تفسير الآية بصلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر •

وقوله تعالى (ان الذين يبايعونك) أي يوم الحديبية على الموت في نصرتك ، والمبايعة مفاعلة من البيع يقال بايع السلطان مبايعة اذا ضمن بذل الطاعة له • وقد وقعت قبل نزول الآية في الحديبية • والآية نزلت في أثناء الطريق عند رجوعه ـ صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة فصيغة المضارع لاستحضار الصورة (انما يبايعون الله) لان المقصود من المبايعة اطاعته واطاعته اطاعة لله تعالى (يدالله فوقأيديهم) أي أنه عند جعل الايدي في يدالرسول

كأنهم جعلوا الايدي في يد الله تعالى • ولما كانت اليد مستحيلة الاضافة اليه تعالى فالمعنى أن نصرة الله تعالى لهم فوق قوتهم ونصرتهم أي أن الله معكم في هذه المبايعة معية السيطرة ومعية القوة ومعية المنة والعطاء والكرم الشامل (فمن نكث) أي نقض العهد (فانما ينكث على نفسه) أي فلا يعود ضرر نكثه الا على نفسه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) وهو الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرابِ : شَغَلَتنا أَمْوالُنا وأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلوبِهِمْ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً ؟ بَلْ كانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً(١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، وكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً(١٢) ومَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) ولله مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ، وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً)(١٤)

قوله تعالى (سيقول لك المخلفون) قال مجاهد وغيره : المخلفون من الاعراب هم جهينة ومزينة ، وغفار ، وأشجع ، والديل ، وأسلم • استنفرهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين أراد المسير الى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يتعرضوا لهم بحرب أو يصدوهم عن البيت وأحــزم هو ــ صلى الله عليه وسلم ــ وســاق معه الهدى ليعلم أنه

لا يريد حربا ، ورأى اولئك الاعراب أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستقبل عددا عظيما من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش ، ولم يكن الايمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي وتخلفوا ، وقالوا : نذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم • وقالوا : لن يرجع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أصحابه من هذه السفرة قطعا ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل اليهم في رجوعه الى المدينة • والحاصل أنهم لم يوافقوه في السفر معه الى مكة وظنوا خيبة الرسول ، ولما حفظ الله رسوله وأصحابه من القتال وانتهى الامر بالمصالحة ورجع الرسول الى المدينة وخاب ظن أولئك الاعراب •• أنزل الله تعالى هذه ، وبين له أنهم يعتذرون اليك بكذا وكذا ولكنهم ينافقون •

والأعراب سكان البادية من العرب لا واحد له ، أي سيقول لك الاعراب الذين لم يوافقوك في السفر والخروج معك الى مكة بأنه (شغلتنا) عن السفر معك (أموالنا وأهلونا) أي لم يكن معنا من يقوم بحفظهم وحمايتهم ، وتقديم ذكر الاموال على الاهل للاشارة الى لؤمهم ودناءتهم حيث كان اهتمامهم بحفظ الاموال أكثر من اهتمامهم بحفظ الأهل • (فاستغفر لنا) الله تعالى (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) أي ان كلامهم هذا غير مطابق لما في قلوبهم ، ولو كان لهم ايمان ثابت بالله تعالى لوافقوك في الخروج معك ولم يتخلفوا (قل) لهم يا حبيبي بعد أن وصلت اليهم واعتذروا عندك : (فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟) يعني انكم خالفتم خوفا من أن يصيبكم في مكة شيىء فهل اذا خلصتم من ذلك تخلصون ايضا من سائر المضرات ؟ وهل أسباب الضر والنفع قليلة ؟ واذا بقيتم في باديتكم وأتاكم عارض (فمن يملك لكم من الله شيئا) لابتعادكم

عن الفضاء (ان أراد بكم ضرا أو) من الذي يصد باب الخير عنكم ان (أراد) الله (بكم نفعا ؟ بل) أعرضوا عن هذا الاعتذار الصوري فقد (كان الله بما تعملون) من الامور المخالفة لاتباع الدين (خبيرا) فانكم لستم مؤمنين متمكنين ، وكان يعجبكم أن لا يرجع الرسول من ذلك السفر ولا أحد من أصحابه .

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم) أي عشائرهم (أبدا) وذلك بإبادتكم من جانب أهل مكة (وزين ذلك في قلوبكم) من طرف النفس والشيطان (وظننتم ظن السوء) أي ظن الشر (وكنتم قوما بورا) جمع بائر أي قوما هالكين ، وذلك لعدم تمكن الايمان في قلوبكم (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا) أي فهو كافر ونحن أعتدنا وهيأنا للكافرين سعيرا يعذبون به (ولله ملك السماوات والارض) يتصرف فيهما وفيمن فيهما بما يشاء (فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما) للعباد .

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا : ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ : لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنَا ! بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ

حَرَجٌ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً)(١٧)

قوله تعالى (سيقول المخلفون) ... الآية اللام للعهد إشارة الى الاعراب المخلفين عن السفر المذكورين آنفا ، وذلك الإخبار السابق كان إخباراً عن الغيب ، وهذا إخبار آخر يثبت بهما وبأمثالهما أن القرآن كلام الله المنزل على حبيبه المفضل يعني سيقول لك أولئك المخلفون (اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها) وأرادوا بها خيبر ، لان اليهود كانوا يعارضون الاسلام ، وفي خيبر قوة ومنعة وتصوروا في أنفسهم أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحاربهم ويفتح البلد (ذرونا نتبعكم) أي دعونا ولا تمنعونا حتى نكون في عداد المحاربين ، واذا فتح البلد يكون لنا نصيب من الغنائم (يريدون أن يبدلوا كلام الله) النازل في شأن أهل بيعة الحديبية المعروفة ببيعة الرضوان الناطق بأن الله وعدهم مغانم كثيرة يأخذونها ، فيكون هذا الامر محولا اليهم ، ويكون لهم من تلك المغانم حصة (قل) لهم يا حبيبي (لن تتبعونا) أي لن تكون لكم حالة نفسية قدسية مطمئنة راضية بالدخول في الجهاد لاعلاء كلمة الله حتى تستحقوا شيئا من المغانم على تقدير الفتح ، وقالوا ان النفي في معنى النهي ، أي لا تتبعونا ولا نرضى باتباعكم لنا ، فان من لم يكن لنا في وقت أردناه لا يكون معنا في وقت لا نريده (كذلك قال الله من قبل) أي من قبل أن تهيأتم للخروج معنا . وذلك عند الانصراف من الحديبية الى المدينة (فسيقولون) أي أولئك الاعراب المخلفون للمؤمنين (بل تحسدوننا) أي أعرضوا عن أن يكون عدم اتباعنا لكم حكم الله تعالى ، وانما هو ناشيء من أنفسكم ولا تحبون صحبتنا لكم لانكم تحسدوننا في أن يكون لنا نصيب من المغانم (بل كانوا لا يفقهون الا قليلا) وهذا الاضراب معناه عدم الالتفات الى كلام المخلفين فكل ما يأتون به عاطل باطل وكانوا

لا يفقهون من أمور الدين وحقيقة الاسلام والجهاد في سبيله الا شيئا قليلا ، فلا تجادلوهم عند ظهور بوادر الخلاف .

(قل للمخلفين من الأعراب) المعروفين بالتخلف حتى صار سمة لهم (ستدعون الى قوم أولي بأس شديد) أي ذوي قوة شديدة في الحرب ، وهم على ما قاله بعض ورواه الطبراني عن الزهري بنو حنيفة : مسيلمة وأهله وقومه من أهل اليمامة ، وعليه جماعة . وفي رواية زيادة أهل الردة . وعن رافع بن خديج : أنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم ، حتى دعا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الى قتال بني حنيفة فقلنا : إنهم أريدوا بها . وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد في رواية ، وعطاء الخراساني ، وابن أبي ليلى : هم الفرس الذين حاربهم عمر ـ رضي الله عنه ـ وبهذه الآية تثبت خلافة الشيخين ـ رضي الله عنهما ـ ، لانهما دعوا المسلمين الى الجهاد مع قوم أولي بأس . أما أبو بكر فدعا الناس الى مقاتلة مسيلمة وأتباعه والى مقاتلة مانعي الزكاة ، وعمر ـ رضي الله عنه ـ دعاهم الى قتال الفرس في دور (يزدجرد) وكانوا أولي بأس شديد والداعي الذي تقرر الآية الكريمة دعوته الى القتال هو الداعي المحقق المحق الواجب اطاعته وقبول دعوته ، وهذا هو الظاهر منها .

(تقاتلونهم أو يسلمون) على معنى التنويع لا التشكيك ، أي يكون أحد الأمرين اما المقاتلة أو الاسلام لا غير كما دلت عليه قراءة أو يسلموا لان النصب يقتضي أن أو بمعنى الا أن ، فان قلت : هذا يفيد أن أمر القوم الذين يقاتلون منحصر في الأمرين فلا يبقى لترك المقاتلة وأخذ الجزية مجال فيفسد الاستدلال بها على خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ لانه قاتل المجوس وكان يصح أخذ الجزية منهم ! قلت : ان كان الاسلام على المعنى العرفي قلنا : يكفي اثبات خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ

لانه بعد أن ثبتت خلافته لا يبقى خلاف في جواز استخلافه لاي انسان مسلم بعده ، وقد استخلف عمر ـ رضي الله عنه ـ • وان كان الاسلام على المعنى اللغوي أعني الانقياد والاطاعة فالانقياد كما يكـون باعتناق الدين الاسلامي يكون بالتزام الجزية أيضا (فان تطيعـوا) أي ذلـك الداعي الى القتـال وتقاتلوا اولئك القوم لاعلاء كلمة الحق (يؤتكم الله أجرا حسنا) يعني الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة (وان تتولوا) عن الداعي (كما توليتم من قبل) في أمر الحديبية (يعذبكم عذابا أليما) فيهما (ليس) في التخلف عن تلـك الدعوة (على الاعمى حـرج) أي اثم (ولا على الاعرج حـرج ، ولا على المريض حرج) لوجود العذر ، والعذر يجعل العسر يسـراً (ومن يطـع الله ورسوله) في الاوامر والنواهي (يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ، ومن يتول) أي عن الطاعة (يعذبه عذابا أليما) لا يقادر قدره •

(لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ ما فِي قُلوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخذونَها ، وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً(١٩) وَعَدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً(٢٠) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللهُ بِها ، وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً(٢١) وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبارَ ، ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً ولا نَصِيراً(٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)(٢٣)

قوله تعالى (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونـك تحت الشجرة) روي أنه لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي الى أهل مكة . فهموا بقتله فمنعه الاحابيش ، فرجع فبعث عثمان بن عفان ، فحبسـوه فأرجف بقتله . فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه ، وكانوا ألفا وثلاثمائة أو أربعمائة وبايعهم على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا عنهم ، وكان جالسا تحت سمرة أو سدرة . وهذه البيعة سميت بيعة الرضوان لنزول آية الرضا فيها . والحديبية تصغير الحدباة ، سمي بها المكان . وخراش بكسر الخاء وفتح الراء المهملة ، وأرجف أي أذيع قتله بلا أصـل يعتمـد عليه ، والاحابيش جمع أحبوش ، وهم قوم من قبائل شتى سموا به قيل لسوادهم كالحبش ، وقيل لتحالفهم عند جبل يسمى حبشي (فعلم ما في قلوبهم) من الاخلاص (فأنزل السكينة عليهم) أي الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو بالصلح أو بهما (وأثابهم فتحا قريبا) فتح خيبر عند انصرافهم وقيل فتح مكة أو هجر بالبحرين (ومغانم كثيرة يأخذونها) يعني مغانم خيبر (وكان الله عزيزاً حكيماً) .

(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) هي ما قرر الله للمسلمين من أول القتال الى آخر الايام ، فان الغنائم لم تحل لامة قبل الاسلام وقد أحلت لها الى يوم القيامة (فعجل لكم هذه) أي مغانم خيبر (وكف أيدي الناس عنكم) أيدي أهل خيبر وحلفائهم وقوله (ولتكون) عطف على مقدر علة لقوله وكف أي وكف أيدي أهل خيبر عنكم لتسلموا ولتكون هذه الكرة آية وأمارة للمؤمنين على أنه اذا جاء نصر الله سخر الاعداء ومنع أنصارهم عن التعاون معهم وامدادهم (ويهديكم صراطا مستقيما) هي صراط الثقة بوعد الله تعالى بأن المؤمنين منتصرون (وأخرى) أي ووعدكم الله مغانم أخرى وهي مغانم

هوازن في غزوة حنين (قد أحاط الله بها) علما وقدرة وستتحقق لا محالة (وكان الله على كل شيء قديرا) ماضيا وعاجلا وآجلا •

(ولو قاتلكم الذين كفروا) أي من أهل مكة ولم يصالحوكم أو حلفاء يهود خيبر من قبيلة أسد وغطفان (لولوا الادبار) أي لانهزموا وولوا الادبار (ثم لا يجدون وليا) يتولى أمورهم وينظم جيشهم اذا قاتلهم المسلمون (ولا نصيرا) ينصرهم ويعينهم ليقلبوا على المسلمين (سنة الله) أي سن سبحانه وتعالى سنة الله (التي قد خلت من قبل) أي من قبل هذا العصر وهي تأييد المؤمنين (ولن تجد لسنة الله تبديلا) •

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ ، مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً(٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً(٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)(٢٦)

قوله تعالى : (وهو الذي كف أيديهم عنكم) أي منع أيدي كفار مكة عنكم (وأيديكم عنهم) أي وكف أيديكم عنهم (ببطن مكة) يعني به

الحديبية ، وكونه ببطن مكة مبني على أن بعضها داخل في الحرم أو على اعتبار قربها منها منزلا منزلة كونها جزء منها • وقوله (من بعد أن أظفركم عليهم) أي من بعد أن جعلكم ظافرين وظاهرين وغالبين عليهم •

أخرج الامام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، فنزلت هذه الآية (وهو الذي كف) ••• آه (وكان الله بما تعملون) أي بجميع ماتعملون ومنه العفو بعد الظفر (بصيرا) فيجازيكم عليه •

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام) أنْ تصلوا اليه وتطوفوا به (والهَدْيَ) أي وصدوا الهدي (معكوفا) أي محبوسا ومربوطا للخير (أن يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدي أي منعوا بلوغ الهدي الى محله المعهود للذبح وهو منى ، والا فعند الامام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ مكانه لمن منع حيث منع • وعند الامام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ أرض الحرم وبعض الحديبية حرم عنده • ومع ذلك فالمحل المعهود هو منى وقد منعوا وصول الهدي اليه (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) في مكة سبعة من الرجال وامرأتان (لم تعلموهم أن تطئوهم) بدل اشتمال عن الضمير المنصوب أي لم تعلموا وطئهم ودوسهم بالاقدام (فتصيبكم منهم معرةٌ) أي فتصيبكم بسبب دوسهم وايذائهم معرة ومكروه (بغير علم) وقوله (ليدخل الله في رحمته) علة لما يدل عليه الجواب المحذوف أي ولولا ذلك لامرنا بالتعرض لهم لكنه سبحانه كفها عنهم ليؤدي الصلح الى فتح مكة ليدخل الله في رحمته (من يشاء) وهم المؤمنون الذين سكنوا في مكة ولم يهاجروا لحد الآن وادخالهم في الرحمة بأن يبقوا أمناء لا يتعرض لهم

كفار مكة انتقاما لمد المسلمين الايدي الى الكفار (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) والتزيل التفرق ، أي لو تفرق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار الساكنين في مكة لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما •

(اذ جعل) منصوب بأذكر على المفعولية (الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) أي حمية الامة الجاهلية فمنعوا الرسول وأصحابه الجائين للاعتمار (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وهدأت أعصابهم واستراحت قواهم ، فلم يتعرضوا لاحد بالسوء ، ولم يقع ما لا تحمد عواقبه (وألزمهم كلمة التقوى) وهي كلمة التوحيد فيكررونها (وكانوا أحق بها) أي بتلك الكلمة وأهلها (وكان الله بكل شيء عليما) فيعلم من هو الاحق بالشيء ومن هو أهله • والفرق بين الأهل والأحق أن الاهل أدخل في الاستحقاق فكان الشيء ماله وحاله وملكه الخاص المغروز فيه خلقة كالصفات الغريزية • وأما الأحق فهو أولى من باقي المستحقين بوجه لشيء ما من العلل المؤيدة في الموضوع • والله أعلم •

وتفصيل تفسير الآية ما روي أنه لما نزل بالحديبية وصار أمر قريش المنع له ولاصحابه من الاعتمار وطواف البيت ، واهتم بقتالهم بعث قريش سهيل بن عمرو ، وحويبط بن عبدالعزى ، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن تخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعلي ـ رضي الله عنه ـ « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا : ما نعرف هذا ، اكتب باسمك اللهم • ثم قال : « اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة » فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة ـ فقال ـ عليه الصلاة

والسلام ـ : « اكتب ما يريدون » فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا به فأنزل الله السكينة عليهم ، فتوقروا وتحملوا وألزمهم كلمة التقوى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم ، أو الثبات والوفاء بالعهد ، واضافة الكلمة الى التقوى لانها سببها أو كلمة أهلها .

(لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَه الرُّؤْيا بالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ومُقَصِّرِينَ ، لا تَخافُونَ ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً(٢٧) هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً(٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ، تَرِيهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّورِيةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الأِنْجِيلِ : كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)(٢٩)

قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق) رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل خروجه الى الحديبية أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا . فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في العام الذي هم فيه ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ، فلما تأخر ذلك قال عن طريق الاعتراض، عبدالله بن أبي ، وعبدالله بن نفيل ، ورفاعة بن الحرث : والله ما حلقنا ، ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت الآية •

والمعنى صدقه في رؤياه وقوله بالحق أي متلبسا به فان ما رآه كائن لا محالة في الوقت المقدر له وهو العام القابل • ويحتمل أن بالحق قسما بالحق وهو اسم الله تعالى ، وعلى هذا فقوله (لتدخلن المسجد الحرام) جوابه والا فهو جواب لقسم محذوف أي والله لتدخلن المسجد الحرام • قوله (آمنين) أي من بطش الاعداء وقوله (محلقين رؤسكم ومقصرين) كل لبعض منهم والمشتقات أحوال متوالية مفردة • وقوله (لا تخافون) جملة حالية ، أو مستأنفة أي لا تخافون بعد ذلك (فعلم ما لم تعلموا) أي فعلم الله تعالى ما لم تعلموا من التأخير في الدخول والحكمة فيه (فجعل من دون ذلك) الدخول (فتحا قريبا) هو فتح خيبر ، أو فتح مكة المكرمة •

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي متلبسا بالهدى وهو القرآن (ودين الحق) أي دين الاسلام الثابت المطابق للواقع (ليظهره على الدين كله) بانتشاره في جميع الدنيا وبخلوده الى يوم القيامة ، وبعمومه للامم كلها ، وبمقارنته للمعجزة المستمرة معه ، وبجهاد منتسبيه لاعلاء كلمة الحق ، وبمماشاته مع الازمنة بثبات أركانه وأصوله وفروعه الكلية ، وبجواز اجتهاد المجتهدين لاستنباط الفروع المتنوعة ، وبعدم اتفاق أتباعه على الضلال ، وبتجديده في كل مأة عام مرة بمجدد معه أعوان كالاطواد والاوتاد الراسخة في العالم (وكفى بالله شهيدا) على ذلك •

(محمد رسول الله) أي ذلك الرسول الذي أرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين الى كافة الثقلين أجمعين • وذلك لانه

ادعى الرسالة العامة من الله تعالى وأظهر المعجزات الكثيرة ومنها القرآن المتواتر بحروفه وكلماته وجمله السليمة وآياته الحكيمة ، وتأيدت بالاخلاق العظيمة التي اندهشت عقول العالمين منها كايمانه ، وأمانه ، واستقامته ، وبره ، وتقواه ، ومثابرته ، وجوده ، وجهاده ، وحلمه للاجانب كعشيرته وحبه لمساكين أمته وخيره الفائض على العالم ودوامه على فضائله ، وذكره الدائم لربه ، ورحمته بالمستضعفين ، وزهده عن الدنيا ، وسلامة صدره ولسانه ، وسماحته وشكره لله ، وشجاعته ، وصراحته في البيان ، وصبره ، وصدقه ، وصفائه ، وصيامه ، واضاءة وجهه للخلق ، وطهارة جوارحه ، وحواسه وعقله وعلمه وعفوه ، وعلو همته ، وغيرته على شريعته ، وفرط تفقده لفقراء أمته ، وقوة قلبه عند تفاقم الاهوال ، وقيامه بالليل مع تعب نهاره ، وكرامة نفسه ، ولين كلامه ، وميله الى أيسر الوجوه في معاشرته ، ومدده ، ومروته ، ونجدته ، ووفائه بوعوده وعهوده ، ووقاره وهدوئه وهيبته وهمته ، ويمنه ويقينه ... فهذه الاخلاق الحسان معجزة من أهم المعجزات لم يجمعهن الخالق في غيره من البريات ، وعلى وجودها له بينة بل بينات ، فالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه ما دامت الارض والسماوات . (والذين معه) مبتدأ خبره (أشداء على الكفار رحماء بينهم تريهم ركعا سجدا) أي راكعين ساجدين لله رب العالمين (يبتغون فضلا من الله) في الدارين (ورضوانا) منه لهم (سيماهم في وجوههم) أي علامتهم في وجوههم من الجباه والخدود وذلك (من أثر السجود) ذلك المذكور من النعوت الجليلة (مثلهم) أي وصفهم العجيب المستحسن عند اللبيب الكائن (في التورية) الجليل المنزل على موسى رسول بني اسرائيل (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه) أي فروخه (فآزره) أي أعانه وقواه الزرع (فاستغلظ) فتحول من الدقة الى الغلظ (فاستوى على سوقه)

أي فاستقام على قصبه (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره • ومعلوم أن كل هذه النعوت الجليلة والاوصاف الجميلة انما حدثت لهم من الله سبحانه وتعالى وانما جعلهم كذلك (ليغيظ بهم الكفار) ويغبط بهم المؤمنون الابرار • ويستفاد من الآية الكريمة أن الغائظ لهم كافر بيقين وأن المغتبط بهم مؤمن أمين (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة) لهفواتهم (وأجرا عظيما) في جناتهم وكلمة من في الآية الكريمة للبيان لا للتبعيض اذ قد تقرر قبلها أن الذين معه أشداء على الكفار فيمتنع أن يكونوا من الكافرين وأنهم راكعون ساجدون طالبون رضوانا من الله • وما دام وصفوا بذلك وعقب ذلك بقوله الكريم سيماهم في وجوههم من أثر السجود لا تبقى شبهة ولا شك من أي عاقل أن كلهم صالحون ومرحومون ومغفورون ومأجورون أجرا عظيما ، فاحتمال كونها للتبعيض لا يمكن اعتباره بأي وجه من الوجوه الا من وجه مريض •

وعلى وجه اللطافة أحكي نكتة لطيفة سمعتها من بعض الفضلاء قال : ان هذه الآية الكريمة عمت جميع المؤمنين في العالم ، فسيد العالمين محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه هم الذين ذكر الله نعوتهم الجليلة وحكاها عن التوراة والانجيل ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين هم المشمولون لآخر الآية فيقول سبحانه وتعالى (وعد الله الذين) أي المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله (وعملوا الصالحات) بادئين منهم وكاسبين لها منهم أي متعلمين منهم مغفرة وأجرا عظيما وهذا المفهوم وان لم يتطرق اليه أحد فيه نوع من الملاحة واللطافة المقبولة جعلنا الله بفضله واحسانه من التابعين لهم باحسان الى يوم الدين •

سورة الحجرات مدنية وآياتها ثماني عشرة

نزلت بعد المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ، كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجرٌ عَظِيمٌ (٣) إنَّ الَّذِين يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٥)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) هذه السورة مدنية الا آية (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى) فهي مكية عند بعضٍ وبالجملة هذه السورة سور محيط بآداب اجتماعية مع الله

ورسوله ، ومع المسلمين بعضهم مع بعض ، ومع الناس كافة ، وبالآخرة ببيان رجوع الكل الى الله تعالى وأن النعم والفضائل كلها منه ، وأهمها الاسلام ولا تمنوا على الرسول ولا على غيره ولا تقدموا اما من قدم المتعدى والمفعول محذوف لقصد العموم أي لا تقدموا أمرا من الامـور الدينيـة أيا كان في حكمكم فيه ايجابا أو سلبا بين يدي الله ورسوله أي لا تحكموا فيه قبـل حكمهما به أو منزل منزلة اللازم لعدم القصد الى المفعول كما تقول : فـلان يعطي ويمنع ، أي يفعل الاعطاء والمنع ، وذلك لان القصد عدم التقدم عليهما وعدم المخالفة لحكمهما بتاتا بدون تقييده بشيء ، أو من قدم اللازم بمعنى تقدم ، أي لا تتقدموا كناية عن لا تخالفوهما فان من تقدم على شخص في سيره لا يربط سيره بسيره ويتمشى لقصد شخصه وخيره ولا يهتم بغيره . وقوله (بين يدي الله ورسوله) اليدان مجازان عن الجهتين اليمين والشمال مجازا مرسلا بعلاقة الجوار ، ثم استعيرت الجملة الناهية عـن التقـدم في الجانبين الى معنى النهي عن الحكم بأي شيء قبل حكمهـا لان المقصود التوقف عن الاحكام مطلقا الى صدور الحكم من الباب العالي ، هذا في ذلك العصر ، وأما بعده فيجب سلوك ما قرره من التقيد بالنصوص ودلالاتها ثم الاعتبار بالاجماع ، ثم بالاستدلال الاجتهادي لمن هو أهل له لا الحكـم الاشتهائي كما هو سهل (واتقوا الله) أي مخالفته عن مراعاة النظـام فان الانام لا قيام لهم بدون النظام ، والنظام من أحكام الله الملك العلام والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبلغ لها ومبينها للانام (إن الله سميع) لكل ما يسمع و (عليم) بكل المعلومات .

(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) يعنـي اذا تكلم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في موضوع فـلا تتكلموا عند ذلك بصوت جهوري يعلو على صوته فلا يسمعه المستمعون له . واذا تكلمتم

معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليكن صوتكم همسا ، لا جهارا بحيث يرتفع على صوته أو يساويه بل أخفضوه رعاية للادب في مكالمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) أي واذا ابتدأتم بالكلام معه فلا تجهروا له بحيث يؤذي سمعه ويؤلم شعوره كجهر بعض لبعض كأن يناديه للاستنجاد والاستغاثة من بعيد ، فان ذلك من آداب البدويين العائشين في الصحارى والجبال ، وأنتم صرتم متمدنين بمدنية الاسلام الحاوي للاحكام ، والداعي للنظام ، والسالك على طريق الاسلام ، وليكن فيكم الدراية والرعاية كراهة (أن تحبط) وتسقط (أعمالكم) بما يؤذيه ـ عليه السلام ـ (وأنتم لا تشعرون) بأن هذا النوع من اللا أدبية يرفع الهيمنة والامانة ويجلب الانسان الى التوحش عن نظام الدين .

(ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) سواء عند سكوته عن الكلام ، أو تكلمه مع غيره ، أو تكلمه معه ، أو في بدء الكلام معه في سؤال حكم أو استفسار عن أمر (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي أعدها وهيأها لها (لهم مغفرة وأجر عظيم) على رعاية الادب الرفيع مع الشفيع .

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) أي من خارجها خلفها أو قدامها (أكثرهم لا يعقلون) الفرق بينك وبين غيرك في المناداة وانك قد ينزل عليك الوحي في تلك الاوقات أو مشغول بمهمة من المهمات . والحجرات جمع حجرة بضم الفاء وسكون العين قطعة أرض محجورة أي ممنوعة من دخول غير أهلها فيها بحائط وباب أو بأمر آخر (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) حيث استفادوا العلم بمقصودهم بصورة معتادة مقبولة بدون ازعاج أحد واستفاد الناس من أدبهم (والله غفور رحيم) بليغ المغفرة عما تقدم وواسع الرحمة لمن تأدب .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ والعِصْيانَ ، أولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ(٧) فَضْلاً مِنَ اللهِ ونِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٨)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أي فتعرفوا وتصفحوا وحققوا الخبر ، وأصله حتى لا تقعوا فيما لا تحمد عواقبه • روي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعث الوليد بن عقبة لاخذ الزكاة الى بني المصطلق ، وكان بينه وبينهم سوء تفاهم ، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهم بقتالهم ، فنزلت • وقيل بعث اليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع • واستدل بالآية على أن من الصحابة من ليس يعدل لان الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن العقبة فيها ، فان سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق فيرد بها على من قال انهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة • وهذا أحد الاقوال في المسألة •

وثانيها : أنهم كغيرهم ، فيبحث عن عدالتهم في الرواية والشهادة الا من يكون مقطوع العدالة أو ظاهرها كأعيانهم •

والثالث : أنهم عدول الى قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ويبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن فيهم ، وفيهم الممسك عن خوضها •

والرابع : أنهم عدول الا من قاتل عليا ـ كرم الله وجهه ـ لفسقه بالخروج على الامام الحق والى هذا ذهبت المعتزلة • والحق ما ذهب اليه الاكثرون وهم يقولون : ان من طرأ له منهم قادح ككذب أو سرقة أو زنا عمل بمقتضاه في حقه ، الا أنه لا يصر على ما يخل بالعدالة بناء على ما جاء في مدحهم من الآيات والاخبار وتواتر من محاسن أعمالهم فلا يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقا بأنه مات على الفسق ولا ننكر أن منهم من ارتكب في حياته مفسقا لعدم القول بعصمتهم ، وانه كان يقال له قبل التوبة فاسق ، لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف فيه ، ثقةً ببركة محبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي عدولا وقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الى غير ذلك •

(أن تصيبوا قوما بجهالة) علة للامر بالتبين ، أي كراهة أن تصيبوا قوما بجهالة أي متلبسين بجهالة بحقيقة الامر (فتصبحوا على ما فعلتم) بايذاء بعض الناس على أثر الخبر الكاذب (نادمين) على ما فعلتم مغتمين •

(واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم) أي لوقعتم في الجهد والهلاك (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم) وأمنتم (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) فتركتم (أولئك هم الراشدون) أي أولئك الناس الموصوفون بالأمرين هم الراشدون الواصلون الى الرشد ، الموصوفون به • والرشد صلاح الدين والمال ، وعند بعض الأئمة صلاح المال وليس بمقصود هنا • وقوله (فضلا من الله ونعمة) مفعول له للفعلين السابقين حبب وكره ، وما بينهما معترضة (والله عليم) بأحوال المؤمنين ودرجاتهم و (حكيم) في هباته •

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بينهما ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَيهُمَا عَلَى الأخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ)(١٠)

قوله تعالى : (وان طائفتان) ... الآية روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان متوجها الى زيارة سعد بن عبادة في مرضه . فمر على عبدالله بن ابي بن سلول فقال ما قال ، فرد عليه عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ ، فتعصب لكل منهما أصحابه ، فتقاتلوا ، فنزلت فقرأها ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم فاصطلحوا ، وكان ابن رواحة خزرجيا وابن أبي أوسيا .

يقول تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) أي ان اقتتل طائفتان اقتتلوا ، والجمع باعتبار أن كل طائفة جمع والتثنية في قوله (فأصلحوا بينهما) باعتبار نفس الطائفتين ، والاصلاح يكون بعد فهم ماعند الجانبين ، ثم الدعوة الى التزام حكم الله ، فان صلحتا فالصلح خير حاسم للشر (فإن بغت إحديهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيىء الى أمر الله) أي حتى ترجع الى حكم الله (فإنْ فاءَتْ فأصلحوا بينهما بالعدل) أي بفصل ما بينهما على ما حكم الله ، وتقييد الاصلاح بالعدل لانه مظنة الجور (وأقسطوا) اى اعدلوا (ان الله يحب المقسطين) اى العادلين (إنما المؤمنون إخوة) من حيث الانتساب الى أصل واحد وهو الايمان الموجب للحياة الابدية (فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، ولا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنهُنَّ ، وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلقابِ ، بِئْسَ الاسمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، ولا تَجَسَّسُوا ، ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ ، واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقبائِلَ لِتَعارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقيكُم إِنَّ الله عَليمٌ خَبِيرٌ)(١٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم) أي منكم (من قوم) أي من قوم آخرين منكم ، والسخر الهزؤ ، وفي الزواجر : هو النظر الى المسخور منه بعين النقص ، وقد يكون بالقول ، وقد يكون بالفعل ، وكل ذلك جريمة كبيرة مفسدة للمسلين وموجبة للشقاق والاختلاف ، ثم علل النهي بقوله (عسى أن يكونوا) أي المسخور بهم (خيرا منهم) أي من الساخرين (ولا نساء من نساء) أي ولاتسخر نساء من نساء (عسى أن يكن) أي المسخور بهن (خيرا منهن) أي من الساخرات (ولا تلمزوا أنفسكم) أي ولا تعيبوا آحادا أو جماعات آخرين ، فإنهم ما داموا مؤمنين يعتبرون من أنفسكم فتعييبكم لهم تعييب لانفسكم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لما عيب بعض بعضا جاء البعض المعيوب بعيب العائبين ، وعند ذلك كان كأن اللامز لَمَزَ

نفسه (ولا تنابزوا بالالقاب) أي لاينادى أحدكم أحدا بالالقاب ولا يدعوه بها، ولا يسميه ، ولا يلقبه بما فيه عيب ، والمراد بالالقاب ألقاب السوء ، والا فالالقاب الحسنة استعمالها على وجه الصدق من الحسنات ، وقد لقب أبو بكر بالعتيق وبالصديق ، وعمر بالفاروق، وعثمان بذي النورين، وعلي وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله وامثالها ••• نعم اللقب الغير المحبوب اذا كان من المميزات والمشخصات فلا بأس باستعماله (بئس الاسم الفسوق) أي بئس الذكر المشهور بين الناس وهو الفسوق ، وقوله (بعد الايمان) أي بعد دخول ذلك الانسان المذكور باللقب الفاسد في الايمان أي المناسب للانسان الداخل في الايمان أن يذكر ويشهر بالالقاب الشريفة الرفيعة لا بالالقاب البذيئة الوضيعة • وعلى ما قلنا فالاسم فاعل ، والفسوق مخصوص بالذم • (ومن لم يتب) عن التنابز بالالقاب السيئة الى الناس (فأولئك هم الظالمون) أنفسهم بارتكاب الجريمة التي تنجر الى جرائم أخرى لان ذلك الاستعمال يحرض الناس على المقابلة والتخاصم والتنابذ • والظالمون غيرهم لانهم يتحقرون في أعين الناس بتلك الكلمات والانقاب التافهة • أعاذنا الله من كل قول وفعل فاسد ، وحفظنا من كل نابز حاسد انه هو الحفيظ العليم والرءوف الرحيم •

(يا أيها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) أي تباعدوا منه وأصل اجتنبه كان على جانب منه ، ثم شاع في التباعد • ومما ينبغي علمه ان الظن هو التصديق بالنسبة التامة الخبرية بحيث لا يقطع الطرف الآخر بأن يبقى عنده مرجوحا ، كظنك بمن يدور حول الازقة بالليل خائنا ، فهذا الظن اذا كان في الاعتقاديات فهو ساقط لا اعتبار له • فقال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم) وان كان في الاحكام العملية ، فإن كان حاصلا من اجتهاد انسان واصل الى درجة الاستنباط فهذا يجوز العمل به ، بل يجب • وأما اذا كان

متعلقا بأحوال الناس وأفعالهم مع بعض ، فان كان المظنون به مجاهرا بالفسق، أو مشهورا به فلا بأس في ذلك الظن بل ويجب عليه نصيحة الناس ومنعهم من مجاورته واقترابه • وأما اذا كان متعلقا بالناس الصالحين أو بمن لا يعرف حاله ، فهو حرام ، وهذا هو المراد في الآية الكريمة • وفي ذلك قال تعالى (ان بعض الظن إثم) وقوله تعالى (ولا تجسسوا) أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، ولا تستكشفوا ما هو المستور من عيوبهم • عن أبي برزة الاسلمي قال : خطبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان في قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين ، فان من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته » (ولا يغتب بعضكم بعضا) أي لا يذكر بعضكم بعضا بما يكره ، سواء كان في دينه أو دنياه ، أو خلقه أو خلقه ، أو ماله أو ولده ، أو زوجته ، أو مملوكه ، أو خادمه ، أو لباسه او غير ذلك ••• (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه) تمثيل لما يصدر عن الغياب بأكل لحم أخيه الميت ، وذلك شيىء مذموم مكروه جدا (واتقوا الله ، ان الله تواب رحيم) •

وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل اليه الا بها وتنحصر في ستة أبواب :

الاول : التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أن له قدرة على ازالة ظلمه •

الثاني : الاستعانة على ازالة المنكر بذكره لمن يظن أنه قادر على ازالته •

الثالث : الاستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟

الرابع : تحذير المسلمين عن الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين للافتاء أو الاقرار مع عدم أهليته ، فتجوز اجماعا ، بل تجب .

الخامس : أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمور ، فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه .

السادس : التعريف بنحو لقب كأن تقول : قال القاضي الاعمش .

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى) أي من آدم وحواء ــ عليهما السلام ــ (وجعلناكم شعوبا وقبائل) والفرق بين الشعب والقبيلة أن الشعب هو الجمع العظيم المنسوب الى أصل واحد وهو يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الافخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل . فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت الشعب شعبا لان القبائل تفصل منها . وقوله (لتعارفوا) علة للجعل ، أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضا ، فتصلوا الارحام وتبينوا الاسباب والتوارث ، لا للتفاخر والتشاجر (ان أكرمكم عند الله أتقيكم) أي من هو أكثر خوفا من الله ويراعي الحرام والحلال ، ويترك المحرمات ، ويؤدي الواجب عينا وكفاية . (ان الله) سبحانه وتعالى عليم بكم وبأعمالكم (خبير) ببواطن قلوبكم .

روي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ــ صلى الله عليه وسلم : يا ابن فلانة ! فوبخه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنزلت . وروى البيهقي في سننه عن الزهري قال أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا ؟! فأنزل الله قوله (يا أيها الناس انا خلقناكم) ... الآية . وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالانساب وبذلك نطقت الاخبار .

واخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر أن النبي طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الاركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها . يا أيها الناس الناس رجلان : بر تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، الناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، الى قوله تعالى خبير » وأخرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال خطبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع ، فقال : « يا أيها الناس ألا ان ربكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألاهل بلغت ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال « فليبلغ الشاهد الغائب » .

(قَالَتِ الأَعْرَابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ : أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ؟ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ : لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ

هَدَايكُمْ لِلإيمانِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٧) إنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)(١٨)

قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا) ... الآية قال مجاهد نزلت في بني أسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الاسلام وقلوبهم دغلة انما يحبون المغانم وعرض الدنيا . وروي أنهم قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين ، وكانوا يقولون لرسول الله : جئناك بالاثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة ، ويمنون به على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وقيل : هم مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار . قالوا آمنا فاستحققنا الكرامة فرد الله تعالى عليهم . وعلى كل فليس المراد بالاعراب العموم . وقوله تعالى (قل لم تؤمنوا) إكذاب لهم في دعوى الايمان اذ هو تصديق مع الثقة واطمئنان القلب ولم يحصل لهم والا لما منوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بترك المقاتلة (ولكن قولوا أسلمنا) فان الاسلام انقياد ودخول في السلم ، وهو ضد الحرب ، وما كان من هؤلاء شيىء يشعر به .

وتحقيق المقام أن الايمان علم وتصديق للرسول بما جاء من الله به اجمالا فيما علم اجمالا ، وتفصيلا فيما علم كذلك ، فهو من الكيفيات النفسية . وأما الاسلام فهو الانقياد والاستسلام وذلك فعل وقد يظهر المرء ذلك الانقياد بين الناس وليس عنده حب من خردل من الايمان . ولذلك قال الباري : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) فالايمان والاسلام الواقعي الحقيقي متغايران معنى ، ولكنهما متساويان تحققا . وأما الاسلام الظاهري فقد يكون مع الايمان الواقعي كما هو لعباد الله المؤمنين وقد يكون بدونه ، كما في صورة الآية الكريمة حيث قال : (ولما يدخل الايمان في قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله) أي بالاخلاص (لا يلتكم من أعمالكم) أي لا ينقصكم

شيئا من الاعمال ، ولا من أجورها ، ويجعلها مقبولة مجزئة (ان الله غفور رحيم) .

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) أي لم يشكوا مطلقا (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) أي في سبيل طاعته واعلاء كلمته (أولئك) الموصوفون بما ذكر (هم الصادقون) في دعوى الايمان (قل : أتعلمون الله بدينكم) أي أتخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم آمنا (والله يعلم ما في السماوات وما في الارض ؟ والله بكل شيىء عليم) يعنى ان الله تعالى عالم بايمان المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله كما أنه عالم بأنكم لستم مؤمنين صادقين ولم تجاهدوا في سبيله ، فعليكم أن تتحولوا من النفاق وتتوجهوا الى الله وتؤمنوا حق الايمان وتجاهدوا حق الجهاد ، فاذا وفيتم بذلك أخذتم كمال الاجور هنالك (يمنون عليك أن أسلموا) أي يعتدون اسلامهم منة عليك (قل : لا تمنوا علي اسلامكم) أي لا تعتدوا اسلامكم منة علي ، أولا تمنوا علي باسلامكم (بل الله يمن عليكم أن هديكم للايمان ان كنتم صادقين) أي في الايمان على حسب مازعمتم أي لو كنتم مؤمنين بحق لكان حقا لله أن يمن عليكم بأن هديكم ، ولكن ما آمنتم بحق ولا معنى لمنتكم بما ليس موجودا عندكم (ان الله يعلم غيب السماوات والارض) أي ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) بالاسرار والاعلان فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ؟

سورة ق ، مكية وآياتها خمس واربعون

نزلت بعد المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

(ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ : هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ؟ ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ(٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ(٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا الى السَّماءِ فَوْقَهُمْ : كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ(٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ ، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٨) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٩) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً ؟ كَذلِكَ الْخُرُوجُ)(١١)

قوله تعالى (ق) إحدى الاحتمالات فيها أنها اسم للسورة ، وتسمى بالباسقات ايضا • أخــرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمــذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ في العيد بقاف واقتربت • وفي رواية ابن ماجه كان يقرؤها في الركعة الأولى من صلاة الفجر • وأخرج أبو داود وابن ماجه والبيهقي وابن أبي شيبة عن أم هشام ابنة حارثة قالت ما أخذت سورة ق والقرآن المجيد الا مــن في رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر اذا خطــب الناس •وفي حديث ابن مردويه عــن أبي العلاء ــ رضي الله تعالى عنه ــ مرفوعا : «تعلموا ق والقرآن المجيد» وذلك دليل على أنها من السور العظام•

(والقرآن المجيد) أي ذي المجد والشرف من باب النسب (ذى كذا) كلابن وتامر ، والواو للقسم وجوابه محذوف يدل عليه المقام ، والكــلام كأنه قال ق والقرآن المجيد انا أنزلناه لتنذر به الناس (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) وبل للاضراب عما يشعر به جواب القسم الى أحوالهم الشاذة ومقالتهم الناشئة عن عقائدهم الزائغة ، فانهم عجبوا أن جاءهم منذر منهــم أي رسول منذر لأهل الكفر والمعاصي ، وهو منهم يعرفونه بالصدق والأمانة (فقال الكافرون : هذا شيىء عجيب) أي ان انذار هذا الشخص لنا ولأمثالنا شيىء غريب عجيب يتعجب منه ، اذ من جملة ما جاء به أنه نعاد بعد المــوت الى الحياة ثانية ونجمع ونسأل ونحاسب ونأخذ الجــزاء على ما قدمنــا ، وهذا الشيىء يتعجب منه (أءذا متنا وكنا ترابا ؟) الاســتفهام للتعجــب ، وتأكيد الانكار يقولون : أءذا متنا وتفتتت أجسادنا وكنا ترابا (ذلك رجــع بعيد) أي ذلك الرجوع الى الحياة الجديدة بعيد عن عقولنا المشوبة بأوهام التقليد الموجبة لاهمال قوة القادر الفعال لما يريد (قد علمنا ما تنقص الأرض) أي نحن أهل علم شامل بالكليات والجزئيات والاعيــان والاعراض ونعلــم

ما تنقص الارض من لحومهم بالتفتيت والتمزيق وتغيير صورته النوعية ، (وعندنا كتاب حفيظ) أي كتاب حافظ لتفاصيل الاشياء كلها ، فاذا كانت الاجزاء الممزقة معلومة لنا قدرنا على جمعها وخلق الحياة فيها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ . (بل كذبوا بالحق) أي بالدين الحق أو منشئه وهو الرسول الحق الصادق المصدوق (لما جاءهم ، فهم في أمر مريج) أي اعتقاد مضطرب متزلزل ، فاذا جاءهم وسيلة ايمان وثبات من جانب أتاهم موجبات من أسباب الضلال من جوانب أخرى .

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ؟) ورتبنا سماء على سماء (وزيناها) بالمصابيح المنورة والشهب المستنيرة (ومالها من فروج) أي من فتوق وشقوق وخلاء في الموجات الاثيرية المترتبة (والارض مددناها) أي بسطناها (وألقينا فيها رواسي) أي جبالا ثوابت رواسخ تمنعها من الميلان يمنة ويسرة (وأنبتنا فيها من كل زوج) من الاشجار ، والنباتات المختلفة موصوف بأنه (بهيج) أي ذي بهجة ونضارة وحسن في اللون والعطر الساري في الدماغ (تبصرة وذكرى) علتان لفعل مقدر بطريق الاستئناف ، أي فعلنا ما فعلنا تبصرة أي تبصيرا وذكرى أي تذكيرا (لكل عبد منيب) أي راجع الى ربه لانه هو الذي يستفيد من أمثال تلك الآيات .

(ونزلنا من السماء ماء مباركا) أي كثير البركات والخيرات (فأنبتنا به جنات) أي أشجاراً ذات ثمار كثيرة (وحب الحصيد) أي وأنبتنا به زروعا ذات حب من شأنها أن تحصد (والنخل باسقات) أي وأنبتنا به النخل باسقات ، أي طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة اذا حملت (لها طلع نضيد) أي منضود بعضه فوق بعض (رزقا للعباد) وفي ذكر التبصرة والذكرى سابقا ورزقا هنا اشارة الى أن حق العبد المرزوق بهذه الامور التي يتقوت أو يتفكه بها أن يكون بحيث يستبصر ويستذكر بها ، لا أن يهمل شكر

الإنعام بها (واحيينا به) أي بذلك الماء (بلدة ميتا) أي أرضا لا نماء فيها ، فجعلناها رابية منبتة (كذلك الخروج) أي ومثل تلك الحياة المعادة على الارض سنة فسنة حياة الموتى بالبعث من القبور .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ(١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ(١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ(١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)(١٩)

قوله تعالى : (كذبت قبلهم قوم نوح) هذه الجملة مع ما بعدها استئناف لتقرير أن البعث حق (وأصحاب الرس) وهو البئر التي لم تُبْنَ ، وقيل : هو وادٍ ، وأصحابه قيل هم الذين بعث اليهم شعيب ــ عليه السلام ــ ، وقيل : قوم حنظلة بن صفوان (وثمود ، وعاد ، وفرعون) والمراد به هو وقومه (واخوان لوط) قيل : كانوا من أصهاره ــ عليه السلام ــ فليس المراد الاخوة الحقيقية من النسب (وأصحاب الايكة) والايكة الغيظة وأصحابها قوم غير أهل مدين بعث اليهم شعيب ــ عليه السلام ــ (وقوم تبع) الحميري كان تبع مؤمنا وقومه كافرين (كل) من المذكورين (كذب الرسل) في ما أرسلوا به من الشرائع (فحق وعيد) أي فثبت وحق عليهم وعيدي (أفعيينا بالخلق الاول) أي أفتعبنا وهلكنا بالخلق الاول أي بخلقهم

أول مرة فلم تبق لي طاقة اعادة الحياة اليهم في المرة الثانية ؟ (بل هم في لبس من خلق جديد) بل للاضراب أي أعرض عن موضوع العي والتعب بالخلق الاول ، فانهم معترفون بذلك ، وانما هم في لبس واشتباه من خلق جديد ، ولو كانوا من أهل الفكرة لعلموا أنا قادرون على البعث وإحياء الموتى ، فان العالم القادر قدرة شاملة لا يعجزه ولا يمنعه أي مانع من اعادة الحياة في العالم الثاني •

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) من الخيالات الايجابية أو السلبية (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) والحبل معروف واضافته الى الوريد وهو عرق مخصوص في العنق للبيان كشجر الأراك • وقوله (اذ يتلقى) ظرف منصوب بقوله أقرب ، أي ونحن أقرب الى الانسان من عرق عنقه إذ يتلقى (المتلقيان) أي الملكان الذان يتلقيان كل ما يقوله ويعمله (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، والقعيد فعيل بمعنى المفاعل ، أي عن اليمين مقاعد وعن الشمال مقاعد • والباري سبحانه وتعالى أعلم بكل شيىء من كل شيىء لكن ارسال الملكين وتقريرهما على الجانبين من الانسان لحكمة الشهادة عليه في يوم الحساب (ما يلفظ) أي الانسان (من قول الا لديه رقيب) أي ملك يرقب أعماله وأقواله ويكتبها فان كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وان كان شرا فهو صاحب الشمال • وقوله (عتيد) أي مُعَدّ ومهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر • والظاهر أنهما في سائر أحوال الانسان عن يمينه وعن شماله • وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال : ان قعد فأحدهما عن يمينه والاخر من شماله ، وان مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه • وان رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه • والانسان يبقى في هذه الحالة مع وجود دواعيه للخير والشر الى الأجل •

(وجاءت سكرة الموت) أي دهشة الموت التي تزيل العقل كشرب المسكر القوي ومجيئها (بالحق) أي متلبسا بالثبوت الواقعي لا شبهة فيه (ذلك) أي مجيىء الموت (ما كنت منه تحيد) أي تميل وتنحرف ولا تريده ولا ترضى به .

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وشَهِيدٌ(٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(٢٢) وَقالَ قَرِينُهُ : هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ(٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ(٢٤) مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ(٢٥) الَّذي جَعَلَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ، فَأَلْقِياهُ فِي العَذابِ الشَّدِيدِ(٢٦) قالَ قَرِينُهُ : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ في ضَلالٍ بَعِيدٍ(٢٧) قالَ : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، وما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ(٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلأْتِ ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟(٣٠) وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ(٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ(٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ(٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ(٣٤) لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ)(٣٥)

قوله تعالى (ونفخ في الصَور) أي نفخة البعث بقرينة البيان الآتي (ذلك يوم الوعيد) أي ذلك النفخ يوم انجاز الوعيد الوارد في الدنيا على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو الوارد في القرآن الكريم

(وجاءت) بعد البعث (كل نفس) من النفوس البرة أو الفاجرة حالكونها (معها سائق) يسوقها (وشهيد) من الملائكة لتشهد لها أو عليها • وهذا السوق يختلف بحسب مراتب المبعوثين المسوقين ، كما أن كلام الشهيد للخير وعلى الاعمال الصالحة غير كلام الشهيد على الشر وعلى الاعمال السيئة ، فيقال للمسوق الى ميدان الحساب والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك : (لقد كنت في غفلة من) مجيىء (هذا) اليوم (فكشفنا عنك غطاءك) أي الحجاب الساتر لامور المعاد فزال (فبصرك اليوم حديد) أي نافذ الإبصار لزوال المانع له (وقال قرينه) أي شيطانه المقيض له في الدنيا : (هذا مالدي عتيد) الاشارة الى الكافر الملزوم عنده ، أي هذا الشخص الكافر عندي ومهيأ لجهنم قد هيأته منذ وجدته لعذاب جهنم •

فقال الله سبحانه وتعالى للسائق والشهيد (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) مبالغ في العناد وعدم الخضوع للحق (مناع للخير) مبالغ في منع الحقوق المالية عن المستحقين (معتد) متجاوز عن حدود الله (مريب) شاك في الله أو في البعث، أو في القرآن ، أو في دين الاسلام ، أو في الكل (الذي جعل مع الله الها آخر فألقياه في العذاب الشديد ، قال قرينه) رد الكلام المقرون : (ربنا) ان هذا القرين أغواني وأطغاني ربنا (ما أطغيته) وما أجبرته على الطغيان (ولكن كان) هو بالذات (في ضلال بعيد) من الصراط المستقيم • قال الباري سبحانه وتعالى (لا تختصموا لدي) في موقف الحساب (وقد قدمت اليكم) الى كل من القرين ومن قرن به (بالوعيد) على الغاوي والمغوي فلا نفع في اختصامكم ولا تطمعوا في الخلاص عن العذاب الذي تستحقونه (ما يبدل القول لدي) الذي صدر مني في معاقبة الكافرين (وما أنا بظلام) أي بذي ظلم مثقال ذرة (للعبيد) وبه يتعلق قوله (يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟) من المعذبين وهل تحقق ما حلفت عليه بقولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك

(وتقول هل من مزيد ؟) على هذا العدد حتى تأتوا به وتجعلوه مع زملائه الداخلين • فيضع الجبار قدمه فيها ويتجلى عليها بالقبض ، فتقول : قطني قطني بعزتك •

(وأزلفت الجنة للمتقين) أي وقربت لمن اتقى الكفر والمعاصي (غير بعيد) أي حالكونها في مكان غير بعيد منهم • وقيل لهم من جانب الله أو الملك المأمور (هذا ما توعدون لكل أواب) رجاع الى الله أي من كان بحيث كلما غفل عنه تذكر ، وكلما نسي تفكر ، وكلما عصى تاب ، وكلما ابتعد عنه آب (حفيظ) حافظ على نفسه وقواها من أن تتورط وتنغمر ولا تخلص حتى ينقهر (من خشي) مخالفة (الرحمن بالغيب) عن الرقابة المادية ، أو الرحمن الثابت المتلبس بالغيب عنه فاتقى شهوات نفسه وهواها ، وأرجعها عن غيها الى هداها (وجاء) الى ربه المجيب (بقلب منيب) فيه قوة نورية ربانية يرجع قواه الى مولاه فيقال لهم (أدخلوها) أي تلك الجنة المهيأة متلبسين (بسلام) من المكاره والمخطورات، أو سلام من انتهاء زمان الراحة (ذلك يوم الخلود• لهم ما يشاؤن) مما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين (فيها ، ولدينا مزيد) على ذلك من لقاء الباري ورضوانه وتجليات الرحمة وغفرانه • فعن علي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قولـه تعالى ولدينـا مزيد قال : يتجلى لهـم الرب عز وجلّ •

(وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً ؟ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ : هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ؟(٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّماواتِ وَالأَرْضَ وما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وما مَسَّنا مِن لُغُوبٍ(٣٨) فاصْبِرْ عَلى مَايَقُولُونَ ،

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ(٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ(٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ)(٤٥)

قوله تعالى (وكم أهلكنا قبلهم) أي كثيرا أهلكنا قبل قومك (من قرن) أي من أهل قرن مقترنين في قرن واحد ومعاصرين في عصر واحد (هم أشد منهم) أي من قومك (بطشا) أي قوة وعدة وعددا (فنقبوا في البلاد) أي فساروا في الارض للاستيلاء عليها ، أو نقبوا في البلاد عند خوف الهلاك والفساد فانه روي عن الراغب أن معنى نقبوا هربوا بلغة أهل اليمن قائلين (هل من محيص) أي من منجى ومخلص لنا ينجينا من الموت ؟ وذلك القول اما بلسان الحال أو بلسان المقال عند بوادر نزول العذاب عليهم فخافوا وطلبوا الخلاص من العذاب ولم يجدوا ما يريدون (ان في ذلك) أي في اهلاك القرون المتمردة (لذكرى لمن كان له قلب) عاقل عالم واع راع للحقائق المعلومة فيجعلها أدلة قاطعة لأخذ النتائج التي يسعد بها المكلف في الدارين (أو ألقى السمع) وأصغى لما يتلى عليه من المواعظ والارشاد (وهو شهيد) حاضر أي متفطن يستفيد مما ألقي اليه .

(ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) أي تعب وإنا قادرون على كل إيجاب وسلب (فاصبر على ما يقولون)

أي المشركون في الله وفي شخصك ورسالتك ودينك وفي الكتاب النــازل عليك وفي البعث والنشور (وسبح بحمد ربك) أي ونزه ذاته عما لا يليق به واحمده على نعمه (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) أو المــراد صل صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر (ومن الليل فسبحه) تسبيحا لائقا بك تؤديه لربك ، أو صل في بعض أوقات الليل أي صلاة المغرب والعشاء ، أو صلاة التهجد التي تعرف بصلاة الليل أيضا (و) صل (أدبار السجود) أي في ما بعد الصلاة المفروضة ما شرع من الرواتب والسنن (واستمع) ما يسمع من أهوال الساعة وزلزال العالم أو صوت صور اسرافيل (يوم ينادي المنادي) كل ميت مكلف (من مكان قريب) هو صخرة بيت المقدس ، أو من مكان يعتبره المنادي قريبا منه لقوته (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلــك يــوم الخروج) فان كان صوت النفخة فهو قريب من الخروج ، والا فهو يــوم الخروج نفسه (انا نحن نحيي) الاموات في الآخرة (ونميت) الاحياء في الدنيا (والينا المصير) أي الرجوع لا الى غيرنا (يوم تشقق الارض عنهم سراعا) مصدر وقع حالا عن ضمير عنهم أي مسرعين في الخروج (ذلك) العمل أو ذلك اليوم (حشر) أي يوم حشر للناس وجمعهم في صعيد واحد للمحاسبة وهو (علينا يسير) سهل لانه بأمر الاله القدير (نحن أعلم بما يقولون) في الله وفي كتاب الله ورسول الله وأتباعه المجاهدين في سبيل الله ، وفي بعــث أنفسهم وسوقهم الى الله (وما أنت عليهم بجبار) بمسيطر تجبرهــم علــى ما تريده (فذكر) وأرشد (بالقرآن) وآياته البينات (من يخاف وعيد) فانهم هم المنتفعون به • نفعنا الله به في الدنيا والآخرة يوم تكون وجوه ناضرة الى ربها ناظرة •

الجزء السابع والعشرون

سورة الذاريات مكية ، وآياتها ستون ،

نزلت بعد الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً(١) فَالْحَامِلاتِ وِقْراً(٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً(٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً(٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ(٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ(٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ(٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ(٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ(٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ(١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ(١١) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟(١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ(١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هذا الذي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)(١٤)

قوله تعالى (والذاريات ذروا) أقسم الله تعالى بالرياح التي تذرو التراب وغيره (فالحاملات وقرا) أي السحب الحاملات للأحمال الثقيلة من الامطار وغيرها • (فالجاريات يسرا) أي السفن الجارية على سطح البحار بسهولة (فالمقسمات أمرا) أي الملائكة الذين يقسمون الامور بين الخلائق على ما أمروا به • والقسم في الحقيقة بالله الذي خلق هذه الاشياء ، فان الله هو مصدر القوة والقدرة والعمل العظيم • والمقسم عليه جملة (انما توعدون

لصادق) أي ان ما توعدون من البعث بعد الموت والحشر والميزان ومحاسبة الاعمال ، ثم السوق الى الجنة أو النار لصادق مطابق للواقع (وان الدين) أي جزاء الاعمال (لواقع) لا شك فيه (والسماء ذات الحبك) أي ذات الطرق المتعددة والمدارات المختلفة لحركات السيارات ، وهي جمع حبيكة كطرق جمع طريقة ، (إنكم لفي قول مختلف) أي متخالف متناقض في أمر الله تعالى ، فتقولون ان الله خالق السماوات والارض ، وله قدرة لا تغالب ، ثم تعبدون الاصنام الجامدة الهامدة التي ليس فيها شيىء من النفع والضر ، وتقولون انه خلق العالم ، ثم تشركون به ماليس فيه طاقة من القوة لا في خلق السماوات ولا في خلق الارض . أو ان كلامكم في شأن الرسول والكلام المنزل عليه كذلك ، فمرة تقولون ان الرسول كاهن ، ومرة مجنون ، وهما لا يجتمعان ، فان المجنون ليس له نظام في أعماله ، والكاهن مرتاض له معرفة كاملة ، وكذلك في شأن القرآن الكريم فمرة يقال : انه شعر ، ومرة انه أساطير الاولين الى غير ذلك من الاقوال المتعارضة . وقوله (يؤفك عنه من أفك) أي يصرف عن الايمان بما كلفوا الايمان به من يؤفك من ضعفاء العقول .

ولما كانت تلك الاقوال ناشئة عن الخرص والتخمين الوهمي ، وكانت غير معقولة ولا مقبولة قال : (قتل الخراصون) أي الخمانون أي المتكلمون بالظنون والاوهام الزائفة الزائغة (الذين هم في غمرة) أي في بحيرة عظيمة من الجهل تغمرهم وتسترهم (ساهون) غافلون عن الله وأداء ما أوجبه على العاقل من التفكر في الحقائق بانظار دقائق يسألون على وجه الاستهزاء والاستعجال : (أيان يوم الدين ؟) أي يوم القيامة التي ينال فيه كل إنسان جزاء ما اعتقده وعمله خيرا أو شرا (يوم هم على النار يفتنون) أي يقع يوم هم يحرقون على النار كاللحم المبسوط على النار للشيىء (ذوقوا فتنتكم)

أي مقولا لهم ذوقوا عذابكم المعد لكم (هـذا الذي كنتم به تستعجلون) في الدنيا بطريق الاستهزاء •

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟(٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)(٢٣)

قوله تعالى (ان المتقين) لما ذكر الباري تعالى حال الكافرين في مآلهم ، شرع في حال المؤمنين المتقين فقال (ان المتقين في جنات وعيون) لا يعلم كنه بهجتها ونضارتها والتذاد النفس بها (آخذين ما آتيهم ربهم) أي قابلين لكل ما أعطاهم الله بالارتياح والسرور (انهم كانوا قبل ذلك) أي في الدنيا (محسنين) لأعمالهم الصالحة (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) الهجوع النوم، وما زائدة ، أي كانوا قليلا من الليل يهجعون (وبالأسحار هم يستغفرون) أي أنهم مع قلة منامهم بالليل وحقهم أن يناموا بالاسحار يستمرون بعد صلاة الصبح على الاستغفار ، أي اعتبروا أنفسهم معطلين بالليل فيستغفرون بالاسحار لغفلة الليالي ، وذلك نصيبهم المعنوي من الحسنات • وأما نصيبهم المادي فهو ما بينه الباري بقوله (وفي أموالهم حق) أي يلزمون أنفسهم نصيبا (للسائل والمحروم) أي المتعفف عن السؤال من الذين يظن بهم الغني من التعفف •

(وفي الأرض آيات) أي دلائل من أنواع ما أودعه الله فيها من المعادن والنبات والحيوان (للموقنين) الذين سلكوا الطريق البرهاني الموصل الى الايمان بالله وبالرسل وسائر ما يجب الايمان به (وفي أنفسكم) أي وفي أنفسكم آيات للمستدلين بها وبأحوالها على وجود رب واحد قادر مختار (أفلا تبصرون ؟) تلك الادلة (وفي السماء رزقكم) أي تعيينه وتقديره أو أسباب رزقكم من المطر والثلج والبرد والمن وغيرها يتنزل ويستفاد منه (وما توعدون) أي من الجنة والنار (فورب السماء والارض انه لحق) أي ان ما توعدون لحق (مثل ما أنكم تنطقون) كما أنه لا شك منكم في نطقكم وتحريك ألسنتكم أو في منطوقكم أي ما تتلفظون به .

(هَلْ أَتيكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبْرَاهِيم المُكْرَمِين ؟(٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلاماً ، قالَ : سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ(٢٥) فَرَاغَ إلى أهلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ(٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قالَ : أَلا تَأْكُلُونَ ؟(٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قالُوا : لا تَخَفْ وبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ(٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ، فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ !(٢٩) قالُوا : كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ ، إنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ(٣٠) قالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أيُّهَا المُرْسَلُونَ ؟(٣١) قالُوا : إنَّا أُرْسِلْنا إلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ(٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ(٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كانَ فِيهَا مِنَ المُؤْمِنينَ(٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِين !(٣٦) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ العَذابَ الأَلِيمَ)(٣٧)

قوله تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ؟) فيه تفخيم لشأن جده ابراهيم ـ عليهما السلام ـ ، وتوجيه له الى وجوب الاقتداء به في تحمله الاذى من أجل تحقيق الهدف الاعلى وهو نشر توحيد رب العالمين ، كما فيه تسلية له من حيث أن البشر مخلوق في كبد وفي محنة ، ولاسيما العقلاء العلماء ، ومنهم الرسل والانبياء فانهم يجب عليهم الصبر والتحمل للاذى من أي جهة كان بحكاية ضيف ابراهيم فيقول : هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين أي عند الله عز وجل ، وعنده (اذ دخلوا عليه) أي حديث زمان دخولهم عليه ، ولما دخلوا عليه (قالوا : سلاما) أي نسلم عليك سلاما (قال : سلام) أي وعليكم سلام • وقوله (قوم منكرون) اي وهم قوم منكرون غير معروفين حيث لم ير قوما مثلهم في الهيئة والزي والنظافة والادب (فراغ الى أهله) أي فذهب ابراهيم على خفية من ضيفه الى أهله لتهيئة طعام لهم يأكلونه ، والروغ الذهاب بخفية (فجاء بعجل حنيذ) أي سمين ، وفي الكلام ايجاز ، أي راغ الى اهله وذبح عجلا وشواه (فقربه اليهم) فتوقفوا عن الاكل (فقال) مستفسرا : (ألا تأكلون ؟) من هذا اللحم الطري السمين المشوي ؟ فاعتذروا عن الاكل (فأوجس) سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ـ (منهم خيفة) أي أضمر في نفسه خوفا منهم ، لانه كان وما يزال للطعام والاطعام احترام وذمام ، والامتناع عنه موحش موجب لظن قصد السوء منهم ، وقال بعض المفسرين رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ان ابراهيم ـ عليه السلام ـ علم بعد اعتذارهم أنهم ملائكة مأمورون بالعذاب ، فخاف (قالوا : لا تخف) منا انا رسل الله أرسلنا لشغل معين •

(وبشروه بغلام عليم) مهيىء للعلم وكرامة النبوة والرسالة (وأقبلت امرأته) سارة لما سمعت ببشارتهم (في صرة) أي صيحة على عادة النساء اذا

أدركن شيئا عجيبا (فصكت وجهها) أي ضربت بيدها على وجهها (وقالت) : أنا (عجوز عقيم) أي عاقر فكيف ألد ؟ (قالوا : كذلك قال ربك) أي مثل ذلك القول الذي بشرناك به قال ربك ، وانما نحن معبرون نذكر ما أمر به ربك (إنه هو الحكيم العليم) .

وبعد أن هدأت أعصاب أهل البيت (قال) ابراهيم ـ عليه السلام ـ بعد علمه بأنهم ملائكة : (فما خطبكم) أي شأنكم الخطير الذي تريدون تنفيذه (أيها المرسلون) أيها الملائكة المأمورون ؟ (قالوا : انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يريدون قوم لوط ـ عليه السلام ـ (لنرسل عليهم) بعد قلب بلادهم (حجارة من طين) أي طين متحجر (مسومة) أي معلمة معينة (عند ربك للمسرفين) أي للمجرمين المتجاوزين عن الحدود مطلقا ، أولهم بالذات على كون اللام للعهد (فأخرجنا من كان فيها) فيقول الباري فأخرجنا من كان فيها أي قرى قوم لوط (من المؤمنين) من الذين آمنوا بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) والمراد بهذا البيت بيت لوط ـ عليه السلام ـ وابنتيه (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) أي فقلبنا القرى كلها وأمطرنا عليها من تلك الحجارة ، وتركنا في ذلك المكان آية وعلامة على العذاب الوارد عليهم للذين يؤمنون بالله ويخافون العذاب الاليم الوارد منه تعالى .

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ !(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ(٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ(٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ(٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ

قِيلَ لَهُمْ : تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ(٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ(٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ ، وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ(٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)(٤٦)

قوله تعالى (وفي موسى) خبر لمبتدأ محذوف ، أي وفي موسى آية (إذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين) أي بمعجزات غالبة على ما يقابله مادة أو معنى (فتولى) فرعون (بركنه) أي أعرض بما عنده من قوة اعتبرها ركنا لكيانه (وقال) لقومه في رد ما أظهره موسى ـ عليه السلام ـ من المعجزات : إنه (ساحر) أي عاقل لكنه عالم بالسحر وقلب عصاه حية ، ويده مضيئة ، وغيرما أظهره بواسطة ذلك ، وليس لها بقاء تأتي وتذهب (أو مجنون) أي يظهر ما يظهر عنده من الجن والشياطين المستولين على عقله وشعوره . والحاصل أن ما عنده مطلقا سحر يأتي به شخصه وهو عاقل ، أو يأتي به قرناؤه الشياطين وهو لا اختيار له فيه (فأخذناه وجنوده) أي فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلا وألقيت في روع فرعون جمع جنوده فجمعهم وعقب موسى ومن معه (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) وأغرقناهم (وهو) أي فرعون (مليم) أي آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والاستمرار فيهما . أو صيغة مليم من صيغ النسب كلابن وتامر ، أي هو ذو لوم يلام ، فافهم .

(وفي عاد) آية أخرى (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) التي لا تأتي بخير ولا تلقح شيئا (ما تذر) أي ما تترك من شيىء (أتت عليه الا جعلته كالرميم) أي الشيىء البالي من العظم أو النبات .

(وفي ثمود) آية أخرى (إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) أي قيل لهم من طرف صالح ـ عليه السلام ـ اذ أوحى اليه بقرب العذاب تمتعوا في

داركم ثلاثة أيام ، والظاهر أن القول كان سابقا على ذلك ، فقال لهم صالح : ان الله بعثني اليكم بشيرا ونذيرا فآمنوا بالله ورسوله ، وتمتعوا في دياركم آمنين متمتعين حتى حين تأتيكم الآجال المقررة ، فطلبوا منه المعجزة ناقة كذا وكذا ، فمضت مدة على القوم مع صالح والناقة موجودة (فعتوا عن أمر ربهم) فعقروها وأتى أمر الله فأهلك القوم ودمر البلاد كما قال تعالى (فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام) من أماكنهم ، أو ما استطاعوا قياماً على دفع ورفع وحركة وسكون (وما كانوا منتصرين) بل صاروا مقهورين منكسرين •

(وقوم نوح من قبل) أي واذكر قوم نوح ، أو وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء الهالكين (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن اطاعة رب العالمين•

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ(٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠) وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥١) كَذلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا : سَاحِرٌ ، أَوْ مَجْنُونٌ(٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ(٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ، فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ(٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ(٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ(٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ(٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ

أَصْحابِهِمْ ، فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمِ الَّذِي يُوعَدُونَ)(٦٠)

قوله تعالى (والسماء بنيناها) شروع في تذكير الكافرين المشركين ببيان أن ما اختص به تعالى من خلق الكائنات العظيمة لا يقدر عليه غيره ؛ والكلام من باب الاشتغال ، أي وبنينا السماء بنيناها (بأَيْدٍ) أي بقوة ، والأيد والآد ثلاثيان أجوفان بمعنى القوة لا جمع يد ، لأنها لفيف مفروق ؛ والاصل يَدَيٌ وهذان معتلا العين (وإنا لموسعون) أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة (والارض فرشناها) أي وفرشنا الارض فرشناها أي مهدناها وبسطناها ، ولا تمنع كرويتها عن البسط ، كما لا تمنع عن وجود الجبال العاليات ، لان الكرة الكبيرة كل قطعة منها كسطح ، والجبال بالنسبة اليها كشعرات تنبت على رأس الانسان المعتدل أول يوم من حلقها (فنعم الماهدون) أي الفارشون نحن (ومن كل شيىء) أي من كل نوع من الحيوان (خلقنا زوجين) أي مزاوجين أحدهما ذكر والآخر أنثى لحفظه (لعلكم تذكرون) فتعلموا أن الله قادر لا يعجزه شيء • (ففروا الى الله) وتوجهوا الى باب طاعته والعمل بشريعته (إني لكم منه نذير مبين) أي مفيد لبيان الحق وعذاب من خالفه •

(ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين • كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون • أتواصوا به ؟) أي أأوصى بعضهم بعضا بهذا القول (بل هم قوم طاغون) فيؤثر مجاورة بعضهم لبعض في تنمية هذا الطغيان (فَتَوَلَّ عنهم) وأعرض بعد أن صرفت قواك في ارشادهم وما أفاد (فما أنت بملوم) منا على الاعراض عنهم (وذكر) من تظن النفع في تذكيره (فان الذكرى تنفع المؤمنين) فان محصول المأمول عبادتهم لربهم (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) أي ما خلقتهم الا

لمحبة أن يعبدون ، فان الكامل المطلق غني مطلق عن جميع ما سواه ومن سواه ، فليس الخلق للافتقار الى العبادة ولا لإرادتها منهم لانه لو شاءها منهم لكانت • فمن المشهور : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولم يكن الخلق لتلك الغاية حتى يصير الخلق عبثا غير مثمر لها ، وانما خلقهما لمحبة العبادة ، فان صاحب الكبرياء المطلقة تناسبه العبودية والتذلل المطلق ؛ فمن أتى بما أحبه الله آتاه من فضله ما أحبه في دنياه وأخراه ، وليس الباري مريدا لآثار أعمال مادية تعود اليه ، فانه يقول (ما أريد منهم من رزق) لي (وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) •

ولما كانت العبادة موقوفة على المعرفة أوجب الله على عباده العلم والمعرفة ، ورغب فيها وأمر حبيبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعلم فقال : فاعلم أنه لا إله الا الله ، لان العلم أساس العمل وهما ثمرة شجرة الوجود ، وهذا مناسب للمشهور بين الناس من الحديث القدسي « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف » فلام ليعبدون داخلة على المحبوب في المنتهى ، ولام ليعرفون على المحبوب في المبتدأ ، ولما كان المحبوب المعرفة والعلم للعبادة فلا تحزن بمن ظلم نفسه ولم يأت بما يناسب قدسه (فإن للذين ظلموا ذنوبا) أي نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) أي أمثالهم من الامم السالفة المخالفة للدين (فلا يستعجلون) حلول ذلك (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون) أعاذنا الله تعالى منه •

سورة الطور ، مكية ، وهي تسع واربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطُّورِ(١) وكِتَابٍ مَسْطُورٍ(٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ(٣) والبَيْتِ المَعْمُورِ(٤) والسَّقْفِ المَرْفُوعِ(٥) والبَحْرِ المَسْجُورِ(٦) إنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ(٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ(٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً(٩) وتَسِيرُ الجِبَالُ سَيْراً(١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ(١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ(١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دعّاً(١٣) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ(١٤) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ؟(١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إنَّمَا تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(١٦)

قوله تعالى (والطور) وهو في اللغة اسم لكل جبل • والمراد به هنا طور سينين الذي كلم الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ عنده • ويقال له طور سيناء (وكتاب مسطور) فسر بكتاب الاعمال ، وباللوح المحفوظ ،

وبالتوراة والانجيل ، وبالقرآن المنزل على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ • والكل هنا محتمل لكن يؤيد ارادة القرآن الكريم قوله تعالى (في رق منشور) والرق جلد رقيق يكتب ، وقد كتب القرآن الكريم في الجلد في زمن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ حين جمع القرآن • وفي زمن عثمان ـ رضي الله عنه ـ في الجمع الثاني • (والبيت المعمور) يحتمل أن يكون المراد بيت المعمور الذي في السماء السابعة يجتمع فيه من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله ، أو بيت الكعبة الشريفة يطوف به الإنس والجن بحسب ما يعلمه العليم الخبير أو بيت المقدس • ويحتمل ان يراد به اى مسجد يذكر فيه الله تعالى أو أي بيت من بيوت المسلمين يعمر بذكر الله فإن الله يحب الذكر ومجالسه سواء كانت المساجد الثلاثة أو غيرها (والسقف المرفوع) أي السماء كما رواه جماعة وصححه الحاكم عن علي ـ كرم الله وجهه ـ (والبحر المسجور) أي المتلىء أو المُدفأ بالفوران ، فالبحر المسجور عبارة عن المحيط الفائر عند زلزلة الساعة • وهذه الاشياء مقسوم بها والمقسوم عليه قوله (ان عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع) أي ان عذاب الله الوارد في الآيات الكثيرة بالنسبة الى المستحقين للعذاب في الآخرة لواقع لا شك ولا شبهة فيه ، وان الدين أي جزاء الاعمال من الامور التي قضى الله تعالى به وسيتحقق و (ما له من دافع) يعارضه ويدفعه لانه جرت المشيئة وما شاء الله كان ويقع •

(يوم تمور السماء مورا) أي تضطرب اضطرابا أي ترتج وتشقق (وتسير الجبال سيرا) عن وجه الارض بعد انقلاعها عن أمكنتها فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) بالبعث والنشور وجزاء الاعمال (الذين هم في خوض) أي في اندفاع زائد في الهوى (يلعبون) ويطربون (يوم يدعون) أي يدفعون دفعا شديدا (الى نار جهنم دعا) أي دفعا ، ويقال لهم : (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) وتدعون أنها لا تأتي أبد الآبدين (أفسحر

هذا) الذي ترونه أيضا كالقرآن الذي كان يخبر به (أم أنتم لا تبصرون) أم أنتم عمْي" عن المخبر كما كنتم في الدنيا (اصلوها) أي ادخلوها (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) هذان الأمران (انما تجزون ما كنتم تعملون) .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ)(٢٩)

قوله تعالى (إن المتقين) شروع في بيان حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين فيقول : إن المتقين الذين احترزوا عن موجبات سخطه تعالى واكتسبوا أسباب مرضاته فهم (في جنات) عظيمة (ونعيم) عميم (فاكهين بما آتاهم) أي متنعمين ومتلذذين بما آتاهم (ربهم) من المشتهيات والمستلذات

(ووقيهم ربهم عذاب الجحيم) العذاب الذي كانوا يستحقونه على تقديـر تبديل التقوى بالفسوق ، فان لكل انسان منزلين ؛ منزلا في الجنة ، ومنزلا في النار ، فاذا دخل الجنة قيل له : وقاك الله من منزلك في النار ، واذا دخـل النار قيل له : لو اتقيت الله لوصلت الى ذلك المنزل المبارك الميمون في الجنة • فيقال لهم : (كلوا واشربوا هنيئا) أي كلوا أطعمة الجنة واشربوا مشروباتها من اللبن و العسل والماء الصافي الغير المتغير أكلا وشربا هنيئا (بما كنتـم تعملون) في الدنيـا • هذا من باب الاكل والشرب وأما من باب المسـكن والمقام فأفاده بهذا الوصف الواقع من ضمير الجمع السابق أعني (متكئين على سرر مصفوفة) وأما الأليف فأفاده بقوله الكريم (وزوجناهم بحور عين) أي وقرناهم بحور عين ولذلك عدى بالباء ، والا فالتزويج متعد الى مفعولين بالـذات •

ولما ذكر حال المتقين في أنفسهم ذكر أحوالهم بالنسبة الى أولادهـم وقال : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان) قاصر عن درجة ايمان الآباء (ألحقنا بهم ذريتهم) في الدرجة اكراما لآبائهم • أخرج سعيد بن منصـور ، وهناد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكـم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجتـه في الجنة وان كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه • ثم قرأ الآية • وفي روايه ابن مردويه والطبراني عنه أنه قال : إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (اذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له : انهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول يا ربي قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم به) وقرأ ابن عباس الآية (وما ألتناهم) أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق (من عملهم) أي من ثواب عملهم (من شيىء) أي شيئا بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم ، وانما رفعناهم الى منزلتهم بمحض الفضل

والإحسان . وقوله تعالى (كل امرىء بما كسب رهين) قال الواحدي : هذا عود الى ذكر أهل النار فانهم مرتهنون في النار ، وأما المؤمن فلا يكون مرتهنا قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين) وهو قول مجاهد وقال الزمخشري : كل امرىء بما كسب رهين عام ، فكل أحد مرهون عند الله بالكسب ، فان كسب خيرا فكّ رقبته والا أوبق بالرهن .

والذي أعتقده أن المقصود من جملة كل امرىء بما كسب رهين أن الإنسان كائنا من كان مربوط بعمله لا بعمل شخص آخر ، وهذا الإلحاق ليس من باب المكسوبات بل من باب الموهوبات ، فيكون جملة كل امرىء بما كسب رهين في معنى الغاية لما تقدم ، يعني أنه وان كان الانسان مرهونا بكسبه لكنا ننظر الى الأبناء بغير النظر ، فان كانوا مؤمنين ألحقناهم برباط الآباء .

(وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي وزدناهم بما كان من مبادىء النعم وقتا فوقتا مما يشتهون (يتنازعون فيها كأسا) أي يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة (لا لغو فيها) أي في شربها (ولا تأثيم) أي ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله (ويطوف عليهم غلمان) لهم أي مماليك مختصون بهم (كأنهم لؤلؤ مكنون) أي مستور في كن مصون عن الأيدي يعني لم يتوسخ صفاؤه بمس أيدي الجفاء (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) بينهم يسأل بعضهم بعضا على وجه التحدث بالنعمة واظهار السرور والشكر عليه (انا كنا قبل) أي قبل الموت (في أهلنا مشفقين) أي خائفين من العاقبة لزوال العافية (فمنّ الله علينا) بالرحمة والإحسان (ووقانا عذاب السموم) أي عذاب النار الداخل في مسام الشعرات (إنا كنا من قبل ندعوه) نعبده ونسأله العافية في هذا اليوم (إنه هو البر الرحيم) أي المحسن الكثير الرحمة . وهذا الذي أوحيناه اليك حال الفريقين وبينهما

بعد" لا يناسب بُعدَ المشرقين (فذكر) المؤمنين برحمة الله وعذابه وبعقابه وثوابه ، ولا تهتم بنعرات السفهاء وأكاذيبهم (فما أنت بـ) سبب وصول (نعمة ربك) اليك والقاء أعباء الرسالة عليك (بكاهن) بائن عن الحق والحقيقة وآخذٍ مع الشياطين أسوأَ طريقةٍ (ولا) بشخص مختل العقل (مجنون) فانك معصوم بعون الله ومصون (وإن لك لأجرا غير ممنون) .

(أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ؟(٣٠) قُلْ : تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ(٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا ؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ(٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ؟ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ(٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ(٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ؟(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ ؟ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ؟(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ(٣٨) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ؟(٣٩) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً ؟ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ(٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً ؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ(٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ ؟ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ !(٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا : سَحابٌ مَرْكُومٌ(٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ(٤٦)

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ)(٤٩)

قوله تعالى (أم يقولون شاعر) أم منقطعة أي بل أيقولون هذا الرجل شاعر وليس برسول من الله ، ونتوقف وننتظر عروض نوائب الدهر عليه حتى يتوفى ، والريب القلق والعارض الذي يقلق الإنسان ، والمنون : قد يراد به الدهر ، وقد يراد به الموت . والمآل هو أنهم ينتظرون انقراض عهده وفوات رسالته ، ولم يعلموا أنه رسول الله المؤيد وكتابه كلام الله ، ولا مناسبة بينه وبين الشعر الذي مخلوط من أشكال من المشتهيات ، والمبالغات ، والاكاذيب المفتعلة ، وهذا الكتاب الذي يمنع الانسان عن كل ذلك ويوجهه الى الله الحي القيوم .

(قل تربصوا فإني معكم من المتربصين) أي انتظروا كما تريدون فإني من المنتظرين أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أي أتأمرهم عقولهم الزائفة بهذا التناقض والتخالف من الكلام ؟ فمرة يقولون هو كاهن ومايقوله كهانة ، ومرة يقولون هو ساحر وكلامه سحر ، ومرة أخرى يقولون هو شاعر وكلامه شعر ، ولا ينظرون الى اختلاف أصناف الناس المختلفة الآداب من الكهنة والسحرة والشعراء (أم هم قوم طاغون ؟) متجاوزون في الحدود فيتكلمون بما يشتهون ، ولا ينظرون الى الحق ولا ينتبهون (أم يقولون تقوله ؟) أي هذا الكتاب كلام افتراه على الله تعالى (بل لا يؤمنون) بالحق فاختلت عقولهم واحتاروا (فليأتوا بحديث

مثله) أي مثل القرآن (ان كانوا صادقين) فيما زعموا أنه كلام متقول فانه لو كان كذلك لكان في استطاعتهم أن يتقولوا أيضا كلاما كذلك .

(أم خلقوا) وتكونوا في الدنيا (من غير شيىء ؟) أي من غير خالق مؤثر (أم هم الخالقون ؟) لأنفسهم وكل ذينك باطل فان الأثر لا يكون بدون مؤثر ، والمؤثر لا يكون شخصا قادرا على الابداع والتكوين ، فاذا آل الأمر الى الاعتراف بأن لهم خالقا موصوفا بالكمال فكيف لا يطيعونه ولا ينقادون لدينه وشرعه ؟ (أم خلقوا السماوات والارض ؟) بما فيهما (بل لا يوقنون) أي لا يوقنون حقيقة الجواب ، لانهم اذا قالوا الله الذي خلق السماوات والارض وخلق ما فيهما وما عليهما من المعادن والنبات والحيوان وعلموا بحقيقة جوابهم ما كانوا ينحرفون عن الحق والصواب .

(أم عندهم خزائن ربك ؟) حتى تكون النبوة والرسالة عندهم يعطون من يشاءون ويمنعون عمن يشاءون (أم هم المصيطرون ؟) على الأمور حتى يأمروا بما يشاءون ويمنعوا ما يشاءون عن الناس ، كل ذلك لا توجد عندهم وانما هم أناس ضعفاء تحت قبضة القدرة ، فإذا شاء توفاهم في طرفة عين لكنه أمهلهم فصار لهم طغيان وتحكم على ماليس من شأنهم واستطاعتهم (أم لهم سلم) يصعدون عليه الى السماء (فيستمعون فيه ؟) كلام الملائكة أو غيرهم ممن يوثق بكلامه (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) على أنه استمع شيئا يعتمد عليه (أم له البنات ولكم البنون ؟) وحاشا خلاق العالم واجب الوجود عن التناسب مع الممكن الموجود .

(أم تسئلهم أجرا) على تبليغ الدين اليهم (فهم من مغرم مثقلون) أي فهم مثقلون ذمة وأكتافا ولا يتحملون تلك الغرامة ولذلك تنفروا عنك وعن قبول دينك (أم عندهم الغيب) أي المقدر المكتوب في اللوح المحفوظ الذي

هو غيب وغائب عن الناس (فهم يكتبون) منه ويخبرون به الناس (أم يريدون كيدا ؟) بك وبشرعك حتى تموت ولا تروج شريعتك (فالذين كفروا هم المكيدون) يعني أنهم سفهاء خفاف العقول يتصورون أنهم الكائدون على الرسول ودينه ويعارضونهما ولا يعرفون أنهم المكيدون المغلوبون (أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون ! وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) أي وان يروا قطعة من السحاب ساقطة لتعذيبهم (يقولوا سحاب مركوم) أي متراكم ملقى بعضه على بعض (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) أي حتى يلاقوا ذلك اليوم الذي يغمى عليهم من صيحة النفخ (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) من جهة الغير اذ لا غير يريد بهم الخير .

(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) العذاب من الجدب والقحط والغلاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن أمامهم أشياء لا يعرفونها (واصبر لحكم ربك) بإمهالهم فانه لا يجتمع مع الاهمال (فإنك بأعيننا) وتحت نظر عصمتنا وصيانتنا وعنايتنا ورعايتنا (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من كل مجلس ، وقل : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله الا أنت ، أستغفرك وأتوب اليك . أو قل عندما تقوم الى الصلاة ودخلت فيها : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا اله غيرك . أو عندما تقوم من القيلولة صل صلاة الظهر (ومن الليل فسبحه) وفي بعض أوقات الليل سبح واحمد ربك ، أو صل الصلاة المكتوبة للوفاء بالواجب يعني صلاة المغرب وصلاة العشاء (وادبار النجوم) أي وسبح بحمد ربك عند ادبار النجوم وميلها الى الغروب والغياب . أو صل ركعتي الفجر عند ذلك . وفسره بعض بصلاة النوافل بالليل . والله نسأل أن يجعلنا في الدنيا من المسبحين ، وفي الآخرة من المستريحين .

سورة النجم ، مكية ، وهي اثنتان وستون آية ،
نزلت بعد سورة الاخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى(١) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وما غَوَى(٢) وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) اِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى(٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى(٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى(٨) فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى(٩) فَأَوْحى إلى عَبْدِهِ ما أَوْحى(١٠) ما كَذَبَ الفُؤَادُ ما رَأى(١١) أَفَتُمَارُونَهُ على ما يَرى ؟(١٢) وَلَقَدْ رآه نَزْلَةً أُخْرى(١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهى(١٤) عِنْدَها جَنَّةُ المَأْوى(١٥) اِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى(١٦) ما زَاغَ الْبَصَرُ وما طَغَى(١٧) لقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى)(١٨)

قوله (والنجم اذا هوى) أقسم الباري سبحانه وتعالى بالنجم ، والمراد به جنس النجم المعروف ، وبهويه غروبه • أي اذا سقط الى الافق الغربي • وقال الحسن المراد النجوم اذا انتثرت في الفضاء في القيامة • وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما : المراد به النجوم اذا رجمت الشياطين • وقيل

المراد به : الثريا ، فإن النجم صار علما بالغلبة لها • وقيل : هو الشعرى المرادة بقوله تعالى (وأنه هو رب الشعرى) والكهان كانوا يتكلمون عن المغيبات عند طلوعها ، وقيل : الزهرة وكانت تعبد • وقيل المراد : المقدار النازل من القرآن ، والهوى نزوله • وعلى كل حال فالمقسم عليه قوله (ما ضل صاحبكم وما غوى) أي أنه ما تجاوز عن طريق الحق الذي هو الدعوة الى الله والميل الى الآخرة وما اعتقد باطلا قط ، فإن الغي هو الجهل بالواقع باعتقاد فاسد •

(وما ينطق) أي صاحبكم الذي هو الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (عن الهوى) أي نطقا ناشئا عن هوى النفس بدون الايحاء من جانب القدس ، والمراد أنه لم يصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عزوجل كالقرآن عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى) أي ما الذي ينطق به من القرآن الا وحي من الله عز وجل يوحى اليه بوحي منه تعالى (علمه شديد القوى) أي الذات الذي شديدة قواه ، ودليل قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الاساس (ذو مرة) أي ذو حصافة ومتانة في العقل (فاستوى) أي فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقها الله عليه (وهو بالافق الاعلى) أي الجهة العلياء من السماء (ثم دنا فتدلى) أي قرب جبريل ــ عليه السلام ــ منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتعلق جبريل في الهواء (فكان) أي جبريل ــ عليه السلام ــ منه ــ صلى الله عليه وسلم ــ (قاب قوسين أو أدنى) أي مقدار قوسين من قسي الاعراب أو أقل وأصله انه اذا تحالف رئيسان من العرب قعدا ووضعا قوسهما بينهما مربوطا رأس قوس هذا برأس قوس ذاك ، فاذا تم الحلف رمى كل منهما بسهم عن قوسه ، وكان ذلك شعار الناس في عقد الاحلاف • والآية كناية عن كمال القرب والاتصال بين الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجبريل ــ عليه السلام ــ •

وقوله (فأوحى) أي جبريل ـ عليه السلام (الى عبده) أي عبدالله ورسوله (ما أوحى) وابهام الموحى به للتفخيم • وقوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) أي ما كذب فؤاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رآه ببصره من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ • والمقصود أن قلبه كان على وعي ورعاية ، وبصره على رؤية واقعية ودراية ، وتوافق على ذلك وكان المدرك والمبصـر واحدا (أفتمارونه على ما يرى ؟) أي أتجادلونه ـ صلى الله عليـه وسلم ـ على ما رآه وبقيت صورة المرئي عنده لانطباعها الثابت في حسـه اللطيف • أو أتجادلونه على ما يرى من مثل ذلك ؟

(ولقد رآه) أي رأى الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريـل (نزلة أخرى) أي مرة أخرى من النزول (عند سدرة المنتهـى) أي عنـد شجرة النبق عن يمين العرش فوق السماء السابعة (عندها) أي عند السدرة (جنة المأوى) التي يأوي اليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسـن ، واستدل به على أن الجنة فوق السماء السابعة • وقـال بعض كابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة : جنة المأوى تأوى اليها أرواح الشهداء، وليست بالتي وعد المتقون • وقيل : هي جنة تأوي اليها الملائكة ، والقـول الاول أظهر • وكلمة المأوى تـعـبّرُ عن أنها مأوى أهل الجنة ولو لطبقة خاصة ، فهم كما يظهر من قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) وقوله (اذ يغشى السدرة ما يغشى) متعلـق برآه ، والمعنى اذ يغشى السدرة من الملائكة ما يغشى وراى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رآه هناك من جبريل ومن عجائب مخلوقات الله تعالى ، ومع ذلك كله (ما زاغ البصر) أي ما مال بصر رسول الله عما رآه (وما طغى) أي وما تجاوزه بل اثبته اثباتا سليما مستيقنا ، وهذا تأكيد للامر الجاري من فيض ذات الباري جل جلاله ويفيد أن ذاته العالية الثابتة لـم يعجبه ما رآه

لامتلائه بنور الحقيقة التي فوق المستوى • (لقد رأى) والله لقد رأى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من آيات ربه الكبرى) أي الآيات الكبريات التي لا يراها الا من خصه الله برحمته •

وهذا التفسير الى هنا كان مبنيا على أن الكلام في رؤية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل عليه السلام • والذي رآه المحققون المحقون المنصفون الناظرون الى سردِ العبارة ، وانتظام الضمائر ، وتقرير معنى الايحاء على الوجه المناسب ، هو ما قاله الحسن البصري ـ رضي الله تعالى عنه ـ وتبعه أناس كثيرون ، ونقله صاحبا روح البيان وروح المعاني من أن الكلام جار على ما جرى بين الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • فعن الحسن : أن شديد القوى هو الله تعالى ، وجمع القوى للتعظيم ، وذو مرة بمعنى ذي الحكمة وما يليق أن يكون وصفا لله عز وجل • وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى فاستوى وهو بالافق الأعلى على ما روى عن الحسن له سبحانه وتعالى وقال : ان ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان • ولعل الحسن يجعل الضمائر في قوله سبحانه ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى له عز وجل أيضا • وكذا الضمير المنصوب في قوله ولقد رآه نزلة أخرى ، فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى لقد رأى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه ، وفسر دنوه تعالى من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ برفع مكانته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنده وتدليه بجذبه بكليته الى جانب القدس • وهذا المعنى هو الذى يطمئن اليه قلبي وأعتقد أن هذه الآيات تنطبق على حادثة المعراج الشريف • ورؤية ذات الباري في عالم الآخرة ثابتة على ما اعتقده أهل الحق من المتكلمين ، فتكون من الممكنات الخاصة والماهية الممكنة لا تنقلب الى الممتنع فيمكن أيضا أن يرى في الدنيا • وظاهر قوله تعالى ولقد رآه نزلة

اخرى عند سدرة المنتهى يدل عليها ، ولا ضرورة الى التأويل ، وأما كيفية رؤيته له تعالى فموكول الى علم الله الجليل . وهذا هو الذي يفيده سرد ظاهر الآيات الشريفة والله أعلم .

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ؟(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟(٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ؟(٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى(٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ؟!(٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى(٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً(٢٨) فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى(٣٠) ، وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ، إِلَّا اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ

فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)(٣٢)

قوله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومنوة الثالثة الاخرى) أسماء أصنام للمشركين . فاللات ، كما قال قتادة ، لثقيف بالطائف . والعزى لغطفان ، وهي على المشهور سمرة بنخلة . روي ابن مردويه عن أبي الطفيل : لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة بعث خالد بن الوليد الى نخلة وكان بها العزي ، فأتاها خالد ، وكانت ثلاث سمرات ، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره . فقال : « ارجع فانك لم تصنع شيئا » فرجع خالد ، فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون : يا عزى ياعزى ، فأتاها فاذا امرأة عريانة ، ناشرة شعرها ، تحثو التراب على رأسها ، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع الى رسول الله فأخبره ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « تلك العزى » . ومناة قيل : كانت صخرة لهذيل وخزاعة . وعن ابن عباس لثقيف. وعن قتادة للانصار بقديد . وقال أبو عبيدة كانت بالكعبة ، واستظهر أبو حيان أنها كانت ثلاثتها فيها . قال : لأن المخاطب في قوله (أفرايتم) قريش ، والاخرى صفة ذم كأنه قال سبحانه وتعالى ومناة الثالثة الذليلة . وذلك لان اللات على صورة آدمي ، والعزى صورة نبات ، ومناة صورة صخرة فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجماد ، فالجماد متأخر ، ومناة جماد فهي في أخريات المراتب .

(ألكم الذكر وله الانثى ؟) مع أنكم في مستوى الحيوانات من الادراك وتعبدون الشجر والحجر والنبات (تلك) القسمة التي أقررتموها (إذا) وأنتم في ذلك المستوى (قسمة ضيزى) جائرة غير عادلة ، حيث اعتبرتم له سبحانه ماتستنكفون عنه . وضيزى بكسر الضاد صفة مشبهة من ضاز

يضيز اذا جار وظلم • وأصله ضُيْزى بضم الضاد لان الوصف لم يستعمل الا بالضم ، فكسرنا الضاد حتى تسلم الياء ، والا كانت تقلب واوا لسكونها وضم ما قبلها فالتبست بالواوي • ويجوز أن تكون الكسرة أصلية على أنها مصدر كذكرى ، ولكن نحتاج الى تقدير المضاف يعني قسمة ذات ضيزى أي ذات جور • (ان هي) أي ما هي (إلا أسماء) وألفاظ تستعمل فيمقابل جمادات ليس فيها معنى الشعور والعقل فضلا عن معنى الالوهية (سميتموها) صفة الاسماء وضميرها لها لا للاصنام • والمعنى جعلتموها أسماء ، فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست الى الاسم فمعناها جعلها اسما للمسمى ، واذا قيست الى المسمى فمعناها جعلها مسمى للاسم ، وانما اخترهنا المعنى الاول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الاصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعا كما في قوله سبحانه (ما تعبدون من دونه الا اسماء) وقوله (أنتم) تأكيد لضمير الجمع المرفوع (وآباؤكم) معطوف عليه بعد التأكيد (ما أنزل الله بها) أي بتلك الاسماء (من سلطان) أي برهان يستدلون به (إن يتبعون) أي أولئك المشركون الواضعون لتلك الاسماء (الا الظن) أي الا توهما بأن ما هم عليه حق توهما باطلا (وما تهوى الانفس) عطف على الظن أي وما يتبعون الا ما تهوى الانفس الأمارة بالسوء (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أي الدليل الحق على أن ما جاءوا به واتبعوه باطل عاطل •

(أم للانسان ما تمنى) أي أبل للانسان ما تمنى واشتهى من وجود آلهة مزيفة تقربهم الى الله الحق زلفى ويطمعون فيهم خير الدنيا والشفاعة في الآخرة ؟ وبديهي أن الجواب هو النفي الصرف (فلله الآخرة والأولى) اى ان لله الآخرة والأولى ولا نصيب للاصنام فيهما (وكم من مَلَكٍ في السماوات

لا تغنى شفاعتهم شيئا) من الإغناء (الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) ويراه الباري أهلا للشفاعة •

(ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى) فإنهم كانوا يقولون ان الملائكة بنات الله سبحانه (وما لهم به من علم) أي والحال أنه لا علم لهم أصلا بما يقولون (ان يتبعون) في تلك التسمية (إلا الظن) اي التوهم الباطل (وان الظن لا يغني من الحق شيئا) من الإغناء فهم جمع متولون عن ذكرنا (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا) ولذتها بأي وجه يمكن الوصول اليها (ذلك مبلغهم من العلم) أي أمر الحياة الدنيا مبلغهم ومنتهى ما وصل اليه علمهم (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) أي الصراط المستقيم (وهو أعلم بمن اهتدى) •

(ولله ما في السماوات وما في الارض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا) أي ليجزي الضالين المسيئين بجزاء ما عملوا وهو العقاب وعذاب النار (ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) أي بالمثوبة الحسنى وقوله (الذين يجتنبون) بدل من الموصول في قوله ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، أي ليجزي الذين أحسنوا (الذين يجتنبون كبائر الإثم) مما يشعر بقلة اكتراث صاحبه بالدين (والفواحش) وهو ما عظم قبحه من الكبائر لتعلقها بهتك الاعراض وقوله (إلا اللمم) أي الصغائر استثناء من الكبائر استثناء منقطعا (ان ربك واسع المغفرة) أي لهم (هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الارض) انشاء اجماليا (واذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) على الأطوار المختلفة المذكورة (فلا تزكوا أنفسكم) ولا تثنوا على أنفسكم بالنظافة والطهارة عن الأوساخ والآثام (هو أعلم بمن اتقى) المعاصي وتركها •

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ؟(٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى(٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى(٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ؟(٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى(٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى(٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(٤٠) ثُمَّ يُجْزَيهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى(٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى(٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى(٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى(٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى(٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى(٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى(٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى(٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى(٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ؟(٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى(٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ(٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ(٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ؟(٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ(٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ؟!(٦١) فَاسْجُدُوا للهِ وَاعْبُدُوا)(٦٢)

قوله تعالى (أفرأيت الذي تولى) أي الرجل الذي تولى وأعرض عن قبول الاسلام (وأعطى قليلا وأكدى) أي وأعطى شيئا قليلا من المال ثم قطع العطاء . نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلس اليه ووعظه . فقرب من الاسلام ، وطمع فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم انه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك

ملة آبائك ؟ ارجع الى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ! فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما هم به من الإسلام وضل ضلالا بعيدا ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح (أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى ؟) أي وفى بما التزمه من أوامر الله تعالى ، أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه ربه سبحانه وتعالى .

قال ابن عباس وفى بسهام الاسلام كلها ولم يوف بها أحد غيره . وهي ثلاثون سهما ، منها عشرة في براءة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ...) الآيات . وعشرة في الأحزاب (ان المسلمين والمسلمات ...) الآيات . وست في (قد أفلح المؤمنون) . وأربع في (سأل سائل) والذين يصدقون بيوم الدين والاولى اعتبار العموم فيما وفى به ، ومن أهمها مقابلة نمرود ، وقبول القائه في النار ، والوفاء بما رأى في رؤياه ، وتركه اسماعيل وأمه في الحجاز عند بيت الله الحرام . ومن جملة ما في صحف موسى وابراهيم ـ عليهما السلام ـ (ألا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى (وأن ليس للانسان الا ما سعى) أي ليس له بطريق الاستحقاق الا جزاء سعيه وكسبه . ما يعتبر كسبا له من الامور وهي : صدقة جارية ، وعلم علمه الناس وانتفعوا به ، وولد صالح يدعو له . وأما ما عدا ذلك فيصله الأجر بطريق الفضل . فلله سبحانه في هذا الموضوع بابان : باب الاستحقاق والعدل ، وباب الاحسان والفضل .

وقال بعض الاجلة من المحققين : انه ورد في الكتاب والسنة ، ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية مع قوله تعالى : والله يضاعف لمن يشاء ، فتقيد بما لا يهبه العامل لذلك الانسان . وسأل

والي خراسان عبدالله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قولـه تعالى والله يضاعف لمن يشاء فقال : ليس له بالعدل الا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله تعالى ، فقبل عبدالله رأس الحسين .

وفي الأذكار للنووي ـ عليه الرحمة ـ : المشهور من مذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وجماعة أنها لا تصل (أي ثواب العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غـيرها كالصدقة والحج) وذهب أحمد بـن حنبـل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي الى أنها تصل . فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه : أللهم أوصل ثواب ما قرأته الى فلان . والظاهر أنـه اذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى . وعن بعضـهم اشتراط نية النيابة أول القراءة ، وفي القلب منه شيىء .

وللمسلم أن يقلد الائمة القائلين بوصول ثواب الاعمال البدنية وغيرها كالصدقة وسائرها ، فإن باب الفضل والرحمة واسع جدا . وذكر الشيخ أحمد ابن حجر الهيتمي ـ رحمه الله ـ في كتاب الإجارة من تحفتـه بجواز استئجار القارىء لقراءة القرآن للموتى . وفي فتح المعين لتلميذه التلنباري أن الشيخ السبكي قضى الصلوات الفائتة عن بعض أقاربه . وعموم فضله ورحمته ، وتواتر الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، والدعاء لهم يدعونا الى ما درج عليه سلفنا الصالح ، وليست أعمالنا لأنفسنا أقرب الى القبول منهـا لغيرنا . والله ولي المؤمنين .

ومن قلد القائلين بعدم وصول ثوابها لغيره لا يجوز له قطعا منع المقلد للقائلين بوصولها إليه ، فان المقلد لامام ليس له حق المنع لمقلـد امام آخـر فليتنبه لهذا والله اعلم .

تنبيه : قد علمت أن حملنا الحصر في قوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى على حصر الاعمال التي توجب الجزاء على أصول العدل ، والا فباب

الفضل لا حصر فيه لامور منها : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الدال على خير كفاعله » ومنها قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم) ومنها أن الانسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير • ومنها أنه ثبتت شفاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاهل الموقف في الحساب ، ثم لاهل الجنة في دخولها ، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار • ومنها ما ثبت من أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الارض • ومنها قوله تعالى : (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور) ومنها ما ثبت أن الله يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط بمحض رحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم • ومنها أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بحسنات آبائهم ومنها قوله تعالى في قصة اليتيمين (وكان أبوهما صالحا) ومنها ما ثبت أن الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والاجماع • ومنها أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه بنص السنة • ومنها أن الحج المنذور او الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير • ومنها أن المدين قد امتنع ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين آخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو من عمل الغير • ولذلك قال الشيخ تقي الدين احمد ابن تيمية : من اعتقد أن الانسان لا ينتفع الا بعمله فقد خرج عن الإجماع • هذا ونسأل الله التوفيق على الاعتدال في في العقائد والاقوال والاعمال • وهو حسبي ونعم الوكيل •

(وأن سعيه سوف يرى) أي يكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه ويوزن له (ثم يجزيه الجزاء الاوفى) الضمير المرفوع عائد الى الانسان ، والمنصوب عائد على السعي والجزاء الاوفى مصدر مبين للنوع (وأن الى ربك المنتهى) أي أن انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لا الى

غيره استقلالا ولا اشتراكا ، والمراد بذلك رجوعهم اليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون (وأنه هو أضحك وأبكى) أي يخلق ما يضحك الانسان أو يبكيه لان الضحك من التعجب وهو ادراك أمور غريبة لا يعرف أسبابها ، والبكاء من الحزن ، ومنشأ كل ذلك بخلق الله تعالى . (وأنه هو أمات وأحيا) أي خلق الموت والحياة (وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى) من كل نوع من أنواع الحيوانات وكذلك من النبات ، وخلق الذكران والاناث (من نطفة اذا تمنى) أي تقطع من محله الاصلي وتدفق في الرحم . (وأن عليه النشأة الاخرى) أي الانشاء والاحياء الاخير بعد النشأة الاولى .

(وأنه هو أغنى وأقنى) أي يغني الانسان باعطاء ما يحتاج اليه لضرورة حياته ويعطيه ما يقتنيه ويدخره لمستقبله مما يبقى ويدوم (وأنه هو رب الشعرى) وهي كوكب جنوبي عبدتها حمير وخزاعة ، ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ولما كان اعتقادهم بذلك فاسدا رد عليهم سبحانه وتعالى بأنه مادة من المواد السماوية وكوكب من الكواكب خلقه الله تعالى ورباه وراعاه . (وأنه أهلك عادا الاولى) أي القدماء لانهم أولى الامم اهلاكا بعد قوم نوح . واما عاد الاخرى فهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، ولم يكن على قوة الاولى (وثمود) أي وأهلك ثمود (فما أبقى) منهم أحدا . أو معناه أخذ كلا منهم بذنوبه (وقوم نوح) أي وأهلك قوم نوح (من قبل) إهلاك عاد وثمود (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) من أضرابهم وكانوا يتفننون في تعذيب الناس (والمؤتفكة أهوى) وأسقط المؤتفكة بعد قلعها عن الارض ورفعها (فغشاها) أي فغطاها (ما غشى) ما غطى من المدمرات والمعذبات (فبأي آلاء) من آلاء (ربك) سواء كانت آلاء للكل كنعمة الإرشاد والتربية ، أو

آلاء لبعض وبلاء لبعض كإهلاك الامم الظالمة التي هي آلاء للفقراء (تتمارى ؟) تتشكك يعني ان هذه الامم الطاغية الباغية قد أهلكت فصار اهلاكهم عبرة وعظة لكثير من الناس ، وكانت آلاء للمظلومين لخلاصهم عن الظلم ، وكلها كانت واقعة وثابتة لا مجال للتشك فيها ، وحق الكافرين في مكة أن لا يتشككوا فيها ويعتبروا بها ، فمادام لا يعتبرون فلا تهتم بهم فإنهم عما قريب يهلكون .

(هذا نذير من النذر الأولى) اي ان رسولنا نذير للكافرين من جنس المنذرين الأول القدامى وسنة الله فيمن عصاه سنته فيمن سبقهم من الامم ، ولا تجد لسنة الله تبديلا (أزفت الآزفة) أي اقتربت الساعة التي هي دوما أخذت تتقارب لأن كل آت هو على الاستمرار من مزيد الاقتراب (ليس لها من دون الله كاشفة) لا كاشف عن حقيقة ما يقع فيها الا الله ، أو لا دافع للعذاب الواقع فيها الا الله (أفمن هذا الحديث) وهو القرآن الكريم المعجز النفيس (تعجبون ؟) انكارا له (وتضحكون) استهزاء به وبمن معه لعدم شعوركم بما فيهما من النور وانشراح للصدور (ولا تبكون) على انفسكم من النار التي ستدخلونها أو لا تبكون على جهلكم وسوء حالكم (وأنتم سامدون) لاهون لا تتأثرون بما فيه من وجوه العبر والمواعظ . وما دام بقيتم على الغفلة منه الى الآن (فاسجدوا لله) الذي أنزله (واعبدوه) لعله يتوب عليكم بالهدايا للايمان . وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم وقد سجد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عندها . أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسجد الناس كلهم إلا رجلا ... الحديث .

سورة القمر ، مكية وآياتها خمس وخمسون ،
نزلت بعد الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

(اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ : هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ)(٨)

قوله تعالى (اقتربت الساعة) أي قربت جدا (وانشق القمر) أي انفصل بعضه عن بعض • وذلك على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبل الهجرة بنحو خمس سنين • فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس ان أهل مكة سألوه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يريهم آيةً

فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما • والاحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة ، واختلف في تواتره فقيل هو غير متواتر • وفي شرح المواقف الشريفي أنه متواتر ، وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن ، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره • إنتهى باختصار •

وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم علي ـ كرم الله وجهه ـ ، وأنس ، وابن مسعود ، وحذيفة وجبير بن مطعم ، وابن عمر ، وغيرهم •••

(وان يروا آية) أي آية دالة على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعوى رسالته من الله تعالى يعني معجزة من المعجزات (يعرضوا) عن التأمل فيها أو يعرضوا عن جعلها دليلا على صدقه فيها (ويقولوا سحر مستمر) أي مطرد دائم يأتى به محمد على مر الزمان • وقيل : معنى مستمر أنه يشبه بعضه بعضا ، أي استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي وكذب المشركون آية انشقاق القمر الحادث على يد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كما كذبوا سائر آياته واتبعوا في ذلك أهواءهم الفاسدة (وكل أمر مستقر) أي وكل أمر من الأمور منته الى غاية يستقر عليها ومن جملة تلك الامور أمر رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولابد يستقر ويثبت في الواقع على رغم انوف الكفار لانه شاء الله استقراره ، وما شاء الله كان (ولقد جاءهم) أي والله لقد جاءهم في القرآن (من الانباء) أي أنباء القرى الهالكة بغضب الله تعالى (ما فيه مزدجر) وانقلاع وارتداع عن المشي وراء الاهواء والنفس والشيطان (حكمة بالغة)

أي وما جاءهم في القرآن الكريم أخبار وأحوال صادقة محكمة غاية الاحكام لا خلل فيها • ولما جاءتهم تلك الحكم القرآنية وما استفادوا منها بل عارضوها شر المعارضة حق عليهم قول (فما تغن النذر) جمع نذير بمعنى منذر ، أي فما تغني بعد هذه الآيات التي جاءتهم سائر الامور المنذرة لهم ، لأنه طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ••

(فتول عنهم) أي وما دام لا تغني النذر فتول عنهم أي اترك قتالهم ، أو اترك الجدال معهم فان كان الاول فهو منسوخ بالامر بالقتال ، وان كان الثاني فالآية محكمة ثابتة • (يوم) ظرف لقوله الآتي يخرجون أي يوم (يدعو الداعي) وهو إسرافيل جميع المكلفين (الى شيئ نكر) مستكره على النفوس حالكونهم (خُشعاً أبصارهم) حال من فاعل (يخرجون من الأجداث) أي القبور ، أي يخرجون من القبور يوم البعث والنشور خاشعي الابصار وخافضيها من الخجل في الظهور (كأنهم جراد منتشر) في الكثرة والتموج والانتشار في الاقطار (مهطعين الى الداع) مسرعين في السير الى الداعي أو التوجه اليه والانتظار لامره (يقول الكافرون : هذا يوم عسر") أي صعب شديد • وذلك لما يشاهدونه من مخايل القهر والانتقام ••

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ(٩) فَدَعا رَبَّهُ : أنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ(١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ(١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً ، فَالْتقى الماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ(١٢) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ(١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ(١٤) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟(١٥) فَكَيْفَ

كانَ عَذَابِي ونذرِ(١٦) ولَقَدْ يسَّرْنا القرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ من مُدَّكِرٍ)(١٧)

قوله تعالى : (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع في تذكير أحوال بعض من المشركين فقال كذبت قبلهم قوم نوح (فكذبوا عبدنا) أي نوحا (وقالوا مجنون) أي لم يكتفوا بالتكذيب وأضافوا اليه رميه بالجنون واختلال العقل وقالوا : ازدجرته الجن وذهبت بلُبِّه واختبطته (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) أي فدعا ربه بأني مغلوب لقلة أعواني فانتقم لي منهم ، أو فانتصر لنفسك يا ربي فانهم كذبوا رسولك (ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر) أي منصب ، وقيل كثير (وفجرنا الارض عيونا) أي وجعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة (فالتقى الماء) أي ماء السماء بماء الأرض (على أمر قد قدر) أي قدرها الله تعالى (وحملناه) أي نوحا ومن معه (على ذات ألواح ودسر) أي فحملناه ومن معه على سفينة ذات ألواح خشبية ومسامير دقت فيها للربط (تجري بأعيننا) أي تجري تلك السفينة على سطح الماء المتموج برعايتنا وصيانتنا لها عن أن تنقلب بموجة مائية أو بريح شديدة ، وفعلنا ذلك (جزاء لمن كان كفر) أي وأهلكنا الكافرين جزاء لهم (ولقد تركناها آية) أي وقد أبقينا السفينة وأخشابها على الجودي لتكون آية وعلامة على ما جرى بأمرنا ، أو جعلنا تلك الحادثة نفسها آية تكون عبرة للمعتبرين (فهل من مدكر ؟) يتذكر ما جرى ليعتبر به (فكيف كان عذابي ونذر ؟) أي فانظروا كيف كان عذابي للمنذرين ، وكيف كان انذاري لهم سابقا ؟ أي أنذرتهم انذارا شديد اللهجة ولم يسمعوا ، ومن أنذر فقد أعذر ، أي سلب العذر عن المقابل (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي لتلاوته وتذكر معناه والعبرة والاتعاظ (فهل من مدكر ؟) متذكر يستفيد منه .

(كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟(١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ(١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(٢٠) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي ونُذُرِ ؟(٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكر فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟(٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنُّذُرِ(٢٣) فَقالُوا : أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ(٢٤) ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ !(٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ ، فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ(٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ(٢٨) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعَاطى فَعَقَرَ(٢٩) فَكَيْفَ كانَ عذابِي ونذرِ(٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ(٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)(٣٢)

قوله تعالى : (كذبت عاد) عقب بحث قوم نوح بقوم عاد تذكيرا بقدرة الله تعالى على اهلاك قوم كما يشاء وله وسائل عديدة لتدمير أعدائه ، وما يعلم جنود ربك الا هو كي يتعظ المتعظون . فيقول : كذبت عاد اي كذبت بعبدي هود ولم يتعظوا ببلاغه (فكيف كان عذابي ونذر) أي وانذاري، أو ماأنذروا به. (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) أي انا عذبناهم بأن أرسلنا عليهم ريحا شديدة الصوت ، شديدة النفوذ في الأسماع ، شديدة النضج للبدن (في يوم نحس) شؤم عليهم (مستمر) ليالي سبعا وأياما ثمانية ، أو استمر عليهم

الشؤم في البرزخ بعد الهلاك ، ويستمر الى أن يدخلوا جهنم وبئس المصير (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أي كأنهم أعجاز نخل منقلع عن مغارسه ساقط على الارض (فكيف كان عذابي ونذر ؟)

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) يتذكر ويتعظ ويتبصر •

(كذبت ثمود بالنذر) أي بالمنذرين والمنذر بالنسبة اليهم وان كان واحدا وهو سيدنا صالح ، لكن من كذب رسولا في تبليغ الدين فقد كذب رسلا كثيرين، لأن المنهج واحد وهو الدعوة الى الله رب العالمين (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذا) أي اذا اتبعنا ذلك (لفي ضلال) عن الحق (وسعر) أي نيران كثيرة ، وجمع السعير باعتبار دركاتها •

(ءألقي الذكر عليه من بيننا ؟) وفينا من هو أحق به منه مالا وجمالا وقوة (بل هو كذاب أشر) أي شديد البطر ، ورد عليهم الباري بقوله الكريم (سيعلمون غدا) يوم القيامة أو يوما يهلكون فيه ، ويخرج صالح بسلامة (من الكذاب الأشر) أمن يدعو الى التوحيد لله ؟ أو من يكفر ويشرك بالله ؟ وقوله تعالى (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أي ثم طلبوا من صالح معجزة ، فاقترحوا أن تخرج ناقة من صخرة في ديارهم عينوها ، ولما علمنا بأنهم متعنتون ولا يسترشدون أخرجنا لهم الناقة منها ، ولكن جعلناها فتنة وامتحانا لهم وامتهانا (فارتقبهم) أي وقلنا لرسولنا صالح : ارتقبهم أي انتظرهم لتر ما يأتون به (واصطبر) على ما اتوا به اذا كان من باب سوء الأدب (ونبئهم أن الماء) المعهود بينهم للشرب (قسمة بينهم) مقسوم بينهم حسب الحاجة (كل شرب) ونصيب منه (محتضر) ومهيأ لصاحبه المعين في نوبته •

(فنادوا صاحبهم) المعروف للاعمال السيئة قدار بن سالف لعقر ناقة صالح حتى لا تزاحم نوقهم في الشرب (فتعاطى) العقر وتجاسر على الحق

(فعقر) الناقة وقطع قوائمها (فكيف كان عذابي ونذر ؟ انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) هي صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ صباح يوم الأحد (فكانوا) أي فصاروا (كهشيم المحتظر) أي كالعشب اليابس الذي يجمعه الناس في الحظيرة للمواشي والبهائم (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟) أي فهل هنالك واحد ماجد يتلو القرآن ويتفكر في معناه ويستنبط أسراره ويعتبر به ؟

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ، إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا، كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ، فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)(٤٠)

قوله (كذبت قوم لوط بالنذر) على منهج أمثاله (إنا أرسلنا عليهم حاصبا) أي ملكا يحصبهم أي يرميهم بالحجارة ، أو ريحا حاصبة ترميهم بالحصباء عليهم (إلا آل لوط) أي اتباعه وأهله المؤمنين به (نجيناهم بسحر) أي في سحر (كذلك) أي فعلنا مثل ذلك ، وبمثله (نجزي من شكر) لان تدمير العدو تعمير الصديق (ولقد أنذرهم) أي لوط (بطشتنا) أي بأخذتنا الشديدة لهم بالعذاب (فتماروا بالنذر) أي فتشككوا بالمنذرين على ماقلنا، وبالانذارات المتتالية (ولقد راودوه عن ضيفه) أي صرفوه عن اتجاهه

المؤدب المحترم وأرادوا إقناعه على السكوت عما يريدون ، وطلبوا الفجور بهم (فطمسنا أعينهم) أي أزلنا أثرها ومنعناها عن ابصار الضيف (فذوقوا عذابي ونذر) أي فعذبناهم وقلنا لهم : ذوقوا عذابي ونذر (ولقد صبحهم بكرة) أي أول النهار (عذاب مستقر) أي لزمهم حتى أهلكهم (فذوقوا) أي فقلنا ذوقوا (عذابي ونذر • ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) يتذكر •

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا ، فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ؟ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ : ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)(٥٥)

قوله : (ولقد جاء آل فرعون النذر • كذبوا بآياتنا كلها) فما نسبوها الينا ونسبوها الى السحر (فأخذناهم) أي آل فرعون (أخذ عزيز مقتدر) مسيطر لايعجزه معجز ولايمنعه مانع (أكفاركم خير من أولئكم ؟) يخاطب المشركين

المنكرين للرسول وللكتاب المنزل عليه فيقول لهم : أكفاركم خير من أولئكم الأقوام المعدودين المهلكين خيرية يحسبها حسابكم ؟ أي من جهة المال والجاه والعدد والعدد والقوة المعنوية وسائر وسائل الاستيلاء (أم لكم براءة) من عذاب الله مكتوب (في الزبر) النازلة من السماء إذا كنتم مصدقين بها ؟ (أم يقولون) على حسب الدعوى والزعم الفارغ نحن جماعة ذات شوكة ومهابة وعز وانتصار على غيرنا اذا قابلناه وحاربناه ، واذا كانت لكم دعوى كذلك فهي باطلة واذا كان لهم جمع كذلك قلنا لهم : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أي الأدبار وقد كان هذا من دلائل النبوة فقد نزل يوم لم يكن قتال فصار للرسول شوكة وخافوا على استيلائه فأرادوا قتله ، فهاجر الى المدينة المنورة ، وبعد سنين حدثت واقعة بدر الكبرى وانهزم المشركون وولوا أدبارهم (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) أي ليس ذلك الانهزام تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم والساعة وعذابها أدهى أي اعظم داهية وبلاء وأمر عذابا وذوقا للعذاب .

(إن المجرمين في ضلال) من طريق الحق في الدنيا (وسعر) في الآخرة بحسب استحقاقهم (يوم يسحبون في النار على وجوههم) ويقال لهم من جانب الملك المأمور : (ذوقوا مس سقر) أي المرارة الروحية والجسدية الناشئة عن مس سقر ونارها الى الابد وقوله تعالى (انا كل شيىء خلقناه بقدر) روي بنصب كل على تقدير فعل مضمر يفسره الفعل الظاهر المشتغل عنه بالعمل في ضميره ، وتفيد هذه الآية بهذه القراءة المعنى الصحيح الموافق لاعتقاد جمهور المسلمين ، حيث قال تعالى انا خلقنا كل شيىء بقدر أي على حد مقرر مقدر معلوم لنا من الأزل الى الابد مقارن للحكمة الالهية في أفعاله ، ولا يخرج شيىء عن علمنا وقدرتنا الابداعية . فالقدر على هذا عبارة عن التقدير العلمي الأزلي وذلك لان نصب كل يكون بفعل مضمر يفسره الفعل

الظاهر ، واذا ذكر المضمر لا يبقى الظاهر لانه عوض عنه والعوض والمعوض لا يجتمعان ، فيكون الحاصل انا خلقنا كل شيىء بقدر ، فلا يخرج عين ولا عرض عن خلقه وابداعه تعالى •

(وما أمرنا الا واحدة) أي وما شأننا الا فعلة واحدة وهي ايجاد المراد بلا معالجة ومشقة ، أو ما أمرنا الا كلمة واحدة وهي قوله تعالى (كن) فالأمر على الاول بمعنى الشأن ، وعلى الثاني بمعنى الامر المقابل للنهي ، لكن يجب أن يعلم أنه ليس المراد بالامر التلفظ بصيغة (كن) بل المقصود توجيه الإرادة نحو المراد الموجب لوجوده فورا ، وهذا في البسائط المجردة عن المادة كالأرواح واضح ، وكذلك الحال في الماديات البسيطة على تقدير وجودها • وأما المركب من الأجزاء فالاجزاء كل منها شيىء ، والمجموع المركب منها شيىء آخر ، فأمره بالنسبة الى الاجزاء واحد وبالنسبة الى خلق المركب من المجموع واحد ، مع العلم أن الله تعالى قادر على خلق جميع المركبات بل مجموعها المؤلف من العلويات والسفليات في آن واحد •

(ولقد أهلكنا اشياعكم) أي أشباهكم وأمثالكم في الكفر والتمرد على الحق ولم يجدوا وليا ولا نصيرا (فهل من مدكر) يتذكر أن الله كما أهلك الامم القوية الجبارة الماضية ، قادر على أن يهلك الامم المتمردة الحاضرة ، فليحذروا عن مخالفة أمره تعالى (وكل شيىء فعلوه) أي أولئك الاشياع (في الزبر) أي مكتوب في دفتر الاعمال المحفوظ عند المأمور المختص (وكل صغير وكبير مستطر) ولا يتوهمن أحد أنه أهمل شيىء منهما مطلقا (إن المتقين)

أي من العقائد والاعمال السيئة (في جنات) عظيمة الشأن (ونهر) أي وفي انهار وافراد اسم الجنس لرعاية الفواصل • وقوله (في مقعد صدق) أي في مكان مرضي محترم ، أي في مقعد يقال في حقه صدق الله عبده وعده وهو المقام الرفيع العالي في الجنة والمجاورة المستفادة من قوله تعالى (عند مليك مقتدر) للترفيع واعلان الشأن والمقام • يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

سورة الرحمن ، مكية وآياتها ثمان وسبعون

نزلت بعد الرعد

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنْسانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (٤) الشَّمْسُ والقَمَرُ بِحُسْبانٍ (٥) وَالنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ (٦) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ المِيزانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (٩) والأَرْضَ وَضَعَها لِلأَنامِ (١٠) فِيها فاكِهَةٌ والنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمامِ (١١) والحَبُّ ذو العَصْفِ ، والرَّيْحانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟)(١٣)

قوله تعالى (الرحمن) مبتدأ ، والجملة بعده خبره • ثم هذه السورة مختصة ببيان نعم الباري تعالى لعباده ، ولما نزلت النعم من سماء الرحمة صدرها بقوله الرحمن لتذكير الناس أن رحمة الباري تعالى هي ينبوع المكارم والخيرات • ولما كان القرآن الكريم أجل وأفضل نعمة أنعم الله بها على عباده قدم هذه النعمة الجليلة ، فقال : (الرحمن علم القرآن) ولما كان

الانسان أشرف خلق الله المتمتع بنعمه عقبه بقوله (خلق الإنسان) وبما أن الإنسان لا يستفيد بنفسه ولا يفيد غيره الا بالبيان المعرب عما في الضمير أتى بعده بقوله : (علمه البيان) ولما كانت معيشة الانسان والحيوان متوقفة على زمان الكسب والاستراحة ويحصلان عادة بالليل والنهار الحاصلين من الشمس والقمر .. عقب تلك النعم بذكر الشمس والقمر وكونهما ملابسين لحساب مقرر . ولما كان الاقتيات بالناميات التي لها ساق أولا ذكر النجم وهو النبات الذي لاساق له، والشجر وهو النبات الذي له ساق. ولما كان هذا العالم الحي محتاجا الى فيض أمطار الرحمة وسائر البركات النازلة أتى بعدها بذكر رفـع السماء ووضع الميزان لدوران كواكبها ، أو بذكر الميزان الذي له دور هـام في رعاية العدالة بين الأنام ، والمعاملات فإن الطغيان فيها يوجب النقصان في حياة الانسان ، والعدل فيها يوجب تكافؤ أفراده في الحقـوق أتى بعدهـا بالنهي عن الطغيان فيه والجور في استعماله فيقول الباري سبحانه : الرحمن الذي هو المختص بإفاضة الرحمة على العالم علم رسوله وسائر عباده المؤمنين القرآن الذي هو مجمع السعادة في الدارين ومنبع الخيرات وخلق الانسـان لتعلم واجب حياتهم في دنياهم وسعادتهم في عقباهم من ذلك القرآن ، وعلمه البيان الفصيح المعرب عما في الضمير حتى يفيد ، والشمس والقمر الكوكبان العمدتان لتكوين الليل متلبسان بحسبان وتقدير لطلوعهما وحركتهما وطولهما وقصرهما ، (والنجم) النابت في الارض بلا ساق (والشجر) الذي يقوم على ساق (يسجدان) ويخضعان لارادة الخالق المنان (والسماء رفعها) كسـقف على الكرة الارضية التي منها خلقنا وفيها نعاد ومنها نخرج تارة أخرى للفوز بكامل السعادة ، ووضع الميزان لها ، أو وضع الميزان بين الناس في الارض للتعامل ، أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه ، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمـر العالم واستقام . قـال ـ عليه الصلاة

والسلام ـ : « بالعدل قامت السماوات والارض » أي بقيتا على أبلغ نظام وأتقن أحكام . ومن هذا الحديث الشريف يستفاد أن الميزان في قوله تعالى (ووضع الميزان) ليس محصورا في ميزان الاشياء العديل للكيل ، بل يعم كل ميزان وعدالة حتى تؤمن بأن الله تعالى جعل لكل كوكب سماوي مدارا خاصا وحركة خاصة لا ينبغي أن ينفك عنها ، والا تدمرت السماوات واختلت، وكذلك في الارض وما فيها من الاثقال والمعادن وبيان ذلك يعود الى من له اختصاص بتلك العلوم . وقوله (ألا تطغوا في الميزان) أي لئلا تطغوا فيه ، فاللام الجارة مقدرة ، فان ناصبة ، ولا نافية . وجعلها الزمخشري مفسرة لما في وضع الميزان من معنى القول ، لأنه بالوحي واعلام الرسل ، وهذا تركيب وجيه حسن . ويأتي الحاصل ووضع الميزان وقال لا تطغوا في الميزان (وأقيموا الوزن بالقسط) في كل الامور المتعلقة بالانسان من القول والفعل والاخذ والعطاء والمحبة والعداء وأداء الحقوق واستردادها (ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فان من حقه التسوية والاتيان بهذه الجملة تأكيد ومبالغة في التوصية برعاية العدل .

وقوله (والارض وضعها للانام) أي ووضع الارض وخلقها للانام لبدء النشوء والاستمرار في كسب المعيشة مر الدهور والايام . وهذه الآية تدعو الإنسان الى العلم بطرق المعيشة واستفادة الخيرات بالمزارع والمعاملات التجارية واستخراج المعادن . وأشار الى بيان نبذة مما وضعه في الارض للانام وقال (فيها فاكهة) أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به (و) فيها (النخل ذات الأكمام) هي أوعية التمر أعني الطلع (والحب) أي وفيها الحب المخزون في السنابل وغيرها (ذو العصف) وهو ورق الزرع ، وقيده بعضهم باليابس (والريحان) أي وفيها الريحان . وهو كل مشموم طيب الريح من النبات (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) الخطاب للجن والإنس ، يعني

الله هو الخالق لهذه النعم المحسوسة لكم ولنيلكم بالسعادة والراحة فبأي نعمة من نعمه تعالى تكذبان بإنكار وجودها أو إنكار أن الله خلقها ؟

(خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالْفَخَّارِ (١٤) وخَلَقَ الجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبَانِ (١٦) ربُّ المَشْرِقَيْنِ ، وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟(١٨) مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ ؟(٢١) يَخْرُجُ مِنْهما اللُّؤْلُؤ والمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأيِّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبانِ ؟(٢٣) وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَئَاتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ ؟(٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ (٢٦) ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟(٢٨) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبانِ)(٣٠)

قوله تعالى (خلق الإنسان) أي آدم أبا البشر ــ عليه السلام ــ (من صلصال) أي من طين يابس له صَلْصَلَةٌ كالجرس (كالفخار) أي الخزف وقد خلق الله آدم أبا البشر ــ عليه السلام ــ من تراب جعله طينا ، ثم حمأً مَسْنونا ثم صلصالا .

(وخلق الجان) وهو أبو الجن كآدم بالنسبة الى البشر (من مارج من نار) أي من لهب خالص لا دخان فيه كما هو رواية عن ابن عباس ــ رضي الله

عنهما ـ . وقيل : هو اللهب المختلط بسواد النار أي الدخان ، من مرج الشيء اذا اضطرب واختلط .

والمعروف عند الجمهور أن الجن أجسام لطيفة نارية ويتناسلون لوجود الذكر والانثى من نوعه . وقد بعث اليهم الرسول سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد اجتمع بهم ست مرات . ومنهم من آمن ، ومنهم من كفر ويتشكلون بأشكال مختلفة ، وليس المراد بالجان إبليس ، بل ابليس فرد من أولاد الجان . وله ذرية كثيرة وزمرة الجن المتمرد يسمون بشياطين الجن ، كما أن الكفرة المارقين من الانسان يسمون بشياطين الإنس . وانما خلق الله النوعين لمحبة المعرفة والعبادة ، والنيل بالسعادة ، والعرض للنعيم المقيم . ومن أطاع الله ورسوله فقد هدي الى صراط مستقيم ، ومن عصى وتمرد وطغى فقد ارسل الى سبيل الجحيم ، ولا يلومن الا نفسه حيث طغى وبغى وخالف قدسه ، والعرض للنعمة من آلاء الله تعالى ولذا قال تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان .

(رب المشرقين) مشرقي الصيف والشتاء (ورب المغربين) أي مغربي الصيف والشتاء ، فمشرق الصيف عندما كانت الشمس في مدار السرطان ، ومشرق الشتاء عندما كانت على مدار الجدي وكذا المغربان . وفي القرآن الكريم (رب المشارق والمغارب) باعتبار كثرة المدارات اليومية للشمس في كل دورة كما هو معلوم عند أهله .

(مرج البحرين يلتقيان) أي أرسل البحرين كبحر النيل والبحر الابيض المتوسط وكبحر شط العرب والخليج ، وأجراهما حالكونهما (يلتقيان) ويتصلان كل بالآخر . والمعنى أرسل الماء المفرق المتبحر العذب ، والبحر الملح ، ولا يؤثر العذب في الملح بتعذيبه ولا الملح في العذب بتمليحه . كما

قال الله تعالى (بينهما برزخ) أي حاجز من قدرة الله تعالى (لا يبغيان) أي لا يخلي يبغي أحدهما على الآخر بتكييفه بالكيفية الموجودة فيه ، مع أن الماء من طبعه التأثر بالمجاور والحاصل أن الله سبحانه وتعالى قادر على اعطاء كل شيء ومنع كل شيء كما يريد • (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ) صغار الدر (والمرجان) كباره وفي كتب اللغة المرجان صغار اللآلي • وقد قيل : ان الدراري لا تخرج من البحر العذب ، وانما تخرج من البحر الملح • وأجيب بأن البحرين لما اتصلا كانا كبحر واحد فينسب الحاصل من أحدهما اليهما بالاطلاق لانهما يتراءيان كبحر واحدٍ (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) وفي تلك الدراري فوائد كثيرة • في روح المعاني : اللؤلؤ يمنع الخفقان ، والحر ، وضعف الكبد ، والكلى ، والحصى ، وحرقة البول ، والسدد ، واليرقان ، وأمراض القلب ، والسموم ، والوسواوس ، والجنون ، والتوحش ، والربو شربا ، والجذام والبرص والبهق والآثار مطلقا بالطلي ••• الى غير ذلك وأن المرجان يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقا ، ونفث الدم والطحال شربا ، والدمعة والبياض والسلاق والجرب كحلا ••• إلي غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم •

(وله الجوار) أي السفن الجارية على سطح البحر (المنشآت في البحر) أي المرفوعات فيه (كالاعلام) كالجبال (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) •

(كل من عليها فان) أي كل من هو على الارض سطحها البادي أو عمقها الفادي فانٍ اي آيل الى الفناء والزوال (ويبقى وجه ربك) باقيا حيا قيوما لا يفنى ولا يموت (ذو الجلال والإكرام) أي يجله الموحدون وينزهونه عن النقصان وينسبون له الصفات الكمالية اللائقة بذاته الكريم فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ (يسئله من في السماوات والارض) جميع ما يحتاجون اليه من كافة الجهات بلسان الحال والمقال من المؤمنين والحال

من الكافرين (كل يوم هو في شأن) أي كل وقت من الاوقات هو في شأن من شئونه الفعلية تنفيذا لما قرره في علمه الازلي ، يخلق ويفني ويعطي ويمنع ويعز ويذل وهو على كل شيىء قدير (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟)

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟ (٣٢) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا، لاتَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟ (٣٦) فَإِذا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟) (٣٨)

قوله تعالى : (سنفرغ لكم أيها الثقلان) الفراغ هنا ليس بالمعنى المتعارف من الفراغ من عمل سابق يمنعه عن الاشتغال بلاحق ، بل معناه أنه بعد نهاية العالم الاول تأتي نوبة العالم الثاني ونبدأ بجزاء أعمالكم التي عملتموها ليأخذ كل حقه ومستحقه ، والمراد بالثقلين الجن والإنس لثقلهما على الارض أو لوقارهما وهيبتهما ورزانتهما . (فبإي آلاء ربكما تكذبان ؟) التي من جملتها التنبيه على ما أمامكم من العذاب حتى تتنبهوا وتتوجهوا الى الله .

ثم يهددهم من مغبة أعمالهم ويقول (يا معشر الجن والانس) تبتلون يوم القيامة بعذاب شديد فيقال لكم (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض) وتخلصوا من عذاب جهنم (فانفذوا) لكن (لا تنفذون الا بسلطان) أي بقوة شديدة تعينكم على الخلاص وأنى تكون لكم ؟ (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو ، مع

القدرة على التعذيب وقوله (يُرْسل عليكما) استئناف في جواب من يسأل عن الداعي للفرار والخروج عن أقطار السماوات والأرض ، فيجيب بأن الداعي هو أنه (يرسل عليكما) في جهنم عند ارادة التعذيب (شواظ) أي لهيب خالص (من نار ونحاس) أي ويرسل عليكما نحاس أي الصفر المعروف، أي يصب على رءوسكما صفر مذاب" (فلا تنتصران) أي فلا يوجد عندكما قوة الانتصار والمنع . هذا ما قرره الكثير من المفسرين .

ولكن اذا نظرنا الى سرد الآيات الشريفة هنا ، وتعقيبها بقوله الكريم (فاذا انشقت السماء) ظهر للعقل باديء بدءٍ أن قوله تعالى (يا معشر الجن والإنس) نداء لهما في الدنيا ، وقوله (فإذا انشقت السماء) بيان وقوع القيامة وحلول العذاب فيه . وأراد الله تعالى تنبيههم وتحذيرهم عن المعصية حتى لا يقعوا في المحنة فيقول تعالى (يا معشر الجن والإنس) لا مخلص لكم منا بأي وجه فلا تتمردوا وآمنوا بالله ورسوله وأطيعوا ، وإلا فإن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والارض حتى تخلصوا مني فانفذوا واخرجوا . لكن لا تخرجون الا بسلطان وقوة غالبة على الموانع وأنى تحصل لكم قوة هكذا فاذا خرجتم بدون قوة هائلة كذلك وصعدتم السماء دارت حولكم ومنعتكم شواظ ، أي لهيب من نار لطيفة خالصة ، ونحاس أي نار مخلوطة به فأحرقتكم قبل الخروج منها . هذا في دنياكم ، وأما في الآخرة (فاذا انشقت السماء) أي انصدعت وذلك عند حلول الساعة (فكانت وردة) أي كالوردة في الحمرة (كالدهان) أي كالأديم الاحمر ، وجواب إذا محذوف أي حل بكم عذاب ومحنة وبلاء لا ينحصر في البيان ، وانما يكشف بالعيان (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) وبأية نصيحة وبيان وتهديد وتخويف لوصولكم الى الراحة تكذبان .

(فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ ولا جانٌّ(٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٤٠) يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ ، فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالأَقْدامِ(٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٤٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتي يُكَذِّبُ بِها المُجْرِمُونَ(٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ(٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)(٤٥)

قوله : (فيومئذ) أي يوم اذ تنشق السماء (لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) لانهم يعرفون بسيماهم ، وهذا في موقف ، وما دل على السؤال ففي موقف آخر (فيؤخذ بالنواصي والاقدام) والنواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس ، والأقدام جمع قدم ، وهي قدم الرجل المعروفة ، والباء للآلة مثلها في أخذت بخطام الدابة ، والجار والمجرور نائب الفاعل ، وكيفية هذا الاخذ على ما روي عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، ثم يكسر ظهره ويلقيه في النار ، وقيل تأخذ الملائكة ــ عليهم السلام ــ بعضهم سحبا بالناصية ، وبعضهم سحبا بالقدم ، وقيل تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي ، وتارة بأخذ الاقدام .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) وينكرون في الدنيا وجود الآخرة ووجود جهنم فيها ، والآن صارت عيانا لهم (يطوفون بينها) أي يتردد المعذبون بين نارها (وبين حميم آنٍ) أي ماء حار متناه إناه وطبخه ، بالغ في الحرارة أقصاها ، يعني يعذب المجرمون تارة بالإحراق بنار جهنم ، وتارة بالاجبار على شرب الحميم أي الماء الحار جدا . والعياذ بالله (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) أي كان قبل هذا العذاب أنواع من الآلاء فكفروا بها وعذبوا .

(وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٤٧) ذَواتا أَفْنانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنانِ تَجْرِيانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٥٣) مُتَّكِئِينَ على فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وجَنَى الجَنَّتَيْنِ دانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٥٥) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَرْفِ ، لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ(٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٥٧) كَأَنَّهُنَّ الياقُوتُ وَالمَرْجانُ(٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٥٩) هَلْ جَزَاءُ الإحسانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ؟(٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تكذِّبانِ (٦١) ومِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٦٣) مُدْهامَّتانِ (٦٤) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان؟(٦٥) فِيهِمَاعَيْنانِ نَضَّاخَتان(٦٦) فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان ؟(٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ ونَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨) فبِأَيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان ؟(٦٩) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ(٧٠) فبأيِّ آلاءِ ربِّكُماتُكَذِّبَان ؟(٧١) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولاَ جَانٌّ(٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ؟(٧٧) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرامِ)(٧٨)

قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه) المقام فيه اما مصدر ميمي بمعنى القيام ويراد به قيامه على العالم ، أو اسم مكان بمعنى محل القيام والاضافة للتشريف ، فمعناه ولمن خاف عظمة ربه ورقابته على الاعمال بمعنى أنه لا يغفل عنه ، أو لمن خاف هيبة مقامه ومكانه عند وقوفه للمحاسبة أمام ربه (جنتان) إحداهما محله ومحل زائريه ، والاخرى محل حوره ومتعلقاته • أو جنتان احداهما في داخل قصره والاخرى في خارجه • وقيل منزلان يتحول بينهما هنا وهناك في مقابل من يطوف بين الجحيم وبين الحميم (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) بالجنة الاولى وما فيها أو بالثانية (ذواتا افنان) ذواتا لغة في تثنية ذات ، كما أن ذاتا لغة فيها ، وأفنان جمع فن بمعنى النوع أي صاحبتان لانواع من الثمار ، أو جمع فنن بمعنى ما لان من الاغصان ، أي صاحبتان للاغصان الدقيقة الناعمة التي يحسن منظرة الجنتين (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) (فيهما من كل فاكهة زوجان) أي صنفان معروف عنده ، وغريب لم يعرفه في الدنيا ، أو رطب أو يابس (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ متكئين على فرش بطائنها من استبرق) أي الديباج ويقرب أن تكون ظهائرها من ديباج ناعم حتى لا يتألم الماشي عليها (وجنى الجنتين دانٍ) أي والثمر الذي يؤخذ من أشجارهما قريب من اليد لا حاجة في أخذه الى تعب (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهن قاصرات الطرف) أي في منازل الجنتين حور قصرت عيونهن على النظر إلا إلى أصحابهن (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) أي لم يفتضهن قبل أزواجهن انسي ولا جني (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ كأنهن الياقوت والمرجان) في صفاء الخدود وباقي الجسد ولمعانها • ويمكن أن يكون وجه الشبه حمرة لون المحل الذي تليق به الحمرة • والظاهر أن وجه الشبه هو الرغبة والميل فيهن (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ هل جزاء الإحسان

إلا الإحسان ؟) أي ما جزاء احسان الاعتقاد والاعمال الا احسان المنزل والمأوى واحسان اللقاء مع المولى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

(ومن دونهما جنتان) أي ومن دون تينك الجنتين السابقتين جنتان أخريان . وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله سبحانه (ومن دونهما جنتان) قال « : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين » وقال الحسن الاوليان للسابقين ، والاخريان للتابعين (فبأي آلاء ربكما تكذبان) وقوله (مدهامتان) صفتان لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالانكار والتوبيخ ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هما (مدهامتان) من الدهمة وهي السواد أي غلب عليهما السواد لكثرة النبات والاشجار والاوراق (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما عينان نضاختان) أي فوارتان بالماء (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما فاكهة ونخل ورمان) عطف الاخيرين على الاول عطف الخاص على العام بناء على عد البسر والتمر من الفواكه (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهن خيرات حسان) أي في بيوت تينك الجنتين ، أو في كل من تينك الجنتين السابقتين واللاحقتين حور ذوات جمال وخيرات مختارات في النساء وحسان في الوجوه والعيون والملامح ، ونعومة الايدي ولطافة الكلام ولينه (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ حور مقصورات في الخيام) أي مخدرات حالتهن القصر على بيوتهن وملازمتهن لها (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وذلك لمزيد الرغبة على من لم ترغب في الغير ولم يرغب الغير فيها . (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟) .

(متكئين على رفرف خضر) أي متكئين على وسائد خضر والوسائد هي المخدات أوعلى نمارق بناء على أن الرفرف مايطرح على الفرش (وعبقري حسان) أي وعلى وسائد عجيبة غريبة نفيسة نسبت لجودتها الى بلدة عبقرة المنسوبة الى الجن كانت العرب في الجاهلية تزعم أن للجن بلدة اسمها عبقرة والاشياء النفيسة تصنع فيها ، فاذا رأت شيئا عجيبا نسبته الى عبقرة ، ويقال : هو عبقري ، أو هي عبقرية (فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام) أي تعاظم وتقدس اسم ربك الذي هو ذو الجلال أي ذو النزاهة عن النقص ، وذو الإكرام فالتبارك متوجه الى اسمه تعالى ، وما دام الاسم متباركا كان الذات متباركا بالاولى ، أو أن الاسم مقحم والمقصود تبارك ربك . والله هو المتبارك .

سورة الواقعة ، مكية وآياتها ست وتسعون نزلت بعد طه

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا(٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا(٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً(٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ(٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ(١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ(١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ(١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ(١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ(١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ(١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ(١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ(٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٢١) وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ(٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً ولا تَأْثِيماً (٢٥) إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً)(٢٦)

قوله تعالى : (اذا وقعت الواقعة) أي اذا حدثت وتحققت القيامة التي هي الواقعة العجيبة المدهشة التي تندهش بها الألباب (ليس لوقعتها كاذبة) اما مصدر كالعاقبة والعافية ، أي ليس لها كذب ومخالفة للواقع ، أو وصف أي ليس لها نفس كاذبة تخبر بعدم وقوعها • والحقيقة أن هذا الخبر معناه الاهتمام بالوقوع وهيبة الوقوع بحيث لا يتطرق إليه أدنى شبهة • والقضية المفيدة لهذا المعنى تسمى الضرورية بشرط المحمول يعني كل شيء كان في حد ذاته ممكنا يستوى وجوده وعدمه فهو بشرط الوجود ينقلب وجوده ضروريا • والمقصود أن القيامة التي في حد ذاتها ممكنة الوجود صارت ضرورية واجبة، لان الله تعالى قدر وقرر وصول الجزاء الى العاملين والثواب الى المطيعين ، والعقاب الى الغافلين •

وقوله (خافضة رافعة) خبران لمبتدأ محذوف أي وهي خافضة للمترفعين ورافعة للمتواضعين خافضة للكافرين رافعة للمؤمنين • أي خافضة لدركات الاسفلين ورافعة لدرجات الأعلين • وقوله (اذا رجت الارض رجا) بيان لزمان وقوع هذه الطامة العامة الكبرى أي اذا زلزلت الارض وحركت تحريكا شديدا بحيث تتزلزل أطواد الجبال وتنسحق كالرمال (وبست الجبال بسا) أي وفتتت أجزاؤها الصلبة تفتيتا ، من بس السويق اذا لته ، أو تفرقت الجبال تفريقا أي انفصل بعض أجزائها عن بعض من بس الغنم اذا فرقها (فكانت هباء منبثا) أي فصارت الجبال غبارا منتشرا في الجو (وكنتم أزواجا ثلثة) أي وصرتم أصنافا ثلاثة كافرين مبعدين عن الرحمة • ومؤمنين فاضلين مؤيدين ، ومؤمنين مفضولين موحدين •

وأما اعراب (اذا رجت) فقال ابن جني وأبو الفضل الرازي ان قوله اذا رجت في موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ الذي هو اذا وقعت ، وليست واحدة منهما شرطية ، بل هي بمعنى وقت أي وقت وقوع الواقعة وقت رج الارض • وادعى ابن مالك أن اذا تكون مبتدأ واستدل بهذه الآية على ذلك • وقال ابو حيان : هو بدل من اذا وقعت وجواب الشرط عندي ملفوظ بـه وهو قوله فأصحاب الميمنة ، والمعنى اذا كان كذا وكذا فأصحاب الميمنـة ما أسعدهم وما أعظم ما يجازون به • أي أن سعادتهم تظهر في ذلك الوقت ولك أن تقول ان الخبر المحذوف هو : فالناس أصناف ثلاثة : السابقون ، وأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ثم يفصل أحوال كل صنف منهـا • وقوله (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، واصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة) تفصيل للأصناف الثلاثة • وقوله (فأصحاب الميمنة) مبتـدأ أول وقوله ما أصحاب الميمنة كلمة ما مبتدأ ثان وهي للاستفهام ، وما بعدهـا خبرها ، والجملة خبر للمبتدأ الاول اكتفى عن الرابط بتكرار المبتدأ الاول • وهذا التكرار للاهتمام والاعتبار ، أي فأصحاب الميمنة صنف مهم معتبـر عند الله اعتبارا لائقا بدرجاتهـم • وكذلك اعراب قوله تعالـى (وأصحاب المشئمة ما اصحاب المشئمة) • أي وأصحاب المشأمة صنف لا اعتبار لهم عند الله • والميمنة : ناحية اليمين بمعنى أخذ الكتاب باليد اليمنى ، أو معناها اليمن والبركة • والمشأمة ناحية الشمال بمعنى أخذ الكتاب باليد الشمالية أو معناها الشؤم مقابل اليمن •

وقوله تعالى (والسابقون السابقون) أولئك المقربون هذا الصنف هو الصنف الثالث في العبارة ، ولكنه هو الصنف الاول في الاعتبار ، وذكرهم أخيرا حتى يتصل ببيان أحوالهم العالية ، وأثمانهم الغاليـة ، وأوصـافهم الحميدة ، واختصاصاتهم الفريدة • وأما المراد منهم فقال بعض : هم الذين

سبقوا الى الايمان والطاعة لله ولرسوله من غير تردد واضطراب • وقيل : هم الذين سبقوا في حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الايمان • وقيل : هم الانبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ لانهم مقدمو أهل الأديان • وقيل : هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار •

والظاهر من الادلة أن هذه الاصناف اذ اعتبرت من جميع العباد المكلفين فهم الانبياء والرسل الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وان كان من أمم الانبياء ففي كل أمة واسعة توجد الاصناف الثلاثة ، ولكن أكثر الامم عددا أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والسابقون منهم عبارة عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب فعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا » رواه الترمذي بسند حسن ، ويشمل السابقون بهذا المعنى السابقين من المهاجرين والانصار وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين • وقوله (في جنات النعيم) متعلق بالمقربون ، أو بمضمر هو حال من نائب فاعله أي كائنين في جنات النعيم الممتازة بين الجنات بلطائف الاحسان •

وقوله (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) إن كان على اعتبار السابقين من أمم جميع الانبياء والمرسلين فالمعنى ان السابقين هم ثلة من الاولين من كل أمة وقليل من آخريها • يعني أن كل أمة فيها السابقون المقربون ، لكن الأوائل منها أكثر وفي أواخرها اقل ، فمثلا في امة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكون السابقون في القرون الاولى من قرونها ، كقرون الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أكثر وأزيد من السابقين الموجودين في أخريات أمته ، فان كل مسلم عاقل يؤمن بأن الصحابة والتابعين لهم مباشرة

كانوا أنور من باقي الامة الموجودة بعدهم ، والموجود من السابقين بعدهم آحاد من العلماء العاملين والاولياء والصالحين •

وان اعتبرت الاصناف الثلاثة من أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما يوافقه ظاهر الخطاب في قوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلثة) فالسابقون أكثرهم في القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية ، وأقلهم في من جاء بعدهم • وقوله (على سرر موضونة) حال من المقربين ، يعني حالكونهم على سرر محكمة منسوجة بخيوط ذهبية مشبكة بالدرر واليواقيت (متكئين عليها متقابلين) ينظر بعضهم الى بعض • وهذا عند الزيارات أو أن التقابل بين الذكور من أهل جنات النعيم وأزواجهم من الحور العين وغيرهن ، والجمع المذكر للتغليب ، أي يقابل الرجال النساء من الحور والنساء الرجال لاستكمال العشرة النفسية واللذة الروحية من النظر الى جمال الصاحب والصاحبة (يطوف عليهم ولدان مخلدون) أي يبقون على شكل الولدان وأولئك الولدان هم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ فانه اشتهر أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قال « أولاد الكفار خدم أهل الجنة » وهذا هو الموافق للادلة الدينية فان أولاد المسلمين لا يفارقون آباءهم وأمهاتهم في الجنة اذ لا يطيب العيش بدون لقاء الاولاد والبنات • وأما أولاد الكفار فآباؤهم في النار لسوء الاعتقاد والاعمال والاولاد الصغار ما وصلوا درجة التكليف حتى يعذبوا فيجعلون خدما لأهل الجنة (بأكواب) بأواني لاعرى لها ولا خراطيم (وأباريق) جمع ابريق ، وهو اناء له خرطوم (وكأس من معين) أي من خمرٍ جارية من العيون ، أي لم تعصر كخمر الدنيا (لا يصدعون عنها) أي حالكونهم لا يحصل صداع لرءوسهم بسبب شربها (ولا ينزفون) أي ولا تذهب عقولهم ، جمع المذكر الغائب من باب الإفعال من أنزف الشارب اذا ذهب عقله •

(وفاكهة مما يتخيرون) أي ياخذون خيره وافضله (ولحم طير مما يشتهون) مما تميل نفوسهم اليه وترغب فيه • وقوله (وحور عين) عطف على ولدان أي وتطوف عليهم حور عين • وعين جمع عيناء ، وأصله عين على وزن فعل فكسرنا فاء الفعل حتى لا تقلب الياء واوا ، وتلتبس اليائي بالواوي، وهن (كأمثال اللؤلؤ المكنون) أي كأمثال اللؤلؤ المستور في صفائها ولمعانها (جزاء بما كانوا يعملون) مفعول له لفعل محذوف أي يعطون ذلك جزاء بما كانوا يعملونه من الاعمال الصالحة في الدنيا • (لا يسمعون فيها لغوا) أي كلاما لا يعتد به من العقلاء (ولا تأثيما) أي كلاما فيه النسبة الى الاثم ، أو التأثيم التجريح ، يعني لا يسمعون كلاما فيه جرح وألم لقلوبهم ، لان الجنة دار الصفاء لا دار الجفاء وقوله (الا قيلا سلاما سلاما) مستثنى مما قبله على قاعدة تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أي ان كان سلاما سلاما كلاما فيه التأثيم وأنى ذلك ! هذه النبذة نموذج من أحوال السابقين •

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ؟(٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ(٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ(٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ(٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ(٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ(٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً(٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً(٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً(٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ(٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ(٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ)(٤٠)

ثم شرع في بيان أحوال الصنف الثاني أي أصحاب اليمين فقال (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) أي لهم شأن رزين (في سدر مخضود) أي هم في سدر مخضود لا شوك فيه ، أو مثنى مفتول بعض أغصانه الدقيقة

ببعض (وطلح منضود) وشجر موز متراكم الثمار فتلصق بعضه ببعض (وظل ممدود) منبسط لا انقباض فيه ولا يزول (وماء مسكوب) أي جار من غيرأخاديد تجري بقدرته تعالى على ما يرام بدون الشق في الارض (وفاكهة كثيرة) أنواعا وأصنافا وأشخاصا (لا مقطوعة) في وقت من الاوقات (ولا ممنوعة) عمن يريد التفكه بها (وفرش مرفوعة) اما جمع فراش بمعنى البسط ، أي ساكنين في فرش متراكمة بعضها على بعض فترتفع وتعلو ، واذا قعد عليها شخص يغور فيها لنعومتها ، أو كنى بالفرش عن الحور كما يستعمل الفراش عند العرب للمرأة التي تحت تصرف صاحبها بالوجه المشروع وهذا أنسب بما بعده من قوله (انا أنشأناهن إنشاء) لعود الضمير الى الفرش ، واما على الاول فلابد من اعادتها الى ما يستفاد من المقام أي الحور ذوات الفرش المبسوطة ، أي انا خلقناهن خلقا إبداعيا بلا أصل يتفرع عنه (فجعلناهن أبكارا) تفسير لما سبق أي أبدعناهن باكرات غير مطموثات (عربا) جمع عروب كصبور وهي المتحببة الى زوجها جدا (أترابا) متساويات في السن ، وسره أن لا تفتخر احداهن على الاخرى بشيىء من المميزات (لأصحاب اليمين) متعلق بأنشأناهن ، أي خلقناهن لهم .

(وأَصحابُ الشِّمَالِ ما أَصْحابُ الشِّمَالِ (٤١) في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ ولا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وكانُوا يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العَظِيمِ (٤٦) وكانُوا يَقُولُونَ أئِذا مِتْنَا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أَإِنَّا لَمَبعُوثُونَ ؟ (٤٧) أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ : إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ

مِنْ زَقُّومٍ(٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ(٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ)(٥٦)

وقوله (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) أي في حالة يرثى لهم فيها لأنهم (في سموم) أي في الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم وتنضج الجلد وتحرقه (وحميم) أي وفي ماء حار يقطع الامعاء عند الشرب (وظل من يحموم) أي من دخان أسود • وعن ابن عباس أنه سرادق النار المحيطة بأهلها (لابارد) يستريح به القاعدتحته، (ولاكريم) نافع كسائر الظلال الاعتيادية• (انهم كانوا قبل ذلك) الحلول في العذاب عندما كانوا في الدنيا (مترفين) أي متبعين هوى أنفسهم غير مهتمين بأوامر قدسهم (وكانوا يصرون) ويستمرون (على الحنث العظيم) أي على الذنب العظيم الذي لا يساويه ذنب (وكانوا يقولون : أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟) من القبور ونحشر ونحاسب ونساق الى دار الجزاء (أو آباؤنا الأولون ؟) همزة الاستفهام داخلة على واو العطف أي أنبعث نحن وآباؤنا الأولون الأقدمون الذين مرت عليهم الاحقاب والقرون ؟

(قل) انتقال من حكاية الاحوال التي ستقع في الآخرة وتعليلها بأقوالهم السابقة في الدنيا ، الى استحضار الصورة الحالية للكافرين المماثلة لاولئك الكفار المنكرين للبعث فيقول تعالى قل يارسولي لهم (ان الاولين والآخرين) من الامم سابقها ولاحقها منكم ومن غيركم (لمجموعون) بعد البعث (الى ميقات يوم معلوم) والميقات ما وقت به الشيء أي حدّ ، وضمن المجموع معنى السوق ولذا عدي بإلى أي كلهم مجموعون للسوق الى ميقات وهو يوم معلوم للاجتماع وبعد ذلك الميقات لايبقى السوق لحلول وقت الحساب مع

المجموعين • ويحتمل أن تكون كلمة الى بمعنى في أي لمجموعون في ميقات يوم معلوم (ثم انكم أيها الضالون) طريق السعادة (المكذبون) بمن يستحق الطاعة والعبادة (لآكلون من شجر من زقوم) أي بعد نهاية الحساب ودخولكم جهنم معذبون في النار وآكلون من شجر من زقوم ، من الاولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر أي مبتدئون للاكل من شجر هو زقوم ، وذلك لشدة الجوع • (فمالئون منها البطون) أي بطونكم (فشاربون عليه) لشدة العطش (من الحميم) أي الماء الحار جدا (فشاربون شرب الهيم) جمع هيماء ، وكسرت فاء الفعل حذرا من قلب الياء واوا والالتباس لليائي بالواوي (هذا نزلهم يوم الدين) أي هذا المذكور نزلهم يوم الدين أي طعامهم المعد لهم لاستهلاكه يوم الدين ، أي يوم جزاء الاعمال وهو يوم القيامة •

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ(٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ؟(٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟(٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ، وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لا تَعْلَمُونَ(٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى ، فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ؟(٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ ؟(٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟(٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ؟ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ؟(٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ(٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟(٧١)

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)(٧٤)

قوله تعالى (نحن خلقناكم) تحويل الكلام من الغيبة الى الخطاب على الالتفات أي نحن خلقناكم من نطفة وطورناها أطواراً مختلفة فيها أعمال دقيقة تتحير فيها عقول المتفكرين حتى وصلتم الى هذه الحالة المناسبة لتصديق الباري ورسله في بيان حقيقة سُبُله ، وكان الواجب أن تصدقوا بوجوده ووحدته وعلمه وقدرته (فلولا تصدقون) بذات الواجب الوجود المنعوت بصفات الكمال (أفرأيتم ما تمنون) أي ما تقذفونه من النطفة في الأرحام (أأنتم تخلقونه) وتجعلون له العظم والعصب واللحم والجلد وسائر ما يحتاج اليه من لوازم البشر (أم نحن الخالقون ؟) نحن قدرنا بينكم الموتَ أي لاشك ولا شبهة في أنا نحن الخالقون فخلقناكم لتعلق الارادة به ، وكما خلقناكم (نحن قدرنا بينكم) أي حددنا بينكم زمان (الموت) بأجل معلوم عندنا لا يقبل التغير والتبدل آنا (وما نحن بمسبوقين) أي مغلوبين وعاجزين وغير قادرين (على أن نبدل أمثالكم) أي أوصافكم جمع مثل بفتحتين بمعنى الوصف وذلك بإعادتكم وإحيائكم بالبعث من القبور مع تبدل الاوصاف فانكم كنتم شاكين في البعث بعد الموت ، وشاكين في قدرة الله تعالى على ذلك، وشاكين في انشاء عالم آخر للحساب والميزان وجزاء الايمان والكفر والطاعة والعصيان ، وفي ذلك اليوم يحصل لكم العلم بكل ما أنكرتموه (وننشئكم فيما لا تعلمون) أي ونعيدكم في وضع وحالٍ وصفاتٍ ما كنتم تعلمون بها سابقا قطعا .

ويجوز أن تكون الامثال جمع مثل على وزن حبر بمعنى الشبيه والمثيل، يعني وما نحن بمسبوقين وعاجزين عن أن نبدل بكم أمثالكم أي نذهب بكم ونأتي بقوم آخر من البشر أمثالكم في الذات والصورة ، ومخالفين في الصفات والسيرة فنأتي بدل الكافرين بمسلمين وبدل المتكبرين المترفهين بالمتواضعين ، وبدل الظالمين بالعادلين ، وبدل الفاسقين بالصالحين المتقين على وزن قوله تعالى (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) في الصفات عينها ، وننشئكم في ما لا تعلمون من الاحوال اذ كنتم أعزة فتكونوا أذلة وكنتم سادة أمراء فتكونوا عبدة مأمورين ، وكنتم بطرين مترفين مترفهين فتكونوا معتدلين مكتفين متوسطين وهذا هو الذي رأيناه ونراه في طبقات الامة البطرة حيث تبدلت بالامة المفتقرة • (ولقد علمتم النشأة الاولى) أي ولقد علم أهل العقل والانصاف منكم الخلق الاول لآدم من تراب ، ولنسله من نطفة متطورة (فلولا تذكرون ؟) أي تتفكرون أن من قدر على النشأة الاولى قادر على النشأة الاخرى بل أسهل وأحرى لوجود بعض المواد الاساسية في النشأة الاخرى دون الاولى • وهذه الآية حجة على اثبات أنه قادر على أن يبعث الموتى • وتقريرها : الله قادر على النشأة الاولى ، وكل قادر على النشأة الاولى فهو قادر على النشأة الاخرى •

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أصنافا من المخلوقات وسأل عمن أبداها ليتبين الجواب ويتعين به الصواب، وهو أن الله هو القادر المجيد والفعال لما يريد فقال (أفرأيتم ما تحرثون ؟) أي ما تبذرون حبه وتنشرونه في تربة الارض الفاشية (أأنتم تزرعونه ؟) أي تنبتونه وتجعلونه نباتا خارجا من التراب مخرجا لأشطاء الى أن يستوي فينتج الحب وينعقد ويستفاد منه (أم نحن الزارعون) المنبتون له ؟ (لو نشاء) إضاعته (لجعلناه حطاما) أي هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه (فظلتم تفكهون) تتعجبون من سوء حاله • وقال

بعض تتندمون على ما أنفقتم فيه قائلين (انا لمغرمون) أي معذبون مهلكون من الغرام بمعنى الهلاك (بل نحن محرومون) من الرزق ومن محصولات الزراعة (أفرأيتم الماء الذي تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن ؟) أي من السحاب (أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء) تغيير طعمه بحيث لا يكون قابلا للشرب (جعلناه أجاجا)ملحا مرا لا يمكن شربه لإحراقه الفم واللهاة والحلقوم (فلولا تشكرون) على نعمة ابقائه على طعمه المعتدل المرئي (أفرأيتم النار التي تورون) أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد (أأنتم أنشأتم شجرتها) التي منها الزناد وهي المرخ والعفار (أم نحن المنشئون ؟) لها بقدرتنا (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أي نحن جعلنا النار التي تورونها تذكرة لنار جهنم ومتاعا يتمتع بها للمقوين أي للذين ينزلون القواء وهي المحل القفر الخالي من الناس • وفي الحقيقة صارت النار وسيلة من وسائل المحركات الموصلة للانسان الى المقاصد ، حيث تتحرك السيارات في الارض ، والطيارات في الجو ،والبواخر في البحر ••• ومنها يحصل التمتع بالمآكل التي تحتاج الى الطبخ والقلي والشي ، وفيها فوائد أخرى ، ولما علمت أن هذه المنافع البديعة العجيبة ناتجة من خلقه وقدرته تعالى (فسبح باسم ربك العظيم) نزه وبعد اسم ربك عن أن تذكر معه شيئا آخر بل انسب الآثار كلها اليه ، وتوكل عليه ، وكل خير أو شر عائد اليه ، فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم •

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ؟ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ

الحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ)(٩٦)

قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم) قالوا : إن حرف النفي زائدة ، والمقصود أقسم بمواقع النجوم بدليل (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) وقال بعض : انها ليست زائدة • والمعنى فلا أقسم بمواقع النجوم على أن الكتاب المنزل عليك كتاب كريم لان المقسم به واضح جدا وظاهر غاية الظهور فلا حاجة الى تأكيده بالقسم • والمراد بالمواقع مواقع أقساط الآيات المنزلة من اللوح المحفوظ ، لان الله سبحانه كما خلق سطورها في اللوح كذلك ميز كل نجم نجم منه وعين للنزول في وقته الخاص• ومواقعها اما محلها الذي نقش فيه القسط من الآيات أو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجمع الذي نزلت الآيات لاستفادتهم منها ، أو مواقع النجوم السماوية ، أي مغاربها عند الافول، فان في أفولها رهبة وهيبة ووحشة في قلوب الناس ، واما مواقعها في العالم حين انتشرت ، واما مواقعها عند رجم الشياطين في السماء ، واما بروجها ومنازلها المعينة في السماء على ما ذكره علماء الهيئة ، وأهميتها بالنسبة الى دلالتها على آثار (وانه لقسم لو تعلمون عظيم) أي وان القسم بمواقع النجوم قسم عظيم

لوجود أسرار كثيرة في المقسم به تدل على عظمة خالقها (انه لقرآن كريم) أي ما أنزل عليك لقرآن كريم (في كتاب مكنون) أي مستور عن العيون لا ترى بالعين المجردة ، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ (لا يمسه الا المطهرون) أي لا يمس ذلك الكتاب أو محله الا المطهرون من الارجاس والاقذار وهم الملائكة في أطراف اللوح ، والمتطهرون المتنظفون من الحدثين في الارض (تنزيل) أي متنزل أو ذو تنزيل (من رب العالمين) أي أن رب العالمين نزله الى حبيبه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو هدية أهديت اليه والمهدي يحفظ هديته عن المعارضات الى أن يصل الى المهدى اليه .

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ؟) أي أفبهذا الكتاب الجليل الذي أنزل لإفادة الخير أنتم مدهنون أي متهاونون (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) به بدل أن تصدقوا به وتستفيدوا منه (فلولا اذا بلغت) أي النفس (الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) الى الشخص المحتضر (ونحن اقرب اليه منكم) علما وقدرة وعلاقة (ولكن لا تبصرون . فلولا) تأكيد لولا الاولى (ان كنتم غير مدينين) أي غير مغلوبين وغير مقهورين (ترجعونها) أي ترجعون النفس الى مقرها الاول (ان كنتم صادقين) في اعتقادكم واسنادكم نحو هذه الامور الى غير الله تعالى . والحاصل أن المحضض عليه بلولا الاولى هو ترجعونها ، ولولا الثانية تأكيد للاولى ، وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط . والمعنى ان كنتم غير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته ان كنتم صادقين في تعطيلكم فلولا ترجعون الارواح الى الابدان بعد بلوغها الحلقوم .

وقوله (فأما ان كان من المقربين) شروع في بيان أحوال المتوفى أي فان كان المتوفى من المقربين عند الله السابقين في الحسنات (فروح وريحان) أي فله راحة وشميم ريحان لدماغه في البرزخ (وجنت نعيم) في الآخرة (واما

ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) أي فيقال له سلام من الله لك وأنت من أصحاب اليمين (وأما ان كان من المكذبين) بالله ورسوله (الضالين) عن الصراط المستقيم (فنزل من حميم) أي فله في الاخرة طعام مهيأ كنزل الضيف وذلك من حميم أي الماء الحار (وتصلية جحيم) أي ادخال له في الجحيم (ان هذا) المذكور بأصنافه (لهو حق اليقين) أي لا شك ولا شبهة فيه .

واليقين هو بالمعنى العام من التصور والتصديق اسم للعلم المجرد عن الالتباس والشبهة ، وبالمعنى الخاص بالتصديق هو التصديق الجازم الثابت المطابق للواقع . فغير المطابق للواقع جهل مركب ، وغير الثابت اعتقاد عند الاصوليين ويسمى تقليدا عند المنطقيين . وأما غير الجازم فهو ظن ، وقد يضاف اليه العين فيقال : عين اليقين ، أو العلم فيقال علم اليقين ، أو الحق فيقال حق اليقين ، بمعنى اليقين الواقعي لا في الزعم . ومنهم من فرق بينها فيقول عين اليقين عبارة عن يقين حصل من استعمال الحواس كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وعلم اليقين ما استفيد منه بدون استعمال الحواس . وهذان الصنفان ينفكان عن الانسان بعدم استعمال الحواس وعدم الاستدلال في النظريات والنسيان في البديهيات . وأما حق اليقين فهو علم يقيني ضروري الوجود لا ينفك عن صاحبه كالعلم بوجود نفسه فتأمل (فسبح باسم ربك العظيم) يعني فنزهه بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمة شأنه . أخرج الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حيان والحاكم وصححه ، وغيرهم عن عقبة ابن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فسبح باسم ربك العظيم) قال اجعلوها في ركوعكم . ولما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال اجعلوها في سجودكم .

سورة الحديد ، مدنية وآياتها تسع وعشرون
نزلت بعد الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لِلهِ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ(٢) هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ ، وَالظَّاهِرُ والْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الأَرْضِ ، وَما يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ ، وَما يَعْرُجُ فِيها ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ ، وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ ، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)(٦)

قوله تعالى (سبح لله ما في السماوات والارض) التسبيح تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أضداد الصفات الثبوتية والسلبية المسندة الى الله من :

الوجود ، والقدم ، والوحدة ، والبقاء ، ومخالفة الحوادث ، والاستغناء عما سواه ، والحياة ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام. وقال الجمهور : المراد بالتسبيح معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح العقلاء من الملائكة والثقلين ، أو لسان الحال كتسبيح الحيوانات والنباتات ، فانها تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص .

وذهب بعض الى أن التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع ، لانها فيها مبدأ لذلك التسبيح وان لم يكن الناس يفقهونه ، ويدل على ذلك تسبيح الحصى في كفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(وهو العزيز) الغالب الذي لا يغلب (الحكيم) الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة . (له ملك السموات والارض) أي سلطة التصرف فيهما كيف شاء لأنه الخالق لهما ، والخالق متصرف في مخلوقه (وهو على كل شيء) من الاشياء قدير بالغ القدرة لا يمنعه شيء (هو الاول) أي السابق على كل موجود (والآخر) الباقي بعد كل موجود بالنظر الى ذاتها وان كان بعضها بالنظر الى تعلق ارادة الباري بوجوده باقيا أيضا كالجنة والنار ، ومن فيهما (والظاهر) بآثاره ووجوده (والباطن) بكنهه وحقيقته (وهو بكل شيء عليم) .

(هو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام) أي في مقدار يساوي مقدار ستة أيام ، سواء كانت كأيامنا ، أو على ما قاله سبحانه (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (ثم استوى على العرش) بالمعنى الذي أراده الحي القيوم (يعلم ما يلج في الارض) كالبذور (وما يخرج منها) كالزروع (وما ينزل من السماء) كالامطار (وما يعرج فيها) كالملائكة بالليل والنهار

(وهو معكم أينما كنتم) معية علمية واقتدارية (والله بما تعملون بصير) يبصر حركاتنا وسكناتنا (له ملك السماوات والارض ، والى الله ترجع الامور) فقط ولا علاقة لها بغيره استقلالا أو اشتراكا (يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور) أي بما فيها من الامور .

(آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ(٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ باللهِ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟(٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ، وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٩) وما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَللهِ مِيرَاثُ السَّماواتِ وَالأَرضِ ؟ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَلَ ، أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وكلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنى ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٠) مَنْ ذا الذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ؟(١١) يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ يسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ : بُشْرِيكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ)(١٢)

قوله تعالى (آمنوا بالله ورسوله) أي اسعوا واجتهدوا وانظروا في الآيات النفسية والآفاقية وفي المعجزات حتى يظهر لكم الحق فآمنوا بالله

الاول والاخر والظاهر والباطن ، وبرسوله لأن الإيمان به يوجب بلوغ الحق وقبوله ونفوذ أحكام الدين (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين) أي من المال الذي جعلكم الله خلفاء عنه في التصرف (فيه) أو خلفاء عن المورثين ، أو الجيل السابق وتركه لكم ، فان الدنيا دولة ولكل جيل صولة (فالذين آمنوا منكم) بالله ورسوله (وأنفقوا) حسبما أمروا به (لهم أجر كبير) لا يعلمه الا الله ثم استفهم استفهاما تعجبيا وقال : (ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول) الصادق الامين المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الواضحات (يدعوكم) جميعا (لتؤمنوا بربكم) الواحد الاحد الفرد الصمد (وقد أخذ ميثاقكم ؟) أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالايمان من قبل بنصب الادلة النفسية والآفاقية وتمكينكم من النظر ، أو أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأشهدكم على أنفسكم بالاعتراف بأن الله ربكم . أو أخذ الميثاق من أبيكم آدم حين أهبطه الى الارض وقال : (قلنا : اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدىً ، فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم) أو أخذ الميثاق من النبيين جميعا بتوصيتكم بالسير في طريق الحق كما قال (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ...) الآية . ولا شك أن كل رسول وصى بما أمر به . فقد روي عن الإمام أحمد ــ رضي الله عنه ــ عن عبادة بن الصامت ــ رضي الله عنه ــ بايعنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم . وقوله (ان كنتم مؤمنين) شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله والمعنى ان كنتم مؤمنين لموجب ولدليل دل عليه ولداع يدعوكم اليه فالرسول الصادق وتبليغه للحقائق أكبر موجب وأكبر داع لكل إنسانٍ فاهم راعٍ واعٍ .

(هو الذي ينزل على عبده آيات بينات) واضحات (ليخرجكم من الظلمات الى النور) أي ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والعصيان وسوء أخلاق الانسان الى نور العلم والايمان والاطاعة والاخلاق الحسان (وان الله بكم لرءوف رحيم) ولذلك أرسل اليكم الرسول الكريم (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله) أي وأي نفع يحصل لكم في عدم انفاقكم في سبيل الله أي في سبيل استحصال مرضاته في الدنيا والآخرة وكل ما تركتموه لا يصل اليكم منه شيء الا ما قررتم أن يصرف بحيث تنتفعون به (ولله ميراث السماوات والارض ؟)والكائنات كلها عائدة اليه وتبقى له ومنافعها مربوطة بصرفكم وانفاقكم لها في ما يوجب مرضاته تعالى (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح) أي فتح مكة (وقاتل) في سبيل اعلاء كلمة الحق (أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد) أي بعد الفتح (وقاتلوا) لأن الجهاد في ضيق العباد أنفع منه في وقت السعد والراحة (وكلا) من الجمعين (وعد الله الحسنى) أي المثوبة الحسنى ، وهي الجنة ولقاء ذاته تعالى (والله بما تعملون خبير) فيجازيكم بما تستحقونه وان تك حسنة يضاعفها . والآية نزلت في أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فانه أول من آمن وأنفق في سبيل الله ، وخاصم الكفار ، وضرب حتى أشرف على الهلاك .

(من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) والقرض الحسن أن يكون خالصا لله بدون طلب مقابل مادي أو معنوي (فيضاعف له) أي فيؤتيه مقابله بالمضاعفة كما يشاء (وله أجر كريم) أي وذلك الاجر المضاعف أجر كريم محترم مرضي عند الله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) اما ظرف لقوله وله أجر كريم أو لـ (يسعى نورهم) أي حصل لهم أجر كريم عند الله تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات حالكونهم (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم). روى الحاكم وصححه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال يؤتون نورهم

على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه ، يُطفأ مرة ويتقد أخرى • وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط ، وقال بعضهم : يكون قبل ذلك ويستمر معهم اذا مروا على الصراط وفي الاخبار ما يقتضيه • والمراد أنه يكون لهم النور في جهتين : جهة الامام ، وجهة اليمين • على ميزان إيتاء كتب الاعمال منهما وبسبب ايمانهم يقال لهم (بشريكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ، ذلك) هو (الفوز العظيم) لان السعادة والفوز هو الفوز الخالد المؤبد ، فان الخير المؤقت المحدد كاللاشيء عند من له شيء من الإدراك •

(يَوْمَ يَقولُ المنافِقونَ والمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنوا : انْظُرونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ : ارْجِعوا وَراءَكُمْ فالْتَمِسُوا نوراً ، فضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ ، باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ(١٣) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قالُوا : بَلى ولكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أنْفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُمْ وارتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ الأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أمْرُ الله ، وغرَّكُمْ بِالله الغَرورُ(١٤) فالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ولا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مأويكُمُ النّارُ ، هي مَوْليكُمْ وبِئْسَ المَصِيرُ(١٥) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِين آمَنوا أَنْ تَخْشَعَ قُلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ، وَلا يَكُونُوا كالذِينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلوبُهُمْ وكَثِيرٌ مِنهُمْ

فَاسِقُونَ ؟(١٦) إعْلموا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(١٧)

قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات) بدل من (يوم ترى) وأصل الاقتباس أخذ القبس أي الجذوة يعني يقول المنافقون والمنافقات على سبيل الترجي والابتهال عندما وقعوا في ظلمات لا يرون فيها ما أمامهم للمؤمنين الذين نورهم يسعى في جانبهم انظروا الينا لعلنا نستفيد النور من مواجهتكم ونقدر أن نعبر على الصراط فأتاهم الجواب من المؤمنين و (قيل) لهم : (ارجعوا وراءكم) أي من حيث جئتم من الظلمة أو الى المكان الذي قسم فيه النور (فالتمسوا نورا) هناك (فضرب بينهم) أي بين الفئتين من أهل النفاق وأهل الايمان بسور له باب أي بحاجز عالٍ له باب (باطنه) الذي يلي مكان المؤمنين (فيه الرحمة) والرضوان اذ هناك الجنة وفيها ما ذكر (وظاهره) الذي يلي مكان أهل النفاق والكفر (من قبله العذاب) أي من جهته العذاب • وقوله (ينادونهم) استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فماذا يفعلون بعد ضرب السور ؟ فقال ينادونهم ، أي ينادي أهلُ النفاق أهل الايمان (ألم نكن معكم ؟) في الدنيا (قالوا : بلى) فقد كنتم معنا (ولكنكم فتنتم أنفسكم) فخنتموها بالنفاق وأهلكتموها (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر والدمار (وارتبتم) وشككتم في أمور الدين (وغرتكم الاماني) أي الاهواء الفارغة الباطلة ومن جملتها الطمع في هلاكنا (حتى جاء أمر الله) أي الموت (وغركم بالله الغرور) وهو الشيطان • (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) بأن تبذل لحفظ النفوس عن العذاب والعقاب (ولا من الذين كفروا) ظاهرا وباطنا (مأواكم النار هي مولاكم) وناصركم (وبئس المصير) النار ، وبئس النصير النار •

ولما استعرض هذا الموضوع وهو ما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي فاختة يجمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة ، ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتي الله تعالى كل مؤمن منهم نورا ويؤتى المنافقين نورا ، فينطلقون جميعا متوجهين الى الجنة معهم نورهم ، فبينما هم كذلك اذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين ، فيترددون في الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فيقولون انظرونا نقتبس من نوركم الى آخر ما حكاه الباري تعالى • والاخبار في ايتاء المنافق نورا ثم اطفائه كثيرة ، وليس في الآية ما يأباه •

أقول : ولما استعرض الباري أحوال المنافقين والكافرين المجاهرين بالكفر ومصيرهم يوم القيامة •• التفت الى وعظ المؤمنين وارشادهم مع توبيخ ما وقال : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) عز وجل (وما نزل من الحق) أي القرآن الكريم الصادق الثابت الموجه للعباد الى الرشاد (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) أي قبل نزول القرآن (فطال عليهم الامد) أي الأجل بطول أعمارهم (فقست قلوبهم ؟) صلبت كالحجارة أو أشد (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن حدود دينهم •

(اعلموا أن الله يحي الارض بعد موتها) ويبعث الانام بعد مماتها (قد بينا لكم الآيات) الوعدية والوعيدية (لعلكم تعقلون) وتفهمون مناط الاحكام وتعلمون أن من خرج عن سبيل الله تعالى استهواه الشيطان ، وأن من استقام فهو في ظل الرحمن •

(إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ، وَلَهْوٌ ، وَزِينَةٌ ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(٢٠) سَابِقُوا الى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)(٢١)

قوله تعالى (إن المصدقين والمصدقات) كلمة أل فيهما موصولة أي ان الذين تصدقوا ، واللاتي تصدقن ، فيناسب عطف (أقرضوا) أي ان الذين تصدقوا والذين (أقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم) أي يضاعف الثواب لجميعهم (ولهم أجر كريم) أي عظيم لا يقدر قدره (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) أي أولئك عند ربهم عز وجل وفي حكمه سبحانه بمنزلة الصديقين والشهداء ، أو المراد بالصديقين المبالغون في الصدق لأنهم آمنوا بالله وصدقوا جميع رسله الكرام ، وبالشهداء القائمون بالشهادة على الامم يوم القيامة ، أو تبقى الآية الكريمة على ظاهرها ، ولكن

يحمل قوله تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله) على من لهم كمال في الايمان بالله ورسله ، ولا يتحقق ذلك الا بترك المحرمات وفعل الطاعات والابتعاد عن الشهوات ، لان رتبة الصديقين والشهداء لا ينالها كل من دخل في الايمان بدون طاعات وسيرة مباركة تصدق ايمانه وتشهد على كرامته عند ربه ، واذا كانوا كذلك يستحق أن يقال فيهم أولئك هم الصديقون والشهداء (لهم أجرهم ونورهم) يوم القيامة ويمرون على الصراط بسلامة وكرامة ، ومع ذلك لابد أن يقال انهم وان كانوا صديقين وشهداء ولهم أجرهم ونورهم ، لكن درجاتهم دون درجاتهم بدليل قوله تعالى (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) وأمثالها من الآيات المميزة بين الناس في مجال الايمان والاعمال •

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أي الملازمون للسعير ونارها لان الكفر والايمان متقابلان في الذات ، فلا شك أنهما متقابلان في الآثار •

ولما استعرض الباري أحوال المؤمنين الصادقين والمنافقين والكافرين جهارا التفت الى المؤمنين وأرشدهم الى الزهد عن الدنيا وقال : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) أي لعب لا ثمرة له ، ولهو يشغل الانسان عما يعنيه (وزينة) أي وتزين بأشياء لا يحصل منها شرف ذاتي كاللباس والجاه والمال والبيوت الرفيعة (وتفاخر بينكم) بالأنساب (وتكاثر) بالعدد والعُدد (في الاموال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لحسنه ونضارته (ثم يهيج) أي يتحرك الى أقصى ما يصل اليه من الزيادة في الاقطار والنضارة في الاوراق والأوراد (فتراه) بعد مدة (مصفرا) بعد النضارة والخضارة (ثم يكون حطاما) أي هشيما متكسرا (وفي الآخرة عذاب شديد) لمن كفر بالله ورسوله ، ولم يهتم بالعمل الصالح ووصوله (ومغفرة من الله ورضوان) لمن

آمن بالله حق الايمان وعمل صالحا خالصا لله (وما الحياة الدنيا) لمن لم يراعها (الا متاع الغرور) .

(سابقوا) أيها المؤمنون (الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض) أي كعرضها جميعا لو اتصل أحدهما بالآخر (أعدت) وهيئت (للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) الذي لا يعلم مقداره غيره ، أو فضله لا يتناهى حتى ينظر اليه بنظر الجهالة والجحود .

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتِيكُمْ ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ(٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)(٢٤)

وقوله تعالى (ما أصاب من مصيبة) ترجيه العباد المؤمنين الى الاستقامة مع الأقدار ، والصبر مع الأكدار لا بمعنى أن يبقى الانسان مكتوف الايدي لا يعمل ولا يدافع ، بل بمعنى أن الحوادث كثيرة وفيرة لا يمكن مدافعتها ولا معالجتها ، بل بعد الجهد في الاسباب قبل الورود ، وفي الدفع قبل النزول، وفي الرفع بعد الحصول اذا بقي شيء منها وجب على الانسان أن يتلقاها برحب الصدر ، ويقابلها بقوة الصبر ، فان الصابر مأجور فقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة) حادثة تؤلم الإنسان (في الارض) كجدب وعاهة في الزرع والثمار ، وحشرات ظاهرة في الارض ، أو هائجة على الاوطان (ولا في أنفسكم) من المرض والعاهة وقلة المال وضيق البال وموت الاولاد والاقارب وهجر

الاوطان ... وغير ذلك (الا في كتاب) مسطور (من قبل أن نبرأها) أي نخلق تلك المصيبة .

والمراد بالكتاب اما علمه تعالى الأزلي ، أو اللوح المحفوظ ، أو كتاب الاقدار والاعمال المرتبط بكل إنسان على حياله يعني انه قدر أن المصاب لم يباشر أسباب الوقاية ، ولم يستحصل موجبات الدفع أو الرفع من الاسباب المادية الاعتيادية أو الاسباب المعنوية من الصدقات والدعوات وغيرها ، فلذلك نزلت واستقرت . وهذا النوع من الاقدار مبرمة ، لانه اذا وقعت الواقعــة فليس لوقعتها كاذبة . وتبين أن الامر قد تقرر وصدر الامر بحدوثه ، وأما ما وفق الله الانسان لسده قبل وروده كأخذ الحذر والحيطة ، والوقاية منهــا ، والتحصن في القلاع وجمع الاقوات في المخازن والمحلات الخاصة، والتداوي .. وهذه كلها من الماديات . أو بالإحسان والصدقات والدعوات وما شاكلها من الصلح ، والمفاوضات ، وصرف المال ، والحال ... فهذه من الأمور التــي تعلق العلم بعدم نزولها . ويقال لها في العرف المعلقات ومباشرة أسبابها واجبة على العين أو الكفاية . وبما أنا لا نعلم الغيب ولا ندري ماذا نكسب غــدا وجب علينا السعي حسب علمنا بأسباب الوقاية كما قال تعالى (خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) فإن لكل شيء سببا أو أسبابا . والله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . وهــذا هو الظاهر من نصوص القرآن العظيم وسنة الرسول الكريم ، والغفلة والبطالة عن مباشرة الاسباب المادية أو المعنوية خلاف الشريعة السماوية وخلاف المقررات والمجرّبات البديهية ، فمن يقول بأن الدعاء لا ينفع والصدقة لا تفيد فهو كمن يقول ان التداوي لا يفيد ، وان الاكل لا يشبع ، وان الماء لا يروي ... وهذا جهالة صرفة . وما ورد في بعض السنن من ان النذور لا تدفع شيئا ولا تؤخر أجلا فمعناه أن

هذه الاشياء أسباب والاسباب ليست مؤثرة ، بل التأثير لذات الحق سبحانه وتعالى فهذه طريقة المسلمين فامشوا عليها واستقيموا •

(إن ذلك على الله يسير) أي ان ثبوت كل مصيبة في كتاب يسير على الله تعالى لا صعوبة فيه • وقوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) لكيلا تأسوا وتتأسفوا على ما فاتكم من الاموال والانفس (ولا تفرحوا بما آتاكم) لان الامور المقدرة المقررة يجب وقوعها وحدوثها وحصولها ، وعدم الأسى على ما فات ، وعدم الفرح بما هو آت وان كان من المصاعب الاعتيادية لكن الانسان العالم العاقل يقدر على أن يخفف قوة الأسف وشدته بالنظر في الدلائل النقلية المفيدة للأجر والدلائل العقلية الموجبة للصبر ، والنصوص الداعية لوجوب الشكر على النعم كي تبقى حتى يلقى • وقوله تعالى (إن الله لا يحب كل مختال فخور) تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال وذلك لا يناسب المؤمن بكل حال •

وقوله (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) بدل من كل مختال يعني أن المختال الفخور هو الذي يبخل وغالبا من عادات البخلاء أنهم يأمرون الناس بالبخل ؛ فهو سبحانه وتعالى لا يحب أولئك الناس الفاسدين الجامدين الذين لا يحصل منهم خير لغيرهم (ومن يتول) عن ارشادات الحق سبحانه وتعالى (فان الله هو الغني) عنه وعن غيره و (الحميد) المحمود في كل فعاله لا يهمه منهم شيىء أبدا •

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً

وإبْرَاهِيمَ ، وجَعَلْنَا في ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ(٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلى آثارِهِم بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وآتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رأْفَةً ، ورَحْمَةً ، وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ، ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوانِ اللهِ ، فَما رَعَوْها حَقَّ رِعَايَتِها ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ(٢٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتكم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨) لِئَلاَّيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ)(٢٩)

قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) بيان وبلاغ الى عقلاء الثقلين مفاده أنا أرسلنا رسلنا الى العباد للتنوير والارشاد (وأنزلنا معهم الكتاب) الهادي الى الصواب (وأرسلنا معهم الميزان) أي منهاج العدل في الاعتقاديات والعمليات في الاصول والفروع حتى يعيشوا سعداء بالاعتدال في الاعتقاد والاعمال ، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم من أنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فمن توسط واعتدل في الادارة والاحكام عاش بأمانة وسلامة واكرام ، أو الميزان هو ميزان المعاملات المربوطة بالوزن والكيل حتى تتم للناس السعادة (وليقوم الناس بالقسط) أي بالعدل في الحقوق للانفس والاغيار على قاعدة

لاضرر ولاضرار (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي وخلقناه كقوله تعالى (وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) أو معناه هيأناه لكم وانعمنا به عليكم كما يهيىء النزل للضيف قبل وروده ، أو أنزلنا من السماء بالوحي استخراج الحديد من المعادن ، والتصرف فيه بصنع الآلات الحربيـة والاستعمالية في البيوت ، فاستخرجوه ، ثم تطورت الصناعة الى أن وصل الى الدرجة الراقية في هذا العصر ، فتستعمل بحسب تطور الدنيا وتبدل الحاجات ، فان ميـزان القسط وحده بدون قوة رادعة للخائبين لا ينفع ، والحاجة ماسة ضرورة الى سيوف بعد حروف ، ولجمع الحديد بين منافع الدنيا ومنافع الآخرة ، أما في الدنيا فباستعماله فيما لابد منه للعيش ، وأما في الآخرة فللجهاد به ودفع أهل الطغيان والطيش قال تعالى (فيه بأس شديد ومنافع للناس) من استعماله في الامور الحيوية والامور الحربية ليندفع به أهل الاهواء المغرورون (وليعلم الله من ينصره ورسله) أي ومن ينصر رسله باستعمال السيف والسنان والمدافع القوية النيران • وقوله (بالغيب) للدلالة على أن من لم يكن له ايمـان بالله بينه وبين الله لا يشهر السيف على الاعداء ، ولا يقتحم أمواج القتال والبلاء (ان الله قوي) قادر على نصـر من ينصر دينه (عزيز) لا يغالب على عزتـه وقوته على العالمين •

(ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) أما في ذرية نوح فالمراد الانبياء والرسل من الامم المنتشرة في أقطار العالـم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، فانه لم تخل أية أمة من رسول وأحكام قال تعالى : (وان من أمة الا خلا فيها نذير) وقال : (وكذلك أرسلنا رسلنا تترى) أي وترى واحدا بعد واحد ، وأما في ذرية ابراهيم فالانبياء والرسل الموجودون من إسحاق وأولاده المعروفين ببني اسرائيل وكشعيب مـن نسل مدين ابـن ابراهيم ومـن اسماعيل وأولاده كسـيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(فمنهم مهتد) بالكتاب وسلك طريق الصواب (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن حكم الكتاب (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أي أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، وأصل التقفية جعل الشيىء خلف القفا ، وضمير آثارهم لنوح وابراهيم ومن أرسلا اليهم من قومهما (**وقفينا بعيسى** ابن مريم) أي جعلناه بعد أولئك الرسل (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) هما اذا افترقا اجتمعا على معنى واحد ، واذا اجتمعا افترقا على معنيين ، فالرأفة ما فيه درء الشر ، والرحمة ما فيه جلب الخير • وقوله (ورهبانية ابتدعوها) من باب الاشتغال، أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من أنفسهم لتحصيل الثواب بالانقطاع من لذائذ الدنيا (ما كتبناها عليهم) أي ما فرضناها عليهم ، اذ قلما يوجد انسان له طاقة على اجتناب المشتهيات النفسية وقوله (الا ابتغاء رضوان الله) استثناء منقطع أي ما فرضناها عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها وألزموها أنفسهم (فما رعوها حق رعايتها) أي ما حافظوا عليها حق المحافظة فان من التزم مندوبا وجبت عليه رعايته والدوام عليه وأن لا يأتي بما فيه المخالفة والمنافاة مع التزامه ، وأن لا يحتال لتخليص نفسه منه ، وأن لا يريد من ورائه شهرة أو سمعة ، أو جلب الناس وكسب الجاه والمال به منهم ، فإن ذلك هروب من الله لا رهبانية منه (فآتينا الذين آمنوا منهم) إيمانا سالما من المناقضات والمعارضات (أجرهم) على نياتهم وطاعاتهم (وكثير منهم فاسقون) مارقون فجعلوها وسيلة الى مفاسد لاتعد ولا تحصى ، ومنها اخزاء الرهابنة الصادقين•

وفي هذه الآية الشريفة القول الفصل في الاعمال المستزادة على ما كان أولا في عهد الرسول فان كان ذلك على منهج الدين من طلب مرضاة الله تعالى ومنع النفس الامارة بالسوء عن الشهوات ومراعاة الشخص حقه فلا بأس به ولا انكار عليه لان نص قوله تعالى (فما رعوها حق رعايتها) يدل على أنهم

لو كانوا يراعونها كانوا مكتسبين للاجر ، ولذا قال تعالى : (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) وان كان على غير ذلك فهو فسوق وخروج عن نظام الدين •

وتفصيل الكلام في الموضوع ما ذكره الامام محي الدين النووي في شرح صحيح مسلم ، قال العلماء : البدعة خمسة أقسام : واجبة، ومندوبة، ومحرمة، ومكروهة ، ومباحة • فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك • ومن المندوبة تصنيف كتب العلم ، وبناء المدارس ، والربط ، وغير ذلك • ومن المباحة التبسط في ألوان الاطعمة وغير ذلك • والحرام والمكروه ظاهران • فعلم أن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (كل بدعة ضلالة) من العام المخصوص •

وقال صاحب جامع الاصول : الابتداع من المخلوقين ان كان في خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو في حيز الذم والانكار ، وان كان واقعا تحت عموم ما ندب الله تعالى به ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو في حيز المدح ، وان لم يكن مثله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، ويعضد ذلك قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في صلاة التراويح : نعمت البدعة هذه •

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي اثبتوا واستمروا على تقواه عز وجل فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد ـ صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين) أي نصيبين (من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به) يوم القيامة وهو النور المذكور في قوله تعالى : يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم (ويغفر لكم) ما سلف منكم (والله غفور رحيم) •

أخرج الطبراني عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قالا ان أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم فشهدوا

معه أُحُداً ، فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا : يا رسول الله انا أهلُ ميسرةٍ فأذن لنا نجيىء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) الى قوله (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا : يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم . فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله) يؤتكم كفلين من رحمته ... الآية أي راداً عليهم قولهم ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم . وقوله تعالى (لئلا يعلم أهل الكتاب) متعلق بالجملة الطلبية السابقة المتضمنة لمعنى الشرط ، اذ التقدير ان تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته الآية .. (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله) وكلمة (لا) مزيدة اى ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيىء من فضل الله (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وهذه الجملة تذييل مقررة لمضمون ما قبله والله أعلم .

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة ، مدنية وآياتها اثنتان وعشرون

نزلت بعد المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ، وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُمَا ، إن اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(١) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ماهُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إنْ أُمَّهَاتُهُمْ إلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً ، وإنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٢) وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قالُوا فَتَحْرِيرُ رقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ، ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، والله بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيرٌ(٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيام شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْن مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ، فإطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، ذلِك لِتُؤْمِنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ، وتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ)(٤)

قوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير) يعني قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك وتراجعك الكلام في شأن زوجها ، وفيما صدر عنه من عبارة الظهار ، تريد أن ترجع الى زوجها •

وكان الظهار في الجاهلية ، وصدرا من الاسلام ، طلاقا الى أن نزلت الآية ببيان حكمه وحل المرأة بإعطاء الكفارة • والظهار لغة : مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر ، ويراد به معان مختلفة راجعة الى الظهر معنى ولفظا باختلاف الاغراض • فيقال : ظاهر زيد عمرا أي قابل ظهره بظهره حقيقة • وظاهره اذا نصره باعتبار أنه يقال قوى ظهره اذا نصره • وظاهر بين ثوبين اذا لبس أحدهما فوق الآخر باعتبار جعل ما يلي به كل منهما الآخر ظهرا للثوب ، وظاهر من امرأته اذا قال لها أنت علي كظهر أمي • وأما معناه شرعا فعلى اجتهاد المجتهدين فقد عرفه الحنفية بأنه : تشبيه المنكوحة أو عضو منها يعبر به عن الكل كالرأس أو جزء شائع منها كالثلث ، بقريب محرم عليه على التأبيد أو بعضو منه يحرم النظر عليه •

وعند الشافعية : تشبيه الزوج زوجته بمحرم نسبا ، أو رضاعا ، أو مصاهرة من الاناث التي لم تطرأ حرمتها عليه • ولا فرق بين أن تكون الصيغة مقارنة للتشبيه أولا ، الا أن الصيغ التي تحتمل الكرامة والحرمة تحتاج الى نية الظهار • وتفصيل الصيغ المستعملة ، وبيان أحكامها ، يحتاج الى مراجعة الكتب المعتمدة عند أئمة المذاهب ، غير أنه اتفق الفقهاء على أن الرجل اذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمي أنه ظهار • واختلفوا اذا ذكر عضوا غير الظهر ، أو ذكر ظهر من تحرم عليه ممن يحرم نكاحهن على التأبيد غير الأم • فقال مالك : هو ظهار ، وقال جماعة من العلماء : لا يكون ظهارا الا بلفظ الظهر والأم • وقال : أبو حنيفة يكون بكل عضو يحرم النظر اليه • وسبب اختلافهم

معارضة المعنى للظاهر ، وذلك أن معنى التحريم تستوي فيه الأم وغيرها من المحرمات ، والظهر وغيرها من الاعضاء ، وأما الظاهر من الشرع فانه يقتضي أن لا يسمى ظهارا الا ما ذكر فيه لفظ الظهر والأم • وأما اذا قال هي عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، فقال أبو حنيفة والشافعي ينوي في ذلك لانه قد يريد بذلك الاجلال لها وعظم منزلتها عنده وقال الامام مالك ــ رضي الله عنه ــ هو ظهار •

وقد أخذ الباري يبين حكم الظهار فقال (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) كأوس بن الصامت الذي ظاهر خولة بنت مالك بن ثعلبة (ما هن أمهاتهم) ليست تلك النسوة المظاهر منهن أمهات لاولئك الرجال (ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم ، وانهم ليقولون منكرا من القول) بعيدا عن الادب اذا شبهوا زوجاتهم بأمهاتهم بأن قال المظاهر لزوجته أنت علي كظهر أمي (و) يقولون (زورا) من الكلام أي جملة كاذبة خاطئة ان قال المظاهر أنت أمي • وذلك الكلام فاسد في النقل ومخالف للعقل ويأثم به القائل (وان الله لعفو) مبالغ في العفو (غفور) مبالغ في المغفرة للذنوب •

(والذين يظاهرون من نسائهم) فان قال القائل أنت علي كظهر أمي (ثم يعودون لما قالوا) أي يتندمون عنه بالعزم على أن يبقوها ويطأوها أو بإمساكها مدة تسع اجراء صيغة الطلاق كما هو عند الامام الشافعي (فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) أي فالواجب عليه تحرير رقبة سليمة من العيوب المخلة بالعمل من قبل أن يتلاقيا ويطأ الزوج زوجته لان وطئها قبل اعطاء الكفارة حرام (ذلكم يوعظون) به أي ذلكم الحكم بوجوب الكفارة توعظون به لانه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة (والله بما تعملون خبير) أي يعاقبكم اذا خالفتم حكمه (فمن لم يجد) الرقبة أو وجدها ولم يجد ما يشتريه به

(فصيام شهرين متتابعين) أي فالواجب عليه ذلك (من قبل أن يتماسا) فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف ، أو بعذر ففيه خلاف •

(فمن لم يستطع) أي الصوم لهرم أو مرض أو شبق مفرط فإطعام ستين مسكينا ستين مدا عند الامام الشافعي ، وعند أبي حنيفة كل مسكين نصف صاع أو قيمته من النقد • (ذلك) الحكم (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية ، وحدود الله لا يجوز تعديها (وللكافرين) الذين لا يقبلونها (عذاب أليم) •

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّمَاوَاتِ وما فِي الْأَرْضِ ؟ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(٧)

قوله تعالى (ان الذين يحادون الله ورسوله) أي يعادونهما فان كلا من المتعاديين في طرف وحد غير طرف الآخر وحده (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) أي أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم ويرجعون الى الله (وقد أنزلنا آيات بينات) أي أنهم حادوا الله ورسوله مع أنا أنزلنا آيات

فيها تشريع الاحكام العملية الدينية ، والمبايعات والمعاملات والاحوال الشخصية ، والجنايات والقضاء وغيرها ••• مما لابد منه للانسان ، وقررنا لهم الاجتهاد والاستنباط لاحكام لم يكن عليها نصوص ، ومع ذلك عارضوا تلك الاحكام ، وقرروا أحكاما أخرى بدون الحاجة الماسة اليها (وللكافرين) المحادين لله ورسوله (عذاب مُهين ، يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا) من القبائح (أحصاه الله) أي أحصى ما عملوه (و) هم (نسوه) لعدم اهتمامهم بالمخالفات (والله على كل شيء شهيد) مطلع لا يغيب عنه شيء •

(ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض) غيبها وشهادتها (ما يكون من نجوى) أي التناجي أي الكلام الجاري بين الناس سرا بحيث يختص بفهمه أهله من (ثلثة الا هو) أي الباري تعالى (رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك) كأن يكون بين اثنين (ولا أكثر) كأن يكون بين ستة فصاعدا (الا هو معهم) يعلم ما يجري بينهم (أينما كانوا) من الاماكن ولو كانوا في سراديب (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة)فان كان أمرا بصدقة أو اصلاح بين الناس فجزاؤهم المثوبة الحسنى، أوكان تدبيرا لتدمير قوم أو بلد أو قرية أو عائلة أو اهلاك شخص فالجزاء هو العقاب كما يستحقه أهل الكتاب (ان الله بكل شيء عليم) لان نسبته الى كل شيء يساوي نسبته الى غيره •

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ؟ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذا

تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوا بِالإِثْمِ والعُدْوانِ ومَعْصيت الرّسُولِ ، وتَنَاجَوْا بِالبِرِّ والتَّقوى ، واتَّقوا اللهَ الذي إليه تُحشَرُونَ(٩) إنَّما النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنوا ، ولَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيئاً إلا بِإذْنِ اللهِ ، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤمِنونَ)(١٠)

قوله تعالى (ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون اليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى تقوم أقاربهم ، فلما كثر ذلك شكا المؤمنون الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين ، فعادوا لمثل فعلهم • وقوله (ويتناجون) معطوف على ما قبله وداخل في حكمه ، أي ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون (بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول واذا جاءوك حيوك) أي قدموا لك التحية (بما لم يحيك به الله) روى البخاري ومسلم أن ناسا من اليهود دخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وعليكم • قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقلت : وعليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا عائشة ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش » فقلت ألا تسمعهم يقولون السام ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم « أو ما سمعت أقول وعليكم ؟ » فأنزل الله تعالى واذا جاؤك ••• الآية (ويقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول) أي هلا يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا ، أي لو كان نبيا لعذبنا الله بسبب ما نقول من التحية ! فيقول الله تعالى : (حسبهم

جهنم يصلونها فبئس المصير ، يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول) كما يفعله المنافقون (وتناجوا بالبر والتقوى) أي بما يتضمن خير المؤمنين (واتقوا الله الذي اليه تحشرون ، انما النجوى) أي المعهودة الملعونة التي تكون لإضرار المؤمنين وفي نقد أعمالهم ومعصية الرسول (من الشيطان) أي من القائه واثارته في قلوبكم (ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا الا بإذن الله) أي بإرادته اضرارهم (وعلى الله) لا على غيره (فليتوكل المؤمنون) .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١)يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيكُمْ صَدَقَةً ، ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوِيكُمْ صَدَقَاتٍ ؟ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)(١٣)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) هذه الآية الكريمة مع ما قبلها من الآداب الاجتماعية فواجب الإنسان العاقل الاجتماعي أن يتحبب الى المجتمع ولا يفعل شيئا يوجب الاثارة والعداء حتى يكون له وزن ويسمع الناس نصائحه وارشاداته ، والنجوى المثير

للعداء وخوف الناس من الشرور والمفاسد العامة فنهى الله عنه أولاً ، وأمر بالفسح وإعانة الناس في المجالس ثانيا حتى يأخذوا مكانا على مكانتهم وبذلك يزداد الود والتحابب بين الناس فأمر به في هذه الآية وقال (يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) أي فليفسح بعضكم لبعض فيها . فإذا فسحتم لهم فيها (يفسح الله لكم) أي في رحمته أو في الجنة أو في منازلكم أو في الأمكنة التي يردون عليها في المسافرات والعزائم أو في صدوركم أو في قبوركم ، فإن حاجة الانسان الى الفسح أكثر من أن يحصى ، والله قادر على كل فسح في كل مكان ومقام . أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم الجمعة في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان ــ عليه الصلاة والسلام ــ يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار ، فجاء ناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا الى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فرد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا ، فشق ذلك على رسول الله ، فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ويافلان ، فأقام نفرا مقدار من قدم فشق ذلك عليهم . وعرفت كراهيته في وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مقامه وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور ! فأنزل الله تعالى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا ...) الآية وكان تلك الكراهية ممن لم يفسح تنافسا في القرب من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورغبته فيه ، ولا تكاد نفس تؤثر غيرها بذلك (واذا قيل انشزوا) أي انهضوا للتوسعة على المقبلين (فانشزوا) ولا تتثبطوا (يرفع الله الذين آمنوا منكم) مجزوم في جواب الامر (والذين أوتوا العلم) من المؤمنين (درجات) وعطفهم

على الذين آمنوا من عطف الخاص على العام للاهتمام (والله بما تعملون خبير) وعد للمتمثلين ووعيد لغيرهم •

(يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول) أي اذا عزمتم على المناجاة معه (فقدموا بين يدي نجويكم صدقة) أي فتصدقوا قبلها على الفقراء (ذلك خير لكم وأطهر) ذلك التقديم خير لكم لأجل نيل الثواب ، وأزكى لانفسكم لما فيه من تعويدها على الصدقات وعدم الاهتمام بخزن الاموال (فإن لم تجدوا فان الله غفور رحيم) حيث رخص لمن لم يجد ما يقدمه أن لا يقدم (ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجويكم صدقات ؟) أي أخفتم الفقر لأجل تقديمها (فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) أي لم تفعلوا ما أمرتم به وقد سامح الله عنكم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) في سائر الاوامر (والله خبير بما تعملون) •

(أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِين تولَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ ولا مِنْهُمْ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ؟(١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ(١٥) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ(١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ ولا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ(١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ، ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ ، الا إِنَّهُمْ هُمُ الكاذِبُونَ(١٨) اِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْسيهُمْ ذِكْرَ اللهِ ، أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ ، أَلا

إنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الخَاسِرُونَ(١٩) إنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أولئك فِي الأَذَلِّينَ(٢٠) كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢١) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوانَهُمْ ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيها ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(٢٢)

قوله تعالى (ألم تر الى الذين تولوا قوما) تعجيب من حال المنافقين الموالين لليهود ، فيقول سبحانه وتعالى ألم تر أيها الرائي الى المنافقين الذين تولوا قوما من اليهود (غضب الله عليهم) ولعنهم وأعد لهم جهنم (ما هم منكم) أي ليسوا منكم لانهم منافقون وأنتم مسلمون صادقون (ولا منهم) لانهم ليسوا من اليهود لا حسبا ولا نسبا • وفي الحديث : « مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين ، لا تدري أيهما تتبع » (ويحلفون على الكذب) أي ويحلفون على حكم غير مطابق للواقع يعني يحلفون أنهم مسلمون وليسوا كذلك (وهم يعلمون) أنهم كاذبون • روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته فقال : « يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان » فدخل عبدالله بن نبتل المنافق ، وكان أزرق • فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ له : « علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ » فحلف بالله ما فعل • ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت (أعد الله لهم عذابا شديدا ، انهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرنوا على سوء العمل وتدربوا عليه (اتخذوا أيمانهم جُنة) وقاية

دون دمائهم وأموالهم (فصدوا عن سبيل الله) فمنعوا الناس في خلال أمنهم عن سلوك سبيل الله (فلهم عذاب مهين) أي فلهم في الآخرة على رءوس الاشهاد عذاب مهين محقر لهم عقابا على استخفافهم بدين الله ورسالة رسوله (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أبد الآبدين (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له) أي لله تعالى قائلين : والله ما كنا مشركين (كما يحلفون لكم) في الدنيا أنهم مؤمنون صادقون (ويحسبون أنهم) بتلك الايمان الكاذبة (على شيء) من المنافع أو رفع العقاب والعذاب كما كانوا يدفعون بها في الدنيا بعض المضار المتوجهة اليهم (ألا انهم هم الكاذبون) وأي كذب أشد وأقوى وأكثر كسرا للأدب من الكذب أمام علام الغيوب ؟ •

(استحوذ) أي غلب (عليهم الشيطان) بالوساوس الفاسدة المفسدة حتى اتبعوه فيما ألقاه اليهم من الكفر والعناد (فأنسيهم ذكر الله) تعالى (أولئك حزب الشيطان) أي جنوده (ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) أي المتصفون بالخسران في الدنيا والآخرة • ثم استأنف مشيرا لتعليل خسرانهم وقال (ان الذين يحادون الله ورسوله) ويخالفون أوامر الله ورسوله (أولئك في الأذلين) وعلل ذلك بما يؤخذ من قوله الكريم (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) بالكتاب والحراب ، بالارشاد لاهل الرشاد ، وباعداد العدة على أهل العناد (ان الله قوي عزيز) •

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) أي لا ينبغي أن تجدهم وادين أعداء الله (ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو اخوانهم أو عشيرتهم) وكل من تجده من المؤمنين يعاندونهم (أولئك) الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله (كتب في قلوبهم الايمان) أي أثبته الله بحيث لا يقبل الزوال (وأيدهم بروح منه) أي قواهم يعني قوى سلطان

وجودهم أعني القلب (بروح منه) أي بنور أفادهم الحياة الابدية والسعادة السرمدية (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ، خالدين فيها) أبد الآبدين (رضي الله عنهم ورضوا عنه) أي ابتهجوا بما أوتوه من لطائف المنن الروحية وعوارف المعارف الفتوحية ، فغلبت على قلوبهم حالة نفسية قدسية ، فأحبـوا الله تعالى ورضوا عنه (أولئك) الناس الموصوفون بما سبق (حزب الله) أي زمرته وجماعته وثلته وكفى ذلك الحزب شرفا اضافته الى الله تعالى (ألا ان حزب الله هم المفلحون) لأنهم هم المؤمنون الصادقون الثابتون الصالحون .

سورة الحشر ، مدنية ، وآياتها اربع وعشرون
نزلت بعد البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ للهِ ما فِي السَّماواتِ وما في الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ، ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهم مِنَ اللهِ ، فأتيهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيدي المُؤْمِنِينَ ، فاعْتَبِرُوا يا أولِي الأَبْصارِ (٢) ولَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ لَعذَّبَهُمْ فِي الدُّنيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(٤)

قوله تعالى (سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم) هذه السورة تسمى سورة الحشر لجمع بني النضير واخراجهم من جزيرة العرب الى الشام •

روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له • فلما ظهر يوم بدر قالوا : انه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة • فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا • وخرج كعب بن الاشرف في أربعين راكبا الى مكة ، وحالفوا أبا سفيان ، فأمرَ رسُول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخا كعب بن أشرف من الرضاعة فقتله غيلة ، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء ، فجلا أكثرهم الى الشام ، ولحقت طائفة بخيبر والحيرة • فأنزل الله سبحانه وتعالى (سبح لله) الى قوله (والله على كل شيء قدير) •

والتسبيح : هو التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى عما لا يليق بذاته وصيغة الماضي لتحقق وقوعه في الماضي وما يستقبل ما دام معلوما له تعالى فهو كالماضي المنقضي المتحقق • وكلمة ما تستعمل للعاقل وغيره سيما اذا اختلط العقلاء بغيرهم ، وصاروا في قلة من العدد بالنسبة الى غير العاقل • وقوله تعالى (وهو العزيز الحكيم) أي الغالب الذي لا يغلب والفاعل الذي تقارن أفعاله الحكمة ، وفيه صنعة بديع براعة الاستهلال لان السورة في بيان عزة الله ورسوله والمؤمنين ، ويفيد عزته وغلبته •

قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) أي يهود بني النضير (من ديارهم لاول الحشر) أي في أول حشرهم واخراجهم من جزيرة العرب الى الشام اذ لم يصادفوا هذا النوع من الاخراج من الجزيرة ، أو في أول حشرهم للقتال مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء ، وآخر حشرهم اجلاء عمر ـ رضي الله عنه ـ اياهم من خيبر الى الشام (ما ظننتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم وكثرة أموالهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أي ظنوا أن حصونهم المستحكمة وتحصنهم بها تمنعهم من بأس الله تعالى ونكايته بهم

(فأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا) أي فأتيهم أمره وبأسه وقدره من حيث لم يظنوا أنه يأتيهم كذلك وذلك بقتل رئيسهم كعب بن الاشرف والقاء الخور والجبن والفشل في أوساطهم (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف الشديد (يخربون بيوتهم بأيديهم) أي بمباشرة أيديهم ومعالجتها واخراج الاخشاب منها لسد أفواه الذرابين حتى لا يدخل منها المسلمون عليهم (وأيدي المؤمنين) ان كان فيهم بعض المؤمنين من الذين كانت لهم مصلحة في المزارع والبساتين وغيرها جاز اعتبار الباء الملحوظة هنا مثل الباء في المعطوف عليه بأن باشرت أيدي المؤمنين إخراج الاخشاب وتخريب البيوت ، والا فالباء في المعطوف سببية بمعنى أن حصارهم واستعدادهم لقتال اليهود تسببا في تخريبهم بيوتهم (فاعتبروا يا أولي الابصار) وانظروا أن علة حلول العذاب بهم استكبارهم وعنادهم مع الحق فكلما استكبر قوم وعصوا أمر الله تعالى أتاهم بأسه من حيث لا يحتسبون ، فان ذلك من القياس الجلي ولا ينكره الا الغبي، ولا تظنوا أن نكاية الله وعذابه تنحصر في سبب واحد بل لها أسباب وعلل لا تكاد تحصى ، وما يعلم جنود ربك الا هو .

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) من الجزيرة الى الشام وغيرها (لعذبهم في الدنيا) بالقتل كقتلى بدر أو بالامراض والعاهات أو بوقوع الشقاق بينهم فإنه من أعظم الآفات (ولهم في الآخرة عذاب النار) علاوة على ما في الدنيا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أي ذلك العذاب النازل بهم بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وأحدثوا الشقاق والمخالفة مع الله ورسوله وفعلوا ما فعلوا من القبائح كنشر الفوضى في ربوع الجزيرة ومخالفة أعداء الرسول والمؤامرة عليه لقتله وتحريش الناس وتحريضهم عليه وغير ذلك . (ومن يشاق الله) وفيه مشاقة رسوله (فان الله شديد العقاب) .

(ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللهِ ، ولِيُخْزِيَ الفاسِقِينَ (٥) وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ ، وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ ، وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ما أَفاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبى ، واليَتامى وَالمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُمْ ، وَما آتيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَما نَهيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ (٧) لِلْفُقَراءِ المُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ ، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْواناً ، وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أولئِكَ هُمُ الصّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدّارَ وَالإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ولِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بالإيمانِ ، وَلا تَجْعَلْ فِي قُلوبِنا غِلاًّ لِلَّذِين آمَنُوا ، رَبَّنا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)(١٠)

قوله تعالى (ما قطعتم من لينةٍ) اشعار بنصر الله تعالى للمؤمنين ، وأن هذه الامور الجارية من أسباب العز والكرامة كله من الله تعالى فيقول

(ما قطعتم من لينة) أي من كريمة من النخلة (أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أي بخلقه تعالى وأن الحوادث مخلوقة له مطلقا ، وبرضاء الله ومحبته فإنه أراد اتمام نوره ونشر الاسلام ليحقق ما أراده وأحبه (وليخزي الفاسقين) المارقين عن الاسلام (وما أفاء الله على رسوله منهم) أي وما أرجعه الله وأوصله الى المسلمين من أموالهم (فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) فما أسرعتم عليهم فردا من الخيل ، ولا فردا مما يركب من الإبل (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أي ولكن جرت سنته الإلهية البهية بأن يسلط رسله الكرام على من يشاء من عباده فيهيىء أسباب النصر المبين لهم ولمن تبعهم من المسلمين (والله على كل شيىء قدير) فيفعل بالعباد ما أراد من العز والذل ، والملك والفقر ، والصحة والمرض ، وغيرها . وحاصل معنى هذه الآية الكريمة أن ما أفاء الله على رسوله من بني النضير بعد الجلاء والخروج من الديار كان مختصا بالرسول ولم يكن لأحد حق فيه ؛ ولذلك قسمه بين المهاجرين ولم يعط الانصار الا ثلاثة منهم لفقرهم ؛ والثلاثة : ابو دجانة سماك ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصمة . وأخذ من ذلك ما احتاج اليه لصرفه على عائلته ومموونه .

وقوله (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ، وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل) بيان لما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار بعد بيان حكم ما أفاء الله عليه من بني النضير ، وبمقتضى ظاهر هذه الآية الشريفة فإن الفيىء يقسم ستة أقسام : سهم منه لله ويصرف في الكعبة الشريفة . وسهم للرسول ، يصرفه في نفسه وعائلته . والاسداس الاربعة الباقية لمن ذكر فيها . والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتبرك ، وأن سهم الله ورسوله واحد ، والاخماس الاربعة الباقية للاصناف الاربعة المذكورة . والفرق بين الفيىء والغنيمة أن الاول ما يحصل للمسلمين بدون القتال كما

تركه الكفار وجلوا عنه وأمثاله وذلك يخمس كما ذكرنا ، الا ما اختص به ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني النضير . وأما الغنيمة فهي مال حصل لهم بالحرب معهم ، وهي تقسم بين المقاتلين الا خمسا منه فهو يخمس ويقسم كالاقسام الخمسة من الفيىء فقد روي بأسانيد معتبرة مقبولة .

وقوله تعالى (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) تعليل للتقسيم المذكور أي قسمت بين الاصناف الخمسة كي لا يكون مالاً متداولا بين الاغنياء منكم يتكاثرون به (وما آتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا) أي وما أعطاكم من الفيىء فخذوه لانه حقكم الذي أحله الله لكم ، وما نهاكم عن أخذه فلا تأخذوه (واتقوا الله) في مخالفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ان الله شديد العقاب) لمن خالفه وعذبه . أعاذنا الله وعافانا من المخالفة ، ووفقنا على الموافقة والمؤالفة بمنه وكرمه آمين .

وقوله تعالى : (للفقراء المهاجرين) بدل من قوله السابق لذي القربى وما عطف عليه . ومعناه أن استحقاق ذوي القربى للفيىء مشروط بفقرهم ، فلا يجوز صرفه لاغنيائهم ، واليه ذهب الامام أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ، ومن أعطى أغنياءهم كالشافعي ـ رضي الله عنه ـ خصص الابدال بما بعد ذي القربى أي اليتامى وما بعده ، أو الفيىء بفيىء بني النضير ، فانه لم يعط الاغنياء منه مطلقا . وقوله (الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم الى الخروج فخرجوا منها . وكان هؤلاء مائة رجل (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أي يطلبون منه رزقا في الدنيا ومرضاة في الآخرة (وينصرون الله ورسوله) أي ناوين لنصرة الله ورسوله (أولئك هم الصادقون) وقوله (والذين تبوأوا الدار والايمان) معطوف على المهاجرين ، والمراد بهم الانصار والتبوء النزول في المكان والآية من قبيل : وزججن الحواجب والعيونا . أي تبوأوا الدار وألِفوا الايمان (من قبلهم)

أي من قبل المهاجرين ، والمراد من قبل هجرتهم الى المدينة المنورة ، حالكونهم (يحبون من هاجر اليهم) من مكة وغيرها لمواساتهم ومساعدتهم (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) أي حاجة واقتضاء لما أعطي المهاجرون من الفيىء يعني يستحبون أن يكون المال لهم لكونهم فقراء مهاجرين في سبيل اعلاء كلمة الحق والدين (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) أي ويختارون غيرهم ويقدمونهم على أنفسهم في نيل المال من الفيىء وغيره ، ولو كان أي ولو وجد بهم خصاصة وحاجة وفقر حال .

روي أنهم وصلوا في هذا الباب الى درجة لا ينالها غيرهم ، حتى أن من كان عنده امرأتان يحب أن ينزل عن إحداهما ويزوجها واحدا من المهاجرين ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعهم ، وأمر من كان عنده ثروة أو بستان أن يشغل بعضا منهم فيها ، في سبيل كسب معيشته بتعب نفسه . أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال : اتى رجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا رجلٌ يضيف هذا الرجل الليلة ، رحمه الله ؟ » فقام رجل من الانصار ، وفي رواية فقال ابو طلحة انا يا رسول الله ، فذهب الى اهله ، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : والله ما عندي إلا قوت الصِّبْيَة . قال : اذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ، ونطوي الليلة لضيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففعلت . ثم غدا الضيف على رسول الله فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى فيهما « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ... » الآية (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أي ومن يحفظ بتوفيق الله تعالى

وبكسب نفسه وملاحظته أن حق الانسان هو الإحسان لا الإساءة الى من عداه وما عداه فأولئك الناس المحفوظون هم المفلحون الناجحون في حياتهم وبعد مماتهم • والفرق بين الشح والبخل : أن الثاني هو منع النفس عن افادة الغير الخير مالا أو غيره ، والاول هو ذلك أيضا لكن مع حرص وحزازة ولؤم •

وقوله تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين ، والمراد بهم الذين هاجروا الى المدينة بعد أن تمكن المسلمون المهاجرون الاولون وحصل للاسلام قوة ومنعة ، أي فهم ايضا مستحقون لاخذ الفيىء • وقيل : المراد المؤمنون بعد الفريقين أي المهاجرين والانصار أينما كانوا الى يوم القيامة • وعلى هذا المعنى جمهور الناس ، فالآية مستوعبة لجميع المؤمنين الى يوم الدين وقوله (يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أي سبق ايمانهم بالله ورسوله على ايماننا بهما ، أو سبقونا في اللحوق بدار الآخرة مع الايمان (ولا تجعل في قلوبنا غلا) أي حقدا وحزازة (للذين آمنوا) على الاطلاق (ربنا انك رءوف رحيم) بنا وبهم • فالآية الكريمة تنادي الى وجوب رعاية حرمة المؤمنين ومحبتهم بالقدر المستطاع الا من أمر الله تعالى أو رسوله بخلاف ذلك ، وذلك لان جزاء أعمالهم عائد الى خالق عالم بكل شيىء وأمرهم اليه تعالى •

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ؟ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ(١٣) لا يُقَاتِلونَكُمْ جَمِيعاً إلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً ، وقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ(١٤) كَمَثَلِ الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ، ذَاقُوا وَبَالَ أمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إذْ قَالَ لِلإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قال : إنِّي بريءٌ مِنْكَ ، إنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ(١٦) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خَالِدَيْنَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ)(١٧)

قوله تعالى (آلم تر الى الذين نافقوا) حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الاقوال الكاذبة ، فيقول : ألم تر الى الذين نافقوا ؟ والآية نزلت في رهط من بني عوف منهم عبدالله بن أبي بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد ، وداعس ، بعثوا الى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى (يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) وهم يهود بني النضير والمنافقون ، وان لم يكونوا من بني جلدتهم لكنهم كانوا اخوانهم في الكفر والشقاء والعداء للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لئن أخرجتم) موطئة للقسم وقوله (لنخرجن معكم) جواب القسم أي والله لئن أخرجكم محمد من دياركم جبرا لنخرجن من ديارنا معكم وننتقل في صحبتكم أينما ذهبتم (ولا نطيع فيكم أحدا أبدا) أي ولا نطيع في شأنكم وإيذائكم أحدا أبدا أي اذا طلبوا منا ايذاءكم لا نطيعهم في ذلك ولا نؤذيكم ، وان آذوكم لا نقبل ايذاءهم لكم وندافع عنكم (وان قوتلتم لننصركم) أي لنعاونكم على أعدائكم ، وذلك شأن الحلفاء الصادقين بعضهم مع بعض (والله يشهد انهم

لكاذبون) في مواعيدهم لإخوانهم اليهود ، كما هم كاذبون معنا نحن المسلمين. والمنافق شأنه النفاق أينما كان من الآفاق ، لان النفاق رذيلة نفسية لا تكاد تنفك عن صاحبها الا بمعونة من الله تعالى ، ويبين جهات كذبهم معهم فيقول : (لئن أخرجوا) أي بنو النضير من جانب الرسول (لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا) من جانبه (لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم) على سبيل الفرض (ليولن الادبار) وليرجعن الى منازلهم (ثم لا ينصرون) أي لا اليهود المستنصرون بالمنافقين ولا المنافقون الذين أرادوا نصر اليهود الفاسدين .

(لأنتم) أيها الرسول ومن معه (أشد رهبة) ومخافة (في صدورهم من الله) تعالى يعني أنهم لا دين لهم ولا علاقة لهم بالله ، كما أنهم ينافقونكم ويخافون منكم أكثر مما يخافونه (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) شيئا من الدين والاخلاص منه (لا يقاتلونكم) أي اليهود أو اليهود والمنافقون (جميعا) أي لو فرضنا اجتماعهم على المكيدة والحرب (إلا في قرى محصنة) بالقلاع والابواب والخنادق (أو من وراء جدر) يتسترون بها دون أن يخرجوا ويبارزوكم (بأسهم بينهم شديد) استئناف سيق لبيان أن عدم مقاتلتهم معكم الا في الاماكن السابقة ليس لضعفهم في أنفسهم وذواتهم ، لانهم أقوياء شجعان اذا حارب بعضهم بعضا فلهم صولة وجولة ، ولكنهم يصيرون ضعفاء في مقابلتكم ومقاتلتكم بسبب أن الله يجعل الرعب في قلوبهم ويسلبهم البأس والمعنوية . وقوله تعالى (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) جواب ما يقال اذا كان بأسهم بينهم شديدا فما بالهم لا يقاتلون المسلمين ؟ فقال : (تحسبهم جميعا) أي مجتمعين متكاتفين (وقلوبهم شتى) أي متفرقة، أي لا يرتبط بعضهم ببعض، وكل قوم ولو كان كل فرد منهم بطلا لكن لما لم تتوحد كلمتهم لا تتفق عزيمتهم ولا يقدرون على مقابلة الافزاع والاقدار (ذلك) أي وتشتت قلوبهم (بـ)

سبب (أنهم قوم لا يعقلون) روح الألفة والاتحاد حتى يستحصلوها ويستفيدوا منها •

(كمثل الذين من قبلهم) أي مثلهم (كمثل الذين من قبلهم قريبا) أي يهود بني قينقاع الذين غزاهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم السبت على رأس عشرين شهرا من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضير حيث كانت في ربيع سنة أربع وأجلاهم أي بني قينقاع أخرجهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أذرعات بالشام (ذاقوا وبال أمرهم) أي ذاقوا سوء عاقبة مكيدتهم وسوء نيتهم مع الرسول وأمته باخراجهم الى الشام ، ذلك في الدنيا (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) لا يقادر قدره • (كمثل الشيطان) هذا أيضا خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كمثل الشيطان ولكن الضمير هنا راجع الى المنافقين المذكورين المصادقين لبني النضير • والضمير السابق راجع الى يهود بني النضير أي مثل يهود بني النضير كمثل يهود بني قينقاع في ما جرى عليهم • ومثل المنافقين المحرضين ليهود بني النضير كمثل الشيطان (اذ قال للانسان : اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين• فكان عاقبتهما) أي عاقبة الشيطان المغوى والانسان الغاوي بإغوائه (أنهما في النار خالدين فيها) وأولئك المنافقون الذين أغووا بني النضير أولا وتبرأوا منهم بعد جلائهم الى الشام أنهما أي الطرفين أي المنافقون ويهود بني النضير في عار الدنيا ونار الآخرة (وذلك) العار والنار (جزاؤ الظالمين) في الدنيا وفي الآخرة • وذلك المذكور في هذه السورة المباركة كان أحوال المسلمين حين كانوا في فجر نهضتهم ، ونماء دينهم وشريعتهم ، ووحدة كلمتهم وعزيمتهم فكانوا يترقون يوما فيوما على مصاعد الشرف والكرامة ، ويخاف منهم المخالفون في الاطراف والاكناف بسبب سلامتهم عن علة الخلاف والاختلاف ، وهي سنة الله في العالمين • ونسأل الله تعالى أن ينظر الينا بنظر اللطف والرعاية ، ويلهمنا

الاعتصام بكتابه ، والسلوك على سبيل الخير الذي مهده لأحبابه ، ويعيننا على الاستعداد للعلم والعمل الموحد والاعتصام ، وأن يجمع شمل أمة الاسلام وذلك على الله يسير .

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ(١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسيهُمْ أَنْفُسَهُمْ، أُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ(١٩) لايَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ(٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا الْقُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرونَ(٢١) هُوَ اللهُ الَّذِي لا إله إلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ والشَّهادةِ هُوَ الرَّحْمن الرَّحِيمُ(٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢٣) هُوَ اللهُ الخالِقُ الْبارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسماءُ الْحُسْنى ، يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيم)(٢٤)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقو الله) نصيحة عامة وتوصيات هامة للمؤمنين والمؤمنات وان أتت بصورة خطاب الجمع المذكر فيقول : اتقوا الله في كل ما تأتون وتذرون قولا أو فعلا أكلا وشربا أو لبسا أو غيرها . والتقوى في القول بالتلفظ باللفظ الواجب أو المندوب أو المباح ، بأن تترك القول الحرام والمكروه ، وفي الفعل بالاتيان بالفعل الواجب أو المندوب أو المباح ،

وتترك الحرام والمكروه ، وتميز تلك الاقوال والافعال لاهل العلم بمراجعة الفقه ، ولغير العالم بمراجعة الفقيه واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) من الخيرات الناشئة من القول والفعل الواجبين أو المندوبين (واتقوا الله) كرره للتأكيد (إن الله خبير بما تعملون • ولا تكونوا كالذين نسوا الله) أي نسوا وجوده المعلوم لهم بالفطرة فغفلوا عنه حتى نسوا العلم به واحتاجوا الى التعليم ، أو نسوا حقوقه من الامتثال للاوامر والاجتناب عن المنهيات (فأنساهم) الله تعالى بسبب ذلك النسيان (أنفسهم) مع كونها أقرب شيء بالنسبة اليهم ، فكان جزاء وفاقا • يعني أنه شغلهم بأخطار خطيرة ومشاكل كثيرة ، حتى صاروا بحيث لو سألتهم عن أنسابهم وأسمائهم ما أجابوا جوابا شافيا (أولئك) الناس الناسون لله (هم الفاسقون) المارقون عن الدين والاعتبار ، وصاروا من أصحاب النار •

(لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون) بالسعادة • ثم التفت الباري بلطافة الى توبيخ الغافلين الناسين لحقوق الله تعالى وقال : (لو أنزلنا هذا القرآن) الجامع للمواعظ الرادعة ، والنصائح اللامعة ، والبراهين الساطعة ، والأنوار اللامعة ، (على جبل) جامد وأودعنا فيه قوة السمع وطاقة الامتثال (لرأيته خاشعا) متذللا (متصدعا) متفرقا (من خشية الله) وهيبة كلامه وقوة توبيخه وملامه (وتلك الامثال نضربها للناس) نذكرها لهم ونذكرهم بها (لعلهم يتفكرون) في عظمة الله وقدرته وقدره وهيبة أمره •

(هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم• هو الله الذي لا اله الا هو الملك) المتصرف في الكائنات (القدوس) المنزه عن نقص الصفات (السلام) السالم من العيوب والآفات (المؤمن) المصدق لنفسه ورسله (المهيمن) الرقيب الحافظ لكل شيء (العزيز) ذو العزة

والجبروت (الجبار) الذي جبر خلقه على ما أراد ، ولجبر كسر من أراد به الخير من العباد (المتكبر) البليغ العظمة والكبرياء صاحب العزة ، رفيع الدرجات الى ما لا يتناهى من الدرجات العلى (سبحان الله) الموصوف بمبادىء هذه الاسماء الحسنى (عما يشركون) أي يشرك به المشركون الاغبياء •

(هو الله الخالق) لكل شيىء على مقتضى حكمته ورعاية سننه (البارىء) الموجود المميز لمخلوقاته بعضها عن بعض في الوجوه الامتيازية(المصور) لها بالصورة الجنسية والنوعية والصنفية والشخصية المحققة لكمال الهوية (له الاسماء الحسنى) المشيرة الى وجوه آثاره في العالم الأسنى (يسبح له ما في السماوات والارض) مع نفس السماوات والارض بلسان الحال في الكل ولسان القال لمن أراد منه المقال (وهو العزيز) الغالب على كل شيىء في كل الاحوال (الحكيم) الموصوف في جميع الاقوال والافعال • سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين •

سورة الممتحنة ، مدنية ، وآياتها ثلاث عشرة

نزلت بعد الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وما أَعْلَنْتُمْ ، وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ(١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً ، وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٣) قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاؤُ مِنْكُمْ وَمِمَّا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَبَدا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ، إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ، وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا ، وإِلَيْكَ أَنَبْنا ، وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) ربَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، واغْفِرْ لَنَا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ(٦) عَسى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُم مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللهُ قَدِيرٌ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٧)

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ...) الآية نزلت في حاطب بن عمرو أبي بلتعة وهو مولى عبدالله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبدالعزى . أخرج الامام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن حبان ، وجماعة عن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال : بعثني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فان بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فأتوني به » فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فاذا نحن بالظعينة . فقلنا أخرجي الكتاب . قالت : ما معي من كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لَتُلْقِيَنَّ الثياب ! فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاذا فيه من حاطب ابن أبي بلتعة الى اناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ما هذا يا حاطب ؟» قال : لاتعجل عليَّ يا رسول الله ، إني كنتُ امرأ ملْصَقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان

من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم بمكة • فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت كفرا ولا ارتدادا عن ديني • فقال عمر ــ رضي الله تعالى عنه ــ : دعني يا رسول الله أضرب عنقه • فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « انه شهد بدرا ، وما يدريك ! لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم ! » فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء) أي لا تعاملوهم كأولياء ولا تتعاونوا معهم وقوله (تلقون اليهم بالمودة) تفسير للموالاة ، والباء زائدة على المفعول كما في قوله تعالى (ولا تلقوا بإيديكم الى التهلكة) أي ولا تلقوا أيديكم أي ذواتكم اليها أو للتعدية وفي (تلقون) معنى تفضون وأفضى يتعدى بالباء ، أي تفضون اليهم المودة (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) أي والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم من الحق (يخرجون الرسول واياكم) أي ويخرجونكم من وطنكم المحبوب مكة المكرمة ــ حفظها الله ــ وقوله (أن تؤمنوا بالله ربكم) مقدر بنزع الخافض ، أي يخرجونكم من مكة ويخرجونكم عنها لان تؤمنوا ، أو على أن تؤمنوا بالله ربكم رب العالمين ، فلا تتخذوهم أولياء (إن كنتم خرجتم) عن أوطانكم (جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون اليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم) أي ومن يفعل عمل اسرار المودة معهم ، أو من يفعله أي ذلك الاسرار منكم (فقد ضل سواء السبيل) الموصل للحق •

(ان يثقفوكم) أي يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) أشداء توجب ابتلاءكم بالمصائب والمعايب (ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أي بما يسوءكم من القتل والاسر ونهب الاموال وما عندكم (وودوا لو تكفرون) أي تردون كفارا (لن تنفعكم أرحامكم) أي اقاربكم (ولا أولادكم يوم

القيامة) بدفع عذاب أو جلب ثواب (يفصل) الله تعالى (بينكم) بالحق (والله بما تعملون بصير) •

(قدكانت لكم أسوة حسنة) أي اقتداء حسن (في ابراهيم) الخليل ـ عليه السلام ـ (والذين معه ، إذ قالوا) أي ابراهيم ومن معه (لقومهم : انا برآؤ منكم) جمع بريء كشهيد وشهداء أي لا علاقة بيننا وبينكم من المودة والاخاء (ومما تعبدون من دون الله) من الكواكب والاصنام (كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده) وتتركوا ما انتم عليه من الاشراك (إلا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك) استثناء من قوله أسوة حسنة أي لكم به اقتداء الا في الاستغفار لابيه فان ذلك الاستغفار كان من عدم ظهور حكم الله في أبي ابراهيم ـ عليه السلام ـ ، فكان مسموحا له ، ولكن ليس لكم ذلك بالنسبة الى أصولكم الكافرين وقوله (وما أملك لك من الله من شيء) من تتمة كلام سيدنا ابراهيم ـ عليه السلام ومن معه وكذلك ما سيأتي من قولهم (ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا) أي رجعنا (واليك المصير • ربنا لا تجعلنا فتنة) أي موضوع افتتان وعذاب ومحنة (للذين كفروا) فلا تسلطهم علينا بذنوبنا (واغفر لنا ، ربنا انك أنت العزيز) الغالب (الحكيم) الجاعل للحكمة في كل شأن من شؤنك •

ثم كرر ما سبق وقال : (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول) أي ومن يخالف ذلك (فان الله هو الغني) عنه (الحميد) في أفعاله • (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) كما وقع ذلك بعد مدة فقد تزوج ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فصارت وسيلة لارتباط عشيرتها به ـ صلى الله

عليه وسلم ، فدخلت في الاسلام زمرة محترمة من أقوامها (والله قدير) على تغيير الاحوال والمآل والمصير ان ذلك على الله يسير (والله غفور رحيم) •

(لَا يَنْهَيكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَيكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(٩)

قوله تعالى (لا ينهيكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين) حد فاصل وخطاب فاصل مفيد مميز لاقوام الكفار ، وان كان الكفر كله ملة واحدة ، وليس بعد الحق الا الضلال ، ولكن هناك فروق كثيرة بين الاصناف ؛ فالكفار في ديار الاسلام اذا التزموا البقاء بالجزية فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ، والمستأمن اذا أمناه دخل في أماننا وكفالتنا ولا يجوز التعرض له بسوء • والمعاهدون في مدة المعاهدة داخلون في أمان العهد حتى تنتهي المدة أو ينقضوا العهد ، والمجاورون لنا في بلد كأمة مجتمعة في دولة لا يجوز التعرض لنفوسهم وأموالهم وأحوالهم وأعراضهم الا من أعلن العداء معنا وأراد ايذاءنا واخراجنا من أرضنا ، أو ظاهر على اخراجنا فانهم ملحقون بالمقاتلين وهم المحاربون ، فمن حاربنا حاربناه وأهدرنا دمه وماله كما أهدر دماءنا وأموالنا • والمسلم مشتق من السلامة يجب ان يكون قلبه سليما ، والمؤمن مشتق من الامن يجب أن يكون أمينا على ما كان في رعايته • ومع ذلك كله يجب أن يكون المؤمن عالما بالامور عاقلا متفكرا فطنا يفهم الاشياء من خلال التجارب والتواريخ حتى لا يقع في شبكة الصيادين الفاسدين •

فيقول الباري سبحانه : (لا ينهيكم الله) تعالى عن مـودة الكفـار (الذين لم يقاتلوكم في الدين) لاجل نصرة دينهم الكفر والاشراك من أجل امحاء ديننا دين الحق والانصاف (ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) بدل اشتمال من الموصول أي لا ينهيكم عن البر بهؤلاء (وتقسطوا اليهم) أي لا ينهيكم عن أن تفضوا اليهم بالقسط والعدل في الامور (ان الله يحب المقسطين) العادلين المعتدلين .

أخرج البخاري وغيره عن أسـماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت : أتتني أمي وهي مشركة في عهد قريش اذ عاهدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فسألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أأَصِلُها ؟ فأنزل الله تعالى لا ينهيكم الله ... الآيـة فقال ـ صلى الله عيله وسلم ـ : « نعم صلي أمكِ » وفي رواية أحمد عن عبدالله ابن الزبير قـال : قدمـت قُتيلةُ بنت عبدالعزى على ابنتها اسماء بنت ابي بكر ـ رضي الله عنهما ـ بهدايا : صاب ، وأقط ، وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلهـا في بيتهـا حتى أرسلت الى عائشـة ـ رضي الله تعالى عنهـا ـ أن تسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا ، فسألته فأنزل الله تعالى لا ينهيكم الله عن الذين ... الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتهـا . وقتيلة هذه كانت آمرأة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فطلقها في الجاهلية وهي أم آسماء حقيقة ـ رضي الله عنها ـ .

وفي مورد نزول الآية روايات أخرى، منها أنها نزلت فيخزاعة وبني الحرث وكنانة ومزينة وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن لا يقاتلوه ولايعينوا عليه . ومنها أنها نزلت في قوم من بني هاشم . ومنها أنها نزلت في النساء والصبيان من الكفرة . ومنها أنها نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكان المهاجرون والانصار يتحرجون من

البر بهم لتركهم فريضة الهجرة • ومنها أنها نزلت في كفرة اتصفوا بما في مضمون الصلة • وعلى ذلك قال الكيا : فيها دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب ، وعلى وجوب النفقة للاب الذمي دون الحربي •

(إنما ينهيكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم) كمشركي مكة سعوا في اخراج المؤمنين ، وبعضهم أعانوا المخرجين (أنْ تَولَّوهم) أي أن تتولوهم أي أن تحبوهم ، وهو بدل من الموصول بدل اشتمال (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لوضعهم المحبة والولاية في غير موضعها •

(يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، أَللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فلا تَرْجِعُوهُنَّ إلى الْكُفَّارِ ، لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ ، ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أنْ تَنْكِحوهُنَّ ، اِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ ،وَاسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ ، ولِيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ، ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أزْواجِكُمْ اِلى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أزْوَاجُهُمْ مِثْلَ ما انْفَقُوا ، واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)(١١)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا جائكم المؤمنات) بيان لبعض أحكام النساء المهاجرات وغيرهن ، فيقول سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات بحسب ظاهر الحال (مهاجرات) من بين الكفار

(فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب عليكم صدقهن في الايمان (الله أعلم بإيمانهن) في الواقع ونفس الامر ، ولستم مكلفين بكشف القلب الذي لا مجال لكم فيه • أخرج الطبراني في الكبير ، وجماعة عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهن كانت المرأة اذا جاءت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلفها عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت الا حبا لله ورسوله • (فإن علمتموهن مؤمنات) في نفس الامر (فلا ترجعوهن الى الكفار) أي الى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا) أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا اليهن من المهور ، قيل وجوبا ، وقيل ندبا •

روي أنه جاءت امرأة تسمى سبيعة بنت الحرث الاسلمية مؤمنة ، وكانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة ، فطلبوا ردها فأنزل الله تعالى الآية • وذلك لان صلح الحديبية جرى على أن من جاء منكم رددناه ، فلما تعذر عليه ردهن لورود النهي عنه (أي بعد واقعة صلح الحديبية بمدة) لزمه رد مهورهن • وروي أنها كانت تحت مسافر المخزومي ، وأنه أعطي ما أنفق وتزوجها عمر ـ رضي الله عنه ـ • وفي رواية أنها نزلت في أُميمة بنت بشر امرأة من بني عمرو بن عوف كانت تحت أبي حسان بن الدحداحة ، هاجرت مؤمنة الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وطلبوا ردها فنزلت الآية ، فلم يردها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتزوجها سهيل بن صيف ، فولدت له عبدالله بن سهيل • وأيا ما كانت فالآية على ما قيل نزلت بيانا لان الشرط في كتاب المصالحة انما كان في الرجال دون النساء • وتراخي المخصص عن العام جائز • والآية وان تأخرت عن زمان المصالحة لكنها لم تتأخر عن وقت العمل ، لان نزولها كان عند الحاجة الى التخصيص •

وعن الضحاك أنه كان بين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك الا رددتها الينا ، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها مثل ما أنفق وللنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الشرط مثل ذلك • وعليه فالآية موافقة لما وقع عليه العهد •

(ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن) أي وقت اعطائكم اياهن مهورهن • والمراد بإيتائها التزام اعطائها على ما تقرر لا إعطاؤها فعلا •

وقوله تعالى (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد نكاح أو سبب من أسباب ارتباط الزوجة بزوجها • أي لا يكن بينكم وبين زوجاتكم المشركات اللاتي بقين على اشراكهن وسكن بين المشركين عصمة" ولا علاقة زوجية • قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتبرنها من نسائه ، لان اختلاف الدار قطع عصمتها منه وعن النخعي ــ رحمه الله ــ : هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر • وعن مجاهد أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن • وليس معنى الآية أن لا تمسكوا ولا تعتدوا بعصم الكافرات اذا جئن الى المسلمين لأنهن اذا أسلمن وهاجرن الى المؤمنين فقد أعلن الله تعالى عن انقطاع العلاقة بينهن وبين أزواجهن المشركين بقوله الكريم (فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) وان بقين على الكفر وجب ارجاعهن الى أزواجهن ان لم يسلمن ، وكان مجيئهن في وقت المعاهدة بين الطرفين •

وقوله تعالى (واسئلوا ما أنفقتم ، وليسئلوا ما أنفقوا) أي اطلبوا مهر نسائكم اللاحقات بالكفار إذا تزوجهن مشرك من المشركين وليطلب الكفار

منا مهور زوجاتهم المهاجرات اللاحقات بالمسلمين (ذلكم) المذكور (حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم) يشرع ما فيه الحكمة والخير .

(وان فاتكم شيىء من أزواجكم الى الكفار) ولم يرد المشركون مهرها الينا (فعاقبتم) أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر لزوجة من زوجاتهم (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم) الى الكفار المشركين ولم يؤدوا مهورهن لهم (مثل ما أنفقوا) في مهورهن وخذوه من مهر المهاجرة الملحقة بنا التي أسلمت وهاجرت الينا . يعني أن أي مسلم تزوج هذه المسلمة المهاجرة ووجب عليه اعطاء مثل مهرها الى زوجها الكافر ، وجب عليه أن يعطي ذلك المبلغ لاخيه المسلم الذي ذهبت زوجته الى الكفار وما ردوا عليه ما أنفقه عليها في المهر . وقيل : المعنى ان فاتكم شيىء من أزواجكم الى الكفار وامتنعوا عن ارسال ما أنفق عليها الى زوجها المسلم عندنا فعاقبتم، أي فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، فأعطوا من هذه الغنيمة لهذا المسلم الذي ذهبت زوجته الى الكفار مثل ما أنفق في مهرها ومصارفها . وحاصله أن بيت المال هو الذي يغرم لهذا المسلم المسكين الذي فاتته زوجة ولم يأخذ شيئا من الكفار . (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) .

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جاءَكَ المُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً ، وَلايَسْرِقْنَ ، ولاَ يَزْنِينَ ، وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ، وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ ، فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ ، إنَّ اللهَ غَفُور رَحِيمٌ(١٢) يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كما يَئِسَ الكُفّارُ مِنْ أَصْحابِ القُبُورِ)(١٣)

قوله تعالى : (يا أيها النبي) شروع في الامر بمبايعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ للنساء على شروط مقررة • فيقول : (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك) أي مبايعات لك (على أن لا يشركن بالله شيئا) من الاشياء : لا الشمس ولا القمر ، ولا الحجر والشجر ، أو شيئا من الاشراك قليلا أو كثيرا (ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن) أريد به وأد البنات ، ومن هذا النوع اسقاط الحمل بعد أن تنفخ فيه الروح (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) في شرح البخاري للكرماني ما معناه : لا تأتوا ببهتان من قبل أنفسكم ، واليد والرجل كناية عن الذات لان معظم الافعال بهما ، ولذا يقال للمعاقب بجناية قولية هذا ما كسبت يداك • وقال الفراء : كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن • وذلك ان الولد اذا وضعته الام سقط بين يديها ورجليها (ولا يعصينك في معروف) أي فيما تأمرهن من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأمر الا به للتنبيه على أنه لا يجوز اطاعة المخلوق في معصية الخالق وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة ، لما أخرج الامام أحمد والترمذي وحسنه عن أم سلمة الانصارية قالت امرأة من هذه النسوة : ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تنحن ••• » الحديث (فبايعهن) بضمان الثواب على الوفاء بهذه الاشياء (واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم) أي مبالغ جل شأنه في المغفرة والرحمة فيغفر عز وجل لهن ويرحمهن اذا وفين بما بايعن عليه •

وهذه الآية نزلت يوم الفتح فبايع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجال على الصفا وعمر ـ رضي الله عنه يبايع النساء تحتها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ • وجاء أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بايع النساء

بنفسه الكريمة . أخرج الامام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وصححه عن أميمة بنت رقية قالت : اتيت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن ، أن لا نشرك بالله شيئا حتى بلغ ولا يعصينك في معروف فقال فيما استطعن وأطقن قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : « اني لا أصافح النساء انما قولي لمائة امرأة كقولي لمرأة واحدة » وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) روي أن قوما من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزلت . وقيل : هم اليهود والنصارى ، وفي رواية عن ابن عباس أنهم كفار قريش . وقال غير واحد : هم عامة الكفرة . وقوله : (قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) أي الذين ماتوا وتبين أنهم لا يرجعون الى الدنيا ، وانتهى أمرهم وتحقق حرمانهم وانقطع أمانهم . والعياذ بالله .

سورة الصف ، مدنية ، وآياتها اربع عشرة
نزلت بعد التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبَّحَ لله ِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ؟(٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (٣) اِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ)(٤)

قوله تعالى (سبح لله ما في السماوات وما في الارض ...) الآية هذه السورة مدنية ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبدالله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أي الاعمال أحب الى الله تعالى لفعلناه . فأنزل الله سبحانه وتعالى (سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟) قال عبدالله : فقرأها علينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى ختمها . وروى هذا الحديث مسلسلا يقرأها

علينا ، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين أخرجه الامام أحمد والترمذي وخلق كثير حتى قال الحافظ ابن حجر : انه أصح مسلسل يروى في الدنيا ان وقع في المسلسلات مثله في مزيد علوه يعني أنه لا يوجد مثله في علوه اسنادا ، وان وجد مثله في علو الاسناد فلا يوجد أصح منه سندا .

وروي في سبب النزول عن أبي زيد أنه قول المنافقين نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أعمالهم خلاف ذلك ، فان كان سبب الورود الاول فالنداء نداء المؤمنين . والكلام ماشٍ على حسب الواقع ، وان كان السبب الثاني فالنداء بوصف الايمان للتهكم ويؤيده سياق الآية وقوله تعالى (كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وكبر من باب بئس فيه ضمير مبهم تفسره النكرة بعده ، وان تقولوا هو المخصوص بالذم ، والمقت أشد البغض وقال ابن عطية : المقت البغض من أجل ذنب أو دناءة أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت. وقوله تعالى (ان الله يحب الذين يقاتلون فيسبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) بيان لما هو مرضي عنده والمرصوص على ما قاله الفراء : هو المعقود بالرصاص، ويراد به المحكم .

(وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَني وَقَدْ تَعْلَمُون أنّي رَسُولُ اللهِ إليْكُمْ ؟ فَلَمّا زاغُوا أزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفاسِقينَ(٥) وَإذْ قالَ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ : يا بَني إسْرائيلَ إنّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَيةِ ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أحْمَدُ ، فَلَمّا جائَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قالُوا : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ !(٦) ومَنْ أَظْلَمُ مِمنْ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إلى الإسْلامِ ؟ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَومَ الظَّالِمينَ(٧)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ)(٩)

قوله تعالى (واذ قال موسى لقومه) أي اذكر يا سيد المخاطبين زمان قول موسى بن عمران ــ عليه السلام ــ أخيك في الدين وأصول الاحكام ، وذلك القول جرى مع أمته الاسرائيليين : (يا قوم لم تؤذونني) أي لم تؤذونني بمخالفتكم وعصيانكم لي في الامر بالجهاد والمقاتلة والمصابرة عليها حتى تستنقروا في مقامكم وتتفرغوا لكسب سعادة الدارين (وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ؟) علما قطعيا ناشئا من ادراك المعجزات الباهرة القاهرة لفرعون وأتباعه فلم ينفعهم نصحه وارشاده (فلما زاغوا) أي صرفوا قلوبهم عن الايمان بموسى ــ عليه السلام ــ (أزاغ الله قلوبهم) أي صرف الله قلوبهم عن نيل الهدى ووصل المحبوب والفوز بالمطلوب (والله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين عن الاطاعة ففي نقل ماجرى بين موسى ــ عليه السلام ــ وقومه حث لأمته على الجهاد والتكاتف عليه حتى لا يبتلوا بمثل ما ابتلى الله به قوم موسى ــ عليه السلام ــ •

(وإذ قال) معطوف على مثله ، أي واذكر اذ قال (عيسى ابن مريم : يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم ، مصدقا لما بين يدي من التورية ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) جمع ــ عليه السلام ــ بين المتعاطفين لكسب الامة سعادة الدارين ، يعني أتى بالحال الاول لتوجيه الاسرائيليين للايمان به ، فان من ادعى الرسالة من الله وصدق بكتب الرسل السابقين مالت اليه القلوب وآمن به الناس ، وأتى بالحال الثانية حتى يستميل

أمته قاطبة الى الايمان برسول آخر الزمان ، ومن جمع بين الايمان بالسابقين واللاحقين فقد فاز برتبة الاتقياء الصادقين • وكما أن في بشارته ـ عليه السلام ـ بالرسول الآتي بعده المسمى أحمد تصديقا برسالته ومجيئه بعده كذلك في تصديقه بالتوراة تصديقا برسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث أن البشارة بسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقعة في التوراة كما جاء في الفصل العشرين من السفر الخامس منها ماترجمته من العبرية (أقبل الله على سعينا ، وتجلى من ساعير (مولد عيسى عليه السلام) ، وظهر من جبال فاران ـ سلسلة جبال مكة المكرمة) وقوله في الفصل الحادي عشر من هذا السفر : (يا موسى اني سأقيم لبني اسرائيل نبيا من اخوتهم مثلك ، أجعل كلامي في فيه ، ويقول لهم ما آمره فيه ، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه) الى غير ذلك • ويتضمن كلامه ان دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه ـ عليهم السلام ـ جميعا من تقدم ومن تأخر • وجملة (يأتي من بعدي) في موضع الصفة لرسول وكذا جملة (اسمه أحمد) وهذا الاسم الجليل ، والحاشر ، والماحي ، والعاقب ، كلها أسماء لقبية ، أي القاب لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صح من رواية مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله : « انى لي اسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب » والعاقب هو الذي ليس بعده نبي • فلفظ الاسم في قوله تعالى (اسمه أحمد) اسم بالمعنى اللغوي ، ويصدق بالكنية والعلم واللقب • وأحمد منقول من اسم التفضيل بمعنى أكثر حمداً لله •

ولما نطق القرآن الكريم بهذه البشارة العظيمة فإنكار النصارى لذلك لا قيمة له ، وقولهم : لو صح لذكر في الانجيل ان أرادوا بالإنجيل الإنجيل

السماوي النازل على سيدنا عيسى عليه السلام، فهو مفقود في الارض فلا تصح دعواهم ذلك . وان أرادوا به الأناجيل الاربعة التي ألفوها بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ الى السماء فلا قيمة لها في مقابل نص القرآن الكريم لانها مؤلفات متأخرة فيها بعض أحوال سيدنا عيسى وما جرى عليه . على أنه يجوز أن المؤلفين ذكروها ، ولكن المتأخرين أسقطوها حبا لدينهم وتعصبا على استمراريته ، وأين ذلك من الواقع ونفس الامر ؟

وتلك الأناجيل أولها إنجيل (متي) أحدُ الحواريين الإثنى عشر ، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ بثمان سنين ، وعدة اصحاحاته ثمانية وستون اصحاحا .

وثانيها إنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة (رومية) بعد الرفع باثنتي عشرة سنة ، وعدة اصحاحاته ثمانية واربعون اصحاحا . والثالث انجيل (لوقا) وهو من السبعين أيضا جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية ، وعدة اصحاحاته ثلاثة وثمانون . والرابع انجيل يوحنا وهو حبيب المسيح ـ عليه السلام ـ ، جمعه بمدينة أفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة ومن أحب اتباع الحق وسلوك سبيل الانصاف فليراجع التوراة ويطالع مزامير داود ـ عليه السلام ـ وكتب شعيا وحيقوق وأرمياء وغيرهم من أنبياء بني اسرائيل ـ عليهم السلام ـ .

(فلما جاءهم بالبينات) أي جاء عيسى ـ عليه السلام ـ الى بني اسرائيل بالمعجزات الظاهرات (قالوا هذا سحر مبين) أي سحر واضح .

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب) أي يضع الكذب موضع الصدق فيجعل السحر موضع المعجزة ، والباطل موضع الحق ، ويدعى على معجزات الرسل أنها سحر (وهو يدعى الى الاسلام ؟) والحال أن ذلك

الظلام لم يؤت الا بما فيه الخير وسعادة الدارين وهو دين الاسلام ، ولا شك أن الجواب هو أنه لا أظلم من ذلك ، فهو ظالم (والله لا يهدي القوم الظالمين) فلا يهديهم أبدا • وهذا المفتري بعضهم قد سبق ممن عاند عيسى وموسى ومن قبلهما ، ومنهم من لحق وقابل سيدنا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المشركين والمنافقين الذين قال الله تعالى في حقهم (يريدون ليطفئوا نور الله) وهو القرآن أو دين الاسلام المأخوذ منه بأفواههم (والله متم نوره) أي مديم ذلك النور منيرا للعالم (ولو كره الكافرون) ذلك النور ودوامه •

(هو الذي أرسل رسوله) محمدا الهاشمي القرشي العدناني من نسل اسماعيل بن ابراهيم ـ عليه السلام ـ ارسالا مقرونا (بالهدى) أي بالقرآن، أو بالمعجزات (ودين الحق) وهو أحكام الشريعة الشريفة الاسلامية السمحة (ليظهره على الدين كله) بإكمال الامور العملية واتمام الاخلاق الحسنة الاسلامية (ولو كره المشركون) ذلك لدعوته الى التوحيد •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وتجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ(١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا : نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ(١٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كما قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ للحوارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ، فَآمَنَتْ

طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ ، وكَفَرَتْ طائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ)(١٤)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) بعد أن ذكر الله سبحانه في صدر السورة استحبابه للمقاتلين في سبيل الله المخلصين لله ، وعقبه بذكر عبده موسى ـ عليه السلام ـ ومخالفة قومه له في أمره ، وذكر عيسى ـ عليه السلام ـ ، وبشارته ببعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. عاد الى الامر بالجهاد واعتبره تجارة منجية فقال (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم) أي أرشدكم وأطلعكم (على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟) فكأنهم قالوا نعم . فقال (تؤمنون بالله ورسوله) ايمانا صافيا عن الأوهام (وتجاهدون في سبيل الله) أي في سبيل إعلاء كلمته (بأموالكم وانفسكم) أي بإنفاق أموالكم على المجاهدين وبذل أرواحكم في سبيل نشر الحق (ذلكم) المذكور من الايمان والجهاد (خير لكم) من أموالكم وأنفسكم (إن كنتم تعلمون) نتائج ايمانكم وجهادكم بأموالكم وأنفسكم حيث يكون استبدال المحدود في مقابل المنافع اللا محدودة فإذا وفيتم بما أمرناكم (يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك) المذكور هو (الفوز العظيم . وأخرى) أي ويؤتكم مثوبة أخرى وفائدة أخرى (تحبونها) وهي (نصر من الله) يوهب لكم (وفتح قريب) لبلد مكة المكرمة (وبشر المؤمنين) أي فأبشر يا حبيبي وبشر من هو من أهل الايمان والاخلاص .

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) أي أنصار دين الله أي أنصار الرسول في نشر دين الله (كما قال عيسى ابن مريم للحواريين : من أنصاري الى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله) والمشبه به مستفاد مما بعد الكاف

في كما قال أي كالحواريين الذين كانوا أنصار الله عندما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله (فآمنت طائفة من بني اسرائيل) بعيسى ـ عليه السلام ـ (وكفرت طائفة) أخرى به (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) . واشتقاق الحواري من الحور وهو البياض ، وسموا بذلك لانهم كانوا قصارين ، وقيل : للبسهم البياض ، وقيل لنقاء ظاهرهم وباطنهم . وفي الحديث الشريف « لكل نبي حواري وحواري الزبير » وفسر بالخاصة من الأصحاب . وقال الازهري : الذي أخلص ونقي من كل عيب . وعن قتادة : إطلاق الحواري على غير الزبير ـ رضي الله عنه ـ ايضا . فقد قال : ان الحواريين للرسول كلهم من قريش : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن مظعون ، وعبدالرحمن ابن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام ـ رضي الله عنهم ـ . وحواريو عيسى ـ عليه السلام ـ كانوا اثني عشر رجلا . وقد تفرقوا بعد رفعه ـ عليه السلام ـ في الاطراف ، والمشهور أن بعضا منهم جاؤا الى ناحية (ميدان) التابعة لقضاء (خانقين) والناحية مشهورة بـ (هورين) المخففة لحواريين ، وبعضهم سكنوا في (كركوك) وواحد منهم يسمى بمتي سكن في محل يسمى الآن (بطوزخورماتو) التابعة لمحافظة صلاح الدين والمحل كان به (ملح) والاسم مركب من ثلاث كلمات هي (طوز حوارى متى) أي الملح المنسوب للحواري المسمى باسم متي . والله تعالى اعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤)

قوله تعالى (يسبح لله) أتى بصيغة المضارع المفيدة للتجدد والاستمرار حتى لا يتوهم أن التسبيح الجاري منهم شيىء محدود منقطع ، وانما هو تسبيح وتنزيه دائم مستمر متجدد الى فناء العالم لأنه اذا كان تسبيحا بلسان الحال فلسان حال الممكنات الحادثة المحتاجة الى الفاعل في ترجيح الوجود الى العدم والمخرج منه من العدم اليه والمرتبطة بارادة الفاعل مدة

يبقى فيها ناطق بأن الله هو الخالق المنزه عن النقصان ، وان كان بلسان ذكر مفهوم لأهله ومكتوم منا كما قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فالنص دال على أن التسبيح وظيفة ما في السماوات وما في الارض وأداء الوظيفة ثابت مستمر مادام لا يكون دليل على الانقطاع وبأي اللسانين يكون (يسبح لله) وينزهه عن صفات لا تليق بكبرياء ذاته (ما في السماوات وما في الارض) تسبيحا متجددا استمراريا مناسبا لله (الملك) المسيطر على الكائنات (القدوس) المنزه عن نقص الممكنات (العزيز) الغالب على ما أراده (الحكيم) الموصوف بالحكمة في أفعاله .

وبين عزته وحكمته بأنه بعث أميا لتعليم عالم الإنسان والجن مربيا ومرشدا للثقلين فقال (هو الذي بعث في الأميين) أي في الامة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب الباقية على حال ولادتها من أمها (رسولا منهم) أي كائنا من جملتهم يعرفون أنه منهم ولم يقرأ ولم يكتب شيئا (يتلو عليهم آياته) البليغة المعجزة لبلغاء الثقلين عن أن يأتوا بمثل ما نزل عليه فيرشدهم ويوجههم الى الاعتراف بخالق الكائنات الارض والسماوات وبوحدته في تأثيره في الموجودات (ويعلمهم الكتاب) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويهدي للتي هي أقوم (والحكمة) أي سنته وسيرته ، أو كل ما فيه علم ومعرفة وأحكام وإتقان من أمور الدنيا والآخرة (وان كانوا) أي أولئك القوم الأميون (من قبل) أي قبل بعث ذلك الرسول (لفي ضلال مبين) واضح من ظلمات الإشراك والوثنية وخبث الجاهلية .

(وآخرين منهم) أي ويعلم قوما أو أفرادا آخرين منهم (لما يلحقوا بهم) بعدُ وسيلحقون ، وهم الذين جاؤا بعد الصحابة من التابعين والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين (وهو العزيز الحكيم ذلك) المذكور من بعث رسول أمي يكون في أرقى درجات معرفة الله تعالى واستفادة أمة سعيدة

من رسالته ونور علمه وإرشاده (فضل الله) وفيض رحمته الواسعة (يؤتيه من يشاء) من عباده تفضلا واحسانا (والله ذو الفضل العظيم) الذي لا يقدر قدره .

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّورِيةَ ثُمَّ لَمْ يَحمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ ، وَاللهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ(٥) قُلْ : يا أَيُّها الَّذِينَ هادوا إن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لله مِنْ دونِ النَّاسِ فتمنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(٦) ولا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ ، واللهُ عَليمٌ بِالظَّالِمينَ(٧) قُلْ إنَّ الْمَوْتَ الَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(٨)

قوله تعالى (مثل الذين حملوا التورية) كأنه جواب لسؤال مقدر تقديره : مادام الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم مبعوثا في الاميين على تلك الدرجة من الفضل وقوة التربية والتزكية للانسان والجن ، وهذه الصفة صفة جليلة مذكورة في التوراة فما بال العلماء بها لم يذكروا للناس نعوته ، ولم يبينوا أن ذلك الشخص المنعوت هو هذا المبعوث حتى يؤمن به الناس ؟ فأجاب بأن (مثل الذين حملوا التورية) وجعلت صفة علمية لهم وكلفوا بحملها (ثم لم يحملوها) أي عاندوا الحق وكتموه ولم يؤدوا ما كلفوا به (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) أي كتباً ضخمة كبارا ، ولا يفهم شيئا منها ، ولم يستفيدوا منها شيئا . وهذا التشبيه بليغ جدا ، فانه تشبيه تمثيلي أخذ من جانب المشبه هيئة مأخوذة من عدة أمور من العلماء وتعبهم في تحصيل العلم ، وعدم استفادة منفعة منها من جهة اهماله ، وعدم العمل به ، وكذلك من

جانب المشبه به ، حيث أخذت هيئة منتزعة من الحمار وتهيئته لحمل الكتب وتحميله عدة كتب ضخمة مستوعبة لمسائل مهمة بدون أن يستفيد منها شيئا (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) أي بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله (والله لا يهدي القوم الظالمين) الى طريق استفادة الحق لتراكم غبار الغرور والعناد والاستكبار على قلوبهم •

(قل : يا أيها الذين هادوا) أي تهودوا أي صاروا يهوديا (ان زعمتم أنكم أولياء لله) أي أحباؤه وأخصاؤه (من دون الناس) ولكم مقام غير مقام الآخرين (فتمنوا الموت) حتى تلقوا ربكم الذي تحبونه ويحبكم (إن كنتم صادقين) في دعوى الولاية لله (ولا يتمنونه) أي الموت (أبدا بما قدمت أيديهم) من المكاسب السيئة (والله عليم بالظالمين) العالمين بالفساد المرتكبين له عنادا واستكبارا (قل) ياحبيبي : (ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم) بلا شبهة ان عاجلا أو آجلا (ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجزيكم عليه •

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلوةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٩) فإذا قُضِيَتِ الصَّلوةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ ، وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ،وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠) وإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ : ماعِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ ومِنَ التِّجَارَةِ ، واللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)(١١)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلوة من يوم الجمعة فاسعوا) قال العلامة ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج : فرضت يعني صلاة

الجمعة بمكة ، ولم يقم بها لفقد العدد ، أو لأن شعارها الإظهار ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم بها مستخفيا ، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة . إنتهى . وما تقدم من كون أسعد أول من جمع بالمدينة يخالفه ما أخرجه الطبراني عن أبي مسعود الانصاري قال : أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب بن عمير وهو أول من جمع بها يوم الجمعة ، جمع بهم قبل أن يقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم اثنا عشر رجلا . وقال الحافظ ابن حجر (العسقلاني) يجمع بين الحديثين بأن أسعد كان أميرا ومصعبا كان اماما وهو كما ترى . وأما ما كان من صلاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ اياها فقد روي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة مهاجرا نزل (قبا) على بني عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الأثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة الى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في سالم بن عوف في بطن واد لهم ، فخطب وصلى الجمعة ، وهو أول جمعة صلاها ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

وقوله تعالى (اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة) أي فعل النداء لها أي الأذان والمراد به ، على ما حكاه في الكشاف ، الأذان عند قعود الامام على المنبر ، وقد كان لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤذن واحد ، فكان اذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فاذا نزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أقام الصلاة ، ثم كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ على ذلك ، حتى اذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر فأمر بالتأذين الاول على داره التي تسمى زوراء ، فاذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني فإذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه . وفي حديث الجماعة الا مسلما فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء . وفي رواية

للبخاري ومسلم زاد النداء الثاني ، والكل بمعنى ، وتسمية ما يفعل من الأذان أولا وثانيا باعتبار أنه لم يكن على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانما كان بعد ، وتسميته ثالثا لان الاقامة تسمى أذانا كما في الحديث « بين كل أذانين صلاة » • وقوله تعالى (فاسعوا الى ذكر الله) دليل على فرضية الجمعة حيث رتب فيها الامر بالسعي لذكر الله تعالى على النداء للصلاة ، فإن أريد به الصلاة أو هي والخطبة فظاهر ، وكذلك ان أريد به الخطبة لان افتراض السعي الى الشرط وهو المقصود لغيره فرع افتراض ذلك الغير ، ألا ترى أن من لم تجب عليه الصلاة لم يجب عليه السعي الى الجمعة بالاجماع ، وكذا ثبتت فرضيتها بالسنة والاجماع ، وقد صرح بعض العلماء بأنها آكد فرضية من الظهر • وهي فرض عين على من وجبت عليه لا تسقط الا بعذر مشروع • ففي حديث رواه أبو داود وقال النووي على شرط الشيخين « الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة الا أربعة : عبد مملوك ، أو امرأة ، أو صبي ، أو مريض » وأجمعوا على اشتراط العدد فيها ، لكن اختلفوا في مقداره على أقوال :

أحدها : انه اثنان ، أحدهما الامام وهو قول النخعي والحسن بن صالح وداود •

الثاني : ثلاثة أحدهم الامام وحكى عن الاوزاعي وأبي ثور وعن أبي يوسف ومحمد ، وحكاه الرافعي وغيره عن قول الشافعي القديم •

الثالث : أربعة أحدهم الامام وبه قال أبو حنيفة والثوري والليث وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعي وأبي ثور واختاره وحكاه في شرح المهذب عن محمد ، وحكاه صاحب التلخيص قولا للشافعي في القديم •

الرابع : سبعة حكي عن عكرمة •

الخامس : تسعة حكي عن ربيعة •

السادس : اثنا عشر في رواية عن ربيعة ، وحكاه الماوردي عن محمد والزهري والاوزاعي •

السابع : ثلاثة عشر أحدهم الامام حكي عن اسحاق بن راهويه •

الثامن : عشرون رواه ابن حبيب عن مالك •

التاسع : ثلاثون في رواية عن مالك •

العاشر : أربعون أحدهم الامام وبه قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة ، والامام الشافعي في الجديد ، وهو المشهور عن الامام أحمد وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبدالعزيز •

الحادي عشر : خمسون في الرواية الاخرى عنه •

الثاني عشر : ثمانون حكاه المازري •

الثالث عشر : جمع كثير بغير قيد وهو مذهب مالك ، فقد اشتهر أنه قال : يشترط عدد معين ، بل يشترط جماعة تسكن بهم قرية ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة ، والاربعة ونحوهم ، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب ، وأما اقامتها في المحل قرية أو قصبة أو مدينة بعد تحقق شروط الوجوب ، فإن فقهاء الامة رأوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلفاء الراشدين من بعده والتابعين لهم بإحسان يتحرون في الجمعة أمورا لايتحرونها في سائر الصلوات الخمس من ذلك أنها لا تصلى الا جماعة • ومن ذلك أنه اذا كان في البلد مساجد متعددة لا تصلى الا في مسجد واحد بها يجمع المؤدين لها في هذا البلد • وقد كانت المساجد في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمدينته المنورة تقام فيها الجماعات بالظهر والعصر وغيرهما • وفي الصحيحين أن معاذا كان يصلي

العشاء خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يذهب الى مسجد قومه ، وكانوا أهل عمل لا يسهل عليهم صلاة العشاء خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيصلي بهم حتى اذا كان يوم الجمعة لم يقيموها الا في مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يرخص ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع فرط حبه للتيسير على أمته في أن يقيموها في مساجد متعددة ، أو يصلي بمن يتيسر له الحضور أول الوقت ، ويأذن في أن تقام بعده جمعة وجمعة وثالثة وهكذا لباقي الذين لا يستطيعون أن يحضروا ، وكان ذلك أيسر عليهم لو كان. وعلى سنته السنية درج خلفاؤه الكرام ولما اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وكثرت الامصار في المملكة المحمدية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لم يرخص في ذلك أيضا بل نقل عنه الثقات أنه بعث الى عماله في الامصار بالكتب يأمرهم فيها أن يقيموا الجماعات في المساجد المتعددة في المصر ، وألا يجمعوا بالناس الا في المسجد الواحد الجامع .

وهكذا كان الامر مدة خلافة الخلفاء الراشدين ، وطيلة عصر بني أمية ، وصدرا طويلا من زمن الخلفاء العباسيين حتى اذا كان زمان الرشيد ، أو زمان الواثق على ما صححه جمع من محققي الشافعية تعددت الجمع . بل ذكر الخطيب في تأريخ بغداد أن أول جمعة أحدثت في الاسلام في بلد مع قيام الجمعة القديمة في أيام المعتضد ، وذلك سنة مائتين وثمانين ، وذلك بعد وفات الامام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بست وسبعين سنة كما بسطه الحافظ ابن حجر في كتابه التلخيص الخبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير .

رأى فقهاء الامة هذا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفائه الكرام الى آخر ما ذكرنا وما لم نذكره من ملاحظات فطن لها أكابر الفقهاء ، فاتفقت كلمة جمهورهم على وجوب أن تكون الجمعة واحدة في البلد ،

فاذا تعددت كان ذلك خروجا من الناس على السنة السنية وسيرة السلف المرضية • ورأى الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أن التعدد في البلد الواحد لا يجوز بحال دعت اليه الحاجة أم لا • وقد اختلف أئمة مذهبه من بعده : هل مذهبه جواز التعدد لحاجة بقدرها ، قال بذلك الكثير منهم كالروياني وغيره ؟ أم مذهبه منع التعدد مطلقا ؟ والمحققون من علماء المذهب على هذا •

وأما باقي الأئمة ماعدا الامام الاعظم ـ رضي الله عنهم ـ فإنهم منعوا التعدد لها الا اذا دعت اليه ضرورة • واما الامام الاعظم ـ رضي الله عنه ـ فيروى عنه قولان : قول على منهج أولئك الائمة وهو منع التعدد لها الا اذا دعت اليه الضرورة كأن لا يكون في البلد جامع يسع الحاضرين لها •

القول الثاني : جواز تعددها ولو لم تكن لضرورة داعية اليه • وتكلم أئمة مذهبه على القولين ، فمنهم من رجح هذا القول ، ومنهم من رجح القول الاول لموافقته لما درج عليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفاؤه الراشدون وجمهور المسلمين في البلاد • وان شئت راجع كتاب رد المحتار على الدر المختار للعالم العلامة محمد أمين ابن العابدين ـ رحمه الله ـ • وعلى ذلك قرر ذلك العالم وكذا العالم العلامة الجليل ابن الهمام في شرح الهداية اعادة صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة بنية فريضة آخر الوقت خروجا من مخالفة قوله الراجح ، وقول سائر الائمة المجتهدين ولموافقة السنة السنية العملية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولخلفائه الراشدين ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « دع ما يريبك الى ما لايريبك » ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه » •

وخلاصة المقام : أن من صلى صلاة الجمعة في البلد الذي تعددت فيه فوق الحاجة وجب عليه أن يقلد الامام أباحنيفة ـ رضي الله عنه ـ في تجويزه

ذلك ، والا فصلاته باطلة • واذا قلده وصلاها سنت له إعادة صلاة الظهر بعد الجمعة بنية فريضة آخر الوقت خروجا من الريبة والاشتباه في عبادته • ومن خالف ذلك بلا حجة شرعية فأمره إلى الله • وانما فصلنا الكلام في ذلك حتى يعرف الناس أن هذه الإعادة أمر مشروع ، وليس على مذهب الإمام الشافعي فقط ، وانما هو على سائر المذاهب المدونة الاسلامية • هذا والله أعلم بالنيات •

وقوله تعالى : (وذروا البيع) أمر بترك المعاملات والاشتغال بأمور الدنيا اذا أذن المؤذن • ولما كان الاذان في عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبارة عن أذان يؤذنون به عند جلوسه على المنبر كان الامر بتركها في ذلك الوقت • ولما كان ظاهر الامر الوجوب حرم العلماء كل معاملة تجري اذ ذاك لكن اذا جرت فهل تصح المعاملة ويأثم الشخص أم تبطل ؟ والجمهور على صحتها مع الإثم (ذلكم) المذكور من السعي الى ذكر الله وترك البيع والمعاملات (خير لكم) لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة (ان كنتم تعلمون) الخير والشر في الواقع (فاذا قضيت الصلوة) أي أديت صلاة الجمعة وفرغ منها (فانتشروا في الارض) للوفاء بمصالحكم (وابتغوا من فضل الله) أي ما تقوم به المصالح (واذكروا الله كثيرا) في كل زمان ومكان أمكنكم الذكر فيه (لعلكم تفلحون) أي كي تفوزوا بالسعادة أبد الآبدين •

وقوله تعالى (واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما) أي تفرقوا نحو الأمرين ، وخلوك قائما على المنبر • أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبدالله قال: بينما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب يوم الجمعة قائما اذ قدمت عيرُ المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله ، حتى لم يبق منهم الا اثنا عشر رجلا ، أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى (واذا رأوا تجارة •••) الآية وفي رواية عن ابن عباس أنه بقي في

المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسـوة • فقال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نـارا » • وكانـوا معذورين من شدة الحاجة الى الاقوات المستوردة ، وان كان حقهم البقـاء الى اللقاء • (قل) يا حبيبي ناصحا لهم (ما عند الله) من الرزق في الدنيـا ومن الثواب في الآخرة (خير من اللهو ومن التجارة) فان الخارج من الجامع اما خرج للتفرج على القافلة الراجعة وأحمالها واستقبالها ، واما لشراء بعض الحاجيات ، وعلى كل حال فما عند الله خير من ذلك (والله خير الرازقين) •

سورة المنافقون ، مدنية ، وهي إحدى عشرة آية
نزلت بعد الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا جاءَكَ المُنافِقُون قالُوا : نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٣) وإذا رأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ ، وَإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قاتَلَهُمُ اللهُ أنىَّ يُؤْفَكُونَ !(٤) وَإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رؤوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَواءٌ عَلَيْهِمْ اَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ)(٦)

قوله تعالى (اذا جاءك المنافقون) أي حضروا مجلسك ، والمراد بهم عبدالله ابن ابي بن سلول وأتباعه .

والشهادة إخبار بحق للغير على آخر عن يقين . والمقصود بها انشاء الثبوت لا الإخبار به ، والتأكيد بان واللام لافادة لازم الخبر على وجه القوة . وهو علمهم برسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الله تعالى . وقوله (والله يعلم إنك لرسوله) وتقديمه على الجملة الأخيرة لتثبيت المشهود به وتصديقه وتحقيقه حتى لا يتوهم متوهم معنى فاسدا منها . وقوله تعالى (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) أي لكاذبون في دعوى ضمنية مستفادة من بيانهم وهي أن ألسنتنا وقلوبنا متوافقة في الشهادة ، اذ لا موافقة بينهما في الواقع فألسنتهم تقر أن محمدا رسول الله وقلوبهم تنكر ذلك ، أو في تسمية ذلك الاخبار بالشهادة لانها اسم لبيان حق للغير على آخر بصورة يقترن بعلم الشاهد بذلك مع أن الشهود هنا لا يقترن بيانهم بعلمهم ولا علم لهم بذلك بل ينكرونه ، وليس الحكم بكذبهم لعدم مطابقة اخبارهم لاعتقادهم لان معنى الصدق والكذب مطابقة الخبر للواقع ونفس الامر وعدم مطابقته له ، فقول القائل : العالم حادث صادق ، وان لم يوافق اعتقاده .

(اتخذوا أيمانهم) أي شهاداتهم كهذه الشهادة وغيرها مما يروجون لها أمورهم أو أحلافهم في هذه الصورة وغيرها (جُنّة) أي وقاية لهم عن قتل الأنفس وأخذ الأموال وهتك الاعراض فحافظوا عليها بهذه الشهادات والأحلاف (وصدوا) الناس الضعفاء الجهلاء (عن) سلوك (سبيل الله) (انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك) المذكور من الحكم عليهم بسوء أعمالهم (بأنهم آمنوا) أي نطقوا بكلمة الشهادة ظاهرا وان كانوا يبطنون الكفر (ثم كفروا) أي ظهر كفرهم الباطن بعباراتهم الفاسدة كطعنهم في ظفر الرسول بمطلوبه وصدقه في ما ذكره في وعوده وغير ذلك (فطبع على قلوبهم)

حتى يموتوا على الكفر (فهم لا يفقهون) الإرشادات والنصائح لا لغبائهم الذاتي بل لعنادهم مع الحق •

(واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) للصباحة وتناسب الاعضاء (وإن يقولوا تسمع لقولهم) لفصاحتهم وبلاغتهم (كأنهم خشب مسندة) على ما يعتمد عليه يجوز أن يكون مدحا لهم بالرزانة والسكون والوقار وذما لهم بأنهم كأخشاب جامدة لا رطوبة فيها ولا روح ولا فكر ولا بصيرة (يحسبون كل صيحة عليهم) أي يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم فتضرهم وتبيدهم أي أنهم جبناء وضعفاء (هم العدو) أي أولئك الناس اللؤم الشؤم البرءاء من الفقه والفهم ومحاسن الصفات محصورون في العداوة ، والعدو اذا كان عاقلا كريم النفس أمكن الخلاص منه بشفاعة أو ضراعة أو معاهدة • وأما العدو اللئيم الغبي الذميم فلا مخلص منه الا بموته أو باللجوء الى أقوى منه في صيته وصوته (قاتلهم الله أنى يؤفكون !) أي كيف يُصْرَفونَ عن الحق الى الباطل • (واذا قيل لهم تعالوا) الى الحق أو الى الرسول (يستغفر لكم رسول الله لَوَّوا رءوسَهم) على عادة الرؤساء الأغبياء والأثرياء الجهلاء (ورأيتهم يصدون) أي يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار (وهم مستكبرون) عن ذلك روى أنه لما صدق اللهُ تعالى زيداً بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبي مقت الناس ابن أبي ولامه المؤمنون من قومه وقال بعضهم له : اِمْضِ الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واعترف بذنبك يستغفر لك فلوى رأسه انكارا لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتم عليّ بالايمان فآمنتُ ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم الا أن تأمروني بالسجود لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

(سواء عليهم أستغفرت لهم أمْ لم تستغفرْ لهم لن يغفر الله لهمْ ان الله لا يهدي القوم الفاسقين) أي سواء على أولئك المنافقين استغفارك وعدم

استغفارك لهم ، فان الله سبحانه لم ولن يغفر لهم ، وذلك لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين المفسدين .

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ، وللهِ خَزائِنُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَلكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ(٧) يَقُولونَ : لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَللهِ العِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلمُؤْمِنِينَ ، وَلكِنَّ المُنافِقِينَ لا يَعْلَمونَ(٨) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَل ذلِكَ فأولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ(٩) وأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يأْتِي أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إلى أجَلٍ قَرِيبٍ ، فَأَصَّدَّقَ وأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ(١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)(١١)

قوله تعالى (هم الذين يقولون) استئناف مبين لبعض ما يدل على فسقهم ولؤمهم ونفاقهم وشقاقهم يقول تعالى هم الذين يقولون أي يقول رئيسهم عبدالله بن أبي لمن معه : (لا تنفقوا على من عند رسول الله) من الفقراء (حتى ينفضوا) ويتفرقوا من حوله ويظنوا أنهم إذا تركوا الانفاق عليهم تفرقوا ولا يشعرون أن الله بيده مقاليد السموات والارض (ولله خزائن السموات والارض) يرزق منها من يشاء (ولكن المنافقين لا يفقهون) ذلك وهم لا يكتفون بعدم الانفاق عليهم بل (يقولون : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز) ويعني ابن أبي به نفسه ومن معه (منها) أي من المدينة

(الاذل) ويعني به محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعه من المؤمنين • ويقول تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فنحن اذا سلمنا قوله من اخراج الاعز للاذل لزم أن يخرج الله ورسوله والمؤمنون عبدالله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين ومن معه منهم (ولكن المنافقين لا يعلمون) من هو الاعز ومن هو الاذل ، والا ما كانوا يقولون ذلك القول •

ولما كان هذا الغرور من ابن أبي ومن معه نشأ من كثرة أموالهم وأتباعهم ومن كثرة أولادهم ، ولذلك غفلوا عن ذكر الله وإطاعة رسوله •• قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم) أي لا تغفلكم (عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك) أي يلتهي بما عنده منهما (فأولئك هم الخاسرون) في الدنيا بإضاعة ماعندهم وفي الآخرة بما يرد عليهم من العذاب (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أي بوادره (فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب) يعني لماذا لا تؤخر أجلي مدة وجيزة (فاصدق) أي فأتصدق بمالي على من لا مال عنده (وأكن من الصالحين) للعبادة فأعبد الله تعالى حتى يأتيني الاجل ؟ قرىء وأكون بالنصب ووجهه ظاهر • وبالجزم ، كما هو عندنا ، بالعطف على محل فأصدق لانه في معنى ان أخرتني أصدق على ما رآه أبو علي الفارسي • وذهب سيبويه الى أنه على توهم شرط مقدر يدل عليه التمني • (ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها) أي مع أنه لا يفيده طلب الامهال عند آخر الأحوال (والله خبير بما تعملون) فمجازيكم عليه قليلا أو كثيرا •

سورة التغابن مدنية ، وآياتها ثماني عشرة ، نزلت بعد التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)(٦)

قوله تعالى (يسبح لله ما في السموات وما في الارض) أي ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات تنزيها مستمرا لائقا بجناب قدسه (له الملك

وله الحمد) لا لغيره ، فإن الكائنات مختصة به تعالى ايجادا وابداعا ، وأي حمدٍ من أي حامدٍ ولأي محمود يكون على نعم أو لا ، يعود اليه (وهو على كل شيىء قدير) لان نسبة ذاته الى جميع مقدوراته سواء والإمكان يستوعب جميع الكائنات (هو الذي خلقكم) وأبدعكم من اللاشيىء (فمنكم كافر") ينكر وجود الخالق المصور أو وحدته في الخلق والابداع (ومنكم مؤمن) بربه تعالى (والله بما تعملون بصير) وبمباديء أعمالكم خبير (خَلَقَ السموات والارض بالحق) أي بالحكمة البالغة المتضمنة لمصالح الدنيا والآخرة (وصوركم فاحسن صوركم ، واليه المصير) في النشأة الاخيرة (يعلم ما في السموات والارض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم" بذات الصدور) أي بالخيالات الموجودة فيها •

(ألم يأتكم) يا أهلَ مكة (نبأ الذين كفروا من قبل ؟ فذاقوا وَبالَ أمرهم) أي ضرر كفرهم (ولهم في الآخرة عذاب أليم) ذلك العذاب الذي يرد عليهم (بأنه) أي بسبب أنه (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الظاهرة (فقالوا : أبشر يهدوننا) أي فقال كل أمة من تلك الامم في مقابل أولئك الرسل أبشر مثلنا يقدر أن يهدينا ؟ فكفروا بالرسل لان أوساخ المماثلة أخرجتهم من اتباع الحق الى المجادلة ، ولم يعلموا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وتولوا عن التفكر في الادلة القاطعة على ثبوت رسالاتهم وتركوا سبيل البرهان ، واستغنى الله عن ايمانهم وطاعتهم والله غني عن العالمين حميد للحامدين •

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ : بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ، وَاللهُ

بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ، ويَعْمَلْ صالِحا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّآتِهِ ويُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فيها أَبَداً ، ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٠) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(١١) وأَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلى رَسُولِنا البَلاغُ المُبِينُ(١٢) أَللهُ لا اِلهَ إِلاَّ هُو وَعَلَى فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنونَ)(١٣)

قوله تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) الزعم ادعاء العلم وأكثر ما ما يستعمل للادعاء الباطل ولذا اشتهر أن زعم مطية الكذب يعني أن كلمة زعم فرس لا يركبها الا الباطل ، فاذا سمعت زعم فالغالب أن الكلام الواقع بعده باطل نحو (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا) أي لن يحيوا بعد موتهم في الدنيا مع أن الاحياء أمر محقق مقرر لينال كل جزاء أعماله ان خيرا فخير وان شرا فشر (قل) يا رسولي في رد مزعومهم (بلى) أي كلامكم باطل عاطل (وربي) أقسم (لتبعثن) عند مجيىء الساعة (ثم لتنبئن بما عملتم) أي لتحاسبن ولتجزون على أعمالكم لا على جهل وعدم اطلاع بل تنبئن بكل عمل خير أو شر عملتموه حتى تعترفوا به واذا أنكرتم ما عملتم شهدت عليكم جوارحكم أيديكم وأرجلكم بما عملتم (وذلك) البعث والانباء بالاعمال (على الله يسير) سهل لا صعوبة فيه • واذا كان الامر كذلك (فآمنوا بالله) الحي القيوم القادر على كل شيىء (ورسوله) النبي الزكي الامجد سيدنا محمد

ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والنور الذي أنزلناه) اليه وهو القرآن الكريم (والله بما تعملون خبير) .

وقوله (يوم يجمعكم) ظرف لقوله (لتنبئن) أي لتنبئن بما عملتم (يوم يجمعكم) جميعا (ليوم الجمع) أي لأجل الحساب والميزان الثابتين في يوم الجمع (ذلك يوم التغابن) أي وذلك يوم غبن فيه بعض الناس بعضا بنزول السعداء منازل الاشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس . فقد روي في الصحيح : « ما من عبد يدخل الجنة الا أريَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا . وما من عبد يدخل النار الا أري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة . (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جناتٍ تجري مِنْ تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) الذي لا فوز وراءه لاشتماله على النجاة من أعظم المهلكات والظفر بأعلى الطلبات .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أي الآيات المنزلة من الله أو المعجزات التي خلقها الله تعالى لتأييد رسوله (أولئك أصحاب النار خالدين فيها ، وبئس المصير) النار ، فيا أيها المؤمنون اذا آمنتم بالله فتوكلوا عليه وانيبوا اليه ، ولا تتزلزلوا فيما أصابكم على الجهاد في الدين . (ما أصاب من مصيبة الا بإذن الله) وارادته (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) الى الصبر عند المصائب والآلام (والله بكل شيء عليم . وأطيعوا الله) في آياته (وأطيعوا الرسول) في تبليغاته وبياناته (فإن توليتم) أي استدبرتم وعصيتم (فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لا على غيره .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا

فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٥) فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ(١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(١٨)

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) كلمة من فيه للتبعيض ، أي ان بعضهم كذلك ، فمن الازواج أزواج يعادين بعولتهن ويصرفن أموالهم في ما يشتهين بدون إذن منهم ، ويخننهم في المحارم ، ويجلبن المخاصمات الى بيوتهم ، علاوة على اطالة لسانهن وعبوسة وجوههن وبذاءة كلامهن ... وكذا من الاولاد من يهدم شرف بيت أبيه بالعمل على ما يشتهيه . ومن الازواج الصالحات الحافظات لحدود الله المؤدبات المطيعات للازواج ، كما أن من الاولاد من يخدم أباه ، ويعمل على مبتغاه ، ويطلب رضاه ، ويطيع مولاه . (فاحذروهم) أي ذلك البعض البغيض وذلك كثير وعدده وفير (وإن تعفوا) عن المتعاطفين فيما يقبل العفو (وتصفحوا) فيما لا يوجب الصفح فيه هونا في الدين (وتغفروا) أي وتستروا عيوبهم وذنوبهم الهينة (فإن الله غفور رحيم) .

(إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي بلاء ومحنة . أما الاموال فالفتنة في كسبها من الشبهات أو المحرمات ، وفي عدم صرف الواجبات ، وفي ظهور عداء أصحاب الخيانات ، وخيرها في الكسب من الحلال وصرفها في رضا الملك المتعال ، وسد أفواه الناس بها حسب الإمكان في كل حال . وأما الاولاد فالفتنة في إهمال التربية والتعليم واطلاق سراحهم ليعيشوا مع كل

ذميم لئيم وتخويلهم الأموال لصرفها في ما يسوق الى الجحيم • وخيرهم في حسن التربية بقدر الأمكان ورعاية مجاورتهم للصالحين بحسب الزمان ، والاعتدال في الانفاق عليهم وتزويجهم حتى لا يبتلوا بالعصيان (والله عنده أجر عظيم) لمن يصون نفسه من موبقات الاموال والاولاد في سبيل الله وفي الحديث : « يؤتى الرجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته » وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن بريرة قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المنبر فحملهما ، واحدا من ذا الشق ، وواحدا من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : « صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة ، اني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما » •

(فاتقوا الله ما استطعتم) أي أبذلوا الجهد بقدر طاقتكم في تقواه (واسمعوا) كلام الله وكلام رسوله (وأطيعوا) أوامره عز وجل ونواهيه بقدر الامكان (وانفقوا) في الدنيا (خيرا لانفسكم) في الآخرة (ومن يوق شح نفسه) أي يحفظ من حرص نفسه على جمع الاموال من الحرام والحلال وبخله من صرف حلاله في سبيل رضا الملك المتعال (فأولئك هم المفلحون) الفائزون • (إن تقرضوا الله قرضا حسنا) أي ان تصرفوا أموالكم في سبيل مرضاته تعالى بإخلاص غير مشوب بالعيوب (يضاعفه لكم) من واحد الى عشر حسنات ، ومن عشر إلى سبعمائة ضعف من الدرجات (ويغفر لكم) ذنوبكم (والله شكور) يعطي الجزيل في مقابل القليل (حليم) لا يستعجل بعقوبة المذنب (عالم الغيب والشهادة) لا يخفى عليه شيء (العزيز) الغالب (الحكيم) في كافة المطالب •

سورة الطلاق ، مدنية ، وآياتها اثنتا عشرة ، نزلت بعد سورة الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ، وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ، لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ، وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ، ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلك أَمْراً(١) فإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ، ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)(٣)

قوله تعالى : (يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) خص النداء بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وعم الخطاب لانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ إمام أمته فنداؤه كندائهم والمعنى : اذا أردتم تطليقهن فطلقوهن لعدتهن ، أي في وقت ابتدائهن بعدتهن مباشرة بعد نهاية انشاء الطلاق • يعني فطلقوهن في الطهر لان زمن الطهر يحسب من العدة ولو بقي بعد التطليق دقيقة • وهذا عند من فسر القرء بالطهر ، فالامر بتطليقهن في الطهر انما هو حتى لا تتضرر المرأة بتأخير عدتها ، لأن العدة عنده بالاطهار ، وزيد فيه شرط آخر وهو أن لا يجامعها في ذلك الطهر قبل التطليق خوفا من الحمل • ومن اعتبر الأقراء بالحيضات وافق أيضا في كون التطليق في وقت الطهر لكن قدر محذوفا ، أي فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون الطلاق في الطهر حتى انقضى الطهر ابتدأت بالحيض المحسوب لها من العدة • وظاهر أن الامر للوجوب فيحرم تطليقها في الحيض ، لكن الطلاق يقع والدليل على الحرمة ووقوع الطلاق ما صح من أن عبدالله ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ طلق زوجته آمنة وهي حائض فذكر ذلك أبوه عمر ــ رضي الله عنهما ــ للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ليراجعها ثم ليمسكها ، حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ، فان بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء » فانه لو لم يكن الطلاق واقعا ما كان يحتاج الى الرجعة ، ولو كان حلالا لم يأمر ــ عليه الصلاة والسلام ــ بتلك العمليات التي تورث حرجا على الزوج، وكان يأمر بمفارقتها •

(وأحصوا العدة) أي واضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء فان كان القرء حيضا انتهت العدة بخلاصها من الحيضة الثالثة ، وان كان طهرا فبدخولها في الطهر الثالث ولا تنتظر أن تدخل في الحيض ، بل يجوز أن

تتزوج في ذلك الطهر لأن الطهر قد يستمر الى موتها (واتقوا الله ربكم) في تطويل العدة عليها ، فان كانت في الطهر فلابأس بتطليقها لمباشرتها للعدة فورا أو في الحيض وجب الصبر الى أن تطعن في الطهر .

والمقصود من الآية الكريمة أن يكون طلاق المرأة بعيدا عن الاضرار بها ، ولذا قرر أن يكون في الطهر . وروي عن النخعي أن أصحاب رسول الله يستحبون أن لا يطلق الزوج زوجته الا واحدة . ثم لا يطلق غير ذلك حتى تنقضي عدتها ، وكان أحسن عندهم أن يطلق الرجل ثلاثا في ثلاثة أطهار . قال مالك ـ رضي اللهعنه ـ : لا أعرف طلاق السنة الا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة أو مفرقة . وأما أبو حنيفة وأصحابه فانما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفروقا في الاطهار فلا لما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لابن عمر حين طلق أمرأته وهي حائض : « ما هكذا أمرك الله . انما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لكل قرء تطليقة » وروي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعمر : « مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ، ثم تطهر ثم ليطلقها ان شاء » وعند الشافعي لابأس بإرسال الثلاث . وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح . فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت . وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت ، والشافعي يراعي الوقت .

وأما إرسال الطلاق الثلاث بألفاظ متعددة كأن يقول أنت طالق أنت طالق أنت طالق ، أو بلفظ واحد كأن يقول أنت طالق ثلاثا ، فالذي ذهب اليه جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، ومنهم الأئمة الاربعة .. وقوع الثلاث ، بل ذكر الامام ابن الهمام وقوع الاجماع السكوتي من الصحابة علىالوقوع، ونقل عن أكثر مجتهديهم كعلي ـ كرم الله وجهه ـ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبي هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبدالله بن

عمرو بن العاص الإفتاء الصريح بذلك • وذكر أيضا أن إمضاء عمر الطلاق الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بالسنة النبوية دليل على أن ذلك الإمضاء كان حقا مشروعا ، وإلا فكيف يخالف عمر ما سنه الرسول وقرره ، أو كيف يسكت أولئك الأجلة من الأصحاب على مخالفة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تشريعاته •

وقال بعض الأئمة : لو حكم قاض بأن الطلاق الثلاث بفم واحد يعتبر طلاقا واحدا لم ينفذ حكمه لانه لا يسوغ الاجتهاد فيه لاجماع الأئمة المعتبرين عليه • وما روي من غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على من طلق زوجته ثلاثا فعلى تقدير ثبوته كان غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على استعماله فيها وعدم ابقاء المجال للرجعة ، أو استئنافا لنكاح بعقد جديد لا لعدم وقوع الثلاث ، فقد أخرج عبدالرزاق عن عبادة بن الصامت أن أباه طلق امرأة له ألف تطليقة ، فانطلق عبادة فسأله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بانت بثلاث في معصية الله وبقي تسعمائة وسبعة وتسعون عدوانا وظلما ، ان شاء الله تعالى عذبه وان شاء غفر له • وأخرج أبو داود في سننه عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل ، وقال : انه طلق زوجته ثلاثا ، فقال له : عصيت ربك وبانت امرأتك منك • ومنهم من قال : ان المعصية قد نسخت لانه روي عن جمع من الصحابة التطليق ثلاثا مع وجود المعصية فيه منهم عبدالرحمن بن عوف طلق زوجته (تماضر) ثلاثا في موضعه ، والحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ طلق زوجته (شهبانو) ثلاثا لما هنأته بالخلافة بعد وفاة علي ـ رضي الله عنه ـ • أو أن المعصية كانت في التطليق في الحيض أو أن المطلق قال (ثلاثا للسنة) •

(ولا تخرجوهن من بيوتهن) أي من مساكنهن عند التطليق الى أن تنقضي عدتهن (ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة) أي تزني فتخرج

لإقامة الحد عليها ، أو المعنى الا أن يأتين بفاحشة واضحة وهي خروجهن من مساكنهن بدون موافقة الزوج لانهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، لان الحق لا يتجاوزهما ، وفي جمع النهيين دلالة واضحة على استحقاق السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق • نعم اذا لم يكن ذلك المحل متميزا بمرافق خاصة وحصل من بقائها فيه الاجتماع بزوجها وجب : اما انتقال الزوج الى محل آخر ، أو انتقالها الى سكنى أخرى مناسبة لها • (وتلك حدود الله) أي وتلك الاحكام حدوده تعالى المذكورة (ومن يتعدّ حدود الله) أي يتجاوزها ويخالفها منهما (فقد ظلم نفسه) بتعريضه لعقاب الآخرة (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) وهو الرجوع الى اطاعة الباري والتوبة عما جرى من المخالفة ، أو هو وجود الرغبة فيهما لاستئناف العقد بينهما ، أو رجعته لها ان كان الطلاق رجعيا •

(واذا بلغن أجلهن) أي قاربن الوصول الى انتهاء مدة العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن أو استأنفوا عقد نكاحهن (بمعروف) متلبسا بما يعرف في الدين بأن تكون المعاشرة لطيفة شريفة بلا نزاع وجدال (أو فارقوهن بمعروف) بالوفاء بتسليم حقوقها المشروعة (وأشهدوا ذوي عدل منكم) على الرجعة أو استئناف العقد أو الفراق بينهما • والامر للوجوب اذا كان الإمساك بعقد جديد ، وللندب اذا كان بالرجعة او كان الفراق بالطلاق •

(وأقيموا الشهادة) أي أدوها عند الحاجة (لله) خالصا له تعالى (ذلكم) الحكم المذكور (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله) ولا يخالف أوامره ونواهيه ويطع شرع الله في السلب والإيجاب (يجعل له مخرجا) من الصعوبات الواقعة أمامه (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أن يأتيه الرزق من ذلك المحل لان الصدق بالغيب يلزمه الرزق بالغيب (ومن يتوكل على الله) أي يعتمد عليه حق الاعتماد وأن النافع

والضار هو الله ، وأطاعه في مباشرة الاسباب التي هيأها له (فهو حسبه) أي فالله كافيه في ترتب المسببات على الاسباب ، فالتوكل هو الاعتماد على خلقه وتأثيره وأن لا يرى التأثير للاسباب ويؤمن بأن المسببات مع الاسباب لا بها .
وليس معنى التوكل اختيار البطالة والمشي على الجهالة ، فان ذلك مخالف لسنة الله في العالمين . نعم قد يكون أفراد من البشر يمتنعون عن معالجة كل أمر ويحصل لهم كل ما أرادوه لكنهم شواذ مأمورون بمباشرة تلك الاحوال لحكمة في الخلق . وإلا فسيد الأنبياء والمرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو سيد المتوكلين مع أنه باشر الاسباب كما هو الحق والواجب وحول الامر الى الله العلي العظيم .

(ان الله بالغ أمره) أي واصل الى مراده ، ولا يفوته مراد من المرادات لان تخلف المراد عن الارادة ممتنع (قد جعل الله لكل شيىء قدرا) أي تقديرا خاصا ، أو مقدارا محدودا ، او أجلا ومدة من الزمن لا يتأتى تغييره .

(وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ اِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلٰثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولاتُ الأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً(٤) ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً(٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ ، ولا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ،

وإنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى(٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ ممَّا آتاهُ اللهُ، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ ما آتيها سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً)(٧)

قوله تعالى (واللائى يئسن من المحيض) روي أنه لما نزل (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلثة قروء) قيل : فما عدة اللاتي لم يحضن ؟ فنزلت يعني والنساء اللاتي يئسن من خروج دم الحيض لكبر سنهن (إن ارتبتم) أي جهلتم عدتهن (فعدتهن ثلثة أشهر) وقد قدر بعض الأئمة سن اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين • وقوله (واللائى لم يحضن) مبتدأ خبره محذوف ، أي واللائي لم يحضن من أول زمان استعداد الحيض إلى وقت وجوب العدة عليها فعدتهن ثلاثة اشهر أيضا • وكذلك صغيرة تزوجت وبوشرت ثم طلقت قبل أن تحيض • (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) أي ولو نحو مضغة قالت القوابل إنها مادة آدمي وهذه الآية تعم المتوفى عنها ، فإنه إذا وضعت الحمل بعد وفاة زوجها فقد انقضت عدتها • فقد أخرج مالك والشافعي عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة التي توفى عنها زوجها وهي حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت ، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلّت (ومن يتق اللـه) في رعاية أحكامه تعالى ومراعاة حقوق الزوجة (يجعل له من أمره يسرا • ذلك) المذكور (أمر اللـه أنزله إليكم) لتفهموا أحكام الدين (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة •

(أسكنوهن من حيث سكنتم) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الحث على التقوى ، كأنه قيل : كيف نتقي في شأن النساء ؟ فقال :

(أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) أي من وسعكم ومالكم الموجود (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) فتلجئوهن إلى الخروج لشغل المكان عندكم، أو بالاسكان مع من لا يردن السكنى معه (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) والآية مخصوصة بالمطلقات لأن المتوفى عنها لا نفقة لها ولو كانت حاملا ، (فإن أرضعن لكم) بعد الوضع (فآتوهن أجورهن) على الإرضاع (وائتمروا بينكم بمعروف) أي تشاوروا في مقدار الأجور وسائر الأمور (وإن تَعاسَرْتم) أي تضايقتم أي ضيّق بعضكم على بعض وماتَوافَقتم على الأُجْرَة (فسترضع له أخرى) أي مرضعة أخرى ، أي فستوجد له مرضعة أخرى (لينفق ذو سعة) مالية (من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتيه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتيها ، سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً) أي سَيَجعل الله بعد عُسر وفقرٍ يُسراً وغنىً وَسَعَةً في الحال والمال •

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْنَاها حِساباً شَدِيداً ، وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً[8] فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها ، وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً[9] أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً ، فاتَّقُوا اللهَ يا أولي الأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً[10] رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فيهَا أَبَداً ، قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً[11] اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ،

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)(١٢) .

قوله تعالى (وكأيّن مِن قَريَةٍ) أي كثير من أهل قرية (عَتَتْ) تكبّرت وعَصَتْ (عن أمْر ربها ورُسُلِهِ) ولم تُطِعْهُما (فَحاسَبْناها حِساباً شَديدا) في الدنيا بتغيير الأحوال وتقتير الأموال وتقليل الجاه والمَنال وقد كانت بالإهلاك والتدمير (وعذبناها في الآخرة عذابا نكرا) أي منكرا عظيما . اوكل الفقرات السابقة تفسير لمحاسبة الدنيا بقرينة قوله تعالى (فذاقت وبال أمرها) عقوبة عصيانها (وكان عاقبة أمرها خسرا) عظيما لا خسرَ أزيد منه في الآخرة ، وبيّنه بقوله (أعدّ الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولي الألباب) العقول السليمة من الخلل ، أعني (الذين آمنوا) بالله ورسوله حق الإيمان (قد أنزل الله إليكم ذكرا) أي صاحب ذكر (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) لكم ما يصلح به أمركم في الدارين (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات) ظلمات الجهل وغباوة النفس وشقائها وشهواتها وسوء الاعتقاد والأعمال (إلى النور) نور العلم والذكاء للنفس وطاعتها وحسن الاعتقاد والأعمال . (ومن يؤمِن بالله ويعمل صالحا) إلى أَنْ ينتهيَ أمدُه ويأتي أجلُه (يدخله جَنَاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبَدا ، قَدْ أحسن الله له رزقا . الله الذي خلق سبع سموات) من الأثير الصّافي القوي الذي لا ينفذ بدون سلطان ، وهي واسعة بما لا يعلم حده إلا الله ، والقربى منها مزيّنة بزينة الكواكب السيارة والثابتة والمكشوفة بالعيون أو الأرصاد ، أو لا يصل إليها إدراك العباد وفوقها الجنة التي عرضها السموات والأرض وفوقها الكرسي الذي وسع السموات والأرض .

وقوله تعالى (ومن الأرض مثلهن) أي وخلق من الأرض مثلهن أي مثل السماوات في كونها أجساما على حد وميزان ، أو في أنها طبقات بعضها

فوق بعض طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركز ، والطبقة الطينية ، والطبقة المعدنية التي تكون فيها المعادن ، والطبقة الممتزجة بغيرها المنكشفة التي هي مسكن الإنسان ونحوه من الحيوان ، وطبقة الأدخنة ، والطبقة الزمهريرية ، وطبقة النسيم الرقيق ... وهذه كلها من الأرض . أو المراد أنها أقاليم سبعة بحسب القرب والبعد من خط الاستواء ، أو أنها سبع منها الأرض التي نحن نسكن فيها ، ومنها كرات" ست أخرى على نحو هذه الصّفات الأرضية من الامتزاج بالماء ووجود الجبال والهواء ومعيشة الحيوان إلى غير ذلك مما لم يكشف لحد الآن . والأمر محول إلى علم اللــه سبحانه وتعالى ويمكن أن ينكشف بالعلم في المستقبل بعض أشياء لم يعلمها الإنسان إلى يومنا هذا . فإن هذه الكرة الأرضية وسائر الطبقات الفلكية ، والكــواكب السيارة ، والثوابت الموجودة الآن لا يعلم مدى تكونها بخلق الله وقدرته الإبداعية ، هل هي مليون من السنين ؟ أو مليار أو مليارات ؟ وتبـين بمعالجة ما أدرك منها ووصل الإنسان إليه أنها مواد ضعيفة قابلة للتفريق والتمزيق والتحويل، والأمر الضعيف الممكن المسخر لا شبهة في أنه واقع تحت قدرة الخالق القادر العليم ، ويجري قضاؤه فيها كما قال (يتنزل الأمر) أي قضاؤه وقــدره وشئونه الفعلية (بينهن) أي بين الأرض والسماوات حسب علمه وإرادته ولا يغرنكــم ما تسمعون من الكلام على طول زمان تكــوّن السموات والأرض ، فإنها متى تكونت ونعلم مدتها أولاً فهي مخلوقة لصانع قادر بيده مقاليد السموات والأرض (الله خالق كل شيىء وهو على كل شيىء قدير) وجميع الموجودات المادية المكشوفة والملفوفة عالم الشهادة والغيب كلهـا بالنسبة إلى الله وقدرته كشيىء حقير لا قيمة له ولا وزن . وخلق الله الحي القيوم كل ذلك (لتعلموا أن الله على كل شيىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيىء علما) فلا يخفى عليه شيىء في الأرض ولا في السماء .

سورة التحريم ، مدنية ، وآياتها اثنتا عشرة ، نزلت بعد الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لكَ ؟ تَبْتَغي مَرْضاتَ أَزواجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[1] قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ واللهُ مَوْلَيكُمْ وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ[2] وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ ، وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هذا ؟ قالَ : نَبَّأَنيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ[3] إنْ تَتُوبا إلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما ، وإنْ تَظَاهَرا عَلَيْهِ فَإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلِيهُ وجِبْرِيلُ وصالِحُ المُؤْمنِينَ وَالمَلئِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهيرٌ[4] عَسى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ ، قانِتاتٍ ، تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً)[5] .

قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك ؟) روى البخاري ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب ويشرب عندها عسلا فتواصيتُ أنا وحفصةُ أن أيّتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل إني أجد منكَ ريح مغافير ، أكلتَ مغافير ، فدخل على إحديهما فقالت له ذلك . فقال : لا بل شربتُ عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود . وفي رواية وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً فنزلت (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) من شرب العسل (تبتغي) بذلك التحريم (مرضات أزواجك) يعني حفصة وعائشة (والله غفور) لما نالك من أذى خلاف الأولى على تحريم ما أحله الله تعالى لك و (رحيم) حيث قرر لك الحنث في اليمين وسترها بالكفارة .

وتحريم ما أحلّه الله ليس معناه أن يعتقد بالشيء الحلال محرما لأنّ تحوّل الحلال إلى الحرام ممتنع ، ولا يمكن صدوره من العالم بالأحكام ، فضلا عن صاحب شريعة الإسلام . وإنما معناه الانكفاف عن الاستفادة منه بأن لا يأكل المأكول ، ولا يشرب المشروب ، ولا يلبس الكسوة الفلانية وهذا أمر عام وارد بين الناس ، ومنه ما وقع له صلى الله عليه وسلم . وكلامه صلى الله عليه وسلم إن كان مع الحلف أي والله لا اشربه فهو ظاهر ، وإن كان بصيغة التحريم كأن يقول : حرمت على نفسي شرب ذلك المشروب وقصد به تحريم شربه فيمين عليها كفارة .

(قد فرض الله لكم) أي شرع لكم (تحلة أيمانكم) أي تحليلها ورفع إثمها بإعطاء الكفارة . واختلف العلماء في حكم قول الرجل لزوجته : أنتِ علي حرام ، أو الحلال علي حرام ولم يستثن زوجته فقال جمع لا يلزمه شيء . وقال جماعة : هو يمين يكفّرها . والشافعي إن نوى طلاقا أو ظهارا حصل

أو نواهما تخير ، وثبت ما اختاره . وقيل طلاق ، وقيل ظهار ، أو تحريم عنها لم تحرم ، وعليه كفارة يمين . وأبو حنيفة يرى تحريم الحلال يمينا في كل شيىء والتفصيل في كتب الفقه : (والله موليكم) سيدكم ومتولي أموركم (وهو العليم الحكيم) .

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه) أي حفصة (حديثا) هو قوله صلى الله عليه وسلم « كنتُ أشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا » (فلما نبأت به) أي فلما أخبرت حفصة عائشة بالكلام الذي قاله لها صلى الله عليه وسلم (وأظهرهُ اللهُ عليه) أي جعل الله رسوله ظاهرا ومطلعاً على ذلك الحديث ، وأن حفصة أخبرت عائشة بذلك السرّ (عرّف بعضه) أي اظهر الرسول صلى الله عليه وسلم بعضه لحفصة ، وذلك البعض : كنتُ أشربُ عسلا عند زينب (وأعرض عن بعض) أي وترك إظهار الجزء الأخير من الكلام ، وهو حلفت فلم يخبرها به (قالت) حفصة : (من أنبأك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير) أي ان الله هو الذي أخبرني بأنك حكيت كلامي لعائشة ، ثم خاطبها الباري تعالى بقوله (إن تتوبا) يا عائشة ويا حفصة (إلى الله) تعالى (فقد صغت قلوبكما) أي فحق لكما التوبة إذ قد مالت قلوبكما عن الواجب وهو حب ما أحبه الرسول صلى الله عليه وسلم وكراهة ما كرهه إلى مخالفة ذلك (وإن تظاهرا عليه) أي وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا على استحباب ما تريدانه واستكراه ما يريده صلى الله عليه وسلم فالوبال عائد إليكما ولا يتضرر هو ولا تغلبانه (فإن الله هو موليه) وناصره (وجبريل) هو مع ما عطف عليه مبتدأ وقوله ظهير خبر أي وجبريل (وصالح المؤمنين) كأصحابه (والملئكة بعد ذلك) النصر من الله (ظهير) لمحمد صلى الله عليه وسلم . ومن كان الله نصيره ، وأهل الحق ظهيره وجب إطاعته في ما أحبّه . ثم الأولى بكما أن تكونا

باقيتين عنده لاستفادة السعادة لكما ، وإلا فلا يعود عليه ضرر . (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ، مسلمات) مطيعات منقادات له بكل معنى (مؤمنات) مخلصات قانتات مواظبات على الطاعة (عابدات) لله في السراء والضراء (سائحات) صائمات (ثيبات) راجعات عن الزوج بعد التمتع والفراق (وأبكارا) .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٩) .

قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وأهليكم) أي أزواجكم وأولادكم (نارا وقودها الناس والحجارة) تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب . ووقاية الأهل لحملهم على ما مرّ بالنصح والتأديب . روي أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف

لنا بأهلينا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « تنهوهن عما نهاكم الله عنه ، وتأمروهن بما أمركم الله به ، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » واستدل بهذه الآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء . وفي الحديث : « رحم الله رجلا قال يا اهلاه صلاتكم ، صيامكم ، زكاتكم ، مسكينكم ، يتيمكم ، جيرانكم ... لعل الله يجمعكم في الجنة » (عليها ملئكة غلاظ) في الاقوال (شداد) في الأفعال (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

(يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) المعهود المعلوم اليوم لكل إنسان (إنما تجزون ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) أي توبة بالغة في النصح فهو من أمثلة المبالغة كضروب وصف التوبة دون التائب للمبالغة في قوتها . وهي أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها . قال معاذ بن جبل يا رسول الله ما التّوبة النّصوح ؟ قال : « أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ، ثم لا يعود اليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع » ومن شرائطها رد حقوق الناس إلى اصحابها بقدر الإمكان . والندم على فعل ما فعله من المعاصي أو ترك ما ترك من الطاعات ، وعزمه على أن لا يعود إليها . فإن تبتم توبة على ما قرر (عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزي الله النّبيّ والّذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيىء قدير) .

(يا أيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم) فجاهد الكفار بالحرب والنار ، والمنافقين بإقامة الحجة البالغة ، واغلظ عليهم بإقامة الحدود في حقهم بدون أيّ مسامحة (ومأويهم جهنم وبئس المصير) أي جهنم .

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وامْرأَتَ لُوطٍ ، كانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنَا صَالِحَيْنِ ، فخانَتَاهُمَا فلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وقِيلَ : ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(١٠) وضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ، إذْ قالَتْ : ربِّ ابنِ لي عِنْدَكَ بَيْتاً في الجَنَّةِ ونَجِّنِي مِنْ فِرْعونَ وعَمَلِهِ ، ونَجِّنِي من القَوْمِ الظَّالِمِينَ(١١) ومَرْيَم ابنتَ عِمرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكلماتِ رَبِّها وكُتُبِهِ ، وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ)(١٢) •

قوله تعالى (ضرب الله مثلا للذين كفروا) إما ضرب بمعنى ذكر ، ومثلا بمعنى قصة لها شأن و (امرأت نوح) بدل من قوله مثلا أي قصة امرأة نوح • أي ذكر الله للكافرين المغترين بقرابتهم مع النبي أو مع المؤمنين قصة لها شأن هي قصة المرأتين اللتين كانت لهما علاقة برسولين من الرسل مع أنه ما استفادتا من قرابتهما • أو أن ضرب بمعنى جعل ، يتعدى إلى مفعولين وأمرات نوح مفعوله الأول وكذا ما عطف عليه • ومثلا مفعوله الثاني ، وأخر الأول ليتصل ببيان قصتهما العجيبة أي جعل الله قصة امرأة نوح وامرأةلوط مثلا وشبيها لقصة أولئك الكافرين المغرورين حتى يمتنعوا عن الغرور ويتوجهوا إلى الله تعالى ورسوله فيبين الباري تعالى حالهما للاتعاظ والاعتبار ويقول (كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) وهما نوح ولوط عليهما السلام (فخانتاهما) وخيانة امرأة نوح هي أنه كانت تقول بالنسبة إلى نوح عليه السلام إنه مجنون • وخيانة امرأة لوط هي أنها كانت تدل أهل القرية المفسدين على الضيف الوارد على

سيدنا لوط ، فإن الله سبحانه وتعالى كما عصم الأنبياء عليهم السلام من الذنوب لمخالفتهما لمقام الرسالة كذلك عصم أهلهم من الفجور والفسوق لإخلالهما باحترام البيت النبوي . وكل ما يقال أو يروى من ذلك الباب دسّ ووضع وافتراء على مقام النبوة والرسالة ، فاياكم وإياها ، فإن الناس ناسون لحقوق الله تعالى وأنبيائه ورسله ويتكلمون كما يريدون . (فلم يغنيا) أي ذانك العبدان الصالحان (عنهما) أي عن الامرأتين (شيئا) من الإغناء أو شيئا من العذاب ، أي لم تتخلصا من عذاب الآخرة بعلاقتهما مع ذينك الصالحين (وقيل) لهما من جانب الله تعالى : (ادخلا النارَ مَعَ الداخلين) .

ولما علمت إعراب الآية هذه فقس عليه إعراب هذه الآية الآتية أعني قوله تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) واسمها آسيا بنت مزاحم (إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) والعندية يراد بها قرب العبودية منزلة من الرب المعبود (ونجني من فرعون) أي نفسه الكافرة الخبيثة بتأثيرها في نفسي أو بغضبها عَلي وإيذائي (وعمله) أي ومن شؤم عمله من إيذاء الناس ، والإشراك بربّ العالمين (ونجني من القوم الظّالمين) وهم الأقباط المتعاونون مع فرعون الظالم ، أي من شؤم عملهم أو كيدهم ووشاياتهم علي . (ومريم ابنت عمران) عطف على امرأة فرعون ، أي وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم ابنة عمران (التي أحْصَنت فرجها) أي صانته وحفظته من كل ما يخالف الدين (فنفخنا) على فم عبدنا الأمين جبريل من المقربين (فيه) اي في فرجها مرادا به الجيب ففيه استخدام ، لأن المحصنة الفرج المعهود ، والمنفوخ فيه الفرج بمعنى جيب قميصها ، لأنه لما تمثل لها بشرا سويّا استحيت واستعاذت بالله . ولما بين أنه مرسل من ربه إليها للتبشير هدأت وسكن قلبها ، فنفخ في جيب قميصها المتصل بصدرها ، ووصل أثر

النفخ إلى جسمها ، لأن ذلك النفخ كان نفخا ملكيا قدسيا كما قال (من روحنا) أي من الملك الروحاني البريء من المادة الترابية المخلوقة بأمرنا كن فيكون . فالإضافة للتشريف والتلطيف (وصدّقت بكلمات ربّها) الواصلة إليها بواسطة جبريل من قوله إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . وقوله كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة وكان أمرا مقضيا . حيث حصل لها علم ضروري وهبي بأن المتمثل لها ملك مقدس مأمور من الله رب العالمين وليس إنسانا ولا جناً ولا من الشياطين (وكتبه) أي وصدقت بكتبه السماوية كلها بواسطة السماع من ابنها عيسى عليه السلام (وكانت) قبل هذه الحادثة وبعدها (من القانتين) العابدين لرب العالمين . والقانت : المطيع الملازم للطاعة . جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين .

الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك ، مكية ، وآياتها ثلاثون ، نزلت بعد سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَموات طِبَاقاً ، ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ ، فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ ترى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاها رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)(٥) .

قوله تعالى (تبارك الذي بيده الملك) أي البركة والكبرياء للخالق الذي بيده (الملك) أي السلطة والتصرف المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وهذه الجملة من أعلى الجمل المفيدة للعظمة ، لأن كل خير ينشأ عن كل فاعل فإنما ينشأ من السلطة ، ويكون على ميزانها (وهو على كل شيىء قدير

الذي خلق الموت والحيوة) فسر الحيوة بأنها صفة توحيد الحس والحركة الإرادية ، فهي وجودية ومن الكيفيات النفسانية ، وأما الموت فمنهم من يقول إنها أيضا صفة وجودية تضاد الحياة كالسواد للبياض . ومنهم من يقول : إنه أمر عدمي يفسر بعدم الحياة عمن يكون من شأنه الحياة فعلى الأول يتعلق الخلق بهما لأن أثر الخلق والإيجاد هو الوجود ، وأما على الثاني فقالوا : إن الخلق بالنسبة إلى الموت بمعنى التقدير والتمييز ، أو نسبته إليه بمعنى نسبته إلى محل انتزاعه ، أي جعل الشخص بحيث ينتزع منه الموت . فقوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي ليعاملكم معاملة المختبر في عالم العيان أيكم أحسن من الآخرين عملا وإطاعة لربكم رب العالمين (وهو العزيز) الغالب على أمره (الغفور) الساتر لذنوب من يؤمن بقدره .

(الذي خلَق سَبعَ سموات طباقا) أي متطابقة بعضها فوق بعض . والسماوات وإن كانت أجساما أثيرية لكنها قابلة للتمايز وامتياز بعضها عن بعضها ، فالسماء الدنيا منها قابلة لوجود الكواكب الثابتة والسيارة فيها ، والسماء الثانية على غير تلك الصفة ، وبين كل سماء مع مجاورها علاقة خاصة وارتباط . ولا تبغي إحداهما على الأخرى . وقوله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) صفة لسبع سماوات وليس المراد بنفي التفاوت نفي الفوارق لأنها موجودة ، بل المعنى أنه ليس فيها عيب ونقص من جهة أن الحكمة اقتضتها ، أوليس فيها تجاوز الحد لأيٍّ واحد ، كما أن الإنسان السوي مخلوق بقصر اليدين وطول الرجلين وعظم الهامة وسواد الشامة وكل ذلك مقبول (فارجع البصر هل ترى من فطور) أي فإن كنت في شبهة في السالبة السابقة فارجع البصر واستعمل الفكر حتى يتضح الحال (ثم ارجع البصر كرتين) ليس المراد مرتين فحسب بل المراد تكرار استعمال البصر بقدر الميل قليلا أو كثيرا ، فإذا

رجعته كذلك (ينقلب إليك البصر خاسئا) ذليلا عليلا (وهو حسير) أي كليل من طول المعاودة .

(ولقد زينا السماء الدنيا) أي القربى منكم أي التي هي أكثر دنوا وقرباً منكم (بمصابيح) أي بكواكب تنور العالم تنوير المصابيح للمجالس (وجعلناها رجوما للشياطين) أي وجعلنا تلك المصابيح بواسطة ما يحدث من دورانها وإشعاعها وحدوث النيازك منها ومن أمور اخرى رجوما أي رجما ودفعا وطرداً للشياطين الصاعدين في الجوّ لاستماع بعض الأصوات والكلمات وأخذ أمور علمية منها مربوطة بأوضاع السماوات والأرض . يعني إن الشياطين المنتشرين في الأرض الصاعدين في الجو لاستراق السمع قررنا رجمها ودفعها بالنيازك والشهب الناشئة من تلك الكواكب . وليس معناها أن تلك المصابيح تنقض ذواتها وترجم الشياطين ، ولا أنها لم تكن قبل الإسلام وإنما حدثت بعد مجيىء الإسلام حتى يقال إن المصابيح والنيازك وجدت في العهود السابقة أيضا ، ولا أنها ليس لها فائدة إلا رجم الشياطين فيجوز أن يكون لها فوائد أخرى ايضا . (وأعتدنا لهم عذاب السعير) أي وهيأنا لتلك الشياطين عذاب النار المسعرة الملتهبة المشتعلة في الآخرة .

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٦) اذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لها شَهِيقاً وهي تَفُورُ(٧) تكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨) قالوا : بلى قَدْ جاءنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، اِنْ أَنْتُمْ اِلاّ في ضَلالٍ كَبِيرٍ(٩) وَقالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصحابِ السَّعِيرِ(١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ(١١)

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟)(١٤)

قوله تعالى (وللذين كفروا بربهم) يعني كما اعتدنا عذاب السعير للشياطين قرر لكل مكلف من الذين كفروا بربهم وتمردوا عن أمره (عذاب جهنم وبئس المصير) جهنم (إذا ألقوا فيها) أي إذا طرحوا فيها (سمعوا لها) أي لجهنم (شهيقا) أي صوتا منكرا كشهيق الحمير (وهي تفور) أي ينفصل بعضها عن بعض (تكاد تميز من الغيظ) أي تكاد تتميز بعضها عن بعض من شدة فيها تشبه حالة الحي الغضبان (كلما ألقي فيها فوج) أي جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟) يتلو عليكم آيات الله فتخافوا (قالوا) في جوابهم : (بلى قد جاءنا نذير) وتلا علينا آيات الله (فكذبنا) ه من سوء حظنا (وقلنا : ما نزل الله من شيىء) فضلا عن الآيات التشريعية (إن أنتم) أي ما أنتم أيها الرسل المنذرون (إلا في ضلال كبير وقالوا) بعد ذلك الاعتراف الخطير متندمين على ما فرّطوا (لو كنا نسمع) آيات الله أو (نعقل) وتتفكر في أنفسنا وفي الآفاق آمنا بالله وآياته و (ماكنا في) عداد (أصحاب السعير • فاعترفوا بذنبهم فسحقا) وبعدا (لأصحاب السعير) وفي تفسير البيضاوي هنا : والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل • وفي بعض نسخه : والتغيير للإيجاز والمبالغة والتعليل فعلى الأولى جواب لما يقال إن اصحاب السعير هم الشياطين الذين في أعمق الدركات ، فكيف لف الكل وجعلهم من أصحاب السعير ؟ فأجاب بأن تغليب أصحاب السعير على غيرهم للإيجاز وهو ظاهر ، ولإفادة المبالغة في عذاب سائر الكافرين فكأنهم ايضا أصحاب السعير ، ولتعليل سحقهم وبعدهم عن رحمة الله بأنهم من أصحاب السعير وممن يستحقون عذابها ، ولذلك سحقهم

وابعدهم . وأما على النسخة الثانية فيريد أن أصل الكلام فسحقهم الله سحقا . وإنما غير الأسلوب وغير التركيب الفعلي بذكر المصدر النائب عنه للإيجاز وهو ظاهر ، وللمبالغة في تعذيبهم حيث ذكر السحق مبهما أوّلاً بدون بيان من يستحقه ، ثم قال لأصحاب السعير ولإفادة علة سحقهم وبعدهم عن رحمة الله وهو أنهم من أصحاب السعير وملازميها والكل مناسب لا غبار عليه .

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب) أي حال كون الباري تعالى غائبا عنهم ، أو يخشونه بينهم وبين الله بالقلب (لهم مغفرة) من الله لذنوبهم (وأجر كبير) لا يستقصى حدّه (وَأسرّوا قولكم أو اجهروا به) خطاب عام للمكلفين وتهديد للذين يضمرون السوء للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه أو لأهل الدين الصادقين ، ويؤيده أنها نزلت في المشركين الذين كانوا ينالون من النبي صلى الله عليه وسلم فيوحى إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمّد فقيل لهم أسرّوا بذلك أو اجهروا فإن الله تعالى يعلمه (إنه عليم بذات الصدور) أي كلّ ما يجول في صدوركم ، وتقديم السر على الجهر للمبالغة والتأكيد في الأمر إشارة إلى أن السر لا يمتاز عن الجهر ، بل هما متساويان عندنا (ألا يعلم من خلق) الأعيان والأعراض ولا يحدث شيىء في الكائنات إلا بإرادته المقرونة بعلمه وقدرته (وهو اللطيف الخبير ؟) المناسب بلطافته لدرك كل خفي والعالم لخبرته لكل شيىء .

(هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإلَيْهِ النُّشُورُ(١٥) أَأَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإذَا هِيَ تَمُورُ(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ في السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ؟

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ !(١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ؟(١٨) أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ فَوقَهُمْ صافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ ؟ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ(١٩) أَمْ مَنْ هذا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ ؟ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ في غرورٍ(٢٠) أم مَنْ هذا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ ونفورٍ(٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلى وجهِهِ أَهْدى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً على صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟)(٢٢) •

قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) أي منقادا للاستثمار والاستغلال بسبب ما فيها من المعادن والنبات والأشجار القابلة للاستفادة ، والأراضي المناسبة للحرث والغرس وغير ذلك (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) أي انتفعوا بما يستفاد منها بالأكل أو غيره (وإليه النشور) أي المرجع بعد البعث • (أأمنتم من في السماء) أي في السماء أمره ونفاذ قدرته وتأثيره في خلقه وقوله تعالى (أن يخسف بكم الأرض) بدل اشتمال من من ، وجوز أن يكون على حذف الجار ، أي من أن يخسف بكم الأرض • ومحله حينئذ هو النصب أو الجر والباء للملابسة ، والأرض مفعول به ليخسف ، والخسف قد يتعدى ، يقال خسفه الله تعالى وخسف هو • قال تعالى فخسفنا به وبداره الأرض • أي أأمنتم من أن تذهب الأرض إلى سفل متلبسة بكم (فإذا هي) أي الأرض (تمور) أي ترتج وتهتز اهتزازا شديدا ، وأصل المور التردد في المجيء والذهاب (أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أي حجارة كقوم ثمود (فستعلمون كيف نذير ؟) •

(ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟) أي الإنكار عليهم بإنزال العذاب (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات) أي باسطات أجنحتهن (ويقبضن ؟) أي قد يضممن أجنحتهن (ما يمسكهن) في الجو (إلا الرحمن) بقوته ورحمته (إنه بكل شيء بصير) ويقدر على كل شيء (أم من هـذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور . أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور) أي بل ألحوا وتمادوا في عناد واستكبار ونفور عن الحق لغرورهم وقوله تعالى (أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى ؟) يعني أن المؤمن الصادق الذي آمن بالله ورسله كمن يمشي خبيرا بصيرا على صراط مستقيم ، وغيرهم كمن يمشي بطريق الإكبار على وجهه (أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم ؟) ولاشك أن الماشي على الصراط المستقيم يصل إلى منزله بنية قوية ودين قويم .

(قُلْ : هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ(٢٣) قل : هُوَ الَّذي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرونَ(٢٤) ويقولُون : مَتى هذا الوَعْد إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(٢٥) قُلْ : إِنَّما الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٦) فلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وقِيل : هذا الَّذِي كُنْتُمْ بِه تَدَّعُونَ(٢٧) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِي أَو رحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ؟(٢٨) قُلْ : هُوَ الرَّحْمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ(٢٩) قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بماء معين ؟)(٣٠)

قوله تعالى : (قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعني : إن الله سبحانه وتعالى هو الذي كان ويكون وسيكون مبدأ لكل نعمة واصلة وفائضة من رحمته سواء كانت إيجادا وإنشاء لذواتكم أو لحواسكم ومشاعركم من السمع والأبصار والأفئدة أو إبداعا لفضائلكم النفسية المادية والمعنوية القدسية أفلا تشكرون ذلك الخالق الواجب الوجود المنبع لكل خير وجود (قليلا ما تشكرون) لأنه قال وقليل من عبادي الشكور (قل هو الذي ذرأكم في الأرض) أي خلقكم ونشركم فيها (وإليه تحشرون) لجزاء أعمالكم (ويقولون) أي أولئك الكافرون (متى هذا الوعد) أي اليوم الموعود لجزاء الأعمال (إن كنتم صادقين) أيها الرسول ومن معه (قل) يا حبيبي جوابا : (إنما العلم عند الله) عز وجل وهو من العلوم المستأثرة (وإنما أنا نذير مبين) لكم أنذركم بأنه سيوافيكم بلا شك (فلما رأوه) يعني ثم أتاهم اليوم (فلما رأوه زلفة) أي ذا زلفة وقرب (سيئت) وتعبست وتغيرت وتكدرت (وجوه الذين كفروا • وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون) أي تطلبونه في الدنيا وتنكرونه •

ولما كان كفار مكة يدعون على الرسول ومن معه بالهلاك والدمار نزل (قل : أرأيتم إن اهلكني الله ومن معي أو رحمنا) ونجانا ونصرنا عليكم (فمن يجير الكافرين) ويحفظهم (من عذاب أليم) موعود لهم ؟ أي فمن يجيركم ، لكن أراد تسجيل الكفر عليهم بالتعميم حتى يثبت لهم العذاب الأليم في نار الجحيم • (قل : هو الرحمن) أي المنجي لنا هو الرحمن (آمنا به وعليه توكلنا) لا على غيره (فستعلمون من هو في ضلال مبين) أأنتم وقد كفرتم بربكم ؟ أم نحن وقد آمنا برب العالمين ؟ (قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً) أي غائراً أي ذاهبا في الأرض لا تناله وسائل الاستخراج ، أو أمحاه وما أمكن استحصاله (فمن يأتيكم بماء معين ؟) جارٍ بحيث يستفاد منه والجواب السالم المتين : الله ربنا ورب العالمين •

بسم الله الرحمن الرحيم

(نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ(٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ(٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ(٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ(٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ(٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ(١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ(١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ(١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ(١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ(١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ)(١٦) .

قوله تعالى (ن) الله أعلم بمراده منه (والقلم وما يسطرون) أقسم الباري سبحانه وتعالى بقلم اللوح الذي جاء في الأخبار أنه أول شيىء

خلقه الله تعالى ، أو قلم الكرام الكاتبين ، أو قلم كتابة الكتب المنزلة من الله تعالى إلى المرسلين ، أو قلم الكتاب لكل ما فيه خير في الدنيا وصلاح في الدين ، ولاسيما أقلام العلماء الأعلام الذين ألفوا وهذبوا ونشروا العلم والحكمة في ربوع العالم . وعلى كل حال فالقلم جهاز شريف من أجهزة التثقيف والتعليم وعليه مدار سعادة البشر وصيانته عن الخطر ويليق بأن يقسم به رب العالمين (وما يَسْطُرون) بالقلم والمُقسم عليه (ما أنتَ بنعمةِ ربك بمجنون) .

وقوله تعالى (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) اركان الكلام فيه ما أنت بمجنون والباء لتأكيد النفي والباء في بنعمة إما للملابسة أي ما أنت بمجنون مع ملابستك لنعمة ربك الذي فضّلك واختارك وأرسلك رحمةً للعالمين ، أو للسببية أي بما أنه أنعم عليك بما شاء فاختارك من الخلق للنبوة والرسالة والقدر والجلالة والكرامة والشهامة ، وزينك بزينة المزايا الكريمة والصفات العظيمة (وإن لك) على أتعاب التبليغ ونشر القرآن البليغ وجهادك في سبيل تنوير العباد (لأجرا غير ممنون) غير منقطع ولا ممنوع (وإنك لعلى خلق عظيم) لا يعلم بنتائجها القيمة إلا الله العليم ، فجميع المعجزات التي أوتيتها من الإمدادات الخارجية في كفّة والقرآن في كفّة ، وخلقك القرآن .

(فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ؟) أي أن الكلام والاستدلال إذا لم يُفدْ ولم يقنع أولئك الجاهلين الطّاعنين في خلقك بالجنون (فستبصر) أنت بالعيون (ويُبْصرون) بها (بأيّكم) الفتنةُ والجنون إن كان المفتون مصدرا على وزن المفعول كمَعوُن وإن كان اسم مفعول فالباء في أيّ زائدة أي فستبصر ويُبْصرون أيّكم المفتون هل أنت والحال ، تعلو على قِمم المَعالي وقلبِ العالم من الظلمات إلى النّور ومن الفوضى الى الدستور ومن الجهل إلى العلم ؟ أو هُمْ وَهَمّ في هم الشّهواتِ النفسيّة

والدنايا لا يعلمون من حياتهم إلاّ إشباع النّفس من الشّهوات وقضاء الحياة في الغفلة والغمرات !؟ ثم إنك تنظر بالعينين ، وتعمل باليدين عين إلى الحال وأخرى للمستقبل ويد للكتاب ، ويد للسّيف والمحراب ، ولك قلب منور يتفكر في عالم الشهادة والغيب ويرى يوم حساب الأعمال ، ومدى مسئولية المكلّف في الأفعال وهم عُمْيٌ عن ذلك فهل أنتَ مجنون أو عدوك الغبي مجنون ؟

وقوله تعالى : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين) جملة مستأنفة مبينة لأحوال الفريقين • يعني هو سبحانه وتعالى أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى السعادة ومن اهتدى إليه ، وليس أحد غيره يعلم هذا الأمر بالحقيقة مثله • فلما هداك ذلك الرب الأعلم إلى السبيل السليم الأسلم (فلا تطع المكذبين) بالله ورسوله والمنحرفين عن سبيله (ودّوا) وتمنوا (لو تدهن) وتلين معهم (فيدهنون) أي فيلينون لكي تنبه وتوجه إلى الحق القيوم ولا تسمع كلامهم ، إلا إذا عرفت في الحق مرامهم فإذا علمت أنهم مالوا إلى الحق فتوجه إليهم واستمع لما لديهم (ولا تطع كل حلاّف) كثير الحلف في الحق والباطل (مهين) حقير في الرأي والتدبير (همّاز) طعان في الناس (مشاء بنميم) كثير المشي والمرور بينهم بإلقاء الأخبار المشوشة للعقول والمثيرة للناس بعضهم على بعض (مناع للخير) أي مناع للناس عن الخير الواصل إلى الغير قولا أو فعلا ، جاهاً أو مالا ، علاوة على امتناعه في ذاته عن ذلك (معتد) متجاوز على الناس بالظلم والعدوان (أثيم) كثير الإثم (عُتُل) هو الشديد الفاتك أو الشديد الخصومة بالباطل أو الفاحش اللئيم أو هو الذي يعتل الناس أي يجرهم إلى الحبس والأذى •

وقوله (بعد ذلك زنيمٌ) أي وبعد ذلك المذكور من المثالب والعيوب زنيم أي دَعِيٌّ ملحَق بقَوم ليس منهم ، ومن لم يولد على فراش أبيه ولم يأخذ

التربية من أمه وأبيه وأعمامه وذويه ليس غالبا كما تبتغيه • وقوله (أن كان ذا مال وبنين) بتقدير اللام تعليل للنهي أي لا تطعه لكونه ذا مال وثروة وبنين وقوة فإن قوة الله فوق كل قوة ، لأن ذلك الرجل من أكفر الكافرين (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أي هي عبارات متوارثة من الناس الأقدمين يتناولها الناس ويتداولونها جيلا بعد جيل فلا تهتموا بها • وهذا الكلام كلام خارج عن أصول أولي العقول والأفهام لأن آيات القرآن لم يكن يحفظ شيء منها قبل بعث الرسول ، ولم يكــن متداولا بين الناس ، وعندما نزلت نزلت غضة طرية ذات مهابة وقوة قدسية وبلاغة لها آثار نفسية ، بحيث عجــز عن مقابلتها الادباء والخطباء أصحاب البلاغات الشخصية ، وأما إذا نظرت إلى المعاني فأي كلام جديد أو قديم إذا وجدته داعيا إلى رعاية الحق والشعور بالمسئولية ورعاية الحقوق الاجتماعية وجب أن يحترم ويقدس ، فإن حكمة الحكماء وعلوم العلماء الأولين لها مكانتها في الصدور ومغزى آيات القرآن الكريم كان كذلك ، فالطعن فيه بالعبارات الفاسدة عمل فاسد ولا ينبغي أن يصغى إلى كل جاهل جاحد ، وإنما العبرة بالعقل والعلم والاستدلال ، وما عدا أهل العقل والعلم فهم في ضلال والعياذ بالله •

ثم نزلت من هذه الآيات التي كان يطعن فيها الجاهل آية كانت مخبرة عن الغيب ، ثم وقع مضمونه في المستقبل بلا ريب • وهو قوله تعالى (سنسمه على الخرطوم) أي سنحقره في الآخرة ونذله بحيث يُهان ويخزى بأن نكويه في جهنم على خرطومه أي أنفه • وفي التعبير تحقير بليغ له ، لأن الخرطوم لا يستعمل إلا للفيل وهو حيوان كبير الجثة مختص بخواص يعرفها أهلها • ومعناه أن هذا الإنسان العظيم في الهيكل والقامة التي تشبه الفيل لا يعتنى به ، وهو مهان ، وفي الوقت عينه كان في الآية إخبار بالغيب لأنه أصيب يوم بدر بضرب على خرطومه وبقي أثره إلى أن مات • وهــذا الرجل كان اسمه

وليد بن المغيرة ، يقال أنه تبناه وألحقه بنفسه ، ولكن الذي يظهر حسب التأريخ أنه ولد على فراش أبيه .

روي أنه لما نزلت الآية قال لأمه : إن محمدا وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها ، فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقك . فقالت له : إن أباك عنين فخفت على المال ، فمكنت الراعي من نفسي فأنت منه ، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية .

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ(١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ(١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ(٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ(٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ(٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ(٢٣) : أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ(٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ(٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : إِنَّا لَضَالُّونَ(٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ(٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : لَوْلَا تُسَبِّحُونَ !؟(٢٨) قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ(٣٠) قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ(٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ(٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(٣٣)

قوله تعالى (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) يريد سبحانه وتعالى أنا للناس بالمرصاد علمنا بنوايا المشركين وعدائهم للدين فابتليناهم بالقحط

والجدب ، كما بلونا أصحاب الجنة الذين غيروا نواياهم مع الله فابتليناهم بآفة أفسدت ثمار بستانهم ، وبعد ذلك تندموا واستغفروا • وقوله تعالى (إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين) أي حلفوا أنهم يقطعون ثمار جنتهم إذا دخلوا في الصباح (ولا يستثنون) أي لا يقولون إن شاء الله ، كأنهم لا يهتمون بتقدير الباري (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) يعني فأحاط بجنتهم ونزلت عليها نازلة من الله سبحانه وتعالى بالليل وأصحاب الجنة نائمون غافلون عن كل شيء (فأصبحت كالصريم) أي فأصبحت الجنة بهذه النازلة كالبستان الذي قطع ثماره ولم يبق فيه شيء (فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أي فنادى بعضهم بعضا عندما دخلوا في الصباح أي اذهبوا إلى بستانكم إن كنتم صارمين قاطعين ثماره (فانطلقوا) فقاموا واستعدوا واجتمعوا وانطلقوا إلى البستان (وهم يتخافتون) أي يتشاورون بينهم سرا (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) حتى لا يطلبوا منا الحقوق المعتادة المشروعة (وغدوا على حرد) أي وغدوا مستمرين على حرد المساكين ومنعهم حالكونهم (قادرين) عليه • أو غدوا قادرين على حرد ، أي ذهبوا صباحا حالكونهم قادرين على منع المساكين •

(فلما رأوها) أي الجنة (قالوا : إنا لضالون) طريق البستان ، أي فلما دخلوا على محل البستان ما رأوا شيئا ، فقالوا : إنا تائهون وضيعنا طريقها وهذا المحل ليس محل بستاننا • ولما نظروا إلى أطراف الجنة ومنارها وشعارها وجدوها كما كانت ، وعلموا أن الجنة عين الجنة فقالوا : (بل نحن محرومون) من ثمارها يعني ضيعها الله تعالى ولم يبق منها شيء يلتقط لنا •

(قال أوسطهم) أي أشرف أصحاب الجنة وأحسنهم عقلا ورأيا (ألم أقل لكم : لولا تسبحون ؟) أي لولا تذكرون الله وتتوبون عن هذه النية الفاسدة ، نية منع المساكين ! (قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) بقصد منع

المساكين عن تسلم الحقوق المشروعة (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أي يلوم بعضهم بعضا (قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين) أي متجاوزين حدود الله تعالى في منع الفقراء عن الحق المشروع لهم . ولذلك رمى الله تعالى بستاننا بمنع أشجارها وثمارها (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) نترجى أن يعطينا ربنا بدلاً خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون . (كذلك العذاب) أي العذاب كذلك أي عذاب أهل الجنة كعذاب أهل مكة ، أو عذاب أهل مكة كعذاب أصحاب الجنة وهما متقاربان (ولعذاب الآخرة) وهو العذاب النازل المؤبد على الكفار أكبر من العذاب الدنيوي (لو كانوا يعلمون) ذلك لانزجروا .

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ؟(٣٥) مالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟(٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فيهِ تَدْرُسُونَ ؟(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فيه لَمَا تَخَيَّرُونَ(٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ؟ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ(٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ ؟(٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ(٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ ، ويُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ(٤٢) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ(٤٣) فَذَرْني وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدي مَتِينٌ)(٤٥) .

قوله تعالى (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) يعني إن للمتقين عن الكفر (عند ربهم) في جوار رحمته في الآخرة (جنات النعيم) أي جنات فيها نعيم خالص عن شوب الكدورات النفسية ، والأمراض البدنية ، والخوف عن الزوال وهـذا فضل منا بمقتضى حكمتنا وعدلنا (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟) أي نعذبهم مثلهم حاشا (ما لكم كيف تحكمون ؟) أتى بهذه الفقرة إشعاراً بأن تلك التسوية مخالفة لحكمة الباري في شئونه (أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟) أي تدرسون فيه أي تقرأون (إن لكم فيه لما تخيرون) أي للذي تختارونه وتشتهونه (أم لكم أيمان علينا بالغة) أي بالغة أقصى درجات التوكيد مستمرة (إلى يوم القيامة) لا تنتقض في أي وقت (إن لكم لما تحكمون) جواب القسم • (سلهم أيهم بذلك) أي يا حبيبي سل الكفار الموجودين أيهم بذلك (زعيم) أي أيهم كفيل على ذلك ؟ (أم لهم شركاء ؟) يشاركونهم في هذه العقيدة وفي هذا القول (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) في دعواهم ، إذ لا أقل من التقليد •

(يوم يكشف عن ساق) متعلق بقوله تعالى فليأتوا ، أي يوم يكشف الستر عن ساق الجد ويجبرون بكل قوة (ويدعون إلى السجود) أمام عظمة الله يوم القيامة (فلا يستطيعون) لزوال القدرة عليه (خاشعة أبصارهم ترهقهم) أي تغشاهم ذلّة (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) في الدنيا مع أنهم لا يسجدون استكبارا وعنادا ! فكيف يطلق سراحهم ليسجدوا أمام الباري يوم اللقاء (فذرني) يا حبيبي (ومن يكذب بهذا الحديث) وحوّل أمره إليّ (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) أنه استدراج بل يزعمون أن ذلك تقدير وترفيع شأن وجاه ومقام (وأملي لهم) أي وأمهلهم ليزدادوا إثما (إن كيدي متين) قوي لا يدفع بشيء وتسمية ذلك كيدا للمشاكلة •

(أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ(٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ)(٤٧)

(أم تسئلهم أجرا ؟) على الإرشاد وتبليغ الأحكام (فهم من مغرم) أي غرامة مالية (مثقلون • أم عندهم الغيب ؟ فهم يكتبون) ويستغنون بذلك عن علمك وإرشادك •

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُوم"(٤٨) لَولا أنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَة" مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وهو مَذْمُوم"(٤٩) فاجْتَبَيهُ ربُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٥٠) وإنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويَقُولُونَ : إنَّه لَمَجْنُون"(٥١) وَما هوُ إلاَّ ذِكْر" لِلعَالَمِينَ)(٥٢) •

قوله تعالى (فاصبر لحكم ربك) نزل عندما أراد صلى الله عليه وسلم أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة • فيقول الباري تعالى فاصبر لحكم ربك بالإمهال لهم مدة من الزمان بلا عذاب (ولا تكن كصاحب الحوت) هو يونس عليه السلام (إذ نادى وهو مكظوم) أي مملوء غيظا على قومه وحقداً على تأخر العذاب عنهم (لولا أن تداركه نعمة من ربه) وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه (لنبذ) عن بطن الحوت (بالعراء) أي الصّحراء الخالية عن الشراب (وهو مذموم) حال وقيد لعامله أي نبذ بالعراء والحال أنه مذموم لكن الفضل والرحمة منه ساعدته وهو قد نبذ بالعراء بدون أن يكون مذموما فاجتباه ربّه واختاره وجعله إنساناً معتدلا فجعله من الصّالحين •

(وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) كلمة إن مخففة من المثقلـة أي وإنه قارب أن يزلقك الكفار عند سماع القـرآن الكريم منك من قوة الحسد والبغض فيهلكوك (ويقولون) من حيرتهم في أمرك وعدم فهم الحقائق (إنه) أي إن محمدا (لمجنون) مختل العقل (وما هو إلا ذكر للعالمين) أي وليس هذا القرآن الكريم الذي تقرأه إلا ذكرا للعالمين ليكون منورا للقلوب وموجها لأهل العقل والإنصاف إلى العقائد السليمة والأحكام الحكيمة فكيف يكون الآتي بهذا الذكر الحكيم مجنونا مـع أن الحكمة معدنها العقل السليم والطبع المستقيم وذلك معلوم عند كل عليم *

سورة الحاقة ، مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون ، نزلت بعد سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

(الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ؟(٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ)(١٢) .

قوله تعالى (الحاقة) أي الساعة أو الحالة أو الحادثة التي حقت في علم الله وتحق في مستقبل الزمان (ما الحاقة) هذه الجملة مبتدأ وخبر وقعت خبرا للمبتدأ الأول ، واستغنى عن الرابطة بتكرار المبتدأ نفسه (وما أدريك)

أي وما أعلمك وأخبرك (ما الحاقة) أي أنها حادثة لا يعلم حقيقتها وما يقع فيها إلا الله سبحانه • وقوله (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) وإن كان شروعا في بيان تكذيب الأمم المتمردة بالحاقة الا أنها وقعت في جواب سؤال الباري ، فإنه لما قال وما أدريك ما الحاقة أجاب عن ذلك السؤال بهذه أي إن الحاقة حادثة مهولة مهيبة مدهشة كذبت ثمود وعاد وسائر الأمم الطاغية بها، فالقارعة مثل الحاقة لقب للساعة ، ووجـودها في ذلك المحل إظهار في مقام الإضمار (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) أي بالحادثة المتجاوزة عن الحد وهي الصّيحة المفزعة المهلكة ، وهي صيحة جبريل عليه السلام بأمر صدر بها من الله (وأما عاد" فأهلكوا بريح صرصر) أي شديدة الصوت أو شديدة البرد (عاتية) شديدة العصف أو العتو" والظلم (سخرها) الله تعالى (عليهـم سبع ليال وثمانية أيام) بـدأ من صباح الأربعاء إلى مسـاء الأربعاء بعـد" • وقوله (حسوما) أي متتابعات (فترى القوم فيها) إن كنت حاضرا إذ ذاك (صرعى) أي هلكى أي واقعين (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أي أصول نخل خاويـة خالية الأجواف من المادة الخشبية أي أحرقت الريح والعياذ بالله بواطن الناس فوقعوا على الأرض أمواتا (فهل ترى لهم) أي لقوم عاد (من باقية) أي من بقية على الأرض تحكي لك ما جرى عليهم •

(وجاء فرعون ومن قبله) كقوم عاد وثمود (والمؤتفكات) أي قرى قوم لوط المسميات بالمؤتفكات لانقلابها بحادثة التدمير (بالخاطئة) أي بالخطأ على أنه مصدر أو بالأفعال الخاطئة ذات الخطأ والفساد (فعَصَوا رَسُولَ ربهم) أي فعصت كل أمة رسولها (فأخذهم أخذة رابية) أي زائدة عالية في الشدة • ثم ذكر بعض أحوال الأمم السابقة ، فقال : (إنا لما طغى الماء) وتجاوز حده المعتاد (حملناكم في الجارية) أي في السفينة الماشية على وجه الماء أو على سطحه (لنجعلها لكم تذكرة) أي مذكرة لكم في التفكر ، وعبرة لكم في

التأثر ، وطريقة لكم في تدبر عظمة الله كيف ألهم نوحا صنع السفينة ووفقه على إكمالها وإعدادها لليوم المعين . وكيف دمر أعداءه بما قطع نسلهم عن أصلهم واستأصلهم وليعلموا أن جنود الله لا تحصى وبلاياه لا تستقصى ، وأنه بالمرصاد للعباد (وتعيها أذن واعية) أي وتحفظ تلك الحادثة المدهشة العالمية أذن واعية حافظة للنصائح وراعية لها بعناية تامة . والقوم الذين كذبوا بالحاقة دمرناهم قوما بعد قوم إلى أن يأتي ذلك اليوم .

(فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ(١٣) وحُمِلَتِ الأَرْضُ والْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً(١٤) فَيومَئِذٍ وقَعَتِ الْواقِعَةُ(١٥) وانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهي يَوْمئِذٍ واهِيَةٌ(١٦) والمَلَكُ على أَرْجائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ(١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(١٨) فَأَمّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمينِهِ فَيَقُولُ : هاؤُمُ اقْرأوا كِتَابِيَه(١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أنّي مُلاقٍ حِسابِيه(٢٠) فَهُوَ في عِيشَةٍ راضيةٍ(٢١) في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢) قُطوفُها دَانِية(٢٣) كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤) وَأمَا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَم أوتَ كِتَابِيه(٢٥) وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَه(٢٦) ياليْتَها كانَتِ القاضِيَة(٢٧) ما أَغْنى عَنّي مالِيه(٢٨) هَلَكَ عَنّي سُلْطانِيَه(٢٩) خُذُوهُ فَغُلّوه(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيَم صَلّوهُ(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِرَاعاً فاسْلُكُوهُ(٣٢) إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظِيمِ(٣٣) وَلا يَحُضُّ

على طَعَامِ المِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ ههنا حَمِيمٌ (٣٥) ولا طَعَامٌ إلا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لاَ يأكُلُهُ إلاَّ الخاطِئُونَ)(٣٧)

قوله (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة) وذلك عبارة عن النفخة الأولى المغيرة لصورة العالم التي تكون من اسباب موت الحيوانات وانقلاع الجبال (وحملت الأرض) أي زلزلت الأرض بحيث ترى كأنها منقلعة مرتفعة هي وما عليها من الجبال (فدكتا دكة واحدة) أي فضربت المجموعتان أثر رفعهما بعضهما ببعض ضربة واحدة حتى تمزقتا (فيومئذ وقعت الواقعة) أي حصلت الحاقة ووقعت الواقعة (وانشقت السماء) تفطرت وتميز بعضها عن بعض (فهي يومئذ واهية) أي ضعيفة أيام القدرة (والملك على أرجائها) أي اطرافها (ويحمل عرش ربك فوقهم) أي فوق رؤوسهم (يومئذ ثمانية) منهم وترتيب الحمل ، وأسماء الحملة ، وسرّ زيادة الحَمَلَة من الأربعة إلى الثمانية عند الله تعالى ، آمنا به وخولنا علمه إليه (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) أي في ذلك الوقت تعرضون للحساب وتحاسبون ، ولا تخفى منكم نفس خافية ، لا يمكن ان تتستر أو تعرضون للحساب ، لا تخفى خافية من أسراركم أبدا . فينقسم الناس قسمين لتناول دفاتر الأعمال .

(فأما من أوتي كتابه بيمينه) فيقال لهم (هاؤم اقرأوا كتابيه) ها اسم فعل الأمر بمعنى خذ ، وفيها ثماني لغات ، منها أن تلحق الألف كاف الخطاب الحرفية كما في ذلك وتصرفها: نحو هاكَ، هاكما، هاكم، هاكِ، هاكن. ومنها أن تلحقها بدل الكاف ميم وتصرفها : نحو هاء ، هاؤما ، هاؤم ، هاء ، هاؤنّ .

(إني ظننتُ أنّي ملاقٍ حسابيه) أي علمت أني أحاسب وألاقي يوم حسابي حسبما أخذته من ديني واعتقده وكنت مؤمنا بيوم القيامة وما يجري فيه (فهو في عيشة راضية) أي مرضية (في جنة عالية) مرتفعة المكان (قطوفها) أي مايجتنى

من ثمارها (دانية) قريبة يتناول الرجل منها وهو قائم • وقال بعض يدركها القائم والقاعد والمضطجع ، ويقال لهم من جانب خازن الجنة : (كلوا وشربوا) اكلا أو شربا (هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) أي بسبب ما قدمتم لكم من الأعمال الحسنة في الأيام السابقة (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول) عند الاطلاع على أحواله وسوء أعماله : (يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه) لاستيائه من اطلاعه (يا ليتها كانت القاضية !) أي كانت الموتة الأولى هي القاطعة لأمري ونهاية عسـري (ما أغنى عنى ماليه) أي ما ثبت واستقرلي من أموال الدنيا • فما موصولة ، ولي جارّ ومجـرور ، والهاء للوقف (هلك عني سـلطانيه) أي ضاع مني حجتي وبرهاني على أماني • فيقال من جانب مأمور جهنم (خذوه فغلوه) أي شدوه بالأغلال (ثم الجحيم صَلّوهُ) على باب الاشتغال (ثمّ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) أي فأدخلوه (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) أي ولا يحث على بذل الطعام للجياع المحتاجين (فليس له اليوم ههنا حميم) أي قريب يهتم به ويفيده (ولا طعام إلاّ من غسلين) على وزن فعلين من الغسل ، قالوا : إنه ماء ودم يخرج من الجراحات (لا يأكله إلا الخاطئون) أي أصحاب الخطايا الكثيرة من خطيء الرجل إذا تعمّد الذنب •

(فلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ(٣٨) ومالا تُبْصِرُونَ !(٣٩) إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(٤٠) وما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قليلاً مَّا تُؤْمِنُونَ(٤١) ولاَ بِقَوْلِ كاهِنٍ قَليلاً ما تَذكَّرونَ(٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ(٤٣) ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقاوِيلِ(٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِينِ(٤٥) ثمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الْوَتِينَ(٤٦) فما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧) وَإِنَّهُ

لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ على الْكَافِرِينَ (٥٠) وإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)(٥٢) .

قوله تعالى (فلا اقسم) نزل على ما قاله مقاتل في رد قول ثلاثة رجال : الوليد بن المغيرة ، وقال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ساحر . وأبي جهل وقال : إنه شاعر . وعتبة وقال : إنه كاهن . فرد الله تعالى عليهم جميعا ، وقال : (فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون) أي ما تبصرون من آثار قدرة الله ومالا تبصرون من أسرار قدرته . وقيل الخلق والخالق ، وقيل الأجسام والأرواح ، وقيل الإنس والجن والملئكة . وقيل : النعم الظاهرة والباطنة . وقيل : الدنيا والآخرة ، أو ما تبصرون من المشاهدات ومالا تبصرون من المغيبات وهذا شامل للكل .

(إنه) أي القرآن (لقول رسول) من الله إلى كافة الإنس والجن للارشاد إلى سعادة الدارين (كريم) صاحب كرامة عند الله فحلاّه بالصفات الحسنة والغرائز المستحسنة ، أي قول يجري على لسانه تلقاه من الملك الأمين المأمور بإنزاله ، وقد أخذه من اللوح بأمر من ربه ، فنزل به على الرسول المبعوث رحمة للعالمين (وما هو بقول شاعر) أي ليس الكلام المنزل شعرا ، ولا الشخص المنزل عليه شاعرا . أما أن المنزل ليس شعرا فلأنه يجب أن يكون خاضعا للتوزينات والتقفيات والشروط المقررة أدبا وليس القرآن كذلك . وأما المنزل عليه فلأنه هو رجل لم يتعاط الأشعار ، ولم تكن له فيه يد ولا اصطناع ، ولم يكن له اختلاط بأهله ، ومسلكه مسلك الإرشاد والاعتدال وعدم التحيز إلى جانب من الجوانب ، وليس له علاقة اجتماعية بالناس من هذا الباب ، لكنكم (قليلا ما تؤمنون) أي في قليل من الاحوال

والاوقات تؤمنون وتصدقون بالله وكلامه وسلبه وايجابه والكلام معكم انما هو وظيفة أهل الارشاد (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) لأن الكهانة موقوفة على أمور تبعد عن هذا الرسول الكريم بمقدار بعد الثرى عن الثريا ، ثم الكهنة يبتغون من وراء الكهانة خروجهم من الفقر والمهانة والاستيلاء على أموال الناس • وأين ذلك ممن لا قيمة عنده للشمس والقمر اذا جعلا في كمّ قميصه في مقابل دعوته إلى ربه وتقديسه ؟! بل هو (تنزيل من رب العالمين) إلى رسوله الصادق الأمين ، ولاشك أنه ليس سحرا ، فإن السحر عمل باطل مبني على مقدمات مخالفة للحق باطلة ، والسحر من المكسوبات الإنسانية المحرمة ، وهذا بعيد من هذا السيد السعيد بكل معنىً • (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل) أي ولو افترى علينا بعض الافتراءات لأنّ الأقاويل جمع الأقوال المفتراة (لأخذنا منه) أي لأمسكناه وقوله (باليمين) بيان بعد الإبهام كما في قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك ؟) فإن قوله ألم نشرح يفيد شرح شيىء ما وقوله صدرك بيان لذلك المبهم • وعن الحسن أن المعنى لقطعنا يمينه ، ثم لقطعنا وتينه عبرة ونكالا ، والباء زائدة • وعن ابن عباس بمعنى القوة • والمعنى أخذه بعنف وشدة • والوتين نياط القلب الذي إذا انقطع مات صاحبه • وعن محمد أنه الحبل الذي في الظهر وهو النخاع (فما منكم من أحد عنه حاجزين) أي فما من أحد منكم حاجزين عنه أي ما أمكن لأحد منكم أن يمنع انتقامنا عنه • (وإنه) أي القرآن (لتذكرة للمتقين) أي وانه مذكر المتقين بوجوب طاعة الله والاستمرار على الدين (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) فنجازيهم على تكذيبهم (وإنه لحسرة على الكافرين) عند مشاهدة ثواب العاملين به (وإنه لحق اليقين) أي وإنه لليقين

الذي لا يقين فوقه . ومعنى كونه يقينا أن إسناده إلى الله وكونه كلام الله حق بلا شبهة .

وذكر بعض المحققين أن أعلى مراتب العلم حق اليقين ، ودونه عين اليقين ، ودونه علم اليقين . فالأول كعلم العاقل بالموت عند ذوقه ، والثاني كعلمه به عند معاينة ملائكة الموت ، والثالث كعلمه به في سائر أوقاته أي قبل موته (فسبّح باسم ربك العظيم) أي فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ(١) لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ(٢) مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ(٣) تَعْرُجُ الْمَلٰئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(٤) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً(٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً(٦) وَنَراهُ قَرِيباً(٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ(٨) وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ(٩) وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حميماً(١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(١١) وَصاحِبَتِهِ ، وَأَخِيهِ(١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ(١٣) وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ(١٤) كَلا اِنَّها لَظى(١٥) نَزّاعَةً لِلشَّوى(١٦) تَدْعُو مَنْ اَدْبَرَ وَتَوَلَّى(١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعى(١٨) اِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً(١٩) اِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً(٢٠) وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً(٢١) اِلاَّ الْمُصَلِّينَ(٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِم

دائمونَ(٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(٢٤) لِلسَّائِلِ والمَحْرُومِ(٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ(٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ(٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمونٍ(٢٨) والَّذِينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حَافِظُونَ(٢٩) إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغى وَرَاءَذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العَادُونَ(٣١) والَّذِينَ هُمْ لِأَمانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ رَاعُونَ(٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمونَ(٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ(٣٤) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)(٣٥) .

قوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) أي دعا داع به ، فالسؤال بمعنى الدعاء . والسائل هو النضر بن الحرث كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال إنكارا واستهزاء : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . أي دعا وطلب داع كافر محقر مهين استهزاء وإنكارا بعذاب واقع (للكافرين ليس له دافع من الله) أي والعذاب لاشك في وقوعه وقوله (ذي المعارج) أي ذي الدرجات صفة لله تعالى (تعرج الملئكة والروح) أي جبريل لأخذ الأوامر والنواهي (إليه) أي إلى عرشه (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أي من سنواتكم الظاهرة المعدودة . واليوم بمعنى الوقت ، والمراد به مقدار ما يقوم الناس فيه لرب العالمين إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار من اليوم الآخر الذي لا نهاية له . ويشير إلى هذا ما أخرجه الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابو يعلى ، وابن جرير ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى

الله عليه وسلم عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هـذا اليوم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » .

(فاصبر) يا رسولي على هذا النوع من الدعاء والطلب والاستخفاف . بمواعيد الباري تعالى (صبرا جميلا) لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) أي إن الكفار يرون ذلك اليوم بعيدا ونحن نراه قريبا (يوم تكون السماء كالمهل) كخلط الزيت أي تتلين الى شمع مذاب (وتكون الجبال كالعهن) كالصوف المنفوش (ولا يسئل حميم حميما) أي قريب قريبا (يبصرونهم) أي يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم ، وما يمنعهم عن التساؤل إلا انشغالهم بأمر أنفسهم ، فإن لكل امرىء منهم يومئذ شأنا يغنيه (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ) أي يوم إذ ابتلي بالعذاب (ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤيه) أي وبعشيرته التي تؤويه إذا التجأ إليها (ومن في الأرض جميعا) أي ويفتدي عن نفسه بمن في الأرض جميعا (ثم ينجيه . كلا إنها لظى) أي النار الموعودة لأهلها لظى أي جهنم (نزّاعة للشوى) أي محرقة للأطراف من بدن الإنسان كاليد والرجل (تدعو مَن أدبَر وتولى) أي تدعو الزبانية إلى نار جهنم من أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة (وجمع فأوعى) أي جمع المال فجعله في وعاء وكنزه ، ولم يؤد حقه .

ثم استأنف لبيان طبيعة الإنسان وأحواله وغرائزه الطبيعية فقال : (إن الإنسان خلق هلوعا) والهلع سرعة الجزع ولكن المعنى المراد هنا ما يستفاد مما بعده وهو قوله تعالى (إذا مسّه الشـر جزوعا) أي مبالغاً في الجزع (وإذا مسّه الخير منوعا) أي مبالغا في المنع . وتلك الغـريزة تتقوى بترك العبادة من الصـلاة وغيرها فإن المشتغل بعبادته وذكره ينمو فيـه التوكل والاعتماد على الله ، فلا يغلب فيه الهلع والمنع لاسيما الصلاة التي هي معراج

المؤمن ولذلك قدمها وقال تعالى (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) أي مواظبون على أدائها لا يخلون بها وبشئونها (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) أي المكفوف عن السؤال . (والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أي خائفون (إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) من الجواري (فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك) أي لم يكتف بالتمتع من زوجته وجاريته (فأولئك هم العادون) أي المتجاوزون حدود الله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) لا يخلون بشيىء من الأمانات وحقوقها .

والأمانات أنواع كثيرة ، ويدل على كثرتها ما رواه الكلبي كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال ، ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والجار وسائر المسلمين . وقال السدي : إن حقوق الشرائع كلها أمانات قبلها المؤمن وضمن اداءها بقبول الايمان . وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده ، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن الله فيه فقد خان الأمانة، والخيانةفيها، وكذا الغدربالعهد من الكبائر على مانص عليه غيرواحد .

(والذين هم بشهاداتهم قائمون) أي مقيمون لها بالعدل (والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون) عند الله وملائكته وعباده الصالحين .

(فمالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ؟(٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟(٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩)

فلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرونَ (٤٠) على أنْ نُبَدِّل خَيْراً مِنْهُمْ وما نَحْنُ بِمَسْبوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخوضُوا ويَلْعَبُوا حَتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلك اليَوْمُ الَّذِي كانوا يُوعَدُونَ)(٤٤) •

قوله تعالى (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) أي مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك (عن اليمين وعن الشمال عزين) جمع عزة أي متفرقين أي جماعات متفرقة • روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن، فكان المشركون يجتمعون حوله حِلَقاً حِلَقاً وفرقا يستمعون ويستهزءون بتلاوته صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلها قبلهم (أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ؟) أي بلا إيمان وأمان وعقل سليم (كلاّ) ردع لهم عما اقترحوه (إنا خلقناهم مما يَعلَمونَ) أي من أجل ما يعلمون وهو تكميل النفس بالعلم والعمل لا للبطر والاستهزاء بالبشر (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي نهلكهم جميعا ثم نأتي بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم (وما نحن بمسبوقين) أي بمغلوبين وعاجزين عن تنفيذ إرادتنا إذا شئنا (فذرهم) أي دعهم (يخوضوا) في باطلهم الذي لا باطل فوقه (ويلعبوا) كما يَهْوَون عليهم (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعَدون) وهو يوم البعث (يوم يخرجون من الأجداث) أي من القبور (سراعاً) أي مُسْرعين (كأنّهم إلى نُصُبٍ يُوفضون) أي كأنهم يسرعون إلى أحجار مرتبة منصوبة لهم للعبادة (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أي تغشاهم ذلة شديدة (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) •

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ(١) قالَ : يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ(٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٤) قالَ : رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَومِي لَيْلاً وَنَهاراً(٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعاءِي إِلاَّ فِرَاراً(٦) وإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً)(٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً(٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً(٩) فَقُلْتُ : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً(١٠) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَلْ

أَنْهاراً(١٢) مالَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً ؟(١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً)(١٤) •

قوله تعالى (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) قيل : هم سكان جزيرة العرب لا كل الناس لأن الرسالة العامة خاصة من خواص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهور أنه كان يسكن أرض الكوفة (أن أنذر قومك) أي انذرهم من عذاب الله ، واردعهم عن الإشراك ، وادعهم إلى توحيد الله رب العالمين (من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم) عاجل وهو ما حل بهم من الطوفان (قال : يا قوم إني لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله) أي اعبدوا الله على أن يكون أن للتفسير ، أو على عبادة الله أي اذا عبدتموه ووحدتموه فأنتم الطلقاء ، وإذا أنكرتموه أو عبدتموه وأشركتم به غيره فأنتم في شقاء (واتقوه) أي واتقوا مخالفته في الأوامر والنواهي (وأطيعون) فيما أبلغكم منه فإن الرسل هداة سبيل الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فإذا وافقتم على ذلك (يغفر لكم من ذنوبكم) أي بعض ذنوبكم وهو ما يتعلق بحقوق الله وحده ، وأما حقوق العباد في المعاملات والأحوال الجنائية والشخصية فعائدة إلى أصحابها إن عفوا عفوا ، وإن لم يعفوا وجب أداؤها لهم • (ويؤخركم إلى أجل مسمّى) هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراءَ ماقدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان كما يقتضيه التعليق بالإيمان والطاعة •

وهذه الآية تحسم مادة الشبهة لمن قال ليس هناك أسبابٌ تكون أسباباً لزيادة العمر أو نقصها ، فإن تلك الشبهة اشتباه ناشِىءٌ من إهمال الأسباب والشرائط • والحاصل إن الله تعالى عين أسبابا لأمور تتحقّقُ المسببات على تقدير وجودها ، وتنتفي عند انتفائها مع أن الأجل المعلوم عنده

واحد لأنه تعالى عالم بأن الشخص الفلاني يأتي بالأسباب أو يهملها وذلك مفهوم معلوم •

(إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) فإن مجيىء الأجل موقوف على تحقق الأسباب ومن أهمها تعلق إرادته تعالى بحصول المسبب عندها ، فإذا قرر أن موت فلان موقوف على إهمال التداوي والصدقات والدعوات وقد أهملت فالأجل محتّم (لو كنتم تعلمون) لسارعتم إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه •

(قال) نوح : (رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) في الآية الكريمة إيجاز الحذف أي فامتثل نوح أمرَ ربّه ، ودَعا قومَه ، وأنذَرَهم واجتهد في دعوته لهم ، فلم يفد فقال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهارا (فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) أي ابتعادا مما دعوتهم إليه ، سواء بالذهاب إلى محل بعيد عنّي حتى لا يسمعوا كلامي ، أو بسدّ الآذان عن الاستماع ، أو بغيرهما كما قال (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم) أي بالغوا واجتهدوا في التغطي بها حتى لا ينفذ الصوت إلى أسماعهم (فأصروا) أي على الكفر والمعاصي والتمرد (واستكبروا) من إطاعتي (استكبارا) بالغا عَن العادة (ثم إني دعوتهم) زيادة على ما كان (جهارا) وأتيت بما يقنع المنصف لو كانوا يقتنعون (ثم إني أعلنت) في الأمّة كلها لا لجمع محدود أي قلت ما قلت ، ثم قلت ألا فليبلغ الشاهد الغائب (وأسررت لهم) لبعضِ مَن أظن فيه الإجابة والقبول (إسرارا) لطيفا بصورة شريفة ، وفهمتهم فوائد إجابة أمر الباري تعالى ومفاسد رفضه (فقلت) لهم (استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) أي كثير الدرّ والخير بإنبات النبات ، وتنمية الأشجار ، وفوران العيون ، وزيادة مياه الوديان (ويمددكم بأموال) من الأنعام والمزارع والبساتين والمتاجر

(وبنين) لأن الإنسان المتمكن يتزوج حسب طاقته النفسية والاقتصادية فيولد له الأولاد إلى ما شاء الله (ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) وتستغلونها في وجوه المنافع .

ثم لما أحسست فيهم الإباء والتمنع قلت لهم : (ما لكم لا ترجون لله) الذي هو مبدأ الخيرات (وقارا ؟) اى وزنا وعظمة وهيبة واحتراما (وقد خلقكم أطوارا) جمع طور بمعنى الحال ، وقد وقعت حالاً من الضمير المنصوب مؤولة بالمشتق أي وقد خلقكم متنقلين من حال إلى حال من : المادّة العنصرية إلى كونها نطفة ، ومنها إلى كونها علقة ، ومنها إلى كونها مضغة ... وهكذا وحملها على الأحوال ذهب إليه جمع كما في روح المعاني . وقيل المراد بها : الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من : الصبا ، والشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ، والقوة ، والضعف ... وقيل : من الألوان والهيآت والأخلاق والملل المختلفة . وقيل من الصحة والسقم أو الغنى والفقر وسائر العوارض . والحاصل استنكار لانكار عاقل يرى هذه التطورات على شخصه من الباري تعالى وجودَ ذلك الصانع الحكيم القدير أو وحدته في الخلق والتأثير .

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمواتٍ طِبَاقاً ؟(١٥) وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نوُراً وجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً(١٦) وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً(١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ويُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً(١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً(١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً(٢٠) قالَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَساراً(٢١) ومَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً(٢٢) وقالُوا : لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، ولا

تَذَرُنَّ وَدًّا ، ولا سُواعاً ، ولا يَغُوثَ ، ويَعُوقَ وَنَسْراً(٢٣) وقد أَضَلُّوا كَثِيراً ، ولا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلاَّ ضَلالاً(٢٤) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً(٢٥) وقالَ نُوحٌ : ربِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً(٢٦) إنَّكَ إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً(٢٧) رَبِّ اغفِرْلِي ، ولِوَالِدَيَّ ، ولِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ، ولِلْمُؤْمِنِينَ والمؤْمِناتِ ولا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلا تَباراً)(٢٨) •

قوله تعالى : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ؟) توجيه للعباد إلى النظر في آثار قدرة الله تعالى وإبداعه لها الموجب للإيمان به وبوحدته ، فيقول ألم تروا يا من يمكن منكم الرؤية والنظر كيف خلق الله سبع سماوات متطابقة بعضها على بعض (وجعل القمر فيهن نورا) منورا لمقدار من العالم عندما قابله والوقت بالنسبة إليه ليل (وجعل الشمس سراجا) يزيل ظلمة الليل ويبصر كل بصير في ضوئها (والله أنبتكم من الأرض نباتا) أي أنشأكم من الأرض إنشاء ففيه تشبيه الإنشاء بالإنبات، والوجه متوفر والعالم متبصر (ثم يعيدكم فيها ويخرجكم) منها عند البعث (إخراجا • والله جعل لكم الأرض بساطا) تتحركون عليها لكسب المعاش وتستريحون فيها لاستعادة القوة ، وهكذا على الاستمرار إلى وقت الاستقرار ، ولكن الله تعالى خص قسم كسب العيش بالذكر وقال (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) رعاية لما يهم الناس في حياتهم ، أي لتسلكوا طرقا واسعة منها • وليس المراد لسبل الفجاج أن تكون مادة أرض الطريق واسعة ، وإنما أراد توسعة طرق المعيشة على الأرض لنيل الخير بالسكون أو بالسير •

وهذه الآيات البينات جمل جميلة وقعت في البين ثم عاد إلى نقل ما قاله عبده نوح مع ربّه يعني (قال نوح : رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) أي عصوني ورموني بسهام سامة لأنه لم يعجبهم ترك الأصنام والتوجه إلى الله العلاّم واتبعوا رؤساءهم اللئام عبدة الأحجار لأنهم أصحاب أولاد كثيرة وأموال وفيرة ، وكان الاعتماد إذ ذاك عليهما ومرجع الشرف إليهما مع أنهما لم يزيدا لأصحابها في الدنيا إلا جهلا وغباوة واغترارا وفي الآخرة إلا خزيا وعارا ونارا • (ومكروا مكرا كبارا) أي مكر قوم نوح أو رؤساؤهم المغترو ن بالأموال والأولاد لمنع الناس عن عبادة الله الواحد الأحد مكرا كبيرا للغاية ، حيث احتالوا على الضعفاء والأوساط وعظّموا أصنامهم أمامهم (وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودّا ، ولا سُواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسراً) أي نهوهم عن ترك آلهتهم ولاسيما الكبار منها المُسَمَّيْنَ بالأسامي الخمسة (وقد أضلّوا كثيرا) أي قد أضل الرؤساء في القوم كثيرا من الضعفاء في العقل أو في المال أو في الجاه أو في الكل فإن الإنسان ينقاد لمن يعينه في روحه أو رزقه أو فسقه • وقوله تعالى (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) عطف على قوله رب إنهم عصوني على حكاية كلام نوح عليه السلام فازداد القوم في الضلال ، وباشروا المعاصي بكل إقبال ، وجاءوا بخطايا متتالية على عادة أهل الضلال • وعلى ذلك يقول سبحانه وتعالى (مما خطيئاتهم أغرقوا) أي من أجل خطاياهم المتتابعة المتلاحقة أمرنا السماءَ بإضافة المياه والأرضَ بإخراجها حتى صار الطوفان فأغرقوا في أمواج طوفان الغضب (فأدخلوا) بعد الإغراق والإهلاك (نارا)

برزخية تجلب العجب (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) يمنعونهم ماء ولا نارا • وكل هذه البلايا أتتهم من عصيانهم عن أمر ربهم وإيذائهم لقلب نوح عليه السلام واستجابة لدعائه عليهم حيث قال تعالى (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وهو من يسكن الدار (إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا) يكفر بربه (كفارا) بأنعمه (رب اغفرلي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أي هلاكا •

سورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون
نزلت بعد الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ : أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ، فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً(١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢) وَأَنَّهُ تَعَالى جَدُّ رَبِّنَا ما اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً(٣) وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللهِ شَطَطاً(٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ والْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً(٥) وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً(٦) وأَنَّهُمْ ظَنُّوا ، كما ظَنَنْتُمْ ، أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً(٧) وأَنَّا لَمَسْنا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً)(٩) .

قوله تعالى (قل أوحي إليّ أن استمع نفر من الجن) النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة .

والجن أجسام لطيفة عاقلة خفية عن عيوننا عادة تغلب عليهم النارية أو الهوائية ، وقادرة على التشكّل بأشكال مختلفة شريفة أو شريرة كثيفة . وتدل على وجودهم آيات عديدة مثل قوله تعالى : (والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) وقوله : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) وقوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وقوله : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) وقوله : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) ... وكذلك يدل على انهم مكلفون ، وأن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم بُعِثَ اليهم آيات وأحاديث عديدة منها قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قُضي ولّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومَنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدِي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكُمْ مِن عذاب أليم) وقوله تعالى (وما خلقتُ الجنّ والإنس إلا ليعبدون) وقوله تعالى : (يا مَعَشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السّموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) وقوله تعالى : (قل أوحي إلي أنه استمعَ نَفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ...) الآية . وقوله تعالى : (وأنه لَمّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) .

وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم لهم فقد دلت عليها أحاديث شريفة قال في آكام المرجان ما محصله : في الصحيحين عن حديث ابن عباس ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما انطلق صلى الله عليه وسلم بطائفة من الصحابة لسوق عكاظ ، وقد حيل بين الجن والسماء بالشهب ،

فقالوا : ما ذاك إلا لشيىء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فمرَّ مَن ذَهَبَ لتهامَةَ منهم به صلى الله عليه وسلم وهو يصلي الفجر فلما استمعوا له قالوا : هذا الذي حالَ بيننا وبين السماء ورجعوا إلى قومهم (وقالوا يا قومنا) الخ فأنزل الله عليه (قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن) ثم قال : ونفي ابن عباس رضي الله عنهما (أي لرؤيته صلى الله عليه وسلم للجنّ) إنما هو في هذه القصة واستماعهم تلاوته في الفجر في هذه القصة لا مطلقا • ويدل عليه قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) فإنها تدلّ على أنه كلمهم ودعاهم وجعلهم رسلا لمن عداهم كما قاله البيهقي • وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتاني داعي الجن ، فذهبتُ معه ، وقرأتُ عليهم القرآن » قال : وانطلق بنا وأرانا آثارَهم وآثار نيرانهم • وقد دلت الأحاديث على أن وِفادَة الجنّ كانت ست مرات • وفي شرح البيهقي من طرقٍ شتّى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى العشاء ثم انصرف فاخذ بيدي حتى أَتَيْنا مكان كذا فأجْلَسني وَخَطّ عَلَيَّ خطّاً ، ثم قال : « لا تَبرح » فبينما أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنهم الزُّطّ • فذكر حديثا طويلا • وأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءه إلى السحر قال : وجعلت أسمَع الأصواتَ ثم جاء فقلتُ أين كنت يا رسول الله ؟ فقال : « أُرْسِلتُ إلى الجن » فقلتُ : ما هذه الأصوات التي سمعت ؟ قال : « أصواتهم حين وَدَّعوُني وسَلَّموا عليَّ » •

فيقول الباري سبحانه (قل) يا رسولي (أوحي إلي انه استمع نفر من الجن) القرآن الكريم (فقالوا) عند رجوعهم إلى قومهم (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به) أي بذلك القرآن (ولن نشرك بربنا أحدا) حسبما قام عندنا من دلائل التوحيد (وأنّه تعالى جَدُّ رَبِّنا) أي تزايد عظمته تعالى والجد هو الحظ والنصيب ، وهنا بمعنى العظمة والقدسية أي

وأن الشأن والقصد تبارك وتعظم مقام ربنا وقدسيته (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) لأن الصاحبة للألفة الشخصية ومنع الوحشة والتناسل لحفظ النوع والتعاون في الأمور المهتم بها والله تعالى متعالٍ عن كل ذلك (وأنه كان يقول سفيهنا) أي السفيه الوحيد فينا وهو إبليس أي يقول الشخص السفيه الخفيف العقل من أفراد نوع الجن (على الله شططا) أي يقول على الله تعالى قولا ذا بعد عن الحق (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) لأن كل عاقل له إدراك بنفسه وبأنه أثر من آثار قدسه عارف بأن الله أعلى من كل وهم يحوم حوله ، وعلى ذلك الأساس ظننا أن لا يتكلم الإنس أو الجن بشيء خلاف الواقع وينسبوه إلى الله تعالى كذبا .

(وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) واستمرت عادة العرب أنه إذا أمسى في واد قفر خال من الأصحاب وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك من الجن يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والانس . كما قال تعالى (فزادوهم رهقا) أي فزاد الإنس المستغيث في الوادي بعمله ذلك رهقا وطغيانا للجن واعتبروا أنفسهم من ملوك العالم . ويروى بدل هذه الاستعاذة ما أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس وقال : غريب جدا إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أصاب أحد منكم وحشة ، أو نزل بأرض مَجَنَّة فليقل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بَرّ ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن فتن النهار ومن طوارق الليل ، إلا طارقا يطرق بخير » .

(وأنهم) أي الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن (أن لن يبعث اللهُ أَحَدا ، وأنّا لَمَسنا السَّماءَ) أي طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها ، أو

طلبنا غيرها (فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا • وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أي لسماع كلام السماء خالية عن الموانع (فمن يستمع الآن يَجِدْ لَهُ شهابا رَصَدا) قال في شرح التسهيل : الآن معناه هنا القرب مجازا فيصح مع الماضي والمستقبل • وفي البحر : أنه ظرف زمان للحال ، ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف ، واستعمل للاستقبال كما قال : (سأسعى الآنَ إذ بلغت أناها) فالمعنى فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي يجد له شهابا راصداً له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم ، فرصدا صفة شهابا ، فإن كان مفردا فالأمر ظاهر ، وإن كان اسم جمع المراصد كحرس فوصف المفرد به لأنّ الشهاب لشدة منعه وإحراقه جُعل كأنّه شُهُب • وفي الآية ردّ على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته عليه الصلاة والسلام حيث قيل فيها مُلِئَتْ ، وهو ظاهر في أن الحادث هو المَلأ والكَثْرة ، وكذا قوله سبحانه (نقعد منها مقاعد) على ما في الكشاف ، فكأنه قيل : كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليةً عن الحرس والشهب والآن مُلِئَت المقاعدُ كلها فَمَن يستمع الآية • ويدل على ذلك ما رواه علي بن الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهم بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال : « ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يموت عظيم ، أو يولد عظيم • وروي عن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم • قال : أرأيت قوله تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) فقال غلّظت وشدد أمرُها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وكأنه أخذ ذلك من الآية أيضا • وقال بعضهم : إن الرمي لم يكن أوّلا ثم حدث للمنع عن بعض السماوات ، ثم كثر ومنع به الشياطين عن جميعها يوم تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوز أن تكون الشهب من قبلُ لحوادث كونية لا لمنع

الشياطين أصلا . والحادث بعد البعثة رمي الشياطين بها على معنى أنهم إذا عرجوا للاستماع رموا بها ، فلا يلزم أيضا أن يكون كل ما يحدث من الشهب اليوم للرمي ، بل يجوز أن يكون لأمور أخرى بأسباب يعلمها الله تعالى . ويجاب بهذا عن حدوث الشهب في شهر رمضان مع ما جاء من أنه تصفد مردة الشياطين فيه . ولمن يقول إن الشهب لا تكون إلا للرمي جواب آخر مذكور في موضعه ، وهو أن صفد الشياطين فيه إنما هو للإضرار بالصائمين والصائمات ، وإلا فلهم أشغال أخرى وأنهم منظرون إلى يوم الوقت المعلوم والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار عالم الغيب والشهادة وهو العلام للغيوب .

(وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ؟(١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ ، وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً(١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً(١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً(١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً(١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً(١٥) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً(١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً(١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً)(١٨)

قوله تعالى : (وأنا لا ندري) أي وأنا لا ندري من ملأ المقاعد من الحراس ، ومنع الجن من استحقاق السمع ، وتشديد الأمر على الحراس

(أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ؟) وخيرا . وحاصل الأمر أن هذا التغير الواقع في السماء لاشك أنه لأمر خطير عظيم (وأنا منا الصالحون) الموصوفون بصلاح الحال في شئون أنفسهم ومعاملاتهم مع غيرهم (ومنا دون ذلك) أي قوم دون ذلك المذكور (كنا طرائق قددا) أي كنا ذوي طرائق ومسالك وآراء ومذاهب متعددة مختلفة (وأنا ظننا أن لن نُعجزَ اللهَ في الأرض) يعني أينما كنا فتحت قبضة قدرته (ولن نعجزه هربا) أي هاربين ، فأينما كنا على أبوابه كحارسين لثَرى أعتابِهِ (وأنا لمّا سمعنا الهُدى) أي القرآن الذي هو وسيلة اهتداء الناس في العالم (آمنا به ، فمن يؤمِن بربه فلا يخاف بخسا) أي خسارا في حقوقه المادية والمعنوية (ولا رهقا) أي غشيان ذلّة عليه (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) الجائرون على حقوق العباد (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أي قصدوا خيرا عظيما وقد صادفوه . (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) توقد بهم كما توقد بالناس والحجارة .

وقوله : (وأن لو استقاموا) معطوف قطعا على قوله انه استمع (على الطريقة) أي على طريقة الحق وإطاعة الله ورسوله (لأسقيناهم ماء غدقا) أي ماء كثيرا ، أي ما خليناهم يظمأون ، والمراد به إما الماء للمزارع والبساتين ، وإما كناية عن فتح أبواب الرزق من سائر الوجوه . وإنما كنا نسقيهم ذلك الماء الغدق (لنفتنهم فيه) أي لنجعلهم في فتنة وابتلاء ومحنة ، ورحم الله من قال : إن المنحة قلب المحنة (ومن يعرض عن ذكر ربه) أي عن عبادة ربه ، أو موعظة ربه ، أو عن القرآن المنزل منه وهو فيه ذكر لله تعالى (يسلكه عذابا صَعَداً) أي يُدخِله في عذاب صاعدٍ شديد .

وقوله : (وأن المساجد لله) معطوف على أنه استمع أي قل أوحي إلى أن المساجد لله أي مختصة بالله تعالى وشرع بناؤها لله أي لأداء طاعاته من

الواجبات والمندوبات (فلا تدعوا مع) دعوة (الله أحدا) أبدا ولاسيما في المساجد المبنية لله المختصة به تعالى •

وقيل : المعنى أفردوا المساجد بذكر الله تعالى ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا لما في الحديث « من نشد الضالة في المسجد فلا ردها الله عليه فإن المساجد لم تبن لهذا » • وفي الحديث : « كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : إن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا ، أللهم أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار » وإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى وقال : « اللهم صُبَّ عَلَيَّ الخَيرَ صَبّاً ، ولا تنزع عني صالِحَ ما أعطيتني أبدا ، ولا تجعل معيشتي كدا ، واجعل لي في الأرض جدّاً » أي غِنىً •

(وأنَّه لمّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعوه كادُوا يَكُونُونَ عليْهِ لِبَداً(١٩) قُلْ : إنَّما أَدْعوا رَبِّي ، ولا أُشْرِكُ بِهِ أَحداً(٢٠) قُلْ : إنِّي لا أمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا رَشَداً(٢١) قُلْ : إنِّي لَنْ يُجِيرَني مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً(٢٢) إلاّ بلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً(٢٣) حَتّى إذا رَأوا ما يوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَأقَلُّ عَدداً(٢٤) قُلْ : إنْ أدْرِي أقَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ ، أم يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أمداً ؟(٢٥) عالِمُ الغَيْبِ ، فلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أحَداً(٢٦) إلاّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ ، فَإنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ رَصَداً(٢٧) لِيَعْلَمَ أنْ قَدْ أبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ ، وأحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وأحْصى كُلَّ شيءٍ عَدَداً)(٢٨) •

قوله تعالى (وانه لما قام عبدالله يدعوه) معطوف على انه استمع أي قل أوحي إلي أنه لما قام عبدالله أي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يدعوه ، أي يدعو ربه ويناجيه ويتضرع إليه وذلك عند قيامه صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر ببطن نخلة (كادوا يكونون عليه لبدا) كاد جمع الجن المستمعين إليه هناك (يكونون عليه لبدا) جمع لبدة بكسر اللام ، أي كساء متلبدة من لفائف بعضها فوق بعض ، وكان ذلك تعجبا من عبادته ، وقراءته واقتداء أصحابه به في القيام والركوع والسجود •

(قل إنما أدعو ربّي ولا أشرك به أحدا) في العبادة ، ولا اعبد غيره كما أني أعتقد أنه الخالق للعالم من الأعيان والأعراض ولا خالق غيره (قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشـدا) أي ولا نفعا فإن الضار والنافع هو الله العظيم (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجـد من دونه ملتحداً) أي منحرفا أنحرف إليه وقوله (إلا بلاغا) من الله استثناء من مفعول لا أملك أي لا أملك لكم شيئا إلا بلاغا (من الله ورسالاته) أي التي أرسلني عز وجل بها فإذا اعتبرنا البـلاغ بمعنى التبليغ ، والرسـالات جمع رسـالة كان المسـتثنى شيئين متغايرين الأول فعل الرسول وهو تبليغ ما عنده إلى الناس ، والثاني الرسالات وهي جُمَل متعددة من الآيات النازلة التي سلّمها للأصحاب كي يكتبوها ، فالمعنى لا أملك لكم شيئا من النفع إلا تبليغ أوامر الله ونواهيه وإلا هذه القطع من السور المنزلة التي تصل إليكم (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى) هذه وما بعدها جملة معترضة واقعة في البـين وحتى ابتدائيـة يعني فـ (إذا رأوا ما يوعـدون) من العـذاب (فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عَدَداً) وحتّى تفيد معنى الغاية ، أي يستمر الكفار على الاستهزاء بكم وأنكم أضعف ناصرا وأقل عددا حتى أن يروا عواقب الأمور في الآخرة ويفتهموا من الوضع إذ ذاك من أضعف وأقل•

(قل إن أدري أقريب ما توعدون) أي من العذاب (أم يجعل له ربي أمَدا ؟) وزمانا بعيدا • وقوله (عالم الغيب) خبر لمبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب المستور من غيره (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَدا) أي فإن ذلك الرسول المرتضى يخصه ببعض الأشياء منها : أنه يطلعه على المغيبات المتعلقة برسالته ، إما لكونه من مباديها بأن يكون معجزة ، وإما لكونه من أركانها واحكامها كعامة التكاليف الشرعية وكيفيات الأعمال ونحو ذلك • ومنها أنه يسلك أي يدخل من بين يديه ومن خلفه حراسا مترصّدين يحفظونه من اختطاف الشياطين له ، ومن تعرضهم له ومسهم له بسوء (ليعلم) الباري جل شأنه أي يتعلق علمه تعلقا جديدا (بأن قد أبلغوا رسالات ربهم) محفوظين من التهم (وأحاط بما لديهم) أي لدى الرسل الكرام أو عند الرصد من المعلومات (وأحصى كل شيىء) أي وضبط كل شيىء (عددا) •

فائدة : استدل بعض الناس بقوله تعالى (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) على أن هذا العلم منحصر في الرسول ولا يتجاوز إلى الأولياء والصالحين ، فكل ما ادعوه من المعارف الغيبية لا أصل لها ، وبأنه ينافي ظاهر الآية علم المنجمين والحسّابين والكهنة ببعض المغيبات المستقبلية ، فإنه قد وجد في العالم كثير من الناس الذين أخبروا بأمور مستقبلية ، وقد تحققت حسب أخبارهم بلا اشتباه فيه !

والجواب : هو أن هذا الاعتراض ناشيء من اشتباه السلب الجزئي بالسلب الكلي • فإن الآية الكريمة سالبة جزئية ومفادها : أن الله تعالى لا يظهر على هذا الغيب الخاص ، وهو علم الساعة ، إلا من ارتضاه واختاره لعلمه من رسول • والدليل الحاسم عليه قوله : قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا • ولو فرضناه أنه سلب كلي فالمراد بهذا

الإظهار هو غلبته على الغيبيات بأن يكون للانسان دور واسع في علمها ، وهذا الاظهار والغلبة لا يكون إلا لمن ارتضاه من الرسل لا لكل رسول ولا لكل نبي فضلا عن الأولياء والصالحين . وقد يجاب بأن علم الغيب المختص بمن ارتضاه هو علم يقيني ، وهو الذي لا اشتباه فيه لا مثل علم الأولياء والصالحين ، فإنها وإن كانت واقعية وتحقق معلومها في الواقع لكنها علوم إلهامية ظنية حيث لم تصل إليهم بواسطة الوحي ، وإنما هو كشف ناتج من الإلهام . وأما علوم المنجمين والحساب فصورتها صورة العلم وحقيقتها ظنون واهية قد يتحقق في الواقع وقد لا يتحقق ولا عبرة بأمثال تلك الظنون، على أنها علوم مكتسبة مبنية على مقدمات وشرائط ، ومثلها مثل العلم بما في أرحام الأمهات من الجنين بواسطة الأجهزة الكشافة . وذلك خارج عن موضوعها وهو العلم الغيبي المأخوذ بدون تلك الأجهزة والأسباب . هذا ما عندنا في الموضوع والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

سورة المزمل ، وهي مكية الا الآيات

١٠ / و ١١ و / ٢٠ فهي مدنية ، وآياتها عشرون نزلت بعد سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ(١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً(٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً(٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً(٥) اِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً(٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً(٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً(٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)(٩)

قوله تعالى : (يا أيها المزمل) عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : ألست تقرأ هذه السورة يا أيها المزمل ؟ قلت : بلى • قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرا ، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه • أخرجه مسلم

وأبو داود والنسائي • وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن أبي عبدالرحمن السلمي قال لما نزلت : يا أيها المزمل قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، فاستراح الناس •

قوله تعالى (يا أيها المزمل) المزمل بتشديد الزاء والميم لأن أصله المتزمل فقلبت التاء زاء وأدغمت الزاي في الزاء • والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم واختلفت في معنى المزمل فقيل : المتلفف بثيابه • وقيل : المزمل بالنبوة ، والمدثر بالرسالة • وقيل : المزمل بالقرآن وقيل : معناه يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله • أخرج مسلم عن طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت : إن الله قد افترض قيام الليل في أول هذه السورة يعني يا أيها المزمل فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعا بعد فرضيته • وقد روى محمد بن نصر في قيام الليل عن طريق سماك الحنفي عن ابن عباس شاهداً لحديث عائشة في أن بين الإيجاب والنسخ سنة • وكذا أخرجه عن أبي عبدالرحمن السلمي والحسن وعكرمة وقتادة بأسانيد صحيحة عنهم ومقتضى ذلك ان النسخ وقع بمكة لأن الإيجاب متقدم على فرض الخمس ليلة الإسراء • وكانت قبل الهجرة بأكثر من سنة على الصحيح • وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا ما تيسر منه لقوله (فاقرءوا ما تيسر منه) ثم نسخ فرض ذلك بالصلوات الخمس ، هذا •

وما دام تقرر أن بين إيجاب صلاة الليل ونسخه سنة ونسخه كان بافتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء •• ظهر أن وجوب صلاة الليل لم يكن متصلا بالبعث ، بل مضت عليه مدة أقلها خمس سنوات • يعني أنه أوجبت صلاة الليل بعد السنة الخامسة من البعث وبعد سنة نسخ الإيجاب إلا ما تيسر ، ثم نسخ وجوب هذا أيضا بفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء

الواقع بثلاث سنين قبل الهجرة . فعنوان يا أيها المزمل على تقدير أخذه من تزمّله باللحاف بعد رجوعه من غار حراء ونزول صدر سورة العلق عليه صلى الله عليه وسلم لا يعني أن فرض صلاة الليل عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم كان في أوائل نبوته مباشرة ، بل كان في عام الستة والأربعين من عمره الشريف أي بعد ست سنين من البعث وهذا ظاهر ان شاء الله تعالى .

فيقول الله سبحانه وتعالى : (يا أيها المزمل) أي بالثياب أو بالنبوة أو بالقرآن (قم الليل) أي قم للصلاة في الليل (إلا قليلا) يعني (نصفه) أي قم الليل إلا نصفه (أو انقص منه قليلا) أي انقص من النصف المستثنى قليلا ، يعني نصف النصف (أو زد عليه) أي على النصف الباقي قليلا أي قم الليل نصفه أو انقص منه قليلا بأن يبقى لك ربع الليل (أو زد عليه) أي على النصف بأن يبقى لك ثلاثة أرباع الليل للطاعة وقيام الليل (ورتل القرآن) في صلواتك بالليل أي في القيام لها (ترتيلا) أي اقرأه وتلفظ بالكلمات واضحة الحروف وحركاتها وشدها ومدها . من قولهم سن رتل أي مفلج . وعن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال : « بيّنه تبيينا ، لا تنثره نثر الدقل . ولا تهذه هذا الشعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » . (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) وهو القرآن فانه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول صلى الله عليه وسلم . وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه صلى الله عليه وسلم من القيام .

(إن ناشئة الليل هي اشد وطأ وأقوم قيلا) أي إن النفس التي تنشأ من مضجعها بالليل إلى العبادة هي أشدّ وطأ ، أي أقوى من حيث ثبات القدم

وأقوم قيلا أي أعدل وأحسن وأوضح قولا . ومعنى الجملة تحسين قيام الليل في أنظار من له الميل إلى الطاعة أقوم ميل (إن لك في النهار سبحا طويلا) أي تقلبا في مهماتك وكسب أسباب المعيشة والراحة البدنية والنفسية . ومعنى الآيتين تنسيب النهار للأعمال الدنيوية والليل للأعمال الروحية والطاعة المرضية (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره حسب المستطاع تسبيحا وتهليلا وتحميدا وتمجيدا وصلاة (وتبتل إليه) أي الى الربّ المربي لك وللعالمين (تبتيلا) انقطاعاً مؤكدا (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) متوكلا عليه ومرجوعا إليه .

(واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ . وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً(١٠) وَذَرْنِي وَالمكذّبينَ أولِي النَّعْمَةِ وَمهّلْهُمْ قلِيلاً (١١) إنَّ لَدَيْنَا أنْكالاً وَجَحِيماً(١٢) وطَعاماً ذاغُصَّةٍ وعذاباً أَلِيماً(١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالجِبالُ ، وكانَتِ الجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً(١٤) إنَّا أَرْسَلْنَا إلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كما أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسولاً(١٥) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسولَ فأَخَذْناهُ أَخْذاً وبِيلاً(١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً ؟(١٧) السَّماءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفعولاً(١٨) إنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً)(١٩) .

(واصبر على ما يقولون) أي ما يقوله أولئك المتقولون الفاسدون المفسدون (واهجرهم هجرا جميلا) واترك الألفة الروحية معهم تركا حسنا موافقا لحسن الإدارة ورعاية المجاملة الاعتيادية (وذرني والمكذبين أولي

النعمة) والثروة والبطر والكبرياء (ومهلهم قليلا • إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) أي طعاما ينشبُ في الحلق كالضريع والزقوم، ونوعا آخر من العذاب مؤلما جدا • وهذه الأمورُ الفظيعة تتحقق (يوم ترجف الأرض والجبال) من النفخة الأولى في الصّور (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) أي رملا مجتمعا ناعما يصير هباءً (إنا أرسلنا إليكم) يا اهل مكة (رسولا كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) موسى عليه السلام (فعصى فرعون الرسول) المعهود المرسل (فأخذناه) أي فرعون العاصيَ (أخذاً وبيلا) أي أخذا ثقيلا قويا •

وما دام الباري له الحكم الدائم الجاري (فكيف تتقون) عذابه وعقابه (إن كفرتم) به وبرسوله (يوما يجعل الولدان شيبا) لكثرة أهواله وتفاقم شدائده ، والحال إن (السماء منفطر) ومنشق ومتزلزل بذلك اليوم الصعب الضاغط على الكائنات • فإذا سألك سائل : هل ذلك اليوم يأتي ؟ قل : لاشك فيه فإن الله قد وعد به و (كان وعده مفعولا) وتخلف المعلوم عن العلم والمراد عن الإرادة محال (إن هذه) الآيات المستوعبة لجهات الرهبة والشدة (تذكرة) للمتذكرين الفاهمين (فمن شاء) الخلاص من العذاب والدخول في دار الثواب (اتخذ إلى ربه سبيلا) مستقيما لاعوج فيه ولا انحراف وهو سبيل الإيمان والإسلام والانصاف •

(انَّ ربَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلَ ونِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ ، فَتابَ عَلَيْكُمْ ، فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى ، وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ، يَبْتَغُونَ مِنْ

فَضْلِ اللهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلوةَ ، وَآتُوا الزَّكوةَ ، وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم)(٢٠) •

قوله تعالى : (إن ربك يعلم) تمهيد لنسخ وجوب صلاة الليل على الأمة ، وتثمين وتقدير لطاعة رسوله الكريم وأمته المرحومة • أي إن ذلك معلوم لنا أي إن ربك يعلم (أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) أي زمانا أقل منهما (ونصفه ، وثلثه) بالنصب عطفا على أدنى كأنه قال : يعلم إنك تقوم من الليل أقل من ثلثيه ، وتقوم نصفه ، وتقوم ثلثه (وطائفة من الذين معك) عطف على ضمير تقوم ، وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة كذلك للتأسي به • ومنهم من كان لا يدري كم صلّى من الليل وكم بقى منه ، فكان يقوم الليل كله احتياطا ، فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفف عنهم (والله يقدر الليل والنهار) أي يحصيهما (علم أن لن تحصوه) أن مخففة من الثقيلة ، أي علم أنه لن تحصوه (فتاب عليكم) ورجع بكم إلى التخفيف (فاقرأو ما تيسر من القرآن) في الصلاة بأن تصلّوا ما تيسر (علم أن سيكون منكم مرضى) جمع مريض (وآخرون يضربون في الأرض) أي يسافرون (يبتغون من فضل الله) من رزقه بالتجارة وغيرها (وآخرون يقاتلون في سبيل الله) وكل من تلك الفرق الثلاثة يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل فخفف عنهم بقيام ما تيسر منه ، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ، أي في حقّ الأمّة إتفاقا • وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقال مالك لم ينسخ في حقه صلى الله عليه وسلم بل بقي وجوب التهجد عليه لكن في خصوص الحضر • وقال الشافعي نسخ في حقه أيضا •

فإن قلت : وجوب الصلوات الخمس لا ينافي وجوب قيام الليل ، ومن شرط الناسخ أن يكون حكمه منافيا للحكم المنسوخ . فالحق أن النسخ بالحديث وهو أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أعرابيا بأن الله افترض عليه خمس صلوات في كل يوم وليلة . فقال الأعرابي : هل علي غيرها يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « لا إلاّ أن تطوع » فقوله لا ، نفي لوجوب أي صلاة كانت غير الخمس (فاقرءُوا ما تيسّر منه) أي من القرآن من غير تحمل المشقة التي لا تطاق عادة (وأقيموا الصلوة) المفروضة (وآتوا الزكوة) كذلك أي المفروضة . واستشكل بأن السورة من أوائل ما نزل بمكة ولم تفرض الصلوات الخمس إلا بعد الإسراء والزكاة إنما فرضت بالمدينة ! وأجيب بأن الذاهب إلى ذلك يجعل هذه الآيات مدنية .

وفي فتح الباري ما نصه : نعم ذكر أبو جعفر النحاس أنها مكية إلاّ الآية الأخيرة ، وقوّى محمد بن نصر هذا القول بما أخرجه من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط ، وكان ذلك بعد الهجرة ، لكن في إسناده علي بن يزيد بن جدعان وهو ضعيف . وأما ما رواه الطبري ، عن طريق محمد بن طحلاء عن أبي سلمة عن عائشة قالت : احتجر رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا ... فذكر الحديث الذي تقدمت الإشارة إليه قبل خمسة أبواب ، وفيه كلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن خير العمل أدومه وإن قل . ونزلت عليه يا أيها المزمل ، فكتب عليهم قيام الليل ، وأنزلت منزلة الفريضة حتى أن كان بعضهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فلما رأى الله تكلفهم ابتغاء رضاه وضع ذلك عنهم فردهم إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل بهم إلاّ ما تطوّعوا به ، فإنه يقتضي أن السورة كلها مدنية ، لكن فيه موسى بن عبينة وهو شديد الضعف فلا حجة فيما تفرد به . إنتهى المقصود نقله . قلت : ظاهر الآية الكريمة ، أي علم أن

سيكون منكم مرضى .. يشعر بوضوح أن الآية مدنيــة ، ويؤيد ذلك ما سبق من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مــع أبي عبيدة في جيش الخبط ، وكان ذلك بعد الهجرة . فالذي يطمئن إليه القلب أن السورة مكية إلا الآية الأخيرة . ولما تحققت الهجرة نسخت صلاة الليل بهذه الآية في حق الأمة وبقيت تطوعا لها . ويؤيد ذلك ترك الرسول الخروج إلى القوم في الليلة الرابعة لصلاة التراويح .

(وأقرضوا الله قرضا حسنا) يريد الصدقات والإنفاقات في سبيل الله تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) من الذي تؤخرونه للورثة على أمل الإنفاق منه في سبيل الله أو صــرفه في أنفسهم وحاجاتهــم ، ومن الوصايا التي تهمل غالبا ، وقلما تتنفذ شــرعا (واستغفروا الله) خطاياكم الصغيرة والكبيرة لكن لا استغفاراً بارداً في الفم بل استغفارا حارا يفور من القلوب تطفىء نار جهنم ، وذلك توبة من الحوبة، واعتراف بالذنوب نوبة بعد نوبة . ولا تيأسوا من قبوله (إن الله غفور) كثير المغفرة للذنوب (رحيم) كثــير الستر للعيوب ســتر الله عيوبنا وغفر ذنوبنا بمنه وفضله ، إنه أرحم الراحمين .

سورة المدثر ، مكية ، وآياتها ست وخمسون
نزلت بعد سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(٣) وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ(٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(٥) ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ(٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(٧) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(٨) فذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(٩) عَلَى الكَافِرِينَ غيرُ يَسِيرٍ(١٠) ذَرْنِي ومَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً(١١) وجَعَلْتُ له مالاً مَمْدُوداً(١٢) وبَنِينَ شُهُوداً(١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً(١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ !(١٥) كلاَّ إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً(١٦) سأُرْهِقُه صَعوداً(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ(١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ(٢١) ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ(٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(٢٣) فقالَ : إِنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ(٢٤) إِنْ هذا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ(٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦) وَما أَدْرِيكَ ما سَقَرُ ؟(٢٧) لا تُبْقِي ولا تَذَرُ(٢٨) لوَّاحَةٌ لِلبَشَرِ)(٢٩) •

قوله تعالى (يا أيها المدثر) أصله المتدثر فقلبت التاء دالا وأدغمت في الدال . أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فاختلفوا ، ثم اجتمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر ، أي كما يفعل المغموم . فأنزل الله تعالى يا أيها المدثر إلى قوله تعالى ولربك فاصبر . وقيل : المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والرسالة والكمالات النفسية . أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وجماعة عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يا أيها المدثر) قلت : يقولون (إقرأ باسم ربك الذي خلق) فقال أبو سلمة : سألت جابراً بن عبدالله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جواري هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ، ونظرت خلفي فلم أر شيئا ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض . فجئثت منه رعبا ، فرجعت فقلت : دثروني دثروني فدثروني . فنزلت يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر » .

وفي رواية : « فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فانذر) إلى قوله فاهجر » فان القصة واحدة ، ولو كانت يا أيها المزمل هي النازلة قبل فيها لذكرت . نعم ظاهر هذا الخبر يقتضي أن يا أيها المدثر نزل قبل إقرأ باسم ربك والمروي في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن ذلك أول ما نزل من القرآن ، وهو الذي ذهب إليه أكثر الأمة حتى قال بعضهم : هو الصحيح ، ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب فنقل في الإتقان خمسة أجوبة :

الأول : أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة ، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل صدرها .

الثاني : أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة .

الثالث : أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار . وعبر بعضهم عن هذا بقوله : أول ما نزل للنبوة إقرا باسم ربك ، وأول ما نزل للرسالة يا أيها المدثر .

الرابع : أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم ، وهو ما وقع من التدثر الناشىء عن الرعب . وأما إقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم .

الخامس : أن جابرا استخرج ذلك باجتهاده ، وليس هو من روايته ، فيقدم عليه ما روت عائشة رضي الله عنها . ثم قال وأحسن هذه الأجوبة الأول والأخير . إنتهى . وفيه نظر فتأمل ولا تغفل .

فيقول الله تعالى (يا أيها المدثر) اللابس للدثار (قم) من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم (فأنذر) الكافرين من عذاب الله تعالى (وربك فكبر) واخصص ربك بالتكبير ، وهو وصفه تعالى بالكبرياء ، والعظمة لذاته المقدس . ويروى أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر » فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحي وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك (وثيابك فطهر) عن الأوساخ والأقذار الغير اللائق بأن تلبسها في الجامع مقدمة لتطهير نفسك عن كل ما يخالف كرامة قدسك (والرجز فاهجر) أصل الرجز العذاب ، والمراد هنا ما يوجب العذاب ، فكأنه قال : والمآثم والمخالفات الدينية اهجرها واتركها حتى تبقى روحك صافية ، ولمقابلة الحق كافية صافية ، وقيل : الرجز اسم لصنمين اساف ونائلة وعليه يكون

تعريضا بالمشركين المحبين لهما وإلا فهو صلى الله عليه وسلم لم يمل ولم ينوجه إلى غير الله تعالى لمحة عين (ولا تمنن تستكثر) أي ولا تعط المال لأحد حالكونك تطلب منه اكثر مما أعطيته . هذا على قراءة رفعه . وأما على قراءة جزمه فمعناه أن لا تمنن عند احسانك على الذي أنعمت عليه تستكثر من الخيرات والصدقات والجزاء يوم القيامة . وأما على قراءة النصب فالمعنى ولا تمنن أي ولا تعط الناس لطلب تكثير مالك ، أي حتى يعطوك مالا فيزيد مالك بذلك .

ويحتمل أن يكون المعنى على قراءة الرفع ولا تمنن أي لا تعط الناس الأموال حالكونك تعدّ ما تعطيه كثيرا أي كلما أعطيت شيئا اعتبره قليلا ، وبذلك ترغب في الإعطاء للفقراء كثيرا (ولربك فاصبر) أي ولأجل ابتغاء مرضاة ربك فاصبر على أذى الأعداء وكلامهم المهجور المنفور فإن شأن الرسل الصبر حتى ينالوا الغاية القصوى (فإذا نقر في الناقور) أي نفخ في الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت (فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير) أي إذا نقر في الناقور عسر الأمر عليهم ويؤخذ منهم انتقام الأول والآخر .

ثم توجه الباري إلى تهديد أحد الكفرة الفجرة الذي أتى بما لا ينبغي ولا يليق ، وهو وليد بن المغيرة فقال تعالى : (ذرني ومن خلقت) أي خلقته (وحيدا) أي طريدا فريدا لا مال له ولا ولد (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا فصار له الضرع والزرع والتجارة (وبنين شهودا) أي وخلقت له بنين حضورا معه بمكة يتمتع بلقائهم وينتفع ببقائهم (ومهدت له تمهيدا) أي وبسطت له بساط الرئاسة على الناس والجاه حيث جعلنا له وقرا ومهابة في قلوبهم (ثم يطمع أن أزيد) على ما ذكرناه بالرغم من أنه لم يشكرنا على النعم بل كفر بأنعمنا بين الأمم . (كلا) لا يمكن أن أزيد في نعمته ولا نزيد

له أبدا (إنه كان لآياتنا عنيدا) معاندا غير موافق وغير راض وغير شاكر (سأرهقه صعودا) سأغشيه عذابا صعودا يصعد على جسده ، أو محنة وعذابا يستوعب جميع جهات تمتعه وصحته وراحته ، ونسلبه كل ما آتيناه ، فإذا سأل سائل : لماذا قال (إنه فَكَّرَ وقَدَّرَ) أي فكّر لتحصيل مطاعن يطعن بها في الرسول أو في الكلام المنزل عليه وقدّر في نفسه أمورا لرمي الرسول بها ، أو لرمي القرآن المنزل عليه (فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) قلنا كرر الجملة لتكرار الحملة ، لأن ذلك الشيطان وسوس إليه الشيطان الكبير بما يجعله مستحقا لكل نقمة وعذاب ، ثم نظر في أمر القرآن مرة بعد أخرى (ثم عبس) على عادة أولي الأنانية من الأغنياء الأغبياء (وبَسَر) جعل وجهه بُسرا ، وهو من أتباع العباسة (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر ، فقال : إن هذا) أي ما هذا القرآن (إلا سحر يؤثر) يروى وينقل يعلم ويتعلم (إن هذا) أي ما هذا (إلا قول البشر) ولم يتفكر هذا الكفور الفكور أنه كلام الله ولا يشبه كلام البشر وليس على أسلوبه ، وليس فيه مزايا كلام الناس من الميل إلى الباطل في تضاعيف البيان ، ولا إلى الكذب ولا المبالغة الخارجة عن عادة الأدب • وفيه إخبار بالغيب وحكم وفوائد بلا ريب ، ولا يحوم حوله النقص والعيب •

وما دام ذلك الإنسان الفاسد ألقى نفسه في المهالك (سأصليه سقر) أي سأدخله في سقر (وما أدريك ما سقر ؟ لا تبقي ولا تذر) أي لا تبقي على شيىء يلقى فيه ، ولا تذره كما كان بل ينضجه فيحرقه (لواحة للبشر) أي ملوحة ومسودة لأعالي جلد الإنسان ، أو لائحة ظاهرة للعيون وليست مستورة •

(عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ومَا جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إلاَّ ملئِكَةً ، وما جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ اوتوا الكِتابَ وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً ، ولا يَرْتابَ الَّذِينَ أوتوا الكِتابَ والمُؤْمِنُونَ ولِيَقُول الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالكافِرُونَ : ماذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلاً ؟ كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ ، وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ ، وَما هِيَ إلا ذِكرى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالقَمَرِ (٣٢) واللَّيْلِ إذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إذا أَسْفَرَ (٣٤) إنَّها لإحْدَى الكُبَرِ (٣٥) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شاء مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتأَخَّرَ)(٣٧) •

قوله تعالى : (عليها تسعة عشر) أي على السقر تسعة عشر صنفا من الملئكة ، أو تسعة عشر شخصا منهم • روي عن ابن عباس أنه لما نزلت : عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال له أبو الأشد بن الأسيّد بن كلدة الجمحى ، وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين ! فأنزل الله تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملئكة) فإنهم هم القادرون على التعذيب المستمر بدون فتور (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) قال بعض المحققين : الجعل قوليّ ، أي وما قلنا أن عدتهم تسعة عشر إلا ابتلاء للكافرين حتى يستثقلوه • وظاهر الحال أن الكفار استغلوا ذلك وقالوا : كيف يقدر رجال محدودون على تعذيب ملايين من البشر والجن ؟ ولم يعلموا أن قوة الباري تظهر بالآثار في كل شيء (وليَسْتَيقِنَ الذين أوتوا الكتاب) أي ليكتسبوا اليقين بنبوته (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) أي يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب ولتصديقهم أنه كذلك (ولا

يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) تأكيد لما قبله (وليقول الذين في قلوبهم مرض) أي شك أو نفاق (والكافرون) الجازمون في التكذيب : (ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟) أي ماذا أراد بهذا العدد المستغرب ؟ (وما يعلم جنود ربك إلا هو) لأن كل ممكن من الممكنات يحتمل أن يجعله الله جنديا يستعمله في قهر أعدائه (وما هي إلا ذكرى للبشر) أي وليس ذلك العدد إلا مذكرا للبشر بأن الله فاعل مختار يقدر أن يتصرف في كل ممكن ليكون من جنوده وأعوان دينه (كلا) ردع للمنكرين اي اقسم بالقمر المنور الليل الذي يختلف اوضاعه بالنسبة الى العالم (والقمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر) أي واقسم بالليل اذا ادبر وبالنهار واقسم بالصبح اذا اسفر اي اضاء (إنها لإحدى الكبر) أي إن السقر لإحدى البلايا الكبر (نذيرا للبشر) تمييز أي لإحدى الكبر إنذاراً (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) فمن كان له قابلية التحوّل من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح فليعمل إرضاء لرب العالمين .

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ : (٤١) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ (٤٢) قالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ؟ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ! (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣)

كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ(٥٥) وما يَذْكُرونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وأَهْلُ المَغْفِرَةِ)(٥٦) •

قوله تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة) قال أبو حيان : الرهينة مما غلبت الاسمية فيه على الوصفية كالنطيحة ولذلك ألحقت تاء التأنيث ، وإلا فالفعيل بمعنى المفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ، ويستعمل للمؤنث بدونها كالمذكر • وقيل : إن الكلمة مصدر كالشتيمة والتاء للمصدرية ، واختير المصدر لإفادة المبالغة في إفادة ارتهان النفس بمكاسبها ، فكأنها هي الرهن • ويراد بما كسبت المكاسب المطلقة ، وإلا فلو أريدت المكاسب الحسنة فلا مجال لارتهان النفوس بها ، أو المكاسب السيئة فلا وجود لها في أصحاب اليمين ، فالمعنى : إن كل نفس مرهونة بمكاسبها إلا أصحاب اليمين ، فليسوا مرهونين بها لأن مكاسبهم كلها حسنة ، ولا ارتهان للنفوس بالأعمال الحسنة • (إلا أصحاب اليمين) والمراد بأصحاب اليمين المسلمون المخلصون المجردون عن الأعمال السيئة ، ولا يناسب تفسيره بالملائكة لأنهم لا حساب عليهم ولا عقاب، فلا رهن ولا فك بالنسبة إليهم ، ولا بأطفال المشركين لانهم غير مكلفين ، ويدخلون الجنة على الصحيح لأن الجحيم دار العقاب للمكلفين على أعمالهم السيئة وهم لم يصلوا إلى درجة التكليف •

وقوله (في جنات) خبر لمبتدأ محذوف أي هم في جنات ، وتكون الجملة جوابا لمن قال أين أولئك الناس ؟ فأجيبوا بأنهم في جنات • وقوله (يتساءلون عن المجرمين) بيان لبعض أحوال أصحاب اليمين أي لما اطمأنوا في مقرهم من الجنة يَرَوْنَ أصحاب الجحيم لاسيما المبتلين منهم بأشدّ العذاب ، وهم أهل سقر فيسألونهم : (ما سلككم في سقر ؟) أي ما العمل السقيم الذي أدخلكم في سقر ؟ (قالوا : لم نك من المصلّين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين) أي يجيبون

السائلين عن سبب الدخول في الجحيم ، ولاسيما سقر بما مضى • وحاصله : فساد أعمالنا أما من حيث أداء الواجبات فكففنا أنفسنا عن أداء الصلاة التي هي صلة بين العبد وبين ربه • وأما من حيث خدمة المجتمع ورعاية الضعفاء فكففنا أنفسنا عن إطعام المساكين بما يسدّ رمقهم ، وبخلنا بذلك عليهم ، وأهملنا هذا الواجب الإسلامي الاجتماعي ، فإن الغني يجب عليه إطعام الفقير الفاقد ، غير أنه يجوز له إذا لم يتبرع بما ينفق عليه أن يشهد عدلين على أنه ينفق على هذا على اعتبار أخذ العوض منه عند الإمكان • وأما من ناحية الانتباه لإصلاح حالنا فتركنا ذلك وكنا نخوض أي نغوص في أعماق البطالة واللعب والجهالة مع الخائضين وأما من ناحية الاعتقاد والمعنويات فكنا كافرين ، وكنا نكذب بيوم الدين أي بيوم الجزاء ، أي كنا نعتقد أن لا مسئولية علينا ولا سؤال ولا جواب ؛ واستمررنا على هذه الصفات اللازمة للفاسقين (حتى أتينا اليقين) أي الموت المحقق الذي لاشك فيه من العاقلين • أو حتى متنا وبعثنا وعلمنا بيوم الدين علم اليقين • وما داموا كذلك (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لأن أولئك الكفار قرناء للشيطان اللعين •

ويستفاد من حرف الفاء ووقوع مابعدها من تلك الصفات الذميمة بعدها أن غيرهم من المؤمنين تنفعهم الشفاعة ، ولو كانوا عاصين فاسقين •

ثم يستنكر الباري تعالى إعراضهم عن الحق حتى يبتلوا بهذه البلايا ويقول : (فمالهم عن التذكرة معرضين) أي فأي نفع يحصل لهم حالكونهم معرضين عن التذكرة وهي القرآن الكريم ، أو بحث سقر وسائر منازله

العقاب في الآخرة ، وإذا وجدوا الرسول يقرأ القرآن أو يذكرهم بالسقر والسعير ركضوا وابتعدوا عنه (كأنهم حمر مستنفرة) أي كالحمر الوحشية التي تنفر وتعدو في الجبل (فرت من قسورة) أي اسد لقينها فيه . وانظروا إلى بلاغة القرآن بحسن البيان وتشبيه الجهال الذين لا يريدون أن يفهموا الحقائق باخس الحيوان ، وتشبيه الرسول المسعود بأسد من الأسود . والقسورة الأسد وقوله تعالى (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشره) أي أعرض عن استماعهم لوعظ الرسول وإرشاده وإطاعة الحق في أحكامه وخطابه ، يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا مكتوبة واضحة منشورة يؤتى بها إليه معنونة من حضرة الباري جل جلاله إلى فلان بن فلان حتى يترفع في مقامه بأنه مخاطب من الله تعالى أو صديقه ويهدي إليه كتابه . روي أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن سرك أن نتابعك فأت كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك ! فنزلت الآية .

(كلا بل لا يخافون الآخرة) فلذلك يعرضون عن التذكرة (كلا إنه تذكرة) أي إن القرآن تذكرة أو ذكر سقر تذكرة (فمن شاء ذكره) وتلاه وتبعه وتفكر فيه ونال من الخير ما يبتغيه (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) فإن الله علم في الأزل حال العباد المطيعين والعصاة المتمردين ومن الذي يتوجه الى ذكره وأراد عند علمه بذلك تحقق المعلوم في المستقبل كما هنالك ، فلما جاء وقت عمل العامل تتقدم بالذات إرادته التابعة لعلمه الحاكي عن المعلوم على إرادة العامل وعمله تشريفا للخالق على المخلوق ، فشاء الخالق وشاء العامل وتحقق المعلوم على القدر المرسوم (هو أهل التقوى) يعني ان الله الأهل المستحق بالذات لأن يتقى مخالفته ويلتزم طاعته (وأهل المغفرة) لذنوب عباده المؤمنين به الراجين لرحمته . ونسأله تعالى أن يرحمنا ، ويغفر ذنوبنا ، ويستر عيوبنا ، ويكشف كروبنا ، فإنه هو الغفور الرءوف الرحيم .

سورة القيامة ، مكية ، وآياتها اربعون
او تسع وثلاثون ، نزلت بعد القارعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ؟(٣) بَلى قَادِرِينَ عَلى أنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (٦) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ المَفَرُّ ؟(١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُ الإِنسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَو أَلْقَى مَعاذِيرَهُ)(١٥) .

قوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة) أي أقسم بيوم القيامة ، وحقيقته أقسم بالقادر المقتدر الذي يأتي بيوم القيامة الجامع لأنواع الأحوال المدهشة والتغيرات العجيبة في الكون والكائنات في الأرض والسماوات . وقالوا

لتوجيه زيادة حرف النفي إن إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض وشائع بين الناس . والتحقيق الذي ارتضاه بعض المحققين أن كلمة لا في مقام القسم لم تكن ولا تكون زائدة أبدا ، بل هي لإفادة غاية التأكيد والقوة في المقام ، وذلك لأن القسم والحلف واليمين بمعنى القوة تذكر لتأكيد الجمل الخبرية ، فإن الجمل الإنشائية لا تناسبها التأكيد . فإذا وردت الأيمان مثبتة فالأمر ظاهر ، وإن كانت منفية نحو لا أحلف بالله إن الأمر الفلاني كذا ، فمعناه أن المقسم عليه في غاية الوضوح والبداهة ، وفي نهاية الجلاء فلا يناسبه التأكيد ، ففي هذا يستفاد تأكيد فوق التأكيد بإيرادها على صورة النفي .

ومعنى الكلام هنا لا أقسم بيوم القيامة ومحصلها العظيم . ولا أقسم بالنفس اللوامة التي تحير العاقل الحكيم أن البعث بعد الموت حق وجمع العظام الرميمة بعد الفناء ثابت . بقي شيىء هو أن الحلف بغير الله وصناته مذموم ، فكيف يقسم الباري بأشياء من مصنوعاته ؟ والجواب أن أصل اليمين الواردة في محاورات الإنسان بعضهم مع بعض لتأكيد الكلام وإفادة قوته وتحققه على جريان العادة ، فإذا كان شخص عزيزا عند شخص أو محبوبا له كالولد عند الوالدين أو الصديق لصديقه فهو يؤكد بذكره مع إخباره بمطلوبه فيقول : وحياتك يا ولدي أو يا صديقي أو يا سيدي إن الامر الفلاني كذا ، سواء كان صادقا في ذلك أو كاذبا . وذلك كان معتادا منذ خلق البشر والمحاورات .

وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى سواء كان خلاف الأولى أو مكروها أو جريمة كبيرة أو كفرا على بعض الوجوه فهو عرف طارىء ورد مع ورود الشريعة . قال الشوكاني في الجزء الثامن من كتاب نيل الأوطار في شرح النهي عن الحلف بغير الله تعالى : قال العلماء : السر في النهي عن الحلف

بغير الله تعالى أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه ، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده ، فلا يحلف إلا بالله وذاته وصفاته . وعلى ذلك اتفق الفقهاء . واختلف : هل الحلف بغير الله حرام أو مكروه ؟ للمالكية والحنابلة قولان . ويحمل ما حكاه ابن عبدالبر من الإجماع على عدم جواز الحلف بغير الله تعالى على أن مراده بنفي الجواز الكراهة أعم من التحريم والتنزيه . وقد صرح بذلك في موضع آخر . وجمهور الشافعية على أنه مكروه تنزيها . وجزم ابن حزم بالتحريم . وقال إمام الحرمين : المذهب القطع بالكراهة . وجزم غيره بالتفصيل : فإن اعتقد في المحلوف به ما يعتقد في الله تعالى كان بذلك الاعتقاد كفرا . ومذهب الهادوية أنه لا إثم في الحلف بغير الله مالم يسو بينه وبين الله تعالى في التعظيم ، أو كان الحلف متضمنا كفرا أو فسقا . وسيأتي الكلام على من يكفر بحلفه إنتهى .

(ولا أقسم بالنفس اللوامة) تطلق النفس على معان ، والمشهور منها معنيان :

الأول : القوة الجامحة للغضب والشهوة المشار إليها بالحديث الشريف « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » .

والثاني : اللطيفة التي يعبر عنها بالإنسان ، فهي في ذاتها واحدة ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها . فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة . قال الله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه . قال الله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) . وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس

الأمارة . قال تعالى حكاية عن عبده يوسف عليه السلام : (وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) ويجوز أن يقال : المراد بالنفس الأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم ، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

ومنهم من يقول : إن النفس مطلقا هي الروح الإنسانية لكنها لها أسام باعتبارات : فباعتبار انقيادها لله نفس مطمئنة ، وباعتبار لومها لنفسها في الأعمال الفاسدة تسمى باللوامة وباعتبار أمرها بالسيئات تسمى بالنفس الأمارة .

فإقسامه تعالى بالنفس اللوامة على اعتبار الشرف للنفس الإنسانية المتأثرة بالوعظ والإرشاد ، واللائمة لنفسها عند ارتكاب الفساد . وقال بعض المفسرين : إن المراد بالنفس اللوامة مطلق النفس الإنسانية الشاملة للتقية والفاجرة لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة ؛ فإن عملت خيرا قالت : كيف لم أزد منه ، وإن عملت شرا قالت : ليتني قصرت » وضم هذا القسم إلى القسم بيوم القيامة لأن هذه التأثرات تظهر هناك . والمقسم عليه على كل حال هو أن الموتى يبعثون يوم القيامة بعد جمع عظامه كيف كانت ، والدليل عليه قوله العظيم (أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه ؟) أي أيحسب أن الشأن لن نجمع عظامه المتمزقة البالية الصائرة ترابا ثابتا أو غبارا طائرا أدراج الرياح ؟ (بلى) أي بلى كنا (قادرين على أن) نجمع عظامه ونكسوها لحما ونزيد عليها الأعصاب وسائر مقومات شخصه بالمادة والصورة والهوية الشخصية التي بها يمتاز إنسان عن أخيه بل أحد التوأمين عن الآخر بأن (نسوّي بنانه) أي أطراف أصابعه بحيث لا يشارك إنسان إنسانا في

خطوطها . (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) أي دع تعنيفه ولومه فإنه أبعد من ذلك وأنى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره فيما أمامه من الأوقات وفيما يستقبله إلى الممات (يسأل) استهزاء (أيان يوم القيامة ؟) أي متى تكون القيامة المقررة أن تكون بعد خراب هذا العالم ؟ (فاذا برق البصر) أي طغى وتحير فزعا (وخسف القمر) أي ذهب ضوؤه (وجمع الشمس والقمر) أي في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب ، أو اتحد مدارهما بأن يتغير الوضع ويتحد مدار منطقة البروج والمعدل (يقول الإنسان يومئذ) مستفهما : (أين المفر ؟) يطلب مكانا يفر اليه أو يطلب عن إمكان الفرار (كلا لا وزر) أي لا ملجأ يلتجيء إليه (إلى ربك يومئذ المستقر) أي استقرار العباد أو محل فرارهم وقرارهم هل هو الجنة أو النار (ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم) من الأعمال الحسنة (وأخر) منها ولم يعملها (بل الإنسان على نفسه بصيرة) أي إطلاع وعلم وخبرة مصدر حمل على الإنسان مبالغة ، أو شاهدة بتقدير الموصوف أي نفس شاهدة وحجة واضحة (ولو ألقى معاذيره) أي طرحها أمام المحاسب ، فلا قيمة لها لأن العيان مغن عن البيان .

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ : مَنْ رَاقٍ ؟ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ

يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ(٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى(٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى(٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى(٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ؟(٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ؟!(٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟)(٤٠)

وقوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلت منه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه ، (فإذا قرأناه) يقول : فإذا أنزلناه عليك (فاتبع قرآنه) يقول : فاستمع له وأنصت (ثم إن علينا بيانه) يقول أنْ نُبينه بلسانك فتقرأه ، فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع ، فإذا ذهب جبريل قرأه كما أقرأه الله تعالى . أخرجه البخاري ومسلم . (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة أو عن الإنسان من الاغترار بالعاجل فيقول : (بل تحبون العاجلة) أي التمتعات الحاضرة في الدنيا (وتذرون الآخرة) وتتركون الآخرة ولا تهتمون بأمورها ، مع أن الآخرة خير وأبقى (وجوه يومئذ ناضرة) بهية مستبشرة متهللة (إلى ربها ناظرة) تراه مستغرقة في أنوار جماله غافلا عن أحواله .

والجمهور يستدلون بهذه الآية الجميلة على وقوع رؤية الله في الآخرة بالعيون . ويكشف هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون

ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » وما عارضنا به المخالف من الشواهد الدالة على امتناع رؤيته تؤوّل بامتناع رؤيته تعالى من الكافرين ، أو في هذه الدنيا لا في الآخرة ، أو مؤول برؤية استيعابية إلى أقصى درجة كشفية • على أن المخالف بنى خلافه على اعتبار شرائط الرؤية بيننا في هذه الدار معتبرة في رؤية الباري تعالى في تلك الدار ، وليس ذلك أمرا معقولا معتبرا ، لأن ذلك مبني على قياس الغائب على الشاهد ، وذلك غير مفيد قطعا • فنحن جمهور المسلمين نؤمن برؤية الباري تعالى بأعيننا في الآخرة على استناد هذه الآية والحديث الشريف •

(ووجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس (تظن أن يفعل بها فاقرة) أي داهية تكسر عظام فقرة ظهره • وهي نائب فاعل يفعل أي اذا أراد أن ينظر إلى ربه تعالى أتته حالة فظيعة وداهية شديدة لا يمكنه معها رفع الرأس والنظر إلى الرئيس • وتلك قوة غضبية انتقامية من ربّه تعالى تمنعه من نيل هذا المقام لما تحمله في الدنيا من الكفر والآثام •

(كلا إذا بلغت التراقي) أي إذا بلغت النفس أعالي الصدر (وقيل : مَنْ راق ؟) أي من يرقيه مما به من المحنة ليخلص منها (وظن) أي المحتضر (أنه الفراق) له من الدنيا وما فيها من الأولاد والأحباب والأموال (والتفّت الساق بالساق) أي والتوت ساقه بساقه بحيث لا يقدر أن يميز بينهما وقوله (إلى ربك يومئذ المساق) أي سوقه دليل على جواب الشرط المحذوف ، أي انكشف حينئذ للمرء جزاؤه وصفاؤه ومجازاته وجفاؤه لأنه يساق إلى الله تعالى فيحاسب وتتبين الأمور وحينئذ يحاسب الكافر (ف) يظهر أنه (لا صَدّقَ) وما آمن بما يجب الإيمان به (ولا صلى) في الأوقات المحدودة الفرائض المعدودة (ولكن كذب) برسول ربه فكذب بما يجب التصديق به (وتولى) وأعرض عن أداء الواجب صلاة أو صياما أو زكاة

أو غيرها • (ثم ذهب إلى أهله يتمطّى) يتبختر ويتمشى مشـي المتكبرين (أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى) أي أولى لك الهلاك من النجاة فأولى لك هذا من ذلك ، ثم أولى لك فأَوْلى • عن سعيد بن جبير أنّه سأل ابن عباس عن قوله : أولى لك فأولى أشيء قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي جهل من قبل نفسه أم أمره الله به ؟ قال : بل قاله من قِبَل نفسه ثم أنزله الله تعالى • أخرجه النسائي والحاكم وصححه • قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات ليلة فاستقبله أبو جهل على باب المسجد فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل فهزه مرة أو مرتين ثم قال له : أولى لك فأولى • فقال له أبو جهل : أتهددني ؟ فوالله إني لأَعَزّ أهل الوادي وأكرمه ! ونزل على رسول الله صلى الله عليـه وسلم ما قاله النبي لأبي جهل ، وهي كلمة وعيد •

(أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ؟) أي مهملا لا يكلف ولا يجزي ولا يجازى • والسـدى الخيوط الممتدة لصنع الثياب ، واللحمة الخيوط التي تقابلها وترتبط بها ويحصل منهما الثياب (ألم يك نطفة من منيّ يُمنى) أي يمنيها الرجل ويصبّها في الرحم (ثم كان علقة) أي صار قطعـة دم (فخلق فسوى) أي فخلق منها اللحم والعظم والعروق والأعصاب فسواه إنسانا مستويا على حسب إرادته (فجعل منه الزوجين) الصنفين من الآدميين (الذكر والأنثى • أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادِرٍ عَلى أن يُحيِيَ الموتى ؟) أي يعيد خلقهم وتصويرهم وإعادتهم رجالا ونساء فيأخـذ كل مقامه المناسب لأعماله وأحواله في مآله • بلى إنه على كل شيء قدير ، وبإفاضة الرحمة على عباده حري حقيق جدير • سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين •

سورة الإنسان ، مدنية

وآياتها إحدى وثلاثون ، نزلت بعد الرحمن *

بسم الله الرحمن الرحيم

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ؟(١) إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ ، فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً(٢) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شاكِراً ، وإِمَّا كَفُوراً(٣) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً(٤) إِنَّ الأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً(٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً(٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً(٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً(٨) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً ولا شُكُوراً(٩) إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً(١٠) فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وسُرُوراً)(١١) .

قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) قالوا إن أصل هل أهل والهمزة للاستفهام ، وهل بمعنى قد وهي للتقريب ولما كثر استعمالها كذلك أفادت معناها ومعنى الهمزة ، وصار بمعنى أهل . وقيل : هي نفسها للاستفهام ولا تقريب . والاستفهام للتقرير . أي جعل المخاطب مقرا بما ذكر بعدها حتى يقول المخاطب نعم قد أتى على الإنسان أي مادته الأصلية ، حين لم يكن ذلك الإنسان شيئا مذكورا فيه ، فإذا أقر المخاطب بذلك قلنا له : فكيف لا تقر بأن الخالق الذي خلقه بصنعه أساسا قادر على أن يُعيده ويبعثه بعد الموت للجزاء ؟

(إنا خلقناه من نطفة أمشاج) إذا كان المراد بالإنسان المذكور سابقا آدم عليه السلام وجب اعتبار الاستخدام في ضمير خلقناه ، فإن آدم لم يكن مخلوقا من النطفة ، وإنما المخلوق منها نسله ، وإن كان المراد غيره فالإضمار على العادة الثابتة . يقول الباري تعالى : إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج أي أخلاط ، فإنه مخلوق من مجموع نطفتي الرجل والمرأة . فأمشاج جمع مشيج بمعنى خليط وقيل : إن أمشاج مفرد كأعشار . وقوله نبتليه جملة حالية أي حالكونا نكلفه ونختبره ونمتحنه ليتبين هل يعمل عملا نافعا لنفسه ولغيره أو لايعمل هكذا ؟ (فجعلناه سميعا بصيرا) حتى تكون فيه قابلية الاختبار والابتلاء (إنا هديناه السبيل) أي أرشدناه سبيل الخير والشر بنصب الدلائل المستفادة من بعث الرسول (إما شاكرا وإما كفورا) أي فهو بعد إرشاده إلى سبيل الخير والشر إما يكون شاكرا لأوامر الله تعالى ونواهيه بالتزامه لهما ، وإما يكون كفورا برفضه لهما .

ثم بين ما يترتب على الشكر أو الكفر فقال : (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) أي سلاسل بها يقادون إلى جهنم ، وأغلالا بها يقيدون ، وسعيرا فيها يدخلون ويحرقون . هذا حال الكفور ، وقدّمه

لأن الإنذار أهم من التبشير • وأما الشاكرون فقد بين أحوالهم بقوله (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) أي يشربون في الجنة من كأس من خمر لذة للشاربين ، وما تمتزج به هو الكافور لبرده وعذوبته وطيب رائحته حالكون ذلك الكافور (عيناً يشرب بها) أي منها (عباد الله يفجرونها تفجيرا) يُجرونَها حيث شاءوا إجْراءً سَهْلاً (يوفون بالنذر) مما رزقوا منه (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أي فاشيا منتشرا (ويطعمون الطعام على حبه) أي على حب الله ، أو حب الطعام وذوقهم فيه (مسكينا ويتيما وأسيرا) أسر من الكفار إذا كانوا عندنا قائلين (إنما نطعمكم لوجه الله) ورضاه (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أي مقابلا ، أو شكرا فإن الخالص لله خالص له (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) أي نخاف من عذاب يوم عبوس شديد العبوس والعسرة (فوقيهم الله شر ذلك اليوم) أي ولما كان غايتهم ذلك فوقيهم الله شر ذلك اليوم العبوس (ولقيهم نضرة وسرورا) ولقيهم أي وأوصلهم نضرة وسرورا •

(وجَزاهُمْ بما صَبَرُوا جنّةً وحَرِيراً(١٢) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً ولا زَمْهَرِيراً)(١٣) •

قوله (وَجزاهُم بما صَبَرُوا) اي جزاهم بما صبروا في الدنيا على قبول مشاق التكليف (جنة) يسكنونها (وحريرا) يلبسونها (متكئين فيها على الأرائك) وهي جمع أريكة وهي السرير في الحجلة (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) والمراد من ذلك أن هواءها معتدل لا حر شمس يؤذي ولا برد هواء يؤذي •

(وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً(١٤) ويُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأَكْوابٍ كانَتْ قواريراً(١٥) قواريرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً

كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً(١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً(١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً(١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً(٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ، وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً(٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً)(٢٢) •

قوله (ودانية عليهم) حال معطوفة على الجملة الحالية وهي لا يرون ، أي حالكونهم دانية أي متدلية قريبة (عليهم ظلالها وذللت قطوفها) أي وذللت ثمارها (تذليلا) أي جعلت سهلة التناول لآخذيها • (ويطاف عليهم بآنية) جمع إناء ، ككساء (من فضة وأكواب) جمع كوب عطف على آنية ، أي ويطاف عليهم بأكواب (كانت) تلك الأكواب (قواريرا) جمع قارورة وهي إناء رقيق من الزجاج تُصَبُّ فيه الأشربة (قوارير من فضة) بدل والكلام على التشبيه (قدروها تقديرا) أي قدروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءتحسب ما قدروا بلا زيادة ونقص (ويُسْقَوْن فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا) أي مزاج تلك الكأس الخمرية كان زنجبيلا حالكون ذلك (عينا فيها) أي في الجنة (تسمى سلسبيلا) وكون الزنجبيل اسما لعين في الجنة مروي عن قتادة والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، وتارة من كأس كان مزاجها زنجبيلا •

(ويطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخلدون) أي دائمون على ما هم عليهم (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلوءا منثورا) لحسنهم وصفاء ألوانهم (وإذا رأيت ثم) أي في الجنة (رأيت نعيما وملكا كبيرا) عظيم القدر من المواد المنورة والمفرحة والأنهار والأشجار • (عالِيَهُم ثيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ

وإسْتَبرَق) قيل عاليهم ظرف بمعنى فوق على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر ، أي ثياب سندس خضر واستبرق فوقهم ، أي فوق أبدانهم أي يلبسونها • والسندس ما رَقّ من الديباج ، والإستبرق الغليظ منها • (وحُلّوا أساوِرَ مِن فِضّة) حلوا فعل ماض للجمع المذكر أصله حُلّيوا من باب التفعيل ، أي وزينوا بحلي هي أساور مِن فِضّة لائقة بتلك الدار وذلك الدثار (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) قالوا هذا نوع آخر من الخمر غير ما مُزِج بالكافور وما مُزج بالزنجبيل ، ولذلك أتى بذكر هذا السقي بعد ذكر الكأسين السابقين • والمراد أن الشراب طاهر في ذاته وطهور يطهر قلوبهم ، ويأتيهم النّداء من جانب الحق جل جلاله (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم) في الدنيا (مشكورا) مقبولا •

(إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيلاً(٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطعْ مِنْهُمْ آثِماً أَو كَفُوراً(٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ ربِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً(٢٥) وَمِنَ اللّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً(٢٦) إنّ هؤلاءِ يُحِبّونَ العاجِلَةَ وَيَذرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً(٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ ، وَإذَا شِئْنَا بَدّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً(٢٨) إنّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ اتّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً(٢٩) ومَا تَشاءونَ إلاّ أَنْ يَشاء اللهُ ، إنّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً(٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، والظّالِمينَ أَعَدّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً)(٣١) •

قوله (إنا نحن نز لنا عليك القرآن) أي نزلناه منجما مفرقا مقسما كل جملة منه على بعض الأوقات (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على كفار

مكة وغيرهم (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي إليه ومرتكب الكفر الداعي إليه • فإن قلت : إن النهي عن إطاعة الآثم يكفي عن إطاعة الكفور لأن الآثم منهم كفور قلنا التقسيم باعتبار الدعوة ولا يلزم من الدعوة إلى الإثم الدعوة إلى الكفر ولا العكس ، فكانوا منقسمين إلى قسمين ، فمنهم من يدعو الناس إلى الكفر والإشراك ، ومنهم من كان يدعو إلى الإثم وهو عدم إطاعته الرسول في الخير وعدم المبالاة به ، فنهى الله تعالى رسوله عن إطاعة كل من القسمين •

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) وظاهر الآيـة ينادي إلى ذكر الله تعالى نحو الله الرحمن الرحيم وغيرها من الأسماء الحسنى فإن التلفظ بها تبركا وإيقاظا للقلب الغافل عن غفلته من المدلولات الأولية لمثل هذه الآية ، ومثلها كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى (فاذكروني أذكركم) وقولـه (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقوله (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) وقوله (واذكر ربك في نفسك تضرعا) وقولـه (واذكر ربك إذا نسيت) وقوله (واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا) وقوله (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقوله (وإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وقوله (واذكروا الله في أيام معدودات) وقوله (فإذا قضيتـم الصلوة فاذكروا الله) وقولـه تعالى (إن الذين آمنـوا وعملـوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) ••• وغيرها من الآيات الجليلة • فإنها كلها تعم لوجوه كثيرة من الذكر كذكره تعالى على سبيل تعداد المفردات المعدودة في التعبير نحو الله ، الله ، الله ••• أو على سبيل النداء نحو يا ألله ، يا ألله • أو مع كلمة التوحيـد نحو لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله • أو مـع التسبيح والتحميد والتكبـير نحو سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم • ونحو سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ••• وغيرها من التعبيرات •

وبيان معنى بعض الآيات بوجه خاص كالبسملة عند الذبح ، أو التلبية عند الإحرام بالحج لا ينافي ولا يمنع شمولها لما ذكرنا ، فإن العام الوارد على سبب خاص لا يختص به ويبقى على عمومه ، وعدم اشتغال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بذلك النوع لأنه كان عندهم واجبات مهمة ، وقد ورد النهي عن مطاوعة الغافلة عن ذكر الله تعالى • وقال (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أو أن معناه الأمر بالدوام على صلاة الفجر والظهر والعصر •

(ومن الليل فاسجد له) أي وفي بعض أوقات الليل فاسجد ، أي فصل له تعالى لكن التقيد بذكر ركن هو أفيد الأركان لأن أقرب أوقات الإنسان من الله وقت السجود له • ولعل المراد به صلاة المغرب وصلاة العشاء (وسبحه ليلا طويلا) أي وتهجد له مقدارا طويلا من الليل (إن هؤلاء يحبون العاجلة) وهي الدنيا ومتاعها (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) تحمله لما فيه من العذاب والعقاب (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) أي وأحكمنا ارتباط مفاصلهم بعضها ببعض (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا • إن هذه) أي هذه السورة (تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أي طريقا يفيد السير عليه الوصول إلى المأمول •

(وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وبيان ذلك أن الله تعالى عالم أزلا وأبدا بجميع المعلومات ولا يتخلف المعلوم عن علمه ، ومريد لكل الموجودات ولا يتخلف المراد عن إرادته ، ومنفرد بالقدرة فهو الخالق لكل مخلوق من المخلوقات • وقد علم أزلا أنه يخلق العباد مع قوة الاستعداد ، وأن فيهم رغبة إلى ما يحبون موافقا للحق أولا ، ويريدون جلبه ولما كان هو المتفرد بالخلق التابع للإرادة التابعة لعلمه الحاكي عن أعمال العباد في المستقبل فإذا جاء وقت عمل العبد توجه إلى ما علم أزلا أنه يفعله باختياره وإرادته لو

كان مستقلا ‥ أراده إرادة متقدمة بالذات على إرادة العبد وخلق المراد لأن الله هو السابق في ميدان الخلق فلا إجبار منه على عباده ، لأنه خلقهم سالمين عالمين عاملين مع الحواس السليمة والمشاعر المستقيمة ، ولهم أسماع يسمعون بها وأبصار يبصرون بها ، ودماغ يتخيلون به ، وقلوب يتفكرون بها ، ورغبات في مشتهيات ، ورهبات عن مكروهات ، والجذب والدفع موجودان ، والجهاز مناسب للسلب والإيجاب وهو برغبته يحب ذالك ، وبكراهته يكره ذلك ، وقد علم الله تعالى أزلا كيف يتصرف العبد وإلى أين يميل وعن أي طريق ينحرف . ولا خالقية للعباد لأنهم لو كانوا خالقين لخلق كل كاسب صنعته من أفضل الصنائع ، فكان كرسي ذلك النجار أحسن الكراسي ، وكتابة ذلك الكاتب أحسن الخطوط على القرطاس ، وإنما هم كاسبون بتفويض الميل الجزئي إليهم ليكون سببا لخلق الباري تعالى مرادهم على حسب إرادتهم وهذا هو حاصل تحقيق أهل العلم بالأصول فمن الله التوفيق على الخير وبه العون للوصول .

(إن الله كان عليما) بأعمالنا (حكيما) في توديع القوى والمشاعر إلى عباده (يدخل من يشاء في رحمته) حسب سعي العبد في تحسين نيته (والظالمين) بإضاعة الميل إلى الخير (أعدّ لهم عذابا أليما) أعاذنا الله منه بفضله ورحمته آمين .

سورة المرسلات ، مكية ، إلا آية ٤٨ وآياتها خمسون .
نزلت بعد الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً(١) فَالْعاصِفَاتِ عَصْفاً(٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً(٣) فالفَارِقاتِ فَرْقاً(٤) فالمُلْقِيَاتِ ذِكْراً(٥) عُذْراً أو نُذْراً(٦) إنَّما تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ(٧) فَإذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ(٨) وَإذَا السَّماءُ فُرِجَتْ(٩) وإذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ(١٠) وإذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ(١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أجِّلَتْ(١٢) لِيَوْمِ الفَصْلِ(١٣) وما أَدْريك ما يَوْمُ الفَصْلِ ؟(١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكَذِّبِينَ(١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ؟(١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ(١٧) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالمُجْرِمينَ(١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمكذِّبِينَ)(١٩) .

قوله تعالى (والمرسلات عرفا) روي أن هذه السورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن . قال ابن مسعود : ونحن معه نسير حتى وصلنا إلى غار مِنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه وفُوهُ رَطب بها إذ وثبَت حيّة فوَثَبنا عليها لنقتلها ، فذهبت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

« وقيتم شَرَّها كما وَقِيَتْ شَرَّكم » والغار المذكور مشهور في منى يسمى غار المرسلات .

وقد أقسم الباري سبحانه وتعالى بصفات خمسة موصوفها محذوف ، فَقَدَّره بعضُهم الرِّياح في الكلّ . وبعضهم قدّره الملائكة في الكل . وبعضهم غاير فَجَعَله تارةً الرياحَ وتارةً الملائكة . ومن جعله الملائكة فقال : المُرْسَلات ، والعاصفاتُ طوائف ، والنّاشرات والفارقات والمُلقياتُ طوائف اخرى . فالأول طوائف أرْسِلت بأمره تعالى وأمرن بانفاذه أي تنفيذ الأمر فعَصَفْنَ بالمُضِيّ وأسْرَعن كما تعصِف الريح تَخَفّفاً في امتثال الأمر وإيقاع العذاب بالكفرة إنقاذاً للأنبياء ونَصْرَةً لهم . والثاني طوائف نَشَرن أجنحتهنّ في الجوّ عند نزولهن بالوحي فَفَرَّقْنَ بين الحَق والباطل فَأَلْقَيْنَ ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام .

والمعنى أُقسِمُ بالملائكة المُرْسلات بأمره تعالى عُرفاً أي متتابِعاً بعضُهم لبعض فَعَصَفْن وَأسْرعن بالحَرَكة إلى محلّهم المقصود . وأقْسم بالملائكة النّاشرات أجنحتَهن عند انحطاطهن بالوحي ففرّقنَ بينَ الحق والباطل فَأَلْقَين ذكراً للأنبياء عليهم السلام . ولعل من يلقى ذكرا لهم غير مختص بجبرئيل عليهم السلام بل هو رئيسهم .

وقوله (عذرا أو نذرا) أي للأعذار والإنذار وقوله (إنما توعدون لواقع) هو المُقْسَمُ عليه أي إن الذي توعدونه لواقع متحقق في الخارج إِنْ عاجلا أو آجلاً (فإذا النجوم طُمِسَت) أي مُحِي ضوؤها (وإذا السماءُ فرجت) أي شقّت (وإذا الجبال نُسفَت) أي فُتّتَت وسيّرت (وإذا الرّسُل أقتت) أي جمعت لوقت عند الباري تعالى ليشهدوا على عباد الله تعالى (لأيّ يوم أجّلَت) الشهادة منهم على النّاس (ليوم الفصل)

بين الخلق (وما أدريك ما يوم الفصل ، وَيْل يَومئذ للمكذّبين) أي في ذلك اليوم الهائل ، وويل في الأصل مصدر بمعنى الهلاك (ألم نهلك الأولين ؟) كقوم نوح وعاد وثمود (ثم نتبعُهُمُ الآخرين) أي كمشركي مكة وَمَن يحذو حذوهم (كذلك تفعل بالمجرمين) أي بكل مَن أجْرَم ، فإن سنة الله لا تتبدل (ويل يومئذ للمكذبين) بآيات الله ومعجزات المرسلين .

(ألَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ؟(٢٠) فَجَعَلناهُ فِي قرارٍ مَكِينٍ(٢١) إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ(٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً ؟(٢٥) أَحْياءً وَأَمْواتاً(٢٦) وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَأَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً(٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ)(٢٨) .

قوله تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين ؟) أي ألم نخلقكم من نطفة قذرة مهينة (فجعلناه) أي ذلك الماء (في قرار) أي (مكين) مستحكم وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أي مقدار من الزمان معين عند الله تعالى وهو زمان الحمل (فقدرنا) أي ففرضنا ذلك الزمان لنمو النطفة فيه إلى أن يستعد للخروج (فنعم القادرون) أي فنعم الفارضون المقدرون ذلك الزمان لبقاء النطفة مع تطوراتها في الرحم (ويل يومئذ للمكذبين) بقدرتنا على ذلك (ألم نجعل الأرض كفاتا ؟) أي ضامّة لكم تضم في كل وقت وزمان (أحياء وأمواتا) فكما تضمكم في الحياة تضمكم في الممات أيضا حيث أنتم مقبورون (وجعلنا فيها رواسي) أي وخلقنا في الأرض جبالا عوالي ثوابت في الأرض (شامخات) مرتفعات على سطحها (وأسقيناكم ماء فراتا) أي ماء عذبا صافيا عن الملوحة والمرارة بأن خلقناه في أصولها وأظهرناه لكم من منابع وعيون فصارت أنهارا (ويل يومئذ للمكذبين) بأمثال هذه النعم المفيدة .

(إنْطَلِقُوا إلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٩) إنْطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ(٣٠) لا ظَلِيلٍ ولا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ(٣١) إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ(٣٢) كَأَنَّهُ جِمالَةٌ صُفْرٌ(٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ(٣٤) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ(٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ(٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ(٣٧) هذا يَوْمُ الفَصلِ جَمَعْناكُمْ وَالأَوَّلِينَ(٣٨) فإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ(٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ(٤٠) إِنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وعُيُونٍ(٤١) وفَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٤٢) كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٤٣) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ(٤٤) وَيْلٌ يوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ(٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٤٧) وإِذا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ(٤٨) وَيْل يَومَئِذٍ للمكذِّبِينَ(٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ؟)(٥٠) .

قوله (إنطلقوا) أي يقال لهم : إنطلقوا (إلى ماكنتم به تكذبون) من العذاب وشدته (إنطلقوا إلى ظل) يعني ظل دخان جهنم (ذي ثلاث شعب) يتشعب لكثرته وبُعْدِ أَقْطاره (لا ظَلِيلٍ) ذلك الظل (ولا يُغني من اللّهب) أي ليس ذلك الظل كظل مفيد برودة مّا يستريح تحته المقيمون هنا ، ولا يغني الناس أي ولا يدفع عنهم شيئا من اللهب وحره . وهذا تهكم بهم لأن ظل دخان جهنم لا ينتظر منه الخير والراحة مطلقا ، كيف وقد قال (إنها ترمي بشرر كالقصر) أي إن نار جهنم ترمي بموجات من الشرارة كل شرارة منها كالقصر في عظم حجمها وقوله (كأنه جمالت صفر) يبين لونها

يعني إن تلك الموجات النارية لامتزاجها بالدخان وغلبة النارية فيها تشبه الجمل الكبير الأصفر (ويل يومئذ للمكذبين) وجمالت جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع ، وصفر بضم الصاد جمع صفراء .

(هذا يوم لا ينطقون) أي وهذا الوقت أعني وقت دخولهم النار وقت لا ينطقون فيه لغلبة الدهشة عليهم بحيث بقوا مبهوتين (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) أي لا يؤذن لهم في الاعتذار حتى يعتذروا عما اقترفت أيديهم من السيئات (ويل يومئذ للمكذبين . هذا يوم الفصل) بين المحق والمبطل (جمعناكم) فيه (والأولين) أي من تقدمكم من الأمم حتى نحاسبهم على أعمالهم ونميز المحقين عن المبطلين (فان كان لكم كيد) أي حيلة لطيفة تتخلصون بها من المحاسبة أو من عسرتها أو من إصابة عاقبتها (فكيدون) أي فأتوا بذلك الكيد إلينا أو فافعلوها بغية استخلاصكم (ويل يومئذ للمكذبين) حيث يظهر لهم أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه .

ولما بين حال الكافرين أخذ في بيان أحوال المؤمنين وقال : (إن المتقين) أي عن الكفر والمعاصي (في ظلال) جمع ظل وهو فيء بساتين الجنة (وعيون) جارية من البساتين (وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) في الدنيا من الأعمال الصالحة الناشئة من النيات الحسنة . (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي العاملين بإحسان (ويل يومئذ للمكذبين) الباقين في العذاب الذين يقال لهم في وقت تعذيبهم (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) وقد أجرمتم في الدنيا كما شئتم ونعذبكم اليوم كما نشاء . وتعبير كلوا وتمتعوا وارد على سبيل التهكم والتحقير ، وكذلك قليلا ، ومعناه : إن هذا العذاب لشيء قليل لا يضركم (ويل يومئذ للمكذبين) (وإذا قيل لهم اركعوا) أي صلّوا (لا يركعون) أي ما كانوا يركعون (ويل يومئذ للمكذبين فبأي حديث بعده) أي بعد القرآن (يؤمنون ؟) إذا لم يؤمنوا بذلك الكتاب الهادي إلى الصواب .

الجزء الثلاثون

سورة النبأ ، مكية ، وآياتها أربعون ،
نزلت بعد سورة المعارج

بســم الله الرحمن الرحيم

(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ؟)(١٦) •

قوله تعالى : (عمّ يتساءلون ؟) أصل عم عما بحرف الجر وأداة الاستفهام ، فحذف ألفها على أصل مقرر كما يقول ابن مالك :

وما في الاستفهام إن جُرّت حُذف   ألِفها وَأولِها الها إن تقف

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه وهو البعث بعد الموت ، وضمير الجمع في يتساءلون راجع إلى كفار قريش وإن لم يتقدم ذكرهم ،

لكنهم لما كانوا يبحثون عن هذا الأمر بالاستمرار فكانوا كالحاضرين في معرض السؤال عن الآخرة • وقوله (عن النبأ العظيم) جواب للاستفهام ، وبيان لشأن المسئول عنه بإبهام أمره وتوصيف النبأ بالعظيم (الذي هم) أي كفار مكة الذين هم (فيه مختلفون) سلبا وإيجابا فمنهم من يعترف به ويقرره ، ومنهم من ينحرف ولا يعترف به • (كلا سيعلمون) ردع وزجر وإبعاد لمن لا يقر به وينكره فيقول : كلا سيعلمون أي أولئك المتسائلون المستهزءون (ثم كلا سيعلمون) ما يلاقونه من أنواع العذاب بعد الموت الذي ينكرونه ، وكيف ينكرون البعث الذي هو بالنسبة إلى صنع الكائنات كحلقة في فلاة (ألم نجعل الأرض مهادا ؟) أي ألم نخلق الأرض وجعلناها فراشا ممهدا مفروشا تحت أقدام الماشين عليها ومقرا للقاعدين الساكنين عليها (والجبال) الراسية النافذة في أعماقها (أوتادا) لتوازن أثقال الأرض وتوازنها في حركتها ودورانها •

(وخلقناكم) عليها حالكونكم (أزواجا) مؤلّفة من الذكر والأنثى لتتراحموا وتتآلفوا وتتزاوجوا ويستأنس كلّ بالآخر وتعاونوا في المعيشة براحة ، وتتوالدوا لبقاء النسل على طبيعة الأصل (وجعلنا نومكم) بعد العمل (سباتا) أي راحة لأبدانكم واستعادة لقواكم (وجعلنا الليل) لكم (لباسا) يستركم عن أعين الناس ويقيكم عن الأعداء ، لأنه يستركم بظلامه عن هجمات الناس القاصدين لإبادتكم (وجعلنا النهار معاشا) أي زمان كسب للمعيشة (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) من السماوات قوية الخلق محكمة لا يسقط بدون عمد يرى بل بجاذبة إلهية ربانية (وجعلنا) فيها بل في الأولى منها (سراجا وهاجا) مشرقا صافيا متلألأ ليتنور فضاء الكائنات ليكتسب الكاسب ما أعِدّ له من البركات (وأنزلنا من المعصرات) أي من السحب التي هي ذات عصر من ضغط الرياح الهابة القوية التي لها ضغط

على السحاب (ماءً) مقطرا (ثجاجا) أي منصبا بكثرة (لنخرج به) من أعماق الأرض (حبا ونباتا) أي زراعة تكون ذات سنابل وفي كل سنبلة حبوب ، أو ترتبط بها الحبات مباشرة ونباتا مما يأكله الإنسان والأنعام ، وسائر الطيور والحشرات والهوام ، أو أشجارا تعلو وتثمر مدة بقائها بحسب ما لها من القوام . وقوله (ألفافا) جمع لفيف أي ملتفة يدخل بعضها في بعض يصح اعتبارها للنبات على اختلاف أنواعها وأصنافها وأشخاصها ، فإنها إذا كثرت وازدحمت دخل بعضها في بعض .

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً(١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً(١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً(٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً(٢١) لِلطَّاغِينَ مَآباً(٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً(٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً(٢٤) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً(٢٥) جَزَاءً وِفَاقاً(٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً(٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً(٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً(٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً)(٣٠)

قوله تعالى (إن يوم الفصل) شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويقول إن يوم الفصل كان في علمنا وتقديرنا ميقاتا لجمع المكلفين كلهم وحساب أعمالهم وأخذ كل ما يستحقه ، فلذلك تأخر إلى الوقت الموجود . وقوله : (يوم ينفخ) بدل من يوم الفصل أي إن يوم الفصل يوم ينفخ (في الصور) النفخة الثانية لبعث الموتى وحشر الناس في المحشر (فتأتون أفواجا) أي فإذا نفخ فيه أتيتم أفواجا وجماعات متعددة (وفتحت السماء فكانت) لكثرة الفتح فيها (أبوابا) والمراد بالفتح الشق ، والمقصود أن عند النفخ

لا تبقى السماء على ما كانت ، ويختل نظامها فتصير كالنحاس المذاب ، أو الدهن المحمي ، كما قال فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان (وسيرت الجبال) أي حركت وأزيلت من موضعها (فكانت سرابا) أي فصارت من أثر هذا التسيير كالسراب •

ولما بعث الناس وحشروا في موضع وحوسبوا وتبينت الأعمال والعمال والجزاء والنكال كان الجزاء ما قاله تعالى : (إن جهنم كانت مرصادا) موضع رصد وترقب للناس من الذي يدخل فيها ومن لا يدخل (للطاغين مآباً) أي مآبا للطاغين على الله ورسوله وعلماء أمته (لابثين) أي حالكون الناس الداخلين فيها لابثين فيها (أحقابا) جمع حقب وهو زمان ممدود وغير محدود (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما) أي ماء حارا جدا (وغساقا) وهو صديد أهل النار فجزيناهم بذلك (جزاء وفاقا) لأعمالهم (إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا) أي تكذيبا (وكل شيىء) من الحسنات والسيئات (أحصيناه كتابا) أي ضبطنا كل شيىء ضبط كتابة بحيث لا يفوتنا علم بشيىء (فذوقوا) أيها المشتاقون لمتاع الهوى والدنيا الدنية شراب الحميم والغساق المستقذرة والمحمية (فلن نزيدكم إلا عذابا) على عذاب وبلاء على بلية •

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً(٣١) حَدائِقَ وَأَعْنَاباً(٣٢) وكَواعِبَ أَتْرَاباً(٣٣) وَكَأْساً دِهَاقاً(٣٤) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً ولا كِذّاباً(٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً(٣٦) رَبِّ السَّموات وَالأَرْضِ وما بَيْنَهُما الرَّحمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً(٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلئِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَقالَ صَواباً(٣٨) ذلِكَ اليَوْمُ الحَقُّ فَمَنْ

شاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مآباً(٣٩) إنَّا أنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً ، يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ ما قدَّمَتْ يَدَاهُ ، ويَقُولُ الكَافِرُ : يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً)(٤٠) .

قوله تعالى ان للمتقين شروع في بيان احوال المؤمنين فيقول (إن للمتقين) من الكفر والمعاصي (مفازا) أي فوزا وظفرا بالخيرات وسعادة لا سعادة فوقها في الأرض والسماوات ، أو صحراء واسعة كلها صارت بساتين ورياحين لا تمدح ولا توصف من كثرة عطرها ونشرها فقوله (حدائق) بدل من مفازا بدل كل من الكل وقوله (وأعنابا) بتقدير المضاف أي حدائق وبساتين ذات أعناب (وكواعب) أي حورا ارتفعت ثدياها واستدارت حالكونهن (أترابا) لدات على ولادة واحدة وعمر واحد (وكأسا) من الخمور الطاهرة (دهاقا) مترعة مملوءة من الشراب (لايسمعون فيها لغوا) من الكلام لا فائدة فيه (ولا كذابا) أي تكذيبا من بعضهم لبعض وجوزوا بذلك (جزاء من ربك) حالكونه (عطاء) أي تفضلا وإحسانا (حسابا) أي كافيا لهم (رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا) والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه عز وجل بشيىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه تعالى (يوم يقوم الروح والملئكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) .

في بيان المراد من الروح أقوال أرجحها أنه جبريل عليه السلام فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن جبريل لقائم يوم القيامة بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقا من عذاب الله تعالى يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك . وقوله (إلاَّ مَن أذن له الرحمن وقال صوابا) بدل من ضمير لا يتكلمون وهو عائد إلى أهل السموات والأرض الذين من جملتهم الروح والملئكة . وذكر قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة

سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عز وجل ، وتهويل البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها .

وهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على نفي الشفاعة من أي نبي أو ولي أو شهيد أو صالح من الصلحاء لأنها تنفي الكلام بدون إذن من الله . وأصحاب الشفاعة لا يتكلمون إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى (ذلك اليوم الحق) أي قيامهم على الوجه المذكور في ذلك اليوم حتى يعتني به (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) يعني فإذا كان الأمـر على ما ذكره الله تعالى فمن شاء اتخذ إلى ربه وجواره (مآبا) أي رجوعا وإنابة إليه .

(إنا أنذرناكم عذابا قريبا) هو عذاب الآخـرة وقربه لتحقق إتيانه في (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمت يداه من خير أو شـر (ويقول الكافر : ياليتني كنت ترابا) ولا أتحول إلى المواد المأكولة ولا أنقلب نطفة إنسانية ولا أخلق كإنسان مكلف حتى لا أنهمك في شهوات نفسي ، ولا أترك رعاية جانب القدس ، ولا أرى يوم الحساب ولا أدخل في هذا العذاب ، ولا ينفعه هذا التحسر والتأثر لأنه قضى وقته بالغرور وجاء وقت البعث والنشور .

وأما المؤمن فيرتاح في النعم وينقلب في أمواج وأمواج من الإحساس والكرم ، ويقول : الحمد لله الذي خلقني كإنسان ، وهداني إلى طريق الخير والإحسان ، فعشت ببركات ، ومت على خيرات ، وفزت بدرجات . فالحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيد فضله ، وسلام على جميع المرسلـين وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله ربّ العالمين .

سورة النازعات ، مكية ، وآياتها ست واربعون ،
نزلت بعد سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

(والنَّازِعاتِ غَرْقاً(١) والنَّاشِطَاتِ نَشْطاً(٢) والسَّابِحاتِ سَبْحاً(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً(٤) فَالمُدَبِّراتِ أَمْراً(٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ(٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ(٨) أَبصارُهَا خَاشِعَةٌ(٩) يَقُولُونَ : ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافِرَةِ ؟(١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً ؟!(١١) قالوا : تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ !(١٢) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ(١٣) فَإِذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ)(١٤) •

قوله تعالى : (والنازعات) هذه الأوصاف إما صفات الملائكة المأمورين بقبض الأرواح فيقول أقسم بالملائكة اللاتي ينزعن الأرواح من الأجساد (غرقا) أي نزعا بإغراق أي بقوة ومبالغة في نزعهم لها منها • (و) أقسم (بالناشطات) أي بالملائكة التي تنشط الأرواح أي ينزعها بسهولة وسلامة مثل ما تأخذ شعرة من حليب (و) أقسم بالسابحات سبحا أي بالملائكة التي تسبح في إخراج الأرواح سبح الغواص الذي يخرج الدر من أعماق البحار

(ف) أقسم بالملائكة (السابقات سبقاً) بالأرواح إلى مقارّها أينما كانت (ف) أقسم بالملائكة (المدبرات) التي تدبر أمر الأرواح بالتنعيم أو بالتعذيب في عالم البرزخ • أو المراد بالمدبرات سائر الملائكة المدبرات لأمور العالم حسب تلقي الأوامر من الله تعالى ، فإن العالم كلها عالَمُ الأسباب المادية والمعنوية ، وذلك ليس لعجز الباري تعالى عن إيجاد أيّ شيىء أراده من تأثير ذاته فيه بذاته ، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون • بل لتطبيق سنة سنية ربانية أجراها في الكائنات حتى بين الجمادات ، فالنبات محتاج إلى الأرض والماء ونموّه إلى أشعّة الشمس في السماء ، وبين الحيوانات المتزاوجة للتناسل وبقاء النوع سواء ذوات الولادة أو البيض، وبين الجن والملائكة والإنسان ، فجعل بعضا من العارفين ليفيدوا مَنْ عداهم بالرَّوْح أو المادة على طريق التعاون في الأمور ، وكل ذلك جائز وواقع وسليم بلا مانع ، إلا فيما نهى عنه الشارع نهيا خاصا أو عامّا • ومع ذلك كله فهذه الأسباب ليس لها تأثير بالخلق والإيجاد والإبداع في مثقال ذرة في الأرض والسماوات وغيرها • كما قال تعالى : (وآتيناه من كل شيىء سببا فأتبع سببا) والتأثير مختص به بذاته الجليل (الله خالق كل شيىء وهو على كل شيىء وكيل) •

والله سبحانه وتعالى أقسم بكل ذلك على أن مجيىء البعث والحساب حق ، وحذف المقسم عليه لأنه يدل عليه قوله تعالى (يوم ترجف الراجفة) أي أن البعث سيتحقق يوم ترجف كل راجفة أي كل ما من شأنه أن يرجف كالأرض والجبال والأشجار والأحجار (تتبعها الرادفة) أي وإذا رجفت الرواجف السفلية تتبعها الرادفة أي الأجرام العلوية • يعني أنه بعد زلزال الأرض كلها تتزلزل الأجرام السماوية أيضا (قلوب يومئذ واجفة) أي شديدة الاضطراب والقلق (أبصارها) أي أبْصار أصحابها (خاشعة) •

وقوله تعالى : (يقولون أءنا لمردودون في الحافرة ؟) جملة مستأنفة حاكية لأقوالهم في إنكار البعث • يعني أنا أقسمنا بالأمور السابقة الواقعية على أن البعث الموعود سيتحقق فلا تنظروا إلى أولئك المشركين البسطاء السذج يقولون في حال الإنكار للبعث أإنا لمردودون في الحافرة أي في الأرض ذات الحفر أو في المحفورة (أءذا كنا عظاما نخرة) أي بالية متفتتة (قالوا) أي أولئك المشركون (تلك إذا كرة خاسرة) أي قالوا تلك الرجعة رجعة خاسرة أي ذات خسارة يعني إن صحت فإنا خاسرون حيث أهملنا واجبنا وكسبنا في سبيل نيل السعادة وأنكرناها حتى جاءنا اليوم بهذه الداهية العظمى (فإنما هي زجرة واحدة) أي لا تستعصبوها فإنما هي صيحة واحدة (فإذا هم بالساهرة) أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض يمشون عليها فيعلمون أنه جاءهم الأمر الموعود وهو البعث من القبور للحساب والميزان ثم النشور •

(هَلْ أَتيكَ حديثُ موسى ؟(١٥) إذْ ناديهُ رَبُّهُ بِالْوادِ المُقَدَّسِ طُوًى(١٦) اذهَبْ الِى فِرْعَوْنَ انَّهُ طَغَى(١٧) فَقُلْ : هَلْ لَكَ الِى أَنْ تَزَكَّى ؟(١٨) وَأَهْدِيكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشى(١٩) فَأَريهُ الآيَةَ الْكُبْرى(٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصى(٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى(٢٢) فَحشَرَ فَنادى(٢٣) فَقالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى !(٢٤) فَأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخِرَةِ والأُولى(٢٥) انَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى)(٢٦) •

قوله تعالى (هل أتيك حديثُ موسى ؟) أي أليس قد أتاك حديثه حتّى تتسلى به وتعلم أنه ما من إنسان له شأن في خدمة الحق وإرشاد الخلق إلا عارضته الموانع والمفاسد وأصحاب الضلال من الجاحد والحاسد ؟ وحديثه وقع (إذ ناديه ربه بالوادي المقدس) من شعاب جبل طور ، وهو المشهور

المعروف بـ (طوى) وقال له ربه : (اذهب إلى فرعون ، إنه طغى) وتجاوز عن حد العبودية بادعاء الألوهية ، ولا يفهم أن العبد ذليل أمام المقتدر الجليل (فقل) له (هل لك) الميل (إلى أن تزكى) وتتطهر من الأخلاق الدنية (وأهديك إلى ربك فتخشى) بأداء الواجبات وترك المعاصي فطلب منه المعجزة (فأريه الآية الكبرى) وهي قلب العصى الخشبية حية تسعى (فكذب) فرعون موسى (وعصى) ولم يهتم بالحية ولا العصا (ثم أدبر يسعى) لجمع الناس لتأييده على أنانية الشيطان (فحشر) جميع السحرة الموجودين في بلاده (فنادى) فيهم وفي من اجتمعوا حولهم (فقال) أيها الناس (أنا ربكم الأعلى) ولا رب سواي وكلكم تحت أمري وقوتي (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وأخذ أيضا فيه معنى النكال أي فنكل الله به وعاقبه نكال الآخرة والأولى أي عقاب كلمته هذه أعني قوله أنا ربكم الأعلى وكلمته الاولى ما علمت لكم من إله غيري أو بالعكس فأغرقه وشتت قومه ومزقه ، وأغرق ركبه ثم أحرقه ، وجعلهم مثلا للعالمين (إن في ذلك) الحادث المهم الخارج عن العادة الداخل في عقول أهل السعادة (لعبرة لمن يخشى) •

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ؟ أمِ السَّماءُ ؟ بَنيها(٢٧) رَفَعَ سَمكَها فَسَوّيها(٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحيها(٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحيها(٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعيها(٣١) وَالْجِبالَ أَرْسيها(٣٢) مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ(٣٣) فَإِذا جاءَتِ الطّامَّةُ الْكُبْرى(٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى(٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى(٣٦) فَأَمّا مَنْ طَغى(٣٧) وآثَرَ الحَيوةَ الدُّنْيا(٣٨) فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوى(٣٩) وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ

رَبِّهِ ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهوى(٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمأوى(٤١) يَسْئَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْسيها(٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِيها ؟(٤٣) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها(٤٤) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشيها(٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحيها)(٤٦)

قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا) خطاب مع الجمع المصدر بهم السورة ، وبعد بيان آثار قدرته في دحر أشد أعداء الأنبياء والمرسلين ، وهو فرعون فيقول لهم مذكرا ببيان بعض آثار قدرته : أأنتم أشد خلقا أي أقوى وأحكم (أم السماء ؟) التي وردت عليها التصرفات الآتية (بنيها ، رفع سمكها) أي علاها إلى الفوق بقدر ما تعلقت به قدرته (فسوّيها) أي جعلها مستوية كاملة حسب حكمته وتقديراته (وأغطَشَ لَيلَهـا) أي وأظلم ليلها (وأخرج ضحيها) أي وأبرز نور نهارها ، وخص الضحى لصفاء النور فيه وميله إلى التزايد (والأرض) منصوب على الاشتغال أي دحا الأرض (بعد ذلك دحيها) أي بسطها ووسعها ، فإن بناء أصل مادتها قبل السماء ودحوها قبل ذلك (أخرج منها ماءها) بتفجير عيونها (ومرعيها) أي مواضع الرعي فيها بأن خص بعض المواضع بمزيد النبات والعشب التي ترعى وتعيش منها الحيوانات (والجبال أرسيها) أي وأرسى الجبال وأثبتها وأحكمها ، وفعل ذلك (متاعا لكم ولأنعامكم) فإن من المأكولات ما هو مشترك بين الإنسان وغيره ، ومنها ما يخص الأول ، ومنها ما يخص الثاني ، ومنشأ الكل عبارة عن الأرض .

والذي ذكرنا لكم متعلق بمعاشكم وانتعاشكم في الدنيا (فإذا جاءت الطامة الكبرى) أي الداهية التي هي أعظم الدواهي وهي الساعة ، فإنها من طمّ بمعنى علا وفي المثل جرَى الوادي فطَمّ على القُرى ، وجاء السيلُ فَطم الرّكى . وأبدل منها يوم في قوله (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) فهل

عنده شيىء ينفعه أولا ؟ (وبُرِّزَتِ الجحيمُ لمن يرى) أي لمن يمكن منه الرؤية كائنا من كان • روي أنها تتكشف مدة من الزمان على أعين الناس حتى يراها كل راءٍ مزيدا في حسرة الكافرين على ما فرطوا ، وفي شكر المؤمنين على أنعم الله تعالى عليهم حيث نجاهم من الجحيم وأوصلهم إلى جنان النعيم (فأما من طغى) وتجاوز عن حد الشرع (وآثر الحيوة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى • وأما من خاف مقام ربه) أي عظمته وشأنه وهيبته أو أوامره ونواهيه والخزي بين عامة مشاهديه (ونهى النفس عن الهوى) أي عن اتباعه والعمل على مقتضاه (فإن الجنة هي المأوى) •

(يسئلونك عن الساعة : أيان مرسيها ؟) أي متى إرساؤها أي إقامتها وثبوتها (فيم أنت من ذِكراها ؟) أي في أيّ شيىء أنت من أن تذكُرَ لهم وقتَها ، ولماذا تقبل سؤالهم لتجيب عنه ؟ فإنهم لا يسألونك استرشاداً وإنما يسألون استنكارا وعنادا • والجواب المسموح به هو أنه (إلى ربك منتهاها) أي العلم بوقتها ونهاية الزمان السابق على وجودها عائد إلى ربك ومخصوص به ، وهذا من الغيب الذي لا يظهر عليه إلا من ارتضى من رسول (إنما أنت منذر من يخشيها) أي ما أنت برجل مكلف ببيان المغيبات للناس لاسيما الغيب الذي في بيانه هتك الأستار وكشف الأسرار ، وإنما أنت مكلف بإنذار من يخشى مجيىء الساعة والحساب والميزان فيه لعله يسترشد بكلامك ويتوجه إلى إطاعة ربه العزيز العلاّم • والساعة تأتيهم بغتة ومفاجأة (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحيها) أي ولَيْسَ الاهتمام للعاقل الهمام بقرب الساعة وبعدها فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وإن زمان العمر ، وإن طال جدا فهو لا قيمة له بالنسبة إلى من تأتيه حيث أنه لو بقي ألف سنة في الدنيا فإذا جاءته الساعة تحولت حالته إلى استقلال حياته الألفية وكأنه لم يلبث في الدنيا إلا ساعة من الزمان وكأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحيها •

سورة عبس ، مكية ، وآياتها
اثنتان واربعون ، نزلت بعد النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

(عَبَسَ وَتَوَلَّى(١) أَنْ جاءَهُ الأَعْمى(٢) وَما يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى(٣) أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى(٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى(٥) فَأَنْتَ لهُ تَصَدَّى(٦) وَما عَلَيْكَ الاَّ يَزَّكَّى(٧) وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى(٨) وَهُوَ يَخْشى(٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّى(١٠) كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ(١١) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ(١٢) في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ(١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ(١٤) بِأَيْدي سَفَرَةٍ(١٥) كِرامٍ بَرَرَةٍ)(١٦) •

قوله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلى) روي أن عبدالله ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها ، واسمه عمرو بن قيس ، وأم مكتوم كنية أمّه ، واسمها عاتكة بنت عبدالله المخزومية ، وتكنيتها بأم مكتوم لكون ولدها عبدالله وُلد أعمى • وقد جاء إلى رسول الله وعنده صناديد قريش : عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، والعباس بن عبدالمطلب ، وأمية بن خلف ،

والوليد بن المغيرة ، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . فقال : يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى ، وكرر ذلك ، ولم يعلم انشغاله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس ، وأعرض عنه . فنزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : « مرحبا بمن عاتبني فيه ربي » ويقول : « هل لك من حاجة ؟ » واستخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة فكان يصلي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبدالبر في الاستيعاب فنزل على واقعة سؤاله (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) أي من أن جاءه الأعمى وهو عبدالله ابن أم مكتوم يسأله الإقراء والتعليم (وما يدريك لعله يَزكى) أي يتزكى من أوساخ الجهل ويتطهر بما يتلقّن من الشرائع أو يذكر أي يتعظ (فتنفعه الذكرى) أي ذكرك وموعظتك (أما من استغنى) عن الإيمان بالله ورسوله وسائر المعارف القدسية (فأنت له تصدى) أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده وتُتعبُ نفسك لإرشاده (وما عليك ألا يزّكى) أي ولا بأس عليك في أن لا يتزكى (وأما من جاءك يسعى) أي حال كونه مسْرِعاً طالبا لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير (وهو يخشى) أي يخاف الله تعالى (فأنت عنه تلَهّى) أي تتشاغل عنه وعن تفهيمه .

(كلا) ردع عن معاودة مثل ذلك الإهمال (إنها) أي القرآن ، والتأنيث نظراً إلى الآيات (تذكرة) أي موعظة تذكر الإنسان أحكام الدين (فمن شاء ذكره) أي القرآن العظيم وقوله (في صحف) متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أي مثبتة (في صحف مكرّمة) عند الله مرفوعة أي مرفوعة القدر (مطهرة) أي منزهة عن مساس أيدي الشياطين (بأيدي سفرة) أي كتبة للقرآن الكريم (كرام بررة) نعتان للسفرة ، والمراد بهم إما الملائكة الكتاب للقرآن الكريم المستنسخون له من اللّوح المحفوظ ، أو العلماء المستنسخون

للقرآن الكريم بعد نزوله واستقراره في العالم الإسلامي ، وهذا إخبار بالغيب لأن القرآن الكريم لم يكن مكتوبا في الصحف كذلك في صدر تأريخ الإسلام. وإنما حدثت كتابته بعدُ كما هو معلوم للمتتبع .

(قُتِلَ الإنسانُ ما أَكْفَرَهُ(١٧) مِنْ أيِّ شيىءٍ خَلَقَهُ ؟(١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(٢٠) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ(٢١) ثُمَّ إِذَا شاءَ أَنْشَرَهُ(٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ(٢٣) فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طَعَامِهِ(٢٤) أَنَّا صَبَبْنا الماء صَبّاً(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً(٢٦) فَأَنْبَتْنا فِيها حبّاً(٢٧) وعِنَباً وقَضْباً(٢٨) وَزَيْتوناً وَنَخْلاً(٢٩) وحَدائِقَ غُلْباً(٣٠) وفاكِهَةً وَأَبّاً(٣١) مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعامِكُمْ(٣٢) فَإِذَا جاءَتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أَخِيهِ(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥) وصاحِبَتِهِ وبَنِيهِ(٣٦) لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ(٣٨) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ(٣٩) ووجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ(٤٠) تَرْهَقُها قَتَرةٌ(٤١) أولئكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الفَجَرَةُ)(٤٢)

قوله تعالى (قُتِلَ الإنسانُ) دعاء على الإنسان المشرك اللدود الفاسد ، يقول قُتِلَ هذا الإنسان الفاسد ما أَكْفَرَه صيغة التعجب أي ما الذي جعله كافرا بأنعم الله تعالى ؟ لماذا لا ينظر إلى فرحه بإفاضة نعم الله تعالى عليه التي لا يمكن تعدادها ؟ ولم لا ينظر إلى الحقائق ؟ لم لا يتفكر أنه من أي شيىء خلق ذلك الإنسان المشرك الداعي إلى الكفر والإشراك (من نطفة خلقه) لا من غيرها (فقدره) أي هيأه لما يصلح له من الأعمال والأحوال

والكيفيات وغيرها (ثم السبيل يسره) ثم يسر له سلوك سبيل الهدى والرشد بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر بمجاورة العاقلين وصحبة الصالحين الصادقين ، ونهاه عن أضداد ذلك فعمل بما اختاره (ثم أماته فأقبره) بأن هيأ أناسا لحمله ودفنه في تربته (ثم إذا شاء) في المستقبل (أَنْشره) أي أحياه وبعثه بعد عروض التغيرات على جسده . (كلا) ردع للإنسان عما هو عليه من كفران النعم الكثيرة من لدن خليقة آدم عليه السلام إلى يومنا (لما يقض ما أمره) لم ينجز ما أمره الله تعالى به إلا من شذ وفذ فإن لكل إنسان قصورا في الأعمال أو لم ينجز من أول رشده إلى وقت موته ما أمره الله به بل اشتغل بما يوافق هواه ويخالف هداه .

واذا كانت النعم الكثيرة السابقة المتوالية على نوع الإنسان كثيرة لا تحصى أو خفية لا تدرك بسهولة (فلينظر الإنسان إلى طعامه) الذي يطعمه لعله يعتبر به ويتذكر حقوق ربه ويتوجه إلى الله الذي رزقه به وقوله : (أنا صببنا الماء صبّا) بدل عن طعامه بدل اشتمال لأن أسباب الشيء لها به علاقة تامة وبيانه (أنا صببنا الماء) من السماء (صبا) مناسبا للإنبات والتنمية (ثم شققنا الأرضَ شقّا) بالنبات النامي من الماء (فأنبتنا فيها) أي في الأرض (حبا) أي زراعة ذات حبّ (وعنبا) أي وكرما يثمر عنبا (وقضبا) أي ونباتات رطبة تؤكل بالذات أو بعد المعالجات من جانب الإنسان أو غيره من الحيوان أو كليهما بعادة أهل الزمان (وزيتونا ونخلا وحدائق) مشتملة على أصناف الأشجار (غُلْباً) أي عِظاماً (وفاكهة) تؤخذ من الحدائق (وأبّا) أي كلأ يؤخذ مِنَ المَراعي وقوله (متاعاً لكم ولأنعامكم) مفعول له لفعل محذوف مستفاد من الكلام أي خلقنا ذلك متاعاً لكم ولأنعامكم وتعيشون على الأرض كذلك (فإذا جاءت الصّاخّة) أي الداهية العظيمة ، من صَخّ بمعنى أصاخّ أي استمع والمراد بها النفخة الثانية . وجواب إذا

محذوف أي تبعثون (يوم يفر المرء من أخيه) الملازم له في الحياة (وأمه) التي احتضنته في الصغر (وأبيه) الذي سعى في إعاشته (وصاحبته) التي تستريح نفسا بمجاورتها (وبنيه) وقوله (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) أي أمر يشغله عن باقي الواجبات ، وإذا أردت أن تعرف أحوالهم عند ذلك فاعلم أنه (وجوه يومئذ مسفرة) أي مضيئة متهللة (ضاحكة مستبشرة) أي مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم • (ووجوه يومئذ عليها غبرة) أي غبار وتراب (ترهقها) أي تتراكم عليها (قترة) كدورة أو سواد وظلمة (أولئك) الناس أي أصحاب الوجوه التي عليها الغبرة (هم الكفرة الفجرة) أعاذنا الله ونجانا وقبل دعاءنا ورجاءنا •

سورة التكوير ، مكية ، وآياتها
تسع وعشرون ، نزلت بعد المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤) وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ(٦) وإِذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ(٧) وإذا المَوْءودَةُ سُئِلتْ(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَإِذَا السَّماء كُشِطَتْ(١١) وَإِذَا الجَحيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ)(١٤) .

قوله تعالى (إذا الشمسُ كوّرت) إذا ظرف للزمان المستقبل والعامل فيها وما بعدها من المتعاطفات جوابها أعني علمت نفس ما أحضرت . والشمس مرفوع بفعل يفسره كورت لأن إذا الشرطية تطلب الفعل ، وكوّرت بصيغة مجهول ماضي باب التفعيل ، يعني لُفّت وأديرت ، لأن مادة الفعل للإدارة والجمع ، والمقصود ذهابها لقيام الساعة (وإذا النجوم انكدرت) أي انقضت

وسقطت • ومنه انكدر البازي إذا نزل بسرعة على ما يأخذه • روي عن ابن عباس أنه قال لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط في الأرض • وسرّ ذلك انحلال القوة الجاذبية التي فيها ، فلا يبقى دورانها ، إذا كانت من السيارات ، ولا استمساكها لشخصها إذا كانت من الثوابت (وإذا الجبال سيرت) أي أزيلت عن أماكنها من الأرض بالرجفة الأرضية العامة القوية وسيرت في الفضاء بعد أن تمزقت وكانت كالعهن المنفوش • (وإذا العشار) جمع عشراء كنفاس جمع نفساء وهي الناقة التي أرسل عليها الفحل وأتى عليها عشرة أشهر وقاربت ولادها ، وهي من أحب الحيوان إلى أصحابها مع أنها (عطلت) وأهمل أمرها لابتلاء الناس بزلزال الساعة (وإذا الوحوش حشرت) أي الحيوان البرّي غير المستأنس بالإنسان ، وعادتها إذا سمعت صيحة تجمعت مخافة الإصابة بالأذى (وإذا البحار سجّرت) أي أحميت بتأثير البراكين والزلازل الناتجة من أعماق الأرض في كل جهة من جهاتها (وإذا النفوس زوّجت) أي كل فرد مع من يناسبه وكل طبقة مع ما يوافقها ، فالأنبياء مع الأنبياء والصلحاء مع الصلحاء ، والأشقياء مع الأشقياء ، ولكن هذا إنما هو في الموقف لا في أول الساعة • ومنهم من فسرها بتزويج النفوس مع الأبدان أي أعيدت إلى أبدانها وهذا إنما يكون في النفخة الثانية ويمكن التزامها لأن المقصود من الآيات انتهاء العالم والدنيا ومجيىء عالم جديد يسمى بعالم الآخرة وقوله (وإذا الموءودة سئلت) وهي البنت التي تدفن في الحفرة وهي في حال الحياة سئلت (بأيّ ذنب قتلت ؟) وذلك كناية عن حلول موعد تعذيب الوائدين على ذلك العمل الفاسد (وإذا الصحف) التي كتبت فيها أعمال المكلفين (نشرت) لمحاسبتهم على مافيها (وإذا السماء كشطت) وقلعت وأزيلت عن محلها أي أمحيت وتلاشت (وإذا الجحيم سعرت) أي أوقدت فالتهبت وطارت شراراتها (وإذا الجنة أزلفت) أي قربت من المتقين كما قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين)

وإزلافها بمعنى عرضها على المتقين ، أو اقتراب وقت دخولها ، وهو بعد نهاية حساب الأعمال وقوله (علمت نفس ما أحضرت) جواب إذا على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة كلها . أي عند ذلك الوقت علمت نفوس المكلفين بأجمعهن ما أُحْضِرت لهن من الحسنات والسيئات ، أو من الجحيم والجنات ، أو من الدرجات والدركات .

(فَلا أُقْسِم بالخُنَّسِ(١٥) الجَوارِ الكُنَّسِ(١٦) واللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ(١٧) وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ(١٨) إنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ(١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ(٢٠) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٢١) وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ(٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ(٢٣) وَما هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ(٢٤) وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ(٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟(٢٦) إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ(٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨) وما تَشاءُونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ العالَمين)(٢٩) .

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى أمورا مهمة تحدث من بدء قيام الساعة إلى استقرار الفريقين في المكان المعدّ لهما ، وفي ذلك قدرة وعظمة ظاهرة .. أضاف إليهما الإقسام بأوضاع سماوية عجيبة لا يقدر عليها إلا الله القادر المقتدر على الكائنات وجعل المقسم عليه صحة رسالة سيد الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم بإسناد الكلام المنزل عليه إلى رسوله السفير بينه وبين حبيبه وقال (فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنس) وهذه الألفاظ جموع فالخنس جمع خانس بمعنى الراجع من نقطة إلى مبدأ حركته ، والكنس بمعنى الكانس أي المختفي المتستر ، والجواري جمع الجارية بمعنى المباشرة للحركة والسير .

وهذه الأوصاف ، وإن احتملت لأشياء كثيرة لكنها اشتهرت في إسنادها إلى الكواكب الخمسة المشهورة أعني : زحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة ، والمشتري • فإنها تعرض لها بحسب ما رآها أهل الأرصاد السابقون أحوالا ثلاثة : الأول سرعة السير ، وتسمى في عرفهم بالاستقامة • والثاني الوقوف في بادىء النظر ويسمى بالإقامة • والثالث الرجوع يعني بينما يراها الرائي تتحرك نحو المغرب بتغير اتجاهها وتتحرك نحو المشرق ويسمى بالرجوع ، فعبارة الخنس جمع خانس بمعنى الرواجع ، وعبارة الكنس جمع كانس بمعنى الواقفات ، وعبارة الجواري جمع الجارية بمعنى السائرات سيرا محسوسا ملحوظا • وسر تلك الأحوال مذكور في علم الهيئة ، ولا يفهمه الا علماؤها وهو بالنسبة إليهم شيىء بسيط • والمعنى المقصود هو أن الله تعالى يقول فلا أقسم بالكواكب الخنس الرواجع من اتجاه حركاتها في بعض الأوقات والجواري السريعة في بعض الأوقات ، والكنس الواقفات بحيث يراها الناظر إليها بالرصد كالواقف •

(والليل) أي ولا أقسم بالليل (إذا عسعس) أي أقبل بعد ضوء النهار واستولت ظلمته على سطح الكرة (والصبح) ولا أقسم بالصبح (إذا تنفس) أي ظهر منه نسيم كنفس له يستريح عنده الناس • والمقسم عليه قوله (إنه) أي القرآن الكريم (لقولُ رسول) بين الله وبين عباده المرسلين (كريم) ذي كرامة عنده (ذي قوة) بخلق الله كما وصفه بشديد القوى (عند ذي العرش مكين) أي ذي مكانة واحترام عند صاحب العرش وهو الله تعالى ، وإسناد القول إليه على وجه السفارة بين الله وبين الرسل وإلا فالقرآن كلام الله تعالى المكتوب في اللوح بنقوش كتابته الموجودة عند الله بالصورة العلمية الازلية ، لا علاقة ولا دخل فيه لغيره تعالى لا للملائكة ولا الجن والإنس ، وكل نجم من نجومه نزل به جبريل الأمين ، إما أخذه من بيت العزة بأمره تعالى ، أو

أخذه من اللوح ، أو تلقاه روحيا من الله الكريم وقوله (مطاع ثم أمين) صفتان لرسول معناه أن ذلك الرسول مطاع للملائكة بأمر الله وأمين على الوحي والتبليغات إلى الرسل (وما صاحبكم بمجنون) أي وكما أن القرآن قول بلغه الرسول السفير وهو جبريل ليس صاحبكم الذي نزل عليه ذلك القرآن بمجنون أي بمختل العقل .

(ولقد رآه بالأفق المبين) أي ولقد رأى محمد صاحبكم ذلك الملك الكريم بالأفق الأعلى المبين الواضح (وما هو) أي صاحبكم أي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (على الغيب) أي على بيان الوحي المنزل بالغيب (بضنين) بخيل يبلغ بعضه ويترك تبليغ بعضه ، وإنما هو أمين عليه فيبلغه آية فآية وجملة فجملة . وقرأ بعضهم (بظنين) بالظاء المعجمة المشالة ، أي وما هو على إلقاء القرآن في الغيب بظنين أي بمتهم ، ولا يجوز أن يتهم ، وليس بمقام التهمة (وما هو بقول شيطان رجيم) أي وما هو بقول واحد من الشياطين الأفاكين المتقولين المسترقين للسمع ، ولا بقول شيطان رجيم أعني إبليس ، فإنه إبليس المطرود من ميدان الرحمة والتقديس (فأين تذهبون ؟) وأين استضلال لهم فإن كلام الشياطين يدعو للاعوجاج والانتهاج شر المنهاج وهذا القرآن يدعو إلى صراط الله العزيز الحميد .

(إن هو) أي وما هو أي القرآن الكريم (إلا ذكر للعالمين) أي ذكر لله من العالمين يذكرون الله تعالى بتلاوته وبالعمل بما فيه من الأحكام ، أو ما هو إلا ذكر وتذكر وموعظة وعبرة وإرشاد للعالمين (لمن شاء منكم أن يستقيم) على الصراط المستقيم (وما تشاءون) الاستقامة لسبب من الأسباب (إلا أن يشاء الله رب العالمين) مشيئتكم وتقدم مشيئته تعالى على مشيئة المكلفين مبني

على ما قررنا في آخر سورة الإنسان وهو أن الله تعالى علم في الأزل أن عبده الفلاني يتوجه إلى الأعمال الصالحة ويختار ذلك ويشاؤه في المستقبل ، فلما جاء وقت تحقق تلك المشيئة تقدمت مشيئة الله تعالى على مشيئته لأن الإنسان ليس بخالق وإنما هو كاسب بصرف الإرادة إلى أعماله المعلومة لله أزلا فيبادر الباري بالمشيئة فيشاء هو فيتبعه تبعية ذاتية بتأخر ذاتي مشيئة العبد لعمله المحكي في علم الله الأزلي والله هو الموفق والمعين .

سورة الانفطار ، مكية وآياتها تسع عشرة ،

نزلت بعد سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣) وإِذا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥) يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟(٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّيكَ فَعَدَلَكَ(٧) في أيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ ؟(٨) كلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ(٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِراماً كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ(١٢) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ(١٥) وما هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ(١٦) وَما أَدْرِيكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ؟(١٧) ثُمَّ ما أَدْرِيكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ؟(١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)(١٩) .

قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) أي انشقت لنزول الملائكة كما في قوله تعالى (يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملئكة تنزيلا) ويوم القيامة

لا تبقى السماء ولا كواكبها (وإذا الكواكب انتثرت) أي تساقطت متفرقة كالدراري المنتشرة (وإذا البحارُ فجرت) أي وإذ البحار سجرت فغلت وفارَت وفاضت (وإذا القبورُ بُعثرت) أي قلب ترابها الذي سترته الأموات (علمت نفس ما قَدَّمَت وأخرتَ) أي علمت كل نفس عند ذلك ما قدمته أو أخرته وتركته من الأعمال .

(يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟) أي ما الذي خدعك وجعلك مغرورا في مقابل أوامر ربك ونواهيه ، فلا تهتم بها (الذي خلقك) الرب الذي إذا تأملت قليلا علمت أنه هو الذي خلقك من مادة حقيرة فطوّرها وجعلها أساسا لخلقك بهذه الصورة والسيرة (فسوّيك) بأن جعل أعضاءك سوية سليمة متناسبة قابلة لاستفادة ما خلق لها منها (فعدلك) أي فساوى برعاية النسبة بين أعضاء بدنك ورجليك ، وخديك ، وشفتيك ، وعينيك ، وأذنيك ... وإلا لو جعل إحدى يديك أطول من الأخرى ، واحدى رجليك أقصر من الأخرى ، وإحدى عينيك صغيرة كخرزة والأخرى كبيرة طافية كعنبة ، أو إحدى أذنيك مساوية للرأس والأخرى عالية متدلية لرأيت منك أعجوبة يضحك منها والناس يفدون عليها للتفرج بالنظر إليها .

وقوله (في أي صورة ما شاء ركبك) أي وركبك في صورة إنسان ما لا على التعيين بحسب اقتضاء مشيئته وحكمته وإلا فلو جعلك على صورة شخص آخر بحيث لا تتمايزان لاختلفت الأفكار واختل الحساب والميزان .

(كلا) ردع من الاغترار أي ليس الأمر على الاغترار مع بقاء الإيمان بالجبار والقادر القهار (بل تكذبون بالدين) أي بجزاء الأعمال والعدالة في

الموازين وسره التكذيب بوجود رب العالمين ، أو بوجود نظام إلهي أرسله مع المرسلين •

(وإنّ عليكم لحافظين) أي والحال أنه مع تكذيبكم بيوم الجزاء للأعمال فإن قرر الله عليكم ملائكة حافظين وضابطين لأعمالكم (كراما) لدينا (كاتبين) لها (يعلمون ما تفعلون) قليلا كان أو كثيرا • وفي ذلك تجهيل وتسفيه المشركين حيث أنهم يكذبون بالجزاء وكتّاب أعمال الجزاء يلازمونهم • ثم إن هؤلاء الحافظين غير المعقبات في قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فمع الإنسان عدد من الملائكة • روي عن عثمان أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم من ملك على الإنسان ؟ فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكا •

وقوله (إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم) استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتابة • وخلاصة ذلك أن الأبرار أي المحسنين ، وكذا المحسنات ، لفي نعيم الجنة ، وأن الفجار أي الخارجين من طريق الدين وكذا الخارجات لفي جحيم (يصلونها يوم الدين) أي يدخلون أولئك الفجار الجحيم يوم الدين أي يوم القيامة (وما هم عنها) أي عن الجحيم (بغائبين) والمراد بذلك استمرارهم ودوامهم في تلك المحنة العظيمة (وما أدريك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدريك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) بطريق القوة والنصر كما يدعيه الكفار المشركون من إسناد العفو القسري إلى أصنامهم (والأمر يومئذ لله) أي والحكم النافذ يومئذ لله لا لغيره قطعا •

وليس في هذه الآية الكريمة نفي الشفاعة ومنفعتها لأهل الاستحقاق فإنها تنفي نفي الملك والسلطة لأي واحد على إيصال المنفعة لغيره والشفاعة

ليست مبنية على استعمال السلطة والقوة في إنفاع الغير ، وإنما هي دعاء واستغفار واستعفاء . وقد دلت الأحاديث الكثيرة على وجودها ومنفعتها في مواضع كثيرة ، كما هو مذكور في فتح الباري وغيره من الكتب المعتمدة . ونسأله تعالى قبول شفاعة حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الكرم والجود والمقام المحمود وعلى آله وصحبه وأتباعه الصلاة والسلام .

سورة المطففين ، مكية ، وآياتها ست وثلاثون
نزلت بعد العنكبوت وهي آخر سورة مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَيكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ : هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)(١٧) .

قوله تعالى : (ويل للمطففين) الويل شدة الشر والهلاك وواد في جهنم، وهو مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعها في موقع الدعاء ، وللمطففين خبره . والمطففون هم (الذين اذا كتالوا على الناس) لأنفسهم (يستوفون) أي يأخذونه وافيا كاملا (وإذا كالوهم) أي كالوا لهم المكيل (أو وزنوهم) أي وزنوا لهم الموزون (يخسرون) أي يخسرونهم ، أي يجعلونهم في خسارة، أي يعطونهم ناقصا . فيزجرهم الباري تعالى عن هذا العمل الفاسد ويقول (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟) لا يقادر قدر عظمه ويحاسبون على أعمالهم ، فالظن بمجيء ذلك اليوم ، وإن كان ضعيفا كاف لردعهم عن هذا العمل السّخيف ، فضلا عن ان يكون ظنا صاعدا إلى اليقين ، وذلك (يوم يقوم الناس لرب العالمين) الذي لا تخفى عليه خافية وهو شديد القوة وسريع الحساب .

وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره مرفوعاً : « خمسٌ بخمس » قيل : يا رسول الله وما خمسٌ بخمس ؟ قال : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت . ولا طففوا الكيل إلا مُنِعوا النباتَ وأخذوا بالسنين . ولا منعوا الزكوة إلا حُبس عنهم القطر » .

(كلّا) ردع عما كانوا عليه من التطفيف (ان كتاب الفجار لفي سجين) في موضع التعليل للردع (وما أدريك ما سجينٌ ؟ كتابٌ مرقوم) وسجّين عَلَم لكتاب جامع وهو ديوان الشرّ دُوِّنَ فيه أعمال الفَجَرَة من الثقلين (ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذّبُ بهِ إلا كلّ معْتَدٍ أثيم) متجاوز عن حدود الله كثير الإثم . (إذا تتلى عليه آياتنا) الناطقة بوجوب اتباع الحق ورعاية العدالة والشعور بمسئولية

العباد أمام الله (قال) من فرط غباوته وشدة شقاوته : (أساطير الأولين) أي حكايات الأولين ولا يفهـم أن الحـق كيف كان يجب اتباعه في كل زمان ومكان فضلا عن أن يبلغه رسول من خالق الكائنات مؤيد بالمعجزات .

(كلا) ردع لذلك ولأمثاله عن القول بالباطل (بل ران على قلوبهم) أي ركبها وتراكم عليها كأوساخ ترسخت (ما كانوا يكسبون) ولا يزالون يكتسبون (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) لا يرون ربهم ولا يخلّون أن يرَوه مع أنه حاضر ظاهر ويراه أهل الأبصار بالعيون والبصائر (ثـم إنهم) علاوة على عـذاب الحجب عن رؤية الربّ (لصالوا الجحيم) أي لداخلون قسرا وقوة في الجحيم ليتشـرفوا برؤية النار وإدراك العـذاب للأشرار (ثم يقال) لهم (هذا) المحل هو (الذي كنتم به تكذبون) فذوقوا العذاب الدائم الأليم مع الغساق والحميم بما كنتم تكتسبون .

(كَلاَّ إنَّ كِتابَ الأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ(١٨) وما أَدْريكَ ما عِلِّيُّونَ ؟(١٩) كِتَابٌ مرقومٌ(٢٠) يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ(٢١) إنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعيمٍ(٢٢) عَلَى الأرائِكِ يَنْظُرُونَ(٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ(٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ(٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ، وَفي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنَافِسونَ(٢٦) وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ(٢٧) عَيْناً يَشرَبُ بِها المُقَرَّبُونَ(٢٨) اِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ(٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ(٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إلى أهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فكِهِينَ(٣١) وَإِذا رَأَوْهُمْ قالُوا : اِنَّ هؤلاءِ لَضالُّونَ(٣٢) وَما اُرْسِلوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ(٣٣)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ(٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ؟)(٣٦) •

قوله (كلا) تكرير للردع السابق حتى يبقى الاتعاظ به في قلب المسلم الصادق (إن كتاب الأبرار) أي المؤمنين المحسنين للأعمال (لفي علّيين وما أدريك ما عليون ؟ كتاب مرقوم) أي كتاب مكتوب فيه أعمال جميع المحسنين من الثقلين و (يشهده المقربون) أي يحضر عند تثبيت أعمال المحسنين فيه الملائكة المقربون من الله تعالى • والظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم (يتعاقبون فيكم ملئكة بالليل وملئكة بالنهار) أن أولئك الملائكة هم الكرام الكاتبون ويتعاقبون بالليل والنهار فجمع يأتون صباحا يبقون عند العبد إلى المساء فتأتي ملائكة الليل وتصعد ملائكة النهار إلى المحل المعين فيقدمون كتاب الأعمال الحسنة إلى جمع من مقربي الملائكة فيثبتون تلك الأعمال في عليين وهو علم لديوان الخير الجامع للخيرات • وإذا كانت من السيئات سلمت إلى الملئكة المأمورين على السجين فأثبتوها فيه • وفي لفظ العليين آراء والظاهر أنه جمع للمذكر العاقل كالصديقين جمع للصديق ، وكان وصفا للمبالغة في علو جمع من الصلحاء ومفرده علّيّ بكسر العين وتشديد اللام والياء من العلو ، كسر فاؤه ، وضعف عينه ، وقلب ياؤه واوا ، وأدغم فيه على القاعدة وجمع بالواو والنون حسب الأصول ، ثم أطلق على كتاب الأعمال الحسنة تسمية للكتاب باسم أصحابه •

وقوله (إن الأبرار لفي نعيم) بيان لمحاسن أعمالهم فيقول (إن الأبرار) أي أصحاب البر والحسنة (لفي نعيم) الجنة متمكنون فيه تمكن المظروف في ظرفه ويقعدون (على الأرائك) جمع أريكة بمعنى الكرسي (ينظرون) أي إلى ما يرغبون في منظره من الحور ، أو باقي الرغائب حالكونهم (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) أي بهجة وحسنا وجمالا يحدث من اللقاء بالنعيم (يُسقون من رحيق) أي كأس خمر (مختوم) لم يَمَسّ شفاهَ الكأس غيره من الناس و (ختامه مسك) أي والذي سدّ به أفواه الكئوس من مادة المسك لتعطير الرحيق (وفي ذلك) أي وفي نيل ذلك والحصول عليه (فليتنافس المتنافسون) لا في نيل المواد الدنيوية الدنية أعلاها تورث الرذيلة وتجعل النفوس مريضة عليلة (ومزاجه) أي والماء الذي يجعل مزيجا لذلك الرحيق (من تسنيم) حالكونه ، أو أعني (عينا) في الجنة (يشرب بها) أي منها (المقربون) السابقون .

ثم يستعرض أحوال الكافرين في الدنيا حتى يبين جزاءهم في الآخرة بقوله (إن الذين أجرموا) أي جاءوا بالإجرام ومباشرة قبائح العمل من رءوساء المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم (كانوا) في الدنيا (من الذين آمنوا يضحكون) استهزاء بهم (وإذا مروا بهم) أي مر المؤمنون بالمجرمين (يتغامزون) بينهم أي يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم إليهم (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) أي متفكهين متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين (وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون) طريق العيش السعيد ولا يفهمون الدنيا ومتاعها (و) الحال أنهم (ما أرسلوا) أي المجرمون (عليهم) أي على المؤمنين (حافظين) عليهم أحوالهم ولا علاقة لهم بهم ، فليس من حقهم أن يتكلموا بنقدِهم وفقدِهم (فاليوم) وهو يوم

القيامة (الذين آمنوا) بالله ورسوله في الدنيا (**من الكفار يضحكون**) **أي** يضحكون منهم ويسخرون بهم جزاء لما سخروا بهم في الدنيا (**على الأرائك**) أي هم على الأرائك أو (ينظرون) إلى المجرمين متفرجين على الأرائك وقوله (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) إما كلام المؤمنين في شأن المجرمين ، أو كلام الباري سبحانه . وعلى أيّ الحالين فالجواب : نعم ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون . كما ثــوب المؤمنون بالجنة والأرائك . والجواب ألذّ وأنعـَم ، والله أعدل وأحكم .

سورة الانشقاق ، مكية ،
وآياتها خمس وعشرون ، نزلت بعد الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (١١) وَيَصْلَى سَعِيراً (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً) (١٥) •

قوله تعالى : (إذا السَّماءُ انشقت) أي بالغمام ويشهد له قوله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملئكة تنزيلا) • (وأذنت لربّها) أي استمعت لربها وأطاعت (وحُقّت) أي جعلت حقيقة بالاستماع والإطاعة (وإذا الأرض مدّت) أي بُسطت وتَوَسَّعَت باندكاك الجبال عليها (وألقت ما فيها) من الدفائن والكنوز ، أو من سائر المواد الثقيلة ، فإن

الزلزال يحول باطن المتزلزل إلى ظاهره (وتخلت) عنها (وأذنت لربها وحقت) كررها للتأكيد • وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله تعالى : (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا) أي ساع إلى ربك لنيل جزاء الأعمال فملاقيه أي فتلقى ربك سواء قصدت ذلك أو لم تقصد ، فإن الله خلق الجنّ والإنس ليَعْبدوه ، ولابد أن يحشروا ليوم لا ريب فيه ، فمن عمل بما خلق له من الطاعة أخذ أجر البضاعة ومن لم يعمل كما أمر أخذ وزر المخالفة والإضاعة كما قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا) والحساب اليسير هو السهل الذي لا مناقشة فيه كما قيل ، وفسره عليه الصلاة والسلام بالعرض وبالنظر في الكتاب مع التجاوز ، فقد أخرج الشيخان والترمذي وأبو داود عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس أحد يحاسب إلا هلك » فقلت : يا رسول الله جعلني الله فداك أليس الله تعالى يقول : فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ؟ قال : « ذلك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك » وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلاته : « أللهم حاسبني حسابا يسيرا » فلما انصرف عليه الصلاة والسلام قلت : يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه •

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) أي يؤتاه بشماله من وراء ظهره • قيل : تغلّ يمناه إلى عنُقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله (فسوف يدعو ثبورا) ويقول : يا ثبوراه ! وهو الهلاك (إنه كان في أهله) في الدنيا (مسرورا) بالمال والجاه كفرا وبطرا (إنّه ظن أن لن يحور) أي لن يرجع إلى الله تعالى بعد موته (بلى) إيجاب لما بعد لن (إن ربه كان به بصيرا) عالما بحركاته وسكناته وأعماله ونياته •

(فلا أقْسِمُ بِالشَّفَقِ(١٦) واللَّيْلِ ومَا وَسَقَ(١٧) والقَمَرِ إذَا اتَّسَقَ(١٨) لتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ(١٩) فما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ؟(٢٠) وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرْآنُ لايَسْجُدونَ(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ(٢٢) واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ(٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٤) إلا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)(٢٥) .

(فلا أقسم بالشفق) الحمرة التي ترى في الأفق بعد غيبوبة الشمس ، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه البياض الذي يليها (والليل وما وسق) أي وما جمعه من الحشرات والدواب تدخل أكنافها (والقمر إذا اتسق) أجزاؤه وأطرافه وتم نوره ، وهو فيما إذا كان بدرا (لتركبن طبقا عن طبق) أي حالا بعد حال وشدة بعد شدة . والصيغة بضم الباء جمع للمذكر المخاطب ، فإن كان المراد جماعة من الإنسان مطلقا فالمراد مراتب من الشدة بعد المراتب وهي الموت وأهوال البرزخ والبعث والحشر والحساب والميزان والصراط ، أو المراد تلك المراتب وما قبلها من الشدائد في الدنيا من المرض والفقر والذل والغربة والكربة والأذى . وإن قرىء بفتح الباء خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فالمراد إما شدائد نالها من الكفار والمعاندين من إيذاء نفسه وإيذاء أتباعه ثم إخراجه وعشيرته إلى شعب أبي طالب ثم هجرته وغيرها مما أصابه صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يراد بالطبق بعد الطبق المراتب العالية التي نالها في أيام نبوته ورسالته ككثرة الأتباع ، وانتشار دينه في الآفاق ، وفتحه لمكة وغيرها من الأماكن وبقاء دينه وعدم اجتماع أمته على الضلال ونزول القرآن عليه . والمقصود بالآية تقوية داعي الرسول صلى الله عليه وسلم وتأييد معنوياته في خدمة الإسلام . يعني كلما مر عليك الزمان فأنت في

حال أقوى من الحال السابق (فما لهم) أي لهؤلاء الكفرة المشركين (لا يؤمنون ؟) بالله ورسوله وبيوم القيامة الذي فيه الحساب (واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون) سجود التعظيم لله تعالى (بل الذين كفروا يكذبون) أي بيوم القيامة بل بالقرآن الذي فيه جميع المهمات ومنها يومها (والله أعلم) منهم (بما يوعون) أي بما يضمرونه في صدورهم من الكفر بالله ورسوله ووضع العثرات في طريق وصوله • (فبشرهم بعذاب أليم) أي قل لهم استهزاء : أبشروا بعذاب أليم يأتيكم من الله العليم (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) غير مقطوع والاستثناء منقطع •

سورة البروج ، مكية ، وآياتها
اثنتان وعشرون ، نزلت بعد الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

(والسَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ المَوْعُودِ (٢) وَشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصحابُ الأُخْدودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْهُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلونَ بالمُؤْمِنينَ شُهُودٌ (٧) وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنوا باللهِ الْعزِيزِ الحَميدِ (٨) الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ، وَاللهُ عَلى كُلِّ شيْءٍ شَهِيدٌ (٩) اِنَّ الَّذين فَتَنوُا الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ولهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) اِنَّ الَّذِينَ آمَنوُا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ ذلِكَ الفَوْزُ الْكَبِيرُ)(١١) .

قوله تعالى (والسماء ذات البروج) أي أقسم بالسماء المحتوية للبروج الإثني عشر المعروفة للحساب ، التي تحتوي على ثلاثمائة وخمس أو ست

وستين يوماً بميزان السنة الشمسية البادئة من الربيع : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والاسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت • (و) اقسم بـ (اليوم الموعود) وهو يوم القيامة اليوم المستمر الذي لا ليل فيه ، والأرض تشرق بنور الله وتستمر بإرادة الله ، ويوم قيام الساعة ، ويوم البعث ، ويوم الحشر ، ويوم الحساب والميزان ، ويوم استقرار أهل الإيمان في الجنان ، ويوم دخول أهل العذاب في النيران • كل ذلك بعض من الأوقات وداخل في اليوم الموعود ، ويسمى بيوم القيامة ؛ لأنه يوم قيام المكلفين إلى نيل الجزاء (وشاهد ومشهود) فسر الشاهد بمن يحضر في ذلك اليوم ، والمشهود بما يقع فيه من الأحوال والأهوال والإذلال والإجلال والإدبار والإقبال • ويفسر الشاهد بالرسول الشاهد على أمته بالإطاعة والعصيان ، وبرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الشاهد على الصدق لأولئك الشهداء الشرفاء قال تعالى : (ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أو الشاهد على صدق أمة نفسه في الشهادة على الأمم كما في قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدا عليكم) وفي قوله الكريم (ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) ويجوز أن يراد بالشاهد كل من يرى ربه يوم القيامة ، وبالمشهود ذاته الكريم •

وقوله : (قتل أصحاب الأخدود) بتقدير (لقد) جواب القسم أي لقد قتل أصحاب الأخدود ، أو الجواب محذوف أي لقد قتل المشركون المعاندون لك كما قتل أصحاب الأخدود ، فقد قتل صناديد الإشراك في بدر الكبرى كما قتلوا في وقت إهلاكهم • والأخدود جمع خد بمعنى الشق •

روي مرفوعا أن ملكا كان له ساحر فلما شاب ضم إليه غلاما ليعلمه السحر مخافة أن يموت ولا يبقى الساحر في بلده ، وكان في طريق الغلام راهب ، فمال إليه قلبه ، وآمن بالله العظيم على توجيهاته . فرأى في طريقه يوما حية قد حبست الناس عن المرور ، فأخذ الغلام حجرا وقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها . وكان الغلام بعد يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله . وعمي جليس الملك فدعا له وشفاه الله ورد عليه بصره . فسأله الملك عمن أبرأه فقال : ربي . فغضب الملك فعذبه ، فدل على الغلام ، فعذبه فدل على الراهب ، فقده بالمنشار ! وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا ، فرجف بالقوم فهلكوا ونجا ، وأجلسه في سفينة ليغرق ، فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا . فقال للملك : لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني ، وتأخذ سهما من كنانتي ، وتقول : بسم الله رب الغلام ثم ترميني به ، فرماه فوقع في صدغه فمات ، فآمن الناس برب الغلام . فأمر بأخاديد أوقدت فيها النيران ، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها ، حتى جاءت امرأة معها صبي ، فتقاعست فقال الصبي : يا أماه اصبري فإنك على الحق ! فاقتحمت .

وقوله (النار ذات الوقود) بدل من الأخدود بدل الاشتمال ، والوقود هو الحطب الموقد به النار (إذ هم عليها قعود) قاعدون (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به ، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة (وما نقموا منهم) أي وما أنكروا منهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيىء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) أي العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) لأن الدنيا حقيرة بالنسبة إليها .

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ(١٣) وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ(١٤) ذو العَرْشِ المَجِيدُ(١٥) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ(١٦) هَلْ أتيك حَدِيثُ الجُنُودِ ؟(١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ(١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا في تَكْذِيبٍ(١٩) واللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ(٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ(٢١) في لَوْحٍ مَحفوظٍ)(٢٢) .

قوله تعالى (إن بطش ربك لشديد) البطش الأخذ بالصولة ، أي إن أخذ ربك لشخص أو صنف أو نوع لشديد لا يستهان به (إنه هو يبدىء ويعيد) جملة استئنافية ويستفاد منها التعليل للجملة الأولى ، أي ووجه كون بطشه شديدا أن الله هو المبدىء للموجودات والمعيد لها بعد إماتتها ، وكل من كان له قدرة كذلك فإذا أراد الأخذ والانتقام كان أخذه وانتقامه شديدا جدا (وهو الغفور) أي لمن يشاء (الودود) المحب كثيرا لمن أطاعه (ذو العرش المجيد) العظيم في ذاته عز وجل وصفاته (فعال لما يريد) لا يتخلف عن ارادته أي مراد (هل أتيك حديث الجنود ؟) أي الجنود الذين أخذناهم بذنوبهم (فرعون وثمود) أي جنود فرعون وقوم ثمود ، فإن جنود الطرفين كانت كثيرة مع أنه لما أراد إهلاكهم أهلكهم ولم تفدهم الجنود (بل الذين كفروا) من قومك (في تكذيب) لك ولما جئت به (والله من ورائهم محيط)

رد لتأثير كفرهم وعنادهم فيقول إن الله محيط بهم من أمامهم وخلفهم ولا ينفلتون من قدرته أبدا (**بل هو قرآن مجيد**) أي أعرض عن ردهم وتكذيبهم فأولئك لاقيمة لهم فإن القرآن المنزل عليك قرآن مجيد شريف عظيم القدر وهو (**في لوح محفوظ**) ذلك اللوح عن تعرض أي مفسـد له هناك ، والآيات المنزلة منه أيضا محفوظة • إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون •

سورة الطارق ، مكية ، وآياتها سبع عشرة ، نزلت بعد سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ؟(٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟(٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)(١٧) .

قوله تعالى : (والسماء) المراد به معلوم ، وقيل : المراد هو المطر (والطارق) أي الكواكب البادية بالليل (وما أدريك ما الطارق ؟ النجم الثاقب) أي هو النجم الخارق بضوئه حجاب الظّلام، وجواب القسم قوله (إن كل نفس لما عليها حافظ) يعني إن الخالق الذي قدر أن يخلق سماوات متعددة أثيرية ويخص كلاً منها بصفات وآثار ، ويزين السماء الدنيا منها بكواكب لامعة

وأنجم ثاقبة تخرق حجاب الظلمة في الجو وتجعل في جو السماء الأثيرية شهبا ونيازك نارية مستطيلة بحيث تكون كحجر العثرة في طريق الصواريخ والصواعد العلوية ، ولا تجتاز طريقها إلا بسلطان وقوة فوق تلك القوى قادر على أن يخلق لكل نفس منفوسة حافظا لها يحفظها ويحرسها ، وإلا فالإنسان النائم في محل خالٍ يمكن دخول الحشرات والهوام في منافذ رأسه من الأذنين والفم والأنف ويبتلى بكثير من الآلام والأسقام .

وكلمة (إن) في صدر الآية الكريمة نافية ، و (لمّا) بمعنى إلاّ أي ما كل نفس إلاّ عليها حافظ . أو مخففة من الثقيلة ، ولام لما للتأكيد ، وما زائدة أي أن كل نفس لعليها حافظ ، أو ما موصولة وعليها صلتها ، وحافظ خبر أي إنه كل نفس للذي يراقب وحارس عليها حافظ له من الأذى إلى وقت مقدر معلوم ، وهذا الحافظ يحفظها كما في قوله تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وكما في الحديث المروي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب » وبعض الناس فسره بالحافظ لأعماله أي من الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يعمله وهذا أو ذاك مبني على جريان سنة الله في الكون بقاعدة الأسباب وإلاّ فالله عالم بكل شيىء ولا يحتاج إلى الكرام الكاتبين لضبط أعمال العباد ، وقادر على صيانة كل شيىء فلا يحتاج إلى إرصاد الحراس والحفاظ لأيّ حيّ . وما دام الله سبحانه ترحم على عباده بإرسال الحفاظ الحراس إليه فليتق الإنسان ربّه ولا يغتر بنفسه وبسلامة بدنه وكثرة ماله أو جاهه أو أولاده ، وليتفكر في مبدأه ومعاده .

(فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق) أي ماء المني الذي هو ذو دفق وذو حركة في الخروج من محله ، أو مدفوق منه (يخرج من بين الصلب) أي من بين أجزاء صلب كل رجل (والترائب) أي ومن بين ترائب

كل امرأة أي عظام صدرها ، وهي جمع تريبة ، وتوجد لكل امرأة تريبة واحدة لكن جمعت باعتبار ما حولها منها • (إنه على رجعه لقادر) أي كما أنه خلقه من ماء كذلك ورباه وأعاشه مدة من الزمان وأماته كذلك على رجعه وإحيائه بعد الموت وبعثه من القبر لقادر وذلك الرجع (يوم تبلى السـرائر) أي يتعرف ويتصفح السرائر أي ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وما أخفي من الناس من الأعمال وما لا يعلمه إلا الله (فما له من قوة ولا ناصر) أي فما لذلك الإنسان الراجع عند رجوعه وحساب أعماله ووقوعه في تهلكة العقاب والعذاب من قوة يمتنع بها ولا ناصر خارج ينصره وينتصر به (والسماء ذات الرجع) أي المطر أو النبات الراجع في المواسم على عروقها (والأرض ذات الصدع) والانشقاق لنبات النوابت ، أو لانفجار العيون والأنهـار ، أو لإبراز المعادن السيالة • أي اقسم بخالق تلك المخلوقات على تلك الأوصاف (إنه) أي القرآن المنزل عليك (لقول فصل) أي فاصل بين الحق والباطل • أو قول مفصول مقطوع به ليس محل الشكوك والأوهام ، وما هو بالهزل أي بما يتكلم به في اللهو ، وإنما هو جد وبيان من الله وشفاء لما في الصدور (إنهم) أي إن كفار مكة (يكيدون كيدا) أي يعملون المكائد لإطفاء نور الإسلام بكل اهتمام (وأكيد كيدا) أي وأنا أقابلهم بكيد وكيدي متين • ونسبة الكيد إلى الباري للمشاكلة ، وإلا فالكيد لا ينسب إليه بالحقيقة ، فإن الكيد عمل دقيق خفي المدرك يباشر للوصول إلى الظفر بالعدو ، والله تعالى قادر على كل شيىء في كل لمحة وأوان (فمهل الكافرين) ولا تشتغل بالانتقام منهم حتى تعلم كيف أكسـرهم من الفقرات وأنصـرك عليهم في الكائنات • ولما كان الأمر مطلقا ولم يقيد بزمان قريب ، وذلك مما لا يطاق الصبر له أوضحه بقوله (أمهلهم رويدا) أي أمهلهم إمهالا قريبا قليلا فلـم يلبث صلى الله عليه وسلم كثيرا حتى وجد الله تعالى نصيرا ورأى يومها على الأعداء عسيرا •

سورة الأعلى مكية ، وآياتها تسع عشرة ، نزلت بعد سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى(١) الَّذي خَلَقَ فَسَوّى(٢) وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ المَرْعى(٤) فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى(٥) سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى(٦) إِلاَّ ما شاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَما يَخفى(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى(٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكرى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى(١٠) وَيَتَجَنَّبُها الأَشْقى(١١) الَّذِي يَصْلى النَّارَ الْكُبْرى(١٢) ثُمَّ لا يَموتُ فيها وَلا يَحيى(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥) بَلْ تُؤْثِرونَ الحيوة الدُّنيا(١٦) والآخِرَةُ خَيرٌ وَأَبْقى(١٧) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى(١٨) صُحُفِ إِبْراهِيمَ وموسى)(١٩) .

قوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى) أي نزه اسم ربك الأعلى أي اسم كان عما لا يليق به فلا تؤول مما ورد منها شيئا من غير مقتض ، ولا تطلقه على غيره سبحانه وتعالى إذا كان من الأسماء المختصة ، ولا تستعملـه في مقام

يغتاظ الناس من استعماله ، ولا تحلف به إذا كان في صدق حلفك شبهة . ولا تحمله معك إذا دخلت الخلاء ، ولا تستعمله في الدعاء بالشر على من لا يستحقه (الذي خلق فسوى) أي خلق ما خلقه من العلويات أو السفليات فسوى خلقه وأبرزه كما تقتضيه الحكمة . والموصول مع صلته صفة ثانية للرب ، كما أن الأعلى صفة أولى له (والذي قدر فهدى) أي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فهدى أي فوجه كلا منها إلى ما يناسبه فهدى الإنسان إلى معرفة الخالق والمخلوق وعيش إنساني محترم والحيوان إلى طريق العيش ورعاية الشئون اللازمة لنفسه ولأولاده وهدي النبات إلى طريق استفادة الرطوبة لعروقه والرياح لأغصانه (والذي أخرج المرعى) أي النبات الذي هو محل الرعي للحيوانات (فجعله غثاء أحوى) أي فجعله حشائش يابسة لا قوة لها ولونه بالسواد أو لون يضرب إلى السواد ، وقال بعض أسمر ، ومن جزئيات ما هدى الإنسان بل أشرف نوع الإنسان إليه ما أفاده بقوله (سنقرئك فلا تنسى) أي سنقرئك ما يوحى إليك الآن أو في المستقبل على لسان الملك جبريل فلا تنسى ما تأخذه منه وكرره وراعه حق الرعاية لفظا وتلاوة وتطبيق أحكام ، فإن الألفاظ للمعاني والمعاني لنيل المقاصد (إلا ما شاء الله) أن تنساه من سهو البشر أو بسبب نسخ جاء على تلاوته (إنه يعلم الجهر وما يخفى) من أمورك وغيرها ويعلم ما يوافق الحكمة من التذكر والنسيان .

(ونيسرك لليسرى) أي ونوفقك توفيقا مستمرا للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علما وعملا وتعليما وهداية واهتداء . وكان عليه الصلاة والسلام يختار من الأمور أيسرها ويقول : « أنا وأمتي برآء من التكلف » (فذكر) الناس بالواجبات والمحرمات وسائر الأحكام ونيل الجزاء عند اللقاء يوم القيامة (إن نفعت الذكرى) وأما إذا صادفت كافرا

عنودا أو إنسانا فاسدا حسودا ، أو جاهلا عدوا لدودا فلا تذكره لأنه كلما ذكرت استدبر وكلما عظمت أيام الله استصغر . والإنسان قسمان سعيد يخشى ربّه ولا يترك دربه ، وشقي ينسى ربه ولا يخشى ضربه . (سيذكر من يخشى) ويتعظ بوعظك وإرشادك (ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى) أي الشديدة الالتهاب وهي الدرجة السفلى (ثم لا يموت فيها) ليخلص (ولا يحيى) ليستأنس فيبقى في النار المسعرة الملتهبة حسبما شاء الله (قد أفلح من تزكى) أي تطهر عن أوساخ الكفر والشرك (وذكر اسم ربه) بلسانه وأدى العبادة بإحسانه (فصلى) الصلوات الخمس على مقتضى الشرع وبيانه (بل تؤثرون الحيوة الدنيا) إلتفات من الغيبة إلى الخطاب (والآخرة خير وأبقى) فطوبى لمن اهتدى إلى الصواب (إن هـذا) أي ما ذكر من أول سورة الأعلى إلى هنا (لفي الصحف الأولى : صحف إبراهيم وموسى) والأنبياء إخوة أشقاء في أصول الدين فما عندهم فهو عندك ، وما عندك فهو عندهم بلا تفاوت .

سورة الغاشية مكية وآياتها ست وعشرون ،

نزلت بعد سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

(هَلْ أتيكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ؟(١) وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ(٣) تَصْلى ناراً حامِيَةً(٤) تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ(٦) لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِنْ جُوعٍ(٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ(٨) لِسَعْيِها رَاضِيَةٌ(٩) في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً(١١) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ(١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ(١٣) وأكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ(١٤) ونَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ(١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)(١٦) ٠

قوله : « هل أتاك حديث الغاشية ؟ » المختار أن هل للإستفهام ، لكن الاستفهام هنا فيه معنى التعجب مما بعده ٠ أي هل أتاك حديث المحنة التي تغشى العباد بشدائدها وأهوالها وأحوالها ؟ والمراد يوم القيامة ونفخ الصور مرتين ؛ مرة لإماتة الأحياء وزلزلة الأرض وقلع الجبال وسائر الأمور الأخرى، ومرة لبعث الموتى وإحيائهم وسوقهم إلى المحشر ٠ والناس عند ذلك نوعان :

أحدهما من الكفار المخلدين في النار • وأحدهما من الفائزين بالجنة والنعيم في دار القرار • وعبر عن النوعين بالوجوه لأن الحزن والفرح يظهران على الوجوه فقال : (وجوه يومئذ خاشعة) أي خائفة ذليلة حقيرة عليلة (عاملة) بجر السلاسل والأغلال (ناصبة) أي ذات نصب وتعب فيما يشق عليها من الأعمال (تصلى نارا حامية) أي تدخل نارا قوية الحرارة (تسقى من عين آنية) حارة جدا قطاعة للأمعاء (ليس لهم طعام إلا من ضريع) شجرة شائكة ترعاه الإبل (لا يسمن ولا يغني من جوع) يعني إن طعامهم ليس من نوع طعام الإنس الذي يطعم للإغناء عن الجوع وتسمين البدن ، فلا يفيد شيئا منهما • (ووجوه يومئذ ناعمة) ذات بهجة وحسن تدرك فيها نضرة النعيم (لسعيها) في الدنيا وكسبها الخير فيها (راضية • في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية) مصدر بمعنى اللغو أي لا تسمع فيها كلاما لغوا لا فائدة فيه (فيها عين جارية) قيل : تجري دائما بلا انقطاع (فيها سرر مرفوعة) رفيعة السمك أو المقدار (وأكواب موضوعة) بين أيديهم (ونمارق مصفوفة) أي وسائد ضم بعضها إلى بعض (وزرابي) أي بسط فاخرة (مبثوثة) •

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟(٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم)(٢٦) •

قوله تعالى (أفلا ينظرون) معناه أن عند بني آدم أشياء معلومة لو نظر فيها كانت تدلهم على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له فيقول : (أفلا

ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) خلقا دالا على حكمة خالقها ومدبر أمرها حيث خلقها لحمل الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها باركة للحمل ، صابرة على الأحمال الثقيلة مع العطش ، قانعة بالأشـواك والنوى ، نافعـة بالحليب والنسل والوبر واللحم إلى غير ذلك من المنافع المعلومة (وإلى السماء كيف رفعت ؟) بلا عماد ولا استمساك وتتبلور فيها الكواكب اللامعة كالشموع في مجالس الجموع (وإلى الجبال كيف نصبت) وجعلت كأوتاد الأرض في الطول والعـرض ، وجعلـت حاجزة عن طغيان الناس في مجاري العادات وجعلت منابع للمعادن وأنواع الأشجار والنبات ونبعت منها عيون متفجرات، وأنهار وشلالات ، وإلى الأرض الكروية كيف سطحت بحيث يرى كأرض مسطحة بالاستدارة ومن النيرين في استنارة (فَذَكّر) عباد الله المتبصرين ليتذكروا ويتفكروا (إنما أنت مذكر لست عليهـم بمصيطر) أي بمستول غالب بالمادة حسب العادة (إلا من تولى وكفر) أي لكن كل من تولّى عن الحق وكفر به وبحقوقه (فيعذبه الله العذاب الاكبر) بالنسبة إلى كل عذاب في الدنيا ، فإن الآخرة خير وأبقى ومن شقى فيها فهو أشقى ومن سعد فيها فهو أسعد وأعلى وأرقى . ولا تهتم بأحوال المعاندين (إن إلينا إيابهم) أيَ رجوعهـم (ثم إنّ علينا حسابهـم) فانظر أيها العاقل إلى التخصيصـات والتأكيدات ترى لهم أسفل الدركات وللمسلمين أعالي الدرجات . والحمد لله على كل الهبات .

سورة الفجر ، مكية ، وآياتها ثلاثون ،
نزلت بعد سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

(والفجرِ(١) وليَالٍ عَشرٍ(٢) والشَّفعِ والوَترِ(٣) واللَّيلِ إذا يَسْرِ !(٤) هَلْ في ذلِك قَسَمٌ لِذي حِجْرٍ ؟(٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعادٍ ؟(٦) إرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(٧) الَّتي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلاَدِ(٨) وثَمودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ(٩) وَفِرْعونَ ذي الْأَوتادِ(١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ(١١) فَأَكْثَروا فِيها الْفَسادَ(١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِم رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣) إنَّ ربَّك لَبِالمِرْصادِ)(١٤) •

قال تعالى : (والفجر) أقسم سبحانه وتعالى بالفجر الذي هو مطلع نور الصباح وانشراح الأرواح وانتباه الناس إلى كسب المعاش ووسائل خير المعاد بالطاعة والعبادة للرب سبحانه وتعالى كما أقسم به في قوله : والصبح إذا تنفس (وليال عشر) الليالي جمع الليل أصلـه ليالي على صيغة منتهى الجموع فأعل إعلال قاض ، والمراد بها العشر الأول من ذي الحجة الحرام • أخـرج أحمد والبخاري عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أيام العمل فيهن

أَحَبّ إلى الله عز وجلّ وأفضل من أيام العشر . قيل : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء » .

وروي أنهن العشر الأواخر من رمضان وأيدوا ذلك بالحديث المتفق على صحته قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر تعني العشر الأخير من رمضان شدّ مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله . وعن جماعة أنهن العشر الأول من رمضان . ويؤيد بأنّ الإنسان يصعب عليه المبادرة بما خالف عادته في أوائل المباشرة حتى يألف به ويتعوّده . وعن جماعة أنهن العشر الأول من المحرّم وفيها يوم عاشوراء . وقد ورد في فضله ما ورد . أخرج الشيخان وغيرهما قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهودُ تصوم يوم عاشوراء . فقال عليه الصلاة والسلام : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ قالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله تعالى فيه موسى ، وأغرق آل فرعون فيه فصامه موسى عليه السلام شكرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فنحن أحق بموسى منكم » فصامه صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه . وصح في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم أرسل غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة « من كان أصبح صائما فليتم يومه ، ومن كان أصبح مفطرا فليصم بقية يومه » فكان الصحابة بعد ذلك يَصُومُونَه ، ويُصَوِّمونه صبيانهم الصغار ، ويذهبون بهم إلى المسجد ويجعلون لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار .

وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « صوموا يوم عاشوراء وخالِفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوما وبعده يوماً » . (والشفع والوتر) هما يوم النحر ويوم عرفة . وقالت جماعة :

إن خلق الله هو الشفع أي الذكر والأنثى ، والله هو الوتر (والليل إذا يسر) أقسم بالليل إذا يسري بما فيه من الظلام أو من طاعة العباد من الأنام . أو ليلة النحر يسري فيها الحجاج من عرفات إلى مزدلفة أو الليل الذي سرى فيه الحبيب إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ما شاء الله من الدرجات (هل في ذلك قسم لذي حجر ؟) أي هل في الإقسام بما ذكر وما يحتويه من آثار قدرة الباري عز وجلّ قسم وتأكيد للمقسم عليه لذي حجر أي عقل يحجره ويمنعه عن السوء والمقسم عليه لنهلكن الطغاة بقرينة قوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) وقوله (إرم) عطف بيان للإشعار بأن المراد بعاد عاد الأولى وقوله (ذات العماد) فسر بذات القامة الطويلة ، كما يقال رجل عمدان إذا كان طويل القامة . أو المراد ذات الأعمدة الطوال في المخيمات ، لأنها كانت سيارة ولها خيام يسكنونها (التي لم يخلق مثلها في البلاد) صفة أخرى لعاد أي القبيلة التي لم يخلق مثلها من جهة الهيكل وطول القامة واليدين والصدر والهامة .

ومن المحققين من قال : إن إرم اسم مدينة لهم بين عمان وحضرموت ، وهي أرض رمال وأحقاف فأحكموا بناءها بالعمدان القوية الطويلة الغائصة في الأرض جدا حتى لا تتزلزل بالرياح والعواصف ، وكانت مدينة ذات أبنية رفيعة ، وقلاع منيعة وأعمدة طويلة ، وقصور جميلة وحدائق ذات بهجة جميلة . فلم يكن لها مثيل في تلك العصور السابقة في جزيرة العرب . ويروى أنه كان لعاد ولدان هما شديد ، وشداد . ومات الشديد وصفا الجو لشداد، وملك واستولى على العباد والبلاد ، وبنى تلك المدينة في بعض صحارى عدن في مدة طويلة من الزمن ، ولما أكملها وأراد أن يدخلها دمرها الله وإياهم برجفة هائلة مخيفة ، وخسف بالجميع الأرض وبقي الملك لله الواحد القهار ، فقهرهم لطغيانهم وتمردهم على الله تعالى ورسوله هود عليه السلام .

وقوله (وثمود) عطف على عاد يعني ألم تر كيف فعل ربك بثمود (الذين جابوا الصخر) أي قطعوا الصخر في الجبال ونحتوها وصنعوا فيها بيوتا حصينة منيعة • وقوله (بالواد) أي وادي القرى في مملكة الاردن • وبقوا مالكين مدة حتى أرسل الله إليهم صالحا ، فأهلك الله ديارهم بالرجفة والزلزال (وفرعون) عطف على ثمود أو على عاد ونعت بـ (ذي الأوتاد) لأنها شعار ظلمه المشئوم ، فكان اذا عاقب شخصا شد يديه ورجليه بأربعة أوتاد حتى لا يقدر على الحركة فيحرقه ، أو يكويه حتى يموّته •

وقوله (الذين طغوا في البلاد) نعت للمذكورين المشهورين بالطغيان فقرره عليهم بالموصول وصلته المعهودة لأصحاب التواريخ المعدودة (فاكثروا فيها الفساد) باضلال العباد وتحريفهم عن عبادة الله وتوحيده وبإذلال من عصاهم وبإشباع نفوسهم الأمارة من هواهم • فكان ذلك عقباهم (فصبّ عليهم ربك سوط عذاب) دمرهم في الدنيا بالعذاب ، وقرر لهم في الآخرة أشد العقاب ، والله سريعُ الحِساب • والسَّوط في الأصل مصدر ساط يسوط بمعنى الخلط ، وشاع عرفا في الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوطا من طاقات عديدة ، لتكون آلة للتعذيب شديدة • وقوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد) تعليل لما قبله وإشعار بأن كفار مكة أيضا لما كانوا يمشون مشية السابقين الفاسقين يقربون من ورود مثل ذلك العذاب عليهم ، لأن سنة الله تعالى دائمة ونافذة في اللاحقين كما نفذت في السابقين • والمرصاد في أصل اللغة اسم لآلة الرصد والمراقبة ، والمقصود أنه سبحانه وتعالى ينظر إلى الناس كيف يعملون كالرصدي لما يترصده ، فلا يفوته الذين يظلمون •

(فَأَمَّا الإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلِيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وأمَّا إذَا ما ابْتَليهُ فَقَدرَ عَلَيْهِ

رِزْقَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) ولا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لَمّاً(١٩) وَتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠) كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً(٢١) وجاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً(٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسانُ ، وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ؟(٢٣) يَقُولُ : يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي !(٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ(٢٥) ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(٢٦) يا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيةً مَرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي في عِبادي(٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي)(٣٠) ٠

قوله تعالى : (فأما الإنسان) له اتصال بما بعده فكأنه تعالى يقول : إنا لبالمرصاد للعباد حتى يعملوا للمعاش ويعملوا للمعاد ، ولكنهم على الأغلب يغلبون الأولى على الآخرة (فأما الإنسان إذا ما ابتليه ربه) أي عامله معاملة المختبر وأكرمه ونعّمه ، وهناك يحصل الاختيار له هل يشكر على النعم أو لا ؟ (فيقول : ربي أكرمن) بحذف الياء أي أكرمني وسكت عند ذلك ولم يذكر من فضله ورحمته فكأنه يدعي أنه هو المستحق لذلك بالذات لا من فضل خالق البريات (وأما إذا ما ابتليه) أي عامله معاملة الممتحن (فقدر عليه رزقه) أي فقلله عليه (فيقول ربّي أهانن) أي حقرني ورذلني وليس كذلك لأنه ربما يكون في فقر الإنسان حكم ومصالح كثيرة لا يعلمها إلا الله فليس الإغناء إكراما وإجلالا ، ولا الإفقار تحقيرا وإذلالا وذلك ظن الجاهلين ٠ (كلا) ردع للإنسان عن قوليه كليهما ، فإن ذينك القولين من الأقوال الفاسدة كما أن بعض أعمالكم من الأعمال الفاسدة وأبرزها بقوله الكريم: (بل لا تكرمون اليتيم)

لقساوة القلب اللئيم (ولا تحاضّون) أي ولا يحض بعضكم بعضا (على) إطعام (طعام المسكين ، وتأكلون التراث) الواصل إليكم من الموروثين بدون تقسيم صحيح (أكلا لمّا) أي أكلاً ذا لمٍّ وجمع للحرام والحلال (وتحبّون المال حبّاً جمّاً) أي كثيرا (كلاّ إذا دكّت الأرض دكّا دكّا) ردع للناس عن الأقوال الفاسدة والأعمال الباطلة ، والغفلة بالعاجلة عن الآجلة . ويقول إذا دكت الأرض دكّا على دك أي دكا متتابعا من انشقاقها وانقلاع الجبال عليها وخروج ما فيها من الأثقال والأحمال (وجاء ربك) أي ظهر ذاته الحي القيوم لمحاسبة العباد (و) جاء (الملك صفّا صفّا) مصطفين صفا تلو صف (وجيىء يومئذ بجهنم) أي وبرزت وعرضت لأهل الحساب طرا أجمعين فرأوها ونارها (يومئذ يتذكر الإنسان) أعماله الفاسدة العاطلة وآماله الهوائية الباطلة بعد أن خاب الأمل وضاع العمل (وأنّى له الذكرى ؟) أي ومن أين تكون له الذكرى النافعة ؟ (يقول) إذ ذاك من تيقن خسرانه هناك (يا ليتني قدمت لحياتي) أي قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي الدنيا أو في وقتها أو لأجل حياتي الطيبة بعد البعث (فيومئذ لا يعذب عذابه) أي مثل عذاب الله (أحدٌ ، ولا يوثق وثاقه) أي ولا يشد مثل شد وثاقه (أحدٌ) ومعنى الكلام أن الله تعالى يتولى تعذيب أولئك الكافرين بعد شدّ وثاقهم بالسلاسل والأغلال ، ولا يتولى عمليات التعذيب والتوثيق أحدٌ مثله ، بل هو أشد المعذبين وأقوى الموثقين . ومن الذي يعمل عملا مثل رب العالمين ؟ فهذه أحوال أصحاب النفوس الأمارة بالسوء .

وأما أحوال أصحاب النفوس المطمئنة فهو ما يستفاد من قوله الكريم (يا أيتها النفس المطمئنة) أي بذكر الله وباستمرار الحضور (ارجعي إلى ربك) أي إلى محل عناية ربك وإفاضة انواره (راضية) من الله (ومرضية عنده ، فادخلي في) زمرة (عبادي) المقبولين (وادخلي جنتي) .

سورة البلد ، مكية ، وآياتها عشرون ،

نزلت بعد (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ(١) وأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ(٢) وَوَالِدٍ ومَا وَلَدَ(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ فِي كَبَدٍ(٤) أيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ(٥) يَقُولُ : أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً(٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟(٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ،(٨) ولِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(٩) وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ ؟(١٠) فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ !(١١) وما أَدْرِيكَ مَا العَقَبَةُ ؟(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ(١٧) أُولَئِكَ أَصْحابُ المَيْمَنَةِ(١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحابُ المَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ)(٢٠) ٠

قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد) أي لا أقسم بهذا البلد الذي جعلته أول بيت وضع للناس ، وحرما آمنا للصيانة من الجنة

والناس ، ولاسيما أنت حال وثابت بهذا البلد تضيء الأطراف والأكناف كالنبراس (ووالد وما ولد) أي ولا أقسم بوالد شريف نشر التوحيد في العالم وهو إبراهيم خليل الرحمن واسماعيل ومحمد سيد بني عدنان وإسحاق ويعقوب والأسباط الذين دعوا الناس إلى طاعة الدّيان ، والمقسم عليه (لقد خلقنا الإنسان في كبد) أي خلقنا الإنسان المعهود المشار إليه بأنامل السعود في كبد ونكد ومحن ضاربة للقلب والجسد ، فالإنسان من واجبه طاعة الرحمن ونشر الأمان والإيمان ، وكل من هو كذلك اعترضت دونه عداوة الإنسان الفاسد والعدو المعاند والجاهل الحاسد والكافر الجاحد ، وكل منهم يرمونه بما عندهم من السهام ، ولو كان سهما واحدا كان يتقى فلا مجال إلا الصّبر والعزم • ومنهم من فسر الكبد بظلمة الرحم والمشيمة وبطن الأم والآلام التي ترد عليها بعد الانفصال •

وقوله : (أيحسب) الانسان (أن لَنْ يقدر عليه أحد ؟) يعني بَعد أَنْ بينا شرفكم التالد ووضعكم مع أهل المكايد أيحسب الإنسان المغرور الذي يؤذيك أن لن يقدر عليه أحد حتى ينتقم منه ؟ مع أنه أخف شيء تحت قدرتنا ، ولا قيمة له تحت صولتنا ، ويتوعّد ويهدد ، ويغتر بما عنده من الامكانية والمعونة في سبيل الكفر والإشراك • و (يقول أهلكت مالا لبدا) في سبيل جمع الناس والمكالمة معهم في معارضة الرسول (أيحسب أن لم يره أحد) عند وقوفه بين الناس وتكلمه بما ألقي إليه من شيطان الوسواس ؟ ألا يخاف ذلك الجاهل ربه المنعم عليه بالنعم الكثيرة ؟ (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما ما يحتاج إلى الإبصار (ولسانا) يتكلم به عند الحاجة إلى بيان ما في ضميره (وشفتين) يستر بهما فاه (وهديناه النجدين) أي نجد حجاز ونجد تهامة ، أي طريقي الخير والشر ، أو ثديي أمّه فهل يناسب مقابلة هذه النعم الجليلة بكفران الرب وإنكار رسوله ومنع الناس عن سلوك سبيله ؟ ومع

ذلك كله فذلك الإنسان اللدود ليس له قيمة واقعية اجتماعية (فلا اقتحم العقبة) لحد الآن (وما أدريك ما العقبة ؟ فك رقبة) أي عتق عبد (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) أي ذي مجاعة (يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة) أي فقر وقوله (ثم كان من الذين آمنوا) عطف على المنفي المذكور أي فلا اقتحم العقبة (و) لا كان من الذين آمنوا بالله الواحد العظيم ، ولا كان من الذين (تواصوا) أي أوصى بعضهم بعضا (بالصبر) على الإيمان والثبات عليه (وتواصوا بالمرحمة) أي ولا كان من الذين تواصوا بالمرحمة أي بالرحمة على عباد الله تعالى . (أولئك) الموصوفون بتلك الإيجابيات الحسنة (أصحاب الميمنة) أي جهة اليمين التي هي شعار السعداء (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة) والشؤم والخسارة في دار القرار (عليهم نار مؤصدة) أي غلبت عليهم نار مطبقة أبوابها لا تفتح كما قدره الله تعالى أبد الآبدين .

سورة الشمس ، مكية ، وآياتها
خمس عشرة ، نزلت بعد القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالشَّمْسِ وَضُحِيهَا(١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلِيهَا(٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيهَا(٣) واللَّيْلِ إِذا يَغْشيهَا(٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنِيهَا(٥) والأَرْضِ وَمَا طَحِيهَا(٦) وَنَفْسٍ وما سَوَّيهَا(٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْويهَا !(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيهَا(٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيهَا)(١٠) .

قوله تعالى (والشمس وضحيها) أي أقسم بالشمس هذا الكوكب النهاري المنور لأزيد من نصف كرة الأرض منذ خلقت وما أودع فيها من الأجزاء الشعاعية التي انبهرت العقول في تحقيق حقيقتها ، ومن جملة ما أودع فيها ضوؤها والضوء هو الذاتي للمضيء ، والنور هو العرضي المستفاد من الغير (والقمر إذا تليها) أي تبعها في الطلوع إذا طلع في الافق الشرعي بعد طلوعها ، أو تبعها أي خلفها فإذا غربت هي طلع هذا ، أو تبعها أي كان فرعا لها ، فإن ضياء الشمس ذاتي والقمر عرضي وتبعي (والنهار إذا جلّيها) أي أظهرها ، فإن طلوع الشمس علة لوجود ، ووجود النهار علة للعلم بطلوع

الشمس (والليل إذا يغشيها) أي إذا يستر نورها وضياءها وهذا الإسناد مجازي (والسماء وما بنيها) أي والسماء وبنائها إذا كانت ما مصدرية • وأما إذا كانت موصولة فهي مستعملة للباري سبحانه لانبهام حقيقته (والأرض وما طحيها) أي وطحوها وبسطها من كل جانب (ونفس وما سويها) أي وتسويتها أي إنشائها مستوية مستعدة للأعمال التي أودعها (فألهمها فجورها وتقويها) اى وأفهمها فجورها وتقواها ببعث الرسل ، وبيان السبل وتمييز الرشد من من الغي ، أو جعلها مستعدة ومتمكنة من فهم الزيغ والفجور وفهم التقوى والأجور (قد أفلح من زكيها ، وقد خاب من دسيها) أي أقسم بكل ما اقسمت به أنه قد أفلح وفاز بالفلاح وسعادة الدارين من جعل نفسه زكية بأن تطهر من دنس الهوى واتبع هدى الرسول وفتح باب الوصول، وقد خاب وخسر من دسيها أي أخفاها أي لم يعالجها ولم يظهرها حتى غمست في دنس المعاصي وخفيت فيها • وقد ظهر ظهور الشمس في رابعة النهار من هذه الآيات الكريمة أن تزكية النفس عن الرذائل والأمراض الباطنية واجب من الواجبات ، بل أهمها لأن النفس مدار التصور والتصديق والإخلاص والتوجه الصادق ، فيجب عليه اتباع الشرع الشريف خالصا لوجه الله ، فإن تنور وتزكى فذلك خير وبركة ، وإلا وجب عليه السعي في حصول صديق رفيق يستأنس به ويستفيد منه ، فإذا وجده وجب أن يستمر معه لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) •

(كَذَّبَتْ ثَمودُ بِطَغْوىها(١١) إذِ انْبَعَثَ أَشْقيها(١٢) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ : ناقَةَ اللهِ وسُقْياها(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوّيها(١٤) ولا يَخافُ عُقْبيها)(١٥) •

قوله تعالى : (كذبت ثمود بطغويها) أي بسبب طغيانها وتمردهـا عن إرشاد أخيها الصالح صالح عليه السلام • وقوله (إذ انبعث) ظرف للمصدر السابق والطغيان كان عند انبعاث أشقى قوم ثمود وهو قدار بن سالف فتهيأ واستعد لعقرها (فقال لهم رسول الله) صالح عليه السلام : (ناقة الله وسقياها) أي ذروا ناقة الله وسقياها ولا تمسوها بسوء ولا تمنعوها شربها وإلا حـل بكم عذاب الله (فكذبوه) في هذا التحذير (فعقروها) أي فقطعوا قوائمها فمات (فدمدم عليهم ربهم) أي فأطبق عليهم ربهم العذاب وجعلهم في عذاب عام شامل (بذنبهم) الكبير (فسويها) أي فسوى الدمدمة وطبق عليهم ما أراد من العذاب (ولا يخاف) الباري جل شأنه عاقبة هذه الدمدمة وسـوء نتيجتها ، فإن الله لا يخاف لا من الإرسال ولا من الإيقاف •

سورة الليل مكية وآياتها
احدى وعشرون نزلت بعد الاعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والليل إذا يغشى(١) والنهار إذا تجلى(٢) وما خلق الذكر والأنثى !(٣) إن سعيكم لشتى(٤) فأما من أعطى واتقى(٥) وصدق بالحسنى(٦) فسنيسره لليسرى(٧) وأما من بخل واستغنى(٨) وكذب بالحسنى(٩) فسنيسره للعسرى(١٠) وما يغني عنه ماله إذا تردى)(١١) •

قوله تعالى : (والليل إذا يغشى) أي أقسم بالليل إذا يغشى ضوء النهار وفي الإسناد ما سبق (والنهار إذا تجلى) أي ظهر بزوال ظلمة الليل لطلوع الشمس (وما خلق الذكر والأنثى) أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى أقسم بذلك كله (إن سعيكم لشتى) أي على وجوه عديدة متفرقة (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) أي أعطى ماله للناس المستحقين سواء كان البذل واجبا أو مستحبا واتقى محارم الله أو اتقى عقابه فأخلص نيته في بذل ماله (وصدق) بالكلمة (الحسنى) وهي لا إله إلا الله أو أن الدين عند الله الإسلام أو كل كلمة موافقة للحق (فسنيسره) أي

نهيئه ونعده (لليسرى) أي للخصلة التي تؤديه إلى يسر وراحة (وأما من بخل) بصرف المال وما أنفق المال الذي يجب إنفاقه في حقوق الله أو حقوق الناس ولا تصدّق منه في سبيل الله (واستغنى) بما عنده من الحطام عن المثوبة الحسنى عند الملك العلام أو استغنى بشهوات النفس والهوى في الدنيا وترك حظه في الآخرة (وكذب بالحسنى) أي بالخصلة الحسنى المعهودة المذكورة (فسنيسره) ونهيئه (للعسرى) أي للخصلة العسرى العسيرة جدا ، وهي عذاب النار في دار القرار (وما يغنى عنه ماله) الذي ادخره لنفسه (إذا تردى) أي هلك واستحق العذاب وتردى في نار جهنم إذ ليس الوقت وقت الفداء .

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى(١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى(١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى(١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى(٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى)(٢١) .

قوله تعالى : (إن علينا للهدى) أي إن علينا بموجب قضائنا المبنيّ على الحكمة الهدى والإرشاد لكم إلى الحق وتمييز طريق الخير والشر (وإن لنا للآخرة والأولى) أي وإن داري الدنيا والآخرة لنا تتصرف فيهما كيف نشاء ، لكن قررنا أن نعمة الدنيا وهي الدار الأولى قد تكون لأهل الكفر كما قد تكون لأهل الإيمان ، وأما نعمة الدار الآخرة فلا يمكن إعطاؤها إلا للعباد المخلصين (فأنذرتكم ناراً تلظى) أي تتلظى وتتلهّب بقوة وشدة (لا يصليها) أي خالداً (إلا الأشقى الذي كذب) بالحق (وتولّى) عنه (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله) للمستحقين حالكونه (يتزكى) عن حب الدنيا (وما لأحد

عنده من نعمة تجزى) حتى يتوهم أن صرف المال له في مقابل تلك النعمة (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) أي لكن يبتغي ويطلب وجه ربه الأعلى (ولسوف يرضى) بما يعطيه ربه .

وقوله : (وسيجنبها الأتقى) الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لما اشترى بلال بن رباح من سيده ، وهو أمية بن خلف ، وكان الصديق رضي الله عنه يبتاع الضعفة فيعتقهم ، فقال له أبوه : أي بُنَيّ لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ؟ فقال : منعَ ظهري أزيد . فنزلت الآية .

وبلال ابن رباح الحبشي واسم امه حمامة ، كان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ! فيقول وهو في تلك الحال : أَحَدٌ أَحَدٌ ! فمر النبي صلى الله عليه وسلم به فقال : « أحَد ينجيك » يعني الله تعالى ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : « إن بلالا يعذب في الله » فعرف أبو بكر الذي يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب ومضى إلى أمية بن خلف فقال له : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ قال : أنت أفسَدْتَه فأنقذه بما ترى . ففي رواية أنه فداه برطل من ذهب . وفي رواية أنه قال له : عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، وهو على دينك فأعطاه ، وأخذ بلالا فأعتقه . وكان قد أعتق قبله ست رقاب ، وهم : عامر بن فُهَيرة شهد بدرا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا . وأعتق أم عميس زهرة فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش : ما أذهبَ بصرها إلا اللات والعزى . فقالت : كذبوا وبيت الله ما تضر اللات

والعزى وما ينفعان فرد الله تعالى عليها بصرها • وأعتق الفهيرية وبنتها وكانتا لامرأة لبني عبدالدار فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما تحتطبان لها وهي تقول لهما : والله لا أعتقكما أبدا • فقال أبو بكر : كلاّ يا أم فلان • فقالت : كلا أنت أفسدتهما • قال : فبكم ؟ قالت : بكذا وكذا • قال : قد أخذتهما وهما حرّتان • ومرّ بجارية من بني المرسل وهي تعذب فابتاعها فأعتقها • ولما أعتق أبو بكر بلالا قال الكفار : إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده • فنزل (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) بما يُعطى من الثواب فتبين من المقام أن المراد بالأتقى أبو بكر رضي الله عنه كما أن المراد بالأشقى أمية بن خلف •

واستشكلت هذه الآية في مقابل الآية السابقة (لا يصليها إلا الأشقى الذي كذب وتولى) فإن مفهوم الأولى لا يدخل النار الشقي كافرا أو مسلما ، ومفهوم الثانية أنه لا يجنبها التقي غير الأتقى وهو التقي والشقي وهما متعارضان ! وأجيب عنه بأجوبة •

الأول : أن الصلي هو الدخول في أتعس الدركات في النار فتلك مختصة بالأشقى الذي كذب وتولّى ، ثم قال : وسيجنبها أي يبعّد من صَليها الأتقى • وأما التقي والشقي فيجوز أن يعذبا في غير تلك الدركة سواء خرج منها بعد ، وذلك إذا كان مسلماً ، أو لم يخرج ، وذلك إذا كان كافرا •

الثاني : أن المراد بالصلي الصلي المخلد كما قيدناه به بقرينة الآية الكريمة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وأمثالها من الآيات •

الجواب الثالث : أن من لم يعتبر مفهوم الكلام فلا إشكال عليه ، وأما من اعتبره فقد اشترط أن لا يكون الوصف أو القيد لموافقة الواقع كما في

قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) فإن الآية نزلت في قوم والوا اليهود دون المؤمنين ، وإلا فمن اتخذهم أولياء مع المؤمنين أيضا كذلك ، أي إن عمله حرام . وهنا واقع الحال أن أبا بكر وهو الأتقى اشترى العبد وأعتقه وسيجنب النار في دار القرار ، ومقابله وهو الأشقى أي أمية بن خلف يصلاها في أشد عذاب بالنار . ولا يعتبر هنا حكمُ الشقي بعد الأشقى ولا حكم التقي مع الأتقى . وهذا ظاهر الحال واندفع الإشكال ، ولله الحمد في كل مقام وحال .

سورة الضحى ، مكية ، وآياتها
إحدى عشرة ، نزلت بعد الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالضُّحى(١) واللَّيْلِ إذا سَجى(٢) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى(٣) ولَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولى(٤) وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى(٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً فَآوى ؟(٦) وَوَجَدَكَ ضالاً فَهَدى(٧) وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى(٨) فَأَمَّا الْيَتيمَ فَلا تَقْهَرْ(٩) وَأَمَّا السّائِلَ فَلا تَنْهَرْ(١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(١١) •

قوله تعالى : (والضحى) ولما نزلت كبر صلى الله عليه وسلم آخرها وروي الأمر بها خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهي الله اكبر • وفي رواية لا إله إلا الله والله اكبر • وفي رواية ثالثة لا إله الا الله والله أكبر ولله الحمد وعليها العمل •

والضحى الوقت بعد الإشراق إلى الزوال • أقسم الباري سبحانه وتعالى بالضحى والوقت المعتدل المبارك الذي فيه ينشط كل عامل لعمله ، وهو وقت كسب زاد المعاش وزاد المعاد (والليل إذا سجى) أي غطى بظلامه ضوء

النهار • وفي مجيىء ذلك الوقت أسرار كراحة العباد بعد العمل طول النهار ، وفراغ الإنسان للطاعة والعبادة والابتهال إلى ربـه الغفار ، والاستتار من الأعداء والأشرار ••• إلى غير ذلك فأقسم بالأمرين أنه (ما ودعك ربك) أي ما تركك ترك تعسف (وما قلى) ك أي ما أبغضك بغضا خارجا عن التلطف •

واختلف في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقوال :

الأول: ما روي من أنه صلى الله عليه وسلم اشتكى ليلتين أو ثلاثا فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب وقالت : يا محمد إني لأرجو أن يكون قرينك تركك! لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت •

الثاني : أنه أبطأ الوحي حتى شق عليه ، فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية •

الثالث: ما روي من أن خولة كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم قالت: إن جرواً دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة هل حدث في بيتي ؟ إن جبريل لا يأتيني • قالت خولة : فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا جرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه • وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة فقال : يا خولة دثريني فلما نزل جبريل سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخر فقال : أما علمت انّا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة ؟

الرابع: ماروي من أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وذي القرنين ، وأصحاب الكهف فقال صلى الله عليه وسلم : سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس منه الوحي إلى أن نزل جبريل عليه السـلام

بقوله تعالى (ولا تقولن لشيىء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) ثم أخبره بما سأل عنه ونزلت •

والصحيح أن هذه الحادثة أي فتور الوحي حدثت مرتين مرة بعد نزول الوحي عليه السلام في غار حراء حيث توقف نزول الوحي عنه مدة واختلف الناس في حسابها فمنهم من قال : ثلاثة أيام بلياليها ومنهم من قال : كانت خمسة عشر يوما • ومنهم من قال خمسا وعشرين يوما ومنهم من قال أربعين يوماً وهذه المرة كانت في مكة المكرمة • ومرة انقطع الوحي عنه بعد سؤال اليهود عنه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين • وهذه المرة كانت في المدينة بعد الهجرة وكانت المدة مدة وجيزة •

وقوله (وللآخرة خير لك من الأولى) أي إن آخر مدة نبوتك خير لك من أول مدتها ، حيث يتم فيها النصر المبين وانتشار الدين • أو إن الآخرة خير لك من الأولى لأنها تصفو لارتقاء الروح ، والفوز بالفتوح ، والوصول إلى كل ما وعد الله به عباده المؤمنين ، وتحصل لك رتبة الشفاعة ومقام الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود (ولسوف يعطيك ربك) الآخرة ودرجاتها وبركاتها من لقاء الله تعالى ورؤية وجهه الكريم وإذن الشفاعة الكبرى لجميع الأمم في الخلاص من وقوف الموقف والشفاعة لبعض العصاة المستحقين للعذاب بالعفو ، وللمستحقين لرفع الدرجات إلى غير ذلك من اللطائف • ويجوز تفسير العطاء بما قلنا وبما خصه به في الدنيا من هجرته واستقراره في دار الهجرة ، وما ناله من العز والنصرة ، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائه من مسيرة شهر ، ووفور الصلاح والتقوى ، ومزيد العلم واكتساب الكمالات في أمته المرحومة •

وقد أخرج مسلم ، كما في الدر المنثور ، عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام (فمن تبعني فإنه منّي) وقوله

تعالى في عيسى (إن تعذبهم فإنهم عبادك) ... الآية فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، وقال : « اللهم أمتي أمتي » وبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك . ثم أشار الباري إلى الاستدلال على شمول النعمة عليه في المستقبل بشمولها له في الماضي فقال (ألم يجدك يتيما فآوى ؟) أي ألم يجدك يتيما بفقد الأب قبل ولادتك فآواك وأرجعك إلى من تكفل تربيتك من جدك عبدالمطلب ثم عمك أبي طالب على توصية جدك فكنت تعيش فارغ البال واسع الحال (ووجدك ضالا) أي خاليا عن الشريعة والأصول الاعتقادية والعملية (فهدى) لك إليها هداية بالتوفيق والعناية والرعاية ؟ . وليس المراد عن الحق إلى الباطل، وحاشاه فإنه ولد نظيفا شريفا متوجها إلى ربه، ولم يسجد لصنم قط ، ولم يعتمد على غير الباري تعالى ، لكن لم تكن له شريعة إلى أن بعثه الله تعالى وأنزل عليه القرآن الهادي للطريق الأقوم ، فالمراد من الضلال الابتعاد عن الشرع والخلو عنه إلى أن صار ينبوع الفضل والعلم والحكمة ومنبع الخير والكرم والرحمة ، (ووجدك عائلا) أي عديم الثروة والمال على ضنك من الفقر وقلة ذات اليد فأغنى أي فاوسع لك الثروة وما تحتاج اليه وذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بما حصله من أرباح التجارة ، وبعده بما صار له من الفييء الواصل إليه ، كما هو مقرر في الدين . فلما أدركت تلك الأحوال مباشرة ووصلت إلى مقابلها من فيضان رحمة الحق سبحانه (فأما اليتيم فلا تقهر) اليتيم منصوب بالفعل بعده أي فلا تقهر اليتيم أي اصنع مع يتامى عبادي كما صنعت معك (وأما السائل فلا تنهر) والسائل منصوب بما بعد ، أي ولا تنهر السائل ولا تزجره . والمعنى إما أن تطعمه أو ترده برفق ولطف ولين كلام (وأما بنعمة ربك) أي ومتى نظرت إلى نعمة ربك الواصلة إليك منه تعالى (فحدث) بها بيانا لفضله وكرمه وفيض نعمه ولا تسترها ،

فإن التحدث بها كذلك من جملة شكرها ، كما أن صرفها فيما يناسبها من شكرها .

عن جابر بن عبدالله مرفوعا من أعطي عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور .

ونسأل الله تعالى أن يحفظنا عن لبس ثوبي الزور وأن يلبسنا لباس الأدب والتقوى والنور بمنه وفضله آمين .

سورة الشرح ، مكية ، وآياتها ثمان ،
نزلت بعد الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟(١) وَوَضَعْنا عَنكَ وِزْرَكَ(٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ(٣) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ(٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً(٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ(٧) وإلى ربِّكَ فَارْغَبْ)(٨) .

قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ؟) الشرح في الأصل بسط اللحم ونحوه . يقال : شرحت اللحم أي بسطته وشققته . وشاع استعماله في الإيضاح . ومنه شرحت الكتاب ، وشرحت المقصود ، أي أوضحته . والمراد هنا توسعة صدره صلى الله عليه وسلم بالأنوار الإلهية ، وإفاضة العلوم اللدنية عليه ، وإكمال قوته المعنوية ، ليكون قابلا للصبر على المكروهات ، والثبات عند مزيد الهبات ، والتمكن من مقابلة المهمات ، وقابليته لمناجاة الحق سبحانه ، ومداراة الخلق ليقبلوا شرحه وبيانه . وهذه المعاني تدور على شرح الصدر غيبا فالمعنى : ألم نفسح صدرك حتى عالمي الغيب والشهادة ؟ وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة ، فما منعك العلائق الجسمانية عن اقتباس

أنوار الملكات الروحانية ، وما عاقك العلاقة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شئون الحق .

وفسره بعض بشق صدره الشريف شقا غيبيا ملكيا . فقد روي أن جبريل عليه السلام أتاه وهو عند مرضعته حليمة ، وهو ابن ثلاث سنين أو أربع ، فشق صدره وأخرج قلبه وغسله ونقاه ، وملأه علما وإيمانا ، ثم رده في صدره . وحكمة ذلك لينشأ على أكمل حال ، وشق أيضا بعد بلوغه عشر سنين ليأتي عليه البلوغ ودور المراهقة ، وهو على حالة جميلة فائقة . وشق أيضا عند البعثة ليتحمل القرآن الشريف بقلب لطيف نظيف ، وليلة الإسراء ليتهيأ له مناجاة الحق سبحانه وتعالى وهو على أطيب الأحوال وكل ذلك مذكور في كتب السير المفصلة ، كالمواهب اللدنية وغيرها ومن أراد الاطلاع على رواية ذلك فليطالع تلك الكتب .

وسر دوران الأمر على الصدر هو أن الصدر كرسي القلب أي من جوانب القلب ، وليس الكلام في القلب وهو لحم صنوبري ، بل الكلام فيما أودع فيه من أسرار الحق وأنواره ، وكيف جعل مظهرا لآثار الروح الإنسانية فإن الإنسان ممتاز عن أنواع الحيوان بالروح الإنسانية المعبر عنها بالنفس الناطقة . وهذه الروح الإنسانية مميزة بإدراك الكليات والجزئيات المجردة والمادية وعليه مدار السعادة ، وهذا الإدراك علم وصفة نفسانية من أهم أسبابها القوة العاقلة ، والقوة العاقلة صفة للروح الإنسانية وآثار الروح تظهر في القلب ومحله الصدر ، ولذلك كرر في القرآن الكريم الصدر وينوه بشأنه بآيات مثل قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟) ومثل قوله تعالى (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) وقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) وقوله (ألم نشرح لك صدرك ؟) وقوله (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في

الصدور) فشرح الصدر أساس لكل عز روحي وفخر إنساني وعلاقة ربانية وقد شرح الله صدر حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة والرسالة ، وكفى بشرح صدره لتحمل أعباء الرسالة بين أولئك المشركين المعاندين وتحمل أذاهم في كل وقت وحين ، واستمراره مع ذلك على دعوة العباد إلى الله ونشر حقائق الدين .

(ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) الوضع إذا تعدى بعن فهو للإزالة ، كما أنه إذا تعدى بعلى فهو للتقرير . والوزر الشيء الثقيل ، والانقاض التصويت ، فإن الإنسان إذا حمل شيئا ثقيلا على كتفه فالكتف يحصل منها نوع تعب عند اعتماد ذلك الشيء الثقيل عليها . وهذا الوزر كان عبارة عن كلفة مواجهة المشركين ودعوتهم إلى توحيد الله وصعوبة مقاومته لكلامهم البذيء في الرد عليه والصبر على ما يسمعه من أقوالهم الباطلة ، وخوف إبادة أتباعه الفقراء من الغيظ والعداء ، وكلفة حمل أقاربه الأقربين من بني عبدالمطلب لهجمات سائر المشركين ، وضيق صدره من قلة أعوانه في ابتداء الدعوة . وقد رفع الله تعالى كل ذلك عنه ، فسهلت عليه مواجهة الكفار ، والكلام معهم والنصح لهم ، وسهلت مقاومته لهم ، وحصل له الصبر الكامل على ما يسمعه منهم ، ولم يبق عنده خوف إبادة أتباعه المؤمنين ، وتحمل أقاربه كلفة الذهاب الى شعب أبي طالب ، وصارت له سعة الصدر في مقابل الناس كيفما كانوا . وهذا الأمر وهذه المرونة حصل له بعد اسلام حمزة عمه ، وعمر بن الخطاب ، وعدد من رجال قريش واشخاصهم قبل الهجرة . والحقيقة أن وضع الوزر عنه صلى الله عليه وسلم وإن كان موجودا في أول عصر النبوة لكنه تحقق بعد الهجرة ولذلك أيد بعض العلماء ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه السورة مدنية . وحاصل المعنى : أزلنا

عنك تلك الكلف والمخاوف وضيق الصدر الموجود أول البعثة بما يسرناه لك من أسباب الفوز والنجاح •

(ورفعنا لك ذكرك) أي ألم نرفع لك ذكرك بأن سماك الله بالرحمة للعالمين وخاتم النبيين ، وقرن اسمك مع اسمه في كلمتي الشهادة ، وفي الأذان والإقامة يوميا خمس مرات افتراضا أو استحبابا ، وفي كل تشهد في الصلوات المفروضة والمندوبة ، وفي الخطب المنبرية وغيرها ، وفي الصلوات المشروعة للكسوف والخسوف والعيدين ، وفي الأمر بإطاعة الله ورسوله وإرجاع بعض الأمور إلى الله ورسوله ، وفي صحف الأنبياء والرسل السابقين ، وفي تأريخ أعيان البشر ، وفي كثير من الآيات القرآنية ؟ وكفى بجعلك صاحب المقام المحمود والشفاعة الكبرى للأنام رفعا للذكر •

وما دام خصك الله بهذا المقام الرفيع اللائق بالنبي الشفيع فلا تنزعج من أذاهم وهواهم أبدا ، فانها أشياء مؤقتة تزول (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) قالوا : قد تقرر أن إعادة الشيء المعرف لتوحيد الثاني مع الأول، فعليه يلزم أن يكون كل عسر محفوفا بيسر قبله ويسر بعده ، مع أنه لا يطرد فإن كثيراً من المسلمين وقعوا في عسر وشدة واستمروا فيها إلى أن ماتوا متحسرين ! وأجيب عنه بأجوبة منها : أن الاستغراق الموجود في الآية عرفي ، أي غالب من وقع في العسر أتاه اليسر بعد مدة وجيزة • ومنها أن هذا الحكم مقيد بمشيئة الله تعالى نظير سائر الأمور المطلقة ، أي إن شاء ذلك كان كذلك• ومنها أن التنوين في يسرا للتنويع ، ومعناه أن مع كل عسر يسراً ما ، فإنه سبحانه لا يسد أبواب الخير على المبتلى ، فإذا ابتلاه بعسر أنعم عليه بيسر كيفما كان • وقوله (فإذا فرغت فانصب) أي إذا فرغت من الصلاة فانصب واتعب في العبادة (وإلى ربك) لا إلى غيره (فارغب) أو إذا فرغت من تبليغ الدين وجهاد الكافرين فانصب واتعب في العبادة وإلى ربك فارغب •

سورة التين ، مكية ، وآياتها ثمان ،

نزلت بعد سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهذا الْبَلَدِ الأَمِينِ ! (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (٥) إلاَّ الَّذِين آمَنُو ا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، فَلَهُمْ أَجْرٌ غيرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ؟ (٧) أَلَيسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ؟) (٨) .

قوله تعالى (والتين والزيتون) في المراد بهما أقوال كثيرة للمفسرين أنسبها بسبب المقارنة مع طور سينين والبلد الأمين أنهما اسمان لجبلين . في تفسير الفخر الرازي رحمه الله تعالى قال ابن عباس رضي الله عنهما : هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية : طور تينا وطور زينا ، لأنهما منبتا التين والزيتون ، فكأنه تعالى اقسم بمنابت الأنبياء فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام ، والبلد المختص بالزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل . والطور مبعث موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مبعث محمد

صلى الله عليه وسلم فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم • إنتهى •

يعني أن الله تعالى أقسم بالأماكن التي ولد وظهر فيها الأنبياء الكرام المعهودون وحقيقته ترجع إلىٰ الإقسام بذاته الجليلة أي أقسم بذاتي الذي بعث عيسى بلا أبٍ من طورتيناء ، وبعث كثيرا من أنبياء بني إسـرائيل من طورزينا ، وبعث موسى من طورسينا ، وبعث محمدا من البلد الأمين مكـة المكرمة أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم •

القول الثاني : أنهما اسمان للشجرتين المعروفتين ، أو ثمرهما ووجـه الإقسام بهما احتواء الثمرتين لمنافع مهمة •

أما التين فلأنه فاكهة لطيفة سريعة الهضم لا تمكث في المعدة كثـيرا ، وتلين الطبع ، وتقلل البلغم ، وتطهر الكليتين ، وتزيل ما في المثانة من الرمل وهو مرض يستولي على مقر البول فيحجز الماء عن الخروج بأجزاء دقيقـة كالرمل يعسر معه البول ويتأذى به الإنسان ، فإذا زاد صار حصاة ، وتفتح سدد الكبد والطحال ، وتسمن البدن ، وتقطع البواسير ، وتطول الشعر ••• إلى آخر ما قاله المجربون حسب تجاربهم •

وأما الزيتون فهو من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح • والمقسم عليه قوله الكريم (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أي في أحسن تعديل لصورته وسيرته ، أما صورته وهيكله فأحسنيته معروفة من مقايسته بسائر الأنواع من الزحافات والمشاة على أرجل كثيرة ، أو على أربع ، أو على رجلين من الطيور • وأما تعديل سيرته فهو أنه لو خلي وطبعه وترك وخليقته اقتضى عقله أن يعترف بربه ويطيع أوامره ويجتنب منهياته • وإذا ألقيت إليه التعليمات الدينية القويمة تقبلها وعمل بها (ثم رددناه أسفل سافلين) أي إلى

سيرة هي أسفل سير السافلين بواسطة تبعيته للقوى النفسية المخلوقة فيها من الطمع والشهوة والغضب الداعية إلى الانحراف عن السبيل القويم (إلا الذين آمنوا) بالله حق الإيمان (وعملوا الصالحات) بإخلاص وإتقان (فلهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع (فما يكذبك بعد بالدين ؟) أي بعد أن علمت أن الإنسان مخلوق بقدرة الله على أحسن تقويم صورة وسيرة وأعطاك الله قابلية للخير والشر وهداك ببعث الرسول وبالقرآن المنزل عليه إلى ما فيه سعادة الدين فأي شيء يدعوك إلى أن تكذب بالدين وتزعم أو تقول أنه لا جزاء في الآخرة ، على معنى أنه لا تأتي الآخرة حتى يتسلم كل عامل حقه أو تأتي ، ولكن غرورهم يجعلهم بحيث يدعون أنهم لا جزاء عليهم ولا تمسهم النار مطلقا أو إلا أياما معدودات (أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) أي أليس الخالق الذي فعل كل ما ذكر وظهرت قدرته على كل ما أراد فعله بأحكم الحاكمين ؟ ولا مجال في الجواب إلا بكلمة بلى ، وإلا فنعم يجلب أشد البلاء أعاذنا الله منه .

سورة العلق ، مكية ، وآياتها تسع عشرة
وهي أول ما نزل من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى(٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى(٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى)(٨) ٠

قوله تعالى (إقرأ بسم ربك الذي خلق) هـذه السورة التي تسمى سورة اقرأ ، وسورة العلق هي أول ما نزل من القرآن ثم بعده (ن والقلم) ثم (المزمل) ثم (المدثر) وهكذا قال الخازن ، ولكن المشهور عن غيره إن أول ما نزل بعد اقرأ سورة المدثر ٠ وهذه السورة صدرها إلى مالم يعلم أول ما نزل من القرآن ، وذلك بغار حراء رواه البخاري وعبارته عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصّالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصباح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بحراء ويتحنّث فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجةَ ويتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ؛ فجاءه الملك

فقال له : (إقرأ) قال : ما أنا بقارئٍ فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجهدَ ثم أرسلني فقال إقرأ ، قلتُ : ما أنا بقارئ فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال (إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) . فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زمّلوني، زمّلوني، فزملوه حتى ذهب الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسي . فقالت له : كلاّ أبشر فوالله لا يُخزيك اللهُ أبدا ؛ إنك لتَصل الرَّحِم ، ولتَصْدُقُ الحَديث ، وتحمِلُ الكَلّ ، وتَكسِبُ المُعْدِمَ ، وتقري الضّيفَ ، وتُعين على نوائِبِ الحق .

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي وهو ابن عم خديجة ، وكان ممن تنصّر في الجاهلية ، وكان يَكتُب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن العم اسمع من ابن أخيك . فقال له : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره صلى الله عليه وسلم خبَرَ ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ ؟ قال : نعم لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودِيَ ، وإنْ يدركني يومُك حيّا أنصرك نصرا مؤزّراً . ثم لم يلبث ورقة أن تُوفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغنا ، حزنا شديدا غدا منه مِراراً إلى أن يتردّى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقيَ نفسَه منه تبدّى له جبريلُ فقال : يا

محمد إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه ، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل ليُلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك • ومعنى قوله تعالى (إقرا باسم ربك) إقرأ مبتدئاً باسم ربك الذي خلق الخلائق كلها •

(خلق الإنسان من علق) أي ربك القادر المقتدر الذي خلق الإنسان وهو أشرف مخلوق ممتاز بالعقل والعلم من علق أي دم جامد ، فإن النطفة تبقى في الرحم على حالها أربعين يوما ، لكن مع تحول تدريجي حتى تصير في آخر المدة دما ، ويبقى دما إلى أربعين يوما • والدم دم ماكث جامد ليس بسائل لأنه في صدد التحول إلى مضغة وهي قطعة لحم • والمراد بالإنسان النوع ، وذلك النوع مخلوق من علق وإن كان أبو النوع وهو فرد منه خلق من تراب لا من علق • ومن الناس من قال إن المراد بالإنسان آدم ، والمراد بالعلق الطين يتعلق به اليد فيتصرف فيه ويصوره حسبما أراد ، ولكن تفسيره به مما يخفى على العقول • واستدل المثبتون للبسملة جزءً من السور بهذه الآية الكريمة حيث قال إقرا باسم ربك أي إقرا مفتتحا باسم ربك ، وقل بسم الله ثم اقرأ وهو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عز وجل لم يكن ممتثلا • وقد أخرج الواحدي عن عكرمة والحسن أنهما قالا : أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم ، وأول سورة نزلت اقرأ ، وكذلك أخرج جرير عن طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا محمد استعذ ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم • وقد عد القول بأنها أول ما نزل أحد الأقوال في تعيين أول منزل من القرآن •

(إقرأ) كرره للتأكيد (وربك الأكرم) الزائد في الكرم وحده على الحقيقة (الذي علم بالقلم) أي علم الخط والكتابة باستعمال القلم (علم الإنسان مالم يعلم) بالوحي إلى الأنبياء وإلهامهم وإلهام الأولياء ، وتوفيق

المتفكرين الأذكياء وتنوير الصالحين الأتقياء ، وبالتجاريب العديدة في الأمور الحيوية العالمية في الدنيا ، وبزيادة قوة الاستنباط واستخراج المفاهيم الدقيقة الخفية من النصوص السماوية والدساتير المقررة ، فهذه الأمور كلها كما ذكرنا من أسباب تعليم الإنسان وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، ولما ذكر تلك النعمة العظيمة وهي نعمة التعليم التي عليها أساس الترقي والفوز بسعادة الدارين ، أو معرفة وجوه الطاعات والعبادات ، وكان الواجب على الإنسان العاقل الخضوع والتذلل مع أنهم عاملوا على خلاف ذلك ، وكانوا يعادون الرسول صلى الله عليه وسلم على الصلاة التي هي أشرف العبادات البدنية .. ردعهم الباري وزجرهم بقوله (كلا) ردع لمن كفر من نوع الإنسان لاسيما المشركين الموجودين في مكة وقت النزول (إن الإنسان ليطغى) أي ليتجاوز الحد في المعصية (أن رآه استغنى) من أجل أن رأى نفسه استغنى بقوته ، أو ثروته ، أو عشيرته ، أو أولاده ، أوجاهه ، أو وظيفته ، أو جهالته ... ونسي ضعفه وحاجته إلى ربه ولا حق له في ذلك الطغيان فإن الأحوال سجال ، والدنيا دولة ، والآخرة دار الجزاء (إن إلى ربك الرجعى) أي رجوعه ورجوع غيره إلى الباري فينال جزاء شره وخيره ، وينتقم منه على سوء سلوكه وفساد سيره .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى(٩) عَبْداً إذَا صلَّى ؟(١٠) أَرَأَيْتَ إنْ كانَ عَلى الْهُدى ؟(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى(١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ؟(١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى ؟(١٤) كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ(١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ(١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ(١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ(١٨) كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ ، واسْجُدْ واقْتَرِبْ)(١٩) .

ثم ذكر بعض آثار الطغيان المتحقق في بعض بني الإنسان وقال (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلّى ؟) والعبد المصلي هو الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والناهي هو الكافر أبو جهل . أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أباجهل حلف باللات والعزى : لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلّي لَيَطأن على رقبته ، وليعفّرن وجهه ! فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليفعل ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقي بيديه ! فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » فنزلت الآية (كلا إن الإنسان) إلى آخر السورة (أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ أرأيت إن كذب وتولّى ألم يعلم بأن الله يرى ؟) أي أخبرني لو كان المنهي عن الصلاة ثابتا على الهدى ومتمكنا فيه أو أمر الناس بتقوى الله وطاعته أو كان على خلاف ذلك وكذب بالحق وتولى واستدبره (ألم يعلم بأن الله يرى) كل ظاهر من الأحوال وباطن من طبيعة الإنسان ؟ فأي علاقة له بذلك الإنسان وربه يراقبه كيف كان ؟ فلم يزجره عن الصلاة والعبادة ؟ (كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية) أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه إلى النار يوم القيامة ، والسفع الجذب بقوة وشدّة . (ناصية كاذبة خاطئة) بدل من الناصية السابقة (فليدع) ذلك الكافر الناهي المعاند (ناديه) أي أهل ناديه لنصره ومعونته (سَنَدعُ الزبانية) أي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار ، وهو في الأصل الشرط أي أعوان الولاة ، وهي جمع لا واحد له من لفظه كعباديد ، وقيل : مفرده زبنية كعفرية ، أو زبني كأنه نسب إلى الزبن وهو الدفع (كلا) ردع للناهي الغريق في المناهي (لا تطعه) ودم على ما أنت عليه من مخالفته (واسجد) وواظب غير مكترث به على أداء الصلوات لربك (واقترب) وتقرب بذلك إلى ربك .

سورة القدر مكية واياتها خمس نزلت بعد عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَا أَدْرَيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)(٥) •

قوله تعالى (إنا أنزلناه) أي القرآن الكريم وهو وإن لم يسبق ذكره قريبا لكن شهرة أمره وعظم قدره جعله كأنه مذكور وحاضر ومسطور • والإنزال متعلق به باعتبار إنزال الملك الموكل به وهو جبريل ، أو أن الإنزال بمعنى الإيحاء • ونوقش بأنه لم ينزل كله مرة واحدة فكيف قال أنزلناه ؟ والجواب : أنه مبني على إنزال كله مرة واحدة من اللوح إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، أو المراد ابتدأنا إنزاله والشيء المتتابع اللامنقطع بعضه عن بعض إذا نزل بعض منه فكأنه نزل كله (في ليلة القدر) إما بمعنى ليلة الشرف والعظمة ، أو بمعنى ليلة تقدير الأمور المستقبلية ، فإنها تقدر المتعلق بكل سنة من السنين في هذه الليلة ، وما يقال من أنها قدرت في ليلة النصف من شعبان ، فجوابه أنها قدرت في نصف شعبان ، ولكن نفذت من ليلة القدر في رمضان • روي أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني

إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله عز وجل ألف شهر تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى لأمته فقال : « يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا ، وأقلها أعمالا » فأعطاه الله ليلة القدر فهي من خصائص هذه الأمة ، وهي باقية على الصحيح ، والعبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر وهي ثلاث وثمانون سنة .

وإنزاله كان في ليلة القدر إلى بيت العزة مرة واحدة ، ثم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما متفرقة في مدة في ما بين البعث ووفاته صلى الله عليه وسلم . ومعنى إنزاله من اللوح إلى بيت العزة أن جبريل أملاه على ملائكة السماء الدنيا فكتبوه في صحف ، وكانت تلك الصحف في محل من تلك السماء يقال له بيت العزة . فإن قلت : إن البعثة كانت على رأس الأربعين وميلاده صلى الله عليه وسلم كان في ربيع الأول ؟ فكيف يكون مبدأ الوحي في رمضان في ليلة القدر ؟ أجيب بأن مبدأ الوحي كان بالرؤيا في ستة أشهر ، وبدأ بربيع الاول وانتهى بأوائل رمضان . ثم نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم في رمضان .

والذي يظهر من الأحاديث الشريفة أن ليلة القدر ليلة شريفة خير من ألف شهر ، وتكون في رمضان المبارك ، وتنتقل أي قد تكون الليلة الأولى وقد تكون غيرها من الليالي . والظاهر من أقوال المحققين في الحديث الشريف أنها في العشر الأواخر من رمضان ، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان . وحكمة انبهام عينها أن يرغب الناس في إحياء ليال كثيرة من هذا الشهر المبارك . وإذا أمكن لشخص أن يحيي ليالي رمضان كلها فذلك بركة لا يساويها بركة أخرى من إحياء الليالي بالطاعة .

(وما أدريك ما ليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر) وهذه الآية بيان إجمالي لشأنها وشرفها عند الله تعالى ، ودرجات الأجور لأهل الاحياء فضل" من الله تتبع درجات نياتهم ، ومن أحوالها أنه (تنزل الملئكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) الملئكة : وإن كان اسما للنوع لكن المراد جمع مخصوص مأمورون بالنزول في تلك الليلـة . والروح : هو جبريل عليـه السلام . ونزولهم يكون بأمر صادر من ربهم سبحانه وتعالى . وقوله : من كل أمر أي من أجل كل أمر يتعلق به التقدير وقوله (سلام) خبر لقوله هي أي سلام مبالغة في تعظيم الليلة كأنها عين السلامة ، لكثرة البركات النازلة إلى أهل الأرض وقوله (حتى مطلع الفجر) غاية تبين تعميم السلامة فيهـا لكل من أسلم لله .

ونقل الطحاوي عليه الرحمة في حواشي الدر المختار عن بعض الشافعية أن أفضل الليالي ليلة مولده عليه الصلاة والسلام ، ثم ليلة القدر ، ثم ليلة الإسراء والمعراج ، ثم ليلة عرفة ، ثم ليلة الجمعة ، ثم ليلة النصف من شعبان ، ثم ليلة العيد . هذا هو المنقول فإذا ثبت هذا الترتيب بدليل فعليه التعويل . وإلا فأحي الليالي الفاضلة وتوكل في ثوابها على الله الجليل .

وبعض المحققين شـبهوا الأزمنة والأمكنـة الشـريفة باللباس الناعم الجميل ، ونية العامل هـي لابس الألبسة فإذا كان اللابس حسن الصورة والسيرة فنعم اللابس والملبوس ، والإ فلا قيمة له حسب ما تحقق من الأدلة الشـرعية . جعلنا الله تعالى من أصحاب النيات الحسنة وأفاض علينا من هباته برحمته إنه أرحم الراحمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ(١) رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً(٢) فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ(٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ(٤) وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ويُؤْتُوا الزَّكوةَ ، وذلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ)(٥) •

قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا) ••• الآية نقل وبيان لما زعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأهل الإشراك من أنهم أناس طيبون ولهم نوايا حسنة ، وأنهم عندما بعث الرسول الموعود في جزيرة العرب وأتاهم بالبينة من الله أسلموا ودخلوا في الإسلام مع أنه لما أتاهم ذلك النبي الموعود المسعود كفروا به وعاندوا فقال تعالى : (لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب) اليهود والنصارى (و) من (المشركين منفكين) عن دينهم الأساسي وعن تقاليدهم السابقة المتوارثة (حتى تأتيهم البينة) أي الحجة الواضحة

والبرهان القاطع . وقوله (رسول من الله) عطف بيان للبينة أو بدل منه . وقوله (يتلو) نعت له ، أي يتلو على الناس (صحفا مطهرة) من إلقاء شياطين الجن والإنس (فيها كتب قيمة) أي فيها فرائض محكمة وعزائم ثابتة ، أو فيها أحكام مكتوبة على صحف أمنه قيمة مستقيمة (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) أي ما تفرقوا عن الإيمان حيث آمن قليل منهم وكفر كثيرون (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) المعهودة المسعودة ، مع أنّه ما كلّفهم بما لا يطاق ، وما أمرهم بشيء خارج عن الأدب والأخلاق كما قال (وما أُمِرُوا إلا ليَعْبدوا الله) وحده لا شريك له (مخلصين له الدين) بدون شوب شائبة أخرى .

(حنفاء) مائلين من الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن العصيان إلى الطاعة والإحسان (ويُقيموا الصَّلاةَ) أي ويؤدوا الصلوات المفروضة (ويؤتوا الزكوة) المفروضة (وذلك دين) الملة (القيمة) المستقيمة وهو دين الاسلام الذي ارتضاه للعالمين .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ(٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ(٧) جزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رضي اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)(٨) .

قوله تعالى (إن الذين كفروا) استئناف لبيان خلود أهل الكفر في النار سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ومن الموجودين في عصر النزول أو اللاحقين ، لأنّ أساس الاستحقاق هو الكفر وقد تحقق ، فقال (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك

هم شرّ البرّية) أي شر الخليقة • وما دام أهل الكفر المنقسم إلى ما سبق مستحقين لذلك فأهل الإيمان والأعمال الصالحة يستحقون النعيم الخالد وقد قال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) وأفضل من هذا الجزاء ما يستفاد من قوله (رضي الله عنهم) فلم يبق عنده سخط عليهم (ورضوا عنه) أي ولم يبق عند الله تعالى ملل عنهم • وليس ذلك مختصا بقوم مخصوصين بل (ذلك لـ) كل (من خشي ربّه) لأن الخشية ملاك الأمر •

سورة الزلزلة ، مدنية وآياتها ثمان ،

نزلت بعد سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

(اِذا زُلْزِلَتِ الْاَرْضُ زِلْزالَها(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثقالَها(٢) وَقَالَ الإِنسانُ : ما لَها ؟(٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها(٤) بأَنَّ ربَّكَ أَوْحى لَها(٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ(٦) فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)(٨) ٠

قوله (إذا زلزِلَت الأرضُ زِلزالها) أي إذا حركت الأرض تحريكا عنيفا مشتدا متكررا ، وزلزلت ذلك الزلزال الذي يليق بها عند نفخ الصور في المرة الأولى المدمرة للكائنات بأرضها وسمائها (وأخرجت الأرض أثقالها) أي الأثقال المكنوزة فيها ، أو المدفونة فتشمل الموتى والمعادن والكنوز التي دفنت فيها (وقال الإنسان) أي كل فرد من الموجودين إذ ذاك : (مالها ؟) تزلزلت هذه الدرجة من الزلزال وأي سبب حدث لها (يومئذ) أي يوم إذ كان ذلك (تحدث أخبارها) الأرض بانطاق الباري لها أو الملائكة المأمورة عليها أو بلسان الحال مجيبة عن الاستفهام السابق

(بأن ربك) أيها الإنسان السائل مالها (أوحى لها) أي أمَرَها أو سخرها لذلك (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أشتاتا) جمع شتيت بمعنى أفواجا متفرقة أي يخرجون من قبورهم أفواجا وجماعات متفرقين (ليروا أعمالهم) أي ليحاسبوا عليها وليُبْصَروا جزاء أعمالهم ، فإن كانت الزلزلة ناشئة من النفخة الثانية فالامر واضح ، وإن كانت من نفخ الصور في المرة الأولى ففيه مسامحة ، لأن صدور الناس من المقابر لا يتصل بالنفخة الأولى بل بالثانية ، لكن لما كان الفصل قليلا كان كأَنَّه متصل بها (فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يَرَهُ ، ومن يعمل مثقالَ ذرّة شرا يَرَهُ) والذرة نملة صغيرة حمراء دقيقة جدا • ويجوز أن يراد بها المعنى المشهور وهو الجزء الذي لا يتجزأ • وهذه الآية أبلغ ما يقال في المحاسبة مع أي شخص ، لأن الذرة بأحد المعنيين لا يقبلها الميزان حتى يدخل في الحساب والله أعلم بالصواب •

سورة العاديات ، مكية ، وآياتها إحدى عشرة ،
نزلت بعد سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً(١) فالْمُورِيَاتِ قَدْحاً(٢) فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً(٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً(٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً(٥) إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ(٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ(٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ(٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ؟(٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ؟(١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)(١١) .

قوله تعالى (والعاديات) ... الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى أناس من بني كنانة فأبطأ عليه خبرها ، واستمرت شهرا لا يعلم عنهـا شيئا ، ولم يأته منهـا خبر ، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري . فقال المنافقون : إنهـم قتلوا . فنزلت هذه السورة إخباراً للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامة السرية وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . أخرجه البزار والدار قطني .

أقسم الباري سبحانه بالخيل تعدو في ميدان الحرب وتضبح ضبحا أي تصوت أجوافها إذا عَدَتْ وَركضت بقوّة ؛ فالعاديات هي الافراس العادية (فالموريات قدحا) وأقسم بالخيول التي تضرب بنعالها الأحجار النارية فتوري النار فالموريات المشعلات نارا حين تقدح قدحاً (فالمغيرات صبحا) وأقسم بالخيول التي تغير على العدو عند الصباح (فأثرن به نقعا) أي فهيّجن في مكان عدوهن غبارا ، والنقع الغبار (فوسطن به جمعا) أي فوقعن مع ملابسة الغبار والعجاج وسط الأعداء بدون مبالاة بأيّ بلاء ، وعطف الفعل على الأوصاف لأن اللام عليها موصول فهي في معنى الموصول ، وصلة من جملة فعلية أقسم بها متلبسة بقيودها على مقسم عليه وبينه بقوله (إن الإنسان لربه لكنود) أي إن نوع الإنسان لكفور بالرب الذي خلقه وجحود لنعمته حيث أنعم عليه ورزقه (وإنه) أي الإنسان على ذلك الكنود والجحود الثابت له (لشهيد) يشهد على نفسه (وإنه لحب الخير) أي المال والثروة (لشديد) أي قوي العزم ثم يزجره على ذلك ويقول (أفلا يعلم إذا بعثر) أي بعث وأخرج ما في القبور من الموتى وأحياهم الله تعالى للحساب (وحصل ما في الصدور ؟) وأظهر وأخرج وأوضح ما في الصدور من الكفر والجحود وشدة حب الخير (إن ربهم بهم) أي بأحوالهم (يومئذ لخبير) ويجازيهم جزاء وفاقا .

سورة القارعة ، مكية ، وآياتها إحدى عشرة ،

نزلت بعد سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ القَارِعَةُ(١) ما القَارِعَةُ(٢) وَما أَدْرِيكَ مَا القَارِعَةُ(٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالفَرَاشِ المَبْثُوثِ(٤) وتَكُونُ الجِبالُ كَالعِهْنِ المَنْفُوشِ(٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(٧) وأمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨) فأُمُّهُ هاوِيَةٌ(٩) وَما أَدْرِيكَ ما هِيَةْ ؟(١٠) نارٌ حامِيَةٌ ﴾(١١) .

قوله تعالى (القارعة) هي في الأصل الصوت الشديد ويراد بها هنا حادثة مجيىء يوم القيامة بالنفخ في الصور ، لأنها تقرع القلوب والأجساد الكبيرة بالفزع ، فإنها تؤثر في السموات بالانشقاق ، وفي الأرض بالتبديل ، وفي الجبال بالدك والتفرق والتلاشي ، والكواكب بالانتشار ، وفي الشمس والقمر بالتكوير ، والقارعة مبتدأ ، وما استفهامية للتعجب والتهويل مبتدأ ثان ، والقارعة خبره ، والجملة خبر للمبتدأ الأول . واستغنى عن الضمير بتكرار نفس المبتدأ (يوم يكون الناس كالفراش) يوم ظرف لمضمر دلت عليه القارعة أي تقرع يوم ، أو لتأتي مقدرا أي القارعة تأتي

وتتحقق يوم يكون الناس كالفراش (المبثوث) المنتشر في الأرض ، والفراش جمع فراشة وهي التي تطير وتتهافت في النار . وقيل هو طير رقيق يقصد النار ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق . وقيل هو الجراد المنتشر في الأرض ويركب بعضه بعضا . والمقصود أن الإنسان في ذلك الوقت يحتار ويضطرب من الدهشة والخوف (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الأرض . وقوله تعالى (فأما من ثقلت موازينه) بيان لأحوال المكلفين في ذلك اليوم ، وفيه إيجاز الحذف ، أي فيموت المكلفون وغير المكلفين ثم يبعث الجميع ويحاسب المكلف منهم ، فأما من ثقلت موازينه أي موازين حسناته (فهو في عيشة راضية) أي راض صاحبها بها (وأما من خفت موازينه) أي موازين حسناته (فأمه هاوية) أي فمسكنه هاوية وتؤويه كالأم الحنون لولدها (وما ادريك ما هي ؟) أي الهاوية (نار حامية) والهاوية في الأصل البقعة النازلة السافلة ، والمراد هنا درك من دركات الجحيم أسفل الدركات ، وهي ملأى من النار فجعلها نفس النار تسمية للحال باسم المحل . أعاذنا الله منها بكرمه وإحسانه آمين .

سورة التكاثر ، مكية ، وآياتها ثمان ، نزلت بعد سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)(٨) •

قوله (ألهيكم) ألهى من باب الإفعال ، والضمير مفعوله • والتكاثر فاعل ألهى ، والمعنى شغلكم التباهي بكثرة الأنفس والأفراد عن الله تعالى والإيمان به وبرسوله وتوحيده وتحميده (حتى زرتم المقابر) أي توسلتم إلى التكاثر بالأموات المدفونين في المقابر ، فزيارة المقابر كناية عن التفكر في عدد الأموات وتعدادهم للحصول على الغلبة على المقابل في كثرة •

روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا فكثرتهم بنو عبدمناف ، فقالت بنو سهم : إن البغي أهلكنا في الجاهليـة ، فعادّونا بالأحياء والأموات ، فكثرتهم بنو سهم • ومنهم من فسر الآية بأنه أغفلكم عن الطاعة لله والإيمان به وبرسوله التكاثر بالأموال والأولاد والأمور الدنيوية

حتى متم وزرتم المقابر • وفيه إشارة الى التهكم بهم والسخرية بعقولهم ، حتى صرتم كالموتى ووصل بكم الناس إلى المقابر للدفن •

(كلا) ردع عن الاستمرار في الغفلة عن الحق (سوف تعلمون) ما أمامكم من الحساب والميزان ، ومن العذاب والعقاب (ثم كلا سوف تعلمون) ذلك ، وكرره للتأكيد في التوبيخ (كلا لو تعلمون علم) الأمر (اليقين) المتيقن الغير المشوب ، أو علما يتحقق في ضمن القسم الكامل وهو اليقين أي الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع في أحوال الآخرة وأهوالها وحالها ومآلها (لترون الجحيم) أي لصرتم إلى حالة نفسانية وتحولتم إلى حالة إنسانية كأنكم ترون الجحيم بعيون أبصار فتكون الرؤية رؤية البصر ، أو أدركتم وعلمتم بأحوالكم في الآخرة علم اليقين لأن العلم بالنتيجة تابع للعلم بالمقدمات ، فلو تفكرتم بالنظر الصحيح في صدق الرسول في كلامه وأحكامه لوصلتم إلى العلم بالنتيجة وصولا فعليا بدون اشتباه • وقوله (ثم لترونّها) جملة مستأنفة معناها أنكم تفكرتم أولا أو غفلتم عن الآخرة أولا ستأتي القيامة وترون الجحيم (عين اليقين) لأن الإبصار بالعين يزيل الاشتباه في البين •

قالوا : إن الإنسان يمتاز عن غيره بالعقل والعقل أساس العلم ، والعلم إما بديهي لا يحتاج إلى الدليل ، أو نظري يحتاج إليه ، وما حصل بالنظر الصحيح القطعي يسمى علم اليقين ، وما لم يحصل به يبقى في مقام النظر إلى وقت التّبيين • وأما العلم البديهي فإما يحصل بالحواس السليمة من العين أو السمع أو غيرهما فتسمى حسيات وقد تسمى عين اليقين بتغليب العين على غيرها من الحواس فالصوت الذي تسمعه من عين اليقين ، كما أن العلم بالشيء الذي تبصره يسمى عين اليقين • وإن لم يكتسب من الحواس فإما يستغنى عما عدا تصورات الأطراف والنسبة فهو موسوم بالعلم الأوّلي والكل عنوانه الأوليات ، وغيرها فطريات ووجدانيات ، وتجريبيات ، ومتواترات

وحدسيات . والأوّلي إذا لم يغب عن الذهن إلا في فترات فهو علم أوّلي ضروري ويسمى حق اليقين كعلمك بوجود نفسك ، وعلى هذا المنوال استعمال كلمة حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين .

ثم إني جعلت قوله تعالى لترون الجحيم جوابا لكلمة لَوْ وحملته على ما في الدنيا على معنى لو تعلمون علم اليقين صدق الرسول فيما جاء به من الله تعالى لترون الجحيم ولتعلمنّ بوجودها في هذا العالم قبل الموت علم اليقين أو تكوننّ كمَن يَرَوْنها عين اليقين فكونوا على البصيرة من هذا البيان .

وأصل تَرَوُنّ ترأيون كتعلمون نقلنا حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذفناها للتخفيف وقلبنا الياء ألفا ، وحذفناها لدفع إلتقاء الساكنين ، ثم أكدناه بالنون الثقيلة فحصل التقاء الساكنين بين النون الأولى وواو الجمع فضممنا الواو لدفعه ولم نحذفها لعدم وجود دليل قبلها فاحفظه .

(ثم لتسئلن يومئذ) أي والله لتسئلن كلكم يومَ إذ جاء العِلمُ بعد الخبر (عن النعيم) الذي تنعمتم به في الدنيا ، لأن الكائنات مخلوقة لله ، وما خلقها عبثا وإنّما خلقها للعبودية له لا من جهة الاحتياج بل لاستحقاق الكامل المطلق للعبادة المطلقة ، فمن أوْفى بما خُلق له أو قارب فهو في أمان من عذاب الرحمن ، ومن لم يوف فيوفى حسابه حسبما يقتضيه كتابه . نسأل الله أن يحاسبنا حسابا يسيرا بمنه ورحمته آمين .

سورة العصر ، مكية ، وآياتها ثلاث

نزلت بعد الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

(والعَصْرِ (١) إنَّ الإنْسانَ لَفي خُسْرٍ (٢) إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(٣) •

قوله تعالى : (والعصر) هذه السورة جمعت من العلوم ما جمعت فقد روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس ، لأنها شملت جميع علوم القرآن • وروى البيهقي في الشعب عن أبي حذيفة وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلّم أحدهما على الآخر • والمراد بالعصر صلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله صلى الله عليه وسلم • « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر شغلهم الله تعالى » وفي الحديث : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهلـه ومالـه » وقيل : المراد به عصر النبوة ، وكأنه عني به وقت حياته صلى الله عليه وسلم • وقيل : المراد الوقت الباقي من الدنيا لأمة

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبدالله عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس » وقيل : المراد به العصر والزمان لكثرة الحوادث والتقلبات فيه بإذن الله تعالى والمقسم عليه (إن الإنسان لفي خسر) أي في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم التي لا ينتفعون بها في الآخرة بل ربما تضرّهم (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) سواء كانت من الإيجابيات كأداء الواجبات والمندوبات أو السلبيات كترك المحرمات والمكروهات ، فإنهم في تجارة تأتيهم وتعود عليهم بالخير في المساء والصباح • وهاتان المتعاطفتان تشملان كل خير اعتقادي أو عملي فعلا أو تركا • ولكنه لما كان التواصي بالحق والصبر من أهم الأمور تعرض لهما بالخصوص وقال (وتواصوا بالحق) أي وصى بعضهم بعضا باتباع الحق في نفسه وفي كل ما يمكنه تنفيذه قولا أو عملا (وتواصوا بالصبر) أي وصى بعضهم بعضا بملازمة الصبر عند فعل كل ما يشق فعله ، وترك كل ما يشق تركه ، وليس المراد بالصبر حبس النفس عما تشتاق إليه من فعل أو ترك وإنما المراد به السعي في تحويل نفسه إلى مقام الرضا بكل ما يأتي عليه من الله •

سورة الهمزة ، مكية ، وآياتها تسع ،
نزلت بعد القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ(١) الَّذِي جَمَعَ مالاً وعَدَّدَهُ(٢) يَحْسَبُ أنَّ مالَه أخْلَدَهُ(٣) كلاَّ لَيُنْبَذَنَّ في الْحُطَمَةِ(٤) ومَا أدْرِيكَ ما الْحُطَمَةُ ؟(٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ(٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ(٧) إنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)(٩) •

قوله تعالى : (ويل لكل همزة) عن ابن إسحاق قال : كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه ، فأنزل الله فيه هذه السورة أخرجه ابن المنذر وفي بعض الآثار : إن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف وفي بعضها في الأخنس بن شريق • وفي بعضها في جميل بن عامر الجمحي وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب • وهمزة صيغة مبالغة في اتصاف صاحبه • والهمز الكسر كالهزم ، واللمز الطعن كاللهز ، شاعا في الكسر من أعراض الناس ، والغض منهم واغتيابهم ، والطعن فيهم (الذي جمع مالا وعدّده) الموصول بدل من كل همزة بدل كل من الكل (الذي جمع مالا

وعدّده) وكان أحد من روي أن السورة نزلت فيه وهو أخنس بن شريق عنده عشرة آلاف . ومعنى قوله (عدده) أنه عدّه مرة بعد أخرى حبا له وشغفا به (يَحسَبُ أن مالَه أخلَدَه ، كلا) ردع له عن ذلك الحسبان (لينبذن في الحطمة) أي في النار التي شأنها أن تحطم كل من يلقى فيها (وما أدريك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة) باذن الله عز وجل (التي تطلع على الافئدة) أي تعلو أواسط القلوب وتغشاها . وفي الحديث أنها تأكل جزء من الجسد حتى تنتهي إلى فؤاده ، فإذا بلغت فؤاده ابتدأ خلقه (إنها عليهم مؤصدة) أي إن تلك النار مطبقة عليهم حالكونهم (في عمد ممددة) وحاصل المعنى أن المعذبين موثقون في عمد طوال حتى لا يخلصوا ، والنار مستولية مطبقة عليهم بأمر الله تعالى .

سورة الفيل ، مكية ، وآياتها خمس ،
نزلت بعد الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟(١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ(٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ(٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ(٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)(٥) •

قوله تعالى : (ألم تر)الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من تمكن منه الرؤية ، وليست الرؤية رؤية معاينة ، بل علم حصل للناس من الروايات الكثيرة التي وصلت حد التواتر فصار كالمعاينة (كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) المعنى أنه فعل بالفيل واسمه محمود ، وبصاحبه وهو أبرهة ملك اليمن من جهة أصحمة النجاشي وبجيشه وهذه الحادثة كانت من تباشير طلوع شمس طلعة الرسول المختار من أفق العالم ، وقد ولد عليه السلام في تلك السنة •

والقصة أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القُلَّيْس وأراد أن يصرف الحاج إليها ،

فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا ، فأغضبه ذلك فحلف لَيَهْدِمَنَّ الكعبة! فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود ، وفيلة أخرى . فلما تهيأ للدخول وعبأ جيشه ، قَدَّمَ الفيل ، وكان كلما وجّهوه إلى الحرم برك ولم يبرح . وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هرول ، فأرسل الله طيرا كل واحد في منقاره حجر ، وفي رجليه حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فترميهم فيقع الحجر في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعا (ألم يجعل كيدهم) في تضييع الكعبة وتخريبها (في تضليل) وإبطال (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) أي جماعات جمع إبّالة وهي الحزمة الكبيرة (ترميهم) من السماء (بحجارة من سجيل)أي من طين متحجّر (فجعلهم كعصف مأكول) أي كورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفرا منه ، أو كتبن أكلته الدواب وراثته . وبذلك الجيش السماوي أهلك ذلك الجيش الأرضيّ بدون أن يتصوره أحد ، ومعنى ذلك أن الله إذا أراد صيانة شيىء حفظه ، وهو على الله سهل يسير .

سورة قريش ، مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد التين

بسم الله الرحمن الرحيم

(لِإِيلافِ قُرَيْشٍ(١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا الْبَيْتِ(٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)(٤) •

قوله تعالى : (لإيلاف قريش) جعل بعض المفسرين هذه اللام متعلقة بقوله تعالى فجعلهم أي فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) يعني جعلهم كذلك لبقاء ألفة قريش بتجارتهم ورحلتيهم السنويتين : رحلة إلى الشام في وقت الصيف ، ورحلة إلى اليمن في الشتاء • فإنه لو لم يهلك جيش أبرهة لاستولوا على الحجاز وما والاها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وأفسدوا فلم تبق تجارة ، ولا جلب عيش لهم ، ولا أمان من الظالمين (فليعبدوا) أي وما دام الأمر كذلك ووجب عليهم الشكر فليعبدوا (رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) من أصحاب الفيل ، أو من أهل الإفساد والسوء من أي قبيلة وجيل •

سورة الماعون ، مكية ، إلا ثلاث آيات الأولى منها
وهي سبع آيات نزلت بعد التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟!(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) ولا يَحُضُّ على طَعَامِ المِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُراءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ)(٧) •

قوله تعالى : (أرأيت الذي يكذّب بالدين) نزلت في العاص بن وائل ، أو الوليد بن المغيرة ، وصدر الكلام استفهام معناه التعجب ورأيت إما بصرية متعدية لمفعول واحد هو الموصول أو إخبارية متعدية إلى مفعولين الأول الموصول ، والثاني محذوف • أي من هو ؟ والدين يراد به الجزاء في الآخرة أو الحساب • أي هل عرفت ذلك المفصول الموصول فإن لم تعرفه (فذلك الذي يدع اليتيم) أي يدفعه دفعا عنيفا إذا جاءه ويطلبه حاجة (ولا يحض على طعام المسكين) أي يمنع نفسه وغيره عن إطعام المسكين ، مع أنه يجب على الأغنياء إطعامه إما تبرعا وهو الأحسن ، أو بنية الرجوع عليه بالبدل إذا امكن ، وعليه فليشهد ذوي عدل لأداء الشهادة في وقتها • وقوله (فويل للمصلين) لفظ ويل مبتدأ وللمصلين خبر • فإذا أريد به الموصول السابق

فالمراد به من يجب عليه الصلاة وكلف بها وإن كان كافرا ولم يؤمن حتى يصلي بناء على أن الكافر مكلف بالفروع • وإن أراد به غيره من المصلين الكسالى كما يدل عليه قوله (الذين هم يراءون) فالأمر سهل ، والمعنى فويل للكافرين الذين تجب عليهم الصلاة ولم يؤدوها إلا اذا وقعوا في مجتمع وصلّوا رياء ، أو الويل للمؤمنين (الذين هم عن صلاتهم) أي عن فعلها (ساهون) أي غافلون ، أي معرضون عنها وتاركون لها إلا ما ندر مما وقع وصادف لهم في جماعة • (الذين هم يراءون) في الصلاة ، وكالصلاة غيرها من العبادات التي يرائي فيها صاحبها فيسقط ثوابها ، كلا عند بعض ، وبعضا بمقدار ما قصده من الرياء عند آخرين •

وقوله : (ويمنعون الماعون) جاء الماعون بمعنى المال وبمعنى المعونة وبمعنى القصعة التي فيها الطعام وبمعنى الزكاة وبمعنى الظروف والأدوات البيتية التي يعتاد الناس أخذها من الجار لاستعمالها في أوقات مخصوصة ثم ردها إلى أهلها • وليس المراد بها الأواني النفيسة التي يصعب على أصحابها استعمالها عندهم فضلا عن غيرهم أبدا • والكلام من قوله فويل إلى آخر السورة ترقى الباري تعالى من المعرف إلى معرف أقوى أى إذا كان دع اليتيم وعدم الحض بتلك المثابة فما بال المصلي الذي هو ساه عن صلاته التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر ؟ ومرتكب للرياء في اعماله الذي هو شعبة من الشرك ، ومانع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام ، ومانع لإعارة الشيء الذي تعارف الناس إعادته فضلا عن إخراج الزكاة من ماله فذلك العلَم الأوضح الأوفى على التكذيب الذي قد يخفى ، والغرض

التغليظ في أمر هذه الرذائل التي ابتلى بها الكثير من الناس ، وأنها لما كانت من سيما المكذب بالدين كان على المؤمن المعتقد المخلص أن يبعد عنها بمراحل، ويظهر أن أم كل معصية التكذيب بالدين ، والمراد بالمكذب على هذا الجنس، والإشارة لا تمنع منه كما لايخفى ، وإن ورد في موارد معينة كما روي أن المورد عاص بن وائل أو وليد بن المغيرة أو أبو جهل ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفقنا الله للوفاء بالدين وحقوقه المميزة للمسلمين آمين .

سورة الكوثر ، مكية ، وآياتها ثلاث ،

نزلت بعد العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ(٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)(٣) •

وسبب نزولها أن العاص بن وائل السهمي تلاقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد عند باب بني سهم فتحدثا ، وناس من صناديد قريش جلوس في المسجد ، فلما دخل العاص قالوا له : من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال : ذلك الأبتر ، يعني به النبي صلى الله عليه وسلم • وكان قد توفى ولده القاسم فنزل (إنا أعطيناك الكوثر) أي أنا بجلالنا وعظمتنا ولتشريفك في العالم أعطيناك الكوثر وهو نهر في الجنة ، أو حوضه المشهور بالحوض المورود يرد عليه المؤمنون قبل الدخول فيها ، أو الكوثر الخير الكثير من النبوة والرسالة ، والقرآن الكريم ، والخلق العظيم ، وانتشار دينه في الآفاق ، ووقوع الرعب منه في قلوب الأعداء مسيرة شهر ، وأن أمته خير الأمم ، وإجماعهم حجة على مر الزمان ، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة (فصلّ لربّك وَانْحَرْ) أي فما دمت أنتَ وربك يهتم بشئونك أينما كُنتَ فصل لربك صلاة عيد النحر وسائر الصلوات المفروضة وانحر الإبل في الأضحية ،

وهذا يؤيد أن السّورة مدنية لأن الصلاة المفروضة كانت ليلة الإسراء قبيل الهجرة وكذلك صلاة العيدين والنحر في عيد الأضحى ، وإذا كانت مكية فمعنى الآية صل وانحر اذا فرضنا عليك ، وهذه بشارة قدّمت إليك من إحسانه (إن شانئك) أي مبغضك الذي يبغضه العالم في العالم (هو الأبتر) المنقطع عن كل خير لا أنت وانت ينبوع الحكمة ورسول الرحمة ، وترد عليك من الله النعمة تلو النعمة وستستمر المواهب من فياض الخير ، وتنزل عليك وعلى كل من تبعك بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله .

سورة الكافرون ، مكية
وآياتها ست ، نزلت بعد الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ : يا أيُّها الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (٢) ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ (٤) ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)(٦) .

قوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون) هذه السورة نزلت عندما قال رهط من المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تعبدُ آلهتَنا سنة ، ونَعبُدُ إلهك سنة . وورد في فضلها أحاديث منها أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني فقال « اقرأ عند منامك قل يا أيها الكافرون ، فإنها براءة من الشرك » ومنها قول ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في القرآن أشدّ غيظا منها لأنها توحيد وبراءة من الشرك وإنما زاد الإخلاص في الثواب عنها لأنها مشتملة على صفات الله تعالى صريحا مع دلالتها على الإخلاص في التوحيد . والكافرون الذين ناداهم صلى الله عليه وسلم جماعة مخصوصون من الكفار علم الله تعالى عدم إيمانهم أصلا . والجملتان المكررتان بالعطف تكرارهما للتأكيد والمبالغة في المتاركة والمباعدة ، وأن الفريقين متباينان في العقيدة والإيمان إلى أن ختم السورة بقوله المبين (لكم دينكم ولي دين) أي

لكم اعتقادكم وأعمالكم والجزاء المترتب عليهما ولنا اعتقادنا وأعمالنا والجزاء المرتب عليهما . فتكون السورة للمنابذة والمعاندة والمفارقة الأبدية . ثم نسخت بالإذن في الحرب والقتال بعد أن هاجر صلى الله عليه وسلم ومضت مدّة ، وإن كانت الجملتان المكررتان على اعتبارات مختلفة كما قالوا : إن النفي الأول في قوله الكريم (لا أعبد ما تعبدون) محمول على الحال ، والثاني على الاستقبال أي لا أعبد في الحال ما تعبدونه من الأصنام (ولا أنتم عابدون) أيضا في الحال (ما أعبد) وهو الله الذي لاإله إلاهو الحي القيوم (ولا أنا عابد) في المستقبل أبدا (ماعبدتم) فيه من الآلهة (ولا أنتم عابدون) فيه (ما أعبد) ه إذ ذاك فإنهم كانوا قوما علم الله حرمانهم من الإيمان والأمان . ولذلك وقعت هذه المنابذة بينهما ف (لكم دينكم ولي دين) والحكم لله رب العالمين .

سورة النصر ، نزلت في منى في حجة الوداع ، فهي مدنية باعتبار ان ما نزل بعد الهجرة مدنيـة ، وآياتها ثلاث نزلت بعد التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ(١) ورَأيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دينِ اللهِ أفْواجاً(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إنَّهُ كانَ تَوّاباً)(٣) .

هذه السورة مدنية بالإجماع على ما ذكرنا ، وتسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا . واتفقت الصحابة على أن هـذه السورة دلّت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأمور منها : أنه صلى الله عليه وسلم خطب وقال إن عبدا خيّره الله تعالى بين الدنيا ولقائه فاختار لقاء الله تعالى . فقال أبو بكر : فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأبنائنا . ومنها أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا دل على حصول الكمالات ، وآنَ الأوانُ للّقاء ونيل البركات .

فيقول (إذا جاء) أي تحقق فعلا وتقرر بإذن الله (نصر الله) لك على أعدائك في الدين فأيدكم بالعون والعزيمة وأبادهم بالهون والهزيمة (و) جاء (الفتح) أي فتح مكـة المكرمة التي كانت عاصمة الحجاز وصارت مسلمة مؤمنة مطمئنة بذكر الله (ورأيت الناس يدخلون في دين الله) أي في ملـة

الإسلام وقبول القرآن الكريم وبيانك قولا وفعلا وتقريرا للأحكام (أفواجا) أي جماعات بعد فرادى متفرقات (فسبّح بحمد ربك) أي فسبّح ربك متبركا بحمده معه • وقل : سبحان الله والحمد لله (واستغفره) وقل استغفر الله (إنه كان توابا) أي إن الله كان توابا رجاعا إلى عباده بالستر والعفو والقبول وفتح باب الوصول ، وذلك آخر محصول • متعنا الله والمسلمين بهذه الكرامات برحمته إنه أرحم الراحمين •

وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول سنة عشر منها • وعن ابن عمر رضي الله عنهما نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما ، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوما ، ثم نزل (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) فعاش بعدها واحدا وعشرين يوما • وقيل سبعة أيام ، ثم توفي ولقي الرفيق الأعلى •

سورة المسد مكية ، وآياتها خمس ،
نزلت بعد الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَّتْ يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ما أَغنى عَنهُ مالُهُ وما كَسَبَ (٢) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ (٤) فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)(٥) •

روي أنه لما نزل قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا صلى الله عليه وسلم قومه ولاسيّما الأقربين فأنذرهم وقال لهم (إني نذير لكم بين يدَيْ عذاب شديد) فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا دَعَوْتَنا ؟ وأخذ حجرا ليرميه به فنزلت هذه السورة • فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه وفي يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله فلم تر إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، والله إني لقائلة :

مذمّما عَصَينا ، وأمرَه أبَينا ، ودينَه قلينا • ثم انصرفتْ فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ قال : ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها مني ، وكانت قريش يسمى رسول الله مذمما ثم يسبونه أي ذو ذمة وعهد صادق •

(تبت يدا أبي لهب) أي خسرت وهو كناية عن هلاكه بالجملة ، ونسبة التباب إلى يديه لأنهما من أقوى مظاهر العمل في الأخذ والدفع وغيرهما . وقد أخذ الحجر بيده ليرميه بها إليه صلى الله عليه وسلم (وتب) أي خسر هو وهذا إخبار بحصول التباب الذي دعا به عليه . ولما خوفه النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال : إن كان الذي يقوله ابن أخي حقا فإني أفتدي منه بمالي وولدي فنزل : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) والمراد مكسوبه من النتائج والأرباح والوجاهة والأتباع أو ولده عتبة ، وقد افترسه أسد في طريق الشام ، ومات أبو لهب بعد واقعة بدر بأيام معدودات بالعدسة ، وهي قرحة . فمات وترك ثلاثة أيام حتى أنتن ، فاستأجروا بعض الناس حتى دفنوه (سيصلى نارا ذات لهب) أي ذات اشتعال (وامرأته) عطف على الضمير المستتر في سيصلى لوجود الفصل بينهما ، وهي أم جميل أخت أبي سفيان . وقوله (حمالة الحطب) منصوب على الذم أي اشتم ، أو أعني والمراد بحملها الحطب التفتين بين الناس أو إثارة المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو أنها كانت تحمل حزمة من الأشواك بحبل من الليف لتضعها في طريقه صلى الله عليه وسلم كي يتأذى بها . وقوله (في جيدها حبل من مسد) أي من الليف كالنص في هذا الأخير لولا رواية أنها تؤمر في جهنم لحمل الأحطاب بحبل في عنقها لتلقيها في جهنم كوقود هناك . والله المتعال أعلم بحقيقة الحال .

سورة الإخلاص ، مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ(١) أللهُ الصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَه كُفُواً أَحَدٌ)(٤) .

روي أن قريشا قالوا : يا محمد صِف لنا ربك الذي تدعونا إليه . فنزلت أي إن الذي أدعوكم إلى عبادته وتوحيده (هو الله) أي الذات الواجب الوجود الموصوف بالكمال ، والمنزه عن النقص ، وهو ضمير الشأن كما في هو زيد عالم ، ومرجعه مضمون الجملة الواقعة بعده . والتركيب مغتفر وإن كان فيه الإضمار قبل الذكر لفظا ورتبة لنكتة احتواء المقام على الإجمال والتفصيل ، ويقع مبتدأ ، والله مبتدأ ثان ، وأحد خبره . والجملة خبر للمبتدأ الأول واستغنت عن الضمير لكونها عينه في المعنى . ولفظ (أحد) يدل على مجامع الصفات الجلالية السلبية كما يدل لفظ الجلالة على الصفات الذاتية الكمالية ، وذلك لأن الواحد الحقيقي لابد أن يكون منزها عن التركيب والتعدد والاحتياج إلى الغير ومماثلة شيء مما سواه . وقوله (الله الصمد) مبتدأ وخبر وبيان لكونه مرجعا لحوائج ما سواه لأن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد ويصمد الناس إليه في قضاء الحوائج .

وما عدا الجملة الأولى كالبيان لها لأنه لما كان لفظ الجلالة رمزا لاحتواء الصفات الذاتية الإيجابية ولفظ أحد رمزا للصفات السلبية كانت الجملة

الأولى مستوعبة لكل ما يناسب مقام الذات الواجب الوجود لأن صفاته تعالى عشرون صفة : الأولى هي الصفة النفسية وهي الوجود • والثانية إلى الثامنة صفات المعاني وهي الصفات الكمالية التي يعبر عنها بالحياة ، والعلم ، والقدرة، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام • والتاسعة إلى الخامسة عشرة هي الصفات المعنوية ككونه تعالى : حيا ، عليما ، قديرا ، مريدا ، سميعا ، بصيرا ، متكلما ، وتستفاد من الصفات الكمالية التي تسمى بصفات المعاني • والسادسة عشرة إلى العشرين هي الصفات الخمس السلبية أعني القدم ، والوحدة ، والبقاء ، والقيام بنفسه ، ومخالفة الحوادث • والكل مستفاد من مفهوم أحَد" •

والجُمَل الباقية كالبيان لما سبق فإن الله الأحد لابد أن يكون صمدا ومرجعا لجميع ما سواه ومن لوازم حقيقة ذلك الذات أنه (لم يلد) لأنه لايحتاج إلى فرد من نوعه يحفظ به ذلك النوع إذ هو فرد مطلق مجرد عن التركيب ، وأنه (لم يولد) لأن المولودية معناه الحدوث بعد العدم وسبق مرجع له يعود إليه وهو تعالى واجب الوجود وقديم ذاتا وزمانا وأنه (لم يكن له كفوا) أي مكافئا مماثلا (أَحَدٌ") لأن مماثلة الحوادث مسلوبة عنه تعالى وفي الحقيقة أن الدين يسر وآيات الكلام المجيد نزلت على مقاربة فهم الناس ومناسبتهم ليستفيد الناس منها ما يحتاجون إليه من العقائد والأعمال ، ولذلك صرح بتلك الجمل الأربع بعد جملة (الله احد) وإلا فهذه الجملة كافية في فهم صفاته تعالى مطلقا •

وبالجملة إن هذه السورة العظيمة جامعة لصفات الباري تعالى الثبوتية والسلبية ، وحقيقتها ترجع إلى ما يستفاد من لفظ الجلالة بالذات ولذلك اعتبرت (لا إله إلا الله) شعار التوحيد والله أعلم •

سورة الفلق ، مكية او مدنية ،
وآياتها خمس ، نزلت بعد الفيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ(١) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ(٢) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ(٣) ومِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي العُقَدِ(٤) ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ)(٥) .

قوله تعالى : (قل أعوذ برب الفلق) نزلت هذه السورة والتي بعدها لما سَحَرَ اليهوديُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم . وذلك بإجماع الصحابة .

وحاصل الموضوع أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي الحجة ، ودخل المحرم سنةَ سبع ، وفرغ من واقعة خيبر جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم ، وكان حليفا في بني زريق ، وكان ساحرا ، فقالوا له : أنتَ أسحَرُنا ، أي أعلَمُنا بالسحر ، وقد سَحَرْنا محمداً فلم يؤثر فيه سحرنا شيئا ، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحَرَه لنا سحرا يؤثر فيه . فجعلوا له ثلاثة دنانير . فأتى غلاماً يهوديا كان يخدِم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يَزَل به حتى أَخَذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدة أسنان من مشطه ، وأعطاه له ، فسحره بها . وكان من جملة

السحر صورة من شمع على صورة رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد جعلوا في تلك الصورة أبرا مغروزة إحدى عشرة ، ووترا فيها إحدى عشرة عقدة •

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كلما قرأ آية انحلّت عقدة ، وكلما نزع أبرة وجد لها ألماً في بدنه ، ثم يجد بعدها راحة ، وكانت مدة سحره صلى الله عليه وسلم أربعين يوما •

إن قلت : كيف يؤثر السحر فيه صلى الله عليه وسلم مع أنه معصوم بنص قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ؟ أجيب بأن المعصوم منه ما أدى لخبل في عقله ، أو لضياع شرعه ، أو لموته • وأما ما عــدا ذلك فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه كما أن جرحه وكسر رباعيته لا يقــدح في عصمته • إنتهى المقصود • وقد روي الواقعة في البخاري •

فيقـــول البـــاري آمـــراً حبيبـــه محمـــدا صلـــى الله عليه وسلم (قل : أعوذ بـــرب" الفلق) والفلق الصبح • وقيل : الرحـــم لانفلاقه عن الولد • وقيل : كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والحب والنوى وكل نبات • وقيل غير ذلك • وقوله (من شر ما خلق) أي من شر ما خلقه من حيوان مكلف وغير مكلف ، وجماد كالسم وغير ذلك (ومن شر غاسق) أي من شر الليل (إذا وقب) أي اشـــتد ظلامه ، أو القمر إذا غاب (ومن شر النفاثات في العقد) أي ومن شر النفوس السواحر التي تنفث في العقد التي تعقدها في الخيط وتنفخ فيها بشيىء تقوله من غير ريق (ومـــن شر حاسد إذا حَسَدَ) أي ومن شر حاسد أي من له قوة الحســـد ، وهو حب زوال النعمة عن المحسود إذا أظهر الحسد ، وأما إذا أهمله فلا يضر أحدا لكنه يحترق بناره في قعر داره أعاذنا الله تعالى منه ومن كل داء •

سورة الناس ، مكية ، أو مدنية
وآياتها ست . نزلت بعد الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)(٦) .

قوله تعالى : (قل أعوذ برب الناس) هذه السورة قال بعض إنها مكية ولكن الصحيح أنها مدنية ، وكذلك سورة الفلق لأنّ سبب نزولهما واقعة السحر ، وهي كانت بالمدينة المنوّرة بعد واقعة الحديبيّة سنَةَ سبع .

وقال الله تعالى (قل أعوذ برب الناس) وإن كان هو ربّ الخلائق كلهم لأن الناس بالمعنى المشهور أي الإنس هم أشرف المكلفين ، وهم الذين وقعوا في معرض الهلاك من دسائس النفس ووساوس الشياطين والملائكة لهم أمان من ذلك لعصمتهم . والأنبياء ، وإن كانوا معصومين لكن لهم النفس ومخافة الخطر من الظفر ولذلك قال سيدنا يوسف عليه السلام (وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) والرب هو المربي والمُدَرِّجُ من طور إلى طور ، والحافظ لما يربّيه ، والناس إما من النوْسِ بمعنى التحرك لأن البشر يتحرك على الأرض وصار متحركا في الجو ، أو من الأنس ضدّ الوحشة ،

وهو مختص بالبشر ، خلافا لمن قال إنه يطلق على الجن أيضا ، فيقال كما نقل عن بعض أهل اللغة : ناس من الجن كما يقال نفر ورجال منهم إذ المعروف عند الناس خلاف ذلك ، ثم كرر الناس في السورة باعتبارات مختلفة ، فالناس في قوله (برب الناس) يراد به الكل لأن الكل في أشد الحاجة إلى التربية والتنمية والإيصال إلى الحد المناسب حسب الحكمة الفائقة الربانية . وفي (ملك الناس) يجوز النظر إلى اعتبار القوة والغلبة فيهم عند الشباب والاستواء الداعية إلى الحاجة الملحة إلى ملك مهيمن مسيطر عليهم وفي (إله الناس) ينظر إلى اعتبار الكهولة ومافوقها المناسبة للعبادة والإنابة والطاعة. وفي قوله (من الجنة والناس) إلى قسم خاص من الناس المفسدين الموسوسين في قلوب البشر الدافعين لهم إلى الخطر ، وبتلك الاعتبارات حسن التكرار .

(قل أعوذ برب الناس) أي خالقهم ومربيهم ومالك أمورهم (ملك الناس) المصيطر على كل قوي إذ لاقوة في مقابلة الله القوي العزيز (إله الناس) ومعبودهم الذي يليق بالمعبودية لكونه خالقا رازقا مُعينا مُوفقا (من شر الوسواس) أي الوسوسة كالزلزال بالفتح بمعنى الزلزلة والمراد به الموسوس الملقي لها إلى القلوب (الخناس) أي الموسوس الذي عادته أن يخنس ويتأخر إذا عارضه شيء ، فالشيطان الموسوس يتأخر عند مدافعة نور القلب له سواء حصل من الذكر أو الفكر ، والإنسان الموسوس يتأخر إذا صادف عقلا سليما وفكرا مستقيما يدقق ما ألقي إليه حتى لا يقع في المهالك (الذي) نعت الوسواس بمعنى الموسوس (يوسوس في صدور الناس) وقوله (من الجنة والناس) بيان للوسواس . والجنة اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده

بالياء ، فيقال جن وجني كما يقال زنج وزنجـي . والتاء لتأنيث الجماعة ، وظاهر الآية الشريفة أن الوسواس كما يوجد في الجن فهو موجود في الإنس ، وغالب ذلك يحصل من المجاورة والمحاورة . فعلى المسلم أن يختار أهـل الصدق لصحبته بقدر الإمكان قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) . جعلنا الله تعالى معهم في الدنيا والآخرة مع سلامة البصيرة وصحة الباصرة .

هذا آخر ما يسر الله تعالى ، ووفقني عليه من تفسير كتابه الكريم آخذاً من تفاسير المفسرين ، وتقارير الأساتذة المتفكرين ، جزاهم الله تعالى بالخير يوم الدين .

وقد صادف الختام ضحوة يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ألف وأربعمأة وأربع هجرية الموافق لسنة ألف وتسعمأة وخمس وثمانين ميلادية ، في بلدة بغداد التي كانت عاصمة الخلفاء والأئمة المجتهدين والأولياء العرفاء ، وكنت مدرساً في مدرسة حضرة سيدنا القطب الرباني الشيخ عبدالقادر الحسني الحسيني الگيلاني ، نور الله ضريحه ، وروّح روحه ، ونفعنا ببركاته ونفحاته وأنواره القدسية آمين .

وأنا الخادم للعلم والدين عبدالكريم بن محمد بن فتاح بن سليمان بن مصطفى بن محمد الشهرزوري من عشيرة القاضي القاطنين في ناحية سيد صادق رحمه الله . وأحمد الله الكريم على أن وفقني لطبعه ونشره ، كما وفقني على جمعه وتأليفه في مدة سنتين . والله على كل شيىء قدير وبإجابة دعاء المضطرين جدير . سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وقد عاصرت زمان نقابة النقيب الجليل

السيد يوسف عبدالله الگيلاني

والسيد أحمد مظفر الگيلاني

حفظهما الله تعالى

بفضله وإحسانه

آمين

جدول خطأ وصواب المجلد الأول

في الوقت الذي نطلب فيه من القراء الأعزاء تصحيح هذه الأخطاء التي وقعت في المجلد الأول ، لا يسعنا إلا أن نقدم شكرنا وتقديرنا للأخ الكريم الحاج وليد الأعظمي ، حيث أهدى إلينا أكثر هذه الأخطاء. فجزاه الله خيرا .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٣	١	هذه	هؤلاء
٢٣	١٠	محمد	محمد بن
٢٤	٩	وكانوا	وكان
٢٥	٢	الحجدري	الجحدري
٣١	٣	الأمصال	الأمصار
٣٩	١٨	فرض	فوّض
٦٢	١	الأنثين	الأنثيين
٧٦	١٠	غيرها	غيره
٨٤	٦	فروعها	فروعه
٨٨	١٢	منتهم	منتهى
١٠٠	٢	بؤنين	بمؤمنين
١١١	١١	المنادي	المنادى
١١٧	٥	أحوالهما	أهوالها
١٢٢	١٧	تحيط	يحيط

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٥٠	١٩	وتسع وستين	وست وستين
١٧٤	١٩	عشرة	عشر
١٨٠	١٣	أهْكتَهُمْ	أهْلَكْتَهُمْ
١٩٤	٧	لا يستبون	لا يسبتون
١٩٨	١٦	فكت	سكت
٢٢٣	٦	مدارس	مدراس
٢٣٠	١٠	بل	لا بل
٢٣٧	٥	قال	قال قال
٢٤٨	٨	نضير	نَصِيرٍ
٢٥٤	٣	رديته	ذريته
٢٦٢	٤ ، ٥	الازخر	الاذخر
٢٦٥	١٣	علمتنا	ما علمتنا
٢٦٥	٢١	يسم	يسمى
٢٧١	١٦	هود	هوداً
٢٧٤	١٨	المعمورية	المعمودية
٢٧٩	١٠،٩		حصل تقديم وتأخير في السطرين
٢٨٤	١١	وجهكم	وجوهكم
٢٩٠	٤	ما زاد والله أراد	ما زاد الله وأراد
٣٠٠	١٩	يرد	برد
٣٠٢	٨	الواكب	الكواكب
٣٠٩	١	فتكون	فيكون
٣١٤	١١	ليسس	ليس

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٢٧	١٣	تجب	يجب
٣٤٠	٢	الحككام	الحكام
٣٤٠	٥	امرىء	امرؤ
٣٥٧	١٠	بحجر الأسود	بالحجر الأسود
٣٦٠	١١	وإلا فضل	والأفضل
٣٦٨	١١	لعفوا	لعفو
٣٦٩	١٣	للذكين	للذين
٣٧٢	٣	كان	كانوا
٣٧٢	١٨	مطمئة	مطمئنة
٣٧٨	١٨	بمناسب	بما يناسب
٣٨١	١٦	متظافرة	متضافرة
٣٩٥	٢٤	عل كم	عليكم
٣٩٧	١٢	نصاى	نصارى